تفسير ابن برجان

المسمى

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

المجلد الأول
أول سورة الفاتحة - آخر سورة آل عمران

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

أول سورة الفاتحة - آخر سورة آل عمران

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMA
TANBĪH AL-AFHĀM ILA TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

الكتاب : تفسير ابن برَّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف: الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برَّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah - Beirut

Pages (5 Volumes)	2880	عدد الصفحات (5 مجلدات)
Size	17* 24 cm	قياس الصفحات
Year	2013 A.D. -1434 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st (2 colors)		الطبعة : الأولى (لونان)

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-7763-6
ISBN 2-7451-7763-X

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق والدراسة

الحمد لله الذي أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق، وبين له من معالم العلم وشعائر الشرائع كل ما جل ودق، ونزل عليه كتابًا معجزًا أفحم مصاقع الخطباء، وخطابا مفحمًا أعجز بواقع البلغاء، بأظهر بينات وأبهر حجج، قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج، أنزله بحسب المصالح والحِكم منجمًا، وجعله بالبسملة والحمدلة مفتتحًا وبالمعوذتين مختتمًا وأوحاه متشابهًا ومحكمًا، مزاياه ظاهرة باهرة فى كل وجه وفى كل زمان، دائرة من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان، فمن تمسك بعروته الوثقى وحبله المتين، وسلك جادته الواضحة وصراطَه المبين، فقد فاز بمناه، ومن نبذ وراء ظهره وعصاه، واتخذ إلهه هواه فقد هوى فى تخوم الشقاء، وتردى فى مهاوي الردى والاشتباه، فإن بلاغة البلغاء وإن طالت ذيولها وفصاحة الفصحاء وإن سالت سيولها، تتقاصر عن الوفاء بأدنى أوصافه، وتتصاغر عن التشبث بأقصر أطرافه، فتعود ألسنتهم عنه قاصرة، وصفقتهم فى أسواقه خاسرة، كيف وتلك الآيات والدلائل وتلك البينات والمخايل، وهذه العبارات العبقرية، وما في تضاعيفها من أسرار البرية، مما لا تحيط به ألباب البشر، ولا تدرك كنهه طباع العالم الأكبر والأصغر، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل أقصر آية من آياته؛ فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه كلام الملك العلام من الإطراء والإكرام، أوفق بما يقتضيه الحال من الإجلال والإعظام.

والصلاة والسلام على من أرسله الله إلى الخلق هاديًا وبشيرًا، ونزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا؛ فهداهم به إلى الحق وهم فى ضلال مبين، وسلك بهم مسلك الهداية حتى أتاهم اليقين، أكمل به بنيان النبوة والجلالة، وختم به ديوان الوحي والرسالة، وأتم به مكارم الأخلاق ومحاسن الأقوال، على ألطف أسلوب وأحسن أحوال، أعلى به من الدين معالمه، ومن الحق مراسمه، وبين من البرهان سبيله، ومن الإيمان دليله، وأقام للحق حجته، وأنار للشرع محجته، حتى انتشرت

الأفئدة بأنوار البينات، وانزاح عن الضمائر صدأ الشبهات، فهو حجة نيرة واضحة المكنون، وآية بينة لقوم يعقلون، بل برهان جلي لا ريب فيه، ومنهج سوي لا يضل من ينتحيه، مظهر لتفاصيل الشرائع والأديان بالاستحقاق مفسر لمشكلات آيات الأنفس والآفاق، به يُتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وبه تُكتسب الملكات الفاخرة، كلامه شفاء للسِّقام، وحديثه قاطع للخصام، عند تفاوت الأفهام وتباين الأقدام، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي، وإليه يستند في معرفة حقائق الأشياء كما هي، أفلح من اتبعه ووالاه، وخاب من أعرض عنه وعاداه.

وصلى الله وسلم على آله البررة، وصحبه الخِيَرة، مصابيحِ الأمم ومفاتيح الكرَم، خلفاءِ الدين وحلفاء اليقين، الذين بلغوا من محاسن الفضائل غاية الغايات، ووصلوا من مكارم الفواضل نهاية النهايات، لا يتسنى العروج إلى معارجهم الرفيعة، ولا يتأتى الرقي إلى مدارجهم المنيعة، لعلو شأنهم ونهاية الإعضال، وصعوبة مرامهم وعزة المنال، فهم شموس الهدى على فلك السعادة، وبدور الدجى لهم الحسنى وزيادة، وعلى من تبعهم بالإحسان، صلاةً وسلامًا دائمين ما تناوب النيّران.

وبعد... فإن أعظم العلوم مقدارًا وأرفعها شرفًا ومنارًا وأعلاها على الإطلاق، وأولاها تفصيلاً بالاستحقاق، وأساس قواعد الشرائع والعلوم، ومقياس ضوابط المنطوق والمفهوم، وأعز ما يرغب فيه ويعرج عليه، وأهم ما تناخ مطايا الطلب لديه، هو علم التفسير، لكلام العزيز القدير؛ لكونه أوثقَ العلوم بنيانًا، وأصدقَها قيلاً وأحسنَها تبيانًا وأكرمَها نتاجًا، وأنورَها سراجًا، وأصحَّها حجة ودليلاً، وأوضحَها محجة وسبيلاً.

وهو الآية الباقية والحجة القاطعة والمعجزة الخالدة لسيدنا محمد ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو الدستور العظيم الذي فصل الحقوق والواجبات، ونظم العلاقات والمعاملات، وشرع الحدود والأحكام في آياته البينات الصالحة لكل زمان ومكان.

ولقد فهم المسلمون الأولون هذه الحقائق عن القرآن وأدركوها غاية الإدراك وآمنوا بها إيمانًا كاملاً؛ فكان القرآن هو المحور الذي تقوم عليه حياة المسلمين في صدر الإسلام، وكان شغلَهم الشاغل عن كل شيء؛ ولهذا حفظوا آياته وتدبروا

معانيه، وتخلقوا بأخلاقه واهتدوا بهديه حتى بلغت هذه الأمة بفضل علمها وعملها به أسمى درجات الخيرية بين الأمم قاطبة وصَفَها بذلك ربّها حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقد تصدى لتفسير عويصاته أساطين الأمة، وتولى لتيسير معضلاته سلاطين الأئمة، من الصحابة والتابعين وأئمة اللغة والمفسرين، ثلةٍ من الأولين وأمة من الآخرين، فغاصوا في بحار لججه وخاضوا في أنهار ثبَجه فنظموا في سلك التقرير فرائده، وأبرزوا في معرض التحرير فوائده، وألفوا كتبا جليلة المقدار، وصنفوا زبُرا جميلة الآثار، وفصلوا مجمله، وبينوا معضله، مع تحقيقٍ للمقاصد وفق ما يُرتاد، وتنقيحٍ للمعاقد فوق ما يُعتاد.

فقدَّم كل مفسر أقصى ما لديه من علمه، وتبعًا للأنحاء المختلفة لنظرهم إلى القرآن الكريم واشتغالهم به، نرى التفاسير ذات ألوان متنوعة، فمنها ما يغلب عليه إظهار النواحي اللغوية والبلاغية، ومنها ما يغلب عليه إبراز نواحي الفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام، ومنها ما يغلب عليه استخلاص الإرشادات الاجتماعية والأدبية، فوصلت إلينا مكتبة إسلامية غنية بمختلف الثقافات القرآنية المتنوعة، كلها تنهل من معين هذا الكتاب العظيم الذي لا تنفد معانيه ولا تنقص عجائبه ولو كانت البحار مدادًا والأشجار أقلامًا.

ولهذا ذُخرت المكتبة الإسلامية بالعديد من ألوان التفسير والدراسات القرآنية بحيث تدل على عناية الأمة الفائقة بكتاب الله ﷻ ببذل جهودهم الكبيرة وأبحاثهم المستفيضة، في سبيل إبراز فيوضاته العلمية الراقية، على أيدي الأئمة الأعلام، والمفسرين العظام، من بينهم: العلامة ابن برجان الإشبيلي، الذي سنذكر أهمية تفسيره ومكانته العلمية.

ونُورد هاهنا مباحث أولها:

المبحث الأول: التفسير والتأويل وبيان الفرق بينهما

المفهوم اللغوي لكلمة «التفسير»:

يُطلق لفظ «التفسير» في اللغة العربية ويراد منه: الكشف والبيان، وقد ورد اللفظ بهذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ

بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] أي: وأحسن بيانًا وتفصيلاً[١] والمراد بالكشف هنا هو الكشف مطلقًا سواء أكان هذا الكشف لغموض لفظٍ أم لغير ذلك.

واختلف فى أصل المعنى الذي أخذ منه لفظ التفسير:

١-ذهب كثيرون إلى أن التفسير تفعيل من الفسر، وهو الإبانة، وكشف المغطى، مصدر «فسر» يقال: فسر الشيء يفسره - بالكسر - من باب «ضرب» ويفسره - بالضم - من باب «نصر» فسرا أي أبانه، والتفسير مثله - وشدِّد للكثرة - فالمصدران والفعلان متساويان فى المعنى؛ وقيل: يختص المضعف بإبانة المعقولات، فالفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل [٢].

٢-يرى الإمام الزركشي أن التفسير أصله فى اللغة من التفسرة وهي البول الذى ينظر فيه الطبيب ليستدل بلونه على علة العليل، وهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف، فكما أن الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض، فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصصها ومعناها والسبب الذى أنزلت فيه وكأنه تسمية بالمصدر؛ لأن مصدر «فعّل» جاء أيضًا على «تفعلة» نحو: جرّب تجربة وكرّم تكرمة [٣].

٣-ويطلق التفسير أيضًا على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس أي: عريته لينطلق فى حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري إلا أن هذا الكشف حسي نقل إلى المعنوي [٤].

وهذه المعاني كلها تدور حول الكشف والبيان، وهي معان متقاربة، ويستعمل تارة فى الكشف الحسي، وآخرى فى الكشف عن المعاني المعقولة، ولكن استعماله فى الأخير أكثر.

---

(١) (بحوث فى علوم التفسير ٣٨٥) للشيخ الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبي.

(٢) انظر: (القاموس المحيط ٦٣٦/١ مادة فسر) (البحر المحيط ٩/١-١٠) (لسان العرب ٥٥/٥ مادة فسر) (المصباح المنير ٢٤٥).

(٣) انظر: (البرهان فى علوم القرآن ١٤٧/٢) (المفردات فى غريب القرآن ٣٨٠) (أساس البلاغة ٢٢/٢) (دراسات فى مناهج المفسرين ١٠، للدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة).

(٤) انظر: (تهذيب اللغة ٤٠٦/١٢ مادة فسر) (روح المعاني ٥/١).

المفهوم الاصطلاحي لكلمة « التفسير»:

تعددت عبارات العلماء فى تحديد المعنى الاصطلاحي لعلم التفسير، ومن ذلك:

قال الإمام أبو حيان: هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك.

ويمضى الإمام فى شرحه لهذا التعريف فيقول: قولنا «علم» جنس يشمل سائر العلوم؛ وقولنا: «يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن» هذا هو علم القراءات؛ وقولنا «ومدلولاتها» أي: مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه فى هذا العلم؛ وقولنا «وأحكامها الإفرادية والتركيبية» هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب وعلم البيان وعلم البديع ومعانيها؛ وقولنا: «التي تحمل عليها حالة التركيب» يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر وهو المجاز؛ وقولنا: «وتتمات لذلك» هو معرفة النسخ وسبب النزول وقصة توضح بعض ما انبهم فى القرآن ونحو ذل(١).

وعرفه الحافظ السيوطي فى كتابه: «إتمام الدراية» حيث قال: هو علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بألفاظه والمتعلقة بالأحكام وغير ذلك(٢).

وقد شرح هذا التعريف الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، فقال: قوله «من جهة نزوله» يشمل سبب النزول ومكانه وزمانه؛ وقوله «وسنده» يشمل كونه متواترًا أو آحادًا أو شاذًّا؛ وقوله: «وأدائه» يشمل كل طرق الأداء كالمد والإدغام؛ وقوله: «وألفاظه» هو ما يتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقة أو مجازًا أو مشتركًا أو مرادفًا أو صحيحًا أو معتلاً أو معربا أو مبنيا؛ وقوله «ومعانيه المتعلقة بألفاظه» هو ما يشبه الفصل والوصل؛ وقوله «والمتعلقة بأحكامه» هو الذي من قبيل العموم

---

(١) (البحر المحيط ١/١٢١) (الإتقان فى علوم القرآن ٢/١١٩١).

(٢) (إتمام الدراية لقراء النقاية ٢٠ السيوطي).

والخصوص، والإحكام والنسخ[١].

وقد امتدح الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة صنيع الشيخ الزرقاني؛ لكنه عقب عليه حيث قال: وهو شرح حسن لولا حمله معاني القرآن المتعلقة بألفاظه على ما يشبه الفصل والوصل، فإن هذا عندي حقه أن يسلك فى عداد الألفاظ لا فى عداد المعاني المتعلقة بالألفاظ، وإنما المراد بهذه المعاني عندي هو ما يتعلق بتفسير الألفاظ من حيث اللغة، فهو كقول أبي حيان السابق «ومدلولاتها»؛ قال: ثم إنه بقي من التعريف بعد شرحه قول السيوطي فيه «وغير ذلك» وهو قول عام يراد به جميع ما بقي مما لم يذكره غير القرآن من الدلائل الخارجية المصدقة لمحتواه الفكري والهدوي العظيم وما إلى ذلك من العلوم والمعارف التي يحتاج المفسر فى تفسيره ولا تدخل تحت ما سبق[٢].

وقال الشيخ القنوجي: هو علم يبحث فيه عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية[٣].

وقال الشيخ التهانوي: هو علم يعرف به نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها وغيرها[٤].

ويأتي الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني بتعريف يلخص هذه التعاريف كلها حيث يقول: هو علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

ثم شرح التعريف فقال: والمراد بكلمة «علم» المعارف التصورية، قال عبد الحكيم على المطول: إن علم التفسير من قبيل التصورات، لأن المقصود منه تصور معاني ألفاظه وذلك من قبيل التعاريف، لكن أكثرها بل كلها من قبيل

---

(١) (مناهل العرفان فى علوم القرآن ٢/٨).

(٢) (دراسات فى مناهج المفسرين ٢٩-٣٠).

(٣) (أبجد العلوم المسمى الوشي المرقوم ببيان أحوال العلوم ٢/١٧٢).

(٤) (كشاف اصطلاحات الفنون ١/٢٤).

التعاريف اللفظية؛ وذهب السيد إلى أن التفسير من قبيل التصديقات لأنه يتضمن حكما على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعاني التي تذكر بجانبها في التفسير؛ وخرج بقولنا «يبحث فيه عن أحوال القرآن» العلوم الباحثة عن أحوال غيره؛ وخرج بقولنا «من حيث دلالته على مراد الله تعالى» العلوم التي تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته كعلم القراءات، فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها ومثل علم الرسم العثماني فإنه يبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث كيفية كتابة ألفاظه؛ وخرج بهذه الحيثية أيضًا المعارف التي تبحث عن أحوال القرآن من حيث إنه مخلوق أو غير مخلوق فإنها من علم الكلام، وكذلك المعارف الباحثة عن أحوال القرآن من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها فإنها من علم الفقه؛ وقولنا «بقدر الطاقة البشرية» لبيان أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني المتشابهات ولا عدم العلم بمراد الله في الواقع ونفس الأمر(١).

قلت: ومهما يكن من أمر فإن هذه التعريفات وإن اختلفت فى اللفظ بحيث طال فى بعضها وقصر فى الآخر فإنها متحدة فى المعنى، والاختلاف بينها من حيث الإجمال والتفصيل، فما أجمل فى تعريف فقد فصل فى آخر كما هو ظاهر مما تقدم، وكلها متفقة على أن التفسير هو علم يبحث فيه عن مراد كلام الله تعالى فى كتابه الكريم بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد، وبالتالى تكون المناسبة بين هذه التعاريف الاصطلاحية والمعانى اللغوية للكلمة ظاهرة، فإن التعاريف لا تخرج عن نطاق معنى التبيين والتوضيح والظهور بعد الخفاء.

المفهوم اللغوي لكلمة « التأويل»: التأويل مصدر، فهو تفعيل من «أوّل يؤول تأويلاً». وقد اختلف فى اشتقاقه:

- فقال الأزهري: ثلاثيه « آل يؤول أوْلا ومآلا » أي رجع(٢).

وقال أبو عبيدة: التأويل مأخوذ من «آل يؤول إلى كذا» أي صار إليه(٣).

(١) (مناهل العرفان ٢/٧-٨).

(٢) (تهذيب اللغة ١٥/٤٥٨ مادة أول) (الإتقان ٢/١١٨٩).

(٣) انظر: (تهذيب اللغة ١٥/٤٦٠ مادة أول).

وقال ابن الأثير: هو من آل الشيء يؤول إلى كذا أي رجع وصار إليه[١].

فهو على هذا من الأول وهو الرجوع، يقال: آل الشيء يؤول أولا ومآلا أي رجع؛ وأوّل إليه الشيء أي رجعه؛ وأُلتُ عن الشيء أي ارتددت، ومنه المآل بمعنى المرجع والمصير؛ ومنه أيضًا آلُ الرجل أي أهله وأتباعه وأولياؤه، لأنهم يرجعون إليه أو يرجع إليهم؛ وأوّل الكلام وتأوله أي دبره وقدره؛ وأوله وتأوله أي فسره[٢]، فكان المؤول يرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

- وقيل: هو مأخوذ من الإيالة وهي السياسة، كأن المؤول للكلام ساس الكلام ووضع المعنى فيه موضعه[٣]، يقال آل الملك رعيته إيالا أي: ساسهم؛ وآل على القوم أولا وإيالا وإيالة أي: ولي؛ وآل المال أي: أصلحه وساسه[٤].

المفهوم الاصطلاحي لكلمة «التأويل»:

اختلف العلماء فى بيان مقصودهم الاصطلاحي لكلمة التأويل إلى ما يلي:

أولا: التأويل عند السلف، وله عندهم معنيان:

١-تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أكان موافقًا للظاهر أم مخالفًا له، وهو على هذا المعنى مرادف للتفسير، وهذا كثير فى كلام السلف، وهو ما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله فى تفسيره: القول فى تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ وهو ما يعنيه أيضًا بقوله: اختلف أهل التأويل فى هذه الآية، وعلى هذا فالنسبة بينهما التساوي[٥].

وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى الشهير بـ «ثعلب» عن التأويل فقال: التأويل والمعنى والتفسير واحد[٦]؛ وقال الليث: التأول والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه[٧].

---

(١) انظر: (النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/٨٠).
(٢) (لسان العرب ١١/٣٣ مادة أول) (القاموس المحيط ٢/١٢٧٥ مادة أول).
(٣) انظر: (الإتقان ٢/١١٨٩).
(٤) انظر: (لسان العرب ١١/٣٦) (النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/٨٥).
(٥) انظر: (بحوث فى علوم التفسير ٣٨٦).
(٦) انظر: (تهذيب اللغة ١٥/٤٥٨ مادة أول) (لسان العرب ١١/٣٣).
(٧) انظر: (تهذيب اللغة ١٥/٤٥٨-٤٥٩).

٢-بيان ما يؤول إليه الشيء فى واقع الأمر وحقيقة الحال - وهو الأغلب فى كتاب الله - فإن كان الكلام من الله تعالى طلبا فتأويله فعل ما طلب، وإن كان نهيا فتأويله الانتهاء عما نهى الله عنه، وإن كان خبرا فتأويله وقوع الخبر على الوصف المخبر به، وعلى هذا فالتأويل والتفسير أمران متباينان، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف:٥٣] قال الزجاج: معناه: هل ينظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من البعث، قال: وهذا التأويل هو قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما يعلم متى يكون البعث وما يؤول إليه أمرهم إلا الله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] أي: آمنا بالبعث، والله أعلم[١]

وروي عن مجاهد ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ قال: جزاؤه ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ قال: جزاؤه[٢].

ومنه حديث عائشة - رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن[٣] تعني: أنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر:٣].

ثانيًا: التأويل عند المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين:

للتأويل عند المتأخرين تعريف اصطلاحي، وهو صرف اللفظ عن معناه الراجح المتبادر منه إلى المعنى المرجوح غير المتبادر لدليل يقترن به، وعلى هذا فالتفسير أعم من التأويل، ومن ذلك قول ابن الأثير: والمراد بالتأويل: نقل ظاهر اللفظ عن معناه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ.[٤] وهذا هو التأويل الذي يتنازع عليه العلماء فى الكثير من المسائل الخلافية فى فروع العقيدة والفقه وأصوله وغيرها، فإذا قال أحدهم: هذا النص أو الحديث مؤول أو محمول على كذا، قال الآخر: هذا تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل؛ وعلى هذا

---

(١) (معاني القرآن ٢/٣٤١).

(٢) انظر: (جامع البيان ٨/٢٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٨٤) (٤٦٨٤).

(٤) انظر: (النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/٨٠).

فالمؤول مطالب ببيان احتمال اللفظ للمعنى المراد صرفه إليه وبيان الدليل الذي حمله على صرفه عن ظاهره.[١] ولذا قسم علماء الأصول التأويل إلى ثلاثة أقسام:

١-تأويل صحيح «قريب»: وهو إذا دل عليه دليل قوي.

٢-تأويل فاسد «بعيد»: وهو إن كان التأويل لا يستند إلى دليل قوي، أو كان لشبهة دليل.

٣-تأويل لغير دليل أصلاً «وهو لعب لا تأويل»: وهو الذي لا يتكئ على دليل أو شبهة دليل[٢].

الفرق بين التفسير والتأويل:

لم يفرق كثير من علماء السلف - منهم ابن جرير الطبري وطائفة معه - بين التفسير والتأويل، فإنهم يرون أن التفسير والتأويل بمعنى واحد لا فرق بينهما؛ وقد سئل أبو العباس أحمد بن يحيى الشهير بـ «ثعلب» عن التأويل فقال: التأويل والمعنى والتفسير واحد[٣].

في حين فرق كثير من المتأخرين بينهما، واختلفوا في وجه الفرق، فقيل: التفسير ما كان بالرواية، والتأويل ما كان بالدراية[٤].

وهذا الرأي نقله الإمام الزركشي في كتابه «البرهان» عن أبي نصر القشيري حيث قال ما نصه: قال أبو نصر القشيري: ويعتبر في التفسير الاتباع والسماع، وإنما الاستنباط ما يتعلق بالتأويل[٥].

وقال ثعلب: التفسير والتأويل واحد، أو هو كشف المراد عن المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر[٦].

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي: التفسير القطع بأن مراد الله تعالى كذا والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون

---

(١) انظر: (التفسير والمفسرون ٢١/١).
(٢) انظر: (حاشية العطار على جمع الجوامع ٨٨/٢).
(٣) انظر: (تهذيب اللغة ٤٥٨/١٥ مادة أول) (لسان العرب ٣٣/١١ مادة أول).
(٤) (الإتقان ١١٩٠/٢).
(٥) (البرهان في علوم القرآن ١٥٠/٢) (الإتقان ١١٩٠/٢).
(٦) (القاموس المحيط ٦٣٦/١ مادة فسر).

القطع والشهادة على الله[١].

وقيل: إن الفرق بينهما من وجه العموم والخصوص، فالتفسير أعم من التأويل.

وذهب الراغب إلى أن العموم والخصوص من جهة ما يكون استعمال التفسير والتأويل فيه من الكلام، فقال: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله فى الألفاظ ومفرداتها وفى الكتب الإلهية وغيرها، وأكثر استعمال التأويل فى المعاني - كتأويل الرؤيا - وفى الكتب الإلهية خاصة[٢].

وذهب بعض العلماء إلى أن العموم والخصوص من جهة كون بيان اللفظ بمعنى متبادر أو غير متبادر، فقال: التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحدا، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة[٣].

وذهب الإمام الألوسي إلى أن التفسير خاص بما كان مفهوما من العبارة، والتأويل بما كان مأخوذًا بالإشارة.

وبعبارة أخرى: إن التفسير هو التفسير العباري، والتأويل هو التفسير الإشاري[٤].

ورجح الإمام الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبي - رحمه الله تعالى - أن التفسير ما كان راجعا إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعًا إلى الدراية؛ وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا يكون إلا بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ﷺ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني من

---

(١) انظر: (الإتقان ٢/١١٨٩-١١٩٠) (روح المعاني ١/٦).

(٢) انظر: (مقدمة التفسير، للراغب الأصفهاني) (البرهان فى علوم القرآن ٢/١٤٩) (الإتقان ٢/ ١١٨٩) (روح المعاني ١/٥).

(٣) (الإتقان ٢/١١٨٩).

(٤) انظر: (روح المعاني ١/٦).

كل ذلك[١].

أقول: والذي تميل إليه النفس أن كلا من التفسير والتأويل مقصود به البيان لمعنى القرآن الكريم والكشف عن المراد منه، غير أن النسبة بينهما هي العموم والخصوص بإطلاق، فكل تأويل تفسير وليس كل تفسير تأويلاً، فهما يجتمعان فى بيان ما يحتاج بيانه إلى التأمل وتدقيق النظر، ويتفرد التفسير فى بيان ما لا يحتاج بيانه إلى ذلك، والله أعلم.

مسألة المكي والمدني

كان للعلماء في تحديد الضابط اللفظي الذي يميز كلاً من المكي والمدني ثلاثة مذاهب، ثم رجحوا بعضها على بعض، فكان الأمر كما يلي:

المذهب الأول: هو اعتبار المكان، حيث إنه هو الاعتبار المتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة مكي أو مدني، وعلى هذا:

فالمكي: هو ما نزل في مكة أو فيما جاورها من ضواحيها ولو بعد الهجرة.

والمدني: هو ما نزل في المدينة أو فيما جاورها من ضواحيها.

وهذا المذهب لم يلق القبول عند أهل التحقيق من العلماء على الرغم من شهرته كما ذكر الشيخ الزرقاني حيث قال: إنه غير ضابط ولا حاصر؛ لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله تعالى في سورة التوبة ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**﴾ [٤٢] فإنها نزلت بـ«تبوك» وقوله في سورة الزخرف ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا**﴾ [٤٥] فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء، ولا ريب أن عدم الضبط في التقسيم يترك واسطة لاتدخل فيما ذكر من الأقسام؛ وذلك عيب يخلُّ بالمقصود الأول من التقسيم والحصر.

وذكر صاحب الإتقان عن الطبراني في معجمه الكبير من طريق الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان عن ابن عامر عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكة والمدينة والشام**» قال الوليد: يعني بيت المقدس، وقال ابن كثير: بل تفسيره بـ«تبوك» أحسن.

قال السيوطي: ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية،

---

(١) (التفسير والمفسرون ١/٢٢-٢٣) (بحوث فى علوم التفسير ٣٨٦).

وفي المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأُحد وسَلْع.

المذهب الثاني:

كان إلى اعتبار نوع المخاطب بالقرآن، فقال أصحاب هذا الرأي: **المكي** هو ما كان خطابا لأهل مكة. **والمدني** هو ما كان خطابا لأهل المدينة.

وألحق بعض العلماء بذلك قول من قال: إن ما صُدِّر بلفظ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فهو مكي، وما صُدِّر فيه بلفظ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فهو مدني.

وعللوا لذلك بقولهم: لأن الكفر كان غالبا على أهل مكة فخوطبوا بـ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وإن كان غيرهم داخلا فيهم؛ ولأن الإيمان كان غالبا على أهل المدينة فخوطبوا بـ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ وإن كان غيرهم داخلا فيهم أيضًا، كما ألحق بعضهم صيغة ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾ بصيغة ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن عن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ أو ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾ فإنه مكي، وما كان ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فإنه مدني.

وقال الحافظ السيوطي: وحُمِل على هذا قول ابن مسعود أخرجه البخاري: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت» وهذا الحمل غير وجيه فيما يبدو لي؛ لأن الآيات والسور لم تنزل كلها في أعيان الأشخاص، وما نزل في عين شخص فليس كاد له خطابًا، والله أعلم.

ومع هذا فإن هذا التقسيم هو الآخر لم يحظ بالقبول، ولم يسلم من الاستدراك عليه لأنه كسابقه غير ضابط ولا حاصر، حيث إن من القرآن ما نزل غير مخاطب لأهل مكة ولا لأهل المدينة كما في قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً**﴾ [الأحزاب:٢٨] ومثل ذلك الآيات الكثيرة التي لم تُصدَّر أصلا بأي نداء أو بعبارة أخرى: الآيات التي لا تحتمل الخطاب لفظًا ولا معنى، مثل قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ [البقرة:٢٦] وضعّف هذا القول ابن الحصّار فقال: اتفق الناس على أن سورة النساء مدنية وأولها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وعلى أن سورة الحج مكية وفيها ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**﴾ [الحج: ٧٧] وقال غيره: هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية وفيها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ [البقرة: ٢١] ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ**

حَلالاً طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨] وبهذا يظهر ضعف هذا المذهب وعدم صحة الاعتماد عليه في تحديد المكي والمدني، وعلى أنقاض هذا الرأي وذاك يقوم بنيان المذهب الصحيح وهاك هو.

المذهب الثالث:

وهو اعتبار الزمان الذي تنزلت في خلاله آيات القرآن وسوره، وعلى أساسه، فإن الضابط الذي يحدد المكي والمدني هو:

المكي: ما نزل من القرآن قبل الهجرة النبوية إلى المدينة.

والمدني: ما نزل من القرآن بعد هذه الهجرة.

نقل الحافظ السيوطي عن عثمان بن سعد الرازي أنه أخرج بسنده إلى يحيى بن سلّام قال: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني. قال السيوطي: وهذا أثر لطيف يؤخذ منه: أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحًا.

وهكذا فقد راعى أصحاب هذا المذهب عنصر الزمان، واعتبروا الهجرة المباركة هي الفاصل بين هذين النوعين: المكي والمدني، وترجح هذا المذهب عند العلماء بما أنه جامع مانع حاصر لكل الآيات القرآنية، فإننا لانجد آية من القرآن إلا وهي نازلة إما قبل الهجرة وإما بعدها، وبناء عليه فقد اعتبر العلماء بعض الآيات القرآنية مدنية وإن كانت نازلة في مكة أو جوارها، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] فإنها مدنية بهذا الاعتبار وإن كانت نازلة في جوف مكة عند الكعبة، غير أن ذلك كان بعد الهجرة يوم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة، وكذلك قول الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] نزلت بعرفة يوم حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة، وأرض عرفة أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، ومع ذلك فهذه آية مدنية حسب زمان نزولها، ومن أمثال ذلك أيضًا صدر سورة الأنفال حيث نزلت ببدر، وكذلك كل ما نزل بأسفاره ﷺ.

ومن هذا كله يتقرر أن المذهب الراجح عند أهل العلم في تقسيم القرآن إلى مكي ومدني هو النظر إلى زمان نزول الآية، فيعرف المكي بأنه هو ما نزل قبل

الهجرة. والمدني بأنه ما نزل بعد الهجرة وإن نزل في مكة أو ما ألحق بها.

فائدة:

إن كانت هناك آيات مدنية نزلت في مكة - كما سبق ذكره - فاعلم أنه لا توجد آية تعتبر مكية وكانت نازلة في المدينة؛ وذلك لأن النبي ﷺ لم يخرج من مكة قبل الهجرة حيث لا جهاد يخرج له ولم يسافر ﷺ إلى المدينة أو غيرها، حتى هاجر فكان السفر والخروج للجهاد والعمرة والحج وغير ذلك.

انظر ذلك في: (مناهل العرفان ١/١٨١-١٨٣) (الإتقان ١/٢٦-٢٧، ٥٢-٥٤).

المبحث الثاني: معنى التحقيق والدراسة والحاشية

أولاً: التحقيق: لفظ التحقيق مصدر «حقّق يحقّق» وهو مأخوذ من الحق وهو لغة نقيض الباطل، وجمعه حقوق وحقاق، يقال: حقّق قوله وظنّه تحقيقا أي صدّقه، والمحقَّق من الكلام: الرصين، وتقول: حققت الأمر أي تحققته وتيقنته، وحقق الأمر تحقيقا أي صدّقه[١].

وقال الإمام الجرجاني: التحقيق إثبات المسألة بدليلها[٢].

وقال القنوجي: فإذا تصفحنا عن المذاهب المختلفة المتقاربة في الدلائل بالتعمق في مآخذها والتأمل في كيفيات أخذها ودرك أغراض مدونيها ودرجات فهومهم عرفنا منشأ الاختلاف وموضع الالتباس وموطن الحكاية والتمييز بين المتيقن والمظنون بتوفيق الله سبحانه وعنايته[٣].

وأما تحقيق المخطوطات فهو إخراج تلك الكتب المخطوطة بالشكل الذي يسعى إليه مؤلفها، وإخراجها على الهيئة التي يرتضيها لو كان هو حيًّا شاهدًا طباعتها؛ وذلك بتقديم نص الكتاب مقروءًا مشكولاً عند الحاجة موثقًا وإثبات صحة النص وصحة عنوانه ونسبته لمؤلفه بدليل علمي، والسهر على النص لتثبيت ما فيه من كلام وشواهد وأعلام مع العناية بضبط الكلمات التي تحتمل أكثر من وجه في القراءة، فهو إذًا عملية إحياء لنص قديم[٤].

---

(١) انظر: (لسان العرب ١٠/٤٩ مادة حقق) (القاموس المحيط ٢/١١٦٢).
(٢) (التعريفات ٥٣).
(٣) انظر: (أبجد العلوم ١/٣٩٩).
(٤) (المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات ١٧٢).

والعلاقة أو المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة «التحقيق» هي أن يكون الكتاب المخطوط أو المسألة المعينة كأنها أخرجت على هيئة مرضية يظهر فيها وجه الحق الذي يستحق التصديق.

وكثر تحقيق المخطوطات فى الدراسات الحديثة التي يكون فيها أساس البحث والدراسة أحد المخطوطات التي لم تنشر بعد، ويتم بجمع نسخ المخطوطة المتوفرة فى المكتبات المختلفة، ثم قراءة تلك المخطوطات ومحاولة التعرف على ما قد يكون منها بخط المؤلف أو كتب بحضرته أو أقرب زمن إليه فيجعل أصلا للكتاب، ثم إجراء عملية تصحيح واستكمال للمخطوط الرئيسي بمعاونة النسخ الأخرى، وإذا عجزت جميع النسخ عن التصحيح والاستكمال يعتمد الباحث على قدراته المتعددة فى ذلك بتتبع الكتب التي قد تنقل عن نفس المؤلف أو الكتب التي نقل المؤلف عنها، ثم يقدم بين يدي البحث بتعريف بالمؤلف وتعريف بالكتاب المخطوط وأهميته(١).

الدراسة:

أصل الدراسة: الرياضة والتعهد للشيء، ودرس الكتاب يدرسه درسًا ودراسة أي ذلّله بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه، فهو من التعهد كأنه عاهده حتى انقاد لحفظه، ودرس الكتاب أي قرأه، ويقال: تدارسوا القرآن أي اقرأوه وتعهدوه لئلا تنسوه(٢).

والمراد بدراسة المخطوط: تقديم المحقق أو الباحث دراسة بين يدي المخطوط يتعرض فيها لعدة أمور، أهمها:

- الترجمة للمصنف ببيان اسمه ونسبه وكنيته ومولده ووفاته وعصره وبيان جهوده العلمية تعلما وتأليفا وتدريسًا.

- التعريف بالمخطوط نفسه تعريفًا علميًا مقرونًا بالتحقيق الذي يؤدي إلى إثبات صحة نسبته إلى مؤلفه، وإثبات عنوانه، والتعريف بالنسخ المخطوطة التي

---

(١) (كيف تكتب بحثًا ورسالة ١٨٩-١٩٣، د. أحمد شلبي) (المنهاج فى تأليف البحوث ١٧٥-١٧٧) (مناهج البحث العلمي فى الإسلام ٢٣٣، د. غازي حسين عناية).

(٢) انظر: (لسان العرب ٦/٧٩-٨٠ مادة درس) (القاموس المحيط ١/٧٤٨ مادة درس).

عول عليها، وبعض نماذج من تلك النسخ[(١)].

- تبيين موضوع الكتاب وأهميته ومن سبق المؤلفَ إليه ومن تبعه بعده أو علق عليه.

- تقويم عمل المؤلف فى الكتاب، وبيان منهجه فيه، وتوضيح قيمته العلمية[(٢)].

الحاشية لغة مأخوذ من الحشو، وهو ملء الوسادة وغيرها بشيء، واسم ذلك الشيء أيضًا الحشو، وحاشية كل شيء جانبه وطرفه، وحاشيتا الثوب جانباه اللذان لا هدب فيهما، وحاشية السراب كل ناحية منه[(٣)].

والمراد بالحاشية عند العلماء هي تلك التعليقات والشروح التي يلحقونها بالكتاب الذي يهتمون بتدريسه وتعليمه للطلاب، فإذا رأى العالم فى نص الكتاب الذي يهتم بتعليمه أو شرحه غموضا لاختلاف البدهيات على حسب الأزمان والثقافات فإنه يشرح ما يراه محتاجا إلى الشرح، وقد يعلق على ما يخالف الصواب والحق فى رأيه، ويدخل فى ذلك شرح بعض الألفاظ النادرة الغامضة والمصطلحات العلمية والتعريف بالأعلام غير المشتهرة ونسبة الأقوال والأشعار إلى قائليها[(٤)].

وقال فى كشف الظنون: الحاشية عبارة عن أطراف الكتاب ثم صار عبارة عما يكتب فيها، وما يجرد منها بالقول فيدون تدوينًا مستقلاً معلقًا، ويقال لها: تعليقة أيضًا[(٥)].

قلت: والعلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة «الحاشية» هي أن تكون تلك التعليقات والشروح بمثابة الحشو أو الملء الذي يشمل جوانب المعاني لمتون الكتاب فكأن الكتاب محشوّ ومملوء بتلك التعليقات والشروح التي

---

(١) (تحقيق النصوص ونشرها ٨٤، للأستاذ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، السادسة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) (كيف تكتب بحثًا أو رسالة ١٩٣).

(٢) (المنهاج فى تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات ١٨٤).

(٣) انظر: (القاموس المحيط ١٦٧٢/٢ مادة حشو) (لسان العرب ١٨٠/١٤-١٨١ مادة حشو).

(٤) انظر: (المنهاج فى تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات ١٧٨، للدكتور محمد التونجي، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

(٥) (كشف الظنون ٦٢٣/١).

تحيط بأطرافه ونواحيه... وهذا نوعٌ، وآخر يكون ببعض منه سواء من قريب أو بعيد.. والله أعلم.

وتعليقنا هنا - يعد من ذلك النوع الثاني الذي يعتبر شرحًا وتعليقًا، وقد حرصت فيه على توضيح ما رأيته مشكلاً من كلام المصنف، وتأييده بما يناسبه من أقوال العلماء، ولم أدع أثرًا ولا حديثًا إلا خرجته عن قائله، عدا الغريب المورد بالمعنى النصي أو الباطن الكشفي.

وكان الغرض من التعليق تحليل خفاياه وتذليل مطاياه؛ واعلم أني ضممت إلى ذلك نفائس تستجاد وتستطاب مما لخصته من كتب الأئمة الحافلة، وإن لم يقصد فيها الإطناب.

هذا المدخل بداية لتعريف العلم الخاص به هذا الكتاب التراثي الفخيم، ثم إليك إطلالة على التراث الأندلسي والصوفي خاصة.

المبحث الثالث: التراث الأندلسي

يقول الباحث الصديق، الدكتور أحمد شفيق: عرفت السنوات الأخيرة «طفرة» في الدراسات الخاصة بالتاريخ الديني للأندلس؛ وذلك راجع للأهمية التي توليها المصادر والمراجع الإسبانية المعاصرة للنصوص الدينية باعتبارها مصادر تزود الباحث بوثائق ومعلومات دفينة، وتفتح أمامه آفاقًا رحبة؛ لدراسة وتحليل مجتمع يمثل العنصر الديني بكافة أشكاله، عاملاً هامًا وحاسمًا، ليس فقط من وجهة نظر أيديولوجية أو سياسية، وإنما باعتباره عاملاً منظمًا للزمان، ولإيقاعات الحياة الاجتماعية والعائلية والفردية، وكان أول من ألقى الضوء على أهمية هذا العنصر المنجز في الحياة الأندلسية، الباحث الكبير ميجيل آسين بلاثيوس، ولا سيما بحوثه عن ابن مسرة الجبلي، ونشره بالعربية مع ترجمة إسبانية وفرنسية لكتاب: «محاسن المجالس» للصوفي المريّ، ابن العريف، والتركيز على أعمال ابن عربي الشيخ الأكبر، دارت كل هذه الدراسات حول التصوف الأندلسي دورًا حاسمًا في لفت الأنظار بأهمية التاريخ الديني للأندلس، على الرغم من عدم اتفاقنا معه في نواحي كثيرة من تلك الدراسات، ولا سيما الخاصة بإضفاء طابع وصفي مسيحي على كل ما يتعلق بالتصوف الإسلامي، وبالأخص حول نشأته وأصوله وتعريفاته ومصطلحاته، قادحًا بذلك صفحة من أهم صفحات التاريخ الإسلامي، والتي سعت

من خلال التصوف خلق علم وأسلوب وفكر حياة جديد في كتاب البشرية.

وإذا انتقلنا إلى نهاية السبعينات، نجد دفعة أخرى تحت تأثير «المقاربة السوسيولوجية» التي تبناها الباحث الفرنسي دومينيك أورفوا، ووظفها لدراسة معطيات كتب التراجم الأندلسية، وما تزال هذه الطريقة تزهر البحث التاريخي بالأندلس، من خلال مشروع مبحث وتراجم أسماء الأعلام في الأندلس، الذي يشرف عليه مجموعة من الأساتذة البارزين أمثال: مربيل فيدو، ومانولامريد، وماريا لويسا أبيلا، ولويس مولينا وآخرين، وفى العشرين سنة الأخيرة برزت بحوث ماريا فورسباسن، ودومنيك واورفوا، وميكيل دى إيبالزا، حول الجدل المسيحي الإسلامي بالأندلس.

أما الدراسات حول التصوف بالأندلس فهي كثيرة، ويمكن أخذ فكرة عن بلوغرافيتها من خلال العددين ١٢-١٣ من مجلة «القنطرة».

وأمام استحالة إثبات ببلوغرافية شاملة لهذا الإنتاج الإسباني الضخم حول التاريخ الديني للأندلس، يمكن أخذ فكرة دقيقة عنه الرجوع إلى المراجع المثبتة في دراسة ماربيل فييرو، في الفصل المتعلق بالدين في الجزئين: السابع والثامن من كتاب:

Los reinos de Taifas, Al-Andalus en el siglo XI. Historia de Espana. Men'endez Pidal, VIII, Coord., Maria Jeus Viguera Molins, Madrid, 1994, pp. 399-496

El retroceso territorial de al-Andalus:Almor'avides y Almohades (siglo XI al XIII), coord, Maria Jeus Viguera Molins, Madrid, 1997, pp. 437/546.

بالنسبة للدراسات الأكاديمية المتعلقة بالحالة الدينية بالأندلس، وبجانب ذلك بدأت تظهر مجموعة من الكتب المتعلقة بالتصوف يكتبها المتصوفون الأسبان المعاصرين، ولا سيما شيخ الطريقة الشاذلية الحالي بها «سعيد بن عجيبة الأندلسي الشاذلي»، فمعظم كتاباتها ترتكز على تجاربه الروحية، أو المنهج الذي يتبعه فكر مريديه، ومن أهم كتبه: *A la busqueda del manantial,* Madrid, 2002 وترجمته (بحثًا عن المنبع- طبعة مدريد).

ومن المؤكد في الوقت الحاضر أن التصوف كان من أبرز عناصر المقومات الدينية داخل مجتمعات الغرب الإسلامي، وأحد أهم عواملها الدينية والروحية

والثقافية والاجتماعية، بل وحتى السياسية والاقتصادية، فهو يعكس أحد أهم عناصر التراث الإسلامي، التي كان لها تأثير عميق في مجرى الحياة اليومية لمغاربة العصر الوسيط.

كانت بدايات التصوف الأندلسي متواضعة، وكانت تتمثل في الممارسات الزهدية، التي كان يطبقها بعض الزهاد، كما تخبرنا بذلك مختلف كتب التراجم الأندلسية، فإن التصوف سرعان ما اكتسح النسيج الأندلسي وأصبح قوة اجتماعية وسياسية فاعلة، وخصوصًا في القرن السادس الهجري/الثامن عشر الميلادي، ولمعرفة هذا الواقع والعوامل المتحكمة فيه، اتجهت أنظار الباحثين في السنوات الأخيرة للبحث عن المادة المصدرية الدفينة، من خلال تحقيق النصوص التراثية التي كانت مجهولة وقابعة فوق رفوف الخزانات العامة والخاصة، ولا تصل إليها يد الباحثين المتلهفين عليها، ولا يجدون سبيلاً للوصول إليها...

ومن هنا كانت أهمية الدراسة التي بين أيدينا؛ ألا وهي تحقيق كتاب «تنبيه الأفهام..» لابن برجان.

قد أُرجأت شخصية ابن برجان الصوفي في القرن الثاني عشر الميلادي إلى المرتبة الثانية، وعلى ظلال شخصية ابن العريف، والتي اختفت منذ زمن مبكر بجانب أعماله بأبحاث جادة ودقيقة؛ وذلك إذا أخذنا في الاعتبار البيبلوغرافيا المذكورة عنه.

ومن هنا كان السبب الذي جعل ابن برجان يذكر بصورة هامشية دون تخصيص دراسة وافية ومستفيضة عن أعماله، بهدف رسم صوره توضيحية تشير إلى أفكاره ومذهبه الصوفي، وتوضح علاقته بمتصوفي عصره، وميوله السياسية.

فكل ما ذكره الباحثون عنه؛ هو ارتباطه العابر بالثورة التي عرفت باسم ثورة المريدين، وموته في مراكش؛ حاضرة الدولة المرابطية في ذلك الوقت.

على ضوء ما ذكرناه، نرى أنه من المهم أن نخص بهذه الدراسة للتعريف به، والتعريف بواحدة من أهم أعماله ذات الشيوع الكبير، ولا سيما في بلاد المشرق الإسلامي.

المبحث الرابع

أولاً: ترجمة الشيخ المفسر

هو الشيخ المكاشف المحقق المستغرق العارف بالله سيدي عبد السلام ابن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي الإفريقي الإشبيلي، المشهور بين الأعيان بـ«ابن برجان» ويكنى أبا الحكم، وأبا الرجال؛ هو الداخل إلى الأندلس في إمارة المعتضد عباد ابن محمد.

تورّع وتزهّد وتنسّك وتعبّد وتقمّص بالصوف، وترك لبس الشفوف، وسلك طريق النجاة، وقص جناح ذوي الجناح.

قال ابن الأبار: كان عارفًا بالقرآن والحديث والكلام والتحقيق والتصوف، وبه اشتهر مع الزهد والورع والاجتهاد في العبادة.

لا يُعرف تاريخ ميلاده على وجه التحديد، ولكن على وجه التقريب ربما قد ولد فيما بين (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) أو (٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م) في حالة بلوغه ستة وستون عامًا، أو ثمانية وستون عامًا.

درس اللغة العربية والأدب والتفسير القرآني، وبلغ شأناً عظيمًا في فروع المعرفة المختلفة مثل: علم الحساب، والهندسة، والفلك؛ فضلاً عن ذلك كان متميزًا في علم الكلام، وكان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم التصوف، سمع من أبي عبد الله بن منظور «صحيح البخاري» وحدث به عنه، وسمع أيضًا من غيره طبقًا لابن الزبير[(١)] عند وصفه لمحتوى مضمون كتابه «الإرشاد»، يشير أنه من المحتمل دراسته «لصحيح مسلم»، وعلى الرغم من ذلك لا تثبت المصادر شيئًا من هذا القبيل، حيث أن هذا العمل يتناول البحث عن الأصل القرآني لأحاديثه؛ وفضلاً عن ذلك كله كان يوصف بالزهد والاجتهاد في العبادة.

لا تشير المصادر التي لدينا بأنه قام بالحج إلى مكة، إذا أخذنا في الاعتبار تدهور الحالة الأمنية وتقطع السبل؛ بسبب فتنة ابن تومرت والموحدين؛ علاوة على خطورة الطرق البحرية؛ لتعرض سفن المسلمين لغارات قراصنة النصارى، ولم تكن الطرق البرية بأفضل من البحرية؛ فضلاً على أن الطرق إلى الديار المقدسة بالمشرق

---

(١) انظر: صلة الصلة (ص٣٢).

كانت غير آمنة للاضطرابات التي كانت تسود المشرق، لأدركنا المصاعب والمخاطر التي كانت تواجه المسلمين في رحلتهم البحرية أو البرية، ومع ذلك كان ابن برجان على علاقة بأهل العلم الذين جازفوا بالرحلة؛ لأداء هذه الفريضة المقدسة، ورغبة في لقاء العلماء [١].

من المؤكد أن ابن برجان لم يقتصر نشاطه العلمي على مدينة أشبيلية [٢] إذا أخذنا في الاعتبار تمكنه المتميز في كافة علوم المعرفة ودراسته المتعددة، والذي بلا شك حمله إلى السفر إلى مدن عديدة بالأندلس، ولا سيما إلى مدينة قرطبة؛ لتلقي دروسه في علم الكلام، حيث كانت هذه البلدة من أهم مراكز دراستها [٣] علاوة على ذلك، يدفعنا ذاك إلى التفكير بأنه كان يتنقل بين المدن الأندلسية، ولما توجه إلى حضره مراكش رحل من قرطبة [٤].

وبالنسبة لطريقته في التصوف، فهو يعد من أهم رجال عصره في هذا المذهب، يخبرنا ابن الزبير بأنها قريبة نوعًا ما من الباطنية، ولكن على الرغم من ذلك لم يترك قط طريق القرآن والسنة؛ اقتداء بالصحابة وكبار العلماء [٥].

تطلق عليه المصادر لقب: زاهد وصوفي «ابن الآبار» هو المرجع الوحيد الذي يشير إلى ابن برجان بلقب الزاهد [٦] بينما باقي أصحاب التراجم يصفونه بالصوفي [٧] أو شيخ الصوفية [٨] مع التركيز على بعض الوجوه في ممارسته الصوفية: ميله إلى

---

(١) انظر ابن العريف «مفتاح السعادة» و«تحقيق طريق السعادة» تحقيق عصمت دندش، بيروت ١٩٩٩، انظر «رسالة لابن العريف إلى ابن المنذر» رقم ٢ ص ٩٩.

(٢) انظر ابن العريف «مفتاح السعادة» في الرسالة رقم (٢٠)، الموجهة للحسن بن غالب، يتحدث ابن العريف عن شخص يسمى: عبد الواحد بن محفوظ، ذهب لاستيطان أشبيلة بجانب الشيخ أبو الحكم بن برجان ص ١٤٧.

(3) Urvoy, D., *El mundo de los ulemas andaluces,* Madrid, 1983, p, 55.

(٤) «التشوف» في ترجمة أبي الحسن بن حرزهم رقم ٥١ ص ١٧٠.

(٥) ابن الزبير«صلة الصلة» ص ٣٢.

(٦) ابن الآبار«التكملة» رقم ١٧٩٨.

(٧) من بين من وصفه بهذا اللقب الصفدي في الوفيات؛ والكتبي «فوات الوفيات» وابن حجر العسقلاني في «لسان الميزان».

(٨) انظر: الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وابن العماد في «شذرات الذهب».

العزلة، وتفضيله للخلوة، فكان يلتف حوله مريدوه المقربون، فأخذ عنه الكثير من طلبة العلم ورووا عنه، واختص البعض منهم بصحبته، ونختار من هؤلاء النفر:

- أبو بكر محمد بن أبي بكر بن أبي الخليل التميمي، والمعروف بـ«ابن ولَّم» الذي توفى سنة (٥٥٧هـ/١١٦٢م) ولد في «المرية» حيث صاحب أيضًا ابن العريف ومال إلى طريقته، وبعد ذلك رحل إلى «أشبيلية» ليكمل دراسته على يد ابن برجان[١].

- أبو محمد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف السكوني - من أصحاب ابن العريف أيضًا - كان يقال عنه أنه صاحب كرامات، وأنه مستجاب الدعوة، وكان يعيش حياة زاهدة، ولم يشارك في الفتنة التي أثارها المتصوفة والفقهاء، ورحل إلى المشرق في عام ٥٤٠هـ، حيث مات هناك، ولكن نجهل تاريخ وفاته [٢].

- أبو محمد عبد الله (ابن عبد) الواحد بن محفوظ، كان أيضًا من أصحاب ابن العريف، نعرف عنه القليل، من خلال رسالة موجهة من ابن العريف إلى تلميذه الحسن بن غالب، حيث تؤكد رغبة ابن محفوظ لاستيطان أشبيلية بجانب الشيخ، ورغبة في السفر للحج[٣].

من بين تلامذته أيضًا:

- أبو القاسم القنطري.
- وأبو محمد عبد الحق الأشبيلي.
- وأبو عبد الله بن خليل.
- وأبو محمد.
- والمالقى (انظر ابن الزبير، ص٣١-٣٣).

ولكن أهم تلامذة ابن برجان؛ هو ابن العريف الصوفي المري (المتوفى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م) أخطأت الدراسات الأولى في التأكيد على أن هذا الأخير هو معلم الصوفي الأشبيلي، وعلى الأخص ما كتبه المستشرق الأسباني آسين بالأسيوس،

---

(١) ابن الآبار: الجزء الثاني رقم ١٣٦٦.
(٢) ابن الزبير «الصلة» الجزء الرابع رقم ٥٠ ص ٣٨.
(٣) ابن العريف «مفتاح السعادة» ص ١٤٧.

ومن تبعه[1] فعلى ضوء «رسائل ابن العريف» نلاحظ أن الأمور تخالف هذا الرأي؛ فكل شيء في هذه الوثائق يشير بأن الشيخ والمعلم؛ هو ابن برجان، وأن ابن العريف يعد نفسه تلميذًا له، فالصوفي المري يدعوه: «شيخي وكبيري» أو «إمامي وكبيري» ويؤكد له في ذات الوقت شكوكه، وتجده في طريق العلم والمعرفة: «شكايتي التي شكوتها إلى الشيخ الإمام قديمًا بحالها» وأبلغ من هذا هو شوق ابن العريف إلى قراءة رسائل ابن برجان، فهو يكتب إليه: «كان من همي أن يصل كتاب الشيخ واحدي نظرًا، ومتقدمي تسليمًا ومعتبرًا» وأخيرًا نقرأ هذا الدعاء الذي يوجهه ابن العريف إلى شيخ أشبيلية: «وأنت يا إمامها بحرمة الشيب اذكرني إذا رقدت عند من له رقدت»[2].

ويتضح من هذه الرسائل، أن ابن برجان قد ادعى الإمامة، وإذا دعاه ابن العريف شيخه وإمامه؛ فهذا يدل بوضوح على أن ابن العريف لم يكن إمام المدرسة الصوفية، كما يكتب السيد محمد عفان عندما يؤكد:

«وظهرت في الأندلس في العصر المرابطي حركه دينية خاصة، اتخذت طابع التصوف؛ وهى التي أسفرت عن قيام طائفة المريدين في غرب الأندلس، وكان إمام هذه المدرسة العلامة الصوفي أبو العباس الصنهاجي، المعروف بـ«ابن العريف» وهو من أهل «المرية» وبها ولد سنة ٤٨١هـ (١٠٨٩م)» [3].

ومن المؤكد أن أول متمرد هو أبو الحكم ابن برجان؛ إذ يقال: «إن البلاد قد خطبت لابن برجان في نحو مائة بلد وثلاثين» [4]على كلٍ فقد جلب أنظار السلطة المرابطية، وأرسل السلطان علي بن يوسف بن تشفين يستدعيه إلى «مراكش» في نحو ١١٤١/٥٣٦، ونعلم ما جرى عند حضوره لمراكش من خلال ترجمة سيدي علي بن حرزهم، كما جاء ذلك في كتاب «التشوف» ما نصه:

ولما أشخصه أبو الحكم بن برجان من «قرطبة» إلى حضرة «مراكش» سئل عن

---

(1) Asin Palacios, M., Tres estudios sobre pensamiento y mistica hispanomusulmanes, Madrid, 1922, p. 223.

(٢) ابن العريف «مفتاح السعادة» انظر: رسائله لشيخه أبي الحكم ابن برجان ص ١٠٦-١١٠.

(٣) انظر: عصر المرابطة والموحدين في المغرب والأندلس ١: ٤٦٥ (القاهرة، ١٩٦٤).

(٤) «الطبقات الكبرى» للشعراني ١: ١٥.

مسائل عيبت عليه فأخرجها على ما تحتمله من التأويل فانفصل عن أكثر من النقد، وقال أبو الحَكم:

والله لا عـــــشق ولا عاشـــــق الــــذي أشـــخص بعـــد موتـــي

يعني: السلطان، فمات أبو الحكم فأمر السلطان أن يطرح على المزبلة ولا يصلح عليه، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء، فدخل على أن حرزهم رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه، فأخذ أبو الحسن بما أقر به السلطان في شأن أبي الحكم، فقال له أبو الحسن: إن كنت تبيع نفسك من الله، فافعل ما أقول لك، فقال له: أمرني بما شئت أفعله، فقال له: تنادي في أسواق مراكش وطرقها: يقول لكم ابن حرزهم: أحضروا حياة الشيخ الفاضل الفقير الزاهد أبي الحكم بن برجان، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله؛ ففعل ما أمره به، فبلغ ذلك السلطان، فقال: من عرف فضله ولم يحضر جنازته، فعليه لعنة الله [1].

وقال أيضًا عبد الملك في «ذيل تاريخ ابن شكوال»: سعى عليه سعاية باطلة عند علي بن يوسف بن تاشفين، فأحضره إلى مراكش، فلما وصل إليها قال له: لا أعيش إلا قليلاً ولا يعيش الذي أحضرني بعدي إلا قليلاً فعقد مجلس مناظرة وأوردوا عليه المسائل التي أنكروها فأجاب، وخرّجها مخارج محتملة مقبولة فلم يقنعوا منه بذلك؛ لأنهم لم يفهموا مقاصده، وقرروا عند السلطان أنه مبتدع، فحبسه فمرض بعد أيام قليلة، ومات في الحبس سنة ٥٣٦ هـ.

ومات علي بن يوسف بعده في رجب سنة ٥٣٧ هـ ولما قيل له أنه مات، أمر أن يطرح على مزبلة بغير صلاة عليه، وألّا يدفن بحسب ما قرره معه من طعن عليه من المتفيقهة؛ فاتفق أن بعض أهل الفضل لما بلغه وفاته أرسل عبدًا أسود نادى في جهارًا في الأسواق: احضروا جنازة فلان؛ فامتلأت الرحاب من الناس وضاقت البلد عنهم؛ فغسلوه وصلوا عليه ودفنوه، ولم يستطع السلطان وأعوانه ومتفقهته أن يفعلوا شيئًا.

وقد دُفن في شهر محرم ٥٣٦هـ/أغسطس ١١٤١م وقبره الشريف مشهور في «مراكش» ويعرف بسيدي برّجان، ويقع ضريحه في رحابة الحنطة القديمة[2].

---

(١) «التشوف» ص ١٦٩.

(٢) العباس بن إبراهيم «الإعلام» الجزء الثامن ص ٥٦.

مصنفاته:

لقد عاش ابن برجان في أيام دولة المرابطين وهي الدولة التي بوأت الفقهاء مكانة عليا وأحرقت كتب أبي حامد الغزالي وعرفت في نهايتها ثورة المريدين يتزعمهم ابن قسي في الأندلس – صاحب خلع النعلين – بتحقيقنا، لكن يصعب أن تجد حلقة وصل بين أقطاب التصوف في تلك الفترة خاصة بين ابن برجان وابن العريف وابن قسي، وقد حقق الباحثون الرسائل التي تبادلها هؤلاء الأقطاب وكشفوا لنا خلالها خلالها أن ابن برجان يمثل الاتجاه الوسط بينما يميل ابن العريف إلى المهادنة وينحو ابن قسي إلى الثورة وهو الذي تزعمها فيما بعد هذا وقد وصف ابن العريف الإمام ابن برجان في رسائله بـ«الشيخ الفاضل الإمام» و«الامام أبي الحكم شيخي وكبيري».

وإذا كان بعض الباحثين قد أشار إلى الجفوة الحاصلة بين ابن العريف وابن برجان، فإن الدكتور عبد السلام الغرميني استشف من الرسائل التي وجهها ابن العريف لابن برجان أن أبا الحكم أرفع مكانة حتى وصف بأنه «غزالي الأندلس» ومن المدرسة البرجانية انبثقت المدرسة العريفية.

وقد ذكر لنا أصحاب تراجم ابن برجان أسماء تآليفه، وأكثر كلامه فيها على طريقة أرباب الأحوال والمقامات:

– «**شرح أسماء الله الحسنى**» وفى هذا العمل يعرض لأكثر من ١٣٢ اسم، وكل واحد منهم يظهر مرتبًا على ثلاثة أقسام؛ **أولهما**: دراسة عن أصل الاسم المعني ومدلولاته المختلفة، **وثانيهما**: تسمى اعتباره، والذي يشير لظهورها في الاستشهادات القرآنية واستخدامها في الأحاديث، وفى **المقام الثالث**: التعبد؛ وفيها يحاول المؤلف توضيح لهؤلاء الذين يريدون التقرب إلى الله كيف تجتاحهم سلطة أسمائه، وأن يستطيع المريد أن يكتسب الاسم المشار إليه.

ويُشير حاجى خليفة [1] بأن عمل ابن برجان هذا؛ يعد من أكبر التواليف التي كتبت عن هذا الموضوع، وبأنها تحتوى على أكثر من مائة وثلاثين اسمًا إلهيًا.

وقد امتنَّ الله تعالى على الفقير بأن حققه في مجلدين؛ فخرج لعالم الطباعة

---

(١) كشف الظنون، الجزء الرابع ص ٢٢.

بدار الكتب العلمية – بيروت.

- كتاب: «**عين اليقين**» ذكره ابن خلدون في كتاب «الشفاء»[1] لم يصل إلينا.

والخاصية المميزة لمؤلفات ابن برجان؛ هي اتساع حجمها؛ فتعليقاته وتفسيراته تقع عادة في مجلدين طبقًا لما ثبت عند أصحاب التراجم؛ فكحالة (٤/ ٢٢٦) وحاجي خليفة (١/٢٥٧) يؤكدان أن كتاب التفسير قد كتب في عدة أجزاء، حتى عند كتاب شرح الأسماء الحسنى، يقول البغدادي: قد كتب في جزأين.

ثانيًا: تفسيره هذا وتفاسيره الأخرى

- تفسير: «**تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم**» كتابنا هذا.

هو من أهم المؤلفات التي تركها لنا هذا العالم ويعتبر تفسير ابن برجان من أهم التفاسير التي أنتجها الغرب الإسلامي، ومؤلفه شغل الساحة الفكرية والسياسية مدة طويلة، ورغم الأهمية العلمية والتاريخية لهذا التفسير.

وجديرٌ بالذكر أن نُورد قصة خاصة بهذا التفسير وهي أن محيي الدين المعروف بابن زكي الدين الدمشقي الفقيه الشافعي، القاضي بدمشق سنة ٥٨٨ هـ كانت له عند السلطان صلاح الدين، المنزلة العالية، والمكانة المكينة، فلما فتح السلطان المذكور مدينة حلب، يوم السبت ثامن عشر صفر، سنة ٥٧٩ هـ أنشده القاضي محيي الدين قصيدة بائية، أجاد فيها كل الإجادة، وكان من جملتها بيت هو متداول بين الناس، وهو:

وفتحك القعلة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال، فإن القدس فتحت لثلاث بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقيل لمحيي الدين: من أين لك هذا؟ فقال: أخذته من «تفسير ابن برجان» في قوله تعالى: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾ ولما وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية لم أزل أتطلب تفسير ابن برجان حتى وجدته على هذه الصورة؛ فإنه ذكر له حسابًا طويلاً وطريقًا في

---

(1) R. Perez, La voie et la loi ou le maitre el le juriste, p. 253.

استخراج ذلك حتى حرره من قوله: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

منهج الإمام ابن برجان في تفسيره هذا:

-قال بعض أصحاب التراجم: يكرس تفسيره لشرح الآيات الغريبة من خلال منهج جديد، وأسلوبه في هذا الكتاب غامض جدًّا، ولا يستطيع أن يفهم مغزاه إلا من كان على دراية بأسلوب كتابته[1].

هذا وقد بدأ الإمام ابن برجان تفسيره بذكر البسملة، فاسم السورة ثم يشير إلى أنها مكية أو مدنية وعدد المنسوخ فيها، ثم بعد يبدأ بتفسيرها، ففي سورة مريم مثلاً نجد البداية كالتالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، سورة مريم فيها من المنسوخ أربع آيات» ثم يبدأ بتفسير الآيات في السورة مقسمًا إياها إلى جمل يقدم معناها دون استطراد، ففي سورة الإسراء، قال: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ثم شرع يفسر التسبيح وبعده فسر قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ لينتقل إلى ما بعده ﴿لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وفي كل يقدم المعني الدقيقة بدون نزوع نحو إيراد القراءات واوجه اللغة وأسباب النزول فهو وإن كان يعتمدها إلا أنه لا يتوسع في إيرادها كثيرًا، كما أن تفسيره هذا خال من الحشو حتى الأحاديث؛ فإنه غالبًا يشير إلى معناها، كما في حديث الإسراء مثلاً.

- الاهتمام بتفسير القرآن بالقرآن:

يهتم ابن برجان بتفسير القرآن بالقرآن اهتمامًا واضحًا فقد يأتي ليؤيد بها معنى محتمل من آية أخرى حيث قال في سورة الإسراء بعد الحديث هل كان الإسراء بعبده أم بروحه قال: «فصل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى* عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى*عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى*إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى* لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٣-١٨] فأخبر نصًا غير محتمل أنها كانت منه رؤية بصر.

وأحيانًا يقارن معاني الآيات ليقدم المعني الأوضح على الواضح قال: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: ١٨] ففي هذه الآية والتي في سورة

---

(١) ابن الزبير «الصلة» ص٣١، الشعراني «الطبقات الكبرى» الجزء الأول ص ١٥.

الشورى سواء ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] غير أن التي في هذه السورة أجلى وأبين، وجاءت آية سورة هود وفيه بعض الإشكال قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] وهي أخبار لا يجوز عليها النسخ، والتوفية في هذه الآية والله أعلم بما ينزل هو: أن يطعم بعمله ويسقى فيحس عليه الفوافي، ونعم السمع والبصر والحواس فتكون ذلك توفية لعمله، ويعطيه ربه من الدنيا ما شاء ولربما زاده على مراده ثم يحتسب له من ذلك فيما ذكرناه، دل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣] فانظر كيف سوى بين الآيتين في معنييهما وأشار على ورود الإشكال في الأخرى مبينًا تأويل ذلك كله وقوى تأويله بآية أخرى.

فإن الإمام ابن برجان يكثر من إيراد الأدلة حول المعنى الذي يسوقه في بعض الأحيان حتى تظن أنه يحاول أن يقنع شخصًا آخر حول مدلول النص القرآني، وفي بعض الأحيان يستعين بفهم الصحابة ويستدل له بآية أخرى كما في تفسيره للرقيم.

قال: «كثر الاختلاف فيه من علماء السلف - رحمة الله عليهم - ما هو، فمن قائل يقول: الرقيم الكهف ومن قائل يقول: الرقيم القرية التي خرجوا منها حتى آووا إلى الكهف، قال ابن عباس: لا أدري أهو كتاب أم بيان وروي عنه انه هو الكتاب، وهذا أولى الوجوه إن شاء الله، والله يقول الحق ويهدي: «اللهم حفظه الكتاب وعلمه التأويل» فالرقيم السبيل، قال رسول الله ﷺ هو المكتوب فيه الأعمال قال الله :﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ*كِتَابٌ مَّرْقُومٌ* يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ [المطفيفين: ١٨-٢١] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٧-٩] سمي: الرقيم لحكمة جل ذكره الثلاثة نفر بذلك الغار الذي ذكره رسول الله ﷺ الذين آووا إليه بأعمالهم المكتوبة لهم فيها هنالك.

فابن برجان في هذه الآية استعان بتفسير الصحابة وتفسير القرآن بالقرآن ليبين دلالة الرقيم ثم بين وجه تسمية الغار به.

- **اعتماد التفسير النبوي وأقوال الصحابة والتابعين:**

يستعين الإمام ابن برجان بالتفسير النبوي للوقوف على مراد الله في كتابه

ويتضح ذلك في عدة مواضع من تفسيره.

ومن مميزاته التي يمتاز بها تدخله لتصحيح الأحاديث واعتبار ذلك في تفسيره.

فابن برجان يستدل بالحديث النبوي ويتبعه أحيانًا بأقوال الصحابة ثم أقوال التابعين، وهو منهج السلف في التفسير، لكن رد الحديث بأنه غير ثابت، مردفًا بان هذا العلم لا يتحصل بطريق الآحاد مخالفًا الجمهور، وربما شعر بعدم اقتناع المحاور فأضاف بأن رجال السند موصوفون بالضعف، لم يقتنع بعد، فأتى باحتمالين اللذين يستفاد من النص القرآني، مستدلا لهما بالقرآن مع أنه رجح القول الثاني متمسكًا بالتخصيص تاركًا العموم.

وقد يوظف ابن برجان ثلاثة علوم لتفسير هذا النص: علم التفسير وعلم الحديث وعلم الأصول، مما يبين قيمة الرجل وعلو كعبه في العلم ويمكن أن نضيف إلى ذلك علم الفقه ؛ وإن كان تفسيره هذا يكاد يكون خاليا من الأحكام الفقهية، ففي حكم داود وسليمان في الحرث قال: «وهذا إن صح الحكم فيه عن رسول الله بسند يقطع العذر فهو الحجة وإنما غير ثابت، ولوكان ذلك كذلك فقد نسخه بقوله الحديث المروي في ذلك عن النبي ﷺ: «من استهلك شيئًا فعليه قيمته» فهذا هو الحكم الحق وهو الذي صحبه العمل، والذي ألهمه سليمان والله أعلم. والشيء الجديد الذي جاء به في هذا النص هو توظيفه لعلم الناسخ والمنسوخ مع مصطلح «صحبة العمل» وهو أصل من أصول مذهب مالك، وهو السائد في الأندلس في وقته.

- **المناسبة بين السور والآيات المناسبة بين السور.**

لم يبين الإمام ابن برجان المناسبة بين جميع السور بل أشار إليها في بعض السور فقط ومن السور التي ذكر مناسبتها لما سبق ففي سورة النحل قال: «أول هذه السورة منظم بالسورة التي تقدمت في أنهما معًا للتذكار والذكر وخص جل هذه أي التذكير بالنعم على أن قال: ولما انقسم الإعلام باسم اليقين في أخذ الحي إلى الموت وإلى ما هو وعد الله بالنصر والتأييد وإظهار الدين وكل ذلك يشمله اسم الأمر قال جل وعز في مفتتح هذه: ﴿**أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ فأنت ترى الإمام ابن برجان يبين المناسبة بين السورتين من حيث موضوعها ومن حيث نهاية هذه

السورة ببداية التي بعدها وقد يقتصر على بيان المناسبة بين بداية ونهاية السورتين فقط كما فعل في سورة الإسراء قال: « وكان هذا إسراءً برسول الله ﷺ انتظم أول هذه السورة بمعنى آخر: «النحل» من ذكر ملة إبراهيم، وذكر أصحاب السبت، وذكر نبوة محمد ﷺ وأمره إياه بأن يدعو إلى سبيل ربه ﷻ ثم تمدح بإسرائه بعبده وإتيانه موسى الكتاب وجعله هدى لبني إسرائيل، ثم قال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٢] فحصر معنى الرسالة كلها إلى ما في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ من معنى التوحيد وخالص التعبد الذي حاله التوكل.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ذكَّر بمنته القديمة؛ إذ لم يجعلهم من الهالكين بالكفر وعرض باقتضاء الشكر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]».

فالمصنف لم يكتف ببيان المناسبة بين نهاية وبداية السورتين فأضاف بعض الأغراض التي جاءت سورة الإسراء بها ولم يأتي هذا الكلام إلا بعد أن أتم الغرض الأول الذي جاءت به السورة وهو المدح بالإسراء بالعبد.

المناسبة بين الآيات: إن الإمام ابن برجان في بيانه للمناسبة بين الآيات إما أن يذكر مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها أو يبين مناسبة لآية أخرى بعيدة عنها في الموضع.

- **الاهتمام بالقراءات**: يلاحظ أن ابن برجان يهتم بالقراءات بل إنه من أهل المعرفة بالقراءات كما سبق وذكره ابن الجزري في غاية النهاية في طبقات القراء، وطبيعي أن يوظف هذا الإمام علومه ومعارفه في التفسير خاصة تلك العلوم التي لها علاقة وطيدة بالتفسير والقراءات، فلا غرابة إذًا أن نجد ذكرًا لقراءات الصحابة والتابعين: كابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والشعبي وغيرهم، والقراء السبع وغير السبع، لكن اهتمامه بقراء الصحابة والتابعين أكثر وضوحًا، فإن المتأمل في تفسير ابن برجان يجد أنه يعتمد على قراءة الصحابة والتابعين فلا تجد عنده ذكر للقراء السبع وغيرهم إلا قليلاً.

- **اهتمامه بالمعاني الدقيقة** فهو يشد القارئ في بعض الأحيان إلى معنى ربما يكون هذا المفسر هو الذي سبق إليه وتميز به، فمثلاً في سورة الإسراء عند الحديث عن بركة المسجد الأقصى قال: «ربما سميت تلك الأرض مقدسة لتجلي

المبارك القدوس عز وجل فيها لموسى وتكليمه إياه فيما هنالك، قال عز وجل: ﴿جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] وقال: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢] فليس يبعد مع هذا أن يكون الله عزوجل ذكره أبقى بركة تجليه فيما هنالك إلى يوم القيامة».

وفي قصة موسى رد ما أورده المفسرون من سبب عقدة لسان موسى وإرجاعهم ذلك السبب إلى الجمرة قائلاً: والصحيح والله أعلم بما ينزل أنه كان رجلا عبرانيًا في مجاورة القِبط في جحورهم فكان ظاهر لسانه لغة القبط، ثم تغرب إلى أرض مدين وجاور العرب، فتعرب من أجل مدة سنين كان فيها هنالك قال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [طه:٤٠] فكانت من أجل ذلك لكنة لسانه، فلم يكن فصيحًا في لسانهم كأخيه هارون.

وفي ثنايا هذا التفسير نجد الاهتمام بالأمثال والعبر فعند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فنجده يفصل في العبرة وأنواع الاعتبار ويستعمل مصطلحات: فصل، تنبيه، إما ليأتي بآية أو حديث يستدل به على ما سبق أو ينبه على فكرة دقيقة؛ وانظر إلى ذلك في سورة الإسراء حيث قال فيه: «فصل: قرن بين ذكر الإسراء بعبده بذكر الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وذكر اتصال الإسراء بالعروج إلى العُلا ولم يصف بالإسراء إلا ما بين رسول الله، المسجدين أراد بذلك والله أعلم لعد الليل في السماوات العلا فوصف بالإسراء ما يسكن فيه الليل والنهار».

وتأمل كيف أول قوله تعالى: «ولا يزالون مختلفين إلا ما رحم ربك ولذلك خلقهم» قال: «مختلفين أي في التوحيد والنبوة فمنهم من كذب بها ومنهم من صدق بعضا إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم أي للرحمة والتوحيد والتصديق».

- ذكر **أغراض السورة ومحاورها العامة** يقول في سورة الحجر: «الغرض المقصود الأول في هذه السورة والله أعلم الذكر والتذكير فابتدأ بقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ❁رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر:١-٥] فسرد على ذلك: وقال: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ

﴿الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦-٧] ثم نظم بهذا جميع فصول السورة أو جلها «..هكذا يسترسل في بيان المحاور التي جاءت بها السورة فهو يرى أن السورة القرآنية وحدة متكاملة ينطلق بناؤها من المحور العام لذلك قال: الغرض المقصود الأول فعبر بالأول ليقرب هذا المحور إلى المواضيع الأخرى، بل إنه يرى أن القرآن كله وحدة متكاملة، قال بعد حديثه عن السبع المثاني: «فهذا يؤيد ما تقدم ذكره من العبرة والقول بان القرآن كله واحد فرد لم يتفصل بعد على كل شيء» فالقرآن عند ابن برجان إن فصل نستطيع أن نستخرج منه كل شيء، وأعطانا مثال لذلك في فاتحة الكتاب قال بعد كلامه السابق: «عبر عن ذلك قوله في مفتتح أم القرآن وأم الكتاب: الحمد لله فجاء بالحمد الذي هو جامع الثناء والمدائح والذكر أجمعه وأضافه إلى اسمه جل وذكره، والذي جميع الأسماء له شارحة ثم تفصلت عنه الأسماء جميعا كما تفصلت عن الحمد الأذكار كلها أتبع ذلك رب العالمين، فذكر الوجود كله الواقع اسم العالمين، وهو كل مخلوق وكل مذكور وموجود سوى الله فظهر بذلك ما فصله إيجادا كما أظهر بتغاير الأسماء ما فصله عن اسمه الواحد الأحد» فانظر إلى هذه الكليات التي عبر بها هذا المفسر، وكيف يفصلها ويشير إلى ما يندرج تحتها وبهذه الطريقة يفسر القرآن، إلا أنه أودع في تفسيره إشارات وإيماءات واغمض في التعبير عنها في بعض الأحيان؛ وبذلك يستعصي فهمه وإن صرَّح أن حمل اللفظ على ظاهره أولى.

الإشارات والإلهامات الربانية:

يُورد الإمام ابن برجان في بعض الأحيان إشارات فلا يكاد يعرف مراده كما في قوله تعالى: أليس قد ﴿أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] يقول: فأوجدناه من عدم وصورناه على غير مثال، فكيف تنكرون إعادته بعد هذا؟.

ثم جعل يخبر بصدق قيله عن خلقته بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جمع مشج كخلط وأخلاط ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: لنبتليه هذا إخبار منه عن خلقه آدم عليه السلام ثم عن خلقه بنيه من بعده بالتبعية، يقول: مشج الأمشاج بحكمته وأثار الكون إلى الصورة والتخطيط والتقدير، وإصارة الأمشاج إلى مقصود الخلقة من العدم من حيث العبد، والأمشاج هنا: هي ممزوج الفيحين مع الفتح مع المقصود

بالمشيئة إلى معاني اليمين أم إلى معاني الشمال، جمع ذلك كله صنع الصانع وخلق الخالق، وهذا المعني بقوله الحق: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ ثم قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] لما كان في ممتزج الأمشاج مقتضيات الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، وكان هو مما في أمشاج ذلك جعله سميعًا بصيرًا عالمًا قادرًا مريدًا، ثم إلى أنهى الأسماء والصفات، وكان أيضًا جاهلاً، أعمى، أصم، عاتيًا، قاسيًا، ثم ابتلاه بالأمر والنهي في المأمور والمنهي، وكان معنى الكفر والإيمان وجميع المأمور به والمنهي عنه في أمشاج ما خلقه منه، كما أنه لما مشج بأمشاج أبيه وأمشاج أمه أشبههما، وكان أقرب شبهًا بمن غلب عليه منهما، كذلك أشبه ما يكون عنه من فيح أو فتح، وإلى أيهما مالت به المشيئة العالية كان أقرب شبهًا، ثم إليه الأمر من قبل ومن بعد في تغليب مشيئته بالهداية أو الإضلال؛ لذلك يقول - عز من قائل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

وكان ابن برجان يستشعر من يستغلق عبارته بنصحه بالتأمل والتدبر، فيستعمل عبارة «فافهم» و«فتأمل» كثيرًا.

وبالرغم من غرابة الاتجاه الإشاري لذي سلكه ابن برجان فإن تفسيره يعتبر مفتاحًا للوقوف على المعاني الدقيقة للقرآن، يقول: «فكلام الله جل وعز لا يدركه بالكيف البشر، وإنما يدرك أمره ونهيه بالمثالات والأمثال، والأسماء والحروف محدثة؛ وبذلك استبان لهم كلامه كما تقدم وصفه والحروف المحدثة والأمثال والأسماء يكتبونه ليقرؤنه ويحفظونه ويتعلمونه، فيجري التغاير على الحروف والأمثال والأسماء، وبها يستدل على كلامه تعالى وأمره ونهيه. فكلام الله جل وعز لا يدركه بالكيف البشر، وإنما يدرك أمره ونهيه بالمثالات والأمثال، والأسماء والحروف محدثة، وبذلك استبان لهم كلامه كما تقدم وصفه، والحروف المحدثة والأمثال والأسماء يكتبونه ليقرؤنه ويحفظونه ويتعلمونه فيجري التغاير على الحروف والأمثال والأسماء، وبها يستدل على كلامه تعالى وأمره ونهيه. فقوله جل ذكره: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة:٦] تنزل منه جل ذكره عن حقيقة ما هو كلامه الذي هو صفة ذاته إلى ما هو مبلغ له ووصف وعبارة عنه، وقد مضى التعارف بتحقيق قولهم متى حكى أحدهم حديث زيد وقول عمر، وقالوا: هذا كلام زيد وقول عمر، وربما طلبوا التحقيق فيقولون: هذا نص كلام زيد، وهذا حكاية قول

عمر، وإذ المعلوم أن صفة زيد لم ينتقل عنه إلى من حُكي عنه قوله، وإذا كانت صفة زيد لا تنتقل عنه إلى سواه فصفة الله أعلى وأجل. فعلى ما تقدم من البيان كلام الله هو الذي نتلوه بقراءتنا ونكتبه في مضاجعنا وهو المسموع منا في تلاوتنا بنص القرآن ودليل العقل، وهذا معترك اقتتال أهل السنة مع المعتزلة، والقائلين بخلق القرآن، وفي فهم المعنى فصل الخطاب ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

بعض مصادر الإمام ابن برجان في تفسيره:

-أشار إلى كتابه «شرح أسماء الله الحسنى» في عدة مواضع.

- نقله عن الترمذي والإمام أحمد في مسنده.

-نقل عن أبي عبد الله بن أبي مسرة في «تخريجه» حديث الدجال.

-نقل نصوصًا طويلة من التوراة والإنجيل.

تلك بعض المصادر التي ينقل منها وأغلبها يتعلق بالحديث النبوي، ويلاحظ في نقله عن التوراة والإنجيل استعمل صيغة تفيد الاحتياط فقد استعمل فعل يذكر على البناء للمجهول.

- بعض المآخذ على تفسيره:

قال بعض أصحاب التراجم: يكرس تفسيره لشرح الآيات الغريبة من خلال منهج جديد، وأسلوبه في هذا الكتاب غامض جدًّا، ولا يستطيع أن يفهم مغزاه إلا من كان على دراية بأسلوب كتابته[1].

لذلك كان ابن برجان يستشعر من يستغلق عبارته فنصحه بالتأمل والتدبر، وقد يستعمل كثيرًا عبارة « فافهم».

- ذكره لبعض الأحاديث الغريبة التي يصعب جدًّا الوقوف عليها، وبعضها أتى بمعناه بلفظ غريب.

- استغراقه في حال تفسيره حيث يأتي بعبارات في ظاهرها اضطراب وإضمار غير متصلة، وما هي إلا معنىً في صدره يفهمه من تتبع أسلوبه وتعايش مع حال ذوقه.

---

(١) ابن الزبير«الصلة» ص ٣١، الشعراني «الطبقات الكبرى» الجزء الأول ص ١٥.

- لم ينقل عبارات تفسيره أحدٌ من المفسرين قبله، ولم ينقل عنه بصورة التتبع والنقل أيًا من علماء التفسير بعده.

- ندارة وجود هذا الكتاب من يوم أن صنفه ابن برجان، مما جعله بعيدًا خفيًا عن أيدي العلماء وطلاب العلم، وذلك راجع لأسباب كثيرة أهمها: ضياع المخطوط وتعزز نسخه، ومحاربة ابن برجان وتعرضه للمحن الصوفية كما حدث لكثير من المتصوفة كالحلاج مثلاً، والسياسية كابن رشد.

- إتيانه بآية بدل آية في موضع تفسيرها وليست هي بعينها بل هي آية أخرى، ولا هو موضع التفسير، وهذا من نوع السهو والاستغراق العقلي والقلبي.

- كتاب «**الإرشاد**» من بين المؤلفات التي تنسب إليه ولكن تظهر بصورة قليلة في كتاب التراجم؛ والتي يحاول أن يوضح فيها ابن برجان بأن أحاديث مسلم بن الحجاج تشتق من الآيات القرآنية، إما عن طريق المعنى أو عن طريق عنه دمج أكثر من آية. ولم نقف على مكان وجوده.

-«**إيضَاح الحكمة بأحكام العبرة**» على ضوء محتواه يظهر أنه تفسير آخر للقرآن. وهو مفقود أيضًا وقد أشار إليه سيدي محيي الدين ابن عربي في كتابه: «مشاهد الأسرار القدسية» المطبوع مع شرح الست عجم بنت النفيس – بتحقيقنا.

وفي مصادر ترجمة ابن برجان، انظر:

- ابن الآبار «التكملة»، الجزء الأول رقم ١٧٩٧ ص ٢٤٧.
- ابن خلكان «وفيات الأعيان» الجزء الرابع ص ٢٣٠و ٢٣٦، والجزء السابع ص ٣٤٠، والجزء الثامن ص ٧١.
- ابن الزبير«صلة الصلة» رقم ٤٥، ص ٣١-٣٣.
- اليافعي «مرآة الجنان» الجزء الثالث ص ٢٦٧و ٢٦٨.
- الصفدي «الوافي بالوفيات» الجزء الثامن عشر رقم ٤٣٨ ص ٤٢٨.
- الذهبي «سير أعلام النبلاء» رقم ٤٤ ص ٧٢-٧٤.
- ابن شاكر الكتبى «وفات الوفيات» الجزء الأول ص ٦٧٤.
- ابن حجر العسقلاني «لسان الميزان» الجزء الرابع ص ١٣-١٤.
- السيوطي «كتاب طبقات المفسرين» رقم ٥٨، ص ٢٠.
- الشعراني «الطبقات الكبرى» الجزء الأول ص ١٥.

- البغدادي «هداية العارفين» الجزء الأول ص٥٧٠.
- «التشوف إلى رجال التصوف» رقم ٤١ ص ١٥٦، ورقم ٥١ ص ١٧٠-١٦٨.
- ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» الجزء الخامس ص ٢٧.
- ابن المؤقت «السعادة الأبدية» الجزء الأول ص ١٠٦.
- ابن العماد «شذرات الذهب» الجزء الرابع ص ١١٣.
- المناوي «الكواكب الدرية» (٤٢٥) بتحقيقنا.
- ابن خلدون «الشفاء» ص ٥١-٥٢.
- الناصري «الاستقصا» ص ٢١٨-٢١٩.
- حاجى خليفة «كشف الظنون» الجزء الأول ص ٢٥٧، والثاني ص ٣٤٤ و٣٤٦، والرابع ص ٢٢- ٢٤- ٢٦، والخامس ص ٣٨، والسابع ص ٧٦٧ - ١٠٧٩ - ١٠٨٠.
- كحالة معجم المؤلفين، الجزء الخامس ص ٢٢٦.
- الموسوعة الإسلامية باللغة الفرنسية «Ibn Barradjan» مقال A. Faure ص ٧٥٥ و٧٦٦ .
- بولس بويا «رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس».
- مجلة الأبحاث – الجامعة الأمريكية – بيروت العدد ٢٧ (١٩٧٨-١٩٧٩).
- يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء (٦٩/٢).

صحة نسبة الكتاب للمصنف

- توافق هذه النسخ الأربع التامة منها والناقصة على أنها جميعًا لكتاب ومؤلف واحد.
- إشارة المصنف لكتابه شرح الأسماء الحسنى عدة مرات في مواضع عديدة من كتابه هذا، من بدايته لنهايته.
- تشابه النص بين ما ذكره في تفسيره هنا وما أورده في شرح الأسماء في عدة مواضع منه.
- ثبوت نقل من ترجم له عن تفسيره هذا في بعض المواقف والإشارات

لبعض الآيات التي عُرف بعجيب تفسيره لها، مثل الشيخ محيي الدين ابن عربي في «الفتوحات المكية» وابن خلكان في «وفيات الأعيان» وغيرهما كثير.

هذا ولا يوجد أدنى شك مطلقًا في صحة نسبة الكتاب لمصنفه من بداية مقدمته إلى نهايته وخاتمته، وذلك واضح كل الوضوح لا مجال للريب فيه مطلقًا، والقول بغير ذلك لا يكون إلا من باب عدمية البحث والنظر في الكتاب، أو خيالات وهمية لا أساس لها.

مخطوطات الكتاب

- نسخة مكتبة فيض الله تحت رقم (٣٥) كتبت في القرن التاسع، وتنتهي بسورة النصر، رمزت لها بالرمز (ف) وهي النسخة الوحيدة الكاملة، لكنها من عجائب المخطوطات في تلفها ودقة خطها حيث عفى الدهر عليها.

- نسخة الخزانة العامة بالمملكة المغربية بالرباط تحت رقم: ٢٤٢ك، وقد قمت بطلب تصويرها وأنا في رحلتي الثانية للمغرب. ورمزت لهذه النسخة بالرمز (غ) وهي من سورة الأعراف إلى أول سورة النور.

- نسخة «قم» طهران تحت رقم ٣٥٠ ورمزت لهذه النسخة بالرمز (ق) وهي النصف الأول من التفسير فقط.

- نسخة مكتبة الوطنية الألمانية «ميونخ» رقم (mscod٨٣) ورمزت لها بالرمز (خ) وهي النصف الثاني من التفسير.

هذا وكل نسخة من هذه النسخ لا تخلو من إشكالات تخصها، فقد لقينا الأمرين وبالغ المعاناة في تحقيق هذا الكتاب لأسباب أهمها: صعوبة الحصول على مخطوطات هذا الكتاب ممَّ استغرق جهدًا وبحثًا ووقتًا وغير ذلك وصعوبة كل نسخة في نصها بما يخصها، فضلاً عن غرابة أسلوب المصنف، وعدم نقل نصوص كاملة من تفسيره لدى أئمة التفسير المطبوعة وربما حتى المخطوطة. والله تعالى الموفق والمستعان.

منهج التحقيق

قمنا بالنسخ المخطوط وكتابته على الحاسوب، ومطابقته على النسخ الخطية، وإثبات مهمات الفروق، وتصحيحه وضبطه، وعزو آياته وتفصيله وترقيمه وتنسيقه،

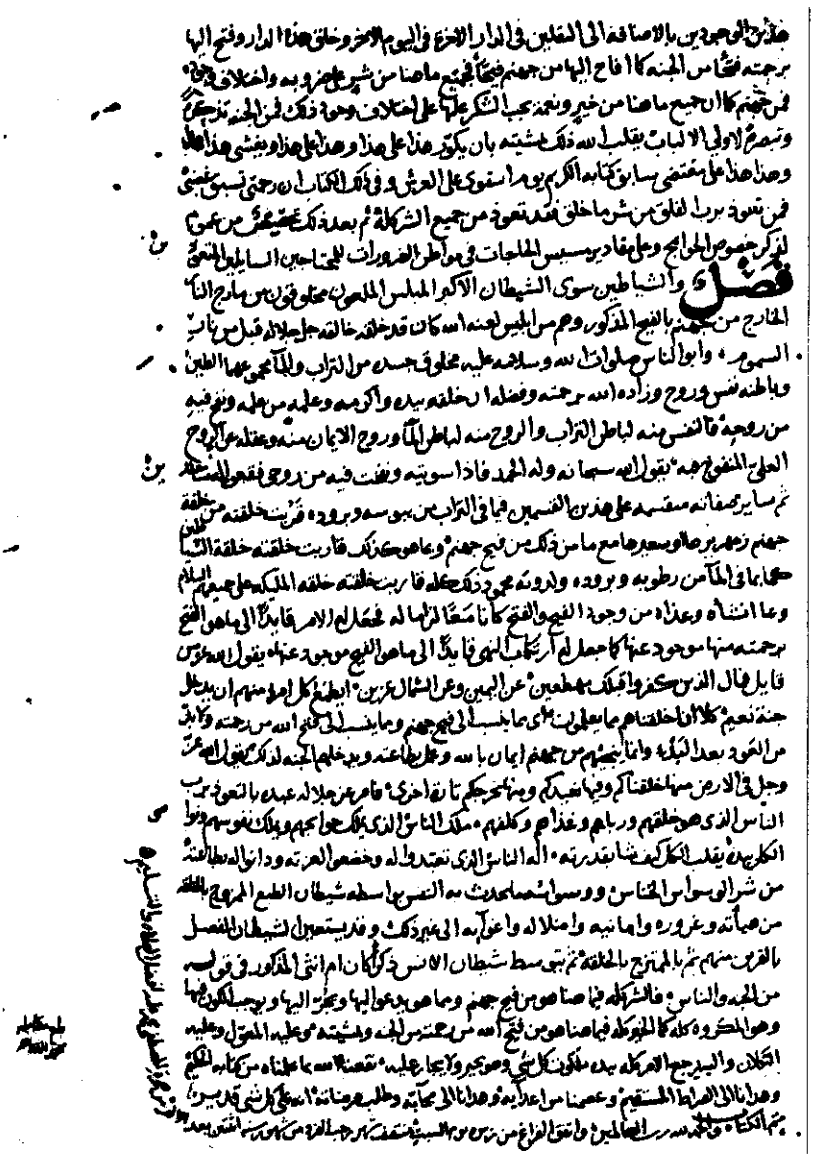
وتخريج أحاديثه، والتعليق على مهمات مواضعه لإيضاح غريب إشاراته وغوامض مواقعه، وشرح مشكل غريبه، وعمل دراسة ذكرنا فيه الفرق بين التفسير والتأويل ومسألة المكي والمدني، والفرق بين الدراسة والتحقيق، والحاشية والتعليق، والترجمة للشيخ المصنف ومنهجه في كتابه، ووصف مخطوطات الكتاب ووضع نماذج من صورها، وصحة نسبة الكتاب لمؤلفه.

وآخرًا فأسألك اللهم أَنْ تُصَلِّي عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ ظهوراتك وعَدَدَ مَا دَامَتْ فِي إحصائك الدَّائِمَ فِي عِلْمِكَ الْقَدِيمِ الْبَاقِي الَّذِي دَامَتْ بِقُوَّةِ دوامه السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فيهنَّ فِي غَيْبِ أَسْمَائِكَ بأسرارها وَفِي شهادتها بجريان أَنْوَارَهَا وتشعشعت النُّجومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمرُ بأنوار الصَّلاةِ عَلَى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ التي هي الرحمة فأسألك اللهُمَّ يَا رَبِّ أن تهب لي من حقيقة هذه الرحمة التي ليست حقيقتها إلا وجهك الدائم الباقي صَلاةً دَائِمةً بَاقِيَةً عَلَى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ فِي قَلْبِي بتوجهه إليك ليكون عارفًا بمعرفتك، فلا ينفك عن مراقبتك فِي جميع أحكام آياتك وآثارها فيما غاب فِي بطونه أو حضر فِي ظهوره حَتَّى أعرفك فِي معاني قيومتك وإحاطة دَيْمُومِيتِكَ وأتحقق جريان أمرك فِي كل شيء بطن بحكمك فِي بطونه أو ظهر بحكمك فِي ظهوره، وصلِّ يا ربِّ عليه عَلَى الدوام وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ عَلَى التمام. وكتبه: أبو الحسن والحسين وحمزة/أحمد فريد المزيدي في ٢١ جمادى الأولى سنة ١٤٣٣هـ القاهرة.

نماذج من صور المخطوط



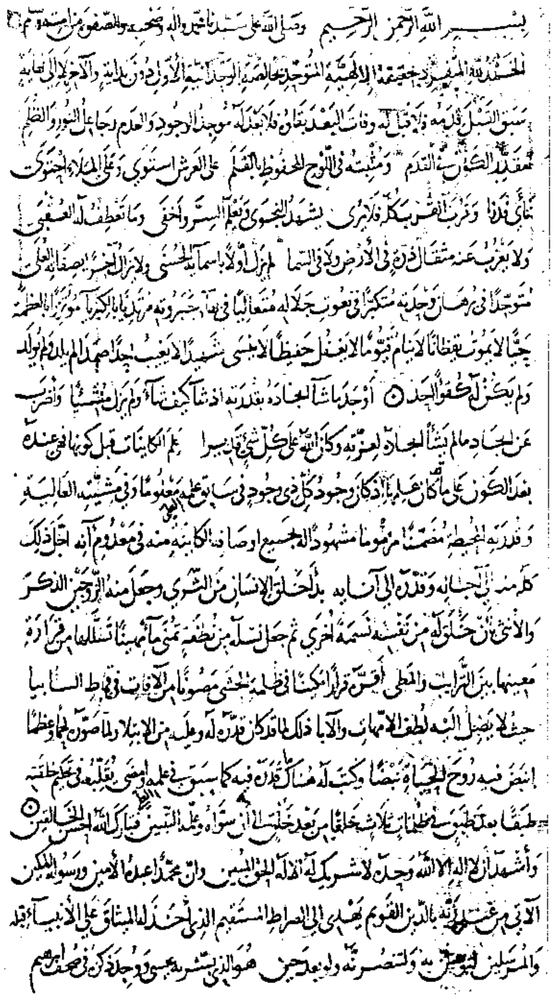
صورة غلاف النسخة الألمانية



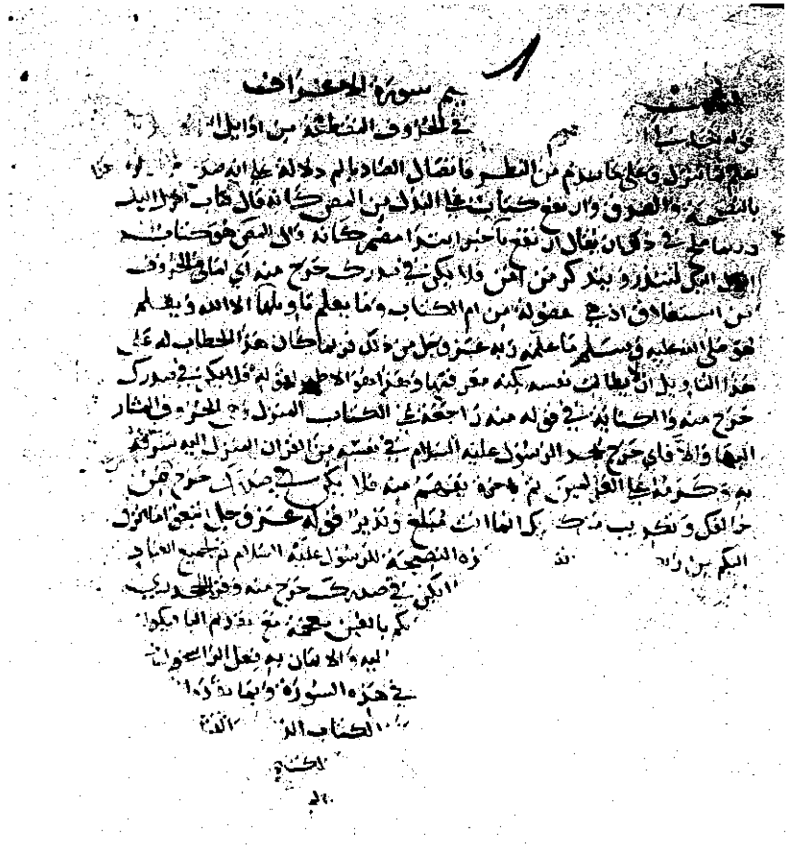
صورة الصفحة الأخيرة من النسخة الألمانية



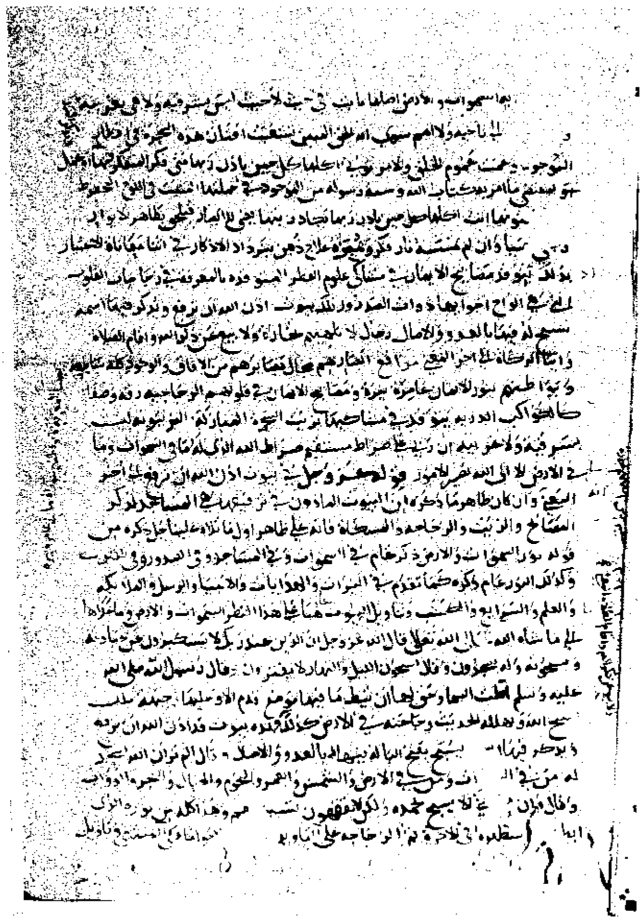
صورة غلاف النسخة الطهرانية


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والمصطفين من أمته وسلم
الحمد لله المتفرد بحقيقة الإلهية المتوحد بخالص الوحدانية الأول دون بداية والآخر لا إلى نهاية
سبق الشكل قدمه ولا قبل له وفات البعد بقاؤه فلا بعد له موجد الوجود والعدم وجاعل النور والظلم
معقد الكون في القدم ومثبته في اللوح المحفوظ بالقلم على العرش استوى وعلى الملأ الجبروت
نأى فدنا وقرب اقترب بكل فلا يرى يشهد النجوى ويعلم السر وأخفى وما تعطف له العقبى
ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء لم يزل أولا بأسمائه الحسنى ولا يزال آخرا بصفاته العلى
متوحدا في برهان وحدانيته متكبرا في نعوت جلاله متعاليا في بهاء جبروته مترديا بالكبرياء مؤتزرا بالعظمة
حيا لا يموت يقظانا لا ينام قيوما لا يغفل حفيظا لا ينسى شهيدا لا يغيب أحدا صمدا لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفوا أحد ۝ أوجد ما شاء إيجاده بقدرته إذ شاء كيف شاء ولم يزل متشيئا وأضرب
عن إيجاد ما لم يشأ إيجاده لعزته وكان الله على كل شيء قديرا علم الكائنات قبل كونها في علمه
بعد الكون على ما كان عالما إذ كان وجود كل ذي وجود في سابق علمه معلوما وفي مشيئته العالية
وقدرته المحيطة متضمنا مرقوما مشهودا له جميع أوصاف الكائنة منه في معدوم آنه أجل ذلك
كل منه في أجله وقدره إلى آن إبدائه بدأ خلق الإنسان من الثرى وجعل منه الزوجين الذكر
والأنثى بأن خلق له من نفسه نسمة أخرى ثم جعل نسله من نطفة تمنى ماء مهينا تسللها من قرارة
معينها بين الترائب والصلب أقرها قرارا مكينا في ظلمة الحشى مصونا من الآفات في قماط السابيا
حيث لا يصل إليه لطف الأمهات والآباء ذلك لما قد كان قدره له وعلمه من الابتلاء لما صورها وعظما
أنبض فيه روح الحياة نبضا وكتب له هنالك قدره فيه كما سبق في علمه وأمضى يقلبه في حكم خلقته
طبقا بعد طبق في ظلمات ثلاث خلقا من بعد خلق إلى أن سواه وعلمه التبيين فتبارك الله أحسن الخالقين ۝
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلها الحق المبين وأن محمدا عبده الأمين ورسوله المكين
الآتي من عنده رأفته بالدين القويم يهدي إلى الصراط المستقيم الذي أخذ له الميثاق على الأنبياء قبله
والمرسلين ليؤمنن به ولتنصرنه ولو بعد حين هو الذي بشر به عيسى ووجد ذكره في صحف إبراهيم

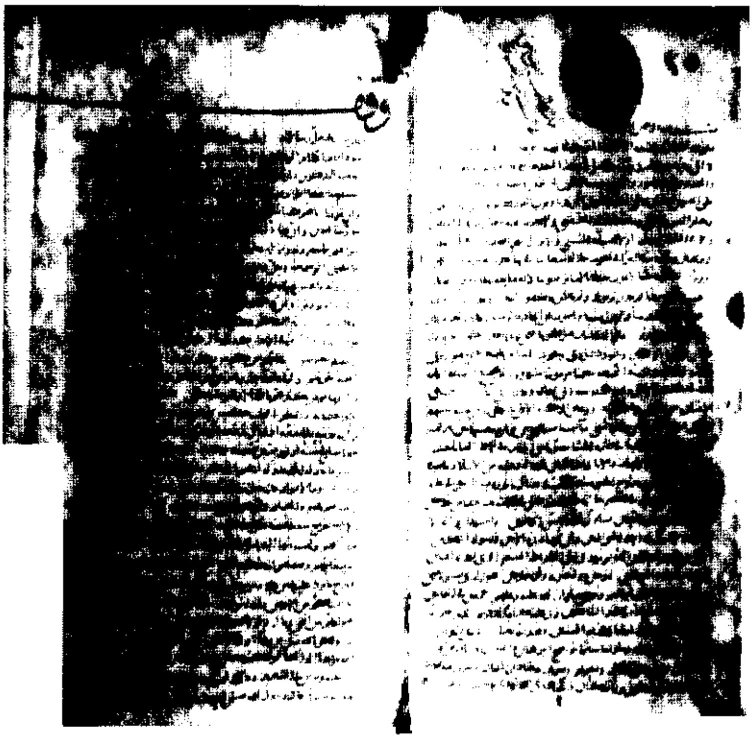
صورة الصفحة الأولى من النسخة الطهرانية



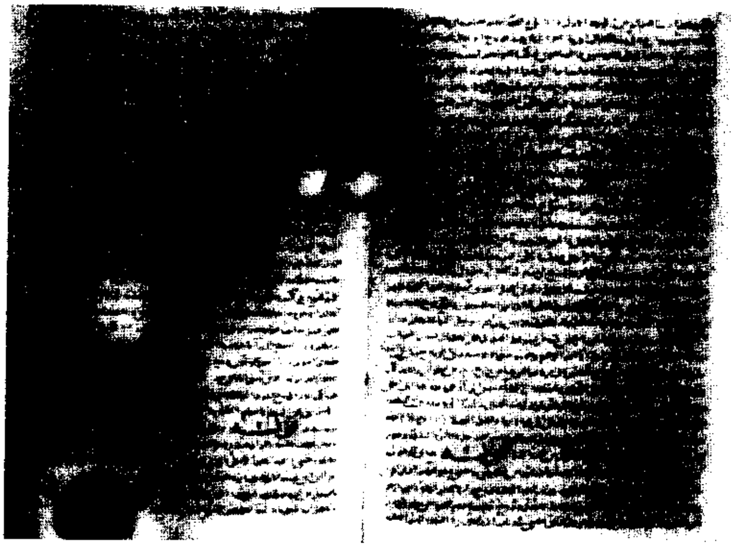
صورة الصفحة الأولى من النسخة المغربية



صورة الصفحة الأخيرة من النسخة المغربية



صورة الورقة الأولى من النسخة التركية



صورة من النسخة التركية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والصفو من أمته وسلم، الحمد لله المتفرد بحقيقة الإلهية، المتوحد بخالصة الوجدانية، الأول دون بداية، والآخر لا إلى نهاية، سبق القبل قدمه فلا قبل له، وفات البعد بقاؤه فلا بعد له، موجد الوجود والعدم، وجاعل النور والظلم، مقدر الكون في القدم، ومثبته في اللوح المحفوظ بالقلم على العرش استوى وعلى الملاء احتوى، تأنى فدنا، وقرب القرب كله فلا يرى.

يشهد النجوى ويعلم السر وأخفى، وما تعطف له العقبى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، لم يزل أولاً بأسمائه الحسنى، ولا يزال آخرًا بصفاته العُلا، متوحدًا في برهان وحدته، متكبرًا في نعوت جلاله، متعاليًا في بهاء جبروته، مرتديًا بالكبرياء، مؤتزرًا بالعظمة، حيًّا لا يموت، يقظانًا لا ينام، قيومًا لا يغفل، حفيظًا لا ينسى، شهيدًا لا يغيب، أحدًا صمدًا ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]. أوجد ما شاء إيجاده بقدرته إذ شاء كيف شاء ولم يزل مشيئًا، وأضرب عن إيجاد ما لم يشأ إيجاده لعزته ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧] علم الكائنات قبل كونها، فهي عنده بعد الكون على ما قد كان علمها؛ إذ كان وجود كل ذي وجود في سابق علمه العَلي معلومًا، وفي مشيئته العالية وقدرته المحيطة مضمنًا مزمومًا[1] مشهودًا له بجميع أوصافه الكائنة منه في معدوم أنه أجّل ذلك كله منه إلى آجاله، وقدره إلى آنائه.

بدأ خلق الإنسان من الثرى، وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى؛ بأن خلق له من نفسه نسمة أخرى، ثم جعل نسله من نطفة تمنى ماء مهينًا تسللها من قرارة معينها بين الترائب والمطي، أقره قرارًا مكينًا في ظلمة الحشى، مصونًا من الآفات

---

(١) أي: مجموعًا.

في قماط السابياء حيث لا يصل إليه لطف الأمهات والآباء، ذلك لما قد كان قدره له وعليه من الابتلاء.

ولما صوَّره لحمًا وعظمًا أنبض فيه روح الحياة نبضًا، وكتب له هناك قدره فيه كما سبق في علمه العلي أو مضى يقلبه في تحكيم خلقته طبقًا بعد طبق في ظلمات ثلاث خلقًا من بعد خلق، إلى أن سواه وعلمه التبيين ﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٤].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الإله الحق المبين، وأن محمدًا عبده الأمين ورسوله المكين، الآتي من عند ربه بالدين القويم، يهدي إلى الصراط المستقيم الذي أخذ له الميثاق على الأنبياء قبله والمرسلين، ليؤمنن به ولتنصرنه ولو بعد حين، هو الذي بشَّر به عيسى، ووُجد ذكره في صحف إبراهيم وموسى - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، وسلام عليه وعليهم في العالمين - شهادة مقرونه بشهادة أكبر الشاهدين.

أنزل عليه الكتاب الكريم الذي ضمنه القرآن العظيم، جعله إمامًا لكتابه المستبين وهداية لعباده المتقين، بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا بواضح البرهان والتبيان ﴿**وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٥] فرق به ما بين الحرام والحلال، وصدق فيه صادق المقال، وضرب فيه محكم الأمثال، وأخبر بما يكون وما قد كان ﴿**ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام: ٨٨] والله أعلم حيث يجعل رسالاته. انتهى.

أما بعد... فإن الله ﷻ نهج سبل الهداية قاصدة إليه، وأقام أعلام الرشاد دالة عليه، فأوجد الموجودات للمعتبرين، وأنزل الكتب للمذكرين، وأرسل الهداة أئمة للمتقين، فاتصل بهم الجبل واستبان لهم الصراط المستقيم، سلكهما أقوام ففازوا وظفروا، وأعرض عنها آخرون فخابوا وخسروا، إلا أن قومًا أتاهم كتاب ربهم إليهم فأضربوا عن تذكيره إياهم، والتدبر له صحفًا لقوم ساهون، وإن عبادًا جاءتهم حكمة الله في مصنوعاته في أنفسهم وفي سواهم مما يبصرونه ومما لا يبصرون، فلهوا عن النظر فيها والعبرة بها لعباد غافلون.

ألم يسمعوه جلَّ ذكره يقول وقوله الصدق: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ**

﴿وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]؟

والإعراض عن الذكر يورث عدم الشكر، وعدم التذكر يورث الطبع على القلوب، والغشاوة على الأبصار، والوقر في الآذان، كذلك قال ﷻ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣] ولما علمه ﷻ من إعراضهم وشمول الغفلة على أكثرهم قال عز من قائل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] فاتقى عبد ربه، وليقبل على تلاوة كتاب ربه، والنظر في عجائب حكمته بجد من عزمه وفراغ من قلبه قبل أن تزل به قدمه فلا ينفعه إذ ذاك ندم، وإنما يقدم هناك على ما هنا قدَّمه من عمل صالح ينبته أو نور يقين يقتبسه. انتهى.

وكتاب الله ﷻ وإن كان مباينًا لكلام البشر فإنه وله الحمد قد نزله لفهم المذكر، ولئن كان كلامًا للملك الجبار ونورًا صدر عن نور الأنوار، فإنه جل ثناؤه قد أنار قلوب أهل الإيمان بنور الإيقان، وأحياهم بحياة العلم، وأيدهم بروح منه، لولا ذاك ما لمحه ببصيرة مستبصر، ولا استخرج منه غامضًا عقل متفكر، نرفع في ذلك بعضهم فوق بعض درجات لنبلوهم فيما آتاهم، وليستبقوا إليه بالخيرات، جعلنا الله وإياكم منهم، ولا يجعل حظنا من صفاتهم وصفهم، إنه حكيم عليم، بلى إن الإنسان خُلق من الأرض ومن ممتزج ما يرد عليها من علو ومن سفل فيح وفتح.

قال الله جل من قائل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ الله يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١].

ولما انقسمت الآخرة إلى دارين جنة وجهنم قسم الله ﷻ العالم بحكمته من في هذه الدار قسمين: شقي وسعيد ﴿فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] ذلك لمشيئة له في عباده، خصَّ بفضله من شاء، وأصاب بعد له من شاء.

قال رسول الله ﷺ: «ومن أين يكون الشبه»[1] فأعلمنا ﷻ بما تلوناه من كتابه،

(١) أخرجه مالك (١١٥) والدارمي (٧٦٣) وأبو داود (٢٣٧) والنسائي في الكبرى (٢٠٣) وابن حبان (١١٦٦).

والمفهوم من عليّ خطابه إنه خلقنا من الأرض، وأنشأنا من ممتزج ما يرد عليها ويخرج منها، ويكون عنها من أمشاج نبات وحيوان، فمن الناس من غلبت عليه في حين تركيبه الضراوة والاستمرار على جري العادات والضراوات صفة التراب والأرض، وجبلتها تجمد لذلك على صفاته ومعاني ذاته؛ فكان لذلك بليدًا جاهلاً متعاجزًا لا نفاذ له في الأمور.

ومنهم: من غلبت عليه صفة النبات وقواه، فكان لذلك الغالب عليه النهامة في الأكل والشرب، والغباوة في سبل الاستجابة في الفهم وقلة الفطنة.

ومنهم: من غلبت عليه الصفة البهيمية وجبلتها، فكان الغالب عليه سوى ما تقدم ذكره: الجهل والتهور وعدم النبل وشدة شهوة البطن والفرج، ثم هو بعدُ [ذلك] إلى ما غلب عليه من الجنس البهيمي يميل إليه بالجبلة، فمن غلب عليه الجنس السبعي مال إلى سفك الدماء والغضب والغلبة وسوء الانتقام وهتك الحرم والفسق والإذاية.

وبالجملة: فإنه مائلٌ لا محالة إلى ما غلب عليه من أجناس حيوان أو نبات ما كان موكولاً إلى نفسه، ثم من غلبت عليه صفة العقل مالت به إلى صفات الفطنة والفحص والتمييز للأمور الغائبة، وكان لذلك عارفًا بقدره، مميِّزًا لظواهر الأشياء متطلعًا إلى غواشيها.

ثم من غلبت عليه الصفة الملكية كان لذلك مؤمنًا، مسلمًا، مطواعًا، كثير الحياء، قليل الخلاف، كثير الإسعاف، راغبًا في الحقائق، مبتغيًا للإنصاف والمحاسن، مجانبًا للقبائح، مباعدًا للرذائل، عاملاً بالعدل، مائلاً إلى الفضل والإحسان، وهذا والذي قبله قد أماله خالقه برحمته إلى جنبة الفتح.

ثم منهم من تركبت فيه صفة الجماد والنبات والحيوان والعقل والملك وقربت فيه من المقاومة فتركبت أخلاقه على ذلك، وتخرجت عليه أفعاله، فبما فيه من صفة النبات كان نهمًا جهولاً قليل الفطنة، وبما فيه من صفة التراب كان نسَّاءً كثير الغفلة والبلادة، وبما فيه من صفة العقل كان حليمًا، وقورًا، حسن التدبير، جيِّد الرأي، فهو لا يقدم الأمور الهائلة الأمر حيث يحسن منه المخرج وتمكن فيه العذر، صائنًا لنفسه، لا يفعل ما هو معيب عند العقل في ستر وتجمل، ولهذه الأصول كلها التى ذكرناها وما لم نذكر منها لها فيه أشباه، وله منها وراثة من حيث الخلقة، هذا من

حيث هو إنسان.

ثم قد يدخل الله ﷻ روح الإيمان على من شاء تزكيته من عباده الذين تقدم ذكرهم فيتولاه لذلك، فبقدر ذلك الروح وعناية الله به يحيي بذلك مواته، وينبسط جماده، وتنشرح قوى نياته، فتنقاد بإذن الله تعالى لذلك طباعه ويسلس قياده، ويسهل تداركه نفسه، ويتيسر له صلاح شأنه.

ولذلك - أعني: ما تقدم ذكره من جبلة الخلقة - ترى الكافر ربما كان من شأنه فعل المحاسن، والتخلق في كثير من أموره خلق المكارم، وترى المؤمن ربما تلطخ بالذنوب وظهرت على أركانه أنواع من القبائح، وربما أصرَّ على ما ليس من خلق الإيمان ولا شيم الإسلام.

ولهؤلاء وهؤلاء هنا أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وجزاؤهم إليه فيما هنالك صائرون، غير أن الله ﷻ قد أرصد لمن شاء من أهل الإيمان المغفرة والرحمة، وأرصد لأهل الكفر إحباط الأعمال والأخذ بأسوء ما جنوه؛ ليتمم بذلك حكمته، ويظهر فيهم غيب علمه في الخلط بينهم يوم أخذه الميثاق وقضائه القضية، وليتم أيضًا قوله الحق: «**هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي**»[1] وهو العليم الحكيم. انتهى.

فصل

ثم قد يكشف الله ﷻ لبصائر بعض عباده المؤمنين فيرون بها ما غاب عن أبصار رؤوسهم، وذلك أنهم لما علموا أن سبب الحجب لهم عن ربهم ﷻ امتزاج قلوبهم فيما لا يعني، وصرفها عن الاشتغال بمعرفته، والازدياد من العلم واليقين به بما لا ينبغي، فتحفظوا في طلبهم، واجتهدوا وجدوا في طلب مرضاة مطلوبهم بكل قلوبهم وجميع جوارحهم وعزم من هممهم، فرأوا بنور الإيمان وحقيقة الإيقان ما ليس بشخص ولا جوهر ولا عرض، ولا ما هو من قبيل ذلك معروفًا بفطرهم، ليس كالذي عهدوا معلومًا بحقائق ذواتهم، ليس كالمعالم سواه من الظواهر والبواطن،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٩٦) قال الهيثمي (١٨٦/٧): رجاله ثقات. وابن سعد (٣٠/١)، والحكيم (٢٠٢/٤)، والحاكم (٨٤) وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.

يرون ذلك ببصائرهم ولا يصوره عقل ولا يكيفه لهم وهم.

ثم قد يرون أيضًا ما ليس كالأجسام المعهودة، ولا كالمرائي الظاهرة المعتادة، فما كان من هذا رأته بصائرهم مرائي روحانية فيصورها مصور العقل في باطن الذكر بإذن بارئه، تبصرها البصيرة على ذلك، ويعقلها العقل إيمانًا بها، فما كان ذا صورة آمن بذلك دون تصور، وما كان من ذلك ما لا يوصف بصورة وكل ذلك إلى المصور الأعلى والعالم الأرفع، وكذلك يزيل الوقر عن أسماع قلوبهم، فيسمعون بها ما غاب عن آذان رؤوسهم ما ليس بصوت ولا حرف، كذلك في الذوقية، كذلك في الشم، كذلك في الحس، وهذه الحواس الثلاث في البواطن أغرب وجودًا وأبطأ ظهورًا مما تقدم.

والعقل فاعلم يعرف التفرقة بين ما هو مضاف إلى هذه الحواس الباطنة، وأنها ذات بطنت من مدارك الحواس الظاهرة، وكذلك يفتح لهم أبواب الذكر والشعور، والفطنة والإلهام، والتوسم في مقابلة الذكر الأول والشعور الأول والصفات الأُوَل أجمعها.

وعلى القول بالتحقيق فإنما هن صفات منهن دُنَى وعُلا، غطى على أعلاهن جهل الطبع وبلادة الغفلة، وظلمة البعد عن القرب من نور السماوات والأرض، فإذا تحصلت معالم ما هنالك، وفتح لهم باب الشعور شعروا لتلك المواهب لأجل مجانستها لما تحصل لهم قبل من تلك المعالم في معالم سواها وفي أنفسها من تفصيل لها، وتوجيه إلى غيرها، فاستجروها إلى أشباهها وألقوها إلى أشكالها، وبالفطنة تنبهوا إلى خفاياها وسرائر أسرارها.

واعلم أن نور ما هنالك يكاد يغشى البصائر ويذهل العقول لغرابة ما يرد من ذلك عليها إلا أن يؤيدها ربها جلَّ ذكره بروح منه، لكن لكثرة رأى الباطن فيه، وقوة شعاع نوره تمتدحوا من البصائر في ثاقب ضيائه وسعة ساحته.

وأما الإلهام فإنه أمر ينزل إلى لوح القلب، وهو إنباء بما في الباطن خزانته، وفي أصل الجبلّة آثاره، وأما التوسم فيحتوشه ما تقدم ذكره من الصفات فيظهر للفهم من أثناء الخطاب سر المراد، وإن كان قد توجه به غير تلك الوجه كما قد تبدو للمستعرض من المتعرض إلى وجه وقد أبدى وجهه غيرها، وذلك مكنون الخطاب، فمن ذلك ما يكون كالألغاز يعلمه الفطن عن جنب، ومنه ما يكون

كالمحاجاة يعلمه الماهر الفطن بعد فكر وروية.

ثم قد يتسع هذا جدًّا باختلاف الأغراض وتباين الدواعي كما يختلف المفهوم لذلك والعلوم، ولثاقب ضياء ما هنالك، وهداية الله جلَّ ذكره من أراده، بذلك يتحقق بصر البصير ويثقب الفهم، والله جلَّ ذكره يسمع من يشاء ويفهم عنه من أراده.

ثم قد ترتفع هذه الصفات بارتفاع محل حاملها، فتعلو به لعلو محل حاملها إلى المحادثة والتكليم، وقد يكون ذلك عن صفات الصديقية بما هو أتم وأعلى وأفخم جدًّا من أراده الله بذلك، وهي صفة كادت تفوت جبلة الخلقة؛ إذ هي تعطي التصديق بما أمامها من الإنباء والنبوة المحجورة، وكما ليس للغافل أن يكون متذكرًا إلا أن ينقله بارئه ﷻ إلى ذلك.

وإن كان التكسب لذلك والتعمل فيه ينجع فذلك منه لا يوجد إلا بإذن من الله، كذلك ليس للمؤمن أن يكون موقنًا إلا بأن يفتح عليه بارئه ﷻ ولا للموقن أن يكون صدِّيقًا إلا بفتح من الله عليه، ونقلٍ ينقله من مقامه الأول إلى الثاني.

كذلك ليس للصديق أن يكون نبيًا إلا أن يخصه الله برحمة منه وفضل، وقد انقطع ذلك فلا مطمع فيه اليوم، إنما هو الإيمان بفضل من الله ورحمة، ثم الإيقان والصديقية، والصديقون: هم اللذين صُفوا من أكدارهم فأُعلوا في درجاتهم، وهذا كله مفهوم من خطاب القرآن العزيز.

شاهد ما تقدم ذكره منه مثل قوله العلي: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ**﴾ [فاطر:١٩] الجاهل والعالم.

﴿**وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ**﴾ [فاطر:٢٠] الآلهة الباطلة والإله الحق عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه.

﴿**وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ**﴾ [فاطر:٢١] أي: الجنة والنار.

﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ**﴾ الكفار والمؤمنون، وعلى دركات هؤلاء في الكفر ودرجات هؤلاء في الإيمان كما تقدم ذكره ﴿**إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢] إلى قوله الحق: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**﴾ [فاطر:٢٧-٢٨].

فذكر جلَّ ذكره الماء ينزله من السماء إلى الأرض واحدًا طاهرًا مطهرًا، ثم ذكر

ما يكون من ذلك الماء على طهارته ووحدته، وما يتفصل إليه في الأرض من أجل تنوعها في نفسها من حزنها وسهلها وطيبها وخبيثها، ومذاقات مطاعم واختلافات روائح، ثم كذلك حيوانها ونباتها وأناسيها باختلاف ذلك كله في أنواعه وشؤونه كلها.

ثم قال ﷻ بعد ذلك: ﴿كَذَلِكَ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: كذلك الهداية فيما كان عن ذلك، واللقن والفهم والديانات والخشية لله ﷻ؛ أي: كذلك تختلف أغراضهم وأخلاقهم وخلقهم بتوابع ذلك كله فيهم كما اختلفوا في بقاع الأرض ونباتها وحيوانها، وما كان بدؤهم منه ونشأتهم.

وقد تقدم أن الدنيا جِذْية من الدار الآخرة سراؤها وضراؤها، فسراؤها من جنبة الفتح، وهو منتزع مما هو الجنة، وضراؤها من جنبة الفيح، وهو تنفس جهنم - أعاذنا الله الرحيم الكريم منها برحمته - ولكل واحدة؛ أعني: الجنة والنار من الخليقة بنون، فلا بد ولا محالة أن يخرج الشبه في البنين، لكن مشيئة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هي العالية، وكلمته هي المتممة بسنته، والله غالب على أمره، يضع ويرفع ويقدم ويؤخر، ويعطي ويمنع ويهدي ويضل، وهو العليم الحكيم.

فلم يكن الله ﷻ ليجعل كلامه الكريم ظاهرًا كله، مفصلاً كله للحكمة والحكم اللذين في كلامه، ولئلا يصل إلى فهم رفيع خطابه إلا من صرف همته إليه، وعكف بجد من ذاته على التفكر فيه والتدبر له، وتابع النظر واعتبر، فينزل كلاً من ثوابه حيث أنزل نفسه من الجد والاجتهاد في تعرف معاني خطاب ربه.

ولما تقدم ذكره أيضًا من علمه بخلقه في اختلافهم، وتفاوتهم في هممهم، وتخلف الأكثر منهم لأجل ذلك، وتقدمهم في تمييزهم وأفكارهم، وتعذر النظر على بعضهم لتفاوتهم في درجات الفهم عنه للغالب عليهم في أصل تركيبهم، ولتفاضلهم أيضًا في درجات الخصوصية من قبيل الهبات والهدايات؛ **إذ منهم**: الجاهل البهيمي الذي لا يحظر على باله ولا يحوز في فكره إلا ما أدركه حسًّا وشاهده عيانًا.

ومنهم: الفطن الفحَّاص المميِّز.

ومنهم: الملهَم المحدَّث.

ومنهم: المتوسط الحال، وما لا تحصره العبارات من الوسائط، فجعل الباري جلَّ ذكره من كلامه الظاهر الجلي والنص المرفَّع في البيان إلى أقصى غاياته

كالجسمانيات في الوجود والظاهر، وجعل منه أيضًا ما هو كهيئة المكنون كالروحانيات في موجودات الغيب.

ومنهم: المتوسط يشبه الظواهر والبواطن، أخذ كلٌّ بحظه من كلا الطرفين؛ ليصل أهل القرآن من معرفة كلام ربهم ﷻ إلى حظوظهم المقسومة لهم، كل يُغرف له من نهره ويُسقى منه بكأسه. انتهى.

قال الله ﷻ يخاطب رسوله بخطاب المواجهة: ﴿**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ**﴾ [آل عمران:٥٨].

وقال: ﴿**نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ**﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [القصص:٣] فالمواجه بهذا الخطاب هو رسول الله ﷺ ليبلغ إلى أمته ما لقنه وأوحي إليه.

والعبد وارث للنبي، فلذلك ينبغي للعبد الموقن أن يشهد في تلاوته القرآن أن ربه يخاطبه بالكلام، وأنه سبحانه متكلم على لسان هذا العبد بكلام نفسه كما جاء عن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، قال فيما وصف به محمد رسوله: «**اجعل كلامي على فيه**»[1] يعني: النبي.

وعلى هذا ليس للعبد في كلام ربه كلام، وإنما جعل له حركة اللسان بوصفه؛ لييسر الذكر بلسانه ويظهر به لحكمة له في ذلك، فحروف الكتابة حد للعبد ومكان لقراءته، والمقروء هو كلام الله يلقيه على لسان عبده، وكما البيت الحرام قبلة للمصلي والوجه في ذلك للمعبود العلي الكبير، وكما كانت الشجرة وجهة لموسى ﷺ ناداه ربه منها وكلمه من تلقائها، كذلك القراءة حال للعبد ومكان له، وهو في حاله تلك يلقى المقروء من لدن حكيم عليم.

﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [فاطر:٣٢] المعنى إلى آخره، وهذه هي التلاوة العليا ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [البقرة:١٢١].

تطلَّب هذا واسمُ بهمتك صعدًا إليه، وجاهد نفسك وعدوك على ذلك، والله

---

(١) ذكره ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص٤٣)، والماوردي في «أعلام النبوة» (ص١٧١)، والقرطبي في «الإعلام» (٢٦٣/١).

المستعان، ولا قوة إلا به، فإنه كما لقي الرسول القرآن من لدن الحكيم العليم جلَّ ذكره فقد جعلك وارثًا، فتطلب ذلك لتُلقَّى حظك المجعول لك بالوراثة، فإنك إلا تكن كذلك حجبت عنها، وولي حكم الوراثة سواك.

ألا ترى الوراثة حكمها للأقرب من الموروث فالأقرب؟ والقرب هنا بالتشبه بالموروث والانتساب إليه كما قال إبراهيم الخليل، صلوات الله عليه: ﴿**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [إبراهيم:٣٦].

ألا تسمعه ﷻ يقول: ﴿**نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [القصص:٣]. ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [يوسف:٢].

فتفهَّم تفهم، وتعلَّم تعلم، يسَّر الله لنا ولك تيسير كل عسير في البلوغ إلى منال رضوانه، إنه هو العلم الحكيم البر الرحيم.

أبتدئ بقوله العلي جل وعلا: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:١].

روت عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان إذا افتتح الصلاة في الليل وحكت قراءته كان يمد بها صوته: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة:١-٤] يقف في رأس كل آية[(١)].

وروى غير عائشة مثل ذلك في وصله آية: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:١] بقوله: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢] [(٢)].

وروي أيضًا أنه كان يفتتح صلاة الفريضة بـ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[(٣)].

وكثير ما روي عنه هذه الرواية، وقد أخبرنا عن ربه ﷻ أن «**بسم الله تعالى**» عند بدءتنا في أمورنا وشروعنا في شؤوننا كلها، وأن نحمده عند فراغنا منها، وربما كانت قراءته إياها؛ أعني: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ ليستعين بها على الفهم عن ربه، وليبلغ عنه ذلك إلى أمته الطالبين العلم والفهم عنه، فإن شطر: ﴿**بِسْمِ اللهِ**﴾ هو القرآن العظيم.

وإذا قرأ العبد بفكرٍ وتدبر اجتمع له ذكر جميع الأسماء والصفات والبداية

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٨٥)؛ ورزين كما في جامع الأصول لابن الأثير (٩٢١).

(٢) أخرجه الدارقطني (١ ٢٢) عن جابر مرفوعًا.

(٣) أخرجه ابن ماجة (٨١٢).

والنهاية؛ إذ الاسم معلوم منه العُلا كله، واسمه «الله» جميع الأسماء له شارحة، وهو جامعها[1] واسمه «الرحمن»[2] معبر عن استوائه على العرش العظيم المحيط بجميع الخلائق أجمع رحمًا وعطفًا وملكًا، وعلى ما يأتي ذكر بعضه إن شاء الله.

وقد تقدم من ذلك في كتاب «**شرح الأسماء**» ما ينبئ الفطن اللبيب، ثم إذا قال العبد بعد ذلك: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢] عمَّ ذكر هذا كل شيء، وهو العبد الكلي لذلك، والله أعلم بما بلغ رسوله يقول عند ذلك: «**حمدني عبدي**» أي: إن حمده إياي قد عمَّ كل شيء موجود ومذكور، فله أجر كل حمد العالمين.

يقول العبد: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ يقول الله جل من قائل: «**أثنى علي عبدي**» أي: إنه أثنى عليه في ربوبيته ورحمانيته، بالرحمة والعطف، والوصل والحنان، والإحسان والامتنان، والحلم والكرم، والخلق والرزق، والحفظ والكلاءة، هكذا إلى جميع ما أتى عليه فعل المربي والكفيل والرحمن والرحيم.

---

(١) قال الشيخ المصنف: هو آخر الظواهر من الأسماء وأول البواطن منها، وكل الأسماء سواه من الظواهر معلم به وشارح له، وسوف يأتي هذا في شرح كل اسم منها إن شاء الله، وأما ما يخص هذا الموضع من ذلك فهو أن حروفه الظاهرة أربعة: (ا ل ل ه) ويحدث عند النطق حرفان: همزة لازمة لموضع تحقيق متصل الألوهية والوحدانية وجماع الأسماء كلها، وللحامد وتمحيق منفصل ما نزهه عنه علو جده وشموخ عظمته مما يضاد ذلك. ثم ألف حادثة في اللفظ متصلة باللام الثانية، وقد تقدم ذكرها قبل، فالألف واللام الملازمة لهما الهمزة - كما تقدم - لتحقيق المتصل وتمحيق المنفصل والألف الحادثة في اللام الثانية لمحو آثار الأغيار الهاجسة في أنفس الخليقة الحادثة عنه وبها، وقد تقدم ذكر هذا. ثم الهاء يتصل بها واو باطن ذكرها بطنت في الحظ وظهرت في الوجود كله علوًا وسفلاً أظهرها في الشهادة بذاته وختم بها فقال مخبرًا عن نفسه ﷻ: «هو» فكان هذا تفصيلاً لما أجمل في الألف واللام من حصر تقدم ذكره، وتحقيق«الذي لا إله إلا هو» هذا تفصيل لما اشتمل عليه، وبذلك تحقق معنى التوحيد في الكلمة والإخبار عنها والشهادة بها، وعاد بذلك الآخر منها بالتحقيق على أولها، وصارت بهذه الحكمة كدائرة ستة أجزاء عاد بالتحقيق آخرها على أولها، قبل بذلك أولها إلى آخرها ﴿**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**﴾ [فصلت: ٥٤] ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: ٤] [شرح الأسماء الحسنى ٥٤/١] بتحقيقنا.

(٢) قال المصنف: وكان إظهار هذا الاسم الكريم للخليقة يوم استوائه على العرش؛ لما أوجد عن ذكره العرش على الماء أظهر، من أسمائه هذه الاسم الكريم، اشتقه من صفته الذاتية، وكتب بمقتضاه على نفسه يومئذٍ كتابًا هو عنده على العرش: «**إن رحمتي سبقت غضبي**» [شرح الأسماء ٢٨٦/٢].

يقول العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يقول الله: «**مجدني عبدي**».

«الرحمن» هو الذي استوى على العرش ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤].

الرحمن: من بعض هذه الأوصاف أنه الملك، وإنه هو الرحيم، وهو الرحمن، وهو الرب، وهو المحسِّن والمجمِّل، وهو العظيم ذو العرش المجيد، فهو الملك الحق.

وربما قال العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] يقول الله ﷻ: «**فوَّض إلي عبدي**» لما وصفه بإنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ عاجلاً وآجلاً، وأنه مالك كل شيء شهيد له ﷻ بالتفويض، والتفويض هو روح التوكل وأعلاه لذلك، وصل بهذا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فوض إليه العبد وتوكل عليه في شأنه كله، وتعبد له وحده مخلصًا بخطاب المواجهة.

يقول الله ﷻ: «**هؤلاء بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل**»[(١)].

فقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جمع القرآن كله، وقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ إلى آخرها شارح له، كما القرآن كله شارح لسورة أم القرآن، ولهذا سميت بأم القرآن، وهذه جملة تتفصل بما يأتي بعد إن شاء الله تعالى.

قوي الرجاء لقارئ «أم القرآن» أن يكون له أجر جميع الحامدين، وجميع المثنين، وجميع أجر المجدين والمفوضين والعابدين والمتبرئين من الحول والقوة، وهم المتوكلون، هذا إذا قرأها بعلم ومشاهدة وحال يقين.

قال ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم**»[(٢)].

وقال له الملك - عليهما السلام: أبشر يا محمد بقرآن أُوتيته لم يعطه أحد قبلك: فاتحة الكتاب وأواخر سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته[(٣)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، ومسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣)، والترمذي (١٥٥٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٠٦/٤).

فصل

اختلف علماء السلف ﷺ في الاسم: ما هو؟ أهو المسمى أو غير المسمى؟

وكثر الداخلون في الكلام لذلك، وطال الأمد، وخلف الخلف في ذلك السلف فنُسي المبدأ، وضل لذلك الأكثر عن القصد وترك المنهج جانبًا، هذا على اتفاقهم أن المسمى هو المقصود بالخطاب المطلوب علمه.

ثم وقع الاختلاف بعد، أهو هو أم غيره؟ بأي وجه من وجوه القصد قصد؟ وقد أشبعنا الكلام فيه في غير هذا الموضع بمبلغ الطاقة، وأنه من السمو والعلاء، وأن أكثر أسماء المحدثين من السمة والعلامة؛ لعلة الإعلام به، والتمييز له من غيره، وإنه إنما يكون المسمى إذا كان مفهوم الاسم حقيقة المسمى.

ونحن الآن في هذه الدار في الغيبة عنه، والسجن الذي حُبسنا فيه عنه عز جلاله، وهذه الدار مؤسسة على الإيمان بالغيب؛ لما قضى به من المحنة والابتلاء، فأقام لنا ﷻ غيب حضوره بالإخبار عنه والإعلام به مقام المشاهدة، والذكر مقام المذكور. والاسم مقام المسمى، كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤].

وأقرب من هذا قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

وقدم العلم به والمعرفة مقام الرؤية، والخبر عن مقام الخبر، ثم أطلع الألباب على سر المراد بقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

وقوله: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

وقوله: «**أنا مع من طلبني وحيثما طلبني عبدي وجدني**»[1].

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] وهذا كثير، فخبر في هذا عن وجود له خاص مع عباده المؤمنين زائد على وجوده العلي بالخلق.

والأمر الذي أعلم به في قوله الحق: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] ومعهود بتقرير الشرع ووجود الوحي أنه أقرب إلى العباد من أنفسهم وذواتهم إليهم، كذلك شأنه وأمره في سائر الوجود، فأسماؤه ﷻ من هذه الجهة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٩٣).

هي: «هو».

ألا ترى أنه كان ﷻ في أحدية أزله، فلما أوجد الموجودات جميعًا هو أيضًا فيها ومعها من حيث هو ﷻ خلقًا وأمرًا، ثم ولاية لمن شاءه بذلك، وهي عبارة عن روح منه يؤيده به، ووالٍ يجعله فيه، وقد تعرف إلينا ﷻ بما له في الخليقة من خلق وأمر، وتسمى بذلك، ثم بما له في المؤمن من آل، ثم بما له في الولي من روح خاص له فيه، وإنه مع كل شيء ما هو لا إله إلا هو ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الروم:٢٧].

هذا وصف له، ووجود حقيقتهما هو من غير ظرفية ولا معية صحبة ﴿**هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١-٤].

كان ضياء الشمس ونور القمر الواقعان على ما وقع عليه من الموجودات، يقال لها: شمس وقمر، فالله أعلى علاً، وأحق حقيقة وجود، فافهم.

فصل

كل ما عبر عنه باسم الألوهية أو غيره من الأسماء فهو هو؛ لأنه لا تغاير في الأسماء من حيث هي أسماء، إنما التغاير في مقتضياتها، وفي المفهوم من ذلك، حيث قال الله عزَّ من قائل: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**﴾ [الإسراء:١١٠].

فصل

الأسماء قد سرت مسالكها من العالم سلوك الأرواح في الأجسام، وحلت منه محل الأمر من الخلق، ولزمته لزوم الأعراض للأجسام، فما من موجود دقَّ أو جلَّ. علا أو سفل إلا وأسماء الله جلَّ ذكره محيطة به علمًا ومعنى، ومقتضى اسم الألوهية جامع لمعاني سائر الأسماء.

قسَّم الله العالم كله إلى أمر وخلق، ثم من الأسماء إلى الحي والقيوم إيجادًا وإمساكًا، وإلى اسمه الرب والرحمن رحمة ووصلاً، وأسرى مسالك الأسماء في مقتضياتها، وعلى ذلك تغايرت المقتضيات لا في أنفسها، سبحانه وله الحمد، هو الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات.

فصل

جعل الله جلَّ ذكره كلمة «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» كما تقدم من ذكر ذلك في بداية كتابه العزيز وأوائل سوره، وعند بدايات كتبنا، وكذلك عند بدايات أمورنا كلها، كالأكل والشرب والنكاح والزكاة والحركة والسكون والنوم والقيام منه إلى غير ذلك، وكذلك كلمة «**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**» جعلها في أواخر أعمالنا كلها.

وفي الخبر: إن إبراهيم عليه السلام قال لأضيافه الكرام المكرمين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - لما قرب إليهم القرى عجلاً حنيذًا: كلوه بحقه، قالوا له: وما حقه؟ قال: سموا الله إذا بدأتم، واحمدوه إذا فرغتم. قالوا له: لهذا اتخذك الله خليلاً.

وقال عز وجل: ﴿**ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**﴾ [هود: ٤١].

وقال في بدء التنزيل ومفتتح الوحي: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ [العلق: ١-٢] وقد تقدم الكلام في ذلك على ما سنأتي به في موضعه إن شاء الله.

ثم ما من أمرٍ أوجب أن يسمى في بدايته أو ندب إليه ألا جعل كلمة «**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**» في نهايته.

فصل

جاء في الصحيح المأثور أن جبريل ورسول الله - صلوات الله وسلامه عليهما - كانا قاعدين معًا إذ سمع جبريل نقيضًا في السماء، فنظر فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يفتح قط. فنزل منه ملك، قال: وهذا ملك نزل اليوم إلى الأرض لم ينزل إليها قط. فلما نزل قال: يا محمد، أبشر بقرآن أوتيته من كنز تحت العرش لم يُعطه نبي قبلك: سورة «أم القرآن» وخواتم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منه إلا أوتيته.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله** عز وجل لما **استوى على العرش** كتب على **نفسه كتابًا فيه: إن رحمتي سبقت غضبي**»[1].

(١) أخرجه أحمد (٧٥٢٠)، والبخاري (٦٩٦٩)، ومسلم (٢٧٥١).

وفي أخرى: «**غلبت**»(١) مكان: «سبقت».

وفي أخرى: «**تسبق وتغلب**»(٢) بلفظ المستقبل، وأما تسبيقه هنا كلمة «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» فما أراه إلا أن الآخر من فعله دليل على أوله، والنهاية آية على البداية، وإنه وهو أعلم بحكمه وبما نزله، هو مفتتح اللوح المحفوظ أو ما يكون معبرًا عنه ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾ [الأنعام:١٢].

﴿**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام: ٥٤] المعنى: فكان هذا من تسبيق أسماء رحمة الله على أسماء غضبه، اسمه «الله» جلَّ ذكره جامع لجميع الأسماء، وكلها شارحة لمعانيه، معبرة عنه، ضمن ﷻ هذا الاسم العالم كله علوه وسفله بما فيه من عجائبه وغرائبه، ثم قسم الله ما تفصل إليه كما تقدم ذكره: عالم خلق، وعالم أمر، جعل عالم الأمر الحاكم على عالم الخلق؛ إذ كان يلي اسم الألوهية في المرتبة العليا.

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص:٢٩] فعطف الأمر بالتذكر على معنى التدبر، والتدبر هو لآي القرآن، والتذكر لآي اللوح المحفوظ، وهو الذي لا ريب فيه؛ إذ نسخته سماء وأرض وأفلاك، وليل ونهار وشمس وقمر ونجوم، كل ذلك في مطالع ومغارب، ودنيا وآخرة، وحياة وموت، وأرزاق وأعمال، وآناء مؤقتة، كل ذلك كتب للقلم الأول العلي لمقادير ذلك كله وآجاله، وكيف ولِمَ وبِم وبجميع توابع ذلك.

قال الله جل ثناؤه: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق:١٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٩٥٩٥) والبخاري (٣٠٢٢) ومسلم (٢٧٥١) والدارقطني في الصفات (١٥) بتحقيقنا.

(٢) أخرجه ابن عساكر (١٥٧/٦١) بلفظ: «تسبق» وأخرجه الترمذي (٣٥٤٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجة (٤٢٩٥) بلفظ: «تغلب».

ثم ليعبروا بما علموه في هذه الدار إلى الدار الآخرة فيتذكروا بذلك العلم بالله والمعرفة، ويوقنوا بالآخرة، وبما فيما هنالك من وجود مرغوب ومرهوب بوعد ما في هذا القرآن ووعيد، كذلك لا يتم تدبر آي القرآن للمتدبرين حتى يتعرضوا بنظهم الصائب وبصائرهم الناقدة إلى كل من خلقه الله جلَّ ذكره.

قال الله: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ**﴾ [الأعراف:١٨٥].

فصل

كما فُصِّل مجمل اللوح المحفوظ، بإظهار ما أظهره من الموجودات لوحًا بعد لوح، وعالمًا عالمًا على اختلاف ذلك كله واتفاقه؛ إذ كان المكتوب هو علمه نصًّا بقوله: ﴿**لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ [النساء:١٦٦].

وقال للقلم: «اكتب» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: «**اكتب علمي في خلقي**»(١) فكتب، ومكتوب آخر المقدار مكتوب آخر؛ إذ قال للقلم: «اكتب» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: «**اكتب ما هو كائن**»(٢) فكتب.

فعلمه مضمن جميع ما أوجده وما لم يوجده بعد مجملاً فصَّله تفصيلاً، كذلك أيضًا فصَّل مجمل كتابه الذي هو القرآن العزيز، الذي هو علمه من مكتوب اللوح المحفوظ بقول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ [البروج٢١-٢٢] ففصل علمه فيه عن مجمل معلومه في جميع ما أظهره من كلام، أو أنزله من كتاب، أو أرسله من رسول، أو ضربه من مَثل، أو قصه من قصص، أو أمر أو نهي أو وعد أو وعيد، وعلى جميع معاني القرآن الحكيم وضروب خطابه.

قال عز من قائل: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ**﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٣] المعنى إلى آخره، فعلم القرآن لا يتم إلا في الدار الآخرة، وعلوم أهل تلك الدار فيه متفاوتة على مقدار

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٤٣٨) وأبو الشيخ في العظمة (١/٢٤٧).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٧٧٩) وابن بطة في الإبانة (١٣٥٦) بتحقيقنا - والطبراني في مسند الشاميين (٢/٣٩٧) والآجري في الشريعة (١٧٩).

تفاوتهم في علمه فيما هنا، فاعلمه.

فصل

كان من حكمة العليم الحكيم عز جلاله لما أن قصر أبصار عباده عن رؤيته بجلال شأنه عن إدراك في هذه الدار بوهم أو تصور في نفس، أو لحاق تفكر وضع لهم إدراكًا في الوصول إلى وحدانيته في نزيه ألوهيته، والارتقاء إلى البلوغ إلى حقيقة ربوبيته؛ بأن أشهدهم في البدء الأول على وحدانيته وعلى ربوبيته وعبوديتهم، تقديرًا من عزيز عليم.

وكان من لطفه ﷻ وجميل صنعه أن أظهر لعباده من معلوم علمه وموجود قدرته مقدار ما احتملته عقولهم؛ ليصل لهم بحبله حبلهم، وبفطرته التي فطرهم عليها معرفته فأشهدهم مشاهدتهم يومئذٍ فشهدوا بها على أنفسهم وله بالحق، ثم أشهدهم الآن مشاهدتهم؛ بأن أظهر لهم من أسمائه اسمه الله، وعرفهم به من أجله، وضمنه العالم كله بأسره، وجعل ذلك مقدارًا لما شاء إيجاده، وخلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق.

وهو مقتضى أسمائه وما هو المصير إليه في تلك الدار، فوقفوا بذلك على تحقيق ما قررهم عليه، وحقيقة ما شهدوا به يومئذٍ، سبحانه أنار الآيات، واستشهد بالشواهد البينات، وأوضح البراهين، فعقلت العقول، وعلمت الألباب الحق؛ لاتصالها بالحق الموصل للحق المبين، فلهذا أبصار بصائر الموقنين تنظر إليه الآن من وراء حُجب شفافة، لولا رداء الكبرياء يمنعها من التثبيت، وإجلال العظمة يقصر بها عن التبيين، وهذه آية على إتمام النعمة منه عليهم بالرؤية العليَّة، والقرب المكين في الدار الآخرة.

تفسير
سورة أم القرآن
الفاتحة(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ١-٧].

قوله جل ثناؤه: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ...**﴾ [الفاتحة: ٢] إلى آخر السورة قرئ «**الْحَمْدَ لله**» بالنصب على المصدر، و«**الْحَمْدُ لله**» بضم الدال واللام على الإتباع، وبالكسر أيضًا لهما على الإتباع(2).

﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤] قرأ بذلك الكوفيون «**مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ**» بالألف ونصب الكاف على النداء، وقرأ بذلك جماعة وجملة من الأئمة «**مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ**» بكسر اللام ونصب الكاف على النداء أيضًا «**ملكِ يَوْمِ الدِّينِ**» بنصب الكاف والميم،

---

(١) لها أسماء تدل على شرفها: فمنها: «فاتحة الكتاب» لافتتاح قراءته وكتابته بها؛ لأن تسميتها وحمدها مبدأ كل أمر ذي بال تحاميًا عن البتر؛ لأن وجود كل شيء بظهور اسم الله تعالى فيه، وتقرره بشكره بل هو مستزيد. ومنها: الفاتحة لفتحها خزائن العلوم، ف ﴿**بِسْمِ الله**﴾ إشارة إلى ذاته وأسمائه التي فوق الألوف، وجميع العلوم بمعرفته وعبادته، و﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ إلى ظهور ذاته بالوجود وصفات الكمال، ومنتهى العلوم الوصول إلى ذلك، وباء الإلصاق إلى التخلق بها والتحقق.

(٢) رُوِيَ بنصبِ «أَهْل» ورفعِه، أيْ: أعني أَهْلَ، أو هو أَهلُ الحمدِ. وإذا تكررتِ النُّعوتُ، والحالةُ هذه، كُنْتَ مُخَيَّرًا بين ثلاثةِ أوجه: إما إتباعُ الجَميعِ، أو قَطْعُ الجَميعِ، أوْ قَطْعُ البَعْضِ، وإتباعُ البَعْضِ. إلا أنك إذا أَتْبَعْتَ البعضَ، وقطعتَ البعضَ وجبَ أَنْ تَبْدَأَ بالإتباعِ، ثُمَّ تأتي بالقَطْعِ من غير عَكْسٍ، نحو: «مررتُ بزيدٍ الفَاضِلِ الكَرِيمُ» لِئَلَّا يلزمَ الفصلُ بين الصفةِ والموصُوفِ بالجملةِ المَقْطُوعةِ. [تفسير اللباب لابن عادل (١/٨)].

من يوم جعله فعلاً «مَلك يَوْمِ الدِّينِ» بفتح اللام من «مَلكِ» وجعله أيضًا فعلاً[١].

﴿إِيَّاكَ﴾ بتخفيف الياء في الحرفين جميعًا «إِيَّاكَ» بفتح الهمزة فيهما هياك، وهياك في الحرفين أبدل من الهمزة هاء ﴿نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] بكسر النون وهي لغة[٢].

[قرأ الحسن:][٣] «اهْدِنَا صراطًا مستقيمًا» بغير ألف ولا لام، وقرأه جعفر

(١) قال ابن عادل في تفسير اللباب (١/١١): قُرِئَ: «مَالِك» بالألَف. قال الأَخْفَش: يُقال: مَلِك بَيِّنُ المُلْكِ - بضم الميم، و«مَالِك» من «المَلِكِ» بفتح الميم وكسرها. ورُوِيَ ضمُّها -أيضًا- بهذا المعنى. وقال الرَّاغِبُ: المِلْكُ أي «بالكَسْرِ» كالجِنْس للملك، أي «بالضَّم» فكُلُّ مِلْكٍ «بالكسر» ملك، وليس كُلُّ ملكٍ مِلْكًا، فعلى هذا يكُونُ بينما عُمُومٌ وخُصُوصٌ مُطْلَقٌ وبهذا يُعْرَفُ الفرقُ بين ملك ومالك، فإنَّ ملكًا مأْخُوذَةٌ مِنَ المُلْكِ بالضمِ ومالِكا مأخوذ من المِلك «بالكَسْرِ» وقيل: إنَّ الفرقَ بينهما: أنَّ المَلِكَ: اسْمُ كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ السياسة، إمَّا في نَفْسِه، بالتمكُّنِ مِنْ زمامِ قواه وصرفها عَنْ هَوَاهَا. وإمَّا في نَفْسِهِ وفي غَيْرِهِ، سَوَاءٌ تولى ذلك أَوْ لَمْ يتولّ. وقد رَجَّحَ كُلُّ فَرِيقٍ إِحْدَى القِرَائَتَيْنِ على الأُخْرَى تَرْجِيحًا يكادُ يسقط القِرَاءَاتِ الأُخْرَى، وهذا غَيْرُ مَرْضِيّ؛ لأَنَّ كِلْتَيْهِما مُتَوَاتِرَةٌ، ويدلُّ على ذلك ما رُوِيَ عن ثَعْلَب أنه قال: إذَا اخْتَلَفَ الإِعْرَابُ في القرآن عن السَّبعةِ، لم أُفَضِّلْ إِعْرَابًا على إعراب في القرآنِ، فإذا خرجتُ إلى كلامِ الناسِ، فضَّلْتُ الأَقْوَى. نقله أَبُو عَمْرو الزّاهد في «اليَوَاقيت».

(٢) إِيَّاكَ: كلمة ضمير خُصَّت بالإضافةِ إلى المُضْمَر، ويُسْتَعْمل مقدمًا على الفعل، وإِيَّاكَ أَسْأَلُ؛ ولا يُسْتَعْمَلُ مؤخرًا إلّا منفصلاً؛ فيُقال، ما عنيتُ إلّا إِيَّاكَ. وهو مفعولٌ مُقَدَّمٌ على «نعبد» قدِّم للاختصاصِ، وهوَ واجِبُ الانفصالِ. واخْتَلَفُوا فيه: هَلْ هو مِنْ قَبِيل الأسماءِ الظاهرة أو المضمرة؟ فالجمهورُ: على أنه مُضْمَرٌ. وقال الزَّجَّاجُ رحمه الله تعالى: هو اسمٌ ظاهر. والقَائِلُون بأَنَّهُ ضميرٌ اخْتَلَفُوا فيه على أربَعةِ أقوالٍ: احدُهما: أنه كلمةُ ضَمِيرٍ. والثاني: عَلَى أَنَّ «إِيَّا» وَحْدَهُ ضَمِيرٌ، وما بَعْدَهُ اسمٌ مُضَافٌ إليه يبيّن ما يُرادُ به من تكلّم وغيبة وخطاب. وثَالِثُها: أَنَّ «إِيَّا» وحده ضميرٌ، وما بعده حُرُوفٌ تبين ما يُرادُ به من تكلم وغيبة وخطاب. ورابعُها: أَنَّ «إِيَّا» عمادٌ وما بعده هو الضميرُ، وشذّت إضافته إلى الظاهِرِ في قولِهم: «إذا بلغ الرَّجُلُ السِّتِّينَ، فإياه وإِيَّايَ الشَّواب» بإِضَافَةِ «إِيَّا» إلى «الشواب» وهذا يُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ جَعَلَ الكَافَ، والهاء، والياء في محلّ جر، إذا قُلْتَ: «إِيَّاكَ إِيَّاه إِيَّايَ» وقد أَبْعَدَ بعضُ النَّحويِّينَ، فجعل له اشْتِقَاقًا، ثمَّ قال: هَلْ هو مشتقٌّ من «أَوَّ» وقال بعضُهم: » إِيَّاكَ «بالتَخْفِيف مرغوبٌ عنه؛ لأنه بَصِيرُ: شَمْسَك نعبد؛ فإِنَّ إِيَاةَ الشمسِ: ضَوْؤُها -بكسر الهَمْزةِ، وقد تُفْتَحُ. وقيل: هي لها بمنزلةِ الهَالَةِ للقمر، فإذا حذفت التاءَ، مَدَدْتَ؛ وقد قُرِئَ ببعضِهَا شَاذًّا. [تفسير اللباب لابن عادل (١/١٦)].

(٣) الزيادة من هامش النسخة (ف).

الصادق ابن محمد - عليه السلام: «اهْدِنَا صراط من أنعمْت عليه». وقال ثابت البناني: «بصِّرنا الصراط المستقيم»(١).

﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] حُكي عنه بنصب الراء من غير(٢).

قال أيوب السِّخْتِيانِيّ: «الضَّألينَ» بالهمز؛ لئلا يجمع بين ساكنين(٣).

فصل

قال رسول الله ﷺ لأُبي بن كعب ﷺ: «إني لأرجو ألا تخرج من المسجد حتى أعلمك سورة ما أنزل الله في القرآن ولا في التوراة ولا في الإنجيل مثلها»(٤).

وفي أخرى: قال أبي هنا: أنا أصلي في المسجد إذ دعاني رسول الله ﷺ فأمهلت حتى أتممت صلاتي ثم أتيته، فقال لي: «لِمَ لم تجبني حيث ناديتك؟» فقلت: يا رسول الله، كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: فقلت: يا رسول الله، لا

(١) انظر: البحر المحيط (١٦/١) لأبي حيان، والمحرر الوجيز لابن عطية (٩/١).

(٢) اختلف القراء في الراء من غير، فقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي بخفض الراء، وقرأ ابن كثير بالنصب، وروي عنه الخفض. قال أبو علي: «الخفض على ضربين: على البدل، من (الذين)، أو على الصفة للنكرة، كما تقول مررت برجل غيرك، وإنما وقع هنا صفة لـ (الذين) لأن (الذين) هنا ليس بمقصود قصدهم، فالكلام بمنزلة قولك إني لأمر بالرجل مثلك فأكرمه». قال: «والنصب في الراء على ضربين: على الحال كأنك قلت: أنعمت عليهم لا مغضوبًا عليهم، أو على الاستثناء كأنك قلت: إلا المغضوب عليهم، ويجوز النصب على أعني». وحكي نحو هذا عن الخليل. ومما يحتج به لمن ينصب أن (غير) نكرة فكره أن يوصف بها المعرفة. والاختيار الذي لا خفاء به الكسر. وقد روي عن ابن كثير، فأولى القولين ما لم يخرج عن إجماع قراء الأمصار. قال أبو بكر بن السراج: «والذي عندي أن (غير) في هذا الموضع مع ما أضيف إليه معرفة، وهذا شيء فيه نظر ولبس، فليفهم عني ما أقول. [المحرر الوجيز لابن عطية (١٢/١)].

(٣) أي: بهمزة غير ممدودة كأنه فرَّ من التقاء الساكنين، وهي لغة. قال أبو الفتح ابن جني: وعلى هذه اللغة قول كثير.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٠٥)، ومالك في الموطأ (١٨٦)، والبيهقي فى القراءة خلف الإمام (١٠٣) وفى شعب الإيمان (٢٣٤٨) وأحمد في المسند (٨٩١٦) والدارمي (٣٤٣٦) وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣٦١١) من مسند إسحاق بن راهويه.

أعود. فقال لي: «**لأعلمنَّك سورة ما أنزل الله في القرآن ولا في التوراة ولا في الإنجيل مثلها**» قال أبي: فجعلت أبطئ في المشي رجاءً أن يخبرني بها، فلما جئت باب المسجد قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتني بها. قال لي: «**كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟**» فقرأت: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ...**﴾ [الفاتحة: ٢] فقال: «**هذه هي السبع المثاني**[١] **والقرآن العظيم الذي أعطيت**»[٢].

وفي أخرى: قال رسول الله ﷺ بعده: «**وهي أم القرآن وأم الكتاب، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت**»[٣].

وفي أخرى: «**وسبع من المثاني**»[٤] مصداق هذه الرواية قوله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر:٨٧].

وإنما قيل لها: «أم القرآن» لأن القرآن كله من أوله إلى آخره يؤم ما فيها.

وقيل لها: «أم الكتاب» أي: اللوح المحفوظ؛ لأن اللوح المحفوظ يؤم بالكتب جملة وتفصيلاً ما جاء فيها؛ إذ الحمد مُعرَّفًا هو المعهود الذي هو لله ﷻ، جامع لكل ثناء وحمد مقول أو متوهم لله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، واسمه الله جامع لجميع الأسماء، والأسماء بما هي مقتضياتها في المقادير والكون.

قال الله ﷻ للقلم: «**اكتب**» قال: يا ربِ، وما أكتب؟ قال: «**اكتب علمي في خلقي**»[٥] أي: معلوم علمي في خلقي أنزله بعلمه ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ [هود: ١٤] وقال أيضًا للقلم: «اكتب» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال:

---

(١) روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قرأ فاتحة الكتاب، وقال: «هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي». وإنَّما سمِّيت بالسَّبع؛ لأنها سبعُ آياتٍ، وفي تسميتها بالمثاني وجوه: **أولها**: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما والحسن وقتادة: لأنها تثني في الصلاة، فتقرأ في كلِّ ركعةٍ. **ثانيها**: قال الزجاج: لأنَّها تثنى مع ما يقرأ معها. **وثالثها**: لأنها قسمت قسمين: نصفها ثناءُ، ونصفها دعاءً، كما ورد في الحديث المشهور. ورابعها: قال الحسين بن الفضل: لأنَّها نزلت مرَّتين، مرة بمكَّة، ومرة بالمدينة. وخامسها: لأنَّ كلماتها مثناة. [تفسير اللباب لابن عادل (١٠/٦٤)].

(٢) تقدم في سابقه.

(٣) تقدم في سابقه.

(٤) تقدم في سابقه.

(٥) تقدم تخريجه آنفًا.

«اكتب المقدار»[١].

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وقال أيضًا للقلم: «اكتب» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن»[٢] فكتب في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ كل شيء.

قال رسول الله: «كان الله ولم يكن شيء قبله»[٣].

وفي أخرى: «ولم يكن شيء معه»[٤].

وكتب في الذكر كل شيء، فكل الكائنات هو المعروف بكل شيء، وهو المعني بقوله الحق: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فكل شيء يؤم قوله الحق: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] تفصيلاً وذكرًا وإثباتًا.

فصل

أم القرآن[٥] سبعة فصول وسبع آيات، مشهور ذلك من عددها، وهي أيضًا

---

(١) تقدم تخريجه آنفًا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٨).

(٤) في «تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته» (١٥/٢) كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي حَدِيث عِمْرَان بْن حُصَيْنٌ: «كَانَ الله وَلَا شَيْء قَبْلَهُ» و«كَانَ وَلَا شَيْءَ غَيْرَهُ» و«كَانَ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ».

(٥) في هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع: الأول: حسن الافتتاح وبراعة المطلع، فإن كان أولها «بسم الله الرحمن الرحيم» فناهيك بذلك حسنًا؛ إذ كان مطلعها مفتتحًا باسم الله، وإن كان أولها «الحمد لله» فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ووصفه بما له من الصفات العلية أحسن ما افتتح به الكلام. الثاني: المبالغة في الثناء، وذلك لعموم «أل» في الحمد على التفسير الذي مرَّ. الثالث: تلوين الخطاب على قول بعضهم، فإنه ذكر أن الحمد لله صيغته صيغة الخبر ومعناه الأمر، كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة: ٢] ومعناه النهي. الرابع: الاختصاص باللام التي في «لله» إذ دلت على أن جميع المحامد مختصة به، إذ هو مستحق لها وبالإضافة في «ملك يوم الدين» لزوال الأملاك والممالك عن سواه في ذلك اليوم، وتفرده فيه بالملك والملك. الخامس: الحذف، وهو على قراءة من نصب «الحمد» ظاهر وتقدم، هل يقدر من لفظ الحمد أو من غير لفظه؟ قال بعضهم: ومنه حذف العامل الذي هو في الحقيقة خبر عن الحمد، وهو الذي يقدر بكائن أو مستقر، قال: ومنه حذف «صراط» من قوله: «غير المغضوب» التقدير غير صراط المغضوب عليهم، وغير صراط الضالين. السادس: التقديم والتأخير، وهو في قوله: نعبد، ونستعين، والمغضوب =

سبعة أسماء، خمسة ظاهرة: اسمه الله جلَّ ذكره، واسمه الرب، والرحمن، الرحيم، الملك، واسمه المفهوم من صفة الحمد: الحميد، واسمه المستجن بين الصفة والاسم من قوله: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهو ما أعلنه في قولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا هو القرآن العظيم الذي أعطيه ﷺ.

وقد أشار إليه بقوله ﷺ: «**وهو القرآن العظيم الذي أعطيت**»(١).

وهذه السبعة الأسماء أيضًا هي السبع المثاني، وهي الأول بالمراد وبآخره، هي الآيات السبع وهن السبع، وقد عدت آية ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيها بآية، وهذا يؤيد ما تقدم ذكره.

وأسماء الله جل ثناؤه في القرآن تزيد على المائة تنبيهًا في رؤوس الآي وفي أثنائها، وهي القرآن العظيم حيث جاء اسمه وذكره ذكرًا كان أو تحميدًا أو تمجيدًا وتعريفًا بها، وكيف جاءت أسماؤه في القرآن العظيم، فافهم.

قال الله جل من قائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ الله﴾ [الحشر:٢١].

ثم قال عز من قائل ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] ثم جعل ينسق ذكر أسمائه العظام إلى آخر السورة، وإلا فما معنى قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] والقرآن كله عظيم إن لم يكن مقصود هذا الخطاب ذكر أسمائه وصفاته، لكن كلام الله ﷻ وسع ذلك كله.

وكذلك قال جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ

عليهم، والضالين، وتقدم الكلام على ذلك. السابع: التفسير، ويسمى التصريح بعد الإبهام، وذلك في بدل «صراط الذين من الصراط المستقيم». الثامن: الالتفات، وهو في «إياك نعبد وإياك نستعين». التاسع: طلب الشيء، وليس المراد حصوله بل دوامه، وذلك في «اهدنا». العاشر: سرد الصفات لبيان خصوصية في الموصوف أو مدح أو ذم. **الحادي عشر**: التسجيع، وفي هذه السورة من التسجيع المتوازي، وهو اتفاق الكلمتين الأخيرتين في الوزن والروي. [تفسير البحر المحيط (١/٢٣-٢٤)].

(١) تقدم تخريجه.

لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠].

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾ [الرعد:٣١] وحذف ما معناه، فكان هذا أو ما شاء، وهو أعلم بما ينزل.

فالسبعة الفصول مثاني، والسبعة الأسماء مثاني، وآي القرآن كلها مثاني من المثاني، وقد نص على هذا في قوله عز قوله: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:٢٣] فأعلمك ﷻ أن ذكره في القرآن أسماء وصفات تبتنى على أنواع الخطاب فيه، وينشأ أنواع الخطاب عليها تقشعر منه جلودهم لهذا وتلين لهذا، وفي هذا البيان البيّن لما نحن بسبيل تبيانه لمن لقن الخطاب ووفق لقبول الصواب.

من ذلك قول رسول الله ﷺ لأُبي بن كعب - رضي الله عنا وعنه: «**أخبرني بأي آية في القرآن هي أعظم**» أوقال: «**أخبرني بأي آية أعظم في القرآن**» قال: فقلت: آية الكرسي يا رسول الله، قال: فضرب بيده في صدري، وقال: «**ليهنك العلم يا أبا المنذر**»(١) فأشار له ﷺ إلى موضع العلم منه، وكناه تعظيمًا منه له بحرمة العلم بما هو القرآن العظيم الذي علمه الله وهنأه بذلك.

ومتى تدبرنا آية الكرسي وتطلبنا المعنى الذي لأجله عظمت لم نجد إلا أنها وصف بصفة الله ﷻ ومن بالغ في البحث ألقاها مشتملة على الفصول السبعة التي جمعت الأسماء كلها كما تقدم في «شرح الأسماء»(٢) فعظمت الآية؛ لعظم قدر ذكر الله جلَّ ذكره، وعظم قدر أسمائه وصفاته، ولذلك أيضًا عظم قدر سورة الإخلاص؛ ولعظيم قدر أسمائه لو أنزلت على جبل لخشع وتصدع من خشية الله تعالى.

أخبر بذلك في كتابه العزيز في موضعين، وامتنَّ بها على رسوله محمد ﷺ؛ إذ

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٥٠)، وأحمد (٢١٣١٥)، وعبد بن حميد (١٧٨)، ومسلم (٨١٠)، وأبو داود (١٤٦٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٨٧)، والحاكم (٥٣٢٦).

(٢) انظر: شرح الأسماء للمصنف (١٥٠/١).

أنزلها إليه في مفتتح سورة ﴿طه﴾ وأعلمه أنه ما أنزل عليه هذا القرآن ليشقى، بل ﴿تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:٣] إلى قوله جل من قائل: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٩].

ثم إلى إخباره عن حديث موسى إلى قوله له: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

ثم جدد له ذكر الامتنان العلي بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه:٩٩-١٠١].

فأشبه هذا قوله في مفتتح السورة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه: ٢-٣] والقرآن كله عظيم، وهذا الذكر خاص منه، وهو الذكر الذي قال رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدق: «**الحمد لله تملأ الميزان، ولا إله إلا الله ليس بينها وبين الله حجاب**»[١].

عرَّض القرآن بما هذا معناه في قوله: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٤-٨].

فعرَّض في هذا الخطاب العلي بذكر كل شيء الذي هو العبد الكلي؛ إذ القائل: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] والقائل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» تصدقه العوالم أجمعها، ويصدقه كل شيء، فتقول كقوله تصديقًا له.

ولعل قول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «**حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي، فوَّض إلي عبدي**»[٢] **ثناء** من الله ﷻ على عبده الكلي الذاكر له

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (١٣٦٩).

(٢) تقدم تخريجه.

بالحمد، وثناء الرحمانية والرحمة والتمجيد والتفويض له والتعبد له وطلب المعونة أن كل شيء الذي هو العبد الكلي [فصلى له صلاته، حامدًا له، مثنٍ عليه، ممجدًا مفوضًا له، مؤتمًّا به][1].

ألا تستمعه - صلوات الله عليه وسلامه - يقول: «**إذا قال الإمام:** ﴿**وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة:٧] **قالت الملائكة في السماء: آمين. وإذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده. قالت الملائكة في السماء: ربنا ولك الحمد**»[2].

والسماء عبارة عن جميع العلو إلى المنتهى، وإلا فما هو إلا نبأ العلي بقوله الحق: «**حمدني عبدي، أثنى علي عبدي...**»[3].

والعبد هو المصلي، يعلم أنه قد حمد وأثنى، وإن كان إمامًا عرف ذلك منه كل من وراءه، بل وهو أعلم بما يثني إخبار منه عن العبد الكلي، فما أعظم حباؤه وأكرم ثناؤه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ لهذا وما هو أعظم سماه: القرآن العظيم، وأمره أن يستغنى به عن كل شيء سواه بقوله جل قوله: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ أي: سورة الحمد إلى آخرها ﴿**وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر:٨٧] هو ذكر أسمائه وصفاته.

يقول ﷻ: ﴿**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ أي: على من لم يجب إلى هذا الأمر العلي، والجب السني ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الحجر:٨٨] الذين أجابوا وآمنوا بما جئت به، وقل لمن لم يجب: إنما ﴿**أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ**﴾ [الحجر:٨٩].

وجاء نظير هذا مختصرًا في آخر سورة «طه» منتظمًا بما جاء به من ذكر الأسماء الحسنى والقرآن العظيم في صدرها، فافهم والقن عن ربك بما فضلت أم القرآن التوراة والإنجيل والقرآن كله، وبما هي قرآن منزل من كنز تحت العرش، وبما هي أم الكتاب، وبما هي مثاني من المثاني، إن العبد الكلي الذي هو كل شيء

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (ق) واستدرك من (ف).

(٢) أخرجه مالك (٣٠٤) والطيالسي (٢٠٩٠) وأحمد (١٢٠٩٥) وابن أبي شيبة (٧١٣٤) والبخاري (٧٠٠) ومسلم (٤١١) وأبو داود (٦٠١) والترمذي (٣٦١) والنسائي (٧٩٤) وابن ماجة (١٢٣٨) وابن حبان (٢١٠٢).

(٣) تقدم تخريجه.

ثنى كلامه على كلام العبد الجزئي، وللعبد أجر ذلك، وثنى الله العلي الكبير كلامه على كلامهما، وللعبد الجزئي عن ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يقول العلي الكبير: «**إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وأطيب**»(١).

وفي أخرى: «**خير من ملأه وأطيب**»(٢).

مزيد بيان:

قال الله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**﴾ [الرعد: ٣١] إذ كان ما تقدم ذكره فقد صدقه؛ إذ كل شيء جماد ونبات وحيوان، الوجود كله علوه وسفله، وما هو كل شيء، والمشار إليه بهذا الوصف قوله: ﴿**وَهُمْ**﴾ يعني: الكفار ﴿**يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٠].

وقد تقرر مصداق هذا الخطاب باطنًا فيما تقدم ذكره، ولم يبقَ إلا إن شاء الله ذلك فيظهره؛ إذ بمشيئة الله جلَّ ذكره في أسمائه منفذ الحكم، ويتقدر الأمر، وبها يكون الوجود كله، وهذا الذكر هو المشار إليه بقوله الحق: ﴿**وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: إن ذكر الله بأسمائه وصفاته أكبر، وذكر الله عبده في الصلاة أفضل من الصلاة، وهذا الذكر هو الذي إذا يسره الله للمصلي وأحضره قلبه نهاه عن الفحشاء والمنكر.

يقول الله جل من قائل: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤] أي: لتذكرني فيها وأذكرك، وعلى الحرف الآخر ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ فخاطب رسوله بالتعريف؛ ليفشو ذلك في عرفان الوحي ومعلوم النبوة.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٣٤٠)، والبخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣) وابن ماجة (٣٨٢٢)، وابن حبان (٨١١).

(٢) تقدم في سابقه.

وفضل الذكر مشهور[١] حتى أن فضائله فاقت العقول، وقد قال أهل العلية من الأشياخ - رضى الله عنا وعنهم: ما جاء في فصائل ثواب الذكر لا يعلم سببه ولا يوجد الإيمان به إلا تسليمًا.

وقال بعضهم: لو قرأت أم القرآن على ميت ما كان بعجيب، ومصدق ما قاله - رضي الله عنا وعنه - ما تقدم ذكره مما تلونا في سورة الرعد، وفي بعض ما ذكرنا دليل عما عنه أمسكنا، هذا إلى قول رسوله الله ﷺ: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين**: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]»[٢] فاستفتحوا الأبواب رحمكم الله، وارتقوا في الأسباب علمنا الله وإياكم من علمه، وأجزل حظنا وحظكم من معرفته، وأحسن عوننا جميعًا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

فصل

كما أوجد العالم كله عن أسمائه وقسمه قسمين: أمر وخلق، فكذلك أنزل القرآن العزيز على عبده إلى شهادتين: شهادة ألوهية، وشهادة رسالة.

قال الله جل من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فأخبر ﷻ أن يحمل ما أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب شهادة أن لا إله

---

(١) الذّكر لغةً مصدر ذكَر الشّيء يذكره ذِكْرًا وذُكْرًا، وقال الكسائي: الذّكر باللّسان ضدّ الإنصات ذاله مكسورة، وبالقلب ضدّ النّسيان وذاله مضمومة، وهو يأتي في اللّغة لمعانٍ: **الأوّل**: الشّيء يجري على اللّسان؛ أي ما ينطق به، ومنه قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] **والثّاني**: استحضار الشّيء في القلب، ضدّ النّسيان، قال تعالى حكايةً عن فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] أمّا في الاصطلاح فيستعمل الذّكر بمعنى ذكر العبد لربّه ﷿ سواء بالإخبار المجرّد عن ذاته، أو صفاته، أو أفعاله، أو أحكامه، أو بتلاوة كتابه، أو بمسألته ودعائه، أو بإنشاء الثّناء عليه بتقديسه، وتمجيده، وتوحيده، وحمده وشكره وتعظيمه. [الموسوعة الفقهية (٢/٧٤٨٩)].

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٦٥٢) وابن أبي شيبة (٢٩٣٦٣) وأبو داود (١٤٩٦) والترمذي (٣٤٧٨) وابن ماجة (٣٨٥٥) والطبراني (٢٤/١٧٤ رقم ٤٤٠) والبيهقي فى الشعب (٢٣٨٣) وعبد بن حميد (١٥٧٨) وابن الضريس فى فضائل القرآن (١٨٢) والدينوري فى المجالسة (١٥).

إلا الله، والإقرار بالرسالة والشهادة للرسول، والاقتداء به فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، كنى عن هذه الجملة بقوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾.

وقال أيضًا: جل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤] كذلك ما حكاه عن كتاب نبيه سليمان ﷺ إلى صاحبة سبأ قوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ هذا عنوانه، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: أن مجمل ما فيه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] هذا الإقرار بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١] هذا معبر عن الإذعان لله ﷻ، ثم للرسول المرسل والأمر بطاعته والاقتداء به ابتغاء رضوان الله، والعمل بطاعته، وكل رسول أرسله إلى أمة من الأمم إنما كان قولهم لأممهم ما معناه: اتقوا الله ما لكم من إله غيره، واتقوا الله وأطيعوني ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[مريم: ٣٦] الصراط المستقيم عبادة الله وحده، وطاعة الرسول.

ثم ينقسم ما جاء به الرسول عن الله جلَّ ذكره إلى قسمين: بشارة، ونذارة بجميع أنواع الخطاب المعبر عن هذا وهذا، أمرًا ونهيًا ووعدًا ووعيدًا، وسع ذلك كله اسمه الله جل ثناؤه، ثم جميع الأسماء إلى ما تفصل إليه القرآن من معنى وخطاب معبر عنه.

تنبيه:

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب على نفسه كتابًا قبل أن يخلق خلقه بخمسين ألف سنة: إن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

مصداق هذا قوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]. ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

كذلك أخبر عنه ﷻ وتعالى علاؤه شأنه أنه قال: في أزل أحديته: «**أنا الله لا إله إلا أنا، سبقت رحمتي غضبي**»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وفي رواية أخرى: «**إن الله كتب على نفسه كتابًا يوم استوى على العرش: إن رحمتي تسبق غضبي**»[1] هكذا بلفظ الاستقبال وجود معنى هذا الكتاب العظيم تسبيقه كلمة «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» في بدأة أمورنا كلها وختمه إياها بكلمة «**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**» كذلك تسبيقه في قراءتنا سورة ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢].

نص على ذلك قوله الحق: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله جل قوله: «**ورحمتي وسعت كل شيء**»[2].

وقول الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا**﴾ [غافر:٧].

ومن ذلك أيضًا: خلقه عباده على فطرة الإسلام حنفاء إلى أن اجتالهم الشيطان عن دينهم بمشيئة الله وإذنه.

ومن ذلك: خلقه آدم عليه السلام وبنيه على صورة الحق، ثم أسكنه الجنة أولاً إلى أن واقع المحذور، ثم خلقه بنيه كذلك في أحسن تقويم، ثم يكفر من كفر منهم من يمسخ باطنه إلى ما شاء من موجودات المكروه، ثم إذا أماته أتم مسخه ظاهرًا وباطنًا.

قال الله جل من قائل: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [التين: ٥-٦].

هذا وجود مقتضى هذا الكتاب العلي موجود في الوجود كله، وكان ذلك الكتاب عنوانًا لمسالك الحكم والأعذار والأمهال، وما كان لأجله العفو والمغفرة والفضل إلى غير ذلك من أفاعيل الكرم والإحسان وجميل الفعال.

وفي أخرى فيما أنبأ به عن ذلك الكتاب العظيم: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[3].

بيّنه قول رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم يجعل فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١١١١٤) قال الهيثمي (١١٢/٧): رجاله ثقات لأن حماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط. وعبد بن حميد (٩٠٨)، وأبو يعلى (١٣١٣)، وابن حبان (٧٤٥٤).

(٣) تقدم تخريجه.

يضع الجبار فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط قط» أي: حسبي حسبي حسبي.

ومصداق تأويل ذكر القدم قوله عز جلاله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢] فتأويل القدم هنا ما قد قدمه في قدمة الأمر قوله: «إن رحمتي تغلب غضبي»(١).

أظهر ذلك في هذه الدار بغلبته إياها بفتحه من رحمته عز جلاله كلما طفت سعيرها أو زمهريرها، وجعله الحسنة بعشر أمثالها والسيئة مثلها، وتكفيره بالحسنة الواحدة عشر سيئات.

من ذلك أيضًا: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ذلك ذكرى للذاكرين ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «إن الله جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] جزءًا»(٢).

وفي أخرى: «فجعل سورة يس جزءًا»(٣).

ومصداق ما قاله - صلوات الله وسلامه عليه - من القرآن: قول الله جل ثناؤه: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٣٢].

وشاهد هذا في القرآن كثير جدًّا، إنما هو الله جلَّ ذكره وأسماؤه وصفاته، ثم الرسول وما جاء به من أمرٍ ونهى، ثم النظر والتفكر والتدبر والعبرة من شاهد إلى غائب.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «سورة يس قلب القرآن»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥٦٢)، ومسلم (٨١١) والدارمى (٣٤٣١).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه القضاعي في الشهاب (١٠٣٦).

ومصداق ما قاله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وإنما تعقل القلوب إذا عملت عملها الذي أوجدت له من التفكر والتذكر ونحو هذا ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢].

وباب هذا كثير واسع، ففي هذا البيان البيّن أن ذكر أسماء الله وصفاته، والثناء عليه بما هو أهله والتحميد والتمجيد وما هذا بابه في جميع القرآن هو الجزء الذي من أجله جعل ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] جزءًا، ثم ما كان من ذكر الرسالة والنبوة، وما جاءت به من أمر ونهي ووعد ووعيد وبشارة ونذارة، وما نحا نحو هذا فهو جزء ثانٍ، ثم ما جاء به من تذكير ووعظ وتذكر وتفكر ونظر واعتبار ونصب الدلائل، وجعل الشواهد على ذلك وضرب الأمثال لتنبيه الفطن، وتوليد خواطر العلم وإثبات حقائق اليقين، وما جزء إلى ذلك واجتمع إليه مما هو منه فهو من الجزء الذي جعل سورة يس منه.

فصل

ثم يصعد التفصيل إلى ستة أجزاء، سابعها: الاعتبار الذي تقدم ذكره وهو مفتاح غلقها بالإضافة إلى المتفكرين والمتدبرين في القرآن العزيز، وهي الإلهية بصفاتها وأسمائها، وفي ذلك المعرفة كلها، ثم فصل الوحدانية، وفيه العلم كله، ثم فصل الربوبية.

وفي ذلك: الوقوف على معرفة النعم والتذكار بالعهد الأول، وإثبات الأمانة التي ائتمنوا عليها حين التزام ربقة العبودية بشروطها، والإقرار بالربوبية لوليها، والتزام حقيقة التوحيد وتصديق الرسل، ووجوب الاقتداء بهم ونصرهم والتبليغ عنهم، ثم فصل النبوة ومعرفة خاصيتها.

وفي ذلك: معرفة فرقان ما بين النبي والمتنبئ، ومعرفة خاصتها المعجزة من الكرامة من المعهود الجاري على العوائد، وأن ذلك من المقدور الغائب، ومعرفة الغائب ما هو على الإجمال به، ومعرفة فرقان ما بينه وبين المعهود الخاص والحاضر المعتاد وبين المقدور الغائب وخاصّه معرفة هذا كله من الشعوذة

والتخييل، ومعرفة خاصة الولي والولاية، والخلة من الأخوة، والخلة العليا من الاصطفاء من موجود عموم العبودية.

ثم فصل معرفة التعبد بما جاءت به الرسل عليهم السلام، والإذعان للنبي والرسول، والإيمان بما جاء به من حكمة وإعلام بغيب، على تجميل ذلك كله وتفصيله.

ثم فصل الأمانة، وكيف تحمل العهد والتزام الميثاق، وإبرام عقدته والتبري من نقضها، والتعوذ من الخيانة، ونكث العهد بها ومنها.

ثم فصل الاعتبار وهو مفتاح غلقها من حيث العلم، وموضع مريد اليقين منها، حتى يصعد إلى علم اليقين ثم إلى الرؤية بعين اليقين في حقائق الإيمان.

ثم تتفصل هذه السبعة الفصول إلى مائة فصل عدد أسمائه جلَّ ذكره، وعددها عدد درجات الجنة، عنها انفصل العلم كله وإليها يرجع.

قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعون اسمًا، مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة**»[(١)].

وقال: ﷺ «**إن في الجنة لمائة درجة، إن ما بين الدرجتين لكما بين السماء والأرض أعدهن الله للمجاهدين في سبيله**»[(٢)].

وهذه الدرجات المذكورة على عدد الأسماء المروية، وهي في الجنة مما رأته العين وسمعت به الأُذن، ثم من بعد من بَلْهِ هذا الذي اطلعوا عليه ينولون منه ما لا عين رأته، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر.

قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿**وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ [ق:٣٥].

ولله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أسماء ومحامد يظهرها في تلك الدار على فخامتها وسعتها وبقائها في آماد آبادها، ما ذلك الذي عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**في الجنة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[(٣)] بَلْه ما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٦٩٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٣٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (٨١٢٨)، والبخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣١٩٧).

اطلعتم عليه بغير حرف من قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] به أحاط بهذا، وهذا بضم الهمزة من «أخفي» وإسكان الياء، فتكون الألف على هذا ألف المتكلم، تقديره: وما أخفي أنا لهم من قرة أعين به أحاط بهذا.

وهذه الفصول السبعة للقرآن شبيهة بالفصول السبعة للأسماء، وقد تقدم ذكرها في «شرح الأسماء»[١] وهي أيضًا شبيهة بالأيام الستة، سابعها: يوم الجمعة، وهو جامعها وموضع مزيدها، عنه انفصلت وإليه ترجع.

ثم على نحو ما تقدم من العبرة في اسم الشهيد[٢] وهذه الفصول السبعة وما تفصلت إليه ترجع كلها إلى فصلين: فصل الإلهية، وفصل النبوة، ويرجعان معًا إلى فصل الإلهية الأعلى ينتظم الأسفل.

فصل

ربما تميزت هذه الفصول السبعة في القرآن بالنص كما قد تتميز مسالك الأسماء في العلم بظاهر الوجود، وربما رقَّ الخطاب كما قد تتشاكل الوجوه وتشتبه، فتمس الحاجة إلى التأمل بحدة البصيرة، وربما تداخلت المعاني فخفيت في أثناء الخطاب، فتنازعت المراد وتقسمت المعاني لذلك، فكان للخطاب الوجهان والأكثر، وربما تباعدت المعاني وتباينت كوجود الموجودات سواء، وربما قد تقدم خطاب وقد كان في سياق الظاهر أولى بالتقديم، وربما تأخر خطاب وقد كان التقديم أقرب إلى الأفهام على موضع سياق الظاهر؛ لحكمة بالغة لا يوقف على تحقيقها مع باديء الرأي، فأشكل لذلك التمييز بين مراد ومراد على ذلك.

فعليك - وفقك الله - بالتوقف على هذا؛ لتحقيق النظر والتضرع إلى مالك عظيم الإجابة ﷻ في أن يفهمك عنه، وإياك والقناعة بما يبدو أولاً من بعض الأوجه؛ فقد تعرض الفتن في بعض المواطن قبل التثبت والابتهال في العصمة، والضراعة في التوفيق، فتردد في البحث والنظر وسله الفتح والإلهام إلى الرشاد،

---

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى للمصنف (٢/٣٧٦).

(٢) انظر: شرح الأسماء الحسنى (٢/٣).

وذلك من أعظم العون لك، ما أنت بسبيله. انتهى.

وهذه الفصول السبعة للقرآن شبيهة بالفصول السبعة للأسماء، وقد تقدم ذكرها في «شرح الأسماء» وهي أيضًا تشبه بالأيام الستة، سابعها: يوم الجمعة، وهو جامعها وموضع يدها، عنه انفصلت وإليه رجعت، ثم على نحو ما تقدم من العبرة في اسم الشهيد.

فصل

أُم القرآن بما جمعت الثلاثة المعاني الذي تقدم ذكرها تلك الأجزاء مجملة فيها، ثم هو مفصل في القرآن كله من وقف بحقيقة الفهم عن الله جلَّ ذكره في قوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فعلم أن الحمد جامع للمدائح كلها والثناء الحسن أجمعه، فعل الله حمد، وحكمه حمد، وأسماؤه كلها حمد، وصفاته حمد، وهو الحميد المحمود.

وإن اسمه الله جامع لمعاني الأسماء كلها، وإن قوله: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ جامع لمعاني العبودية والربوبية والوحدانية بتوابع ذلك كله وحقائقه، وإن ﴿العَالَمِينَ﴾ معنى جامع لكل مذكور من المخلوقين شامل لجميع الموجودات سواه، أشرف بفهمه على أن كلمة ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] أم القرآن كله.

وأن قوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ بعدها أم القرآن كله، بلى من فقه عن الله - جلَّ ذكره - علم أن كل واحدة منهما أم الكتاب المبين؛ إذ رحمة الرحمانية عمت موجودات الدنيا والآخرة، ورحمة اسم الرحيم خاصة بالدار الآخرة للمؤمنين، واسمه الله ﷻ جامع جميع الأسماء كلها.

وقد كان الله أحدًا صمدًا، لم يكن موجودًا سواه أحد، ثم أوجد الموجودات وفطر الأرضين والسماوات، فكان هذا الواحد الجامع لكل شيء مذكور معدوم أو موجود، فكذلك اسمه الله ﷻ جامع لسائر الأسماء الظاهرة، وأوجد الموجودات على مقتضياتها، فكلمة ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أم للكتاب المبين وأم لسورة ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وأم القرآن كله، وهو المعني بقوله وهو أعلم: «اكتب

علمي في خلقي»[(١)] علمه في خلقه: أسماؤه، ومقتضاها: موجود خلقه وأمره.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ أم للكتاب المبين، وأم للقرآن الكريم، وهو المعني بقوله وهو أعلم: «**اكتب ما هو كائن**»[(٢)].

وجملة: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ قد فاتت موجودات الدنيا والآخرة؛ إذ مدائحه ﷻ لا تبيد، وحمده لا ينفذ، وإنما أخرج إلى الوجود علمه في خلقه لا علمه بذاته ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وهو القرآن العظيم الذي أعطيه ﷺ.

فصل

جميع ما ذكره في القرآن العزيز من أسمائه مرة جعلها آيات تُتلى كأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وسورة الإخلاص وآية الكرسي ونحو هذا، ومرة جعلها مذكورة متلوَّة في أثناء الآيات، وتارة يختم بها الآيات فتكون رؤوسًا لها، وهو الأكثر، وفي سورة ثنى بعضها على بعض في الذكر والتلاوة، وفي كل صلاة، وكذلك ذكر الذاكر لله جل ثناؤه، ويثني الذاكر لله ذكره بعضه على بعض فيردده تهليلاً بعد تهليل وتسبيحًا بعد تسبيح.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١].

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

ووجه آخر: هو أن الله - جل من قائل - يقول: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فهو ﷻ إذا شاء ذكَّر عبده بأن يذكره فيذكره العبد؛ لأن ربه ﷻ ذكره بذلك فيذكره، فذكره هو جلَّ ذكره جزاءً لذكره إياه هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

فصل

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قد تقدم أن الحمد جماع المدائح كلها، والألف واللام في قوله جل قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ للتعريف وللعهد، فالعهد لتعريف الحمد الذي ينبغي لعز جلاله وعلي شأنه، والعهد معهود حمده في كتابه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الأزلي قبل البدء الأول في الدهر الداهر حيث لا حامد ولا محمود سواه.

ثم أظهر ﷻ خلقه فأظهر في ذلك حمده وحمد الحامدين له في الأولى والآخرة، فالمفهوم الأول بالأول هذه الحياة الدنيا، والمفهوم الأعظم أولية لا أولية لها متصل بآخرية لا آخرية لها.

وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جميع ما خلق وذرأ وبرأ من شيء الذي عبر عنه بقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] المعبر عنه بالجملة المسمى بالعبد الكلي، له الحمد في ذلك كله أولاً وآخرًا ظاهرًا وباطنًا.

فصل

نحن وإن كنا نقول: إن الآيات أيضًا مثاني؛ إذ ينثني بعضها على بعض تلاوة ومعنى، كما أن ما بين الدفتين قرآن عظيم، وكما نقول: إن القرآن كله ذكر.

قال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١].

كذلك قال رسول الله ﷺ في اللوح المحفوظ، وكتب في الذكر كل شيء، فكذلك يقول: إن ذكر أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته هو القرآن العظيم، وإن كان القرآن كله عظيمًا، لكن هذا هو الأعظم والأعرق في الذكر.

ولذلك قال رسول الله ﷺ وقد سُئل: أي العبادة أعظم درجة عند الله؟ قال: «**الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**» هكذا رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: قلت له: يا رسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «**لو ضرب الغازي في سبيل الله بسيفه الكفار حتى تنكسر ويختضب دمًا لكان الذاكر لله كثيرًا أفضل منه**»(١).

وروى أبو الدرداء وغيره قال: قال النبي: ﷺ «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فيضربوا أعناقكم، وتضربوا أعناقهم**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**ذكر الله**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٣٧١)، والبغوي في شرح السنة (٢/٣٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٥٠)، قال المنذري (٢/٢٥٤)، والهيثمي (١٠/٧٣): إسناده حسن.
=

وروى عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما على وجه الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إلا كفرت عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر**»(١).

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سبح مائة بالغداوة ومائة بالعشي كان كمن حج مائة حجة، ومن حمد الله مائة بالغداوة ومائة بالعشي كان كمن حمل على مائة فرس في سبيل الله** - أو قال: «**غزا مائة غزوة**» - **ومن هلل مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن أعتق مائة رقبة من ولد إسماعيل، ومن كبر بالغداة مائة ومائة بالعشي لم يأتِ أحد في ذلك اليوم مثل ما أتى به إلا من قال: مثل ما قال، أو زاد على ما قال**»(٢).

ومصداق ما قاله - صلوات الله وسلامه عليه - من كتاب الله قوله ﷻ: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿**وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ وَالله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٥] يعني: ما تعملون من ذنوب لا بد من إتيانها؛ إذ هي مقدرة قبل الكون، يقول: نغفرها بالذكر، فذكر الله جلَّ ذكره أكبر من الأعمال كلها؛ لأنه ذكر أكبر مذكور؛ لأن ذكر العبد مقترن بذكر الله هذا للذكر، فكبر قلة الذكر لله ﷻ لأجل ذلك إلى ما لا غاية له تعلم.

قال الله ﷻ: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٢] وأعمال الجوارح فيما سبيله طاعة الله لا يقاس بمتاع الدنيا، والذكر لله تعالى لا تجده أبدًا يقاس إلا بالقرب، فقد آن أن يتبين لك من هذا ونحوه أن ذكر أسمائه وصفاته هو الذكر الأكبر، وذكره في القرآن هو القرآن العظيم.

ومما يزيد المعنى إيضاحًا: قول الله جل قوله: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل...**»(٣) إلى آخر

= والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجة (٣٧٩٠)، والحاكم (١٨٢٥)، والبيهقي في الشعب (٥١٩).

(١) أخرجه أحمد (٦٤٧٩)، والترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧١) وقال: حسن غريب.

(٣) تقدم تخريجه.

الحديث، فذكر ﷻ أنه يذكر عبده عندما حمده، وعندما أثنى عليه، وعندما مجده، وعندما فوض إليه، وعندما توجه إليه بالعبادة وطلب المعونة.

ثم لما وصل إليه بالمواجهة في الخطاب أعطاه سؤاله وقضى مآربه، فذكره لما ذكره، وقضى حوائجه، واستجاب له دعاءه لما وصل إليه وسأله، فكفى بهذا الحديث بيانًا وحجة لصحة قول من قال: إن معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] إنها الأسماء التي في هذه السورة، وأنها بعض من كل المثاني التي هي الأسماء والصفات، والذكر لله في جميع القرآن.

إنباؤه إياي؛ أعني: ونفسي، أخاطب أين يذهب بك أيها اللاعب المتلاهي والبطال المتغافل؟ أغفلت حظك ولهيت عن فوزك رب العالمين الرحمن الرحيم ذو العرش العظيم، يذكرك ويثني كلامه العظيم على تلاوتك، ويجعل لك حظًّا من ذكره العلي في حضرته العليا وقدسه الطاهر، وأنت على ذلك في سهوك وذهول غفلتك عن الإقبال وصدق التوجه، وترك الشكر على هذه المنة العظيمة ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

وعند الله نحتسب غفلة التخلف ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ الله﴾ [يوسف:١٠٧].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].

قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ [الفاتحة: ١] هو اسم ممنوع من سواه تبارك وتعالى، خاص له، لا يتسمى به إلا هو، دلائله في السماوات والأرض ظاهرة، وعلاماته وآلاؤه وشواهده في الوجود والوحي شائعة، خلق الرحمن مائة رحمة، أهبط منها إلى الأرض واحدة وأمسك عنده التسع والتسعين اسمًا، إلى أن يضيف هذه إلى ما عنده ويرحم بها عباده المؤمنين.

وقد امتلأ العالم من هذه الرحمة كامتلاء الجو بهوائه والبحر بمائه العالم كله مفتقر بعضه إلى بعض، متعاطف بعضه إلى بعض، مواصل بعضه بعضًا، فمن حامل

ومحمول بذلك تماسك الملكوت، وتماشجت[١] الرحموت، ومن نظر إلى بديع الأحكام في جملة العالم وحسن ترصيف نظامه، ووقف على اطراد تصنيف الترتيب فيه، وتماسك بعضه ببعض، وتعاطف بعضه على بعض، وأشرف بعد ذلك على قوة الضغط وشدة الدمر، وشمول هذا القهر علم يقينًا أن ذلك لا يكون إلا من رحمن ألَّف نظامه، وأحسن تعاطفه، وفاضل استجابة ما بين بعضه وبعض على مقاربة بعضه لبعض، وإن ذلك لا يكون إلا عن استجابة كله إلى كله، وأنه الغني الحميد وسواه المحتاج إليه الفقير.

وذلك عن إثارة كتاب كتبه ﷻ على نفسه يوم خلق العرش فيه: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»[٢]. وفي أخرى: «**تغلب غضبي**»[٣].

وقد تقدم الكلام في آياته الشرعية في غير هذا الكتاب فأغنى عن إعادته. انتهى.

وأما اسمه «الرحيم» جلَّ ذكره فمبالغ من: راحم، ومقتضى اسم «الرحمن» جلَّ ذكره عام في الدنيا، شامل للمؤمن والكافر والطائع والعاصي، وفي الآخرة متناول للمؤمن خاصة إلا ما استثني من ذلك بحكم المشيئة، ومقتضى اسم «الرحيم» خاص للمؤمنين.

قال الله جل من قائل: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب:٤٣].

﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي**﴾ [العنكبوت:٢٣].

ثم هما - أعني: اسميه «الرحمن الرحيم» - ظاهر معناهما جدًّا في الآخرة لعباده المؤمنين خاصة.

قال الله جل من قائل: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون:١٠١] فإذا قال العبد: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ قال الله ﷻ: «**أثنى علي عبدي**»[٤] أي: أثنى الثناء الحسن بقوله: ﴿**الرَّحِيمِ**﴾ على قوله: ﴿**الرَّحْمَنِ**﴾

---

(١) مَشَج بَيْنَهم: خَلَط، والمَشِيجُ: المختلط من كل شيء. انظر: مختار الصحاح (٢٩٦/١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وبهما معًا على قوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] بكريم الكفالة وعليّ الكلاءة والحفظ والتوقية والرحمة.

فصل

كان الله ﷻ ولا شيء قبله، ولا موجود سواه، ولما كتب في الذكر كل شيء ثم أوجد أوائل ما كتبه فكان ذلك ثناء لفردانيته، ثم استوى على العرش فحمد كل شيء باستوائه على العرش؛ إذ يحيي باستوائه ذلك العبد الكلي، واستوى؛ أي: كمل وتمَّ كما شاءه المستوي العلي الكبير، فهو - جلَّ ذكره - لا يعزف عنه من موجودات عبده الكلي والجزئي مثقال ذرة في العلو ولا في المنتهى، ولا ما هو أصغر من ذلك ولا أكبر، فكان مقتضى اسمه «الرحمن» شامل للجملة، ومقتضى اسمه «الرحيم» عام للمطيعين.

ثم هو تعالى جامع رحمته بهما لعباده المؤمنين في مستقبل الشأن من الدار الآخرة قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

قال رسول الله ﷺ: « **يقول الله: مجدني عبدي**»[١].

المجد لا يكون إلا بالملك والسلطان والتمكين وسعة البسطة، مع حسن الفعال وجزيل العطاء وكرم السيرة، مع شدة البأس على الأعداء، وعظيم الإحسان إلى الأولياء.

وفي أخرى: «**فوَّض إليَّ عبدي**»[٢] ففي قول العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إقرار منه بالبعث بعد الموت، وإيمان بالجزاء واليوم الآخر، مع العلم بالجزاء العاجل، إلى غير ذلك من أحكام الدنيا والآخرة، فينثني هذا التمجيد على حسن الثناء، وهما على التمجيد والدين متردد إلى معنى الجزاء والطاعة.

فمقتضى اسمه «مالك» في هذا الموضع: إنه مالك بالطاعة المطيعين، وأمانة الأمينين، وخلاف المخالفين، وجزائهم من ثواب وعقاب، يعطي ما شاء من شاء من ذلك ويمنع، كما أن ظاهر مقتضى «ملك» أن له الملك كله يومئذٍ ولم يزل كذلك،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

لكن في ذلك اليوم ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار:١٩].

وقد جعل اليوم من ذلك لمن شاء ظاهرًا من الأمر ابتلاء واختبارًا، كذلك ظاهر التمجيد لاسمه «الملك» كما أن التفويض لظاهر مقتضى اسمه «المالك»؛ لذلك - وهو أعلم بما يُنزِّل - يقول: «**مجدني عبدي، فوض إليَّ عبدي**»[(١)].

قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[(٢)] [الفاتحة:٥] وهي كلمة مركبة من أربعة أحرف هن حروف المعرفة: الهمزة والياء والألف والكاف والهمزة صادرة من ذات المخاطب إلى الكاف التي هي لمواجهة المخاطب، والياء والألف سبيل إلى ذلك، وعماد له أشار بها السر المخاطب بالإخلاص للعبادة على حكم التوحيد المحض، والتزام العبودية والإقرار له بالربوبية المأخوذ عليه من أجلها الميثاق في العهد الأول مع إخلاص التبرؤ من الحول وبإخلاص الحول والقوة لله ﷻ، والتبرؤ من جميع ما تدعيه النفس أو تنسبه إلى ذاتها.

وفي ذلك تعريض لطلب المعونة والتجاوز عما يكون من تقصير عن حق من أخلص لمن أخلص إليه واستعان به ووحَّدَه؛ إذ معنى ذاك: خالص التعبد.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] إظهار الفقر والفاقة إليه، ومعنى الجملة: إنا نعبدك يا ربنا وحدك لا شريك لك، ونبرأ إليك من الحول والقوة، والدعوى في منزلة يوجبها قول أو عمل أو أمر من الأمور دون جحد منا لما أوليتناه من نعمتك، وما تقدمت به إلينا من منتك من إتقان الصور، وصحة الجوارح وسلامة الحواس، وإيجادك صفاتنا كلها الموجودة بنا دون استغناء منا بها عنك، أو مفارقة افتقار بها إليك، ولما أظهر العبد الافتقار وتبرأ إليه من الحول والقوة حسنت حالته عنده،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ هو كناية عن اسم الله تعالى، وفيه قولان: **أحدهما**: إن اسم الله تعالى مضاف إلى الكاف، وهذا قول الخليل. **والثاني**: إنها كلمة واحدة كُنِّيَ بها عن اسم الله تعالى، وليس فيها إضافة؛ لأن المضمر لا يضاف، وهذا قول الأخفش. وقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: **أحدها**: إن العبادة الخضوع ولا يستحقها إلا الله تعالى؛ لأنها أعلى مراتب الخضوع، فلا يستحقها إلا المنعم بأعظم النعم، كالحياة والعقل والسمع والبصر. **والثاني**: إن العبادة الطاعة. **والثالث**: إنها التقرب بالطاعة. والأول أظهرها؛ لأن النصارى عبدت عيسى عليه السلام ولم تطعه بالعبادة، والنبي ﷺ مطاع وليس بمعبودٍ بالطاعة. [النكت والعيون (٦/١)].

فأذن له بالسؤال بقول غيب.

قوله ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] الهداية: التسديد والإرشاد، وإتمام النعمة على المهدي هو الإصابة به الحق المقصود هنا زائد من شرح ما يُحمل في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] سُئل فأعطى وله الحمد، وأغفل عن ذلك قلوب الكافرين.

وتمام النعمة في الهداية الإصابة بالهدي إلى الحق المقصود، وحسن استعماله فيه، والخاتمة بذلك على السنن المرتضي والسبيل الأهدى، و«**الصراط المستقيم**» هو عبادة الله وحده عقدًا وعملاً يقترن بذلك الإيمان بالرسول والاقتداء به، والإيمان بالملائكة والكتب، والإيمان بالله جل ثناؤه، وبالإيمان برسله وكتبه وملائكته وجميع ما جاء من عنده من غيب وشهادة يقترن بذلك العمل والإخلاص لله وحده.

وصراط الذين أنعم الله عليهم هو هدى الأولياء والأنبياء والمرسلين والصديقين والصالحين والشهداء الذين استعملهم بمحابه، وختم لهم برضوانه؛ ولأن الأعمال إنما هي أعمالهم بالنيات، فبقدر ما اتسع علم تاليها، وعلت وعظمت معرفته بما حوته سورة أم الكتاب، وشاهد قلبه ذكر الله له وصلاته عليه، وعقل وعده، وعقل أيضًا فيها ومناجاته، وعقل سؤاله، وهو من يسأل، وإلى من يرغب ويضرع أعطى سؤله، بذلك جاء وعده الحق في قوله: «**ولعبدي ما سأل**»[١].

أعلم الله جلَّ ذكره أن الصلاة هي تلاوة القرآن على السنن المسنون فيها وأم القرآن تمجيد وتحميد وثناء عليه، وتوحيد له بالإلهية، وتفويض إليه، وتعبد وإخلاص له في ذلك.

ثم دعا وتضرع إليه، وطلب معونته وهدايته إلى الصراط المستقيم، صراط الله الذي أنعم به المنعم عليهم، وسؤال في إدامة ذلك، وتعوذ من ردة ومخالفة، وجمع ذلك كله مجملاً، وفي القرآن الحكيم مفصلاً.

والقرآن كله والتعبد أجمعه إنما يدور على تبين العهد الأول عهد الربوبية المقابل بها للعبودية، وعهد النبوة المقارنة للاقتداء والتسليم وحسن الاتباع لذلك،

---

(١) تقدم تخريجه.

ولما قررهم فأقروا وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا، وحمّلهم إصر عهده فتحملوا ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

فإذا آمن ولم يتولَّ وأقر كإقراره الأول فهو من المؤمنين المسلمين، فلذلك قال رسول الله ﷺ: «**من قال: آمين، فوافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[١] إلى آخر الذكر.

جمعت «آمين» التصديق بقوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] والاستنجاز للوعد الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم (٤١٠).

تفسير سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١-٥].

قوله ﷻ: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ﴾[1] [البقرة: ١-٢] انتظام معناه بما تقدم في «أم القرآن» على تقدير القول: أيها العبد الراغب في الهداية إلى الصراط المستقيم، والسائل من ربه حسن المعونة والعصمة.

(١) قال البغوي في «تفسيره معالم التنزيل»: قال الشعبي وجماعة: ﴿الم﴾ [البقرة: ١] وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه وهي سر القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها. قال أبو بكر الصديق ﷺ: في كل كتاب سر، وسر الله تعالى في القرآن أوائل السور. وقال علي: لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي، وقال داود بن أبي هند: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور، فقال: يا داود إن لكل كتاب سرا وإن سر القرآن فواتح السور فدعها وسل عما سوى ذلك، وقال جماعة: هي معلومة المعاني، فقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه، كما قال ابن عباس في ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]: الكاف من كافي، والهاء من هادي، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق. وقيل في ﴿المص﴾ [الأعراف: ١]: أنا الله الملك الصادق، وقال الربيع بن أنس في ﴿الم﴾: الألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه اللطيف، والميم مفتاح اسمه المجيد، وقال محمد بن كعب: الألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم ملكه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال معنى ﴿الم﴾: أنا الله أعلم: ومعنى ﴿المص﴾: أنا الله أعلم وأفضل ومعنى ﴿الر﴾ [يونس: ١]: أنا الله أرى، ومعنى ﴿المر﴾: أنا الله أعلم وأرى. وقال قتادة: هذه الحروف أسماء القرآن، وقال مجاهد، وابن زيد: هي أسماء السور، وبيانه: أن القائل إذا قال: قرأت ﴿المص﴾ عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بـ﴿المص﴾ وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنها أقسام، وقال الأخفش: إنما أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها؛ لأنها مبادئ كتبه المنزلة، ومباني أسمائه الحسنى.

﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ أي: مطلوبك فيه ومقتضى سؤالك في اتباعه والاقتداء به فدونك، فانظر إلى السماء كيف رُفعت، وإلى الأرض كيف وُضعت، وإلى الجبال كيف نُصبت، وإلى الهواء في أقطار الأجواء كيف جعله، وإلى الشمس والقمر والنجوم كيف أجراهن، وإلى الرياح كيف صرفهن في مختلفات مهابهن، وإلى السحاب كيف أنشأهن، وكيف يتسابقن إلى ما إليه يصيرهن، وإلى الماء كيف خلقه فيهن وميز خلقه، وكيف ينزله من السماء إلى الأرض فيفصِّله إلى ما إليه شاء، كذلك فيما علا، كذلك فيما سفل، كل له طائع، ولأمره سامع، لم يعبد سواه، ولا أطاع إلا إياه.

ومن آياته: أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] لم ينثلم من العالم قط جانب ولا نازع موجده عن مراده منه منازع، بل الجميع له طائع، ولأمره خاضع، يتسخر بأمر ربه لمن لا يطعمه، ويسارع إلى طاعة من لا يرزقه، فكذلك أيها العبد، فلتكن أنت إذ أنت المعان، والمعني بهذا كله والمخاطب والمواجه والمفضل على كثير ممن خلق تفضيلاً.

ألا تراه قد جعل لك الإرشاد إلى صراطه المستقيم، الإرشاد في مقابلة الاسترشاد، والمغفرة في مقابلة الإيمان، والمعونة في مقابلة التبرؤ من الحول والقوة، واستشعار الإخلاص بوعد غيب علمته الملائكة عليهم السلام، فأمَّنت عند فراغ الإمام من قراءة السورة، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه إن شاء الله.

فأم القرآن هي أم الكتاب، ولن يعدو ما هو كائن إلى يوم القيامة جملة ما حواه قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وتعالت صفات ربنا وأسماؤه أن تعد في الكتاب، وإنما عبر عنها في كتاب غير هذا الذي عبر عنه قوله: «**اكتب علمي في خلقي**»[١].

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿الـم﴾ [البقرة: ١] ثلاثة حروف مرسومة ظاهرة، وأربعة رؤوس وستة توالي، دخلت لضرورة النطق بالرؤوس بالمرسومة الرؤوس، ولما كانت الهمزة إنما دخلت لضرورة النطق بالألف لحقت بالتوالي، فالتوالي إذًا سبعة، والمرسومة ثلاثة فهي عشرة، وكانت هذه التوالي للحروف المعجمة المرسومة دلالة على تطرق التأليف إليها؛ إذ هي مجملة تفصلت إلى ما تفصلت إليه بحكم التركيب، وقد كانت مفردة في حالها ذلك آيات على حروف الكتاب المبين.

فصل

فالهمزة يعطي معناها ها هنا كل ما أفهمته من معنى وما أعلمته من معلوم، وكذلك الألف، وكذلك اللام؛ إذ هي أوائل المعاني في كل ما دخلت عليه، كل صحيح معتبر على حدته، ثم هو معتبر بتركيبه، والألف مع اللام كل ما أفهماه من معنى وأعلما به.

قال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ والكتاب هنا واقع على القرآن، وعلى الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ الحروف المعجمة في هذا القرآن آيات على حروف ما هنالك ودلالات عليها، دل على ذلك قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] والذي لا ريب فيه هو الكتاب المبين؛ إذ هو مشاهد للأبصار، مدرك بالعيان لمن نظر بالنور واستصبح بسراج الإيمان.

قال الله ﷻ: ﴿الـمر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ﴾ أي: آيات اللوح المحفوظ، ثم قال جل قوله: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

ثم أنشأ يسرد آيات الكتاب المبين بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

لذلك قال عز من قائل: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ١-٣].

ثم قال جل قوله بعد ذلك كله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

كما قال جل قوله في آخر السورة: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] ثم قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢].

كذلك قال عز من قائل: ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢] فإذا كان ذلك كذلك فهي آيات على ما سواها، ورؤوس لما أفهمته وأعلمت به، وهي جامعة موعية، فالهمزة منبئة عن معنى الهمزة كله حيث وقع، وأكثر وقوعها للتحقيق، كقوله جل قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤].

ونحو هذا في أوائل الكلام؛ ولأنها تابعة في المرتبة في قوله: ﴿الم﴾ [العنكبوت:١] إذ لم يكن المقصود بالرسم والنطق، وإنما جاءت ليتوصل بها إلى النطق بالألف، فتناول وجودها ها هنا كل همزة توسطت أو جاءت تابعة على حال من الأحوال، فدلت بالدلالة الأولى على كل اسم أو كلم أو حكم أول النطق به همزة، وبالدلالة الثانية على كل همزة جاءت متوسطة أو متأخرة، وعلى هذا السبيل تأولها حبر العرب عبد الله بن عباس ﷺ حيث قال: ﴿الم﴾ أنا الله أعلم، ﴿المر﴾ أنا الله أعلم وأرى.

ولإمعانه في العلم بالحروف لما سُئل عن تفسير قوله ﷻ: ﴿كهيعص﴾ [مريم:١] قال: لو أخبرتكم بتفسيرها لكفرتموني.

وفي أخرى: لكفرتم؛ أي: بتكذيبكم الحق رجع الكلام.

وكذلك اعتبار كل حرف رأس أو تابع على سبيله؛ ولأن الهمزة مفتوحة تقدمها في الرسم ألف ولام، فهي تدل بذلك زائدًا على ما تقدم على كل همزة داخلة على ألف ولام لتعريف أو جنس، كقوله في التعريف: ﴿اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠].

وفي الجنس: الملائكة والإنس والجن العالمون كذلك، كل ما أفهماه وأعلما به على ما تقدم، وهما داخلان على كل اسم، وقد حدَّ أهل المعرفة باللسان الاسم في بعض ما حدُّوه به، فقالوا: الاسم ما جاز أن يدخل عليه الألف واللام ويدلان زائدًا على ذلك بتأخيرهما أو بتوسطهما، وبانفرادهما أو اجتماعهما.

وكذلك حكم الألف واللام إذا اقترنا؛ فإذا تقدمت اللام الألف أفهمتا النفي، كقوله: لا إله إلا الله لا شريك له، ولا مثل له ولا عدل له، ولا والد له ولا ولد له، ولا صاحبة له ولا ولا.

هكذا فبتقدم الهمزة اللام أفهمتا الإلهية والاستثناء، وبتقدم اللام الألف في صدر الكلمة على الهمز أفهمت النفي، كقولك: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] وهو لا يضل ولا ينسى لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، لا تلحقه الحوادث ولا تلحقه الدهور، ولا يموت ولا يزول ولا يحول، ولا يزال هكذا يستقرئ جميع ما لا يجوز عليه ويستحيل لديه، فينفيه بـ«لا» النافية، ويستثني بـ«إلا» ما ينبغي له، كذلك الناهية وما تصرفت إليه، كقوله جل قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللهِ﴾ [لقمان:١٣] شيئًا، لا تظلم.

﴿لَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء:٣٢].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ [الإسراء:٣٣].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦] ونحو هذا.

وكذلك متى تقدمت اللام الاسم والمضمر جرت له ما أضيف له، فيقول من ذاك: هو الله الذي لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وله المجد وله الفخر وله السناء، وله الكبرياء وله العظمة وله العلا، وله هكذا أيضًا تستقرئ جميع معاني الحمد والمدائح كلها ما استطعت، وتنوي ذلك وتضيفها إليه بلام الجر.

ويقول هو جل وعلا: «أنا الله لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد ولي المجد» كذلك أيضًا.

وتقول في لام الجحد: هو الله لا إله إلا هو، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، ولم يكن له نظير ولم ولم هكذا.

وكذلك في المتوسطة من حروف الميم، يقول الله جل من قائل: «أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك، وملك لا يرام ذو الملك والملكوت، ذو المكانة المكين، ذو المهابة المهيب، المحيي المميت، المعز المذل، المريد المدبر، المقدم المؤخر، المصور المبين، المتين المقتدر، المتكبر المتعال، المؤمن المهيمن، هكذا بالميم الأولية.

وأما دلالة الميم المتأخرة الموجودة في حرف لام وحرف ميم؛ فيقول: هو الله لا إله إلا هو الحليم الكريم، العليم الحكيم العظيم، الرحمن الرحيم، السميع العليم

السلام، ذو الحكم الماضي والمضاء المتمادي، والأمر النافذ والتدبير المبرم، هكذا.

ويدخل في الاعتبار والأحكام والقصص، وتداخل القصص وتتشبث المعاني بعضها ببعض، ثم يرجع النسق بالخطاب إلى أصله، وفي ذلك كله الوعد والوعيد والحديث والقصص والأحكام، والأمر والنهي والزجر والوعظ والجدل، إلى غير ذاك من أنواع الخطاب، فوجه كل خطاب إلى ما توجه إليه، وضم كل قول إلى ما غلب عليه، وكل حرف منها ينتظم ما وافقه، وكل جملة إلى ما هو منها، والمعنى ينتظم بالمعنى، والحديث يفضي إلى مثله، والمعاني تجتلب المعاني، وعلى حسب المجاورة يقرب الجوار، وبالمعنى وإن تباعد، وتنتظم المعاني كلها على ما هي عليه.

وفي ذلك يندرج ذكر الأسماء والصفات وأنواع الخطاب بتوابع ذلك وتتم السور، وهكذا والله أعلم في مجمل حروف أم الكتاب، غير أن تلك الحروف أعم عمومًا وأجمع فائدة وأتم وجودًا وأحق حقيقة، والله واسع عليم، فاقضِ بحاضر على غائب.

ولما رأينا المعاني تندرج في هذا الكتاب هذا الاندراج مع تمام صور السور في أثناء غرائب القصص وفرائض الأحكام، وإحراز بديع الإعجاز في حسن ترصيع النظام، وهذه الحروف مجسمة، فكيف بتلك وهي روحانيات عليه، وهو الآن عز جلاله يفصل بهذه ما أجمله بتلك وتدبر ما أوجده؟.

فصل

هذه الحروف المحيطة لأنها واسطة من حروف الكتاب المبين والقرآن الحكيم إنما يستدل بها على المعني بها بما جاء معها وبعدها، والمعنى الذي أتت له هنا هو التعريف بالباري جلَّ ذكره والهداية والمطلوب من ذلك، فكأنما هي عبارة عن معنى هو جامع لما هو معبر عنه، وهو ما حواه اللوح المحفوظ من وحي ووجود، وإضافته إلى اسمه الله جلَّ ذكره الذي جميع الأسماء شارحة له الذي هو رب العالمين، رب كل شيء ومليكه الرحمن الرحيم، ثم إلى آخر السورة.

ثم سؤال الهداية والجواب عليها والوعد عليها مضمر، وهو جماع كل شيء،

ولما كان القرآن العزيز كله من أوله إلى آخره مضمنًا الإخبار عن الوجود من الوحي، والعالم لم يكن تحقيق اليقين إلا بأن يقترن النظر في اللوح المحفوظ بتلاوة القرآن العزيز، وفي ذلك اكتساب أوصاف الصديقين إذا اقترن بذلك العمل.

قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ [البقرة:٢] يمكن أن يكون إشارة إلى غائب، وهو اللوح المحفوظ؛ أي: إن هذه الحروف التي هي ﴿الم﴾ آيات عليه كما قال: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١] ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى مفهوم «الم» الحرف، وإن ذلك المفهوم بهذه الحروف آيات عليه كما تقدم، فإنه قد جاء أن هذا القرآن أنزل ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وذكر العزة كناية عن عزته على الأفهام لولا تنزيل الله ﷻ إياه إلى قلب الرسول، ثم إلى لسانه كما قال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: إلى بيت العزة ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء:١٠٦] إليكم.

فيمكن أن تكون هذه الحروف المقطعة المعجمة من حروف ذلك الكتاب المنزل إلى بيت العزة، فهي واسطة من حروف القلم العلي الذي هو اللوح المحفوظ وبين حروفنا هذه، ويمكن أيضًا أن تكون حروف القلم العلي بنفسها ثم تفصل إلى ما تفصل إليه.

ثم قال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] إلى آخر المعنى.

وقال جل قوله: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:١-٣] إلى آخر المعنى حيث وقع.

قوله ﷻ: ﴿لَارَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١) [البقرة:٢] الريب: الشك، وقد يكون الكذب، وهذا وصف جميع الكتابين مع اللوح المحفوظ والقرآن، غير أن هذا

---

(١) في المتقين ثلاثة تأويلات: **أحدها**: إنهم الذين اتقوا ما حرم الله عليهم وأدَّوا ما افترض عليهم، وهذا قول الحسن البصري. **والثاني**: إنهم الذين يحذرون من الله تعالى عقوبته ويرجون رحمته، وهذا قول ابن عباس. **والثالث**: إنهم الذين اتقوا الشرك وبرئوا من النفاق وهذا فاسد؛ لأنه قد يكون كذلك، وهو فاسق وإنما خص به المتقين وإن كان هدىً لجميع الناس؛ لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه. [النكت والعيون (١٠/١)].

القرآن قد ارتاب فيه أهل الكفر، ومن لا علم عنده والكتاب المبين ظاهره نسخته للعيان فلا مرية فيه ولا شك به اهتدى المتقون، ثم بالقرآن العزيز، فإنه من نظر في القرآن طالبًا للعلم كان من المؤمنين، ومن زاد نظره وسمت به سمته إلى النظر في نسخة الكتاب المبين كان من الموقنين.

ثم ينظر من الكتاب المبين إلى القرآن العزيز فيزداد إيمانًا، ثم ينظر منه إلى الكتاب المبين فيزداد يقينًا إلى يقين حتى يشرف إلى معالم الصديقين وعلوم المقربين، وينشرح صدره بالنور، ثم يضيء له ما بين يديه وما خلفه.

قال الله ﷻ: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل١-٢] فالبشرى هنا للقرآن، والهدى للكتابين: الكتاب المحفوظ والقرآن، وبخاصة الكتاب المحفوظ.

قال الله ﷻ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] وأولئك الذين يحقق الله لهم ذلك النور في يوم الظلمة، ويظهر لهم هذا النور الذي اكتسبوه في دار الدنيا.

قال الله ﷻ: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ﴾ [الحديد:١٢] المعنى.

فصل

اعلم يقينًا أن ما خلق الله في العالم من شيء إلا وفي النُّبَاء ما يُنبئ عنه، ويدل عليه ويشير إليه ويشهد له، وإن دقت بعض الإشارات واستسرت بعض الشهادات فإن ذلك عام، فما في العالم شيء إلا وفي الوحي أصله أو ما يدل عليه كذلك ما في النُّبَاء من ذكر أو تذكير أو إعلام إلا وفي الوجود شاهد له ومصدق لما أنبأ به علم ذلك من علِمه وعمه عنه من عمه.

قال الله ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وهذا علم في الكتابين، فافهم.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر

منه»[١].

وفي أخرى: قال: «إن جبريل ﷺ أقرأنيه على حرف فلم أزل أستزيده حتى انتهيت إلى سبعة أحرف»[٢].

وفي أخرى: قال: «إن الله أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف، فقلت له: إني أرسلت إلى العجوز والأعرابي والأمي فخفِّف على أمتي»[٣].

وفي أخرى: «فقلت: أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك»[٤].

وفي أخرى: «فرددت عليه أن هوِّن على أمتى الثانية فرد إليَّ أن أقرأ على حرفين، فرددت أن هوِّن على أمتي الثالثة، فرد إليَّ أن اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألينها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم»[٥].

وفي أخرى: «قال له في الرابعة: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا»[٦].

وفي أخرى: «فأيما حرف قرؤوا عليه فهو كافٍ شافٍ، غير ألا يخلطوا آية رحمة بآية عذاب، ولا آية عذاب بآية رحمة»[٧] انتهى.

وقد ذُكر في تفسير ما جاء عنه من هذا: وما هذه الحروف وكونها سبعة أو ثلاثة أو واحدة غير ما وجه، فمن قائل يقول: إنها حروف القراءات السبعة، واستدلوا على ذلك بقولهم: فلان يقرأ على حرف فلان، وفلان يقرأ على حرف

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠٦)، والنسائي (٩٣٧)، والترمذي (٢٩٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٧)، والبخاري (٣٠٤٧)، ومسلم (٨١٩)، وابن جرير فى التفسير (١/١١) والبيهقي (٣٨٠٣)، والطبراني فى الأوسط (١٧٩٢)، وفى الصغير (٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٢٠٩)، ومسلم (٨٢٠)، وأبو داود (١٤٧٨)، والنسائى (٩٣٩)، وابن حبان (٧٤٠)، وابن أبي شيبة (٣١٧٤٣)، وأبو نعيم فى مستخرجه على مسلم (١٨٥٥)، والبيهقي (٣٨٠٠). وأخرجه ابن جرير فى التفسير (١/١٣- ط. الكتبى).

(٤) تقدم في سابقه.

(٥) تقدم في سابقه.

(٦) تقدم في سابقه.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٣٧١) والطحاوي في مشكل الآثار (٢٦٤٣).

ورش وأبي عمرو وغيرهما، وهذا وجه مقول، فالله أعلم.

غير أن هذه السبع القراءات كانت غير متعينة من غيرها في الصدر الأول، وإنما زمت وانتزعت من غيرها، ويسمى غيرها بالإضافة إليها: شواذ في العصر الثالث من غير توقيف عليها من حديث ولا قرآن سوى العلم بعدالة ناقليها وشهرتهم بالأمانة.

وفي قراء القراءات التي سموها شواذ أئمة وصالحون يجب المصير إليهم واقتفاء آثارهم قد اسندوا ما قرؤوه منها إلى رسول الله ﷺ ومن قائل يقول: إنها المعاني، فقال: أنزل القرآن على سبعة أحرف: زجر وأمر وجدل ومثل وترغيب وترهيب وقصص، ومعنى الجدل: الحجة على المشركين، واحتج على صحة قوله بأنها معاني.

يقول الله ﷻ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ**﴾ [الحج:١١] أي: على السراء دون الضراء، وبأن حرف كل شيء آخره وحدَّه، وهذا الرأي يحتاج إلى نظر؛ إذ لو وجهنا قوله ﷺ: «**إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف ثم على حرفين ثم على ثلاثة أحرف**»[1] على معنى قوله: اقرأ القرآن على الأمر فقط، دون القصص أو على القصص والأمر دون المثل والزجر والترغيب والترهيب وغير ذلك لم يكن قرآنًا؛ لأن القرآن هو ما جمع هذه المعاني كلها وغيرها معها، إذا القرء هو: الجمع، والقرآن هو جملة المقروء المشتمل على ما اشتمل عليه من حروف ومعاني وأقسام الخطاب وضروب الأحكام.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيامة:١٦-١٩].

قال: فكان جبريل ؈ إذا جاءه فقرأ عليه سكت رسول الله ﷺ حتى إذا فرغ قام، فقرأه كما وعده ربه ﷻ، ووصف ﷺ كيف يأتيه الوحي، فقال ؈: «**أحيانًا**

(١) أخرجه مسلم (٨٢١) وأبو داود (١٤٧٨) والنسائي (٩٣٩) وأحمد (٢١٢١٠)، والطيالسي (٥٥٨).

يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال»[(١)].

وقال الله جلَّ ذكره: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ**...﴾ إلى آخر المعنى [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

فهذا تنزيل كلام الله جل ثناؤه منه ﷻ إلى ما شاء إلى الروح القدس، إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول على جميعهم السلام، إلى لسان الرسول المبلغ إلى الناس، ومن لا يجوز عليه التركيب فكلامه غير مركب ولا مؤلف إلا بحكم التنزل إلى ما شاء.

والكلام المجسم المركب هو الإنسان المجسم من حروف ظاهرة موزونة، مصورًا صورة ظاهرة بواسطة رسول مجسم مؤلف بصورة ظاهرة وكتاب منزل إلى لسان قوم على خطابهم وتفاهمهم بحروف ظاهرة ذوات أشكال وصور ظاهرة ﴿**لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً**﴾ [الإسراء:٩٥].

وقد جاء أن القرآن أنزل جملة ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا، واسم بيت العزة المنزل إليه القرآن عبارة عن عدَّة حروف ما هنالك، وما عزت حروفه علينا استغنى عن النطق بما اقتضى القرآن منه بحروفه وأشكاله بجميع مقتضيات معانيه، وما نزل إليه منها فـ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [الفرقان:١].

ولو شاء الله جل ثناؤه لختم على قلب الرسول ولسانه، ومحا الباطل ومحقه، وأحق الحق بكلماته إنه عليم قدير، لكنه أكرم رسله واختصهم بوحيه وولايته ورسالاته.

وقال الله ﷻ: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**﴾ [الدخان:٣-٥] إلى قوله: ﴿**رَبِّ السَّمَوَاتِ**

---

(١) أخرجه مالك (٤٧٥) وأحمد (٢٥٢٩١) والبخاري (٣ ٣٠٤٣) ومسلم (٢٣٣٣) والترمذي (٣٦٣٤).

﴿وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان:٧].

فمفهوم مجاورة قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى ما قبله موافق لما جاء أنه أنزله إلى السماء الدنيا جملة، وأنه كان نزوله ذلك تنزيلاً من سماء إلى سماء كتنزيل الأمر على سبيل السنة.

والقرآن كلام الله وأمره، ليس لمخلوق يتنزل مع مخلوق، ولا بد ولا محالة يكسبه معنى الخلق ظاهرًا لظهوره من مخلوق، ويبقى هو باطنًا على ما كان من حيث هو ليس بمخلوق، والفرق بين ما هو هذا الكلام عبارة عنه أوقع القائلين بخلق القرآن في قبح بدعتهم ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] وتعالت صفاته العلا عما يظنه الغالطون علوًّا كبيرًا.

فصل

روي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأنيها رسول الله ﷺ قال: وكان يصلي فكدت أعاجله، فلما فرغ لبَّبته بردائه حتى جئت به رسول الله ﷺ فقال لي: «**ما لك يا عمر؟**» قلت: يا رسول الله، سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال لي: «**أرسله**» فأرسلته، فقال له: «**اقرأ**» فقرأ القراءة التي كنت سمعته يقرأها، فقال: «**هكذا أنزلت**» ثم قال لي: «**اقرأ**» فقرأتها على ما أقرأنيها، فقال: «**هكذا أنزلت**» قال: فدخلني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤا ما تيسر منه**»(١) فأخبر عن التخفيف الذي سأله ربه في الازدياد من الحروف.

والآن قد استقرت عندنا قراءة القرآن على ما استقرت عليه، وكانوا بعد رسول الله ﷺ ينحون بها نحو المعاني حتى خاف جميع الصحابة ﷺ تغيير القرآن عن سواء ما نزل إليه، فجمعه عثمان ﷺ على مصحف واحد، ثم كتبه سبع نسخ بعث إلى كل مصر نسخة، وعلى ذلك استقرت القراءات اليوم، ولاستقرارها اليوم

---

(١) تقدم تخريجه.

على ما استقرت عليه عدم فيها ما أنكرته الصحابة ﷺ إلا ما كان من اختلاف الروايات، وذلك وجه من أوجه هذه الحروف المذكورة هي ألسنة المبعوث إليهم من الأمم الداخلين في الإسلام، يقرؤون القرآن بحروفهم وألسنتهم كالعرب والفرس والقبط والأنباط والروم والحبش وبني إسرائيل والبربر، وما كان من نحوها ولاء.

فقول رسول الله ﷺ: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف**»(١) عبارة منه عن تيسير الله على عباده في تلاوة كتابه، وقراءة كلامه العظيم المنزل عليهم منه، وعن تيسير الله على عباده في تلاوة كتابه ﷻ إلى روح القدس إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول ﷺ إلى لسانه إلى العرب المبين عليهم بقوله جل قوله: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الزخرف:٣] ثم إلى الأمم سوائهم؛ لأنه ﷺ بعث إلى الأحمر والأسود، إلى الناس كافة.

ومصداق ما قاله ﷺ وبلغه إلينا عن ربه ﷻ قوله عز قوله: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ [المزمل: ٢٠] وقوله جل قوله: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ [القمر: ١٧].

ومصداق ما جاء به الملك - صلوات الله وسلامه عليهما - جوابًا لسؤاله التخفيف عن أمته، وقوله: «**إني بعثت إلى المرأة والأعرابي والضعيف**»(٢) أي: الذي لا يقيم حروف كلام نفسه قوله جل من قائل: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج ٧٨].

فكان معنى قوله ذلك لعمر بن الخطاب ﷺ وصاحبه - رضي الله عنهما - أن الله قد يسره أكثر مما تظنون، فاقرؤا ما تيسر، فخذوا بتيسير ربكم، ودعوا عسر ما عندكم، فسيقرؤه من لا يقيم حروفه ولا يكاد يعقله، ولا يحسن مخارج حروفه عندما يتلوه، وربما أبدل الكاف قافًا والظاء طاءً أو التاء والباء ميمًا، ويغير أكثر المخارج، والله غفور رحيم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه هكذا.

وستدارك أمم يكونون على هذا كما قال ﷺ: «**أنا وافد العرب، وصهيب وافد الروم، وبلال وافد الحبشة، وسلمان وافد الفرس**»(١).

قال الله ﷻ: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ**﴾ أي: مهمل في حال القراءة، وتمكث إلى تدارك الناس وبلوغ تتابعهم ودخولهم في الإسلام ﴿**وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾ [الإسراء:١٠٦] أي: من لدن رب العالمين، من ليس ككلامه كلام إلى كلام المخلوقين وكلام العرب، فكما نزل مما هنالك إلى كلام العرب ولسانها، فليس بمنكرٍ أن ينزل أيضًا من كلام العرب إلى كلام أخلاط ألسنة العجم، ولا بد من ذلك والقول به، وقد أبرزه الوجود و﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾ [الطلاق:٧].

وأما معنى قوله: «سبعة أحرف» فإنه باب فتح الكثرة؛ إذ الأمم كثيرة والألسنة جم غفير، ولكل أمة في أنفسها اختلاف في لغاتها كالعرب لغة قريش تخالف لغة تميم في أشياء، ولغة بلحارث تخالف غيرها في كثير، وكذلك غير من سميناه منهم، فألسنة الأمم الأعجمية أشدّ اختلافًا.

فصل

آية ما تقدم ذكره: الماء ينزله الله ﷻ من السماء واحدًا، فيصرفه الله جلَّ ذكره في الأرض إلى نباتها وحيوانها على اختلاف ذلك كله وتغايره في ألوانه وأشكاله وطعومه ومنافعه ومضاره وأخلاقه ودواعيه ومذاهبه وأمره كله، وكثير ما استشهد ﷻ عند إفهام العقول هذه المعاني بالماء ينزله من السماء إلى الأرض.

قال الله جل من قائل: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ**﴾ [فاطر:١٩-٢١] إلى قوله جل قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا**﴾ [فاطر:٢٧] إلى آخر المعنى، فهذا أمره يستن به سنن الخلقة، وينزله تنزيلاً بعد تنزيل من علو إلى سفل منوّعه هذا التنويع كذلك نزل كلامه إلى كلام عباده وقلوبهم وألسنتهم؛ فأظهر على ذلك قراءاتهم وأعمالهم.

---

(١) لم أقف عليه.

فصل

عددت ما جاء في القرآن العزيز من أشكالها في أوائل السور أربعة عشر شكلاً، وعدة السور التي فواتحها الحروف تسعة وعشرون سورة، ولما تركبت في منازلها ومراتبها بلغت ثمانية وسبعين حرفًا، بل زادت على ذلك، وقد تقدم ذكر التوابع، وأن فاتحة «الم» سبعة بلغت توابعها عشرة، وعلى ذلك تكون التوابع إلى منتهى ما بلغ إليه ما لم يُذكر من حروف المعجم في القرآن أربعة عشر، وهي على ما هي قد ينوب ما ذكر منها مكان ما لم يذكر، فلو ذكرت كلها لكان القرآن شرح والله أعلم، ولو نقص من ذكر ما ذكره منها بعضها لكان أشد انغلاقًا وأبعد عن الفهم، والله أعلم.

والعرب كلها تنطق بجميع الحروف الثمانية والعشرين حرفًا، فلو قصر الله جلَّ ذكره المرأة والأعرابي والضعيف وعامة العرب على وفاق لغة قريش لأعنتهم ذلك أشد العنت، وكذلك لو قصر جميع الأمم الداخلة في الإسلام من جميع العجم على لغة العرب، وإقامة مخارج حروفها وجميع شروط تلاوتها لكان ذلك تكليف ما لا يطاق امتثاله، وأما تنزيله من حيث هو مقتضى له فموجود في التلاوة، مكنون في الشرح ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

فصل

من الواجب أن تتبين معنى الهداية من تالي أم القرآن في قوله ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] وكذلك هداية المؤمنين والمتقين في قوله جل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وبخاصة في حال الصلاة؛ ليوقف على عظيم قدر الصلاة والذكر، وذلك أن العبد الموقن لما أوصله الله تبارك وتعالى وهو القريب المجيب الغفور الشكور إلى خطاب المواجهة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] أباح له ﷻ السؤال بقول كريم غيب قوله: «**ولعبدي ما سأل**»[1] وأنشأ العبد يخاطبه مواجهة له بالخطاب، وتقربًا إليه بإخلاص العبادة والتوجيه بها

---

(١) تقدم تخريجه.

وتحقيق العبودية، والتزام ربقتها ابتغاء رضوانه وتبرأ إليه من حوله وقوته.

وعرض في ذلك بطلب المعونة من مالكه ﷻ ثم أظهر السؤال وأبدى الضراعة إليه بالهداية إلى محابِّه، وطلب الاستقامة في طلب مرضاته، وأن يلحقه في ذلك بمن أنعم عليه بمراعاة عهوده وأداء أماناته، وتعوذ به من خيانة من اختان أمانته ونكث عهده أن يحيق به من الضلال عن القصد الذي هدى إليه من أنعم به عليه، والغضب الذي حاق بغيره من أجل ذلك.

فكان في ذلك من حاله في سبيل الاعتبار شبهًا باطلاعة الله ﷻ على أوليائه في الجنة؛ إذ يقول لهم ﷻ: «**أرضيتم**» فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد بيضت وجوهنا، وأدخلتنا الجنة نتبوأ منها حيث نشاء برحمتك، وقد أجرتنا من النار؟! فيقول لهم عز قوله: «**تريدون شيئًا أزيدكم، سلوني أعطكم**» فيسألونه الرضا، فيقول: «**رضائي أحلكم داري، وأنالكم كرامتي، سلوني أزدكم**» ثم يقول لهم ﷻ: «**أحللت عليكم رضاي فلا أسخط بعده عليكم أبدًا**»(١) ثم ينكشف بعده الحجاب فينظرون إليه فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

وفي أخرى: «**فينكشف لهم عن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(٢).

ينشأ السؤال في الدنيا بالهادية إلى منال الرضا في الآخرة، كما ينشأ العلم به في الدنيا إلى رؤيته في الآخرة، وهو الوصول الأعلى كما ينشأ التذكر والدعاء إلى المخاطبة والتكليم دون حجاب ولا ترجمان، كما ينشأ العلم بموجودات الدنيا من سماء وأرض وأفلاك ونجوم ونبات وإنس وجان، وجميع ما خلق الله من شيء.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٥١٧) والطبراني في الأوسط (٢٠٨٤)، وأبو يعلى (٤٢٢٨)، قال المنذري (٣١١/٤): رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في الأوسط بإسنادين، أحدهما جيد قوي، وأبو يعلى مختصرًا، ورواته رواة الصحيح، والبزار. وقال الهيثمي (٤٢١/١٠): رواه البزار، والطبراني في الأوسط بنحوه، وأبو يعلى باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد وثقه غير واحد، وضعفه غيرهم، وإسناد البزار، فيه خلاف. وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٦٠)، والضياء (٢٢٩١).

(٢) تقدم تخريجه.

ثم العلم بملكوت السماوات والأرض وما بين ذلك، وما علا وما سفل، ثم العلم بالحق الذي خلق الله ذلك كله به إلى موجودات الجنة في الدرجات العلا منها، ثم إلى مشاهدة الحق المبين ﴿**يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ**﴾ [النور:٢٥] ثم إلى ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فصل

الوصول إليه ﷻ في الدنيا هو بالعلم واليقين، وذلك قد يكون ابتداء من الله جلَّ ذكره تنبيهًا للعبد وإكرامًا له، لكن المعهود من ذلك بالتذكر وعند عقيب الذكر والفكر والتدبر واستعمال العبرة.

قال الله عز من قائل: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:٢٦٩].

وقال عز قوله: ﴿**تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف:٢٠١].

فلما أبصروا وعاينوا ما وصلوا إليه بإيمانهم قالوا: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ * رَبَّنَا......**﴾ [آل عمران:٨-٩].

والصلاة بحقيقتها جمعت ذلك كله؛ أعني: الفكر والذكر والعلم، والبصيرة فيها أثقب؛ لصفاء أنوارها من أجل بركة الشهود العلي، وما جعلت الصلاة له والذكر والتذكار في الدنيا على حكم العبرة والعلم بما هو المعبور إليه هو الجنة الصغرى، والصلاة خاصتها وسرتها.

قال ﷺ في المعبور له من هذه، وهي الجنة: «**إنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس**»(١).

ومصداق ذلك من القرآن: ﴿**دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [يونس:١٠] وفي التذكر والتفكر وحال وجود العلم وجود الذكر لا محالة التهليل والتسبيح والتحميد وغير ذلك من الذكر.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٧٧٦)، وأحمد (١٤٨١١)، وعبد بن حميد (١٠٣٠)، ومسلم (٢٨٣٥)، وأبو داود (٤٧٤١)، وابن حبان (٧٤٣٥)، والطبراني في الشاميين (١٠١٩).

وقال رسول الله ﷺ: «**كفى بالصلاة شغلاً**»[١].

وقال ﷺ للأعرابي الذي علمه ما يقول في الصلاة: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها ما يكون من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير**»[٢].

أو كما قال ﷺ فالصلاة إذًا جنة معجلة، فهم في حالها بين تكبير وتهليل وتحميد وتوحيد له وثناء عليه، وهو جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه على حالتهم تلك يذكرهم بذكرهم له، ويثني عليهم بذلك حتى أوصلهم إليه دون اسم تسمى به يحجبهم عنه بمعناه، بل مناجاة منه ﷻ لذواتهم بظهر الغيب، ويمكن أن يكون إنما سميت آيات أم القرآن والأسماء التي فيها وفي القرآن: مثاني؛ لأجل ثني ذكر الله ﷻ على ذكرهم له.

قال الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ**﴾ [الحجر:٨٧] أي: ما آتيناكه وأبحناه لك من المخاطبة على حال المشاهدة، وثناء الذكر على الذكر كقوله ﷻ عندما يقول العبد: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢]: «**حمدني عبدي**» ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:٣]: «**أثنى علي عبدي...**»[٣].

وإن هذا الذي هو من ثناء ذكره ﷻ على تلاوة عبده؛ ليقوي الرجاء في حقيقة كرمه، وعلى إجابته أنه كذلك يقول عندما يتلو العبد سائر القرآن فيثني ذكره على ذكر عبده معاني التلاوة، ولهذا كان رسول الله ﷺ كلما مرَّ في بعض تلاوته بآية رحمة سأل، وكلما مر بآية وعيد تعوذ[٤].

قال الله ﷻ:﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ**﴾ [الزمر:٢٣].

ثم قال عز من قائل: ﴿**ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام:٨٨] المعنى.

وإن الذي أنبأ به رسول الله ﷺ عن قول الله جل ثناؤه لعبده إذا قرأ أُم القرآن: «**حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي، فوَّض إلي عبدي، هذا بيني وبين**

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣٥٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٨١٣)، ومسلم (٢٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (٣ ١٢١٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٣٥٩١).

عبدي، ولعبدي ما سأل»[(١)] يدل دلالة تحقيق إنه ﷻ بفضله وكرمه كذلك يقول: متى قرأ العبد غيرها من سائر القرآن يثني جلَّ ذكره على ذكر عبده له، وكلامه العظيم على معنى تلاوة عبده بما تقتضيه التلاوة من معنى.

قال الله ﷻ: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ**﴾ [الزمر:٢٣] وهذه حال يجدوها من أنفسهم في حين التلاوة لذكرهم الله جلَّ ذكره، ولذكر الله لهم بذكرهم له على جميع ما تقتضيه التلاوة من معنى ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ**﴾ [الرعد:٢٨].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يسمع مدى صوت المؤذن شيء من جن ولا إنس ولا شجر ولا مدر** - وفي أخرى: «**ولا شيء**» - **إلا شهد له يوم القيامة**»[(٢)].

ومدى صوته: هو ما يصل إليه مسمعه بالأسماع يسمع صوته سامعه، فيسمع السامع أيضًا ما سمعه إلى السامع منه، فيقول مثل ما قاله، ثم كذلك إلى عليين، ثم كذلك إلى أن يمتلئ الوجود كله قولاً مثل ما قاله وشهادة له.

قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله تملأ الميزان**» والميزان الأكبر: هو عبارة عن كل شيء.

قال: «**وسبحان الله نصف الميزان**».

قال: «**وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض**»[(٣)] والسماء والأرض عبارة عن الجملة علوًّا وسفلاً.

قال: وإذا قال الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] قالت الملائكة في السماء:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مالك (١٥١)، والشافعي (٣٣/١)، وأحمد (١١٤١١)، وعبد بن حميد (٩٩٣)، والبخاري (٥٨٤)، والنسائي (٦٤٤)، وابن ماجة (٧٢٣)، وابن حبان (١٦٦١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٩)، والنسائي (٢٤٣٧)، وابن ماجة (١ ٢٨٠)، والدارمي (٦٥٣)، وأبو عوانة (٦٠١)، وابن حبان (٨٤٤)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٣).

«آمين»[(١)].

ويقول الله جلَّ من قائل: «**إذا ذكرني العبد في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملائه وأطيب**»[(٢)].

وملاؤه ﷻ: هم الذين اصطفى من جملة الخليقة، وهو المكنى عنه بكل شيء، المسمى: العبد الكلي، فالملأ منهم خياره، فمتى هلل العبد أو كبَّر أو سبَّح أو حمد أو ذكر الله صدقه كل ما سمع، وسمع السامع غيره هكذا علوًّا وسفلاً، وتواصلت الشهادة فاتصلت إلى الشهيد الحق العلي الكبير.

قال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلا الله ليس بينها وبين الله حجاب**»[(٣)] وكذلك غيرها، لكن «لا إله إلا الله» لها خاصة من الله ليس لغيرها من الذكر، والوجود كله مأمور بالشهادة المشهود لهم وعليهم، آية ذلك في الوجود الحاضر قول رسول الله ﷺ: «**إذا أذَّن المؤذن فقولوا مثلما يقول**»[(٤)].

وهذا مفصول ومأخوذ من قول الله جلَّ ذكره [أن الموجودات تسمع][(٥)] جميعًا بذلك، وهي قول رسول الله ﷺ: «**لا يسمع مدى صوت المؤذن شيء إلا شهد له**»[(٦)].

وقال رسول الله ﷺ وقد أسحر وبدا وجه الصباح: «**سمع سامع بحمد الله وحسن بلائه عائذًا ربنا صاحبنا، وأفضل علينا عياذًا بالله من النار**»[(٧)] فالسامع يسمع فيقول مثلما يسمع، ويسمع المسمع فيقول مثلما سمع، هكذا إلى المنتهى.

قال الله عز من قائل: ﴿**إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ**﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه ابن ماجة (٧١٨) قال البوصيري (٩١/١): هذا إسناد معلول. والنسائى فى الكبرى (٩٨٦١) وقال: خالف عبدَ الرحمن بن إسحاق مالكُ بن أنس رواه - أي مالكًا - عن الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي سعيد.

(٥) ما بين [ ] به اضطراب في (ق) واستدرك من (ف)، وانظر تفسير حقي (١٤٩/١١).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه مسلم (٧٠٧٥).

[المطففين:١٨-١٩] تقدير الكلام والله أعلم بما ينزل: ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٢٠] و﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧].

ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين:١٩] هي درجات تعلو بعضها بعضًا، لكل درجة أهل شهادتهم فيما هنالك وأعمالهم ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «**فرفعت حتى ظهرت لمستوى سمعت فيه صريف الأقلام، والحفظة تكتب فيما هنا، والمقربون يكتبون فيما هنالك**»(١).

ولذلك وهو أعلم قال: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١].

وعجب من هذا الأمر بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين:١٩] تعظيمًا له من شأن أنه يسمع المسمعين طبقًا بعد طبق في الوجود من رجع الصدى.

وقول رسول الله ﷺ: «**إذا أذن المؤذن فقولوا مثلما يقول**»(٢).

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١].

قال رسول الله ﷺ: «**حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»(٣).

كذلك قال: ﴿كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٧-٩] فأشار بهذا الخطاب إلى السفلي، والشهداء يشهدون هذا وهذا، غير أن شهداء كتاب الأبرار على القرب والمشاهدة، وشهداء كتاب الفجار علمًا حتى إذا كان حين أداء الشهداء شهادتهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور:١١] فالعالم كله على هذا كبيت مليء سُرُجًا وملأ شهادة وأمرًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٤٠] إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [فصلت:٤١] إلى قوله: ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ثم تنزيل من الكتاب المبين - اللوح المحفوظ - إلى ما هو كُتب لكم وتلاوة.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢)، والطبراني (٨٢١)، ومسلم (١٦٣).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦).

«آمين» كلمة مركبة من معنى «آمن» و«إيمان» يقول العبد: «آمين» معناه: آمنت بأسمائك وآلائك وآياتك في الكتاب والوجود كله، وثني قولك: العلي الغائب عنا، ووعدك الحق في إنجازه «آمين» أنجز لنا وعدك يا من لا يخلف الميعاد.

الهمزة من «آمين» صورة ألف، وهي للنداء، والألف الثانية بمعنى: الأمان، وآمين لغة في ذلك كما ينادي المنادي بحرف النداء وتركه.

تنبيه:

فإذًا من آداب الدعاء وحلية السؤال والضراعة إلى الملك المالك الأمر كله أن يقدم العبد بين يدي دعائه التوحيد والإعظام والإجلال، ثم يحمد الله بمحامده التي هو لها أهل يثني عليه ويمجده ويتبرأ إليه من حوله وقوته، ثم يسأل الله الهداية إلى ما يرضيه، وحسن العون على ذكره، وحسن عبادته وشكره، فإنه يتحبب إلى الله جلَّ ذكره بذلك.

ثم يسأل الله بعدما شاء؛ لعموم قوله الحق: «**ولعبدي ما سأل**»[1].

ومن قدم أمر الدنيا نظمها الله له في نظام اقتداء بأم القرآن، وأن المطلوب الأعظم لفي أم القرآن، ويحق ما قال بعضهم: لو قرئت أم القرآن على ميت فحيي ما كان ذلك بعجب؛ لأن «الحمد» اسم من أسماء الله، وكذلك سائر الحروف.

ومصداق ما قاله رضي الله عنا وعنه: قوله جل من قائل: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى**﴾ [الرعد:٣١] فافهم فهَّمنا الله وإياك عنه.

ومعاني أم القرآن لا يبلغها بالحصر عقل صائب، ولا يحويها اللوح المحفوظ سوى علم الله العلي، وقد تقدم معنى هذا، ولا يسع العلم المحدث ولا اللوح المحفوظ علم ذات الله ﷻ وتقدست أسماؤه إلا كتبًا بحكم العموم، فاطلب العلم - وفقنا الله وإياك - من مالكه.

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:٦-١٠].

قوله جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦] هذا متصل بما في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ...﴾ [الفاتحة:٦] إلى آخر السورة من معنى، فمفهوم هذا أن من العباد من لم ينعم الله عليه بنعمة الهداية ولم يفهمه من هذه، وهي النعمة الدينية، ولا نال كمال النعمة بها.

لما ذكر صنفين من المهتدين، وصنفين من الضالين، وأشار إلى صنف متوسط منهما تجاوز ذكر المتوسط إلى الأشقى بقوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[1] [البقرة:٧] تقدير الكلام وهو أعلم بما ينزل: وعلى أبصارهم غشاوة مجعولة عقوبة لهم بما لم ينظروا في آيات الله تعالى وإلى ملكه حتى ختم بذلك على قلوبهم وعلى سمعهم، ومنعهم الفهم عنه والسمع والطاعة لرسله وكتبه، وجعل على أبصارهم غشاوة فلا ينظرون أبدًا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من موجب العهد والميثاق المأخوذ عليه في البدء ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان؛ إذ أطاعوه فـ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع، قال ابن جُرَيْج: وحدثني عبد الله بن كَثير، أنه سمع مجاهدًا يقول: الرَّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد من ذلك كله.

ذلك لأنهم نظروا إلى الموجودات من ظواهرها لا بحقيقة النظر في بواطنها، ونظروا إلى الرسل من حيث هم بشريون، ولم ينظروا إلى البواطن منهم، ونظروا إلى آيات الله في الوجود، والأرض والسماء من حيث المعهود المعتاد لا من حيث هن آيات يُعبَّر بهن إلى ما جعلن آيات عليه.

وشواهد لجاعلهن منذرات ببأسه، ومبشرات برحمته، ومبلغات عنه، فلم يصل النور إلى قلوبهم، ولا سمعوا النداء بأسماعهم، ولهم على ذلك عذاب عظيم، هذا عذاب وعذاب الدنيا لا يشعرون بكثير منه؛ ولذلك لا ينفعهم في الدنيا نذارة، ولا في الآخرة شفاعة.

ثم ذكر ﷻ الصنف المتوسط، وهم أهل الكتاب والمنافقون بقوله الحق: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هو الله العالم بهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩] هؤلاء هم المنافقون.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(١) [البقرة:١٠] بفتح الكاف وتشديد الذال هم المنافقون ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بإسكان الكاف وتخفيف الذال هم اليهود بمشاركة في الوصف مع المنافقين؛ لأن اليهود لم يكذبوا رسول الله ﷺ وإنما كانوا جاحدين للحق الذي علموا به في كتابه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ

---

(١) قال المصنف: فانظر- وفقنا الله وإياك- إلى كل مجيء وظهور وتجلي منه على ما ليس به فهو في حق المنافقين والمكذبين وما كان من ذلك على ما هو به فهو في حق المؤمنين والموقنين لكنه لا بد أن يبقى عليهم في ذلك الموقف معنى من اسمه المبتلى والممتحن؛ لكون المنافقين والمكذبين معهم ثم ينجي المؤمنين بعصمته ويهديهم بإيمانهم وهو الرؤوف الرحيم؛ فهذا أصل لهذا المعنى كيف توجه ثم أحكمه، فمن علمه في الدنيا وعرفه كما أذن له وكما ينبغي له وكما وصف به نفسه وتسمى رآه في الآخرة كذلك ثوابًا لعلمه ومعرفته وبالضد لمن تجاهل وتعاصى وكذب وافترى؛ فنسب إليه ما لا ينبغي له واعتقده على ما ليس به وعلى الرأي تختل الأحوال هناك، وهو العزيز الذي لا يحول ولا يزول لا تختلف به الأحوال ولا تصرف له الأمثال، استرسل بنا عنان اللسان فامتد لذلك طلق اللسان حتى عدل بنا عن نسق الخطاب؛ رجاءً منا بفوز ثواب البيان عن حقيقة هذا النبأ العظيم والبلاغ الكريم ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

﴿فَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة:٨٧].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة:١١-١٥].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾[1] [البقرة:١٤] وصف المنافقين وأهل الكتاب والمشركين.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة:١٦-٢٠].

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ في شياطينهم قولان: أحدهما: إنهم اليهود الذين يأمرونهم بالتكذيب، وهو قول ابن عباس. والثاني: رؤوسهم في الكفر، وهذا قول ابن مسعود. وفي قوله: ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: معناه مع شياطينهم، فجعل «إلى» موضع «مع» كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي: مع الله. والثاني: وهو قول بعض البصريين: إنه يقال: خلوت إلى فلان إذا جعلته غايتك في حاجتك، وخلوت به يحتمل معنيين: أحدهما هذا، والآخر: السخرية والاستهزاء منه، فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أفصح، وهو على حقيقته مستعمل. والثالث: وهو قول بعض الكوفيين: إن معناه إذا انصرفوا إلى شياطينهم فيكون قوله: «إلى» مستعملاً في موضع لا يصح الكلام إلا به. [النكت والعيون (١/٢٠)].

قوله عز من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:١٦] هم أهل الكتاب الذين علموا ما اشتروه من ذلك، وما باعوه وتاجروا به، المعني بذلك: المنافقون.

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ يقول: أهل يهود في ردهم ما جاء به محمد ﷺ وعلى جميع المرسلين كمثل مستوقد نارًا كانوا على هداية نبوتهم، ولما جاء عيسى كفروا به، ومثل اليهود والنصارى معًا كالمستوقد النار ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ وبلغت إلى حد الانتفاع بها أطفوها بردهم ما جاءهم به محمد ﷺ؛ فأذهب الله نورهم الذي كان لهم والذي كان يتم به نورهم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧] سبيل هدايتهم.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] إلى هداية فطرتهم، ولا إلى حيث فقدوا نورهم فيصلحون ما أفسدوه.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾(١) شبه ظلمات كفرهم لما أطفوا نورهم فأظلم عليهم ما هم فيه بظلمة السحاب الممطر الشديد المطر، وفيه الرعد والبرق، فالرعد مثل لخوفهم وعيد الله، ووعيد المؤمنين ما يأتي به القرآن المشبه بالمطر الذي هو الحياء، وقد احتواه الوعيد والرهب، وقد كان المطر تكوَّن في حقهم حياء لو آمنوا ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾ فرقًا ﴿مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ عند صوت الرعد ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة:١٩] وهذا مثل لخوفهم من التعريض والتصريح بهم في الوحي، والأمر بمجانبتهم وذمهم، ومخافة إطلاق الأيدي عليهم.

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قال الطبري: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: الواو، وقاله الفراء، وقيل: ﴿أَوْ﴾ للتخيير؛ أي: مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين، والمعنى: «أو كأصحاب صيب».

والصيب: المطر، واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل، وأصله: صيوب، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت، كما فعلوا في ميت وسيد وهين ولين، وقال بعض الكوفيين: أصله صويب على مثال فعيل، قال النحاس: «لو كان كما قالوا لما جاز إدغامه، كما لا يجوز إدغام طويل» وجمع صيب: صيايب، والتقدير في العربية: «مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا أو كمثل صيب».

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم﴾ البرق ﴿مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة:٢٠] جعل مدة إضاءة البرق لهم كمدة خطرات الهداية لهم أعني: اليهود والمنافقين، كلما خطر لهم الهدى اتبعوه، وكلما صحبتهم العافية من القتل والسبي والموت الذي لا بد منه عاشوا به.

وقد يكون معنى قوله الحق: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ أي: عاشوا ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾(١) أي: ماتوا شبه مدة بقائهم في الدنيا إلى طول مقامهم في الآخرة بخطرة البرق، وزواله بزوال الحياة والعافية عنهم.

والظلمة بعد البرق أشد إظلامًا، وكان هذا إنذار منه لهم بما أصابهم من الجلاء عن أوطانهم إلى تيماء وأريحاء، وما أصاب بعضهم من القتل والسبي، وهم بنو النضير الذي عبر عنه قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر:٢] إلى قوله: ﴿وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا...﴾ [الحشر:٣].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧].

وفي حق المنافقين مع ما تقدم ذكره شبه انتفاعهم بالإيمان والذين يراؤون به بانتفاعهم في هذه الحياة الدنيا من حرز أموالهم، وقبض الأيدي عنهم، كما شبه سرعة انقضاء الدنيا عنهم بسرعة انقضاء خطف البرق إلى جنب ما يصيرون إليه من بقاء الأمد في الآخرة، والبرق موضع الرجاء من العارض المقبل على الأغلب من مجرى العوائد، والرعد موضع الوعيد.

ثم ثنى المثلين أحدهما على الآخر بعدما وجه الخطاب إلى وجهتيه كما ثنى جلَّ ذكره صنفي المؤمنين في أول السورة بعدما وجه الخطاب إلى وجهتيه إحداهما على الأخرى؛ لاشتراكهما في وصف الإيمان والهداية والفلاح، ولذلك داخل بينهما.

ثم قال في الصنفين المذمومين: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: بصفاتهم الظاهرة كما ذهب بصفاتهم الباطنة ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من

(١) قال المصنف: «أي: ثبتوا وقطعوا المشي» [شرح الأسماء ١/١٤٧].

الثواب والعقاب في العاجلة والآجلة ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠].

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] الغيب عبارة عن كل ما بطن فلم يظهر، وغاب عن الحواس الظاهرة والباطنة فلم يعلم بالمشاهدة، بل إيمانًا وتسليمًا، وهو - أعني: الغيب - في حق الأكثرين أكثر منه في حق الآخرين.

قال الله العليم الخبير: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨] يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون، ومن وقف بعلمه على أن لها غيبًا وغيوبًا لا يعلمها فهو عالم بوجه من هذه الجهة، وإنما الموت كله والجهل أجمعه عند من جهل وجهل جهله، ومن عرف علم صورة الجهل، فهو عالم عاقل، وإنما الجاهل من جهل صورة الجهل، ومن طلب الحكمة من طريقها الذي جعله الله دركًا لها وسبيلاً إلى معرفتها أدركها بعون الله تعالى.

وإنما فقدها الأكثرون لأحد وجهين: إما لجهلهم بوجودها وإن مطلوبًا هو الحكمة مدرك، ولزهدهم فيها فنكبوا عنها فلم يرهم الله ﷻ أهلاً، ورفعهم عنها عقوبة لهم؛ لأجل إعراضهم عنها، وربما طلبوها من غير طريقها فضلُّوها، ولم يدركوها من تلك الطريقة لم يطلبوها من طريق أخرى، بل كذبوا بوجودها وأنكروا أن تكون لها صورة خاصة، فيحملهم جهلهم على أن يجهلوا.

ثم قد يكشف الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بصائر بعض عباده فيبصرونها في غيابات الغيوب بما لا يراه الغافلون، ومن هؤلاء؟ هم المتقون الذين يؤمنون بالغيب، فيعلمون لله جلَّ ذكره رغبًا ورهبًا؛ ذلك لما أدركوا ببواطنهم غيوب الآخرة رأوا غيب الحق، وشاهدوه علمًا ويقينًا، وهؤلاء هم الموقنون.

واعلم أن للغيب غيبًا كما أن للظاهر غيبًا وسرًّا وخبأ، كذلك للغيب، بل هو أعرق وصفًا في الغيب، وهذا القول منا على سبيل التقريب، وبحكم ما هو مضاف إلينا، وإلا فهو علم واحد له أدنى وأعلى فافهم، فلا تزهدن في الازدياد من العلم، ولا تقنعن بأوائله، وطالب وثابر ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] ويعلم السر في السماء،

ويخرج الحب في السماوات والأرض.

فصل

وأصل التقوى: من الوقاية، وأقل التقوى: اتقاء الشرك الأكبر وما جرَّ إليه من المعاصي، وما جرَّ إليه أيضًا في أثناء الطاعات، والتقوى باطن.

قال رسول الله ﷺ: «**التقوى ها هنا**»[1] وأشار إلى صدره، وربما جاء ذكره مستوعبًا في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

والتقوى عمل الإيمان، كما أن الانتهاء عن المعاصي التي ركوبها نقيض التقوى من علم الإسلام بواسطة التقوى، وإذا صح التقوى من العبد فتح له باب الهداية في باطنه، فانشرح لذلك صدره، وطلعت له شمس اليقين، فانجلت بها في حقه الظلمات، وأضاء له باطنه وظاهره وما بين يديه وما خلفه.

واعلم - وفقنا الله وإياكم - أنه كما لهذه الدنيا شمس يستضاء بها ويعلم بها الليل والنهار وتتبين بها المبصرات من الأشخاص والأجرام وما يقدر تقديرها، فكذلك الباطن له من إيمانه ويقينه شمس يميز بها الصور الباطنة المعبر عنها بالمعاني، كالخير من الشر، والذكر من الغيبة، والأولى من الأدنى، ويرى بذلك الراجح التام من الناقص، والخبيث من الطيب، وعلى درجات ذلك في معارفه ودقائقه.

وإذا بلغت هذه الصفة هذه الدرجة فهي الحكمة ﴿**يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:٢٦٩] أي: الذين يتذكرون الحق الذي إليه المصير من الحق المخلوق به السماوات والأرض.

ويومئذٍ يكون هذا الباطن سميعًا بصيرًا عاقلاً يعقل تلك من هذه، وربما ثبتت الحكمة في هذا العبد فذاق بالغيب، وشم وأحس من مثل دبيب النمل رؤية وسماعًا وحديثًا حتى أنه ليحس دبيب مكروه الخطوات قبل نزولها إلى لوح قلبه الذي عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في**

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٣)، ومسلم (٢٥٦٤).

الليلة الظلماء»[1].

وقال الله جل من قائل: ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن:١١].

وقال عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ**﴾ [الحديد:٢٨].

وعن هذا المعنى المعبر بقولنا هذا عبر رسول الله ﷺ عن حاله في درجته بقوله: «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله أزيد من سبعين مرة**»[2].

وكان هذا بوجود كونه بشرًا، وبما طهره الله له، وشرح صدره، وغسل قلبه وملأه من الحكمة والإيمان، فكان يجد ذلك على بعد ويشعر له، ومن تحقق في الاقتداء به ﷺ فهو من ورثته ومن إخوانه، بلغ الله بنا وبكم أنه قريب مجيب.

ثم يكون عن النور المذكور في هذه الآية ما يفتح الله لهم من الشعر والذكر والفطنة والإلهام والمحادثة، فتتحقق التقوى في باطنه ويكون من المتقين، يعلم من معالمهم ويهتدي لهدايتهم، كما قال عن من قائل: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة:٢-٣].

قال رسول الله ﷺ: «**والله إني لأرجو أن أكون أتقاكم لله ﷻ وأعلمكم بما أتقي**»[3] وبالتقوى التي تمنع عن المناهي فنجوا من العذاب، وبالتقوى التي هي من قبل العلم والإيمان ارتقوا في درجات الزلف ومنال الرضوان، وكما لابن آدم ذكر أولي وذكر أعلى وعقل أولي ثم أعلى، فكذلك في الشعر والفطنة والعلم وجميع الصفات.

وهذا قول محمول على وجه من التجوز، بل كل صفة لها أول هو أدناها إلى الفطرة، ولها أعلى وهو من قبيل حياة الإيمان التي هي العلية بالإضافة إلى حياة

---

(١) أخرجه الحكيم (١٤٧/٤)، وأخرجه الحاكم (٣١٤٨) وقال: صحيح الإسناد. وأبو نعيم فى الحلية (٣٦٨/٨) والديلمى (٣٦٧٤) والعقيلى فى الضعفاء (٦٠/٣، ترجمة ١٠٢٤ عبد الأعلى بن أعين)، وقال: جاء بأحاديث منكرة ليس منها شيء محفوظ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٨١)، وعبد بن حميد (٣٦٤)، ومسلم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٤٦)، وابن حبان (٩٣١)، والبغوي (٨٩)، والطبراني (٨٨٧).

(٣) أخرجه الخلال في السنة (١٠٥٢)، وأبو يعلى في المسند (٤٤٢٧).

الجسم منبعثها عما عبر عنه قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢] فكذلك التقوى أيضًا لها أول وأعلى، وبالأول واستعمال طاعة الله ورسوله يدرك الأعلى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٥].

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] [البقرة:٢١] فأعلمك ﷻ نصًا صريحًا أن الأعلى يدرك بالتقوى الأدنى، فإنهم ما عَبدوه إلا بالتقوى، ثم أتحفهم بعد ذلك بعلي التقوى، وعلى هذا يأتي ذكر هذه الصفات في القرآن العزيز.

والرزق قد يكون القوت، وقد يكون العلم والذكر والفطنة والفهم عنه،

---

(١) إن قيل: إذا كانت العبادة تقوى فقوله: ﴿اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما وجهه؟ والجواب من وجهين: **الأول**: لا نسلّم أن العبادة نفس التقوى، بل العبادة فعل يحصل به التقوى؛ لأن الاتِّقاء هو الاحتراز عن المَضَارّ، والعبادة فعل المأمور به، ونفس هذا الفعل ليس هو نفس الاحتراز بل موجب الاحتراز، فإنه تعالى قال: ﴿اعبدوا رَبَّكُمُ﴾ لتحترزوا به عن عقابه، وإذا قيل في نفس الفعل: إنه اتقاء، فذلك غير ما يحصل به الاتقاء، لكن لما اتصل أحد الأمرين بالآخر أجري اسمه عليه. **الثاني**: إنه تعالى إنما خلق المكلفين لكي يتقوا ويطيعوا على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فكأنه تعالى أمر بعبادة الرَّبِّ الذي خلقهم لهذا الغرض. تفسير اللباب لابن عادل (١٤٦/١).

والإلهام لمراشده علمًا وعملاً، وهو الرزق الأفضل على ما تقدم ذكره.

قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] كما قالت مريم - عليها السلام: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يعلم»[١] فهو لا يبهم عليه باب من أحد الرزقين إلا رزقه من حيث لا يحتسب، ولا يعتاص عليه معنى من الفهم، ولا يسد عنه باب من العلم إلاجعل الله من أمره ذلك مخرجًا في الأغلب من أحواله.

ومصداق هذا قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] وأخبر ﷻ أن ذلك من أمره أنزله إلينا، وأعظم اليسر ما يفتحه الله ﷻ على بواطن المتقين، وينزله عليهم من فتوحاته وإلهامه.

ثم قال جل قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥] وإعظام الأجر للمتقين إعلاؤه إياهم إلى رفيع درجاتهم، وإصلاح بواطنهم، وفتح مغاليق ما ارتج دونهم من مغارب غيوب المعرفة، وهو نوع عظيم من القبول الأعلى.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] أي: القبول كله أول ذلك، وأدناه أن يقول العبد: «لا إله إلا الله» مخلصًا من قلبه، فيتقبل أعماله وتحبط سيئاته، ويدخل بها في الموازنة، فكيف يرى قبول عمل من قالها عالمًا بها، مشاهدًا لعلمها، عارفًا بما شهد، مستشعر التقوى بها؟ فالتقوى علم وعمل وإيمان وإسلام، وإن لربكم نفحات فتعرضوا لها.

فمن الغيب الذي هو موجود إيمانهم ومشهود غيبهم، فهو كثير جدًّا لا ينحصر أبدًا، بل لا يعلمه إلا عالم الغيب والشهادة ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ [ليكون العبد][٢] في غاية الافتقار إلى تحصيل ما لا بدَّ تحصيله من ذلك.

---

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (١/١٠٥).

(٢) ما بين [ ] زيادة لإيضاح السياق.

قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر**». وفي أخرى: «**وبالبعث الآخر، وأن تؤمن بالقدر كله خيره وشره وحلوه ومره، وكله من الإيمان بالغيب**»[1].

ثم تفصيل ذلك بواسطة الاستدلال والنظر والتفكر والاعتبار وتحصيل البراهين للإيمان بالله ﷻ وكتبه ورسله وبأسمائه كلها وصفاته ما علمت منها وما لم تعلم.

ثم مجاري ذلك كله في العالم ومسالكه في طرقات الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو مجال رحيب وفضاء فسيح لعتاق السابقين وميدان كريم لأعلام المتقين، وهو أصل لما تفرع عنه، وأمر حق لما ورائه، وإيمان علم له ولما يأتي بعده، وإمام حق لما يؤمه منه.

فصل

ثم درجات منها تترقى إليها إن سمت بك همة، وهي ستة معالم احتوت على معارف أحكام الملكوت التي أطلع الله ﷻ عليها خصوص عباده وكلفهم تعلم علمها، وأن يعملوا أفكارهم ويصرفوا فطنهم فيها، وأن يديموا اشتغال هممهم بالبحث عنها والتفكر في معالمها، سابعها المطلوب الأكبر والمعتمد الأعظم، هو كل الكل مبديه ومعيده، وأوله وآخره وظاهره وباطنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

منها تكوينه ﷻ الأشياء كله لا من شيء، وإقراره الأشياء كلها لا على شيء، وإدخاله الواسع في الضيق، ولم يوسع الضيق ولا ضيق الواسع، وإيراده الصغير على الكبير، وإيراده الكبير على جزء من ذلك الصغير، وحجابه الإنسان عن رؤية موضعه ومشاهدته، وإظهاره له عالمًا آخر في موضعه ذلك، ولم ينقله عن موضعه ذلك، وتفتيته الجسد في التراب لأعين أهل الدنيا، وهو مع ذلك صحيح تام عند آخرين، وتنويمه الجسد عن الأكل والشرب والنكاح في موضع وإيقاظه إياه يطعمه ويسقيه في موضع آخر وعلى حالة أخرى ولم ينقله من موضعه، فدونك -

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٩٧)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وابن ماجة (٦٤).

وفقك الله تعالى وكان في عونك - هذه المعالم فابحث عنها واشغل نفسك بها.

وكل ما يرد عليك من غرائب العالم في هذا الكتاب فلن ينافي ما ذكرناه إن شاء الله تعالى، فعلمك قد سبق بـ«**أن الله جلَّ ثناؤه كان ولا شيء معه**»[١] مذكورًا سواه، ولا وجود لشيء معه في أوليته التي لا ابتداء لها، أحدًا في أوليته، صمدًا في آخرته، ولا آخرًا لم يزل، ولا يزال على ما لم يزل، ثم خلق المخلوقات، وفطر الأرضين والسماوات والعلو والسفلى، خلق الدنيا والآخرة وأوجد الزمان والمكان والمسكن وغير ذلك.

فهو خلق المخلوقات في لا مخلوق، وأوجد الموجدات والمحدثات لا في محدث، ومعنى ذلك أنه خلق الزمان والمكان لا في مكان ولا في زمان، والخليقة كلها لا في خليقة، بل أثبت ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الأشياء كلها لا على شيء، فإذًا لا حدث للجملة غير مشيئته، ولا حامل لها سوى قدرته، ولا علة لمصنوعه غير صنعته؛ إذ لو توهمنا غير هذا لوجب حكم التسلسل أبدًا.

قوله للكائن: «كن» أي: على وفق مقدار مشيئتي فيك وإرادتي منك، خطابه لذات الشيء بـ«كن» خطاب متوجه إلى ذاته وصورته ومادته وجميع توابع وجوده؛ ليكون الكائن على ما سبق في علمه وكما تقدم في تقديره له ومشيئته فيه.

كذلك ومن وصف المخلوق التغير والحيلولة والفقر والانتقال ووجود الاضطرار إلى مدبره القائم به، والاستسلام إلى عظمة موجده، فإذًا المعلوم ببداية العقول أن جميع ما أوجده هو سواه وما هو سواه، فهو عبد له، هو القائم به القيوم عليه بما هو بقاؤه ودوام وجوده، وأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الآن كما لم يزل بما لم يزل، ولا يزال كذلك أمدًا وأبدًا إلى ما لا نهاية، كما لم يزل من غير بداية.

وهو فيما خلقه بوجود عليّ لا يشبهه وجود ولا يماثله شيء، لا يتصوره وهم ولا يكيفه عقل وهو فيها بأسمائه وصفاته لا يغيب عنه شيء، وهو الشهيد القريب، لا يعجزه شيء ولا يبعد عليه، يشهد المخلوقات أجمعها بما هو خالق، والمرزوقات بما هو رازق، والمدبر بما هو مدبر، والمتحرك والمحرك والمتحرك

---

(١) تقدم تخريجه.

فيه، وكذلك الساكن والمسكن فيه.

يشهد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الضلال من الضال بما أضله، والهداية من المهتدي بما هداه، والوحدة من المخلوق بما وحده، والكبير بما كبره، وكل موجود بما هو موجود من جميع معاني الوجود كلها، يشهدها شهود حضور ومشاهدة نزيهة، لا شهادة علم فقط؛ إذ أحكام الحدوث وتوابع أحكام الخلقة لا تجوز عليه، ولا يصل إليه ﷻ عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

آية ذلك الشمس والقمر هما في علو محلهما، والضياء والنور منبسط عنهما على الأرض وهواء الجو والخليقة، فما انبسط عن كل واحدٍ منهما من ضياء أو نور، والله أعلى وأجل ﴿**لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [الروم:٢٧].

هو الكبير المتعال، لا يواري عنه شيء ولا يكِنُّ عنه شيء، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا يواري منك ليل داجٍ، ولا سماء ذات أبراج، ولا أرض ذات مهاد، ولا بحر لجي، ولا ظلمات بعضها فوق بعض**»[1] ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ [غافر:١٩].

علم في أوليته التي لا ابتداء لها الكون كله من أوله إلى آخره بتوابع وجوده كلها، بعلم هو صفته، وقدرة ومشيئة هما وصفه، ثم بعد ذلك أوجده على سواء ما قدره، شاء ما قدره، واقتدر على ما أوجده، وأحاط بذلك كله إحاطة ناهية كاملة، ولو شاء أن يشأ أكثر مما شاءه لشاء، كما لو شاء أن يقتدر على أكثر مما اقتدر عليه لاقتدر لا إلى نهاية، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.

لا يعلم أحد سواه كنه قدرته، ولا سعة علمه، ولا إحاطة مشيئته، وهي مفاتح الغيب على الحقيقة، بها أظهر ما أظهر، وأوجد ما أوجد، وأضرب عما لم يشأ إظهاره وإيجاده، لم تحجبه الخليقة عن أنفسها، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فلم يمتنع عنها ولا من أجلها أن يوجد فيها بما هو حيث شاء، كيف يجوز عليه حكم ملكه أو يمنعه عناد عبده، تعالى عن ذلك القوي العزيز.

(١) أخرجه الديلمي (١٩٩٩).

حقيقة وجوده لا في حيث ولا في كيف ولا متى ولا أين؛ إذ أحكام الخليقة وتوابع الوجود لا تناله، ولا ينبغي لها الوصول إليه بوجه، بل هو الذي حجبها عنه بها وبما شاء من أحكام مشيئته ونعوت تعاليه وشموخ عظمته، له المثل الأعلى في السماوات والأرض وفيما علا، هو العزيز الذي امتنع عما لا يجوز عليه ويستحيل لديه، الحكيم الذي أحكم الموجودات شاهدة له دالة عليه، قانتة عابدة له، معترفة بالقصور عن وجوده العلي على لزوم وجود الآية إياها.

وكما «**كلتا يدي ربي يمين مباركة**»(١) وهو على ذلك النزيه القدوس عما أوجده في الخليقة، كذلك وجوده العلي، وهو في كل مكان بحيث لا مكان، ومع كل شيء لا صحبة ولا حلول، فإذا تمهد هذا واستنار جدًّا فهو إذًا قرب إلى كل شيء من نفس ذلك الشيء إليه؛ أعني: إلى نفس ذلك الشيء، بل أقرب بقرب لا يضاده بُعد، فعلى هذا إذًا ليس في الوجود سواه مما عداه، فأعراض عارضة وأفياء زائلة تتعاقب بمقدار إيجاده إياها وإعدامه لها إمساكًا وتدبيرًا، تثبت تارة وتستحيل أخرى، والحامل لها والممسك لها قدرته ومشيته.

فصل

آية إيجاده جميع الموجودات بعد عدمها، وإيراده إياها على قدم أبده إيجاده النوم، ثم إيراده على يقظة اليقظان، وإيجاده اليقظة ثم إيراده إياها على نوم النومان فيقبض النوم في حال اليقظة، ويقبض اليقظة في حال النوم، لكن النائم واليقظان مختلف عليهما الأحوال في حالتي اليقظة والنوم، وهو ﷻ لا تختلف على أبد قدمه الأحوال.

ومن آيات ذلك أيضًا: ﴿**اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ [يس:٣٧] والنهار يكشط عنه الليل فإذا هم مبصرون، والليل في حال النهار، والنهار في حال الليل في حكمه واختزانه.

قال رسول الله ﷺ للتنوخي يوم بلغ إلى رسول الله ﷺ كتاب هرقل، وفي

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٤)، وابن بطة في الإبانة (٢١٢٦).

الكتاب: قلت: ﴿**سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران:١٣٣] فأين إذًا النار؟ فقال رسول الله: ﷺ «**سبحان الله، وأين النار إذًا**»(١).

ومن آيات ذلك أيضًا: جعله للآخرة في باطن الدنيا، كذلك جعل الجنة في السماوات، والأرض باطن في ذلك، وظاهره سماوات وأرض.

ومن ذاك: أن قسّم الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الموجودات على دارين؛ خلق إحداهما وهي الدنيا عن الآخرة بالمصير إليها، وهي الأولى بالإيجاد، وهي الآخرة بالمصير إليها أوردها على الأولى، وهي بالإضافة إلى تلك أصغر جزء من أجزائها، كذلك خلق ﷻ من أوائل الأحباس كل زوج عن زوجه.

قال رسول الله: ﷺ «**إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فأذن لي أن أتنفس، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف**» قال ﷺ: «**فأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير، وأشد ما تجدون من الحر فمن جهنم ومن السعير**»(٢).

فهذه الصغرى تأسست على هذين النفسين، وهما شعبة يسيرة من بعض تلك الكبرى، فامتدت بها أفنانها، ولذلك ما أشبهتها فدلت عليها، لكن على المزج والقلة، والصغرى بالإضافة إلى تلك، وعلى مصاحبة الرحمة في هذه؛ إذ جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها في الدار الآخرة - مع عدم المزج فيها وعظم قدرها قد خلت من الرحمة، وتعقبت من الرأفة والنفسان المذكوران في هذه نزعهما الله رحمته ﷻ عن تعدي الحد المحدود لهما زائدًا إلى رحمته الموجودة عن سنة المزج.

ومن ذلك: ما يتصل بما قبله مفهوم قوله ﷻ: هو ﴿**الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ [النساء:١] والمخلوق من صاحبه من الزوجين هو الأنثى، والمخلوق منه هو الذكر.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التفسير (١٠٤/٢)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٥/٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣٣).

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] فخلق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه آدم ﷺ من قبضة قبضها من الأرض، صور من بساطتها خلقته الباطنة، ومن ظاهرها خلقته الظاهرة حتى سواه على ذلك، فزوج ما خلق من هذه الخلقة هو ما ظهر منها كخلقه حواء من جملة آدم عليهما السلام.

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه وحده متصلاً بما تلوناه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

وكما خلق ﷻ من كل زوج زوجه كذلك خلق لكل قرين قرينه، ولكل مثل مثاله.

قال الله ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨].

وكما قال: «لكل شخص ظل» فكذلك لكل حق حقيقة، ولكل عين معنى، ألا ترى أنه جلَّ ذكره اجتزأ بذكر سجود الظلال عن ذكر سجود أشخاصها، ثم حكم عز جلاله بحكمه الحق، والحق المسكوت عنه بحكم المنطوق به في قوله عز قوله: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ...﴾ [النحل:٤٩].

فصل

ظلال الأشخاص يدل عليها أصول النيرات

قال الله جل ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٥-٤٦].

وكان رسول الله ﷺ يقول في سجوده: «**سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي**»[1].

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣٨).

كذلك لكل موجود ظاهر وجود باطن يدل عليه، وجود النور العلي غيبًا بواسطة العلم، آيته في الظاهر ما ينطبع في الأجسام الصقلية؛ لأن الروح إلى النور، وما هو من الأجسام المظلمة لا تنعكس فيها الأنوار، ولا تدل عليها الأضواء؛ ولهذه العلة أدرك شعاع البصر المرئي في الهواء بحلول النور فيه، وألطافه الموجودة المثالي له يتصوره البصر في الهواء كما تقدم ذكره من علة النفوذ فيه والذهاب بخلاف الأجسام؛ فالظلال التي هي ظلال الأشخاص يتبين سجودها بموجودها، ويدل على ذلك أضواء النيرات وانقباضها عنها وانبساطها عليها حال تسيارها في تقلبها يمينًا وشمالاً ووراءً وأمامًا.

والوجود المثالي يتبين سجوده للعقل بنور الإيمان وصحة إدراك البصيرة بنور الوجود العلي حال تقلبه في الكون، وحوالة الأحوال الجارية على مثاله الظاهر، ثم في حال التعبد لبارئه يحسن التوجه إليه، وهو الذي عبَّر عنه قول رسول الله ﷺ: «**سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي**»[١].

قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿**وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم**﴾ [الرعد:١٥] فسجود كل من في السماوات والأرض طوعًا هو سجود جملته، وسجود الموصوف بالكره هو سجود مثاله الباطن، كسجود ظلال الأشخاص سواء؛ أعني: إنه ساجد بغير علم ما هو مثال أو ظل، وهذا عام وجوده في الكافر والمؤمن والعاصي والطائع.

﴿**ولله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ [الرعد:١٥] وهذا سجود لازم لكل موجود كلزوم الظلال أشخاصها، وكما لم يعدم الظلال إذا لم يكن عليها دليل من أضواء النيرات؛ إذ كانت العلة في وجودها وجود الأشخاص التي كانت ظلالها لا وجود الأنوار التي ظهرت بها، بل هي موجودة وجود لزوم، فإذا حضر الدليل عليها ظهرت، وإذا غاب بطنت لغيبته، فالوجود المثالي إذًا وجب لزومًا لقدوم ظاهره، وأحق حقيقة من ذلك جدًّا؛ إذ الدليل عليه لا يوصف بالغيبة ولا يحجبه حجاب، ولذلك أيضًا لا يموت وإنما

---

(١) تقدم تخريجه.

موته تغير واستحالة.

فصل

هذا المثال يتزكى بتزكي الظاهر ويتردى برداه، ما عدا الموت الجسماني.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٧-١٠] وهذا خاصة للمؤمن، وإنما استوت نفس المؤمن بما فيها من روح الله جلَّ ذكره.

أصل ذلك: قال الله جل قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله ﷻ: «**إني لا أطلع على قلب عبدني فأجد الغالب على قلبه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي تبطش بها...**»(١).

وقال ﷺ: «**يقول الله جل من قائل: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمي، وظمئت فلم تسقني، وفيه قال: يا رب، متى كنت جائعًا؟ فتطعم أو عاريًا فتكسى، فيقول ﷻ: أما لو فعلت ذلك بعبدي فعلته بي**»(٢).

ومثل هذا الكلام فمعناه في الكتاب الذي يذكر إنه الإنجيل، وهذه الطبقة المشار إليها بهذا الذكر توصف مرة بالحدوث، وبوجه لا يحسن وصفها به، وكل ما بان عن الله ﷻ وتعالى علاؤه شأنه وصفاته فمخلوق ومربوب، ومن تحققت عنده وفيه هذه الصفة النفيسة دخل في الولاية.

ثم هم درجات عند الله جلَّ ذكره ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦] فلقد خاب من دساها، ولقد أفلح من زكاها. وفي وصفها قال بعضهم:

تقدس بالنفس النفيسة نفسه ... فنفس له عُليا ونفس له سفلى

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**يعقد الشيطان على قافية أحدكم ثلاث**

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

عقد..»[١] والقافية: هو ما يقفو المقفو، فإذا عقد الشيطان عليها أو أصاب منها بعض بغيته أصبحت نفس المؤمن كسلى خبيثة، وبالضد مع استعمال الكيس، والأخذ بالوثيقة في مرضاة الله ﷻ.

فصل

يقرب معنى ما تقدم ويبيّنه مفهوم قول الله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] مع قوله عز قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] مع قول رسول الله ﷺ في الجنازة حال حملها: «إن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير ذلك يقول: يا ويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين: الإنس والجن»[٢].

وما جاء عنه من ذكر عذاب القبر أو نعيمه أخبر الله ﷻ بقوله الحق: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] فهي ولا بد ذائقة، وموتها: مفارقتها الجسد الذي قرنت إليه وزوجت به، وموت النفس وفاة.

قال الله ﷻ: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢] ووفاتها: أن تسلب صفاتها كالعلم والعقل والميز، وهو موتها، ثم ترد إليها بعد ذلك لتنعم أو تعذب، ألا ترى أن من النوم ما يعدم النائم فيه صفات نفسه حاشا روح الحياة.

ومنها: ما تبعث النفس فيه إلى الرؤيا ومشاهدة الحقائق، فشبهت الحال الأولى بالموت للجملة، واليقظة منها بالبعث، وهي أيضًا مشبهة بالوفاة، وكونها رائية في منامها ذلك مبصرة عالمة بعث الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] أي: في النوم، وجعل ذلك آية من آياته على بعثه الموتى في حال الموت، فإذا أحياها في حال موتها أصارها إلى حقيقة وجودها، وهو المثالي فتنعم أو تعذب وتتألم وتحس وتعقل.

---

(١) أخرجه مالك (٤٢٤)، وأحمد (٧٣٠٦)، والبخاري (١٠٩١)، ومسلم (٧٧٦)، وأبو داود (١٣٠٦)، والنسائي (١٦٠٧) وابن ماجة (١٣٢٩) وابن حبان (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٩١٢١).

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه وجده: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة:٦٠-٦١] أي: في بواطنكم نبدلها من ظواهركم التي عطلها الموت وننشئكم - أي: الأجسام - في مدة البرزخ فيما لا تعلمون، يصيرهم بقدرته في طبقات البِلَى، وأوصاف أنواع الأرض والثرى من معادنها ونباتها، ينقلها من خلق إلى خلق، وينبتهم في أنواع أتربتها، فإذا كان يوم البعث الآخر أمر كل شيء أخذ من شيءٍ شيئًا أن يرده على طريقه الذي ذهب ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٧].

لذلك قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:٦٢] وقال عز من قائل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [المعارج:٤٠-٤١] أن يذهب بهم ويأتِ بآخرين خيرًا، هذا وصف يعبر به عن تحول الأحوال على الجسم حال البلى منهم يخلفونهم.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ [المعارج:٤١] أي: إذا أذهبنا بهم بالموت والإهلاك على أن نبدلهم في أمثالهم، وذكر السبق هنا عبارة عن سرعة تأتي ذلك دون زمان موجود، بل ذلك كوجود الظل عن شخصه، وكل وجود موجود لما وجد له.

فصل

اعلم - لقننا الله الصواب - أن الموت الذي هو فراق الباطن ظاهره موتان، كذلك الوفاة وفاتان، فموت أدنى وموت أعلى، هذه عبارة عن تبديل البواطن إلى مثلاتها تأتي حال الموت.

ثم هو ﷻ ينشئها في دار البرزخ ما بطن عنا الآن، كقوله عز من قائل: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

وقال ﷺ في ابنه إبراهيم: «إن له مرضعتين في الجنة»(١) أو قال: «يتمان رضاعه في الجنة»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٢١٢٣)، ومسلم (٢٣١٦).

(٢) أخرجه ابن سعد (١٤١/١) والروياني (٤١٧) وابن عساكر (١٣٧/٣) وعبد الرزاق (١٤٠١٣) وأحمد (١٨٦٤٧) وأبو يعلى (١٦٩٦).

والوفاة كذلك، والعبارة عنهما بأنهما اثنان تجوز في عبارة، وإنما هو نشوء من أدنى إلى أعلى، فالموت الأدنى موت الكافر، والأعلى حال الشهيد التي لعلوها نهينا أن نسميها موتًا، وكذلك الوفاة الدنيا هي أن تسلب النفس صفاتها كما تقدم ذكره أو كما شاءه الله، والعليا: أن يلحق كثيف الجملة بلطيفها، فيتوفاها على ذلك كتوفيه رسول الله ﷺ عيسى ابن مريم.

وما بين هذين القسمين محال، ومنازل يحلها بالموت والوفاة من أهله الله لما شاءه له من ذلك، وكذلك الإسراء على ما تقدم وصفه، فعلى ما تقدم ذكره مما ورد بالكتب والوحي ليست حياة الكافر هنالك بكمال حياة المؤمن، ولا حياة من ليس بشهيد كحياة الشهيد، بل حياة ما هنالك أن يكون ظاهر الجسم استقل عنه من حياته هنا معطلاً من الحياة، مقطعًا أعضاؤه، وقد صار رمادًا أو ترابًا في حكم ظاهر الرؤية وباطنه حتى ينعم أو يعذب يحسبه الذين لا يشعرون ميتًا في بادئ الرؤية وظاهر الحال، وهو حي أشرف حياة وأكمل من حياته الجسمانية لو يعلمون.

قال الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧] ومن غيب الغيب أن جسم الشهيد مقطعًا ممزقًا مأكولاً وترابًا وعدمًا، وهو في الحقيقة موجود حي سوي عند الله، وعند الملائكة وأهل الآخرة، وإن كان هذا قد يبعد على قضايا العقول الأولى فإنه يقرب إلى العقل الأعلى الذي تقدم ذكره، وهو الذي عدمه الأكثرون إلا من أيقظه الله.

وأما الكافرون: فصم بكم عمي في الظلمات، أموات غير أحياء، وكما قد يحسب الكافر حيًّا وهو ميت عند الله ﷻ وعند الملائكة - عليهم السلام - وأهل الآخرة، فكذلك كثير من هذه المشاهدات التي أخبر بها القرآن العزيز، وهي على غير ما يشاهد منها كأجسام الشهداء، وأهل الحياة الدينية.

وقد نصَّ القرآن على كثير منها، ربما نبهنا عليها عندما يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى، وإلا فهذا أصل لما هو في معناه، وإنما يرى هذا الشأن ويشاهد بحواس الحياة العليا التي ليست للكفار والمنافقين والغافلين، وقد تقدم من تمهيد هذا في صدر الكتاب ما يغني عن الترداد، وهي من أوائل عجائب الآخرة، ماذا يعاين ذو العينين من عجب يوم الخروج من الدنيا إلى الله؟ انتهى.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ...﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

مثال ذلك في الحاضر: حياتنا هذه الحياة الدنيا وما يتخللها من معاني الموت، كالجهل والنسيان والذهول والنوم وما شابه ذلك، وأن الأمر ينشأ إلى أعلاه.

ومن ذلك أيضًا: هذه الأجسام المشاهدة من نبات وحيوان يتغذى مما يتغذى به، فيخلق الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عن ذلك الغذاء أجسامًا لو تجمعت في الجسم المتغذي دون أن يتخللها إعدام لذهب الجسم، وبتجمع تلك الأجزاء وتراكمها عن حدوده وذهب عن المقصود به، لكن سنة الله ﷻ في خليقته أن يعدم من تلك الأجزاء ما شاء، ويخلف فيها ما شاء أجزاء غيرها، فهو أبدًا خلق.

ويعلم هكذا خلقًا وأمرًا، وهو الخلاق العليم على الدوام أبدًا، ويظهر الجسم على المقدار الذي قد كتبه القلم العلي قبل البدء الأول في كتاب المقدار تدبيرًا وأمرًا، يخلق قسطًا ويعدم قسطًا، يرفع قسطًا ويخفض قسطًا، وعلى ما شاءه من خصب وجذب زيادة فيه أو نقصان منه، فربما أبقاه على المعهود من حاله مع تحديد الزيادة فيه أو النقصان منه.

وكما قد سبقه في كتاب المقدار وفي اللوح المحفوظ فهذا موت باطن وإحياء باطن، وإعدام وخلق باطنان، وإن أحدنا لا يكاد يشعر بهذا التمزيق، ولا إعدام المذكورين لبطونهما علمًا وعقلاً، فكيف مشاهدة؟ كذلك في كل شيء في السماء والأرض والجبال وغير ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وعلى هذا أتقن صنعه ﷻ وأوجد خليقته؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] فأعلمك مما ذكرناه نصًا، والحمد لله رب العالمين، فافهم.

وكذلك فاقطع إذًا بظهور الإعدام والتمزيق، ويكون الإيجاد والتجربة بعد الموت ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١] كما قال: ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦١] هو الخلاق في جيمع الأجسام على الدوام، وهو العليم بحيث يصير ما أعدم منها، وذلك قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: الأجسام منهم.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:٤] كذلك هو العليم بما إليه يؤولها ويجعل إليه عاقبتها، وهو بكل خلق عليم، عبر عن هذا الحق في الوجود بقوله الحق في النبأ العظيم: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان:٢٨].

يقول وهو أعلم بما يقول: وإذا شئنا أعدمناهم في هذه الحياة الدنيا بالموت، وبدلناها في حقائقهم ومثالاتهم تبديلاً، هذا هو الحق الذي إليه مصيرنا، فاعلم.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال للجن ليلة لقيهم وعلمهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن فسألوه الزاد، فقال ﷺ: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوْفَرَ ما كان لحمًا، وكلُّ بَعْرَةٍ علَفٌ لِدَوَابِّكم**»[١] أي: ما يأكلونه في حياتهم هذه إلى الموت من حلال أحل لهم، ذلك هو الزاد الذي متعوا به في هذه إلى أن يصلوا إلى الآخرة المقصود بسؤالهم لرسول الله ﷺ، وجوابه إياهم التحليل والتحريم، وما يجوز لهم استباحته فعلى مفهوم هذا الخطاب أن الكفار أيضًا يجدون كل عظم مسلوبًا من لحمه أوفر ما كان لحمًا في باطن الحال عنا فأعلمهم ﷺ بما يحل لهم مما حرم عليهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١] والمؤمنون منهم لا يأكلون مما لم يذكر اسم الله عليه، والكافرون منهم ممنوع منهم ما ذكر اسم الله عليه تحريم كون، وكما يكون العظم مسلوبًا من لحمه وهو في باطن ذلك أوفر ما كان لحمًا، فكذلك جسم المؤمن والشهيد حي عند أهل الآخرة، وإن كان عند أهل الدنيا على خلاف ذلك، كذلك الكافر يُحيى بعد موته حال موته فيحس ألم ما به، ويسمع ما يقال له فيما هنالك ويعقل، كما قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسه بيده ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم**»[٢].

أقام الله جلَّ ذكره رسوله لأولئك في ذلك الموطن مقام فَتَّاني القبر

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٣٩)، والبخاري (٣٧٥٧)، ومسلم (٢٨٧٤)، والنسائي (٢٠٧٥).

والمسائلين، وكما قال ﷺ في الجنازة: «**يكون مصيرها إلى خير أو إلى شر**»(١) إنما هو يوم آخر، وهو الصواب، كذا جاء في «الصحيح» ما قال، والفرق بين الحياتين في الآخرة من جنس الفرق في الدنيا بينهما وعلى ما سيأتي ذكره إن شاء الله.

وقال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - وقد استشهد عبد الله أبوه ﷺ يوم بدر: «**يا جابر، ألا أخبرك عن أبيك أن الله أحياه وأقعده بين يديه وكلمه كفاحًا، وقال له: عبدي تمنَّ علي، فقال: يا رب، أحب أن تعيدني إلى الدنيا فأقاتل في سبيلك فأقتل فيك، قال: قد سبق مني - أو تقدم مني - أنهم إليها لا يرجعون**»(٢).

وقال الله ﷻ في رجل قتل في سبيل الله: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ**﴾ [يس:٢٦-٢٧].

وأيضًا فكما يكون الحق حقًّا عند العالم به المعتقد له، ويكون ذلك الحق بنفسه باطلاً عند الجاهل به، ذلك بأنه ظهر للعالم المؤمن به وبطن عن الجاهل، كذلك يكون الجسم ميتًا ممزقًا ترابًا أو عظمة نخرة، وعُدم عند من يراه، وذكره كذلك في ظاهر الحال وقد بطنت عنا حقيقته.

ويراه أهل الآخرة حيًّا سويًّا يأكل ويشرب ويُنعَّم، أو على غير ذلك من سائر أحواله؛ إذ قد ظهرت لهم حقيقته على ما هي عليه، وعلى هذا فاقضِ أيضًا على أن موصوفات الآخرة وأحكامها على حقيقة ما جاء به النبأ الحق من عند الله جل ثناؤه، وإياك أن يستجرك أصحاب قضاء العقل الأدنى الذي به عقل أهل الدنيا في دنياهم، ولم يصعد بهم النشوء إلى ما علا منه ذلك الذي تساوى فيه الغافلون، فيشغلك ذلك عن قضاء العقل الأعلى الذي أوتيه أولوا الألباب، فإن حُرِمْتَ القيام عليه عقلاً ومشاهدة فقف عليه بإيمان جزم وتسليم وتصديق؛ لتكن بذلك تاليًا؛ إذ لم تكن عالمًا، وجانِبَ الإنكار جملة. انتهى.

---

(١) أخرجه أحمد (٣١٨)، والبخاري (١٣٠٢)، والترمذي (١٠٥٩) ما معناه بنحوه.

(٢) أخرجه الحاكم (٢٥٥٧)، والدارمي في الرد على الجهمية (١٥٢).

فصل

واعرف في الغيب مما تقدم ذكره مفهوم قول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[١] [النساء:١٠] ومفهوم قول رسول الله ﷺ: «**الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»[٢].

والله جلَّ ذكره هو الحق المبين، ورسوله وكتابه الحق، وما جاء به من عند الله ما يخالف الحق ولا ما يباعده، وقد قال الله جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠].

وحقق ذكر الأكل بذكر البطن، وإنما يكون الأكل على المعهود من الأكل في البطن، وإنما استاق ذكر البطن للبيان وزوال الإشكال، فإن قيل: إن ذلك يكون في المآل، فقد جاء ذكر المآل مجردًا بعد هذا في قوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠] فأوجب ذلك أن يحمل الخطاب على ظاهره، وأن وجود ذلك في الحال من أكله غائبًا عنا.

ومن أعجب العجائب أن يجده الطاعم طعامًا ملذًا وشرابًا باردًا سائغًا، وحقيقته عند الله وعند الملائكة نار، لكن هذا لا ينكشف حقيقة طعمه وذوقه ووجود الحس له إلا في حياة غير هذه الحياة.

وكما أن حياة الجاهل والكافر لا يوجد بها أنواع الحقائق، بل جل حق الآخرة لا يجده، ويجده المؤمن الموقن بحياته، فيسهر ليله ويظمأ نهاره، ويتجشم من أجل ذلك للأسفار البعيدة، ويبيع من الله نفسه وأهله وماله، وتبكي عينه، وينحل جسمه ويسقمه، وربما قتله وجودًا أو وجدًا، فاقضِ بهذا المعهود على ما يرد عليك من

---

(١) نزلت في المشركين كانوا يأكلون أموال اليتامى ولا يورثونهم ولا النساء. وقيل: في حنظلة بن الشمردل ولي يتيمًا فأكل ماله. وقيل: في زيد بن زيد الغطفاني ولي مال ابن أخيه فأكله. وقال الأكثرون: نزلت في الأوصياء الذين يأكلون من أموال اليتامى ما لم يبح لهم، وهي تتناول كل أكل بظلم لم يكن وصيًا. [البحر المحيط (٤١/٤)].

(٢) أخرجه الشافعي فى الأم (١٠/١) والبخاري (٥٣١١) ومسلم (٢٠٦٥) والدارمى (٢١٢٩) وأبو يعلى (٦٩٣٩) وأبو عوانة (٨٤٥٥)، وابن حبان (٥٣٤٢)، والطبراني فى الكبير (٨٤٤).

حقائق الغيوب تصب البغية إن شاء الله تعالى.

ألا تسمع إلى قوله جل قوله وتعالى علاؤه وجده في تحقيق ما نحن بسبيل تبيانه: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٣-١٥] يخبر عن حالهم اليوم في يوم الدين؛ يعني: حال الموت.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] أي: اليوم أو الآن، وما كان في معنى العبادة عن الحال، فانظر إليهم الآن يأكلون ويتمتعون، وعلى أرائكهم وأسرة ملكهم، وليسوا بغائبين عن الجحيم.

وقال عز من قائل في موضع آخر: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَّجَاءَهُمُ العَذَابُ﴾ أي: لولا الأجل المضروب لهم لعجلت لهم قيامتهم ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣] أي: بالموت أو الإهلاك لهم كما تقدم للقرون الماضية والأمم المهلكة الخالية أمثالهم.

أعقب ذلك ثم قال - عز من قائل - معبرًا عما نحن بسبيله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] فها هي محيطة بهم وهم لا يشعرون لها، ولا يجدون حريقها ولا مس لفحها، ولا يسمعون زفيرها إلا أعمالاً منهم توجب عليهم حلولها، إنما هو القهر من القاهر العزيز ﷻ، هذا الذهول موجود منهم عن الإيمان به مع وجودهم لفح سعيرها وزمهريرها، تغدو عليهم وتروح جهنم بنفسها وهم لا يشعرون أموات غير أحياء.

ولذلك هم إذا ذكروا لا يذكرون، والأشقياء منهم إذا رأوا آية يستسخرون أبطن ذلك عنهم في هذه الدار وأظهره في الآخرة كما أبطن إيمانهم بذلك منا، وأظهره منهم في الآخرة ﴿سبحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس:٣٦].

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

ومن ذلك في الإنباء قال رسول الله ﷺ «**زائر المريض في مخرفة الجنة حتى يرجع، فإذا قعد عنده غمرته الرحمة**»(١).

---

(١) أخرجه الطيالسي (٩٨٨)، ومسلم (٢٥٦٨) وأحمد (٢٢٤٩٨). **مخرفة الجنة**: أي في بساتينها الزاهية وروضاتها البهية.

وقال ﷺ في مجالس الذكر «**إذا رأيتم رياض الجنة، فارتعوا فيها...**»[(١)] ونحو هذا كثير.

وألحق بهذا قوله: ﷺ «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»[(٢)].

و«**منبري على ترعة من ترع الجنة**»[(٣)].

و«**قوائم منبري على حوضي**»[(٤)].

وإنه إنما رأى ذلك رسول الله ﷺ بما آتاه الله من ضياء النبوة وبصيرة القرب من الله والحياة الآخرة، ولما أهله الله ﷻ من الرسالة إلى عباده بشارة لعباده ونذارة إعلام لهم بأن الآخرة إليّ، والتبليغ عنه إليهم بحقائق حق الآخرة بشارة لعباده، ونذارة إعلام لهم بأن الآخرة محيطة بالدنيا، مستورة عنا، فمن أطلعه الله ﷻ على مرائي الآخرة فبلغ عنه كيف يجوز المبلغ إليه أن تناول قوله الذي هو وحي يوحى على غير المعنى الذي به جاء، ولا يرى ذلك من ليس نبي إلا إيمانًا وتصديقًا ويقينًا، وبروح من عند الله وبتأييد منه، كما لا يرى الكافر ما يراه المؤمن ولا الجاهل ما يراه العالم من حقائق ما يجب الإيمان به للموت الذي به - أعني: الكافر - وبصفاته قال الله ﷻ: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ [الأنعام:٣٩].

وقال الله: ﷻ ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾[(٥)] [الأنعام:١٢٢] فإذا أحيا الله ﷻ المؤمن بالإيمان أحياه الله من موت الكفر بروح الإيمان، كما قال عزّ قوله: ﴿**وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾ [المجادلة:٢٢] ولكل درجة من هذه الحياة مقام، ولكل مقام حال ذلك على قدر الحظ الذي يؤتيه الله من ذلك الإحياء الذي به يحييه من موت الكفر.

---

(١) أخرجه الشافعي فى الأم (١/١٠)، والبخاري (٥٣١١)، ومسلم (٢٠٦٥) والدارمى (٢١٢٩) وأبو يعلى (٦٩٣٩) وأبو عوانة (٨٤٥٥)، وابن حبان (٥٣٤٢)، والطبراني فى الكبير (٨٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٢٢)، والبخاري (٦٩٠٤)، ومسلم (١٣٩١)، والترمذي (٣٩١٦).

(٣) أخرجه ابن سعد (٢٥٣/١) وأحمد (٨٧٠٦) والبيهقي (١٠٠٦٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٩٣٩١).

(٥) قوله ﷻ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ فيه ثلاثة أوجه: **أحدها**: كان ميتًا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه. **والثاني**: كان ميتًا بالكفر فأحييناه بالهداية إلى الإيمان. **والثالث**: كان ميتًا بالجهل فأحييناه بالعمل. النكت والعيون (٤٣٧/١).

فمنها حال من عبر عنها قوله ﷺ: «**إني لا أطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**»(١).

هناك يبصر بالنور ويتكلم به، ويسمع به ويتحرك ويسكن به، كما كان رسول الله ﷺ يدعو، وأرفع منها مقتضى قوله ﷺ: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا...**» إلى قوله: «**اللهم املأني نورًا، اللهم أعظم لي نورًا، واجعلني نورًا**»(٢) هناك **يبصر** بكله **ويسمع** بكله ويفهم بكله.

ومن هذه الحال كان ﷺ يسمع كلام الجوامد وعذاب المعذب في القبر، ويقول ﷺ: «**أترون قبلتي ها هنا، فوالله ما يُخفى علي ركوعكم ولا سجودكم، إني لأراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي**»(٣).

ومن الصديقين من يمنحه الله من هذا الحال ما شاء، وإن لم يبلغه مبلغ النبوة بمشافهة الملك عليه السلام ﴿**فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ [آل عمران:٦٠].

وفي حق هؤلاء نتحقق حقيقة قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**﴾ [النور:٤١] فأضاف ذلك إلى رؤية المخاطب، وقدره على ما أراه من ذلك، وإنما المخاطب بخاصة هذا رسول الله ﷺ وإخوانه من أمته الذين تشوق إلى رؤيتهم، وأولوا الألباب من أتباعهم، نسأل الله البر الرحيم أن يلحقنا بهم، وألا يقصر بنا دونهم، وأقل الرؤية فيما هذا سبيله رؤية أبصار الرؤوس.

قال الله ﷻ يعني الكفار والمنافقين: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ**﴾ فلم يضف إليهم إلا رؤية الطيران من الطير حسب، ثم تولى الإخبار لموضع الإيمان بقوله: ﴿**مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ**﴾ [الملك:١٩].

وكذلك قوله: ﷻ ﴿**أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ**

---

(١) تقدم تخريجه بنحوه.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٧٠٦)، وأحمد (٣٣٠١)، والبخاري (٥٩٥٧)، ومسلم (٧٦٣)، والنسائي (١١٢١) وابن أبي شيبة (٢٩٢٣١)، وابن حبان (٢٦٣٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٤١١٩)، ومسلم (٤٢٦)، والنسائي (١٣٦٣)، والدارمي (٢٧٣٥)، وابن خزيمة (١٦٠٢)، وابن أبي شيبة (٧١٥٦)، وأبو يعلى (٣٩٥٢).

﴿وَالأَرْضِ﴾ لم يصفهم من الرؤية إلا بالمقدار الذي تبلغه البهائم، ثم تولى ﷻ الإخبار عن موضع خشية الإيمان بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩] إذ لا يرى غيب ذلك سواهم، كقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وأولوا الألباب شاهدها جميعهم حال الصبغة في الماء والهواء، وفي موجود السماء والأرض وما بين ذلك، ولما أوجدتم في هذه الحياة ذكرهم برسله وكتبه، فهم إن تذكروا أبصروا فعلموا، وإن تغافلوا ذهب الذكر عنهم صفحًا وحرموا بصر البصائر، وصموا عن سماع شهادة البينات.

هذا الفصل مبدل، وقد تقدمت في صدر الكتاب مقدمة يعرف بها هذا الفن من العلم، فارجع إليها وتدبر، وإياك والتكذيب بآيات الله فتكون من الخاسرين.

قال الله عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٣-٢٤] فالصبر على طاعة الله والعزم على الثبات في الأمر، ولزوم اليقين يرفع الإمامة في علوم الموقنين ومعارف الصديقين.

وقال الله ﷻ ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١].

ومن ذلك مفهوم قوله ﷻ: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] جمع عالم، فإذا تصور الجميع صورة واحدة فهو العبد الكلي الذي هو جملة المخلوقات المشتملة على كل ما دخل تحت الكون والحدوث، وعنه حكم الحدوث من مكان أو زمان أو جهة أو ناحية وقرب وبعد وروح وجسم أو وجود وعدم وقبل الروح والأجسام إلي، والخلق كله والأمر، وما تقدر تقدير ذلك وماتبعه أو كان منه فهو إذًا إنسان كلي كما الإنسان عالم جزئي، فهو من حيث له يمين وشمال ووراء وقدام وأعلى وأسفل صوَّر آدم على صورته - صلوات الله وسلامه عليه - وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صورة الرحمن**»(١).

---

(١) أخرجه الطبراني (١٣٥٨٠) قال الهيثمي (١٠٦/٨): رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن

وفي أخرى: «عَلَى صُورَتِهِ»[١].

له أسماء وصفات ليس على معاني الذات، وهو أيضًا من حيث هو الكلي ليس بمجعول على مخلوق، ولا يحيط به مخلوق ولا محدث، فيكون ظرفًا له أو حاملاً أو معتمدًا له، ليس فيما يكتنفه يمين ولا شمال ولا وراء ولا أمام ولا علو ولا سفل؛ إذ ليس ما عداه منه، بل هو من حيث هو هو جملة للمخلوقات وكل للمحدثات ابتداء ما خلقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من غير شيء كائن، وجعله لأعلى شيء لم يحوجه إلى سواه، هو جلَّ ذكره يمده ويجدده ويصرفه ويدبره جملة وتفصيلاً.

هو آيته الكبرى لديه، وشهادته العظمى له، فكل ما كان من فعل يظهر آية منه، وما كان في إتيانه من افتقار بعضه إلى بعض وأخذ بعضه عن بعض وعطف بعضه على بعض فلمعنى الدلالة على صانعه جلَّ ذكره، والشهادة لفاعله ما هو له أهل

=

إسماعيل الطالقاني، وهو ثقة وفيه ضعف. والحاكم (٣٢٤٣) وقال: صحيح على شرطهما. وابن عساكر (١٠١/١٤).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٢٠)، ومسلم (٢٦١٢). وقال المصنف على هذا الحديث بقوله: «أسماء وصفات ليست على معاني الذات، فالعبد موصوف بأسماء العبودية من ذل، وخضوع، وفاقة، ومسكنة، وخشوع وخضوع، وفقر. إلى غير ذلك من سمات العبودية، ومعارف المحدّثين والمربوبين، كذلك أيضًا هو موصوف بكبر، وعجب، وغلظة، وفخر، واستعلاء، وتعاظم، وغنى. إلى غير ذلك من أسماء الربوبية وصفات الإلوهية، فإذا تولى الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - العبد وقاه شر نفسه، ومن شر نفسه استعمال صفات الإلوهية وأسماء الربوبية، وهو العبد القن، فتوليه إياه هو أن ينسخ عنه تعاظمه واستعلاؤه، ونحو هذا، ويوجه بها إليه، فيجعل ذلك منه على أعداء الله، ثم يوجه صفاته التي هي سمات العبودية فيحققها فيه، ويستعمله بها بين يديه، فإذا هو ﷻ قد حاز العلا كله الذي كان في العبد من أثر الخلقة وصفات الحق ﷻ، واستعمله بشاكلة العبودية فكان هو، أي: أنه كان العظيم الحق، العلي الكبير، والغني الحق، ولم يبق من ذلك في هذا المتولي إلا ما كان حريًا لله تعالى ﷻ ثم يرزقه الوفاق في جنبتي الوصفين، فكان عبدًا حقًا، والله جَلَّ ذِكْرُهُ وهو الرب هو الحق ويحق الحق، فكان بذلك سمعه وبصره وروحه ويده وجوارحه الظاهرة والباطنة، أي: خلقًا وأمرًا وولاية، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] فهذا الذي تقدم ذكره هو أولى بالتأويل إن شاء الله، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. [شرح الأسماء ٣٤/١].

وعليه بما جعل له، وأوجد من أجله من معنى الابتلاء والذكر أو الفتنة لحكمة فاعله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في مصنوعه بالغة وحجة له عليه قاهرة.

كذلك ابتدأ جلَّ ذكره الإنسان أولاً من سلالة من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، فلما سواه وبلغ به منتهاه نفخ فيه من روحه وجعله متبوعًا إمامًا، وأسجد له ملائكته وسخر له ما في العلو والسفل؛ ليشتمل على مبتدعات المشيئة علمًا وفهمًا، خلقه من الأصول الأربعة وأحوجه إليها؛ لأنها أصله وهو فرعها، فمنها طعامه وشرابه وطهوره وكفايته وصلاح شأنه حيًّا كله وفساده؛ ليقرب له العبرة ويسهل له سبيل العلم بموضع مصيره حيًّا وميتًا، فهو شخص القطب ولباب اللب، ومن الجملة موضع القلب فعليه دار الأمر والنهي.

وألقى الذكر مفصلاً على معاني الديانة التي مقتضى الإسلام على معاني الأمانة التي حملها الأنام، وهي التي عجزت عن تحملها السماوات والأرض والجبال على شروط الجزاء؛ إذ كان مخلوقًا كالعالم الكلي في أصل كونه للابتلاء، فكانت الأمانة سبب الأمر والنهي، وعلة الذكر النازل من السماء على ألسنة الرسل والأنبياء - صلوات الله وسلامه على جميعهم - كالعالم الكلي سواء في نزول الأمر عليه من أعلى العرش الكريم، وشياعه في جملته خلقًا وأمرًا تتلقاه الملائكة فينفذونه بأمره ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

﴿لَّا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] كالقُوى في الجسم الجزئي والصفات سواء كونًا وشرعًا؛ ذلك ليقوم الحجة لله على عباده، ويتم مراده في جميع موجوداته؛ إذ كان هذا الإنسان علة لخلقها وسببًا لوجودها.

قال الله ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ

يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٦-٢٩].

وقال عزَّ من قائل: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

وهو وإن كان بصفاته موصوفًا وأفعاله إليه مضافة وبها معروفًا، وهو محكوم بها عليه، وله حكم الجوارح في ذلك حكم الجوانج إلا ما استثني من ذلك حكم الغلبة، فالبداية في ذلك كله والنهاية، والظاهر منه والباطن لمبدعه وخالقه، وحقيقة الإيجاد معلومة لخالقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، كالعالم الكلي سواء حيث استأثر مبدعه ﷻ بحقيقة الإيجاد.

ثم وكَّل بعضه إلى بعض في ظاهر العلم وبادئ الرأي؛ لابتلاء العباد، ومشيئة الله ﷻ فوق كل مشيئة، وقدرته فوق كل قدرة، وعلمه وصفاته وأسماؤه محدثة لكل شيء، محيط بكل شيء، عنه ﷻ تكون أنواع المشيئات والقدر، وجميع معاني العباد وأسمائهم وصفاتهم.

وعن إيجاده واختراعه تكون جميع الاستطاعة والمكتسبات منهم، وهي على ذلك خلق الله جلَّ ذكره حادثة عن قدرته العليا ومشيئته الكبرى، لا يشبهه أحد من عباده بقول ولا بعمل، ولا يفوت على تقديره حادث علم كل كائن قبل الإيجاد على ما هو موجده، وكما أخرجه من العدم إلى الوجود لم يعدمه ما علمه منه أمرًا وخلقًا، لأجل ذلك انقطعت حجج القدرية، ولم تقبل اعتلال الجبرية، فالإنسان جزئي للتبعيض الموجود به، كلي في معنى الفائدة.

ألا تراه سخر له ما في السماوات وما في الأرض، وأن الأمر وقع عليه كلما قام بالإيمان بالله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وبأسمائه وصفاته، وبالعمل بطاعته وابتغاء مرضاته، منه بدؤه وإليه عوده، ثم أمر بالإيمان بغيوب باطن العالم من جنة ونار،

وملك وجان، وحساب وثواب وعقاب، وتوابع ذلك وما نحا نحوه.

وكذلك أمر باعتبار الملكوت من الأرضين والسماوات والأفلاك والنجوم والنبات، وما علا وما سفل، وكل ما ظهر وبطن ليستدل بما رآه على ما لا يراه، وليتعرف بذلك صفات الصانع ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ إذ بظاهر العالم يستدل على باطنه، وبالمصنوع الكلي يعرف صانعه، فالعبد المؤمن يشهد بعقله لله ﷻ دون واسطة سوى الدليل عليه بالربوبية.

وصفة الوحدانية كالعلم الكلي الذي لا يعلم سوى الله خالقه، ولا يشاهد سوى مدبره ومبدعه وتعالى علاؤه وشأنه فطرة من حكيم عليم ﴿**لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم:٣٠].

اعتبار الجملة والنظر في ذلك والعبارة عنه على سبيل الإجمال، سبيل القصد في ذلك إن شاء الله تعالى أن يتوهمه صورة إنسان قائم يصلي مستسلمًا لخالقه خاشعًا لصانعه، قانتًا خائفًا من بارئه، وجِلاً من رقيبه جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه وجده، له من حيث هو معاني الحدث كله قد احتوله الأمر وأحاط به الحول، أو ما يعبر عنه مما ليس به متوجهًا بكل وجهته إلى ما احتوله صوَّره بارئه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أحسن تصوير، ورتب أعضاءه أحسن ترتيب على صورة شخص واحد مركب من أعضاء مختلفة هي عوالمه، متعاونة على مطلوب واحد.

وغرض شواهد عبادته ربه له منها أعضاؤه كلها جوارحه وجوانحه مشكلة من ذلك أشكاله وصورته خلقه خالقه العليم القدير على ذلك، فأعلى منه ما ليس من الحكمة إلا أن يعلو وأسفل منه ما ليس من الحكمة إلا أن يسفل، ورتبه على ترتب ليس من الحكمة إلا أن يكون على ذلك الترتيب أوجده بكلمته، وشاءه بمشيئته وقدره بتقديره وكتبه القلم في اللوح المحفوظ بأمره، قدم منه في الإيجاد ما شاء تقديمه، وأخر منه ما شاء تأخيره، وأجراه على سنته قانتًا لربه بكليته، مصليًا لفاطره بجملته، ساجدًا له بحقيقته جملة وتفصيلاً، مسبحًا ذاكرًا له بألسن عدد الخلائق كلهم، بل عدد ذواته وأبعاض ذواته، كصلاة العبد الجزئي سواء لا يشد منه عضو، ولا يتخلف عند جزء إلا هو قائم معه، ساجد معه، متوجهًا إليه، عابدًا ربه معه.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**خُلق ابن آدم على ثلاثمائة وستين مفصلاً، فعلى**

كلِّ سُلامَى منها صدقة في كل يوم، فمن سبح الله ﷻ وهلله وكبره وحمده وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وأماط أذى عن الطريق عدد تلك السُلامَى مشى يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النار». ثم قال ﷺ: «ويجزئ من ذلك كله ركعتان يركعهما العبد من الضحى»[1].

فأخبرك أن الصلاة الشرعية تعم أجزاء المصلي جملة وتفصيلاً، كذلك العبد الكلي ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال عز من قائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] فهو الذي قد شمل المكان والزمان واليمين والشمال، والوراء والأمام والوجود والعدم والكيف والكم، والعلو والسفل والجهات والمقابلات، وأوصاف الكون والحدث كلها، فإذًا ما عداه فليس بكائن ولا محدث، وما ليس كذلك فليس به ولا يتصف بوصف من أوصافه.

وينفصل العبد الكلي في نفسه العالم إلى عوالم هي له أبعاض وأعضاء، كما ينفصل الجزئي إلى أبعاض له وأعضاء، ثم ينفصل التفصيل إلى أبعاض وأبعاض أبعاض وإلى آحاد، والآحاد أيضًا إلى أبعاضها وأبعاض أبعاضها، وكل جزء من تلك الآحاد أجزاء منها على صورها وهيئاتها من أمم وعوالم، وتلك الأجزاء إلى أجزاء أجزائها.

والأجزاء وأجزاء الأجزاء منه لها صورها وأشكالها وهيئاتها كصفات أحاد الأمم والعوالم، وكأبعاض الجزئي الرأس والعينين واليدين والذراعين على اختلاف ذلك كله لها صورها وأشكالها حتى يبلغ التفصيل في الجزئي والكلي إلى أمثال الجواهر في الجزئي التي تركبت عنها أبعاضه وأعضاؤه إلى جملته، فما كان من تلك الذوات مما يتصف بالعقل كلفه العبادة كونًا وشرعًا، وما لم يكمل بعد منها إلى ذلك كلفه كونًا في الظاهر.

وأما باطنًا فيما بينها وبين بارئها فهي مكلفة ذلك شرعًا، وذلك بحكم الكلمة يظهرها الله جلَّ ذكره منها عند خرق العوائد، وإظهار معجزات الرسل وكرامات

---

(١) أخرجه أبو داود (١٢٨٥) بنحوه.

الأوليات، هذا فيما هو ظاهر لأوائل العقول.

وأما في قضاء العقول الناهية والألباب الصافية، والإيمان الأعلى واليقين الأرفع فكلٌّ شمله التكليف كونًا وشرعًا لأمره في ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] أي: يفهم بعضها بعضًا، وأمم تألف كأمثالنا، هكذا قال جل من قائل في موجودات الأرض، ومعلوم أن موجودات ما علا أفصح، وفعلها أشرح، فافهم.

فما من شيء إلا يسبح بحمده طوعًا وكرهًا، فالمؤمن يسبحه ﷻ طوعًا بما هو عامد لذلك ناوٍ له، وكرهًا بما هو غافل عن ذلك ساهٍ، والكافر يسبحه ﷻ كرهًا بما هو غير مريد لذلك نافرًا عنه منكرًا له، ثم طوعًا بما هو يؤم وجهة هو مولاها قدرت له قبل إيجاده، وحمل عليها بإرادته وكسبه، يناضل عنها ويجاحش عليها جهده؛ لينال ما سيق له من مقدر في أم الكتاب، وهو بما لا يعلم ذلك من نفسه مكره عليه، وما يعرف سجودها من ركوعها من تسبيحها من حمدها من صلاتها، فربما أتى ذكره متصلاً بأولي المذكور بها، والله الموفق للصواب، وهو يقول الحق ويهدي السبيل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[١]

---

(١) **مسألة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ هل «ال» للعهد أو للجنس؟ وهل «من» موصولة أو نكرة موصوفة؟** اختلف العلماء في ذلك إلى ثلاثة فرق: **الأولى:** وهم الكسائي وأبو حيان والطيبي وصاحبي الفرائد والتقريب، يقولون: «ال» للعهد والمعهود هم الذين كفروا و«من» موصولة مراد بها عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، وحجتهم أن الناس قوم معهودون وهم الكفار الذين سبق ذكر قصتهم، وأن كون المنافقين مخصوصين بحكم النفاق لا يخرجهم من جنس هؤلاء الكفار بل يفيد تميزهم عنهم بما لم يتصفوا به من زيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما، هذا أولا وثانيًا أن جعل "من" نكرة موصوفة إنما يكون إذا وقعت في موضع يختص بالنكرة في أكثر كلام العرب، وهذا الكلام ليس من المواضع التي تختص بالنكرة في أكثر كلام العرب، وأما إن تقع في غير ذلك فهو قليل جدًّا حتى إن الكسائي أنكر ذلك، وثالثًا أنه لا وجه أن تكون ال للجنس لأن ﴿من الناس﴾ خبر ﴿من يقول﴾ فلو كانت للجنس لكان المعنى: من يقول من الناس والظاهر أنه لا فائدة فيه. **الثانية:** وهم أبو البقاء والعكبري - كما ذكره الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة في (دراسات لأسلوب القرآن =

[البقرة:٨] إلى قوله جل قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[1] [البقرة:١٣] هذا تعريف يتردد المراد به بين يهود وبين قوم منافقين كانوا يسمعون منهم ويطيعونهم.

وقوله جل قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠] بتشديد الذال المراد به المنافقون، وعلى الحرف الآخر بإسكان الكاف وتخفيف الذال المراد بذلك يهود.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: المنافقين كانوا يظهرون للمؤمنين الإيمان بقولهم: ﴿آمَنَّا﴾ ظاهرًا من القول ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ اليهود ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤] ضرب الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

الكريم القسم الأول ١٥٣/٣) تقول: «ال» للجنس و«من» نكرة موصوفة، وحجتهم أن المراد بالذين كفروا هم الذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا، وبينهم وبين المنافقين تناف فلم يكونوا نوعا تحت ذلك الجنس فكيف وقد حكم على هؤلاء بالختم على القلوب وغيره فعلم كفرهم الأصلي، وعلى هؤلاء بقوله: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ وأشار إلى تمكنهم بالهدى وتنور فطرتهم، هذا أولاً وثانيًا لا يجوز أن تكون «من» موصولة بمعنى"الذي" لأن "الذي" يتناول قوما بأعيانهم، والمعنى هنا على الإبهام. **الثالثة:** وهو الإمام البيضاوي والزمخشري وسعد الدين التفتازاني والشريف الجرجاني وابن المنير يقولون: إن قدرت ال للعهد فـ «من» موصولة وإن كانت للجنس فـ«من»" نكرة موصوفة؛ وذلك بناء على المناسبة والاستعمال، أما المناسبة فلأن الجنس لإبهامه يناسب الموصوفة لتنكيرها والعهد لتعينه يناسب الموصولة لتعرفها، أما الاستعمال فلأن الشائع فى مثل هذا المقام هو النكرة الموصوفة إذا جعل بعضًا من الجنس والموصول مع الصلة إذا كانت بعضًا من المعهود، والقرآن يفسر بعضه بعضًا. وعلى هذا لا يجوز أن يكون العهد للموصوفة والجنس للموصول خلافًا لأبي حيان وصاحبي الفرائد والتقريب وابن هشام - كما ذكره الألوسي فى (روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٤٦/١) فإنهم يقولون: يحتمل أن تكون «من» موصولة إن جعل التعريف للجنس وموصوفة إن جعل للعهد لأن بعض الجنس قد يتعين بوجه ما وبعض المعينين قد يجهل باعتبار حال من أحواله.

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: ويجوز في همزتي ﴿السُّفَهَاءُ﴾ أربعة أوجه، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوًا خالصة، وهي قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبي عمرو، وإن شئت خففتهما جميعًا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوًا خالصة، وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية، وإن شئت حققتهما جميعًا.

للمنافقين مثلين:

الأول منهما: مثل لليهود، شبههم ﷻ بمن استوقد نارًا؛ يعني: ما كانوا فيه من الهداية ولما بلغت؛ أي: أضاءت ما حوله مستوقدها؛ أي: إن هدايتهم تمت بإتيان محمد ﷺ كذبوه فذهب الله بنورهم لذلك ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

ويصلح أن يكون مثلاً للمنافقين لما جاءهم الرسول والكتاب شهدوا بذلك فوجب لهم بذلك أن يكون لهم نور، ولما نافقوا في ذلك ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ ذلك لرجوعهم على أعقابهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] هذا إعلام متردد بين الفريقين إياس من هدايتهم، فهذا لليهود ثم بآخره للمنافقين.

ثم ضرب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مثلاً آخر ظاهر مفهومه للمنافقين، ثم بآخره لليهود إلي قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠].

فصل

أشبه القرآن العالم، والعالم القرآن أن العالم اشتمل على ما يقال له: نور وهدى وضلال وبيان وشفاء وضياء وخير وشر، وهلاك وإكرام وإهانة وولاية وبراءة وحب وبغض وأمر ونهي، وبشارة ونذارة وحرام وحلال وواجب وفرض ومندوب إليه، إلى غير ذلك مما يكثر تعداده مما إن بُحث عليه في أثناء الكتاب العزيز وجد فيه، غير أن الشر لأهله هناك مذكور، وعندهم فعله مذخور لهم جزاؤه، وهو في العالم موجود أو شبهه أيضًا فيما حكاه أهل الكلام على الأحوال الأصول الشرعية ووجده في ذلك حقيقة.

قالوا: دلائل الشرع موجودة فيه على ثلاثة أوجه:

- أصل.
- ومعقول أصل.
- واستصحاب حال.

فالأصل: هو الكتاب والسنة والإجماع، فوزان الكتاب في العالم الكلمة وهو المعبر عنه بـ﴿كُن﴾.

ومثال السنة: ما أخرج الله عليه الوجود كله من ترتيب واستنن به سننه من تأجيل وتعجيل، وهو المعبر عنه بقوله ﷻ: ﴿فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧].

ومثال الإجماع في الشرع: هو إجماع الموجودات وصفاتها قاطبة على شهادة الفطرة لبارئها ﷻ وتعالى بالتنزيه والتقديس والتسبيح لله وحده لا شريك له، والشهادة بالتوحيد والقنوت له.

ووجدوا أيضًا أن السنة مأخوذة من ثلاثة أوجه: أقوال، وأفعال، وإقرار.

فوزان الأقوال: الكلمة والأذن.

ووزان الأفعال: جملة المعقولات والمصنوعات، وما تناوله الكون.

ووزان الإقرار: كل ما كان لله ﷻ إيجادًا وخلقًا، وما ليس له برضا، وهي المعاصي والكفر، وتوابع ذلك مما لا يرضاه ولا يحبه ولا يأمر به شرعًا، ويلحق به كل ما لم يرد له ذكر في الشرع، وهو ما عناه بقوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة:١٠١].

واستقرأ المعتبرون الموجودات وما انبنت عليه وتركبت عنه، فوجدوها ثلاثة أشياء: جوهرًا، وجسمًا، وعرضًا محمولاً في الجواهر والأجسام.

كذلك وجد أهل الاستقراء للكلام أنه تركب عن ثلاثة أشياء: اسم، وفعل، وحرف محمول في الأسماء والأفعال، وقيل له: قرآن؛ لأنه مجموع كلام وقصص وأحكام وجدل، والكلام معبّر عن ذلك كله.

ومن ذلك: إن الله جلَّ ذكره أجرى المسببات على أسبابها، وأموره في هذه الدار على سنته فيها، وأظهر المصنوعات بالأدوات على الأغلب هذا مقدوره الحاضر المشاهد منا وله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مقدور سوى هذا، وهو أن يجعل مكان السنة الكلمة فيظهر المسببات بغير أسباب، والمصنوعات بغير أدوات خرقًا لهذه العوائد، وتجري الأمور كلها على مشيئته في كلمته وهو المقدور الغائب عنا اليوم، إلا ما قد شاءه من ذلك وقدره.

كذلك جعل من كلمه العزيز في القرآن ما هو ظاهر مبين ومنه ما هو غيب يحتاج متفهمه إلى البحث والنظر، ومنه كالمكنون يخص بعلمه من شاء من عباده،

وعلى الكلام بالإجمال فإن أحكام الملكوت التي أطلع الله ﷻ عليها العباد وكلفهم معرفتها، ودعاهم إلى الإيمان بها، وإلى أن يعمل أولوا الألباب أفكارهم وفطنهم من هذا فيها، وأن يدعوا اشتغال قلوبهم بالنظر إليها فيها، والتفكر في سبيل البحث عن معالمها، ثم الاعتبار فيها إلى سواها ويجيلوا أبصار بصائرهم في معارفها، وهي ستة أضرب:

- **منها**: تكوينه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الأشياء لا من شيء.

- **الثاني**: إقراره ﷻ الأشياء كلها لا على شيء.

- **الثالث**: إدخاله الواسع في الضيق، ولم يوسع الضيق ولا ضيق الواسع.

- **الرابع**: وضعه الصغير على الكبير وإيراده الكبير لا على جزء من ذلك الصغير.

- **الخامس**: حجابه الإنسان عن رؤية موضعه، ومشاهدة نفسه وإظهاره له عالمًا آخر في موضعه ذلك، ولم ينقله عن موضعه.

- **السادس**: تفتيته الجسد في التراب لأعين أهل الدنيا، وهو صحيح تام عند أعين أهل الآخرة، وتنويمه الجسد عن الأكل والشرب والنكاح في موضع وإيقاظه إياه، ويطعمه ويسقيه في موضع آخر.

فهذه ستة معارف هو مطلوبها الأكبر ومعتمدها الأعظم، ولتعلم - وفقنا الله وإياك - أن لكل حق حقيقة، ولكل عين معنى، كما قد علمت أن لكل ظاهر باطنًا، وأن الباطن متى انفصل عن ظاهره أبدل بحامل يقوم له في باطنيته مقام ظاهره المفارق، ولنقتصر على هذا القدر من هذا الفن، ففيما ذكرنا دليل على ما عنه أمسكنا.

ولعلمنا أن الضرورة تدفع إلى اختلاف ما هو بسبيله في أولى المواضع به، ففي اختلاف العبارات وتغاير الألفاظ مع اتفاق الحقائق في معانيها، وفي اجتلابها إلى مظانها وذكرها عند أشباهها مجال رحب للأفهام، وعون كبير على تعرف كل خطاب ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾ [البقرة:٢١] الآيتين، هذا خطاب[١]

---

(١) **مسألة فيمن تعلق به الخطاب الشفاهي؟** إن القول بعدم تناول الخطاب الشفاهي وقت الخطاب لمن سيوجد بعد نزول الوحي هو قول الكثيرين، بل قال البعض بعدم تناوله أيضًا لغير الحاضرين والقاصرين عن درجة التكليف كالأمم الماضية قبل رسالة الإسلام والصبيان والمجانين. قال الإمام الفخر الرازي: إن الذين سيوجدون بعد ذلك ما كانوا موجودين فى تلك الحالة، وما لا يكون موجودًا لا يكون إنسانًا، وما لا يكون إنسانًا لا يدخل تحت قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ (التفسير الكبير ٨٦/٢) وإنما يتناولهم مثل هذا الخطاب بدليل خارجي من نص أو قياس أو إجماع، أما بمجرد الصيغة فلا كما صرح به الإمام الألوسي فى تفسيره (روح المعاني ١٨٦/١) وقال: وقالت الحنابلة: بل هو عام لمن بعدهم إلى يوم القيامة واستدل الأولون بأنا نعلم أنه لا يقال للمعدومين نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال العضد: وإنكاره مكابرة وبأنه امتنع خطاب الصبي والمجنون بنحوه، وإذا لم نوجهه نحوهم مع وجودهم لقصورهم عن الخطاب فالمعدوم أجدر أن يمنع لأن تناوله أبعد. واستدل الآخرون بأنه لو لم يكن الرسول مخاطبا به لمن بعدهم لم يكن مرسلا إليهم واللازم منتف، وبأنه لم يزل العلماء يحتجون على أهل الأعصار ممن بعد الصحابة بمثل ذلك وهو إجماع على العموم لهم. وأجيب: أما عن الأول فبأن الرسالة إنما تستدعي التبليغ في الجملة وهو لا يتوقف على المشافهة بل يكفي فيه حصوله للبعض شفاهًا وللبعض بنصب الدلائل والأمارات على أن حكمهم حكم الذين شافههم، وأما عن الثاني فبأنه لا يتعين أن يكون ذلك لتناوله لهم بل قد يكون لأنهم علموا أن حكمه ثابت عليهم بدليل آخر، قاله غير واحد. وفي شرح العلامة الثاني - أي: السعد التفتازاني - للشرح العضدي - أى شرح العلامة عضد الدين الإيجي على مختصر ابن الحاجب - أن القول بعموم الشفاهي وإن نسب إلى الحنابلة ليس ببعيد. وقال بعض أجلة المحققين: إنه المشهور، حتى قالوا: إن الحق أن العموم معلوم بالضرورة من الدين المحمدي وهو الأقرب، وقول العضد"إن إنكاره مكابرة" حق لو كان الخطاب للمعدومين خاصة أما إذا كان للموجودين والمعدومين على طريق التغليب فلا ومثله فصيح شائع، وكل ما استدل به على خلافه ضعيف. إنتهى. وإلى العموم ذهب كثير من الشافعية على أنه عندهم عام بحق نفظه ومنطوقه من غير احتياج إلى دليل آخر، وقد قيل: إنه من قبيل الخطاب العام الذي أجري على غير ظاهره. (روح المعاني ١٨٦/١) وانظر: (حاشية الشهاب ٧/٢-٨) (تفسير أبي السعود ٥٨/١-٥٩) (الإحكام فى الأصول ٢٩٢/٢-٢٩٤، للإمام الآمدي) (المستصفى ٢٤٢/١، للإمام الغزالي).

وقال الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة معلقًا ومعقبا على بيان الألوسي: وحديث التغليب - أعني تغليب المنتظمين فى سلك التكليف وقت الخطاب بالفعل على غير المكلفين وقت ذلك من المعدومين والقاصرين عن درجة التكليف - الذي ظن الألوسي أن فيه المخلص من هذه الحجة لا غناء له ولا لغيره فيه أصلا، بل هو فى التحقيق جار على وفق مذهب الجمهور معضد لحجتهم لا منافر لها، فإن دعوى الجمهور والحجة التي ساقوا لتأييد هذه

=

=

الدعوى يقرر كل واحد منهما على عدم شمول هذه الخطابات الشفاهية لغير المكلفين على سبيل الحقيقة، ولا مانع أن يكون شمول هذه الخطابات لأولئك على سبيل المجاز بتغليب المكلفين وقت الخطاب بالفعل على غيرهم وقت ذلك من المعدومين والقاصرين عن درجة التكليف. ومن المتقرر المعروف لدى علماء البيان أن دلالة التغليب مجاز لا حقيقة، فإنه ليس إلا التجريد البياني، وهو إما راجع لعلاقة التقييد والإطلاق - حسبما هو الصحيح المتجه - مثل قولك: قمران - تطلقه على الشمس والقمر - بحيث جردت القمر - في أطوار ه المختلفة ومنازله الثمانية والعشرين - من قيوده المشخصة له والمميزة له عن كوكب الشمس، فإطلاقته على مطلق الكوكب المضيء الشامل لليلي والنهاري وتثنيته بهذا المعنى حتى جاز أن يشمل الشمس أو قل أن تكون الشمس أحد فردي هذا المثنى، وإما راجع لعلاقة مستقلة من علاقات المجاز المرسل. وأيما يكن الأمر فإنه مجاز لا حقيقة. وإذن فإن قضية التغليب هذه لا تنافي قول الجمهور بعدم الشمول لغير أولي التكليف إلا على سبيل المجاز. وكذلك فيما حكاه الألوسي آخرا - بما لا ندري أراد به التمريض أو لا - حيث يقول: وقد قيل: إنه من قبيل الخطاب العام الذي أجري على غير ظاهره. الخ يريد أنه وإن كان ظاهره للخصوص بالمكلفين فالمراد به خلاف هذا الظاهر من العموم للمكلفين وغيرهم ممن يتأتى خطابه، فإن الخروج عن الظاهر هو الآخر من قبيل دلالة المجاز سواء أكان من باب التغليب أم كان من غير هذا الباب حسبما حققه أهل البيان؛ فالخلاصة التي نخرج بها من هذا البحث أن قول الجمهور هو المتعين بالنسبة لهذه الطائفة - أعني طائفة المنتظمين في سلك التكليف - من كون الخطابات الشفاهية تشملهم حقيقة ولا تشمل غيرهم إلا على سبيل المجاز. انتهى بتصرف من (التفسير التحليلي لسورة النساء ١٢٣-١٢٥)

وقال القاضي شهاب الدين: وهاهنا بحث يجب التنبه إليه وهو أن خطابه تعالى بكلامه لعباده أزلي قائم بذاته، وكذا النظم القرآني بإزائه، وخطاب المعدوم أزلاً وتكليفه، وهو مقرر عند الأشاعرة، والظاهر أنه - تكليفه - حقيقة، وإلا يكن جميع ما في القرآن من الخطاب مجازا، ولا يخفى بعده عن ساحة التنزيل. ويوجه أيضا بتقدير "قولوا" والمأمور الرسل ونوابهم من أئمة الدين في تبليغ الأمة إذا وجدوا، وعلى هذا الفرض والتقدير لا يحتاج إلى التجوز أصلاً كما ذهبوا إليه على أنه لو لم يكن من التأويل محيص، فالقول بأنه يدل على ما ذكر بدلالة النص المؤيدة بالإجماع أقرب. (حاشية الشهاب ٨/٢) وقال الشيخ ابن عاشور: فإن نظرت إلى صورة الخطاب فهو إنما واجه به ناسا سامعين، فعمومه لمن لم يحضر وقت سماع هذه الآية ولمن سيوجد من بعد يكون بقرينة عموم التكليف وعدم قصد تخصيص الحاضرين، وذلك أمر قد تواتر نقلاً ومعنى فلا جرم أن يعم الجميع من غير حاجة إلى القياس، وإن نظرت إلى أن هذا من أضرب الخطاب الذي لا يكون لمعين فيترك فيه التعيين ليعم كل من يصلح للمخاطبة بذلك، وهذا شأن الخطاب الصادر من الدعاة والأمراء والمؤلفين في كتبهم من نحو قولهم: يا قوم، يا فتى، وأنت ترى، وبهذا تعلم ونحو ذلك، فما ظنك بخطاب الرسل وخطاب هو نازل من الله تعالى كان ذلك عاما لكل من يشمله اللفظ من غير استعانة

=

مرجوع معناه إلى قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] هم الذين نظروا في موجودات ما زمَّه اللوح المحفوظ في السماوات والأرض، والشجر والجبال والنبات إلى غير ذلك من عجائب آيات الله المنبئة عنه الشاهدة له.

يقول عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وهو دعاء عام للناس أجمعين إلى عبادة ربهم ﷻ كما فطر جميع ما أوجده على فطرة الإسلام، كذلك أمر جميع أهل العقول بالعبادة له والطاعة، ولا يكون الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والعمل بطاعة الله، والتزام الخضوع له بشروط العبودية إلا بمقدمة التقوى، لكنه قال ها هنا جل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] معناه وهو أعلم: لعلكم تبلغون بعبادتكم إياه، والعمل بطاعته واليقين به ذروة التقوى، وتنالون منه المنزلة العلية، قد تقدم ذكر هذا.

يقول عز من قائل: فانظروا إلى السماء كيف بناها فأظلت، وإلى الأرض كيف مهدها فاستقرت، وإلى الماء كيف أنزله من السماء واحدًا طاهرًا مطهرًا بقدرته، فأخرج به نبات كل شيء رزقًا لكم موجودات تنبئ عن خضوعها لخالقها، وتفصح بقنوتها لبارئها وتشهد لجاعلها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بصحة الوحدانية، وإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] بما أراكم من عظيم اقتداره وكريم تدبيره وشمول ملكه السماوات والأرض وما علا وما سفل إنه لا ندَّ له ولا

=

بدليل آخر. وهذا هو تحقيق المسألة التي يفرضها الأصوليون ويعبرون عنها بخطاب المشافهة والمواجهة هل يعم أم لا؟ (التحرير والتنوير ١/٣٢٥).

قلت: صحيح أن الخطاب الشفاهي لا يشمل وقت الخطاب لغير المكلفين - من المعدومين والقاصرين عن درجة التكليف - الذين لا يتصور منهم الامتثال، ولكن بحكم كون القرآن هو كلام الله تعالى صاحب أمر ونهي، وأنه يمثل خاتم الشرائع التي أنزلها الله تعالى على الناس الذين هم خليفته فى أرضه، أقول: بحكم هذين الأمرين يكون كل خطاب من خطاباته يخاطب به كل عبد - بعد وجوده - عاقل بلغ سن الرشد فى أي زمان بعد نزوله كأنه مشافه به على حدة وتخصيص، لأن صلاحية الخطاب لا تنتهي بعد غياب من حضروا نزوله، بل تمتد إلى قيام الساعة؛ فالذين بلغهم هذا الخطاب فى أي زمان من الأزمان بعد عصر نزوله مخاطبون أيضًا به كأن نزوله يتجدد وقتًا بعد وقت، والله أعلى وأعلم.

شبه ولا نظير.

قوله ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا.....﴾ [البقرة:٢٣].

ما تقدم هو من فضل الربوبية المنتظم من صدر سورة أم القرآن، وهذا الخطاب هو من فضل النبوة منتظم بما في النصف الثاني منها من ذكر النبوة، وهم المنعم عليهم وبخاصة في ذكر الرسول محمد ﷺ، والكتاب الذي هو القرآن.

يقول عز من قائل: وإن كان ارتيابكم هذا إنما هو في صحة نبوته، والكتاب الذي جاء به ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: مَن مثل محمد ﷺ رجل لم يكتب كتابًا ولا خطه يمينه ولا علم قارئًا ولا طالبًا لعلم من تقدم، وهذا إعجاز ظاهر وفقد مشاهد بالضرورة لو كانوا يعلمون، ولذلك قال عز من قائل: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] أخبر العليم الخبير لهم عن عجز الكل من المتقدمين والمتأخرين عن الإتيان بسورة من القرآن العزيز.

فصل

وقال في سورة يونس ﷺ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس:٣٨] أي: مثل القرآن في كريم نظمه وبدائع إعجازه، وعجيب وصفه وإحكام حكمته في ظهوره ولِمَ ظهر؟ وفي بطونه ولِمَ بطن؟ وفي فصيح إشارته وغرائب تلويحه وانثناء بعضه على بعض، وحسن حديثه وصدق قيله منتظم ذلك منه في تفريق خطابه وتجميعه مع إخباره عن الغيوب المحجوبة وإعلامه بغياباتها المكنونة، وترصيعه على ترتيب العالم غيبه وشهادته الموجود له في جميع ما أخبر به، وإنبائه عن جميع ما أوجد في الوجودين في مجمل هذا وتفصيله، ومجمل هذا وتفصيله.

وقد تقدم من ذكر هذا إشارة في صدر كتاب «الإرشاد» وإن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه نظمه على إحكام معاقد صنعه الحكيم معاقده ومعاطفه ودلالة الصغير منه دلالة الكبير، ومناب البعض من هذا وهذا مناب الكل، وجمع جميعه في جزء من أجزائه.

فصل

اتصف ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالإنعام والإحسان إلى عباده، وبالقدرة على

إرسال رسول كريم آتٍ بضروب من الإعجاز، وعلى تنزيل كتاب عظيم معجز للإنس والجن، منزلاً من كلام الخالق ﷻ إلى تلاوة المحدثين وقراءة المخلوقين بواسطة الروح والملك - عليهم السلام - محفوظًا من النسيان محفوظًا من الاختلاف والتبديل، مصدقًا لما بين يديه من كتاب ورسول مفصلاً من الكتاب المبين الذي لا ريب فيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [الفرقان:١].

ولا يكون كذلك إلا بما فيه من صدق الإخبار عن الغيوب، والإنباء عن موجودات الآخرة، ووصف الجزأين في العاجل والآجل، ولا يكون كذلك إلا محفوظًا من شوائب النفوس محروسًا من إلقاء الشيطان معصومًا من الوسواس والكذب والظن المرتاب به والتخييل كما قال جل قوله: ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١١] إلى آخر السورة.

وقال: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقال: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ**﴾ [الحاقة:٤٤] المعنى إلى آخره حيث وقع.

وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾ [يونس:١٥] هذا إلى قوله: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم:٣-٤].

فصل

سئل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي يا رسول الله؟ قال: «**أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال**»(١) ومعنى ذلك: أن الملك - عليهما السلام - يأتيه من أمر الله تعالى في صوت وجلبة يكون عنها بجملته حال يشغله بذلك عما سوى ما جاء به؛ ليفرغ بذلك قلبه إلى

---

(١) أخرجه مالك (٤٧٥)، وأحمد (٢٥٢٩١)، والبخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (٢٣٣٣)، والترمذي (٣٦٣٤) والنسائي (٩٣٤).

مراده منه، وفي أثناء ذلك يقصد بالتبليغ: موضع الإنباء من قلبه فيجمع الوحي فيه على ذلك بإذن الله ﷻ.

وفي هذا من الفقه عن الله ﷻ أن قارئ القرآن ينبغي له أن يتفرغ لقراءته ويفرغ قلبه وحواسه وجملته لتلاوة ما يتلوه منه.

قال ﷺ: «**وأحيانًا يأتيني الملك في صورة رجل**»[1] فكان يبلغ إليه عن ربه ما شاء الله.

فصل

وقال في سورة هود ﷺ: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ...**﴾ [هود:١٣] فهذا أخرج خطابها زائدًا على إثبات رسالته ونبوته، وأن ما جاء به من عند الله حق على إثبات العلم السابق، والإخبار عن الغيوب.

ولما كان سبيل الإعجاز في الموضعين اللذين تقدم ذكرهما على ما مضى ذكره اجتزأ في إيجاد الإعجاز بسورة واحدة؛ إذ ذلك موجود في الآية الواحدة فضلاً عن جملة سوره.

ولما كانت المشارطة هنا الإخبار عن علم الله والإنباء عن غيابات الغيوب، وزاد إلى ذلك التعريض بإثبات الوحدانية والألوهية نفس لهم في ذلك إلى عشر سور؛ إذ المعهود على الأغلب أنه لا يأتي فيه هذا القدر المذكور إلا وقد أنبأ فيه بعلم غيب، ودل على توحيد وأثبت برهان من براهين الإلهية، هذا إلى إعجازه في حسن نظمه ورفيع قدره وجميل مأخذه.

غير أن الإخبار بعلم الغيوب هو إعجاز الخصوص؛ إذ المعهود أنه من أوتي بسطة في الكلام وقوة على تلقين الخطاب ربما لفق خطابًا ذا رونق يضيف فيه من أنواع الموجودات، ويتحقق في ذلك ويسلك مسلكًا يصدق فيما هو تفصيل الكتاب المبين، وتصديق لما جاء من قبله من كتاب، ويستمر على ذلك مقدار السورة ونحوها من قصار المفصل.

---

(١) تقدم في سابقه.

وأما الإخبار عن الغيوب والإنباء بما لم يكن بعد فلا يستطيعه أحد دون ذلك الحجر المحجور والسد المسدود، فكيف والحصر قد أحاط به من كل جهة، والعجز قد اكتنف من رام هذا الشأن عن كل نوع من الإعجاز الموجود في القرآن العزيز بقول الصادق الحق العليم بحقيقة كتابه، الخبير بما جعله من ألطافه في خليقته: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

قوله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٤] أي: إن لم يكن لكم استطاعة على الإتيان بمثله على الشرط المشروط، هذا خطاب متوجه إلى العرب واليهود الحاضرين يومئذٍ، المجاورين مهبط الوحي بأن يبحثوا عن قواهم واستطاعاتهم على الفعل الذي يكون عنه الإتيان بمثل السورة الواحدة من مثل هذا النبي المبعوث إليهم.

ثم أعلم العليم الخبير ببواطنهم ومقادير قواهم، على أنهم لن يفعلوا؛ أي: إنهم لا يقدرون على ذلك ولا يقاربونه، نعم ولا تتوفر لذلك دواعيهم ولا تنصرف إليه هممهم، هذا هو الإعجاز الفصل والتعجيز الحق، قصر دواعيهم وقواهم عن أن يظنوا بأنفسهم قوة على المعارضة، ولذلك رأينا العرب العاربة قد عدلوا عن معارضته إلى المقاتلة، وتعوضوا من ذلك القتل والسباء ورضوا بالخروج عن الأوطان والجلاء.

وما سمع بجماعة منهم من طريق يصح نقله أنهم تشاوروا على معارضته، ولا أعلم أن دواعيهم توفرت لمناقضته، ولا أنهم تحدثوا به تصديقًا لقوله الحق: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٤].

وبوجه آخر: من تبين الإعجاز في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣] أي: مثل القرآن المنزل عن كلام رب العالمين إلى ما هو قراءة للمخلوقين وتلاوة للمحدثين.

وبوجه آخر قوله جل قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: المفصل من محكم أسمائه الحسنى، ومعاني حقائق صفاته العلا إلى جميع الخطاب بكل وجه إلى كل مأخذ، فهذان الوجهان والذي قبلهما أعلى إعجازًا وأظهر قهرًا؛ لذلك وهو أعلم قال:

﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾[البقرة:٢٤].

فالقرآن الكريم إذًا معجز بنفسه، معجز بأنه محفوظ من انصراف الهمم إلى معارضته بأمر كون وقدر عزم من الله جلَّ ذكره؛ ذلك لأن السماء حرست بالنجوم، وحفظت من استراق الشيطان سماع الوحي بالرجوم، والهم بمعارضة القرآن إلقاء الشيطان، فحرس أيضًا بعد نزوله كما حرس حين النزول وقبله، ولم يكن الحفظ شاملاً للإنس والجن، فلذلك ما كذب به من كذب منهم، فقذفوه بألسنتهم ورجموه بأقوالهم وبظنونهم سحر وشعر وجنون وأساطير الأولين، وغير ذلك من أنواع أباطيلهم.

قوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] الوقود بفتح الواو: الحطب، وبرفعها: اللهب، هذا من فصل الوعيد المفصل، من فصل اسم المحنة بالنذارة التي اقتضاه اسمه المبتلي، أخبر الله ﷻ بصدق قيله أن وقودها الناس والحجارة، فذكر أهل التفسير: إنها حجارة الكبريت، وليس ببعيد ما ذكروه، ولا بمنكر ما ذهبوا إليه رحمة الله على جميعهم.

لكن رسول الله ﷺ قال في حديثه عن مسراه ليلة أسري به وفيه: «**ورأيت النار، وإذا عذاب الله شديد لا تقوم له الحجارة ولا الحديد**»[(١)].

فظاهر هذا إنه لم يعيِّن بهذا الخطاب حجارة الكبريت تلك تتوقد بأيسر نار، والمراد الإعلام بشدتها كما قال رسول الله ﷺ: «**ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**»[(٢)] أعاذنا الله الرحيم برحمته منها، فتلك الشدة من عظيم يبسها، وقوة حرها يستخرج من الحجارة والحديد رطوبة تكون عنها لها وقود، فعل هذه بالحطب فيكثر عن ذلك لهبها ويشتد سعيرها.

وإعلام آخر منه: إن موجودات جهنم - أعاذنا الله الرحمن برحمته منها - يخلقها الله خلقًا يحتملون به تلك الشدة، فهي أبدًا تتوقد بهم ولا تلتهبهم.

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (ص١٧٥).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٤٣١٨)، قال البوصيري (٤/٢٦١): فيه نفيع ضعفه ابن معين وأبو حاتم، والحاكم (٨٧٥٣) وقال: صحيح الإسناد. وهناد في الزهد (٢٣٤).

قال الله ﷻ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] آية ذلك ما أوجد الله ﷻ عليه موجودات الدنيا بعدم إجزائها، ويخلف لها أجزاء أمثالها وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله.

فموجودات الآخرة على هذا السبيل باقية يخلف الله منها المثل المثل، هكذا أبدًا على حكم الخلود وليس المثل غيرًا للمثل فاعلم ذلك، غير أن للنار هنالك غلبة ما بمقادير معلومة على ذلك الإمساك، والتقدير والخلق والأمر ما أريد بهم، نسأل الله الغفور الرحيم معافاته ومغفرته، وذلك الحكم موجود في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

أعقب ذلك قوله ﷻ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤] يخاطب ﷻ المؤمنين إنذارًا لهم؛ لئلا يعملوا في إيمانهم أعمالاً تدخلهم إياها، ذلك معنى قولهم في دعائهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران:١٩٢] استجارة منهم به ألا يدخلهم فيها، وإن أخرجهم منها - نعوذ بالله الرحيم من عذابه ما دقَّ منه وما جلَّ - والأعمال التي يدخلها الموحدون من أجلها كفر أيضًا، ومنه أصغر وأكبر.

قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾(١) إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥] ارتبط الإيمان بالعمل لا بد ولا

---

(١) **مسألة فى قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾على ما عطف عليه؟**
اختلف العلماء فى العطف هنا بفعل الأمر على القراءة المتواترة - على ما عطف عليه؟ إلى مذهبين:
الأول من قال: إن هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه جريًا على السنة الإلهية من إتباع الترغيب للترهيب ومجيئه بعده حتى يعمل المكلف ويمتثل ما ينجيه من النار ويتجنب ما يهلكه من الكفر والمعاصي ويؤدي به إلى النار، فهذا عطف معنوي لا يتعلق باللفظ لأن مفهوم الجملة الأولى المعطوف عليها وصف عقوبة الكافرين، ومفهوم الجملة الثانية المعطوفة وصف ثواب المؤمنين؛ وليس هذا من قبيل عطف المفردات بعطف فعل الأمر فى قوله ﴿وبشر﴾ حتى يجب أن يطلب له ما يشاكله من أمر أو نهي فيعطف عليه، فالكلام هنا منظور فيه إلى المعنى الحاصل منه كأنه قيل: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات فبشرهم بأن لهم جنات". **الثاني** من قال: يجوز أن يكون قوله ﴿وبشر﴾ الآية معطوفا على جملة ﴿فاتقوا
=

قال الله ﷻ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] آية ذلك ما أوجد الله ﷻ عليه موجودات الدنيا بعدم إجزائها، ويخلف لها أجزاء أمثالها وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله.

فموجودات الآخرة على هذا السبيل باقية يخلف الله منها المثل المثل، هكذا أبدًا على حكم الخلود وليس المثل غيرًا للمثل فاعلم ذلك، غير أن للنار هنالك غلبة ما بمقادير معلومة على ذلك الإمساك، والتقدير والخلق والأمر ما أريد بهم، نسأل الله الغفور الرحيم معافاته ومغفرته، وذلك الحكم موجود في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

أعقب ذلك قوله ﷻ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤] يخاطب ﷻ المؤمنين إنذارًا لهم؛ لئلا يعملوا في إيمانهم أعمالاً تدخلهم إياها، ذلك معنى قولهم في دعائهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران:١٩٢] استجارة منهم به ألا يدخلهم فيها، وإن أخرجهم منها - نعوذ بالله الرحيم من عذابه ما دقَّ منه وما جلَّ - والأعمال التي يدخلها الموحدون من أجلها كفر أيضًا، ومنه أصغر وأكبر.

قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[1] إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥] ارتبط الإيمان بالعمل لا بد ولا

---

(١) **مسألة فى قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾على ما عطف عليه؟**
اختلف العلماء فى العطف هنا بفعل الأمر على القراءة المتواترة - على ما **عطف** عليه؟ إلى مذهبين:
الأول من قال: إن هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة، والمقصود **عطف** حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه جريًا على السنة الإلهية من إتباع الترغيب للترهيب ومجيئه بعده حتى يعمل المكلف ويمتثل ما ينجيه من النار ويتجنب ما يهلكه من الكفر والمعاصي ويؤدي به إلى النار، فهذا **عطف** معنوي لا يتعلق باللفظ لأن مفهوم الجملة الأولى المعطوف عليها وصف عقوبة الكافرين، ومفهوم الجملة الثانية المعطوفة وصف ثواب المؤمنين، وليس هذا من قبيل عطف المفردات بعطف فعل الأمر فى قوله ﴿وبشر﴾ حتى يجب أن يطلب له ما يشاكله من أمر أو نهي فيعطف عليه، فالكلام هنا منظور فيه إلى المعنى الحاصل منه كأنه قيل: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات فبشرهم بأن لهم جنات". **الثاني** من قال: يجوز أن يكون قوله ﴿وبشر﴾ الآية معطوفا على جملة ﴿فاتقوا
=

=

النار﴾ وقد اعترض على هذا الوجه بما يأتي: قالوا: إن قوله ﴿فاتقوا النار﴾ جواب للشرط فى قوله: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ فإذا كان قوله ﴿وبشر﴾ معطوفًا عليه كان جوابا للشرط مثله؛ لأن ما عطف على الجواب كان جوابًا مثله، وقوله ﴿وبشر﴾ لا يصلح جوابًا للشرط؛ لأن قوله ﴿فاتقوا﴾ جواب للشرط فى محل جزم، ولا يجوز أن يكون قوله ﴿وبشر﴾ فى محل جزم مثله فلا يعطف عليه، هذا أولاً وثانيًا لأن هذا أمر بالبشارة مطلقًا وليس مقيدا بقوله: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ بل أمر بالتبشير غير مرتب على شيء قبله؛ وثالثًا لأنه يفقد اتحاد المسند إليه فى الجملتين، فإن قوله ﴿فاتقوا﴾ مسند إلى الكفار المنكرين وقوله ﴿وبشر﴾ مسند إلى النبي ﷺ وعلى هذا لا يصلح أن يكون جوابًا وإذا لم يصلح أن يكون جوابًا فلا يصح عطفه على الجواب السابق، غاية ما هنالك أنه إنما يتأتى عطف الأمر للمخاطب على الأمر لمخاطب آخر إذا صرح بالنداء نحو: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم، وأما بدون التصريح بالنداء فقد منعه النحاة، هذا وليس قوله ﴿وبشر﴾ فى الإعراب مثل ما فى هذا المثال لأن قوله "احذروا" لا محل له من الإعراب بخلاف قوله تعالى ﴿فاتقوا﴾ فإن له محلاً من الإعراب وهو الجزم جوابا للشرط؛ فلذلك أمكن العطف فى المثال دون الآية؛ ورابعًا أنه لو عطف قوله ﴿وبشر﴾ على قوله ﴿فاتقوا النار﴾ كان تقدير الكلام: "فإن لم تفعلوا فبشر الذين آمنوا" فلا ينسجم المعنى بين الشرط والجواب.

ويجاب على هذا الاعتراض بالأجوبة الآتية: أما أولاً فإن قوله ﴿وبشر﴾ يصح أن يكون جوابًا للشرط لإمكان ترتيبه على الشرط وتسببه عنه؛ لأن تبشير المصدقين كإنذار المنكرين فى أن كلا منهما مترتب على عدم معارضة الكفرة لأنه حينئذ يثبت كون القرآن معجزا ويتحقق صدق النبي ﷺ فيكون تصديقه سببا للبشارة ونيل الثواب كما أن إنكاره سبب للإنذار وإصابة العقاب لأن الكفار إذا تحقق عجزهم عن معارضة القرآن ظهر أنه معجز فمن صدق به استحق الثواب ومن كذب به استحق العذاب، وهذا يقتضي إنذار الكفار وتبشير المؤمنين العاملين وبهذا الوجه يكون قوله ﴿وبشر﴾ مرتبًا على الشرط فيصلح أن يكون جوابا للشرط فيصح عطفه على جواب الشرط، هذا أولاً وثانيًا أن من تتميم عذاب الكافرين ثواب من هم أضدادهم وهم المؤمنون العاملون كأن الله يعذب الكفار بوجهين: وجه التحذير وهو إنذارهم بالعذاب ووجه التحسير - أي يجعلهم يتحسرون ويندمون - وهو بيان ثواب أضدادهم فيكون المعنى: فإن لم تفعلوا فاتقوا النار وخافوا عذابه واتقوا وخافوا من ثواب أضدادكم وأعدائكم، أو فاتقوا النار واتقوا ما يغيظكم من حسن ما سيؤول إليه أمر أعدائكم من الثواب ودخول جنات تجري من تحتها الأنهار، فأقيم ﴿وبشر﴾ مقامه تنبيها على أنه مقصود فى نفسه لا لمجرد غيظهم فقط، وهذا القدر من الربط المعنوي كاف فى عطفه على الجزاء وإن لم يكف فى جعله جزاء ابتداء فيمكن بالتالي ترتبه على عدم المعارضة كما ترتب الإنذار عليه.

وقول أبو حيان: " وليس قوله ﴿وبشر﴾ على إعرابه مثل نحو: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم لأن قوله "احذروا" لا موضع له من الإعراب

=

بخلاف قوله ﴿فاتقوا﴾ فلذلك أمكن فيما مثل به العطف ولم يمكن في ﴿وبشر﴾ مردود عليه بأن قوله ﴿فاتقوا النار﴾ وإن كان له محل من الإعراب فإن ذلك المحل الإعرابي لما لم يظهر وكان مقدرا لم يكن له حكم وصارت الجملة لذلك بمثابة الجملة التي لا محل لها من الإعراب، وبناء على ذلك فلا مانع أن يعطف عليها جملة لا محل لها من الإعراب ولأنه لما صح أن يعطف على الخبر ما لا يكون خبرًا صح أن يعطف على جملة الجواب ما ليس بجواب، فقد أجاز الفارسي في نحو: "زيد ضربته وعمرًا كلمته" أن تكون جملة "وعمرا كلمته" معطوفة على الجملة الصغرى وهي جملة الخبر وهي "ضربته" على الرغم من أن جملة "وعمرا كلمته" لا يصح أن تكون خبرا لعدم وجود الرابط لأن جملة الخبر وهي "ضربته" وإن كان لها محل من الإعراب لكن هذا المحل لم يظهر ولم يكن له حكم وصارت هذه الجملة بمثابة الجملة التي لا محل لها من الإعراب وهذا قد جوز عطف الجملة التي لا محل لها من الإعراب وهي "وعمرًا كلمته"- عليها، فلما صح أن يعطف على الخبر ما لا يكون خبرًا صح أن يعطف على جواب الشرط ما ليس بجواب، ومن هذا المنطلق صح عطف جملة ﴿وبشر﴾ على جملة جواب الشرط وهي ﴿فاتقوا النار﴾ وإن لم تكن جملة ﴿وبشر﴾ جوابا للشرط لما ذكرنا. أما قول الإمام أبي حيان "إن قوله ﴿وبشر﴾ لا يصلح أن يكون جوابًا للشرط لأنه أمر بالبشارة مطلقًا وليس مقيدًا بقوله ﴿فإن لم تفعلوا﴾" مردود عليه بأن الواقع عدم الفعل على وجه الجزم وعدم الإتيان بمثله على وجه الجزم بدليل ﴿ولن تفعلوا﴾ وبناء على ذلك فليس هناك تقدير "وإن فعلتم فلا تبشير" ومن هذا المنطلق فإن الأمر بالتبشير واقع مطلقا وليس مقيدًا بما قبله. أما الذي ذكروه من عدم جواز عطف ﴿وبشر﴾ على قوله ﴿فاتقوا﴾ بدعوى عدم الاتحاد في المسند إليه بأن عدم الاتحاد مضمحل وقد عوضه عدة محسنات في هذا العطف وهي: قرب المعطوف من المعطوف عليه. رعاية الجهة الجامعة بين ﴿وبشر﴾ و﴿فاتقوا﴾ وهي اللفظية والوهمية والعقلية؛ أما اللفظية والوهمية فإن قوله ﴿فاتقوا﴾ بمعنى "فأنذروا" وأما العقلية فلاتفاق المعطوف والمعطوف عليه في المسببة؛ لأن كليهما مسبب وناتج عن عدم المعارضة. من المحسنات البديعية التي يشتمل عليها النص المقابلة بين المؤمن والكافر وبين الجنة والنار وبين التبشير والإنذار إلى غير ذلك من وجوه الحسن، فوجوه الحسن هذه تعوض عدم الاتحاد في المسند إليه، على أننا إذا دققنا النظر نجد اتحاد الجملتين في المسند إليه حاصل من ناحية المعنى والمضمون لأن قوله ﴿فاتقو النار﴾ في معنى "فأنذرهم بالنار" على ما وجهه الشيخ السيالكوتي. ويرى الشيخ الزمخشري أن قوله ﴿فاتقوا النار﴾ ليس جوابا لقوله: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ وتقدير الكلام: فإن لم تقدروا على إتيان سورة من مثله وأنتم فرسان البلاغة فقد صح صدقه وإذا صح صدقه فليتق المعاند النار وبشر يا محمد المصدق العامل بالجنة، وعلى ذلك فالفاء في قوله ﴿فاتقوا﴾ فاء الفصيحة أفصحت عن شرط محذوف وما بعدها جواب للشرط المحذوف، والجملة دليل لجواب الشرط المحذوف لقوله ﴿فإن لم تفعلوا﴾ وقد رد الإمام ابن هشام على كلام الشيخ الزمخشري بأن قوله ﴿فاتقوا النار﴾ لا يصح أن

محالة، على ذلك أصفق[1] خطاب القرآن العزيز، وحديث رسول الله ﷺ والوجود أجمع، أما ما جاء به الوحي فظاهر معلوم، وأما الوجود فسيأتي ذكره في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

وعلى القول بالإجمال في ذلك، فإن الله ﷻ هو السلام المؤمن الحق، وهو الخالق البارئ المصور الرازق المحسن المجمِّل، إلى غير ذلك من أسماء الأفعال، واعلم أن الإيمان في هذه الدار آية لرؤية الله ﷻ، ولا يكون ذلك إلا في الجنة، وإن العمل الصالح آية على مثال موجودات الجنة.

قال الله ﷻ: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢].

﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢].

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤].

=

يكون جوابا للشرط المحذوف وأن قوله ﴿وبشر﴾ معطوف عليه لأن الأمر بالتبشير ليس مشروطًا بعجز الكافرين عن الإتيان بمثل القرآن، ويجاب عن ذلك بأنه قد علم أنهم غير المؤمنين فكأنه قيل: فإن لم يفعلوا فبشر غيرهم بالجنات أى بشر المؤمنين بالجنة ومعنى هذا: فبشر هؤلاء المعاندين الكفار بأنه لا حظ لهم من الجنة وتبشير الكفار بذلك من باب التهكم كقوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وبعد، فهذه هي كلام العلماء ومناقشتهم فى الإجابة على التساؤل السابق، وإذا أردنا أن نفاضل بين هذين الرأيين فأيهما أرجح؟ ولماذا؟ فإليك ما يلي: إن القول الراجح - على ما يراه الباحث حيث اطمأنت إليه النفوس - هو الرأي الأول وهو أن يكون قوله ﴿وبشر﴾ معطوفا على الجملة السابقة فيكون من باب عطف القصة على القصة أى عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه، لأن هذا الرأي لا تكلف فيه ولا تعسف ولا تأويل ولا يحتاج إلى حذف، هذا أولا وثانيًا لأن هذا الوجه أقضى لحق البلاغة وأدعى لتلائم النظم؛ لأن قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا﴾ الآية خطاب عام يشمل المؤمنين والكافرين وقوله ﴿وإن كنتم فى ريب﴾ الآية مختص بالمخالفين الكافرين ومضمونه الإنذار، وقوله ﴿وبشر﴾ الآية مختص بالموافقين وهم المؤمنون العاملون ومضمونه البشارة، فكأنه تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى ثم أمره أن ينذر من عاند ويبشر من صدق؛ وثالثًا لأن هذا الوجه لا اعتراض عليه كما فى الوجه الآخر، صحيح أنه قد أجيب على هذه الاعتراضات لكن هذا الوجه الذي اخترناه سالم من هذه الاعتراضات فيترجح لدينا هذا الوجه، والله وأعلم.

(١) أصفق: أجمع.

وقال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله غُرست له شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله فكذلك، ومن قال: الله أكبر فكذلك، ومن قال: لا إله إلا الله فكذلك، ومن صلى اثنتي عشرة ركعة من غير الفريضة في يوم وليلة بني له قصر في الجنة**»[1] وهذا كثير لمن يتبعه.

قوله ﷻ في أهل الجنة: ﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**﴾ [البقرة:٢٥] أشبه وجود كل شيء خالفه؛ إذ كان الخالف مثلاً للذاهب، وقد يكون الشبه بين موجودات ما هنالك، وبين موجودات ها هنا كالرمانة مثلاً والتفاحة من تلك تعلم بأنها رمانة وتفاحة، وكما يعلمون فيما هنالك نساء من نساء عهدهن فيما هنا، هذا مع تحصيل العلم ببعد البون، فافهم.

فالثمرة يجنيها جانيها في الجنة، يخلف الله ﷻ مثلها مكانها دون زمان، كالمستقي بالإناء من النهر فإنه يخلف المأخوذ مكانه مثله لا في زمان.

آية ذلك: ما يخلفه الله تعالى في هذا الدار من العَرض بعد العَرض والأجزاء بعد الأجزاء، وقد تقدم ذكر ذلك، فثبتت على ذلك الأجسام والأشكال والصور والهيئات، حتى يظن الغافل بل يرتاب أكثر العقلاء غير الموفقين في الفكر، والنظر في تحقيق وجود ذلك وببعده، وكلا إن الله هو الخلاق العليم أبدًا على الدوام في هذه وفي تلك.

وخصَّ الدار الآخرة بحكم الخلود؛ لذلك أعقب ﷻ بقوله الحق: ﴿**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٢٥] هذا حكم منه لازم لكل موجود من الأجسام والأرضين والسماوات والأفلاك إلى غير ذلك، وأما الدنيا ففارقت في ذلك الآخرة في بعض الموجودات، كالثمرات وأشباهها.

فالآخرة يخلف فيها المثل المثل دون زمان، والدنيا على المهل، وفي أوقات وآناء محدودة، فكذلك تشابهت الثمرات في حقهم حتى قالوا: ﴿**هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**﴾ [البقرة:٢٥].

---

(١) أخرج النسائي في الكبرى (١٠٦٦٣) أوله فقط. وذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» (٧٠٦٢) آخره فقط.

قال رسول الله ﷺ: «**عرضت علي الجنة، فمرت علي منها خصلة عنب** - وفي أخرى: «**قطف عنب**»[١] - **فأهويت لآخذه ففاتني، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»[٢].

وإنما ذلك؛ لأنه كلما أُخذ من ذلك شيء خلفه مثاله على الولاء دون زمان.

آية ذلك: ما يكون من ثمرة كل شجرة تقطف، ثم يأتي بمثلها في عام آخر، فقرِّب البعيدة تصب الحق إن شاء الله.

أعقب ذلك قوله الحق: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**﴾ [البقرة:٢٥] أشار وهو ﷻ أعلم إلى ما قص من ذلك، أنه كلما أتى أحدهم زوجته في الجنة وجدها عذراء، وهذا مما تقدم ذكره ﴿**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٢٥] في مزيد غير منقطع ولا ممتنع، جعلنا الله الرحيم برحمته منهم في يسر وعافية. انتهى.

فصل

ألا ترى أن الغيب وغيره في هذه الدار من أنواع الثمرات والفواكه لما أن كان عن فتح رحمته بالماء ينزله من السماء يخلف منه المثل المثل كل عام، وربما كان على الفرط أكثر من ذلك، فنشأ ذلك في الدار الآخرة إلى وجود ذلك دون زمان حتى يقول: ﴿**هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**﴾ [البقرة:٢٥] لعدم الفقد للمأخوذ المجتنى، ومشاهدة الخالف مكانه ﴿**وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة:٢٨٤].

قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت في صورة كبش أقرن، فقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيقولون: الموت، فيقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ثم يقال: يا أهل النار أتعرفون هذا؟ فيقولون: هذا الموت فيقال: ويا أهل النار خلود فلا موت**»[٣] فهذا الموت قد مات في الآخرة، وكذلك لا عدم فيها كما ليس فيها موت.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨٤٢)، وعبد بن حميد (١٠٣٦)، والضياء (٣ ١١٩٣) وقال: إسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠٤)، ومسلم (٩٠٧)، وأحمد (٢٧١١)، والنسائي (١٤٩٣)، وابن حبان (٢٨٣٢) وفيه عندهم جميعًا قصة صلاة الكسوف.

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٨١)، وهناد في الزهد ٢١٣)، وعبد بن حميد (٩١٤)، والبخاري (٤٤٥٣)، ومسلم (٢٨٤٩)، والترمذي (٣١٥٦) والنسائي في الكبرى (٦ ١١٣١٦)، وابن حبان (٧٤٤٩).

وجاء: «إن الولي يشتهي الطير، أو أي حيوان يشتهيه جاءه ووقع بين يديه طبيخًا أو مشويًا كما اشتهاه، فيأكل منه ما أحب، ثم يطير أو يذهب حيًا كما كان قبل» فهذه الحال منه ما هي، وحال الثمرة يقطعها جانيها ويخلفها خالفها، ما حال الذاهبة منهما وليس فيما هنالك إعدام ولا موت، وهي دار المزيد لا دار إعدام، كما هي دار الحيوان لا دار الموت، والله ورسوله وما جاء من عنده حق.

ليت شعري، كيف وجه هذا الحق؟ ومن أين سبيل يتعرف؟ وما آيته ها هنا؟

بيان: اعلم - وفقنا الله إياك - أن بين الحياة والموت حالاً متوسطة لا توصف بموت ولا بحياة، وقد توصف أيضًا بحياة.

قال الله: ﷻ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى* الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى* ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى:١١-١٣] أي: إنه لا يحيى حياة طيبة، وقد تقدم إنه لا موت عندهم، وقد مات الموت.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها**» وهم الذين عني بقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ [الأعلى:١١] ثم قال: «**فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون**»(١) فحياتهم موجودة بهم من حيث إحساس العذاب والآلام والخزي والهوان، ووجود الندم والعويل ودعوى الثبور، نعوذ بالله العظيم.

وإنما وصفوا بعدم الحياة من حيث إن حياتهم تلك لا تنفع ولا تطيب، وقد تأول على هذا قوله ﷻ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] أي: في دار البرزخ، وهي على هذا حياة أهل الجنة في الجنة، ولأجل ذلك طابت بهم ولهم حياتهم في الدنيا وفي حال البرزخ.

وأما آية ذلك في هذه الدار: إذ دار البرزخ ممزوجة من موجودات هذه وموجودات الدار الآخرة، فحياة المؤمن في دار البرزخ، وأعلى منها حياة الشهيد، مع ظهور ظاهرها الذي هو في بادي الرأي ضدها، وكذلك كل ما هو ينشأ إلى كمال، ويصعد بذلك إلى تمامه، فهو ميت بما هو لم يبلغ بعد، ولم يتم وهو حي بما بلغه من درجة هو فيها في طريقه ذلك، وكمال النبات بذره، وكمال الثمر نضجه وإيناعه.

(١) تقدم تخريجه.

ألا ترى أن الزرع ما كان على ساقه مخضرًا بعد لم يدرك البذر فهو لم يكمل بعد، يتغذى به الأنعام والحيوان في الأغلب، وما من شأنه النقصان عن الكمال الإنساني، فإذا أدرك البذر فقد كمل وصار غذاء للإنسان، والحبوب كلها والبذور أجمعها كذلك، وهي في حال نباتها أظهر في حال النبات، وحال النبات أظهر في صفة الحياة.

وقد توصف الحبوب والبذور ليبسها وعدم النشء فيها بالموت في سبيل الاستعارة والمجاز وحال باطنها ليس كذلك، بل هي يومئذٍ أعرق في صفة الحياة منها قبل ذلك، حينئذٍ صارت غذاء للإنسان معدة أن يكون بها ويحلق هو عنها.

ألا ترى أنها إذا جُعلت في مستقرها من الأرض فإذا جاءها الماء كيف تعود إلى الإنبات والحياة الظاهرة؟ كذلك الحيوان في الجنة، كما له أن يكون طعمًا للولي فيخلق الله تعالى منه أجزاء الولي فيكونه، فيصير بعد رشحًا وعرقًا وجشاء أطيب رائحة من المسك، فيعود عند ذلك طيبًا له أيضًا ونعيمًا، فليس إذًا على هذا مأكولات الجنة يطرقها الموت، وإن قطف ما هو منها تقطف أو شوي أو طبخ ما هو منها يشوى أو يطبخ وأكل، وطُعِمَ من غير موت ولا عدم، يحضر ذلك كله بخلف الخالف، ما نيل منها بغير زمان يحصل، ثم يحيا بعد قضاء الوطر كالبذر يكون عن النبات عن البذر.

وكحال الشهيد والمؤمن في البرزخ لا موت في ذلك من حيث يوصف بالحياة، هذا واعلم أن الدليل لا يقوم مقام المدلول عليه، ولا ما هو آية على المطلوب ليس مبلغ قوة وجود ما جعل آية عليه، فافهم ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: ٤].

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾[١]

---

(١) قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ قد يبدو في بادئ النظر عدم التناسب بين مساق الآيات السالفة ومساق هذه الآية، فبينما كانت الآية السابقة ثناء على هذا الكتاب المبين، ووصف حالي المهتدين بهديه والناكبين عن صراطه، وبيان إعجازه والتحدي به مع ما تخلل، وأعقب ذلك من المواعظ والزواجر النافعة والبيانات البالغة والتمثيلات الرائعة، إذا بالكلام قد جاء يخبر بأن الله تعالى لا يعبأ أن يضرب مثلاً =

[البقرة:٢٦] يصلح أن تكون «ما» ها هنا للاستفهام، ويكون ما بعدها مرفوعًا، وقد قرئ كذلك، ويصلح أن تكون اسمًا لما دون بعوضة في الصغر والدقة، ويصلح أن تكون للإبهام، وجاء الإبهام هنا لأجل الكونين الجنة والنار.

يقول عز من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ لموجودات الجنة أو جهنم بموجودة ﴿مَّا﴾ عندكم ﴿بَعُوضَةً﴾ [البقرة:٢٦] المعنى، وأما «ما» الثانية اسم لما فوقها في الكبر والعظم، ولما كان هذا الخطاب المتقدم قبل هذا يقتضي تدقيق النظر في إعدام الذوات والهيئات وإيجاد أمثالها وأغيارها في العالم، وأبعاضه على التفصيل وتفصيل التفصيل صلح أن يكون قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً...﴾ مجاوزًا له.

ولما كان هو خالق البعوض والعنكبوت والفراش والخشاش كله، كما هو ﷻ خلق السماوات والأرض والدنيا والآخرة وما بين ذلك كان الحق، فالحق المبين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا يستحيي أن يضرب مثلاً لشرار خلقه، كما يضرب ﷻ لخياره مثلاً بخيارهم ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦] وهو من فضل المحنة والإنعام، كذلك سرد ﷻ معناها معنى معنى إلى قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[البقرة:٤٠].

=

بشيء حقير أو غير حقير، فحقيق بالناظر عند التأمل أن تظهر له المناسبة لهذا الانتقال، ذلك أن الآيات السابقة اشتملت على تحدي البلغاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن، فلما عجزوا عن معارضة النظم سلكوا في المعارضة طريقة الطعن في المعاني، فلبسوا على الناس بأن في القرآن من سخيف المعنى ما ينزه عنه كلام الله؛ ليصلوا بذلك إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله بإلقاء الشك في نفوس المؤمنين، وبذر الخصيب في تنفير المشركين والمنافقين. وروى الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس أن الله تعالى لما أنزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] قال المشركون: أرأيتم أي شيء يصنع بهذا؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ وروي عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب بها المثل ضحك اليهود وقالوا: ما يشبه أن يكون هذا كلام الله، فأنزل الله هذه الآية. [التحرير والتنوير (١/١٨٠)].

ويتنظم أيضًا بقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ المعنى إلى آخره ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧] بيَّن ذلك حديث رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثلكم، كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل هذا الفراش والذباب يتساقطون فيها، وأنا آخذ بحجزكم إلي عن النار وأنتم تتابعون فيها»(١).

أتبع ذلك قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ فأجابهم الله ﷻ بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦] كذلك حكمه في خطابه عباده، يقول الحق: ويبشر الذي من أجله ضربه مثلاً، ويهدي السبيل من يشاء، ويضل عنه من يشاء.

كذلك فعل ﷻ في عده الملائكة خُزَّان جهنم - عليهم السلام - أعلم ﷻ أنهم تسعة عشر، وأخفى عنه أنهم ملائكة رؤساء يتبعهم من جنود الله جل ثناؤه ما لا يعلمه إلا الله، ولما افتتن بعض قريش بكونهم تسعة عشر، وقال: تخافون من تسعة عشر وأنتم الناس كثرة، أنا أكفيكم التسعة واكفوني أنتم العشرة.

وهو على التحقيق خطاب معبر عن الملائكة المعذبين على جميعهم السلام، في ذكر دار سقر من دار البرزخ، وهو الأظهر؛ لما قد دل الخطاب الكريم، وربما كان هذا العدد عدد الرؤساء منهم ولهم من التابعين ما شاء الله، وأما عددهم في سقر الدار الآخرة وفيما سوى سقر من محالها - نعوذ بالله منها - فما يعلم جنود ربك إلا هو.

قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣١].

ولو يعلمون أنه تبارك وتعالى إذا شاء أخذهم بأنفسهم وأنفاسهم، وربما أمسك عنهم تجديد إيجاده فانحسر بقاؤهم وهلكوا.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠٢٧) والطبراني (١٠٥١١) وأبو يعلى (٥٢٨٨) والقضاعي (١١٣١) قال الهيثمي (٧/٢١٠): فيه المسعودي وقد اختلط. بحجزكم: مفردها حجزة، وهي محل العقدة من الإزار.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾[البقرة:٢٩-٣٢].

قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] إلى قوله عز قوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١) [البقرة:٢٩] إن كان الخطاب خاصة ليهود فيكون هذا تعريفًا لهم بأنهم أماتهم حينما صعقوا فأحياهم، وإن كان عامًا للجميع فهو إعلام منه لهم بأنهم كانوا أمواتًا بعد إيجاده إياهم يوم قررهم فأقروا، وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا، وإخبار لهم ولغيرهم باقتداره على النشأة الآخرة، وتنبيه على الاستدلال بالنشأة الأولى.

وهو خطاب منظم بما قبله من لدن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] وهو نص على معنى الربوبية وإثبات العبودية، والأمر بالتعبد لله ﷻ وإخبار عن الوحدانية، وتبيين نبوة محمد ﷺ إلى أن ختم الخطاب أيضًا بذكر الوحدانية والإنعام إلى قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٢)

---

(١) انتقال من الاستدلال بخلق الأرض وما فيها وهو مما علمه ضروري للناس، إلى الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الأرض، وهو أيضًا قد يُغفل عن النظر في الاستدلال به على وجود الله، وذلك خلق السماوات، ويشبه أن يكون هذا الانتقال استطرادًا لإكمال تنبيه الناس إلى عظيم القدرة. التحرير والتنوير (١/٢٠٠)].

(٢) قال المصنف: فهذا عام في كل شيء، هو في الأرض، وهو أكبر في السماء منه في الأرض. والغرض الأول المشار إليه به هو آدم ﷺ؛ إذ هو المشار إليه وبنوه في الأرض، ثم بآخره ما سواه، ولما قالت الملائكة - عليهم السلام- طلبًا منه علم ما به أنبأهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: =

[البقرة:٣٠] بالفاء، وقرأ الإمام زيد بن علي وغيره بالقاف[1] والخلافة تكون الخليفة على ضربين: أعلى وأدنى، ثم على درجات ووسائط بين الطرفين.

فالعلي منها: من شأنها أن يكون على حكم مستخلفه، وعلى نحو من علمه وخلقه؛ إذ هو مؤهل معه أن يقضي بقضائه، ويحكم بحكمه.

ثم تكون الدنيا منها: خلافه مجازًا أو لتسميته الشيء باسم الشيء، لكونه منه بمعنى وسبب، وبالمعنى السابق المفهوم من قوله ﷻ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ أي: يحافظ على عهدي ويعمل بأمري، ويستشهد شواهدي، فيشهد عنده ويعدلها ويأخذ عنها حكمي، يستنير بنيراتي ويستدل علي بآياتي، ثم بآخره يكون مفهومها الدنيا منها.

قال الله ﷻ: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾ [ص:٢٦] هذه من الخلافة العليا.

وقال: ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٢٩].

وقال: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا**﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود:٦١] المعنى إلى آخره حيث وقع.

وقوله ﷻ: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠] منتظم معناه بقوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢١] والذي يذكر بعهد الربوبية ولزوم ربقة العبودية.

ثم اتصل قوله بذكر الرسالة، وذكر النذارة والبشارة، وكل ذلك يعمه معنى تعداد النعم إلى قوله: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ**

=

بما أخلقه، وكيف ويكون خلقه بما لا تعلمون، وكان سبق إليهم - على جميعهم السلام - ما هو طريقة الفساد، وكان الذي كان في علمه هو ﷻ ما استعلن في المؤمنين والأنبياء والمرسلين والأئمة الراشدين، ثم في جميع ما خلقه من شيء، ويتضح هذا على قراءة من قرأ: «إني جاعل في الأرض خليقة» بالقاف وقد تقدم إيماء أنباء إلى هذا المعنى في سورة البقرة، يشرف باللبيب إلى سواء القصد إن شاء الله تعالى. [شرح الأسماء ٢٨٨/١].

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥٢/١)، وتفسير البحر المحيط (١٧٣/١).

يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨][(١)].

يقول جل قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ وهذا تقدير تعجيب من وجود هذا منهم مع وجود ما يوجب عدمه وفقده، كيف تكفرون بالذي خلقكم، وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، يحفظكم ويكلؤكم بالليل والنهار ويرزقكم، وبه قوامكم ظاهرًا وباطنًا، تكفرون به وتعبدون على هذا غيره؟

فصل

الله واسع عليم، يُسمع من يشاء ما يشاء، ووسع كلامه العظيم هذا وجوه الخلافة كما وسع كلامه كل ما أراده به.

ومن الخلافة: ما هي خلافة الأنبياء ثم خلائفهم، ومنها: ما هي خلافة المتسلطين والمتغلبين الجائزين عن سبيل الله ﷻ، وهذا الضرب من الخلافة هو أول المفهوم من قوله ﷻ: «خليقة» بالقاف وبالتبعية يكون مفهوم الخلافة العليا كما المفهوم الأول، من قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾ بالفاء منقطة من أسفلها الخلافة العُليا وبحكم التبعية، يكون مفهوم السفلى منها، وقد تقدم القول إلى معنى هذا.

كذلك من الملائكة - عليهم السلام - ما هم المخلوقون من النور، وهم ملائكة الرحمة، ومنهم المخلوقون من نار السموم.

قال الله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] وهم النسل الذي كان المبلس الملعون منهم في أوليته حتى أخرجه الله ﷻ عنهم ولعنه بكفره، وأبلسه لفسقه عن أمره، فطرده عن جواره وعزله عن عملهم، فكان مفهوم ملائكة الرحمة - على جميعهم السلام - ما عبر عنهم حكم قوله الحق لقبضة اليمين: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعلمون**» وكان مفهوم القبيل الآخر ما عبر عنه حكم قوله لأهل الشمال: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعلمون**» وفي أخرى

---

(١) قال المصنف: فهم يرجعون إلى الحي الباقي الدائم؛ فلذلك يكونون عند الرجوع إليه في بقاء متوالٍ دائم، ويبين له قوله جل من قائل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧] [شرح الأسماء ١/٣٥].

في كلتي الكلمتين: «**ولا أبالي**»[١].

تلقى كلا الفريقين من كلامه العلي ذكر الخلافة على هذا النحو، وهو ما كان كل واحد من القبيلين موجودًا عنه وله، وفقالت ملائكة العذاب: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [البقرة:٣٠] وهذا منهم على وجه التكبر، منهم على الخلائف الذين سبق إليهم علمهم، وعلى وجه طلب العلم من ربهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

تقدير ذلك: ربنا، أتجعل فيها من تخلقه وترزقه وتحييه وتميته وتجازيه بفعله، وتحسن إليه فتحفظه وتكلؤه وتمكنه وتملكه، وهم يكفرون بك ويكذبون رسلك ويردون عليك أمرك وكتبك، ويفسدون في الأرض ويسفكون دماء الآمرين بالقسط لهم من الناس، كيف هذا؟ وما وجه الحكمة في إيجاد هؤلاء؟ وكيف يكون وجود مثل هذا منهم مع وجود ما يوجب ضده؟ ولم يكن بعد ظهر من إبليس لعنه الله ما ظهر من ضلالته وفسقه ما أظهره.

ألا تسمعه جلَّ ذكره لما أعلمهم بأسمائهم، ثم قال ﷻ: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ**﴾أي: في مستقبل أمركم ﴿**وَمَا كُنْتُمْ**﴾ قبل ﴿**تَكْتُمُونَ**﴾ يعني: وهو أعلم بما أظهره من شأن إبليس لعنه الله؛ ولذلك كرر قوله: ﴿**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ**﴾ ثم قال: ﴿**وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ [البقرة:٣٣] فجعله ﷻ ماضيًا بالإضافة إلى حال إظهاره آياته واستكباره، أسال الله العفو والمعافاة في الدنيا والآخرة.

ثم هنا محذوف من حال المقال ما هو تمام الكلام، تقديره والله أعلم: لأن أمرتنا ربنا بأمرك فيهم لنهلكنهم بإذنك، ولئن وليتنا عذابهم لننتقمن لك منهم حنقًا عليهم من أجلك وعداوة لهم فيك، ثم عطف كلام الأولين من الملائكة - عليهم السلام - بالواو.

وقوله: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ [البقرة:٣٠] أي: مكان من لم يسبحك منهم، ونعبدك عوضًا من عبادتهم، كما قال: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ**

---

(١) تقدم تخريجه.

وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

ثم قالوا: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] أي: ونقدس لك عبادك المؤمنين؛ أي: نلهمهم ذكرك ونبلغهم وحيك ونلقي إليهم أمرك، ونشفع لهم عندك وندعوا لهم، كما قال جل قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧] إلى آخر المعنى حيث وقع ذلك من شأنهم.

تنبيه:

إن من أحق الحق الإيمان بالله جلَّ ذكره، ثم الإيمان بملائكته ورسله وكتبه، والشهادة بما شهد هو عز جلاله به، وإنهم الطائعون لأمره العاملون به، لا يوجد منهم له خلاف في مراد ولا يجوز عليهم، فهذا أصل عقد المسلمين، والقول بغير هذا خروج عن العقد المجموع عليه، وخلاف نص الكتاب العزيز، ورد لكلام الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

وقد يكون القول الذي تقدم ذكره: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] قولاً لجميعهم - صلوات الله وسلامه عليهم - زائدًا على ما تقدم ذكره.

قال الله ﷻ: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] فجميعهم الموالي من والى الله، والمعادي من عبادي الله فولى الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هؤلاء رحمة من شاء من عباده، وهؤلاء عقاب من شاء من عباده حكمة بالغة.

فصل

قال رسول الله ﷺ في قوله جل قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]: «**إن عليكم ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر...**»(١).

وإن أحدهما صاحب اليمين من العبد والآخر صاحب الشمال منه، وقال النبي

(١) انظر: تفسير البغوي (٤/٢٩٩).

ﷺ: «يقول الله ﷻ: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، فإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه وأطيب»[١].

وقال الله جل قوله لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠] وقالها نوح: ؊ فهؤلاء الملائكة المخلوقون من النور المقربون صلوات الله عليهم أجمعين، كما قال عز من قائل: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لله وَلَا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢] فهذا رقي بمعنى: التفضيل إلى الغاية.

وقد قال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧] وقال في الذين كفروا: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

وهذا خطاب عام في البرية المؤمنين منهم والكافرين؛ إذ من الإنس المؤمن والكافر، ومن الجن المؤمن والكافر، وإبليس - لعنه الله - كان من الجن وجاء في الأخبار: «وقوة الوحي تفضيل الولي على الملك»[٢] والله أعلم، فإن كان ذلك كذلك.

وجاء من عند الله ومن عند رسوله ﷺ فهو الحق المقطوع به، ويكون هذا التفضيل متوجهًا بين مصطفى الإنس وبين الصنف المخلوق من النار، الذين قال الله جل ثناؤه فيهم: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] هذا إن صح الخبر في هذا المعنى، وإلا فالسكوت أولى، والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣] [البقرة:٣٠] يعني: وهو أعلم بما ينزل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٧٧٠٠)، وابن خزيمة (٣٢٢)، وفي التوحيد (١٤٠).

(٣) اختلف علماء التأويل في هذا الجواب وهو قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ فقيل: إنه جواب لتعجّبهم، كأنه قال: لا تتعجّبوا من أن فيهم مَن يفسد ويقتل، فإني أعلم مع هذا أن فيهم صالحين ومتقين وأنتم لا تعلمون. **وقيل:** إنه جواب لغمّهم كأنه قال: لا تغتمّوا بسبب وجود المفسدين فإني أعلم أيضًا أن فيهم جمعًا من المتّقين ومن لو أقسم على لأبرّه. **وقيل:** إنه طلب الحكمة كأنه قال: إن مصلحتكم أن تعر فوا وجه الحكمة فيه على الإجمال دون التفصيل. بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم.

وقال ابن عباس: كان إبليس - لعنه الله - قد أعجب ودخله الكِبْرُ لما جعله خازن السّماء =

ما قد شاء إظهاره من حكم خصوص، والتفضيل بالإنباء والرسالة والولاية؛ لذلك تضم به ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾[1] [البقرة:٣١] لما قال هؤلاء ما عندهم وهؤلاء ما عندهم وعبر كل عن العلم الذي علمهم ربهم عز جلاله الذي أشاروا إليه بقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢] أجابهم ﷻ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

علمه جلَّ ذكره لا يقدر قدره، وما زاد به علمه على علم عباده لا يتوهمه الوهم، ولا يطرقه الفكر إلا أن يكون هذا العلم الذي أخبرهم ﷻ به نبأ قد أخرجه إلى الوجود، فيمكن العباد الإشارة إليه ولو على بعد، فمعناه وهو أعلم: إنها إشارة إلى ما جعل في آدم ﵇ من الحق، وأجزل حظ من الفطرة وخصه به من العلم

وشرفه، فاعتقد أن ذلك لمزيّةٍ له، فاستحب الكفر والمعصية في جانب آدم ﵇ وقالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، فقال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وقيل: المعنى عام؛ أي: أعلم ما لا تعلمون مما كان، وما يكون، وما هو كائن. [تفسير اللباب (٢٠٩/١)].

(١) قال المصنف: أي: علمه أسماؤه التي اقتضت مقتضياتها أسماء كل شيء خلقه ثم باهى ﷻ به ملائكته يوم اختبرهم بالسجود له إقرارًا منها له بخصوصيته الله ﷻ له، واقتداء به في سجوده له.

وكان ذلك أول التكليف والمحنة باعتقاد الخصوصية والإيمان بالنبوة والاقتداء بالأئمة والأمر بالنظر والاعتبار، وصرف كل مفعول في العالم إلى فاعله وتسمية كل مسمى بمعنى الاسم الذي تضمنه من أسمائه، فكان عن ذلك ما قصه علينا بصدق قبله وحكم تنزيله ﷻ، ثم توارث ذلك بنوه من بعده إلى أن بعد الأثر، وانفرق ما بين النبوة والنظر، فخلف بعد ذلك من بعدهم خلف أفردوا العقل وأغمضوا في ذلك على الإصغاء إلى الخير، فغربت شمس النبوة في حقهم واعتدت لذلك بصائرهم العمش، فهم يستقرؤون الموجودات عقلاً ومعقولاً ولا يهتدون يمشون فيما بينهما في مثل الغبش فلا يصلون، صمًّا عن الداعي عميًا عن الهادي بلهًا عن جدي الجادي، يتكلمون في الطبع والمطبوع، ويقتصرون على الأسباب والأواسط، ويعكفون على عبادة المعقولات والأفاعيل، ثم من أدرك منهم التوحيد استعمل عبادته لغير المعبود؛ إذ هو لنفسه شارع ولها بعقله ناهٍ وآمر، وهيهات هيهات إنما يضيء العقل بالنبوة.

ونفهم المراد من الله ﷻ لمبلغ الرسالة، وإنما ينظر العقل إلى غيابات غيوب الدنيا والآخرة بالنور الذي هو خليفة النبوة وهي الصديقية، هذا سبيل أتباع المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. [شرح الأسماء ٣١٧/١].

وحباه من الاصطفاء، والمعنى الذي من أجله نوّه بين الملائكة - عليهم السلام - وباهاهم به، ثم على القول بحكم العموم هو إخبار عن سعة علمه، وإحاطة خبره سرًّا وعلنًا جملة وتفصيلاً.

أعقب ذلك قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١] فيمكن أن يكون هذا الخطاب - والله أعلم - للقبيل من الملائكة، الذين أفهمهم الخلافة السفلى من صنفي الخلافتين، فباهاهم بآدم عليه السلام وعلى جميع الملائكة، وهو المصطفى من الخلائف بما علمه من الأسماء، ومقتضياتها التي هي المخلوق بها السماوات والأرض، وهو مقتضى السر فيها والعلانية.

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:٣٣-٣٧].

ثم ابتدأ جل جلاله خطابًا آخر بقوله جل قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: ما يأتي منكم من طاعة لي في إثابة من أطاعني، وعقاب من عصاني ورد أمري، وعلى القول بحكم العموم في جميع الأمر خلقًا وأمرًا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣] يريد وهو أعلم عز وجل: ما كتمه إبليس - لعنه الله - من خلافه إياه وعداوة من والاه والتبرؤ ممن اجتباه واصطفاه الذي عبر عنه قوله: «لأن سلطني عليه لأهلكنه» وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٦٢].

وعلى القول بالإجمال فإنه إذا كان الذي أعلمهم به هو أسماء الله، فإن ذلك لمقتضى جميع الوجود، وعلى التفصيل كله في وجود الكونين خيرًا وشرًا ضرًّا ونفعًا، والعلم بمنبعث ذلك كله وما هو آية عليه، وما يؤول إليه؛ لذلك قال عز

جلاله للملائكة - عليهم السلام - لما أنبأهم بأسمائهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣].

فصل

كان ذلك من الملائكة - عليهم السلام - مشهد علم، ومقام تعلم ولم يكونوا علموا أن من أهل الأرض أنبياء ولا علماء، فكشف لهم عن ذكر العلم يومئذٍ في آدم ﷺ بعلم الأسماء، لذلك قالوا عليهم السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ففي قولهم هذا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢] جملة ما عنه سألهم، وبقي عليهم علم التفصيل؛ أي: أنه لا سبيل لنا إلى علم ما لم تعلمنا إلا بك تعليمًا منك وهداية إلى الصواب، فهم الآن كذلك صلوات الله وسلامه على جميعهم؛ لتعليم الله جلَّ ذكره آدم ﷺ الأسماء كلها وعرضه إياها عليهم، وذلك من طرح العالم المسائل على المتعلم، وأمره ﷻ آدم ﷺ أن أنبأهم بأسمائهم، فأنبأهم ليثبت فيهم التعلم والتعليم والتجمع على ذلك[١].

قال الله ﷻ لعبده ورسوله: ﷺ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩] وقال رسول الله ﷺ: «**رأيت ربي في أحسن صورة، فقال لي: فيمَ يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟...**»[٢] فهم - صلوات الله وسلامه عليهم -

---

(١) قال المصنف: هذا أصل النبوة من عند الله جل ذكره لعبده وقوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٣] هذا أصل التبليغ من الأنبياء لأمتهم فهذه آية النبوة مبثوثة في العالم لا يجهلها إلا متجاهل. وبالجملة فالعلم ينقسم إلى معنيين: كلمة وسنة، فالكلمة: للتوحيد وما جرى إليه، والسنة: النبوة وما جرى إليها؛ لأن السنة تدل بجريان الأمر منها على سنن، سنة ذو الكلمات التامة، لا يوجد لتلك السنن تبديل ولا تحويل وتدل بذلك أيضًا على وجوب جريان الأمر الذي ضده النهي على سنن سنة الرسول الآتي من عند الله ﷻ ثم بعد هذا تتداخل الدلائل وتنشأ الشواهد على التوحيد من السنة، وعلى السنة من الكلمة وعلى هذا السبيل من الاعتبار فالعلم كله مخلوق من دلائل النبوة، كما امتلأ من دلائل التوحيد لكن لها رؤوس ترجع إليها، كما قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**» وكما قال رسول الله ﷺ: «**الهدي الصالح والسمت الحسن جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة**».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥) وقال: حسن صحيح. والطبراني (٢٠/١٠٩، رقم ٢١٦) والحاكم =

يتجمعون على ذلك ويفترقون عليه بإذن ربه ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان...**» وفيه: ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ**﴾ [سبأ:٢٣] **ثم كذلك إلى العنان، وهو السحاب بين السماء والأرض، فتسترق الشياطين من ذلك العلم فيكون عن ذلك ما يقال له الكهانة**».

وفي أخرى: «**إن الملائكة تجلس في العنان**»[١] ثم ما يباهي الله به الملائكة عندما يكون من عباده ما يكرمهم به من طاعة، واجتماع منهم إلى تعلم أو ذكر.

فصل

وقد تقدم فيما مضى أن أسماء الله ﷻ على ثلاثة معالم:

- اسم يدل على ذات فقط، كقوله جل قوله: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ**﴾ [الأنعام:١٩] وكذلك مذكور ومعلوم ومعبود، واسم الله من ذلك لعدم العلم باشتقاقه.

- واسم يدل على ذات وصفة، كحي وعليم وقدير ومريد ونحو هذا.

- واسم يدل على ذات وفعل، كاسمه الخلاق والرازق والكافي والحافظ والمقدم والمؤخر ونحو هذا.

فعلى هذا النحو يتطرق إلى تعرف أسمائه ومقتضياتها، وهم كذلك جميع الموجودات؛ فهي إما اسم ينبئ عن ذات الشيء وحقيقته، أو اسم ينبئ عن صفة ذلك المسمى، أو اسم يدل على فعله وعمله وما وجد له، ويزيدك إيضاحًا علمك بأن جميع الموجودات تعمها معرفتك بأن لكل عين معنى، ولكل حق حقيقة، فالعين هي الذات والمعنى فيه وعنه، وبه يكون الاسم الدال عليه.

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك...**»[٢]

= (١٩١٣) وأحمد (٢٢١٦٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤) والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجة (١٩٤).

(٢) أخرجه الطبراني (٣٣٦٧)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٩٠).

فإذًا أسماء الموجودات كلها عند الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه معلومة، مسماة عنده بأسماء ما وجدت له من عمل أو علم أو دلالة ذات وحق حقيه أو سعادة أو شقاء، معلوم عنده أهل الجنة وأهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وبلدانهم ليست كما هي عندنا؛ إذ كان الاسم منها يدل على مسماه بآنيته وبما هو له حقيقة.

وقد تقدم أنه المسمى، ويدل أيضًا على مسماه بما هو لقب أو تفاؤل أو يكون تفرقة بينه وبين غيره من المسلمين، بل على ما تقدم ذكره من تحقيق حق؛ لذلك قال الله عز من قائل وهو أعلم للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣] ويوضح هذا قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ﴾ يعني: المسلمين ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ [البقرة:٣١].

فمن الممكن أن تكون المطالبة بالأسماء التي هي لله جلَّ ذكره، المقتضية لأسماء المسمين من الموجودات، ويمكن أن يكون بأسماء المسميات؛ إذ هي منفصلة من معانيها على ما تقدم ذكره فيهن من كونها مسماة فيما هنالك بما هي موجودة له وبه، ومما يكون مآلها ومصيرها.

وقرأ ابن أبي عبلة من حرف أبي: «ثم عرضها على الملائكة» وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «ثم عرضهن» بالنون(١)، وما من اسم لمسمى إلا له من أسماء الله ما يقتضيه.

وإذا تمهد أن تكون المطالبة بالإنباء بأسماء المسمين بها، فيمكن أن يكون معنى قوله: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣] أي: بأسماء أنفسهم، فإن الكلام العلي يسع ذلك كما تقدم ذكره، وإن أسماء الملائكة - عليهم السلام - هي على حقائقهم وحقائق ما أوجدوا له كرضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار - عليهم السلام - جميع معاني موجودات الجنان مفصلة على معنى اسم الرضوان، وكذلك اسم ملك في مقارفة العصيان من المملوك والخلاف منه، فيفصل اسمه إلى جميع معاني موجودات جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - من أسر ووثاق وغضب

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (١/٥٤).

وعذاب وألم وجهامة وجواب وخزي، ثم إلى جميع موجوداتها إلى غاية المعلوم منها.

وقد قيل: إن اسم جبريل ﷺ عبد الله، وميكائيل عبد الرحمن، فإن كان ذلك يثبت من طريق مقطوع به، فقد كان جبريل ﷺ رسول الله جل ثناؤه إلى المرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - والرسالة مقتضاها البشارة والنذارة، ومقتضاها الوعد والوعيد، ثم الثواب والعقاب، فكان لذلك ﷺ يجيء بإهلاك المهلكين وعذاب المعذبين، كما كان ﷺ يجيء بالثواب والبشارات والنجاة والفوز لآخرين، ومن أجل ذلك قالت اليهود: «**ذلك عدونا من الملائكة**»[١] وكان ميكائيل ﷺ يأتي بالرحمة، والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾[٢] [البقرة:٣٧] انتظام هذا والله أعلم بقوله: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة:٣١] من ذلك قوله عز قوله: ﴿**إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:٣٧].

وفي أسمائه ﷻ الغفار والتواب والحليم والمنان والرحمن والرحيم ونحو هذا، وقد قيل في توبتهما هذه: إنها في قولهما - عليهما السلام: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف:٢٣].

وقيل: إن آدم ﷺ قال لربه ﷻ: «ربِ أرأيت ذنبي هذا هو شيء ابتدعته من نفسي، أو هو شيء كتبته علي قبل أن تخلقني، قال: بل هو شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك، قال: ربِ فبما كتبته علي قبل أن تخلقني فاغفر لي فغفر له».

قد جاء: «**إنه من أذنب ذنبًا، فعلم أن الله كتبه عليه قبل أن خَلَقه، غفر له وإن لم**

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (١/١٢٤).

(٢) اختلفوا في تلك الكلمات ما هي؟ فروى سعيد بن جبير ﷺ أن آدم ﷺ قال: يا ربّ ألم تخلقني بيَدِكَ بلا وَاسِطَةٍ؟ قال: بلى، قال: يا رب أَلَمْ تنفخ فِيَّ من رُوحِكَ؟ قال: بلى، قال: ألم تُسْكِنِي جنتك؟ قال: بلى، قال: يا ربّ ألم تسبق رحمتك غَضَبَكَ؟ قال: بلى، قال: يا رب إن تُبتُ وأصلحت تردّني إلى الجنة؟ قال: بلى، فهو قوله: ﴿**فتلقى آدَمُ مِن رَّبِهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ وقال النَّخعي: أتيت ابن عباس فقلت: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علّم الله آدم أمر الحجّ فحجا، وهي الكلمات التي تقال في الحجّ، فلما فرغا الحجّ أوحى الله تعالى إليهما قبلت توبتكما. [تفسير اللباب (١/٢٥٣-٢٥٤)].

يستغفره»[1].

وقال الله جل من قائل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال في كتابه الأول الذي هو عنده على العرش: «أنا الله لا إله إلا أنا، سبقت رحمتي غضبي»[2].

ومن مفهوم الأسماء التي هي لله ﷻ قول النبي ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»[3].

وفي معنى هذا أيضًا: إنه العفو يحب العفو، والغفور يحب المغفرة، والكريم الحليم يحب الكرم والحلم ونحو هذا، ويثيب على ذلك، تمدح بذلك واتصف به ليس كذلك، فما عاد إلى أسماء الغضب والسخط والانتقام ونحو هذا، فلعل هذا كله وما نحا نحوه مما تلقاه ﷺ من كلمات ربه ﷻ.

وقولهما، صلى الله عليهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣] إقرار منهما - عليهما السلام - واعتراف، وإلقاء بأنفسهما بين يديه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وأنه الرب لا رب لهما سواه، يغفر الذنب ويأخذهما به، ويقدره عليهما قبل إيجاده إياهما، ثم يسوقهما إليه سوقًا، وخرجهما على أنفسهما بالخيانة عليهما؛ ليكونا بذلك مذنبين مخطئين، فيستحقا بذلك اللوم وتتوجه بذلك الحجة، ولا يقدر على ذلك سواه ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [الإسراء:٦١] معنا و«إذ» هنا للعطف بها بذكر تعديد النعمة على آدم ﵇ وذريته متصلاً بقوله جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] فتوجه قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إلى وصفه بالقدرة على ذلك وعلى ما جاء بعده إلى قوله: ﴿فَلا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٦٧٦) بنحوه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، ومسلم (٢٧٤٩).

تَجْعَلُوا لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] يريد ﷻ أنه لا ند له.

ويوجه أيضًا قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وما بعده على تعداد النعم، وكثيرًا ما عبر عنه بذلك في كتابه من تحسين الصورة وتمام الخلقة، وعطفًا أيضًا لمعنى النبوة على معنى الربوبية، ثم كذلك إلى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الإسراء:٦١] يعدد نعمه العظام ومننه الكرام، يقول: من ذا الذي يشفع إليه فيكم؟ من الذي أوجب عليه تسبيق منه إليكم؟.

ولما كان أنبأ الله آدم بالأسماء وتعليمه إياها، وأمره للملائكة - عليهم السلام - بالسجود له من وجود الإنباء والرسالة، وبما في السجود من معنى الاقتداء كان قوله: ﴿وَإِذْ﴾ حيث جاء في هذا الخطاب منتظمًا بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] المعنى، فهذه أوجه «إذ» في هذا الموضع والعطف بها.

فصل

في هذا الخطاب البيان البيّن أن إبليس - لعنه الله - كان من قبل من الملائكة إلى أن أبلسه الله ﷻ ولعنه لأجل خلافه أمره وعصيانه له، لو كان من غيرهم لم يتوجه إليه الخطاب بالسجود، ولا كان يكون بتركه السجود عاصيًا لا يكون الأمر للملائكة - عليهم السلام - بالسجود لآدم عليه السلام إلا اقتداء لسجود كان منه لربه عز جلاله، وتقدم الرب جل جلاله للملائكة بالأمر بالسجود مطلقًا، اعتمادًا على ما جاء به الأمر كله من عنده من الأنبياء والرسل عليهم السلام والخليقة كلها كقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا الله﴾ [هود:٢].

والأمر بالسجود لآدم عليه السلام لا يصح اعتقاده مطلقًا ألبتة دون معنى مستثنى في باطن الأمر يدلك أن الله لا يأمر بالفحشاء، ولما خلقه الله جلَّ ذكره بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قابل ما جعل فيه من عقل بالشرع وما نفخه فيه من الروح بالخضوع والتعبد، وما خصَّه به من الاصطفاء والإكرام بالسجود له بالمسارعة إلى طاعته، فإن مخلوقًا لا يستوي ولا يتم إلا بعبادة خالقه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، والخضوع لربه.

فأمره بالسجود له حين النفخ فيه والتسوية له وحيًا أو إلهامًا، أو بما شاءه من

ضروب الوحي، فوقع لربه ساجدًا له، فكانت علامة تسويته عند الملائكة نفخ الروح فيه والسجود لربه، وكان الله جلَّ ذكره قد تقدم إليهم بالأمر بالسجود فسجدوا إليه اقتداء به وائتمامًا.

آية ذلك في الوجود: إن أحدًا من بنيه لا يوجب الله عليه السجود إلا بحضور العقل فيه، وجعل علامة ذلك الاحتلام أو الحيض في الجارية، ويسمى ذلك: بلوغًا.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا أذن الرجل في أرض قفر صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة، وإن أقام وصلى صلى وراءه ملكاه**»[1].

وقال ﷺ: «**إذا قال الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾** [الفاتحة:٧] **قالت الملائكة في السماء: آمين**»[2] وهذا كله نص على ائتمامهم بنبيه ﷺ.

قوله ﷻ: **﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾** [البقرة:٣٥] ليس بمصيب قول من قال: إنهما - عليهما السلام - كانا في الجنة عريانين لا يحتشمان من ذلك حتى أكلا من الشجرة، قال: فحينئذٍ بدت لهما سوآتهما؛ لأنهما رغم أكلهما الشجرة تفتحت أعينهما وعرفا الخير والشر لأجل ذلك، وقد قال الله ﷻ: **﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾**[3] [الأعراف:٢٧].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٥٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال أبو بكر بن العربي: جاء في التفسير أن إبليس حاور آدم على أكلها فأبى، فحاور حواء وخدعها، فأكلت فلم يصبها مكروه؛ فلما رأى آدم ذلك اغتر فأكل، فنالتهما العقوبة؛ وإنما لم تصبهما العقوبة إلا بعد أكلهما، لوجود المنهي عنه منهما جميعًا، وقد استدل بعض العلماء على من قال لزوجتيه أو أمتيه: إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حرتان؛ فإن الطلاق لا يقع بدخول إحداهما، وإنما يقع بهما معًا، حملاً على هذا الأصل، وأخذا بمقتضى اللفظ. وقيل: إنهما يعتقان ويطلقان بدخول إحداهما، وبعض الحنث حنث، كما لو حلف ألا يأكل هذين الرغيفين، فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بلقمة، لوقوع الحنث بأقل الأشياء. وقال أشهب: تعتق التي دخلت؛ لأن دخول كل واحدة شرط في طلاقها وعتقها. وقد قال مالك فيمن قال لزوجه: إن وضعت فأنت طالق، فوضعت ولدًا وبقي في بطنها آخر، فإنها لا تطلق حتى تضع الآخر؛ وعنه: تطلق بوضع الأول. والصحيح أن اليمين إن لم يكن لها نية أو =

وهذا نص منه ﷺ على أنه إنما ظهرت لهما سوآتهما؛ لأجل انتزاع لباسهما عنهما، وكتاب الله ﷻ المهيمن على كل كتاب قبله، والحجة البالغة على من خالفه.

وأبين مما تقدم دلالة قوله جل من قائل: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:١١٨-١١٩] فلو جاز أن يكونا عاريين في الجنة لجاز أن يكونا جائعين ظامئين ضاحيين، وهذا خلاف الكتاب والله يقص الحق وهو خير الفاصلين.

بل كانا - عليهما السلام - فيما اشتهياه ما عدا حكم الخلود، لولا أن الله كتب الموت على هذه الدار لكانت دار الخلود، فلأجل الموت في هذه انفصلت من دار الخلد، فإذا مات أحدنا حصل في دار الخلود، إما في خير وإما في شر، نعوذ بالله من سوء المصير.

ألا تسمع إلى قوله ﷻ في الفريقين معًا، وابتدء بذكر الأشقياء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [هود:١٠٦-١٠٧] ودوام السماوات والأرض في هذه الدار الدنيا.

= بساط يقتضي الجمع بينهما، فإن الصواب مع أشهب. قال بعض الناس: إنما أكل آدم من الشجرة وهو سكران. وقيل: أكل من جنس الشجرة لا من عينها، وكان إبليس غره بالأخذ بالظاهر وهي أول معصية وقعت؛ ولهذا قيل في اتباع الظاهر: هدم الشريعة. وقيل: أكل حملاً للنهي عن التنزيه. وقيل: أكل مناولاً لرغبة الخلد. وقيل: أكل ناسيًا. تنبيه: تعلق بعض الناس بقول من قال: أكل سكران وقالوا: أفعال السكران معتبرة في الأحكام والعقوبات، وأنه لا يعذر في فعل كالصحابي، كما ألزم الله تعالى آدم العقوبة بفعل السكر، وعندنا في ذلك ثلاثة أقوال: اللزوم، وعدمه، والفرق: فلا تلزم العقود كالنكاح، ويلزم الحل كالطلاق، وتعلق بعض الناس بقول من قال: أكل من جنسها، فقالوا: من حلف ألا يأكل هذا الخبز، فأكل من غيره حنث. وقال الأكثرون: لا حنث عليه. وقال مالك: ينظر إلى بساط يمينه أو نيته: فإن اقتضيا العين أو الجنس، حمل عليه. وقالوا: عينت لآدم الشجرة، وأريد جنسها، ولو حلف: لا آكل هذه الحنطة فأكل خبزها حنث؛ لأنها هكذا تؤكل. وقال ابن المواز: لا يحنث؛ لأنه لم يأكل حنطة فراعى الاسم، ولو قال: لا آكل منها فأكل خبزها حنث، لأنه آكل منها. قال القاضي أبو بكر: أما قول من قال: أكل سكران، ففاسد، لعدم صحة النقل؛ ولأن الأنبياء بعد النبوة معصومون مما يخل بالفرائض ويؤدي إلى اقتحام الجرائم. [الأحكام الصغرى ص١٨] بتحقيقنا.

ثم قال وقوله الصدق: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٨] أي: من قيامهم إلى الحشر يوم البعث، والنشور يوم الجمع، يوم الفصل والعرض على الله والميزان والصراط، ووقوفهم قبل ذلك وفي حالتهم تلك إلى انفصال الأمر، وافتراق الجمع إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، فاستُثني هذا المذكور من حكم الخلود بعدما عمه باسم الخلود وحكمه، وكون السماوات والأرض والأمر على ما هو عليه لا يخرج الجملة من حكم الخلود لولا الموت.

ولهذا كانت محاجة موسى آدم؛ لأنهم كانوا يموتون فيها، ويخرجون إليها وينشأ الأمر بهم فيها إلى ما شاء الله، ويكون كله خلود، فهذه الدار إذًا أصدق الوعد من دار الخلد، وليست منها لأجل الموت المخرج لهم عنها.

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧] فسمي ليلاً من لدن غروب الشمس إلى الصبح، كما أضاف غبش الصباح في الصيام إلى النهار، مع أنه أضافه إلى الليل في حكم الصلاة، فجعل صلاة الصبح جهرًا، وإنما صلاة النهار عجمًا.

فالعشاء والغبش برزخ من النهار والليل مزج الله فيهما الليل والنهار، كذلك البرزخ بين دار الدنيا ودار الآخرة، مزج الله فيه يوم الدنيا ويوم الآخرة، والاسم الجامع لهما يوم الدنيا والآخرة، كما الاسم الجامع النهار والليل، ويجمع هذا وهذا اسم اليوم، فلأجل هذا متى غربت الشمس حصلنا في الليل، وإذا طلع الفجر حصلنا في النهار، كذلك الدنيا مع الآخرة إذا مات أحدنا حصل في الآخرة، والآخرة هي دار الخلود ليس بعد ذلك إلا حكم البعث وما فيه، ثم المنقلب منه إلى أحد المحلتين مع تمحيص بعد تمحيص، ثم يتحقق حكم الخلود ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فحكم يوم الدنيا هو ما دامت هذه الحياة، فإذا مات أحدنا فقد دخل في معنى الليل، والليل هو مقدمة النهار من اليوم وهو اليوم الآخر، وتلك دار الخلود؛ إذ اليوم يجمع الليل والنهار، فإذا بعثنا فهو النهار، والوقوف يوم الجمع بمنزلة غبش ما بين الفجر وطلوع الشمس آية على التجلي العلي، فلذلك سمي ما بعد الموت باسم الخلود، خالدين فيها إلا ما شاءه بين بعث وجمع بما في ذلك.

فصل

ذهب الأكثرون أنه أسكن جنة الخلد التي وعدها المتقين في دار الآخرة، وذكر آخرون أنه نزل من الجنة من السماء في جبل من جبال الهند، وذكر آخرون أن الجنة كانت في ذلك الجبل بالهند معروف عندهم باسمه، قالوا: ولذلك وجد فيما هنالك شجر القرنفل والعود والصندل، كاللبان والكثيراء وأنواع الطيب كالمسك وغير ذلك من العقاقير والأفاويه الطيبة.

ومنهم من قال: لم تكن جنته في السماء، بل كانت في الأرض في ناحية من نواحيها، وإن تلك الناحية هي ناحية مطلع الشمس، وأن الأربعة الأنهار التي هي فيما هنالك انقسمت عن نهر، وهو في تلك الجنة، وهو سيحون وجيحون والنيل والفرات.

وكثر اختلافهم في ذلك جدًّا مع اتفاقهم على أنه كان في الجنة، وأنه أخرج منها بذنب أصابه، وجاء أيضًا: «**إنه مكث أربعين سنة في الجنة فخاره يتصلصل**»[١].

وفي أخرى: «**بين مكة والطائف حتى نفخ ﷻ الروح، وكانت الملائكة - عليهم السلام - تعجب من خلقتهم...**»[٢].

وجاء: «**إنه مكث تلك المدة جسدًا ملقى فيه بين مكة والطائف**»[٣].

هذا الاختلاف كله مع اتفاقهم على أنه كان في الجنة خلقه وسكناه إلى أن ألمَّ به الخطب الجلل، قال الله ﷻ: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ**﴾ [ص:٧١].

قوله ﷻ: ﴿**قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾ [البقرة:٣٥] ولم يقل ﷻ: «**ادخلا الجنة**».

وقال في إخباره عن إخراجه إياه منها: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا**﴾ [البقرة:٣٦] زل بمعنى: زلق ودحض، بمعنى سواء، ومنه قولهم: الطمع هو الصفاء الزلال الذي تزل عنه أقدام الرجال؛ أي: تزهق عنه.

---

(١) أخرجه ابن الصواف في «أجزائه» (٢٤) بلفظ: «**مَكَثَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ**».

(٢) ذكره البغوي في التفسير (٨١).

(٣) تقدم في سابقه.

وعبَّر أيضًا عن حوالة الحال بقوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢] لما زلا عن الجنة وزهقا عن مقامهما فيها طارت عنهما حُلاهما وتكشطت عنهما ملابسهما، وفي هذا دليل على أنهما كانا لا يبولان ولا يتغوطان؛ إذ لو كان ذلك لعري عنهما ما لم يعرَ قبل إلا بحلول العقوبة عليهما.

وأيضًا فليست الجنة دار إبطال وإفناء، وإنما ذلك في هذه الدار والأثقال كلها بطل وركز[1]، كيف وهي الدار التي لا تتنفس فيها جهنم بفيحها كهذه، وإن كان وجود الأركاس والأثقال هنا لأجل فيح جهنم - أعادنا الله الكريم منها - إبطال وإفناء إيجاد، فجاء من مجموع هذا أنهما خلقا في الجنة، وأن خروجهما منها زهق وزلل بحوالة حالٍ حادثٍ عليهما، كنزول من شرف إلى ضعة ومن خفض عيش إلى شقاوة كما يبسط الله ﷻ نعمته على عبده، ثم يقبضها منه وكذلك آيات الله في الوجود.

وقال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعليه، والنار كذلك**»[2].

وكما أن وجود الله أوجب لا محالة ولا مرية في ذلك في كل مكان نحن فيه، وعلى كل حال نحن نكون عليها، وذلك غيب عنا وهو شاهد صادق الشهود، حاضر كريم الحضور حقيقة حتى أن المكذب بذلك جاحد للحقيقة، خارج عن الإيمان به، كذلك وجود الجنة والنار حق دون مرية ولا ريب وجود حضور وقرب، وإن كان وجودهما غيبًا عنا.

وكذلك وجود الملائكة - صلوات الله عليهم أجمعين - وجود حق، وإن كانوا بمغيب عن مشاهدتنا وأدنى موجودات الجنة البشر كله لا ينقصهم مراد، ولا يعجزهم مطلوب، ولا يتجشمون قطع مسافة إلا أن يكون لهم في ذلك تنعيم فييسر عليهم كل تجشم مباعده النعيم.

آية ذلك: حضور ما يحدثه الله ﷻ على أيدي رسله من المعجزات، ويمنح أوليائه من ضروب الكرامات، وإن الدنيا لتنشأ بما هي عليه الآن إلى أن يتحقق ذلك فيها بحلول اليوم الآخر فتكون الجنة والنار، وعلى ذلك دلت الدنيا بسرائها

---

(١) الركز: ما لا يفهم من صوت أو حركة.

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٠٣).

وضرائها وصفاتها كلها، وإن ذلك لمن تحقيق حضورها؛ أعني: الجنة والنار، وإن كان ذلك غيبًا فكونه كذلك ليس بموجب له حكم العدم، بل هو وجود أرفع.

قال الله ﷻ في عبد له قتل فيه: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ**﴾ [يس:٢٦-٢٧].

وقال في المحتضرين: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ**﴾ [الواقعة:٨٥] إلى آخر السورة.

وإنما وجود هذه الدنيا إلى جنب وجود الآخرة بمنزلة النوم إلى جنب اليقظة، وما يرى فيها بمنزلة الحلم والرؤيا إلى جنب المشاهدة، والجنة في غيب السماوات والأرض، كما كانت الدنيا يوم خلق الله آدم عليه السلام في غيب الجنة مع وجود السماوات والأرض.

قال الله ﷻ للملائكة - عليهم السلام - لما أنبأهم آدم عليه السلام بما أعلمه الله من الأسماء وأظهر لهم المكنون: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [البقرة:٣٣].

ومن الغيب الذي أنبأهم به فيما أعلمهم به في الدنيا، وما تكون عليه فإن ذلك غيب بالإضافة إلى ما كان مشاهدًا لهم، وإنما أخرج آدم - صلوات الله وسلامه عليه - من الجنة خطيئته، فسجن لذلك في الدنيا فتاب إلى ربه، وتاب ربه عليه وهداه.

ولما مات - صلوات الله عليه - خرج من السجن لموته، وهدايته إلى ما يرضي ربه ﷻ، فالحق إذًا في أنه قد أعاده إلى ما كان عنه أخرجه؛ إذ قد تاب عما من أجله سجن في هذه، وأُخرج من تلك ويضرب الله الأمثال للعباد ويريهم آياته.

وأكثر القلوب من غفلتها في غيابات، ومن جهلها بما اجترمته في ظلمات، فهي لا تسمع لبعدها في حال غيبتها، ولا تعرف ما تجده من الحقائق لبلادتها، وربما عرفته فسألت عنه سهوًا منها عما ظفرت به لغفلتها عنه وجهلها به ﴿**وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ**﴾ [الرعد:٤١].

فصل

الواقع عليه اسم الفاعل الحق هو الله جل جلاله، ويقع على الغير اسم فاعل مجازًا

وتشبيهًا بوصف الحق، ثم الاعتبار في استحقاق مجاز هذا الاسم درجات من لدن وصف المضطرين المجبرين إلى وصف ذوي القدرة، والقصد والاختيار إلى وصف الفاعلين الذين أوقعوا أفعالهم على موافقة رضا مالكهم ﷻ، والفاعل الحق جل وتعالى ليس كمفعوله مفعول كما ليس كفعله فعل ذلك؛ لأنه ﷻ ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:١١] فعله ﷻ ليس بعلاج ولا تكون مفعولاته عن مزاج وعلة كل صُنع صنعه ولا علة لصنعه.

ألا ترى أن العلاج والمزاج والعلل أغيار، والأغيار ليس، فلذلك صعد مفعوله إلى غاية كمال كل مفعول، وإنما حقيقة فعل الغير كسب وتوسط هو مكتسب لحظه في ذلك المفعول بواسطة قدرة محدثة هي خلق الله العلي الأعلى جل وتعالى حكمة بالغة من لدنه ﷻ ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾ [النجم:٣١].

ولأجل هذه اللطيفة ربما خرج مفعول هذا المكتسب على غير مراده، وربما ظهر من القبح والشر أول وهلة، ولم يصعد في الكمال إلى غايته؛ إذ هو في كل أحواله ليس بخارج عن مشيئة الفاعل الأعلى جل وتعالى ومراده منه وبه.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم بيده وغرس شجرة طوبى بيده**»[١].

وفي أخرى: «**خلق الله أربعًا بيده: العرش وجنة عدن، والقلم وآدم** عليه السلام **وقال لكل شيء: كن فكان**»[٢] وفي أخرى: «**وكتب التوراة بيده**»[٣].

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كل ما خلقه الله خاصًا من لدنه، وأضافه إليه على خطاب الفيض الذي هو خطاب الوحدة، فهو أعرق وصفًا وأحق حقيقة ووجودًا

(١) أخرجه الدارقطني في الصفات (٢٨) بتحقيقنا. وأبو الشيخ في العظمة (١٥٥٥/٥).

(٢) أخرجه الطبراني (١١٤٣٩)، (١٢٧٢٣)، وتمام في الفوائد (٢٥٨)، وابن عساكر (١٥١/٥٢). والطبراني في الأوسط (٧٣٨)، (٥٥١٨)، قال المنذري (٢٥٨/٣)، والهيثمي (٣٩٧/١٠): رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأحد إسنادي الطبراني في الأوسط جيد.

(٣) أخرجه الدارقطني في الصفات (٢٨) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٢٦) وأبو الشيخ (١٥٥٥/٥).

كإخباره ﷻ عن جملة العالم وعن خلقه آدم ﷺ، فما كان على هذا فالخير أسرع إليه لا محالة.

ثم ما كان في هذا الوجود على هذا الوجه من شر فلمعنى ما، وهو ما عبَّر عنه قوله الحق: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وأنه وإن كان ﷻ كلتا يديه يمين مباركة، وهو المنزه العلي عما سوى الخير؛ إذ هو الذي استأثر بصفات الكمال وسبحات التعالي، فإنه ربما أخرج في المصنوع معاني الشمال، وقدر ذلك في المصنوع منه وعنه بسبيل الاكتساب يكون ذلك منه أو من غيره من المكتسبين على سبيل الجزاء الموجود بحكم العدل والفضل والابتداء الموجود منه بحكم الحكمة، فقف على هذا وتدبره جدًّا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود من المعتقد في هذا: أن المفعول الذي هو له وبه من لدنه لا بواسطة قدرة محدثة ولا قصد مكتسب فهو خير كله، ثم بآخرةٍ يظهر منه وعنه معاني الشمال، والمفعول الذي بواسطة مخلوق وقصد مكتسب، وإن كان بتقدير منه ﷻ، وإرادته منه وعونه له فهو المفعول الذي قد تكون منه معاني الشمال بدءًا، وعلى ما شاءه منه وبه، ثم إن كان أوله خيرًا فالوسائط تنفعل بما أعطاها الفاعل الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من العون المجعول فيبدو ذلك منها.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦].

وقال عز قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ وقال: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠] يقرأ بفتح اللام وخفضها من «ملكين»(١).

«الوسوسة»: إلقاء العدو في النفس، وترداد ذلك ومتابعته عليهما السلام، هذا أصل ذلك، ثم اتسعوا بعد هذا وتجوزوا كالمعهود منهم، فقالوا للكلام الخفي: وسواس.

---

(١) قرأ الجمهور «مَلَكَيْنِ» بفتح اللَّام، وقرأ عَلِيٌّ وابن عباس والحسنُ والضَّحَّاكُ ويحيى بْنُ أبي كَثِير والزُّهْرِيُّ وابن حكيم عن ابن كثير «مَلِكين» بكسرها، قالوا: ويُؤيِّدُ هذه القراءة قوله في موضع آخر: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لَّا يبلى﴾ [طه: ١٢٠] والمُلك يناسِبُ المَلِك بالكسر. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٩٧/٧)].

قال الشاعر:

وَسْـوَسَ يَدْعُـو مُخْلِـصًا رَبَّ الفَلَـقْ

وقالوا لصوت الحُلي: وسواس؛ وذلك لمقاربة يطول الكلام بسياقها.

ولما كان العدو - لعنه الله - لا يألو العبد ضلالاً وخبالاً أربح ما تكون عند نفسه صفقة أعظم ما تكون جنايته على العبد كما قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر:٦].

ولفظ «الوسوسة» واقع على ما كان أمرًا بكفر أو دخول بين العبد وربه ﷻ ثم عمَّ بعد اسم الوسوسة، فما كان أمرًا بصغار الذنوب وكبارها، وخاصة مخاطبة النفس لاتصاله بها بواسطة الجاري من حاملها مجرى الدم الكائن في مواد الخلقة، ثم بواسطة القرين الملازم له المتصل بالفصل الموسوس.

قال رجل: يا رسول الله، أحدنا يجد الشيء في نفسه يتعاظمه حتى يود أنه يكون حممة ولا يجده، فقال رسول الله ﷺ: «**قد وجدتموه، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة، ذلك محض الإيمان**»[(١)].

وذلك أن المعهود من العدو لعنه الله فيما يكون إلقاؤه المكروه منه في أرفع السر وأعلى موجود الإيمان، فيتعاظم العبد ذلك، ووده أن يكون حممة حياء من العالم الرقيب القريب، فبهذين كان ما يجده العبد من ذلك محض الإيمان.

ولما تأصل عليه العقد من أن كل ما تصور في الأوهام فهو بخلافه، فإن كل ما خالف الموجود العلي فليس فيه ﴿**فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٤].

فصل

كانت وسوسة العدو لآدم عليه السلام عند نفسه وما نواه من ذلك دخولاً بينه وبين ربه ﷻ أقام نفسه اللعينة في ذلك مقام الأمين الصدوق، والنصح المشفق على آدم عليه السلام مع ربه، البر به والودود له، وأنزل ربه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالضد من ذلك

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩٧)، وأبو داود (٥١١٢) والنسائي في الكبرى (١٠٥٠٣)، وابن حبان (١٤٧).

بقوله: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه:١٢٠].

﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢٠-٢١].

أنطق الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه العدو اللعين بما مآله تصديق ما قاله: إن أكله من تلك الشجرة على ما كان عليه كان السبيل إلى بلوغه محل الخلة ونيله الملك الدائم الذي لا يبلى.

وكان نهيه ﷻ إياهما برحمة ربه، ومن رحمة ربه به ؏ أن جعل نهيه ذلك، عن أكل الشجرة سببًا إلى أن يكونا ملكين أو يكونًا من الخالدين في مستقبل الأمر، فكان فضل الله عليهما وعلى كثير من ولدهما منطويًا في كلامه الذي عبَّر عنه بحيث بيَّنه وإن لم ينوِّه ولا أراده، بل الله جل ثناؤه وله الحمد جعله لهما عاقبة لصبرهما، ومخرجًا من كربهما، ويسرًا أنزله عليهما من عسر أمرهما؛ بأن تاب عليهما وهداهما فرفعهما إلى الجنة العليا، وأحلهما محل الخلد في الملك السرمد الذي لا يبلى هذا له ولذريته المؤمنين.

وإنما حاق سوء العاقبة بالعدو المبلس - لعنه الله - ومن اتبعه عافانا الله، فصدق الله جل ثناؤه عليهم ظنه كما أيأسه مما نواه في آدم ؏، ومن اقتدى بتوبته إلى ربه لما نظر آدم ؏ بعشق الغفلة، وحرص النفس على إنفاذها شهوتها مع الحرص على تعجيل الملك الدائم، والخلود الذي قرره العدو في نفسه نسي عهد ربه إليه، وأغفل موضع الفهم فيما طواه العدو - لعنه الله - عنه في قوله وما وصف به نفسه.

وظاهر ما أضافه إلى ربه ﷻ سبحانه من إقامته إياه مقام التهمة الذي سبحه عنها كل شيء مصغيًا إلى العوراء في ظاهر وسوسته، غافلاً عن موضع الإعظام والإجلال، متدليًا إلى الخلاف على كره له كان إيمانه منازعًا إلى الترك، مغلوبًا عليه في إنفاذ المقدور.

قال الله ﷻ معبرًا عن وصف هذه الحال: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] ولم يقل: «أقسم لهما» بل أخرج ذلك على وزان المفاعلة عبارة عن وجود المراجعة لمقام الكراهة منه، والمشايعة لإنفاد المقدور ومناوشة النزوع والهرب لأجل الإيمان الموجود في نفسه، وعظمة الله في قلبه. انتهى.

فصل

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا...﴾ [الأعراف:٢٢] لما أصغيا إلى وسوسة العدو - لعنه الله - وإلقائه العوراء إليهما من القول وأقراه على ذلك كانت بداية العقوبة مما يجانس ذلك ظهور العورة منهما؛ إذ لم يستعيذا بالله من شره وشر كيده، فكانت الغيبة حينئذٍ عن الذكر سببًا للغيبة اليوم عنه إلى دار الدنيا، وكان أكلهما من الشجرة المنهي عن أكلها سببًا لمأكولات حرام في الدنيا ومباشرتها، وكان ائتزارهما بورق الجنة علامة لتبديل اللباس.

قال رسول الله ﷺ: «**تحاج آدم وموسى عند ربهما، قال موسى لآدم: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، أخرجت الناس بخطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى رسول الله وكليمه، آتاك من علم كل شيء، وكتب لك التوراة بيده، فبكم وجدت ذلك كتب علي قبل أن أخلق؟ قال: بأربعين سنة. قال: أفتلومني على شيء كتب علي قبل أن أخلق بأربعين سنة؟**» قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**»(١) قالها مرتين.

أي: إنه حجه بأن عمل ما سبق له في علم الله، وكتابه أنه لا بد عامله وتمت محاجته إياه، فإنه قد تاب إلى ربه ﷻ من ذلك الذنب، وحاجه أيضًا بأن ذنبه ذلك مع ارتباطه بالتوبة كان سببًا إلى حلوله في المحل الأعلى مع الرفيق الأفضل في الملك الدائم والخلود السرمد والنعيم المقيم، ولذلك كرر رسول الله ﷺ ذكر المحاجة مرتين.

فصل

امتحن الله آدم بالشجرة كما امتحن إبليس - لعنه الله - بآدم صلوات الله عليه، فكان منهما ما سبق لهما في علم الله ﷻ بهما، فأما آدم ﷺ فتاب إلى ربه وأناب واستغفر لذنبه واهتدى، والحمد لله رب العالمين، فغفر له ذنبه وجعل له من أمره

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥٧٨) والبخاري (٣٢٢٨)، ومسلم (٢٦٥٢) وأبو داود (٤٧٠١) والترمذي (٢١٣٤)، وابن ماجة (٨٠) وابن حبان (٦١٧٩).

يسرًا، ومن كربه فرجًا ومخرجًا، فجعل سجنه الدنيا وجنته دار الخلود، ومحل المقامة والنعيم الدائم السرمد في جوار الله ورضوانه، وجعل ذلك كلمة باقية في عقبه، وقسم له نصيبًا في توبة من تبعه وائتم به في توبته.

أما إبليس - لعنه الله - فأبى واستكبر، وحاج عن هواه وفاخر بنفسه الله فلعنه الله جلَّ ذكره وأيأسه من رحمته، وجعل جنته الدنيا وسجنه النار الكبرى في عذاب السعير، وبعدٍ عن الله وسخطه منه، وجعلها ﷻ كلمة باقية فيمن تبعه، وحمَّله أوزار من ائتم به في فعله. انتهى.

قال الله جل من قائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٧].

وصية من الله جل ثناؤه ونصيحة منه لنا جلَّ ذكره، يقول: لا يفتننكم كما فتن أبويكم نزع عنهما لباس التقوى، فكان ذلك منه نزعًا للباس الظاهر أراهما بذلك سوآتهما؛ أي: عوراتهما الخلقية، ثم عوراتهم الظاهرة بتقلص العصمة عنكم فتقعون لذلك في الذنوب بعد الذنوب وفي كبارها بعد صغارها، وربما آل ذلك بكم إلى أن يخرجكم من الجنة التي وُعدت للمتقين، كما قال عز من قائل: ﴿يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

فصل

التقوى في الدنيا هي الجنة فيها بدلاً من الجنة التي يدخلونها يوم خروجهم من هذه الدار، كما كانت الجنة دار آدم وزوجه، فخرجا عنها بذنبهما وطار عنهما لباسهما، كذلك يخرجكم من التقوى بفتنته ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

قوله ﷻ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه:١٢٣].

﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥] إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾[الأعراف:٣٦] ونظيرها في سورة الأعراف، وسورة طه جعل جلَّ ذكره لزوم التقوى عوضًا من الجنة التي أعدها لهم وسببًا إلى دخولهم إليها، كما جعل الكفر به والخلاف له عوضًا من النار التي أعدها لهم، وسببًا إلى دخولها

والخلود فيها؛ لأن ذلك هو يوم الخلود، هذا عهد من الله ﷻ عهد به إلى عباده منفصلاً من العهد الأول مقرون به بشارته ونذارته.

عبرة:

هذان عبدان من عباد الله ﷻ، أحدهما تاب إليه من ذنبه وأناب واعترف فنجا من عقوبته، ثم أخرجه عن داره لذلك، وأبعده من جواره، والآخر أصرَّ على معصيته فلعنه وأبلسه، ثم أخرجه عن ملكوته، وعزله عن عمالته، وحرم عليه طاعته، وحجر عليه عصمته ورحمته، ولما أخرجهما قضى عليهما بالتناسل فملأ منهما الأرض وعمر منهما الهواء، وضاقت عنهما الدنيا لصغرها فقدرهم آجالاً، وأخرجهم إلى الوجود قرنًا بعد قرن في مدد متراخية، وأزمان متباينة يقبض بالموت ويبسط بالإيجاد إلى أن يقضي فيهم أمره.

ويحصي منهم العدد الذي قدره، ويبلغ كل أجله الذي أجله، وينيله رزقه الذي له يسره، ثم يحله المحل الذي سبق في علمه أن يحله؛ إذ قد أعد لهما قبل ذلك دارًا فصلها على دارين، لا يقدر قدرهما سواه، ولا يبلغ كنه علمهما غيره خلقًا وأمرًا، فكيف بمن أهلكه من القرون الماضية والأجيال الخالية، فكم قطع بذلك من رزق ونسل؟ وكم أعدم على ذلك منهم من قول وعمل؟ سبحانه ﷻ وله الحمد، كيف ينكر منكر الإعادة بعد البداية، ويكذب مكذب بالدار الآخرة، بل كيف يصحو المصدق بهذا من خوف مزعج أو يخلو من حزن مطلق، ما أعجب هذا الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ الله كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾
وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا
وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ

تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨–٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾(١) [البقرة:٤٥] طلب المعونة من مالكهما لأجل العجز عن القيام بالأمر، والعجز قد يكون عن عدم القوة على الفعل كالمقعد عن المشي والأعمى عن الرؤية، وقد يكون عن عدم الاستطاعة للشغل بغير المأمور به بدلاً منه، كالشغل بالتجارة عن طلب العلم وعن الطاعة بالمعصية، وهذا يكون من أمر الشيطان وعمله وبتوسطه، فمن هنا وجب أن يستعان بالله ﷻ على طلب الوفاق بالصبر على إكراه النفس في صرفها عن مرادها وبالصلاة - نعوذ بالله من الشيطان الرجيم - لقرب المصلي من ربه، ولأن خاصة الصلاة النهي عن الفحشاء والمنكر والأمر بما جعلت الصلاة له ومن أجله، ولذلك وصى بها وحذر من فوتها.

وفيما يذكر أنه من كلام عيسى ﵇ عبد الله ونبيه: «يا معشر الحواريين، إني قد

---

(١) لما أمرهم الله سبحانه بترك الضلال والإضلال والتزام الشرائع، وكان ذلك شاقًّا عليهم لما فيه من فوات محبوبهم وذهاب مطلوبهم عالج مرضهم بهذا الخطاب، والصبر حبس النفس على ما تكره، وقدمه على الصلاة؛ لأنها لا تكمل إلا به أو لمناسبته لحال المخاطبين، أو لأن تأثيره كما قيل في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، واللام فيه للجنس، ويجوز أن يراد بالصبر نوع منه وهو الصوم بقرينة ذكره مع الصلاة، والاستعانة بالصبر على المعنى الأول؛ لما يلزمه من انتظار الفرج والنجح توكلاً على من لا يخيب المتوكلين عليه؛ ولذا قيل: «الصبر مفتاح الفرج» وبه على المعنى الثاني: لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس الموجبين للانقطاع إلى الله تعالى الموجب لإجابة الدعاء، وأما الاستعانة بالصلاة فلما فيها من أنواع العبادة ما يقرب إلى الله تعالى قربًا يقتضي الفوز بالمطلوب والعروج إلى المحبوب، وناهيك من عبادة تكرر في اليوم والليلة خمس مرات يناجي فيها العبد علام الغيوب، ويغسل بها العاصي درن العيوب، وقد روى حذيفة أنه ﷺ إذا حزنه أمر صلى، وروى أحمد أنه إذا حزنه أمر فزع إلى الصلاة، وحمل الصلاة على الدعاء في الآية وكذا في الحديث لا يخلو عن بعد، وأبعد منه كون المراد بالصبر الصبر على الصلاة. [تفسير الألوسي (١/٣٠٠)].

بطحت لكم الدنيا على بطنها، وأجلستكم على ظهرها، فلن ينازعكم فيها إلا الملوك والشياطين، فأما الشياطين فاستعينوا عليهم بالصبر والصلاة، وأما الملوك فاتركوا لهم دنياهم يتركوا لكم آخرتكم».

وليُوطِّن من رام تنفيذ هذا العهد على مقاساة أهوال، وخوض غمرات وعبور لحجج، وخشونة طريق ووحشة انفراد، فعليه بالدعاء والابتهال والعزم على جهاد النفس، والتضرع إلى القريب المجيب، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة:٤٥-٤٦].

الصبر يوهن كيد شيطان الطبع، وهو الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، وخاصة الصبر تشجيع على مخالفة الهوى، ومخالفة الشيطان القرين، وعند مخالفة أسباب ما يجلب عليه الفضل خيله ورجله من حال الغضب في حدة أو شهوة أو هوى مطبق، قد كان رسول الله ﷺ يشتد غضبه حتى يعرف في وجهه فيجليه بمعنىً من الاقتداء والتسلي، كقوله مرة وقد أغضب: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١).

ومرة كان ﷺ يكظم غيظه كظمًا؛ ذلك بأن شيطان الطبع منه صلح، والشيطان القرين كان أسلم فانقطع كيد الفضل عند ذلك، وفي مثل هذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦] وحذَّر جدًّا من كيده مع كفر شيطان الطبع.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] خلق لأبينا آدم ﵇ جميع ما في الجنان، وأسكنه إياها يأكل ويشرب ويتبوأ منها حيث يشاء، ونهاه ﷻ عن الشجرة أن يأكل منها، وتأويل تلك الشجرة في موجودات الدنيا تفرعت إليه فروعها إلى أربعة: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به.

ثم ما تفرعت إليه أفنانها من أنواع المناهي وضروب المعاصي، وذهبت كل مذهب حتى انقسمت كذلك الدنيا إلى ذكر وفتنة، فكلما أذهب التقى كشف العورة، وكلما غير العقل وأضر بالميز حال بين القلب وبين ربه، وكلما جر إلى مخالطة

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠٨)، والبخاري (٢٩٨١)، ومسلم (١٠٦٢)، وابن حبان (٤٨٢٩).

الناس تفرعت في حقه هذه الشجرة إلى جميع أنواع المناهي، وبقدر تغلغله في ذلك ذهبت في حقه كل مذهب؛ لتبلغ غايتها حتى تتبدل في حقه الذكر فتنة.

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨] فمن اعتزل عن الناس وبعد عن الأملاك المتداولة، وزهد في فتنتها الدائرة ضعفت هذه الشجرة في حقه، وقلَّ اشتباك فروعها في مسالكه.

قوله ﷻ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1] [البقرة:٤٠] إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦].

الله جلَّ ذكره هو المانّ بابتداء الإحسان، ولقربه ﷻ لم يوجب لمكلف الوفاء منه بما له عنده من الخير وحسن المآب إلا بعد الوفاء من المكلف بما عهد إليه به وفيه: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] يقول جل من قائل: «وليرهب من سطوتي وأليم عذابي من لم يفِ بعهدي ولم يحفظ وصيتي».

ثم قال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:٤١] الخطاب لسبطين من يهود قريظة والنضير؛ لقرب جوارهم من موضع نزول القرآن، ثم جملة بني إسرائيل في ذلك الزمان، فكفر السبطان به على مفهوم هذا الخطاب، فوجب عليهم إثم جميع من كفر به من أهل عصرهم، ثم إثم من يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، كما أن كفر أهل عصرهم يوجب عليهم إثم من كفر به ممن يأتي بعدهم لا ينقص بعضهم من أوزار بعض شيئًا، ولذلك حذَّر السبطين من درك هذه العظيمة.

قال الله ﷻ: ﴿أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

وقال: ﷻ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ...﴾ [المائدة:٣٢].

وكما جعل على ابن آدم الأول كفلاً من وزر من قتل، فكذلك جعل لأبينا آدم

(١) استودعه نفسك وأمانتك وخواتم عملك وجميع ما حولك، فما استودع شيئًا قط إلا حفظه، أعاننا وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما استودعنا من شرائعه.

ﷺ نصيبًا من توبة من تاب بعده؛ لأنه أول من أحيا نفسه بالتوبة، فما أعظم ما وهبه ربه ﷻ بتوبته تلك.

قوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣].

يقول جلَّ ذكره لبني إسرائيل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يعني بالراكعين: أمة محمد ﷺ، كذلك قال ﷻ لإبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] يعني: محمدًا ﷺ وأمته.

ويتخرج أيضًا زائدًا على ذلك إلى أن يكون المراد بذلك صلاة الجماعة؛ أي: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصلوا مع المصلين، كذلك قال عز من قائل لمريم عليها السلام: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾ فهذا هو الأمر بالصلاة على سنة الفذ، ثم قال: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣].

كما قال رسول الله ﷺ وقد فرغ من تعليم أصحابه صلاة الفريضة في الجماعة، فوعظهم ورغبهم، ثم ندبهم إلى صلاة النافلة في حال الانفراد: «**إذا فرغ أحدكم من صلاته في المسجد فليجعل لنفسه في بيته من صلاته نصيبًا، فإن الله** ﷻ **جاعل له من صلاته في بيته خيرًا**»(١) وفي أخرى: «**نورًا**». وفي أخرى: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تجعلوها قبورًا**»(٢) فنزع بهذا ﷺ إلى المفهوم من القرآن العزيز، وكما حض على الصدقة سرًّا وجهرًا فكذلك الصلاة، وكثيرًا ما جاء ذكرهما بالمقارنة حيث جاء: السجود والقنوت كان لمن كان قبل هذه الأمة، والركوع يخص أمة محمد ﷺ نعتها الله جلَّ ذكره بذلك لإبراهيم ﷺ قبل إيجادها في قوله: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] وربما كان قد كلف الركوع أنبياءه وأهل خاصته، والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة:٤٥] دلهم على حُسن العون، وهو الصبر والصلاة.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٤٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٩٠).

فصل

الصبر في ثلاثة مواطن: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعاصي، والصبر على المصائب.

وبالجملة: الصبر على البأساء والضراء وحين البأس.

والغرض الأول المقصود بذكر الصبر هنا: هو الصوم مع استصحاب عزيمة الصبر.

قال رسول الله ﷺ: «**الصوم نصف الصبر**»(١) وباستصحاب تعاهد الصوم يكتسب الصبر المعهود من كسر سورة الشهوة وتوهينه حزب الشيطان منه.

فصل

الصلاة بما هي صلاة تنهى من الفحشاء والمنكر، والصبر يقوي العزم والجلد، ويثبت الأقدام ويشجع الجبن ويشد الأزر، ويكسب ضراوة العفافة، ويقوي صفة عين اليقين، ويفرغ الأعضاء للعبادة والقلب للذكر والفكر، ويوجب الصحبة.

قال الله ﷻ: ﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال:٤٦] وبهاتين الخلتين يُوفى بالعهد وتجمل السيرة ويُلزم طريقة الاستقامة.

لذلك قال عز من قائل: ﴿**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

قوله ﷻ: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ**﴾ [البقرة:٤٩] السوم: الترداد على الشيء، ومنه اشتق اسم السائمة من النعم؛ لأنها تسوم الرعي وتتردد على المرعى، وهذا خطاب معطوف على قوله: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ**﴾(٢) [البقرة:١٢٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٧٤٥) قال البوصيري (٥٥٥/١) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٧٧). والقضاعي (٢٢٩) والديلمي (٣٨١٧).

(٢) **مسألة في تأويل قوله تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ المخاطب به بنو إسرائيل:**
اختلف العلماء في تأويل هذه الآية - بعد إجماعهم على أن أمة محمد ﷺ هي خير أمة أخرجت للناس وأنها مفضلة على سائر الأمم السابقة - على النحو التالي: الأول: أي
=

=

فضلتكم على عالمي زمانكم - وهو قول ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وابن زيد وهو مذهب المصنف والتفتازاني والأكثرين من المفسرين - صرف العموم فى لفظ العالمين إلى الاستغراق العرفي لا الحقيقي، أو هو من قبيل العام المراد به الخصوص، فلا يتناول من مضى ولا من سيوجد بعدهم، والقرينة على ذلك أن الأنبياء عليهم السلام والصحابة الكرام كونهم أفضل منهم مما علم من الدين ضرورة، وهذا التفضيل وإن كان فى حق الآباء فإنه يحصل به الشرف للأبناء لأن شرف النسب معتبر فى الشرع والعرف وأن فضيلة الآباء فضيلة الأبناء وإن لم يكن الأبناء موصوفين بهذه الفضيلة ولكن لا يلزم من كون بني إسرائيل أَفْضَلَ العالمين في ذلك الوَقْت كونهم أفضل من محمد ﷺ وأمته. والثاني: قوله ﴿عَلَى العَالَمِينَ﴾ عام؛ لكنه مطلق في الفضل، والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة فالآية تدلّ على أن بني إسرائيل فضّلوا على كل العالمين في أمرٍ ما وهذا لايقتضي أن يكونوا أفضل من كلّ العالمين في كل الأمور بل لعلهم وإن كانوا أفضل من غيرهم في أمر واحد فغيرهم يكون أفضل منهم فيما عدا ذلك الأمر فمعنى تفضيلهم على جميع العوالم أن الله تعالى بعث منهم رسلا كثيرًا لم يبعثهم من أمة غيرهم ففضلوا بهذا النوع من التفضيل على سائر الأمم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] وهو مذهب السيوطي. والثالث: قال قوم: العالم عبارةٌ عن الجمع الكثير من النَّاس كقولك: رأيت عالماً من النَّاس، والمراد منه الكثرة - قاله الشيخ الزمخشري ينظر: (الكشاف ١/١٣٨)؛ قال الإمام الرازي: وهذا ضعيف ؛ لأن لفظ العالم مشتقّ من العلم وهو الدليل، فكل ما كان دليلاً على الله تعالى كان علما وكان من العالم، وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كلّ موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات. (التفسير الكبير ٢/٤٩). قال الشيخ أبو الطيب القنوجي ردًّا على استضعاف الإمام الرازي: هذا الاعتراض ساقط، أما أولا فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه، وأما ثانيا فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودًا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح إطلاق اسم العلم عليه، وهو كائن فى كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات، وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات فى كل زمان فليس فى اللفظ ما يفيد هذا ولا فى اشتقاقه ما يدل عليه، وأما من جعل العالم أهل العصر فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا محمد ﷺ ولا على من بعده من العصور، ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين﴾ [المائدة: ٢٠] فإن قيل: إن التعريف فى العالمين يدل على شموله لكل عالم، قلت: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزمًا لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات. اهـ من (فتح البيان ١/١١٩-١٢٠) (التفسير الكبير ٢/٤٩-٥٠)

=

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة:٤٩-٥٤].

ثم عطف ما تقدم ذكره قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾(١) [البقرة:٥٠] وإذ كذلك إلى قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١] يخاطب في ذلك كله بني إسرائيل، ويُعرّض لهذه الأمة بما أصاب أولئك في بيوتهم من البلوى، والامتحان بكثرة عتوهم على أنبيائهم، وعسر انقيادهم يحذر هؤلاء من الوقوع في مثل ذلك، ويؤدبنا بغيرنا ويرينا في ذلك آياته إرشادًا وتبصيرًا.

عبرة: قال الله ﷻ في بني إسرائيل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ الله وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع،

=

(اللباب ٤٦/٢) (حاشية القونوي ٢٦٨/٣) (حاشية ابن التمجيد ٢٦٧/٣-٢٦٨).

(١) أي: فرق الماء يمينًا وشمالاً حين خرج موسى مع بني إسرائيل من مصر، فخرج فرعون وقومه في طلبهم؛ فلما انتهوا إلى البحر ضرب موسى عصاه على البحر، فانفلق فصار اثني عشر طريقًا يبسًا، لكل سبط منهم طريق، فلما جاوز موسى ﷺ البحر ودخل فيه فرعون مع قومه غشيهم من اليم ما غشيهم؛ أي: غشيهم الماء فغرقوا في اليم. [بحر العلوم للسمرقندي (٥٤/١)].

حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن إذًا**»[(١)].

وعصم الله جل ثناؤه هذه الأمة؛ بأن لم يجعل فيها أنبياء، وتوفى رسولهم محمد ﷺ وعلى جميع النبيين والمرسلين وعلى الملائكة المقربين وهو عنهم راضٍ، وسائر ما فعلوهم قد ألمت به هذه الأمة، فمن رأى بهذه الأمة ما حلَّ ببني إسرائيل من ذلة ومسكنة من أسر وقتل وسباء وغير ذلك فلا يرجع باللائمة إلا على مخالفته كتاب ربه وتبديله حكمه، ونبذهم إياه وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون إلى غير ذلك.

وإنما أشرنا إلى هذه؛ لئلا يظن بالله جلَّ ذكره ظن السوء، بل ظن السوء راجع علينا لسوء أعمالنا، ولو أحسنَّا لأحسن إلينا.

قال الله جل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة:٦٥] إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ إلى مفهوم قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦].

لم يبلغ الله جلَّ ذكره هذا وشبهه ليطلعنا على معائبهم حسب، بل لنتذكر متى رأينا تلك العلامات منا وفينا فنتوب إليه ونزدجر، فنسأل الله التواب توبة لجميعنا صادقة، وإنابة لأمتنا مخلصة، ورجعة إليه بتوبة قريبة يرضاها منا ويحبها بمنِّه وكريم عفوه.

عبرة وموعظة:

قال الله - تعالى علاؤه وشأنه وقوله الصدق وحكمه الحق - في بني إسرائيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾[(٢)] [البقرة:٦١] فهذه عقوبة

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٤٠٤)، وقال: صحيح.

(٢) ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي: جعل ذلك محيطاً بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصق بهم من ضرب الطين على الحائط، ففي الكلام استعارة بالكناية حيث شبه ذلك بالقبة أو بالطين، و«ضربت» استعارة تبعية تحقيقية لمعنى الإحاطة والشمول أو اللزوم واللصوق بهم، وعلى الوجهين فالكلام كناية عن كونهم أذلاء متصاغرين؛ وذلك بما ضرب =

لهم، وجزاء لأعمال كانت منهم.

ثم قال: ذلك إشارة منه إلى ما ذكره من الجزاء لهم والعقاب بأنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [البقرة:٦١] فبهذا استوجبوا منه الذلة والمسكنة والغضب واللعن.

ثم قال ذلك؛ أي: مِن غَضَبِنا عليهم وما ألزمناهم من الذلة والمسكنة والخلود في جهنم بما عصوا وكانوا يعتدون، فذكر أنهم عصوا الله والرسول فيما أمروا به ونهوا عنه، فكان ذلك منهم عصيانًا فلأجل العصيان وعقوبته استجرهم الشيطان من صغار الذنوب إلى كبارها، ومن كبارها إلى الكفر، وقتل الأنبياء بغير الحق، وإلى قتل الآمرين بالقسط من الناس.

ثم قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١] أي: الحدود، فليتقِ العبد ربه، وليجتنب صغير الإثم وكبيره، فإن الذنوب تجر إلى الذنوب، والعقوبات على ذلك تنشأ كما حل بهؤلاء دفعتهم صغار الذنوب إلى كبارها، وكبارها إلى أكبر منها، ثم إلى الكفر وقتل الأنبياء، فنشأت العقوبات كذلك إلى اللعن والغضب من الله وسوء المصير.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[1] [البقرة:٥١] يعد ﷻ نعمه عليهم

=

عليهم من الجزية التي يؤدونها عن يَد وهم صاغرون، وبما ألزموه من إظهار الزي؛ ليعلم أنهم يهود، ولا يلتبسوا بالمسلمين وبما طبعوا عليه من فقر النفس وشحها، فلا ترى ملة من الملل أحرص منهم، وبما تعودوا عليه من إظهار سوء الحال مخافة أن تضاعف عليهم الجزية إلى غير ذلك مما تراه في اليهود اليوم، وهذا الضرب مجازاة لهم على كفران تلك النعمة، وبهذا ارتبطت الآية بما قبلها، وإنما أورد ضمير الغائب للإشارة إلى أن ذلك راجع إلى جميع اليهود، وشامل للمخاطبين بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، فليس من قبيل الالتفات على ما وهم. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ أي: نزلوا وتمكنوا بما حلَّ بهم من البلاء والنقم في الدنيا، أو بما تحقق لهم من العذاب في العقبى، أو بما كتب عليهم من المكاره فيهما أو رجعوا بغضب؛ أي: صار عليهم، ولذا لم يحتج إلى اعتبار المرجوع إليه، أو صاروا أحقاء به أو استحقوا العذاب بسببه وهو بعيد، وأصل البواء بالفتح والضم مساواة الأجزاء، ثم استعمل في كل مساواة. [تفسير الألوسي (١/٣٤٢)].

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ

=

=

مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١] فيه ست مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو: «وعدنا» بغير ألف، واختاره أبو عبيد ورجحه وأنكر ﴿وَاعَدْنَا﴾ قال: لأن المواعدة إنما تكون من البشر فأما الله ﷻ فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد، على هذا وجدنا القرآن، كقوله ﷻ: ﴿وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النور: ٥٥] وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] قال الجوهري: الميعاد: المواعدة والوقت والموضع، قال مكي: المواعدة أصلها من اثنين، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب، قالوا: طارقت النعل، وداويت العليل، وعاقبت اللص، والفعل من واحد، فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى «وعدنا» فتكون القراءتان بمعنى واحد، والاختيار «واعدنا» بالألف؛ لأنه بمعنى «وعدنا» في أحد معنييه، ولأنه لا بد لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة. الثانية: قوله تعالى: ﴿مُوسَى﴾ موسى اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف، والقبط على - ما يروى - يقولون للماء: مو، وللشجر: شا، فلما وجد موسى في التابوت عند ماء وشجر سُمي موسى. قال السدي: لما خافت عليه أمه جعلته في التابوت وألقته في اليم - كما أوحى الله إليها - فألقته في اليم بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه، فسمي باسم المكان، وذكر النقاش وغيره: أن اسم الذي التقطته صابوث، قال ابن إسحاق: وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ. الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أربعين نصب على المفعول الثاني، وفي الكلام حذف، قال الأخفش: التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] والأربعون كلها داخلة في الميعاد، والأربعون في قول أكثر المفسرين: ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة، وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأل قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة فعدوا فيما ذكر المفسرين عشرين يومًا وعشرين ليلة، وقالوا: قد أخلفنا موعده، فاتخذوا العجل، وقال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى فاطمأنوا إلى قوله، ونهاهم هارون، وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩٠-٩١] فلم يتبع هارون ولم يطعه في ترك عبادة العجل إلا أثنا عشر ألفًا فيما روي في الخبر، وتهافت في عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفي ألف، فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقي جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون، وأحرق العجل وذراه في البحر فشربوا من مائه حبًا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة وورمت بطونهم فتابوا ولم تقبل توبتهم دون أن يقتلوا أنفسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لدن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى، فقتل بعضهم بعضًا لا يسأل والد عن ولده، ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا أحد

=

في امتنانه بنبيه الذي أرسله إليهم ﷺ؛ إذ يقع إتمام النعمة عليه في نبوته ورسالته ومواعدته إياه وإكرامه بتكليمه، فتوجيهه وتشريفه عائد إليهم، راجع عائدته إليهم لو كانوا يعقلون، فكان منهم فيما كان يجب عليهم من شكر النعمة أن اتخذوا العجل بعده إلهًا من دون الله المنعم عليهم، وكان قد أعلم رسوله موسى ﷺ أن قومه ستكون عاقبتهم أن يحل عليهم غضبه، نعوذ بالله من ذلك.

عبَّر عن ذلك القرآن بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ [طه:٨٠] إلى قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه:٨١].

وأنبأ الله موسى ﷺ أن قومه قد أضلهم السامري فرجع إليهم غضبان أسفًا؛ أي: حزينًا مما يتوقع نزوله بهم من غضب ربهم ﷻ لمعاجلتهم إياه بالخلاف، فقال لهم: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٠] أي: غضبه

=

عن أحد، كل من استقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله حتى عج موسى إلى الله صارخًا: يا رباه قد فنيت بنو إسرائيل! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله فقبل توبة من بقي وجعل من قتل في الشهداء على ما يأتي. الرابعة: إن قيل: لِمَ خص الليالي بالذكر دون الأيام؟ قيل له: لأن الليلة أسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة ولذلك وقع بها التاريخ، فالليالي أول الشهور والأيام تبع لها. الخامسة: قال النقاش: في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه ﷺ واصل أربعين يومًا بلياليها، قال ابن عطية: سمعت أبي يقول: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري - رحمه الله - يعظ الناس في الخلوة بالله والدنو منه في الصلاة ونحوه، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ويقول: أين حال موسى في القرب من الله؟! ووصال ثمانين من الدهر من قول حين سار إلى الخضر لفتاه في بعض يوم ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] قلت: وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال وأن أفضله أربعون يومًا، وسيأتي الكلام في الوصال في أي الصيام من هذه السورة إن شاء الله تعالى. السادسة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١] أي: اتخذتموه إلهًا من بعد موسى، وأصل اتخذتم «ائتخذتم» من الأخذ ووزنه افتعلتم، سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء «ايتخذتم» فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفًا في «ياتخذ» وواوًا في «موتخذ» فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهي التاء، وأدغمت ثم أجلبت ألف الوصل للنطق، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: ٨٠] فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير.

بالطغيان عليه في نعمه عليكم فكان ما قصَّه الله جلَّ ذكره من أمرهم.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:٥٤] جاء في التفسير أن هذا الأمر أمر عزم بأن يقتلوا أنفسهم، وأنهم قتلوا بعضهم بعضًا وكذا جاء في كتب أهل الكتاب، فالله أعلم أكان ذلك أم لا آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليهم، وسلمنا لما هو الحق من عند ربنا، وكتاب الله أعظم فاصل وأكبر شاهد، والمهيمن على ما جاء قبله من كتاب.

وربما كان ذلك عبارة عن التوبة إلى الله، والإنحاء على الأنفس بوظائف العبادات والتشديد عليها، والتنكيل بالكسر لها، ومنعها ما لها حتى ترضى بما عليها، يدل على ذلك قوله لمتخذي العجل: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٥٤] ولو قتلوا فهلكوا لم يقل جل قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بل كان يقول: فغفر لهم.

وقد أبقى ﷻ في حقنا وله الحمد على ذلك، فجعل سنة التوبة ذبح النفوس بالكسر لها والمنع من شهواتها حتى ترجع إلى ما يرضي ربها، وذلك في الاعتبار موت في حق المذنب من الحال التي كان عليها من كسب الذنب، كما التوبة حياة في التائب عن موت الذنب، وجعل ﷻ من عقوبة متأخرهم على ذلك أن يكون خروج الدجال - لعنه الله - فيهم ومنهم، وإنهم متبعوه وناصروه كفرًا زائدًا إلى كفرهم كما كفروا به أولاً، وإنهم متبعوه، والممتحنون من أجله المقتولون حقًّا بحكم الله ﷻ وحكم رسوله عليه السلام عيسى ابن مريم.

وكما يصيب بركة السلف الخلف كذلك يشقى الخلف بشؤم السلف، نفعنا الله بصالح سلفنا، ورزقنا بركة يسر انقيادهم لنبيهم ﷺ وحسن تأتيهم، وأن يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاء للذين آمنوا ربنا وربهم وهو الرؤوف الرحيم.

وقرأها قتادة: «**فاقتالوا أنفسكم**» من الإقالة[1]، كذلك قولهم: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] فأخذت أولئك الصاعقة بظلمهم حيث لم

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (١/٨٠).

يعرفوا أنفسهم، ويقفوا عند حدودهم، واجترؤوا على الله ﷻ بسؤال لم يكن ينبغي لهم، فصعقوا عند ذلك، وأصاب خلفهم الحجب والإبعاد والطرد والغضب ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩].

كذلك قولهم في دخولهم القرية التي أمروا بدخولها، والقرية إيليا قصر مدينة بيت المقدس: ﴿وَ﴾ قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف:١٦١] أي: باب المسجد المقدس؛ أي: للصلاة والسجود، وعلى حال من يأتي للصلاة بالخضوع لربه والخشوع ﴿وَ﴾ قيل لهم: ﴿قُولُوا﴾ في دخولكم مسجدها على حالكم تلك: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: إنكم إذا فعلتم ذلك غُفرت لكم ذنوبكم وحُطت عنكم خطاياكم، فآمنوا بذلك واعتقدوه في قلوبكم إيمانًا به، دل على هذا قوله: ﴿حِطَّةٌ﴾ بالرفع؛ أي: هذه حطة، أو ما كان في معنى هذا.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:٥٥-٦١].

يقول الله ﷻ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة:٥٩] الله أعلم بما عوضوا مكان ذلك من قول، وعقد جاء من طريق آحاد.

قال رسول الله ﷺ: «**إنه قال: دخلوا يزحفون على إستاهم وقالوا: حبة في شعرة**»[١] وفي غيرها: «**حبة في حنطة**» والله أعلم أكان ذلك على هذا الوجه أم لا.

وطريق هذا العلم لا يثبت بطريق الآحاد، غير أنه ذكر حالاً مكنى عنها بذكر العورة، والمشي الذي لا يوصف بالاستقامة، والعرب تقول للكلمة الفسلة: العوراء، وكل من ابتدع في شرع بدعة وترك الواجب امتثاله فجدير أن يكنى عن قوله وفعله بمثل هذا، فأصابهم بذلك عتو على نبيهم، وتبديل لكلام ربهم، وَرِث خَلَفُهم بذلك قلة السمع والطاعة، فأعقبهم اللعن وغلظ الفهم والقسوة، وتحريف الوحي وابتياعهم به ثمنًا قليلاً، وكل ما كان من متاع ولو كثر فهو قليل.

قال الله جل من قائل: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢] [البقرة:٧٥].

وقال فيهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨] وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ...﴾ [البقرة:٧٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٢)، ومسلم (٣٠١٥)، وأحمد (٨٢١٣)، والترمذي (٢٩٥٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٨٩)، وابن حبان (٦٢٥١).

(٢) يقول الإمام الفخر الرازي: قال القاضي: إن التحريف إما أن يكون في اللفظ أو في المعنى، وحمل التحريف على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنى؛ لأن كلام الله تعالى إذا كان باقيًا على جهته وغيروا تأويله فإنما يكونون مغيرين لمعناه لا لنفس الكلام المسموع، وإنما يمتنع ذلك إذا ظهر كلام الله ظهورًا متواتراً كظهور القرآن، فأما قبل أن يصير كذلك فغير ممتنع تحريف نفس كلامه، لكن ذلك ينظر فيه، فإن كان تغييرهم له يؤثر في قيام الحجة به فلا بد من أن يمنع الله تعالى منه، وإن لم يؤثر في ذلك صح وقوعه؛ فالتحريف الذي يصح في الكلام يجب أن يقسم على ما ذكرناه، فأما تحريف المعنى فقد يصح على وجه ما لم يعلم قصد الرسول باضطرار، فإنه متى علم ذلك امتنع منهم التحريف لما تقدم من علمهم بخلافه كما يمتنع الآن أن يتأول متأول تحريم لحم الخنزير والميتة والدم على غيرها. انتهى بتصرف (التفسير الكبير ٣/١٢٣).

فصل

من ضعف الإيمان وقلة الثقة بوعد الله أن يصلي العبد ويتطهر ويتصدق ويشهد ويعبد الله ويقول: «لا أدري لعلي لا يقبل عملي، ولعلي ممقوت عند ربي» بل يتطهر بنية خالصة وفعل سليم لله، مسلم له وجهته على سنن قويم، ثم يوقن بأن الله تعالى قد قَبِل منه، فإن من أحسن من نيته جزمًا وخاف من عمله نقصًا فليتب من ذلك إلى ربه، وليحتسب على الله ﷻ ذلك كما قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] فالله أحق وعدًا وأصدق قيلاً.

وليكن مجاهدًا بين نفسه وبين وعد ربه، فليؤمن بربه ﷻ وبوعده، وليكن من نفسه على حذر من وقوع في عجب أو كبر أو حسد وزهد في عمل لأجل تقصير يظنه، أو لأجل ما وعد به من تكفير لسيئاته وإثبات لحسناته، فإنه لا يدري بما يختم له، وليكن كما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] فإنه إن لم يكن هكذا لعب به العدو فحقر عنده العمل ورماه بالكسل؛ لأنه لم يبلغ بزعمه ما هو المرضي عند الله، فيكون بذلك ممن بدل قولاً غير الذي قيل له.

يقول الله ﷻ: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

ويقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

ويقول هو: من أين لي ما يرضي ربي في عملي؟ فيكون بذلك من الذين لا يؤمنون إلا قليلاً، وهي مزلة كبيرة وقع فيها من كان قبلنا، وحذرناها رسول الله ﷺ، وهو الصراط في الدنيا إيمان بما وعد الله وبلغ رسوله، وحذر من تكسيل النفس والعدو، والله المستعان.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد مسلم يتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يخرج إلى الصلاة لا ينهزه شيء إلا الصلاة، فيصلي الصلاة التي كتب الله عليه إلا كانت كفارة**

لما قبلها»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا توضأ العبد المسلم فمضمض**» إلى قوله: «**حتى يخرج نقيًا من الذنوب**» ثم: «**كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له**»[٢] ونحو هذا من حديث الرسول ﷺ كثير مشهور.

مصداقه من القرآن قوله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ...﴾** إلى قوله: **﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [المائدة:٦].

وربما كان المذكور من دخولهم باب المسجد وقولهم حطة على هذا المعنى، فغيروا ما قيل لهم وبدلوه وذهبوا به عن سبيله لغلظ قلوبهم، وقلة أفهامهم واستخفافًا منهم بمعاني الوحي ولو تدبروا حقيقة ما خوطبوا به لكان معناه، إنهم إذا دخلوا المسجد مصلين ساجدين؛ أي: في حال من يأتي إلى الصلاة والسجود، فإن ذلك حطة لخطاياهم.

يقول الله جلَّ ذكره لهم: **﴿وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ﴾** [البقرة:٥٨] يعني وهو أعلم: هذه الأمة بأن جعل لمحسنيها أن يكون مشيهم إلى المسجد وصلاتهم نافلة لهم، وكتاب الله هو المهيمن على ما قبله من كتاب، هذا هو الحق لا مرية فيه، أصفق عليه القرآن وحديث رسول الله ﷺ، والمعلوم من فضل الله جلَّ ذكره وكريم معاملته، فليحذر العبد مع هذا أن ينظر إلى عمله بعين الدعوى أن ذلك له أو منه أو يتوهم النجاة والأمن من عذاب الله ﷻ؛ إذ الخاتمة محجور عليها.

وربما أداه ذلك إلى استكثار عمله، فيفضي به ذلك إلى العجب وقلة الخشية، وذلك يفضي به إلى الكبر، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولأنه يفضي به إلى استحقاق مقت الله إياه، وميراث ذلك الطبع على قلبه وذلك يورث الرين، فلا يسمع لواعظ، ولا يصغي لعاذل، كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨).

(٢) أخرجه مالك (٦٠) وأحمد (١٩٠٩١) والنسائي (١٠٣) وابن ماجة (٢٨٢) والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح. وقال الذهبي: لا. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٣٤) والنسائي في الكبرى (٣٨٨).

جبار، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير، بل أيها العبد اعبد ربك وتوكل عليه، واحذر مكائد عدوك اللعين، والزم قلبك بتقوى الله وخشيته، لا يفارقنك طرفة عين، واغتبط بكرم معاملته وافرح بفضله ورحمته.

واذكر قوله الحق عز جلاله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١] أي: التقوى الأعلى.

وليعلم أن الله عنده مزيد عظيم وعُلي درجات، عصمنا الله وإياك برحمته من مصائد العدو ومكائده، والمحذور مما تقدم ذكره أورث بني إسرائيل ما ذكره الله ﷻ من تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم، كما أن دعوى العبد في العمل الذي وفقه الله له وأعانه عليه أورثه العجب.

ثم ما تقدم ذكره من مواريث الأعمال وخوف هذا، وهذا بعث الخائفين على التصنيف لدواوين الإخلاص والتحذير من الركون إلى الأماني، والأمر بالزهد في الثناء بين الناس والمنزلة فيهم، فإنه يبعث على الرياء، وهو الشرك الأصغر، بل سبيل الحق أن يستوي عندك الحمد والذم والجاه والخمول، بل الخمول أجمل لقلبك وأقصد لك في سيرك، وبذلك يتيسر عليك ترك الدعوى والعجب والحسد والكبر والأخلاق المذمومة.

وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف:٦٣] فلم يطيعوه ولا اتقوا الله.

فبعث الله رسوله محمدًا ﷺ فبيَّن ما اختلفوا فيه من الحق بإذن ربه ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

فصل

قال الله ﷻ فيما خاطبنا به في كتابه العزيز من معنى الجدل لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ يعني: على محمد قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] أي: من التوراة.

ثم قال عز من قائل متعجبًا من سوء مآخذهم وفساد ما ذهبوا إليه: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١] أي: كيف يكون هذا؟ كيف

يصح اعتقاده؟ يؤمنون بما أنزل إليهم، وفيما أنزل إليهم تصديق محمد ﷺ وما جاء به، فكيف يؤمنون به وهم يكفرون به؟ بل كيف يؤمنون برسول من عند الله، ويكفرون برسل من عند الله؟ وإنما المرسلون والنبيون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كلهم بمنزلة رجل واحد، فوجوب الإيمان بجميعهم سواء.

ثم جعل يبين تناقضهم ويكسر بفصل الحق شبه أباطيلهم، تقولون: إنكم تؤمنون بما أنزل إليكم فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين، بما أنزل عليكم أفيما أنزل عليكم قتل الأنبياء، ورد ما جاءوا به وقتل الآمرين بالقسط من الناس، أهكذا يفعل من آمن بالله ورسله يكفر بما أنزل عليه.

ثم قال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] وهو الذي آمنتم به زعمتم ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:٩٢] اتخذتموه إلهًا من دون الله بعدما تبين لكم بالآيات تحقيق الألوهية لله ﷻ، وثبوت الربوبية أيفعل هذا من آمن بالله وما أنزل عليه.

ثم قال جل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[2] [البقرة:٩٣] أهكذا يفعل من آمن بما أنزل عليه يسمع ولا يطيع، يؤمن ولا يعمل، بل يأبى ويشرد على ربه حسدًا وأنفة.

---

(١) أي: بالآيات البينات، وهي المعجزة الدالة على صدقه. وقيل: التسع، وهي: العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وفلق البحر. [تفسير البحر المحيط (٣٩٩/١)].

(٢) قال أبو حيان: سبب رفع الطور امتناعهم من دخول الأرض المقدّسة، أو من السجود، أو من أخذ التوراة والتزمها أقوال ثلاثة. روي أن موسى لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم: خذوها والتزموها، فقالوا: لا، إلا أن يكلمنا الله بها، كما كلمك، فصعقوا ثم أحيوا. فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا. فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم، وأضرم نارًا بين أيديهم، فاحتاط بهم غضبه، فقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر، وأحرقتكم النار، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق، وسجدوا على شق؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا، فلما رحمهم الله قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها فأمروا سجودهم على شق واحد. [البحر المحيط (٣١٣/١)].

ثم ختم جَلَّ وتعالى علاؤه وشأنه جلالهم بالكبيرة قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: لما كفروا بعد البيان واعتاضوا العجل إلهًا من دون الله رب العالمين، أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، فأخبر جلَّ ذكره بقطع الرجاء من إيمانهم وباليأس من رجوعهم؛ إذ قد أشربوا العجل في قلوبهم فصار ذلك هوى لهم.

ثم فصَّل جَلَّ الخطاب وحكم بحكم الغالب المفلح في المناظرة بقوله: قل يا محمد ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] أي: لستم بمؤمنين لو كان لكم إيمان لم يأمركم بهذا، بل هو الكفر تسمونه إيمانًا.

فصل

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ
﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا
نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ
فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ
تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: ٦٢-٧٠].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً....﴾ [1] [البقرة:٦٧]

---

(١) كان السبب في أمر موسى لقومه بذلك ما ذكره المفسرون أن رجلاً من بني إسرائيل كان =

ذكرهم الله - جلَّ ذكره - بسوء أدبهم مع رسولهم ﷺ وتعزيرهم، وتوقيرهم له يعيب عليهم قبيح ردهم عليه وعدده عليهم بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] وقول الرسول ﷺ لأمته هو الحق؛ لأنه الحق ﷻ جاء، إنما هو بشير ونذير وآمر وناهٍ عن ربه ﷻ.

وبالجملة: فإنه المبلغ إليهم عنه لو كانوا يعقلون فتعوذ الصادق الصدوق ﷺ من سوء ما قذفوه من ذلك بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧] كلام التهزي كله جهل، وكيف به إن كان فيما هو عن الله جلَّ ذكره، وكل ما خالف الحق فهو جهل.

ولما قسم رسول الله ﷺ مغانم حنين أتاه رجل كث اللحية، مشمر الإزار، واسع الجبهة، فقال: يا محمد، اعدل فإنك لم تعدل منذ اليوم، فغضب رسول الله ﷺ حتى رُئي الغضب في وجهه، ثم قال ﷺ: «**قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**»(١).

فانظر - وفقك الله - ما كان من فعل ذلك المشؤوم، إن كان آية للخوارج على الأمة يسفكون دماءهم ويستحلون أموالهم، ثم كذلك إلى يوم القيامة هو العلم للفتنة والمفتونين.

فصل

وعلى ذلك فلو أنهم ذبحوا بقرة ما لامتثلوا بذلك أمر ربهم وأطاعوا نبيهم ﷺ، لكنهم طالبتهم معصيتهم تلك بشؤمها، وأدركتهم عقوبة الإعراض وجزاء سوء الجواب، فردوا عليه بعض قوله، ولم يسارعوا إلى طاعته بقولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة:٦٨] وتأويل البقرة: السنة، والسنة مدة من المدد، والمدة قد

= غنيًا، ولم يكن له ولد وكان له قريب يرثه، فاستبطأ موته فقتله سرًا وألقاه في موضع الأسباط، وادعى قتله على أحدهم، فاحتكموا إلى موسى، فقال: من عنده من ذلك علم؟ فقالوا: أنت نبي الله وأنت أعلم منا، فقال: إن الله ﷻ يأمركم أن تذبحوا بقرة. النكت والعيون (٥٨/١).

(١) تقدم تخريجه.

تسمى أمة أيضًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

وأما البقرة بمعنى السنة فموجود ذلك في تأويل رؤيا العزيز يوسف ﷺ ومن تسمية المدة أمة قول الله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨].

ولما طلبوا من ربهم بيانًا لم تدفع الحاجة إليه وصفها لهم بوصف فيه إنذار لهم بعذاب واقع بهم على يدي أمة من الأمم إلى مدة شاءها الله ﷻ فظاهر الخطاب بيان للأمر المراد منهم امتثاله، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨] معناه: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] فتزدادوا بذلك عذابًا إلى عذاب ما أوعدتم به.

فكان ذلك التأويل لذلك الخطاب في وصف البقرة واقفًا على أمة فارس، أمة لا تستن بسنة نبي وهو تأويل قوله: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ [البقرة:٦٨] أي: مسنة يخبر عن قدم ملكهم بين ذلك؛ أي: ليست على هداية شرع، فكان ذلك من حكمه فيهم إلى مدة شاءها.

ثم قالوا له من بعد ذلك: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة:٦٩] فكانوا لذلك طالبين لبيان ما لا حاجة بهم إليه، فأجابهم جلَّ ذكره بما هو وصف للبقرة المأمور بذبحها، وزيادة في نعتها؛ لتعذر وجودها، وكان هذا ظاهر الخطاب وباطنه إنذارًا لهم بعذاب واقع بهم على أيدي أمة من الأمم إلى مدة شاءها ﷻ فقال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[البقرة:٦٩] وكان تأويل هذا الوصف واقع على أنه ملك بني الأصفر، ملكهم ملك معجب يعذبهم بأيديهم ويملكهم إياهم أيضًا، فلو ذبحوها على ما حُد لهم كان أيسر لوجودها، وأقرب إلى بعض العافية.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧١-٧٥].

لشقائهم ردوا على نبيهم ﷺ، وطلبوا البيان ثالثة دون ضرورة اضطرتهم إلى ذلك، فزاد البقرة نعتًا ليتعذر وجودها جدًّا، فقال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1] [البقرة: ٧١].

فكان ظاهر الخطاب أنه وصف المأمور بذبحها، وباطنه إنذار لعذاب واقع على أيدي أمة ثالثة تغلبهم على أمرهم يتحقق بذلك خزيهم وشقاؤهم في الدنيا والآخرة، وهي العرب أمة مسلمة لا دخل فيها من غير الإسلام، وهو تأويل قوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ غير مذللة للمماليك، ولا عاملة بالفلاحة، لا يرد عليهم شرع

---

(١) قال أبو بكر بن العربي: هذه الآية عظيمة الموقع مشكلة في النظر، وفيها مسائل: المسألة الأولى: في سبب ذلك، روي أن رجلاً من بني إسرائيل قتل غيلة وطرح بين قوم، فدعي به عليهم؛ فسأل بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله ليبين القاتل، فدعا ربه؛ فأمرهم بذبح بقرة، وضرب القتيل ببعض منها، فشددوا في السؤال عنها، فشدد الله عليهم، فلم يجدوا تلك الصفة إلا عند رجل بر بأبويه؛ فطلب منهم فيها ملء مسكها ذهبا، فبذلوه له؛ ثم ذبحوها وضرب ببعضها، فحيي فقال: فلان قتله. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». ومعناه: الخبر عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم، لا بما يخبرون به عن غيرهم؛ لأن إخبارهم عن غيرهم يفتقر إلى عدالة؛ ولهذا إذا أخبروا عن شرع لم يلزم قبوله. المسألة الثانية: أخبر الله تعالى هنا عن حكم جرى في شرع موسى، واختلف الناس هل يلزمنا حكمه أو لا؟ وتلقب هذه المسألة بشرع من قبلنا، هل يلزمنا أو لا؟ وقد قال أكثر الفقهاء والمتكلمين: إن شرع من قبلنا لازم لنا وله ﷺ ونص عليه ابن بكير.

المسألة الثالثة: لما ضرب بنو إسرائيل الميت بذلك العضو، قال: دمي عند فلان، فتعين قتله، وقد استدل مالك بهذا على القسامة، وقال: إنه يدل على أن قول الميت: دمي عند فلان مقبول، ويقسم عليه؛ فإن قيل: هذا آية ومعجزة لموسى، قلنا: الآية والمعجزة في إحيائه الميت، فلما صار حيًا صار كسائر الأحياء في قوله قبولاً وردًا؛ فإن قيل: إنما قتله موسى بالآية، قلنا: ولعله أمرهم بالقسامة، وأخبره جبريل بصدقه فقتله موسى بعلمه كما تقدم في قتله ﷺ للحارث بن سويد بإخبار جبريل له؛ وقد ثبت في شرعنا القول في حديث حويصة ومحيصة الثابت في الموطأ. [الأحكام الصغرى ص٢١] بتحقيقنا.

من نبي هو من غيرها.

ثم قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:٧٢] أي: تدافعتم الجناية فرمى بعضكم بعضًا.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي: القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:٧٣] أي: ببعض البقرة، وأحيا الله القتيل وأخبر بقاتله، فكان ذلك من حكمه في عاجل أمرهم، وأخرج بذلك ما كتم القاتلون لذلك القتيل.

فصل

كان تأويل قتل النفس المحرم قتلها في الآجل إخماد الإسلام على أيديهم، وقتل أهله وإطماس أكثر أعلامه باتباعهم الدجال - لعنه الله - على الكفر بالله، وتتابع الناس في ذلك إلا من عصم الله.

وتأويل ضرب القتيل ببعض البقرة: ضرب عيسى ابن مريم ﵇ ما مات من دين الإسلام بعض هذه الأمة فيحييه الله ﷻ من بعد الموت.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى﴾ يوم البعث والنشور، ويحيي بعيسى ﵇ يومئذٍ حال الموت ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ بإحياء القتيل بعد موته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣] أنه كما يحيي موتى الأبدان كذلك يحيي موتى الأديان، ويعلمون أن حقيقة ما ينبئكم به من عاجل الحكم آية على آجله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

عبر عن هذا المغيب الذي كشفه الوجود في حق هذه الأمة قول رسول الله ﷺ في حق البائس المنكر عليه يوم حنين: «**إنه يخرج من ضِئْضِئِ هذا وضِئْضِئِ هذا قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يحتقرون صلاتكم عند صلاتهم، وصيامكم عند صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية...**»(١).

والنبوة والرسالة أمر من الله جلَّ ذكره، والرسول مثل لأمته وأول لها، ولأمره ذلك بعده، فافهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١١٠٢١)، والبخاري (٤٠٩٤)، ومسلم (١٠٦٤).

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧] أي: متقدم كما قال ﷺ: «**أنا وافد العرب وبلال وافد الحبشة، وسلمان وافد فارس، وصهيب وافد الروم**»(١).

وقال الله ﷻ في عيسى ﵇: ﴿جَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩] وربما جاء إلماع إلى تبيين شأنه في أولى المواضع - إن شاء الله تعالى بعونه وتوفيقه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - انتهى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة:٧٦-٨١].

قال الله ﷻ يصف بعض بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(٢) [البقرة:٧٨] الأمي: مقول من الأمة مشتق من معنى الإمامة؛ أي: إن الأمي هو الذي يأتم بإمامه الذي يقلده، والأمي أيضًا: الذي لا يقرأ ولا يكتب من قوم أميين.

قال الله ﷻ: ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ [الأعراف:١٥٨] أي: الذي لا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أربعة تأويلات: أحدها: إِلَّا أَمَانِيَّ؛ يعني: إلا كذبًا، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: إِلَّا أَمَانِيَّ؛ يعني: إنهم يَتَمَنَّونَ على الله ما ليس لهم، قاله قتادة. والثالث: إِلَّا أَمَانِيَّ؛ يعني: إلا تلاوة من غير فهم، قاله الفراء والكسائي، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمنِيَّتِه﴾ [سورة الحج: ٥٢] يعني: ألقى الشيطانُ في أُمنيَّتِه. والرابع: إنَّ الأَمَانِيَّ: التقدير، حكاه ابن بحر. النكت والعيون (١/٦٥).

يقرأ ولا يكتب، وعلى ذلك فإنه أتى بما يُقرأ ويُكتب، وقد يكون الأمي الذي يقرأ ويكتب ولا يعلم ما يقرأه ولا يفقه إنما هو يقلد غيره وإمامه، ويأتم في معقوله ومعلومه بأسلافه، ويعتمد عليهم في ذلك.

سمى الله ﷻ من كان في قراءته وكتابه هكذا: أميًّا، فقال عز قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ﴾ يصرفون معاني الكتاب إلى أهوائهم وما يوافق شهواتهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨] أي: يخرصون، لم يلجؤوا في ذلك إلى علم يقين، ولا استظهروه على ما يعتقدونه فيه بحجة ولا برهان.

كذلك قال الذين لا يعلمون لما قيل لهم: ﴿إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قالوا: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

«الأماني»: جمع أمنية، هو ما يتمناه المرء ويوده، أصله: إنه محبوب للنفس شهي، يأنس إليه من أجل ذلك، ويحادثه حتى يكون أملاً يؤمل وهوى يُهوى، وأماني هؤلاء في كتابهم من نحو ما حكاه الله ﷻ عنهم قريبًا من هذا الخطاب من قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة:٨٠].

وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] وكان اعتقادهم أن الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وشبهة هذا من مذاهبهم في أعمالهم أنها مشكورة وذنوبهم مغفورة.

قال الله ﷻ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف:١٦٩] يتمنون هذا ونحو هذا، ويظنونه ويعملون عليه بأهوائهم.

قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١] فكل من قال قولاً لم يأتِ عليه بدليل من كتاب الله ولا سنة ولا حكمة مشهورة فقوله متروك، ومن تناول العلم على وجه التعصب للأسلاف من غير الموثوق بهم يحتج بهذا، وينصره ويخاصم عليه فهو أمي.

وكان هؤلاء من يهود سلكوا في معلومهم ومعارفهم سبيل العصبية لأسلافهم، فما وافق منه ذلك أخذوا به وما خالفه نبذوه ليست مهمتهم في تصحيح العلم، ولا هممهم في الترقي إلى درجات اليقين، ولو بحثوا عن حقيقة العلم حق البحث،

وأجهدوا في ذلك أنفسهم، واستفرغوا الوسع منهم لارتقوا في الأسباب، وفتحت لهم إلى اليقين الأبواب، فأخذوا العلم صافيًا من منبعثه إلى منتهى المراد به، ولأوجدهم الله جلَّ ذكره إلى ذلك سبيلاً سابلة، ومناهج يمرون عليها قويمة واضحة، لكنهم زاغوا عما أمروا به فأزاغ الله قلوبهم وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون.

فصل

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[1] [البقرة:٧٩] الظاهر المعلوم بأول وهلة أن هذا المكتوب المذكور لو كان هو التوراة والإنجيل ويقولون فيه: إنه من عند الله، لكانوا بذلك مأجورين ممدوحين؛ لقولهم الحق، وتبليغهم إياه إلى من سواهم.

فلما ذمهم الله جلَّ ذكره وأوعدهم بالويل على علم كتابهم ذلك مما كتبت أيديهم ومما يكسبون علمنا أن مكتوبهم ذلك لم يكن كتاب الله ﷻ، وإنما كان تأويلاً يتأولونه على نحو أهوائهم وتشعب آرائهم طلب الوفاق، لأقوال أئمتهم ونصرًا لتعصبهم في أباطلهم وليرضوا في ذلك ملوكهم ويبلغوا بهم شهواتهم في صرف الوجوه إليهم، وبعد الصيت وتكثير الأتباع وقد صرح بذلك منهم في مواضع أخر من كتابه العزيز.

قوله جل قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

هذا إلى ما وصفهم به ﷻ من لبسهم الحق بالباطل، وكتمانهم الحق ويعلمون أنه الحق من ربهم كما يعرفون أبنائهم؛ هذا لأن كتاب الله يتميز بما هو عليه،

---

(١) قوله: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ تنبيه على أمرين: **الأول**: إنه يدلّ على نهاية شقاوتهم؛ لأن العاقل لا يرضى بثمن قليل في الدنيا يحرمه الأجر العظيم الأبدي في الآخرة. **والثاني**: إنما فعلوا ذلك طلبًا للمال والجَاهِ، وهذا يدلّ على أن أَخْذَ المال بالباطل وإن كان بالتّراضي فهو مُحَرّم؛ لأن الذي كانوا يعطونه من المال كان عن محبة ورضا. [تفسير اللباب لابن عادل (١/ ٤٠٤)].

ويعرف بنفس تلاوته؛ إذ كلام الله ﷻ في كتابه لا يلتبس جملته بجملة كلام البشر، ولا البعض منه بالبعض، ليس ككلام الله كلام، هذا حقيقته في كل كتاب يتلى على اللسان الذي أنزل به كائنًا من كان.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج:٥٢] المعنى إلى آخره.

ذهب الجمهور من أهل التفسير إلى أن معنى الأمنية هنا التلاوة، وأن معنى قوله: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: ألقى في تلاوته، واحتجوا على ذلك بشبه لا يقوم لها مع التحصيل وجه، ولفظ الأمنية دلالته قائمة على معهوده كما تقدم، وشواهد ذلك من أم القرآن وحديث رسول الله ﷺ كثيرة يطول لسياق بعضها الكتاب.

وفصل الخطاب إن شاء الله تعالى، وهو الموفق للصواب: إن هذه الأمنية المغيبة هنا ليست في نفس التلاوة إلا بآخره، بل هي في نفس النبي ﷺ وعلى أثر التلقي للوحي بوحيه المتمنى في الأنبياء، كالمريد في الأولياء، والنبي على الإطلاق، كالمراد بالولاية؛ فقد يكون من حال النبي في نبوته التمني مثل أن تنزل به النازلة فيود مودودًا ما، ويرجو من الله الفتح عليه في ذلك لما قد عوده الله جلَّ ذكره من ذلك.

وقد يكون بوصف آخر أعرق في حكم التمني، وهو أن يسأل الله ويرغب إليه ويدعو ويتضرع، فيتعرض بذلك لنفحات الله ﷻ، وقد يكون هذان الوصفان للمعتبر على قدر منزلته في سبل تطلابه العلم، فمن ذلك ما قد يكون حاضرًا لمن لم يتقدم منه إليه تعرض، ولا قدح له فيه تفكر، كالإلهام وما قاربه.

ومن ذلك ما يكون باستدعاء التفكر، ومعالجة التذكار، وطلب الفتح من الفتاح العليم جلَّ ذكره، وقد كان رسول الله ﷺ من وده وأمنيته إسراع من أرسل إليه إلى الإسلام وهدايتهم إلى الإيمان.

فصل

وكان ﷺ يحب أن يتوجه البيت الحرام وهو يومئذٍ يصلي إلى بيت المقدس، فقال ﷻ يخاطبه في ذلك: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

تَرْضَاهَا﴾ [البقرة:١٤٤].

قال يومًا وقد ذكر قول إبراهيم: عليه السلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وقول عيسى: عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] فرفع يديه إلى السماء وجعل يقول: «**أمتي يا رب أمتي**» وبكى فأوحى الله إليه: «**إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك بهذا وشبهه**»[(١)]. انتهى.

فصل

النفس موضع الأمنية، والقلب موضع إلقاء الملك، ومتى كان الوحي على ما ذكره الله ﷻ بقوله الحق: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا...﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وعلى ما قال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال**»[(٢)] فذلك الوحي محفوف بالحراسة ألبتة. انتهى.

ثم إذا كان كما قال ﷺ: «**فأحيانًا يأتيني الملك رجلاً فيكلمني**»[(٣)] ففي هذا المعنى - والله أعلم - قد يكون من النبي والرسول - عليهما السلام - نظر يوهم أو يسبق مراد مودود من حيث هو بشر من ذرية آدم عليه السلام إلى شيء يكون له فيه اختيار، وود أن لو كان الوارد عليه على ذلك المختار المودود له عنده كوده في صرف القبلة إلى البيت الحرام، وحرصه على هداية قومه أو نحو هذا، فيجد الشيطان سبيلاً إلى الإلقاء في ظل تحت تلك الأمنية، فتخرج التلاوة على ذلك وليست بها، لكنها لاصقة بها من حيث لسان النبي أو الرسول ﷺ وتمنيه، فيعود الله ﷻ بفضله على ما ألقاه الشيطان أولاً بإذن الله سرد التلاوة، فينسخه بعزته ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ أي:

---

(١) أخرجه مسلم (٥٢٠).

(٢) أخرجه مالك (٤٧٥)، وأحمد (٢٥٢٩١)، والبخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (٤ ٢٣٣٣)، والترمذي (٣٦٣٤)، والنسائي (٩٣٤)، والطبراني (٣٣٤٥)، والبغوي في تفسيره (٢٥٢/٨).

(٣) تقدم في سابقه.

يثبتها بما هو الوحي الحق عنده، ولولا فضل الله عليه وعلى من أرسل إليه لكان حكمه في ذلك حكم البشر سواه ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج:٥٢].

فصل

مثال ذلك في الوجود: الرجل يكلم مخاطبه بما هو متفاوضان فيه، فيخطر على قلب أحدهما خاطر يعلق به في حال المفاوضة، فيخرج إلى خطابه على معنى ما وقر في نفسه وخطر على قلبه وحصل في أمنيته، ثم يتدارك ذلك بالرجوع إلى معنى ما كان عليه قبل بأن يبدل ما عبَّر عنه لسانه بغير ما كان مفيضًا فيه، بما هو على معنى المفاوضة، وذلك شبيه ببدل الغلط، هذا سفلي وذلك علوي.

قال الله ﷻ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٣] أي: الذي لا فهم عنده، أعلم بهذا أن ذلك في حكمه وقضائه لحكمة مرصدة؛ ليتمم كلمته في إضلال من شاء إضلاله.

قال الله ﷻ: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

يقولون: قد كان منه يوم كذا كذا وكذا، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، ثم أبدله بكذا وكذا، فيجعل ذلك ذريعة إلى تجويز الغلط عليه، وخلوه من العصمة في تبليغ الوحي، وكلا والذي بعثه بالحق إن كل ذلك إلا من عند الله وبعلمه وتحقيق لنبوته، فما تحققت كلمة الإخلاص وبلغت النهاية إلا بمعنى ما قارنها من معنى النفي، فافهم فهمنا الله وإياك.

وإنما هما سبيلان الهداية والفتنة، فسبب الهداية علو ظاهر مشهور، كلما زاحم الفتن سفلاً دقَّ ورقَّ.

فصل

قسم الله الدنيا وكتابه العزيز من هذه الجهة إلى قسمين: ذكر وفتنة.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

وقال ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر:٣١].

و﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

وقد نص ﷻ على العلة التي من أجلها جعل هذه الحكمة ها هنا بقوله عز قوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج:٥٣] أي: إنهم يبتغون بما يتلونه الفتنة، فيتعلقون بأيسر شبهة ويعدونها لنصر ما هم بسبيله من الفتن.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج:٥٤] أي: لعلمهم بابتلاء النبيين والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - على رفعة درجاتهم وعلو محالهم، فتخبت لهم قلوبهم لعلمهم بأنفسهم وضعفها يقولون: هذا امتحان الله عباده المعصومين، فكيف بمن هو دونهم ممن لم تضمن له العصمة؟.

ثم قال جل قوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤] تأنيسًا للمؤمنين، ووصفًا لسرعة تأتيهم وحسن اتباعهم الحق حيث سلك، وخلافًا لما وصف به سواهم بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً...﴾ [الحج:٥٥].

فصل

النبي ﷺ بشر، وسنة الله جلَّ ذكره متى أزال عن محل ما حكمًا ما أن يُبقي عين ذلك المزال، وإذا أعدم العين أن يُبقي الحكم، وإن كان الله ﷻ قد تولى الرسول والنبي ﷺ وأتم نعمته عليهما فقد أبقى عليهما أنهما على ما هما عليه من الرفعة والعصمة بشريان، ولا بد لبشريتهما أن يظهر الله ﷻ خاصتهما في وقت ما وحال ما.

قال الله جل من قائل: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤] ولا بد أيضًا للشيطان اللعين الجاري من البشر مجرى الدم أن يقوم مقامه وإن دق ذلك وخفي حكمه، وإن كان الرسول والنبي - عليهما السلام - من عباد الله الذين ليس له عليهم سلطان منفذ عليهم حكمه، فلا محالة أن يبقى له فيهما بدايات لا تتم له كما بقي عليهما أنهما بشريان من ذرية آدم ﷺ.

ثم لا بد لصدق وعد الله ﷻ بالحفظ لذكره والحراسة لعبده، وبالإياس لعدوه

منه أن يتم، والله غالب على أمره، ثم لا بد في جملة القضاء أن يتم حكمته في كل شيء هو في الدنيا، والذكر بعد فقد نزل إلى قلب الرسول ﷺ ولسانه، وهما من الدنيا بما هو بشر، وليسا من الدنيا بما هو رسول مضمون عصمته.

ألا ترى إلى ذلك في الوجود شائعًا، هذه السماء الدنيا إنما هي سقف الدنيا أبقى الشيطان في استراق السمع على بعض عمالتهم، وبما هو المسترق المسموع من باب الإنباء والغيب والقضاء، وهو متحدث ملائكته - عليهم السلام - كان خارجًا عن حكم الدنيا، فيسلط عليهم الشهب وأرسلها محرقة لهم.

ويدلك على لزوم هذه الحراسة وسطًا؛ أعني: بين العلو والسفل موضع تلقي الرسول والنبي - عليهما السلام - الوحي، وموضع استراق السمع الذي هو سماء الدنيا إلزامه الحفظ والقيام علوًّا؛ أعني: السماوات العلا والكرسي والعرش، وكذلك الوحي من لدن موضع جبريل منه روح القدس فلم يجعل الشيطان فيما هنالك مجالاً ولا أقطع لهم عمالة.

شبهة:

احذر - وفقنا الله وإياك - أن يحرمنك توهم مغايرة في التدبير أو مناقض حكم في المملكة، أو ما يعبر عنه بهذا، وشبهه ما تسمعه من ذكر حراسة وحفظ وكلاءة من خطف موجود أو محذور متوقع، كلا بل هو الله لا إله إلا هو الأحد الصمد، لم يعجز قدرته قط شيء أراد كونه، ولا اعتاص على مشيته أمر دبره ولا موجود خلقه، ولا عاجله قبل وقته، ولا تأخر عن أجله، هو المحيط ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بكل علم وقدرة ومشية قبل كونه.

ثم أوجده على وفق إرادته ومشيته فيه، وعلمه السابق به، وعلى ذلك فهو القائل الصادق: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:٤١].

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥].

إنما ذلك؛ لأنه ﷻ قدر سنة في خلقه على آجالها في سابق علمه، ثم رماها بالمحنة والابتلاء من أمره، وفصل بكلماته التامات ما شاء بما شاء، والحفظ والحراسة والكلاءة أمره، والمحفوظ منه المخوف من أجله ملكه وأمره، فهو يحفظ ما شاء ما شاء بأمره من أمره.

فصل

اعقل عن ربك وعن أمره وآمن به، فهو ﷻ الرافع القسط وخافضه، المقدم والمؤخر، والهادي والمضل، والمصرف الحكم كله، وحكمه بالكلمة كحكمه بألسنةٍ، ذلك كله عليه يسير، وعلى كل شيء قدير.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤] فمن هنا كان الخوض والاختلاف ظاهرًا في أبعاض الجملة، ثم الحكم العدل والقضاء الفصل في ذلك، وكَّله على ما شأه من عاجل وآجلن وإلا فكل الجملة قانت لعزة الله جلَّ ذكره، مستسلم في قبضة قدرته.

وحركة أبعاضها سكون في حقه، واختلافها وفاق في مشيئته، ومصير إلى ما هو كمال للجملة، والإمساك والحفظ والكلاءة والمحترس من أجله، والممسك بسببه، والمتوقع وقوعه كل ذلك أمره ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] وذكر أهل التفسير في ذلك ما شهر عنهم أن اليهود قالوا: إنما الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الناس في النار مكان كل سنة من سني هذه الدنيا يومًا واحدًا، وهذا قول مرغوب عنه، محجوج بما ثبت من ذكر الخلود، هذا إلى البحث عن هذا المقال: هل قالوا هذا أم لا؟.

وقيل: إنهم قالوا: «هي الأيام التي عبدنا فيها العجل» والظاهر من مفهوم هذا الخطاب أنهم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم على الإسلام والإيمان الموجب للجنة والمبعد عن النار، والإيمان الموجب للجنة هو الإيمان بالله وملائكته ورسله، وبالقدر خيره وشره، حلوه ومره، والعمل الصالح، فكانوا يقولون على ما هم عليه: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] أي: عدتها في علم الله ومشيئته، ثم

يخرجنا منها بشفاعة نبينا ﷺ كالذي يقوله المسلمون[١].

فرد الله ﷻ عليهم ذلك من قولهم بقوله: ﴿**أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ**﴾ [البقرة:٨٠] أي: إنكم تموتون على الإسلام والإيمان، ويختم لكم بذلك، فتكونوا بذلك على حال من تحل له الشفاعة إن كان ذلك كذلك، فلن يخلف الله عهده ﴿**أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٨٠] وإنما ذلك من الغيب، فمن أين لكم بعلمه، وها أنتم هؤلاء قد كذبتم عيسى ومحمدًا - صلى الله عليهما وسلم - فمن أين لكم بالخروج من النار وأنتم الكفار حقًّا؟!

ولذلك أتبع قوله: ﴿**بَلَى**﴾ وهو جواب عن استفهام وهي مع ذلك معبرة عن إبقاء بعض الحكم؛ أي: من مات منكم على الإسلام موسى وهارون والنبيين بعده وإيمانهم هذا مفهوم، بل فيما هنا، ثم ذكر بعد ذلك من كسب في إسلامه وإيمانه ما خلط به سباب وتكذيب لبعض الرسل، ورد لبعض الكتب وهذا مطلع تشرف منه على ما حدث به رسول الله ﷺ من حكم الشفاعة في الآخرة.

وقول الله: «**أخرجوا من النار، من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال شعيرة، ومثقال بُرة ومثقال ذرة أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ...**»[٢] إلى آخر ما حدث به رسول الله ﷺ في هذا المعنى، فإنا لا نبعد أن يكون لجميع المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين شفاعات على هذا الحكم فلذلك قالوا: ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ [البقرة: ٨٠] وتقدير ما انحذف من تمام الكلام، ويخرجنا منها نبينا بشفاعته فينا فكان الجواب على ذلك بقوله: ﴿**بَلَى**﴾ [البقرة: ٨١]

---

(١) سبب نزول هذه الآية أنهم زعموا أنهم وجدوا في التوراة مكتوبًا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، فقالوا: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم، فتذهب جهنم وتهلك. روي ذلك عن ابن عباس. وقيل: إن النبي ﷺ قال: «**اليهود من أهل النار**» قالوا: نحن ثم تخلفوننا أنتم، فقال: «**كذبتم لقد علمتم أنا لا نخلفكم**» فنزلت هذه الآية. وروي عنهم أنهم يعذبون سبعة أيام عدد أيام الدنيا، سبعة آلاف لكل ألف يوم، ثم ينقطع العذاب. وروي عنهم أنهم يعذبون أربعين يومًا عدد عبادتهم العجل، وقيل: أربعين يومًا تحلة القسم. وقيل: أربعين ليلة ثم ينادي: اخرجوا كل مختون من بني إسرائيل، فنزلت هذه الآية. [البحر المحيط (١/٣٦١)].

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، وأحمد (١٣٩٤٠)، وابن ماجة (٤٤٥٥).

أي: إنه كذلك الحكم فيمن مات على الإسلام من أهل الذنوب ولم يشأ الله أن يغفر له.

وقد وقف بعض القراء على قوله: ﴿ بَلَى﴾ وهو تقدير بحكم ما زعموه، لكن ليس على ما ظنوه، وإنما هو على حقيقة ما أخبر الله ﷻ به من قوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١] فهؤلاء قوم لم يُبقِ الله جلَّ ذكره فيهم رجاء.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٨٢-٨٥].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يريد: وتوفوا على ذلك ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨٢].

وهذا طرف آخر لم يبقَ فيه أيضًا خوفًا ولا حزنًا، ويهود ليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء؛ لأنهم كذبوا عيسى ومحمد - عليهما السلام - وأبقى الله ﷻ موضع الوسط مسكوتًا عنه مشارًا إليه، وهم الذين آمنوا بالله وبالرسل، لكنهم عملوا بالمعاصي فلم يتوبوا.

أمر نبيه ﷺ أن يبين عنه كيف الحكم فيه بقوله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] ولم يفصح بما في مشيته من المغفرة لمن شاء

أن يغفر له منهم، ولا بإخراج من النار بعد إدخاله إياهم فيها رحمة منه ﷻ بعباده، لحكمة بالغة له في حكمه؛ ليسوق عباده بصوت وعيده إلى رحمته؛ إذ علم ﷻ أن في عباده الغفول الذي لا يستحق أن يوصف بحياة؛ لانهماكه في شهواته، وانتهاكه في خلافه وقلة مبالاته بما هو صائر إليه.

ولا يستحق أن يوصف بالموت كله؛ إذ قد شهد بشهادة الحق في أصل معرفته، ودخل في صفقة أهل التوحيد في جملة شأنه، فمتى ذكر أو ذُكِّر بالنار جزاء لسيئاته سبق وهله إلى الخروج منها برحمة الشفاعة، فأغمض جهلاً منه، وجرأة على ربه ما بين ذلك كقول أولئك: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] فغرَّه جهله بربه وغفلته وسوء رأيه.

ولقد بلغنا - والله أعلم - أن أحدهم ليمكث فيها مثل عمره، وقد جاء في بعض ما يؤثر عن بعض السلف أن رجلاً يمكث فيها مقدار ألف سنة.

قال الحسن البصري، رحمة الله عليه: ليتني ذلك الرجل.

فأجمعت النفوس كلها في الطمع في رحمة الله تعالى وكريم ثوابه، فمن مصيب في طلبه وطمعه ومن مخطئ، فأما أهل المخافة ففكروا في الخلود وفرقوا منه جدًّا، فتمنوا الخروج منها ولو على بعد ونأي طويل؛ إذ لم يروا أنفسهم للخروج منها أهلاً، وأما أهل الغفلة عن أنفسهم وعن أعمالهم فأغمضوا على موضع العقاب ولم يقدروا قدره؛ لموتهم عن إحساسها بالحزن عليها، والخوف منها في الدنيا.

فصل

ثم جعل جلَّ ذكره يعدد كفرانهم ونقضهم العهود التي كانوا يستوجبون بالوفاء بها الوفاء من الله تعالى بالجنة، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣] مفهوم هذا فبالإعراض بعد الإقبال، والتولي بعد القبول يستحق الثواب وينجى من العقاب.

ثم قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن

دِيَارِكُمْ﴾[1] إلى قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥].

يقول: أهذه أعمال من يرجو ثواب الله ويحذر عقابه، ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥] أي: في مستقبلكم وفي حالكم من الكفر بمحمد ﷺ، وكتمان ما أنزل الله إليكم واتباعكم الدجال - لعنه الله - ونصركم له، وكونكم متعبدين له ونحو هذا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة:٨٦-٩٠].

ثم حكم بحكمه الحق، وأعرب عما هم إليه صائرون بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦] ذكر النصرة هنا كناية عن الشفاعة؛ أي: إنهم ممن لا ينالهم الشفاعة.

ثم أرجع المحاجة إليهم لكسر ما ادعوه، وإبطال ما ذهبوا إليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ

---

(١) إن قيل: فهل يسفك أحد دمه، ويخرج نفسه من داره؟ ففيه قولان: أحدهما: معناه: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يخرجه من داره، وهذا قول قتادة وأبي العالية. والثاني: إنه القصاص الذي يقتص منهم بمن قتلوه. وفيه قول ثالث: إن قوله: «أنفسكم» أي: إخوانكم فهو كنفس واحدة. [النكت والعيون (٦٩/١)].

بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ فكذبتم بعضًا وقتلتم بعضًا بقول الله جلَّ ذكره: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧] فعلى هذه الأعمال تطمعون في الخروج من النار.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة:٨٨] أي: لا نسمع ولا نعقل تهزوءًا منهم برسلهم، وربما جاءوهم به كما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣].

يقول الله جل من قائل: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨] ذلك الإيمان منهم لما كذبوا بعض الرسل والكتب كان إيمانهم بما آمنوا به في حيز القليل.

قال الله ﷻ فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥١].

ثم قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ يريد القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: من التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(١) [البقرة:٨٩] جاء أنهم كانوا يقولون للأوس والخزرج إذ كانوا يقاتلونهم: الآن يبعث الله رسولاً نقتلكم بهم، قيل: عاد وإرم. وقيل أيضًا: وهو الأشبه بمعنى الخطاب: إنهم كانوا يستفتحون عليهم فيدعون الله، ويسألونه باسم الرسول المرسل الذي وعدتنا به: انصرنا عليهم.

والاستفتاح: هو الدعاء نفسه، فلما جاءهم ما عرفوا فأعلمهم عز جلاله بخلافهم لرسولهم ﷺ، ونقضهم العهود التي ألزموها وتوليهم، ثم أعلمهم ﷻ بالأنبياء والرسل بعده، وبعيسى ابن مريم ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم

---

(١) أي: من قبل مجيء محمد ﷺ كانوا يستنصرون على المشركين؛ لأن بني قريظة والنضير قد وجدوا نعته في كتبهم فخرجوا من الشام إلى المدينة، ونزلوا بقربها ينتظرون خروجه، وكانوا إذا قاتلوا من يلونهم من المشركين مشركي العرب يستفتحون عليهم؛ أي: يستنصرون ويقولون: اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك وبكتابك الذي تنزل عليه الذي وعدتنا، وكانوا يرجون أن يكون منهم فينصروا على عدوهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ﴾ أي: باسم النبي ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ أي: محمد ﷺ وعرفوه ﴿كَفَرُواْ بِهِ﴾ وغيّروا نعته مخافة أن تزول عنهم منفعة الدنيا. [بحر العلوم للسمرقندي (٨٠/١)].

أجمعين - وبأنهم كذبوا بعضًا وقتلوا بعضًا، واستحقوا بذلك لعنة الله عليهم.

وباتخاذهم قبل العجل من دون الله جلَّ ذكره إلهًا استحقوا أن يحل عليهم الغضب من ربهم، ثم بردهم ما جاء به عيسى ﷺ، وبعد ذلك ردوا ما جاء به محمد ﷺ استحقوا أيضًا غضب الله عليهم فباءوا بغضب على غضب.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:٩٠] أعلى هذا يخرجون من النار.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة:٩١-٩٥].

وهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١].

ثم أخذ يحاجهم ثانية إلى قوله: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] أي: هو الكفر تسمونه: إيمانًا، وليس به.

ثم صرف ﷻ الخطاب إلى ذكر ما اعتقدوه من غرور أمانيهم، وأكذوبات ظنونهم محاجًا لهم في ذلك بقوله: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٩٤] إلى قوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦] فأخبر عنهم أنهم أحرص الناس على حياة، نعم وهم أحرص على الحياة من الذين أشركوا؛ إذ المشركون لم يعلموا أن فيما هنالك عذابًا يحذر، ولا ثوابًا يُرجى، وهم يحرصون على الحياة الدنيا فرقًا من عذاب هناك يخافونه لسوء أعمالهم، وقلة ثقتهم؛ لعلمهم بأن الله عنهم غير راضٍ لقديم خلافهم إياه

وحديثه.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَٰسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾ [البقرة:٩٦-١٠٠].

يقول ﷻ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يقول عز من قائل: وما ينفعه طول عمره ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أفرأيت أن متعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦] أي: إنهم على ذلك منهم، وفرقهم من سوء منقلبهم، لا يراجعون بهم ولا يتوبون إليه.

قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ....﴾[1] [البقرة:٩٧] جاء أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لولا أن الذي يأتيك بالوحي هو جبريل لاتبعناك، قالوا: لأنه يأتي بالعذاب وهو عدونا من الملائكة، فأنزل الله جلَّ ذكره ﴿مَن كَانَ عَدُوًا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة:٩٧] المعنى إلى آخره.

والأولى أنه منتظم بحكم المجاورة مما تقدم ذكره من كراهتهم الموت أنه جاء

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ إذ لا أمل لهم في حياة أخرى ولا أمل لهم في تحصيل نعيمها، فأما المؤمنون فإن كراهتهم للموت المرتكزة في الجبلة بمقدار الإلف لا تبلغ بهم إلى حد الجزع منه. وفي الحديث: «**من أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» وتأويله بالمؤمن يحب لقاء الله للطمع في الثواب، وبالكافر يكره لقاء الله، وقد بينه النبي ﷺ فقال: «**إن المؤمن إذا حضرته الوفاة رأى ما أعد الله له من خير فأحب لقاء الله**» أي: والكافر بعكسه. التحرير والتنوير (٦٣/١٤).

أن المؤمنين يدفعون إلى جبريل عليه السلام بعد الموت، كالكافل لهم إلى يوم القيمة، كما يدفع الولدان إلى إبراهيم عليه السلام، فهو ولي المؤمنين جاءهم من عند ربهم بالهدى والنور والشفاء في هذه، وهذا موجود في حرف من قرأ: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦][1].

﴿نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤] المعنى إلى آخره.

قوله عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٩٤].

وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾ [الجمعة:٦] إلى أنه يجب القطع بمحصول هذا الخطاب أن الموت للعبد المؤمن أفضل من البقاء في الدنيا، ولما أن كان المؤمن قد يرتجي الزيادة من الخير، ويرغب في التقرب إلى الله عز وجل، جاز له محبة البقاء لأجل هذه النية، فليقل: اللهم توفني ما كانت الوفاة خيرًا لي، وأحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وما ذاك إلا أن العيش في دار البرزخ أحسن من العيش في هذه الدار.

ألا ترى أن آدم عليه السلام لما خلقه جل ثناؤه وأسكنه الجنة، وأباح له أن يأكل منها رغدًا حيث شاء إلى هذا، فلم يضمن له العصمة من عدوه ولا من الموت، ولا من

---

(١) قرأ جمهور الناس: «**إن وليّيَ الله**» بياء مكسورة مشددة وأخرى مفتوحة، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه «**إن وليّ الله**» بياء واحدة مشددة ورفع **الله**، وقال أبو علي: لا تخلو هذه القراءة من أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة أو تحذف الياء التي هي لام الفعل، وتدغم ياء فعيل في ياء الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة؛ لأنه إذا فعل ذلك انفك الإدغام الأول، فليس إلا أنه حذف لام الفعل، وأدغم ياء فعيل في ياء الإضافة، وقرأ ابن مسعود «الذي نزل الكتاب بالحق وهو يتولى الصالحين»، وقرأ الجحدري فيما ذكر أبو عمرو الداني «إن ولي إله» على الإضافة، وفسر ذلك بأن المراد جبريل عليه السلام ذكر القراءة غير منسوبة أبو حاتم وضعفها، وإن كانت الفاظ هذه الآية تلائم هذا المعنى وتصلح له، فإن ما قبلها وما بعدها يدافع ذلك. انظر: المحرر الوجيز (١٣٨/٣).

الابتلاء بالأمر والنهي، بل نهاه أن يأكل الشجرة، وأمره ألا يقربها، فواقع المحذور بالقدر السابق، فأخرجه منها وسجنه في هذه الدنيا، وقيده عن الكون حيث شاء إلا بقطع المسافات وتجشم المشقات بمزاولة الترحال في تقرب أبعاد الأسفار.

فهذه دار سجن المؤمن، موضوعها: أن يكون سجنًا للعاصين سجَّانها العدو المكائد إبليس - لعنه الله - وأتباعه من الجن والإنس أعوانه ومَسَالحه لا يألونه خبالاً وإضلالاً مما جرَّ إلى ذلك، وما كان جزاء له من المكروهات والمصائب والفجائع، وتلك عمالة أقطعه إياها خالقه ومالكه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلى يوم الوقت المعلوم، إن الله جعله وأشياعه سببًا وذريعة إلى كل مكروه يكون في الدارين، وفيما بينهما في هذه بالفعل والكسب، وفيما هنالك جزاء، لكن الرؤوف الرحيم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من وراء عباده المؤمنين يحسن تدبيره لهم، يصير لهم كل مكروه يصيبهم كفارة من ذنوبهم، وكل عمل له رفعه في درجاتهم.

فمن أعجب العجب عدو محبوب وغاش مركن إليه وسجن مؤمل محروص عليه، ولقد وصى عباده بأبلغ الوصية ألا يركنوا إلى هذا السجن، وألا يخلدوا إليه لموضع العقوبة التي بها عاقبهم، وألا يصغوا إلى نداء عدوهم بهوى لو يرضوا لأنفسهم بالتي هي أدنى، وأن الدواب لتحن إلى أواريها، وإن الإبل لتنقطع إلى معاطنها.

__بيان__: سبق من حكمة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه تحبيب الأوطان والحنين إلى محل الكون، ومنبعث ذلك الوجود ولما أراده في إتمام كلمته في البلوى، وإمرار حكمه بالجزاء لقوم، وإتمام نعمته بالتنبيه لأوليائه، أسس هذه التي عاقبهم باللبث فيها والحلول في بعد سجنها على مقتضيات أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وأوجدها جمعًا على معاني موجودات الدار التي أخرجهم عنها، المفضية إلى الدار الآخرة ثوابًا وعقابًا، صيَّر ذلك فيما ها هنا ذكرًا وفتنة.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩] فأوجب لكل فريق ما كان عنه، وما خلق به ومنه، وحنَّ إلى الوطن الذي خرج عنه، فمخطئ في محبته ومصيب لأجل الابتلاء والمحنة المعارض لهم في السبيل المسلوك بهم إليها.

فأما أهل الفتنة وهم المخطئون لما تألفت لهم شهواتها فأنسوا بها من أجل لمعان نيرانها؛ إذ أشبهت تلك الدار في معالم وافقت أسماءها وأومأت في ذلك إلى أشباهها، فخدعتهم بزينتها وأحبوها لذلك، ورضوا بها عجبًا بها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فكان ذلك حظهم من المقصود الحق، فأما أهل الذكر فشاهدوا فيما هنا أشباه ما هنالك، تعرفوا منها أسماء وصفات للحق المبين فذكروا تلك بهذه، وتشوقوا إليها لأجل هذه.

منازلاً كنت تهواها وتألفها أيام كنت على الأيام منصورًا

آخر:

وإني لأهوى الدار لا يستفزني لها الود إلا أنها من دياركا

فزهدوا في هذه لوشيك ذهابها وسرعة تقلبها بأهلها، ولما أعلمهم النصوح الحق الصدوق جلَّ ذكره من سعة تلك وعظمها، وضيق هذه وصغرها فأخذوا أبصارهم عند ذلك في النظر إلى البون في فضل الدارين.

فما وقعت أعينهم ولا توهمت أوهامهم سوى معاني أسمائه وصفاته في هذه، وتيقنوا بذلك أيضًا بوجود العلم ما أومأت إليه هذه بشبه لما هنالك، وإن ما أومأت إليه ونبهت عليه، يدعوهم بذلك إلى نفسها ويشوقهم إليها، ويزهدهم في قليل هذه الفاني المنغص الكدر، قد أسلك هذا كله في تلك سلوك الأرواح في الأجسام، وأحلها منها محل الأعراض من الجواهر، فجميع موجوداتها في حقهم ومواقع أبصارهم تسبح خالقها وتقنت لعظمة موجدها.

ثم أيدهم جلَّ ذكره على مراشدهم؛ بأن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ينبئهم على مراشدهم، ويبصرهم بذلك حقائق مقاصدهم، فأنبأهم بما جهلوه، وأعلمهم من غيابات ما هنالك ما لم يعلموه، وأوعدهم مع ذلك في تلك بالعقبى، وضمن لهم حسن العقبى، فتشوفوا إلى ما هناك وعشقوها وآثروها، وسلوا عن هذه

ورفضوها؛ لبعدها عن المحبوب والمحل المطلوب:

أحن للبرق من تلقاء أرضهم ولي فؤاد إلى الآلاف حنان
محلة النفس فيهم أينما قطنوا ومنزل الروح فيهم أينما كانوا
إني لأبغض أوطاني وقد ظعنوا عنها ألا إنما الأحباب أوطان
وما الديار وإن جد الولوع بها إلا شجون إذا ما شط جيران

وآخر:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فأصل الفتنة أو الذكر الموجودين بالفريقين عن الشبه الموجود في هذه من تلك، وإن كان شبهًا بعيدًا وزخرفًا زهيدًا، بالإضافة إلى ما هنالك الطرق مختلفة، وطريق الله واحدة والاستجابة شتى، والسالكون طريق الحق أفراد.

فصل

إنه من الواجب إذًا من سجن لأجل ذنب كان سبب جعله فيه التمحيص من ذنبه، والاستتابة والإعذار إليه والإنذار في ذلك، فاستجاب لداعيه وتاب إليه من ذنبه، وأطاع ربه الذي سجنه، وانتظر به توبته من ذنبه والمحبوس هنالك من أجله أنه ينقله عند محل أجله إلى حيث أخرجه منه.

وللمعهود من العلم بحكم الشيء أن ينقله أيضًا عند محل الأجل، وانقراض هذه الدار التي سجن فيها إلى أكبر من هاتين، وأفضل من الدارين وأكرم وجودًا، كما من الواجب أنه إن لم يفِ بعهده ولا أجاب داعية ربه، ولا شعر لما سجن من أجله أن يحله عند انقراض هذه دارًا هي له أنكأ، وأبعد بعدًا وأقصى، ثم على حكم النشأة في الدار الآخرة إلى حالة هي أدهى وأمرّ، وقد أخبر بذلك من الصدق من صفاته والصادق من أسمائه، ووعد به وأوعد عليه فهو الحق اليقين.

فصل

مفهوم ما تقدم ذكره من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللهِ

خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ...﴾ [البقرة:٩٤] فمفهوم هذا الخطاب أنه من قدمت يداه خيرًا إيمانًا بالله ورسله، وطاعة لله ورسله، وأوفى على ذلك فتمني الموت خير له؛ لأنه يصيره إلى ما عبر عنه قوله الحق: **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾** [الأحزاب:٤٧] إن الموت للعالم المؤمن بالله جلَّ ذكره الموقن بالآخرة ميزان عدل على أعماله بسيئها وحسنها.

فلينظر العبد في جميع أفعاله، فكل عمل لا يندم عليه عند الموت متى فجأه عليه فليستكثر منه وليلزمه، وما يخاف أن يندم عليه يومئذٍ وليستفرغ جهده في النزوع عنه ونبذه.

وميزان ثانٍ: يستعين به على ما هو بسبيله لينظر إلى كل عمل يكره أن يطلع الناس عليه ظاهرًا كان أو باطنًا فليجتنبه، فالله أعظم اطلاعًا عليه وأكرم مشاهدة، وكل عمل لو اطلع عليه العلماء بالله وصالحوا عباده فأحبوه منك وأحبوك من أجله فالزمه، واحذر أن تتظاهر به إلا ما أمرت بإظهاره من ذلك، فالمؤمنون شهود الله في الأرض.

وميزان ثالث: متى أردت أن تعلم ما لك عند الله فانظر ما لله جلَّ ذكره عندك، فإن كنت راغبًا في التقرب منه وتزلف إليه فهو أسرع إلى ذلك منك، كذلك إن رأيت أعمال السعادة والزيادة من الخيرات تتزيد منها، والشر ينتقص منك، والآخرة مقبلة إليك بأعمالها والتأهب لها، متوجه إليها وجهك وعملك بها، والدنيا مدبرة في قلبك، وهي خلقة في نفسك وأنت عنها معرض، فاحمد الله وحده، وسله الإخلاص من قلبك، وجد من عزمك إتمام نعمته عليك وليكن سرورك بما سبق لك عند الله من ذلك أشد من سرورك بعملك.

وإن كنت ترى أعلام الشقاوة تترادف عليك بأن ترى خيرك ينقص وشرك يزيد، والدنيا عليك مقبلة وأنت معظم لها مغتبط بها، قد ألهتك عن ربك، وقلبك يزداد قسوة، فاعلم أن طريق الخير مغلق عن قلبك، وأبواب الشر مفتوحة إليك، تسلك بك في طرقها.

فانظر لنفسك أيها العبد، وفرّ من هذا الحال، ولا تبقَ إلا على عمل لا تبالي أن تموت عليه ويختم لك به، وليكن حزنك على أنك عند الله ﷻ بمنزلة من لم يرضه

لخدمته، ولا رآه أهلاً لتقربه، بل ممن قدر عليه بأن تخرج أعمال الشقاء على يديه أشد من حزنك على سوء أفعالك.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩] انتظم هذا بما تقدم قبل من الكسر عليهم والرد لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران:٢٤] وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] فرد عليهم جلَّ ذكره بما بيَّن أنهم قد خرجوا عن الهداية إلى الضلالة، وأنهم كافرون بما كذبوا من الرسل وقتلوا منهم وردوا من كتب.

ومفهوم المراد بالخطاب: إنهم على ذلك لا يخرجون من النار، وإنهم ليسوا ممن يستحق رحمة الله والحلول في جواره؛ لكفرهم وفسقهم عن هدايتهم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:١٠٠].

وكان مما عاهدوا عليه ما تضمنه قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ....﴾ [المائدة:١٢] فكان هذا منتظمًا بما تقدم من الكسر عليهم والنقض لدعواهم من تزكية أنفسهم.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟

يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾ [البقرة:١٠١-١٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ هو محمد ﷺ ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١] أي: كأنهم لم يرسل إليهم رسول ولا نزل إليهم كتاب، فيعلمون في ذلك تحريم السحر والعمل به، والنهي عن الكذب على كتاب الله ورسله، ويعلمون من رسولهم وكتابهم إنك حق، وما جئتهم به حق.

وهذا ينظر إلى المثل المضروب لهم في صدر السورة قوله الحق: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧] مثل هذه الحالة منهم بما عندهم من ضياء النبوة والرسالة والكتاب.

ثم قال فيهم: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة:١٧] أي: حول المستوقد مثل هذه الحالة من المستوقد بما ورد عليهم من نبوة محمد ﷺ وعلى النبيين قبله ورسالته والقرآن، استوى بذلك ضياء ما حول المستوقد وشبه تركهم لما في كتابهم من تصديق له، واقتداء بترك هذا المستوقد النار وإضاعته إياها، حتى طفئت بتركهم هدايتهم بكتابهم، وتصديق هذا الرسول محمد ﷺ فطفئ لذلك نورهم قديمًا وحديثًا، وصاروا لأجل ذلك ﴿فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

﴿صُمٌّ﴾ عن الداعي ﴿بُكْمٌ﴾ عن الشهادة بالحق أو القول به ﴿عُمْيٌ﴾ عن القصد(١) فهم لأجل ذلك ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] عن ضلالهم، أيأس عباده المؤمنين من هدايتهم، كذلك يكونون حتى يخرج دجالهم اللعين فيقتلون معه كل قتلة، لا يخبؤهم يومئذٍ شيء إلا شجر الغرقد، وما القدر الذي يخبو منهم شجر الغرقد على صغر دوحها وسخافة ظلها، وهي شجرتهم على ما هي.

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جَنَى فأبعدكن الله من شجرات

---

(١) قال المصنف: هذا كله يكون عبارة عن الإباء والترك للشروع والحركة والتفعل للمقدور لما عدم منهم الشروع في القول ووصفهم بعدم الاستطاعة، المعبر بها عن وجود القدرة منهم على الفعل ولما كانوا ممن يصح وصفهم بالقوّة على الشروع في الفعل المأمون به أو الترك له والإباء عنه؛ صحّ تكليفهم، كما لو عجزوا عن ذلك لم يصح تكليفهم. [شرح الأسماء ٢/ ١٥٨].

عبر عن هذا بقوله: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[١] [البقرة:١٧-١٨] هذا مثل مضروب ليهود، ويصلح أيضًا أن يكون مثلاً للمنافقين بوجه ما.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:١٠٢] إلى آخر المعنى.

وصفهم ﷻ بالرجوع إلى أوليتهم مع آل فرعون وما جرهم إلى ذلك من فعل السامري، ونبذهم الكتاب والنبوة، فذلك من عمل السحر واتباع سبيل الشيطان، فإن الله ﷻ لما عزل أباهم المبلس الملعون عن عمل الملائكة عليهم السلام، وأبعده عن جواره والعمل بأمره عوضهم من ذلك التزيين والتخييل والإيجاس، وتغيير خلق الله ﷻ كما قال: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء:١١٩] فتركوا بذلك ما كان هداهم الله إليه من الصراط المستقيم إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني: السحر ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢].

كما قال عز من قائل: اذهب ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨] ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

يقول في مفهوم الخطاب: فكيف يزعمون أنهم أولياء الله من دون الناس، وأن الجنة خالصة لهم من دون من سواهم وهم في هذه الشقاق البعيد؟

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢] التلو: التابع، يقول: تركوا كتاب الله ﷻ وهدى الإيمان بما اتبعته الشياطين على ملك سليمان، وعلى ما أنزل على الملكين، فإنهم راموا منقض الأمرين: أمر سليمان

(١) اختيار لفظ النور في قوله: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون الضوء ودون النار؛ لأن لفظ النور أنسب، لأن الذي يشبه النار من الحالة المشبهة هو مظاهر الإسلام التي يظهرونها، وقد شاع التعبير عن الإسلام بالنور في القرآن، فصار اختيار لفظ النور هنا بمنزلة تجريد الاستعارة؛ لأنه أنسب بالحال المشبهة، وعبّر عما يقابله في الحال المشبه بها بلفظ يصلح لهما أو هو بالمشبه أنسب في اصطلاح المتكلم. [التحرير والتنوير (١/١٤١)].

والملكين عليهم السلام، بزعمهم من كذب عليهم وسحر زعموه لم يأذن الله به.

وقد برَّأ الله جلَّ ذكره سليمان ﷺ وملكيه هاروت وماروت - صلوات الله وسلامه عليهما - بقوله الحق جل قوله: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ [البقرة:١٠٢] وإنما كان سليمان ﷺ قد ملكه الله ملكًا معجزًا جعله آية على ملك أهل الجنة لم يؤته أحدًا من بعده فكان يستسخر الجن ويلزمهم السجون، ويأخذ على بعضهم المواثيق على ألا يطغوا بالإنس، ويقتل البعض منهم، وينفي البعض إلى أطراف الأرض وجزائر البحور، ويلزم البعض وظائف السخرة ليشغلهم بذلك عن الإضرار، وليبقي الله ﷻ نفع ذلك لعباده.

كان كذلك إلى أن توفي ﷺ قالوا: وكان من حيث يرونه لا يصلون إلى مكانه ذلك مدة من الزمان قائمًا على منسأته مدة من الزمان إلى أن بعث الله دابة الأرض إلى منسأته، فعملت فيها حتى وهت فخرَّ، فعلموا بذلك أنه ميت، فتفرقوا وأراحوا أنفسهم مما كانوا فيه من العذاب، بنحو هذا ذكر المفسرون والله أعلم بصحة ما قالوه.

والمراد من الحديث في القرآن وسياق معناه: إعلام الله عباده بأن الجن لا يعلمون الغيب، والذي يمكن كونه من ذلك أنه توفي ﷺ واستمرت السخرة والعذاب عليهم، وخفي عليهم موته حتى دلهم على موته المنسأة قد قطعتها دابة الأرض.

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ [سبأ:١٤] يمكن أن يكون المعنى بذلك الأمر القائم الذي كانوا يلتزمون السخرة بعد الوفاة من أجله، ويمكن أن يكون خرَّ هو ميتًا كما ذكروا، والله عليم حكيم.

فالأظهر - والله أعلم - أن ذلك كان لهم علامة جعلها لهم؛ ليتصل بهم كمال السخرة، وكيف كان يكون هذا القائم ﷺ ومن سنة المرسلين التدافن، فلما خرَّ ذلك العلم استدلوا بذلك على موته ﷺ، بل كان شأن ملكه ظاهرًا قائمًا كما تركه حتى خرَّ كناية عن انهدامه لأمر، وخلاف خلف على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

فصل

ولما كان ذلك ادعت الشياطين أن ملكه ﷺ كان سحرًا ليسوِّغوه عند الناس، وأنه - أعني: السحر - معمول به، ومن فعل نبي من الأنبياء، وأشاعوا على ألسنة الناس وكثير من الغافلين أنه كان مجموع ذلك في خاتم له، وزوَّروا في ذلك أقوالاً غير صائبة الله أعلم بما هو الحق منها، غير أنها ليست بمتأصلة ولا متصلة بوجه ظاهر من الحق، والتحرج يمنع من استيفاء محاكاة أمرهم واستعراض أكثر أقوالهم.

وفصل القول في ذلك إن شاء الله ﷻ، فهو يقول الحق وهو يهدي السبيل: إن سليمان ﷺ هو نبي الله ورسوله، والرسل - صلوات الله عليهم - معصمون فيما طريقه التبليغ من الله جلَّ ذكره إلى عباده، والسحر ليس من الله جل وتعالى في شيء؛ لأنه رجس وكفر وفسق، وكذلك ما ذكروه أنه لما ذهب عنه خاتمه كما زعموا خلفه على كرسيه شيطان يحكم بحكمه طول غيبته التي ذكروها.

قالوا: وكان تخلفه مع ذلك في أهله لا ينكره الناس، ولأهله شيء من ذلك، ومثل هذا لا يصح، بل هو الكذب المفحش، ونساء الأنبياء معصومات، والله جل وتعالى أكرم من أن يترك نبيه ﷺ إلى هذه النقيصة.

فصل القول في ذلك: قوله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل:١٦].

ووراثات الأنبياء - عليهم السلام - النبوة والعلم والحكمة وما هذا سبيله، ووهبه الله لداود - عليهما السلام - نبيًّا كما وهب هارون لموسى ويحيى لزكريا نبيًا.

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص:٣٤] وأقرب ما يكون المعبر عنه بذكر الفتنة الذنب، وذلك ليس بمنكر، الله أعلم بذلك غير أنه قد زكاه الزكي بقوله الحق: ﴿نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] وسيأتي ذكر هذا.

وقال: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:٣٤] والمعهود من الله جلَّ ذكره أن رحمته أقرب ما يكون من العبد إثر بلية الذنب وإعقابه الندم والتوبة، كذلك في كثير من قصصه من ذكر الأنبياء سواه، وربما أتى هذا مبينًا في أولى المواضع به إن شاء الله.

وقال عز من قائل: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص:٤٤] لا يقال في حقيقة حق الخطاب في الشيطان أنه جسد، إنما يصفه بذلك من لا يعقل حق الخطاب، ولا وقف منه على سر المراد.

قال الله ﷻ، وذكر أنه لم يرسل إلى أهل الأرض رسولاً إلا من البشر لا ملكًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

ثم قال جل وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨] فأعلم العليم الحكيم بالحق ﷻ أن ما يقال له: جسدًا، إنه لا يأكل الطعام، وإنه خالد؛ يعني: إلى يوم الدين، والجن الذين هم الشياطين يأكلون الطعام، ويشربون وينكحون، ولهم أزواج وأولاد، ليسوا بخالدين إلى يوم الدين، غير إبليس لعنه الله.

وقال الله جل قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص:٤٤] لو كان شيطانًا لما وصف الله نفسه بأنه ألقاه، ولتنزه جل وتعالى عن ذلك، ولما كان من إلقاء الله ﷻ كان ملكًا بحكم من أمر الله، ويستن بسنن سليمان، عليهما السلام.

كذلك قالوا أيضًا فيه لقول الله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

ثم ذكر من أوبته وسرعة توبته، ثم ﴿عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص:٣١-٣٢] قالوا: إنه قطع أعناقها وسوقها، وليس كذلك.

قال الله ﷻ وذكر سليمان وداود - عليهما السلام - وداود وذي الكفل، وعمَّ جميع الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - ثم ذكر جلَّ ذكره إخوانهم وآبائهم وذرياتهم ومن اجتباه الله، وهداه إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] وكان رسول الله ﷺ في غزوة الخندق وقد شغله أهل الأحزاب بالقتال عن صلاة العصر، فلم يذكرها نسيانًا لها وشغلاً عنها بما كان فيه المسلمون معه ﷺ، ولما تحاجز القوم بعد مغيب الشمس ذكر عمر ﷺ فقال: والله يا رسول الله إني لم أصلِّ العصر، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا ما صليتها بعد، شغلونا عن الصلاة

الوسطى ملأ الله قبورهم - أو قال: «**قلوبهم**» - **نارًا**»[(١)] ثم قام ﷺ فصلى بهم العصر ثم صلى المغرب، وبقي على نية جهاد عدوه إلى أن فرغ.

وإنما فعل ذلك اقتداء بسليمان عليه السلام كما أمره الله، وعرض الله عليه خيل الله المعدة لأعدائه، فشغله ذلك نسيانًا كالبشر، ولما ذكر قال: ﴿**إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ [ص:٣٢] كالذي اعترى لمحمد - عليهما السلام - فالخير هنا عبارة عن العمل الصالح.

قال الله عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الحج:٧٧].

وقال: ﴿**يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ [المؤمنون:٦١] لكن كل الخيرات، فذكر الله أكبر منها، فقال عليه السلام لما تذَّكر الصلاة: ﴿**إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ**﴾ [ص:٣٢] أي: العمل الصالح؛ أي: شغلني عما هو أفضل فصلاها، ثم قال: ﴿**رُدُّوهَا عَلَيَّ**﴾ [ص:٣٣] أي: ردوا ما بقي منها للعرض، أو ردوا أواخرها على أوائلها.

وتفرغ لذلك الخير ومباشرته بنفسه، فمسح بيده أو بثوبه على أعرافها وأعناقها وأواخرها، ففي هذا من الفقه أن يبدأ العبد بما هو أوجب عليه، وبما هو الأفضل فالأفضل، ويتفرغ من ذلك إلى فعل الخيرات، وتلك الخيل خيل الله وخيل المسلمين وعدة للإسلام، ولا ذنب لها تعاقب عليه، إنما كان يكون الذنب عليه لو تعمد إفاتتها؛ أعني: الصلاة، فلم يتعمد ذلك، بل نسيها فلا ذنب عليه ولا عليها، فقتل الخيل على هذا من العبث، والحمد لله رب العالمين.

وقد رُئي محمد رسول الله ﷺ وهو يمسح بثوبه وجه فرس وعنقه، فقيل له في ذلك فقال: «**إني عوتبت الليلة على الخيل**»[(٢)].

وهذا منه ﷺ جريًا منه على ذلك السنن، وإنما الذميم من الفعل لو ترك ما كان عليه من فعل الخير وأهلكها، يدل على ذلك قصة يونس عليه السلام لما لم يتيسر له من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٧٣) ومسلم (٦٢٧) وأبو داود (٤٠٩) والترمذي (٥ ٢٩٨٤) والنسائي في الكبرى (٣٥٨) وابن ماجة (٦٨٤) وابن أبي شيبة (٨٥٩٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٠٠٧).

عمل كلفه ربه بما يرضى ترك عمله، وفرَّ إلى الفلك المشحون فركبه نادًّا على وجهه، فحبسه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في بطن الحوت وسماه: آبقًا ومليمًا.

وقال رسول الله ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ...﴾ [القلم:٤٨] إلى آخر القصة.

وإنما عزم أولو العزم ألا يتركوا عملاً لعمل، ولا يبطلوا أعمالهم، لا سيما إذا كان ذلك مما يُعزى إلى أنه فعل الشيطان، ونسيان الصلاة من فعل الشيطان، أفيترك طاعة ربه لأن أنساه طاعة واحدة هذا من عون الشيطان على عمله، واعتبر ذلك بإصلاح الصلاة وسجود السهو لترغيم الشيطان.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا وقعت لقمة أحدكم من يده فليأخذها، وليمط عنها ما كان بها من قذى، وليسمِ الله تبارك وتعالى ثم ليأكلها، ولا يتركها للشيطان**»[١].

وقال ﷺ: «**إذا عثرت دابة أحدكم به فليقل: بسم الله - أو قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» - ولا يقل: تعس الشيطان فإنه ينتفخ لها**»[٢] فهذه سبيل الله ﷻ وسبل أنبيائه ورسله صلوات الله عليهم أجمعين.

قوله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾[٣] [البقرة:١٠٢].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٤٦).

(٢) أخرجه النسائى فى الكبرى (١٠٣٨٩)، وأبو يعلى فى المعجم (٧١)، والطبراني (٥١٦)، وقال الهيثمى (١٠/١٣٢): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمران وهو ثقة. والحاكم (٧٧٩٣)، والضياء (١٤١٢) وقال: إسناده صحيح. وأخرجه أيضًا: أبو داود (٤٩٨٢)، وابن أبي عاصم فى الآحاد والمثاني (١٠٦٨).

(٣) في هاروت وماروت قولان: أحدهما: إن سحرة اليهود زعموا أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، وهما رجلان ببابل. والثاني: إن هاروت وماروت مَلَكان أَهْبَطَهما الله ﷻ إلى الأرض، وسبب ذلك: إن الله تعالى لما أطلع الملائكة على معاصي بني آدم عجبوا من معصيتهم له مع كثرة أَنْعُمِهِ عليهم، فقال الله تعالى لهم: أما أنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم، فقالوا: سبحانك ما ينبغي لنا، فأمرهم الله أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت فأُهْبِطَا إلى الأرض وأحل لهما كل شيء، =

وقرأ ابن عباس وعبد الرحمن، رحمة الله عليهما: «الملكين» بكسر اللام، المعنى: ملكين من ملوك الدنيا، تقدير الآية: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ وعلى ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت.

وقرأ الزهري: «هاروت وماروت» بالرفع؛ أي: هما، وقد شهد الله ﷻ لهما أن الذي كانا يعلمانه هو ما أنزله عليهما، وما أنزل الله ﷻ فلا خلاف في صحة هدايته، وأنه الهدى والحق والخير ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى﴾ [البقرة:١٢٠].

وما أنزل الله على أحد وحيًا إلا معناه: التوحيد، وتصحح النبوة والأمر بالطاعة والعبادة له وحده بقول الله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢] فعمَّ ولم يخص بشرًا من غيره، إلا يوحى ﴿إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وكان الغالب على ما أنزل عليهما ما هو من سبيل علم الأسماء وما تقتضيه، وما يكون دواء من السحر، وعلى الأقرب فالأقرب من معانيها وخاصة كل اسم منها في منافعه، وفي مرافقه ومواضعه من الموجودات أبقى من ذلك فيما أنزل علينا الأدعية والمعوذات، وما هو سبيل القرآن العظيم.

ثم ما عبر عنه قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨] وهذا ما بقي من ذلك فيما أنزل علينا إلى ما يكون من التمييز بين لمة الملك ولمة العدو - لعنه الله - ثم تمييز الأخلاق المرضية من غيرها، كالرضا والشكر والخوف والرجاء والخشوع

على ألا يُشْرِكا بالله شيئًا ولا يسرقا ولا يزنيا ولا يشربا الخمر، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فعرضت لهما امرأة وكان يحكمان بين الناس تُخَاصِمُ زوجها فوقعت في أنفسهما، فطلباها فامتنعت عليهما إلا أن يعبدا صنمًا ويشربا الخمر، فشربا الخمر وعبدا الصنم وواقعاها، وقتلا سابلاً مرَّ بهما خافا أن يشهر أمرهما، وعلّماها الكلام الذي إذا تكلم به المتكلم عرج إلى السماء، فتكلمت وعرجت ثم نسيت ما إذا تكلمت به نزلت فمسخت كوكبًا، قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي هبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه، فتعجب الملائكة من ذلك، ثم لم يقدر هاروت وماروت على الصعود إلى السماء فكانا يعلّمان السحر. [النكت والعيون (١/٧٨)].

والخضوع، وجميع أخلاق الإيمان.

والفرق بين هذه الأخلاق والأخلاق المردية كالرياء والعجب والكبر، وأخلاق الكفر وما ينبعث عليه العدو، ثم ما يكون عند الولاية والحب والود لله وفي الله، وفيما يحبه ويرضاه، ثم معرفة ما يتحصل ذلك من أعمال وأقوال طيبة، وأسماء الله جلَّ ذكره، وتميز ذلك من ضده، ومواقع هذا وهذا ومنافعه ومضاره، يرشده إلى غير ذلك مما الله به أعلم.

وهذا كان العلم الذي قد خصَّ به رسول الله ﷺ حذيفة ﷺ من آفات الأعمال وخدائع النفوس، وكان ما أعلم به ﷺ هو ما يكون على سبيل البشارة بفضائلها، وما سمى الله ﷻ به الملكين - عليهما السلام - يعبر عما جاء به من ذلك، ويعلم أنهما من عند الله، وأن ما أنزل عليهما هو من عند الله، وأن أحدهما في مرتبتهما معًا كالحافظين: صاحب اليمين وصاحب الشمال، وكلاهما من عند الله ﷻ ومن رسله وملائكته: ﴿لَّا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] فافهم، وسل الله من فضله.

وكذلك ما يكون من التحذير عن العداوة، وتحقيق إكراه في الله، ولأجل ذلك كانت الفتنة تسرع إلى من كان ينتحله بأقل زيغ، فيدافع الكفر والمكروه بأيسر إيجاد، على قدر العلو في الرفعة تكون الرَّجبة في الوقعة، فكانا - عليهما السلام - لأجل ذلك يقولان للمتعلمين منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: لا تزغ ولا تعدل عن الطريق فيعدل بك.

وكان لا مرية في ذلك من آمن منهم واتقى الله علم رفيع العلم، ونال ذروة شرفه ونجا من الفتنة، ووصف الله ﷻ المتعلمين منهم على السبل المذمومة، أنهم إنما كانوا يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه بدل الذي يوجب الألفة وكرم الوداد في الله، ثم ما تبع ذلك لا محالة مما يضاد ما تقدم ذكره، ويضيفون إلى ذلك السحر، فإنه يقرب مما هذه سبيله بالمقابلة التي تعبر بها عن التضاد.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢] فكان الذي اتبعته الشياطين ما أنزل على هذين الملكين - عليهما السلام - من الهدى ضلالاً يؤخذ من معالم هي كفر وعناد وتعبد لغير الله بوظائف عبادات يتقربون بها إلى

روحانية كواكب زعموا أن عندها مرغوبهم من صيام وذكر لأولئك، عبَّر عن جملة ذلك قوله جل من قائل: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ يعني: يهود فيما أنزل عليهم أنه ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أي: من حظ عند الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: ما أنزل إليهم في كتابهم هي كفر وعناد، وتعبد لغير الله ﷻ.

عبَّر الله ﷻ عن بعض ذلك بقوله جل قوله: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وهذا هو، وقبيله هو ﴿يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣] المعنى: لو أنهم آمنوا بما أنزل إليهم وما أنزل من قبلهم واتقوا ولم يلحدوا في أسماء الله ﷻ ولا ألحدوا بها، فاستعملوا أنفسهم بما اقتضته الأسماء على سنة الرسول المرسل إليهم بذلك ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

يشير - وهو أعلم ﷻ - إلى ما في الكتاب من ثواب المتوكل على الله، المفوض إليه العالم به، العامل بطاعة إن ذلك كان يفضي بهم إلى الولاية العليا، فيُجري على أيديهم أنواع الكرامات، ويظهر لهم من غيابات قدرته من تعجيل شفاء الأسقام، وإجابة الدعوات وقضاء الحاجات، وتفريج الكرب وتيسير العسير، وتقريب البعيد إلى غير ذلك مما هذا سبيله، ومن آمن واتقى يجعل الله له المخرج من أمره وييسر له شأنه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا

﴿سُبِيلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٤-١٠٨].

ثم أخذ ﷻ في توصية المؤمنين ونصيحتهم بأحسن المأخذ وأكرم المخاطبة، فقال جل قوله يعلمهم بمراد عدوهم فيه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ﴾** يعني: اليهود خاصة، ثم من غيرهم عامة **﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [البقرة: ١٠٤].

كانوا يقولون: راعنا يا محمد؛ أي: أرعنا سمعك وبصرك، وهم يلحدون بذلك من قولهم إلى ما يضاد التوقير والتعزير من السب، فنهى الله جل ثناؤه المؤمنين أن يقولوا ذلك لما في ذلك من الإيهام.

ثم أعلمهم عزَّ جلاله بمراد عدوهم بقوله عز قوله: **﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلَا المُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾** [البقرة: ١٠٥] وقد اختصكم على العالمين بدين الإسلام ورسوله ﷺ وبالقرآن العظيم والآيات والذكر الحكيم.

قوله ﷻ: **﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾**[(١)] [البقرة: ١٠٦] هذا كلام منتظم بما قبله من ذكر يهود، وبخاصة ذكر المنزَّل على الملكين - عليهما السلام - من علم وهداية ونور وآيات، وعلى ما هي عليه دلالات نيرات، ثم جميع الكتب والصحف المنزلة عليه بقول الله جل قوله: **﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ﴾** بنونين وكسر السين وتشديدها.

وفي أخرى: «**أو ننساها**» بألف، وفي أخرى: «**أو ننسها**» وفي أخرى: «**أو ننسك**»، وفي أخرى: «**ما ننسك من آية أو ننسخها**» وهذه كلمة بمعنى: النسيان، وكلها قراءة خارجة عن القراءة الصائبة، وهي ما كان بمعنى النسيء والنسء الذي هو التأخير.

---

(١) سبب نزولها فيما ذكروا: أن اليهود لما حسدوا المسلمين في التوجه إلى الكعبة، وطعنوا في الإسلام قالوا: إن محمدًا يأمر أصحابه بأمر اليوم، وينهاهم عنه غدًا، ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غدًا، ما هذا القرآن إلا من عند محمد، وأنه يناقض بعضه بعضًا، فنزلت. [البحر المحيط (١/٤٤٥)].

وقرأ عبيد بن عبيد وأبو عمرو ابن العلاء ومجاهد وعطاء وغيرهم: «**ما ننسخ من آية**» أي: من اللوح المحفوظ «**ونؤخرها**» يقول: نؤخر نسخها «**نأت بخير منها**» أي: في التخفيف أو في الإجزال من الثواب «**أو بمثلها**» من اللوح المحفوظ فلم ننسخها لك؛ أي: لم ننزلها عليك نأتِ بخير منها أو مثلها[١].

حكى ذلك عنهم القاسم بن سلام - رحمه الله - وعلى هذا التأويل، فالقرآن كله منسوخ؛ أي: منقول من أم الكتاب؛ أي: من اللوح المحفوظ إملاءً؛ إذ كل كائن فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، وتنزله على رسول الله ﷺ كائن، وهو أيضًا من علم الله جل ثناؤه.

وقال جل قوله للقلم: «**اكتب علمي في خلقي**»[٢] وليس المطلوب هذا.

وأما قولهم في قوله عز قوله: ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾[البقرة:١٠٦] أي: مكان المنسأة المؤخرة إن كان مرادهم أنه نأتِ بمثلها أو خير منها من اللوح المحفوظ، فليس أيضًا في هذا من الفائدة إلا إنه أنزله نجومًا، وإن كان معنى ذلك: إنه ينزله ﷻ من غير اللوح المحفوظ، وحاشا لهم من القول بذلك، هم المرفعون عن هذه الظنة.

قال الله جل من قائل: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾ [يس:١٢] وقال ﷻ في القرآن: ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الزخرف:٤].

فصل

النسخ: إزالة الشرع المتقدم بشرع متأخر عنه على وجه لولاه لكان ثابتًا هذا حد وجوده، وإن كان قد يقال للنقل: نسخ.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجاثية:٢٩] لكنه تأويل لا وجه له ولا فائدة في هذا المطلب.

انتظم هذا الخطاب بالمجاورة بنسخ بعض ما أنزل على الملكين عليهما السلام، تقدير الكلام: ما ننسخ من الذي أنزلناه على الملكين، أو من التوراة

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٤٥٦/١)، وتفسير البحر المحيط (٤٤٨/١)، وفتح القدير (١٥٩/١).

(٢) تقدم تخريجه.

والإنجيل، أو من جميع الكتب قبله من أن نوجب حكمهما من ذلك اليوم، أو ننسأها نؤخر حكمها إلى أجل ما، كفعله في آيات القتال والانتصار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنسأها أول بدأة الإسلام إلى أن عز أهله وكثروا، وأظهره الله ﷻ، ثم هو يعيد ذلك الحكم الأول حين يعود الإسلام غريبًا كما بدأ، ثم يعيد الحكم الثاني وهو الانتصار في آخر الزمان إن شاء الله.

يقول الله جل قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ [البقرة:١٠٦] بخير من المهادنة، وهو القتال والانتصار أو مثلها من المهادنة.

قال الله ﷻ وذكر الجهاد وأمر بالنفير إلى عدو المسلمين خفافًا وثقالاً: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١] ثم المهادنة كالمهادنة، ألا تسمعه جل قوله يقول: ﴿نَأْتِ﴾ لفظ مستقبل بشرط لمشروط متقدم، ولذلك أعقب ﷻ القول بالتمدح والتمجيد، فقال جل قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٦] يشير إلى النص خاصة، ثم إلى ما يتناوله العموم ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧] وهذا إشارة إلى وعيد، وإشارة إلى ذنوب يكون التخلي عن نصرتهم لأجل ذلك.

ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٧].

فصل

وأما تأويل القراءة من هنا بمعنى: النسيان؛ فإن الله جلَّ ذكره يقول وقوله الحق: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعلى:٦-٧] فأخبر نصًا أنه لا ينسى، واستثنى معنى ما وجب على من لقن البحث عن حقيقة المراد.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وكما يُحفظ من الشياطين وشوائب النفوس كذلك يحفظه ﷻ من النسيان، وقد ضمن له ﷻ جمعه في صدره وقراءته، وهو المقدار الذي يتأوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ [الأعلى:٦] أي: المقروء ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعلى:٧] هو السنة، فإنه ﷺ قد قرأ؛ أي: جمع الحكمة من قلب الملك ﷺ وصدره، ثم من لطيف بره وتدبيره له أن جعل تلك بذرة هيَّأها لينبتها إلى نهايتها، وطرق إليها النسخ والنسيان.

ألا ترى أنه لم يقل جل قوله: «ما ننسخ من القرآن من آية» وإنما قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ وكلها آياته ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ أي: من القرآن، أو مثلها من السنة ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٦] من الوحي.

ويمكن أن يكون ما ينسيها حكم الآية كالمجمل ليس من شرطه أن يقرن بيانه بوقت نزوله قبل وقت الحاجة إلى امتثاله، أو يرد عليه من القرآن ما لم يعلم المراد به، والنسيان يقع على زوال الذكر، وزوال الذكر قد يقع بالذهول والغفلة ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] أي: أغفلهم وأذهلهم عن النظر والأخذ بالوثيقة في النجاة لها، ويقع زائدًا على ذلك بالترك ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية:٣٤] ولأن يوجه الخطاب إلى معنيين أولى من أن يوجه إلى معنى واحد، لا سيما وهو يحتمل معنيين.

قوله ﷻ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] وليس إلا الكتاب والسنة، وقد نسخ القرآن الكتب قبله إلا ما شاء الله مما شاء إقراره وإمضاءه، ولم يأتِ أن القرآن ناسخ ينسخه إلا قول قائل لا يرجع إلى أصل وثيق، وقد نسخت السنة السنة، والنسخ يتناول الكتاب قبله من التوراة والإنجيل والسنة كنسخه: «**وإنما الماء من الماء**»(١) بقوله: «**إذا التقى الختنان وجب الغسل**»(٢) ونسخه: «**الوضوء مما مسته النار**»(٣) ونحو ذلك.

وما ورد في القرآن العزيز من ناسخ ومنسوخ فمعلوم، وهو قليل قد يسر الله جلَّ ذكره ناسخه عند منسوخه، كنسخه الصدقة عند مناجاة الرسول بالآية التي أعقبها بها، وهي لمن نظر بحقيقة النظر من المُنساء، كذلك نسخه ذبح إبراهيم ولده عليه السلام متتابعًا غير متباعد، كذلك تحقيقه الثبوت من واحد لعشرة من الكفار، وعشرة لمائة منهم، وهو من المنساء أيضًا حكمه.

وكذلك ما ذكروه من إثبات اللاتي يأتين الفاحشة من النساء في البيوت،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤٣)، وأبو داود (٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (أحمد (٦٦٧٠)، والترمذي (١٠٨)، وابن أبي شيبة (٩٥٦)، وابن ماجة (٦١١) وعلقه البخاري (٢٩١).

(٣) أخرجه أحمد (٥٠٥)، وابن ماجة (٢٢).

وقالوا: إنها منسوخة بما أنزله في صدر سورة النور، ليس بنسخ ولا إزالة الحكم، إنما هو بيان للسبيل الذي جعله الله لهن.

قال رسول الله ﷺ: «**خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**»(1) فكرر لما كان الحكم في محكومين الرجال والنساء والأبكار وغير الأبكار، وقد جعل الله لهن سبيلاً.

ثم جعل يبين السبيل بما هو الحديث، ومَن جعل الزانية والزاني في السجن حتى يتبين الحكم فيهما بالشهادة، أو حكم قد تعذر إنفاذه، وأمر لم يتبين وهو مرتاب فهو مصيب، ولو كان منسوخًا لم يجز على حال.

وهكذا يتخرج كل ما يدعى عليه النسخ من القرآن بالقرآن أو بالسنة إن كان بالسنة وذلك أبعد، إنما يكون ما يدعونه نسخ للقرآن بالسنة، فهو بيان لحكم القرآن، وإن كان المدعي عليه قرآنًا كان منسأ أو بيانًا لمجمل أو خطابًا قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصص من عموم أو حكم عام لخاص، أو مستثنى منه، أو لمداخلة معنى في معنى.

وأنواع الخطاب كثيرة، وإعلام نسخ ما تقدم من الكتاب قبله بحكمة بالغة لمنزل القرآن ﷻ في ذلك، وحجة قاهرة من القرآن، إنما هو مهيمن على غيره من الكتب، وهو في نفسه متصادق متعاضد.

وإن كان الكلام في نسخ القرآن بما أنزل على الملكين - عليهما السلام - فتقديره: ما ننسخ من آية مما أنزل عليهما نأت بخير منها؛ أي: أعظم مثوبة وأبعد من الفتنة، وأقرب إلى السلامة أو مثلها بما كان مما أنزل عليهما أكثر إلى الأسماء ما كان مثل ذلك في القرآن العظيم من ذكر الأسماء الحسنى والصفات العلا، كقوله جل قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى**﴾ [الرعد:٣١].

---

(١) أخرجه الشافعي (١/١٦٤)، وأحمد (٢٢٧١٨)، ومسلم (١٦٩٠)، وأبو داود (٤٤١٥)، والترمذي (١٤٣٤) وابن ماجة (٢٥٥٠)، وابن حبان (٤٤٢٥)، والنسائي في الكبرى (١١٠٩٣).

وقوله جل قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر:٢١] إلى آخر السورة.

فقد أُنزل من هذا الضرب في القرآن كثيرًا [بل هو عمود القرآن عظمًا، ونسخ سنة الواجب الذي كان يكون عنه لو شاء الله][1] عبر عنه قوله: ﴿بَل لله الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

وقوله ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقد كان رسول الله ﷺ يرقي بها المريض، ويعوذ بها ويتعوذ، وقد أشار إلى هذا الغرض بقوله الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ يعني: يهود والذين اتبعوا ما تلته الشياطين على ما أنزل على الملكين، وعلى ملك سليمان - عليهما السلام - و﴿آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٣].

يقول، والله أعلم بما ينزل: لأظهرنا لهم من الكرامات وإظهار المغيبات مثوبة لإيمانهم، وعلى تقواهم، لكنهم لا يعلمون، فالقرآن ينسخ ما شاء الله جلَّ ذكره نسخه من الكتب قبله، وينسخ الله ما يشاء نسخه من السنة، والسنة تنسخ بعض بعضًا، على هذا هو السنن المسنون والأصل المؤصل، إلا ما كان من ذلك نادرًا لا يقطع على وجوده، ولا ينكر فقده ﴿وَالله يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] جريًا على جواب الشرط، كذلك وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز.

قوله ﷻ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾[2] [البقرة:١٠٨] وكان مما سألوا نبيهم ﷺ أن يريهم الله جهرة أو يكلمهم، فنهاهم -

---

(١) في العبارة اضطراب لعدم وضوحها في الأصول.

(٢) اختلف في سبب نزول هذه الآية، فقيل عن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن أمية ورهط من قريش قالوا: يا محمد اجعل الصفا ذهبًا، ووسع لنا أرض مكة، وفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، ونؤمن لك. وقيل: تمنى اليهود وغيرهم من المشركين؛ فمن قائل: ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة، ومن قائل: ائتني بكتاب من السماء فيه: من رب العالمين إلى عبد الله بن أمية، إني قد أرسلت محمدًا إلى الناس. [تفسير البحر المحيط (١/٤٥١)].

أعني: المؤمنين - أن يقترحوا عليه بقرآن ينزله عليهم في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه، وهذا كلامه أو وحيه جَلَّ جَلَالُه.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١٠٩-١١٣].

قوله جَلَّ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩] هذه نصيحة من الله جلَّ ذكره للمؤمنين، وإعلام لهم بقلة نصيحة أهل الكتاب في الله جلَّ ذكره؛ إذ الدين النصيحة لله وللرسول وللكتاب [....][1] وإنما هي منسأة، دل على ذلك قوله جل: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة:١٠٩] ثم صرف جَلَّ جَلَالُه الخطاب إلى أوله من ذكر أمانيهم وضلالتهم بالبرهان على صدق ما تمنوه، وما اعتمدوا عليه من كاذب ظنونهم بقوله عز قوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

ثم ذكر تعالى تكذيب بعضهم بعضًا، وفي ذلك منهم تكذيب كل فريق لكتابه؛ إذ كتاب كل فريق منهم مصدق لما بين يديه ولما خلفه بقوله عز قوله: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في هامش (ق) ومكشوط في (ف).

يَتْلُونَ الكِتَابَ﴾ أي: وفي كل كتاب تصديق كتاب صاحبه.

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة:١١٣] يعني: العرب ومن لا كتاب له، فاستوى علمهم بكتابهم في هذا الوجه، يكفر من لا علم له ولا كتاب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٤-١١٧].

ثم صرف ﷻ وجه الخطاب إلى الإخبار عن النصارى بقوله جل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ الله أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾[1] [البقرة:١١٤] يعني: النصارى، ومساجد ما هنالك هو بيت المقدس وما حوله من المساجد.

ويتوجه بهذا الخطاب أيضًا إلى قريش؛ لمنعهم الرسول ﷺ والمسلمين الحج والعمرة وعمارة بيت الله الحرام، والمؤمنون هم أولياؤه، ولهم طهره إبراهيم وإسماعيل - صلوات الله عليهما وسلامه - ولهم رفعا قواعده، ولهم بنوا بإذن ربهما، والمشركون نجس، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

وقوله جل قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ والله أعلم فرع لنسخ القرآن القبلة، والتوجه إلى بيت المقدس.

---

(١) في المانع مساجد الله أن يُذْكَرَ فيها اسمه، أربعة أقاويل: أحدها: إنه بُخْتَ نصر وأصحابه من المجوس الذين خربوا بيت المقدس، وهذا قول قتادة. والثاني: إنهم النصارى الذين أعانوا بُخْتَ نَصّر على خرابه، وهذا قول السدي. والثالث: إنهم مشركو قريش منعوا رسول الله ﷺ من المسجد الحرام عام الحديبية، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد. والرابع: إنه عَامٌّ في كل مشرك، منع من كل مسجد. [النكت والعيون (١/٨٣)].

فصل

شرَّع الله لموسى - صلوات الله عليه وسلامه - التوجه إلى بيت المقدس في قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: مساجد ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: التي كتب الله لكم بالشام قبلة ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧] الذي يتبعون الرسول ﷺ على القبلة إلى البيت الحرام كما قال جل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣].

فلما بعث الله رسوله ﷺ صلى إلى بيت المقدس طوّل مكثه بمكة والمدينة ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثم أُمر بالتوجه إلى البيت الحرام، وكان توجهه إلى بيت المقدس استصحاب حال، كذلك أوحى الله ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

ثم ذكر ﷻ عظيم قولهم وشنيع افترائهم، وشهادة جميع الخليقة بالتوحيد، وصمودها قانتة له، وأن كل الموجودات علوًّا وسفلاً خلق له وعبيد مملوكون، فأنى يكون له من خلقه وعبيده ولد ﷻ؟! إلى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥] ينصرف أيضًا وجه الخطاب إلى الأميين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[البقرة:١١٨-١٢٥].

قال عز قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ اليهود لما تجمعوا في الكفر تشابهت قلوبهم وتشابه اقتراحهم، إنما ينفع العلم والعقل مع الإيمان، كذلك إلى قوله عز قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

والآيات المبينات هو ما أودع الله ﷻ العالم كله من الشواهد، وملأه من الدلائل الدالة على الوحدانية، وأنه الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] وأنه لا كفو له، كيف وهو بديع على ألا شريك له ولا ولد؟ كيف وهو بديع السماوات والأرض أن يكون له ولد ولا كفو له؟ كيف يكون له ند أو شريك وولد والكل ملكه وعبده قانت لعظمته يسبح بحمده؟.

ثم أمره بالتولي والإعراض عنهم مع التبليغ إليهم، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩].

وأيأسه ﷻ من رجوعهم عما هم عليه والاستجابة له، فقال عز قوله: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾وأمره ﷻ بلزوم ما هو عليه من الإيمان بما جاءه والهدى والتبليغ عنه بقوله عز قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة:١٢٠] كقوله عز قوله: في غير هذا الموضع ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام:٧١].

ثم كشف ﷻ عن وجه الحق، ودل على السبيل المؤدي إليه بقوله عز قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ أي: قراءة ثم عملاً به ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ثم عطف الكلام معرضًا بهم ومؤدبًا لسواهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: بهذا الكتاب ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١].

ثم صرف وجه الخطاب إلى اليهود والنصارى وكفار العرب، فذكرهم بأبيهم الأقرب، كما ذكرهم أولاً بأبيهم الأقصى، وكما ذكَّر اليهود والنصارى بنعمه عليهم، وتفضيله إياهم بوعظ وتخويفهم بأسه وعقابه، فذكرهم عهده إلى إبراهيم عليه السلام

وإمامته، وإنه لا ينال عهده الظالمون من عباده تعريضًا لهم بظلمهم، وقطعًا للرجاء منهم في وصلتهم مع الإقامة منهم على ما هم عليه، ومع ذلك يذكرهم بالأخوة وأخوة النسب، وأن إسماعيل وإبراهيم - صلى الله عليهما وسلم - ابتنيا البيت الحرام، يعرض لهم ﷻ بالرجوع إليه والتوجه نحوه، ويسد عليهم مكان الحسد للعرب، وإنهم وإن كانوا معهم بني أخوين وإنهم لأبٍ واحد ونسب سواء، وإنهما كانا مسلمين مؤمنين عليهما السلام[1].

وذكر ﷻ دعاهما لبنيهما بالإسلام، وتعليم المناسك والتوبة، وبأن يبعث الله ﴿رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

يقول الله تعالى: فها هو هذا دعوة إبراهيم وإسماعيل، وتوصية إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - صلى الله عليهم أجمعين - بهذه الملة السواء والطريق المثلى، هذا كله يحبب إليهم الدخول في الإسلام والاهتداء بهدايته والاحترام بحرمته، وإنه من رغب عن ملة إبراهيم عليه السلام منهم أو من غيرهم فقد سفه نفسه؛ إذ لا هدى إلا هدى الله، ولا دين غير دين الإسلام مقبولاً شهادة شهد بها جميعهم يوم توصية إبراهيم يعقوب وإسحاق - صلوات الله وسلامه على جميعهم - فأقروا بذلك وأشهدهم أنهم مسلمون.

يقول الله ﷻ لليهود والنصارى وكفار العرب: وها أنتم أولاً مخالفون لهم في شهادتهم وإقرارهم في قولهم للعرب: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ

---

(١) قرأ نافع ويعقوب ﴿لا تسأل﴾ على أنه نهي للرسول ﷺ عن السؤال عن حال أبويه، أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها، أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال، لهذه القراءة. قال الشيخ ولي الدين العراقي: لم أقف عليه في حديث؛ قال السيوطي: والذي يقطع به أن الآية في كفار أهل الكتاب كالآيات السابقة عليها والتالية لها، وقد قرّرت ذلك أتم تقرير في التأليف الذي سميته: «مسالك الحنفا في نجاة أبوي المصطفى» وانظر: (حاشية القونوي ١٨٨/٤) (تاريخ الطبري ٤٤٢/١).

ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا
مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ
ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ
لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا
تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا
تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ [البقرة:١٢٦-١٣٧].

يقول الله ﷻ وقوله الحق: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة:١٣٥] التزامًا للعهد الأول عهد الله، وعهد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، فقال جل قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله جل: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].

ثم ذكر أن الشهادة والعمل بمقتضاها هو الهدى، كقوله عز قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة:١٣٧] أي: في بعد عن الحق وضلال عن الهدى، وإسخاط الله جل ثناؤه ورسوله والمؤمنين، هذه شهادة الله تبارك وتعالى لدين الإسلام، وهو الكبير المتعال.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى

ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة:١٣٨-١٤١].

ثم قال جل قوله: ﴿صِبْغَةَ الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً﴾[1] [البقرة:١٣٨] نصب صبغة على الاختصاص للمدح، والصبغة هي الخلقة الأولية منه، فخلقته التي خلق عليها هي صبغته عليها جمعت مواد قوى خلقته، وعلى سببها رُكبت أركانه وإياها أريد بإيجاده.

ولما كانت اليهود تختن أبناءها داخل السبعة الأيام من مولد المولود منهم وتدهنهم بالدهن تعتقد في ذلك تهويده، والصبغة من لدن أخذ الميثاق علينا والإقرار منا له بالعبودية وله بالربوبية، ثم بثنا في خزائن السماوات والأرض ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣] هي ﴿صِبْغَةَ الله﴾ إيانا في دين الإسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨].

وكانت النصارى تغمس أبناءها في ماء المعمودية داخل السبعة الأيام تنصرها، بذلك خاطبهم رب العزة ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالمعهود عندهم، يعلمهم في ذلك بأن ليست ملة الإسلام صبغة مخلوق، ولا صبغة محدث مربوب لا يملك دفع ضرر ولا تحويله، إنما هي: ﴿فِطْرَةَ الله﴾ جل ثناؤه وصبغته ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ﴾

---

(١) أي: هيئة صبغ الملك الأعلى التي هي حلية المسلم وفطرته، كما أن الصبغة حلية المصبوغ حالاً تقاضاها معنى الكلام، وعاب على النحاة كونهم لا يعرفون الحال إلا من الكلم المفردة، ولا يكادون يتفهمون الأحوال من جملة الكلام، وقال: الصبغة تطوير معاجل بسرعة وحيه، وقال: فلما كان هذا التلقين تلقينًا وحيًا سريع التصيير من حال الضلال المبين الذي كانت فيه العرب في جاهليتها إلى حال الهدى المبين الذي كانت فيه الأنبياء في هدايتها من غير مدة جعله تعالى صبغة، كما يصبغ الثوب في الوقت فيستحيل من لون إلى لون في مقابلة ما يصبغه أهل الكتاب بأتباعهم المتبعين لهم في أهوائهم في نحو الذي يسمونه الغِطاس. [نظم الدرر للبقاعي (١ /١٩٥)].

وجميع الموجودات ﴿عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم:٣٠] فمن أحسن من الله صبغة، وأي ملة على هذا أحسن من ملة الإسلام؛ لذلك يسجد له من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا، ويسبحه كل شيء ويقنت.

فمن ها هنا من أسلم لله وآمن به وبما يجب الإيمان به إذا توفي عرجت الملائكة - عليهم السلام - بروحه، فأحبه كل شيء كما يحب أولياء الله بعضهم بعضًا، وفتحت أبواب السماء لروحه سماء سماء حتى يصل إلى ربه ﷻ، ولعدم الإسلام في سواه لم يفتح لهم أبواب السماء ولا دخلوا الجنة؛ لأنه ليس في الوجود شيء تولاهم وأحبهم، والله ولي المؤمنين.

ومن ذلك ما هم عليه - أعني: النصارى - إذا حاولوا تغميس المنصر في ماء المعمودية يجمع إليه الحاضرون، وربما من بَعَد فيمسه كل واحد بيده اقتداء في أصل هدايتهم قبل بالموجودات في صبغة الله ﷻ؛ إذ يمسه الهواء والريح والسحاب والماء والأرض والنبات والأفلاك والكواكب والسماوات، فيوده كل شيء ويحبه كل شيء، فلذلك يفتح له أبواب السماوات ما كان مؤمنًا ووافى على الإيمان والإسلام، فإن هو تنصر أو تهود أو تمجس أو كفر بأي أنواع الكفر، كان يتبرأ منه كل شيء ويبغضه.

ثم قال عز من قائل: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ﴾ لهم يا محمد من أعلم بهم وبما كانوا عليه: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾ وهل نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعد ما تقدم ذكرهم، أم تكتمون شهادتكم في ذلك ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ﴾ [البقرة:١٤٠].

ولما بلغ من التبليغ الغاية واستوفى في النبيين النهاية قطع الجدال مفلجًا، وفصل بالحق غالبًا بقوله جل قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١] انظروا لأنفسكم وخذوا لها بالأوثق في النجاة من عذاب الله ربكم، فلستم بالمسؤولين عن أعمالهم، ولا هم بالمسؤولين عن أعمالكم، أفمن تكون هذه أعماله ومدرجته في سبيله يزعم أن الدار الآخرة خالصة له من دون الناس.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾[١] [البقرة:١٢٤]

«الابتلاء»: الاختبار.

والكلمة كل موجود على التراخي تتمه السنة، وآدم - صلوات الله وسلامه عليه - كلمة، وكذلك إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم وسلَّم - وكذلك كل ما تبعه ما هو منه، ولا يتم معنى وجوده إلا بذلك المتابع، وكل واحد من المكلفين أيضًا كلمة؛ إذ كتب له رزقه وأجله وعمله، فهو لا يتم إلا بتمام ذلك منه، ثم قد كُتب شقيًا أو سعيدًا ومكانه من الجنة والنار، وكل ما يصيبه في دار الخلود وهذا فليس له آخر ينتهي إليه تحصيلاً.

---

(١) في الكلمات التي ابتلاه الله ﷻ بها ثمانية أقاويل: أحدها: هي شرائع الإسلام، قال ابن عباس: ما ابتلى الله أحدًا بهن فقام بها كلها غير إبراهيم ابتلي بالإسلام فأتمه فكتب الله له البراءة، فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قال: وهي ثلاثون سهمًا. والقول الثاني: إنها خصال من سُنَنِ الإسلام؛ خمس في الرأس وخمس في الجسد، فروى ابن عباس في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر البول والغائط بالماء. وهذا قول قتادة. والقول الثالث: إنها عشر خصال؛ ست في الإنسان وأربع في المشاعر، فالتي في الإنسان: حَلْقُ العانة، والختان، ونَتْفُ الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والغُسل يوم الجمعة. والتي في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. روى ذلك الحسن عن ابن عباس. والقول الرابع: إن الله تعالى قال لإبراهيم: إني مبتليك يا إبراهيم قال: تجعلني للناس إمامًا؟ قال: نعم، قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين، قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم، قال: وأمنًا؟ قال: نعم، قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال: نعم، قال: وأرنا مناسكنا وتب علينا؟ قال: نعم، قال: وتجعل هذا البلد آمناً؟ قال: نعم، قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن؟ قال: نعم، فهذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم، وهذا قول مجاهد. والخامس: إنها مناسك الحج خاصة، وهذا قول قتادة. والقول السادس: إنها الخلال الست: الكواكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، التي ابتلي بهن فصبر عليهن، وهذا قول الحسن. والقول السابع: ما رواه سهل بن معاذ بن أنس عن أمه قال: كان النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم لِمَ سمى الله إبراهيم خليله الذي وفّى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: «سبحان الله حين تُمْسُونَ وحينَ تُصْبِحُونَ، وله الحمْدُ في السّماوَاتِ والأرْضِ وعَشِيًّا وحين تُظْهِرُونَ»». والقول الثامن: ما رواه القاسم بن محمد، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا وَفَّى؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: وَفَّى عَمَلَ يَوْمٍ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي النَّهَارِ. [النكت والعيون (١/٩٠-٩١)].

قال الله ﷻ: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ**﴾ [لقمان:٢٧] وعلى هذا فإنه يقال أيضًا: للمأمور والمنهي عنه كلمات وكلمة لواحد ذلك كالصلاة والزكاة، ومعرفة الله جلَّ ذكره وكل ما يقع عليه اسم منهي عنه أو مأمور به؛ إذ ذلك كله مقدر في أم الكتاب، ومكتوب في الأولى لا يتم إلا بوجوده، ولا يتم وجوده إلا بوجود جزائه، وذلك غير متناهي الوجود لعدم وجود المتناهي في دار القرار، دل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ [الحديد:٣] فهو من حيث هو الأول هو دون أول، وهو لم يزل يعلم الوجود كله ظهرًا وبطنًا، ويشهده وينظر إليه ويسمعه ويحيط به من كل الوجوه.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية أمثال الذر، ثم قال: يا أهل اليمين، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال لهم: ألست بربكم، قالوا: بلى، قال: ثم مسح ظهره بيده الأخرى قال: وكلتا يديه يمين، فقال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى...**»[1].

قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ**﴾ [الأعراف:١٧٢] أي: أخذ من ظهر كل ذي ذرية ذريته إلى آخر الأمر، وأشهد كل مأخوذ عليه نفسه علمًا وخبرًا[2] ومع ذلك أشهدهم الوجود

(١) أخرجه الحكيم (٧٩/١)، والعقيلي (١٣٩/١، ترجمة ١٦٩ بشر بن نمير) وقال: ولا يتابع عليه، وأبو الشيخ فى العظمة (٣٩) والطيالسى (١١٣٠) والطبراني (٧٩٤٣)، وفى الأوسط (٧٦٣٢)، قال الهيثمى (١٨٩/٧): فيه سالم ابن سالم وهو ضعيف وفى إسناد الكبير جعفر بن الزبير وهوضعيف.

(٢) قال المصنف: فكان آدم ؏ نفسًا واحدة وكان في وجوده زوجه وجميع ذريته أحدًا ما لم يتوهم له ثانيًا، ولما أوجد الله ﷻ عنه زوجه وجميع ذريته فكان في نفسه واحدًا فصل عنه جميع ما سبقه العلم العلي في وجوده فكان ؏ أولاً لما وجد عنه، ولم يكن في قوته وتحقيق وجوده أن يكون لكل ما كان عنه آخرًا إلا بحكم الانقراض والتمام، فذلك آخر له لما كان له أول كان له آخر، وكان ظاهرًا فيما أوجد عنه بحكم الوراثة والنسل والشبه والتصوير وغير ذلك، وكان باطنًا فيهم بما عبر عنه رسول الله ﷺ في قوله لعائشة - رضي الله عنها - وقد حاضت في حال سيرها إلى الحج: «إنما أنت امرأة من بنات آدم فانقضي رأسك وامتشطي وافعلي ما يفعله الحاج غير ألا تطوفي بالبيت» فألزمها ميراث
=

على وجهه، وبذلك العلم الذي أشهدهم قالوا: «بلى» وهو العلم الذي يبلغه المؤمن البصير الطاهر في هذه الحياة الدنيا، ولو لم يكن هذا منه لهم لم يكن قولهم: «بلى» شهادة.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء**»[1].

وقال أيضًا: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة**»[2] فهذه كلمات كلهن جامعات محيطات بما حوته.

وسئل ﷺ: أين كان ربنا يا رسول الله قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: «**في عماء، ما فوقه هواء ولا تحته هواء**»[3] وهذا الوصف أيضًا له ألواح وكلمات كما لوصفه، وقد خلق الخلق ألواحًا وكلمات، ولكونه أولاً بلا أمد ألواح لا تتناهى أيضًا، وكلمات لا تنفذ، كذلك في أنفسها وبدأتها.

فصل

على هذا فالكلمات المبتلى إبراهيم - صلوات الله عليه وسلامه - بهن، والله أعلم هي ما ذكره في سورة النجم؛ إذ هو من لدن قوله عز من قائل: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [النجم:٣٦-٣٨] إلى قوله: ﴿**وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى**﴾ [النجم:٥٣].

وما في معنى قوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾ [الأعلى:١٤-١٥] إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾ [الأعلى:١٨-١٩].

=

الشبه بأمها حواء - عليها السلام- وقال: «فجحد آدم فجحدت ذريته وغوى آدم فغوت ذريته»».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) والخطيب (٧٢١).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢٣٣) وابن جرير في التفسير (٤/١٢) والطبراني (٤٦٨) وأبو الشيخ (٨٣) والطيالسي (١٠٩٣) والترمذي (٣١٠٩) وابن ماجة (١٨٢).

جميع ذلك ما وصف الله جل ثناؤه به خليله إبراهيم ﵇ في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١] إلى قوله جل قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

كما أن الذي ابتلي به محمد ﷺ وأمته كلمات، وهي من أمة إبراهيم ﵇ من ذلك معنى ما ذكره في سورة التوبة في قوله ﷻ: ﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

كذلك ما ذكره جلَّ ذكره في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩].

كذلك قوله في سورة المعارج: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢-٢٣] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٥].

وقوله في صدر سورة المؤمنين: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

وكذلك ما جاء من ذكر ذلك في سورة الأحزاب قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] فمن عني بجميع ذلك فليلخص المكرر من غيره، ويحصل الخصال، فيجد في ذلك شفاء للغليل إن شاء الله.

وليعلم أن المكرر منه ما كرر إلا لمعنى قائم وفائدة زائدة، وليضف إلى ذلك قول رسول الله ﷺ: «**عشر من الفطرة**»(١) وما ذكره هنا مباني الإسلام الخمس و«**شعب الإيمان بضع وسبعون شعبة**»(٢) إلى ما ينضاف إلى معاني الأخلاق وكريم الفعال، والنصيحة لله وللرسول وللمؤمنين خاصة وعامة، ولينهض في جميع مسالك أعمال البر ومواطن الإيمان.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥١٠٤) وابن أبي شيبة (٢٠٤٦) ومسلم (٢٦١) وأبو داود (٥٣) والترمذي (٢٧٥٧) والنسائي (٥٠٤٠) وابن ماجة (٢٩٣) وإسحاق بن راهويه (٥٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٥٠) ومسلم (٣٥) وأبو داود (٤٦٧٦) والنسائي (٥٠٠٥) وابن ماجة (٥٧) وابن حبان (١٦٦).

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] [قال: «**أتدرون ما وفى؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**وفى عمل يومه أربع ركعات في النهار**»[(١)]].

وجاء عنه أيضًا والله أعلم في قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال: كان يقول رسول الله ﷺ كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ...﴾ [الروم:١٧] الآيتين[(٢)] وهذا إيماء إلى أن الذي جاء به محمد ﷺ هو الذي جاء به إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - إلا ما خصَّه الوقت ونوازل الأسباب من هذا الإيماء.

قوله جل من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[(٣)] [النحل:١٢٣].

وقوله عز قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٧-٧٨] وإن تداخلت المذكورات وتكررت الخصال، فهي تلك وهن من ملة إبراهيم ؏.

ولما أتمَّ إبراهيم ما ابتلاه ربه ﷻ كُتبت له براءة من التضييع والتفريط، فقال جل قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[(٤)] [النجم:٣٧].

---

(١) أخرجه الطبري (١٦/٢) وما بين [ ] مكشوط في (ق) وصُوب من (ف).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٦٢)، وابن جرير في التفسير (٥٢٨/١)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٥٩/٤)، والطبراني (١٩٢/٢٠، رقم ٤٢٧)، قال الهيثمي (١١٧/١٠): فيه ضعفاء وثقوا. والديلمي (٤٧١).

(٣) قال القرطبي في «تفسيره»: ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان المكروهة إلى الحق دين إبراهيم، وهو في موضع نصب على الحال، قاله الزجاج؛ أي: بل نتبع ملة إبراهيم في هذه الحالة، وقال علي بن سليمان: هو منصوب على أعني، والحال خطأ لا يجوز جاءني غلام هند مسرعة، وسُمي إبراهيم حنيفًا؛ لأنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام، والحنف: الميل، ومنه رجل حنفاء، ورجل أحنف وهو الذي تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها، وقال قوم الحنف: الاستقامة، فسُمي دين إبراهيم حنيفًا لاستقامته، وسُمي المعوج الرجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة، كما قيل للديغ: سليم، وللمهلكة: مفازة في قول أكثرهم.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير (١٩٨٩)، والحاكم في المستدرك (٢٧٥/٩).

كذلك قال في محمد ﷺ: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

وأنزل ﷻ عليه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات:٥٤].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

فصل

اختلف في قول الله جل قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤] على من يرجع الضمير في «أتمهن» أعلى الله جلَّ ذكره أم على إبراهيم ؑ؟ فقال قوم: هو راجع على الله جل ثناؤه، وتقدير الكلام: فأتمهن الله.

وقال الآخرون: هو راجع إلى إبراهيم ؑ.

والصواب: إن الضمير راجع إلى الله جل ثناؤه، وتوجه إلى إبراهيم ؑ وسياقه ورده إلى نظائره يعطي رجوعه إلى الله سبحانه وبحمده، هو الأول في كل شيء والآخر، والظاهر والباطن، فهو الفاعل على الحق بالإتمام فردًا تارة، وباستعمال إبراهيم ؑ أخرى.

وقوله جل قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] يعطي رجوعه إلى إبراهيم ؑ، ولعل تقديم المفعول على الفاعل في هذا الموضع في قوله ﷻ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة:١٢٤] والعادة الجارية يعطى تقديم الفاعل على المفعول بالذكر؛ ليكون ذلك إشارة إلى أن المفعول المجعول في موضع الفاعل هو فاعل أيضًا من وجه، فالله جلَّ ذكره أعلم باسمه المبتلي والمتمم والأول والآخر والظاهر والباطن.

وإبراهيم ؑ هو الفاعل بمعنى اسمه المبتلي، والعامل فيما ابتلي مما يرضى الله ربه بوجه، وبما هو الداعي في ذلك والعازم عليه، والله جل ثناؤه المتمم بالإجابة والمعونة والإذن، فهذا وجه التقديم للمفعول هنا على الفاعل.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الإمام هو المقتدى به، وهو المهدي الهادي؛ لأجل ذلك قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يقول: وتجعل أئمة من ذريتي،

فأقره الجليل ﷻ على ذلك، وشرط في نفس الذكر وحقيقة العهد أن ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] منهم، فكل من اتقى الله ودان بما يرضيه، وعلم وعمل كان إمامًا عند الله، ومن أوفى بعهده من الله، فليبشر المتقون.

وقد أثنى الله ﷻ على عباده فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] إلى قوله: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

فصل

وخصال الإمامة أيضًا كلمات في أنفسهن من ذلك قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقال إبراهيم ﵇: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فهذه كلمة تمامها في تمام ذريته، وذلك انقضاء أيام عيسى ابن مريم ﵇.

ومن ذلك أيضًا قوله ﷻ يبين معالم إمامته ﵇ قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا﴾ بفتح الخاء ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] إتمامًا لكلماته التي جعلها الله ﷻ على لسانه في قوله ﵇: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وقوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:٣٧] يبين أنها من الله ﷻ.

قوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج:٢٧] ومن قرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] فإنه أمرٌ منه ﷻ بالائتمام به.

ومن تلك الكلمات قوله عز من قائل: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] يريد ﷻ هذه الأمة، والحمد لله رب العالمين.

ومنهن أيضًا قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يقول الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ

---

(١) قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعي إبراهيم، وهو معطوف على" جعلنا " أي جعلنا البيت مثابة واتخذوه مصلى. وقيل: هو معطوف على تقدير إذ، كأنه قال: وإذ جعلنا البيت مثابة وإذ اتخذوا، فعلى الاول الكلام جملة واحدة، وعلى الثاني جملتان. [تفسير القرطبي (١١١/٢)].

قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

لم يقص ﷻ حرمة بيته وجلب رزقه إليه على المؤمنين، بل عمَّ ساكنيه برزقه، وفرق بينهم في المآب تصديقًا لكلمته التي أبقاها على لسانه ﵇: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ إلى قوله: ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

ومنهن قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[(١)] [البقرة:١٢٧] إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩] فهذه كلمات الله جلَّ ذكره ألقاهن على ألسنتهما - صلى الله عليهما وسلم - أتمهن الله بهما، ثم بالرسول ﵇ وبخصوص من هذه الأمة.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[البقرة:١٤٢-١٤٤].

قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] «السفهاء»: كفار العرب ومن قال بقولهم من أهل الكتابين وغيرهم من الأمم، والأظهر أن يكون السفهاء: أهل الكتاب؛ لنكولهم عن الرشد بعد العلم، ثم بآخره يلحق من سواهم، ومن يرغب عن ملة إبراهيم وابتغى غير الإسلام فقد سفه نفسه.

---

(١) أخرج الأزرقي عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ﴾ قال: ذكر لنا أنه بناه من خمسة أجبل: من طور سينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودي، وحراء، وذكر لنا أن قواعده من حراء. [الدر المنثور (١/٢٥٨)].

فصل

قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(١) [البقرة:١٤٣] عطف بالواو على ذكر إمامة إبراهيم ﵇ تذكيرًا لإجابة دعوتهما في ذريتهما قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨] الكاف في «لك» للتشبيه والمشبه به دعاء إبراهيم وإسماعيل حيث يقولون ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ....﴾ [البقرة:١٢٨] وقولهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ....﴾ [البقرة:١٢٩].

ونظم قوله جل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٣] بمعنى ما تقدم من قولهم: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] وذكرهم جل قوله في ذلك بنعمته عليهم بإرساله رسولاً إليهم، وتوجيههم إلى القبلة التي اختارها لهم، وصراطه المستقيم الذي هداهم إليه في أزله.

وأنه ما جعل القبلة إلى بيت المقدس بعد فرضه التوجه إلى البيت الحرام بقوله جل قوله لإبراهيم وإسماعيل، صلوات الله وسلامه عليهما: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] وهم هذه الأمة.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ [الحج:٢٧] المعنى: إلا ابتلاء منه واختبار التطهر عند التوجه إلى الكعبة وجود

---

(١) قال العلامة ابن عادل: قال الجوهري في «الصحاح»: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلاً، وهو الذي قاله: الأخفش، والخليل، وقطرب، فالقرآن والحديث والشعر يدلون على أن الوَسَط: خيار الشيء. وأما المعنى فمن وجوه. أحدها: أن الوسط حقيقة في البُعْد عن الطرفين، ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رذيلتان، فالمتوسّط في الأخلاق يكون بعيدًا عن الطرفين، فكان معتدلاً فاضلاً. وثانيها: إنما سمي العدل وسطًا؛ لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين. وثالثها: أن المراد بقوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] طريقة المدح لهم؛ لأنه لا يجوز أن يذكر الله - تعالى - وصفًا ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهودًا له، ثم عطف على ذلك شهادة الرسول وذلك مدح، فثبت أن المراد بقوله: «وَسَطًا» ما يتعلّق بالمدح في باب الدين، ولا يجوز أن يمدح الله الشُّهود حال حكمه عليهم بكونهم شهودًا لا بكونهم عدولاً؛ فوجب أن يكون المراد من الوَسَط العدالة. ورابعها: أن الأوساط محمية بالأطراف، وحكمها مع الأطراف على حَدّ سواء، والأطراف يتسارع إليها الخَلَل والفساد، والوسط عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جِهَةٍ دون جهة. [تفسير اللباب لابن عادل (٢ /١٥٣)].

الخلاف ممن شاء الخلاف منه، وضلال من أراد ضلاله؛ إذ البيت الحرام أول متوجه وضع للناس.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: بيوتكم بالشام الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧] هذا الأمر بالبشرى لمحمد، وربما كان مع ذلك أيضًا أمرًا لموسى، معناه: وبشر المؤمنين بإنجاز وعدي بما كتبته لكم من الأرض المقدسة، وبشر المؤمنين بالقبلتين عند تحويل القبلة إلى أولها البيت الحرام، هذا على الخصوص وعلى العموم، وبشر المؤمنين بالقبلتين.

جعل الله جلَّ ذكره من لدنه على إمامة إبراهيم عليه السلام وخصوصية البيت بالقبلة في الأولية آيات بينات؛ منهن: مقام إبراهيم، ومنهن: إنه من دخله كان آمنًا، ومنهن: إنه جعله مثابة للناس وأمنًا لهم، لا يزال أمن أهل الأرض ظاهرًا ما كان البيت بين أظهرهم يعظمونه ويهدون إليه ويقصدونه، فإذا خرب أتى الناس ما يوعدون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: من محنة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾[(١)] بالإسلام والإيمان، فأنزل السكينة في قلوبهم أولئك ما كان الله ليضيع إيمانهم؛ أي: بالوجهتين ويؤتهم أجرهم مرتين بإيمانهم بالوجهة الأولى، ثم بالآخرة ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣] الذين آمنوا بالقبلتين يهديهم لما يرضيه، ثم يشكر لهم هدايتهم.

أتبع ذلك قوله الحق ﷻ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

---

(١) ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: معناه وإن التولية عن بيت المقدس إلى الكعبة والتحويل إليها لكبيرةٌ، وهذا هو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. والثاني: إن الكبيرة هي القبلة بعينها التي كان رسول الله ﷺ يتوجه إليها من بيت المقدس قبل التحويل، وهذا قول أبي العالية الرياحي. والثالث: إن الكبيرة هي الصلاة التي كانوا صَلَّوْهَا إلى القبلة الأولى، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد. [النكت والعيون (١/ ١٠٢)].

[البقرة:١٤٤] من هنا ظن من ظن أن هذا نسخ للقرآن، وإنما ينسخ هنا بالقرآن ما في كتاب التوراة.

قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس:٨٧] المعنى، بل هنا مثبت أوله في القرآن العزيز أن البيت هو أول بيت وضع للناس؛ يعني: قبلة، فهو إذًا من النسي في حق أهل الكتاب، وكان أهل الكتاب يعلمون ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤].

وقال جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤] ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٤٥-١٥٠]

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

ثم جعل ذلك من العلم الوكيد معرفته بقوله الحق: ﴿مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤].

لذلك قال عز من قائل: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٩] ثم صرف وجه الخطاب إلى أوله من ذكر القبلة.

قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] إلى قوله جل قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة:١٥٠] أي: أهل الكتاب ظلموا في تركهم التبليغ والنصيحة، فيما أنزل إليهم في الكتابين من نبوة محمد ﷺ وتركهم اتباعه، يبين ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عطفًا بالواو وجرًّا بلام كي على نظيرها في قول الله ﷻ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الناس هنا: العرب؛ أي: إذا توجهتم نحو بيت أبيهم إبراهيم ومقصد حجهم لم يكن لهم عليكم حجة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: الذين تحولتم عن قبلتهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ دونهم، وانتظم أيضًا قوله: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥١-١٥٧].

لما تقدم من قوله عز قوله في دعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - ولأن إتمام النعمة هنا هو إتمام مناسكهم، فانتظم بذلك معنى: الدعاء والإجابة، يقول الله عز من قائل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ كذلك أتم عليكم نعمتي بإتمام شرائعي وتعليمي إياكم مناسككم.

ثم عطف ﷻ بالواو في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥١] أي: الهداية العلا التي هي متضمنة الاختصاص الأكبر، والنعمة التامة والعلم العلي وولاية المتقين، كما قال عز قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] أي: تبلغوا ذروة التقوى محل الصديقين والشهداء والصالحين.

ثم أوصل ذلك بقوله جل قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] أعلمهم ﷻ بهذا الخطاب جماع طريق الولاية، وتبيين الاختصاص والاستعمال والقرب، وأن هؤلاء هم المرادون والمنظور منهم، وأن من سواهم يعيش في ظلهم ويحفظ بفضل شفاعتهم.

لذلك قال رسول الله ﷺ: «**أي والله - قالها ثلاثًا - وإنهم لسبعون ألفًا وسبعمائة ألف**»[(١)] وإنما يتخلص إلى هذه المنزلة بعلي العلم وخالص الذكر الذي يكون عنه حقيقة الخضوع، وعظم المعرفة بالله جل ثناؤه.

قوله جل ثناؤه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] معنى ذلك: من شاء منكم إقامة الكتاب والنبوة والوفاء بالعهد ليصل مني إلى تمام النعمة عليه والتولي له، فليذكرني كثيرًا خالصًا على المداومة لذكري، واشتغال قلبه بي، وليشغل جوارحه بشكري، وليباعد كفري صغيره وكبيره، فإنه من كان كذلك ذكرته، وذكري له أكبر، وأشغله دائمًا بي، وأعصمه مما أكرهه حتى أكون بتوفيقي إياه وعوني «**سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**»[(٢)].

هذا هو المطلوب المبتغى من العباد، وهو الذي وصَّى ﷻ بالمحافظة عليه والموافاة به، وعليه يستعان بالصبر والصلاة، كما وصَّى بني إسرائيل بقوله عز قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة:٤٥] الوفاء بالعهد تستحقوا بذلك الوفاء منه، وصَّى أيضًا هذه الأمة بذلك، فقال جل قوله: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[(٣)] [البقرة:١٥٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٥)، ومسلم (٢١٩)، وأحمد (٢٢٨٩٠) بنحوه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قيل: سبب نزول هذه الآية أن المشركين قالوا: سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، =

كذلك أيضًا وصَّى ﷻ من قبلنا، فقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١] وهو كثير لمن بحث عنه، وهو الدواء الأعظم والوزن الأعظم.

فصل في الذكر

فاعلم أيها الطالب - رضي الله عنا وعنك - رضوان الله الأكبر هو أصل العبادات كلها، وإنما شرعت الشرائع وفرضت الفرائض، وحض على النوافل وفرض الجهاد لإقامة الذكر وترتيبه ومراتبه.

قال الله ﷻ: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥] أي: لعلكم تعقلون؛ أي: لعلكم تظفرون بنهاية البغية وإتمام النعمة.

وقال رسول الله ﷺ: «**الأعمال بالنيات، وإنما لامرئٍ ما نوى**»(١) والنية: خالص الذكر؛ لأنها ذكر القلب، وتوجيهه العمل لله جلَّ ذكره مخلصًا، والنية: من انتويت، وهو اسم لحقيقة العبدانية الشيء حقيقه.

وقال الشاعر:

ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنَّه

وتتبع هذا يفضى إلى علي العلم ورفيع الذكر، رجع الكلام: فمعنى انتويت:

=

هزهم بهذا النداء المتضمن هذا الوصف الشريف، وهو الإيمان مجعولاً فعلاً ماضيًا في صلة الذين، دالاً على الثبوت والالتباس به في تقدّم زمانهم؛ ليكونوا أدعى لقبول ما يرد عليهم من الأمر والتكليف الشاق؛ لأن الصبر والصلاة هما ركنا الإسلام، فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة، وهو أمر قلبي والصلاة ثمرته، وهي من أشق التكاليف لتكررها، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى الكعبة والصلاة إليها أذى كثيرًا، فأمروا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة، وقد قيد بعضهم الصبر هنا بأنه الصبر على أذى الكفار بالطعن على التحول والصلاة إلى الكعبة، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض. [البحر المحيط (٨٦/٢)].

(١) أخرجه مالك في رواية محمد بن الحسن (٩٨٣)، وأحمد (١٦٨)، والبخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، والترمذي (١٦٤٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والنسائي (٣٤٣٧)، وابن ماجة (٤٢٢٧).

افتعلت حقيقة الذكر من حقيقة ذاتي وقرارة نفسي.

والذكر ذكران كما تقدم من الكلام في التقوى والعلم وجميع معاني العبد، فذكر أدنى: وهو ذكر العموم من المؤمنين، وذكر أعلى: وهو خاص للمخصوص من عباد الله جلَّ ذكره، وهو الذكر الكبير، ثم جملة الذكر توجد في مَوطنين، ذكر عند الطاعة، وذكر عند المعصية.

فالأول: عنه تكون المحبة، ومنه منبعثها.

والثاني: تكون عنه الخشية، وهو ينبوعها.

قال الله عز من قائل: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٤٦] أي: جنة لغلبة هواه وكسر شهوته، وجنة لطاعة ربه، وقد جاء الوعد بالجزاء على الذكر مما هو خارج عن المعقول حتى ينحصر المعتقد فيه إلى التسليم لوعد الله جلَّ ذكره، وتصديق رسوله ﷺ، ثم ذكر ﷻ أكبر جزاء مما لا غاية له تنحصر ولا نهاية تبلغ.

يقول الله جلَّ ذكره: «**إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه وأطيب**»[1] فذكر الله أكبر الأعمال على كل وجه، والله ﷻ ذاكر عبده ليذكره، فإذا ذكره العبد ذكره أيضًا بجزاء ما ذكره.

فصل

الذكر بما هو مقتضى حضور المذكور لا بد ولا محالة، فإذا كان المذكور من يغيبه البعد ويعدمه الفقد، ويمنعه الحجاب ويحده المكان، ويقيده المسافات ويجرى عليه أحكام المحدثين، فحضوره حال الذكر معنى لعينه، وحقيقه حق لوجود نفسه، يتأدى ذلك المعنى بما يتأدى به عينه مع الحضور، تلتبس تلك الحقيقة بما تلتبس به نفسه.

وكما تقدم من القول: إنه لكل حق حقيقة، ولكل عين معنى؛ لذلك كان الجزاء عليه أن يطعم المغتاب لحم المظلوم بالغيبة فيأكله الظالم، وكما لا يحضر العين موضع الغيبة قال الله جل من قائل: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾ نصب

---

(١) تقدم تخريجه.

على حال من الأكل بعد الموت، وتجعل له الكراهة لذلك المأكول أضعاف ما كان يجده في الدنيا لو أكله جزاء يتلذذه بالغيبة؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢] أي: فإنكم في تلك الحال أشد كراهة.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ - والله أعلم - في الرجل يجد الطنين في أذنه يأمره بأن يقول: «اللهم اذكر بخير من ذكرني»[1].

ولهذا شواهد تزد على ما ذكرناه منع من اجتلابها خشية التطويل، فإنما يلقى الرشاد من وُقي العناد، وإن كان المذكور من لا يغيبه البعد ولا يجوز عليه وصفه العدم فيفقده، ولا يمنعه حجاب، ولا يحويه مكان، ولا يشتمل عليه زمان، ولا يجوز غيبته بوجه، ولا يتصف بحوالات المحدثين، ولا تجري عليه أحكام المخلوقين، فهو حاضر عينًا ومعنى، وشاهد سرًّا ونجوى؛ إذ هو القريب من كل شيء، أقرب إلى الذاكر له من نفسه من حيث الإيجاد له والعلم به، والمشيئة فيه والتدبير له، والقيام عليه والحضور كله بجميع وجوهه بحضوره ذكر الذاكر له، وهذا بعد اعتقاد نيات حضور الوجود واستحالة الغيبة والبعد.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

وكذلك قوله جل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:٧].

والنصوص على هذا كثيرة تُعلم بالحضور منه والمشاهدة، سبحانه وله الحمد، خلق الخليقة فلا تلحقه أوصافها، وأوجد الأعداد فلا تحصره معانيها، فهو في كل مكان ومع كل شيء بوصفه لا يعدو عليه خلقه، ولا يحيله عما لم يزل عليه عبده، ولا يكون هكذا غيره.

فصل

أنفع الأذكار ذكر القلب، ثم أنفع ذكر القلب ما آثاره خاص العلم وعَليّ

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٦٥).

المعرفة، وأفضل ذلك وأجزله عائدة ما نهى الذاكر عن الآثام والفواحش، ظاهر ذلك وباطنه وأعلاه ما بعث على طاعة المذكور، والعمل بما يرضيه، وأفضل ذلك ما صحبته مداومة المشاهدة ومراقبة الحضور بالتقوى، وذلك هو الذكر المرضي، وهو الذكر الفكر، وهو عليُّه وخاصُّه.

ثم أفضل ذكر المشاهدة والحضور ما لزمه الأنس بالمذكور، وآثار الشوق والتوق والحب، وإذا بلغ الذكر هذا المقام وصحبته هذه الأوصاف آثار الحب والتوق إلى المذكور ذاك؛ لأنه لا يعلمه أحد فيذكره بحضور من قلبه ومشاهدة إلا علم منه ما يوجب له الحب والتوق.

وبتحصيل هذا المقام يحصل في ضمنه الشكر، وانتفى الفكر لا محالة، وفي هذا يقول ﷻ: «**أنا جليس من ذكرني، وحيثما طلبني عبدي وجدني**»[1].

ثم هو لحقيقة صدق قيله جليس من ذكره بجزاء مقامه على قدر إحسانه في ذكره، وهذا نص في وجود الله ﷻ عند ذكر الذاكر له؛ لجزاء الذكر وثواب العمل.

قال الله عز من قائل: ﴿**وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾ [النور:٣٩].

قوله جل من قائل: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:١٥٣] فالصبر لا يكون إلا بالمجاهدة، اقتضى ذكر الصبر معنى الجهاد، لفظ الجهاد مأخوذ من الجهد، فوصل القول به، وأخذ في الإخبار عمَّن باع من الله حياته الدنيا، وجاد له بنفسه وماله.

يقول الله جل قوله وهو أعلم: «استعينوا على الوفاء بعهدي بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين، ومن يكن الله معه فلن يُغلب ولن يُهزم».

ثم أعلم جل ثناؤه بخطاء من اعتقد في المقتول منهم أنه ميت، بل أخبر بقوله الصادق وحكم بحكمه الحق أنه عنده حي يرزق، ووصفهم بأنهم يفرحون ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وبما لهم عند الله من الكرامة، ويستبشرون بأنهم وجدوا ربًّا رحيمًا مفضلاً منعمًا، وبأن وعده ﷻ صدق، وقوله حق، وهو نص على حياة الشهداء، وخصهم بالذكر ها هنا بمعنى الجهاد، وبأن

---

(١) تقدم تخريجه.

حياته رفيعة جدًّا هو أعلم ﷻ بصفتها ومبلغها.

فصل

ثم نظم قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾(١) [البقرة:١٥٥] بما تقدم من ذكر الصبر ليوطِّنوا أنفسهم ويرضوها على الثبوت، وترك الجزع عند حلول المصائب، ومطالبة النفوس بأهوائها.

وفي مواطن اليأس قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ عبارة عن التقليل؛ أي: بالإضافة إلى جوع في الدار الآخرة وخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات، إعلام منه عز جلاله بجوع الأباعد وعطشهم وخوفهم يوم تشخص منهم الأبصار مهطعين ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] وإلى ما يصيبهم من ذلك في جهنم - أعاذنا الله منها - من خوف وآلام وعذاب، وإنهم قد خسروا أنفسهم وأهليهم.

وما كان قد أعد الله لهم في الجنة من ملك كبير لو أنهم ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:٢٥] فهذه فائدة قوله الصدق: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ أي: ببعض من ذلك إلى جنب ما هنالك، يقول ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥] المعنى إلى آخره؛ لذلك كان عظم الثواب في الاسترجاع عند المصائب لمن عقله جمع ﷻ ذلك لهم في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

وأخبر أن الإيمان من أحسن العون على الصبر، وهو الإيمان بأن ما أخطأ العبد وأصابه فليس بأمر مؤتنف، بل لم يزل في علم الله السابق وتقديره القديم في

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ يعني: أهل مكة، لما تقدم من دعاء النبي ﷺ أن يجعلها عليهم سنين كسني يوسفَ حين قحطوا سبع سنين، فقال الله تعالى مجيبًا لدعاء نبيه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالجُوعِ﴾ الخوف يعني: الفزع في القتال، والجوع يعني المجاعة بالجدب. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ﴾ يحتمل وجهين: **أحدهما**: نقصها بالجوائح المتلفة. والثاني: زيادة النفقة في الجدب. ﴿وَالأَنفُسِ﴾ يعني: ونقص الأنفس بالقتل والموت. ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ قلة النبات وارتفاع البركات. [النكت والعيون (١/١١٠)].

الكتاب المبين.

قال الله جل من قائل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

كما قال جل قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢].

فإذا استرجع العبد وقال كما أمره الله تعالى: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] فقد آمن بالله جلَّ ذكره وبالرجعة إليه، وأيقن بالمثوبة من عنده وبما هو قد عرض له أنه ينيلها إياه بكرمه وفضله ووفاء عهده، وأضاف إليه نعمه، وأقرَّ له بها، فأوجب له الصلاة من عنده والرحمة والهدى، وأوجب له أيضًا على نفسه مثال المثوبة سرًّا إلى علمه ويقينه لما كان السؤال تعريضًا به، وهو معنى منتظم بمعنى قوله ﷻ في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] كما جاء في الحديث.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧] قال: والصلاة من الله رحمة، وكل خير يكون منه ﷻ فهو رحمة، لكن من لحظ عبادته وتحقق في تحقيق البحث عن الحقيقة، وعبر عن المعنى ما يخصه كان أولى بحظ السباق.

ولو كان جمع ما كان منه إلى العبد من رحمة صلوة منه ما قال: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧].

وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

فبيَّن بما ذكرناه أن الرحمة عامة، ثم لصلاته خاصة من رحمته، ولم يذكر صلاته إلا ذكر الرحمة أو الرأفة أو كليهما عند ذلك، وهي - والله أعلم - ذكره عبده بما يريده منه من طاعة أو أمر مما يقربه منه مثل أن يذكر عبده المؤمن ليذكره العبد فيذكره هو ﷻ بمثوبة ذلك، وقد يذكره بمصيبة يصيبه بها، وفي ضمن ذكره بالصبر والتوفيق لما يرضيه ليطهره من سيئاته ويرفعه بذلك في درجاته وصلاته ﷻ

أنه يشفع ﷻ إلى نفسه بأن يخرج عبده من ضلال إلى هدى، ومن ظلمات إلى نور، ومما يكرهه إلى ما يرضاه.

هذا كله مما يعبر عنه، فإنه إخراج من الظلمات إلى النور، وصلاة الملائكة - عليهم السلام - على المؤمنين شفاعة عند ربهم ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ﴾ [غافر:٧] إلى قوله ﷻ: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ [غافر:٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يصلي فيقعد في مصلاه يذكر الله إلا صلت عليه الملائكة ما لم يحدث، ما لم يتكلم، يقولون: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**»(١).

وقال ﷺ: «**أخلصوا للميت بالدعاء، ما من مسلم يموت فيصلي عليه مائة من المسلمين** - وفي أخرى: «**أربعون**»(٢) - **كلهم يشفعون له إلا شُفِّعوا فيه**»(٣) والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ليس فوقه أحد ولا وراءه مرمى، فهو يشفع ﷻ لنفسه عند نفسه.

ثم قيَّض له ﷻ ملائكته يشفعون عنده لمن في الأرض ولعباده المؤمنين تعبدهم ﷻ بذلك، وقيَّض المؤمن وتعبده بأن يشفع لنفسه عند ربه ﷻ بأن يجيره من عذابه، وأن يدخله في رحمته، وأن يحله رضوانه، ويرغب إليه في مطلوباته من دنيا وأخرى، أقام ذلك مقام شفاعة الشافعين عنده لسواهم، كما قيض المؤمنين تعبدًا منه أن يشفع بعضهم لبعض، والكل منهم لكلهم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧].

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ

---

(١) أخرجه مالك (٣٨٠)، والنسائي (٧٣٣)، وابن حبان (١٧٥٣) والطيالسي (٢٤١٥)، وأبو عوانة (١٣١٥)، والبيهقي (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٠٨٤)، والترمذي (١٠٢٩) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٩٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٠٩)، وأبو داود (٣١٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٤٩).

وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٥٨-١٦٣].

قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾[1] [البقرة:١٥٨] تقدم من خطابه الكريم ﷻ في ذكر الإسلام والاستسلام ومعاني الإيمان، ثم من ذكر الصلاة والتوجه إلى القبلة، ثم من ذكر الزكاة وذكر الله جل ثناؤه والجهاد والصبر، وكان وعدهم ﷻ بإتمام نعمته عليهم.

ومن ذلك أن يريهم مناسكهم، ويعرفهم شرائعهم التي يشرعون منها إلى طلب مرضاته، فقال عز من قائل إثر ذلك كله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾ وعبّر عن الصفا والمروة والبدن بشعائر الله؛ لقرب ذلك من البيت الحرام، لما أضاف البيت إلى نفسه ﷻ كان ما قرب منه وأدنى إلى ذلك شعيرة، وشعار المرء أقرب أثوابه إليه، وكما قيل: الكعبة بيت الله، والحجر يمين الله في الأرض، والمحارم حمى الله، فافهم.

وما تقدم ذكره فهو منتظم بمعنى الهداية التي ذكرها في فاتحة الكتاب والصراط المستقيم، وذكر المناسك في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ....﴾ [البقرة:١٥٩] أرجع الخطاب إلى ما تقدم ذكره من كفر أهل الكتاب وكتمانهم الحق من بعد ما عرفوه، وعصيانهم الأمر بتبليغ ما تقدم إليهم به من ذلك توصية للمؤمنين، وموعظة أن يسلكوا سبيلهم أو يقتفوا آثارهم في ذلك، فيستحقوا من ذلك ما استحقوا من لعن وغضب وطبع، وعدم فهم كتاب

(١) سبب النزول: إن الأنصار كانوا يحجون لمناة، وكانت مناة خزفًا وحديدًا، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا، فأنزلت. [تفسير البحر المحيط (٢/ ٩٧)].

ربهم إليهم، المعنى إلى آخره.

ثم ذكر ﷻ غيرهم من الكافرين الذين ختم لهم بذلك وذكر ما لهم، ثم ذكر ﷻ توبة من تاب منهم؛ أعني: من هؤلاء وهؤلاء، وأن توبة من كان كفره بالله ﷻ وبرسله وكتبه الإيمان بما كان به كافرًا، ومن كان كفره إلباس الحق بالباطل، والكتمان بالتبيين لما كتمه، والجلاء لما ألبسه والإيضاح له، ثم الإصلاح لما أفسده.

ولما انتهى ﷻ بالإخبار عن هؤلاء وهؤلاء من الكافرين صرف وجه الخطاب إلى عباده المؤمنين مواجهًا تأنيسًا لهم وإكرامًا بقوله ﷻ: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:١٦٣] وصل خطابه الكريم هذا بمعنى ما جاوزه من قوله ﷻ: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢] وبما في الخطاب من التعريف بنفسه والإعلام بوحدانيته ورحمته ورحمانيته بمعنى ما في بدء من التنزيل من قوله ﷻ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ [العلق:١-٣] المعنى.

وبما في بدء التأليف من قوله جل قوله: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] المعنى أيضًا.

بما في دعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - من ذكر الإسلام والإيمان والنبوة والمحبة، وتعلم المناسك والكتاب والحكمة، كما قال جل قوله: ﴿**وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:١٥١] ثم بقوله عز قوله: ﴿**اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢].

والذكر قد يكون بمعنى: طلب العلم، يُذكِّر عبده بذلك فيوفقه ويستعمله بمقتضاه، وطلب العلم من عليّ الأعمال وأقربها إلى الله ﷻ؛ لما في ذلك من التفكر والتذكر والاعتبار، وهو نوع من الذكر في الذكر، وهذا هو المعبر عنه بالقرآن العظيم؛ لذلك لما ذكرهم ﷻ بشهادة التوحيد، وإنه هو الرحمن الرحيم، ذكر على أثر ذلك الدلائل المؤدية إلى العلم بذلك، والشواهد المقتضية لليقين، فنظم البرهان المفروط، وأقام الشهادة للمشهود، فوضح الدليل واستبان السبيل.

قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ**

الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] هذا هو القرآن العظيم، مسالكه في العلم كله كسلوك الأرواح في الأجسام، وكجري الغذاء في المتغذي، وكسريان الماء في العود الناضر، ومعرفة أسمائه هو العلم أجمع، والعلم بوحدانيته هو البرهان الأكبر، والفهم عن آياته في الوجود هو اليقين فاعلمه، والعبرة من حاضره إلى غائبه هو الشأن كله.

بَشر عباده ﷻ إذا هم آمنوا به وأسلموا له أنفسهم، وشهدوا له شهادة الحق على علم منهم بما شهدوا به من ذلك، إنه الرحمن الرحيم فاشبه قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ...﴾ [الأنعام:٥٤].

وقوله جل قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨] ثم قال وقوله الحق: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] أي: يعقلون الغائب بالشاهد، وما بطن بما ظهر، والكثير بالقليل، والفاضل بالمفضول عبرة وعظة.

فصل

أعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بما أعقب معنى الشهادة بما سرده بعدها، ووصله بها من معالم الدلالات وبينات الآيات أن أول الواجبات بعد شهادة اللسان استسلامًا، وشهادة الجنان إيقانًا النظر والاستدلال، فإن بالتفكر في مصنوعاته، والنظر في آياته، واستشهاد شواهده وبيناته يكون العلم واليقين كذلك.

قال ابن عباس ﷺ: معروف بالآيات منعوت بالعلامات، فالمعروف واحد، والمعرفة واحدة، غير أن لها أولاً مبتدأ وأعلى، ولا منتهى لها عند العارفين به؛ إذ المطلوب بالمعرفة لا نهاية تحده، ولا تبلغ كنهه، فنهج ﷻ للعباد طريق الهداية إلى معرفته، وأوضح سبل البينات بالدلالات عليه بأن أودع المخلوقات كلها، وألزم أنواع المبدعات بأسرها من ضروب التغاير.

وسمات النقص ودلالات الحدث، وضروب أوصاف الصفات، ومعاني أسماء المسميات وحقائق مقتضياتها، وبما أظهر من فعله فيها وأبدى من أثر صنعه عليها

ما زال بذلك عن بصائر المستبصرين الإشكال عن بيان انقيادها لجاعلها، وخضوعها لصانعها ﷻ الذي وسمها بالعجز والافتقار على ما قصرها عليه من تسخيرها بعضها لبعض واحتياج بعضها لبعض، بل كشف ﷻ عن وجه الحقيقة بأن صانعها قادر، عالم، مريد، حي، له الأسماء الحسنى والصفات العُلا.

ثم أمر ﷻ عباده باعتبارها وندبهم إلى تعرف تفصيلها لشهادتها مفصلة، والاستدلال بما ظهر من آياته فيها وما بطن، سبحانه وله الحمد.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦] ولقوم يعقلون ويتفكرون ويتذكرون ويعلمون ويوقنون، وجاء هذا كثير من القرآن العزيز مكررًا منوعًا.

أكثر ذلك بالتكثير للآيات، وفي ذلك البيان البيّن أن الشيء الدال بنفسه قد يكون باستقصاء التدبر وترداد التفكر دليلاً على شيء ما، وأنه على شيء آخر من طريق غيره على مطلوب آخر، هكذا فالزم التقصي في الاعتبار، فبذلك أمرت ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وفيما أعلمنا به ﷻ من ذلك بيان شافٍ أن للعلم المستفاد على تكرارها وكثير طرقها درجات للإيمان وللتقوى والعلم والعقل عن الله ﷻ، والسمع والبصر ونحو هذا.

فصل

أول درجات الإيمان لطالب هذه الدرجة الرفيعة: استشعار الإيمان والتقوى والحرص وصدق النية، ومدار ذلك: التزام حب الله جلَّ ذكره القلب حتى لا تجد

في طريقك هذه اسمًا حسنًا ولا صفة عليا ولا صدقًا في وعد، وقول حق إلا قد أحب بذلك له.

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يجد أحد طعم الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**»(١).

وقال أيضًا صلوات الله وسلامه عليه: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا**»(٢).

فإذا كنت أيها الطالب هكذا لم تجد شيئًا في الأرض ولا في السماء، ولا في الدنيا ولا في الآخرة إلا هو لله وبالله، ولا تجد اسمًا حسنًا ولا صفة عليَّة فائقة إلا هو للعلي الكبير استأثر بعلا ذلك ورفيعه، وجعل ما دون ذلك آيات دالات، فافهم.

فصل

أول درجات الإيمان على هذه السبيل: هي أن يعرف الله ﷻ بصفاته الكاملة ومدحه البالغة، وكريم أياديه وستره وبره ولطفه بخلقه، وما هو عليه من أسمائه وصفاته وما له من خلق وأمر وطريق يُعرف مجملاً من وجود الوحي الذي يعرف بإيمان حزم لا يخالجه شك ولا يعتقبه أدنى ريب، فالخاصة من أولياء الله جلَّ ذكره في أعلى هذه المعرفة وعموم المؤمنين في أولها، ثم هم منها من ذلك على درجات ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣] كذلك.

وأيضًا في كل درجة منها على درجاتهم بعد اجتماعهم في أولها الذي هو التصديق والعزم الذي هو اسم الإسلام، ودخلوا به في دين الإيمان، والشاهد على أدناها الإقرار بالألسن بتوحيد الله تعالى، وخلع الأنداد دونه، والتصديق بكتبه ورسله وفرضه فيه ونهيه.

كما الشاهد على أعلاها القيام بحق الله ﷻ، وإنكاره على جميع خلقه، وابتغاء

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٩٥٩)، وأحمد (١٢٠٢١)، والبخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، والترمذي (٢٦٢٤)، والنسائى فى الكبرى (١١٧١٨)، وابن ماجة (٤٠٣٣)، وابن حبان (٢٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١١١١٧)، ومسلم (١٨٨٤)، والنسائى (٣١٣١)، وابن حبان (٤٦١٢) وأبو عوانة (٧٣٥٨).

معاني الأخلاق، ومجانبة ما لا يقرب منها، فمن أراد النظر في السماء والأرض ليحقق إيمانه بموجدها ويتحقق برهانه بجاعلها ومرتبها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فليجمع فؤاده وليحضر قلبه، وليحل فكره فيما أظهر الله ﷻ في السماء من غريب الصنعة ولطيف الحكمة، فإنه يرى ما يبهر عقله ويحير لبه من سقف مرفوع لا كالسقوف المعهودة، وبناء لا كالأبنية المألوفة في عظم خلقه وسعة بسطه، وعلو بناء وارتفاع سمك مزين بأزين زينة عزيز لا تناله مطالب الطامعين، محفوظ بحراسة الرجوم عن مسترق السمع من الشياطين، محسن المنظر للناظرين بأحكم حكمة وأجمل وأجمع ترصيع وأكمل ترتيب، معلق في الهواء المرتفع، ممسك في لوح الجوّ أن تقع، ما وقعت قط عين أحد من الناظرين إليه على علائق تمسكه ولا دعائم تقله.

ثم سافر بطرفك في أبعاده، وأجل بصرك في أعماقه، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما بين الأرض والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام**»(١) وذكر مثل ذلك فيما بين سماء سماء إلى سبع سماوات، وذكر أن كثف كل سماء خمسمائة عام.

فانظر هل رث منه قط جانب، أو انهار منه طرف، أو حدث لشيء منه صدع مكشوف لعقول المعتبرين ما تعاوره على الدوام من ضروب التدبير، محجوبة عن ذلك عقول العاقلين، فاعجب لهذا كله، وقف على فصل منه بعقل وفهم.

ثم أعد النظر عند انحسار طرفك على بلوغ أمره، كيف لا يسقط مما هو فيه ويتدكدك بمن عليه مع عظم جرمه وامتداد سفر الناظر في عمقه؟ وكيف يمتسك مع هذا في الهواء اللطيف والمشاهدة تقضي والمعهود يعطي أن ريشة على خفتها لو طرحت فيه ما استقرت حتى تهوي سفلاً؟ فلولا أن صانعًا صنع هذا المصنع، وحكيمًا أتقن هذا المُبدَع، وحفيظًا يحفظه، وماسكًا يمسكه، وقادرًا اقتدر على ذلك، ومدبرًا أراده، ومنشئًا دبره، وقيومًا يقيمه، ومبدعًا أبدعه بقدرته ومشيئته، يمسكه في الهواء بأيده لانهد من قواعده وانهار من جوانبه.

ثم اعتبروا نظر لما سخره الخلاق العظيم فيما بينهما من أفلاك مسخرة بحمل

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١١).

الأمر بالشمس والقمر والنجوم على ترتيب مطرد، ونظام غير منخرم، كل يجري بما أوجده موجده ﷻ إلى أجل مؤجل، ومقدار من الأمر محصل جريًا وسطًا من غير [انبتات][(١)] في الطلب المسرع إلى عطب، يكون عن ذلك الليل والنهار، والإيلاج والغشيان، والصرود والحرور، والربيع والخريف، كل مرتب ترتيبًا محكمًا على أتم ما فيه المصلحة.

وقوام الأمر وأداء الشهادات من هذه البينات بالعلم الرصين والأمر الحكيم ينبئ بذلك أن هذه الدنيا نبذة من الآخرة، وقليل هذه الفانية من كثير من تلك الآجلة الباقية.

ثم القمر ينتقل في منازله ويحل كل ليلة في محل من محاله إلى ثمانية وعشرين يومًا من الشهر بعدد المنازل، ثم يستتر ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] فسلطان القمر بالليل وسلطان الشمس بالنهار شاهدا عدل لخالق الأرض والسماء ﷻ ربنا وتعالى، وإنهما آيتان مبينتان لنور الأنوار، ومقلب الليل والنهار الحق المبين.

وأما النظر في الأرض والاعتبار بها وما اتصل بها إلى معرفة خالقها، والإيمان بجاعلها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فإنك إذا نظرت إليها نظر معتبر، وجدتها جسمًا متكاثفًا، متداخلاً، متطابقًا، ذا طريق ملونة بيضًا وحمرًا وصفرًا وسودًا وغبرًا، مشدودة بالجبال الرواسي، لا تميد ميد السفينة بأهلها، فهي فراش لمن عليها يستقرون عليها، ويتقلبون فيها، ويمشون في مناكبها، ويعيشون بما يخرجه الله ﷻ لهم منها على ظهرها من زرع وثمر ولحم وشجر، فاعجب لذلك ففيه أعظم عجب، وتذكر ففيها أبلغ مدكر.

ثم اعتبر منها إلى معرفة خالقه ﷻ وتعرف من موجوداتها موجودات الآخرة، فـ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨] وللحق، وتذكر بضروب ما حوته من الاختلاف في الألوان والحجارة والنبات والحيوان معرفة صفاته وأسمائه، ثم اعتبر منها إلى الدار الآخرة؛ فتذكر خير ما هنالك بما في هذه.

---

(١) هكذا في الأصل.

فصل

ثم اعجب كيف لا تنخسف هذه الأرض بمن عليها على عظم جرمها، وثقل ما تحمله على ظهرها، بل هي ساكنة لا تتحرك، وهادئة لا تتزعزع، منقادة تحمل ما حملته، خانعة للتخسير فيما سخرت، لا جرم أن لها خالقًا خلقها وممسكًا أمسكها، قادر، حكيم، كريم، حي، قيوم، مدبر، يعطي الجزيل ويسديه، ويدفع البلاء ويكفيه كالسفينة في لج البحر، لولا ماسكها لضلت، ولولا سوقها بالريح لركدت واستقرت، ولولا دفع الله ﷻ عنها لغرقت، فاعجب لذلك، ثم اعبر عنه إلى ما وراءه.

ثم انظر في قدرة صانعها ﷻ وعجيب لطف مؤلفها، كيف فجَّر عيونها وشقق أنهارها، وأطلع ثمارها وأنبت فيها ضروبًا بألوان ملونات ما بين أبيض ناصع وأحمر قانٍ وأخضر باقل وأصفر فاقع، ومازج ما بين هذه الرؤوس إلى غيرها من ألوان بديعة الأصباغ عجيبة الألوان ترود العين منها في منظر أنيق يمتع الطرف ويَسُر النفس، وقل من ذا الذي أحياها بعد موتها، وقلبها من حال همودها بالجدب إلى الاهتزاز والابتهاج والاخضرار؟.

ثم إلى هذه الأزاهير والنواوير، ثم إلى ثمرات مختلف ألوانها، كلا والكريم الجليل الحكيم ما أحياها إلا الحي الدائم الذي لا يموت، محيي الموتى ومميت الأحياء، ولا بعثها على إبداء ما أوجدها إلا باعث أهل الأرض والسماء بعدما يذيقهم الردى، ولا قلبها عن حالها في همودها وأقامها على أمرها إلا حي قيوم فعَّال لما يشاء، قدير مدبر، حكيم لطيف.

ألا تراه جلَّ ذكره كيف أخرج بقدرته المعجزة من عيدان مائلة ثمارًا مختلفة الألوان والطعوم والأرايح والمضار والمنافع، هي نابتة في قاع واحد ومسقية من ماء واحد، ليس في أعواد تلك الشجرة سبب ظاهر من مثالات تلك الثمرات؟ إن في ذلك لعبرة للمعتبرين وآيات للمتوسمين، ودلالات للمتفكرين على أن الآخرة غيب في شاهد الدنيا، وأن الحياة غيب في شاهد الموت، وأن الموت غيب في شاهد الحياة، وأن الغيب غيب في شاهد المشاهدات، فافهم.

كما أن النهار غيب في شاهد الليل، والليل غيب في شاهد النهار، وكما أن جميع الكائنات غيب في الماء، فالجنة غيب في شاهد السماوات والأرض، والنار غيب في شاهد الأرض وما تحتها ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢٢] فورب السماء والأرض أنه لحق مثلما أنتم تنطقون، فكما أن وجوه النطق منا حق واجب الوجود، فكذلك الحق الذي إليه المصير في مشهود ما نشاهده ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧].

فصل

قد كان فيما مضى من الاعتبار مقنع يصعد به المتذكر فيه والمعتبر به أن صدق الله في نظره، وكان ذا قلب شاهدًا إلى أرفع درجاته، لكنا ذهبنا إلى تكثير الطرق في الاعتبار، وتقرير الشواهد على مبالغ الأذكار؛ ليكون ذلك أيسر على الأفهام، وأوسع لمجاري التذكار.

فصل

وجود الصنعة دال على وجود صانعها لا محالة، كما أن وجود الفعل دال على وجود فاعله، وهذا القدر من العلم إن سلم من العناد ووقي من الخلاف فهو إيمان، وإلا فهو غير واقٍ عنك من الله شيئًا ولا كافيه؛ لأنه من أثبت الصانع الخالق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ولم يوحده ولا أطاعه ولا صدقه فليس إثباته ذلك بنافعه ولا بكافيه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان:٢٥].

﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

ثم بعد هذا فلتستقصِ النظر وتدأب الفِكَر والتذكر ومتابعة التفكر، وتسأل التوفيق من الله ﷻ، وحسن المعونة في معالم الصنعة وعجائب أحكام الألهية، وتدبر أوصاف معانيها، وتعرف معاقد التفصيل والتوصيل فيها ومنها، واستعمال الاستدلال على كل عالم بما هو دليله الخاص به بعد تحصيل صريح الإيمان والإسلام، وتصديق الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - يوصل إن شاء الله تعالى إلى معرفة صفات الصانع وأسمائه التي ينبغي أن يوصف بها ويُسمَّى،

ومعرفة ما يستحيل عليه وما يمتنع، ولا يجوز هذا إيمان العقل وعلمه ذلك.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة: ١٦٤-١٧٠].

قوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[(١)] [البقرة: ١٦٤] ثم هذا إن هو أبقى وأصلح أضاء له ما بين يديه وما خلفه هداية ونورًا، وهذا إيمان المتقين.

قال الله جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] المعنى.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ المسخر: المذلل، والآية فيه من ثلاثة أوجه: **أحدها**: ابتداء نشوئه وانتهاء تلاشيه. **والثاني**: ثبوته بين السماء والأرض من غير عَمَد ولا علائق. **والثالث**: تسخيره وإرساله إلى حيث يشاء الله ﷻ. وهذه الآية قد جمعت من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ما صار لذوي العقول مرشدًا وإلى الحق قائدًا، فلم يقتصر الله بنا على مجرد الإخبار حتى قرنه بالنظر والاعتبار. [النكت والعيون (١/١١٥)].

وقال عز قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦].

ثم من وراء هذا إيمان اللب وعقله وعلمه وتقواه، وهذا الذي أيده الله بروح منه ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

قال الله عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

ثم أنشأ جلَّ ذكره يصفهم بحسن العبادة، ومواصلة الذكر وتعاهد الفكر بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١].

ثم أنباء ﷻ عن وصول العلم إلى قلوبهم بقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

أخبر ﷻ وتعالى أعلاؤه وشأنه عن لزوم الخوف أنفسهم إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٢] تعوذوا - رضي الله عنا وعنهم - من دخول النار، وإن أخرجوا منها بعد دخولهم فيها فإن ذلك خزي، وأما الخلود فيها فهو الخزي العظيم، وكذلك وصفهم ﷻ بالبصائر الثاقبة والأسماع الواعية، وحسن الاستجابة لربهم جلَّ ذكره أنهم يسمعون دعاء ربهم من اختلاف الليل والنهار وجميع ما خلق من شيء.

فقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا....﴾ [آل عمران:١٩٣].

وكذلك وصفهم بالفقه وحسن اللقن عن حكيم صنعه وبديع ما فطره في عالمه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٤] وذلك أنهم شاهدوا من معالم الصنعة وشواهد الخلقة، وسمعوا من دعاتها أنه لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وكذلك شاهدوا فيها إرسال الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وإنزال الكتب، والمأمور به والمنهي عنه، وصدق وعده ووعيده، أسلك ﷻ ذلك كله في مسالك عوالم، وأجراها في مجاري طرقات مخلوقاته، فاتصل بهم خبر

الكتاب والرسل بحقيقة ما شاهدوه في الخلقة، وحين بلغت شهادة البهائم إلى أن الله خالق كل شيء وأنه لا إله غيره، وأنه ﷻ مرسل الرسل ومنزل الكتب فشهدوا بالحق، وهم يعلمون شفعهم في أنفسهم واستجاب دعاهم عند ذلك.

فكما أدخلهم في أول محال الإسلام شهادتهم، وبوأهم أولى الإيمان بإخلاص القلب بها أدخلهم ﷻ في ولايته بمعرفتها من أفعالهم، وجعلهم من خاصته لما يلقوا سماعها من دعائه، واستعملهم بمقتضى ذلك على سنن رسله وكتبه، فافهم بلغ الله بنا وبك ورحمنا وإياك وعلمنا من علمه، واستعملنا به واسمعنا عنه، فإنا لا نقدر على ذلك إلا به وحده لا شريك له.

فصل

إذا كان النظر في أبعاض الوجود الكلي فإن أول موجود العقل من العلم، وجود صانع الصنعة وفاعل الفعل كما تقدم، ولا يشبه الصنعة صانعها في الشاهد، ألا ترى أن الكتابة لا تشبه كاتبها، والضرب لا يشبه ضاربه، وكذلك البناء والحياكة وغير ذلك من ضروب المفعولات، بل غاية كمال المفعول الجزئي أن يكون بعضًا للمفعول الكلي، وأن يشبه فاعله الأدنى؛ أعني: مكتسبه في أنه جزئي.

فصل

ليس من أفعال الفاعل الأدنى - وهو الفاعل المسخر - شيء يشبهه إلا ما كان على سبيل النبوة حسب، وهو مفعوله الكلي بالإضافة إليه، وليس هو الفاعل حقيقة، بل بوساطة وحكم شيء عن أمر محكم نازل من حكيم عليم ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩] وهو آية على مفعول الفاعل لا على مفعوله الكلي؛ لأنه ﷻ خلقه بالحق والحق أوجده، وله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

فصل

من المفعولات الجزئيات ما هو فعل الفاعل الأعلى جل وتعالى، وهي الأرضون والسماوات والأفلاك والكواكب، وما بين ذلك من المخلوقات، وما سفل

من سائر العالمين؛ إذ أفرد بالنظر كل مسمى مقصود ذلك بالنظر فيه، فهو عضو وجزء للكل، وهي بكثرتها أبعاض يكمل بها وبسواها المفعول الكلي فيصير كليًّا، وذلك كمالها أن تكون معدة أن يكمل المفعول باجتماعها، وعلى صورة ما هو مفعول كامل.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «**تربت يمينك، فمن أين يكون الشبه؟**»(١).

أكمل مفعول الفاعل الموجود عنه الفعل على سبيل الوساطة، وجعل الله ذلك حكمًا لازمًا في أبعاض المفعول الكلي أمم يؤم بعضها بعضًا إلى أعلاه ومنتهاه الذي هو الكلي، فإذًا كمال المفعول الكلي أن يكون على صورة فاعله، كما أن كمال المفعول الجزئي أن يكون بعضًا للكل كالعضو منه والجزء ونحو هذا.

فصل

وجود الموجود الجزئي مسخرة له أبعاض الكلي، عاطفة عليه أعضاؤه ومعاطفه، وما بين ذلك غذاء ينشئه فيه مُنشئه، ويؤول إليه صورة وذاتًا، فما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وليظهره في صورة الحق المعقول عيانًا ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات:٢٠-٢٣].

وقد تقدم الكلام في أن الدنيا نبذة من الآخرة صورت على صورتها سرائها وضرائها، لكن على المزج والتقليل، وأن الذي يكون عن الماء الذي ينزل من جنات وعيون، ومقام كريم شبيه بما ينزل عنه، وكذلك القسم الآخر.

قال رسول الله ﷺ: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله، والنار كذلك**»(٢).

يدل ﷻ بما نص عليه من الآيات المختلفة على ما ذكرناه، وأقسم على أن ذلك من قيله له: ﴿**إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات:٢٣] والنطق موجود

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

منا لا محالة، فما أقسم عليه هو الحق لا مرية فيه ولا شك ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] ما أحسن ما أوجد! وما أتقن ما أحكم وخلق! اللهم فهمنا عنك، ثم استعملنا بالذي يرضيك عنا، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

فصل

قد تقدم في رسم اسم الملك عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه من شرح الأسماء إشارة من التطريق إلى النظر إلى السماوات، وهذا الاسم على أي شيء يقع، وأن ظاهر خطاب الشرع ورد بأنها السماوات العلا، ثم اسم سماوات على سُمُوت أفلاك جاء بذلك بآخره ثم إلى الأرض، وأنها خلقت يوم خلقها صانعها ﷻ على شكل كرة، فسطحها ﷻ ومدها وفرشها، ثم نصب قنن الجبال على وزن أوليتها قبل تمهيدها، فجاء طلوع النيرات الشمس والقمر والنجوم على وزن ذلك مسخرات بإذن الله جلَّ ذكره.

وكان امتداد الظل وقبضه على وزن ذلك، وكان ذلك فلكي الليل والنهار، وكذلك تقدم فيه أيضًا نبذة يسيرة من الكلام في فلك الرياح، وفلك الغيض، وفلك القيض والمد والجزر، وقد تقدم أيضًا الإعلام بما هي الأفلاك المعلومة، وأنها من لدن فلك المياه إلى فلك البروج وكواكب، ثم الفلك الأعظم، وأن بتدواره تدور الدوائر كلها.

قال الله جل من قائل: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] فاعجب لهذا أن يكون تدوار الدوائر كلها على افتراق سبل الأمر بهن وفيهن يتحرك بحركة واحدة، يصعد إلى كل الكل ونهاية النهايات، وذلك معلوم في سريان الأغذية في الأجسام.

وإنما ينطبع في محالها إلى حال ما حكت فيه، كذلك ما نحن بسبيل تبيانه، كل الأفلاك يحل الأمر فيهن في محاله، فيكون منه بما سبق به الأمر، وأذنت فيه المشيئة، وأحاط به علم العلي الكبير، والظاهر أن حركتها بحركته، وحكمها بحكمه، ثم يتنوع بحركات أفلاكها على سبل مجاريها، ويكون حكم كل متحرك في كل متحرك فيه على الأمر المراد به من موضعه المدور فيه والمدور به، ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤].

وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣].

كما قال ﷻ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٨-٤٠].

تعجب ﷻ بهذا المبدع العجيب، جعل ﷻ ذلك من آيات الوحدانية، وأن الواحد الحق عز جلاله أوجد جميع الموجودات على اختلاف وجودها، وهي على ذلك لا تخرج عن حُكمه الواحد وأمر العزم القويم.

فصل

يتبين الدورات لنا بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب، وهو الليل والنهار، فما فوقها يتحرك في اليوم والليلة أزيد من دورة، وما كان من دونها يتحرك في اليوم والليلة أقل من دورة، يتحرك الفلك المستقيم فتستدير هذه الدوائر على دوائر دونها، والتي دونها تستدير على ما هو دونها هكذا، وحكم الأعلى ينتظم الأسفل إلى ما يكون منها كالدقائق والشعائر ودقائق الشعائر ومقاييس الأنفاس وأجزائها وأجزاء أجزائها، وعلى التحصيل الإلهي لدقتها وضيقها فكالأجزاء التي تركب للأجسام عنها يتنزل الأمر بتلك الدوائر من مستقر إلى مستودع محمول ذلك بها وفيها، كحمل الجواهر الأعراض.

كذلك قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤] و﴿لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠] أي: إن هذا المعلوم هذه آيات على ما وراء ذلك مما هو غيب بالإضافة إليه، فما هي عليه آيات أن تكون كل سماء مع سمائها التي هي سقفها إلى السماء السابعة، كما هي الأرض مع سمائها من دوائر الأفلاك وأمر وغير ذلك.

وأخبر رسول الله ﷺ: «إن أهل السماء الدنيا على ضعف من أهل الأرض، وإن

أهل السماء الثانية على ضعف أهل سماء الدنيا وضعف أهل الأرض»(١).

كذلك كل سماء على ضعف ماتحتها مع الأرض، حتى ذكر رسول الله ﷺ في السماء السابعة على الضعف من أهل السماوات والأرض فكذلك أيضًا أفلاكهن ودوائرهن وأمرهم كله.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢] فالسماوات على هذا الاعتبار آيات على الدار الآخرة التي هي الجنة، وكذلك الأرضون التي من تحت هذه الأرض آيات على الآخرة التي هي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فإذا كان يوم القيامة وبدلت الأرض غير الأرض، والسماوات كانت آخرة، وزيد فيهن كتناسب قول رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلتها في اليم فانظر بِمَ ترجع منها**»(٢).

فاعجب لهذا البناء العظيم، وما أفلاك ما هنالك وما ذلك الأمر الدائر به، وما دوائره إن هذا لهو البناء العظيم والخطب الجسيم الذي نحن عنه معرضون، ومما هي آيات عليه أنها أرض وسبع سماوات، وقد جاء من طريق يوجب العلم بأن الجنة لها ثمانية أبواب.

كما أن للنار - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - سبعة أبواب، وهذه سبع سماوات والأرض ثامنه، باب لكل واحدة منهن، وسبع أرضين هذه الأرض منها ما هو فيه لما سكنها المؤمنون وعمروها، ومنها ما هو نار لما سكنها الكافرون وعمروها، والله أعلم بكيفية تلك الأبواب وهيئة ما هنالك.

ومما هي آيات عليه مفهوم ما قاله رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لمائة درجة ما بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض**»(٣).

وأفلاك السماء التي تقدم ذكرها بتضاعيفها تستغرق ذلك، وهي تنتهي إليه دون تضعيف، وإنما تكون آخرة إذا حان وعد الله ﷻ بتبديلهن ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

﴿الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨].

قال الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٢] المعنى إلى آخره، و**الحق** هنا هو ما إليه المصير، وما هو يحققه الوجود فيما هنالك.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**أنت الحق، وقولك الحق، والجنة حق، والحوض حق، والصراط حق**»(١) إلى آخر الشهادات، وكلها جاء من موجودات الآخرة فيما هنالك يجب الإيمان به، ففي موجودات السماوات والأرض شواهده ودلائله، فتفهم ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] وإنما سُمي حقًّا لتحقيق وجوده هنالك لوجه، وإن ما هنا يدل عليه ويشير إليه كلٌّ على ما يقابله ويجانسه، ولتداخل معاني ما ها هنا فيما هنالك وتشابهه قد يدل مطلوب ما يدل عليه موجود ما بوجه ما، ويكون دليلاً على موجود آخر فيما هنا لك لوجه ما، حتى يستوي في النظر في الوجود فيما هذا سبيله جملة، وربما تطرق ذلك إلى بعض التفصيل، ولعسر جمع ما هنالك إلى ما ها هنا يشير العقل إلى توقيف ما ذكرناه ولا يدركه تفصيلاً.

وإنما يكون ذلك أقرب للتبيين وأيسر سبيلاً إلى مشاهدته في الدار الآخرة، وتبقى أيضًا جملة الآخرة لا يحيط بها عقل ولا يحصرها علم؛ لصدق قيله ﷻ في الدنيا والآخرة ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] وفيه في خاصة الآخرة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

ولولا غيب الآخرة والغفلة اللازمة لنا عن مثالاتها الدالة عليها لقد كاد يكون النظر فيما هذا سبيله بيّن، والعقل أذكى والبصيرة أثقب، لا يسع تلك الساحات وصفاء أضوائها وصدق شواهد ما هنالك، فافهم.

روى ابن عباس بن عبد المطلب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان جالسًا بالبطحاء وعصابة من أصحابه - رضي الله عن جميعهم - إذ مرت عليهم سحابة، فقال النبي ﷺ: «**هل تدرون ما اسم هذه؟**» قالوا: نعم، هذه السحاب. فقال ﷺ: «**والمُزْن**»

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٩/٨).

قالوا: والمزن. قال ﷺ: «**والعنان**» قالوا: والعنان. ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «**هل تدرون ما بُعد ما بين السماء والأرض؟**» قالوا: لا والله ما ندري. قال ﷺ: «**فإن بُعد ما بينهما إما واحدة وإما اثنتان وإما ثلاث وسبعون سنة، والسماء التي فوقها كذلك**» حتى عدهنَّ ﷺ سبع سماوات كذلك.

ثم قال ﷺ: «**وفوق السماء السابعة يجر أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء، وفوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى سماء، والله جلَّ ذكره فوق ذلك**»(١). وروى الوليد بن أبي ثور عن سماك نحوه رفعه أيضًا(٢) فهذه - والله أعلم - سماوات ما بين الأفلاك، ثم ما بين أعلاهن سماء الرفيع الذي هو سماء الدنيا، فإن فيما هنالك - أعني: كل سماء - أوعال وكرسي وعرش منه يتنزل الأمر إلى هذه السماوات السبع الأدنين.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يمهل حتى إذا كان نصف الليل نزل إلى سماء الدنيا، فيقول: هل من مستغفر فيُغفر له؟ هل من تائب فيُتاب عليه؟...**» (٣).

وهو لا يوصف ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالتنقل ولا بالتغير وهو المستوي على العرش الأعلى، هو العظيم بالإضافة إلى ما سواه، وتنزيله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في حق قوم دون قوم، حكم ذلك التنزيل على دوائر محكمة التدوار في الإيلاج والتقلب الليل والنهار والزيادة والنقصان.

وروى الحسن عن أبي هريرة - رضي الله عنهما - قال: بينا رسول الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال النبي ﷺ: «**هل تدرون ما هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**فإنها الرفيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف**» ثم قال ﷺ: «**هل تدرون ما بينها وبينكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**بينكم وبينها مسيرة خمسمائة عام**» قال ﷺ: «**هل تدرون ما فوق ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم.

---

(١) أخرجه الديلمي (٢٣٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٨).

قال: «**فإن فوق سماءين ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة**» حتى عد ﷺ سبع سماوات، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض.

ثم قال: «**هل تدرون ما فوق ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء كما بين السمائين**» ثم قال ﷺ: «**هل تدرون ما الذي تحتكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن تحتها أرض أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة**» حتى عد ﷺ سبع أرضين، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة.

ثم قال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم بحبلٍ إلى الأرض السفلى لهبط على الله**» ثم قرأ ﷺ: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد:٣]»[1]. فهذه السبع سماوات الأرقعة بين كل سماءين سماوات وأفلاك، أو ما يقوم مقام الأفلاك في تنزيل الأمر، عبَّر عنه قوله جلَّ ذكره: ﴿**وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**﴾ [فصلت:١٢].

ومما هي الكواكب السيارة دلائل وآيات عليه شبهها أعضاء بني آدم الرئيسة التي فيها قوامها وعليها مداره، من ذلك: الشمس هي المسخنة لأجزاء ما طلعت عليه، وعنها تنبعث الحرارة الأصلية اللازمة للخلقة، ومنها تكون النفس الحيوانية بإذن الله عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه مما جعل لها من الوساطة، ويسر لها في تلطيف الأرض وتصفية الهواء، واستخراج الآخرة من أعماق الأرض، واجتذاب النبات وتبديد الغيوم، والزيادة في نمو النبات من الزرع وأنواع الشجر، وإنضاج الفواكه كلها بالطباخ المعتدل، ثم تيبس الزرع وتطيب الحب في حال كونه بذرًا في الثرى؛ ليصلح الإنبات، والكشف عن وجه الأرض غمرات المياه، وينشف البلات، إلى غير ذلك من جميل صنع الله ﷻ وحسن تدبيره لها، وبها تسخير ملائكة الملكوت - عليهم السلام - العاملين بأمره في ذلك، وتعظيم ما جعل الله من أمره فيها وبها.

قال إبراهيم عليه السلام لما صعد بالنظر إليها، قال: ﴿**هَذَا أَكْبَرُ**﴾ [الأنعام:٧٨] أي: ما دونه، وكذلك القمر جعل الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه له من الوساطة والتسخير

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٨) وقال: غريب.

لأمره ترطيب ما جففته الشمس، وتهيئه للنمو وتيسره للنضج بإذن الله خالقه ومسخره.

وكذلك الزهرة جعل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لها القوة الجاذبة، وهي التي تظهر القوة الشهوانية القابلة للأشياء، وهي معينة للشمس في جذبها من الأرض أبخرتها وفيما عسى ألا تبلغه الشمس من الأماكن إلا بالتسخين من أرحام الأرض.

وعطارد جعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه له قوة ممازجة يعدلها ويروحها ويميل مع الأغلب في طبعه، فهو مائل مع كل طبيعة.

وزُحل جعل الله ﷻ له قوة ما يعدِّل اليبوسة في أجزاء ما طلع عليه، وغرب، مثل: الزرع والثمار والحيوان، وما أشبه ذلك.

وكذلك المشترى جعل الله ﷻ له قوة غاذية لجميع الأشياء من الحيوان، والنبات يعدل الأشياء برفق ووزن قسط.

وكذلك المريخ جعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه له قوة مهيجة لجميع الشهوات والغضب والحقد والطيش والعجلة.

وكذلك في الأشياء المنسوبة إلى الطبيعة جعل الله جلَّ ذكره لها صلاح هذا العالم باعتدال هذه الكواكب وفساده بتباينها.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] أي: بمواقع أفعالها، ومواضع التدبير من الله جلَّ ذكره بها.

ثم قال جل قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦] هذا جل قوله إلى قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢].

وهذه سماوات دلالات على السماوات العلا، وما بين هذه دليل على ما بين ذلك، كذلك صلاح الإنسان سبعة أعضاء رئيسة مواطن يظهره تأثيرها بإذن الله ﷻ على ظاهر الجسم من الإنسان الحامل لهن، وهي: القلب والكبد والطحال والمعدة والمرار والدماغ والرئة.

فالقلب في الإنسان بوجه ما بمنزلة الشمس في هذا العالم؛ هو موضع الحرارة الأصلية، وعنه انبعاثها إلى جميع الجسم.

ثم الرئة بمنزلة القمر في العالم مع الشمس تروح عن القلب الحرارة وتحللها وتلطفها في الجسم، وتحيلها إلى الرطوبة.

ثم الكبد يعدل الغذاء ويُصيِّره إلى القلب صافيًا بوزن سواء، وقسط مقسط وهي بمنزلة المشتري من هذا العالم.

ثم الطحال له قوة ماسكة تمسك ثقل الغذاء وتيبسه، وتغذيه بإذن الله تعالى، وهو في الإنسان بمنزله زحل في العالم.

ثم المعدة لها قوة شهوانية قابلة للغذاء جاذبه له بشهوة نامية، وهي في الإنسان بمنزلة الزهرة في العالم.

ثم المرار له قوة نارية مسخنة للمعدة، مهيجة لها في الغليان يزيد في شهواتها، وتنبعث منها الشهوة في الجسم، وهي المقيمة في الشهوات النارية، وهي في الإنسان بمنزلة المريخ في العالم.

ثم الدماغ له القوة الفكرية المؤلفة بين الأشياء الممازجة لها، وهو موضع ارتباط الصور وتشكل الأشكال، وهو في الإنسان بمنزلة عطارد في هذا العالم، هذا كله فيما هو صلاح فيه أو ما يضاده من جهة الخلقة.

وأما أمر الله فيهن - أعني: النيرات - فكذلك هذه الأعضاء في تنفيذ الأمر من تدبير الملائكة - عليهم السلام - فيهن وبهن في الأعمال الخلقية والشرعية والصفات، إلى غير ذلك مما يعلمه الله جلَّ ذكره ولا نعلمه، فسبيل ذلك فيها ظاهر، لا تعزب الإشارة إلى علمه ولا الدلالة على أن ذلك موجود فيها على ذي عقل سليم.

وإن الدماغ والرئة والطحال والكبد والقلب مواضع العقل والعلم والضحك والسرور والإرادة والفكر والذكر والوهم، إلى وجود أضداد ذلك كذلك ما شابهها من سماواتها مواضع الصفات المبثوثة من العالم، فاتخذ - وفقك الله - هذا شاهدًا تعبر إلى ما علا، ودليلاً تستدل به فيما هنالك يكن كل على درجته، فإنه كلما صعد النظر كان أقرب إلى الصفات القُدسية.

ثم كذلك صاعدًا إلى سدرة المنتهى، ثم كذلك إلى المستوى حضرة جلاله وساحة قدسه، آيات ذلك: إنه كلما أضيف إليه فيما هنالك جعل له من الطهارة

والقدس بقدر قربه بتلك الإضافة.

قال الله ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ....﴾ [النور:٣٦].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾ [الأعراف:٢٠٦] و﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].

وكما أن بين كل سمائين من هذا دوائر أفلاك أو ما يقوم مقام ذلك في تنزل الأمر، وكلما ظهر فيما ها هنا - أعني: دون السماء - فهو له على وجود فاعل، لكن أفضل وجودًا وأوسع جدًّا وأفخم ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢].

وكل يشير بل يعلم بما هو آية عليه ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١] إن في السماوات والأرض آيات للموقنين.

فصل

وربما أشكل على قارئ كتابنا هذا ما يسمعه من قولنا من ذكر قُوى وطبيعة، وإضافة فعل إلى ما لا يصح الفعل منه ولا الاختيار، فليعلم إن ذلك منَّا على سبيل التجوز؛ لغلبة العادة الجارية في التخاطب من اختصار ذكر الفاعل الأعلى تبارك وتعالى، وإنما الفعل لمن يملك إمضاءه، وعنه مصادره وموارده، وله أوله وآخره وظاهره وباطنه، فله المورد والمصدر.

وهو المقدم والمؤخر، القائم على كل شيء والوكيل عليه، والمحيط به من وراء كل حيطة، والوكيل على كل وكيل، فإنه وإن كان الإتساع في مجرى الخطاب جائزًا معلومًا، فإن ذلك على الدوام سبب لإظلام السبيل، ومؤيد للغفلة عن النظر إلى حقيقة التحقيق، وقد أعضل بذلك الداء في قوم حتى أفضى بهم إلى سوء المعتقد؛ لأجل المداومة على ذلك، ونسيان الفاعل الأعلى الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

فصل
في الاعتبار باختلاف الليل والنهار

وقال الله جل من قائل: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد:٦] وقوله جل قوله: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤].

إيلاج أحدهما في الآخر، وتقصير هذا بتطويل هذا، وتطويل هذا بتقصير هذا، وتقليبهما - والله أعلم - هو تلونهما باختلاف القضاء؛ لتباين صور التدوير، وجماع ما يجري فيهما من حكم وأمر. يقول الله جل من قائل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

ووجه آخر، وليس بخارج عما تقدم: طلوع الشمس والقمر في يوم وليلة في غير مطلعيهما بالأمس، وكذلك بالغد في غير مطلعيهما كذلك هما في معنى زيهما إلى أن ينتهيا من حيث ابتدآ، ثم إلى أمثال ذلك، فتلك منهما آيتان على ظهور الحق المبين في الدار الآخرة، حيث لا شمس ولا قمر ولا نجوم، غير أن ذلك الحق دون أفول ولا غروب، إنما هو ضياء ثم نور.

يقول الله جل من قائل: «**يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره**»(١).

فهذا الليل والنهار عن فيض ظهور الحق المبين، والدهر هو مدة فعل الله جلَّ ذكره، كما الزمان مدة دوران الفلك، فافهم - بلغ الله بنا وبك - ولا عدل بنا وبك عن سواء السبيل.

روي في هذا الحديث برفع اسم الدهر ونصبه، فالرفع تحقيق قول رسول الله: «**إن الله هو الدهر**»(٢) سمي جلَّ ذكره ببقائه الدائم ودوامه المتمادي الذي لا أول له ولا آخر، بل ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢٤٤)، والبخاري (٤٥٤٩)، ومسلم (٢٢٤٦)، وأبو داود (٥٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) وعبد الرزاق عن معمر في الجامع (٢٠٩٣٨)، وأحمد (٧٦٦٩)، والحاكم (٣٦٩٢).

والفتح في اسم الدهر بمعنى: تحكمه، وتنفيذ قضاياه وحكمته في ذلك البقاء النزيه الرفيع أزلاً وأمرًا؛ حيث لا أول لذلك ولا آخر، وبما أوجد الليل والنهار قلبهما بإحكام حكمته في أوليته التي لا أول لها، ومن آخريته التي لا آخر لها، وأظهر ما يكون ذلك عيانًا ومشاهدة في الدار الآخرة، جعل الآية على ذلك خلقه السماوات والأرض وما بينهما بالحق.

ثم ينشئه إلى ظهور الحق المبين الله ﷻ في الدار الآخرة، حيث لا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا سماوات ولا أرضون، سواء ما هو الدار الآخرة بأوصافها وبما هي عليه، فتحقيقه إذًا من سب الفعل سب الفاعل، وبالحقيقة فإنه من سب الفعل سب فاعله، وهو الله لا إله إلا هو لا يلحقه أذية العباد.

قال رسول الله ﷺ: «**ألا تعجبون كيف دفع الله عني هجو قريش، يسبون مذممًا ويهجون مذممًا، وأنا محمد وأحمد**»(١) وقد تكلم العلماء بمذاهب العرب وسائر الأمم، وأهل الحساب في الفصول من السنة، وحدودها وما هي الأفلاك والمنازل والبروج والسنون تركنا إعادتها طلبًا للاختصار، وربما أتى ذكر ذلك مفرقًا على مواضعه إن شاء الله تعالى.

فيبصر مفعول الحق المبين فيما هنالك مما هنا فيبصر الحق، ويحظى بالعلم الصحيح كالمشاهدة - أرشدنا الله وإياك - فمن دلائلها؛ أعني: الليل والنهار زائد على أنهما مخلوقات بخالق خلقهما، ومجعولان لجاعل جعلهما على ما هما عليه ما دلائله على أنفسهما من النقص والافتقار، ودلائل الحدث وقبول أنواع التغاير والتصريف والتسخير إنهما بوجه آيتان على الحياة والموت.

وقد تقدم بيان هذا الاعتبار في رسم اسم الشهيد من كتاب «**شرح الأسماء**» فلنقتصر على ما هنالك، ويدلان أيضًا بوجه على الضلال والهدى بما في أحدهما من نور وفي الآخر من ظلام، وبذلك يدلان أيضًا على الإله الحق ﷻ وعلى بطل الآلهة الباطلة تبيانًا لعدمها وبطلانها.

فإنه ما في الليل من لَبْس وامتناع الإبصار فيه، وما يكون عن ذلك من جهل آية

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤٥٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٤).

على بطلان إله باطل، وإنه ما في النهار من تبيان وهداية إلى المقاصد ونظر وضياء ونور آية على الإله الحق جلَّ ذكره، وبالضد من ذلك، فإن الله هو الحق، وإن ما. تدعون من دونه هو الباطل، والنهار أيضًا بما فيه من انشراح واتساع ونور، وابتغاء فضل آية على الحياة.

وبذلك يكونان آيتين على ما في الجنة وضيائها وسعتها وإشراقها، وإنها ودار الحيوان وما عبر عنه قوله جل قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤].

وما هو قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الله هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

ودليل أيضًا بما هو يدل على نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - بما فيها من ظلام وضيق، ومعنى الموت الحاصل مثاله من معنى النوم، والسبات وعدم الإبصار، وعلى الموت بما فيه من السبات، والنوم والسكون وما هو بسبيله، وهما أيضًا بما فيهما من إيلاج بعضهما في بعض، وبما في الليل من ضياء قمر ونجوم، وبما في السماء من ضياء لازم عنها على الحياة في حال الموت في دار البرزخ.

وإن ذلك في اختلاف [الآيات على ما توجه] آية على اختلاف درجات الموت والحياة لأهل الموت فيما هنالك، فأرفعهم درجة في حياته [كالليل والقمر] مدة الاستسرار، فضياء ما بقي من النجوم والسماء آية على حياة الكفار فيما هنالك كما أن ظلام القمر بالليل وإظلام الأجواء بالنهار آية على ظلام قلب الكافر وظلام قبره.

والظلام موضع منزله من جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وخلو ما به من النور، وعلى فقدان نظر الله جلَّ ذكره منه، كما أن ظلام الأنوار بالنهار وإظلام الأجواء آية على مداخلة الموت هذه الحياة من جهل وغباوة وذهول ونسيان، وكل ذلك آية على ما هو بسبيله فيما هنالك.

وقد تقدم شاهده فيما سلف، كذلك ما كان من ظلم من الوقاية على ظلمات ما في القبر وفي يوم القيامة، وظلماته في جهنم، أعاذنا الله الرحيم منها برحمته.

قال رسول الله ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»(١). ذلك ما كان من عمل

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٠١)، وعبد بن حميد (١١٤٣)، والبخاري في الأدب (٤٨٣) ومسلم (٥٧٨).

بطاعة الله ﷻ فآية على نور في القبر، ويوم القيامة الحياة في دار القرار.

قال الله عزَّ من قائل: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد:١٢] وأفضل تلك الأعمال نور الصلاة لحضور النور الحق إياها، فقال رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فإن الله في واجهته**» وفي أخرى: «**الرحمن**»[١].

كما أحقها تحقيقًا في الضياء الصوم، ثم سائر الأعمال نور يوجد في جزاء الأعمال في الدار الآخرة، وبالضد في وجود ظلمات أعمال الكفار والظلم كما سائر الأعمال التي تنفع العباد من صلة الرحم وإطعام الطعام وتفريج كرب وإماطة أذى جزاء ذلك ما يقابله فيما هنالك من إطعام أيضًا [ورفع أذى][٢] وتفريج كربات.

كما جاء أنه - صلوات الله وسلامه عليه - قال: «**يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةَ أَجْوَعَ ما كانوا قطّ، وأَعْطَش ما كانوا قطّ، وأَعْرَى ما كَانوا قَطّ، فمن أَطْعَمَ لله - عَزَّ وجَلَّ - أَشْبَعَهُ اللهُ، ومَنْ سَقَى لله عَزَّ وجَلَّ سَقَاهُ اللهُ، ومَنْ كَسَا لله عَزَّ وجَلَّ كَسَاهُ اللهُ**»[٣].

وقال ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»[٤].

وفي أخرى: «**غصن شجرة، فقال: لأقطعنه [لئلا] يؤذي الناس، قال: فلقد رأيته في الجنة يستظل بها**»[٥].

وبالجملة: فالأعمال كلها نور كما الوجود كله نور، فلتبصر البصائر وتفهم الألباب عن الله ﷻ.

قال الله عز من قائل: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور:٣٥] إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يوجد كشط في (ق) وتم تصويبه من (ف).

(٣) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢٢٦/١) من قول عبيد بن عمير.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (٥٠٤٩).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٣٣٦) قال الهيثمي (٣٥٦/١٠): فيه أبو عاصم الربيع بن إسماعيل منكر الحديث قاله أبو حاتم.

قوله جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ﴾ [النور:٣٩] إلى قوله: ﴿وْكَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:٤٠] المعنى إلى آخره.

أعقب ﷻ بعد ما تقدم من الخطاب قوله: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...﴾ [النور:٤٤] فجميع ما خلق الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في السماوات والأرض حق مشير إلى حق ما هنالك، فافهم - فهمنا الله وإياك - والشمس والقمر آيتان من آيات الله ﷻ.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ...﴾ [يونس:٣٠].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، يقول ﷻ لأهل الجمع: ما تنتظرون لتتبع كل أمة ما كانت تعبد؟ فلا يبقى أحد كان يعبد شيئًا إلا اتبعه**»[1] فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت.

وقد تقدم مصداقه من القرآن العزيز، وأيضًا قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩].

واستثناء الله سبحانه وله الحمد من تلك المعبودات من سبقت له منه ﷻ الحسنى فعلى هذا تكون الشمس والقمر وجميع المعبودات التي قولوها على الله ما لم تقل، وعدلوها في حقهم عن شهادتها لبارئها ﷻ وأضافوا النعمة بها إلى غير وليها تراوحهم وتباكرهم بالعذاب.

وما بين ذلك يجدده عليهم على حكم الخلود، فهذا مما يعبر إليه من تقليب الله الليل والنهار في هذه الدار، ويكون ذلك منها لهم على مقادير تعظيمهم لتلك المعبودات، وعنايتهم بها وعكوفهم عليها، وإغراقهم في الصد بها عن السبيل

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٢١) والبخاري (٤٤٣٥) ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤) والنسائي في الكبرى (١١٢٨٦) وابن أبي شيبة (٣١٦٧٤).

المرتضى.

وتنقسم معاني المعبودات في الآخرة وفي دار القرار على ما اقضته من ذكر وفتنة، فما كان منها في سبيل الفتنة ففي النار، وما كان من معانيها في سبيل الذكر ففي الجنة مثل أقول: كالشمس والقمر هما من حيث تسخيرهما لمنافع العباد، وسجودهما لخالقهما، وعبادتهما لمجريهما، وشهادتهما لجاعلهما ومدبرهما، والتذكر بهما، فمعنى ذلك كله في الجنة، ومن حيث هما مزينان للساجدين ومعظمان للعابدين لهما.

وقد تقدم فيما مضى من الاعتبار في فهم سجودهما، وإن ذلك ينقسم على حالتين لهما، وإن ذلك مقدر بمقادير السماوات، فهي على ذلك طالعة في حق قوم، ساجدة في حق قوم، ومستوية في حق آخرين، جارية بوجه وساجدة بوجه، تقدير من عزيز عليم.

فهاتان الحالتان أبدًا لازمه لهما فيما كان من طاعتهما لخالقهما ﷻ في جريهما وسجودهما، ويذكرهما بولي النعمة ﷻ بما هو في الجنة ينشئ الله أمره بهما فيما هنا إلى أمره فيما هنالك الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

وما كان من تزين الشيطان لهما واقترانه بهما، وسجود الكفار لهما وسترهما عقولهم عن تخطيهما إلى مسخرها ومعيدها هو في النار دون تعذيب لهما، غير أن هذا أمره وهذا أمره.

ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ يخبر عن حال استوائها، وأن الشيطان يقارنها، قال: «**وحينئذ تسجر جهنم**»[(١)]؟!

وقد تقدم فيما مضى أن الدنيا ابتنت على نفسي جهنم سعيرها وزمهريرها - أعاذنا الله برحمته منها سعيرها وزمهريرها - وأن نزول الماء برحمته يحيي الأرض بعد موتها، ويظهر أفاعيلها ويكمل حياتها، فهذا الوجود المشاهد يخبرك بما تقدم من الاعتبار، وأن الماء آية على دار الحيوان، وأن النفسين آيتين على جهنم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٥٥)، وابن سعد (٢١٦/٤).

وإن هذه الدار ابتنت بأسرها على معنى دار القرار الجنة والنار، وسوف يعيدها خالقها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأسرها، ثم يميز خبيثها من طيبها، فيجعل هذا في الجنة وهذا في النار، أنبأ بذلك القرآن الكريم، وأعربت به الشواهد، فاستقر بتوفيق الله جلَّ ذكره وجود الموجودات علوًّا وسفلاً على هذا.

ثم أقضي بموجب الحق أن كل ذكرٍ ففي الجنة، وإن كل فتنة ففي النار.

ومن آياته بهما: إنه يبدو لعباده في الدار الآخرة، ويرونه عيانًا كما يرون الشمس والقمر، وذلك يومئذٍ من أسمائه الحق المبين؛ أي: إن هذا الحق الذي خلق به السماوات والأرض وما بينهما يَبين عن نفسه فيما هنالك رأته العقول في هذه الدار بحقائق الإيمان، فتراه العيون يومئذٍ على العيان والشمس والقمر لهما أفول وتغير وزوال، وهو لا زوال ولا تغير.

وهو الذي أنكره إبراهيم عليه السلام حين تطلبه ربه بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦] ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧].

أي: إني بريء مما تشركون، فصعد وجود الشمس والقمر والنيرات بما فيهما من وجود الحق المخلوق به السماوات والأرض إلى وجود الحق المبين مشاهدة فيما هنالك، كما ينزل بها وجود الندين والفتنة بها إلى ما يكون كلها غدًا بالمعذبين فيما هنالك.

ومن آياته ﷻ: ما شرعه من الشرائع؛ إذ ذلك مما يختلف به الليل والنهار، وإن كل يوم هو من ذلك في شأن.

قال الله جل ثناؤه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية:١٦] إلى قوله جل قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ [الجاثية:١٧] إلى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية:١٨].

وقد فرض الله ﷻ علينا الصلاة، وأكثر التأكيد وبالغ في التوصية بصلاتين طرفي النهار قبل طلوع الشمس وقبل غروبها آية على الوفاء بعهده في قوله جل قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**وإن منكم لمن يرى ربه بكرة وعشيًا**»[1].

وفرض ﷻ الزكاة، وحضَّ على الصدقات، فقال ﷻ: ﴿**أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [البقرة:٢٥٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا، وأعرى ما كانوا، فلا يكسى يومئذٍ إلا من كسى لله، ولا يسقى إلا من سقى لله، ولا يطعم إلا من أطعم لله ﷻ**»[2].

وقال جل من قائل: ﴿**ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل:٣٢].

وقال جل من قائل: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة:٢٤]

وقال عز من قائل: ﴿**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النمل:٩٠].

وقال في الأباعد: ﴿**هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٤٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أنفق زوجين في سبيل الله نُودي من باب الجنة**».

وفي أخرى: «**نادته خزنة الجنة: أي فل**[3] **هلم**»[4].

وقال رسول الله ﷺ في رجل أدخله الله الجنة على ما كان من عمل، وقال: «**فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان**»[5].

فصل

ومما يؤكد العبرة لما تقدم ذكره: إنه ﷻ فرض على عباده الإيمان والإسلام، وقدر على من شاء منهم بالكفر والضلال، ثم أمر ونهى، وجعل من المأمور به أبوابًا

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٤) ومسلم (٢٨٣٤) وأحمد (٧١٥٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فل: المراد فلان.

(٤) أخرجه مالك (١٠٠٤)، وأحمد (٧٦٢١)، والبخاري (١٧٩٨)، ومسلم (١٠٢٧)، والترمذي (٣٦٧٤) والنسائي (٢٤٣٩).

(٥) تقدم في سابقه.

إلى الجنة، ومن المنهي عنه أبوابًا إلى جهنم، ثم قلبهم فيما شاء من ذلك بما شاء، وجعل المصير إلى دار الآخرة على سبيل ذلك.

كما قال في الأزل: «**وقد نادى هؤلاء من قبضة اليمين فاستجابوا له كما شاء، فقال: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم نادى أهل اليسار من قبضته الكريمة فأجابوه كما شاء لهم، فقال: هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[1] ثم أخرجهم على نوبتهم لأعمالهم المقدرة لهم يومئذٍ.

ثم هو يميتهم وقد اقتضى منهم المقدر لهم أو عليهم، فيجعل أحوالهم في حياتهم حال موتهم على جزاء ذلك، ثم هو يحييهم بقدرته؛ لنجزيهم مما كانوا يعملون، ثم يرجعهم إليه في دار القرار، فيجري عليهم ثواب أعمالهم أو عقابه جزاء بما كانوا يعملون، مع مزيد أهل السعادة عنده من فضله ينيلهم إياه جزاءً لما قلبهم فيه وبه من وصف ما أسعدهم به في أزله الكريم، وبالضد لأهل البعد في شقائهم أيضًا من وصف ما أشقاهم، وهو العلي الكبير.

ألا ترى أنه عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه فرض علينا خمسين صلاة، كان قدرها لنا وعلينا في أزل أحديته حيث لم نكن لأنفسنا موجودين، ولما أوجد نبيه أرسله إلينا فأظهر إيجابه علينا، ثم برحمة منه وفضل ما خفف عنا بردها خمسًا عملاً، وأبقاها خمسين ثوابًا وأجرًا، ووقت الصلاة على مقادير حلول الشمس، فوقت الصبح طلوع الفجر، وهو عن ظهور الشمس لموضع من الأفق.

والظهر باستوائها في كبد السماء، والعصر على التوسط بين ذلك وبين غروبها، والعشاء الأول بغروبها إلى غروب الشفق، والعشاء الآخرة من لدن غروب الشفق

---

(١) أخرج مالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، والبخاري فى التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) والنسائى فى الكبرى (١١١٩٠) بلفظ: «إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ».

إلى طلوع الفجر، والزكاة بالحول، والصوم بظهور هلال شهر رمضان، والإفطار منه بظهور هلال شوال، والشروع في الصيام من طلوع الفجر إلى غروبها، والحج بهلال ذي الحجة.

وقضى مناسكه في أيام الحج، وهي معلومة بأيام شهر ذي الحجة، وهذه كلها في الدار الآخرة مواسم تنعيم وتجديد حبور على الدوام بما يكون من الحق المبين من ظهور وإحكام حكمه، هذا إلى ما فيها من آية ودلالات وبينات من الأمر على الدوام.

وقد كشف حديث رسول الله ﷺ كون الشمس والقمر في الدار الآخرة منها في النار بقوله: «**من كان يعبد الشمس يتبع الشمس، ومن كان يعبد القمر يتبع القمر، ومن كان يعبد الطواغيت يتبع الطواغيت، فيتساقطون في النار**»[1].

وقول رسول الله ﷺ وقد رآها غاربة: «**إلى نار الله الحامية، لولا ما يزعها من رحمة الله...**»[2].

ومن آياته جلَّ ذكره: مفهوم قوله الحق: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ**﴾ [آل عمران:١٩٠].

فخلقه النهار والليل دائرة على أربعة أرباع: ظلام وضياء وغبش وعشاء، كذلك الفيض والمد والجزر والغيض، كل ذلك على دوائر مستقيمة على أربعة أرباع كما تقدم آيات على ما هي الجنة والنار.

قال الله جل ثناؤه: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق:٣٠].

فهي كلما امتلأت اشتد [لهيبها][3] وتزبَّد سعيرها، كالمعهود من النار كلما ازدادت حطبًا ازدادت لهبًا - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فهي كذلك حتى بضع الرحمن قدمه بين يدي تدبيره، فإنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه حين استوى على العرش كتب على نفسه كتابًا هو عنده على العرش: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»[4]

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦).

(٢) تقدم.

(٣) في الأصل: كلَبُها.

(٤) تقدم تخريجه.

وفي أخرى: «**سبقت غضبي**»(١). وفي أخرى: «**غلبت غضبي**»(٢).

فهي لا تزال تتكرر منها تمتلئ وتفور، وتقول: هل من مزيد؟ ولا يزال الرحمن تبارك وتعالى يجعل فيها قدمه، فتنزوي بعضها إلى بعض أبدًا، هذا أيضًا على دوائر معلومة هناك يحكمه التدوار، كتدوار الليل والنهار، والله أعلم بطول مدة تلك الدوائر وقصرهن.

يقول الله جل قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧] كذلك آيته على هذا القهر منه لجهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - والقصر لها عن مرادها إلى مراده ما يشاهد من قصره لنفسي جهنم؛ وذلك أن يأذن لها تتنفس بحرِّها وزمهريرها، فلولا رحمة الله التي نزعها من إنزاله الماء من السماء فيكون الحاصل بين الحكمين بكرم لطفه وحسن تدبيره تبريد حر السعير وترطيب يبس الزمهرير.

وإذا أفرطت بله المياه روح بالصحو، وجعل في ذلك الدف، وينشف البلات، واستقام أمر الدنيا على ذلك من تدبيره، ويخرج عن هذين الحكمين بقدرته وفضله ورحمته أنواع الخيرات، وضروب الزرع والنبات، ويخلق على ذلك جميع الحيوان، ويظهر الزمان في حسن معاريضه، لولا ذلك من لطفه كانت هذه الدار جهنم الصغرى، وهو من أثر الصادق المكتوب على نفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «**إن رحمتي غلبت غضبي**»(٣).

وقوله جل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] ويلحق بذلك في سبيل العبرة توبة على الكافرين والخاطئين، وأن الكفر والخطايا والمعاصي منسوبة إلى جهنم - أعاذنا الله منها - وجهنم مخلوقة من غضبه، والتوبة منسوبة إلى الجنة - جعلنا الله الرحمن الرحيم من أهلها - وإلى رضوانه، وتلك رحمته.

هذا التأويل هو الذي صدقه الوجود والكتاب من قوله جل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فإن كان ذلك في الدار الآخرة زائدًا على هذا التأويل فالله أعلم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

وآية على ذلك أيضًا: الشهود والحضور المذكور من قول رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»(١).

وقال في حديث عنبسة: «**إذا زالت الشمس فصلِّ، فإن الصلاة محضورة مشهودة**»(٢) وذكر ذلك في أوقات الصلاة كلها.

وقال الله ﷻ: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ [الإسراء:٧٨] فشهوده هنا آية على مزيد نيله أوليائه في الجنة، كما أن مقارنة الشيطان الشمس آية على مزيد نيله أعداءه من النار - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - ومقارنة الشيطان إياها لأوقات يحضر الكفار لعبادتها.

قال رسول الله ﷺ: «**وحينئذٍ تسجد لها الكفار، وحينئذٍ تسجر جهنم**»(٣) قالها لوقت الزوال.

ومن آياته على ما هنالك: مفهوم قوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً**﴾ [المزمل:١-٣] هذا الثلث الأول من الليل.

﴿**أَوْ زِدْ عَلَيْهِ**﴾ [المزمل:٤] يعني: على النصف، فهو الثلث الثاني.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاءت فحمة العشاء فكفوا صبيانكم** - وفي أخرى «**مواشيكم**»(٤) - **فإن للشيطان حينئذٍ انتشارًا**»(٥).

ولما استقر الخطاب على الندب إلى قيام الليل كان النهي عن الصلاة في نشر الشيطان تعريضًا.

قال الله ﷻ: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ**﴾ [الإسراء:٧٨] مباح

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٩٤٥٢)، والنسائي في الكبرى (١٥٤٤).
(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤٥٥٩).
(٤) أخرجه مسلم (٨٣٢) وأبو عوانة (١١٤٧).
(٥) أخرجه أحمد (١٤٣٨١)، ومسلم (٢٠١٣)، وأبو داود (٢٦٠٤) وأبو عوانة (٨١٦٢)، والبيهقي (١٠١٢٥) والبغوي في مسند ابن أبي الجعد (٢٦٠٨) وفي رواية: «فواشيكم» جمع فاشية، وهى ما يرسل من الدواب فى المرعى. الفحمة: هي إقبال الليل وأول سواده.

إيقاعها في ذلك الوقت، وقيام الليل مستحب التحين به إلى الثلث الأول إلى ما وراء ذلك، وغسق الليل خروجه بالحنكة عن بقايا ضياء النهار، فيجتمع حينئذٍ آخر الظلام، ومن أجل ذلك تكون الفحمة.

قال الله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] فأخبر ﷻ نصًّا صريحًا أن النهار إذا انسلخ من الليل أجمع الظلام وانتشر ظلامه، وهو الغسق ومنه التعوذ ﴿مِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:٣] أي: إذا امتلاء ظلامًا، ثم بوجه آخر متصل، فهذا يكون الغاسق إذا وقب القمر لأجل دخوله في الغسق.

فصل

هذا المذكور الذي هو الغسق أحد أرباع الدائرة، واعلم أن ليس المقصود بالربع هنا استواء أرباعها، وإنما المقصود تداول الحكمين المقدرين اللذين جعلهما الله آيتين على حقائق من موجودات الدار الآخرة، وكما ليست دائرة الغبشين متساويتين لطول الليل وطول النهار رجع الكلام نحو هذه أيضًا إلى العجمة الثلث الأول من الليل، وهو ذهاب فحمة العشاء، وذلك عن بركة تنزل ربنا ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلى سماء الدنيا.

ويتمادى هذا الربع من هذه الدائرة إلى أن يخرج وقت صلاة الفجر، كما قال ﷺ في حديث النزول، فلا يزال كذلك حتى يفرغ القارئ من صلاة الفجر، ثم أول الربع الثاني ظهور حاجب الشمس، وآخره تمكن ارتفاعها في أعلى علوها قبيل الزوال، وأول الربع الثالث أول استوائها، وآخره قبيل غروبها، وأول الربع الرابع حين يتوارى بالحجاب، وآخره انقضاء الفحمة من انقضاء ثلث الليل الأول، فكل ربع من أرباع هذه الدائرة دولتان: ذكر وفتنة.

فالذكر عن كريم اطلاعه ﷻ وعلى تنزله، والفتنة عبّر بها رسول الله ﷺ بفحمة العشاء، وهو اجتماع الليل وظلمته، ومقارنة الشيطان طلوع الشمس واستواءها وغروبها، وكل أمره وخلقه، لا إله إلا هو، فموضع كريم اطلاعه وتنزله في الدنيا آية

على اطلاعه العلي على أهل الجنة، وقوله جل قوله: «**أتريدون شيئًا أزيدكم**»(١).

وذلك موضع المزيد فيها، وهو أيضًا آية على وضعه قدمه جلَّ ذكره في جهنم فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: «حسبي حسبي، قد قد» كما أن موضع الفتنة واجتماع الظلمة وما عبر عنه بأنه أثر الشيطان اقترانه بالشمس بثلاث مواطن على سعير جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وفورانها وامتلائها، وجوابها سائلها بقولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠] كما أن ظهور الشمس والقمر آيتان على تجليه جل وتعالى في الجنة.

فصل

لم تلحق ساعة الغسق بأمثالها، وامتناع الصلوة فيها لأجل القرن الذي في ذلك المقارن في الثلاث الساعات هي الشمس، وهي قرينه عند أهل الكفر، وهذا المقارن فيها إنما هو ظلام، وليس الظلام بمقصود بعبادة ولا تعظيم ولا بمزين عند أحد من الأمم الضالة، وربما سبق الشيطان - لعنه الله - إلى فهم السامع مع بادئ من قول رسول الله ﷺ في الشمس إذا هي قارنها الشيطان، وإذا غربت، وإذا استوت، وإنها تطلع بين قرني الشيطان، فيسول له الشيطان أويخطر على باله، فإنه قد قنع منا بالوسوسة إن للشيطان - أبعده الله - قوة على محذور من ذلك وأيدٍ، وإن له قدمًا ووجودًا في القتل.

وكلا إن هو إلا ما قاله الصادق الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**﴾ [الكهف:٥١].

وإنما معنى الخطاب وسر المراد في ذلك لما شاء خلق السماوات وما بينهما خلق ذلك كله بالحق، وقسم ذلك الحق إلى معنين: ذكر وفتنة، فظاهر مواضع الفتنة من السماء الدنيا إلى ما سفل، وظاهر موضع وجود الذكر من السماء الدنيا لما علا، ولما أراده ﷻ من حكمته لما أوجد آدم عليه السلام أوجد له من خلقه عدوًا جعل له

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٣١٠٥)، وأحمد (١٨٩٥٥).

الوساطة فيما سبيله الفتنة، وأقطع له عما له فيما سبيله التزيين والوسوسة، وحقيقة شأنه أنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

والشمس والقمر رؤيتها بحكم التناوب على الدوام، إلا ما استثنى من ذلك حكم الأفول والاستسراد الكائن على المحاق؛ لأن جعل الليل والنهار آيتين، وإلا كانا يكونان آية واحدة، فصَّل الله الليل والنهار باختلافهما واختلاف حكمها تقريبًا للمعتبرين وتيسيرًا للناظرين؛ ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب، كذلك فصَّل كل شيء تفصيلاً.

وقال رسول الله ﷺ: «ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر كمالاً ودوامًا»[1].

لا أفول فيما هنالك ولا غيبوبة، سبحانه وله الحمد و﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ في الدارين ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ عما لا يجوز عليه ﴿الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] أحكم الآيات وأنار البينات.

ولظهور هذه المعرفة في كنه النبوة قال إبراهيم: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦] وإنما نظر في القمر، ولو أخبر عنه بأن نظره فيه كان حال المحاق لتبرأ منه أشد البراءة، فالحق والله أعلم أن هذه الرؤية لأهل الجنة منه على الدوام، كما كانوا يرون الحق المخلوق به السماوات والأرض على الدوام، فإن هذا الحق يشير إلى ذلك فيرونه مشاهدة وحضورًا.

وكما يرونه في الدنيا بمعنى العلم وحال المراقبة المستبطن بالنظر والاعتبار، وله ﷻ أيضًا فضل عظيم ومزيد كثير سوى ما تقدم ذكره من معنى الرؤية على مقادير الصلوات.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٧٦١).

آية ذلك: مواجهة العبد في الصلوة، والمعنى الذي عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**فالصلاة حينئذٍ محضورة مشهودة**»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فإن الرحمن قبالته**»[(٢)].

وفي أخرى: «**فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»[(٣)].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فلا يبصق قِبل وجهه، فإن الله قِبل وجهه إذا صلى**»[(٤)].

قال رسول الله ﷺ وقد رأى نخامة في حائط: «**أيكم يحب أن يستقبله أخوه فيبصق في وجهه؟**» فقالوا: كلنا لا نحب ذلك يا رسول الله، قال: «**فإذا صلى أحدكم، فلا فيبصق قِبل وجهه، فإن الله قِبل وجهه إذا صلى**»[(٥)].

كذلك له أيضًا عز جلاله فضل عظيم وامتنان وإكرام برؤيته على مقادير صلاة الجمعات.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ**﴾ إلى ﴿ **مَّا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس:٥٥-٥٨] فهذه حال لهم في الجنة.

وقال ﷻ وقد ذكروا النار، أعاذنا الله منها: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق:٣٠].

قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم تلقى فيها، تقول: هل من مزيد؟**»[(٦)] فوصف ﷻ حالها هذه أنها على الدوام.

ثم قال عز من قائل: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ [ق:٣١] وأحال المخاطبين على ما تقدم ذكره وصفه لها في كتابه العزيز.

ثم أشار ﷻ إلى المحذوف من وصف أحوالهم بقوله ﷻ: ﴿**هَذَا مَا تُوعَدُونَ**

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥٧٤٥).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه أحمد (١٢٤٠٣)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والبخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨)، والنسائي في الكبرى (٧٧٢٥)، وأبو عوانة (٤٦٣)، وابن حبان (٢٦٨).

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٢-٣٣] إلى قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

فأخبرك ﷻ بقوله الحق أن ذلك لأهل الخصوص، ومزيدهم هنا هو ما يزيدهم على دائم حالهم التي هي رؤية الحق كما قال النبي ﷺ: «كما ترون الشمس والقمر»[1] على مقادير الصلوات، ثم على مقادير صلوات الجمعات يراه ﷻ كل على عمله ومعتقده فيه ومعرفته إياه، وإحسانه في طلب مرضاته ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣].

فينزله بنزله وكريم حضوره ﷻ حضور في الجنة وشهود ورؤية، وهو أعلم بها ﷻ لا إله إلا هو العلي العظيم غير أن الذي يبلغهم ويحضرهم ويؤتيهم من ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإنما هي مواسم تتبع بعضًا على تدوار دوائر محكمة التدوار، عرفها لهم وهو أعلم تقدير العزيز العليم؛ أي: إنها ها هنا على مقادير ما هنالك، وتمدح بالعلم إنما خبأه لأوليائه وأعدائه في دار الخلود، فمن شغل نفسه وقلبه بعبادته وداوم على ذكره أدخله جنته بغير حساب، وأناله أجره ما بكرم مآب وأجزل ثواب.

وإلى هذا ينشأ الحق المبثوث في العالم المخلوق به، وفي السماوات والأرض وما بينهما، وبخاصة منه هذا الحق المشار إليه الذي هو المشهود والحضور الموجود على دوائر محكمة، فإن هذا كله يصعد في الدار الآخرة إلى مشاهدة الحق المبين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] هذا ثم أعلم علمًا يقينًا فيما تقدم ذكره مع تدقيق النظر وتصحيح الاعتبار بهذا الحق الموجود به السماوات والأرض خلقًا وشرعًا من الآيات على ما يؤاتيهم ويصيبهم به الحق المبين عجائب تبهر العقول وتقصر عن العبارة بوصفها الألسن بما لا يحاط بالوقوف على كنه مخلوقاته فيما ها هنا.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

فصل في الاعتبار في الفلك

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان:٣١].

وقال عن من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾(١) [الشورى:٣٢-٣٣].

وقال أيضًا جل من قائل: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٤-٢٥] وجعل ﷻ ذلك من آياته وآثار وجوده على مقتضى مشيئته.

وذكر الفلك في القرآن كثير، وإنها آيات له وآيات عليه لأولي الألباب ولكل صبار شكور.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣].

فبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فرقان بيّن؛ إذ بالأولى ندب إلى النظر بخلق السماوات والأرض كما قوله ﷻ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ﴾ [الجاثية:٤] أي: في خلقكم وتركب أعضائكم وجميع مواد خلقكم، وتعداد المفاصل، وكيفية تناسق الجملة في تركبها، ثم الاعتبار في ذلك إلى ما غاب كذلك.

قوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة:١٦٤] لذلك يتردد الأمر في كيفية النظر باختلاف الليل والنهار، ثم جعلها

---

(١) الجوار: السفن، وهي من الصفات التي جرت مجرى الأعلام، ولما كانت ثقيلة في أنفسها، وكان يوضع فيها من الأحمال ما يثقل الجبال، وكان كل ثقيل ليس له من ذاته إلا الغوص في الماء، كانت كأنها فيه لا عليه؛ لأنها جديرة بالغرق، فقال تعالى محذرًا من سطواته متعرفًا بجليل نعمته معرفًا بحقيقة الجواري: ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: الجبال الشاهقة بما لها من العلو في نفسها عن الماء، ثم بما يوصلها وما فيه من الشراع عليها من الارتفاع، وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. [نظم الدرر للبقاعي (٧/٤١٦)].

هكذا هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا، وقد تقدم إلى ذلك، أو يكون النظر في ذلك أولاً: كيف خلق هذا وهذا؟ ويتفكر الناظر في ذلك، وأما المراد بذلك؟ وما وجوه الحكمة في ذلك؟ وعلى ماذا يدلان بذلك؟ وقد مضى من ذلك تنبيه على بعض المقصود، والله نسأله تمام النعمة وحسن المزيد.

كذلك قوله جل قوله: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤] المراد المفهوم من ظاهر الخطاب عطف على قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وتقدير المحذوف وخلق اختلاف آية الليل والنهار وخلق الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس.

فيكون النظر أولاً: في خلقه المنظور فيه، كيف ولِمَ؟.

ثم ثانيًا: في المراد به، وعلى من يدل إلى خلقه وتركيبه؟ ثم بما وجد له على حق هو هنالك.

أما النظر في خلقتها: فقد يجب أن يقدم الكلام في الاعتبار، فجملة دار الدنيا وأنها - أعني: الفلك - إنما صنعت على هيئة الأرض، ولما شاء الله أن ينقذ رسوله نوحًا ﷺ والذين آمنوا معه، وشاء إهلاك أهل الأرض بالغرق والطوفان أوحى الله إلى رسوله نوحًا ﷺ: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: كما نعلمك ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون:٢٧] المعنى: فعوضهما الله جلَّ ذكره مما أفقدهم إياه ما يشبهه.

يقول جلَّ ذكره: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢] يعني: الإبل والخيل والبغال والحمير، ومثل الفلك هي الأرض التي صنعت على هيئتها، والحيوان كله مخلوق من الأرض، فهي تجري كما قال جل من قائل: ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢] كالأرض راكدة على الماء، ونشر لها الريح من أمره يجريها في البحر، وصورها رحبة العجز مقدمها أضيق من مؤخرها، وقعرها مقعر، أعلاها مفروش كشكل الكرة منها أعلاها، وأبقى على حاله أسفلها كما فعل في الأرض.

فصل

سبيل الاعتبار بها أن يعبر من العلم بخلقتها، ولما قصرت به إلى ما تقدم ذكره

من تعرف خلقة الأرض، وأنها على الماء راكدة لا ترسب في الماء لثقلها وثقل ما يحمله، كالمعهود من رسوب أقل الثقل في الماء، بل زاد الفلك بجريها في لجج البحار بأمره بواسطة الريح، فتراها تنخر الماء مخرًا، فتعبر البحار اللجج الطوامس عبرًا، وتلك آية على وجود حق في الدار الآخرة، أما النجاة والعبور والجري على أمانه فلأوليائه.

وأما الإهلاك والإغراق والأخذ المكتسب لا محالة فلأعدائه؛ لذلك ما امتن ﷻ بإنجائهم وجريها - أعني: الفلك - برحمته، وأوعد تعريضًا بالإهلاك والإيقاع بالغرق، وأخذهم بما كسبوا تنبيهًا على ما هنالك، فإنهم يضطهدهم إلى ركوب سفن نار جهنم تجري في بحار الحميم والغساق والغسلين إلى حيث شاء من ذلك بهم، ثم نغرقهم فيها بأخذهم في ذلك بنوع من كسبهم السيئات في دار الدنيا.

يقول الله ﷻ: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي: ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: على بلوى هذه وامتحانها ﴿شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٣] لنعماء الله وجزيل أياديه.

ثم قال عز من قائل: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى:٣٤].

وقال الله جل من قائل: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء:٦٩] كذلك يغرقهم في الآخرة بما كسبوا.

آية ذلك: سوقه أهل الدنيا بأطماع الأرباح وحب قضاء الحاجات إلى ركوبها في البحار، فربما أنجاهم بفضله، وربما أخذهم بما كسبوا، وركبها آخرون غزاة في سبيله وابتغاء مرضاته من حج وصلة وغير ذلك، وربما أغرقهم بها فيجعلها لهم شهادة يكرمهم بها فيما هنالك، فإنه من قتله في الدنيا بما تقتل من كفر وهو مؤمن جعل له ذلك شهادة.

قال رسول الله ﷺ: «**الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله**»(١) فذكرهم وزاد عليهم في رواية أخرى.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٥٥٨).

فصل

وقد يعبر منها بالنظر في جملة المخلوقات، فإن الجملة على ما تقدم ذكره ليست على المخلوق ولا يحيط بها مخلوق؛ إذ المفروض للنظر الجملة وإياها - وهو أعلم - أراد بذكر الفلك في بعض المواطن بوجه من النظر.

يقول الله جل من قائل: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان:٢٨] أي: هو يسمع المسموعات بسمع واحد، ويبصرها ببصر واحد، ويقدر عليها بقدرة واحدة كما يعلمها ﷻ.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يعني: إدخاله جميع ما سكن في الليل في هذا التقليب، ويجرى عليه هذا التدبير، ثم قال: ﴿وَأَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٢٩].

يقول الله جل قوله: يعلمكم و﴿يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد:٣٠] على اختلافها، ونياتكم على تباينها، وجميع المعلومات على آجالها وأحوالها على اتساع ذلك كله وانخراقه واحد على واحد كعلمه معلومًا واحدًا.

ثم حكم بحكم الحق والقسط لنفسه ولسواه ﷻ بقوله عز قوله: ﴿بِأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ البَاطِلُ وَأَنَّ الله هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

ثم أتبع ذلك بما ضربه مثلاً لمعنى ما تقدم تحقيقًا له بقوله الحق عز قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ الله لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان:٣١] معنى ذلك: فيشتمل ذلك الحكم جميع ما حواه الفلك؛ ولذلك قال جل من قائل: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ أي: على إدخاله الجملة في الحكم الواحد.

وقد أخبر أن ذلك آيات، ولكن هذا مفهوم تناسق الآيات المختلفة، فليتوهم جملة المخلوقات كلها علوًّا وسفلاً كشيء واحد، وذلك قد يشمل المخلوقات كلها في مخلوق واحد على موجود سوى وجوده العلي، قد أحاط ذلك بجميع الموجودات عينًا ومعنى.

فالكائنات والمخلوقات لاغناء بها عن معتمد يعتمد عليه، كالسفينة المعهودة اعتمادها على الماء، وقد كان الماء موجودًا قبل السفينة؛ إذ ليس الماء في السفينة

ولا مما حملته في شيء، حتى إنك لو توهمت عدم السفينة لم يلزم لذلك عدم الماء، فمعتمد هذه السفينة إذًا على ما فرضناه أمر الله ﷻ؛ فإذًا المخلوقات كلها لم يوجدها ﷻ في مخلوق ولا على مخلوق.

فإذا وزان الريح الحامل للسفينة من سفننا وزان الأمر من مؤخر السفينة الموهمة، ووزان الماء الذي تمخر فيه السفينة وتجري فيه هذه السفن، وزان ما عهدها به من الحول وأحاط بها من الحوق ولزَّها من الاقتدار والأمر، وذلك وزان ما أحاط بهذه من زمان ومكان وتوابع ذلك ﴿**إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا**﴾ [فاطر:٤١].

ووزان حدافها وملاحها والمسافرين فيها وزان الملائكة - عليهم السلام - والقوة التي تحللت المخلوقات، ووزان المسافرين المكلفين العباد بتقلبهم من غربتهم إلى قرارهم بأمره، ومن غيبتهم إلى حضورهم وشهودهم ومساكنها وسائسها في أعلاها بأمره، فينقذونه ويسمعون له ﴿**لَّا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم:٦].

﴿**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ**﴾وكذلك لو حط الشراع مساك فيه وعطل السكان والملاحين للعب بهم الموج، وربما عدا الريح عليها وهال البحر فأهلكها ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ [الشورى:٣٣] على ما أمر به ونهى عنه، وعلى [شكره] لنعم الله ﷺ، إن في ذلك لآيات لأولي الألباب الذين عبروا من هذه إلى تلك، فشاهدوا الغيب من شاهد الأمر(١).

---

(١) لما كان ما فيها من المنافع بالتكسب من البحر بالصيد وغيره، والتوصل إلى البلاد الشاسعة للفوائد الهائلة، وكانت أعمالهم في البحر الإخلاص الذي يلزم منها الإخلاص في البر؛ لأنهما بالنسبة إلى إبداعه لهما وقدرته على التصرف فيهما بكل ما يريده على حد سواء، سبب عن ذلك قوله: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاء رَبِكمَا**﴾ أي: النعمة العظمى ﴿**تكذبان**﴾ أبنعمة البصر من تحتكم أو غيرها من الأسفار، في محل الأخطار، والإنجاء عند الاضطراب والريح في محل الخسار، والإرشاد إلى ذلك بعد خلق مواد السفن وتعليم صنعتها وتسخيرها بمثابة جميع الكون، فخدامها كالملائكة في إقامة الملكوت وتحسين تماسكه بإذن ربهم، والمسافرون بها الذين أنشئت لأجلهم وزان المأمورين المكلفين المتهيئين الذين من أجلهم خلقت السماوات والأرض، وما بينهما فعبر بهم من غربتهم إلى قرارهم، ومن غيبتهم إلى =

وقد تصرف الاعتبار بالفلك، فتكون السفينة جارية في البحر آية على قطع المؤمن أيام الدين، فالدنيا هي البحر، والسفينة بدنه وهي حاملته، والعقل والعلم دليلان مشيران عليه بما فيه هدايته وبلوغه إلى وطنه، والقوى خدمتها، وأمر الله وتدبيره إياه محيط بها، والإيمان أمنتها والتوفيق ريحها، والذكر شراعها، والعمل بطاعة الله ﷻ يصلح ما فسد منها، والرسول ﷺ سائقها وقائدها بشارة ونذارة.

وقد يصرف الاعتبار بالفلك إلى أن تكون جارية في البحر آية على قطع مدة البرزخ، لذلك قال الله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٣].

وقال جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١-١٢] فعجب ﷻ بذلك، ويعلم أنه قد أوجب البحث عن خفي السر المستودع في الخطاب بما تقدم، وثنى ﷻ بأنه العجب العجيب.

كما قال عز من قائل في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦] ألا تسمعه ﷻ كيف صرف وجه الخطاب متصلاً بما تقدم في سورة الحاقة إلى وصفه أهوال الآخرة بقوله جل قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة:٢٥] إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠] إلى قوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:٣٥-٣٦] إلى قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠] يقول: إنه الوحي لا غيره.

=

حضورهم ومشاهدهم، ومدبرها أمرها في أعلاها يأمرهم بأمره فيعدونه ويسمعون له، ثم قد يصرف الاعتبار إلى أن تكون آية على قطع المؤمن أيام الدنيا فالدنيا هي البحر، والسفينة جسمه، وباطن العبد هو المحمول فيها، العقل صاحب سياستها، والقوى خدمتها، وأمر الله وتدبيره محيط بها، والإيمان أمنتها، والتوفيق ريحها، والذكر شراعها، والرسول سائقها بما جاء به من عند ربه، والعمل الطيب يصلح شأنها. ذكر ذلك ابن برجان. [نظم الدرر للبقاعي (٣٠٥/٨)].

ثم قال جل قوله: ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة:٤٨] أي: هذا القرآن، وما جاء به، وما يتلى عليكم منه ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحاقة:٤٩-٥٠] من كفر به؛ أي: في الدنيا والآخرة وفيما بينهما.

ثم قال جل قوله وقوله الحق: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة:٥١] هنا هو الموت؛ أي: هو الكائن والواجب كونه لا محالة بعد الموت، كما قال عز قوله في سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩] أي: حال الموت في دار البرزخ ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٨٩-٩١].

كما قال رسول الله ﷺ: «**يفرش له قبره ويوسع له فيه، ثم يقال له: نم صالحًا**»(١).

وفي أخرى: «**نم نومة العروس**»(٢).

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤].

ثم قال جل قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥] أي: الحق الواجب لكونه حال الموت.

ثم قال ﷻ في الموطنين: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٦] لينفك يومئذٍ.

ومنه قوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١-٤٢] سيَّرهم في البحر في السفن، وسيرهم في البر على ما خلق لهم من مراكب الأنعام والدواب، الراجع عليه الضمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هو نوح ﵇ ومن معه في قوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ قريش والعرب، وكل من توجه إليه الخطاب بالقرآن العزيز.

يقول الله جل قوله وهو أعلم: كما حملنهم في الفلك المشحون يومئذٍ قبل

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩٧٠)، والبخاري (٦٨٥٧)، ومسلم (٩٠٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦٧٠٣)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (ص٦٤).

إيجادهم حين لم يكونوا شيئًا مذكورًا إلى أخرجناهم كل جيل منهم على نوبته إلى دار الدنيا، واستخلفناهم فيها ومتعناهم فيها إلى حين، كذلك نحملهم في فلك الدنيا التي هي أجسامهم إلى الآخرة، ونحملهم في مدة البرزخ على أمثالها.

كما قال جل قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فنُزُلهم المشقة لهم من أعمالهم، كما أنزلناهم في دار الدنيا على أرزاقهم المقدرة بهذا، وما هو في معناه أتتهم الرسل - عليهم السلام - الذين ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس:١٤] فكذبوهم، فكان من شأنهم ما قصّه الله جلَّ ذكره.

ثم قال عز قوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(١) [يس:٣٠].

ثم عرض ﷻ بحال من ذهب منهم في دار البرزخ بقوله جل قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ القُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١].

ثم أعلم ﷻ ببعض حالهم بقوله جل قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] والإحضار عبارة عن التنغيص فيما هنالك وسوء الحال، كما قال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨].

وقال أيضًا ﷻ: ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم:٦٨] وبالإيماء يكتفي الألباء.

ثم جعل يسرد ﷻ عليهم ذكر الآيات على صدق ما أتتهم به الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بقوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ على ذلك ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] وهم عدم مقدرون في أصلاب آبائهم.

ثم صرف ﷻ وجه الخطاب في الظاهر إلى الإخبار عن الفلك المشاهد،

---

(١) قوله ﷻ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِم﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: يا حسرة العباد على أنفسها، قال قتادة، وحكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم في بعض القراءات متلوًا. الثاني: إنها حسرتهم على الرسل الثلاثة، قاله أبو العالية. الثالث: إنها حسرة الملائكة على العباد في تكذيبهم الرسل، قاله الضحاك. وفيه وجه رابع: عن ابن عباس أنهم حلوا محل من يتحسر عليهم. النكت والعيون [(٣/٤٤٢)].

بقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢] أي: من مركب الأنعام والدواب المشاهدة.

يقول عزَّ من قائل: فكما خلقنا لهم الفلك المشاهد ومراكب الأنعام تحملهم في هذه وهذه، كذلك إذا امتناهم والموت بحر بعيد غوره نخلق لهم من مثل مراكبهم التي هي الأجسام، أو مثل ما خلقنا منه مراكبهم؛ يعني: مثالات لأجسامهم الحاملة لهم في الدنيا، وهي المماثلة في الحقيقة، ومراكب الأنعام والدواب لا يماثل الفلك والأجسام إلا في أنها حاملة لما حملته فحسب.

وهذه الخالقة للأجسام أحق حقيقة وأعرق في وصف المثل والمثال، وإنما انسرد الخطاب على تصديق قوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢] وإحياء الموتى يتوجه الخطاب به إلى إحياء الأجسام يوم البعث، وإلى إحياء الموتى حال موتهم، وهؤلاء في هذا الموطن، وهنا معنى أيضًا بسياق الإيماء على إحيائه بالحياة الآخرة الجسمانية يوم البعث.

بقوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس:٣٣] ثم أتبعه بقوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] أنبأ ﷻ فيما تقدم ذكره من الإحياء بعد الموت حال الموت.

كذلك قال عز من قائل: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر:٧٩] ينبؤهم ﷻ بركوبهم إياها على الصراط وفي الجنة.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ توجة بالخطاب إلى أنه بخلقهم من ألبانها ولحومها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٨٠] أي: في الآخرة، وفي هذه يخاطب المؤمنين، وقد تقدم ذكر ركوبها قبل، فهذا الحمل هو في الآخرة.

ثم قال جل من قائل: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١] فإنه قد يصرف الاعتبار من قوله ﷻ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢] إلى مراكب الجنة خَيلها وإبلها وجميع مراكبها، يركبونها مسخرة مزينة لهم، لا تبول ولا تروث ولا تنفر إلى الزيارة

الكريمة، وحيث شاء من بيوتهم في الجنة، فإذا رجعوا رجع من شاء منهم في السقر، تجري بهم في أنهار السلسبيل والتسنيم والكافور، وطينها المسك الأذفر، وحصبائها الياقوت، وقصب حافاتها العقيان والزبرجد، قد تجري بهم تلك السفن برياح الرحمة في أنهار لا حدود لها، يشرفون منها على سواحل ممالكهم وكريم منازلهم [بأقاربهم][1] وولدانهم، يلقون هنالك ﴿تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان:٧٥].

فصل

اعلم أن كل شيء مسخر لبني آدم في هذه الدار من كل ما شمله.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤].

وقوله جل قوله: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2] [البقرة:١٦٤].

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فهو آية الله ﷻ يعلم بذلك عباده إنه في الدار الآخرة يسخر لهم كل شيء سخر لهم ها هنا أو لم يسخره، حتى إن نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - يسخرها لهم فلا تعدوا عليهم.

قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٣٨-٤٢] إلى آخر المعنى.

فكان هذا مصداقًا لما أنبأ به رسول الله ﷺ: «**إن المؤمنين ليشفعون لإخوانهم**

---

(١) في الأصل: بقهارمتهم.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» والبيهقي في «الأسماء والصفات» وابن عساكر عن معاذ ابن عبد الله بن حبيب الجهني قال: رأيت ابن عبّاس سأل تبيعًا ابن امرأة كعب: هل سمعت كعبًا يقول في السحاب شيئًا؟ قال: نعم، سمعته يقول: إن السحاب غربال المطر، ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض. قال: وسمعت كعبًا يذكر أن الأرض تنبت العام وتنبت نباتًا عامًا قابلاً غيره. وسمعته يقول: إن البذر ينزل من السماء مع المطر فيخرج في الأرض. قال ابن عباس: صدقت، وأنا قد سمعت ذلك من كعب. [الدر المنثور (١/٣٣٢)].

الذين في النار، يقولون: ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا ويصومون ويحجون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم فيها ممن عرفتم فأخرجوه منها، قال: فيذهبون فيعرفونهم بدارات وجوههم ومواضع السجود منهم، فيخرجونهم...»(1).

أما في الجنة فكل شيء مسخر لهم طائع، شمل ذلك قول الله ﷻ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ [ق:٣٥].

وأما أهل النار فبالضد في ذلك، سلط عليهم كل شيء غير مسخر لهم حتى إنهم ليسلطون على أنفسهم بالذم لها والسب واللعن؛ لأجل عظيم الندم، والاعتراف بما كانوا عليه يأكلون أيديهم ندمًا حتى تفنى، ويسلطون على أنفسهم من كل وجه من النكال - نعوذ بالله العظيم من أحوال أهل النار في النار - فهذا من الحق المخلوق به السماوات والأرض.

فصل

في الاعتبار بالماء ينزله الله جل ثناؤه من السماء

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ ثم قال جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المُوتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

فأثبت لنفسه ﷻ بموجب الحق والدليل على أنه الحي المحيي المميت، وإنه القادر على كل شيء، وإنه المنزل الماء من السماء وأنه المنشئ المريد لا يكون شيء من ذلك ألا بمشيئته وإذنه في ذلك، ما شاء من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن، وإنه الواحد؛ لأنه المنزل الماء من السماء؛ إذ لو كانت السماء له دون الأرض لمانعه مدعيها، لو كانت له الأرض ولم يكن له السماء لوقع التمانع في توصل الأحكام وتفصيل القضايا وترتيب الأفعال الكائنة عن ذلك، ولولا أنه الإله الواحد الأحد في السماوات والأرض لم يتصل، ولانخرم النظام فلم يتسق الإحكام، ولفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢١٧٩)، والآجري في الشريعة (٨٠١) بنحوه.

وقال أيضًا ﷻ: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

ثم قال وقوله الحق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ [الحج:٦-٧] فهذه دلائل على مدلولات أغنى باجتلابها إياها عن ذكرها.

فصل

قد تقدمت إشارة إلى التنبيه على الاعتبار بالماء، وأنه آية على نزول الأمر، وإن تصريفه فيما يخلقه الله ﷻ وتعالى منه آية على تصريف الله ﷻ الأمر، وما يكونه عنه في جميع الكائنات، وكذلك هو أيضًا آية على تصريف الوحي يوحيه إلى رسله - صلوات الله عليهم وسلامه - وينزل به كتبه ويصرفه في الهدايات والإضلال على درجات ذلك ومحاله.

وكذلك هو آية على إحياء الله الموتى وبعثهم يوم البعث، ونشرهم يوم النشور، وكذلك هو أيضًا آية على أن الساعة آتية لا ريب فيها، ولا مرية في العلم بها، دل على ذلك همود الأرض وموتها في وقت معلوم، ثم نزول الماء وإحياؤها به في وقت من الزمان معلوم منتظر، كذلك الساعة لموعد لا يخلفه الله.

ولما قال الكفار: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٧١] أجابهم رب العزة ﷻ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠].

جعل الله الجليل جلَّ ذكره حول السنة مقتضى لدلالات أول الإحياء، ثم الإماتة، ثم الإحياء، كذلك اليوم والليلة، وقد تقدمت إلى ذلك إشارة، وذلك كله دليل حق وشاهد عدل على أن الله ﷻ هو الحق المبين بأن الحق خلق به المخلوقات، وبثَّه في المعلومات، وصور علمه بصورة المخلوق.

وكما لا يكون فعل إلا من فاعل ولا يوجد المصنوع إلا من صانع كذلك لا يكون إنزال الماء وتصريف الرياح وتسخير السحاب وإماتة الأرض، ثم إحياؤها بإخراج ما يخرج منها على اختلاف ضروبه وتباين أجناسه، ثم إيجاد الموجودات عن ذلك بغير موجود أوجد ذلك وفاعل فعله، وذلك أيضًا آية على إنه على كل

شيء قدير، وبكل شيء عليم، المنشئ بكل سماء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، القائم على كل شيء ومصرفه ومقدره، له الأسماء الحسنى والصفات العلا والمثل الأعلى، العلي الكبير.

لما صرف الماء هذا التصريف، ونوَّع ما صرفه هذا التنويع، واقتدر على المقدورات كلها التي خرست الألسن عن وصفها، وإن أبلغت وعجزت الفهوم عن الإحاطة بها ولو أوغلت، بل عجزت عن وصول بالعلم وتحقيق بذهن إلى تحصيل حقيقة جزء من أجزاء ذلك وإن حرصت، كلا بل رجعت حسيرة عن بعض مرادها، ونكصت عن مقموعة على أعقابها.

فبينما هي كذلك قائمة بين الطمع والرجاء، تتقلب في غيب المشقة والعناء؛ إذ ناداها العلي الأعلى يخاطب منها رجم الظنون بقوله الحق جل قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] فرجعت إليه إيمانًا، وشهدت له إيقانًا قائلة له: أنت المطلوب في كل وجهة، والمقصود بكل طلبة، والمراد بكل معنى، آمنا بك وبكل ما جاء من عندك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾[آل عمران:٨].

ربنا عليك وإليك أنبنا، فافتح لنا وعلِّمنا من لدنك علمًا، واجعلنا من أولي الألباب، وهو أيضًا آية على إحياء الله الموتى حال موتهم.

من ذلك: بعض ما توجه إليه قوله الحق جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٤] فشجرات الدنيا وثمراتها لها أحايين معلومة وآجال منتظرة، وذلك آية على اعتبار قد تقدم ذكره من نشء الدنيا إلى الآخرة، إن شجر الجنة وأوراقها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها أبدًا على الولاء وعموم الأحايين.

فأحايين الدنيا سنون ومدد متراخية، وأحايين الآخرة غير منفصلة، بل متصلة، يخلف المثلُ المثلَ دون زمان محسوس، وأقرب من ذلك ما ضربه الله ﷻ به مثلاً الكلمة الطيبة شهادة أن لا إله إلا الله، وكل كلمة طيبة بعد تصحيح العقد شهادة الحق تعطي أكلها أبدًا على الولاء، متى قالها، متى شهد بها، متى عمل بمقتضاها،

متى تحركت بما هو كلام طيب شفتاه أتته أكلها ذلك الحين، بل أسرع من حين قوله إياها معًا وعلمه بها، وهو أسرع الحاسبين.

وقال جل قوله: «**وإذا أتاني يمشي، أتيته هرولة**»[١].

فانظر - وقفنا الله وإياك - قربها بالشبه على قدر قربها بالتوجه وجودًا، وشرعة.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا، وأن الرجل ليتصدق بالتمرة من كسبٍ طيبٍ فتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل، فيربيها كما يربي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله حتى تعود التمرة مثل جبل أُحد**»[٢] فتفهم - رحمنا الله الرحيم وإياك - وألقن الخطاب، وأنه ينشئها وينميها تربية وتغذية إلى يوم الدين.

فصل

وفيما لا يسقط ورقة من الشجر تفاضل في ذلك، فمنه ما لا يسقط ورقه كالنخل وغيره شبهه، ومنه ما لا يعرى من ورقه إن سقط بعضه خلفه سواه من الورق كشجر الزيتون والبلوط والبطم وشبهه، ومن الشجر ما يؤتي أكله في حين حياة الأرض بالماء، ومنه ما يؤتي أكله حين مماتها.

ومن النبات ما يكون إقباله وانحطاطه من العام حين حياة الأرض وحين موتها، كذلك وهذه آية على أن حياة في حال الموت، وموتًا في حال الحياة، ومن الشجر والثمر والفواكه ما يؤتي أكله في بطن، ومنه ما يؤتي أكله بطنًا بعد بطن وشيئًا بعد شيء، وهذه آية على أن هذا الحق ينشأ كغيره إلى ما يؤتي أكله كل حين على العموم دائمًا على الولاء.

ومن النبات والشجرة ما يفضل بعضه بعضًا، وأنه قد يكون من الفاضل ما لا يسقط ورقه ولا يعدم ورقًا، وقد يكون ذلك في المفضول أيضًا موجودة فيما هنالك كحياة فرعون وآله. قال الله ﷻ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

وقال جلَّ قوله: ﴿تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٩١٩٦)، والطبراني في الأوسط (٧٠٨)، وابن بشران (٩٣٧).

أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ يعني: ما دون يوم القيامة.

قال الله جل قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] [النحل:٦٣] يعني: يوم القيامة.

كما قال جل قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] بالإضافة إلى عذاب البرزخ، وهو أيضًا آية على النبوة والاصطفاء، ثم لو أن ما يخرجه الله جلَّ ذكره بالماء من الأرض متفاضلاً آية على الاختصاص والاصطفاء والولاية من الله لعباده من شاء منهم بذلك في الدنيا والآخرة، وإن ذلك حق ينشئه الله ﷻ من الأرض من بقاعها وأماكنها وبلادها ومعادنها.

ثم نباتها على اختلافه وتفاضله في مضاره ومنافعه وطعومه وروائحه، ثم حيوانه بهيميه ووحشيه وإنسيه، ثم أناسيه مؤمنةُ وكافرةُ مخلصةُ ومنافقةُ، وإنهم درجات عند ربهم كما تفاضلت بقاع الأرض فكانت لما كان عنها أمًا، وتفاضل ما يصرف الله الماء؛ إذ كان لهم أبًا، فالتفاضل موجود في الأم، وما كان عنها بالماء الخلقة فتبًا للمبطلين الذين أنكروا الخصوصية وكذبوا المرسلين فقالوا: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ﴾ على بشر ﴿مِن شَيْءٍ﴾ [يس:١٥].

﴿أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] وما [...][2] من يموت الخصوصية والاصطفاء تفاصيل الدرجات في الآخرة جزءً وفصلاً.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١].

---

(١) ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قرينهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده، فيكون للحال الآتية، ويكون الوليّ بمعنى الناصر. والمراد: نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه؛ لأن الشيطان لا يتصوّر منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة، وإذا كان الناصر منحصرًا فيه لزم ألا نصرة من غيره، ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين: **الأوّل**: أن يراد البعض الذي قد مضى، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية. **الثاني**: أن يراد البعض الحاضر وهو وقت نزول الآية. والمراد: تزيين الشيطان لكفار قريش، فيكون الضمير في «وليهم» لكفار قريش؛ أي: فهو وليّ هؤلاء اليوم، أو على حذف مضاف؛ أي: فهو وليّ أمثال أولئك الأمم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة وهو عذاب النار. [فتح القدير (٤/٢٣٥)].

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل.

وقال عز من قائل، وقد تقدم ذكر الماء بعد إرساله الرياح، وإنشائه السحاب، وإخراجه به من كل الثمرات وجميع أنواع النبات، وإحيائه به الأرض بعد موتها، وخلقه منه الأنعام والأناسي، ثم قال بعد ذلك: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾** [الفرقان:٥٠] يشير بهذا الخطاب إلى الاختصاص، وإثبات الوحدانية وصفاتها وأسمائها وصفات النبوة والرسالة، وإلى ما جاءت به، وإنه الحق من عند الله، ثم مع هذا يدل الاصطفاء والاختصاص.

فصل

على حقائق الدرجات من ذلك وجود تدقيق التفضيل في موجودات ما يكون عن الماء والأرض، فمن المختصين من يكون خصوصيته بفضيلة واحدة لاثنين ولأكثر ولأقل، وعلى قدر كبر الفضيلة في نفسها وصغرها وبالضد في الإبعاد واللعن يعتبر ذلك بما يكون في وجود ذلك من رذيلة وخساسة، وإذاية وطعم خبيثة ورائحة، وضر وسرف، يسرت له على درجات ذلك واختلافه حتى يتحقق قول الصادق المصدق - صلوات الله وسلامه عليه - حيث يقول: «**إن لله ثلاثمائة شريعة، وأربع عشر شريعة لا يأتي الله عبد بواحدة منهن إلا أدخله الجنة**»[1].

أو كما قال ﷺ: «**وإنما هو الماء ينزله الله ﷻ من كلام ينزله من عنده، ككلامه العلي ينزله من لدنه، ثم يصرفه تصريفًا**»[2].

فتنبه لذلك وتفطن - وفقنا الله وإياك - لما يرضيه سبحانه ﷻ وله الحمد، أخفى الصنعة في المصنوع، وحجب القدرة بالمقدور، وأكن المكنون بالكناية وأغمض وأحكم السر بين المحكم والمتشابه، فما من معنى ولا معلم في الجملة إلا وفي الجزء نظيره، وإن خفي لصغره فبطن لخفائه.

وما في الجزء شيء ولا وجود معنى إلا وهو حق دال على حق له وجود كامل

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٩٨٥)، وفي الأوسط (٨٧٠٩). قال الهيثمي (٣٦/١): فيه عبيد الله ابن زحر، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الشافعي في المسند (٨٢/١) بلفظ: «ما من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء» عن المطلب بن حنطب.

في الآخرة ذلك؛ لأن باقي الجملة مقارن ما في الجزء، وإن تفاوت ما بينها لعظمه فبعد على بادي الرأي، فخفي على تميز، وتعذرت معرفة مقارنته، كذلك ما في المتشابه سر إلا له في المحكم أصل يدل عليه ونظير يشير إليه وإن خفي موضعه واستترت إشارته، وتفصيل هذه الجمل يطول وشرحها يكثر، ومن بلغ هذا القدر لم يعسر عليه - إن شاء الله - استعراض ذلك إيمانًا ثم تعلمًا؛ ليجعل الحاضر مرآته، والشاهد والغائب موضع عبرته، والمقصود بالبيان مطلوبه.

وربما خفي المطلوب في الحاضر وظهرت مثالاته في الغائب بظهور أكثر المعاني فيما هنالك وخفائها هنا؛ لأجل دقيقها، فعلى هذا فليجعل الغائب أمامه وشاهده وموضع عبرته؛ لتصل له معرفة الأشباه والأمثال شاهدًا وغائبًا، وخفية مواقعه الإسهاب والإطالة أن يضطر تسلق سبل الاعتبار حال حقائقها إلى عبارة يتوهم إنها من الخطل، ويظن بالمعنى المعبر عنه من أجل ذلك ما ليس به لما قد يغلب على ظن السامع من رأي كاذب، لا سيما غير الفطن المجرب، فلذلك منع من إثباته في كتاب، وذم مستقصى به زمام، وبالله نستعين على ما يرضيه وإياه نستجير.

فصل

إن قال قائل: الإيمان بالغيب معهود، كشهادتنا أن الله حق، وأن الملائكة حق، والنبيين حق، والساعة حق، ونحو هذا من الشهادة، فإن ذلك موجود حاضر وإن لم يُرَ، وهو الآن معدوم وسيكون في المستقبل، وأما ما ذكرته فنوع آخر تنكره المشاهدة، ولا يكاد العقول تستقر على حال الإقرار به.

فالجواب: إن ذلك كذلك، لكن ما ذكرته من الغيب فهو أولى بحال الإيمان بالغيب، وهو المنصوص عليه من مطالبة المكلفين بالإيمان، وكما أن الغيب ظاهر بالإضافة إليه كذلك له باطن، وإن عقلاً لا يقضي بأن للفعل فاعلاً وللصنعة صانعًا، وأن خالق الأرض والسماوات وفاعل النور والظلمات أحق أن يتبع، ويُبتغَى مرضاته، وتطاع أوامره لعقل غير صحيح.

وكذلك التفريق بين العادة وخوفها، والمعهود من القدر والمعجزات، وكذلك الاستدلال بقوى الحيوان والنبات، وأفاعيل ما يحدث في الأرض والسماوات على

اتصال حكم الشيء في طريق العبرة إلى وجود الملائكة والجن، وغير ذلك من الأمور الغائبات.

وكذلك الاستدلال بتقضي الآجال، وحدوث الأحكام عندها على الساعة، وما يكون إخبارًا عنها وفيها، ثم أدرج القرآن العزيز غير ما هي من وراء ذلك، وكشف عنها رسول الله ﷺ، وهي أحوال البرزخ، ولا يكون أحوالاً إلا المحول عليه بحدها، وأحدها على سبيل الجزاء نعيمًا وعذابًا وإكرامًا وإهانة، ولا يكون ذلك مؤثرًا لا يحس، وعلم ووجد لما يجده من ذلك، ولا يكون إلا بحياة موجودة.

آية ذلك: النوم والرؤيا واليقظة، وما عسى أن يبعث حالته اليقظان حالة يقظته، وما يجده من التفاوت بين الحالتين، ولو وقف الإيمان على الاعتبار بمجرد المشاهدة لعدمت صفة الإيمان بالغيب.

ألا ترى أن النائم تشاهده مضطجعًا خافتًا في موضعه لا يبصر ولا يسمع ولا ينتقل ولا يطعم ولا يشرب، ولا هو في حال يسر معها ولا يحزن ويألم ويلذ، وهو في غيب حاله تلك؟ وربما اجتمعت له هذه الأحوال كلها على حال مخالفة لما نشاهده نحن منه.

وكذلك الميت حال موته مشاهدتنا نحن له أنه ميت في حال البلى والهمود، وتقطع الأعضاء وامتزاجها بالتراب، وكونها طعمًا لما شاء الله، وهو عند أهل الآخرة على خلاف ذلك، ينعم أو يعذب أو يحزن أو يسر، ويقوم ويقعد ويجادل عن نفسه؛ لأنا نحن لا نرى هذه الأحوال من الأموات، فهذه حياة النوم، وإنما يرى بحياة كحياة الملائكة وأهل الآخرة.

ومن تلك الحياة أُعطي الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - والصديقين خصوصًا، أرادهم الله جلَّ ذكره بها فرأوا ذلك إيمانًا ومكاشفة وربما مشاهدة، إنما هما وصفان يتعاقبان على الموصوف فيظهر هذا عند خفاء هذا، ويخفى هذا عند ظهور هذا، وتلك دار وحياة وصفات يدرك فيها وبها الوصفان معًا، فافهم.

وقد أخبر بذلك الصادق الحق ﷻ الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة، وأوصاف الحياة وكل شيء عنده بمقدار، فيعطي من شاء ما يشاء تفضلاً، ويمنع من

يشاء ما يشاء ابتلاء، هذه درجة أولى من الغيب آمن بها، ثم انظر في الدال على ذلك الغيب وابحث على ذلك المطلوب في ذلك الدال عليه، تجده غيبًا في غيب الإضافة إلينا، وهو موجود في كل سبيل، فاعلم ذلك واعمل عليه يفتح لك وهو الفتاح العليم.

ألا تسمع إلى قوله ﷻ: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور:٣٥] ولِمَ مثَّل نوره ﷻ وما وجد فيه وما انبسط عليه بشجرة الزيتون، ثم زيتها ما دال إلا ليبعث ﷻ على التفكر في خلق السماوات وما بينهما المنبسط فيه النور، وأيضًا فإن لها دهنًا يعالج بتعمل ويستخرج بتعب، كذلك معنى النبوة والوحي لا ترى نوره ألا بتعمل الذكر وتردد الفكر.

ثم قال ﷻ: ويضرب به الأمثال للناس كي يتفكرون في الأمثال ويستخرج الأمر المراد بها.

كما قال الله جل قوله في موضع آخر: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥].

وقال أيضًا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ﴾ [النحل:١٠-١١] إشارة منه ﷻ إلى أنه يغذينا به ينشئنا عنه، وإلى أنه يغذينا بألبان الأنعام ولحومها، ويخلقنا عنها وينشئنا.

ثم قال ﷻ: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل:١١] يعلمنا ﷻ أنه يخلقنا مما تنبت الأرض، وإنه أخرج من الأرض جنات، وأجرى عيونًا وشق أنهارًا من الماء المنزل من السماء، يعرِّض بوجود الجنة فيما علا، وأنه أخرج من الماء المنزل فيما هنالك مشبهًا بما أنزله عنه، كالماء يكون عن الإنسان فيخلق عنه إنسانًا، ومن الأنعام كذلك، ومن الدواب وجميع ما يتناسل، جعل الله جلَّ ذكره ذلك آية على وجود الجنة من حيث ينزل الماء إلى ما على ذلك، وعدد في ذلك نعمته علينا في ذلك.

كذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣] وفي ذلك أيضًا تنبيه على أنه كما ينبت جنات ما ها هنا وزرعه، وما تقوم به الدار، كذلك الجنة في الآخرة، وكما الفلاحون هم الغارسون ها هنا، والمتعاهدون والعامرون بها،

والقائمون على حراستها بالنظر منها بتوابع ما يصلحها فكذلك هناك، غير أن الفلاحين فيما هنالك هم العابدون لله، الشاكرون، الذاكرون، الحامدون له والغارسون، هم الملائكة - عليهم السلام - يعملون بإذن الله تعالى لمن يعمل بطاعة الله، وكما ينبت بالماء ها هنا منه ما يكون ابتداء خلقًا وانباتًا بدئيًا.

ومنها ما يكون غراس واكتساب وتعمل، فكذلك في الجنة منه ما يكون مخلوقًا مبتدئًا فأيضًا الجنة، ومنه ما هو مخلوق عن اكتساب العباد بالطاعة لله ﷻ والتسبيح والتحميد والذكر.

قال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله غرست له نخلة في الجنة، ومن قال: الحمد لله فكذلك، ومن قال: الله أكبر فكذلك، ومن قال: لا إله إلا الله فكذلك، وقال: من صلى اثنى عشر ركعة في اليوم والليلة من غير الفريضة بنى الله له قصرًا في الجنة، ومن بنى لله بيتًا** - أو قال: «**مسجدًا**» - **بنى الله مثله في الجنة**»(١).

ومصداق ذلك من القرآن العزيز قوله ﷻ: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة:١٧].

﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ**﴾(٢) [الحاقة:٢٤].

وقوله ﷻ: ﴿**نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة:١٩].

وكما أن الذي في الدنيا من ذلك على الأغلب العباد الغراس والسقي والعمارة والتعاهد هو أفضل لاجتماع ابتداء الخلقة فيه والاكتساب، فكذلك موجودات الجنة التي يكون منها جزاء لأعمال العباد أرفع في الدرجات، وأفضل وجودًا لاجتماع

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فِي الايام الخالية؛ أي: الماضية، وهي أيام الدنيا، وقيل: أي: الخالية من اللذائذ الحقيقية وهي أيام الدنيا أيضًا، وقيل: أي التي أخليتموها من الشهوات النفسانية، وحمل عليه ما روى عن مجاهد وابن جبير ووكيع من تفسير هذه الأيام بأيام الصيام، وأخرج ابن المنذر عن يعقوب الحنفي، قال بلغني أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وغارت أعينكم وخمصت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية، والظاهر أن ما على تفسير الأيام الخالية بأيام الصيام غير محمولة على العموم، والعموم في الآية هو الظاهر. [تفسير الألوسي (٢٢٨/٢١)].

الخلقتين فيه جزاءً موعودًا به، وهي أيضًا بما لها من باطن كالزيتون يستصبح به فيكون منه نور يستضاء به، كذلك المستخرج من العلم من الوحي، وما جاءت به النبوة له نور في باطن العالم به هو أثقب من نور السراج، وأفضل عائدة في أكرم هداية.

وكذلك أيضًا للنمو والزرع والأعناب باطن مستجن فيها، كما قال الله ﷻ وقوله الحق: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧] فالواجب أن كل ظاهر من الموجودات له باطن مستجن فيه، يظهره الله جلَّ ذكره إذا شاء كالحياة في الموت، والموت في الحياة، والليل في النهار، والنهار في الليل، وهي آية بما هي.

وجميع ما ينشئه الله جلَّ ذكره من الماء، وما خلقه من دابة السماوات والأرض سائره في سنن خلقه على شرعة هي مفطورة عليها، لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها على إرسال الله تعالى الرسل - عليهم السلام - وشرعت الشرائع ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

فصل

في الاعتبار بما بث فيها من دابة

قال الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة:١٦٤].

ولما أن كان كل دابة خلقها ﷻ من السماء قرن بينهما في الذكر، وقال عز قوله في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٣-٤].

وقال جل من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩].

وقال عز من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ

وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢] فوصف ﷻ المتدبر بما بث فيها من دابة باليقين، إذا أحسن العبرة وسلك عن سواء قصة النظر، والتذكر كما وصف ﷻ الناظر في الماء، وفيما يفصله إليه إذا أحسن العبرة، ووفق في النظر بالعقل عنه.

فصل

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى:٢٩] يعني: السماوات والأرض، فاقتضى هذا الخطاب أنه بث في السماوات أيضًا دوابًا نص على أنه بثهن في السماء كما نص على بثهن في الأرض، والملائكة في السماوات على جميعهم صلوات الله وسلامه، وهم موصوفون بالطيران.

قال الله جل من قائل: ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى﴾ [فاطر:١] وهم أيضًا - عليهم السلام - مشاة.

قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء:٩٥] المعنى: فيمكن أن يكون عنى بقوله جل قوله: ﴿فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى:٢٩] الإنس والملائكة - عليهم السلام - وجميع دواب الأرض والجن، وغير ذلك.

وقد جاء ذكر البراق، وإنه يضع حافره عند منتهى طرفه[(١)].

وجاء أيضًا: أن الملائكة - عليهم السلام - كانوا يوم بدر على خيل[(٢)].

وكذلك في غزوة حنين قال أنس ﷺ: لقد رأيت الغبار ساطعًا في سكة بني غنم من موكب جبريل، على جميعهم السلام.

وكما في السماوات خيل فليس ببعيد وجود غير الخيل بها من الدواب، وإذا كان يوم القيامة وبدلت السماوات جنانًا، فمعهود وجود الدواب فيما هنالك، وما ذلك أو بعضه ببعيد.

وقد ذكر ذلك الصادق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فهو أيضًا لا محالة حق، وما خلق الله ﷻ في الأرض نوعًا مما هو الخير إلا خلق مثليه في السماء التي هي أدنى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٨٠)، وابن حبان (٤٥)، والحاكم (٣٣٦٩)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والطيالسي (٤١١)، والترمذي (٣١٤٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الحاكم (٥٤١٤).

إلينا، ثم على التضعيف إلى أعلاهن سماء، غير أن الذي في الأرض من ذلك من نفس واحدة خلق زوجها منها، ثم بث منهما ما شاء من النسل.

قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [النساء:١] أي: أنزلها ﷻ في الماء الذي ينزله من السماء وباخره من النطر، وقد يمكن أن يكون معنى إنزاله إياها استئناسها من توحشها منا وسخرها لنا، ومع هذا فإنه إذا كان في الماء كل شيء مختزنًا فأنزله فمن السماء أنزلهن، وإذا أرسل ﷻ الرياح بأمره وأنزل الماء من السماء بإذنه إلى الأرض فخلق ﷻ ما شاء من طائر ودابة وكل شيء حي، فكل ذلك موصوف بإنه مبثوث في السماء.

ولذلك قال جل قوله على إثر ذلك: ﴿هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] يجمعها ما تصاعد في الأجواء، وما رَست في الأرض.

وكذلك قال جل قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] وإنما كان محتويًا كل شيء في السماء بواسطة الماء، فحكم جميع الحيوان حكم جميع الجنات التي أخرجها بالماء ينزله من السماء إلى الأرض، لما كان على جنات أو مرصدة لأن تكون كذلك كالشبيه من الآباء والأمهات، وربما هجس في خاطر ما يكون في الأرض موجودات للدود والحيَّات والخشاش، ولا يوصف بأنه من الجنة، ولا يكون منها.

فالجواب: هو في معنى قول الله عز من قائل: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾(١) [الرعد:١٧] المعنى إلى آخره.

وإنما كان الزبد في الماء بازدواجه بالأرض وبها في الجو من النار والبرد الموجود عن نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فإذا كان يوم القيامة خلص الله جلَّ ذكره الطيب من الخبيث، ثم جعل هذا في الجنة وهذا في النار، هذا كله آيات بينات عن وجود العالي؛ إذ العدم ظلمة ومجهل، والوجود نور ومعلم،

---

(١) الزّبد: الخبث الذي يظهر على وجه الماء وكذلك على وجه القدر «رَابِيًا» أي: عاليًا مرتفعًا فوق الماءِ، فالماءُ الصَّافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار، وجوانب الأودية هو الباطل. [تفسير اللباب لابن عادل (٩/٤١٥)].

نصَّ الله على ذلك بقوله الحق عن قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥].

ثم وجود القوى في الجماد والنبات آيات على وجود الملائكة - على جميعهم السلام - ووجود الجن، ثم وجود العلوم والعقول والأحلام والأفكار والحيَّات على أنواعها بجميع صفاتها ومعانيها، آيات مبينات عن وجود أسمائه الحسنى وصفاته العُليا بعد تحصيل العقد بأن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

واستشعار النفس معنى قوله الحق: ﴿لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ﴾ المنيع وصفه عن سواه ﴿الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] أحكم كل شيء وأودعه دلالة عليه، وحمَّله الشهادة له بما هو أهله، فكل شيء في السماوات والأرض يسبحه بعلائه وعظمته عن سفال نفسه وحقارتها.

وهو معنى قوله الحق جل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] وهو أيضًا عبرة إلى أن في النار لأهل النار أمطار يمطرونها وصواعق يصعقونها.

قال الله ﷻ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[١] [الرحمن:٣٥-٣٦].

وقال جل قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٣٢-٣٤].

وقال عز من قائل في المطر: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩-٢٠] لا مأوى لهم يأوونه دون ذلك ولا كِنٌّ يكنهم، وفيه أيضًا من العبرة إلى أن في الجنة ضد ذلك إلى أن كل ما ينسب إلى الرحمة ويعرف بها.

كذلك قال ﷻ - وهو أعلم - على إثر ذلك: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

---

(١) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ فيه أربعة أقاويل: **أحدها**: إن الشواظ لهب النار. **الثاني**: إنه قطعة من النار فيها خضرة. **الثالث**: إنه الدخان. **الرابع**: إنها طائفة من العذاب. وأما النحاس ففيه أربعة أقاويل: **أحدها**: إنه الصفر المذاب على رؤوسهم. **الثاني**: إنه دخان النار. **الثالث**: إنه القتل. **الرابع**: إنه نحس لأعمالهم. [النكت والعيون (٤/٢١٢)].

وهو أيضًا آية على أن النبوة من الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، وأن الرسالة حق من ذلك سنن الأنبياء وشرائع المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - حق من ذلك الحق الذي تقدم ذكره.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] وهو أيضًا عبرة بما فيها من تصاعد الجملة من جماد إلى نبات إلى حيوان إلى إنس إلى جان إلى ولي إلى نبي إلى ملك، هذا أبين بيان وأنور آية على أن صانعها يصعد إليه التوحيد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كما صعد من أبعاض الجمل كلها، ألا إلى الله ترجع الأمور؟.

فالكمال إليه صاعد، والكثرة إلى الوحدة صائرة، وكذلك كثرة الصفات إلى الموصوف بها وتغاير الأسماء للمسمى بها غير موجد ذلك كثرة في الموصوف المسمى.

آية ذلك: إن أحدنا متكثر الجملة من حيث هو جسم مركب من أعيان أجزاء، ومن حيث هو جملة بها ظهرت ذاته فهو واحد، ويكون أحدنا متكثر الأسماء والصفات والكنى والألقاب، والموصوف المسمى واحد من حيث هو هذا فيمن يجوز عليه الكثرة، فكيف بمن يستحيل عليه وصفها، وهو المسبح المنزه عنها؟!

كذلك الاعتبار في كل أمة التفاضل بوجود فيها إلى أن يصعد تفاضلها إلى التوحيد لسانه أو يقارب ذلك، فهذا دليل على الاصطفاء والاختصاص بالولاية والنبوة والرسالة زائدًا إلى ما فيه من الدلالة على الوحدانية ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥].

فصل

في الاعتبار بما أظهره الله ﷻ في الإنسان من نشأته إلى انقضاء أمده

خلق الله جلَّ ذكره آدم وذريته بقدرته إلى ما شاء في سابق علمه فبثهم أولاً في سبع.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:١٧].

وقد تقدم كيف سنن الاعتبار من السبع الدُّنى إلى السبع العلا، وإن من كل سماءين من الطرائق التي هي مجاري الأمر العلا ضعفين ما بين السماءين التي تحتها، فتلك سبع في سبع، ثم خلقه من سبع هواء وماء ونار، ثم ريح، ثم أرض، ثم نبات، ثم ماهو الغذاء كألبان الأنعام ولحومها.

قال الله ﷻ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:١١] من سلالة من ماء مهين، ثم نقله في الخلقة من السلالة في سبع.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] ثم هو تقلب في التدبير من حيث التعبد في سبع.

قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] إلى قوله جل قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠].

ونظيرتها في سورة المعارج، ثم بعد يسير إلى سبع: يموت، ثم يُحيى، ثم يُسأل فيثبت أو يفتن، ثم يجزى بخير أو شر، ثم يروح ذلك عليه بكرة وعشية، ثم يحيى الحياة الآخرة حياة الأجسام ثم يُبعث.

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥].

وأضرب جلَّ ذكره عن ذكر ما في حال الموت، بيَّنه رسول الله ﷺ قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٦] بعد ذلك.

ثم يفضي ذلك إلى سبع: بعث، ثم حشر، ثم عرض، ثم حساب، ثم سؤال، ثم ميزان، ثم إجازة على الصراط، ثم دار القرار.

فصل

قال الله جلَّ ذكره: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨].

وقال جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾

[الذاريات:٢١]. وقال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤]. وقال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

سبحانه ﷻ وله الحمد، أحسن تقديره وأتقن تركيبه، وقسَّم أجزاءه ورتب أعضاءه، وأحكم تدبيره فأبدع تصويره وصنعه بشرًا، وشق له سمعًا وبصرًا، وجعل له يدين ورجلين وظهرًا ووركين وبطنًا وجنبين ولسانًا وشفتين، ثم هداه النجدين.

وهذه كلها أعضاء مركبة لضروب المنافع لا غناء له عنها، ولا حياة له إلا بها، وهي كلها من جهات الافتقار والحدث؛ إذ القديم ﷻ ليس بمفتقر إليها ولا إلى شيء غيرها، والمنافع والمضار لا تجوز عليه من حيث هي صفات نقص وفقر وعجز.

كذلك هيَّأ له آلات لقبول الغذاء الذي يكون به حياته وبقاه، وجعل ﷻ لغذائه بلطيف حكمته وعلي قدرته موالج ومسالك ومنافذ ومحابس ومخارج، ثم نفخ فيه الروح وألزمه الحركة والسكون، وجعل الرحم مسكنه والبطن منزله بحيث توارى عن العيون، وخفى عن الظنون، مطبقًا عليه في مضايق الأمعاء وظلم الأحشاء، مغشي الوجه بالسابياء، فقل كيف خفي على ما هو فيه من ضنك المحل الذي لو رد إليه بعد خروجه عنه لعاجله الهلاك قبل الاستقرار فيه.

آية جعلها ﷻ على الحياة في القبر؛ إذ مدة الكون في البطن برزخ بين الموت الأول وبين وجود هذه الحياة، بل أوصل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إليه في مضائق الأحشاء حصة من الغذاء، وحفظه من الآفات، وحماه من العاهات بحيث لا يصل إليه رفق الآباء والأمهات؛ ليتم ﷻ فيه مراده، وينفذ فيه حكمه وعلمه.

ثم نقله من ضنك ذلك المحل وضيق ذلك المنزل إلى دار المحنة ومحل الابتلاء والفتنة، ولما أفضى إليه بكى فقال: ما الذي عليه بكى، وإلى أرحب ما كان فيه أفضى؟ كلا، ما بكى حتى يلقاه قبل المبرة فيه الأذى، وتلك آية على وجود الابتلاء الذي وجد له، والمحنة التي أعدت له ومقدمة معرفة ما هو صائر إليه من الفزع يوم ينفخ في الصور ويبعث من في القبور.

لما يؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكا الطفل ساعة يولد

وإلا فما يكيه منها وإنها لا وسع مما كان فيه وأرغد

ثم تلمظ[١] لما جاء يستدعي على الرضاع، فلم يألُ في إجهاد حلمة الثدي مصًّا للبن أمه، فلما أساغه وسري في جسمه سكنت حرارة جوعه، فسكن فقلت: ليت شعري، كيف اهتدى لمصِّ ثدي أمه وهو لا يرى ولا يسمع ولا يعقل ولا يعلم ولا يعي ولا يفهم؟

ومن أين علم أن هناك لبان يغذوه، وإنه بالمص يستخرجه وبالإساغة يتم غذاءه، ويهدي جوعه ولم يعرف شيئًا من ذلك؟! بل الذي خلقه فقدره هداه إلى ما له قدَّره، وهذه آية على تثبيت الله ﷻ الذن آمنوا يوم القيامة، وفي عرصة المحشر؛ إذ لا اختيار لأحد ولا رأي يدبره، بل الأمر كله لله.

يقول الله جل من قائل: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ**﴾ [إبراهيم:٢٧].

﴿**فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾[٢] [البقرة:٢١٣] بما فطرهم عليه من الإسلام، وأضل الظالمين عن ذلك، وفي الأغلب أنه لا رأي في ذلك للعقل، وإن كان فالرأي والكسب في ذلك وغيره لله جلَّ ذكره.

كلا ما اهتدى لذلك بتمييزه ولا بعلمه، بل هداه إلى ذلك خالقه ومصوره ومربيه ومدبره، وجاعله سبب حياته ونموه وبلوغه إلى منازل رزقه وإتمام أجله،

---

(١) أي: حرَّك لسانه.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾ فاختلفوا في يوم الجمعة فأخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد فهدى الله أمة محمد بيوم الجمعة، واختلفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس وهدى الله أمة محمد للقبلة، واختلفوا في الصلاة فمنهم من يركع ولا يسجد ومنهم من يسجد ولا يركع ومنهم من يصلي وهو يتكلم ومنهم من يصلي وهو يمشي فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام فمنهم من يصوم النهار ومنهم من يصوم عن بعض الطعام فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم فقالت اليهود: كان يهوديًا، وقالت النصارى: كان نصرانيًا، وجعله الله حنيفًا مسلمًا، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا، وجعلته النصارى إلهًا وولدًا، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. [الدر المنثور (١/٤٨٨)].

كما هداه ﷻ إلى فطرته، وأضله عن هدايته؛ ليبلغه إلى تمام كلمته وما سبق له في علمه من شقاوة أو سعادة لأجل هداية تكون منه أو ضلالة.

ثم هو لا يزال ينتقل في مراتب إنشائه منقلة منقلة كما يقربه إلى أجله مرحلة مرحلة حتى بلغ به مداه، وركب فيه العقل وصحة التمييز والفطنة وحسن التدبير، ومعرفة العلل وعلم مخارج الأسباب، ومآل كثير من الأمور، ثم رفعه في درجات ذلك حتى أبان فضله على سائر الحيوان، وسخر له أصناف العالم ليتصرف في منافعه ومصالحه التي بها قوامه.

وتلك آية الله تعالى أنه سخر له أن اهتدى موجودات الآخرة فاعبر - وفقنا الله وإياك - من مقامك هذا موطئ قدميك ومَلمح بصرك وموضع مشاهدتك، كيف ضمن الخالق الرازق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه له جميع أصناف العالم رزقه وسخرها لمصالحه، فالأرض قراره ومسكنه.

ومما ينبت من النبات والشجر والحيوان معاشه ومعاش ما يعنون به وتستسخره، وتتصرف في منافعه من الأنعام والحيوان والأنهار والعيون مشربه وشربها، ثم اقضِ بذك على مثاله إن اهتدى إتمام النعمة وتسخيرها هنالك له، كما قال عز من قائل: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [الفرقان:١٦] وبالضد إن لم يهتدِ.

ثم ارضَ، وما تضمنه متصلة بالأزمنة، والأزمنة متصلة بالفلك، والفلك متصل به فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وكذلك هو متصل بفتح الله برحمته، فالأزمنة من أجل ذلك مختلفة بالحر والبرد الكائنين عن نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم منها برحمته - فسبحان الله وله الحمد ما أعجب تقديره، وأتقن تدبيره وأمضى يسره وفقره.

انظر إلى تسخيره إياها واعجب لهذي، وهي لعباد الله أعدى عدو وجعل هذين النفسين منها منها أبدًا متتابعين متعاقبين، منصرفين إقبالاً وإدبارًا لمصالح العباد مع ما يفتحه الله من رحمة من عنده كلما فار أحد النفسين وعدى وأدى أعاد عليه عاقبة بواسطة فتح رحمته.

وتلك آية منه على الحق الواجب كونه في الدار الآخرة الذي عبر عنه رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم يجعل فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويقال لها: هل**

امتلأتِ؟ وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرحمن فيها قدمه، فتنزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط»[(١)].

ولولا تعاقب ذلك النفسين وتصرفهما بما صرفهما به وسخرهما له ما طلعت ثمرة ولا نبتت شجرة، ولفسدت البلاد وهلكت العباد؛ ذلك لأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لهذا خلقهم، وبهذا التدبير أنعشهم، وإذا شاء جعل أمره على ما هو مشبوه العلم القدير، فسبحانه وبحمده جعل عيشهم فيما كان يكون به هلاكهم، والأزمنة متصلة بالرياح الهابة في الجهات الأربع على حكمته المقسومة في تدبيره الكريم، وفتح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - واستخدامه لها في مصالح العباد.

والرياح مقسمة على الطبائع الأربع، والطبائع عبارة عن حدود جعل الله جلَّ ذكره لتناهي الفتحين حين ارتكاض ذينك البحرين، فحد لهذا أن يكون حارًا يابسًا، وقدر أن يكون الماء المنزل من فتح رحمته باردًا رطبًا، غلب به رحمته على غضبه بأن رطَّب اليابس وبرَّد الحار.

ثم فَصل خلقه عن ذلك الماء، وأخرج فيما خلقه عنه وعن الأرض بواسطة ذينك الفتحين شبه الآباء والأمهات والأعمام والأخوال في الأبناء، وفي اللذاذات والحلاوات والمرارات والمنافع والمضار، وجميع المعاني كلها بأوزان موزونة وحدود محدودة، وللطبع من الأوصاف المذمومة، فالرياح أول لهذا التنزيل.

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم:٤٦] و﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] وهي اللواقح أيضًا فتلقح للأجواء ماء، وينشر الله السحاب على ما في الأجواء من نفسيين.

فمنها: حارة تلقح الأجسام والثمار.

ومنها: باردة تبرد الأنفاس وتشد ما حلته الحرارة.

ومنها: رطبة ترطب ما أيبس الحر والبرد.

ومنها: يابسة تشد ما ترطب، فافرط لتنشيفها الرطوبات الزائدة، والرياح متصلة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨)، وأحمد (١٢٤٠٣)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والنسائي فى الكبرى (٧٧٢٥)، وأبو عوانة (٤٦٣)، وابن حبان (٢٦٨).

بالرحمة بواسطة المشيئه العالية.

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهي متصلة بالسحاب، قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى﴾ [الأعراف:٥٧] ومثله كثير.

والسحاب متصلة بالماء، والماء متصل بالفتح من عنده ﷻ بالرحمة منه، والسحاب مسخر بين السماء والأرض تجمع الرياح، منها ما تفرق، منها ما انطبق، وتزجها سوقًا فتحملها إلى البلدان البعيد، وتصرفها بإذن باعثها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بحكمة جاعلها ورحمة منشيها ﴿فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [النور:٤٣] وبالأمطار التي تكون عن الفتح من منزلها بحياة العباد.

والبلاد والأمطار متصلة بالأزمنة التي لو تأخرت عنها هلكت العباد، وأقشعرت البلاد، والأزمنة أيضًا متصلة بالشمس وبحركة الفلك وبالقمر؛ إذ سلطان الصيف والنهار للشمس، وسلطان القمر لليل والشتاء، والشمس والقمر متصلان بدور الأفلاك، والفلك متصل بالسماء من علو، ثم بفتح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - من سفل.

صنعة عجيبة ظاهرة، وحكمة بليغة زاهرة، وآية بينة واضحة، ودلالة قائمة لائحة، خصمت ألباب المبطلين، ودحضت حجج المعطلين، ورفعت شكوك الجاحدين، وأنارت بصائر المبصرين في الله رب العالمين، وفي الحق المخلوق به السماوات والأرض والدار الآخرة جنتها ونارها سعيرها وزمهريرها، وعدها ووعديها على تفصيل ذلك كله أنه ﴿الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

فصل

قد تبين بحمد الله وعونه أن خالق الإنسان وما به قوامه من السماء والأرض وما بينهما هو الله رب العالمين وحده لا شريك له، وإن به قوام الإنسان من أرض وسماء وأفلاك ونجوم وشمس وقمر وهواء وليل ونهار، وما يختلفان به ويتقلبان به

آيات مبينات على أسماء الله الحسنى وصفاته العُلا.

ومما يزيد في ذلك إيقانًا إن شاء الله: عِلمك بأن الله ﷻ خلق الإنسان مضطرًا إلى الأرض، ولا يمكنه الاستقرار إلا عليها؛ لتعذر استقراره على الهواء، وامتناع رقيه إلى السماء، فلو كان خالق السماوات غير خالق الأرض التي منها معايشه وعليها استقراره لم يكن ليخلقه مضطرًا إلى الأرض وهي في ملك غيره يمنعه منها ويدفعه عنها.

وكذلك خالق الإنسان هو خالق النبات والشجر والحبوب والثمار، ولولا ذلك لم يخلق الإنسان مهيًأ للغذاء الذي لا يحيى إلا به، وليس في ملكه ما يعدوه وغيره من الحيوان، ولو جعل غير ذلك لكان غير موصوف بالحكمة.

وكذلك خالق الإنسان خالق الجبال والعيون والأنهار والبحار؛ لأنه لولا الجبال لمادت الأرض بمن عليها ميد السفينة بأهلها، فلم يكن لذلك الاستقرار عليها، ولولا الأنهار والعيون والينابيع لمات الحيوان عطشًا، ولولا البحار لما كان للأنهار موضعًا تنصب إليه وتجتمع فيه، ولو كان ذلك كذلك لغرقت الأرض بمن عليها وفسدت، وفسد جميع من فيها.

لو ارتدعت الأنهار لأجل أسداد تلقاها فيمنعها عن الجري إلى مغيضها، لولا ذلك لغرق لذلك مفروش الأرض، ولأضرَّ بمناكبها، ولولا أن خالق البحر يمسكه ويردعه عن الأرض لفاض عليها ولأغرق جميع ما فيها، ولم يكن يحبس الإنسان عليه طريق بسفينة، ولا فلك تجري فيه، لولا أن خالق الكل ﷻ يكيفه ويمسكه، ويسخره لتجري الفلك فيه بأمره، وليبتغوا من فضله فيشكروا نعمه، ويتذكروا أياديه ومنته.

وكذلك خالق الإنسان والأرض وما فيها هو خالق السماء والأفلاك والشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والأزمنة والدنيا والآخرة؛ لأن الأرض ومن فيها لا تقوم إلا بالسماء وما اتصل بها من جميع ما ذكرناه، وكثير مما لم نذكره اكتفاء بما ذكرناه، فلو كان خالق السماء غير خالق الأرض وما فيها، والأرض وما فيها لا تقوم إلا بالسماء وما اتصلت بها لم يخلق خالق الأرض ومن فيها، وما اتصل بها من حيوان ونبات محتاجًا لذلك كله إلى السماء، وهي في ملك غيره بمنعه منها

ويستبد بها دونه، فكانت الأرض تهلك ومن فيها، وكل شيء مما تقدم ذكره يهلك على سبيله؛ لأنه جل وعلا قد أفقر الموجودات علوها وسفلها بعضها إلى بعض، وأحوج بعضها إلى بعض، وهو الغني الحميد.

فوضح بهذا زائد إلى ما تقدم من البرهان الواضح أن خالق الأرض وما فيها من نشء ونبات وحيوان، وما اتصل بذلك كله من شمس وقمر ونجوم وسحاب ورياح وأزمنة وفتح رحمة وغير ذلك ما غاب وبطن، وما تقدم وجوده أو تأخر وما كان دليلاً على شيء أو مدلولاً عليه فيما علا من ذلك كله وسفل مما دق أو جل، كل معتبر على ما تقدم من الاعتبار، مالك ذلك كله ومدبره وماسكه، الحق الذي هو الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد، رب الدنيا والآخرة الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣-٤].

ومن تمام العبرة، وكما ليس في العالم شيء يقوم بنفسه فيستغني عن غيره، فكذلك ليس في الإنسان عضو يقوم بنفسه ويستغني عن غيره من الأعضاء، وذلك أن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لما خلق الإنسان مضطر إلى الغذاء الذي لا تقوم حياته إلا به، وضمن للعالم القيام بمرافقه ومنافعه من الغذاء وغيره، فكذلك هيَّأ للإنسان آلات وقوى مسخرة لاقتضاء ذلك لذلك الغذاء عند الحاجة إليه، فإذا اقتضى ذلك اضطر إلى التماسه في مظانه، واحتاج فيه إلى نفسه وإلى غيره، فإذا وجده لم يسلم إليه على الكفاية له إلى المؤنة.

بل هو مضطر فيه إلى تمون ما لا يصلح مأكولاً إلا به، فإذا حصل له ذلك هيَّأ له الخالق جل وعلا النفس على استعمال جارحتي بطشه الذي يتناوله بتقلبه، ثم ينقله بإحداهما إلى فيه، فإذا حصل له هنالك توكلت به الآلات المهيئة لطحنه وترقيقه، فإذا لطف دفعته الآلات الموكلة بدفعه إلى المريء، فإذا حصل فيه دفعه المريء إلى المعدة المهيأة لقبوله، فإذا حصل فيها انضمت وانغلق الذي في أسفلها الذي يقال له: البواب سمي بذلك؛ لانفتاحه مرة وانغلاقه أخرى، فلم يخرج منه شيء حتى يتم نضجه وهضمه بالآلات والقوى المهيأة لذلك.

فإذا نضج وصار شبيهًا بالعُصارة التي تهيأ نفوذها في المسالك انفتح المنفذ، فنفذ ما فيه إلى المعاء المتصل بأسفل المعدة، ثم ينفذ منه إلى سائر الأمعاء المستديرة

وغير المستديرة، ثم يجذب الكبد ذلك الغذاء بفوهات وقوى مركبه موصولة من الكبد إلى الأمعاء كبيرة، ويندفع الثفل إلى الأمعاء المهيأة لتقبل ذلك وإمساكه في تجاويف مجوفة منه وفي المعاء المستقيم مدة طويلة حتى يستخرج جميع جوهره باستقصاء، فيجذبه الكبد إليها في أوراد وعروق موصولة بها، فما حصل من ذلك الصفو في الكبد طبخته حتى يستحيل دمًا، إلا أنه دم يتولد معه فضلتان، كما يتولد في كل ما يطبخ وينضج فضلتان كدردي الزيت العكر، والآخر كالرغوة.

فرتب البارئ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المرار والطحال لتصفية الدم من تيك الفضلتين، فيجعل سبحانه وله الحمد للمرارة عنقًا تجذب به الفضلة الأخرى التي يكون عنها السوداء، وبقى في الكبد الدم، إلا أن بعد فيه فضلة مائه، ورطوبة تخرجه عن حد ما يوافق كون اللحم عنه؛ ليصير من الغلظ والمتانة إلى تلك الصورة التي يقال لها: اللحم.

وما كان في الكبد منه صافيًا خالصًا من الأخلاط التي تفسده تقبلته العروق المنبثة وتقسمته بمقدار شعابها بالحصص على مقاديرها، ثم أرسلته إلى عروق أُخر مرتبة لتقبل ذلك منها عروق متشعبة في النواحي المجاورة، ثم أرسلته العروق إلى عروق أخر أصغر منها وأرق حتى إن منها ما هي أرق من الشعر، فلا تزال المتشعبة في أعضاء الجسم ومفاصله تقسم هذا الدم بالحصص، وترسله في نواحي الجسم حتى تعمر به جميعه، فيكون له غذاء وقوام من ماء يرسخ في العظام والمخاخ، ويتصل بالعصب والبشر والشعر، فلا يبقى في الجسم موضع شعرة إلا وقد وصلت إليه حصته من ذلك الدم الذي به نموه وبقاؤه بقدرة خالقه ولطف بارئه ومنشئه.

وما بقي من الثفل الذي به استخرج منه جميع ما فيه من الغذاء دفعته الآلات الموكلة بدفعه شيئًا شيئًا حتى يخرج في غير الهيئة التي دخل فيها في المعدة بقدرة خالقه ولطيف حكمته.

وكذلك ما يبقى في الكُلى من الفضلة المائية طبخته وصيرته بولاً، ودفعته إلى المثانة فأحكمت طبخه، ثم أبرزته في الآلات المهيأة لإبراز البول في وقت الحاجة إليه ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

فصل

وإذا عكست هذا الترتيب بالنظر وعطفت آخره على أوله وجدت الآخر منه مفتقرًا محتاجًا إلى الأول، كما افتقر الأول ليشتمل الافتقار جميعه.

بيان ذلك: إن أصناف العالم والمراد بالعالم جميع ما خلق الله ﷻ مسخر للقيام برزق الإنسان ومنافعه على ما وضح قبل هذا، فإذا عكسنا هذا الترتيب آخره على أوله كما لنا من الاعتبار وجدنا عروق الإنسان الصغار الدقاق التي تأخذ عن التي فوقها محتاجة إلى التي تحتها؛ لتأخذ عنها ما ألزمت إرساله إليها.

ثم كذلك تحتاج العروق التي تحتها ليأخذ عنها ما تسلمه إليها لتسلمه إلى ما يليها، محتاجة إلى الكبد لتأخذه عنها، كما يحتاج الكبد إليها لتورده عليها، ثم كذلك القول في الكبد والمعدة والمريء والفم، والأداة التي هي المنهضة إليها المهيئة لها.

كما أن أصناف العالم المسخرة للقيام برزقه في أن الأسفل من ذلك محتاج إلى الذي فوقه ليأخذ عنه، كما احتاج ما فوقه إلى ما تحته لتسلمه إليه، والذي تحت هذا محتاج إليه ليأخذه عنه ماله؛ ليأخذه كاحتياج الذي فوقه ليسلم إليه ما أمر به، وجعل تسليم هكذا، فالأرض مسخرة لضمه وإنباته، والسماء يسقيه والماء ليغذوه، والريح لتلقحه وتعديل رطوبته، والشمس لتقويته وتصليبه.

وكذلك القول في سائر أصناف العالم في تعلق بعضها ببعض، وتعلق ذلك بالحاجة إلى الإنسان الذي ضمنت القيام برزقه كالقول في هذا سواء، فتفهم هذا تجده كذلك إن شاء الله.

قال الله عز من قائل: ﴿**اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ**...﴾ [الجاثية:١٢].

﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:١٣] أي: ما سفل آيات على ما علا، وما ظهر شاهد لما بطن، وبالفكر الصائب يستخرج الرأي ﴿**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

ثم اعتبر حاجة الإنسان بعضه إلى بعض في غير الغذاء أيضًا تجد الجسم محتاجًا بعضه إلى بعض.

بيان ذلك: القلب محتاج إلى البدن؛ لأنه كالحامل له، به يبقى وبه يقوم، والبدن يحتاج إلى القلب؛ لأنه كالآلة له، به تظهر أفعاله وبه تصح.

ثم الجسم محتاج كله إلى كله، كل واحد من أعضاء المنافع محتاج مفتقرًا إلى الآلات التي لها الأفعال العجيبة، كالعصب الذي يحركه، والمفاصل والأصابع التي يتهيأ له بها القبض والبسط والتقلب والنهوض والقيام والقعود، وكالمعدة والكبد والطحال والمرارة والمثانة والرئة، وسائر أعضاء المنافع وآلاتها.

ثم جميع أعضاء الآلات آلات المنافع محتاجة إلى الجسم، والجسم محتاج إليها لما ذكرناه، محتاج بعضها إلى بعض لاشتراكها في قيام بعضها ببعض، فقد تبين والحمد لله رب العالمين بهذا حاجة الإنسان بعضه إلى بعض في غير أسباب الغذاء، وهو في الانعكاس وانعطاف بعضه على بعض في الاحتياج والافتقار كالذي فوقه، ثم الجسم محتاج إلى الأرض، والسماء والعالم وسائر أصنافه محتاجة إلى الإنسان على ما تقدم، بعض هذه الأصناف محتاجة بعضها إلى بعض وهذا قد تقدم ذكره.

وقد تبين بما ذكرنا ووضح بما استدللنا أن العالم كله آية بعضها لبعض، ليس منه شيء يقوم بنفسه، بل حاجة الافتقار تعمه، وسلمه من مقدار الصوابة والبعوضة والخردلة والذرة فما دونها، وما فوقها إلى مبلغ حدوده علوًّا وسفلاً، وأقصى نهاياته من ظاهره وباطنه في كل زمان وعلى كل حال.

وفي ذلك أبين بيان أن كل ما لا يقوم بنفسه وهو مضطر إلى غير ذلك كيف يقدر على شيء من ذات نفسه، بل وجوده العلم الضروري إلى أن لهذا العالم الذي شمل جميعه الافتقار وعمه الاحتياج وضغطه القهر صانعًا لا يشبهه، ولا يفتقر إلى شيء منه، وهو الغني الحميد رب العالمين.

وقد كان فيما تقدم من النظر في جملة المخلوقات، وإنها كرجل قائم يصلي

إلى ربهم، عامدًا إلى ربه، قانتًا لعظمته، ما يشرف بذي اللب على هذه المشاهدة، لكننا ذهبنا لبعض التفصيل ليستبين الدليل ويستقيم السبيل، هذا شفاء من الحيرة، وزيادة في الإيمان والإيقان ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

في العبرة بتصريف الرياح وتسخير السحاب

قال الله جل ثناؤه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧].

وقال الله جل من قائل: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [الروم:٤٨] أصل الرياح كلها إنها واحدة قسمها الله بأمره العلي إلى أربعة يبعثها بمشيئته من أربع نواحي، ثم بين كل ريحين ريح، وهي التي يقال لها: النكباء، ثم بيّن كل ريحين أيضًا ريح إلى أن يعم محيها ويشمل مهابها دائرة فلكها.

قال رسول الله ﷺ: «**الريح من روح الرحمن** - وفي أخرى: «**من نفس الرحمن**» - **وأمر الله** ﷻ **يصاحبها، وينصر الله بها من يشاء ويهلك من يشاء**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»(٢) والعقيم التي تعقمت من رحمة الله ﷻ، ومنهن مبشرات.

قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] وهي تسير السحاب؛ أي: تبعثه بإذن الله تعالى وتطرده فتظهره.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٨٨)، ومسلم (٩٠٠)، وأحمد (٢٠١٣)، والطيالسي (٢٦٤١)، وابن أبي شيبة (٣١٦٤٦)، وعبد بن حميد (٦٣٧)، والنسائى (١١٥٥٦)، وأبو يعلى (٢٦٨٠).

(٢) أخرجه الشافعى (٨١/١)، والبخاري فى الأدب المفرد (٧٢٠)، وأبو الشيخ فى العظمة (٨١١١٥)، وابن حبان (١٠٠٧)، والحاكم (٧٧٦٩) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين. والبيهقي (٦٢٥٦) وأحمد (٩٢٨٨)، والنسائى فى الكبرى (١٠٧٦٧)، وأبو يعلى (٦١٤٢). قال المناوي (٦٠/٤) قال الحاكم: صحيح وأقره الذهبى وقال النووى فى الأذكار والرياض: إسناده حسن.

واللواقح منهن ما قد شاء الله ﷻ أن يخلق بهن في الهواء سحابًا، وقد يكون لقاحها ظاهرًا بأن يخرج من البحر فيمتلئ ماء حكمًا وعينًا، فلا يجري على موضع من الجو إلا خلق الله منها السحاب، وخلق الماء في السحاب، فلا يزال السحاب ينتشر وينبسط، والهواء ينماع ويتجمع إليها. قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا نشأَتْ بَحْرِيَّة ثُمَّ تَشَاءمَتْ فَهي عَيْنٌ غُدَيْقَةٌ**»(١).

حدث ﷺ عن معهد من معاهد رحمة الله ﷻ، وعادة أجراها ﷻ من فتوحاته وتهاويل البحار أبدًا؛ لانخراق الرياح عليها وتحركها فيها، فيكون العصف من داخله ومن خارجه، وحينئذٍ يأتي الموج من كل مكان، والروح أول للريح، والريح أول للهواء، والهواء بما فيه من الروح والأمر بمشيئة الله جلَّ ذكره أول الروح، والريح أول للماء في الهواء، والماء أول لسائر موجودات الدنيا عند وجود كل حي وكل نبات وشجر وحيوان وغير ذلك.

يقول الله جل من قائل: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [الحجر:٢١].

وثم قال ﷻ: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ [الحجر:٢٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٧٥٧) ومالك (٤٥٢) بلاغًا بنحوه، وأبو الشيخ (١٢٤٧/٤) بنحو حديث الطبراني وسنده. قال الهيثمي (٢١٧/٢): تفرد به الواقدي. قلت: وفى الواقدي كلام وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله لا بأس بهم، وقد وثقوا. وقال ابن عبد البر (٢٤/ ٣٧٧): هذا حديث لا أعرفه بوجه من الوجوه فى غير الموطأ. وقال السيوطى فى تدريب الراوي (٢١٢/١): صنف ابن عبد البر كتابًا فى وصل ما فى الموطأ من المرسل والمنقطع والمعضل. قال: وجميعُ ما فيه من قوله: بلغني، ومن قوله: عن الثقة عنده مما لم يسنده أحدٌ وستون حديثًا كلها مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة لا تعرف، ثم ذكرها، وهذا منها. وقال الكتاني فى الرسالة المستطرفة (١٥/١): قال الشيخ صالح الفلاتي: وقد رأيت لابن الصلاح تأليفًا وصل هذه الأربعة فيه بأسانيده.

ومن غريب الحديث: **نشأت بحرية**: ظهرت سحابة من ناحية البحر وارتفعت. **تشاءمت**: أخذت نحو الشام. **غُدَيْقَةٌ**: مصغر غدقة، وهي العين التى كثر ماؤها وفاض.

فصل

ما من ريح تهب إلا معها أمر من الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلا وهي مرسلة بأمر معلوم، هذا بمعهود الوجود والشرع، فقد يكون ذلك من الأمر المعهود، فلا تكاد النفوس تنكره، وقد يكون من النادر في البشارة والنذارة لكن الأمر له أجل معلوم يظهره الله تعالى فيه، كنزول الماء من السماء، والكائن عنه هو لآجال مكتوبة قريبة أو بعيدة، إلا أن الماء ينزله الله ﷻ فأول ما يظهره الله عنه أن يشرب ذلك الماء ويغتسل به، ويروي الأرض بعد يبسها، ثم ما يظهر عن ذلك من نبات لأمد قريب، كما قال الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣].

ثم ما يكون عن ذلك من جنات وثمر، وكنزول إلى أجل أبعد من ذلك، ثم ما يخلقه ﷻ عنه من حيوان وأنعام وأناسي إلى أجل هو أبعد من ذلك جدًّا، ثم ما يكون عن ذلك الحيوان والأناسي من أعمال وآثار، وإلى غير ذلك إلى أجل أبعد.

ثم يقول الله جل من قائل في الماء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الفرقان:٥٠].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي: بالغياث، ثم عطف ﷻ بالواو في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم:٤٦] فالرياح متصلة بالفتح من عند الله ﷻ من رحمته، وهي متصلة بمحبته وابتلائه، وما يكون عن فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

يقول الله جل من قائل: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم:٥١].

وقال جل قوله: ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧].

وقال جل قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ

الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1] [البقرة:٢٦٦] أي: فيما يفسد الأعمال الموجهة إلى الله ﷻ من رياء أو من عجب أو أذى أو غير ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في منبعث الإعصار والصر، والعقم في الرياح وغيرها من آفاتها، فعقمها آية على هبوبها في دار البوار.

ذكر أن الريح التي أرسلت على عاد فأهلكتهم إنما أرسل منها على مثل حلقة الخاتم ويخرج يومئذٍ عظمها لتسعر بها جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - فيدخل بعضها في بعض فتمزق لحومهم، وتشق جلودهم دون مانع يمنعهم منها، ولا كِن يكنهم، ولا ناصر ينصرهم، نعوذ بالله العظيم من عذابه وعقابه.

كما أن ما ينسب منها إلى الرحمة ها هنا آية على رياح الرحمة في دار القرار وجنة الخلد تهب فيها بإذن الله ورحمته فتثير المسك، وتأتيهم بما يشاؤونه، ويأتي السحاب فيقول: يا أولياء الله، ما تشاءون؟ فيمطرهم، فيكون عن ذلك أمانيهم دون زمان مؤجل ولا أمر مرتقب أجله.

آية ذلك: أن يكون عن الماء ينزله الله ﷻ من السماء، فيكون عنه كل نبات وشجر وجنات وثمر، ثم كل شيء من ولدان وجنات وجواري ورجال ونساء وخيل وأنعام إلى غير ذلك من خيرات الدنيا كل ذلك إلى آجاله وإبّانِه، فينشؤوا دون زمان ولا أجل مؤجل، وهي أيضًا - أعني: السحاب - والرياح آية على أن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا للجملة.

كذلك عز من قائل: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] وكما تصبح وجه الأرض بعد نزول الماء من السماء وهي صاحية، وقد تبين فيها المزيد، فعلى تلك النسبة تكون الجنة عقيب الماء، وهبوب رياح الرحمة فيها وبالضد في دار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - في آثار أمطار الحميم

---

(١) ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ يعني: ريحًا بها نار؛ أي: فأتته السموم الحارة فأحرقت بستانه، ولم يكن له قوة أن يغرس مثل بستانه، ولم يكن عند ذريته خير يعينونه فيبقى متحيرًا، فكذلك الكافر إذا لقي ربه أحوج ما كان، فلا يجد خيرًا ولا يدفع عن نفسه ولا يكون له معين، ولا يعود إلى الدنيا كما لا يعود الشيخ الكبير شابًا. [بحر العلوم للسمرقندي (٢٢١/١)].

والغسلين والغساق، وهبوب رياح العقيم منها.

قال الله ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩-٢٠] إلى آخر المعنى حيث وقع.

ومن عجيب اقتدار الله تعالى بالرياح والتقويم: إنه جلَّ ذكره قد خلق الأرض والسماوات وقدَّر فيها أقواتها، وأوحى في كل سماء أمرها بتنفيذ جميع ما ينبته عن الماء والرياح والهواء والأرض، ويخلق ما يشاء خلقه، ثم يجعل من النبات هشيمًا ما شاء، ومن حياتها حطامًا، ومن حيوانها أمواتًا، ويسلط ﷻ الشمس فتبخر رطوبات ذلك كله، فيصعد ذلك منه بإذن الله تبارك وتعالى، وتحمله الرياح في الهواء فتذروه وتنسفه، فيعده الله هواء كما كان أول مرة، فيكون مخزونًا ذلك كله في الهواء.

ثم إلى مثلها يرسل الله الرياح مبشرات بغياثه وبشرًا بين يدي رحمته، فينزل الماء من السماء بمثلها هكذا منذ خلق السماوات والأرض إلى يوم الانقراض يصعدها نباتًا وحيوانًا، يجعل النسيم والأرواح في منازلها ويحلها محلها، ويمزج معاني الأجسام في الأرض والسماء رطوبات، ثم أهوية معاني في خزائنه، فإذا كان يوم القيامة وأراد ربك ﷻ إعادة كل شيء أخذ من شيء أن يرده فيرجع ما ذهب منه أول على طريقه التي ذهب منه، على اختلاف ذلك وامتزاجه فيما هو كلمح البصر أو هو أقرب، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠].

يقول عز من قائل لما خزنه في الأرض من أرضيات أجسامهم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى:٢٨] إلى قوله عز قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٣١].

ويقول جل من قائل للجملة منهم: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني وهو أعلم بما تقدم ذكره، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ﴾ [العنكبوت:١٩-٢٠] يعني: ما كان من الأمم الخالية والقرون السالفة إلى قوله جل قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] لو نظرتم بحقيقة النظر لرأيتم.

قال الله جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله﴾ أي: التي تدل وتنبئ عما هو كائن يومئذٍ ﴿وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[العنكبوت:٢٣] في اليوم الآخر وفي البرزخ، ليس شيء خلقه الله أو هو خالقه في هذه الدار إلا وهو يعيده كأوله؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم، ويجعل الطيب وأهل السعادة في الجنة.

قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله﴾(١) [البقرة:١٦٥] ﷻ لما دلَّ ﷻ على نفسه وبيَّن ألوهيته، واستشهد على وحدانيته بما نصب على ذلك من المعالم والآيات البينات، أرجع الخطاب إلى معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

وهم على ذلك من علمهم أنه لا ند له يجعلونها ويحبونها كحبهم لله ﷻ، جعلهم لها وحبهم لها شيء لا تحقيق له، وإنما هو أمر ظنوه وحدثوا أنفسهم به وزين لهم الشيطان أعماله تلك فألزموا قلوبهم ذكره حتى ألقوه وعملوا عليه، وورث الخلف السلف على ذلك فضلوا وهم يعلمون.

أعرب الله جلَّ ذكره عن حالهم هذه بقوله الحق ﷻ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] فعلمهم المستقر في قلوبهم هو أنهم ليسوا شركاء ولا أندادًا، لكنهم يتبعونهم ضلالاً وتخرصًا، زعموا أنهم يشفعون ويقربونهم إلى الله زلفًا كذبًا لزعمهم - سبحانه وله

---

(١) ﴿وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا﴾ يعني: بعض الناس وصفوا لله شركاء وأعدالاً، وهي الأوثان ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله﴾ معناه: يحبون الأوثان كحبهم لله تعالى؛ لأنهم كانوا يقرون بالله تعالى، وقال بعضهم: معناه: يحبون الأوثان كحب المؤمنين لله تعالى ﴿والذين ءامَنُواْ أَشَدُّ حُبّا لله﴾ لأن الكفار يعبدون أوثانهم في حال الرخاء، فإذا أصابتهم شدة تركوا عبادتها، والمؤمنون يعبدون الله تعالى في حال الرخاء والشدة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿والذين ءامَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لله﴾ فإن قيل: إذا كان المؤمنون أشد حبًّا لله، فما معنى قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله﴾؟ قيل له: يحتمل أن بعض المؤمنين حبهم مثل حبهم وبعضهم أشد حبًا، وفي أول الآية ذكر بعض المؤمنين، وفي آخر الآية ذكر المؤمنين الذين هم أشد حبًّا لله، والحب لله أن يطيعوه في أمره وينتهوا عن نهيه، فكل من كان أطوع لله فهو أشد حبًّا له. [بحر العلوم للسمرقندي (١/١٤٠)].

الحمد - زعموا عنه وكذبوا عليه حال غيبتهم، ولما واجههم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالرسول ﷺ والكتاب، وأكذب زعمهم وأبطل ظنهم لجوا في باطلهم واستمروا على ضلالهم ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦].

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ﴾ [ص:٦٦].

عبرة: الضلال كله من أصل واحد، وإنما هو شبه يشبه بها على من هو منه ضلال، ألا ترى أنه من عصى الله من الموحدين المستجيبين لله والرسول والكتاب منقطع الحجة، مقرًّا بالخلاف لربه، معترفًا بالضلال عن رشده؛ لينفذ الله جلَّ ذكره أمره المقدر وكلماته الصادقة، فيفرز ﷻ الدواب واستاقها غائبة عن مرادها ربها، نسأل الله تعالى العفو والعافية والتوبة والعصمة المحيطة، وأن يأخذنا بمعنى من معانيه إليه، إنه لا حول ولا قوة لعباده إلا به.

ثم جعل ﷻ يصف اجتماع علمهم واستقرار الحقيقة عندهم، وشدة ندمهم على سوء اختيارهم لأحوالهم تلك عند تبرؤ الأنداد منهم، ورجوع كل حق إلى حقيقته يوم القيامة عند نزول الموت بهم، يحقق علمهم بـ﴿أَنَّ القُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ الله شَدِيدُ العَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥] هناك تحل بهم الندامة على ترك الاستجابة وإهمال الأنفس، والركون إلى غير الوثيقة في الأمر، فتحيق بهم الحسرات، وما ذاك بنافعهم.

فانتظم قوله جل قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] بما تقدم ذكره من معنى وإن بَعُد.

كما انتظم إلى ما جاوره من الخطاب قوله عز قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية؛ لما فيه من التعجيب ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] لأولي الألباب؛ أي: أعجبوا لهاء ولاء على عظم ما أريناهم من الآيات وأظهرنا لهم من البينات على ثبوت الوحدانية.

ومن الشواهد على تحقيق ذلك بما في أنفسهم وفي سواهم: فاتخذوا من دون الله أندادًا، وهم يعلمون أنه لا ند له ولا شريك له في خلق السماوات والأرض ولا في خلق أنفسهم، فما أعجب شأن هؤلاء! وما أعظم افتراؤهم!.

يحذر ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المؤمنين من الركون إلى المعاصي والإقدام

على الخطايا، فإن هذا الشأن منهم أظهر، والحجة ألزم إذا علمهم أحصر، وإقرارهم أظهر وأقرب، ولأجل حقيقة هذا الاقتدار منه لم يكلف أحدًا إلا وسعه.

وقد جعل في وسعه التوبة مما كان والاعتراف بالذنب، ومن تكليف ما لا يطاق أن يقدر هو ﷻ على عبده بعمل فلا يكون ذلك العمل من ذلك العبد، وإنما موضع التكليف وصدق الاستجابة وصيانة الذوات عن مواطن الهلكات، وكف النفوس عن شهواتها، والأخذ منها لها، واستشعار ذلك حتى يمحو الله خطاياه وأعماله المقدرة عليه بالسوء؛ فيبدلها حسنات بأن يوفقه لمحابه والعمل بمرضاته، ثم كذلك حتى يكون له ذلك ديدنًا وعادة.

فإنه ﷻ يمحو ما يشاء ويثبت وقد أحصى كل هذا علمه السابق، ولذلك قال وقوله الحق: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] فمتى وقع لم يكلفه ألا يكون ما قد كان، إنما يكلف ﷻ صدق التوبة وحقيقة الندم والعزم من ذاته على ترك العود، فمتى وقع فكذلك أيضًا حتى يكون الشيطان هو الحسير.

أتبع ذلك ما هو في معنى ما تقدم ذكره من التحفظ والتحرز من مواطن الهلكة، واستشعار عزيمة الصبر قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1] [البقرة:١٦٨].

وانتظم أيضًا في الدعاء لهم من حال كفرهم؛ إذ هو كبير الإثم قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] المعنى كله إلى ذكر الأنداد لمتخذيها كما تقدم، والتحرز من الشيطان الذي أخرج آدم ﷺ من الجنة بعد أن كان، وما أصاب

---

(١) ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: آثاره كما حكي عن الخليل، أو أعماله كما روي عن ابن عباس أو خطاياه كما نقل عن مجاهد، وحاصل المعنى: لا تعتقدوا به وتستنوا بسنته فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام، وعن الصادق من خطوات الشيطان الحلف بالطرق والنذور في المعاصي وكل يمين بغير الله تعالى، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة بتسكين الطاء، وهما لغتان في جمع خطوة وهي ما بين قدمي الماشي، وقرأ علي - بضمتين وهمزة، وفي توجيهها وجهان: الأول: ما قيل: إن الهمزة أصلية من الخطأ بمعنى الخطيئة، والثاني: إن الواو قلبت همزة؛ لأن الواو المضمومة تقلب لها نحو أجوه وهذه لما جاورت الضمة جعلت كأنها عليها، قال الزجاج: وهذا جائز في العربية، وعن أبي السماك أنه قرأ بفتحتين على أنه جمع خطوة، وهي المرة من الخطو. [الألوسي (٩٤/٢)].

بني إسرائيل ونبوتهم مع التوصية بالأخذ للنفس بالأوثق، وهي الاستجابة لله والرسول والكتاب، والتحذير من التقليد من نبذ الهدى، واتباع الهوى بقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] أي: وإن كانوا على غير هدى يتبعونهم.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة:١٧١-١٧٦].

وقوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(١) [البقرة:١٧١] انتظم هذا المثل المضروب في صدر السورة من تشبيههم بالفراش والدواب التي تقع في النار المستوقد تهافتًا في

---

(١) ﴿وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاء وَنِدَاء﴾ على حذف مضاف تقديره: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق، أو مثل الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينعق، والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها، فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه، وقيل: هو تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته، أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قوله: «إلا دعاء ونداء» لأن الأصنام لا تسمع إلا أن يجعل ذلك من باب التمثيل المركب. [تفسير البيضاوي (١/٢٠٧)].

الهلاك جهلاً وطيشًا، شبههم ﷻ هنا بالغنم ينعق بها راعيها ولا تعقل من نعقه سواء أنها تسمع صوتًا لا يفهم.

وفي غير هذا الموضع حطهم درجة عن فهم الأنعام؛ إذ الأنعام قد ألهمت نداء راعيها وزجره، فهي على الأغلب تنزجر وترجع، وإن كان قد وصفها ﷻ بأنها لا تعقل؛ لذلك وصفهم بالصمم والبكم والعمَى، وإنهم لا يعقلون، والفراش لم يلهم إلى ذلك، وإنما عندهم التصميم دون الازدجار، فأخبر جل وعلا عن أولئك الممثلين بالفراش بأنهم لا يرجعون، ومن إغراقهم في استحقاق اسم الذي وصفهم به أن الأنعام ليست بموصوفة بالعقل وهي مع ذلك تنزجر، ولا ينتفعون بصفاتهم.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ﴾ [البقرة:١٧٢] إلى قوله: **﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [البقرة:١٧٣] أباح ﷻ لجميع الناس أن يأكلوا، وضمنه لهم بشريطة العبادة لله والإخلاص له والإيمان بقوله ﷻ: **﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [النحل:١١٤].

وجميع الناس في الأرض بمنزلة أبيهم آدم عليه السلام؛ خلقه الله ﷻ وأدخله الجنة وزوجه وقال لهما: **﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾** [البقرة:٣٥] وموضع النهي لهم على الإجمال هو ألا يطيعوا الشيطان ولا يتبعوا خطواته، وخاطب ﷻ المؤمنين بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، وأن يشكروا الله ربهم، فإن كان هذا الخطاب لجملة المؤمنين فهو محمول على أن جملتهم خليفة أبيهم آدم عليه السلام في الأرض، وتبقى عليهم خصوصية ملك الأملاك.

وأقام الأربعة المنصوص عليها بالتحريم على جملة المؤمنين مقام تحريم الشجرة في الجنة على آدم عليه السلام، والأربعة هي: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله تعالى.

وعلل جلَّ ذكره تحريم أكل الخنزير بأنه رجس، ونص على الخمر بأنها رجس، وكذلك على الأنصاب والأزلام، ونص رسول الله ﷺ على الحُمر الأهلية بأنها رجس، فحيثما كان الرجس فمحرم سوى ما أجازته الأملاك بوجه صحيح؛ فهو محرم على غير المالك إلا بطيب نفس مالكه، ثم قد فتح الاضطرار إباحته على وجه ما.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [البقرة:١٧٤] إلى قوله ﷻ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥].

انتظم ذكر الكتمان بما تقدم من ذكره جلَّ ذكره في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة:٤٠] إلى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤١-٤٢].

ثم استاق ﷻ بعد قصص بني إسرائيل وفي أثناء ذلك يخاطب المؤمنين، ويأمر بأوامر وينهى عن مناهي.

ثم ثنى على ما تقدم ذكره من الكتمان قوله جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

ثم ذكر ﷻ توبة من كتم ولبس بالباطل، فشرط فيها الإصلاح لما أفسده، والبيان لما كتمه، والإقلاع وترك العودة بمقتضى لفظ التوبة.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [البقرة:١٦١] فجمع بهذا العموم كفر العناد والشرك وكفر الكتمان وغيره، ثم أقام ﷻ الدلالة على ما أخبر به من تحقيق الوحدانية وإثبات الإلهية بتوابع ذلك، وقد تقدم فيما مضى.

ثم ثنَّى ﷻ على ذلك ها هنا ذكر الكتمان تعظيمًا لشأنه وتشديدًا عنه، يعرض في ذلك كله لعباده المؤمنين بما أجاب أولئك في نبوتهم وكتابهم تأديبًا منه لهم بغيرهم وتعليمًا بسواهم، وهو الرؤوف الرحيم.

فصل

قوله عزَّ من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩] قيل: معناه: وتلعنهم الملائكة - عليهم السلام - والمؤمنون، وقيل: يلعنهم كل شيء، وهو الأوجه؛ إذ كل ما أوجده الله جلَّ ذكره شاهد له دال عليه، لا يعرف الكتمان ولا هو من شأنه، بل جميع الموجودات يشهد عند من استشهدها وترشد من استرشدها، ويؤدي شهادتها عند ألباب المعتبرين وعقول المتفكرين، قد كتمت

الكتمان وأظهرت النصيحة والتبيان، فمن كتم الحق عن طالبه لعنه كل شيء من ليس من شأنه الكتمان.

وأقل ما في ذلك أنه تباعدت صفاته من صفاتها كما تباعدت من صفات الحق المبين ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢] هذا إلى المعهود المعلوم من أن كل ما رضي الله عنه رضى عنه كل شيء وبالضد، وأحوال الناس مختلفة في الفطن عن الموجودات والفهم عنها.

أما الكفار فهم عمي صم بكم أموات غير أحياء، إن بعثوا من موتهم ذلك بالتنبيه والنصيحة لا يشعرون إيان يبعثون، وأهل الغفلة من عموم المؤمنين كالعمي عن هذا البيان، والبكم عن النطق به والصم عن سماعه إلا قليل، كأنما ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤] لكنهم إن بعثوا من نومهم ذلك أوشك أن ينتبهوا ويشعروا به، وربما يستيقظوا ولم يشعروا لما أوقظوا له وشعورهم على قدر حياتهم، فالموجودات من حق هؤلاء بكم، وهم في غيبة عن حضرتها ومشاهدتها.

وأما العباد من المؤمنين المعتبرين فهم كالرجل المبصر من وراء غمامة، وهم مع ذلك صم عن سماعها، لكن عن ذلك يلقون بعض معارفها، ويلقنون بعض مراداتها بمعاني تسبق إلى أفهامهم، وإشارات تومئ بها إلى ذواتهم شبيهة بالتوسم والتفرس، وهم متفاوتون في فهم إشاراتها وتلقي معارفها على مقادير أفهامهم وصفاء بواطنهم، وإقبالهم على استرشاد الموجودات، يتفاضلون في حظوظهم منها كما يتفاضل المخاطبون الأبكم والشديد الخرس؛ لكثرة تأنسهم بمذاهبه، ومعرفتهم بمواقع إشاراته.

وأما أهل العبرة من الصديقين والأولياء، فالرجل الموصوف بالسمع والبصر وهو في بواديها ومواطن حضرتها لكنه كالذي في بصره خفش، وفي سمعه طرش هذا حالهم المستصحبة لهم، قد تبدَّى جلَّ ذكره لهم من علاماتها وحقائق إشاراتها وسماع هواجس تسبيحاتها؛ وليس ذلك عن وعد وعدوا ولا عن قصد وتعرض لذلك.

ثم يرجعون من أنفسهم إلى أحوالهم المصاحبة لهم من خفش وطرش، وهم على درجات ومقامات في خفة ذلك ورقة، وكشفه عنهم، متفاوتون في صفاء

أحوالهم على مقادير منازلهم ومحالهم في مقاماتهم في الصديقية والولاية، وذلك بحكمة من الله ﷻ في أوليائه، وليشرفوا بحالهم تلك على رفيع محل النبوة والرسالة فيصدقوا بها، ويثيبهم أيضًا ويسرهم على صدق محادثة يحادثون بها، وتكليم يكلمون به في سرائرهم، ونفث ينفث في روعهم.

وأما أهل النبوة المحجورة والوحي الممنوع من سواهم فكالسميع المتكلم البصير، وهم أيضًا على ذلك يتفاوتون.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] فلقد كلمتهم البرايا وسمعوا خطابها، وناطقتهم الخرس وتبينوا تسبيحاتها، ونشأ بهم الحق حتى كلم بعضهم العلي الأعلى ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

وقال جل قوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ فوق بعض ﴿دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] فأرفعهم درجة في تكليمه جل ثناؤه وتعالى علاؤه وشأنه عن موسى عليه السلام.

وبالجملة: فلا يعتمدن المعتمد في تكليم الموجودات على الأصوات وتعرف اللغات، إنما كلام يلقي سامعه فهمه؛ لأنه مراد به حسب، فافهمه.

قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] لما علموا قدر ما باعوه من دينهم، وما أخذوا باشترائهم عوضًا مما باعوه لزم وجود الصفقة في الشراء والبيع، واليهود اشتروا بالهدى الذي هداهم الله برسوله ﷺ وبكتابه وبفرقانه الضلالة، وهو كفرهم وكتمانهم ما ورثوه من أنبيائهم، ولبسهم الحق بالباطل، فكانوا بذلك مشترين العذاب بالمغفرة.

فصل

قوله جل قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] قد يعبر بلفظ الصبر على الجرأة عن حكاية عن العرب، فعلى هذه يكون معنى قوله جل قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ما أجرأهم عليها في الدنيا، وهو معنى قائم بنفسه صادق تأويله، وإن كان فيه تحريف يسير، وحقيقة وجود الصبر هو من بين أمرين.

مثال ذلك: أن يهم العبد بالشيء من هواه ليس لله رضا، فتعزم نفسه عليه بالإنفاذ وشهوته تزعجه وعدوه يزين له، والفضل من الشياطين تارة وإيمانه يأبى ذلك عليه، وعظة الله في قلبه تزجره فيتردد بين هذين، فهو في جنس نفسه وانبساطها على الإنفاذ، فتيقنت أن المحمود من ذلك معنى الصبر.

ومنه قتل النفس صبرًا إنما هو إمساك المقتول عن التفلت والهرب عن القتل، فحاله تلك التي أبدلها من مراده الذي هو الهرب والنجاة هو المعبر عنه بالصبر، فأهل النار - أعاذنا الله الرحيم منها برحمته - ليس لهم عليها صبر، ولو جعل الله لهم عليها صبرًا لكان ذلك بهم رحمة، ومعونة لهم على ما هم بسبيله، وكان يحمل عنهم صدق الصبر الكبير من آلامهم، بل قد استوى في حقهم الجزع والصبر، وجنح بهم الأمر إلى خالص الجزع حتى قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١].

وإنما ذلك - والله أعلم - أن الله خلقهم خلقًا يحملون به عذاب النار، ألا ترى أن أحدًا لو جعل في نار الدنيا على ما هي عليه من الضعف بالإضافة إلى تلك ما يبقى فيها إلا ريثما يلتهب لهبًا وسعرًا وأكلاً له وإعدامًا دون زمان؟! وأهل النار - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - قد كتب عليهم البقاء فيها حتى تتخللهم ظاهرًا وباطنًا كما تتخلل زبر الحديد ها هنا حتى يكون نارًا، بل أحر من النار، فهو أبدًا يلتهب عليه اللهب منها فتتوقد، كما قال عز من قائل: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**واطلعت في النار فإذا عذاب الله شديد، لا تقوم له الحجارة ولا الحديد بمقدار ما ترزأ النار منه شيئًا**»[1] يخلف الله ﷻ مثله كما تقدم في النظر في أجسام أهل الدنيا ما تخلل منها الهواء، يخلفه الله جلَّ ذكره بالغذاء دون غذاء أيضًا، كالجبال والصخر وجميع الموجودات ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يقول ﷻ على هذا: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨].

---

(١) تقدم تخريجه.

والصور باقية، والأحشاء ذائبة، ولا بد من أن يعذبون في النار - أعاذنا الله الرحيم منها برحمته - وبقدرته على سنته تلك فيهم بمقدار عدل محصل عند الله ﷻ موزون، فيحين لذلك نضج جلودهم، وصهر ما في بطونهم؛ لعظائم ترد عليهم، فيجدد ذلك منهم بقوله عز قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] أي: في النار يوم القيامة، تفاعل حريقها وشدة شأنها وهم دائمون على ذلك بمعنى ما تقدم، هذا معناه والله أعلم، نعوذ بالله العظيم من أهوال النار ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

وقد يمكن أن يكون المعنى في قوله عزَّ قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ زائدًا إلى ما تقدم من ذكر التعجب من صبرهم على نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - التعجب أيضًا من قدرة الله ﷻ على إحالة هذه الحقائق في حقهم، يشير إلى ذلك قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة:١٧٦] أي: بالواجب وجوده الحقيقي كونه لا محالة، كما يقال: «الله الحق والملائكة حق والساعة حق والجنة حق والنار حق...» إلى آخر الشهادات كلها ما وجد العبد الصبر مكابدة من نفسه فهو التصبر.

وإنما الصبر الحق ألا يجد في نفسه حرجًا ولا طعمة مرارة ولا كراهة، فيكون الصبر هنا يقرب من معنى الذهول عن حال غير ما هو فيه، فعلى هذا يكون ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

﴿وَاللهُ﴾ ﷻ ﴿يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

لذلك أعقب بقوله الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى حالهم تلك ﴿بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة:١٧٦] أي: بالحق الكائن الموجود في الدار الآخرة من صبرهم على النار وبقائهم عليها، فكما أنهم في الدنيا يأكلون النار ويذهلون عن مذاقها والإحساس بها كذلك في الآخرة لهم صبر عليها يتعجب منه هو بقاء فيه وإبقاء على ذلك.

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة:١٧٧-١٨٠].

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله عز قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] و«البأساء»: الشدائد.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢] و«البأس»: الشدة في القتال.

قال الله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح:١٦].

وقال: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ [الحشر:١٤].

﴿وَحِينَ البَأْسِ﴾ شدة القتال.

معنى هذا الخطاب منتظم بما تقدم من ذكر تحويل القبلة، وإنكار يهود لذلك بقوله جلَّ قوله وهو أعلم: ﴿لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾(١) [البقرة:١٧٧] ها هنا أو ها هنا، إنما البر طاعة الله ﷻ في الأخذ والترك في الائتمار له في جميع ما يأمر

---

(١) قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿لَيْسَ البرَّ﴾ بنصب الراء على معنى خبر ليس، وقرأ الباقون بالرفع على معنى اسم ليس، من قرأ بالرفع فهو الظاهر في العربية؛ لأن ليس يرفع الاسم الذي بعده بمنزلة كان، وأما من قرأ بالنصب فإنه يجعل الاسم ما بعده ويجعل «البر» خبره. [بحر العلوم للسمرقندي (١/١٤٨)].

به، وحمل النفوس على ما يكرهها في ذلك.

وقد يكون مع هذا خطاب يخاطب به ﷺ المؤمنين يقول ﷺ قوله: ليس البر كل البر الصلاة إلى الكعبة دون بيت المقدس دون إقامة الصلاة على حقيقة الأمر فيها والمعنى المراد بها، ودون إقامة ما سواها من الطاعات واجتناب المعاصي، وإنما البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في المواطن كلها بشرط الإيمان في وجوبه.

﴿وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾[1] [البقرة:١٧٧] وتوجيهه في وجه، وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد إلى ما اشترطه، ومن أوفى على ذلك فهو الصادق المتقي.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة:١٧٤] وذكر بعض المفسرين في ذلك أنه على المال، ولهذا نظير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٨ - ٩].

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد:٥] بمعنى في الدنيا عن الإيمان، وفي الآخرة للعذاب.

---

(١) ﴿وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى﴾ الآية دالة على الأمر بالإنفاق على هؤلاء والترغيب فيه، وهي في النفقة التي ليست من حق المال؛ أعني: الزكاة، ولا هي من حق الذات من حيث إنها ذات كالزوجة، بل هذه النفقة التي هي من حق المسلمين بعضهم على بعض لكفاية الحاجة وللتوسعة وأولى المسلمين؛ بأن يقوم بها أشدهم قرابة بالمعوزين منهم، فمنها واجبة كنفقة الأبوين الفقيرين والأولاد الصغار الذين لا مال لهم إلى أن يقدروا على التكسب أو ينتقل حق الإنفاق إلى غير الأبوين، وذلك كله بحسب عادة أمثالهم، وفي تحديد القربى الموجبة للإنفاق خلاف بين الفقهاء، فليست هذه الآية منسوخة بآية الزكاة؛ إذ لا تعارض بينهما حتى نحتاج للنسخ، وليس في لفظ هذه الآية ما يدل على الوجوب حتى يظن أنها نزلت في صدقة واجبة قبل فرض الزكاة. [التحرير والتنوير (٢/٢٥٨)].

وقوله جلَّ قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨].

وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢١].

وقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقوله جلَّ قوله: كلا ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٣-١٥].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] يعني: اليوم والآن، وما يعبر عنه به عن معناه.

وقوله جلَّ قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] يعني: اليوم في حالهم هذا، وقد تقدم ذكر العذاب المستقبل.

قال رسول الله ﷺ: «**الذي يشرب في آنية الذهب** - وفي أخرى: «**الفضة**» - **إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»(١).

هذا كله حق أخبرنا الله ﷻ بصدق قيله وعليّ علمه وكريم مشاهدته أنهم لا يأكلون في بطونهم إلا النار، وأنهم ليسوا بغائبين عن جهنم، وأنها محيطة بالكافرين، والذي يشرب في آنية الذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم.

وليس هذا بأعجب مما أخبرنا به عن الشهداء في سبيله بأنهم أحياء يرزقون، فرحين مستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وإنهم وجدوا ربًّا رحيمًا كريمًا مكرمًا، وإنه نهانا ﷻ أن نقول فيهم أمواتًا، وقد كانت المشاهدة في هؤلاء الشهداء غير الذي ورد به الخبر.

أفترى أن نترك صدق قيله ﷻ بمشاهدة لا ندري باطنها، وإنما الشاهد أعضاء مقطعة وعظام نخرة وهو على الحقيقة ينعم ويفرح ويأكل ويشرب ويلذ ويسر ويعلم ويسمع ويبصر؟ إنما يوجد حقيقة ما أخبر الله تعالى ورسوله ﷺ بغير هذه الحياة،

---

(١) أخرجه الشافعي في الأم (١/١٠)، والبخاري (٥٣١١)، ومسلم (٢٠٦٥)، والدارمي (٢١٢٩)، وأبو يعلى (٦٩٣٩)، وأبو عوانة (٨٤٥٥)، وابن حبان (٥٣٤٢)، والطبراني في الكبير (٨٤٤) وفي الشاميين (١٠٨)، والبيهقي (٩٨).

كالشهيد إنما وجد حياته تلك الحياة الأخرى.

ألا ترى العالم المؤمن الموقن لما أعطي من تلك الحياة حظًّا حصل له من العلم والمعرفة لما نريد ثباته ما أسهر ليله وأنحل جسمه، وتجشم صعود العقاب، وحال بينه وبين الأهل والوطن والأولاد، وربما قضى عليه وحده بالقتل، ومن أنزل حياته هذه بالإضافة إلى تلك منزلة ما وصف رسول الله ﷺ أراح قلبه.

وصدق قوله ﷺ: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»(١).

ولهذه العلة يتنبه بهذه الحقيقة، ولا تيقظنا لها ولا شعرنا بخفيها، ذلك منا بموت مخامر خامر صفاتنا في حياتنا هذه كالحياة التي نروم العبارة عنها والتبيان لها المخامرة لذلك الموت المشاهد من الشهيد فيما هنالك، وربما علم أحدنا بها وشعر لها لكنه في وجودها كالمسحور والنائم المأخوذ عن الشيء يجد الطعم عن المأكولات بخلاف المشاهدة.

وهذا موجود في العالم الضارب في اليقين بحظ يجد موجودات للآخرة وصدق الوعد والوعيد حقًّا، ويلزم قلبه ويعجز جوارحه، وتكع نفسه عن التقدم إلى الأخذ بالأوثق، فهو يتلاوم ويبكي على نفسه، ويشكو إلى ربه وإخوانه ونحو ذلك؛ لأنه لم يبلغ الحياة التي نعم بها غيره، وأعطى الجهد من نفسه، وجد الجد كله في الحق المعتقد في هذا إن كل ما يجده الطاعم هذه المطعومات والمشروبات والأحوال التي تقدم ذكرها ماء باردًا أو مطعمًا لذيذًا أو شفاء أو سلوًا عن الأخذ منه بالجزم لما خلق الله له بعضًا من الإدراك، وأخذ عن وجود حقيقه ما هو حقيقة، وإن كنا نجده في حقنا في اليقظة الموت الموجود فينا.

وإنما يصفو أحدنا منها في الدار الآخرة، وأبقيت علينا ها هنا كل ما تصيبه من الكتاب، وأول ما يجد حقائق هذه المطاعم والمشارب وغير ذلك من الحقائق حال الموت، وبعده في دار البرزخ، وهو موجود عن اسمه المصور ﷻ وتعالى يصور ما يشاء كيف يشاء في ذوق الذائق ورؤية الرائي وعلم العالم، كما يرى ذلك في هذه

---

(١) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٨٩/٨)، وقال: لم أجده مرفوعًا، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

الدار أول مرة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى...﴾[1] [البقرة:١٧٨] هذه الآية من الآي المدعى فيها

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره» فيها سبع عشرة مسألة: الأولى: روى البخاري والنسائي والدارقطني عن ابن عباس قال: «كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] قتل بعد قبول الدية، هذا لفظ البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، قال: سمعت مجاهدًا، قال: سمعت ابن عباس يقول، وقال الشعبي في قوله تعالى: ﴿الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ قال: أنزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا فقالوا: نقتل بعبدنا فلان بن فلان، وبأمتنا فلانة بنت فلان، ونحوه عن قتادة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ﴾ أي: فرض وأثبت، وقد قيل: إن ﴿كُتِبَ﴾ هنا إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء، والقصاص مأخوذ من قص الأثر وهو اتباعه، ومنه القاص؛ لأنه يتبع الآثار والأخبار، وقص الشعر اتباع أثره، فكأن القاتل سلك طريقًا من القتل فقص أثره فيها ومشى على سبيله في ذلك، ومنه ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] وقيل: القص القطع، يقال: قصصت ما بينهما، ومنه أخذ القصاص؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به، يقال: أقص الحاكم فلانًا من فلان وأباءه به فأمثله فامتثل منه؛ أي: اقتص منه.

الثالثة: صورة القصاص هو أن القاتل فرض عليه إذا أراد الولي القتل الاستسلام لأمر الله، والانقياد لقصاصه المشروع، وأن الولي فرض عليه الوقوف عند قاتل وليه وترك التعدي على غيره، كما كانت العرب تتعدى فتقتل غير القاتل، وهو معنى قوله ﷺ: «**إن من أعتى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة: رجل قتل غير قاتله، ورجل قتل في الحرم، ورجل أخذ بذحول الجاهلية**» قال الشعبي وقتادة وغيرهما: إن أهل الجاهلية كان فيهم بغي وطاعة للشيطان، فكان الحي إذا كان فيه عز ومنعة فقتل لهم عبد، قتله عبد قوم آخرين، قالوا: لا نقتل به إلا حرًا، وإذا قتلت منهم امرأة قالوا: لا نقتل بها إلا رجلاً، وإذا قتل لهم وضيع قالوا: لا نقتل به إلا شريفًا، ويقولون: «القتل أوقى للقتل» بالواو والقاف، ويروى «أبقى» بالباء والقاف، ويروى «أنفى» بالنون والفاء، فنهاهم الله عن البغي فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ.﴾ وقال: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وبين الكلامين في الفصاحة والجزل بون عظيم.

الرابعة: لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر، فرض عليهم النهوض =

=

بالقصاص وإقامة الحدود وغير ذلك؛ لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص، ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعًا أن يجتمعوا على القصاص، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود، وليس القصاص بلازم إنما اللازم ألا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتداء، فأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح على ما يأتي بيانه، فإن قيل: فان قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ معناه: فرض وألزم، فكيف يكون القصاص غير واجب؟ قيل له: معناه إذا أردتم، فاعلم أن القصاص هو الغاية عند التشاح، والقتلى: جمع قتيل لفظ مؤنث تأنيث الجماعة وهو مما يدخل على الناس كرهًا، فلذلك جاء على هذا البناء كجرحى وزمنى وحمقى وصرعى وغرقي، وشبههن.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى.﴾ اختلف في تأويلها، فقالت طائفة: جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قتل نوعه، فبينت حكم الحر إذا قتل حرًا، والعبد إذا قتل عبدًا، والأنثى إذا قتلت أنثى، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر، فالآية محكمة وفيها إجمال يبينه قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] وبينه النبي ﷺ بسنته لما قتل اليهودي بالمرأة، قاله مجاهد، وذكره أبو عبيد عن ابن عباس، وروي عن ابن عباس أيضًا أنها منسوخة بآية المائدة وهو قول: أهل العراق.

السادسة: قال الكوفيون والثوري: يقتل الحر بالعبد، والمسلم بالذمي، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى﴾ فعم، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ قالوا: والذمي مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد، فإن الذمي محقون الدم على التأبيد، والمسلم كذلك، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي، وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم، فدل على مساواته لدمه؛ إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه.

واتفق أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن أبي ليلى على أن الحر يقتل بالعبد كما يقتل العبد به، وهو قول داود، وروي ذلك عن علي وابن مسعود - رضي الله عنهما - وبه قال سعيد بن المسيب، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والحكم بن عيينة، والجمهور من العلماء لا يقتلون الحر بالعبد؛ للتنويع والتقسيم في الآية.

السابعة: والجمهور أيضًا على أنه لا يقتل مسلم بكافر، لقوله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر» أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب، ولا يصح لهم ما رووه من حديث ربيعة أن النبي ﷺ قتل يوم خيبر مسلمًا بكافر؛ لأنه منقطع، ومن حديث ابن البيلماني وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبي ﷺ مرفوعًا، قال الدارقطني: لم يسنده غير إبراهيم بن أبي يحيى وهو متروك الحديث، والصواب عن ربيعة عن ابن البيلماني مرسل عن النبي ﷺ، وابن البيلماني ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث، فكيف بما يرسله؟ قلت: فلا يصح في الباب إلا حديث البخاري، وهو يخصص عموم قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى.﴾ وعموم قوله: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

=

=

الثامنة: روي عن علي بن أبي طالب، والحسن بن أبي الحسن البصري أن الآية نزلت مبينة حكم المذكورين؛ ليدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يقتل حر عبدًا أو عبد حرًا، أو ذكر أنثى أو أنثى ذكرًا، وقالا: إذا قتل رجل امرأة فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفوا أولياءه نصف الدية، وإن أرادوا استحيوه وأخذوا منه دية المرأة، وإذا قتلت امرأة رجلاً فإن أراد أولياؤه قتلها قتلوها وأخذوا نصف الدية، وإلا أخذوا دية صاحبهم واستحيوها، روى هذا الشعبي عن علي، ولا يصح؛ لأن الشعبي لم يلق عليًا.

وأجمع العلماء على أن الأعور والأشل إذا قتل رجلاً سالم الأعضاء أنه ليس لوليه أن يقتل الأعور، ويأخذ منه نصف الدية من أجل أنه قتل ذا عينين وهو أعور، وقتل ذا يدين وهو أشل، فهذا يدل على أن النفس مكافئة للنفس، ويكافئ الطفل فيها الكبير، ويقال لقائل ذلك: إن كان الرجل لا تكافئه المرأة ولا تدخل تحت قول النبي ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم**» فلم قتلت الرجل بها وهي لا تكافئه ثم تأخذ نصف الدية، والعلماء قد أجمعوا أن الدية لا تجتمع مع القصاص، وأن الدية إذا قبلت حرم الدم وارتفع القصاص، فليس قولك هذا بأصل ولا قياس، قاله أبو عمر ﷺ، وإذا قتل الحر العبد، فإن أراد سيد العبد قتل وأعطى دية الحر إلا قيمة العبد، وإن شاء استحيا وأخذ قيمة العبد، هذا مذكور عن علي والحسن، وقد أنكر ذلك عنهم أيضا.

التاسعة: وأجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل، والجمهور لا يرون الرجوع بشيء، وفرقة ترى الاتباع بفضل الديات، قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأبو ثور: وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس، وقال حماد بن أبي سليمان وأبو حنيفة: لا قصاص بينهما فيما دون النفس وإنما هو في النفس بالنفس، وهما محجوجان بإلحاق ما دون النفس بالنفس على طريق الأخرى والأولى، على ما تقدم.

العاشرة: قال ابن العربي: ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا: يقتل الحر بعبد نفسه، ورووا في ذلك حديثًا عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل عبده قتلناه» وهو حديث ضعيف، ودليلنا قوله تعالى: ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ**﴾ [الإسراء: ٣٣] والولي ها هنا السيد، فكيف يجعل له سلطان على نفسه، وقد اتفق الجميع على أن السيد لو قتل عبده خطأ أنه لا تؤخذ منه قيمته لبيت المال، وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً قتل عبده متعمدًا فجلده النبي ﷺ ونفاه سنة، ومحا سهمه من المسلمين ولم يقده به، فإن قيل: فإذا قتل الرجل زوجته لِمَ لم تقولوا: ينصب النكاح شبهة في درء القصاص عن الزوج؛ إذ النكاح ضرب من الرق، وقد قال ذلك الليث بن سعد، قلنا: النكاح ينعقد لها عليه، كما ينعقد له عليها، بدليل: أنه لا يتزوج أختها ولا أربعًا سواها، وتطالبه في حق الوطئ بما يطالبها، ولكن له عليها فضل القوامة التي جعل الله له عليها بما أنفق من ماله؛ أي: بما وجب عليه من صداق ونفقة، فلو أورث شبهة لأورثها في الجانبين، قلت: هذا الحديث الذي ضعفه ابن العربي وهو صحيح، أخرجه النسائي وأبو داود، وقال البخاري عن علي بن المديني: سماع الحسن من سمرة صحيح،

=

وأخذ بهذا الحديث، وقال البخاري: وأنا أذهب إليه، فلو لم يصح الحديث لما ذهب إليه هذان الإمامان، وحسبك بهما!، ويقتل الحر بعبد نفسه، قال النخعي والثوري في أحد قوليه وقد قيل: إن الحسن لم يسمع من سمرة إلا حديث العقيقة، والله أعلم، واختلفوا في القصاص بين العبيد فيما دون النفس، هذا قول عمر بن عبد العزيز، وسالم بن عبد الله، والزهري، وقران، ومالك، والشافعي، وأبو ثور، وقال الشعبي والنخعي والثوري وأبو حنيفة: لا قصاص بينهم إلا في النفس، قال ابن المنذر: الأول أصح. الحادية عشرة: روى الدارقطني وأبو عيسى الترمذي عن سراقة بن مالك قال: حضرت رسول الله ﷺ يقيد الأب من ابنه، ولا يقيد الابن من أبيه، قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه من حديث سراقة إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بصحيح، رواه إسماعيل بن عياش عن المثنى بن الصباح، والمثنى يضعف في الحديث، وقد روى هذا الحديث أبو خالد الأحمر عن الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عمر عن النبي ﷺ، وقد روي هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسلاً، وهذا الحديث فيه اضطراب، والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قتل ابنه لا يقتل به، وإذا قذفه لا يحد. وقال ابن المنذر: اختلف أهل العلم في الرجل يقتل ابنه عمدًا، فقالت طائفة: لا قود عليه وعليه ديته، وهذا قول الشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي، وروي ذلك عن عطاء ومجاهد، وقال مالك وابن نافع وابن عبد الحكم: يقتل به، وقال ابن المنذر: وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسنة، فأما ظاهر الكتاب فقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ**﴾ والثابت عن رسول الله ﷺ: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم**» ولا نعلم خبرًا ثابتًا يجب به استثناء الأب من جملة الآية، وقد روينا فيه أخبارًا غير ثابتة، وحكى الكيا الطبري عن عثمان البتي أنه يقتل الوالد بولده للعمومات في القصاص، وروي مثل ذلك عن مالك، ولعلهما لا يقبلان أخبار الآحاد في مقابلة عمومات القرآن، قلت: لا خلاف في مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل ابنه متعمدًا مثل أن يضجعه ويذبحه أو يصبره مما لا عذر له فيه ولا شبهة في ادعاء الخطأ أنه يقتل به قولاً واحدًا، فأما إن رماه بالسلاح أدبًا أو حنقًا فقتله ففيه في المذهب قولان: يقتل به، ولا يقتل به وتغلظ الدية، وبه قال جماعة العلماء، ويقتل الأجنبي بمثل هذا، ابن العربي: سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشي يقول في النظر: لا يقتل الأب بابنه؛ لأن الأب كان سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه؟ وهذا يبطل بما إذا زنا بابنته فإنه يرجم، وكان سبب وجودها وتكون هي سبب عدمه، ثم أي فقه تحت هذا، ولم لا يكون سبب عدمه إذا عصى الله تعالى في ذلك، وقد أثروا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقاد الوالد بولده» وهو حديث باطل، ومتعلقهم أن عمر ﷺ قضى بالدية مغلظة في قاتل ابنه ولم ينكر أحد من الصحابة عليه، فأخذ سائر الفقهاء ﷺ المسألة مسجلة، وقالوا: لا يقتل الوالد بولده، وأخذها مالك محكمة مفصلة فقال: إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة محتملة لقصد القتل وعدمه، وشفقة الأبوة شبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد إلى القتل تسقط القود، فإذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله، قال ابن المنذر: وكان مالك والشافعي وأحمد وإسحاق

يقولون: إذا قتل الابن الأب قتل به. الثانية عشرة: وقد استدل الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله: لا تقتل الجماعة بالواحد، قال: لأن الله سبحانه شرط المساواة ولا مساواة بين الجماعة والواحد، وقد قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾. والجواب أن المراد بالقصاص في الآية: قتل من قتل كائنًا من كان ردًا على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قتل من لم يقتل، وتقتل في مقابلة الواحد مائة افتخارًا واستظهارًا بالجاه والمقدرة، فأمر الله سبحانه بالعدل والمساواة وذلك بأن يقتل من قتل، وقد قتل عمر ﷺ سبعة برجل بصنعاء وقال: لو تمالا عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعًا، وقتل علي ﷺ الحرورية بعبد الله بن خباب، فإنه توقف عن قتالهم حتى يحدثوا، فلما ذبحوا عبد الله بن خباب كما تذبح الشاة، وأخبر علي بذلك قال: «الله أكبر! نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب، فقالوا: كلنا قتله ثلاث مرات، فقال علي لأصحابه: دونكم القوم، فما لبث أن قتلهم علي وأصحابه» خرج الحديثين الدارقطني في «سننه» وفي الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار» وقال فيه: حديث غريب، وأيضًا فلو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا الواحد لم يقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم وبلغوا الأمل من التشفي، ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ، والله أعلم. وقال ابن المنذر، وقال الزهري وحبيب بن أبي ثابت وابن سيرين: لا يقتل اثنان بواحد، روينا ذلك عن معاذ بن جبل وابن الزبير وعبد الملك، قال ابن المنذر: وهذا أصح، ولا حجة مع من أباح قتل جماعة بواحد، وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه. الثالثة عشرة: روى الأئمة عن أبي شريح الكعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم معشر خزاعة قتلتم هذا القتيل من هذيل وإني عاقله، فمن قتل له بعد مقالتي هذه قتيل فأهله بين خيرتين: أن يأخذوا العقل، أو يقتلوا» لفظ أبي داود، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وروي عن أبي شريح الخزاعي عن النبي ﷺ قال: «من قتل له قتيل فله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية» وذهب إلى هذا بعض أهل العلم، وهو قول أحمد وإسحاق. الرابعة عشرة: اختلف أهل العلم في أخذ الدية من قاتل العمد، فقالت طائفة: ولي المقتول بالخيار إن شاء اقتص، وإن شاء أخذ الدية وإن لم يرض القاتل، يروى هذا عن سعيد ابن المسيب وعطاء والحسن، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال الليث والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور، وحجتهم حديث أبي شريح وما كان في معناه، وهو نص في موضع الخلاف، وأيضًا من طريق النظر فإنما لزمته الدية بغير رضاه؛ لأن فرضًا عليه إحياء نفسه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: ترك له دمه، في أحد التأويلات، ورضي منه بالدية ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف في المطالبة بالدية، وعلى القاتل ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: من غير مماطلة وتأخير عن الوقت ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضي بها ولي الدم على ما يأتي بيانه. وقال آخرون:

=

ليس لولي المقتول إلا القصاص، ولا يأخذ الدية إلا إذا رضي القاتل، رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه، وبه قال الثوري والكوفيون، واحتجوا بحديث أنس في قصة الربيع حين كسرت ثنية المرأة، رواه الأئمة قالوا: فلما حكم رسول الله ﷺ بالقصاص وقال: «القصاص كتاب الله، القصاص كتاب الله» ولم يخير المجني عليه بين القصاص والدية، ثبت بذلك أن الذي يجب بكتاب الله وسنة رسوله في العمد هو القصاص، والأول أصح لحديث أبي شريح المذكور. الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ اختلف العلماء في تأويل «من» و«عفي» على تأويلات خمس: أحدها: أن «من» يراد بها القاتل، و«عفي» تتضمن عافيًا هو ولي الدم، والأخ: هو المقتول، و«شيء» هو الدم الذي يعفى عنه ويرجع إلى أخذ الدية، هذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة من العلماء، والعفو في هذا القول على بابه الذي هو الترك، والمعنى: أن القاتل إذا عفا عنه ولي المقتول عن دم مقتول وأسقط القصاص فإنه يأخذ الدية ويتبع بالمعروف، ويؤدي إليه القاتل بإحسان. الثاني: وهو قول مالك أن «من» يراد به الولي «وعفي» يسر لا على بابها في العفو، والأخ يراد به القاتل، و«شيء» هو الدية؛ أي: أن الولي إذا جنح إلى العفو عن القصاص على أخذ الدية فإن القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه، فمرة تيسر ومرة لا تيسر، وغير مالك يقول: إذا رضي الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه، وقد روي عن مالك هذا القول، ورجحه كثير من أصحابه. وقال أبو حنيفة: إن معنى «عفي» بذل، والعفو في اللغة: البذل، وقال قوم: وليؤد إليه القاتل بإحسان، فندبه تعالى إلى أخذ المال إذا سهل ذلك من جهة القاتل، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة، كما قال ذلك عقب ذكر القصاص في سورة المائدة: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] فندب إلى رحمة العفو والصدقة، وكذلك ندب فيما ذكر في هذه الآية إلى قبول الدية إذا بذلها الجاني بإعطاء الدية، ثم أمر الولي باتباع، وأمر الجاني بالأداء بالإحسان، وقد قال قوم: إن هذه الألفاظ في المعينين الذين نزلت فيهم الآية كلها وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصة، ومعنى الآية: فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات، ويكون «عفي» بمعنى: فضل. روى سفيان بن حسين بن شوعة عن الشعبي قال: كان بين حيين من العرب قتال، فقتل من هؤلاء وهؤلاء، وقال أحد الحيين: لا نرضى حتى يقتل بالمرأة الرجل وبالرجل المرأة، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «القتل سواء» فاصطلحوا على الديات، ففضل أحد الحيين على الآخر، فهو قوله: ﴿كُتِبَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعني: فمن فضل له على أخيه فضل فليؤده بالمعروف، فأخبر الشعبي عن السبب في نزول الآية، وذكر سفيان العفو هنا الفضل، وهو معنى يحتمله اللفظ، وتأويل خامس: وهو قول علي ﷺ والحسن في الفضل بين دية الرجل والمرأة والحر والعبد؛ أي: من كان له ذلك الفضل فاتباع بالمعروف، و«عفي» في هذا الموضع أيضًا بمعنى فضل. السادسة عشرة: هذه الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب، وحسن القضاء من المؤدي، وهل ذلك على الوجوب أو الندب؟ فقراءة الرفع تدل على الوجوب؛

=

النسخ، وليس كذلك.

وسنة القصاص جارية على ما أنزلها الله جلَّ ذكره في التوراة والإنجيل كما ذكر في سورة المائدة قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة:٤٥].

أنزل الله جلَّ ذكره القرآن على هذا الحكم، كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا﴾ [المائدة:٤٨].

وإنما جاء القصاص في هذه الآية المذكورة أولاً؛ لأن قومًا من العرب أعزة عالين، فكانت سنتهم أن القبيلة الذليلة إذا قتلت من القبيلة العزيزة عبدًا كان

=

لأن المعنى فعليه اتباع بالمعروف، قال النحاس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ شرط والجواب ﴿فَاتِّبَاعٌ﴾ وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه اتباع بالمعروف، ويجوز في غير القرآن «فاتباعًا» و«أداء» بجعلهما مصدرين، قال ابن عطية: وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة «فاتباعا» بالنصب، والرفع سبيل للواجبات، كقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ وأما المندوب إليه فيأتي منصوبًا، كقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود ولا دية، فجعل الله تعالى ذلك تخفيفًا لهذه الأمة، فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا، قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ﴾ شرط وجوابه؛ أي: قتل بعد أخذ الدية وسقوط الدم قاتل وليه ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال الحسن: كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلاً فر إلى قومه فيجئ قومه فيصالحون بالدية فيقول ولي المقتول: إني أقبل الدية، حتى يأمن القاتل ويخرج، فيقتله ثم يرمي إليهم بالدية، واختلف العلماء فيمن قتل بعد أخذ الدية، فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعي: هو كمن قتل ابتداء، إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة. وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم: عذابه أن يقتل ألبتة، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو، وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعفى من قتل بعد أخذ الدية» قال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة، وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما يرى، وفي «سنن» الدارقطني عن أبي شريح الخزاعي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أصيب بدم أو خبل - والخبل عرج - فهو بالخيار بين إحدى ثلاث، فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه بين أن يقتص، أو يعفو، أو يأخذ العقل، فإن قبل شيئًا من ذلك ثم عدا بعد ذلك، فله النار خالدًا فيها مخلدًا».

حكمهم أن يقتل من القبيلة الذليلة حرًّا، وإن قتلت أنثى كان المقتول بها ذكرًا، فأنزل الله حكمه بالعدل ألا يقتل بالقتيل إلا قاتله جناية أو قودًا، وبالأنثى قاتلها ذكرًا كان أو أنثى(١).

ثم نصَّ بعد هذا على الرخصة في أخذ الدية وخص المتقاضي على الاتباع بالمعروف والغارم على الأداء بالإحسان قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٧٩] أحد وجهي الخطاب معناه وهو الأظهر: إرادة التشديد والزجر حرمة للدماء بقتل القاتل من كان، وهو الحق والصواب والحكمة.

والوجه الثاني، وهو الأظهر في آخر الآية: القصاص من الأنفس.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩] إنه القصاص من الأنفس، وتلك سنة أولي الألباب من كانت ذنوبه بكثرة الضحك يقاص منها بكثرة البكاء، ومن سهر في البطالة فليسهر في العبادة والاجتهاد، ومن كانت مما جره عليه كثرة الأكل والشرب والتمتع بذلك فعليه بالصيام ليذهب لحمًا نبت على ذلك، ومن كانت ذنوبه بكتمان علم فليبين عن الله جلَّ ذكره، وليصلح ما أفسد بإلباسه الحق بالباطل، وما صنع من تبليغ العلم، ومن كانت ذنوبه بنكاح حرام فليلزم نفسه نكاح الحلال؛ ليقابل كل ضرب من الذنوب بما يشابهه ويصلحه من الطاعات، وليستعن على ذلك بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين.

فيه ينتظم هذا المعنى وبه خاطب من كان قبلنا، وهو قتل النفس وذبحها بالعبادة ومنعها من شهواتها قوله ﷺ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠] إلى آخر المعنى.

الخير ها هنا هو المال، والمكتوب هو أن يوصي العبد إذا حضره الموت أو

---

(١) قال النسفي: كلام فصيح لما فيه من الغرابة؛ إذ القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل ظرفًا للحياة. وفي تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بينة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة؛ لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا، فكان القصاص حياة وأي حياة أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل فتذكر الاقتصاص ارتدع فسلم صاحبه من القتل وهو من القود، فكان شرع القصاص سبب حياة نفسين. [تفسير النسفي (٩٣/١)].

خاف لوالديه أو لأقاربه أن ينفذوا وصيته ويمضوا عهده، وأرادوا بذلك راحته بعد وفاته، فذلك أقرب لإراحته، وتوصيتهم بالمعروف في ذلك وبتقوى الله ولزوم الطريقة المثلى كذلك الأب والأقارب أحق بالصلاة عليه للمعهود في نصيحتهم، ورغبتهم في إدخال السرور عليه بعد الموت.

وكذا يوصي والديه وذويه وبنيه بالمعروف في القول والعمل على طاعة الله ﷻ ونحو هذا، ويكون هذا منتظمًا بقوله جلَّ ذكره: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة:١٣٢].

وقوله ﷻ: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر:١-٣] وهو كثير في القرآن العزيز.

وبذلك استمسك زكريا عليه السلام لما منع الكلام أوصى إلى قومه حين خرج عليهم ﴿**أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًا**﴾ [مريم:١١] كذلك قال: ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة:١٨٠] وليس في الآية نسخ بشيء من القرآن، وإنما كان المسلمون في أول الهجرة قد آخى رسول الله ﷺ بينهم؛ لغربتهم من عشائرهم، فآخى بين المهاجرين والأنصار، فكانوا يتوارثون بذلك حتى تدارك الناس واستحكم الأمر، ونزلت آية المواريث، ونزل قوله الحق: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾ [الأنفال:٧٥] فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث**»[١].

يقول: إن أهل المواريث قد أجلهم الله ﷻ من مواريثهم مجالهم، وبقي الأقارب وأولي الأرحام، فلا تواصوا الوارث بوصية فتعطونه من المال فوق حقه المفروض له، فميراثه الذي أعطاه ﷻ وسماه، فكانت له وصية يتقرب بها، فليوصِ إلى أبويه وأقاربه بتنفيذ وصيته وإمضاء عهده من بعده، وليأمرهم في ذلك

(١) أخرجه الطيالسي (١١٢٧)، وأحمد (٢٢٣٤٨)، والترمذي (٢١٢٠) وقال: حسن صحيح، والطبراني (٧٦١٥)، وابن أبي شيبة (١٧٦٨٨)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والنسائي (٣٦٤١)، وابن ماجة (٢٧١٤)، وعبد الرزاق (٧٢٧٧)، والبيهقي (١١٩٨٢)، والدارقطني (٤٠/٣).

بالمعروف وينهاهم عن المنكر فذلك حق على المتقين.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ [البقرة: ١٨١-١٨٥].

يعضد هذا التأويل قوله بعد هذا: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢].

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ....﴾(١) [البقرة: ١٨٣] أعلم الله جلَّ ذكره عباده بكتب الصيام عليهم صيامًا

---

(١) واختلفوا في هذا التشبيه؛ فقال سعيد بن جبير: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان في ابتداء الإسلام. وقال جماعة من أهل العلم: أراد أن صيام رمضان كان واجبًا على النصارى كما فرض علينا، فربما كان يقع في الحر الشديد والبرد الشديد، وكان يشق عليهم في أسفارهم ويضرهم في معايشهم، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع، وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين، ثم إن ملكهم اشتكى فمه فجعل لله عليه إن هو برئ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعًا فبرئ فزاد فيه أسبوعًا، ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال: أتموه خمسين يومًا. وقال مجاهد: أصابهم موتان، فقالوا: زيدوا في صيامكم، فزادوا عشرًا قبل وعشرًا بعد، قال الشعبي: لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذي يشك فيه، فيقال: من شعبان، ويقال: من رمضان، وذلك أن النصارى فرض عليهم شهر رمضان فصاموا قبل الثلاثين يومًا وبعدها يومًا، ثم لم يزل القرن الآخر يستن بسنة القرن الذي قبله حتى صاروا إلى خمسين يومًا، فذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
=

مجملاً لا يدري من لفظ الصيام ما هو قدره إلا ما قال الله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فتوجه على المسلمين أن يصوموا صيام من كان قبلهم، فكانوا يصومون ويفطرون قبل غروب الشمس كصيام أهل الإنجيل.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾[البقرة:١٨٦-١٨٩].

فبيَّن الله ﷻ هذا المجمل بقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧] وكانوا يصومون إذا أفطروا، رفع أحدهم يده عن الطعام أو نام عنه لم يرجع إليه إلى مثلها، فضر ذلك ببعضهم، فبيَّن الله ﷻ بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وكانوا لا يمسوا النساء ولا يجامعوهن في الصيام، وكانوا مع ذلك يتهافتون فيه ويحرجهم ذلك، فبيَّن الله جلَّ ذكره ذلك بقوله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ

=

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يعني: بالصوم؛ لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات، وقيل: لعلكم تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع. [تفسير البغوي (١/١٩٥-١٩٦)].

عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾[١] [البقرة:١٨٧].

وكان رسول الله ﷺ حين وروده إلى المدينة وجد يهود يصومون يوم عاشوراء ويُصوِّمون صبيانهم وصغارهم، فبيَّن الله ﷻ ذلك المراد منه بقوله جلَّ قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وكان ذلك من فعلهم اقتداء بصوم أهل الكتاب حتى أنزل ﷻ هذه الآية، فنسخ الله عنهم بعض أحكام صيام أهل الكتاب، وليس من القرآن في هذا كله شيء منسوخ.

وقال عز من قائل فيه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:١٨٤] وهذا اللفظ مجمل يحتاج إلى بيان، فجاء بيانه في أثناء الآية.

قوله جلَّ قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقال - عزَّ قوله - في صدر الخطاب: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] هذا خطاب لمسألة [تتعلق][٢] بجهلنا بعدة الأيام كم هي! وإنما قال جلَّ قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ فلما قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ علمنا أنه للأيام المعدودات، وإنه من شهد الشهر فعليه صيامه، ومن كان مريضًا أو على سفر فعليه أن يصوم عدة ما أفطر أيامًا أخر من غيره.

وفي الخطاب: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[٣] فوجب على

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ «ليلة» نصب على الظرف، وهي اسم جنس فلذلك أفردت، والرفث: كناية عن الجماع؛ لأن الله ﷻ كريم يكنى، قاله ابن عباس والسدي، وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، وقاله الأزهري أيضًا، وقال ابن عرفة: الرفث ها هنا الجماع، والرفث: التصريح بذكر الجماع والإعراب به، وتعدى: «الرفث» بـ«إلى» في قوله تعالى: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وأنت لا تقول: رفثت إلى النساء، ولكنه جيء به محمولاً على الإفضاء الذي يراد به الملابسة في مثل قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١].

(٢) زيادة لتمام السياق.

(٣) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: الأول: وهو قول أكثر المفسرين: إن المعنى وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم لكونهم مقيمين صحيحين إن أفطروا فدية هي طعام مسكين، والفدية في معنى الجزاء وهو عبارة عن البدل القائم عن الشيء، وأنه ههنا عند أهل =

المريض والمسافر عدة أيام أخر، وبقي على المطيقين - وهي الحامل - إذا خافت على ما في بطنها أفطرت وأطعمت وإن كانت هي مطيقة للصوم، وكذلك المرضع إذا خافت على رضيعها أفطرت وأطعمت، وأما الهرماء والزمنى الذين لا ترجي صحتهم فهم يطعمون ولا يكلفون صومًا؛ لعذرهم الدائم بهم.

وفيه: ﴿**فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا**﴾ يقول وهو أعلم بما ينزل من إطعام مسكين أو صيام نافلة: ﴿**فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ**﴾ أي: من ألا يفعل ﴿**وَأَن تَصُومُوا**﴾ خير منه على صيام التطوع ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:١٨٤] يعرض بحسن عائدة الصوم وجميل مغبته.

قال رسول الله ﷺ لأبي أمامة، وقد سأله عملاً يلزمه: «**عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له**»[(١)] قال: وكان لا يُرى في دار أبي أمامة دخان نهارًا إلا أن يحل به ضيف.

يقول الله ﷻ: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة:١٨٥] فيسهل

= العراق نصف صاع من بر أو صاع من غيره، وعند أهل الحجاز ومنهم الشافعي مدّ من غالب قوت البلد لكل يوم ويصرف إلى الفقير والمسكين، قالوا: كان ذلك في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعوّدوه، فاشتد عليهم فرخص لهم في الإفطار والفدية. الثاني: إن هذا راجع إلى المسافر والمريض، وذلك أن المريض والمسافر منهما من لا يطيق أصلاً، وإليه الإشارة بقوله: ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ ومنهما من يطيق الصوم مع الكلفة، وهو المراد بقوله: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ**﴾ قالوا: هذا أولى ليلزم النسخ أقل، فإن نسخ التخيير بين الصوم والفدية عن المريض المطيق أقل من نسخ التخيير عنه وعن الصحيح المقيم. الثالث: إنه نزل في الشيخ الهرم. عن السدي: وعلى هذا لا تكون الآية منسوخة، ويؤيده القراءة الشاذة «**يطوّقونه**» تفعيل من الطوق؛ إما بمعنى الطاقة أو القلادة؛ أي: يكلفونه أو يقلدونه، والتركيب يستعمل فيمن يقدر على شيء مع ضرب من المشقة والكلفة، وبعضهم أضاف إلى الشيخ الهرم الحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما وولديهما، واتفقوا على أنا لشيخ إذا أفطر فعليه الفدية، وأما الحامل والمرضع إذا أفطرتا، فقال الشافعي: عليهما القضاء والفدية لحق الوقت، وقال أبو حنيفة: لا يجب إلا القضاء كيلا يلزم الجمع بين البدلين. تفسير النيسابوري (١/٤٢٩-٤٣٠).

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٩٤)، والنسائي (٢٢٢٠)، وابن خزيمة (١٨٩٣)، وابن حبان (٣٤٢٥)، والطبراني (٨١٠)، والحاكم (١٥٣٣)، والبيهقي في الشعب (٣٨٩٣) وفي السنن الكبرى (٨٢٦٣)، وعبد الرزاق (٧٨٩٩)، وابن أبي شيبة (٨٨٩٥)، والنسائي فى الكبرى (٢٥٣٠).

عليكم الصوم لأجل ذلك، فتكونوا صائمين على يسر منحناكموه كالذين كانوا من قبلكم على العسر الذي كلفناهموه، ولكم على هذا اليسر ضعفي ما لهم من الأجر.

ثم عطف بالواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ [البقرة:١٨٥] يعرض وهو أعلم ﷻ بما بلغه إلينا رسول الله ﷺ: «**رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما**»(١).

و«**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢).

وقوله ﷺ: «**إن لله في كل ليلة من رمضان عتقاء**» وذكر عددًا أنسيته، قال «**فإذا كان ليلة القدر عتق بضعف جميع ما تقدم، فإذا كان آخر ليلة من رمضان أعتق فيها بعدد جميع من أعتقه في جميع الليالي من شهر رمضان**»(٣).

فقال عز من قائل: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ يعني: لشهر رمضان وليالي القدر ويوم الجمعة وصلاة العصر ودين الإسلام، والتصديق بجميع الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه على جميعهم - وعند صلاة العيد والبروز له، وتكبيرهم ذا الكبرياء والعظمة وقد كفرت عنهم خطاياهم، فكان من تكبيرهم وبروزهم إليه أول عمل من كونهم شاكرين ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥] فلا تسأل عن منال ينيلهم الغفور الشكور.

فصل

ينتظم إيجاب الصوم وكتبه إياه على عباده، وإعلامه إياهم في خطابه هذا يمتن عليهم بقوله الحق: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٠] بإتمام شرائعكم وإكمال مناسككم، وإتمام دينكم الإسلام الذي تضمنه سؤال إبراهيم ﵇ وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما وعلى نبينا السلام ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥] أي: تبلغون درجة الشكر، وتعملون في رفع الدرجات.

(١) أخرجه الطبراني (٥٤٤٥)، وأحمد (٧١٢٩)، والحاكم (٤١٢)، والبيهقي في الشعب (٣٦٢٠)، وإسحاق بن راهويه (٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠)، والترمذي (٦٨٣)، وأبو داود (١٣٧٢)، وأحمد (٧١٧٠)، والنسائي (٢٢٠٣)، وابن ماجة (١٣٢٦)، وابن حبان (٣٤٣٢).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٠٤).

فذكر فيما تقدم دين الإسلام والتوحيد والشهادة على ذلك، والقبلة والصوم والصبر والجهاد والحج، والنظر والاعتبار والحلال والحرام، ونهاهم عن الكفر واتباع خطوات الشيطان وإلباس الحق بالباطل والكتمان، وذكر البر وشروطه والقصاص، وندب إلى الدية، ونصَّ على التوصية بالمعروف.

ثم ذكر الصوم وعظم قدره، وأظهر حرمة الشهر الذي فرض فيه الصوم، وجعل عاقبته وإكمال عدة المغفرة واستقبال العمل على سبيل الشكر وإجابة الدعوات وقضاء الحاجات، بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه**»[1].

وقوله ﷺ: «**ثلاث لا ترد دعوتهم...**» وذكر «**الصائم حتى يفطر**»[2].

قوله ﷻ: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة:١٨٦] نظم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هذا بالمجاورة بقوله: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ [البقرة:١٨٣] وذكر جلَّ ذكره ما جاء في ذلك؛ لقرب حكم الاستجابة من حال الصائم، ثم قال رسول الله ﷺ ما تغني الإشارة إليه عن الإكثار طلبًا للاختصار.

السؤال على ضربين:

أحدهما: سؤال يعرف، ويعلم الجواب من ذلك بأنه قريب ممن دعاه.

والضرب الآخر: هو استدعاء بقول الله ﷻ: «**هل من سائل فيُعطى؟ هل من داعٍ فيستجاب له؟**»[3] فالدعاء للإجابة، والسؤال للمثوبة والإعطاء.

يقول: «**دعوت الله، ودعوت إلى الله**» فالدعاء إلى الله ﷻ هو تحبيبه إلى عباده، وإدخالهم في عبادته، والعمل بطاعته.

يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا...**﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٩٧٤١)، والترمذي (٣٥٩٨) وقال: حسن، وابن حبان (٨٧٤)، وابن ماجة (١٧٥٢)، والبيهقي (٦١٨٦)، وابن خزيمة (١٩٠١)، وإسحاق بن راهويه (٣٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٨)، والطبراني في الكبير (٨٣٩١)، وفي الأوسط (٢٧٦٩)، وأحمد (١١٦٩٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٨)، وأبو نعيم في المعرفة (٢٦٤٨).

[فصلت:٣٣] ودعاؤك إليه التضرع وإظهار الحاجات والفاقة، كما قالوا: الدعاء زينة للآلات وحلية للأدوات.

وإظهار الحاجات إلى رب العالمين والعباد في الدعاء على ثلاث ضروب بعد اجتماعهم في أصله:

- **فدعاء بالأقوال:** وهو دعاء العامي.
- **ودعاء بالأفعال:** وهو دعاء الزاهد.
- **ودعاء بالأحوال:** وهو دعاء العارف، وهذه المنزلة مشتركة بين الدعاء والاستدعاء، فالدعاء ما تقدم ذكره، وهو النداء والتضرع وإظهار الفاقة، والدعاء بالأحوال والأفعال هو الاستدعاء؛ لأنه انتظار بحالة الاضطرار، ولا بد للداعي من استدعاء في دعائه، وهو إظهار الاضطرار والافتقار، ولا بد من استعمال معنى السؤال؛ ليجمع له ذلك.

ولما كانت حقيقة الدعاء وفائدته إظهار الفاقة والفقر إلى الله ﷻ، فإنما يفتقر العبد إلى الله ﷻ عند رؤية الحقيقة وضرورة الحاجة إليه، فيكون علمه حينئذٍ بموضع الاستدعاء نفس العبودية، ويكون الدعاء على هذا استدعاء بالحال.

ومثل هذا قول الله جلَّ قوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال:٦٦] فإنما خفف ﷻ عنهم، والاضطرار الذي كان حالاً علم الله ذلك منهم، وهو الذي ضيعه الغافلون قبلهم فحاق بهم المكروه.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤].

وقوله جلَّ قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام:٤٣].

وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ معناه: بالإيمان، والعمل بطاعتي ﴿لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦] أي: يصلحوا لأن أختصهم وأتولاهم بولايتي، فألحقهم بمن توليت شأنهم وعصمتهم ووليت أمرهم، فيكونون يسمعون بي، ويتضرعون بي، وينطقون بي، ويمشون بي، وأجعلهم في مواطن محادثتي وتكليمي، وهناك إن دعوني أجبتهم، وإن سألوني أعطيتهم، وإن استنصروني نصرتهم.

فصل

اعلم - أرشدنا الله وإياك، وعلمنا من علمه، وأجزل حظنا من معرفته - أن هذه المنزلة لا مطمع فيها إلا بفضل الله ﷻ وتعالى، ورحمته يقصد بها عبده، ومن شأنهم تفريغ القلوب له، والنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصة وعامة، والذكر الكثير في الذكر في العمل له بمرضاته بوفاق الأخلاق فيه، وعلم بالمطلوب رضاه وإيمان به، ولا يقتصد في الإيمان به دون مشاهدة الحضرة في كل موطن وعلى كل حال، كما قال عز من قائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] وإنما هو أن ترضيه، فإذا فعلت ذلك أرضاك.

قال الله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠] وهو أن ترضيه فيرضيك، كما قال جلَّ قوله: «**إذا تقرب عبدي مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»(١).

وهو ذو الفضل العظيم، المنان بالنعم قبل استحقاقها، ثم هو العزيز، لا يعطي عبده جزاءه إلا بعد اجتهاد العبد فإذا وضع العبد أول قدم في الاجتهاد أعطاه أيضًا في العون على قدر ذلك، فهو ﷻ إن أرضيته أرضاك، وإن أطعته فيما أمرك به ونهاك أفضل عليك ووهبك أن تسأله فيعطيك، وتدعوه فيجيبك، هو الأول في ذلك كله، والآخر والظاهر والباطن.

فصل

إذا أسلم العبد وشهد شهادة الحق وأن لا إله إلا الله جلَّ ذكره أدخله في الولاية الأولى، فحرم على المسلمين دمه وماله وعرضه إلا بالحق، وجعل حسابه عليه، وكان له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، فإذا أطاعه جازاه بطاعته،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٩٨)، ومسلم (٢٦٧٥) وأحمد (١٢٣٠٩)، وعبد بن حميد (١١٦٨) وأبو يعلى (٣١٨٠) والروياني (١٣٤٦) وأبو يعلى (٦٦٠١)، وابن حبان (٣٧٦)، والطبراني (٦١٤١).

وإذا ذكره ذكره، وإذا عصاه استعتبه وانتظره، وإذا ابتلاه عادَه وكان معه بالتولي.

ومن هنا قال الله جلَّ ذكره: «**ابن آدم، مرضت فلم تزرني، وجعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني، وعريت فلم تكسني**»(١).

وفي أخرى: «**وكنت محبوسًا فلم تزرني، وضيفًا فلم تأوني**». وفيه: «**أما أنكم لو فعلتموه بعبادي لفعلتموه بي**»(٢).

ثم إذا ارتقى بهمته صعد إلى مقام الإحسان في إسلامه وإيمانه، فعبد الله ﷻ بالمشاهدة كان معه بالولاية العليا.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل:١٢٨].

وقال جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة:١٩٥].

وهو الدخول في السلم كافة، والإحسان جميع ذلك، فيزيل سلطان الشيطان عنه، فهو إن همَّ بسوء تداركه بعصمته وكلأه بكلاءته، وباعده من مواطن الهلكات، وكان حارسًا له من الآفات، وفرغه له وشغله به عمن سواه، وصار فيمن ﴿**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة:٢٢] جعلنا الله الرحيم برحمته منهم، ولا جعل حظنا من صفاتهم وصفهم، إنه حكيم عليم.

قالوا: دفع الملمات ثلاث خصال: الدعاء، وصدق التقى، ورحمة المبتلى، وكانوا يستدفعون البلايا بالصلاة.

قال الله ﷻ: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ....**﴾(٣) [البقرة:١٨٧]

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه في سابقه، ولم أقف عليه هكذا بهذا اللفظ.

(٣) الرفث كناية عن الجماع، قال ابن عباس: إن الله تعالى حيي كريم يكنى كل ما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث فإنما عنى به الجماع، وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء، قال أهل التفسير: كان في ابتداء الأمر إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد قبلها، فإذا صلى العشاء أو رقد قبلها حرم عليه الطعام والنساء إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن =

كل ما كان من تكيلم النساء في معنى الجماع فهو رفث، أحل الصيام ثلاثة أحوال، وكان أوله على شرع من كان قبلنا، وقد تقدم ذكر هذه الثلاثة الأحوال أنها نُسخت بالقرآن العزيز، فالمنسوخ بالقرآن هو شرع من كان قبلنا وكتابهم كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣] فكان ذلك نسخًا للكتاب المتقدم لا نسخًا للقرآن.

ألا تسمع إلى قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] يخاطب جملة الأمة؛ أي: رجع لكم عما لزم من كان قبلكم، كما قال الله - عزَّ قوله - في غير هذا الموضع: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: إلى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] فهذا النسخ جاء في القرآن نسخ لما في كتابهم من ذلك لا للقرآن.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] أي: مناهيه؛ إذ قال عزَّ قوله في حدوده: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ وهي المناهي، ومتى قال عزَّ قوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] فهي حدود الطاعة.

ومفهوم هذا: اجعلوا بينكم وبين حدود المناهي سترًا من المباحات، واتركوا ما اشتبه من ذلك عليكم إلى ما لا يشتبه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧] ما كان من الآيات التي هي أفعال وصنائع مما جعلها ﷻ شواهد على ما هي عليه مما يجب له، فهي آيات له على العلم والمعرفة به، وما كان منها مما هو من قبيل التكليف والوجود منها في سبيل الأوامر والنواهي، فتلك آيات على إصابة العمل

= الخطاب ﷺ واقع أهله بعدما صلى العشاء، فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة، إني رجعت إلى أهلي بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة، فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فهل تجد لي من رخصة؟ فقال النبي ﷺ: «ما كنت جديرًا بذلك يا عمر» فقام رجال واعترفوا بمثله، فنزل في عمر وأصحابه هذه الآية. [تفسير البغوي (٢٠٦/١)].

بطاعته، واستحباب القرب والولاية والدخول في خاصة عباده، فمن نظر في آياته التي أودعها الصنعة وتفكر في الحكمة آتاه علمًا وحكمًا، ومن توقى مناهيه واجتنب محارمه فهو من المتقين، ومن استعمل نفسه بهما وشغلها بما يرضيه وحافظ على ذلك ووافى عليه فقد لبس التقوى، واستجاد حلتها وريطتها(١) وسربالها.

فصل

لما قال الله عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧] جعل ﷻ يسرد ذكر آياته ويبينها، ونواهيه وأوامره، ويوقف على حدوده، فقال جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ [البقرة:١٨٨] يعلم بذلك أن حكم الحاكم لا يحلل حرامًا ولا يحرم حلالاً.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ زيادتها ونقصانها واستوائها، فأجابهم: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩] كما قال - جلَّ قوله - في موضع آخر: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:٥].

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١٨٩] وهذا منتظم معناه ما تقدم من قوله جلَّ قوله: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧].

وذكر نقلة الحديث أن سبب ذلك مذكور في الحديث، قيل: كان أحدهم متى خرج في حاجة فلم تنقضِ له دخل بيته من ظهره ولم يدخل من بابه، والفائدة في هذا النهي: ألا يأتي أحد أمرًا إلا من قِبَل وجهه ومن حيثما أتاه، فتلك سنة الله جلَّ ذكره في مخلوقاته في الدين والدنيا.

ثم ذكر القتال في سبيل الله والإنفاق، وجعل الحد في رفع الجهاد من الفتنة، وأن يكون الدين لله، ذكر ﷻ هذا ها هنا يخاطب بذلك الرسول وأصحابه، عليهم السلام.

وقال جلَّ قوله في موضع آخر من كتابه العزيز: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

---

(١) ريطتها: قَدْ يُسَمَّى كُلُّ ثَوْبٍ رَقِيقٍ رَيْطَةً. انظر: المصباح المنير (٣٠/٤).

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ كله ﴿لله﴾ [البقرة:١٩٣] وهذا خطاب يتوجه إلى بقية الأمم فيما يستقبل، وهذا لقوله لقوله عزَّ قوله: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤] للرجل الصالح قبل خروج الدجال - لعنه الله - ثم لعيسى ابن مريم ﷺ، يومئذٍ تتم الكلمة الحسنى على هذه الأمة في قوله عز قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة:٣٣].

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٠-١٩٥].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

﴿مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١] بل يصرف بالعدوان إلى الظالمين، هكذا حتى يظهر الدين الذي هو الإسلام على الدين كله، وتضع الحرب أوزارها.

قوله ﷻ: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ﴾(١) [البقرة:١٩٤] متصل المعنى

(١) فيها مسألتان: المسألة الأولى في سبب نزولها: قيل: نزلت سنة سبع حين قضى ﷺ عمرته في ذي القعدة، ودخل مكة وقضى نسكه. والمعنى: شهر بشهر، وحرمة بحرمة، وذلك أصل في كل مكلف عاقه عذر عن عبادة ثم قضاها، فإن الحرمة واحدة، والثواب سواء، وقيل: إن المشركين قالوا: يا محمد، نهيت عن القتال في الشهر الحرام؟ قال: نعم، فأرادوا قتاله فيه، فنزلت الآية؛ أي: إن استحلوا قتالك فيه فقاتلهم، فإن الحرمة بالحرمة مكافأة. تنبيه: قال علماؤنا: هذا يدل على أن لك أن تبيح دم من أباح دمك، وعرض من أباح عرضك، ومال من أخذ مالك؛ لكن من أباح دمك فلا تأخذه إلا بحكم حاكم، لا باستطالتك وأخذك بيدك، وأما من أخذ مالك فخذ ماله إذا تمكنت منه إن كان من جنس مالك إن ذهبًا فذهب، أو طعامًا فطعام، إذا أمنت أن تعد سارقًا، فإن لم يكن من جنسه فالصحيح أنه يتحرى القيمة
=

بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٧].

لما عاب المشركون على المسلمين القتال والقتل في الشهر الحرام قال عزَّ من قائل: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ﴾ الذي قاتلوهم فيه بما كانوا يفتنون المسلمين في الشهر الحرام والبلد الحرام والبيت الحرام ويقتلونهم ويخرجونهم.

قال جلَّ قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] أرجع ﷻ الخطاب إلى ذكر الجهاد بقوله عزَّ من قائل: لا تبخلوا بالإنفاق في سبيل الله، ولا تجبنوا عن قتال عدوكم، فلذلك رأى مهلك الفاعلة؛ لما فيه من غلبة العدو والاستيلاء منه على من قعد عن الجهاد والتزامه الذلة والصغار، وسبي الأهل والأولاد وأخذ الأموال، والخروج عن الدين والأوطان.

وبوجه آخر أن يكون ذلك مخاطبة لمن أذنب ذنبًا فاستعظمه، فلا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يظن أن ذنبه فات التوبة وكبر عن الدخول في حكم العفو، وتلك ضلة من ضلال الشيطان، يزين مآتي الذنب ويمني بالعفو، ويدلي بالغرور، وبعد ذلك يعظم ذلك ويقنط صاحبه، ولا يقنط من رحمة الله إلا الضالون.

وليتب إلى ربه، ويراجع الغفور الرحيم، فإنه - عزَّ جلاله - لا يتعاظمه ذنب يغفره وإن عظم ذلك الذنب، وعلى هذا التوجيه يكون معنى ذلك: ترك التوب من أحدكم إلقاء بيده إلى التهلكة، وأحسنوا في توبتكم وإنفاقكم وقتالكم وأعمالكم إن الله يحب المحسنين.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن

=

بقدر ذلك، وإما إن أخذ عرضك، فخذ عرضه ولا تتعداه لأبويه ولا إلى قريبه؛ ولا تكذب عليه، وإن كذب عليك، فإن المعصية لا تقابل بمثلها، فلو قال لك: يا كافر، فقل له: أنت الكافر، وإن قال لك: يا زان، فقل له: يا كاذب، يا شاهد زور؛ فإن قلت له: يا زان، كنت كاذبًا وشاهد زور وأثمت، وإن مطلك، وهو غني، فقل له: يا ظالم، قال رسول الله ﷺ: «لَيُّ الغني يحلُّ عِرضه وعقوبته» أما عرضه فبما فسرناه، وأما عقوبته فبالسجن حتى يؤدي. [الأحكام الصغرى ص ٥٣].

تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ
عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
(١٩٦) ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى
ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ
أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا
هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ (١٩٨)﴾ [البقرة:١٩٦-١٩٨].

﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ﴾ [البقرة:١٩٦] هذا منتظم بذكر الحج وبيانه في فعل رسول الله ﷺ من إقرانه العمرة بالحج، وأمر من لم يسق الهدي أن يحل حتى يهل يوم التروية، ومن ساق الهدي فلا يحل منهما جميعًا، هكذا مع العافية والوصول إلى بيت الله والتمكن، فإن من أحصر بعدو أو مرض فليفعل ما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية، قلد الهدي ووجّهه نحو البيت مرسلاً وحلق.

ومن أذاه هوامه أو كان مريضًا ففعل ما لا يجوز له فعله مع الصحة ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ومع الأمن ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِن الهَدْيِ﴾ [البقرة:١٩٦].

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ
ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ
(٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
ٱلنَّارِ (٢٠١) أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٢٠٢) وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ
مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا

وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[البقرة: ١٩٩-٢٠٦].

قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[1] [البقرة: ٢٠٠] كانوا يذكرون آبائهم بمناقبهم ومفاخرهم.

يقول الله جلَّ قوله: فإذا قضيتم حقه فيما أنعم عليكم من إتمام مناسككم فاذكروا الله بنعمه وآلائه وكريم أياديه قبلكم، وهدايته إياكم من ضلالكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، وبما أرسل به إليكم رسوله ﷺ ونصركم به على من بين ظهرانيكم [فأراد][2] عز جلاله أن يذكروا آباءهم مع ذكره وأنه معنى ذلك أن يجعلوا ذكر ربهم مكان ذكر آبائهم، وأن يمعنوا في ذلك.

ثم ذمَّ ﷻ من قصر علمه على الدنيا وجعلها مبلغه ومنتهاه بقوله جلَّ قوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ * وَمِنْهُم...﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠١].

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني: أيام منى، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] أي: اتقوه في نياتكم وتوجيهها أعمالكم وهيآتكم أيام منى، واتقوه في أوامره ونواهيه.

لذلك أتبع هذا الخطاب قوله عزَّ قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [البقرة: ٢٠٤] إلى قوله: ﴿وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦] ومن كانت هذه حليته فهو منافق خالص.

---

(١) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وسبب نزولها أنهم كانوا إذا اجتمعوا في الموسم تفاخروا بآبائهم، فيقول أحدهم: كان يقرى الضيف ويضرب بالسيف، ويطعم الطعام وينحر الجزور، ويفك العاني ويجر النواصي ويفعل كذا وكذا، فنزلت. وقال الحسن: كانوا إذا حدثوا أقسموا بالآباء فيقولون: وأبيك، فنزلت. وقال السدي: كانوا إذا قضوا المناسك وأقاموا بمنى يقوم الرجل ويسأل الله فيقول: اللهم إن أبي كان عظيم الجفنة كثير المال، فأعطني بمثل ذلك! ليس يذكر الله، إنما يذكر أباه ويسأل الله أن يعطيه في دنياه، فنزلت. [تفسير البحر المحيط (٢/٢٧٣)].

(٢) ما بين [ ] غير واضحة بالأصل.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢٠٧-٢١٢].

والمخلص الموفق من صفته في معنى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧].

وهذا بمقابلة ما وُصف به المنافق بقوله عزَّ قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

ثم عرض لهم برفع همتهم صعودًا إلى منزله الولاية، وعلمهم الإخلاص ودلهم على جملته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي: ظاهرًا وباطنًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[(١)] قرئ بإسكان الطاء ورفعها، فمعنى

---

(١) أصل السلم بالكسر، والفتح الاستسلام والطاعة، ويطلق أيضًا على الصلح وترك الحرب والمنازعة، وهو أيضًا راجع إلى هذا وإنه يذكر ويؤنث، واختلف في المخاطبين فقيل: أمر للمسلمين بما يضاد حال المنافقين؛ أي: يا أيها الذين آمنوا بالألسنة والقلوب دوموا على الإسلام فيما تستأنفونه من أيامكم، ولا تخرجوا منه ولا من شيء من شرائعه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تلتفتوا إلى الشبهات التي يلقيها إليكم أهل الغواية، والكائن في الدار إذا علم أن له في المستقبل خروجًا منها لا يمتنع أن يؤمر بدخولها في المستقبل حالاً بعد حال، ومعلوم أن المؤمنين قد يخرجون عن خصال الإيمان بالنوم والسهو وغيرهما من الأحوال، فلا يبعد أن يأمرهم الله بالدخول في الإسلام فيما يستأنف من الزمان، أو أمرهم بأن يكونوا مجتمعين في نصرة الدين واحتمال البلوى فيه، ولا تتبعوا آثار الشيطان بالإقبال على الدنيا والجبن والخور في أمر الدين مثل ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦] أو =

الإسكان: من الخطوة واحد الخطوة، ألا يسلكوا مسالك ويتبعوا أثره، ومعنى رفعها: الخطايا، لا تتبعوا خطاياه ولا ما يأمركم به من فحشاء ومنكر وإثم ظاهر وباطن في عقودكم وأعمالكم ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٥] عداوته.

﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ فيما أمركم به في شيء يكرهه الله الذي شريتم أنفسكم له ابتغاء مرضاته ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩] وعيد منه ﷻ لا يمتنع منه شيء، ولا يعجزه فائت حكيم ﷻ في إيقاع العقوبة على المصرين والمنافقين والكافرين، حكيم في قبول التوبة من التائبين، وفيما ينيلهم من ثواب أعمالهم وكريم حالهم، هل ينتظرون توبة المصرين على ذنوبهم والمنافقين والكافرين من الناس إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام يوم العرض على الحساب والملائكة؛ أي: للموت لقبض نفوسهم، وقضاء الأمر بالسعادة للمتقين والتائبين، والشقاوة للكافرين والمنافقين.

فصل

ذكر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الذكر الذي هو أوجب الواجبات، لأجله شرعت الشرائع ونهجت المناهج واتخذت المواسم لرفيع الذكر، وليجعل لكل مقام نوع من الذكر.

قوله عزَّ قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨].

كان النبي ﷺ يقول عند المشعر الحرام: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**»(١).

= يكون المراد بالدخول في السلم ترك الذنوب والمعاصي، فإن من مذهبنا أن الإيمان باقٍ مع الذنب والعصيان، أو يكون المراد الرضا بالقضاء والتلقي لجميع المكاره بالبشر والطلاقة كما ورد في الخبر: «**الرضا بالقضاء باب الله الأعظم**» أو يكون المراد ترك الانتقام وسلوك طريق العفو والإغماض. [تفسير النيسابوري (٩/٢)].

(١) أخرجه مالك (٩٤٨)، والبخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، والترمذي (٩٦٥)، وأحمد (٤٣٣٥)، وابن أبي شيبة (١٤٥٠٥)، والدارمي (١٨٥٠)، والبيهقي (٨٦٠٩)، =

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩] أي: إن الله قد أوجب لكم المغفرة في مقامكم ذلك حتى إنه ليهب مسيئهم لمحسنهم، ويتجاوز عن الذنوب العظام، ويباهي بهم الملائكة - عليهم السلام - ويخزي إبليس لعنه الله، ويذله ويدحره مما يريه من كرامة عباده وعظيم أفضاله عليهم.

ثم قال عزَّ من قائل ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة:٢٠٠] على معنى قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣] أي: أكثروا من ذكره على كل أحوالكم وفي كل أحيانكم، غلب هذا التوجه لفظ الذكر والأمر به، ويتوجه أيضًا إلى معنى المحبة، دل على صحيح هذا التوجه [لتثبيته][(١)] الذكر بذكرهم آبائهم كما قال القائل:

وَلَـو أَنَنِـي أَسـتَغفِرُ اللهَ كُلَّمَـا ... ذَكَـرتُكِ لَـم تُكتَب عَلَـيَّ ذُنُـوبُ

ومن ذلك أن يكون هذا الذكر على الإلحاح والعزة، دلَّ على هذا قوله جلَّ قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ يوافق هذا قول النبي ﷺ: «**ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له**»[(٢)].

فيكون معنى هذا الخطاب ها هنا: سلموا الله حوائجكم، واعزموا في مسائلكم إياه كما تعزمون على آبائكم أو أشد، فإنه أرحم من آبائكم وأعطف عليكم وأقدر على قضائها، دل على تصحيح هذا الوجه قوله - عزَّ من قائل - يذم من قصرت همته وقلَّ علمه بربه، فيرضى منه بالأدنى في مسألته، وهو الواسع الكريم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا....﴾ [البقرة:٢٠٠].

فصل

من الذكر ما هو مؤقت، ومنه ما هو دائم، فالمؤقت منه: العبادات المؤقتة،

=

وابن حبان (٦٠١١)، والدارقطني (٣/١٠٤)، وابن ماجة (٢٦٢٨).

(١) في النسخة (ف): «لتثبيت».

(٢) أخرجه مالك (٥٠٠)، والبخاري (٦٣٣٩)، وأبو داود (١٤٨٥)، والترمذي (٣٨٣٦)، وأحمد (١٠٢٢٨)، والحميدي (١٠١٠)، والطبراني في الأوسط (٢٠٩٢) وفي الشاميين (٣١٧٩).

وذلك بالجوارح؛ كالقراءة في وقتها، والصلاة في أوقاتها، والصوم والزكاة والحج، وسائر الفرائض المؤقتة من أعمال الجوارح، وكل نوع من العبادات والطاعات يعود إلى الذكر بالحقيقة؛ إذ لا تصح طاعة ولا عبادة إلا بنية، والنية هي الذكر بالقلب، وهو أن يعلم أنه جلَّ ذكره افترض عليك هذه الطاعة وندب إليها، وإنه هو المقصود فيها بالطاعة والعبادة، والتوجه بها إليه، وكل فعل يخلو من ذلك فهو باطل.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥] ونهى عن الصلاة حال السكر لأجل هذه العلة، ونهى رسول الله ﷺ عن الصلاة حال النوم وحين مدافعة الأخبثين لأجل ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[(١)] ومحل النية القلب.

قال النبي ﷺ: «**إنما لامرئ ما نوى**»[(٢)].

وأما الذكر الدائم فهو ذكر القلب، وحضوره يطرد الشيطان، ويذهب النسيان والغفلة، وذلك على وجوه:

- فتارة يذكر الله لعظمته وعلائه وكبريائه، ويتولد منه الهيبة والإجلال.
- وتارة يذكره لعظيم قدرته وأليم أخذه وشديد بطشه، فيتولد من ذلك الخوف والحذر.
- وتارة يذكره بالفضل والرحمة، فيتولد من ذلك الرضا.
- وتارة يذكر وعده، فيتولد منه الشوق.
- وتارة يذكره بأن له الملك والخلق والأمر والمشيئة الماضية، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فيتولد من ذلك الغبطة والسرور بأنه عبد لمن هذا وصفه ونعته، فيتولد عن ذلك أيضًا الصبر والحب.
- وتارة يذكره؛ لأنه الكافي للمهمات الموجودة وحده لا سواه في جميع الملمات، المتكفل بالأرزاق وإيصالها إلى المفتقرين وذوي الحاجات إليها، فيتولد عن ذلك التوكل والتفويض.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

- وتارة يذكره بما نصب من العبر والعلامات، وما استشهد به من الشواهد وأقام من البينات وأثار من آيات، فيتولد عن ذلك زوائد اليقين.

- وتارة يذكره بأن بيده مفاتح الأمور، مبادئها منه ظهرت وإليه تعود، فيتولد عن ذلك فناؤه عن نفسه وبقاؤه بربه.

ثم اعلم - وفقنا الله وإياك - أن أفضل الذكر: الذكر في الذكر، وهو عند الغفلة أن يذكر في ذكره إنعامه وفضله وإحسانه، ويلزم نفسه الإعظام والإجلال، وألا يطالب نفسه بذكر الحقيقة، فقد قالوا: حقيقة الذكر العجز عن الذكر، وقالوا: لم يذكر اللهَ العبدُ إلا عند الغفلة، ولولا الغفلة لم يقدر على الذكر كما قيل: لو يعلم اللسان من يذكر بحقيقة الذكر لجف في الحنك.

شاهد هذا من القرآن العزيز قوله جلَّ قوله: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ**﴾ [الحشر:٢١].

وقوله ﷻ: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ [الأعراف:١٤٣] ولو **تجلى** المذكور جلَّ ذكره للقلب بالذكر حال الذكر لانصدع وتدكدك كما تدكدك الجبل للمجتلى، وإنما ذلك على قدر إرادته ومشيئته.

ومن أحسن الذكر: ما هاج عن خاطر وارد من المذكور جلَّ ذكره ذلك الخفي عن الاستئثار المتمكن في الأسرار من الذكر في الذكر أن يكون القلب فارغًا من الكل، فلا يبقى فيه غير الله جلَّ ذكره، فيصير القلب بيت الحق، ويمتلئ منه فيخرج الذكر عن غير قصد ولا تدبير، وحينئذٍ يكون الحق المبين لسانه الذي ينطق به.

فإن بطش هذا الذاكر فيكون يده التي يبطش بها، وإن مشى يكون رجله التي يمشي عليها، وإن سمع كان سمعه الذي يسمع به، قد استولى المذكور الحق على الفؤاد فامتلأ به، وعلى الجوارح فصرفها إليه، جعله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه على إشارته وموضع تكليمه ومحادثته من غير اتحاد ولا حلول، بل قدرة من عزيز عليم، فكذلك يخرج الذكر من غير تكلف، وتتخرج الأعمال بالطاعة له في كل ما يكون منه من تصرف وقدر.

وصرف الله ﷻ قلب أم موسى ﵇ بمعنى ذلك في قوله: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا**﴾ [القصص:١٠] أي: فارغًا من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى ﵇،

فكادت أن تبدي به من غير قصد لها منها لذكره ولا تدبير، بل كان تركبها للتبريح به تعليلاً وصبرًا لما ربط الله جلَّ ذكره على قلبها لتكون من المؤمنين بما أوحى إليها من قبل في شأن موسى ﷺ وبأنه من المرسلين.

قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١] لم يُرِدْ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بذكر السؤال ها هنا مشافهتهم، وإنما أراد سؤال الحال، كقوله جلَّ قوله: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا....﴾ [الفرقان:٦١] فأحاله ﷻ على سؤال المخلوقات واسترشاد المبتدعات، وكما تقول العرب: «سل الدار، سل الأطلال» ونحو هذا: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بما أعلمناك من شأنهم، وما قصصنا عليك من أمرهم ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة:٢١١].

كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾ [الجاثية:١٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ [الجاثية:١٧].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ يعرض بهم حيث بدلوا ما أنعم الله عليهم من الرسالة والكتاب وتلاوته بآرائهم، وكتموا وغيَّروا، وألبسوا الحق بالباطل، وتهديد لهذه الأمة تأديبًا لهم بغيرهم؛ أي: لا يغترن أحدكم بما يراه من الصفح والمهل والإكرام، فليحذر الذين لا يتقون أن يصيبهم مثلما أصاب بني إسرائيل من تبديل النعمة بالنقمة، والإكرام بالإهانة، والعزة بالذلة ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١].

ثم قال عز من قائل: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:٢١٢].

كقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩].

وقوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:١١٠].

ثم قال عز قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [البقرة:٢١٢] أي: الذين

اتقوا في إيمانهم فوق هؤلاء يوم القيامة، بشَّر ﷻ وتعالى علوّه وشأنه أوليائه الذين قال فيهم جلَّ قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾ [يونس:٦٤] وهذه التلاوة من البشرى لهم في الحياة الدنيا، وكما أن التقوى درجات، وأول درجة منها يدخل بها [العبد][1] في الإسلام، ويستحق بها اسم الإيمان، وكذلك ينالون من هذه البشارة حظوظه، قسمه على درجاتهم من التقوى والإيمان.

﴿وَالله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢] الرزق قد يكون العلم والعبادة، وقد يكون القوت، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فأرزاقها بغير حساب المتقون الذين هم أهل التقوى تحقيقًا، ورزقهم في الدنيا والآخرة، كذلك يرزق المؤمنون الجنة بأعمالهم، ويدخل المتقون فيها بغير حساب.

ثم ذكر جلَّ ذكره كيف كان الناس أمة واحدة فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين لمن آمن وأصلح، منذرين لمن عتى وأبى أن يرجع إلى معلوم الهدى، والمعلوم من التوحيد والتقوى.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ

---

(١) زيادة لتمام السياق.

لَكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[البقرة:٢١٣-٢١٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾[1] يقول للعرب ولمن سواهم من الأمم: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم...﴾ [البقرة:٢١٤] أرجع ﷻ وتعالى علوّه وشأنه معنى الخطاب إلى ذكر البلوى والإخبار.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

كما قال جل ثناؤه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣].

قوله سبحانه وبحمده: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ...﴾ [البقرة:٢١٥] أرجع معنى الخطاب إلى ذكر النفقة.

قوله تعالى: ﴿وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ

---

(١) قال قتادة والسدي: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] وقيل: نزلت في حرب أحد. وقال عطاء: لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة اشتد عليهم الضر؛ لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ وأسر قوم النفاق، فأنزل الله تعالى تطييبًا لقلوبهم. [تفسير البغوي (١/٢٤٤-٢٤٥)].

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ ﴾[البقرة:٢١٧-٢٢٠].

قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[1] [البقرة:٢١٦] انتظم هذا الخطاب بذكر القتال، أرجعه ﷻ إلى أوله؛ ليستوعب لهم معاني الآيات إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله﴾ [البقرة:٢١٨].

ثم ذكر جلَّ ذكره سؤالهم عن الخمر والميسر، فأخبرهم بالحقيقة في ذلك، وأن إثمهما أكبر من نفعهما، والمنافع المشار إليها في الخمر اجتماعهم عليها وتآخيهم فيها.

---

(١) قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] أخبر سبحانه أن مقاومة النفس ومخالفتها صعب على صاحبها، لكن في درب كل خلقٍ دنا في نيران المجاهدة انفتاح كنز من كنوز الحقائق من الفِراسات والكرامات والمناجاة والمكاشفات والمشاهدات؛ لأن النفس الحجاب الكلي يحجب القلب عن مشاهدة الملكوت، ورؤية أنوار الجبروت، وسنة الله قد مضت بأن من خالف نفسه وهواه فقد استنَّ محجة المثلى، وأدرك ممالك العليا، ورقي مدارج المكاشفات، وبلغ معارج المشاهدات؛ لأن مخالفة النفس هي موافقة للقلب، ومَنْ وافق قلبه أنس سعادة الكبرى، ونال منزلة الأعلى؛ لأن مَنْ باشر أنوار القلب فقد باشر أمر الحق، ومَنْ أدرك الحق بوصف الإلهام باشر سره نور الحكمة، ومَنْ أدرك نور الحكمة فقد أبصر نور معرفته، ومَنْ أبصر نور معرفته عاين حقيقة الكل بالكل، وقد استمسك بالعروة الوثقى، وهي مشاهدة مولاه، فأين هذه المنزلة والمرتبة في هوا حسن حظوظ البشرية، وحصول النفس عند توقانها نفائس الشهوة، بل الأمر المعظم في قتال النفس، وقمع شهواتها، وقلع صفاتها عنها حتى تصير مطمئنة ساكنة تحت قضاء الحق، وبقي القلب فارغًا عن وساوسها، وسرَّ عالم الملكوت بنور البصيرة، كما قال ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

ثم قال جلَّ قوله: وما تكون عن تلك المنافع من الإثم أكبر من تلك المنافع، نص على ذلك ﷻ في سورة المائدة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يعني: الرجس ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠-٩١] فأحال لهم منافعها ضررًا، فأين تقع منفعة تآخيهم واجتماعهم عليها من تقاطعهم لسببها وقتلهم وقتالهم فيها.

وقد روي «**أكثر**» بالثاء بثلاث نقط بدلاً من «أكبر»، قرأه عبد الله بن مسعود ﷺ[١].

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٦٦] وهذا إشارة عزم على المعتدين الظالمين في كتاب الله ﷻ ما علموه أو علموا أوجه الحكمة فيما يرد فيه من مأمور به أو منهي عنه اعتقدوه وآمنوا به، وما لم يعلموه أو علموه ولم يتوجه لهم كيف وجه الحكمة فيه فليكلوه إلى العالم الأعلى ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢١٩] هذا منتظم بمعنى ما تقدم ذكره من النفقة، كقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:٢١٥].

ولما كان سؤالهم هنا عن النفقة: ما هي؟ وما قدرها؟ قال جلَّ قوله: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿العَفْوَ﴾ وهو الفضل؛ لقول رسول الله ﷺ: «**وخير الصدقة عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول**»[٢].

فالطيب الحلال والتوسط في الأمور كلها ممدوح، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧] أي:

---

(١) في قراءة عبد الله: «عن قتال فيه» على تكرير العامل، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] وقرأ عكرمة: «قتل فيه قل قتل فيه كبير». الكشاف (١/١٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٠)، ومسلم (١٠٣٤)، وأبو داود (١٦٧٧)، وابن حبان (٣٣٤٦)، والحاكم (١٥٠٩) والبيهقي (٧٥٦١)، وأحمد (٨٦٨٧)، وابن خزيمة (٢٤٥١).

إنا جعلنا بين الطرفين قوامًا.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩-٢٢٠].

فصل

ذكر بعض من تقدم - رحمة الله على جميعهم - أن هذا منسوخ بالأمر بالزكاة.

قال: وكذلك كل نفقة مذكورة في القرآن، وليس هذا بناسخ ولا منسوخ أيضًا، إنما كان سؤالهم من الإنفاق، وفيما يتطوعون به من المتصدق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ثم زاد ذلك تبيينًا بقوله ﷻ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥].

وليس كذلك خطاب الأمر بالزكاة المكتوبة الموجوبة المفروضة، إنما أجابهم ﷻ عن الإنفاق، فقال: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المعنى كما بيَّن رسول الله ﷺ: «نفسك، ثم أباك، ثم أمك»[1] فأدِّ مالك فما فضل عن ذلك فقل به هكذا وهكذا وهكذا.

ولو كان الأمر بالزكاة ناسخًا لسائر النفقة لكان الأمر بصلاة الفريضة ناسخًا لصلاة النافلة، والأمر بصيام رمضان مانعًا بالنسخ من صيام التطوع، فلا يكون من الآية صلاة نافلة ولا صيام مرغب فيه، فكذلك الحج وجميع الرغائب من الخيرات، فلِمَ هذا واجب عزم وهذا مرغَّب فيه مندوب إليه؟ ولكل خطاب معنى مراد به.

فصل

موجودات الدنيا كلها لا تخلو من أن تكون أفعالاً لله ﷻ انفرد بها لا شريك له، كالذي أوجده ﷻ من المخلوقات، وابتدعه من المبتدعات أجمعها كالسماوات والأرض والجبال والنجوم والسحاب والأفلاك والرياح والماء ينزله ﷻ وتعالى

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٤٠)، وأبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧) وقال: حسن، والطبراني (٩٥٧)، والحاكم (٧٢٤٢) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (٧٥٥٢)، وابن ماجة (٣٦٥٨).

علاؤه وشأنه من السماء، وما ينميه من أنواع النبات، ويخلفه عنه من جميع الحيوان.

وبالجملة: فالخلق كلهم بالأمر، أو يكونوا أفعالاً للعباد يخلقهم الله بواسطة يكتسبونها بقدرهم التي أقدرهم الله ﷻ، ففي القسم الأول الاعتبار والنظر حتى يعود بواسطة الاعتبار آخره، وفي القسم الثاني الأمر والنهي، ثم هذا القسم الثاني على قسمين:

أحدهما: يفعله المكلف، وهو مأمور به أو مندوب إليه، عليه إن لم يفعله وعيد، وله متى فعله على ما أمر به وعد، كالصلاة والصوم والجهاد وأنواع البر فرضها ونفلها، ومنها ما لا بد للمكلف منه ليقيم بها جسمه ويصل بها نسله، كالأكل والشرب والنكاح والأموال والأولاد، وما يتبع ذلك أو جر إليه، فهذا القسم بالإضافة إلى قسمه دنيا وذلك آخرة، فجعل الله ﷻ يبين لهم ما هو إلى الدار الدنيا أقرب، وما به تعمر بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة:٢٢٠].

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ﴾ الله ﴿آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي: التبري والتولي لعلهم يتذكرون فيرجعون.

كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾ [الأنعام:٦٨] إلى قوله: ﴿وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٦٩].

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾[البقرة:٢٢١-٢٢٥].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢] إلى آخر معناه.

ثم قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾[1] [البقرة:٢٢٤] بين الناس، فهو في معنى الآخرة على ما تقدم من ذكر معنى الآخرة، ويتوجه بهذا النهي إلى وجهين:

أحدهما: ألا تكثروا بالأيمان في أكثر أموركم، فتلك ذريعة إلى الحنث والندم.

والوجه الآخر: فتجعلوا الله عرضة لأيمانكم ألا تحلفوا بالله ألا تصلحوا بين الناس، فمن يفعل هذا فهو المتألي على الله ألا يفعل الخير ولا يبر، وألا يتقي، فهذا هو الحالف أن يعصي الله ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٤] فراقبوه واستحيوا منه، فهو أحق أن يُستحى منه إلا في الحيض، هو: الدم، ومتى انقطع الدم وجب التطهر منه شرعًا واجبًا.

قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٢٢] وأمره المشار إليه في هذا الخطاب، وهو أعلم بما نزل في معنى قوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] لأجل نزاهة هذا الخطاب.

قال رسول الله ﷺ في حديث ثابت عنه: «**إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أعجازهن**»[2] وجاء بغير هذا اللفظ.

وقال ﷻ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] أي:

---

(١) نزلت في الصديق ﷺ لما حلف ألا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها، أو في عبد الله بن رواحة حلف ألا يكلم ختنه بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته. [تفسير البيضاوي (١/٢٥٦)].

(٢) أخرجه الدارمي (٢٢١٣)، والنسائي في الكبرى (٨٩٨٢)، وابن ماجة (١٩٢٤)، والطبراني (٣٧١٦)، والبيهقي (١٣٨٩٤)، والحميدي (٤٣٦)، وابن أبي شيبة (١٦٨١٠)، وأحمد (٢١٩٠٧)، وأبو عوانة (٤٢٩٤)، وابن حبان (٤٢٠٠)، والبزار (٣٣٩).

كيف شئتم منهن، قالوا: لكن في صمام واحد.

وفي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] تعريضًا بما تقدم معناه كما جاء في قصص قوم لوط إنهم أناس يتطهرون ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨].

ذكر ﷻ الإيلاء والطلاق والرجعة والرضاع والإنفاق على الأزواج والأولاد، والعدة والخطبة للنكاح، ونهى عنه حال العدة، ورخص ﷻ في التعريض ومنع من التصريح، وذكر ﷻ الطلاق قبل المسيس، وكيف الحكم فيه، وذكر ﷻ إمتاع النساء، وهي بحسن الفعل والأخذ بالفضل في التعامل كله وخاصة في النكاح؛ لما فيه من عهد وميثاق، واتصال النفوس والذوات بعضها إلى بعض.

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن
يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟
إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ
مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا
إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ
بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا
تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ

أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا
تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَادَكُمْ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى
ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن
تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ
عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٣٧].

وحضَّ على ذلك بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[1] وعرَّض بالوعيد في عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٧].

ثم أرجع ﷻ الخطاب بما هو بيّن للآخرة بقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] الصلاة الوسطى: هي صلاة الصبح وصلاة العصر، يشهدهما ملائكة الليل وملائكة النهار، ويشهدون بهما عند ربهم - صلوات الله وسلامه عليهم - يقولون عندما يسألهم الرب عزَّ جلاله

---

(١) ﴿وَلَا تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ النسيان هنا الترك مثل: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ والفضل: هو فعل ما ليس بواجب من البر، فهو من الزوج تكميل المهر، ومن الزوجة ترك شطره الذي لها، وإن كان المراد به الزوج فهو تكميل المهر. [تفسير البحر المحيط (٢/٤٥٥)].

وتعالى علاؤه وشأنه: «كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: آتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»(١).

قال رسول الله ﷺ: «من قعد بعد الصلاة يذكر الله فهو في صلاة»(٢).

وفي أخرى: «صلت عليه الملائكة ما دام في مصلاه ذلك حتى يقوم»(٣). وفي أخرى: «ما لم يحدث».

معناه: ما لم يحدث كلامًا أو شغلاً أو أمرًا ليس من شأن الصلاة، وهذا خطاب منتظم بخطابه ﷻ المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] بدأ جلَّ ذكره بذكر الصلاة وختم بذكرها إعلامًا من ﷻ بعظم قدر الأعمال التي تكون للآخرة، وبخاصة منها الصلاة.

ألا تسمعه ذكر الصلاة والصبر وهما أصلان لأعمال الآخرة؟ لذلك يستعان بها على مكابدة أعمال الآخرة، والمقصود الأول من ذلك كله: الصلاة، كذلك فعل في سورة المؤمنين؛ صدَّر بذكر الصلاة وختم بذكرها، وفعل مثل ذلك في سورة «المعارج».

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ

(١) أخرجه مالك (٤١١)، والبخاري (٥٣٠)، ومسلم (٦٣٢)، والنسائي (٤٨٥)، وأحمد (٨٣٤١)، وابن حبان (١٧٣٧)، والبيهقي في سننه (٢٢٧١) وفي الشعب (٢٧٠٨)، والطبراني في الشاميين (٣٢٠٤)، وابن خزيمة (٣٢١)، وأبو عوانة في مستخرجه (٨٧١).

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (٤٠٧١)، وعبد بن حميد (٤٦٥)، والطبراني (٦٠١١)، وابن حبان (١٧٥٢)، وأبو يعلى (٧٥٤٦).

(٣) أخرجه مالك (٣٨٠)، وأحمد (٨١٠٦)، وأبو داود (٤٦٩)، والنسائي (٧٣٣)، وابن حبان (١٧٥٣)، والطيالسي (٢٤١٥)، وأبو عوانة (١٣١٥)، والبيهقي (٢٨٤٣).

يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾[البقرة:٢٣٨-٢٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ...﴾[1] [البقرة:٢٤٠].

ذكر بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا العِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ....﴾ [الطلاق:١].

وليست هذه ناسخة لتلك، بل عدة المتوفي عنها زوجها أربعة أشهر وعشر، وعدة المطلقة ثلاثة قروء، وكما عدَّة اللاتي لم يحضن كبرًا واللاتي لم يحضن صغرًا ثلاثة أشهر، فليس الغرض في الآية الإعلام بالعدة لما تقدم من الإعلام.

وإنما ذكر أن الزوج متع المرأة بسكنى سنة، ووصى بذلك متعة لها، وقد قال جلَّ قوله في المتعة: إنها لحق على المتقين وعلى المحسنين، فنهى عن إخراجها عن ذلك المسكن الذي متعها به، وجعله وصية في ماله ينفذ عنه بعده.

فإن قال قائل: «**لا وصية لوارث**»[2] قيل له: هذا حكم مستثنى من الوصية بذكر الإمتاع، والورثة مكلفون إمضاء ذلك عن الميت، فإن تشاحوا فيحسب من ثلثه الجائز له بعد موته، ويكلفون أيضًا بألا يخرجوها، فإن خرجت من ذاتها لم يثرب عليها، ولم يلحق الأولياء ولا الورثة خرج من أجل ذلك ما لم يكن الخروج لرتبة

---

(١) ﴿وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم﴾ قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم على تقدير: والذين يتوفون منكم يوصون وصية، أو ليوصوا وصية، أو كتب الله عليهم وصية، أو ألزم الذين يتوفون وصية، ويؤيد ذلك قراءة «كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعًا إلى الحول مكانه» وقرأ الباقون بالرفع على تقدير: ووصية الذين يتوفون، أو وحكمهم وصية، أو والذين يتوفون أهل وصية، أو كتب عليهم وصية، أو عليهم وصية، وقرئ «متاع» بدلها. [تفسير البيضاوي (١/٢٧٣)].

(٢) تقدم تخريجه.

﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثم قال ﷻ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢٤١] هذه مطلقة مدخول بها، وقد تقدم ذكر المتعة قبل هذا.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٢٣٦] فهذه مطلقة قبل المسيس، وهي لا عدة عليها.

فصل

ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة:٢٤٠] أي: متاعًا سكنى الحول وصية لأزواجهم، فيكون متاعًا نعتًا للأزواج، وقد يكون نصبًا على التفسير.

وقد قيل: إن نكاح المتعة لا يتوارث به، ذُكر ذلك عن ابن عباس، فالله أعلم فإن كان كذلك فلذلك أجاز الوصية لهن.

وعموم الخطاب في آية الوصية في لفظ الأزواج: يعطي الموارثة ونكاح المتعة كان مباحًا في أول الأمر لمكان الضرورة، ولما زالت الضرورة منع منه رسول الله ﷺ ونهى عنه، وأمر بفراقهن، وأبقى الله ذكره في القرآن مثبتًا لوقت الضرورة أيضًا، وكانت الضرورة المقدمة كثرة الرجال وقلة النساء؛ لخروج الرجال من أوطانهم دون أهاليهم إلا من شاء الله بحكم الهجرة إلى الله ورسوله، وفي آخر الزمان ما يكون الضرورة لقلة الرجال وكثرة النساء.

قال رسول الله ﷺ: «**من أشراط الساعة كذا وكذا**» وذكر فيها: «**ويقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد من الرجال يلذن به من قلة الرجال، يقول: هذه زوجتي، ويقول: هذه [أمتي]...**»(١).

وذكر رسول الله ﷺ عيسى - صلوات الله وسلامه عليهما - وقال فيه: «**ويزيد في الحلال**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) نحوه.

(٢) أخرجه الطبراني في الشاميين (٥٤٢)، وابن عساكر (٥٠٢/٤٧)، والدارقطني في العلل (١١/ =

كذلك بلغ عليه السلام إلى بني إسرائيل فيما أرسل به إليهم، فقال: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠-٥١].

قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ذكر الأكثر من المفسرين أن هؤلاء قوم خرجوا من ديارهم حذر الطاعون، فأماتهم الله ثم أحياهم الحياة الجسمانية.

وذكر في بعض كتب النبوات أن نبيًا من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - قال: بينا أنا قاعد بين ظهراني قوم من بني إسرائيل أخذتني يد الله فأخرجتني إلى البرية، وإذا بعظام كثيرة في موضع متسع، فقال لي: «تنبأ على هذه العظام وقل: أيتها العظام النخرة والأجسام - أو قال: اللحوم - البالية، لتنمي بإذن الله» أو قال ما معناه هذا، قال: فجعل العظم ينتشر إلى العظم، واللحم يكسو العظام إلى أن كملته الأجسام.

ثم قال لي: «تنبأ على الأرواح» وذكر كلامًا لست أذكره، قال: فأقبلت من الرياح الأربعة، وسمعت هدة عظيمة، ثم قاموا على أقدامهم فكانوا كجحفل عظيم، ثم قال: «هكذا إحياء بني إسرائيل من بعد موتهم في كلام الله» غير هذا فالله أعلم أهم هؤلاء أم غيرهم، أم كما قال المفسرون، أو يجمع المعنى فيهما، أو يتفرق كل على الله يسير آمنًا بما هو الحق عند الله ﷻ.

والأظهر أن هذا الخطاب منتظم بقوله الحق: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

ثم نظم هذا الخطاب وإن كان قد حال بين هذين الخطابين بمعانٍ من الخطاب وضروب من الأحكام، كالمعهود من القرآن العزيز، وإن هؤلاء قوم خرجوا من مخافة الطاعون فأماتهم الله ﷻ بالطاعون، ثم أحياهم بعد موتهم حياة الشهداء؛ إذ كان موتهم بالطاعون، ثم خاطب رسوله بما بينه وبينه من علم ما أنبأنا به من ذلك.

=

٢٢٨) بنحوه. وما بين [ ] غير واضح في (ق).

ثم قال جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ...﴾ [البقرة:٢٤٣] المعنى إلى آخره.

ألا ترى كيف أعقب ذلك قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٤] أي: قاتلوا في سبيل الله كي تنالوا الشهادة، فهو العليم بمن يقتل في سبيله، السميع لقول القائلين فيهم: إنهم أموات، وقد نهوا عن ذلك إثباتًا لحكمه وتحقيقًا لوعده إياهم.

قوله ﷻ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَالله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ لما كان الجهاد عدته وعمدته إنفاق الكريمتين: النفس والمال، نظمه بذكر مجاوره، وأتبع ذلك مما هو في معناه: ﴿وَالله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ وما توجه من القرض إلى معنى الإنفاق فالقبض والبسط في ذلك معهود، كقوله جلَّ قوله: ﴿الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد:٢٦].

والمتوجه منه إلى بغي الجهاد والقتال، فتقديره والله أعلم: قاتلوا في سبيل الله، والله يقبض يد العدو ويبسط أيديكم عليهم بقبض بلادهم وأرزاقهم، وتُزادون عليهم في ذلك، فحضَّ ﷻ على الإنفاق على وجوهه، ولزوم التفويض لله والتوكل عليه، بمعنى: إنه ليس يموت أحد إلا بأجله، ولا فقره وعدم حاله عن كثرة إنفاق، ولا حياة النفوس وغناها بالمال عن قلة الإنفاق وعدم القتال ﴿وَالله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] [البقرة:٢٤٥].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ

(١) أي: يسلب قومًا ويعطي قومًا، أو يقتر ويوسع. قاله الحسن، أو: يقبض الصدقات ويخلف البذل مبسوطًا، أو يقبض؛ أي: يميت لأن من أماته فقد قبضه، ويبسط؛ أي: يحييه لأن مَن مدَّ له في عمره فقد بسطه، أو يقبض بعض القلوب فلا تنبسط ويبسط بعضها فيقدّم خيرًا لنفسه، أو يقبض بتعجيل الأجل ويبسط بطول الأمل، أو يقبض بالخطر ويبسط بالإباحة، أو يقبض الصدر ويوسعه، أو يقبض يد من يشاء بالإنفاق في سبيله ويبسط يد من يشاء بالإنفاق. قاله أبو سليمان الدمشقي وغيره، أو يقبض الصدقة ويبسط الثواب. قاله الزجاج. [تفسير البحر المحيط (٢/٤٧٥)].

ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥-٢٤٨].

أعقب ذلك بمعنى ما هو في معنى ما تقدم، قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الملأ: كبار الناس أصحاب المشورة والرأي ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله﴾ [البقرة:٢٤٦] القصة إلى آخرها.

هذا ضرب مثلاً في معنى ما تقدم، وانتظم معنى هذا وهذا بمعنى ما في قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة:١٩٥] فمن بخل عن الإنفاق في سبيل الله [حينًا][1] وحين عن قتال العدو، خلفه العدو في داره، وأخرجه من أهله وماله.

وفي امتثال طاعة الله جلَّ ذكره بالجهاد غنى الدنيا والآخرة، ولهذا وما هو أعرق وصفًا من هذا بقوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] ثم إلى آخر السورة.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ

(١) زيادة لتمام السياق.

ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥٣].

قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ....﴾(١) [البقرة: ٢٥٣] إلى آخر المعنى.

---

(١) في الدّرجات وجوهٌ: أحدها: إنَّ المُراد منه بيان أَنَّ مراتِب الرُّسل، ومناصبهم متفاوتة؛ وذلك لأنَّه تعالى اتَّخذ إبراهيم خَليلاً ولم تكن هذه الفضيلة لغيره، وجمع لِدَاوُد بين المُلْكِ والنُّبوَّةِ، ولم يحصل هذا لغيره، وسخَّر لِسُليمان الجِنّ والإنس والطير والريح ولم يحصل هذا لأبيه داود، وخصّ محمدًا ﷺ بأنَّه مبعوث إلى الجن والإنس، وبأنَّ شرعه نسخ سائِرَ الشَّرائع. الثاني: إنَّ المراد منه المعجزات، فإنَّ كل واحد من الأنبياء أوتي نوعًا آخر من المعجزات على ما يَليقُ بزمانه، فمعجزات موسى هي قلب العصا حيّة واليد البيضاء وفلق البحر، كان كالشّبيه بما كان أهل ذلك العصر مُتقدّمين فيه، وهو السّحر ومعجزات عيسى، وهي إبراءُ الأكمه والأبرَص وإحياء الموتى كالشّبيه بما كان أهل ذلك العصر مُتقدِّمين فيه وهو الطِّبُّ، ومعجزة محمد ﷺ وهي القرآن كانت من جنس الفصاحة والبلاغة والخطَب والأشعار، وبالجملة فالمعجزاتُ متفاوتةٌ بالقلَّةِ والكثرة وعدم البقاء، وبالقوة وعدم القُوَّةِ. الثالث: إن المراد بتفاوت الدّرجات ما يتعلّق بالدُّنيا من كثرة الأتباع والأصحاب وقوَّة الدَّولة، وإذا تَأَمَّلْتَ هذه الوجوه علمت أَنَّ محمدًا ﷺ كان جامعًا لِلْكُلِّ، فمنصبه أعلى ومعجزاته أبقى وأقوى، وقومه أكثر ودولتُهُ أعظمُ وأوفر. الرابع: إنَّ المراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ هو محمَّد ﷺ لأنَّه هو المفضل على الكُلّ، وإنما قال: «وَرَفَعَ بَعْضَهُم» على سبيل الرَّمْزِ لمن فعل فعلاً عظيمًا، فيقال له: من فعل هذا الفعل؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم ويريدُ به نفسهُ، =

نظم ﷻ ذكر الرسل بما في باطن التلاوة من ذكر الرسالة والنبيين - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وبما تقدم من قوله: ﴿آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦] ثم ذكر أن الذين خلفوهم من بعدهم اختلفوا واقتلوا، وأعلم ﷻ بذلك أن تلك سنته.

ومن هنا كان رسول الله ﷺ ينذر أصحابه ويحذرهم أن يكون وقوع ذلك على أيديهم بقول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[1] لقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣] في الأمم، فالاختلاف موجود لا محالة، دلَّ على ذلك الوجودان: الوحي والكون، أما الكون: فما نحن فيه، وأما الوحي: فما نصَّ عليه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٤-٢٥٧].

قوله عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ

=

وذلك أفخمُ من التَّصريح به. [تفسير اللباب لابن عادل (٣/٢٣٥)].

(١) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥)، والطيالسي (٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٧١٧٦)، وأحمد (١٩٢٣٧)، والنسائي (٤١٣١)، وابن ماجة (٣٩٤٢)، والدارمي (١٩٢١)، وابن حبان (٥٩٤٠)، وأبو داود (٤٦٨٦)، والترمذي (٢١٩٣) وقال: حسن صحيح.

﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[(١)] [البقرة:٢٥٤] أرجع ﷻ الخطاب إلى الأمر بالإنفاق والتوصية به بما علم العليم الحكيم في ذلك من حسن العاقبة وعظيم الكفاية، والدفاع به عن حوزة الإسلام، ونفع ذلك في الدنيا والآخرة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] لأنفسهم لم يدخروا لهناك خُلة ولا شفاعة تنفعهم، بل كل خُلة تكون هناك في حقهم عداوة، وكل شفاعةٍ إغراء بهم ولعنًا وطردًا عن كل إسعافٍ ورجاء، نعوذ بالله العظيم من سوء العاقبة.

قوله ﷻ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿العَلِيُّ العَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥] انتظام هذه الآية من القرآن العظيم بما تقدم قوله جلَّ قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] إنه يبين لظلمهم العظيم، يقول: كيف لا يكونون ظالمين وقد كفروا بمن هكذا وصفه ونعته، وهذه أسماؤه وصفاته، وقد تقدم أنها أعظم آية في القرآن.

قال ابن عباس ﷺ: هي أشبه شيء بالرحمن، وانتظم معناها من العلم والمعرفة بمعنى قوله جلَّ قوله: ﴿الم﴾ [البقرة:١] ثم إلى ما يفصل عنها من معاني الأسماء ومقتضياتها، ثم إلى ما يفصل عن الأسماء ومعاني الصفات، ومن حيث دلالات الأفعال ومبتدعات الحكمة بقوله جلَّ قوله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

ثم إلى ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين وأعمالهم والنبوة والرسالة وما جاءت به من أمر ونهي ووعد ووعيد وجزاء من أطاع وعصى في الآجل والعاجل بتوابع ذلك كله ومعانيه كذلك ما هذا سبيله بالقرآن العظيم إذا ذكر الله ﷻ بأسمائه

(١) قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لا بيعَ فيه ولا خلةَ ولا شفاعةَ» بالنصب من غير تنوين، ومثله في «إبراهيم»: «لا بيعَ فيه» وفي «الطور»: «لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ» وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي جميع ذلك بالرفع والتنوين. قال ابن عباس: لا فدية فيه، وقيل: إنما ذكر لفظ البيع لما فيه من المعاوضة وأخذ البدل. والخلة: الصداقة. وقيل: إنما نفى هذه الأشياء؛ لأنه عنى عن الكافرين، وهذه الأشياء لا تنفعهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [زاد المسير (٢٥٩/١)].

أو بصفة من صفاته ملأ كل شيء علوًّا وسفلاً وهو الحق المبين، وقوله الحق، والحق من أسمائه، والصدق من صفاته، والكافرون هم الظالمون، قوّلوا الشواهد غير ما قالته، وشهدوا عليها بغير ما شهدت به، وأحالوا المخلوقات في حقهم لا في حقها إلى غير ما بصرت عليه، فأضافوا النعمة إلى غير وليّها، وحرفوا وجهتها في حقهم عن قيّمها.

فصل

شهدت الشواهد واتضحت به الدلائل أنه الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الحي القيوم، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلا، كما أعلمت الأسماء وعرفت الصفات أنه هو الله، وهو الاسم الجامع للأسماء سواه، وأنه العلي العظيم سبعة أسماء بها ثبات الأسماء هن أدلة على الذات العلا.

وقد تقدم أن جميع الأسماء في عموم السبع الصفات التي هي: الإلهية والقدرة والحياة والوحدة والعلم والإرادة والملك، وهذه الآية مضمنة جميع ذلك كما تضمنت أم القرآن جميع ما في القرآن بوجه ما، فلذلك عظمت هذه الآية وعظم قدرها، ولما تجمع فيها من أوصاف نعوت الجلال وصفة العظمة والكبرياء وأنه المحيط بكل شيء، والقائم عليه المقتدر على كل شيء، عظم لذلك التنزل بها، وأوجب نفور الشياطين عنها مع تحصيل تعظيم قدرها، ومشاهدة تحقيق عملها.

قوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِ...**﴾ [البقرة:٢٥٦] ذكر الأكثر من أهل العلم أن قوله جلَّ قوله: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ منسوخ حكمه بآية القتال والسيف، وليس ذلك كذلك، بل حكم هذا محكم في بابه، وذلك أن حكم القتال والسيف إنما يتناول الظاهر.

قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله**»(١) ففي حكم قوله جلَّ قوله: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**﴾ [الصافات:٣٥] يتناول موضع التبيين، وذلك ظاهر لا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٥)، ومسلم (٢١)، وأحمد (١٠٥٢٥)، وأبو داود (٢٦٤٠)، والترمذي (٢٦٠٦) والنسائي (٣٩٧١)، وابن ماجة (٣٩٢٧)، والطيالسي (١١١٠)، وأبو يعلى (٦٨٦٢).

يبلغه مطالبه مخلوق، ولذلك وكَّل ﷺ حسابهم إلى الله جلَّ ذكره.

ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ علموا - صلوات الله وسلامه عليهم - أن ذلك اليوم تُبلى فيه السرائر، فأجابوا - صلوات الله عليهم - بأنهم لا يعلمون ذلك، وقالوا صلوات الله وسلامه على جميعهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩].

هذا إلى أن في قوله جلَّ قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾(١) [البقرة:٢٥٦] فالحجة البالغة له المعهود من أن الإيمان محله القلب، وكذلك المعهود من معنى الكفر، وإنما يكونان ظاهرين لما يصدر عنهما، فيكون إسلامًا وما يضاده، ولذلك أعقب هذه الآية قوله عزَّ قوله: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦] لما يصدر عن القلوب، عليم بما تكنه القلوب من ضمائرها.

ولو كان ما قالوه صحيحًا وعري الخطاب عن تحقيق ما عبَّرنا عنه أيضًا لم يكن بنسخ، وإنما هو مرصد لوقته، فالقتال والانتصار لا يمكن في كل وقت ولا على كل حال، فإذا تمكن الإمكان وجب الجهاد الظاهر والقتال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومع الضعف وعدم القدرة ووجدان الوهن والاضطرار يرتفع الوجوب، فهذا هو النسخ الصحيح ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] إلى قوله: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] الإماتة والإحياء على ضروب، وعلى انقسام ذلك يكون انقسام الحياة والموت، فمن ذلك حياة الدين، وهي ما عنى بقوله الحق: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا

---

(١) ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: إنه الشيطان. والثاني: إنه الساحر. والثالث: الكاهن. والرابع: الأصنام. والخامس: مَرَدَة الإنس والجن. والسادس: إنه كل ذي طغيان طغى على الله، فيعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده أو بطاعة له، سواء كان المعبود إنسانًا أو صنمًا. والسابع: إنها النفس لطغيانها فيما تأمر به من السوء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. [النكت والعيون (١/١٩٠)].

يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:١٢٢] ليس بخارج منها، فهذه حياة الدين وموته، عبَّر عن حال موته بكونه في الظلمات، وعن كونه حيًّا بكونه ماشيًا في الناس بنوره؛ يعني: يهديهم به فيهتدون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة:٢٥٨-٢٦٠].

ومنها الحياة الجسمانية على ضروب؛ منها: الإحياء بمعنى تجديد الحياة على الدوام، كإمساكه جل وعلا كل شيء، وهو موجود على اسمه القيوم، ومذكور هذا في قوله - جلَّ قوله - حكاية عن جبار إبراهيم ﷺ الذي ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

ومعنى ذلك هنا: إمضاء المشيئة بالقدرة، فعلى قدر ما أوتي من ذلك يكون وصفه بالملك، ولما كان هذا الملك مما عهده الله ﷻ من إمضاء مشيئته في ملكه أن يقتل من شاء قتله ويترك من شاء فلا يقتله، وذلك أن الله ﷻ ييسر ذلك لمحاج إبراهيم عليه السلام في ربه أن قال له: أنا ربك قال له إبراهيم ﷺ ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

معنى ذلك: إني أحضر رجلين أقتل أحدهما وأترك الآخر، فأكون بذلك قد أمتُّ المقتول وأحييت المتروك، وهذا المعنى موجود في قوله جلَّ قوله: ﴿مَن قَتَلَ

نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

رجع الكلام: وكان إبراهيم - صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء والرسل - مؤيدًا بالحجة البالغة، فأجابه ﷺ بأن قال له: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨].

معنى ذلك: إن قتل أحد الرجلين وترك الآخر هو استمرار الحياة، وذلك هو المعهود منه ما كان موصوفًا بالبقاء، كالشمس معهودها أن يطلعها الله ﷻ من المشرق، وذلك على استمرار الوجود ما أدامها الله ﷻ كذلك، فإن كنت أنت تقدر على ما يقدر هو عليه فأطلعها من مغربها، وخالف لنا فيها استمرار وجودها حتى تخرق بذلك عادة إطلاعها من مشرقها، وهو مثل ضربه الله ﷻ للمقتول والمتروك قتله.

فمعنى ذلك والله أعلم: إن كنت تحيي وتميت كما أمتَّ المقتول بأن قتلته؛ فذلك بمنزلة غيوبة الشمس، وهي بمنزلة الروح، فأطلعها من نفس المقتول حيث غربت؛ أي: كما قتلت هذا المقتول؛ فلذلك ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨] أي: إنه وقف على هذه العظيمة ومنع الهداية.

وجاء أن سُنيًّا ناظر قَدريًّا فقطع القدري تفاحة من شجرة، ثم قال: ألست أنا الذي قطعت هذه التفاحة؟ فقال له السني: إن كنت أنت الذي قطعتها فردها مكانها كما كانت. فأسكته وانقطع.

فصل

قال الله جلَّ قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا....﴾ (١) [البقرة:٢٥٩] عطف ﷻ بحرف العطف وأدخل كاف التشبيه في قوله ﷻ: ﴿أَوْ كَالَّذِي﴾.

والمعنى والله أعلم: إنه تعجب من حُسن محاجة إبراهيم ﷺ وهدايته، وانتظم

(١) وفي المراد بالقرية قولان: **أحدهما**: إنها ببيت المقدس لما خربه بختنصر. **والثاني**: إنها التي خرج منها الألوف حذر الموت. وفي الذي مرَّ عليها ثلاثة أقوال: **أحدها**: إنه عزير. **والثاني**: إنه أرمياء. **والثالث**: إنه رجل كافر شك في البعث. [زاد المسير (١/٢٦٥)].

ذكر هذا المشاهد بذكر إبراهيم عليه السلام في حُسن تثبيته على إيمانه وتقدير الكلام: هل رأيت كإبراهيم في هدايته ومحاجَّته ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] في تثبيته وحُسن تلقينه الهداية والإرشاد، وما يكون من معنى هذا.

ويمكن أيضًا أن يكون تعجيبًا من الجبار الذي آتاه الله الملك في ضلالته وعسر انقياده، وإعراضه عن الحق بعد البيان عجب منه أن آتاه الله الملك ثم حاج في ربه، ويدعي الربوبية من دونه، كما قال جلَّ قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧] الآن آتيناه الملك وأقعدناه مقعد التمكين من قبل، وجعل يحاج إبراهيم هنا ويقول: هل رأيت هكذا، أو كالذي مرَّ على قرية، وهو بوجهٍ يعطي تقلب المعنى الأخير، وبوجه وهو الأظهر للمعنى الأول، وإنما يرجحه قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة:٢٦٠].

فصل

ذكر أن المذكور في هذه القصص المبتلى بهذه المحنة كان نبيًّا، وأنه دانيال أو أرمياء أو عزيرًا - عليهم السلام - أو غيرهم والله أعلم، غير أنه ممن يخاطب بهذا ويريه الله من آياته أنها بالله ﷻ، وبما جاء من عند الله سؤاله ذلك؛ أعني: قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] ويعيدها بعد خرابها، ذلك ظاهر ليس منه بمعنى الشك في أن الله يحيي قرية بعد موتها، فذلك خاطر معدوم عند أهل التوسط في الإيمان، فكيف بمن هو أهل للنبوة؟!

وإنما هو خاطر يعرض لأهل المكاشفات بالآيات الذين عودهم جلَّ ذكره أن يجري على أيديهم قدرته الفائقة، وخرق العادات قبل مشاهداتها تحقيرًا منهم لأنفسهم [وما رأوا][1] عليها حتى يكون الله هو المعدد ذلك من لدنه، وذلك مشهور من قولهم: «إياك أن تترقى من ذات نفسك صدقًا حتى يكون الله ﷻ يرقيك إليه» بل شأنهم الوقوف عند جدهم، والسلوك على سبيل السنة، وشاهده جري العادة في

(١) ما بين [ ] مصوب من النسخة (ف).

المقدور الحاضر.

كذلك فعل زكريا عليه السلام لما نادته الملائكة عليهم السلام ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران:٣٩] بغلام اسمه يحيى، جعل يخاطب ربه جل جلاله يقول: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران:٤٠] فلزم موضع السنة ومجرى العادة، ولم يصعد لتلك حتى صعد به.

وكذلك فعلت مريم - عليها السلام - لما بُشرت بعيسى عليه السلام قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران:٤٧].

وذكر في كتاب «النبوات»: إن الله جلَّ ذكره لما بشر إبراهيم بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب قال: «رب ليت إسماعيل يكبر بين يديك» هذا إعظام منه للنعمة، وتحقير للنفس أن [يستأهل][(١)] أحدهم بذلك من الله العلي العظيم.

فصل

قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] ومن أين يحيي؟ كما قال زكريا عليه السلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ [آل عمران:٤٠].

وكذلك قول مريم عليها السلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران:٤٧].

قال الله جلَّ قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ إماتة لا حياة فيها، فمن هنالك قال لما سأله: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فأعلمه جل جلاله أنه لبث مائة عام ميتًا، ولم يكن الله جلَّ ذكره سلط عليه البلاء، فلم يتغير لذلك جسمه، فبينما هو يتعجب لبعد الأمر وطول المكث، مع زوال الذكر وسلامته من البلاء زاده الله عجبًا، فقال: ﴿انظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: وقد كان عهدك به إسراع الفساد إليه والتغير، وها هو لم يبلَ ولم يتغير كالمعهود.

قال الله جلَّ قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ فقد كان من المعهود أن يكون بقاؤه أطول من بقاء الطعام والشراب، فها هو قد محقه البلى واستوعبه الفناء.

---

(١) غير واضحة بـ (ق) والتصويب من (ف).

ثم عطف بالواو في قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ على محذوف هو والله أعلم؛ لنبين لك أعاجيب آياتنا في سواك، ولنجعلك وما معك آية للناس.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نخلقها خلقًا ونظهرها، وعلى هذه القراءة فالحمار وقد كان بالغ فيه البلى إلى أن فني، فإن العظام من آخر ما يبقى من الأجسام، فخلقها ﷻ خلقًا آخرًا، وعلى القراءة التي هي «ننشزها» أي: بعد الخلق لها نحركها بعضها إلى بعض، واللحم يكسوها، وننشز بعضها إلى بعض [التئامًا][1] واجتماعًا بالقدر إلى المراد منها[2].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ﴾ يريد عجيب الإبداع، قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

تنبيه:

وأنه من بلغ أنه يريد الله ﷻ آياته مشاهدة ومخاطبة لمطلبه بوساطة الملائكة - صلوات الله وسلامه عليهم - ليس يعزب عليه العلم بأن الله ﷻ يحيي موتى الأجسام بعد موتها، ولا يبعد عليه معرفة قدرة الله ﷻ على خلقها آخرًا كما خلقها أولاً، وإنما بيَّن له من إبقاء ما بالمعهود بقاءه، بل المعلوم أن يسرع إليه في أدنى مدة

---

(١) في (ق) (يومًا) والتصويب من (ف).

(٢) أَمَّا قراءةُ الزَّاي فمن «النَّشْزِ» وهو الارتفاعُ، ومنه: «نَشْزُ الأَرْضِ» وهو المرتفع، ونشوزُ المرأةِ وهو ارتفاعها عن حالها إلى حالةٍ أُخرى، فالمعنى: يُحرِّك العِظام، ويرفعُ بعضها إلى بعضٍ للإحياء.

قال ابن عطية: «وَيَقْلَقُ عندي أَنْ يكونَ النشوزُ رفعَ العِظَامِ بعضها إلى بعضٍ، وإنما النشوز: الارتفاعُ قليلاً قليلاً» قال: «وانظر استعمال العربِ، تَجده كذلك؛ ومنه: نَشَزَ نَابُ البَعِيرِ «و» أَنْشَزُوا، فَأَنْشَزوا، فالمعنى هنا على التدرُّج في الفعلِ» فجعل ابنُ عطية النشوزَ ارتفاعًا خاصًا. مَنْ ضَمَّ النونَ جعلهُ مِنْ «أَنْشَزَ» ومَنْ فَتَحها، فَمِنْ «نَشَزَ» يقال: «نَشَزه» و«أَنْشَزَه» بمعنى. ومَنْ قرأ بالياءِ، فالضميرُ لله تعالى. وقرأ أُبي «نُنْشِئُها» من النَّشْأَةِ. ورجَّح بعضهم قراءة الزاي على الراء، بِأَنْ قال: العِظامُ لا تُحيَا على الانفرادِ؛ بل بانضمام بعضِها إلى بعضٍ، والزايُ أَوْلى بهذا المعنى؛ إذ هو بمعنى الانضمام دونَ الإحياءِ، فالموصُوفُ بالإحياءِ الرجلُ دونَ العظامِ، ولا يقال: هذا عظمٌ حيٌّ. وهذا ليس بشيءٍ؛ لقوله: ﴿مَن يُحيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ولا بُدَّ من ضميرٍ محذوفٍ من قوله: «العِظَام» أي؛ العظامِ منه، أي: من الحمارِ، أو تكونُ «أَلْ» قائمةً مقامَ الإِضافة، أي: عظامِ حمارِك. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٧٨/٣)(الزاي)].

فساده وبلاء ما يبلى.

وقد كان معهودًا أن يكون أوفر حظًّا من صفة الإبقاء بكثير؛ ليجعل من علم نفسه وطعامه وحماره وشرابه أنه تبارك وتعالى كيف يقصر طول المدة لما يشاء، ويطول قصرها لما يشاء، ويقضي في قصر المدة ما ليس من العادة أن يقضيه في أطول الطول، وإنه القادر على تقصير مدة الدنيا حتى تكون للسائر في طريقه خطوة واحدة، حتى تكون في القصر كطرفة العين، وأن يطول مسافة اليسير حتى لا يقطع مسافة أبدًا.

كذلك إن شاء ﷻ أسكن الكثير في القليل، وسجن الواسع والرحب في الضيق الحرج، وإن شاء جمع الجملة في ذرة من ذرات العالم، وضمن الخليقة كلها في حبة الخردلة.

وكذلك إن شاء الله ﷻ أسمع الميت الرميم سر الخطاب، وأفهمه دقيق المعنى من المراد، ومنعه الحي السوي، بل إن شاء الله ﷻ ألا يسمعه وقع الصواعق، ويمنعه سمع سلق الأصوات المفزعة، ويريه حقيقة ما قد كان، ويقضى بما هو كائن في المستقبل كرأي العين، ويعجزه عن رؤية ما حضره، ويمنعه مشاهدة ما شاهده، ويقبض البعيد المتناهي حتى يجعله كالشبر، ويبسط الشبر حتى لا يقطع مسافة أبدًا، هو ﷻ القابض الباسط؛ لذلك قال الممتحن بهذه الآيات: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥] وأن في ملكوت السماوات والأرض وما خلقه ﷻ ما تقدم ذكره وأكثر جدًّا ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

ولقد أخبر الصادق الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عن الأموات أنهم في الدار الوسطى من أحوالهم وحياتهم وعلمهم وذكرهم على درجات؛ قال جلَّ قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٢-٤٥].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا﴾ طول مدتهم في الثرى ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦] فهؤلاء هم الكفار الأموات في الدنيا، والذين لا علم عندهم في هذه الحياة الدنيا.

وقال - جلَّ قوله - في المؤمنين أصحاب العلم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥].

ثم أخبر ﷻ بمنبعث جهلهم هذا من حيث يقوله ﷻ، كذلك كانوا يؤفكون عن الحق، فأفكوا يوم البعث عن حقيقة ما لقوه في الدار الوسطى من عذاب وإقراع ورضٍّ ورضخ، ونزل من حميم وتصلية جحيم، وأنواع العذاب الأليم.

ثم أخبر ﷻ عن أهل العلم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦] أي: في الدنيا، فكذلك لم يعطوا - أعني: المكذبين - في الدار الوسطى من الحياة إلا ما ألموا بها وأحسوا العذاب، ومن العلم إلا ما علموا به ما صاروا إليه من فقد ما فاتهم.

ثم لما بعثوا إلى الدار الآخرة أفكوا عن العلم بما لقوه، وشذَّ عنهم ذكر ما أصابهم فيما هنالك، فيقسموا ما لبثوا ساعة، حتى إنهم عند قيامهم للنشور للنفخة الثانية يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فيقول المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢] أي: من الأمن للمؤمنين والفزع والحزن للمكذبين، ثم قال: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فيما بلغوا، والمؤمنون هم العادون يومئذٍ بالإضافة إلى الكافرين.

قال الله جل من قائل يخاطب الكافرين: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣] أي: المؤمنين الذين قالوا: قد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث.

كذلك قال جلَّ قوله: ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:١١٤] في الدنيا لعملتم في الدنيا الحق، ووقفتم عليه علمًا في الأخرى وفيما بين ذلك، وهم في ذلك على درجات، فقولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ القائلين ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أعرق في الكافرين من القائلين: ﴿يَوْمًا﴾.

من ذلك قول الله جلَّ قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه:١٠٢-١٠٣].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٤] فكلما كانوا في الدنيا أشد كفرًا كانوا في الدار الوسطى أشد عذابًا كانوا في الدار الآخرة أبعد من العلم والذكر، وأعجب تأفيكًا عن حقائقهم، فاعجب لهذا كيف أفكوا عن فظيع ما لقوه حتى نسوه فلم يذكروا ذلك الخزي والعذاب الأليم الذي عبَّر عنه من قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤].

قوله جلَّ قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦] وعن ذكر ما أخبر به رسول الله ﷺ أنه يعدوهم هنالك من تعذيب وصياح سمعه كل شيء إلا الثقلين، ومن رضخ وشدخ وحيات تأكل أحدهم، فإذا فرغوا منه أعيدوا فأخذوا في أكله هكذا إلى يوم القيامة، وقول الجنازة: «يا ويلها، إلى أين يذهب بها؟ يسمعها كل شيء إلا الثقلين»[1].

يقول الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥] وأبقى ﷻ موضع العبرة، فكذلك يؤفكون في الدار الوسطى، ثم في الدار الآخرة كذلك والله أعلم؛ لأن العلم بما جاءت به الكتب والرسل والإيمان والتصديق بذلك هو الحياة في الدار الدنيا.

كما قال جلَّ من قائل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢] وبذلك كانوا أهل العلم والإيمان أيضًا أحياء في الدار الوسطى، وفيما هنالك بتحقيق العلم الذي كان ها هنا حياة، بالإضافة إلى الأولى التي اكتسبوا فيها.

ألا تسمعه جلَّ من قائل: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩] ثم هم بعد من ذلك على درجات، نسأل الله الرحيم أن

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٥١)، وأحمد (١١٥٦٩)، وعبد بن حميد (٩٣٣)، والنسائي (١٩٠٩) بلفظ: «إذا وُضِعتْ الجنازةُ واحتملها الرجالُ على أعناقِهم، فإنْ كانتْ صالحةً قالتْ: قدموني وإنْ كانتْ غيرَ صالحةٍ قالتْ لأهلِها: يا ويلَها أين تذهبون بها؟! يسمعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ، ولو سمعه الإنسانُ لصُعِق».

يجعلنا من عليتهم إنه هو العليم الكريم.

ثم في الدار الآخرة تتلاحق صفات الحياة ومزيد العلم، فبذا وما هو أعلى وأكرم من هذا يتبين للنبي ﷺ المار على القرية، فقال عند ذلك: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1] [البقرة:٢٦٠].

تنبيه:

لا بد من مقدمة الإيمان مع التبري من الحول والقوة، كذلك فعل إمام المعتبرين والملائكة - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - قد تقدم في المثل الأول بمعنى إمرار الحياة في الثاني إحياء الجسم بما أراه من حماره، ثم ما أتبع ذلك من علوم في مقابلة قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] استبعاد لذلك على سبيل السنة ومعهود العادة، وهذا مثل في إحيائه ﷻ الموتى حال موتهم، عبَّر عنه قوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧] إلى قوله: حياة الأجسام، وتلك حياة في حال الموت، وقد تقدم القول في إثباتها، ولخفائها يضطر عنه قائم بها أن يقف بها وبحقائقها عن معهود العقول إلا بعد التثبيت والاعتصام بهداية الله ﷻ.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ في سبب سؤاله هذا أربعة أقوال: أحدها: إنه رأى ميتة تمزقها الهوام والسباع، فسأل هذا السؤال، قيل: كان رجلاً ميتًا، وقيل: كان جيفة حمار، وقيل: كان حوتًا ميتًا. والثاني: إنه لما بشر باتخاذ الله له خليلاً سأل هذا السؤال؛ ليعلم صحة البشارة، فقد روي عن سعيد بن جبير أنه لما بشر بذلك قال: ما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك، فسأل هذا السؤال. والثالث: إنه سأل ذلك ليزيل عوارض الوسواس. والرابع: إنه لما نازعه نمرود في إحياء الموتى سأل ذلك؛ ليرى ما أخبر به عن الله. [زاد المسير (١/٢٦٨)].

قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة:٢٦٠] ولأنه من وراء الإيمان ومعهود العقول طلب لذلك مثلاً يطمئن إليه قلبه، فأراه الله جلَّ ذكره مثلاً وقف به على العلم بمطلوبه.

ثم قال له بعدما بيَّن ما شاء من التبيين: ﴿وَاعْلَمْ﴾ مع هذا ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] لا يمتنع عليه ممتنع، ولا يعجزه في الأرض ولا في السماء فائت، **حكيم** في فعله بما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، يبقي حكم هذا حال غيبة عينه، ويقدم حكم حال هذا حين ظهور عينه، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وكل ذلك قد أحاط اختزانه له وعلمه به وأحصاه كتابه، كذلك يخلق في حال الموت حياة، وفي حال الحياة موتًا.

فصل

اعلم - وفقنا الله إياك - أن أول ما تقدمه بين يديك نظرك في كتاب ربك عز جلاله على نحو ما تقدم الإيمان، والإلقاء بالنفس بين يديه ﷻ، والتبري من الحول والقوة، فمتى ما ادعيت علمًا سواء ما هو علمكه أسلمك لنفسك ووكلك لصفاتك.

ثم **اعلم** - علمنا الله العليم الحكيم من علمه وأجزل حظنا من معرفته - أن إبراهيم ﷺ هو الذي قال فيه الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١].

وقال جلَّ قوله فيها أيضًا: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] فهو جلَّ ذكره لا يعلمه إلا من هناك، ولا بد له من حيث أحله من معالم قد أراه إياها من ملكوته، وإنما تقدمت إليك لتأخذ أهبته، وما لم يصل من معرفته أن الله خلق الدنيا نبذة من الآخرة صغيرًا من كبير، وقليلاً من كثير على المزج واستصحاب رحمه الله ﷻ، لولا ذلك لكانت هذه جهنم الصغرى.

وإن النار لما اشتكت إلى ربها ﷻ فاستأذنته أن تتنفس بنفسين فقدرهما ﷻ تدوار دوائر حكمه التدوار أحكم ذلك إحكامًا وقدره تقديرًا على مطالع بروج ومواقع نجوم، واختلاف ليل ونهار، فما تطلع شمسها من قصمة أو تنزل عليها إلا

فُتِح باب من جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

وقدر ﷻ رحمته من كريم تدبيره قامعة لنفسي جهنم؛ ليصحب ﷻ هذه الرحمة إياها وكَّلها به، فهي لا تفور حرًّا وبردًا ولا تهيج سمومًا وحميمًا إلا أعقب ﷻ ذلك منها بمقامع لها منه، فتقول يومئذٍ: «**حسبي حسبي، وينزوي بعضها إلى بعض**»(١).

ذلك بحكمته مستصحبًا في أثناء تداويرها قسرًا قسرها بها، وقهرًا منه قهريًا على تعديها الحد الذي جعله [....](٢) ببعضها وهو الواحد القهار، هذا إلى إرادته بالرحمة ومشيئته بالرأفة في جعله لانزوائها وازديادها أوزانًا معلومة ومقاديرًا مقسمة قدرها على تداوير محكمة بخطوطٍ مقسمة كتابًا كتبه ﷻ على نفسه: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»(٣) كلما وضع فيها منها ما قدمه سبحانه وله الحمد من رحمته عند فورانها بزمهريرها أو سعيرها أورد ذلك عليها بحكمه، وقبضها عن انبساطها بحلمه، فذاهبها ينتقص وواردها يتزيَّد بتزيُّد الوارد وانهزام الذاهب، فيتحقق الوارد ثم يتزيد ويفور فيعود عليها به منها، فكذلك إلى مثلها.

هكذا جعل ﷻ هذا آية على ما هنالك من حق موجود لا محالة اضطرت عقول المعتبرين إلى معرفة وجوده، كاضطرارها بواسطة تسيير النظر إلى القضاء بوجود الفعل عن فاعل فعله، وله ﷻ رحمة من لدنه أصحبها تدبيره، هذا أظهرت لما عمَّت أجواء الرياح والسحاب والأرض أعلمها في الماء، يفتح بهذه الرحمة بابين من الجنة؛ أحد البابين: ما تقدم ذكره، والباب الثاني: فتحه بالرياح اللواقح، فيخلق ﷻ السحاب، وينزل الماء برحمته فيحيي به الأرض بعد موتها، ويكسر ببرده حرارة السعير، ويلين برطوبته يبس الزمهرير، ويخرج به نبات كل شيء.

وهذه رحمة لم يجعلها في مواعيد تداوير الدوائر، بل جعلها ﷻ غيبًا في تفضله برحمته فتحًا يفتح به على عباده عند حاجتهم إلى ذلك وضرورتهم إليه،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨)، وأحمد (١٢٤٠٣)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والنسائي في الكبرى (٧٧٢٥)، وأبو عوانة (٤٦٣)، وابن حبان (٢٦٨).

(٢) ما بين [ ] بياض في (ق) وكشط في (ف).

(٣) تقدم تخريجه.

وغياثًا يغيثهم به عند شدائدهم عن هذا المعنى.

قوله جلَّ من قائل: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...**» إلى قوله: «**مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**»(١) ولنقتصر على هذا القدر من التقدمة، فهو الذي يحتاج إليه فيما نحن بسبيل تبيانه.

فصل

قوله جلَّ قوله: ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾(٢) [البقرة:٢٦٠] هذا مثل ضربه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لخليله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة أجمعين.

ثم لما بلغه بما جعله آية على هذا المطلوب، وهي الطير المعلمة والجوارح المكلبة قال الله ﷻ: ﴿**تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ**﴾ [المائدة:٤] كالبزاة والشواذق وغيرها من الجوارح القابلة للتدريب والتعليم، وربما كان المقصود بهذا الطير من الدواجن المرباة، كالدجاج والحمام والطواويس فإنه أوجد، وشبهها ﷻ قابلة للتعليم، مبتغية للإحسان، مسرعة الاستجابة، وإنما يضرب الأمثال بالمعهود الموجود تنبيهًا على موجود علمه من وراء ما ضرب له المثل.

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٠)، ومسلم (٧١)، والنسائي (١٨٣٣)، وأحمد (١٧١٠٢)، والشافعي (٨٠/١)، وأبو داود (٣٩٠٦)، وابن حبان (١٨٨)، وأبو عوانة (٢٦/١)، والبيهقي (٦٢٤٣).

(٢) قوله: ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ**﴾ اعلم أنّ الطير يطلق على الواحد مرادفًا لطائر؛ فإنّه من التسمية بالمصدر وأصلها وصف فأصلها الوحدة، ولا شك في هذا الإطلاق ولا وجه للتردد فيه، وجيء بـ«من» للتبعيض لدلالة على أنّ الأربعة مختلفة الأنواع، والظاهر أنّ حكمة التعدّد والاختلاف زيادة في تحقّق أنّ الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عدّدت الأنواع، ولعلّ جعلها أربعة؛ ليكون وضعُها على الجهات الأربع: المشرق والمغرب والجنوب والشمال؛ لئلّا يظنّ لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتي الإحياء، ويجوز أنّ المراد بالأربعة أربعة أجزاء من طير واحد، فتكون اللام للعهد إشارة إلى طير حاضر؛ أي: خذ أربعة من أجزائه ثم ادعهنّ، والسعي من أنواع المشي لا من أنواع الطيران، فجعل ذلك آية على أنّهنّ أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة؛ لئلا يظن أنّهن لم يمتن تمامًا. [التحرير والتنوير (٤٤٥/٢)].

يقول الله ﷻ وهو أعلم: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أملهن إليك بالإحسان مع التدريب والتعليم والاستجابة للمراد كما فعلت أنا بالذوات؛ أصرتهن إلي، وأخرجتهن في قبضتي، وسقت إليها الإحسان، وأخذت عليها الميثاق والعهد، فأنا إذا أرسلتها انبعثت، وإذا دعوتها أقبلت مسرعة، وبالمشاهدة تعلم أنت استجابة هذه الطوائر لك بعد التدريب على المراد والتعليم.

فصل

واختصاص الذكر بأربعة طوائر هو - والله أعلم - مثلاً للمضروب به مثلاً، وهو الخارج عن الجسم حين الموت يزمها خامسها، وهو المثال الخالف للجسم بتوابعه بعد الموت الباطن المعروف بالعبد المخلوق من باطن ما خلق منه الجسم، وأربعته: الروح والنفس والعقل والهواء، كالجسم الحامل لهذا الباطن خلقه الله جلَّ ذكره من أربعة طوائر خامسها: الجسم، هو زامها وحاملها، وهو الدم المشابه في طبعه الهواء، كالروح المشتق من الهواء، والبلغم المشابه للماء، والسوداء المشابهة الأرض، كالنفس المشتقة من الأرض، والصفراء المشابهة فيما طبعت عليه النار كالهواء المشتق من النار.

وقال الله جلَّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] فلا بد لهذا العبد أن يذوق الموت، وموته مفارقته للجسد، وانفصال أربعته عنه كما موت الجسم مفارقة هذا الباطن إياه، ثم انفصال أربعته عنه، ثم يحيي الله ﷻ هذا العبد الباطن ويجمع أربعته ويركبها في مثال الجسم.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة:٦٠-٦١] يومئذٍ يدعوها الله ﷻ فتجيبه من أصولها ومواطن اختزانه إياها إلى مراده ﷻ من عمارة مثال الجسم الذي هو ليس يعبر له بوجه ما لا يقول فيه: إنه هو، وقد تقدم من تحقيق وجوده ذلك ما فيه كفاية لمن لقن.

وهذا لكل عبد مكلف، غير أنهم على درجات في تحقيق هذه الحياة وتفاضلها إلى يوم القيامة، تتأدى طوائر الأجسام التي كان موته بفراقها وفراق هذا الباطن، فتأتيه سعيًا إلى مراده منها، وبها من أصولها في العالم من هواء وماء ونار بإيصار

ذلك كله إلى الهواء على أصوله التي انتزعها منها، ومن تراب قد أنشأ أربعته فيما لا يعلمه إلا الله، يدعوها ﷻ فتجيبه بإذنه، ويظنون مع هذا أن لم يلبثوا إلا قليلاً، وقد برز منها من الأرض وبلائها من الأجواء في أنواع الموجودات، وصرفها بين أنواع الناشئتين على كتابه السابق إلزام لذلك كله من علمه، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦١].

قال رسول الله: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم**» إلى قوله: «**وأخذ أهل اليمين بيمينه، ثم قال: يا أهل اليمين، ألست بربكم؟ قالوا: بلى**» وفي ضمن الخطاب: «**وأنتم عبيدي، ثم أخذ أهل اليسار بيده الأخرى...**»[١].

وقال أيضًا: «**إن الله خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء**»[٢] وذكر فيه أخذ أهل اليمين بيمينه، وأخذ أهل اليسار بيده الأخرى، وذكر التقدير كما تقدم.

وفي أخرى: «**إنه لما خلق آدم مسح بيده اليمنى على ظهره واستخرج منه ذرية، وقال: ألست بربكم؟...**»[٣] بمعنى ما تقدم.

قال الله عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢].

ولما فرغ من تقريرهم أماتهم، ثم بثهم في خزائن السماوات والأرض حتى أخرج كلاً على نوبته وحينه في الوجود، ولما خلقهم هذه الخلقة التي عمروا بها الدنيا في أعمارهم إلى آجالهم المكتوبة وأرزاقهم المحتومة فكانت تلك موتة أولى المعينة بقوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١] هذه الحياة التي هي الدنيا، فإذا هو أماتهم الموتة الثانية التي هي الآتية بعد هذه الحياة قبض الأنفس، والنفس هي الجامعة للطوائر الأربعة المذكورة، وأجلها ذلك العبد المقرر الذي قد مات أولاً فعمر فيه مدة حال البرزخ، ومن العجب المعجب أنه ليس يغير هذا بوجه

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

ما هو الذي أقر وأشهد فيما هنالك على نفسه.

يقول الله جل من قائل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ يعني: الآن ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ يعني: يوم التقرير الأول ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨] بما أنبأتكم به.

فهو ﷻ يخاطب هؤلاء بما خاطبهم به يومئذٍ، ويطالبهم بذلك الإقرار، وهو الحق هو هو، غير أنه قد تعدى بقرار الجسم وعمل بعمله وعاش برزقه وفي أجله، وهو العبد المقرر أولاً، فرد بما هو يومئذٍ روح بما هو الآن قد تغذى وعمل وارتزق.

لذلك يقول الله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] التي لم تستعصَ ولا خترت العهد وأدت الأمانة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٨] أي: بما كلفتِ من إيمان وعمل به، مرضية من ربها لأجل ذلك ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:٢٩] أي: الذي أقروا ووفوا بعهده ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٣٠] في دار البرزخ.

ثم في حال الحياة الأخرى نجمع أيضًا أطوار الجسم أربعة فيؤمر أيضًا ذلك العبد فيدخل في الجسم، فيكون حياته كما قبل حيي به في الدار الدنيا، سبحانه وله الحمد، يعلم السر في السماوات والأرض وهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء، ولا يفوته شيء، أحكم كل شيء خلقه ببطن وظهر، ثم يظهر ما كان أبطنه ويبطن ما كان أظهره، ويفرق ويجمع، بدأ خلق الإنسان من طين إلى أن سوَّاه ونفخ فيه من روحه، فهو الإنسان أولاً وهو الإنسان آخرًا، وهو المبطن وهو المظهر في اليوم الآخر ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] يعبر عنه تارة بالروح بوصف ما، وبالنفس تارة لأمر ما، وبالنَّسمة ثالثًا لأمر ما، ويجمع ذلك كلمة العبد، وهو اسمه الأكبر.

فصل

ولهذه الأربعة الباطنة التي هي مرتبطة بالباطن الجامع لهن كالأربعة المرتبطة بالجسم الظاهر، غير أنه يخالف هذه بجنسه علاج الطب من صفات موجودات ما وجد الجسم وتوابعه منه بإذن الله جلَّ ذكره، وفي هذا جاء قول رسول الله ﷺ:

«**تداووا عباد الله**»[١].

وقوله: «**ما خلق الله من داء إلا خلق له دواء**»[٢] فإذا وافق الدواء الداء برأ الداء بإذن الله، وإنما يكون الدواء موافقًا للداء بإذن الله وتوفيقه ﷻ إذا كان العلاج على ما ينبغي، وساعد المريض ومن يخدمه، والأشياء المحيطة به من مكان وزمان وهواء وغذاء إلى غير ذلك، فإنه كما أن أهل النار أعاذنا الله الرحيم برحمته منها يأكلون ويشربون من النار وعلى دركاتها يتقلبون فكذلك ساكنوا الدنيا؛ لشبهها بها، كما أن في الوجود من رحمته ما لم يضمه تدوار الدوائر، فيكون بذلك الفتح برحمته اليقين بأن دون غد الليلة، بل هو بامتنان وفضل.

وكذلك حض على التوكل، ووصف المتوكلين بأنهم هم أتباع الأنبياء والفائزون من أممهم ومطلوب مطلوبهم بالتوكل لا محالة، كما وجود فتحه بالرحمة لا محالة لعباده، وإن كان بغير وعد لكن بفضل منه وإحسان، وكما أن الوجود كله قد عمه مقتضيات الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلا فكذلك وجود التداوي بالرُّقى، وذكر الأسماء أسماء الله ﷻ، وقبول الكلام الطيب.

وهذان الوجهان معدومان في جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - لتميزها بما هو منبعث نفسها عنه، يعيد ذلك فيها ويبديه على دوائر محكمة دون رحمة تتخلل ذلك إلا ما شاء الله، إن ربك حكيم عليم، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة وهو الكريم الغفار.

وأما تحالف الأربعة التي هي صفات الباطن: فهي تعالج بالصبر عن الشهوات، ولزوم طاعة الله جلَّ ذكره على سنن الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وهذا السابق إلى مثال رحمة الله ﷻ ومحل رضوانه، كذلك أهل الجنة من الجنة هم يأكلون ويشربون، وفي أجوائها يتقلبون «**يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس**»[٣].

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٣٢)، وأحمد (١٨٤٧٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٧٥٥٣)، وابن ماجة (٣٤٣٦)، وابن حبان (٤٨٦)، والطبراني (٤٦٤)، والطحاوي (٤/٣٢٣)، والحاكم (٤١٦) وقال: صحيح.

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٧٤٢٥)، والبيهقي (١٩٣٥٥)، والطيالسي (٣٦٨)، والطبراني (٩١٦٣).

(٣) تقدم تخريجه.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤].

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ...﴾ [البقرة:٢٦١] صرف ﷻ الخطاب إلى ذكر النفقة التي تقدم ذكرها في سبيل الله، كما نظم ذلك بذكر الإحياء والإماتة بما تقدم ذكره من ذلك.

فصل

إذا ورد ذكر الإنفاق مقرونًا بذكر سبيل الله فهو الجهاد، وإذا جاء معرًّا من ذلك فهو في سبيل طاعة الله ﷻ؛ لذلك نظم ﷻ ذكر الإنفاق؛ فجَمل بذكر الإنفاق في سبيل الله، فقال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى...﴾ [البقرة:٢٦٢].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ أي: قول معروف للسائل يوجب مغفرة ربه خير من نفقة أو صدقة لا يقوم خيرها بشرها بما يتبعها صاحبها من منّ أو أذى؛ لذلك وهو أعلم ختم الآية بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿وَالله غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٣] غني بصدق هذا المآل، حليم يعرض ﷻ بعصيان عبيده وبغضهم.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ

مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[1] [البقرة:٢٦٤] هذا منتظم بالمعنى والمجاورة لما تقدم، أكد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الآية في التوصية، وبالغ في النصيحة لأهل الإنفاق ألا يبطلوا صدقاتهم بآفات يتبعونها إياها فيما يكون بذلك المرائين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ثم ضرب ﷻ لذلك مثلاً محكمًا فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة:٢٦٤] يقول الله جلَّ قوله: مثل إنفاق المرائي المكذب مثل زارع بذر بذره على صفوان عليه تراب يسير؛ فلم يجد البذر لعروقه مساغًا، فاختطفه الهواء والشمس بعد نباته؛ إذ لم يكن له من الأرض ما يمده من أسفله، وأصابه مطر وابل فجرد يسير التراب عنه، وذهب بالبذر فبقي الصفا صلدًا.

مثَّل - جلَّ جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه - التراب اليسير الذي يستر الصفا بقول المرائي وبظاهر حاله، ومثل باطنه بما لا ينفد فيه عروق الزرع ولا ينبت عليه، وهو الصفا، فإن ما فات من عمله ما يقوم في إبطاله مقام المطر الوابل في إزالة ذلك التراب والذهاب بالبذر عن أصوله.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ

---

(١) قوله: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى﴾ يحتمل أمرين: أحدهما: لا تأْتُوا به باطِلاً وذلك أَنْ يَنْوي بالصَّدقة الرِّياء والسُّمعة. قال القرطبيُّ: إنَّ الله تعالى عبَّر عن عدم القبول، وحرمان الثواب بالإبطال، والمراد الصَّدقة الَّتي يمُنُّ بها ويُؤذي لا غيرها، فالمَنُّ والأذى في صدقة؛ لا يُبطلُ صدقةً غيرها. قال جمهور العلماء في هذه الآية: إنَّ الصَّدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ أو يُؤذي بها، فإنَّها لا تقبل. وقيل: إنَّ الله جعل للملك عليها أمارة فهو لا يكتبها. قال القرطبيُّ: وهذا حسنٌ.

والثاني: أن يأتوا بها على وجهٍ يوجب الثَّواب، ثُمَّ يتبعوها بالمَنّ والأذى فيزيلوا ثوابها، وضرب لذلك مثلين: أحدهما: يطابقُ الأوَّل وهو قوله: ﴿كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلَا يُؤْمِنُ بالله﴾ إذْ من المعلوم أنَّ المراد من كونه عمل هذا باطلاً أنَّه دخل في الوجود باطلاً، لا أنَّهُ دخل صحيحًا ثم يزول؛ لأنَّ الكُفر مقارنٌ له فيمتنع دخوله صحيحًا في الوجود. والمثال الثاني: وهو الصَّفوان الَّذي وقع عليه تراب، ثمَّ أصابهُ وابلٌ فهذا يشهدُ لتأويل المعتزلة؛ لأنَّه جعل الوابلَ مُزيلاً لذلك التُّراب بعد وقُوع التُّراب على الصَّفوان، فكذا ها هنا: يجب أن يكون المنُّ والأذى مزيلين للأجر والثَّواب بعد حصول استحقاق الأجر. [تفسير اللباب لابن عادل (٣/٣٠٤)].

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥-٢٦٨].

ثم مثَّل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مثل إنفاق المؤمن يريد به وجه الله والدار الآخرة، وعبر عن احتسابه في ذلك وحسن توجيهه بالعمل بقوله جلَّ قوله: وتثبيتًا من أنفسهم ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ من إتباع عمله بعضه بعضًا حسنًا بعد حسن، ومحافظته على أعماله ﴿فَآتَتْ﴾ على ذلك ﴿أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا﴾ الكثير من ذلك المعبر عنه بالوابل فالقليل؛ أي: من العمل المعبر عنه بقوله جلَّ قوله: ﴿فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ويُعطي ذلك طيب ترابها، ومات شجرها؛ لذهاب عروقها سفلاً وبسوق فروعها علوًّا، كذلك يقين المؤمن البقي في الرخاء شكور، وفي الشدائد صبور؛ لثبات علمه وقوة يقينه، وطيب نفسه بطول ما أدبها في ذات الله سبحانه وصابرها على طاعته، كالفارس المنتخب لغرسه ربوة من الأرض نزلت عن الجبل فسلمت من حرارته وحدوبته ويبوسته، وارتفعت عن البطنان[1] ومستنقع المياه، فعوفيت من إجحاف السيول وما يمر عليه من إفراط رطوبات المناقع وعفنها، ثم نقى ربوته هذه من الشائكات وغير ذلك من غرائب نباتها المردية لغِراسه وسوَّاها، وحسَّن عمارتها والقيام عليها.

---

(١) قيل: البُطْنانُ ما كان من تحت العَسِيب، وظُهرانُه ما كان فوق العسيب. انظر: تاج العروس (٧٩٧٣/١).

ثم أكّد ذلك ﷻ بمثلٍ ثالث جمع فيه المعنين، فأبلغ ﷻ في النصيحة، وألطف في التحذير عن اتباع العمل بما نهى عنه، ومثّل ذلك ﷻ بأحوالنا التي نجدها ضرورة من أنفسنا؛ ليفهَم عنه من أراده بالأهام، وقال جلَّ قوله وقوله الحق: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة:٢٦٦].

يقول جلَّ قوله لعباده: أيحب أحدكم أن يكون كمن اتخذ لنفسه جنة طاب ثراها، وانتخب بقعتها وتهمم في غراسها بأنواع الغروس لما يرجو المنفعة منه، ثم شقَّ في خلالها نهرًا يسقيها منه، وعمل ذلك حال فتوته ونشاط شبيبته إرصادًا منه بها زمان شيخوخته وكبره حين ضعف قواه وامتناع جبلته، وعدم تصرفه ولحاق ثقل الظهر به بذرية ضعاف لا حائط لهم سوى هذه الجنة أي أعدها لنفسه ولهم فأتاها من عند الله ﷻ ما أهلكها عن آخرها.

كيف ترون حال هذا؟ فكذلك العامل على ما لا ينبغي، والمتبع علمه ما يفسده ويبطله، فيقوم بعمله من ذلك مقام الإعصار من النار لجنة من ذلك الغارس؛ لأجل ذلك قال السلف ﷺ: المحافظة على العمل مع العمل أشد من العمل، والمحافظة على العمل بعد العمل أشد من ذلك، كذلك قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦].

ومن المحافظة على العمل: أن يكون الإنفاق من طيب المال وخالصه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾(١) إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ

---

(١) قوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ الخبيث﴾ الجمهور على «تَيَمَّموا» والأصل: «تتيمموا» بتاءين فحذفت إحداهما تخفيفًا، إمَّا الأولى وإمَّا الثانية، وقرأ البزّيُّ هنا وفي مواضع أُخر بتشديد التاء على أنه أدغم التاء الأولى في الثانية، وجاز ذلك هنا وفي نظائره؛ لأنَّ الساكن الأول حرف لين، وهذا بخلاف قراءته ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ [النور: ١٥] فإنه فيه جمع بين ساكنين، والأول حرفٌ صحيحٌ، وفيه كلامٌ لأهل العربية، يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.
قال أبو علي: هذا الإدغام غير جائزٍ؛ لأنَّ المدغم يسكَّن، وإذا سكِّن وجب أن تجلب همزة الوصل عند الابتداء به كما جلبت في أمثلة الماضي، نحو: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ [البقرة: ٧٢]
-

حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧] أي: غني عن دني ما تنفقون، حليم يقبل الزكى الذي يراد به وجهه الكريم.

ثم نظم إلى ذلك ذكر داعيهم إلى ما ينقصهم ويبغضهم عند ربهم من التخلق بذميم الأخلاق من البخل والمنع والمن بما أغناهم الله ﷻ به من فضله، ولو شاء لجعلهم الفقراء السائلين بقوله جل من قائل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨] هذه الآية أصل المعرفة اللقنين وإعلام لمنبعث الحاضرين.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩-٢٧٢].

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] **الحكمة**: هو الصواب في القول والعمل، وعلى التحقيق فالحكمة:

و﴿ارْتَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] و﴿اطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: ٤٧] لكن أجمعوا على أنَّ همزة الوصل لا تدخل على المضارع.

وقرأ ابن عباس والزُّهريُّ: «تُيَمِّمُوا» بضم التاء وكسر الميم الأولى، وماضيه: يمَّم، فوزن «تُيَمِّمُوا» على هذه القراءة: تفعِّلوا من غير حذفٍ، وروي عن عبدالله «تُؤَمِّموا» من أمَّمت؛ أي: قصدت.

والتيمم: القصد، يقال: أمَّ كَ «رَدَّ» وأمَّم كَ «أخَّر» ويمَّم وتيمَّم بالتاء والياء معًا، وتأمَّم بالتاء والهمزة، وكلُّها بمعنى قصد، وفرَّق الخليل - رحمه الله - بينها بفروقٍ لطيفةٍ، فقال: «امَّمْتُه» أي: قصدت أمامه، و«يمَّمْتُه»: قصدته من أيِّ جهةٍ كان. [تفسير اللباب لابن عادل (٣٠٨/٣)].

إصابة الحق بين المتشابه، وفعل ما هو الأولى والأفضل مع وجود الموانع، والحكمة أيضًا: فهم القرآن الحكيم، هو من أخرج معاني الشمال من معاني اليمين، وقوَّم نفسه عن عوجها، ويراضها من رعونتها وصعوبتها، فيسلك باليسرى منها مسلك اليمين.

وهذا تفسير لما تقدم، وأصل وجود الحكمة في هذا العالم الدنيوي ومنبعثها: فعل الله جلَّ ذكره في فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - في تعاقب نفسيها على ما مضى إيماؤه[١] وتقسمه ذَيْنِكَ[٢] النفسين على أربعة أجزاء الدوائر منهما، وإيراده فتح رحمته عليهما، ثم كيف مازج بين ذلك بحكمته وأحالهما أن يكونا [.....][٣] بلطيف تدبيره وعجيب حكمته بما قارن بين المتعاصيات وزاوج بين المتنافرات.

وربما كثر عن الوحدة، ووحد الكثرة، وأوجد عن ذلك حكمة بالغة أنواعًا من جنات دلَّ بها على ما هنالك، وضروبًا من موجودات جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - آية على وجودها في الدار الآخرة، ولم يَخلُ الشهي اللذيذ من مكروه ينفر عنه، ولم يدع الكريه الفظيع من مراد فيه وبه يدعو إليه؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

رفع قدر الحكمة، وأعلم أنه لا ينال عليَّها إلا بالتذكر والتفكر، وتكرير الذكر على الفكر والفكر على الذكر، ومنه: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

ثم أرجع ﷻ على معنى النفقة ذكر الوفاء بها، وما كان من نذر بطاعة الله ﷻ، وما عقب ذلك بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠] أي: ما للظالمين الذين ينفقون أموالهم في سبيل شهواتهم لا على ابتغاء مرضاة الله ولا بنيات لله سليمة يثبت عليها نفسه، وكذلك الذين يعقدون على أنفسهم عقود النذور ولا يوفون بها ما لهؤلاء من الله من أنصار.

---

(١) أي: إشارته.

(٢) يقال في التثنية، بالتشديد والتخفيف.

(٣) ما بين [ ] غير واضح في الأصل.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ﴾[1] بقوله جلَّ قوله وهو أعلم: إن تبدوا الصدقات ليتأسى بكم ويُقتدى بأفعالكم فنعما هي، وهي أفضل على هذا الشرط، ومتى عريت الصدقة من ابتغاء فضيلة الاقتداء ألا يكون إلا لأهل العزم والقوة الموصوفة بالأمانة فالإخفاء أسلم وأقرب إلى العافية، وعطف بالواو، وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ على المعنى الذي في قوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١] وهو التزكي والتقرب.

وتقدير المحذوف، والله أعلم: وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم؛ أي: أقرب إلى السلامة مع ما يطهركم بها ويزكيكم.

عطف بقوله جلَّ قوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ موضع العلانية هو الفريضة، وموضع السر هو النافلة، إلا ما رجحته معاني القرب الموجبة للقرب ورضا الله تعالى ورفعة الفضيلة.

فصل

يجتمع للمتصدق عدة معاني في أسماء الله سوى تحقيق عبوديته:

- **منها**: اسم الصدق؛ لأنه صدق بظاهره وباطنه؛ إذ المال هو دنيا العبد، وحب الدنيا هو الغالب عليه في الأغلب، وعلى ذلك وقعت المبايعة ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].

- **ومنها**: اسم الكرم والسخاء والسماحة، واسم العطاء، واسم الهبة، وهو الخير والزكاة والقرب.

---

(١) قوله تعالى: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ في «نعم» أربع لغات: «نعم» بفتح النون وكسر العين مثل: عَلِمَ. و«نعم» بكسرها، و«نعم» بفتح النون وتسكين العين، و«نعم» بكسر النون وتسكين العين. وأمَّا قوله: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فقرأ نافع في غير رواية ورش وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل: «فنعما» بكسر النون والعين ساكنة، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص، ونافع في رواية ورش ويعقوب بكسر النون والعين، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف: «فنعما» بفتح النون وكسر العين، وكلهم شددوا الميم، وكذلك خلافهم في سورة «النساء». قال الزجاج: «ما» في تأويل الشيء؛ أي: فنعم الشيء هي. وقال أبو علي: نعم الشيء إبداؤها. [زاد المسير (١/٢٨٠)].

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢] هذا خطاب راجع معناه إلى المؤمنين الموصوفين بالمنّ والأذى والبخل والشح والزنا والكفر بالله، وأهل الإهمال في الثبات عند توجيه الأعمال، وتعمد إخراج رديء المال وخبيثه دون طيبه، هذا انتظامه بالمجاورة، وأما المعنى: فهو راجع إلى كل مذموم من خلق وعمل في دنيا أو دين.

ثم أرجع ﷻ الخطاب إلى ذكر الإنفاق بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢] الخير هو ها هنا: الطيب، وتوجيهه على وجهه، وأراه - والله أعلم - عنى بذلك: من ليس عنده ما ينفق إلا على نفسه، فعوده بهذه النفقة على نفسه أعظم الأجر.

قال رسول الله ﷺ: «من له درهم فليعد به على نفسه، ثم على ولده، ثم على عياله، ثم على خادمه، ثم على قريبه، ثم على جاره، ثم فليقل هكذا وهكذا»(١).

قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله﴾ لم يسمِّ الله جلَّ ذكره إنفاقًا إلا ما كان لوجهه الكريم «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»(٢) وما كان لغيره أو لغير نية حميدة فاسمه التبذير والإسراف.

ثم أرجع ﷻ الخطاب إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ثم أرجع الخطاب إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله﴾ [البقرة:٢٧٢].

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩) وقال: حسن غريب، وأحمد (٨٣٣٠)، والدارمي (٢٧١٧)، والبيهقي في الشعب (١١٦٦).

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ [البقرة: ٢٧٣-٢٧٦].

لما بيَّن أن الإنفاق هو ما وجه إليه نظم ﷻ إتمام البيان بحيث يكون موقع الإنفاق، فقال عز من قائل: ﴿لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ الله لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾[١] بتجارة ولا عمل في ابتغاء الرزق ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣] هذه هي الدرجة العليا في المعطي ومواقع الإنفاق بعد قوت النفس والعيال.

---

(١) في سبب النزول وجوه: الأول: لما نزل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ الله﴾ بعث عبد الرَّحمن بن عوف بدنانير كثيرةٍ إلى أصحاب الصُّفة، وبعث عليٌّ - كرم الله وجهه - بوسق تمرٍ ليلاً، فكان أحبَّ الصَّدقتين إلى الله تعالى صدقة عليٍّ فنزلت الآية، وقدَّم الله تعالى ذكر الليل؛ ليعرف أنَّ صدقة اللَّيل كانت أكمل، رواه الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاسٍ.
الثاني: روى مجاهدٌ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت هذه الآية في عليٍّ ﷺ كان عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهارًا، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانيةً، فقال ﷺ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟» فقال: أن أستوجب ما وعدني ربِّي، فقال ﷺ: «لَكَ ذَلِكَ».
الثالث: قال الزَّمخشريُّ: نزلن في أبي بكر الصديق ﷺ حين تصدَّق بأربعين ألف دينار؛ عشرةٌ باللَّيل، وعشرةٌ بالنهار، وعشرةٌ في السِّرِّ، وعشرة في العلانية.
الرابع: قال أبو أمامة وأبو الدَّرداء ومكحولٌ والأوزاعي: نزلت هذه الآية الكريمة في الذين يربطون الخيل للجهاد، فإنها تعتلف ليلاً ونهارًا وسرًّا وعلانية، فكان أبو هريرة ﷺ إذا مرَّ بفرسٍ سمين، قرأ هذه الآية. وروى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ إيمَانًا وتَصْدِيقًا بوعدِهِ، فإنَّ شِبَعَهُ وريَّه ورَوْثَهُ وبَوْلَهُ في ميزانِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».
الخامس: إن الآية الكريمة عامةٌ في الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة تحريضًا لهم على الخير. وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السِّرِّ أفضل؛ لأنه قدم اللَّيل على النهار، والسر على العلانية في الذكر، وتقدم نظير هذه الآية ومدلولها، وهو مشروطٌ عند الكل بألَّا يحصل عقيبه الكفر، وعند المعتزلة ألَّا يحصل عقيبه كبيرةٌ محبطةٌ. [تفسير اللباب لابن عادل (٣/ ٣٣٤-٣٣٥)].

كما أن حسن الدرجة وعلياها في حال المعطى حسن التوجيه لله جلَّ ذكره، وابتغاء المال، وطلاقة الوجه والبشر، والتأنيس حين الإعطاء، وقول المعروف؛ مثل أن يقول المعطي: «يا أخي، هذا حقك، وإنما هو مال الله أعطاك، ولك المنُّ علي بأخذه مني وقبولك له عني، فإياه فاحمد دون من سواه، فهو وهبك» وشبه هذا من المقال.

ثم ختم هذا بقوله عز قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٧٣] الخير هنا عبارة عن جميع ما تقدم من الشروط في المال والمعطى له وأحوال المعطي ومقالته.

ثم أعقب ذلك بقوله جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّلَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤] هذه مبايعة من الله تعالى [عباده، جاءنا بها](١) في قوله جلَّ قوله ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] فذكر ﷻ الجهاد في سبيله.

واقتصر ها هنا على ذكر المنفقين أموالهم، التاركين لحظوظ أنفسهم، فهي مبايعة من وجه رفع الله ﷻ قدر الإنفاق في سبيله على وجوهه المرضية، وجعل المنفقين على ذلك الآمنون يوم الفزع الأكبر والهول الأعظم، آتاهم أجرهم على ما أتوه من أموالهم وحظوظ أنفسهم الأمَّارة بالسوء، وآمنهم من مقاساة الأهوال والخوف والحزن وسوء الحساب، ذلك لما آمنوا السائلين المفتقرين لما في أيديهم من منٍّ وأذى وجهامة وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] نظم ذكر الربا بذكر الإنفاق ما هو القوت للنفس والعيال وغيرهم، فهو خطاب لمكتسبه ومنفقه وآكله، وإعلامًا منه ﷻ أن حال آكله في الدار الوسطى دار البرزخ فزعًا جزعًا، وسوء حال حياة المتخطبة حيًّا أو حال القائم على تلك الحال، فعبَّر القرآن العزيز عن حال بواطنهم وسوء حياتهم هنالك في هذه الجهة.

---

(١) اضطراب في النسخة (ق)، صُوب من النسخة (ف).

وعبر رسول الله ﷺ بقوله عن سوء أحوالهم في أجسامهم وحزنهم في أنفسهم، فقال ﷺ: «**رأيت قومًا بطونهم كالبيوت، فيها الحيات تُرى من ظاهر بطونهم، يحطون على سابلة آل فرعون، كلما مروا بآل فرعون غدوة وعشيًا ليعرضوا عليها داسوهم بأرجلهم فيثردونهم ثردًا**»(١).

فهذه صفة أجسامهم وتزايل أعضائهم وحل تركيبهم، كقيام المتخبط من المس في باطن تركيبه وفساد خلقه من باطن هذا متى عذبوا في قبورهم بما اكتسبوا من ذنوب الربا، ولهم لكل ذنوبهم عذاب يشبه وصفه وصف ذنوبهم.

قال الله ﷻ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩].

و﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

فصل

يجب الإيمان بوجود الأعمال كلها من طاعة وعصيان، وأن لها وجودًا مقصورًا على صورة جزأيه من ثواب وعقاب، وعلى قدر رفعته في الإحسان وإسفاله يكون تصويره في الحسن والقبح، وذلك يعرض عليه يوم تعرض عليه أعماله، يشاهد مع ذلك مقامه على كل عمل؛ لذلك لا يستطيع أن ينكره؛ لأنه في حالته حينئذٍ كأنه قائم على ذلك العمل إلا من كان أسس عمله على الكذب في دار الدنيا فهو يباهت، وهم المنافقون والمراؤون بأعمالهم.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ﴾ [المجادلة:١٨].

وقال جلَّ قوله في الكافرين: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام:١٣٠] وقد يكون من الكافرين إنكار وحلف؛ لعدم علمهم في الدنيا، فيحشرون على ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦٧٧)، وأحمد (٨٦٢٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٤)، وابن ماجة (٢٢٧٣).

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾
وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٧٧-٢٨١].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] كان الكافرون وباقي الجاهلية يديرون بينهم نوع ربا قبيح نهى عنه الشرع وقبّحه؛ مثل: بيعهم حبل الحُبلة، والثمر يسلمون[١] فيه إلى سنتين وثلاثة، وبيعهم الملاقيح والمضامين[٢]، وبيع الملامسة[٣] والمنابذة[٤].

وكان أحدهم ينكح ابنته قبل أن تولد فيأخذ صداقها، فإن ولدت امرأته أول ما تلد أنثى فهي زوجته، إلى غير ذلك من أنواع ضلالاتهم وأباطيلهم، فأنزل الله ﷻ تحريم الربا، وكان قد بقي على المؤمنين أنواع من الربا؛ كالمزابنة[٥] والمخابرة[٦] والمحاقلة[٧]، فنهى عن المعاومة[٨]، وعن بيع الثمر حتى يزهو، ومهر البغي وحلوان الكاهن، وبيع الخمر، وبيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة متفاضلاً، وكذلك البر

---

(١) السَّلم: بيع شيء موصوف في الذمة بثمن عاجل. انظر: المعجم الوسيط (١/٤٢٤).

(٢) أولَاد المَلاقيح والمَضامينِ نُهِيَ عن بَيْعها، كانوا يَتَبايعون ما في بُطُون الأمهات وأصلاب الآباء، فالمَلاقيحُ: هُنَّ الأُمَّهات، والمَضامينُ: هُمُ الآباء. انظر: العين (١/١٧٤).

(٣) بيع المُلامَسَةِ: وهو أن يقول: إذا لَمَسْتُ المَبيعَ فقد وجب البيع بيننا بكذا. انظر: الصحاح في اللغة (٢/١٤٨).

(٤) الْمُنَابَذَةِ فِي الْبَيْعِ: هِيَ أَنْ تَقُولَ: إذَا نَبَذْتَ مَتَاعَكَ أَوْ نَبَذْتُ مَتَاعِي فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ بِكَذَا. انظر: المصباح المنير (٩/١٢٦).

(٥) المُزابَنةُ: بيعُ التَّمْرِ في رأْس النَّخْل بالتَّمْرِ. انظر: العين (٢/٨٩).

(٦) الْمُخَابَرَة: هِيَ مُزَارَعَةُ الْأَرْضِ عَلَى الثُّلُثِ وَالرُّبُعِ. انظر: المغرب (٢/٧٩).

(٧) الْمُحَاقَلَةُ: هِيَ بَيْعُ الزَّرْعِ فِي سُنْبُلِهِ بِحِنْطَةٍ. انظر: المصباح المنير(٢/٤٢٨).

(٨) المُعَاوَمَةِ: هِيَ أَنْ تَبِيْعَ الزَّرْعَ عامَكَ بما يَخْرُج من قابلٍ. انظر: المحيط في اللغة (١/١٢٧).

بالبر والشعير بالشعير، إلى غير ذلك، وكل ما أدى إلى خب وخداع، فأنزل الله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ...﴾** [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

قال رسول الله ﷺ **«ما فشا في قوم الربا إلا حرموا بركة السماء»**(١).

ثم لأهل التقوى في المعهود بين الناس ربا لا يرضونه، وهو السلم إلى أجل بعيد، وبيع العينة(٢) وما تحيَّل به المتحيلون من أكل أموال الناس لأجل ضرورة يضطروهم وشدائد تعروهم، ووجوه سواها تقارب الربا وتجاوره جعلوا ذلك بدلاً من السلف والتوسعة، والعود بالفضل الذي ربوا إليها وأمروا بها، سكت الشرع عن تعيين ذلك، ومعناه داخل في النهي، جاء النهي والوعيد عامًّا كل في مقامه ودرجته، شمل ذلك قوله جل من قائل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [البقرة:٢٧٨].

قال الله تعالى: **﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾** [الروم:٣٩].

قوله ﷻ: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**(٣) [البقرة:٢٨١] وعيد منه ﷻ وجَّهه أولاً إلى من لم ينتهِ عن الربا،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٠٩)، وأبو يعلى (٤٩٨١) بلفظ: «ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله».

(٢) الْعِينَةُ: أَنْ يَبِيعَ الرَّجُلُ مَتَاعَهُ إِلَى أَجَلٍ ثُمَّ يَشْتَرِيَهُ فِي الْمَجْلِسِ بِثَمَنٍ حَالٍّ؛ لِيَسْلَمَ بِهِ مِنْ الرِّبَا. انظر: المصباح المنير (٤٦٧/٦).

(٣) للآية تفسيران: **الأول**: أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا بتصفية الطباع، وإسقاط الوسواس، ومنعه من أن يرد على القلوب، فإن الشيطان مشغول بالعذاب، فلا يتفرغ لإلقاء الوسواس، فلم يكن بينهم إلا التوادد والتعاطف. عن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. الثاني: إن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقص، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى إن صاحب الدرجة الناقصة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة، فيكون هذا في مقابلة ما ذكره الله تعالى من تبريء بعض أهل النار من بعض، ولعن بعضهم بعضًا، وليس هذا ببديع ولا بعيد من حال أهل الجنة، فإن أولياء الله تعالى في دار الدنيا أيضًا بهذه المثابة بحسن توفيق الله تعالى ونور عنايته وهدايته، كل منهم قد قنع بما حصل له من نعيم الدنيا وطيباتها لا يميل طبعه إلى =

وبالعموم على كل نهي تقدم ذكره العلماء - رضي الله عنا وعنهم - إن هذه الآية من آخر ما نزل، فإن كان ذلك كذلك فإنها خاتمة، والتنزيل كما ختم بها جميع ما جاءت به هذه السورة من أمر ونهي، وهي حاكمة من هذه الجهة على ما أنزل قبلها ويأتي بعدها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

=

زوجة لغيره أحسن من زوجته، ولا إلى لا مشتهى ألذ مما رزقه الله، وكل هذا نتيجة ملكه الرضا بالقضاء، والتسليم لأمر رب الأرض والسماء، فيموتون كذلك ويحشرون على ذلك، وفقنا الله لنيل هذا المقام ببركة أولئك الكرام.

ونظم معنى هذه الآية بما تقدم من ذكر البيع بميزه الربا، فذكر الدين وأحكامه بعد ذكر الإنفاق، وبخاصة ذكر الربا والوعيد عليه، وكيف تكون توبة التائب منه؛ إذ الأموال موضع الإنفاق، والربا يدخل إليها من باب التوسع في أنواع التبايع، فذكر ﷻ ذلك نظمًا بذكر الأشهاد والشهادة، ووعظ الكتاب وذكر الرهن والأمانة فيه، وفيما أغفل الأشهاد والكتاب في عقده، وأكد ﷻ التوصية بالتقوى إلى قوله: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٣].

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٤-٢٨٦].

قوله جل من قائل: ﴿لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٨٤] أشبه هذا قوله جلَّ قوله بدء التأليف: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤].

وقوله ﷻ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٨٤] جوابًا منه ﷻ لقول العبد مخاطبًا له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

ومفهوم الجواب منه: مبايعة من الله لعباده، كيف جزاؤه إياهم على نياتهم الباطنة والظاهرة في عبادتهم إياه وطلب المعونة؛ لذلك وهو أعلم صدر الخطاب بوصف نفسه، وكان وصف الملك أولاً في هذا الموضع لمعنى العباد وأرضاه الجزاء عليها؛ إذ الملك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

وعطف ﷻ بالواو استئنافًا لفرض شروط المبايعة في قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾.

فصل

ذكر ابن عباس ﷺ في قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٨٤] إنه منسوخ بقوله جلَّ قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وتابعه على ذلك عطاء وقتادة، وقاله ابن مسعود ﷺ.

وروي عنه أيضًا أنه قال: لم تنسخ، ولكن الله ﷻ إذا جمع الخلائق يقول جلَّ قوله: «إني أخبركم بما كتمتم في أنفسكم» فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم، وأما أهل الشرك والتكذب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب والريب.

قال: فكذلك قوله جلَّ قوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وروي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت لسائل سألها عن هذه الآية: سألت رسول الله ﷺ في تلك، فقال ﷺ: «**هذه مبايعة الله العبد، فما يصاب من مصيبة أو يشاك من شوكة في نفسه وأهله وماله حتى إنه ليضع البضاعة في كمه فيفقدها فيفزع لذلك، ثم يصيبها فيؤجر على ذلك حتى يخرج المؤمن من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير**»(١).

وما ذكراه - رضي الله عنهما - من أنها لم تنسخ صحيح الظاهر، والذي يقوم عليه الحجة أن قوله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ [البقرة:٢٨٦] أنه بيان لمعنى المبايعة المذكورة؛ إذ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ...﴾ [البقرة:٢٨٤] يحتاج إلى تفصيل، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] تفصيل لذلك المجمل.

روى عمران بن الحصين أو غيره قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٩/٣)، وأحمد (٢٥٨٧٧)، والترمذي (٢٩٩١) وقال: حسن غريب.

والطاعة، فلقنني فيما استطعت.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خير وحسن ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦] أي: افتعلت من سوء ظاهر بجوارحها إن كان ذلك مما لا يتم إلا بعمل الجوارح أو باطن بجوانحها إن كان ذلك السوء قد يتم في الباطن، كالكفر والشرك والنفاق.

يعبر ﷻ بوزن «فعل» قوله جلَّ قوله: ﴿كَسَبَتْ﴾ من الخير؛ إذ قد يفضل ﷻ بأن الخير كله خاطره وتردده في الباطن، وخارجه عن الجوارح للعبد مكتوب مدخر ثوابه، وإن الشر لا يكتب على العبد بسيئة إلا بعد الترداد والعزم عقدًا عليه إن كان من العقود، وإن كان مما لم يتم إلا بالظهور على الجوارح فبعد أن يظهر وينفعل، وهو قبل أن يظهر إن رجع عنه وتركه لله جلَّ ذكره كتب له ثواب ذلك حسنة، وإن تركه لعارض عرض أو لأمر لم يكتب عليه سيئة، هكذا جاء قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله فيما رواه عنه جلَّ عن ربه ﷻ من رواية أبي هريرة وعروة - رضي الله عنهما - عنه يقول الله ﷻ: «**إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتب عليها، وإن عملها كتبتها سيئة وأغفر**»[(١)].

وفي أخرى: «**فأنا أغفرها ما لم يعملها**»[(٢)].

الخطرات من المؤمن يكرهها، ولا يملك إيرادها ولا إصدارها، فذلك معفو عنه، والحمد لله رب العالمين، وخطرات الخير له مكتوبة، فتاب الله علينا إن شاء الله رب العالمين، والحمد لله رب العالمين.

بل المرجو من فضل الله ﷻ أن للمؤمن في خطرات الشر التي لم يملكها وهو يكرهها رحمة من الله ﷻ، وحسنة يثاب عليها؛ لكراهته إياها وحزنه لأجلها، يشهد

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (١٢٨)، والترمذي (٣٠٧٣) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٣٨٠)، وأحمد (٧٤٩٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٨٥).

على صحة هذا قول النبي ﷺ لأصحابه وقد سُئل عن الشيء يجده أحدهم في نفسه يود أن يكون حممة ولا يجده، فقال ﷺ: «**أو قد وجدتموه؟ الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة، ذلك محض الإيمان**»(١).

فموضع حقيقة الرجاء في هذا قوله ﷺ: «**ذلك محض الإيمان**» فوقع موجود العبد من أجل **ذلك** إنكارًا له، وحزنًا إلى خالص الإيمان، وهو ثوابه، فالثواب عليه من أرفع الثواب، ولما كان هذا لوجود ما لا يملك جلبه ولا دفعه أول حال ظهوره لم يتعين عليه ثواب سوى المدح لواجده الكاره المتحرز من أجله مقابلة لتذممه ذلك.

قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ...﴾ [البقرة:٢٨٥] أشبه هذا الخطاب ما ذكره ﷻ في سورة أم القرآن قوله جلَّ قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ...﴾ [الفاتحة:٦] إلى آخرها.

وأثنى على ما ذكره في أثناء السورة، كقوله جلَّ قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة:١٣٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة:١٣٧] ونحوه.

كذلك اشتق ما فيها من دعاء في أم القرآن في أنه سأل وتضرع، وأنه مضمون الاستجابة، كالذي في تلك قوله في أم القرآن: «**ولعبدي ما سأل**»(٢).

وقوله جلَّ قوله في هذه: «**قد فعلت، قد فعلت، قد فعلت، نعم، نعم، نعم**»(٣) وهي سبعة أسئلة مجابة **لله الحمد** من قبل ومن بعد:

- يقول العبد: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] يقول الله

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩٧)، وأبو داود (٥١١٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٠٣)، وابن حبان (١٤٧).

(٢) أخرجه مالك (١٨٨)، ومسلم (٣٩٥)، وعبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣) وقال: حسن، والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤)، والدارمي (٣٣٧٢)، وأبو يعلى (٦٤٨٢)، وابن خزيمة (٥٠١)، والحاكم (٣٠١٩) وقال: صحيح على شرط مسلم، والضياء (١٢٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٣١)، والتِّرمِذِيّ (٤٨١) والنَّسائي وفي الكبرى (١٢٢٣) وابن خزيمة (٨٥٠).

ﷻ: «**قد فعلت**»[(١)].

قال رسول الله ﷺ: «**رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه**»[(٢)].

مصداقه في القرآن العزيز: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦].

- **وثانيه**: يقول العبد: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾[(٣)] [البقرة:٢٨٦] قد أعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في مواضع من كتابه العزيز ذلك إن كان منه في الأول، منها قوله: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقوله جلَّ قوله: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج ٧٨].

وقوله ﷻ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فهاتان يقوله جلَّ قوله «**قد فعلت**»، ولما كان سائر الأربعة التي هي العفو والمغفرة والرحمة والنصرة معرض سائلها للإجابة والحرمان؛ لكنه يفضل ﷻ بإدخال قارئ هذه الآيات في إيجاب الإجابة كما فعل بقارئ أم القرآن من تصحيح القسمة، وإنفاذ الوعد الكريم بالإجابة بخاصة في هذين الموضعين لأم القرآن وأواخر سورة البقرة.

كما بشَّره الملك - صلوات الله وسلامه على جميعهم - في قوله ﷺ: «**أبشر يا محمد بقرآن أوتيته من كنز تحت العرش لم يؤته أحد قبلك: أم القرآن وخواتيم**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه بلفظه الطبراني (١٤٣٠) وفي الشاميين (١٠٩٠)، وبنحوه الحاكم (٢٨٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي (١٩٧٩٨)، والطبراني في الصغير (٧٦٥). استكرهوا: حملوا على فعله قهرًا.

(٣) قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا**﴾ أي: عبئًا ثقيلاً يأسر صاحبه؛ أي: يحبسه مكانه، والمراد به التكاليف الشاقة، وقيل: الإصر الذنب الذي لا توبة له، فالمعنى اعصمنا من اقترافه، وقرئ «آصارًا» على الجمع، وقرأ أبيّ: «**ولا تحمّل**» بالتشديد للمبالغة ﴿**كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا**﴾ في حيز النصب على أنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، أو على أنه صفة لإصرًا؛ أي: إصرًا مثل الإصر الذي حملته على من قبلنا، وهو ما كلفه بنو إسرائيل من قتل النفس في التوبة أو في القصاص؛ لأنه كان لا يجوز غيره في شريعتهم وقطع موضع النجاسة من الثياب ونحوها، وقيل: من البدن وصرف ربع المال في الزكاة. [تفسير الألوسي (٢/٤٠٥)].

سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أوتيته»[1] فكل ما نسب إلى ما تحت العرش علوًّا، فهو عبارة عن خلوص الرحمة؛ إذ كان على صفة الرحمانية، وكل ما سفل كان أقرب إلى الابتلاء.

ألا ترى أن أسفل سافلين هو موضع العذاب الصرف، فالجنة تحت العرش، والشمس حال سجودها موصوفة بأنها تحت العرش، وهو موضع سجودها خلافًا لموضع طلوعها وجريها، وصفها النبي ﷺ على ذلك «**إنها تطلع على قرن شيطان**»[2] و«**بين قرني شيطان**»[3] وعلى هذا كله قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه:٥].

﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾ [الفرقان:٥٩].

وقوله: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[4] لسبقته: «بسم الله الرحمن الرحيم» فافهم وألقن عن ربك ﷻ فصل الخطاب.

فصل

صدق الاعتبار وصح النظر على صادق الوحي، والحمد لله رب العالمين.

أم القرآن اشتملت على جميع ما في القرآن مجملاً، كذلك اشتملت سورة البقرة على جميع ما في القرآن تفصيلاً لمجمل أم القرآن، ثم في سائر القرآن إنما التفصيل والتبيين والشرح، والله الموفق لإصابة الصواب بمنّه وفضله العظيم.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٩١٣)، والنسائي (٩٢٠)، وابن حبان (٥٧)، وابن أبي شيبة (٦٣)، والحاكم (٢٠٠٩)، والطبراني (١٢٠٨٩)، والبيهقي في الشعب (٢٢٦٩)، وأبو عوانة في مستخرجه (٣١٦٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٢١٦)، والضياء (١٨٨٣)، وعبد بن حميد (٢٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (٦١٢)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٩)، وأحمد (٧٠٧٧)، وأبو داود (٣٩٦)، والنسائي (٥٢٢)، والبيهقي (١٥٩١)، وأبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠).

(٤) تقدم تخريجه.

تفسير سورة آل عمران

مدنية كلها

فيها من المنسوخ خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران:١-٦].

قوله جلَّ قوله: ﴿الـم﴾ [آل عمران:١] قد تقدمت الإشارة إلى معنى ما جاءت به الحروف في أوائل السور من أجله - والله أعلم - آيات على حروف أم الكتاب ودلالات عليها، وقد تقدمت الشواهد على ذلك من القول العزيز مقرونة بها.

قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢] الألف واللام في أوائل هذه الأسماء لا محالة للتعريف والعهد، عرَّف عباده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأنه الله لا إله إلا هو الحي القيوم، فكأنه قال: «الـم هو الله...» وجاء من هذا أن «الـم» فسر بها هذه الجملة كما قال ﷻ وتعالى قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٨] والحياة العلية معبر معناها عن وجود الأسماء كلها، وعن الكمال الأرفع والوجود الأعلى، كما أن القيومية معبر معناها عن القيام خلقًا وأمرًا وشهادة وغيبًا.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم: الحي القيوم». وفي

أخرى: «اسم الله الأعظم بين هاتين الآيتين»[1].

قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] وهي جملة محكمة فصَّلت مجمل محكم قوله ﷻ: ﴿الم﴾ كما تقدم، والله أعلم.

ثم نسق عليها بعد قوله جلَّ قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[2] [آل عمران:٣] إلى ما يأتي بعد هذا، فاعرفه - وفقنا الله وإياك - كما تعرَّف إليك، فقد فتح لك باب معرفته في تعريفه بنفسه، فالاسم الأول جمع معاني ما سواه من

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦٥٢)، وابن أبي شيبة (٢٩٣٦٣)، وأبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٣٨٥٥)، والطبراني (٤٤٠)، والبيهقي في الشعب (٢٣٨٣)، وعبد بن حميد (١٥٧٨).

(٢) قال الكلبي والربيع بن أنس وغيرهما: نزلت هذه الآيات في وفد نجران وكانوا ستين راكبًا قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: **العاقب**: أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، **والسيد**: ثمالهم وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم، **وأبو حارثة بن علقمة** أسقفهم وحبرهم، دخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين صلى العصر، عليهم ثياب الحِبَرات جبب وأردية في رجال بلحارث بن كعب، يقول من رآهم: ما رأينا وفدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**» فصلوا إلى المشرق، فسلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله ﷺ: «**أسلِما**» قالا: أسلمنا قبلك، قال: «**كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير**» قالا: إن لم يكن عيسى ولدًا لله فمن يكن أبوه؟ وخاصموه جميعًا في عيسى، فقال لهم النبي ﷺ: «**ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟**» قالوا: بلى، قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟**» قالوا: بلى، قال ﷺ: «**فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟**» قالوا: لا، قال: «**ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟**» قالوا: بلى، قال: «**فهل يعلم عيسى عن ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟**» قالوا: لا، قال: «**فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا ليس بذي صورة وليس له مثل، وربنا لا يأكل ولا يشرب**» قالوا: بلى، قال: «**ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟**» قالوا: بلى، قال: «**فكيف يكون هذا كما زعمتم؟**» فسكتوا، فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. [تفسير البغوي (٥/٢)].

الأسماء؛ إذ جميعها شارحة له منبهة عليه.

ثم الاسمان بعده جمعها معاني الأسماء كلها الذاتية والفعلية؛ إذ لا يوصف بحقيقتها سواه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ولا يُعرف كمالها إلا به سبحانه، ثم اسمه المعبر عن الوحدانية في عزة الربوبية وعظمة الألوهية هو الذي بحقيقته قام كل شيء، وتماسك كل كائن علوًّا وسفلاً دنيا وآخرة، وبالإخلاص والتصديق والشهادة بمقتضاه كان الفوز كله، ومن أجل الخيبة الإقرار بالتحقيق والشهادة له كانت الخيبة الجمعاء والخسران الكبير.

فصل

والمعرفة هي أن تعرفه بأياديه الكاملة وصفاته العالية وأسمائه الحسنى، وأي يد هي أكمل ونعمة هي أعظم من أن جعلك عبد الرب؟ هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم، ذلك المجد الذي لا يُدانا، والفخر الذي لا يطاول؛ إذ جعل لك ذلك عوضًا من أن تكون عبدًا لما لم يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنك شيئًا ضلالاً عن القصد بعيد، وحرمان من حظ الدنيا والآخرة شديد.

واعلم أن المعرفة معرفتان: معرفة حق ومعرفة حقيقة، والمعروف بهما واحد أحد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣-٤].

فمعرفة الحق: هو ما أبدى للخليقة من أسمائه وصفاته آثاره في موجوداته، ونصوصًا ومعاريض في كتبه على ألسنة رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

وأما معرفة الحقيقة: فلا سبيل إلى بلوغ كنهها؛ لامتناع علاء الصمدية، وعزة عظمة الربوبية، وقصور الأوهام عن تحقيق معرفة الأحدية، ولأنه لا شبه له ولا مثل له فيقاس عليه.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] ومن عرف لم يعرف منه إلا ما يحبه لأجله، ولذلك كانت المعرفة من علامات المحبة، ومن عرف فمن علامات معرفته أن يرى العارف نفسه في قبضة العزة تجري به لطائف القدرة، ولذلك كان شأن العارف المحقق السكون تحت جري الأحكام

والطمأنينة لتصريف القضاء له وعليه.

قوله ﷻ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ [آل عمران:٣] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤] معهود.

«أنزل» على وزن «أفعل»: الإنزال من علو إلى سفل.

و«نزل» على وزن «فعل»: من التنزيل الذي هو التيسير والتعريف هو التفهيم، والقرآن منزل على ما هو عليه إنه كلام الله جلَّ ذكره، ليس كمثله كلام، عظيم نزله روح القدس[١] منه ﷻ بالحق إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول ﷺ إلى لسانه تلاوة وقراءة، قرآنًا عربيًا بالألسن حديثًا صادقًا مقطعًا على مخارج الحروف، وهو أيضًا منزَّل عما هو كتاب الله العلي الأعلى الذي هو كتاب القلم من اللوح المحفوظ.

قال رسول الله ﷺ: «وكتب في الذكر كل شيء»[٢] فنزل ﷻ حروف الكتاب إلى الحروف المقطعة في أوائل السور، ثم نزل ﷻ تلك أيضًا إلى أن جعل ما أنزل

---

(١) قال البغوي في «تفسيره»: اختلفوا في روح القدس، قال الربيع وغيره: أراد بالروح الذي نفخ فيه، والقدس: هو الله أضافه إلى نفسه تكريمًا وتخصيصًا نحو: بيت الله، وناقة الله، كما قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وقيل: أراد بالقدس: الطهارة؛ يعني: الروح الطاهرة سُمى روحه قدسًا؛ لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث، إنما كان أمرًا من أمر الله تعالى.

قال قتادة والسدي والضحاك: روح القدس جبريل ﷺ قيل: وصف جبريل بالقدس؛ أي: بالطهارة؛ لأنه لم يقترف ذنبًا، وقال الحسن: القدس هو الله وروحه جبريل قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وتأييد عيسى بجبريل - عليهما السلام - لأنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى صعد به الله إلى السماء، وقيل: سُمي جبريل ﷺ روحًا للطافته ولمكانته من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: روح القدس هو اسم الله تعالى الأعظم به كان يحيي الموتى ويري الناس به العجائب، وقيل: هو الإنجيل جعل له روحًا كما جعل القرآن روحا لمحمد ﷺ لأنه سبب لحياة القلوب، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فلما سمع اليهود ذكر عيسى ﷺ فقالوا: يا محمد لا مثل عيسى - كما تزعم - عملت، ولا كما تقص علينا من الأنبياء فعلت، فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٩)، والطبراني (٤٩٧)، وأحمد (١٩٨٨٩)، وابن حبان (٦١٤٠)، والروياني (١٤٠)، والحاكم (٣٣٠٧) وقال: صحيح الإسناد.

منه علينا كتابًا نكتبه بحروف مجموعة مؤلف ومكتوبة لنا.

قال الله جلَّ قوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١].

﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:١-٣] أي: أنزلناه من أم الكتاب إلى أن جعلناه قرآنًا عربيًا على لسانكم؛ لتعقلوه وتفهموا المراد به ومنه، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] أي: بعيد عن أفهامكم، عليٌّ لا تدركه عقولكم لولا تنزيلنا إياه.

والحروف المقطعة في أوائل السور آيات على أم الكتاب، وواسطة بينه وبين أم الكتاب المنزل، وكذلك كل رسول أتى بكتاب من عند ربه تنزل عليه من أم الكتاب ومن كلام رب العزة جلَّ ذكره إلى لسان الرسول المرسل إليهم بلسانهم؛ ليبين لهم مراد الله منهم، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء.

فصل

أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ووُضع في بيت العزة، ومن هناك نجم إنزاله نجومًا، وكان ذلك في الوجود بمنزلة الماء، يرسل الله ﷻ الرياح مبشرات ونشرًا، ثم يوجد السحاب، وبعد ذلك ينزله إلى الأرض بقدر ما يشاء، وكما أنزله ﷻ إلى السماء الدنيا كذلك أنزله إلى قلب الرسول ﷺ، ثم بعد يرتله ترتيلاً بالتنزيل والإنزال عليه متى نزلت نازلة، أو عنَّ أمر مبهم قد شاء أن ينزل فيه قرآنًا، أو يكون أمرًا ما يريد الله ﷻ أن يبديه أنزل عليه في ذلك ما هو الشفاء والرحمة للمؤمنين.

وكان في وجود الحق كالفطرة لكل شيء خلقه على الإسلام كل عالم بقسط معلوم من تلك الفطرة، شاهد ذلك: ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾ يعني: إنه يكون له ذلك بمثابة الدمع ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة:٧٤].

ثم النبات من ذلك في درجة، ثم الإنسان في درجة، شاهد ذلك على العموم: قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨] أي: طوعًا شرعًا؛ أي: إنه لا يسجد إلا كما يسجد من دونه من العوالم، ويجعل طوعه بالسجود والعبادة لغيره.

فصل

لما كانت النبوة قد فاقت علم الفطرة وعلت على معاليها وجب من وجود حكمة الله تعالى أن يتقدم للنبي والرسول - صلى الله عليهما - من معنى النبوة جملة الرسالة بما يقوم مقام الفطرة للخليقة، فإن النبي ﷺ يأتي بما ليس في طاقة البشر علمه، والإتيان به من حيث هو نبي.

يقول الله جلَّ قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

ثم بعد يفصل الله ﷻ في حال الابتلاء ما أجمله قبل تفصيلاً بعد تفصيل؛ ليبين للناس ما نزل إليهم، وقد نص ﷻ على ذلك للعقول الصائبة، وكان قد قبض بساط الخطاب بقوله جلَّ قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ فأجاب ﷻ رسوله ﷺ، والمراد بالإعلام: ما هم، ومن شأنه بذلك كذلك؛ أي: كذلك فعلنا؛ أي: أنزلناه جملة واحدة عليك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ فإذا نزلت النوازل وسألوك ابتدأناك بما شئنا فتعرفه حينئذٍ؛ لأن جملته مستقرة في فؤادك، ثم قال ﷻ: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢] أي: قطعنا إنزاله تقطيعًا لأوقات الحاجة إليه.

ثم عطف ﷻ بالواو على معنى ما تقدم، فقال جلَّ قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] فدخلت الواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ عطفه على ما في قلبه من معنى، كذلك دخلت الواو التي في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ عطفًا على قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٤] ذكر الأكثرون من المفسرين أن الفرقان اسم من أسماء القرآن، وقولهم هذا يصح من جهة أن القرآن فرق ما بين الهدى والضلال، والحلال والحرام، والمواعظ والأحكام، وتسمية الشيء بما يقاربه

أو يكون منه بسبب صحيح جائز.

وقصد القول في ذلك إن شاء الله تعالى: إن الفرقان زائد إلى ما قالوه، نور في بصر القلب عن روح، تنزل به الملائكة على الأنبياء - عليهم السلام - فيه يفرق بين المشتبهات، ويميز به بين المشكلات في غيابات غيبها، وهو كالتصور في ظاهر الكائنات المسميات، فالفرقان بين موجودات المعاني بأنوار البصائر، والتفريق بين الصور يكون بحواس الإبصار، وكما نزل الفرقان وأنزله كذلك نزل القرآن وأنزله.

قال الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] أعلم الله ﷻ أن شخصًا واحدًا محيط بجميع المعلومات جملة وتفضيلاً، ثم كتب جلَّ ذكره في الذكر كل شيء جملة محيطة بكل كائن إلى يوم القيامة، فكان بذلك محكمًا تم فصله بعد بالتنزيل والتبيان، فكان فرقانًا.

من أجل ذلك قال الله ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ....﴾ [هود:١].

وكما أنزل الفرقان على محمد ﷺ كذلك أنزل على الرسل قبله صلوات الله وسلامه على جميعهم.

قال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨].

وقال أيضًا جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ والفرقان ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٩].

وبما قاله رسول الله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[١].

فالفرقان أيضًا نور يؤتيه الله أهل العلم والتقوى، يفرقون به بين المشتبهات، ويبصرون به صور المعاني باطنًا، يميزون بها في بواطنهم بعضًا من بعض.

قال الله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا...﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن

---

(١) تقدم تخريجه.

رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

ومن قويت هذه الصفة في باطنه ثم ظهرت على لسانه أوتي فصل الخطاب، وتميزت صور معاني الموجودات في باطنه، فمتى نظر أبصر الحقائق، ومتى نطق عبر عن صور المعاني بالكلام القريب.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:٤] آياته هنا: تنزيله الكتاب المبين من حروفه إلى الحروف المقطعة المرسومة في أوائل السور التي هي آيات على تلك، وواسطة بينها وبين حروف القرآن، وتنزيله أيضًا الفرقان من لدن علمه المحيط بتعالي التفصيل وتفصيل التفصيل إلى أن جعله ﷻ نورًا في قلوب عباده، وفرقانًا في أثناء كتابه يقرؤونه بألسنتهم، ويميزون به معاني خطابه في بواطنهم، هذا خاص قوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾.

وعلى العموم بالقول في آياته في السماوات والأرض ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤] فالفرقان على هذا هو كلام الله جلّ قوله، وقول الله وإن كان منزلاً مُقرٌّ بالأسماع والأفهام ذلك قوله ﷻ: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة:٦] كذلك قال الله من قبل، وقال الله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ﴾ [النحل:٥١].

قول الله لا محالة ولا مرية فيه نزَّله روح القدس من لدنه إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول ﷺ، ثم إلى لسانه الصادق المصدوق - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ثم عنه إلى أصحابه إلى تابعيهم ينقله خلف عن سلف، والمنقول كلام الله وقوله العلي العليم، يتبين لنا بالحروف والأصوات المحمولة في الهواء بتقطيع الألسنة لها في مخارجها من القراء الناقلين، وهو غير حال فيهم إلا حفظًا ووعيًا له، وعلى ذلك فقد وصفه ﷻ بما يوصف به الحال بقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وأما الصفة؛ فلا يجوز عليها انتقال ولا حلول ألبتة، كذلك قال: ﴿هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

فعلى هذا كلامه صفته العلية، فكلامه القرآن الذي نزله منه روح القدس، وقراءتنا وإن كانت مخلوقة محدثة؛ لأنها صفات لنا موجودة بنا توصف؛ أعني: القرآن

بأنها قرآن، وعلى هذا جاء قوله الحق: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣].

وفي الفصل الذي قبل هذا قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢] من أجل هذه الشبهة حدث الجدال واشتجر الخصام، ولم يزالوا جاثيين على الركب يُخطِّئ بعضهم بعضًا ويُكفِّر بعضهم بعضًا.

وفصل الخطاب في ذلك: القرآن المنزل من ربنا ﷻ نزَّله لا يلحقه القول بالخلق ألبتة، ثم هو القرآن الذي قرأه لنا، لا ينطلق القول فيه بالخلق تعزيزًا وتعظيمًا له من أن هذه القراءة منا حاملة وناقلة لمعظم مُرفَّع عن القول بذلك، ومن حيث هي قراءة موجدة لنا عن نفس مقطع بواسطة لسان موزع للتقطيع على مخارج حلقية وهوائية وشفوية إلى غير ذلك فهي مخلوقة، والتعزيز والتوقير أولاً، ولهذه الشبهة امتنع كثير من السلف أن يصفوه بأنه مخلوق أو غير مخلوق؛ لنظرهم إلى هذا الفصل من الحملة أولاً تارة عملت في الجملة بخاصتها.

وهذه المسائل إنما اشتبهت فأشكلت من أنها تركبت من معاني احتملت فيها، فكانت في ذلك كخلقة آدم ؏؛ خلقه ربه ﷻ من تراب وماء، ثم أعمل فيها حرّ الشمس وبرد الهواء، ثم نفخ فيه من روحه، فكل عمل منه بخاصته، ومن موضع احتماله بتكوينه من تراب وماء وحر وبرد ما، ولا منفوخ فيه ما لا يوصف بموت، يحيا فلا يموت أبدًا، كذلك المخلوقات سواه لها وصف من حيث انفرادها موجود بها، وصف من حيث الاشتراك موجود بها ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

لذلك متى وصف آدم ؏ من حيث هو فالذم أقرب إليه، ومتى وصفه من حيث هو له وصفه محمود الوصف من الاصطفاء والاجتباء ونحو هذا.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:٥] كلام متصل معناه بمعنى اسمه الحي القيوم؛ إذ العلم من وصف الحياة والقيومية وبخاصة فيما هنالك لما ذكر الوحي والفرقان وتنزيلها، وجعل ذلك من آياته اتصف ﷻ بقوله الحق: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:٥] نزاعًا إلى حفظه في الذكر، وأنه يحتوش نبيه ؏ عند ذلك من الحق لما تباعد عنه الشياطين وآفات النفوس التي تذهل عن الذكر

ويذهب بجمعه.

قال الله جلَّ قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢] أي: لا يخفى شيء دقَّ أو جلَّ في الأرض ولا في السماوات على من هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم، الخالق لكل شيء وموجده، مدبره ممسكه، كل ذلك في قبضته وتقليبه.

سرد قوله الحق عزَّ قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٦] على شمول علمه وإحاطة قدرته ومشيئته الشهادة والغيب، فاتصل بها معنى كاتصاله بها تلاوة، ويصورهم في الأرحام في ظلمات ثلاث، لم تعجزه صورة قط يصورها ما كرر شكلاً ولا ردد صورة، فقد خلق أول خلقه في البدء الأول ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام:١٤١].

سبحانه وله الحمد، أحاط بكل شيء علمًا ومشيئة وحكمًا، ما أراد قط إيجاد شيء إلا أوجده، ولا شاء شيئًا إلا أحكمه على ما قد شاءه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧] ذكر

---

(١) مناسبة هذا لما قبله أنه: لما ذكر تعديل البنية وتصويرها على ما يشاء من الأشكال الحسنة، وهذا أمر جسماني، استطرد إلى العلم، وهو أمر روحاني. وكان قد جرى لوفد نجران أن من شُبَهِهِمْ قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] فبيّن أن القرآن منه محكم العبارة قد صينت من الاحتمال، ومنه متشابه وهو ما احتمل وجوهًا، ونذكر أقاويل المفسرين في المحكم والمتشابه، وقد جاء وصف القرآن بأن آياته محكمة، بمعنى: كونه كاملاً، ولفظه أفصح، ومعناه أصح، لا يساويه في هذين الوصفين كلام، وجاء وصفه بالتشابه بقوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] معناه: يشبه بعضه بعضًا في الجنس والتصديق، وأما هنا فالتشابه ما احتُمل وعجز الذهن عن التمييز بينهما، نحو: ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠] ﴿وَأُتُوا بِهِ =

العلماء من السلف - رحمة الله على جميعهم - في المحكم والمتشابه غير ما وجه واحد، فمنهم من قال: المحكمات هن الناسخات، وهن التي فيهن التحليل والتحريم، وما أوجب الله الإيمان به والعمل. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ﷺ.

وقال غيرهم: هو ما لم ينسخ. قاله الضحاك.

= ﴿مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أي: مختلف الطعوم متفق المنظر، ومنه: اشتبه الأمران إذا لم يفرق بينهما، ويقال لأصحاب المخاريق: أصحاب الشبه، وتقول: الكلمة الموضوعة لمعنى لا يحتمل غيره نص، أو يحتمل راجحًا أحد الاحتمالين على الآخر، فبالنسبة إلى الراجح ظاهر، وإلى المرجوح مؤول، أو يحتمل من غير رجحان، فمشترك بالنسبة إليهما، ومجمل بالنسبة إلى كل واحد منهما، والقدر المشترك بين النص والظاهر هو المحكم، والمشترك بين المجمل والمؤول هو المتشابه؛ لأن عدم الفهم حاصل في القسمين. قال ابن عباس، وابن مسعود، وقتادة، والربيع، والضحاك: المحكم الناسخ، والمتشابه المنسوخ، وقال مجاهد، وعكرمة: المحكم: ما بيّن تعالى حلاله وحرمه فلم تشتبه معانيه، والمتشابه: ما اشتبهت معانيه. وقال جعفر بن محمد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والشافعي: المحكم ما لا يتحمل إلّا وجهًا واحدًا، والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجهًا. قال ابن زيد: المحكم: ما لم تتكرر ألفاظه، والمتشابه: ما تكررت، وقال جابر بن عبد الله، وابن دئاب، وهو مقتصى قول الشعبي والثوري وغيرهما: المحكم ما فهم العلماء تفسيره، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه: كقيام الساعة، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج عيسى.

وقال أبو عثمان: المحكم، الفاتحة، وقال محمد بن الفضل: سورة الإخلاص؛ لأن ليس فيها إلّا التوحيد فقط، وقال محمد بن إسحاق: المحكمات ما ليس لها تصريف ولا تحريف، وقال مقاتل: المحكمات خمسمائة آية؛ لأنها تبسط معانيها، فكانت أمَّ فروع قيست عليها وتولدت منها، كالأم يحدث منها الولد، ولذلك سماها: أم الكتاب. والمتشابه: القصص والأمثال، وقال يحيى بن يعمر: المحكم الفرائض، والوعد والوعيد، والمتشابه: القصص والأمثال، وقيل: المحكم ما قام بنفسه ولم يحتج إلى استدلال، والمتشابه ما كان معاني أحكامه غير معقولة، كأعداد الصلوات، واختصاص الصوم بشهر رمضان دون شعبان، وقيل: المحكم ما تقرر من القصص بلفظ واحد، والمتشابه ما اختلف لفظه، كقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] و﴿قُلْنَا احْمِلْ﴾ [هود: ٤٠] و﴿فَاسْلُكْ﴾ [المؤمنون: ٢٧] وقيل: المتشابهات ما لا سبيل إلى معرفته، كصفة الوجه، واليدين، واليد، والاستواء، وقيل: المحكم ما أمر الله به في كل كتاب أنزله، وقال أكثر الفقهاء: المحكمات التي أحكمت بالإبانة، فإذا سمعها السامع لم يحتج إلى تأويلها؛ لأنها ظاهرة بينة، والمتشابهات: ما خالفت ذلك، وقال ابن أبي نجيح: المحكم ما فيه الحلال والحرام.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما وعنه - قال: هن الثلاث الآيات التي في آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء:٢٣] إلى آخر الثلاث الآيات من سورة سبحان.

وقالوا في المتشابهات: إنها المنسوخات. روي ذلك عن ابن عباس ﷺ، وما يؤمن به ولا يعمل به، والأمثال والأقسام.

وقال مجاهد ﷺ: المتشابه مثل قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

وأرى معنى قوله هذا ما يهدي به هؤلاء وما يضل به هؤلاء هن متشابهات في حقنا نحن، إنما هي مشيئة الله جَلَّاله ذلك وإلا فيما يهدي به المهتدون، فهو في حقهم غير متشابه، بل هو لبيانه عندهم اهتدوا به، وهو مثل قول ابن عباس والضحاك وقتادة ﷺ.

وقال آخرون: هو الذي يشبه بعضه بعضًا. وبه قال أبو عبيدة.

وقال محمد بن إسحاق: هو ما يتشابه في التأويل على المتأولين؛ يعني: ما أغمضه بعض الإغماض لتفاضل الناس في الاستنباط.

وقال ابن جبير ﷺ نحو هذا: هن آيات يشتبهن على المتأولين، فيتأولها كل آية على ما يعتقد من فواتح السور، هذا ما انتهى وهي تحتمل الوجوه، وإن كان الحق لا يكون إلا في وجه منها فيهدي الله ﷻ من يشاء.

وقال غيره: هو الذي يؤمن به ولا يعمل بما فيه، كقوله جلَّ قوله: ﴿المص﴾ [الأعراف:١] ﴿المر﴾ [الرعد:١] ونحو ذلك من فواتح السور. هذا ما انتهى إلينا من مذاهب أهل التفسير، اختصرنا بعضها؛ لتشابه أقوالهم وتقارب مذاهبهم.

وقد قسم الله تبارك وتعالى الحق من عباده، فأولاهم بالصواب من عبَّر تفصيل خطاب عن حقيقة المراد، وقد قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٧] أي: في قلبك؛ أي: في صدرك، و«قرآنه» أي: نجعله قرآنًا عربيًا على لسانك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨-١٩] أي: على لسانك وألسنة العلماء من العالمين.

والمحكم على ضربين:

- محكم يقارنه التفصيل: وهو الذي نعرفه نحن بالمجمل، وهي الحروف المقطعة.

قال الله جل من قائل: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود:١-٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود:٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت:١-٣] وقد تقدم الكلام.

- ومحكم يقارنه المتشابه: وهو قوله جلَّ قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:٧] فقد أخبر ﷻ أن الآيات المحكمات هن أم الكتاب، وهو معنى ما تقدم ذكره؛ إذ المجمل هو ما احتمل فيه الكل، وبالتفصيل يبلغ المراد به.

وهو في حديث رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ أول ما خلق القلم ثم اللوح المحفوظ، فقال للقلم: اكتب، قال: ما أكتب يا رب؟ قال: اكتب علمي في خلقي**»[١].

فهذا الكتاب احتمل فيه كل شيء كائن وغير كائن، وكيف يكون الكائن ومتى وبِم، ولِم لا يكون؟ وبأي سبب لا يكون؟ وهل يكون بسبب أو لا؟ وكيف يكون الكائن إذا كان؟ وكيف كان يكون ما ليس بكائن لو كان هذا إلى ما يعلم الله العليم الحكيم ولا يعلمه سواه؟.

وفي رواية أخرى: إنه قال جل قوله للقلم: «اكتب» قَالَ: «مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ:

---

(١) تقدم تخريجه.

[اكتبْ مقاديرَ كلِّ شيء وَمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوم القيامة»][(١)] فالكتاب الأول الذي قال له جلَّ قوله: «اكتب علمي في خلقي» محكم لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات، ولا تلحق كنهه الأوهام.

ثم فصَّل منه ما عناه بقوله جلَّ قوله: «اكتب ما هو كائن» ثم فصَّل منهما ما عناه بقوله جلَّ قوله: «اكتب المقدار» وهو مقادير الكائنات يكونها وكيف تكون، وعلى أي وجه يكون ابتداءً وبسبب، والسبب لِم يكون وبِمَ؟ ونحو هذا، فإن كانت الكتب الثلاثة في اللوح المحفوظ مفصولة الذوات بعضها من بعض فذاك وإلا فهي معلومة مفصلة.

وأسر ﷻ في الكتابين الثاني والثالث المحو والإثبات لمشيئته العالية، ولذلك قال جلَّ قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] وهو الكتاب الأول الذي تقدم الكلام فيه.

وعن ذلك إثارة النسخ في الكتب المفصلة منه، وفي الشرائع المشروعة، وعن ذلك كان انقضاء المدة في الكائنات ووجود الحوالات، وذلك بتداوير محكمة التدوار بتقدير العزيز العليم، ذلك عليه يسير، يعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المعلومات بعلم واحد، كذلك يكتبها بكتاب واحد جملة واحدة، كما هو واحد لا ريب فيه المعلومات فيه محكمة، ثم فصلها ﷻ بعد إذ شاء كيف شاء جملاً محكمة مفصلة الذوات تفصيلاً بعد تفصيل، فالجملة الأولى أم التفصيل كله الذي تحتها، ثم ما تحت كل تفصيل أم لما تحته.

ولا تزال الجمل محكمة يصحبها التفصيل، يصحب الجمل وكل محكم هكذا إلى غير غاية يدركها الإنسان، وكذلك التفصيل يصحبه منه التدبير، والتدبير يصحبه التفصيل كذلك، وهو أعلم ﷻ.

قال عز قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:١٢].

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ [الرعد:٢].

وأما من قال: «إن النسخ هو المتشابه» فهو لما يقف عليه إن شاء الله تعالى

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (ق) واستدرك من (ف) ومصادر الحديث.

النسخ، قالوا ثلاثة أضرب:

أحدها: أن ينسخ المأمور به قبل الامتثال، وهو النسخ على الحقيقة، وقد جاء في القرآن العزيز شرعًا لنا أيتها الأمة، وهو في قوله جلَّ قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾ [المجادلة:١٢].

ثم نسخه ﷻ قبل أن يمثل رحمة منه وفضلاً بقوله جلَّ قوله: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ...**﴾ [المجادلة:١٣] المعنى إلى آخره.

وعلى هذا الضرب جاء ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، وهو قليل، وجاء من هذا الضرب أيضًا متوجهًا على إبراهيم ﵇، وهو أمره ﷻ بذبحه ولده، ثم نسخه ﷻ عنه قبل امتثال الفعل.

والقسم الثاني: يسمى نسخًا تجوُّزًا، وإنما النسخ الحقيقي ما تقدم ذكره، ولكنه نسخ لا محالة، وهو ما نسخه الله عنا وقد كان أوجبه على من كان قبلنا في كتابه، وأمرنا نحن به أمرًا جميلاً، ثم نسخ ذلك عنا بما شاءه، كنسخه التوجه إلى البيت المقدس بالتوجه إلى البيت الحرام، وإنما كان مأمورًا به من كان قبلنا ونزل عليهم في كتابه.

ثم قال للرسول ﷺ في القرآن العزيز: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام:٩٠] فوجب علينا اتباعهم حتى ينسخ ﷻ ما شاء من ذلك بما شاء، في ذلك قال عز من قائل: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة:١٠٦] أي: ما ننسخ عنكم مما أوجبته على من كان قبلكم من آية نأتِ **بخير** منها أو مثلها.

ومن ذلك أيضًا: نسخه ﷻ وجوب صوم يوم عاشوراء بوجوب شهر رمضان ونحو هذا، فكان ذلك نسخًا لما تقدم في شرع من كان قبلنا لا نسخًا للقرآن.

والقسم الثالث: الذي ذكروه ما أمر به المسلمون حين الضعف والقلة من الصبر على الانتصار والمغفرة الذين لا يرجون أيام الله ونحو هذا.

قالوا: ثم نسخ ذلك عنهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد والقتال ونحو هذا، وهذا ليس بنسخ، وإنما هو نسي كما قال ﷻ: ﴿**أَوْ نُنسِهَا**﴾

فالمنسوء هو الأمر بالقتال، وقد تقدم الكلام في هذا.

ألا ترى أنه بقي رسمه إرصادًا للمعنى الذي عناه رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[1].

وهذا كله كان في حياة رسول الله ﷺ متوقعًا، وقد انقطع الوحي ونزل الشرع منازله، ولا مبدل لكلمات الله، فلو كان النسخ والمنسوخ هو المتشابه؛ لعدم المتشابه في القرآن، وآمن كونه من الضرب الثاني من المحكم، وهو الذي يقارنه المتشابه، والمحكم هو إمام المتشابه، وهو مفصول ومفصَّل من المحكم، فالمحكم أم للمتشابه وجامع له، والمتشابه يؤمه يقول: يأتم به، كذلك قال الله جلَّ قوله: ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران:٧].

والمتشابهات من الكتاب المحكمات منه أُمٌّ لها، والمتشابه على ضروب، منها: أن يكون بمعنى المشكل والمختلط، كما قال ﷻ ووصف بعض الموجودات: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**﴾ [الأنعام:١٤١] أي: مؤتلف بعضه ببعض، مختلط، متداخل.

وهو على غير ذلك متشابه لا يشبه بعضًا، كما قال جلَّ قوله: ﴿**يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ**﴾ [الرعد:٤] كذلك في الرائحة، كذلك في النفع والضر وغير ذلك، فهذا الضرب منه يحتاج إلى التوقيف والبحث من أين منبعث الخطاب، وإلى حيث الوجهة به حتى يتخلص صحيح المتميز ويبدو منه سواء المراد، وعلى قدر قرب المتشابه وخفاء المراد به ما هو يحتاج فيه إلى ترداد التذكر والتفكر، وهذا الضرب كثير الموجود متسع.

ومنه قوله ﷻ: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ**﴾ [الزمر:٢٣] فلكونه متشابهًا ربما جاء ذلك في ذكر الأسماء والصفات الكاملة العلا؛ لنزول ما في

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥)، والترمذي (٢٨٣٨)، وابن ماجة (٣٩٨٦)، وأبو يعلى (٦١٩٠)، والطبراني (٦١٤٧)، والدارمي (٢٨١١)، وأحمد (٣٨٥٧)، والبيهقي في الشعب (٩٥٣٩).

الخطاب لما يراد به من التقريب للأفهام والتيسير لما جاء به أيضًا من الامتحان والابتلاء، فتقشعر لذلك جلود الذي يخشون ربهم خشية من ربهم ﷻ أن يصفوه بما لا يجوز عليه، فإذا تذكروا على أمهات ذلك المتشابه لانت جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله تعالى أُنسًا به وحُبًّا له، وفرحًا برحمته وتوسعته في ذلك.

ووصفه ﷻ الكتاب بأنه مثاني يثني بعضه على بعض، فيظهر خطابًا ما ثم يبطنه، وفي حال إبطانه هذا يظهر غيره، وهكذا قبله بالمجاورة لما بطن قبله وجه، ولما ظهر بعده وجه هذا بالمجاورة، وله بالمعنى وجوه في ظهوره وانثنائه.

وقد يكون إبطانًا قريبًا كما يثني الحبل فاتله، وهو قليل، ويسمى ذلك المقدم والمؤخر والظاهر والباطن، وقد يكون ظهور الثاني بعيدًا من ظهور الأول، كما يظهر صانع الديباج في صنعته أنواع تدبيجه ويبطنها، وإنما هذا على سبيل التقريب، وليس المخبر كالمعاين.

وقد يكون المراد بوصفه ﷻ أنه مثاني؛ يعني: الآيات أو المعاني أو الكلمات أو كل ذلك، وهو أن يقرأه العبد ويثني على الله ﷻ كلامه العليّ تلاوة عنده ذاكرًا له بما يتلوه من معاني الكتاب، كما قال الله عز من قائل: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفي؛ نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾** [الفاتحة:٢] **يقول الله: حمدني عبدي...**»[١].

كقوله جلَّ قوله في أواخر سورة البقرة: «**قد فعلت، قد فعلت، نعم، نعم، نعم**»[٢] وذلك في معنى الذكر، وهذا في معنى السؤال والدعاء، فإنه ليس ببعيد أن تعم رحمته جميع تُلاة الكتاب كما قال جلَّ قوله: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢].

وكما قال جلَّ قوله: «**أنا جليس عبدي ما ذكرني، وما تحركت بي شفتاه**»[٣].

قال: قال جلَّ قوله هذا في الذكر، وقد حصل الإجماع أن قراءة القرآن أفضل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الحاكم (١٨٢٤)، والبيهقي (٥٠٩)، والديلمي (٤٥٣٣).

الذكر، فعلى هذا ونحوه يكون الكتاب كله مثاني؛ إذ يثني بعضه على بعض، ويثني كلامه العُلا على معاني تلاوة عبده، وهذا الضرب من المشابهة، والذي قبله مفتقر إلى معرفة التوصل في الخطاب والتفصيل وحسن التمييز في تلفيق مفترق معاني التنزيل على مقادير حكمة الترتيب، وذلك على قدر إجزال الحظ لهذا العبد من المعنى الذي يسمى الفرقان، فإن هذا القرآن أشبه ترتيب نظمه تفضيل الماء المنزل من السماء إلى الأرض إلى ما يكون عنه من نبات وحيوان وأناسي إلى غير ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾(١) [الرعد: ٤]

---

(١) فيه خمس مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ في الكلام حذف، المعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات، كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾ والمعنى: وتقيكم البرد، ثم حذف لعلم السامع، والمتجاورات المدن وما كان عامرًا، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر. الثانية: قوله تعالى: ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: قرى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والتمر، فيكون البعض حلوًا، والبعض حامضًا، والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد، وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته، فإنه نبه سبحانه بقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف، وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع، فمن تربة عذبة، ومن تربة سبخة مع تجاورهما، وهذا أيضًا من دلالات كمال قدرته، جل وعز تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا. الثالثة: ذهبت الكفرة - لعنهم الله - إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع، وادعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض، وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً، والدليل على أن الحادث لا بد له من محدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر، فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه، وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مخصص خصصه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده، واستيفاء هذا في علم الكلام. الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ قرأ الحسن «وجنات» بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على «كل» التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات، الباقون: «جنات» بالرفع على تقدير: وبينهما جنات ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع، ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفًا على الجنات، أي على =

إلى آخر المعنى، فالماء أولاً هو المحكم بمنزلة الحروف المقطعة، وأسماء الله المذكور في القرآن ما يفصل إليه الماء مما تقدم ذكره، كالذي تفصلت إليه الأسماء من معنى ومراد به، فهذا متشابه أمه المحكم الذي فصل منه.

وضروب من المتشابه أيضًا هو مما يفصل إليه المحكم الأول، وهو الحلال والحرام، ومتعرفه إن كان ناهيًا في العلم متبحرًا في الأصول والفروع، عالـمًا بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، عارفًا بوضع الأدلة من جهة العقل والشرع، عالـمًا بطريق

=

تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل، وخفضها الباقون نسقًا على الأعناب، فيكون الزرع والنخيل من الجنات، ويجوز أن يكون معطوفًا على «كل» حسب ما تقدم في «وجنات» وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما «صنوان» بضم الصاد، الباقون بالكسر، وهما لغتان، وهما جمع صنو، وهي النخلات والنخلتان، يجمعهن أصل واحد، وتتشعب منه رؤوس فتصير نخيلاً، نظيرها قنوان، واحدها قنو، وروى أبو إسحاق عن البراء قال: الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق، النحاس: وكذلك هو في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان، والصنو المثل، ومنه قول النبي ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه» ولا فرق فيها بين التثنية والجمع، ولا بالإعراب، فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية إلا بجمع ذا وذاك معًا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد، قاله النحاس والبخاري، وقرأ عاصم وابن عامر: «يسقى» بالياء، أي يسقى ذلك كله، وقرأ الباقون بالتاء، لقوله: «جنات» واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة، قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن، لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ ولم يقل بعضه، وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما «ويفضل» بالياء ردًا على قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾ و﴿يُغْشِي﴾ الباقون بالنون على معنى: ونحن نفضل، وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول لعلي ﷺ: «الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ حتى بلغ قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ و﴿الْأُكُلِ﴾ الثمر، قال ابن عباس: يعني الحلو والحامض والفارسي والدقل.

وروي مرفوعًا من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في قول تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ قال: «الفارسي والدقل والحلو والحامض» ذكره الثعلبي، قال الحسن: المراد بهذه الآية المثل، ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر، والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد، ومنها شجر ينضج طول الدهر قطران ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى.

الإيجاب وطريق المواضعة في اللغة والشرع، عالمًا بأصول الديانات وأصول الفقه، عالـمًا بأحكام الخطاب من العموم والخصوص والأمر والنهي والمفسر والمجمل والنسخ والنص وحقيقة الإجماع، عالمًا بالآثار والأخبار وطرقها والتمييز بين صحيحها وسقيمها، عالمًا بأقوال العلماء من الصحابة والتابعين بعدهم - رضي الله عنا وعنهم أجمعين - وما اختلفوا فيه وما اجتمعوا عليه، عالمًا من النحو والعربية ما يفهم به معاني كلام العرب، ويكون مع ذلك فهمًا فطنًا تقيًّا دينًا، فعلى هذا مداره بعد توفيق الله له وبذل الاجتهاد منه، فإذا كان العالم هكذا قل هذا المتشابه في حقِّه ورق، وذلك على قدر ارتفاعه في صحيح العلم واحتوائه على ما تقدم من النعوت وبالضد.

قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما متشابهات لا يعلمها كثير من الناس**»(١).

وضرب من المتشابه هو الحروف المقطعة في أوائل السور من القرآن العزيز، أشبهت لكونها حروفًا لحروف القرآن وحروف أم الكتاب التي هي أم لها فكانت من المتشابه من هذه الجهة؛ إذ قد أخبر الله جلَّ ذكره إنها آيات الكتاب المبين وآيات الكتاب الحكيم، وآيات القرآن والكتاب المبين، وإنها أحكمت ثم فصلت إلى ما هو القرآن العزيز.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران:٧-٩].

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧].

وقال جلَّ قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٢٩)، والترمذي (١٢٠٥)، وأحمد (١٨٣٩٨)، والنسائي (٤٤٥٣)، وابن ماجة (٣٩٨٤)، والدارمي (٢٥٣١).

[هود:١] دليل على أنها بمعنى المراد بقوله جلَّ قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧] ثم المتشابه هو ما لا يفهم المراد به من لفظه.

ثم على ما تقدم ذكره من المتشابه وما يأتي إن شاء الله تعالى فهذا الضرب من المتشابه لا سبيل لأحد من الأمة، والله أعلم أن يعرف القدر الذي عبرت عنه الحروف من أم الكتاب، ومجال أفهامنا برد التنزيل من حروف الكتاب إلى الحروف المقطعة «الـم» و«الر» و«الـمر» ونحو ذلك، ثم المقدار الذي هو تنزيلها مما هي عليه حروف القرآن العزيز المجموعة، ثم التسليم والإيمان وإذ أمه ومحكمه الأولى الكتاب الكريم المحفوظ الذي ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] صلوات الله عليهم أجمعين.

وإنما قلنا: «مجال أفهامنا» نريد القرآن وحروفه بعد اعتقادنا ما تقدم ذكره من أنها آيات على ما علاها مشيرة بوسائطها إلى ما دونها في القرآن العزيز وفي حروفه وفي معاني خطابه من محكم فيه ومجمل وظاهر وعموم وخصوص ومفصل وموصل وأمر ونهي وفحوى وخطاب ومعنى خطاب إلى ما وراء ذلك، وضرب من المتشابه يأتي في تفصيل ذكر الصفات العلا والأسماء الحسنى، وذكر بعض الأفعال وما كان في ذلك من تنزل الخطاب وضرب أمثال، وعبارة عن مكان أو زمان أو معية أو ما يوهم التشبيه، فيحكم رأي قوله جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

وقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ...﴾ [الإخلاص:١] إلى آخرها.

وضرب من المتشابه ثاني: تفصيل ذكر النبوة ووصف إلقاء الوحي، وما هو أمه، ولحكمة قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤].

وقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة:٢٦٨].

وضرب من المتشابه مما يقارب بين اللمتين: لمة الملك ﷺ ولمة العدو -

لعنه الله - وأم ذلك قوله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ لذلك قال جلَّ قوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] أي: عنه مما يلقي العدو ويريد الإلباس والتزيين.

قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾ أي: ميل عن الحق وعدول إلى الباطل، فيتبعون ﴿مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧].

وبالجملة: فإن تشابه القرآن هو تصادقه وتعاضده، ومشتبهه هو المشكل منه، ومتى قال القائل: تشابه لي كذا وكذا، فهو من أشبه يشبه فهو المتشابه، وإذا قال: تشابه علي كذا وكذا، فهو المشتبه الذي هو الإشكال والتحير؛ ذلك لأجل شبه بعضه ببعض، وعند إعمال النظر والتفكر في المتشابه والمشكل يُلقى الشيطان، وواعظ الله في قلب المؤمن يزجر، وعند وجود الاعتدال وقصد الحق تبيين الآيات، وتدل الدلائل مع وجود الزيغ والميل إلى الباطل، والتقوى يلقى الشيطان ويخفي إشارات المرشدات ويعرض العصمة عنه، فيعمل كلٌّ على شاكلته، وقد تقدم إلماع إلى تلقي المتنبئ والنبي، وإنهما بمعنى المريد والمراد.

فأما مثل النبي والمتنبئ كمثل المريد والزائغ، وكل هادي من محله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي: اتباع عزم وعقد، دليل ذلك قوله: ﴿ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:٧] أي: ما يفتن عن الحق الذي عني به قوله.

وعلى التفصيل فالفتنة بما هنا يتناوله ما هو طريق الإيمان والعلم بالله والرسالة، فيتبعون بذلك عن صحيح العلم والإيمان، وابتغاء تأويله أي رؤية تأول إليه معجلاً، كقول المكذبين: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] متى هذا الفتح.

﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

وأما أهل العلم والإيمان والهداية والصراط السوي فحمدوا الله عليه، وما أعجزهم سألوه المزيد من نعمته، وردُّوا علمه فيه إليه، وأخلصوا الإيمان له مما أدركوا علمه وبما عجزوا عنه، فأثنى الله ﷻ عليهم لصحة سبيلهم وتحقيقهم في

طلب العلم، ووصفهم بأنهم أولوا الألباب.

ثم استغاثوا - رضي الله عنا وعنهم - متعوذين به مما أصاب أولئك في ابتغائهم فيما ترك إليهم من كتاب ربهم من زيغ وفتنة بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾[1] [آل عمران:٨].

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] وما يبتغي عبد مزيد النعمة بمثل الإقرار بالتقصير، والإرزاء على النفس، ورد النعمة إلى الله جلَّ ذكره والشكر على ذلك.

التأويل على ضربين:

ضرب **منه معلوم**: من أوَّلت الشيء أَحَدتُه[2] من أوله ورددته إليه، كتأويل الرؤيا أولتها؛ أي: صرفتها إلى أولها من أم الكتاب الذي ابتدأت منه.

ومن ذلك تأويل الأمثال تأولتها: صرفتها إلى ما ضربت له أمثالاً، ومن أجل ذلك ألحقت الأمثال بالمتشابه.

قال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

والضرب الثاني من التأويل: مأخوذ من المآل، وما يرد منه إلى ما يؤول إليه، فما كان من الخطاب في وصف الأسماء الحسنى والصفات العليا والنبوة وضرب الأمثال، فصرفه إلى أوليته أولى به، وما كان من خطاب في وصف الجزاء العاجل والآجل، والثواب والعقاب والموت وما بعده، ثم البعث وما بعده يصرف إلى مآله أولى به، وفي ذلك الشفاء والرحمة إن شاء الله.

وفي مثل هذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى

---

(١) ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ سألوا بلفظ الهبة المشعرة بالتفضل والإحسان إليهم من غير سبب ولا عمل ولا معاوضة؛ لأن الهبة كذلك تكون، وخصوها بأنها من عنده، والرحمة إن كانت من صفات الذات فلا يمكن فيها الهبة، بل يكون المعنى: نعيمًا، أو ثوابًا صادرًا عن الرحمة، ولما كان المسؤول صادرًا عن الرحمة، صحَّ أن يسألوا الرحمة إجراءً للسبب مجرى المسبب، وقيل: معنى رحمة توفيقًا وسدادًا وتثبيتًا لما نحن عليه من الإيمان والهدى. [تفسير البحر المحيط (١٥١/٣)].

(٢) يقال (حِدتُ بِهِ) و(أَحَدتُه) مثل ذهب وذهبت به وأذهبته. انظر: المصباح المنير (١٥٨/١).

﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ....﴾ [الأعراف:٥٢-٥٣].

فإذا كان بمعنى المآل كان الوقف على اسم الله جلَّ ذكره؛ لأنه لا يعلم متى يموت العبد، ولا متى تكون الساعة والحساب وانقراض الدنيا وابتداء يوم الآخرة إلا الله؛ إذ المستقبل كله غيب.

وإذا كان بمعنى رد المعنى إلى أوله، فالوقف على قوله جلَّ قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾ [آل عمران:٧].

وفي حرف أُبي وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾[1] زيادة، ويقول: ولما قد أعلمتنا بما في علم الراسخين في

(١) قال الشريف الرَّضي: فبين العلماء فيه اختلاف: فمنْهُم مَنَ جعلَ الوقف عند اسم الله تعالى واستأنف قوله سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فمَنْ ذهبَ إلى هذا المذهبْ منهم يُخرج العلماء عن أن يعلموا كُنْه التأويل وحقيقته، ويطّلعوا طلعه ويستنْبطوا غوامضُه، ويستخرجوا كوامِنُه، وحطّهم بذلك عن رتبة قد استحقوا الإيفاء عليها واطّلاع شرفها؛ لأنّ الله سبحانه قد أعطاهم من نهج السبيل، وضياء الدليل ما يفتتحون به المبهم، ويصدعون المظلم، وكل ذلك بتوفيق الله إيّاهم ونصب منار الأدلة لهم، فعلمهم بذلك مستمدٌ من علم الله سبحانه، فلا معنى للوقوف بهم دون هذه المنزلة، والإحجام عن إيصالِهم إلى أقصى هذه الرتبة. وأمّا الذين يجعلون الوقف عند قوله تعالى: ﴿وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فيوفّون الاستثناء حقّه بإدخال العلماء فيه، ويجعلون لهم مَزْية العلم بتأويل القرآن، ومعرفة مداخله ومخارجه، وسلوك محاجّه ومِنْاهجه، وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس ومجاهد والربيع. فأمّا المحققون من العلماء فيقفون في ذلك على منزلةٍ وسطى وطريقةٍ مُثْلى، فلا يخرجون العلماء هاهنا عنْ أنْ يعلموا شيئًا من تأويل القرآن جملةً، ولا يعطونهم منزلة العلم بجميعه، والاستيلاء على قليلهِ وكثيرهِ بل يقولون: إنّ في التأويل ما يعلمه العلماء، وفيه ما لا يعلمه إلّا الله تعالى من نحو: تعيين الصغيرة ووقت الساعة، وما بيننا وبينها من المدة، ومقادير الجزاء على الأعمال، وما أشبه ذلك، وهذا قول جماعةٍ من متقدمي العلماء: منهم الحسن البصري وغيره، وإليه ذهب أبو عليّ الجُبّائيّ؛ لأنّه يجعل المراد بالتأويل في هذه الآية مصائر الأمور وعواقبها، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: مصيره وعاقبته؛ لأنّ أصل التأويل من قولهم: آل يؤول إذا رجع. وفي قول الراسخين في العلم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] دَلالة على استسلامهم فيما لم يعلموا من تأويل المتشابه، وما استبدّ الله بعلمه من قبيل ما ذكرنا: كوقت القيامة، وتميز الصّغائر من الكبائر، إلى ما أشبه ذلك، فقد بان أنّ
=

=

في تأويل المتشابه ما لا يعلمونه، وإن كانوا يعلمون كثيرًا منه. وقال قاضي القضاة أبو الحسن بعد ذكره طرفًا من الخلاف في هذه الآية: وما يقوله من حمل العطف على حقيقتِه، وجعل للعلماء نصيبًا من علم التأويل على تفصيله أو جملته إمّا أنْ يكون المراد بذلك عنده: وما يعلم تأويله إلا الله وإلا الراسخون في العلم، ومع علمهم بتأويله ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أو يكون المراد أنّهم يعلمون تأويله في حال قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ومَنْ قال بذلك استدلّ بظاهر العطف وأنّه يقتضي مشاركة الثاني للأول فيما وُصِفَ به الأول وأُخْبِرَ به عنّه، وقال: إذا أمكن ذلك وأمكن حمل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ على الحال أو على خبرٍ ثانٍ وَجبَ القول بذلك، ولِكلا الوجهين مسرحٌ في طريق اللغة، وإنّما ينبغي أنْ ننظر من جهة المعنى، فإنْ ثبتَ بالدليل صحة أحد المعنيين قُضِيَ به، وإلّا لم يُمْتنع أنْ يرادا جميعًا إذا لم يقع بينهما تنافٍ. فأمّا من قرأ حمئة من الحمأة، فإني قرأت بذلك على شيوخ القراءة لابن كثير ونافع وأبي عمرو وحفص عن عاصم، وأمّا من قرأ حامية من الحمْي فإني قرأت به لحمزة والكسائي وأبي بكر بن عياش عن عاصم وعبد الله بن عامر، وقد ظن بعض الناس أنه لا يجوز إلّا أنْ يكون تمام الكلام ومقطعه عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهُ﴾ [آل عمران: ٧] وأن الواو للاستقبال دون الجمع، قال: لأنّها لو كانت للجمع لقال: ويقولون: آمنا به، فيستأنف الواو كما استأنف الخبر، واحتج على هذا القول مَنْ قال بالقول الأول، بأن قال: هذا جائز، وقد وُجد مثله في القرآن وهو قوله تعالى في معنى قسم الفيء: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلله وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ثم أعقب ذلك بالتفصيل وتسمية من يستحق هذا الفيء، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ [الحشر: ٨-١٠] وهؤلاء لا شك داخلون في مستحقي الفيء كالأولين، والواو ها هنا للجمع. ثم قال سبحانه: ﴿يقولون رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] ومعناه قائلين: ربنا اغفر لنا ولإخواننا، فكذلك قوله سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] يكون معناه: والراسخون في العلم يعلمون تأويل ما نصبت لهم عليه الدلائل، ونحيت لهم إليه المذاهب من المتشابه قائلين: آمنا به. واذا كان ذلك سائغًا في اللغة وجب حمله على موافقة دلالة الآية في وجوب ردّ المتشابه إلى المحكم، فيعلم الراسخون في العلم تأويله إذا استدلوا بالمحكم على معناه، ولو كان العلماء لا يعلمون شيئًا من تأويل المتشابه البتّة ما كان لما روي أن رسول الله ﷺ علّم أمير المؤمنين عليه السلام التفسير معنًى، لأن معنى التفسير والتأويل إنما يكون لما غمض ودقّ ولم يعلم بظاهره وهذه صفة المتشابه، وأمّا المحكم

=

العلم من القصور عن علم أكثره والعجز عن بلوغ الكنه منه.

نظم به ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] أي: ما علمناه منه وما لم نعلم في كلا الوجهين، قد ذكر ﷻ المعنيين معًا من الطريقين في قوله جلَّ قوله حاكيًا عنهم ابتهالهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا....﴾ [آل عمران:٨].

وقال جلَّ قوله في مقالة القائلين: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ﴾ [يونس:٤٨] وهم يتبعون ما يؤول إليه من جزاءٍ ووقتٍ وكيف: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ

الذي يعلم بظاهره فلا حاجة بأحدٍ إلى تعليمه؛ لأن أهل اللسان فيه سواءٌ، ولولا أن الأمر على ذلك لما كان لدعاء النبي ﷺ لابن عباس بأن يعلمه الله التأويل معنى؛ لأنا نعلم أنه لم يرد ﷺ تعليمه الظاهر الواضح، فلم يبق إلا الغامض الباطن. ومن وجه آخر: إن حقيقة الواو الجمع، فوجب حملها على سنن حقيقتها ومقتضاها، ولا يجوز حملها على الابتداء إلا بدلالة، ولا دلالة هاهنا توجب صرفها عن الحقيقة، فوجب حملها على الجمع، حتى تقوم الدلالة، وكان أبو حاتم السجستاني يقول: إن الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهَ﴾ [آل عمران: ٧] لأنه قد حذف من الكلام «أمّا» وكأنه تعالى قال: وأما الراسخون في العلم فيقولون آمنا به، وزعم أنه إنما جاز حذفها؛ لأنه قد جرى ذكرها وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] قال: و(أما) لا تكاد تجيء في القرآن مفردة حتى تثنى أو تثلث أو تُزاد على ذلك، كقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] وكقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩] ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠] ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٢] فلما قال سبحانه: ﴿فَأَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] قدّرنا أنّ «أمّا» مرادة مع (الراسخين في العلم) فكأنه تعالى قال: وأما الراسخون في العلم. وكلام أبي حاتم في ذلك غير سديدٍ ولا مطردٍ؛ لأنه قدّر في الكلام حذف (أمّا)، وذكر أنها تقع في القرآن كثيرًا مكررةً، ولعمرى إن الأمر كما قال من وقوعها مكررة في القرآن، وما علمناها جاءت فيه مرادةً محذوفةً، وكان ينبغي أن يُرينا من القرآن موضعًا هي فيه مرادة وقد حذفت؛ ليكون شاهدًا على ما ذكره، فأما أن يستشهد بتكريرها على حذفها فذلك غير مستقيم، ولو كان الأمر على ما قال لكان وجه الكلام أن يقول تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ فيعلم أن الموضع لأمّا، وإلا لم تكن على ذلك دلالة، ولا يجوز الوقف على العلم في الوجهين جميعًا؛ لأن ما بعد العلم يكون حالاً في أحد الوجهين وخبرًا في الآخر، والوقف التام على «به» وقد أوردنا في هذه المسألة ما فيه بلاغٌ مقنعٌ بتوفيق الله تعالى. [حقائق التأويل ص١٦٣] بتحقيقنا.

لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩] وقد يأتي بعض التفصيل ما لم تكن العقول أن تعهده، ولا آنست إليه أكثر القلوب، ولولا رحمة الله في التنزيل ببعض الخطاب لما جوزه الإيمان، كذكره ﷻ الاستواء على العرش وإلى السماء بحرف «ثم».

وقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى﴾ [الزمر:٤].

و﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء:١٧].

وكقوله جلَّ قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

وكقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩١] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٩٥].

محكم هذا وأمه قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وكذلك قوله عز قوله يخاطب إبليس - لعنه الله - جوابًا لقوله: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء:٦٢-٦٣] إلى قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء:٦٤].

فمحكم هذا وأمه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ....﴾ [النحل:٩٠].

قوله عزَّ من قائل: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

الرسوخ والولوج والدخول من ظاهر إلى باطن، من قولهم: رسخ السهم في الأرض إذا ثبت فيها ودخل فيها، فالرسوخ في العلم هو الدخول من ظاهره إلى باطنه؛ وذلك بأن يعبر بما عقله وأبصره ظاهرًا إلى ما لم يبصره ولا عقلها ظنًّا، فيبصر ببصيرته ما غاب عنه.

وإنما موقع بصره سماء وأرض وأفلاك تستدير وشمس وقمر ونجوم وهواء ورياح وسحاب ونبات وحيوان، وغير ذلك من موجودات الدنيا، فيعبر من جميع ذلك إلى الخالق، ومعرفة الصانع ﷻ وأسمائه وصفاته، ومعرفة الدار الآخرة

وموجوداتها من جنة ونار وموجوداتهما، فهذا هو الرسوخ في العلم، والولوج من ظاهره إلى باطنه، وهم أضداد المعتدين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران:٤].

والسبيل المرتضى في طلب التأويل أن يبذل المجتهد جهده في طلب الحق، ويرغب إلى الله جلَّ ذكره في إصابة الصواب، فما فتح الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عليه من الحق المبتغى حمد الله تعالى على ذلك، وما اغتم عليه منه ردَّ علم تأويله إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ والراسخين في العلم، فذلك أسلم من الفتنة وأجدر له أن يعلمه الله ويفتح عليه، فطالب التأويل في الكتاب والسنة طائع، وفعله ذلك طاعة كبيرة وقربة إلى الله تعالى وزلفى إذا صحَّت النية، وسلم المقصد من الزيغ والفتنة.

وقد دعا رسول الله ﷺ لابن عباس ﷺ: «**اللهم حفِّظه الكتاب وعلمه التأويل**»[1].

فصل

قُراء القرآن صنفان: مؤمن به، وكافر مكذب به؛ فالكافر المكذب لا يجد فيه إلا ما يضله ويزيده خبالاً؛ إذ قلبه زيغ به عن سبيل القصد.

قال الله جل من قائل: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨].

وفي هذا الصنف قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً.....﴾ [الأعراف:١٤٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٢)، والطبراني (١١٥٣١)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٦)، وابن سعد (٢/ ٣٦٥)، والحاكم (٦٢٨٠) وقال: صحيح الإسناد.

ثم قُراء المؤمنين ثلاثة أصناف: فقارئ القرآن ليقال: إنه قارئ، أو لينال به ما بأيدي أهل الدنيا وليستدرؤوا به الولاة، وذلك حظهم منه أصابهم أم أخطأهم، وهؤلاء هم القارئون والدارسون ليسوا بالتالين.

وصنف منه قرأه متبركًا مخلصًا؛ ليتقرب بنية استرضاء ربه ويكثر حسناته، وما يصلح به في معاده، فذلك له - إن شاء الله تعالى - فهذا قارئ للكتاب دارس له تالي.

وصنف منهم قرأه ابتغاء صحيح العلم وطلبًا لكمال اليقين، فنظر بقلبه واستفرغ جهده، وتابع التفكر فيه والتذكر، وأدام التدبر عارفًا بربه ﷻ عالـمًا بمعاني الخطاب ومواقع الابتلاء، فهذا من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧-١٨] وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته.

فصل

اعلم - وقفنا الله وإياك - أن المتفكر في القرآن لا يجد فهم معاني الوحي وحقيقة الأبناء، ولا يشهد المخاطب، ولا يظهر له سرائر العلم من غيب القدرة وفي قلبه أحد هذه الخصال بدعة أو إصرار على ذنب، أو يكون في قلبه كبرًا وهوى، أو قد استكن فيه حب الدنيا، أو يكون غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف اليقين، أو يكون معتقدًا لمقرأ شيخ منهم يتتبع حروفه واختياره ويكون قد اعتمد على قول مفسر ليس عنده علم إلا بظاهر.

أو يكون راجعًا إلى معقوله قاضيًا بمذهب أهل العربية في باطن المراد وسر الخطاب؛ إذ هؤلاء كلهم قد حجبوا بما هم عليه موقوفون؛ لأن ذلك يتردد في بواطنهم مزيدهم على مقادير علومهم وغرائز عقولهم، وهم مشركون بعقولهم عند أهل التوحيد الأعلى، داخلون في الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل على الصفا، وهو نفاق عن خالص التوحيد الأعلى.

وهو على ذلك مقام لا ينتقل عن حال التوحيد الأول، وإن كان مانعًا عن الوصول إلى أعلاه، بل إذا كان العبد مصغيًا إلى كلام ربه، ملقي السمع شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظرًا إلى قدرته، تاركًا للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئًا

من حوله وقوته، معظمًا للمتكلم، واقفًا في حضوره، مفتقرًا إلى التفهم بحال مستقيم وقلب سليم، وقوة علم وتمكين سمع لفصل الخطاب، وشهادة غيب الجواب بدعاء وتضرع وتَبؤس وتمسكن، وانتظار الفتح عليه من عند الفتاح العليم.

وليستعن على ذلك بأن تكون تلاوته على معاني الكلام، وعلى شهادة وصف المتكلم الوعد بالتشويق والوعيد بالتخزين، والوعظ بالتخويف والإنذار بالتشديد، فهذا القارئ أحسن الناس صوتًا بالقرآن، «فقد كان رسول الله ﷺ إذا خَطَبَ فوعظ وأنذر احمرَّ وجهه، وَاشْتَدَّ كلامه كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ حَتَّى يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»(١).

وفي هؤلاء قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ (١٠) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ (١٣)﴾ [آل عمران:١٠-١٣].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُم مِّنَ الله شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٠] الوقود بفتح الواو: الحطب، وبرفعها: اللهب.

لما ذكر التالين لكتابه المؤمنين بآياته، وابتهالهم في سؤالهم إياه ألا يزيغ قلوبهم، ويغير هدايته إياهم، وذكر إقرارهم بأنه جامع الناس ليوم لا ريب فيه، وإنه لا يخلف الميعاد ذكر ﷻ الكافرين وقرن بذكره إياهم المعد لهم.

قال الله جلَّ قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبوا بِآيَاتِنَا﴾(٢) [آل

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

(٢) ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لما ذكر أن من كفر وكذب بالله مآله إلى النار، ولن يغني عنه ماله ولا =

عمران:١١] أي: إن هؤلاء سلكوا في دينهم على تكذيب آياتنا، كدأب من كان قبلهم فأهلكنا أولئك بذنوبهم، فهل ينتظر هؤلاء إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم.

ثم قال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٢] هذا إنذار منه ﷻ للكافرين بمآل حالهم وعاقبة كفرهم، وبشارة للمؤمنين بالفتح عليهم والنصرة لهم، فقد كان من ذلك ما شاء الله كفتح جزيرة العرب وإهلاك كسرى، وكثير من أجناس أنواع الكفر، وسيكون إن شاء الله إهلاك قيصر واجتياح ممالك الدجال - لعنه الله - ويأجوج ومأجوج.

ثم صرف ﷻ وجه الخطاب إلى كفار قريش بقوله جلَّ قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يريد ﷻ في غزوة بدر ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾(١) [آل

= ولده، ذكر أن شأن هؤلاء في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وترتب العذاب على كفرهم، كشأن من تقدّم من كفار الأمم، أخذوا بذنوبهم وعذبوا عليها ونبه على آل فرعون؛ لأن الكلام مع بني إسرائيل، وهم يعرفون ما جرى لهم حين كذبوا بموسى من إغراقهم وتصييرهم آخرًا إلى النار، وظهور بني إسرائيل عليهم، وتوريثهم أماكن ملكهم، ففي هذا كله بشارة لرسول الله ﷺ ولمن آمن به. [تفسير البحر المحيط (١٥٣/٣)].

(١) هذه الآية تحتمل وجوهًا أربعة: **الأول**: أن يكون المراد أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبًا من ألفين. **والاحتمال الثاني**: إن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفًا وعشرين، والحكمة في ذلك أنه تعالى كثر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم؛ ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم. فإن قيل: هذا متناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] فالجواب: إنه كان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، فقللوا أولاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلما تلاقوا كثرهم الله في أعينهم حتى صاروا مغلوبين، ثم إن تقليلهم في أول الأمر، وتكثيرهم في آخر الأمر أبلغ في القدرة وإظهار الآية. **والاحتمال الثالث**: إن الرائين هم المسلمون والمرئيين هم المشركون، فالمسلمون رأوا المشركين مثلى المسلمين ستمائة وأزيد، والسبب فيه أن الله تعالى أمر المسلم الواحد بمقاومة الكافرين، قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]. إن قيل: كيف يرونهم مثليهم رأي العين، وكانوا ثلاثة أمثالهم؟ الجواب: إن الله تعالى إنما أظهر للمسلمين من عدد المشركين القدر الذي علم المسلمون أنهم يغلبونهم؛ وذلك لأنه تعالى قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾ فأظهر ذلك العدد من المشركين للمؤمنين تقوية لقلوبهم، وإزالة للخوف عن صدورهم. **والاحتمال الرابع**: إن الرائين هم المسلمون، وأنهم رأوا المشركين على الضعف من عدد المشركين، فهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد؛ لأن هذا يوجب نصرة المشركين بإيقاع الخوف في =

عمران:١٣] من قرأ «ترونهم» بالتاء منقوطة باثنتين من فوقها، فمعناه: إن الكفار كانوا يُرَوْنَ للمؤمنين مثليهم.

ومن قرأ بالياء؛ فمعنى ذلك: إن الكفار كانوا يرون المسلمين مثل أنفسهم؛ أعني: مثل الكفار، وهذه القراءة أحق؛ إذ قد ثبت أن المؤمنين كانوا يومئذٍ ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان الكافرون يومئذ يزيدون على ألف.

وقرأ ابن عباس وغيره: «يُرونهم» برفع الياء.

وقرأها أبو عبد الرحمن: «تُرونهم» برفع التاء[1].

جمع ذلك قوله الحق: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾[2] [الأنفال:٤٤] وكان ذلك حين العزم على الزحف والمهاجمة، وكان قد كثر المؤمنين في أعينهم، ثم عند العزم قلل هؤلاء عند هؤلاء وهؤلاء عند هؤلاء؛ ليقضي الله أمره.

قال الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] قرئ بفتح الدال وخفضها، مردَفين بغيرهم مردِفين لسواهم، ولو كان رؤيتهم لهم مثلي المؤمنين لم يبلغوا عددًا يرهبهم.

وحقق ﷻ الرؤية برؤية العين تعجيبًا منه وإظهارًا للآية، وهو تكثير الملائكة - عليهم السلام - للمؤمنين؛ إذ المعهود في جري العادة أن الملائكة - عليهم السلام - ليسوا بمرئيين اليوم للإنس، فكانت آية لهم على إرادة نصرة الله نبيه، وعلى إظهاره دينه لو تعقلون، فلذلك - والله أعلم - ما أكد الرؤية برأي العين.

=

قلوب المؤمنين، والآية تنافي ذلك، وفي الآية احتمال خامس، وهو أنا أول الآية قد بينا أن الخطاب مع اليهود، فيكون المراد ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة والشوكة. [تفسير الرازي (١٢٩/٤)].

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣/٦)، وتفسير البحر المحيط (١٦١/٣).

(٢) قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن العدو قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلما التقوا ببدر قلل الله المشركين في أعين المؤمنين. قال ابن مسعود ﷺ: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا. [تفسير البغوي (٣٦٤/٣)].

يقول الله جلَّ قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِالله وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١] من وحي وتنزيل الملائكة - عليهم السلام - لنصر المؤمنين، والله على كل شيء قدير.

فهذا خطاب يجريه عن كون ذلك من آياته على إظهار ما أظهره، وإن ذلك يومئذٍ كان خارجًا عن معهود العرف وجري العوائد.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:١٣] طريق العبرة في ذلك رؤيتهم المؤمنين يومئذٍ على قلة عددهم مثلي عدد أنفسهم على كثرتهم، لو نظروا بعقولهم علموا أن الملائكة - عليهم السلام - من حزب الله ﷻ، فلا يكونون أبدًا إلا مع من أراد الله ﷻ.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[آل عمران: ١٤-١٨].

قوله جلَّ ذكره: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤].

نصَّ الله جلَّ ذكره على أن هذا كله متاع الحياة الدنيا، وإن ذلك مزين للناس فلن يزهد أحد فيه إلا بعد إعطاء الجهد والمبالغة في المجاهدة والمصابرة.

وعرض جلَّ ذكره أن المحب لمتاع الدنيا يورث حبها الجبن عن القتال، ويرغبه الحب في البقاء في الحياة الدنيا، وذلك يغشي البصائر ويلهي القلوب عن

النظر في العاقبة، ويصد عن التفكر في آيات الله، والنظر في كتابه العزيز وملكوت السماوات والأرض، وفقدان هذا هو ترك الاستعداد لحسن المآب.

قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥] كيف لا تكون الآخرة خير من الدنيا، وقد نشأت الدنيا إلى الآخرة نشئًا عظيمًا لا يقدر العباد قدره إلا إيمانًا به وتسليمًا.

ألا ترى أن الدنيا لم تكن قبل بل كانت وما فيها عدمًا، ولما أذن الله لجهنم - أعاذنا الرحيم برحمته منها - أن تتنفس نفسيها الموجودين فيما ها هنا، خلقها خالقها ﷻ على ذلك مع فضل رحمته، فنشأ عدمها إلى وجود، وكذلك ينشأ وجودها هذا إلى وجود في الآخرة، كما نشأت النطفة إلى جنين ثم إلى خلق آخر ثم إلى الاستواء، كذلك تنشأ الدنيا في الآخرة إلى وجود هو أتم وأكمل وأفخم، قد أخبرنا بذلك الصادق الحق ﷻ، وأعربت به الدلائل وشهدت به الشواهد، فذلك وجود حق لا محالة.

وبوجهٍ آخر: إن الله - جلَّ ثناؤه - خلق كل ما ذكره من موجودات الدنيا، وبخاصة ما ذكره جلَّ ذكره في هذه الآية من ذهبٍ أو فضة وخيل ونساء أو أنعام وحرث، خلق ذلك كله من تراب هذه أرضها وهو معرض عنها.

قال الله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧] وهي ملعونة.

قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان من ذكر الله، أو آوى إليه**»(١).

وفي الخبر: «**لما أهبط الله آدم** عليه السلام **قال: يا آدم قد لعنت الأرض لعمارتك إياها، فلا تنال منها شيئًا إلا نكدًا**»(٢).

وموجودات الجنة مخلوقة من أرضها التي هي فضة أو ذهب ومسك أو نور،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤١١٢)، والبيهقي في الشعب (١٧٠٨)، والطبراني في الأوسط (٤٠٧٢).

(٢) لم أقف عليه.

وأحجارها اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، لا يشبه مسمى فيه مسمى ها هنا إلا دلالة، وإنه على تلك فما خلق من هذه - أعني: الجنة - كالذي خلق من هذه الأرض، مع إرادة الله ﷻ إياها وحبه لها ونظيره منها.

ولذلك يقول جلَّ قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠].

﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

فصل

وصف ﷻ السماوات بوصف فيه فخامة، وللنفوس إليه التفاتة؛ لحكمة الله ﷻ في ذلك بالغة وبلاغة فائقة، والعرض الترغيب في شهوات الآخرة، المعهود أنه متى يوصل بين قرينين عظم أمر المغلوب ورفع قدره، والمراد من ذلك مدحة الغالب وإظهار تفضيل الفاضل، كقول الشاعر:

وَحَلِيلِ غانِيَةٍ تَرَكتُ مُجَدَّلاً ... تمكُو فَرَائِصُهُ مكَاءَ الأَعلَمِ[1]

بَطَلٍ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْءَمِ

جَادتْ يَداي لَهُ بِمَارِقِ طَعنة ... لَيسَ الكَريمُ عَلَى القَنا بِمُحَرَّمِ

فوصفه بالشجاعة والكرم وكمال الخلقة وإنه قتله، على ذلك أوقع ﷻ ذكر التزين على حب الشهوات، ولم يوقعه على الشهوات نفسها؛ لأن ذلك أبلغ، إذ لو أوقعه على نفس الشهوات لم تزين في الغالب إلا لواحدها، وإنما أوقعه على حبها، وذلك أعظم للمحنة وأشد الابتلاء، ولزم بذلك تزينها لواجدها وفاقدها، فهذا يشح على ما في يديه، وهذا يطلبها وتتقطع نفسه عليها حسرات؛ ليكون التضايق والتزاحم، ويقع التقاتل وتعظم الفتنة؛ ليكن الهرج.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٦] إلى قوله: ﴿بِالأَسْحَارِ﴾[2] [آل عمران:١٧] هذا من الفقه إنه من آمن

---

(١) المُكاءُ: الصَّفير، قال: والأَصوات مضمومة إلا النِّداء والغِناء. انظر: لسان العرب (٢٨٩/١٥).

(٢) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ لما ذكر أن الجنة للمتقين ذكر =

بالله ورسوله ﷺ واليوم الآخر وحل الإصرار، فإنه مغفور له إن شاء الله تعالى؛ إذ لا يعقد على ذنب بقلبه، وما كتب عليه من ذنب فيما سبق فهو عامله، ولا يضر ذلك مع التوبة منه وحل الإصرار عليه.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ﴾ أي: في الأول ﴿بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٩] وهذا هو الذي يدرأ بالحسنة السيئة، فهو بفضل الله تعالى ووعده إياه من أهل مغفرته.

ذكر ﷻ أعمالهم وما هم عليه، فذكر ﷻ الصبر، ويحتاج إليه في ثلاثة مواطن: صبر على طاعة الله ﷻ، وصبر على المصائب، وصبر عن معصية الله.

والقنوت: الخشوع، وهو العبادة نفسها، وربما كان في مواطن ما طول القيام في الصلاة والمنفقين، وقد مضى ذكرها قبل.

والاستغفار: هو طلب المغفرة، والتنصل من الذنب والإقرار به والاعتذار منه، والعزم في طلب العفو وترك الأخذ به، والتزم برجائه في بر فضل ربه ﷻ أن يلحقه بمن لم يذنب، وليرغب في سعة رحمته في أن يلحقه بما يبدل سيئاته حسنات.

وخصَّ جلَّ ذكره وذكر الأسحار لهذه الأحوال لبركة التنزل العلا، ووصفه إيمانًا بذلك واحتسابًا واستجابة لدعائه الكريم، قوله: «من يستغفرني أغفر له، من

=

شيئًا من صفاتهم، فبدأ بالإيمان الذي هو رأس التقوى، وذكر دعاءهم ربهم عند الإخبار عن أنفسهم بالإيمان، وأكد الجملة بـ «إن» مبالغة في الإخبار، ثم سألوا الغفران ووقايتهم من العذاب مرتبًا ذلك على مجرد الإيمان، فدلَّ على أن الإيمان يترتب عليه المغفرة، ولا يكون الإيمان عبارة عن سائر الطاعات كما يذهب إليه بعضهم؛ لأن من تاب وأطاع الله لا يدخله النار بوعده الصادق، فكان يكون السؤال في ألا يفعله مما لا ينبغي، ونظيرها: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران: ١٩٣] فالصفات الآتية بعد هذا ليست شرائط بل هي صفات تقتضي كمال الدرجات. وقال الماتريدي: مدحهم تعالى بهذا القول، وفيه تزكية أنفسهم بالإيمان، والله تعالى نهى عن تزكية الأنفس بالطاعات، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] فلو كان الإيمان اسمًا لجميع الطاعات لم يرض منهم التزكية بالإيمان، كما لم يرضها بسائر الطاعات، فالآية حجة من جعل الطاعات من الإيمان، وفيها دلالة على أن إدخال الاستثناء في الإيمان باطل؛ لأنه رضيه منهم دون استثناء. انتهى. [تفسير البحر المحيط (١٦٣/٣)].

يسألني فأعطيه، من يقرض غير عديم ولا ظلوم»[١].

ثم الصدق وهو يُحتاج إليه في كل مقام، وألا يخلو منه حال هو ملاك الأمر وقيامه، فالزمه.

قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:١٨] فيصلح أن يكون ﴿**قَائِمًا**﴾ نصبًا على الحال، وهو تعالى لا تحول الأحوال عليه إنما هو وصف له بأنه لم يزل كذلك، ويكون أيضًا نعتًا للضمير الذي في «أنه».

وعلى البدل يتأخر ﴿**قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ في ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ وشهدت له بذلك الملائكة وأولوا العلم.

وتكرار الشهادة يمكن أن يكون لعظم الشهادة، كما جاءت مكررة في الأذان، وكما جاء ذكر الصلاة مكررًا في صدر سورة «المؤمنين» وسورة «المعارج» إشعارًا لتعظيم الصلاة، ويمكن أن يكون تكرار الشهادة إشعارًا باستئناف شهادة أخرى، حذف أولها الذي هو ذكر الشهادة الأخيرة، وأظهر من الشهادة ما يدل عليها.

﴿**إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾**﴾ [آل عمران:١٩-٢١].

والمشهود به قوله جل من قائل: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران:١٩] وهو موضع نصب.

وذكر بعضهم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران:١٩] أنه بدل من الأول، فيكون التقدير: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام بدل؛ لأن

---

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨)، والبيهقي (٤٨٣٧)، وأبو عوانة (٣٧٧).

التوحيد والعدل هو الإسلام، والإسلام هو التوحيد والعدل.

ويجوز أن يكون بدلاً من «أنه» الأولى ويكون بدل الاشتمال؛ لأن الإسلام مشتمل على التوحيد والعدل والشرائع والسنن، وغير ذلك الثاني يشتمل على الأول.

ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿**بِالْقِسْطِ**﴾ في موضع خفض، ويكون بدل الشيء من الشيء وهو هو؛ لأن **القسط** هو العدل، والعدل هو الإسلام، والإسلام هو العدل، وأي القولين كان فهو حسن، والله أعلم بحقيقة الحق والصواب.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾[(١)] [آل عمران:١٩] شهادة الله جلَّ ذكره وهي الشهادة الكبرى، وهو أكبر الشاهدين شهد بشهادة الملائكة، وأولي العلم من عباده، ففصَّل ﷻ بأن جعل شهادتهم تلوًا لشهادته، وهي منزلة تنقطع الآمال دونها لعلائها، وتبطل الأماني دون توهمها.

سبحانه وله الحمد ما أكرمه، فلا تقصرن بنفسك دونها طلبًا لغايتها، ولا ترضَ لها بأيسرها، فإن لم ترزق ذلك فالزم الاقتدار، وأحسن الاتباع شهادتك لشهادة الذين شهد الله لهم بالعدالة في شهادتهم فالزم، فالشهادة على الشهادة الصحيحة المستفيضة جائزة بقوله جلَّ من قائل: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ [آل عمران:١٩] هذا إخبار منه - عزَّ جلاله - أن أول

---

(١) قوله تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ قال الكلبي: نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام؛ أي: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في نبوة محمد ﷺ إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ يعني: بيان نعته في كتبهم، وقال الربيع: إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلاً من أحبار بني إسرائيل، فاستودعهم التوراة واستخلف يوشع بن نون، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة بينهم، وهم الذين أوتوا الكتاب من أبناء أولئك السبعين حتى أهرقوا بينهم الدماء، ووقع الشر والاختلاف، وذلك من بعد ما جاءهم العلم يعني بيان ما في التوراة ﴿**بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ أي: طلبًا للملك والرئاسة، فسلط الله عليهم الجبابرة. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت في نصارى نجران، ومعناها: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ يعني: الإنجيل في أمر عيسى عليه السلام وفرقوا القول فيه إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله واحد، وأن عيسى عبده ورسوله ﴿**بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ أي: للمعاداة والمخالفة ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾. [تفسير البغوي (١٩/٢)].

وجوب الشهادة إجماع وإصفاق على دين الإسلام.

وإنما خرق الاجتماع اختلاف جاذب بعد انعقاد، وأول من خرقه إبليس - لعنه الله - بعد أن اجتمعت الخليقة كلها على ذلك، فأصفقت ناطقها وصامتها علوها وسفلها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣] ثم هدى الله الذين آمنوا، وهو آدم ﷺ وذريته.

قال الله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣] فاختلفوا، فكان خارق ذلك الإجماع العقل القاصر والهوى المتبع، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ثم هدى الله من أهل الكتاب حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فاختلفوا بغيًا بينهم، ثم بعث الله رسوله محمدًا ﷺ على جميع الأنبياء والرسل قبله بالكتاب ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ ﷻ؛ أي: لما اختلف فيه من كان قبلكم من أهل الكتاب وغيرهم، واختلاف من اختلف، وهداية من اهتدى بإذنه ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

سبحانه وله الحمد أتقن كل شيء صنعًا، وأحكمه هداية وفطرة وإقامة على الحق الذي هو أهله، فأنار البينات وأكثر من الشواهد والدلالات، وأخبر عن ذلك بالصدق الذي هو كلامه، وشهد بالحق فشهد كل شيء لشهادته، وهو أكبر الشاهدين وأصدق القائلين.

فصل

الإسلام على ضربين: إسلام لله الواحد القهار لا شريك له فيه، ولا تكذيب ولا رد بل خضوعًا وإذعانًا بالعبودية المحضة.

والإسلام اقتداءً وائتمامًا بمن اختصه الواحد القهار ﷻ، والطاعة لله ﷻ ثم بمن أرسله، والإيمان بما جاء من عند الله والإيفاء به، واستسلامًا وتوقيرًا وطاعة محضة.

فهذا الإسلام الأخير راجع إلى الأول؛ لأنه إيمان بما أرسله الله ﷻ، وطاعة لمن آمن بطاعته، وإكرامًا وإكبارًا لمن اختصه وأكرمه، وذلك تكليف منه للعقول

ابتلاءً منه لها وشرع شرعه، وعن هذا الإسلام نكص المبلس الملعون، وفاخر بالخلقة وعَنَدَ وأبى واستكبر، فكان بذلك من الكافرين.

فمن خضع لمن اختصه الله ﷻ وأطاعه، وأطاع الله ﷻ فيه وله، وعلى القدر الذي حدَّه له من ذلك فيه، فلم يغل ولم يقصر، فقد أسلم ولحق بإسلام الخليقة، وبما انعقد عليه الإجماع الأول في السماوات والأرض ومن فيهن.

وفي هذا الإسلام أيضًا: ﴿اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩] ولاختلافهم هذا الثاني لم يصح لهم الأول، وسماهم الله ﷻ: فاسقين كافرين.

فصل

ثم ينشأ الإسلام إلى ما هو أعلى منه، وهو أن يسلم العبد قلبه وجوارحه وظاهره وباطنه لله ﷻ على سنن إمامه، فلا يترك خاطرًا يكرهه الله أن يتمكن في قلبه، فيشغله عما يرضاه ملكه جلَّ، وتشتغل جوارحه وجوانحه ظاهرًا وباطنًا بما يقربه من الله، فهذا هو الإسلام الأعلى والهداية الكبرى، ومن لم ينتهِ إليه فهو لا يزال مع خطوات الشيطان، فهو يمحو السيئات ويثبت الحسنات إلا ما شاء الله.

قال الله جل من قائل فيما هذا معناه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي: جملة واحدة ظاهرًا وباطنًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨] إلى قوله: ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩].

لذلك اتبع ذكره الإسلام قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في الإسلام بجميع الأنبياء والرسل - عليهم السلام - ثم الإقرار برسالتك ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[١] إلى قوله عزَّ قوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠].

قوله عزَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

---

(١) ﴿فَقُلْ أَسْلَمْت وَجْهِيَ لِلهِ﴾ أي: انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خص الوجه؛ لأنه أكرم الجوارح من الإنسان وفيه بهاؤه، فإذا خضع وجهه للشيء خضع له جميع جوارحه، وقال الفراء: معناه أخلصت عملي لله ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي: ومن اتبعني أسلم كما أسلمت، وأثبت نافع وأبو عمرو الياء في قوله تعالى: «اتبعني» على الأصل، وحذفها الآخرون على الخط؛ لأنها في المصحف بغير ياء. [تفسير البغوي (٢/٢٠)].

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [آل عمران:٢٢] هذه أعمالهم في الدنيا، فأي الأعمال لهم في الآخرة أراه؛ يعني: ما قدموه من عمل كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢].

كما قال رسول الله ﷺ: «يموت ابن آدم وينقطع عمله إلا من علم علمه أو مسجد بناه...»(١).

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:٢٢] أي: من شافعين يخرجونهم من عذاب النار.

فأول الآية في الكفار والكفر، ثم في الإخبار عن الكفر الأصغر الذين أضافوه إلى الغفلة عن آيات الله قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، جمع مقامهم على أعمال أهل الكفر، فهم متى أنكر أهل العمل بطاعة الله والقائمون بالقسط قتلوهم وعذبوهم وألحقوا بهم الأذية.

﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:٢١] أي: بآياته على الإسلام كل شيء له، وآياته في حكمته، وآياته الدالة على تصديق رسله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - من المعجزات الدالات على صدقهم والجملة، فهاتان الآيتان نظيرتان للشهادتين التي تقدمت في الوعيد على منع القيام بالقسط، وقتل المقسطين من الناس، المظهرين لشهادة التوحيد ومعالم الإسلام، وذكر ما يؤول إليه حال الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، ثم كذلك إلى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٢٥].

وقد تقدم الكلام في قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران:٢٤] في سورة «البقرة» فأغنى عن تكراره.

قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠]

---

(١) أخرجه بنحو منه البخاري في الأدب المفرد (٣٨)، ومسلم (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٢٤٢)، والنسائي (٣٦٥١).

ذكر أكثر العلماء - رحمة الله عليهم - أنها منسوخة بآية السيف، وكذلك نظائرها من القرآن العزيز قد تقدم الكلام بأن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقتٍ ما؛ لعلة توجب ذلك الحكم، ثم تنتقل بانتقال ذلك السير والعلة إلى حكم آخر، فليس بنسخ إنما النسخ: الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله بعد نسخه.

وقد ذهب من أنزل عليه القرآن ﷺ، فبأي قرآن أو بأي رسول من عند الله ﷻ ينسخ، وإنما سمي: ناسخًا ومنسوخًا من لم يحط علمًا بما به سُمي نسخًا، وإنما سماه الله ﷻ باسم النسيء.

قال الله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] وهذا باب كبير دون حكمه في القرآن العزيز، كقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

وقوله جلَّ قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ....﴾ [الجاثية:١٤] حيث وقع من الكتاب العزيز، وإنما بعث الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ والإسلام غريب، وأهله قليل عددهم مستضعفون في الأرض، فأنزل الله من كتابه وأمره عليه وعلى أصحابه ما يحسن بتلك الحال رأفةً منه بهم ورحمةً؛ إذ كان الأمر بالانتصار، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رفعه من أول الأمر على ذلك الضعف، والاختفاء بشأن الإسلام من تكليف ما لا يطاق.

فلما قوي الإسلام وأعزه بنصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحال من الذبِّ عن الإسلام، والانتصار له والدعاء إليه، والأمر بالقتال والعزم عليه، والترغيب فيه والمطالبة للكافرين، والتعوذ لهم بكل مرصد، وهو كثير في القرآن العزيز.

وقال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»(١).

فكيف يتوهم وجود نسخ فيما هذا سبيله، ولا بد من الكثرة للإسلام وقد أدركنا ذلك وشاهدناه، ثم نحن نرتقب كثرة الإسلام على الكافرين والظالمين، فمن الواجب إذًا أن يرجع وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكثرة القوة

---

(١) تقدم تخريجه.

الإسلام والإيمان بعد ضعفه وكرَّة بعد مرة، ونحو هذا بما هو مصداق لقول الله ﷻ: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤] ولا تضع الحرب أوزارها إلا بعد أخذ رومية وقسطنطينية.

وبالجملة: فلا تضع الحرب أوزارها إلا بعد هلاك يأجوج ومأجوج بعيسى ابن مريم ﷺ وعلى جميع الملائكة والأنبياء والرسل، وهذا بيان شافٍ وأمر واضح أن حكم القتال والانتصار غير ناسخ لحكم المسالمة والمهادنة، وإنما هي مداولة، ولكل دولة أمرها قائم في الكتاب، فوجب امتثال كل أمر في وقته وحينه.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران:٢٢-٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الكِتَابِ﴾ أي: الكتاب المحفوظ؛ لأن الألف واللام هنا للتعريف والعهد، وقد يكونان هنا لتعريف الجنس، دلَّ على هذا التوجيه قوله جلَّ قوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:٢٣] أي: القرآن والكتب قبله التي فيها ذكر محمد ﷺ؛ ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم.(١)

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الكتاب﴾ أي: التوراة أو جنس الكتب السماوية، و«من» للتبعيض أو للبيان، وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير. ﴿يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد ﷺ وكتاب الله القرآن أو التوراة لما روي أنه ﷺ دخل مدراسهم، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ فقال: على دين إبراهيم، فقالا: =

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:٢٦] إلى آخر الآيتين، ظاهر تلاوة هاتين الآيتين إقرار وإيمان بما تضمنتا، ومشاهدة على ما جاء فيهما من إظهار القدرة وتصريف المشيئة، ومعناهما: الدعاء.

ألا ترى إلى قوله جلَّ قوله: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾ أنه دعاء لا محالة وسؤال بأسماء مقتضية لمعاني المسؤول، وهو أمر منه ﷻ لعبده أن يقول من ذلك ما أمره به من سؤال وتضرع ودعاء، واستاق ﷻ ذلك في معرض التلاوة، فكان تقديره على معنى الدعاء والسؤال: اللهم أنت مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء.

إننا - أيتها الأمة - من ملكك ما تملكنا به رقاب أعدائنا، وتنزع الملك من أيديهم، وأعزنا بعزة الإيمان والإسلام، وأذل لنا رقابهم وحكمنا فيهم، وأورثنا ديارهم وأموالهم، كما تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي، تُديل هذا على هذا، وهذا على هذا[1] من غير عمل بطاعة، ولا ذنب أذنب هذا سوى إظهار قدرتك وتصريف مشيئتك، فآتنا ما نسألك بغير حساب بيدك الخير، وأنت على كل شي قدير.

وقد كان يحسن على ظاهر الدعاء أن تكون رأس الآية الأخيرة من وصف القدرة لكنه لما صرف المشيئة في الأولى ظاهرًا وصفها ختم هذه بوصف القدرة، ولما صرف القدرة ظاهرًا في الثانية ختم هذه بوصف المشيئة، وهو العليم الحكيم.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

=

إن إبراهيم كان يهوديًا، فقال: هلموا إلى التوراة فإنها بيننا وبينكم، فأبيا فنزلت. وقيل: نزلت في الرجم. [تفسير البيضاوي (١/٣٣٣)].

(١) هكذا في الأصل.

قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران:٢٨-٣٢].

قوله ﷻ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٢٨] وأوعد ذلك بالبراءة ممن فعله - نعوذ بالله من ذلك - وأرخص في حال التقية إبداءً للملاطفة، وإظهارًا للولاية مع حراسة الباطن والقلوب.

ثم أوعد على خلاف ذلك جل بقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٩] من الجزاء العاجل والآجل قدير[1].

ونظم ذلك بقوله الحق عزَّ قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠] أي: بالتقدم بالتحذير، وإعلامهم بمراده منهم في إرخاصه لهم في إعطاء طوارهم في حال التقية منهم، ولو شاء الله لأعنتهم.

---

(١) قوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قلوبكم، من مودة الكفار وموالاتهم ﴿أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ وقال الكلبيُّ: إن تُسرُّوا ما في قلوبكم لرسول الله ﷺ من التكذيب أو تُظهِرُوه لحَرْبِهِ وقتاله يعلمه الله، ويجازكم عليه. قوله: «وَيَعْلَمُ» مستأنف، وليس منسوقًا على جواب الشرطِ؛ لأن علمه بما في السماوات وما في الأرض غير متوقّف على شرط؛ فلذلك جِيء مستأنفًا، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ وقدَّم هنا الإخْفَاءَ على الإبداء وجعل محلهما الصدور بخلاف آية البقرةِ، فإنه قدَّم فيها الإبداء على الإخفاء، وجعل محلهما النفس، وجعل جواب الشرطِ المحاسبة تفنُّنًا في البلاغة، وذكر ذلك للتحذير؛ لأنه إذا كان لا يخفى عليه شيء فكيف يَخْفَى عليه الضميرُ؟! قوله: ﴿والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو تمام التحذير؛ لأنه إذا كان قادرًا على جميع المقدورات كان لا محالة قادرًا على إيصال حق كل أحد إليه، فيكون هذا تمام الوعدِ والوعيد، والترغيب والترهيب. [تفسير اللباب لابن عادل (٢١/٤)].

فصل

. موالاة الكافرين تخرج عن الدين إذ «المرء مع من أحب»[(١)] ولا يظهر ذلك لفاعله بكماله إلا بعد الموت، دلَّ على ذلك تعليقه الجزاء ﷻ بيوم تجد كل نفس ما عملت من خير وشر، وأول ظهور ذلك في القيامة الأولى، فليتقِ عبد ربه، ولا يدخلن ولاية من حاد عن سبيله قلبه.

ألا تسمعه يقول عزَّ من قائل: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ...﴾ [المائدة:٨٠-٨١].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ...﴾ [المائدة:٥١].

ولما أهلك الله قوم شعيب عليه السلام تولى عنهم؛ أي: لم يقف بديارهم بجسمه، ولا بقلبه بل منعه التأسف عليهم والتحزن لشأنهم، وإن كان قد وجد من ذلك ما يجد النصيح المشفق.

ثم قال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

الولاية ثلاثة منازل، وهي واحدة في الحقيقة وإن تفصَّلت:

الأولى: ولاية الخلقة ومعاني التدبير، وهداية الفطرة وتركيب الحياة.

قال الله ﷻ: ﴿وَرُدُّوا إِلَى الله مَوْلاهُمُ الحَقِّ﴾ [يونس:٣٠].

قال جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧].

و﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

ولا يكاد الاسم يتناول هذه الدرجة إلا بتقصي المعنى، كيف وقد فرض الله ﷻ علينا البراءة في موضعها مع انفرادها، ثم تنشأ الولاية فيتحقق فيه وتظهر.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١٩)، ومسلم (٢٦٣٩)، وابن أبي شيبة (٣٧٥٦١)، وأحمد (١٢٠٣٢)، وأبو داود (٥١٢٧)، والترمذي (٢٣٨٥) وعبد بن حميد (١٢٦٥)، وأبو يعلى (٢٨٨٨)، وابن حبان (١٠٥)، والطبراني (٩٧٨١) وفي الأوسط (٧٤٦٥)، والدارمي (٢٧٨٧).

قال الله ﷻ: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨] تولاهم جلَّ ذكره بصدق شهادتهم وحسن توجيههم نياتهم إليه، وخلوص توحيدهم له بالإلهية، وتحقيقهم وتحنفهم إليه وتوليهم إياه دون من سواهم.

ثم تنشأ الولاية بدخولهم في السلم كافة ظاهرًا وباطنًا بطهارة الغيب وشهود القلب وسلامة النفس، وصدق النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعامة المسلمين وخاصتهم، واجتنابهم صغير الإثم وكبيره ظاهره وباطنه، واشتغال السر بذكره وطلب معرفته، والقيام على النفس بالحسبة لله جلَّ ذكره واستيفاء الأوقات بالموافقة وصدق المراقبة.

ثم لا تصح الولاية إلا بالبراءة ممن تولى قومًا فهو منهم، ومتى تولى الله جلَّ ذكره عبدًا أحبه على قدر توليه إياه.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(١) [آل عمران:٣١] سرد ﷻ ذكر المحبة على ذكر الولاية، كما سرد جلَّ ذكره الولاية على ذكر معنى المعرفة، من لدن قوله جلَّ قوله: ﴿الم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [آل عمران:١-٢] إلى ما بين ذلك من ذكر إنزال الوحي والفرقان، وإيمان

---

(١) قال الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد إنا نحب ربنا فأنزل الله هذه الآية. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: وقف النبي ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها، فقال: يا معشر قريش، لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ولقد كانا على الإسلام، فقالت قريش: يا محمد إنا نعبد هذه حبًّا لله ليقربونا إلى الله زلفى، فأنزل الله هذه الآية. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها نزلت حين زعمت اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه. وقيل: نزلت في نصارى نجران زعموا أنهم يعظمون المسيح ويعبدونه حبًّا لله وتعظيمًا له. والحاصل أن كل من يدعي محبة الله تعالى من فرق العقلاء فلا بد أن يكون في غاية الحذر مما يوجب سخطه، فإذا قامت الدلائل العقلية والمعجزات الحسية على نبوة محمد ﷺ وجبت متابعته، فليس في متابعته إلا أنه يدعوهم إلى طاعة الله وتعظيمه وترك تعظيم غيره، فمن أحب الله كان راغبًا فيه؛ لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب والإعراض بالكلية عن غيره. [تفسير النيسابوري (٢/٢٤٠-٢٤١)].

من آمن بذلك وكفر من كفر به، وما يؤول إليه عاقبة الفريقين، وشهادة الحق الذي شهد بها.

وذكر ﷻ الإجماع على معنى ذلك وخرقه والاختلاف، ولقرب معنى الولاية من معنى المحبة نظمها بها، وهي أصل النصيحة والدين النصيحة، فإذًا المحبة الشأن كله على قدر تمكنها من القلوب تسرع بالطاعة إلى المحبوب.

والمحبة أيضًا واحدة تنفصل إلى ثلاثة منازل، وبين ذلك وسائط ودرجات منها إليها محبة الخلقة، وهي فطرة وضرورة، وكما تقدم في وصف الولاية الأولى ومحبة المخلوقين هي السابقة لكنه أمضى حكم حبه المؤمنين، وأوقف حب من علم ﷻ أنه بالكفر يختم له عمله، وعند الامتحان يكرم العبد أو يهان، والله جلَّ ذكره لم يزل عالمًا بما يكون وما قد كان، غير أن حكمه هذا أجراه في سنته التي لا تحويل لها ولا تبديل.

قال الله جلَّ ذكره في كتابه: «**ألا وإن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

وقال الله جلَّ قوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ [البقرة:٢٥٧] فحين كفره يبعده الله من حبه ويلعنه، ثم يبدله من رحمته إليه حب الطاغوت.

قال ﷻ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله**﴾ [البقرة:١٦٥] فأخبر ﷻ بأنه جعل لهم حبًا يحبون به الأنداد بدلاً من حبهم له، ثم تنشأ المحبة بالإيمان وتتزايد بالمعرفة، وتتمكن بالولاية واستيعاب الأوقات بالإشغال بطاعة الله ﷻ.

قال الله عزَّ من قائل: «**لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»(٢).

فصل

فليس الحب شيئًا يتناول أو يكتسب إلا بالتحبب والترضي، وكثرة الذكر

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

والنظر في النعم، ويزداد التوقف والاستينار على معالم العلم، وتكرار التفكر فيمن أجاد هذا الصنع المعجب، ونصب هذه الدلائل وأقام الشواهد، وتعرف ما هي دلائل عليه وله شواهد، وتتبع مجاري أسمائه في موجودات السماوات والأرضين وما بين ذلك، والبحث عن معاني صفاته الكاملة الحسنى في الموجودات، والنفقة في كتابه الحكيم ووحيه العزيز، وتعرُّف حكمته وصدق كلماته، ثم استعمال معالي الأخلاق، والتعبد عن معاني الأسماء والصفات على ما يحبه ويرضاه، ونحو هذا.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [مريم:٩٦] أي: ودًّا يودونه به، وودًّا في قلوب العالمين.

كما جاء: «**إن الله إذا أحب عبدًا قال: يا جبريل إني أحب فلانًا فأحبه، ثم ينادي جبريل** عليه السلام **في السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، قال: فيحبونه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[1].

قيل: إنه ينزل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه حبه الماء، فلا يشرب أحد من الماء، ولا يأكل من نبات الأرض إلا أحبه، فيحبه إذ ذاك كل شيء وبالضد.

وقال رسول الله ﷺ وقد مرت به جنازة: «**مستريح ومستراح منه**» فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «**المؤمن يستريح من أذى الدنيا ونصبها إلى رحمة الله** ﷻ**، والكافر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»[2] كما تستريح الموجودات من الكافر - أعاذنا الله الرحيم برحمته من ذلك - كذلك تبكي على المؤمن.

قال الله ﷻ: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ**﴾ [الدخان:٢٩].

وقال رسول الله ﷺ «**ما من مؤمن إلا له في السماء بابان: باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه**»[3].

---

(١) أخرجه مالك (١٧١٠)، والبخاري (٣٠٣٧)، ومسلم (٢٦٣٧)، وابن حبان (٣٦٥)، والطبراني (٥٧١) وفي الأوسط (٥٠٠١)، وأحمد (٧٨٤٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: غريب.

فصل

حكى بعض أهل العلم باللسان أن حبَّ وأحب بمعنى سواء، وإنهما لغتان في معنى الحب.

وعندي - والله أعلم - أن معنى أحب له [...][1] ومعنى ذلك أن قوله: أعزه يعزُّه وأجله يجلُّه، كقولك: أحبه يحبه، وكقولك: أجله يجلله، واللام والجيم أصليتان في «جلَّ» كالباء مع الحاء في «حب» ومعنى يجلله ويجله: جعلته ذا جلالة، كما يحببه ويحبه: جعلته ذا حب، وأحببته في حبي.

ومعناه في هذا الموضع: أحببته في حبي، وجعلت له حبًّا يحبني به، ولإظهار الأصلية التي هي الباء، وتكرارها مزيد معنى من المحب لما كان من المتكلم به هو المحب الأصلية منه، وحب أن يكون المزيد من ذلك.

والمعنى فيه - والله أعلم - بما قال جلَّ قوله: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ**﴾ فهذا حب موجود معبر عنه ﴿**فَاتَّبِعُونِي**﴾ [آل عمران:٣١] وفي اتباعه ﷺ حب زائد على الحب المعبر عنه الحاصل قبل، فكان اتباع الرسول ﷺ حب في الله انضاف إلى حبِّ الله الذي هو الأول، والذي به ومنه خوطبوا.

وهو أيضًا حب على حب؛ لأنهم بذلك أحبوه - جل وعلا - أو أحبوا من أحب وائتموا بمن اصطفى، فأوجب لهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بذلك مزيد حب، فأظهر ﷻ الأصلية إشعارًا بذلك، فقال جلَّ قوله: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران:٣١] أي: يجعل لكم حبًا تحبونه، وتحبوني زيادة إلى حبكم، وحبًّا تحبون به الحب له وفيه، فهذا معنى تكرار الباء فيما ها هنا، والله أعلم.

ولم يخلق الله ﷻ صورتين لمصور واحد فاعلم ذلك.

ولما عرض على سليمان ﷺ جياد الخيل، وشغله ذلك عن صلاة العصر

---

(١) ما بين [ ] غير واضح بالأصل. وقال القرطبي في تفسيره (٤/٦٤): يقال أحبه فهو محب وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب قال الجوهري: وهذا شاذ لأنه لا يأتي في المضاعف يفعل بالكسر قال أبو الفتح: والأصل فيه حبب كظرف فأسكنت الباء وأدغمت في الثانية. قال ابن الدهان سعيد: في حب لغتان: حب وأحب وأصل حب في هذا البناء حبب كظرف.

فتذكر وصلاها، ثم قال ﷺ: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص:٣٢] ولم يقل ﷺ: «أحببت الخير» بل قال: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ﴾ وهذا هو الحب اللازم الغالب وجده.

كما قال ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فلأن أشد للمحنة وألصق للابتلاء، فأحبوا لذلك الشهوة ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤] من كانت معه، ومن فقدها حبًا غالبًا على النفوس إلا من عصم الله، وقليل ما هم.

فصل

الذين يبلغهم الله ﷻ هذه الدرجة من المحبة هم خصوص الخصوص، وقد قال جلَّ قوله في الذين آمنوا: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا لله﴾ [البقرة:١٦٥] فهذا الحظ الذي ينال باتباع الرسول ﷺ كما تقدم هو حب مزيد، مضاف إلى الحب الأول، وحب للحب الذي هو الله، وفي الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

يقول الله جلَّ قوله: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها**»[1] فهذا هو الحب في الحب والحب للحب.

عبَّر عن ذلك حيث قال جلَّ قوله: «**لا يزال العبد تقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي سمع به...**»[2].

وإذا تحصل هذا للعبد فهو الحب كله الذي قالوا فيه ﷺ: «**الحب تعويض الصفات**» أي: إن الله جلَّ ذكره يعوضه من صفات نفسه صفاتًا منسوبة إليه - جل ثناؤه - في سمعه وبصره، وبطشه ومشيه، وكلامه وصمته إلى غير ذلك.

وسئل بعضهم عن المحبة فقال: «هي دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب» وهو معنى ما تقدم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

من علامات محبة المحب لربه جلَّ وعلا: أن يؤثر رضا ربه على رضاه وطاعته على طاعة نفسه، وأن يقطع نفسه وهواه وأهله وولده والناس أجمعين في طلب محبة ربه ورضاه، وهذا معنى ما قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يجد أحدكم حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما**»(١).

وفي أخرى: «**حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه وولده وأهله وماله والناس أجمعين**»(٢).

وهذه درجة الإيثار، ولا يكون هذا إلا إذا دخل الحب سويداء القلب وهي حبة القلب، وحينئذٍ يحب الحب كله ما لم يكن الإيثار، فالحب منه في الفؤاد، وهو تجويف أول خارج القلب.

ومن علامات محبة الله جلَّ ذكره عبده: أن يتولى سياسة أموره وحركات جوارحه وأعماله، فيجد أخلاقه على السماحة وجوارحه على الموافقة يصرح به عن هواه، ويزجره عن ركوب هلكته على التهدد والزجر، فإن شاء إتمام نعمته عليه بلغه درجة التعويض كما تقدم.

عبَّر رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله: «**إذا أحب عبدًا جعل له واعظًا من نفسه**»(٣) فإذا رفعه إلى درجة التعويض لم يكن لهذا العبد همةً إلا في خدمته، ولا رغبة إلا في الأنس به، يشوقهم إليه والشوق إليه يحدوهم، عزمهم وثيق والفتور منهم بعيد، لا يميلون إلى غرور ولا يترخصون في تأويل، ولأن من صفاتهم الموافقة لزومهم الخوف؛ لعلمهم أن رضاه في أن يخاف.

قال الله ﷻ: ﴿**وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٧٥] ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:١٩٧] وهذا كلام على ضرب من التجوز فيما سبيله التحقيق في

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، والترمذي (٢٦٢٤) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (١١٧١٨)، والطيالسي (١٩٥٩)، وأحمد (١٢٠٢١)، وابن ماجة (٤٠٣٣)، وابن حبان (٢٣٨)، والطبراني (٨٠١٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، وأحمد (١٢٨٣٧)، وعبد بن حميد (١١٧٥)، والنسائي (٥٠١٤)، وابن ماجة (٦٧)، والدارمي (٢٧٤١)، وابن حبان (١٧٩).

(٣) أخرجه هناد (٥٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٢٦٤).

العبارة، بل الله جلَّ ذكره لما كان المتولي لسياستهم، وكان الخوف من سيماء العبودية ألزمه قلوبهم أو حضرة أحوالهم، وهو يتولى الصالحين.

وأيضًا فإنه من أحب محبوبًا خاف فوته، فبان فرق ما بين الخوفين هذا خوف المعاقبة، وهذا خوف الفوت، وهذا راجع إلى الأول.

وللمحبة ثلاثة منازل:

الأولى: محبة العالم تتولد من معرفة إحسان الله ﷻ، ومشاهدة عطفه.

الثانية: منبعثها عن نظر العبد إلى عظمة الله وجلاله، وإحاطة علمه وقهر قدرته، وهو حب الصادقين المتحققين.

الثالثة: منبعثها معرفة العبد تقدم حب الله ﷻ له بلا علة، وكذلك أحبه هو بلا علة، فهذه المحبة لله وبالله ومحبة الصديقين العارفين، ثم ظاهر أتباع المحبوب وباطنها أن يكون فتنته بالحبيب، فلا يبقى عليه علة له ولا في نفسه، فحقيقة حال هذا ميل دائم وقلب هائم بوجود محبة من المحبوب، وإيثار له على من سواه وعلى القول بالتحقيق، فما عاش أحدًا إلا مع مزج الحب، فإذا توحد الحب بالقلب وتمكن فيه قتل.

قوله ﷻ: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا**﴾ هنا محذوف مقدر مستدل عليه بالظاهر بعده، هو قوله ﴿**فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٢].

الحاصل من هذا الخطاب: محبة الله ﷻ يستوجبها العبد بالعمل بالطاعة وابتغاء مرضاة الله ﷻ، والاقتداء به في معالي الأخلاق، ثم برسوله في سنته، وبذلك استوجب وعد الله سبحانه بإدخاله محبته وإلحاقه بالدين أسكن ودَّه في قلوبهم وشغلهم به وفرغهم إليه، فكان هو هم من حيث هم لا من حيث هو؛ لذلك قيل لهم: أولياء الله وربانيون.

﴿**إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا**

رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٧].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾(١) [آل عمران: ٣٣-٣٤] اصطفى من اصطفاء صفايا الملوك في البلاد أموالاً استخلصوها لأنفسهم دون غيرهم، وهو مثل: اصطنع من الصنيعة، واصطرف من الصرف، واصطحب من الصحبة، صفاهم وطهرهم بما اصطفاهم فصافوه، فهم المصطفون من عباده، والمجتبون من أهل ولايته.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ نصب «ذرية» على المدح والاختصاص بذرية آدم عليه السلام عامة لما دونها، وذرية إبراهيم عليه السلام شاملة لما دونها منها آل عمران، ومنها محمد ﷺ وعلى الأنبياء جميعهم.

آل عمران قسمان:

* **الأول:** أبو موسى عليه السلام المنزل عليه التوراة، فآله على هذا من دنا منه بالبيعة والنسب، وإلا فهو عام شامل أيضًا لمن دونه.

* وآل عمران أيضًا هو والد مريم ابنة عمران - صلوات الله عليهم - كان لعمران الأول موسى وهارون وأخت ذكرها الله سبحانه في القرآن العزيز، وكان لعمران الآخر هارون ومريم وامرأة زكريا أختها.

قيل: إنها كانت ابنته.

وقيل: كانت من غير عمران.

---

(١) ذرية بعضها من بعض في الدين والحقيقة؛ إذ الولادة قسمان: صورية ومعنوية، وكل نبي تبع نبيًا في التوحيد والمعرفة وما يتعلق بالباطن من أصول الدين، فهو ولده كأولاد المشايخ والولد سر أبيه، ويمكن أن يقال: آدم هو الروح في أول مقامات ظهورها، ونوح هو هي في مقامها الثاني من مقامات التنزل وإبراهيم هو القلب الذي ألقاه نمرود النفس في نيران الفتن، ورماه فيها بمنجنيق الشهوات، وآله القوى الروحانية، وعمران هو العقل الإمام في بيت مقدس البدن، وآله التابعون له في ذلك البيت المقتدون به، وكل ذلك ذرية بعضها من بعض لوحدة المورد واتفاق المشرب. [تفسير الألوسي (١٢/٣)].

وقيل: كان اسمها حنة.

وقيل: بل كانت حنة أم مريم امرأة عمران، فلذلك قال عباد بني إسرائيل لمريم - عليها السلام - لما جاءت بعيسى ﷺ تحمله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨].

عمَّ الله ﷻ إلى آل عمران بالذكر، وخصَّ الآخر منها بالوصف بعد أن جمعهم جلَّ ذكره بذكر الاصطفاء، ثم تمدح جلَّ ذكره بأنه سميع عليم لم يزل تبارك وتعالى سميعًا عليمًا، لكنه خصَّ بذكر السمع والعلم ما ها هنا؛ لأجل سماعه دعاء امرأة عمران واستجابته لها، وعلمه بها وبخالص نيتها في توجيه نذرها إليه، فتقبل منها وكفلها أفضل الحاضرين يومئذٍ زكريا وزوجته التي هي أخت مريم، بعد أن اقترعوا عليها أيهم يكفلها فوقعت علامة القبول لزكريا، وقد كان حكم القرعة يقطع به ويجري عليه أحكامهم؛ لأن الزمان يومئذٍ كان زمان نبوة، ووحي مجدد؛ إذ مهما تعطيه القرعة لا اختيار لأحد الفريقين فيه، بل هو حكم من الله ﷻ وقضاء من عنده.

اذكر قصة يونس ﷺ وإنه كان من المدحضين بالمساهمة، وهو الآن عندنا جائز متى لم يقع بين الفريقين تمانع في جواز ذلك ولا تنازع.

فصل

جادت امرأة عمران بذي بطنها لربها كما جاد إبراهيم ﷺ بذبح ابنه، فكان إتمام كلمته ﷻ أن نشر عليها من رحمته وألطفها بكراماته؛ كأن يظهر لها من المقدور الغائب ما يحفظها به، ويرزقها منه بغير كدٍّ ولا نكد، ويدخل عليها زكريا محرابها فيجد عندها رزقًا لم يعهده ولم يجرِ على يده فيستكشفها عن ذلك، فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧] الحساب هنا عبارة عن الكدِّ والتعب في طلبه.

لذلك قيل في رزق أهل الجنة: إنه بغير حساب، غير أن الله - جلَّ وتعالى - يعلم شهوة أحدهم فيُؤتى به أحسن مما اشتهاه، وربما أتحفهم برًا مما لم يعهدوه ولم يجرِ لهم على بال، فيجعل لهم ﷻ من الغبطة به والسرور والشهوة فيه ما لم يعهدوا مثله.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ
(٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ
وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ
وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) وَإِذْ
قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)
يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ
(٤٤)﴾[آل عمران:٣٨-٤٤].

قال الله جلَّ من قائل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران:٣٨] فهذا هو المطلوب الأول بالولد كونه طيبًا رضيًا، أغبط زكريا عليه السلام أبويها فيها، فحركه ذلك إلى سؤال الله ﷻ الولد، فكان اطلاع الله إياه على ذلك سببًا للدعاء، والدعاء سببًا لوجود يحيى بن زكريا عليهما السلام.

وقد جاء ذكر سؤال ربه ﷻ الولد على أوجه من الخطاب متفقة في المعنى، كقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا...﴾ [مريم:٤] إلى قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦].

وقول الله ﷻ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقوله في هذه السورة: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨] في كل ذلك يذكر أنه يستجيب له دعاءه، ومجيء الدعاء مختلفًا دليل على تكراره حتى حان حين المطلوب، وفي هذا من الإشارة من الفقه والأسوة، أمر الله جلَّ ذكره استعمال التكرار والإلحاح في الدعاء والإكثار من السؤال، وإذا كان شأن الأنبياء - عليهم السلام - تكراره فكيف بغيرهم؟!

قال رسول الله ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت ولم

يستجب لي»[(١)] ولذلك - والله أعلم - سأل الآية على كون ما وعد به ﷺ حين بشرى الملائكة إياه بمطلوبه، وقد كان في سؤاله ربه ﷻ قوله: ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**﴾ [مريم:٥-٦] أي: يرث منهم الحكمة والنبوة؛ إذ الأنبياء - عليهم السلام - لا يورثون مالاً، وإنما يورثون العلم والحكمة والهدى والتقوى.

وقوله ﷺ: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي**﴾ [مريم:٥] أولياء الأنبياء والرسل - عليهم السلام - عباد الله الصالحين.

قال رسول الله ﷺ وذكر قرابته «**ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»[(٢)] إنما خاف ﷺ أن يحين حينه وتبقى الأنبياء - عليهم السلام - والقرابات والأتباع بعده لا معلم لهم، ولا من ينوب منهم مناب النبوة والمعاهدة والسياسة بالوحي، وهذا عظيم الرُّزء[(٣)]؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**من أصيب منكم بمصيبة فليذكر المصاب بي**»[(٤)] فلذلك يهون عليه، وإن بني إسرائيل كانت الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - يسمونهم خلف بعد سلف.

وقال عزَّ من قائل: ﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٧] يمكن أن يكون لم يسبق من يسمى يحيى، أو لم يكن قبله من يسمى بيحيى صدقًا، يكون بذلك اسمه هو مسماه، وهذا أوجه ما وجه إليه هذا الخطاب، والله أعلم.

وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل: قال عيسى ﵇ عندما ذكر يحيى ﵇: إني أقول لكم لم يولد في الإنس أشرف من يحيى، ولكن الأصغر في الملكوت أشرف منه، وكل كتاب أوتي منتهاه إلى يحيى، وإن يقبل غيره هو في مثابة الناس القادم، فمن كانت له أذن سامعة فليسمع، ومما توجه إليه اسم يحيى أن الله ﷻ

---

(١) أخرجه مالك (٤٩٧)، والبخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٧١١٠)، وأحمد (٩١٣٧)، وأبو داود (١٤٨٤)، والترمذي (٣٣٨٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٣٨٥٣)، وابن حبان (٩٧٥)، والطبراني في الشاميين (٣١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢١٥)، وأحمد (١٧٨٣٧)، وأبو عوانة (٢٧٦).

(٣) الرُّزْءُ وَالرَّزِيئَةُ: الْمُصِيبَةُ الْعَظِيمَةُ. انظر: المغرب (٣٣٧/٢).

(٤) أخرجه الطبراني (٦٧١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٥٣)، وابن سعد (٢٧٥/٢)، والدارمي (٨٥).

وتعالى علاؤه وشأنه هو الذي سماه.

ولصدق قوله وتحقيق حديثه لا بد له أن يحيا في المستقبل؛ لأنه من الله ﷻ أنه يحيا فقد حيي في الدار الدنيا بالنبوة والحكمة والكتاب الذي أتاه والتقى والعفاف المحض، ثم حيي بالشهادة في الدار الوسطى، فهو عند الله جلَّ ذكره حي هذا غير مدافع فيه، وهذا قد شركه غيره؛ أعني: في النبوة والحكمة والحياة بالشهادة.

وقد بقي وعد الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأنه يحيى مستقبلاً لم يجعل الله له سميًّا قبل ذلك الوقت، وكيفما كان من ذلك ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

قوله جلَّ ذكره: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١] [آل عمران:٣٩] أي: مصدقًا بعيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليهم - هو كلمة الله جمع له بين البشارة بابنه يحيى، والبشارة بأنه يخلق عبدًا وكلمة له، وأن هذا المولود مصدقًا به، وأنه يكون سيدًا؛ أي: موطوء العقب في مقابلة قوله ﵇: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ ويعود على موروثه بركة، وذلك بسدِّ ثلم[٢] قومه، هذا في مقابلة قوله ﵇: الوراثة وخوفه ضياع الأتباع.

سُئل رسول الله ﷺ: ما السؤدد؟ فقال: «**هو العقل**»[٣].

ولا ينال شيء من الخير إلا بصحبة **العقل**، فكان ﵇ - أعني: يحيى - أشبه عيسى ﵇ في أنه لم يأتِ النساء.

ونصب قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ على الحال، ويكون أيضًا نصبه على المدح

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الحصور أصله من الحصر وهو الحبس، والحصور في قول ابن مسعود ﷺ وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ﷺ وعطاء والحسن: الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن، وهو على هذا القول فعول بمعنى فاعل؛ يعني: إنه يحصر نفسه عن الشهوات، وقيل: هو الفقير الذي لا مال له، فيكون الحصور بمعنى المحصور؛ يعني: الممنوع من النساء. وفيه قول آخر: إن الحصور هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه. واختار قوم هذا القول لوجهين: **أحدهما**: لأن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء، **والثاني**: إنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء. [تفسير البغوي (٢/٣٥)].

(٢) ثَلَمَ الإناءَ والسيفَ ونحوَه: كسر. انظر: لسان العرب (١٢/٧٨).

(٣) أخرجه الحارث في مسنده (٨٢٧).

والاختصاص، وإنما يتم في عيسى ﵇ بإتيانه المنتظر منه، ورفع الله عيسى ﵇، وهما معًا الآن في حال الحياة عنده.

قوله تعالى فيما حكاه عن نبيه زكريا ﵇: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران:٤٠] ولو كانت البشرى له بالولد بدءًا كبشرى مريم بعيسى ﵇، كأن يكون إعظامه لإتيان الولد في حال الكبر وعقم المرأة، لكنه كان هو الداعي السائل الراغب في الولد، وهم أهل العلم بالله جلَّ ذكره وأهل القرب منه، فكيف يتوجه هذا من مثله؟!

أراه - والله أعلم - أن قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران:٤٠] تعجبًا منه من عظم اقتدار الله ﷻ على مراده من جميع الوجوه، وسروره بمنزلته من ربه إذا بلغت رتبته ﵇ عنده ﷻ، ومنزلته منه أن يخرق له العوائد، ويظهر له من المقدور الغائب بدعائه وسؤاله إياه، كتعجب امرأة إبراهيم ﵇ صلوات وسلامه على جميعهم لما بشر بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فصكت وجهها إعظامًا لذلك، وتعجبًا من القدرة القاهرة والأمر العلي منه ﷻ.

ثم ضحكت سرورًا منها بعظيم المنزلة من الله ﷿، وسني المرتبة التي أهلها لها، و﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢] فأناب الله أهل ذلك البيت بشياع العلم فيهم إن أجابتها الملائكة - صلوات الله وسلامه على جميعهم - بإذن الله ﷻ وأمره.

﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي: وأنت امرأة بلغ من علمك بالله ﷿ إنك تعجبين من أمره وعظيم قدرته وتصريف أمره على مشيئته ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود:٧٣] لإيمانكم وعلمكم مجيد للعطاء كريم الجزاء، يرفع أوليائه وأهل طاعته ثم جعلها كلمة باقية في عقبهم آخر الدهر، وأمر الله هو شأنه.

قوله ﷿ لزكريا ﵇ قال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٨-٩] الكاف الأولى في قوله ﷿: ﴿كَذَلِكَ﴾ للتشبيه والتسوية بين الحكمين في المشار إليه بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى ما عند زكريا ﵇ من العلم بالله،

وقدرته على ذلك إذا شاءه سنته الطاهرة، يفعل ما يشاء من ذلك بتوسط الأسباب وبإطراحها، وإخراج أحكامه على حكم الكلمة؛ معنى ذلك: إن هذا وهذا علي هين، هذا حكمي وهذه قدرتي.

ألا ترى أن الأسباب والوسائط لا بد لأوائلها أن تكون عن عدم أسباب ووسائط، فحكم الكلمة هو الأصل، وحكم السنة فرع له، وإلى حكم الكلمة تعود الأحكام كلها معنى وإيجادًا، ثم آراه آية على ذلك في الوجود بقوله جلَّ قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٩] وكذلك قوله لمريم عليها السلام، كذلك الإشارة إلى علمها بمقدور الله الغائب أنه عنده كالحاضر الموجود المعهود، وعلَّمها أيضًا بعلم الله الذي هو شأنه.

وقول الملائكة - عليهم السلام - لامرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم:٩] أي: هذا هكذا هو عند ربك كالمعهود عندك؛ أي: إنه جل جلاله إذا استأثر بالفعل قبض، وإذا أجراه على سنته بسط.

كما قال عزَّ من قائل لمحمد ﷺ: ﴿فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤].

ومن قولهم: حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى على الأشياء بلا علاج، وصنعه في مصنوعاته بلا مزاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وما تصور في وهمك فالله بخلافه، وهكذا فاسلك في نظرك عند تعرفك كلمة ﴿كَذَلِكَ﴾ حيث جاءت تطلب المشبه بها والمشار إليه، وأضف إليها جملة ما يأتي في ذلك المشار إليه، فهو خطاب باطن مبني على خطاب باطن مبني على خطاب ذلك النص الظاهر، فاعلم ذلك.

قوله عز وجل فيما حكاه عن عبده زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [مريم:١٠] قد تقدم أنه عليه السلام لم يسأل الآية؛ لبعد ذلك عندهن ولا لأنه لم يقع العلم له بنداء الملائكة - عليهم السلام - كما ذكر بعض السلف المصنفين، بل النبي ﷺ محفوظ عليه في موضع إيمانه، وموضع فهمه محفوظ على الملائكة - عليهم السلام - تبليغهم عن ربه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وإذا أوحى الله عز وجل لنبي من الأنبياء - عليهم السلام - أعطاه من العلم بما أوحى إليه ما يكافئ ذلك الوحي، وعلى قدر

المراد به وله.

وشأنه ﷻ في المؤمن أنه عنه يفهمه ومنه يعلمه، فكيف به إذا رفعه إلى منزلة النبوة والرسالة، فأسمعه ﷻ كلام ملائكته - عليهم السلام - جهارًا، أو عوده محادثته وتكليمه باطنًا سرًّا إلى سر سره، وتعاهده بأن يثبت في روعه، فأزح - وفقك الله - الارتياب وترقَ صعدًا في الأسباب.

بل كان سؤاله الآية ﷺ - والله ونبيه أعلم - أن يعرفه أول تكوين الولد، وحين استقرار النطفة مقرها، وأن يجعل له على ذلك آية، فيحدث عند ذلك من الذكر والشكر ما يوافق ذلك ويطابقه، فجعل ﷻ آية ذلك أن يصاب بما يمنعه الكلام ثلاثة أيام سويًا؛ أي: وهو سوي الصحة.

واستثنى ﷺ من الكلام الرمز والإشارة والإيحاء، فلما أصابه ﷺ ذلك علم أن النطفة قد علقت، وأن الكون قد توجه إليها، وأمره ﷻ في تلك الحال ملازمة الذكر والتسبيح بكرةً وعشيًا شكرًا لله جلَّ ذكره على ما أولى؛ ليكون المزيد في النعمة حال الخلقة من قبيل الشكر عليها، وهو الذكر لله تعالى والعمل بطاعته، فأخرج الله جلَّ ذكره المطلوب الذي كان الشكر من أجله من قبل ذلك طهارة وطاعة له، ولم يجعله جبارًا عصيًا.

ألا ترى أنه ﷻ عقل لسانه عن الكلام الذي هو أشد أعضاء الإنسان تفلتًا إلى المكروه، وحرس عليه التسبيح والذكر، فكانت تلك آية على المدلول عليه بها من نحو ذلك، فافهم والله عليم حكيم.

﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ [مريم:١٥] كان ﷺ قتل شهيدًا فهو حي بعد، وإنما يموت في مستقبل الأمر، ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ إشارة إلى المعنى بتسميته بيحيى ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ يوم البعث الآخر.

قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[1] [آل عمران:٤٢] كرر ﷻ وتعالى علوه وشأنه ذكر الاصطفاء في

---

(١) ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يراد بهذا الاصطفاء غير الاصطفاء الأول، وهو ما كان آخرًا من هبة عيسى ﷺ لها من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وجعلها =

شخص واحد.

ومعنى ذلك - والله أعلم - أن الاصطفاء الأول هو ما يسبقه لأوليائه قبل معاني النبوة، والاصطفاء الذي حَمَّلها بجملة أحكامه في ذواتهم أولاً، ثم يفصلها ﷻ بعد تفصيلاً بالوحي والإنباء، وذلك مقوم النبوة في درجتها مقام الفطرة على الإسلام للمسلمين خاصةً، ثم لجميع الموجودات عامة.

سُئل رسول الله ﷺ: متى كنت نبيًا؟ قال ﷺ: «**وآدم بين الروح والجسد**»(١).

وأعرق من هذا في القدم ﷺ: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء**»(٢).

ومصداقه قول الله ﷻ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...**﴾ [آل عمران:٨١] هذا ما ذكره من شرح جبريل عليه السلام صدره صبيًا، واستخراج قلبه وغسله بماء زمزم بعد استخراجه منه العلقة السوداء، وقال: «**هذا حظ الشيطان منك**»(٣) وأفرغ الإيمان والحكمة فيه حتى ملأه.

وجاء: «**إن الله ﷻ أوحى إلى أرميا عليه السلام: إني قبل أن أخلقك اخترتك، وقبل أن أصورك قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ**

=

وإياه آية للعالمين، ويحتمل أن يراد به الأول وكرر للتأكيد وتبيين من اصطفاها عليهن، وعلى الأول يكون تقديم حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه السلام للتنبيه على أن كلاً منهما مستحق للاستقلال بالتذكر وله نظائر قد مرَّ بعضها، وعلى الثاني لا إشكال في الترتيب وتكون حكمة تقدم هذه المقاولة على البشارة الإشارة إلى كونها عليها السلام قبل ذلك مستعدة لفيضان الروح عليها بما هي عليه من التبتل والانقياد حسب الأمر، ولعل الأول أولى كما قال الإمام لما أن التأسيس خير من التأكيد. [تفسير الألوسي (٣/٣٠)].

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٧٥) والترمذي (٣٩٦٨) والحاكم في المستدرك (٤١٧٤) والبيهقي في دلائل النبوة (١٨) والطبراني في الكبير (١٢٤٠٧).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٢١٣)، والطبراني (٧٩٤٣) وفي الأوسط (٧٦٣٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (٤٣١)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٥٧)، وأحمد (١٢٨٤٢)، وابن حبان (٢٤٩)، وأبو عوانة (٢٥٧)، وأبو يعلى في مسنده (٣/٣٣٢)، والحاكم (٣٩٠٩)، والبيهقي في الدلائل (٤٦)، وعبد بن حميد (١٣١١).

أشدك نبهتك ولأمر عظيم اجتبيتك»[١].

ثم الاصطفاء الثاني حال يوم أهلها لكراماته، وتكليم الملائكة - عليهم السلام - إياها، وعلى سنن النشء بين ذلك حتى يكمل ﷻ النعمة على عبده المراد به، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثيرون، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد...**»[٢].

قوله ﷻ: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [آل عمران:٤٣] القنوت ها هنا: العبادة نفسها، فأشبه وجوهه طول القيام في الصلاة بمحاورته ذكر السجود.

وقيل: إنها لما خوطبت بهذا قامت لله ﷻ حتى تفطرت قدماها، فهذه صلاة الفضيلة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ يريد - والله أعلم - بما أراده المحافظة على صلاة الجماعة، كذلك قال جلَّ قوله لبني إسرائيل في الكتاب الذي هو التوراة وفي القرآن، ونحن المراد معهم في ذلك: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبورًا**»[٣].

﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ**
وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٠)، ومسلم (٢٤٣١)، والترمذي (٣٨٨٧)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٧٦)، وأحمد (١٩٥٤١)، والطيالسي (٥٠٤)، والنسائي في الكبرى (٨٣٥٣)، وابن حبان (٧٢٣٧)، وعبد بن حميد (٥٦٧)، والطبراني (١٨٦٣٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٦٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٢)، ومسلم (٧٧٧)، وأحمد (٤٦٥٣)، وأبو داود (١٠٤٣)، وابن خزيمة (١٢٠٥)، والبيهقي (٢٨٦٠)، وابن أبي شيبة (٦٤٥٢)، والترمذي (٤٥١)، والنسائي (١٥٩٨).

إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٩].

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ....﴾[(١)] [آل عمران: ٤٥] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦] هذا كلام منظم بذكر الاصطفاء الثاني، تقديره والله أعلم: أو اصطفاك على نساء العالمين؛ إذ قالت الملائكة.... إلى آخر المعنى، والجملة متضمنة المعنى بذكر الاصطفاء.

قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ [آل

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: لم يقل اسمها؛ لأن معنى كلمة معنى ولد، والمسيح لقب لعيسى ومعناه: الصديق، قاله إبراهيم النخعي، وهو فيما يقال معرب وأصله الشين وهو مشترك، وقال ابن فارس: والمسيح العرق، والمسيح الصديق، والمسيح: الدرهم الأطلس لا نقش فيه، والمسح: الجماع، يقال: مسحها، والأمسح: المكان الأملس، والمسحاء: المرأة المسحاء التي لا إست لها، وبفلان مسحة من جمال، والمسائح: قسي جياد واحدتها مسيحة، واختلف في المسيح ابن مريم مماذا أخذ، فقيل: لأنه مسح الأرض؛ أي: ذهب فيها فلم يستكن بكن، وروي عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، فكأنه سُمي مسيحًا لذلك، فهو على هذا فعيل بمعنى فاعل، وقيل: لأنه ممسوح بدهن البركة، كانت الأنبياء تمسح به، طيب الرائحة، فإذا مسح به علم أنه نبي، وقيل: لأنه كان ممسوح الأخمصين، وقيل: لأن الجمال مسحه؛ أي: أصابه وظهر عليه، وقيل: إنما سُمي بذلك؛ لأنه مسح بالطهر من الذنوب. وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيخ، يقال: مسحه الله؛ أي: خلقه خلقًا حسنًا مباركًا، ومسخه؛ أي: خلقه خلقًا ملعونًا قبيحًا، وقال ابن الأعرابي: المسيح الصديق، والمسيخ الأعور، وبه سُمي الدجال، وقال أبو عبيد: المسيح أصله بالعبرانية مشيحًا بالشين فعرب كما عرب موشى بموسى، وأما الدجال فسمي مسيحًا؛ لأنه ممسوح إحدى العينين، وقد قيل في الدجال مسيح بكسر الميم وشد السين، وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة، وبعضهم يقول: مسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف، والأول أشهر، وعليه الأكثر سُمي به؛ لأنه يسيح في الأرض؛ أي: يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض محنة، وابن مريم يمسحها منحة، وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول.

عمران:٣٣] من اصطفائه إياها أن جعلها تحمل بروح منه وكلمة منه ورحمة منه، وآية من آياته المسيح عيسى - صلوات الله عليه - على المعنى الذي قصه ﷻ في كتابه المنزل من قوله جلَّ قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًا....﴾ [مريم:١٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١].

وهذه هي الكلمة التي ألقاها - جلَّ وتعالى - إلى مريم، والله أعلم باصطفائها بأن أغناها عن البعولة، وفرغ قلبها من ذلك لعبادته، وقطع ﷻ عنها الخواطر المشتغلات، وأقام لها أمره العلا وروحه القدس في حملها بخير البشر مقام البعل، فسميت: العذراء والبتول، وجعلها ﷻ وابنها آية للعالمين، على أن الله قادر على أن يخلق من غير ذكر، وأنه يصرف مقدوراته على مشيئته، وعلى أنه من أعلام الساعة، وذكر لها ورحمة منه أن ينصر به دينه القويم.

فصل

سماه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالمسيح؛ لوصف صدق هو حامله، وحقيقته حق موجودة فيه المسيح الشبيه، والمسحة: قليل الشيء.

قال الشاعر:

وَعَضُّ زَمانٍ يا ابنَ مَروانَ لَم يَدَع ... مِنَ المالِ إلّا مُسحَةً أَو مُجَلَّفُ

يقول: لم يدع من المال إلا القليل منه، أو هو مجلف؛ أي: مقطع لا يشبه ماضيه بباقيه المجلف المقطع المغير صورته.

قيل للشاة المقطوعة الرأس واليدين والرجلين: جلف.

وكذلك المسحة: الخلف الشبه.

قال الشاعر:

على وجه ليلى مسحة من حلاوة

وقال رسول الله ﷺ: «لأن يطلع عليكم من وراء هذه الثنية رجل عليه مسحة

ملك»[1] فطلع عليهم جرير بن عبد الله البجلي - رحمة الله عليه - يومئذٍ مسلمًا، وكان يقال فيه من حسنه: يوسف هذه الأمة.

فاسم المسيح مبالغ من هذا مسح رسول الله ﷺ سبل الهداية، ومعاني القرب والخصوصية التي شاء اصطفاؤها على كل بشرى حتى تكامل عليه مما ذلك سبيله الروح، والكلمة إنه كان يخلق ﷺ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، فيكون طيرًا بإذن الله، وكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ويأتي بالآيات البينات، كان الإخبار بالغيوب له وطنًا، وما أيد به من روح القدس والنطق بالحكمة وتكليم الناس في المهد، هذا إلى ما يتكامل فيه حين نزوله ﷺ الذي عبرت عنه نبوة أشعياء - عليهم السلام - بقوله ﷺ: «**كفوا عن المرء الذي الروح في منخريه**»[2] فإنه هو العلي.

ومصداقه في قول رسول الله ﷺ: «**فلا يحل لكافر أن يجد ريح نفسه أن يعيش**»[3].

ومصداق هذا ما جاءنا أيتها الأمة، قول الله جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا**﴾ [مريم:٢١] أي: لنصر دين الله وإحيائه بعد إماتته، وكل الذي جاء به من مقدور غائب وآية، وإنما ذلك كله آيات على ما هو أعظم من ذلك وأكرم جدًّا، فالذي يحيي به إن شاء الله: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [المائدة:٨٣].

ومسيح الضلالة - لعنه الله وكبته وقصر مدته - على الضد من ذلك مسح على سبيل الضلالات، وبما يجمع فيه من أرواحها الخبيثة وأكذوباته الفظيعة وأفعاله، المشبه على الأكثرين إلا من عصم الله من شبهه.

جاء عن رسول الله ﷺ: «**إنه يمر بالقرية فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتخصب، فتأتيهم مواشيهم أدر ما كانت قط ألبانًا وأحفله ضروعًا،**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦٠٧)، والنسائي في الكبرى (٨٣٠٤)، والطبراني (٢٤٨٣)، وأحمد (١٩٦٩٩)، والحميدي (٨٣٦)، والحاكم (١٠٠٤)، وأبو نعيم في المعرفة (١٥١٦).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠)، والحاكم (٨٦٤٦)، وابن ماجة (٤٢١٣).

ويأتي القرية فيدعوهم فيعصونه، فيأمر السماء فتمحل والأرض فتجدب»[(١)] ثم على الضد.

اعلم - وفقنا الله وإياك وعصمنا وجميع المسلمين من فتنته - أن هذا الفعل على الحقيقة ليس بمضاف إليه، ولا وجوده عن أمره ذلك يأمر به، لكنه أمر من أمر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ويظهر ﷻ على يديه كما يظهر ما يكون عن فعل الساحر من التخييل والأخذ بالقلوب، ومن كائنات خارجة عن الحال.

وهذا الظاهر على يدي الدجال الملعون حقيقة السحر، ومنتهاه أشار الوحي إلى ذلك على ما سيأتي بعد إن شاء الله، وكل من قدر الله جلَّ ذكره وقضائه بما أراده الله ﷻ من فتنته، كما أن ضروب المعجزات المظهرة على أيدي الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم أجمعين - من فلق البحر وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ونبع الماء من بين الأصابع وحنين الجذع والناقة، وغير هذا من الآيات البينات ليس من فعل الرسل والأنبياء - صلوات الله عليهم - بل هو فعل الله ﷻ لما يريده من هداية قوم أرادهم ﷻ بذلك، وإلزام حجة لمن أراده الله بعذابه وهلاكه، نسأل الله العفو الغفور معافاته ومغفرته.

ومع هذا فإنه آية من الله ﷻ وافق به حين خروجه - لعنه الله - وكما وافق به خروجه كذلك وافق بظهوره كلامه الذي عبَّر عنه قول رسول الله ﷺ: «**فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت»**[(٢)] وبالضد.

وإنما ذلك وظائف أوجبها الله - جلَّ وتعالى - على السماء والأرض يومئذٍ، وعبادات فرضها ﷻ عليهن، يكون يومئذٍ ظهور الدجال - لعنه الله وكبته - يوم اقتضاء الله تلك العبادات، يطابق ذلك ما أراده من فتنة قوم وهداية آخرين، وإعزازًا بقوم وإذلالاً بآخرين، كإيجابه علينا صلاة الصبح حين انصداع الفجر إلى وقت طلوع الشمس، وصلاة الظهر حين نزول الشمس والعصر قبل أن تصفر، والعشاء

(١) أخرجه مسلم (٧٥٦٠)، والترمذي (٢٤٠٦)، وابن ماجة (٤٠٧٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٤٩)، والحاكم (٨٦٢٠)، والطبراني (٧٦٤٤)، وابن عساكر (٢/٢٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

الأولى بعد غروبها، والأخير بعد غروب أثرها في أفق المغرب.

وكما لا يجوز لنا أن نعتقد أن الشمس أوجبت علينا هذه العبادات، ولأنها فعلت هذه الأفاعيل بحلولها هذه المحال أوقات اقتضائها منا، كذلك لا يجوز لنا أن نعتقد في هذه الأفاعيل التي تظهر عند مجيء الدجال - لعنه الله وكبته - أنها من فعله، كذلك ما ظهر من الغيوم التي تكون عند طلوع الأنواء من النجوم، والآثار التي تحدث بإذن الله ﷻ عند نهايات ما، وحلول محال ما على مقام ما، أنها كائنة على ظهور ما ظهرت عند ظهوره وحديث عند حدوثه، بل الواجبات أوجبها رب العالمين على تلك الأوقات وعلى ما حدث عنده، كما أوجب على المكلفين عباداته عند حلول أوقاتها، وأوجب حلول أوقاتها مجيء أمره، ووجب أمره بكلمته، وهو رب كل شيء ومليكه.

بيان آخر: وقد يكون ما يأتي به - لعنه الله - حقيقة سحر مشابه السحر حتى وصل إلى حقيقة لم يكن للسحر أن يصعد إلى حقيقة وجودها، كما يشاء وجود المعجزات من حقيقة الوجود المعتاد على أيدي الرسل الحق إلى حقيقة لم تكن لحقائق المعهود من العوائد أن تبلغ إليه.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من أمر من يوم خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة أعظم أمر من الدجال**»(١).

وكما مسح عيسى ﷺ سبيل الهدايات، فصعد به ذلك إلى حقيقة توحد بها بإذن الله تبارك وتعالى، ولم يكن لبشري قبله أن يبلغها، فكذلك الدجال - لعنه الله - في مسحه سبل الضلالات.

يؤيد ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه خطب الناس يومًا، فقال: «**أنذركم الدجال، وكل نبي قد أنذر قومه، وهو فيكم أيتها الأمة يكون قبل خروجه سنون خمس حتى يهلك كل ذي حافر**» قال له رجل: فيما يعيش المؤمن يا رسول الله؟ قال: «**مما يعيش منه الملائكة، ثم يخرج وهو أعور، وأكثر من تبعه النساء واليهود**

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٠٢)، وابن ماجة (٤٢١٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٢٧)، والحاكم (٦٣)، والطبراني (١٧٩٠٥).

والأعراب، يرون السماء تمطر والأرض تنبت»[١].

ووافق ما رواه المغيرة بن شعبة - رحمه الله - قال: كنت أكثر الناس أن أسال رسول الله ﷺ عن الدجال، فقال لي ﷺ: «**وما يصيبك منه أنه لا يضرك**» قلت: يا رسول الله إنه يجيء بكذا ويجيء بكذا، فقال رسول الله ﷺ: «**هو أهون على الله من ذلك، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج بعدي فالله خليفتي على كل مسلم**»[٢].

رجع الكلام إلى تمام حديث رسول الله ﷺ: «**يقول الأعراب: ما تبغون؟ ألم أرسل السماء عليكم مدرارًا، وأحيي لكم أنعامكم شاخصة ذُراها، خارجة بطونها وخواصرها، دارة ألبانها، ويبعث معه من الشياطين على صور الآباء والأمهات ممن مات، فيأتِ أحدهم إلى ابنه وإلى أخيه أو ذوي رحمه، فيقول: تعرفني؟ ألست بفلان؟ اتبعه فإنه ربك يعمر أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاحتراق السفعة يرد كل منهل إلا المسجدين**»[٣].

وقال رسول الله ﷺ في غير هذه الرواية: «**له جنة ونار فناره ماء بارد وجنته نار**»[٤] وهذا على وجود السحر، ولكل شيء نهاية، وهذه نهاية السحر لا يعطى ذلك غيره.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ

---

(١) أخرجه الطبراني (٢٠٤٠٩)، وابن حبان (٦٩١٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥٢).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠)، وأبو داود (٤٣٢٣)، وابن ماجة (٤٢١٣)، وأحمد (١٨٠٩٦)، والحميدي (٣٩٠).

(٣) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٤) أخرجه الطبراني (٧٦٤٤)، وفي الشاميين (٨٦١)، والحاكم (٨٦٢٠).

خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٠-٥٥].

قوله ﷻ فيما حكاه عن عبده ورسوله عيسى: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

هذا مصداق ما حدث به رسول الله ﷺ عنه من «**أنه** عليه السلام **عند مجيئه يزيد في الحلال**»[1].

وهو من إتمام كلمته فيه من قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١] فهو ﷺ نبي رحمة، وإتمام لما تقدم على يد غيره من نعمة لمن آمن به وصدق وعده ونصره، قفَّى الله ﷻ أنبيائه ورسله - عليهم السلام - وجعل محمداً ﷺ بين جيئتيه عليه السلام هو الخاتم، وعيسى عليه السلام هو المقفى والعاقب، وكل رسول مقفى لمن بعده وعاقب له.

فصل

سماه ﷻ بكلمة له؛ إما إضافة الكلمة إلى نفسه ﷻ فيما خصَّه به من معناها من إيجاد عنها كما شاء من آية وخلق وولاية، والكلمة علة الخلق ومقدار الهاء، وبها حدث المحدث، وبتمامها وقعت النهاية، وتمامها بالسنة، وسنة الله تعالى لا تحويل ولا تبديل عن مقصودها من إتمام الكلمة، وفي السنة: هو القدر خيره وشره حلوه ومره؛ لذلك قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ وصف الملائكة ﴿وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] هذا وصف السنة، وكل نفس منفوسة فهي كلمة.

قال الله عزَّ من قائل يوم أخذ الميثاق من ذرية آدم عليه السلام فقبض قبضة بيمينه، فقال: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**» وقال الله جلَّ قوله في أهل القبضة الأخرى وكلتا يديه يمين مباركة: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الشاميين (٥٤٢)، وابن عساكر (٥٠٢/٤٧).

(٢) أخرجه مالك (١٥٩٣)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأحمد (٣١١)، وأبو داود =

وقال - جلَّ قوله - لإبليس لعنه الله: اذهب ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨].

وقال في مصداق ذلك: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

وآدم عليه السلام كلمة الله، قال له: «كن» هذه كلمة فيكون، هذه هي السنة في نسله، وما يكون منتظم من عمل أو رزق أو سعادة أو شقاوة إلى يوم القيامة، ثم في دار القرار، وعيسى - صلوات الله عليه وسلامه - كلمة، قال الله جل جلاله له: «كن» فكان، ثم يكون أيضًا في جيئته الأخرى، بها تتم كلمته فيه ثم ما يكون منه، وله تجمع الخليقة بعد الموت، ثم بعد البعث والنشور، ثم في دار القرار على بقاء الأبد.

لذلك قال - وهو أعلم - عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ [لقمان:٢٧].

وقوله جل جلاله: ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩] تفصيلاً، فالسنة لكل كائن، والكلمات لا تبديل لها ولا تغير. ولا يجوز عليها النسخ ألبتة، ولا مبدل لكلمات الله، وإنما هو الصدق والحق في إتمامها، والعدل والقسط فيما هو متمم لها من سنة سبق كونها بالتقدير، إنما النسخ في الكتاب، والمحو والإثبات فيما أحاط به الكتاب، الذي عبَّر عنه: «اكتب علمي في خلقي»[1].

وهذه كلمته عن علمه ومشيئته، فما كان من الكائنات على سبيل السنة يكون المحو والإثبات كما سبق به كتاب القلم، قال الله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] وعلمه المحيط هو أم الكتاب، والإيمان بكلمات الله جلَّ ذكره من علي الإيمان.

قال الله جل جلاله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ﴾.

وقال جلَّ قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾

(٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، وابن حبان (٦١٦٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٢٥)، والحاكم (٧٤) والضياء (٢٨٩).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٣٨).

[الأعراف:١٥٨].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم:١٢] فتخصيص تسميته عبده هذا بكلمة منه من الله؛ لما فيه من آيات دالات عليه ﷻ، ولله المثل الأعلى، ولما فيه من رحمة لعباده المؤمنين، فأحيا به دين الإسلام بعد موته.

فصل

سماه الله ﷻ بأنه روح منه، قد تقدم أن معنى إضافته إليه اختصاصه إياه خلقًا وأمرًا وولاية، ورضا به وكل ما هو حي، فملك الأرحام ﵇ ينفخ فيه الروح، أو ما هو معناه وصفات الله جلَّ ذكره أعرب عنها وجود الموجودات، وشهدت له بها الشواهد كالقدرة والعلم والإرادة والحياة والسمع والبصر وغير ذلك، والروح فقد نطق بها القرآن العزيز بإيجاده إياه دلالة على الروح العلي جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه.

قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:٣٨].

وقال جلَّ قوله: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢] عبَّر عن هذا كثير من الشواهد.

وفي الآثار: «**أنه أكبر خلق الله ﷻ**».

وقوله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم:١٧] ظاهره: إنه رسول إليها من هذا الخلق الرفيع قدره، ذكر أنه جبريل ﵇ فالله أعلم، آمنا بما هو الحق من عند الله، وعلى ما هو عليه من رفعة القدر، فإنه أمة من الأمم يفضل بعضه بعضًا، فهذا المرسل إلى مريم ﵇ مما هو خاص رفيع أضافه إلى نفسه ﷻ، وكذلك الروح المنفوخ به في آدم ﵇، وإن النافخ في مريم - عليها السلام - قد نصَّ عليه أنه رسول من عند الله، فقد قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١].

وقال جلَّ قوله في آدم ﵇: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢] فقد جمعهما معاني ذكر الخلقة، مع كون الخطاب بأنه وصف عن نفخ الله ﷻ كما هو بائن عن الله جلَّ ذكره، فهو غير له، وما كان غيرًا فهو خلق له وعبد.

وفي قوله جلَّ قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] شفاء لمن لقن عن حقيقة الخطاب، وإنما تواصل المخلوقون باجتباء الله إياهم وقربهم منه ومشيئته

فيهم، فاعلم ذلك.

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله﴾(١) [آل عمران:٥٢] الحرف الذي هو «إلى» في قوله: ﴿إِلَى الله﴾ يشير إلى التأجيل؛ ولذلك قال عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ الله﴾ [الصف:١٤].

كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله﴾ أي: أولى وأحرى.

وقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله﴾ دلت على التأجيل، واسم الله ﷻ على لقائه، أو ما يكون من نحو ذلك ما قد كان النص، فعزروه في الدنيا على ما كان، وبقي عليهم ما أنبأهم به من غيب ذلك، يدل على ذلك ما ذكرناه.

قوله عزَّ قوله: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ [الصف:١٤] وكانت الطائفة التي كفرت اليهود، ومن كان من سواهم ممن تابعهم على كذبهم.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] والذين آمنوا معه - عليهم السلام - فلم يؤيدوا على عدوهم، وإنما يظهروا عليهم بتأييد الله إياهم في جيئته الأخيرة إن شاء الله، فهذه إشارة القرآن العزيز إلى غيبة ذلك، والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ [آل عمران:٥٤] مكرت اليهود عليه بأن يقتلوه بزعمهم، وأبى الله ذلك فمكر له عليهم وهو خير الماكرين، كرمه عن إهانتهم وطهَّره

---

(١) قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله﴾ في الآية أقوال: الأول: إن عيسى ﷺ لما دعا بني إسرائيل إلى الدين، وتمردوا عليه فرَّ منهم وأخذ يسيح في الأرض، فمرَّ بجماعة من صيادي السمك، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا ابنا زيدي وهم من جملة الحواريين الاثنى عشر، فقال عيسى ﷺ: الآن تصيد السمك، فإن تبعتني صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد، فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئًا، فأمره عيسى بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه، واستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤوا السفينتين، فعند ذلك آمنوا بعيسى ﷺ. والقول الثاني: إن قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله﴾ إنما كان في آخر أمره حين اجتمع اليهود عليه طلبًا لقتله. [تفسير الرازي (٤/٢٢٠)].

من رجسهم، وشبه عليهم أمره؛ ليبلغهم من جزاء أعمالهم ما نووه ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ [آل عمران:١١٢] وسخط والله عزيز حكيم.

قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾[1] [آل عمران:٥٥] انتظمت كلمة «إذ» بقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ [آل عمران:٥٤] التقدير: ومكر الله؛ إذ قال: يا عيسى... المعنى إلى آخره.

وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ إشارة إلى التأجيل.

قد تقدم في الأخبار عن النصارى: أجعلك وأجعل من آمن بك واتبعك فوق الذين كفروا، يكون هذا في المستقبل من شأنك والآتي من جيئتيك عند يوم القيامة.

فصل

الوفاة مأخوذ معناها من الوفاء، أو من التوفية ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ [النور:٢٥].

وقد يكون من الإشراف على الشيء، أوفيت على كذا بمعنى: أشرفت، وفينا زيد بموضع كذا يفعل لذا أوفى عليه عمرو، ويخبر عن ذلك فيقال: وافاه بموضع كذا، كأنما المراد منه ﷻ بإيجاد الخليقة في الأرض بعدما ينيلهم مقدوره المقدر

---

(١) قوله: ﴿وَجَاعِلُ الذين اتبعوك فَوْقَ الذين كَفَرُواْ إلى يَوْمِ القيامة﴾ فيه وجهان: الأول: إن المعنى: الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة، فيكون ذلك إخبارًا عن ذل اليهود، وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة، فأما الذين اتبعوا المسيح ﵇ فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون، وأما النصارى فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقته، فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث إن صريح العقل يشهد أنه ﵇ ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال، ومع ذلك فإنا نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود، فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكًا يهوديًا ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة، وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك. الثاني: إن المراد من هذه الفوقية الفوقية بالحجة والدليل. واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ هو الرفعة بالدرجة والمنقبة لا بالمكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة. [تفسير الرازي (٢٢٨/٤)].

لهم وعليهم، فبها الإنباء بما يكون، والإعلام بما هو الحقيقة في الدار الآخرة، وبما يجر إلى ذلك من علم ما هو مغيب عنهم، فمن توفي فقد وفَّى أجله ورزقه وعمله يوفيه، وقد وافاه أجله، وأوفى عليه رسول من عند الله جلَّ ذكره يزعجه من هذه إلى تلك، وبذلك يعلمه مما هو الآن لا يعلمه مما هو مغيب عنه.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِي وَكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١] وهو من أوفى عليه يوفي إيفاءً وتوفية، فهو يتوفاهم يتفعل ذلك دونهم؛ إذ ليس لهم في الموت كسب، ولا فيما يكون عن الموت، فيُوفي ملك الموت المحتضر هو أن يبدي له صفحته ويريه من رؤية الملائكة - على جميعهم السلام - وإعلام الآخرة ما لم يبدُ له قبل ولم يره.

وقد يضيف ﷻ الفعل إليه، فيقول عزَّ من قائل: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ما شاء أن يراها مما يرى النائم ﴿فَيُمْسِكُ الَتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢] فكان توفيته عيسى ابن مريم - صلوات الله عليه - ما أراه في سماواته من عجائب ملكوته وملائكته، وغير ذلك من أحكام رفعه إليه ﷻ.

ويضاد الرفع: الخسف؛ وذلك أن الرفع هو أن يلحق كثيفه بخفيفه فيصعد علوًا، والخسف يلحق خفيفه بكثيفه فلا تطيق الأرض، فتنخسف به ويذهب إلى باطنها، كما كان قبل يرسب في الماء والهواء المرفوع؛ إذ شابه أحكام الرفعة في حال الحياة الدنيا احتمله الماء فمشى عليه، وقد يرفع أن يحتمله في الهواء فيمشي فيه.

قال رسول الله ﷺ: «كان عيسى يمشي في الماء ولو ازداد يقينًا لمشى في الهواء»(١).

فلقد رفعه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فهو الآن يمشي في الهواء، وأمشى ﷻ رسوله محمدًا ﷺ ليلة الإسراء في الهواء ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد (٩٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (١٥٦/٨)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٨٠٢).

الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

والإسراء على ذلك أيضًا، وقرينه النوم، والنائم يبسط حقيقة على ما شاء أن يريه، ويشهده إياه وهو مقيم في موضعه الذي نام فيه.

والإسراء الأعلى: هو أن يلحق ثقيله بخفيفه ويُسار به، فلا تعجزه مسافة بعدت ولا صعود، وإن علا المرتقى ولا سفل، وإن عرب الهواء، وربما كان من عجائب الله ﷻ في ذلك ألا يُفقد في مكانه، ولا يُعدم شخصه في مستقره، وهو في ذلك في الوجود كالملك ﷺ إنه ليكون في مصافه الذي جعله الله فيه، وينزل إلى الأرض بالرسالة من عند ربه ﷻ، أو ما يكون من أمره.

وأدنى الإسراء: أن يكون رؤيا رفعة، وكالنوم المستثقل جدًّا.

والموت: هو أن يفصل بين الخفيف فيطير عنه، والثقيل منه يثبت في المكان.

والذي قتلته اليهود وصلبته وما شبه به عليهم، فظنوا أنه هو وليس به، هذا خبر من الله ﷻ صدق وقول حق **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾** [النساء:١٢٢].

وما ذكر أن عيسى ﷺ وافق بعض أصحابه على أن يجعل عليه شبهه فيُقتل مكانه، فخبر الله أعلم بحقيقته، ولو كان المقتول عدو لهم، فكان يكون لهم بذلك بعض الشفاء وفوز بعض الظفر، وكان يعدم - صلى الله عليه - من أصحابه الذي أوقع شبهه عليه.

وقد جاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل أنه قال لأصحابه - صلوات الله وسلامه عليه - قبل أن يُرفع: «الآن أذهب إلى الذي بعثني، وليس فيكم من يسألني حين أذهب» وهذا يدل من كتابهم أن ذهابه عن أصحابه بغير علم منهم، ولأجل ذلك لم يسأله أحد منهم حيث يذهب؛ إذ لا يعلم حين ذهابه.

قال ﷺ: «وسينفعكم ذهابي؛ لأني إن لم أذهب لا يأتيكم الفارقليط، وإن ذهبت سأبعثه إليكم وسأجيء في الثالث» فظن النصارى أن قوله هذا: «سأجيء في اليوم الثالث» من يوم قتله الذي زعموه، فحكوا على ذلك حكاية إنهم وجدوا القبر الذي دفنوه فيه خاليًا، فذكرت لهم عجوز أنها رأته حين قام من قبره، وكلمها في هذيان لهم كثر، وإنما ذلك على ما جاء به دانيال ﷺ، وقد أراه الله ﷻ وتعالى علوه وشأنه آياتًا وأمورًا هائلة مستغلقة.

قال: فقلت للملك: يا سيدي متى تنقضي هذه العجائب؟ قال: في زمان وزمانين ونصف زمان.

فكان دانيال عليه السلام في زمن شرع موسى - عليهما السلام - وهو الزمان الأول، وزمانين: شرع عيسى عليه السلام وشرع محمد ﷺ، ثم نصف زمان هذه كثرة إقباله ثانية، فذلك نصف زمانه.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٥] رجع الكلام إلى كلام عيسى عليه السلام.

ثم قال: «فستلبثوا يسيرًا ولا تروني، وستلبثون أيضًا يسيرًا وتنظرون؛ لأني منطلق إلى الرب» فمجيئه في الثالث هو مجيئه في زمن محمد ﷺ كما تقدم، وهو ثالث زمان موسى عليه السلام وأربع في العدد؛ إذ هو نصف زمان؛ لأنه آخر لأول تقدم له، وكما شبه عليهم في قتله كذلك شبه عليهم في مجيئه بعد ثلاث، وهذا كله يثبت أن المقتول المصلوب هو المثال المشبه به عليهم.

وكما يقع المغتاب في عرض أخيه المؤمن وهو لا يحس ذلك، ولا يشعر به ما لم بلغ إليه، وكذلك هو المقتول المصلوب بهذه المنزلة، ولم يحس عيسى عليه السلام منهم كما المغتاب من عقوبته في دار البرزخ أن يطعم لحم المظلوم بذلك، ولا يكون عذابًا للمظلوم، فأظهر الله ﷻ من مقدوره الغائب حقيقة ذلك شخصًا ظاهرًا جعل عليه شبهه.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣].

﴿وَتَمَّتْ﴾ على ذلك ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

وذكر أيضًا في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل أنه عليه السلام أخذ ثلاثة رجال من حواريه سماهم بأسمائهم، ثم صعد بهم في جبل منيف دون أصحابه، قالوا: وبدل صورته لهم، وأشرق وجهه إشراق الشمس المنيرة، وصارت كسوته أنصع بياضًا من الثلج، وتراءى لهم موسى وإلياس - عليهما السلام - وهما يحدثانه، فقال أحد الحواريين لعيسى: يا سيدي ما أحسن بنا المكث في هذا المكان، فإن كان يوافقك

نصبنا هنا هنا ثلاث قباب لكل منهم قبة.

فبينا هم كذلك إذ أظلتهم سحابة بيضاء، ونادى من السحابة صوت: هذا عبدي الحبيب الذي ارتضيته فاسمعوا له، فلما سمع التلاميذ جزعوا وخروا سُجدًا على وجوههم، فتدانى منهم عيسى عليه السلام، وقال: قوموا ولا تخافوا، فعند قيامهم لم يبصروا إلا عيسى - صلوات الله عليه - وحده، ثم قال لهم عليه السلام: سيأتي الناس ويجبر الصدع.

فهذا كتابهم يخبرهم بأنه رفع من بينهم، ولم يبقَ إلا ما شبه به عليهم، وأن الصوت قد بلغ به إليهم عهدًا، وجدد به لهم ذكرًا، وأمرهم أن يسمعوا وهم لا يعقلون.

واتفق هذا مع ما جاء به القرآن العزيز أنه ما قتلوه ولا صلبوه، وأنه رفعه الله ﷻ إليه، وأنه شبه عليهم لو كانوا يؤمنون.

ولما نزلت الآية التي في سورة الأنبياء - عليهم السلام - قوله: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ...**﴾ [الأنبياء:٩٨] إلى قوله: ﴿**وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ قال ابن الزبعرى: أنا أخصم محمدًا، وأكثر في ذلك من القال.

فلما كان من غد ذلك اليوم وأصبحت قريش إلى بواديها عند الكعبة، قال لرسول الله ﷺ: يا محمد أنت تزعم أن الله أنزل عليك ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ [الأنبياء:٩٨] فقد عبدت النصارى المسيح عيسى ابن مريم، وعَبَدَ غيرهم الملائكة، أفتقول: إن هؤلاء في جهنم؟ فأنزل الله جلَّ ذكره: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ...**﴾ [الأنبياء:١٠١] إلى قوله: ﴿**وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٣].

وأنزل الله جلَّ ذكره في ذلك في ذمِّهم: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾ [الزخرف:٥٧] برفع الصاد من الصَّد عن سبيل الهدى، وبكسر الصاد يصِدون: يكثرون الصياح والكلام، ما ضربوه لك إلا جدلاً.

إلى قوله: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ**﴾ [الزخرف:٥٩-٦٠] فأخذ ﷻ بالشفاء ما في الصدور، ولو شاء لجعل منا على ما نحن عليه من نسل آدم ملائكة في الأرض

يخلفون، ذلك عليه يسير هين، وهو على كل شيء قدير.

المِثل والمَثل والمثال: هو نفس الشيء الذي هو مثل له بوجه، وبوجه آخر ليس به، يعبر بأحدهما عن الآخر، وهذا موجود في القرآن العزيز.

العبارة بالرسول عبارة عمن اتبعه واهتدى به واقتدى، فالرسول مثل لمن أُرسل إليه فاهتدى به؛ إذ المهتدون يمتثلون أمره ويستنون بسنته، ويعملون بعمله؛ ليكونون منه ويكون منهم، فكان عيسى عليه السلام مثلاً لبني إسرائيل، ولما لم يهتدوا به رفعه الله عنهم، وأبدل فيهم مثلاً له، وزين لهم الشيطان سوء عملهم فعزموا على قتله وصلبه بزعمهم، فمكر الله بهم والله خير الماكرين، ولن يضر الله شيئًا ولا رسوله، والحمد لله رب العالمين.

أنفد لهم عزمهم فما ضرهم، وطهَّر رسوله عليه السلام برفعه من بينهم، وأورث ذلك الضلال خلفهم؛ ليبقى على الأولين أوزار الآخرين، ويلحق الآخرين شؤم الأولين بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٥٧].

يقول الله وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ...﴾ [النساء:١٥٧] إلى قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨].

فصل

ذهب الأكثر من المعتبرين وأهل الكلام على اللسان العربي أن اشتقاق الحواريين من الحواري؛ وهو البياض، وقالوا: إنهم كانوا يبيضون الثياب يقصرونها، فسموا من أجل ذلك بالحواريين، والأشبه في اشتقاقه أن يكون مشتقًا من الحور الذي هو الرجوع.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: ظن أن لن يرجع معاد إلينا.

وأما قولهم: «سميت الحواري؛ لبياضها» فليس إلا لأنها حارت إلى ذلك، وقد كان أولها في منبتها أن تتمحص لنا بها بالماء والأرض، ثم يخرج الله ﷻ عنها نباتها، فعادت باستعمالها وتخليصها من قشرها، ونخالتها إلى ما كان أصلاً لها.

وسميت الحوراء: «حورًا» لأنها حارت؛ أي: كانت حية في دار الدنيا، ثم ماتت وحارت راجعة بعد الحياة الآخرة.

ثم سموا نساء الجنة بذلك الاسم؛ إذ كل نسائها تبع للحائرات منهن - أعني: نساء الدنيا - وإنما خلقت الجنة للإنس والجن وسائر موجوداتها تبعًا لما خلقتا من أجله، كذلك خلقت النار لكفارهما، نعوذ بالله منها.

كذلك الحواريون مأخوذ اسمهم من الحور الذي هو الرجوع، وتسمية الله الذي هو الرجوع الأسماء ليست لصناعات الدنيا، بل هي على الأغلب لما وجدت له من عمل بأول الآخرة أو شقاوة أو سعادة أو ما إلى ذلك، وتصريف ذلك من حار يحور حورًا؛ أي: رجع، فإذا أنسبته فهو حاري على وزن فعلي، وحواري على وزن فعالي.

ولما ندب الناس رسول الله ﷺ - أعني: المسلمين - ليلاً في غزوة الخندق، فكانت ليلة شديدة البرد كما وصفها الله جلَّ ذكره ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩] فقال ﷺ: «**من يأتني بخبر القوم؟**» فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير ﷺ وعن جميعهم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبي حواري وإن حواريّ الزبير**»[١] ذلك لانتدابه مرة، ثم رجع انتدب ثانية، ثم رجع فانتدب ثالثة.

و﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ [الصف:١٤] ولم يجدوا سبيلاً إلى نصرته يومئذٍ؛ ليغلب الكفار والفاسقين يومئذٍ، ولم يبلغ وقت نصرتهم بعد، وكانت نعمة من الله ﷻ عليهم فرفعه من بينهم، وحين جيئته الآخرة ﵇ يأتي أيدًا مؤيدًا بروح القدس.

كما قال ﷺ: «فلا يحل للكافر يجد ريح نَفَسه أن يعيش»[٢].

وكما أنبأك أشعياء ﵇ من أمره: كفوا عن المرء الذي الروح في منخريه، فإنه هو العلي.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**بينا أنا نائم عند البيت رأيت رجلاً أدمًا كأحسن ما رأى**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٣)، ومسلم (٢٤١٥)، وأحمد (١٤٦٧٥)، والترمذي (٣٧٤٥)، والحاكم (٥٥٥٨)، وابن أبي شيبة (٣٢١٦٨)، والطبراني (٢٢٨)، وعبد بن حميد (١٠٨٨)، وابن ماجة (١٢٢)، وابن عساكر (١٨/٣٦٠).

(٢) لم أقف عليه. وهكذا اللفظ في الأصل.

راءٍ من أدم الرجال، له لمة كأحسن ما رأى راءٍ من اللمم، يقطر رأسه ماء - أو يهراق ماء - متوكئًا على عواتق رجلين أو على منكبي رجلين، فقلت: من هذا؟ قيل: هذا المسيح ابن مريم، ثم رأيت خلفه جعدًا رُجلاً قططًا [ممتلأ] [١] الجسم، أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية، متوكئًا على عواتق رجلين أو على منكبي رجلين، فقيل: من هذا؟ فقيل: الدجال»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنه يبعث معه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء، فيلقى الرجل فيقول: ألست بربكم؟ ألست أحيي وأميت؟! فيقول له الملك الذي عن يمينه: كذبت، فلا يسمعه أحد، فيجيبه الآخر الذي عن شماله ويقول: صدقت، يسمعه الناس، وهو إنما يصدق صاحبه في قوله: كذبت**»[٣].

وقال في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل: سيكون يومئذٍ حزن لم يكن من ابتداء الدنيا ولا يكون، ولولا قصر تلك الأيام لم يسلم أحد من الناس، ولكن قللت تلك الأيام لأجل الصالحين.

فأشبه هذا قول رسول الله ﷺ: «**السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كاحتراق السعفة**»[٤].

رجع الكلام: فمن قال لكم يومئذٍ: إن المسيح ها هنا أو هناك فلا تصدقوه، فإنه سيأتي من يشبه بالمسيح وبالأنبياء، ويأتون بآيات عظيمة حتى يشك من يظن به صلاح، فقد أنذرتكم، فإن قيل لكم: هو في المفاز، فلا تخرجوا إليه، وإن قيل لكم: هو مخفي، فلا تخرجوا إليه، فإن فارًا من الإنسان سيخرج مخرج البرق الذي يندفع من المشرق فيرى في المغرب، فحيثما كان الجثمان فإليه تجتمع العقبان.

---

(١) في الأصل (موثواء) وهو لفظ غريب.

(٢) أخرجه مالك (١٦٧٥)، والبخاري (٥٩٠٢)، ومسلم (٤٤٣)، وأحمد (٦٢٤٣)، والطبراني في الأوسط (١١٢٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٥٣٣٠)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٩١)، وابن حبان (٦٣٣٧). اللمة: الشعر المتدلي الذي جاوز شحمة الأذنين، فإذا بلغ المنكبين فهو جمة.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٩٧٩)، والطبراني (٦٤٤٥)، وابن عساكر (٢/٢٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٠٩٥٦)، وأبو نعيم في الحلية (٩/٥٩)، وابن حبان (٦٨٤٢)، وأبو يعلى (٦٦٨٠)، والديلمي (١٣٠٦). السعف: ورق النخل وجريده.

وبعد انقراض ذلك الحزن تظلم الشمس، ويبلى يومئذٍ جميع أجناس الأرض، وينظرون إلى الملك مقبلاً في سحاب السماء في قدره عظمة شديدة.

فصل

جاء عن رسول الله ﷺ في مسيح الهدى ﷺ وفي مسيح الضلالة - لعنه الله وكبته وقصر مدته - ما جاء، وإنه ينبعث معه الشياطين أمثال الآباء والأمهات، وإنه يجيء معه ملكان أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله يشبهان نبيين من الأنبياء.

وأما الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل، فإنه أشار بل كاد أن يصرخ بأن أحدهما يشبه عيسى ابن مريم في قوله: ها هو المسيح ها هنا أو هناك فلا تصدقوا، فإنه سيأتي من يشبه المسيح، وبالأنبياء ويأتون بآيات عظيمة حتى يشك من يظن به صلاح، فإن كان هكذا، فإن النبي الآخر المشبه به هو محمد ﷺ؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**يمكث أربعين يومًا فعاث يمينًا وشمالاً، يا عباد الله أثبتوا**»[١] وكيف بالثبات إلا من عصمه الله؟! حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا.

وجاء أيضًا عن رسول الله ﷺ: «**إن أهل الكهف يبعثون معه**»[٢] واعتقد ذلك أولو العلم ممن سلف.

ويدل على صحة ذلك قول رسول الله ﷺ: «**من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»[٣].

وآخر هذه العشر آيات: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف:١٣] إلى ما يكون اختلاف في عدد الآي، فيكون معنى قوله ﷺ: «**من قرأهن عصم من الدجال**» لقرب [وقت][٤] بعثهم، وما تجر إليه

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وابن ماجة (٤٢١٣)، وأحمد (١٨٠٩٦)، والطبراني (٧٦٤٤)، وفي الشاميين (٨٦١)، والحاكم (٨٦٢٠) وقال: صحيح على شرط مسلم، وأبو نعيم في المعرفة (٥٨٣٧). عاث: أفسد.

(٢) لم أقف عليه هكذا.

(٣) أخرجه مسلم (١٩١٩)، وأحمد (٢١٧٦٠)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٨٧)، والحاكم (٣٣٩١) والبيهقي (٥٧٩٣).

(٤) في الأصل (تركه).

الشواهد من ذلك الزمان.

وجاء عنه أنه قال: «**من قرأ أواخر سورة الكهف عصم من الدجال**»[(١)] ومن أواخر آياتها ذكر الخضر وذي القرنين عليهما السلام، ومصداق هذا تسميته ﷺ إياه: «ذي القرنين».

يشير إلى هذا المعنى قول رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب ﵁: «**وإنك لذو قرنيها**»[(٢)] يعني: الأمة؛ أي: إنك خليفة في أولك ونسلك خليفة في آخرها، وفي هذا اعتقد قوم أنه حي، وأنه تكون منه رجعة فيفعل ما يفعل الوصي، فإنهم ادعوا أن رسول الله ﷺ جعله وصيًّا وهذا لم يثبت، وإنما يكون في نسله، ومنهم يكون الرجل الصالح المهدي المبشر به، فهذا أوقع أولئك في هذيانهم من قولهم بالرجعة.

وكان ذو القرنين ﵇ هو الذي بنى السد دون يأجوج ومأجوج، فمنعهم ذلك من الانبساط على الأرض، وقال ﵇ لما فرغ: ﴿**هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**﴾ [الكهف:٩٨].

والإشارة في قوله: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي**﴾ فجعله وعدًا، وإنما كان في حقه وعدًا لما وعد به من النصر لدين الإسلام يومئذٍ، فإخبار رسول الله ﷺ بخروجهم، وهذا إنذار في حق هذه الأمة، وليس بوعد في جنتهم.

فصل

لعل من سمع ما تكلمنا به يحسبه هذيانًا؛ لخروجه عن المعهود، فلا يتعسرن عليك هذا - رحمك الله - فإنه الجد ليس بالهزل، وما تكلمنا به فلم يعدم إذًا خطاب القرآن وحديث رسول الله ﷺ، وإن كان الأكثر في غفلة عما يراد بهم، فعليك بالإيمان والتسليم، ولم يُجعلا - أعني: مسيح الهدى عيسى ابن مريم ﵇، ومسيح الضلالة لعنه الله - كل واحد منهما إلا آية، وأعظم دلالتيهما على أمر

(١) أخرجه مسلم (٨٠٩)، وأحمد (٢٧٥٥٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٨٦)، وابن حبان (٧٨٥)، والروياني (٦١٣)، والخطيب (١/٢٩٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢٢٧)، وأحمد (١٣٧٣)، والحاكم (٤٦٢٣) وقال: صحيح الإسناد، وابن حبان (٥٥٦٨)، والطبراني في الأوسط (٦٨٥)، وأبو نعيم في المعرفة (٣٢٥).

الساعة والبعث وما فيما هنالك، فافهم.

قال رسول الله ﷺ وذكر عشر آيات قبل قيام الساعة: «**أولها: طلوع الشمس من مغربها**»[1] وطلوع الشمس من مغربها إشارة من الله - جلَّ ذكره - بأن يوم الدنيا قد يُقضى، ويوم القيامة قد أظل.

ولذلك قال إبراهيم عليه السلام للجبار الذي حاجه في ربه لما قال: أنا ربك، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ [البقرة:٢٥٨] فكان ذلك علمًا للدجال في نبوة إبراهيم، كما كان السامري علمًا له في نبوة موسى - صلى الله عليهما - كما كان ابن صياد علمًا في نبوة محمد ﷺ وعلى جميعهم.

فأجاب إبراهيم عليه السلام ذلك الجبار بقوله عليه السلام: ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ أي: إن هذا لا يتهيأ لك إلا بأن تطلع الشمس من مغربها ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ [البقرة:٢٥٨] لعجزه عما كسر به حجته عليه، وبقي بنا إبراهيم صلوات الله وسلام عليه متوجهًا إلى معنى ما تقدم.

وروى إياس بن عبد الله المزني قال: غزونا مع رسول الله ﷺ أول غزاة غزاها - غزوة الأبواء - حتى إذا كنا بالروحاء نزل بعرق الظبية فصلى، ثم قال ﷺ: «**أتدرون ما اسم هذا الجبل؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا حمت جبل من جبال الجنة، اللهم بارك فيه وبارك لأهله فيه**».

وقال للروحاء: «**هذا سجاسج وادٍ من أودية الجنة، لقد صلى في هذا المسجد سبعون نبيًا، ولقد مرَّ بهذا موسى عليه السلام عليه عباءتان قطويتان على ناقة ورقاء، في سبعين ألف من بني إسرائيل حاجين البيت العتيق، ولا تقوم الساعة حتى يمر به عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله حاجًا أو معتمرًا، ويجمع الله له ذلك**»[2].

قال كثير: فحدثت هذا الحديث محمد بن كعب القرظي، فقال لي: ألا أرشدك في حديثك؟ قال: قلت: بلى، قال: كان رجل يقرأ التوراة والإنجيل فأسلم فحسن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠١)، والطيالسي (١٠٦٧)، وأحمد (١٦١٨٨)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢١٨٣) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (١١٤٨٢)، وابن ماجة (٤٠٥٥)، وابن حبان (٦٧٩١)، وعبد بن حميد (٣٢٦).

(٢) أخرجه الطبراني (١٣٤٩٠)، وابن عدى (٥٨/٦).

إسلامه، فسمع هذا الحديث من القوم، فقال: ألا أرشدكم في هذا الحديث؟ قالوا: بلى، قال: أشهد أنه لمكتوب في التوراة التي أنزلها الله على موسى، وأنه لمكتوب في الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم عبده ورسوله، وإنه يمر بالروحاء حاجًا أو معتمرًا، ويجمع الله له ذلك، ويجعل حواريه أهل الكهف يمرون معه حجاجًا، فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا، من إسناد أبي يحيى عبد الله بن أبي ميسرة.

وفي الذي روى عن رسول الله ﷺ أنه رآه على عواتق رجلين أو على منكبي رجلين لمن لقن الخطاب أعظم دليل أنه محمول مؤزر بحمله، من شاء الله هدايته في الدنيا وشهد له.

وذكر في مسيح الضلالة - لعنه الله - أنه متكئ على رجلين أو على عواتق رجلين، وقد مضت الإشارة في المشبهين بهما، فهو على حالة التهمة المحيلة محمول على مؤزر لا يراه على حقيقته من نقص وغدر وكذب وكفر إلا أولوا اليقين التام والعلم والعصمة.

وإلى هذه الدقيقة الإشارة بقول رسول الله ﷺ: «**بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن**»(١) يعني: كامل الإيمان تام اليقين رصين العلم.

وقوله ﷺ: «**يا عباد الله، فاثبتوا حين يأتيكم أمر الله**»(٢) فيكشف لكم عن تخييله وباطله وتوصيته؛ لثبوت أن الحق بأيديكم والباطل والتخييل عنده.

وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل: قال ﷺ: لو لم أقبل عذرًا لهم لم يكن قبلهم ذنب، ولكن لا عذر لهم اليوم، فلو لم أطلع عندهم من العجائب ما لم يطلع غيري لم يكن لهم ذنب، فإذا أقبل الفارقليط الذي أبعث إليكم من عند ربي الروح الصادق المنبثق من الرب، هو يؤدي الشهادة عني وأنتم تشهدون؛ لأنكم معي من أول الأمر، وإنما أقول لكم هذا؛ لئلا يواقعكم الشك.

ومن نظر في قول الله ﷻ في الثلاثة الأمثال، من لدن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٣)، ومسلم (٢٩٣٣)، وأبو داود (٤٣١٦)، والترمذي (٢٢٤٥) وقال: حسن صحيح، والطبراني (٤٣٠)، وأحمد (٢٥١٣٣)، والحاكم (٨٦١٤)، وإسحاق بن راهويه (٩)، وابن عساكر (١٩٦/٦٢).

(٢) تقدم تخريجه.

حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة:٢٥٨] إلى آخر المثل المضروب لإبراهيم عليه السلام.

قوله: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] وليضف إلى ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ وفيما بين ذلك وقف على تبيان الأمثال مع إعلام الأنباء والأخبار.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٥٦-٦٤].

قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨] نبّه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه على ما قصه من قصص، وعلمه من علم، وأودعه من حكمة ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:٥] والآيات هنا ما نص عليه، وما عرَّض به، وأعرض إليه في القرآن العزيز والذكر الحكيم هو - والله أعلم - ما تلاه عز وجل من اصطفائه إبراهيم وآدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، وبخاصة ما تلا علينا عز وجل من ذكر مريم وابنها عيسى، وزكريا وابنه يحيى - عليهم الصلاة والسلام - وما هما مؤهلين له في المستقبل.

وهذا كله منتزع من الذكر الحكيم، الذي قال جلَّ قوله للقلم: «اكتب علمي في

خلقي»[1] أحكمت آياته، ثم فصلت إلى ما فصلت إليه، ثم إلى ما فصلت على لسان رسول الله ﷺ، ثم على ألسنة العلماء من أمته.

قال الله ﷻ: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل:٤٤].

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ...**﴾[2] [آل عمران:٥٩] المَثل والمِثل كالشبه والأثر والبدل، والبدل: العشق، والمثل: نفس الشيء، وهو ما يعبر عنه بالمثل [والعين والشبه] ونحو هذا، وكذلك المثال: مثال الشيء: صفاته وما هو منه، وبه قرأ علي بن أبي طالب وطلحة بن مصرف - رضي الله عنهما: ﴿**مَّثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ**﴾ [الرعد:٣٥].

ويروى عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أيضًا: «**أمثال الجنة**».

وبالجملة: فالمثل هو ما يشبه به الشيء؛ ليفهم، فيضرب له مثلاً من غيره يكون ذلك المضروب به المثل معلومًا عند المضروب له المثل، فيُفهِّم ذلك المجهول بالمعلوم، فضرب الله ﷻ مثلاً للجنة التي غيبت عنا بما هو عندنا معهود بأنهار من

---

(١) ما بين [ ] مضطرب غير واضح بالأصل، ولعل المثبت أقرب للصواب، والله أعلم.

(٢) قال القرطبي في «تفسيره»: دليل على صحة القياس، والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب، والشيء قد يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد، فإن آدم خلق من تراب، ولم يخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أب، ولأن أصل خلقتهما كان من تراب؛ لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طينًا، ثم جعله صلصالاً، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوله من حال إلى حال، ثم جعله بشرًا من غير أب، ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبي ﷺ قوله: «إن عيسى عبد الله وكلمته» فقالوا: أرنا عبدًا خلق من غير أب، فقال لهم النبي ﷺ: «آدم من كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم ﷺ ليس له أب ولا أم» فذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ**﴾ أي: في عيسى ﴿**إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ في آدم ﴿**وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾ [الفرقان: ٣٣] وروي أنه ﷺ لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: «كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولدًا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب» فقالوا: من أبو عيسى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ [آل عمران: ٦١] فدعاهم النبي ﷺ فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم نارًا، فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: «الإسلام أو الجزية أو الحرب» فأقروا بالجزية.

ماءٍ ولبن وعسل وخمر، وأن فيها من كلِّ الثمرات.

هذه هي صورة الدنيا غير أنها لا تطيب للمؤمن إلا رضوان الله ﷻ ومغفرته، فضمن ذلك المثل فهو خير من جهةٍ ما، وتقريب الأفهام من أخرى، ولما كان ما هنا من موجود أنهار ماء ولبن وعسل وخمر ورضوان وجنات ونعيم أصل من موجود الجنة، كان مثلاً ومثالاً؛ إذ الدار الآخرة لهذه الدار الدنيا بالإضافة إلى وجودها، كالقافية والأولى والمثال وما يعبر عنه به.

وعلى القول بالتحقيق فإن هذه الدار التي هي حجاب وحاجز ومثال وآل للدار الآخرة، وهذه الحياة حجاب وحاجز دون الحياة الوسطى التي هي أول لتلك الحياة الآخرة، ومثال لها وآل، ولولا هذه لكانت تلك، وإنما الدار الوسطى - أعني: البرزخ - محله ينزل فيها الأولى حتى بعدم الآخرة.

وعلى هذا فهي - أعني: الوسطى - أكبر من هذه جدًا وأوسع وأحق حقيقة، وهي صغرى بالإضافة إلى الدار الآخرة رجع الكلام، ولأجل هذه المقاربة أشكل على بعضهم، فقال: المَثل: الخبر، والمِثل: الشبه، والمثال أيضًا: المماثلة، والمثال: الفراش، وجمعه: مُثُل.

وفي الحديث من وصف الجنة: «**يفرش لأحدهم سبعين مثالاً، على كل مثال حوراء تفوق الشمس حسنًا**»[1].

والتمثيل: التشبيه، والتمثيل أيضًا: المثلة، والمثلة: العقوبة.

قال الله ﷻ: ﴿**وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ**﴾ [الرعد:٦] والمثول: القيام، ومنه: «من أحب أن يمثل له الرجال صفوفًا» يعني: قيامًا.

ومنه: «تماثل فلان من مرضه» إذا أفاق، والماثل: اللاطي في الأرض.

ومنه: قول الشاعر:

ومـــــنها مـــــستبين وماثـــــل

والأماثل: الأشابه، وفي الحديث: «**أشد الناس بلاءً: الأمثل فالأمثل**»[2].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢١٥)، وأحمد (١٤٨١)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٧٨٣)، =

وأماثل القوم: أعيانهم، والطريقة المثلى: المستقيمة، والتمثال: الصورة، والجمع: تماثيل، وقد يكون مثل الشيء نفسه.

قال الله ﷻ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة:١٣٧] أي: بما آمنتم به.

وقال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] أي: ليس كهو شيء؛ لأنه لا مثل له ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

قال جلَّ قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

وأما تشبيهه ﷻ عيسى بآدم - صلوات الله وسلامه عليهما - بحرف التشبيه، وما ماثل ﷻ بينهما من أجله، فلذلك لو كان وافق بينهما في أصل الخلقة ومعاني صفات لهما.

ذكر بعض المفسرين من أهل التحصيل والنظر في معاني القرآن أنه وجد عيسى شبيهًا بآدم عليه السلام في خمسة عشر خصلة؛ أشبهه في التكوين كانا بعد أن لم يكونا، وفي أنهما مخلوقين من العناصر التي ركب الله عليها الدنيا، وتساويا في فقد الأب، وفي العبودية، وفي النبوة، وفي المحنة؛ وذلك أن عيسى عليه السلام قاسى من اليهود ما قاسى، وعانى منهم ما عاناه، وعارضه إبليس - لعنه الله - في المقار، وقاسى آدم عليه السلام من إبليس ما قاساه، وكانا معًا يأكلان ويشربان، وتساويا في الفقر والفاقة إلى الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] فنسله يخرجه ﷻ بعضهم من بعض إلى أن تقوم الساعة.

وتساويا في التركيب والتأليف، وتساويا في الأجزاء والأبعاض، وتساويا في الرفع والإنزال، وذلك أن آدم عليه السلام رفع إلى الجنة ثم أنزله إلى الأرض، ورفع عيسى عليه السلام، وسينزل إلى الأرض ونزوله من أشراط الساعة.

=

والترمذي (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٤٠٢٣)، وابن حبان (٢٩٠١)، والحاكم (١٢١).

وتساويا في الإلهام؛ حيث قال آدم لما عطس: «الحمد لله»، وقال عيسى عليه السلام لما خرج من بطن أمه: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ﴾ [مريم:٣٠].

وتساويا في العلم؛ بيان ذلك: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] وقال - جلَّ من قائل - في عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٤٨].

وتساويا في نفخ الروح فيهما، وتساويا في الموت ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [العنكبوت:٥٧] فنال بهذه الفائدة الكاف والتشبيه، وإلى هذا كله فإني أرى - والله أعلم - أن التمثيل المقصود بالإخبار عنه، والتشبيه هو أن هذا كله له، وهذا كله له، خلق جل جلاله آدم من تراب، ثم قال: «كن» كإرادتي فيك ومشيئتي منك فكان، ثم هو يكون إلى قيام الساعة.

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ فنسله جل جلاله يخرجه جل جلاله بعضه من بعض إلى أن تقوم الساعة، كذلك خلق جل جلاله عيسى عليه السلام حين نفخ الروح في مريم - عليها السلام - بكلمة ألقاها إلى مريم أن كن بمشيئتي منك وإرادتي فيك فكان، ثم هو يكون إلى أن ينزله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه إلى الأرض حكمًا مقسطًا وإمامًا عدلاً؛ ليتم جل جلاله بكلمة فيه إلى أن يقبضه عليه السلام، وهذا هو المقصود.

والله يقول جلَّ قوله: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

وإنما تولى الإخبار عن آدم عليه السلام، واجتزى به عن الإخبار عن عيسى عليه السلام، وما تقدم ذكره من قول المفسرين، فهو أيضًا حق وصدق.

وما يدل على نزوله إلى الأرض القرآن العزيز؛ قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً﴾(١) [آل عمران:٤٦] فقد تقدم تكليمه إياهم في المهد، ويبقى عليهم

---

(١) فيه مسائل: أولاً: أن تكلمه حال كونه في المهد من المعجزات، فأما تكلمه حال الكهولة فليس من المعجزات، فما الفائدة في ذكره؟ والجواب من وجوه: **الأول:** أن المراد منه بيان كونه متقلبًا في الأحوال من الصبا إلى الكهولة والتغير على الإله تعالى محال، والمراد منه الرد على وفد نجران في قولهم: إن عيسى كان إلهًا. **والثاني:** المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة في المهد لإظهار طهارة أمه، ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة. **والثالث:** قال أبو =

أن يكلمهم كهلاً؛ لأنه ﷺ رُفع قبل أن يبلغ الكهولة، بل كان رفعه في سن الثلاثين ونحوها صلوات الله وسلامه عليه.

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا...﴾ [آل عمران:٦١] إلى قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:٦٣] فينتظم هذا بما تقدم ذكره مجاورةً ومعنى.

أما المعنى كما استصحب ذكره من إثبات عبوديته وخلقته إياه، وإنه عبده بمثابة عبودية آدم عليهما السلام.

قال جلَّ قوله: ﴿جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] والذين امتروا في عيسى ﷺ هم اليهود وكذبوه وردُّوا أمره، ثم النصارى غلوا فيه وقالوا قولاً عظيمًا.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٦١] عيسى بعدما أعلمناك به هذا الحق فباهلهم، ثم علمهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كيف المباهلة؛ وهو أن يقول وقد جمع الرجال والنساء والأبناء، ثم يقول المبتدئ والله: إن هذا الذي أنزله الله من قصصه في عيسى ابن مريم ﷺ لحق: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦٢] العزيز عن افترائكم العلي عن عظيم كذبكم، وجهلكم الحكيم في حكمه وتنزيله، فلعنة الله على الكاذبين.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [آل عمران:٦٣] عن المباهلة، والمباهلة: الابتهال إلى الله ﷻ

=

مسلم: معناه أنه يكلم حال كونه في المهد، وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة، وذلك لا شك أنه غاية في المعجز. **الرابع**: قال الأصم: المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.
ثانيًا: نقل أن عمر عيسى ﷺ إلى أن رفع كان ثلاثًا وثلاثين سنة وستة أشهر، وعلى هذا التقدير فهو ما بلغ الكهولة. الجواب من وجهين: الأول: بينا أن الكهل في أصل اللغة عبارة عن الكامل التام، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين، فصحَّ وصفه بكونه كهلاً في هذا الوقت. والثاني: هو قول الحسين بن الفضل البجلي: إن المراد بقوله: ﴿وَكَهْلاً﴾ أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان ويكلم الناس ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه ﷺ سينزل إلى الأرض. [تفسير الرازي (٤/٢١٠-٢١١)].

بالدعاء والتضرع في فصل الحكم هنا وسؤال الحاجة، فإن الله عليم بالمفسدين، وهذه الآية أصل الملاعنة، ومصداق لما بيَّنه رسول الله ﷺ من ذلك، ويمكن أن يكون ذكره صفة العزة في الآية بجعل عباده للمباهلة، هو العزيز فلا تناله الأحكام، الحكيم في حكمته، له المثل الأعلى في السماوات والأرض.

فصل

ثم أمر ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه نبيه ﷺ بأن يصرف الخطاب إلى الكتاب دعاء إلى الله ﷻ، وإلى إعطاء كل ذي حق حقه من السواء والعدل في العبودية، وإفراد الوحدانية لله وحده لا شريك له، وجدلاً ومحاجة في الاقتداء بالأولى، وسلوك الطريقة المثلى، ونصحية لله جلَّ ذكره ولرسوله ﷺ ولكتابه مع التبليغ إلى الاتباع، وتوبيخًا لهم أن أوتي أحد مثلما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم، تكتمون الحق وتلبسونه بالباطل، وتؤمنون بما أنزل الله على رسوله وجه النهار وتكفرون آخره؛ ليرجع بزعمهم من آمن عن إيمانه، ويثبت من كفر على كفره، وأنتم تعلمون أن الهدى هدى الله.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٧٤].

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [آل عمران:٧٣-٧٤].

ثم هكذا يكسر ﷺ عنهم مذاهبهم، ويغلب الحجاج عليهم، ويؤنبهم على ترك الوفاء بالعهد.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٥-٧٧].

ويوعد على ذلك أشد الوعيد بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً...﴾[1] [آل عمران:٧٧] إلى قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٧].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٧٨-٨٠].

---

(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أولئك لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخرة﴾ أنها نزلت فيمن أخذ مالاً بيمينٍ فاجرةٍ. ورُوِي عن النَّبي ﷺ: «إنَّ الله يُؤَيِّد هذا الدِّين بأقْوَامٍ لا خَلَاقَ لَهُم» ومعنى ذلك على وجوهٍ: أحدها: إنَّه لا خلاق له في الآخرة إلّا أن يَتُوب. الثاني: لا خلاق له في الآخرة إلّا أن يَعْفُوا الله عنهُ. والثالث: لا خلاق له في الآخرة كخلاق من سأَلَ الله تعالى لآخرته، وكذلك لا خلاق لمن أخذ مالاً بيمينٍ فاجرةٍ كَخلاق من توَرَّع عن ذلك، ونظير هذه الآيةِ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. [تفسير اللباب لابن عادل (٤٥٦/٢)].

ثم ضرب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وجه الخطاب إلى معنى ما تقدم من ذكره، من اللبس والكتمان، وتبديل الوحي وإنزاله عن منازله، والكذب على الله ﷻ وكتابه ورسوله وهم يعلمون الحق، ثم صرف وجه الخطاب أيضًا إلى ما تقدم من معنى المحافظة على دين الإسلام، والتمسك بالتوحيد الخالص، والتبري من أن يكون أنزل به سلطانًا، ومن رام ذلك دعا إليه كائنًا من كان بقوله جلَّ قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران:٧٩].

والمراد الأول بذلك عيسى ابن مريم وعزير وكل الأنبياء والملائكة صلوات الله وسلامه على جميعهم، والعلماء بل الذي أمرهم أن يقولوا الأتباع: كونوا ربانيين؛ أي: طائعين لله عابدين له عاملين بما يحب ويرضى، والتزموا ذلك ذكرًا وقولاً وعقدًا وعملاً حتى يعرفون به وينتسبون إليه، ومن أكثر من شيء عرف به، واعلموا ذلك وأَعلِموا به وادرسوه ودرِّسوه إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠].

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾[آل عمران:٨١-٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...﴾ [آل عمران:٨١].

الميثاق: ما استوثق به من شهود على المستوثق منه أو يمين، والعهد والوصية

فيه من معنى الميثاق حكم اللزوم والارتباط والعهود كثيرة، والأهم منها عهد الربوبية، ويقابله عهد العبودية، وفي ضمن عهد الربوبية التوحيد عقدًا وقولاً وعملاً، ثم ينبسط على المعرفة بأسماء الله وصفاته، وما يجوز عليه وما يستحيل لديه.

وعهد النبوة منطوٍ في العهد الأول، وفي عهد النبوة ومعرفة خاصة النبوة، والفرق بين المرسل والمدّعي والمتنبئ والنبي في النبوة وصف يلحق بالنبوة، وقد تقدم ذكره، ويأتي عليه الإنباء؛ لأنه من صفاتها، والمقصود بهم في الإرسال إلى العباد: التبليغ عن الله جلَّ ذكره والتبيين عنه.

ثم ينبسط هذا العهد على معرفة الشرائع ومناهج الإسلام كلها، وسبل المحنة والابتلاء، ومعرفة الجزاء العاجل والآجل، والمقصود المراد بالمرسل أحد المعنيين السمع والطاعة، وحسن الاقتداء والإيمان والإسلام، ثم التبليغ وإقامة الحجة والإعذار والإنذار؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ثم عهد العلم والمراد به من العالم: التبليغ والاتباع والتبيين، والرفق بالمتعلمين، والصبر على إقامة ذلك، ومقابلتهم من العلم بما تحتمل أفهامهم وعلى مقدار منازلهم وأحوالهم، فالعهد الأول منتظم للثاني والثالث كما العهد الثاني منتظم للثالث.

وكذلك ما خاطب القرآن العزيز على نحو ذلك حتى إن ذكر الأعلى طوى فيه ذكر ما هو دونه، فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران:٨١] وحذف ﷻ ذكر ميثاق أممهم، واللام في قوله: ﴿لَما﴾ للتأكيد في الميثاق، والميم اسم لما أخذ عليهم الميثاق من أجله وهو الكتاب والحكمة، وعطف بحرف «ثم» على محذوف مقدر، تقديره والله أعلم: فعلمتم به والتزمتم، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم.

والمقصود الأول بذكر الرسول ﷺ هنا هو محمد، ثم عامة الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - على أزمانهم ونوبهم بدل الأول على الثاني، ويبشر بمن بقي، ويصدق الثاني الأول ومن سبقه.

والمراد بذكر الرسل - عليهم السلام - هنا أممهم، فهو جلَّ ثناؤه لما أراد أخذ الميثاق على النبيين أحضر معهم الأمم، وخاطب الأنبياء - عليهم السلام - وطوى

خطاب أممهم في ذكرهم، وأحضر كلاً نفسه وما المراد به، وعهد إليهم ﷻ بعهد الربوبية، وما كان ذلك من العهود، ثم بعهد النبوة وما تضمنه، ثم بعهد العلم وما تضمنه أيضًا.

ثم قال لجميعهم: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي: بالعبودية للربوبية والشهادة بالوحدانية، والسمع والطاعة والاقتداء بالنبوة والرسالة ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: ثقل ميثاقي، واحتمال الكره في إقامة عهودي، وتنفيذ ما أمرتكم به، ولكم إن أطعتم الرضا بالجنة، وعليكم إن أبيتم اللعن والعذاب ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

والمراد الأول بالإشهاد للرسل - عليهم السلام - والأئمة، ثم الجميع يشهدون على أنفسهم، والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الأول والآخر والظاهر والباطن.

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد الإقرار والإشهاد والشهادة ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨٢].

ثم قال - جل من قائل - يخاطب الجميع: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[1] [آل عمران:٨٣] ذكر في غير

---

(١) قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ﴾ قال الكلبي: وذلك أن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبيّ ﷺ فقالوا: أينا أحق بدين إبراهيم؟ فقال النبيّ ﷺ: «كِلَا الفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِ» فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فنزلت هذه الآية. قرأ عاصم في رواية حفص «يَبْغُونَ، يُرْجَعُونَ» كلاهما بالياء، وقرأ أبو عمرو «يبغون» بالياء و«ترجعون» بالتاء، وقرأ الباقون كلاهما بالتاء على معنى المخاطبة، فمن قرأ بالياء يعني: أفغير دين الله يطلبون من عندك، ومن قرأ بالتاء يعني: أفغير دين الله تطلبون. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ أي: أخلص وخضع ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الكلبي: أما أهل السماوات فأسلموا لله طائعين، وأما أهل الأرض فمن ولد في الإسلام أسلم طوعًا، ومن أبى قُوتِل حتى دخل في الإسلام كرهًا، وما أفاء الله عليهم مما يسبون فيجاء بهم في السلاسل فيكرهون على الإسلام. وقال مجاهد: يسجد ظل المسلم ووجهه طائع، ويسجد ظل الكافر وهو كاره. وقال مقاتل: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني: الملائكة ﴿وَالأَرْضِ﴾ يعني: المؤمنين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يعني: أهل الأديان يقولون: الله ربكم وخالقكم، فذلك إسلامهم وهم مشركون، معنى قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: خضعوا من جهة ما فطرهم عليه ودبرهم، لا يمتنع ممتنع من جبلة ما جبل عليها، ولا يقدر على تغيير ما خلق عليها طوعًا وكرهًا. ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كما خلقكم؛ أي: كما بدأكم فلا تقدرون على
=

هذا الموضع عهدًا آخر أخذه ﷻ عن الجميع، أظهر فيه ذكر الميثاق، وذكر عهد الربوبية، وأبطن فيه عهد الرسالة وما تضمنته وميثاقها، فقال جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢].

ثم حذف ﷻ ذكر الرسل - عليهم السلام - والأئمة والأمراء والاقتداء فقالوا: بلى، وهو جواب على تقدير، والتقدير معهوده أن يكون بعد معرفة تقدمت للمقرر، وربما قدر فيه، فالجواب: «بلى شهدنا» أي: بما أعلمتنا أو بما تقدم لنا قبل.

ثم أظهر ﷻ ما كان أبطن بعد الإظهار، وقال: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢] في هذا محذوف تقديره: إنا فعلنا هذا من تقديركم على صحيح معنى الربوبية في العبودية منكم، وصحيح القول والعقد بالرسالة والرسل، وما جاؤوا به من أمر ونهي وكتاب، واقتداء وائتمام بهم وإيمان بذلك كله، وإسلام لله ﷻ من أجل أن يقولوا كذا وكذا.

لم ترسل إلينا رسولاً ولا أنزلت علينا كتابًا فاستصحبنا الغفلة، هذا كأن يكون جوابهم أو ما يكون في معناه في عهد النبوة والرسالة ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٣] فهذا أيضًا كأن يكون قولهم في عهد الربوبية والتوحيد والنبوة.

ولذلك قال جلَّ قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1] [النساء:١٦٣] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

=

الامتناع، كذلك يبعثكم كما بدأكم. قرأ عاصم في رواية حفص «يرجعون» وقرأ الباقون بالتاء. [بحر العلوم للسمرقندي (٢٨٦/١)].

(١) قال الزمخشري: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، واحتجاجهم عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كسائر الأنبياء الذين سلفوا، انتهى، وقدم نوحًا وجرده منهم في الذكر؛ لأنه الأب الثاني، وأول الرسل، ودعوته عامة لجميع من كان إذ ذاك في الأرض، كما أن دعوة محمد ﷺ عامّة لجميع من في الأرض.

لذلك قال عزَّ من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٧٤].

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء**»(١) فخلق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الخلق يومئذٍ.

كما جاء: «**إن الله خلق خلقه في الهواء صورًا كالهباء**»(٢) ومعنى قضائه القضية والله أعلم: أخذه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أهل اليمين يمينه.

وقوله جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»، وقوله جلَّ من قائل: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»(٣) في القبضة الأخرى.

وأما أخذه ﷻ ميثاق النبيين كما ذكره القرآن العزيز، وقال - جلَّ من قائل - في أخذ الميثاق على العلماء: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

قوله جلَّ من قائل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

وقال عزَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ...﴾ [الحج:١٨].

قد تقدم الاعتبار بجملة العالم فأغنى عن تكراره خشية الإطالة، لكنه ينبغي لمن نظر في هذه المسألة أن يعرض ما تقدم ذكره من ذلك على نظره، وله فيه أحسن العون - إن شاء الله - فأول معرفة المؤمن بتسبيح الموجودات وسجودها وصلاتها هو الإيمان بذلك والتصديق بما أخبر الله ﷻ، وأنه العليم الخبير بحقيقة ذلك.

ثم اعتقاد ما قاله السلف - رحمة الله على جميعهم - الذين تكلموا على أصول الديانات، وأنهم قالوا ﷺ بأنها تشهد بما هي عليه من افتقار الخلقة، ونقص الحدث على أنفسها بما هي عليه، وتشهد لبارئها ﷻ بالعبودية عليها، وكمال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) تقدم تخريجه.

الربوبية فيه وخالص الوحدانية، فشهادتها على أنفسها بما هي عليه دلت وخضعت وقنتت وسجدت؛ وذلك سجودها وشهاداتها له بما هو له أهل لتنزيه وتسبيحه وتلك فطرتها، وبما شهدت به من خالص الوحدانية، آمنت بطاعتها له في نفس وجودها أسلمت، وجملة هذا كله هي صلاتها.

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

ومن ذلك أن تعلم أن أصل المحنة ومنبعثها على الأغلب هو تكليف حركة عن سكون أو سكون عن حركة، فحركة النفس على الأغلب إلى الهواء وهو محبوبها، وتكونها عن الحق وهو عليها ثقيل، فأتى الشرع آمرًا لها بالسكون على الهوى والتحرك إلى الحق، فعلى هذا السبيل - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - تطلب السجود من النبات والجماد والحيوان، فإن الأصل كله واحد والشريعة سواء.

غير أن من ذلك ما جمد في الجامد وأعرب في المعرب، وحركة التدوار مركبة من حركة وسكون، ابتداؤها من سكون إلى سكون انتهاؤها، وما بين ذلك حركة وسكون؛ لذلك انعطف سير بعضها على بعض، فكانت حركة نحو الوسط، وكذلك الحركة المستقيمة من حركة وسكون، لكن بطن فيها السكون، وظهرت الحركة والمنحنى والمعوج ما بين ذلك، وعلى الأغلب فهي على هذا ساجدة حال سكونها جارية على سيرها، وجريها وسيرها عمل لها وعبادة منها لربها - عزَّ جلاله - من حيث هي متوجهة إلى ما وجهت له.

هذا سجود كل ذي حراك من حيث حركته وسكونه سواء اعتمادها على القصد لعبادة بارئها ﷻ فيما بينها وبينه، وأما سجود الجمادات والنبات وهو جامع لهذه الموجودات كلها، فله اعتبار من جنس هذا، وذلك أنها أجسام مركبة من أجزاء مجمعة والتجميع والتفريق عرضان متعاقبان، واعتبار التجميع حياة كما اعتبار التفريق من هذه الجهة عدم، والعدم سكون على جهةٍ ما، إلا أنه أعرق منه في معناه.

ولما كان عن الكلمة «كن» وإخباره بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:٤١] ثم معهود اسمه القيوم والقائم، ومشيئته في إبقاء

الموجودات إلى أجلها لم يكن بين التجميع والتفريق فصل، ولا زمان محسوس، ولا إرادته ﷻ في إظهار الموجودات بخلاف إرادته إبطان الموجود، وإظهار الأعدام والعدم.

ولما بطن التفريق في الموجودات أشبه الأعدام وجود السكون في الخط المستقيم، ومعلوم أن حركة الساكن عبادة وسكون المتحرك عبادة، تقف - رحمنا الله وإياك - بفهمك على هذا الاعتبار بتصحيح من نظرك فهو خفي، فمتى أشكل عليك أو عزب[1] فهمه، فاعلم يقينًا أن صنع الله ﷻ حارَ إلى كل مصنوع حال فنائه، جارٍ كجري الماء إلى مصبه، فإذا شاء صانعه ﷻ إبقاءه أبطن الإعدام وأظهر الإيجاد، وبالضد فخلقت على تلك الحال حال العدم.

قال ﷻ في مصداق ما ذكرناه: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] فأخبرك نصًّا بإبطان العدم حال الإيجاد.

وسئل رسول الله ﷺ عن الجبال، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا...﴾ [طه:١٠٥] وهذا هو سيرها.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:٤٧] فهذا إعدامها إذا شاء ذلك أظهر الإعدام وأبطن الوجود، ولها صلاة وسجود وتسبيح وعبادة وقنوت، هو أظهر من هذا يظهره الله جلَّ ذكره لمن شاء من عباده، وهو المراد بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] والله أعلم بما أراده يظهره، أو يظهر منه ما شاء لمن شاء من خصوص عباده.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩] يريد الله ﷻ من ذلك لرسله وأنبيائه - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وأوليائه أكثر، وقد تقدم في بعض ما مضى من الاعتبار أن سبيله في وجود الموجودات ها هنا على سبيل النشأ من صغير إلى كبير، وإنما يظهره الله في الآخرة، فالجماد جمد على أكثر صفات الحياة، وانشرح ذلك في النبات، ثم في الحيوان، ثم في الإنسان، ثم في

---

(١) عَزَبَ الرَّجُلُ يَعْزُبُ: إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَهْلٌ. انظر: المصباح المنير (١٢٧/٦).

المؤمن، ثم في الولي، ثم في النبي، ثم في الملك.

وأصل الموجودات الماء، والماء عن الهواء، والهواء عن الروح، والروح عن الكلمة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] فاعلم ذلك وأيقن أن السلام المؤمن أسلم له كل شيء وآمن به علوًا وسفلاً، ثم الإيمان والإسلام بعد حاص الماء قدره من المشيئة فيه يُحَاصُ كل نشأ إليه[١] ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[آل عمران:٨٥-٩٠].

قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٢] [آل عمران:٨٦] المعنى الأولى بهداهم أهل الكتاب هم الذين آمنوا بالكتاب والنبوة، وفي كتابهم ونبوتهم أن هذا الرسول حق وجاءهم بالبينات، ولما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

كيف يهدي الله من قد لعنه وأبعده عن هدايته وغضب عليه وأعرض عنه؟! نسأل الله العفو والعافية والمغفرة.

---

(١) عبارة فيها اضطراب تم تصويبه.

(٢) اعلم أن الله تعالى استعظم كفر القوم من حيث أنه حصل بعد خصال ثلاث: **أحدها**: بعد الإيمان، **وثانيها**: بعد شهادة كون الرسول حقًّا، **وثالثها**: بعد مجيء البينات، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر صلاحًا بعد البصيرة وبعد إظهار الشهادة، فيكون الكفر بعد هذه الأشياء أقبح؛ لأن مثل هذا الكفر يكون كالمعاندة والجحود، وهذا يدل على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل. [تفسير الرازي (٢٨٩/٤)].

وكلمة ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ المعني به: استبعاد في مشيئة الله ومجرى سنته من آمن ثم كفر، ثم آمن ثم كفر، ثم ازداد كفرًا لم يكن الله ليغفر له ولا ليهديه سبيلاً.

وفي باقي حال الخطاب يتوجه إلى المنافقين الذين آمنوا ثم كفروا، وقد أعقب بذكرهم في مثل هذا الخطاب في موضع آخر من كتابه سيأتي ذكره إن شاء الله؛ لذلك قال في هؤلاء وهؤلاء: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٧-٨٨].

ومن رحمته - عزَّ جلاله - لم يحجر عليهم القبول ولا منعهم التوبة ولا منعهم أن يكسبوها، فقال جلَّ قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [آل عمران:٨٩] فتوبة يهود وأهل الكتاب: تبيان ما كتموه، والإيمان بما كفروا به وإصلاح ما أفسدوه.

وتوبة المنافقين: الإيمان بما كفروا به وتصديق ما كذبوه من الحق، والإخلاص في الإيمان، والإقلاع عن المراءاة وما جرَّ إليها.

هذا وهذا من سورة البقرة وسورة النساء مفصلاً مبينًا، ومعتمد هذا الوعيد على حال الخاتمة هناك يتحقق الاستبعاد من التوفيق وسبل الضلال منهم، وكل ما جاء من عزم وعيد بأنه تعالى لا يغفر لا يتوب ولا يقبل توبة تائب، فمعتمد ذلك على حال الخاتمة إلى ما وراء ذلك.

وربما تعجل من ذلك بشؤم الذنوب ورجس الإصرار، وعدم الانتباه إلى التوبة، واستصحاب الإعراض عن التذكير بقوله جلَّ قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران:٩٠] معناه: لن يوفقوا لتوبة تُقبل منهم متى شاؤوها، ولذلك كانوا في تفعلها كالذي تخبطه الشيطان من المسّ، فهو يعمل على غير نية، ويؤسس بنيانه على شفا جرف هار، وصفهم رسول الله ﷺ، فقال يصف قومًا في آخر هذه الأمة: «يتهوكون كما تتهوك اليهود في الظلمة يقرون بالذنب ولا ينتهون»[(١)].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٦٣٠) بلفظ: «يَتَهَوَّكُونَ فِيهَا تَهَوُّدَ الْيَهُودِ فِي الظُّلَمِ».

ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا
تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا
مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ
ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ
مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ
حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩١-٩٧].

ثم أبان الحق وفصل الحكم، وأظهر أمر الآخرة بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران:٩١]. (١)

قوله ﷻ: ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢] لما ذكر ﷻ الإسلام، وأن لا دين سواه مقبول عنده، وتقدم أن الإسلام هو الدخول في السلم كافة لله، وللرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، وكان كل شيء قد أسلم لله ينفق مما عنده.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣].

وقال جلَّ قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

---

(١) من المعلوم أن الكافر لا يملك يوم القيامة نقيرًا ولا قطميرًا، ومعلوم أن بتقدير أن يملك الذهب فلا ينفع الذهب ألبتة في الدار الآخرة، فما فائدة قوله: ﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْء الأرض ذَهَبًا﴾؟ الجواب فيه وجهان: **أحدهما**: إنهم إذا ماتوا على الكفر فلو أنهم كانوا قد أنفقوا في الدنيا ملء الأرض ذهبًا لن يقبل الله تعالى ذلك منهم؛ لأن الطاعة مع الكفر لا تكون مقبولة، **والثاني**: إن الكلام وقع على سبيل الفرض، والتقدير: فالذهب كناية عن أعز الأشياء، والتقدير: لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء، ثم قدر على بذله في غاية الكثرة لعجز أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله، وبالجملة فالمقصود أنهم آيسون من تخليص النفس من العقاب. [تفسير الرازي (٢٩٥/٤)].

ذكر ﷻ الإنفاق، فنظمه بما تقدم من ذكره في مفتتح تلاوة التنزيل، قوله جلَّ قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:٣] ثم ما أثنى عليه من ذكره جلَّ ذكره إلى تمام السورة، ثم إلى قوله: ﴿وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢] أي: بطيبه وحلاله ومقداره، وحيث يوضع، والنية في توجيهه.

ثم صرف وجه الخطاب إلى أهل الكتاب، ونظمه بما تقدم من خطابه، وإياهم على لسان رسوله ﷺ لما أراد الله ﷻ خطاب المؤمنين خصَّهم بخطابه مواجهة، ثم عبَّر فعرض بأهل الكتاب؛ إذ لم يستأهلوا مواجهته بأن يخاطبهم، فقال جلَّ قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران:٩٣].

ثم حذف ﷻ هنا موضع إنكارهم مفهوم ما تلاه علينا، فأجابهم ﷻ على ذلك من إنكارهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كتابه ورسوله بما لم يأذن به ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران:٩٤] والتعريض بأهل الكتاب.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا﴾ يا أيها الذين آمنوا ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ قويمًا قائمًا على الإسلام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٥].

وتعرض ﷻ بالرعاية لأهل الكتاب برفع هممهم صعدًا إلى أن يؤمنوا، فيضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وليكونوا أمة واحدة على دين واحد يعبدون ربًّا واحدًا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو.

ثم بيَّن لهم ﷻ الرعاية إلى أول الأمر، وأن ما كان عليهم من إصرٍ وغلٍّ إنما كان بشؤم ذنوبهم وعقوبة عتوهم على أنبيائهم، قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾(١) [آل عمران:٩٦] يدعوهم ﷻ إلى

---

(١) اعلم أن قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ يحتمل أن يكون المراد كونه أولاً في الوضع والبناء، وأن يكون المراد كونه أولاً في كونه مباركاً وهدىً، فحصل للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان: الأول: إنه أول في البناء والوضع، والذاهبون إلى هذا المذهب لهم أقوال؛ أحدها: ما روى الواحدي رحمه الله تعالى في «البسيط» بإسناده عن =

استقبال البيت الحرام وصفهم بالبركة لما تحط عنده من الأوزار، وتجاب عنده من الدعوات.

وقال - جلَّ قوله - فيه: «إنه بيتًا» أي: مسجدًا قبله.

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ﴾ أي: مساجدكم في الأرض المقدسة ﴿قِبْلَةً﴾ [يونس:٨٧] والمساجد بيوت الله.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦].

وقال جلَّ قوله فيه: ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ممن توجه إليه بمقصود الصلاة لله وحده، فإن الله ﷻ مواجه مخاطب له مناجٍ راضٍ عنه، وعن عمله ذلك فيه آيات بينات، منه: آية بناء إبراهيم أبيهم - صلوات الله وسلامه عليهم - وأنه مقامه فيه، وموضع قدميه ؈ في الحجر الصلب خلد الله تلك الآية على الأبد.

ومن الآيات أيضًا: إنه من دخله كان آمنًا، وأنه بلد لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا منشد له حرام أمن يتخطف الناس من حوله، وهم فيه آمنون.

ومن آياته: جعل الله ﷻ أفئدة الناس تهوى إليه بالزيارة، وإقامة المناسك لله حوله وعنده، تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنا، كرامة أكرم بها بيته الحرام

=

مجاهد أنه قال: «خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرضين» وفي رواية أخرى: «خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى» وروي أيضًا عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﵁ عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى بعث ملائكته فقال: ابنوا لي في الأرض بيتًا على مثال البيت المعمور، وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، وهذا كان قبل خلق آدم». **وثانيها:** إن آدم ؈ لما أهبط إلى الأرض شكا الوحشة، فأمره الله تعالى ببناء الكعبة وطاف بها، وبقي ذلك إلى زمان نوح ؈، فلما أرسل الله تعالى الطوفان رفع البيت إلى السماء السابعة حيال الكعبة، يتعبد عنده الملائكة، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك سوى من دخل من قبل فيه، ثم بعد الطوفان اندرس موضع الكعبة، وبقي مختفيًا إلى أن بعث الله تعالى جبريل ؈ إلى إبراهيم ؈، ودله على مكان البيت وأمره بعمارته، فكان المهندس جبريل والبناء إبراهيم والمعين إسماعيل عليهم السلام. [تفسير الرازي (٣٠٦/٤)].

وبلده المكرم، وإجابة لخليله القانت الحنيف ﷺ جعل الله ﷻ بيته الحرام أمنة لأهل الأرض، فإذا أصيب هذا البيت أتى الناس ما يوعدون، ومن لم يتظلل بظل الله جلَّ ذكره ولم يقبل كرامته ولم يسمع لدعائه وكفر بآياته، فإن الله غني عن العالمين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٨-١٠٣].

أعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أن هذا عنده معلوم متوارث عرفانه، فقال جلَّ قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨] أي: شهيد على خلاف أعمالكم عليكم، أظهر ذلك بقوله الحق: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾(١) [آل عمران: ٩٩] فانتظم هذه الآيات، ومعنى ما جئن به بمعنى ما تقدم من سورة البقرة عندنا، أمر ﷻ بصرف القبلة إلى البيت الحرام.

وقوله هناك جلَّ قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا

---

(١) إن قلت: كيف تبغونها عوجًا وهو محال؟ قلت: فيه معنيان: أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أنّ فيها عوجًا بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك. والثاني: إنكم تتعبون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنها سبيل الله التي لا يصدّ عنها إلا ضال مضلّ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم، عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظائم أمورهم، وهم الأحبار ﴿وَمَا الله بِغَافِل﴾ وعيد. [الكشاف (٣٠٣/١)].

قِبْلَتَكَ...﴾ [البقرة:١٤٥] فأعلم ﷻ بخطابه هذا بما يكون منه يوم القيامة، فانتظم هذا بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٦-١٤٧].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ...﴾ [آل عمران:١٠٠] إلى قوله: ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١] الفريق الذي نهى الله عن طاعته من أهل الكتاب هم الكفار منهم، واليهود قد قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، وقال هؤلاء في هؤلاء: ليسوا على شيء، وهؤلاء في أولئك: ليسوا على شيء وهم يتلون الكتاب.

وفيه: إنهم كانوا على هداية لو اتبعوها وبينوا ما عندهم ولم يكتموه، فهذه هي الفرقة التي من أطاعهم من المؤمنين كان كافرًا في طاعته إياهم، وفيما انتحله من نحلهم والفرقة الأخرى؛ إذ لفظ الفريق هو من الافتراق: المؤمنون، فإنهم أهل الكتاب.

قال الله ﷻ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله....﴾ [آل عمران:١١٣] أي: على الإسلام يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١١٥].

وقال - جلَّ قوله - في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٩] فلم يخص ﷻ شيئًا من شيء.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ...﴾[1] [آل عمران:١٠٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾

---

(١) قال سيدنا أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] تلف النفس في =

[آل عمران:١٠٩] انتظم معنى هذه الآية بما مضى دلهم قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ على حقيقة الهداية وحق تقاته، كقوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] من حق الله شيئًا أن يتقيه حق، لكنه قد جعل ﷻ بعضه فوق بعض درجات في القوة والعلم والصبر، وهو لا يكلف نفسًا إلا ما أتاها بعد أداء الواجب المفروض بحقيقة التقوى، على مقدار البشرية هؤلاء لأهل الغلبة عن عباده الذين مدحهم واجتباهم.

ثم هم بعد على منازل من التقوى على مقدار حظوظهم من حقيقة التقوى، وما آتاهم ﷻ من الأيدي والأبصار والملائكة - عليهم السلام - يقولون: «**ربنا ما عبدناك حق عبادتك**»[١] فمن لم يستفرغ جهده وينقضي وسعه، وقد وقع في المحظور بعد ذلك.

وبوجه آخر: أن يكون معنى قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ فيما سبيله المناهي كلها من الكفر والشرك والمعاصي ونحوها، وقوله جلَّ قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] أي: في العمل بطاعة الله وابتغاء مرضاته، وفي نوافل الخير.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا**»[٢] للمناهي لا رخصة في إتيانها، والعمل بطاعة الله ما عدا الفرائض على قدر الطاقة، وقد بين الله ﷻ ذلك فيما اتبعه من التلاوة في الموضعين، فقال جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ....﴾ [آل عمران:١٠٢].

=

مواجبه. وقال القاسم: بذل المجهود، واستعمال الطاعة، وترك الرجوع إلى الراحة، ولا سبيل إليه؛ لأنَّ أوابل طرف الوصول التلف. وقال الواسطي: هو إتلاف النفس في مواجبه. وقال ابن عطاء: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ هو صدق قول لا إله إلا الله، وليس في قلبك شيء سواه. وقال بعضهم: إرادته أن يعرفنا مواضع فضله فيما رغمنا فيه من استعمال مواجبه؛ لأن واجب الحق لا يتناهى، والعمل لا يتناهى.

(١) أخرجه الحاكم (٤٥٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٦).

(٢) أخرجه الشافعي (١/٢٧٢)، والبخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧)، وأحمد (٧٤٩٢)، والنسائي (٢٦١٩)، وابن ماجة (٢)، وابن حبان (٣٧٠٤)، وابن خزيمة (٢٥٠٨).

وقال - جلَّ قوله - في الموضع الآخر: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن:١٦].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] إن لم يكن الموت كسبًا لنا، فإن ما هو كسب لنا لزوم الإسلام واعتقاده وتفعله، ومن عاش على شيء صادقًا به مات عليه لا محالة.

فصل

في هذه الآية من الفقه عن الله جلَّ ذكره أنه من أسلم لله وجهه بحبٍّ ووِدٍّ وإخلاص وصدق، ملازمًا صابرًا مؤثرًا للطريقة المثلى بصدق من عزمه وحقيقة من ذاته، فالله أكرم من أن يخذله عند موته، بل الله أسرع منه إليه بالحبِّ والودِ وأصدق وعدًا وأوفى عهدًا، وإنما قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس**»(1).

فقد أخبر الصادق الصدوق ﷺ بحقيقة المعنى قوله ﷺ: «**فيما يبدو للناس**» وهذا لم يصحح بينه وبين الله ﷻ أصل وجهته، وأهمل عقد البيعة، ولم يسدد نيته بالإيثار والحب بالولاية لله والبراءة ممن سواه في الأصل والفرع، فافهم فإنها مزلة، كيف لا يكون هكذا وهو القائل ﷻ: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي**»(2)؟!

وهذه عبارة عن عباده الذين هم عباده؛ ليظنوا به ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ما شاؤوا، فإن عنده ما يربوا على آمالهم، ويزيد على علومهم من حسن المثوبة وكريم المآرب، وعلى ما ذكرنا جاء وعد الصادق: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:٥-٧].

أن العبد إذا أخلص في العمل بطاعة الله ييسره عليه، ولا يجعل له منازعة إلى سواه، ثم ييسر له ذلك عند الموت فختم باليسرى، ثم فيما بعد الموت ييسره إلى ما يقتضي ذلك، وبالضد نسأل الله عفوه ومعافاته ومغفرته، وهو القائل جلَّ قوله:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١١٢)، وعبد بن حميد (٤٥٩)، والروياني (١٠٥٢)، والطبراني (٥٨٠٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠١٦).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:١١١].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢].

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قوله عزَّ من قائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾(١) [آل عمران:١٠٣] حذر ﷻ المؤمنين مما أصاب أهل الكتاب من الفرقة والتحازب.

---

(١) قال تعالى: ﴿واذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ واعلم أن نعم الله على الخلق إما دنيوية وإما أخروية، وإنه تعالى ذكرهما في هذه الآية، أما النعمة الدنيوية فهي قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ وفيه مسائل: المسألة الأولى: قيل: إن ذلك اليهودي لما ألقى الفتنة بين الأوس والخَزْرَج وهَمَّ كلُّ واحد منهما بمحاربة صاحبه، فخرج الرسول ﷺ ولم يزل يرفق بهم حتى سكنت الفتنة، وكان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة، وتطاولت الحروب مئة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام، فالآية إشارة إليهم وإلى أحوالهم، فإنهم قبل الإسلام كان يحارب بعضهم بعضًا ويبغض بعضهم بعضًا، فلما أكرمهم الله تعالى بالإسلام صاروا إخوانًا متراحمين متناصحين وصاروا إخوة في الله، ونظير هذه الآية قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرض جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] واعلم أن كل من كان وجهه إلى الدنيا كان معاديًا لأكثر الخلق، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معاديًا لأحد، والسبب فيه أنه ينظر من الحق إلى الخلق فيرى الكل أسيرًا في قبضة القضاء والقدر فلا يعادي أحدًا؛ ولهذا قيل: إن العارف إذا أمر أمر برفق ويكون ناصحًا لا يعنف ويعير، فهو مستبصر بسر الله في القدر. المسألة الثانية: قال الزَّجاج: أصل الأخ في اللُّغة من التوخي وهو الطلب، فالأخ مقصده مقصد أخيه، والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من الصديقين صاحبه ما في قلبه، ولا يخفي عنه شيئًا، وقال أبو حاتم: قال أهل البصرة: الإخوة في النسب والإخوان في الصداقة، قال: وهذا غلط، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ولم يعن النسب، وقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ إخوانكم﴾ [النور: ٦١] وهذا في النسب. المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ يدل على أن المعاملات الحسنة الجارية بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله؛ لأنه تعالى خلق تلك الداعية في قلوبهم، وكانت تلك الداعية نعمة من الله مستلزمة لحصول الفعل، وذلك يبطل قول المعتزلة في خلق الأفعال، قال الكعبي: إن ذلك بالهداية والبيان والتحذير والمعرفة والألطاف. [تفسير الرازي (٣٢٧/٤)].

قوله: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أنذرهم مما كان منهم من القتال والمحاربة في جاهليتهم أن يعودوا إلى ذلك حال غفلتهم، وذكرهم بما فعل أهل الكتاب من ذلك في بيوتهم.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١)﴾ [آل عمران: ١٠٤-١١١].

وقوله جل قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] هذا كله تخويف مما أصاب أولئك وإنذار منه ﷻ، فقد كان من ذلك ما شاء الله، نسأل الله الغفور الرحيم لنا معشر هذه الأمة عصمته ومعافاته ومغفرته.

قال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع»[1].

وفي أخرى: «حذو القذة بالقذة»[2].

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يريد ﷻ أهل الكتاب، ولمن عتى وكفر من غيرهم.

ثم قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: في ذلك اليوم هو وقوع

(١) أخرجه الحاكم (٨٤٠٤) وقال: صحيح، وابن أبي شيبة (٣٧٣٧٦).

(٢) أخرجه الطيالسي (١١٢١)، وأحمد (١٧١٧٥)، وابن قانع (١/٣٣٣)، والطبراني (٧١٤٠).

الوعيد عليهم بالعذاب العظيم، وإنما تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين يوم يبشر هؤلاء بالجنة وهؤلاء بالنار ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ ﴿فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:١٠٦].

أهل الكتاب كفروا بعد إيمانهم، ومن عتى وكفر من غيرهم، كلٌّ يذوق من العذاب على مقدار كفرهم، ومن وصف جنايته في الإسلام على نفسه ﴿لَا ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [غافر:١٧].

ـ ثم قال جلَّ قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران:١٠٨] أي: بالواجب كونه الواقع، ويكون أيضًا معنى ذلك مع ما تقدم إنه يتلوها عليه بواسطة الملك بروح القدس إلى قلب الرسول ﷺ.

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ وهذا طريق إنزاله بالملك والروح القدس عليهما السلام ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] أي: بالكافرين الواقع.

كما قال جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦] أي: بما هو كائن.

﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:١٠٨].

ومن كتاب الحرث بن أسد، قال أبو غالب: كنت بدمشق فجيء بسبعين رأسًا من رؤوس الحرورية، فنصبت على درج المسجد، فجاء أبو أمامة صاحب النبي ﷺ، فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم خرج فقام عليهم، فجعل يهريق عبرته ساعة فقال: «ما يصنع إبليس بأهل الإسلام؟» ثلاث مرات، ثم قال: «كلاب جهنم» ثلاث مرات، ثم قال: «شر قتلى قُتل تحت ظل السماء» ثلاث مرات، ثم قال: «خير قتيل من قتل هؤلاء تحت ظل السماء» ثلاث مرات، ثم أقبل علي فقال: يا غالب أتقرأ سورة آل عمران؟ قال: قلت: نعم، قال: فقرأ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ....﴾ [آل عمران:٧].

ثم قال: هؤلاء كانت بغيتهم فتنة وزيغ بهم، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[1] [آل عمران:١٠٦] قال:

---

(١) ذكر الله تعالى القسمين أولاً، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فقدم البياض على السواد في اللفظ، ثم لما شرع في حكم هذين القسمين قدم حكم السواد، وكان حق الترتيب =

فقلت أهم هولاء؟ فقال: نعم، ثم قال: «**تفرقت بنو إسرائيل على أحد سبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار إلا السواد الأعظم**» قال: «**عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا**» وقال: «**السمع والطاعة خير من المعصية والفرقة**»(١) يغضبون لنا ثم يقتلونا.

قال: قلت: أرأيت الذي تحدث أشيء سمعته من رسول الله ﷺ أو شيء تقوله عن رأيك؟ فقال: إني إذًا لجريء إن حدثك ولم أسمعه من رسول الله ﷺ، مرة أو مرتين حتى قالها سبعًا.

تنبيه:

تفرق أهل قادح في التوحيد والنبوة والرسالة، وتفرق هؤلاء من هذه الأمة خطأ من جهة التأويل، فهو تفرق دون تفرق، وإن خرج بهم إلى الكفر فهو غير مقصود لهم ولا معتمد منهم.

قوله ﷻ: ﴿**وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران:١٠٨] هو ﷻ لا يتصور من حكمه الظلم؛ لأنه لا يصادف ملكًا لسواه يظلم فيه ومن سواه، فإن الفعل منسوب إلى فاعله كما يضاف الكلام إلى المتكلم، وقد أراد الله ﷻ وقوع الظلم من العباد؛ ليكونوا به ظالمين فهم يظلم بعضهم بعضًا.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل:١١٨] فقد تبرأ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من الظلم، وحرمه على

=

أن يقدم حكم البياض. والجواب عنه من وجوه: أحدها: إن الواو للجمع المطلق لا للترتيب، وثانيها: إن المقصود من الخلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب، قال ﷺ حاكيًا عن رَبِّ العزة سبحانه: «خلقتهم ليربحوا علي لا لأربح عليهم» وإذا كان كذلك فهو تعالى ابتدأ بذكر أهل الثواب وهم أهل البياض؛ لأن تقديم الأشرف على الأخس في الذكر أحسن، ثم ختم بذكرهم أيضًا تنبيهًا على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال: «سبقت رحمتي غضبي» وثالثها: إن الفصحاء والشعراء قالوا: يجب أن يكون مطلع الكلام ومقطعه شيئًا يسر الطبع ويشرح الصدر، ولا شك أن ذكر رحمة الله هو الذي يكون كذلك، فلا جرم وقع الابتداء بذكر أهل الثواب والاختتام بذكرهم. [تفسير الرازي (٣٣٤/٤)].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٣٥)، وفي الأوسط (٧٢٠٢)، وابن أبي شيبة (٣٧٨٩٢).

نفسه وعلى غيره.

فصل

العدل ثلاثة فصول:

الأول: هو ما استأثر به ﷻ من الملك والجبروت والكبرياء والوحدانية والربوبية والإلهية وعزة الصمدانية، فهذا الفصل هو وصفه؛ إذ هو هو، فهذا وجود ليس كمثله شيء، ولهذا لا يصل إليه اسم الظلم ولا معناه؛ إذ له الحكم كله وله الملك كله، وهو المالك له أن يفعل في ملكه ما يشاء ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] فلا يوصف بظلم.

الثاني: من العدل هو ما جعله بينه وبين عباده من الحكم، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:١٩٧] فلن تكفروه، فهذا أيضًا ونحوه قد تقدم إلى عباده في الظلم بالتحريم له والنهي عنه والأمر باجتنابه، وأوعدهم ﷻ عليه بأشد الوعيد، فلا يتصور منه الظلم في أصل القضية، ولا في الحكم فيها للعلة المتقدمة، ولأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه قد تبرأ منه ومن فاعله؛ لذلك يقول جلَّ قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٨].

وفيما رواه أبو هريرة - رحمه الله - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يعتذر الرب تبارك وتعالى إلى آدم يوم القيامة ثلاث معاذير، فيقول جلَّ قوله: يا آدم، لولا أني لعنت الكذابين وأبغضت الكذب والخلف وأوعدت عليه لرحمت اليوم ذريتك من شدة ما أعددت لهم من العذاب، ولكن حق القول مني إن كُذبت رسلي وعُصي أمري لأملأن جهنم منهم أجمعين، يقول جلَّ قوله: يا آدم، إني لا أُدخل النار من ذريتك إلا من قد علمت في علمي لو رددته إلى الدنيا لعاد إلي شر مما كان عليه ولم يرجع ولم يعتب**»[١].

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٤٥٣/٧)، والطبراني في الصغير (٨٥٥).

ذلك لأنه لم يزل يعلم منهم الظلم قبل أن يوجدهم، وعلى ذلك أوجدهم، فقال فيهم: «هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»[١] فكتبهم القلم العلي في اللوح المحفوظ كما كان علمه فيهم بأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وشقاوتهم وسعادتهم.

ويقول جلَّ من قائل: «يا آدم قد جعلتك حكمًا بيني وبين ذريتك، فقم عند الميزان فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم من رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة، حتى تعلم أني لا أدخل النار إلا كل ظالم»[٢].

وقد أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿وَلله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [آل عمران:١٠٩].

والعدل الثالث: عدل حكم القصاص بين العباد.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران:١١٢-١١٩].

قوله ﷻ: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ...﴾[١] [آل عمران:١١٨] الآيتيين، أشبه هذا الخطاب ما تقدم من قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٢٨] غير أن هذا ظاهر، هذا هو في أهل الكتاب، وذاك في جملة الكفار.

وأهل الكتاب كفارًا أيضًا بنص الكتاب والكفار غير المؤمنين، ومن دون المؤمنين هم غيرهم قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون، هذا مبين معناه في قوله جلَّ قوله: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران:١١٩] هذه كلها آيات على ما تضمرونه، وهي من نصائحه ﷻ.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٠-١٢٥].

---

(١) نزلت في رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من يهود للجوار والحلف والرضاع قاله ابن عباس، وقال أيضًا هو وقتادة والسدي والربيع: نزلت في المنافقين، نهى اللهُ المؤمنين عنهم شبه الصديق الصدق بما يباشرُ بطن الإنسان من ثوبه، يقال له: بطانة ووليجة، وقوله: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ في موضع الصفة لبطانة، وقدّره الزمخشري: من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، وقيل: يتعلق من بقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾ وقيل: «مِنْ» زائدة؛ أي: بطانة دونكم، والمعنى: إنهم نهوا أن يتخذوا أصفياء من غير المؤمنين، ودلَّ هذا النهي على المنع من استكتاب أهل الذمة، وتصريفهم في البيع والشراء، والاستبانة إليهم، وقد عتب عمر أبا موسى على استكتابه ذميًا، وتلا عليه هذه الآية، وقد قيل لعمر في كاتب مجيد من نصارى الحيرة: ألا يكتب عنك؟ فقال: إذًا اتخذ بطانة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[١] يعدد ﷻ عليهم نعمه ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ يريد: التقوى الأرفع، دلَّ على ذلك قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣] ولا يتحصل الشكر إلا بعد مغفرة الذنوب أو يكفرها بالحسنات.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران:١٢٤].

ثم قال ﷻ تحقيقًا للعدد المذكور: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ ثم عطف بالواو عددًا آخر على شريط التزام التقوى منهم والصبر، فقال جلَّ قوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: من حالكم هذا من التقوى والصبر والاستعجال ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] أي: معلمين.

وقد تقدم قوله جلَّ قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] بخفض الدال؛ أي: مردِفين لغيرهم من الملائكة، ومردَفين بفتحها: مردَفين بغيرهم، فأقل الجمع على هذا من أعداد الملائكة - عليهم السلام - تسعة ألف؛ إذ المشار إليهم بقوله جلَّ قوله: «مردفين» بخفض الدال وفتحها، وقد يكون غير هؤلاء عددًا زائدًا عليهم[٢].

---

(١) قوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في موضع الحال، وإنما كانوا أذلة لوجوه: الأول: إنه تعالى قال: ﴿وَلِلهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فلا بد من تفسير هذا الذل بمعنى لا ينافي مدلول هذه الآية، وذلك هو تفسيره بقلة العدد وضعف الحال وقلة السلاح والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو ومعنى الذل الضعف عن المقاومة ونقيضه العز وهو القوة والغلبة، روي أن المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وما كان فيهم إلا فرس واحد وأكثرهم كانوا رجالة، وربما كان الجمع منهم يركب جملاً واحدًا، والكفار قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة. الثاني: لعل المراد أنهم كانوا أذلة في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قلة عددهم وسلاحهم، وهو مثل ما حكى الله عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل﴾ [المنافقون: ٨]. الثالث: إن الصحابة قد شاهدوا الكفار في مكة في القوة والثروة، وإلى ذلك الوقت ما اتفق لهم استيلاء على أولئك الكفار، فكانت هيبتهم باقية في قلوبهم واستعظامهم مقررًا في نفوسهم فكانوا لهذا السبب يهابونهم ويخافون منهم. [تفسير الرازي (٣٧٠/٤)].

(٢) قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ﴿مُرْدَفِينَ﴾ بفتح الدال والباقون بكسرها، قال الفراء: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي: متتابعين يأتي بعضهم في أثر بعض كالقوم الذين أردفوا على الدواب، و﴿مُرْدَفِينَ﴾ أي: فعل بهم ذلك، ومعناه أنه تعالى أردف المسلمين وأيدهم بهم، وقد اختلفوا =

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ
شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ
لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟
أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل
عمران:١٢٦-١٣٤].

قوله ﷻ: ﴿لَيْس لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨] يمكن أن يكون راجعًا إلى كفار قريش أهل أحد.

قوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً...﴾ [آل عمران:١٣٠] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] وقد مضى الكلام في أضعاف مضاعفة في سورة البقرة، وأنه وصف لحالهم في دار البرزخ.

وكذلك تقدم من وصفهم؛ أعني: أكلة الربا ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسّ﴾ [البقرة:٢٧٥] وإن هذه حالة لهم في دار البرزخ

=

في هل الملائكة هل قاتلوا يوم بدر؟ فقال قوم: نزل جبريل ﷺ في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة، وفيها علي بن أبي طالب في صورة الرجال عليهم ثيابهم بيض وقاتلوا. وقيل: قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين، وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصًا؟ قال: هو من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم، وروى أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالصوت فوقه، فنظر إلى المشرك وقد خرَّ مستلقيًا وقد شق وجهه، فحدث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذاك من مدد السماء». [تفسير الرازي (٣٧١/٧)].

يجعلون لآل فرعون يدوسونهم بأرجهلم فيثردونهم ثردًا، فيقومون إثر ذلك عند تلك الحالة على ذلك الوصف.

وبوجه آخر: أن يكون لهم هذه الحالة أيضًا في دار الدنيا، وذلك أن الشيطان - لعنه الله - إذا مسَّ بلمم أحدًا ثم يقوم المصاب عن تلك الحال، فهو حينئذٍ على المعهود الأغلب من وجوده غير وافر في عقله ولا ذكره، واهن القوة ضعيف الحواس الظاهرة والباطنة، وآكل الربا في سبيل دينه والعمل لآخرته والعقل عن ربه، والعلم بما خلق له على ذلك الوصف لا يشعر بما نقصه من دينه، ولا تفطن للأهبة لمصيره، فأشبه الذي يتخبطه الشيطان من المسّ قد أحاط به رجسه وغلب عليه لممه.

قوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] أعدَّ الله جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - للكافرين، على ذلك دلت دلائل الوحي الكريم كقوله جلَّ قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤-١٦].

وكقوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

وقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

ولذلك ما أشكل على قوم فقالوا بالإرجاء، واتكلوا على صفة الفضل، وأهملوا حكم صفة العدل في حقهم، فذهبوا إلى إسقاط العمل وقالوا: «كما لا ينفع مع الكفر عمل كذلك لا يضر مع الإيمان بالله ورسوله ذنب» فأسقطوا عن أنفسهم وظائف العبادات وخرجوا عن الدين.

وإنما أوقعهم في ذلك أنهم سمعوا قومًا يقولون: من مات وهو غير تائب من معصية عملها معتمدًا لها فهو من أهل النار غير خارج منها أبدًا، مع إبليس - لعنه الله - وفرعون وهامان، فهو كهؤلاء ففرط هؤلاء وفرط.

فصل الخطاب وعدل القول في ذلك والله أعلم: إن دين الله بين المقصر والمغالي، وأن دين الله هو الإسلام، والجزاء عليه من ثواب وعقاب مجموع من فضل الله وعدله، وهما صفتان له ﷻ من صفاته واسمان من أسمائه، لكلٍّ حظ من

حكمته ونصيب من عباده من قوله التام جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[(١)] فالعمل مقدر، والجزاء مقدر مفروغ منهما.

وفي أخرى: «**هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي**»[(٢)] بكفر من كفر، ولا بإيمان من آمن وعمل.

قال رسول الله ﷺ **فيما** يطابق هذا: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى يكون بينه وبين الجنة باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار**»[(٣)] وبالضد.

قوله جلَّ قوله: «**لا أبالي**» أي: بكفر من كفر، ثم ختم عمره بالإيمان، ولا بإيمان من آمن وعمل بطاعتي ثم ختم عمره بالكفر، ثم الكفر منه صغير وكبير، ولذلك تطرق دخول النار إلى بعض أهل الشهادة الحق، وعلى ذلك ففي النار عذاب في أقطار منها لا يصليها إلا الأشقى، وقد أعدت للكافرين، وفيها عذاب في قطر أو أقطار يطابق لصغيره بالإضافة إلى ما هنالك لصغر الكفر ليس هو بالقطر حافته ﴿**لَا يَصْلاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى**﴾ [الليل:١٥-١٦] فجاء بلفظ التكثير.

وقوله جل قوله: ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ**﴾ [سبأ:١٧] أنه لا يعذب الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى، فجاء بلفظ التكثير إنما يعذب الكفور، وقد مضى أن من الكفر ما هو صغير وكبير، ولم يكن الله ﷻ لينذر المؤمنين النار التي أعدها للكافرين، إلا وقد كتب أن يدخل فيها من شاء إلا يغفر له، وهم الذين لم يبلغوا أن يوصفوا بالأتقى، ولا يعذبهم أيضًا بعذاب الموصوف بالأشقى الذي كذب وتولى.

وكذلك قال عزَّ من قائل: ﴿**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [آل عمران:١٣١-١٣٢] يقول الله جلَّ من قائل: فلا تكونوا فيمن يدخلها، وسارعوا إلى درجة الأتقى مغفرة من ربكم تفهم ما بين قوله: ﴿**سَارِعُوا**﴾ و﴿**سَابِقُوا**﴾ وما بين قوله: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

عمران:١٣٣] وبين قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١] وأن السماوات سبع والأرض ثامنة، والسماء هو السمو والعلو، وهو واسع جدًا، فافهم.

قال إبراهيم لمحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - وقد وجده في السماء السابعة، مسندًا ظهره إلى البيت المعمور: «**يا محمد هذه منزلتك ومنزلة أمتك**»(١).

قوله ﷻ: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٣] ثم وصفهم - جلَّ وصفه - بصفات لا تشكل على من نظر بعقلٍ سليم.

وقال - جلَّ قوله - في موضع آخر: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ**﴾ [الحديد:٢١] يريد الإيمان الأعلى والاقتداء الأرفع، ثم يدخل الله الجنة من لم يبلغ هذه الدرجة العليا بفضل رحمته سبحانه.

فصل

التقوى منها صغير ومنها كبير، فالأنبياء والأولياء من ولد آدم ﷺ في أعلاها؛ أعني: الحظ الذي أوتيه البشر منها، وأهل الشهادة دون عمل في أدناها وكذلك الكفر، ففي هذين الطرفين كان خلطه إياهم؛ إذ قال جلَّ قوله: ﴿**لَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾ [المؤمنون:٦٣] أي: من دون كبير المنزلتين.

فمن هؤلاء يدخل النار - أعاذنا الله برحمته منها - من لم يشأ الله الغفران له، حتى إذا صفوا وهُذِّبوا وخلص منهم ذلك المعنى الذي قال - جلَّ قوله - فيه: «**اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خير، فأخرجوه منها أو أدنى وأدنى من ذلك**»(٢).

وذلك هو الإيمان بهن بالآثام وتضعيف السيئات لطول عرض الذنوب عليه، فتقل معارضته وتذهب قوته في المجاهدة ويألفها، فيقل إنكاره لها لأجل كثرة

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وأحمد (١١١٤٣)، وابن ماجة (١٧٩)، وابن حبان (١٨٣)، وأبو عوانة (٤٤٩).

ترادها عليه، فتكون منزلته في ذلك منزلة ساقطة الحديد إلى الأرض لا تزال الأرض تأكلها، وتصدأ هي ويعلوها الذرى، ويطول ذلك حتى يخرقها، وينفد عرضها ويقصر طولها، فيبطل لذلك منها ما صنعت له.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: «**ممن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير**»[١] وإنما خير الحديد مضاؤه في عمله وقيامه فيما وجد له، ثم قد نجد الصداء فيها ويغلب عليها آفة الذرى، فلا يبقى مما هو حقيقة الحديد منها على طول بلاها في الأرض وقرب الندى منها، ولزوم ذلك لها إلا شبهه باطنه لا تتميز إلا بالنار، فمثل تخليص هذه الساقطة من الحديد من ذراها الغالب عليها في نار الدنيا؛ ليخرج منها ما هو حقيقة الحديد.

وإن قلَّ ذلك منها كمثل جعل أولئك في نار الآخرة؛ ليخلص منهم الطيبات من الخبيث، وذلك المخلص منهم - والله أعلم - هو المعني بقوله عزَّ قوله: «**مثقال ذرة من إيمان وأدنى أدنى أدنى من مثقال ذرة**»[٢] نعوذ بالله العظيم برحمته من عذابه قليله وكثيره، ونسأله فإنه الرحيم أن يتغمدنا برحمته.

فالإيمان بقوته ومجاهدته وإنكاره، وغيرته على الفواحش مثال الحديد؛ لشدة بأسه وقوته، والأرض والندى في إبطاله وتعفينه، وإذهاب حقيقته كالذنوب بعد الذنوب في توهين الإيمان وإبطال عمله فما وجد له، وكما قد تُذهب الأرض الحديد جملة، وتحيله إلى نفسها كذلك تُذهب كثرة الذنوب الإيمان إهلاكًا وإبطالاً، وهذا هو الذي أحاطت به خطيئته، فينزع منه بمشيئة الله جلَّ ذكره بما هو من شبهه الإيمان عند الموت، فلا يخرج من النار أبدًا إذا لم يبقَ فيه ما يخلص منها.

وأما قوله - عز من قائل - في الجنة: ﴿**عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران:١٣٣] فقد قال رسول الله ﷺ في خبره الصادق عن إسرائه: «**فوجدت آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السابعة**» وذكر الأنبياء - صلوات الله وسلامه على جميعهم - فيما بين ذلك من السماوات على منازلهم، قال ﷺ: «**وجدت**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

موسى في السماء السادسة»[1] وذكر ﷺ أنه وجده في قبره قائمًا يصلي.

وقال ﷺ في الشهداء: «إنهم في حواصل طيور خضر تعلق بثمار الجنة»[2].

وقال ﷻ في الشهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] جنتهم اليوم، كما قال - جلَّ من قائل - في عموم الموتى، فطوَّرهم ﷻ ثلاثة أطوار، وذكر ﷻ احتضار المحتضرين ومنقلبهم وما إليه ينقلبون ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٥] يعني ﷻ: الموت.

كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] يعني: الموت، كذلك قال جلَّ ذكره في آخر سورة الحاقة، والجنة اليوم عرضها السماوات أعدها الله جلَّ ذكره للمتقين الذين وصفهم بالإحسان.

إلى قوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[آل عمران:١٣٥-١٣٩].

ثم للمتقين الذين ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٣٥] على علم منهم أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، هذه جنة الدار الوسطى التي بعد الموت.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٩٨٢) وفي الشاميين (٢٥٤٦)، والبيهقي في الدلائل (٦٧٢)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٦٧)، وابن حبان (٧٥٢٩).

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٨٥)، والدارمي (٢٤٦٥).

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الدار الآخرة دار القرار ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾ [آل عمران:١٣٦] ودلت الواو ها هنا عطفًا بمعنىً على معنى، وتعظيمًا لأجرها هنالك، وإنه قد [زادكم][1].

كما قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد مصدق بصدقة من كسب طيب، والله طيب لا يقبل إلا الطيب إلا وقعت في يمين الرحمن قبل أن تقع في كف السائل، فيربها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون الثمرة مثل جبل أُحد**»[2] كما تنشأ البذرة في الأرض ينزل الله عليها الماء من السماء حتى تكون نخلة فرعها في السماء وأصلها ثابت في الأرض، فكذلك غيرها من بذرة الشجرة حتى يستظل تحتها الإنس ووحش الأرض، وتأوي إليها طير السماء.

وكما ينشئ ﷻ الثمرة في الدنيا من صغير إلى كبير، ومن فجاجة إلى نضج، كذلك الصدقة فيما هنالك حتى تكون الثمرة مثل جبل أحد، والأمر هنالك أفخم والوجود أكرم، ولا يكون القابل ها هنا المعبر عنه بالأرض، والمربي المعبر عنه بالماء والهواء والشمس كالقابل هنالك، والمربي المعبر عنه بأنه الله الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض جلَّ ذكره الرحمن الرحيم لا إله إلا هو.

أعقب هذا بقوله الحق: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨] بيان لفضل الآخرة على الدنيا، وهذا لمن نظر واعتبر بالشاهد إلى الغائب، وموعظة لمن اتقى الله فيما أمره به ونهاه عنه.

ثم أرجع ﷻ الخطاب إلى ذكر غزوة أُحد، يعزي ﷻ المسلمين في مصابهم ويعظهم؛ ليحتسبوا، ويبشرهم بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3] أي: بما تلوناه عليكم، فإنكم الأعلون في الدنيا والآخرة، كقوله

---

(١) في الأصل [نسأكم].

(٢) أخرجه مالك (١٨٤٤)، والنسائي (١١٢٢٧)، والبيهقي في الشعب (٣٣٢١)، وابن حبان (٢٦٩)، وابن خزيمة (٢٢٣٠)، والدارمي (١٧٢٨)، والحميدي (١٢٠٧).

(٣) قال القرطبي في «تفسيره»: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أي: لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر ﴿إِنْ =

جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [البقرة:٢١٢] وبقوله جلَّ قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران:١٤٠-١٤٥].

و﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ يعني: يوم أحد ﴿فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ يعني: يوم بدر ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(١) [آل عمران:١٤٠].

= كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي: بصدق وعدي، وقيل: «إن» بمعنى «إذ» قال ابن عباس: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد فبيناهم كذلك؛ إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلن علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر» فأنزل الله هذه الآيات، وثاب نفر من المسلمين رماه فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ يعني: الغالبين على الأعداء بعد أحد، فلم يخرجوا بعد ذلك عسكرًا إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهد رسول الله ﷺ، وفي كل عسكر كان بعد رسول الله ﷺ وكان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقت، وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه، لأنه قال لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨] وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾.

(١) في الآية قولان: أحدهما: إن يمسسكم قرح يوم أحد فقد مسهم يوم بدر وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصابتكم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنى هذا﴾ والثاني: إن الكفار قد نالهم يوم =

يقول جل من قائل: وإن كانت لكم العاقبة، فإن من سنتي مداولة اليوم بين الناس؛ لحكمة معهودة لي في ذلك، أثيبهم وأعوض المؤمنين بدار خير من دارهم، وأهل خير من أهاليهم، وأدخل ﷻ الواو عطفًا على هذا المعنى المذكور، أو ما يكون عبارة عما شاء جلَّ ذكره.

وفي قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١] ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

يقول جلَّ قوله: لأبتليكم وأختبركم، فأنزل كلاً حيث أنزل نفسه من الإيمان والصبر والعمل بما يرضي، ولا يخص بذلك المؤمنين وأمحق الكافرين، فأتخذ من المؤمنين شهداء يشاهدون الدار التي ابتاعوها مني بأنفسهم وأموالهم، ورضوها عوضًا مني بذلك صبروا في ذلك لأجلي، ورضوا بي بذلك بما عندي.

فصل

قال الله جلَّ من قائل: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٧].

وقال جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨] فملكوت كل شيء هو سر الصنعة في المصنوع، وخفي القدرة في المقدورة.

ومن ذلك مضافات الملائكة - على جميعهم السلام - في تدبير الأمر في رياح وسحاب وماء وهواء وأرض، وجميع مواد وتركيب من نشطٍ ونزع، ونشر وبشر، وتقسيم وإنشاء، وإرسال وإمساك، وسيارة وإلقاء، وإلهام وبرق، ووصل وتصوير، وإحياء وإماتة بإذن الله ﷻ، إلى غير ذلك من الأفاعيل التي جعلها الله تعالى إليهم، ولا يعلمون إلا بإذنه، فإن مشيئته ﷻ فوق كل مشيئة وقدرته علا فوق كل قدرة، وهم بأمره يعملون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى الله تُرْجَعُ

=

أحد مثل ما نالكم من الجرح والقتل؛ لأنه قتل منهم نيف وعشرون رجلاً، وقتل صاحب لوائهم والجراحات كثرت فيهم وعقر عامة خيلهم بالنبل، وقد كانت الهزيمة عليهم في أول النهار. [الرازي (٤/٣٩٥)].

الأُمُورُ﴾ [الحج:٧٦].

فجنة الدار الوسطى هي الحاضرة، التي قال فيها رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»(١) وهي لهذه الدار جنتها بجنتها ونارها بنارها، كالمثال الذي تقدم ذكره قبل، والقافية للذوات والأولى ونحو هذا، وهي التي هي عرض السماوات والأرض، وهي ملك السماوات والأرض، عنها تنفصل معاني ما هنا من موجوداتها شقائها ونعيمها، سرائها وضرائها، خيرها وشرها.

وأما جنة الدار الآخرة والله أعلم، فهي التي عبَّر عنها قوله الحق: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الحديد:٢١] وتلك أكبر جدًا وأوسع من السماوات والأرض؛ إذ كل ما علا فهو سماء، وذلك إذا كشطت السماوات سماء سماء وبدلت الأرض غير الأرض والسماوات وسعت حقيقة تلك في هذه، فكانت كلها جنانًا، السماوات والأرض اليوم هي من الدنيا، فإذا بدلهن بغيرهن كن آخره، وزيد في ساحتهن طولاً وعرضًا كما بين الدنيا والآخرة من الزيادة التي عبَّر عنها رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بما يرجع منها**»(٢).

وقال العليم الخبير: ﴿**وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ**﴾ [الرعد:٢٦].

فصل

إن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه قد خبَّأ خبئًا كثيرًا، وهيأ نُزلاً عظيمًا كريمًا وعد به عباده المؤمنين، وأعد لمن كذَّب رسله وعصى أمره عذابًا، جمع ذلك كله في دار القرار التي فصل هذه عنها، وأوجب في سابق حكمته وعليّ تدبيره أن

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٣)، وأحمد (٣٦٦٧)، والبزار (١٦٦٣)، وأبو يعلى (٥٢١١)، وابن حبان (٦٦١)، والبيهقي (٦٢٩٦)، والديلمي (٢٦١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، والحاكم (٧٨٩٨) وقال: صحيح الإسناد، وأحمد (١٨٠٤٣)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩)، والطبراني (٧١٣) والبيهقي في الشعب (١٠٤٥٩).

[تجتني][١] فرطًا، ويسبق إليها شهداء يشهدونها من هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ لما أعد له وعرف به.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٤].

وقال أيضًا جلَّ من قائل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: مقدمين إليها قبل البعث.

من ذلك قوله بعد هذا: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني ﷻ: في الحياة الدنيا ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ أي: في الدار الوسطى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣] أي: في الدار الآخرة.

ثم هكذا سرد خطابه ﷻ في شأن غزوة أحد، إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٧٦].

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ

(١) هكذا في الأصل.

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ
بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ
غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ
أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى
بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ
وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى
الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ
﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟
غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ
مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ
وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن
يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَ اللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ
دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ
رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن
كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ
يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾
وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾
[آل عمران:١٤٦-١٧١].

قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾ [آل عمران:١٦٩] إلى قوله: ﴿أَنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧١] قد تقدم فيما مضى من صدر الكلام في حياة الشهداء بمبلغ العلم منا، والاستشهاد مقرون بالقرآن والحديث ومعاني الوجود معه، اعتمادًا في ذلك على صدق قيله جلَّ قوله، وهو العليم الخبير؛ إذ هذه الأحياء لا تنكشف معرفته إلا في الدرجة الثالثة من العقل بتأييد الله ﷻ، وإشعار تحقيقه المعنى الخفي منه.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤] فأخبر صريحًا بصادق قوله ﷻ: إن ذلك لا يوصل إليه إلا بالإشعار من الله ﷻ بحقيقة ذلك.

قال الله ﷻ - وهو أعلم - في المثل الذي ضربه لخليله إبراهيم ﵇ في ذلك: ﴿أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] لا يمتنع عليه شيء شهادة أو غيبًا، حكيم محكم لصنعه؛ أي: إحكام أعرق وصفًا من هذا، ربط الجسم على معاني الأصول ﷻ الأصول إلى متحدٍ يحملها، فهو في إيجاده متكثرًا وفي تكثيره متحدًا، وهو حال حياته هذه ميت بوجه حي في حال موته حي بوجه ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وأعرق من هذا وصفًا وحكمة جعله العبد الأوَّلي آدميًا ذا لحم ودم ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣] ويتمهد هذا إن شاء الله تعالى بالكلام الأول على الأول،

وهو ما لزم الموجود من وجوده باطنًا، وقد مرت قبل إليه إشارة لكن يخفى موضعه، وغيابة غيبه ذهبنا لنبيّنه متى مررنا به، فربَّ معنى غمض فأظهره تعاور العبارات، ودلَّ عليه اختلاف السبل إليه قاصدة بالإيماء نحوه.

اعلم - وفقنا الله وإياك لما يرضيه وحمانا عن جميع مناهيه - أن هذا الوجود المعني بالذكر ألزم الموجودات وجود الظلال أشخاصها، وهو الظاهر بجماع الموجودات.

قال الله ﷻ في ظاهر ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فآلاء الجبال أفياؤها وظلالها، وآلاء الموجودات الظاهرة اتباعها، كذلك لها آلاء باطنة، هذه الظواهر منها دلالات عليها.

من ذلك قول رسول الله ﷺ: «**يعقد الشيطان على قافية أحدكم ثلاث عقد...**»[(١)].

ومن ذلك قوله ﷺ لأصحابه إذ كانوا يأتونه بصدقاتهم: «**اللهم صلِّ على آل فلان**» امتثالاً لقول الله جلَّ ذكره: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

ولما جاءه ابن أبي أوفى بصدقة أبيه قال: «**اللهم صلِّ على آل أبي أوفي**»[(٢)] أراد ﷺ أن يعم بالصلاة ظاهر الآل وباطنه، والصلاة على فلان صلاة على آله الملازم له الذي هو مثاله؛ إذ الباطن في ضمن الظاهر، وليست الأتباع كذلك، فخصَّ آل أبي أوفى بالذكر؛ ليدخل معه ابنه ومن تبعه فيها.

كذلك الصلاة على الميت وغسله هي صلاة وطهر، ولما صار منه إلى مثاله؛ إذ ليس هو عند الله جلَّ ذكره وعند أهل الآخرة بغيرٍ للموجود الظاهر والمعتمد بالصلاة، والدعاء الظاهر عندنا نحن بادئ الرأي والرؤية يدخل الباطن في ذلك بالتبعية، وليس ذلك كذلك على الحقيقة، بل الصلاة والتبرك والدعاء بجملته؛ أعني: الباطن المزايل، والظاهر لنا حكم ذلك بحكم ظاهر، وكذلك الصلاة والتبريك على

---

(١) أخرجه مالك (٤٢٤)، والبخاري (١٠٩١)، ومسلم (٧٧٦)، وأحمد (٧٣٠٦)، وأبو داود (١٣٠٦)، والنسائي (١٦٠٧)، وابن ماجة (١٣٢٩)، وابن حبان (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، وأبو داود (١٥٩٢)، والنسائي (٢٤٧١)، وأحمد (١٩٩٤٤)، والبيهقي في سننه (٧٩٠٧).

الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وخصُّوا بالصلاة بخطير آلائهم التي باينوا بها البشر، وهي التي يصحب منهم العالمين، ويعبر بعد هذا في الغابرين، وهذا المعنى؛ أعني: وجودهم الذي وجدوا عليه حال ظهورهم هذا كان منهم ومن سواهم في بدء الأمر، وحين الإشهاد والتقدير وأخذ المواثيق.

قال رسول الله ﷺ فيما حكاه عن مسراه: «**رأيت الأنبياء في السماوات ولما حضرت الصلاة أممتهم**» فهذا فيمن كان ثم قبض، وقال ﷺ: «**رأيت آدم عليه السلام في السماء الدنيا، وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فهو إذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى**»[(١)] فهذه جملة بنه من مضى منهم ولم يأتي بعد؛ لذلك قيل: آل أمر فلان إلى كذا؛ أي: رجع إلى أوله، فالوجود أول آخره بالجزاء.

ومنه: تأويل الرؤيا، قولهم: فقالوا: ما أولت ذلك يا رسول الله؟

ومنه: الأَلِيَّة التي هي اليمين والحلف، أفعلت بمعنى: ألزمت نفسي الأَلِيَّة، وتأليت: تفعلت، إنما تصور التفعل في الأَلِيَّة؛ لأنها من الإل، وهو معنى باطن في المؤمن تحقيق بصفة الإيمان، فهو بمعنى تفعل مما فيه من الآل، مثال ذلك دخل في الآل وألزم نفسه تعظيمًا له وتحقيقًا لحقيقته.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠] والإل هنا لطيفة لله جلَّ ذكره في العبد المؤمن، كان موجود فيه بما هو إنسان، ثم تحقق بالإيمان، ثم صعد تحقيقه بعلو الإيمان وطاعة ربه إلى غاية، عبَّر عنها بقوله جلَّ قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...**»[(٢)].

وبقوله جلَّ قوله: «**ابن آدم، مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني وظمئت**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في الإيمان (٧١٤)، والضياء المقدسي (١١٢٨) وقال: إسناده صحيح. الأسودة: الأشخاص والأجسام من كل شيء من إنسان أو متاع أو غيره.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

فلم تسقني وكنت عريانًا فلم تكسني»[1] أصله - والله أعلم - من قوله جلَّ قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] ثم ما في العالم مبثوثًا من روح الأمر، وبهذه اللطيفة استوى العبد الباطن يتزكى بالطاعة لربه جلَّ ذكره ويتردى بمعصيته.

قال الله جل من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا...﴾ [الشمس:٧] إلى قوله: ﴿زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩] و﴿دَسَّاهَا﴾ [الشمس:١٠] وربما جاء ذكره موعبًا حسب الطاقة في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

رجع الكلام: قال أبو بكر الصديق ﷺ حين بلغه ركيك ما عارض به مسلمة الحنفي القرآن العزيز: «والله ما خرج هذا من إلٍ» يريد: من نبوة نبي ولا صديقية صدِّيق.

وقد قيل: الإل هو الله جلَّ ذكره.

مرجوع مجموع هذا كله من آل وإل وألية إلى اسمه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] فآلاؤه - جلَّ ذكره - في مخلوقاته هي التي تبصرها أحداق البصائر في معالم العالم المشرقة بضياء الوجود العلي الذي لم يزحمه المكان، ولا أفاته القبل، ولا أعدمه البعد، ولا بعده البعد، ولم يعجز لوجود الموجودات أن تلحقه، سبحانه وله الحمد لم يزل على ما هو، ولا يزول على ما كان دون بداية ولا نهاية، وذلك المعني بقولنا: الألّ في الموجودات عبد وملك له ﷻ، أسلك ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ذلك مسالك أسمائه، وأجراها مجاري مقتضيات معاني معالي صفاته في مصنوعاته، فالموجودات كلها عرض كالأعراض لا تبقى، وذلك الموجود لها كالحامل القائم بها.

ومن آياته: أن تقوم السماء والأرض بأمره.

وقال جلَّ قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ....﴾ [النور:٣٥].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب المفرد (٤٠٢)، ومسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥].

﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] فكل مسبح في العالم وقانت وساجد ومصلٍّ للإله العلي هو خاضع سبيل الاعتبار.

وطريق البحث عن هذا المطلوب العلي هو من لدن قوله جلَّ قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ...﴾ [النجم:٣٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم:٥٥].

ويفضي بالبحث والطلب في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾ [الأعراف:٦٩] وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] مع الوقوف على نسق الآي والتدبر لما ذكرنا فيها، وفيهم قوله تعالى الآلاء وارتياد التزيد من هذه الوجوه المختلفة في هذه المسألة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

﴿فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤].

وقد أوقعت الفتنة بهذه اللطيفة المخلوقة والمحدثة المعمورة المملوكة أقوامًا بالقول في الحلول والقول بذلك كفر صراح، كيف تشبه الخليقة الحقيقة؟ بل كيف يمثل العبد المربوب بربّه الخالق العلي الكبير؟! وهو القائل جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] تمثال الموجودات، فاعلم يقينًا ليس يعبَّر الموجود.

لذلك نهينا أن نقول للشهداء: أمواتًا، وأمرنا أن نعتقد أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فمن شعر للمعنى سهل عليه المأتى، كذلك قال جلَّ من قائل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٦].

وقطع المسافات في طريق الدنيا والآخرة، فكان ﷺ يقول إذا أصبح: «**الحمد**

لله الذي جعل النهار خلفة من الليل»[١] فطريق الشكر لله فيهما ظاهر إن شاء الله، وهو العمل بطاعته واجتناب مناهيه، والتزلف إلى الله ﷻ بنوافل الخيرات.

وأما طريق التذكر وتطلاب العلم، فخلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ذلك من أعظم الطاعات زلفى بعد أداء الفرائض إحياؤه فيهما، قد تقدم في تفسيره قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ...﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] من الكلام بما فيه بطريق المبتدئ وتذكار المبتغي، والله نسأله المزيد من النعم وتوفير القسم.

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟
رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا
يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى
لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ
يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ
أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

---

(١) لم أقف عليه.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ
إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي
بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا
تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ
فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا
فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ
النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾
رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ
لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ
تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل
عمران: ١٧٢-١٩٧].

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥] أي: الأنبياء والمرسلين المؤمنين، ومن الصديقين وهؤلاء من هؤلاء.

كما قال جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:٣٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣] ودلَّ على قدر التخصيص لذكر النبيين والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - أنه نصب «ذرية» على المدح.

سألت أم سلمة رسول الله ﷺ وكانت أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة، قالت: يا رسول الله، لا أسمع ذكر النساء في الهجرة، فقال الله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى....﴾ [آل عمران:١٩٥] انتهى[١].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٨-٢٠٠].

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٢٣)، وأبو يعلى (٦٩٥٨)، والحميدي (٣٠١)، والحاكم (٣١٣١)، والطبراني (١٩١٤١) والبيهقي في السنن والآثار (٥٥٤١).

فهرس المحتويات

تفسير ابن برجان

المسمى

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

المجلد الثاني
أول سورة النساء - آخر سورة يونس

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ

تحقيق وتعليق وتخريج

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

أول سورة النساء - آخر سورة يونس

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : تفسير ابن برَّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMA
TANBĪH AL-AFHĀM ILĀ TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف: الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برَّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages (5 Volumes)	2880	**عدد الصفحات** (5 مجلدات)
Size	17* 24 cm	**قياس الصفحات**
Year	2013 A.D. -1434 H.	**سنة الطباعة**
Printed in : Lebanon		**بلد الطباعة** : لبنـــان
Edition : 1st (2 colors)		**الطبعة** : الأولى (لونان)

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-7763-6
ISBN 2-7451-7763-X

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا

---

(١) الجمهور على أن هذه السورة مدنية إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ وقال النحاس: مكية، وقال النقاش: نزلت عند الهجرة من مكة إلى المدينة. انتهى. ولا خلاف أنّ فيها ما نزل بالمدينة. وفي البخاري: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ﴾ ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أحوال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب والمؤمنين أولي الألباب، ونبه تعالى بقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ على المجازاة، وأخبر أنَّ بعضهم من بعض في أصل التوالد، نبه تعالى في أول هذه السورة على إيجاد الأصل، وتفرُّع العالم الإنساني منه ليحث على التوافق والتواد والتعاطف وعدم الاختلاف، ولينبه بذلك على أنّ أصل الجنس الإنساني كان عابدًا لله مفرده بالتوحيد والتقوى، طائعًا له، فكذلك ينبغي أن تكون فروعه التي نشأت منه، فنادى تعالى: دعاء عامًا للناس، وأمرهم بالتقوى التي هي ملاك الأمر، وجعل سببًا للتقوى تذكاره تعالى إياهم بأنه أوجدهم وأنشأهم من نفس واحدة، ومن كان قادرًا على مثل هذا الإيجاد الغريب الصنع وإعدام هذه الأشكال والنفع والضر فهو جدير بأنْ يتقي.

ونبّه بقوله: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ على ما هو مركوز في الطباع من ميل بعض الأجناس إلى بعض، وألف له دون غيره؛ ليتألف بذلك عباده على تقواه، والظاهر في الناس: العموم؛ لأن الألف واللام فيه تفيده، وللأمر بالتقوى وللعلة؛ إذ ليسا مخصوصين بل هما عامان، وقيل: المراد بالناس أهل مكة، كان صاحب هذا القول ينظر إلى قوله: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ لأن العرب هم الذين يتساءلون بذلك. [البحر المحيط ١٥/٨٠٠].

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٖ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمٗا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلٗا مَّعْرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدٗا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ١ - ٦].

قوله جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً....﴾[1] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿رَقِيبًا﴾ [النساء:١] أمر الله تبارك وتعالى عباده أن يتقوه في اجتناب مناهيه، والعمل بما يرضيه، وتعرف ﷻ إليهم بأنه خلقهم.

وفي ضمن ذكره أنه خلقهم هو الذي رزقهم ويقوم عليهم، ثم يميتهم ثم يحييهم، ثم يجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها وصف نفسه ﷻ بمحض الوحدانية، فهو الواحد خلق واحدًا، صوَّره أحسن تصوير خلق من ذلك المخلوق زوجه واحدًا أشبهه كافله وعائله، أولهما هو المخلَق منه، وهذا مقوم عليه معول مفصول مكفول وأنثى.

فاعلم بهذا الخطاب أن الكثرة عن الوحدة انفصلت وإليها ترجع، وأن الأول هو الفاضل والمؤخر هو المفضول، فيجمع ذرية آدم عليه السلام وزوجه عن آدم، وأن الأنواع وإن تكثرت فإنها ترجع إلى الجنس، وأن الأجناس فوق ذلك تكون أنواعًا لجنس واحد يجمعها؛ لذلك قال الله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

فأول ما أوجد الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من شيء، فهو النور أوجده ﷻ عن نوره العلي النزيه الرفيع، ثم أوجد له ضدًا وهو الظلام أوجده جلَّ ذكره عن معنى متوهم، أوجده ﷻ إرصادًا للمحنة التي قدرها، والبلوى السابقة في علمه بها حكمة

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها عليه: «خُلِقَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ فَهَمَّهَا فِي الرَّجُلِ، وخلق الرجل مِنَ التَّرابِ فَهَمُّهُ فِي التُّرابِ». [النكت والعيون (١/٢٧٢)].

بالغة له في إتمام كلمته ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهذا المعنى المتوهم لا وجود له في الحقيقة، وإن كان الله جلَّ ذكره قد أثاره في أثناء الخليقة، وهو ما عبَّر عنه حرف النفي من قول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك» وهو أيضًا ما عبَّر عنه ما سبح عنه نفسه وتعالى عنه، وهو مستحيل الوجود معبر عن عدمه معرب عن استحالة وجوده في أكثر أنواع الأذكار، كقوله جلَّ قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء:٤٢].

﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الزمر:٤].

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء:١٧].

هذا وشبه هذا مما قد شهدت به الشواهد، وأصفق جميع الوجود على الإجماع باستحالة وجوده ووجوب عدمه، فخلق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من خالص النور ما شاء، وأوجد عن ذلك الظلام ما شاء، ثم من ممتزجها ما قد سبق به كتابه ووسعه علمه، فهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد، خلق واحدًا، أوجد عن ذلك الواحد واحدًا أوجد عنهما الكثرة العليم الحكيم.

فصل

في هذا الخطاب إيماء وتعريض بالحض، بل بالإيجاب باعتبار خلقه جملة المخلوقات، فمن حيث هو فاعلها وصانعها وخالقها دلَّ على وجوب وجوده العلي ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، كما دلت الكتابة على الكاتب والبناء على بانٍ والفعل على فاعل، ثم دلَّ بذلك على أن المفعول الجزئي لا يشبه فاعله، كما لا يشبه البناء بانيه، ولا الكتابة كاتبها؛ إذ هي أنواع لا تمام فيها سوى أنها مفعولات فقط، فقد أعطت من الدلالة دلالة على وجود الفاعل، لكن الباطن الناظر يحتاج أن يضيف إليها نظيرًا آخر، أو لما صعدت الموجودات إلى أجناس دلت بحياتها، على أن فاعلها حي ليس كمثله شيء، وبعلمها على أن فاعلها عالم وبإرادته قدرها، ونحو هذا كله صفة ومعنى على ما كانت عنه، ومن هو موجود له، ومنه وهو الحق أوجده

على الحق.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»(١) مسلمًا مؤمنًا كالعالم الكلي سواء، فكل مكفول ومفعول، فناقص غير تام، وكل ما في العالم كذلك، فهو فقير إلى خالقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، مفصول آخر عن أول هو خالقه وجاعله ومصوره، وهو القائم عليه الكافل له، سبحانه وله الحمد.

فصل

إذا كان النظر في أبعاض الموجود الكلي، فإن أول وجود العقل من العلم وجود صانع الصنعة كما تقدم، ولا تشبه الصنعة صانعها، بل غاية كمال المفعول أن يكون بعضًا للكلي، وأن يشبه فاعله الأدنى في أنه جزئي من أفعال الفاعل الجزئي، شيء يشبه إلا ما كان منه على سبيل البنوة والنسل، وهو فعل سُخر له واضطر إليه، وهو مفعوله الكلي بالإضافة إليه، فإذًا المفعول لا يشبه فاعله إلا إذا كمل، ثم هو لا يشبهه من كل الجهات، وفاعله الحق هو الفاعل الأعلى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأمر نازل من عنده، وحلم جَزْمٍ؛ ليتم بذلك كلمته، ويظهر أمره وخلقة ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨ - ٥٩].

وهو آية على مفعوله الفاعل الأعلى ﷻ مفعوله الكلي ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] خلقه بالحق وأوجده بالحق، وكل ما يفعل إليه المفعول الكلي فأبعاض وأجزاء يكمل بها الكلي.

وكمال الجزئيات أن تكون معدة؛ ليكمل بها المفعول الكلي باجتماعها، أو على صورة ما هو مفعول كامل.

قال رسول الله ﷺ: «**تربت يمينك ومن أين يكون الشبه؟**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٢٠) ومسلم (٢٦١٢) وعبد بن حميد (٩٠٠) والدارقطني في الصفات (٤٨) وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٩٨) واللالكائي (٧١٦) والديلمي (٧٣٠٩).

(٢) أخرجه مالك (١١٥) والدارمي (٧٦٣) وأبو داود (٢٣٧)، والنسائي في الكبرى (٢٠٣) وابن =

جعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ما تقدم ذكره دلالة كلية على التوحيد الأعلى والإسلام الأرفع واليقين الأتم، ثم ما جعله الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من أجزاء هذا الكلي وأبعاضه، وأجزاء أجزائه مما لم يؤم بعضها بعضًا منها إليها من منتهاه إلى أسفل إلى منتهاه الأعلى، جعل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أيضًا ذلك دلالة على النبوة والرسالة والاختصاص والاصطفاء، فإذًا كمال المفعول الكلي أن يكون على صورة فاعله، كالجزئي كماله أن يكون بعضًا للكلي كالعضو الجزئي من الجزء.

فصل

الموجود الجزئي مسخر له أبعاض الكلي عاطفة عليه أعضاؤه ومعاطفه، وما بين ذلك غذاء له ينشئه منشئه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ويأوله إليه صورة وذاتًا، فـ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨] وليظهره في صورة الحق المفعول عيانًا ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢١ - ٢٣].

وكما أننا ننطق حقًّا لا مرية في ذلك، فكذلك ما نحن بسبيل تبيانه لا مرية فيه، فافهم.

فقد تبين بما تقدم ذكره أن الدنيا نبذة من الآخرة صورت على صورتها سرائها وضرائها، لكن على المزج والتقليل، وإن الذي يكون عن الماء ينزل من السماء إلى الأرض من جنات وعيون وزروع، ومقام كريم شبيه بما نُزل عنه، وكذلك في القسم الآخر ما يكون من سموم حر وزمهرير بتوابع ذلك كله.

قال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»[(١)].

والله ورسوله أعلم إلى فيح جهنم بنفسيها المأذون لها فيهما، وقد تقدم ذكر

حبان (١١٦٦).

(١) تقدم تخريجه.

هذا فتبارك الله أحسن الخالقين، ما أحسن ما أوجد وأتقن ما خلق وأحكم، اللهم يا ذا الجلال والإكرام فهمنا عنك، ثم استعملنا بالذي يرضيك عنا.

فصل

المفهوم مما تقدم ذكره أنه ﷻ الطاهر الطيب القدوس السلام المؤمن المهيمن ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] لم يزل على ذلك، ولا يزال أوجد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مخلوقاته جمعًا مما أوجد من أجله فوجوده حق محض، له المحامد كلها أوصاف وخلق.

كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

و﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] وما أوجده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا لأجله، فهو خلق له ومقدور ليس لأجله ولا بتوليه إياه، فكذلك لزمه البعد وانضاف إليه المذام على قدر ما لزمه من هذا الوصف.

قال رسول الله ﷺ: «**من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه**»[١] فافهم وألقن، فإنه من لم يستدل على المعرفة بربه بصنعه لنفسه، فلم يعرف الله إلا بالاسم لا بحقيقة المعنى الذي دعا إليه، وهو معنى قول رسول الله ﷺ: «**أعرفكم بالله أعرفكم بنفسه**»[٢].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] و﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وتسميتهم بالناس، وسمى واحدهم إنسانًا، والجنس منهم ناس، ما معنى ذلك الذي إليه أن يكون مسلمًا مؤمنًا عالمًا حكيمًا برًّا رحيمًا عفوًا غفورًا كريمًا سخيًا شكورًا، هكذا ثم على نحو التعبد بها في الأسماء.

وأما المعرفة التي تحصلت قبل هذا، ففي قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية (٢٠٨/١٠).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٢١٩/٣)، وهو قول عن بعض السلف.

[الانفطار:٦ - ٨].

وفي قوله جلَّ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] أي: على علم الفطرة وصورة الحق، فإن كان مؤمنًا مسلمًا صادقًا برًّا وصولاً سخيًا كريمًا إلى غير ذلك، فهو وإن كان كاذبًا كفورًا بما يتبع ذلك من أسماء وصفات، فذلك الذي رده إلى أسفل سافلين، وإن كان على المحمود هو ما دعاه إلى وِلاه ونسبه إليه، وكان معه كما تقدم.

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن الناظر في كتاب الله ﷻ ربما اضطر عند تفهم المراد من سرٍّ أثناء الخطاب إلى ألا يعتمد على ترتيب أبنيته، ولا يركن إلى إعراب اسم ضرورة يجدها عند مطالعة التحقيق، ومبادئ أسماء ورؤوس معاني نتلقف الفهم عن إشارات مبادئ الخطاب.

وقد تقدمت إلى هذا المعنى إشارة فيما مضى؛ وذلك عن أمارة حال عبَّر عنها قوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٦ - ١٧] فيما بين هذه الحال من متلقف الوحي، وبين الحال التي عبَّر عنها بقوله جلَّ قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] حال قراءته امتزج ما ظهر منه للفهم بما لم يظهر بعد، وربما بدت لذلك جملة وخفيت أوائله، وقد تقدمت إلى نحو هذا إشارة، وإن كان التوجه فيما هذا سبيله غير المتوجه إليه بما عرضت إليه فلنقتصر. انتهى.

اختلف السلف - رحمهم الله - في المعنى الذي أوقع هذا الاسم على هذا الجنس من أجله؛ فقال منهم قائلون: إنه من النسيان، وتمثلوا في ذلك بقول بعضهم:

وسُمّيت إنسانًا لأنك ناسي

وعولوا في إثباته على قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥] واستمرت لهم الشواهد من معهود النسيان، ووجوده في الإنسان نسيان ترك ونيسان ذهول، وزوال ذكر المنسي بعينه.

وقال آخرون: هو مأخوذ من الحركة يقال من ذلك: ناس ينوس نوسًا إذا تحرك، والفاعل منه: نائس ونواس على التكثير، واستمرت لهم أيضًا بذلك الشواهد

بالوجود، والخبر بأن الإنسان لا بد متحرك إما ظاهرًا وإما باطنًا، أو بكليهما ما دام حيًّا بوجه.

حجته في ذلك إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فأخبر أن الإنسان بما هو في حركة ما قولاً أو فعلاً أو لهما معًا، وبما هو إنسان مكلف هو في خسر ما لم يكن ذلك منه عن إيمان بالله ورسوله واقتداء، وهذا هو المستثنى بقوله ﷻ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

ومن ذلك: ما ذكر أن الخضر أوصى موسى - عليهما السلام - وقد سأله عن ذلك، فكان مما قال له: «يا موسى اعمل خيرًا، فإنك لا بد عامل شرًّا» وهذان الوجهان معًا وإن كانا موجودين في الإنسان، فإنه لا يتم وصفه إلا بالوجه الثالث، وهو بأن يكون مأخوذ من الإنس، وبذلك سمي الجنس.

وعلى ما تقدم من اعتقاد المقاربة قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ﴾ وشواهد هذا في معهود الخطاب كثيرة جدًا، فتارة يبدو ممتزجًا بمعنى التوبيخ، وتارة باستدعاء وتلطف ونصيحة ممتزجة بمعاني ما تقدم ذكره من النسيان والغفلة، وغير ذلك كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر:٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِالله الغَرُورُ...﴾ [فاطر:٥] حيث كان كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦ - ٨].

فهو - أعني: الإنسان - إن لم يأنس بربه أنس بسواه لا محالة، الأنس على ما تقدم [.....][1] تذكر بأوليّة منبهة على خصوصية الاتصال إلى قرب محل، كيف خلقه من تراب ممتزج بالماء، والتراب من الأرض الموصوفة بالتمهيد والاطمئنان ، والماء من السماء وحده طهورًا وبركة ورحمة، وكان عرشه على الماء، والماء على الهواء، والهواء على الروح، والروح على الروح ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

(١) في الأصل، تقرأ: [عهدها كبيرة].

[الأنبياء:٣٠].

وخلقه يوم خلقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بيده، ونفخ فيه من روحه وأسكنه في جواره، واستخلفه في أرضه، ونوَّه به في الملأ الأعلى وباهى بعلمه فيما هنالك، ووالى فيه وعادى فيه، ولما أخطأ عفا عنه، وأعد له كرامة ذكر بها قبل إيجاده إياه، وهذه معاريض منه جلَّ ذكره بإيصال حبله بحبل خالقه ورازقه ومصوره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

ثم عن هذه الثلاثة الأوجه تنبثق علوم علية بشواهد عليها سوية، منها خافية ومنها جلية على معاملات القلوب وحب المحبوب، وجهاد العدو ومكابدته بالجوانح والجوارح، ومعرفة اللمتين واتصاله بتعليم ومحادثة، وإلهام وتكليم، وإلطاف وإكرام، أو بُعد وحجب، نسأل الغفور الرحيم معافاته ورحمته.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

وقال جلَّ قوله في موضع آخر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الزمر:٦] نصَّ تعالى على أن كل زوج من كل جنس هو سكنه وبه أنسه؛ لأنه منه خلقه وعنه أوجده وفصله، والمخلوق الموجود عن أوله هو موجود مخلوق لخالقه فصله عن أوله الذي هو زوجه، هذا على العموم في كل الخليقة، وقد مضى من ذكر هذا ما يغني عن ترداده.

فالأول الذي هو الروح الثانية المنتزع منه تحب ما انتزع عنه وفصل منه؛ لأنه بعضه، ومحبته ليعقبه على التحقيق محبة لنفسه، هذا مثال لمحبة الوالدين ولدهما، وأمَّا محبة الزوج المنتزع المفصول عن أوله محبة لما هو عنه موجود هو أول له، فمحبته من قِبل محبة الغريب وطنه.

مثال هذا: محبة الولد لوالديه، ولله المثل الأعلى، محبة الخالق المخلوق، وثَمَّ محبة المولى العلي الأعلى عبده الولي.

شاهده: قول رسول الله ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل ضلت ناقته**

في أرض فلاة عليها طعامه وشرابه...» إلى قوله: «**أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»(١).

وقوله ﷺ: «**لله أرحم بعبده من والدة حلت بولدها في أرض مظلمة، فأرادت أن تضجعه بيدها إلى الأرض؛ لتنظر إن كان بها عقرب أو حية أصابتها دونه، فالله أرحم بعبده من هذه المرأة بولدها**»(٢).

ومصداق قول الله ﷻ: ﴿**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [يوسف:٦٤] ومن هنا تتعرف الفردانية، فهو المفرد الحق أولاً وآخرًا، لا يزدوج إلى شيء ولا كمثله شيء.

ثم عبرة الثاني: محبة العبد ربه محبة العبد الولي لربه العلي الأعلى، قال الله ﷻ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا لله**﴾ [البقرة:١٦٥].

قوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**﴾ [النساء:١] بنصب الميم وخفضها، أما النصب فبحذف فعل تقديره: «واتقوا الأرحام أن تقطعوها» وإنما يكون قطعها بالفساد في الأرض والكفر بالله ولزوم المعاصي جهارًا، فلا يجوز لمؤمن الموالاة على ذلك.

وأما بالخفض فتقديره: «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» والوعيد هنا على قطع الأرحام، والتحذير من ذلك تعريض بالناس من شفاعة المؤمنين يوم القيامة عند جواز الصراط للعاصين إخوانهم المؤمنين، يوم يحملون أوزارهم على ظهورهم.

والصراط أحدّ من الموسى وأرقّ من الشعرة، وقبله وبعده على ضفتي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - ضحضاح النيران، ما يبلغ الركبتين والفخذين والحقوين والحسك بين الأرجل، وشوك كشوك السعدان، ولا واقي من عذاب الله ﷻ سواه.

وأهل الجنة قد صُفوا على ممرهم قد نجاهم الله بمفازتهم، فيعرف أحدهم المؤمن فيقول: أتعرفني ألست الذي وهبتك يوم كذا وكذا وضوءًا؟ ويقول الآخر:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤) بنحوه.

ألست تعرفني يوم كذا وكذا إذ نفعتك في كذا؟ ويقول الآخر: أتذكر يوم كذا إذ نصرتك؟ ويتعرفون للمتقين فيعرفونهم، فيقول أحدهم لمخاطبه: سألتك بالله وبالأرحام؛ ألا ما شفعت فيَّ اليوم فيشفع فيه، فيستشفع.

فذكرهم رب العزة بسؤالهم بعضهم بعضًا وبالله وبالأرحام، وتوقير أهل التقوى ورؤية الحق لهم، واتخاذ اليد عندهم، وتقديم المعروف إليهم عدة لذلك اليوم، والخفض إعلام منه ﷻ أنهم يتساءلون بالله وبالأرحام يومئذٍ، فيكون ما تقدم ذكره تعريضًا.

أعقب ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١] هو الرقيب في الدنيا، وشهيد الحكم في الآخرة إن الله كان عليكم في الدنيا رقيبًا، من أحسن منكم إلى أوليائه أو أساء.

فصل

التقوى من الوقاية، وهو ما تقي به نفسك، وما هو منك ولك، وهي على ضربين:

تقوى يُتقى بصالح الأعمال فسادها.

وتقوى يُتقى بها الله ﷻ، وأصله الحذر والخوف.

قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣١ - ١٣٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧].

وأمر ﷻ بالتقوى وأبدى فيها وأعاد، وهي وصيته في الأولين وعهد إلى الآخرين.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١] وهي قاعدة صفات المؤمنين وأعلى نعوت المؤمنين والأولياء الموقنين، وبها تصح المقامات، وترفع الدرجات وتحقق الصفات.

وقد جعلها الله مبدأ نعوتهم فبدأ بها - جلَّ وتعالى - في مفتتح التنزيل، فقال جلَّ قوله: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١ - ٢] الذين

من وصفهم مجانبة المحرمات، ومفارقة الشهوات والمشتبهات، ومباعدة الإصرار على السيئات، وهو رقيبًا لله ﷻ في قلوب أوليائه، يحبهم ﷻ بذلك على الارتقاء في الدرجات في أول مقام وفي أعلى مقام، وفي أول كل نفس وفي آخر كل نفس، حتى إنهم إذا همَّ أحدهم بسوءٍ أو همَّ قاربهم لاحظ في الشاهد المشهود أو شهد في البينات في الوجود المطلوب، فاجأته التقوى ببيان التقدير قائلة له: إياك ثم إياك، أو تلك عظة الله في قلب كل مؤمن، هم درجات عند الله كما قال قائلهم:

ما إن ذكرتك إلا خالطت فكري هم الحشى وهو سري عند ذكراكا

حتى كأن رقيبًا منك يهتف بي إياك ويحك والتذكار إياكا

وأول التقوى: تقوى الشرك والكفر بالله ﷻ ظاهرًا وباطنًا، وذلك أول الهداية، فإذا اتقى جملة المناهي صار بذلك من أهل الولاية، ثم إذا اتقى هواه صار أمره غاية ونهاية.

وآفة التقوى: الغفلة.

وسببها: الميل إلى الدنيا والركون إليها، وذلك بسوء الغفلة عن التقوى في التقوى.

عبرة:

قد تقدم توهم الجملة وتشبهها بالسفينة بوجهٍ، وبرجل قائم يصلي بوجهٍ، عابد لربه قانت مراقب لرقيبه بوجهٍ، فأنت إن أردت العبادة العظمى الرفيعة ورفيع التقوى والقنوت العلا، فاترك نفسك مفردًا مع ربك حتى كأنه لا ينظر إلا إليك ولا يراقب سواك، وإنه لكذلك؛ إذ قد تحقق العلم بأنه لا يشغله شيء عن شيء، وأنت الجزئي المشبه بذلك الكلي قد أحاط بك علمه وقدرته، وقدره وتدبيره، وحفظه وإمساكه في ظاهرك وباطنك وأولك وآخرك، به حولك وقوتك وحركتك وسكونك، وله جميع أمرك، فأنزل نفسك مع ربك منزلة المتوهم الذي لا يخاف غيره، ولا تُرائي بعمله؛ إذ الغير فيما هنالك معدوم إنما هو نفسه وربه.

فكذلك أنت مع ربك مفردًا لشأنك لا تملك بذلك سواه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فاتكل عليه واعبده وحدك كما خلقك وحده، وأفرِدْه

بعبادتك كما أفردك بشأنك وراقبه وحده وخَفْهُ وحده وعظِّمه وحده، فهو أقرب إليك منك إليك، كما تقدم في إيمانك بالكلي مع خالقه العلي العظيم، فمتى صليت فاستشعر هذا.

ومتى نويت نية، أو توجهت وجهة أو ذكرته، فتوهم المذكور وقد أحاط بك إحاطته بالكلي، حتى كأنه ليس بحضرته مخلوق سواك، بل توهم أنك لا بمكان يحيط بك ولا زمان ولا كيف، ولا تابع من توابع المخلوقات سواء أمر ربك كالكلي، واستشعر من الأذكار أظهرها عظمة، ومن القرآن العزيز أعظمه كآية الكرسي وسورة الإخلاص، وما كان في معنى ذلك، واستغنِ بالله يُغنِك عن سواه، واستعن بالله يعنك، والله أسرع إليكم منك إليك، فأيقن بذلك واستشعره واسأله إياه، وتضرع إليه فيه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله ﷻ: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ....﴾[1] إلى قوله:

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قال الله ﷻ: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ فيه خمس مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ وأراد باليتامى الذين كانوا أيتامًا، كقوله: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ولا سحر مع السجود، فكذلك لا يتم مع البلوغ، وكان يقال للنبي ﷺ: «يتيم أبي طالب» استصحابًا لما كان، ﴿وَآتُوا﴾ أي: أعطوا، والإيتاء الإعطاء، ولفلان أتو، أي: عطاء، أبو زيد: أتوت الرجل آتوه إتاوة، وهي الرشوة، واليتيم من لم يبلغ الحلم، وقد تقدم في البقرة مستوفى، وهذه الآية خطاب للأولياء والأوصياء، نزلت في قول مقاتل والكلبي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه، فنزلت، فقال العم: نعوذ بالله من الحوب الكبير! ورد المال، فقال النبي ﷺ: «من يوق شح نفسه ورجع به هكذا فإنه يحل داره» يعني جنته، فلما قبض الفتى المال أنفقه في سبيل الله، فقال ﷺ: «ثبت الأجر وبقي الوزر» فقيل: كيف يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده» لأنه كان مشركًا. الثانية: وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين: أحدهما: إجراء الطعام والكسوة ما دامت الولاية؛ إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكلي والاستبداد كالصغير والسفيه الكبير، الثاني: الايتاء بالتمكن وإسلام المال إليه، وذلك عند الابتلاء والإرشاد، وتكون تسميته مجازًا، المعنى: الذي كان يتيمًا، وهو استصحاب الاسم، كقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي: الذين كانوا سحرة، وكان يقال للنبي ﷺ: «يتيم أبي طالب» فإذا تحقق الولي رشده حرم عليه إمساك ماله عنه وكان عاصيًا، وقال أبو حنيفة: إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة أعطي ماله كله على كل حال؛ لأنه يصير جدًا، قلت: لما لم يذكر الله تعالى في هذه الآية إيناس الرشد وذكره في قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى =

=

حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ قال أبو بكر الرازي الحنفي في أحكام القرآن: لما لم يقيد الرشد في موضع وقيد في موضع وجب استعمالهما، فأقول: إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة وهو سفيه لم يؤنس منه الرشد، وجب دفع المال إليه، وإن كان دون ذلك لم يجب، عملاً بالآيتين، وقال أبو حنيفة: لما بلغ رشده صار يصلح أن يكون جدًا فإذا صار يصلح أن يكون جدًا فكيف يصح إعطاؤه المال بعلة اليتم وباسم اليتيم؟! وهل ذلك إلا في غاية البعد؟! قال ابن العربي: وهذا باطل لا وجه له، لا سيما على أصله الذي يرى المقدرات لا تثبت قياسًا، وإنما تؤخذ من جهة النص، وليس في هذه المسألة، وسيأتي ما للعلماء في الحجر إن شاء الله تعالى. **الثالثة**: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: لا تبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة، ولا الدرهم الطيب بالزيف، وكانوا في الجاهلية لعدم الدين لا يتحرجون عن أموال اليتامى، فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى ويبدلونه بالرديء من أموالهم، ويقولون: اسم باسم ورأس برأس، فنهاهم الله عن ذلك، هذا قول سعيد بن المسيب والزهري والسدي والضحاك وهو ظاهر الآية، وقيل: المعنى لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب وهو مالكم، وقال مجاهد وأبو صالح وباذان: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، وقال ابن زيد: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث، عطاء: لا تربح يتيمك الذي عندك وهو غر صغير، وهذان القولان خارجان عن ظاهر الآية، فإنه يقال: تبدل الشيء بالشيء أي أخذه مكانه، ومنه البدل. **الرابعة**: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد: وهذه الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنهوا عن ذلك، ثم نسخ بقوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وقال ابن فورك عن الحسن: تأول الناس في هذه الآية النهى عن الخلط فاجتنبوه من قبل أنفسهم فخفف عنهم في آية البقرة، وقالت طائفة من المتأخرين: إن «إلى» بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾ وقال الحذاق: «إلى» على بابها وهي تتضمن الإضافة؛ أي: لا تضيفوا أموالهم وتضموها إلى أموالكم في الأكل، فنهوا أن يعتقدوا أموال اليتامى كأموالهم فيتسلطوا عليها بالأكل والانتفاع. **الخامسة**: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: الأكل ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا كبيرًا، عن ابن عباس والحسن وغيرهما، يقال: حاب الرجل يحوب حوبًا إذا أثم، وأصله الزجر للإبل، فسمي الإثم حوبًا؛ لأنه يزجر عنه وبه، ويقال في الدعاء: «اللهم اغفر حوبتي» أي: إثمي، والحوبة أيضًا الحاجة، ومنه في الدعاء: إليك أرفع حوبتي، أي: حاجتي، والحوب الوحشة، ومنه قوله ﷺ لأبي أيوب: «إن طلاق أم أيوب لحوب» وفيه ثلاث لغات «حوبا» بضم الحاء وهي قراءة العامة ولغة أهل الحجاز، وقرأ الحسن «حوبا» بفتح الحاء، وقال الأخفش: وهي لغة تميم، مقاتل: لغة الحبش، والحوب المصدر، وكذلك الحيابة، والحوب الاسم، وقرأ أبي بن كعب «حابا» على المصدر مثل القال، ويجوز أن يكون اسمًا مثل الزاد، والحوأب بهمزة بعد الواو: المكان الواسع، والحوأب ماء أيضًا، ويقال: ألحق الله به الحوبة أي المسكنة والحاجة، ومنه قولهم:

=

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢] قد كتب الله جلَّ ذكره أن أرزاق عباده كما فرغ من آجالهم وأعمالهم ومآلهم، فمن أخذ حرامًا ورضي به حرم من الحلال بقدر ذلك.

واعلم أن الكسب ليس هو الرزق، إنما الرزق ما أكل العبد أو لبسه من ماله أو قدمه لآخرته، وعلى التحقيق والقول بالخصوص فهو الغذاء، فإذا أكل الأكلة من الحرام امتنع أكل الحلال يوجد هذا بالمشاهدة، ومن تجاوز القوت إلى السرف، فقد جاء النهي في ذلك في الآية، في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:٢].

ومعنى «إلى» ها هنا تنقسم إلى وجهين:

أحدهما: أن تكون بمعنى «مع» فهذا هو السرف المنهي عنه.

والمعنى الآخر: هو ما تقدم ذكره؛ أي: لا تأكلوا أموال اليتامى ظلمًا؛ لتقوا بها أموالكم ترجون ذلك أن يكون زيادة إلى أموالكم إنه كان حوبًا كبيرًا.

ثم جمع ذلك بقوله الحق ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء:٦].

فصل

نهى الله جلَّ ذكره الأوصياء عن أكل أموال اليتامى ظلمًا، والظلم هو الإسراف، ومعنى ذلك أن تأكلوها مع أموالهم، وأن يقوا بها أموالهم، وندب ﷻ الغني منهم أن يستعفف ويحتسب نظره له ويحسمه، وأباح الفقير أن يأكل من مال يتيمه بالمعروف، ومعروفه مقدار العناء والمشقة فيه، وإن أغناه ما دون ذلك منه، فليقتصر عليه فإنه منهي عن الإسراف.

ونهاهم أيضًا ﷻ أن ينكحوا يتامى النساء إلا أن يقسطوا لهن، كما يرغبوا في نكاحهن لمالهن أو لجمالهن أو حسنهن، فيجزلوا لهن في المهر، وإلا فليعدلوا

=

بات بحيبة سوء، وأصل الياء الواو، وتحوب فلان أي تعبد وألقى الحوب عن نفسه، والتحوب أيضًا التحزن، وهو أيضًا الصياح الشديد، كالزجر، وفلان يتحوب من كذا أي يتوجع.

عنهن بالنكاح إلى غيرهن، وكذلك أن أنكحوهم بناتهم فعلى ما تقدم.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ....﴾ [النساء:١٢٧].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ٧ - ١١].

قوله جلَّ قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾(١) [النساء:١١] أمر الله تعالى المؤمنين وصية من لدنه أن يعدلوا بين أبنائهم، وأن يعطوا ذكرانهم ضعف إناثهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا

(١) روى السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري ولا الضعفاء من الغلمان، لا يورثون الرجل من ولده إلّا من أطاق القتال، فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها: أم كُجّة، وترك خمس أخوات فجاءت الورثة فأخذوا ماله، فشكت أم كجة ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية. [النكت والعيون (١/٢٧٩)].

تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١٢ - ١٣].

ثم سرد ﷻ على هذا مقاسم المواريث، ثم ختمها بقوله جلَّ قوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ الله وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ الله﴾ [النساء:١٢ - ١٣] ثم أوعد على تعديها أشد الوعيد، ووعد على طاعته في هذه خاصة، وفي غيرها عامة أجزل ثواب.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٤ - ١٨].

قوله ﷻ: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥] توجيه إيجاب الأربعة الشهود في الزنا أنه حق متوجه على اثنين، والمعهود في الشرع قبول شاهدي عدل في كل حق وجب، فكان إيجاب أربعة شهود اثنان لكل واحد منهما عدل في الحكم، مع ما في ذلك من رحمة الله ﷻ لعباده وستره عليه.

والمراد بالبينة هنا - والله أعلم - البكر والثيب من النساء، كالمراد بقوله جلَّ قوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ﴾ [النساء:١٦] أيضًا البكر والثيب من الرجال؛ لاختلاف الحكم فيهما، وقد يستدل بهذا على أن اللفظ المطلق إذا ورد بلفظ الجمع، ولم يدخل فيه النساء إلا بدليل آخر.

تنبيه:

الفائدة في إمساك الزناة في البيوت السجن، والتغييب وهو النفي، والتغريب المذكور في قصتهم؛ لقول رسول الله ﷺ: «**جلد مائة وتغريب عام**»[1] ولا يتوجه التغريب بصحة معنى إلا بمعنى السجن، وإلا فالتغريب على ظاهره إطلاق على الزناة، وإظهار للفاحشة وعون على إشاعتها وإفشائها، وفي طول السجن نأي، وطول النأي اتصال البعاد والغربة عن مكان الفتن انتظارًا لحدوث السلو عما تورطوا فيه حكمة، فإن ذلك موجود على الأغلب في هذا الأمر؛ لذلك قال بعضهم:

وكل محب أحدث النأي عنده ... سلو فؤاد غير حبك ما يسلو

وقال غيره:

سألت المحبين الذين تحملوا ... تباريح هذا الحب في سالف الدهر
فقلت لهم ما يذهب الحب بعدما ... تبوأ ما بين الجوانح والصدر
فقالوا شفاء الحب حب يزيله ... من آخر أو نأي طويل على هجر
أو اليأس حتى تذهب النفس بعدما ... رجت طمعًا واليأس عون على الصبر

كذلك كل هم غلب على النفس من حب دنيا أو غيرها استولى على القلب، والشفاء من ذلك العكوف على طلب العلم النافع، واستنباط غامض من الحكمة والتعوض، أو مما كان الشغل به المصر لزومه بوظائف العبادات من العلم والعمل.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ يعني: المسجون ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٥] يريد بشرع فيهن، أو بأمر يأمر به في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٧٥)، ومسلم (١٦٩٧)، والطيالسي (١٣٣٣)، وأحمد (١٧٠٧٩)، والنسائي (٥٤١١)، والترمذي (١٤٣٣)، وابن ماجة (٢٥٤٩).

شأنهن، أو يتبين لإحداهن توبة، فيسَّر الله لها زوجًا فيكون أجلب للسلو.

وقال الله جلَّ قوله: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ [النساء:١٦] سبًّا وتوبيخًا، ومع هذا فالإمساك في البيوت دليل على تسوية رسول الله ﷺ بين الرجال والنساء في ذلك بقوله جلَّ قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ....﴾ [النور:٢].

وقال بعض المتقدمين: إنها منسوخة بما جاء في صدر سورة النور من ذكر الحدود، وليس ذلك بنسخ، وإنما هو بيان لمجمل قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٥].

والسبيل مجمل لا يعلم ما هو حتى نزلت سورة النور، فكان ذلك إنجازًا منه جلَّ ذكره لموعود وعد به في المستقبل من ذلك الحكم يومئذٍ من قوله: «حتى» وتفصيلاً لمجمل قوله: «السبيل».

وليست هذه سبيل النسخ قد يعبر عن السب والتوبيخ بالرجم، ومنه القذف قذف المحصنات وغيرهن، يقال: قذفه بالحجر وحذفه بالعصا، ويقال: أذلق بالقول فيه، كما يقال: أذلق بالحجارة، والله - عزَّ من قائل - يقول: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف:٢٢] فسمى القول عاريًا من العلم: «رجمًا» وكثير ما جاء هذا من عباراتهم.

فلما نزلت سورة النور قال رسول الله ﷺ: «**خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب الرجم**»(١) فجاء أيضًا لفظ «الرجم» على لسان رسول الله ﷺ مجملاً، يحتمل أن يراد به الأذية، ويحتمل القتل بالحجارة، كما جاءت لفظة «العذاب» مجملة في قول الله ﷻ: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ﴾ [النور:٨] فبين رسول الله ﷺ سنته فرجم ماعزًا بالحجارة، ورجم اليهوديين والعامرية، وأمر أنيسًا أن يغدو على امرأة الرجل الذي خاصم عبده عسيفه، فإن اعترفت فارجمها.

فكان هذا تبيينًا بالسنة لمجمل ما جاء به القرآن إعلامًا بانقضاء مدة الإرجاء من الله تعالى لهذا الحكم وليس بنسخ، بل هو النسيء، وإنما هو تبيين لمشكل

(١) تقدم تخريجه.

وتفسير لمجمل، وهو اسم الرجم والعذاب ما هما، والمدة والسبيل ما هو.

فصل

من حكمة الله جلَّ ذكره أن علَّق العقوبة في هذا الشأن برؤية ما لا يتهيأ في الأغلب، وعدة شهود يعسر إحضارهم على ضيق الوقت وتعذره، أو بمحمل لا يوجد إلى المخرج من طنه سبيل شبهة فيدرأ بها الحد، وأكثر العلماء لا يرجم به - أعني: المجمل - أو بإقرار وندب المتورط وتبيين التوبة إلى الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] ولكرم المؤمنين لديه سبَّح نفسه تعالى ذكره عند قذف المؤمنين بسوء أو فاحشة، وجعل من لم يأتِ بأربعة شهداء على تصديق ما زعم من ذلك الرؤية العسر حصولها كاذبًا، وحكم عليه بعقوبة القذف، وألا تُقبل منهم شهادة أبدًا إلا أن تتبين توبتهم من ذلك.

ووصى في ذلك أكثر الوصية جدًا بترك العود، وقال لهم في ذلك جلَّ قوله: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦] تعظيمًا لاسمه المؤمن، وتشديدًا لمن جاءت بغير البينة البالغة المبلغ المحدود فيه.

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ الله هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣] وكان من حكمة الله جل ثناؤه، ومن فضل الله ورحمته ونزاهة كلامه العلي إعظامه هذا الشأن، فأكثر في إحكام هذا النهي، والإبلاغ في التوبيخ والتوصية أن أنزل هذه الآيات، وشرع هذه الأحكام في هذه القضية في إفكٍ مفترى وقول زور محض، فوسع ذلك كله قوله الحق: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ الله هُمُ الكَاذِبُونَ﴾.

ثم جعل ذلك ﷻ حكمًا لازمًا لما بعدها، وهو العلي الحكيم ما أكرم خطابه وأصدق وأجل شأنه، وأرحمه وأرأفه بعباده سبحانه وله الحمد.

فصل

الزنى مأخوذ من زِنا السهم يزنو ويزني؛ وذلك بأن يضرب وتر القوس في

أعلى فوق السهم، فيضطرب السهم ويخرج بذلك عن مقصده الذي سدد إليه، وفُوِّق نحوه فيقال: سهم زانٍ، وقد مضى تفسيره.

وهادف: وهو الذي يقع في الهدف المجعول عليه الغرض.

وصادف: وهو الذي يمر على يمين الغرض أو شماله.

وغابر: وهو الذي يمر على رأس الغرض، وهو أيضًا الذي يرمي به على غير غرض.

وغالٍ: وهو الصاعد غلوًا في الهواء، الغلوة: رمية السهم في الهواء ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٧٧].

وصائب: وهو الذي يصيب الغرض، وهو المقرطس أيضًا، فالزاني خارج عن مقصده الذي وجه إليه وجهته من خالص السلم، كالمشرك الخارج عن سبيل الهداية التي فطر الله عليها الخليقة، فالزنى إذًا منه صغير هو هذا المحدث في حال الإسلام، وكبير وهو الشرك بالله ﷻ والكفر به، وكذلك جعل ﷻ كُفْءَ الزاني زانية أو مشركة، وكفء الزانية زانٍ أو مشرك ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣] يريد: الزنى ونكاح المشركين.

ولما تقدم ذكر من قول رسول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[1] ولما كان الزنى خروج عن الغرض المقصود به، كان المقصود به خروج باطن الزاني إلى باطن الزانية - أعني: قلبيهما - لأن ذلك منهما محل لإيمان الصغير منه التمني والنظر، والكبير فعل الفرج.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٥)، ومسلم (٥٧)، وأبو داود (٤٦٨٩)، والترمذي (٢٦٢٥) وعبد الرزاق (١٣٦٨٦)، وأحمد (١٠٢٢٠)، وعبد بن حميد (٩١٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٩٧).

وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ١٩ - ٢٢].

وحقيقة ما عبَّر عنه قول الله ﷻ في المباح، وقد ذكر معاشرة الزوجين التوصية بالمناصفة والأخذ بالفضل: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ...﴾ [النساء: ٢٠] إلى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1] [النساء: ٢١] فالميثاق هو ما اجتمعا عليه بكلمة الله وأمانته وسنة رسوله

---

(١) الآية فيها مسائل: الأولى: إنه تعالى في الآية الأولى لما أذن في مضارة الزوجات إذا أتين بفاحشة بين في هذه الآية تحريم المضارة في غير حال الفاحشة، فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ استبدال زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ روي أن الرجل منهم إذا مال إلى التزوج بامرأة أخرى رمى زوجة نفسه بالفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج المرأة التي يريدها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ استبدال زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ...﴾ والقنطار المال العظيم، وقد مرَّ تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤] المسألة الثانية: قالوا: الآية تدل على جواز المغالاة في المهر، روي أن عمر ﷺ قال على المنبر: ألا لا تغالوا في مهور نسائكم، فقامت امرأة فقالت: يا ابن الخطاب الله يعطينا وأنت تمنع وتلت هذه الآية، فقال عمر: كل الناس أفقه من عمر، ورجع عن كراهة المغالاة. وعندي أن الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة؛ لأن قوله: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ لا يدل على جواز إيتاء القنطار كما أن قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] لا يدل على حصول الآلهة، والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطًا لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع، وقال ﷺ: «من قتل له قتيل فأهله بين خيرتين» ولم يلزم منه جواز القتل، وقد يقول الرجل: لو كان الإله جسمًا لكان محدثًا، وهذا حق، ولا يلزم منه أن قولنا: الإله جسم حق. المسألة الثالثة: هذه الآية يدخل فيها ما اذا آتاها مهرها وما إذا لم يؤتها؛ وذلك لأنه أوقع العقد على ذلك الصداق في حكم الله، فلا فرق فيه بين ما اذا آتاها الصداق حسًّا، وبين ما إذا لم يؤتها المسألة الرابعة: احتج أبو بكر الرازي بهذه الآية على أن الخلوة الصحيحة تقرر المهر، قال: وذلك لأن الله تعالى منع الزوج من أن يأخذ منها شيئًا من المهر، وهذا المنع مطلق ترك العمل به قبل الخلوة، فوجب أن يبقى معمولاً به بعد الخلوة، قال: ولا يجوز أن يقال: إنه مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وذلك لأن الصحابة اختلفوا في تفسير المسيس، فقال علي وعمر: المراد من المسيس الخلوة، وقال عبدالله: هو الجماع، واذا صار مختلفًا فيه امتنع جعله مخصصًا لعموم هذه الآية. والجواب: إن هذه الآية المذكورة ههنا =

ﷺ، والإفضاء خروج الباطن حين انتهاء الوقاع.

وعبَّر عن هذا بعض القائلين في قوله:

كأن فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى أن يرى الزوجين يمتزجان

وقال آخر:

كأنما حوى بدَنانا ... روح جسم مركب

ولولا أن الله ﷻ برأ الذوات وأخذ عليها الميثاق وأقررها فأقرت، ثم أوجدها على هداية الإسلام التي هي الفطرة، ثم سددها إلى الإيمان به وبما عنده، فعَنَدت هذه عن سبيل ما سُددت إليه؛ أعني: البواطن الزواني.

قال رسول الله ﷺ معبرًا عن حقيقة هذه الحال بأمة محمد: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، يا أمة محمد لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته**»[(١)] يعظهم ﷺ في إيمانهم ويعلمهم أن المنجي بهم من عذاب الله جلَّ ذكره مع إيمانهم العمل بطاعة الله ﷻ واجتناب مناهيه.

وكما أحب الله جلَّ ذكره الذاكرين له على المشاهدة والحضور حال الذكر وأثنى عليهم، وجعل الدعاء هو العبادة؛ لقربه من المناجاة وتكليم المكافحة، وأعلم

=

مختصة بما بعد الجماع بدليل قوله تعالى: ﴿**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ**﴾ وإفضاء بعضهم إلى البعض هو الجماع على قول أكثر المفسرين، وسنقيم الدلائل على صحة ذلك. المسألة الخامسة: اعلم أن سوء العشرة أما أن يكون من قبل الزوج، وإما أن يكون من قبل الزوجة، فإن كان من قبل الزوج كره له أنه يأخذ شيئًا من مهرها؛ لأن قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُّمُ** استبدال **زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا**﴾ صريح في أن النشوز إذا كان من قبله، فإنه يكون منهيًا عن أن يأخذ من مهرها شيئًا، ثم إن وقعت المخالعة ملك الزوج بدل الخلع، كما أن البيع وقت النداء منهي عنه، ثم إنه يفيد الملك وإذا كان النشوز من قبل المرأة، فههنا يحل أخذ بدل الخلع؛ لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾ [النساء:١٩]. [تفسير الرازي (١٢٠/٥ - ١٢١)].

(١) أخرجه مالك (٤٤٤)، وأحمد (٢٥٣٥١)، والبخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠)، وليس فيه موضع الشاهد. والنسائي (١٤٧٤) وابن ماجة (١٢٦٣)، وابن الجارود في المنتقى (٢٤٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١٣٨٧).

بإجابة المضطر وإعانة اللهفان بخلوص البواطن عندما تعرض من تلك الأحوال من الشوائب، وتوجيهها بحقيقة التوجه إلى الله جلَّ ذكره فبحسب ذلك يكون الذم على خروجه عن المقصد الذي خُلق له وسُدد نحوه إلى سواه بمحظور لم يتجه له، ولم يأذن له فيه بل نهاه عنه وأوعده عليه.

ولأنه خلق ﷻ عباده؛ ليثبت بعضهم من بعض وقدر ذلك، ورضيه منهم أباح ذلك لهم، لكن بكلمة الله وسنة رسوله، وبميثاق يأخذه بعضهم على بعض في تعيين الصداق، أو بملك يمين أقام ﷻ ذلك فيما بينهم في هذه مقام الزكاة للمزكيات، وتسميته عند المأكولات والتطهير للصلوات، وتقديم النيات بالإخلاص حين توجه المعاملات ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١].

ولما هو - أعني: الزنى - عليه من القبح والظلم والبعد عن رضاه، وعن الصفات الحسنى أغلظ عليه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في العقوبة التي لا يشبهها عقوبة المشرك الذي هو الزاني الأكبر، كما يفعل الرجل الحليم يؤدب ابنه على ما لا يؤدب عليه عبده، من الأخذ بمحاسن الأخلاق والأخذ به إلى نوافل البر وأنواع الصالحات، ويشد عليه الأدب، ويبالغ في تحذيره، وتهديده في ذلك تشديدًا لعباده، وإعلام منه بكبير من إثم وفاحشة.

أوسعنا في هذا القول تبيينًا للموعظة؛ لعظمها من خطبها، وقربها من خطرة النفوس ومجالس الأنس، فإنه قد ينافس النفوس مع يسير الغفلة بما فيها، أباح الله لها من يسببها، وللزوم الفتنة وعموم البلوى بها، وتزيين العدو إياها وأنها أشهى مصائده، والنفوس أسرع شيء إلى إجابته وإلى هذا، فإن الله هو الصبور الحليم ﷻ على تصديق ذلك، وإيجاب الحد فيه بتعيين يعسر، أو بإقرار من المتورط وهو غريب الوجود، وأوعد مع ذلك بإشارات من الشرع، وإيماء بما تعطيه المشاهدة منه بالستر والأمر بمعاجلة التوبة، وإن ذلك أولاً من إبذال الوجه بالإقرار والاستهداف بالنفس، وأن الفرار إلى الله جلَّ ذكره ومقابلة ذلك السوء بصالح العمل أولاً بذلك، وهو أعلم.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

[النور:١٠] حذف ها هنا - والله أعلم - العاجل الكاذب بالعقوبة، لكنه أبقى منتظرًا به.

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ الله رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٠] حذف هنا - وهو أعلم - معنى هذا، فجعل الحد بعلامات، وهي أقرب وأظهر، ويعاجلكم بالعقوبات حين المواقعة، أو ما يكون في معنى هذا لقوله جلَّ قوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ....﴾ [النحل:٤٥].

قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧] التوبة هي الرجعة من العبد إلى ما كان عليه من أصل إيمانه، وتوابع إسلامه بلواحقه وشروطه كلها، وكل من عمل سوءًا فبجهالة عمله؛ إذ لم يراقب الرقيب الأعلى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ولم يخفْ مقامه ولم يوقر مشاهدته، وكل من تاب قبل الموت وأناب إلى الله ﷻ قبل الفوت، فمن قريب تائب، إنما البعيد من التوبة الذي فاته أوانها بما قطع به عن قبولها منه بالموت وحضور أعلام الآخرة.

وقد حصل الإجماع بما أوجبه الشواهد الواردة بالشرع أن ظهور أعلام الآخرة علامة لرد التوبة من موحد ملي أو كافر شقي.

قال الله عزَّ من قائل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر:٨٤ - ٨٥].

وقال جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] أي: ممنوع قبول التوبة، والرجعة إلى الدنيا بالإقالة من الموت والاستدراك لما فات.

سرد على ذلك التوصية بالنساء يمسكن بالمعروف؛ ليورثن أو يعضلن على النكاح، فيكلفن ويؤذين حتى يفتدين، وحرم ذلك منهن على الرجال إلا لمن يأتين بفاحشة مبينة، وسيأتي ذكر هذا فيما بعد - إن شاء الله تعالى - عند ذكر الحكمين.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [النساء: ٢٣ - ٢٤].

قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً...﴾ [النساء:٢٢] إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣].

قوله - جلَّ قوله - هنا في الموضعين: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ على أي وجه يتخرج لا سيما قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إن وجهنا ذلك إلى ما قد سلف في الجاهلية إنهم كانوا ينكحوهن، وما بلغنا ذلك من وجه صحيح إن ذلك كان شائعًا عنهم، فاستثناؤه لأي مغني إن كان ذلك قد سلف منهم، فالنهي يتناوله كما يتناول غيره من المنهيات كالشرك والزنى وشرب الخمر وغير ذلك، ولا يصح في خطاب أن يقال: ولا تشركوا بالله شيئًا إلا ما قد سلف، ولا تقربوا الزنى ولا تأكلوا الربا إلا ما قد سلف.

وكذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ﴾ يريد ﷻ: ما قد سلف من نكاح الأختين بصداق أو ملك يمين فيحرمها وينكح الأخرى، أو يكون ما قاله عثمان بن عفان ﷺ أحلتهما آية وحرمتهما آية فتوقف فيها.

وقال غيره: ما أحب أن أخبرهما فتورع أن يخبرهما بوطء إن كان قد وطئ أحدهما، فلا يجب أن يطأ الأخرى وإن حرم الأولى.

وعلى القول بالتحقيق فليس من نكح امرأة وطلقها، أو ماتت فنكح أختها بجامع بينهما، والفرق بينهما أن يكونا معًا في عصمته كما نهى عن الخليطين وفسره؛ فقال: ولا ينبذ التمر والبسر جميعًا ولا الزبيب والتمر جميعًا، ولا تجمعوا بينهما، فمن أحب فلينبذ هذا ناحية وهذا ناحية، فلم يجعل الجمع إلا ما كان موجودين معًا، فجاء على هذا قوله: «إلا ما قد سلف» لا موضع له من المعنى يحسن توجيهه إليه كالأول.

وقال في هذا: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ والمعهود من هذا أن ذكر المغفرة لا يأتي إلا بعد إتيان ذنب، ولم يجعل في النكاح ذنبًا فيما علمناه، والله أعلم.

تنبيه:

انتظام معنى قوله - جلَّ قوله - على مفهوم سر الخطاب والله أعلم: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:١٧] إلا ما قد سلف، من قوله جل قوله في سورة آل عمران.

ثم ينتظم قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧] كذلك بنظام قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الثاني بقوله وهو أعلم: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء:١٨] إلا ما قد سلف.

ثم ينتظم ذلك بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨] قطعًا على قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ والمشار إليه بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الذي في سورة آل عمران.

قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ...﴾ [آل عمران:٨٦ - ٨٧].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران:٨٩ - ٩٠] فمعناه إلا ما قد سلف من حكمي ومشيئتي، فمن كان هذا شأنه فإني لا أتوب عليه، وإن تاب لا أقبل توبته.

كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران:٩٠] فهم لا يرشدون إلى التوبة، وما عرض بها لهم لم يتب الله عليهم من تاب من حيث هو، ولم يتب الله عليه لم يتم له توبة؛ إذ الله ﷻ هو الأول في كل شيء والآخر والظاهر فيه والباطن، فيضلون على التوبة؛ فلذلك قال جل قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ لأن الله لم يتب عليهم، فلم يحصل لهم توبة ولا تحققت.

ألا ترى أن نواصي العباد هو الآخذ بها؛ **فمن العباد**: من يموت على بعد من التوبة لا يراها ولا يسمع بها ولا يهم بها.

ومنهم: من تمر به على قرب منها فيبصرها عن جنب، فربما اشتهاها ويحال بينه وبينها.

ومنهم: من يمر عليها فربما أحبها وأخذ منها، فمرَّ به وأُسلي عنها فضلت التوبة عنه، فهذا وجه توبة من يتوب فلا تتقبل توبته.

وقد جاء الوعد الصادق عنه ﷻ أن التوبة مقبولة لكن عمن شاء، ألا تسمعه يقول جل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١٠٤] فأخبر نصًّا صريحًا أنه يقبل توبة عباده الخصوص، أضافهم إلى نفسه لحبهم وإثرتهم عنده، وبقي الآخرون على حكم الوقف، فبين الحكم فيهم وفي هذه الآيات من آل عمران.

فصل

ومرجوع قوله جل قوله: «إلا ما قد سلف» من مشيئي بهم، وتقدم من حكمي فيهم كقوله جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

وقوله جلَّ قوله: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»(١).

مثال ذلك: رجل عاش مؤمنًا، ورجل عاش كافرًا ومات مؤمنًا، فهذان قد شملهما قوله جل قوله: «هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون» كما شملهما قوله جل قوله: « هؤلاء للجنة ولا أبالي» أي ذنوب تكون منهم.

ورجل عاش كافرًا ومات كافرًا، ورجل عاش مؤمنًا ومات كافرًا، فهذان شملهما قوله: «هؤلاء للنار ولا أبالي» بإيمان من آمن ولم يمت على إيمانه، ولا بعمل كافر وإن بلغ به ما بلغ مما عسى أن يبلغه حبطت أعمالهم، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا.

وقال الله ﷻ في شأن الفريقين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ...﴾ [المؤمنون:٥٧ - ٥٩] إلى قوله جل قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [المؤمنون:٦٣] يريد: الفريق الخاسر.

ثم قال جل قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] فهذا معنى ما توجه إليه معنى قوله الحق جلَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مني؛ يعني: من ردِّ هؤلاء وقبول هؤلاء، فتقدير الأول منها على ما انتظم عليه بمعناه: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتًا وساء سبيلاً».

وتقديره في موضعه على معناه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلا ما قد سلف ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧] عليمًا بما يكون من مآل أمرهم إليه، حكيم في حكمه وإنفاذ مشيئته على علمه السابق الأزلي.

وتقدير الثاني: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾ إلى قوله ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾(٢) [النساء:٢٣ - ٢٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربي: فيها مسائل: المسألة الأولى: اعلم أن التحريم أو التحليل لا

=

يتعلق بالأعيان، وإنما يتعلق بأفعال المكلفين من حركة وسكون غير أن الأعيان لما كانت محلاً للأفعال، تعلق ذلك بهما على سبيل المجاز. قال ابن عباس: حرم الله تعالى في هذه الآية سبعًا من النسب، وسبعًا من الصهر، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ وثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة». وثبت أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصة ولا المصتان، ولا الإملاجة ولا الإملاجتان». وقالت عائشة كان فيما قيل من القرآن: عشر رضعات محرمات، نسخ ذلك خمس رضعات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأن من القرآن، فقال به الشافعي، وأخذ مالك وأبو حنيفة بمطلق القرآن وقالا: إن المصة تحرم، ولأنه أحوط للفروج، وأخذ بعموم الرضاع. المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ يقتضي تحريم الرضاع في أي وقت وقع، فيتناول رضاع الكبير؛ وبه تمسكت عائشة، واستدلت بأن سهلة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، كنا نرى سالمًا ولدًا، وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد، وقد أنزل الله ما علمت؛ فقال لها ﷺ: «أرضعيه خمس رضعات تحرمي عليه». فأرضعته فكان لها ولدًا. وجوابه: إن ذلك رخصة منه ﷺ لسهلة، وأيضا فإن الله تعالى قد بين وقت الرضاع فقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ فبين زمانه الكامل، فتعين أن ما زاد على ذلك لا يعتبر. وأيضًا ففي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء». وأما لبن الفحل، فإن يحرم لقوله ﷺ لعائشة في عمها من الرضاعة أفلح «إنه عمك فليسلم عليك». وبذلك قال الجمهور؛ وقال ابن المسيب والنخعي: لبن الفحل لا يحرم، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ والفحل ليس بأم. المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ روي عن علي وجابر أن العقد على البنت لا يحرم الأم حتى يدخل بها، كما العكس. وقال الجمهور: العقد على البنت يحرم الأم، ولا تحرم البنت حتى يدخل بالأم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ﴾ واحدة ربيبة فعيلة بمعنى مفعولة. مأخوذة من ربها يربها، إذا تولى أمرها؛ وذكر الحجر ليس شرطًا، فإنه خرج مخرج الغالب. وقوله: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ الدخول هنا الجماع، قاله الطبري والشافعي، وقال مالك وأبو حنيفة: المراد به مبادئ الوطء: من لمس وتقبيل، وقال عطاء وعبد الملك بن مروان: هو النظر بلذة، وقد اتفقت الأمة على أن الفروج إذا تعارض فيها تحليل وتحريم، فإنه يغلب التحريم؛ واختلف في الأموال أيهما يغلب فيها؟ والحليلة فعيلة بمعنى محلة. قالوا: والأبناء ثلاثة: ابن صلب، وابن رضاع، وابن تبن؛ وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ تعلق أبو حنيفة بهذا، فقال: لا يجوز نكاح الأخت في عدة أختها، ولا نكاح خامسة في عدة رابعة، فإن ذلك جمع في أسباب الزوجية؛ ألا ترى أن العدة من أسبابها، فكأنها في حكم الزوجة، فيكون جامعًا بينهما في السبب، وإن لم يقع الجماع في الحل. وجوابه: إن العدة براءة الرحم لسبب من أسباب الزوجية، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ عند الجاهلية في نكاح أزواج الآباء؛ أما نكاح

=

وتقديره في موضعه على سابق معناه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء:١٨] أي: الساعة إلا ما قد سلف؛ أي: من حكمي فيهم ومشيئتي منهم إن الله كان غفورًا رحيمًا.

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[النساء:١٨] عطفًا على قوله جل قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ حضور الموت على معنيين بمعنى المقاربة كالمرض والخوف منه، كما قال عزَّ من قائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨٠].

وقد يكون الحضور بمعنى مشاهدة أعلام الآخرة، وهذه حالة تشغل عن الوصية وما سواها.

وقد يكون القرب المراد هنا ما جاء من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران:١٣٥] فهم إذا فعلوا فاحشة، وتكلموا بسيئة تداركوا ذلك بالتوبة والاستغفار.

وقد جاء في هؤلاء: «إن ملك اليمين يقول لملك الشمال صلى الله عليهما وعلى جميع الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين متى كان من صاحبهما مكروهًا: أنظره ساعة إلى ثلاث» وقد جاء: «تسع ساعات»[1] وذلك وقت رفع الصحف، فمثل هؤلاء هم الذين يتوبون من قريب قد عهدا ملكاه ذلك منه، وكانت توبة الله عليه معهودة، فيقع على ذلك قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:١٧] إلا ما قد سلف؛ أي: من فعلهم بالإهمال لأنفسهم والتفريط في ترك توبتهم، ثم حكم الله من وراء ذلك معهود.

قوله ﷻ: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٤] نصب على الإغراء هذا الخطاب كما جاء، وعلى الوجه الذي نظمه ﷻ هو الحق، فتربص بفهمك عليه ففيه حكم الله خفي على الأكثر فتطلبه، فقد أمرك بذلك أيها التالي كتابه الطالب في كتابه.

الأختين، فقد كان شرعًا لمن قبلنا ثم نسخ عندنا.

(١) لم أقف عليه.

ألا تسمعه يصرح بالتنبيه في قوله جلّ قوله: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ ولو كان ظاهر الخطاب هو المراد لم يكن هكذا بل قدم وأخَّر وأمر ونهي ونصح، وأعلم بالحق الذي إليه المصير إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

فدونك وإياه وهو أمر عزم بالتزام أحكام القرآن، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وتطلب معانيه وتعلم أنواع خطابه، وقد تقدم ذوق من جمع متفرقه في أثناء الخطاب من توصيل وتفصيل، ولذلك وهو أعلم كتاب الله عليكم إغراء بالتفهم عنه.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٥ - ٢٦].

أتبع ذلك ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ فنصَّ ﷻ على المحرمات، وأطلق التحليل على من سواهن ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا...﴾[1] [النساء: ٢٤] إلى قوله جل قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد والحسن وابن زيد، وغيرهم: المعنى: فإذا استمتعتم بالزوجة ووقع الوطء ولو مرة، فقد وجب إعطاء الأجر وهو المهر، ولفظة «ما» تدل على أن يسير الوطء يوجب إيتاء الأجر. وقال الزمخشري: فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد عليهن، فآتوهن أجورهن عليه انتهى. وأدرج في الاستمتاع الخلوة الصحيحة على مذهب أبي حنيفة؛ إذ هو مذهبه، وقد فسر ابن عباس وغيره الاستمتاع هنا بالوطء؛ لأن إيتاء الأجر كاملاً لا يترتب إلا عليه، وذلك على مذهبه ومذهب من يرى ذلك. [تفسير البحر المحيط (٩١/٤)].

أَخْدَانٍ﴾[(١)] [النساء:٢٥] فذكر جلَّ ذكره كيف يُبتغى النكاح فيمن أحل من الحرائر والإماء، وشرط العفاف والتعفف في المنكحات والناكحين.

ثم ذكر جلَّ ذكره حد الأَمَة إذا حُصنت، وأنه نصف حد المحصنة الحرة، وقد كان تقدم أن حد الحرة جلد مائة أو الرجم للمحصنة، ولما لم يتبعض الرجم كان حدها نصف المائة جلدة.

فصل

هذا نصٌ على تحليل نكاح المتعة في القرآن العزيز أباحه رسول الله ﷺ حال الضرورة مرتين في غزة خيبر، وفي غزة عام الفتح، ثم نهى عنه حال السعة، وأبقى خطه في القرآن إرصادًا لمثلها، فليس إذًا بنسخ إنما هو بمثابة الأمر بالصبر على إذاء المشركين، والكف عنهم في حال الضعف، ثم الأمر بالقتال والانتصار منهم إلى مثل ذلك، فافهم.

قوله ﷻ: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: عن نكاح المتعة حال السعة ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء:٢٥] لمن فعل ذلك، وربما قصر ذلك من ذكر المغفرة على حال الضرورة.

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فأمر ﷻ أن ينكح المؤمن المؤمنة من الإماء نكاحًا تامًا أو نكاح متعة بقوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾.

وأخبر ﷻ أن الإحصان يقع بنكاح المتعة كما يقع بنكاح المعهود، ثم قال جلَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥] أي: من نكاح المتعة لمن خشي العنت منكم، وأن تصبروا عن ذلك خير لكم؛ أي: لم

---

(١) ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: ولا متسترات بالزنا مع أخدانهن، وهذا تقسيم الواقع؛ لأن الزانية إما أن تكون لا ترد يد لامس، وإما أن تقتصر على واحد، وهكذا كان زنا الجاهلية. قال ابن عباس: كان قوم يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي منه، والخدن: هو الصديق للمرأة يزني بها سرًا، فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. [البحر المحيط (٤/٩٨)].

تخافوا الخوف كله من مواقعة محذور الزنى.

كان نكاح الجاهلية على أربعة أضرب؛ منها هذا النكاح الذي أقره الإسلام، ثم أحكمه على كلمة الله وسنة رسوله، فعلى هذا يقع قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢] [......][1] في قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ [النساء:٢٣].

ثم استثنى من ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: من نكاحهم الفاسد كنكاح المتحابين وهم المتعاشقين ذوي الأخذان، وكنكاحهم الذي هو الزنى كيفما يمكن، وعلى أي وجه وجدوه.

ومن ذلك الرايات على أبوابهن من جاء دخل، فقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من نكاح المتقدم الذي هو الزنى كذوات الأخذان والمساحقين والمساحقات، وهو إراقة الماء فحسب لا طلبًا لعقب، ولا إحصان مرتبط بكلمة الله وسنة رسوله بقوله - والله أعلم - بما نزل: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذلك فلا حرمة له ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء:٢٢] يعني: النكاح، وهو أيضًا ممقوت نكاح الرجل امرأة أبيه.

وكذلك قوله: النهي عن الجمع بين الأختين إلا ما قد سلف؛ يعني: من نكاحهم ذلك، فإنه لا حرمة له، وأن الإسلام قد هدمه إن الله كان غفورًا لذنوبكم تلك بالإسلام والتوبة، رحيم بكم في هدايته إياكم وإدخالكم في رحمته ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم﴾ من النكاح الصحيح إلا ما قد سلف لكم في جاهليتكم من سائر النكاح الذي لغير الرشدة، فذلك ليس بنكاح شرعي، فيتناوله عرف نكاح الشرع بل كان الفاحشة والمقت، وساء ذلك سبيلاً كما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢].

وسئل ابن عباس ﷺ عن المتعة، فقال: والله لقد فعلت في عهد إمام المتقين، فقيل له: أسفاح هي أم نكاح؟ فقال: لا سفاح ولا نكاح هي المتعة كما قال الله جلَّ ذكره، فقيل له: هل لها من عدة؟ فقال: تفي عدتها حيضة، فقيل له: هل يتوارثان؟

---

(١) ما بين [ ] كشط في (ق)، وطمس في (ف).

قال: لا.

وروى الحسن أن رسول الله ﷺ لما قدم من عمرته تزين نساء أهل مكة، فشكى ذلك إليه أصحابه، فقال ﷺ: «**تمتعوا منهن واجعلوا الأجل بينكم وبينهن ثلاثًا، فما أحسب رجل يستمكن بمرأة ثلاثًا إلا ولاها الدبر**»[1] إنما أمرهم أن يجعلوا الأجل بينهم وبينهن إلى ثلاث؛ لأن الأجل الذي جعلت له قريش في المكث في مكة ثلاثة أيام، وإلا فقد قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ﴾ [النساء: ٢٤].

وذكر ابن جريج عن عطاء أنه قال: سمعت ابن عباس يقول: «يرحم الله عمر ما كانت المتعة إلا رحمة من الله يرحم بها أمة محمد ﷺ، ولولا نهيه عنها ما احتاجوا إلى الزنى إلا قليلاً».

قال عطاء: وهي التي في سورة النساء ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] إلا كذا من الأجل على كذا وكذا من صداق. هنا انتهى قول عطاء.

﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: شيئًا مفروضًا ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ﴾ [النساء: ٢٤] أي: من أراد أكثر من المتفق عليه من أجلٍ وصداقٍ مما تراضيا به الزوجان مباح لهم.

وأتى ابن عباس ﷺ أن يتبدل عن فتياه بتحليلها، ولقد قال بعض الشعراء:

أقول وقد طال الثواء بنا ... يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس

في طفلةٍ بتلةٍ خودٍ منعمة ... تكون مثواك حتى يرجع الناس

إنما كان رسول الله ﷺ حدَّ لهم أن يكون نكاحهم لهن ثلاثة أيام؛ لما كان أجل البقاء له ولأصحابه في مكة ثلاثة أيام، وكذلك انعقد بينهم الكتاب في يوم الحديبية، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ﴾ [النساء: ٢٤].

ثم أكثر العلماء في تحريمها واجتنابها والتشريد عنها، والقول بأنها منسوخة

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٤٤).

غير صحيح يدل على ذلك إثبات خطها في المصحف، وإنما هو حكم مرصد لحالٍ ما على ما تقدم.

أتبع ذلك قوله عزَّ من قائل: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾(١) أخبر الله جلَّ ذكره أنه مما بينه لنا، وهدانا إليه من سنن من كان قبلنا، وأن من سنتهم نكاح المتعة، وأنها توبة تاب الله بها على هذه الأمة، ورحمة رحمها بها كما ذكر ابن عباس ﷺ ختم الآية بقوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الذين مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه قولان: **أحدهما**: إن هذا دليل على أن كل ما بين تحريمه لنا وتحليله لنا من النساء في الآيات المتقدمة، فقد كان الحكم أيضا كذلك في جميع الشرائع والمِلَل، **والثاني**: إنه ليس المراد ذلك بل المراد أنه تعالى يهديكم سُنَنَ الذين من قبلكم في بيان ما لكم فيه من المصلحة كما بينه لهم، فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في نفسها إلا أنها متفقة في باب المصالح، **وفيه قول ثالث**: وهو أن المعنى: إنه يهديكم سنن الذين من قبلكم من أهل الحق لتجتنبوا الباطل وتتبعوا الحق. ثم قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قال القاضي: معناه: إنه تعالى كما أراد منا نفس الطاعة، فلا جرم بينها وأزال الشبهة عنها، كذلك وقع التقصير والتفريط منا، فيريد أن يتوب علينا؛ لأن المكلف قد يطيع فيستحق الثواب، وقد يعصي فيحتاج إلى التلافي بالتوبة. واعلم أن في الآية إشكالاً: وهو أن الحق إما أن يكون ما يقول أهل السنة من أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، وإما أن يكون الحق ما تقوله المعتزلة من أن فعل العبد ليس مخلوقًا لله تعالى، والآية مشكلة على كلا القولين؛ أما على القول الأول: فلأن على هذا القول كل ما يريده الله تعالى فإنه يحصل، فإذا أراد أن يتوب علينا وجب أن يحصل التوبة لكلنا، ومعلوم أنه ليس كذلك، وأما على القول الثاني فهو تعالى يريد منا أن نتوب باختيارنا وفعلنا، وقوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ظاهره مشعر بأنه تعالى هو الذي يخلق التوبة فينا ويحصل لنا هذه التوبة، فهذه الآية مشكلة على كلا القولين. والجواب أن نقول: إن قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ صريح في أنه تعالى هو الذي يفعل التوبة فينا، والعقل أيضا مؤكد له؛ لأن التوبة عبارة عن الندم في الماضي، والعزم على عدم العَوْد في المستقبل، والندم والعزم من باب الإرادات والإرادة لا يمكن إرادتها وإلا لزم التسلسل، فإذن الإرادة يمتنع أن تكون فعل الانسان، فعلمنا أن هذا الندم وهذا العزم لا يحصلان إلا بتخليق الله تعالى، فصار هذا البرهان العقلي دالاً على صحة ما أشعر به ظاهر القرآن، وهو أنه تعالى هو الذي يتوب علينا، فأما قوله: لو تاب علينا لحصلت هذه التوبة، فنقول: قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب مع الأمة، وقد تاب عليهم في نكاح الأمهات والبنات وسائر المنهيات المذكورة في هذه الآيات، وحصلت هذه التوبة لهم فزال الإشكال، والله أعلم. [تفسير الرازي (١٧١/٥)].

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[النساء: ٢٧ - ٣١].

ثم قال - جلَّ قوله - وقوله الحق: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] والميل العظيم: هو الزنى.

﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ في الرخصة في ذلك ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨].

ألا ترى إلى رسول الله ﷺ لما شكا إليه أصحابه تزيين نساء مكة، كيف أمرهم بالتمتع منهن؛ لعلمه ﷺ بضعف الإنسان، وعظم خطر الزنى، وغلبة النفس وترغيم الشيطان، ومكابدة الشهوة وهو العنت؛ لذلك قال - جلَّ قوله - وهو أعلم: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] هذا هو الحق لكن الله غالب على أمره، وما أراد كونه فهو كائن لا محالة.

ثم بما بعد هذا أيضًا تفسير لقوله جلَّ قوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ...﴾ [النساء:٢٦] ثم ما بعدها إلى آخر السورة يعد العادَّة ما يوافي المائة شريعة، أو يزيد على ذلك من فريضة وفضيلة، من مأمور به ومنهي عنه ومكروه ومندوب إليه.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] ذكر في هذه الآية إنها منسوخة، وما نعلم أن الله - جلَّ ثناؤه - أباح لنا قبل هذه الآية، ولا بعدها أكل أموالنا بالباطل، ولا حرم علينا التجارة على تراضٍ منا، وترك سنة الرسول ﷺ فيها، ولا أباح لنا أن نقتل أنفسنا، ولم يذكر الذي نسبها إلى أنها منسوخة ما الذي نسخها.

ولا أراه حمله على ذلك إلا دخول الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾ فالله أعلم بأن بعض المنتسبين إلى العلم قد عدد في الناسخ والمنسوخ المستثنى والمستثنى منه، وهو قول مرغوب عنه يدل على إغفال قائله، وقلة خبرته بأنواع الخطاب.

حرم الله - جلَّ ثناؤه - على عباده أكل أموالهم بالباطل، بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه**»[١].

وحرم أيضًا أن يقتل أحد نفسه، ويقتل بعضهم بعضًا أوعد على ذلك أشد الوعيد، وأعلم أن هذا من كبائر الذنوب بما سرد عليه من قوله جلَّ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١].

ومن كبائر ما نهى عنه: الزنى، ويتعرف كبائر الذنوب من صغائرها من طريقين:

أحدها: مقايسة بعضها من بعض كالشرك مثلاً وهو أكبر من القتل، والزنى أكبر من النظر والغمرة، من هذا التقسم قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين والسحر والفرار من الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[٢].

وذكر في غير هذه الرواية: «**الربا وأكل مال اليتيم ظلمًا**»[٣] وغير ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنه: هي أقرب إلى السبعين من السبع.

والقسم الثاني: هو العمل بالمعصية مع الإصرار في النفس، وترك الندم عليها والاغتباط بها، وانتظار مثلها وتمني ذلك، وهذا هو الإصرار، فهذا النوع من الإصرار هو أكبر من العمل؛ لأنه عمل القلب وذلك من عمل الجوارح، وهي فعل المعصية من غير إصرار عليها قبل أو بعد، هذا أحد وجهي اللمم، وهو مغفور إن

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٢٧)، والبيهقي (١١٣٠٥) وفي الشعب (٥٤٩٢)، والروياني (١٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٥)، ومسلم (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٣٦٧١)، وابن حبان (٥٥٦١) المُوبِقات: الذُّنُوب المُهْلِكات. التولِّي يومَ الزَّحْف: الفرار يوم الحرب مع الكفار.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٧٥)، والبيهقي (٦٥١٤)، والحاكم (١٩٧)، والطبراني (١٠١)، والنسائي (٤٨٥٣)، وابن عساكر (٤٨١/٤٥).

شاء الله ﷻ.

وقد يكون السلام مقاربة المعصية دون إكمالها، وهذا الطريق الأولى الذي هو مقايسة بعض المعاصي ببعض، فالنظرة لا محالة أصغر من الزنى، وإن كان اسم المعصية والزنى يشملهما لكن النظر مع الإصرار أكبر من مواقعة الذنب؛ لأن الذنب يعقبه الندم والاستغفار.

ومن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: صغيرة بصغيرة مع إصرار، ولا كبيرة بكبيرة مع استغفار.

فمن أصبح تائبًا من كبائره متبرئًا من صغائره، متبرئًا من بدايات ذنوب لم يصبها من بقايا عوائده وسوء ضراوته، مستغفرًا من جميع ذلك، مستعيذًا بالله من شر نفسه، فهو التائب إن شاء الله تعالى.

ومن اجتنب الكبائر مع إقامة الفرائض غفرت له من صغائره إذا عزبت نفسه عن الإصرار، ولكل مؤمن ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة؛ لأن المؤمن مفتن تواب، والله بفضله وكرمه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وهم الذين يصبحون ويمسون تائبين من صغار ذنوبهم وكبائرها، والذين يقيمون الفرائض ويسارعون في الخيرات، وإن كانت لهم ذنوب يأتونها من غير تعمدٍ لها ولا عمل عليها.

فصل

انتظم قوله هذا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء:٣١] من حيث المعنى بما تقدم من صدر السورة إلى قوله جل قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ الله عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٤] فإن كل ما ذكره من أول السورة إلى ها هنا في الكبائر أولها ترك التقوى، والتوصية بالنساء واليتامى وأموالهم، والوصايا والوعيد عليها، وذكر الزنى، وتحريم ذوي المحارم إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

ثم ذكر المتعة وعاد إلى التوصية بالأموال أن يؤكل بالباطل، أو غير وجه من الوجوه التي يحل بها وقتل النفس، ثم الوعيد على ذلك.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)﴾ [النساء: ٣٢ - ٣٥].

قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [النساء: ٣٢].

سألت أم سلمة - رضي الله عنها - النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا نغزوا وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢].

وأنزل الله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ...﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وفي أخرى: سأل النساء رسول الله ﷺ، قلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بفضل الجهاد، فقال: «**جهاد إحداكن مهنتها في بيتها**». أو: «**مهنة إحداكن في بيتها تبلغ فضل الجهاد**»[١].

وفي أخرى: «**جهاد إحداكن حُسن التبعل**»[٢].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (٢٩١٤) والبيهقي في الشعب (٨٤٨٣) وأبو يعلى (٣٤١٥) وابن عدي (١٤٣/٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٧)، وابن حبان في الضعفاء (٧٧).

قوله جلَّ قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[(١)] [النساء:٣٤] انتظم هذا الخطاب بما تقدم من أمر النساء بين أزواجهن، ومجانبة الخروج عليهن، وعده بعض من عنى بتعداد فضائل الرجال على النساء التي يظن بها أنها هي التي عناها بقوله جلَّ قوله: ﴿مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فزادت على العشرين.

فهذا وإن كان على ما ذكرناه وما شاء الله من ذلك، فالفضل بعد بيد الله يؤتيه من يشاء، وبالضرورة تعلم أن للقائم حقًّا على المقام عليه، وللعائل حقًّا على المعول، وإن الرازق أفضل من المرزوق.

وقوله جلَّ قوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾ [النساء:٣٤] يريد: عابدات لربهن حافظات لغيب أزواجهن بما أمر الله به من الستر

---

(١) في الآية مسائل: **الأولى**: القوام؛ اسم لمن يكون مبالغًا في القيام بالأمر، يقال : هذا قيم المرأة وقوامها للذي يقوم بأمرها ويهتم بحفظها. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في بنت محمد بن سلمة وزوجها سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار، فإنه لطمها لطمة فنشزت عن فراشه وذهبت إلى الرسول ﷺ وذكرت هذه الشكاية وأنه لطمها وأن أثر اللطمة باقٍ في وجهها، فقال ﷺ: «**اقتصي منه**» ثم قال لها: «**اصبري حتى أنظر**» فنزلت هذه الآية: ﴿الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساء﴾ أي: مسلطون على أدبهن والأخذ فوق أيديهن، فكأنه تعالى جعله أميرًا عليها ونافذ الحكم في حقها، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «**أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا والذي أراد الله خير**» ورفع القصاص، ثم إنه تعالى لما أثبت للرجال سلطنة على النساء. ونفاذ أمر عليهن بين أن ذلك معلل بأمرين؛ أحدهما قوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ﴾ واعلم أن فضل الرجل على النساء حاصل من وجوه كثيرة، بعضها صفات حقيقية، وبعضها أحكام شرعية، أما الصفات الحقيقية فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها الى أمرين: إلى العلم والقدرة، ولا شك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر، ولا شك أن قدرتهم على الأعمال الشاقة أكمل، فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء في العقل والحزم والقوة، وأن منهم الأنبياء والعلماء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب وغير ذلك، فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء. والسبب الثاني لحصول هذه الفضيلة: قوله تعالى: ﴿وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أموالهم﴾ يعني: الرجل أفضل من المرأة؛ لأنه يعطيها المهر وينفق عليها، ثم إنه تعالى قسم النساء قسمين، فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله. [تفسير الرازي (١٩٢/٥)].

والعفاف، وحسن الصحبة في حضوره وجميل العشرة في مرافقته، والشكر لعوله إياها، ومجانبة جحود النعمة وكفر ما سبق منه إليها.

قال الله ﷻ يخاطب أزواج النبي رضي الله عنهن: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لله وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣١].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء:٣٤] النشوز: الارتفاع فوق القدر، وارتفاعهن ها هنا ما يردونه من الفضل على الأزواج، والحلول منه في حال العصمة حيث لم يحللهن الله ﷻ، وتلك فاحشة منهن، وخوف النشوز هنا مباشرة أسباب ذلك ومقارنة الحال.

وحيث ذكر الله جلَّ ذكره الفاحشة معرفة بالألف واللام، فهو الزنى كقوله جلَّ قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ [النساء:١٥].

﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤] يريد جلَّ ذكره عمل قوم لوط.

ومتى ذكرها جلَّ ذكره بغير ألف ولام وظاهر ذلك غير الزنى، وإن قرن إليها ﷻ صفة النبيين كقوله جل قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الأحزاب:٣٠] وهي ها هنا: ما خالف أمر الله ﷻ لهن من ترك الاستقرار في البيوت والأخذ بالتبرج.

كقوله جلَّ قوله: ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:١٩] وهي هنا أن يغلب الخوف عليهن، ويدخل في إيجاب إخراجهن خوف الاقتحام عليهن.

وكقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:١٩] يريد - وهو أعلم - نشوز وعصيان لأزواجهن ومشاققة منهن لهم في غير المعروف أمر الله جلَّ ذكره الأزواج بهجر الزوجات، والإعراض عنهن في مقابلة مشاققتهن لهم، والارتفاع إلى غير منازلهن، كما أمرهم بوعظهن وتذكيرهن بالله سبحانه مما أخذه الله عليهن من العهد الأزواج في مقابلة ترك القنوت لربهن والتعبد له، فهم القوامون عليهم دنيا ودينًا.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء:٣٥] بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: متى خيف من فراق الزوجين مشقة عليهما أنفسهما بعضهما بعضًا أو أحدهما

الأخرى، ومفارقة ليس يخشى الضياع عليهم أو بعضها، أو ما يكون من نحو هذا ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا﴾ أي: أحد الزوجين ﴿إِصْلاحًا﴾[(١)] [النساء:٣٥] فقد وعدهما الله أن يوفق بينهما، وليس ذلك بمضمون عن إرادة الحكمين - أعني: الوفاق وحسن العشرة - كما زعم بعض من تكلم في هذا الشأن، فلينظر الحكمان في أمر الزوجين توسطًا بينهما.

وربما آل أمرهما إلى حكم الآية الأخرى قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨] يريد ﷻ: الزوجين، وعلى قراءة من قرأ «يصلحا»[(٢)] يريد: الحَكمين.

---

(١) قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا﴾ قال ابن عباس: أي الحكمان إذا أرادا الإصلاح، ووفق الله بين الزوجين؛ والأولى أن يكون الحكمان من الأهل كما قال تعالى، فإن فقد ذلك، اختار الإمام حكمين مولين من المسلمين، ويستحب أن يكونا رجلين؛ فإن حكما بالفراق، فهو بائن، لأن كل طلاق ينفذه حاكم فهو بائن، ولأن علته الشقاق؛ فلو كان رجعيًا، لما زال الشقاق ببقاء العصمة فإن أوقعا أكثر من واحدة، نفذ عند ابن القاسم، لأن الحكم يجب إنفاذه. وقال مطرف: تقع واحدة، لأن الحاكم لا يقصد إلا واحدة؛ فيكون الحكمان كذلك، وقياسًا على خيار الأمة تعتق تحت عبد؛ فلو حكم أحدهما بواحدة والآخر بثلاث، لنفذت واحدة وسقط الزائد قاله عبد الملك. وقال ابن حبيب: لا ينفذ شيء، لأنهما اختلفا؛ ولو أوقع أحدهما طلقة، والآخر اثنتين، للزمت طلقتان عند ابن القاسم كما سبق وسقط ذلك الزائد على الواحدة عند عبد الملك؛ لأن ذلك كالشاهدين يختلفان في العدد، فإنه ينفذ الأقل؛ فلو شهد أحدهما ببيع والآخر بهبة، فإنه لا ينفذ اتفاقًا للتعارض؛ فلو علم الإمام شقاق الزوجين، لبعث إليهما الحكمين وإن لم يطلبا ذلك منه، لأن ذلك من حقوق الله تعالى؛ قالوا: ويجزئ إرسال الحكم الواحد، لأن الله تعالى حكم في الزنا بأربعة شهداء، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى المرأة الزانية أنيسًا وقال له: «إن اعترفت فارجمها». فلو أرسل الزوجان حكمين لنفذ حكمها، إذ التحكيم عندنا جائز؛ هذا إذا كانا عدلين، فإن لم يكونا عدلين، لنقض الحكم قال عبد الملك. قال القاضي أبو بكر: والصحيح نفوذه، لأنه إن كان توكيلاً، ففعل الوكيل نافذ؛ وإن كان تحكيمًا، فقد قدماهما على أنفسهما. [الأحكام الصغرى ص١٥٦] بتحقيقنا.

(٢) قرأ الكوفيون (يصلحا) من أصلح يصلح وقرأ الباقون بهذا اللفظ المنظوم وأصله يتصالحا فأدغمت التاء في الصاد وثابتًا حال من اللام أو من الهاء في لامه أو من فاعل اكسر أي في حال ثباتك فيما تفعل فإنك على ثقة من أمرك وبصيرة من قراءتك أو يكون نعت مصدر محذوف أي كسرًا ثابتًا تلا ما قبله من الحركات المذكورة أو هو مفعول تلا أي تبع هذا المذكور أمرا ثابتا وهو كل ما تقدم ذكره من الحروف وقال الشيخ التلاء بالمد الذمة وهو =

والفائدة في بعث الحكمين: الإصلاح بين الزوجين، والتقريب والتوسط، والوعظ والتذكر بالله تعالى وبما أخذه الله عليهما من ميثاق وعهد، وليتعرفا الظالم منهما من المظلوم إلا أن يفرقا بينهما على كراهة بينهما، أو من الزوج كما قال بعض القائلين، وإن ظهر لهما أن الزوج هو المتعدي فليفرقا بينهما، وإن أبى الزوج فقد سماهما الله جلَّ ذكره الحكمين، والظالم أحق من حمل عليه، وكذلك إن أبت المرأة الإمضاء في نشوزها وعصيانها، فليحكما عليها بالعداء.

قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ هذا خطاب لجملة الحكام ألا يقيما حدود الله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٢٩].

فصل

قال الله - جلَّ قوله وتعالى جدُّه - للحكام: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

كما قال جلَّ قوله: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء:٣٥] ولم يسمع لله - جلَّ قوله - قولاً في امرأة ناشز يأمر به الزوج أن يصالحها.

وقد ورد الخبر المثبت بما صالحته سودة - رضي الله عنها - على أن يحبسها فتكون من أزواجه فتهبه ليلتها، فلما قبل ذلك منها وهبتها عائشة - رضي الله عنها.

ولم يأت مثل هذا في نشوز المرأة أن تصالح على ما يسقط الميثاق، وينقص الدرجة التي جعلها الله في أصل المناكحة، ولا على أن تكون هي المترفعة على الزوج القائمة عليه، وقد سماها الله ﷻ ذلك من النساء: فاحشة، بل أمر الأزواج والحكام بوعظهن وضربهن وهجرهن؛ إذ ذلك منهن تعدٍّ حدود الله والله لا يأمر بالفحشاء.

=

منصوب على التمييز. [إبراز المعاني من حرز الأماني (٢/٦٣)].

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٩].

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾[1] إلى قوله

---

(١) إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه: أحدها: إن نعمة الله تعالى على العبد أعظم، فلا بد من تقديم شكره على شكر غيره ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم؛ وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده كما أنهما منعمان عليه بالتربية، وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود بل بالتربية فقط، فثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى. وثانيها: إن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر. وثالثها: إن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضًا ألبتة، بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدان كذلك، فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضًا ماليًا ولا ثوابًا، فإن من ينكر الميعاد يحسن إلى ولده ويربيه، فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى. الرابع: إن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم، فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما، وإن كان الولد مسيئًا إلى الوالدين. الخامس: كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاسترباح وطلب الزيادة ويصونه عن البخس والنقصان، فكذا الحق ﷻ متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع، ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التي لا تبقى كالشيء الباقي أبد الآباد، كما قال: ﴿مَثَلُ الذين يُنفِقُونَ أموالهم فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مَّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١]. السادس: إن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين، ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة، إلا أنها قليلة بالنسبة إلى نعم الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله، فلا جرم جعلنا نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالى. [تفسير الرازي (١٩٩/٢)].

جل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦] سرد ﷻ هذه الآية على ما تقدم من حكمه في شقاق الزوجين ونشوزهما، فأوجب الإحسان لكل ذي إحسان، وأمر بإيتاء كل ذي حق حقه، هذا ﷻ بالأمر لعباده، ثم بالإحسان بالوالدين، ثم بذي القربى، ثم باليتامى والمساكين، ثم بالجار ذي القربى فإن له حق القرابة وحق الجوار، وللجار الجنب حق غير مجهول ولا مضيع، وللصاحب بالجنب الزوج وابن السبيل، ثم بملك اليمين يعتمد كل بما يكون في جانبه إحسانًا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾.

هذه موعظة وعظ الله بها المؤمنين عامة، ثم الزوجين خاصة يعلمهم فيها أن الله لا يحب المعتدي المتعدي قدره المزكي نفسه.

ولما ذكر ﷻ الفخور والاختيال، وتعدي الحدود ذكر أهل الكتابين والمنافقين الذين اعتدوا وشاقوا الله ورسوله، فقال جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء:٣٧] فتعدى بخلهم على الناس إلى أن يبخلوا على أنفسهم، كما تعدى بخل أنفسهم إلى أن يأمرون الناس بالبخل، ظهر ذلك في كتمانهم ما أنزل الله عليهم من النور والهدى، وقولهم لإخوانهم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:٤١].

وقولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٢ - ٧٣].

وقول المنافقين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] ونحو هذا من أقاويلهم ومذاهبهم.

وقد آخى الله ﷻ بينهم؛ لتشابه قلوبهم في قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.....﴾ [الحشر:١١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨] القرين هو ما قرن من صالح أو فاسد جزاءً لعمله الصالح، وإيمانه أو لفسقه وكفرانه.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ....﴾ [الزخرف:٣٦].

وقال - جلَّ قوله - في الحزب الصالح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا....﴾ [فصلت:٣٠] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] وكل امرئ له قرين؛ إما صالح يسدده، وإما قرين فاسد يغويه ويضله.

آية ذلك: أمثالهم في القرناء في الظاهر، فإذا مات قرن به في دار البرزخ وبعد البعث.

قال الله ﷻ: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ [النحل:٦٣].

وقال جل قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [فصلت:٢٥] فقرين كل على قدره ومنزلته من دينه ومذهبه، الكافر قرينه شيطان كافر، والفاسق الملي قرينه مثله، وقرين النبي ملك وجني مؤمن؛ لذلك سهلت على النبي سبل الخيرات.

وعلى أي حال كان فقرينه من الجن وإن كان مؤمنًا، فهو إلى الاستشاطة والعجلة ونوازل الغضب ما هو، والقرين من الملائكة هو إلى الحلم والتثبت والرفق وحسن السيرة والرحمة ما هو، فالقوي هو من ملك نفسه عند الغضب والشهوة، والقرناء ما بعد الموت في الدار الآخرة [يعادي][(١)] بعضهم بعضًا.

قال الله ﷻ: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا المُتَّقِينَ...﴾ [الزخرف:٦٧] إلى قوله: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف:٧٠].

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا....﴾ [الأعراف:٣٨] وهو كثير، ثم لهذه الجملة ما انفهم منها.

قوله عزَّ قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨] لأنه يدعو إلى الكفر والشرك والتكذيب وارتكاب الجرائم وفعل الكبائر جملة وشرعًا، ثم يقرن به بعد الموت وفي دار القرار، وعذاب الشيطان عذاب السعير، وعذاب الإنس عذاب جهنم وبئس المصير لهذا وهذا، يضاعف لهما العذاب يعذب هذا بعذاب السعير، وهذا بعذاب جهنم زائد إلى عذابه المعد له، من العلم بالقرناء إنهم حين

---

(١) في الأصل: [وأما يجهد].

يتوجه حكم الخلقة إلى النطفة يقيض الله لها حفظة يحفظونها بأمر الله من أمر الله، حتى إذا وضعت تخلت عنها حفظة الأرحام.

وقيض الله له معقبات من بين يدي المولود ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، يتعاقبون عليه بالليل والنهار، إذا بلغ السعي وجرى عليه قلم التحصيل في الأعمال، فإن كان ظالـمًا ضجت منه ملائكته، وعلى قدر إسرافه في ظلمه يكون ذلك منهم، فإذا أراد الله به سوءًا أدال الحفظ بغيرهم، فلا مرد لقضاء الله فيه، وما لهم من دونه من دال.

وأما التقي فتتنافس الملائكة - عليهم السلام - فيه، فيتعاونون له ملائكة بالليل وملائكة بالنهار عن يمينه وشماله يكتبون الفرائض، فإن كان من أهل نوافل الخير وكثرة الذكر تولته أيضًا ملائكة فضلٌ على الكتبة الأولى، يكتبون له نوافله وأذكاره، و﴿لَا يُغَيِّرُ﴾ الله ﴿مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم كما تكونون عندي تكونون في أهليكم لصافحتكم الملائكة في الطرق وعلى فرشكم**»[١].

قال الله تعالى: «**أنا مع من ذكرني، وحيثما طلبني عبدي وجدني**»[٢].

وقال الله ﷻ: ﴿**إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ...**﴾ [المائدة:١٢].

قوله ﷻ: ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا**﴾ [النساء:٣٩] انتظمت هذه الآية بما قبلها من ذكر البخل والكتمان، والكفر والفسوق، والنفاق والإنفاق.

قوله جل قوله: ﴿مَاذَا﴾ كلمة معهودها أن تقال عند النصيحة، والحض على امتثال الأمر الذي لا كلفة فيه، ولا كبير تجشم على فاعله، يحد بذلك الفعل حظًا وغنمًا، وهو من الأعلى تأنيب ووعظ وتقرير وثبات للأمر، يشوب ذلك رحمة، ومن الأسفل استعطاف واسترحام.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٠٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٤).

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٦٥) وعزاه لابن شاهين في «الترغيب في الذكر» عن جابر.

وقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: بما يكون منهم، كما جاء عنه ﷻ: «اعبدني ولا تشرك بي شيئًا أغفر لك على ما كان منك»[1] وجملة هذا الخطاب رجاء فوز بغفران تبرق أنوار الجناح على أسارير وجهه، ويراح منه ريح الإيمان رائحة الظفر بالمنى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: ٤٠ - ٤٤].

ألا تسمعه - جلَّ وتعالى - سرد عليه خطابه الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] أي: من إيمانهم ونياتهم، وإنفاقهم وأعمالهم أن يكن المثقال ذرة الذي يفضل وزن السيئات حسنة، يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا، وهو الجنة ورضوانه الأكبر.

الوزن موطنان، والله أعلم بما وراء ذلك:

الأول منهما: وزن الإيمان بالكفر، فالمؤمنون تثقل موازينهم في هذا الوزن، فأولئك هم المفلحون والكافرون تخف موازينهم، فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدين خسروا أنفسهم وأهليهم ومنازلهم من الجنة، وربما كان معنى قوله - جلَّ قوله - في الذين كفروا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

ثم الثاني: وزن الأعمال حسنها بسيئها فمن رجح ميزانه بحسناته فقد فاز، ومن

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٠).

قام ميزانه عدلاً، فذلك يجوز الصراط على ما هو به؛ إذ ليس له عمل يحمله، ويوقف في أصحاب الأعراف إن لم يعفُ الله عنه ويزده من فضله؛ إذ ليس له عمل يدخل به الجنة، وآخره إلى خير بفضل من الله جلَّ ذكره.

ومن رجحت سيئاته جعل على ظهره ثقل ما زاد من أوزاره على حسناته، فالكافر يحمل أوزاره كلها؛ إذ لم تكن له حسنة تجزئ، والموحدون من ذلك على درجات إلى موضع العدل من الوزن.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

ثم من هنا ينتظم معنى ما تقدم قوله الكريم: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(١) [النساء:٤١] والشهيد هناك شفيع، والشفيع والشهيد الذي أمام شفيع شهيد.

قال رسول الله ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض - قالها ثلاثًا - من شهدتم له**

---

(١) «كيف» في موضع رفع إن كان المحذوف مبتدأ التقدير: فكيف حال هؤلاء السابق ذكرهم، أو كيف صنعهم، وهذا المبتدأ هو العامل في «إذا» أو في موضع نصب إن كان المحذوف فعلاً أي: فكيف يصنعون، أو كيف يكونون، والفعل أيضًا هو العامل في إذا، ونقل ابن عطية عن مكيّ: أن العامل في «كيف» جئنا، قال: وهو خطأ، والاستفهام هنا للتوبيخ، والتقريع، والإشارة بهؤلاء إلى أمة الرسول، وقال مقاتل: إلى الكفار، وقيل: إلى اليهود والنصارى، وقيل: إلى كفار قريش، وقيل: إلى المكذبين وشهادته بالتبليغ لأمته قاله: ابن مسعود، وابن جريج، والسدي، ومقاتل، أو بإيمانهم قاله أبو العالية، أو بأعمالهم قاله: مجاهد وقتادة، والظاهر أن الشهادة تكون على المشهود عليهم.

وقيل: «على» بمعنى اللام؛ أي: وجئنا بك لهؤلاء، وهذا فيه بعد، وقال الزجاجي: يشهد لهم وعليهم، وحذف المشهود عليهم في قوله: ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ لجريان ذكره في الجار والمجرور فاختصر، والتقدير: من كل أمة بشهيد على أمته، وظاهر المقابلة يقتضي أن تكون الشهادة عليهم لا لهم، ولا يكون عليهم إلا والمشهود عليهم كانوا منكرين مكذبين بما شهد عليهم به، وروي أن رسول الله ﷺ: كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه، وكذلك حين قرأ عليه ابن مسعود ذرفت عيناه وبكاؤه والله أعلم هو إشفاق على أمته ورحمة لهم من هول ذلك اليوم، وظاهر قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أنه معطوف على قوله: ﴿جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وقيل: حال على تقدير قد؛ أي: وقد جئنا.

بخيرٍ وجبت له الجنة، ومن شهدتم له بشرٍ وجبت له النار»[(١)].

ويقول الله جلَّ ثناؤه: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين**»[(٢)].

قال رسول الله ﷺ: «**توضع الأمانة والرحم على جنبتي الصراط**»[(٣)].

يصف المؤمنون على طريق أهل النار، فيلقي الرجل فيقول: ألست الذي نصرتك يوم كذا وكذا؟ ويقول الآخر: ألست الذي وهبتك كذا وكذا؟ وضوءًا أو غيره، يتعرفون إلى المتقين فيعرفوهم، فيقول أحدهم للمؤمن: سألتك بالله والرحم ألا شفعت فيّ عند ربك، فيشفعون.

قال الله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**﴾ [النساء:١] وهذا منتظم المعنى بقوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء:٤١] وهو تعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين تقدم ذكرهم.

يقول جلَّ قوله: فكيف إذا كانوا يومئذٍ، وكان الأمر على ما أعلمناك به من يرجون ليشفع لهم من يشهد لهم من إمامهم يومئذ، ولم يتبعوا لموسى ولا عيسى، وكذبوا ما جئت به كيف بهم، كقوله - جلَّ قوله - فيهم في موضع غير هذا: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [آل عمران:٢٥] معناه: مما هو كسبهم الذي يجدونه يومئذٍ تحريف كتابهم، وكتمان الحق الذي جاء فيه، والصد عن سبيل الله وقتل الأنبياء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٢٢٤٣)، والترمذي (١٠٧٨)، وأحمد (٢٧٦٨٦)، وابن ماجة (٤٢٢١)، والنسائي (١٩٤٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٩٦٠) والطبراني (٣٨٢)، والحاكم (٤١٣) والبيهقي (٢٠١٧٧) وعبد بن حميد (٤٤٢) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وأحمد (١١١٤٣)، وابن ماجة (١٧٩)، وأبو عوانة (٤٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥)، والبزار (٢٨٤٠)، والحاكم (٨٧٤٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

فصل

الذي تقرر عليه الشرع، والمفهوم من تعريف الوحي أن لجهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مجازًا هو الصراط، وكذلك الهادون طرفي الصراط من كلا العدوتين منه سواحل؛ آية ذلك سواحل البحور بَردها ونداها، [ثم ....] (١) ثم حَضْحاصٍ، هكذا من كل غَمر في البحر، بحسب ذلك الوجود فيما هنا لك فيضها وغيضها وفورانها ورميها بشررها وشهيقها وزفيرها، فليعبر بها من أجل سواحل تقتضي موجود مقتضياتها.

قال رسول الله ﷺ في عمه أبي طالب: «**وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح يبلغ كعبيه**»(٢).

وقال ﷺ في الموحدين منهم: «**من قد أخذته النار إلى كعبيه، وإلى أنصاف ساقيه، وإلى ركبتيه، ومنهم إلى فخذيه وإلى حقويه**»(٣).

وإنما يصيبهم هذا في سواحلها هذه، وعلى قدر خفة ظهورهم من أوزارهم تكون خفتهم عليها، ثم يستولي ذلك بهم إلى الطيران في الهواء على مراكب هي النجب، وغيرها وكالبرق وكرجع الطرق.

ومنهم: من لم يرها ولم يسمع حسيسها ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ...**﴾ [الأنبياء:١٠١] إلى قوله: ﴿**خَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٢] جعلنا الله الرحيم برحمته منهم.

فصل

قال الله ﷻ في الأشقياء: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ**

---

(١) في الأصل [ثم باله وزهق وطيش] وهي عبارة غير واضحة.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢)، والحاكم (٨٨٨٦)، والحميدي (٤٨٨). غمرات جهنم: المواضع التي تكثر فيها النار. الضحضاح: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، واستعير في النار.

(٣) أخرجه أحمد (١١٩١٧)، وابن ماجة (٦٠)، والحاكم (٨٨٨٨)، والبيهقي في الشعب (٣٢٢)، وأبو عوانة في مستخرجه (٣٣٦). الحَقْو: الخَصْر.

جَهَنَّمَ جِثِيًا...﴾ [مريم:٦٨] إلى قوله: ﴿عِتِيًا﴾ [مريم:٦٩] وهم الذين قيل لهم: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيكون ذلك، فيخرج منها عنق ثم عنق ثم عنق، أصناف ثلاثة هم الذين كانوا في الدنيا أشد عتيًا.

قال رسول الله ﷺ: «**وتكون الأرض كلها جَمرة واحدة**»[1] يعني - والله أعلم - تلك السواحل؛ لأنهم يومئذٍ عليها.

سئل ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ فقال ﷺ: «**هم في ظلمة دون الجِسر**»[2].

وفي أخرى: «**على الصراط يا عائشة**»[3].

فربما سمى ذلك منها صراطًا؛ إذ هو مما ينجي الله - جلَّ ثناؤه - من هوله المتقين بمفازتهم، كما ينجيهم على المجاز، والله أعلم ما مقدار ذلك وما مسافته، وهذا كله عليه غير عسير، فالله القادر على أن يجعل أضيق الأمكنة تسع كل شيء، ويجعل أوسعها أضيق من خرت الإبرة، وإنما الفائدة من إخباره وحديثه فهو كما أخبر به وحدث.

قال ﷺ: «**فيطأ أحدكم الجمرة فيقول: حَسِ، فيقول ربك: أو إنه...**»[4] وذلك في مبتدأ هذه الأرض إنك سترى ما ينسئك هذا، فتخوض الخلائق ذينك الساحلين خوضًا، وهم الذين عجزت أعمالهم عن أنها فيهم طيرانًا وخطفًا كالبرق ورجع الطرف، وحضر الفرس الجواد على تفاوتهم في سرعة نجاتهم منها.

والذين يخوضون تلك الأرض أيضًا على درجاتهم من قلة الأوزار، وكثرتها بالأثقال على ظهورهم، والحسك والشائكات كشوك السعدان وغيرها، والعثار والعوارض بين أرجلهم، والكلاليب والخطاطيف على جنباتهم، وهذه التي أبانت

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٢)، والبيهقي في سننه (٨٣٠) وفي الشعب (٣٧٧)، وابن حبان (٤٤١)، والطبراني (١٣٩٨)، وأبو عوانة في مستخرجه (٦٥٤)، وابن حبان (٧٥٤٥)، وأبو نعيم في المعرفة (١٣١٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠) وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم (٨٨٣٥)، والطبراني (١٥٨١٠).

عنها في الحياة الدنيا عوارض المعاصي والذنوب، مثال الشهوات المؤذية والضَّراوات[١] السوء، فحبسهم على نجاتهم بطاعة الله.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:٣١] ثم كذلك حتى يصلون إلى الصراط على متن جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وهو دخص مزلة أحد من السيف وأرق من الشعر، آخره من شفيرها إلى شفيرها؛ أي: على مقدار حظوظهم من النجاة ودرجاتهم فيها.

والمتقون يومئذ ناجون ﴿بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١] وقوفًا على جنبتي الصراط، دعوى الرسل - عليهم السلام - والمتقين يومئذٍ: «**اللهم سلم سلم**»[٢] وهنالك يتساءلون بالله وبالأرحام، فينجو من الصراط من شاء الله نجاته برحمته، ثم بعمله ثم بالشفاعة، وكل ذلك من رحمته.

ويقع في النار من شاء الله كما قال رسول الله ﷺ: «**فناجٍ مخردل**»[٣] أي: مما يأخذ منه الكلاليب والخطاطيف والحسك والشائكات، ويكردس في جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فإذا خلص المؤمنون من النار، ألهم الرءوف الرحيم الغفور الشكور ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المؤمنين إلى الشفاعة، فأعطفهم على إخوانهم الذين في النار بالرحم التي كانت بينهم، ولا رحم يومئذٍ إلا الإيمان بالله والرسل - عليهم السلام - والعمل بطاعة الله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده ما أنتم بأشد منا شدة لي في استيفاء الحق من المؤمنين لله - جلَّ ثناؤه - يومئذٍ في إخوانهم المؤمنين، الذين هم في النار يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون ويحجون معنا**» وتلك شهادة منهم لهم، وشفاعة إلى ربهم فيهم، فيقول لهم جلَّ ذكره: «**اذهبوا فمن عرفتم فيها فأخرجوه منها، وحرم الله ﷻ على النار أن تأكل مواضع السجود، فيعرفونهم بذلك**

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وأحمد (١١١٤٣)، وابن ماجة (١٧٩)، وأبو يعلى (١٢٥٣)، وابن حبان (٧٣٧٩)، والحاكم (٨٧٣٧) والنسائي في الكبرى (١١٣٢٧)، وابن منده في الإيمان (٨٢٨).

(٣) تقدم تخريجه.

فيخرجونهم منها»[(١)].

ثم يحد لهم حدًّا تعرفه الملائكة - على جميعهم السلام - في قلوبهم فيخرجونهم، ثم كذلك حدًّا بعد حد، حتى إن المؤمنين ليسائلون أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢].

قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ﴾ [المدثر:٣٨ - ٤٠] هذا وصفهم في محالهم، في إخراجهم إخوانهم من النار بقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾.

وقرأها ابن الزبير وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «أيها المرء ما سلكك في سقر».

هذا سؤالهم قومًا منهم لم يكن تقدمت منهم بهم معرفة، فيجيبونهم بما كانوا عليه، ولا يكتمون الله - جلَّ ثناؤه - إنما يكون الكذب منهم، والكتمان ممن يوجد منه ذلك قبل وقوع العذاب بهم، فيقول أحدهم: لم أكُ من المصلين حتى أتاني اليقين، ويقول الآخر: لم أكُ أطعم المسكين حتى أتاني اليقين، ويقول المكذب: كنت أكذب بيوم الدين، فيخرجون إخوانهم المؤمنين ويتركون المكذبين.

يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

قال الله - جلَّ ثناؤه - في مقامهم هذا ونحوه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي: بشفيع ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾[النساء:٤١] يعني: حال إخراج الموحدين وترك المكذبين.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾[(٢)] [النساء:٤٢] أي: لو كانوا في الأرض أرضًا، وفي التراب ترابًا، ولا يبعثون ولا

---

(١) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٢) قرأ نافع وابن عامر: «تسوى» بفتح التاء وتشديد السين، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين، وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين، والمعنى على القراءة الأولى والثانية: إن الأرض هي التي تسوّى بهم؛ أي: إنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها، وقيل الباء في قوله: ﴿بِهِمُ﴾ بمعنى على؛ أي: تسوّى عليهم الأرض، وعلى القراءة الثالثة الفعل مبني للمفعول؛ أي: لو سوّى الله بهم الأرض فيجعلهم والأرض سواء حتى لا يبعثوا. [فتح القدير (٢/١٤٥)].

يخلقون من قبل ذلك.

وفي هذا من قوله وما جاء من مثل هذا في سورة النبأ: ﴿يَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠] إشارة إلى سر مفروج به لمن عمل لله - جلَّ ثناؤه - بطاعته لكريم لقائه وحسن مآبه، نسأل الله الرحيم الذي لا إله إلا هو أن يسعدنا بلقائه، ويبارك لنا في حظنا منه إنه ذو الجلال والإكرام.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ [النساء:٤٣].

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا، فدعانا وسقانا الخمر فأخذت منا، وحضرت الصلاة فقدموني، فقرأت: «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون» فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾.

قال ابن عباس ﷺ: فحرمت الخمر في أوقات الصلوات، فكان أحدهم يمسك عنها حتى إذا قضيت العشاء الآخرة شربها، فلا يصبح إلا وقد صحى سكرها، وأعلموا ما يقولوا في صلاة الفجر.

ثم أنزل الله تحريمها قطعًا في سورة المائدة.

حدَّث عثمان بن مالك - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ قصده في نفرٍ من أصحابه، ولما جاء منزله ناداه فخرج إليه يجر رداءه وإزاره، فقال: «**أعجلت الرجل**» فقال عثمان: يا رسول الله، الرجل يجامع أهله ثم يكسل، ماذا عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إذا [....][(١)] فاغسل ما أصاب المرأة منك ثم صلِّ**»[(٢)].

مصداق هذا من القرآن قوله ﷻ: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء:٤٣] وعدم وجدان الماء يتردد بين معنيين:

أحدهما: عدم الماء الذي يتطهر به.

(١) ما بين [ ] تقرأ (مخضت) ولفظ مسلم: «عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُجَامِعُ أَهْلَهُ ثُمَّ يُكْسِلُ هَلْ عَلَيْهِمَا الْغُسْلُ وَعَائِشَةُ جَالِسَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لأَفْعَلُ ذَلِكَ أَنَا وَهَذِهِ ثُمَّ نَغْتَسِلُ».

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٤٣٠١).

والآخر: عدم ماء المني وظهوره.

كما قيل [لرسول الله][1] ﷺ: المرأة ترى مثلما يرى الرجل في المنام، فقال: «**لتغتسل إذا رأت الماء**»[2].

ولما اتصل به من الأمر بالتيمم، فكان سياقه في حكم السفر، وهو من مظانّ عدم الماء المتطهر به، وقف الأمر على الاغتسال مع وجود الماء والتيمم، مع عدم وجود ما يتطهر به.

وقد روى معنى حديث عثمان جماعة من الصحابة ﷺ وروت عائشة وأبو هريرة في إيجاب الغسل؛ لالتقاء الختانين، والله عليم حكيم.

قوله تعالى: ﴿**وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا**﴾ [النساء:٤٣] تقدير الكلام: ولا تقربوا الصلاة جنبًا حتى تغتسلوا، ودخل الاستثناء تنبيهًا على حكم المسافر؛ إذ السفر مظنة الأعذار.

ثم بيّن بقوله جل قوله: ﴿**وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾[3] [النساء:٤٣].

وفي ذكر الملامسة على معنى المفاعلة البيان البين للشهوة؛ إذ بناء المفاعلة لا تكون إلا منهما، فكان المفهوم من الخطاب ابتغاء الشهوة، واجتزى بذكر المفاعلة عن سبيل الملامسة، وكان ذلك أحسن اختصارًا وأقرب للفقه.

---

(١) زيادة لانتظام السياق.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢)، ومسلم (٧٣٨)، وأحمد (٢٦٦٥٥)، والطبراني (٦٥٩)، وابن أبي شيبة (٨٧٨) والترمذي (١٢٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٦٠٠)، وأبو يعلى (٧٠٠٤)، وابن خزيمة (٢٣٥)

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: «لامستم» وقرأ حمزة والكسائي: «لمستم» قيل: المراد بها في القراءتين الجماع، وقيل: المراد بها مطلق المباشرة، وقيل: إنه يجمع الأمرين جميعًا. وقال محمد بن يزيد المبرد: الأولى في اللغة أن يكون «لامستم» بمعنى قبلتم ونحوه، و«لمستم» بمعنى غشيتم. واختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال؛ فقالت فرقة: الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع، قالوا: والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. وقد روي هذا عن عمرو بن الخطاب وابن مسعود. قال ابن عبد البر: لم يقل بقولهما في هذه المسألة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي وحملة الآثار. [فتح القدير (١٤٩/٢)].

وكان قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ دليلاً على أن المسحة الواحدة مجزية.

كما جاء عن رسول الله ﷺ: «**أما كان يكفيك أن تضرب ضربة لوجهك، وأخرى ليديك؟**»[(١)].

وفي أخرى: «**ضربة للوجه وأخرى للذراعين**»[(٢)].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ أي: عن كل حقِّه قبلكم ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:٤٣] لخطاياكم، يطهركم بالماء والصعيد، ويذهب عنكم بذلك الرجس.

كما قال - جلَّ قوله - في سورة المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

كما قال ﷺ: «**إذا توضأ العبد المؤمن كفرت عنه جميع خطاياه ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته له نافلة**»[(٣)] فإتمام نعمته عليه هو أن يكون شاكرًا، وأن يكون طهوره بالماء غاسلاً لذنوبه كلها.

وكان رسول الله ﷺ يسأل ربه ذلك يقول: «**رب طهرني بالماء والبرد والماء البارد، ونقني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس**»[(٤)] أي: الماء والبرد والماء البارد، ثم يكون بعد ذلك من الشاكرين، يعمل في إعلاء الدرجات رزقنا الله ذلك برحمته.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٨٤٦)، وأبو داود (٣٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٧٣)، والدارقطني (٧١٦).

(٢) أخرجه الطبراني (٧٩٥٩)، وأحمد (١٨٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٢٩٠)، والدارمي (٧٤٥)، وابن خزيمة (٢٦٦)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢).

(٣) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (١٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجة (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح، والبيهقي في الشعب (٢٧٣٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٨).

(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٧١١)، ومسلم (٥٩٨)، وابن أبي شيبة (٢٩٢٠٨)، وأحمد (٧١٦٤)، وأبو داود (٧٨١)، والنسائي (٦٠)، وابن ماجة (٨٠٥)، والدارمي (١٢٤٤)، وابن الجارود (٣٢٠)، وابن خزيمة (٤٦٥)، وابن حبان (١٧٧٥)، والدارقطني (٣٣٦/١)، والبيهقي (٢٨٩٥).

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ
ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا
فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ
بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم
مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ
ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ
فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا
يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء:
٤٥ - ٥٠].

قوله عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء:٤٧] طمس الوجوه هو أن يذهب بأسماعها وأبصارها ونطقها، كما قال ﷺ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨] فإذا كانت الوجوه عديمة الحواس أشبهت الأدبار، فهذا مسخ باطن.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ الذين قال فيهم: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:١٦٦] فهذا هو المسخ التام الذي عمَّ الظاهر منهم والباطن، وقد أصابهم المسخ الأول الذي هو عدم حواس الوجه.

ألا تسمع إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧] فهم الصم البكم العمي أشبهت الوجوه منهم الأدبار ومسخوا المسخ، وهو حقيقة اللعن، وهؤلاء هم الذين يرد الله أن يُعمر قلوبهم، والذين حقت عليهم اللعنة كلمة العذاب ولعنوا اللعن الباطن، ولم يبقَ إلا المسخ الظاهر، وأراه - والله أعلم - كائنًا لهم في دار البرزخ؛ لقوله الحق: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ نعوذ بالله من لعنه وبعده، ومن جميع ما يوجب ذلك، واللعن إبعاد بعذاب وأصل.

معناه: إن الإنسان كما تقدم مؤهل للتقريب والإنس إن هو أطاع وائتمر بما أُمِر به، وإن هو لم يفقه ما أريد به من ذلك، ولم يرفع به رأسًا ولي ما تولى، وشغل بشغل لا ينفك وأمل لا يدرك وبحرص لا ينال، ولأنه لم يكذب ولا يصد عن السبيل بقي من أصله، وإنه متى ذكر تذكر، ومتى نُبِّه تنبه، وإن أعقب ذلك النسيان وخلفت الغفلة انتباهه، فإذا توفي وُزِنت الغفلة بانتباهه وذكره بنسيانه، فقرب على قدر ذلك ولا يظلمون فتيلاً، ثم هو إن أمر ولم يأتمر وزجر، فلم يزدجر مُنِع السمع الباطن والبصر والبيان، وكان من طمس الوجوه على خطر.

قال الله ﷻ بعد قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] وهذا وصف لهم حال عقوبة إعراضهم بعد البيان، والمعرض بعد البيان قلما يرجع لقول الله جلَّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ...﴾ [الكهف:٥٧].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨] هذا وصف منه؛ لإبقائه عليهم الصفات الظاهرة، وإلى بعد الموت.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:٢٠] يعني: الظاهرة، وهو المسخ التام والفقد المجحف، كما طمس ﷻ أنوار الوجوه فردَّها على أدبارها.

عبرة:

نبه الله - جلَّ ثناؤه - الذين آمنوا، وذكرهم بأهل الكتاب توقيرًا لهم وإكرامًا لهم، يؤدبهم بغيرهم ويريهم عقوباته في سواهم، فليعتبر أهل الأبصار، وليزدجر أولو البصائر.

ألا تسمعه ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا...﴾ [النساء:٤٧] نحن أهل الكتاب، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل**»[1] وإنه من يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابًا صعدًا، ومن نسى آيات ربه أورده المعيشة الضنك، وأعمى قلبه وأصم سمعه وأبكم لسانه عن فهم

---

(١) تقدم تخريجه.

كتابه عقوبةً لإعراضه عن تفهم كتابه، ولقد خشينا أن قد لحقنا ما يواعدهم به من طمس الوجوه، وردها على أدبارها آيات ذلك في الوجود جمة، ودلائله كثيرة.

ألا تسمع إلى قول الله ﷻ فيهم عقوبة لإعراضهم عن كتاب ربهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾ ثم قال - جلَّ قوله - معرضًا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ﴾ أي: أنذر أمتك بأسي ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧] فبشرهم عني.

كما قال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ....﴾ [الزمر:١٧ - ١٨] أتراه جلَّ ذكره إنما يقص علينا أنباءهم، ويجتلب ذكر خطاياهم ويعلمنا معايبهم تفكهًا بذلك كله وجلاله، والحق الذي فطر به أرضه وسماه، وأنزل به كتابه إن هو إلا إكرام من كريم لمن أطاع الله واهتدى، وإنذار من حليم حكيم لمن تأبى وآثر على الجد الهوينا وضيع الحزم، وركن إلى الدنيا إيثارًا لها، وأخذ عزيز قدير لمن أبى واعتدى على الآخرة، واتبع النفس الهوى.

صدق رسول الله ﷺ لما ركبنا سننهم وقفونا أثرهم عميت منا القلوب، وصمت وبكمت، فأصغينا إلى الدنيا إيثارًا لها على الآخرة أظهرنا الإيمان على ألسنتنا، والكفر على جميع أعمالنا، وما أظهرناه من عمل صالح، وأبديناه من مكارم أخلاق وحسن فعال وجميل سيرة وطلب علم، فإنما ذلك منا على قدر حصول العاجلة به وما نكابده، ففي سبيل ذلك لا على سبيل خشية الله ﷻ، ولا مقصود بوجهه إليه.

عادات استمررنا عليها وضراوات ألفناها، فذهب لذلك الفهم وعمى الناظر وعشيت البصائر، وقست القلوب وتراكمت الذنوب، وتحقق فينا قوله - جلَّ قوله - فيهم: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦] فهذا طمس موجود فينا لا ننكره، طمس الوجوه بردِّها على أدبارها جهلاً وعمى.

يقول عزَّ من قائل: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧] نعوذ بالله من أخذه وأليم بطشه، ونسأله لنا معشر الأمة توبة صادقة، وإنابة خالصة ورجعة قريبة إنه على ذلك قدير.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧] خاصة هذا الخطاب هنا من

هذا المعنى أنه من لعنه، فمسخه المسخ الباطن ولم يسدد إلى التوبة، فإنه بعد الموت يحول ظاهره إلى ما مسخ إليه باطنه، فيعذب فيه إلى يوم القيامة، أو يتداركه عفوه ورحمته.

كذلك الكافر في الآخرة، قال الله جلَّ من قائل: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٦] والخرطوم ليس من صفات الإنسان إنما يوصف به الخنزير والفيل والفأر ونحو هذه، سبحان الله وله الحمد خلقه أولاً على صورة الحق، وصوَّره باطنًا فأحسن تصويره في أحسن تقويم، تمدح الله ﷻ بذلك بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] ثم ردَّه بعد إلى أسفل السافلين صورة ومحلاً ومآلاً.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾(١) [النساء:٤٨] انتظم هذا بما تقدم من كفر المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، فوضح من ظاهر هذا الخطاب البيان البين أنه ﷻ حجز المغفرة على الكافر، وحرم رحمته على من أشرك به، والشرك غير مغفور بنصِّ هذا الخطاب، وقد وعد بوعده الحق إنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ممن لا يشرك به شيئًا.

وقال بعض من تقدم رحمة الله على جميعهم: إن الله لا يغفر ما دون الشرك إلا بالتوبة، وهذا ما لا يعطيه ظاهر الخطاب الذي تلاه علينا ربنا ﷻ من كتابه العزيز،

---

(١) ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال الكلبي: نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه؛ وذلك أنه لمّا قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أن يُعتق فلم يُوَفَّ له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: أنا قد ندمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلاّ أنا سمعناك تقول وأنت بمكة: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ [الفرقان:٦٨] وقد دعونا مع الله إلهًا آخر وقتلنا النفس التي حرّم الله وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت: ﴿إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا...﴾ [الفرقان:٧٠] فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم، فلمّا قرأوا كتبوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف ألا نعمل عملا صالحًا، فنزلت: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فبعث بها إليهم، فبعثوا إليه: إنّا نخاف ألا نكون من أهل المشيئة فنزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣] فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتلتَ حمزة؟ فلمّا أخبره قال: ويحك غيّب وجهك عني، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات. [تفسير البغوي (٢٣٢/٢)].

فإن الشرك أيضًا يغفره الله بالتوبة، فلو كان ما دون الشرك من الذنوب لا يغفر إلا بالتوبة لكان إخباره ﷻ بأنه يغفر متساوي المعنيين.

وفي إجماع العرب ومن تعرب من العجم على امتناع تساويهما أدل دليل على إغفال من قال ذلك، غير أن من المصرين عليها وهم يجهلون أنها ذنوب، لكن عموم الخطاب شمل الطائفتين معًا، فالتفرقة بينهما تعريض جراءة، والإصرار عليها من غير نزوع إلى التوبة منزلة بين منزلتين ما دونهما كفر، ولا رجاء معه في عفو ولا مغفرة، وما فوقها توبة وتقوى لا خوف معها من خلف وعد ونقض عهد، ففي منزلة المصرين إشكال؛ لكونها في موضع الشبهة، وفارقت منزلة الكافر والمشرك في إلحاق الرحمة بهم دون مرية منزلة المؤمن المصر، والحمد لله رب العالمين.

قال ﷻ في الكافرين: ﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣] وإن كان الإصرار إثمًا، فإنه لم يلحق بالإثم العظيم والضلال البعيد.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِالله فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

و﴿قَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ﴾ [الواقعة:٤٦] لا عهد لمصر بمغفرة، ولا يأس على تائب من الرحمة، ولا رجاء لكافر ولا مشرك.

قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء:٤٩] يعجب نبيه ﷺ، ومن تبعه من العلماء من ضعف عقول هؤلاء وضآلة عقولهم؛ لتزكيتهم أنفسهم، وذلك أن تزكية النفس وجودها أبدًا عن العجيب والعجب عن الكبر، والكبير يوجب المقت من الله ﷻ، ومن الذين آمنوا بل الله يزكي من يشاء.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٤٩] يريد الذين يزكيهم الله، وهو لا يزكى ﷻ إلا من صلحت حالته عنده، فلا يظلمنهم ما هو مقدار فتيل، بل لولا فضل الله عليهم ورحمته ما زكى منهم من أحد أبدًا.

وقد يتوجه قوله هذا: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ يريد؛ أي: هؤلاء المكذبين والكافرين من عمل منهم خيرًا أطعم به وعوفي ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ من ذلك، فإذا كان الزكاء من الله ﷻ وهو يخبر البواطن ويعلم الظواهر، وما تؤول إليه عواقب

الأمور، فهو الواهب ذلك والمثيب عليه، فكيف تصح لمخلوق تزكية نفسه لعدم ذلك.

قال عزَّ من قائل: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٥٠] الزكاء: النماء، وهو الرفعة، فلان ينمي الحديث ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: رفعه، فمفهوم خطاب القرآن على هذا أن الزكاء ليس إلا ما كان من معنى القرب من الله ﷻ والتقرب منه؛ لذلك قال ﷻ: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ....﴾ فإذًا لا ينبغي لأحد أن يزكي نفسه، ولا أن يزكي أحدًا.

قال رسول الله ﷺ: «بحسب المؤمن أن يقول في أخيه: حسبته كذا، وكذا أحسبه، ولا أزكي على الله أحدًا»[1] أحسبه أن يفتري على الله الكذب، وكفى بافترائه علينا إثمًا مبينًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥١ - ٥٨].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥١٩)، ومسلم (٣٠٠٠)، وأبو داود (٤٨٠٥)، وأحمد (٢٠٤٨٠)، وابن ماجة (٣٧٤٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الكِتَابِ﴾ يريد جلَّ ذكره يهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١] صنمان يعنيهما.

وقالوا: الجبت: السحر.

وقالوا: هو السحر بلسان الحبشة، وربما كان مشتقًّا من جاب يجوب جوبًا، وهو القطع أن يقطع الحق بالباطل إلى أهوائهم، كما قال ﷻ: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٩] قطعوا الصخر وأجروا فيها الأودية إلى مقاصدهم، فكلما تعدى الحق فقطعه، فهو جبت.

والطاغوت مأخوذ من الطغيان، والطغوان لغة فيه، قالوا: والتاء زائدة للمبالغة كملكوت ورحموت وجبروت ورهبوت ورغبوت، وكل ما خالف الحق فقد طغى وأوقع الطغيان، ولا خلاف للحق أعظم من اتخاذ إله من دون الله ذلك هو الضلال البعيد، وكل ما عُبِد من دون الله، وكل فعل فُعِل مخالفًا لأمر الله ﷻ، فهو طاغوت.

انتظم معنى قوله فيما حكى عنهم: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء:٥١] بمعنى قوله - جلَّ قوله - لنبيه ﷺ: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٥٠].

أخرجهم عن التوحيد بقوله جلَّ قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ﴾ يعني: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ﴾ يعني: الكافرون ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء:٥١] وذلك أن قريشًا استفتوهم في شأن رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل دين ونبوة، فما تقولون في دين محمد وديننا أيهما خير؟ فقالوا لهم: دينكم أفضل من دين محمد، وأنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، فجعلهم بذلك مؤمنين بالجبت والطاغوت أولئك الذين لعنهم الله، كما كتموا ما عندهم من صحيح نبوة محمد ﷺ.

ولهذا أنزل الله ﷻ لعنهم في التوراة؛ أي: بعدهم عن فهم كتابه وتصديق رسوله، فلم تنفعهم أبصارهم ولا أسماعهم ولا أفئدتهم لما لعنهم الله، كما فعل بغيرهم الذين قال فيهم جلَّ قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦].

قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ....﴾ [النساء:٥٣] «أم» حرف ظاهره الاستفهام، قالوا: وقد يكون بمعنى ألف الاستفهام بعينها، تقول من ذلك: أعندك طعام؟ أعندك ماء؟ أفي الدار زيد؟ كما تقول: أم عندك؟

وحكى بعض أهل العلم باللسان إنها لغة يمانية، فيجعلونها في مبتدأ الكلام، فيقولون: أم نحن خيار الناس؟ أم نحن نطعم الطعام؟ أم نحن نضرب الهام؟ فلهذا أقرب معانيها إليَّ ليس كالمعهود منهم في قولهم: ألسنا خيار الناس؟ ألسنا كذا؟ وعلى هذا يكون تقدير الكلام: أم لهم نصيب من الملك؟

ومن قال: إنه خطاب تقدمه محذوف مقدر، فما هو بمقصر عن الحقيقة، ولا بمتأخر عن السياق إلى الغاية، تقديره: لما كان اللوح المحفوظ جمع كل شيء كتبًا، فأنزل على بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل والفرقان، قال فيهم: إنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب، فإذًا الكتاب المعني هاهنا هو اللوح المحفوظ، ومن أوتي نصيبه كذلك في عمله وأجله وأثره وشقاوته وسعادته، أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب فأيدهم ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة:٥٤] أو ما يكون في معنى هذا من الكلام.

ثم عطف على المحذوف قوله جلَّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ [النساء:٥٣] لو كان ذلك ما أتوا الناس من فضلهم، ولا مما بأيديهم نقيرًا.

ثم أظهر ﷻ معنى ما حذف بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(١) [النساء:٥٤] وبنو إسرائيل من آل إبراهيم وكذلك العرب، وفحوى هذا الخطاب أنا سنتم الفضل على العرب في ذلك، فنؤتيهم الكتاب والحكمة والملك.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ الضمير الذي في ﴿بِهِ﴾ مردود على الكتاب، وفحوى هذا أيضًا إنه كما كان في بني إسرائيل من آمن به، ومنهم من

---

(١) «أم» منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر؛ أي: بل يحسدون الناس؛ يعني: اليهود يحسدون النبي ﷺ فقط، أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوّة والنصر وقهر الأعداء. [فتح القدير (١٦١/٢)].

صدَّ عنه كذلك يكون في العرب جميع ذلك.

قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فأعلم بهذا أن من ذريته محسن وظالم لنفسه مبين.

وقال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم....**»[١].

قوله جلَّ قوله: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:٥٥] اسم جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - يبنى على رؤوس معانيها، فجيمها وميمها تنبئان على ما استحق فيها من معنى المزيد، المعبر عنه قوله جلَّ قوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

ثم هاؤها وميمها ينبئان عن زمهريرها، ونونها تنبئ عن نارها وحميمها وهوائها، وميمها بمجموع ذلك عن الجهامة التي أوجدت، فهو اسمها الأكبر.

قال رسول الله ﷺ يحدث عن مسراه، قال: «**ورأيت مالكًا خازن النار**» وذكر من جهامة وجهه في لقيه لم يتبسم إليه، ولا هشَّ له بغير السلام عليه، قال: «**فقلت لجبريل: من هذا؟ قال: مالك خازن النار، لو ضحك إلى أحد لضحك إليك**»[٢].

قال الله ﷻ: ﴿غِلاظٌ شِدادٌ﴾ [التحريم:٦].

وكلمة ﴿وَكَفَى﴾ يعبر بها عن نهاية الإبلاغ في معنى ما أخبر بها عنه، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:٨١] و﴿كَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦].

والسعر نوع من العذاب يعتمده تعذيب النفس، وحقيقته شدة تحريك الصفات الباطنة بالأمر العذاب المستعر، وقصدها بوجود العذاب، نعوذ بالله من ذلك.

سعر النار: شدة اضطرامها وسرعة اشتعال لهبها، فلها لأجل ذلك قصيف وشهيق؛ لسرعة إلهابها ما جعل لها وعظيم التهابها، وتداخل وجودها في مأخذها لذلك يكون وصف المستعر الصفات خورًا في عزيمته، وثباته وتبلدًا في خلده، كثير الحركة قليل السكون، عديم الصبر فقيد الرضا، شديد القلق حرج الصدر، كثير

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره بنحوه ابن كثير في تفسيره (١٤/٥).

الغضب يغضب بغير مغضب، ويألم بغير مؤلم، لم تسكن نفسه فرقًا وقلقًا وسعرًا، فإذا اقترن بذلك عذاب السعير، فما ظنك وموجود الآخرة ينشأ عن هذه إلا ما لا يبلغه وهم متوهم.

والسعر يلهي بما هو عن كل شيء سواه، وهو عذاب الشياطين فيما أعد الله لهم فيما هنالك، ولاقتران كل إنسي بشيطان كان له قرينًا في دار الدنيا، سرى عذاب السعير إلى الإنس، كما أصاب الشياطين غيره من عذاب جهنم؛ لاقترانهم بالإنس، وعذاب جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - يعمهم.

قال الله ﷻ في الشياطين: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [الملك:٥ - ٦].

وقال أيضًا: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١١ - ١٣] أي: جن بإنس وإنس بجن.

وقال جل قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] وكما كان له قرينًا في الدنيا، فكذلك هو قرينه في الآخرة.

ألا تسمعه جلَّ من قائل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨].

يقول الله - جلَّ قوله - لكل قرين منهم: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩].

ولذلك قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] وقد تقدم من ذكر اقترانهم قبل هذا ما يغني عن التطويل.

فصل

يضاعف العذاب على أئمة الضلال بما أضلوا غيرهم، وضلوا هم في أنفسهم، كما قال الله جلَّ قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

وقال جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ

العَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] على الاتباع الذي عبَّر عنه قوله الحق: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] فهو - والله أعلم - لأجل اقترانهم بأقرانهم الذين أضلوهم من الشياطين، فيصيب هذا عذاب هذا.

يقول بعضهم لبعض: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فتقول لهم الخزنة: ﴿فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٣٩].

ويكون تضعيف العذاب أيضًا بحكم الميراث يرث الكافر منزل المؤمن في جهنم، كما يرث المؤمن منزل الكافر في الجنة وملكه وأهله ﴿إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] الصلى قد يكون العرض، وهو عذاب الدار الوسطى.

قال الله ﷻ: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٣ - ٩٤].

تقول العرب: «صلى فلان عصاه» إذا أدارها على النار.

ومنه: الصلى والاصطلاء بمعنى المباشرة، تأمر من ذلك: صلْ النار يا هذا؛ أي: باشر حرها، فإذا ألقي فيها تقول: أصل النار وأصليته وصليته أنا تصليةً.

قال الله ﷻ: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦].

﴿اصْلَوْهَا اليَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس:٦٤].

النضج هو الطبخ - أعاذنا الله الرحيم برحمته من عذابه - وهو نوع من العذاب، وحال من أحوالهم، وهذا كله من عذاب الدار الوسطى دار البرزخ، وهي دار يجتمع فيها لأهل الإيمان والعمل بطاعة الله ما يفضل على نعيم الدنيا، ولم يلحق بنعيم الآخرة كذلك يجتمع لأهل الكفر والتكذيب ما يفوق عذاب الدنيا، ويقصر عن موجود عذاب الدار الآخرة، وهناك هو أشد العذاب ذلك العشاء، والغبش فيهما من ضياء النهار وظلام الليل.

والشي والاحتراق حالان من أحوالهم، نعوذ بالله من أحوال النار في الدنيا والآخرة.

والصهر للجلود ولما في البطون أحوال تحول عليهم بمصبوب الحميم، ليس

كالمعهود في الدنيا إنما هو صب يصب عليهم، فتقع الجلود كشطًا لها عنهم، ويصل ذلك إلى أجوافهم، فيصهر حشوه فتقع من دبره، ثم يسجرون في النار على حالهم تلك؛ أي: يوقدون فيها، فإذا انتهوا إلى ذلك عادوا إلى ما كانوا عليه، ثم يذوقوا عذابًا غيره هكذا أبدًا.

ولا عبرة باعتراض من اعترض بمعنى الغيرية في قوله جلَّ قوله: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فإن الجلود مخلوقة من أجسامهم، وذلك مشاهد بالوجود، فإنا نرى من أصاب الجسد منه خدش أو سجح موضع منه، أخلف الله ﷻ من نفس الجسد جلدًا متصلاً به، وهو غير ذلك الجلد المسلوخ، وعلى ذلك فإنه جلد لذلك العضو، فهو الذاهب غير، وهو خالف له من نفس الجسد الذي كان الذاهب جلدًا له وهو منسوب إليه، ولم نرَ جلدًا آخر أحرقته النار خلف جلد مكانه شبيه الأول في بشرة ولون، وتلك آية على تبديلهم جلودًا هي أقبح مرأى وهيبة من التي كانت قبل.

وهو الله الذي لا إله إلا هو المصور، لا يعجزه صورة يصورها في الحسن والقبح، فهذا تأويل آخر من تأويل قوله ﷻ: ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ ومن أصدق من الله حديثًا، وهذا من مقدره الغائب كإيجاده عن ذات الميت ذاتًا ينقل إليها الحياة، تشتق هذه الحقيقة من تلك الذات ليست الذات المشتقة منها، ولا هي غيرها، ولا يصح الاعتقاد ولا القول بأنها غيرها، بل هي موجودة منها وعنها بل هي هي، فإنها الذات التي أخذ عليها الميثاق في البدء الأول.

قال الله - عزَّ من قائل - يخاطب ذواتنا هذه ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد:٨] أي: فيما هنالك إن كنتم مؤمنين؛ أي: بما أنبأناكم به من قضاء القضية وأخذ الميثاق عليكم، وتطلب ذلك في سائر الموجودات تُصب إن شاء الله.

أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] العزيز في انتقامه، الحكيم الذي أحكم صورة جزائهم على صورة أعمالهم، فلم يعذب غير المسيء ولا أثاب غير المحسن، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤] وهذا من مقدوره الغائب كإيجاده مثالاً للميت يكون ذاتًا له، ويكون ذلك المثال هو الحي يشتق هذه الحقيقة من حق تلك الذات التي بطنت بالموت،

ليست هذه المشتقة هي المشتقة منها، ولا يصح الاعتقاد، ولا القول بأنها غيرها بل هي موجودة منها وعنها.

قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾ [النساء:٥٧].

قد تقدم القول في غير هذا الكتاب أن الجنة اسمها مأخوذ من المعنى الذي أجنه فيها هو لها، بمنزلة الروح الحاملة عبَّر عنه بقوله الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١) بله ما أطلعتكم عليه.

وأمَّا الظل الظليل فهو ظل الله ﷻ، وأحد وجوهه أنه موجود الكفاية والوقاية والرفع والإكرام.

تنبيه:

ذكر ﷻ الجنة وأنهارها كناية عن ملكها وخلودها وأزواجها، ثم عطف ﷻ بالواو على ذلك في قوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾ وقد وصفها قبل فيما وصف بأنه فيما هنالك في ﴿ظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة:٣٠ - ٣١] إلى غير ذلك من وصفه الحق.

وقال أيضًا جلَّ قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ [الإنسان:١٣ - ١٤] وإذا كانت كما قال - جلَّ قوله - وقوله الحق ووعده الصدق: لا شمس فيها تؤذي بحرِّها، ولا ما يضادها من البرد والزمهرير كالمعهود في الدنيا، وأن معهود نفع الظلال في هذه دفع أذية حر الشمس، وحجب عن هبوب سموم الرياح بضرورها وحرورها وعصوفها وقصوفها، وإذا كان فيما هنالك لا أذية موجودة لشمس ولا برد لرياح، إنما هو الرضوان والرحمة يحولان معهم وبهم كل متحول، ويتقلبون كل منقلب، فما وجه الحكمة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣١٩٧) وأحمد (٨١٢٨)، والطبراني (٥٧٠٦)، وابن أبي شيبة (٣٣٩٧٣).

في إيجاد الظلال هنالك؟ وما الذي يدافع بها؟ وما الذي يصيب أحدهم متى برز عما هو ظل له إلى ما ليس هنالك بظل؟!

توجيه:

والله أعلم معهود «ما» هاهنا الاستجارة بالحرِّ من البرد وبالبرد من الحر، وبالاحتماء من الأذية والرياح بالجبال والبيوت، وبظلال ما خلقه الله ﷻ لها دفاعًا للأذية من النفسين، وما يتبعهما، وما يكون عنهما وقاية وطلبًا للدفاع والكفاية، ونحو ذلك.

وأما في الجنة التي هي دار الحيوان ومحل النعيم المقيم، فإنما هو الإكرام والتنعيم ليس فيما هنالك موجود يتوقى، ولا يدافع بما يقابله ويضاده، كما ليس في جهنم - أعاذنا الرحيم برحمته منها - موجود توقى به عظيم ما سلط عليهم، ولا شيء يدافع به ما هم بصدده، وقد يتفهم حال أهل الجنة فيما نحن بسبيل تبيانه بأن تتفهم تعذيب أهل جهنم، وما جاء في وصف أحوالهم.

قال الله ﷻ: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٢٩ - ٣٠] أي: تفرع إلى ثلاث أحوال، الله أعلم بما يتفرع إليه كل حالٍ، أحد الشعب: إنه ظل ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: لا يدفع مكروهًا ولا يوقي محذورًا.

والثاني: ﴿لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات:٣١] أي: ليس بكنين، فيستكن به من اللهب أو حريق أو غير ذلك.

والثالث: إن ذلك الظل من دخان النيران، فأشبه الظل بوجه ما في عدم نوره، وأشبه موجودات جهنم في ظلمته وأخذه بالأنفاس إهانة وتعذيبًا، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٣ - ٤٤].

ثم أخذ ﷻ في وصفها - أعني: النار - بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢] وجاء في وصفه لها: إنها فيما ليس بكن ولا واق شيئًا ترمي بذلك الشرر وهي صواعق، فتصيبهم دون حائل ولا دافع.

فظلال أهل الجنة إذًا على مفهوم هذا الإكرام والتنعيم يوجدهم ﷻ في الظل إكرامًا ما ينعمهم به، ويوجدهم في البروز على الظل إكرامًا ما ينعمهم به يعرفون به

ذلك من هذا، كما يعرف أهل الدنيا فرق ما بين الشمس في البروز إليها، وبين الظلال باختلاف منافعهم في ذلك ومضارهم، وإنما هو فيها هنالك الرضوان والرحمة ثم الإكرام والتنعيم.

فصل

أما في الدنيا فمنافع الظلال والتبرر عنها مفهومة معلومة، وقد جعل الله ﷻ ظلال ما هاهنا آيات على ظلال ما هنالك، فقال جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل:٨٠] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل:٨١].

ثم ذكر جلَّ ذكره الوقايات بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ ثم عبَّر بالذكر جلَّ ذكره إلى حال الدار الآخرة؛ ليرفع همم العباد صعدًا، فقال جلَّ قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما في هذه فعلنا ﴿يُتِمُّ﴾ الله ﴿نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بدخول الجنة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:٨١] هذا من الإسلام بخفض اللام ورفع التاء، وفيه محذوف تقديره: يبين لكم آياته لعلكم تسلمون.

وقرئ: «لعلكم تَسْلَمون» من السلامة؛ أي: لعلكم تسلمون فتسلمون مما هو أدهى وأمر، ومباشرة ما هو أكرم دفاعًا ووقاية، وظله - تبارك وتعالى - في البرزخ دفاع عذاب ما هنالك وفتنته وظلال جناتها، كما قال جلَّ قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٩].

وظله في عرصة القيامة: دفاعه وحفظه وتأمينه وتأنيسه، وظل العرش يومئذٍ، وظله في الجنة ما تقدم ذكره والرضوان والتنعيم والرحمة.

توجيه آخر:

إن الله ﷻ فما سخر لنا في هذه الدنيا السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار والأنهار، وكل ما دخل تحت قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣] جميعًا منه، فهو كله مسخر لابن آدم في الدنيا وبخاصة المؤمن، فإن ذلك كله قد زاد في التسخير له بالهداية والإرشاد

وتعليم العلم، والإخبار له بما جعل له وبمن جعله، وما المراد منه وبه شهادته وغيبه.

وجميع ذلك بالضد للكافر في الدنيا من حيث الإضلال والفتنة، والتعمية والتلبيس ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣] ثم هو في عرصة القيامة، كل ما ذكرناه يشهد للمؤمن بقبوله منه وهدايته به ويشفع له، ويشكر له ما فرط منه فيه، وهو للكافر شاهد عليه متبرئ منه معذب له - نعوذ بالله من ذلك - تعود سخرية له في الدنيا عدوانًا في حقه، ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، ثم هو في دار القرار على ما تقدم ذكره على سنن النشء، فافهم.

وبوجه آخر:

قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم عيانًا كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيتهما ولا تضارون**»[1] وهذه رؤية على الدوام، كما أن الشمس يخلفها القمر ليلة البدر، والقمر تخلفه الشمس من غد ليلة البدر، لكن ذلك واحد لا يأتي معه.

وأما ذكر الشمس والقمر لما علمه من أفول الشمس وأفول القمر، فجمع بينهما؛ إذ الرؤية على الدوام لا تتحصل إلا بمجموعهما، وما هنالك لا أفول ولا تنقل ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ﴾ كناية عن الآخرة ﴿وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] كناية عن الدنيا هذه زيادة على ما له من المثل الأعلى اليوم في السماوات والأرض، فافهم ذلك.

وقال سبحانه وله الحمد: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] إشارة إلى ما تقدم ذكره، فراجع النظر من مبتدأ الكلام في هذا المعنى تفهم المراد إن شاء الله تعالى، وهو المستعان.

وقال وقوله الحق: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور:٢٥].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٢٩٦٨)، والترمذي (٢٧٥٢)، وأحمد (١١٤٢٦)، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٢)، والطبراني (٢١٨٤).

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢].

قال وقوله الحق: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] فأنبأك ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، إن عقلت معنى الخطاب، ووقفت على سر المراد أنه هو الحق المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، فعلى هذا إن هذا الحق المذكور ينشأ به التحقيق والتبيين في الدار الآخرة، إن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يكون المرئي يومئذٍ على الدوام دون أفول، كما نرى الشمس والقمر.

ولما كانت الشمس والقمر قد جعل ﷻ بأمره لهما من المنافع ما تقدم الكلام على بعضه في موجودات هذه الدار، وليس فيما هنالك شمس ولا قمر ولا نجوم ولا كواكب، بل هو ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يومئذ المرئي، والحق الذي نشأ إليه حق ما هنا، فموجودات ما هنالك، وأمر ما هنالك موجود كله عن الحق المبين لا بوسائطه ما هاهنا، بل على القرب والكشف كما نوَّع الاستظلال بظلال ما خلفه، وميز ما بينه وبين البروز عنه برحمة منه، هي دفاع ضر هذا بنفع هذا، وكفاية ما جعل في هذا، أو نفعه لما يقابله من هذا من نفع أو ضر بلطفٍ لهم ببره، ويعلمهم بحسن تدبيره ليريهم من آياته ما يذيقهم من بأسه بهذا، وبما يدفع عنهم برحمته، فهذه على موجودات دار القرار.

وكل ذلك من رحمته وكريم بره، كذلك فاعلم ينوِّع ﷻ بنعيمه إياهم رضوانه وإكرامه، كيف لا وهو القائل جلَّ قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] أما مثلهم في دار البرزخ حال موتهم، فهو أن السماوات والأرض، وما بين ذلك موجود كله وهم - أعني: الأشقياء والسعداء - هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، كما عبَّر عنه قوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا...﴾ [النساء:٥٦].

وقال في السعداء: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾ [النساء:٥٧] فنفسا جهنم موجودان اليوم حال الموت صير الله الكفار إلى حقيقتهما، وبخاصة إلى النار كما تقدم، وأما السعداء فهم كما قال الله وقوله الصدق: في جنات وفي ظل ظليل، لا يصيبهم من نفسي جهنم الموجودين في دار الدنيا في حال البرزخ حال موتهم الظاهر، بل هم في ظل ظليل اليوم، كما تقدم القول في هذا المعنى، فكانوا في الدنيا يكنهم بالأبنية

والمباني البيوت والأكنان وغيرها، فلما ماتوا أدخل أولياءه المؤمنين الجنة، فهم في الظل الظليل، وأدخل أعداءه سموم الحرور، وما تقدم في توجيهات من كلام تنويع لحقائق هم واجدوها هؤلاء وهؤلاء.

وعلى القول بالإجمال، فالظل على ضربين الكفاية والوقاية، كقولهم: أنا في ظلك؛ أي: في كفايتك، وهو الأصل في هذا الشأن، ظل الظواهر كظل البيوت والأشجار وغيرها؛ لما فيها من الوقاية، فالمؤمنون مأواهم بعد الموت الآن الجنة في دار البرزخ، ولا ينالهم حرور ولا زمهرير، كما قال - عزَّ من قائل - في شأنهم: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣].

والكفار مأواهم جهنم اليوم، وبخاصة النار منها، ثم يوم القيامة يعيدهم المبدئ المعيد ﷻ ليوم الجمع بما فيه، ثم يصيرهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، وهو أشد العذاب وهو دار القرار، فإخراجهم إلى البعث هو المستثنى من الخلود بين العذاب الأوسط والأخير، لما مات أحدهم كافرًا كان جزاؤه الخلود في جهنم، ثم يتصل حكم الخلود أيضًا، ولما كان من فضائله الحق أن يجمع الأولين مع الآخرين في صعيد واحد، استثنى تلك المدة من حكم الخلود وهو الخلود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[١] [النساء:٥٨] الأمانة: كل ما ائتمنت عليه بنية توجب عليك

(١) نزلت هذه الآية في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار، وكان سادِنَ الكعبة، فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمانُ باب البيت وصَعَدَ السطح، فطلب رسول الله ﷺ المفتاحَ، فقيل: إنه مع عثمان، فطلبه منه رسول الله ﷺ فأبى، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فَلَوَى عليٌ ﷺ يَدَهُ فأخذ منه المفتاحَ وفتح البابَ، فدخل رسول الله ﷺ البيتَ وصلى فيه ركعتين، فلمّا خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وأن يجمع له بين السِّقاية والسِّدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله ﷺ أن يرِّد المفتاحَ إلى عثمان ويعتذرَ إليه، ففعل ذلك علي ﷺ، فقال له عثمان: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنًا وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وكان المفتاح معه، فلمّا مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. [تفسير البغوي (٢/٢٣٨)].

أداءها بحكم أحكام الدنيا.

والأمانة الكبرى ما قررك من الإقرار له بالربوبية، وعلى نفسك بالعبودية، والتزام التوحيد والإيمان بالله وبرسله وكتبه، وأشهدك بذلك على نفسك، ثم أوجدك بها ونبهك بشواهده وآياته، وأكد ذلك بإرساله وإنزاله الكتب، فهذا أمانته عندك؛ لتؤديها إليه يوم رجوعك إليه، كما أشهدك إياها وشهد بها عليك، ثم ما ائتمنك عليه من مقتضى أوامره ونواهيه على جميع تفصيل ذلك أن تؤديها إليه في جملة أعمالك مما استودعته، وائتمنته إياه أن يؤدي ذلك إلى من استودعته، وأنت من طلاقة الوجه يوم الأداء وطيب النفس كاليوم الذي استودعك.

وأما معنى قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧] فالأمانات كلها في هذا الذكر، وهو أعلم ما جعله في قلوب العباد من زواجر على إتيان معاصيه، وترغيب ونزاع إلى العمل بطاعته، وذلك عظمه في قلب كل مؤمن.

وقد بيَّن القرآن العزيز هذه الأمانات ما هن، وبيَّنها رسول الله ﷺ، وأن جملتها قوله جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العنكبوت:٧] وأن ظلهم الذي يدخلهم فيه على الإجمال ما عبَّر عنه قوله الحق ﷻ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

وقوله الحق: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:٢٥٧].

و﴿اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

وأن ظله الظليل في الدنيا: الهداية والولاية، والإرشاد إلى ما يرضيه، والعون منه والاستعمال له، وفي عرصة يوم القيامة ظل الغمام من حرِّ هجير جهنم إذا قربت من وهج الشمس يومئذٍ، إذا هي أدنيت من الخلائق.

وأن ظله في دار القرار: ما عبَّر عنه اسم الرضوان، حديث رسول الله ﷺ الذي ذكر فيه: «**سبعة يظلهم الله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله**»(١) يعني: انقطاع الدنيا

---

(١) أخرجه مالك (١٧٠٩)، والبخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١)، والنسائي في الكبرى (٥٩٢١)، وأحمد (٩٦٦٣)، والترمذي (٢٣٩١) وابن حبان (٤٤٨٦)، وابن خزيمة (٣٥٨)، والبيهقي في =

وأهلها، وظلال ما خلق الله ﷻ فيها، وأن ذلك هو في دار البرزخ وعرصة القيامة، ودار القرار وفي الجنة.

وبعبارة أخرى:

ظل الله هناك دفاعه المكروه على الكمال، وكانوا في الدنيا قد صدقوا وآمنوا بالجنة والنار، فوقاهم الله عذاب النار وأنالهم الجنة بنعيمها، وبما آمنوا بموجودات تينك الدارين، وأخذوا علم ذلك مما هنا في هذه الدار أعطاهم الله موجودات ما هنالك، وزادهم على علومهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وبالضد في الكافرين، وكانوا في الدنيا يستريحون من حرِّ الشمس إلى الظل لبرده، ويستريحون من برد الزمهرير بحرِّ الشمس، فلما أدخلهم الجنة لم يكن فيها شمس، ولا زمهرير إنما هو ظل الله وكنفه ووقايته وتنعيمه وإكرامه، كما كانوا في الدنيا في ظل إيمانهم به وعملهم له، وكان معهم بذكرهم كما قال الله عِزَّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

وأبعد أولئك ﷻ لبعدهم عنه بعدم الإيمان، والعمل بما كذبوا بالجنة والنار، ولم يروهما بآياتهم التي كانت تغدو عليهم، وتروح تغدو بهم، وتعلو بهم في ذواتهم منعوا هذه، وتوعرت عنهم حبيبة المحبوب، من حيث إن الله هو المحبوب الأكبر لا أكبر معه، وهو في جواره وظل الجوار معلوم ومعهوده الإكرام وحسن الدفاع.

أعقب ذلك قوله الحق: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾(١) [النساء:٥٨] ثم القول الذي تقدم، وهو ما عبَّر عنه قوله الحق:

=

شعب الإيمان (٧٩٤).

(١) أي: إن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، والعدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند

=

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [النساء:١٢٢] فهو مصداق لقول رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل**»[١].

وهو قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ السبعة الأصناف من الإيمان والعمل الصالح، لكنه أكد على الحكام في العدل لما في ذلك من الأثرة لهم يومئذٍ.

عبَّر عن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**المقسطون على منابر من نور في ظل العرش، أو تحت ظل العرش يفزع الناس ولا يفزعون**»[٢].

أجمل ذلك قول الله جلَّ ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ لما أمن الناس ظلمهم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] أي: اليوم بإيمانهم وعملهم الصالح.

أعقب ذلك قول الحق: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ أبلغ في الموعظة ذكر جهنم فأبلغ في الوصف، وذكر الجنات فأبلغ، وذكر ظله الظليل وجواره الكريم فأشفى، وبالغ في التشويق والترغيب في إيجاز قول وكريم عبارة، وأمر بآداء الأمانات إلى أهاليها تعم المأمور كله، والمنهي كله وجوهه لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا عملاً مقبولاً لمن لا إيمان له، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

والوعظ يكون ترغيبًا وترهيبًا، وأصله في الترهيب لكنه لما كان الوعظ تحذيرًا من فوت المحبوب كان ترغيبًا، فوعظهم الله ﷻ أن يفوتهم ما تقدم ذكره من المحبوب والفوز العظيم، ورهبهم جلَّ ذكره بما يضاد الإيمان والعمل الصالح، فتكون المجازاة من قبيل ذلك، ويذكرهم جلَّ ذكره بذكر الظلم إنه ظلمات يوم

= عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله. [فتح القدير (٢/١٦٥)].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني (١٥٤).

القيامة، وفي الدار الوسطى والدار الآخرة في الظلمات السفلى، حيث لا نور ولا منبر.

فصل

حكم العدل في الحكم بين الناس من صلة الرحم.

قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» قيل: هذا ينصر المظلوم، فكيف ينصر الظالم؟ قال ﷺ: «**تأخذون على يده فيكفه ذلك عن الظلم فذلك نصر له**»(١) ذكرهم جلَّ ذكره بالعدل بين الناس؛ إذ مشي العدل على الصراط وبأداء الأمانة حقوق الأمانة، والرحم جنبتي الصراط بما يكون مع ذلك من كلاليب وخطاطيف وحسك وشائكات وعثار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٥٩ - ٦٣].

لذلك قال جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ [النساء:٥٨] من ذلك في الآية بعدها في قوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٤) والترمذي (٢٤٢١) وأحمد (١٢٢٧٣) وأبو يعلى في مسنده (٣٧٣٥) والبيهقي (٢٠٦٧٢) وعبد بن حميد (١٤٠٤) وابن حبان (٥٢٥٩) والطبراني في الصغير (٥٧٧).

الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩] فكان وجه الخطاب في الآية الأولى إلى الحكام، وفي الآية الثانية إلى الأتباع والمحتكمين ألا يخرجوا عن أحكام المسلمين.

أتبع ما هو في معناه قوله الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠] إلى قوله: ﴿صُدُودًا﴾ [النساء:٦١].

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] كذلك إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم....﴾ [النساء:٦٩].

هؤلاء هم المنافقون: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ [النساء:٦١] صدوا عنك وأبوا.

يقول عزَّ من قائل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو على حالهم من تبريهم من الله جلَّ ذكره ومنك ومن المؤمنين إلى ما يركنون ممن يستغيثون من كشف ما بهم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ [النساء:٦٢] حرف «ثم» للعطف على حالهم تلك في بواطنهم، وهي حال النادمين الراجعين على أنفسهم

---

(١) قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرّشوة ولا يميل في الحكم، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ويميلون في الحكم، فاتفقا على أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت الآية. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله الطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: انطلق بنا إلى عمر ﷺ فأتياه، فقال اليهودي: اختصمتُ أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصم إليك، فقال عمر ﷺ للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، قال لهما: رويدكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه، ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله. فنزلت. وقال جبريل: إن عمر ﷺ فرّق بين الحق والباطل، فسُمي الفاروق. [تفسير البغوي (٢/٢٤٢ - ٢٤٣)].

باللوم لشدة الندم.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى ما فيها من الندم مع الإباء عن الإقلاع، واللجاج فيما هم بصدده، يقول عزَّ من قائل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾(١) [النساء:٦٣] هذه حالة العاصي ربه إذا دهمته عواقب سوء أعماله، فلا يجد من يرجع إليه إلا إلى الله جلَّ ذكره فيجد في قلبه شبه التقريع والتقرير والوعظ والتعريف له، والتوقيف على قبح صنعه، ويستشعر الإعراض عنه وعسر الإجابة، ودفع الاستيعاذ حالته تلك، فإذا قيضه الله للعزم على التوبة فعسى أن يستجاب له.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا
وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا
مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن
دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا
﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ
وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ وفيه وجوه: أحدها: إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا. والمعنى: قل لهم قولاً بليغًا في أنفسهم مؤثرًا في قلوبهم يغتنمون به اغتنامًا ويستشعرون منه الخوف. الثاني: وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغًا هو أن الله يعلم ما في قلوبكم، فلن يغني عنكم الإخفاء، فطهروا قلوبكم عن دنس النفاق وإلا فسينزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك أو شرًّا من ذلك وأغلظ. الثالث: قل لهم في أنفسهم خاليًا بهم مسارًا لهم بالنصيحة، فإن النصح بين الملأ تقريع وفي السر أنفع قولاً يؤثر فيهم. وقيل: القول البليغ يتعلق بالوعظ، وهو أن يكون كلامًا حسنًا وجيز المباني غزير المعاني يدخل الأذن بلا إذن، مشتملاً على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار. [تفسير النيسابوري (٣/٢٠)].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [النساء: ٦٤ - ٧٢].

ثم بيَّن ﷻ كيف المأتى لهذا الشأن بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤] هذا باتصال الولاية والحذر والوقوع في محظور؛ إذ ذاك يجد الله توابًا، إنما الهرب كله إلى الله ورسوله والكتاب والأولياء، والله العوض من كل مفقود ﷻ؛ لذلك قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] وإلى ربه يفزع اللهفان ذلك أقرب مأخذًا وأسهل مسلكًا من الخروج من الأوطان وقتل النفس، ولو كلفوا ذلك فالهرب إلى الله والرسول والكتاب خير وأشد تثبيتًا، وأكرم عائدة وأجزل فائدة، وأقرب إلى الهداية بسواء الصراط.

وربما ألحق بالأولياء كما جاء: إنه ليقول في الثالثة: «**من الهرب إليه**» والرابعة: «**عبدي اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[1] على هذا إشارة الله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ....﴾ [النساء:٦٩].

ثم أخذ ﷻ في ذكر الجهاد والحض عليه، والتنفير عن المنافقين وأهل الكتاب وأعمالهم، وعن قبول كلامهم، ويأمر بالإعراض عنهم وإغلاظ القول لهم، ويذم أهل الكتاب، والذين يكلوا عن القتال لما كتب عليهم، ويقلل لهم في ذلك عمر الدنيا، ويزهدهم في البقاء فيها، ولا بقاء هذا كله من ذكر أهل الكتاب والمنافقين تأديبًا لنا بغيرنا بعمله المحيط بما هو كائن فينا ومنا.

﴿ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٧١٦٢)، وأحمد (١٠٦٥١)، وأبو يعلى في مسنده (٦٤٠٢)، وابن حبان (٦٢٧).

أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء: ٧٣ - ٧٨].

قوله ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ الله وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾(١) [النساء:٧٨] أشبهت قلوبهم قلوب الكفار قبلهم، فتشابهت أقوالهم لأنبيائهم، فكانوا إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا: هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بأنبيائهم كما قال أولئك: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨].

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف:١٣١].

قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله فَمَالِ هَؤُلاءِ القَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨] والفقه: فهو معرفة مخارج الأمر والنوازل من الحوادث من حيث ظهرت، وأصولها التي عنها انبعثت، ولو فقه هؤلاء لعلموا أن

---

(١) ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِ الله وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ﴾ نزلت على ما روي عن الحسن وابن زيد في اليهود، وذلك أنهم كانوا قد بسط عليهم الرزق، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، فدعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك عنهم بعض الإمساك، فقالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل، فالمعنى: إن تصبهم نعمة أو رخاء نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية من جدب وغلاء أضافوها إليك متشائمين كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف:١٣١].

الحسنة هي بفضل الله ورحمته، وأن السيئة منبعثها عن سوء أعمالهم جزاء من الله ﷻ لذنوبهم؛ لعلهم يذكرون.

ثم فصَّل بقوله الحق ﷻ: قيل: يا محمد، ويا أيها العبد ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩] أي: بشؤم ذنوبك وجزاءً معاصيك لقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٧٩ - ٨٤].

ذلك قوله الحق: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِالله شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩].

كما قال جلَّ قوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا البَلاغُ﴾ [الشورى:٤٨].

بيَّن ذلك قوله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

أتبع ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وعلى القول بالتحقيق، فإن الله ﷻ يعلمون منه بدءًا إلا ما هو الخير والإحسان، وإنما يتطرق السوء والمكروه كله من قبل أنفسنا وأعمالنا، ومن قبل الغير، اعتبر ذلك بفعله بآدم ﵇ كيف صوَّره، أحسن خلقه وعلمه، ونوه به في الملأ الأعلى، وأسكنه جنته وبوأه منها ما شاء بعد أن

زوجه، وبلغه ما لم يأمل، ثم أنظر بماذا أخرجه عن مسكنه ذلك، وأزعجه عن قراره، وكذلك خلقه المولود في طبقات خلقته، ثم كيف يخرجه وإلى أي لطف، وأي تيسير وتسبيقه له الإحسان في ذاته ومعاشه ودينه، ثم انظر ما الذي يباعده عنه بعد الإعذار والإنذار بالحق اليقين؛ إذ أنه ما أصابنا من حسنة فمن الله، وما أصابنا من سيئة فمن أنفسنا وشؤم أعمالنا، والحمد لله.

لهذا قال عزَّ من قائل: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨] دلَّ - سبحانه وله الحمد - على سبيل التفقه في كتابه العزيز، وأن بالتدبر يزداد التفكر وبتثوير[١] بعضه من بعض يكون الفقه فيه والفهم عنه، فانتظم هذا بما قبله أو بما يكون من بابه في القرآن العزيز، يقول: تدبرت القول؛ أي: قايست بعضه إلى بعض، وناظرت بين فصوله ومعانيه.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨] يعني: يتعرفونه بصدقه، وإنباء بعضه على بعض وتناظره، ومطابقة بعضه بعضًا، فهو واحد أحد لو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، فهذا يدلك - إن شاء الله ﷻ - على أن القرآن كله أنزله منزله ﷻ ليُعلم وليُفهم، لكن ليس ذلك إلا للعالمين.

ألا ترى أن معنى قولهم: «تدبرت الأمور» تطلبت مبادئها ومآلها، وتقديم ما هو الأولى بالتقديم منها، وتأخير ما هو أولى بالتأخير، وكيف ومتى وأين، كذلك تدبر القول على هذا النحو.

فصل

لما كان العالم كله أوله وآخره، علوه وسفله، ظاهره وباطنه محكمًا متقنًا متفقًا متفق الاختلاف، وربما كان في داخله مختلف الاتفاق، راجعًا بجملته إلى الاتفاق مفصلاً وموصلاً، ومصورًا أحسن صورة، مقدرًا أحسن تقدير، قد أعلى منه صانعه الحكيم ما هو أولى بالعلو، وأسفل منه ما هو أولى بالسفل، وأظهر منه ما هو أولى

(١) تثوير القرآن: قراءاته ومفاتشة العلماء به. انظر: تاج العروس (٢٥٧٩/١).

بالظهور، وأبطن منه ما هو أولى بالإبطان؛ ذلك لأن فاعله واحد حكيم، وجاعله أحد صمد ومدبره رحمن حليم.

وكذلك كتابه الحكيم متفقًا متشابهًا، شاهدًا بعضه لبعضه، عاضد بعضه بعضًا قد نزهه منزله ﷻ عن الاختلاف، وباعده عن منزلة التناقض هو الحق وفعله الحق، وحكمه الحق لا إله إلا هو العلي الكبير، وكما تعرف كلام المتكلم قد تقدمت به معرفة، وإن كان يكلمه من وراء حجاب، فكذلك تتعرف كلام ربك في القرآن، وغيره من الكتب إذا كنت قد عرفته من أسمائه وشواهد شهادات عالمه وسفله.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] هذا كلام منتظم بما قبله من ذكر المنافقين والمناجين منهم بالإثم والعدوان، وتخويف الذين آمنوا.

وقد يرد بوجه إلى ما تقدم من قوله عزَّ قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩] والأول أوجه.

فصل

ذكر أهل النقل إن هذه الآية نزلت في إيلاء رسول الله ﷺ في أزواجه، وقول القائلين: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وأكثروا في ذلك فاستأذن عمر رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أطلقت نساءك؟ فقال «لا»[١].

وهذا وإن كان فيه شرب من معنى الآية، فإذا نظرته يقول الله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣] تجده عين محيط بمعنى ما صدر به الخطاب الأول، والله أعلم أن يكون قوله جلَّ قوله: ﴿أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ﴾ مصروفًا إلى قولهم هذا من شأن الإيلاء.

وقوله ﷻ: ﴿أَوِ الخَوْفِ﴾ المراد به: تناجيهم بما يرومون به تقلقل قلوب

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٩)، والنسائي (٣٤٦٨)، والطبراني في الكبير (١٢٠٦٢)، وابن حبان (٤٢٦١).

المؤمنين وتحزينها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى اللهِ﴾ ؛ أي: توكلاً عليه، و﴿الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: الأمراء وقواد الجيوش والعالمين بأخبار عدد المسلمين، وبباطنه رسول الله ﷺ ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] أي: الأمر والخير المتناجى به منهم؛ أي: من أمراء الجيوش وخاصة الرسول، ولم يقل جلَّ ذكره ولا أخبروهم بذلك الأمراء، والخاصة لما عسى أن يكون في ذلك من إفشاء سرٍّ معد لنكاية عدو، أو لأمر يريده الله ﷻ ورسوله والمؤمنون.

وقد عديت هذه الآية إلى الفُتيا في النوازل، وليس يعطي ظاهر الخطاب ذلك القول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣] اللهم إلا بأمره، واستعمال تأويل وتحرير قياس، وقد درج على ذلك الجمع الكثير والجم الغفير، وعسى أن لقولهم ذلك على كثرتهم شرب من الصواب والله أعلم، بل إنما يتبين ذلك بغير هذا من دلائل الشرع.

فصل

إن كان هذا هكذا فأهل الأمر ها هنا أهل الفقه والورع في دين الله ﷻ في قسم الأمن، قديمًا كان الولاة من هؤلاء هم خلفاء الله ﷻ في الأرض، وهم خلفاء الرسل - عليهم السلام - في الأمم، وإن كان الولاة من غيرهم، والرجوع إليهم بظاهر الحكم طاعة الله والرسول؛ لقوله ﷺ: «**اسمع وأطع ولو لعبد مجدع الأطراف**»[١].

وفي أخرى: «**ولعبد حبشي كأن رأسه زبيبة**»[٢].

وفي أخرى: «**اسمع وأطع وأن أخذوا مالك وضربوا ظهرك**»[٣] ولا تنزع يدًا من طاعة، وأما أولوا الأحلام الذين هم أولياء الله وخلفاؤه في أرضه، فالسمع والطاعة لهم ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨)، والطيالسي (٤٥٢)، وأحمد (٢١٤٦٥)، وابن حبان (١٧١٨). مجدع الأطراف: مقطوع الأعضاء.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤)، والطيالسي (٢٠٨٧)، وأحمد (١٢١٤٧)، وابن ماجة (٢٨٦٠) والبيهقي (٦٣٨٣)، وأبو يعلى (٤١٧٦).

(٣) أخرجه بنحوه ابن حبان (٤٥٦٦)، وابن عساكر (٣٤/١٥).

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] ولأن العلماء ورثة الأنبياء - عليهم السلام - فطاعتهم في السر والعلانية واجبة.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨].

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1] [النساء:٨٣] انتظم هذا بما قبله من ذمِّ النجوى، ونهيه المؤمنين عنها؛ لأنها من الشيطان ليحزن الذين آمنوا؛ لذلك يقول الله - جلَّ قوله - للمؤمنين: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ في تنبيهه لكم، وتبيينه إياكم ﴿لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ المستثنى هنا من وجهين:

أحدهما: لاتبعتم الشيطان أيها المؤمنين إلا القليل منكم ممن لم يجعل الله ﷻ له عليه سلطانًا، كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

والثاني: أن يكون استثني من جملة عمل المؤمنين، فلولا فضل الله على المؤمنين ورحمته لاتبعوا الشيطان في خطواته، وأمره لهم بالفحشاء والمنكر حتى لم يبقَ لهم من الإيمان إلا قليل، وربما كان ذلك القليل النطق بالتوحيد قد وهنته المعاصي وغمرته الخطايا، كما قال جلَّ من قائل: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:٤٦].

وقد سمى ﷻ ذكر المنافقين وإيمانهم قليلاً في قوله: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢] وقليل هؤلاء وكثيرهم قليل غير مقبول.

وقد قيل: إنه استثني من قوله جلَّ قوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: إنهم لو ردوه إلى أولي الأمر منهم والعلماء ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ إلا

---

(١) دلت الآية على أن الذين اتبعوا الشيطان فقد منعهم الله فضله ورحمته، وإلا ما كان يتبع، وهذا يدل على فساد قول المعتزلة في أنه يجب على الله رعاية الاصلح في الدين. أجاب الكعبي عنه بأن فضل الله ورحمته عامان في حق الكل، لكن المؤمنين انتفعوا به، والكافرين لم ينتفعوا به، فصحَّ على سبيل المجاز أنه لم يحصل للكافر من الله فضل ورحمة في الدين. والجواب: إن حمل اللفظ على المجاز خلاف الاصل. [تفسير الرازي (٣٠٦/٥)].

القليل من العلم المستنبط؛ إذ لا يحيط المخلوق بالعلم، ولا كل العلماء يعلمون كل العلم، فاستثنى هذا القدر لصدق قيله، وكمال إخباره عن الحق الذي هو أهله، وحقيقة الاستنباط هو استخراج باطن المعنى من ظاهر القول.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء: ٨٥ - ٩٠].

قوله ﷻ: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا...﴾ [النساء:٨٥] الكفل: المثل هنا.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨] أي: مثلين، أو أجرين: أجر الإيمان بمحمد ﷺ، وأجر الإيمان بما أنزل من قبل.

والكفل: الحظ والنصيب، على المعهود من التضعيف والتقليل؛ لما كان من وعده ﷻ أن أعطى هذه الأمة على الحسنة عشرًا إلى سبعين إلى سبعمائة، إلى أن يؤتي جلَّ ذكره بغير حساب ﷻ النصيب في جنبه الحسنة؛ إذ النصيب يكون كثيرًا ويكون قليلاً، كما قال جلَّ قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء:٧] وقد ضمن ﷻ المضاعفة، فهو إذًا هنا في موضع الكثير، ولما كان الكفل المثل

جعله في جنبه السيئة، كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

فصل

شاهد ما ذكرناه حديث الإجارة، وأنه يعطي الأجراء كلهم قيراطًا، ويعطي الأجيرين منهم قيراطين قيراطين، ولما أعطوا قيراطًا قيراطًا وأعطوا هؤلاء قيراطين قيراطين قالوا: «ما لنا أكثر أعمالاً وأقل عطاء؟!» قال لهم: «**ذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[1].

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:٢٨].

ثم قال جل قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩] فما أعطاه الله الأولين هو كفل ما عملوه؛ أي: مثل له، والله أعلم بمقداره بالإضافة إلى العلم في القلة والكثرة، وما أعطاه المتأخرين نصيب وضعف، وما أعطاه أولئك.

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢] وذكر هذا على سبيل الوعد، والبشارة بالتضعيف المذكور.

وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل ذكر المستأجر والمستأجرين على نحو ما ذكره رسول الله ﷺ، فذكر الساعة الأولى من النهار، والساعة السادسة والساعة التاسعة هي التي عبَّر عنها رسول الله ﷺ بالعصر، وأن المستأخرين فيها هم هؤلاء؛ أعني: هذه الأمة.

وزاد فيما هنالك - أعني: الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل - مستأجرين في الساعة الحادية عشر، وهي والله أعلم وقت نزوله ﷺ، وهم العاملون معه يومئذٍ، فلما انقضى النهار قال صاحب الكرم لوكيله: ادعُ الأعوان وأعطهم أجورهم، وابدأ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٢) وأحمد (٤٥٠٨) والترمذي (٢٨٧١)، والبيهقي (١١٩٧٨) وابن حبان (٦٧٦٥) والطبراني (٣٠٦).

بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين.

قال: فبدأ بالذين دخلوا في الساعة الحادية عشرة، وأعطى لكل واحد منهم درهمًا، فأقبل الأولون وهم يرحبون الزيادة، فأعطاهم أجورهم.... إلى آخر المعنى.

قال - صلوات الله وسلامه عليه - ما هو متفق عليه مع أخيه محمد ﷺ قال: «إن أمة محمد يعطون قيراطين قيراطين، ومن قبلهم من أهل الكتاب يعطون قيراطًا قيراطًا».

ثم جاء خبر عيسى عليه السلام: «درهما درهمًا» وكلامه هذا على الساعة الحادية عشر، وأنه جلَّ ذكره سوى بين صدر هذه الأمة الصحابة والتابعين، إلى أن يأتي هو بمن يكون معه، فأعطاهم درهمًا فظنَّ الأولون بطول مقامهم أنه يزيدهم على الآخرين، فكان ما أجابهم، والله ذو الفضل العظيم.

قوله ﷻ: ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا**﴾ [النساء:٨٥] هو من القوت مقيت كل عبد بقدر عمله، وقد قيل: هو من الحظ، ذكر ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه، وقد قيل فيه بمعنى مقتدر ومقدر، والأوجه أنه مأخوذ من القوت أو القوت مأخوذ منه، ويشمله اسم المقدر، وهو الذي قدر الأرزاق والعطايا والمنع في الدارين.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**كفى إثمًا بمن يضيع من يقيت**»(١).

وفي أخرى: «**من يقوت**»(٢).

والمفهوم من معنى هذا الاسم في رأس هذه الآية، أنه يزن ما يشاء لمن يشاء بوزن يجعل في القلوب يومئذٍ الرضا، وفي العقول تعديله كما جعل ﷻ موازين الدنيا ومكاييلها، وهو معنى اسم المقدر.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾(٣) [النساء:٨٦]

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ.

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٥) وأبو داود (١٦٩٢) والحاكم (١٥١٥) والبيهقي (١٥٤٧٢) والطيالسي (٢٢٨١) وابن حبان (٤٢٤٠) والنسائي في الكبرى (٩١٧٧) والطبراني (١٣٤١٤).

(٣) التحية: هي دعاء الحياة، والمراد بالتحية ها هنا: السلام، يقول: إذا سلّم عليكم مُسلّم فأجيبُوا بأحسن منها أو رُدُّوها كما سلّم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلامُ ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ مثله، رُوي أنّ رجلا سلّم على ابن عباس رضي الله =

هي تحية السلام والله أعلم، وانتهى السلام إلى البركة، فقد قيل في بعض الروايات: إنه يريد إلى المغفرة، فيقول الراد: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته.

وقيل: التحية هنا بمعنى الهدية والله أعلم، فمن قبل هدية مطلوب يهديها الجزاء عليها، فليرد مثلها أو أفضل منها.

وقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦] أي: مكافئًا إذا كان الحسْب ساكن السين كان بمعنى القدر، تقول: هذا حسب هذا؛ أي: على قدر.

وإذا حركت السين كان المعنى المراد به: الشرف، وقد يكون على ذلك بمعنى القدر، يقول: ليكن فعلك على حسب إحساني إليك، وبري بك في التحية في مقابلة السلام، والسلام من الله ﷻ على عباده الرحمة، ومن العباد بعضهم إلى بعض التحية.

والتحية من العباد إلى الله: يقول العباد في صلواتهم: «التحيات لله» أي: الملك لله والثناء الحسن، وكل اسم من أسمائه تحية؛ لذلك جمعها رسول الله ﷺ: «**التحيات لله**» ثم قال: «**الصلوات لله والطيبات** - أي: الكلمات الطيبات - **الزاكيات المباركات لله**»[(١)].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦] أي: كافيًا كلما ذكره العبد بأسمائه وصفاته ومدائحه وطيب القول وزكيه ومباركه ذكره الله، بما هو شاكله العبودية كقوله حين يقرأ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ....﴾ [الفاتحة:٢] يقول:

عنهما، قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئًا، فقال ابن عباس: إن السلام ينتهي إلى البركة. وُروي عن عمران بن حصين: إن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردّ عليه، فقال النبي ﷺ: «عشرٌ» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرّد عليه فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه، فقال: «ثلاثون». واعلم أن السلام سنة وردُّ السلام فريضة، وهو فرض على الكفاية، وكذلك السلام سنة على الكفاية فإذا سلّم واحدٌ من جماعة كان كافيًا في السنة، وإذا سلّم واحدٌ على جماعة وردَّ واحدٌ منهم سقط الفرض عن جميعهم. [تفسير البغوي (٢/٢٥٧)].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٠٥)، وفي الأوسط (٢٩١٧).

«حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي، فوض إلي عبدي...»[١].

كذلك إذا قال: «لا إله إلا الله والله أكبر» يقول الله جلَّ ذكره: «صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر»[٢] ثم كذلك إلى آخر الذكر، فهو يكافئ عبده بذلك، كما ذكر في قوله: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ثم يجازيه على ذكره بثواب جعله ثوابًا لذلك العمل والذكر.

فالحساب - والله أعلم - ما يذكره به؛ لأجل ذكر العبد إياه، وإلا كافئه هو ما قد قرره، قد ناله من أجل ذلك العمل والقول بهدي قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ من أفضل ما يجزي به ﷻ.

قوله جلَّ ثناؤه: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء:٨٧] كما ذكر ﷻ الكافرين والمنافقين وأهل الكتابين، وذكر ﷻ المؤمنين، وعلمهم من سنن من كان قبلهم، وقدم من ذلك كله صدرًا ذكر يوم الجمع، وإنه لا ريب فيه، وأنه الصادق في حديثه الحاكم بين عباده بأنه من القرآن العظيم.

قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

(١) أخرجه مالك (١٨٨)، ومسلم (٣٩٥)، وعبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣) والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣٠)، وعبد بن حميد (٩٤٣)، والنسائي في الكبرى (١٠١٨٠)، وابن ماجة (٣٧٩٤) وأبو يعلى (٦١٥٤)، وابن حبان (٨٥١)، والحاكم (٨) والبيهقي في الشعب (٦٦٣).

مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩١ - ٩٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا...﴾ [النساء:٩٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

حرم الله - تبارك وتعالى - قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وهو أن يكفر بالله بعد إيمان، أو يزني بعد إحصان، أو يقتل نفسًا بغير نفس، وقتلها على أربعة أوجه:

قتل خطأ: وللخطأ حال لا يقال له أن يفعل أو لا يفعل، وعلى ذلك متى وقع فيه إذًا دية مسلم إلى أهله، وتحرير رقبة إلا أن يصدقوا بالدية، هكذا إذا كان مؤمنًا من قوم مؤمنين إن كان المقتول مؤمنًا، أو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهلها أيضًا، وإن كان مؤمنًا من قوم كافرين لا عهد لهم ولا ميثاق، فتحرير رقبة مؤمنة لا غير.

والوجه الثاني: قد تقدم ذكره وهو القتل لكفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس.

والوجه الثالث: أن يقتلها القاتل لعرض من عرض الدنيا، وقد جاء هذا في الآية التي بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا...﴾ [النساء:٩٤] وهي من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

والوجه الرابع: أن يقتلها؛ لأنها مؤمنة متعمدًا لذلك، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِالله العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [البروج:٨] فهذا ظاهر قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] وهذا المخلد في النار لا محالة.

وهو المعني بقوله ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب**

بعض»[١] وربما لم يبلغ به القاتل في قتله من المؤمن هذه المنزلة، فيؤول إلى المنزلة التي دونها، وهو أن يقتلها لغرضٍ أو غضبٍ من أغراض الدنيا منافسة على شيء، أو لمعنى ما لغير ما هو مؤمن، يقارنها فيسمى بمقارنتها[٢]، فربما كان من جزائه ألا يوفق إلى توبةٍ، فيعرض لسوء الخاتمة.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٢] يعني بقتاله عن الوصف بالإيمان، ومنع من إطلاق الاسم عليه، كما قال رسول الله ﷺ فيما دون هذا الأمر: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»[٣].

ولم يبق الاسم لقاتل الخطأ، فرجع الحكم إلى قوله رسول الله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٤] فأشبه قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣] نعوذ بالله من درك الشقاء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى

---

(١) أخرجه البخاري (١٢١) ومسلم (٦٥) والنسائي (٤١٣١) والترمذي (٢١٩٣) والطبراني (٥٤٤٢) والطيالسي (٦٦٤) وابن أبي شيبة (٣٧١٧٦)، وأحمد (١٩٢٣٧) وأبو داود (٤٦٨٦)، وابن ماجة (٣٩٤٢)، والدارمي (١٩٢١)، وابن حبان (٥٩٤٠).

(٢) هكذا العبارة في الأصل.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾
إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي
ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ
عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ
إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ٩٤ - ١٠١].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] [النساء:١٠١] انتظم هذا بقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء:٩٤] والعطف عليه.

وروت عائشة - رضي الله عنها - إنها قالت: «فرض الله ﷻ الصلاة ركعتين ركعتين فزيد في الحضر وأقرت صلاة السفر».

وروي أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وضع الله عن المسافر الصيام وشطر الصلاة»[2] وهذا رواه عمرو بن أمية الضمري، وهو حديث آحاد، وقد امتثلته الأمة بدلائل غير هذا، وهو القصر في السفر والإتمام في الحضر، وما عدا ذلك فهو خبر وسبيله العلم، ولا يثبت إلا بما نُقِل نَقْل تواتر.

وقال عزَّ من قائل: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «فرض عليَّ خمسين صلاة» لكل صلاة ركعتان، فتمت

---

(١) أخرج ابن جرير عن علي قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الارض فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرواْ مِنَ الصلاة﴾ ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ فصلى الظهر فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله تعالى بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الذين كَفَرُواْ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الله أَعَدَّ للكافرين عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف. [الألوسي (٤/٢٠٩)].

(٢) أخرجه الترمذي (٧١٩)، والنسائي (٢٣١٤)، والبيهقي (٥٦٩٥)، والطبراني (٧٦٢) وفي الأوسط (٦٩١٣)، وأبو نعيم في المعرفة (٦٥٥٨). الشطر: النصف.

بذلك مائة ركعة عدد أسماء الله سبحانه، فقد جاء الحديث أنه قال سبحانه: «**هي خمس وخمسون لا يبدل القول لدي**»[١] فخمسون صلاة بوترها على عدد ما تقدم ذكره، ثم نزل جبريل ﷺ يصلي، فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ إلى آخر الصلوات، فأكمل الصلاة الحضرية، وأقر صلاة السفر على ما كانت عليه، فصلاة السفر معلومة من فعل رسول الله ﷺ، وكذلك صلاة الحضر.

وأجمع العلماء ﷺ أن السفر هو: الحج والغزو والهجرة، وكل ما هو قربة إلى الله ﷻ يقصر فيه، ولم يدخل في خطاب الحكم القصر في سفر التجارة وجميع المباحات، فأنزل الله جلَّ ذكره: ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ**﴾ [النساء:١٠١] فرفع ﷻ الجناح عنهم بهذا الخطاب، وهو كلام قائم بنفسه غير محتاج إلى غيره، ثم حذف ﷻ كل ما عطفه على هذا الظاهر، تقديره: ولا أن تقصروا - من القصر - إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا، أو ما كان من الكلام ما ينبئ عن مراده جلَّ ذكره ثم علمه كيف يقيم بهم الصلاة حال الخوف إذا كان فيهم، فروي أنه صلاها بهم ركعتين.

ثم روي أنه صلى بهم ركعة بطائفة، وركعة بطائفة، ويتم هؤلاء وهؤلاء لأنفسهم صلواتهم، وروي غير هذا.

وجاء: إن صلاة الخوف على قدر الخوف والأمن، فإن أمنوا بعض الأمن صلوا ركعتين، وإن خافوا فعلى قدر الخوف حتى قالوا: سجدتين قائمًا، فإن لم يقدر على سجدتين فسجدة يومئ بها، فإن لم يقدر فتكبيرة يكبرها حيث كان وجهه؛ لأن الصلاة هي لذكر الله ﷻ، فينوِ بها ويفعل في ذلك على قدر استطاعته.

وقال رسول الله ﷺ: «**من دعي إلى طعام فليجب، فإن كان مفطرًا أكل وإلا فليصلِّ**»[٢] وإن كانت هذه الصلاة لغوية، فالضرورة ترك الصلاة الشرعية إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في الإيمان (٧١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣١)، وأبو داود (٢٤٦٠)، وأحمد (١٠٥٩٣)، والترمذي (٧٨٠)، وابن حبان (٥٣٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦٦١١)، وأبو يعلى (٦٠٣٦)، وأبو عوانة (٤١٨٧)، والبيهقي (١٤٣٠٩). فَلْيُصَلِّ: فليدعُ لأهل الطعام بالبركة.

حكمها، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُواْ فِي ابْتِغَآءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء: ١٠٢ - ١٠٥].

ثم قال ﷻ: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ [النساء:١٠٥] الحق، هذا عبارة عن الروح من أمر الله، والملك النازل به، وعما هو منزل منه وبه إليه إلى قلب رسول الله ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

وقوله جلَّ قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ اختلف العلماء المتقدمون والفقهاء ﷺ في معنى قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ وتجاذبوا في معناها؛ فقال القائلون: إنها معبرة عن إباحة القياس.

وقال خصماؤهم من القائلين بالظاهر: بل محظره.

وقال: معناها بما أنزل الله إليك وأراك من كتابه.

وفصل الخطاب في ذلك والله أعلم بما أراده: إن الوحي الذي بلغه إلينا ﷺ ثلاثة والله أعلم بما وراء ذلك؛ منها: القرآن وهو كلام ينزل به الملك على قلب الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ليس للرسول تغييره عما هو عليه، ولا تبديل عبارة بعبارة ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس:١٥].

الوجه الثاني: حديثه ﷺ يوصله إلينا من وجهين:

أحدهما: أن تنزل به النازلة بما نزل الملك عليه السلام بالحكم فيها، والشقي منها، أو يحكم هو فيها بأمر من حكمة قد جعلها الله ﷻ في صدره، وامتلأ بها قلبه في أول أمره كما قال ﷺ: «**فنزل جبريل عليه السلام فشرح صدري من مكان كذا إلى كذا، ثم شقَّ قلبي فغسله ثم جاء بطست مملوء حكمًا وإيمانًا فأفرغه في قلبي، ثم بارك لي في ذلك وأنشأه منه إنشاء حتى بلغ منه منتهاه**»(١).

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾ [النساء: ١٠٦ - ١١٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[١] [النساء:١١٣] وهذا النوع من الوحي مباح للرسول ﷺ؛ ليعبر عنه بعبارته، أو بما نقله إليه الملك ﷺ من عبارته.

ثم العلماء ورثة الأنبياء - عليهم السلام - درسوا القرآن والسنة، وآتاهم الله علمًا، يقول الله - عزَّ من قائل - فيما أثنى عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا...﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال جلَّ من قائل: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] فلولا أن الله جلَّ ذكره قد جعل في قلوبهم علمًا وحكمًا لم يكن للتذكار آثار، وهذا المشار إليه في علماء الأمم في مقابلة ما عبَّر عنه القرآن العزيز من قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩] وليس كل نازلة يكون نصها، ولا في ظاهر الحديث.

كذلك قال الله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] وقد تقدم ما هو الاستنباط.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ قال القفال رحمه الله: هذه الآية تحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد ما يتعلق بالدين كما قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلَا الإيمان﴾ [الشورى:٥٢] وعلى هذا الوجه تقدير الآية: أنزل الله عليك الكتاب والحكمة وأطلعك على أسرارهما، وأوقفك على حقائقهما مع أنك ما كنت قبل ذلك عالمًا بشيء منهما، فكذلك يفعل بك في مستأنف أيامك لا يقدر أحد من المنافقين على إضلالك وإزلالك. الوجه الثاني: أن يكون المراد: وعلمك ما لم تكن تعلم من أخبار الأولين، فكذلك يعلمك من حيل المنافقين ووجوه كيدهم ما تقدر به على الاحتراز عن وجوه كيدهم ومكرهم، ثم قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب؛ وذلك لأن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا القليل كما قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥] ونصيب الشخص الواحد من علوم جميع الخلق يكون قليلاً، ثم إنه سمى ذلك القليل عظيمًا حيث قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلَّا قَلِيلاً﴾ وسمى جميع الدنيا قليلاً حيث قال: ﴿قُلْ متاع الدنيا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] وذلك يدل على غاية شرف العلم. [تفسير الرازي (٥/٣٧٨)].

وقد جاء مع هذا في القرآن العزيز والحديث نصوص تزجر ظواهرها عن القول بالقياس، وإنما ذلك تشديد عن الإغراق فيه، وتركيب قياس على قياس، ويتسلسل ذلك ويكون أيضًا زجرًا من ترك النصوص الظواهر، والعدول عن ذلك إلى القياس، والقول بالرأي دون ضرورة تلجئ إلى ذلك لا سيما من قلَّ علمه وضعفت رؤيته، ولم يكن له ثقافة في هذا الشأن، كما قد جاءت نصوص وظواهر خطاب مجملة، وعمومات تخص على القول بالرأي والقياس الصحيح المنصور بالبرهان.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥] نزلت في طعيمة بن أبيرق، وكان قد سرق درعًا وجعله في دار يهودي، وقال: سرقتكم في دار اليهودي، وكان رسول الله ﷺ قد عذر عن طعيمة، ثم عذر عنه لوجدان الدرع في دار اليهودي.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] هذا الخطاب منتظم على فهمي - والله أعلم - بقوله جلَّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ....﴾ [النساء:٥٣] إلى قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤].

منتظم هذا بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥].

ثم عطف ﷻ على موضع قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ وقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ﴾ [النساء:١١٣] ﷻ موضع البشارة بالملك، فإنه والعرب من آل إبراهيم كالمعهود من خطاب القرآن في ذلك في هذا الخطاب أن الوحي ثلاثة أنواع:

* الكتاب: هو القرآن.
* والحكمة: هي السنة وحديثه المأثور.

* والثالث: من سبق إليه من عهد النبوة التي أقامها في النبي مقام فطرة الإسلام للمسلم.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣] يعني: وهو أعلم ﷻ ما مُليء به قلبك، وشُرح له صدرك من الإيمان والحكمة في بدء شأنه، وما أوحى إليه بعد فالروح من أمره، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

والله أعلم تأويل قوله جل قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] في بدء الأمر، قيل له: يا رسول الله، متى كنت نبيًا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»(١).

وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ....﴾ [آل عمران:٨١] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١ - ٨٢] المعنى الأولى بهذا: أهل الكتاب، ثم كل من أبى وتولى فهذا أيضًا.

ومعناه حيث جاء تأويل لقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] والكتاب كلام الله ﷻ أنزله إليه بالحق من لدنه وذرايته - صلوات الله وسلامه عليه - ما فيه هو الحكمة العليا المتصلة بالروح من أمره، ولذلك بيَّنها الله ﷻ على لسانه شاهد له بذلك العليم الخبير في قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣ - ٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ثم قال جلَّ ذكره: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] فأرانا وله الحمد السبيل الواضحة أن في مسالك الفكر الصائبة ضياء الحكمة، وأنوار المعرفة بقوله جلَّ قوله: ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ثم قال جلَّ

(١) تقدم تخريجه.

قوله: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

فأخبر ﷻ بصدق قيله أنه جعل من أمره من الروح نورًا في قلوب عباده يهدي به من يشاء منهم لإصابة الصواب ومنهاج الحق المبتغى، تلك هي الوارثة التي أورثها ﷻ عباده المؤمنين، وأوليائه الصديقين من بركة أنبيائه ورسله هذا منبعث الحكمة وحقيقة منتهاها إلى علي منبعثها في المؤمنين، ثم في الصديقين ثم في الأنبياء والمرسلين، وقد أخبر الله ﷻ أن منبعث أعلاها هو عن الروح من أمره المنزلة على رسله، فهو أحكم الحاكمين وهو الحكيم العليم.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء:٥٥] يعني: وهو أعلم خصوص ضمير الكتاب بمعقود الإيمان به، أو الصد عنه لتضمينه الحكمة، فإنه من آمن بالكتاب آمن بالحكمة، وكذلك الحكمة مع الكتاب، ومعرفة الآيات في الوجود من الحكمة بالحكمة، والحكمة بالحق والقول من الحكمة، وقد يعبر بالحكم عن الحكمة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام:٨٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية:١٦] فلفظ الحكم يتردد بين معنيين: حكم الحكام الذين هم الخلائف للرسل والأنبياء - عليهم السلام - وبين الحكمة، ومعنى الحكمة تتضمن الوجهين معًا، وخاصة الحكمة معرفة الحق والعمل بمقتضاه على السنن المرتضى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢] فهذه جملة معبرة عن جملة الحكمة علمها والعمل بها.

ثم جعل ﷻ يخبر عن إصابته بالقول وفصل الحق قولاً وعملاً إلى قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩] فالحكمة إذًا هي معرفة حقائق الموجودات كيف أوجدت، وما المراد بها وإلى ما يؤول، ومعرفة صانعها وجاعلها فيها، ثم العمل بموجب الحكمة، فهو الحق المبتغى والسنن المرتضى، هذه عبارة عن الحكمة في تعرف الموجودات.

ومعرفة حقائق الموجودات ترجع إلى أربعة أركان:

أحدها: معرفة بداياتها ثم الوقوف على ظواهرها، ثم معرفة بواطنها إن كان المنظور فيه من الكيفيات، ومعرفة لما أوجده موجده، وهل هو من قبيل اليمين

فيوالى، أم من ذوات الشمال فيعادى، ويتبرأ منه إن كان من المتكلفين، وباطن العبد المنقاد للحكمة منير مضيء، فهو شمس الباطن بنورها يتميز صور بواطن الموجودات خيرها وشرها نفعها وضرها، وهذا نور منبعث من حقيقة القلب المعمور بنور الإيمان، وهو عين شمسها لا أفول لهذه الشمس إلا في حجاب الغفلة، وإلا فنورها في عين البصيرة منبسط على آفاق القرآن، بل الحكمة بنور الإيمان أشد إضاءة، وأثقب نورًا من نور الشمس في الظاهر، فكما أن الشمس الظاهرة تستنير بها الأبصار تتميز بها المرئيات، فكذلك الحكمة بنور الإيمان في الباطن، وأكد مطلوب الحكمة معرفة العبد ربه هذا بالوجهة والنية.

وأما من حيث تناوش الطلب فآكد مما عليه طلبه معرفة نفسه حتى يعرفها حق معرفتها ظاهرة وباطنة، فمن هنالك يعرف ربه ﷻ، ومن لم يعرف ربه إلا بمخلوقاته وبأسمائه لم يعرفه إلا معرفة أسماء وصفات إنما تتحصل حقيقة المعرفة بما صنعه لنفسه خاصة، وهذا فصل من الحكمة بعيد غوره جدًا، وهو مع ذلك قريب متناوله شريف نهايته، فافهم.

والحكمة فاعلم هي الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو ما اقتضته أسماؤه الحسنى وصفاته الكاملة العليا، فأكحل عينك بكحل السهر، وألزِم نفسك تدؤب التذكر وترداد التفكر، واضرع إلى مالك عصم الإصابة ﷻ، وادعه باستكانة وافتقار إليه عساه أن يؤتيك نورًا تمشي به في الظلمات، وفرقانًا تفرق به بين المشتبهات، ولعله بفضله العظيم يطوي بك المراحل، ويرفعك إلى شرف المحال، فيجمع لك المراقي لعلي الدرجات، سبحانه وله الحمد لا يقدر على ذلك سواه.

واعلم أن من خاصة الحكمة إذا تحققت بها لا تجهل شيئًا، وإنما نورها مع بواعث خطراتها، وربما سبق نورها وانبسط ضياؤها على خلاء من الذكر، وغيبة من بواعث الخاطر، فكان إلهامًا فافهم.

وليعلم طالب الحكمة أن العبد قد جمع الله فيه العلم كله، وقد تقدم هذا فيه الجواهر المركبة منه الجسم الظاهر الملازم له العرض، فله منه طول وعرض وعمق، ولون وطعم ورائحة، وإشغال مكان، وجوهر باطن هو النفس والروح والعقل، وسُمي هذا جوهرًا من حيث هو أصل، ولهذه العلة الذي ركبت منه

الأجسام.

وكذلك العرض عرضان:

عرض باطن: هو مقول على صفات العبد مثل الحكمة والعلم والقدرة والإرادة والفطنة والعجز والكيس، ونحو هذا.

وعرض ظاهر: يعتري الجسم من لون وألم ولذة وثخن ورِقَّة وسائر الأعراض، والعقل الذي زكاه الإيمان هو العقل على الحقيقة، والعقل المكتسب [باستنكار][1] المعقول مجازٌ وتميمٌ، من ذلك قول الخضر عليه السلام: «**ما علمي وعلمك في علم الله إلا كنقر هذا العصفور من هذا البحر**»[2] فالعلم مع المعلومات كذلك يكمل له ويتمم.

وقد يجب أن يقال في هذا العقل المكتسب؛ لكثرة المعقولات ليس شيء سوى المعقولات من هذه الجهة.

وأما العقل الأول المذكور الذي زكَّاه الإيمان ونوره اليقين، فهو شمس الباطن به يبصر البصير مطلوبها، وهي الحكمة فيه قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليصلي الصلاة، فما يكتب له منها إلا نصفها، وإلا ثلثها حتى بلغ عشرها**»[3].

وقوله ﷺ: «**ما لك من صلاتك إلا ما عقلت منها**»[4].

وقوله ﷺ في المصلي: «**إنه إذا صلى، فإنما يناجي ربه فلينظر بما يناجيه**»[5].

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، وأحمد (٢١٧١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٣٩٢)، والبيهقي في سننه (٣٦٦٨) وفي الشعب (٢٩٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦١١)، والطيالسي (٦٧٨)، والحميدي (١٥٣)، والبزار (٢٣٠٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٨٠)، وابن حبان (١٩٢١)، وأبو نعيم في المعرفة (٤٦٥٢).

(٤) لم أقف عليه إلا بلفظ: «ما لك من صلاتك إلا ما لغوت» اللغو: الكلام الذي لا أصل له من الباطل. أخرجه أحمد (٢١٨٩٣)، وابن ماجة (١١٦٥)، والبيهقي في سننه (٦٠٤٤) وفي الشعب (٢٨٦٤)، والطيالسي (٢٤٧٧)، وابن خزيمة في صحيحه (١٧٠٥).

(٥) أخرجه مالك (١٧٧) وأحمد (٦١٢٧)، وابن أبي شيبة (٨٤٦٢)، وابن خزيمة (٢٢٣٧)، والحاكم (٨٦١)، والطبراني في الأوسط (٤٧٧٦)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٦). المناجاة: حديث العبد لربه سرًّا بالتضرع أو الدعاء أو ما يشاء.

وقوله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم، فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»[(١)].

وقول الله جلَّ ثناؤه: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وما تحركت بي شفتاه، وإذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه وأطيب**»[(٢)]. وإنما ذلك كله بقدر ما عقل، فافهم.

فصل

الجاهل من جهل صورة الجهل، ومن عرف صورة الجهل فقد عقل عقلاً تامًا، ومن جهل صورة الحكمة جهل نفسه، ومن جهل نفسه كان لغيرها أجهل، وكذلك أفرط بالأكثرين الجهل لما نظروا إلى الحكمة على زعمهم حال جهلهم، فجهلوا الحكمة، فقالوا: هي العلم بالأشياء الأولية الأبدية الذاتية عندهم، يطلبوها من الموجودات.

وقاربوا من الأشياء بمقاربة المطبوعات، فنوعوا الأنواع التي هي أواخر الكون وتمامه، ثم ردوها إلى الأجناس التي تعلوها، ثم إلى أجناس الأجناس حتى تنتهي بزعمهم إلى أول المخترع من قدرة الباري سبحانه بلا متوسط، وهو الروح المنفوخ في آدم ﷺ وجدوه وجدًا، وجهلوه علمًا، فقالوا: هذا يعطي الأشخاص أسماؤها وحدودها، فقالوا فيه: إنه ما هو؛ لأن حد الحق عندهم ما هو، وحد الباطل عندهم ما ليس هو.

وقد يحدونه أيضًا بأن حده وصف الشيء بغير ما هو، وهو السر عندهم، فيتعبد المتعبد منهم إلى ما لم يبلغ علمه إلى ما هنا، ثم من هنا سقط عنهم أصار التكلف؛ لأنه بزعمه قد بلغ إلى أن يعلم أنه ما هو؛ أي: هو الحق، هذا هو الضلال البعيد، نسأل الله الغفور الرحيم معافته ومغفرته.

ولهذا تأله فرعون ومن تقدمه من المتألهين، ولما جاءه رسول رب العالمين

---

(١) أخرجه مالك (٤٥٧) والبخاري (٣٩٨)، ومسلم (٥٤٧)، والنسائي (٧٢٤) والطيالسي (١٨٤٣)، وأحمد (٥٤٠٨) وأبو داود (٤٧٩) وابن ماجة (٧٦٣) وابن حبان (٢٢٦٥) والبيهقي (٣٤٢١)، وأبو نعيم في الدلائل (٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣) وأحمد (٩٣٤٠)، وابن ماجة (٣٨٢٢)، وابن حبان (٨١١)، وابن أبي شيبة (٢٩٤٧٩).

موسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهما - فقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] فقال لهما: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] أي: رب العالمين حق، وأنا الحق أيضًا، فعرَّفه موسى عليه السلام بأخص تعريفه مما تقدم؛ بأن قال صلوات الله عليه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] وكان موسى عرف بالحق وأتى به، وأخبر بالحكمة وجهلها فرعون لجهله بجهله.

فأجابه فرعون بأن ترك مخاطبته؛ لأنه عبد لا يستاهل المخاطبة، وذلك لجلهله به، فقال فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:٢٥] يعجب من حضره من بعد موسى عن جهله هو.

فأردف موسى عليه السلام تعريفًا أخص بهم مما تقدم ذكره؛ لعله أن يفهم عنه بقوله عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦] فتحقق جهل فرعون بجهل نفسه، وتقوى عنده ضلالة وفتنة، بأنه هو الحق الذي يقال له: ما هو؟ فقال لمن حوله: لا تخاطبوا موسى، ولا تواجهوه لجهله به ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] إذ لا يعرف هذه الحقيقة الذي عنده من جهله بنفسه، فتدين لهما الدين يقال له: ما هو؟!

ولما كان هذا المعنى الذي هو أول الموجودات في كل شيء موجود، وهو المعنى الذي يخاطب العقول، ويشهد عند أولي الألباب بما هو عليه من الحدث والعبودية والافتقار إلى بارئه جلَّ ذكره لما هو عليه من العلاء والغنى وحقيقة الربوبية، وسمات الجلال ونعوت التعالي ويسبح الله ويحمده.

وجدوه أيضًا في الموجودات وجدًا لا هداية بل جهلاً وعمى عنه، تعبدوا من أجل ذلك بجميع الموجودات، ودانوا لها بالخضوع والعبادة، فكفروا بالخالق العلي جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه المشهود له فيها وبها ومنها بالحق، ومنهم من أشرك، فكان ضلالهم من حيث هداية المهتدين بتقدير من عزيز عليم، فما من أحد عبد غير الله هداية أو ضلالة خطأ أو إصابة.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] سبحانه وله الحمد المحمود بكل لسان المعبود بكل جهة ما أشبههم بالفراش في ضياء النار، يتهافتون فيه هلاكًا كما اهتدى به مستوقدها، والمستضيء بها لقضاء حاجته كذلك أهلك هؤلاء بما اهتدى به المتعبدون والمؤمنون، والحمد لله رب العالمين.

فصل

من الإحكام في طلب الحكمة أن يترقوا بالنظر في الموجودات أعدادها وظواهرها، وصناعة الصانع لها ﷻ إلى مرتقى، وفي هذا الفصل معرفة والصعود في درجات المعرفة به، ثم إلى كيف هي، ثم إلى لِمَ أوجدها موجدها جلَّ ذكره فهجم بك حينئذٍ العلم إلى شرف تبصر من مستوى الخليقة فيه الحق بكماله إن كنت تحسن أن ترى.

فإن كنت ترى فسترى بما له غاية ما لا غاية له، وبما له ضد ما ليس له ضد في ذاته يزاحمه، ولا منفصل عنه يضاده، وهو السلم المؤمن، وترى بما له خارج من ذاته بلى قصر على وجود نفسه أو قارب ذلك ما ليس بخارج من ذاته شيء، بل كل وجود في وجوده العلي ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

كذلك قال جلَّ قوله للقلم: «**اكتب علمي في خلقي**»[1].

وقال جلَّ قوله: «**وهو على كل شيء قدير ما شاء كان ولم يشأ لم يكن**»[2] ولا يكون؛ لأنه من لا غاية له لا يشذ شيء عن وجوده العلي، هو كل الكل، كل ذي وجود ليس هو قائم بذاته تجده خارجًا من ذاته هو مفتقر إلى سواه، والمستغني عن سواه ليس إلا هو، وما سواه مفتقر إليه عبد له.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٨٤٠)، والطبراني في الدعاء (٣٤٣)، وابن عساكر (١١٨/٦٤).

فهكذا فلتسلك في طلب الحكمة، فإنه لمن الواجب أن يوجه الفكر نحو المعلوم، ويوجه الوهم نحو المحسوس والعقل به كعقل ما يعلمه، وبحقيقة الإيمان رؤية المطلوب يهديهم ربهم بإيمانهم، فهو نور الباطن، وبه يراه أولوا الألباب في هذه الحياة الدنيا، وهو المستصبح به فيما هنالك والهادي إليه، والمطلوب العلي وحده لولا الله ما عرف الله.

فصل

قد جعل الله لكل شيء دركًا، فمن أتى البيوت من أبوابها دخلها، ومن أتاها من غير ذلك عسر عليه مطلبه لا ينال شيئًا إلا من حيث جعله الله دركًا له، ولو رامه طالبه من في السماوات ومن في الأرض، بل هو لا يزيد إلا ضلالاً وبعد عن مطلبه، فمن طلب الحكمة من طريق مطلبها أدركها في يسر وعافية.

وإنما أخطأها أكثر من طلبها؛ لأنه طلبها من غير طريقها، وبغير السبب الذي جعله الله ﷻ دركًا لها، فربما لم يدركها بما تقدم ذكره، فلم يطلبها بعد من طريق أخرى بل كذب بصورتها، وبحمل جهله على أن يجهل جهله، ويجهل صورة جهله، كن كمثل من قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [الأحقاف:١٣] يبدلك المكنون إن شاء الله ﷻ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فصل

لو أن المتقدمين لطلب الحكمة يطلبونها في مسالك معاني الأسماء والصفات في العالم، مع التسليم والإيمان لتبين لهم المطلوب، لكهنم ضربوا يمنة ويسرة يتعرفون الموجودات على ما هي عليه، وأخذوا في التسيار والتساؤل عما لم يبلغوه حتى صوروا معمور الدنيا مدائنها وأنهارها وبحارها، وذكروا الممالك والسير والأخلاق والصور.

وقسموا الدنيا أقاليم ونسبوا كل إقليم منها إلى كوكب، وجدوا من ذلك ظاهرًا من الأمر، فلو إنهم سلكوا مع ذلك معالم الأسماء والصفات لا يصل لهم الأمر، وظهر لهم الحق بنور النبوة بتجلي حق اليقين، فإن العقل لا يضيء له ما حوله إلا بالإيمان، ولا يعبر من حاضر إلى غائب، فيصيب إلا بأعلام النبوة، ولا يستحق أحد

منهم الإيمان إلا بذلك. انتهى.

فصل

قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] فكرم الحكمة على ثلاثة أنحاء:

* كرم من جهة النفس والذات، وهو العمل بما يرضي الله جلَّ ذكره في طاعته، واجتناب مناهيه عقدًا وعملاً وقولاً وطريقة.

* **الثاني**: كرم من جهة الآباء، فاتصل ذلك بالسلف في يوسف ﷺ.

* **الثالث**: كرم من جهة الحكمة خاصة، وهو معرفة الموجودات، وتعرف ما هو الحكمة فيها على ما تقدم ذكره، والنظر إليها بالبصيرة الثاقبة على منهاج مسالك الأسماء ومعاني الصفات العلا، واستشعار الحق الذي به أحكم الله السماوات والأرض وما بينهما، والقصد القصد تبلغون إن شاء الله أرشدنا الله وإياكم.

ثم لتعلم - أيدك الله - أن ذلك مجموع في اسم واحد له في وجود الموجودات أربعة أركان، فإياه فاقصد، وعلى الله في طلبك، فاعتمد فليس سواه نافعًا ولا معينًا ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

فصل

فاسم الحكمة متناول فهم القرآن، والفقه فيه من حيث إنه تناوش فيه فهم الذكر الحكيم والآيات المحكمات ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود:١] فهو الحكيم لما هو كلام الله، وهو المحكم من حيث إنه مجعول قرآنًا عربيًا، على ما هو به من أوصافه وتفصيله وتوصيله إلى غير ذلك، ثم حديث رسول الله ﷺ يشمله اسم الحكمة ومعناها.

قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤] ولأن بحديث رسول الله ﷺ يتبين الكتاب فهو حكمة، وإذا كان فهمه من آحاد الأمة حكمةً، فبأن يكون بيانه على لسان رسول الله ﷺ أولى وأحرى؛ لقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣ - ٤].

وأُسمي أيضًا خادم ما سموه طبيعة حكيمًا، وعلمه حكمًا وعلمه بذلك هو معرفة الداء والأدوية، ومظانها في موجودات الأرض والأحجار والنبات والمياه والأهوية، ومقابلة بما يصلح به من الدواء.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء، فإذا وافق الداء الدواء برئ الداء بإذن الله**»(١).

ويسمى أيضًا طبيبًا كما يسمى العالم بحكمة الله ﷻ في الشرع فقيهًا، واسم الطب أقرب إلى العلم بحظ ما من العمل، لكن اسم رفيق أولى به، كذلك قال رسول الله ﷺ: «**أنت رفيق، وإنما الطبيب الله**»(٢).

وإنما سموا الطبيعة: حكمة الله ﷻ في هذا العلم، من فيح جهنم بتنفيسها - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مع فتحه هو برحمته بالماء ينزله من السماء، يحيي به الأرض بعد موتها، ففيح جهنم: سعيرها، وزمهريرها: بردها، فيحكم الله آياته في ذلك بأن يؤلف بين المتباغضات، ويقارب بين المتباعدات ويؤلف بين المتنافرات، وهي الأمشاج ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:٢] أي: نأمره بالهرب من جهنم وطلب الجنة، كذلك أعقب قوله الحق ﷻ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا....﴾ [الإنسان:٣].

ولفيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم منها برحمته - ثلاثة شعب: حر وبرد ويبس؛ فالحر للنار، واليبس والبرد للزمهرير، فينزل الماء برحمته وهو رطب أوله البرد، ولكنه يميل إلى الحر مع الحر، وإلى البرد زائدًا إلى ما هو عليه منه مع البرد، والماء موجود عن الهواء بقدرة الله ﷻ وإيجاده إياه، فيتسلط الحر بواسطة الشمس على هذه الجملة، ويبرد بالماء من السعير ويلين برطوبته من يبسه وبئس الزمهرير، ويرفع إلى الهواء متوسطًا ذلك، وهو الحار الرطب، فيخلق الله ﷻ على ذلك خلقه.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] بأنا نحيي الموتى من موتهم، كما نحيي الأرض بعد موتها، ويخلق الله كل شيء بدءًا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٠٣٥).

وعودًا، فخلق الله جلَّ ذكره هذه الأربع أصول من موجود الآخرة، أخرجها إلى هذه الدار بالفتح، والفيح المتقدم ذكرهما بواسطة رحمته في ذلك.

ولما راوج ما بينها جعل ﷻ لكل شعبة منها عملاً بامتزاجها بما مازجها من وصف ومعنى، وأكثر من المخلوقات جدًا، وتنوعت على ذلك واتسعت في صفاتها وأوصافها، وخلق الله ﷻ على ذلك أيضًا، ومالت الأمزجة إلى كل ميل، ثم مازج ما مال مع ما استقام كذلك إلى غير نهاية يبلغها الإنسان بالحصر، ويخلق الله على ذلك خلقه، وعلى التقليل من هذا والتكثير من غيره، ثم يخلق الله ذلك خلقه هذا أبدًا، كما لا يعجزه صورة يصوره عليها، ولا يعجزه تأليف ولا تركيب يؤلفه ويركبه، والله واسع عليم حتى لقد قال قائلهم: العمر قصير، والصناعة طويلة، والوقت ضيق، والتجربة خطر، والقضاء عسر.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال جلَّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧] المعنى حيث جاء.

وقال أيضًا جلَّ من قائل: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾ [النور:٤٢] فملك السماوات والأرض هو ما دلَّ عليه بالفيح والفتح المذكورين.

وقوله جلَّ من قائل: ﴿وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾ حيث يبتدي ذلك يظهره الله جنة ونارًا، كما دلَّ عليهما فيما ها هنا بآيات ذلك ودلائله.

وأعقب ذلك بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ هو وجه آياته على الملك المذكور في الآية، ثم قال جلَّ من قائل: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ

بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٣] وهذه آيات على الوعيد.

وقال رسول الله ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها....**»[١].

وقال جلَّ ذكره: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر:٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾ [الواقعة:٧٥] ثم عظَّمه بقوله الحق: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [الواقعة:٧٦] وهذان النفسان مقسمان على مواقع النجوم.

قال رسول الله ﷺ في الشمس: «**ما ترتفع قصبة إلا فتح لها باب من جهنم**»[٢] وهذا عام في منازل الفلك في النجوم، ارتفاعها كل يوم في الجو إلى كبد السماء.

وقال - جلَّ قوله - فيها إذا كانت في محلها قبل الزوال: «**حينئذ تسجر جهنم**»[٣].

وقسم الله ﷻ ذانك التقسيم على مطالع الشمس ومغاربها حرورًا وصرودًا، كل ذلك بحكمة منه على دوائر محكمة التدوار، تقدير من عزيز عليم بقوله جلَّ قوله: ﴿**أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ**﴾ الذي فتحنا عليكم به ﴿**أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ [الواقعة:٨١ - ٨٢] فينسبون الفتح إلى الكواكب، وسيأتي بيان ذلك في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

فصل

حدوا ما سموه طبيعة بحدود قالوا: الطبيعة اسم مشترك يقال على الخلق، وعلى كل شيء مطبوع بطبيعة ومخصوص بها.

قالوا: ويقع على الأخلاط والكيموسات الأربعة، وهذا قول خاص من قولهم

---

(١) أخرجه مالك (٢٨)، والشافعي (١/٢٧)، والبخاري (٣٠٨٧)، ومسلم (٦١٧)، وابن ماجة (٤٣١٩)، والترمذي (٢٧٩٦)، وابن حبان (٧٤٦٦)، وأحمد (١٠٥٤٥)، والدارمي (٢٩٠١)، والحميدي (٩٨٩)، وأبو يعلى في مسنده (٤١٩٠). الزمهرير: شدة البرد.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (٨٣٢)، وأبو عوانة (١١٤٧)، وأحمد (١٧٠٥٥)، والبيهقي (٤٥٥٩)، وابن سعد (٤/٢١٦)، وعبد بن حميد (٢٩٩). تسجر: توقد ويحمى عليها.

على الخلق لو خلصوا العبارة عن الحد، فإنهم حدوا الطبيعة بزعمهم، فقالوا: الطبيعة اسم مشترك على الخلق، وهو على كل مطبوع وتدوير القول في الحد، غير سائغ كتدوير البرهان في البرهان، وغير ذلك غير جائز في البرهان.

قالوا: ويقع على العناصر الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، وهذا إيماء من الحق على ألسنتهم على ما يكون من النفسين في أصول المخلوق منها، الخلق لو شعروا لمنبعث ذلك.

قالوا: ويقال أيضًا على الفلك، وعلى القوة الفلكية التي زينها الباري ﷻ في الطبيعة، وقدرها على تأثير الكون والفساد والذبول والزيادة والاضمحلال والحركة والسكون، فهذا أشعر منهم بالحق المنبعث عنه، وإن ذلك واصل إلى هذه الدار بدوائر محكمة التدوار، لو يعلمون ما أشعروا له ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠] ويظنون كشف عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥ - ٧٦] وسيأتي بيانه إن شاء الله.

قالوا: الطبيعة خاصة حركة عن سكون، وسكون عن حركة، وهذا وصف الفلك.

وقال آخرون منهم: حد الطبيعة قوة فلكية تكون في الأبدان يتوسط الفلك من النفس والأجرام، وفي هذا الحديث شرب من معنى قول الله جلَّ قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] لو شعروا بحقيقة المعنى ليتبين لهم المأتى، وهذا كله إذهاب في الحق، وذهاب عن حقيقة المعنى المطلوب ولسان النبوة أعرب، ولسان الوحي أجمع وأفصح وأجلى وأقرب مأخذًا.

وقالوا أيضًا: الطبيعة جوهر حكيم بصناعة الأشياء المصنوعة، فإن كان مراد هذا بقوله: «جوهر حكيم بصناعة الأشياء» هو الله فهو الحق، ووقع الخطأ منه في تسميته بطبيعة وجوهر، وإلا فهو بعيد عن الصواب؛ إذ ليست الطبيعة التي يرومون إثباتها وحدها مما يوصف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة، فيوصف بحكمة وفعل وصنع وصناعة.

وحدوها أيضًا بأن قالوا: هي حرارة غريزية مقومة للأبدان، واقع عنها الفساد

والصلاح على نحو قوتها، وتتهيأ له مصلحته من الغذاء وغيره، وهذا قول خاص على بعض القول في الحق هو، وشرك محض أكثر من كفر الذين نسبوا ما يفتح الله للناس إلى الأنواء، وهو منبعث من مذهب القائلين بالدهر تخرصًا وتظنينًا.

وحدها أيضًا بعضهم بأن قال: الطبيعة قوة في الأجسام القابلة للغذاء تحفظ صحتها، وتبرئها إذا مرضت، ويعني بها العناة التي لا أحكم منها، ولا أبرم في الحكمة منها، وهو جوهر خفي مستور عن الحواس.

وهذه الأقوال أكثرها كفر؛ لأن القول بها والاعتقاد لها ضلال، وفيما ثبت بالقرآن وحديث الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من تكفير من أضاف فعل الله ﷻ وتدبيره إلى غيره أكثر جدًّا لا سيما والعلم مستقر، فإنها أقوال صادرة عن مذاهب غير صائبة للحق، ولا معتمدة على معتقد مرضي، وقد نهى المسلمين عن التوسع إلى ما دون هذه العبارات مع العلم بحسن معتقدهم ووثيق أصلهم، فكيف بهؤلاء على ما هم عليه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

تعاطوا القول في تدبير فضل الله جلَّ ذكره ولزيغهم عن السبيل المرضي زيغ بهم عن حقيقة المعتقد، وهم لا يشعرون نسبوا تدبير الله ﷻ، وتدبير ملائكته وسنن شرعته في تكون خليقته طبيعة، فخادم ما يسموه طبيعة يسمى: حكيمًا؛ لأنه يخدم حكمة الله ﷻ، ومتعلمها يسمى: طبيبًا من حيث يعلم، ويعمل لغة وعرفًا لا شرعًا.

قال الشاعر:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّساءِ فإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

إِذَا شاب رَأْسُ المرءِ أَو قَلَّ مَالُهُ ... فليس لَهُ مِن وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

والأولى أن يسمى بما سماه رسول الله ﷺ: رفيق، وهذا اسم شرعي، وإنما الطبيب الحق هو الله لا إله إلا هو الذي لا يموت له عليل بطبه، وليس من شرط الرفيق إلا المعالجة، والأخذ للعليل بالأولى من الأدوية والأغذية على ما تدعو إليه الضرورة، ويتلطف في ذلك عساه أن يبلغ بحسن علاجه دفع ما أذن الله ﷻ، وإبراء ما قدر الله إبراءه استدفاعًا لإذاية ما أذن الله تعالى لجهنم أن تتنفس به من نفسيها المذكورين.

لأجل ذلك مالوا في تأليف الأدوية إلى السهولة وطيب الرائحة، وتقربوا في ذلك إلى حال الاعتدال، ويقلون من الأدوية، وينحون بها إلى الأغذية حسب الاستطاعة؛ إذ الدواء من قبيل ما كان إضلاله، ولذلك تكرهته النفوس ونافرته بأول وهلة، وإخراج الدم كل ذلك معالجة لما اكتنزته الأبدان من عقابيل ذينك النفسين، ونهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث.

فصل

هذا المشار إليه بأنه عالم الطبيعة، وهو دار الدنيا أقطعها رب العالمين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عدوه إبليس الملعون المبعد - لعنه الله - أنظره فيه إلى يوم الدين، فكان الذي من شأنه أن ينسب إلى جهنم في هذه الدار نسب إلى إبليس - لعنه الله - نسبة ما، أما أعمال الحرام والمكروه لله جلَّ ذكره كلها فتزيينه ورضاه بها، وحمل ذلك بالغرور ونحو ذلك، وما كان من موجوداتها الكريهة من أحجار ونبات وحيوان، وظلام وظلم، وخلق قبيح وأنواع المؤذيات، ومصائب تصيب من علل وأسقام من بعد محبوب وفوت مطلوب، فمنسوب إليه إيضًا بوجه ما؛ لأنها أقرب إلى ما هو عنه منبعثها كذلك جعلها الطبيب الحق الأعلى، والحكم الحق العليم أدوية من أدواء الأسقام، ثم كره الأدوية للنفوس على الأغلب: لأن إبليس - لعنه الله - مخلوق من نار السموم وإليها معاده وفيها سعيه، ولها كدحه واجتهاده وجده، ولذلك جنبها لبني آدم وزينها؛ ليكون مآل من أطاعه على ذلك أن يدخل مدخله.

فصل

ليست أدوار الأبدان والمصائب كلها بنافعة إلا للمؤمن، ولا إله إلا الله في مخلوقاته وآياته إلا للمؤمن، والكافر مبعد ملعون عن هذا كله، إلا ما كان فيما سبيله إلى الكون.

قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٣٧].

﴿۞ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ

بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٤ - ١١٦].

قوله ﷻ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾[1] [النساء:١١٤] أرجع ﷻ الكلام إلى ذكر أهل الكتاب والمنافقين، وبآخره يعم المؤمنين، كان أهل الكتاب والمنافقين يرجفون بالمدينة يتناجون بذلك، وينتقصون الرسول والمؤمنين، فأنزل الله جلَّ ذكره في ذلك عدة آيات:

منها: قوله جلَّ قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب:٦٠].

وقال جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٨] فكان هذا من تناجيهم، فأعلم الله ﷻ باستصحابهم ذلك، ثم من فحوى الخطاب ومفهومه يعلم أن كثيرًا من مناجاة المؤمنين بعضهم بعضًا، لا خير فيها إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس؛ لذلك وهو أعلم أعقب الخطاب بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

---

(١) يعني: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامةٌ في حق جميع الناس، والنّجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قوم سرًّا كان أو جهرًا، فمعنى الآية: لا خيرَ في كثير ممّا يدبرونه بينهم ﴿إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر بصدقة، فالنّجوى تكون فعلاً، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، وقيل: النجوى ها هنا الرجال المتناجون، كما قال تعالى: ﴿وإذ هم نجوى﴾ [الإسراء:٤٧] ﴿إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حثّ عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمالُ البِرّ كلّها معروف؛ لأنّ العقول تعرفها ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عن أم الدرداء رضي الله عنها، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ أخبرُكم بأفضلَ من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟» قال: قلنا: بلى، قال: «إصلاحُ ذاتِ البين». [تفسير البغوي (٢/٢٨٦)].

دلَّ على صرف معناها إلى المؤمنين قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المجادلة:٩].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [العصر:١ - ٣] وكل شيء فعلاً كان أو قولاً أو ما كان، فمحصل كله مزموم، فإن كان كلامه سيئة فكفى به شرًّا وإن كان لغوًا، فهو خسارة عمر وإبطال عمل، لكن الأكياس توجهوا بقلوبهم وذواتهم ظاهرًا وباطنًا إلى ربهم ﷻ، وأحضروا إليه بنياتهم وطلبوا رضاه في كل قول يكون منهم، فربحوا على ذلك الأرباح الوافرة في الدنيا والآخرة، وهم المعنيون بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ...﴾ [المؤمنون:٥٧] إلى قوله: ﴿سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٣].

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ اللهُ﴾[1] [النساء:١١٧ - ١١٨] كل معبود دون الله ﷻ فهو أنثى بالمعنى؛ إذ هو

---

(١) نزلت في أهل مكة؛ أي: ما يعبدون، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ [غافر:٦٠] أي:

مكفول معول مقوم عليه، وبخاصة ما سموها تسمية الأنثى كمناة واللات والعزى وأمثالها، وذكرناها على اعتقادهم كودٍ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، سموها لمعانٍ أرادوها من أباطيلهم، والموات وما لا روح فيه أعرق في النقص والأنوثة، كذلك قال إبراهيم ﷺ: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:٤٢].

وقال الله جلَّ من قائل: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢١].

والمريد: مبالغة من مارد، وهو الذي لا نفع عنده ولا خير فيه، يقال من ذلك: رملة مرداء؛ أي: لا نبت فيها.

والمرداء: القفر الأبلج الذي لا مرعى فيه ولا ظل ولا شجر.

المارد: هو العادي الطاغي.

والمفروض: هو المعلوم المقتطع.

فالنصيب الذي اتخذوه من العباد قد أوجبه الله سبحانه وله الحمد فيهم، وأقطعه إياه منهم منبعث ذلك «هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»[(١)].

وقوله جلَّ قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي: منك، وممن يكون منك من ذريته ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص:٨٥] يعني: من ذرية آدم ﷺ وذرية إبليس كذلك ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء:١١٨] أي: مقطوعًا من سوء ما به ظن ظنه فيهم، وزعامة زعمها عليهم من نفسه الخبيثة، وقدرة الله تعالى وسابق علمه؛ ليتم كلمة الله وإحكام حكمته في سابق مشيئته.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠].

اعبدوني، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠] قوله: ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿إِلا إِنَاثًا﴾ أراد بالإناث الأوثان؛ لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللات والعزى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أنثى بني فلان، فكان في كل واحدة منهن شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم، ولذلك قال: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا﴾ هذا قول أكثر المفسرين. [تفسير البغوي (٢/٢٨٨)].

(١) تقدم تخريجه.

وقال: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: عن هدايتهم التي هي الإسلام والإيمان ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ يمنيهم الغرور، ويعدهم الحسنى بالفجور وحسنى العقبى بسيئ الأعمال.

ثم قال لعنه الله: ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ أي: يشقونها ويقطعون آذان الأنعام؛ يعني: يسمونها لآلهتهم عن سنن أباطيلهم من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام، ونحو هذا.

ثم قال لعنه الله: ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء:١١٩] تغيير الخلقة على وجهين:

منها: القطع والشق، والوسم على وجوه من الجدع، وغير ذلك.

والوجه الآخر: تغيير الهداية كما قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحس فيها جدعاء**»[١].

فصل

ربما سبق إلى نفس التالي من قول الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠].

ونظر في حديث رسول الله ﷺ قوله: «**كل مولود يولد على الفطرة.... كما نتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحس فيها جدعاء**»[٢].

وقوله ﷺ فيما حكاه عن ربه ﷻ: «**إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[٣] فظن بالحديث تعارضًا للقرآن، أو ما يكون من سبيل هذا، فاعلم - وفقك الله للرشاد - أن حقيقة الفطرة في العباد غير مبدلة، وكذلك في جميع الخليقة، وإنما الكفر اكتساب للعباد

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٢) ومسلم (٢٦٥٨) وأبو داود (٤٧١٤) وأحمد (٨١٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) وأحمد (١٧٥١٩) والطبراني (٩٨٧) والنسائي في الكبرى (٨٠٧٠) والبزار (٣٤٩١).

يكفرون به إسلامهم، ويضلون بذلك عن هدايتهم يغطي الكفر تلك الحقيقة، ويذهلهم عنها دليل ذلك وجود إيمانهم حين وقوع البلاء، وحلول الحالة التي عبَّر عنها قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧] و﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣] فإذا انحسرت عنهم حال الضرورة ووجدوا الفاقة أعرضوا عن ذلك، ورجعوا إلى المقدور فيهم وعليهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢] فالشواهد على هذا كثيرة.

قوله ﷻ: ﴿وَعْدَ الله حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢] هو الحق، وقوله الحق ووعده الحق.

اعلم - وفقنا الله وإياك - أنه من لم يجعل وعد الله سبحانه وله الحمد كله حقًّا واجبًا، كوجوب كون النهار بعد الليل والليل بعد النهار، وكوجوب الحركة من المتحرك بواسطة القدرة، وكتسويد الكاغذ عن جري القلم بيد الكاتب، وكتصوير الفعل عن مشيئة المصور، وكوجود النهاية عن الانتهاء، فمن لم يكن غوره هكذا لم يوفِّ إيمانه حقه، وهذا هو اليقين بل كل ما تقدم ذكره، ووجوده على المعهود من جريان العادة.

ومن الجائز الممكن بمجزيها أن يقطع ذلك المعهود فلا يكون، بل هو مما يجب الإيمان به، وليس من الجائز ولا الممكن خلف وعد يعد به، ولا وجود خبر منه على خلاف مخبره ﷻ عن ذلك علوًا كبيرًا، فاعلم ذلك واعمل عليه فإن الشيطان - لعنه الله - قد يقنع من العباد بالغفلة عن مشاهدة الحقائق، وينسيه القطع والعمل بها، وإن كان معلومها مختزنًا في جدر قلبه، وربما استجره من هذا المقام إلى حال الجهل به، والعمل على غفلته عنها والجهل بها كما فعل في أصل الإيمان الذي تقدم الراسخ في الجبلة المغروز في سنخ الفطرة حتى اجتالهم عنها وأزاحهم عن حقيقتها، كذلك كان أولئك من قبل، فتبينوا رحمكم الله ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٢].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ

ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٤ - ١٢٨].

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ...﴾ (١) [النساء:١٢٣] إلى قوله: ﴿نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤] الأماني جمع: أمنية، والاسم: المُنى؛ وهو حديث النفس بما هو معجب مستحسن عندها، فإن كان ذلك يحدثها بزنى ومعصية أو ما جرَّ إلى ذلك فهو من الشيطان، وما كان من ذلك من تمنى بطاعة الله وابتغاء رضوان الله وما جرَّ إلى ذلك مكتوب في مصالح عمل العبد، فإن النزول عن هذه العلية سهل على النفس بواسطة تزيين الشيطان، فهو من عمالته التي أقطعها.

والحديث ذو شجون، واللعين تسرع بإلقائه فيما هنالك من أفق النفس، واعتياده استسرارها لذلك والله أعلم لما ذكر جلَّ ذكره ما يعد الشيطان به من غرورها وأمانيهم من أباطيله، وأنه يروج عليهم الضلال في معرض الهداية كقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

وقوله: ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١].

---

(١) قال مسروق وقتادة والضحاك: أراد ليس بأمانيكم أيها المسلمون ولا أماني أهل الكتاب؛ يعني: اليهود والنصارى، وذلك أنَّهم افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبلَ نبيّكم وكتابُنا قبل كتابكم فنحن أوْلَى بالله منكم، وقال المسلمون: نبيّنا خاتمُ الأنبياء وكتابُنا يقضي على الكتب، وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أوْلَى. [تفسير البغوي (٢/٢٩٠)].

وقوله: ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة:١١٨] ونحو هذا من أمانيهم وغرورهم.

خاطب ﷻ المؤمنين بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ يقول وهو أعلم: ليس لأنكم أسلمتم لله وآمنتم سلمتم وآمنتم، إنما تجزون الأمن والسلامة إذا أحسنتم في إسلامكم ووافيتم على ذلك، وسوف يكون لكم من الشيطان مطالبات، ومن الله جلَّ ذكره تمحيص وبلوى ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ على إيمان وإخلاص ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤] كل شيء مزموم له وعليه، كما كل شيء نصيبه بقضاء وقدر.

انتظمت هذه الآية بالتي قبلها في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ....﴾ [النساء:١٢٢].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ فأمانيهم ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] و﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] ونحو هذا، وكأماني أهل الغرة من هذه الأمة الذين فقدوا خشية الله من قلوبهم، وأفردوها بالرجاء فيهم يتمنون علي الدرجات بأعمال الغافلين.

حسم جلَّ ذكره هذا المعلم، وكشف عن هذه المنزلة بقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أي: في العفو والمغفرة ومنازل الفضل، حتى لا يكونوا كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠].

﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وإن كان مؤمنًا مصليًا صائمًا ﴿لَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣] غير أن الله - تبارك وتعالى - وعد المؤمنين أن يكفر ذلك بالمرض والحزن والمصائب والأرزاء، حتى الشوكة يشاكها؛ ليرد على الله جلَّ ذكره ولا ذنب عليه، وحسناته وافرة مضاعفة إن شاء الله تعالى.

قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:١٢٥] سرد هذا الخطاب على ما تقدم ذكره من اتباع سبيل المؤمنين، ومخالفة سبيل الشياطين والبراءة من ولايتهم، والإخلاص

لله ﷻ بطاعته مادحًا للموصوفين بهذا الوصف مثنيًا عليهم بذلك؛ إذ ملة إبراهيم ﷺ هو الدين القيم، وهو الصراط المستقيم، ومنتحلوها هم القيمة.

وهو دين الملائكة والرسل - عليهم السلام - لا يقبل الله دينًا غيره، فإذا أحسن في توجهه إلى الله ﷻ، فهو يعمل في خير معتمل إن أحسن حمد الله وشكر، وإن أساء تاب إليه واستغفر، يعبد الله خالصًا مخلصًا كأنه يراه، يراقبه على علم منه بمرأى، مقتديًا بالرسول في سنته متبعًا للخليل في ملته حنيفًا مسلمًا، فهذا أكرم الناس وجه، وأقربهم مقصد عساه يوافي على ذلك، فيتم نعمته عليه.

ثم عرض جلَّ ذكره بوعد كريم وعطف بالواو، وعلى ذكر المقام الذي تقدم وصفه بقوله عزَّ قوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:١٢٥] لما كان من معهود فضله العظيم أنه يلحق التابع بالمتبوع، ويدخل المؤتم مدخل إمامه، كما قال ﷺ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦] وكما قال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين**»[1].

وفيما علمناه في الدعاء في الصلاة على الطفل: «اللهم ألحقه بأولاد المؤمنين في كفالة إبراهيم ﷺ».

ورأى النبي ﷺ الولدان ليلة أسرى به وإبراهيم ﷺ معهم تحت شجرة.

فصل

قوله ﷺ في دعائه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من تبعني على الولاية العليا ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: نزل إلى ما دونها، كما يعصي الموحد ربه فيسمى: عاصيًا، ولا يكفر بذلك، ويرجى له مغفرة الله ورحمته، كذلك قال الله جلَّ قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦].

والخليل: فعيل من الخلة، والخلة والخلال: المحبة، ونقيض الخلة: العداوة، كما نقيض المحبة: البغض.

قال الله ﷻ: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]

---

(١) أخرجه مالك (١٧٣٧)، والبخاري (٥٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٠)، وأحمد (٢٢٨٧١)، والترمذي (١٩١٨) والطبراني (٨١٢٠) والبيهقي (١٣٠٣٧) في الشعب (١٠٨٥٨).

ولما كان نقيض الخلة: العداوة، والخلة إذًا هي نهاية الولاية، وأصل الخلال تخلل الشيء وتتبع المقصود، والميل إليه عن سواه، والتخيف أقرب إلى هذا الوصف من ذلك، وإنما حقيقة التخيف القيام على الحق والميل إليه عن سواه.

وقيل: الطريق يكون في الجبل خلال؛ إذ سالكه يتخلل الحزن إلى السهل في مرتقاه.

وقيل للطريق بين الدور والشجر: «خلال» من أجل ذلك.

والخلال أيضًا يتخلل به الإنسان، وخلل الشيء وخلاله: هو ما بين بعضه وبعض كخلل الستر والشجر والنبات.

قال الله ﷻ وذكر الماء ينزل عن السحاب: ﴿فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [النور:٤٣].

والخليل أيضًا والخل والمتخلل: الجسم. قال الشاعر:

إِنَّ جِسْمي بَعدَ خَالِي لَخَلٌّ[1]

والخليل: الشديد الفاقة، وحاله الخلة بفتح الخاء؛ إذ هو الذي قد تخلل في مرضاة الله ﷻ بين هوى نفسه وبين عوائق عوارض الدنيا يحبها، فيتحمل لذلك مرارة الصبر ووحشة الغربة، واختلال الجسم وخلة الحال وشدة الفاقة إن عرضت، فهذا هو المسلم الذي حل في أعلى ذروة الإسلام، فإن منَّ الله عليه بأن يخلل بحبه له موضع الروح منه، ثم أفاض من ذلك على جوارحه فله يعمل وله يترك، وإياه يذكر وله يصمت، فقد اتخذه الله خليلاً.

بذلك أثنى الله ﷻ على إبراهيم ﷺ بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠ - ١٢١].

ومن وصف ما ذكره رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: **«إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي**

---

(١) هذا عجز بيت، وشطره: «فاسقينها يا سواد بن عمرو» والبيت للشنفرى. مفردات ألفاظ القرآن (٣٠٨/١).

يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولإن سألني لأعطينه، ولإن دعاني لأجيبنه...»(١).

وقد تقدم الكلام في المحبة، وأن السبيل إليها حسن الاتباع للرسول ﷺ، وصحة الاقتداء به على قدر الانقطاع لاتباع ملة إبراهيم عليه السلام، يعطي العبد من الخلة على قدر الاقتداء بمحمد ﷺ يعطي متعاطي ذلك من المحبة، والمحبة أعلى الخلة.

ألا تسمع إلى قول إبراهيم عليه السلام في اليوم المشهود للمستشفعين به: «**لست بصاحبكم، اذهبوا إلى ابني محمد إنما كنت خليلاً من وراء وراء**»(٢).

وإنما صعد إلى أعلى الخلة والمحبة بالإضافة إلى منازل المتقين أهل العلية، ومن استعمل اعتمل كما قال بعض القائلين، فسبحان من قد خصَّهم واجتباهم، واختار منهم من أحب خليلاً، هم درجات عند الله، إنما الذين عروا منها ألبتة هم الكافرون.

قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] ثم قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢] ثم حذف هنا ما دلَّ عليه المظهر في الآية التي قبلها، قوله جل قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أو ما يكون في معناه.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢].

قوله ﷻ: ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [النساء:١٢٦] دلَّ على سياق هذا الخطاب بعد ما تقدم على تعريض بمعنى الخلة، وإنه لا يصعد إلى أعلاها، ويحل ذروتها إلا بتصحيح التبعية لإبراهيم عليه السلام، ولا يكون يكون ذلك كذلك إلا بأن يتفرغ للنظر والاعتبار في ملكوت السماوات والأرض كي يتعلم اليقين.

فصل

من شروط الخلة والمحبة: البحث عن معرفة الخليل الأعلى، وتعلم معاني

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥)، والبزار (٢٨٤٠)، والحاكم (٨٧٤٩).

أسماء الحبيب الأقرب، ولهج النفس بمدائحه، والاسترواح إلى تصفح أفعاله، وتطلب مجاري حكمته في مصنوعاته، والوجود يدل على ما نحن بسبيل تبيانه قلما ترى محبًا صادقًا إلا لهجًا بذكر محبوبه مشغوفًا باسمه، كثير التكرر على معانيه يقف بالأطلال ويستوقف، ويقوم على الديار، ويشجي بمشاهدة الآثار، ويتوكف[1] الأخبار، ويبكي معاهد الوصال كما قال المتنبي:

بَلِيتُ بِلَى الأطْلالِ إن لم أقِفْ بها   وُقوفَ شَحِيحٍ ضاع في التُّرْبِ خَاتِمُهْ

وقال آخر:

أطوف ببابكم في كل وقتٍ   كأن ببابكم فرض الطواف

تراه يبكي النوى ويشكو الصد، ملازمًا الاكتئاب قاطعًا للأسباب، راحته في العكوف بباب محبه وتتبع آثاره وتوكف أخباره، كما قال الآخر:

وإني لأهوى الدارَ ما يستفزني   لها الود إلا أنها من دياركا

ولا يفارقه شجوه ولا يمكنه سلوه هكذا إلى أن يجد عذوبة القرب، ويتروح روح الفصل.

ثم اعلم - رحمنا الله وإياك - أن هذا المقام قلما تثبت عليه الأقدام إلا برحمة من الله لعدوان العدو، ولأن غيرة الحسود وعين نفسه ونفس حسوده تسرع إليه؛ إذ الفرج به موجود، والعين بمدرك تلك الحال قريرة، وربما نظر إلى نفسه في بعض خطراته ناسيًا أو ساهيًا، فجوزي أن يبتلى بهجر أو يعاقب بصدٍّ.

والعين تسرع أحيانًا إلى الحسن

ومن المعهود أنه ما قرب عين بحال إلا حدقت إليه عيون العدى، واعتبر من ذلك إلى شأن أبينا آدم حين أسكنه ربه جلَّ ذكره الجنة، وما آل إليه أمره، ولولا رحمة ربه والحب المعهود في هذه الدار آية على ما هنالك.

قال بعضهم:

---

(١) توكف فلانًا: تعهده ونظر في أمره، والأثر: تتبعه، والخبر: توقعه وسأل عنه. انظر: المعجم الوسيط (١٠٣٣/٢).

فلَـــــوْ أَنَّ واشٍ بالــــــيَمَامَة دارُهُ وداري بأَعْلى حَضْرَمَوْتَ اهْتَدَى لِيَا

ومــاذا لهــمْ لا أَصْــلحَ الله بــالَهم من الرَّوحِ في تـصريمِ ليلَى حِبالِيَا

ولهــذا المقــام آيــات رأســها وأســها التــزام الــذل والتواضــع ومعــرفة الله، واستـشعار التـضاؤل فـي حـال القـوم ينبـئك بحقـيقة مـا نحـن بـسبيل التوصـية، كقول بعضهم:

تذلَّلْ لها واخضَعْ على القرْبِ والنَّوَى فما عاشـقٌ مَـن لا يَـذِلُّ ويَخْـضَعُ

وقال آخر:

وأَهَنْتِنِـــي فأَهَـــنْتُ نَفْـــسِيَ صـــاغِرًا

وهذا كثير فيما بينهم شائع، وجملة الحب آية على ذلك الحب المحمود.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا للهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

وقلما ذكر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه معقبًا إلا أعقبه بوعيد، وقد أعقب ها هنا بقوله جلَّ قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء:١٢٦] فوصف الإحاطة دليل على التهديد، فحظ بالغ هذا المقام وجد قائل هذا المرغب الدعاء، وكثير الابتهال والتكاوس(١) والتمسكن، والمبالغة في التواضع وملازمة الترضي، ولا يرى أحدًا اعتقد الرفعة له عليه، بل يعتقد أن غيره هو الناجي دونه، وهو الهالك إن لم يرحمه الله ربه، ويعمل على يقين بصحة تعبد لله ﷻ وتوكل، وليحذر النكوص بعد الإقدام والنقص بعد التمام، فعلى قدر العلو في الرفعة تكون الوجبة في الوقعة، وأعر الضلالة الضلالة بعد الهدى.

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) التكاوس: التراكم. انظر: جمهرة اللغة (١/٤٧٩).

وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء: ١٢٩ - ١٣٥].

قوله عزَّ من قائل: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ...﴾ [النساء: ١٣٥] القسط هو ما يعطيه الميزان والمكيال، وحكم الحق يعبر عنه بالعدل، وهو ما يأمر به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يؤثره العقل الصائب بإرشاد الشرع إليه، وهو أيضًا الموجود في حكمة الله تعالى وصنعه في صنائعه في السماوات والأرض وما بين ذلك، وفيما علا وسفل، وفي حكمه على عباده من تقديم أو تأخير أو رفع أو خفض بسط أو قبض، وما وصف به نفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من الصفات العلا، وتسمى به من الأسماء الحسنى، وما له من المثل الأعلى، كذلك فيما خلق ورزق وفطر أو ذرأ وبرأ، وهو القائم بالقسط في شهادته لنفسه، وشهادته لعباده وعليهم.

ولذلك حضَّ على ذكره عباده، وعلى القيام بالقسط على أنفسهم، وعلى ذويهم والأباعد والأقارب، وكذلك عليهم أيضًا أن يقوموا لله - جلَّ ثناؤه - بالشهادة له بما شهد لنفسه، وشهدوا على أنفسهم بما شهد ﷻ عليهم ولهم، ثم بملائكته وأنبيائه ورسله والمؤمنين، وجميع عباده عليهم أن يقوموا بالشهادة لهم وعليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٣٦ - ١٤٠].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ...﴾ إلى قوله: ﴿بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦] المطلوب من جميع المكلفين الإيمان بالله جلَّ ذكره وبما هو عليه من نعوت التعالي وصفات الجلال، ثم بأحكامه وأفعاله وقدره كله وبما جاء من عنده.

ثم بالملائكة - على جميعهم صلوات الله وسلامه - والأنبياء والرسل - صلى الله عليهم - دون تفرقة بين ذلك، ولا توقيف إيمان ببعض دون بعض، فالله جلَّ ذكره الواحد لا إله إلا هو الواحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣ - ٤].

والملائكة - صلوات الله وسلامه على جميعهم - كلهم كملك واحد من حيث الإيمان بهم، وكذلك الأنبياء والرسل - على جميعهم الصلاة والسلام - الإيمان بجميعهم كالإيمان برجل واحد إلا ما خصَّ الله ﷻ به بعضهم من بعض من الفضل، والتقديم والتأخير على تخصيص إرساله رسولاً رسولاً إلى أمة أمة، أو عموم في ذلك، وكذلك الإيمان بما جاءوا به ظاهر ذلك وباطنه، واتباع جميعهم إلا ما استثني من حكم النسخ.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا...﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلاً﴾ [النساء:١٣٧] هؤلاء - والله أعلم - يهود آمنوا بموسى ﵇، ثم كفروا باتخاذهم العجل إلهًا من دون الله ﷻ، وبقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى الله جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] ثم آمنوا بأن تاب الله عليهم، ثم كفروا بعيسى ﵇ لما جاءهم

مصدقًا لما معهم، ثم لما جاءهم محمد - صلوات الله وسلامه على جميعهم - تصديقًا لما معهم، ثم ازدادوا كفرًا إلى كفرهم.

قال الله ﷻ: ﴿لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٣٧].

فصل

قال الله ﷻ في اليهود: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ [البقرة:٦١].

وقال - جل من قائل - في المنافقين: إنهم ﴿مَلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب:٦١] والملعون مبعد عن الرحمة، والتوبة من الرحمة، كذلك المغضوب عليهم لا يُقبل منه إحسانه، ولا يُتقبل قربانه ولا توبته.

وفي مثل هذا تقدم القول في سورة «آل عمران» من لدن قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ...﴾ [آل عمران:٨٦ - ٨٨] إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:٩١].

فهذه الآية مترددة بين جملة اليهود والمنافقين لا يوفقون لتوبة، ولا يقبل منهم إحسانًا إلا آحادًا من هؤلاء وهؤلاء، وبخاصة جملة يهود عليهم حقيقة الغضب والإبعاد، وهو المقول فيهم: ﴿لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٣٧].

ولقرب المنافقين من فعل يهود أعقب ذكرهم بقوله جلَّ قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨] لتوليهم إياهم وكفرهم بعد إيمانهم، وهاتان الخصلتان يكسبان الغضب واللعن.

قال الله في يهود: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة:٨٠].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ

خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤١ - ١٤٧].

قوله ﷻ: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾(١) [النساء:١٤١] و«لن» حرف يدل على الاستقبال بالمخبر عنه بقوله: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ يعني: يوم القيامة كلمة تامة لا مثنوية فيها تعم، ولا تجعل للمؤمنين ولا للكافرين على جملة المؤمنين سبيلاً؛ يعني: ظهورًا يستأصلون شأفتهم.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا

---

(١) ثم قال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ للكافرين عَلَى المؤمنين سَبِيلاً﴾ وفيه قولان: الأول: وهو قول علي ﷺ وابن عباس رضي الله عنهما: إن المراد به في القيامة بدليل أنه عطف على قوله: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ﴾ الثاني: إن المراد به في الدنيا ولكنه مخصوص بالحجة، والمعنى: إن حجة المسلمين غالبة على حجة الكل، وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة، والدليل الثالث: هو أنه عام في الكل إلا ما خصه الدليل، وللشافعي - رحمه الله - مسائل: منها: إن الكافر إذا استولى على مال المسلم وأحرزه بدار الحرب لم يملكه بدلالة هذه الآية ، ومنها: إن الكافر ليس له أن يشتري عبدًا مسلمًا بدلالة هذه الآية، ومنها: إن المسلم لا يقتل بالذمي بدلالة هذه الآية. [تفسير الرازي (٤١٦/٥)].

لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٤٨ - ١٥٤].

قوله ﷻ: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] تشابهت قلوب الذين كفروا، وأهل الكتاب والمشركين في سؤالهم أنبيائهم.

قال المشركون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا...﴾ [الإسراء:٩٠] إلى قولهم: ﴿كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء:٩٣].

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾[النساء: ١٥٥ - ١٦٢].

قوله ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ...﴾ [النساء:١٥٥] الباء ها هنا هي السبب، جارة للمسبب جالبة له، وهو المعنى المستجن في قوله، و«ما» هو اسم ما نقضوه من ميثاق، وحذف ﷻ العائد على «ما»، وقد أظهره جلَّ ذكره في سورة المائدة، فكان تقدير الكلام: فبالذي نقضوا به ميثاقهم لعناهم؛ أي: بالوجوه أو الذنوب أو بكل فعل نقضوا به الميثاق، وعاقبناهم من العقوبات بما يقابل ما نقضوا به، كما قال: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٩].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

والواو التي في قوله: ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ﴾ [النساء:١٥٥] عاطفة على معنى النقض، تقدير الكلام: فبنقضهم المأخوذ عليهم ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء:١٥٥].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ....﴾ [النساء:١٥٧] إلى قوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨].

وفيه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء:١٥٩] يحتمل أن يكون رجوع الضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ على عيسى صلوات الله عليه، ويحتمل أن يكون رجوعه على كل واحد من أهل الكتاب.

وفي قراءة أُبي: «ليؤمنن به قبل موتهم» بالهاء والميم.

ثم أعاد ﷻ عذاب الآخرة المعد لهم في المعد لهم على عذاب الدنيا، وعقوباتها التي أصابتهم جزاء مقابلاً لما نقضوا به ميثاقهم، وهو وعظٌ وَعَظَ به هذه الأمة، وتحذير حذرهم أن يسلكوا سبيلهم في نقض الميثاق، نعوذ بالله العظيم من سخطه وعذابه ومما يوجب ذلك.

قوله جلَّ قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٦٢] لما ذكر الله ﷻ أهل الكتاب، وشبههم بالمشركين الذين لا يعلمون استدرك أهل الرسوخ في العلم منهم،

والمؤمنين من هذه الأمة، ونصب ﴿الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ على تقدير إعادة الحافض.

وقيل: إنه نصب على المدح، والأول أوجه.

تقدير الكلام: يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة، وهؤلاء المذكورون في أول سورة البقرة، وهم ذرية الأنبياء - عليهم السلام - وإخوان الرسل، وهم السابقون المفردون من أمته، وهم الأشياخ والقادة الذين اشتاق ﷺ إلى رؤيتهم، فقال: «وددت أني رأيت إخواني» قالوا: ولسنا إخوانك يا رسول الله؟ فقال لهم: «أنتم أصحابي وإخواني الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض»[١].

والإيمان بوجود هذا الصنف في المؤمنين وبجملة أحوالهم، ورفيع مكانتهم عند الله جلَّ ذكره يتلو الإيمان بالأنبياء والرسل - عليهم السلام - في الوجوب، فاعلم ذلك واستكثر منه فإنه الحق من ربك.

ثم عطف قوله جلَّ قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ على قوله جلَّ قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [النساء:١٦٢] أي: من أمتك.

وقرأ ابن غزوان: «والمقيمون الصلاة»[٢].

---

(١) أخرجه مالك (٥٨)، ومسلم (٢٤٩)، وأحمد (٧٩٨٠)، والنسائي (١٥٠)، وابن ماجة (٤٣٠٦)، وابن حبان (١٠٤٦)، وأبو يعلى (٦٥٠٢)، وأبو عوانة (٣٦٠)، والبيهقي (٣٩٢).

(٢) وفي نصب المقيمين أربعة أقوال: **أحدها** أنه خطأ من الكاتب وهذا قول عائشة وروي عن عثمان بن عفان أنه قال: إن في المصحف لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها، وقد قرأ ابن مسعود وأبي وسعيد بن جبير وعكرمة والجحدري والمقيمون الصلاة بالواو. وقال الزجاج قول من قال: إنه خطأ بعيد جدًّا لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة، فكيف يتركون في كتاب الله شيئًا يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم. وقال ابن الأنباري: حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئا فاسدًا ليصلحه من بعده. **والثاني** أنه نسق على ما والمعنى يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة فقيل هم الملائكة وقيل الأنبياء. **والثالث** أنه نسق على الهاء والميم من قوله منهم؛ فالمعنى لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك، قال الزجاج وهذا رديء عند النحويين لا ينسق بالظاهر المجرور على المضمر المجرور إلا في الشعر. والرابع أنه منصوب على المدح فالمعنى اذكر المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة. [زاد المسير (٢/٢٥٢)].

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٩].

قوله جلَّ ذكره: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦] لما ذكر الله ﷻ أنه أوحى إلى نبيه محمد ﷺ، كما أوحى إلى جميع المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - استدرك بحرف «لكن» شهادته العليا بذلك من جَحْدِ من جَحَدَ الحق وعَنَدَ عنه.

وقوله جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ يعني وهو أعلم: ما أساء من علم الغيب بما كان، وما هو كائن.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلم مبينًا عن نعوت الإلهية وحقائق الوحدانية، وأسمائه الحسنى وصفاته الكاملة العلا، ويخبر عن آياته وشواهده وبيّناته.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلمه؛ أي: بأمره ونهيه، وبما هو المبلغ من معرفة حلاله وحرامه، والمؤدي إلى رضوانه ومحبته، وما ينجي من غضبه وعذابه.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلمه الذي أصحبه إياه حال إنزاله من روح وأمر وملائكة، وحفظ حقَّه به حتى أوصله إلى قلب الرسول ﷺ إلى أن جعله قرآنًا عربيًا على لسانه، ثم ما هو حافظه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

قال الله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧] إلى آخر السورة، هذه سبل موصلة إلى بعض مقتضيات قوله جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[1] [النساء:١٦٨ - ١٦٩] الظلم في الكفر كثير، والمقصود الأول منه بالخطاب هو الصد عن السبيل المرتضى، وكما ذنوب الغير في الإسلام شديدة، وهي التي لا يتركها الله ﷻ، وكذلك الصد عن سبيل الله، والفتنة في الدين للغير على موجب هذه الآية شديد.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:١٦٧] بعدوا عن المقصد وعسر عليهم الرجوع، فلذلك لهم نوعان من العذاب: عذاب لكفرهم، وعذاب لصدهم عن سبيل الله ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨] غير أن الله جلَّ ذكره بسعة رحمته وعد التائبين منهم بالمغفرة والقبول مع وجود التوبة منهم أن يعسر مأتاها.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

وقربت هذه الآية قوله جلَّ من قائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ بفتح الفاء والتاء ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠] سبقت رحمته غضبه هذا حكمه على سنن الفضل إنه ذو الفضل العظيم، وذلك حكمه على سنن الوعيد، وكلٌّ إلى مشيئته راجع، وما أتى في الكتاب العزيز وحديث الرسول ﷺ فهذه سبيله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا

---

(١) في هذا الاسْتِثْنَاء قولان: أحدهما: إنه اسْتِثْنَاء مُتَّصِلٌ؛ لأن المُرَادَ بالطَّرِيق الأوَّلِ: العُمُوم، فالثَّانِي من جِنْسِهِ. والثاني: إنه مُنْقَطِعٌ إن أُرِيد بالطَّرِيق شَيْءٌ مَخْصُوصٌ، وهو العمل الصَّالِحُ الذي يَتَوَصَّلُون به إلى الجَنَّة، وانْتَصَب «خَالِدِين» على الحَالِ، والعَامِلُ فيه مَعْنَى: «لا يهديهم الله» لأنه بِمَنْزِلَةِ: يُعَاقِبهم خَالِدِين، وانْتَصَب «أبَدًا» على الظَّرْفِ. [تفسير اللباب لابن عادل (٥/٤٤٥)].

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٠ - ١٧٣].

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى الله إِلَّا الحَقَّ...﴾[1] [النساء:١٧١] الغلو: الارتفاع والاستعلاء، وغلوهم في دينهم: أن ﴿قَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ الله﴾ [التوبة:٣٠] تعالى الله جلَّ ذكره عن قبيح افترائهم علوًا كبيرًا.

وقالت الطائفتان معًا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

وقالت النصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام باتحاد اللاهوت بالناسوت، وأكثرت في ذلك من أنواع الأباطيل؛ لاختلاف مذاهبها في كيفيته، ذلك بقدر مقصود عقولها وبصائرها العميَّة، وقالت في مريم وابنها عليهما السلام قولاً عظيمًا وبهتانًا مبينًا.

وقالتا معًا: ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] فقتلت الطائفتان أنبيائهم والآمرين بالقسط من الناس، أشبهت قلوب الطائفتين

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: إنه خطاب للنصارى خاصة. والثاني: إنه خطاب لليهود والنصارى؛ لأن الفريقين غلوا في المسيح، فقالت النصارى: هو الرب، وقالت اليهود: هو لغير رشدة، وهذا قول الحسن. [النكت والعيون (١/ ٣٤١)].

قلوب الكفار قبلهما ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠].

فصل

الخلق والأبوة لا يجتمعان لموصوف بهما أبدًا إذ الخالق ليس بأب، ومخلوقه ليس له بابن، وكل من اتصف بأنه أب فليس بخالق، بل الخالق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يصطفي مما يخلق ما يشاء، ويجتبي ويصطنع ويقرب ويختار، ويتخذ منهم أولياء وأخلاء وأحباء وأصفياء وأنبياء ورسلاً، وكلهم له عبيد أرقاء لا يملكون من دونه ضرًّا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لا كفؤ له ولا مثل له، ولا شبه ولا عدل له، لا يموت وليس بموروث، ولا فقير سبحانه وله الحمد كله، الأبوة والبنوة فيما هنالك عدم محض ومحال باطل.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٥٩ - ٦٠].

وقال جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٦].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا...﴾ [النساء:١٧٤].

البرهان: ما صدق قول المتحدي، وهو هنا ما أظهره الله جلَّ ذكره على يدي

رسول الله ﷺ من الآيات الدالات على صدقه، وما أنزله في كتابه من الإعجاز الشاهد على أنه من عند الله، ووصفه له بأنه نور؛ فذلك لأنه يهدي به إلى الصراط المستقيم، ويكون إمامًا للعامل به نورًا بعد الموت، كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: بالله والكتاب ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَ﴾ بعد الموت ﴿يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥] في هذه الحياة الدنيا.

قوله عزَّ من قائل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦] إلى آخر السورة.

الكلالة: هو مكلل عدم النسب، تكلله من أعلاه: فقد الأبوين، ومن الأسفل منه: عدم الأبناء، وهذه آية كلالة، وورثتها إخوة شقائق أو لأب، والكلالة المذكورة في صدر السورة ورثتها إخوة لأم؛ فلذلك ما أشكلت[1].

---

(١) الكلالة: خلو الميت عن الوالد والوالدة قاله: أبو بكر، وعمر، وعلي، وسليم بن عبيد، وقتادة، والحكم، وابن زيد، والسبيعي، وقالت طائفة: هي الخلوّ من الولد فقط، وروي عن أبي بكر وعمر ثم رجعا عنه إلى القول الأوّل، وروي أيضًا عن ابن عباس، وذلك مستقر من قوله في الإخوة مع الوالدين: إنهم يحطون الأم ويأخذون ما يحطونه، ويلزم على قوله: إذ ورثهم بأن الفريضة كلالة أن يعطيهم الثلث بالنص، وقالت طائفة منهم: الحكم بن عيينة، هي الخلو من الولد، قال ابن عطية: وهذا إن القولان ضعيفان؛ لأن من بقي والده أو ولده فهو موروث بنسب لا بتكلل، وأجمعت الأمة الآن على أنَّ الإخوة لا يرثون مع ابن ولا أب، وعلى هذا مضت الأعصار والأمصار، انتهى، واختلف في اشتقاقها، فقيل: من الكلال وهو الإعياء، فكأنه يصير الميراث إلى الوارث من بعد إعياء، وقال الزمخشري: والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء، فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد؛ لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالة ضعيفة، انتهى. وقيل: هي مشتقة من تكلله النسب أحاط به، وإذا لم يترك والدًا ولا ولدًا فقد انقطع طرفاه، وهما عمودا نسبه، وبقي موروثه لمن يتكلله نسبه؛ أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل، ومنه روض مكلل بالزهر، قال الأخفش: الكلالة من لا يرثه أب ولا أم، والذي عليه الجمهور أنَّ الكلالة الميت الذي لا ولد له ولا مولود، وهو قول جمهور أهل اللغة صاحب العين، وأبي منصور اللغوي، وابن عرفة، وابن الأنباري، والعتبي، وأبي عبيدة، وغلط أبو عبيدة في ذكر الأخ مع الأب والولد، وقطرب في قوله: الكلالة اسم لمن عدا الأبوين والأخ، وسُمي ما عدا الأب والولد كلالة؛

=

لأنه بذهاب طرفيه تكلله الورثة وطافوا به من جوانبه، ويرجح هذا القول نزول الآية في جابر ولم يكن له يوم نزولها ابن ولا أب؛ لأن أباه قتل يوم أحد فصارت قصة جابر بيانًا لمراد الآية، وأما الكلالة في الآية فقال عطاء: هو المال، وقالت طائفة: الكلالة الورثة، وهو قول الراغب، قال: الكلالة اسم لكل وارث، وقال عمر وابن عباس: الكلالة الميت الموروث، وقالت طائفة: الورثة بجملتها كلهم كلالة.

تفسير سورة المائدة(١)

مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ②﴾ [المائدة: ١ - ٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] العقود ها هنا هي ما انعقدت عليها النيات، وتوجهت

(١) هذه السورة نزلت لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، ومنها ما نزل في حجة الوداع، ومنها ما نزل عام الفتح، وكل ما نزل بعد الهجرة بالمدينة، أو في سفر، أو بمكة، فهو مدني، وذكروا فضائل هذه السورة، وأنها تسمى: المائدة، والعقود، والمنقذة، والمبعثرة، ومناسبة افتتاحها لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر استفتاءهم في الكلالة وأفتاهم فيها، ذكر أنه يبين لهم كراهة الضلال، فبين في هذه السورة أحكامًا كثيرة هي تفصيل لذلك المجمل، قالوا: وقد تضمنت هذه السورة ثمانية عشر فريضة لم يبينها في غيرها، وسنبينها أوّلاً فأوّل إن شاء الله تعالى، وذكروا أن الكندي الفيلسوف قال له أصحابه: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا لقرآن، فقال: نعم، أعمل مثل بعضه، فاحتجب أيامًا كثيرة ثم خرج، فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عامًا، ثم استثنى استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في إجلاد، والظاهر أنّ النداء لأمة الرسول المؤمنين، وقال ابن جريج: هم أهل الكتاب، وأمر تعالى المؤمنين بإيفاء العقود وهي جمع عقد، وهو العهد، قاله: الجمهور، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والضحاك، والسدي.

به الإرادات.

قال الله ﷻ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾(١) [المائدة: ٨٩] و﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] أمر الله جلَّ ذكره أن تتقيد الجوارح بما عقدت عليه الجوانح من خير، وتوبة لله ﷻ من ذنب هذه جملة جامعة لما حوته السورة.

---

(١) لأنه تعالى لما نهى عن جعل الله معرضًا للأيمان، كان ذلك حتمًا لترك الأيمان وهم يشق عليهم ذلك؛ لأن العادة جرت لهم بالأيمان، فذكر أن ما كان منها لغوًا فهو لا يؤاخذ به؛ لأنه مما لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنما هو شيء يجري على اللسان عند المحاورة من غير قصد، وهذا أحسن ما يفسر به اللغو؛ لأنه تعالى جعل مقابلة ما كسبه القلب وهو ماله فيه اعتماد وقصد، واختلفت أقوال المفسرين في تفسير لغو اليمين، فقال أبو هريرة وابن عباس والحسن وعطاء والشعبي وابن جبير ومجاهد وقتادة ومقاتل والسدي عن أشياخه ومالك في أشهر قوليه وأبو حنيفة: هو الحلف على غلبة الظن، فيكشف الغيب خلاف ذلك؛ وقالت عائشة وابن عباس أيضًا وطاووس والشعبي ومجاهد وأبو صالح والشافعي: هو ما يجرى على اللسان في درج الكلام والاستعجال: لا والله، وبلى والله، من غير قصد لليمين؛ وهو أحد قولي مالك وقال سعيد بن جبير، وابن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وابنا الزبير عبد الله وعروة: هو الحلف على فعل المعصية، إلَّا أن ابن جبير قال: لا يفعل ويكفر، وباقيهم قالوا: لا يفعل ولا كفارة عليه. وقال ابن عباس أيضًا، وعلي، وطاووس: هو الحلف في حال الغضب، وقال النخعي: هو الحلف على شيء ينساه، وقال ابن عباس أيضًا، والضحاك: هو ما تجب فيه الكفارة إذا كفرت سقطت، ولا يؤاخذ الله بتكفيرها، والرجوع إلى الذي هو خير؛ وقال مكحول، وابن جبير أيضًا، وجماعة: هو أن يحرم على نفسه ما أحل الله، كقوله: مالي عليّ حرام إن فعلت كذا، والحلال علي حرام، وقال بهذا القول مالك إلَّا في الزوجة، فألزم فيها التحريم إلَّا أن يخرجها الحالف بقلبه، وقال زيد ابن أسلم وابنه: هو دعاء الرجل على نفسه أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، هو لغية، إن فعل كذا.

وقال مجاهد: هو حلف المتبايعين، يقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا، ويقول الآخر: والله ما أشتريه إلَّا بكذا، وقال مسروق: هو ما لا يلزمه الوقاية، وروي عنه، وعن الشعبي: أنه الحلف على المعصية؛ وقيل: هو يمين المكره، حكاه ابن عبد البر، وهذه الأقوال يحتملها لفظ اللغو، إلَّا أن الأظهر هو ما فسرناه أولاً؛ لأنه قابله كسب القلب، وهو تعمده للشيء، فجميع الأقوال غيره ينطبق عليها أنها كسب القلب؛ لأن للقلب قصدًا إليها: ونفي الوحدة يدل على أنه لا إثم ولا كفارة، فيضعف قول من قال: إنها تختص بالإثم، ويفسر اللغو باليمين المكفرة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١] واختلف العلماء في اسم الأنعام، واسم البهيمة على ما يقع منها اسم البهيمة، وذكر ﷻ الأنعام؛ لأنها أكثر ما تؤكل، وهي المقصودة هنا على الأغلب.

ثم استثنى ﷻ ما حظره علينا؛ إما لذاته، أو لمعنى عارض فيه بقوله جلَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

ثم استثنى جلَّ ذكره من المباح بمفهوم الخطاب حالاً يكون من الأكل والصيد بقوله جلَّ قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١] واسم الصيد متناول وحش الأرض وطير السماء وحيتان الماء، ويجمع ذلك كله اسم البهيمة.

وقد استثنى جلَّ ذكره الخنزير من بهيمة الأنعام بقوله جلَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ وكان مما قد وعدنا به يتلوه علينا، فهذه جملة فسرها جلَّ ذكره بمفهوم الخطاب جميع ما في القرآن العزيز، وحديث الرسول ﷺ من حظر وإباحة فيما أبيح من بهيمة الأنعام.

ثم اتصف جلَّ ذكره بما هو من صفة العزة والحكمة في قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١].

قوله عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلَا الهَدْيَ وَلَا القَلائِدَ وَلَا آمِينَ البَيْتَ الحَرَامَ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [المائدة:٢] من أدل شيء على أنه يعلم الكائنات قبل الكون إنه لم ينهَ ﷻ قط عن شيء إلا كان مفعولاً؛ ذلك لأن أمره الشرع المقابل له بالنهي منفصل من الأمر الذي هو الكون، وقد قال جلَّ قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧] نهى جلَّ ذكره أبانا آدم ؑ عن أكل الشجرة فواقع ذلك.

وكذلك الجملة من بنيه لكنه يعصم من يشاء بفضله، ويخذل من يشاء بعدله ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٥٢] أي: في صحف الكاتبين ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣] أي: في أم الكتاب علم ﷻ، وأجرى في تقديره أنه سيأتي بعد نزول القرآن من يستحل شعائره وينتهك حرماته، ويستبح حرمه ويعطل مناسكه، ويؤذي قاصديه وحجاج بيته الحرام ويريق دماءهم.

ثم عطف جلَّ ذكره آخر الخطاب قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾

[المائدة:٢] على أوله قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٣] إعلامًا منه جلَّ ذكره لعباده المؤمنين بإتمام كلمته الحسنى عليهم، وذلك لما أعدَّ الله جلَّ ذكره الإسلام بالنصر والفتح، وكثر المسلمون حجَّ رسول الله ﷺ تلك الحجة فيما لا يحصيهم عددًا، ولا يحويهم كتاب أنزل الله جلَّ ذكره عليه قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...﴾ [المائدة:٣] سميت تلك الحجة: حجة الكمال، وحجة البلاغ، وحجة الإسلام.

فأما الكمال: فلقوله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: دعائم الإسلام الخمسة بتوابعها.

وأما التمام: فلأنه جلَّ ذكره أتم كلماته الحسنى عليهم منها ما في قوله جلَّ قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح:٢٧] وكان ذلك استجابة منه جلَّ ذكره لدعاء إبراهيم واسماعيل - عليهما السلام - في قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:١٢٨].

وقولهما عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٩] كذلك أنجزهما موعده بالاستجابة والامتنان عليهما بما يكون من ذريتهما محمد وآله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - في قوله جلَّ قوله لهما، وأمره إياهما أن يطهرا بيته ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

وقوله - جلَّ قوله - لإبراهيم ﷺ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى

كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٢٧ - ٢٨] فكان إتمام ذلك منه - جلَّ وعلا - في ذلك اليوم وفيما بعده، وكل ذلك كلماته الصادقة السابقة في ذلك عبارات عبَّر بها، وإعلام ووعد وعد به وامتنان بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥].

وذلك كله مجموع في قوله - جلَّ قوله - مخاطبًا رسوله موسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ...﴾ [الأعراف:١٥٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وكان ذلك يوم الجمعة وهو يوم عرفة، وهو يوم الحج الأكبر يوم إتمام كلماته على عباده وإكمال نعمته، وهو المزيد إن شاء الله بسعة رحمته وكريم عفوه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: ٤ - ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ...﴾ [المائدة:٤] الجوارح: الكواسب، وهي هنا عبارة عن الكلاب والشواذق والبزاة، وكل من علم فتعلم، والمعنى هنا بالتعليم لهن هي الطواعية حال الاصطياد كالإرسال والإشلاء، وهو الزجر والإمساك للصيد على مُشليه، فإذا بلغ الجوارح ذلك كان ما قتله من الصيد بعد اليقين له، والتسمية عليه حلالاً أكله مباحًا متناوله إذا فات الزكاة، ومتى قدر المرسل على ذكاة الصيد فتركه عمدًا حتى مات عند

الجوارح فلا يؤكل.

قال الله ﷻ: ﴿فكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهِ﴾[1] أي: على الإرسال أو على الأكل أو كليهما ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة:٤] أي: في أحكام الصيد كلها خاصة، فإنها عينت، ثم في سواها عامة.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة:٩٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: ٦ - ٨].

قوله جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦] قرئ بفتح اللام عطفًا على غسل الوجه والأيدي، وبكسرها عطفًا على مسح الرؤوس، وهذا مصداق ما جاء رسول الله ﷺ من الأمر بالمسح على الخفين.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: فلم تقدروا على مسِّ الماء، وتعذر

(١) قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ....﴾ قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله ﷺ: زيد الخير، قالا: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية. [تفسير البغوي (١٥/٣)].

عليكم وجود الماء؛ إما لعدمه أو لعدم من يناوله، أو لتعذر الوصول إليه ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ﴾ عبارة عن الحدث ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فظاهرها إنه عطف على ذكر المرض أو السفر والحدث، وقد تقدم في صدر الآية ذكر الجنابة، وأن حكمها الغسل.

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦] وكذلك نظيرتها في سورة النساء، فاستاق ذكر الملامسة إلا ذكر الإحداث بعد ما صدَّر جلَّ ذكره بذكر الجنابة والغسل منها.

فصل

الملامسة: مفاعلة اللمس، من ذلك لمس يلمس لمسًا واللمس يكون باليد، ويكون بالبشرة، وقد استاقه جلَّ ذكره في سياق الإحداث وهو أعلم بما أراد، والجماع قد انفرد باسمه.

وقد سأل عتبان بن مالك رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يجامع أهله ثم يغسل ماذا عليه؟ قال: «**يغسل منه ما أصاب المرأة ثم يتوضأ ويصلي**»[1].

وأفرد الله جلَّ ذكره الجنابة بذكر الغسل، ولو كانت الملامسة بمعنى الجنابة لم يكن لتكرارها معنى، وقد تقدم ذكرها في صدر الآية، ولما قال رسول الله ﷺ للأسلمي لما أقر عنده بالزنى: «**لعلك لمستها، لعلك قبلتها**»[2] كل ذلك يقوله رسول الله، وهو يقول: لا والله يا رسول الله، وهو عري حتى سمَّى له الجماع باسمه الخاص به، لا يكني.

وقوله ﷺ: «**الماء من الماء**»[3] فهو على ظاهر القرآن، ثم بعد وقع الاختلاف بعد الوفاة، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «**إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل**»[4] وروته عن رسول الله ﷺ والقول بما حدثت به، وهو نسخ القرآن بالسنة،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٢٤)، والحاكم (٨١٩٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الشافعي (١٥٩/١)، والترمذي (١٠٩)، وأحمد (٢٦٧٧٨)، وابن ماجة (٦٠٨)، والبيهقي في المعرفة (١٣٧٢)، وإسحاق بن راهويه (١٠٤٤)، وابن حبان (١١٨٣).

وفي إخباره هذا نظر، وإنما السنة مبينة للقرآن لا ناسخة له، وقد درج على العمل بما روته عائشة - رضي الله عنها - أفاضل الأمة.

ورواه أيضًا أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قعد بين شعبها الأربع وأجهدها فقد وجب الغسل أنزل أو لم ينزل**»(١) ولم يعلم الجنابة إلا بنزول الماء.

قال رسول الله ﷺ: «**تحت كل شعرة جنابة...**»(٢).

وأكثر الصحابة ﷺ على الأمر الأول ثم حدث هذا، فالله أعلم آمنا بالله وسلمنا له.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ٩ - ١٢].

قوله عزَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢] النقابة: إعلام بالخير، وهو تبليغ الوحي، وما جاءت به الرسل - عليهم السلام - والتحريض عليه والإرشاد إليه والهداية، ونحو هذا مع البحث عما يخالف ذلك والتعاهد له.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧)، ومسلم (٣٤٨)، وابن أبي شيبة (٩٣١)، وأحمد (٧١٩٧)، والنسائي (١٩١)، وابن ماجة (٦١٠)، والدارمي (٧٦١)، وأبو عوانة (٨٢٤)، وابن حبان (١١٧٨)، والبيهقي (٧٤١). شعبها الأربع: يداها ورجلاها، وقيل: رجلاها وفخذاها.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨)، والترمذي (١٠٦)، وابن ماجة (٥٩٧)، وعبد الرزاق (١٠٠٢)، وابن أبي شيبة (١٠٦٥)، والطبراني (٣٩٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٤٨).

قال الله ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق:٣٦] أي: بعثوا في البلاد رسلاً يبحثون عما ينجيهم مما هم، والنقباء يبلغون عن رسل الله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - رسالاته إلى حيث لا تبلغه الرسل من الأقطار، وبعث الله جلَّ ذكره من أصحاب موسى وعيسى ومحمد - صلوات الله على جميعهم - النقباء.

وقال الله جلَّ ذكره للنقباء: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ....﴾ [المائدة:١٢] فوفى بالميثاق من وفى، ونقض من نقض، وما حذر الله جلَّ ذكره من شيء إلا كان مفعولاً واقعًا بمن أراده الله بذلك.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ
عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ
قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾
[المائدة: ١٣ - ١٦].

قال الله جلَّ ذكره: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي: فبالذي نقضوا ميثاقهم ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة:١٣] أي: من جنس ذنوبهم ووصف أعمالهم كان عذاب

ينالهم[١].

وقال في عيسى ﷺ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [المائدة:١٤] يعني: بين اليهود والنصاري.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ هذا خاص ليهود والله أعلم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤] كان ما تقدم ذكره متابعة بني إسرائيل اليهود والنصارى أنبيائهم.

وقال - جلَّ قوله - في المسلمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠] هذا ميثاق الإسلام والمسلمين.

ثم ميثاق الفطرة، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم...﴾ [البقرة:٢١] إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

ثم ميثاق العلم، قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقال جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف:١٦٩].

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ...﴾ [المائدة:١٥] إلى قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ [المائدة:١٦] هي سبل الله جلَّ ذكره لقوله جلَّ قوله: ﴿صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣] وهي ما شرعه من شرائع تخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه؛ أي: يرفع إلى الولاية

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ قرأ حمزة والكسائي: «قسية» بتشديد الياء من غير ألف، وهما لغتان مثل الذاكية والذكية، وقال ابن عباس: قاسية؛ أي: يابسة، وقيل: غليظة لا تلين، وقيل معناه: إن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق، ومنه الدراهم القاسية وهي الردية المغشوشة. [تفسير البغوي (٣١/٣)].

العظمى والاختصاص الأكبر.

يعبر بلفظ الظلمات إلى نوعين منها: أولها: ظلمات الكفر يخرجهم منها إلى نور الإيمان، ثم ظلمات العادات وضراوات يخرجهم منها إلى نور الإيمان، والطهارة والإحياء بروح الإيمان.

وقلما عبر ﷺ بإخراج من الظلمات إلى النور إلا عن الدرجة الأولى بعمومها، وشمولها الظلم الأول، والأخرى كقوله جلّ قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥] فالكتاب أولى بما هو الكتاب يهدي به إلى سبيل السلام، وبما هو النور، ويهدي إلى الاختصاص الأكبر وعلى الولاية، وإنما هو مبين وهو نور مبين لأهل كل مقام ما يأتون وما يذرون، فافهم.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ
مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم
بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ
فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ
أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ
ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ
﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن
نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ

إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ١٧ - ٢٨].

قوله ﷻ حكاية عن ابني آدم عليه السلام: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ﴾[1] [المائدة:٢٨].

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود، ونقضهم المواثيق والعهود كظلم ابن آدم لأخيه، المعنى: إن هم هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء، وقتل قابيل هابيل، والشر قديم، أي: ذكرهم هذه القصة فهي قصة صدق، لا كالأحاديث الموضوعة، وفي ذلك تبكيت لمن خالف الإسلام، وتسلية للنبي ﷺ واختلف في ابني آدم، فقال الحسن البصري: ليسا لصلبه، كانا رجلين من بني إسرائيل - ضرب الله بهما المثل في إبانة حسد اليهود - وكان بينهما خصومة، فتقربا بقربانين ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل، قال ابن عطية: وهذا وهم، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح أنهما ابناه لصلبه، هذا قول الجمهور من المفسرين وقاله ابن عباس وابن عمر وغيرهما، وهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل - لأنه كان صاحب زرع - واختارها من أردأ زرعه، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها، وكان قربان هابيل كبشًا - لأنه كان صاحب غنم - أخذه من أجود غنمه ﴿فَتُقُبِّلَ﴾ فرفع إلى الجنة، فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدي به الذبيح عليه السلام، قاله سعيد بن جبير وغيره، فلما تقبل قربان هابيل لأنه كان مؤمنًا - قال له قابيل حسدًا: أنه كان كافرًا - أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني! ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ وقيل: سبب هذا القربان أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن ذكرًا وأنثى - إلا شيثًا عليه السلام فإنها ولدته منفردًا عوضًا من هابيل على ما يأتي، واسمه هبة الله؛ لأن جبريل عليه السلام قال لحواء لما ولدته: هذا هبة الله لك بدل هابيل، وكان آدم يوم ولد شيث ابن ثلاثين ومائة سنة - وكان يزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته توءمته، فولدت مع قابيل أختًا جميلة واسمها إقليمياء، ومع هابيل أختًا ليست كذلك واسمها ليوذا، فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأتمر، وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على التقريب، قال جماعة من المفسرين منهم ابن مسعود، وروي أن آدم حضر ذلك والله أعلم. وقد روي في هذا الباب عن جعفر الصادق: إن آدم لم =

هـذا مـصداق قـول رسـول الله ﷺ: «إذا التقـى المـسلمان بـسيفيهما فالقاتـل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[(١)].

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ

يكن يزوج ابنته من ابنه، ولو فعل ذلك آدم لما رغب عنه النبي ﷺ ولا كان دين آدم إلا يكن النبي ﷺ وأن الله تعالى لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حواء بنتًا فسماها عناقا فبغت، وهي أول من بغى على وجه الأرض، فسلط الله عليها من قتلها، ثم ولدت لآدم قابيل، ثم ولدت له هابيل، فلما أدرك قابيل أظهر الله له جنية من ولد الجن، يقال لها: جمالة في صورة إنسية، وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه، فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حورية في صفة إنسية وخلق لها رحمًا، وكان اسمها بزلة، فلما نظر إليها هابيل أحبها، فأوحى الله إلى آدم أن زوج بزلة من هابيل ففعل، فقال قابيل: يا أبت ألست أكبر من أخي؟ قال: نعم، قال: فكنت أحق بما فعلت به منه! فقال له آدم: يا بني إن الله قد أمرني بذلك، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فقال: لا والله، ولكنك آثرته علي، فقال آدم: فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بالفضل، قلت: هذه القضية عن جعفر ما أظنها تصح، وأن القول ما ذكرناه من أنه كان يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن. والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وهذا كالنص ثم نسخ ذلك، حسبما تقدم بيانه في سورة البقرة، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطنًا، أولهم قابيل وتوءمته إقليمياء، وآخرهم عبد المغيث، ثم بارك الله في نسل آدم، قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفًا، وما روي عن جعفر، من قوله: فولدت بنتًا وأنها بغت، فيقال: مع من بغت؟ أمع جني تسول لها! ومثل هذا يحتاج إلى نقل صحيح يقطع العذر، وذلك معدوم، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)، وأحمد (٢٠٤٥٦)، وأبو داود (٤٢٦٨)، والنسائي (٤١٢٢)، وابن ماجة (٣٩٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٧٢٢٠)، والبزار (٣٠٧٢).

أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة: ٢٩ - ٣٣].

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[(١)] يقول: تبوء بإثمي ولو أردت قتلتك، وبإثمي إن قتلتك تكون من أصحاب النار، يجمع عليك فيها عذاب كل من قتل الناس جميعًا ظالـمًا لهم، قال الله ﷻ: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وكان هذا مصداق لقول رسول الله ﷺ: «**ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلاً منها**»[(٢)].

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ منتظم معناه معنى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

---

(١) قوله تعالى: ﴿إني أُرِيدُ أَن تَبوءَ بِإِثْمِي﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: على حَذْفِ همزة الاستفهام تقديره: أإنّي أريد؛ وهو استفهام إنكَار؛ لأن إرادة المَعْصِيَة قبيحَةٌ، ومن الأنبِيَاء أقبح؛ فهم مَعْصُومُون عن ذلك، ويؤيّد هذا التَّأويل قراءة من قرأ «أنَّى أريد» بفتح النون، وهي «أنَّى» التي بمعنى «كَيْفَ» أي: كيف أريد ذلك. والثاني: إنَّ «لا» محذوفةٌ تقديره: إني أريدُ ألا تَبُوء كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦] وقوله تعالى: ﴿رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] أي: ألّا تضلّوا وألا تميد وهو مستَفِيضٌ وهذا أيضاً فرار من إثْبَات الإرَادَة له، وضعَّف بعضهم هذا التَّأويل بقوله ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلَّا كانَ على ابْنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِها؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ» فثبت بهذا أن الإثْمَ حاصلٌ، وهذا الَّذي ضعَّفه به غير لَازِمٍ؛ لأن قائِل هذه المقالة يقول: لا يلزم من عَدَمِ إرادته الإثْم لأخيه عَدَم الإثم، بل قد يريد عدمه ويَقَع. الثالث: إن الإرادة على حَالها، وهي: إمَّا إرادة مَجَازية أو حقيقيَّة على حَسَبِ اختلاف المُفسِّرين في ذلك. [تفسير اللباب لابن عادل (٤٤/٦)].

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٧)، ومسلم (١٦٧٧)، وأحمد (٣٦٣٠)، وابن أبي شيبة (٢٧٧٥٩)، والترمذي (٢٦٧٣) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٣٩٨٥)، وابن ماجة (٢٦١٦)، والبيهقي (١٥٦٠٢)، وابن أبي عاصم في الديات (٥/١)، وأبو يعلى (٥١٧٩)، وابن حبان (٥٩٨٣).

﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] وقد تقدم - يعني: وهو أعلم - أنه يجمع عليه عذاب من قتل كل نفس قتلت بعد ظلمًا إلى يوم القيامة.

ثم بعد هذا التأويل يكون قاتل المؤمن لعرض من أعراض الدنيا ، يجمع عليه عذاب من قتل الناس جميعًا في منزلته ما دون الخلود، أو يكون حرمه الإسلام على غير هذا في هذا القاتل، الله أعلم آمنا بما هو الحق عند الله ﷻ.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلاً منها**»[١] يخص رسول الله ﷺ المقتولين ظلمًا.

وجاء القرآن العزيز بلفظ العموم، ثم أتبعه بلفظ التوكيد في قوله جلَّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فيمكن أن يكون المراد بقوله جلَّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ جميع المقتولين ظلمًا، ويمكن أن يكون يعدي العقاب إلى عقاب من لو قتل الجنس كله.

ومعنى ذلك أن آدم ﷺ كان واحد من الجنس، وكان عنه الناس بأجمعهم، فكان هذا القاتل إذا اجترأ على قتل نفس واحدة ظلمًا بعد الإعلام والإنذار أخذ بقتل أكبر الأنفس وأعمها، كما قال ﷻ في إثابته المؤمنين: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] فكما يرفع هؤلاء إلى ثواب أحسن أعمالهم، كذلك يجعل ﷻ هؤلاء على أكثر درجاته.

وإن كان قد قال في عاملي السيئات: ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون، ولا يُجزي ﴿إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠] فإن المعلوم في الشرع أن أحكام الدماء مغلظة جدًا، وقد أُخذ فيها بالخطأ والنسيان، ومما لم يتعمد فعله.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**لأن تقع السماء على الأرض أهون على الله من قتل نفس مؤمنة ظلمًا**»(١).

وقد سوى جلَّ ذكره بين العاصي والطائع بقوله جلَّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] هذا إلى اجتلابه ﷻ لفظ العموم، وأتبعه بلفظ التوكيد، ويمكن أن يكون المراعاة في لفظ رسول الله ﷺ دون القتل ظلمًا، وهو المبين عن الله ﷻ، فالله أعلم آمنا بالذي هو الحق، والصواب عند الله، والله عليم حكيم.

جاء هذا الخطاب على ظاهره، وفيه من الإشكال ما فيه؛ فأما ذكر القتل الواقع من ابن آدم لأخيه، فقد نصَّ عليه رسول الله ﷺ بقوله: «**ما نفس تُقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها**»(٢).

وجاء خطاب القرآن الكريم على ما هو الله أعلم بما أراده بقوله الحق: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] هذا ظاهره، وفيه من الإشكال ما الله به أعلم.

وأما باطنه فالقتل المخوف هو قتل النفس بالذنوب، وأول قاتلها إبليس - لعنه الله - قتل آدم بحمله إياه على الذنب، فعليه إثم كل من قاتل نفسه أي قتلٍ كان، والذي أحياها هو آدم ﷺ أحيا نفسه وذريته بالتوبة قد أجر كل من أحيا نفسه بعده.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن

---

(١) وقفت عليه بلفظ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» أخرجه الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي (٣٩٨٧)، والبيهقي (١٥٦٤٨)، وابن ماجة (٢٦١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ
فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ
ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾
[المائدة: ٣٤ - ٤٠].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ...﴾[(١)] [المائدة: ٣٥] الوسيلة - والله أعلم - جماع معنى القربة والحظوة والتمكين، والجاه والسؤدد مع نفع

---

(١) في الآية مسائل: الأولى: في النظم وجهان: الأول : اعلم أنا قد بينا أنه تعالى لما أخبر رسوله أن قومًا من اليهود هموا أن يبسطوا أيديهم إلى الرسول، وإلى إخوانه من المؤمنين وأصحابه بالغدر والمكر ومنعهم الله تعالى عن مرادهم، فعند ذلك شرح للرسول شدة عتيهم على الأنبياء وكمال إصرارهم على إيذائهم، وامتد الكلام إلى هذا الموضع، فعند هذا رجع الكلام إلى المقصود الأول، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾ كأنه قيل: قد عرفتم كمال جسارة اليهود على المعاصي والذنوب وبعدهم عن الطاعات التي هي الوسائل للعبد إلى الرب، فكونوا يا أيها المؤمنون بالضد من ذلك، وكونوا متقين عن معاصي الله، متوسلين إلى الله بطاعات الله. الوجه الثاني في النظم: إنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] أي: نحن أبناء أنبياء الله، فكان افتخارهم بأعمال آبائهم، فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا ليكن مفاخرتكم بأعمالكم لا بشرف آبائكم وأسلافكم فاتقوا وابتغوا إليه الوسيلة، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن مجامع التكليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما: أحدهما: ترك المنهيات وإليه الإشارة بقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ وثانيهما: فعل المأمورات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾ ولما كان ترك المنهيات مقدمًا على فعل المأمورات بالذات لا جرم قدمه تعالى عليه في الذكر. وإنما قلنا: إن الترك مقدم على الفعل؛ لأن الترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصلي، والفعل هو الإيقاع والتحصيل، ولا شك أن عدم جميع المحدثات سابق على وجودها؛ فكان الترك قبل الفعل لا محالة. فإن قيل: ولم جعلت الوسيلة مخصوصة بالفعل مع أنا نعلم أن ترك المعاصي قد يتوسل به إلى الله تعالى؟ قلنا: الترك إبقاء الشيء على عدمه الأصلي، وذلك العدم المستمر لا يمكن التوسل به إلى شيء ألبتة فثبت أن الترك لا يمكن أن يكون وسيلة، بل من دعاه داعي الشهوة إلى فعل قبيح، ثم تركه لطلب مرضاة الله تعالى، فهاهنا يحصل الوسل بذلك الامتناع إلى الله تعالى، إلا أن ذلك الامتناع من باب الأفعال، ولهذا قال المحققون: ترك الشيء عبارة عن فعل ضده. [تفسير الرازي (٤٨/٦)].

لسواه من شفاعة وقضاء حاجة.

والعرب تقول: فلان يسل بين الملك ورعيته، والرسل يسل بين الله جلَّ ذكره وعباده، فإذا كان يوم القيامة يسل بين العباد وبين الله ﷻ، ورسول الله ﷺ يسل يوم القيامة بين العباد أجمعين وبين ربهم؛ ليريحهم من أهوال الموقف، وفي فتح باب الشفاعة، وفتح باب الجنة.

قال النبي ﷺ: «**سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا**»(١) هو يريد: الوسيلة العامة، وهي العليا.

لذلك قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**». قال ﷺ: «**أتدرون لِمَ ذاكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد**»(٢) فذكر ﷺ شفاعة العامة لأهل الموقف، وإنه يدخل الجنة تحت لوائه آدم وولده حتى إبراهيم عليه السلام، وإلى غير ذلك ما خصَّه الله ﷻ من الحظوة والتمكين له به.

ثم هذه الآية تدل على أن الله جلَّ ذكره يعطي الوسيلة أيضًا من يشاء من عباده وأوليائه.

قال رسول الله ﷺ: «**يشفع الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**»(٣).

وقال ﷺ: «**يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي مثل ربيعة ومضر**»(٤).

يقول الله جلَّ ثناؤه: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين**»(٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والترمذي (٣٦١٤) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٦٥٦٨)، والنسائي (٦٧٨)، وابن حبان (١٦٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤)، وأحمد (٩٦٢١)، والنسائي في الكبرى (١١٢٨٦)، وابن أبي شيبة (٣١٦٧٤).

(٣) أخرجه ابن ماجة (٤٣١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٠٧).

(٤) أخرجه الطبراني (٨٠٥٨)، وابن أبي شيبة (٣٢٣٤٣)، والحاكم (٥٧٢١)، وابن عساكر (٩/ ٤٣٨)، والديلمي (٨٩٢٨).

(٥) تقدم تخريجه.

بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ
لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا
فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم
بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ
يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى
وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا
اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا
تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾
[المائدة: ٤١ - ٤٤].

قوله جلَّ من قائل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ...﴾ [المائدة:٤٤] كون التوراة هدى ونور هو بما كان يهدي بها في ظلمات الجهل، ويستبان بها سبيل مرضاة الله ﷻ من مواقع غضبه وسخطه وجميع ما يكرهه، وكذلك جميع الكتب.

وكونها هدى هو بما يهدي بها الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وحكم الهداية أولاً والنور من وراء ذلك.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾[1] وجميع الأنبياء مسلمون، والمراد بهم ها هنا من لدن موسى ﵇ إلى

---

(١) دلّت الآية على أنه يحكم بالتوراة النبيون والربانيون والأحبار، وهذا يقتضي كون الربانيين أعلى حالاً من الأحبار، فثبت أن يكون الربانيون كالمجتهدين والأحبار كآحاد العلماء، ثم قال: ﴿بِمَا استحفظوا مِن كتاب الله﴾ وفيه مسألتان: المسألة الأولى: حفظ كتاب الله على =

محمد ﷺ.

والأحبار على الأغلب هم علماء الأحكام والربانيون هم العلماء بالله وأحكامه العالمون بطاعة الرب ﷻ الذين فرغوا أنفسهم للعلم والعمل حتى عرفوا به، ونسبوا إليه؛ لأنهم أهل التقوى والورع.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:٣٤].

وقال ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦] فاستاق ذكرهم في معرض المدح، وعرض بالائتمام بهم.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

=

وجهين: الأول: إن يحفظ فلا ينسى. الثاني: أن يحفظ فلا يضيع وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين: أحدهما: أن يحفظون في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم، والثاني: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه. المسألة الثانية: الباء في قوله: ﴿بِمَا استحفظوا مِن كتاب الله﴾ فيه وجهان: الأول: أن يكون صلة الأحبار على معنى العلماء بما استحفظوا. الثاني: أن يكون المعنى يحكمون بما استحفظوا وهو قول الزجاج. [تفسير الرازي (٦٧/٦)].

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٥ - ٤٨].

قوله ﷻ: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ**﴾ أي: القرآن ﴿**بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة:٤٨] **الحق** المذكور هنا - والله أعلم - ما حفَّه به حين الإنزال من الحفظ، وأراده من حكمة وفرقان، واحتوشه به من الرصد، وما جعله ﷻ عليه من الإعجاز، وأراد به من حكمة وفرقان ونور وهداية، وبيان حلال وحرام، ومواعظ من أحكام ووصف الصفات العلا، وإعلام بالأسماء الحسنى إلى غير ذلك من كلاءة، والكتاب هنا هو جميع كتب التوراة والإنجيل والزبور، وجميع الصحف المنزلة من عنده جلَّ ذكره.

قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ**﴾ [الحديد:٢٥] يريد ﷻ: الكتب، وأفرد الضمير في قوله جلَّ قوله: ﴿**مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ يريد: الجنس.

والمهيمن: الشهيد والرقيب والمخبر، كما قال الشاعر:

يهيمن بالأخبار في كل موطن ... وأنت بما تأتيه غير خبير

كما قال الله ﷻ: ﴿**يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [المائدة:١٥].

وقد يكون المهيمن بمعنى: القاضي، كما قال بعضهم:

ومهيمن قاض على ما قبله ... من سنة محدودة وكتاب

وقد يكون بمعنى: الشاهد والعلي، كما قال الشاعر:

وهو الشهيد المهيمن فاعل ... ما شاء قدرة واعتلاء

وقد يكون بمعنى: الأمين والمؤتمن، قال الشاعر:

ولست مهيمنًا ما دمت حيًا ... على أموال أيتام الأياما

واسم الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه جامعًا لهذه الوجوه كلها وما هو، وهو العلي الأعلى المتصف بحقيقة ذلك، وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية، وعلى هذا فهو المؤمن العلي المهيمن على كل مؤمن، فالكريم العلي المهيمن على كل كريم، والرحيم العلي المهيمن على كل رحيم، وكذلك في جميع الأسماء.

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[١] [المائدة:٥٤] أتم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كلمته هذه فيمن

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ نزلت خطابًا للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة، و«من يرتد» جملة شرطية مستقلة وهي إخبار عن الغيب. وتعرض المفسرون هنا لمن ارتد في قصة طويلة نختصرها؛ فنقول: ارتد في زمان الرسول ﷺ مذحج ورئيسهم عبهلة بن كعب ذو الخمار، وهو الأسود العنسي قتله فيروز على فراشه، وأخبر الرسول ﷺ بقتله، وسمى قاتله ليلة قتل. ومات رسول الله ﷺ من الغد، وأتى خبر قتله في آخر ربيع الأول وبنو حنيفة رئيسهم مسيلمة قتله وحشي، وبنو أسد رئيسهم طليحة بن خويلد هزمه خالد بن الوليد وأفلت ثم أسلم وحسن إسلامه. هذه ثلاث فرق ارتدت في حياة الرسول ﷺ وتنبأ رؤساؤهم. وارتد في خلافة أبي بكر ﷺ سبع فرق، فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وسليم قوم الفجأة بن عبد يا ليل، ويربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر وقد تنبأت وتزوجها مسيلمة، وكندة قوم الأشعث، وبكر بن وائل بالبحرين قوم الحظم بن يزيد. وكفى الله أمرهم على يدي أبي بكر ﷺ، وفرقة في عهد عمر: غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة وسيرته إلى بلد الروم بعد إسلامه. وفي القوم الذين يأتي الله بهم: أبو بكر وأصحابه، أو أبو بكر وعمر وأصحابهما، أو قوم أبي موسى، أو أهل اليمن ألفان من البحر وخمسة آلاف من كندة
=

يرتد من العرب إثر وفاة رسول الله ﷺ، فقيض الله أبا بكر والمهاجرين والأنصار ﷺ، فكانوا على ما وصفهم الله جلَّ ذكره من اللين للمؤمنين، والرحمة لهم والعزة والغلظة للكافرين، فجاهدوا في الله مجاهدة حميدة، ثم إذا فسد أهل الزمان، ونسوا كثيرًا مما ذكروا به خفي لذلك المعروف وفشا المنكر، وكثر ذلك حتى إذا قام مقام الارتداد عن الدين أو قارب ﴿يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

فإذا جاء الله بذلك ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٢ - ٣].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المائدة: ٥٥ - ٦١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥] انتظم هذا بما تقدم ذكره من البراءة والولاية، وبيَّن الله جلَّ ذكره مظان الولاء له بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ

وبجيلة، وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا أيام القادسية أيام عمر أو الأنصار، أو هم المهاجرون، أو أحياء من اليمن من كندة وبجيلة وأشجع لم يكونوا وقت النزول قاتل بهم أبو بكر في الردة، أو القربى، أو علي بن أبي طالب قاتل الخوارج أقوال تسعة. [تفسير البحر المحيط (٤/٤٥٨)].

وَرَسُولُهُ﴾.

ثم وصف - جلَّ وصفه - هؤلاء المؤمنين، وهم المؤمنون الحق الذين هم الأولياء، فوقع بهمم المتأخرين والمتثبطين إلى ولايته وولاية رسوله والأولياء؛ إذ لم يدركوهم بالأعمال فبالولاية.

قال رسول الله ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»[1].

وقال ﷺ في المنافقين والذين كانوا يتولون الكافرين: **﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [المائدة:٥١].

وأعلم أيضًا أنه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا أن يهديهم من أجل ذلك، كما أنه يمنع الهداية من تولى أهل الكفر والعناد، والحمد لله رب العالمين.

وهو أيضًا ممتزج بالمجاورة، والمعنى بولاية هؤلاء المذكورين المنتظر مجيئهم إن شاء الله **﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾** وإخواننا الذين لم يأتوا بعد **﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [الحشر:١٠].

قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾** [المائدة:٦٠] وهذا خطاب مردود على معنى قوله: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾** [المائدة:٥٩].

يقول الله جلَّ قوله: **﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ﴾** وهم النصارى **﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾** هم اليهود، ومن لعنه الله فقد غضب عليه، كما أنه من غضب عليه فقد لعنه، غير أن الفرق بين المغضوب عليهم وبين الملعونين أن اللعن انفصل من صفات فعل، فربما أعقب بمشيئته العالية جلت مشيئته فيهم بإنباء ربهم وتوفيق لهم، وإدخال في رحمته منه وفضل، والغضب عليهم انفصل من صفات ذاتٍ، فعسر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٦٨٧٨)، والترمذي (٢٣٨٥) وقال: صحيح، وأحمد (١٣٠٥٢)، وابن حبان (٥٦٤)، والدارمي (٢٨٤٣)، والطبراني (٣٢٠٦)، والبيهقي في الشعب (٥٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٢٩٤٦)، والطيالسي (٢٢٣٣).

لذلك تأتيهم لتوبة، وتعذر ذلك عليهم.

قال الله جلَّ قوله: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [آل عمران:٨٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾ [آل عمران:٩٠].

وقال جلَّ قوله: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ**﴾ فقد كان هذا في أهل الكتاب ﴿**أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة:٦٠] يعني: ممن آمن بالله، وبما أنزل إليه من كتاب، وبمن أرسل من رسول، واعتقد فيمن لم يفعل ذلك منكم إنهم فاسقون.

وجاء قوله جلَّ ذكره: ﴿**شَرٌّ**﴾ وفيه معنى المفاضلة؛ إذ العرب تقول فيمن لا شر فيه: قطيعًا، قال الله ﷻ: ﴿**اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النمل:٥٩].

وقُرئ هذا الحرف على خمسة عشر وجهًا كلها مقروءًا بها: «**عبد الطاغوت**» على وزن فعل، قرأ بذلك جماعة.

وقرأ الأعمش: «**وعَبُد الطاغوتِ**» بفتح العين وضم الباء، وخفض التاء من الطاغوت.

وقرأ ابن وثاب: «**وعُبُدَ الطاغوتِ**» برفع العين والباء وفتح الدال، وكسر الطاغوت.

وقرأ الأعمش أيضًا: «**وعُبَّدَ الطاغوتِ**» بضم العين وفتح الباء وشدها وفتح الدال، وكسر التاء من الطاغوت.

وقرأ ابن عباس: «**وعابدوا الطاغوتِ**» على وزن فاعلوا، وكسر التاء من الطاغوت على الإضافة.

و«**عَبْدَ الطاغوتِ**» بفتح العين والدال وإسكان الباء، وكسر التاء.

و«**عُبِدة الطاغوتُ**» بضم العين وكسر الباء على وزن فعلت، ورفع التاء من الطاغوت.

و«**عُبَدَ الطاغوتِ**» على وزن فعل بضم العين وفتح الباء والدال، وكسر التاء من الطاغوت.

و«عبد الطاغوتِ» على وزن فعل، وكسر التاء.

و«عَبْد الطاغوتَ» بفتح العين والدال وسكون الباء، ونصب التاء[١].

وفي هذه الآية دليل على أن المعاريض لها حقيقة توجب اتباعه حكمها على المعرض، وذلك في قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

والذي يصح عليه التأويل في قوله جلَّ قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ إن خطاب هذه الآية معلق من هذه الجهة بقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٥٧].

ولما ذكر ﷻ الكفار ذكر في مقابلتهم عبد الطاغوت، وهم شركاء اليهود فيما ذكره قبل هذا تقدير الكلم: هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت.

وقوله جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يريد والله أعلم: الكفار عبدة الطاغوت هم شر من يهود، ويمكن أن يكون مرجوع الخطاب كله إلى موضع المفاضلة من قوله جلَّ قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ﴾ [المائدة:٦٠] وكل عبادة لغير الله فهي طاغوت؛ فاعول من الطغيان، وقد عبدت النصارى عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - وهم المتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وعبدت اليهود العجل، ويعبدون مستقبلاً الدجال - لعنهم الله ولعنه - وقد عبد أكثرهم الأوثان.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) انظر: الكشاف (٢/٤٢)، وتفسير اللباب لابن عادل (٦/١٤٧).

ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ
وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟
وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ
عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ
مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾
لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟
عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ
لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى
دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا

وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ
وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ
عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ
هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ
أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا
نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾
[المائدة: ٦٢ - ٨٢].

قوله ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾[1] [المائدة: ٨٢].

وقرأ سلمان ﷺ: «دع القسيسين في الصوامع والخرابات»[2].

ويذكر أنها نزلت في رجال بعث بهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ، فلما سمعوا القرآن بكوا، فإن كان ذلك كذلك فليست مقصورة على أولئك دون سواهم من المهتدين، وهي بشارة من الله جلَّ ذكره بهم، وإنه سيأتي بهم في آخر الزمان إن شاء الله، وهم في جملة من شملهم قوله جلَّ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) عن سعيد بن جبير في الآية قال: هم رسل النجاشي بإسلامه وإسلام قومه، كانوا سبعين رجلاً يختارهم من قومه، الخير فالخير في الفقه والسنّ، وفي لفظ: بعث من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلاً، فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، فأنزل الله فيهم: ﴿ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا...﴾. [فتح القدير (٣٤٨/٢)].

(٢) أخرجه أبو عمرو الدوري في «جزء في قراءات النبي ﷺ» (٤٠) وانظر: تفسير القرطبي (٦٢٥٧).

وإن قوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فوصفهم - جلَّ وصفه - بالإيمان الأرفع والخشية، والرهبانية من نعت أتباع عيسى ﷺ، والصديقية من نعت المهتدين سواهم.

وقال رسول الله ﷺ: «يغزو القسطنطينية سبعون ألفًا من بني إسحاق....»[1].

وقال فيهم جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة:٨٢] ولم يقل: «ولتجدن أقربهم مودة عند الله النصارى» فدلَّ ذلك على دخولهم في دين الإسلام، واتباعهم المسلمين.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٨].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا....﴾ [المائدة:٨٧] بلغ رسول الله ﷺ أن أناسًا من أصحابه - رضي الله عن جميعهم - قال أحدهم: والله لا آكل اللحم، وقال الآخر: والله لا أنكح النساء، وقال الآخر: والله لا أنام الليل، وقال الآخر: والله لا آكل نهارًا، فنزلت هذه الآية.

وسمَّى ذلك جلَّ ذكره اعتداء، كما سمَّى الإسراف اعتداء، وخطب رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم: لا أنكح النساء، ويقول الآخر كذا، ويقول الآخر كذا، أما أنا فآكل اللحم وأنكح النساء، وأصوم وأفطر وأنام وأقوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢٠)، والحاكم (٨٤٦٩).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٥١).

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٨٩ - ٩٢].

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ [المائدة:٨٩] أي: في حدوده أن تعتدوها؛ لعلكم تبلغون مقام الشكر، وإنما يكون ذلك إذا كانت أعمالكم على سبيل السنة وقوام الاقتداء.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبًا﴾ [النحل:١١٤] هذا خطاب راجع إلى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة:٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾(١) [المائدة:٩٠] الخمر: ما خامر العقل، ومخامرتها

---

(١) اعلم أنَّ هذه الآيةَ دالَّةٌ على وُجوبِ تحريم شُرْبِ الخَمْرِ من وُجوهٍ: أحدها: تَصْدِيرُ الجُمْلَة بـ «إِنَّما» وهي لِلْحَصْرِ، فَكأَنَّهُ قال: لا رِجْسَ ولا شيءَ من أعمالِ الشَّيْطَانِ إلَّا هذِهِ الأربَعَة. وثانيها: إنَّهُ تعالى قَرَنَ الخَمْرَ والمَيْسِر بِعبادةِ الأوثَان، ومنه قولُهُ ﷺ: «شَارِبُ خَمْرٍ كَعَابِدِ وثَنٍ». وثالثها: قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ جعلَ الاجْتِنَاب من الفلاحِ، وإذا كان الاجْتِنَاب فَلَاحًا كان الارْتِكَابُ خَيبَةً. ورابعها: ما تقدَّم من اشْتِمَال الاسْتِفْهَامِ على المَنْفِي. وخامسها: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول﴾ وظاهرُ الأمرِ بالطَّاعَةِ فيما تقدَّم ذكرُه من أمرهم بالاجْتِنَابِ عَنِ الخمْرِ والمَيْسِر، وقوله: ﴿واحْذَرُوا﴾ أي: احْذَرُوا عن مُخَالَفتِهمَا في هذا التَّكْلِيف. وسادسها: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ﴾ وهذا تَهْدِيد عَظِيمٌ ووعيدٌ شَدِيدٌ في حقِّ من خَالَفَ في هذا التَّكْلِيف، وأعْرَضَ عن حُكْمِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ مَعْنَاه إنْ تَوَلَّيْتُم فالحُجَّةُ قد قَامَتْ عَلَيْكُم، والرَّسُول قد خَرَجَ عن عُهْدَةِ التَّبْلِيغ والإعْذَار، فأمَّا ما وراء ذلِكَ من عِقَابِ من خَالَفَ هذا التَّكْلِيف وأعرض، فذَلِكَ إلى اللهِ =

إياه: تغطيتها له.

يقال من ذلك: «خمر إناءك» بمعنى: غطه، ومنه: خمار المرأة.

وكل ما أسكر فهو حرام، وسكرها أشدها على العقل موضع اتصاله بمنبعثه من الحق، وهو نور باطن به يوجد الميز، وبه يكون الإيمان والهداية، وهو شمس الباطن وضياؤه، ولكونها مخامرًا للعقل ومسكرًا له حرمه الله تعالى، وهي أيضًا رجس، والرجس عمل الشيطان، وهو مستقذر نجس أدنى صفاته أنه حرام؛ لأنه من خطوات الشيطان، ولأنه رجس ونجس استعماله مع سواه.

وإن غلبت عليه صفات سواه فأزالت إسكاره ومخامرته للعقل، فهو متى وقع منه شيء في شيء صيَّره نجسًا، ومتى أصاب الثوب منه شيء وجب غسله، وكل ما شملها من هذه الصفات، وما شغل عن ذكر الله وعن الصلاة، وما أوقع العداوة والبغضاء، وأكل أموال الناس بالباطل فهو حرام فعله وكسبه.

ومن الفقه فيما هو من سننها أنها لما كانت رجسًا من عمل الشيطان لم يحل لمسلم أن يعتصرها؛ ليتخمر عنده ثم يخللها، فإنها وإن كانت نجسة برهة من الدهر، فليس ذلك من سنن المتقين، فإن المقطوع به نجاستها حال إسكارها وكونها مرصدة لظنون، فكم من مصلٍّ لا صلاة له، وكم من تائب لا توبة له.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ**﴾ [آل عمران:٩٠] ولم تخمرت من حيث لا يشعر، ثم خلت وتخللت كان أقرب إلى صلاحها.

تنبيه:

استاق ﷺ تحريمها والنهي عنها، والوعيد فيها في سياق النصيحة؛ لرقته

تعالى، وهذا تَهْديدٌ عظيمٌ، وهذا نصٌّ صَريحٌ في أنَّ كلَّ مُسكرٍ حرَامٌ؛ لاشْتِمَالِهِ على ما تَشْتَمِلُ عليه الخَمْرُ. قال ﷺ: «**كلّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وإنّ حتمًا على اللهِ ألا يَشْرَبَهُ عبْدٌ في الدُّنيا إلَّا سَقَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة من طِينَةِ الخَبَالِ، هَلْ تَدْرُونَ مَا طِينَةُ الخَبَالِ؟**» قلنا: لا. قال: «**عَرَقُ أهْلِ النَّارِ**» وقال ﷺ: «مَنْ شَرِبَ **الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ**». [تفسير اللباب لابن عادل (٦/٢٢٣ - ٢٢٤)].

ورحمته لعباده بقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠].

النصب: ما كانوا يذبحون عليه ذبائحهم، ويهلون في ذلك بها لطواغيتهم.

والميسر: شيء كانوا يجتمعون له، كانوا يجعلون له أمينًا يضرب لهم بالقداح في كثير من أمورهم لأسفارهم أحد الأزلام، فيه: «افعل» وعلامته ذلك، الآخر: «لا تفعل»، والثالث: «عقل» فإذا خرج له «افعل» قضى به في مضي سفره وإطعام طعام أو غير ذلك، وإذا خرج فيه الذي علامته «لا تفعل» قضى به في الترك، وإن خرج «العقل» لم يقضِ شيئًا وأعاد الأزلام.

وأصله: إنه قمار، وكانت الجاهلية تقسمه أقسامًا، فربما قسَّموه ثمانية وعشرين قسمًا، كل قسم من ذلك جزء من أجزائه، وربما قسموه على عشرة أجزاء، وكانت قداحًا لا ريش لها، وكانت لهم في ذلك أحكام على قدر صلاتهم وبدعهم، ثم استعمل اسم الميسر حتى سموا كل قمار: ميسرًا، والنرد والشطرنج وما أشبه ذلك كله قمار وهو ميسر، وكل ذلك رجس من عمل الشيطان يُشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة والبغضاء، وأكل المال بالباطل، وهو فحشاء؛ لأنه من عمل الشيطان.

قال الله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة:٢٦٨] ثم أكد ﷻ النهي، وبالغ في التحذير من ذلك.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢].

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ

عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة: ٩٣ - ٩٦].

قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة:٩٣] جاء أنه لما نزل تحريم الخمر، قال أصحاب رسول الله ﷺ: ما حال إخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم؟ قال: فنزلت هذه الآية بقوله جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ من الخمر قبل التحريم.

يقال: «طعمت» بمعنى: أكلت وذقت، و«طعمت» بمعنى: شربت، إذا ما اتقوا العودة بعد التحريم كقوله جلَّ قوله: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ...﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال - جلَّ قوله - في حكم الصيد: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ [المائدة:٩٥].

تنبيه: هذا وإن كان كذلك فالأحكام يُنزَّل على أسبابها، ويصح اعتقاد ذلك متى صحت رواية الرواة لها، ويثبت التوقيف من الله جلَّ ذكره أو من الرسول ﷺ بأن ذلك مقصود، وهو المراد بذلك، وإلا فللقرآن الحكيم بذلك حسن سرده وبدائع تأليفه، فمعناه - والله أعلم ورسوله - أن التنزيل كله في هذه السورة، أو أكثره ابتنى على ثلاثة فصول:

أحدها: الوفاء بالعقود، وهو مشتمل على ما انعقدت عليه النيات توجهت به الإرادات، وما اكتسبت به البواطن من تحقيق أمان وعمل ونية على حكم العموم في ذلك كله، من محلله ومحرمه ومباحه.

الثاني: إنه ابتنى على تحليل الطيبات من مطعوم ومشروب وملبوس ومنكوح، وأحكام ذلك في مجاري اكتسابه في أنواع الموجودات من مائع وجامد، وحيوان أهلي وبري أو بحري، أو اختلاف حال مكتسبه؛ لاختلاف التحليل والتحريم من أجل ذلك.

الثالث: يبتني على النهي عن استحلال شعائر الله ﷻ، والشهر الحرام والهدي

والقلائد وآمِّين البيت الحرام، وعن أن يُجازي المسيء باعتدائه حدود الله جلَّ ذكره باعتداء آخر لحدود الله، ويتبع ذلك تكفير السيئات، والزجر عن كتمان ما أنزل الله من كتابه وشرعه كما فعل أهل الكتاب.

وقصص ما جاء فيها من ذكرهم زجر عن اتباعهم في غلوّهم في دينهم، وعتوِّهم على أنبيائهم، وافترائهم على الله ﷻ ورسله - عليهم السلام - وموالاتهم الأباعد من الكفرة والفجرة والفساق، والأخذ من ذلك كله بالأمر العلي، والجري على الطريقة المثلى بقوله جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ قبل التحريم له ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ الله في ترك العودة إلى ما نهوا عنه في الوفاء بعقودهم.

﴿وَآمَنُوا﴾ بما أنزل في ذلك من كتاب وسنة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في ذلك كله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ في تناول الطيبات مما أحل لهم من مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم، وفي حكم ما ملكت أيمانهم من أنعام وحيوان على اختلاف ذلك كله، وباختلاف أحكامه على اختلاف أحواله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ في شرائعه وشعائره ومناسكه وعباده وحرمه ومحارمه، وفيما أنزل إليهم من ربهم، وفيما يدينون به ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ في العمل بطاعة ربهم، وفيما نهاهم عنه ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[1] [المائدة:٩٤] الابتلاء هو الاختبار، يبلي الله جلَّ ذكره العباد؛

---

(١) ليبلونكم؛ أي: ليختبرن طاعتكم من معصيتكم. قال مقاتل بن حيّان: ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون عام الحديبية حتى كانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم، فيقدرون على أخذها بالأيدي وصيدها بالرماح، وما رأوا مثل ذلك قط، فنهاهم الله عنها ابتلاءً. وقال الواحدي: الذي تناله الأيدي من الصيد الفراخ والبيض وصغار الوحش، والذي تناله الرماح الكبار، وقال بعضهم: هذا غير جائز؛ لأن الصيد اسم للمتوحش الممتنع دون ما لم يمتنع. ومعنى التقليل والتصغير في قوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد﴾ أن يعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي يكون التكليف فيها صعبًا شاقًا، كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال، وإنما هو ابتلاء سهل، فإن الله تعالى امتحن أمة محمد ﷺ بصيد البر كما امتحن بني إسرائيل بصيد البحر، وهو صيد السمك، ومن في قوله: ﴿مِّنَ الصيد﴾ للتبعيض من وجهين: **أحدهما**: المراد صيد البر دون البحر. **والثاني**: صيد الإحرام دون صيد الإحلال. وأراد بالصيد المفعول بدليل قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ورماحكم﴾ والصيد إذا كان بمعنى المصدر يكون حدثًا، وإنما يوصف =

ليستخرج منهم ما قد سبق به علمه فيهم قبل أن يوجدهم، فإذا وقع منهم ذلك المعلوم كونًا كان علمه به إنه قد حدث كونًا بعد أن لم يكن، فيُجازى العبد بما نواه به، فافهم.

وقرأ هذا الحرف ابن شهاب والزهري: «لِيُعْلِمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ»[1] برفع الياء وكسر اللام؛ أي: يوم الجزاء، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

فصل

نوَّع الله جلَّ ذكره الصيد نوعين؛ فما سال منه بحبالةٍ أو بسهمٍ، أو يحصل في ملك مقتنصه حيًا فهو مما أُخذ باليد، فلا بد من ذكاته.

وما عَلَبه[2] متناوله فلم يناله إلا برمح أو بسيف، أو سهم أو حجر، أو معارض أو جارح فمات بذلك، فتلك ذكاته ما حرق المعراض، فخرج بذلك على أن يكون وقيذًا، أو تفرد به الجارح المرسل عليه؛ ليتوجه ذكر اسم الله عليه بإحكام ذلك كله وتفاصيله، وعلى ما جاء فيه من تحريم وتحليل، ومعهود الصيد في الصحاري والفلوات، كذلك قال جلَّ ذكره: ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤] هذا على القول بأنها نزلت في المؤمنين عامة.

وأما على أنها نزلت في المحرمين منهم، فالابتلاء لهم هو بصيد الحرم، يدل على ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ وهو بعض له، وهو مما يكون له في مكان الحرم ولأنسه.

قال جلَّ قوله: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فلا يعلنه شهوته على الاصطياد لأنسه.

ثم نصَّ على ذلك في الآية التي بعدها يقول جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

=

بنيل اليد والرماح ما كان عينًا. [تفسير الرازي (١٥٢/٦)].

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (١٣/٥).

(٢) عَلَبه: إذا وسَمه وأثَّر فيه. انظر: النهاية في غريب الأثر (٥٥٠/٣).

﴿تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥] فخصَّ ﷻ الأولى لحكم الاصطياد، وهذه لحكم القتل، ومن قتله منكم متعمدًا فجعل ﷻ الجزاء على قاتله نكالاً.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة:٩٥] كما قال - جل قوله - في الأولى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٨] وقد قال قوم: إنه لا يجزي عنه الجزاء الذي هو الهدى في العود؛ لقول الله جلَّ قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ قاله ابن عباس ﷺ والحسن بن جبير ومجاهد والنخعي وقتادة، وهو ثابت عن ابن عباس رضي الله عن جميعهم.

وتوصيل هذا الخطاب المعبر عن حكم الاصطياد كله في هذه السورة من حيث التحريم بقوله جلَّ قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١] ومن حيث التحليل بقوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة:٢] كما مرجوع قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٨٧] إلى قوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ...﴾ [المائدة:٤].

واتصال هذا بقوله جلَّ قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] وكله راجع إلى قوله جلَّ قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

قوله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ﴾[1] [المائدة:٩٦] صيد البحر: ما صيد حيًا، وطعامه: ما أطعمه فألقاه ميتًا.

قال رسول الله ﷺ لأصحاب أبي عبيدة بن الجراح ﷺ حين وجدوا البحر قد لفظ لهم حوتًا عظيمًا مثل الضرب، يسمى: «جمل البحر» أكل منه الجيش وأدهن خمسة عشر يومًا، فاستفتوا فيه رسول الله ﷺ فقال: «**إنما هي طعمة أطعمكموها الله**»[2] فصيد البحر حلال للمحرمين، وطعامه متاع وللسيارة؛ يعني:

---

(١) قال الكلبي: نزلت في بني مدلج وكانوا ينزلون في أسياف البحر سألوا عما نضب عنه الماء من السمك فنزلت، والبحر هنا الماء الكثير الواسع وسواء في ذلك النهر والوادي والبركة والعين لا يختلف الحكم في ذلك. [تفسير البحر المحيط (١٩/٥)].

(٢) أخرجه مالك (٧٨١)، والبخاري (٢٩١٤)، ومسلم (٢٩٠٩)، وأبو داود (١٨٥٤)، والترمذي =

غيرهم ممن لم يلزم حكم الإحرام من المسافرين وغيرهم.

وحرم عليهم صيد البر ما داموا حرمًا، كما قال جلَّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١] فتلا جلَّ ذكره عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير، وشمل الخنزير اسم البهيمة، وكذلك ما صيد من حيوان بري أو هوائي أو بحري، ثم ما تلا ﷻ علينا من أحكام ذلك في أثناء السورة، فهو مما وعد ﷻ أن يتلوه علينا، ويستثنى حكمه من حكم المحلل من قوله جلَّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾.

ولما أباح جلَّ ذكره الصيد على الإجمال، وحظره على المحرم خاصة، وأحل له صيد البحر تمدح ﷻ بعزته، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١].

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧ - ١٠٢].

قوله ﷻ: ﴿جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ [المائدة:٩٧] القيام هنا بمعنى: القوام، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥].

قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمنة السماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما

=

(٨٥٧)، والنسائي (٢٨٢٨)، وأحمد (٢٣٢٣٣)، وابن حبان (٤٠٥١)، والبيهقي في سننه (١٠١٩٠).

توعد، والجبال أمنة الأرض، فإذا ذهبت الجبال أتى الأرض ما توعد، والبيت أمنة للناس، فإذا ذهب البيت أتى الناس ما يوعدون»(١) والشهر الحرام والهدي والقلائد مما يتبع البيت ويخصه.

وقوله جلَّ قوله: ﴿**ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة:٩٧] أخبر ﷻ أنه إنما جعل هذه الشعائر والبيت، وما اختصه لذكره، أو أضافه إلى نفسه من بيت وأمكنة وأزمنة؛ ليعلم ﷻ، ويوقف على معرفة أسمائه، ومعاني صفاته بكتبه ورسله وأنبيائه ووحيه، كذلك فعل مما تقدم ذكره.

ثم وصل ذلك بقوله - جلَّ قوله - للعباد: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾ أي: لمن كفر به وكذَّب رسله وخالف أمره ﴿**وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [المائدة:٩٨] لمن آمن به وبكتبه ورسله وعمل بمرضاته، وبخاصة في الوفاء والعقود، والطاعة في الوقوف على الحدود.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾(٢) [المائدة:٩٩] وعيد منه وتهديد.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**لَّا يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**﴾ من القول والعمل، والعقود والنيات، والمآكل والمشارب، والأموال والمكتسبات ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١)، وأحمد (١٩٥٨٤)، والبزار (٣١٠٢)، وابن حبان (٧٢٤٩)، والطبراني في الكبير (٨٤٦) وفي الأوسط (٧٤٦٧).

(٢) لما تقدم الترغيب والترهيب أخبر تعالى أن كلف رسوله بالتبليغ وهو توصيل الأحكام إلى أمته، وهذا فيه تشديد على إيجاب القيام بما أمر به تعالى، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت عليه الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم في التفريط، قال ابن عطية: هي إخبار للمؤمنين ولا يتصور أن يقال: هي أنه موادعة منسوخة بآيات القتال بل هذه حال من آمن بهذا وشهد شهادة الحق فإنه عصم من الرسول ماله ودمه، فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ، وذكر بعض المفسرين الخلاف فيها أهي محكمة أم منسوخة بآية السيف والرسول هنا محمد ﷺ. وقيل: يجوز أن يكون اسم جنس والمعنى ما على كل من أرسل إلا البلاغ والبلاغ والبلوغ مصدران لبلغ وإذا كان مصدر البلغ فبلاغ الشرائع مستلزم لتبليغ من أرسل بها فعبر باللازم عن الملزوم، ويحتمل أن يكون مصدر البلغ المشدد على حذف الزوائد فمعنى البلاغ التبليغ.

الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠] وعظٌ وَعَظَ به ﷻ أولياءه وأولي الألباب من عباده، ولما واجههم بالخطاب أكرمهم بحسن المقال.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] نصيحة منه ﷻ وموعظة لرأفته بالمؤمنين، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة:١٠١] انتظم هذا - والله أعلم بما ينزل - بقوله في صدر السورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ فأكمل لهم الجواب بقوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة:٤] ثم نهاهم عن السؤال رأفةً بهم، فبذلك ينالون المعهود عنه.

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المائدة: ١٠٣ - ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا...﴾ [المائدة:١٠٥] هذا خطاب كان حكمه في مبدأ الإسلام حين غربته وقلة أهله، وأنشأ ﷻ حكم الانتصار بالقتل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإبقاء حظها مثبتًا في كتابه إلى مثلها.

قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[١] والوجود

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٩)، وأحمد (١٧١٤٥)، وابن ماجة (٤١٢١)، والطبراني في الأوسط =

يعطي هذا مشاهدة، وهذا من رأفته ورحمته بعباده.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني: الحضر والسفر من المؤمنين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: المشركين والكافرين ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: في السفر خاصة ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ المَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا﴾ يعني: الشاهدين، ومن المشركين وأهل الكتاب إن وقعت الريبة في الذي ائتمنتوه عليه يحلفان ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ﴾ صلاة أهل الكتاب ﴿فَيُقْسِمَانِ بِالله إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ [المائدة:١٠٦] بمثل شهادتهما.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٧ - ١١٠].

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يعني: شهداء بكذب ﴿فَآخَرَانِ﴾ أي: منكم من المؤمنين ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: في الحلف على ما وقعت الشهادة فيه ومن أجله، ويقف الأوليان اللذان استحق قبلهما الريبة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِالله لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن

=

(٧٤٩٣)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٢١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٢٠).

شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:١٠٧].

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا﴾ يعني: أهل الكتاب ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أن يعثر عليهم بخيانة؛ يعني: أهل الكتاب ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨] فهذه السنة والحكم فيما كان في مثل هذا، وهو المسلم يموت بين قوم مشركين، أو قوم من أهل الكتاب ليس بينهم مسلمان يقوّم بهما الشهادة، ووصى ببعض ما تركه لبعض ما حضره من أولئك، فقد وقعت الريبة إنهم اختانوا أمانتهم، وقد فقد العدلان من المؤمنين فيما هنالك حبس الشاهدان منهما، وحلفا أن شهادتهما حق، فمتى عثر على أنهما حنثا في يمينهما وقفا رجلان بين المدعين الحق، فخلفا على دعواهما، ثم وقف الآخران الأوليان المستحق عليهما ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ في أول الشهادة ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة:١٠٨].

اختلف المفسرون ﷺ في هذه الآية، فقالت فرقة: هي منسوخة بقوله جلَّ قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢] وقوله ﷻ: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢] والمخاطبون بهاتين الآيتين هم المؤمنون، وهاتان الآيتان نزلتا قبل سورة المائدة، فكيف يكون القبل ناسخًا للبعد.

قالت عائشة - رضي الله عنها: سورة المائدة من آخر ما نزل، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه.

والصحيح أنها ليست بمنسوخة بل هي محكمة فيمن جاور، والكفار في الأقطار التي تقاربهم، فتدعو الضرورة إلى مصاحبتهم ومخالطتهم في المتاجرة، وغيرها مما يلزم أحوال المجاورة، وهي أيضًا إن وقعت في قبضة المسلمين وحيث جماعتهم، فالواجب أن يحكم فيها بهذا الحكم الذي حدَّه الله ﷻ.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ

قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١١ - ١١٥].

قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾(١) [المائدة:١١٢] أي: يوافقك ربك على هذا، هل يفعل لك ذلك؟ ليس من الاستطاعة المعهودة عندنا فقول: «لا أستطيع كذا» إنما هو من

---

(١) المائدة كانت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من تحتها وغمامة من فوقها، وعيسى يبكي ويتضرَّع، ويقول: إلهي اجعلها سلامةً لا تجعلها عذابًا، حتى استقرَّت بين يديه، والحواريون من حوله، فأقبل هو وأصحابه حتى قعدوا حولها، وإذا عليها منديلٌ مغطًّى، فقال عيسى: أيكم أوثق بنفسه وأقل بلاءً عند ربه فليأخذ هذا المنديل، وليكشف لنا عن هذه الآية، قالوا: يا روح الله أنت أولانا بذلك، فاكشف عنها، فاستأنف وضوءًا جديدًا، وصلى ركعتين، وسأل ربه أن يأذن له بالكشف عنها، ثم قعد إليها، وتناول المنديل، فإذا عليها سمكة مشوية، ليس فيها شوك، وحولها من كل البقل ما خلا الكرَّاث، وعند رأسها الخل، وعند ذنبها الملح، وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمر، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمانات، فقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله أَمِن طعام الدنيا هذا، أمِّن طعام الجنة؟ فقال عيسى: سبحان الله أما تنتهون! ما أخوفني عليكم، قال شمعون: لا وإله بني إسرائيل ما أردت بهذا سوءًا، قال عيسى: ليس ما ترون عليها من طعام الدنيا، ولا من طعام الجنة، إنما هو شيءٌ ابتدعه الله، فقال له: «كن» فكان أسرع من طرفة عين، فقال الحواريون: يا روح الله إنما نريد أن ترينا في هذه الآية آية، فقال: سبحان الله! ما اكتفيتم بهذه الآية؟! ثم أقبل على السمكة فقال: عودي بإذن الله حيةً طريةً، فعادت تضطرب على المائدة، ثم قال: عودي كما كنت، فعادت مشوية، فقال: يا روح الله كن أنت أول من يأكل منها، فقال: معاذ الله بل يأكل منها مَن سألها، فلما رأوا امتناعه، خافوا أن يكون نزولها عقوبة، فلما رأى عيسى ذلك دعا لها الفقراء والزَّمنى واليتامى، فقال: كلوا من رزق ربكم، ودعوة نبيكم؛ ليكون مهنؤها لكم، وعقوبتها على غيركم، فأكل منها ألف وسبعمائة إنسان، يصدرون عنها شباعًا وهي كهيئتها حين نزلت، فصحَّ كل مريض، واستغنى كل فقير أكل منها، ثم نزلت بعد ذلك عليهم، فازدحموا عليها، فجعلها عيسى نوبًا بينهم، فكانت تنزل عليهم أربعين يومًا، تنزل يومًا وتغبُّ يومًا، وكانت تنزل عند ارتفاع الضحى، فيأكلون منها حتى إذا قالوا، ارتفعت إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض.

الطوع والاستجابة.

وقرئت: «هل تستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» معناه: وهل لك عنده من الجاه والحظوة هذا[١]؟!

فصل

مائدة من السماء معناه، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والحواريون موصوفون بالعلم، ممدوحون بحسن الإجابة، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

وقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ [الصف:١٤].

وكقوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] وليس ما قال الله - جلَّ قوله - ها هنا، وحكاه عنهم من جنس ما تقدم من حسن الاستجابة، والتوقير لرسولهم - رضي الله عن جميعهم - وهو الحق وقوله الحق، فظاهر قولهم هنا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ إما أن يكون جهلاً منهم بالله جلَّ ذكره أو جهلاً منهم بمنزلة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وكذلك ردُّه ﷺ على هؤلاء القائلين: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:١١٢].

وكذلك قول هؤلاء له ﷺ: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:١١٣] هذا كله غير معروف منهم، ولا معهود من سيرتهم، غير أن ابن جبير قرأ: «ويُعلَم أن قد صدقتنا» بالياء المضمومة وفتح اللام[٢].

---

(١) قرأ الكسائي: بالتاء (هَلْ تَسْتَطِيعَ رَبَّكَ) وبنصب الباء. وقرأ الباقون: بالياء وبضم الباء. [بحر العلوم للسمرقندي (١٦/٢)].

(٢) قرأ ابن جبير : (ونعلم) بضم النون مبنيًا للمفعول، وهكذا في كتاب «التحرير والتحبير» وفي كتاب ابن عطية. وقرأ سعيد بن جبير: ويعلم بالياء المضمومة والضمير عائد على القلوب، وفي كتاب الزمخشري: ويعلم بالياء على البناء للمفعول. وقرأ الأعمش وتعلم بالتاء أي =

قال - جلَّ قوله - لموسى عليه السلام: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠] أراه - والله أعلم بمراده - أنه سماه أتباع الحواريين باسم الحواريين، فأدخل جلَّ ذكره الأتباع في ذكر المتبوعين، كذلك قد يدخل المرسل إليهم في ذكر المسلمين، كما قال لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:١٠ - ١١].

والظلم وعمل السوء ليس من وصف المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - والحواريون رضي الله عنهم المنزهون عما يخالف التعزيز والتوقير للمرسل، وحسن الاستجابة.

فصل

سأل رسول الله عليه السلام ربه أن ينزل عليهم ﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ [المائدة:١١٤] فكان ذلك؛ أعني: أنزل المائدة عليهم من السماء، دليل ذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥] قوله الحق هذا يُنبئ لما تقدم ذكره من إدخال المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وإدخال أتباع الحواريين في ذكر الحواريين قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ...﴾.

والحواريون رضي الله عنهم ليسوا بموصوفين بكفر، ولا سمعنا عنهم بِردَّة ولا كفر. والحمد لله رب العالمين، فأنزلها عليهم لا بد ولا محالة لوعد الله ﷻ عيسى رسوله عليه السلام بها، وكان من دعائه عليه السلام: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ فهذا يعطي أن إنزالها عليهم كان على طريق الاعتياد، وإن ذلك على التكرار الله أعلم بمقدار قوله: ﴿وَآخِرِنَا﴾ وآخرهم فهو مجيئهم الجيئة الثانية في مستقبل الأمر، فعلى نسق دعائه عليه السلام سوف ينزلها عليهم في أيامهم المستقبلة إن شاء الله تعالى، أو يكون معنى الخيرات المنزلة من السماء والبركات المجعولة في الأرض يومئذٍ.

وما عبَّر عنه رسول الله ﷺ من بسط النعم وشمول الخير يومئذٍ، وهذا كائن لا

= وتعلمه قلوبنا. [تفسير البحر المحيط (٥٩/٥)].

محالة، فهل يكون مع ذلك إنزال المائدة من السماء أم لا والله أعلم، والأرض كلها يومئذٍ مائدة، وقوله صلوات الله عليه: ﴿وَآيَةً مِنكَ﴾ قد يكون ما يكون عليه نزول المائدة، وآية ما يكون من ذلك في الجيئة المستقبلة.

وقد جعل الله ﷻ في ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة:١٤] والذين زعموا أنهم اتبعوه، وليسويهم بقسيسهم ورهبانهم أن جَبَلَ قلوب الأتباع إلى الحرص في سوق الأقوات إليهم، والرغبة في المساهمة لهم في ذات أيديهم زائدًا على أوقاف قد أُعدت لزيارتهم وأموال منسوبة إلى كنائسهم، فهذا من تنزيله المائدة نزلها من كونها نازلة عليهم من السماء إلى أن جعل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ذلك الإنزال على قلوب عباده وأيديهم، وجعل ذلك؛ أعني: ما هو اليوم في حق الأتباع من جلب الأقوات، ومسابقتهم إلى المساهمة لهم، وتوفير الدواعي منهم على ذلك آية على ما مضى من حكمة الله في إنزالها، وما يكون منه في المستقبل من شأنها.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١٦ - ١٢٠].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ الله....﴾ [المائدة:١١٦] التقدير منتظم بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩] بفتح الهمزة والجيم.

قوله جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ منتظم بقوله جلَّ قوله: ﴿فَسَوْفَ

يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤] وذلك أن مجيء عيسى عليه السلام يكون بعد طلوع الشمس من مغربها، ثم الدجال، ثم نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.....

قال ﷻ لعيسى ابن مريم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ يقول والله أعلم: كما يكون هذا إلى يوم القيامة، وهو يوم الجمعة من أيام الدهر وقيام الساعة هو في ذلك اليوم، وإنما ذلك ساعة في يومها ذلك، فيجمع الله ﷻ الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - يومئذٍ، ويمكن أن يكون الرسل المجموعون يومئذٍ أنبياؤه ورسله إلى الأقطار، وهذا هو الأظهر، وجميع الرسل - عليهم السلام - على العموم يوم البعث الآخر.

وفيه يقول - جلَّ قوله - لرسوله وعبده عيسى صلوات الله وسلامه على جميع المرسلين: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ...﴾ [المائدة:١١٠] وإذ وإذ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ...﴾ [المائدة:١١٣] إلى قوله: ﴿مِّنَ العَالَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥] يُذكِّره جلَّ ذكره بأنعمه قبله، وقبل من أرسل إليهم به، وهذا خطاب لا يأتي أبدًا إلا لاستدعاء إجابة ممن أرسله إليهم وتكليف لهم.

وإنما كان يكون سوق الخطاب وصيغته لو كان بعد قيام الساعة، وفي مشهد الجمع الأكبر أنعمت عليك وأعطيتك الكذا والكذا؛ لنبين كذلك لفظ التقرير باقتران كلمة التذكير به، ويوم الحساب اقتضاء حقوق له ﷻ وتباعات ونحو هذا، فإن اعترض معترض بقوله جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة:١٠٩] فقد تقدم الردُّ عليه بأنه يوم القيامة، والساعة تقوم في وقت من ذلك اليوم ونزول عيسى عليه السلام، وما يكون في ذلك آية على ما يكون في البعث الآخر، ولذلك سماه رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام فقال: «**وأن تؤمن بالبعث الآخر**»[1].

وعلى حال فإن الله ﷻ غير متعذر عليه جمعهم كيف شاء، وهم الآن عنده،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وأحمد (٩٤٩٧)، وابن ماجة (٦٤).

وقد جمعهم لرسول الله ﷺ في السماء ليلة أُسري به، فأمَّهم حاشا الرهط الثلاثة إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه على جميعهم.

كذلك قال - جلَّ قوله - لعيسى ابن مريم: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ [المائدة:١١٦] تقرير وتوبيخ منه لمن في الأرض يومئذٍ من الذين غلوا في أمره، وقالوا فيه بأهوائهم ما لم ينزل الله به من سلطان، وما ليس لهم به علم، فسبح الله جلَّ ذكره عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام عندما قذفوه من افترائهم بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة:١١٦] فاستشهد عليه السلام بالعليم الخبير ﷻ إن كنت قلته فقد علمته. انتهى.

فصل

يتخرج تسبيحه ربه جل وعز عليه السلام على وجهين:

أحدهما: لما ذكروه به وأنه دعا إلى نفسه، وهذه عظيمة قذفوه بها، فسبح الله جلَّ ذكره لكونه رسولاً نبيًّا روح الله وكلمته، كما سبح الله نفسه ﷻ عند ذكر أم المؤمنين بإفك وبهتان، فقال جلَّ قوله: ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦] ويمكن أن يكون تسبيحه ربه ﷻ صلوات الله وسلامه عليه تنزيهًا له، وإجلالاً لجلاله، وإعظامًا لقدره، ورهبةً من علي شأنه أن يكون له أو معه في الإمكان، أو في الوجود إله سواه سبحانه وله الحمد، لا إله إلا هو العلي الكبير.

قوله ﷻ فما حكاه عنه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(١) [المائدة:١١٦] أي: تعلم سري وجهري، وظاهري وباطني، وما يسمى منه نفس إلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ولا أعلم ما في نفسك كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وكقوله جلَّ قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

(١) خصّ النفس بالذكر؛ لأنها مظنة الكتم والانطواء على المعلومات.

وقوله جلَّ قوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

قوله تعالى فيما حكاه عن عبده ورسوله عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة:١١٨] وقرأ طلحة: «**إن تعذبهم فعبادك**» بإسقاط «إنهم» أي: إن لك تعذيبهم بحق ملكك فتفعل ما تشاء.

ويمكن أن يكون معنى قوله ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: بالقتل والسبي والخزي والغلبة ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: بأن تتوب عليهم بالإيمان والإسلام ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] فهذا مما تقدم ذكره يدل على أن التقدير يكون عند نزوله ﷺ، ولا يقبل منهم يومئذٍ إلا الإسلام والتوبة، أو القتل والانتقام منهم وصفهم بالعزة، وبأنه لا يغفر أن يشرك به ووصفه بالحكمة، فيكون ذلك تقدير للحاضرين، ثم يقررون في القيامة؛ لتوبيخ من كان رفعه ﷺ ومن نزوله إلى الأرض.

ألا تسمعه ﷺ يقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ في الغيبة ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

يريد ﷺ من هو عندك بالرفع أو بالشهادة أو بوفاة الموت، ومن هو في دار الدنيا لم يخرج منها بعد ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ الآن؛ أي: بالسيف والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي: ملكك تفعل بهم ما تشاء ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة:١١٨] أي: تتوب عليهم، وتدخلهم بذلك في الإسلام.

وفي هذا إشارة إلى الترحم والشفاعة لهم، ولو كان ذلك يوم الحساب الآجل لم يعرض بالاسترحام ولا بذكر مغفرة، وإنما يخاطب رب العزة ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عباده من الدار الآخرة، فلذلك يقول ﷻ بلفظ المستقبل؛ إذ كل شيء هو سواء في حقه الماضي والمستقبل.

كذلك قول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني: الأصنام ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من تبعني على الولاية العليا وابتغاء الخلة، فإنه مني ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: من قصر عن ذلك بذنوب يقترفها ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وهو أعلم بالله - جلَّ ثناؤه - من أن يشفع لمن عصاه العصيان

الأعظم بأن يتخذ إلهًا من دونه، فيعبد الأصنام.

فدلَّ على هذا كله أن تقرير عيسى عليه السلام المذكورين في هذا الموضع، هو في هذه الحياة الدنيا توبيخًا لمن عصاه بعده، فافترى عليه الكذب؛ إذ هم رسل الله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - لا يتعرض للشفاعة فيمن كفر بالله وكذب بالحق لما جاءه، وكذب على رسله وكتبه، وهذا قول الله - جلَّ ثناؤه - الفاصل بالحق: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣].

وجاء قوله ﷻ: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...﴾ [المائدة:١١٩] إلى آخر السورة ظاهر ليوم الجزاء، كذلك الكتاب ظاهره المثاني.

تفسير سورة الأنعام

مكية غير تسع آيات نزلت هذه السورة ليلاً
المنسوخ منها أربع عشرة آية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) هذه السورة مكية كلها، وقال الكسائي: إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ وما يرتبط بها، وقال ابن عباس: نزلت ليلاً بمكة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح، إلا ست آيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ وعنه أيضًا وعن مجاهد والكلبي إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ وقال قتادة: إلا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ وذكر ابن العربي أن قوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ﴾ نزل بمكة يوم عرفة، ومناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله، وجرت تلك المحاورة وذكر ثواب ما للصادقين، وأعقب ذلك بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهنّ وأنه قادر على كل شيء، ذكر بأن الحمد له المستغرق جميع المحامد فلا يمكن أن يثبت معه شريك في الإلهية فيحمد، ثم نبه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية، كون ملك السماوات والأرض وما فيهنّ له بوصف ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه له الاستيلاء والسلطنة عليه، ولما تقدّم قولهم في عيسى وكفرهم بذلك وذكر الصادقين وجزاءهم أعقب ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فكان ذلك مناسبًا للكافر والصادق.

مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] الحمد جماع المدح والمدائح كلها، والثناء الحسن أجمعه، وهو أوسع الصفات، ثم عبَّر ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عن قدرته الكاملة، وعلمه المحيط ومشيئته النافذة، وتدبيره المحكم والتوحيد العلي، إلى سائر ذلك مما هي الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلا، معبرة عنه مقتضية له، وهو أيضًا تعريض بالإعلام بضلال أهل الأوثان، وكل من عبد إلهًا غير الله ملكًا كان أو إنسانًا أو جانًا أو حيوانًا، معنى كان أو جسمًا؛ إذ لا يخلو أن يكون ذلك في السماوات أو في الأرض.

ثم عرض ﷻ يبطل الثنوية والمجوس والمانوية، وغيرهم الذين اعتدوا وعبدوا النور، واعتقدوا أن فاعل هذا بأسره أصلان قديمان: أحدهما نور، والآخر ظلام، قالوا: فالنور خير بطبعه، والظلام شرير بطبعه إلى غيرها من ضلالتهم.

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام:٢] ذكَّرهم ﷻ بالعودة بعد البدأة؛ إذ خلقهم من طين أوجب من حكمته عن ذلك أن يعيدهم إلى ما منه بدأهم، ثم بعد ذلك يحييهم عودًا بعد بدء، كما قال جلَّ ذكره: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] ومثله كثير.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام:٢] لما ذكر جلَّ ذكره أوليتهم، وعرض بأخريتهم وما بين ذلك سرد على ذلك ذكر الآجال اختُلف فيما هو المراد من قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ فمن قائل يقول: قضى أجلاً؛ يعني: الدنيا، وأجل مسمى عنده؛ يعني: اليوم الآخر.

ومن قائل يقول: الأجل المسمى هو آخر مدة الدنيا الذي حدَّه يوم القيامة، فهو مسمى بهذا التحديد، وأجل عنده هو مدة الآخرة الذي ليس هو عندنا نحن معلومًا، وهو في علم غيبه معلوم.

وقال: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ثم قضى أجلاً مسمى وأجل

عنده، وكتاب الله أكبر شهادة وأقوم قيلاً.

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١] أي: إنه على تفاوت ما بين الآجال من نقص في أجل لحكمة، أو زيادة فيه لحكمة على اختلاف ذلك، وتنويعه قدر من ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير.

وقال ﷻ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٨ - ٣٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن ينسأ الله في عمره ويزيد في رزقه فليصل رحمه**»(١).

وفي أخرى: «**فليبدأ بربه**»(٢).

قال ﷺ «**ما منكم من أحد أو ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار، فإذا مات أحدكم أتاه ملكاه فيقولان له: ما علمك بهذا الرجل محمد؟**» إلى قوله ﷺ: «**فيقولان له: هذا مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، ويقولان للكافر: هذا مقعدك من الجنة أبدلك الله به مقعدًا من النار**» قال رسول الله ﷺ: «**فيراهما جميعًا**»(٣).

لذلك جعل جلَّ ذكره سبيل الضلالة وسبيل الهداية، قال الله ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠].

وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: السبيلين ﴿فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى﴾ [فصلت:١٧] والوجود من هذا مملوء مصمت لمن نظر بقلبه وهُدي لرشده، كذلك القرآن وحديث الرسول ﷺ.

قال الله ﷻ فيما حكاه عن رسله منهم نوح، وغيره على جميعهم السلام:

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧)، وأبو داود (١٦٩٣)، وأحمد (١٢٦١٠)، والنسائي (١١٤٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢٤١١). ينسأ: يؤخر.

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (١٣١).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٧٣٩٥)، والنسائي (٢٠٦٢)، وأحمد (١٢٦٠٥)، والطبراني في الأوسط (٧٢٢٤)، وعبد بن حميد (١١٨٣).

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠ - ١٢].

وقال هود ﷺ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢] فذكر أنهم عتوا وعصوا، فقطع بذلك دابرهم واستأصل شأفتهم كما فعل بكثير، وإن هم آمنوا واتقوا وعده ووعيده الحق أن يمتعهم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى، وأن يرسل السماء عليهم مدرارًا، ويمددهم بأموال وبنين، ويجعل لهم جنات، ويجعل لهم أنهارًا هذا كله إنهم إن عتوا وكفروا يقطع عنهم المطر من السماء والنبات من الأرض، ويمنعهم الأرزاق ويهلكهم ويفنيهم، ويمنع منهم التناسل كما فعل بكثير كقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود:٥٧] إلى غير ذلك مما يعلم أنه يخلق ما يشاء ويختار.

ولو كان كما زعم بعضهم لكان أمره أشبه بحال المضطر، كيف يكون هذا أو يظن بتدبيره، وهذا هو الواسع العليم خلق كل شيء، وقدره على ما شاء تقديرًا وعلمه، ومشيئته أوسع من التصرف وتنويع التدبير دون نهاية ولا غاية، والأجل المسمى هو الذي إليه المنتهى في الأعمال والأعمار والأرزاق؛ كقيام الساعة للدنيا، وكموت من يموت من غير عارض له من قتل بحدث، أو أسباب تقضي مقدره لآجال قد قضاها، فهو مقدر لمقدور، وكل شيء عنده بمقدار.

وهذا هو الأجل المعني بقوله جلَّ قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل:٦١].

والأجل الذي هو دونه الذي قال فيه: ﴿قَضَى أَجَلاً﴾ [الأنعام:٢] هو ما قد قدره بحلول أسباب وحوادث تقدرها.

وفي هذا يتصور المعنى بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:١١] وفي هذا قد ينفع الحذر، وفيه يوجد تأثير بر الوالدين وصلة الرحم، والإيمان والعمل بطاعة الله ﷻ بالاستجابة لله وللرسول.

ألا ترى أنهم لما استجابوا لله ولرسوله نعشهم، ومدَّ لهم في أعمارهم حتى يتوفاهم على آجالهم، ومدتهم المقدرة لهم من حلول منياتهم، ومتى عتوا عما نهوا

عنه، ربما أهلكهم هلاكًا واحدًا بجمع آجالهم بذلك كموت نفس واحدة، فكل موجود له أجلان إن أخطأه الأول بقدر مقدور، ثم يغلب الأجل المسمى.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢] أي: في البعث بعد الموت هلا تعرفتم بما ينجيكم من الموت في كل طرفة وكل نفس وأدنى من ذلك، ويحييكم بذلك مكان الإماتة أنه يحييكم بعد موتكم، وكما تتصرم الآجال دون الأجل المسمى، كذلك يتصرم أجل عمر الدنيا، كذلك يتصرم أمد الموت بالبعث منه.

فصل

إذا تمهد ما ذكرناه، فالأجل المسمى لكل محدث واحد ينتهي إليه مع السلامة من العوارض دونه، وما دونه بآجال كثيرة، وعلى التحقيق فعلى عدد الأنفاس وأدق من ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**»[١].

وعلى كل موجود محدث، حافظ بحفظه من العوارض التي قضيت الآجال بحدوثها حتى يأتي أجله المقدور بسببه، وعارضه المحتوم عليه حلول الأجل فيه، فتتخلى الحفظة عنه؛ لأنه قد قُضي الأجل بذلك الأجل أيضًا بما هو عليه، وهو مسمى قد سمي له لم يكن له أن يتقدمه، ولا أن يتأخر عنه، ولكن له حكم يبقى وتباعة ترجى وتبقى؛ كالذي يقتل مظلومًا، فعلى قاتله القصاص، وللمظلوم بذلك عاقبة يرجوها عند الحكم العدل جلَّ ذكره.

وكالذي يقتل في سبيل الله، فبدله ربه حياة لأجل حياته التي باعها، فيرزقه عيشًا عنده وحظوة ورزقًا جزاءً لعيشه ورزقه وما نزله له، ولو لم يكن محتومًا بسبب

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٢٦/٨)، وأحمد (١٧٦٦٧)، وابن ماجة (١٩٩)، والحاكم (١٨٨١) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والنسائي (٧٧٣٨)، والطبراني في الكبير (٦٤٢٧) وفي الشاميين (٣٣٠/١)، وابن حبان (٩٤٦)، وابن عساكر (١٥٧/١٠).

قاطع به عن أجله المسمى به الذي قطع به دونه، ومات عنه لم يكن له هنالك عوض؛ إذ أنه إنما مات بأجله المسمى الذي لا أجل له سواه.

قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ﴾ [الأحزاب:١٦] أي: إنه ولو نفعكم الفرار من القتل الذي يكون عن أجلكم الأدنى، فإنكم لا تمتعون إلى الأجل المسمى إلا قليلاً.

أعقب هذا كله بقوله الحق: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:٦](١) فأنبأ صريحًا بآجاله المخترمة وأرزاقه المنقطعة بأتباع ذلك ولواحقه، فعلى هذا انبنى التدبير الحق حتى إن الدنيا لتعود آخرة في حق أقوام؛ لأجل عبرة بها وعمل لها، والآخرة تعود دنيا جزاء وإثابة في حق آخرين؛ لغفلة مستولية ولحكمة بالغة وأمر عزم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] أصفق الإجماع أن المكان محصور محاط، والمحيط به وحاصره هو الله خالقه، وإن الممكن ضعف عن حقيقة القدرة، ونقص عن حقيقة الكمال، وكذلك القول في الزمان وما يتبع ذلك، وكذلك المواجهة والمحاذاة والتلقاء، والفوق والتحت والقبل والبعد، وإن الله لا يحجبه شيء عن شيء، ولا يبعد عليه شيء، بل هو قريب من كل شيء بوصفه.

وهو القدرة والدرك، والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البعد والحجبة، والبعد

---

(١) اعلم أن الله تعالى وصف القرون الماضية بثلاثة أنواع من الصفات: الصفة الأولى: قوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ قال صاحب «الكشاف»: مكن له في الأرض جعل له مكانًا ونحوه في أرض له. والصفة الثانية: قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السماء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يريد الغيث والمطر، فالسماء معناه المطر ههنا، والمدرار الكثير الدر، وأصله من قولهم: در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير، فالمدرار يصلح أن يكون من نعت السحاب، ويجوز أن يكون من نعت المطر، يقال: سحاب مدرار إذا تتابع أمطاره. قال مقاتل: ﴿مِّدْرَارًا﴾ متتابعًا مرة بعد أخرى، ويستوي في المدرار المذكر والمؤنث. والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ والمراد منه كثرة البساتين. [تفسير الرازي (٦/٢٢٣)].

والإبعاد والحجب حكم مشيئته، والحدود والأقطار حجب بريته، والمسافة والتلقاء مكان لسواه، والنواحي والجهات مكان المحدثات، والنهار والليل مسكن المتصرفات، والبعد والفضاء مكان المخلوقين، والتوسعة والهواء مكان العالمين، والأحكام والأقدار واقعة على خلقه، والحجب والأستار متصلة بمخلوقه.

وإلى هذا ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] غير متصل بخلق ولا مفارق، وغير مماس للكون ولا مباعد، بل منفرد بنفسه متحد بوصفه سبحانه وله الحمد، كما أن ليس كمثله شيء، فكذلك ليس كوجوده وجود، وليس كشأنه شأن، كان في أزل أزله بأسمائه ووصفه وصفاته، وهو الآن على ما لم يزل عليه وخلق كل شيء، فقدره تقديرًا.

وكل وصف لموصوف في الحدث فهو مشير إليه، وآية على وصف له هو في القدم موجود له، حقيقة ذلك في الحضرة الرحمانية، ومعارف الصمدانية في معالم الجبروت والملكوت، كذا سبحات الكبرياء والعظمة ونزاهة القدس والجلال، فهو - جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه وجدَّه - يعبر بأنه في السماوات وفي الأرض، ومع جميع خليقته عبارة حق عن وجود حقيقة، فهو كذلك من حيث هو لا من حيث هي.

فأما المعلمون من المشايخ ﵏ فإنهم لم يفرغوا لتحرير العبارات العوام، فكل ما أتى من هذا تأوله مخافة الإيهام، ونفوا عنه الاتباع خشية الإشكال إذ ذلك؛ أعني: توهم ما لا يجوز عليه معدوم عند العقول الصافية، ونواظر البصائر الصائبة، كيف تشبه الخليقة الحقيقة؟ بل كيف يماثل القدرة المقدور؟! جلَّ القديم الأول عن أن يكون في حضرته الجلالية صفة حديثة، كما استحال أن تكون الأمور الحديثة صفات قديمة، ليس كذاته ذات، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، ولا كحضرته حضرة إلا موافقة ألفاظ، ﷻ علاؤه وشأنه وجدُّه عن أن يغلبه عبده أو يمانعه ملكه، تعالى عن ذلك كله علوًا كبيرًا.

أتبع ذلك بما هو في معناه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام:٤] فتعرُّف الآيات واستشهاد البينات، ثم اعتبر من

محدث إلى قديم، ومن وصف محدث دنيوي إلى وصف قدس جلالي، فلو عبَّر لنا بما هو من حيث هو يخرج باللفظ، والخطاب عن أن يكون معقولاً لنا؛ لعدم معرفتنا بما هنالك، ولم يكن الكلام عربيًا ولا مبينًا، بل إنما هو تنزيل من رب العالمين، وكل عبارة تجيء بأنه في السماء، أو في الأرض، أو على حال يوهم حدثًا أو حيلولة أو تغييرًا، فإنما ذلك كله عبارة عما هو عليه على ما لم يزل بما لم يزل فيما لم يزل، وإنما هي الآيات تشير والبينات تشهد، فالحق يبين والوجود يدل وينبئ عن الموجود، فافهم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ٧ - ١٣].

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(١) [الأنعام:٧] وصفهم ﷻ بإنكار المشاهدة، وإنما يكون ذلك عن الطبع الكائن عن عقوبة الإعراض، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧].

---

(١) عن الكلبي وغيره أنها نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله. [تفسير الألوسي (٥/٢٣٥)].

فلموجود الطبع على القلوب عميت منهم البصائر وصُمَّت الآذان وبكمت الألسن، فهم يشاهدون الآيات ويعاينون البينات، فيمرون عليها وهم عنها معرضون، وربما التفتوا إليها من حال إعراضهم، ويذكروها من غيابات حجب غفلاتهم، فيتمثل لهم في صورة الفتنة، فلهوا بها وأنسوا بمشاهدتها دون ذكر شهيدها جلَّ ذكره فاتخذوها هزوًا ولعبًا عن حقيقة حق يهديهم، وربما تأولها على ما ليست به، وقولوها ما لم يقل به في شهادتها لخالقها ﷻ، وربما ألحدوا بها إلى أنها من المعهود المتعارف كما قال - جلَّ قوله - في بعضهم: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤].

وقال أيضًا - جلَّ قوله - في آخرين: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٤ - ١٥] فحينئذٍ يذرهم في طغيانهم يعمهون، وفي جهالتهم يترددون حتى يأخذهم على أقبح ما كانوا به عاملين، نسأل الله العفو الغفور معافاته ومغفرته.

وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:٨] إلى قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩] أخبر - جل ثناؤه - أنه لا ينزل الملائكة من السماء إلا بالحق؛ أي: بقضاء، والأمر من موت أو قيام الساعة أو مجيء الله جلَّ ذكره للعرض الأكبر، أو ما يكون من معنى الانقراض لهذه الدار، وكشف الدار الآخرة.

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] أي: منعًا ممنوعًا وسدًّا مسدودًا، أو نحو هذا بمعنى ألا إمالة.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(١)

---

(١) قوله: ﴿وَلَوْ جعلناه مَلَكًا لجعلناه رَجُلاً﴾ أي: لجعلناه في صورة البشر، والحكمة فيه أمور: **أحدها**: إن الجنس إلى الجنس أميل. **وثانيها**: إن البشر لا يطيق رؤية الملك. **وثالثها**: إن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي. **ورابعها**: إن النبوّة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكًا أو بشرًا. [تفسير الرازي (٦/٢٢٦)].

[الأنعام:٩] لما كانوا كل ما رأوا آية يستسخرون، أو يلحدون بها إلى المتعارف من جري العوائد، جعل كل آية في السماوات والأرض لها وجه إلى المعهود، وليجدوا لتأويلهم مخارج المبطلون والإلحاد بها مذهبًا للجاحدون.

وجعل لها أيضًا وجهًا أبطنه عنهم إلى صريح النذارة والبشارة، والإعلام بحقائق موجودات الدار الآخرة وشهادة الوجود العلي، فمن نظر كل آية في السماوات والأرض يحملها على معهودها، وما جرت به العوائد في سننها لم يحدث له ذكرًا، ولا وجد لها علمًا، ولا أكسبه ذلك منها خشية، ولا وجد لها بعدًا.

هذا أصل لهذا الباب فهو جلَّ ذكره لو أنزل من الملائكة رسلاً عِوَض البشر لجعل ظواهرهم بشرًا؛ لإلباس على دونهم، وبواطنهم كالمعهود المتعارف من الملائكة فتحًا لباب الإيمان بالغيب على تابعيه، كذلك لما قضى وقدر أن يتخذ من البشر رسلاً إلى البشريين جعل ظواهرهم بشرية وبواطنهم ملكية، فمن اقتصر بعلمه ونظره على ظواهرهم عدم الإيمان بهم وبما جاءوا به؛ إذ ظواهرهم غير دالة على صدقهم، ولم يمتنع اليقين بما هم عليه من نبوتهم، وصدق ما جاءوا به على متأمليهم.

كذلك القرآن العزيز فيه آيات بينات للعلم بما هي عليه آيات، وأُخر متشابهات ظواهرها بخلاف بواطنها، فمن اقتصر على تفهم القرآن على ظواهر أكثره من المتشابهات دون التوغل في التذكر، والتفكر في معانيها والرسوخ إلى بواطنها لم يصل إلى رفيع العلم، ومُنع من درجة اليقين، وأعلى رتبه أن يكون دارسًا وقارئًا.

وكذلك من طلب العلم في أكثر المبينات بالرسوخ إلى بواطن بطنها لها، فقد افتتن هذا بتقصيره كما ضلَّ هذا بتعديه، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما هو فيما هنالك، وبآيات الله ﷻ في السماوات والأرض من ملكه وملكوته، وما خلق الله من شيء ظن الوصول إليه والحظوة عنده والجاه لديه، وهو ﷻ وتعالى علوه وشأنه قد كتب على نفسه إنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فوجب في منبعث الابتلاء.

وبدء القضية أن يجعل على الهداية حجابًا، وعلى الضلالة شبهة؛ لئلا يصل إلى العلا من علمه، والرفيع من درجاته إلا من بذل جهده في ذاته ﷻ، واستفرغ

وسعه في طلب مرضاته، وأخلص له في طلبه.

قال الله - جلَّ ثناؤه - وذكر عيسى صلوات الله عليه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩] أي: أنعم عليه بالنبوة والرسالة، والكتاب الذي علمه، والحكمة التي آتاه، والروح الذي جعله فيه منه، وكلمته التي كونه عنها.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] والأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم - آيات على ما قاله في هذه الآية شواهد صدق، وبخاصة منهم عيسى ابن مريم صلوات الله عليهما وسلم على جميع النبيين والملائكة والمقربين.

قال الله ﷻ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١] فافهم - وفقنا الله وإياك - فقد جمع لك فصول العلم في أطراف الكلام، وأن القرآن الكريم كله متشابه متعاضد متصادق، وكذلك الوجود كله لمن تأمله آيات مبينات لطالبي العلم ابتغاء طاعة الله ورضوانه.

قوله ﷻ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٢] هذا محذوف لبيان دلائله وصدق شهادته، معناه والله أعلم: فلم أتخذتم من دونه أولياء لا يملكون شيئًا ولا ينفعون، أو ما يكون هذا عبارة عنه.

ثم استأنف الكلام، فقال جلَّ قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: لمن آمن بالله ورسله وأطاع، وقد يكون قوله جلَّ قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ على العموم لولا رحمته في الدنيا التي شملت الكل في الدنيا ما عاش فيها الكافر، ولا العاصي ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [النساء:٨٧] الأمر الإيجاب التي في الكتب؛ لإيجابه ذلك على نفسه، والنون فيه للتأكيد والتحقيق.

ثم استأنف من الكلام ما أنبأت عنه الفطرة وقامت عليه الشواهد، فأزاحت عنه الشكوك، فقال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء:٨٧] يعني: يوم القيامة.

ثم استأنف ﷻ كلامًا آخر قبله ما دلَّ عليه قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: في يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢].

وهذا في هذا المعنى كقوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾

يعني: في يوم القيامة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩] يعني: اليوم، وهذا تقرير منه ﷻ لهم على ضلالتهم، وفيه تعريض بما هو الحق المبين ألا نظير له، ولا مثل له ولا عدل له، ولا إله معه ولا شريك ولا ولد، فلِمَ يدعون معه إلهًا، ولِمَ ينسبون إليه ما نُزِّه عنه علو جده، وبرأه منه طهارة قدسه.

أكد ذلك ﷻ بما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني: ما اشتمل عليه الليل والنهار ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنعام:١٣] أي: وإن كان لا يشتمل عليه الليل والنهار، فهو غير غائب عن كل ما سكن في الليل والنهار، وتقلباته بل هو الشهيد الحاضر، القريب الرقيب العتيد، القريب لا أقرب منه، ولا أعظم تحقيقًا من حضوره، ليس كمبعوداتهم سواه لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئًا ما لهم من شرك في السماوات ولا في الأرض.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤ - ٢٠].

دلَّ على صدق هذا التأويل ما أعقبه به من قوله الحق جلَّ قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤] أي: يرزق ولا يُرزق.

وقرأها ابن عباس ومجاهد والأعمش وأبو حيوة وعمرو بن عبيد: «ولا يطعم»

بفتح الياء، ينبئ عن غناه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه[١].

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من أمتي.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤] حذره ﷻ من موافقة الشرك، وإن كان على الإسلام قائمًا، كما قال جلَّ قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

وقال أيضًا - جلَّ قوله - في الأنبياء والرسل غيره: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨] وقد يحمل على أنه خطاب له ﷺ، والمراد به أمته، والأولى أبلغ في التخويف وأقرب لأداة التحذير؛ إذ هو وسائر الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - لا يأمنون على إسلامهم أن يسلبوه، فكيف بمن سواهم.

ومن هذا المقام كان يقول رسول الله ﷺ: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك**»[٢].

وفي أخرى: «**على طاعتك**»[٣] لعلمه ﷺ أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الله ﷻ، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ.

من المعهود أن فطرة الإسلام قد يدخل عليها الشرك كما دخل على المشركين، قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

و﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ [الأنعام:١٩] أمر ﷻ رسوله ﷺ أن يجيب بالحق ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني: هو شهيد، ثم عطف ﷻ بالواو،

---

(١) قرئ: «ولا يَطعم» بفتح الياء، وروى ابن المأمون عن يعقوب: «وهو يُطْعَمُ ولا يُطْعِمُ» على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: «وهو يطعم ولا يطعم» على بنائهما للفاعل، وفسر بأن معناه: وهو يطعم ولا يستطعم، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى استطعمت، ونحوه أفدت، ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح، كقولك: وهو يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويغني ويفقر. [الكشاف (٢/٩٨)].

(٢) تقدم تخريجه في السابق.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦٦٠)، وعبد بن حميد (١٥٢٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤٧٠٠)، والنسائي في الكبرى (١٠١٣٦).

ومعنى الوحي على معنى الشهادة، فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي: من بلغه القرآن، وقد تكون الواو عاطفة على معنى ما بطن من ذكر الشهادة، وهو الله شهيد بيني وبينكم، وبعضكم المؤمنون شهداء له في الأرض.

ثم قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ﴾ فشهادة الله بيني وبينكم، ومن بلغ شهادة المؤمنين لله بما بلغوه من الوحي شهادة المبلغ إليهم، كما قال: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ [آل عمران:٩٩].

﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

قال: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩] كما قال رسول الله ﷺ: «لا أشهد على جور»[(١)] أشهد غيري شهد شهادة الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بشهادة الحق لنفسه، يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩].

ثم ذكر ﷻ علم أهل الكتاب بالقرآن، وإنهم يعرفون أنه من عند الله، وأن صرف القبلة إلى البيت الحرام كانوا يعرفون ذلك كما يعرفون أبنائهم، فكتموا شهادتهم؛ لذلك خسروا أنفسهم في الآخرة، فلم يؤمنوا في الدنيا؛ ليحيق بهم ما سبق لهم عند الله من خسران أنفسهم وأهاليهم.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا
أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا
يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٠٧)، ومسلم (١٦٢٣)، والنسائي (٣٦٨١)، وأحمد (١٨٣٨٩)، وابن حبان (٥٠٧)، والبيهقي في سننه (١٢٣٥٤)، وأبو عوانة في مستخرجه (٤٦٠٨).

عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الأنعام: ٢١ - ٢٧].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ....﴾ [الأنعام:٢١].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أهل الكتاب والذين أشركوا والذين عدلوا بالله، ثم خصَّ أهل الشرك بالمساءلة بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٢٢].

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: معذرتهم أو إفكتهم ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾[1] [الأنعام:٢٦] يمكن أن يكون عني بهذا المشركين، فإن قومًا منهم كأبي طالب وغيره كانوا يغضبون له ويحبونه، وينهون المشركين غيرهم عن أذيته، ومع هذا فهم يبعدون عنه، فلا يؤمنون به ولا يتبعونه.

ويمكن أن يكون المراد به أهل الكتاب كانوا ينهون الناس عن اتباعه، والإيمان بما جاء به من الوحي، ويريدون على ذلك بأن يبعدوا عنه كقول طائفة منهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢] بقوله: عسى من آمن به يرجع ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٣].

وطائفة منهم ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ ويقولون: هذا من عند الله ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ أي: إن أمركم بمثل هذا فأتمروا، وإن لم يأمركم بمثل هذا ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:٤١] على دينكم هذا، وشبهه من نهيهم عن اتباع الرسول والكتاب.

---

(١) روي عن ابن عباس أنها نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا الرسول ﷺ وأتباعه وكانوا يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش بأبي طالب يريدون سوءًا برسول الله ﷺ. وقال محمد بن الحنفية والسدي والضحاك: نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع الرسول ﷺ ويتباعدون بأنفسهم عنه. [تفسير البحر المحيط (١١٠/٥)].

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٨ - ٣٣].

قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾[1] [الأنعام:٢٧] هؤلاء هم المشركون، دلَّ على هذا قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْس هَذَا بِالْحَقِ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام:٣٠] وهؤلاء هم أهل الكتاب، والله أعلم.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ المراد به - والله أعلم - أهل الكتاب فإنهم وإن أظهروا خلافه ومناقضته، فإن قلوبهم تعرفه دلَّ على صدق هذا التأويل وصفه - جلَّ وصفه - إياهم بالجحد في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

وعلى قراءة من قرأ: «يكْذَبونك» بإسكان الكاف وتخفيف الذال[2]، فعام

---

(١) قوله: ﴿وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيهًا على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعاني، و﴿وُقِفُواْ﴾ معناه: حبسوا، يقال: وقفته وقفًا ووقف وقوفًا، وقيل: معنى: ﴿وُقِفُواْ عَلَى النارِ﴾ أدخلوها، فتكون «على» بمعنى «في». وقيل: هي بمعنى الباء: أي: وقفوا بالنار؛ أي: بقربها معاينين لها، ومفعول ترى محذوف، وجواب «لو» محذوف، ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراهم إذا وقفوا على النار لرأيت منظرًا هائلاً وحالاً فظيعًا. [فتح القدير (٤٠١/٢)].

(٢) انظر: تفسير البغوي (١٤٠/٣)، وتفسير الرازي (٢٦٨/٦).

للكافرين أجمعين، وأهل الكتاب هم المقصودون بهذا مع احتمال عمومها؛ أي: إنهم لا يجدونك كاذبًا في أنفسهم، ولا فيما تأتي به ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ بآيات الله الدالة على صدق رسوله ونبوته، وإن القرآن هو من عند الله يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ كلام راجع معناه إلى ما قبله من سؤالهم إياه أن يأتيهم بآية، وما سرد عليهم من ذكرها، والذين يسمعون هم أحياء الإيمان.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٤ - ٣٩].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَالْمَوْتَى﴾ يريد: موتى الكفر ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ في حال الموت، كما قال رسول الله ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1] دلَّ على صدق هذا التأويل اتباعه إياه بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦] أي: بالبعث الآخر.

قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾ [الأنعام:٣٧] إلى قوله جلَّ قوله:

(١) تقدم تخريجه.

﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤] لو شاء لأنزلها لكنه قد ألزم ذلك حكمًا مضت عليه سنته في عباده، وهو ما آخذ به الأولين قبلهم الذين سألوا أنبياءهم - عليهم السلام - الآيات، ثم لم يؤمنوا بها ﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:١١٣] فهذا معنى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧] حقيقة حكم ما سألوه، ولم يرسل بها إليهم نظرًا لهم، وإبقاءً عليهم، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩] وحذف هنا ذكر الجزاء «**فعذبناهم**» أو ما كان في معنى ذلك.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩] ثم حذف أيضًا ذكر عقوبته إياهم اعتمادًا على ما تقدم من ذكر ذلك في غير هذا الموضع، فوصف - جلَّ وصفه - أكثرهم بالجهل، وعدم العلم لما جهلوا أن الآية الشرطية؛ إذ لم يقترن بمجيئها الإيمان بها، فجزاء سائلها العذاب ومعاجلة العقوبة.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] يقول جلَّ قوله: في آيات السماء والأرض، وفيما لديكم من المعهود منها لكم غنى عما سألتموه، فما من دابة تدب في الأرض، ولا طائر يطير في السماء إلا أمم أمثالكم؛ أي: أمم يؤم بعضهم بعضًا في التفاضل، والسير والمعاملات، والمناكح واللغات، والخَلق والخُلق، والشرود والتأنس إلى غير ذلك مما جبلت عليه حتى يصعد التفضيل.

والاختصاص بها إلى خاص منها مختص بما هو إمام بالإضافة إلى من هو مؤتم به، فقد كانت هذه آيات بينات على إثبات الوحدانية، وفرقان النبوة وبراهين صحة الرسالة شواهد صادقات، والسنة معربة عن الحق الذي دعوتكم مفصحات، كذلك لو اتصل نظرهم إلى نبات الأرض على كل سُنة قد سُنَّت له، جُبل عليها في خلقه وشكله، ومنافعه ومضاره، وروائحه وطعومه، وتوابعه كلها كذلك إلا تربة الجمادات من الأحجار، وقطع الأرض والجبال إلى غير ذلك.

كذلك قال عزَّ من قائل وهو أعلم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] ولفظة الكتاب مترددة في الإعلام بين أن يكون المراد بها اللوح المحفوظ، فهو الذي عمَّ كل مذكور سواه، وزمَّ كل كائن إلى يوم القيامة.

ويمكن أن يكون المراد بذكر الكتاب هذا القرآن، وهو أيضًا قد عمَّ بالذكر الموجودات كلها أيضًا نصًا عليها وعمومًا لها، وفي هذه الآية على هذا التأويل بيَّن جلَّ ذكره إنه ما فرط فيه من شيء، وكل دابة في الأرض دبت ودرجت أو كل طائر في السماء، فهي أمم أمثالنا لكل أمة منها لسانها وشكلها، وصورها وسيرها الذي لا يعدوها في مناكح ومعاملات بينها، مقصورة عليها فطرها فاطرها ﷻ، وهداها إليه كما ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠].

وقال جلَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ أي: منهم من علم ﴿صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] لذلك قال عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨] كما حصَّل ﷻ أفعالهم وخُلقهم وأرزاقهم، فلذلك إليه يحشرهم.

فصل

ذكر ﷻ الجناحين هنا - والله أعلم - والعلم مستقر بأن كل طائر يطير بجناحيه فتحٌ لبابٍ من الغيب؛ لما استاق جلَّ ذكره ما دبَّ من دواب الأرض، وما طار في الهواء إرشادًا منه للمعتبرين من عباده يرونه؛ ليتحصل لهم العلم والعبرة بما شاهدوه على العيان بصحة قدرة خالقها، ولطيف حكمة ممسكها حال طيرانها، ويتصور لهم بذلك سنن النبوة في استنان سنن كل صنف منها أمة لا يعدوها، ولا يخالفها باستنان كل صنف منها سنة صنفه لا يعدو ذلك ولا يخالفه، وكان ذلك إعلامًا بأن طيران النسيم ودواب الجنة خيلها وركابها ليس من شرط ذلك أن تكون طائرة بأجنحة، بل تكون طائرة وإن لم يكن لها أجنحة.

وقد جاء: «**إن المتقين ينجيهم الله تعالى على الصراط بمفازتهم، قال: فيمر أحدهم كالبرق، ويمر الآخر كالرمح، وكرجع الطرف، وكحضر الفرس**

الجواد...»[١].

فصل

كل ما خلق الله ﷻ من شيء رفيع أو وضيع كريم أو خسيس لا بد من إعادته يوم البعث، كما قال الصادق الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

وكما قال جل قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] ذلك ليقاص للجلحاء[٢] من القرناء، والضعيف من القوي، ويُسئل العود لِمَ خدش العود، ثم لا بد أن يميز الخبيث من الطيب، فيركم الخبيث بعضه على بعض، فيجعله في جهنم، ثم يجعل الطيب في الجنة؛ ذلك ليعذب المكذبين الذين كذبوا بآيات الله، وعصوا أمره، وعتوا على رسله بما كذبوا وكفروا ربهم.

وبما عهدوه في الدنيا من ضرائها وسرائها، فلم يستنوا موجودات ذلك من سموم هنا وحرور وسعير وصرود وزمهرير، فيقضوا بموجودات ذلك فيما ها هنا على ما ينبني في الدار الآخرة، ولينعم أهل الجنة بما عهدوه في الدنيا من خيراتها فيشكروه عليها، ومن مكروهها فيصبروا له عليها، وطلبوا له معرفته من هذه وهذه حتى وصلوا إليه إيمانًا وإيقانًا، فيكفيهم المكروه وينيلهم المحبوب، ويزيدهم من فضله زائدًا إلى ما في الدار الآخرة على عظيم قدرها، وتفاوت شبه ما بينهما لكنه يجمع إلى تلك كما تقدم.

فصل

الخبيث من كل ما دبَّ في الأرض ودرج، أو طار في الهواء هو ما منع الماعون وسلط ضره، والطيب هو ما أتى الماعون وبذل نفعه، ومن الموجودات ما منع الماعون، ولم يوصل ضرُّه إلى مخلوق، كما أن منها ما أتى الماعون، وأوصل شره إلى الغير، وحكم ما هذا سبيله في إنزاله أي منزلة في الدارين هو إلى الله ﷻ،

(١) لم أقف عليه هكذا، ولعله مأخوذٌ بالمعنى.

(٢) الجَلْحاءُ من الشَّاءِ والبَقرِ: بمنزِلةِ الجَمّاءِ الّتي لا قَرْنَ لها. انظر: تاج العروس (١/١٥٦٦).

هو أعلم بما هو الطيب من ذلك والخبيث.

كما قال جلَّ قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [الأنفال:٣٧].

غير أنا نعلم بما أعلمناه ﷻ أن نصيب الرحمة منه أوفر وأغلب لا محالة، كذلك أيضًا في النبات والجمادات الطيب والخبيث، يأتي الله جلَّ ذكره بالدنيا جمعًا، فيقضي قضائه ويحكم حكمه في عباده، ثم يميز خبيثها إلى النار وطيبها إلى الجنة؛ لذلك قال عزَّ من قائل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ...﴾ [الأنعام:٣٨ - ٣٩].

وإنما ذكر جلَّ ذكره نعت المكلفين، وخصَّهم بالذكر في ذلك للمعهود منه ﷻ أنه إنما يكلف من حقه أيسره، ويترك أكثره رحمة منه بالعباد ورأفة، فذكر ﷻ إرجاعهم بعد البلى وكذب أكثرهم، فاستوجبوا لديه ما أوعدهم به، فكيف كان يكون بعد تكذيبهم بما قد أضمحل ويبس، وما رطب وبرد، وما سخن بجواهر ذلك وأعراضه وتوابعه، وأوائل ذلك وأواخره من أول وجود الدنيا إلى انقراضها، وهي جملة يتعذر زمَّها على أكثر الأوهام، ويتغيب عنها في كثير من الأحوال الإيمان بها.

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [لقمان:٢٠] فأخبرك ﷻ نصًّا صريحًا أنه خلق كل شيء لعباده ومن أجلهم، وجعل كل ذلك آلاء وآيات على مراده من الغائب الآتي، وأخبر أنه قد قدر العودة بعد البدأة، وصرح ﷻ بذكر إعادة العبد، فمن الجلي البين أنه كما يعيده بعد أن بدأه لذلك يعيد ما خلقه من أجله آيات على الدار الآخرة التي انتزعت منها، ثم جعل هذا آية على تلك، وعبرة من هذه إلى تلك، ثم جعل مصيرهم إليها.

فصل

اعلم أن الحساب كله في المكلفين هو أمر نشأ من لدن عالم الجماد إلى الثقلين الجن والإنس، غير أن الفرق بين ما هو مكلف، وبين ما ليس بمكلف:

وجود الخزي والتعذيب والآلام للمكلفين بما هم فيه، وما ليس بمكلف ولا يجد ألمًا بما هو فيه، وبالضد في الطيب خلا أن القرين الخبيث يمنع القرب والجوار، ويناله الحزب الطيب دونه.

وقد سمَّى رسول الله ﷺ كثيرًا من المؤذيات: فواسق، وكفَّرها وأحل قتلها في الحل والحرم، وفي الصلاة إلى غير ذلك مما ينكشف بالاستقراء، وتتبع مسالك العلم من إشارات الشرع وشواهد الوجود، فمن كان هكذا فهو في النور الموجود عن الحق المخلوق به السماوات والأرض، في بصره النور يبصر به، وفي لسانه النور ينطق به، وكذلك في السمع والشم والذوق.

كما قال بعضهم:

في القلب نور ونور الحق ينجده   نور على النور دلال على الصمد

قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[1] [الأنعام:٣٩] عبَّر - جلَّ ذكره وجلت عبارته - بكونهم في الظلمات عن عماهم عن الهدى، وبكونهم في اليوم الآخر في ظلمات أعمالهم، ولم يقل: «إنهم عمي» كما قال - جلَّ قوله - في سورة البقرة، وإنما ذلك لمعنى زائد على العمى فيما هنالك، وذلك أنهم كانوا في عماهم لا نور يحتوشهم من إيمان، ولا ضياء يضيء لهم من عمل صالح ولا نور، فهم على ذلك كالعُمي في الليل المظلم البهيم.

وضد هذا وعليه هو الذي عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله ﷺ: «**اللهم اجعل لي نورًا في سمعي، ونورًا في بصري ونورًا في لساني، ونورًا في لحمي ونورًا في دمي، ونورًا في مخي ونورًا في عظامي، ونورًا في شعري ونورًا في بشري، واملأ قلبي نورًا واملأ صدري نورًا، واجعل نورًا من أمامي ونورًا من ورائي، ونورًا من فوقي ونورًا من تحتي، ونورًا عن يميني ونورًا عن شمالي، اللهم أعظم لي نورًا واجعل لي نورًا**»[2].

---

(١) قال النقاش: نزلت في بني عبد الدار ثم انسحبت على سواهم.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤١٩)، والطبراني (٣٤١٩)، وابن عساكر (١٥٧/١٧)، وابن خزيمة (١٠٥٦).

والذين كذبوا بآيات الله وكفروا به في أبعد البعد من هذه الأنوار؛ لذلك قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وإنما ذلك من حقيقة وصفهم بما وصفهم به؛ لعدم النور الذي يقوم لأهليه مقام وصفه جلَّ وصفه: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ [النور:٣٥] وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله تعالى، أحاطت بأولئك الظلمات لكفرهم، وأحدقت بذواتهم دياجي جهلهم، وعموا لذلك وصموا فلم يجيبوا الداعي ولا سمعوا المنادي.

فصل

ذكر الله ﷻ آياته في السماوات والأرض شواهد على توحيده، ودلالات مبينات لصدق رسله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وإعلامًا بالحق الموجود في الدار الآخرة الذي تضمنه وعده الحق وعيده كما جعلها آيات على وجود أسمائه الحسنى، وصفات ذاته الكاملة الحق العلي من عظيم قدرته، وإحاطة علمه بهدايته وإضلاله من سبق علمه العلي ﷻ بضلاله هذا بفضله وهذا بعدله.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللهُ يُضْلله وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) [الأنعام:٣٩] إذ كل ما في السماوات والأرض مفطور على الإسلام، مجبول على الدين القيم، من استرشدها

(١) ثم قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صراط مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو صريح في أن الهدى والضلال ليسا إلا من الله تعالى. وفي الآية وجوه: **الأول**: قال الجبائي: معناه أنه تعالى يجعلهم صمًا وبكمًا يوم القيامة عند الحشر، ويكونون كذلك في الحقيقة بأن يجعلهم في الآخرة صمًا وبكمًا في الظلمات، ويضلهم بذلك عن الجنة وعن طريقها ويصيرهم إلى النار. **الثاني**: قال الجبائي أيضًا: ويحتمل أنهم كذلك في الدنيا فيكون توسعًا من حيث جعلوا بتكذيبهم بآيات الله تعالى في الظلمات لا يهتدون إلى منافع الدين، كالصم والبكم الذين لا يهتدون إلى منافع الدنيا، فشبههم من هذا الوجه بهم، وأجرى عليهم مثل صفاتهم على سبيل التشبيه. **والوجه الثالث**: قال الكعبي: قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ محمول على الشتم والإهانة لا على أنهم كانوا كذلك في الحقيقة. [تفسير الرازي (٦/٢٨٤)].

رشد، ومن اهتدى بها هدي، ويبصر مواقع أحكام الله ﷻ وعدله في خليقته، حتى كأنه لقوة يقينه مشاهد بفعله مبادئ الصنع عن تأسيس التقدير السابق في الأزل، قائم بلبِّه على تفصيله وتوصيله إلى تمامه.

ويرى جملة الخليقة شخصًا قائمًا بين يدي مالكه ﷻ، معبدًا له محتسبًا، قد أحاطت به مسكنة المقدار وتخلله الأمر، وجرى فيه الروح أكرم من جريان الأرواح في الأجسام، ويرى سريان العبادة في جملته وأعضائه وأجزائه، وأجزاء أجزائه إلى منتهى التحصيل تسبيحًا وتحميدًا، وتهليلاً وتكبيرًا، وصلاةً وشهادةً، وخشوعًا وإنفاقًا مما عنده، وصومًا وحجًّا لفاطره، قانتًا له على ذلك.

فصل

إنما صُرِف الأكثر من الأنام عن مشاهدة ذلك، منها غيبتهم في أسفار غفلاتهم، وأتاهم على التيقظ برؤيتها، وأصمهم عن سماع شهادتها عندما يريدونه من استرشادها إيجادهم بها إلى المعهود من ظواهرها، وحملهم معاني خطابها عند أداء شهادتها على المتعارف في بادئ الرأي، مما يبلغونه من سوء نياتهم وآراء خواصهم، فنسوا لذلك حظًّا مما ذكروا به، ولم يتصفحوا الوجود بعزم ولا تدبر، والوحي بقوة، وطلب للمعونة من مالكها ﷻ، أيقظنا الله ﷻ من سنة الغفلة.

لذلك قال عزَّ من قائل: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ...﴾ [يوسف: ١٠٥ - ١٠٦].

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ

وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤٦].

أتبع ما تقدم ذكره قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:٤٠] المعنى انتظم بقوله جلَّ قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأنعام:٣٧] وبالجواب بعده إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام:٣٩].

جعل ﷻ يسرد عليهم آياته بعد هذا إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:٤٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:٤٦] أي: عن النظر إليها، والعمل والهداية بها إلى التعلل بطلب إنزال آيات سواها فعل من لا يفقه ولا يعلم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٧ - ٥٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام:٤٧] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ الله وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي

مَلَكٌ﴾[1] [الأنعام:٥٠] جعل جلَّ ذكره من آياته على صدق ما جاء به كونه ليس عنده خزائن الله، وهو على ذلك يثير الماء من بين أصابعه، ويدعو بالمطر الجود، ويشير إلى السحاب السماء يمنة ويسرة، فتنجاب استجابة لإشارته بيده هكذا وهكذا، ويجعل به قليل الطعام كثيرًا إلى غير ذلك من آياته من هذه الجهة.

وبكونه من البشر وليس بملك، وهو على ذلك عليه هدي الملك سمتًا ووقارًا، وخيرًا وعبادة، وتقوى وخشية لربه واستجابة له، والملائكة تتنزل عليه - على جميعهم سلام الله ورحمته - بالذكر والوحي، والنصر والولاية والصحبة، وبأنه لا يعلم الغيب، وهو بذلك يخبر بالغيوب وينذر المنذرين ويبشر المبشرين، ويُنزل عليهم الخبر من السماء، ويخبر ما كان وما يكون، ويتلو كتاب الله ﷻ، وكلامه الحكيم ينزل عليه من لدن رب العالمين إلى الروح القدس، إلى الروح الأمين إلى قلبه المقدس المطهر، إلى لسانه الصادق قرآنًا عربيًا أعجز الثقلين وبهر العرب والعجم، فكان تعريه من أوصاف الملائكة - عليهم السلام - وعلم الغيوب وخزائن الله مع موجود ما يوجد عنده من ذلك أدل دليل، وأعرب شاهد بالحق على علم.

حقق ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ لذلك قال - عزَّ من قائل - وقوله الحق: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ هو البصير المعني بهذا النعت ها هنا، والأعمى هو سواه من ليس بنبي ولا رسول، وأغرقهم في العمى من كذب وعتا، ثم يسري نور البصر في كل من آمن واهتدى هم درجات عند الله، ختم ذلك بقوله الحق: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠] يريد فيما تقدم ذكره.

قوله عزَّ من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:٥٣] الكاف للتشبيه،

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فالمعنى ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به، والخزانة ما يخزن فيه الشيء، ومنه الحديث: «فإنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعمانهم أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته» وخزائن الله مقدوراته؛ أي: لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون ولا أعلم الغيب أيضًا ولا أقول لكم: إني ملك، وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل، أي: لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر، واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء.

وذلك إشارة إلى المشار إليه موضعه الكاف من ذلك.

يقول الله - جلَّ قوله - وهو أعلم: وكما فتناهم بل كذلك فتنا بعضهم ببعض ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] يعني ﷻ: المهتدين، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١].

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣] كما قال - جلَّ قوله - في أعلى هذا المقام: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: ٥٣ - ٥٨].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] انتظم هذا بما اتصل به من ذكر المهتدين، والنهي عن أن يطردهم من مجلسه، وعن أن يبعدهم، وأمره له بألا تعدوهم عيناه إلى سواهم من أهل الشارات والمراكب والملابس.

وفيه من الفقه عن الله ﷻ، والبشارة منه لعباده المؤمنين بحسن اللقاء الكريم منه لهم، كما قال عزَّ من قائل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤].

ومن ذلك توصيته ﷺ بهم في قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

ومن ذلك تأنيبه رسوله ﷺ في قولهك ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾

[عبس:١ - ٢] وإنما كان يقول ابن أم مكتوم: «[أرشدني يا رسول الله أرشدني](١)» وهو متشاغل برجل من المشركين، فأنزل الله عليه هذه السورة، وأعرض بالمواجهة إبلاغًا منه في المقصود بذلك إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى...﴾ [عبس:٨ - ١٠] فاعبده وأرجه وتوكل عليه.

تنبيه:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨] أي: مبشرين للذين آمنوا ومنذرين للذين كفروا، ثم الذين آمنوا إن لم يثبتوا على الإيمان والإسلام وطاعة الله.

وقال - جلَّ قوله - بعد هذا: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١] كقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥].

وقوله عزَّ قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ [فاطر:١٨].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١] أي: التقوى الأرفع.

وقال - جلَّ قوله - بعد هذا ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] إنذارًا لمن اتقى كيف يتقي التقوى كله، وبشارة للمؤمنين ثم للتائبين، وانتظم هذا الخطاب أوله بآخره وبما بينهما.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما نصرف لهم الآيات، ونبينها لهم كذلك ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥] بالرفع؛ أي: ليستبين لك وللمؤمنين سبيل المجرمين.

وبالنصب: ولتستبين أنت سبيل المجرمين؛ أي: سبيلهم فيما هم صائرون إليه(٢).

---

(١) في الأصل: «اذني يا رسول الله اذني».

(٢) انظر: تفسير البغوي (١٤٩/٣)، وتفسير الألوسي (٣٤٣/٥).

وعطف بالواو في قوله في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ على محذوف، تقدير القول: وكذلك نفصل الآيات بشارة ونذارة ولتستبين سبيل المجرمين.

لذلك أعقب بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ...﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:٥٦].

ثم إلى قوله الحق جلَّ قوله: ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧] يقضي الحق من الحكم والقضاء، والقضاء الحق.

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩ - ٦٤].

قوله ﷻ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ إلى قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

مفاتح الغيب وهو أعلم: صفاته العلا علمه المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً، وقدرته المخرجة للكائنات من العدم إلى الوجود وكلامه العلي، يقول - جلَّ قوله - للكائن: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] وإرادته ما يشاء كان وما لم يشأ لا يكون، هو يقدم ويؤخر ويرفع ويضع، ويفعل ما يشاء كيف يشاء ومتى شاء، وهذه لا يعلم كنهها سواه، وعلى القول بالتحقيق فإنه ليس عنده غيب، وإنما وجود الغيب بالإضافة إلى سواه، وإضافة بعض العلوم إلى بعض.

أتبع ذلك ذكر الموجودات الغائبة عن أكثر العباد، فقال جلَّ قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١) [الأنعام:٥٩].

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك، وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ ومفاتح جمع مفتح، هذه اللغة الفصيحة، ويقال: مفتاح ويجمع مفاتيح، وهي قراءة ابن السميقع «مفاتيح» والمفتح عبارة عن كل ما يحل غلقًا، محسوسًا كان كالقفل على البيت أو معقول كالنظر. الثانية: قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال: إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا، وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيهًا بكلمة أهل الكفر، وجهلاً بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة دون النوء، قال ابن العربي: وكذلك قول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجبًا في الخلقة لم يكفر ولم يفسق، وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة في كفره أيضًا، فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن. أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة؛ إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره، فيشوشون عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين فأدبو حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به. الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر، ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ روى يزيد بن هارون عن نافع عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان بن فلان» وذلك قوله في محكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

وقد يكون على حكم تنزيل الخطاب بأن يتوجه المعنى إلى خزائن الغيب ما أخبر به في خزائنه، التي له ما في السماوات والأرض، كالماء ينزله ﷻ من السماء من خزائنه، ثم الماء خزانة لجميع النبات والحيوان والنبات خزانة للحيوان والأرزاق إلى غير ذلك، كما كانت الرياح خزانة للماء.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر:٢١ - ٢٢] وهذه خزائن قد أعلم بها.

وقال - جلَّ قوله - في تلك: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] فالوجه الأول أولى، والله أعلم.

والعرب تقول للخزانة التي تختزن: مفتح بغير ألف، وتجمعها: مفاتح، ويقولون لما يفتح به الغلق: مفتاح بالألف، ويجمعونها: مفاتيح بالياء.

قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً...﴾ [الأنعام:٦١] معهود فعل صفة القهر فيما سبيله الغلبة للنفوس وصفات الباطن، كما معهود فعل القدرة في إيجاد الأجسام وذوات المقادير، والله ﷻ يحفظ خلقه من أن يصيبهم من أمره ما قد سبق في علمه، وفي تقديره من أمره أن يصرفه عنهم، ثم هؤلاء الحفظة يتعاقبون في الموجودات على رتبة حفظة الأعمال حفظة بالليل وحفظة بالنهار.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:٤٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر...**»[(١)].

---

(١) أخرجه مالك (٤١٦)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (١٤٦٤)، وأحمد (٨٣٤١)، والنسائي (٤٨٩)، والبيهقي (٢٢٧١) وفي الشعب (٢٧٠٨)، والطبراني في الشاميين (٣٢٠٤)، وابن حبان (١٧٦٧)، وأبو عوانة (٨٧١).

وقد ذكر الصنفين معًا في قوله جلَّ قوله: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠] فهذا إخبار منه ﷻ عن إحاطة العلم والتحصيل.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:١١].

ألا تسمع إلى قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:٤٢] ولهذا استاق الاسم في هذا الموضع.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا...﴾ [الأنبياء:٤٢ - ٤٣].

أتبع هذا ما هو في معناه قوله جلَّ قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ظاهرًا بخطاب أنهم يحفظونه من الموت ما لم يأتِ أجله، فإذا حضر أجله المسمى ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] أي: في أمر الله لا يفرط الحافظ ولا المحفوظ من أجله، بل يقهر الحافظ والمحفوظ والذي من أجله وله كان الحفظ.

كذلك قال جلَّ قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

وباطن هذا الخطاب أنه حفيظ من كل ضار ونافع، ومر وحلو ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة:٥١].

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: فيما يناوله الحفظ، ولم يتناوله ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢] يجزي بالحسنة ثوابها ونورها، وبالسيئة إثمها وظلمتها في القلب ذلك في غير زمان أو يعفو.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ [الأنعام:٦٣] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٤] فأخبر جلَّ ذكره أنه ينجي بعوارض وأسباب؛ بالدعاء والصدقة وصالح الأعمال، كما يأخذ ﷻ بعوارض وأسباب وهي الذنوب والمعاصي ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٤] ولما كان من سننه جلَّ ذكره أن ينجي بعوارض وأسباب، وربما أخذ بها فأهلك كان ذلك

لبعضهم فتنة.

قال الله ﷻ: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٤] أي: بالأسباب العارضة التي بها أنجى، وأهلك كقولهم: لولا فلان، ولولا الريح، ولولا كذا، وإنما هي عوارض وأسباب، وقد قدرها الله ﷻ للإنجاء والأخذ من معصية وطاعة، أو ما شاء من ذلك لما شاء.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٥ - ٧٠].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] الخسف والحدث أو ما يكون من عذاب يخرجه من الأرض، وهاتان وإن كانتا مما يحذرنا باستصحاب الحال، فهما أيضًا مستعملتان لوجه آخر يتوجه الخطاب إليه.

انتظامه بقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام:٤٠].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام:٤٦].

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧].

ثم بعد هو ﷻ يوجه الخطاب إلى وصف القدرة والمشيئة، ويعرض بالعقوبة

وشدة الأخذ، وربما وجه الخطاب إلى الأخذ والبطش بالجزاء، وعرض بوصف العزة، رجع الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «**سيكون في أمتي قذف وخسف**»[(١)].

وقال ﷺ: «**من أشراط الساعة كذا وكذا، وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب**»[(٢)].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾ وهاتان وجدتا في الأمة سنة قتل عثمان ﷺ، وهو سيف الله جلَّ ذكره لم يغمد إلى هلم جرًّا، نسأل الله العفو الغفور معافاته ومغفرته في الدنيا والآخرة.

أتبع هذا قوله جلَّ قوله: ﴿**انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنعام:٦٥] أي: مبعث الجزاء من حيث هو، فإن الفقه هو معرفة حقيقة الأصول المنتزعة عنها الفروع.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ**﴾ [الأنعام:٦٦] يريد ﷻ: النبأ والقرآن.

﴿**لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ**﴾ يريد: أجله ووقته المنتزعة عنها الفروع ومحله ﴿**وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:٦٧] إنذار منه ﷻ بما هو كائن من ذلك.

قوله ﷻ: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...**﴾[(٣)] [الأنعام:٦٨] آيات الله يكون المراد بذكرها هاهنا: الوحي والتنزيل الذي هو القرآن والحكمة.

وقد يكون المراد بها آياته في مخلوقات، كقوله جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ...**﴾ [البقرة:١٦٤].

وكقوله جلَّ قوله: ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي**

(١) أخرجه الترمذي (٢٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠١)، والطيالسي (١٠٦٧)، وأحمد (١٦١٨٨)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢١٨٣) والنسائي في الكبرى (١١٤٨٢)، وابن ماجة (٤٠٥٥)، وابن حبان (٦٧٩١).

(٣) نقل الواحديُّ أنَّ المشركين كانوا إذا جالَسُوا المؤمنين وَقَعُوا في رسول الله ﷺ والقرآن، فَشَتَمُوا واستهزءوا فأمرهم ألَّا يقعدوا معهم حتى يَخُوضُوا في حديث غيره، والخَوْضُ في اللغة عبارة عن المُفاوضةِ على وجه اللَّعبِ والعبثِ.

صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ....﴾ [غافر:٥٦].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر:٥٩].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ....﴾ [غافر:٦٥] حيث جاء في الوجود من الوحي والعالم، والخوض ترداد كلام خارج على سنن الهوى والشهوات مشوب فيه الحق بالباطل، مرادهم بذلك تنقص الرسول ﷺ، وما أرسل به، وأخذ أعراض المؤمنين، فالجدال المذموم في آيات الرسل أن ينسبوها إلى الباطل، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾ [غافر:٥] كما قالوا فيه: سحر وجنون، وكهانة وأساطير الأولين.

والجدال المذموم في الآيات التي جعلها الله في السماوات والأرض، وهو أن يحرف الآيات التي يخوف الله بها عباده، من معارف الحق الكائن بعد الموت يوم القيامة في دار القرار إلى أن يلحدوا بها إلى معارف من الحق الكائن معهودة كائنة عن كائنات متعارفات، فإن ذلك يؤثر التأنس بها، وعدم الخوف عندها يعدلون بها عن حقيقة ما أوجدت له إلى ما يبطل الانتفاع بها، فقد كان الرسول ﷺ إذا غيمت السماء اصفرَّ لونه ودخل وخرج، وإذا أمطرت سري عنه، فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «وما يدريني لعله كما قال قوم هود ﵇: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]»[(١)].

وكان نزول هذه الآية؛ أعني: قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام:٦٨] والإيمان بعد لم يظهر ظهور علو غلبه، فلما أظهر الله الإسلام، وجاء بالفتح والنصر نزل آيات القتل والقتال وتخرجكم هذه، وما هو في معناها إلى حال ذلك ووقته. انتهى.

أتبع هذا بقوله جلَّ قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ هم أهل الكتابين.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام:٧٠] «أن» وما بعدها بتأويل المصدر، ومعنى الإبسال: الارتهان والمنع والخذلان، والإسلام من

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (١٨٣١).

أسلمت فلانًا فأنا أسلمه، فالإبسال كلمة معناها مركب، من معاني هذه الكلمات يقال: أسد باسل؛ بمعنى: منيع لا يُقرب، فمن مُنع الجنة والرحمة فقد ارتهن بعمله، ومن لم ينصر فقد خُذل، ومن خُذل فقد أسلم إلى المكروه والعذاب.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦)﴾ [الأنعام: ٧١ - ٧٦].

أتبع هذا قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام:٧١] كالمشركين بالله والكافرين بالله والكافرين بكتابه، وكالذي فعلتم أنتم ركبتم أهواءكم، فكتمتم ما استحفظتم من كتاب الله عندكم، فاستعملتكم الشياطين بالهوى كما فعلت بأولئك، فصرتم من أجل ذلك حيارى في الأرض، هذا في أهل الكتاب خاصة.

فلا أنتم عملتم بكتابكم المأخوذ عليكم الميثاق فيه، ولا اتبعتم ما جاءكم من الهدى والقرآن، ولا رضيتم الشرك والكفر دينًا؛ لتبيان ضلالته، فتحيرتم ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾(١) فضلَّ في مهامة الأرض ومتألفها ﴿لَهُ

---

(١) اعلم أنه تعالى وصف هذا الإنسان بثلاثة أنواع من الصفات: الصفة الأولى: قوله: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وقرأ حمزة: «استهواه» بألف ممالة على التذكير والباقون بالتاء؛ لأن الجمع يصلح أن يذكر على معنى الجمع، ويصلح أن يؤنث على معنى الجماعة. الصفة الثانية: قوله: ﴿حَيْرَانَ﴾ قال الأصمعي: يقال: حار يحار حيرة وحيرًا، ومعنى الحيرة هي التردد في =

أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ محمد وأصحابه - عليهم السلام - يدعونهم إلى الهدى، فيقول أحدهم لداعيه إلى الهدى: ﴿ائْتِنَا﴾ فادخل فيما نحن فيه، وأنزل ما أنت عليه من هدايتك ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١] ولم يقل: «وأمرنا أن نسلم» وإنما ذلك - والله أعلم - لما في سياق الخطاب من معنى الهداية والدعاية، فيمكن أن يكون تقدير الكلام: إن دعاية الله أو هداية الله؛ لنسلم لرب العالمين هو الهدى.

أو يكون على تقدير محذوف عطف عليه بقوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ فعطف ﷻ على ما في الخطاب من معنى الأمر، وتناول العزم والوجوب به الجملتين، ثم استمر على قوله الحق ﷻ إعلامًا بشأنه، وتعريفًا بقدره ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٧٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣].

وفي ذكر هذا كله وما تقدم ذكره مبعث وإشارة إلى النظر في الملكوت، وأنه سبيل الإسلام والإيمان والعلم الموصل المحيط، وبما حواه في الغيب والشهادة، وهو العلم الذي يشرف به عالمه على مطالع الدنيا والآخرة.

أعقب ذلك بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام:٧٤] ذكر أن آزر كان اسم أبي إبراهيم، وإنما كان اسمه: «تارخ» فربما كان ذلك له لقبًا

=

الأمر بحيث لا يهتدي إلى مخرجه، واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن؛ وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه، وذلك يوجب كمال التردد والتحير، وأيضًا فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالاً للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال. الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَهُ أصحاب يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ائتنا﴾ قالوا: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ فإنه كان يدعو أباه إلى الكفر وأبوه كان يدعوه إلى الإيمان ويأمره بأن يرجع من طريق الجهالة إلى الهداية ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. وقيل: المراد أن لذلك الكافر الضال أصحابًا يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمونه بأنه هو الهدى وهذا بعيد، والقول الصحيح هو الأول. [تفسير الرازي (٣٢٨/٦ - ٣٢٩)].

فالله أعلم، فإن كان ذلك كذلك فهو من المعاونة والمظاهرة لقومه على اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله تعالى وجلَّ ذكره، وعلى ذلك قرأها الأعمش: «**إزرًا أتتخذ أصنامًا آلهة**» بكسر الهمزة وسكون الزاي وبالتنوين والنصب.

وقرئ أيضًا: «**أعضد يعتضد من دون الله**».

وقال: إن اسم أبي إبراهيم لم يكن آزر كان اسمه تارخ.

وقرأ أُبي: «**آزر اتخذت**» بالتاء بلفظ الفعل الماضي.

وقرأ غيره: «**أأزرًا أتخذ أصنامًا آلهة من دون الله**» بهمزتين مفتوحتين ساكنة الزاي على سنة الاستفهام، وكذلك قرأها الحسن وابن عياض.

وقرأ قتادة: «**يوم ينفخ في الصُّوَر**» بضم الصاد وفتح الواو، وعلى الجمع؛ أي: صور الناس.

وقرئ: «**ملكوث السموات والأرض**» بالثاء ثلاث نقط، وقال: هو بالسريانية: ملكوت.

وقرأ أبو السمال: «**ملْكوت**» بإسكان اللام، فقوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...﴾ [الأنعام:٧٤] منتظم بمعنى ما تقدم من ذكر الهداية والضلالة، وليعلم ببعد ما بين من علمه الله، أو هداه إليه هداية أو فطرة، وبين أشرك بالله سواه.

أعقب ذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] عطف بالواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ وشبه بالكاف إشارة إلى ما تقدم ذكره من هداية، وعلم فطرة وصديقية، وعلم أسماء في قصة آدم ﷺ، وغيره من المهتدين.

وقال: «نري» ولم يقل جلَّ قوله: «أرينا» وقد تقدم علم إبراهيم ﷺ وعلمه، أرى والله أعلم أن مخرج علم هذا من قول رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون**»[1] وأن حين التقدير وترتيب الكلام كانت البراءة من الآخرين، كالجزاء سواء خلافًا للإيجاد الموجود من آدم ﷺ، وإلى ما بعده ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥)، والنسائي (١٣٦٧)، وأحمد (٧٣٠٨)، والشافعي (٦٠/١)، وابن خزيمة (١٧٢٠)، والبيهقي (٥٣٥٤).

مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:٨٨].

الملكوت هو فعل الملائكة - عليهم السلام - بأمر الله ﷻ في جميع الموجودات من تدبير بجميع التقدير من تدبير وإمساك، وإزالة واضمحلال، وإنشاء وخلق، وتبليغ وتنفيذ، وإنباء بعضهم وجميع ما هو الأمر المسخر به السماوات والأرض من خلق وقوى، وتجديد خلقة وإخلاق إلى ما وراء ذلك لا يعلمون إلا بأمره، ولا خروج لهم عن حكمه، فهذا هو المسمى الملكوت مأخوذ من الملك، والملك عطف بالواو، وأدخل لام كي في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

تقدير الكلام والله أعلم: نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض؛ ليؤمن بالغيب، ويزداد إيمانًا إلى إيمانه، فرفعه بذلك إلى محل النبوة والخلة العليا، وليكون من تبعه على ذلك، واقتدى به من الموقنين كما قال صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦].

واعلم أن برؤية الملكوت يشرف على مطالع الدنيا والآخرة، فيشاهد الآخرة من الدنيا، وذلك هو اليقين، وفي ذلك اليقين معلوم الغيب برؤية الله جلَّ ذكره والملائكة ولذلك وهو أعلم استاق ذكر الكوكب والقمر والشمس، كما قال رسول الله ﷺ: «**كما ترون الشمس وكما ترون القمر**»[١].

واتصل ذلك بما في قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ...﴾ [الأنعام:٧٤] من وعظه إياه.

وقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام:٧٤] كما قال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:٤٢].

وكقوله: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٨٦ - ٨٧] وهذا كلام عن علم يقينًا أن جميع الموجودات مفتقرة إلى موجدها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في جميع إيجادها ووجودها، وأنها بمنزلة السوامع المتعبد لها، لا تملك ضرًّا ولا نفعًا ولا تغني عنه شيئًا.

ثم استاق ذكر الكوكب وجعل البراءة منها علة للأفول، وذلك اعتماد منه على

---

(١) تقدم تخريجه.

الرؤية مع ما في ذلك من طريق النظر، وسنن التفكر وكيف الاعتبار، وإنه صعود في مكان منظور فيه معتبر به إلى ما هو هذا آية عليه ودليل إليه، وكانت رؤية النيرات الكوكب والقمر والشمس آيات على رؤيته لما لها من نور وتبعها من أمر ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ [النور:٣٥].

وأما تبرؤه ﷺ من الكواكب لأجل أفولها فيما سبق إليه من وحي، أو تعريف بأن الحق المبين لا أفول له؛ إذ الأفول فقد وعدم وجود، مع ما في ذلك من تنقل وتغير وقطع مسافة، وليس كالحجاب فإنه يحجب عنه خليقته ويحتجب عنها، وبما شاء وكيف، لا إله إلا هو العلي الكبير.

وأما الإشارة إلا من اتبعه واقتدى به في ذلك يكون من الموقنين، فإن أمرًا سخر له الشمس والقمر والنجوم والسماوات والأرض والجبال، وأوجد الموجودات على أنواعها لأمرٍ حق وحكم عزم؛ إذ العبث لا يجوز في حكمته، وأفعال اللعب تستحيل على نعوت تعاليه وأوصاف كبريائه.

وقد وصف ما هو فاعله ووعد بما هو جاعله من تقويض هذا البناء، وتبديل الأرض والسماء، وسريان الشمس والقمر وجميع الكواكب، وتسيير الجبال، وأن شيئًا سواه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، وإنما يملكه هو لا سواه، وأن الأمر من الدنيا إلى ما هو مستقبل مؤسس على حكم الشيء من صغير إلى كبير، كما تقدم الإيجاد من مبدأ الأمر إلى هلم جرًّا، فعظم الأمر وجلَّ الخطر، وتحقق الإيمان بالغيب كالوجود.

قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم، فانظر بما تخرج منها**»[1].

ومفهوم قوله: إن الذي يخرج به الإصبع من اليم هو ماء، وعلى قلته فهو ماء اليم، فالدنيا إذًا منتزعة من الآخرة يسير من كثير، وصغير من كبير، كالماء الخارج

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، وأحمد (١٨٠٤٣)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٥٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩)، والطبراني (٧١٣)، والقضاعي (١٣٨٧)، وهناد (٥١٧).

من البحر مع الإصبع، وأن المثل المذكور منه ﷺ للتقريب كمثل الخضر لموسى عليه السلام في قوله وقد نقر عصفور من حرف السفينة في لجة البحر نقرة أو نقرتين، وهو يومئذٍ في مجتمع البحور، وهو أكثر ماء على وجه الأرض: «**ما علمي يا موسى وعلمك في علم الله ﷻ إلا كنقرة هذا العصفور من هذا البحر**»[(١)] وعلم الخضر وموسى كان من علم الله ﷻ، وكذلك موجود الدنيا هو من موجود الآخرة.

سهل على إبراهيم المأتى في العبرة من دليل إلى ما هو مدلول عليه، ومن إشارة إلى ما هو مشار إليه؛ إذ معرفها والمشار إليه بها، والمشهود له بها إنه جاعلها ومسخرها هو الحي القادر العالم المريد المدبر الحكيم، وإنهن كما هن مدبرات لا تستغني عن مدبر قادر مصرف.

كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ إلى قوله: جلَّ قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: الحق الذي إليه المصير، فاعبر - وفقك الله - مما نشاهده هنا إلى حق فيما هنالك، واحكم بالمماثلة من قليل هنا إلى كثير هناك باقٍ، ولا يفنى، كذلك قال: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٧ - ٨١].

قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ...﴾ [الأنعام: ٨٠] محاجتهم إياه أن أضافوا ما قد

---

(١) تقدم تخريجه.

جعل الله جلَّ ذكره لهن من أمره في طلوعهن، وحلولهن في محالهن من أفلاكهن مع اختلاف الأوقات والشهور والأزمان، وما قد حفَّ بذلك الأمر من ملائكته - على جميعهم السلام - لتنفيذ ذلك الأمر عنه بإذنه يقولون، وبإقراره إياهم يعملون.

يقولون له: ألا ترى ما تصنعه الشمس من أمر كذا وكذا والقمر؟ وربما عددوا منافع ومضار جعلها الله من أمره كما تقدم، فكان ذلك له هداية، وفي حقهم فتنة وعمى عن رؤية الفاعل المسخر المدبر - جلَّ وعلا - فاكتفى عليه السلام بما هو من عنده من علم الله عز وجل، وتدبيره بها الكفاية كلها، فقال: ﴿أَتُحَاجُونِّي فِي الله وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام:٨٠] يقول: وقد هداني إلى أن كل ما تذكرونه من أمر تضيفونه إليهن، فهو أمر الله وتدبيره وحده لا شريك له، وحرفوه بما زعموا أنه كائن عنهن في حال طلوعهن وغروبهن، ومقابلتهن على نسب يتظننونها أوجدوها، حقيقتها لله جلَّ ذكره وهو الأول فيها، والآخر والظاهر والباطن.

كذلك قال قوم هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٤] فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٨٠] ولو تذكروا لأبصروا أن كل الأفاعيل التي يظنونها عندها هي من الله جل جلاله، وقد وقَّت لكل مفعول ظهورًا، وشرَّع لمخرجيه ومظهريه من الملائكة المدبرات الأمر - عليهم السلام - أن يظهروا تلك الآيات بإذن الله، ومشيئته عند طلوع الشمس والقمر أو أي الكواكب كان، أو غروبها، أو توسطها السماء، أو مقابلتها لسواها، وعلى نسب معلومة محدودة قد حدَّها جل جلاله لمدبرات الأمر من الملائكة عليهم السلام.

وكما قد أمرنا نحن بامتثال فعل الصلوات في أوقات مطالع الفجر الكائن عند ظهور ضوء الشمس قبل طلوعها واستوائها، وحال جنوحها إلى الغروب وقت غروبها عند غروب الشفق الكائن، عند بقايا ضيائها بعد غروبها، وجعل جل جلاله ذلك على حدود معلومة في كل صلاة أوائلها وأواسطها وأواخرها، كل ذلك بحدود جريان الشمس وظهور الظلام وزواله.

ولا يقال: إن صلاتنا هي للشمس، ولا أن عبادتنا هي للكواكب لأجل ذلك، وكذلك جعل حد الصيام طلوع الفجر، والفطر غروب الشمس، وقال ﷺ: «صوموا

لرؤيته وأفطروا لرؤيته»[(١)].

وجعل وقت أداء الزكاة حلول الحول، وهو كون الشمس في موضع بدئها من أول، فافهم.

وكذلك الحج هو في شهر معلوم في أيام معدودات، ومعدودات من ذلك الشهر، فهذه شرائعه ﷻ التي شرعها لنا؛ لنصل بها إلى مرضاته، فهذه الكواكب كذلك شمسها وقمرها، وغيرهن من ذوات الأمر شرع لهن بشرائع، وجعل المقومين لهن ملائكة - عليهم السلام - تيسيرًا لهن، وتسخيرًا لمنافع عباده إلى أن يأتي أمر لتقويض البناء، وتبديل الأرض غير الأرض، فيكون الأمر كله من لدنه، ذلك هو الحق المبين.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٢ - ٨٨].

فعلى هذا وصلك الله فاعمل، ولا يجرمنك شنآن قوم قصرت علومهم، فقصرت به هممهم عن الوصول إلى العلي الكبير، فلمعرفة هذا وما هو منه أعلى مدح الله ﷻ خليله الكريم بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨١٠)، ومسلم (١٠٨١)، والنسائي (٢١١٧)، وابن حبان (٣٤٥٧)، وأحمد (٩٥٥٢)، والطبراني (١١٧٥)، والترمذي (٦٨٤) وقال: حسن صحيح، والبيهقي (٧٧٣٣)، والحاكم (١٥٤٧)، والدارقطني (١٥٩/٢) والطيالسي (١٨١٠).

واقضِ أن تلك الأفاعيل التي يضيفونها إلى الكواكب إنما هي أفاعيل الملائكة - عليهم السلام - بأمر الله ﷻ لتوقيت مؤقت عندما يظنونه من مطالع ومغارب ومقارنة، يقول ﵇: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام:٨١] فأي الفريقين أحق بالأمن؛ مَن كان مطالبه الحي القيوم الملك الحق المبين أم مَن كان لا قدرة به ولا حياة ولا علم ولا تبعة له ولا حقيقة؟! فحكم الله ﷻ بحكمه الحق وقضى بالفصل، وهو أحكم الحاكمين بقوله الحق: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك كبير ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] الهداية.

ثم بعد هذا الله جلَّ ذكره حَكَمَ فصل في عباده المذنبين الظالمي أنفسهم بذنوب أصابوها، وهو موضع الشبهة من العلم في حقنا، غير أن من حكم الله ﷻ في كثير من عباده المؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم بشرك، ولا شك أنه يكفر عنهم سيئاتهم بأمراضهم وأوصابهم ومصائبهم، وبالشدائد تصيبهم، واللأواء صغيرة ذلك وكبيره، لا يظلم من ذلك كله مثقال ذرة.

ولما نزلت: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣].

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وقد جزع لظاهرها: «يا أبا بكر، **ألست تمرض؟ ألست تسقم؟ ألست تصيبك اللأواء؟......**»[(١)].

ثم استمر ﷻ على ذكر الأنبياء والرسل من الأولين والآخرين - صلوات الله عليهم أجمعين - وعمَّ وخصَّ وأحال على ما لم يسمِّ، فذكر معهم آبائهم وإخوانهم، ومن اجتباه وهداه، ومن آتاه النبوة والحكم، وهذا كله مدرك للإيمان بملكوت السماوات والأرض:

فمنهم: العموم بالإضافة إلى العلية منهم، وهم الإخوان والأتباع والآباء

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨)، وأبو يعلى (١٠٠)، وابن حبان (٢٩٢٦)، والحاكم (٤٤٥٠)، والبيهقي (٦٣٢٨) وفي الشعب (٩٤٦٦)، وهناد (٤٢٩)، وابن عدي (١٩٢/٥)، وابن جرير (٢٩٤/٥)، والضياء (٦٩). اللأواء: الشدة والمشقة وضيق المعيشة.

والأبناء كعموم المؤمنين في الجملة.

ومنهم: من أتم عليهم النعمة وبلغ به درجة النبوة، فافهم، وهذا هو الطريق فالزمه، وهم الذين هداهم الله فبهداهم اقتده، وسله التوفيق والتسديد والصدق والإخلاص.

فصل

ذكر الذين تعاطوا معرفة أجرام الكواكب، وأبعاد الأفلاك تزعموا أن الشمس أكبر من الأرض بمائة وثمانية وثمانين ضعفًا، ومنهم من زاد على ذلك بثلاثمائة ضعف، وكذلك قالوا في القمر وسائر الكواكب بالزيادة على الأرض، وفاضلوا بين ذلك، فإن كان المعنى فيهم بموضع المضاعفة طريق الشمس في فلكها من مشرقها إلى مغربها، ثم بمصعدها في أعلى مسالكها في ذلك، ومنازلها إلى أدنى ذلك من المشارق والمغارب، فربما قاربوا أو ظن بهم ذلك، وإن كان هذا غير مدرك لبشر من غير توقيف نبوة، ولا إعلام بوحي من عند الله.

وإن كان المعني بذلك قرص الشمس، فالمشاهدة تبطل ذلك، وإنما أوقعهم في هذا التهافت ما رأوه من أمر الله المجعول فيها وبها؛ وذلك أن الله جلَّ ذكره جعلها شخصًا محاطًا به محصورًا له، مقدم ومؤخر، وجنبات رفعه الله ﷻ في لوح الجو، وأجراها في الفلك الرابع الذي هو بموضع الوسط من الأفلاك، فلك القمر دع عنك ما دون ذلك من فلك الرياح، وفلكي الليل والنهار، وفلك المياه، وهي جسم نيِّر سراجي عمَّ ضياؤه ما سمي نهارًا، فكان ذلك سبب شهرتها.

واضطرار الإبصار إلى رؤيتها دون تضام من أحد إلى أحد، ولا تضار حال الرؤية؛ لعلوها في الأجواء، وإشراق ما جعله الله ﷻ في ضيائها وثاقب سناها، جعلها الله ﷻ آية من آياته، وعلي موجودات في الدار الوسطى والدار الآخرة، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو أعلى وأجل وأقدر على ما هو أكبر وأبين بيانًا وأحق حقيقة وأكرم ظهورًا، ولها من القصور أن تطلع على الأرض كلها طلعة واحدة، بل هي طالعة في حق قوم وضاحية في حق آخرين، ومستوية آية ذلك في طلوع الفجر وعند غروبها، وأن حال الغبسين لا ثابت لا يتعجل عن وقته ولا

يتأخر، تقدير من عزيز عليم.

ثم قد تنكسف فينكسف منها جزء، فيشاهده قوم ولا يشاهده آخرون، ويتم كسوفها في ضمنها كالنقطة، والمعهود المتعارف أن ظلال الأشخاص تعظم مع القرب، وتستدق على البُعد، وفي مثل ما بين الأرض وبينها يوجد ذلك، وذلك كله دليل على قصورها، ونقصها عن العظم الذي وصفوها به.

أما أنها لمن آلاء الله جلَّ ذكره ومن آياته، قال رسول الله ﷺ في حديث ابن المُنْتَفِقِ وقد سأله عن الرؤية، فقال: يا رسول الله بِم يُبصر يومئذٍ؟ قال ﷺ: «**بمثل بصرك ساعتك هذه**» وذكر كلامًا فيه أنه سأله، فقال: يا رسول الله، كيف وهو شخص واحد يراه أهل الأرض كلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أريك مثل ذلك في آلاء الله الشمس والقمر، هما شخص واحد ويريانكم، ولعمر إلهك لهو قادر على ذلك منهما**»[(١)].

وهذا نص منه على ما عجزا عنه من الظهور على جميع الأقطار زائدًا، إلى ما في ذلك من الأخبار عن نقصهما عن الكمال الذي هو الإبصار، والقائلون بما تقدم ذكره من عظم أجرام الكواكب هم القائلون حقًّا: إنهما لا يطلعان على جميع الأرض.

فصل

يقال لجميع الملائكة عليهم السلام: ملك.

قال الله ﷻ: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة:١٧].

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] يعني: جميع الملائكة - عليهم السلام - فهو إذًا لتكثير اسم الجميع، وتفخيم لمفعولهم، وتعظيم وصفهم له بالإحكام وحسن التماسك وبديع الترتيب؛ لأنهم - عليهم السلام - إنما يعملون بأمر الله ﷻ وبمشيئته، فإحكامهم في مفعولهم هو موجود عن إحكامه جلَّ ذكره وواقع على وفق مشيئته.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٣٥)، والطبراني (١٥٨٠٩)، والحاكم (٨٨٣٤).

وقد جعل الله ﷻ لكل موجود وجودًا من الملائكة - عليهم السلام - ما يطابقه يكون فعله في وجود ذلك الشيء إيجادًا له وإعدامًا وإنشاء، أو ما يكون في سبيل تنفيذ أمر الله جلَّ ذكره من ذلك، فالملكوت إذًا مأخوذ من جمع ملك، وينضاف إلى ذلك آية وصف لمفعولهم بالإحكام والإبداع وحسن التماسك كما تقدم.

والعرب تقول: «ملكت العجين» إذا أجادت عجنه، وبذلك يكون تماسكه، كرهبوت من رهبة، ورغبوت من رغبة ورغب، فكذلك ملكوت من ملكة وملك.

وأقرب سبيل تسنن على تعرفه فيما أعلمه - والله أعلم - معرفة الأسماء والعلم بمسالك طرقها في العالم، وعلى القول بالعموم وكشف المعنى، فمعرفة الحق المخلوق به السماوات والأرض وكل شيء، وكل ذلك موجود في علم الأسماء والصفات العلا، ومن ذلك تدقيق النظر في تعرُّف جمع مواد المخلوقات، وتعرف دقائق مسالك النشء فيها، من جواهر وأعراض وأحكام وخلق وأمر.

وبالجملة: فما كان تتميمًا للكلمات من سننه المتممة لذلك، ثم على ظهور ذلك المفعول واجتماعه، فعبَّر عنه بلفظة الملك، وقد يعبر بالملك عما يؤول إليه ﷻ الدنيا إلى ما هي الآخرة من سماوات وأرضين ومعاني الدار الآخرة، وهو قوله جلَّ قوله: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٩].

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣].

وقد يعبر بلفظ الملك عما هو سلطان الله في مملكته، وقدرته في مقدوراته، وجبروته وكبريائه، وأمَّا من حيث الموجود المخلوق فهو جَمْع موجود المخلوقات من الأرض والسماوات وما فيهن، وما بينهن إلى ما علا وإلى ما سفل، ثم ما يكون عن ذلك، وما يؤول إليه من وجود الدار الآخرة، والخلق والأمر من قبل ومن بعد، وتعرُّف ذلك من قوله جلَّ ثناؤه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...﴾ [الملك:١] إلى قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

وتبين في ذلك ما فطر الجملة عليه من شرعه الواضح المنهج وسننه النيرة، وسننه التي لا أمت فيها، ولا عوج في الأولى وفي الآخرة وفيما بين ذلك، وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله ﷻ في موضعه.

فصل

قال الله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان، فتضع الملائكة أجنحتها خضعًا للأمر، ويسبحون حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق**»[(١)] أي: أعلمهم؛ يعني: حملة العرش من ذلك المسموع ما هو الحق، ثم يسأل الذين يلونهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ فتخبرونهم، ثم كذلك تسبح ملائكة كل سماء سماءً سماءً، ويبلغ التسبيح ووضع الأجنحة منهم خضعانًا؛ لورود أمر الله والتساؤل، والإخبار منهم للسائلين مبلغ الأمر والتنفيذ، وتستدير الدوائر كل دائرة على التي هي دونها، والتي دونها تستدير على دوائر دونها، وحكم الأعلى ينظم الأسفل، فمن مفرد يعمل، ومن جامع لما تحته مفرد يعمل، ومن جامع لما تحته مفردًا أيضًا.

هكذا إلى ما يكون منها هي في مصافها كالدقائق، ودقائق الدقائق المفصلة على التحصيل الإلهي، وكالجواهر التي تتركب عنها الأجسام كلها، والأمر في تلك الجواهر محمول حمل الجواهر الأعراض والملائكة - عليهم السلام - يسبحون بحمد ربهم عالمون بأمره، وذلك ما يخرجه الله ﷻ من أمره من فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - إلى ما ها هنا.

وما يفتحه من رحمة بالماء عن أمره فتستديره الدوائر، فيكون الحاصل من ذلك ما يخلقه الله ﷻ من نبات وحيوان، وحرورر وزمهرير، واختلاف وأهوية وعوارض، وما يكون بين ذلك من إنشاء جنات وزروع وإيجاد موجودات، فمن دافع وجاذب، وماسك ومقيم، ونازع وناشط، ومغذٍ وهاضم إلى غير ذلك من مصور ومدبر، وحافظ ومرسل، ومبلغ وكتبة، وطلبة يطلبون المحفوظ ما قدر له من أمر، وحفظة يحفظونه من أمر لا يقدر، وكلٌّ حكم الله وأمره وقضاؤه وقدره،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤)، والترمذي (٣٢٢٣)، وابن ماجة (١٩٤)، والحميدي (١١٥١)، وابن حبان (٣٦)، وابن منده في الإيمان (٧٠٠). فزع عنهم: كشف عنهم الفزع.

والإنشاء مكنون، والنشء مشاهد والصنع مخفي، والمصنوع قائم بين مقتبل ومدبر وممسك.

وهذا تبيان لما هنا لك وآية عليه؛ إذ الملائكة - عليهم السلام - تنزل عليه بالأمر وتعرج سرمدًا، فينزل أمر كل سماء إلى ما تحته، ويعرج ما هو التحت إلى ما علا، تستدير بحكمه الأفلاك على تدواره وصورة حركته، وأمره الذي حمله على ما هو به، وإلى أدق دوائر من ذي العرش العظيم - جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه - إلى حيث شاء انتهاؤه والنهاية إليه ﷻ، ويعم الأمر بمشيئته ما شاء عمومه وشموله على أنواع تصرفه، وتضاعيف تفصيله، وإفراد ملكوته المجعول له به وعمومه، وتغاير أملاكه المدبرين للأمر المراد منه، وإحاطة ملك الملك الحق ملكوت كل شيء خلقًا وأمرًا.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] حتى يشمل المراد الأمر، والتنفيذ بالتدبير شمولاً كليًا، شمول الغذاء جملة الجسم، شافعة في إتمام ما جعل إليهم، وتسبيحًا لله جلَّ ذكره وعملاً بأمره وتنفيذًا لمشيئته، ولا يشفعون إلا فيما ارتضاه من ذلك، ومنهم الجامع لما فوق سواه الأعلى ينتظم الأسفل.

قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطتِ الأرض** - وفي أخرى «**السماء**» - **مكان الأرض، وحق لها أن تئط ما من موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك يسبح الله ويقدسه ويعبده**»(١).

وفي أخرى: «**أربعة أصابع**» مكان: «**شبر**».

فقد تبين - وفقك الله - أن معاني الخليقة أكثر أضعافًا من ذواتها هذا في الخلق من جاذب ودافع، وماسك وناشط ومقسم، وكما تقدم بأضعاف ذلك، ثم في الأمر من مدبر وقابض وباسط، ومقدم ومؤخر، ورافع وخافض، وحافظ إلى غير ذلك من تصاريف الأمر، كما تبين أيضًا أن الملائكة - عليهم السلام - الموكلين

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥٥٥)، والترمذي (٢٣١٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤١٩٠)، والحاكم (٣٨٨٣) وقال: صحيح الإسناد، والطبراني في الكبير (١٧٥١) وفي الأوسط (٣٥٦٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠٧).

أكثر أضعافًا من المعاني؛ إذ لكل معنى دافع وقابض وماسك.

ويتبين أيضًا من غير هذا بأول قضية للعقل أن الموات لا يفعل شيئًا، ولا يوصف بقدرة على فعل لا يملكون كشف الضر ولا تحويله، فكيف باختراع وإبداع؟! وبذلك ثبت لنا أن للعالم صانعًا صنعه هو غيره، ومدبرًا دبره هو سواه، حي قادر عالم مريد، له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة الحق العلي؛ إذ الحي منا لا يُوجد نفسه ولا غيره، ولا يدبر نفسه ولا غيره، فكيف بحال الموات، وما لا يوصف بحياة ولا قدرة، لولا أن الله ﷻ أوجد له فاعلين كما أراد منهم.

آية ذلك: إيجاد الحركة الإرادية للحيوان والفعل المنسوب إلى القصد، وجعل ذلك كسبًا واستطاعة للمتحرك الفاعل وأضافه إليه، وربما أثاب عليه وعذب، نشأ ذلك في الحيوان البهيمي إلى الإنسان الذي يفعله باختيار، وتدبير إلى المؤمن الذي يخرج أفعاله على رضا مالكه وطاعة خالقه، وأمره إلى الملائكة - عليهم السلام - أرضية ثم هوائية إلى سمائية، إلى ما فوق ذلك إلى الحملة وهم أربعة، وسيحمله ثمانية، كذلك كل شيء دق أو جلَّ، فافهم فهمنا الله وإياك.

قال الله ﷻ مخبرًا عن بعض ما أومانا إليه: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:١ - ٥].

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات:١ - ٥].

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:١ - ٤].

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨] قل: الله ﷻ.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] فأخبرك أيضًا صريحًا أن لكل شيء ملكوتًا، والملكوت إذًا هو تحسين الملائكة - عليهم السلام - وتدبيرهم، وفعلهم على ما شاءه ربهم عزَّ ذكره لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

آية ذلك فيما ها هنا حواس الإنسان وجوارحه العمل مضاف إليها من سمع وبصر وحركة وعمل، وكل ذلك عن ذات الحامل لها المدبر المريد بها ما شاء،

وفيما هنالك أحق حقيقة وأكرم وجودًا ﴿لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] لذلك وهو أعلم أجاز في إخباره عن الخلق والإنشاء، وأكثر الأفعال إدخال نون الجميع كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] يقول الله جلَّ ذكره للمراد: «كن» وتقول الملائكة - عليهم السلام - دونها تبليغًا عن ربهم؛ لذلك مع إفهام المراد من ذلك كذلك، وهذا يسمى خطاب البسط، فإذا قبض الخطاب، وأضاف إلى نفسه قال وقوله الحق: ﴿وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل:٦٥].

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم:٤٠] ونحو هذا وهو كثير.

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام:٧٦] معنى، فلما أظلم عليه الليل ليس حقيقة هذا اللفظ من التغطية، وإن كان يفهم منه ذلك بآخره، ولو كان ذلك كذلك لقال عز من قائل: «فلما جنَّه الليل» وإن كان مسموعًا في كلامهم جنَّه وجنَّ عليه، فإن للقرآن العزيز فضل تحقيق ليس لسواه من الكلام.

ومنه: الجنين، قيل فيه ذلك؛ لأنه في ظلمات ثلاث أظلمت عليه، وإن كان مغطى بالبطن والرحم والمشيمة، فمفهوم الأول والثاني يبين لك أنه بكونه في الظلمات يسمى: جنينًا، وبذلك تمدح تبارك وتعالى في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر:٦] أخبر بذلك ﷻ عن اقتداره، وأنه بصير في الظلمات عليم بالخفيات.

كما قال جلَّ قوله: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠].

وكقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٥٩] ونحو هذا.

ويسمى الجان: جانًا؛ لأنهم خلقوا من نار السموم، وهو اسم عام لجميع الملائكة الذين أعدوا لمجازاة أهل العذاب - صلوات الله على جميعهم - وخلق الله نسل إبليس - لعنه الله - من مارج من النار؛ أي: مختلط النار بالزمهرير.

قال الله ﷻ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] فهذا هو إبليس - لعنه الله - ومن خلقه الله من الملائكة المعصومين عليهم السلام.

يقول الله ﷻ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ أي: من قبل خلق آدم ﷺ، ومن هؤلاء هم فتانوا القبر وخزنة جهنم، وأصحاب عذاب ما هنالك نعوذ بالله من عذاب الله.

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥] كذلك خلق ﷻ من خالص النور ملائكة، هم ملائكة الرحمة أعدهم لمجازاة أهل طاعته.

فصل

قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ فهؤلاء ولد إبليس لما أهبط كما أهبط آدم ﷺ، فانسل فيما هنا كان ذلك منه حيث تنفست جهنم بنفسيها، فخلق نسله من ذلك، كما كان نسل آدم من ذلك مختلط النار بالزمهرير، وكان نسبة النار أقرب إليهم نسبًا؛ لعدم ذلك فيهم، كما كان حظ الطين والماء إلى نسل آدم أقرب لقدم ذلك فيهم.

وأما نور الله العلي فلا ضد له إنما أوجد الضد للمحدث، فطرد النور الظلام إلى منتهاه، وأوجد بينهما برزخًا في موضع التقائهما واختلاطهما، كالبرزخ بين البحرين، والغبشين من الليل والنهار، والخيف بين السهل والجبل، فذلك البرزخ بينهما هي النار أوجد جلَّ وتعالى عنها حجبًا فيما هنالك وأنهارًا جارية، وما شاءه لم يكن ظلمة لما فيها من الضياء، ولا كان نورًا لما فيه من الظلمة.

ولذلك لما ذكر إبليس قال فيه: ﴿كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠] فمفهوم هذا إنه كان مهتديًا ففسق؛ أي: خرج عن هدايته، ثم بآخره يفهم من هذا إنه كان من الظلام، فرجع إلى أصله بإغوائه إياه وإزالته عصمته عنه، ووصف الظلام، وفعله الكفر والتغطية، وعبَّر عن خلقته بالطرف الواحد منه، وهو الظلام؛ ذلك لأنه ذكره في معرض الذم له، كما عبَّر عن خلقته الإنسان حين أراد ذمَّه أنه من التراب، وأضرب في ذلك عن ذكر الماء الذي هو موضع الحمد منه، كذلك لما أراده من ذمِّ إبليس أضرب عن ذكر النار التي خلقه منها؛ لما في النار من

ضياء ونفع، ولما فيها من وصف علي.

قال رسول الله ﷺ ووصف ربه ﷻ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور** - وفي أخرى: «**حجابه النار**» - **لو كشفه**» أي: لو كشف الحجاب الذي حجب به خلقه عن البروز إلى حجابه العلي الخاص به «**لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١).

فكل نور أو نار فعين النور والنار هو، بل أبقى ذلك في وصف المعصومين منهم على جميعهم السلام، فلأن كان إبليس - لعنه الله - من قُبيل الظلام كان كافرًا عدوًا، ففسق لذلك عن أمر ربه بمشيئة الله جلَّ ذكره في إزالة عصمته عنه وظلم، وإن كان من أهل النار كان عدوًا، وكان رجوعه إليها وعمله لها، ودعاه إلى ما يوجبها بإضلال الله ﷻ له، كما أنه بما في النار من شوب نور كان طائعًا لربه - جلَّ ثناؤه - برهة من النار، وكان من جملة الملائكة، وتوجه إليه الخطاب مع من توجه باسم الملائكة، وكان أيضًا من نسله مؤمنون وكافرون وطائعون لله ﷻ.

ولما كان الملائكة - عليهم السلام - الذين هم الجان خلقهم من نار السموم، وكانت كلمة الله جلَّ ذكره قد سبقت لهم بالهداية، كانوا لها خزنة وسدنة، وملائكة غضابًا لله شدادًا في ذاته ﴿لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ومن إثارة ذلك قال رسول الله ﷺ، وقد سئل من أكرم الناس، قال: «**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(٢).

وقال في أخرى «**الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجة (١٩٥)، وأحمد (١٩٦٤٩)، وأبو عوانة (٣٧٩)، وابن حبان (٢٦٦)، والطبراني (١٥٨٩) وفي الأوسط (٦٠٢٥)، وأبو يعلى في مسنده (٧١٠٣)، وعبد بن حميد (٤٥٣)، والطيالسي (٤٨٧)، والبزار (٣٠١٨). السبحات: جمع سبحة، وهي: النور والضياء والبهاء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٦٣١١)، وأحمد (١٦٩٧١)، وابن أبي شيبة (٣٢٣٨٧)، وابن أبي عاصم (١٥٢٧)، وابن عساكر (٦٠/٤١).

فقهوا»[(١)] ونحو هذا من إشارات الوحي كثير، فهذه عبرة ظاهرة قف عليها.

فصل

هذا هو الملأ الأعلى

قال الله جلَّ ذكره: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٧ - ٦٩] وسيأتي ذكر اختصامهم إن شاء الله ﷻ.

ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا....﴾ [ص:٧١] ثم إن الله جلَّ ذكره كان قد سبق في قضائه وعلي حكمته أنه أهبط آدم عليه السلام وإبليس إلى الأرض فأنسلا، وكان منهما المؤمنون والكافرون، فسمي نسل آدم: إنسًا، وسمي نسل إبليس: جنًّا.

وأما الملائكة الذين لم يجز عليهم خطيئة الذين هم من قبيل النور وقبيل النار - على جميعهم السلام - فلم يكن من بعدهم من طريق النسل، بل كانوا مما خلق عن النور كالكلام الطيب: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والتمجيد ونحو هذا، فما كان من هذا فهو للصلاة والذكر والتسبيح، ونحو هذا من العبادات.

ومنهم: المخلوقون من الماء؛ إذ هو أيضًا من قبيل النور، فما كان منهم مخلوقًا من هذا القبيل، فهم الفعلة والقومة، والمنشرون للذكر والعبادة على ما وكلوا به إلى النبات والجماد والتراب، على ما تقدم ذكره من جاذب وماسك ودافع وناشط ومقسم ومصور ومغذٍ وناشر ومنشئ، مع التسبيح والتحميد ونحو هذا، فما كان من هذا فهو للصلاة الفعلة والمفعول معًا ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وهذه المذكورات من جاذب وممسك وغيرهم من الفعلة سمتها الأوائل: القوى، وجدوا ذلك وجدًا بالنظر، ولم يكن لهم نور نبوة يستضيئون به، فإن كان

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٥)، ومسلم (١٨١٨)، وأحمد (٧٣٠٤)، والترمذي (٢٠٢٥) وقال: حسن صحيح، وأحمد (١٠٨٠١)، والبيهقي (١٦٤٣٩)، والحميدي (١٠٤٤)، وأبو عوانة (٦٩٦٩)، وأبو يعلى (٦٠٧٠)، وابن حبان (٩٢)، والديلمي (٦٨٨٠).

أرادوا بقولهم قوى الملائكة، وكان ذلك معهودًا عندهم في لسانهم وعرفهم، يعبرون بقوى عن ملائكة فهو الصواب إن شاء الله تعالى، وإن كانوا أرادوا ظاهر ما ذهب إليه أتباعهم، فهو الخطأ الصرف، وهم يقرون أن تلك القوى موات ولا يصفونها بحياة، وقد تقدمت إشارة إلى إبطال ذلك.

وكذلك تقدم في شرحه اسمه «الحنان» جلَّ ذكره تفسير قولهم: ما هو الجِن والبِنّ، وأن أصل ذلك في جبلة العالم من ممتزج نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - رحمته بالماء، فكان لذلك معنى معهودًا في موجودات الجماد والنبات والحيوان، فلما أهبط الله ﷻ آدم - صلوات الله وسلامه عليه - وزوَّجه إلى الأرض حنَّ إليه من ذلك ما حنَّ، وبان عنه ما بان، فهو الجن الممتزج بعضه في أصل الخلقة.

ومنه الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، ومن النبات والجماد في الغذاء ومواد الخلقة، ثم يتسع النظر وينخرق انخراقًا عظيمًا، ولاتساعه يعتاص على الفهم أن يضمه إلى زمام العقل، وإن كان قضاء الإيمان ينبسط عليه، والحمد لله رب العالمين.

قوله ﷻ: فيما حكاه لنا عن إبراهيم عليه السلام لما رأى الكوكب ثم القمر ثم الشمس، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦].

﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٧].

﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام:٧٨].

في ذلك دليل على أن للناظر في طلب الحق في أثناء ترداد النظر أن يجعل مفروضه ما تقرر في نفسه ونفس خصمه، وهو الأصل في صناعة الجدل، وربما سمي هذا المفروض باسم المطلوب الأعلى على سبيل التسليم للخصم، والتجوز حتى يتبين الصواب، ولا يكون ذلك جورًا ودلائل هذا كثيرة:

منها: إن الله مدح إبراهيم عليه السلام بما ذكره عنه من ذلك، ولم يكن الله جلَّ ذكره ليمدحه على جورٍ وضلالة.

ومن ذلك: قوله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٤٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ ثم قال: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف:٨١ - ٨٢] أي: أنا أول العابدين على التنزيه له بالتعظيم عما يصفه به الجاهلون.

فصل

جعل الله ﷻ العلة في التولي عن الكوكب والقمر والشمس الأفول، وقال ﷺ: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦] ولم يراعِ الانتقال منها والتبدل والحلول في الأمكنة والتسيار، وظهور المنظور فيه في مقابلة وتحير، وكونه ذا حجم إلى غير ذلك من صفات المحدثين وسائر المخلوقات، بل أضرب عن هذا كله وانتظر به الأفول، فلما أفل تبرأ منه وهو إمام المتذكرين وقائد المعتبرين ﷺ، ولم يخبر الله جلَّ ثناؤه بذلك، واستاقه عنه في معرض الثناء عليه، والتعريض بالائتمام به إلا وقد رضي ذلك منه، وهذا ينظر بالقبول إلى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وقول رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب**»[(١)].

تنبيه:

لا معنى لكاف التشبيه هنا في قوله ﷺ: «**كما ترون**» إلا العبارة عن دوام تجليه وعلي ظهوره، وحكم التجلي معلوم منه بوعده الكريم، ثم المثل الأعلى، والأفول معناه عدم وغيبة وتخلٍ، والله يتعالى عن ذلك.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**سترون ربكم عيانًا كما ترون القمر...**»[(٢)] والمعهود أن رؤيتنا الشمس والقمر على الدوام، ما خلا الأفول الذي تبرأ منه إبراهيم ﷺ من

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

اعتقاد الربوبية لهن من أجله، وقال: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦].

وقال الله ﷻ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣] وهذا خطاب مطلق لا تقييد فيه.

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩].

وقال رسول الله ﷺ في حدث لقيط بن عامر عنه، وقد سأله ابن المنتفق، فوصف الموقف والمحشر قال: «**وتخلص الشمس والقمر وتحبس الشمس والقمر، ولا ترون منهما واحدًا**» قال: قلت: يا رسول الله، بمَ نبصر يومئذ؟ قال: «**بمثل بصرك ساعتك هذه، وذلك في يوم أسفرته الأرض وواجهته الجبال**»(١).

مصداقه: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩].

وفيه قال: «**وتنظرون إليه ساعة**» قال: «**وينظر إليكم**» يعني: في الموقف، قال: قلت: يا رسول الله، كيف وهو شخص واحد ونحن ملاء الأرض، وننظر إليه وينظر إلينا؟ قال: «**أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله ﷻ الشمس والقمر آية صغيرة، ترونهما في ساعة واحدة ويريانكم، ولا تضامون في رؤيتهما، ولعمر إلهك هو أقدر على ذلك منهما على أن يراكم وتروهما**».

هذا إلى ما جاء في حديث الزيارة من طريان التجلي بعد الاحتجاب، فوصف أن من رؤية الله جلَّ ذكره ما هو على الدوام دون غيبة، ومن الرؤية ما هو في ساعة، ووقت دون آخر.

قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»(٢).

آية ما أنبأ به رسول الله ﷺ رؤيتنا الشمس في حياتنا الدنيا هذه، ولسنا نستطيع رؤية القرص منها إنما نرى ضياءها وإشراقها، ونشاهد ما جعل الله لها من الآثار

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٠٦)، ومسلم (١٨٠)، والترمذي (٢٥٢٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٥)، وابن ماجة (١٨٦)، وأحمد (١٩٦٩٧)، وأبو يعلى (٧٣٣١)، والروياني (٥١٣).

المنسوبة إليها التي هي لله ﷻ حقيقة، فإن رمنا رؤية عينها التي هي القرص لم نستطع بذلك الشعاع المانع للأبصار، هو آية على رداء الكبرياء فيما هنالك.

وهذه الرؤية المذكورة الدائمة لهم فيما هنالك هي مشاهدتهم الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، وقد وعد وعدًا حقًّا بأن يتجلى لهم فيرونه عيانًا، ويكلمهم كفاحًا عزَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا...﴾ إلى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] في يسر وعافية.

فالمفهوم من هذا وهذا أن معنى قوله: «**وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**» أنها رؤية أصحاب الجنة في البرزخ؛ لأنها رؤية ارتفعت عن رؤيته بالبصائر والإيمان في الدنيا، ونزلت عما عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**ترون ربكم عيانًا**» وقوله: «**ليس بينكم وبينه حجاب**».

وذكر أيضًا أن من الرؤية ما يكون في موضع من الجنة، قد أكرمه الله منه بذلك فيه حديث الزيارة، وإنهم يسيرون إلى ميعادهم في ذلك.

وقال أيضًا: «**إن أهل الجنة إذ دخلوها نزلوا بفضل أعمالهم، ثم يرِدون في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم عزَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه في روضة من رياض الجنة، ويوضع لهم منابر.....**».

وفي آخره: «**إنهم يقولون لأهاليهم إذا رجعوا إليهم: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار، ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا**»[1] يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنا وعنه.

فصل

الأفول كما تقدم عدم وتخلٍ، وغير جائز ذلك عليه في صفاته العلا، وأيضًا فإن الغروب للشمس والقمر والنجوم كالموت لذوات الأرواح.

ألا ترى أن الليل الذي هو ظاهره عن غروب الشمس، هو دليل على الموت والطلوع منها تجلٍّ، والوصف لله جلَّ ذكره بالتجلي والظهور صحيح شائع وجوده

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٩) وقال: غريب، وابن ماجة (٤٣٣٦)، وابن حبان (٧٥٦١)، وابن عساكر (٥١/٣٤).

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩] والحجب فعله ومقدوره في مشيئته إذا شاء جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وجدُّه حجبهم عنه، وإذا شاء أراهم نفسه بوعده الكريم وفضله العظيم، فلذلك جاز أن يوصف بأنه مكان فهو الغني عن كل شيء بكل معنى، وعلى كل وجه، وعلى ذلك فهو الله في السماوات وفي الأرض ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾.

وهو الموصوف المعلوم بأنه ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وأنه ما يكون ﴿مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [المجادلة:٧] وهو الذي لا يحصره العدد، وهو أقرب إلى القلب من وريده، وإلى الروح من حياته، وإلى البصر من نظره، وإلى اللسان من ريقه، بقرب هو وصفه لا تقريب ولا تقرب.

وأما وصفه جل وعلا بمكان أو ترتيب زمان، أو ذكر عدد، وما نحا نحو هذا، فهو نزول منه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بوصفه الذي هو وصف له من حيث هو، إلى ما شاء من مفعوله ما شاء من حكمه، لولا وصف التنزل بما شاء من حكمه، لولا وصف التنزل والاستواء ما فُهِم عنه معنى من معانيه في خليقته، فافهم يقرب عليك البعيد.

والله يفعل ما يريد لا يعدو عليه فعله، ولا يمانعه في حكمته عبده، وبه تعرف المعارف لا بها يُعرف، وإليه تتحاكم الألباب لا هو إليها يتحاكم، فاعقل خطاب ربك واعبده كما أمرك، وتوكل عليه هو فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، ليس محيطًا به شيء الرحمن اسمه، والاستواء نعته وفعله، والعرش خلقه منفصل من صفاته، لا يخلو منه مكان، وعلى ذلك فليس هو بمضطر إلى مكان؛ إذ المكان لا يجوز عليه ولا تسعه الأمكنة.

لما كان هذا خطابًا ينبئ عنه ﷻ وعن مفعوله، كان لذلك الخطاب ذا جهتين، والأنباء ذا عرفين وجه الخطاب تعرف المفعول، وخرج الإنباء بمعهود الغير، وأما وصفه هو من حيث هو وصف له، فليست العبارات له بمدركة، ولا معهودات الخلقة لوصفه العلي، متناولة ليس بمفتقر إلى حامل يحمله، ولا حيطة تجمعه، ولا

حلو يوجده الملائكة حملة العرش؛ بمعنى أنهم منفذون الأمر النازل عليهم من أعلاه، والعرش محل لاستوائه.

وعلى ذلك فهو الحامل للعرش العظيم بقدرته، وجامع للعرش وحافظ له، ولحفظه الحفظة بلطيف صنعه، هو موجد ما أحب لمن أحب من التجلي بمعاني أسمائه وصفاته بخفي لطفه ولطيف قدرته، وهو مُمكِّن للعرش وهو على العرش باختيار نفسه، فالعرش حد خلقه الأعلى هو غير محدود لعرشه، والعرش محتاج إلى مكان، والرب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه غير محتاج إليه، كما كان بسط العرش في توسعة الحول لا يسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلا في أنوار صفته، ولا يرى إلا بنوره إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن لم يشأ لم يسعه كل شيء إن أراد عرفه كل شيء، وإن لم يرد لم يعرفه شيء، وإن أحب وجد عند كل شيء، وإن لم يحب لم يوجد بشيء.

الأحكام والأقدار واقعة على خلقه، والحدود والأقطار حجب بريته، والحجب والأستار، والمكان والزمان، والعلو والسفل، ومعاني الخليقة كلها متصلة بمخلوقاته، سبحانه وله الحمد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، فالأوهام لا تصوره والأفكار لا تكيفه، لا تصفه الألسن ولا تبلغ وصفه العبارات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فصل

فأما القول على ما ورد من ذكر الرؤية على الدوام الذي عبَّر عنه قول رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب**»[(١)] وقد تبرأ إمام المعتبرين وقائد الناظرين في ملكوت السماوات والأرض من التعبد للآفلين، ولم يكن رسول الله ﷺ ليمثل رؤية الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأفول، قد تبرأ منه خليله ومدحه على ذلك ربه، فالمعتمد عليه إنها رؤية على الدوام، لا أفول يعتقبها ولا زوال يعروها، خلا مشيئته في الحجب

---

(١) تقدم تخريجه.

والاحتجاب، كمشيئته فيما هو على ذلك في هذه الدار آية، وهو الحق الذي خلق به السماوات والأرض وما بينهما.

وقد كرر ذلك بغير ما عبارة في الكتاب العزيز، وأعلنه للمتوسمين وأظهره لقلوب المتفكرين، وهو آثاره في مصنوعاته ومجاري مقتضيات أسمائه وصفاته العلا في جميع موجوداته، وما فطرها عليه من معاني الإسلام والإيمان، واستشهد بها على معالم ما في الدار الآخرة من موجود، وهو الحق المذكور دائم الوجود، غير ممتنع عن البصائر المؤيدة بنوره محجوب عن قلوب الغافلين مُحرِّم علمه، والإيمان به على الضالين والكافرين والمكذبين.

والحكمة تعطي أنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ينشئ هذا الخلق المذكور في موجودات الدار الآخرة إن شاء الله تعالى، فكما أراه المعتبرين رؤية العلم دون أفول يلحق ذلك الحق المذكور، بل حكمه متى نظروا إليه ببصائرهم يروه كما يرون الشمس بأبصارهم وصحوًا، والقمر ليلة البدر دون تضارر ولا تضام، ولا ضيم يلحقهم في ذلك، كذلك يرون الحق المبين، وربما كان ذلك من الرؤية ما هما آية عليه فيما هنالك دون أفول ولا غيبوبة.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] وربما كان ذلك من الرؤية والتلذذ بها، والتنبه إليه على مقدار التنبيه لروية ما هنا من ذلك وجزاء له، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى ملكه وجنانه مسيرة ألف سنة، وأن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله بكرة وعشية**»[(١)] وإنما ذلك - وهو أعلم - على قدر حضور المشاهدة ودوام حال المراقبة، ورؤية الإيمان كما أن له ثواب رؤية لأوقات الصلوات، وقد نصَّ عليها رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»[(٢)].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَللهِ المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٠) وقال: غريب، وأحمد (٥٣١٧)، وعبد بن حميد (٨١٩)، وأبو يعلى (٥٧٢٩)، والحاكم (٣٨٨٠)، وأبو يعلى (٥٥٨١).

(٢) تقدم تخريجه.

[البقرة:١١٥].

ثم له رؤية لأوقات صلوات الجمعات، وقد نصَّ عليها رسول الله ﷺ بذكر الزيارة، وقال ﷺ: «**في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى فيها شيئًا من أمور الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة**»(١).

وتلك آية عليها حال صلاة الجمعة، والقيام إليها جعل الله ﷻ هذه الساعة أمارة، وآية على كرامة الرؤية فيما هنالك، وإكرامه بها وهي أوقات الصلاة وحالها، فافهم.

قال جبريل صلوات الله وسلامه عليه: «وذلك مقدار انصرافكم من صلاة الجمعة» ثم الله أعلم بما وراء ذلك من موجودات الدار الآخرة فيما هذا سبيله.

الرؤية على الدوام فيما هنالك هي ثواب لرؤية الحق المخلوق به السماوات والأرض فيما هنا، وهم في ذلك على درجات، فأرفعهم قدرًا وأقربهم قسمًا من ذلك أبصرهم اليوم لما عبَّر عنه بقوله الحق: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢] ثم له فضل عظيم بتجلٍّ علي كريم وعد به قوله الحق وهو الحليم الكريم، فرؤيته اليوم بالإيمان والبصائر، ورؤيته في الآخرة بالعيان، ورؤيته في حال البرزخ بين ذلك رؤية، وهي أرفع من هذه وأتم، ودون وجودها في الدار الآخرة.

قال رسول الله ﷺ وذكر الدجال وحذر من فتنته: «**تعلمون أن أحدكم لن يرى ربه حتى يموت**»(٢).

ثم قال رسول الله ﷺ: «**وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على**

(١) أخرجه مالك (٢٣٩)، والبخاري (٥٢٩٤)، ومسلم (٢٠٠٦)، والترمذي (٣٣٣٩) وقال: حسن غريب، والنسائي (١٤٤٣)، وابن ماجة (١١٩١)، وأحمد (٧٩٠٣)، والبيهقي (٥٣٥٣) وفي الشعب (٢٨٤٠)، والحاكم (٩٨٢)، والطبراني (٤٠) وفي الأوسط (١٠٨٧)، وابن أبي شيبة (٥٠٢٩)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٠٥٢)، وعبد بن حميد (٩٠١).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩)، والترمذي (٢٢٣٥) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٣٧٢٢).

وجهه في جنة عدن»[(١)] آية هذا رؤيتنا الشمس، ومحلها من بروجها على وجهها من الضياء ما لا تستطيع روية وجهها على الكشف والحقيقة، وأما رؤية الآخرة فهو التجلي العلي والتكليم الكريم والرؤية الجلية.

وقال رسول الله ﷺ: «**جنة عدن هي سرة الجنة وأوسطها، وفيها دار النبيين والمرسلين**»[(٢)].

﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام:٧٩] والوجه عبارة عن إقبال الباطن من العبد بالإيمان والإخلاص والنية، ثم ينبسط معلوم ذلك ووصفه على ظاهره، فوجهة الجسم إلى الكعبة البيت الحرام، ووجهة القلب بالإيمان والإخلاص لله جلَّ ذكره، وفطرة السماوات والأرض قد تقدم ذكرها.

﴿حَنِيفًا﴾ معناه هنا الاستقامة، تقول العرب للرِّجل التي عوجها إلى الرِّجل الأخرى: حنفاء، والحنف: الميل، ولما أن كان ميلها إلى جهة الأخرى كان ذلك ميلاً إلى استقامة الخلقة؛ لذلك سمَّى الله تعالى إبراهيم ﷺ: حنيفًا؛ لأنه تحنف؛ أي: مال عن سائر الأديان إلى الدين القيم دين الإسلام، بل لأنه استقام عليه من لدن فطرته الأولى، لا لأنه مال عن سواه إليه.

ويزيد هذا عليك بأن الأصل هو الإسلام المفطور عليه الخليقة، وأن الممدوح هو من استقام على منهاجه، واستن سنته لا من مال عنه، ولا يقال لمن تمسك بالعروة الوثقى: مال إليه عن سواه، إنما يقال في مذموم ذلك: مال عن الإسلام إلى سواه، كما يقال: كفر وضل وكذب، هذه عبارات عُبر بها عمن ضلَّ عن هدايته وغطى ظاهرها، وكذب فطرته وجحد خلقته، فما ذكره أهل اللغة غير صحيح التأويل، ولا مصيب المنتزع منه، وما أرى ذلك إلا من الأسماء العرفية التي تممها الشرع على ما تقدم ذكره أو ما نحا نحوه، فالحنيف إذًا الذي أمال هواه وحسده

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

وكبره، وشرته كلها إلى إيمانه وإسلامه، فأتى الله بقلب سليم.

وبعبارة أخرى: فالحنيف إذًا هو من سلك في اعتباره مسالك الحق المخلوق به السماوات والأرض، فوقف بذلك على الصراط المستقيم وعرف المعبودات، ولأي معنى عُبِدت، واطلع في ذلك على مَن حيث ضل به الضالون، وتنطع من أجله المتنطعون في اتباع أباطيلها، وأيقن بحقيقة اليقين، وصحيح العلم المقصود الحق ما هو، والمطلوب العلي الأعلى من هو، فعرف البون ما بين الهداية والضلالة والحق والباطل، فعبد المعبود الحق الذي لا إله إلا هو رب الأرباب ومبين الحق، وكان ميله تحنفًا وعبادة، وإله الإلهة بوجهة خالصة ونية صادقة دون ما سواه، فكان ذلك تحنفًا منه لمعبوده الحق الذي هو محق الحق ومبين الحق، وكان ميله تحنفًا وعبادة، استقامة بحقيقة من ذاته لمن تعبد له، وتبرؤًا صحيحًا ممن تبرأ منه.

فعلى هذا يتصور الميل أنه الإقامة على الحق، والثبوت على الاستقامة، وأنه نفس التحنف، وكان الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - قد وقف على المعبودات، وخواصها التي جعلها الله عز جلاله لها، وعلم ما خلق جلَّ ذكره له، وجعله لها ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وأن تلك سنة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في بريته؛ ليتمم كلماته، فعلمه ذلك ولزومه سواء السبيل في سلوكه، وحقيقة الوجهة في تحققه سمي: حنيفًا.

والفطرة أيضًا هي الإطلاع والبدء، يقال من ذلك: «فطر ناب البعير» إذا نبت، والتفاطير: بثور تطلع في وجه الغلام أول اقتباله، وأفطر الصائم وفطر أيضًا، ويأول اللبن الحليب بأنه الفطرة.

قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الروم:٨] فهو الذي فطرها بالإسلام؛ أي: سبقه إليها، وأفطرها به من صومها، وأبدأها به أيضًا، فابتناهن على مباني الإسلام، وسبق إليهن خشيته ومخافته ومعرفته، وأجرى ذلك منهن مجرى الأرواح في الأجسام، فعلى الإسلام انبنت ولمعرفتها به سبحته وإياه حمدت، وله كبرت وهللت ولإجلاله وإعظامه قنتت.

وفي بعض الآثار: «**إن الله ﷻ لما فرغ من خَلْقه وما خَلَقَه إلا بالحق لحظه لحظة فرجف من قواعده، ثم لحظه لحظة أخرى فكاد أن يزول من مكانه، ثم لحظه**

لحظة ثالثة فكاد أن يهمد من خوفه»[(١)] وإنما فعل ذلك جلَّ وتعالى ليُعرفه نفسه ويلهمه ربوبيته، فعرف الخلق ربوبيته يومئذٍ معرفة لا ينبغي له أن ينكرها أبدًا، وذلَّ الخلق له يومئذٍ ذلاً لا ينبغي له أن يعتز بعده أبدًا، ودخله من الخوف يومئذٍ خوف لا يخرجه منه بعدها أبدًا، وأقر له بالمملكة يومئذٍ إقرارًا لا ينبغي له أن يستنكف منه بعدها أبدًا، ثم صارت تلك المعرفة وراثة فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] الظلم هنا هو الشرك على ذلك جاء مساق الآية، ولذلك أرجع الخطاب على أوله الذي معناه الهداية إلى الإسلام، واعتقاد الوحدانية لله جلَّ ذكره اللذين على حقيقتهما فطر الله السماوات والأرض وما بينهما، هدى إلى ذلك ملائكته وأنبياءه ورسله وأوليائه، وذكر إبراهيم - على جميعهم السلام - وأنه قد هداه إلى رؤية ملكوت السماوات والأرض، هدى إلى ذلك ثم قال: إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ فالمعنى إذًا بذكر الظلم هو ما كان عليه من حاج إبراهيم في ربه.

الضمير في قوله: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾ [العنكبوت:٢٧] راجع إلى إبراهيم ﷺ، وقيل: نوح ﷺ، وكلا القولين صواب، ولكل خطاب وجهه إلى المقصود به، وأخبر جلَّ ذكره عمن اصطفاه وهداه واجتباه من أنبيائه ورسله وأوليائه - صلوات الله وسلامه على جميعهم - أنهم ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨] حاشا لهم من ذلك هذا على جلالة أخطارهم ورفعة أعمالهم.

فوزان هذا إن شاء الله أنه من آمن بالله والرسل، ثم وافى على ذلك مع تسديد في شأنه أن ذنوبه مغفورة إن شاء الله وعد من الله صادق وله الأمن، وعد حق وقول صدق كما حبطت أعمال أولئك بالشرك ولو كانوا أنبياء، كذلك تغتفر ذنوب هذا حتمًا، ثم يكون من الآمنين إن شاء الله.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٢٠).

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] ولو شاء لقال: «بشرك» مكان قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ لكنه هكذا أنزله، والله أعلم بما ينزل.

وقال في مواضع غير هذا، ونهى أن يسخر بعضهم ببعض، وعن أن يتنابزوا بالألقاب، ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وقال في آدم ﷺ وزوجه حواء بعد مواقعتهما الخطيئة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا...﴾ [الأعراف:٢٣] إلى غير هذا من تسميتهم ما سوى الشرك بالله من الذنوب ظلمًا.

وفي قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] الكفاية في إثبات الظلم منه كبير هو الشرك بالله، ومنه صغير هو غير الشرك، ثم يكون صغره أيضًا وكبره على قدر الذنوب، وقد جاء بعد ذلك - والله أعلم - ما يجب الإيمان به من ذكر الموازنة يوم القيامة، وأن قومًا يخرجون من النار بعدما يجعلون فيها لذنوب أصابوها، فكان ظاهر ذكر الظلم في هذه الآية يعطي الأمن كله، ولئن كان من الظلم ما هو الشرك، كان ما قاله رسول الله ﷺ لما أحرقتهم النذارة ردهم بذلك إلى البشارة بقوله ﷺ: «ليس الأمر كما ظننتم إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»(١).

فصل

لما كان الإيمان في القلب الإسلام في الظاهر ترتب الظلم فيما طريقه الإيمان،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨١)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٣٤٦)، وأحمد (٤١١٢)، والبيهقي في سننه (٢١٢٦٠)، والحاكم (٥٣٣٥)، وابن أبي شيبة في مسنده (٢١٦).

وفيما طريقه الإسلام على ذلك، فكان الظلم في الأصل، وهو الشرك والكفر والجحد والتكذيب، وأقله الارتياب وتزلزل العقد لعدم اليقين، وقلة العلم بالله تعالى، ووجود الإعراض عن النظر في آياته، والظلم في الفرع هو الفسق ومواقعة الذنوب والإصرار عليها، ولهذا يكون موجودًا الجزاء يوم القيامة؛ إذ يقول الله جلَّ قوله: «**أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، فهذا الإسلام، وفي قلبه مثقال دينار من إيمان...**» إلى قوله: «**أدنى أدنى أدنى من مثقال ذرة من خير أو من إيمان**»[1] فالصنف الأول لإسلامهم يعرفهم المؤمنون بدارات وجوههم وسلامته من النار؛ لبركة السجود، وبجوارح أيضًا عملت خيرًا سلمت من النار.

كما قال: «**فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه إلى نصف ساقيه وإلى حقويه...**»[2] هذا في الشفاعة الأولى، ثم الثانية على القرب من ذلك، ثم الثالثة تعرفهم الملائكة بما أبقى الله ﷻ من القلوب بحرمة الإيمان، كما أبقى من الوجوه بحرمة السجود لما كان منهم هداية ما جازاهم هنالك بأمن ما؛ لقوله الحق: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢] وتصديقًا لقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ**﴾ [النساء:٤٠].

ووقعت الشفاعة الرابعة التي هي لله جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه على محض الفضل، فإنهم يخرجون من النار قد امتحشوا، وأتت عليهم نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها ومن خزيه وعذابه - ولو كان قولهم: «لا إله إلا الله» عن عقد من القلب، ولو على ضعف من العقد لم تسلك النار على احتياج الألسنة منهم والقلوب، لكنهم كانوا في الدنيا فاقدين للهداية، فلذلك أتت النار على جملتهم، وكانوا قد أصاب الله جلَّ ذكره بهم كلمة الحق قولاً، فتلافاهم برحمته وفضله العظيم.

وأما المهتدون الهداية كلها ﴿**لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ**﴾ [يونس:٦٢].

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٧٩٧)، وأحمد (١٤٢٨٩)، والحاكم (٢١٦)، وأبو عوانة في مستخرجه (٣٣٩)، وأبو يعلى (٣١٨٥)، وعبد بن حميد (١١٧٥).

(٢) تقدم تخريجه.

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٩ - ٩٢].

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...﴾ [الأنعام:٩١] ما قدروه حق قدره؛ أي: ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه كالذي ينبغي له، أما علموا أن من أسمائه جلَّ ذكره الباعث والمرسل والمنذر والمبتلي والممتحن والمنزل، وأن من شهادة الحق المخلوق به السماوات والأرض البعث للجزاء ثواب أو عقاب، وذلك لا يكون إلا بالرسل والكتب والحكمة التي بعثهم بها، وكذلك بعد البعث الصراط والميزان والحوض والشفاعة، وغير ذلك من معاني النبوة والرسالة، كما قال في غير هذا الموضع بعد قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ﴾ [الزمر:٦٤].

ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر:٦٧] يخبر عن عظيم قدرته وجليل ملكه، ودلائل التوحيد سوى ما اختصت به الوحدانية من الدلائل في الوحي والوجود، وفيه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ﴾ [الأنعام:٩١] فاستاق هذا كله في معرض الإخبار عن إنزاله، وعن النبوة المبثوثة في العالم.

ثم وصل بذلك قوله: ﴿أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فهذا من معلوم الكتاب والنبوة، كما قال جلَّ قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ....﴾ [آل عمران:١٦٤] وهذا

معلوم المؤمنين، ثم فوق هذا ما علمه إخوان الأنبياء - عليهم السلام - الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٧] وهذا ما خصهم به من سائر المؤمنين من إلهام وفطنة وشعر ومحادثة، ونفث في روع، وما عبَّر عنه قوله جلَّ قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به....**»[١].

أعقب ذلك قوله: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم﴾ [الأنعام:٩١] أظهر فردانيته، وتعليم هؤلاء كما هو الذي تولاهم فردًا دون كسب منهم لذلك ولا تعمل.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] سمى جلَّ ذكره ما هم فيه: خوضًا، لما كان هو المعلم والخالق الأول لما يقولون من شبه أباطيلهم هو الله جلَّ ذكره، ثم كان المزين لهم الشيطان - لعنه الله - فوجهوا قولهم ذلك إثباتًا لكفرانهم وضلالتهم فكان خوضًا لذلك، والخوض الأخذ بالكلام حقًّا وباطلاً، والذهاب في ذلك كل مذهب.

وفيه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: من كتاب ورسول ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن؛ يعني: الإيمان الأرفع ﴿وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢] وهذا إشارة إلى إخوان محمد ﷺ.

كما قال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ [النساء:١٦٢].

وقال: ﴿وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:٣٤ - ٣٥] أخبر جلَّ ذكره أن الإيمان يزداد بالصلاة وبصالح الأعمال، فهو - أعني: الإيمان - يتردد به ومنه وإليه حتى يتكامل العبد على ذلك، ويكون من الموقنين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:٢١] بدل آيات الله وغيرها وكتمها، أو قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٣ - ٩٧].

﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ هذا هو المتنبئ دجال كذاب ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام:٩٣] كبعض من فسق عن أمر ربه، فدعا إلى نفسه كفرعون ومن أشبهه ممن قاله.

ثم جمعهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ الكافر المحتضر، وربما الفاسق الملعن ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب والهون، يخبر جلَّ ذكره عن عنفهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الأنعام:٩٣] عبارة عن شدة ما يجده المحتضر منهم دون تأنيس من ولي تنفعهم ولايته، ولا حمل عنهم شيئًا من أوجاعهم، فإن الكافر ربما حضر اليسر عليه حال موته، فباطنه على أشد حال يكلف هو إخراج نفسه الخبيثة بإزعاج من الملائكة، وضرب وتشديد عليه في ذلك، نعوذ بالله من ذلك.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [الأنعام:٩٣] من وصفهم إياه إنه لا يعبدهم بعد موتهم، وغير ذلك من ضلالهم من قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ وافترائهم على الله الكذب ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣] يعني: عن آياته الدالة على النبوة بخصوص هنا، ثم بعموم عن آياته الدالة على الوحدانية، وعلى الحق المخلوق به السماوات

والأرض يُعذب كلٌّ بوصف كفره وعمله، وبعد هذا جعل الله جلَّ ذكره يسرد آياته الدالات على ما هو عليه من الوحدانية والقدرة والعلم والإرادة، وعلى ما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العلا، وعلى النبوة والرسالة، وعلى موجودات الجنة، يعلم بهذا كله موجودات ما أوجده هاهنا، فلتعلم ذلك من آيات يتلوها عليك ربك ﷻ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ٩٨ - ١٠١].

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ﴾ [الأنعام:١٠٠] نصب «الجن» على البدل من «شركاء».

يقول الله جل وتعالى: وعلى ما نصبنا لهم من الدلائل، واستشهدنا به من الشواهد، وبيَّنا لهم من البينات جعلوا لله شركاء الجن وهو خلقهم، فكيف يكون المخلوق شريكًا لخالقه؟ ثم كيف يستقيم هذا بكون الدال مدلولاً عليه، أو بكون المخلوق ولدًا لخالقه.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠] أي: اختلقوا، واقتطعوا له ذلك بغير علم، وقد قرئت بالتخفيف: «خرقوا» وكذلك أيضًا قرئت: «وحرَّفوا» بالحاء من التحريف، وقرئت أيضًا بالتخفيف[1].

---

(١) قرأ نافع: «وخرّقوا» بالتشديد ، للمبالغة والتكثير؛ لأن المشركين ادَّعوا الملائكةَ بناتِ الله، والنصارى المسيحَ، واليهود عزيرًا. وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «وحرّفوا» بحاء غير معجمة وبتشديد الراء وبالفاء. وقرأ ابن السميفع، والجحدري: «خارقوا» بألف =

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢ - ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣] وقد مضى في شرح الأسماء من الكلام في الرؤية ما يغني عن تكراره هنا.

وبالجملة: فإنه تبارك وتعالى إنما يُرى بنوره وبلطفه منه، والأبصار بما هي لا تدركه إنما يوصل هذا إليها من نور جمال جلاله لطفًا يوصلها من الرؤية له، والنظر إليه القدر الذي شاءه هو ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، والراؤون على درجات في الرؤية كما كانوا في العلم به والإيمان والعمل لذلك درجات.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم

=

وخاء معجمة. [زاد المسير (٢/٣٨٥)].

مُّقۡتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٠-١١٦].

قوله ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام:١١٥] انتظم هذا بما مضى من لدن قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الأنعام:١١١].

إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

إلى قوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣].

ثم عطف بعد قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام:١١٤].

قوله الحق: وتمت كلمات ربك صدقًا كلمة وعدل سنة، بما فيها من قضاء وقدر وخلق وأمر، لا مبدل لكلماته، ومن كلماته الخاصة بما هاهنا قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[1] بما يقتضيه من عوارض وأسباب، وما يقرنه بالعبد من مقارنين صالحين، أو غير ذلك من جنٍّ وإنس، إنما ذلك لتتم كلماته بسنته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ

---

(١) تقدم تخريجه.

ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٧ - ١٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨] من نظر في آيات الله جلَّ ذكره في الوجودين: الوحي والعالم، ووقف بعلمه على أن أحدًا لا يجوز له منال شيء من الأشياء دقَّ أو جلَّ، كان ذلك في هواء أو اعتمادًا على أرض أو تمتعًا بحيوان، أو غير ذلك إلا بإذن مالكه وذكر اسم الله عليه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»[1].

وجميع الخليقة كلها قاطبة ملك لله جلَّ ذكره وله المثل الأعلى، وهو لم يحل لأحد أن ينال منه منالاً إلا بعد ذكر اسم الله عليه، وأقل ما في ذلك على متناوله أن يعرف أنه ملك لله، وهو المنعم به وحده لا شريك له، وأنه مطالب بالشكر له، وإلا فهو حرام على من تعمد ترك التسمية، ومن اعتقد أنه ليس بملك لله، فهو كافر ومشرك.

ثم سرد على ذلك قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ....﴾ [الأنعام:١١٩] كقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ

---

(١) تقدم تخريجه.

هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

ولما كان رسول الله ﷺ مرسلاً إلى الناس كافة كان خطاب القرآن متوجهًا إلى جميعهم على افتراق مذاهبهم وتشتت آرائهم ونحلهم، فتارة يخص وأخرى يعم.

ألا تسمع إلى قوله الصدق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى...﴾ [الحج:١٧].

وقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾ [الحج:١٩] فعرض في هذه السورة بضلال الثنوية في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

وقد تقدم ذكر هذا إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:٥] عبَّر بهذا الخطاب الجميع من المكذبين، ثم إلى قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨].

ولما أنكروا الخصوصية أنكروا النبوة جملة حتى آل ذلك بجهلهم في إنكار الخصوصية ألا ينتفعوا من جميع الحيوان بلحم ولا جلد ولا شعر ولا وبر، ولا تسخير بصنف من الأصناف، ولا يقتلوا منها مؤذيًا.

ومنهم: من رخص في ذلك حال الضرورة، وعلى مقدار اختلافهم في ذلك، ومن أولئك سرى إنكار الخصوصية، وتكذيب النبوة إلى مشركي العرب حتى قال بعضهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم:١٠] ومثل هذا كثير.

ومنهم: من أقر بنبوة إبراهيم عليه السلام وآدم.

ومنهم: من أنكرها الإنكار كله، وقالوا: إن الله موصوف بالقدرة على أن ينزل إلى العباد ملائكة يرشدوهم إلى مراده منهم.

ومنهم أيضًا: من لا يقر بالملائكة عليهم السلام، وقال هؤلاء: إن الله قادر على أن يجعل في قلوب عباده المرسل إليهم مراده منهم، وجعل في نفوسهم قبول قول من زعم أنه مرسل إليهم.

قالوا: وقد أقام العقول على التمييز والمعرفة بوجوب شكر المنعم وأداء حق الفاضل، ونحو هذا من أنواع أباطيلهم.

قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [الأنعام:٨] أي: لأهلكنا من أبدينا إليه صفحة الملك، ولم ننظره ساعة ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: النبي ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

ثم كذلك إلى قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:١٣] هذا خطاب راجع معناه إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] أي: إن له النور وما فيه، والظلمات وما فيها، خالقهما واحد.

إلى قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧] ردًّا على الثنوية المانوية في قولهم: إن فاعل الخير غير فاعل الشر.

كذلك إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦].

إلى قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] تنبيهًا على إثبات الخصوصية، وردًّا على منكري النبوة.

يقول جلَّ من قائل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يؤم مفضولها فاضلها، وعامها خاصها حتى ينتهي ذلك إلى أفضلها، وفيه أيضًا إثبات الوحدانية، وفيه أيضًا إثبات البعث بعد الإماتة بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨] يستخلفهم فيها قرنًا بعد قرن وأمة بعد أمة، ثم يميتهم ثم يحييهم، ثم يحشرهم إليه في هذا؛ أعني قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إعلام بأن كل شيء يعيده يوم القيامة، ويحضره بعثًا وحشرًا، ثم يجعل الخبيث كما قال في سورة الأنفال: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال:٣٧].

ومفهوم هذا أنه يجعل الطيب كله في الجنة، وفي هذا رد منه على الثنوية والمجوس، والمتفلسفة من أهل التوحيد منهم، ومن غيرهم من كفار الأمم في قولهم: إن الله جلَّ ذكره لا يعيد الأجسام، وأنه إنما يجازي الأرواح والنفوس بعد موتها.

قالوا: فمن كان صالحًا وحافظ على العهد من شكر المنعمين، وأداء حقوق

الفاضلين إلى غير ذلك من حدود حدوها ومناهج شرعوها ألحقه بقرار الفوز، وذلك عندهم بأن يرفعهم إلى عالم فوق عالمه من الموجودات.

قالوا: وإن قصر عن ذلك نقله عن معاده إلى منزلة دون منزلته هاهنا، ويعنون بالمعاد ما يكون من بقاء الأنفس بعد الموت.

قالوا: ويهول بعد موته في ظلمات ثم يسفل به، فيجعل في موجودات خسيسة تشابه وجود باطنه في هذه الحياة، لم يدركوا بعقولهم القاصرة تقويض هذا البناء، ولا تبديل الأرضين والسماوات، وظهور الدار الآخرة عيانًا، وطموس هذه الدار الفانية وذهاب دولتها، كما حجبت عقولهم عن حقيقة البعث الآخر والجزاء الآجل، وتبوء الفريقين كلتا الدارين الجنة أو النار وما فيهما، بل لم يدركوا الحق في دار البرزخ من عذاب في القبر أو نعيم، وحال كونه ﴿إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] إلى آخر السورة.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:٣٩] المراد الأول بذلك: الثنوية والمجوس، ثم سائر أتباعهم من الكفار والمكذبين، ثم الغافلين، نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة فيما بينهما.

ثم كذلك إلى قوله الحق: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ...﴾ [الأنعام:٤٨] هذا رد عليهم من إنكارهم النبوة والرسالة، وما جاء في ذلك من عند الله تبارك وتعالى، وإثبات لما أنكروه من ذلك، وكذبوا به إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

إلى قوله الحق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] رد على بعض المنتسبين منهم إلى التوحيد في قولهم: إن كل ما تغير أو حدث أو ظمئ، أو روي أو ثبت، أو اضمحل أو سقط، أو زاد أو نقص فليس ذلك بلازم أن يكون عن علمه به، ولا إذنه فيه.

قالوا: وإن أكثر ما ينسب إليه مما يُبرِّد أو يُسخِّن، أو يُيبِّس أو يغذو، أو يُحبِّس أو يُطلق إلى غير ذلك من العوارض وغير العوارض.

قالوا: فهي مبانٍ انبنت عليه بما شرعته النفس في هذا العالم؛ لتستن

الموجودات في سفلها إلى إتمام ما يسرته النفس له، وهذه المسماة عندهم بالنفس واحدة من جهتين سموهن بالإلهيات، فاعجب لتأفيكهم عن الحق بصدوفهم عنه بعد وصولهم إليه، فكان مثلهم في ذلك مثل من طلب مطلوبًا ما، فلما وجده شُغِل عنه بغيره وشُبه عليه به، فتعلق بسواه وترك الحق جانبًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت:٢٢ - ٢٣].

قال الله جلَّ قوله يبين لهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠] إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٦ - ٤٧].

وربما عارض معارض بقول رسول الله ﷺ مجيبًا لسائله يوم قال له: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**تردون موردًا واحدًا وتصدرون مصادر شتى**»[(١)].

وفي أخرى: «**تهلكون معهم وتحشرون على نياتهم**»[(٢)].

فاعلم أن هؤلاء ظلموا أيضًا بكونهم بين أظهرهم، فلم ينكروا عليهم، وإذ لم يستطيعوا ذلك كانوا يخرجون من بين أظهرهم، وقد قال لهم: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، وكان من العدل أن أصابهم العذاب لمكثهم بينهم، ثم يكونون على نياتهم وإسلامهم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] لما ذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض والناظرين فيه، وذكر المهتدين الهادين من الأنبياء والرسل والإخوان والأولياء - عليهم السلام - قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ يعني: العرب وكفار الأمم من غيرهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٤)، وأحمد (٢٤٧٨٢).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩] يعني: من تقدم ذكرهم.

ثم أقام المنار ونهج السبيل، فقال جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] تلك ضلالة ورثوها عن إمامهم اللعين، وسفيهم الرجيم من إنكاره خصوصية الله جل ثناؤه لآدم صلوات الله وملائكته عليه، وإبايته عن السجود والاتباع له، والاهتمام به والإقرار بفضله، ثم جعلها كلمة باقية في بقية بعض ذريته وتابعيه فهم على أثره يهرعون.

ثم ذكر أحوالهم عند المعاينة، وأحال بها على معرفة عاقبتهم من لدن حال المعاينة إلى خروج أنفسهم من أجسامهم، ثم كونهم طول مدة البرزخ بقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

ثم أحال ما لهم في دار القرار بالمعلوم من قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦] ونحوه كثير نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة.

وما بين ذلك أعقب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ ثم بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ﴾ [الأنعام:٩٣] ثم كذلك يسرد الآيات على الوحدانية، ويبين الدلالات على النبوة الجارية في مسالك الموجودات، ويصف نفسه بما هو أهله، ويذكر أضاليل المشركين، وتعسف المبطلين فيما أحدثوه مما يسري إليهم من ضلال الأمم قبلهم، ومآخذ الشياطين بهم كل مأخذ.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١] فمن محاجتهم إياهم أنهم كانوا يقولون: تأكلون ذبائحكم ولا تأكلون ما ذبح الله، وكذبوا - لعنهم الله - ذبائح الله هو ما أمر به ورضيه، واسم الله جلَّ ذكره هو الطاهر المطهر به طابت الموجودات وتطهرت من أرجاسها، فكل ما خرجت نفسه من حيوان أذن الله في ذكاته، وأكله يذكر اسم الله

عليه كان فيما يميزه الله عن الخبث ويجعله في الجنة.

وما خرجت نفسه على ما أهل به لغير الله كانت له حقيقة في النار يعذب بها من جنى ذلك عليه، وحقيقة في الطيبات.

وما خرجت من نفس ماتت حتف أنفها لم تكن من الفواسق، فريق الله أسبق وحزبه أغلب.

وكذلك نفس كل مكلف خرجت بشهادة أن لا إله إلا الله، فهي في الجنة ما لم يعقها عائق من ظلمها نفسها، وعاقبتها إلى الجنة إن شاء الله تعالى.

﴿تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ....﴾ [النحل:٣٢] وتقول لهم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] وإن خرجت بغير اسم الله على عمد منها كانت في النار، وإنما يظهر ذلك في وفاة الشهداء؛ لكبر منزلتها الذين هم ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

والمؤمنون نائلون من هذه الحياة حظوظهم، والحيوان أيضًا في درجاتهم، وبذكر اسم الله يحيا المؤمنون في الحياة الدنيا.

قال الله ﷻ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ يعني: بالكفر والجهل ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: يقول لا إله إلا الله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: بالعمل وبالعمل الصالحات ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] كمن مثله في الظلمات؛ أي: بالكفر ليس بخارج منها، فظاهر هذا أن العبد يكون هنا ميتًا بالكفر والجهل كما تقدم، فيحييه الله بالإيمان والعلم، ويجعل له نورًا في قلبه وفي بصره وحواسه، يمشي بنوره في الناس يعلم ويبصر ويذوق ويشم ويحس.

يقول: هذا كمن مثله في الظلمات الكفر والجهل والعصيان، ليس يتوب الله عليه من ذلك فيخرجه من ظلماته، وفيه أيضًا بما فيه من مجاورة ذكر الذبائح ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ الموت المكتوب على كل نفس بغير زكاة مطهرة ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بذكر اسم الله، وذكره عليه كما حيا المؤمن والشهيد عند الله بذلك، كمن مثله في الظلمات؛ أي: المثال الذي تقدم ذكره في صدر الكتاب، وهو باطن هذا الظاهر الذي يسمى الآل والمثال والعبد، ونحو هذا.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢] أي:

من أكلهم ما لم يذكر اسم الله عليه، فإن منهم من يذكر على قتل ما يأكله من الحيوان اسم الطواغيت، ومنهم من لا يذكر اسم الله إهمالاً منهم لذلك، فيكون مثال ذلك المقتول حال البرزخ في الظلمات، ولها حقائق في الدار الآخرة تسليط على من فعل بها ذلك، كذلك أيضًا لها حقائق في دار الكرامة تنعيمًا للمؤمنين.

ألا ترى أن الملي الذي منع زكاة ماله من بقر أو غنم أو ذهب أو فضة يسلط ذلك كله عليه في عرصة المحشر طول ذلك اليوم، كما قال رسول الله ﷺ: «**في يوم كان مقداره ألف سنة**»(١) حتى يرى مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار، ثم بعد ذلك ﴿**يَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ**﴾ [الأنفال:٣٧] ويجعل الطيب كله في الجنة.

فمثالات الطيبات التي أحالها الكفار بعصيانهم وسوء أعمالهم في جهنم، تراوحهم بالعذاب وضروب النكال، وحقائقها في الجنة بنعيمها، وملكًا لأهل الإيمان إن شاء الله تعالى، هو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وهذا كله عن نور أسماء الله وموجود أنوارها، ولزوم البركة عنها بالتوحيد العلي فافهم.

تنبيه:

أنبياء الله ورسله وأولياؤه، والمؤمنون يستخرجون بذكر الله ﷻ أنفسهم وذبائحهم ومآكلهم وملابسهم، ومراكبهم وأموالهم، وذراريهم وأزواجهم من يد المبلس الملعون لما اقتطعه لنفسه، وظن أنه من الخليقة في قوله: ﴿**لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ**﴾ [النساء:١١٨ - ١١٩] أي: بوسمها لآلهتهم، وعزلها أن تكون مما لم يذكر اسم الله عليه، فيسلبه المؤمنون ذلك بذكر اسم الله عليه من جميع وجوهه، فتكون لهم في الدنيا وهي لهم في الآخرة خالصة.

قال الله ﷻ: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ**﴾ ثم قال جلَّ قوله: ﴿**كَذَلِكَ**

(١) تقدم تخريجه.

نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٣ - ١٢٧].

قوله ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] إذا انشرح الصدر للإسلام دخله النور، وهو نور العبودية، فإذا دخل النور في القلب انشرح الإيمان بالغيوب واتسع لها، فكان من ذلك النور ضياء، فيصبر به البصيرة كما يبصر البصر الظاهر بضياء الشمس في الدنيا، وإذا خلا القلب من ذلك النور حرج، فضاق متسعه عن الإيمان والإسلام، فلم يبصر ما غاب عنه ولا سمع النداء، فلم يجب المنادي بما هو فيه من بعد ما أحاط به من الظلمات، فمتى أراد أن يتهدِ لاستعلام معالم الآخرة، ومعرفة الله جلَّ ذكره والإيمان بذلك عسر عليه المطلب وضاق عليه المذهب، فكان في ذلك كمن يروم الصعود إلى السماء.

والرجس والنجس والخبث موجودون عن أعمال الشياطين، وذلك لازم للذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ....﴾ [الأنعام:١٢٦] صراط ربك أن تعبد الله وحده وتكفر بما دونه، وأن تؤمن برسله وأنبيائه وكتبه، ونأتمر لهم ونطيع فيما يأمرون به كل رسول منهم في وقته وفي نبوته، وهو الذي جاء به القرآن العزيز، وهو دين المسلمين.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٣٢].

قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾ هذه مطالبة منه جلَّ ذكره، يطالبهم بما أضلوا عباده عن هداية فطرتهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:١٢٨] لما أقروا على أنفسهم.

قال جلَّ من قائل: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام:١٢٨] ما دامت السماوات والأرض؛ يريد: طول مدة البرزخ، وذلك هو مدة دوام السماوات والأرض، ثم قطع بالخلود إخراجه إياهم إلى اليوم المجموع له الناس يوم الحشر بما في ذلك اليوم من قضاء وفصل وموازين، وسؤال وحساب وصراط إلى غير ذلك، ثم هو يعيدهم إليها في اليوم الآخر في خلود أبدي وعذاب سرمدي.

وهذا كلمته الحق في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧] يعني: ما تقدم ذكره من الخروج منها إلى النشور، ثم هو يعيدهم إليها بحكم الخلود الذي استثني بمشيئته في البعث والنشور، وأتم أيضًا بحكمه العلي في ذلك كلمته الحق لإبليس، التي عبَّر عنها قوله: اذهب ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨].

ولا يكون ذلك ما لم يكن المعهود المتعارف في إجازة إسكان الواسع الرحب في الضيق الحرج، وإدخال الكبير الناهي في الكبر والعظم في الصغير الذي لا يتبين من صغره ودقته، لم يضيق الواسع ولا وسع الضيق، ولا عظم الصغير ولا صغر

الكبير، ولا حقره، ويكون معهود ذلك كالمعهود الآن في ضد ذلك، ووجود ذلك بمشيئة الله جلَّ ذكره، فإذا شاء ذلك حل أجل الاستثناء ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩] المشبه به والمشار إليه هو ما تقدم ذكره: استكثار الجن من تولي الإنس، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ المعنى: الأعمال الصالحة بواسطة الإيمان تورث الولاية الصالحة، وتصعد هذه الولاية إلى ولاية الله العلي الكبير.

وبالضد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣٠ - ٣١].

وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ....﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٧].

وقال: ﴿تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ [النحل:٦٣] فهذه ولاية الحزبين في الدنيا والآخرة وفيما بين ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام:١٣٠] اختلف الناس هل من الجن رسل من عند الله إليهم أم لا؛ إذ فيهم المهتدون؟ فقال فريق من العلماء: إن لهم رسلاً من أنفسهم، واحتج بهذه الآية وما يشبهها، وليس استدلال من استدل بهذا الاستدلال، ولا مقال من قال بهذا المقال بكافٍ ولا شافٍ؛ لاشتراك الدليل، وتردده بين الصنفين من الجن والإنس.

أما رسول من الجن إلى الإنس، فما كان قط ذلك لأمرين:

أحدهما: أن لو أرسل من الجن رسولاً إلى الإنس لم يتحصل التبليغ الذي هو المهم؛ إذ ليسوا بمرئيين لنا، وذلك شرط في المرسل والمبلغ.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [الأنعام:٩].

وقال: ﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ

مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥].

وأما الوجه الآخر فإنهم ليسوا بأئمة، إنما الأئمة هم الإنس، وبذلك اختبر الله ﷻ أباهم المبلس الملعون فأبى، فقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ...﴾ [الإسراء:٦٢].

وقال في شان إرسال بعض الإنس إلى بعض: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] وهذا في الضالين من الجن آكد وأشد لوراثة ورثوها من أبيهم - لعنهم الله - غير أن منهم منذرين يتلقون من الرسل، ويبلغون إلى قومهم كما حكى الله ﷻ عنهم.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٣٣ - ١٣٧].

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦] هذا المعنى راجع بوجه إلى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ....﴾ [الأنعام:١٤١] فكانوا يقولون: ﴿هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ

يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ
أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ
عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ
ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ
وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ
مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ
ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨ - ١٤٣].

ويتصل به فيما يستقبل قوله ﷻ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣].

﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا
ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً
أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ
بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ
وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ
مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٤ - ١٤٦].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٤٤] يقول جلَّ من قائل: هذا [حكم][1] ذكرانها وإناثها من حرمها أو حرم ما حرمتم منها، ائتوني بعلم أو بكتاب من عند الله أو سنة رسول من عند الله، بل اتبعتم أهواءكم بغير هدى من الله، فمن أظلم ممن اتبع هواه بغير هدى من الله.

ثم قال وقوله الحق: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام:١٤٥] وهو العلم إلا ما أنزل من عند الله، وما انتزع عنه باستنباط تأويلاً يفهم أو قيامًا على صحة.

ثم قال وقوله الحق: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥] فنصَّ جلَّ ذكره على تحريم الرجس، فحيثما كان الرجس فهو حرام.

ثم قال: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [الأنعام:١٤٥] فكان ما أهل لغير الله به؛ أي: ذكر غير اسم الله عليه بعمد التحليل بذلك، فهو فسق؛ أي: خروج عن الإسلام لله، وهذا كله حرام إلا لمضطر ليس بباغٍ على أحد، ولا يبغي بذلك تحليل ما حرم الله، ولا يعتدي ما أمر به أن يقول: هو مضطر، وليس به، فيأخذ من ذلك أكثر من حاجته لبلاغه، ويلحق بهذا من خرج باغيًا على أحد إلى سفر، فأصابه في خروجه ذلك ما يبلغه إلى الاضطرار، فليس ما ذكره بحلال له تناوله إلا أن يحدث توبة من نيته تلك، وإلا فقد جمع نية الاعتداء، وأكل ما لا يحل له أكله على ذلك.

أتبع هذا قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله لتوجه عليهم قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فكان قوله ﷺ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾ [الأنعام:١٤٥] تتميمًا لصدق قيله، وإخباره عما أوجده رسوله ﷺ فيما حرمه على طاعم.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ

(١) ما بين [ ] بتر في (ق) وسقط من (ف).

ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧ - ١٥٠].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧] أي: إن رحمته في الدنيا وسعت المؤمن والكافر، كذلك رحمته الرحمانية حكمها في الدنيا أن تسع المؤمنين والكافرين؛ لينال كلٌّ حظه المقدر له في أم الكتاب، فإذا جاء وعد الآخرة، أو أخذه بالإهلاك من شاء، فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

كذلك تقول الملائكة على جميعهم السلام: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] فإذا كان يوم القيامة قصرت رحمته على عباده المؤمنين، وغضبه على أعدائه الكافرين، نعوذ بالله من غضبه وعذابه.

قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ...﴾ [الأنعام:١٤٨].

نظيرتها في سورة النحل: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥].

وبمعناها في سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

ذكر بعض من فسرها المعنى: إنهم لو قالوها بحقيقة من أنفسهم لكان ذلك إيمانًا منهم، لكنهم قالوها على سبيل التهزي والسخرية بالمخاطبين لهم، وربما كان ذلك كما زعموه، ولهم جهة من الخطاب قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

والأوجه في مفهوم هذا الخطاب أنهم كانوا يعرفون أن الله خالقهم وخالق

السماوات والأرض، وراثة ورثوها عن آبائهم إبراهيم وإسماعيل، والمهتدين قبلهم إلى معلوم الفطرة ومعهود ما جبلت عليه منهم الخلقة.

قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨].

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧] لكنهم أفكوا عن هذه الحقيقة بضلالتهم، وحجبوا عن معهودها، وظلوا على ذلك في ضلالتهم يترددون، وفي طغيانهم يعمهون، فإذا ألزمهم ضيق الاضطرار، ورجعوا إلى الحق وضلَّ عنهم ما كانوا يدعون من دون الله، فنبذوا هذه المعرفة الأولى دون ظهورهم، ولم يظهروها بإيمان مكين في قلوبهم وشهادة على أنفسهم، وعمل بها خارج عن بواطنهم بادٍ على ظواهرهم.

وبهذا وعلى معهود هذا كان يحتوشهم نور الإيمان، وتثبت في قلوبهم وأعمالهم حقائق الإسلام، لو أنهم آمنوا بالله ورسوله لهداهم الله بإيمانهم، لكنهم كانوا يقولونها مع كفرهم على حقيقة محجوبة ومعرفة غائبة بقلوب لا علم فيها، وبصائر غير بصيرة، وشهادات غير مشاهدة لها قد غمرتهم غفلتهم، وبعدوا بذلك عن حقيقتهم، فهم على ذلك، متى تكلموا بالحق نطقوا به لا يعلمونه، ولا يبصرونه كالذي يصدر عن النومان وصاحب الهذيان، ومصاحب الجهل غير محمود في إصابته لا سيما إذا كان حاله التكذيب، وعمله على سنن الكفر.

قال الله عزَّ من قائل لما أن ﴿قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ومرادهم بالدهر: اختلاف الليل والنهار وتعاقب الأزمان، أجابهم جلَّ ذكره بالحق الذي هو أهله بقوله: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤] والمراد الحق هنا بالدهر: هو الله جلَّ ذكره، وهو اسم من أسمائه.

كذلك قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ يعنون بمعبوداتهم هنا: الملائكة عليهم السلام، فأجابهم جلَّ ذكره: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠].

فعبَّر ﷻ عن حالهم هذه لما قالوا الحق أن مشيئة الله جلَّ ذكره غالبة فيهم بأنهم يخرصون، ولم يحمد إصابتهم في مقالهم ذلك؛ لعدم وقوفهم على العلم

وصدور المقال عن غير يقين، فأبطل قولهم بالحق وأحبطه لعدم العلم واليقين، كما تحبط أعمالهم بالشرك والكفر والعمل على غير سنة، فافهم.

ولما كانوا مع ذلك غير عالمين ولا متبعين لمن علم، ولا تالين آثار من قبلهم وكذبوا بأفعالهم قولهم، كان جوابهم قوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ﴾ [النحل:٣٥] في الخطاب حذف، تقدير محذوفه: كذلك كذب الذين من قبلهم مع إقامتهم على التكذيب والكفر والعمل دون توبة، ولا إيمان بالله وبالرسل حتى ذاقوا بأسنا وحلت بهم نقماتنا، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين؟ ولأن ما أجابوا به رسلهم من قولهم هذا إنما صدر عن معرفة مغرورة غطت عليها ظلمات الكفر والجحد، لم يوصلوها إلى إيمان صحيح، ولا وصلوها بتصديق رسول وقرآن.

قال الله ﷻ لنبيه: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ كتاب أو سنة ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨] والظن لا يغني من الحق شيئًا، إنما يغني العلم واليقين، أو اتباع من يعلم ويوقن، وعلى هذا المفهوم يقول الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] أي: ليسوا عندهم على الحقيقة بشركاء لله تعالى؛ إذ لم يخلقوا سماء ولا أرضًا، ولا ينزلوا الماء من السماء، ولا يخلقون ولا يرزقون، إنما ذلك منهم لما عبَّر عنه قول الله ﷻ حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

تنبيه:

انطلق المقال في هذا الفن؛ إذ هو كثير ما من أجله قست قلوب أهل الإيمان الموجود عن الغفلة وأغياب المراقبة والذكر، ثم ينشأ وينمو بالاشتغال، وإهمال القلوب في أودية التخليط، ثم ينمو ذلك لمحبة الدنيا والأماني لها وبها، ومع ذلك يغلظ حجاب الغفلة، ويكثف الستر الحائل بين القلوب ومنبعث نور الإيمان إليها، ثم بالمداومة على ذلك يخلف الذكر النسيان، والعلم الجهل، والمراقبة الإهمال والجد الفتور، فلا يزال كذلك نور الإيمان يتقلص، والظلمة على القلوب تتزيد والخشية تنقص، والقسوة تفيض حتى يعلو الران القلوب فتنكس.

ثم يخلف ذلك الفسق والفجور، تتصاعد ظلمات ذلك إلى بقايا الإيمان فتذهب حقائقه، وإلى الإسلام فتمحق رسومه، فيكون الكلام تزينًا والأعمال عوائد ثم رياء، والشهادة بالإيمان والإخلاص لمظة[1] على اللسان، وما لم يتعاهد الإسلام والإيمان بالتجديد والتحقيق، ويعمرا بتوجيه النيات وإعمال الجوارح في الطاعات، وتعاهد القلوب بالتخويف واستشعار الخشية ولزوم الخشوع، وإلا كان ما عبَّر عنه قوله الحق: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

ذكر الصحابة ﷺ إنه ما كان بين نزول هذه الآية، وبين الإيمان مع إسلامهم أربع سنين، واستبطأهم الله ﷻ عن الصعود في درجات الإيمان، مع أنه كان في قلوبهم غضًّا طريًا، فكيف بمن ولد ونشأ في الفتنة، ومرت عليه وعلى آبائه وأسلافه وبني جنسه الكثير من السنين إلا هكذا مات الإيمان والعلم، وذهب التقى والخشية، وآض الأمر إلى ما نشاهده وأكثر من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله ﷻ جوابًا لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مخاطبًا رسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] مبينًا لقولكم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ فإنهم قالوا حقًّا لو صدر ذلك منهم عن إيمان وتوبة وحسن مراجعة إلى الحق، فما هذا العلم المطلوب منهم الإتيان به؟

الجواب انعقد الإجماع الأعظم أنه لا شيء إلا ما شاء الله، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم أجمع المهتدون أن الله تعالى خلق للعباد استطاعة بالله، وحولاً وقوة بالله لا يخرجون بأنفسهم عن عطائه ومنعه وحسن تقديره، وهو في كل شيء الأول والآخر الظاهر والباطن، فكلمتهم هذه عن علاتها خرجت عن سنن التوحيد المعروف،

---

(١) لُمظة: نُكتة. انظر: لسان العرب (٤٦١/٧).

و«إنما لكل امرئ ما نوى»[(١)] وبقي عليهم إتمام عقد التوحيد.

وهو إتمام معنى قوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢] هذه كلمتهم لو قالوها بعلم وبقي عليهم، وهو الواحد القهار، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:٧١ - ٧٢] فهو الله لا إله إلا هو خلقه، ثم سواه بأن نفخ فيه الروح، فجعله بذلك سميعًا بصيرًا، مؤمنًا مسلمًا، منيبًا راضيًا، عالـمًا حكيمًا إلى سائر الأسماء والصفات، فلا بد من إعطاء حكمة الله قسطها مع توحيده نفسه وتنزيهه العلي، وأن يوجد في أفعال عباده فيضاف إليه وينسب، وإلا كان المعتقد على ما معنى قول الجبرية حيث إنهم إن أوقفوا أفعالهم، وأخرجوا مراداتهم على أنفسهم خرجوا على معتقد القدرية، بل أمرهم راجع للحق المخلوق به السماوات والأرض، هو الواحد القهار، هو الفاعل الأول تعالى وجوده، وهو الفاعل بملكه لإسناده من خلقٍ أو أمر؛ لأنه يملك السمع والأبصار والأفئدة والجوارح والظاهر والباطن [وبيده] كل شيء، هكذا ملكهم، وبما لهم من وجود في أنفسهم أوجدهم عليه، كانوا عبيدًا له أرقاء، كلفهم وأمرهم ونهاهم، وقد نفخ في آدم عليه السلام من روحه واصطفاه، وجعل ذلك وراثة في الهادين المهتدين من ذريته، ووالى منهم الأولياء، واتخذ منهم الأخلاء والأحباء ونسبهم إلى نفسه، وجعلهم من أجل ذلك أئمة للمتقين، فهم عباد الله تبارك وتعالى وأحباؤه.

قال الله عزَّ من قائل في قصة مريم عليها السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] فوجه الحكمة في تمثله لها بشرًا سويًا؛ ليخرج المراد منها بشرًا، وكون المراد أيضًا ملكيًا لما كان في حين كونه ملكًا باطنًا، ملكي الباطن

---

(١) أخرجه مالك (٩٨٣)، والبخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)، وأحمد (١٦٨)، والترمذي (١٦٤٧)، وأبو داود (٢٢٠١) والنسائي (٣٤٣٧) وابن ماجة (٤٢٢٧) وابن المبارك (١٨٨)، والحميدي (٢٨)، والبيهقي (١٨١) والطبراني في الأوسط (٤٠) والخطيب (٤/٢٤٤) وابن عساكر (٣٢/ ١٦٦) وابن منده في الإيمان (٢٠١) وتمام في الفوائد (٤٨٣) وابن خزيمة (١٤٢) والدارقطني (١/٥٠) وأبو عوانة (٧٤٣٨) والبزار (٢٥٧) وهناد (٨٧١)، وابن حبان (٣٨٨).

بشري الظاهر، باطن لباطن وظاهر لظاهر، فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»[١] وقد تقدم الكلام في هذا، وأن النسبة على الأسماء والصفات لا على معاني الذات، فهذا علم بمعنى قوله ﷻ: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وللمعنى الجامع للمراد قال: ﴿فَلله الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩] ما بان عنه فهو عبده، وما رضي عنه فهو وليه، وما سخطه فهو عدوه، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ فَلله الحُجَّةُ البَالِغَةُ﴾ انتظم هذا الخطاب بما تقدم من قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وبأنه حيث جاء يقول جل ثناؤه :﴿فَلله الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

حجته البالغة في ذلك أنه يفعل ما يشاء بحق الملك يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء، وإليه يرجع الأمر كله، ولو أنه نعَّم الكافر وعذَّب المؤمن، وأجاز هذا ورضيه لكان الحق حيث كان، هو الله لا إله إلا هو وكيف كان حكمه فهو العدل، وهو المحمود بكل وجه وبكل معنى، هو الإمام العلي إلى كل مقصد، به تُعرَّف المعارف لا بها يعرف، وبحكمه تُعلَّم الأحكام وتحسن المقاصد، لا بالإحكام والمقاصد تُعلم أحكامه ومقاصده، كما كانت به الكائنات لا بها كان، وإنما نفاذ حجة العباد بشرط ارتباطهم إلى طاعته، وإنما تحسن مقاصدهم وأعمالهم، وأقوالهم وعلومهم إذا رضي ذلك منهم، فمتى كان ذلك منهم كذلك أفلحوا وأفلجوا.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [الأنعام:١٥٠] أرجع ﷻ الخطاب إلى محاجتهم في كفرهم، وجَعْلهم مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا لشركائهم، فحرموا على ذلك هذا وأحلوا هذا، فطالبهم جلَّ ذكره بالشهداء الذين يشهدون لهم بأن الله حرم ما حرموه، وأحل ما أحلوه، ولا شاهد فيما ها هنا

(١) تقدم تخريجه.

سوى الكتاب من الله والنبوة.

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فإن شهادتهم زور وكذب وبهتان ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٠] به سواه أمره بالعدل والإحسان، ونهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي كالمعهود منه، وترك اتباع المكذبين والكافرين والعادلين بالله جلَّ ذكره سواه، وفي هذا من الفقه أن أحد الخصمين متى رضي بشهادة خصمه أو قول غيره، فشهد المرضي به أو قال بغير الحق، فليس على الراضي لزوم الحكم بقوله ولا شهادته، وفي هذا الضرب من الفقه نظر.

وإنما طالبهم الله بمن يشهد لهم على تحريم ما أحله الله، فهذا لا يجدونه ولا يقبل منهم إلا بكتاب من عند الله، أو توقيف من رسول الله، فقال جلَّ قوله لنبيه ﷺ، وقوله ذلك متوجه إلى سواه: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ للقطع على أن ما يدينون به ويشهدون عليه ليس من عند الله، وإنما تكون شهادتهم تلك شهادة لمدعيهم، ولا تجوز شهادة خصم ولا ظنين، وقد يجمع هذا فيهم، ليس كذلك قول الخصم لخصمه المدعي الحق عليه: قد رضيت بك شاهدًا على حقي عندك، فيقول خصمه: لا حق لك عندي.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ [الأنعام:١٥١] أمره جلَّ ذكره أن يسرد عليهم ما حرم عليهم ربهم، كما حرم عليهم أولياؤهم من الشياطين والشركاء، فاستاق بعضًا على صيغته النهي، وبعضًا على صيغته الأمر، وبعضًا على صيغته الخبر، إعلامًا منه جل وتعالى أن المأمور به منهي عنه، وأن المنهي عنه مأمور بتركه، وأن الخبر قد يأتي بمعنى الأمر والنهي.

وفيه: ﴿أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ هو صراط الإسلام ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] فصراط الإسلام والهدى صراط واحد، وسبل الضلالات كثيرة، وهي سبل الشياطين، فمن نكب عن الصراط الذي هو صراط الإسلام أخذ في السبل، ومن أخذ فيها تفرقت به السبل عن الصراط المستقيم.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤ - ١٥٨].

وذكر الله جل وتعالى التوصية بالإيمان والكتاب بقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥٤] يريد - وهو أعلم - أن موسى عليه السلام قد كان أحسن في هذه الوصايا، فإنها وإن كانت من الكتاب - أعني: التوراة والإنجيل والقرآن - فإنها مما يعلم بالعقل، وإن كان العقل لا يحل شيئًا من الكتاب ولا يحرمه إلا بإذن.

أكد ذلك بحكم الوحي في الكتاب والنبوة؛ لذلك - وهو أعلم - وصف موسى ﷺ بأنه أحسن، وأنه تمم ذلك عليه بأن أنزله عليه في التوراة كما فعل ذلك في القرآن، فكان ذلك من الحكمة التي أتاه والعلم اللذين يُجزى بهما من أحسن في إيمانه وإسلامه، حيث يقول جلَّ قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤].

وقال مثل ذلك في يوسف ﷺ ثم قال: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٤] أي: تفصيلاً لكل شيء أراد تفصيله من كبير وصغير وعلم علي، وعنى بهذا - وهو أعلم - ما ذكر رسول الله ﷺ: «**إن موسى ﷺ كتب الله له التوراة بيده، فكان فيها تفصيلاً لكل شيء**»(١) وكل شيء هو اللوح المحفوظ، وسيأتي شرح ذلك في موضعه إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ يعني: وهو أعلم الموت ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: لفصل القضاء يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يريد: طلوع الشمس من مغربها والدابة والدجال، ونحو هذا يوم يأتي بعض آيات ربك ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] يعني: التوبة والعمل الصالح.

فصل

اختلفت الروايات أي هذه الآيات قبل وهي عشرة، وأكثر الروايات على أن **أولها:** طلوع الشمس من مغربها، فإذا هي طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون، وذلك يوم ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] فإن كان ذلك كذلك.

وقد جاء أن نزول عيسى ابن مريم ﷺ بعد آخر أيام الدجال - لعنه الله - وإنه

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩١٢)، وأبو داود (٤٧٠٣)، وابن ماجة (٨٤)، وأبو يعلى في مسنده (٦١١٥) بلفظ: «كَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ» وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٦٧٦)، والدارقطني في الصفات (٢٨)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٢٦)، وأبو الشيخ (١٥٥٥/٥)، والديلمي (٦٧٥) بلفظ: «إن الله خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده».

إذا قتله، وأظهره الله أسرع الناس إلى الإسلام، فإن كان طلوع الشمس من مغربها قبل ذلك، وكما ذكر في الحكم في إيمان من لم يؤمن، أو توبة من لم يتب قبل، فأين هذا من هذا.

أرى - والله أعلم - أن هذه الآيات لا تبقى عندها إيمان عبد لم يستبصر في إيمانه، ولا توبة من لم يدخر صالحًا في إيمانه من عمله، والمراد بتلك الآيات التمحيص، فلا يبقى عليها إلى كل مستبصر، أو عالم موقن حنيف، متفرغ لشأنه مقبل على ربه، وغير هؤلاء يفتنون كما قال رسول الله ﷺ: «**هل تنتظرون إلا مرضًا مقعدًا أو هرمًا مفندًا أو فقرًا مدقعًا، أو الدجال فالدجال شر غائب يُنتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**»(١) فذكر القواطع بما هي، وأنه لا ينجو منها إلا المجد المشمر.

وأما قبل هذه الآيات، فالناس قد أوسعهم الله مهملة، ورحمته تأتي بقوم وتذهب بقوم أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، تابع ومتبوع وسابق وآخر يتلوه.

فصل

طلوع الشمس من مغربها إعلام بأن يوم الدنيا قد أُقرض وانسلخ، وأن اليوم الآخر قد ظهر وابتدأ، وتلك هي آية على ذلك، وكذلك تبدو الآيات وتنخرق العادات.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكلم الرجل فخذه بما صنع أهله بعده، وحتى تكلمه عذبة سوطه، ولا تقوم الساعة حتى يكلم الناس السباع**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل يرعى غنمًا إذا أتى الذئب فأخذ شاة منها، فتبعه الراعي فانتزعها منه، فقال له: فمن لها يوم السَّبُعِ يوم لا راعي لها**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٦)، والحاكم (٨٠٢٠)، والطبراني (٧٧٤) وفي الأوسط (٤٠٩٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٧٧)، وأبو يعلى في مسنده (٦/٧٠)، والقضاعي في الشهاب (٧٦٨). الهرم: كِبر السّن وضعفه. مفندًا: يصيب صاحبه بالفَنَدِ، وهو التخريف والهذيان وإنكار العقل من الهرم أو المرض. أدهى: من الداهية والمصيبة، والأمر العظيم ينزل بالإنسان.

(٢) أخرجه أحمد (١١٨٠٩)، والترمذي (٢١٨١) وقال: حسن غريب، وعبد بن حميد (٨٧٧)، وابن حبان (٦٤٩٤)، والحاكم (٨٤٤٢) وصححه، والديلمي (٧٠٧٢). عذبة: طرف.

غيري؟...»[1].

وهذا إعلام منه ﷺ بأن السباع تفصح يومئذٍ، وكان ما حكاه به قال: «**آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر**» فشهد لهم بالصديقية، وهو أيضًا مثل ضربه - صلوات الله عليه - أنذر بمعناه ما تُبتلى به هذه الأمة، وقد كان من ذلك ما كان، والله المرجو للفرج وعليه التكلان.

وجميع ما يأتي به الدجال - لعنه الله - من العظائم الخارقة للعادات من أجل ذلك؛ لأن يوم الدنيا المطبوع على ما جبل عليه من معهود العوائد قد انقرض، وأن أوله يوم الآخرة بما فيه قد ابتدأ لذلك، قال إبراهيم ﷺ للجبار الذي حاجه في ربه؛ إذ سأله: من ربك؟ قال: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ [البقرة:٢٥٨].

وأشبه تحديه ذلك بما تتحدى به الدجال - لعنه الله - وما صدق في ذلك دعواه للعلة التي تقدم ذكرها، فأجابه إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ [البقرة:٢٥٨] أي: إن ذلك لا يصح لك إلا بعد طلوعها من مغربها، ولم يأذن الله في ذلك بعد، فاطلعها أنت ويفعل ذلك، وذلك فعل الجبار من قبيل الدجال لعنه الله؛ لأنه كان دجالاً في سبيل الربوبية، ومنهم الدجالون في سبيل النبوة، وكما كان السامري في زمان موسى ﷺ علمًا من أعلامه، وابن صياد والعبسي ومسيلمة من أعلامه فكذلك الجبار، وإنما هي معالم تظهر وتخفى وآيات تبدو وتحتجب، يفعل الله إلى أن يأتي وعد الله.

وكان إبراهيم ﷺ في محاجته ذلك الجبار عن ربه جل وتعالى آية على الولي الحنيف الذي يحاج الملعون الدجال في المستقبل، فطلوع الشمس هي إذًا أولها لا محالة ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٢٤)، والترمذي (٤٠٥٩)، وأحمد (٧٥٥٤)، والحميدي (١١٠٣)، والنسائي في الكبرى (٨١١١)، والطبراني (٨٦٠)، وابن حبان (٦٥٩٤)، والطيالسي (٢٤٦٦).
السبع بسكون الباء: يوم القيامة أو الفزع، وبضمها: الحيوان المفترس.

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩ - ١٦٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾ [الأنعام:١٥٩] أرجع الخطاب جلَّ ذكره إلى معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] والمراد بهم أهل الكتاب، ثم بآخره كل من أخذ في غير سبيل الله، الشيع: الفرق، والشيع: الأتباع، فهم أتباع الضلالة وأشياع الشياطين.

وقد قرئت: «فارقوا دينهم»(١) ولما فارقوا دين الإسلام تفرقوا في سبل الضلالات.

قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] وقرئ هذا الحرف: «فله عشر أمثالها» ومعناهما على بادئ الرأي سواء، وبين ذلك فرقان قوله: ﴿عَشْرٌ أَمْثَالِهَا﴾ أي: عشر كل واحدة منها مثل الحسنة التي جاء بها، وقوله: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وهي قراءة الجماعة على إضافة العشر إلى أمثالها، فإن أمثال الحسنة هي عشرتها، فعلى هذا له مائة حسنة، وقد يكون من العالمين من يكون أمثال حسنته سبعون وسبعمائة.

قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة:٢٦١] فهذه السبع هي أمثال هذه الحبة؛ لأنهن خرجن منها، فعشر

(١) قرأ الجمهور (فرقوا) بتشديد الراء. وقرأه حمزة والكسائي (فارقوا دينهم) بألف بعد الفاء؛ فالمراد بالدين دين الإسلام. [التحرير والتنوير (١/٣٢٤٥)].

أمثالها إذًا سبعمائة، ومن كانت حسنه سبعمائة كان أمثالها سبعة آلاف، حتى يكون ما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد يجزي على الحسنة بألف ألف حسنة**»[(١)] وكم قد رأينا من حبة أنبتت أكثر من سبع سنابل ﴿**وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾ وختم الله جل وتعالى الخطاب بقوله: ﴿**وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٦١] فمن أوصله جلَّ ذكره إلى أن يعطيه بمقتضى أسمائه، فذلك المزيد الأعلى، وذلك الذي يُعطى بغير حساب.

ثم قال: ﴿**وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا**﴾ [الأنعام:١٦٠] فينعم المؤمن في الجنة؛ لأنه آمن بها بعشر أمثال حسنته، ويعذب الكافر في جهنم؛ لأنه كذب بها بمثل سيئته، ولا ظلم عليه سبحانه وله الحمد سبقت رحمته غضبه.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام:١٦١] نصب «دينًا» على المدح، أمره جلَّ ذكره أن يحدث بنعمة ربه، وأنزل عليه من ذلك قرآنًا يقرؤه على أمته؛ ليحدث بذلك من أمته من أنعم الله عليه وهو تمام الإيمان، وأن يحدث بنعمة ربه تفرد بها شهادة، كان رسول الله ﷺ يقول عندما كان يظهر الله على يديه من المعجزات، ويكرمه به من خرق العادات: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله**».

ثم قال له: ﴿**إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام:١٦٢ - ١٦٣] هذه صورة توحيد الأعمال إلى الله جلَّ ذكره وعلى هذا تنعقد النيات، قد كان رسول الله ﷺ يقولها عندما كان يتوجه إلى الصلاة، وأكثر ما جاء ذلك عنه في صلاة الليل، وربما كان يقول: «**وأنا من المسلمين**».

وينبغي أن يفرد لكل عمل ذكر يشابهه وإن جمع ذلك في توجيه كل عمل، فهو أحسن كما تقدم في هذه الآية لما ذكر ملة إبراهيم، وإنها صراط الله المستقيم، وإنه هو الدين القيم لا شركة فيه ولا عوج، بيَّن ما هذا الدين القيم بأن يقول العبد عند الشروع في الأعمال: ﴿**إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا**

(١) أخرجه بنحوه ابن جرير في تفسيره (٩١/٥)، وأحمد (٧٩٣٢).

شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢ - ١٦٣] ويستشعر أنه بذلك أمر، وأنه من المسلمين.

فهذه ملة إبراهيم عليه السلام التي قال فيها: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] ترجى منه - صلوات الله عليه وسلامه - بأن يتوب على من عصاه، فيغفر له ويرحمه إنه غفور رحيم، أمر حق وحكم فصل، من عبد الأصنام ومات على ذلك فغير مرحوم ولا مغفور له.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[1] [الأنعام:١٦٥] يقول وهو أعلم: انظروا كيف رفع في الدنيا بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم.

يقول وهو أعلم: انظروا كيف رفع فلِمَ ينكرون المفاضلة بينكم في الجاه عنده، والحظوة لديه، انتظامه بما تقدم في صدر السورة من قولهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨] ثم لما جاء في أثناء الخطاب من إنكارهم النبوة والرسالة من البشر، وبخاصة إنكارهم تخصيص محمد رسول الله ﷺ من بينهم حتى قالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] فكان جوابه الحق قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:١٦٥] أدخل لام التأكيد

---

(١) ذكرهم تعالى بنعمته عليهم إذ كان النبي ﷺ المبعث وهو محمد ﷺ خاتم النبيين فأمّته خلفت سائر الأمم ولا يجيء بعدها أمّة تخلفها إذ عليهم تقوم الساعة، وقال الحسن: إن النبيّ ﷺ قال: «توفون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها على الله» وروى «أنتم آخرها وأكرمها على الله» ورفع الدّرجات هو بالشرف في المراتب الدنيوية والعلم وسعة الرزق «وليبلوكم» متعلق بقوله «ورفع» فيما آتاكم من ذلك جاهًا ومالاً وعلمًا وكيف تكونون في ذلك، وقيل: الخطاب لبني آدم خلفوا في الأرض عن الجن أو عن الملائكة، وقيل: يخلف بعضهم بعضًا، وقيل: خلفاء الأرض تملكونها وتتصرفون فيها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما كان الابتلاء يظهر به المسيء والمحسن والطائع والعاصي ذكر هذين الوصفين وختم بهما ولما كان الغالب على فواصل الآي قبلها هو التهديد بدأ بقوله: ﴿سَرِيعُ العِقَابِ﴾ يعني: لمن كفر ما أعطاه الله تعالى، وسرعة عقابه إن كان في الدّنيا فالسّرعة ظاهرة، وإن كان في الآخرة فوصف بالسّرعة لتحققه؛ إذ كل ما هو آتٍ آت، ولما كانت جهة الرحمة أرجى أكد ذلك بدخول اللام في الخبر، ويكون الوصفين بنيا بناءً مبالغة، ولم يأتِ في جهة العقاب بوصفه بذلك فلم يأتِ إنّ ربك معاقب وسريع العقاب من باب الصفة المشبهة.

على معنى المغفرة والرحمة، ولم يدخلها على معنى سرعة العقاب، وهذا من قوله: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»(١) ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه. انتهى.

(١) تقدم تخريجه.

تفسير سورة الأعراف[1]

[وبه أستعين][2]

(١) هذه السورة مكية كلها قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد والضحاك وغيرهم، وقال مقاتل إلا قوله: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فإن ذلك مدني وروي هذا أيضًا عن ابن عباس، وقيل إلى قوله : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ واعتلاق هذه السورة بما قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ واستطرد منه لما بعده وإلى قوله آخر السورة ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعيّة ذكر ما يكون به التكاليف وهو الكتاب الإلهي وذكر الأمر باتباعه كما أمر في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ وتقدّم الكلام على هذه الحروف المقطّعة أوائل السورة في أول البقرة، وذكر ما حدثه الناس فيها ولم يقم دليل على شيء من تفسيرهم يعين ما قالوا وزادوا هنا لأجل الصاد أنّ معناه أنا الله أعلم وأفصّل رواه أبو الضحى عن ابن عباس أو المصور قاله السدي: أو الله الملك النصير قاله بعضهم أو أنا الله المصير إليّ، حكاه الماوردي أو المصير كتاب فحذف الياء والراء ترخيمًا وعبّر عن المصير بالمص قاله التبريزي، وقيل عنه: أنا الله الصادق، وقيل معناه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قاله الكرماني قال: واكتفى ببعض الكلام، وهذه الأقوال في الحروف المقطعة لولا أن المفسرين شحنوا بها كتبهم خلفًا عن سلف لضربنا عن ذكرها صفحًا فإن ذكرها يدل على ما لا ينبغي ذكره من تأويلات الباطنية وأصحاب الألغاز والرموز، ونهيه تعالى أن يكون في صدره حرج منه أيّ من سببه لما تضمنه من أعباء الرسالة وتبليغها لمن لم يؤمن بكتاب ولا اعتقد صحة رسالة وتكليف الناس أحكامها وهذه أمور صعبة ومعانيها يشق عليه ذلك وأسند النهي إلى الحرج ومعناه نهي المخاطب عن التعرض للحرج، وكان أبلغ من نهي المخاطب لما فيه من أنّ الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك فانتهِ أنت عنه بعدم التعرّض له، ولأن فيه تنزيه نبيه ﷺ بأن ينهاه فيأتي التركيب فلا تخرج منه؛ لأن ما أنزله الله تعالى إليه يناسب أن يسرّ به وينشرح لما فيه من تخصيصه بذلك وتشريفه حيث أهّله لإنزال كتابه عليه وجعله سفيرًا بينه وبين خلقه فلهذه الفوائد عدل عن أن ينهاه ونهي الحرج، وفسر الحرج هنا بالشك وهو تفسير قلق وسمّى الشكّ حرجًا؛ لأن الشاكّ ضيّق الصدر كما أنّ المتيقن منشرح الصدر وإن صحّ هذا عن ابن عباس فيكون مما توجه فيه الخطاب إليه لفظًا وهو لأمته معنى أي فلا يشكّوا أنه من عند الله تعالى.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ ﴾ [الأعراف: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿المص﴾ قد تقدم الكلام في الحروف المقطعة من أوائل السور والله أعلم بما ينزل، وعلى ما تقدم من النظر، فاتصال الصاد بـ«الم» دلالة على أنه صدع ﷺ بالنصيحة والصدق، وارتفع كتاب [أنزل إليك][(١)] على البدل من ﴿المص﴾ كأنه قال: [كتاب أنزل إليك][(٢)] وربما صلح في ذلك أن يقال: [ارتفع بأخبر ابتداء][(٣)] مضمر، [كأنه قال: المص] [(٤)] هو كتاب أنزل إليك ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف:٢] [ويتذكر][(٥)] من آمن، فلا يكن في صدرك حرج منه؛ أي: [أما][(٦)] في الحروف من استغلاق؛ إذ هي مفصولة من أم الكتاب، وما يعلم تأويلها [على هذا المعنى] [(٧)] إلا الله، ويعلم هو ﷺ ما علمه ربه ﷻ من ذلك، فربما كان هذا الخطاب له على هذا التأويل ألا يطالب نفسه بكنه معرفتها.

وهذا هو الأظهر لقوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:٢]

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «هذا كتاب أنزل».

(٣) في النسخة (ق): «أنه ارتفع بأنه خبر ابتدأ».

(٤) في النسخة (ق): «وهي كلمة صادقة وآية كاملة لذلك حسن الوقف عليها ثم قال عز من قائل».

(٥) في النسخة (ق): «وتذكر».

(٦) في النسخة (ق): «لما».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

والكناية في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ راجعة [إلى][(١)] الكتاب المنزل، وهي الحروف المشار إليها، وإلا فأي حرج يجد الرسول ﷺ في نفسه من القرآن المنزل [إليه][(٢)] شرفه به وكرمه على العالمين، ثم بآخره يفهم منه، فلا يكن في صدرك حرج [ممن خالفك][(٣)] وتكذيب من كذبك، إنما أنت مبلغ ونذير.

قوله ﷻ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[(٤)] [الأعراف:٣] اتصل معنى هذه النصيحة للرسول ﷺ ثم لجميع العباد بمعنى ما تقدم من نصيحة في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:٢].

وقرأ الجحدري هذا الحرف «**ابتغُوا ما أنزل إليكم [من]**[(٥)] ربكم» بالغين المعجمة مع تقديم الباء، فيكون معنى ذلك «ابتغوا ما أنزل إليكم من ربكم والهداية إليه» والإيمان به فعل الراسخين في العلم، وقد تقدم وصفهم فصحَّ بما تلوناه في [أول][(٦)] هذه السورة، وبما تقدم لنا أن الحروف المقطعة كتاب منزل من عند الله في هذا الكتاب الذي هو القرآن العربي وليس به إلا أن هذا مفصل منه كما صح بما تقدم أنها من الكتاب المبين وليست به إلا أنها آيات عليه فاتصل الحبل، والحمد لله رب العالمين من الكتاب المبين إلى ما فصل عنه من الحروف المقطعة إلى ما فصل عنها من القرآن المبين ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] وقرأ

---

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «عليه وقد».

(٣) في النسخة (ق): «من خلاف من خالفك».

(٤) لما ذكر تعالى أن هذا الكتاب أنزل إلى الرسول أمر الأمة باتّباعه، و﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾: يشمل القرآن والسنة؛ لقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣ - ٤] ونهاهم عن ابتغاء أولياء من دون الله كالأصنام والرّهبان والكهّان والأحبار والنار والكواكب وغير ذلك، والظاهر أن الضمير في ﴿مِن دُونِهِ﴾ عائد على «ربكم». وقيل: على «ما». وقيل: على «الكتاب» والمعنى: لا تعدلوا عنه إلى الكتب المنسوخة. وقيل: أراد بالأولياء الشياطين؛ شياطين الجنّ والإنس، وإنهم الذين يحملون على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلّون عن دين الله. تفسير البحر المحيط (٣٠٩/٥).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

هذا الحرف مجاهد ولا يتبع بالياء صرف وجه الخطاب بالياء عن الرسول والمؤمنين إن الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله والذين يتبعون من دون الله أولياء.

يقول الله عز وجل: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] عدم التذكار يورث الغفلة وهي تورث القسوة والقلوب القاسية بعيدة من الله محجوبة عن فهم كتابه غير موفقة للإصابة ومن يذكر أبصر، ومن أبصر اهتدى، ومن اهتدى أفلح ونجا، [ومفاتح][(١)] الدعاء.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾[(٢)] [الأعراف:٤] [تبيين][(٣)] من سبيل التذكار، والبيات: هو بالليل، بيَّت القوم: إذا أخذتهم ليلاً والقتل بالنهار، ودلت «أو» هنا على تصرف أخذه إياهم مرة كذا، ومرة كذا، ووجه الحكمة في ذلك ألا يأمنه العباد على حال، ولا في وقت دون وقت.

ثم [يتسق على][(٤)] ذلك قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:٥] تلك سنة الله ﷻ في عباده المنذرين عند إماتتهم وعند أخذه إياهم بالعذاب، و«**من مات قامت قيامته**»[(٥)] يعرفهم ذنوبهم، فلا يخرجوا من الدنيا حتى يشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين.

---

(١) في النسخة (ق): «مفاتيح».

(٢) «كم» هنا خبرية، التقدير: وكثير من القرى أهلكناها، وأعاد الضمير في «أهلكناها» على معنى «كم» وهي في موضع رفع بالابتداء، و«أهلكناها» جملة في موضع الخبر، وأجازوا أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل يفسّره أهلكناها، تقديره: وكم من قرية أهلكنا أهلكناها، ولا بدّ في الآية من تقدير محذوف مضاف لقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فمنهم من قدّره: وكم من أهل قرية، ومنهم من قدّره: أهلكنا أهلها، وينبغي أن يقدّر عند قوله: ﴿فَجَاءَهَا﴾ أي: فجاء أهلها؛ لمجيء الحال من أهلها بدليل ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ لأنه يمكن إهلاك القرى بالخسف والهدم وغير ذلك، فلا ضرورة تدعو إلى حذف المضاف قبل قوله: ﴿فَجَاءَهَا﴾. تفسير البحر المحيط (٥/٣١٠).

(٣) في النسخة (ق): «دل على سبيل».

(٤) في النسخة (ق): «نسق».

(٥) أخرجه الديلمي (١١١٧).

قوله ﷻ: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] يقول للذين أرسل إليهم: ماذا أجبتم المرسلين؟ ويقال لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٤] ويقال للرسل، عليهم السلام: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [القصص:٦٥] ؟ هل بلغتم أممكم ما أرسلتم به.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف: ٧ - ١٠].

قوله ﷻ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ [الأعراف:٨] يمكن أن يكون الحق هنا ما [يعلمه](١) الموازين من حسن وسيئ وثقل وخفة، وهو القسط كما قال عز من قائل: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾ إلى [قوله](٢) ﴿حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] ويمكن أن يكون المراد بذكر الحق الشهادة بأن الوزن يومئذٍ حق وجوده كما كان رسول الله ﷺ يقول: «أنت الحق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والصراط حق، والميزان حق»(٣) إلى آخر الشهادات.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ

---

(١) في النسخة (ق): «تعطيه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (١١٢٠)، وابن ماجة (١٤١٦)، والبيهقي (٤٨٥١).

ﭐلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ١١ - ٢١].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [الأعراف:١١] الخلق قبل التصوير، ودل [لما][(١)] نسق على أول الخطاب بحرف «ثم» على أن المخبر عنه هو آدم عليه السلام وكان ذلك إخبارًا عمن خلقه من بعده من نبيه، [وتصورهم][(٢)] إذ كان أولاً لهم وقد كان جل جلاله خلق الخلق قبل أن يوجدهم.

قال رسول الله ﷺ «**إن الله خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء**...»[(٣)] وهذا أولى التأويلين الخلق أولاً كما ذكره رسول الله ﷺ، ثم التصوير يوم خلق آدم تصوير كل ذي وجود على توبته، وهو المعبر عنه بالتسوية [والسجود والله أعلم سجود ائتمام به][(٤)].

[وعلى الكلام الأول فالتصوير أوَّله حال وجود الخلق، قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء**»[(٥)] والتسوية آخر هذا الإيجاد الذي هو الحياة الدنيا ثم يخلق [الروح] والتصوير [المعبر به] ثم [أمر] السجود، والله أعلم سجود الائتمام به][(٦)].

قال الله جل قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:٧١ - ٧٢] ظاهر قوله: ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ هو إكماله إياه وإلهامه رشده.

قال الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٧ - ٨]

---

(١) في النسخة (ق): «بما».
(٢) في النسخة (ق): «تصويرهم».
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) سقط من النسخة (ق).

ثم قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وهذه عبارة عن [إعماله وكمال التعبد][(١)] بما هو عبد الخضوع لخالقه، فلما سوَّاه وزاده بأن نفخ فيه من روحه [إتمامه][(٢)] السجود إليه، وقد كان تقدم جل ذكره إلى الملائكة - عليهم السلام - بالسجود [له][(٣)]، وقد قال رسول الله ﷺ: «**قوموا فلأصلِّي لكم**»[(٤)].

وقال ﷺ: «**من صلى منكم لغيره فليقصِر، فإن من ورائه الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة، ومن صلى لنفسه فليطل ما شاء**»[(٥)] فالإمام يصلي لمن وراءه، والمأموم يصلي لصلاة إمامه، يقوم لقيامه ويسجد لسجوده ويجلس لجلوسه.

وآدم إنما سوَّاه ربه ونفخ فيه من روحه، وألهمه عبادته وسجوده إليه، ولما سجد لربه تعبُّدًا له سجد الملائكة كلهم أجمعون لسجوده لله رب العالمين كما أمرهم [الله][(٦)]، وكيف يأمر الله جل ذكره بالفحشاء؟ إنما يأمر بالعدل والإحسان كما تقدم قبل هذا، والعدل والإحسان هو السجود لله العلي الكبير لا إلى غيره، وهذا الخطاب؛ أعني: قوله: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [الأعراف:١١] وذكر السجود له هو من متشابه القرآن العزيز الذي محكمه وأُمُّه [إن الله لا يأمر بالفحشاء][(٧)] إنما يأمر بالعدل والإحسان ولا فاحشة ولا منكر أعظم من سجود عبد لغير ربه وخالقه.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠].

---

(١) في النسخة (ق): «إكماله وإكمال العبد».

(٢) في النسخة (ق): «ألهمه».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه البيهقي (٣/٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (٦٧١)، ومسلم (٤٦٧)، والترمذي (٢٣٦) وقال: حديث حسن صحيح. وعبد الرزاق (٣٧١٢)، وأحمد (١٠٣١١).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «قوله: إن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر وإنه».

فصل

كان إبليس [لعنه الله][(١)] من الملائكة - عليهم السلام - [كما تقدم قبل هذا][(٢)]، ولذلك توجه إليه الخطاب، واستحق الذم بترك السجود، ولما استكبر عن امتثال الأمر أخرجه من ملكوت السماء، وأهبطه إلى الأرض، وعزله بذلك عن أن يكون من الملائكة الذين يملكون الملكوت ويجيدون تماسكه، ولعنه؛ أي: أبعده من أن يفعل بأمره وطاعته، [وبأن][(٣)] يشفع عنده لمن ارتضى، فهو أبدًا يعمل بغير طاعة ربه بعمل الملائكة - عليهم السلام - في تنفيذ أمر الله، وجميع مواد الخلقة في كل شيء مخلوق [هو في][(٤)] تكوين الكائنات، [والقلم][(٥)] الأمر، وتقسيمه وتقييده بإذن ربهم في مسالك أكوان العالم علوًا وسفلاً فيما يكون ذلك من أمر كون فقط، وما يكون من أمر شرع وكون معًا.

والفعل منسوب إلى فاعله، ومحله الموجود منه فهم على الأمرين أو أحدهما يعملون بأمره، وجعل عمالة إبليس [لعنه الله][(٦)] التزيين والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وسلبه الأكثر بما أقدر عليه الملائكة من تأثير الفعل في الكائنات كالتصوير، وجمع مواد الخلقة إلى غير ذلك مما يعبر عنه قوله: [﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:٧٣]][(٧)] فيكون إلا فيما عوضه منه من سبيل الإضلال، وفعل المنكر من سحر وتزيين وما هو بسبيله.

فصل

قال الله عز من قائل في سورة ص ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «من أن».
(٤) في النسخة (ق): «وفي».
(٥) في النسخة (ق): «وإلقاء».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) سقط من النسخة (ق).

إلى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال في سورة الحجر: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢].

وقال في هذه السورة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢] وقال بعض من فسر هذا المعنى: إن «ألا» في قوله «تَسْجُدَ» زائدة ومعناه والله أعلم: أن قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ألست أنا الذي منعتك [من ذلك](١)، دلَّ على هذا التوجيه قول إبليس، لعنه الله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾(٢) [الحجر:٣٩] وقوله:

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الإغواء إيقاع الغي في القلب، أي: فبما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار، وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار، وقد تقدم في البقره، قيل: معنى الكلام القسم، أي فبإغوائك إياي لأقعدن لهم على صراطك، أو في صراطك، فحذف، دليل على هذا القول قوله في ص: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظامًا لقدره عنده، وقيل: الباء بمعنى اللام، كأنه قال: فلإغوائك إياي، وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياي، وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شيء أغواه؟ وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبم أغويتني؟ وقيل: المعنى فبما أهلكتني بلعنك إياي، والإغواء الإهلاك، قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: هلاكًا، وقيل: فبما أضللتني، والإغواء: الإضلال والإبعاد، قال ابن عباس، وقيل: خيبتني من رحمتك أي: من يخب، وقال ابن الأعرابي: يقال غوى الرجل يغوي غيًا إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه، وهو أحد معاني قول تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أي: فسد عيشه في الجنة، ويقال: غوي الفصيل إذا لم يدر لبن أمه.

الثانية: مذهب أهل السنة أي أن الله تعالى أضله وخلق فيه الكفر، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى، وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زينه لهم، ولم يطاوعوه في هذه المسألة ويقولون: أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالى الله عن ذلك، فيقال لهم: وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم، وهو ونوح ﷺ حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقد روي أن طاوسًا جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهمًا بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه فقال له طاوس: تقوم أو تقام؟ فقيل لطاوس: تقول هذا لرجل فقيه فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: رب بما أغويتني، ويقول هذا: أنا أغوي نفسي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بالصد عنه، وتزيين الباطل حتى =

﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ وبوجهٍ آخر يكون معناها: ألا فعلت كذا؟ فتقرب على ذلك من معنى «هلا» ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] وكان من حكم «هلا» مجاورة الفعل الماضي، يقال من ذلك: ألا فعلت كذا كما قال: هلا فعلت كما يقول القائل في حال المعتبة لمخاطبه: مالك يا هذا تأبى من كذا ألا فعلت كذا؟ أو هلا فعلت فتكون بذلك كذا؟ فيكون معنى قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] [مالك ألا سجدت فتكون مع الساجدين من الملائكة والمهتدين من ذريته][(١)].

وجاء [ها][(٢)] هنا ذكر السجود بلفظ المستقبل في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف:١٢] وما منعك ألا تكون مع الساجدين؟ لكن هنا الخطاب مركب من معنيين:

أحدهما: ما تقدم ذكره من تعجيزه وانفراد العلي الكبير - عز جلاله - بالقدرة، [ومعنى السببية][(٣)] التي خضع لها وخشع بقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر:٣٩].

والمعنى الآخر: هو تأنيبه وتوقيفه على [مخالفة][(٤)] الأمر وتهديده، عبر عن هذا المعنى قوله في «ص»: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ

=

يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يخيبوا كما خيب، حسب ما تقدم من المعاني الثلاثة في ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة، و«صراطك» منصوب على حذف «على» أو «في» من قوله: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ كما حكى سيبويه «ضرب زيد الظهر والبطن ومن أحسن ما قيل في تأويل ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: لأصدنهم عن الحق، وأرغبنهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة، وهذا غاية في الضلالة، كما قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ حسب ما تقدم، والحكم بن عتيبة: ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من دنياهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من آخرتهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني حسناتهم، ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني سيئاتهم، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي: موحدين طائعين مظهرين الشكر.

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «ومضاء المشيئة».

(٤) في النسخة (ق): «مخالفته».

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ﴾ [ص:٧٥] [واستباق][١] اسم العزة في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] إذ العزيز يفعل ما يشاء، ويضل من يشاء، وينفذ أمره فيمن يشاء هدايته وفيمن يشاء إضلاله، وتكون له مع ذلك الحجة البالغة، وهو الحميد المحمود مع أنه لو شاء [لهداكم][٢] أجمعين، فكان هذا من ذكر العزة إيماء إلى ما توجه إليه الخطاب من تعجيز إبليس، وتوحد العزيز العلي بالعزة والقهر، ومضاء المشيئة العالية وهكذا هو يبطن إذا أظهر، ويظهر إذا أبطن ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ يريد وهو أعلم: أسماء الله ﷻ، وأسماء الموجودات، وأسماء الملائكة الموكلين بإيجادها وتدبيرها على ما يقتضيه مسالك أسمائه في الموجودات؛ إذ لأسمائه آثار في كل ما خلق، وفي خلقه دلائل على كل ما تسمى به واتصف ولكل مخلوقاته ملائكة موكلون به فخاص وعام، وأسماء ملائكته على كل موجود موافقة [وجدت له][٣] لوجود كل موجود وجدت له ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ﴾ يعني: وهو أعلم [الموجودات][٤] التي في مقتضى أسمائه ﴿فَقَالَ﴾ [للملائكة][٥]: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ [البقرة:٣١] أي الأسماء التي تقتضي هذه الموجودات.

وقوله لآدم عليه السلام: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣] يعني: وهو أعلم الملائكة بأسمائهم؛ أي: بأسماء أنفسهم فأنبأ كلاً باسمه المطابق لما وكِّل [إليه][٦] من الموجودات، وكان إبليس - لعنه الله - يومئذٍ مع الملائكة - عليهم السلام - على مصافه لما وجد له يومئذٍ فأنبأه فيمن إنباء باسمه الذي هو أولى به بأنه إبليس،

---

(١) في النسخة (ق): «استاق».
(٢) في النسخة (ق): «لهداهم».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).

وما ييسر له من [العمل][١] في المستقبل.

فلما أنبأ الملائكة بأسمائهم قال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ المعنى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: في مستقبل شأنكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٢] [البقرة:٣٣] أي: ما تخبؤه نفوسكم.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٢ - ٢٧].

قوله ﷻ في [توصيه][٣] بالتحرز من فتنة الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

ويقول جل قوله: فراعوا كيده بالغيب لا من حيث ترونه، وقوله: «يراكم» مع

---

(١) في النسخة (ق): «عمل».

(٢) جواب لـ«مَا» وتقرير لما مر من الجواب الإجمالي، واستحضار له على وجه أبسط من ذلك وأشرح، ولا يخفى ما في الآية من الإيجاز؛ إذ كان الظاهر أعلم غيب السماوات والأرض وشهادتهما، وأعلم ما كنتم تبدون وما كنتم تكتمون وما ستبدون وتكتمون، إلا أنه سبحانه اقتصر على غيب السماوات والأرض؛ لأنه يعلم منه شهادتهما بالأولى، واقتصر من الماضي على المكتوم؛ لأنه يعلم منه البادي كذلك، وعلى المبدأ من المستقبل؛ لأنه قبل الوقوع خفي، فلا فرق بينه وبين غيره من خفياته، وتغيير الأسلوب حيث لم يقل: «وتكتمون» لعله لإفادة استمرار الكتمان، فالمعنى: أعلم ما تبدون قبل أن تبدوه، وأعلم ما تستمرون على كتمانه. تفسير الألوسي (١/٢٦٧).

(٣) في النسخة (ق): «توصيته».

التحذير من كيده «هو وقبيله» يريد الكفار من الجن، وجاء به مقرونًا في اللفظ؛ إذ المراد به الجنس، [ذكره][(١)] قبيله لاشتراك مؤمنيهم معهم في الغيب عنا؛ لأنهم من قبيل واحد، وخلقه واحدة، وإن تصرفت بهم المشيئة [الغالبة][(٢)] فتفرقت بهم السبل في الهداية والضلالة والطاعة والمعصية وحسن الاستجابة لأجل ذلك.

فصل

خلق الله آدم ﷺ من ماء وتراب [ظاهر من ظاهر][(٣)]، وخلق إبليس - لعنه الله - من قبل من نار السموم، ثم ذريته من مارج النار غيبًا من غيب، ولما كانت النار لا تظهر إلا فيما علقت به من الظواهر [كان ما خلق منها لا يظهر إلا فيما علق من الظواهر ذاته وعمله ولما كانت النار أيضًا تحيل كلما علقت به من الظواهر][(٤)] إلى النارية خلقًا أو خلقًا [فالخبث كان ما علق][(٥)] عنها يحيل ما علق به من الظواهر ديانة وغواية وضلالة كأنواع الجنون، وما يكون عن لمم [النفس ويحيل ما علق به إلى ضلالته ليصير][(٦)] عاقبته إلى النار التي خلق منها.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

كان رسول الله ﷺ قد شرع لنا الوضوء مما مسته النار، وإنما كان ذلك منه عن ربه ﷻ [إحكامًا][(٧)] منه - جل ذكره - برجس الشيطان المخلوق منها، وإيماء إلى موجود خبثه ولعنته إياه، واستنكافًا من نفخه ونفثه وهمزه، ولما ثبت ذلك الشرع خفف ﷻ عن عباده؛ ليعلم أهل اللقن عنه [لما][(٨)] جعل فيها من طاعتها له، وأنه

---

(١) في النسخة (ق): «ذكر».
(٢) في النسخة (ق): «العالية».
(٣) في النسخة (ق): «طاهر».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «كان ما خلق».
(٦) في النسخة (ق): «المس وتحيل ما علق به إلى ضلالة لتصير».
(٧) في النسخة (ق): «إعلامًا».
(٨) في النسخة (ق): «بما».

خلقها عن صفة من صفاته، [وجعل خلقه إياها][١] سوطًا يسوق بها عباده إليه، وأنه خلق منها الملائكة - عليهم السلام - الذين ينتقم بهم من أعدائه الذين جعلهم سدنة لمواطن أنواع عذابه [وهم][٢] عباد له طائعون لأمره، قانتون له، يسبحون بالليل والنهار لا يفترون، وإنه إذا شاء جعلها رحمة كفعله بها في الدنيا، حيث جعل من [نفسيها][٣] سعيرها وزمهريرها جنة معجلة في الدنيا بواسطة فتحه برحمته غلب في ذلك رحمته على غضبه، وقد تاب على كثير من عباده الذين خلقهم عنها بواسطة اللعين، وهم ذريته فأقر أمره جل ذكره على ألا وضوء مما مسَّت النار، وجعل هذه الغائبات مع القطع على وجودها دلائل على تحقيق العلم بإيجاده غيبًا كلَّفنا الإيمان بوجوده، وأومأ إلى ما وراءه مع ما هو عليه من حال الغيب ﴿**ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [الأعراف:٢٦].

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف:٢٧] وكما جعل شياطينهم وكافريهم أولياء للذين لا يؤمنون [وكما جعل شياطينهم][٤] منا وسماهم لذلك شياطين بقوله: ﴿**شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾ [الأنعام:١١٢] وكذلك جعل مؤمنيهم أولياء للمؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد إلا وله شيطان**» وفي أخرى: «**إلا ومعه القرين**»[٥] قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا إن الله أعانني عليه فأسلم، فهو لا يأمرني إلا بخير**»[٦] فالذي مع رسول الله ﷺ ليس شيطان، إنما هو قرين، والكافر قرينه كافر، [فهو][٧] لا يأمره إلا بكفر وشر فهو شيطان.

ثم مفهوم هذا الخطاب من كلا الطرفين أن للمؤمنين أولياءهم من الجن

---

(١) في النسخة (ق): «وجعله إياها».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «نفسها».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني (١٠١٧).

(٦) أخرجه ابن حبان (٦٤١٦)، والطبراني (٧٢٢٣).

(٧) سقط من النسخة (ق).

مؤمنون، وأنهم مسلمون لإسلام من قرنوا به، وإسلام القرين كإسلام قرينه، فإسلام صغير وإسلام كبير، ولذلك تجد المسلم من المسلمين لا تكاد نفسه تنازعه إلى الكفر ولا إلى الشرك بالله، [ولنجد الآخر من المسلمين لا نزاع عهده][1] إلى قتل النفس، ولا إلى شرب الخمر، ولا إلى زنا، هكذا حتى [يلخص المؤمنون على ذرياتهم إلى أن يكونوا][2] كما قال رسول الله ﷺ: «**فهو لا يأمرني إلا بخير**»[3].

ثم مع هذا فلم يمتنع المسلم منا بإسلامه من شيطان مضل ومارد كافر يوسوس إليه ويلقي إلى النفس بواسطة ما في الخلقة من قبيله، ومن كيد يكيده.

قال رسول الله ﷺ: «**إن عفريتًا عرض لي وأنا في الصلاة، وفي يده شعلة من نار...**»[4].

فصل

من مفهوم ما جاء به الوحي الكريم أن إبليس كان من الملائكة - عليهم السلام - ولا محالة؛ إذ كان من الملائكة أنه كانت له عمالة يعمل فيها، وإنما عزله [منها][5] ربه ﷻ لمخالفته، وقال له: «اهبط منها» فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج، [فخروجه وهبوطه][6] من السماء أو من الملكوت الذي كان يعمل [فيها][7] ولعنه؛ أي: أبعده من قربه والعمل بطاعته، فالمعلوم بالوجود [والمفهوم][8] أنه عوضه من هدايته ضلالاً، ومن طاعته معصيةً، ومن إيمانه كفرًا، ومن عمله في الملكوت ما يقابله في الطرف الآخر، أيضًا وهو السحر على ضروبه وجميع أنواعه.

---

(١) في النسخة (ق): «وتجد الآخر من المسلمين لا تنازع عنده».
(٢) في النسخة (ق): «يخلص المؤمنون على درجاتهم إلى أن يكون».
(٣) انظر التخريج السابق.
(٤) أخرجه بنحوه مالك في «الموطأ» (١٧٤٢)، والنسائي (١٠٧٩٣).
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «فهبوطه وخروجه».
(٧) في النسخة (ق): «فيه».
(٨) في النسخة (ق): «والفهم».

ألا ترى أن السحر روم قلب أعيان فيما سبيله [البواطن][(١)]، وتقليب بواطن من بغض إلى حب، ومن حب إلى بغض، وحقيقة ذلك تغطيه على حقائق [وتحييل على][(٢)] ظواهر، وقد كان قبل عمله في تحقيق إيجاد فالملائكة - عليهم السلام - وهذا يوجب أن يكون ما يأتي به الدجال - لعنه الله - حيلولة وسحرًا، لكنه من أعلى نهاية ذاك كذلك.

وقال رسول الله ﷺ: «**فناره جنة وجنته نار**»[(٣)].

وقال [فيه][(٤)] أيضًا: «**يرون السماء تمطر وهي لا تمطر، وترون الأرض تنبت وهي لا تنبت**»[(٥)].

[ولذلك][(٦)] من واجب الوجود أن ما [في يد][(٧)] عيسى ابن مريم عليه السلام حقيقة [وجود، وهذا الشهود][(٨)] وأبين من أن تجتلب عليه شاهد؛ لأنه في البشر فيما تقارب والملائكة والدجال في البشر فيما [يقاربه][(٩)] إبليس والشيطان.

فصل

قال الله ﷻ [حكاية عن مؤمني الجن][(١٠)]: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:٦] هذا نص على أنهم؛ أعني: من كان من ولد إبليس - لعنه الله - [بالحال، وإنسًا][(١١)] أيضًا مفهوم وجودهم من الوحي الكريم، فالظاهر من

---

(١) في النسخة (ق): «الظواهر».

(٢) في النسخة (ق): «تخييل في».

(٣) أخرجه الطبراني (٧٦٤٤)، وفي «مسند الشاميين» (٨٦١)، والحاكم (٨٦٢٠) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني (٤٣٠).

(٦) في النسخة (ق): «وكذلك».

(٧) في النسخة (ق): «أتى به».

(٨) في النسخة (ق): «وجوده وهذا أشهر».

(٩) في النسخة (ق): «يقارب».

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

(١١) في النسخة (ق): «رجال ونساء».

مفهوم ذلك لما أُهبط مما هنالك خلق الله له زوجة منه كما فعل بآدم ﷺ ثم ﴿بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١].

[وكذلك][١] فالظاهر من مفهوم ذلك، وإن كانوا رجالاً ونساء فليسوا على كمال صور بني [بذلك فالظاهر من مفهوم فليسوا على كمال صوره؛ يعني][٢]: آدم، كما ليسوا على صوره البهائم والأنعام والحشرات؛ أعني: نسل إبليس - لعنه الله - بل هم على صور قاصرة عن صور بني آدم، وإن [تخيلوا فظهروا لمن ظهروا له على صورة حسنة][٣]، فإنهم قد منحوا ذلك، وليس في العالمين - أعني: ما هو دون الإنسان - أحسن جملة من صورة الإنسان إلا ما صور على صورة آدم، فإنه حسنت صورته أحسن تصوير، هو العالم الكلي وغيرها من الصور، وإن كانت صور حق فليست كهي وإن كانت الفضائل ليست في النيات، والنيات والفضائل قد خص الله بها من يشاء، وقد نرى الكافر من أحسن الناس صورة، ونرى بعض المؤمنين على غير ذلك.

﴿قَالَ﴾ الله ﷻ: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا﴾ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ اهبطوا [منها][٤] جميعًا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه:١٢٣] فالظاهر مما تلاه علينا [أن][٥] إبليس أُهبط من الجنة وأُخرج من حيث أُخرج آدم ﷺ وأُهبط، وإن كان [أخرج][٦] إبليس - لعنه الله - قبل خروج آدم ﷺ، ويمكن أن يكون إبليس أُهبط من ملكوت السماء إلى ملكوت الأرض؛ أعني: إلى غيب الدنيا، فإنه قد تقدم أنه عزل من الملكوت، وإنما له من ذلك البُطْل والخسر، لكن ذلك وجود ما لا يمكن جحده ولا [إبطاله][٧]، وقد أوجده على يديه وبواسطته. انتهى.

---

(١) في النسخة (ق): «ولذلك».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «خيلوا وظهروا لمن ظهروا لهم على صورة خسيسة».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «إخراج».

(٧) في النسخة (ق): «إنكاره».

وأما آدم ﷺ فإنه أُخرج من باطن الدنيا إلى ظاهر الأرض، [فمنزلة][(١)] الجن في هذه الدار في غيب دون غيب البرزخ، ولذلك كان حكم البرزخ [غائبًا][(٢)] عنهم.

قال رسول الله ﷺ في [الجنازة][(٣)]: «**يسمعها كل شيء إلا الثقلين**»[(٤)].

ومنزلنا نحن منها [ظاهر في حقنا لغيرهم فيه][(٥)]، لذلك كانوا لنا بمنزلة من يرانا ولا نراه، وهم وإن كانوا في غيب من منزلنا ومنزلنا مكشوف [لربهم][(٦)] لا يستطيعون التعلق بالظواهر إلا بإباحة من مالك الأعيان - جل ذكره - غيب الله ذلك عنهم [بغيب][(٧)] يعرفونه، فلا يفتحون لذلك غلقًا، ولا يحلون لذلك وكاء ولا يكشفون إناء ولا يذهبون بمتاع ظاهر، وهم على ذلك قد أعطوا قوى وقدرًا وأعمالاً وصناعات.

أخبر بذلك الصادق الحق ﷻ في قوله: ﴿وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بطاعته، ثم قال: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ﴾ [سبأ:١٢ - ١٣] [وقد ورد انسياق][(٨)] هذا إلى ما [ذكر أن][(٩)] الجن كانت تعمل وتبني له الصروح الممردة، وتشيد له الملك المعجز.

ولما علم ﷺ بمجيء صاحبة سبأ إليه قال للملأ حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٨ - ٣٩] وأخبر الله ﷻ بذلك عنه في معرض وصف ملك سليمان ﷺ على ظاهر التصديق له والرضا به.

---

(١) في النسخة (ق): «فمنزل».

(٢) في النسخة (ق): «كان غائبًا».

(٣) في النسخة (خ): «الحفائر».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «ظاهر لغيب في حقنا نحن هم فيه».

(٦) في النسخة (ق): «لديهم».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «وقدور راسيات».

(٩) في النسخة (ق): «ذكره من أن».

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] فكان [ذلك][١] الأظهر أن هذا من الجن، وإلا فقد تقدم قول العفريت، وإنما أجرينا ذكر هذا تنبيهًا على قهر قدرة الله جلَّ ذكره.

وقد أخبر عن جليل أفعالهم وعظيم ما أعطاهم من [قدرة][٢] وجودة المصانع وغير ذلك، ومنعهم [من][٣] أن يفتحوا غلقًا أو يجلوا لنا وكاء أو يذهبوا بمتاع هذه حالهم في غيب ظاهرنا وفي ملكوت منزلنا.

ومن هذه الحقائق يفتح الله على من يشاء من المؤمنين، ييسير لهم من أمرهم ما يشاء، أصل ذلك صحة الإيمان به وقوة اليقين، والطهارة من الذنوب، فإن ضد الطهارة من الذنب أخرج آدم عليه السلام من الجنة التي هي معدل [التيسير][٤] كله موضعه، واليقين يشرف بهم عليها في الدنيا ثم [يصير][٥] بعد الموت إلى ما هو أرفع جدًّا وأمكن، والله عليم حكيم.

فصل

المعلوم الذي يجب الإيمان به - والله أعلم - أن الشاك والمنكر لقدرة الله الغائبة وما تكون عليه هذه الشواهد آيات [محكمات لا ينقل ذلك][٦] عن أصل التوحيد، فإن حاله تلك لا تكتسب [مقام التوحيد][٧] كما أنه بتصحيح حال التوحيد يدرك مشاهدة ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ - ٣].

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

---

(١) في النسخة (ق): «كذلك».
(٢) في النسخة (ق): «القدرة».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «اليسر».
(٥) في النسخة (ق): «يصيرهم».
(٦) في النسخة (ق): «وإن كان لا ينقل».
(٧) في النسخة (ق): «مقام التوحيد وجدًا ولا علمًا».

فصل

الموجودات المحدثات ما له منها ظاهر فله باطن، وأظهر الظواهر ما خلق الله من ظاهر الموجودات الظواهر، وليس من شرط ما بطن من الموجودات أن يكون له ظاهر كظاهر ما خلق من [ظاهر](١) الموجودات، وإن كان له ظاهر بالإضافة إلى باطنه، وقد تقدم أن كل ما خلق من الأصول [الظاهرة خلق](٢) خلقًا ظاهرًا كآدم عليه السلام وما تحته من العوالم من جماد ونبات وحيوان والعالم الكلي، فالجن إذًا ليس لهم ظاهر وصلوا به إلى البروز [إلى إحكام](٣) الظاهر حاشا التعلق بما تعلقوا به من ذلك فيظهروا فيه، وإنما برز إلى الظهور التام ما خلق من التراب والماء والهواء والنار، فاجتمعت فيه الظواهر والبواطن [عطف](٤) العلوي وإياه جسد السفلي، وهو من الجملة بمنزلة القلب، ومن القلب بمنزلة اللُّب مهما عرف نفسه وأطاع ربه، فلما تقدم ذكره لم تتم صورة [الجن في الحق](٥) وخالق الكل جل وتعالى ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] أحد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣ - ٤].

فصل

وقد تقدم ذكر إخراج إبليس - لعنه الله - وإخراج آدم عليه السلام من حيث أخرجا، وإن مسكنهم [في دنيا باطنة فهذه وعالم غيب عنا، فإنهم ليسوا على كمال صورة الحق الذي هو العالم الكلي، وإن لهم مثالاً فيه](٦) مُنحوا التحول إليها هم منها في حقيقة حق قائم، لكن مجرميهم جل ظهورهم التخييل والكذب والتصور [على

---

(١) في النسخة (ق): «ظواهر».

(٢) في النسخة (ق): «الظاهرية خلق لها».

(٣) في النسخة (خ): «بما إحجام».

(٤) في النسخة (ق): «عليه عطف».

(٥) في النسخة (ق): «الحق في الجن».

(٦) في النسخة (ق): «مثالات».

ما][1] ليس هم على حقيقة منه، وأن ذلك من قبيل السحر الذي استعملوا به من قبلهم ظهر وعنهم انتشر.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨].

وذكر الأنعام وقال: ﴿سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا....﴾ [يس:٣٦].

وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

وهذا خطاب عام في موجودات الدنيا والآخرة، وهذه الدنيا لها ظاهر وهي لآدم ﷺ وما تبعه وما خلق له، ولها باطن وهي دنيا الجن وما تبعهم وما خلق لهم فيها، وهي التي أخرجوا إليها.

وقد قال الله ﷻ: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة:٣٨] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] فإذا لهم دواب وأنعام ومتاع دنيا خصوا بها دوننا سوى ما أشركوا فيها من بواطن ما هو لنا وظواهره.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الإسراء:٦٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من شيء يوضع لابن آدم إلا سبق الشيطان إليه يده، فاسم الله يحرمه عليه**»[2].

وقال: «**إن الشيطان يأكل من طعام من لا يذكر اسم الله عليه**»[3].

وقال لمؤمنيهم وقد [سألوا القرار][4] في هذه الدار وما يبلغهم إلى الآخرة، فقال لهم: «[لكم][5] **كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل**

---

(١) في النسخة (ق): «بما».

(٢) لم أقف عليه هكذا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٧)، ومسلم (٢٠١٧) وأبو داود (٣٧٦٦)، والنسائي في الكبرى (١٠١٠٣). وأخرجه أيضًا : البيهقي في شعب الإيمان (٥٨٣٠) .

(٤) في النسخة (ق): «سألوه الزاد».

(٥) سقط من النسخة (ق).

بَعْرَة علف لدوابكم»[١].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف:٣٣] المعنى إلى آخره.

وضرب الله مثلاً لدنيا الكافر ودنيا المؤمن بالبحار وما يوجد فيها من لحم طري وحلية، وعبورٍ عليها إلى مقاصد بعيدة وقريبة ومنافع توجد، وضرب مثلاً لدنيا المؤمن بالأنهار، وهي أقل فائدة وأدنى عائدة سوى الانتفاع بعذوبتها، وذلك مثل لحلاوة طاعة الله بالتوحيد وعذوبته، ولمرارة الشرك والبعد عن الله، واشتركا فيما [يخرج][٢] منها من لحم طري، وذلك في البحر الأجاج [أكثر][٣] وأعم وأفخم وأوجد جدًّا، والحلي المستخرج منه هو المعهود [أو أكثر][٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[٥].

وجل الكفر لإبليس - لعنه الله - [وهو معدنه ومنه منبعثه][٦]، ولأجل ذلك كان اليسر أكثر عندهم في الأمور، ألا تراهم يجدون العظم أوفر ما كان لحمًا والبعر علفًا لدوابهم، ودخل مؤمنوهم في ذلك بالتبعية، وحكم الخلقة من التمكن أن تكون مصانعهم في باطن ما هو ظاهر لنا أعظم، ومنازلهم وأحوالهم أفخم، وإن الله - جل ذكره - قد خصَّ بعضهم بفضل على بعض، وجعل لهم منها أكنانًا، وستر بعضهم من بعض كما سترنا نحن [بها][٧] بعضنا من بعض؛ لأن ذلك كله وما تبعه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٦٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥٢٧).

(٢) في النسخة (ق): «يستخرج».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «والأكثر».

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤) وابن ماجة (٤١١٣)، وابن حبان (٦٨٧)، وأحمد (٨٢٧٢)، وأبو يعلى (٦٥٢٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٨٢)، وأبو نعيم (٦/٣٥٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٩٧)، والديلمي (٣١٠٣).

(٦) في النسخة (ق): «عنده رايته وهو معدنه ومنه مبعثه».

(٧) في النسخة (ق): «فيها».

من المتاع والقِران ومن الممكن أيضًا، والله أعلم بحكمه أن يكون مؤمنوهم في الآخرة في سواحل الجنة كما كانوا في الدنيا في سواحل ما [هنا][١]، وفي أفياء ظلالها معاني ذواتها وحقائق حقها، وإن المؤمنين يومئذٍ يرونهم من حيث لا يرونهم المؤمنون؛ لأن ظواهر المؤمنين يومئذٍ وبواطنهم تحمل إلى أعلى وجودها أو يكون غير ذلك فالله أعلم، [وإن][٢] كافريهم في أشد لهب جهنم وأكبر حرها وسعرها.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٨ - ٣٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٣]

---

(١) في النسخة (ق): «ها هنا».

(٢) في النسخة (ق): «وإن كان».

(٣) قال ابن عرفة: الخطابات في القرآن على ثلاثة أنواع: فمنها: ما هو صريح العموم، مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص:١] ومنها: ما هو صريح الخصوص بالنبي صلى الله =

[الأعراف:٣٢] أرجع الخطاب إلى معنى ما تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:٣].

وما تقدم ذكره أيضًا من [تحريمهم](١) السائبة، وجعلهم البحيرة والوصيلة بغير هدى من الله، وجعلهم لشركائهم نصيبًا مما رزقهم الله افتراء [على الله](٢)، وكانوا مع ذلك يتحرجون من أن يطوف أحدهم بالبيت الحرام [عريانًا](٣) إلا أن يطوف بثياب أحد من قريش، وكانوا يسمون: الحُمس؛ لشدتهم في دينهم، فربما طاف الرجل من العرب أو المرأة عريانين، فأنزل الله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢] أي: من حرم هذا؟ من شرع هذا؟

ثم قال جل قوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي لهم في الآخرة ﴿خَالِصَةً﴾ [الأعراف:٣٢] حيث لا يشركهم [فيها](٤) الكافرون والمنافقون.

ثم أنشأ يذكر ما حرمه هو ﷻ بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ....﴾(٥) [الأعراف:٣٣].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ

= عليه وعلى آله وسلم، مثل: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [سورة الجن:١] ومنها: ما هو محتمل، كهذه الآية.

(١) في النسخة (ق): «تحريم».

(٢) في النسخة (ق): «عليه».

(٣) في النسخة (ق): «إلا عريانًا».

(٤) في النسخة (ق): «فيه».

(٥) قال الكلبي: لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون بذلك، وقالوا: استحلوا الحرم، فنزلت. تفسير البحر المحيط (٥/٣٣٨).

كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٦ - ٣٨].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف:٣٧] الذين افتروا على الله الكذب وهم المتنبئون أيضًا هم الذين شرعوا للناس ما لم يأذن به الله، فضلوا بذلك وأضلوا، والذين كذبوا بآيات الله هم الأتباع والمتبوعون، فانتظم بمعنى ما تقدم ذكره بالمجاورة والمعنى.

﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧] يطوون آثارهم، ويأكلون أرزاقهم، ويعمرون في آجالهم كما سبق لهم [إلى قوله][(١)]: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨] هذا حال الموت في دار البرزخ يقرن كل كافر بوليّه من الجن فيكون معه في دار البرزخ [يحشر][(٢)] ويدخل مدخله في جهنم، فللجني عذاب السعير، وللإنسي عذاب النار وعذاب جهنم [نعوذ بالله، أعاذنا الله من ذلك][(٣)].

ويتضاعف لكل واحد منهما عذابه بعذاب قرينه، لذلك قال وهو أعلم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] يضاعف لهم الضعفان أضعافًا على مقادير ضلالهم وإضلالهم لإفسادهم وصدهم عن السبيل.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن

(١) في النسخة (ق): «إلى قوله: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٣٧] إلى قوله الحق عز جلاله».

(٢) في النسخة (ق): «والمحشر».

(٣) في النسخة (ق): «نعوذ بالله من ذلك كله».

فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [الأعراف: ٣٩ - ٤١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف:٤٠] المستكبر عن الآيات هنا هو المكذب بالرسالة والنبوة وبما جاءت به، فمعنى الآية: إن الذين [كفروا][(١)] بالله وبرسله، ويكون التكذيب والاستكبار حالين لهم ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] [لما][(٢)] لم يؤمنوا بآيات الله في السماوات والأرض وتعاموا عنها، [ولما لم][(٣)] يشهدوا بشهادتها لله لم تستبشر بهم الملائكة - عليهم السلام - ولا السماوات والأرض بل لعنهم الله ولعنهم اللاعنون، الملائكة والسماوات والأرض وكل شيء يسبح لله وحده، وغلقت أبواب السماء دونهم بعد الموت، ولما لم يعملوا الصالحات ولا صدقوا بالآخرة لم يدخلوا الجنة، ولا كان لهم فيها حظ.

قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ على عظمه وغلظه، وسم الخياط على ضيقه ودقته لم يوسع سم الخياط ولا صغر الجمل، وقد قرأ ابن عباس وعكرمة هذا الحرف «الجُمّل» بضم الجيم وتشديد الميم، وهو حبل السفينة الغليظ[(٤)] تبارك الله رب العالمين.

علّق ذلك بكون مقدور غائب محال وجوده في مجرى العادة، وذلك [يعلق][(٥)] بالمشيئة العالية ومقدور للعلي الكبير، بل هو مثل ضربه في رجوع جملة المثال إلى موضع الحياة من الجسم وهو القلب، واعتبر ذلك بالزرع تزدرع الحبة، وهي الجامعة لصورة الزرع الأخضر على كماله، فلا تكون الحبة كاملة إلا بأن يلج، المعنى الذي به نشأ الزرع إلى كماله، ولا يكون ذلك من الزمان إلا زمن المصيف،

(١) في النسخة (ق): «كذبوا».

(٢) في النسخة (ق): «كما».

(٣) في النسخة (ق): «ولا».

(٤) يروى عن ابن عباس أنه قرأ (الجمل) بضم الجيم وتشديد الميم، وقال: هو القلس من حبال السفن. [معاني القرآن للنحاس (٣/٣٥)].

(٥) في النسخة (ق): «معلق».

وهو [ظهور اليوم][(١)] الآخر، صحح ذلك القرآن، والوجود عمَّ عن ذلك في هذا الموضع بقوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ لذلك تقول لهم الخزنة - عليهم السلام - في بعض محاوراتهم إياهم: ﴿ذَلِكُم﴾ يريدون مكثهم في النار ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا...﴾ [غافر:١٢] إلى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

[كذلك][(٢)] جعله علة الرؤية ظهور المقدور الحاضر [في قوله][(٣)]: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] وكون الجبل مستقرًا مكانه معهود مشاهد، فحصل العلم بوجود الرؤية واليقين [بمنالها][(٤)] والحمد لله رب العالمين، كما حصل اليأس من خروجهم من النار.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّلِحَتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَرُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَبَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّلِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَبِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَبُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ

---

(١) في النسخة (خ): «أوان ظهور النور».

(٢) في النسخة (ق): «ليس كذلك».

(٣) في النسخة (خ): «قوله».

(٤) في النسخة (ق): «بمثالها».

تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٢ - ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾ [الأعراف:٤٤] لو تكلم الكافر بعد الموت لأخبر لا بد ولا محالة؛ [لأنه][(١)] قد وجد ما وعده ربه حقًّا من العذاب وسوء المصير، ويشعر هو نفسه أن لو قد مات على ما هو عليه لوجد جزاء عمله حاضرًا، كذلك فعل رسول الله ﷺ بأصحاب القليب.

ثم أتبع ذلك قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله﴾ [الأعراف:٤٤ - ٤٥] نشأ الذي في قلب [المؤمنين من العلم بما بين الحالتين][(٢)]، والبون بما بين المنزلتين في الآخرة إلى آذان المؤذن بين الفريقين، يعلم فيه الجميع أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله؛ يعني: ما جاءت به الرسل عليهم السلام ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٥].

ثم قال جل ذكره: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف:٤٦] يعني: بين أهل الجنة والنار، وهذا القرب معلوم عن إثارة الوجود [المفهوم أول افتراقهما هو من موضع واحد، ثم لا يزال الفراق يطول والبعد يتأكد أبدًا، وكذلك البيت أقرب ما يبون حال موته بين أهله، ثم][(٣)] لا يزال شخصه يبلى وذكره ينسى، وأثره ينقطع حتى يبعد كل البعد، كذلك قال عز من قائل يصف حال المنافقين في عرصة [المحشر][(٤)]: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ....﴾ [الحديد:١٣].

[الظاهر المعهود أن هذا الإعلام بهذا الخطاب من لدن قوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [ص:٥٦] إلى قوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ [ص:٥٩] قالوا: أي: المورد وعليه ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف:٣٦] في النظر إليها.....][(٥)].

---

(١) في النسخة (ق): «بأنه».

(٢) في النسخة (ق): «المؤمن من العلم بما بين الحياتين».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «المحشر وبعد الموت حال البرزخ».

(٥) سقط من النسخة (ق) وبياض في النسخة (غ).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف:٤٦] قيل: الأعراف: موضع مشرف بين الجنة والنار، وربما سُمي الموقف والموضع بمعنى أهله، فالله أعلم.

والأقرب أنهم قوم قد عجزت حسناتهم عن أن تدخلهم الجنة، ولم تبلغ بهم سيئاتهم أن تدخلهم النار، وكانوا مع ذلك يعرفون في الدنيا، ويعرفون [كشهادة][1] الرؤساء وأشباههم، فوقفوا لتخلفهم بموضع مفترق الجمع، فتمر بهم زمر أهل الجنة ذات اليمين، وزمر أهل النار ذات الشمال [نعوذ بالله من سوء المصير، يعرف الأولون منهم الأولين من أهل النار][2] ويعرف الآخرون الآخرين بسيماهم، سيماء هؤلاء سواد الوجوه وزرق العيون، قد غشيتها الغبرة وترهقها القترة، ومن سيماهم وسم على الخراطيم، فعدل بصورتهم عن صورة الحق إلى صورة الخنازير والقردة، وأنواع [الحيات][3] التي كانت طباعهم تميل إليها، ومن سيماهم كتب بشمائلهم، وسيماء المؤمنين بياض الوجوه واستبشارها وضحكهم، كتبهم بأيمانهم مكرمون.

ووجوه أصحاب الأعراف إلى الجنة كما كانوا في الدنيا قلوبهم ووجوههم إلى [الإسلام والإيمان، ينادون أهل الجنة بالسلام والترحيب والتهليل والتلبية][4]، وأصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في رحمة الله جل ذكره، ثم تصرف أبصارهم إلى أصحاب النار فيرون سوء مصيرهم [فييئسون][5]، ثم يبتهلون إلى ربهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٧].

ويعرف أصحاب الأعراف [منهم][6] رجالاً كانوا في الدنيا رؤساء متبوعين فينادونهم: ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٨] فيجيبهم أولئك ينقمون عليهم موقفهم ذلك، يعيرونهم باحتباسهم

---

(١) في النسخة (ق): «كشهرة».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الحيوانات».

(٤) في النسخة (ق): «الإيمان والإسلام ينادون الجنة بالسلام والترحيب».

(٥) في النسخة (ق): «فيبتئسون».

(٦) سقط من النسخة (ق).

عن إخوانهم هنالك [بجواب](١) حذفه، ومعناه والله أعلم: وأنتم فما أغنى عنكم دينكم الإسلام وما كنتم تعبدون، فيجيبهم أصحاب الأعراف بجواب هو محذوف.

أظهر هذا، وهذا ما بعده وقبله معنى الجواب والله أعلم: إنا طامعون في رحمة ربنا أو ما يكون من الكلام معناه هذا، [فيقولون](٢) لهم أصحاب النار بجواب حذفه أيضًا معناه [وهو](٣) أعلم: والله لا ينالهم الله برحمته أبدًا، فيغضب الله رب [العالمين](٤) ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لهم من أجل قولهم ذلك وللحظ الذي [له](٥) فيهم، وهو الذي قدره وأبدأه منهم برحمته، فيقول جل قوله: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(٦) [الأعراف:٤٩].

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾

---

(١) في النسخة (ق): «الجواب».

(٢) في النسخة (ق): «فيقول».

(٣) في النسخة (ق): «والله».

(٤) في النسخة (ق): «العزة».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم؛ لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ يقال لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين ويعرفونهم بسيماهم، ويقولوا ما يقولون. وفائدة ذلك: بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحدًا لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشرّ، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً. الكشاف (٢/٢٣٥).

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٠ - ٥٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨] أعلم ﷻ بحقيقة الحق الذي بثه في عالمه وخلق به السماوات والأرض وما بين ذلك في الستة الأيام من الدهر التي أولها السبت [والأحد][1] إلى الخميس.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت:٩] يعني: وهو أعلم السبت والأحد، خلق التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وقيل هذا في هذين اليومين خلق السماء دخانًا مرفوعًا في الهواء، ثم [باركها][2] في الأرض، وقدر فيها أقواتها في الأربعة الأيام الباقية وقبل هذا في هذه الأربعة الأيام قضى السماوات سبعًا فصلهن بعضهن من بعض،

(١) في النسخة (ق): «ثم الأحد».

(٢) في النسخة (ق): «بارك».

وأغطش ليل السماء الدنيا وزينها بالنجوم وحرسها بالرجوم، وأخرج ضحاها وأوحى في كل سماء أمرها في أربعة أيام سواء للسائلين.

ثم استوى إلى السماء وهي دخان [فقط][1] فعطف بحرف «ثم» على قوله: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: إن قضاءه السماوات وتفصيلهن كان بعد اليومين الذين خلق الله فيهما السماء دخانًا، والأرض والجبال بين ذلك في موضع آخر من كتابه في قوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٢٧ - ٢٩].

[ثم قال][2]: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠] إلى آخر المعنى، فبيَّن بقوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وليس المشار إليه [بقوله][3] إلا ما ذكره من إتمام أمر السماء، فهذه الستة الأيام التي خلق الله فيهن السماوات والأرض بنص القرآن.

ثم [ببيان][4] رسول الله ﷺ حيث قال: «**خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الثرى يوم الإثنين** - وفي أخرى: «[**البحر**][5] **والماء**» - **وخلق الظلمة يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق السماء أولاً ثم الأرضين**»[6].

وإنما أخبر هنا عن خلقه الأرض، ولذلك لم يعرج على ذكر السماء إلا عن جنب، ولما كان الغرض في سورة «والنازعات» الإخبار عن السماء أعلم [بتقديمه][7] خلق السماء فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات:٢٧]

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «بقوله: ذلك».

(٤) في النسخة (ق): «بتبيان».

(٥) في النسخة (ق): «الشجر».

(٦) أخرجه البخاري في «التاريخ» (٤١٣/١) وقال: قال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح. ومسلم (٢٧٨٩)، وأحمد (٦٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (١١٠١٠)، وابن خزيمة (١٧٣١)، وأبو يعلى (٦١٣٢)، والديلمي (٢٩٢٧) بنحوه.

(٧) في النسخة (ق): «بتقدمه».

إلى آخر المعنى، إلى قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠] فالسماء هي الأولى في الإيجاد وقضاء الأمر والتفصيل والتبريك، ويتلوها الأرض في جميع شأنها وذلك كله في الستة الأيام.

ثم قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ....﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس:٣].

وقال في موضع آخر: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٤ - ٥] المعنى إلى آخره حيث جاء ينبئ فيه أنه ﷻ فعل فعلاً ما على العرش سماه استواء؛ لأنه قصد إلى التسوية والسواء؛ [أي: الإتمام والإكمال والعدل ونحو هذا، فسوى كل موجود على وجوده الذي شاءه به، وله التسوية على العرش العظيم][(١)].

دلَّ على هذا التوجيه قوله جلَّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] أي: فصلهن وأكملهن، وأوحى فيهن أمرهن بحكم سواء وتدبير عدل على ما [سوى][(٢)] علمه، فسمى الفعل الذي هو قصد إلى المقصود باسم مشتق [من اسم المقصود لما قصد

---

(١) في النسخة (ق): «إلى الإتمام والإكمال على ما قد سبق في مشيئته».

(٢) في النسخة (ق): «سبق في».

إلى تسوية السماء سمى القصد: استواء، وذلك][1] المعهود في لسان العرب الذي نزل القرآن به، تقول: «اكتوى زيد» إذا قصد الكي، و«استقاء» إذا [استفعل][2] القيء.

قال الله جل من قائل: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء:٤٣] أي: اقصدوا، من يممت الشيء: قصدته، سمي [ذلك][3] الفعل تيممًا.

وقال رسول الله ﷺ: «**التيمم ضربة للوجه وأخرى للذراعين**»[4] فسمي الفعل الذي هو بدل من الوضوء تيممًا، وأجرى المسلمون اسم التيمم على [الفعل الذي هو بدل من البدل كذلك كلمة الاستواء ورفعه على الاستواء الفعل][5] الذي هو الإكمال والإتمام والتسوية على النحو الذي أراده، وهذا كثير [معلوم][6] متعارف في كلامهم وفي المعهود من [عباراتهم][7]، والسواء الكمال.

قال الله ﷻ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:١٠] أي: كاملة تامة.

وقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ [ص:٧١ - ٧٢] [يعني: أكملته وأتممته][8].

وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا...﴾ [يوسف:٢٢].

ثم بعد هذا يكون المفهوم من استوائه سبحة من سبحاته - جل ذكره - كما قال في وصف نفسه ﷻ: وتكبر وتعالى [وتبارك][9] ونحو هذا؛ إذ ليس [من فعله

---

(١) في النسخة (ق): «من المقصود لما قصد إلى التسوية سمى القصد: استواء، وذلك هو».

(٢) في النسخة (ق): «استعمل».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٢٩٠)، والدارمي (٧٤٥)، وابن خزيمة (٢٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٢).

(٥) في النسخة (ق): «ذلك كذلك كلمة الاستواء واقعة على الفعل».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «عاداتهم».

(٨) في النسخة (ق): «أي: أكملته خلقًا ونفخت فيه من روحي».

(٩) سقط من النسخة (ق).

شيء][1] إلا وهو دال على كماله وعظمته وجلاله ونعوت تعاليه.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف:٢٢].

وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩].

وقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١].

فاستواء الإنسان كمال عقله وعمله وتوفر صفاته، والمستوي منه هو المقول له العبد، وموضع استوائه من حيث هو عقل الدماغ، ثم ينزل [منه الأمر][2] إلى القلب، ثم عن القلب تنبعث الدواعي والأغراض والإرادات بالأفعال إلى الجوارح الظاهرة من طاعة أو عصيان، وكأن القلب أولى بأن تضاف [الأفعال][3] إليه؛ إذ هو المصدر لها كالإنسان تضاف إليه أفعاله، وإن كان في الحقيقة [مسوقًا][4] أيضًا ومحمولاً عليها؛ إذ كان بإرادته ومشيئته ليتم أمر الله فيه الذي [له أوجده][5].

عبرة: فالله الحي القيوم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لما استوى على العرش لتتم كلماته صدقًا وعدلاً، وليدبر بأمره السابق في الأزل قبل إيجاد الخليقة حييت به الجملة كما حيي جسم الإنسان باستواء المستوي فيه وعليه، فكان [لذلك][6] كل ما كان في جسمه [معلق ما][7] له محسوس ظاهرًا وباطنًا لا يخطر له خاطر في باطنه، ولا يحدث في جسمه حادث مع التيقظ ووجود الصحة إلا أحسه.

---

(١) في النسخة (ق): «شيء من فعله».

(٢) في النسخة (ق): «الأمر منه».

(٣) في النسخة (ق): «الأفعال والإرادات».

(٤) في النسخة (خ): «مسبوقًا».

(٥) في النسخة (ق): «أوجده له» وبعد هذا الكلام قال: «تنبيه: وقد يجوز أن يعتقد العبد أيضًا أنه مستوٍ في القلب من حيث هو حي، فهو في الدماغ من حيث هو عقل، وفي القلب من حيث هو حي، وهو روح ومن حيث هو إيمان».

(٦) في النسخة (ق): «كذلك».

(٧) في النسخة (ق): «هو معلوم».

والروح أو العقل [المشار][(١)] إليه بهذه العبارة وليس من جنس الجسم ولا وصفه وصفه، بل هو شيء لا [تعرفه][(٢)] جملة الإنسان، ولا يقف على كنهه، ولا يحيط من علمه إلا بما شاء الله - جل ذكره - المالك لكل شيء، فالله الحي القيوم لا إله إلا هو أجلّ وجودًا وأكرم استواءً وأنزه وصفًا، وصف نفسه - عز جلاله - عند استوائه على العرش بأنه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ:٢] وبأنه مع كل كائن في جملة العبد الكلي بما هو، وبأنه أقرب إلى كل شيء من ذاته، [إنما][(٣)] هو سبحانه وله الحمد ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبأ:٣].

قال الله ﷻ: ﴿أَو لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨] ﷻ علوًّا كبيرًا.

﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] [فيما صنع كيف أتقن مصنوعه العليم بكل شيء][(٤)].

واعلم أن هذا منبعث [وصفه الحق بأنه][(٥)] ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧] ثم ينشأ هذا الحق بعد تحقيق الولاية، [وإنما يكون][(٦)] عن معنى من نفخة الروح في العبد إلى تحقيق معنى قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن سألني لأعطينه**»[(٧)] وإنما ذلك لحقيقة القرب الكائن عن حقيقة التقريب.

---

(١) في النسخة (ق): «هو المشار».
(٢) في النسخة (ق): «تعرف».
(٣) في النسخة (ق): «بما».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «من وصفه الحق».
(٦) في النسخة (ق): «ويكون ذلك».
(٧) أخرجه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١).

ثم [إلى قوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

قوله الحق][(١)]: «**يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، [وظمئت][(٢)] فلم تسقني...**»[(٣)].

وكما هو أقرب إلى العبد من وريده من حيث الخلقة فهو إذًا أقرب إليه بالولاية وجودًا ومعنى وحكمًا [وغيبًا][(٤)]، فهو الذي لا يخلو منه مكان ولا كائن، [وليس في][(٥)] مكان، فافهم وألقن، فإنه من فهم هذا المعنى على ما هو قرب عليه البعيد وتيسر [عليه][(٦)] العسير، والله ولي التوفيق.

وقد زاد المحسنين تقريبًا [في قوله][(٧)]: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦].

قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] غشيان النهار الليل إنما يظهر أمر الله فيه من لدن طلوع الفجر، بل من أول الفجر الأول، وهو البياض المعترض في السماء علوًّا إلى طلوع الشمس، كما يظهر انسلاخ النهار عن الليل من لدن غروب الشمس إلى مغيب الشفق، ثم إلى ذهاب البياض الباقي بعده، وما عدا هذين فهو فحمة العشاء، [وهو الغسق][(٨)] إلى آخر الثلث الأول من الليل، ثم إلى النصف من الليل إلى آخر الليل، وذلك البياض الذي يظهر في السماء بعد ذهاب الفُحمة هو ظاهر بركة التنزل الكريم، وسمى الفُحمة من الليل بغسق؛ لأنه إذ ذاك كمُل خروجه من النهار [قال الله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم

---

(١) في النسخة (ق): «إلى حقيقة قوله».

(٢) في النسخة (ق): «وصديت».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وليس في يده من حيث الخلقة».

(٦) في النسخة (ق): «له».

(٧) في النسخة (ق): «في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] و﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] وقوله».

(٨) في النسخة (ق): «وهو الغسق».

﴿مُّظْلِمُونَ﴾][1] فغشيان النهار إياه حكم باطن.

قال الله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

وقال في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد:٣].

فقوله: ﴿مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ منتظم بقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ لما نصب ﷻ قنن الجبال على شكل الكرة بعد مده الأرض، جعل غسق الليل دائرًا مع أعلى قنن [الجبال][2]، ثم أول الليل يسلخ النهار من الليل، وآخره يغشيه إياه، ثم قوله: ﴿وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ آيات على وجود موجودات الجنة، ولما كانت الدنيا بالإضافة إلى الآخرة ليلاً والآخرة نهارًا كان غشيان [النهار][3] الليل فيها ها هنا، و﴿يَطْلُبُهُ﴾ إياه ﴿حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] أبدًا، كان ذلك آية على طلاب الآخرة للدنيا تطلابًا حثيثًا، كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس:٤٠] أي: إن النهار مدركه فيغشاه، ثم يمهله لإتمام الأجل المسمى كما تفعل الآخرة بالدنيا، [الآخرة][4] تطلبها وهذه لا تفوتها حتى يأتي أمر الله ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١].

وآية أخرى: إن النهار بما هو دولة النور، وموضعه في هذه الدار، والليل على ضد ذلك، فالطلب للأعلى منهما، وهو النهار الذي هو عبارة في طريق التأويل عن النور، والنور في الوجود يطرد الظلام، وليس الظلام بطارد للنور، لكنه خالف له [وقف][5] على تمييز الفرق بين ذلك.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤] أمر الله ﷻ هو شأنه وذكره هنا عبارة عما يقضيه - عز جلاله - من

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الرواسي».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فقف».

أمر «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة [له][١] كوقع سلسلة على صفوان...**»[٢].

وقد تقدم ذكر هذا وتقدم الله العلي - عزَّ جلاله - في ذلك الأمر كله بالتقدير العلي وألزم له في الكتاب المبين.

قال الله عز من قائل: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢] [أي: ما هو لكل سماءٍ أوحى ذلك إليها؛ أي: الأمر الذي هو الخاص لها، ثم المعلوم لها من خاص وعام على أسبابه وكيانه الذي سبقت به مشيئته في ذواتها، فيخرجه بعد على آجاله، ويرتبه مراتبه وآياته، فكان ذلك الوحي لهن بمنزلة الفطر لجميع الخليقة بمنِّه وبفضله يعطيه [بأمره] قال الله ﷻ: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦]][٣].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء:٥٦] فكان [معنى خطابه عليه السلام هذا قومه لما أضافوا الأفاعيل][٤] إلى الكواكب، ثم نسبوا إليها أصنامهم ونحتوها على أرصادها، وأضافوا ما يصيبهم من [رخاء وشدة][٥] إلى الأوثان، واعتقدوا ذلك فيها، ونووه عندها.

قصد إلى منبعث ضلالهم بما أبطل تعلقهم بها وأدحض حجتهم لها، فقال عليه السلام: [﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٦].

كما قال][٦]: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «أي: هو لكل سماء على الخصوص لها الذي أوجدها له، أوحى ذلك إليها مجملاً محكمًا، ثم هو الآن يفصل ذلك إلى يوم يبدلهن بغيرهن، غرر ذلك في ذواتها فتخرجه بعد على مراتبه على آياته، كان ذلك الوحي بمنزلة الفطر لجميع الخليقة على ذلك فطر لهن وهو أمر عام، كل أمر له فيهن عنه يفصله تفصيلاً بعد تفصيل».

(٤) في النسخة (ق): «خطابه قومه لما أضافوا الأفعال».

(٥) في النسخة (ق): «شدة ورخاء».

(٦) سقط من النسخة (ق).

[الأنعام:٧٩].

كما قال يوسف ﷺ: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] ففطره لهن إيجاؤه أمرهن المقدر إليهن، والأمر الذي أوحى به إليهن هو أمر الإسلام [له، والأمر الذي أوحى في كل سماء وفي كل أمر هو أمر الإسلام له][١] أولاً، ثم ما [كان][٢] من كائن عنهن ومنهن، وكل ما أطيع الله به من عمل أو قول أو شهادة فهو [إسلام][٣]، والأمر النازل من لدنه ﷻ فيما هذا سبيله أمر كون [لا بد][٤] كائنًا، وهو المعني بقوله الحق الذي قال ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧] والأمر الذي [أرسل به][٥] رسله أمر شرع جمعه أو أمر أوجد له ما يقابله في المكلفين؛ أعني: الثقلين، [وهو][٦] العصيان، فلذلك تطرق إليه الخلاف، ليس كذلك أمر الكون.

اتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] والخلق: الإيجاد، والأمر شأنه، وما يقضيه بمشيئته العالية، أجرى أمره من الخلق مجرى الأرواح [من][٧] الأجسام، جمع بها بين الكلمتين، كل ما أوجده من شيء علوًّا وسفلاً دنيا وآخرة، [ثم تبارك جل ذكره، وسمى بالمنازل سبحانه وله الحمد ما أتقن ما صنع، وأحكم ما خلق، وأحسن ما دبر، فتبارك الله رب العالمين، فجمع كل مذكور من رب ومربوب قديم أو محدث، وما كان وما يكون أبدًا وأزلاً][٨].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «يكون».

(٣) في النسخة (ق): «إسلام له».

(٤) في النسخة (ق): «جمعه أمور الأبد».

(٥) في النسخة (ق): «به أرسل».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «في».

(٨) في النسخة (ق): «ثم تبارك - عز جلاله - عند ذكره ذلك، وتسمى بالمبارك لما كان الأحد في كنهه الأول، ثم أوجد جميع الموجودات ظاهرًا وباطنًا وأرسل الرسل وأنزل الكتاب =

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] أمر جل ذكره أن يكون الدعاء منا تضرعًا وخفية في حال الدعاء الكريم قربه وعلي وجوده ولغناء ذلك؛ لأنه لا يكون على الأغلب إلا [على علم من][1] بقرب المدعو المرغوب إليه عز جلاله، [لا في حال ذلك من الداعي بعظيم غنى ذلك عند الله ﴿وَخُفْيَةً﴾ من إخفاء الصوت][2].

وقد مدح جل ذكره [نبيه][3] زكريا ﷺ بذلك فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣] وذلك [لا يكون من الداعي إلا [من تجلى][4] علمه بربه وأصوب لقيله؛ لأن القلب على ذلك أفرغ][5] ولأن الدعاء ليس من الأعمال التي يُرجا بها الاقتداء على الأغلب، فكان ترك الإعلان أولى؛ لأن [المخاطبة في حال الدعاء لله جل

=

تسمى بالمبارك، ولم يزل كذلك؛ لأنه كان من قدره السابق وعلمه العلي أنه سيفعل ذلك، وهو الله ﷻ في غير هذا الموضع ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: الآن ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١] أي: الآن، وإذا شاء تبديل السماوات والأرضين بغيرهن فعل ما شاءه من ذلك، فيكون ذلك مزيدًا منه كما قال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] فهو أبدًا يتبارك بمزيد إلى مزيد، وكان أول ذلك من تبريكه ما أخبر عنه من فعله الأول. قوله الحق: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] أنزل عليه الكتاب وملأه حكمة وإيمانًا، وجعله أمينًا على وحيه وسفيرًا عنه ومن عباده، فتبارك لذلك ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان:١٠] لما كان رسول الله ﷺ في عسرة حال احتج عليه المكذبون بما جاءهم به بقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان:٧ - ٨].

أجاب عز من قائل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ...﴾ هذا ذكره البركة وتسميته باسم المبارك عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه عند ذكره الزيادة والأمر العجب، فسبحانه وله الحمد ما أتقن ما صنع وأحكم ما خلق وأحسن ما دبر فتبارك الله رب العالمين».

(١) في النسخة (ق): «عن علم من الداعي».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «عبده».

(٤) بياض في النسخة (غ) والزيادة لمناسبة السياق.

(٥) في النسخة (ق): «أحسن تفرغًا لقلب الداعي وأصوب لقيله وأكرم لمناجاته».

ذكره][1] حقيقة مناجاة من الداعي من قرارة نفسه وخالص من سره، فكأن السر أولى [وأقرب إلى توجيه الخطاب][2] والاعتداء في الدعاء هو في المحافل، وعلى حال الجهر به إذا لم تدع إلى ذلك حاجة.

وقد يُنهى عن الجهر به مخافة السمعة والرياء، وقد يكون [معنى الاعتداء][3] الإدلال، فإنه لا يتم عمل عامل بالإحسان حتى تباعد الإدلال والتعدي لطوره، وقد يكون الاعتداء [في الدعاء][4] أن يسأل ربه ﷻ ما ليس له سؤاله، مثل [أن يسأله][5] أن يجعله نبيًّا أو رسولاً ونحو هذا، وقد [سُئل][6] ذلك، وقد عبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة**»[7] فإذا تم الدعاء على شروطه [وأوصافه فقد قال][8]: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [ثم قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: بالعمل بطاعتي ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] إلى مسؤلهم يسألونه فيجيبهم يومئذٍ.

يؤيد هذا التأويل][9] وهو إذا أحسن في أداء الدعاء على ما أُمر به، فقد قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

ومن الدعاء ما هو قد وافق [أجل المدعو فيه، ومنه ما هو على المثل][10]، ومنه ما لم يأذن الله في إتمامه، وسبق الكتاب بخلافه، وقد سأل رسول الله ﷺ

---

(١) في النسخة (ق): «المخاطبة حال الدعاء».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «الاعتداء المنهي عنه أيضًا في الدعاء».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «سؤال أحدنا».
(٦) في النسخة (ق): «سد».
(٧) تقدم تخريجه.
(٨) في النسخة (ق): «قال عز من قائل».
(٩) سقط من النسخة (ق).
(١٠) في النسخة (ق): «حضور أجل المرغوب فيه».

[ربه][(١)] ثلاثًا فأعطاه اثنتين ومنعه الثالثة ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] غير أن الداعي إذا صحت نيته وقويت [خشيته][(٢)] فهو أيضًا بين ثلاث: بين أن يقضي حاجته معجلاً أو مؤجلاً، وبين أن يصرف عنه من السوء ما هو [أكثر من حاجته لدعائه وإخلاصه، وبين أن يدخر ذلك له][(٣)].

قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ....﴾ [الأعراف:٥٧] [هذا منتظم][(٤)] بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

ثم عطف على ما تقدم ذكره قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الأعراف:٥٧] ناظمًا على المجاورة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [والمعنى بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾][(٥)] فأعلم بأمره في الرياح، ثم في الماء، ثم في خلقه ما يخلقه من الماء، ودل بذلك على [الذي][(٦)] يملك حوائج العالمين، ويسمع دعاء المتضرعين، ويجيب نداء المضطرين، ويعلم السر وأخفى بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ...﴾ [الأعراف:٥٥].

وقد يكون انتظام قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] بمعنى: الدعاء والأمر به تعريضًا بالمجاب [المعجل منه وبالمجاب المؤجل كأمره في الرياح، ثم في السحاب][(٧)] إذا

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «حسبته».
(٣) في النسخة (ق): «أكرم من حاجته ثوابًا لدعائه وإخلاصه، وبين أن يدخر له ذلك إلى الآخرة، والدعاء من العمل المرضي بل هو خالص العبادة ومحض العمل بطاعة الله، فهو لا يضيع والحمد لله رب العالمين».
(٤) في النسخة (ق): «انتظم هذا المعنى».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «أنه هو الذي».
(٧) في النسخة (ق): «المعجل الإجابة المؤجلة كأمره الرياح ثم بالسحاب».

شاء، ثم بالماء، [فيتم][(١)] على ذلك حوائج قوم فيسقون ويستقون، وتندى الأرض [وترطب النوى][(٢)]، ثم بآخره ينبت المرعى، ثم بآخره ما يخلق [عنه ما [يصدر] عن ذلك إليه ومنه أيضًا][(٣)] لأنه منه المؤجل [كما يقول إنما][(٤)] فيخلق عنه المعجل من مخلوقاته [ومؤجلها][(٥)] من نبات وأنعام وأناسي، فلا يسأمنَّ سائل الله جل ذكره، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

[ثم][(٦)] قال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧] أي: بالماء ينزله من السماء فينبت الأجسام في الأرض، ويأتي بأرواحها من الأجواء، ومن حيث [أحييناها][(٧)] بأمرنا أحكمنا هذا وفصلناه لعلكم تذكرون بحاضر ذلك غائبه، وقد تقدم في سورة البقرة الاعتبار بإنزال الله الماء حسب الاستطاعة ما [يكون][(٨)] فيه تطريق للمبتدئ وتذكير للمنتهي، والله ولي التوفيق، يقول الحق [ويهدي][(٩)] السبيل.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ وقرأ أبو جعفر: [«إلا نكَدًا»][(١٠)] بفتح الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف «إلا نكْدًا» بإسكان الكاف وجه [الاعتبار][(١١)] وجهة أخرى؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

---

(١) في النسخة (ق): «فتيمم».
(٢) في النسخة (ق): «ويرطب الهواء».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «كما ينزل الماء».
(٥) في النسخة (ق): «والمؤجل».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «أحللنها».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «وهو يهدي».
(١٠) في النسخة (ق): «لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا».
(١١) في النسخة (ق): «العبرة».

وطريق ذلك: [أن يعرض][(١)] الذكر والتفكر والعلم والقرآن ونحو هذا بدل الماء، [وتعرض] بدل الرياح والسحاب [المذكور في طريق الماء، وأسبابًا يطابق وجودها وجود ما عرض بالنظر إليه، كشرح الصدر بالإيمان، وتنوير القلب وإحيائه بالعلم والروح][(٢)] منه - جل ذكره - وتطهير الجوارح بترك المناهي، ولزوم التوبة من صغائر وكبائر، [ويعرض مكان]][(٣)] القلب والجوارح، ثم [الفهم ولزوم التفهم والمثابرة على التعلم، وغير ذلك من الأوصاف والصفات.

وتفرض حمله العبد مكان البلد، فهذا هو البلد الطيب][(٤)] الذي ينزل عليه الأمر ويحله العلم، فيخرج نباته بإذن ربه؛ أي: إعماله على مراد ربه، وابتغاء مرضاته، وعلى الذم لهذه الصفات هو البلد الذي [حيث][(٥)] لا يخرج له نبات كالسباخ وأجادب البقاع والجبال الجرد وغيرها، فمتى أخرج عملاً أخرجه نكدًا بشرك فيه أو ترائي أو يعجب به أو يمن أو يؤذي، وإن كان علمًا [استحال فيه إلى فتنة وزيغ، وإن كان إعطاء قربة أبطله المن والأذى، وإن كان تقربًا قربه بإدلال][(٦)] ونحو هذا.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟

---

(١) في النسخة (ق): «يفرض».

(٢) في النسخة (ق): «المذكورة».

(٣) في النسخة (ق): «ويفرض مكان الأرض».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «خبث».

(٦) في النسخة (ق): «كان فتنة وزيغًا وإن كان قربة قرنه بالأدلال».

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ
ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ
نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ
وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا
بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ
(٨٢) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٨٤) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ
ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ
ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ
صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ
(٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٧) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفْتَرَيْنَا
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ
رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْفَٰتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٩٠)
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٩٣) وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن
نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ
ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
(٩٥) ﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٩٥].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ﴾[١] [الأعراف:٥٩] إلى آخر القصص كله أرجع [بذلك][٢] الخطاب إلى ما تقدم في صدر السورة قوله جل قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:٣] إلى قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَو هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف:٤] إلى آخر المعنى، وهذه من آياته في الأرض نبّه عليها بقوله: [﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ (يوسف:١٠٩)][٣].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦] ومن لم يسر [في الأرض][٤] فلتكن له أذن سامعة.

[كما قال عز من قائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق:٣٦].

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُو شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

وقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠] فهذه منها دل على ذلك ما تلاه علينا إلى خاتمة السورة.

قوله - جل قوله - بعض][٥] نبأ نوح ﷺ: ﴿أَو عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٣] من

---

(١) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: والله لقد أرسلنا ﴿نُوحًا إلى قَوْمِهِ﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة، وكان نجارًا، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو اسم إدريس ﷺ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ غيره علي. فالرفع على المحل، كأنه قيل: ما لكم إله غيره فلا تعبدوا معه غيره، والجر على اللفظ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان. تفسير النسفي (١/٣٧٤).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فإن الله جل ذكره قد جعل في ذلك الذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد القلب حاضره يعقل ما شاهده ويفهم ما سمعه فيعبر من شاهد ذلك إلى غائبه قوله جل ذكره يقص».

سنة الله - جل ذكره - [إرساله][(١)] الرسل إلى عباده أن جعل في ذلك من حكمته أحد ثلاثة أوجه [الله أعلم بما سوى ذلك][(٢)]؛ ليتقوا ربهم ويصدقوا رسله [فيثابون][(٣)] ثواب المؤمنين.

[قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء:٦٤] وفي حق هؤلاء لا تكون الرسل مبشرين وهادين ورحمة وغياثًا.

الوجه الثاني][(٤)]: أن يكذب منهم من سبقت عليه [الكلمة بذلك][(٥)] فيعاقبهم بذنوبهم، وفي حق هؤلاء [يكونون منذرين، وعذابًا وعقابًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨] إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام:٤٩]][(٦)].

الثالث: أن يكذبوا ويردوا ما [جاءتهم به][(٧)] رسلهم فيستوجبون الإهلاك، فيتقدم إليهم بالأعذار، ويأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم [يذكرون فيتوبون، فإذا جاءهم البأس تضرعوا واستعتبوا ربهم، وتابوا إلى ربهم واستغاثوه][(٨)] فيكشف عنهم.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا...﴾ [الأنعام:٤٣].

وأما قوم كذبوا الرسل واستمروا [في][(٩)] عتوهم، ولزموا عنادهم حتى [يروا العذاب الأليم، ويحيق بهم الإهلاك من ربهم][(١٠)] فبعيد عنهم الإقالة.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾

---

(١) في النسخة (ق): «في إرسال».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «وليثيبهم على ذلك».
(٤) في النسخة (ق): «والوجه الآخر».
(٥) في النسخة (ق): «كلمة العذاب».
(٦) في النسخة (ق): «يكون الرسل منذرين وفي حق المهتدين مبشرين».
(٧) في النسخة (ق): «جاءت به».
(٨) في النسخة (ق): «يتذكرون ويتوبون ويتضرعون ويستغيثون ربهم ويستغفرونه».
(٩) في النسخة (ق): «على».
(١٠) في النسخة (ق): «رأوا العذاب».

[غافر:٨٤].

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥].

[ومناجاة الله ﷻ على ما حكاه أهل التفسير والقرآن والوجود قد اتفق على ما قالوه والله أعلم، ولعل الذي كان حلَّ بها ولا كان البأس الأول الذي هو اشتراط الهلاك وإعلام العذاب، وهو الحق كما قال في غيرهم: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢] وقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠].

قال الله ﷻ](١): ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ أي: [حين أخذناهم بالبأساء والضراء](٢) ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ [يونس:٩٨] [وهذا استثناء من محذوف مقدر](٣) تقديره: فلم يكن ذلك، أو ما يكون [معنى](٤) المرسل إليهم تبليغ

---

(١) في النسخة (ق): «وما جاء عن بعض المفسرين أنه ما أمال أمة من الأمم سوي قوم يونس فغير صحيح القرآن والوجود قد أصفق على خلاف ما قالوه وإنما جنى هذا المعتقد عليهم في تأويل قول الله ﷻ».

(٢) في النسخة (ق): «إذا أخذناهم بالبأساء والضراء يقول».

(٣) في النسخة (ق): «إذ ذاك وهي الحالة الوسطى التي عبر عنها قوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠] يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأعراف:٩٤ - ٩٥] وقال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي من من إرسال الرسل إليهم ثم أخذنا إياهم بالبأساء والضراء ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤] هذه سنة الله في عباده أقامها فيهم مقام ظهور الملائكة وأعلام الآخرة للمحتضر لا تنفعه إذ ذاك توبة ولا ترجى له إقالة فقوم يونس آمنوا في الحالة الوسطى فأقالهم الله وتاب عليهم إنه هو التواب الرحيم كيف وهو يقول وقوله الحق يبعد عنهم الرجوع والتوبة ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي بالحالة الأولى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠١] فما كان من هؤلاء من آمن إلا قوم يونس آمنوا حين أخذ الله إياهم بالبأساء والضراء ففي قوله ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:٩٨] محذوف».

(٤) في النسخة (ق): «بمعنى هذا إلا قوم﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي =

[الرسل][١] ومقامه بين أظهرهم [يروضهم][٢] ويبلغهم أمر ربهم إليهم إلى [ظهور][٣] العذاب معاينة مقام عمر العبد إلى معاينة أسباب الآخرة لحضور الموت، ومقام طول مدة [أيام][٤] الدنيا لجميع العباد إلى معاينة طلوع الشمس من مغربها، وما كان الله جل ذكره [ليأتيهم][٥] بالبأساء والضراء أولاً ليقدم إليهم السيئة قبل الحسنة، وما ذاك من [سننه في قضائه ولا في معاملة][٦] عباده.

ألا تسمع إلى قول صالح ﷺ [لقومه][٧]: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ [النمل:٤٦] [والحسنة هنا: الإيقان][٨] والتصديق، والسيئة: الخلاف [المعهود][٩] في أمم الأنبياء [بعدهم][١٠]، فإذا كان ذلك اعتادهم الله [ربهم][١١]

الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] فأقام ﷺ للأمة».

(١) في النسخة (ق): «الرسول».

(٢) في النسخة (ق): «يرومهم».

(٣) في النسخة (ق): «بلوغ».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «ليأتيهم به أي».

(٦) في النسخة (ق): «سنته في قضائه ومعاملته».

(٧) في النسخة (ق): «يخاطب قومه لما قالوا له: يا صالح ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] قال لهم».

(٨) في النسخة (ق): «يقول ﷺ: ليست هذه سنة الله في حال إنذاره عباده إن هم عتوا أخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، فإن أبوا إلا مضيًّا في كفرهم أتاهم بما أنذرهم به، وهو وصف المكر بهم كما قال ﷻ: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام:٤٣] إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤] ولعلم صالح رسول الله ﷺ لهذا قال لهم: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [النمل:٤٦] لهم [....] وقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] ثم قال لهم: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦] وإنما كانوا يتطيرون بالرسل في الحالة الثانية حين الأخذ بالبأساء والضراء ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والحسنة هو الإيمان».

(٩) في النسخة (ق): «والعناد المعهود».

(١٠) سقط من النسخة (ق).

(١١) سقط من النسخة (ق).

بالسيئات المصائب والخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات [يكفر عنهم بذلك، ويخفف من أوزارهم، ولتقديمهم الحسنة قبل متعوا على ذلك إلى حين.

وأما من قدم الكفر والتكذيب وابتلي بالمصائب والبأساء فقليل رجوعه بعيد أوبته، فإذا هو لم يرجع جاءه العذاب][(١)] فسد مسدود وحجر محجور دون الإقالة، ثم على ذلك لا بد ولا محالة وجود التلاوم [والإقرار منهم حيث][(٢)] لا ينفعهم كذلك المحتضر من [الكبار الندم والرجوع ولا قبول][(٣)].

قال الله ﷻ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥].

وقال جل قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [استغاثة منه بربه ﷻ ﴿ارْجِعُونِ﴾ يخاطب ملائكة الموت][(٤)] ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيقول ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠] [أي: لا بد من قولها ولا تنفعه][(٥)].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ

---

(١) في النسخة (ق): «يتأتى بهم إن كانوا كافرين أو يخفف عنهم أوزارًا ويكفر عنهم سيئات إن كانوا موحدين فمتى جاءهم العذاب بعد هذا».

(٢) في النسخة (ق): «وحضور الندامة إياهم والإقرار منهم بالظلم لأنفسهم حين».

(٣) في النسخة (ق): «الكفار لا بد من الندم والرجوع ولا بد من سد قبول التوبة دونه».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يعذبون فيه يعني البرزخ يكون عذابهم فيه أكبر من عذابه إياهم في الدنيا ودون عذاب الآخرة الذي هم صائرون إليه بعد البعث نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة».

ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٦ - ١٠٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم...﴾ [الأعراف:٩٦] أعلم ﷻ أن كل ثمرة تنقص أو مصيبة تنزل بقوم أو مكروه يحل بهم، فإن ذلك لتكذيبهم بآيات الله، أو غفلتهم عنها، أو لذنوب هم مقيمون [فيها][1]، وأن الفرج من ذلك بالتقوى [والإيمان والعمل بطاعته][2].

فصل

[هذا قول الله - جل ذكره - وقوله الحق][3] وقد جاء أيضًا: «**أعظم الناس بلاءً [الأنبياء ثم الأمثل والأمثل]**[4]»[5].

وقال جل قوله: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف:٣٣] المعنى إلى آخره، حيث وقع [كقول][6] رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ، وقد رأى خزانته وما وقعت [عينه][7] إلا على أهب يسيرة وقرظ فبكى فسأله رسول الله ﷺ عن بكائه، فقال: «نظرت إلى خزانتك وذكرت فارس والروم وما أوسع الله لهم» [فقال][8]: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»[9] ونحو هذا كثير.

---

(١) في النسخة (ق): «عليها».
(٢) في النسخة (ق): «وتجديد التوبة».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «الأمثل فالأمثل».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) في النسخة (ق): «ولقول».
(٧) في النسخة (ق): «عينه فيها».
(٨) في النسخة (ق): «فقال لهم يا عمر».
(٩) أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩)، وابن ماجة (٤١٥٣)، وأحمد (١٢٤٤٠)، وأبو يعلى (٢٧٨٣)، وأبو عوانة (٤٥٧٣).

واعلم - وفقنا الله وإياك - أن هذا حق وهذا حق، لكنه متى جازى على الذنوب [والكفر ورد الرسل خير][(١)] ما بأولئك على القدر الذي شاءه، [وإذا كان الحكم علم وضع الدنيا على ما وضعها عليه، فإن الدنيا جنة الكافر ليتم مراده فيها، كما قال جل قوله: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦ - ١٧] متى كان الحكم..][(٢)] من جهة النظر من عبده والأخذ له بالأولى فالتخفيف عن المؤمنين من أثقال الدنيا [وأوزارها لذنوب توجب ترك التوقعة عليهم][(٣)] منها، والله عليم حكيم.

[صدق رسول الله ﷺ هي جنة الكافر؛ إذ كونه في هذه الدنيا محجوب عن النار وما فيها من ضروب العذاب وأنواع الأنكال، وهي أيضًا سجن المؤمن؛ لأنه فيها محبوس عن الجنة والرجوع إلى ربه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف:٩٢] المعنى هو موضع الإقامة، يقول: كأنهم لم يكن لهم فيها بقاء، بل ذهب بهم وما كانوا فيه من بقاء وسكن وأموال وأولاد وغير ذلك، ثم قال وقوله الحق: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٢].

يقول ﷻ: ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الزمر:١٥] الذين كانوا في الدنيا، وتبين فصل بينهم فيما هنالك وخسروا أيضًا ملكهم الذي كان قد أوجد الله لهم في الجنة ورثه المؤمنون الذين استجابوا لله ورسوله.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠ - ١١] كما ورث أيضًا الكفار والمكذبون لله والرسل مجال المؤمنين في النار نعوذ بالله من ذلك][(٤)].

---

(١) في النسخة (ق): «وتكذيب الرسل غير».

(٢) في النسخة (ق): «وما وضع الله الدنيا عليه فهي جنة الكافر وسجن المؤمن، وإذا كان الحكم».

(٣) في النسخة (ق): «وأزوار الذنوب يوجب ترك التوسعة عليه».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[١] [الأعراف:٩٧] إلى قوله جل قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلَّا القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] أنبأ جل ذكره أن بأسه لا يأمنه [المؤمن الغافل] [٢] عن ربه نهارًا دون ليل لا ليلاً دون نهار ولا ساعة دون ساعة، إنما يأمنه الغافلون [المكذبون][٣]، أولئك هم الخاسرون.

أعقب ذلك قوله: ﴿أو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[٤] [الأعراف:١٠٠] نبّه أهل الغفلة [والعاقبة إلى التذكر][٥] والاتعاظ بسواهم، فما من أحد إلا وهو في مورث عمن كان قبله فيه قد أخذ أولئك بذنوبهم [خلف هؤلاء في مواضعهم، وخلف هؤلاء في مواضعهم،

---

(١) الهمزة دخلت على «أمن» للاستفهام على جهة التوقيف والتوبيخ والإنكار، والوعيد للكافرين المعاصرين للرسول ﷺ أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، والفاء لعطف هذه الجملة على ما قبلها، وقال الزمخشري: فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولِـمَ عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ وقع اعتراضًا بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطفت بالفاء؛ لأنّ المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمن ﴿أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى. انتهى. تفسير البحر المحيط (٥/٤٠٤).

(٢) في النسخة (ق): «مؤمن عاقل».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أي: يخلفون من خلا قبلهم من الأمم، والمراد بهم كما روي عن السدي: المشركون، وفُسروا بأهل مكة ومن حولها، وعليه لا يبعد أن يكون في الآية إقامة الظاهر مقام الضمير إذا كان المراد بأهل القرى سابقًا أهل مكة وما حولها، وتعدية فعل الهداية باللام؛ لأنها كما روي عن ابن عباس ومجاهد بمعنى: التبيين، وهو على ما قيل: إما بطريق المجاز أو التضمين، أو لتنزيله منزلة اللازم، كأنه قيل: أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم ﴿أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم، وإذا ضمن «أصبنا» معنى «أهلكنا» لا يحتاج إلى تقدير مضاف، و«أن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقدر، وخبره الجملة الشرطية، والمصدر المؤول فاعل «يَهْدِ» ومفعوله على احتمال التضمين محذوف؛ أي: أو لم يتبين لهم مآل أمرهم أو نحو ذلك. وجوَّز أن يكون الفاعل ضمير الله تعالى، وأن يكون ضميرًا عائدًا على ما يفهم مما قبل؛ أي: أو لم يهدِ لهم ما جرى على الأمم السابقة. تفسير الألوسي (٦/٢٨١).

(٥) في النسخة (ق): «وأهل العافية إلى التذكير».

أفأمن هؤلاء أيضًا أن يأخذهم الله بذنوبهم][(١)].

وهذا من المكر الذي خُوف به قبل [هذا، إنما يؤيد هؤلاء، واستخلفهم][(٢)] في تركة أولئك [اختيارًا لهم][(٣)] لينظر كيف يعملون، فمن خالف [أمره][(٤)] واستخف صغار ذنوبه جرَّه ذلك إلى كبارها، وكبارها إلى الغفلة والإعراض، وعقوبة الإعراض [الطبع والوقر والعمى، وغير ذلك][(٥)] يكون التكذيب والكفر؛ لذلك [قال عز من قائل][(٦)]: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:١٠١] [لما أعرضوا طبع الله على قلوبهم][(٧)].

ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف:١٠٢] [يريد العهد الأول عهد الإقرار.

وقوله جل قوله][(٨)]: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: الذي [أقررتم له بالربوبية][(٩)] ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم

---

(١) في النسخة (ق): «ثم استخلف هؤلاء فيما تخلف أولئك أفأمن الوارثون أيضًا أن يأخذهم الله بذنوبهم كما فعل بأولئك أو يطبع على قلوبهم لإعراضهم عن هذا الذكر فسبيلهم السمع النافع».

(٢) في النسخة (ق): «إنما أورث هؤلاء واستخلفوا».

(٣) في النسخة (ق): «اختبارًا منه لهم وابتلاء».

(٤) في النسخة (ق): «أمر ربه».

(٥) في النسخة (ق): «الطبع على القلوب وإلقاء الوقر في الأسماع والعمى في البصائر ثم في الأبصار فلا يرى شيئًا يتذكر به ثم عن ذلك».

(٦) في النسخة (ق): «اتبع هذا المعنى بقوله».

(٧) في النسخة (ق): «حذف هنا ما معناه أرسلنا إليهم رسلنا ثم قال: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:١٠١] كيف يؤمنوا وقد طبع الله على قلوبهم وأصمهم وأعمى أبصارهم وبصائرهم وعيد شديد لمن تأمله بقلب شهيد».

(٨) في النسخة (ق): «يعني وهو أعلم بما ينزل العهد الذي عاهدهم عليه في البدء الأول ولذلك قال في غير هذه».

(٩) في النسخة (ق): «عاهدتموه وأقررتم له بالربوبية ولأنبيائه بالتصديق لذلك أتبع المعنى بقوله».

مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨] [فذلك يومئذٍ أي: الذي أشهدتم آباءنا فشهدتم في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] المعنى] [١].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ
أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾
قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى
ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ
إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ
ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا
هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟
صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ
أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ

---

(١) في النسخة (ق): «أي مصدقين بما عاهدتم الله عليه».

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣ - ١٢٩].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧] وفي قراءة أبي وعبد الله: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك» وقرأ ابن عباس: «وآلهتك» بكسر الألف [ونصب][١] اللام.

قال ابن عباس: [إنما][٢] يُعبد ولا يَعبد.

وعلى قراءة الجماعة [من فتح الألف وكسر اللام][٣] قيل: إن فرعون كان يعبد ثورًا سرًّا.

عبرة: قال رسول الله ﷺ: «**أخرجوا اليهود** - [أو قال: المشركين][٤] - **من جزيرة العرب**»[٥].

وقال: «**لا يبقين في جزيرة العرب دينان**»[٦].

وقال: «**أنا بريء من كل مسلم مع مشرك [تتراءى][٧] ناراهما**»[٨].

وإن كان قد قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوى**»[٩] فقد قال: «لا

(١) في النسخة (ق): «وفتح».

(٢) في النسخة (ق): «إنما كان».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطيالسي (٢٢٩)، والدارمي (٢٤٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٢٩٩١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٤)، والطبراني (٥٦٠).

(٦) أخرجه بنحوه مالك (١٥٨٤)، والبيهقي (١٨٥٣١).

(٧) في النسخة (ق): «لا تتراءى».

(٨) أخرجه النسائي (٤٧٩٤)، والشافعي (٩٠٧).

(٩) أخرجه البخاري (٥٤٢٤)، ومسلم (٢٢٢٤)، والطيالسي (١٩٦١)، وأحمد (١٢٢٠٠)، وأبو داود (٣٩١٦)، والترمذي (١٦١٥) وابن ماجة (٣٥٣٧)، وأبو يعلى (٢٨٧٠).

[يوردن][1] **ممرض على مصح**»[2].

وقال: «**فر من المجذوم [فرارك][3] من الأسد**»[4].

ولئن كان فرعون عابد ثور [سرًّا][5] فقد عبد [بنو][6] إسرائيل العجل جهرًا، نعوذ بالله العظيم من الضلالة بعد الهدى.

[قال رسول الله ﷺ][7]: «**وعدتم من حيث بدأتم**»[8] ثلاثًا نعوذ بالله من درك ذلك.

وبنو إسرائيل وإن كانوا بمصر مسلمين فقد أعداهم الجوار الخبيث يومًا ما، ألا تراهم فيما يستقبلون يعبدون رجلاً [وهو الدجال][9] كما عبد أهل مصر فرعون؟ وللمجاورة أحكام منها كماء البحران حيث يلتقيان موجود بينهما البرزخ ما هو ليس بعذب ولا بأجاج، وكذلك غيره من الموجودات.

[وفقه مفهوم هذا ألا يترك دينان في بلد من بلاد المسلمين مع القدرة على ذلك فقد تبرأ رسول الله ﷺ ممن جاورهم ونهى أن يكونوا من المسلمين بحيث تتراءى نارهما][10].

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾[11]

---

(١) في النسخة (ق): «يورد».

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٣٧)، ومسلم (٢٢٢١)، وأحمد (٩٢٥٢)، وأبو داود (٣٩١١)، وابن ماجة (٣٥٤١)، وابن حبان (٦١١٥).

(٣) في النسخة (ق): «كما تفر».

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٨٠)، وأحمد (٩٧٢٠).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «قوم من بني».

(٧) في النسخة (ق): «قال رسول الله ﷺ لهذه الأمة».

(٨) أخرجه مسلم (٢٨٩٦)، وأحمد (٧٥٥٥)، وأبو داود (٣٠٣٥)، والبيهقي (١٨١٦٦).

(٩) سقط من النسخة (ق).

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

(١١) قال الأخفش: الطوفان: جمع «طوفانة» عند البصريين، وهو عند الكوفيين مصدر كالرجحان، وحكى أبو زيد في مصدر طاف: طوفًا وطوافًا، ولم يحك طوفانًا، وعلى تقدير كونه مصدرًا فلا يراد به هنا المصدر. قال ابن عباس: هو الماء المغرق. وقال قتادة والضحاك وابن جبير

=

[الأعراف:١٣٣] [هذه وذكر في سورة النمل العصا واليد البيضاء، وقال له في تسع آيات: «إلى فرعون وقومه» فهذه ثمان آيات، فقيل: إن التاسعة هي الطمس قوله: ﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس:٨٨] وهذا قول مرغوب عنه؛ لبعده من المعنى؛ لأن الطمس إنما كان بعد إهلاكهم هذا إن كان الطمس [كيان عمَّ] هذا القائل أن جعلها حجارة وأتلفها في الأرض، والأولى أن الطمس هو أن يمنعهم الله إنفاقها في سبيل الله، ولا يوفقهم لإيمان ولا توبة؛ لذلك قالا - عليهما السلام - في دعائهما: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨] وأرى والله أعلم بما أراد أنها الرجز.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٦].

=

وأبو مالك ومقاتل: هو المطر أرسل عليهم دائمًا الليل والنهار ثمانية أيام. واختاره الفراء وابن قتيبة، وقيل: ذلك مع ظلمة شديدة لا يرون شمسًا ولا قمرًا، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: أمطروا حتى كادوا يهلكون، وبيوت القبط وبني إسرائيل مشتبكة فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، فمن جلس غرق، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرّف، ودام عليهم سبعة أيام. وقيل: طم فيض النيل عليهم حتى ملأ الأرض سهلاً وجبلاً. تفسير البحر المحيط (٥/٤٣٠).

وقد ذكر بقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] إلى قوله جل قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف:١٣٥] وكانوا قبل الرجز كلما أتاهم بآية ضحكوا منها][(١)].

فصل

ذكر في الكتاب الذي يُذكر أنه التوراة أن فرعون لما أبى عليهما [واستكبر][(٢)] هو وجنوده، أمر هارون عليه السلام برفع العصا إلى السماء [فأنزل الله عليهم بردًا لم يدع لهم][(٣)] زرعًا إلا أفسده، وموضع المؤمنين؛ يعني: بني إسرائيل في الصحو والعافية، ثم دعواه إلى أن يرسل معهما بني إسرائيل ليعبدوا ربهم في المفاز فأبى عليهما، فأنذرهم بموت يكون في أبياتهم، فلما أصبحوا سمع في كل منزل بكاء وعويل - أو قال: صراخ وعويل - ثم دَعَوَاه أخرى ليرسل معهما بني إسرائيل ليعبدوا ربهم في المفاز، فأبى عليهما في ذلك، فأمر هارون عليه السلام برفع العصا إلى السماء، فأصبحوا قد نقطوا ومسهم من ذلك عذاب، فاستغاثوا به ورغبوا إليه أن يدعو ربه [أن يكشف عنهم العذاب][(٤)] ولما كشف [الله][(٥)] عنهم العذاب نكثوا العهد وقد عبر عن ذلك القرآن العظيم.

[قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ...﴾ [الأعراف: ١٣٤] إلى آخرها.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ثم قال جل من قائل: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف: ٤٧-٤٩] المعنى إلى آخره][(٦)].

---

(١) في النسخة (ق): «هذه أربعة وذكر في سورة القصص العصا واليد البيضاء فهذه ثمان آيات، وقال في تسع آيات وأرى والله أعلم أن تمام التسع آيات هي ما أوقع عليهم من الرجز ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] وكانوا قبل وقوع الرجز بهم كلما جاءهم بآية ضحكوا منها».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فأرسل الله عليهم بردًا لم يترك».

(٤) في النسخة (ق): «في كشف ذلك عنهم».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

وعلى ما [جاء](١) في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة فالرجز ثلاث آيات والله أعلم، آمنا [بكتاب](٢) ربنا، وصدقنا كتبه ورسله، ولعل العصا واليد البيضاء لما كانتا آيتين [لهما على رسلهما](٣) إلى فرعون وملائه وقال لهما في تسع آيات: [«إلى فرعون»](٤) فيمكن أن يكون في جملة التسع، ويمكن أن يكون [في معنى](٥) «إلى»: فنحن على صدق ربنا وكتبه ورسله من الشاهدين.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧ - ١٤٥].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «بآيات».

(٣) في النسخة (ق): «على إرسالهما».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «حرف في بمعنى».

قوله ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ١٣٧] المستضعفون هم بنو إسرائيل، والأرض المبارك فيها أرض الشام، وهي المقدسة التي كتب الله لهم عمروها ما شاء الله حتى أخرجهم [الله][١] منها حين شاء ذلك، والكلمة الحسنى التي أتمها عليهم هي قوله جل قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٥] الآيتين.

كان فرعون [وقومه][٢] يجدون في العلم أن [بني إسرائيل يفسدون ملكهم][٣]، وكانوا يحذرون ذلك منهم، فأتم الله كلمته الحسنى عليهم، ثم دمر مصانع فرعون ومنازله، كما ذكر.

فصل

أشبه ذلك من صنع الله جل ذكره لهم صنعه بهذه الأمة لما فتح الله على رسوله ﷺ [والمؤمنين][٤] مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فحج رسول الله ﷺ بالناس [حجة الوداع؛ إذ ألحق الله الحج بدعائم الإسلام][٥] أنزل الله عليه يوم عرفة [في ليلة الجمعة][٦] ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة:٣] فبكى عمر وقال: [ما تم شيء][٧] إلا بدأ نقصه، وتأخر نقص هذه الأمة إلى نحو الأربعة وعشرين عامًا.

وبينا رسول الله ﷺ يسير بمعسكر المسلمين في بعض غزواته إذ مروا بقوم قد جللوا نخلة من النخلات بأنماط، وهم حولها عاكفون، فصاحوا به من كل جانب: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**قلتموها، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ومن كان معه».

(٣) في النسخة (ق): «من بني إسرائيل من يفسد عايهم ملكهم».

(٤) في النسخة (ق): «وعلى المؤمنين».

(٥) في النسخة (ق): «حجة الإسلام وهي حجة الوداع وهي التي ألحق بها فريضة الحج وبها تم دعائم الإسلام».

(٦) في النسخة (ق): «من تلك الحجة يوم الجمعة».

(٧) في النسخة (ق): «ما من شيء كمل».

حتى لو دخلوا حجر ضب [خرب][(١)] **لدخلتموه»**[(٢)] ثم كان بعده ﷺ ما كان من الفتنة والقتال كما كان في أولئك.

[يقول الله جل من قائل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]][(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(٤)].

وقال ﷺ: «**أنا فرطكم على الحوض فلَيُذَادَنَّ رجال عن حوضي كما يُذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم**» ثلاثًا إلى قوله: «**إنك لا تدري ما أحدثوا [بعدي]**[(٥)]، **إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم**»[(٦)].

[وفي أخرى: «**فيؤخذ بأقوام ذات الشمال فأقول: أصيحابي أصيحابي، فيقول الملك: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك...**»[(٧)] وهؤلاء أصحاب الشمال والله أعلم][(٨)] من أهل الردة، [فهم][(٩)] ماتوا على ذلك أو قتلوا.

أتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يعني: العرب ومن كان يدين بدينهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] إلى قوله: ﴿بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف:١٤١] إن هذا من أول خلافهم.

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «يقول الله جل من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الرسل ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣] كما قال لأولئك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:٨٤] المعنى إلى قوله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة:٨٥]».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «بعدك».

(٦) أخرجه بنحوه ابن ماجة (٤٤٤٨).

(٧) أخرجه البخاري (٤٦٢٥).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «ثم».

ثم جعل يسرد - جل ذكره - خلافهم وعتوهم وفعلهم في نبوتهم إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[١] [الأعراف:١٧١] وما ذكر هذا ﷻ منهم وأمثاله لتعداد معائبهم، لكن لنحذر على أنفسنا مثل ذلك، [وما][٢] نهى عن منهي عنه ولا قص علينا [لغيره][٣] قصصًا إلا أصابنا من ذلك ما شاءه [كما كان ذلك المحذور أيضًا في جملتهم][٤]، فمنهم ومنا المعافى والمبتلى، ولهذه الأمة من فضل الله - جل وعز - أنهم عزروا [نبيهم][٥] ووقروه ولم يواجهوه لمخالفة، إنما كان ما كان منهم بعد وفاته ﷺ، ثم هذا أمر له ما بعده، نسأل الله ﷻ الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، ونضرع إليه في العفو والعافية.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف:١٤٣] [لما كلم الله - جل ذكره - نبيه موسى ؑ][٦] ألقى في قلبه محبة رؤية من [كان][٧] هذا كلامه [فسأله إياها، وكان سؤاله لرؤيته استعجالاً منه لثواب المواعدة، ولم يكن عنده علم بتخصيص الرؤية بالتأخر إلى لقاء الآخرة

(١) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ قلعناه ورفعناه، كقوله : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء:١٥٤] ومنه: نتق السقاء إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه. والظلة: كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب. وقرئ بالطاء من «أطل عليه» إذا أشرف ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة؛ لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ. وقيل لهم: «إن قبلتموها بما فيها وإلّا ليقعن عليكم» فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقًا من سقوطه، فلذلك لا ترى يهوديًا يسجد إلّا على حاجبه الأيسر، ويقولون : هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبقَ جبل ولا شجر ولا حجر إلّا اهتز، فلذلك لا ترى يهوديًا تقرأ عليه التوراة إلّا اهتز وأنغض لها رأسه. الكشاف (٣٠٩/٢).

(٢) في النسخة (ق): «وهو ﷻ ما».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «رسولهم».

(٦) في النسخة (ق): «أي: على حاله هذه في داره هذه ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] لما كلمه الله ﷻ».

(٧) سقط من النسخة (ق).

ومواعدة فيها، قال له: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]] [١].

فبعد أن منعه في ظاهر الكلام استدرك - جل وعز - [الرؤية بفصله][٢] ما قد سبق في سابق علمه، [وعلق][٣] جواز الرؤية [لجواز استقرار الجبل واستقراره][٤].

[فعلق كون ما هو جائز كونه بما هو مشاهد وجوده، ولما لم يكن قضى بالرؤية في هذه الدار لم يقر الجبل قراره، فكان من مفهوم هذا أن جواز الرؤية في الآخرة حاصل إن شاء الله حيث استقرار كل شيء على ما يكون عليه.

فصل

لما تدكدك الجبل لتجليه العلي - عز جلاله - وخر موسى صعقاً جاز لقائل أن يقول: إنه رآه حين صعقه ذلك، وكان قوله: ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] وأن تعلق الوعد بشرط الاستقرار، فإن صدق الوعد له من الله غالب، ورؤيته - جل ذكره - حال الموت والصعق والنوم معلوم جوازها.

عبرة: لما كان سؤال الرؤية في أولهم؛ أعني: بني إسرائيل التي عبر عنها قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] كان من سوس ذلك في بعض متأخريهم أن يتعلقوا في إيمانهم برؤية مرئي فاتخذوا العجل إلهًا من دون الله وقالوا لرسولهم لما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

---

(١) في النسخة (ق): «ولم يكن ﷺ علم أن رؤيته خاص للدار الآخرة، وهذا من أدل الدلائل على جواز رؤيته ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فإنه لم يلق ذلك في قلب رسوله، وعزم عليه في السؤال إلا لجائز وجوده واجب كونه؛ لكنه في دار غير هذه وفي حياة غير هذه الحياة، وكان ﷺ في مقعد الصدق ومحل الحق ويجب علينا الإيمان بخواطره، وإنها صادقة كما يجب الإيمان بكلامه المبلغ إلينا عنه، وما حكى الله عز جلاله ذلك عنه، إلا في معرض المدح له والرضا به».

(٢) في النسخة (ق): «بفضله».

(٣) في النسخة (ق): «ألا ترى أنه علق».

(٤) في النسخة (ق): «باستقرار الجبل مكانه واستقراره مكانه».

ومآل أمرهم أن يتخذوا الدجال إلهًا من دون الله، إنما الإيمان الحق الإيمان على الغيب، وإسلام النفس على ذلك بالجملة تصديقًا، وعلى ذلك وقعت المبالغة ولن يضر الإيمان على الغيب ما يراه المؤمن أو يرى له من رؤيا؛ لأن ذلك من عاجل بشرى المؤمن يتاح ذلك له من غير تطاول إليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] أي: من اللوح المحفوظ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تفصيلاً للوح المحفوظ، يقول تبارك وتعالى: ﴿فَخُذْهَا﴾ يعني: الألواح والتوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وجزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بأيسرها، وعلى قدر ما يكشف للعبد من علم ما هو صائر إليه الغائب الآن على المشاهدة تكلف لذلك من المفيد ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦ - ١٤٧].

قيل في التفسير: إن المعني بدار الفاسقين هي: مصر، وأرى - والله أعلم - أن دار الفاسقين هو مصيرهم وسبيلهم وجماع شأنهم، ولذلك وصل به قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ سوف أحرمهم الإيمان

(١) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ قيل: إنّ موسى ﷺ صعق يوم الجمعة يوم عرفة وأفاق فيه، وأعطي التوراة يوم النحر، وظاهر قوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ نسبة الكتابة إليه. فقيل: كتب بيده وأهل السماء يسمعون صرير القلم في اللوح. وقيل: أظهرها وخلقها في الألواح. وقيل: أمر القلم أن يخطَّ لموسى في الألواح. وقيل: كتبها جبريل ﷺ بالقلم الذي كتب به الذكر، واستمد من نهر النّور، ففي هذين القولين أسند ذلك إلى نفسه تشريف إذ ذاك صادر عن أمره. وقيل: معنى «كتبنا»: فرضنا، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ والضمير في «له» عائد على موسى، و«الألواح» جمع قلة، و«أل» فيها لتعريف الماهيّة، فإن كان هو الذي قطعها وشققها فتكون «أل» فيها للعهد. تفسير البحر المحيط (٥/٤٤٦).

بها، وإن آمنوا أحرمهم فَهم كتابي وآياتي، ثم آخذ على وصفهم على ذلك بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦] أي: الذين آمنوا وكانوا غافلين، يقول: سأحرم هؤلاء وهؤلاء الفهم عني، وأصرفهم عن النظر في آياتي وتفهم كتابي.

تقدير الكلام: والذين آمنوا بآياتي وكانوا عنها غافلين حال إيمانهم، فأولئك أيضًا يصرفهم عن الفهم عنه في كتابه وحكمته في الموجودين إلا من شاء الله تنبيهه؛ إذ المتغافل عن النظر في كلام ربه وآياته قد أخذ من معنى الفسق بنصيب، فإنه ما أنزل الله كتابه ولا خلق السماوات والأرض وما بين ذلك إلا النظر في ذلك، والعبرة به تم قصد بالإخبار عن المكذبين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧] من تغافل أغفلنا قلبه عن النظر لنفسه بازدياد الإيمان والتطلع إلى معاهد الموقنين، ومن كذب بآياتي وكتابي أحبطنا أعماله وصيَّرناه إلى سوء المصير.

وربما كان المعني بقوله: ﴿دَارَ الفَاسِقِينَ﴾ زائدًا إلى ما تقدم ذكره: أرض الشام؛ إذ كان فيها يومئذٍ الجبارون، وعلى حال فالعبد ما لم يكذب بآيات ربه ولقائه كان في سعة من أمره إن كان في غمار المسلمين كان من تبعيتهم وساقهم، وإن كان مع ذلك مخوفًا عليه، وإن كان من عليتهم وشغل خواطره بتفهم كتاب ربه والنظر في آياته وتعرف الحق المخلوق به السماوات والأرض، وعبر عن مشهود ذلك إلى غيبه كان في الدرجات العلا إن شاء الله.

اعلم - علمنا الله وإياك من علمه وأيقظنا من سنة غفلتنا - أن الغفلة أصل كل خطيئة ومنبعث كل مكروه؛ لأنها تكسب الوقر في أُذن القلب، فتبطل عمل سمع العقل عن الله، والسمع الذي هو سمع الآذان سواء المتصف به والبهائم ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(١)

---

(١) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل =

[الفرقان:٤٤] فهو على ذلك لا يسمع شهادات البينات، ويعدم على ذلك التهدي إليها، فلا يراها بقلبه ولا يسمعها بأذنه ولا يشعر لها بوهمه، بل يدركها بحواسه الظاهرة على غير ما فعلت له وإن كان مصدقًا بها في أصل إيمانه.

ولعله أن يحدق بعين بصيرته لأجل وجود إيمانه بما جعلت له فلا يبصر، ويصيح بسمع فؤاده فلا يسمع نداءها، ويدرك شهاداتها فلا يسمع، فالغفلة حجاب عن معرفة الحقائق، وعلة للغيبة عن مشاهدتها في نوادي حضورها ونواديها، فاعلم قد عمت عموم الهوى، وأنوارها قد أشرقت إشراق الضياء، كيف لا وكل موجود أو مذكور أو غائب أو حاضر من حقائق ذلك ونواديها ولكن لا يشعرون أيان يبعثون][1].

والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ بل للإضراب وليس إبطالاً بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقا فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهي بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

(١) هكذا في النسخة (ق)، والذي في النسخة (غ) هو: «هو المعهود، وإنما يكون منه غير ذلك بخرق العادة، فكان كذلك جواز الرؤية حاصلاً، ولما لم يستقر الجبل على حاله لم تكن الرؤية على حال موسى أيضًا من استصحاب حال الصحة منه، ولما خرَّ صعقًا كما تدكدك الجبل جاز لقائل أن يقول إنه رآه في حال ضعفه؛ ذلك وكأن مجاز الخطاب في قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ على حالك تلك [...] الحياة، وهو خطاب جاء على صفة الوعد، وكان وعد الله مفعولاً.

ورؤيته جل ذكره حال الموت والنوم والصعق معلوم جوازها، لذلك والله أعلم قال ﷺ لما أراه ربه من العظمة: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: من أسألك [...] الإيمان بك على شرط الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] يعني: فالله أعلم لما حدث في أمته من هذا المعنى؛ إذ الرسول مثل [...] أول لهم فإنهم قالوا: ﴿يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] فأمره - جل ذكره - أن يختار من قومه سبعين رجلاً لميقات واعده إليه، وكان ذلك جانب الطور الأيمن، ورفع الجبل فوقهم حتى كان من فوقهم كأنه الظلة عليهم، فصعقوا ساعتهم تلك، وإن كان ذلك منهم سؤالاً تعسفًا؛ لذلك قال ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣] ولم يذكر موتًا في صعقة موسى ﷺ، وذكره في صعقة السبعين =

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا

=

رجلاً من قومه، فلعل ذلك بون بين الرسول والمرسل إليهم، كما لا بد تفاضلت الرؤية منهم ومنه؛ إذ الرؤية متفاضل كتفاضل العلم به. قال رسول الله ﷺ وذكر الدجال وحذر منه: «**تعلمون أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت**». عبرة: [...] أن يكون معنى قوله ﷺ: ﴿تُبتُ إِلَيْكَ﴾ من أن أسألك ما لم يجعل لي، ومعنى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ممن جعلت ذلك له محمد - صلوات الله وسلامه عليهما - فإنه ذكر أن الله فضَّل موسى بالكلام ومحمدًا بالرؤية، ومن الممكن أن يكون موسى قد سبق الله إليه أن ذلك كائن لمن شاءه، وطمع من رحمة الله أن يكون هو لما كان سؤاله الرؤية في عليتهم، كان من [...] ذلك في سائرهم إلا من عظم الله ﷻ أن يتعلقوا بعبادة رب مرئي جهارًا، فاتخذوا العجل إلهًا من دون الله.

وقالوا لرسولهم لما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] ومآل أمرهم أن يتخذوا الدجال ربًا وإلهًا من دون الله، إنما الإيمان يتلوه في الوجه الثاني التصديق بالغيب رد من رد ما جاء به وكذب به وشرد عنه، ثم يحمد الله على العافية، ويقدم الشكر عليها، ثم إذا انفصل عن قصص هذه الأمة إلى قصص أمة أمة ورسول رسول فهكذا، ثم يرجع إلى نفسه فيفاتشها عن ذنوبها ويتب إلى ربه منها، فإنه ما من أحد إلا فيه الكثير مما كان في أولئك إلا من عصم الله، وإنما صغرت بتقديم الإيمان، وبالدخول في الإسلام، وعلى ذلك فالوعيد عليها قائم بالإهلاك والتشديد موجود بوجود ما قامت بها. قال ﷻ وقد ذكر ما أصاب به قوم لوط ﷺ: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...﴾ [الحجر:٧٤] ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣] قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تكون خسف وقذف**» وقال الله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠] أي: كما فعلنا بأولئك، ثم ليرجع على قصص أتباع الرسل وما أصابهم أيضًا في نبواتهم، وذكر خلافهم وعتوهم على أنبيائهم، وقلة تعزيرهم وتوقيرهم إياهم، وإن ذلك إنما [...] من أجل صغار ذنوبهم وإصرارهم على دقائقها، فدفعهم ذلك لكبارها، وكبارها إلى الاجتراء على الأنبياء، وقلة التوقير لهم، ودفعهم ذلك إلى تكذيب بعضهم، ثم إلى قتال بعضهم، فاستوجبوا بذلك اللعن والغضب على الغضب. قال الله جل من قائل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢] فليتقِ العبد ربه، وليبادر صغار ذنوبه بالتوبة النصوح قبل أن يدفعه كثرة التلبيس والأنس بها إلى كبارها، وكبارها إلى الطبع والإعراض عنه، واللعن والغضب عليه، نسأل الله معافاته ومغفرته، وما هو [...] أن تقع من عين الله ومحبته إلى مقته، ثم بعده وعياذًا به من ذلك».

يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨ - ١٥١].

قوله ﷻ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨] المعنى إلى آخره.

ذكر في شرح بعض الكتب المنزلة والله أعلم: إن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج مع موسى عليه السلام من أرض مصر [استعان نساؤهم على][١] نساء القبط، وإنما أذن لهم فرعون في خروج يرجعون منه، فأخفى بنو إسرائيل مرادهم [بخروجهم ذلك][٢] واستعار نساؤهم حلي القبطيات للتزين به لمشهدهم ذلك، وعطف الله قلوب القبطيات عليهن في ذلك فأكثروا من ذلك الحلي والمتاع، وقد أشار القرآن إلى مصداق ذلك في حكايته عن قول عبدة العجل: ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ القَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [طه:٨٧].

[وإنما][٣] اتبعهم فرعون بجنوده كان ما قصَّه الله جل ذكره [في شأنه][٤] من إغراق فرعون ومن كان معه، وإنجاء [المؤمنين مع موسى][٥]، ثم خلوا بعض محلاتهم وسار موسى عليه السلام لمواعدة ربه ﷻ، [واستخلف][٦] هارون ووصى بهم،

---

(١) في النسخة (ق): «استعار نساؤهم حلي».
(٢) في النسخة (ق): «وجهتهم تلك».
(٣) في النسخة (ق): «ولما».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «موسى عليه السلام ومن كان معه».
(٦) في النسخة (ق): «وايسخلف عليهم».

فقال لهم السامري: إنكم استعرتم حلي القبط غصبًا ولا يحل لكم الاستمتاع به، وحملهم على أن يقذف كل إنسان ما حصل عنده من ذلك الحلي في نار قد استوقدها، [فألقى][(١)] فيها ما ألقاه، وهي القبضة التي قبضها من أثر الرسول ﷺ، وخلق الله ﷻ من ذلك الحلي ﴿عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ يعني: له روح وجسم حي، [فقال][(٢)]: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ قال: وإنما نسي موسى إلهه فهو يطلبه ولا يجده، فاستهوى منهم [من][(٣)] استهوى، ونصحهم هارون بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:٩٠] [وكثر][(٤)] اللغط، وارتفعت الأصوات في المعسكر بين المهتدين والذين ضلوا [به][(٥)].

ولما ورد موسى الطَّيْلاً على ربه ﷻ قال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٣ - ٨٤].

[مؤخر التصديق بالغيب، وإسلام النفس على ذلك جملة، وعلى ذلك وقعت المبايعة، ولم يضر الإيمان بالغيب ما يراه المؤمن أو يري له من عاجل بشري يتاح له؛ إذ ذاك في غالب الحال من غير تطاول عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] كما قال - جل وصفه - في القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:١٢].

ومعنى قوله ﷻ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وحزم، وعلى قدر ما يكشف الله للعبد من علم الغيب الذي إليه المصير، يكلف لذلك من عدم التقييد، واليقين به لذلك، وهو أعلم.

قال جل قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] كما قال في

---

(١) في النسخة (ق): «فألقى السامري».

(٢) في النسخة (ق): «فقال لهم».

(٣) في النسخة (ق): «ما».

(٤) في النسخة (ق): «قال المفسرون كثر».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧ - ١٨].

﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥] [يريد وهو أعلم دار الشام التي كتب الله لهم. وقيل: هي مصر، وأرى والله أعلم أن دار الفاسقين هو مصيرهم وسبيلهم، وجميع شأنهم؛ فإن كان ذلك هو المراد فهو وعد منه كما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩] يريد ممااليك فرعون كلها][1].

ولذلك وصل به قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] يقول سوف أحرمهم الإيمان بها وإن آمنوا أحرمهم فهم كتابي وآياتي، ثم أخذ على وصفهم على ذلك بقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: الذين آمنوا وكانوا غافلين، يقول: سأحرم هؤلاء وهؤلاء الفهم عني وأصرفهم عن النظر في آياتي وتفهم كتابي.

تقدير الكلام: والذين آمنوا بآياتي وكانوا عنها غافلين حال إيمانهم؛ فأولئك أيضًا يصرفهم عن الفهم عنه في كتابه وحكمته.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] إلى قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧] أنبأ جل ذكره بما يصعد للعباد عن فهم كتابه، والتفقه في معاني خطابه، وما تعمى البصائر عن النظر في ملكوت السماوات والأرض، وهو التكبر في الأرض، والعمل بغير طاعة الله ﷻ، والإعراض عن سماع المواعظ، وترك الأخذ بأحسن ما يسمعون، وترك الاقتداء بالرسل - عليهم السلام - وهذا كله يكسب التكذيب في الغفلة؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦].

والعبد ما لم يكذب بآيات الله ولقاء ربه في سعة من أمره إن كان في [عامة] المسلمين كان من تبعيتهم وسباقتهم، وإن كان من عليتهم في الدرجات العلا؛ وإذ ما يكسبه الغفلة الوقر في أذن القلب عن شهادة البينات وعدم التعدي إليها، فلا

---

(١) ما بين [ ] تقديم وتأخير وزيادة واختلاف في النسخة (ق).

يراها بقلبه، ولا يسمعها بأذنه، ولا يسعى إليها بوهمه، بل يدركها بحواسه الظاهرة على غير ما جعلت له، وإن كان مصدقًا بها في أصل إيمانه، ولعله أن يحدق بعين بصيرته وجود إيمانه مما جعلت له فلا يرى، ويصيخ يسمع فؤاده عساه يسمع نداها ويدرك شهاداتها فلا يسمع، فالغفلة حجاب عن معرفة الحقائق، وعلة الغيبة عن مشاهدتها في بوادي حضورها، واعلم أن بواديها قد عمت عموم [البوادي]، وأنوارها قد أشرقت إشراق الضياء، ولكن لا يشعرون أيان يبعثون.

فصل

قال الله ﷻ في قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] ومن أبين التبيين في فصول القرآن وأعظمه يقينًا في اقتفاء الموعظة وتوكيد اليقين والخوف من إهلاك الله الأمم الماضية، وأخذه إياهم بذنوبهم.

يقول الله ﷻ: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقال: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥].

فينبغي لمن أراد سلوك الفهم عن ربه ﷻ في حمل القرآن أن يتمثل نفسه عند قصص كل أمة أنه كالحاضر المشاهد لذلك الرسول، وأنه من جملة المرسل إليهم المبلغ إليهم عن ربهم الرسالة، فيسارع إلى القبول بما جاء به الرسول، وحسن الاستجابة لله بتوهم، ويعقد نيةً أنه كان يكون في تفرق عجائبه من العالمين به الناصرين له الموقرين المعزرين له، وتبرأ إلى الله جل ذكره من قبيح] [١]يمكن أن يكون معنى قول موسى عليه السلام: ﴿هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ [طه:٨٤] أي: على هدايتي وسنني، ويمكن أن يكون [معنى][٢] ذلك أنه استتبعهم إلى [المواعدة][٣]، فعجل هو سبقًا إلى ربه ﷻ وهم على أثره لاحقون به.

قال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى

---

(١) ما بين [ ] سقط واختلاف في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المواعد».

قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه:٨٥ - ٨٦] أي: حزينًا والأسف الحزن على الفائت، فحزن هو عليه السلام على ما فاته من هدايتهم.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾[١] يخاطب بذلك أخاه، ومن كان استعمله [على ذلك][٢] ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٠] يريد ما قدم إليه أنه يصيبهم بما يغضبه عليهم، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه:٨١] وما ذكر شيئًا على هذا التوجيه من خطاب إلا كان من ذلك ما يشاء ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠].

[وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ تقدير الكلام ما منعك من أن تتبعني إذ رأيتهم ضلوا ويمكن أن يكون معناه ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني][٣] إلا أمر أريد [به][٤] أو أريد بهم؛ إذ يقول له على حال الغضب والأسف: ما منعك ألا تتبعني إذ رأيتهم ضلوا إلا [إرادة منك في ضلالهم][٥]، أو ما يقوم مقام

---

(١) خطاب إما لعبدة العجل وإما لهارون عليه السلام ومن معه من المؤمنين؛ أي: بئسما ما فعلتم بعد غيبتي حيث عبدتم العجل بعدما رأيتم مني من توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه سبحانه وإخلاص العبادة له جل وعلا، أو بئسما قمتم مقامي حيث لم تراعوا عهدي، ولم تكفوا العبدة عما فعلوا بعد ما رأيتم مني من حملهم على التوحيد وكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف :١٣٨] وجوّز أن يكون على الخطاب للفريقين، على أن المراد بالخلافة: الخلافة فيما يعم الأمرين اللذين أشير إليهما، ولا تكرار في ذكر ﴿مِن بَعْدِى﴾ بعد ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾ لأن المراد: من بعد ولايتي وقيامي بما كنت أقوم؛ إذ بعديته على الحقيقة إنما تكون على ما قيل بعد فراقه الدنيا. وقيل: إن ﴿مِن بَعْدِى﴾ تأكيد من باب رأيته بعيني، وفائدته: تصوير نيابة المستخلف ومزاولة سيرته، كما أن هنالك تصوير الرؤية وما يتصل بها، و«مَا» نكرة موصوفة مفسرة لفاعل «بئس» المستكن فيه، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، والذم فيما إذا كان الخطاب لهارون عليه السلام ومن معه من المؤمنين ليس للخلافة نفسها، بل لعدم الجري على مقتضاها، وأما إذا كان للسامري وأشياعه فالأمر ظاهر. [الألوسي (٣٦٩/٦)].

(٢) في النسخة (ق): «بعده».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «إردتك إضلالهم».

هذا من القول ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:٩٢ - ٩٣].

وقال لقومه: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾(١) [الأعراف:١٥٠].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢ - ١٥٥].

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف:١٥٢].

[ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٥٣]](٢).

وقال ﷺ للسامري: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه:٩٥ - ٩٦] يريد الملك ﷺ، وقرأ الحسن وقتادة [وحفص عن عامر](٣): «فقبصت قبصة» بالصاد غير معجمة، [وهو القبص](٤) بأطراف الأصابع، وبالضاد منقطة [معجمة: الأخذ بجميع](٥) الكف، وروي أيضًا

---

(١) فيه قولان: أحدهما: يعني وعد ربكم الذي وعدني به من الأربعين ليلة، وذلك أنه قدَّروا أنه قد مات لمَّا لم يأت على رأس الثلاثين ليلة. قاله الحسن والسدي.
والثاني: وعد ربكم بالثواب على عبادته حتى عدلتم إلى عبادة غيره. قاله بعض المتأخرين. النكت والعيون (١٩/٢).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وحفص بن عاصم».

(٤) في النسخة (ق): «وهذا القبص».

(٥) في النسخة (ق): «القبض بجمع».

عن الحسن [وعن ابن عباس][١]: «فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول» وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود.

قال السامري: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:٩٦] أخبر عن توجيهه نيته، وإنها كانت لأمر سحري، فولاه [الله جل ذكره][٢] ما تولى كما قال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: إنهم كانوا يتركون في تعلمهم من الملكين - عليهما السلام - والعمل بما علموه سبيل الهداية التي كانا يعلمان الناس، ويأخذون بسبيل الضلالة، [وإنما كان ذلك][٣] عن تحويلهم نياتهم وتوجيههم إياها إلى ما وجهوها إليه، ولو وجه السامري نيته إلى هداية وخير لوجد ذلك؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا...﴾[٥] [الأعراف:١٤٩] كلمة تقولها العرب [تعبر][٦] بها عن صريح الندم وفقدان المقدرة [ووقوع القول][٧]، وأراه - والله أعلم - إن في ذلك تقديمًا وتأخيرًا [مجازه إن شاء الله تعالى][٨]، ولما رأوا أنهم قد ضلوا وسقط في أيديهم [﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩]][٩].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وحل ذلك».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) قال الزمخشريُّ: ﴿ولمَّا سُقِطَ في أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ولمَّا اشتدَّ ندمهم؛ لأنَّ مِنْ شأن من اشتدَّ ندمُهُ وحَسْرَتُهُ أن يَعَضَّ يدهُ غمًّا فتصير يده مَسْقُوطًا فيها؛ لأنَّ فاه قد وقع فيها. وقيل: مِنْ عادةِ النَّادمِ أن يُطَأْطِئَ رَأسَهُ ويضع ذقنه على يده معتمدًا عليها، ويصيرُ على هيئةٍ لو نُزِعت يده لسقط على وجهه، فكأنَّ اليدَ مَسْقُوطٌ فيها. ومعنى «في»: على، فمعنى: «في أيديهم» كقوله: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه :٧١] وقيل: هو مَأخُوذٌ من السَّقاط، وهو كثرةُ الخطأ، والخَاطِئُ يَنْدَمُ على فعلِهِ. تفسير اللباب لابن عادل (٨/١٣).

(٦) في النسخة (ق): «يعبرون».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «تقديره».

(٩) سقط من النسخة (ق).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] كثيرًا ما جاء عن السلف ﷺ أن لتلك الألواح رضاضًا فالله أعلم، ووصف الله - جل وعز - موسى بأنه ألقى الألواح في حال غضبه على أخيه وقومه، ولم يذكر كسرًا، ولا روى عن النبي ﷺ في ذلك شيء يصح، بل قال الله جل قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ وسمى [ما أخذ: الألواح][(١)]، فظاهر الخطاب يعلم أنها لم تكسر، وأنه لا [رضاض][(٢)] إلا أن يكون سمى ما يتكسر منها باسم أوله وهذا عدول عن ظاهر الخطاب لغيره معنى يوجب ذلك .

وقال جل قوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف:١٥٤] والنسخة: هي المكتوب فيها من غيرها ورقًا كانت أو ألواحًا، وقال في الكتاب الأول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ﴾ [الأعراف:١٤٥] ولم يقل: «نسخنا» إلا أن يكون عبر مرة بالنسخ ومرة بالكتب؛ [لأن التوراة منتسخة عن أم الكتاب كغيرها من الكتب، فالله يعلم][(٣)].

وقال عز من قائل: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] وقال في الأول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يعني من اللوح المحفوظ][(٤)] ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] أي: لأم الكتاب.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «كتب الله التوراة بيده»[(٥)] والظاهر من اختلاف [هذه العبارات وتغييرهم في نبؤتهم][(٦)] أن نسخة ما وجده في الألواح غير ما هو كتاب الله بها بيده جزءًا لما غيروه من إيمانهم وبدلوه.

---

(١) في النسخة (ق): «ما أخذه ألواحًا».

(٢) في النسخة (ق): «رضاض لها».

(٣) في النسخة (ق): «لأن التوراة وغيرها من الكتب منتسخ كله من أم الكتاب فالله أعلم».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) في النسخة (ق): «العبارات».

قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥] إن الإنسان ليحمل الأسفار ولا يعلم ما فيها، كيف بالحمار فهم لقلة فهمهم عن الكتاب، وعدم الفهم منهم لما فيه [مثل][١] للجاهل يحمل أسفارًا، وزاد جهل الحمار على جهل الإنسان الجاهل؛ لأنه لا يعلم [أهي][٢] أسفارًا أم لا، وهم لم يتحفظوا بكتاب كتبه الله لهم بيده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ثم في نسختها [لم يقضوها][٣] ولا فهموا عنها؛ أعني: المذمومين منهم، فأزيلت أيضًا [من بينهم][٤]، والذي بقي منها عندهم قد بدلوا بعضه وحرَّفوا بعضه، وكتموا الحق وهم يعلمون، فباءوا بغضب لذلك على غضب.

قال الله جل قوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] وكانت التوراة التي هي النسخة هدى لهم، ورحمة لمن رهب ربه وخاف مقامه، [كما قال][٥] في القرآن: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] وكان قوله في ذلك بشارة لمن يأتي بعدهم، والله أعلم من أهل الرهبانية الذين ترهبوا لربهم على السبيل القويم، [وهم المعروف عليهم مع من قبلهم][٦] العمل بالتوراة والاهتداء بها مع ما أنزل [إليهم في الإنجيل][٧]، ثم بشارة لهذه الأمة الذين هم لربهم يرهبون، فإن الكتب الثلاثة مع كل كتاب وصحيفة نزلت من عند الله واجب علينا اتباعه والاهتداء به [وابتغاء رحمة الله ﷻ إلا ما [........][٨] والتلف وقيل للصاعقة المرسلة على ما شاء الله: صاعقة؛ لشدة صوت يصحبها][٩].

---

(١) في النسخة (ق): «مثال».
(٢) في النسخة (ق): «أنها».
(٣) في النسخة (ق): «وكانت من عند الله لا يفقهوها».
(٤) في النسخة (ق): «منهم».
(٥) في النسخة (ق): «كذلك».
(٦) في النسخة (ق): «وهم المفروض عليهم».
(٧) في النسخة (ق): «عليهم الإنجيل».
(٨) قطع في النسخة (غ) وليس في (ف).
(٩) في النسخة (ق): «إلا ما نسخ به».

فصل

قال الله ﷻ فيما تلاه علينا من قصصه عن موسى لما أخذت الصعقة أصحابه في جانب الطور الأيمن: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف:١٥٥] يريد [وهو][(١)] أعلم: سؤال الرؤية، وإنهم لن يؤمنوا إلا بوجودها، وربما كان المعني بقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ اتخاذهم العجل إلهًا من دون الله.

يقول ﷺ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ رد الأمر إلى وليه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

[معنى قوله عز من قائل: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ يقول صلوات الله وسلامه عليه: فكما قدرت علينا بهذا فاغفر لنا وارحمنا، ومعنى: خير الغافرين أنه][(٢)] يذنب العبد فيتوب إليه [من الذنب فيغفره، فيعاود الذنب][(٣)] ويتوب إليه فيتوب عليه، ويعود عليه بمغفرته، ويجعل له مكان كل سيئة حسنة ربما كثر اعتياد الذنب الذنب وكثرة عوده عليه بالتوبة والمغفرة، والجود عليه بالحسنات بدلاً من سيئاته زائدًا من عنده، وحتى ربما قال له: «**عبدي، اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[(٤)].

فصل

ربما ظن ظان [لم يمعن النظر ولا يحقق المعنى المراد][(٥)] بالخطاب أن موسى ﷺ خاطب ربه ﷻ على غير وجه حقيقة التعبد، وطلب الازدياد من العلم في قوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ فإن [اللائق][(٦)] برسول الله ونجيه أن هذا

---

(١) في النسخة (ق): «والله».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «فيغفر له فيعاودة فيذنب ذنبًا».
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) في النسخة (ق): «لم يحقق النظر ولم يمعن في التحقيق بالمراد».
(٦) في النسخة (ق): «الذي يليق».

منه على وجه [الحمد][1]، وأن قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف:١٥٥] على وجه التعلم والازدياد من العلم، كما قالت عائشة: «يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟» فكان ذلك منها [سؤالاً عن طلب][2] العلم، فأجابها رسول الله ﷺ بقوله: «**نعم إذا كثر الخبث**»[3] وكان مطلوب موسى في سؤاله معنى ما قاله [الله][4] لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] [وتفهم][5] معنى قوله [فيما أنزل عليه في التوراة][6]: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:١٥] [فإن ذلك في التوراة فيما كتب له بيده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم:٣٦-٣٨] إلى قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم:٤٢]][7] فكان استفهام موسى ؑ طلبًا لفهم ما ها هنا، فتفهموا كتاب ربكم [رحمكم الله][8]، والتزموا توقير أنبيائكم على جميعهم السلام، فما اجتلب ذلك ﷻ وهو يعيب ذلك عليه ولا يذم فعله ذلك منه، بل في معرض المدح له، وإنما كان الإعراض عن قومه لظلمهم.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣] وكذلك أيضًا [ما روي عن بعض ما تقدم عفا الله عنا وعنهم أن قول موسى - صلوات الله وسلامه عليه - عندما أخذت قومه الرجفة، فقال ؑ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾

---

(١) في النسخة (ق): «الحمد له».
(٢) في النسخة (ق): «بحثًا من».
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٢٨٨٠)، وابن أبي شيبة (٣٧٢١٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٣)، وابن ماجة (٣٩٥٣)، وابن حبان (٣٢٧).
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «وأحب أن يفهم».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) سقط من النسخة (ق).

[الأعراف:١٥٥] وعددها عليه جفوة من جفوات ذكرها ثلاثًا، كيف يصح مثل هذا وهو الرسول الكريم الوجيه لديه، وقد تقدم إليه قبل يوم اتخذوا العجل إلهًا في قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥] وإنما حكى ذلك عن ربه ﷻ ورد الأمر كله له، أليس الله بأعلم حيث يجعل رسالاته إنما أصاب بني إسرائيل ما أصابهم من قلة توقيرهم له ﵇ وضعف تعزيرهم لغيره من سائر الأنبياء وكذلك ما قد][1] روي عن رسول الله ﷺ في حديث الإسراء حيث يقول في مسراه: «**فلما جئنا السماء - [يقول]**[2]: السادسة - **إذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير**» [إلى قوله: «**فلما تجاوزته]**[3] **بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم الخلق على الله، فهذا غلام بعثه الله بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي**»[4] [هذا بحكم الله وليس على ما يسبق][5] الشيطان - لعنه الله - إلى النفوس، بل هو على سبيل الإغباط لمحمد ﷺ والفرح به، وبصدق الله وعده رسله.

وقد كان يقدم إليه وإلى غيره من الرسل والأنبياء [في شأنه][6] بما عبر عنه بقوله الحق: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] فكان بكاؤه ذلك فرحًا به من نبي كريم وأخ صالح، ليس فيما هنالك حسد ولا ملق وفرحًا أيضًا أحسن خلافته الله على الأمم بعده، وحزنًا لقومه لأجل عتوهم عليه وعلى من بعدهم من الأنبياء - عليهم السلام - وأنهم صدقوا فريقًا منهم، وكذبوا فريقًا [منهم، وقتلوا فريقًا][7]، فتأسف لذلك على بني إسرائيل، وبكى [خوفًا وجزعًا عليهم][8]، فإن الأنبياء والرسل من شأنهم الحرص على هداية الناس

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «قال فلما تجاوزناه».

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٣)، وأحمد (١٧٨٦٩).

(٥) في النسخة (ق): «وهذا رحمكم الله ليس على ظاهر ما يسبقه».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «فرحًا وخوفًا على بني إسرائيل».

واستنقاذهم من التشييع للملعون إبليس.

كذلك وصف الله ﷻ محمدًا ﷺ بقوله الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [كما قال في قوله][1]: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] كذلك موسى وغيره من الأنبياء [والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين][2].

وفي الحديث ما يزيل الوسواس في هذا المعنى بقوله ﷺ: «**ففرض علي ربي خمسين صلاة، فجئت حتى [مررت على موسى]**[3]...»[4] فافهم فهمنا الله وإياك.

قوله تعالى [فيما حكى من قوله ودعائه لأمته][5]: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] كلمة مأخوذة من معنى الهداية؛ أي: تبنا إليك واهتدينا إليك، [وفي ضمن][6] هذا أنك قد هديتنا إليك وتبت علينا وفضلتنا على العالمين، فتمم علينا نعمتك التي بدأتنا بها، هذا وما يكون في معناه.

وقرأ أبو حيوة: «**إنا هِدنا إليك**» بكسر الهاء؛ أي: مِلنا إليك؛ أي: أنبنا، ومعظم معناه الهداية والميل عن ضلالة الأمم من عالمي زمانهم، وهذا عبارة عن التحنيف الموصوف به [الإمام المكرم][7] إبراهيم ﵇.

تحفظ - وفقنا الله وإياك - من هذه المزلات، وإياك أن تفارق التعزيز والتوقير لهم بذلك، فشأن الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - عند الله عظيم، وهذا وشبهه من [المتشابه المشتبه في الكتاب][8] الذي أمهاته الآي التي جاءت بتعزيرهم وتوقيرهم.

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «أمر بموسى».

(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في «الإيمان» (٧١٤).

(٥) في النسخة (ق): «حكاية عن موسى ﵇».

(٦) في النسخة (ق): «مفهوم».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «المشتبه».

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] إلى قوله جل قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقرأها الحسن وعمرو بن قائد: «أصيب به من [أشاء» بالشين غير معجمة مع فتح الهمزة من الإشاءة][1]، فقوله: «من أشاء» توجه إلى معنى الإعراض عنهم لظلمهم؛ أي: إن هذا كان مني في الأزل سبق به علمي وقدري، ونزل به قضائي، وهو جواب لقول موسى ﷺ معترفًا بمعنى الأولية: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف:١٥٥] وتوجيه الخطاب على قراءة من قرأ: [«أشاء» من الإشاءة][2] تكون إشارة إلى ظلمهم في طلبهم الرؤية، وجعلهم إياها شرطًا في وجود الإيمان منهم [هدايتنا وإنذارًا][3] منه لهم بما يصيبهم به في المستقبل.

ثم أتبع ذلك قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] واستاق ﷻ [صفة][4] هذه الأمة، وقرأ ابن مسعود: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ مصدقًا لما بين يديه من كتاب ربه ورسله

---

(١) في النسخة (ق): «أساء بالسين من الإساءة».

(٢) في النسخة (ق): «أساء من الإساءة».

(٣) في النسخة (ق): «وهو أيضًا إنذار».

(٤) في النسخة (ق): «وصف».

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقرأ طلحة: «ويذهب عنهم إصرهم»[(١)].

[فإن رحمته وسعت من في السماوات ومن في الأرض وكل شيء [وعد به ما...][(٢)] يصيب به من يشاء، وقد تقدم الكلام في كتاب «شرح الأسماء» على رحمته الموجودة في مخلوقاته عند اسمه الرحمن، ورحمته الموجودة، وأوليائه عند اسمه الرحيم][(٣)].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨ - ١٦٠].

قوله ﷻ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾[(٤)] [أي: يحكمون به

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥/٤٦٨).

(٢) بياض في النسخة (غ) وقطع في النسخة (ف).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) قال السائب: هم قوم من أهل الكتاب آمنوا بنبينا ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه. وقال قوم: هم أمة من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه ولم يبدّلوا ولم يقتلوا الأنبياء. وقال الزمخشري: هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل، لما ذكر الذين نزلوا منهم ذكر أمة مؤمنين تائبين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم، وبالحق يعدلون بينهم في الحكم ولا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي ﷺ وآمن به من أعقابهم. انتهى. وقال ابن عطية: يحتمل أن يريد به الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل أن يريد به وصف المؤمنين التائبين من بني إسرائيل، ومن اهتدى واتقى وعدل. انتهى. وما روي عن ابن عباس والسدي وابن جريج: إنهم قوم اغتربوا من بني إسرائيل ودخلوا سربًا مشوا فيه سنة ونصفًا تحت الأرض حتى =

ويؤثرونه][1] ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] [الحق هنا هو ما أنزله الله - جل ذكره - في الكتاب عن قوم موسى أنهم ليسوا المذمومين ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] أي: عن الحكم بالحق؛ لأن الخطاب على معنى الاشتمال على الذم والمدح، وهو الأوجه على أن يكون معنى قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾][2] يجورون [يقول: يعدلون به عن الحق فيضلون][3] كما قال جل قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] [وقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أي: يجعلون عدلاً؛ أي: ندًّا ومثلاً، عدلت عن كذا إلى كذا؛ أي: ملت إليه، وعدلت به؛ أي: جعلت له عدلاً، فجعل هؤلاء عدل الحق الباطل، عدلوه به وهو عادل بالحق ومنعدل عنه أيضًا، يقول الله جل قوله ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكمون به ويهدون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]][4] كما قال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦] أي: بالكتاب، يهدون به ويعدلون عن الحق، يجورون [عنه][5] بالتأويل الباطل، [وهو الأظهر][6].

فصل

ليس بمصيب من روى [أو اعتقد][7] أن موسى ﷺ قال عندما أخبره ربه ﷻ

=

خرجوا وراء الصين، فهم هناك يقيمون الشرع في حكايات طويلة ذكرها الزمخشري وصاحب «التحرير والتحبير» يوقف عليها هناك لعله لا يصح. وفي قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى﴾ إشارة إلى التقليل، وأنّ معظمهم لا يهدي بالحق ولا يعدل به، وهم إلى الآن، كذلك دخل في الإسلام من النصارى عالم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وأما اليهود فقليل من آمن منهم. تفسير البحر المحيط (٥/٤٧٠).

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...﴾ [الأعراف:١٥٦ - ١٥٧] إلى آخر الوصف الذي استاقه في نعت هذه الأمة، فزعم هذا القائل أن موسى ﷺ قال عند ذلك: «يا رب، جعلت وفادتي إلى غيري» قال: فقال الله ﷻ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] قال: فسكت موسى ورضي.

[أو كما قال][(١)] ومثل هذا لا يصح عن المصطفين الأخيار الذين أخلصهم الله بخالصة ذكرى الدار، [فلم يبقى في قلوبهم غلاً ولا حسدًا ولا اختيارًا لشيء سوى ما اختار لهم ربهم عز جلاله إنما أوقع هذا القائل فيما أوقعه من ذكر ما ذكره أن حمل قوله: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ على معنى المدح بل هو الذم الموصوف به بل هو ﷺ][(٢)] وأمثاله البرآء من هذا وأشباهه، وإنما الأنبياء والرسل كرجل واحد لا تحاسد ولا [تباغض كما قال رسول الله ﷺ في المؤمنين، وهم أشد تحققًا في الخير وأكرم هديًا، هم الأول الأولى، أولهم يبشر بآخرهم، وآخرهم يصدق أوله ويبشر بمن بعده][(٣)].

ألا تراهم - عليهم السلام - في عرصة القيامة [كيف][(٤)] يتدافعون الشفاعة [بعضهم إلى بعض][(٥)] أول إلى آخر، وإنما هو - جل ذكره - النزيه المواجهة،

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «ولا تفاخر وقلوبهم في ذات الله والحرص على الحق بالإيمان كقلب واحد كذلك وصف رسول الله ﷺ المؤمنين بعضهم لبعض كالبنيان يشد بعضهم بعضًا وجميعهم في مقام الحرص على هداية الجميع كالجيش في قتال العدو ويسر الكل منهم من غلبة العدو ما أصاب أحدهم من ذلك كذلك المصلون جماعة يقومون بقيام إمامهم ويركعون ويسجدون وفعلهم تلو لفعله لا حسد ولا بغي عندهم، وكذلك كان الصف في الصلاة عبارة عن تساوي القلوب بالتوجه لله ﷻ كذلك الأنبياء والرسل في ذات الله وحرصهم على توصيل ما بين العباد وبين ربهم عز جلاله وهم صلى الله على جميعهم أكرم هدى وأشد تحققًا هم الألى بشر أولهم بآخرهم وصدق آخرهم أولهم».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

الكريم المخاطبة، الحكيم العليم، استاق [ذنوب][(١)] من مضى لا [لتعيير][(٢)] لهم؛ بل ليؤدبنا بهم ويحذرنا مما [أصابوه][(٣)] في نبوتهم، ولما كانت المواجهة لهذه الأمة بالخطاب عدل عنهم بذكر الأخذ وشدة البطش، وأخذ - جل ذكره - يقص الحق ويحكم بالفصل والتبليغ على ذلك قائم والفضل منه والإكرام لعبيده مواجهه، وهو العليم الكريم ذو الفضل العظيم][(٤)].

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨] إلى آخر السورة.

فصل

فمن لزم الطريقة المثلى في هذا الشأن - إن شاء الله تعالى - أن يتلقى [قصصه][(٥)] بالتصديق المحض والإيمان، والمبالغة في والإيمان الحزم والهرب عن كل شيء ذمهم به أحد، والإمعان في البعاد من [مواطن هلكاتهم، والمنازعة إلى سلوك سبيل نجاته، وابتغاء مرضاته][(٦)] بغاية الطاقة ومنتهى الجهد، وأن نستشعر [في نفوسنا][(٧)] أن جميع مذامهم قد ارتكبناها إلا ما كان من قتل الأنبياء وتكذيبهم، على أنه من أمات سنة نبي فقد قتله، ومن عصى رسول الله [إليه][(٨)] من بعده عمادًا جهادًا فقد كذبه.

قال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى أنه لو كان فيهم من أتى أمه [وأخته][(٩)] جهارًا لكان فيكم ذلك**»[(١٠)] ولقد تكامل [فينا

---

(١) في النسخة (ق): «ذكر ذنوب».

(٢) في النسخة (ق): «لتغيير».

(٣) في النسخة (ق): «أصاب أولئك».

(٤) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٥) في النسخة (ق): «قصص الله ﷻ».

(٦) في النسخة (ق): «عن قول أو عقد يخل بالتعزير والتوقير لهم بل المسارعة إلى سلوك سبيل نجاتهم وابتغاء مرضاة الله».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) زيادة في النسخة (ق).

(١٠) ذكره بنحوه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠٣/٣).

أيتها][1] الأمة جميع ما أهلك من أجله من كان قبلنا من الأمم من الغفلة وترك التوبة والإعراض عن الذكر والجبروت وغلط السطوة والمباهاة بذلك، أهلك الله عادًا وبتطفيف المكيال والميزان، والصد عن سبيل الله، [وإبغائنا العوج بقعودنا على كل صراط للمسلمين بالتغيير والتبديل][2] والإيعاد على ذلك، والتهديد والتشديد حتى لقد انمحى رسم الإسلام فلم يبقَ إلا اسمه، وطفئت أنوار الإيمان فلم يبقَ منها إلا خواطر تجيء ثم تذهب كالبرق، وبذلك أهلك الله قوم شعيب عليه السلام.

ثم العلو في الأرض، وجعل الناس شيعًا تستضعف طائفة منهم فعل فرعون ببني إسرائيل، ثم ركوب الفواحش علانية وسرًّا كالجهر، وبذلك أهلك قوم لوط وغيرهم، ولم يكن منهم فعل ذميم إلا وفينا ظهوره ولا سيرة عوجاء إلا [ومنا][3] ابتداؤها وإلينا انتهاؤها، فالنظر في عيوب من مضى على ما نحن عليه حمق [من فاعله][4] وقلة تحصيل، لكن اتعاظ وازدجارٍ، وقد قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ [المائدة:١٠٥].

وقال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨].

[وقال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦].

كما قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ...﴾ [آل عمران:١١٣] إلى قوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٤].

ثم استأنف الخطاب مواجهة لنا بقوله][5]: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١١٥].

---

(١) في النسخة (ق): «معشر هذه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وفينا».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾ [الأعراف: ١٦١ - ١٦٣].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ [الأعراف:١٦١] القرية هي إيليا، [والباب الذي أُمروا بالدخول منه هو باب السُّجد، أمروا أن يدخلوه سُجَّدًا؛ أي: في حال من يسجد طهارة وتوبة ونية في الصلاة، فإذا فعلوا ذلك فليقولوا: «هذه حطة» أي: مغفرة من الله لذنوبنا.

ثم قال][١]: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:١٦١] يعني [والله أعلم: محسني هذه الأمة، فإنه وعدها بأن «**أحدهم إذا توضأ [فأحسن وضوئه]**[٢]، **ثم قال: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء**»[٣] وبأنه «**إذا توضأ فغسل وجهه خرجت خطايا وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل ذراعيه خرجت كل خطيئة بطشتها يداه حتى تخرج من تحت أظفاره**»[٤]

---

(١) في النسخة (ق): «وأمروا أن يدخلوا المسجد سجدًا أي في حال طهارة وتوبة ونية السجود والصلاة».

(٢) في النسخة (غ): «أمره الله».

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤)، وأبو داود (١٦٩) والنسائي (١٤٨) وابن ماجة (٤١٩)، وأحمد (١٧٣٥٢)، وابن خزيمة (٢٢٢) وابن حبان (١٠٥٠) والبيهقي (٣٣٣٤) وفي «شعب الإيمان» (٢٧٥٣).

(٤) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (١٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجة (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٨).

ثم كذلك في الرأس والرجلين.

قال: ثم كان مشيته إلى المسجد وصلاته نافلة له، ومصداق هذا من الكتاب العزيز قوله][1]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ﴾ إلى قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ [في الدين][2] ﴿مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بعد الوضوء والطهر ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦] [ونغفر][3] لكم ذنوبكم بالطهر، وتكون الصلاة بعد ذلك في عمل الشاكرين، فقد تحصلت الحطة بحمد الله فيما تلاه علينا ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، [وأمرنا به][4] وزاد من فضله محسني هذه الأمة أن بلغهم درجة الشاكرين [جزاءً][5] كذلك أمروا هم بأن يقولوا: هذه حطة من الله لخطايانا إذا دخلوا المسجد الذي أمروا بدخله سجدًا.

وجاء في بعض كتب النبوات: قال: «إن هؤلاء القوم تركوا ما أكرمت عليه آباؤهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها، أما أحبارهم ورهبانهم [فاتخذونها][6] عبادي خولاً فيعبدونهم من دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري، وأنسوهم ذكري، وغروهم مني، فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، وبدلوا كتابي، ونسوا ذكري وضيعوا أمري».

وبعد كلام كثير قال: وعزتي وجلالي لأعطلنها من كتبي وقدسي، ولأفنين مجالسها من [أنسها][7]، ولأوحشن مسجدها من عمارة الدين كانوا يتزينون بعمارته لغيري ويتهجدون فيه، ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العلم،

---

(١) في النسخة (ق): «قد تقدم هذا في سورة البقرة مصداق قوله ﷻ: ﴿وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٥٨] في القرآن العزيز ».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «أي نغفر».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «فاتخذوا».

(٧) في النسخة (ق): «أنسي».

ويتعلمون لغير العمل في كلام طويل فيه موعظة، وذكرى لمن يخشى.

فصل

أنبأ الله ﷻ بما تلاه علينا بقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة:٥٨] إن الخطايا [إنما كانت تغفر لهم ببعض][١] أعمالهم.

وقال رسول الله ﷺ: «**أنزلت علي [سورة]**[٢] **البقرة من كنز تحت العرش**»[٣].

وقال له الملك: «**لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته وأعطيته**»[٤] وفيها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] فيقول الله ﷻ لقارئها: « قد فعلت» [وفي أخرى: «نعم»][٥].

قال رسول الله ﷺ: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٦].

وكما [من الواجب][٧] علينا الإيمان والتصديق بما في الكتاب وحديث [الرسول ﷺ فيما بشر به من غفران الذنوب][٨] عند الوضوء، وترك المؤاخذة بالخطايا مع الصدق، واستعمال الذكر [واجتناب][٩] التغافل، فكذلك كان يجب عليهم الإيمان بمثل ذلك في حط خطاياهم عنهم [بكونهم][١٠] قاصدين إلى [بيت الله][١١] للصلاة بإخلاص الوجهة، يعتقدون ذلك بقلوبهم، ويقولونه بألسنتهم.

---

(١) في النسخة (ق): «لم تكن تغفر لهم إلا ببعض».

(٢) في النسخة (ق): «خواتيم سورة».

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٢٣٢٩٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٠٢٥)، وفي «الأوسط» (١٤٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٩٩).

(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في «الصغرى» (٧٦٤)، وفي «شعب الإيمان» (٢٣٦٠).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) في النسخة (ق): «يجب».

(٨) في النسخة (ق): «رسول الله ﷺ من غفران الذنوب فيما وعد به عن ربه ﷻ».

(٩) في النسخة (ق): «وترك».

(١٠) سقط من النسخة (ق).

(١١) في النسخة (ق): «البيت».

فلما اتخذ منهم البعض دينهم لهوًا ولعبًا [وصلوا][(١)] لقضاء أوطارهم وتعبدوا لغير الله تعالى زالت بشاشة الإيمان بالبشارة من قلوبهم على أعمالهم؛ إذ لم يبلغ لرحلها [ومصاحبة الغفلة لها][(٢)] أن يبشر على تلك الحال، فكانوا يقرءون كتاب الله ولا يقفون عليه بالعلم، وربما علموه علمًا ظهريًا، [ورؤية][(٣)] بصائرهم عن جنب دون تحقق [وتكون القلوب هكذا ونحو هذا خوفت وحرمت نور البشارة فلم يبشر على أعمالها تلك فقالوا ما يعبر به عن خوف ما وإنهم ليسوا بمستحقين لأجل ظلمهم البشارة على ما هم عليه قلما يعبر به عن بأس ما يرون هذا كله بعيون بصائرهم عن جنب نسوا الأجل ظلمهم هذا وهذا خلفه الذهول][(٤)] فكانوا بذلك مبدلين لما فرض الله عليهم [وأمروا][(٥)] به من الإيمان قولاً غير الذي قيل [لهم][(٦)] إما لأنهم قصر بهم في تبدل أحوالهم تلك عن [تحقيق][(٧)] البشارة؛ لغلبة خوف [من أن تزيد عليهم أعمالهم، وإما لأنهم علوا في ذلك ووافقوا الإدلال][(٨)].

وكانوا يقولونها إن كانوا وقفوا عليها بالعلم، ويتلونها في [الكتاب][(٩)] بقلوب غافلة ونيات غائبة، ووجوه غير متحققة [بالتوجه إلى الله][(١٠)]، وربما تمنوا على الله في حالتهم تلك كقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

[وقولهم: إن الجنة لنا ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ [البقرة:٩٤]][(١١)] و﴿لَن يَدْخُلَ

---

(١) في النسخة (ق): «وضلوا».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «رأته».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «وأمرهم».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «حقيقة».
(٨) في النسخة (ق): «أن ترد عليهم أعمالهم من أجل ظلمهم وإما لأنهم غلوا في ذلك وواقعوا الإذلال».
(٩) في النسخة (ق): «كتاب ربهم».
(١٠) في النسخة (ق): «بحق التوجه الذي أمروا به».
(١١) زيادة في النسخة (ق).

الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَو نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] وأمثال هذا، وهذا هو التيه في الضلال.

وأما الأبرار فهم في معزل من هذا، [إن شاء الله][(١)] يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل من قبلهم، ويستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويستبشرون بفضل من الله ورحمة، وبأن الله لا يضيع أجر [المؤمنين ومنهم ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] للخوف المتمكن من قلوبهم لا يرون أحدًا أحق منهم بالعذاب إن لم يغفر الله لهم ويرحم، هذا منهم بعد تصديق الله - جل ذكره - في وعده ووعيده، والإيمان بما جاء من عنده، وجعلهم التهمة في جنباتهم، وتحصيل الأمن من خلف وعد أو هضم من حق، بل أنا له الموعود مع الزيادة بالفعل][(٢)].

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن

---

(١) في النسخة (ق): «والحمد لله رب العالمين».

(٢) في النسخة (ق): «المحسنين، وفضل القول في ذلك الإيمان بتحقيق البشارة في كل وعد جاء من عند الله على عمل أو بشرى بشر بها رسول الله ﷺ عن ربه، والإيمان أيضًا بتحقيق وقوع الوعيد كما جاء ليجتمع الإيمان بهذا وهذا في قلب العبد فرحًا بهذا وحزنًا بهذا، وللرجاء بفضل الله ميزان يرجحه إلى العفو والمغفرة مع الإقامة على الصدق، وليجعل العبد التهمة في [...] نفسه مع تحصيل الأمن من خلف وعد أو هضم من حق، بل أناله الموعود من الزيادة بالفضل، فهذا في معنى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠]».

يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤ - ١٦٩].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧] يريد: يذيقهم سوء العذاب على [العداوة][(١)] بالترداد، والمعاودة على ذلك بالمكروه، سُمتُ في السلعة؛ أي: كررت الكلام فيها وعاودته، وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أوجب ذلك على نفسه وقضائه، واعلم به ذلك؛ لأنهم نسوا كثيرًا مما ذكروا به وعضوا وخالفوا ما ذكروه، وأصل ذلك ما تقدم ذكره قبل هذا وهو الغفلة وزوال حلاوة بشاشة الإيمان بالوعد وخلو القلوب من لذع الخوف.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠ - ١٧٤].

واعلم قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] قد تقدم الكلام في [هذه الآية][(٢)] مع نظيرتها في سورة آل عمران، وأن هذه نص على عهد الربوبية، وتلك نص على عهد النبوة والرسالة والتبليغ والنصيحة والنصر لله [والإيمان بذلك][(٣)] أبطن في تلك ذكر [الربوبية][(٤)] كما أبطن في هذه [ذكر][(٥)] عهد النبوة، وإن

(١) في النسخة (ق): «المداومة».
(٢) في النسخة (ق): «هذا المعنى».
(٣) في النسخة (ق): «ولرسله».
(٤) في النسخة (ق): «عهد الربوبية».
(٥) سقط من النسخة (ق).

كان قد أشار إلى ما بطن في هذه وهذه بقوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ....﴾ [الأعراف:١٧٢].

[كما أشار في تلك إلى عهد الربوبية في][1] قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ...﴾ [آل عمران:٨٣].

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٨].

قوله ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] إلى آخر المعنى، اختلف الناس فيمن [يُسمى بهذا][2] فقال قوم: هو بلعام بن باعورا.

وقيل: باعير.

وقال آخرون: هو البسوس عابد من بني إسرائيل، قيل: كانت له ثلاث دعوات استنفذهن على ما ذكروه في امرأته، فالله أعلم [أكان ذلك أم لا][3].

وقال قوم: هو أمية بن أبي الصلت.

وقال قوم: نزلت في راهب بن صيفي.

وقال قوم: [إنها][4] نزلت مثلاً في اليهود والنصارى، وكل من أتاه الله من آياته

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «هو المعني بهذا المعنى».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

[وعِلمِه وكتابه][١] فانسلخ من ذلك، فهو المعني [هنا][٢] ثم اختلفوا في القصص عن هؤلاء المذكورين، وأنا ذاكر طرفًا من قصص أمية بن أبي الصلت؛ لقرب طريقه، وتارك [ذكر][٣] قصص ما قصَّ في شأن أولئك؛ لبعد الطريق [إلى][٤] الوقوف على صحته أو سقمه كان ابتداء أمره أنه قرأ الكتب، وعلم أن الله تعالى يرسل رسولاً في ذلك الوقت، وظن أنه [هو][٥] ذلك الرسول؛ لأنه كان فيما يذكر قد أوتي بينة من الأمر، [وأظهر له أشباهًا][٦] تقارب.

فلما بعث الله رسوله محمدًا ﷺ شرق للأمر حسدًا وأنفة، ومر في بعض أسفاره على قتلى [بدر][٧] فسأل عنهم فقيل له: «قتلهم محمد» فقال: «لو كان نبيًّا ما قتل أقرباءه» فلما مات أتت أخته الفارعة إلى رسول الله ﷺ فسألها عن موت أخيها، فقالت: بينا هو راقد [إذ][٨] أتاه آتيان، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: «أوعى» قال الآخر: «وعى» قال: «وزكا» قال: «أبى» [فقال][٩]: «أريد بك خير، فصرف [عنك][١٠]» فلما أفاق قال:

كُـلُّ عَـيْشٍ وإنْ تَطـاوَلَ يَـوْمًا ... صَـائِرٌ مَـرَّةً إلـى أنْ يَـزُولا
لَيْتَنِـي كُنْتُ قَبْلَ مـا قَـدْ بَـدَا لِـي ... فِـي قلالِ الجِبالِ أرْعَـى الوُعُـولَا
إنَّ يَـوْمَ الحِـسابِ يَـوْمٌ عظـيمٌ ... شَـابَ فِـيهِ الـصَّغيرُ يَـوْماً ثَقِـيلاً

ثم قال لها رسول الله ﷺ: «**أنشديني شعر أخيك**»[١١] فأنشدته قصيدته [التي

(١) في النسخة (ق): «وعلَّمه كتابه».
(٢) في النسخة (ق): «بهذا».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وتعذر».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «وأشباهًا».
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «فقلت له».
(١٠) في النسخة (ق): «عنه».
(١١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان (٤/٣٠٦).

يقول فيها][(١)]:

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا ولا شيء أعلى منك جدًّا وأمجد
مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد
عليه حجاب النور والنور حوله وأنهار [نار][(٢)] حوله تتوقد
فلا [بصير][(٣)] يسمو إليه بطرفه ودون حجاب النور خلق مؤيد
ملائكة أقدامهم تحت أرضه وأعناقهم فوق السماوات [تصعد][(٤)]
قيام وعلى الأقدام عانون تحته فرائصهم من شدة الخوف ترعد
وسبط صفوف ينظرون وراءه مصيخون بالأسماع للوحي رُكَّد
أميناه روح القدس جبريل فيهم وميكال ذو الروح القوي المسدد

وهي قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها، وأنشدته قصيدته الأخرى [وهي قوله][(٥)]:

يوقف الناس للحساب جميعًا فشقيٌّ معذبٌ وسعيدٌ

ثم أنشدته قصيدته [لأخرى][(٦)] التي يقول فيها:

عند ذي العرش تعرضون عليه يعلم الجهر والسرار الخفيا
يوم يأتي الرحمن فهو رحيم إنه كان وعده مأتيا
يوم تأتيه مثلما قال فردًا ثم لا بد راشدًا وغويا
أسعيد سعادة كنت أرجو أو مهانًا بما اكتسبت شقيا
أو أؤاخذ بما اجترمت فإني سوف ألقى من العذاب فريًا

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «نور».
(٣) في النسخة (ق): «بصر».
(٤) في النسخة (ق): «صعد».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).

رب إن تعـــفُ فالمعافـــاة ظنـــي أو تعاقـــب فلـــم تعاقـــب بـــريا

فقال [لها](١) رسول الله ﷺ: «آمن بلسانه وكفر بقلبه»(٢).

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يعني: بالآيات التي أعطاه ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أخلد بمعنى: ركِنَ ورضي، ولما لم يرفعه إلى محل الأبرار أسفل به إلى محل الفجّار؛ ذلك لئلا يأمن مكره أحد، ولا ييأس من رحمته أحد، ثم مثَّله بالكلب ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦] [هذا](٣) كقوله جلَّ قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف:١٩٣].

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

كما أن الكلب لا يترك ما وجد له من نباح ولهث حمل عليه أو [لم يحمل](٤) [ترك كذلك من سبقت عليه الكلمة راجع إلى ضلالته، مكذب بآيات ربه، ولو رفع إلى أعلى درجات العلا واليقين ليس للعلم واليقين، وظهور الآيات عمل، ولا حظ من النفع والدفع، بل لله وحده لا شريك له؛ لذلك أتبع هذا ما تقدم من خطاب قوله: ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٨].

فصل

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) ذكره عبد القادر البغدادي في «خزانة الأدب» (٨٧/١)، والنويري في «نهاية الأرب» (٣٨٣/٣)، والمراد بها هو أمية بن أبي الصلت، من شعراء العصر الجاهلي.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩ - ١٨٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ...﴾[١] [الأعراف:١٧٩] الذرء: من البث، يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أو يكون معناه: إنه ذرأهم في محالهم من جهنم كما ذرأهم في محالهم من الأرض، لكنه قال جل قوله: ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ فالوجه الأول أولى، وإلى الآخر مصيرهم، فأعلم جل ذكره أن سواه لا ينفع عنده، ولا دفع لضر، ولا يملك هداية ولا ضلالاً بعده أعين خلقت الأبصار، وآذان خلقت للسماع يسمع بها، وقلوب خلقت لله يفقه بها منعها ذلك منه حتى لقد أخبر بقوله الصدق: أنهم كالأنعام][٢] بل أخبر أن الأنعام أهدى سبيلاً منهم [فلم يجدوا من دونه وليًا ولا نصيرًا][٣] وكذلك الآيات والبينات والعلم واليقين إنما يبين بها [ويسمع بها][٤] ويعلم بالعلم الله خالق كل شيء، [أعلم أن العقل][٥] أصل ذلك وينبوعه، ولو أيقظهم كما أيقظ الذي ضرب به المثل لأغفلهم وأضلهم.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٢ - ٢٣].

قوله ﷻ: ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ [الأعراف:١٨٠] أنَّث الحسنى؛ لأنها جماعة الأسماء الحسنى تأنيث الأحسن، كما الكبرى تأنيث الأكبر، والإلحاد في الأسماء هو الزيادة على ما أذن فيه، والنقصان عما أمر به مع ميل في

---

(١) ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي: خلقنا ممن يصير إلى جهنم بكفره ومعصيته و﴿كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أراد أولاد الزنى؛ لأنهم من النطف الخبيثة مخلوقين، فهم أكثر الناس إسراعًا إلى الكفر والمعصية، فيصيرون جامعين بين سوء المعتقد وخبث المولد.
والقول الثاني: أنه على العموم في أولاد الزنى والرِشدة فيمن ولد من نكاح أو سفاح؛ لأنهم مؤاخذون على أفعالهم لا على مواليدهم التي خبثت بأفعال غيرهم. النكت والعيون (٣٣/٢).

(٢) ما بين [ ] به اختلاف في اللفظ بين النسخ.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «ثم أعلم عز جلاله أن الغفلة».

ذلك إلى غير المعنى، فالمشبهة وصفوه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بما لم يأذن [به][١] والمعطلة سلبوه - جل وتعالى - في حقهم ما اتصف به.

وسبيل الحق في ذلك واضحة [من][٢] أمر بين أمرين دين قيم لا تشبيه ولا تعطيل مع تقديم التنزيه والإيمان بأنه - جل وعز - له المثل الأعلى سبحانه وله الحمد، لقد أعظم النعمة على أهل التوحيد، وأجزل المنة على من منحه التحقيق حيث دلهم على نفسه فاصطفاهم لعبادته، ولم يجعلهم خاضعين لصنم، ولا عابدين لذي شكل ولا لوثن، سبحانه وله الحمد، من ذا الذي يشفع [لهم][٣] في القدم من اختار لهم هذا في الأزل لا إله إلا هو، الحمد لله رب العالمين، إن هذا لهو الفضل المبين.

فصل

الدعاء قد يكون بحرف النداء أو بغير حرف النداء، إنما [يجلب حرف النداء بعد][٤] الصوت من أجل تطويل النفس به، وذلك يكون لمعنيين:

أحدهما: [إرادة][٥] الإسماع.

والثاني: التضرع [وإظهار خضوع][٦] النفس للمدعو المنادى.

وأكثر ما جاء دعاء المقتدى بهم - صلوات الله على جميعهم - بإسقاط حرف النداء؛ إذ المدعو المنادى حاضر شهيد، فاستوى في حقه جل وتعالى من أسر القول ومن جهر به، كذلك حكى عنهم عز جلاله بقوله حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**﴾ [مريم:٣ - ٤].

﴿**رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾ [مريم:٨].

وعن نوح عليه السلام: ﴿**رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾ [نوح:٢٦].

(١) في النسخة (ق): «فيه».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «له عنده».
(٤) في النسخة (ق): «يجتلب حرف النداء لمد».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «لإظهار حضور».

﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح:٥].

وعن أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:٨٣].

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

[وعن أولي الألباب][١]: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٩٣] وهو كثير.

[وقد أثنى الله على زكريا عليه السلام من أجل إخفاء دعاءه في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]][٢] وأمر بذلك في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٣] [الأعراف:٥٥].

وقال رسول الله ﷺ وقد سمع [جهر أصحابه بالدعاء][٤]: «**أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنه [سميع][٥] قريب**»[٦].

وفي أخرى: «**[هو][٧] أقرب إلى أحدكم من رحله ومن عنق راحلته**»[٨].

ومن أدخل حرف النداء فلمعنى إظهار التضرع [أو إبداء][٩] النصيحة، كقوله جل وعز: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) لما أمرهم تعالى بالاستماع والإنصات إذا شرع في قراءة القرآن ارتقى من أمرهم إلى أمر الرسول ﷺ أن يذكر ربه في نفسه أي بحيث يراقبه ويذكره في الحالة التي لا يشعر بها أحد وهي الحالة الشريفة العليا، ثم أمره أن يذكره دون الجهر من القول أي يذكره بالقول الخفي الذي لا يشعر بالتذلل والخشوع من غير صياح ولا تصويت شديد كما تناجى الملوك وتستجلب منهم الرغائب، وكما قال للصحابة وقد جهروا بالدعاء.

(٤) في النسخة (ق): «أصحابه يجهرون بالتكبير والدعاء».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) أخرجه البخاري (٢٨٣٠)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأبو داود (١٥٢٦)، وأحمد (١٩٥٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٧٩)، وأبو يعلى (٧٢٥٢)، وابن أبي عاصم (٦١٨).

(٧) في النسخة (ق): «إنه».

(٨) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٦١٤)، والطيالسي (٤٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٨٠)، والبزار (٢٩٩٤).

(٩) في النسخة (ق): «وربما لإبداء».

[الفرقان:٣٠].

وكقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي﴾ [مريم:٤٣].

[﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم:٤٤]][(١)].

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦].

فالأمر المعهود [في][(٢)] الدعاء إلى الله ﷻ [وسؤاله الخفية][(٣)] وإسقاط حرف النداء إلا أن يدخل على الداعي عارض مزعج، ودعاء المخلوق أكثره بحرف النداء لا سيما إذا كان المدعو على بعد ليس كذلك دعاء من هو أقرب إليك من نفسك، وأقرب إلى نفسك من حياتها، وأقرب إلى كل موجود من ذاته، فأحسن [سبل][(٤)] الدعاء إليه أن يكون على سبيل المناجاة والافتقار والتضرع والرغبة والرهبة مع الإيمان [بقربه][(٥)] ومشاهدته، ولتيسير الإجابة من محيط به [قريب][(٦)] رقيب عليه رحيم به، مجيب [سميع][(٧)] كريم، لا يتعاظمه ذنب يغفره، ولا عطاء يمنحه استنجازًا لوعده الكريم [﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]][(٨)].

فصل

قد تقدم الكلام في شرح الأسماء على مبلغ الجهد وحسب الطاقة ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

قوله هذا - والله أعلم - خطاب منتظم المعنى بما بدأ به السورة من قوله: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:٢] إلى قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «أن».

(٣) في النسخة (ق): «على الحقيقة والتضرع».

(٤) في النسخة (ق): «سبيل».

(٥) في النسخة (ق): «به».

(٦) في النسخة (ق): «قريب منه».

(٧) في النسخة (ق): «سميع له».

(٨) زيادة في النسخة (ق).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] وهذه [ثلاث][١] كلمات عليهن دارت [معاني][٢] ما جاء من بعدهن، فلا يخلو الخطاب بعد هذا من أن يكون في معنى الأمر [بالاتباع][٣] ووصف ما أنزله، والدلالة على الله جل ذكره، والدعاء إليه، والتحذير من اتخاذ أولياء من دونه، ووصف ذلك [ولما][٤] يتبعه والتذكير والنصيحة، وما اتصل به وهو مفصل من محكم.

قوله جل قوله: ﴿المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١ - ٢] حتى انتهى الخطاب إلى معظم الذكر والعلم من ذكر الأسماء الحسنى، وهي بما هي تشير، بل تُعرّف بالصفات العلا [والصفات][٥] تُعرِّف بالموصوف، وكما تدل أيضًا على الأسماء تدل على الأفعال.

واعلم - وفقك الله - أن لكل علم مبتدأ يبتدئ به طالبه، وأُسًّا يبني عليه يحتاج أن يتقنه حتى يعتدل [له أُسه ويشتد][٦] بنيانه، ثم حينئذٍ يتصرف في المعاني فيتبوأ منها حيث [أحب][٧] وأول هذا العلم: التفكر في مخلوقات الله جل ذكره، وطلب معرفته بذلك، والعلم الحاصل عن ذلك فهو علم أسمائه، وإنما ضل [الأكثرون عن المقصد لما ركنوا إلى طلب للعلم الهوينا، وركنوا][٨] إلى الراحة، وسلكوا في ذهابهم إلى ذلك بنيات الطريق، وقنعوا بالأدنى دون الأعلى، وتركوا المنهج جانبًا، ولما لم يطلبوا العلم، ولم يتعرفوا المعارف من أصولها، ولا أتوها من أبوابها [ولا][٩] شرعوا فيها من مبادئها تحيروا وضلوا ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢].

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «والنهي».
(٤) في النسخة (ق): «وما».
(٥) في النسخة (ق): «كما الصفات».
(٦) في النسخة (ق): «أسه فيثبت له».
(٧) في النسخة (ق): «يشاء».
(٨) في النسخة (ق): «الأكثر عن القصد لما ركبوا إلى طلب العلم الهوينا وألفوا الركون».
(٩) زيادة في النسخة (ق).

فمن لم يكتسب اليوم علمًا لنفسه بقي غير عالم حتى يموت، ثم إن هو أُدخل الجنة بقي في أول درجة منها متخلفًا عن درجات العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، [يدخل الجنة إن شاء الله فلا يجاوز أول درجة منها](١).

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١] وقد قال مثل هذا في قوم موسى عليه السلام بعدما كان استاق ذكر هذه الأمة من لدن قوله جل قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف:١٥٦] إلى قوله جل قوله: [﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ...﴾ [الأعراف:١٥٨] فجاء من ظاهر هذا الخطاب الكريم أنه لا هداية لأحد من الناس كائنًا من كان إلا باتباع رسول الله ﷺ.

وقد كان قبل هذا يرسل الله ﷻ النبي إلى قوم خاصة أو أمة معهودة عنده كما قال ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة**»(٢) وفي أخرى: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»(٣) وجاء هذا الخطاب معرفًا في العموم.

قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾ [الأعراف:١٨١] فيحتمل أن يكون المراد بهم الجن، وقد ذكرهم في القرآن في مواضع، وإيمانهم بالقرآن وبمن جاء به واهتداؤهم.

قيل: هذا الكتاب، وإن فيهم المهتدي ومنهم الضال، ويمكن أن يكون المعني به قومًا في أطراف الأرض حيث أظلم الكفر وعمَّ الضلال إلا مَن هدينا، فإنه كما يوجد في أقطار النبوة ومواضع الهداة والهدى كفار ومنافقون كذلك لا يبعد أن يكون في مواضع الضلال والكفر هداة يهدون بالحق يعدلون به في حكمهم، وربما قضوا بالحق وحكموا به، ويعدلون به أيضًا عن الحق كما يهتدي بالكتاب والنبوة، ويعدل بهما الضلالة والكفر ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨)، والنسائي (٤٣٠)، والدارمي (١٤٤٠).

(٣) أخرجه الطبراني (١١٠٤٧).

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]][(١)].

فصل

[قد تقدم أن المعهود المتقرر الهداية بالكتب والنبوة، وأن رسول الله ﷺ قال: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وإلى الأحمر والأسود**»[(٢)].

فمن المعلوم أنه [ﷺ عم بالنبوة والأنبياء العالم كله إلا في القرط، كيأجوج ومأجوج وأمثالهم، وإنه قد جاء في كتاب «النبوات»: إن الأنبياء قد بلغتهم وأنبأتهم بما يكون منهم في خروجهم، ثم ما يكون من هلاكهم وخوطبوا بذلك.

وبالجملة: فإن الإنباء والنبوة فيما هنالك وما قاربهم، وفي أكثر الأقطار المحيطة بالمعمور غريب قليل، وأما [سَننه... وسيره فظاهره ذلك][(٣)] ولو كان ذلك كذلك لكان غريبًا ذكرًا وخبرًا، وقد نرى مع لزومها فيما ها هنا وشياعها عموم النسيان، وحلول الغفلة، واستيلاء القسوة على القلوب، فكيف بأولئك؟][(٤)].

وذكر الله جل ذكره قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١] منتظمة بالمجاورة بقوله جل قوله: ﴿وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] فالظاهر [أن الحق المعني في قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾ [الأعراف:١٨١] هو الحق المبثوث في العالم][(٥)] في السماوات والأرض الذي فطرهن الله عليه، وهو المتصل بإيمان الفطرة، وهو الإيمان الذي يتحصل بالنظر والفكر والتذكر، وما دلت عليه دلائل المصنوعات، [وسندت][(٦)] به ضروب الآيات،

---

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٢)، وعبد بن حميد (٦٤٣)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٣٤٦٠)، والطبراني (١١٠٤٧).

(٣) ليس في (ف) ومبتور في (غ).

(٤) ما بين[ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٥) في النسخة (ق): «فالظاهر أن الحق المذكور هنا الحق المثبوت».

(٦) في النسخة (ق): «وشهدت به».

وقامت عليه البينات المنفصلة من معاني الأسماء والصفات، وكان ذلك ظاهرًا [من][١] نبوة آدم عليه السلام من علمه بالأسماء [التي علمه الله ﷻ إياها ثم اتصل ذلك أيضًا][٢] بالأئمة الراشدين من ذريته من بعده إلى أن نجم قرن الضلال، وظهر الكفر [حتى طبق الأرض إلا ما شاء الله منها، فإن الله لا يخلي الأرض من قائمين بحجته، وعاملين له بما يرضيه من طاعته.

عبر عن هذه الحال المذكورة قوله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على الإسلام والإيمان، وحذف ذكر الاختلاف، ثم قال: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ بقوله الحق، وهذا حق مؤكد للحق المحصل، والنظر والاختلاف الواقع فيه من أجل اختلاف الآراء يبينه الكتاب والنبوة كما قال جل قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]][٣] وعلى ذلك فإن الله لا يخلي أرضه من القائمين بحججه وعاملين له بما يرضيه، وكما لم يخل موضع الرسالة والنبوة والهداية من منافقين وكافرين ومكذبين.

ولما [طبق الكفر الأرض][٤] وعمها ظلامها إلا ما شاء الله بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب [والصحف والبينات][٥] كنوح وهود وصالح وشعيب، ثم موسى - صلوات الله وسلامه على جميعهم - إلى أن بعث إبراهيم عليه السلام حين ضل النُّظار [والمتفكرون يعلمهم][٦] كيف النظر، وأراهم ترتيب الاعتبار ومُنْبَعَثه، وإلى من هو المنتهى، فقرُب باليقين، وعلا بالعلم المكين، واطلع على ملكوت السماوات والأرض، وأتخذه الله خليلًا ثبت قوم [على][٧] نبوته، واتصل لهم ذلك بنبوة آدم عليه السلام، وهم قوم من البراهمة، [وأنكروا ما سواها من][٨] النبوة

(١) في النسخة (ق): «أي في».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) ما بين[ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.
(٤) في النسخة (ق): «أطبق الكفر على الأرض».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «فطفق عليه السلام يعلمهم».
(٧) في النسخة (ق): «على رسوم من».
(٨) في النسخة (ق): «وأنكر بعضهم».

فضلوا لذلك.

وأمة أخرى أخذت [مأخذ][(١)] النظر والاعتبار، [وكررت][(٢)] الذكر على الفكر، والفكر على الذكر وإن كانت لم تأثم بالأسماء [ولا شعرت بها؛ لسعة][(٣)] رحمة الله ﷻ [بها][(٤)]، وعموم مسالكها في العالم لم تكد [تخرج من][(٥)] حكمة موجودة فيها وبها، ثم كذلك إلى أن تهودت منها المبالي، وتقطعوا [زمرًا][(٦)] فيما بينهم كالمعهود من الأمم [البادية][(٧)]، فكيف بأولئك من ضلال وحيرة؟.

وربما كان في أثناء هذه الطرقات، وفي أعطاف [مرور][(٨)] هذه الأمم أفراد سابقة، وآحاد [وأنواع][(٩)] من الحق متمسكة، وقليل ما [أعقد][(١٠)] لهم لواء مملكه، وللمعهود من سنة الله جل ذكره، والموجود من [خصوصية][(١١)] من شاء من عباده، وربما أرسل إليهم رسلاً ونبَّأ منهم أنبياء، وربما جنت الأشكال وتعارفت الأنفس الذكية، واتصل الحق بالحق، وربما ظهرت [لهم][(١٢)] دولة بقطر من أقطار الأرض وإن غلب عليهم في أخرى، وربما غطى عليهم أهل الضلال وظهر عليهم ظلام الكفر، فربما أيضًا أزيلوا منهم هكذا، وهم على ذلك مرة يتفيئوا أمر الله فيهم وبهم، ومرة يقيمهم حتى أظهر دينه بالإسلام [ونبيه][(١٣)] ومحمدًا ﷺ، ثم لا يبعد أن يكون مثل ذلك بحيث لا ينتهي علمنا من معمور الأرض، وقد يطلع الشوك الزهر، وربما

---

(١) في النسخة (ق): «ما أتخذ».

(٢) في النسخة (ق): «وكورة».

(٣) في النسخة (ق): «إلا عن جنب من النظ ولسعة».

(٤) في النسخة (ق): «بالأسماء».

(٥) في النسخة (ق): «تخلوا أعني هذه الأمة عن».

(٦) في النسخة (ق): «زبرًا».

(٧) في النسخة (ق): «المهدية».

(٨) سقط من النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «بنوع».

(١٠) في النسخة (ق): «انعقد».

(١١) في النسخة (ق): «خصوصيته».

(١٢) في النسخة (ق): «له».

(١٣) سقط من النسخة (ق).

اجتنى منه الثمر، والله غالب على أمره.

وقال رسول الله ﷺ في المجوس: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**»(١).

ثم أجمع المسلمون على ذلك من أخذ الجزية منهم، وما ذاك إلا لنبأ عندهم، وأصلهم في نكاح القرابات المحرمات بالقرآن والحديث، وكذلك في التوراة والإنجيل [أزواج](٢) آدم ﵇ ذكر بطن من أنثى بطن آخر، وأنثى بطن من ذكر بطن آخر؛ وذلك لضيق المتسع يومئذٍ، ثم نسخ الله ﷻ ذلك، وذكروا - أعني: المجوس - أن أنبياء لهم قد سموهم، فإن كان ذلك كما قالوا فإنا نؤمن بما أنزل الله من كتاب، وبمن أرسل من رسول.

فصل

من وصف بعض [ذكر](٣) أنبياء هؤلاء - عليهم السلام - [من يقدم ذكرهم النبي ﷺ](٤) وذلك أنهم دلوا بعض ملوك اليونانيين على التماس [نبي؛ ليعلمه بأمر نزل به من مملكة، ويدله على الشفاء من ذلك الأمر، فدلوه على التماس نبي عصره؛ ليجمع له إلى علمهم، وما ينبئ عنه أنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في القواصي المقفرة، ويكون من فقراء عصره](٥).

قالوا: ولتكن رسلك إليه، ودليلك عليه من لانت سجيته وصدقت لهجته،

(١) أخرجه مالك (٦١٩)، والبيهقي (١٩١٢٥)، والبزار (١٠٥٦).

(٢) في النسخة (ق): «أنكاح».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «نبي عصرهم ليجمع له إلى علمهم ما ينبئ به النبوة وذلك لأمر حزبه، وهذا من وصف بعضه على الاختصار منا له، قالوا: كان هذا الملك قد بسط العدل في رعيته وبذل الإحسان فبطروا وكثر لأجل ذلك الخلاف حتى تناقضت عليه بعض أطراف دولته، فخرجوا عن عدله بجورهم وعلى إحسانه بإسأتهم فجمع لذلك أهل الرأي من مملكته واستفتاهم في ذلك، وقال: أشيروا عليَّ فدلوه على نبي ذلك الوقت ووصفوه له بما يأتي ذكره، وقالوا: إنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في القواصي المقفرة ويكون من فقراء عصره».

وكان [تطوعه][(١)] إلى الحق أحب إليه من الظفر به، فإن من استولى عليه هذا الوصف بينه وبينهم وصلة فدله عليه، [وليتقدموا][(٢)] إلى أصحابه في المسألة عنه؛ ليعلموا مسقط رأسه ومنشأه وسيرته، فإنك تجده زاهدًا في التعلم، راغبًا في الصدق، مؤثرًا للخلوة، بعيدًا [عن الخيلة][(٣)]، غير حظي من الملوك، ينسبونه إلى تجاوز حده، والخروج عما جرى عليه أهل طبقته يتأمل فيه الخوف وتخال فيه الغفلة، إذا تكلم في الأمر توهمت أنه عالم بأصوله، وليس [يعرف ما يلقى][(٤)] إليه به، وإذا سُئل عما يصدر عنه ذكر أنه يُلقى على لسانه وفي خاطره في اليقظة وبين النوم واليقظة ما لم [ترو فيه وإذا سألته][(٥)] عن شيء رأيته كأنه يقتضي الجواب من غيره، ولا يفكر فيه [تفكير][(٦)] القادر عليه والمستنبط له، فإذا وجدوه [فيستجمع لهم][(٧)] أعاجيب تظهر على لسانه ويده إلى ما تقرر من وصفه.

[قالوا][(٨)]: فلما وجدوه وجدوا معه نفرًا يسيرًا من الزهاد قد قعدوا عن الاكتساب، ومشايخ زمنى [أقعدهم][(٩)] الجهد وهو بينهم في منزل شعث، وحول المنزل جماعات من هؤلاء قد شغفهم جواره وأقعدهم عن الحظوظ التي وصل إليها غيرهم، وسألوه عن وقت خلوته فقالوا [لهم][(١٠)]: «ما له شيء يشغله عنكم» فدخلوا عليه فوجدوه مختبئًا بين جماعة قد غضوا أبصارهم من هيبته، فلما رآه النفر المرسلون إليه سبقتهم العبرة وغمرتهم الهيبة، فسلموا عليه فرد عليهم السلام ردًا

---

(١) في النسخة (ق): «رجوعه».
(٢) في النسخة (ق): «وليقدموا».
(٣) في النسخة (ق): «من الحيلة».
(٤) في النسخة (ق): «يعلم ما ترقى».
(٥) في النسخة (ق): «يرويه وإذا سئل».
(٦) في النسخة (ق): «تفكر».
(٧) في النسخة (ق): «فتستجمع لكم».
(٨) في النسخة (ق): «قال».
(٩) في النسخة (ق): «قد أخلقهم».
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

ضعيفًا [وهو](١) كالناعس المتحير، ثم زاد نعاسه حتى كادت [عيونه تنجلِ](٢) فلما تبين لمن حوله ما تغشاه غضوا أبصارهم ووقفوا [فوق](٣) المصلى، فقال: «يا رسل الخاطي» ثم كلمهم بحاجتهم، وكان مما كلمهم به أن قال: قولوا إنك غرست جنة وظللت وأرسلت إليها من الماء أكثر ما ينبغي إلى تمام مقالته، إن من حكمة الله جل ذكره أن فرد على عباده أنواع وظائف العبادات بحكمته في ذلك نشغلهم بذلك، يجتمعون على ذلك ويتفرقون عليه وليرفع بذلك عنده درجاتهم في الآخرة.

وكان هذا الملك أحسن إليهم في متاع الدنيا، ولم يكن له علمًا بما يجلبه إليهم من خير الآخرة فبطروا على ذلك، وقد كان سقى على السائلين له، وأن يسترشده فيعرفهم معنى المثل الذي ضربه لهم في ذلك، وكيف ينبغي إصلاح ذلك؟ فلعله أن تأمرهم بأن يضرب على العباد وظائف عبادة الله من صيام وصلاة وحج وذكاة وصدقات، وضروب أذكار ولزوم مخافة الله واستشعاره خشيته، ونصيحة للمؤمنين وللإمام ولعامتهم وخاصتهم ولجهاد في سبيل الله من لم يؤمن بالله وبرسله، وترك هذا أوجب التقاتل من المسلمين بقدر ما انتقصوا من ذلك فالله المستعان، فهذه حكمة الله التي يسوس بها عباده ويقمعهم بالتزامها عن توثب بعضهم على بعض.

وذكروا أن امرأة حاكمت زوجها إلى بعضهم في تلك الأمة فأصابته مشغولاً بالتقديس - يعني: الصلاة - فانتظرته مع زوجها حتى فرغ، ثم قال [لها](٤): يا جاهلة، بمقدار ما جنته على نفسها اعترفي بذنبك واعلمي زوجك بجنايتك عليه، فإن السكران الذي واقعك في ليلة كذا وزوجك قائم في الهيكل يدعو لكي بدوام البقاء والسلامة قد أحبلك، [ظننت](٥) لما استترت عن أعين البشر لم تبقَ عين تراعيك، ولم تعلمي أن في ملكوت السماء منها ما لا يحصى عدده، وأنت فيهم

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «حبوته تنجبل».
(٣) في النسخة (ق): «وقوف».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «وأنت متهومة وإنك».

[كالمكفوفين][(١)] المبصرين، وستلدين بعد شهرين خلقًا مشوهًا. ثم قال للزوج: «عقدت نكاح هذه المرأة على غير استقامة فحصدت منها أكثر [مما][(٢)] زرعته» فولدت شخص إنسان له رأسان ويدان في صدره صغيرتان.

وذكروا أن رجلاً وافاه فقال له: يا نور الألباب، إني دفنت مالاً في موضع من منزلي [ونسيت][(٣)] مكانه، فقام معه وجاء إلى منزله فأثاره، [ثم][(٤)] قال: «أيها الممتحن إلي والشاك فيَّ، إنه لا بد أن يتلف منك ما آثرته لك من المال في هذا الأسبوع، ثم لا أستخرجه لك بعدها، فإن حقًّا على من لعب بنعم الله أن يسلبه إياها» فذهب المال.

فصل

وذكروا أن شدة حلت في بعض هذه الأمم، وحربًا احتيج فيها إلى إخراج رجل من أفاضلهم.

قالوا: وكان طاهر السجايا، حسن التمكن من علوم النفس، فرجع وقد أثخن جراحًا، قال بعض أصحابه: «فدخلت عليه وأنا أتوهم أنه لا يميز، فألفيته في تميزه صحيحًا، وكان يغمى عليه ساعة فيكون بمنزلة المستثقل في نومه، ثم يفتح عينيه فيتكلم ببعض أدعية الصحف ويشخص إلى جهة السماء، فقلت: ما الذي ترى؟ فقال: أرى خلاص النفس من الجسد، وأجد راحة [لم][(٥)] أجدها في المحيا. فقلت [له][(٦)]: زدني في شرحك إن أطقت ذلك. فقال: [أراني][(٧)] وكأني ولدت وعلى كتفي شيء ثقيل، فكان يكبر بزيادة سني حتى إذا كان في هذا الوقت وجدت له

---

(١) في النسخة (ق): «كالمكفوفة من».
(٢) في النسخة (ق): «ما».
(٣) في النسخة (ق): «وأنسيت».
(٤) في النسخة (ق): «و».
(٥) في النسخة (ق): «لمن».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «أرى».

[جفاءً][(١)] شديدًا، وصرت أتأمل [الأشياء][(٢)] بما هو أفضل من عين الجسد، وأنا أرى عمودًا متصلاً بالأثير من نوره، ونفوس أهل الزيغ لا تقطعه، وتتحامى نوره إلى ما حوله كما تفعل الخفافيش.

ثم قال: طوبى لذوي الأمانة والصدق؛ فإنهم في أمن. ثم زفر فقلت له: ما لك؟ فقال: «[إني][(٣)] قد أشرقت على الفرج من الجسد، إلا أن قوة في قلبي تحبسني عنه، تجذبني إلى الحياة وأنتم تعينونها بطيب الأرايح [الشائقة][(٤)] في هذا الموضع، وأنا بينكم كرجل مطلق بين مصفدين يريدون مقامه معهم في حبسهم، وقد تراءى له الخلاص منها. ثم عاد إلى دعاء الصحف، فمازال يتلوه حتى ثقل لسانه وخفي كلامه [بالصعق][(٥)] وقضى نحبه، فهؤلاء أنبياء وأفاضل ومن أتباعهم».

وقد فرقوا ما بين الشريعة والسياسة، وذكروا الصلاة وركوعها وسجودها وقيامها، والصيام ومنبعثه، والصدقة والمكرمة والذبائح، والحدود في الزنا [والسرق][(٦)]، والزهد في الدنيا، والإخلاص، وحذروا من [الربا][(٧)] والخيانة وأكل الحرام، وذكروا القود والإيمان وحسن السيرة والمواريث والنكاح والغسل، وأنه واجب، وبر الوالدين، والفرق ما بين [ما][(٨)] للوالد على الولد وبين ما للولد على الوالد، والدين والأعياد، فما قصروا كثيرًا، [ما][(٩)] وكان كلامهم على ذلك كله بما لا بأس به إلا قليلاً من كثير، وربما كان تصديقًا بقوله الحق في الغالطين منهم: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] على وجهتيه.

---

(١) في النسخة (ق): «خفًّ».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «الشائعة».
(٥) في النسخة (ق): «بالضعف».
(٦) في النسخة (ق): «والسرقة».
(٧) في النسخة (ق): «الزنا».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) سقط من النسخة (ق).

فصل

ومن نوادر حكمهم [قول أحدهم][(١)]:

- من غلب عقله هواه افتضح.
- من غضَّ طرفه أراح قلبه.
- أيها الإنسان، إذا اتقيت ربك وحذرت الطريق المؤدية إلى الشر لم تقع في الشر.
- لا تلم القضاء فيما جنيت.
- شر يُدفع خير من خير لا ينفع.
- لا شيء أشد من ترك الشهوة.
- تحريك الساكن أيسر من تسكين المتحرك.
- من لزم الوقار لزمه الرضا.
- من قل وفاؤه كثر أعداؤه.
- أحسن إن أحببت [أن][(٢)] يحسن إليك.
- بالهمم العالية [والقرائح][(٣)] الزاكية تصل القلوب إلى نسيم العقل الروحاني، وترقى في ملكوت الضياء والقدرة الخفية عن الأبصار المحيطة بالأقطار، وترتقي في رياض الألباب المصفاة من الأدناس، وبالأفكار تصفو أكدر الأخلاق المحيطة بأقطار الهياكل [الجسمانية][(٤)]، فعند الصفو ومفارقة الكدر تعيش الأرواح التي لا يصل إليها الانحلال والاضمحلال، فحينئذٍ يلحق العنصر بالعنصر، ويتحد الصفو بالصفو، ويرسب الكدر إلى الكدر، فتعاين القلوب حقائق الغيوب، وتطمئن النفوس إلى ما لحقت به من العالم المعلوم لحسن الأفكار، [وباعتناق][(٥)] الأشكال واتفاق

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «والقريحة».

(٤) في النسخة (ق): «الجسمية».

(٥) في النسخة (ق): «وباتساق».

الأهواء كيف تركن القلوب إلى علم الغيوب وقد حجب عنها صواب المصيب؟ بل كيف يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب [من الفكر؟ كيف](١) تلحق الأفكار غوامض الأسرار وهي في حجب الاغترار؟ [تتأهب](٢) الأهواء إلى معادنها، وقويت الهمم [في](٣) مواطنها، وعادت الأفكار إلى عناصرها، ورجعت مستكنات الفطن إلى مستكناتها، وعاليات الأذهان إلى مظانها وأماكنها، [فانحازت](٤) الأشكال بلطيف تأثير الهواء فيها، واستكنت مشرفة على هياكلها من أوطان عناصرها [بلمحة](٥) قبول بشواهد الأسرار تلج الضمائر في بحار الأفكار، فتصل إلى نسيم [الهوى الواصل إلى](٦) عوارض العقول والأبصار، [وعرائض](٧) الألباب والأذهان، فتقبل [الهوى ويتواصل](٨) اللحاق بمضمرات الغيوب، ويتصل بالمطلوب الأعلى الذي فيه [التقاء](٩) النفوس في ظل السحاب المحسوس، كيف الاتحاد بخفيات الأضداد؟ والعلم بشواهد الآثار المحتجبة عن العقول والأبصار الشاهدة لخفيات الإضمار حتى تعلقت [الأزواج بالأزواج](١٠) وامتزجت الأجناس بالأجناس، وخلصت في [سراح](١١) الأوهام، وانحسرت في مفيض العقل، وبانت من كدر العذاب، وتميزت من مواطن الحجاب إلى بحبوحة الألباب، فيا لها نعمة ما أتمها وأعمها وأهنأها وأسلمها.

---

(١) في النسخة (ق): «الفكر بل كيف».

(٢) في النسخة (ق): «تناهت».

(٣) في النسخة (ق): «من».

(٤) في النسخة (ق): «وانجازت».

(٥) في النسخة (ق): «بصحة».

(٦) في النسخة (ق): «الهواء الواصل».

(٧) في النسخة (ق): «وغوائض».

(٨) في النسخة (ق): «الهواء الواصل إلى القلوب وتتواصل».

(٩) في النسخة (ق): «بقاء».

(١٠) في النسخة (ق): «الأرواح بالأرواح».

(١١) في النسخة (ق): «سراج».

ومن [مقطفات][(١)] حكمهم:

- الحكمة حياة النفوس، وزراعة الخير في القلوب، ومثمرة الحظ، [وحاصدة الغبطة][(٢)] وجامعة السرور، ولا يخبو نورها، ولا [يكبو][(٣)] زنادها.

- الحكمة حلة العقل، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة [الأدب][(٤)] ومنزاح الهموم على الأنفس، وأمن الخائفين، وأنس المستوحشين، ومتجر الراغبين، وحظ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والآجل.

- كل شيء يتهيأ فيه حيلة إلا القضاء.

- ليس شيء أقرب إلى تغير النعم من الإقامة على الظلم.

فصل

في نفي التشبيه والتمثيل

اللواحق الخفية هي ما لا يدرك بحاسة العيان والأسماع واللمس والفكر، فالنكول عنه بيّن، والعجز عن مداه واضح، كيف يدرك بالحس غير محسوس؟ أم كيف [تبلغ الفكر][(٥)] ما لا يعرف أمره ولا الطريق إليه؟ حسرت الأبصار عن إدراك الغيوب، ورجعت الأفكار عن الوصول، وانقطعت المعارف دون التناهي من عجز عن علم نفسه، فهو أعجز عن علم غيره، ومن ضاق عن سعة الفضاء قصر عن بلوغ المدى، وعن معرفة الانتهاء حقائق خفية توجب أحكام صنعة وتلزم القصور عن إدراك ذلك بالعقول والأبصار، وإنما يرتقي إليه وهمًا لا تحقيقًا ويعلم به تفكرًا لا نظرًا.

وربما وقع [الفكر][(٦)] على معدوم والفكر على غير مفهوم حقائق الأشياء تظهر

---

(١) في النسخة (ق): «مقطعات».

(٢) في النسخة (ق): «وزراعة الغبط».

(٣) في النسخة (ق): «يكمن».

(٤) في النسخة (ق): «الآداب».

(٥) في النسخة (ق): «مبلغ».

(٦) في النسخة (ق): «الوهم».

عند الوصول إليها، وتتعلق الأرواح بها، فإذا تناهت إليها وقفت عندها فتألفت ودخلت معها في جملتها.

جوابه: إنما يكون [عند][(١)] مباينة اللطيف الكثيف، وتبيين الغائب بالشاهد، واتفاق المعدوم مع الموجود، [والاتحاد][(٢)] إنما هو للأرواح لا للأجساد، فإذا تباينا اتصلا، وإذا تفرقا ائتلفًا، فلحق اللطيف باللطيف، ورجع الكثيف [إلى][(٣)] الكثيف، آمالنا متناهية إلى حد تقف عنده، وأفكارنا جائلة في سعة [تحسر][(٤)] عن إدراكها وتعجز عن الإحاطة بها، لطفت عن الحس، وكثفت عن الدخول في غلظها، فالعقول متناهية إليها، والأفكار واقفة دونها، والخواطر متعلقة معترفة بالتقصير عنها، [شاهدة لحقائقها][(٥)]، ممتنعة عن العلم بها من عرف الدنيا، لم يفرح لرخاء ولا يحزن على بلاء، أجهد بدنك اليوم لراحتك غدًا، أقْصَدُ السيرة طيب [الذكر][(٦)] المكسب، وتقدير الاتفاق.

وكتب بعضهم إلى ملك زمانه، وقد مات ابنه: إن الله تبارك وتعالى جعل الدنيا دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فيأخذ ما يأخذ مما يعطي ليعطي [ويبلي][(٧)] إذا ابتلى ليجزي الذنوب الفاضحة تذهب الحُجج الواضحة، اعقلوا في ستر من أنتم، فإن كنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا، وإن كنتم لا تحسنون أن تحذروا الدنيا فاجعلوها شوكًا، وانظروا أين تضعون أقدامكم، واحذروا أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بالشهوات محجوبة عن الله ﷻ، من أراد أن يقوى على طلب الحكمة [فيكف][(٨)] عن تمليك النساء نفسه، لا ضرر أضر من الجهل، ولا شر أشر من النساء، من كانت الدنيا عنه سائرة فلا شك أن أعضاءه فانية، ومهجته عن الدنيا

---

(١) في النسخة (ق): «بعد».
(٢) في النسخة (ق): «فالاتحاد».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «تنحصر».
(٥) في النسخة (ق): «شاهد بحقائقها».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «ويبتلى».
(٨) في النسخة (ق): «فليكف».

راحلة، من حسن خلقه غفر ذنبه وأقيلت عثرته، ومن ساء خلقه عوقب في حياته، ولم يصفح عن زلته بعد مماته، [إنما][(١)] الدنيا وإن رمقت خطرة من لحظ ملتفت يحسن بالمرء التعلم مادامت [به][(٢)] الحياة.

وقال بعضهم: ما أحب أن النفس علمت كل ما [أوجدت][(٣)] به، فقيل له: لِمَ أيها الحكيم؟ فقال: لأنها لو علمت لطالت، فلم ينتفع بها ما عندي من فضيلة العلم إلا علمي بأني لست بعالم الاتكال على القضاء أروح، وقلة الاسترسال إلى الناس [أحزم][(٤)]، إذا هرب الحكيم من الناس فاطلبه، وإذا طلبهم فاهرب منه، ليس ينبغي للرجل أن يشغل قلبه فيما ذهب منه، لكنه ينبغي أن يعنى بما يبقى عليه.

وإنما اجتلبنا بعض حكمهم وكلامهم، وأومأنا إلى بعض الإشارة [إلى سيرتهم][(٥)]، وإن كان الأكثر منهم لهم آراء في [طريق المعرفة غير ناهية][(٦)]، وعقود غير مبلغة إلى [المطلوب][(٧)]، وعلم بالدار الآخرة غير مصيب، فلم يكن الغرض في اختلاف [أقاويلهم][(٨)] التصويب لأكثرها، ولا ترشيد جملتها، بل لم تكمل الهداية إلا لهداة المسلمين، ولا تصورت الحكمة صورة ماثلة، فلاحت كالسبيل السابلة إلا لأئمة المتقين في الأولين والآخرين، لكن الغرض توجيه قوله الحق: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ...﴾ [الأعراف:١٨١].

فأنت مع توفيق الله إذا تصفحت أمرهم واستعرضت أكثر قولهم علمت أن توجيه قوله ﷻ يمكن أن يكون المعني به هذه الأمة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُون

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «أوعدت».
(٤) في النسخة (ق): «أجزم».
(٥) في النسخة (ق): «من سيرهم».
(٦) في النسخة (ق): «طرق المعرفة غير متناهية».
(٧) في النسخة (ق): «مطلوب».
(٨) في النسخة (ق): «أقولهم».

بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحق [المبثوث][1] في العالم المنفصل [من][2] مقتضى أسماء الله ﷻ مع هداية من أنبأ مبلغ إليهم، وبالحق يعدلون؛ [أي][3]: عن الحق، والله أعلم [بمراده وحكمه][4].

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٣ - ١٨٦].

قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[5] [الأعراف:١٨٤] خاطب جل ذكره الرسول ﷺ والمرسل إليهم، وأعلم بذلك أنهم كانوا [يدركون العلم بصحة نبوته إليهم وتصديق رسالته، وأنه نذير وبشير بالتفكر والنظر][6].

---

(١) في النسخة (ق): «المثبوت».

(٢) في النسخة (ق): «عن».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) قال الحسن وقتادة: سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ صعد ليلاً على الصفا فجعل يدعو قبائل قريش: يا بني فلان، يا بني يحذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى، فقال بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون بات يصوّت حتى الصباح، وكانوا يقولون : شاعر مجنون، فنفى الله ﷻ عنه ما قالوه، ثم أخبر أنه محذر من عذاب الله، والآية باعثة لهم على التفكر في أمر الرسول ﷺ وانتفاء الجنة عنه، وهذا الاستفهام قيل: معناه: التوبيخ، وقيل: التحريض على التأمل والجنة كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦] والمعنى: من مس جنة أو تخبيط جنة. وقيل : هي هيئة كالجلسة والركبة أريد بها المصدر؛ أي: ما بصاحبهم من جنون، والظاهر أن «يتفكروا» معلّق عن الجملة المنفيّة، وهي في موضع نصب بـ«يتفكروا» بعد إسقاط حرف الجر؛ لأن التفكر من أعمال القلوب فيجوز تعليقه، والمعنى: أو لم يتأملوا ويتدبروا في انتفاء هذا الوصف عن الرسول فإنه منتفٍ لا محالة، ولا يمكن لمن أنعم الفكر فيه نسبة ذلك إليه. تفسير البحر المحيط (٦/١).

(٦) في النسخة (ق): «يذكرون العلم بصحة نبوة نبيهم والتفكر والنظر فيعلمون بذلك تصديق رسالته وأنه نذير وبشير».

ثم قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ١٨٥] أخبر الصادق [الحق][1] ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، أن [الفكر][2] في النبوة والنبي خاص لها، وأن التفكر في الملكوت وما خلق الله من شيء تحتاج إلى نظر آخر، وإن الفكر ليجري فيما دق أو جلّ فيرتفع؛ [أي][3]: يملأ الآفاق، ويبلغ العرش العظيم، وينزل [سفلاً][4] إلى أسفل السافلين، دل على [هدايته من الآية][5] بمجاورتها أيضًا بقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٨١ - ١٨٢] وبانتظامها بقوله جل قوله: ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

ودلَّ بذلك أن بعلم الأسماء يدرك علم [التوحيد وعلم][6] براهين النبوات، وهو المنتظم لمعرفة الملكوت، وجمعت هذه الآية مطالب العلوم كلها على العموم الأقصى، وأعلمت بمناهج الفوز الأكبر والفلاح الأعلى، وذلك أن الوجود كله [في][7] العالم والوحي إنما يدور على التعريف بالله ﷻ بأسمائه وصفاته، والإعلام بموجودات الآخرة، والاستشهاد على ذلك بالشواهد وإقامة البراهين، استشهاد البينات والآيات على ذلك، وكذلك التعريف بعدله وأحكامه وكلماته وسننه المتممة لكلماته، ثم التعريف بمعالم الرسالة والنبوة، وتبيين ذلك وشواهده ودلائله، وتبيان ما أنبأت به الرسل، وما جاءوا به من [الكتب][8] والآيات، ومناهج القصد والقرب إلى الله ﷻ، وما دار حول هذا وما آل إليه، ثم بما يجب على العبد من التهيؤ للقاء الله ﷻ، والتشوق إليه ورجائه وخوفه والحذر منه، إلى غير ذلك من دلالات

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «الفكرة».
(٣) في النسخة (ق): «حتى».
(٤) في النسخة (ق): «سفله».
(٥) في النسخة (ق): «هذا نص الآية».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «الكتاب».

[الوجود من](١) العالم والوحي.

ومعرفة علم الأسماء، وهو مدار [قطب](٢) ذلك، وفيه الشأن كله من تحقق علم التوحيد، ومعرفة أسماء [الواحد](٣) وصفاته، ومعرفة مسالك أحكامه بالعدل في بريته، وقيامه بالقسط في خليقته، وكيف هو يحيي ويميت وهو في حال الإماتة يحيي وفي حال الإحياء يميت؟ وكيف يمسك السماوات والأرض أن تزولا وما [بين](٤) ذلك وما علا وماسفل؟ والجملة بأسرها جملة وتفصيلاً، وهو في حال الإمساك [يرسل](٥) كما هو في حال الإزالة يمسك ملأ كل شيء وجودًا وذم كل وجود ملكوتًا.

فصل

اعلم أن للأسماء سلطانًا قاهرًا على الجن ليس [ذلك](٦) للإنس، فإنَّا معشر الإنس المؤمنين وإنا كنا لا نستحل حلالاً إلا بها، ولا نشرع في عمل ولا نختمه إلا بالتبرك والتعوذ بها، ولا نستعيذ من مكروه، ولا نتحذر من محذور، ولا نتوصل لمرغوب، ولا نرغب إلى الله ﷻ، ولا نعبده ولا نتحرك، ولا نسكن إلا بها، وكذلك لا ننام ولا نستيقظ، ولا نتقرب بقربان، ولا ننسك نسيكة، ولا نستحل ذبيحة، ولا نطعم ولا نشرب، ولا نموت ولا نحيا إلا بها استشعارًا؛ [لنتذكر](٧) بها، وهذا كله أعني عمل الأسماء فيما تقدم ذكره في حقنا عيب؛ لأنه تعبد وجزاء، والجزاء في هذه العاجلة [عيب](٨) ليس كذلك الجن.

(١) في النسخة (ق): «الوجودين».
(٢) في النسخة (ق): «طالب».
(٣) في النسخة (ق): «الموحد».
(٤) في النسخة (ق): «من».
(٥) في النسخة (ق): «يزيل».
(٦) في النسخة (ق): «كذلك».
(٧) في النسخة (ق): «للتذكر».
(٨) في النسخة (ق): «غيب».

قال رسول الله ﷺ وقد سألوه الزاد [لكن][1] «**كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**»[2] [سؤالهم الزاد هو معرفة ما يحل لهم، وما يأخذون وما يذرون؛ أي: ما يحل لهم مما يحرم عليهم، وهو الزاد للآخرة][3].

وكما حرم الله جل وتعالى على كافريهم استباحة كل عظم ذكر اسم الله عليه كذلك حرم على مؤمنيهم استباحة كل ما لم يذكر اسم الله عليه، وكون كل بعرة علفًا لدوابهم باب فُتح إلى معالم غيوب لمقدورات غائبة، منبعث ذلك كله عن [أسماء][4] الله ﷻ، فأسماؤه إذًا أجل شيء نفعًا وأعوده عائدة، وهي موجود الله جل ذكره الطاهر في هذه الدار، ويتحقق ذلك بموجود مقتضياتها، فلذلك وهو أعلم أعقب بهذه الآية التي ذكر فيها الأسماء.

ألا ترى كيف أتبعها قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢].

ثم أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف:١٨٤] وذكر [الثلاثة الأصناف][5] من التذكر التي لا ينبغي لمؤمن عاقل أن يعمل فكره إلا فيها أو في أحدها.

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦] فمن ضيع عمره جهلاً وغفلة، واستنفد أيامه مرحًا وبطالة ولاه ما [تولاه][6] وتركه، وما رضي لنفسه.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ

(١) في النسخة (ق): «لكم».
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «اسم».
(٥) في النسخة (ق): «الأصناف الثلاثة».
(٦) في النسخة (ق): «تولى».

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧ - ١٨٨].

قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...﴾[١] [الأعراف:١٨٧] لم يكل تجليتها إلى ملك ولا إلى غيره، ثقلت في السماوات والأرض يمكن أن يكون ثقلها لأجل الجهل بها، وعدم العلم بمتى هي كائنة، ويمكن أن يكون [ثقلها زائدًا][٢] إلى ذلك من أجل شدة ما يجيء به، [فثقل][٣] من أجل ذلك ذكرها في السماوات والأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧] استأثر بإثارتها والعلم بمتى تكون، وقد قيل: معنى الكلام: ثقلت في [أهل][٤] السماوات والأرض فيكون قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٧] مجازًا لأجل نقصان العلم بشهادتها، والجهل بها والكلام على حقيقة لا طريق [له][٥] للمجاز إليه، كما ثقلت على أهل السماوات والأرض كذلك ثقلت فيهن، أليست [تبدل][٦] بغيرهن كما قال عز من قائل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]. [وذلك لهن بمنزلة الموت لكل ذي نفس][٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**وما من دابة إلا وهي مُصِيخَةٌ يوم الجمعة إلى أن تطلع**

---

(١) أي: متى إرساؤها؛ أي: إقامتها، يريدون: متى يقيمها الله تعالى ويكونها ويثبتها، فالمرسي مصدر ميمي من «سار» بمعنى: ثبت، ومنه الجبال الرواسي، وحاصل الجملة الاستفهامية: السؤال عن زمان ثبوتها ووجودها، وجوَّز أن يكون المرسى بمعنى المنتهى؛ أي: متى منتهاها ومستقرها؟ كما أن مرسي السفينة حيث تنتهي إليها وتستقر فيه، كذا قيل، وتقدير الاستفهام بـ«متى» يقتضي أن المرسى اسم زمان. تفسير الألوسي (١٦١/٢٢).

(٢) في النسخة (ق): «زائدة».

(٣) في النسخة (ق): «فيثقل».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «تبدلن».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

الشمس فرقًا من الساعة»[١].

وجاء: «إن ما من حجر ولا مدر إلا وله بكاء ونياح حتى تقوم الساعة»[٢] والكلام على ظاهره.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] وصف - جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - عظيم اقتداره على بداية الخلقة، ثم على إثارة الساعة والإتيان بالانقراض الذين تكون الإعادة عند وجودهما، ثم أعلمنا عز وجل أن الواحد تكون عنه الكثرة بقوله جل قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ كما قال جل من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [ثم قال][٣]: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [الروم:٢١].

فوجه وجه الخطاب إلى ذكر القدرة، ثم إلى ذكر الوحدانية، وأن الكثرة عن الوحدة موجودة، وأن الذوات إنما يكون سكنها إلى ما هو عنها أو هي عنه، ثم عدل بالخطاب إلى مثل فيه الإعلام كيف وجد عن الهداية الضلالة؟ وكيف خلف الذكر الفتنة.

---

(١) أخرجه مالك (٢٤١)، وأحمد (١٠٣٠٨)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٩١)، والنسائي (٦٣١)، وابن حبان (٢٧٧٢)، والحاكم (١٠٣٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٥٧٩٨)، والضياء (٣٩٥)، والشافعي في «المسند» (٧٢/١)، والطيالسي (٢٣٦٢)، وأبو يعلى (٥٩٢٥).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سقط من النسخة (ق).

وقال جل قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: على الهداية والذكر والإسلام والهداية لله ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ [الأعراف:١٨٩] أي: كثرة النسل والنشر اشتركوا مجاز ذلك أن آدم ﷺ كان قد أوجده الله واحدًا فردًا، ثم خلق له من نفسه زوجها وهي حواء، فلما تغشاها حملت [في بطنها](١) حملاً خفيفًا، فلما قاربت أثقلت، وكان ذلك مثلاً ضربه [الله](٢) لبني آدم، قبل أن يكثرو. وكانت الهداية فيهم أكثر، ومع الكثرة وفشو الذرية كان الاختلاف والضلال.

وعبر بالخفة عن القلة [والخلاف عن الكثرة وما يكون عنها من تشتيت الآراء. وعن الهداية وبالثقل والخلاف](٣) فكان النسل [أول](٤) زمان آدم، والأئمة الراشدون بعده في تأويل حملها في أوله [في](٥) حال خفته عليها، فلما أثقلت بكثرة النسل وانتشاره وقد كانا - أعني: آدم وحواء - دعوا الله ربهما في إصلاح ذريتهما، فكانت الإجابة موجودة من الهداية المعبر عنها بخفة الحمل فعند الكثرة والانتشار المعبر عنه بثقل الحمل، وكان الإشراك بالله ﷻ عما يشركون، فأتى بلفظ الجمع فليس بمصيب في قوله: من قال إن المراد بظاهر هذا الخطاب [هو](٦) آدم وحواء - عليهما السلام - ولو كانا قد أشركا بالله كما قال: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠] وحاش لله لكان في ذلك الهلاك؛ [إذ كبر](٧) ولم يكن الذنب الكائن في الجنة عند هذا المذكور إلا بحكم العموم، كما قال عز من قائل: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وإنما كان الإشراك في الذرية [بما](٨) أكثرت الحملة وأثقلت [﴿أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ﴾ [الأعراف:١٨٩]](٩).

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٤) في النسخة (ق): «أولاً».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «الأكبر».

(٨) في النسخة (ق): «لما».

(٩) سقط من النسخة (ق).

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠ - ١٩١] أدل دليل على إغفال هذا القائل؛ إذ لو كان على ظاهر ما قاله لقال: «فتعالى الله عما [يشركان][1]، أيشركان ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون».

وقد ذكروا على ذلك حكاية منع التخرج من سياقها، وذلك مما اتبعته الشياطين شأن آدم ﷺ وهذا من مشتبه الكتاب الذي أمه ما جاء من التعزير لهم والتوقير، على أنه من [حدق][2] ببصيرته ونبذ ما يجب نبذه من أقوال ومذاهب لا دليل عليها أبصر الحق أبلج منيرًا فاهتدى ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٣ - ١٩٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[3] المعنى إلى آخره: معناه عباد مربوبون مخلوقون ضعفاء، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ثم قال جل قوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: دعاية العبيد الأرباب ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [بدأكم][4] ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤] في وصفكم لهم إنهم أرباب شركاء.

---

(١) في النسخة (ق): «يشركون».

(٢) في النسخة (ق): «حذق».

(٣) أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد لله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء تنطقون وتمشون، وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره، وفي هذا تقريع لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم. فتح القدير (١٣٧/٣).

(٤) في النسخة (ق): «بذلكم».

[وقرأ](١) سعيد بن جبير: «إن الذين» بكسر النون وتخفيفها؛ لالتقاء الساكنين «تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم» بالنصب [هنا](٢) فيهما، يقول: ما الذين تدعون من دون الله بعبادًا أمثالكم يريد: أنتم أكمل منهم وأتم وجودًا وخلقة إن هي إلا حجارة وأصنام وخشب؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ [وقرأها](٣) أبو جعفر برفع الطاء ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:١٩٥] هذا من معجزات الرسل صلوات الله على جميعهم، كذلك قال نوح وهود عليهما السلام: تتخذون الملوك المسلطين والعتاة الكفرة الجبارين ومع ذلك فلا يصلون إليهم [بمكروه](٤).

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦ - ٢٠٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] هذا نص منه جل ذكره على تولية الصالحين من عباده فليبشروا أنفسهم، وقرئت ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ...﴾ بياء [مسندة](٥)، وخفض الهاء من الاسم على الإضافة؛ يعني: جبريل ﷺ، هذا الخطاب وجميع ما جاء في القرآن من معناه راجع إلى قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] ولما لم يذكروا [ما أحدث لهم بالرسول والكتب ذكرى

---

(١) في النسخة (ق): «وقرأها».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وقرأ».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «مشددة».

تنفع][1] بالذكر من شاء ويتجنبها الأشقى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: ٢٠١ - ٢٠٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبصِرُونَ﴾[2] [الأعراف:٢٠١] [وقرأ][3] ابن جبير: «**طيف**»، [وقرئت: «**طائف**»][4]، وقرأها ابن الزبير: «**تأملوا**» مكان قوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ وفي قراءة أبي: «**إن الذين اتقوا إذا طاف بهم من الشيطان طائف تأملوا**» هذا تعليم من الله جل ذكره العبد كيف يكون عندما يلقي الشيطان إليه الفتنة، [يتذكر][5] قوله جل قوله: ﴿الشَّيطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ...﴾ [البقرة:٢٦٨].

[وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥].

---

(١) في النسخة (ق): «أحدث لهم بالرسل والكتاب ذكرًا فنفع به».

(٢) النزغ من الشيطان أخفّ من مس الطائف من الشيطان؛ لأن النزغ أدنى حركة، والمس: الإصابة والطائف: ما يطوف به ويدور عليه، فهو أبلغ لا محالة، فحال المتقين تزيد في ذلك على حال الرسول، وانظر لحسن هذا البيان حيث جاء الكلام للرسول كان الشرط بلفظ «إن» المحتملة للوقوع ولعدمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيء بـ«إذا» الموضوعة للتحقيق أو للترجيح، وعلى هذا فالنزغ يمكن أن يقع ويمكن ألا يقع، والمسّ واقع لا محالة أو يرجح وقوعه، وهو إلصاق البشرة، وهو هنا استعارة، وفي تلك الجملة أمر له ﷺ بالاستعاذة، وهنا جاءت الجملة خبريّة في ضمنها الشرط، وجاء الخبر «تذكروا» فدلّ على تمكن مسّ الطائف حتى حصل نسيان فتذكروا ما نسوه، والمعنى تذكروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه، وبنفس التذكر حصل إبصارهم فاجأهم إبصار الحقّ والسداد فاتبعوه، وطروا عنهم مسّ الشيطان الطائف، و«اتقوا» قيل: عامّة في كل ما يتقى، وقيل: الشرك والمعاصي، وقيل: عقاب الله. تفسير البحر المحيط (٦/٢١).

(٣) في النسخة (ق): «وقرأها».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يتذكرون».

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ...﴾ [الأعراف:٢٩].

وقوله جل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾ [النحل:٩٠].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] إلى آخر الثلاث الآيات][١].

وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ [الإسراء:٣٩].

[وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ...﴾ [النحل:٩٠]][٢].

أي: عندما يطوف طائف العدو [فلا تذكر العبد أبصر ذلك الطائف تعلمه][٣] من أي الجنتين هو، فإن كان مما هو لله جل ذكره فهو من الملك، وإن كان [من أمر الفحشاء][٤] أو منكرًا أو بغي أو ما يكون من المذموم فهو من الشيطان، فإذا ميز ما بين اللمتين وتحقق حقيقة ما ألقي [إليه][٥] فقد أبصر، فعليه إن كان من الشيطان [أن][٦] يقصر ويرجع مستغفرًا متعوذًا، وإن كان من الملك فليعزم على ما فيه حظه، [وما قد][٧] تبين له فيه رشده؛ لذلك قال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٢] أي: يزيدونهم من الإغراء والإغواء فيقتادونهم بمقاداتهم.

---

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف في النسخ.

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فإذا تذكر العبد ذلك الطائف بعلمه».

(٤) في النسخة (ق): «أمرًا بفحشاء».

(٥) في النسخة (ق): «عليه».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «وقد».

وقرأ الجحدري: «**يمادونهم**» [تماديتهم بضم الهاء وبالألف][(١)]، وهم على ضروب يجمعها ضربان عالم بما هو فيه لا يقصر، بل يمضي على إغماض منه على جهالته وإعراض عما ذكر به ومزين له، [فدخل][(٢)] في درك التزيين له سوء عمله، وذلك عقوبة له من أجل إعراضه عما ذكر به، فهذا مما قال جل قوله فيه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٧].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ...﴾ [فصلت:٢٥].

ذلك الذي قد فارقه [الملك بالتوفيق][(٣)] والتذكير، وصم قلبه عن عظة الله ﷻ فيه، وقارنه الشيطان ووليه الخذلان والتزيين، وهو لا يرى غير ما هو فيه، حجب عنه الرشد، وغلب عليه الغي، فهذا هو الميت، لا [يجيء][(٤)] إلا عند الموت، والنائم لا يوقظه إلا ملائكة المنون يقول إذ ذاك لقرينه: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨] نعوذ بالله من الخذلان وسوء القرين.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤ - ٢٠٦].

أتبع ذلك [قوله تعالى][(٥)]: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ...﴾ [الأعراف:٢٠٤] [هو مما انتظم بقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣] أرجع معنى الخطاب إلى قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣] المعنى.

---

(١) في النسخة (ق): «يمادوهم بضم الياء والألف».

(٢) في النسخة (ق): «فتدخل».

(٣) في النسخة (ق): «التوفيق».

(٤) في النسخة (ق): «يحيا».

(٥) سقط من النسخة (ق).

قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف:٢٠٤]][1] هو مما انتظم بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف:١٧٠] وفي قراءة أبي: [«مسكوا بالكتاب»][2] معنى هذه القراءة:[والله أعلم][3] والذين قاربوا بالكتاب وسددوا ينظر إلى قول رسول الله ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»[4] وقوله: «**قاربوا وسددوا، ويسروا ولا تعسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا**»[5].

وفي قراءة عبد الله: «**إن الذين استمسكوا بالكتاب وتذكروا ما فيه إنا لا نضيع أجر المصلحين**» وهذا [المعنى][6] قراءة الجماعة في قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] أعلم جل ذكره أن يحسن الاستماع بتحصيل العلم والتذكار [وبالإنصات يتفرع][7] القلب لما توجه إليه، [ويتوصل][8] الكلام إلى السمع، ويلج المعنى إلى الباطن لعلكم ترحمون؛ [ليعلمكم وليذكركم ويستعملكم بأحسن ما تصنعون][9].

وكما كان الإعراض سببًا للطبع على القلب، وذريعة إلى فقد التوفيق كذلك يكون حسن الاستماع وصدق الإرادة ووجود الحرص سببًا للفتح والتوفيق، وهذا

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «والذين مسكوا».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) أخرجه الطيالسي (٩٩٦)، وأحمد (٢٢٤٣٢)، وابن ماجة (٢٧٧)، والدارمي (٦٥٥)، وابن حبان (١٠٣٧)، والطبراني (١٤٤٤)، والحاكم (٤٤٧)، والبيهقي (٣٨٩)، والطبراني في «الشاميين» (١٣٣٥)، وفي «الصغير» (٨)، والروياني (٦١٤).

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦).

(٦) في النسخة (ق): «بمعنى».

(٧) في النسخة (ق): «وبالانتصاب يتفرغ».

(٨) في النسخة (ق): «ويتصل».

(٩) في النسخة (ق): «أي بعلمكم وبذكركم فيستعملكم بأحسن ما تسمعون».

كله [من][(١)] ابتغاء ما أنزل إلينا واتباعه.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: رغبة ورهبة، فهذا ما يكون فيه الذكر، ثم قال جل قوله [وقوله الحق][(٢)]: ﴿وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [وهذا منه إعلام كيف يكون الذكر وهو ذكر السر والذكر في النفس والذكر الذي دون الجهر من القول][(٣)] والقول هو: الذكر باللسان مع القلب رغبة ورهبة [على المواظبة][(٤)] ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ ثم قال جل قوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الغَافِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥] فيما سوى ذلك من الأوقات، يريد: واصل الذكر، وقد قرأها أبو مجلز: «بالغدو والإيصال» ودل على ذلك [قوله][(٥)]: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الغَافِلِينَ﴾.

وإنه أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾[(٦)] [أي: بالليل والنهار][(١)] ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦] كما قال

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) هم الملائكة - عليهم السلام - ومعنى العندية: الزّلفى والقرب منه تعالى بالمكانة لا بالمكان، وذلك لتوفّرهم على طاعته وابتغاء مرضاته، ولما أمر تعالى بالذكر ورغب في المواعيظ عليه ذكر من شأنهم ذلك فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة:

الأول: نفي الاستكبار عن عبادته، وذلك هو إظهار العبوديّة، ونفي الاستكبار هو الموجب للطاعات، كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان؛ لأنّ المستكبر يرى لنفسه شفوفًا ومزية فيمنعه ذلك من الطاعة.

الثاني: إثبات التسبيح منهم له تعالى، وهو التنزيه والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته المقدّسة.

والثالث: السجود له. قيل: وتقديم المجرور يؤذن بالاختصاص؛ أي: لا يسجدون إلا له، والذي يظهر أنه إنما قدم المجرور ليقع الفعل فاصلة فأخره لذلك؛ ليناسب ما قبله من رؤوس الآي، ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار، وكانت على قسمين: عبادة قلبية وعبادة جسمانية، ذكرهما، فالقلبية: تنزيه الله تعالى عن كل سوء، والجسمانية: السجود، وهو الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى، وفي الحديث: «أطّت السماء وحقّ لها أن تئط ما =

جل قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] ويسبحون له بالليل والنهار وهم لا [يسمون فرفع][٢] هممهم صعدًا إلى ذكر الملائكة - صلوات الله وسلامه على جميعهم - طوبى لمن [يشغله ذكر مولاه][٣].

=

فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد». تفسير البحر المحيط (٦/٢٧).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «يسأمون برفع».

(٣) في النسخة (ق): «شغله ذكر مولاه عمن سواه».

تفسير سورة الأنفال(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مدنية، فيها من المنسوخ ست آيات](٢).

ابن عباس ﷺ قال: قلت لعثمان ﷺ: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال

---

(١) هذه السورة مدنية كلها، قال ابن عباس: إلا سبع آيات أوّلها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر الآيات، وقال مقاتل غير آية واحدة وهي ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في قصة وقعت بمكّة ويمكن أن تنزل الآية بالمدينة في ذلك ولا خلاف أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه وقد طول المفسرون الزمخشري وابن عطيّة وغيرهما في تعيين ما كان سبب نزول هذه الآيات وملخّصها: أنّ نفوس أهل بدر تنافرت ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثَرة والاختصاص، ونحن لا نسمي من أبلي ذلك اليوم فنزلت ورضي المسلمون وسلموا وأصلح الله ذات بينهم واختلف المفسّرون في المراد بالأنفال، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وعطاء وابن زيد: يعني الغنائم مجملة قال عكرمة ومجاهد: كان هذا الحكم من الله لدفع الشغب ثم نسخ بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وقال أبو زيد لا نسخ إنما أخبر أنّ الغنائم لله من حيث هي ملكه ورزقه وللرسول من حيث هو مبيّن لحكم الله والمضارع فيها ليقع التسليم فيها من الناس وحكم القسمة قاتل خلال ذلك، وقال ابن عباس أيضًا: ﴿الْأَنفَالِ﴾ في الآية ما يعطيه الإمام لمن أراد من سيف أو فرس أو نحوه، وقال علي بن صالح وابن جني والحسن: ﴿الْأَنفَالِ﴾ في الآية الخمس، وقال ابن عباس وعطاء أيضًا: ﴿الْأَنفَالِ﴾ في الآية ما شذّ من أموال المشركين إلى المسلمين كالفرس الغائر والعبد الآبق وهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاء، وقال ابن عباس أيضًا: الأنفال في الآية ما أصيب من أموال المشركين بعد قسمة الغنيمة، وهذه الأقوال الأربعة مخالفة لما تظافرت عليه أسباب النزول المروية والجيّد هو القول الأول وهو الذي تظاهرت الروايات به، وقال الشعبي: ﴿الْأَنفَالِ﴾ الأسرى وهذا إنما هو منه على جهة المثال وقد طول ابن عطية وغيره في أحكام ما ينقله الإمام وحكم السّلب وموضوع ذلك كتب الفقه وضمير الفاعل في ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ليس عائدًا على مذكور قبله إنما يفسّره وقعة بدر، فهو عائد على من حضرها من الصحابة وكان السائل معلوم معين ذلك اليوم فعاد الضمير عليه والخطاب للرسول ﷺ والسؤال قد يكون لاقتضاء معنى في نفس المسؤول فيتعدى إذ ذاك بـ«عن».

(٢) سقط من النسخة (ق).

وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما [ولم][1] تكتبوا بينهما بسطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع [الطوال][2]؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات العدد. فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب له فيقول: ضعوا هذه [في][3] السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه [الآية][4] قال: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، قال: فكانت الأنفال من [أول][5] ما أنزل بالمدينة، وكانت براءة من [أواخر][6] القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظنناها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما [بسطر][7] «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعناها في السبع [الطوال][8].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ١ - ٤].

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ...﴾ [الأنفال:١] لفظ «الأنفال» مأخوذ من النافلة، ويجوز أن يكون مع هذا اسمًا على المغانم وقع عليها اسم عرفيًا؛ إذ كانت محرمة على من كان قبلنا فأحلها الله ﷻ لهذه الأمة خاصة، فسميت بذلك

---

(١) في النسخة (ق): «ولا».

(٢) في النسخة (ق): «الطول».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الآيات».

(٥) في النسخة (ق): «أوائل».

(٦) في النسخة (ق): «آخر».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «الطول».

أنفالاً؛ لأنهم نفلوها [إلى][(١)] أجورهم.

ولما جمعت المغانم يوم بدر [أحضر][(٢)] رجل من أصحاب رسول الله ﷺ منها سيفًا وقال: نَفِّلْنِيهِ يا رسول الله، فقال له: «[رده][(٣)] **من حيث أخذته**» ففعل، [فقام][(٤)] مرة أخرى فسأله إياه، حتى قام في الثالثة فقال: نَفِّلْنِيهِ يا رسول الله، أجعل كمن لا غنى له؟ فقال له: «[رده][(٥)] **من حيث أخذته**» فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١] وفي بعض القراءات: «**يسألونك الأنفال**» بالنصب.

وروى ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل قتيلاً أو أسر أسيرًا فله سلبه**»[(٦)] فكان منهم من طلب الغنائم، ومنهم من حف برسول الله ﷺ كي لا يظفر منه المشركون بغرة، وكان منهم من [لم][(٧)] يشتغل إلا بالقتل والقتال، فتنازعوا في المغانم فقال قوم: «نحن غنمناها وقد نفلناها رسول الله ﷺ» وقال هؤلاء: «نحن أحق بها؛ لأنا نحن أقمنا معه وتحفظنا به وحرسناه من العدو» فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾.

وقد سمى الله ﷻ أصناف الأموال بأسمائها، فسمى ما أخذ من المشركين في حال الحرب: أنفالاً وغنائم، وسمى ما صار للمسلمين بما لم يؤخذ في حرب كالخراج والجزية: فيئًا، وسمى ما خرج من أموال المسلمين واجبًا عليهم: زكاة، وما نذروه من نذر وتقربوا به إلى الله: صدقة، ثم قد سمى ما [قد لحق][(٨)] به أهل الخراج: فيئًا ونفلاً، وقد ذكر العلماء في كتبهم قسمة الغنائم كيف هي،

---

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «أخذ».

(٣) في النسخة (ق): «ذره».

(٤) في النسخة (ق): «ثم قام».

(٥) في النسخة (ق): «ذره».

(٦) أخرجه بنحوه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (٤٦٦٧)، وأبو داود (٢٧١٩)، والترمذي (١٦٥٤)، ومالك (٩٧٩).

(٧) في النسخة (ق): «لا».

(٨) في النسخة (ق): «يجيء».

[والخمس][(١)] وخمس الخمس، وحيث يجعل باختلاف بينهم في ذلك، وربما أتى بيانه في أولى المواضع به إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾[(٢)] [الأنفال:٢] لفظة «إنما» حاصرة، قالوا: هي لتحقيق المتصل ولتحقيق المنفصل، وهو الظاهر فيها، فلا يعدل عن ذلك إلا بدليل يخرجها عنه.

يقول الله جل قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ [طه:٩٨].

[﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]][(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[(٤)].

«**إنما الولاء لمن أعتق**»[(٥)].

هذا وشبهه ممن حصرها معنى ما اجتلبت من أجله، ثم قد تأتي على غير ذلك فلا تكون حاسرة، بل مخبرة عما اجتلبت من أجله ولا تحصره، كقولهم: «إنما الكريم يوسف، إنما الشجاع عنترة» هذا موجود في لسان العرب متعارف في كلامهم، [فقول][(٦)] الله جل ذكره في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] [هو][(٧)] من هذا النوع الآخر؛ بدلالة قول رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله...**»[(٨)] وقوله: «**من شهد**

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٢١)، ومسلم (١٥٠٤)، وأحمد (٢٤٠٩٩).

(٦) في النسخة (ق): «يقول».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) يجوز أن يكون هذا الموصول في موضع جر أو نصب أو رفع، فالجر من ثلاثة أوجه: النعت للمخبتين، أو البدل منهم، أو البيان لهم، والنصب على المدح، والرفع على إضمارهم، وهو مدح أيضًا، ويسميه النحويون: قطعًا. والمعنى: إذا ذكر الله ظهر عليهم الخوف من عقاب الله والخشوع والتواضع لله، والصابرين على ما أصابهم من البلايا والمصائب من قبل الله؛ لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن، فأما ما يصيبهم من قبل الظَّلَمة فالصبر عليه غير واجب، بل لو أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة. تفسير اللباب لابن عادل (٤١٩/١١).

شهادتنا وذبح ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فله ما لنا وعليه ما علينا»[١].

فصل

دخلت لفظة «إنما» [ها][٢] هنا لحصر [الفصيلة][٣]، وهؤلاء هم أفضل المؤمنين إيمانًا وحالاً، واعلم أن وجوب الإيمان بوجودهم والاعتراف بفضلهم هي درجة بعد درجة وجوب الإيمان بالأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

قال الله ﷻ وذكر أهل الكتاب وما أحدثوه في نبواتهم، وما نقضوا من ميثاق ونكثوا من عهد، وما كذبوا من نبي وقتلوا منهم، ثم قال جل قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [أي: من أمتك][٤] ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ [النساء:١٦٢] أي: «وبالمقيمين الصلاة» فعطف الإيمان بالمقيمين للصلاة على الإيمان بالأنبياء والرسل، وجعل المؤمنين الراسخين في العلم هم المؤمنون بالأنبياء والرسل [إليهم][٥]، وهم المشار إليهم بالخطاب، والمواجهون بالبشارات، والمعنيون بالإكرام، وهم رؤساء المحشر المشاؤون في طلب الشفاعة إلى الله جل ثناؤه في العباد بوسائل الرسل رسولاً رسولاً في الإزاحة من الموقف من عظيم ما أصاب العباد يومئذٍ وفي استفتاح باب الجنة، وهم في الدنيا في إمساك غضب الله جل ذكره عن الأمم كالجبال الرواسي للأرض.

ومنهم الصديقون في الدنيا بما آمنت به الرسل والأنبياء - عليهم السلام - والشهداء لهم، وهم شهداء لله على عباده وخاصته من خليقته، وهم إخوان الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وهم الذين اشتاق رسول الله ﷺ إلى رؤيتهم في هذه الأمة، منهم [تسعون][٦] ألفًا لا حساب عليهم مع كل ألف سبعون ألفًا أو

---

(١) أخرجه بنحوه الخطيب (١٣٢/١).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الفضيلة».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وبهم وبما أنزل إليهم».

(٦) في النسخة (ق): «سبعون».

سبعمائة ألف لا حساب عليهم مع كل ألف سبعمائة، جاء ذكرهم في صدر الخطاب مرددًا من ذلك قوله ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦ - ٧].

وقوله جل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢ - ٣].

وقوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨] [فجعل ﷻ شهادتهم][(١)] تلو الشهادة العلية.

وقوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] [ولقوم يذكرون، ولقوم يتقون][(٢)]، وهو كثير.

وقوله عز قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤] الآيتين.

وكقوله جل قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠] وبالجملة وكل خطاب في القرآن العزيز أحرز المدح ووصف السبق، فهم المعنيون به، وكل صفة محمودة في الإيمان فهي منهم ولهم، والحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

ألحقنا الله بأوليائه، وجعلنا في أعداد أصفيائه، ولاجعل حظنا من صفاتهم وصفهم، ولا من اللحاق بهم ذكرهم [بمنّه وفضله ورحمته][(٣)]، تطرقنا إلى ذكرهم واجتلبنا بعض وصفهم؛ لعلنا أن نتّقِ أو يحدث لنا ذكرًا، ودلنا ربنا جل ذكره بما تلاه علينا من وصفهم أن الإيمان لا غاية له تبلغ ولا نهاية تنتهي إليها؛ إذ صفة هؤلاء المنعم عليهم صفة تمام، [وحالهم حال كمال][(٤)] بالإضافة إلى من دونهم، وعلى ذلك فإنه وصفهم ﷻ ووصفه بأنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا [وهم

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ولقوم يتفكرون ولقوم يعلمون ويذكرون ويتقون».

(٣) في النسخة (ق): «بمنه ورحمته».

(٤) في النسخة (ق): «وحال كمال».

السادة.

قال رسول الله : ﷺ «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» ثم قال لهم: «**أتدرون لِمَ ذاكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد بسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيطول المقام بهم ويبلغهم من الكره والهم ما لا قبل لهم به فيلهمون** - أو قال: «**فيهتمون**» - **لذلك وتكونون ألا ترون ما بلغ الناس ألا ترون ما جل بهم ألا تطلبون إلى ما يشفع لهم عند ربهم**»[١] فذكر أنهم يأتون آدم - صلوات الله وسلامه عليه - ثم إلى آخر الأنبياء وخلفهم محمد ﷺ فيقوم فيشفع لهم في الإزاحة من الموقف، وذلك هو المقام المحمود الذي بعده.

والقائمون بذلك الساعون فيه هم الإخوان الذين كانوا يدعون لهم في الدنيا ويستغفرون لهم، وهم الذين تقدم ذكرهم السادة القادة - رضي الله عنا وعنهم - فوصف رسول الله ﷺ بأنه سيد ولد آدم لما أقامه الله في ذلك المقام المحمود، وبما هو سبب من أسباب ذلك سموا هؤلاء سادة وقادة.

وقد جاء في الأخبار: «**من رغب أن يكون من الأبدال؛ فليستغفر إثر كل صلاة للمؤمنين والمؤمنات خمسًا وعشرين مرة**»[٢] والله سبحانه وله الحمد يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:١٩] كأنه يقول وهو أعلم: «استغفر لنفسك ولهم يغفر لكم بأعمالكم» وما قد سبقه في تقديره الأول من أعمال تكون منهم، وقد كان أيضًا مما سبقه لك ولهم أن يستغفر ويستغفروا بعضهم لبعض فيغفر لكم][٣].

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [لأنفال: ٥ - ٨].

قوله ﷻ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال:٥] أي: بالقضاء والقدر، وأعلمنا الله جل ذكره بذكره الحق هنا أن كل حركة للعبد هي بنية وتوجه إلى أي [وجهة](١) كانت، وتعمل فإنها مضافة إلى فاعلها معرفة بمحلها، وكلما كان منه من علم ومعرفة أو عمل ضروري فهو بالحق؛ أي: بالقضاء السابق والقدر المقدر.

ولما كان خروج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى بدر [ليلقى](٢) عير قريش دون معسكرهم حتى نادى رسول الله ﷺ [في المدينة](٣): «**لا يخرجن معي إلا من كان ظهره حاضرًا**»(٤) فخرجوا لذلك في أقل عددهم، فحسن على ذلك أن يقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما قدر الله تعالى أن يخرجك [به؛ ليستقرك](٥) وأصحابك، فوافقوا الحق المقدور من الله جل ذكره، وهو حضور الجيش وفوت العير، فوافاهم الله بالخير والفتح واليسر في الأمرين معًا في إخراجه إياهم - يريدون: العير - وفي لقائهم [ذات](٦) الشوكة والسلاح وهم كارهون لذلك.

اختلفوا في دخول «الكاف» هنا ما هو المشبه بها في قوله جل قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ فذكر ابن عباس ﷺ أنها بمعنى: «على» يقول: [على](٧) الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق.

وذكر عن الفراء أنه كان معناها: امضِ لأمر الله في الغنائم كما مضيت على مخرجك من بيتك الحق.

---

(١) في النسخة (ق): «وجه».

(٢) في النسخة (ق): «لتلقي».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) ذكره ابن حزم في جوامع السيرة (١/١٠٧)، وابن كثير في السيرة (٢/٤٢١).

(٥) في النسخة (ق): «ليستفزك».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

وقال الكسائي: [معنى الكلام][(١)]: يجادلونك في الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وهم كارهون، ومعنى الحق هنا: هو لقاء الجيش دون لقاء العير؛ لأنه هو المقدور المقضي في الكتاب السابق [وهو الحق][(٢)] وبجدالهم له هو أنهم لما أيقنوا بلقاء الجيش كرهوا ذلك، وقالوا: أخرجتنا للغنيمة ولم تعرفنا بقتال فنستعد [له][(٣)].

وأرى - والله أعلم - أنه خطاب منتظم بما قبله من تعداد النعم، والمعطوف عليه المنتظم به مضمر حاضر، وبحضوره لم يذكره، وهو سؤالهم إياه الأنفال، وجدال بعضهم مع بعض فيما كان تقدم، فأنزل الله ﷻ في الحين [عليه][(٤)]: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لله وَالرَّسُولِ﴾[(٥)] [الأنفال:١].

فما كان لله جل ذكره فهو للمؤمنين، وما كان منها للرسول ﷺ كان له أن يخص فيه أو يعم، ويحبس منها لقوته وعياله وما ينوبه، وكان ذلك عوضًا من صدقات المسلمين وزكاتهم، ثم وصّاهم بالتقوى وبصرهم معالم الإيمان وأعلمهم بذروته، والمضمر هنا هو ذكر الحال من النصر والنعمة به، ثم شبه به إخراجه إياه من بيته على غير إرادة القتال، بل لإرادة العير، فكان القتال والنصر على الأعداء والظفر بأعلى المطلوب الذي هو القتل والأسر، فكانوا [من ذلك في][(٦)] حالهم

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لهم إنها للهِ مِلْكًا، ولرسوله ﷺ لحُكْمُ فيها بما يقضى به أمرًا وشرعًا. قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيبوا لأمر الله، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالهم، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقِ على مراد النَّفْس، وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفْس، وإيثار حقّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظِ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد.

(٦) في النسخة (ق): «في ذلك من».

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾(١) [الأنفال:٦] [وكان](٢) في علم الله ﷻ أنهم يساقون إلى النصر والفتح وهم لا يشعرون الموت عندهم كان اللقاء لقلتهم وذلتهم بإضافتهم يومئذٍ إلى عدوهم ونظرهم إلى الموت هو نظرهم إلى الجيش الذي كانوا يظنون أن الموت يأتيهم من قبله كما قال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٣] يريد: القتل والقتال والسلاح، وهذه أسباب الموت القريبة، بل المشبه به [لطفه الخفي في حكمه الخفي لعباده المؤمنين، وأنهم عنده في اختيار الخير لهم والأفضل، كاختياره لرسوله ﷺ ولصحابته ﷺ وتبليغه إياهم أكثر مما يأملوه منه.

---

(١) الموت قبل الوصول إلى مكانه، «وذلك أن عير قريش فيها أربعون راكبًا وفيهم أبو سفيان أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله - عليهما السلام - فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها؛ لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغهم الخبر فبعثوا إلى مكة ضمضم بن عمرو فصرخ ببطن الوادي يا معشر قريش، هذه أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه الغوث الغوث فمضوا إلى بدر، وكان ﷺ بوادي «دقران» فنزل عليه جبريل بعدة إحدى الطائفتين، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للعير، فقال: إن العير مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدو، فغضب ﷺ، فقال المقداد بن عمرو: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - مدينة بالحبشة - لجالدنا معك من دونه، فقال ﷺ له خيرًا ودعا له. ثم قال ﷺ أشيروا علي أيها الناس - يريد الأنصار - القائلين له حين بايعوه على العقبة أنهم براء ممن كل ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألَّا يروا نصره الأعلى عدو دهمه بالمدينة، فقال سعد بن معاذ: فكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضنا معك ما تخلف عنك منَّا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدًا إنا لصبر عند الحرب وصدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، ففرح رسول الله ﷺ ونشطه قول سعد، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني الآن إحدى الطائفتين، فوالله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم، فهذه كراهتهم للقتال». [تبصير الرحمن ٥٨٢/١] بتحقيقنا.

(٢) سقط من النسخة (ق).

ألا تسمع إلى قوله العلي لما وصف عباده المؤمنين من لدن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ ثم وصف ما هو يبلغهم إليه بقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٤] ثم حذف هنا ما معناه وصف للطف الذي به يبلغهم إليه من غيب تدبيره، ورفيع ما بهم ومستقرهم عنده.

ثم شبه ذلك منه بإخراجه رسوله وأصحابه إلى غزوة بدر حيث كانوا يخافون ذات الشوكة ويطمعون في العير، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته في شأن بدر على ما قد قدره في أزله ومشيئته حكمه في عباده وتوصيلهم إلى علي كرامته بذلك، واستظهر على تعرف ذلك بما في سورة يوسف عليه السلام من حسن تدبيره وإكرامه وما عبر عنه قوله الحق: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

وهذا المعنى الذي نروم تبيانه من غريب معاني الكتاب المبين، وعلى إعلام القرآن الكريم؛ لأنه يلطف لعبده المؤمن من حيث لا يعلم، ويدخل عليه الحسنات من حيث لا يحتسب يصيبه بما يكره ويستعمله بطاعته في المنشط منه والمكره، فعلق الكلام لرسوله عليه السلام ينعشه بما تقدم ذكره، وأدخل كاف التشبيه في قوله العلي: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال:٥] أي: الذي هو حكمه لعباده ولطفه بهم يريدون عرض الدنيا، وأبى الله إلا الآخرة والغنيمة وشفاء الصدور والانتقام من الاعداء وكسر شوكة الكفر، وفي ضمن هذا ما هو المعني وهذا له ما بعده عبر عن هذا بقوله العلي: ﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال:٨]][(١)].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنفال:٧] الحق هنا: هو النصر وإعلاء الإسلام وإدحاض الشرك والباطل بكلماته، عبر عن توحده بالتدبير في إخراجهم على طمعهم في غير ذات الشوكة، فكانت الشوكة وكان الفتح المبين، وعن إمداده إياهم بالملائكة - عليهم السلام - وعن معنى قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:١٠] بقوله: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ

(١) زيادة في النسخة (ق).

الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[١] [الأنفال:٧].

وفي هذا إشارة لهم خاصة ولنا معشر هذه الأمة عامة أنه قد أراد ذلك وما أراده فهو كائن لا محالة إن شاء الله تعالى، وقد كان من تحقيقه ذلك [كل][٢] ما شاءه، ثم لا بد من فترة، وهي الآن، ثم لا بد من عودة، وهو المبدئ المعيد، وإن ذلك ليس بموكول إلى عمل عامل ولا تدبير مدبر سواه؛ [لاستباقه][٣] الكلمات في ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ليحق الله دين الإسلام ويبطل الباطل [الشرك][٤].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ٩ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩] أعلم جل ذكره أن النصر على الأعداء والكفاية والدفاع يستفتح بالدعاء والتضرع إليه والاستغاثة، ألا تسمعه جل ذكره علق وجود نصره لهم [وتحقق][٥] الحق بكلماته بقوله جل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وأعقب الاستغاثة بإجابته الكريمة، [فبالدعاء][٦] والاستغاثة

---

(١) معطوف على «تودّون» وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته؛ أي: ويريد الله غير ما تريدون، وهو أن يحقّ الحقّ بظهاره، لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة، وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجلبوا بها عليكم، وراموا دفعكم بها. والمراد بالكلمات: الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعدكم منه بالظفر بها. فتح القدير (١٥١/٣).

(٢) في النسخة (ق): «قبل».

(٣) في النسخة (ق): «لاستياقه ذكر».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وتحقيق».

(٦) في النسخة (ق): «والدعاء».

إليه والتضرع [والتحقق][(١)] في ذلك وإلقاء المقاليد إليه والعمل الصالح وابتغاء مرضاته ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [في الكتاب][(٢)] ﴿وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] الذي كتب فيه علمه بما يكون إلى يوم القيامة.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من نصري لكم وحكمي ﴿لِمَنْ خَافَ﴾ منكم ﴿مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: فإذا استفتحوا كان ذلك ﴿وخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[(٣)] [إبراهيم:١٣-١٥] أي: كل من تجبر عن عبادتي وعَنَد عن طاعتي.

وقرئ هذا الحرف: «واستفتحوا» [على الأمر من الاستفتاح الذي هو الدعاء][(٤)] دلهم جل وعلا على موضع دواء الداء، والحمد لله رب العالمين.

وهذه وصيته إياهم كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال:٤٥] الآيتين.

قوله جل من قائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] الفتح في الدال بمعنى: إنهم مردَفون بغيرهم، والكسر بأنهم مردِفون غيرهم، وقد تقدم الكلام في سورة آل عمران في معنى هذه الآية، فأغنى عن الترداد، غير أن النصر مع التقوى والصبر وبقدر ما يستشعره العبد من الصبر ينزل عليه من العون، وبقدر ما ينزع إلى التوحيد والتبرؤ من الحول والقوة يكون [إقبال][(٥)] الله جل وتعالى عليه وولايته له.

قال الله ﷻ: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ [إن][(٦)] من

---

(١) في النسخة (ق): «والتحقيق».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقًّا، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة، والعنيد: المعاند للحق والمجانب له، وهو مأخوذ من العند، وهو الناحية؛ أي: أخذ في ناحية معرضًا. [فتح القدير (١٣٥/٤)] و(شرح الأسماء الحسنى للمصنف ١٩٠/٢).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يد».

(٦) في النسخة (ق): «أي».

حالكم هذه [﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ [آل عمران:١٢٥] بحضور][1] الملائكة لنصرهم في ذلك بغير زمان.

قوله جل وتعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[2] [الأنفال:١١] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال:١٤].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ مردود المعنى إلى معنى قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال:٩] وهذان مردودان إلى قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٧] يعدد [نعمته عليهم، وينبههم][3] على مواطن نظره لهم.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ...﴾ [الأنفال:١١] ألقى عليهم النعاس تلك الليلة؛ ليفرغ قلوبهم من هيبتهم، ويحمها من الفكر في عددهم، وأنزل عليهم من السماء ماء [ليطهركم به لصلاتهم ولينبذ][4] تراب ذلك الوادي ويلين به [دهسه وبطهورهم ليشجع جبانهم][5] ويثبت أقدامهم؛ إذ الجبن والفرار من العدو هو من الشيطان.

قال الله جل ذكره في المنهزمين يوم أحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران:١٥٥].

---

(١) في النسخة (ق): «فحضور».

(٢) ذلك بأن النبي ﷺ وكثيرًا من أصحابه غشيهم النعاس ببدر. قال سهل بن عبد الله: النعاس يحل في الرأس مع حياة القلب ، والنوم يحل في القلب بعد نزول من الرأس، فهوَّمَ رسول الله ﷺ حتى ناموا، فبشر جبريل رسول الله ﷺ بالنصر، فأخبر به أبا بكر. وفي امتنان الله تعالى عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: **أحدهما**: قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد. **الثاني**: أن أَمَّنَهم بزوال الرعب من قلوبهم ، كما قال : الأمن منيم، والخوف مسهر. وقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ يعني به: الدعة وسكون النفس من الخوف، وفيه وجهان: **أحدهما**: أمنة من العدو. **الثاني**: أمنة من الله ﷻ. النكت والعيون (٢/٥٢).

(٣) في النسخة (ق): «نعمه عليهم وينبئهم».

(٤) في النسخة (ق): «ليطهرهم به بصلاتهم وليلبد به».

(٥) في النسخة (ق): «دهشه وبظهورهم يشجع جبنهم».

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾[1] أي: [بالنصر وإبعاد][2] الهلع عنها ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال:١١] هذه الخصال كلها من بركه الطهور والماء؛ إذ هو من فتح رحمته.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾ [الأنفال: ١٢ - ١٤].

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ رجع معنى الخطاب بتعداد مننه إلى أوله، وفي هذا أنه كان [إلجاؤه][3] إلى أولياء الملائكة حين استشعروا الصبر والعزيمة على تثبيت الأقدام والصدق ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال:١٢] يريد جل وتعالى: الرؤوس والرقاب، كما قال جل قوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد:٤].

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] يريد [وهو][4] أعلم: الأعضاء، وفي لغة العرب: الأعضاء تسمى بالبنان، ومعنى ذلك: اضربوا منهم ما أمكنكم كما قال جل قوله: ﴿فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥] من مكان، أو حيث أمكنكم، وهذه بشارة منه جل ذكره لهم يومئذٍ؛ أي: [قد أمكنكم][5] منهم فافعلوا بهم ذلك.

واحد البنان: بنانة، وهي الأصابع، ومعناها ها هنا: جميع الأعضاء، واشتقاق

---

(١) ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه، وأصل الربط: الشد، ويقال لمن صبر على الشيء: ربط نفسه عليه. قال الواحدي: ويشبه أن تكون «على» صلة؛ أي: وليربط قلوبكم. وقيل: الأصل ذلك، إلا أنه أتى بـ«على» قصدًا للاستعلاء. وفيه إيماء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها، وفي ذلك إن إفادة التمكن ما لا يخفى. تفسير الألوسي (٣٠/٧).

(٢) في النسخة (ق): «بالصبر وإبعاد».

(٣) في النسخة (ق): «إيحاؤه».

(٤) في النسخة (ق): «والله».

(٥) في النسخة (ق): «إني قد أمكنتكم».

البنان من قولهم: «[بانن][1] فلان بالمكان» إذا قام به، والبنان به [يعمل][2] على كل ما يكون للإقامة والحياة، وعلى هذا من اشتقاق، ومعنى [في][3] جميع الأعضاء.

فصل

ذكر الصادق الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أنه ممدهم بألف من الملائكة [مردفين][4] [وقال جل قوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]][5].

ثم قال جل قوله: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] والملائكة المذكورون بالعدد تسعة آلاف مردفون ومنزلون ومسومون، وكانت أول مشاهد الإسلام، فالظاهر في الاعتبار أن [مشاهدة][6] الإسلام على مثال ذلك، ولغزوة بدر فضل [السابق][7].

وجاء أن جبريل قال لرسول الله ﷺ: كيف ترون من شهد منكم بدرًا من المسلمين؟ قال: «من **أفضلنا**»[8] قال: فإنا معشر الملائكة [كذلك][9] نرى من شهدها من أهل السماء منا.

وكما المشاهد في الغزوات يكون من المسلمين بعدها فكذا لا تخلو من شهود الملائكة - عليهم السلام - وإن كنا نحن لا نراها وإنما كانت غزوة بدر كذلك عندنا بإخبار [الله جل ذكره وإخبار][10] رسول الله ﷺ، ومشاهد النصر للملائكة فيها

---

(١) في النسخة (ق): «أبن».
(٢) في النسخة (ق): «يُعتمل».
(٣) في النسخة (ق): «هي».
(٤) في النسخة (ق): «منزلين».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «مشاهد».
(٧) في النسخة (ق): «السبق».
(٨) لم أقف عليه هكذا.
(٩) زيادة في النسخة (ق).
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

ضرب وطعن كما قال جل قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

ألا ترى أنه جعل علة [الضرب](١) الملائكة لأولئك شقاقهم لله ولرسوله، فقال جل قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾(٢) [الأنفال:١٣] فعلق شدة عقابه على المشاقة لله ورسوله بلفظ المستقبل، وعلل ذلك بالمشاقة، فوجب أن يحصل العلم باستصحاب صحيح اعتبار ما ذكرنا؛ [لوجود](٣) مشاقتهم لله ورسوله، وإنما [يرجو](٤) ذلك مع جيش يغلب عليه الصبر والتقوى.

فصل

ومن تتميم الاعتبار: إن للشياطين أيضًا حضورًا لمشاهد أوليائهم بتزيين لهم

---

(١) في النسخة (ق): «ضرب».

(٢) قال أبو البقاء: إن ذلك خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمر ذلك، وليس الأمر ذلك، والباء للسببية، والمشاقة: العداوة، سميت بذلك أخذًا من شق العصا، وهي: المخالفة، أو لأن كلاً من المتعاديين يكون في شق غير شق الآخر، كما أن العداوة سميت عداوة؛ لأن كلاً منهما في عدوة؛ أي: جانب، وكما أن المخاصمة من الخصم بمعنى الجانب أيضًا، والمراد بها هنا: المخالفة؛ أي: ذلك ثابت لهم أو واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي لهم مخالفته بوجه من الوجوه ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يخالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، والإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترأوا عليه، والإشعار بعلية الحكم، و«بئس خطيب القوم أنت» اقتضاه الجمع على وجه لا يبين منه الفرق ممن هو في ربقة التكليف؛ وأين هذا من ذاك لو وقع ممن لا حجر عليه، وإنما لم يدغم المثلان؛ لأن الثاني ساكن في الأصل، والحركة لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها.
وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد عند من يلتزمه، ولا يكتفي بالفاء في الربط؛ أي: شديد العقاب له، أو تعليل للجزاء المحذوف؛ أي: عاقبه الله تعالى، فإن الله شديد العقاب، وأيًا ما كان فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريقة برهاني، كأنه قيل: ذلك العقاب الشديد بسبب المشاقة لله تعالى ورسوله ﷺ، وكل من يشاقق الله ورسوله كائنًا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد، فأذن لهم بسبب مشاقة الله ورسوله عقاب شديد. تفسير الألوسي (٣٤/٧).

(٣) في النسخة (ق): «وجود».

(٤) في النسخة (ق): «نرجوا».

وتحريض وعون دل على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨] ولا صبر [للشياطين](١) مع حضور الملائكة، كما ليس للظلام ثبوت مع [حضور](٢) النور.

فصل

وكما يمد الله جل وعز المؤمنين بأوليائهم من الملائكة يمد الشياطين أوليائهم المشاقين لله ورسوله، وفي الجن من قد آمن بالله فكذلك مؤمنو الجن يمدون أولياءهم من المؤمنين من الإنس، ثم الإنس على هذا موضع [المنزلة](٣) والثبات للإمامة التي فيهم من هذه الجهة، وإنما [احتضروا](٤) من أجلهم، فمتى كانوا مؤمنين صابرين محتسبين يقاتلون الكفار، وتكون كلمة الله [هي](٥) العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، [ولم](٦) يحضرهم ضجر ولا اختلاف ولا مكروه، فالملائكة - عليهم السلام - ومؤمنو الجن لا بد [من حضورهم](٧) والله ناصرهم، وإذا حضرت الملائكة ذهبت الشياطين خاسئة.

فإن واقع المسلمون خلافًا [ما](٨) فنصرهم في مشيئة الله ﷻ، وإنه أيضًا قد يكون الإخفاق والهزيمة عليهم [خيرة](٩) لهم، والملائكة في هذا المشهد يقبضون أيديهم عن القتال والنصرة؛ لأنهم هم الذين لا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون، وإن غلب المسلمون هل يغلب مؤمنو الجن لا بد أم لا؟

---

(١) في النسخة (ق): «للشيطان».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «المزلة».
(٤) في النسخة (ق): «اختصروا».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «وإذا لم».
(٧) في النسخة (ق): «في حضرتهم».
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «خيرًا».

والله أعلم، فالغلبة على هذا للمؤمنين إن شاء الله.

فصل

قال الله عز من قائل: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢] وقال جل قوله في قصة أحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران:١٥٥] فأضاف لنفسه إلقاء الرعب في قلوب الكفار، وإلى الشيطان ما ألقى في قلوب المؤمنين، [ويكون][١] الأدب في الإخبار عن الله جل ذكره له المثل الأعلى في السماوات والأرض.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٩].

يقول عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[٢] [الأنفال:١٥] المعنى إلى آخره، الزحف: مضي الجملة إلى الجملة

---

(١) في النسخة (ق): «هكذا يكون».

(٢) مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما أخبر أنه سيلقي الرّعب في قلوب الكفار وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم وبنانهم حرضهم على الصبر عند مكافحة العدوّ، ونهاهم عن الانهزام، وانتصب «زحفًا» على الحال، فقيل: من المفعول؛ أي: لقيتموهم وهم جمع كثير وأنتم قليل، فلا تفرّوا فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، وقيل: من الفاعل؛ أي: وأنتم زحف من الزحوف، وكان ذلك إشعارًا بما سيكون منهم يوم حنين حين انهزموا وهم اثنا عشر ألفًا بعد أن نهاهم عن الفرار يومئذٍ، وقيل: حال من الفاعل والمفعول؛ أي: متزاحفين، ولم يذكر ابن عطية إلا ما يدل على أنه حالٌ منهما، قال: «زحفًا» يراد به: متقابلي الصفوف والأشخاص؛ أي: يزحف بعضهم إلى بعض. تفسير البحر المحيط (٤٨/٦).

للقتال دفعة واحدة.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزًا إلى فِئَةٍ﴾ [الأنفال:١٦].

التحرف للقتال: التقلب من قرن إلى قرن فربما أقبل على واحد وولى ظهره آخر، وقد قال قوم: إن هذا الوعيد متوجه إلى من فر يومئذٍ؛ يعني: يوم بدر.

قال: لأن الملائكة يومئذٍ ممدة للمؤمنين، فالفرار [يوم بدر][1] كان من التكلف، والصواب أن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ المراد [به][2]: يوم الزحف إلى العدو وإن الحرج والوعيد باقٍ على من ولى العدو دبره إذا كان عددًا بعددين، فالفرار حرام على ذلك، والفرار أيضًا حرام على عدد أكثر من العددين، بل الصواب للمسلمين [لا تجاوز][3] العدو ضعفي عدد المسلمين ألا يناجزوهم [لحرب][4] إذا غلب الظن بضعفهم عن المقاومة، فالرأي على ذلك في المحاجزة لا في المناجزة، فإن غلب الظن في القيام لهم ورجاء الغلبة، وإلا فلا [يسيروا][5] العدو يظفر بالمؤمنين.

وبالجملة: فالمناجزة على أكثر من العددين نافلة، وإن زحفوا إليهم فظهرت لهم كمائن ومكائد لم يشعروا بها، فالتحيز إلى فئة المسلمين مباح لهم، والبلد فئة المسلمين [والإمام فئة المسلمين][6] والجيش الأعظم وجماعة المسلمين فئتهم.

قال رسول الله ﷺ لأهل غزوة مؤتة، وقد انحاز خالد بن الوليد بالمسلمين ناحية بعد معاركة، وقتل وقتال [كائن][7] بين القوم، فلما ورد المدينة خرج النساء والصبيان يقولون لهم: «هؤلاء الفرارون» قال رسول الله ﷺ: «**بل هم الكرارون إن شاء الله، أنا فئة المسلمين**»[8].

---

(١) في النسخة (ق): «يومئذ».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إذا جاوز».

(٤) في النسخة (ق): «الحرب».

(٥) في النسخة (ق): «يسروا».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «كان».

(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٤٢).

ومعنى قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٦] هو والله أعلم لمن ولى العدو دبره، يريد بذلك ابتغاء الفتنة وجر الهزيمة على المسلمين كما قال فيهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة:٤٧] ولكل عمل نية، ولكل نية [حسنة][٢]، والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧] عطف ﷻ بالفاء في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ فتبين من ذلك أن انتظامه [وهو][٣] أعلم بقوله جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا...﴾ [الأنفال:٤٥] يقول [وهو] أعلم: أعدوا لهم قوة من أنفسكم وشدة بأس، وأضمروا لربكم نية صادقة [وخشية][٤] وصبرًا في سبيله غضبًا له ونصيحة للإسلام، فعند ذلك تستحقون النصر من الله والفتح والإمداد بالجنود من لدنه.

ثم عطف على هذا المعنى المحذوف المقدر قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧] أقام [لهم][٥] ذلك كالآية، والدلالة على وجود الفتح عقب الصبر [والخشية][٦] وألحق حركاتهم وقتالهم الكافرين، ورمي رسوله ﷺ [الحصى][٧] من كفه في وجوه المشركين [كان رميه بالقبضة يوم حنين، وهذا الإخبار غريب، فربما أخبر عما سيكون قبل أن يكون ليثبت][٨] بأنه هو المتوحد

---

(١) أي: صار بالمكان الذي يحق عليه غضب الله، مأخوذ من المبوأ، وهو: المكان. ومذهب الشافعي وأصحابه وموافقيه أن هذا على العموم محكوم به في كل مسلم لاقى عدوًّا، وبه قال عبد الله بن عباس. وحكي عن الحسن وقتادة والضحاك: إن ذلك خاص في أهل بدر، وبه قال أبو حنيفة. النكت والعيون (٥٤/٢).

(٢) في النسخة (ق): «حسبة».

(٣) في النسخة (ق): «والله».

(٤) في النسخة (ق): «وحسبة».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «والحسبة».

(٧) في النسخة (ق): «الحصباء».

(٨) سقط من النسخة (ق).

[المنفرد][1] وحده؛ ذلك بأنه هو محرك المتحركين، وقاتل المقتولين، ومتمم فعل الفاعلين، ومجدد قوى القادرين، هو الأول في ذلك والآخر، والظاهر والباطن. إنما عليهم ما حملهم وعليه ما تضمن ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:١١١].

إنما للعبد من فعله ما أوجد الله له من الحركة المضافة إليه بنسبة إليه، [وإنما][2] صورة الفعل التي هي كماله وتمامه فهو له، ولما كان التمام والكمال والبداية والنهاية والظاهر والباطن هما صورة العمل [لأن مآله][3] كلزوم الظل شخصه ألزم جل ذكره المكلف ثواب فعله وعقابه بما نوى وما اجترم، وهذا هو التوحيد الأعلى توحيد الصديقين، والذين هم شهداء الله ﷻ في عباده.

قال الله عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩] وهو موجود عن اسمه الأول والآخر والظاهر والباطن، ولهذا التوحيد وعلمه شواهد كثيرة: أما من القرآن العزيز، فقوله جل قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وقوله ﷻ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ [الأنعام:٥٧].

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام:٦٢].

وقوله جل قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦].

ومن الأذكار قولك: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

والذكر كله مأخوذ من هذا الفن من علم هذا التوحيد، ولذلك - وهو أعلم - رفع ثواب الذكر إلى أعلى [نهايته][4] حتى فات العقول دركه، وما نسب إليه من عمل واستخرج على مقتضاه إلى أرفع الثواب فهو من وراء الأسباب والأواسط.

واعلم يقينًا أنه من نظر بنور هذا التوحيد [موجودات][5] الدنيا والآخرة تطلعت

---

(١) في النسخة (ق): «بذلك المتفرد».

(٢) في النسخة (ق): «وأما».

(٣) في النسخة (ق): «لازمًا له».

(٤) في النسخة (ق): «نهاية».

(٥) في النسخة (ق): «موجد».

إليه، وقد رفعت سُجف الأسباب، وأسباب الأسباب سافرة عن وجوهها براقع الأواسط التي [تنقب](١) بها لأجل البلوى والاختبار، وقد [نرى](٢) عليها من نور التوحيد كضياء الشمس المنيرة، فاستفتح الأبواب، ثم ترقَّ في الأسباب وادعه فإنه كريم وهاب.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧] فعطف بالواو، والمحذوف مقدر معناه والله أعلم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧] نصرًا لك وإظهارًا لدينه واستجابة لدعائك ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ ثم صرف الخطاب مواجهة للمؤمنين بقوله ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: من نصرنا لكم وما يكون في معناه، ثم عطف على المحذوف بوعد فأنجزه، وهو متممه في المستقبل إن شاء الله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾(٣) [الأنفال:١٨].

ثم قال جل قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ يريد: المؤمنين، ثم خاطب الكافرين، ومن عمل بما ليس من شيم الإيمان وأعمال الإسلام بقوله جل قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ يريد: [المؤمنين](٤) المعاقبين من أجل ذنوبهم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] أهل الإيمان الصريح والعمل الصحيح، الفتح على ألف أن منتظم المعنى بقوله جل قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:١٨].

﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] والكسر لها ابتداء وتحقيق لمعنى ما جاءت به، وهو منتظم بمعنى قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا

---

(١) في النسخة (ق): «تنقبت».

(٢) في النسخة (ق): «بدا».

(٣) يعني: مضعف كيد الكافرين؛ يعني: صنيع الكافرين ببدر. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «مُوهِنٌ كَيْدِ الكافرين» بنصب الواو والتشديد منونة «كَيْدَ» بنصب الدال، وقرأ عاصم في رواية حفص «مُوهِنُ كَيْدِ» بضم النون بغير تنوين «كَيْدَ» بكسر الدال على معنى الإضافة، وقرأ الباقون «مُوهِنٌ كَيْدِ» بالتنوين والتخفيف «كَيْدَ» بالنصب والمُوهِنُ والمُوهَنُ واحد؛ ويقال: وهنت الشيء وأوهنته: إذا جعلته واهنًا ضعيفًا. بحر العلوم للسمرقندي (١٨٧/٢).

(٤) في النسخة (ق): «المذنبين».

الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢] هذا بالمعنى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢٦].

وأما بالمجاورة فعلى نسقها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠] المعنى إلى آخره، إلى قوله جل قوله: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣] فقوله جل قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ تحذير من أحوال المنافقين وفعلهم، وملابسة الأعمال التي توجب النفاق، وهو منتظم المعنى بالمشار إليهم في قوله جل قوله: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] فقوله فيهم: يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] [كقوله][(١)]: «آمنا» وهم لا يؤمنون، وقد يقول الكفار: «سمعنا» ظنًا منهم أنهم قد سمعوا وهم في دعواهم السماع كاذبون.

قال الله جل من قائل: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال:٣١].

ثم قال عز من قائل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢] وأخبر جل ذكره بأنهم صم وبكم، وإنما وقع الإخبار عن بواطنهم فهم

---

(١) في النسخة (ق): «كقولهم».

لا يسمعون الهدى ولا ينطقون به؛ لما أعرضوا عن الذكر بعدما جاءهم [فأعموا][(١)] عنه وصموا، وطبع [الله][(٢)] على قلوبهم فهم لا يفقهون.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾[أي][(٣)] كما أسمع المؤمنين وأما هؤلاء ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣] وقد ضرب الله مثلاً لهذا الصنف بالكلب ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦] نعوذ بالله من عقوبة الإعراض بعد البيان.

قوله جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦] «إذا» وإن كانت ظرفًا للزمان المستقبل فإنها قد تكون بمعنى الحين واقتضاء الأمر بقوله جل قوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] [معنى][(٤)] الأمر بالإسراع والتحذير من التسويف [لذلك][(٥)] قال جل قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:٢٤] إن أخرتم الاستجابة فعلى ذلك ترمونها، وقد حيل بين قلوبكم وبينها، والمرء هنا هو العبد الباطن والقلب صفة له، وقد يعبر عنه بأنه التقوى أو الهدى أو الإيمان أو العقل أو العلم والعمل به، وحقيقة الشيء المطلوب منه هو قلبه، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤] أي: على ما تكونون عليه من ذلك، فانظروا على ما تكون الحال وعيد منه وتهديد لمن أخر التوبة وسوَّف بالأوبة.

ثم قال جل قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[(٦)] [الأنفال:٢٦] يقول

---

(١) في النسخة (ق): «عموا».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «معناه».

(٥) في النسخة (ق): «كذلك».

(٦) نزلت عقب بدر، فقيل: خطاب للمهاجرين خاصة كانوا بمكة قليلي العدد مقهورين فيها، يخافون أن يسلبهم المشركون، قال ابن عباس: فآتوهم بالمدينة وأيدهم بالنصر يوم بدر، و«الطيبات» الغنائم وما فتح به عليهم.

جل قوله: كما اقتدر على أن يجعل في ضعفكم قوة، وفي قلتكم كثرة، وفي خوفكم أمنًا، وآواكم ونصركم ورزقكم [من][1] الطيبات؛ هذا لأنكم أطعتموه، وأسرعتم إلى الاستجابة له ولرسوله، فكذلك هو القادر على أن يجعل مكان كثرتكم قلة مع الخلاف، [وموضع][2] أمنكم خوفًا، ويغير ما بكم من نعمة، [لتغييركم][3] ما بأنفسكم حذر جل وعز مما قد علم أنه واقع، والله المستعان.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو
ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ
لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ
ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ
أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً

=

وقيل: الخطاب للرسول والصحابة، وهي حالهم يوم بدر، و«الطيبات» الغنائم، والناس عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة، والتأييد: هو الإمداد بالملائكة والتغلب على العدد.

وقال وهب وقتادة: الخطاب للعرب قاطبة، فإنها كانت أعرى الناس أجسامًا وأجوعهم بطونًا وأقلّهم حالاً حسنة، والناس فارس والروم، والمأوى النبوة والشريعة، والتأييد بالنصر فتح البلاد وغلبة الملوك، و«الطيبات» تعم المآكل والمشارب والملابس. تفسير البحر المحيط (٦٢/٦).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ومكان».

(٣) في النسخة (ق): «ليغير».

وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى
بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ
﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ
اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ
﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٧ - ٤٠].

قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩] المعنى إلى آخره، يقول جل قوله وهو أعلم: قاتلوهم حتى تضع الحرب أوزارها كما قال جل قوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ...﴾ [محمد:٤] وذلك لا يكون إلا مع [نزول][(١)] عيسى ابن مريم ﷺ، ويكون الدين كله لله يومئذٍ، ويكون المعنى: قاتلوا هؤلاء حتى يدخلوا في الإسلام فلا تكون منهم فتنة، وهي [في][(٢)] نظيرة هذا في سورة البقرة غير هذه عبارة عما يكون تمامه ومصداقه في آخر الزمان، والتي في سورة البقرة عما كان وتقضَّى وبقي منتظر هذه سلمة بن نفيل.

قال: بينما أنا جالس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن [الخيل قد سبيت][(٣)] ووضع السلاح، وزعم قوم ألا قتال وإن قد وضعت الحرب أوزارها، فقال رسول الله ﷺ: «**كذبوا، الآن جاء القتال، وإنه لا يزال من أمتي أمة تقاتل في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم، يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج**

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إنجيل قد سيبت».

ومأجوج»(١).

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢﴾ [الأنفال: ٤١ - ٤٢].

قوله عز قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ...﴾ [الأنفال:٤١] اختلف الناس في قسم الخمس وخمس الخمس لمن هو؟ وفيمن تقسم؟ فقال ابن عباس ﷺ وقد سأله نجدة الحروري عن سهم [ذي](٢) القربى: لمن تراه؟ فقال: هو لنا أهل البيت، قسمه رسول الله ﷺ لنا، وقد كان عمر عرض علينا رأيًا رأيناه دون حقنا فأبينا أن نقبله، وكان الذي عرض علينا أن نُنكح منه أيِّمنا، ونخدم منه عائلنا، ونقضي عن غارمنا، فأبينا أن نقبله إلا أن يسلمه إلينا، وأبى [من](٣) ذلك فتركناه عليه.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد كتابًا فيه: «وقسم أبيك الخمس كله لك، وإنما سهم أبيك منه كسهم رجل من المسلمين، وفيه حق الله وحق الرسول وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة! وكيف ينجو من كثر خصماءه؟! وإظهارك المعازف والمزمار بدعة في الإسلام، ولقد هممت أن أبعث إليك من [يجز جمتك](٤) جمة السوء».

وسُئل الحسن بن محمد عن قول الله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ

---

(١) أخرجه الطبراني (٦٣٦٠).

(٢) في النسخة (ق): «ذوي».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «يجرك بجمتك».

لله خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال:٤١] فقال: هذا مفتاح كلام لله الدنيا والآخرة.

ثم قال قائل: اجتمع رأي العلماء بعد اختلافهم أن هذين السهمين - يعني: الذين هما لله وللرسول - في الخيل والعدة والسلاح.

وقال آخرون: سهم [ذي](١) القربى لقرابة الرسول ﷺ، والأولى - والله أعلم - [ما قاله](٢) رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**»(٣) يعني والله أعلم بما أراد رسوله: في الكراع والسلاح والعدة، ويعطى منه من فيه [عتاد منفعة](٤) لأهل الإسلام ومن أهل [الحرف](٥) والفقه والعلم والقرآن، ويعطى منه سهم ثانٍ لأهل البيت ولذي القربى الغني منهم والفقير والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء؛ لأن الله جل ثناؤه جعل لهم ذلك، وقسمه رسول الله ﷺ [بينهم](٦) وليس في الحديث أن فَضَّل بعضهم على بعض، ثم سهم ثالث لليتامى، ورابع للمساكين، وخامس لابن السبيل.

وذكر الله جل ثناؤه نفسه في أول الخطاب افتتاحًا للكلام وابتداء له به، هو زين الدنيا والآخرة ونور السماوات والأرض، وكما تقول العرب: «قد أعتقك الله وأعتقتك».

وذكر أبو عبد الرحمن في هذا أنه ابتداء [الكلام](٧)؛ لأن الأشياء كلها لله ﷻ، قال: ولعله إنما استفتح الكلام بذكر نفسه في الفيء والخمس؛ لأنهما أشرف الكسب، ولم [يكتسب](٨) الصدقة إلى نفسه؛ لأنها أوساخ الناس، والله أعلم.

وقد قيل: يؤخذ من الغنيمة شيء فيجعل للكعبة، وهو السهم الذي [هو](٩) لله

---

(١) في النسخة (ق): «ذوي».

(٢) في النسخة (ق): «الذي قال».

(٣) أخرجه الحاكم (٤٣٧٠)، والبيهقي (١٧٥٧٧)، والضياء من طريق الطبراني (٣٦١).

(٤) في النسخة (ق): «غناء ومنفعة».

(٥) في النسخة (ق): «الحرب».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «كلام».

(٨) في النسخة (ق): «ينسب».

(٩) سقط من النسخة (ق).

جل ذكره، وهو وجه حسن صواب والله أعلم، وعلى هذا فلتُبنَ منه المساجد، وليصلح منه قناطر المسلمين وجسورهم ومواضع منافعهم، وأما أئمة المسلمين فداخلون فيما هو للرسول ﷺ وإن أفضل عليهم من سهم الله جل ثناؤه فهو أيضًا منه هذا في خمس الخمس، والأربعة الأخماس يقسمها الإمام فيمن حضر القتال من المسلمين البالغين [الأحرار](١).

قوله ﷻ: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾(٢) إلى قوله جل قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢] [وصف العدوة التي كان فيها المؤمنون أنها الأدنى من الدنو، ولكونه عز جلاله مع المؤمنين والملائكة كما وصف العدوة التي كان فيها الكفار بأنها القصوى؛ إذ كانت هذه منه عز جلاله، فذكر الله جل ثناؤه](٣) موافاة الجيشين بدرًا بوفاق منه جل ثناؤه.

يقول جل قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ إذ فعل المكتسب لا يخرج على الأغلب على وفق ما يريده، وفعل الله جل ثناؤه موجود على وفق ما شاءه ﴿لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال:٤٢] من نصرة رسوله والمؤمنين، وإظهار الإسلام يومئذٍ، وكبت [الكفار](٤) وقمع العدو؛ ليري على ذلك آياته في رؤية المؤمنين إياهم على أقل من عددهم، ويُري الكافرين المؤمنين على مثال ذلك قبل الزحف والمناشبة، فلما تناشبوا القتال بدت للكفار [في حوزة المؤمنين](٥) جموع أذعرتهم، وألقى الرعب في قلوبهم وثبت المؤمنين، وكانت الهزيمة والقتل، وهذا كان يومئذٍ الفرقان المعبر عنه بقوله جل قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِالله وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١]

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: شفير الوادي ببدر، الأدنى إلى المدينة ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ يعني: شفير الوادي الأقصى إلى مكة، وقال الأخفش: عدوة الوادي: هو ملطاط شفيره الذي هو أعلى من أسفله وأسفل من أعلاه. النكت والعيون (٢/٧٠).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الكفر».

(٥) سقط من النسخة (ق).

يري القليل كثيرًا والكثير قليلاً، وينصر الضعيف ويخذل القوي، يفعل ما يشاء.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: بالإيمان والتصديق لله والرسول، والهدى والعمل بالطاعة، ويهلك من هلك عن بينة بالكفر والتكذيب والجحد للآيات، والبينة قد تقدم ما هي ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ﴾ لقول من قال ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢] بعمل العاملين أخالص هو أم غير ذلك؟ وهذه إشارة إلى نفاق المنافقين وتكذيب يهود.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣ - ٤٨].

أتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥] الفلاح هنا بمعنى: الظفر بالعدو، ثم الظفر بثواب الله ﷻ والبقاء الدائم في جواره في كل خطاب له جل ثناؤه في هذا المعنى ضمان النصر مع الثبات [والظفر، وذكر الله جل ثناؤه والخشية][1] لا بد ولا محالة.

ثم قال جل قوله يحذر من فعل أولئك في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا

---

(١) في النسخة (ق): «والصبر والحسبة».

مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾[١] [الأنفال:٤٧].

ثم ذكر جل ذكره حضور الشيطان [معهم][٢] وضمانه لهم الجوار والنصر، ثم [خفره][٣] العهد، وخلفه الوعد كالمعهود منه.

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩ - ٥٣].

قوله جل وعز: ﴿إِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩] [أعلم جل ذكره هنا لمشاره في قوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢] من ذكر المنافقين واليهود، ثم قال جل قوله][٤]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع مانع ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩] في شأنه كله.

---

(١) نزلت في أبي جهل وأصحابه، خرجوا لنصرة العِير بالقينات والمعازف ووردوا الجحفة، فبعث خفاف الكناني - وكان صديقًا له - بهدايا مع ابنه وقال: إن شئت أمددناك بالرجال وإن شئت بنفسي مع من خفّ من قومي، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القينات؛ فإنّ بدرًا مركز من مراكز العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب مخرجنا فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدرًا فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القينات، فنهى الله المؤمنين أن يكون مثل هؤلاء بطرين طربين مرائين بأعمالهم، صادين عن سبيل الله، وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن قريشًا أقبلت بفخرها وخيلائها تجادل وتكذب رسولك، اللهم فاحنها الغداة». تفسير البحر المحيط (٨٥/٦).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إخفاره».

(٤) سقط من النسخة (ق).

ثم ذكر جل ذكره كيف يتوفى الكفار الملائكة - عليهم السلام - حال الموت ﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[1] [الأنفال:٥٠].

ثم عطف بالواو على هذه الحال حالاً هي بعد الموت، ثم بعد البعث[قوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١]][2].

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) ﴾ [الأنفال: ٥٤ - ٦١].

قوله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١] لا يخلو أن يكون الأمر مقبلاً أو مدبرًا، فإن كان مقبلاً كما كان الإسلام يومئذٍ، فالجنوح للسلم بعد أن تكون البداية منهم في ذلك أحسن؛

---

(١) فيه قولان : **أحدهما**: يتوفاهم ملك الموت عند قبض أرواحهم. قاله مقاتل.
والثاني: قتل الملائكة لهم حين قاتلوهم يوم بدر. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ تأويله على القول الأول: يضربون وجوههم يوم القيامة إذا واجهوهم، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار.
وتأويله على القول الثاني يحتمل وجهين: **أحدهما**: يضربون وجوههم ببدر لما قاتلوا، وأدبارهم لما انهزموا.
والثاني: أنهم جاءوهم من أمامهم وورائهم، فمن كان من أمامهم ضرب وجوههم، ومن كان من ورائهم ضرب أدبارهم. النكت والعيون (٧٤/٢).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

ليتفرع منهم إلى سواهم، وينتقص على ذلك كثرة مطالبتهم، ولا بد للأجل المضروب من حلول، فإذا جاء ذلك الأجل بلغ الله الأمل، وإن كان الأمر في نقصان فالجنوح [أيضًا][1] إلى السلم بعد أن تكون البداية منهم في ذلك أحسن انتظارًا [منا][2] للفرج، وليتمكن في تلك المدة من أخذ العدة.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٦].

قوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾ [الأنفال: ٦٥] شرط جل ذكره الصبر والفقه عن الله جل ذكره، وهو [في][3] معنى قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَو بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة:٥٢] وتمام الفقه عنه الثقة بوعده الصادق، وإن النصر مع الصبر والثبات مع الحسبة، والعمل بطاعة الله والإكثار من ذكره، وعزم الإيمان إن الله مع المؤمنين الذين وصفهم الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] المعنى إلى آخره، وإنه من كان الله معه فلا يغلب ولا يهزم.

ثم أتبع ذلك بقوله عز قوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال:٦٦] فأعلم أن

---

(١) في النسخة (ق): «إذًا».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

هذا الحكم منسوخ؛ أعني: بإيجاب الثبوت على واحد إلى عشرة، وأبقى الوعد؛ إذ الوعد خبر والخبر لا [يتطرقه][(١)] النسخ، وإبقاء القضية [الأولى][(٢)] ثابتة بالخط، وحكم التخصيص في الزمان قوله جل قوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ فأعلمنا بذلك أن هذا الوعد والإيجاب لزمان يأتي بعد إن شاء الله وأبقى الآن حكم الثبوت من واحد إلى اثنين، والوعد حاضر معه إن أحضر العبد الصبر والتقوى، ختم ذلك بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩].

قوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا...﴾[(٣)] [الأنفال:٦٧] هذا كقوله جل قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ...﴾ [محمد:٤].

أتبع ذلك قوله: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ﴾ [أي بسعادتهم][(٤)] ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي: [من فداء الأسارى][(٥)] ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٨] [أي: لمفادتهم][(٦)] كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١] إلى قوله: ﴿لِيُدْخِلَ

(١) في النسخة (ق): «يطرقه».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) وهذا نزل في أسرى بدر حين استقر رأي النبي ﷺ فيهم بعد مشاورة أصحابه على الفداء بالمال، كل أسير بأربعة آلاف درهم، فأنكر الله تعالى ذلك عليه، وأنه ما كان له أن يفادي الأسرى ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ فيه وجهان: **أحدهما**: هو الغلبة والاستيلاء. قاله السدي. **والثاني**: هو كثرة القتل؛ ليُعزَّ به المسلمون ويذل به المشركين. قاله مجاهد. النكت والعيون (٨١/٢).

(٤) زيادة النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «في فدية الأسرى».

(٦) سقط من النسخة (ق).

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ...﴾ [الفتح:٥].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: ٧٠ - ٧٢].

قوله جل وعز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال:٧٢] إلى آخر السورة، هذا [حكم الله ﷻ][(١)] بألا تصح ولاية الدين إلا لمن آمن وهاجر لا لمن آمن ولم يهاجر، [بل إن استنصروا][(٢)] في الدين الذي اجتمعوا معنا فيه وجبت علينا نصرتهم إلا أن يكون المستنصر عليهم [قومًا][(٣)] بيننا وبينهم ميثاق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٣ - ٧٥].

ثم قال جل قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣]

---

(١) في النسخة (ق): «هذا نص».

(٢) في النسخة (ق): «بلى إن استنصرونا».

(٣) سقط من النسخة (ق).

يريد وهو أعلم: إلا تفعلوا ما أمرتكم به وبخاصة [والله أعلم][١] وهو راجع على معنى القتال وتحريضه عليه وترك [الأسر][٢] وأن يعوض منه القتل والإغلال حتى يتحصل الإثخان، ثم ما أمر به من الموالاة في الدين والنصرة، والمناصحة وحفظ الميثاق.

قال رسول الله ﷺ: «**ما ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم [العدو]**[٣]»[٤].

وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[٥].

وقال ﷺ: «**من كانت له ولية** - أو قال: ابنة - **فخطبها إليه كفؤ فليزوجه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[٦].

يشير إلى ما تكون الحال معها مع العضل [لها][٧] على الأغلب، ولو فشا ذلك - أعني: العضل - لكانت الفتنة من هذه الجهة والفساد الكبير كذلك في ترك أوامره وارتكاب نواهيه، فالمراد بقوله ﷻ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ...﴾ جميع ما أمرنا به وحضنا عليه، و«**الدين النصيحة**»[٨].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الأمر».

(٣) في النسخة (ق): «عدوهم».

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٣١) ونسبه إلى ابن عباس ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠) والترمذي (٢١٧٢) والنسائي (٥٠٠٨) وابن ماجة (٤٠١٣) وابن حبان (٣٠٧) والطيالسي (٢١٩٦) وأحمد (١١٤٧٨) وعبد بن حميد (٩٠٦) وأبو يعلى (١٠٠٩) والبيهقي (١٩٩٦٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨/١٠).

(٦) أخرجه الترمذي (١٠٨٤) وقال: هذا الحديث قد خولف عبد الحميد بن سليمان في هذا الحديث، ورواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مرسلاً، قال الترمذي: قال محمد: وحديث الليث أشبه، ولم يعد حديث عبد الحميد محفوظًا. وابن ماجة (١٩٦٧)، والحاكم (٢٦٩٥) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني في «الأوسط» (٤٤٦).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأحمد (١٦٩٨٢)، وأبو عوانة (١٠١)، وابن حبان (٤٥٧٤)، والبغوي في «الجعديات» (٢٦٨١)، وابن قانع (١٠٩/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٦٥)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١٢٩١)، والطبراني =

ثم قال وقوله الحق بعد هذا: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الأنفال:٧٥] يحتمل أن يكون معنى قوله جل قوله: ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾ أي: إنه كذلك [في اللوح][1] المحفوظ، كذلك أنزلناه عليكم فامتثلوه، كذلك قال الله جل قوله: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ من المؤمنين والمهاجرين.

ثم قال جل قوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨].

كما قال جل قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى:١٨ - ١٩].

والقرآن متصل بالكتب قبله، وكلها منفصلة من [الكتاب][2] المبين كما قال جل قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] فأولوا الأرحام [بعضهم أولى ببعض لكل موفق][3] ونصرة ونصيحة وهبة وإنكاح وصلة وغير ذلك.

=

(١٢٦٧)، وابن عساكر (٥٤/١١).

(١) في النسخة (ق): «الكتاب».

(٢) في النسخة (ق): «كتاب الله».

(٣) في النسخة (ق): «أولى ببعض لكل مرفق».

تفسير سورة براءة[1]

التوبة

[مدنية، فيها من المنسوخ سبع آيات][2].

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى

---

(١) هذه السورة مدنية كلها، وقيل: إلا آيتين من آخرها فإنهما نزلتا بمكة، وهذا قول الجمهور، وذكر المفسرون لها اسمًا واختلافًا في سبب ابتدائها بغير بسملة، وخلافًا عن الصحابة: أهي والأنفال سورة واحدة، أو سورتان؟ ولا تعلق لمدلول اللفظ بذلك، فأخلينا كتابنا منه، ويطالع ذلك في كتب المفسرين. ويقال: برئت من فلان أبرأ براءة، أي: انقطعت بيننا العصمة، ومنه برئت من الدين، وارتفع براءة على الابتداء، والخبر إلى الذين عاهدتم، ومن الله صفة مسوغة لجواز الابتداء بالنكرة، أو على إضمار مبتدأ أي: هذه براءة، وقرأ عيسى بن عمر براءة بالنصب، قال ابن عطية: أي الزموا، وفيه معنى الاغراء، وقال الزمخشري: اسمعوا براءة، قال: فإن قلت: بم تعلقت البراءة، بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلت: قد أذن الله تعالى في معاهدة المشركين أولاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما تجدّد من ذلك فقيل لهم: اعلموا أنّ الله تعالى ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين، وقال ابن عطية: لما كان عهد الرسول ﷺ لازمًا لجميع أمته حسن أن يقول: عاهدتم، وقال ابن إسحاق وغيره: كانت العرب قد أوثقها رسول الله ﷺ عهدًا عامًا على أنّ لا يصدّ أحد عن البيت الحرام ونحو هذا من الموادعات، فنقض ذلك بهذه الآية، وأحل لجميعهم أربعة أشهر، فمن كان له مع الرسول عهد خاص وبقي منه أقل من الأربعة أبلغ به تمامها، ومن كان أمده أكثر أتمّ له عهده، وإذا كان ممن يحتبس منه نقض العهد قصر على أربعة أشهر، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأربعة يسيح في الأرض أي: يذهب فيها مسرحًا آمنًا، وظاهر لفظة من المشركين العموم، فكل من عاهده المسلمون داخل فيه من مشركي مكة وغيرهم، وروي أنهم نكثوا إلّا بني ضمرة وكنانة فنبذ العهد إلى الناكثين.

(٢) سقط من النسخة (ق).

ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ [التوبة: ١ - ٣].

قوله عز من قائل: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إلى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١] هؤلاء هم طائفة من المشركين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فظاهروا عليه، فأمر رسوله أن يتبرأ إليهم من عهدهم، وأجل لهم أربعة أشهر يسيحون [أي يسيرون](١) في الأرض آمنين انتظارًا للتوبة منهم، وأعلمهم أن الله تعالى [مجزي](٢) الكافرين، وأنهم ينقلبون في قبضته لا يعجزونه، ثم آذان منه في إعلام إلى جميع المشركين عامة بالبراءة والتبرئ منهم [وأعلمهم أن الله مخزي الكافرين](٣).

يقول الله ﷻ: قل لهم يا محمد: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: يدخلكم في [ولايته](٤) ورحمته ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٥) [التوبة:٣] الأسر والقتل في الدنيا وفي الآخرة عذاب النار.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «مخزي».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «جواره وولايته».

(٥) جعلت البراءة شأنًا من شؤون الله ورسوله، وأسند العهد إلى ضمير المسلمين؛ للإشارة إلى أنّ العهود التي عقدها النبي ﷺ لازمة للمسلمين، وهي بمنزلة ما عقدوه بأنفسهم؛ لأنّ عهود النبي ﷺ إنّما كانت لمصلحة المسلمين في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمانَ كانت بقية قوةٍ للمشركين، وإلّا فإنّ أهل الشرك ما كانوا يستحقّون من الله ورسوله توسعة ولا عهدًا؛ لأنّ مصلحة الدين تكون أقْوَمُ إذا شَدد المسلمون على أعدائه، فالآن لمّا كانت مصلحة الدين متمحّضة في نبذ العهد الذي عاهده المسلمون المشركين أذن اللهُ رسوله ﷺ بالبراءة من ذلك العهد، فلا تبعة على المسلمين في نبذه، وإن كان العهد قد عقده النبي ﷺ ليعلموا أنّ ذلك توسعة على المسلمين على نحو ما جرى من المحاورة بين عمر بن الخطاب وبين النبي ﷺ يوم صلح الحديبية، وعلى نحو ما قال الله تعالى في ثبات الواحد من المسلمين لاثنين من المشركين، على أنّ في الكلام احتباكًا؛ لما هو معروف من أنّ المسلمين لا يعملون عملاً إلّا عن أمر من الله ورسوله، فصار الكلام في قوّة براءة من الله ورسوله ومنكم =

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة: ٤ - ٥].

ثم قال عز من قائل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ [التوبة:٤] فاستثنى هؤلاء من الناس.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ...﴾ [التوبة:٥] وكان نزول هذه السورة في ذي الحجة من عام تسع من الهجرة، وكان أمير الحاج يومئذٍ أبا بكر الصديق ﷺ، فأتبعه [رسول الله ﷺ][(1)] علي بن أبي طالب ﷺ يقرؤها على الناس وينادي: ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، [وإتمام][(2)] هذا الأمر المجعول لهؤلاء في إكمال خمسين يومًا من يوم الحج الأكبر، وهو آخر شهر المحرم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا

=

إلى الذين عاهد الله ورسوله وعاهدتم. التحرير والتنوير (٦/٢١٣).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وتمام».

ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ [التوبة: ٦ - ١٠].

ثم قال جل من قائل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦].

ثم قال جل قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة:٧] يقول جل ذكره: لأي إيمان وإسلام؟ لأي قرب؟ لأي ولاية يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟ ثم استثنى من جملة المشركين [عهد عند الله][(١)] وهي الجملة التي أذن بالتبرئ منهم [قيل][(٢)] قريشًا ومن كان في عهدهم، وهم الذين عوهدوا عند المسجد الحرام، وفي هذا إعلام بأن إسلام مسلمي الفتح كان [عنوة][(٣)] فأنزلها منزلة المعاهدة، وفي هذا الخطاب إشارة إلى يهود خيبر، فهم أيضًا عند المسجد الحرام مسجد رسول الله ﷺ وحرمه.

ثم قال جل قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾[(٤)] [التوبة:٧].

ثم أعلم بما كانوا عليه بقوله جل قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:٨].

يقول جل من قائل: ﴿كَيْفَ﴾[تكون موالتهم استبعادًا لذلك وهم][(٥)] ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلَا ذِمَّةً﴾ الإل: القرابة، وقيل: الإل: الله جل ذكره، فكان معنى الكلام لا يرقبون فيكم قرابتكم منهم ولا يرقبون من عاهدوا به، وتواثقوا بزمامه وحرمته، وهو الله تعالى، ثم أظهر هنا ما أبطنه من ذكر يهود بقوله جل قوله:

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «قبل».

(٣) في النسخة (ق): «عنده».

(٤) وليس ذلك إنكارًا على وقوع العهد، فإن العهد قد انعقد بإذن من الله، وسمّاه الله: «فتحًا» في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] وسمّي رضا المؤمنين به يومئذٍ: «سكينة» في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] والمعنى: إنّ الشأن ألا يكون لكم عهد مع أهل الشرك؛ للبون العظيم بين دين التوحيد ودين الشرك، فكيف يمكن اتّفاق أهليهما؛ أي: فما كان العهد المنعقد مَعهم إلّا أمرًا موقّتًا بمصلحة. التحرير والتنوير (٢٢٧/٦).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:٨] إلى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً﴾ [أي: الله][1] ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠] عهدًا عاهدوه به.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١١ - ١٥].

ثم قال جل قوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ثم قال: ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي: في كل طائفة من الكافرين وفي كل وجه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١].

ثم قال: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ من الإيمان ولا أيمان من اليمين ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة:١٢] تعريض بنكثهم العهد في مظاهرتهم قريشًا على غزوة الخندق وصفهم بأنهم أئمة الكفر؛ لأنهم كانوا أهل كتاب [فسلم][2] المشركون عن رسول الله ﷺ وعما جاء به، فيجيبونهم بما يصدهم عن سبيل الله ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:٩] فهم لا أيمان لهم لأجل هذا، ولا أيمان لهم لما يعلم الله ﷻ منهم من نقضهم العهد متى أمكنهم، ومن إضرارهم بالمؤمنين متى ظهروا عليهم.

ثم أظهر وصف قريش وقد كان أبطنه بقوله عز قوله: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ [التوبة:١٣] إلى قوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٥].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «فيسألهم».

فصل

صدر هذه السورة منتظم بآخر سورة الأنفال، [لما ختم سورة الأنفال][(١)] بذكر الولاية ومن يوالي ومن أحق بذلك، وفصَّل ذلك ابتداء هنا بالبراءة ممن [يستحق][(٢)] التبرؤ منه، ولذلك أشكلت على الأئمة من الصحابة ﷺ فلم يفصلوا بينهما بسطر «بسم الله الرحمن الرحيم».

قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة:٦] الكلام يقال على وجهين:

أحدهما: معنى يعبر عنه، وهو في النفس كما قال القائل:

إن الكــلام لفــي الفــؤاد وإنمــا ... جُعــل اللــسان علــى الفــؤاد دلــيلاً

وقال بعضهم: في كلام له إنما المرء بأصغريه لسانه وجنانه، إن تكلم تكلم بلسان، وإن أقدم أقدم بجنان فاعتمد على أن الكلام هو ما خرج على اللسان، فحقيقة الكلام فينا [هو][(٣)] صوت مؤدٍ لمعان قائمة في النفس تصورها حروف مقطعة مركبة أشكالاً، فالمسموع هو ما في النفس بواسطة الصوت المؤدي به إلى السامع، والسامع هو المؤدى إليه، والسماع هو صدور المسموع بواسطة الصوت [المشيع][(٤)] إلى سمع السامع، فالحروف وضعت [للمعنى][(٥)]، ولم توضع المعاني للحروف، [وموضع الحروف][(٦)] إنما هو في الفم واللهاة ومنفد الخيشوم والأسنان والشفتين، وهو القول المعبر عما في النفس من معنى هو الكلام، والله تبارك وتعالى متكلم وهو غني عن الآلات متعال عن الافتقار إلى الأدوات، فهو المتكلم بالحقيقة، ولا يجوز أن يشار بكلامه إلى آلة ولا يوصف بجارحة.

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «يجب».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «المسمع».

(٥) في النسخة (ق): «للمعاني».

(٦) سقط من النسخة (ق).

وكذلك لا يجوز أن يقال: «تكلم كله أو بعضه»؛ إذ القول بالكل والبعض، والشبه عنه منفي، والكلام صفة ليس هو الموصوف ولا هو غيره بوجه؛ إذ الغير لا يكون إلا لشيئين مختلفين أو مؤتلفين، [كما لا يجوز أن يقال كان الكلام بعد أن لم يكن لأن هذا صفة المخلوق][1] والمخلوقون لم يكونوا ثم كانوا، فلم يستَبِنْ لأجل ذلك لهم صفة كلامه ولا علمه في القدم، فعجزوا عنه لعدمهم، والعجز والاستبانة تجري عليهم ولهم لا على علمه وكلامه، وكان الله جل ثناؤه ولم يزل آمرًا، والأمر كلامه، ولا يكون الآمر آمرًا من غير كلام، ولا يكون المتكلم متكلمًا من غير كلام، ولا عالمًا من غير علم، ولا خالقًا من غير خلق.

[والخلق صفة ذات في الحقيقة، لكنه ترك أن يخلق ما شاء ثم خلق ما خلق إذ شاء وصفة فعل في اللغة][2] وصفات الفعل ترجع إلى صفات الذات، فكلام الله جل وعز لا يدركه بالكيف البشر، وإنما يدرك أمره ونهيه بالمثالات والأمثال والأسماء [والحروف محدثة، وبذلك استبان لهم كلامه كما تقدم وصفه، والحروف المحدثة والأمثال والأسماء][3] يكتبونه ليقرؤنه ويحفظونه ويتعلمونه، فيجري التغاير على الحروف والأمثال والأسماء، وبها يستدل على كلامه تعالى وأمره ونهيه.

فقوله جل قوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة:٦] تنزل منه جل ذكره عن حقيقة ما هو كلامه الذي هو صفة ذاته إلى ما هو مبلغ له ووصف وعبارة عنه، وقد مضى التعارف بتحقيق قولهم متى حكى أحدهم حديث زيد وقول عمر، وقالوا: هذا كلام زيد وقول عمر، وربما طلبوا التحقيق فيقولون: هذا نص كلام زيد، وهذا حكاية قول عمر، وإذ المعلوم أن صفة زيد لم ينتقل عنه إلى من حُكي عنه قوله. وإذا كانت صفة زيد لا تنتقل عنه إلى سواه فصفة الله أعلى وأجل.

فعلى ما تقدم من البيان كلام الله هو الذي نتلوه بقراءتنا ونكتبه في [مضاجعنا][4]، وهو المسموع منا في تلاوتنا بنص القرآن ودليل العقل، وهذا معترك

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف في النسخ.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «مصاحفنا».

اقتتال أهل السنة مع المعتزلة، والقائلين بخلق القرآن، وفي فهم المعنى فصل الخطاب ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾ [التوبة: ١٦ - ٢٢].

قوله جل وعز: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا...﴾ [التوبة:١٦] هذه خاصة من وصف المنافقين وإخوانهم من يهود.

ثم أتبع ذلك بخاصة من وصف أهل المسجد الحرام بقوله جل قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾[١] [التوبة:١٧] إلى قوله جل قوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ [التوبة:٢٠] [إلى قوله:

(١) مناسبة هذه الآية لما قبلها: إنه تعالى لما ذكر البراءة من المشركين وأنواعًا من قبائحهم توجب البراءة منهم ذكروا أنهم موصوفون بصفات حميدة توجب انتفاء البراءة، منها: كونهم عامري المسجد الحرام. روي أنه أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك، وطفق عليّ يوبخ العباس، فقال الرسول: «واقطيعة الرحم» وأغلظ له في القول، قال العباس: تظهرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجرًا، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، فأنزل الله هذه الآية ردًا عليهم. تفسير البحر المحيط (٦/١٢٩).

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة:٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[التوبة: ٢٣ - ٢٤].

لما بلغ الأمر وحل الأجل المعلوم في علمه المقدر بحكمته المعبر عنه بقوله الحق: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] فحان بحلول نبوتهم أجلهم المسمى قال وقوله الحق: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧] ومضمره ومحذوفه مع وجود من رفعت لهم قواعده وطهر من أجله.

أتبع ذلك [قوله][٢] جل قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [التوبة:١٩] ثم أتبع ذلك بوصف متردد بين الفريقين [بين][٣] أهل مكة ومنافقي أهل المدينة وإخوانهم من يهود، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ [التوبة:٢٣] إلى قوله: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٩].

ثم جعل يعدد نعمه عليهم [أعني المؤمنين][(١)] بقوله جل قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة:٢٥] إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٢٨].

ثم [أرجع] الخطاب إلى المؤمنين بالله يأمرهم][(٢)] بجهادهم عدوهم من هؤلاء وهؤلاء: يا أيها الذين آمنوا ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ هؤلاء المشركون وكفارهم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ [التوبة:٢٩] إلى آخر القصة، هؤلاء أهل الكتاب مع [إسراد][(٣)] منهم في الوصف بأنهم لا يُحرِّمون ما حرم الله ورسوله.

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وصل الخطاب للمؤمنين فأمرهم».

(٣) في النسخة (ق): «اشتراك».

بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:٣٤] وَعْظٌ من الله - جل ذكره - وَعَظَ به عباده المؤمنين أن يتلبسوا بشيء من هذه الصفة القبيحة [التي][1] وصف بها أهل الكتاب، والمراد بالعظة هؤلاء، لكنه [كرمهم][2] عن المواجهة بهذه الرذيلة، فمفهوم هذا أن من قرأ كتاب الله وتعلم العلم المصرف به وجوه الناس إليه فهو ملحق به هذا الوصف.

قال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يجد رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام**»[3].

ثم قال جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [وحذف][4] ها هنا: «منكم» يقوله لرسوله ﷺ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤] يعني: الصنفين معًا قراء السوء والصنف الثاني، فكانت الأولى تعريضًا لهذه الأمة بالنذارة والثانية كناية والمعنيون نحن معشر هذه الأمة. انتهى.

فصل

ذكر بعض الناس أن كل ما أديت زكاته فليس [يكنز][5]، وذهب إلى ذلك

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «أكرمهم».

(٣) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (١٥٨٢).

(٤) في النسخة (ق): «وحلف».

(٥) في النسخة (ق): «بكنز».

جماعة، والذي تحقق من مجموع ما جاء به الأمر أن في المال حقوقًا لله - جل ذكره - زكاته بعضها، فمن حقوقه سوى الزكاة: إيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفكاك الأسير، فالإنفاق في سبيل الله وعون المُفرج دينًا، وأما أداء الزكاة من المال فواجب على صاحبه يرحم ذا الحاجة، ويبدأ بها ثم ينفق ما فضل منه في منافعه، ثم إن فضل شيء فالعود بالفضل [في](١) وجوهه حق عليه، وأما كنزه [ودفنه](٢) وقطع حقوق الأفضال منه على ذوي الحاجات العامة للمسلمين، وهو الإنفاق في سبيل الله، والخاصة منها هي [على](٣) ما يخص به من أصناف ذوي الحاجات، فوعيد ذلك متوجه على فاعله.

وفي قوله جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] أدل دليل وأبين برهان على أن المتوعد عليه هنا ليست الزكاة، ولو كان ما قالوه كما زعموا لكان الكلام: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا يزكونها فبشرهم» المعنى.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٥ - ٣٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ المعنى

---

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «ودفعه».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

[المضمر][(١)] الذي في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] بالنسيء فهو زيادة في الكفر، كانوا ينسئون الأشهر الحرم [عائدًا على الاثنى عشر شهرًا، وعلى الخصوص على الأربعة الأشهر الحرم؛ أي: يؤجرونها][(٢)] لحاجاتهم في خروجهم وقضاء أوطارهم، وربما كان ذلك منهم ليوافقوا بالأشهر الحرم؛ لانتقالها في السنة أشهرًا ما من الأشهر الشمسية لثبوتها، وكانوا [يحسبونها][(٣)] على زمن الشتاء للمعهود من عسر السفر، وتعذر [التقرب][(٤)] من كنان الأوطان [من][(٥)] البرد والشتاء، ويفرغون سائر السنة [لخروجهم][(٦)] والخروج في أسفارهم، فكانوا يضلون بذلك عن الأشهر الحرم، فيحلون بفعلهم ذلك أشهرًا حرمًا ويحرمون منها ما أحلَّ الله.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦] دين الإسلام، أسلمت له السماوات السبع والأرض، [وعلى كل][(٧)] شيء أسلم له، وعلى ذلك فطر كل شيء، وخلق ﷻ يوم خلق السماوات والأرض دون السماء الدنيا اثنا عشر برجًا، لكل برج من السنة شهره يقطع القمر البروج كلها في الشهر إلا موضع التقليب، وهو موضع الزيادة [بالسنة][(٨)] الشمسية على السنة القمرية.

قال الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩] وقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ

---

(١) في النسخة (ق): «الضمير».
(٢) في النسخة (ق): «أي: يؤخرونها».
(٣) في النسخة (ق): «يحبسونها».
(٤) في النسخة (ق): «التغرب».
(٥) في النسخة (ق): «زمن».
(٦) في النسخة (ق): «لحروبهم».
(٧) في النسخة (ق): «وكل».
(٨) سقط من النسخة (ق).

تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:١٢] [[.....](١) هناك؛ أي: في الدار الآخرة تفصيلاً](٢) وقد تقدم الكلام في المنازل والدوائر من الأفلاك، فأغنى ذلك عن الترداد.

ثم قال جل قوله: ﴿وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾(٣) [التوبة:٣٦] أي: في الأشهر الحرم وغيرها، [وإنما حرم عليهم القتال أولاً في الأشهر الحرم كما](٤) كتب عليهم في طول مدة ما بين إبراهيم وإسماعيل وبين نبوة محمد - عليهم السلام - من التخليط والردة التي ارتدوا فيها، ولما جاء الله ﷻ بالإسلام والخير صرفهم إلى [الأولى](٥) وهو حقيقة ملة إبراهيم، ومن أفضل أعمال [العباد](٦): الجهاد في سبيل الله، والأشهر الحرم أولى بذلك الفضل.

ومعنى قوله جل قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] يريد: كما [فعل](٧) أولئك من ظلمهم بالنسيء والردة إلى ما كانت عليه [من](٨) الجاهلية الأولى التي أرسل إليهم إبراهيم ﵇، وعلى هذا فللأشهر الحرم فضل مراعاة كشهر رمضان، فإن المعاصي لا يرخص في شيء منها في

---

(١) ليس في (ف) وقطع في (غ).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) اختلفوا في تحريم القتال في الأشهر الحرم: هل نسخ أم لا؟ فقال الزهري: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾. وقال عطاء: هو ثابت الحكم، وتحريم القتال فيه باقٍ غير منسوخ، والأول أصح؛ لما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزا هوازن بحنين، وثقيفًا بالطائف، وأرسل أبا العاص إلى أوطاس لحرب مَنْ بها من المشركين في بعض الأشهر الحرم، وكانت بيعة الرضوان على قتال قريش في ذي القعدة. النكت والعيون (١٥٤/١).

(٤) في النسخة (ق): «ولما».

(٥) في النسخة (ق): «الأُول».

(٦) في النسخة (ق): «العبادة».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) سقط من النسخة (ق).

غيرها من الأشهر، وبخاصة في رمضان بزيادة حرمة كذلك الأشهر الحرم.

ثم قال جل قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] أي: ارتقبوا النصر على عدوكم، وانتظروا الفتح من الله مع التقوى، وفي الخطاب معنى التهديد؛ أي: إنكم إن لم تلتزموا التقوى أديل عليكم عدوكم، ثم جعل ﷻ يسرد صفات المنافقين ولواذهم عن الطاعة لله جل ذكره والرسول وصفًا بعد وصف، ويحذر منهم، وينهى عن توليهم، ويخبر عن بواطنهم ويصف المؤمنين بصفاتهم، ويسمهم بسماتهم، وفي أثناء ذلك يأمر رسوله بأمره ويتوعد أهل النفاق، ويزجرهم ويعرض بهم إلى آخر السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى
ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا
غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ
نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ
لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ
بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ
ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ
بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا
قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ
ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ
لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ
ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ
﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي

رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ
ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا
خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ
وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى
ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ
بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم
مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ
﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ
أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ
﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ
يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى
ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ
إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ
قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

لَكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن
كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ
تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾
لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم
بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ
يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ
مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ

وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟
وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ
أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ
وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى
ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟
فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ
أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ
عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾
وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ
مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا
نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ
أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ
فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ
لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾
ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا
يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ
رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟
عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ
﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا
يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن
تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ
بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ
بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى
قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا
عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ
ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ
لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ
وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ

﴿١١٦﴾ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا
كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن
نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا
يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ
صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ
ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ
ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم
مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ
﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ
ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ
مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ
﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨ - ١٢٩].

قوله جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾[١] [التوبة:١١١] وقوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢] هذه بيعة الله جلَّ ذكره لكل مؤمن ومؤمنة، والجهاد جهادان:

جهادًا أكبر: وهو جهاد النفوس دون شهواتها وقمعها في ذات الله جلَّ وعزَّ عن هواها.

وجهاد أصغر: وهو جهاد العدو الظاهر جمع الله الجهادين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] فمن باع من الله جلَّ ثناؤه نفسه وماله فلا رجوع له عن إمضاء [بيعه][٢]، وإلا كانت ردة على قدرها، والفرار من العدو الباطن [الذي يجر][٣] إلى هوى النفس أشد من الفرار يوم الزحف.

ولاشتراك البيعتين أتبع ذلك قوله الحق: ﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ وقيل: هم الصائمون ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ [التوبة:١١٢].

ثم أتبع ذلك التحذير من الاستغفار للمشركين إكمالاً للبراءة منهم، [والتخير عنهم][٤] إلى حزب الله جل ذكره، فانتظم ذلك كله بما تقدم في سورة الأنفال من ولاية وبراءة، ومن تعريض بأوصاف المنافقين إلى غير ذلك من معاني ما تقدم، ثم ذكر الثلاثة المتخلفين في غزوة تبوك وتوبته عليهم، فمن رحمته وجميل توليه ﷻ أنه استفتح قصتهم بذكر توبتهم وأعرض عن ذكر الذي كان منهم من تردد وتلدن أنه

---

(١) نزلت في البيعة الثانية، وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرهم سنًّا عقبة بن عمرو، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة، فقالوا: اشترط لك ولربك. والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة، فاشترط ﷺ حمايته مما يحمون منه أنفسهم، واشترط لربه التزام الشريعة وقتال الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة، فقالوا: ما لنا على ذلك؟ قال: الجنة، فقالوا: نعم ربح البيع، لا تقيل ولا نقائل. وفي بعض الروايات: ولا نستقيل، فنزلت. تفسير البحر المحيط (٦/٢٣١).

(٢) في النسخة (ق): «بيعته».

(٣) في النسخة (ق): «تحيزًا».

(٤) في النسخة (ق): «والتحيز».

بهم رءوف رحيم.

ثم أكثر التوصية للمؤمنين بلزوم الصدق فعلاً وقولاً وعقدًا، ثم رغب في الجهاد أحسن ترغيب ووعظ فيه، ورفع ثواب العمل فيه إلى أرفع غاياته، ووصى جدًّا بالإغلاظ على الكافرين، وأخذ الأهبة لقتالهم وإعطاء الجهد في جهادهم، ثم أرجع الخطاب إلى ذم المنافقين بوصف إظلام قلوبهم وحرج صدورهم، فقال جل قوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤] أي: بفضل الله ونعمته عليهم [مزيدة][(١)] إياهم من فضله، وما يجدونه من حلاوة الإيمان في قلوبهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[(٢)] [التوبة:١٢٥] ثم عدد على المؤمنين [نعمه][(٣)] برسوله وبأنه منهم رءوفًا بهم عطوفًا عليهم حريصًا على هدايتهم.

ثم واجه بخطابه رسوله ﷺ بقوله جل قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [أي: عن الاستجابة لك][(٤)] ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩] ما دله عليها وجعلها له عودة إلا لأنها [آمنة][(٥)] من المحذور، وقد قيل: إنما آمنة من الغرق، وهي إن شاء الله عامة [البركة][(٦)] كما جاءت.

[جاء عن رسول الله ﷺ أنه حذر يومًا بعض أصحابه فتنًا تكون في آخر الزمان، وبالغ في ذلك فقالوا: يا رسول الله، فماذا تأمرنا به إن أدركنا ذلك؟ فقال: «**قولوا:**

---

(١) في النسخة (ق): «بمزيده».

(٢) قالت المعتزلة: لا يجوز أن تكون زيادة المرض من جنس المزيد عليه؛ إذ المزيد عليه هو الكفر، فتأولوا ذلك على أن يحمل المرض على الغم؛ لأنهم كانوا يغتمون بعلو أمر رسول الله ﷺ، أو على منع زيادة الألطاف، أو على ألم القلب، أو على فتور النية في المحاربة؛ لأنهم كانت أولاً قلوبهم قوية على ذلك، أو على أن كفرهم كان يزداد بسبب ازدياد التكليف من الله تعالى. تفسير البحر المحيط (١/٦٠).

(٣) في النسخة (ق): «نعمته».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «مصاحفنا».

(٦) في النسخة (ق): «البركات».

حسبنا الله ونعم الوكيل عليه توكلنا»(١) وكانت هذه الآية مصداقًا لما قاله ﷺ](٢) **﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾** [الأحزاب: ٤].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١١٧١٤)، وعبد بن حميد (٨٨٦)، وأبو يعلى (١٠٨٤) والترمذي (٢٤٣١) وابن حبان (٨٢٣)، والحاكم (٨٦٧٨)، والحميدي (٧٥٤) وأبو نعيم (١٠٥/٥) وقال: غريب.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

تفسير سورة يونس عليه السلام(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(١) هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات، فإنها نزلت بالمدينة، وهي ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ إلى آخرهن، قاله ابن عباس، وقال الكلبي: إلا قوله ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به فإنها نزلت في اليهود بالمدينة، وقال قوم: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة، ونزل باقيها بالمدينة، وقال الحسن وعطاء وجابر: هي مكية وسبب نزولها: أنّ أهل مكة قالوا: لم يجد الله رسولاً إلا يتيم أبي طالب فنزلت، وقال ابن جريج: عجبت قريش أن يبعث رجل منهم فنزلت، وقيل: لما حدثهم عن البعث والمعاد والنشور تعجبوا، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما أنزل ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وذكر تكذيب المنافقين ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ وهو محمد ﷺ أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أنزل، والنبي الذي أرسل، وأن ديدن الضالين وأحد متابعيهم ومشركيهم في التكذيب بالكتب الإلهية وبمن جاء بها، ولما كان ذكر القرآن مقدّمًا على ذكر الرسول في آخر السورة، جاء في أول هذه السورة كذلك فتقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول، وتقدم ما قاله المفسرون في أوائل هذه السورة المفتتحة بحروف المعجم، وذكروا هنا أقوالاً عن المفسرين منها: أنا الله أرى، ومنها أنا الله الرحمن، ومنها أنه يتركب منها ومن حم ومن نون الرحمن، فالراء بعض حروف الرحمن مفرقة، ومنها أنا الرب وغير ذلك، والظاهر أن تلك باقية على موضوعها من استعمالها البعد المشار إليه، فقال مجاهد وقتادة: أشار بتلك إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل والزبور، فيكون الآيات القصص التي وصفت في تلك الكتب، وقال الزجاج: إشارة إلى آيات القرآن التي جرى ذكرها، وقيل: إشارة إلى الكتاب المحكم الذي هو مخزون مكتوب عند الله، ومنه نسخ كل كتاب، وقيل: إشارة إلى الراء وأخواتها من حروف المعجم، أي: تلك الحروف المفتتح بها السور وإن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المنال.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤﴾ [يونس: ١ - ٤].

قوله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [يونس:١] [أعلم الله جل ذكره أن ﴿الر﴾ من آيات الكتاب الحكيم][(١)] يريد وهو أعلم: اللوح المحفوظ كما قال جل قوله: ﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الزخرف:١ - ٢] إلى قوله جل قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] وقد تقدم من هذا في صدر الكتاب مرددًا ما يغني عن إعادته إلى أن يفتح الله رحمته.

وروى معقل بن يسار المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة**»[(٢)] وهذا موافق لما قدمناه والحمد لله رب العالمين في قوله جل ذكره: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:١ - ٢] إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ، وإن «الم» واسطة بين حروفه وبين حروف هذا الكتاب.

وفي رواية أخرى: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت مكان التوراة السبع الطول، [وأعطيت مكان الإنجيل المئين، وأعطيت مكان الزبور المثاني]**[(٣)] **وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة من تحت العرش لم يعطها نبي قبلي، وأعطاني ربي المفصل نافلة**»[(٤)].

وفي أخرى: «**وفضلت بالمفصل**»[(٥)].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أخرجه ابن السني مختصرًا (٦٨٩)، والحاكم (٢٠٨٧) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٧٨)، والطبراني (٥٢٥).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه البغوي في تفسيره (١/٤١).

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (١٧٠٢٣) والطبراني (١٨٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤١٥) والطيالسي (١٠١٢) وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٤٨٥).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرأن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»[١].

قوله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...﴾ [يونس:٢] العجب يكون على أوجه: منها: [الإيعاد][٢] لوجود الشيء والإنكار لكونه، من ذلك قوله جل قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٢ - ٣].

وقوله جل قوله حكاية عن رسوله نوح ﷺ: ﴿أو عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣].

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:٤].

وقد يأتي لإعظام كون الشيء كيف كان هذا مع وجود أضداده، كقول الكفار: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] وذلك لجهلهم بالحقيقة.

وكقول الله جل ثناؤه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢] أي: إنك لتعجب منهم كيف يبعدون ما جئتهم به مع وجوبه؟ كيف يكذبونه مع تحققه؟ وهم يسخرون بك أن جئتهم بما لا تبلغه عقولهم، فيتخرج ذلك عجب حق كيف أنكروا ما هو في [فطرهم][٣]، كيف كذبوا بما هم يصدقونه بألسنتهم وأحوال اضطرارهم، وقد قرئ: «بل عجبت ويسخرون» وذلك يكون موجودًا - أعني: معنى التعجب - في قوله جل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧].

فمعنى التعجب هو في قوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: من أين يصرفون؟ كيف

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٣٨)، والدارمي (٣٣٨٧)، والترمذي (٢٨٨٢) وقال: حسن غريب. والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٠٣) وابن حبان (٧٨٢) مختصرًا، والحاكم (٣٠٣١) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٠٠)، والطبراني في «الأوسط» (١٩٨٨)، والبزار (٣٢٩٦).

(٢) في النسخة (ق): «الإبعاد».

(٣) في النسخة (ق): «نظرهم».

يغلبون عن حقائق الحق وهم يعلمون لكنهم لا يعقلون؟ [فيكون التعجب على هذا من قدرة الله كيف استاقهم إلى هلاكهم بإرادتهم، وكيف استعملهم بهم فيما يضرهم ويوبقهم][١] كما قال جل قوله: ﴿قُلِ الحَمْدُ للهِ﴾ الذي هدانا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣].

وقد يأتي التعجب بمعنى الحب للشيء، ولطف موقعه من نفس المعجب به؛ [أعجبني كلامك وأعجبني ما جئت به ومن هذا النوع من التعجب يكون معنى قول رسول الله ﷺ: «إن الله ليعجب للشاب التائب ليست له صبوة»[٢] مع معنى ما تقدم في قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢].

ثم قال ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢] هذا خطاب معبر عن الرحب وحسن المآب، ومعنى «قدم صدق»: التقدم يقال: «لفلان قدم في الصالحات» فالقدم [متقول][٣] أبدًا في التقدم في الأمور، [كاليد][٤] مقولة في النعمة، فمعنى سياق الكلام إن شاء الله وهو أعلم ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [أي][٥]: قد تقدم لهم بقوله: «هؤلاء [بعمل][٦] أهل الجنة يعملون»[٧] وأنذر الكافرين بأنهم قد تقدم لهم بضد ذلك حتى بلغ من إنكارهم وإبعادهم هذا الأمر أن قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢] ويقرأ: «إن هذا لسحر مبين» هذا من فضل النبوة والرسالة.

ثم يسرد عليه من فضل الألوهية والربوبية بمعنى الوحدانية، والإعلام بالإعادة بعد البداية، والعمل في الحكم عاجلاً وآجلاً بين الفريقين في الدارين، والتنبيه على

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤٠٩) والطبراني (٨٥٣) وأبو يعلى (١٧٤٩) وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧١).

(٣) في النسخة (ق): «مقول».

(٤) في النسخة (ق): «كما اليد».

(٥) في النسخة (ق): «أن».

(٦) في النسخة (ق): «للجنة وبعمل».

(٧) تقدم تخريجه.

العبرة من موجودات الدنيا إلى موجودات الآخرة، [وسبيل][1] حكمته في ذلك بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [يونس:٣] إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤] لما كان اسمه ﷻ هو المفطور على معرفته من كل شيء، [ولزوم الوله النفوس به][2] والألسنة اللهج بذكره؛ ذلك لأنه الأول والآخر والظاهر والباطن بحقيقة هذه الأركان، وهو الذي لا أحق منه حقيقة، ولا أكرم وجودًا حضورًا وشهادة وقربًا.

وعلى مقدار وجود المعارف يكون وجود أضدادها، أوجد ﷻ لهذا التيقظ من المخلوق لكريم هذا الظهور نومة عنه، وغفلة عن تذكره، وغيبة عن مشاهدته، ثم أنشأ ذلك في حق البعض حتى غلظ الحجاب وأعضل الداء، ولأنهم جبلوا على الفقر وخُلقوا [بفرق][3] طلبوا منافعهم التي دفعتهم [لها][4] ضرورة الفاقة، ولاختلافهم في أولية الاصطفاء ومقتضى المشيئة فيهم اختلفوا في تطالبهم ذلك، وعند من يطلبونها، وكيف [يمتثلون ذلك، وبطلبهم][5] إياها نسبوها إلى من ليس بولي لها، [وسألوها][6] من لا يملكها، واستنصروا واستدفعوا مضارهم بمن ليس إليه دفعها [فتعبدوا][7] للأسباب وأسباب الأسباب عندما رأوا أن الله جل ذكره قد جعلها [ظرفًا][8] لمقاديره وخزائن لأنعمه، وطلبوا الشفاء لحوائجهم، وتوسلوا إلى موجدها جل وتعالى بمن لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا.

ثم قصرت عقولهم عليها فدانوا لها وأشركوا بها [لما][9] لم يرتقوا في

---

(١) في النسخة (ق): «ومثل في».

(٢) في النسخة (ق): «ولزم النفوس الوله به».

(٣) في النسخة (ق): «للرق».

(٤) في النسخة (ق): «إليها».

(٥) في النسخة (ق): «يسلون ذلك ويطلبهم».

(٦) في النسخة (ق): «وسلوها».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «طرقًا».

(٩) سقط من النسخة (ق).

الأسباب إلى [منشئها][(١)] ولا عَبَروا من الموجودات إلى موجدها، فأعلاهم عند أنفسهم مرتبة أضلهم [سبيلاً][(٢)] عن هدايته، وأعدمهم فيما [جادلوا][(٣)] دليلاً على مطلوبه، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم والنار والملائكة والجن والأكابر منهم، ومنهم من يشفع إلى بعض هؤلاء المذكورين بالشجر والحجارة والخشب المنحوتة إلى غير ذلك من ضلالهم، نعوذ بالله من الضلال عن الهدى.

ألا تسمع إلى قول قائد المعتبرين وإمام المتقين، خليل الرحمن - صلوات الله وسلامه عليه - كيف قررهم على ضلالهم فطفق [يتقيد][(٤)] على [وضعهم للأصغر ثم للأكبر منه، ثم للأكبر منهما][(٥)] في كل ذلك يريهم استحالة ما ظنوه عندها، ولما فرغ من ذلك قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

وإنما جعل الله ﷻ هذه [الفرطة][(٦)] في النفوس لترجع إليها عند جورها عن [سواء][(٧)] قصدها وبثها في السماوات والأرض، وأوجدها في جميع الموجودات؛ لتأتم العقول بها في مهامة التوهم، وتستنير بنورها في الظلمات، وتقتدي بمعارفها في [مضائق][(٨)] المشكلات حال تطوافها في أسفار أفكارها، وترجع إلى حقيقتها [إلى][(٩)] مجاهل جهالاتها، والله عليم حكيم.

والرب جل ذكره هو المنعم، يرب نعمه على المنعم عليهم، وهو المالك بوجه أيضًا، فقال الله جل ذكره لهؤلاء ينبههم من نومتهم، ويرشدهم إلى الحق عن ضلالهم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

---

(١) في النسخة (ق): «مسببها».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «حاوله».
(٤) في النسخة (ق): «يتعبد».
(٥) في النسخة (ق): «وضعهم الأصغر ثو للأكبر منهما».
(٦) في النسخة (ق): «الفطرة».
(٧) في النسخة (ق): «سوء».
(٨) في النسخة (ق): «أضيق».
(٩) في النسخة (ق): «في».

العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس:٣] [وقوله](١): ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ هو خالقهن وموجدهن وممسكهن، وبه قيامهن، وهو المدبر للأمر كله فيهن وفي سواهن ﴿بيده مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨].

وهو رب كل شيء [وهو](٢) المالك لكل موجود ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥] ومن ذا الذي يملك دونه دفعًا أو نفعًا أو موتًا أو حياة أو نشورًا، يعلمهم جل وعز بما علمه في [فطرتهم](٣)؛ ليرجعوا عن ضلالتهم إلى هدايتهم الأولى ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤ - ٨٥] فأمرهم جل وتعالى أن يتذكروا ما نسوه مما استقر علمه في جذر قلوبهم.

ثم قال جل قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٨٦ - ٨٧].

ثم قال عز من قائل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ - ٨٩] [يقول](٤) كيف تذهلون عن هذه الحقائق وتؤفكون عن حاصل هذا العلم؟

ثم قال عز من قائل: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣] أي: إلى ما هو مستقر علمه في بواطنكم مركب عنه ظواهركم.

ثم قال جل قوله متوعدًا لمن كفر به، ومبشرًا لمن أطاعه ومعلمًا لهم ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لفصل القضاء وعدل الحكم ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:٤].

لما آمن المؤمنون بالدار الآخرة، وعَبَروا من موجودات هذه الدار إلى موجودات تلك، فعبروا من كواكبها إلى مكوكبها، ومن نور هذه إلى منورها، ومن

(١) في النسخة (ق): «فمن له».
(٢) في النسخة (ق): «في».
(٣) في النسخة (ق): «فطرهم».
(٤) زيادة في النسخة (ق).

حق ما [ها][١] هنا إلى ما تحقق ذلك في موجودات ما هناك عن الحق المبين بخلع الأواسط وطرح الأسباب كان إدخاله إياهم الجنة وإعطاؤه إياهم جميع ما هنالك [على قسط][٢] وجزاءً وفاقًا ولما أن كان الكافرون به عندوا عن هذا الحق، ونكصوا عن الإقرار به أبعدهم عن جواره][٣] [لقولهم: فأدخلهم][٤] جهنم التي كانوا [يعدون في نفسيها ويرجون][٥] وهم مع ذلك بوجودها لا يؤمنون، ويتقلبون في فيحها ويترددون، وهم بحقيقتها لا يشعرون، بل هم إذا أخبروا عنها هم بها [كافرون][٦]؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[٧] [يونس: ٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٥ - ٨].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «عطاءً قسطًا».

(٣) ما بين [ ] به تقديم وتأخير بين النسخ.

(٤) في النسخة (ق): «وأدخلهم».

(٥) في النسخة (ق): «يغدون في نفسيها ويروحون».

(٦) في النسخة (ق): «يكفرون».

(٧) معناه: ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء جار وقد انتهى حره، وعذاب أليم بسبب كفرهم. فيظهر التقابل بين سببي جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين مع أنه لا وجه لتخصيص العدل بجزاء المؤمنين، بل جزاء الآخرين أولى به كما لا يخفى، وتكرير الإسناد بجعل الجملة الظرفية خبرًا للموصول؛ لتقوية الحكم، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدلالة على مواظبتهم على الكفر، وتغيير النظم الكريم للمبالغة في استحقاقهم العقاب بجعله حقًّا مقررًا لهم، والإيذان بأن التعذيب بمعزل عن الانتظام في سلك العلة الغائية للإعادة بناء على تعلق؛ ليجزي بها أولها وإنما المنتظم في ذلك السلك هو الإثابة فهي المقصود بالذات. والعقاب واقع بالعرض. [الألوسي (٤٣٠/٧)].

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ إلى قوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥] أضاف جل وتعالى الضياء للشمس والنور للقمر، والضياء ها هنا للحر واليُبس كما النور للرطوبة والبرد، أقام الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بهذين النوعين من أمره [دار][1] الدنيا، فالقمر يبرد ويرطب بإذن الله ما تيبسه الشمس [ويحمي فحرها][2] وقد جعل الله ﷻ وله الحمد في فصل الشتاء للشمس دولاً يصلح الله ﷻ بها زيادة الماء والبرد، وقال جل قوله في القمر: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩].

وقال جل قوله في هذه: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:٥] يقول جل من قائل: دلالات وآيات على وجود ما هنالك، وليتم بذلك أمره لا ليُعبد شيء من ذلك.

فصل

الحق اسم واقع على معارف كثيرة، فالحق هو الله جل ذكره، وهو الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق [المبثوث][3] فيما خلقه، فالحق أسماؤه والحق صفاته، والحق أمره ونهيه، [ويعمل][4] بمقتضى ذلك، والحق حكمه وعدله [وفصله][5] والحق الموت وما بعده، والحق البعث بعد الموت، والحق الحشر [والنشر والحق بقاء][6] الله، والحق الحساب، والصراط والميزان والحوض والشفاعة.

وبالجملة: فالحق خلقه، والحق أمره وفعله وقدره إلى آخر الشهادات، وإحاطة هذه المذكورات من أوصاف الحق، [ولما][7] لم نذكره منها كالوجود كله علوًّا

(١) في النسخة (ق): «في».
(٢) في النسخة (ق): «ويحتمي بحرها».
(٣) في النسخة (ق): «المثبوت».
(٤) في النسخة (ق): «والعمل».
(٥) في النسخة (ق): «وفضله».
(٦) في النسخة (ق): «والنشور والحق لقاء».
(٧) في النسخة (ق): «وما».

وسفلاً كإحاطة الحياة بالحي وأسلكه بأنواعه ومختلف معانيه كلها في الموجودات كسلوك الأرواح في الأجسام، وقسمه في مسالك وجودها تقسيم الأغذية في [المغذيات][(١)] بل هو أكرم مسلكًا وأعم وجودًا، وتمثل في اعتبارك بذرة من البذور أي بذرة كانت، وخص منها بذرة الخردلة مثلاً أنبتها الله تعالى على صغرها ودقتها، وقد وقفت بمشاهده على حرارتها ولونها وشكلها وصورتها [وطعمها][(٢)] ورائحتها ومعانيها كلها [أو جلها][(٣)] وجميع أوصافها التي استوجبت لأجلها وقوع اسم الخردلة عليها، [فينسيها][(٤)] الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه حتى يبلغها [إلى][(٥)] أن تكون شجرة قائمة لها عروق، وللعروق عروق إلى أقصى ذلك، ولها أصل يجتمع إليها ما يصعد من أسفلها، وينقسم منها إلى أعلاها، ولذلك الأصل فروع، [وللفروع فروع][(٦)] وللفروع أفنان، وللأفنان أفنان وورق وزهر بما يتبع ذلك كله.

أليس من الحق المقطوع بوجوده أن الله جل ذكره قد أسلك في تلك الشجرة طعم تلك البذرة ويبسها وحرارتها ونفعها وضرها وجميع معانيها التي أوجدها له ظاهرًا، وقسمه باطنًا أبطنه فيها ليظهره، فكذلك هذا الحق الذي نحن بسبيل تبيانه.

وكذلك [يحق][(٧)] على العقل أن يقطع، والإيمان أن يصدق بما [أراه][(٨)] الله جل ذكره حال نظره إلى البذرة يقضي أن تلك الشجرة بعروقها وعروق عروقها إلى أقصاها، وما أعلى منها بأفنانها وأفنان أفنانها إلى أعلاها، وزهرها [بانقسام ما حصل][(٩)] في البذرة من كل معنى [بقوله: أفيعلم][(١٠)] بذلك أن الشجرة متوهمة في

---

(١) في النسخة (ق): «المتغذيات».

(٢) في النسخة (ق): «وطبعها».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «فينشئها».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «فحق».

(٨) في النسخة (ق): «أراده».

(٩) في النسخة (ق): «بأقسام ما انحصر».

(١٠) في النسخة (ق): «هو لها فيعلم».

تلك البذرة، وعلى هذا [تعلم أن][(١)] الآخرة من الدنيا، ثم يرجع بصره عودًا بعد بدء، فيعلم [ما في][(٢)] الدنيا من الآخرة، ثم يرجع البصر كرة ثانية [فيعرف][(٣)] بكل وجود هو في الدنيا موجودات الآخرة، فإن الدنيا هي [مفصولة][(٤)] من الآخرة، وهذه هي [المشاهدة لها][(٥)].

وعلى هذا فالشجرة بما حوته في هذا المثل هي الدار الوسطى، [وإن][(٦)] الدنيا هي البذرة بما [انحشر][(٧)] فيها وما انقسمت إليه، وأول ما خلق الله جل وعز الدنيا لم يسبق البذور، وإنما خلق الشجر والنبات، ثم عن ذلك أوجد البذر عن الشجر، كذلك الدنيا منتزعة عن الآخرة، [فالدنيا بما هي الشجرة وكل حي فيها بمنزلة البذور، فإذا ماتوا صاروا بمنزلة الشجر الذي يكون عنها البذر، ثم إذا بعثوا بمنزلة البذرة.

يقول الله جل من قائل: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١] وليس القول بأن يكون الميت في الدار الوسطى شجرة، إنما هو مثل مضروب على منزلة الشجرة من الحبة، ومنزلة الحبة من الشجرة، فافهم][(٨)].

ثم تعلم بذلك أن معاني أسماء الموجد جل ذكره ونعوت صفاته العلا وموجودات الدنيا والآخرة [وآياتهما][(٩)] فيهما جارية في المخلوقات كجريان الماء بما احتمله من أوصاف تلك البذرة [باطنًا][(١٠)] في إنشاء تلك الشجرة؛ إذ بذلك الماء

---

(١) في النسخة (ق): «يُعلم».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «فيتعرف».
(٤) في النسخة (ق): «المفصولة».
(٥) في النسخة (ق): «المشاهد لنا».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «انحسر».
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «وآياته».
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

أنشأها منشئها جل وعز، وبه غذاها، وبه أكملها، وهو الأول فيها والآخر والظاهر والباطن.

ثم توهم كما أنت في حال اعتبارك هذا إن معاني الأسماء والصفات العلا من مقتضياتها [هي](١) التي قامت بجملة العالم علوه وسفله ظاهره وباطنه مقام البذرة، فإن الشجرة هي جملة العالم كله قد أجرى الله ﷻ فيها الحق جريان الماء في الشجر، ثم اعلم أنه قد بقي عليك أن تفصل بوهمك موجودات الآخرة وتمييزها من موجودات الدنيا، وتتعرف تلك [بما ها هنا](٢) معلومًا فيما هنالك بمعلوم [ما ها هنا]، فإن الله جل ثناؤه قبض هذه عن تلك، وبسط تلك عن أوصاف هذه، لكن بعد أن ميز خيرها من شرها، ولذيذها من [مكروهها](٣) وطيبها من خبيثها، فجعل هذا في دار النعيم، [وجعل هذا](٤) في دار الجحيم، نسأل الله الرحيم رحمته، ونعوذ به من عذابه وغضبه.[وعلى معتقد المزيد فيما هنالك الذي عبر عنه قوله الحق ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]] (٥).

يقول الله - عز من قائل - وقد وصف الماء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:٥٠] هذا في النبات وما تحته من عالم الجماد، [وفي](٦) الحيوان أظهر، ثم في الإنسان أوضح وأشرح، وفيه بدا ما هو [آية على](٧) المعنى بقوله الحق: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس:٣] إلى قوله جل قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] المعنى [إلى آخره](٨) فافهم وتفطن فإنه الحق، فهمنا الله وإياك عنه.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «مما هنا».
(٣) في النسخة (ق): «كريهها».
(٤) في النسخة (ق): «وهذا».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «وهو في».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «حيث وقع».

واسمه الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بما هو الله حضر فشهد ما غاب، ولا يغيب عنه غائب حضر ما نأى وما دنا وقرب، فسمع السر وأخفى، فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أكبر من ذلك ولا أدنى، جميع الأسماء له شارحة، ولمعانيه مفسرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] هو أول ما أظهر من أسمائه، ففطر على معرفته جميع مخلوقاته، وأجرى مقتضياته في جميع ما فطر جريان الماء في العود الناضر، [وأحله](١) في جميع ما أوجده سلوك الأرواح في الأجسام، وأحله في كل ما أوجده حلول الحياة في الأحياء، فهو الذي لا [يمشي](٢) ولا يُرى، وكل شيء منه ملأ [يتضمن](٣) جميع العالم، وانحصرت إليه جميع غرائبه؛ إذ جميع الأسماء يجمعها اسم الألوهية، وجميع الأسماء تجمعت في الصفات، والصفات يجمعها اسم الألوهية، وتضمن ذلك كله تعريفًا هذا الاسم العظيم الذي لم يسعه أرض ولا سماء ولا كرسي ولا عرش، ووسعته بالمشيئة، ولزمت الأسماء مراتبها، وسلكت في جميع العالم مسالكها.

واعلم أن اسم الألوهية غير متكثر ولا منقسم، فهو الله، وهو الرحمن، وهو الرحيم، هكذا إلى جميع ما تسمى به هو هو هو، فكثرت الأسماء للإفهام والمسمى [بهذا](٤) واحد، والمطلوب معرفته بها وبسواها واحد أحد صمد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] هو حامل الكل تدبيرًا وقيامًا عليه، ومنه الكل خلقًا وأمرًا، وإليه يرجع الكل بكل وجه وبكل معنى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] شاهد ما ذكرناه في الآيات في آخر سورة الحشر، وتردد في القرآن العزيز فقرب على متأمليه، وتيسر وجوده على طالبيه.

يقول الله جل قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

ألا تسمعه يقول جل من قائل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

---

(١) في النسخة (ق): «وأسلكه».

(٢) في النسخة (ق): «يُحس».

(٣) في النسخة (ق): «تضمن».

(٤) في النسخة (ق): «بها».

العَرْشِ﴾ [الحديد:٣ - ٤] إلى آخر الآيات.

هذا [وإليك][(١)] النص المرفوع في البيان إلى [رفع][(٢)] غاياته، فتسمَّع وتقرَّب وتفرَّغ كي تُنادى من [كل][(٣)] قريب.

ولما استوى على العرش المحيط حييت الجملة به؛ لأنه الحي القيوم، وأشاع في الجملة روح الأمر، وقد تقدم إلى هذا إلماع يشير بذوي الألباب والنُّهى إلى المطلوب [العلي][(٤)] الأعلى.

روى ابن عباس عن عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] فقال: هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر - أو قال: الاسم الأكبر - إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب، وفي قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] شفاء لمن استشفى؛ إذ قد حصر الحمد كله لله، وقد تقدم وصفه، والذي هو رب العالمين كأن قائلاً قال: من الله الذي له الحمد كله؟ قال: هو رب العالمين، ثم [إنه][(٥)] قال: ومن رب العالمين؟ قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] ثم كأن قائلاً قال: من الرحمن الرحيم؟ قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] له الجزاء في الدنيا والآخرة، وله تعبد الكل وقنت كل شيء.

وفي شرح قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] علم عظيم لمن بحث ونظر وردد التذكار [والتفكير فسيفتح][(٦)] عليه في معرفة الجزئيات وانقسام الكليات، وقيام الحي القيوم بالمخلوقات، ولا يبلغ إلى ذلك إلا من نبذ الشواغل ورفض الشهوات وتفرغ وأطاع الله جل ذكره واتقاه.

---

(١) في النسخة (ق): «وأبيك».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «مكان».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «كأنه».

(٦) في النسخة (ق): «والتفكر فيستفتح».

فصل

قد تقدم ذكر جملة من رفيع العلم، وإشارة إلى استنان [سبيل][١] الاعتبار وأن بالوقوف على معرفة الأسماء، والبحث عن سلوكها مسالكها من العالم يوقف على تفصيل [جملة][٢] ما أنبأنا به في كتابه العزيز، وإن ذلك لا يطمع فيه إلا بلزوم التقوى، وتقديم صحيح الإيمان، وإطراح الحول والقوة، ونبذ الحرص على حسن الثناء، بل ملازمة الخمول والتواضع والإزراء على النفس؛ [إذ هو][٣] نوع من العلم لا [تسومه][٤] النفوس من ذاتها، ولا تشعر به ولا تعرفه إلا بهداية وتوفيق وإشعار وإلهام إلى ما هو الصواب، فأنى للنفس مطمع في منال منزلة بذلك وحرص في مدح من أجله ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾ [آل عمران:١٨٨] ثم ما بعد هذا بالمجاورة.

فصل

ربما رُمنا شيئًا من تعرف التفصيل تدريبًا للنفس واستصحابًا للتذكر واستدامة للتفكر، وإنما حملنا على إثباته في كتاب وزمّه [هي][٥] في زمام توقعًا لحال [الكرم][٦] فعلى قربها [منا][٧] التي هي أم النسيان، ومعالجة الإشغال الذي هو معدن تعطيل العقل وعذاب الروح، واغتنامًا لصحة الجسم قبل سقمه؛ إذ بذلك يسقم الذهن وتضعف صفات الباطن.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

---

(١) في النسخة (ق): «سبل».
(٢) في النسخة (ق): «جمل».
(٣) في النسخة (ق): «وهو».
(٤) في النسخة (ق): «تسأمه».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «الكبرة».
(٧) زيادة في النسخة (ق).

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس:٣] إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس:٧] المعنى إلى آخره هنا وفي سائر القرآن كقوله جل قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل:١٢] وقوله جل قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧] ما حكاه عن خليله ﷺ قائد المعتبرين وإمام المتقين، فإنه تبرأ من الكوكب والقمر والشمس لأجل الأفول، وإنه توجه بوجهه ظاهرًا وباطنًا لمن لا أفول له ولا فقد يعروه.

وقال الله ﷻ ووصف الجنة وأهلها: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣].

وقال جل قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٢].

وقال جل قوله: ﴿وَخَسَفَ القَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ﴾ [القيامة: ٨-١٠].

[ويقول الله جل من قائل][(١)]: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد**» قال: «**فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر**»[(٢)].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

وقال ﷺ: «**ليس عند ربكم ليل ولا نهار**»[(٣)] [وصلوات الله وسلامه عليه لما عندنا][(٤)] الليل والنهار آية عليه. انتهى.

وقال الله جل من قائل ووصف الجنة وأهلها: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

وذكر رسول الله ﷺ أن فيها أيامًا، وأن يوم الجمعة الزيارة.

قال جبريل ﷺ: «ونحن ندعوه يوم القيامة يوم المزيد» وساق الحديث.

وقال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون**» وفيه: «**فهذا يومهم الذي**

---

(١) في النسخة (ق): «وقال رسول الله ﷺ».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه بنحوه البزار(٢٨٨١).

(٤) في النسخة (ق): «إنما عنده ما».

أضلوه هدانا الله إليه، فاليهود والنصارى لنا فيه تبع، اليهود غدًا والنصارى بعد غد»[١] فأخبر بصدق قيله أن للمهتدين من اليهود والنصارى يومين يختصون بهما.

[قوله][٢]: نختص نحن بيوم الجمعة، وإن ذينك اليومين السبت والأحد، ولا يبعد [أن تأتي][٣] أيام الجمعة لغير أهل الكتاب من مهتدي الأمم.

قال الله عز من قائل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ...﴾ [الأعراف:١٨١] وقد تقدم الكلام في ذلك.

قال الله عز من قائل: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فخلق الله هذه الدار [الدنيا سماواتها وأراضيها][٤] وما فيهن وما بينهن بالحق، وقد تقدم الكلام في [شرح قوله][٥] الحق المخلوق به السماوات والأرض [وأنه به كلم عقول عباده وبه ظهر للبصائر وبه استشهد وإلى تعرفه دعا عباده بالنظر في آيات السماوات والأرض][٦] من أجله خلق التذكر والتفكر والتدبر، وأوجب النظر والاعتبار، وهو باطن الحق المخلوق به موجودات الدار الآخرة، وظاهره هو الذي في الآخرة بالإضافة إلى أهل الآخرة، وهذا الحق قد حجبه بالوسائط والأسباب، وظواهر المخلوقات حجب الصنعة في المصنوع، وإخفاء القدرة في المقدور، وذلك لعلة الابتلاء بالإيمان بالغيب، فأما في الجنة فهو الحق المبين لا أفول ولا فقد يرونه كما يرون الشمس صحوًا لا سحاب دونها، وكما يرون القمر ليلة البدر.

وقد أظهر من هذا الحق المخلوق به العالم أمره في الشمس والقمر والنجوم كما أبطنه في تسبيح الخلائق إياه وتعبدها له وقنوتها وخشوعها وخشيتها وبكائها،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «كما».

(٣) في النسخة (ق): «أيضًا أن في باقي».

(٤) في النسخة (ق): «سماواتها وأرضوها».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

ومعرفتها له بشهاداتها، وذكرها إلى غير ذلك مما [قد][(١)] تقدم صدر من ذكره في مواضع دفعت الحاجة إلى التعريف به، ثم ما أبطنه [من][(٢)] فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وفتحه برحمته في الماء والرياح المبشرات الملقحات إلى غير ذلك، وإن كان قد ظهر فيما هذا سبيله للعيان.

وإنما [خذلت][(٣)] العقول من معرفة ما ها هنا [لفعله][(٤)] فاستولت من أجل ذلك عليها البلدة حتى أعمت الأبصار وأغشت البصائر وأصمَّت الأسماع، وذهبت بالحياة وجلبت الموت بوصف الأكثرين من أجل ذلك [كما][(٥)] قال عز قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١].

فصل

جعل الله جل ذكره ملكوت هذه الدار في تعاقب نفسيَّ جهنم، وفتح رحمته بالماء إلى غير ذلك من رياح وسحاب وهواء وتراب [وثراء][(٦)] وشمس وقمر ونجوم، فكل الملائكة - عليهم السلام - يعملون في ذلك بأمره وإذنه وعونه، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، فجميع ثمار الدنيا وزروعها ونباتها وحيوانها ومنافعها ومضارها [وسقائها وريها][(٧)] وسقمها وصحتها وجميع شؤونها من جهة الأمر فيما جعله في هذا الحق المبثوث مما أظهر منه كالشمس والقمر والنجوم وما تقدم ذكره وما أبطن منه، فإذا أذن ﷻ بالانقراض لهذه والإزالة لتلك جلا الحق الظاهر فيما هنالك.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «في».

(٣) في النسخة (ق): «عدلت».

(٤) في النسخة (ق): «بالغفلة».

(٥) في النسخة (ق): «بما».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «وشقائها وبلائها».

[وكذلك][(١)] هو الحق المبين؛ أي: المبين بهذا الحق الظاهر والباطن، وكان ملكوت ما هنالك عن [ذا][(٢)] الحق القريب المشهود المتجلي، وقد كان قبل هذه الدار محجوبًا بالوسائط والأسباب والغفلة والصرف عنه؛ [ليتم][(٣)] كلمته في قوله جل قوله: «**وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[(٤)].

وقد كان أهل هذه الدار في غربة وغيبة وحجب، ومن هذه [المقال][(٥)] قال القائل:

أنــــا فــــي الغـــربة أبكـــي مــــا بكـــت عـــين غـــريب
لـــم أكـــن يـــوم خروجـــي مـــن بــــلادي بمـــصيب
عجـــبًا لـــي ولتركـــي وطــــنًا فـــيه حبيبـــي

وهذه الدار مطبوعة مجبولة عن [عز رحمته][(٦)] ممتزج بجزء عذاب، غير أنه كان قد سبق رحمته في هذه، لكن مع ما تقدم ذكره من حال الغيبة والبعد والحجب قال رسول الله ﷺ وقد أنبأ عن مسراه: «**لما هبطنا السماء الدنيا إذا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين تحرق على قلوب بني آدم** - أو قال: «**عقول بني آدم**» - **لئلا يتفكروا في ملكوت السماوات، ولولا ذلك لرأوا [العجائب]**[(٧)]»[(٨)] وإن كان وله الحمد قد غلب رحمته على غضبه لولا ذلك لكان الأمر أشد وأفظع.

---

(١) في النسخة (ق): «وكان».
(٢) في النسخة (ق): «ذلك».
(٣) في النسخة (ق): «لتتميم».
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) في النسخة (ق): «الحال».
(٦) في النسخة (ق): «جزء من رحمته».
(٧) في النسخة (ق): «الأعاجيب».
(٨) أخرجه أحمد (٨٨٧٢)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٤).

فصل

يقول الله جل من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:٥] فلذلك الحق المتصل بالحق المبين ﷻ ضياءً ونورًا، الضياء هو في مدة [ما][١] النهار عليه هنا آية، والنور هو في مدة ما هو الليل فيما ها هنا عليه آية، فهو جل وعلا يولج الضياء في النور ويولج النور في الضياء، فيكون [عن][٢] ذلك ما هو زيادة النهار وقصر الليل، وزيادة الليل وقصر النهار عليه آية ويغشى النور الضياء ويسلخ الضياء عن النور فيكون عن ذلك فيما هنالك ما هو وجود النهار والليل والإصباح والإمساء والغشيان [آية][٣] فيما ها هنا.

أما النهار فقد كان [على ما][٤] ها هنا آية على الهدى وعلى الإله الحق - جل وتعالى - وعلى الحياة بعد الموت، وعلى وجود الجنة، وهذا كله قد تقضى وقد تجلت الجنة، وأما الليل فقد كان فيما ها هنا آية على آلهة باطلة، وعلى الكفر والجهل، وعلى الموت، وعلى وجود جهنم، وهذا كله موجود في النار، فليس فيما هنالك ليل ولا نهار، إنما هو الضياء والنور، يولج جل وتعالى هذا في هذا وهذا [في هذا][٥] دون فقد ولا أفول، ويكون عن ذلك فيما هنالك ما هي الأربعة الفصول: الصيف والخريف والشتاء والربيع عليه آية.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:٩ - ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة**

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «عند».
(٣) في النسخة (ق): «آيات».
(٤) في النسخة (ق): «فيما».
(٥) سقط من النسخة (ق).

آنيتهما وما فيهما» ثم قال ﷺ: «**وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[١].

والكبير من أسمائه، [والكثير][٢] من صفاته سبحانه وله الحمد، وبمفهوم ما تقدم ذكره فيما ها هنا وفيما هنالك يعلمون في تلك الدار الآخرة الأيام والشهور والسنين والحساب، وانقضاء الآماد، وتعاقب الدهور التي فيما هنالك ينوب مناب الأزمنة ليس فيما هنالك زمان لعدم الشمس والقمر والنجوم [يعملون إنما هو الدهر، والزمان][٣] مدة دوران الكواكب، والدهر مدة فعل الله سبحانه وله الحمد.

وأما الرؤية العلية: فإنه تبارك وتعالى لا يبدو لعباده بمرأى واحد مرتين إن ذلك اختلاف الليل والنهار، وكون الشمس والقمر اليوم في مطلع ومغرب لا يكون فيه غدًا، وما تكون فيه بالغد لا تكون فيه بعده، كذلك القمر والنجوم، وكذلك من آيات هذا تقليبه الليل والنهار.

يقول نوح عليه السلام [لقومه][٤]: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أي: [لنا][٥] والوقار عبارة عن تقليبه الرؤية [وما يكون فيما هنالك من عظيم شأن وكريم لقاء وظهور ما لا تحسن العقول الآن وصفه ولا توهمه][٦].

ثم قال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤].

جاء: «**إن إبراهيم عليه السلام لما رأى الشيب قال: ربِ ما هذا؟ قال جل قوله: وقار يا إبراهيم. قال: ربِ زدني وقارًا**»[٧] لما قلبه من سواد الشعر إلى بياضه، ومن حد الصِبا إلى ما يعبر عنه بالكبر عبر عن ذلك بالوقار.

ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا

(١) تقدم تخريجه.
(٢) في النسخة (ق): «والكبرياء».
(٣) في النسخة (ق): «وإنما الدهر إذ الزمان».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «لقاء».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٥٠) ومالك (١٦٧٧) والبيهقي في «الشعب» (٦١٢١).

وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٥ - ١٦] أي: على نحو هذا [من التقليب والظهور. فافهم فهَّمنا الله وإياك عنه بمنِّه ورحمته مصداق][(١)] ما تقدم ذكره.

قوله جل قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ هنا على ما هي فيما هنالك آيات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥].

ثم سرد جل ذكره على ذلك [جل][(٢)] قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦] أي: إنه لا يحضر ذلك، ولا يشهد تلك [المشاهد][(٣)] إلا المتقون.

ثم سرد على ذلك قوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧] إلى قوله جل قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[(٤)] [يونس:١٠].

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ فهذا هو الحق فيما تقدم، وظاهره فيما ها هنا الشمس والقمر والنيرات، وهو الممثل بالمشكاة فيها مصباح، والزجاجة في هذا هو الهواء في [ساحة][(٥)] الجو ﴿يُوقَدُ﴾ المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ هذا نص على الأقرب الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو على الحقيقة لا يطلع من مشرق [فينسب إليه، ولا يغرب من مغرب فينسب إليه][(٦)]،

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المشاهدة معرفة وعلمًا ثم عبره إلى ما هو عليه فيما هنالك آية».

(٤) وجه ذكر هذا في عدد أحوالهم أنها تدل على أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعَموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربهم، فألهموا إلى التزام التسبيح؛ لأنه أدل لفظ على التمجيد والتنزيه، فهو جامع للعبارة عن الكمالات. التحرير والتنوير (٦/٤٣٤).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «ولا يغرب من مغرب فيتسب إلى ذلك».

وهذا الحق هو الذي ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ ونار هذا الزيت الفكر فبالترداد للفكر والتردد يضيء للمتذكر فـ﴿يَهْدِي﴾ به ﴿اللهُ﴾ [النور:٣٥] كما يهدي جل وتعالى إلى مبصرات الموجودات بالمصباح ونيرات الكواكب والشمس والقمر.

وعلى التحقيق فإنه قال جل من قائل: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ ثم نزل جل وعز بالخطاب إلى الأضواء الظاهرة، ثم قال جل قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ ولا توقد الأنوار الظاهرة والباطنة إلا من نوره العلي، وعلى التدريج ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور:٣٥] إلى أن ينتهي إليه جل ذكره، فهو الذي هو المسبح عن الأفول غربًا والطلوع شرقًا، [وإلى][(١)] هذا نزع إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦].

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

ثم جعل ﷻ يستاق ذكر [الحق والنور][(٢)] الباطن بقوله جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ إشارة منه عز جلاله إلى أن كلاً قد أوتي في علم فطرته [على][(٣)] ما هو عليه [وجوده الآن، ثم قال][(٤)]: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١] إشارة منه إلى [الحضور][(٥)] العلي.

ثم قال جل قوله: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢] هذا من نوره الباطن إقرار من جميع الخليقة له بالملك، وتدينها له بالرق، [وشهادتها على أنفسها بالفقر وله بالغنى، وبالعود بعد البدء][(٦)].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «في وجوده هذا وإن ذلك آيات على الفاطر بما هو عز جلاله والآيات عبارة عت الأنوار التي تبصرها البصائر ما غاب وبطن عن الأبصار الظاهرة».

(٥) في النسخة (ق): «حضوره».

(٦) في النسخة (ق): «وشهادة بعلم الفطرة ثم شهادتها له بالغنى وعلى أنفسها بالفقر إليه ثم شهادتها أنه هو المبدئ المعيد».

ثم قال جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ إلى قوله: ﴿يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٣].

ثم قال جل قوله: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [ثم][١] قال جل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤] أي: يعتبر المعتبرون من ظاهر هذا النور العلي ثم عاود الوصف لنوره الحق لقوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥] فعدد ﷻ إن من نوره الذي يبصر به المعتبر [به][٢] الغيب تسبيح الخلائق وصلاتهم، وإن له الملك والمرجع، وفعله في إرسال الرياح، وخلقه السحاب وتسييرها، وإنزاله الماء [منها][٣] والبرد، [وإصابته بها][٤] من يشاء ويصرفه عمن يشاء، وتقليبه الليل والنهار، وخلقه من الماء كل شيء حي، وكل ذلك آثار قدرته ومشيئته [وحياته][٥] وعلمه في الموجودات من الحق الذي به خلق السماوات والأرض ومقتضى أسمائه.

وإن ذلك نوره وإن كان باطنًا كما أن نوره الذي هو نور الشمس والقمر والنيرات والنار، وإن هذا كله الظاهر منه والباطن يُوقد من الحق [المبين][٦] الذي كَنى عنه بالشجرة المباركة، ليست تطلع من مشرق ولا تغرب في مغرب فتنسب [إليه][٧]، فإذا تمهد أن بهذا الحق المبثوث في العالم خلق [الخلق والأرض، وهو

(١) في النسخة (ق): «هذا كله وصف لنوره العلي لذلك».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «يخوف به ويذكر بإصابته».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «المخلوق به السماوات والأرض».

(٧) في النسخة (ق): «إلى ذلك وفي الدار الآخرة يتجلى الحق المبين فتبين هذا فيعلمون يومئذ أن الله هو الحق في هذه المبين له فافهم وتفطن والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

المتصل بالحق المبين، وإنه[1] منه تُقتبس أنوار ما هنا ومن ضيائه توقد نيرانه، وذلك ظاهر [في][2] الآخرة، وهذا [اليوم][3] ظاهر الدنيا، فاطلب الوفاق والمشابهة فيهما هنالك، واستدل عليه بما [ها][4] هنا، فإنما هذا على تلك ﴿آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧] أرجع جل وعلا الخطاب إلى معنى قوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس:٦] إلى آخر الآية، وإلى معنى التعريف بنفسه لما في اختلاف الليل والنهار، والدلالات على لقاء الحق بانقضاء الآجال وطلوع النيرات، ولذلك ذكر جل ذكره اللقاء، وأوعد على التكذيب به، وعلى عدم الرجاء في لقائه.

[تنبيه][5]:

كيف يتصور التكذيب بلقاء الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وما زال المؤمنون في لقاء الحق المتصل به إيمانًا به وتصديقًا [ومشاهدة][6]؟

بل كيف لا يُرجا لقاؤه وما يعرف العباد لهم رزقًا [من السماوات والأرض][7] ولا دفعًا ولا نفعًا إلا من [ذلك][8] الحق المبثوث في العالم المخلوق به كل شيء؟

وإلا فكيف كانت الحال تكون ولو لم تكن الشمس [ولا][9] القمر ولا النجوم

---

(١) في النسخة (ق): «السماوات والأرض وهو الظاهر الموصل إلى معرفة الله الحق المبين وأن».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وشهادة».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «لدن».

(٩) في النسخة (ق): «ولم يكن».

ولا السماء ولا الأرض ولا الرياح ولا السحاب ولا الماء ولا الحر ولا البرد ولا نبي ولا رسول [إلا عمل بطاعته][١] ولا ملجأ يلجئون إليه ولا ملاذ يلوذون به؟ [وإنما متع المكذبين والكاذبين والمشركين بلاطائف من تسخيره ما في السماوات وما في الأرض ليجزي كلاً بسعيه][٢].

وكيف لا يُرجا لقاؤه والخير كله [بيديه][٣]، والشر ليس إليه، وبه يُستعاذ من كل مكروه، ومنه ينال كل محبوب؟

بل كيف يختار [العباد][٤] الحياة الدنيا على الآخرة وقد ظهر الفضل العظيم بين الدارين، [وتبين][٥] البون الكريم في [إحدى][٦] المنزلتين، والغبطة العليا في إحدى [المحلين][٧] إن لم يعتذروا باستعداد للقائه [والحرص][٨] على توفير الزاد لمنال كريم ثوابه؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ٩ - ١٢].

---

(١) في النسخة (ق): «ولا كتاب ولا عمل بطاعة».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «منه وإليه».
(٤) في النسخة (ق): «المؤمنون».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «كلا».
(٧) في النسخة (ق): «المحلتين».
(٨) زيادة في النسخة (ق).

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[١] [يونس:٩] أي: [في][٢] النظر في آياته، والعبرة من الدنيا إلى الآخرة، ويهديهم [في الآخرة عند المحنة في المحشر][٣]، ويهديهم في [دار][٤] البرزخ بالثبات [وقول الحق والصدق بالإيمان][٥] والعمل الصالح، وكذلك يعبرون من المصنوع إلى الصانع، [ومن المفعول إلى الفاعل ومن المفطور إلى الفاطر ومن المدبَّر إلى المدبر هكذا إلى آخر الأسماء][٦] ومن الدليل إلى المدلول عليه. ومن الآيات إلى ما هي آيات عليه، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الكفر إلى الإيمان. ومن [المعاصي][٧] إلى التوبة النصوح.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ [يونس:٩] كناية عن الملك الكبير [الذي أعده][٨] لهم فيما هنالك.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ﴾[٩] [يونس:١٠] أي: إن هذا جل كلامهم.

---

(١) أي: يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم، وهي الجنة، وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها وانسياق النفس إليها، لا سيما مع ملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما أداهم إليه من الأعمال السيئة، ومشاهدة ما لحق من التلويح والتصريح، والمراد بهذا الإيمان الذي جعل سببًا لما ذكر: الإيمان الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا المجرد عنها، ولا ما هو الأعم، ولا ينبغي أن ينتطح في ذلك كبشان، والآية عليه بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه الجماعة من أن الإيمان الخالي عن العمل الصالح يفضي إلى الجنة في الجملة. ولا يخلد صاحبه في النار، فإن منطوقها أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنة، وأما إن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه. كيف لا وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] منادٍ بخلافه بناءً على ما أطبقوا عليه من تفسير الظلم بالشرك، ولئن حمل على ظاهره أيضًا يدخل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحًا، ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب. تفسير الألوسي (٧/٤٤٠).

(٢) في النسخة (ق): «إلى». (٣) في النسخة (ق): «في المحشر عند المحنة».

(٤) زادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وقوله الحق والإدلاء بالحجة بواسطة الإيمان».

(٦) زيادة في النسخة (ق). (٧) في النسخة (ق): «العصيان».

(٨) في النسخة (ق): «المُعَد».

(٩) هو ظاهر في أن الترتيب الذكري حسب الترتيب الوقوعي أيضًا، لكن يدل على أن الدعوى =

قال رسول الله ﷺ: «يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النَّفَس»[(١)].

ثم يكون [هجِّير لهم][(٢)]، وهو تسبيح تعجب لغريب ما يرونه، وعظيم ما يرد عليهم من تلك الدار [الآخرة][(٣)] من بُعد البون بين مسميات عَبَروها في دار الدنيا وبين ما ألفوها هنالك، ولما يفجؤهم من عجيب موجودات لم ترها أعينهم، ولا خطرت على بال أحدهم، ولا تحدثت بها نفوسهم، فأتت أمانيهم، وأربت على علومهم، فليس لهم هجيرًا إلا قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ الملائكة [﴿فِيهَا سَلامٌ﴾ [يونس:١٠] عليكم][(٤)]، ويُحيِّي بعضهم بعضًا [﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤] ذلك بأن الله جل ذكره يُحيِّيهم بذلك][(٥)].

قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] وكان سلامهم في الدنيا: «السلام عليكم» تذكيرًا باسم الله جل ذكره الذي هو السلام، وهو من الحق المبثوث في العالم وبخاصة بين المؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «السلام اسم من أسماء الله فافشوه بينكم»[(٦)].

وقول الله جل ذكره أبين بيانًا وأوضح برهانًا، قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [فأخبر أنها تحية من عند الله حيانا بها على ألسنتنا بعضنا على بعض][(٧)] ثم نبَّه على أن [هذا][(٨)]

بمعنى الدعاء، ومعنى كون «سبحانك اللهم» دعاء وطلبًا لما يشتهون حينئذٍ أنه علامة للطلب، ونظير ذلك: تسبيح المصلي إذا نابه شيء في صلاته، وفي بعض الآثار: إن هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا قالوها أتوهم بما يشتهون. تفسير الألوسي (٧/٤٤٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «هجيراهم».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «سلام عليكم سلام عليكم ويقول الله جل من قائل لهم سلام يسلم عليهم لذلك».

(٦) أخرجه الطبراني (١٠٣٩١) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣٩) والبزار «كشف» (١٩٩٩).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «معنى هذا من قوله الكريم هو».

من مكنون العلم ورفيعه بقوله جل قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١] أي: تعقلون عنه ما أعد لهم فيما هنالك مما هذا آية عليه كما قال جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إلى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧] أي: تذكرون ما هنالك بما هنا [وما في الجنة، فهي][1] بشارة بالسلامة من العذاب والموت، والنجاة من غضب الله ومن جميع المكروهات كلها،[ولما كان ذلك دائمًا مستمرًا؛ أعني: السلامة كانت التحية على ذلك المعنى على الدوام][2] وهو أيضًا [تذكير][3] وتجديد لذكر من هو القريب منهم الراضي عنهم الرحيم الرءوف.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ [ما هو معناه][4] ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] وقد قال في غير هذا الموضع: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤] أكثر ورود الحمد منهم على لأجل حال فرحهم بربهم الصادق الوفي الذي لا يخلف وعده، ولا يعجزه ما يوجده لهم من إكرام وتنعيم [﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]][5].

قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين [والمرسلين][6] مبشرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك خلق الجنة»[7] وإنما ذلك لأنهم يسبحونه مع الأنفاس، ويختمون تسبيحهم له بالحمد لله رب العالمين.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟

(١) في النسخة (ق): «المتذكر بما هنالك بأمره ﷺ بالاستئذان وتستر الأهل في هذه؛ أي: أهل الجنة - عليهم السلام - لا يرى أحد منهم أهل أحد، بل هن المقصورات في الخيام، وربما لم ير بعض الأهل بعضًا إلا ما شاء الله من ذلك، وأما في الجنة فذلك».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «فيها أن».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «وأرسل المرسلين».
(٧) أخرجه أحمد (١٨١٩٣)، والبخاري (٦٩٨٠)، ومسلم (١٤٩٩)، وابن أبي شيبة (٢٧٨٨٤).

﴿لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس:١٣ - ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ...﴾(١) [يونس:١٨] أرجع الخطاب إلى معنى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة:٤] وإلى ذم الذين لا يرجون لقاء الله، الذين قال فيهم جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧] فانتظم المعنى، وما لا يعلمه الله فليس بموجود، وهو من المحال [المجحود](٢) المستحيل وجوده، أفيكون ما ليس بكائن أبد الآبدين، ويستحيل [وجود شريك له في ملكه أو

---

(١) قرأ أبو السمال العدوي: «تنبئون» بالتخفيف من أنبأنا ينبئ. وقرأ من عداه بالتشديد من نبّأ ينبّئ. والمعنى: أتخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، أو أتخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه، والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سماواته وفي أرضه؟ وهذا الكلام حاصله: عدم وجود من هو كذلك أصلاً. وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى، ثم نزّه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب به عليهم، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم جوابًا عليهم. فتح القدير (٣٥٧/٣).

(٢) سقط من النسخة (ق).

ولد أو صاحبة أو ند أو كفؤ أو شبيه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا](١).

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس:١٩ - ٢١].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على التوحيد لله جل ذكره والديانة بدين الإسلام ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس:١٩] هكذا كان آدم عليه السلام [ونبوة الأمة](٢) من بعده - عليهم السلام - على الصراط المستقيم والدين القيم حتى طال الأمد، وخلف الخلف منهم السلف [مُبينة](٣) لمن بعدهم الآراء، فاختلفوا بعد العلم بأن الله هو خالقهم ورازقهم [ومالكهم](٤)، وإنه خالق السموات والأرض، ورب العرش العظيم، وإنه منزل الماء من السماء يحيي به الأرض بعد موتها لا يشركه في ذلك أحد [وإنه يحيي ويميت](٥).

ومع تقرر هذا العلم ونحوه عندهم تفرقوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الأمم الخالية والقرون السالفة ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ﴾ بإذنه، ثم لم يزل الاختلاف يعقب الائتلاف ويدال الحق من الباطل إلى أن جاءت نبوة محمد ﷺ ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [من أمته](٦) ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [أولئك](٧) ﴿مِنَ

(١) في النسخة (ق): «وجوده تعالى الله عن قبح افترائه».
(٢) في النسخة (ق): «وبنوه الأئمة».
(٣) في النسخة (ق): «تشتت».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).

الحَقِّ﴾ من قبلهم ﴿**وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة:٢١٣].

فهذا خطاب [مستقبل متوجه][(١)] - والله أعلم - إلى إخوان الأنبياء في هذه الأمة الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «**وددت أني قد رأيت [إخواننا]**[(٢)]» قالوا له: ألسنا بإخوانك؟ قال: «**أنتم أصحابي [وإخواننا]**[(٣)] **الذين لم يأتوا بعد**»[(٤)] وهم سبعون ألفًا وسبعمائة ألف مع كل ألف سبعون ألفًا وسبعمائة ألف، ذلك قوله: ﴿**فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة:٢١٣] وهم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

ثم قال عز من قائل: ﴿**وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [يونس:١٩] والكلمة السابقة من ربك ﷻ [وتعالى علاؤه وشأنه هي][(٥)] توفية آجالهم، واستنفاد أرزاقهم وأيامهم وأعمالهم إلى قيام الساعة، وإنهم سيفترقون إلى فريق في الجنة وفريق في السعير، وتتخرج أعمالهم على ذلك كما قال: ﴿**أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكِتَابِ**﴾ [الأعراف:٣٧].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا

(١) في النسخة (ق): «متوجه إلى الاستقبال».

(٢) في النسخة (ق): «إخواني».

(٣) في النسخة (ق): «وإخواني».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «وهو أعلم».

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٥].

قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] [ثم][(١)] عرض بقوله الصدق: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ إلى ما يكون من فتح وفيح مثَّل الله جل ذكره الدنيا كلها من أولها إلى آخرها بسنة واحدة منها، فيسر [الله][(٢)] للمتفكرين النظر، وقرب للمعتبرين المعتبر، أنزل من السماء ماءها، وأخرج به من الأرض نباتها كله.

وعرض بقوله جل قوله: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ إنه يخلقهم من نبات الأرض ومن الأنعام، وبعضهم من بعض على سبيل التناسل والاسترزاق كالرضاعة والكفالة [والعطيات][(٣)] والهبات ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾[(٤)] أي: على أخذ فوائدها من زروعها [وثمارها][(٥)] ﴿أَتَاهَا﴾ [يونس: ٢٤] من أمر الله ﷻ ما غلبهم عليها وقطع بهم دونها، كذلك الدنيا يأخذها أحسن ما كانت، وأطيبه دار عيشهم، [ويجتمع أمرهم لا من حيث الدنيا من

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «والأعطيات».

(٤) ﴿أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ جملة بديعة اللفظ جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتست وتزينت بأنواع الحلي، فاستعير الأخذ وهو التناول باليد لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة وأثواب مختلفة، واستعير لتلك البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظة «الزخرف» وهو الذهب؛ لما كان من الأشياء البهجة المنظر السارة للنفوس، و«ازينت» أي: بنباتها وما أودع فيه من الحبوب والثمار والأزهار، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ تأكيدًا لقوله: ﴿أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ واحتمل ألا يكون تأكيدًا؛ إذ قد يكون أخذ الزخرف لا لقصد التزيين، فقيل: «وازينت» ليفيد أنها قصدت التزيين، ونسبة الأخذ إلى الأرض والتزيين من بديع الاستعارة. تفسير البحر المحيط (٢٨٧/٦).

(٥) في النسخة (ق): «وثمراتها».

حيث الدين][1].

وقد [قيل][2]: إن الساعة تقوم يوم الجمعة في أول ساعة منها، أو فيما يقارب ذلك، وفي آخر زمن الربيع عند استقبال [زمن][3] المصيف، والأرض قد أخذت زينتها، والأشجار قد [أظلت][4]، والزمان في [إقباله][5] وفي مثل ذلك من الزمان خلقها، وبذلك ترجع الحكمة في حكمه، هذا آخرها على أولها.

[وقد جاء أن الله خلق الدنيا على أكمل هيئاتها كما تقدم، وقد أينعت ثمارها وأورقت أشجارها واستوى نباتها][6]، وإنما فصلها يومئذٍ من الجنة، فحكمها أن تكون على [ما بها][7] كما خلق آدم ﷺ كهيئته يوم توفاه كذلك وافاه رسول الله ﷺ وهو في السماء الدنيا ليلة أسري به كاملاً [ستين][8] ذراعًا في السماء كما يدخله الجنة.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الزمان قد استدار [كهيئة]**[9] **يوم خلق الله السماوات والأرض**»[10].

وكما خلق كل نفس منفوسة على الفطرة [وعلى][11] الإسلام كذلك خلق الزمان مقبلاً، والشمس في برج الحمل أو ما يقارب ذلك، يدل على ما [ذكرناه][12] قول رسول الله ﷺ في خطبته المشهورة التي قام بها في الناس [الغد من يوم النحر

(١) في النسخة (ق): «جميع أمرهم دنيا لا دينًا».
(٢) في النسخة (ق): «جاء».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «أورقت وأظلت».
(٥) في النسخة (ق): «اقتباله».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «تمامها».
(٨) في النسخة (ق): «سويًا ستون».
(٩) في النسخة (ق): «كهئته».
(١٠) أخرجه البخاري (٥٢٣٠) ومسلم (١٦٧٩) وأحمد (٢٠٤٠٢) وأبو داود (١٩٤٧).
(١١) سقط من النسخة (ق).
(١٢) في النسخة (ق): «قلناه».

في حجة الوداع حجة الإسلام][1] [فقال][2] وهو راكب على ناقته استنصت الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وخطبهم خطبة مُودِّع قال فيها: «**إن الله حرم أموالكم ودماءكم وأعراضكم** [عليكم][3] **كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا فليُبلِّغ الشاهد الغائب،** [فإني][4] **لا ألقاكم بعد عامي هذا**» ثم قال ﷺ: «**أيها الناس، إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والأرض**»[5].

فكانت حجته تلك زمن الربيع؛ دل على ذلك أنه رجع منها وبقي بالمدينة شهر المحرم كله وصدرًا من ربيع الأول، وأخذ ﷺ في التوجه إلى غزوة تبوك وقد دخل زمن الصيف، ولذلك قال كعب بن مالك في قصته المشهورة: وكان رسول الله ﷺ قد استقبل سفرًا بعيدًا وعدوًا كثيرًا، وذلك حين طابت الظلال وبردت المياه.

وقال [الله][6] جل ذكره يحكي قول المنافقين في هذه الغزوة: ﴿**وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة:٨١] فوضح بهذا كله أن الحجة كانت زمن الربيع، وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وأن إيجاد ذلك كان والأرض في زينتها والشمس في برج الحمل [وهو في شرقها][7]، وإذا كان ذلك كذلك والقمر يومئذٍ كان في الميزان؛ [إذ هو وقت][8] الحمل، وكانت الشمس في [شرقها][9]، والقمر في كماله، والأرض قد أخذت زينتها، والليل والنهار في حال استوائهما عند استكمال الشمس [البروج][10] الجنوبية وصعودها في الشمالية.

---

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير بين النسخ.
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «ولعلي».
(٥) انظر التخريج السابق.
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «أو ما يقارب ذلك وذلك شرفها».
(٨) في النسخة (ق): «وما يقاربه إذ هو رقيب».
(٩) في النسخة (ق): «شرفها».
(١٠) سقط من النسخة (ق).

وفي قوله ﷺ: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق [الله]**[(١)] **السموات والأرض**»[(٢)] وجه آخر به يتم ما تقدم ذكره، [وهو][(٣)] من النبأ العظيم، وذلك أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وعلى الدين القيم، [واستدار به][(٤)] الدوائر [كذلك إلى أن خلق الله آدم ﷺ على الدين القيم، وخلقه على ذلك الأئمة من بنيه على جميعهم السلام.

ثم اختلفوا كما قال الله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس:١٩] فخلف في ذلك الاختلاف أنهم كفار ومشركون عبدوا الشمس والقمر والكواكب والأوثان والطواغيت وغير ذلك، ولما كان يومئذٍ أكمل الله الإسلام، وأظهر دينه الحق، والزمان استدار كهيئته الأولى خلقة وشرعة، واستدار على قوم ضالين إلى عباد مهتدين، أنزل الله ﷻ ذلك اليوم قوله الحق جل قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] والحمد لله رب العالمين، نسأل الله الرحيم إتمام نعمته وسبوغ منته إلى يوم الدين، إنه أرحم الراحمين وخير القادرين][(٥)].

[عبرة:

قد تقدم قوله الحق: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ [يونس:٢٤] وهذه الحياة الدنيا لا يحين حين انقراضها إلا بقيام الساعة.

قال الله ﷻ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] وينقسم هذا اليوم الذي هو الدنيا على دارين الحياة والموت: دار الدنيا ودار البرزخ، وهو مدة لبث الخلق في القبور حال البلى، فمثل مدة إحدى الدارين نصف العام.

أعرب عن هذا قوله في كتابه العزيز: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «واستدارت».

(٥) ما بين [ ] فيه تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

[الكهف:٤٥] وإنما يكون إنزاله الماء أول الخريف، فتأخذ الأرض زينتها في خامس الشهور ويكمل ذلك منها في آخر السادس، ثم يأتيها من أمر الله ما يحطم نباتها ويهشم زهرتها، ثم تصير في الثامن والتاسع كما قال الله ﷻ: ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ هذه حال نباتها الكائن عن الماء من آب وقضب وزرع ومرعى وأزهار وزينة المعبر عنها باسم الزخرف فذلك بالعبرة كمدة المؤمن في هذه الحياة؛ أعني: من إنبات الله النبات إلى استوائه إلى تحطمه فيكون وقت وفاته حين ضحك الأرض وأخذها زينتها واستبشارها بما هي فيه فرحًا وشبعًا وكسوة وسرورًا.

ثم هو يستقبل إن كان مؤمنًا صالحًا موجودات الجنة من فاكهة على أنواعها إلى آخر زمن الخريف، وذلك تمام يوم الدنيا كما يستقبل الكافر من فيح السعير وورود النار وعذابها من غير كفاية ولا وقاية ما هو إليه صائر، هذا وهذا ما هو موجود بعدما أحد الله ﷻ زينة الأرض، وقبضه وروح حياتها من هذه الجهة ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ...﴾ [الواقعة:٩٢] إلى آخر السورة][(١)].

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس:٢٦ - ٣٠].

[قوله جل ذكره: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[(٢)] [يونس:٢٦] الحسنى:

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أي: الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال، والكفّ عما نهاهم عنه من المعاصي، والمراد بالحسنى: المثوبة الحسنى. قال ابن الأنباري: العرب توقع هذه اللفظة =

حسن المآب، وهو الجنة، والزيادة فيها النظر إلى وجه الله الكريم، ويوم المزيد في الدار الآخرة يوم الجمعة، وهو يوم الزيادة العليا والحسنى](١).

قال الله جل قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ [الكهف:٨٨] أي: جزاء العمل الصالح، والزيادة أيضًا تكون ما [يكسبه](٢) الله جل ذكره الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك، إلى قوله جل قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٨] [والزيادة من الله جل ذكره غير محصورة العلم](٣)؛ لأنها من فضله العظيم، وهو يعطي [ويزيد ويهب](٤) ويزيد أبدًا.

قال الله جل وعز: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء:١٧٣] والسيئات [مثلاً بمثل](٥) جزاء سيئة بمثلها، والحسنات والسيئات لها وزنها، [وأما ما يقابلها](٦) من نعيم الجنة وعذاب [النار](٧) فعسير الوقوف عليه، إنما علمه إلى الله ﷻ.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن

=

على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك ترك موصوفها؛ وقيل: المراد بالحسنى: الجنة، وأما الزيادة فقيل: المراد بها: ما يزيد على المثوبة من التفضل. فتح القدير (٣/٣٦٥).

(١) ما بين [ ] فيه تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٢) في النسخة (ق): «يكتبه».

(٣) في النسخة (ق): «والعلم بزيادة الله عباده غير محصور ولا محاط بعلمها».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وما هو جزاؤها».

(٧) في النسخة (ق): «جهنم أعاذنا الله الكريم منها».

يَهِدِّيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس:٣١ - ٣٧].

قوله جل وعز: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ الله وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد جل وعز: التوراة والإنجيل والزبور والصحف كلها ﴿وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ﴾ [يونس:٣٧] أي: الكتاب المبين؛ أي: اللوح المحفوظ، وتصور بعض التفصيل في ذلك إن شاء الله تعالى هو أن علمك بأن القرون الخالية والأمم الماضية قد تقدم في الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ [أنه سيكون][1] على صورهم وهيئاتهم وأعمالهم، وسيكون منهم كذا فيرسل إليهم رسول كذا، فيكون منهم [كذا][2] إما هداية وإما ضلالة، فيكون من عقابهم وثوابهم كذا، [وكذلك][3] كل شجرة وماء، وأرض [وهواء وسماء][4] وكوكب، وعمل ورزق، وحركة وسكون، وخلق وأمر مزموم كله في أم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ مثبت في زمام، وقد ذكر القرآن ذلك بذكر خصوص وعموم وعلى الاستقراء يأتي الذكر على [كثير من ذلك][5].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ

(١) في النسخة (ق): «أنهم سيكونون».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «وكذا».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «أكثر ذلك ثم يتيسر الإجمال بعد».

وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: ٣٨ - ٤٦].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾(١) [يونس: ٣٩] أما القرآن العزيز فعلى قلوب المكذبين أكنة أن يفقهوه، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم غشاوة، [فلا يرون آيات الله في السماوات والأرؤض](٢) وأما تأويله - يعني: الجزاء العاجل والآجل - فلم يكن [يأتيهم](٣)؛ إذ إنزال هذه السورة مكية، وهو حقيقة ما ذُم في أم الكتاب من عقاب أو ثواب على كل عمل، ومتى يكون وكيف وأين وما مقداره ولمن يحل؟.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ

---

(١) ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ عطف على الصلة أو حال من الموصول؛ أي: ولم يقفوا بعد على معانيه الوضعية والعقلية المنبئة عن علو شأنه وسطوح برهانه، فالتأويل نوع من التفسير، والإتيان مجاز عن المعرفة والوقوف، ولعل اختياره للإشعار بأن تلك المعاني متوجهة إلى الأذهان منساقة إليها بنفسها، وجوَّز أن يراد بالتأويل وقوع مدلوله، وهو عاقبته وما يؤول إليه، وهو المعنى الحقيقي عند بعض، فإتيانه حينئذٍ مجاز عن تبينه وانكشافه؛ أي: ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يظهر أنه صدق أم كذب، والمعنى: إن القرآن معجز من جهة النظم. تفسير الألوسي (٦/٨).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «آتاهم بعد».

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ
ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ
حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا
تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٤٧ - ٦١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ﴾ [يونس: ٦١] فيه المعنى إلى آخره، أرجع معنى الخطاب إلى معنى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا...﴾ [الحديد: ٤] إذ هو الله ﷻ [مستوٍ][1] على العرش، وهو في كل مكان ومع كل شيء من حيث هو جل ذكره، هذا من حيث الخلقة والعلم والتدبير.

ثم ينشأ ذلك في المؤمن، ثم في الولي، ثم في النبي والرسول، [ويلازمه][2] ذكره والعمل بطاعته حتى يكون سمعًا وبصرًا [ولتحقيق ذلك وشياعه في الوجود

---

(١) في النسخة (ق): «المستوي».

(٢) في النسخة (ق): «وملازمة».

ولزومه اللزوم كله خلق لغة العرب محققة لذلك، فقال: «زيد ثاني اثنين وعمرو ثالث ثلاثة ورابع أربعة» إلى نهاية ذلك هذا في «لسان العرب» كذلك في سائر اللغات(١) والله أعلم.

(١) **فيه مسألة:** هل اللغات توقيفية أو اصطلاحية؟ اختلف العلماء في اللغة كيف تثبت؟ إلى أربعة مذاهب: الأول: تثبت بدلالة الألفاظ على المعاني بذواتها، وهو مذهب عباد بن سليمان. الثاني: تثبت بوَضْع الله إياها، وهو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وابن فُورَك والجبائي والكعبي. الثالث تثبت بوَضْع الناس إياها، وهو مذهب أبي هاشم والمعتزلة. الرابع تثبت بعضها بوَضْع الله والباقي بوضع الناس؛ وهو إما أن يكونَ الابتداءُ من الناس والتَّتِمَّة من الله - وهو مذهب قوم - وإما أن يكون الابتداءُ من الله والتتمة من الناس - وهو مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.
احتجَّ عبّاد بن سليمان بأنه لولا الدّلالةُ الذاتيّةُ لكان وضعُ لفظٍ من بين الألفاظ بإزاء معنًى من بين المعاني ترجيحاً بلا مُرَجِّح وهو محال. وجوابُهُ أن الواضعَ إن كان هو الله فتخصيصُه الألفاظَ بالمعاني كتخصيص العالَم بالإيجاد في وقتٍ من بين سائر الأوقات وإن كان هو الناس فلعلَّه لتعيّن الخَطَران بالبال ودليلُ إمكانِ التوقيف احتمالُ خَلْقِ الله تعالى الألفاظَ وَوَضْعِها بإزاء المعاني وخَلْقِ علومٍ ضروريةٍ في ناس بأن تلك الألفاظَ موضوعةٌ لتلك المعاني ودليل إمكان الاصطلاح إمكان أن يتولّى واحدٌ أو جمعٌ وضَع الألفاظِ لمعانٍ ثم يُفْهِموها لغيرهم بالإشارة كحال الوالداتِ مع أطفالهن وهذان الدليلان هما دليلا إمكانِ التوزيع. واحتجّ القائلون بالتوقيف بوجوه: أولها قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فالأسماء كلها معلّمة من عند الله بالنَّص وكذا الأفعالُ والحروف لعَدم القائل بالفَصْل ولأن الأفعال والحروف أيضًا أسماء لأن الاسم ما كان علامةً والتميزُ من تَصَرُّفِ النحاة لا منَ اللغة ولأنَّ التكلمَ بالأسماء وحْدَها متعذّر. وثانيها أنه سبحانَه وتعالى ذَمَّ قوماً في إطلاقِهم أسماء غيرَ توقيفيّة في قوله تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [النجم :٢٣] وذلك يقتضي كونَ البواقي توقيفية. وثالثها قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم:٢٢] والأَلْسنةُ اللُّحْمَانية غيرُ مُرادة لعدم اختلافها ولأن بدائعَ الصُّنْع في غيرها أكثرُ، فالمراد هي اللغات. ورابعها - وهو عقليّ - لو كانت اللغاتُ اصطلاحية لَاحْتِيج في التخاطب بوَضْعِها إلى اصطلاحٍ آخر من لغةٍ أو كتابةٍ ويعودُ إليه الكلامُ ويلزم إما الدَّور أو التسلسلُ في الأوضاع وهو محال فلا بد من الانتهاءِ إلى التوقيف.
والجواب عن الأولى لِمَ لَا يَجُوزُ أن يكون المرادُ من تعليم الأسماء الإلهامَ إلى وضْعها ولا يقالُ: التعليمُ إيجادُ العلم؛ فإنا لا نُسَلِّم ذلك، بل التعليم فعلٌ يترتب عليه العلم ولأجله يُقال علَّمْتُه فلم يتعلَّم ؛ سلمنا أن التعليمَ إيجاد العلم لكن قد تقرّر في الكلام أن أفعالَ العباد مخلوقةٌ لله تعالى فعلى هذا العلمُ الحاصل بها مُوجَد لله سلَّمناه لكنَّ الأسماءَ هي سِماتُ
=

=

الأشياء وعلاماتُها مثل أن يعلِّمَ آدَمُ صلاحَ الخيلِ لِلْعَدْو، والجمال للحَمْل، والثيران للحَرْث، فَلِمَ قلتُم: إن المراد ليس ذلك؟ وتخصيصُ الأسماءِ بالألفاظ عرفٌ جديد؛ سلمنا أن المرادَ هو الألفاظُ ولكن لِم لا يجوزُ أن تكون هذه الألفاظُ وضَعَها قومٌ آخرون قبل آدمَ وعلَّمها الله آدم؟ وعن الثانية أنه تعالى ذمَّهم لأنهم سمُّوا الأصنامَ آلهة واعتقدوها كذلك. وعن الثالثة أن اللسانَ هو الجارحة المخصوصة، وهي غيرُ مرادة بالاتفاق، والمجازُ الذي ذكرتموه يعارِضُه مَجازاتٌ أخر نحو مخارجِ الحروف أو القدرة عليها، فلم يثبت التَّرجيح. وعن الرابعة أن الاصطلاح لا يَسْتَدعي تقدُّمَ اصطلاحٍ آخر بدليل تعليم الوالدين الطفلَ دون سابقةِ اصطلاحٍ ثمة.

واحتجَّ القائلون بالاصطلاح بوَجْهين: أحدهما لو كانت اللغاتُ توقيفيةً لتقدَّمت واسطةُ البعثةِ على التوقيف، والتقدمُ باطلٌ، وبيانُ الملازمة أنها إذا كانت توقيفيةً فلا بدَّ من واسطة بين الله والبشر - وهو النبيُّ - لاسْتِحالة خطابِ الله تعالى مع كلِّ أحد، وبيانُ بُطْلَان التَّقَدُّم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم:٤] وهذا يَقْتَضِي تقدُّمَ اللغة على البعثة. والثاني لو كانت اللغاتُ توقيفيةً فذلك إما بأن يَخْلُق الله تعالى عِلماً ضروريًّا في العاقل أنَّه وَضَع الألفاظ لكذا أو في غير العاقل أو بألَّا يخلقَ علماً ضرورياً أصلاً؛ والأول باطلٌ وإلّا لكان العاقلُ عالماً بالله بالضرورة لأنه إذا كان عالماً بالضرورة بكَوْن الله وضَع كذا لِكَذا كان علمُه بالله ضروريًّا ولو كان كذلك لبطَلَ التكليفُ والثاني باطلٌ لأن غيرَ العاقل لا يمكنُه إنهاءُ تمام هذه الألفاظ والثالثُ باطل لأن العلمَ بها إذا لم يكن ضرورياً احتيج إلى توقيفٍ آخر ولَزِم التسلسل. والجوابُ عن الأولى لا نُسَلِّمُ توقُّفَ التوقيف على البعثة؛ لجوازِ أن يخلق الله فيهم العلمَ الضروري بأن الألفاظَ وُضِعَت لكذا وكذا. وعن الثانية لِمَ لا يجوز أن يخلق الله العلم الضروريَّ في العقلاء أن واضعاً وَضعَ تلك الألفاظ لتلكَ المعاني ، وعلى هذا لا يكونُ العلم بالله ضرورياً ؛ سلَّمناه لكن لِمَ لا يجوز أن يكون الإله معلومَ الوجود بالضرورة لبعض العقلاء؟ قوله "لَبطَلَ التكليف" قُلْنا : بالمعرفة أمَّا بسائر التكاليف فلا. وزعم الأستاذُ أبو إسحاق الإسفراييني أن القَدْرَ الذي يدْعو به الإنسان غيرَه إلى التَّواضع يَثْبتُ توقيفاً، وما عدا ذلك يجوز أن يثبت بكلٍ واحدٍ من الطريقين. أما المحققون فإنهم متوقفون في الكل إلّا في مذهب عباد ، ودليل فسادِه أن اللفظَ لو دلَّ بالذات لفَهِم كلُّ واحد منهم كلَّ اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية واللازمُ باطلٌ فالملزوم كذلك. قال القاضي أبو بكر: يجوز أن يثبت توقيفًا، ويجوز أن يثبت اصطلاحًا، ويجوز أن يثبت بعضه توقيفًا وبعضه اصطلاحًا، والكلّ ممكن. وعمدة القاضي أن الممْكن هو الذي لو قُدِّر موجودًا لم يعرض لوجوده محال؛ ويعلم أن هذه الوجوه لو قُدِّرَت لم يعرض من وجودها محال فوجب قَطْعُ القول بإمكانها. انظر: (المحصول ١/٢٤٧ - ٢٥٩) (المستصفى ١٨١) (إرشاد الفحول ٣٥ - ٣٧) (روضة الناظر ١٧١ - ١٧٢) (الإبهاج ١/١٩٨ - ٢٠٢) (التمهيد ١٣٧ - ١٣٨) (المزهر ١/١٦ - ٢٠).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

قال الله سبحانه وله الحمد في حديثه الصدق عن رسوله ﷺ يوم آوى إلى الغار مع أبي بكر الصديق ﷺ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] فقال له: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ والمشار إليه بهذه العبارة أبو بكر ورسول الله ثانيهما، ولذلك قال ﷺ لأبي بكر لما قال له: «يا رسول الله - وأرجل القوم تبدو لهما في حال الطلب لهما - لو خفض أحدهم بصره لأبصرنا» قال: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[(١)] فهذا عبارة عن لزوم الولاية، وما شاع في عبارة اللغة فعن لزوم ولاية الخلقة، فكان ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مع رسول الله ﷺ وأبي بكر بولاية الخلقة والولاية العلا.

ألا تسمع إلى قوله العَلي: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى*وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:١٩ - ٢٠] فذكر اللات مقدمة وثنى بذكر العزى، ثم قال: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ فجعلها ثالثة للثنتين المذكورتين قبل، ثم قال في مناة: إنها ثالثة أخرى؛ لبراءته، سبحانه وله الحمد منها ومن صاحبتيها المذكورتين].

وهذه أوصاف الحق المخلوق به السماوات والأرض المتصل بالحق المبين، وهو المواجه العبد إذا صلى، وهو الذي تقع الصدقة في كفه قبل أن تقع في كف السائل، وهو الذي مع عبده إذا ذكره وما تحركت به شفتاه، ذلك بما هو الله جل ذكره لا إله إلا هو الرحمن الرحيم غرب فلا يُحس ولا يُرى وقرب القرب كله، فكل شيء منه ملأ هو العلي الأعلى وعلى العرش استوى [هو الأحد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن][(٢)].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٣) ومسلم (٢٣٨١) والترمذي (٣٠٩٦) وابن سعد (١٧٣/٣) وابن أبي شيبة (٣١٩٢٩) وأحمد (١١) وابن حبان (٦٢٧٨).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٦].

أتبع هذا ما هو في معناه قوله جل قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(١) [يونس: ٦٢ - ٦٣] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤] [المشار إليه بهذا المعنى المضمن في هذا الخطاب](٢) من وقع له طائره في قبضة اليمين [فقال فيه: «هذا للجنة وبعمل أهل الجنة يعمل»](٣) لقد عظم حظه وفاز [يومئذٍ](٤) فوزًا عظيمًا.

قال رسول الله ﷺ: «**الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه**»(٥) [وكان](٦) ما يأتي بعد من علم وإيمان وعمل فهو تبع لعلم الله جل وعز ومشيئته السابقة، يومئذٍ [فاز الفائزون وخسر الخاسرون](٧).

ثم قال - جل قوله - [يعزيه](٨) في ضلالهم وتكذيبهم وعظيم افترائهم [وقبيح

---

(١) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي ارشاد العقل السليم أنه بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، وغاية لما ذكر قبله من كونه سبحانه مهيمنًا على نبيه ﷺ وأمته في كل ما يأتون ويذرون، وإحاطة علمه جل وعلا بعد ما أشير إلى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة، وما سيعتريهم من الهول إشارة إجمالية على طريق التهديد والوعيد، وصدرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق؛ لزيادة تقرير مضمونها، والأولياء: جمع ولي، من الولي بمعنى القرب والدنو، يقال: تباعد بعد ولي؛ أي: قرب، والمراد بهم: خلص المؤمنين؛ لقربهم الروحاني منه سبحانه. تفسير الألوسي (٨/٥٠).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المقول فيهم بقوله الصدق: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٥٣٠)، والديلمي (٢٥٩٤).

(٦) في النسخة (ق): «وكل».

(٧) في النسخة (ق): «ضحك أهل الضحك لأجل فوزهم وبكى أهل البكاء لأجل خسرهم».

(٨) في النسخة (ق): «تعزية».

فعالهم وتهديدهم إياه][1]: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ لله جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥] هو الذي لا يدركه أذى المفترين، ولا يضره ضلال الضالين، كما لا ينفعه طاعة المطيعين، هو السميع لمقالتهم [العليم][2] بجميع أعمالهم [يقول عز من قائل هذا سبق لهم في تقديرنا وعلمنا فيما لم يزل][3].

ثم قال ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّ لله مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [يونس:٦٦] وقد تقدم قوله: ﴿أَلَا إِنَّ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:٥٥] ثم [أتبع ذلك][4]: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩].

وقال جل قوله [هنا][5]: ﴿أَلَا إِنَّ لله مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ والمراد منها: نفي الشفعاء والشركاء والأنداد المتخذة من دونه من يوصف بالعقل، كالملائكة وعيسى ابن مريم - عليه السلام - [والأول نفي][6] الأصنام والأوثان والمعبودات من النيران والنيرات.

ثم قال جل قوله وقوله الحق: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[7] [يونس:٦٦] إنما كانوا يقولون: ﴿هَؤُلاءِ

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «العالم».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «أتبعه بقوله».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «وفي الأولى هي».
(٧) المناسبة ظاهرة في هذه الآية لما ذكرأن العزة له تعالى وهي القهر والغلبة ذكر ما يناسب القهر؛ وهو كون المخلوقات ملكًا له تعالى، ومن الأصل فيها أن تكون للعقلاء، وهنا هي شاملة لهم ولغيرهم على حكم التغليب، وحيث جيء بما كان تغليبًا للكثرة؛ إذ أكثر المخلوقات لا تعقل. وقال الزمخشري: يعني: العقلاء المميزين، وهم الملائكة والثقلان، وإنما خصهم؛ ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا له في ملكه فهم عبيد كلهم، لا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكًا فيها، فما دونهم مما لا يعقل أحق ألا يكون ندًّا وشريكًا. تفسير البحر المحيط (٦/٣٣٥).

﴿شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾ [يونس:١٨] وهو [تخرص][١] منهم وظن كاذب؛ إذ المشفوع عنده لم يأذن في ذلك ولا [وعدهم][٢] به.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [يونس:٦٧ - ٧٠].

ثم قال جل من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧] الليل بضيقه وظلامه ووحشته والسكون فيه، والنوم آية على الموت بعد الحياة، [وهو أيضًا يعني الليل آية على جهنم][٣] والنهار بضيائه [وإشراقه][٤] والانتشار فيه واليقظة [والانبساط واتساع البصر وانكشاف المبصرات آية على الحياة، وجواز الإحياء بعد الموت، والليل أيضًا بما هو آية على إله باطل، والنهار بما هو آية على إله حق، والليل آية على الضلال والكفر والجهل][٥] والنهار بما هو آية على الهدى والإيمان والعلم، وقد مضى في تفسير آية البقرة مستقصى حسب الاستطاعة لذلك.

قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧] وكان [سياق صفة][٦] السمع أولى من حيث إنه استجلب الشاهد على إبطال إله باطل

(١) في النسخة (ق): «خرص».

(٢) في النسخة (ق): «وعد».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٦) في النسخة (ق): «وصف سياقه».

[تقدم][1] ذكر الليل الذي هو عليه آية في قوله جل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧] والسمع هو المتصرف في الظلام دون البصر؛ لهذه العلة كانت صلاة الليل جهرًا.

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس:٧١ - ٨١].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس:٧٩] إلى قوله جل قوله: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ...﴾ [يونس:٨١] وفي حرف أبي عمرو: «آلسحر» على الاستفهام على سبيل التقرير، وقراءة الجماعة هي موافقة لما في سورة طه.

قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ

(١) في النسخة (ق): «فتقدم».

﴿مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٧-٦٩] ومعنى قوله: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ أن عمله لا حقيقة له [فلا](١) يفلح به خصمًا [دنيا، ولا](٢) في الآخرة حظ لذلك.

قال موسى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣) [يونس:٨١] ولا يفلح الساحرون، ومحذوف هذا وأنا قد أفلحت بما جئت به، وهذا من التحدي بالآيات [ويتخرج أيضًا قوله ﷺ: «ما جئتم به آلسحر» على الاستفهام الذي بمعنى التقرير أنه قال ذلك لهم وقد أعلمه الله بما أعلمه قوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه:٦٨ - ٦٩] المعنى إلى آخره، فقال لهم ذلك على معنى التبليغ منذرًا لهم محذرًا ولعل ذلك مما نفعهم وأحسن عونهم على الإيمان والتبرؤ؛ لأنه من التحدي] والإخبار عن المقدور الغائب قبل وقوعه [هذا إلى ما رأوه من التحقيق مجاز القول ما جئتم به هو السحر السحر هو ما جئتم به ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس:٧٧] وقد أفلحت أنا بما جئت به وعليت أفلا تعقلون أتبع ذلك](٤).

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟

---

(١) في النسخة (ق): «فهو لا».

(٢) في النسخة (ق): «خفيًا ولا لهم».

(٣) أي: جنسهم على الإطلاق، فيدخل فيه السحرة دخولاً أوّليًا، ويجوز أن يراد بالمفسدين: المخاطبون، فيكون من وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم، والجملة تذييل لتعليل ما قبلها وتأكيده، والمراد بعدم إصلاح ذلك: عدم إثباته، أو عدم تقويته بالتأييد الإلهي لا عدم جعل الفاسد صالحًا؛ لظهور أن ذلك مما لا يكون؛ أي: إنه سبحانه لا يثبت عمل المفسدين ولا يديمه، بل يزيله ويمحقه، أو لا يقويه ولا يؤيده، بل يظهر بطلانه ويجعله معلومًا. تفسير الألوسي (٨٤/٨).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٢ - ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس:٨٢] [إن المعهود جري العوائد وقضاء القضايا على أسباب لها معهوده فإذا قضى أمرًا على أسباب غير معهوده في تيسير أو قضاه بغير سبب معلوم فهو من المقدور وهذا مما تقدم ذكره من الإخبار عن الغائب الذي لم يقع](١) إذا أحق الله الحق بكلماته لم يجرِ ذلك القضاء على سنة معهودة، بل هو أن يقول له: «كن كذلك».

قال جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤] [أي: من المعهود جري الأمور وقضاؤها](٢) على أسباب لها معهودة، فإذا قضى أمرًا على [سبب غير معهود](٣) في تيسير أو قضاه بغير سبب معلوم، فهو من المقدور الغائب، وذلك هو المقضي بكلمة الله فافهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤] الإيمان أولاً ثم العمل بالمفروض فذلك الإسلام ثم التوكل، وهو من عمل الإسلام بمشاركة الإيمان فيه أما حظ الإيمان فيه فالعلم بأن فعل الله لا يفعله سوى الله، وأن [ما](٤) سوى الله عباد مملوكون لا يملكون [ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولما حط](٥) الإسلام فيه فترك التصرف في أكثر الأسباب لأجل العلم الذي وقر في القلب.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «إن من المعهود جري العوائد وقضاء القضايا».

(٣) في النسخة (ق): «أسباب غير معهودة».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «دفعًا ولا نفعًا وأما حظ».

فصل

من التوكل ما هو فرض، ومنه ما هو فضيلة، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مكروه، ومنه [أيضًا][(١)] ما هو حرام.

أما ما هو منه فريضة: فهو إذا تقدم الإيمان والعمل فالتوكل على الله ﷻ في الوفاء بوعده [بمثال][(٢)] الثواب فريضة.

قال الله ﷻ: ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود:١٢٣].

وقال: ﴿**ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ**﴾ [البقرة:٥٨].

وقال: ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ [إبراهيم:٤٧] [وهو كثير][(٣)].

وأما ما هو منه فضيلة: فالتوكل على الله جل ذكره في ترك بعض الأسباب، [لا سيما][(٤)] الأسباب التي توصف ببعض البعد عن [مثال][(٥)] المطلوب، وكلما بعد السبب عن [مثال] المطلوب في الأغلب فالسعي في ذلك داخل في خبر المكروه [واتباع ذلك إشغال للقلوب عن العمل للآخرة وترك ما هو الأولى][(٦)].

وأما هو منه حرام: فهو أن يترك العمل الذي أمره الله به اتكالاً على ما سبق له في الأزل، فإن تركه للعمل [بما أمره الله به من طاعته هو من علامات شقائه السابق له في الأزل؛ إذ كل يسعى فيما سبق له][(٧)].

[قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ يعني: بيوتهم التي كتب الله لهم في الأرض المقدسة، وهو بيت المقدس وغيره بيوت الله فيها، ثم قال عز من قائل: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:٨٧] هذا مصداق لقول رسول الله ﷺ: «**الصلاة إلى الصلاة**

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «بمنال».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «وهي».

(٥) في النسخة (ق): «منال».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «بطاعة الله أمارة على شقائه السابق في الأزل إذ كل يسعى فيما سبق له».

كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما»[١] وقوله: «من صلى ركعتين مقبلاً عليهما بوجهه وقلبه غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢].

والأظهر في معنى هذه الآية أن قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خطاب مستأنف المخاطب به ﷺ ليبشر المؤمنين من أمته بما بلَّغه إليها عن ربه عز جلاله في قوله: «إذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فِيهِ، ثم إذا استنشر خرجت الخطايا من أنفه، ثم إذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من أشفار عينيه»[٣].

وذكر مثل ذلك في الذراعين والرأس والقدمين، ثم يخرج نقيًا من الذنوب، وكان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له، وفي أخرى قال عند تمام الوضوء: «ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء»[٤] فهذا من معنى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال ﷻ في آخر الآية من قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٥٨] فهذه زيادته، إن ربنا لغفور شكور، والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾[٥] [يونس:٨٨] هذا دعاء على فرعون وقومه بألَّا يؤمنوا بالله ويموتوا

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٢٩) والحاكم (٤١٢) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٢٠) وإسحاق بن راهويه (٤٣٥).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (١٢٧٧)، والحاكم (٥٨٤)، والبيهقي (٤١٧٩).

(٣) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجة (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٨).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) لمَّا بالغ موسى في إظهار المعجزات، ورأى القوم مُصرِّينَ على الجُحُود والعنادِ دعا عليهم، ومن حقِّ من يدعُو على الغير أن يذكُر سبب جرمه، وجرمهم كان حُبَّ الدنيا، فلأجله تركوا الدِّين؛ فلهذا قال ؈: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والزينة عبارة عن: الصحَّة ، والجمال، واللباس، والدوابِّ، وأثاث البيت، والمال ما يزيد على هذه الأشياء من الصَّامت والنَّاطق. تفسير اللباب لابن عادل (٣٢/٩).

كفارًا، وهذا خلاف المعهود من رأفة الرسل والأئمة، فمن احتج بدعوة نوح ﷺ على قومه؛ إذ قال: ﴿رَّبِ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] فقد كان أعلمه عز جلاله بأنهم لا يؤمنون بقوله: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦] فدعا عليهم؛ إذ قد يأس من إيمانهم [بالكلية] ويقول تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧].

وقال نوح ﷺ: ﴿رَّبِ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦].

وقد جاء عن نوح ﷺ: إنه يعتذر يوم القيامة لأهل المحشر في ترك الإقدام على الشفاعة لأهل الجمع بدعوته على قومه، ونبذه لهم وتبرئتهم من ذلك! وكيف هذا وقد جاء المدح من الله ﷻ لنوح وموسى وهارون في دعائهم ذلك، وهم لا ينطقون عن الهوى، كيف لاوإنما استاق ﷻ ذلك عن نوح وموسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهم - في معرض المدح لهم والرضا بما فعلوه من ذلك، وقال موسى لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٩] ففي هذا رجاء منه أن يهلك الله عدوهم فرعون وأتباعه، فيهلكهم الله، وهم عدو له وللمؤمنين، ومنه يتخرج - أعني: دعاء الرسل على قومهم الذين يئسوا من إيمانهم [.... الملائكة] [١] فالشفاعة فيما أذن لهم فيه بأن يتمه.

وقال جل قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٥] إلى قوله جل قوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦] وقال لهما: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ﴾ [القصص:٣٥] ثم أذن لهما في الدعاء عليه، كالشفاعة فيما أذن الله جل ذكره في فعله.

وقال عز من قائل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٦ - ٣٧] المعنى: فقيض عبده ورسوله فيما قدره أن يتمه] [٢].

---

(١) ليس في (ف) وبياض في (غ).

(٢) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

فصل

إنه لا يؤهل للشفاعة في عباد الله في الآخرة إلا من دعا لهم ونصحهم في الدنيا، ومن دعا عليهم مُنع ذلك، لا سيما الشفاعة العليا، [ولا][١] يستحق درجة الوسيلة [العظمى][٢] فيما هنالك إلا من وسل بين الله وبين عباده [في الدنيا][٣] وأصلح بينهم، وعدل فيهم ونصح ودعا لهم، دل على ذلك قول رسول الله ﷺ: «**اللَّعانون لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**»[٤].

ورجم رسول الله ﷺ ماعزًا، ثم لم يُصلِّ عليه، وأبقى ذلك في أمته سنة، ولا يصلي الإمام على من قتله في حد من حدود الله آية على هذا المعنى، وتنبيهًا على [حكمه، ألا ترى أن][٥] رسول الله ﷺ في ماعز «**لقد تاب توبة لو قسمت [بين][٦] أهل المدينة لكفتهم**»[٧] [وفي أخرى: «**إنه لينغمس في أنهار الجنة**»[٨] ومع هذا من علمه [به][٩] فقد ترك الشفاعة له في الدنيا والصلاة عليه من أجل أنه قتله في حد من حدود الله.

وإلى هذا ففي قول الله - جل ثناؤه - لموسى وهارون: ﴿**قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا**﴾ أي: على سبيل أولي العزم من الرسل، ولا [تستعجلوا][١٠] بالعذاب على أحد ﴿**وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يونس:٨٩] يعني والله أعلم بما ينزل: الذين لا يعلمون صدق أسماء الله ومضاء صفاته من عفوه ومغفرته وحلمه وأناته

---

(١) في النسخة (ق): «بل لا».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٨)، وإسحاق بن راهويه (٣).

(٥) في النسخة (ق): «حكمة الله في ذلك وقد قال».

(٦) في النسخة (ق): «على».

(٧) أخرجه بنحوه أبو داود (٤٣٧٩)، والترمذي (١٤٥٤) وقال: حسن غريب صحيح.

(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٢٨).

(٩) في النسخة (ق): «بهما».

(١٠) في النسخة (ق): «تستعجلا».

وإمهاله لعباده، وقرأها الضحاك: «[قد أجيبت][١] دعواتكما»[٢] بالجمع، وأبو عبد الرحمن قرأ بذلك، وفيه تعريض بالتوصية لهما بما تقدم.

[وكون هذا المعنى منزلاً من عند الله في معرض الرضا بذلك عن موسى ﷺ يعلم بأن الله قد كان أعلمه وأخاه هارون ﷺ بإهلاكه فرعون وقومه، كقوله جل من قائل: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان:٢٤] وقوله هو ﷺ له: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] أي: مهلكًا، ونحو هذا من إعلام الله رسله ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧]][٣].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس:٩٠ - ٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ [وقالها][٤] الحسن: «فاتَّبعهم» بوصل الألف وتشديد التاء، ورويت عنه بقطع الألف، وقرأها الحسن وأبو رجاء: «بغيًا وعدوًا» بضم العين والواو مثقلة ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٣٠٦/٣).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أي: أتبعهم جنوده وأنصاره وآله، وقرأها».

يقول الله جل من قائل: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(١) [يونس:٩١] ظاهر قوله: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ كقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس:٥١] أي: الآن آمنتم حين لا ينفعكم الإيمان [عند وقوع العذاب](٢) وقد كنتم حال المهل والعافية بالعذاب تستعجلون، أو يكون قوله لما لم يستطع إظهار الاسم [فيقول: «آمنت](٣) أنه لا إله إلا الله [وأن موسى رسول الله](٤)» بل قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وذلك يدل [منه](٥) على ضغن وعداوة [عتيدة](٦) مستصحبة لفؤاده، فكان لعدم [المنة](٧) ووجدان الضغن لا يحتمل [ذكره وحال](٨) الضرورة لم يتركه والكبر فذلك الذي منع لسانه من [البوح](٩) بذكره جل ذكره فاستمر على العادة من مقتضى حالته المعهودة.

[في هذا من الفقه أن قول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١] وأمره بالذكر الكثير إنه التكرار مع حضور القلب حال الذكر ومشاهدة ذلك، هذا ما لا خفاء به إن شاء الله تعالى.

ثم إن كثرة الذكر أيضًا قد تكون ملازمة الذكر بالتكرار بعد التكرار، فذلك يورث اللهج بذكر المذكور، منه قول الرسول ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد مائة مرة فله كذا، ومن قال: سبحان الله كذا فله كذا،**

---

(١) هو مقول قول مقدّر معطوف على ﴿قَالَ آمَنتُ﴾ أي: فقيل له : أتؤمن الآن؟ وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل: هي من قول الله سبحانه. وقيل: من قول جبريل. وقيل: من قول ميكائيل. وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه. فتح القدير (٣/٤١٠).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الكريم فقال مكان قوله».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «عنيدة».

(٧) في النسخة (ق): «المقة».

(٨) في النسخة (ق): «الذكر حال».

(٩) في النسخة (ق): «اللهج».

ومن قرأ مائة آية من كتاب الله إلى ألف آية أصبح وله قنطار من الأجر، القيراط من مثل جبل أُحد»(١) ونحو هذا من الترغيب في الذكر وتكثير العمل لما في ذلك من الدلالة على ابتهاج القلب ولهج اللسان بحب المذكور وذكره، فمتى اتصل لهج اللسان وفرح القلب وابتهاجه بالحب فذلك الإتمام إن شاء الله ﷻ، وإلا فلهج اللسان أيضًا أمر مبلغ والحمد لله، وذلك إذا كان ابتداء الذكر بتجديد نية وعزم على تحقيق في ذلك، فإن للنية في أول العمل روح تصحب العمل بركته، فكيف إن كانت النية مع الذكر مقرنين معًا؟](٢).

[فمعنى قول الله جل ثناؤه: ﴿آلْآنَ﴾ أي: في حالك هذا لا تحتمل ذكري، ولا تفوه باسمي وقد عصيت قبل؛ أي: إنك أضفت إلى حالتك تلك هذه كما يقول القائل: «كيدًا وأنت في الحديد» وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فلو كنت قبل على غير ذلك لاحتمل ذلك منك، وخرجت كلمتك هذه عن معهود إيمانك وصحيح ودك، لكنه قالها على حالها، وعلى ما كان عليه من رؤية العذاب.

ومن سنة الله جل ذكره في عباده: إنهم متى رأوا العذاب لا يقبل توبتهم إذ قد ردوا عليه أمره وأعرضوا عن تذكيره إياهم، وكذبوا رسله إليهم، فحكمة أن يطبع على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فيؤمنوا، فلا ينفعهم إذ ذاك إيمانهم، وأكثر الأمم سوى فرعون إنما دعواهم التلاؤم والقول: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤] ونحو هذا من القول](٣).

ولما قصد فرعون إلى الكلمة وتكلم بها على علاتها منه لم يضيعها له، ولقد كادت أن تنفعه لولا ما سبق له [الذي ظهر من كفره وفساده وإخراج الشهادات على ما هي عليه](٤) ظهر ذلك بقول جبريل عليه السلام جاء عنه - والله أعلم - أنه قال: «لو رأيتني وأنا آخذ [من](٥) حال البحر فأملأ به فاه خشية أن تدركه رحمة الله».

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) ما بين [ ] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

فسبحان الله [وله الحمد][(١)] ما أوفاه بعهده، ما فعل ذلك جبريل عليه السلام إلا بأمر ربه جل جلاله، [ولا حرمه رحمته إلا بعدله، وبما][(٢)] سبق له في علي علم الله أنه عامله.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[(٣)] [يونس:٩٢] لو كانت شهادته تلك في وقتها وعلى حقيقتها المقة وحسن النية وصحيح التوبة من قرار نفسه لإنجاءه وأتباعه من عذابه، ولما كانت في غير وقتها وعلى علاتها نجاه ببدنه فقط؛ ليجعله [لنا][(٤)] آية على أن الشهادة بهذه الكلمة المباركة عنده في غاية القبول [عنده][(٥)]، فانظر إليها لما كانت شهادته ميتة نجاه الله بها ميتًا، ولو كانت حية لنجاه [بها][(٦)] حيًا، لا جعلنا الله عن آياته من الغافلين ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٧)] [الأعراف:٦٩].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ولا حرص على منعه ورحمة ربه إلا بعدل الله وربما».

(٣) وهي عبارة لم يأتِ مثلها فيما كتب من أخبار فرعون، وإنها لمن الإعجاز العلمي في القرآن؛ إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي، والظاهر أن الأمواج ألْقَت جثّته على الساحل الغربي من البحر الأحمر فعثر عليه الذين خرجوا يتقصون آثاره ممن بقُوا بعده بمدينة مصر لما استبطأوا رجوعه ورجوع جيشه، فرفعوه إلى المدينة، وكان عبرة لهم. التحرير والتنوير (٧/٦٤).

(٤) في النسخة (ق): «لمن خلفه».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه محذوف، أي: بوأكم في الأرض منازل ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور بكل موضع، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم، فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم، وقرأ الحسن بفتح الحاء، وهي لغة، وفيه حرف من حروف الحلق فلذلك جاء على فعل يفعل. الثانية: استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ذكر أن ابنا لمحمد بن سيرين بنى دارا وأنفق فيها مالاً كثيرًا فذكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ما أرى بأسًا أن يبني الرجل بناء ينفعه، وروي أنه ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه»، ومن آثار النعمة البناء الحسن، والثياب الحسنة، ألا ترى أنه إذا اشترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك، فكذلك البناء، وكره ذلك آخرون، منهم الحسن البصري وغيره، واحتجوا بقوله ﷺ: «إذا =

كذلك وهو أعلم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:٩٢] أي: عن آياتنا [في][1] فضيلة شهادة أن لا إله إلا الله على الخصوص والعموم وعن كل آياته.

[قال رسول الله : ﷺ «من كان آخر قوله: لا إله إلا الله، دخل الجنة»][2].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس:٩٣] [بغيًا][3] ينبغي أن يستشعر العبد خشية الله جل ذكره مع العلم أكثر من المحافظة على ذلك مع الخلو من بعض العلم، [فإنه ما][4] هلك من هلك [من كان قبل][5] إلا من بعد العلم، وعند تناهي الأمور يبدأوا نقصانها رجوعًا إلى أوائلها [والله يحكم لا معقب لحكمه وتلك من آياته إنه يهدي بما به يضل ويضل بما به يهدي ويميت بما به يحيي ويحيي بما به يميت وهو على كل شيء قدير][6].

قوله ﷻ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] لم يؤهل ﷺ لشك يقدح في قلبه كيف وقد أزاح عنه حظ

=

أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الطين واللبن»، وفي خبر آخر عنه أنه ﷺ قال: «من بنى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه»، قلت: بهذا أقول، لقول ﷺ: «وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان في بنيان أو معصية» رواه جابر بن عبد الله وخرجه الدارقطني، وقوله ﷺ: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يواري عورته وجلف الخبز والماء» أخرجه الترمذي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ﴾ أي: نعمه، وهذا يدل على أن الكفار منعم عليهم.

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «لمن خلفه».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «فإن الله يأخذ بالعلم وبالجهل، وليس إلى العلم شيء، والهداية فعل الله لا يفعل فعل الله إلا الله ﷻ، وما».

(٥) في النسخة (ق): «ممن كان قبلنا».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

الشيطان وأخرجه من قلبه [في أصل الإيمان بما أنزل إليه][(١)] وإنما يأتي الوحي إلى النبي والرسول [مفروغًا منه تامًا بيقينه معه][(٢)] ويقين كل امرئ على قدر منزلته. وشكه هو ﷺ على ذلك دقيق، هو أرفع قدرًا في تثبيت العلم من يقين أرفعنا درجة.

وإنما يسمى شكًّا لنزوله عن درجة يقينه هو، وإلا فهو العلم، وإنما يخاطب كل امرئ على درجته، وقوله جل قوله: ﴿فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] لم يرد اليهود [والنصارى][(٣)]، وإنما أراد الأنبياء والرسل والكتب [ومن][(٤)] قبله، وكيف يأمره بأن يسألهم ويستفتيهم فيما [جال][(٥)] في نفسه وهو ينهاه عنهم ويأمره [بالبدأة][(٦)] منهم، ويخبره بأنهم قد بدلوا ما [جاءهم][(٧)] وحرفوه، وبأنهم ﴿يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [البقرة:٧٩] وبأنهم ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ الله وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

[ويقول رسول الله ﷺ][(٨)]: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]»[(٩)] وإنما أمره ﷻ أن يسل الرسل والأنبياء قبله بأن ينظر فيما بلغوه قومهم، وما أمروهم به عن ربهم عز جلاله، ولذلك قال جل قوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «مقرونًا بيقينه مفروغًا منه».

(٣) في النسخة (ق): «ولا النصارى».

(٤) في النسخة (ق): «المنزلة».

(٥) في النسخة (ق): «حاك».

(٦) في النسخة (ق): «بالبرأة».

(٧) في النسخة (ق): «أنزل إليهم».

(٨) في النسخة (ق): «ورسول الله يقول لأصحابه».

(٩) أخرجه البخاري (٤٢١٥) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٨٧) والبيهقي (٢٠٤٠٢).

وقال له جل قوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء:٢٤] إلى قوله جل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] هذا معنى الآية، ومعنى [أن](١) جاءوا به لذلك ختم الآية بقوله الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس:٩٦ - ١٠٠].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦ - ٩٧] [سبقت لهم من الله جل ذكره أن يكونوا ممن قال الله فيهم: «**هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون**»(٢)](٣) نعوذ بالله من شر ما سبق لا يكون منه إيمان أبدًا حتى يعاين العذاب، فحينئذ يؤمن، ثم لا ينفعه إيمانه ولو [أنه](٤) آمن فيما قبل ذلك لارتد بعد إيمانه، فإن ذلك من مقتضى قوله: «**وبعمل أهل النار يعملون**»(٥) كما قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس:٩٨] قالوا:

---

(١) في النسخة (ق): «ما».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

«لولا» بمعنى: «هلا» وقيل [أيضًا: إنها][1] بمعنى «لم» وقرأها أُبي: «فهلا كانت» يقول - وهو أعلم - على تأويل «هلا»: فهلا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها؛ أي: حين ينفعها إيمانها، وإنما هي ثلاثة أحيان: وقت مجيء الرسول، والمسارعة إليه هي السبق وهم السابقون.

والحين الثاني: هو حين يؤخذون بالبأساء والضراء كما قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [كما قال عز من قائل][2]: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الأعراف:٩٤ - ٩٥] ففي هذا [يحين الأجل][3] الثاني إن آمنوا نفعهم إيمانهم، وقلما يؤمن أحد على ذلك؛ لأن عقوبة الإعراض قد حاقت بهم، [وهو الطبع][4].

يقول جلَّ من قائل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [وهنا محذوف يعقد عليه الاستثناء في قوله جلَّ قوله][5]: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [أي][6]: فلم يكن ذلك لقرية إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا بعد الإعراض والتكذيب حين [داولتهم][7] البأساء والضراء فنفعهم [في][8] ذلك الإيمان وكثير ما يمنعون النوبة بعد الإعراض والتكذيب.

[يقول][9]: فلم يكُ من وفق للتوبة [بعد الإعراض][10] إلا قوم يونس ﴿لَمَّا

---

(١) في النسخة (ق): «هي».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «الحين».
(٤) في النسخة (ق): «والطبع قد قرب حكمه منهم إلا ما شاء الله».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «تداولتهم».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «فمعنى قوله هذا».
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ﴾[١] [الهلاك][٢] ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] وإنما الإيمان حين نزول العذاب، ومعاينة أعلام الآخرة كالحجر المحجور دون القبول، والسد المسدود دون العُتبى ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥].

وقد ذكر أهل التفسير إيمان هؤلاء[حين رأوا العذاب][٣] وتضرعهم وكيف تداركهم الله، ويمكن أن يكون الحق فيما قالوه ما خلا ما ذكروه [من أن ذلك عند][٤] المعاينة للعذاب المهلك، وهذا فليس يعطيه حقيقة الخطاب ولا الوجود الذي هو سنن الله في عباده.

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ

---

(١) اعلم أنَّ هذه السُّورة من أوَّلها إلى هنا في بيان شبهات الكفار في إنكار النبوة والجواب عنها، وكانت إحدى شبهاتهم أنَّ النبي ﷺ كان يُهَدِّدهُم بنزول العذاب على الكُفَّار وبعد اتباعه أن الله ينصرهم ويعلي شأنهم ويقوي جانبهم، ثمَّ إنَّ الكُفَّارَ ما رأوا ذلك؛ فجعلوا ذلك شبهة في الطَّعْنِ في نبوته وكانوا يبالغون في استعجال العذاب على سبيل السخرية، ثم إن الله تعالى بيَّن أنَّ تأخير الموعود به لا يقدحُ في صحَّة الوعد، ومن ثم ضرب لهذا أمثلة، وهي قصَّة نوح ﵇ وموسى ﵇ إلى ها هنا، ثم في هذه الآية بيَّن أنَّ جدَّ الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفعُ ومبالغته في تقريرِ الدلائل في الجواب عن الشبهات لا يفيدُ؛ لأن الإيمان لا يحصلُ إلا بخلق الله ومشيئته وإرشاده وهدايته إذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الإيمانُ. تفسير اللباب لابن عادل (٩/٤٧).

(٢) في النسخة (ق): «أي: الهلاك والهون».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أن ذلك كان عند».

﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠١ - ١٠٩].

قوله ﷻ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [أي: من آية][1] ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ [أي: الرسل] [2] ﴿عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] كل ما في الأرض والسماء من جماد ونبات وحيوان، وإنس وجان، ورياح وسحاب وماء، وأفلاك ونجوم، وليل ونهار، وخلق وأمر يشهد بفطرته، وتعرب عما جعل عليه آية، لكنها أمرت ألا تؤدي شهادتها إلا عند من آمن بها وعند من استشهدها، ولا تكلم إلا من جاورها وقدم الإيمان قبل نظره فيها، وتصديقها [في تبليغها] [3] عن ربها قبل تكليمه إياها لذلك وهو أعلم.

قال جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] وكذلك فلو [أنهم][4] ساروا في الأرض، وتسمعوا للسائرين فيها، فيرون الديار العافية والمساكن البالية [آثارًا للقرون الخالية][5] والأمم الماضية كيف أهلكوا دونها، وأخرجوا عنها ولِـمَ أهلكوا وأخرجوا عنها وإلى ما آله إليه أمرهم الآن حيث هم لبغت إليهم أنفسهم، وأعلم بما آل إليه أمرهم، ولو وقفوا بالفهم السليم على المعنى بقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿أو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا....﴾ [الأعراف:١٠٠] لذلك - وهو أعلم - أعقب [ما تقدم قوله][6] جلَّ قوله: ﴿فَهَلْ

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «الخالية الخاوية آثارًا للقرون السالفة».

(٦) في النسخة (ق): بقوله».

يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿فَانتَظِرُوا﴾ أن ينزل بكم مثلما نزل بهم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:١٠٢] كل مثلين، [فإن هذا واحد منهما يحل به ما حلَّ بصاحبه، ويجوز عليه ما جاز عليه][١] من حيث تماثلا أو تقاربا أو تباعدا.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣] أي: [إذا حل بهم ما ينتظرونه][٢] ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا هو وعد الله الحق للذين آمنوا مع رسلهم، إنما يستحق الصالح [بعد ذهاب الرسول][٣] أن يناله في بعض المواطن ما نال الطالح من أجل كونه مع أهل الفسق ومقامه في محلتهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يورد ممرض على مصح**»[٤].

وقال: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»[٥].

وقال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

[كما قال في الذين هم مع رسوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[٦] [الأنفال:٣٣]][٧].

---

(١) في النسخة (ق): «فإنه يجوز على أحدهما ما جاز على مماثله من حيث».

(٢) في النسخة (ق): «في الدار الآخرة نعذب الكافرين وننجي المؤمنين يقول عز من قائل: فإذا أحل بكم ما تنظرونه».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) لم يجيء التركيب وما كان الله ليمطر أوليائي بعذاب وتقييد نفي العذاب بكينونة الرسول فيهم إعلام بأنه إذا لم يكن فيهم وفارقهم عذّبهم ولكنه لم يعذبهم إكرامًا له مع كونهم بصدد من يعذب لتكذيبهم، قال ابن عطية: عن أبي زيد: سمعت من العرب من يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لَيُعَذِّبَهُمْ﴾ بفتح اللام وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن وبفتح اللام في «ليعذبهم» قرأ أبو السّماك وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بالفتح في لام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ وروى ابن مجاهد عن أبي زيد أن من العرب من يفتح كلّ لام إلا في نحو: الحمد لله يعني لام الجرّ إذا دخلت على الظاهر أو على ياء المتكلم والظرفية في فيهم مجاز والمعنى: وأنت مقيم بينهم غير راجل عنهم.

(٧) زيادة في النسخة (ق).

[قال ﷺ][(١)]: «**يردون موردًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى**»[(٢)] وفي [أقوال][(٣)]: «**يحشرون على نياتهم**»[(٤)].

وتمام هذه الكلمة قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ في الآخرة ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣] [أي: أحكام القيامة][(٥)]؛ لذلك - وهو أعلم - أدخل كاف التشبيه، المشبه به [هو حكم الآخرة، ولما بيّنه قال: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾][(٦)] وموجودات الدنيا آيات على موجودات الآخرة.

---

(١) في النسخة (ق): «وقال في المهلكين من أهل الفسق».
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) في النسخة (ق): «أخرى».
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) سقط من النسخة (ق).

فهرس المحتويات

تفسير ابن برّجان

المسمّى

تنبيه الأفهام

إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد

ابن برّجان اللخمي الإشبيلي

المتوفى ٥٣٦ هـ

تحقيق وتعليق وتخريج

الشيخ أحمد فريد المزيدي

المجلد الثالث

أول سورة هود - آخر سورة طه

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

DKi

بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثالث

أول سورة هود - آخر سورة طه

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMĀ
TANBĪH AL-AFHĀM ILA TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

الكتاب : تفسير ابن برَّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف : الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برَّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages (5 Volumes)	2880	**عدد الصفحات** (5 مجلدات)
Size	17* 24 cm	**قياس الصفحات**
Year	2013 A.D. -1434 H.	**سنة الطباعة**
Printed in : Lebanon		**بلد الطباعة :** لبنـــان
Edition : 1st (2 colors)		**الطبعة :** الأولى (لونان)

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ‎+٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: ‎+٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-7763-6
ISBN 2-7451-7763-X
9 782745 177636

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة هود عليه السلام

[فيها من المنسوخ أربع آيات][1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾ [هود: ١ - ٦].

قوله جلَّ قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2]

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) صارت محكمة متقنة، لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم، وقيل معناه: إنها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، وهو المحكم الذي لم ينسخ؛ وقيل معناه: أحكمت آياته بالأمر والنهي، ثم فصلت بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وقيل: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام، وقيل: أحكمت جملته، ثم فصلت آياته، وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت بالوحي، وقيل: أيّدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله؛ وقيل معنى إحكامها: أن لا فساد فيها، أخذًا من قولهم أحكمت الدابة: إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح، و﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ معطوف على ﴿أحكمت﴾ ومعناه ما تقدّم، والتراخي المستفاد من «ثم» إما زماني إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، وإما رتبيّ إن فسر بغيره مما =

[هود:١] لفظة «لدن» تدل على خالص الخاصة، فالعلم اللدني هو العلم الخاص.

قال الله ﷻ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يريد - وهو أعلم - النبوة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥] [فوصف من العلم الذي أتاه الله، فإذا هو خارج عن طاقة البشر والمعهود من علم النبوة][١].

وقال في أهل مكة: ﴿أَو لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧] وإنما ذلك عن كلمة الله جلَّ ذكره في ذلك تصديقًا لدعوة إبراهيم ﵇ في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] [وهذا][٢] مصداق لقول رسول الله ﷺ: «الحج يهدم ما كان قبله»[٣].

قوله ﷻ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود:٢] [أي: إني لكم منه نذير، ويشير][٤] إلى

-

تقدّم، والجمل في محلٍ رفع على أنها صفة لكتاب، أو خبرٍ آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف، وفي قوله : ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أُحكمت فما تُنسخُ بكتاب كما نُسخت الكتب والشرائع، قاله ابن عباس، واختاره ابن قتيبة، والثاني: أُحكمت بالأمر والنهي، قاله الحسن، وأبو العالية، والثالث: أحكمت عن الباطل، أي: مُنعت، قاله قتادة، ومقاتل، والرابع: أُحكمت بمعنى جُمعت، قاله ابن زيد، فإن قيل: كيف عمَّ الآيات هاهنا بالإحكام، وخص بعضها في قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾؟ فعنه جوابان، أحدهما: أن الإحكام الذي عمَّ به هاهنا، غير الذي خَصَّ به هناك، وفي معنى الإحكام العامّ خمسة أقوال، قد أسلفنا منها أربعة في قوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ والخامس: أنه إعجاز النظم والبلاغة وتضمين الحِكَم المعجزة، ومعنى الإحكام الخاص: زوال اللَّبس، واستواء السامعين في معرفة معنى الآية، والجواب الثاني: أن الإحكام في الموضعين بمعنى واحد، والمراد بقوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾: أُحكم بعضها بالبيان الواضح ومنع الالتباس، فأُوقعَ العمومُ على معنى الخصوص، كما تقول العرب: قد أكلتُ طعام زيد، يعنون: بعضَ طعامه، ويقولون: قُتلنا وربِّ الكعبة، يعنون: قُتل بعضنا، ذكر ذلك ابن الأنباري. [زاد المسير ٣/٣١٨].

(١) في النسخة (ق): «فإذًا العلم الذي قصه علينا خارج عن طاقة البشر وعن أكثر علم النبوة».

(٢) في النسخة (ق): «وذكره الشكر».

(٣) أخرجه مسلم (١٢١)، وابن خزيمة (٢٥١٥) بلفظ «الإسلام» بدل «الحج».

(٤) سقط من النسخة (ق).

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود:٤] هذا للقرآن [العزيز][(١)] بمنزلة العنوان، وهي سبعة فصول عليها دار القرآن: **أولها**: اسم الألوهية، **وآخرها**: مقتضى اسم شديد العقاب وأليم الأخذ ونحو هذا، واسم الألوهية [بجميع][(٢)] الجميع، ثم ينفصل السبعة الفصول إلى مائة فصل، وقد مضى ذكر هذا، وأنها على عدد أسماء الله جلَّ ذكره التسعة والتسعين، تمام المائة اسم «المزيد» وهو ما لا يعلم له تناهٍ، وجاء: إن الجنة مائة إقليم.

وجاء عن رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لمائة درجة ما بين كل [درجة][(٣)] منها كما بين السماء والأرض [أعدها][(٤)] الله للمجاهدين في سبيله**»[(٥)].

فصل

الذي تقرر عليه ما جاء من فحوى القرآن العزيز من مفهوم هذه الحروف المعجمة في أوائل السور أنها عن كتاب أو كتب منزلة عن حروف أم الكتاب، [وفيه][(٦)] هذه واسطة بين [حروف][(٧)] هذا القرآن وبين [أم][(٨)] الكتاب وآية عليها، أخبر بذلك القرآن العزيز نصًّا وتعريضًا، فإنه كما أنزل الله ﷻ هذه الكتب التي هي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن [إلى الأرض][(٩)]، ولا ينبغي أيضًا أن ينكر أن الله جلَّ ذكره أنزل أيضًا كتبًا إلى حيث شاء من العلو [تحت العرش لحكمة][(١٠)] له في ذلك، [مع ما جاء عن رسول الله ﷺ قال][(١١)]: «**إن الله كتب على نفسه كتابًا قبل أن**

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «يجمع».
(٣) في النسخة (ق): «درجتين».
(٤) في النسخة (ق): «أعدهن».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) في النسخة (ق): «حروفه».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «حروف».
(٩) زيادة في النسخة (ق).
(١٠) في النسخة (ق): «بحكمة».
(١١) في النسخة (ق): «وقد جاء في صحيح ما بلغ إلينا».

يخلق السماوات والأرض بألفي سنة، أنزل [الله منها إلى الأرض][(١)] آيتين ختم بهما البقرة»[(٢)].

[وجاء عنه أيضًا أنه قال له الملك - عليهما السلام - «إن الله أنزل عليك قرآنًا من كنز تحت العرش»[(٣)].

والحديث الذي يذكر فيه أن ملكًا نزل عليه من السماء من باب لم يفتح قط قبل ذلك اليوم، فقال: «أبشر يا محمد بآيات أنزلت عليك من تحت العرش لن تقرأ بواحدة منهن إلا أعطيته: أم الكتاب وخواتم سورة البقرة»[(٤)]][(٥)].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ يوم استوى على العرش كتب على نفسه كتابًا هو عنده على العرش [فيه] [(٦)]: إن رحمتي سبقت غضبي»[(٧)] وفي أخرى: «تغلب غضبي»[(٨)].

وقال الله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ....﴾ [الأنعام:٥٤] فأخبر بصدق قيله ﷻأنه كتب على نفسه الرحمة، وجاء - أن هذا القرآن أنزل ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وإنما كانت حروفه فيما هنالك هذه الحروف المعجمة، ثم نزلت عن ذلك تنزيلاً تنزيلاً إلى [حروف][(٩)] هذه فالله أعلم؛ إذ ليس من الواجب في الوجود أن يكون ذلك القرآن فيما هنالك بلسان العرب.

فبهذا البلاغ ونحوه تقرر عند من نفى الخطاب أن لله جلَّ ذكره كتبًا سوى هذا الكتاب وسوى المنزلة قبله وسوى أم الكتاب، وأم الكتاب أم لهذه الكتب [كلها

---

(١) في النسخة (ق): «منه».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/١٥٧).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ما بين[ ] يوجد تقديم وتأخير واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) تقدم تخريجه.

(٩) في النسخة (ق): «حروفنا».

كأمنا][(١)]؛ أي: [إمامها][(٢)] عنه فُصلت ومنه نزلت، لكل كتاب حروف استوت كلها في أنها [منيبة][(٣)] عن المراد بها، وأن ما هو أقرب من أم الكتاب هو أعرف في العلاء، وأسمى في صفة الإحكام كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] أي: [علا عن صفاتك][(٤)].

وكل كتاب مفصول مما فوقه مُفصَّل منه ما دونه كما أن الكتاب الذي قال للقلم: «**اكتب**» قال: وما أكتب يا رب؟ قال: «**اكتب علمي في خلقي**»[(٥)] هو أم الكتب كلها، وكلها مُفصَّلة عنه كما قال عزَّ من قائل: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت:١ - ٢] هذا [في][(٦)] وصف الحروف المعجمة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣] فقوله جلَّ قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود:١] أي: أثبتت وأكملت، فهذا يقرب مما فصل إليه، وهو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٢ - ٣] إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ [هود:٤] أي: إن الحروف التي هي: ﴿الر﴾ أحكمت فيما هنالك أثبتت ثم فصلت إلى ما هو هذا، ثم فصلت هذه السبعة الفصول إلى ما هو القرآن كله معبر عنه .

فقول القائل: «آمنت بالله وبما أنزل من كتاب» متناول الإيمان بالله وبمن أرسل من رسول وبكل كتاب أنزل ونزل علوًا وإلى أهل الأرض [كما أن قول القائل: «آمنت بالله وبما أرسل» [.....][(٧)] رسالة من الإنس والجن والملائكة، ويأتي على ذلك بحكم العموم شهادة العبد بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكن

---

(١) في النسخة (ق): «قبلها».
(٢) في النسخة (ق): «إمام لها».
(٣) في النسخة (ق): «منبئة».
(٤) في النسخة (ق): «علي عن أفهامكم».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) ليس في (ف) وبياض في (غ).

بلسان العلم يرتقي في درجات اليقين إن شاء الله، وبه تتم الصالحات وتنال البركات][١].

واستظهر على ما تقدم ذكره بمفهوم قوله جلَّ من قائل: ﴿**الـمر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ**﴾ والكتاب جمعه: كتب، ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الرعد:١] المكذب لا إيمان له والغافل ناقص الإيمان وأن من [نفس][٢] الكتاب المبين قوله: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ [الرعد:٢] إلى قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد:٤].

قال الله جلَّ قوله للقلم: «اكتب، **قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن [إلى يوم القيامة**»[٣] وهذا موجود الكتاب المكتوب][٤]؛ لذلك قال جل قوله: ﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة:٢ - ٣] إلى آخر المعنى حيث وقع.

فصل

وكذلك الوحي وحيان:

- وحي يُوحَى إلى الرسول يأتي له الملك بالأمر.
- ووحي من عند الله جلَّ ذكره إلى سر قلب الرسول يوحي إليه به ما شاء.

قال الله ﷻ: ﴿**يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ**﴾ [النحل:٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا...**﴾ [الشورى:٥١].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى:٥٢]

---

(١) في النسخة (ق): «كما أن شهادة العموم في القول بأنه: لا إله إلا الله محمد رسول الله متناول العلم بالله وبمن أرسل من رسول وبما أنزله من كتاب، لكن يفهم العلم ونور الإيمان يترقى في درجات اليقين إن شاء الله، وبه تتم الصالحات وتنال البركات».

(٢) في النسخة (ق): «ذكر موجود».

(٣) الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٤٢).

(٤) سقط من النسخة (ق).

فهذا روح ينزله ﷻ عليه به يفهم النبي الوحي والكتاب، وبه يلقن [الأنبياء][(١)] وخطاب الملك [عن الله جلَّ ذكره][(٢)].

ثم بعد قد يهب الله ﷻ من ذلك ما يشاء [أيضًا][(٣)] لخصوص من عباده سوى النبي يجعل [الله][(٤)] في قلبه روحًا به، يكون منه الإيمان ثم اليقين، ثم به يفهم الخطاب، ثم يطلع على سر المراد [من ذلك][(٥)] ويلقن آيات الكتاب كل عبد في [منزلته، وعلى حظه لسر لله جلَّ ذكره][(٦)] في عباده في التبليغ عنه، ومعرفة [تفضيل][(٧)] الأمر والنهي، وتوصيل الخطاب وتفصيله، لولا ذلك لم [يفقه][(٨)] منزلة النبي من ليس بنبي، فكان لا يصح لنا به إيمان ولا عمل، ثم كذلك في سبيل تعرف صفات الإلهية ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

فصل

لما كان الأنبياء والرسل - عليهم السلام - في موضع الوصل بين بني آدم والملائكة - عليهم السلام - كان من الحكمة في إيجاد الله جل ذكره أيضًا الأولياء في موضع الوصل بين العامة من الؤمنين والمسلمين، وبين الأنبياء والرسل - عليهم السلام - أو أن الإيمان ليجب بوجود الأولياء لزوم اتباعهم في منزلة هي تِلْوٌ لمنزلة وجود الإيمان بالنبيين والمرسلين، فإنهم القادة والسادة.

فصل

لما [أعرضنا][(٩)] ذكر القادة وجب علينا التنبيه عليهم والإعلام بهم، ثم يرجع

---

(١) في النسخة (ق): «الأنباء».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «منزلة أنزله الله وحظ من فضله قسمه له الله يسر له».
(٧) في النسخة (ق): «تفصيل».
(٨) في النسخة (ق): «يفهم».
(٩) في النسخة (ق): «اعترضنا».

بنا الكلام إلى ما كنا فيه، ومما يؤيد على تعرف ما كنا بسبيله النظر في قوله ﷻ: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى:١ - ٣] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:٧].

وقرئ هذا الحرف: «كذلك يوحَى إليك» بفتح الحاء على بناء مفعول لم يسمَّ فاعله، فيكون قوله جلَّ قوله: ﴿اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٣ - ٤] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥] من مفهوم ما ﴿أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الزمر:٦٥].

ويؤيد هذا قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢] إلى آخر المعنى.

قوله ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود:٥] أي: [يطوون][١] ويخفون ما في صدورهم من بغضة رسول الله ﷺ [والإقامة][٢] على كفرهم، [فيستخفف من الله ﷻ بذلك، ويظهرون الوداد والإيمان وبواطنهم على ما يعلمه الله من نفاقهم وخلافهم، و﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:٥] كما قال جلَّ قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١] ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧]][٣].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦] [أعلم جلَّ ذكره أن كل دابة في الأرض على الله رزقها][٤] ضمان منه وهو [العلي][٥] الوفي، وكما هو رازقها هو خالقها ومدبرها وهو العالم بها، وفي مستودعاتها ومستقراتها في البطون والأصلاب،

---

(١) في النسخة (ق): «يطرونه بالمدح».

(٢) في النسخة (ق): «مع الإقامة منهم».

(٣) في النسخة (ق): «والله يعلم ذلك منهم: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:٥]».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «الملي».

[وإثبات أكوانها وسبيل][1] مسالكها في خزائن السماوات والأرض، وجميع مواد خلقها ومآل أمورها.

أخبر جلَّ ذكره في هذا الخطاب عن إحاطته بكل شيء قدرة وعلمًا ومشيئة وتدبيرًا ووحدانية إلى غير ذلك من صفاته، كما أعلم جلَّ وتعالى بما فصل إليه الكتاب المبين من القرآن [العزيز][2]، أتبع ذلك [بذكره ووصفه][3] بما هو أهله، وهذا من فصل الألوهية وصفاتها وهو القرآن العظيم.

وأخبر جلَّ ذكره في آية الأنعام بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] زائدًا على ما في إخباره في هذه عن [سبيل مسالك اسميه المرسل][4] والباعث، ومدارج التفصيل بالتخصيص، وعن مضاء مشيئته والإعادة [بعد البداية][5].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:٧ - ١١].

---

(١) في النسخة (ق): «وفي السماء والأرض وفي الماء والرياح وأجواء الهواء وجميع».

(٢) في النسخة (ق): «الكريم».

(٣) في النسخة (ق): «من وصفه العلي».

(٤) في النسخة (ق): «سبل مسالك اسمه الموصل».

(٥) في النسخة (ق): «والبداية».

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧] قد تقدم تفسير الستة الأيام، والله نسأله حسن المزيد من فضله، فهذه الأيام من الزمان، وخلق فيما هنا هن آيات على تلك في الدهر وآية تلك هذه الستة الأيام الزمانية والسابع الجامع لها يوم الجمعة كنا عنه باستوائه على العرش، [فهذه الأيام ها هنا من الزمان والحين هن آيات على تلك في هذه الأوقات واختلاف][١] الليل والنهار فيما ها هنا، وأما فيما دون سماء الدنيا وهو موضع جريان الأمر، وآيات ذلك هن الكواكب السيَّارة [السبعة][٢] الشمس والقمر والزهرة وعطارد - وهو الكاتب - وزحل والمشترى والمريخ.

قال الله ﷻ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل:١٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥ - ١٦] لكل [واحد][٣] من هذه الكواكب [في][٤] يوم من هذه الأيام الزمانية ، فهذه من عالم الأمر آيات على تلك الأيام في الدهر، وذكر عدة الأيام [ها][٥] هنا تعريضًا بذكر حلوله الآجال وقطع الآماد وجعل ذلك علمًا وآية على انقراض عمر الدنيا وحلول اليوم الآخر كحلول بالغد بعد اليوم والشهر بعد انصرام الشهر والسنة بعد انصرام السنة وأما التي ذكر في سورة الملك في قوله:﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك:١ - ٢] فهذا مما تقدم ذكره من الإعلام بقطع الآماد وحلول الآجال.

ثم قال وقوله الحق: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣] إلى آخر المعنى، فهو من باب تعليم العلم وإظهار قدرته

(١) في النسخة (ق): «لأمر قضاه في ذلك وفعل فعله هذا في اختلاف».
(٢) في النسخة (ق): «السبع».
(٣) في النسخة (ق): «واحدة».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) سقط من النسخة (ق).

لأولي الألباب كما قال جلَّ قوله في آخر سورة النساء [الصغرى][1]: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾ [الطلاق:١٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2] [هود:٧] [هذا ينظر إلى معنى قوله جلَّ قوله: ﴿خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢]][3] يعرض جلَّ ذكره بالإعادة بعد البداية والإحياء بعد الإماتة، وينص على التكليف بل الأمر والنهي.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أين كان ربنا يا رسول الله قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «**في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء**»[4] فأعلم صلوات الله عليه بحديثه هذا أن العماء للعرش بمنزلة العرش للماء، ويأتي من مفهوم هذا أن الله جل وتعالى خلق الماء من الهواء كما خلق من الماء كل شيء حي، كذلك فتق بالهواء فيما شاء مما هو دون العرش رتق الماء، ثم أوجد في ذلك الفتق ما شاء من خلقه، آية ذلك في الشاهد خلقه الماء في الهواء بواسطة الرياح المرسلة بأمره الدالة على الروح منه.

فصل

جاء في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة في السفر الأول منه قال: إن الله خلق السماء والأرض وكانت جدبة خاوية، والظلمة تعلو على الهواء، وروح الله يتقلب على المياه، فقال الله ﷻ: «ليتكون النور» فتكون النور، وأعجب الله النور وميَّزه من

---

(١) في النسخة (ق): «القصرى».

(٢) قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ اللام متعلقة بخلق؛ أي: خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملاً فيما أمر به ونهى عنه، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملاً من غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد؛ لأنه من أعمال القلب، وقيل: المراد بالأحسن عملاً: الأتمّ عقلاً. وقيل: الأزهد في الدنيا. وقيل: الأكثر شكرًا، وقيل: الأتقى لله. فتح القدير (٣/٤٢٦).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

الظلمة، وسمى النور: نهارًا، والظلمة: ليلاً، وصار النهار والليل يومًا واحدًا، فقال الله ﷻ: «يتكون السد وسط المياه لينخزل بعض المياه من بعض» فخلق الله السد، وخزل المياه التي كانت تحت السد من التي كانت فوقه، وسمى السماء: حجابًا، وصار الليل والنهار يومًا ثانيًا.

ثم قال الله جلَّ من قائل: «تجتمع المياه التي تحت السماء في موضع واحد لتظهر الأرض» وكان ذلك، وسمى الأرض: ترابًا، وجمع المياه بحرًا، واستحسن الله أمره وقال: «تنبت الأرض عشبًا أخضر يأتي بزريعته كل واحد على قدرته، وثمرة مثمرة يأتي بثمرتها على جنسها» [يكون غرسها منها في الأرض فكان ذلك وأنبت الله عشبًا أخضر كل واحد على جنسه](١) وأنبتت الأرض شجرًا بثمارها على قدر أجناسها، فأعجب الله ذلك، وكمل النهار بالليل يومًا ثالثًا.

وقال الله ﷻ: «يتكون سراجات في السماء لينخزل النهار من الليل، ويكونا علمًا يهتدي بها إلى الأزمنة والأيام والسنين، ولتنير في الحجاب وتضيء على الأرض» فكان ذلك، وخلق الله سراجين عظيمين جعل أعظمهما سراج النهار، والأصغر سراج الليل مع النجوم، وأثبتها في الحجاب لتضيء على الأرض وتسرف على النهار، وينخزل من سببها النور من الظلمة، واستحسن الله ذلك، وكمل بالنهار والليل اليوم الرابع.

ثم قال الله جلَّ قوله: «يتخلق في المياه الحيتان بأنفسها والطيور الساعية في الهواء» فخلق الله دواب جسمانيات، وكل نفس [مستبدلة](٢) من المياه في أجناسها وأعجب الله ذلك وبارك عليها، وقال: [أظهروا](٣) وأكثروا واحشوا مياه البحر، وقال للطير: أكثروا على الأرض، فكمل النهار والليل يومًا خامسًا.

ثم قال ﷻ: «يتخلق من الأرض أنفس حية في جنسها وبهائم [وخشاش وسباع الأرض على أنواعها» فتمَّ ذلك، وخلق الله سباع الأرض على أنواع شتى، وخشاش

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «حية مبتدأة».

(٣) في النسخة (ق): «أكبروا».

الأرض على أجناسها، واستحسن [خلقه] قال: «أخلق الله ربنا إنسانًا على شبهنا ومثالنا ليشرف على حيتان البحر وطيور الهواء وجميع دواب الأرض وخشاشها» فخلق الله إنسانًا على صورته ومثاله ذكرًا وأنثى، وبارك الله عليهما، وقال: أكثرا واملأ الأرض، واحشوا واملكا حيتان البحر وطيور الهواء، وكل ما يتحرك من ذوي الأنفس على الأرض.

وقال الله ﷻ لهما: «قد أطلقت لكما خلقًا أنبتته الأرض من بُقُولها وعشبها وزروعها، وكل شجرة مثمرة في أجناسها؛ لتأكلا منها وتقتاتا بها، ويقتات معكما منها كل ذي نفس من بهائم الأرض وطيور الهواء، وكل ما يتحرك من الثرى مما فيه روح، ويصير لهم طعامًا» فكان ذلك، وأكمل الله سبحانه وله الحمد جميع خلقه، وكان أجمع صالحًا حامدًا، وكمل بالنهار والليل يوم سادس، فاستكمل الله ﷻ خلق السماوات والأرض وجميع زينتها، وأتم الله ﷻ في اليوم السادس ما كان خلق، وأمسك فيه عما قد كان خلق.

وبارك الله على اليوم السابع وقدسه؛ لأنه كان فيه، وأمسك عما قد كان خلق في اليوم الذي خلق الله السيد السماء والأرض، وجميع شجر الأرض قبل أن تنبت الأرض، وقبل أن تأتي بعشبها، ولم يكن أمطر الله السيد الأرض ولا كان بها آدمي يعمرها، ولكنها كانت بسقيها عمن يخرج منها فصور إنسانًا من حمأ الطين، وأنفس في وجهه نفس، ومنحه الحياة فصار إنسانًا بنفس حية.

تنبيه:

في هذا الحديث قوله: «أخلق بنا إنسانًا على شبهنا ومثالنا» والقرآن هو المصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، والله يقول وقوله الحق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقال جلَّ قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

وفيه أيضًا: «وبارك الله على اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه كان أمسك عما قد كان خلق» يعنون بذلك يوم السبت، وهو يومهم الذي كتبه الله لهم، وتبركه جل

وعلا عليه ليس يفضل بذلك فضل يوم الجمعة؛ لأنه يوم [الخلق][(١)] السابع على الحقيقة، وأول بدء الخلق في معتقدهم هو يوم الأحد لذلك كان عندهم يوم السبت السابع، وإنما أول البدء يوم السبت فيه خلق التربة، وهي جملة الأرضين كما فيه خلق جملة السماوات دخانًا.

﴿ثُمَّ﴾ فيه ﴿اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أو كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت:١١ - ١٢] وفصل الأرضين بعضها من بعض في اليوم الثاني يوم الأحد، وفيه خلق الجبال ونصبها على الأرض، فاليوم السابع إذًا هو يوم الجمعة وهو المبارك، وعن هذه الشبهة التي شبهت عليهم كان الخلاف والاختلاف.

قال رسول الله ﷺ: «**هدانا الله له واختلفوا فيه**»[(٢)] وسائر ما ذكرناه في هذا الحديث قريب الموافقة غير مدافع لما هو عندنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً....﴾ [هود:٧] خلق الليل والنهار، وجعل أحدهما خلف الآخر؛ ليتسابق العباد إليه فيهما بطاعته، وليتنافس المطيعون في طلب مرضاته، وليحكموا العترة منهما إلى ما هما آية عليه في الآخرة كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أو أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم﴾ [هود:٧] هذا منتظم بما قبله من ذكر خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش يقول: هم يشاهدون اختلاف الليل والنهار وحلول الآجال، وعلى ذلك قطع مُدد الآماد، وتدوار دوائر الأفلاك عودًا بعد بدء، فلا تهتدون إلى عبرة بذلك إلى ما في الآخرة، ولا إلى وجوب قطع مدة الدنيا، ووجوب حلول اليوم الآخر إلى معرفة إحيائنا إياهم بعد الموت كما قد أحييناهم في هذه بعد أن كانوا أمواتًا قبل هذا، فكما نحن نوقظهم من النوم وننومهم بعد اليقظة.

---

(١) بياض في (غ).

(٢) لم أقف عليه.

أفلا ينظروا فيها وفيما يستمر عليهم من اختلاف الليل والنهار والشهور والسنين، سبحانه وله الحمد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش كل ذلك مفطور على الإسلام لله جل ذكره في الإذعان له والقنوت إليه، والإيمان بالرسل والأنبياء، والإسلام لله جل ذكره في الطاعة لهم فيما بلغوه عنه؛ لينظر عباده في طاعة السماوات والأرض، وما بين ذلك وثبوت ذلك على أمره ﷻ، فيقتفون آثارها ويحتذون بشرعتهم وفطرتهم شرعتها في فطرتها هذه الآية في أول هذه السورة المقصود الأول بها العمل، وقد تقدم أن الآية التي في آخر سورة النساء القصرى المقصود الأول بها العلم، فلزوم وجوب العلم والعمل في بدء الأمر معًا على سنن الفطرة.

أتبع ذلك قوله جلَّ ثناؤه: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:٧] قال هذا انحطاطًا لقولهم](١)، [وتعجبًا من صرفهم، وتأفيكهم وبعدهم](٢) عن الصواب، أفلا ترون أن الله يخلق الماء من الهواء، ثم يصير الماء إلى الهواء، ثم يعيده إلى الماء إذا شاء؟ أفلا ترون الأرض تكون ممحلة مجدبة، فينزل الله الماء من السماء، فيشاهدونها عن ذلك [ممرعة مخصبة](٣) ثم يمرون بها ممحلة، ثم ينزل عليها الماء من السماء فيعيدها إلى حياتها وخضرتها؟ هكذا يقول عز من قائل: [أفهم](٤) مع هذه البينات إذا **قلت** لهم: «إنكم مبعوثون من بعد الموت» كذبوا وكفروا بما علموه من الحق، وقرأ عيسى بن عمر: «**ولئن قلتُ**» بضم التاء.

قوله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾(٥)

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وقهره على صرفهم وتأفيكهم عن رشدهم لبعدهم».

(٣) في النسخة (ق): «مخضرة قد ألبست أثوابًا تشبه بهجة ما جاءت عنه وأنزلت منه».

(٤) في النسخة (ق): «فهم».

(٥) مناسبته لما قبله: أن في كليهما وصف فنّ من أفانين عناد المشركين وتهكمهم بالدعوة الإسلامية، فإذا خبّرهم الرسول ﷺ بالبعث وأنّ شركهم سببٌ لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرًا، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخّر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربانيّة استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تَهكم ظنًّا أن تأخره عجز. التحرير =

[هود:٨] الأمة: الأجل والسنون.

قال الله ﷻ: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] أي: بعد سنين.

ليقولن ما يحبسه هذا كقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] هذا كله [تعجب][1] من جهلهم [وعتوهم][2] وعماهم كيف [يكذبون][3] بما قد أحاط بهم؟ أو لا يرون أن نفسي جهنم بما فيها من سعير وزمهرير [تخلقان عليهم رواحًا ومساءً][4] وبكورًا وظهيرة، [فهم في ذلك يتقلبون ومن ذلك مع فتحه لهم برحمته يعيشون ﴿أفلا يعقلون﴾ [يس:٦٨].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٢ - ١٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ وقرأها أبو حيوة: «بعشر سور» بالتنوين ﴿مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ يقول: على ما تزعمون ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ الله﴾ [هود:١٣].

يقول الله جل من قائل: ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

=

والتنوير (٩٨/٧).

(١) في النسخة (ق): «تعجيب».

(٢) في النسخة (ق): «وإنباء بعتوهم».

(٣) في النسخة (ق): «يكونون».

(٤) في النسخة (ق): «يختلفان عليهم رواحًا ومنشأ».

﴿الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

ثم قال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: لدعائكم إياهم على التحدي والمظاهرة على الإتيان بمثله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٤] جعل هنا علة الإعجاز ما في القرآن من الإخبار عن الغيوب؛ كذكره القصص المتقدمة والأخبار السالفة، وإهلاكه القرون والأحزاب وذوي المماليك والأجناد، وكإخباره عما يكون إلى يوم القيامة، وما هو كائن بعد ذلك على لسان رجل لم يقرأ الكتب، ولا عرف بمدارسة العلم ولا باختلاف إلى العلماء ومجالستهم وفي علمهم إنه إنما هو من علم الله الشهادة له بالنبوة، والإقرار بأنه رسول من رب العالمين إليهم، وفي ذلك معرفة التوحيد والإقرار بأنه لا إله إلا هو، والشهادة بهاتين معًا هو الإسلام فلذلك قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾(١) [هود:١٥] أي: نوفِّ إليهم أعمالهم؛ أي: الأعمال التي تشبه البر من إطعام طعام وقول حسن وإصلاح وإحسان لمخلوق ورفق بمؤمن، يجازون عليها بأرزاق وعوافٍ ونحو ذلك، لا يبخسون من أعمالهم شيئًا.

تنبيه:

في مفهوم هذا الخطاب من زيادة اليقين أن الله جل ذكره يجازي الكافر على أعماله التي تشبه البر لا يبخسه منها شيئًا، فكيف بأعمال المؤمن؟! فالجد الجد.

---

(١) اختلف أهل التفسير في هذه الآية، فقال الضحاك: نزلت في الكفار، واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ وقيل: الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم، والمعنى: إن من كان يريد بعمله حظَّ الدنيا يكافأ بذلك. والمراد بزينتها: ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن، والسعة في الرزق، وارتفاع الحظّ، ونفاذ القول، ونحو ذلك. وإدخال «كان» في الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم، لا يكادون يريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون في الآخرة؛ لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة. وظاهر قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي ولا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته وإن عمل لها وأرادها، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه. فتح القدير (٤٣٣/٣).

وقال في موضع آخر من كتابه العزيز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: من الدنيا ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

ثم بيَّن في سورة الإسراء في قوله جل قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨ - ١٩].

ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿كُلاً نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠] يعطي هؤلاء ما يشاء وهؤلاء ما يشاء، ولا يمنع كلاً ما سبق له به التقدير، هذا بحكم العدل الأول حكم الربوبية الذي استأثر به في حكم اسم الألوهية.

ثم بيَّن بفحوى الخطاب على حكم العدل الثاني بمقتضى اسمه الرحمن الرحيم مع اسمه المجازي والمبتلي أن نية العبد وإرادته إحدى الدارين عليها مجزي الله لهذا العبد الحكم في رزقه وأجله، فجعله بذلك من عدوه أو من حزبه، وما بين الحكمين إلا نيته وإرادته، ثم تتقلب حركاته إلى طاعة أو إلى معصية بانقلاب نيته من إيمان وكفر طاعة أو عصيان؛ لذلك - وهو أعلم - أعقب بقوله الحق: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

أتبع ذلك بقوله جل قوله: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ أي: الذين أرادوا الدنيا وعملوا لها ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: حبط في أحكام الآخرة ما صنعوا في الدنيا ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦] وعيد شديد لمريدي الدنيا.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟

عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: ١٧ - ١٩].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: من ربه بالقرآن والإنباء والوحي، شاهد هذا قوله ﷻ: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ [هود:١٧] وكونه على بينة من ربه معرفته بما خلق الله به السماوات والأرض من حق، ثم بعد هذا يصعد إلى درجة من المعرفة رفيعة الذرى، علية المنتهى، سهلة المرتقى، معراجها أحكام العبرة، فمن لم يعرف ربه إلا بآثاره وأسمائه فلم يعرفه إلا بالأسماء والصفات، وأما ما يعرفه هذه المعرفة من عرفه بما اختص به لنفسه، فمن بلغها فليسأل الله جل ذكره الولاية إنه قريب مجيب.

ويحتمل بوجه أن يكون راجعًا على العبد، وهو الاسم الذي عبر عنه قوله: ﴿أَفَمَن﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ من اتصل له علم الفطرة بهداية الشرعة، وشاهد الكتاب بينات الوجود كان من أهل التحقيق إن شاء الله، والسبيلان متقاربان جدًّا يفضي أحدهما إلى الآخر وإن اختلفت على السالكين إليهما البداية، مدح الله سالكي السبيلين بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ ثم بالرسول ﴿مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾[1] [هود:١٧] يمكن أن يكون المراد القرآن؛ كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ [يونس:٩٤] ويمكن أن يكون المراد له الأمر كله: الإيمان بالله والوحي، وبأنه من لم يجب داعي الله وكفر فالنار موعده، ومن آمن وعمل صالحًا فالجنة موعده.

---

(١) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله تعالى غبَّ ما شهدت به الشواهد، وظهر فضل من تمسك به، أو لا تك في شك من كون النار موعدهم، وادعى بعضهم أنه الأظهر، وليس كذلك، وأيًّا مَا كان فالخطاب إن كان عامًّا لمن يصلح له فالمراد التحريض على النظر الصحيح المزيل للشك، وإن كان للنبي ﷺ فهو بيان؛ لأنه ليس محلاً للشك تعريضًا بمن شك فيه، ولا يلزم من نهيه ﷺ عنه وقوعه ولا توقعه منه ﷺ. تفسير الألوسي (١٩٦/٨).

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود:١٧].

وصل بذلك قوله الحق: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا﴾ [هود:١٨] هو منتظم بما قبله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣].

﴿أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود:١٨ - ١٩] سبيله دين الإسلام، على ذلك بنى السماوات والأرض، ودحا الأرضين وأدار الدوائر، وأجرى الشمس والقمر والنجوم، وعلى ذلك أوجد اختلاف الليل والنهار والساعات والأحايين والشهور والسنين، أجرى ذلك في كل ما اتصف بالخلق وأحاط به الأمر، جرى الماء في العود الناضر وأسلكه من الجملة مسلك الروح في الجسد، وسبيله هو الحق، وقد تقدم ذكره، والعبارات كلها إلى الإسلام، له يُفضى ونحوه تومئ وإليه يُنتهى ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢].

والإسلام هو الأمر السوي والصراط المستقيم، وتعويجها أن يلحد في الربوبية والتوحيد والإسلام، ووصف الوجود العلي والأسماء كلها][1] وفي الرسالة والنبوة وفيما جاءت به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾﴾ [هود:٢٠ - ٢٦].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود:٢٥ - ٢٦] الواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ليعطف في القصص رسالة نوح على رسالة محمد - صلوات الله وسلامه عليهما - نحو ما تقدم في صدر هذه السورة من ذكر رسالته كقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود:٢] إلى قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:٧] إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤].

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ
ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ
كَـٰذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ
عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ (٢٨) وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى
ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩)
وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ
وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ
ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٣١) قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ
أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ
رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا
تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ

قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ
﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى
بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا
تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ
أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى
مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ
أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ
وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ
أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا
نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ

ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ
إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي
قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ
رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا
كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا
وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي
وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾
وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ
فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ
غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا
وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ
فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾
وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ
حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ
أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ

يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾
قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ
مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ
﴿٧٦﴾ جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ
قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ
لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا
فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾
قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن
سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ
وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ
أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن
نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ

إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ
لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ
﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ
وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى
عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى
مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا
لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود: ٢٧ - ٩٨].

ثم جعل ﷻ يسرد قصصًا على قصص منذرًا من عصاه بعذابه، ومبشرًا من [أطاعه][(١)] وقبل أمره، وصدق رسوله وعمل بطاعته بثوابه، فيقول جلَّ من قائل: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود: ٦١].

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾[(٢)] [هود: ٦٩].

---

(١) في النسخة (ق): «استجاب له».

(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ يعني: ببشارة الولد. وذلك أن مدينة يقال لها: سدوما. ويقال: سدوم، وكانت بلدة فيها من السعة والخير ما لم يكن في سائر البلدان، وكان الغرباء يحضرون من سائر البلدان في أيام الصيف ويجمعون من فضل ثمارهم مما كان خارجًا من الكروم والحدائق، فجاء إبليس - لعنه الله - فشبه نفسه بغلام أمرد، وجعل =

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود:٨٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ • إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٧].

ويقرن بكل نبأ [عن رسول][1] ومرسل إليهم بالتكذيب والمخالفة، [فعبَّر][2] ﷻ بإهلاكه إياهم، [ويقرن][3] بذلك النداء عليهم بالإبعاد، واللعن في الدنيا والآخرة كما قال جلَّ قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

كذلك قال جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤] كل ذلك إخبار منه ﷻ عن حقيقة وحدانيته، وبراهين أنبيائه وصدق رسله [القوم يؤمنون][4]، وإنجاز وعده من آمن به وأطاعه، وإنفاذه وعيده على من كفر به وكذب رسله.

فصل

تساوت دعوة الرسل إلى الله ﷻ فيما [بين][5] التوحيد وطاعة من أرسل إليهم واتفق تكذيب المكذبين كذلك، فكانت الدعوة واحدة في الأصل وإن اختلفت الفروع التي تفرعت إليها، وعلى ذلك كان اتفاق تكذيب المكذبين في الأصل الذي

= يدخل كرومهم وحدائقهم ويراودهم إلى نفسه حتى أظهر فيهم الفاحشة، وجاء إلى نسائهم، وقال: إن الرجال قد استغنوا عنكن، فعلَّمَهُنَّ أن يستغنين عن الرجال، حتى استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، فأوحى الله تعالى إلى لوط ليدعوهم إلى الإيمان، ويمتنعوا عن الفواحش، فلم يمتنعوا، فبعث الله جبريل ومعه أحد عشر من الملائكة بإهلاكهم، فجاؤوا إلى إبراهيم كهيئة الغلمان، فدخلوا على إبراهيم، فنظر فرأى اثني عشر غلامًا أمرد، ويقال: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ويقال: كانوا أربعة، فسلموا عليه ﴿قَالُواْ سَلامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ يعني: ردّ عليهم السلام. بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٤٤).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «فيخبر».

(٣) في النسخة (ق): «ويقرب».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «هو».

استحقوا به [دخول](١) النار وحرمان الرضوان، وإن اختلفت فروع ضلالاتهم.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ...﴾ [الذاريات:٥٢ - ٥٣].

كما اختلفت صور إهلاك الله ﷻ إياهم [ليفرق في مختلف سبيل](٢) ضلالاتهم، قال الله جلَّ قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت:٤٠] فكان نوح أول رسول إلى [أهل](٣) الأرض، فكان مثلاً لهم وقومه مثلاً للأمم سواهم إلا من عصم الله.

ألا ترى أن رؤساء المحشر وسادات الأمم يوم القيامة في [تطلب](٤) من يشفع لهم أول ما يأتون نوحًا ﵇ [بعد آدم ﵇](٥) فيقولون: «أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض» فطلبوا منه أن يشفع لهم بأن كان أولاً، ثم بأن سماه الله: عبدًا شكورًا؛ تذكيرًا منهم إياه بمنزلته عند الله جلَّ ذكره، فأهلك قومه بالماء لما تكبروا وطغوا في الظلم.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم:٥٢] وأنجاه الله ومن معه في الفلك، والفلك في التأويل نجاة، والماء وإن أضر فعاقبته إلى خير وبركة، [فكان ذلك](٦) الخير والبركة للذين آمنوا من قومه، فأنجاهم الله وبارك على المؤمنين من ذريتهم وسلم عليهم، فقال عزَّ من قائل: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ...﴾ [هود:٤٨] [فكان ذلك للذين آمنوا المنجين من ضره](٧).

---

(١) في النسخة (ق): «الإهلاك ودخول».
(٢) في النسخة (ق): «لتفرقهم في سبل».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «تطلبهم».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) سقط من النسخة (ق).

قال الله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى﴾ [الرعد:١٧ - ١٨] فكل من كفر بالرسل وبنوح خاصة في [تأويل](١) هذا المثل بمثابة الزبد الطافي على الماء، أذهبهم الله ﷻ بعذابه، وكان المؤمنون بمنزلة ما ينفع الناس من الماء [أثبته في الأرض ثم على ذلك](٢) حال المؤمنين والكافرين بعد.

وقال جلَّ قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق:٩].

وقال عزَّ من قائل: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ [الشعراء:١١٩ - ١٢١] يريد ﷻ وهو أعلم: على أنا ننجي من آمن ونهلك من كفر، وهو أيضًا آية على أحكام [الله في](٣) الآخرة من [نجاة](٤) من آمن [بالله ورسله وهلاك](٥) من كفر.

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ
فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ
غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ
﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ
وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «أنبتته عنه الأرض وأجرى الله منه الأنهار وتفجر منه العيون ثم كذلك».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «إنجائه».

(٥) في النسخة (ق): «وإهلاكه».

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود:٩٩ - ١٠٩].

وقال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٢ - ١٠٣] وهي أيضًا آية على ما تقدم من ذكر خلافهم، وما أهلكوا به من ذنوبهم.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١] لما طغوا على الله وعلى رسوله طغى الماء عليهم، فأهلكهم وامتن على المؤمنين بأن نجاهم من عذابه في الفلك.

قال الله ﷻ: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ وهذه منه عز جلاله إشارة إلى غرض غائب لا [يدرى][(١)] إلا بالاعتبار والفطنة الصحيحة، [يريد الجارية التي هي الفلك][(٢)]، وفيها أيضًا موعظة لمن سلك سبيلهم من سائر الكفرة ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] لو نفعت الموعظة، وتذكرة لمن آمن واتقى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود:٦٢] كان [النبي][(٣)] ﵇ بحيث [وصفه][(٤)] الله من الخلق العظيم حلمًا وعلمًا ونبلاً وأمانة وصدقًا ونحو هذا، فكانوا يؤهلونه لمراتبهم ويرجونه لأمورهم، ولما أتم الله ﷻ عليه نعمته بالنبوة والرسالة، وقام فيهم بالتبليغ والنذارة، قالوا له: يا صالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا، أتنهانا...؟ المعنى إلى آخره، في هذا من [العبرة][(٥)] أن الصدق

---

(١) في النسخة (ق): «يدرك».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «وضعه».

(٥) في النسخة (ق): «العلم».

والأمانة والحلم [والعلم والأخلاق الحسنة أصل لمنازل](١) خير الدنيا والآخرة.

عبرة:

قال الله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ [يعني: العرب وكفار الأمم](٢) ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني: ذرية نوح ومن كان معه [وربما كان المعنيون بذلك ذرية العرب المنزل فيهم القرآن خاصة ثم سائر الناس عامة](٣) ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] من أهلكه الله يومئذ أهلك بهلاكه ذريته ورزقه وعمله ومن أنجاه فهو المنجى وذريته إن كان ذا ذرية وكذلك أيضًا أرزاقهم وأعمالهم [وقد](٤) قال عز من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧] فكان آية منه على اقتداره، [وعلى](٥) إخراج الآخرين على سواء ما سبق به العلم المحيط والمشيئة العالية، وكما حملهم في الفلك يومئذٍ حين لم يكونوا [موجودين لأنفسهم](٦)، بل كانوا بوصف العدم أولى على الإضافة إلى معلوم من [سواه](٧) جلَّ ذكره، فأولى إذًا [وأجرى الجوار](٨) حملهم في أمثالهم طول مدة البرزخ، بل ليسوا بسواهم، وكما نجا نوحًا ومن معه من المؤمنين الذين في ظهورهم وأصلابهم من الهلاك بالطوفان، ومن جميع ما حاق بأهل [الكفر والعناد لله](٩) من تسالٍ وضروب عذاب وضرب بمقامع، وخزي وعذاب هون قد حاق بهم فيما هنالك.

قال الله جلَّ قوله في وصف حال إنجائه إياهم: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ

(١) في النسخة (ق): «والخلق الحسن أصل لمنال».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «لذلك».

(٥) في النسخة (ق): «العلي على».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «سوا الله».

(٨) في النسخة (ق): «وأحرى بجوار».

(٩) في النسخة (ق): «الكفر بالله والعناد».

كَالْجِبَالِ﴾[1] [هود:٤٢].

وقال جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].

ثم ذكر جل ذكره موضع العبرة مذكرًا بها، فقال جل قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] فكذلك [ينجيهم الله من عذاب البرزخ][2]، ومن أشد العذاب الهول الأكبر بعد البعث من طوفان جهنم، وبحار النيران تطير بهم [أعمالهم][3] ومراكبهم التي اكتسبوها في الدنيا من أوصاف أعمالهم، وتعبر بهم إلى مواطن النجاة، لذلك الإشارة بقوله جلَّ قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢] أي: مثالات لها ما يركبون فيما هنالك آية ذلك أنه حملهم عز جلاله في الدنيا على مراكب خلقها لهم في البحر وفي البر [وفي الأرض][4].

كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ

---

(١) جوز فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن يكون مستأنفًا.

الثاني: أن يكون حالاً من الضمير المستتر في ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ أي: جريانها استقر ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ [هود:٤١] حال كونها جارية.

الثالث: أنه حال من شيء محذوف دل عليه السياق؛ أي: فركبوا فيها جارية، والفاء المقدرة للعطف، و«بِهِمْ» متعلق بتجري أو بمحذوف؛ أي: ملتبسة، والمضارع لحكاية الحال الماضية، ولا معنى للحالية من الضمير المستتر في الحال الأولى كما لا يخفى، والموج: ما ارتفع من الماء عند اضطرابه، واحده موجة، و«كالجبال» في موضع الصفة لموج؛ أي: في موج مرتفع متفاوت في الارتفاع متراكم، قيل: إنها جرت بهم في موج كذلك، وقد بقي منها فوق الماء ستة أذرع، واستشكل هذا الجريان مع ما روي أن الماء طبق ما بين السماء والأرض، وأن السفينة كانت تجري في داخله كالسمك، وأجيب بأن الرواية مما لا صحة لها، ويكاد العقل يأبى ذلك، نعم أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن عساكر وعبد بن حميد من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير قال: إن الماء علا رأس كل جبل خمسة عشر ذراعًا، على أنه لو سلم صحة ما ذكر فهذا الجريان كان في ابتداء الأمر قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ إلخ، فإن ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر؛ إذ حينئذٍ يمكن جريان ما جرى بين نوح ﷺ وبين ابنه من المفاوضة والاستدعاء إلى السفينة، والجواب بالاعتصام بالجبل. تفسير الألوسي (٨/٢٤٢).

(٢) في النسخة (ق): «ننجيهم إن شاء الله من عذاب بعد الموت في دار البرزخ».

(٣) في النسخة (ق): «إيمانهم وأعمالهم الصالحة».

(٤) سقط من النسخة (ق).

الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧] فاستمع لكلام ربك جل ذكره وتفطن، فإن كل رحمة أظهرها في دار الدنيا، وكل نعمة أسداها فما هي لسوى المؤمنين، وهي خالصة لهم يوم القيامة من دون الناس، بل هو هناك بهم أرحم وعليهم أعطف، وإنما أنزل جل وعلا إلى الأرض رحمة واحدة عمَّ بها جميع الأجناس في الأرض والجن والإنس، وقد أخبر بأنه يقبضها إلى تسعة وتسعين [رحمة خبأها عنده][١] يرحمهم بها.

وعلى هذا فدونك [فاستقر][٢] كل رحمة له وكل نعمة يمن بها من حمله إياهم في بر أو بحر، أو بيوت جعلها لهم سكنًا، أو ثياب جعلها لهم لباسًا [وسترًا][٣]، ودفاعًا لبأس أو حر أو برد أو طعام أو شراب أو روح أو راحة أو [نعمة][٤] نفع أو دفع، فهي لهم؛ [أعني: المؤمنين][٥] خالصة يوم القيامة؛ لذلك كثيرًا ما عدد أنواع رحمته يُذكِّر بنعمته؛ [ليدعو][٦] إلى الاستجابة [له][٧]، وليحبب إلينا لقاءه، وليكسبنا حبه [المعهود من جنة][٨] المنعم، وهي [كلها إشارات][٩] إلى وعد له [بها][١٠] صادق في الدار الآخرة يكرم [بها عباده][١١]، فتارة يخص وتارة يعم، ولمثل هذا وما هو أعرق من هذا وأعظم نفعًا قال جلَّ من قائل: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ [أي: بما هنالك][١٢] ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] [فأحاله بهذا الخطاب على ما وراء

---

(١) في النسخة (ق): «عنده خبأها لهم».
(٢) في النسخة (ق): «فاستقرأ».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «نعم».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «ليدعون».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «للمعهود من محبة».
(٩) في النسخة (ق): «مع هذا كله».
(١٠) سقط من النسخة (ق).
(١١) في النسخة (ق): «بذلك عباده المؤمنين».
(١٢) زيادة في النسخة (ق).

ذلك من تذكرة ووعي][(١)].

فصل

سمَّى الله ﷻ ما [ينتقل إليه الحياة من العبد مرة][(٢)] بـ«المثل»، ومرة سماه بأنه [«روح»][(٣)]، فقال جلَّ قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١] أي: [لننقلكم][(٤)] من حياتكم [الدنيا][(٥)] إلى أمثال تكون لظواهركم [هذه][(٦)] تكون في الدار الوسطى ظواهر لما بطن منكم [في هذه][(٧)].

وقال جلَّ من قائل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ فهذا تبديله ﷻ عمار أرض بآخرين [أفضل منهم][(٨)].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤١] وأمسك جل ذكره واجتزأ بما أظهر عما [أبطن][(٩)] من تبديل أمثالهم بعد الموت، [وهو كثير في القرآن العزيز لمن يطلبه][(١٠)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنما نسمة [المؤمن]**[(١١)] **طائر أبيض**»[(١٢)].

وقال ﷺ في الشهداء: «**إنهم في حواصل طير خضر تعلق بثمار الجنة**»[(١٣)].

---

(١) في النسخة (ق): «تعجيب منه ﷻ».
(٢) في النسخة (ق): «ما ينقل إلينا بحياة من العبد تارة».
(٣) في النسخة (ق): «زوج».
(٤) في النسخة (ق): «إنا ننقلكم».
(٥) في النسخة (ق): «هذه العامرة لأجسامكم».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «أضمر».
(١٠) سقط من النسخة (ق).
(١١) في النسخة (غ): « الموجز».
(١٢) أخرجه أحمد (١٥٣٥٠)، والبيهقي في البعث والنشور (١٩٤).
(١٣) أخرجه بنحوه الدارمي (٢٤٦٥).

ولا تعتمدن - [وفقك][(١)] الله - في فهم قوله ﷺ: «طائر» أنه ذو منقار [وجناح لا بد منه وبراثن][(٢)]، إنما هو مثال للجسد الذي خرج عنه يطير به بعد أن كان الجسد سجنًا [له ولعل قوله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] فقرن الجناحين بالطائر ليخلص الإخبار عن طائر الدنيا الذي][(٣)] في السماء من هذا الحيوان من تلك الطوائر، وقد تقدم [مثل هذا فيما قبل مقرونًا بالاستشهاد][(٤)] عليه من أن الأموات أحياء بوجه حياة هي أشرف من هذه وأكرم [للمؤمنين][(٥)]، وحياة الكافرين فيما هنالك بمقدار ما لا يفقدون [منها][(٦)] إحساس العذاب ووجود الخزي وذلة [الهون][(٧)].

قال الله جلَّ قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ﴾ [الصافات:٢٢ - ٢٣] وقد يقع هذا الاسم على القرين [الذي قارنه][(٨)] المضل له في الدنيا.

فصل

المؤمن له حقيقة في العلو كما للكافر حقيقة في السفل، قال الله جلَّ من قائل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨].

[ثم قال جلَّ قوله: ﴿يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١]][(٩)].

وقال عزَّ من قائل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] [فما من شيء كائن ما كان من نبات وجماد

---

(١) في النسخة (ق): «رحمكم».
(٢) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «هذا قبل مقرونًا بشواهده».
(٥) في النسخة (ق): «المؤمنون منهم».
(٦) في النسخة (ق): «معها».
(٧) في النسخة (ق): «الهوان».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «وقال: ﴿إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]».

وحيوان إلا وقد خلق الله ﷻ له زوجًا بقوله: «مثال باطن هذا المشاهد له ظاهر»][1].

قال الله ﷻ: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧] فأحد الزوجين هو المشاهَد، وزوجه باطنه، والكريم من الأزواج ما كان محمودًا، والذميم ما كان [رجسًا][2] ؛ ذلك لأنه نكب به في الوجود عن ظاهر سنن الفطرة، لهذا ومثل هذا أتبع ﷻ ذلك بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٨] فالتبصرة [من ذلك][3] إثبات الوحدانية من ذلك وصفات الألوهية، ودلائل براهين النبوة، واليقين بموجودات الدار الآخرة وما جرَّ إلى ذلك، والذكرى [توجب][4] أن كل زوج محمود هو في الجنة [وإلى الجنة مع ما هو زوج له][5]، وكل [زوج][6] مذموم هو [وزوجه][7] في النار، آية ذلك أعمال المكلفين حسنها للحسنى وسيئها للسوءى.

وعلى هذا فإنه لا يسقط عن ذلك عمل ولا قول، ولا يكون ظاهر لباطن ولا باطن لظاهر إلا لإحدى [الجنتين][8]، وهذا يعمه قول رسول الله ﷺ: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله، والنار كذلك**»[9] وهو معنى قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٣].

قال جلَّ قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٧ - ٨] كذلك كل ما ينشأ من

(١) في النسخة (ق): «فما من شيء كائن ما كان إلا قد خلق الله له زوجًا حيوانًا كان أو نباتًا أو جمادًا هذا الزوج الباطن مثال لهذا الظاهر».
(٢) في النسخة (ق): «رحمًا».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «هو».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «الحسنيين».
(٩) تقدم تخريجه.

صغر [ثم يصعد][1] أو ينمو، ثم يضمحل أو يزيد، ثم ينقص أو يبسط أو يقبض، كل في كتاب حفيظ، ثم يميز [مما][2] هنالك ويسلك لكل مسلكه.

[قال الله ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال:٣٧] فمفهوم هذا: إنه أيضًا يجعل الطيب الكريم في الجنة.

فصل

قال الله عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾ [الأعراف:١٧٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة**»[3].

وقال: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، ثم أخذ أهل اليمين بيمينه فقال: يا أهل اليمين، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ثم أخذ أهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يدي ربي يمين، فقال: يا أهل الشمال، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، قال: ثم خلط بينهم، فقال منهم قائل: ربنا، لِمَ خلطت بيننا؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون**»[4].

والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لم يوجد موجودًا ليعدمه جملة، إنما هو الإبطان والإظهار، وإن عدم ظاهرًا منه عن نفس الموجودات أوجد ظاهرًا، وربما أظهر ما شاء من ذلك وأبطن ما شاء، فمثال كل موجود ما قد قدره في الأول وأوجده في البدء حين الإقرار وأخذ المواثيق، فمتى أمات الله من أماته أبدل منه مثاله ذلك الذي كان أوجده، فهو المُقر على نفسه بالعبودية، المأخوذ عليه الميثاق، المعطي ربه

---

(١) في النسخة (ق): «إلى كبر ثم يصغر».

(٢) في النسخة (ق): «فيما».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

عهده أن يوجده ويعيده ويصدق رسله وكتبه، وينصر ويعزر ويوقر، وهو الذي عمَّر به الجسم في هذه الحياة الدنيا، فتغذى بما تغذى الجسم، وتزكى أو تردى بما كان في حياته هذه من إيمان وطاعة أو كفر ومعصية، فإن وافق عمله ما عاهد عليه الله رفعه إلى عليين، وآتاه أجرًا عظيمًا، وإن ختر العهد وكفر وكذب أسفل به إلى سجين، ثم أصلاه عذاب الجحيم، ثم بعدهم درجات عند الله ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٩٦)] [1].

رجع الكلام: وأما إهلاك عاد بالريح: فإنهم لما طغوا في ضلالهم، وادعوا القوة، ولجوا في زعامتهم، واستمروا في [الرعونة] [2] بعث الله ﷻ عليهم [الصرصر العاتية] [3] تصرعهم اهلاكًا، قال الله ﷻ: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧].

وأما ثمود: فإنهم لما عقروا الناقة الله رغت فرغا فصيلها فأهلكم الله بالصيحة طغت عليهم لطغيانهم في الأرض، وأما قوم لوط: [فإنهم] [4] قلبوا العلية سفلاً، فأسفل بهم لذلك [فخسف الله بهم الأرض] [5].

وأما أهل مدين وأصحاب الأيكة [قطعوا] [6] في الأرض وأخافوا [السبيل، وأفسدوا] [7] وبخسوا المكيال والميزان، فأهلكوا بالصيحة وبعذاب يوم الظلة وفرعون وقومه لاستكبارهم وعلوهم [فيها] [8] وطغيانهم.

[قال الله ﷻ: ﴿اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:٢٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٤]] [9] أطغى الله جل

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «رعونته».

(٣) في النسخة (ق): «الريح الصرصر العاتية عتت عليهم».

(٤) في النسخة (ق): «لما».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «فطغوا».

(٧) في النسخة (ق): «السبل».

(٨) في النسخة (ق): «في الأرض».

(٩) سقط من النسخة (ق).

وتعالى عليهم ماء البحر فأغرقهم فيه.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠] وهم أول لمن بعدهم.

قال الله جلَّ قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] فالوعيد إذًا قائم على من سواهم، [وإنما أدبنا الله جل ذكره بغيرنا إكرامًا](١) ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

[قال الله ﷻ](٢): ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٣) [هود:٨٣] وقد أنذر رسول الله ﷺ بخسف وقذف [نعوذ بالله من عذابه](٤).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠] القائم من القرى ما هو منها أهل، والحصيد ما أهلك أهله فلم يعمر بعد، كديار عاد وثمود [وأرض مدين](٥) ومدائن قوم لوط ونحوها.

يقول الله جلَّ قوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١] أي: [إهلاكًا كما قال جلَّ قوله: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ المَوْلَى وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ [الحج:١٣].

ثم أتبع ذلك كله ما هو علم ما تقدم، وموضع العبرة إليه والذكرى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣] وكما هو آية لمن

---

(١) في النسخة (ق): «أدب الله سبحانه وله الحمد هذه الأمة بسواهم إكرامًا لهم».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) روي أن لوطًا ﵇ غلبوه، وهموا بكسر الباب وهو يمسكه، قال له الرسل: تنحَّ عن الباب، فتنحى وانفتح الباب، فضربهم جبريل ﵇ بجناحه فطمس أعينهم وعموا، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاة النجاة، فعند لوط قوم سحرة وتوعدوا لوطًا، فحينئذٍ قالوا له: إنا رسل ربك. وروي أن جبريل نقب من خصاص الباب، ورمى في أعينهم فعموا. وقيل: أخذ قبضة من تراب وأذراها في وجوههم، فأوصل إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب، فطمست أعينهم فلم يعرفوا طريقًا ولم يهتدوا إلى بيوتهم. وقيل : كسروا بابه وتهجموا عليه، ففعل بهم جبريل ما فعل. تفسير البحر المحيط (٦/٤٣٦).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

خاف عذاب الآخرة، فهو أيضًا آية على نجاة من أطاع واستجاب، وإنجاؤه أيضًا آية على مثال ما يرجى من ثواب الله ﷻ ولقائه.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣]][(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت:٣٦] إلى قوله: ﴿بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦].

يقول وهو أعلم: ﴿وَلَا تَنقُصُوا المِكْيَالَ﴾ [هود:٨٤] ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ولا تصدوا [العلم][(٢)] عن سبيل الله [واتبعونها][(٣)]، فإنكم متى انتهيتم عن ذلك وعملتم بطاعة ربكم تاب عليكم فعاد عليكم بحسن عوائده [ورضي بكم][(٤)]، وكان معكم لإحسانكم، إن دعوتموه أجابكم، وإن سألتموه أعطاكم، وإن استنصرتموه نصركم، وكان لكم منه ملجأ تلجئون إليه، ومنجًا من محاذير تحذرونها، فكنى عن هذا [ومثل هذا][(٥)] بقوله: ﴿بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦] أي: خير لكم مما تستجلبونه لخداعكم وكفركم، وقطعكم السبيل وصدكم عن [سبيل الله.

لذلك - وهو أعلم - أعقب ذلك بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ويقال: «بقيت الشيء أبقيه» بمعنى: رَقَبْتَهُ وحَرَسْتَهُ، يقول: لحفظه خير لكم؛ لذلك قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بقرب الله ومراقبته وحراسته وكلاءته وحفظه.

ثم قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٦] وقد يكون معنى قوله: ﴿بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ جنة الله بما قد كتب لها من البقاء والدوام؛ لذلك قال وهو أعلم: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾][(٦)] فما كان جواب قومه إلا أن ﴿قَالُوا﴾ ردًّا لنصحه: ﴿يَا شُعَيْبُ

---

(١) ما بين [ ] به اختلاف بين النسخ.
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «وتبغونها عوجًا».
(٤) في النسخة (ق): «ورضيكم».
(٥) في النسخة (ق): «ونحوه».
(٦) ما بين [ ] به اختلاف بين النسخ.

أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا﴾ [كان][(١)] ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أو أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧].

كان عليه السلام على [الحق العظيم الذي انتخبه][(٢)] الله ﷻ عليه من الحلم والرشد والعقل والأمانة، فكان عندهم معروفًا بذلك، ولما جاءهم بنصيحة ربهم إياهم وبلغهم رسالاته أخذوا يستهزءون به، ويسخرون لبعد البون [من كونه][(٣)] على ما هو به مما جهلوه من أمر ربه [فيه][(٤)] مما كانوا يرجونه [له][(٥)] من مراتبهم وسدانة أماكن أباطيلهم، يقولون: [هذا الحلم والرشاد][(٦)] اللذان كنا نعتقده فيك ونصفك به، أصلاتك هي [أمرتك بهذا؟!][(٧)].

وكان عليه السلام فصيحًا معربًا عما يريده مؤيدًا بالحجة والبرهان، وقد قيل [فيه][(٨)]: إنه خطيب الأنبياء - عليهم السلام - أي: هو [كان][(٩)] أفصحهم لسانًا وأعربهم بيانًا [عما يريده، وأقواهم على المحاجة][(١٠)] - والله أعلم - فأجابهم بما يقابل ذلك منهم في لين ورفق فعل النصيح الشفيق يقول: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود:٨٨] [الأولى مقابلة لردهم عليه نصحه بالأمر لهم بالإيمان ومجانبة الكفر، والثانية مقابلة منه في ردهم عليه الولاء له إلى ربهم وسلوك سبيل طاعته وابتغاء مرضاته، وفيهما يتبين الحلم والرشد، والرزق الحسن هنا هو الوحي وعلم النبوة][(١١)] وما يتبع ذلك.

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «الخلق العظيم الذي انتجبه».
(٣) في النسخة (ق): «لكونه».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «له هذا والرشاد».
(٧) في النسخة (ق): «التي تأمرك أن تترك ما كان يعبد أباتنا وأن نفعل في أموالنا ما نشاء».
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) زيادة في النسخة (ق).
(١٠) سقط من النسخة (ق).
(١١) في النسخة (ق): «يعني: الإيمان واليقين والوحي والنبوة».

ثم جعل يذكرهم بما أصاب غيرهم السالكين سبيلهم المكذبين رسل ربهم إليهم بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يقول: لا [يكسبنكم][(1)] ﴿شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩] كانوا أقرب مجاورة إليهم من سواهم [يقول لهم][(2)] ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ [أي: بعباده][(3)] ﴿وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠].

كما قال رسول الله ﷺ: «التائب حبيب الله»[(4)].

وقال الله ﷻ [وهو][(5)] أصدق القائلين: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] فأجابوه ﷺ بما يشاكل عنادهم وقلة فقههم عن الله ﷻ ورسوله بقولهم: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١] يقولون: لم يكلفك أحد أن تأمرنا [بما تأمرنا به][(6)] ولا أن تنهانا، فمتى تعرضت إلى هذا رجمناك.

فأجابهم [برفق في غير عنف، فقال][(7)] ﷺ: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[(8)] لم تعتقدوه آمرًا ولا ناهيًا، ولا مرسلاً ولا ناصرًا لم تخافوه في قولكم هذا وإنما خفتم رهتي ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ

---

(١) في النسخة (ق): «يكسبكم».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) ذكره العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٤/ ٢).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «في رفق بقوله».

(٨) ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ يقول: تركتم أمر الله تعالى وراءكم، خلف ظهوركم، وتعظمون أمر رهطي، وتتركون تعظيم الله تعالى ولا تخافونه؟ وهذا قول الفراء. وقال الزجاج: معناه: اتخذتم أمر الله وراءكم ظهريًّا؛ أي: نبذتموه وراء ظهوركم، والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر: قد جعل فلان هذا الأمر بظهره. وقال الأخفش: وراءكم ظهريًّا، يقول: لم تلتفوا إليه. بحر العلوم للسمرقندي (٢/ ٣٥٢).

هُوَ كَاذِبٌ﴾ [في مقالته قولهم له وما أنت علينا بعزيز][(١)] ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٢ - ٩٣] فأنذرهم العذاب، ولم يبقَ [لهم][(٢)] إلا حلول أجله.

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] إلى قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يقول: [كأنهم لم يكن لهم في ديارهم][(٣)] ظهورًا ولا بقاء.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] ما قال جلَّ من قائل في قوم أو في موضع: «ألا بعدًا لكذا» إلا جعله حصيدًا مبعدًا غير أهل آخر الدهر.

فصل

أجمع رسل الله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - على ضمان المغفرة والرحمة من ربنا ﷻ لمن آمن وعمل صالحًا، وعلى وصفه بالقرب وسرعة الاستجابة والوداد والحب [لعباده التائبين][(٤)]، كما أجمعوا على الدعاء إليه وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، ولا يملك الضر والنفع إلا هو، وهم الحق، وما جاءوا به هو الحق، [لا إله إلا هو][(٥)] الحق المبين، أرسلهم وضمنهم، هذا من وعده في دار الدنيا، [ولدار الآخرة خير][(٦)] وأكبر تفضيلاً، ألا ترى أن التوبة والعمل الصالح هو لقاؤه على الغيب ها هنا، فلقاؤه في الآخرة إذًا هو أكبر [الثواب وأكرم المنال وأفخمه كفضيلة البر الرحيم][(٧)] على كل ما أوجده.

آية ذلك: [فصل][(٨)] ما بين العمل بطاعته من صلاة وزكاة وذكر وتلاوة قرآن، وبين أعمال العباد في دنياهم هذا إلى المعهود المعلوم، فإن العباد ما رأوا الخير قط

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «كأن لم يكن في دارهم».
(٤) في النسخة (ق): «للتائبين».
(٥) في النسخة (ق): «لأن».
(٦) في النسخة (ق): «والآخرة أكبر درجات».
(٧) في النسخة (ق): «ثوابًا وأكرم منالاً كفضله ﷻ».
(٨) في النسخة (ق): «فضل».

إلا من عنده، ولا رأوا شرًّا ولا ضرًّا إلا من قبل سواه.

قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(١) [هود:١٠٣] كما جمعهم جلَّ ذكره في قبضتيه الكريمتين، ثم ذرأهم في الأرض لينيلهم نصيبهم الذي قدر لهم في الكتاب الأول كذلك يعيدهم إلى الجمع، ولم يستحقوا [الآن الكون](٢) في يمينيه الكريمين، وقد تدنسوا [بالخطايا والكفر](٣)، وتلفعوا باللعن والإبعاد، فلا بد إذًا [من جمعهم](٤) في صعيد واحد، أولهم وآخرهم، جنهم وإنسهم، لا ريب في ذلك.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤] [كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود:١١٠]](٥) فإذا جاء الأجل المؤقت بالكلمة التامة أنفذ حكمه.

يقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:١٠٥] لا اختيار يومئذٍ لأحد ينفذه، ولا أمر [يجده من نفسه](٦)، إنما الأمر كله يومئذٍ لله [والأمر اليوم لله ﷻ، لكن بوسائط](٧) وأسباب حجب بها ﷻ القدرة، [فهي - أعني: الأسباب](٨) والأواسط - يظن بها الغافلون الظن، وليست بنافعة ولا دافعة، والمنفرد بالحكم

---

(١) وعطف جملة ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ على جملة ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ لزيادة التّهويل لليوم بأنّه يُشهد، وطُوي ذكر الفاعل؛ إذ المراد يشهده الشّاهدون؛ إذ ليس القصد إلى شاهِدين معيّنين، والإخبار عنه بهذا يُؤذن بأنّهم يشهدونه شهودًا خاصًّا، وهو شهود الشيء المهول، إذ من المعلوم ألا يقصد الإخبار عنه بمجرّد كونه مرئيًّا، لكن المراد كونه مرئيًّا رؤية خاصة، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى المحقّق؛ أيّ: مشهود بوقوعه، كما يقال: حقّ مشهود؛ أيْ: عليه شهود لا يستطاع إنكاره، واضح للعيان ، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى كثير الشّاهدين إياه؛ لشهرته، كقولهم: لفلان مجلس مشهود. التحرير والتنوير (١٩٦/٧).

(٢) في النسخة (ق): «بعد أن يكونوا».

(٣) في النسخة (ق): «بالجرائم والخطايا».

(٤) في النسخة (ق): «لهم من أن يجمعهم».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «يدبره».

(٧) في النسخة (ق): «الواحد القهار وإن كان الأمر أيضًا لله فبوسائط».

(٨) في النسخة (ق): «فالأسباب».

هو الله [الذي][١] لا إله إلا هو، وهذا الأمر [في ذلك اليوم][٢] أظهر جدًّا.

قسم الله ﷻ المكلفين إلى شقي وسعيد؛ إذ [تلك الآخرة منقسمة][٣] على دارين جنة ونار كما قسم موجودات الدنيا إلى محمود وإلى مذموم، فنشأت محمودات الدنيا إلى [دار][٤] السعادة والولاية الكبرى في المكلفين كما نزلت صفة المذمومات مما هي هنا إلى درك الأشقياء، والله تعالى لا يوجد شيئًا فيبطله ألبتة، [إذا أبطله عينًا أبطنه][٥] حكمًا، وإن أبطله حكمًا أثبته عينًا، وعنده الكتاب الحفيظ [حوى كل شيء][٦].

قوله جلَّ قوله وتعالى جدُّه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ [هود:١٠٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] أكثر علماء السلف - رحمة الله على جميعهم - في معنى هذا الاستثناء مع اجتماعهم على معتقد الخلود، والمفهوم من قول الله العلي [الأعلى][٧]: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧] فعسرت المعرفة بهذا الاستثناء جدًّا، والله ولي التوفيق.

فمن قائل يقول: إن معنى «ما» [ها هنا معنى][٨] «من» كأنه قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧] ممن يخرج بالشفاعة وبما بقي في قلبه من إيمان وخير، واحتج [على ذلك][٩] بأن «ما» بمعنى «من» موجود، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:٥ - ٧].

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «يومئذ».
(٣) في النسخة (ق): «دار الآخرة مقسمة».
(٤) في النسخة (ق): «درجة».
(٥) في النسخة (ق): «إن أبطله عينًا أثبته».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «الكبير».
(٨) في النسخة (ق): «بمعنى».
(٩) زيادة في النسخة (ق).

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [الليل:٣] ونحو هذا.

ومن قائل يقول: هي بمعنى «الذي» فيكون الاستثناء من المدة، معنى ذلك: إلا الذي شاء ربك ألا يخلدوا فيها، وهم الذين أدخلوا النار [بسيء أعمالهم][١] ثم أخرجوا منها بالشفاعة، فيكون الاستثناء متناولاً ما سوى لبثهم في النار بعد خروجهم، وبالحقيقة فإنه استثناء من خاص شقاوة [دون شقاوة][٢]، ولا ينطلق على من يخرج من النار اسم الشقاوة دون استثناء.

قالوا: ويحتمل أن يكون المستثنى [في][٣] المدة التي كانوا فيها وقوفًا في [عرضة][٤] المحشر قبل دخولهم الجنة أو النار، فيتناول الاستثناء [مقدار متناولهم][٥] من الحساب.

قالوا: ويحتمل أن يكون الاستثناء وقع على أن لهم فيها زفيرًا وشهيقًا خالدين [فيها إلا ما شاء ربك][٦] من مداولة أنواع عذاب بأنواع عذاب، لم يذكر مما شاء ربك أن تصيبهم بها.

قالوا: ويدل على ذلك قوله في أهل الجنة: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] فيكون الشهيق والزفير منهم مجذوذًا بغيره من أنواع العذاب، ويكون وصف الخلود مدة مادامت السماوات والأرض، [ثم ينشأ][٧] عذابًا غير ذلك، كذلك قال جلَّ قوله في أهل السعادة وقد قال: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧] ومعلوم أنهم ينتقلون من نعيم إلى نعيم، فكذلك أهل الشقاوة عذابهم غير منقطع، وإنما هو التبديل من عذاب إلى عذاب.

قالوا: فيمكن أن يكون الاستثناء واقعًا من هؤلاء وهؤلاء على هذا الوجه

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «هو».
(٤) في النسخة (ق): «عرصات».
(٥) في النسخة (ق): «بمقدار موقفهم».
(٦) في النسخة (ق): «في ذلك إلا ما شاء ربنا».
(٧) في النسخة (ق): «بما شاء».

الموجود، نسأل الله رحمته، ونعوذ [به][(١)] من عذابه.

ومن قائل يقول: إن [«إلا» في الاستثناء تكون][(٢)] بمعنى الواو، كما يقول الرجل: «والله لا رأيت مني خير إلا إن [رأيت مني][(٣)] غير ذلك» [وعقد يمينه أنه لا يرى][(٤)] غير ذلك ولا يشاؤه.

ومن قائل يقول: معنى قوله: ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾ معنى قوله: ﴿**لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ**﴾ [الفتح:٢٧] وقد علم الله ﷻ أنهم يدخلونه حتمًا، والاستثناء على هذا لم يوجب خيارًا؛ إذ عزيمة المشيئة قد كانت تقدمت بأن يدخلوه.

قال: وهذا الاستثناء مثله.

قال: ومثله قول رسول الله ﷺ: «**ولا يحل لقتطها إلا لمنشد**»[(٥)] والمعنى: ولا لمنشد. انتهى ما بلغنا فيه من تفسير المتقدمين ﴿**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

والذي ذهب إليه أيضًا بعضهم أن السماوات يومئذٍ هي سماء الجنة، وهو العرش، والأرض المذكورة هي أرضها وتلك سماء وأرض مؤبدتان بقاء سرمدًا لا إلى منتهى وهذه السماوات والأرض يومئذٍ قد بدلنا بغيرهن فيكون معنى قوله: ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾ [هود:١٠٧] هو مدة ما لم يدخلوها، وهو ما قبل يوم البعث، ثم إلى حين دخولهم [داري][(٦)] القرار والله أعلم، وفصل الخطاب [في ذلك إن شاء الله][(٧)] - والله أعلم بعلمه وبحكمه - أن الاستثناء هو من الخلود [قدر][(٨)] دوام السماوات والأرض.

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «الاستثناء قد يكون».
(٣) في النسخة (ق): «أرى».
(٤) في النسخة (ق): «وعزيمته ألا يرى».
(٥) أخرجه بنحوه البغوي في «شرح السنة» (٥/٢١٥).
(٦) في النسخة (ق): «دار».
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «الذي هو».

قال الله جلَّ من قائل: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨] والسماوات والأرض يومئذٍ غير موجودة، فكيف يستثني من دوام ما ليس بموجود إلا أن يكون معنى الكلام: خالدين فيها مادامت السماوات والأرض مُذ خلقتا إلى أن بدلت الأرض غير الأرض والسماوات، وتبديلهن [ذلك][١] إنما يكون والناس في المحشر قيامًا لرب العالمين.

ويتوجه ذلك في حكم العدل أنهم لما لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض طلب نظر لعلم ما جعلت له، وطلب شهاداتهما لخالقهما ﷻ، وشهدوا عليها بما لم يشهدوا به على أنفسهما، وقولوها ما لم تقل على ربها وعلى أنفسها أوجب الله العزيز الحكيم عليهم العذاب طول دوامها منذ خلقها إلى أن قوض بناءها، وبدل أرضها وسماءها بغير ما هي عليه.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠] هذا في مقابلة قوله جل قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [هود:١٠٧] ثم لما كان كفرهم هو كفر بالله العلي العظيم الدائم الباقي دائمًا أبدًا متوالي البقاء كان المراد [تأبيدهم في][٢] عذابهم من أجل كفرهم بالله وبأسمائه وصفاته، وهو المشار إليه بقوله جلَّ قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:١١١] مستثنى من المراد في عذابهم الذي مدته مادامت السماوات والأرض، وتكون «ما» على ما أصلها.

[ويجوز][٣] أيضًا على ذلك [أن تكون][٤] معنى«ما» بمعنى «الذي» ثم كذلك أهل السعادة لما شهدوا للسماوات والأرض بما شهدت به لربها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فصدقوها بذلك وصدقتهم هي استوجبوا بوعد ربهم ﷻ أن يخلدوا في الجنة مادامت السماوات والأرض مضاعفًا، ولما كان إيمانهم إيمانًا بالله ﷻ، وأعمالهم موجهة إلى الله الدائم الباقي استوجبوا بفضل ربهم البقاء الدائم والخلود

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «في تأبيد».

(٣) في النسخة (ق): «ويكون».

(٤) سقط من النسخة (ق).

السرمد، فيمكن أن يكون المستثنى في مشيئة الله جلَّ ذكره زائدًا على مدة دوام السماوات منذ خلقت إلى يوم القيامة.

[ويمكن أيضًا أن يكون](١) قوله جلَّ قوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] [بدلاً](٢) من «ما» وهي في موضع نصب؛ لأنها مفعول شاء، فيكون المعنى إلا ما شاء ربك **عطاء** غير مجذوذ، ثم ينقلون إلى خلود آخر مادامت السماوات والأرض إلى حيث لا يبلغه العدد، ولا ينتهي إليه الحصر [كما نشاهده الآن في تدوار الدوائر قد شاء الله قطعها إلى أجل مسمى هو عنده، وأمر الآخرة لا انقطاع له فيكون معنى الاستثناء: إلا ما شاء ربك من بقاء دائم غير منقطع كما شاء في هذه الدار البقاء المنقطع](٣) **عطاء غير مجذوذ** هكذا أبد الآباد؛ لأنهم آمنوا بالله الدائم الباقي وبأسمائه وصفاته، [ويكون](٤) معنى الاستثناء قوله: إلا ما شاء ربك [أي](٥) من تطويل وتقصير لمدة دوام السماوات والأرض، وهو على ما يشاء من ذلك قدير.

قال رسول الله ﷺ في الدجال لعنه الله: «**[إنه يمكث أربعين]**(٦) **يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة**، وسائر **أيامه كأيامكم**»(٧).

وقال: «**يكون في آخر الزمان اليوم كالسنة، واليوم كالشهر، واليوم كالجمعة، واليوم كالساعة، [واليوم كإحراق]**(٨) **السعفة وكضرمة النار**»(٩) فهذا مما قد شاء ربنا [وقد يشاء](١٠) ﷻ فيطول ما شاء حتى لا ينقطع أبد [الأبد](١١)، ويقصر ما شاء إلى

---

(١) في النسخة (ق): «ويكون على هذا معنى».

(٢) في النسخة (ق): «حالاً».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «وتكرر».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠).

(٨) في النسخة (ق): «وكاحتراق».

(٩) أخرجه بنحوه أبو يعلى (٦٦٨٠)، والديلمي (١٣٠٦).

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

(١١) في النسخة (ق): «الآبدين».

أقصر ما يتوهم كل ذلك عليه يسير.

غير أنه قال في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وفي أهل الجنة: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

وفي الكتاب الذي كتبه على نفسه يوم استوى على العرش: «**إن رحمتي [سبقت]**(١) **غضبي**»(٢) وفي أخرى: «**تغلب**»(٣) وقد علق [تفتح أبواب](٤) السماء لأرواح المكذبين وإدخالهم الجنة بغاية كونها مستحيل في مجرى العوائد، فالله أعلم ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

وكل شيء شاءه عليه يسير غير عسير، وما استاق جل وعلا [ذكر](٥) هذه الصفة إلا لعظيمة يقضيها لكنها مدخرة، من ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ * ذُو العَرْشِ المَجِيدُ﴾ يعني للمؤمنين ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٢ - ١٦].

ويقول ﷻ لمن هو آخر [أهل](٦) الجنة دخولاً وهو آخر أهل النار خروجًا منها، وقد رأى أن الجنة ضاقت [عليه لملئها](٧) بأهلها، فيقول: يا رب كيف وقد أخذ الناس أخذاتهم ونزلوا منازلهم؟ فيقول: أيرضيك أن يكون لك مثل الدنيا كلها؟ فيقول: أتسخر بي يا رب وأنت رب العزة؟ فيقول: إني لا أسخر بك ولكني على ما أشاء [قدير](٨) وإن لك الدنيا وعشرة أمثالها.

ويقول جلَّ قوله: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، ولكن وعزتي وجلالي وارتفاعي في علو مكاني لأخرجن**

(١) في النسخة (ق): «تسبق».
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) في النسخة (ق): «تفتيح».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «بملئها».
(٨) في النسخة (ق): «قادر».

[منها][١] من قال: **لا إله إلا الله**»[٢] [ومن خافه][٣] في مقام فيدخل يده في النار فيخرج منها ما لا يحصي عددهم إلا الله.

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا وسبعمائة ألف، مع كل ألف سبعون ألفًا وسبعمائة ألف، وثلاث حثيات من حثيات ربي**»[٤] فالسبعون ألفًا يدخلونها بغير حساب، وهم السادة القادة ﷺ، مع كل ألف منهم سبعون ألفًا هؤلاء هم أتباعهم، ثم أدخل على هؤلاء سبعمائة ألف مع كل ألف سبعمائة ألف، «أو» قد تكون بمعنى [الواو، فمعنى الحديث][٥] والله أعلم: يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا وسبعمائة ألف، مع كل ألف سبعمائة ألف والسبعون فتح لباب الكثرة.

والثلاث حثيات لا يحصرها [بعدد][٦] إلا الله ﷻ؛ لذلك لما حدث رسول الله ﷺ بهذا الحديث في بعض الروايات عبَّر رسول الله ﷺ عن الحثيات بالفعل، فجعل يحثو بيديه جميعًا [بين يديه][٧] وكأنه يجعل ناحية يشير بيديه، قال أبو بكر ﷺ في الثانية أو الثالثة: «كفانا يا رسول الله» قال عمر ﷺ: «دع رسول الله ﷺ يصف [ويبشرنا][٨] بفضل الله علينا».

قال أبو بكر: «حثية من حثيات ربنا تكفينا» فكان أبا بكر عرض بأن الله واسع كريم وسع كل شيء، وبحثية واحدة يسع كل شيء، ففهم من التكرار أنه إخراج بعد إخراج، وأراد عمر التأنس بكثرة الحثيات، وكان أبا بكر أعلم الرجلين فتفهم، وتفطن إلى فيض جوده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وسبق رحمته، هي كلمة من كلماته

---

(١) في النسخة (ق): «من النار».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «وفي أخرى ومن خافني».

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٣٥٧)، والترمذي (٢٤٣٧) وقال: حسن غريب. والطبراني (٧٥٢٠)، وابن حبان (٧٢٤٦)، والدارقطني في «الصفات» (٥٠)، وابن ماجة (٤٢٨٦)، والديلمي (٧١١٣).

(٥) في النسخة (ق): «سرد الحديث».

(٦) في النسخة (ق): «بعد ذلك».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «أو ليبشرنا».

[وكلماته][(١)] تامات نهايات، كيف تصاعد من سبعين ألفًا إلى سبعمائة ألف إلى أضعافها، وإلى أضعاف أضعافها إلى ما لا يتطرق إليه التحصيل، ولا يحصره إلا علمه المحيط وسعة جوده.

[قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة**»[(٢)].

وفي أخرى: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأخذ أهل اليمين بيمينه، وأهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يديه يمين مباركة**»[(٣)].

هذا الذي تقدم من الكلام على بعض الوجوه الواردة عن علماء السلف - رضي الله عنا وعنهم - والذي يصح من مفهوم الخطاب العلي قوله: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا**﴾[(٤)] وقال في الشهداء مثل ذلك ﴿**مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [هود:١٠٦ - ١٠٧] أي: في طول مدة البرزخ الذي عبَّر عنه قوله الصدق: ﴿**وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون:١٠٠].

وهذه مدة دوام السماوات والأرض على التحقيق، وما بعد ذلك هو الدوام الأبدي والخلود السرمدي في دار القرار، فأخبر عز جلاله عن مصير هؤلاء وهؤلاء في دار البرزخ، واستثنى من حكم الخلود الذي هو الأبدي الدائم ما قد شاءه، ثم

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أي: فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فمستقرّون في النار لهم فيها زفير وشهيق. قال الزجاج: الزفير من شدّة الأنين، وهو المرتفع جدًّا. قال: وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير، والشهيق بمنزلة آخره.
وقيل: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف.
وقيل: الزفير: إخراج النفس، والشهيق: ردّ النفس.
وقيل: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق.
وقيل: الزفير: ترديد النفس من شدّة الخوف، والشهيق: النفس الطويل الممتد، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل: ما حالهم فيها؟ أو في محل نصب على الحال. فتح القدير (٤٨٣/٣).

يرجع جل ذكره خلود ذلك اليوم الذي لم يشأ لهؤلاء ولهؤلاء خروجًا على خلود يوم دوام السماوات والأرض.

فخصت المشيئة العالية من الخلود الدائم الأبدي البعث والنشور بما ضمنه إياه من حكم، وقد كان استحقاقهم لكفرهم أو إيمانهم لخلود هؤلاء؛ لأنهم آمنوا بالوجود الموجود، وبالله الدائم القائم، ولأنهم كفروا بآياته في الوجود في السماوات وبالله الدائم القائم، الأول الآخر، الظاهر الباطن، فكان من مشيئته الفضل بإخراجهم يوم الخروج إلى العرض يوم النشور بما في ذلك من حكم عدل وفصل في تقديم وتأخير، وعطاء ومنع، وإكرام وإهانة، فافهموا فهمنا الله وإياكم عنه.

إنما هي دوائر يديرها بأمره العلي كما شاء حياة أولى، وهي هذه ليسوا في هذه ولا في هذه إلا في باطن من الأمر والنهي، وحكم الفيح والفتح والإيمان والكفر، ثم يصيرهم بعد الموت إلى هذه أو هذه في خلود ما دامت السماوات والأرض، ثم يخرجهم منها للتوقيف والعرض بجميع أحكام ذلك، ثم يعيدهم إلى هذه أو هذه في الخلود الدائم السرمد، فرجعت بذلك دائرة الكونين أولاها على أُخراها، جعلنا الله من المكرمين في ذلك كله إنه هو الولي الحميد](١).

فصل

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن [علم المتقين](٢) تتفاوت علومهم على مقدار درجاتهم، وتفاوت محالهم [إعلامًا](٣) علمًا بالإضافة إلى من ليس بملك ولا رسول علوم الصديقين، وشهداء العلماء وهو إيمانهم بالغيب، ثم علم [المتقين](٤) يتلوه في الدرجة الثانية دونه.

قال الله ﷻ: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١ - ٢] [إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «أهل اليقين».

(٣) في النسخة (ق): «أعلاها».

(٤) في النسخة (ق): «الموقنين».

هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]](١).

وقد تقدم في صدر الكتاب أن علم الغيب على درجات، فالعلم بالله ﷻ ووجوده ووحدانيته وألوهيته، والعلم بأسمائه ﷻ وصفاته بدلائل ذلك، وبراهينه وشواهده من الموجود والكتاب، ثم العلم بالكتاب والرسول والنبوة، وما جاءت به وما نحا نحو ذلك وما جر إليه، ثم العمل بالعلم والعلم بالآخرة، وإنها موجودة على أبعد الغايات وأنهى النهايات على القول بالإجمال، والقطع بعلم: لا ريب فيه وربما أدرك بعضهم من التفصيل طرفًا لكن بشرط الإيمان بأن وراء ما أدركه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يعلم لذلك [أنبياءه](٢) بعلم لا ريب فيه، ثم ما بين هذه المنزلة والمنزلة التي أدركها بتفصيل ما مهامه علوم بعيدة الآفاق، وبحار معارف لا يعبرها إلى ذلك المزيد إلا صريح الإيمان مع طمأنينة [النفس](٣)، ومساعدة العقل الإيمان، وانشراح الصدر لعظائم ترد [على](٤) خارجة عن المعهود، فهذا وشبهه من علوم الموقنين.

ثم - أعلم علمك الله العليم من علمه وأجزل حظك من معرفته - أن العلم الذي يخص [الصديقين واحد](٥) إلى ما تقدم ذكره هو علم واحد أوله علم الفطرة، وهو علم عموم المؤمنين والمعرفة واحدة، فلا تحسبنها مختلفة؛ أعني: معرفة الصديقين ومعرفة العوام في أولها؛ لأن الخالق [واجد](٦) والمطلوب [واجد] والمعروف بها واحدة، والفطرة واحدة، إنما هو الله ﷻ نبَّه رجالاً فانتبهوا.

ولو أن من قرأ العلم على العلماء وسمعه منهم رجع إلى ربه فقرأه عليه، ثم طلب منه حقيقته حتى يسمعه بإذن قلبه، ويعيه منه بحقيقة ذاته انتفع به، وبلغ منه حيث لم يحتسب، فاعمل - رحمك الله - بما تعلم يعلمك الله ما لم تعلمه، والمقام

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أيضًا».
(٣) في النسخة (ق): «اليقين».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «الموقنين والصديقين زائدًا».
(٦) في النسخة (ق): «واحد».

الذي حله الصديقون هو معرفته بذاته وحده، [فرأوه][١] قبل أن يظهر خلقه، فلما أظهر خليقته عرفوها - [يعني][٢]: الخليقة - فلا تسل عن كريم محلهم، ورفيع ما بُوِّءوا منه، إنما شاهدوها بالله وشاهدوه بها، فشهدوا له بما شهد به لنفسه، وشهدوا لها وعليها بما شهد به لها وعليها، فهم الشهداء الأُوَل، وهم القدوة فيها للشهداء سواهم، وهم السابقون إلى ذروة المحل الأعلى من الفهم والعلم.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩] ولما حلوا هذا المحل وأقيموا هذا المقام وصدقوا فيه انفجرت لهم ينابيع العلوم في قلوبهم من ذلك المفجر مياه عذبة [صافية][٣] كافورًا وزنجبيلاً، سلسالاً تسلسل على خفي ذواتهم من رفيع المستوى، كل يُسقى بكأسه ويعرف له من نهره، فالعلم الذي نشأ إليه إيمانهم هو العلم الذي لا يجوز عليه اعتراض الشك، ولا ينبغي عنده التنازع، ولا يختلف فيه إلا الجاهلون به، وهو مما يلزم الإيمان به كما قال رسول الله ﷺ: «**إن من العلم ما يكون كهيئة المكنون....**»[٤].

قال: ولا ينبغي عند نبي تنازع، ولما كان علمهم من قبيل أنباء الإلهام والأشعار والمحادثة والتكليم لم ينبغِ التنازع عنده ولا فيه، فمن [أجاب][٥] وحسَّن الاستماع فيما فهموا منه اعتقدوه وحمدوا الله على ذلك، وما لم تبلغه أفهامهم لم يتعرضوا عليه بتكذيب، وهو العلم الذي لا يحتاج إلى دليل يدل عليه؛ لصحته عند من عرفه، ولا يعرفه إلا أهل الإيمان بالله، وهو العلم الذي لا [يسمح بإلحاح السؤال][٦]؛ إذ أكثره خارج [عن معظم][٧] الاستطاعة، بل أكثره عن نفحات البر الكريم ﷻ وتعالى

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أعني».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) أخرجه الديلمي (٨٠٢).
(٥) في النسخة (ق): «أدب سامعيه».
(٦) في النسخة (ق): «يستخرج بإلحاح سؤال».
(٧) زيادة في النسخة (ق).

علاؤه وشأنه، وفتوحات من الفتاح العليم، وعلومهم هذه مبنية على قواعد الإيمان العلي، وهو أن الله هو [الواحد][(١)] الصمد، ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا على سواء التوحيد الأعلى.

وقواعدهم التي أسسوا عليها أساطين بنيانهم هي أن الله ﷻ [لا يعجزه][(٢)] شيء، ولا يفوته شيء ماضي الأمور لديه كمستقبلها إن شاء ردها فكأنها لم تكن، وإن شاء أمضاها فكأنها لم تزل، وإن شاء أن يصعد [صعد][(٣)] ولا يخلو منه السفل، وإن شاء نزل ولا يخلو منه العلو من غير تكليف لصعوده ولا نزوله سوى الإيمان بأن له نزولاً وصعودًا، وإنه في كل مكان ومع كل موجود دون مكان، ولا معية صحبة ولا حركة ولا انتقال، بل هي صفات له وأوصاف يوصف بها، اتصف بها في وجوده الأزلي ما [ها][(٤)] هنا صفة [مما يعبر به عن ذلك][(٥)] مأخوذ [عما][(٦)] هنالك، وتلك منزهة عن أوصاف المخلوقين ونعوت المحدثين، وهو الذي لا يتعذر عليه أن يتصف بما شاء.

وله المثل الأعلى بكل وجه وبكل معنى، إن شاء تكلم ولا يزداد بالكلام قدرة، وإن شاء لم يتكلم ولا ينقصه ترك الكلام قوة، لا يعتوره حدث السكوت والكلام، إن شاء أسمع الخلق كلامًا بلا إلهام، وإن شاء قوى أبصار العباد على رؤيته كما إن شاء أن يضعفها عنه، وإن شاء قصر طول الدنيا كلها حتى يكون السائر في طريقه خطوة واحدة، وطول قصر الذراع حتى لا ينقطع مسافته أبدًا، وإن شاء أسكن [الكثير في القليل][(٧)]، وإن شاء أسجن الواسع في الضيق، وإن شاء جمع جميع خلقه في خردلة، وأسمع الميت الرميم الذي لا يسمعه الحي السوي، وحجب أذن

---

(١) في النسخة (ق): «الأحد».

(٢) في النسخة (ق): «ليس كمثله».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «من كريم أسماء وأوصاف وصفات موجود عن وجوده خلقًا وأمرًا».

(٦) في النسخة (ق): «مما».

(٧) في النسخة (ق): «القليل في الكثير».

الحي السوي عن سماع الرعد القاصف في وقت تسمع فيه وطء النمل على رءوس الشواهق.

وقد تقدم ذكر القواعد الستة في صدر الكتاب من علومهم، ومن أذكارهم:

- لا إله إلا الله.
- الله الله [الله][١]، ولا قوة إلا بالله.
- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.
- الحمد لله.
- لا يأتي بالخير إلا الله، لا يذهب السوء إلا الله.
- لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع.

ومن آياتهم في القرآن:

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ * أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:١٦ - ١٧].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧].

وكل آيات القبض فهي دعائم علومهم، وعنها دعائم [حقائق][٢] معارفهم مع اعتقادهم جميع خطاب البسط.

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا لا حساب عليهم، وجوههم كالقمر ليلة البدر، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم**» فسئل رسول الله ﷺ: من هم؟ قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[٣].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٦١٠٧)، مسلم (٢١٨)، وأحمد (١٩٩٩٨)، والطبراني (٣٦١٩)، والبزار (٢١٢٠).

فتوحيدهم في الأعمال على حقيقة التوكل؛ لأن التوكل [هو][(١)] فعل القلب [وعلمه][(٢)] كما أن حلول التوحيد فيه هو علمه، [واعتقاده التوحيد هو علمه][(٣)]، والتوحيد ينقص بنقصان التوكل؛ إذ التوحيد عبارة عن معانٍ ثلاثة، وهو علمك ألا يفعل فعل الله غير الله ونفي التهمة عنه [وعلمك بما يعرف][(٤)] هو ظاهر التوكل، فإذا نقص العمل بذلك نقص التوحيد.

وأما توحيدهم في رؤية الأشياء فهو أنهم لا يرون الدواء والشفاء في الأطعمة ولا في الأشربة، ولا يرون الشبع والرِّي في المآكل ولا في المشارب، وإنما يرون الشفاء فيما أحل الله وفي العمل بطاعته، والداء كله فيما حرم الله والعمل بمعصيته، ولا يرون الموت إلا الكفر، ولا الحياة إلا الإيمان بالله والعمل بطاعته، ولا مرض إلا الشك، ولا دنس إلا دنس العصيان.

ومن توحيدهم: أن ليس للأشياء فعل بأنفسها قطعًا، وإنما الأفعال التي تشاهد منها إرادة الله بها، وفيها استوى عندهم وجود الموجودات في استمرارها على معهودها ومعارفها، وفي إخراجها عن [أسبابها][(٥)] بخرق العوائد فيها، فإذًا لا فاعل ولا ضار ولا نافع إلا إرادة الله بها وفيها، ولذلك ما استقر بهم التوحيد على أن الله جلَّ ذكره إن شاء أن يحرق بالذي به بردوا، إن شاء أن يبرد بالذي به أحرق، وإن شاء أسقم بالذي شاء أن يبرئ به، وإن شاء أن يبرئ بالذي شاء أن يسقم به، وإن شاء أشبع بالذي شاء أن يجوع [به][(٦)]، وإن شاء جوع بالذي شاء أن يشبع به، ليس عندهم في الأشياء معانٍ تُفعل بذاتها، [بل][(٧)] الفاعل الحق بها هو الله وحده لا شريك له، فمن يسره الله للتوحيد الأعلى يسره للعمل بمقتضاه، فهو صديق من

---

(١) في النسخة (ق): «في الحقيقة».
(٢) في النسخة (ق): «وعمله».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وعملك بما تعرف».
(٥) في النسخة (ق): «سبيلها».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «إنما».

حيث إنه كثر منه الصدق والتصديق في علمه وعمله [وفي آيات الله جل ذكره في الوجودين العالم والوحي](١) من حيث إنه [هو](٢) بمكان يشرف منه على معالم النبوة فيصدق به ظهرًا وبطنًا.

قال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد يصدق حتى يكتب عند الله صديقًا»(٣).

والصدق شامل للقول والعمل، وهو إذا بلغ هذا [ييسر](٤) له علم ما [اختلفت من أجله](٥) هذه المعاني ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد.

[فصل]

ليس في الوجود كله إلا الله](٦) وتحققه قوله الحق: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] إلى آخر المعنى.

وقوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٣ - ٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] فبهذا يتبين لك فهم ما نحن بسبيله، فلنسأل الله جلَّ ذكره أن يجعل له هذا العلم حالاً ووصفًا وصفة، فقد يورثه ما لم يتحقق حاله في ذلك ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧)، وأبو يعلى (٥١٣٨)، وابن حبان (٢٧٣)، والبيهقي (٢٠٩٢٧).

(٤) في النسخة (ق): «تيسر».

(٥) في النسخة (ق): «اجتلب إليه».

(٦) سقط من النسخة (ق).

فصل

قال الله عزَّ من قائل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود:١٧] المعنى، وقد تقدم الكلام على هذا.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود:١٨] وقد تقدم الإعلام بما انتظم به هذا الخطاب.

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣] يعني: تواضعوا الخبت من الأرض المطمئن منها.

إلى قوله جل قوله: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤] يقول: مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم، وهم الذين على بينة من ربهم، ويتلوهم شاهد من الله كتابه ومعاني [توجبه][(١)]، ومثل المفترين على الله الكذب ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٥].

يقول: مثل هذين الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع، ولم يقل: كالأعمى والأصم والسميع إذ الغرض الإخبار عن المبصرين الآيات والسامعين شهادتهما، وما يقولها ربها ﷻ من حكمة ويهدي [المؤمن][(٢)] هداية، [وقد أوجد ﷻ في عباده من هو أعمى الأصم والبصير والسميع؛ لأنه][(٣)] قد أوجد الله ﷻ في عباده من هو أعمى وهو سميع، وأوجد أيضًا من هو بصير لا يسمع.

فالأعمى مثال للذي يقرأ القرآن ويشهد بالشهادتين ولم يرَ الآيات، ولا استشهد لله ﷻ بالشواهد، وكثيرًا ما يجعل هذا في باطنه نورًا من بصر باطنه فيمشي

---

(١) في النسخة (ق): «وحيه».

(٢) في النسخة (ق): «إليه من».

(٣) سقط من النسخة (ق).

به في الناس، وسبيل هذا أن يتخذ عبدًا من [عبيد][١] الله عالـمًا يقتدي به ويقلده، يقوم له مقام العصا للأعمى فيتجسس بها ويعنون ، فإن كان لهذا الأعمى قائد مبصر فهو كمن وفقه الله للاقتداء بالرسول ﷺ.

فإن قارئ القرآن والحديث ما لم يتبصر البينات، وينظر في الموجودات، ويتدبر كتاب ربه فهو بعد [أعمى][٢]، فإن اقتدى برسوله واتخذه إمامًا كان كالأعمى اتخذ [عصا][٣] قائدًا مبصرًا نبيلاً، وإن اقتدى بمن سواه من علماء الأمة كان كالأعمى اتخذ عصا قائدة إلى مقاصده، وفي ذلك عميان ومتاع، وإن كان قد قصرت به همته عن غايته التي أهل لها مثله [كمثل السميع لا بصر له][٤]، ومثل المبصر لا سمع له كمثل المعتمد على نظره المقتصر على معقوله الباحث بحاسته في الموجودات.

فغاية هذا: أن يسلك بين المحسوسات الجزئية بحاسته، ويستقرئ المقولات الكلية [يفهم ذاته بزعامته][٥]، فيستخلص من ذلك علمًا ظاهريًا يقف به على طباع الجسميات وما قرب منها، ولبعده عن [السمع وغيبته عن][٦] السماع كان كالمنادى [من حيث][٧] لا يسمع النداء [لا يوعد، ثم السمع][٨]، فهو من أجل ذلك يحسن الظن بنفسه من حيث إنه ربما رأى في نظره [لقاء ربه][٩] وأحس بقربٍ، ولم يكن له سمع يوصل إليه [تحقيق][١٠] معاني ما رآه، ولا [يتميز][١١] ما أحسه فتاه [من أجل

(١) في النسخة (ق): «عباد».
(٢) في النسخة (ق): «أمي».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «بفهم ذاته زعامًا منه».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «لأنه عدم السمع».
(٩) في النسخة (ق): «مقاربة ما».
(١٠) في النسخة (ق): «تحسين».
(١١) في النسخة (ق): «تمييز».

ذلك][(١)] في مهامه وطرقاته وهو لا يشعر، وعمه في مجاهل جهالاته وهو لا يفطن، [وببصره][(٢)] واعتماده على عقله [ورجوعه][(٣)] إلى حسه يظن أنه قد بلغ علمه إلى كل علة ومعلول.

وهذا طريق ينقطع بالسائر عليه دون البلاغ، ولا يصل فيه سالكه إلى المطلوب الأعلى، بل إنما يصل إليه بأن يعرف مراد ربه [منه][(٤)] فيمتثله، ويعرف ما يكرهه فيتجنبه، وإلا كان شارعًا لنفسه آمرًا ناهيًا على نحو ما يهواه، فهذا يمشي بين السامعين والمستمعين غافلاً سادرًا، أو كالمبهوت الحائر لا يسمع الداعي فيجيب المنادي، فمتى وقع بصره على الحادي [وأحسن لشخص][(٥)] المنادي لم يسمع ما يقوله، ولا يعقل منه ما يريده إذا لا يعلم ما هو مراد الله وما فيه رضاه إلا من جهة السمع وذلك لا يكون إلا بواسطة رسول من عند الله وكتاب يأتي من عنده.

وهذا متى ركن إلى سامع وأنس إلى مسمع حتى يتعلم إشارته، ويفهم بذلك مراداته دخل في المفلحين، وشمله اسم الناجين، وعمَّه عام الخطاب، وحصل من [حمله][(٦)] الأتباع، وإلا بقى سادرًا في مهامه أسفاره، عديم الوصول بأفكاره [وأذكاره][(٧)]، يظن أنه قد وصل، وهو قد ضل من حيث لا يدري [تراه أبدًا يدين][(٨)] بتدقيق النظر في امتثال النقير والقطمير، وقد صد عن الوصول إلى مراد العلي الكبير، آية ذلك في الوجود وجود الممنوع السمع عن متكلم، وليس معنى الكلام سوى العبارة عن الوجود [العلي][(٩)]، وذكر العلي الأعلى بمحامده وأذكاره، والفهم عنه والعلم لمراده.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ولثقته ببصره».

(٣) في النسخة (ق): «وركونه».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وأحس بشخص».

(٦) في النسخة (ق): «جملة».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) سقط من النسخة (ق).

قوله تعالى: ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود:٢٤] مثل السميع هنا: هو حامل القرآن، المتبع الوحي، السامع من المبلغ عن الله ﷻ، ومثال البصير هنا: هو [النافد](١) في الفكر، [المجاهد](٢) بمعاني الكتاب والوحي، المستشهد بالشواهد، المهتدي بآيات الله وبيناته، الناظر في مسالك معاني أسمائه وصفاته في العالم، المشاهد للدار الآخرة من دار الدنيا، الناظر بموجودات الآخرة بموجودات الدنيا حتى كأنها منه برأي عين، ذلك النير الباطن الظاهر، الخريت(٣) في طَرَقات أسفار الأفكار، الهادي في المشكلات، القائم مقام النور في الظلمات، الماشي على الصراط المستقيم ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هذا واللذان تقدم وصفهما ﴿مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: العرب وكفار الأمم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: إنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا ولا أنزل به كتابًا، يقول عز من قائل: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩] أي: نصيبهم المكتوب في [الكتاب](٤) من أرزاقهم وآجالهم وآثارهم وفي الآخرة؛ أي: من جزاء على ذلك غير منقوص من ذلك الشيء وعيد منه إليهم شديد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾
وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ

(١) في النسخة (ق): «الناقد».
(٢) في النسخة (ق): «الماهر».
(٣) أي: الدليل، الحاذق، الماهر.
(٤) في النسخة (ق): «الدنيا».

ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود: ١١٠ - ١١٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود:١١١] «إن» [لتأكيد][(١)] الخبر كما يقال: إن زيدًا [أظلم][(٢)].

[﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾][(٣)] للنفي في هذا على قراءة من قرأ بتخفيف الميم؛ فإنها قرئت بالتثقيل في ميم «لما» والتخفيف [بمعنى][(٤)] ثقلت كانت اللام والميم بمعنى «لم» كقولهم: «لم يقم زيد» و«لما يقم زيد» فقوله جل قوله: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا﴾ كلام قائم بنفسه لما تقدم من العلم وتقرر في النفوس من معناه، ويقال لهذا: الخطاب الموجز، ولا يكاد يحتاج أن يقدر له محذوف لبيان عرفه، ومحذوفه حاضر في نفس المخاطب مفهوم بأول وهلة، ولذلك جاز إطلاقه في كلام العرب مخذولاً من آخره، وهو كثير في [خطابهم][(٥)] شائع في كلامهم مع إنجازه، يقوم على ذلك مقام التام المذيل في [بادئه][(٦)] المراد به كقولهم: إن كنت تفضلت فمثلك لم يزل محسنًا، فهلا يا هذا توقع الموت فكان قد جميعنا، فكأنما لم تفِ يا غادر فلِمَ لم وهو كثير رفيع في خطاباتهم ومحاوراتهم؟ ولثبوت هذا من أن الجزاء كله الذي هو [الآجل][(٧)] لا يكون إلا بعد إلحاق الأولين بالآخرين، وإنه إذ ذاك يعيدهم ويحضرهم بين يديه للعرض والجزاء في عرصة القيامة.

أوجز في الكلام للزومه، وحصول اليقين بوجوده، وكان ذلك أظهر لجزالة التهديد، وأبين لشدة الوعيد، والمخزول [من][(٨)] الكلام هو [أن لو][(٩)] تداركوا

---

(١) في النسخة (ق): «للتأكيد ولام قوله لما تأكيد».

(٢) في النسخة (ق): «لقائم».

(٣) في النسخة (ق): «وميمها».

(٤) في النسخة (ق): «فمتى».

(٥) في النسخة (ق): «خطاباتهم».

(٦) في النسخة (ق): «تأدية».

(٧) في النسخة (ق): «للآجل الآخر».

(٨) سقط من النسخة (ق).

(٩) زيادة في النسخة (ق).

وتلاحقوا، أو ما يكون في معنى ذلك فمجاز الكلام على قراءة من قرأ بالتخفيف، وإن كلاً لما تداركوا بعد، وعلى قراءة [التثقيل](١) وإن كلاً لما يلحقوا ونحو هذا، ويتصل قوله جل قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ [أي](٢): أعمالهم بما قبله بتقدير «إذن» أو ما يكون في معناها سياق الكلام، وإن كلاً لما يلحق آخرهم بأولهم أو لما تلاحقوا بعد إذًا ليوفينهم ربك أعمالهم.

ونظيرتها في سورة «يس» [قوله جل قوله](٣): ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] قرئت أيضًا بالتثقيل والتخفيف(٤) وسيأتي [بيانها في](٥) موضعها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٦) [هود:١١٢] الاستقامة الأولى [لزوم](١) الإيمان باطنًا والتحلي بحلية

---

(١) في النسخة (ق): «التخفيف».

(٢) في النسخة (ق): «ربك».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) هذه الآية الكريمة ممَّا تكلم النَّاس فيها وحديثاً، وعسر على أكثرهم تلفيقها وتخريجاً، فقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم «وإنْ» بالتخفيف، والباقون بالتشديد. وأمَّا « لمّا » فقرأها مشدَّدةً هنا وفي «يس» وفي سورة الزخرف، وفي سورة الطارق، ابن عامر وعاصمٌ وحمزة، إلَّا أنَّهُ عن ابن عامر في الزخرف خلافاً، فروى عنه هشامٌ وجهين، وروى عنه ابن ذكوان التخفيف فقط، والباقون قرءوا جميع ذلك بالتخفيف، وتلخَّص من هذا أنَّ نافعاً وابن كثير قرأ «وإنْ» و«لمَا» مخففتين، وأنَّ أبا بكر عن عاصم خفَّف «إنْ» وثقَّل «لمَّا» وأنَّ ابن عامر وحمزة حفصًا عن عاصم شدَّدُوا «إنَّ» و«لمَّا» معًا، وأن أبا عمرو والكسائي شدَّدَا «إنَّ» وخففا «لما» فهذه أربعُ مرات للقراءة في هذين الحرفين، هذا في المتواتر. وأمَّا في الشَّاذ فقد قرئ أربعُ قراءاتٍ أخر: إحداهما: قراءة أبي والحسن وأبان بن تغلب «وإنْ كلٌّ» بتخفيفها، ورفع «كل»، و«لمَّا» بالتشديد. [اللباب لابن عادل (١٧٤/٩)].

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) لما بيّن أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وأطنب سبحانه في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثل الاستقامة التي أمر بها، وهذا يقتضي أمره ﷺ بوحي آخر ولو غير متلو كما قاله غير واحد، والظاهر أن هذا أمر بالدوام على الاستقامة، وهي لزوم المنهم المستقيم، وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق، فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه ﷺ وبين سائر المؤمنين،

الإسلام ظاهرًا، والاستقامة الثانية [الثبوت][٢] واللزوم كما كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»[٣] فهذه الاستقامة هي التزام التوحيد عقدًا وقولاً وعملاً كما تقدم في التوحيد الأعلى.

قوله عز قوله: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود:١١٤] [هو][٤] مصداق لقول رسول الله ﷺ: «**الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما**»[٥].

طرفا النهار: الصبح والعصر، وزلف الليل: [المغرب][٦] والعشاء، والصبح أيضًا من زلف الليل، والزلفى: القرب، فهي معدودة من صلاة الليل للجهر فيها، معدودة من صلاة النهار [لطلوع الفجر][٧].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿**ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود:١١٤] الذكر ذكر اللسان مع موافقة القلب.

قال الله ﷻ: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢] والذكرى تأنيث للذكر كما الحسنى تأنيث الحسن، والذكر حال الذاكر يكون عن ذكر الله سبحانه الذاكر بها.

=

والأمور الخاصة به ﷺ من تبليغ الأحكام، والقيام بوظائف النبوة، وتحمل أعباء الرسالة، وغير ذلك، وقد قالوا: إن التوسط بين الإفراط والتفريط بحيث لا يكون ميل إلى أحد الجانبين قيد عرض شعرة مما لا يحصل إلا بالافتقار إلى الله تعالى، ونفي الحول والقوة بالكلية، ومثلوا الأمر المتوسط بين ذينك الطرفين بخط يكون بين الشمس والظل ليس بشمس ولا ظل، بل هو أمر فاصل بينهما، ولعمري إن ذلك لدقيق؛ ولهذا قالوا: لا يطيق الاستقامة إلا من أيد بالمشاهدات القوية والأنوار السنية. [الألوسي (٣٨٨/٨)].

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الثبات».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٥٨)، وأحمد (١٧١٥٥)، وابن حبان (١٩٧٤)، والطبراني (٧١٣٥)، والحاكم (١٨٧٢) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأبو نعيم في «الحلية» (٧٧/٦). والنسائي (١٣٠٤).

(٤) في النسخة (ق): «هذا».

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «للفجر».

قال رسول الله ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصليها إذا ذكرها**»[1] فإن الله يقول: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه:١٤].

ثم قد يتوجه على هذا أن تكون الذكرى اسمًا لذكر الله العبد برحمته، ثم عرفت [للعبد في علوم][2] الإنباء والنبوة، فإذا ذكر الله عبده بأن يصلي [صلاة][3] كذلك إذا ذكره بأن يطيعه [بقول أو عملاً ما طاعة][4] بذلك، فذكر الله العبد هو الذكرى معرف ، وهو الأكبر في الذكر والعمل كله، يقال من ذلك: «ذكرى وذكر» كذلك جاءت [الثلاثة][5].

يقول الله جل من قائل: ﴿**ذَلِكَ**﴾ أي: الصلوات لمواقيتها ﴿**ذِكْرَى**﴾ من الله ﴿**لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود:١١٤] وليست للغافلين، هو الأول في الذكر وفي غيره، والظاهر والباطن، ومن ذكر الله ﷻ عبده لأجل الذكر ما أنبأنا به رسول الله ﷺ في تلاوة العبد أم القرآن، فهو ﷻ يذكر عبده لما ذكره، وذكره إياه لأجل ذكره له بطاعته في الأعمال يكون منه ما يذكره به بما أعده له من جزاء عاجل على ذلك وآجل ذكره لأجل الصلاة هو نزله في الجنة ولقاؤه ورؤيته؛ إذ الصلاة [لها][6] باطن؛ إذ المصلي يناجي ربه وهو مواجهه.

ثم قال عز من قائل: ﴿**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [هود:١١٥] أي: اصبر على أدائها في مواقيتها بطهورها وخشوعها وجميع ما جعلت له، ومن أجله تكن من المحسنين، وفي مفهوم هذا يحبك الله ويتولاك بولايته كما قال جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة:١٩٥] ﴿**وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت:٦٩].

كذلك قال: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ [طه:١٣٢] ويكون زائدًا

---

(١) أخرجه بنحوه أبو يعلى (٨٩٥)، والطبراني (٢٦٨).

(٢) في النسخة (ق): «للعهد في معلوم».

(٣) في النسخة (ق): «صلى».

(٤) في النسخة (ق): «أو عمل ما أطاعه».

(٥) في النسخة (ق): «التلاوة».

(٦) في النسخة (ق): «لقاء».

على ذلك، واصبر على أذى من آذاك كما قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥] أي: بالدعاء عليهم بالهلاك، فيكون منتظمًا بقوله: ﴿وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٦ - ١١٩].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: من وراثة النبوة والرسالة ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود:١١٦] أي: لم يكن من أولئك [منهم][(١)] إلا قليلاً ممن أنجينا منهم [فكان لأولئك قليلاً][(٢)] [يهدينهم][(٣)] أنجوا فيمن اتبعهم واهتدى بهدايتهم.

وقبل نصائحهم من ذرياتهم وأهليهم وآبائهم وإخوانهم كما قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي بغير حساب سبعون ألفًا مع كل ألف سبعون ألفًا، وسبعمائة ألف مع كل ألف سبعمائة ألف»[(٤)] فواحد من سبعين في خير القليل، وأعرق منه في وصف القلة واحد من سبعمائة.

وقد يكون الاستثناء من المهلكين فيقدر بعد قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ [عرف][(٥)] أنه تقديره: فلولا أنه ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ [أي: من الصالحين كانوا][(٦)] ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ ثم يقدر

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «ممن أنجى لأنهم».
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) في النسخة (ق): «حرف».
(٦) زيادة في النسخة (ق).

[بتقدير](١) آخر وهو: لأهلكنا تلك القرون كما أهلكنا من ذكرنا من المهلكين ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ فاستثنى المنجين من المهلكين كنوح ومن أنجاه معه في الفلك، وأصحاب هود وصالح [وغيرهم](٢)، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

ثم قال: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾(٣) [هود:١١٦] والمعنى: والذين ظلموا هم المهلكون من أسلاف المنجين ومعاصريهم، يقول: واتبع الذين ظلموا ما أترف أولئك فيه وكانوا - يعني: أولئك - مجرمين، وأهلكناهم لذلك [أيضًا](٤)، فهل ينظر هؤلاء إلا مثل [أيام الذين جنوا](٥) ما حل بمن قبلهم من ذلك.

[قال](٦) جل قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] والإصلاح هو العمل [بطاعة الله](٧) والنهي عن المنكر، فمتى كانت بقية في القرون ينكرون المعاصي [وبالقنوت](٨)، ويتأوهون [لسماعها](٩) ورؤيتها، وقاهم الله عذابها بإيمانهم ودعائهم.

---

(١) في النسخة (ق): «مقدار».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ معطوف على مقدّر يقتضيه الكلام، تقديره: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، والمعنى: إنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه، والمترف: الذي أبطرته النعمة، يقال: صبيّ مترف: منعم البدن؛ أي: صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة ، واستغرقوا أعمارهم في الشهوات النفسانية. وقيل: المراد بالذين ظلموا: تاركو النهي. وردّ بأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا، وهم أشدّ ظلمًا ممن لم يباشر، وكان ذنبه ترك النهي. فتح القدير (٤٩٦/٣).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «بقوله».

(٧) في النسخة (ق): «بالطاعة».

(٨) في النسخة (ق): «ولو بالقلوب».

(٩) في النسخة (ق): «عند سماعها».

فصل

حكي عن الخليل بن أحمد - رحمة الله عليه - أنه قال: «لولا» في القرآن معناها «هلا» إلا التي في الصافات، قوله جل قوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ - ١٤٤] وقد تقدم الكلام فيها على الوجهين.

[وقال][١] أيضًا: إن حرف «لو» يجيء عبارة عن امتناع الشيء لوجود غيره، أو لوجود الشيء لامتناع غيره، فأمرها إذًا مركب من إيجاب ومنع، واتصلت بها لترجحها إلى [أحد الجنتين ليفهم][٢] خطاب ما اجتلبت من أجله فتقدير قضيتها قبل دخول «لا»: فلو كان من القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض لأنجيناهم بذلك، ثم جاءت «لا» فأرجحتها إلى امتناع وجود أولئك، ثم جاءت «إلا» فاستثنت بعض القرون [من] [٣] كلها في وجود أولئك السادة ومن [اتبعهم][٤] ممن أهلك ثم عادت بتأويل «هلا» على المنجين، فاستثنت منهم البقية الصالحة الذين هم ينهون عن الفساد في الأرض [لو كان ذلك][٥] لأنجيناهم إلا قليلاً.

ممن أنجيناهم من المهلكين مع عامة المجرمين كما سئل رسول الله ﷺ [أنهلك يا رسول الله وفينا الصالحون][٦] قال: «**تردون موردًا واحدًا وتصدرون مصادر شتى**»[٧] وكما قال [الله][٨] جل قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] ونحو هذا، ومن تحقق النظر في كل «لو» أو «فلولا» جاءت في القرآن العزيز وحدها على ما تقدم ذكره من تركيب المعنى.

---

(١) في النسخة (ق): «وقالوا».
(٢) في النسخة (ق): «إحدى الحسنيين لنفيهم».
(٣) في النسخة (ق): «لقاء».
(٤) في النسخة (ق): «تبعهم».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) تقدم تخريجه.
(٨) زيادة في النسخة (ق).

قوله ﷻ: ﴿وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] يعني: ما قص عليه من لدن قصص نوح ﷺ إلى آخر الأمم وما قاسوه من تكذيب أممهم إياهم، وخلافهم وعتوهم عليهم ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ يعني: السورة ﴿الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠] [أنه لما آمنوا برسل ربهم نجوا من العذاب وأهلك المكذبون فهكذا يكون الحكم في الآخرة وفي حال البرزخ](١).

فصل

لم يشترط الله - جل ذكره - الذكرى والموعظة إلا للمؤمنين، أما سواهم فإنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، أموات غير أحياء.

قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب. قال: «**شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**»(٢).

هذا وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما [بالنا](٣) نحن لا نخاف ولا نخشى؟! أأمنا ما خشي هو ونحن المغرقون في بحار الذنوب، المزملون ملابس الآثام، قد آمنا كل [ذاهبة](٤) ونسينا كل واعظة، ألسنا لهم خلفًا وهم لنا سلف، ورثنا عنهم أرضهم وعمرنا بعدهم منازلهم ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠].

نسكن ديارهم ونأكل تراثهم، ويقص علينا ربنا [نبأهم](٥)، وكيف كان شأنهم، ولِمَ أهلكهم، فما يزيد قلوبنا [عند](٦) ذلك إلا قسوة، وأعمالنا [بذلك](٧) إلا جفوة،

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧) وقال: حسن غريب. والحاكم (٣٣١٤) وقال: صحيح على شرط البخاري. وابن أبي شيبة (٣٠٢٦٨).

(٣) في النسخة (ق): «لنا».

(٤) في النسخة (ق): «داهية».

(٥) في النسخة (ق): «أخبارهم».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

نقرأ القرآن لايجاوز حناجرنا، ونشاهد آيات الله - جل ذكره - في السماوات والأرض كأنما المراد بذلك كله غيرنا ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٥ - ١٠٦].

أفآمنا أن تأتينا غاشية من عذاب الله أو تأتينا الساعة بغتة ونحن لا نشعر، فكر يا أخي في نفسك بصحة من عقلك هل تجد شيئًا مما عيب به بنو إسرائيل ليس فينا شائعًا ذائعًا؟ أو هل من كل ما قصّه الله علينا في كتابه من ذنوب الأمم التي أهلكوا بها إلا هي أعمالنا؟ ومن بعض سواءتنا الاستعلاء [والفسق][1]، وجعل الناس شيعًا، وتطفيف المكيال والميزان، وقطع السبل، وشدة البطش تحكم الباطل، وترك الأمر بالمعروف، وارتكاب المناهي والمناكير البادية والفواحش الظاهرة، إلى غير ذلك مما يطول ذكره من عيوب وذنوب في أدنى منها أهلكت الأمم قبلنا ونحن الآمنون لا نراع ولا نخشى ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٦ - ٦٧].

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الله وَغَرَّكُم بِالله الغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤].

﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٤ - ٢٥].

قد أظلنا الموت وفاجأنا الفوت، ولا عذر لمفرط ولا حجة لغفول إن أمرًا لم يرغب في ثواب الله، ويخشى عقابه لجهول، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴿إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِالله الغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦].

---

(١) في النسخة (ق): «والقسر».

لا يرجع الغافلون باللائمة إلا على أنفسهم، قد دعانا إلى ما عنده وحذرنا غب ما نحن فيه، فاتقوا الله لعلكم تفلحون.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٠ - ١٢٣].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود:١٢١ - ١٢٢] وعيد وتهديد، صيغة هذا الخطاب صيغة الأمر، والمراد به: التهديد والوعيد، وشاع هذا بعد التبليغ والإعذار والإنذار، فإذا تصامم المرسل إليه جاز [الرسول](١) والمبلغ أن يقول بعد بذل الجهد: اعمل على مكانتك وانتظر ما تنتظره [كان هذا كقوله جل قوله: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [هود:١٢٣]](٢) أي: منتظر بك ما أنذرك به فانتظم هذا المعنى [في](٣) قوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠] ما آمن بالقرآن من استحل محارمه، وما آمن بالله ولا [بالرسول](٤) من لا يأمن جاره بوائقة.

قوله تعالى: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ [هود:١٢٣] [هكذا كقوله](٥) ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى الله المَصِيرُ﴾ [النور:٤٢] لكن [وصف](٦) الملك احتوى على الظاهر من ذلك، والباطن والغيب هو ما غاب عن الحواس

---

(١) في النسخة (ق): «للمرسل».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «بالقرآن».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).

ليس الغيب [إلا][١] بالإضافة إلى المخاطبين، وأما المخاطب ﷻ لا غيب عنده، [وأغرق][٢] في الغيب مما تقدم ذكره ما فات العقول دركه كقوله جل قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] وكقوله جل قوله: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥] ونحو هذا.

ومن هذا الغيب هو ما تؤول إليه السماوات والأرض ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] وهي الآخرة، وهي [غيب شاهدها][٣] الدنيا، وإن كانت الآخرة غيبًا [شهدها] الدنيا، فشاهد غيبها الذي هو ما عبر عنه قوله جل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ومن هذا الغيب ما [يقتضيه][٤] كل يوم وحين من إيجاد ما [لم][٥] يوجد، وتغيير وتبديل وأمر غائب [الهذين][٦] الغيبين.

قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] أي: ما لم يبدُ إلى القلوب [منه][٧] قبل أن [يقدم][٨] فيها من خزائن غيب علام الغيوب، فالغيب مخبوء في الشاهد، والآخرة مخبوءة في شاهد الدنيا، وما يحدثه من [موجودات][٩] الآخرة مما لم تعلمه نفس ولا تسمع به أذن غيب في شاهد الآخرة ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] في الشاهد والغائب مما هو قد كان وما هو لم يكن.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] [ثواب العبادة غيب

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «وأعرق».
(٣) في النسخة (ق): «شاهدت».
(٤) في النسخة (ق): «يقضيه».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «ولهذا من».
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «يقدح».
(٩) في النسخة (ق): «شاهدات».

في شاهدها؛ لذلك قال جل قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾][1] تصديقًا بوعده وثقة بضمانه، وإيمانًا بقدرته على المقدور الغائب كالإيمان بالمقدور الحاضر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣] قرئت بالياء والتاء[2] فالياء للكفار والعصاة نذارة ووعيد، والتاء للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بشارة ووعد ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بالتاء قال ابن عباس يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم وقرأ الباقون بالياء يعني ما أنا بغافل عما يفعل اليهود فأجازيهم في الدنيا والآخرة. [تفسير البغوي (١٦٣/١)].

تفسير سورة يوسف[(1)] عليه السلام

[مكية][(2)]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ

---

(1) فائدة: جمع الله في اسم يوسف عليه السلام أربعة حرف: الياء، والواو، والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف عليه السلام سمي يوسف عليه السلام، وأيضًا كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية. قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف عليه السلام؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن، جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفًا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثَّل عالم الملكوت مما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار، وأيضًا: مثَّل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف عليه السلام: كان يوسف عليه السلام آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وها هنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خيرٌ من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجهها تتلألأ الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية.

(2) سقط من النسخة (ق).

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف:١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ [يوسف:١] إشارة إلى الحروف في قوله: ﴿الر﴾ وإعلام بأنها آيات للكتاب المبين، سمي اللوح المحفوظ: «كتابًا مبينًا»؛ لأنه بين مكتوبه موجودات العالم علوه وسفله، وما هو كائن إلى يوم القيامة، جعل العالم كله مقدارًا لما هو كائن، عبر به عما سبق في علمه أنه يوجده، ثم نزل تلك الحروف إلى أن أنزلها قرآنًا عربيًا على لسان الرسول العربي ﷺ؛ [ليبين][(١)] للعرب المبعوث إليهم المقصودين به أولاً، ثم جعلهم أئمة يُقتدى بهم في التبليغ إلى سواهم.

قال الله ﷻ: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

وقال في كونهم أئمة: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

وقال جل قوله لعامة العرب: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠].

كما قال جل قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال جل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢] المعنى إلى آخره.

قوله عز من قائل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ﴾ [أحسن القصص هنا هو الإعلام بحكمة الله، وتعرف لطفه بهم في تقريبه إياهم عن جواره الكريم، وسجنه إياهم في هذا السجن، وكيف لطف لهم على ذلك في الهداية إليه والعصمة لهم والرفق بهم وإيصاله إليهم، كما قال عز من قائل: «طال شوق الأبرار إلي وأنا أشد شوقًا إليهم»[(٢)] وهو على ذلك يوصل إلى أبيه وذويه ما يلاطفهم به من رزق ودعابة بعضهم.

---

(١) في النسخة (ق): «ليس».

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (١١٧/٥).

ومن شعر في حكمة الله لمثل هذا في إرساله الرسل وإنزاله الكتب وكريم نصائحه وحنانه وعنايته بهم، وتعاهده إياهم بالرزق من عنده والفتح والنصر من عنده شعر للمعنى الذي كنى عنه بأحسن القصص، كما أنه من لم يشعر لذلك فهو عن ذلك من الغافلين، وكان ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه قد جعل يوسف عليه السلام خليفة في تلك الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، فكان على ذلك يصدر أحكامه وكثيرًا من أفعاله على ما يوافق حكمة الله في عباده الذي متى قصه كان من أحسن القصص، وسيأتي ذكر بعضه إشارة إليه وتعريضًا به](١).

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣] المخاطب بهذا هو الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ثم جميع أمته من بعده، ولم تكن غفلته ﷺ غفلة إهمال العقل ولا ترك تفكر وتذكر حتى يكون بذلك لا يعتقد شيئًا كما زعم من زعم، ومن شرح الله صدره صغيرًا وبارك عليه، ثم شرح صدره كبيرًا ورفع ذكره في السماوات وفي الأرض في كل ذلك فملاؤه حكمة وإيمانًا وإنباء ونورًا لا ينبغي أن تعتقد فيه هذا ولا [ما](٢) يقاربه، وكثير من عباده لم ينزله [الله](٣) هذه المنزلة، ولا رفعه [إلى](٤) هذه الدرجة، ولا بوَّأه هذه المرتبة يبعد هذا الوصف [فيه](٥) عنه إلا ما شاء الله، فكيف به صلوات الله وسلامه عليه؟.

وإنما الغفلة المعنية بهذا الوصف في غفلته عما جاء به القرآن من قصص وأحكام وإعلام بأسماء الله ﷻ وصفات، كان غافلاً عن تحقق أكثر ذلك [حسن وصف الغفلة في هذا القرآن في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، وقد بيَّن الوجود اللوح المحفوظ، ولا يصده عن المعرفة غير الغفلة](٦) وإن كان قد أوتي ﷺ من هذا

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) سقط من النسخة (ق).

كله فيما ألقى إليه [وملئ][(١)] به صدره وقلبه من أوائل معاني الإنباء ما ينوب، [أو][(٢)] في تحقيق درجته التي أريد بها [أن][(٣)] علم الفطرة للمؤمن، فعن تصور حقيقة المراد بذلك وما ينحو نحو هذا يمكن أن يوصف مثله بالغفلة حتى جاءه القرآن العزيز من عند الله ﷻ [مريده][(٤)] وبركته وتبيانه.

ألا تسمعه - جل من قائل - يقول بعد إيجابه إليه الكثير من القرآن العظيم: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:٣] إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧].

ثم استمر - جل وتعالى - على تفصيل ما أوحى إليه من أمر ونهي ووعد وزجر وإنباء وإعلام بما شاء، ثم قال جل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [أي: من شأننا][(٥)] ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢] يريد العلم العلي بالكتاب، والإيمان العلي الذي أعطاه الله إياه وخصَّه [لمكاتبه][(٦)] منه، فكيف يكون تاركًا للتدبر والتفكر أو يوصف بالضلال المعلوم عندنا المسمى فينا بضلال من شرح الله صدره، وبالغ في غسله، وأخرج [محط][(٧)] الشيطان منه، وعنه تكون الغفلة الأولى والضلال المعهود [عندنا][(٨)] اللذان وصفه بهما هذا القائل المعتمد في هذا أنه كان غفلته عن تصور العلم بحقيقة منزلته التي بلغها [من إيمان بنبوته وبأنه رسول الله وإيمان][(٩)] بالقرآن والإنباء ومعرفة توصيل الوحي إليه وإلى الأنبياء قبله ﷺ.

---

(١) في النسخة (ق): «وما مليء».
(٢) في النسخة (ق): «له».
(٣) في النسخة (ق): «مناب».
(٤) في النسخة (ق): «بمزيده».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «بمكانته».
(٧) في النسخة (ق): «حظ».
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) زيادة في النسخة (ق).

عبرة:

هذه فطرة الله ﷻ في قلوب عباده، يؤمن العبد، ويتعلم العلم، ويتفكر ويتذكر، ويبلغ من معرفة الله - جل ذكره - ومعرفة النبوة والرسالة وموجودات الدنيا والآخرة، ولو بلغ من ذلك أرفع الدرجات لم [يستقر على][(١)] الفطرة، بل يجد في ذاته [أنه][(٢)] كالملهم والمعلم بهداية الله ﷻ وتوفيقه، فيموت هذا العبد، وما بلغ من علم فطرته مبلغًا يقول: هذا منتهاه، ثم النبي والرسول يجعل الله جل وعز في فطرته زائدًا إلى فطرته [في][(٣)] السماوات والأرض.

[وفي المؤمن][(٤)] علم الفطرة بالإنباء والنبوة والحكمة، ثم يرفعه إلى أرفع درجاته، ثم هو لو [بقي][(٥)] عمر الدنيا ما بلغ من علم فطرة ما فطره الله على علمه مبلغًا يقول: هذا منتهاه إن ربك عليم حكيم، بل على القول بالحقيقة في معنى قوله جل قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣] [فإنه ما وصفه ﷻ بالغفلة حال وجوده إنما وصفه بها قبل إيجاده إياه ألا تسمعه جل قوله يقول: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ﴾ [يوسف:٣ - ٤]][(٦)] كما قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص:٤٤] ولهذا نظائر.

فصل

«ما» في قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ليست بزائدة كما زعم قوم، بل هي اسم لما أوحى [إليه به، هو الروح][(٧)] والملك ﷺ والأمر أو ما يقوم مقام المسمى بالحق المذكور في قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

---

(١) في النسخة (ق): «يستنفد علم».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «التي لقنها في خزائن».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «عُمِّر».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «به الروح».

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ...﴾ [النحل:٢] ونحو هذا كثير.

فكأنه قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ﴾ ثم قال جل قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣] [وفي الأمر يتوجه][١] وصف الغفلة عن كيفية إنزال القرآن والوحي عليه وعلى من سواه من الأنبياء والمرسلين [وهو أمر خاص من الله ﷻ للنبيين لا يعلمه إلا هم ويعلم منه الصدقون أولاً منها وحالاً ما تصديقًا لصديقيتهم وإيمانًا عليًا وهو الروح منه كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] المعنى فافهم][٢].

فصل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلانِيَةً...﴾ [فاطر:٢٩] إلى قوله جل قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾ [فاطر:٣٢].

أيها القارئ كتاب ربه، إن لك وراثة فيما تلاه رب العالمين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه على نبيه ﷺ فاتئد في قرآتك، وأحضر ذهنك [معاني][٣] ما تتلوه، [فإليك][٤] الخيرة مع إحضار نيتك في أن تكون أنت القارئ على ربك والتالي كتابه عليه، أو يكون هو القارئ التالي، فاستمع لما يوحى، وأمط عن باطنك هواه [وغفلته المطلوب من علم بالمتلو، فيكون تحسين الصوت به حينئذٍ لأمارة توجد بالمفهوم فترسله عند ذلك مشتركًا من المعنى، ويؤيد الوجد ويحقق الذوق علاوة، وعبر بالموجود أو حزبًا من أجله أو سوقًا وتوقًا لحسن الصوت بتحقق الأحوال بالقرينة على ذلك.

وبتزايد المعنى تتزايد الخواطر، وينقدح من خزائن الغيب إلى لوح القلب،

---

(١) في النسخة (ق): «فيتوجه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «معانق».

(٤) في النسخة (ق): «فأولئك».

ومع تحسين الصوت وتصنع الفهم واستمرار الغفلة يكون تطريب [...... تحسين الصوت ....] بما يرد على القلب من ذلك عن [....] الشغل الوارد والكرب [....][1] المراد والمفهوم من الخطاب، فإياك يا أخي والغفلة والهوى، شرح الله منا ومنك الصدور، وفتح علينا وعليك من رحمته.

فاتباع الهوى يبعد عن المطلوب وبالغفلة الخسران والخيبة وهما نعلاك، فاخلعهما أيها الوارث الغافل عن حظه، واطوِ البعد فإنك بالواد المقدس، وطهِّر وجهك لكريم الوجهة، ويديك إلى المرفقين لإشارة الاستسلام وحرمة الإحرام لحرم القرب، وامسح برأسك رجاء بركة الفهم، واغسل قدميك؛ لوطء البساط والوقوف عليهما بين يديه.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] قدَّم الفهم أمام التلاوة وسؤال التعليم قبل التفهم، فإنه جلَّ من قائل يقول: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٦ - ١٨] أي: اتبع ما يفهمك هذا في حقك أيها الوارث، فإذا فعلت ذلك فإن عليه ﷻ بيانه، ولا تؤثر العجلة فابشر بالمسابقة إليه، ثم عند الشروع فيه ليس هو بالعجلة إنما هو بالتؤدة والإحكام.

ربك ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يتلو على قلبك وأنت عنه معرض عما يتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم، هو يقص عليك أحسن القصص وأنت تذهب عنه كل مذهب، تزملت الهوى ورضيت الغفلة خدنًا والجهل خليقًا، فأعرضت عنك الشواهد بشهاداتها، وطوت عن قلبك المعالم علمها والبينات تبيانها، وأظلمت في حقك أنوار الآيات فبقيت في عمه الجهالات.

قوله ﷻ حاكيًا عن نبيه يوسف ﵇ بأنه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[2] [يوسف:٤] إلى قوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ

---

(١) ما بين [ ] بياض في (غ).

(٢) روى جابر أنّ يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهنّ يوسف، فسكت رسول الله ﷺ فنزل جبريل ﵇ فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: «إن أخبرتك هل تسلم؟» قال: نعم. قال: «جريان، والطارق، والذيال، وقابس، وعمودان، =

حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦] الحسن وأبو جعفر وأبو حيوة قرأوها بـ«**أحد عشر وتسعة عشر**» بإسكان العين حيث وقع.

كرر ﷺ لفظ الرؤية، فالأولى من حظهم، والثانية هي حظه رؤيته أبويه في تأويل الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا جماعة أخوة يوسف على [....](١).

ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ وذكر رؤياه في غزوة أحد فقال: «**رأيت سيفي قد انقطع ثم هزرته فعاد أحسن ما كان، ورأيت بقرًا ينحر والله خير**»(٢) ثم تأولها على حقيقتها، فألقى إليه المحذور، وأجمل له الخير فيما أريه، وقيل له: والله خير فهذه أحوالهم، وما هو أكرم وأفخم؛ لذلك عطف «يعقوب» بالواو على ما تقرر من نحو ما تقدم ذكره كما شاءه الله ﷻ من ذلك.

والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ، ووثاب، وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له» فقال اليهودي: إي والله، إنها لأسماؤها. وقيل: الشمس والقمر أبواه. وقيل: أبوه وخالته. والكواكب: إخوته، وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصًا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل. وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة. وقيل: ثمانون. فإن قلت: لِمَ أخَّر الشمس والقمر؟ قلت: أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص، بيانًا لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. فإن قلت: ما معنى تكرار «رأيت»؟ قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابًا له، كأن يعقوب ﷺ قال له عند قوله: ﴿**إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا**﴾ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها؟ فقال: ﴿**رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ**﴾. فإن قلت: فلِمَ أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة والمقاربة. الكشاف (١٤١/٣).

(١) ما بين [ ] بياض في (غ).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٢٥)، ومسلم (٢٢٧٢)، وابن ماجة (٣٩٢١).

ثم قال: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦] - اعلم وفقنا الله وإياك وعلمنا من علمه - أنه من بلغ إلى بعض مقتضى ما جعل الله له الشمس والقمر والنجوم، وبعض ما سخرت له من أمر بلغ إلى أن يعلم من حيث قال إبراهيم ﷺ لما نظر نظرة في النجوم قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩] فإما أنه أصابه سقم صدق به الله ﷻ قوله بما رآه من أمر الله ﷻ في النجوم، وإما أنه كان الذي رآه فيما هنالك هي المحنة التي امتحن بها من إلقائه في النار، فإن ذلك كان قريبًا من وقت رؤية ما رآه في النجوم، لكن لا يدرك حقيقته صادقة من ذلك؛ أعني: من العلم بأمر الله في الشمس والقمر والنجوم دون دغل ولا كذب إلا بسبيل نبوة، وقد انقطع ذلك، فمعاطاة تعرف ذلك الباب ضره أقرب من نفعه لأمور الوصول إلى حقيقتها ممنوع، ودرك بعضها متعذر لأجل إرصاد لو صحَّت فقد قدمت، وانتقلت لذلك الهيئة بجملتها ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] وركوب وصف هذه السبيل يشغل عما نحن بصدده كما طلبه يوجب الخيبة، ونظر على الأولى.

ثم قال ليوسف ﷺ: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ هم الأحد عشر أخوة الذين هم بنو يعقوب ﷺ ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦] إتمام النعمة على الإنسان بما هو إنسان هو أن يعطى الإيمان، ثم إتمام النعمة على المؤمن هو أن يستعمله الله ﷻ بطاعته ويعلمه العلم واليقين، ثم إتمام النعمة على الموقن أن يرفع إلى مقام الصديقية والتزام التوحيد الأعلى عقدًا وقولاً وعملاً، وذنوب هؤلاء في محالهم هي نزول أحدهم عن مصافه إلى ما تحته، لهذا قالوا: «ذنوب المقربين حسنات أصحاب اليمين».

فقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: بالنبوة والرسالة، ثم شرط في كلامه بقوله: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦] فإتمام النعمة على النبي والرسول أيضًا هو أن يرفع إلى العمود عمود النبوة والرسالة من الاجتباء والاصطفاء، وتأول ذلك يعقوب من سجود الكواكب والشمس والقمر له كما تقدم، وإن إذعان الهداة إنما يكون لمن هو أرفع مرتبة منها وأعلى مكانة وقد تقدم.

ولو كانت الرؤيا لسواهم اليوم لم يكن للمتأول أن يتأولها على النبوة خلافًا

لأولئك لأنهم من أهل بيت ووقت منهم الأنبياء والرسل، ألا تسمعه يقول: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦] ولهذا كان تأويل الرؤيا على طبقات الناس ومراتبهم وأزمانهم.

يقول الله عز من قائل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦] تتميم لما تقدم ذكره والله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:٧ - ١٢].

قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:٧] و«في» حرف؛ أي: عبرة للسائلين، يريد وهو أعلم للطالبين العلم والباحثين عنه، فكان فيهم وفيما عراهم من أمورهم آيات بينات على علم الله ﷻ، وتقديره بالتقدير في الموجودات قبل وجودها، واستياقه المقدورات إلى حقيقة ما قدره في الأزل لا يتعداها ولا يقصر دونها، وعلى لطفه في ذلك وخيره وجليل حكمته وكريم رحمته بمن شاء ذلك، وعلى أنه لا ييأس من رحمته الكافر ولا يأمن مكروه النبي الطائع، إلى غير ذلك مما يبدو في تصفحها؛ أعني: النبوة من أولها إلى آخرها، ولما أن حان من بني إسرائيل الاغتراب الذي أنذر الله جل ثناؤه به خليله إبراهيم ﷺ حرك بني يعقوب إلى ما قصّه الله ﷻ علينا في كتابه.

قوله جل ثناؤه: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ يعنون بنيامين أخًا ليوسف من أبيه وأمه خالة يوسف عليهم السلام ﴿أَحَبُّ إِلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٨] العصبة من الرجال: العشرة، لا يقال فيما دون العشرة: عصبة، لكن رهط إلى سبعة ولا يقال لثلاثة: رهط، لكن نفر، والجماعة يقال لكل حملة من خيل أو رجال، فإذا

كانوا متقطعين بعضهم من بعض فهم عصب وعصائب.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف:٩] أي: تتوبون من ذنبه الذي ارتكبتموه من أجله وتكونوا صالحين بالتوبة إلى الله ﷻ.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف:١٣ - ١٨].

كان ما قصّه الله ﷻ من قصصهم إلى قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[1] [يوسف:١٨] قد كان سبق العلم إلى يعقوب عليه السلام بما علمه الله ﷻ من علم النبوة، وربما تأكد من قربه عنده من رؤيا يوسف عليه السلام وتأويلها أنه سيتم الله ﷻ نعمته عليه ويبلغ به، وإنه يظهره الله ﷻ عليهم بتأويل سجودهم له، وربما خشي من ذلك أن يدركه الاغتراب المعهود به إلى إبراهيم عليه السلام في بنيه هؤلاء ويملكهم والإزلال المذكور، فقال لأجل ذلك أو بعضه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وفي مصحف أنس بن مالك وأبي صالح: «فصبرًا جميلاً» بالنصب على

---

(١) أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبان بن أبي حبلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: «لا شكوى فيه ، من بثّ لم يصبر» وهو من طريق هشيم عن عبد الرحمن، عن حبان بن أبي حبلة، وهو مرسل. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: ليس فيه جزع. فتح القدير (١٢/٤).

المصدر وهي قراءة عيسى بن عمر وغيره، ولم يصدقهم فيما زعموه من أنه أكله الذئب وهلك.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨] لما تقدم له من علم ذلك، وأما يوسف ﷺ فإنه لما جعلوه في الجب أوحى الله - جل ثناؤه - إليه وهم لا يشعرون ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ [يوسف:١٥].

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾ [يوسف:١٩ - ٢٢].

قوله جل وعز: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾[1] [يوسف:١٩] من أعجب العجائب بوجود لهذا الوارد جاء عن دلو ماء

---

(١) ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ قيل: كانوا من مدين قاصدين إلى مصر. وقيل: في الكلام حذف تقديره: وأقام يوسف في الجب ثلاثة أيام، وكان أخوه يهوذا يأتيه بالطعام خفية من إخوته. وقيل: جاءت السيارة في اليوم الثاني من طرحه في الجب. وقيل: كان التسبيح غذاءه في الجب. قيل: وكانت السيارة تائهة تسير من أرض إلى أرض. وقيل: سيارة في الطريق أخطؤوه فنزلوا قريبًا من الجب، وكان في قفرة بعيدة من العمران لم تكن إلا للرعاة، وفيهم مالك بن دعر الخزاعي، فأرسلوه ليطلب لهم الماء. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم، وإضافة الوارد للضمير كإضافته في قوله: «ألقيت كاسبهم» ليست إضافة إلى المفعول، بل المعنى الذي يرد عليهم والذي يكسب لهم. والظاهر أن الوارد واحد. وقال ابن عطية: والوارد هنا يمكن أن يقع على الواحد وعلى جماعة. انتهى. وحمل على معنى السيارة في قوله: «فأرسلوا» ولو حمل على اللفظ لكان الترتيب، فأرسلت واردها فأدلى دلوه؛ أي: أرسلها ليستقي الماء، قال: يا بشراي. في الكلام حذف تقديره: فتعلق يوسف بحبل الدلو، فلما بصر به المدلي قال: يا بشراي. وتعلقه بالحبل يدل على صغره؛ إذ لو كان ابن ثمانية عشر أو سبعة عشر لم يحمله الحبل غالبًا، ولفظة «غلام» ترجح ذلك؛ إذ يطلق عليه ما بين الحولين إلى البلوغ حقيقة. =

فوجد نبي الله ورسوله، فما كان أسعد وجهته تلك وجيئة ذلك لكن لم يشعر.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠] ذلك بأنهم لم يعرفوا قدر ما أفقدوا أنفسهم من بركة كونه فيهم، ونظر الله - جل وعز - لهم من أجله، والذين حملوه لم يعرفوا حقيقة ما احتملوه معهم إلى رحالهم، وهذا كما قال رسول الله ﷺ للأنصار: «**ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، فوالله للذي أحرزتم خير من الذي أحرزوه**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٢١] الكاف للتشبيه، وذلك إشارة إلى المفهوم من تأويل الرؤيا المستقر في نفس يوسف عليه السلام من علم ما لقنه عند الرؤيا، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله ﷻ، وإلى ما أريه إبراهيم عليه السلام من تغريبهم إلى تلك الأرض، وكان ظلم إخوته إياه من بيعه وطرحه إلى أرض ليخلو لهم وجه أبيهم كما زعموا من أسباب ذلك؛ لذلك قال جل قوله وهو أعلم: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يعني والله أعلم: اتفاق هذا بهذا؛ يعني: وفاق الكل للتقدير السابق المثبت في اللوح المحفوظ، ثم قال جل قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١] أي: قدر سياق الآخر على الأول، وإفاضة الأول للوفاق على الآخر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٢) [يوسف:٢٢] يريد

=

تفسير البحر المحيط (٦/٤٩٥).

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١)، وابن أبي شيبة (٣٧٠٠١)، وأحمد (١٦٥١٧).

(٢) الأشدّ: هو وقت استكمال القوة، ثم يكون بعده النقصان. قيل: هو ثلاث وثلاثون سنة. وقيل: بلوغ الحلم، وقيل: ثماني عشرة سنة، وقيل: غير ذلك مما قد قدمنا بيانه في النساء والأنعام. والحكم: هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر. والعلم: هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه، وقيل: العقل والفهم والنبوّة. وقيل: الحكم هو النبوّة، والعلم هو العلم بالدين. وقيل: علم الرؤيا، ومن قال: إنه أوتي النبوة صبيًّا قال: المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاه الله هو الزيادة فيهما. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ومثل ذلك الجزاء

=

الأشد الأول الذي هو البلوغ زاده الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - إلى ما يعلمه من تأويل الأحاديث العلم والحكمة، ووعد مثل ذلك جميع المحسنين، وهذا كقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ...﴾ [الحديد:٢٨].

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٥].

قوله ﷻ: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ...﴾ [يوسف:٢٣] هذه الآية متصلة بما قبلها معنى ومجاورة، أما مجاورة فظاهرة، وأما المعنى فإنه لما أخبر - جل وتعالى - أنه آتاه الحكم والعلم عند بلوغه أراد جل ذكره أن يرينا بركة ما آتاه الله إن ردَّ ذات الجمال والمنصب والحسب والثروة والغنى مع اتصال الخلوة، وبعض هذا يذهل أكثر الأكابر، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» قال منهم: «**ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال - وفي أخرى: «ذات منصب»**»(١) -

---

=

العجيب نجزي المحسنين، فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه، وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أوليًا. قال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهرًا على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ. يقول الله تعالى: كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض. فتح القدير (١٥/٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١)، وأحمد (٩٦٦٣)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٢١)، وابن حبان (٤٤٨٦)، وابن خزيمة (٣٥٨).

فقال: إني أخاف الله»[1].

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤] اختلف الناس في البرهان ما كان، وذكروا أشياء لا تتصل بتصحيح ولا يعضدها شاهد، وأرى - والله أعلم - أنه أراه من أمره الظاهر ومن مقدوره الغائب ما صرفه عن همه ذلك وعصمه ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ الله يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١].

ثم أشار إلى إحسانه ذلك وعصمته إياه بقوله جل قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] من أخلص لله وأطاعه عصمه عند هناته، وكان له غياثًا في شدائده.

وعلى قراءة من قرأ «المخلصين»[2] بفتح اللام يريد ما أراده به في الأزل وحباه من نعمته في القِدم، وهذا كله من آياته التي ذكرها في شأنه وشأنهم.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَاسْتَبَقَا البَابَ﴾ [يوسف:٢٥] فرَّ ﷺ من موضع حضره فيه الشيطان إلى ربه معتصمًا به، وقصَّ الله - جل ذكره - ذلك علينا من شأنه ليرينا كيف يكون الهرب إليه من المعصية، ومدحه على ذلك، وآثر عنه جميل الذكر وكريم الأحدوثة لإيثاره الله ﷻ على نفسه، وتغليبه حزب الله على حزب الشيطان ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾[3] [يوسف:٢٥] وشهد له الشاهد بالبراءة من أجل ذلك،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩١)، وابن حبان (٧٣٣٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٥٨).

(٢) قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام، أي الذين استخلصتهم وأخلصتهم. وقرأ الباقون بكسر اللام، أي الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء. [تفسير القرطبي (١٠/٢٨)].

(٣) القدّ: القطع والشق، وأكثر استعماله فيما كان طولاً، وهو المراد هنا بناءً على ما قيل: إنها جذبته من وراء فانخرق القميص إلى أسفله، ويستعمل القط فيما كان عرضًا، وعلى هذا جاء ما قيل في وصف علي، كرم الله تعالى وجهه: «إنه كان إذا اعتلى قدّ، وإذا اعترض قط». وقيل: القدّ هنا مطلق الشق، ويؤيده ما نقل عن ابن عطية أنه قرأت فرقة «وقط» وقد وجد ذلك في مصحف المفضل بن حرب.

وعن يعقوب تخصيص القدّ بما كان في الجلد والثوب الصحيحين. والقميص معروف، وجمعه: أقمصة وقمص وقمصان، وإسناد القدّ بأي معنى كان إليها خاصة مع أن لقوة يوسف ﷺ أيضًا دخلاً فيه؛ إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة، وإما للإيذان بمبالغتها في =

وتلك آية الله على الحكم بالدلالة والأمارة عند عدم الشهود، وهو حكم صحيح، وقد حكاه الله واستاقه في معرض المدح مصونًا للتحكيم به.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٦ - ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف:٢٩] يمكن أن يكون هذا من البرهان الذي أراه الله ﷻ فازدجر من أجله، فينتظم لمعنى قوله: ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤] رأى مرأى ما بعينه قائلاً له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ولما أسلمت بعد زمان فاجتمع مجتمع بها قال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ ويدل على صحة هذا قوله لها: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٢٩] ولو كان القائل لها غيره وفي وقت الحكم لم يخلص ذلك منها للماضي؛ أي: إنكِ كنتِ من الخاطئين في مراودتك إياي وقولك لزوجك: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَو عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:٢٥] وقولك للنسوة ما قلتِ وسجنك إياي.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ

=

منعه عن الخروج، وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح. تفسير الألوسي (٤٨٤/٨).

﴿فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٠ - ٣٢].

قوله ﷺ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠] إلى آخر القصة، ذكر أن سيدها كان قليل الغيرة؛ وإنما ذلك؛ لأن القوم كانوا كفارًا فلم تكن لهم رعة، وإن كان الزنا عندهم شيئًا فإنهم كانوا يتساهلون فيه، وما بلغنا أنه غير عليها.

وقيل: إن أخاها كان الشاهد عليها بما كان منها قبل رؤية قد القميص، وإنه هو الذي قال ليوسف ﷺ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ثم قال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٢٩] وذلك بعيد عنهم، وقد تقدم في ذلك ما هو الأولى والله أعلم.

ولما قال نساء في المدينة ما قالوا أحضرتهن واعتدت لهن طعامًا ومتكئًا، وهو عبارة عن شرب الخمر، وقراءة ابن عباس ومجاهد وأبو حيوة: «واعتدت لهن متكئًا»[1] وهو الأُترج، وتجتمع القرأتان في قراءة الجماعة، وإنها اعتدت لهن متكئًا وأُترجًا وغير ذلك من فواكه تقطعن بالسكاكين، فدفعت لكل واحدة منهن سكينًا وأمرته بالخروج عليهن قيل: بعد أن زينته، والله أعلم.

والمراد بالآية: إظهار كرامته عند الله وتبرئته من الذنب، وكان وجهه الكريم على عظيم براعة جماله تبدو عليه مخاييل الصدق، وتلوح في أساريره لوائح الخير والعفاف، ويشاهد في هيئته وحركاته الوقار والسكينة، وإن كان أُعطي شطر الحسن فلم يكن ذلك الحسن والجمال على الأغلب جالبًا فتنة شهوة إلى من أبصره، ألا ترى إلى جمال الشمس والقمر وحسنهما لا تخيل لرائيهما برؤيتهما شهوة، ولا يكاد يخطر ذلك على باله، فمن ذلك السبيل كان حسنه وجماله لحكمة بالغة لخالقه

(١) قرأ مجاهد وسعيد بن جبير متكأ مخففًا غير مهموز - والمتك: هو الأترج بلغة القبط. وقيل: إن ذلك هو لغة أزدشنوءة، وقيل: حكي ذلك عن الأخفش، وقال الفراء: إنه ماء الورد، وقرأ الجمهور: متكأ بالهمز والتشديد وأصح ما قيل فيه: إنه المجلس، وقيل: هو الطعام، وقيل: المتكأ كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث. وحكى القتيبي أنه يقال: اتكأنا عند فلان: أي أكلنا. [فتح القدير (٣١/٣)].

على صورته وهيئته تلك في سنن الوجود.

ولما فجئ النسوة قطعن أيديهن إكبارًا لجماله وعجبًا من شأنه، وتُهن بين جماله ولوائح كرامات الله البادية عليه كما قال بعضهم عن محمد رسول الله ﷺ: «فما هو إلا أن رأيته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب فأكبرنه» عما ذُكر عنه ورُمي به ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ وفي قراءة ابن مسعود: «**حاشى الله**»[1] يقلن ما كان مثل هذا ليفعل سوءًا ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي: إنه لو كان من البشر لسبق من حسنه لرائيه الفتنة به، إنما حسن هذا من حسن الملائكة، ليس في حسنهم فتنة، ولا يعرض لرائيهم إليهم حديث شهوة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] فقام عندهن ما شاهدن من هيبته وطلعته وبراعة حسنه، مع ما سبق إلى قلوبهن من عظيم شأنه مقام المعجزة المعبرة عن كذب الكذابين عليه، المنبئة بصدقه، وإنما أرادت هي أن تعذر فيه لما سبق من قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠] ليس بضلالة عن هداية، ولا صيانة لدناءة، وإنما ضللوها لهيمانها وشدة ولوعها به، وخروجها عن المعهود منها في شأنه، بيّن ذلك من قولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف:٣٠] أي: قد خالط حبه شغاف قلبها، وخِفنا عليها الموت لكثرة ما اتبعته نفسها.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ...﴾ [2] [يوسف:٣٢] وإنما أحضرتهن لتستعين بهن عليه ويعذرنها فيه، جاء

---

(١) قرأ أبو عمرو وحده «حاشى لله» وقرأ أبيّ وابن مسعود «حاشى الله» وقرأ سائر السبعة: «حاش لله» وفرقة «حشى لله» وهي لغة، وقرأ الحسن: «حاش لله» بسكون الشين وهي ضعيفة وقرأ الحسن أيضًا «حاش الإلاه» محذوفًا من «حاشى». فأما «حاش» فهي حيث جرت حرف معناه الاستثناء، كذا قال سيبويه، وقد ينصب به، تقول: حاشى زيد وحاشى زيدًا، قال المبرد: النصب أولى؛ إذ قد صح أنها فعل بقولهم: حاش لزيد ، والحرف لا يحذف منه. قال القاضي أبو محمد: يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أن الحرف يخفض به لا غير، وأن الفعل هو الذي ينصب به، فهذه اللفظة تستعمل فعلاً وحرفًا، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فاعل؛ وذلك في قراءة من قرأ: «حاشى لله» معناه: مأخوذ من معنى الحرف، وهو إزالة الشيء عن معنى مقرون به، وهذا الفعل مأخوذ من الحشا أي هذا في حشى وهذا في حشى. [المحرر الوجيز (٣/٤٩٩)].

(٢) ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ الإشارة إلى يوسف، والخطاب للنسوة؛ أي: عيرتنني فيه.
=

بيان ذلك في حديث رسول الله ﷺ إنهن كن يسهلن عليه ويرغبنه في وصالها قوله لعائشة وحفصة: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف**»[(١)] ولم يكونا طلبا الإمامة لأنفسهما، بل لابتغاء مرضات عائشة، فافهم.

فأخذت كل واحدة منهن تسهل عليه المأتي، وتعذله في تخلفه، ويقلن له في ذلك، فهنالك استغاث يوسف عليه السلام بربه عز جلاله.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ
وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤ ثُمَّ
بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ
أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ
مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا
نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ

قالت لهنّ هذا لما رأت افتتانهنّ بيوسف إظهارًا لعذر نفسها، ومعنى ﴿فِيهِ﴾ أي: في حبه. وقيل: الإشارة إلى الحب، والضمير له أيضًا، والمعنى: فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب، والأول أولى. ورجحه ابن جرير. وأصل اللوم: الوصف بالقبيح. ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهنّ ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه، فأقرّت بذلك وصرّحت بما وقع منها من المراودة له، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: استعف وامتنع مما أريده طالبًا لعصمة نفسه عن ذلك، ثم توعدته إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء، هاتكة لستر العفاف، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدّم ذكره عند أن غلقت الأبواب، وقالت: هيت لك ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: يعتقل في السجن ﴿وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلاء؛ لما يناله من الإهانة، ويسلب عنه من النعمة والعزّة في زعمها. فتح القدير (٤/٢٦).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٩)، ومسلم (٩٦٨) والترمذي (٤٠٣٥)، وأحمد (٢٦٦٢٧)، ومالك (٤١٧)، والبيهقي (٥٢٨٥).

لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ [يوسف: ٣٣ - ٣٨].

قال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] وقرأ عثمان بن عفان وجماعة: «رب السجن»[١] بفتح السين على المصدر، وهو المحبس، وبكسرها هو السِّجْن الفعل، وهذا من أشد ما مر عليه إنها استعانت عليه بنفسها وبغيرها من إنس وجن، وضاقت مذاهبه فاستغاث عند ذلك بالقريب المجيب - عز جلاله - فاستجاب له حينه ذلك بالثبات والعصمة، وبعد ذلك بصرف كيدهن عنه، وكان من لطفه في ذلك قضاءه بسجنه.

يقول الله عز من قائل: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[٢] [يوسف: ٣٥] الآيات التي رأوها هي ما شاهدوه على جماله وحسنه من شواهد البراءة من الريبة والنزاهة عن الفحشاء حتى أكبرنه ﴿وَقُلْنَ حَاشَ للهِ﴾ أي: في أن يكون هذا يفعل سوءًا أو يقاربه هذا الذي عليه وقار الملائكة، وسمتهم لا سمت بشر ولا حلية آدمي، وكان السجن ليوسف عليه السلام عصمة، ولله فيه من أجله

---

(١) العامة على كسر الباء؛ لأنه مضافٌ لياء المتكلم ، اجتزيء عنها بالكسرة، وهي الفصحى، و«السِّجنُ»: بكسر السين، ورفع النُّون، على أنَّه مبتدأ، والخبر: «أَحَبُّ» و«السِّجنُ» الحبسُ، والمعنى: دخول السِّجنِ.

وقرأ بعضهم: «ربُّ السِّجنُ» بضمِّ الباءِ، وجرِّ النون، على أنَّ «ربُّ» مبتدأ و«السِّجن» خفض بالإضافة، و«أَحبُّ»: خبره ، والمعنى: ملاقاةُ صاحب السجن، ومقاساته أحبُّ إليَّ. وقرأ عثمان، ومولاه طارق، وزيد بن علي، والزهريُّ، وابن أبي إسحاق، وابن هرمز، ويعقوب: بفتح السِّين، وفي الباقي كالعامَّة. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٦٨/٩)].

(٢) ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن الحين ها هنا ستة أشهر. قاله سعيد بن جبير.

الثاني: أنه سبع سنين. قاله عكرمة.

الثالث: أنه زمان غير محدود. قاله كثير من المفسرين. وسبب حبسه بعد ظهور صِدْقه: ما حكى السدي أن المرأة قالت لزوجها: «إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وقال: إني راودته عن نفسه، فإما أن تطلقني حتى أعتذر، وإما أن تحبسه مثلما حبستني» فحبسه. [النكت والعيون (٢٥٧/٢)].

حكمة، وعليه نعمة غيَّبه لحسنه وجماله عن أعين الناس وحجبه عن الفتن، وكان ذلك له ولأمثاله بمنزلة التخلي عن الناس والتوحش منهم، والهرب عن الأهل والمال حتى يستقيم أمره ويحين وقته.

قوله ﷺ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وقرأ عبد الله والضحاك: «أعصر عنبًا»[1] ﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] هذا من آيات الله الظاهرة على كريم سجيته وهيئته، كان القوم كفارًا والمعهود أن المحسنين على الأغلب أسبق الجملة فما كان يسبق على حسنه وجماله إلى قلوب الرائين له إلا الإعظام والإجلال ذكر فيما ذكر عنه أنه كان في أهل السجن مصلحًا يطعم الجائع، ويؤنس الخائف، ويصلح بين المتباغضين، ويعلِّم جاهلهم ويعظهم، ولما رأى الفتيان من إصلاح شأنه قصًا عليه ما رأياه وقالا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فنص الله - جل ذكره - على لسان الفتيين ما تقدم ذكره من آيات الله - جل ذكره - الظاهرة عليه، الفائضة عليه من بركة باطنة، فصدق شأنه المتصل بالآل الذي فيه من القريب الرحيم، فهو لا يراه أحد إلا أكبره وأعظمه، ولما قال له الفتيان ذلك الكلام توجه عليه فرض التبليغ عن ربه - عز جلاله - وقد وجد له موضعًا فأضرب عن التعبير؛ ليغتنم في حاله تلك تفرغهما إليه واستماعهما له، فأخذ عليه الكلام في تبليغ علم النبوة بقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ...﴾ [يوسف: ٣٧] إلى قوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨].

كذلك قال عيسى ﵇ لمن لزمه التبليغ إليه: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٤٩].

---

(١) قراءة «أبيّ» وعبدالله: «أَعْصِرُ عِنَبًا» لا تدلُّ على الترادف؛ لإرداتهما؛ لإرادتهما التفسير، لا التلاوة، وهذا كما في مصحف عبدالله: «فَوْقَ رأسِي ثَرِيدًا» فإنه أراد التَّفسيرَ فقط. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٧٢/٩)].

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف: ٣٩ - ٤٤].

ثم طفق ﷺ يخبرهم عن الله - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - بوحدانيته وألوهيته ويعيب الأصنام وما خالف التوحيد، وكل ما كانوا يعبدونه من دون الله بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾[1] هو يضل وهو يهدي ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ بعبادة الله

(١) والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، وتقريرُ فساد القول بعبادة الأصنام: أنه تعالى بيَّن أن كثرة الآلهةِ توجب الخلل والفاسد في هذا العالم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ فلمَّا قرَّر أنَّ كثرة الآلهة تُوجبُ الخلل والفساد، وكونُ الإله واحدٌ، يقتضي حصول الانتظام، وحسن الترتيب قال هاهنا : ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَم الله الواحد القهار﴾ وأما تقرير كون كثرةِ الآلهةِ، توجب الخلل والفساد في العالم: إنَّه لو كان اثْنانِ أو ثلاثةٌ، لم نعلم من الذي خلقنا، ورزقنا، ودفع الآفاتِ عنَّا؛ فيقع الشِّرْكُ في أنَّا نعبدُ هذا أم ذاك، ومعنى: كونهم متفرقين، أي: شتَّى، هذا من ذهب، وهذا من فضةٍ، وها من حديدٍ، وهذا أعلى، وهذا أوسط، وهذا أدْنَى، متباينون لا تضر ولا تنفعُ ﴿خَيْرٌ أَم الله الواحد القهار﴾ «الوَاحِدُ»: لا ثاني لهُ، «القَهَّارُ» الغالبُ عل الكلِّ.

وحده دون من سواه، هو الدين القيم وسلوك ذلك هو الصراط المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩ - ٤٠] فكان في هذه الجملة تبليغ الرسالة وإثباتها ووراثتها له على آباء له متقدمين، في ذلك يجب الإيمان بهم، ثم التبليغ عن الله ﷻ ما هو أهله.

فلما فرغ ﷺ من تبليغ ما أمر به أخذ في تأويل الرؤيا بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ إلى قوله: ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١] وقراءة لعكرمة: «**فيسقي ربه عنبًا**»[١] إن العنب هو ملآن من مائه الذي يكون خمرًا، فقال الرائي: إنه يعصره، والعصر هو استخراجه من أوعيته التي هي حبوب العنب، فأول رؤياه له بشربها كما يفعل بإناء الماء والخمر واللبن؛ يشرب ما فيه بأن يستفرغ ملء الإناء في جوفه فيروى عن ذلك كما كان الماء ري العنب.

وعلى القراءة الأخرى: فإن حب العنب هو مخزن لمائه، فرأى هذا الرائي أنه يعصره، وكان من فتيان الملك، فتأويل رؤياه أن يكون بيده مخزن خمر الملك يستخرجها له من أوعيتها، ووافق ذلك منزلته من الملك ومكانته.

وأما الآخر فكان يرى أنه يحمل خبزًا على رأسه والطير تأكله، وخبر الطير اللحم، ولا يكون حاملاً الخبز على رأسه إلا ويكون قائمًا، ولا يكون قائمًا على رجليه والطير تأكل لحم رأسه إلا أن يكون محبوسًا، ولا يكون كذلك إلا أن يكون مصلوبًا، فقال: ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ وهذا مما تقدم ذكره أنه يعطى النبي الوحي جملة تامًا مفروغًا منه بيقينه ونوره دون فكرة منه ولا أن يروى في شأنه، ولذلك ختم العبارة بقوله: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

ألا ترى أن هذا ليس من طاقة البشر القطع بصدقها وصدق تأويله، وإنما حد المعبر المجيد أن يقول: إن صدقت الرؤيا فتأويلها كذا كذا والله أعلم، وأما القطع لصدقها وصدق تأويله إن ذلك كائن لا بد فمعجز لا ينبغي ذلك إلا له ولأمثاله في منزلته.

---

(١) الجمهور على خفض باء رب وقرأ أبو الغالية وابن السميفع وعيسى ابن عمر بنصبها، وقرأ أبو رزين العقيلي والربيع بن خيثم وأبو عمران الجوني برفعها. [زاد المسير (١١/١)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] هذا الظن بمعنى العلم لو لم يكن علم ذلك لم يكن لقوله: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾ [يوسف:٤١] معنى، ومثله: «لا ينطق عن الهوى» قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يريد الملك مقام الأنبياء والصديقين التوحيد الأعلى، فمتى نزلوا عنه أخذوا بذلك وعوقبوا من أجله، إلا أن يعفو الكريم - جل ذكره - بفضله.

يقول الله جل وعز: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢] كذلك يعقوب لما ﴿قَالَ﴾ لبنيه: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف:١٣] ولم يكن سبق في القدم على يوسف عليه السلام أن يكون للذئب طعامًا ابتلي بأن جاء بنوه يذكرون أن الذئب أكله.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[1] [يوسف:١٦] وقرأ الحسن: «وجاءوا أباهم عُشاء يبكون» بضم العين يقول: عشوًا من البكاء ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨] والظن به عليه السلام أنه حين أرسله توكل على الله كفعله بجماعتهم يوم قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف:٦٧] وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى، فسبحان من جعل حكمته نعمة بوجه، ونقمة وعقابًا بوجه، وثوابًا بوجه، إنه لواسع عليم هذا ونحوه جاء عن جل أهل التفسير في هذا

---

(١) فيه مسئلتان: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أي: ليلاً، وهو ظرف يكون في موضع الحال، وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار، فروي أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال: ما بكم؟ أجرى في الغنم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق فأكله الذئب، فبكى وصاح وقال: اين قميصه؟ على ما يأتي بيانه إن شاء الله، وقال السدي وابن حبان: إنه لما قالوا أكله الذئب خر مغشيًا عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب، قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس، ولم يتحرك له عرق، فقال لهم يهوذا: ويل لنا من ديان يوم الدين! ضيعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر، فأفاق ورأسه في حجر روبيل، فقال: يا روبيل! ألم آتمنك على ولدي؟ ألم أعهد إليك عهدًا؟ فقال: يا أبت كف عني بكاءك أخبرك، فكف يعقوب بكاءه. الثانية: قال علماؤنا: هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعا فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى.

المعنى أن قوله ﷻ: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٤٢] أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ راجع إلى يوسف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٥ - ٤٩].

وليس يعطي سياق الكلام والمعهود هذا الذي ظنوه بل هو راجع بحمد الله على الذي ظن يوسف أنه ناج من الفتيين دل على هذا قوله عز من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥] فأخبر عز جلاله أن الناسي هو الفتى لا يوسف ﷺ وأن ذكر اسم رب الفتى هو الملك وأما يوسف ﷺ فلم ينس ربه بل لأجل ربه ﷻ قال للفتى ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] فإن الرسل والأنبياء - عليهم السلام - مأمورون بالتبليغ ولا بأس عليهم أن يتوصلوا إلى ذلك بطريق الكلمة أو طريق السنة أو بهما ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧] وقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] فأراد الله في محكم حكمته أن يحجبه عن أكثر الناس حتى يأتي أمر الله الذي أتاه به من الملك والقدرة على الانتصار ولكل أجل كتاب هذا هو الحق المبتغى والسبيل المرتضى إن شاء الله.

قوله جل قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف:٤٣] إلى آخر قصته، الملأ: كبار القوم وعلماؤهم وأشرافهم ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ الأضغاث: الأخلاط، الضغث: ملء اليد من حشائش أخلاط نبات أو غيره، وهي ما يراه النائم في نومه من شأنه أنه يعالجه في نهاره أو يطالبه، أو يكون ما يراه قد اختلط بحديث النفس وصعد إلى

موضع الرؤية منه أبخرة أخلاطه، فيتصور ما رآه على غير الصورة التي هي من الحق مع ما يشوبها من حديث النفس، فيبعد عن الحقيقة المراد بها.

قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف:٤٤] كما قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا من الله والحلم من الشيطان**»[١] فقال القوم: الرؤيا لها إلى الحق تناسب يعلم تناسبها للحق، والأحلام قد ضلت مرائيها عن الحق، فلا علم لنا بها، ولما تركت في حقهم الرؤيا هذه من بشارة ونذارة، ورأوا فيها سنابل خضرًا وسنابل يابسات ظنوا لقصر علومهم أنها أضغاث، ورأوا فيها البقرات تأكل أمثالها وليست البقرة آكلة اللحم قالوا: إنها أحلام.

فقال عليه السلام: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ في مقابلة السبع البقرات السمان، ثم قال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ يريد في السبع السنين الخصبة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧] فكان هذا الرأي منه أمرًا من الله أن يبلغه إليهم، وجعل له في الرؤيا حظًّا من أمره العلي، وأخرج قوله: ﴿فَذَرُوهُ﴾ على صيغة الأمر؛ إذ هو له تحصين وعدة للشداد السبع السنين بعدهن.

ثم قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩] هذا القسم ليس من الرؤيا في شيء، ولكنه مأخوذ من عدد السبع الخصبة والسبع الجدبة، ولما كان بتمام الخصبة ابتداء الجدبة وجب في ختمان حكم الله ﷻ أن يكون بتمام السبع الجدبة ابتداء خصب آخر كذلك الوجود، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦] ثم تجاوز ذكر العسر الثاني الراجح على المذكور.

ثم قال: ﴿إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾ فعلى هذا بتأويل يتوجه قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[٢] [يوسف:٤٩] في تأويل هذه الرؤيا،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٦٠٣٤)، وأبو داود (٥٠٢٣)، والترمذي (٢٤٤٦)، وابن ماجة (٤٠٤٢)، وأحمد (٢٣١٨٨).

(٢) فهو بشارة وإدخال المسرة والأمل بعد الكلام المؤيس، وهو من لازم انتهاء مدة الشدة، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر. و«يغاث» معناه: يعطون الغيث، وهو المطر. والعصر: عصر الأعناب خمورًا. التحرير والتنوير (٧/٢٧٨).

ولما جعل الله له من الحظ في الرؤيا طلب الولاية، وحذر ألا يقوم غيره مقامه لا أن يظن بأمثاله طلب عرض الدنيا، ثم إذا خدم الملك النبوة تمت بذلك النعمة، وهي من تأويل أبيه رؤياه حيث قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦].

يقول الله عز من قائل: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤] والسبع السنبلات الخضر هن زرع السنين الخصبة كما السنبلات السبع اليابسات هن ما اختزن منهن عدة للسنة الجدبة أو مثال لزرع تلك السنين الجدبة، وقوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ العنب خمرًا، والزيتون زيتًا، والجلجلان والفجل دهنًا، وقد يكون من العصر وهو الملجأ وهو المنجاة من شدة السبع الشداد.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [يوسف:٥٠ - ٥١] ثبتهن الله على إعصامهن إياه الأول يوم فجئتهن فأكبرنه عن التلبس بفاحشة، وأقرت امرأة العزيز على نفسها بأنها هي التي راودته عن نفسه وصدقته بذلك، وهذا من آيات الله ﷻ على نبوته وكراماته لرسله للسائلين؛ أي: الباحثين عن لطيف صنع الله ﷻ للنبوة والأنبياء، وكرامة من أراد بذلك صلى الله عليه وعلى آبائه الطاهرين الطيبين وسلم.

عبرة: انظر - وفقك الله - ما بين كفاية التوكل والتفويض إلى الله ﷻ وما بين

التكيس والتكسب حيث قال للذي ظن أنه ناجٍ من الفتيين للنبوة وكرامة من أراد بذلك: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لم يفوض الأمر إلى ربه تبارك وتعالى في ذلك، فعوقب بأن لبس في السجن بضع سنين، ثم لما جاءه من غير تعرض منه لذلك ولا تكسب صحة نيته في طلب البراءة مما قذفوه به ظلمًا أخذ الله بسمع امرأة العزيز وقلبها وجعلها تقر على نفسها بما كانت قبل تجاحش عنه وتتبرأ منه، وتشهد النساء له بما قد كان جعل الله في قلوبهن يومئذٍ من الإكبار له عن دنس الريبة والتلوث بالمعصية، لا لمعنى يستفدنه بذلك من دينًا، ولا براءة توبة يترجينها عند الله، وهذا خارج عن الفوائد المعهودة.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من ردي للرسول واحتباسي عن الانطلاق ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الملك ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ﴾ لتعلموا ﴿أَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾(١) [يوسف:٥٢] أعلم ﷺ أن النسوة اللاتي تلبسن بالخيانة ورضين بها وكذبن عليه أولاً لم يهدِ الله كيدهن، ولا يهدي كيد الخائنين، بل جعلهن يشهدن بشهادتهن، الأولى وهذا داخل في الإعجاز، وهو من الآيات للسائلين.

وهذا أيضًا إنباء منه ﷺ وتسليم من الله - جل ذكره - ذلك تصديقًا بأن هذا الحكم عام في مجازاته الخائنين، فإن الخائن لا عاقبة لفعله وإن ظهر له أول ما هو

---

(١) ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف ﷺ. قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة إلى كل منهما إلى ما يليق به، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه، وهي تثبته وتأنيه، أي: فعلت ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه في أهله بالغيب، والمعنى: بظهر الغيب، والجار والمجرور في محل نصب على الحال؛ أي : وهو غائب عني ، أو وأنا غائب عنه. قيل: إنه قال ذلك وهو في السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالته النسوة، وما قالته امرأة العزيز. وقيل: إنه قال ذلك وقد صار عند الملك. والأوّل أولى، وذهب الأقلون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز، والمعنى: ذلك القول الذي قلته في تنزيهه، والإقرار على نفسي بالمراودة؛ ليعلم يوسف أني لم أخنه، فأنسب إليه ما لم يكن منه وهو غائب عني، أو وأنا غائبة عنه، والإقرار على نفسي به.
﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لا يثبته ويسدّده، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم، وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته. فتح القدير (٤٣/٤).

بحسبان، وظن لأجل البلوى والفتنة كما قال عز من قائل: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩] وإن ظهر له أول ما هو كالتخيل والأخذ بالنفوس، ثم تظهر الحقيقة بعد، وكقول رسول الله ﷺ: «**الحالف منفق للسلعة مذهب للربح**»(١) وهكذا فليعتقد في الخيانات كلها وبعمل الخائنين.

ثم قال الطَّيْلاً: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣] لما أقرت امرأة العزيز على نفسها وشهد النسوة بما عندهن أقر أيضًا هو بما علمه الله منه.

وقيل: إنه لما قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف:٥٢] غمزه جبريل وقال له: «ولا يوم هممت بما هممت» وجاء: «ولا حين هممت بما هممت»، فقال: وما أبرئ نفسي ولا يبعد هذا، فهذا إن كان من طريق يصح قريب لأمثاله، وما هو آية عليه موجود فيما بيَّناه، وهو الحاضر من الخير في قلب المؤمن الذي سماه رسول الله ﷺ عظة الله في قلب كل مؤمن وفى وجود نشء الحق في الوجود يكون وجود ذلك عند وجود النبوة إلى خطاب الملك.

ومثل هذا ما ذكره الرسول ﷺ عن سليمان لما قال: «**لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل واحدة منهن تلد رجلاً يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك: «قل: إن شاء الله» فنسي، قال: فلم تلد منهن إلا واحدة ولدت شِقَّ إنسان**» قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله، لولدت كل واحدة منهن رجلاً يقاتلون في سبيل الله كلهم أجمعون**»(٢) فأقسم رسول الله على وجوب وجود ذلك إيمانًا بقول الملك: «قل: إن شاء الله» ووجود ذلك عنده وإن خاطر النبي نشأ فيه إلى ما هو الملك.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (٤٢٠٩)، وأبو داود (٣٣٣٧)، والنسائي (٤٤٧٨)، وأحمد (٧٤٠٨).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٤٩٤٤)، ومسلم (١٦٥٤)، وأحمد (٧١٣٧)، والنسائي (٣٨٥٦).

ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ ألقى الله في قلب الملك إكباره وحبه ﴿قَالَ إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(١) [يوسف: ٥٤ - ٥٥] هذه كلها آيات للسائلين - على جميعهم السلام](٢) والكواكب الشمس والقمر جعلها الله تعالى للهداية ووجدان النور والضياء [في العالم](٣) كذلك الأنبياء - عليهم السلام - وجودهم للهداية بهم والاقتداء [بأعمالهم](٤) وأقوالهم وشهود الإيمان واليقين بذلك.

ثم قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] فهذا حظه ﵇ من ذلك؛ إذ الهداة

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ يعني: أجعله في خاصة نفسي، فلما خرج يوسف من السجن ودّع أهل السجن ودعا لهم، وقال: «اللهم اعطف قلوب الصالحين عليهم، ولا تستر الأخبار عنهم» فمن ثمة تقع الأخبار عند أهل السجن قبل أن تقع عند عامة الناس. ولما دخل يوسف على الملك وكان الملك يتكلم سبعين لسانًا، فأجابه يوسف بذلك كله. ثم تكلم يوسف بالعبرانية، فلم يحسنها الملك، فقال: ما هذا اللسان يا يوسف؟ قال: هذا لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - ثم كلمه بالعربية، فلم يحسنها الملك، فقال: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان عمي إسماعيل. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: قال له الملك ﴿مَكِينٌ﴾ في المنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ على ما وكلتك. قَالَ له يوسف ﵇: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ يعني : على خراج مصر ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ للتدبير، ويقال: ﴿حَفِيظٌ﴾ بما وكلت به ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع الألسن. ويقال: عليم بأخذها ووضعها مواضعها. وإنما سأل ذلك صلاحًا للخلق؛ لأنه علم أنه ليس أحد يقوم بإصلاح ذلك الأمر مثله. ويقال: ﴿حَفِيظٌ﴾ يعني: عليمًا بساعة الجوع، وكان الملك يأكل في كل يوم نصف النهار، فلما كانت الليلة التي قضى الله بالقحط أمر يوسف بأن يتخذ طعام الملك بالليل، فلما أصبح الملك قال: الجوع الجوع. فأتي بطعام مهيًأ، قال: وما يدريكم بذلك؟ قالوا: أمرنا بذلك يوسف. ففوض الملك أموره كلها إلى يوسف. بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٨٤).

(٢) ما بين [ ] به اختلاف وتقديم وتأخير بين النسخ.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «بأفعالهم».

والمقتدى بهم لا [يخضعون][(١)] إلا لمن هو أهدى منهم وأولى بالاقتداء به منهم، وتأويل وجود سجودهم له الإئتمام به وإقرارهم بسبقه لهم ورفعه درجته عليهم وهم لما جمع الله على يوسف شمله بهم وبأبويه - على جميعهم السلام - سجد لربه شكرًا له على ما أنعم به عليه من الكفاية والنعمة وعليهم من الإقرار بالذنب [والتوبة سجدوا لله إئتمام به وشكرًا لربهم تبارك وتعالى وقال رسول الله ﷺ: «**يؤمكم أفضلكم**»[(٢)] وفي أخرى: «**يؤم القوم أفقههم**»[(٣)]][(٤)].

فصل

قال يعقوب ﵇: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾ [يوسف:٦] فعطف بالواو على مضمر، وإنما تقدم من قوله: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يوسف:٥].

والمضمر المحذوف هو ما [أتى][(٥)] ذكره والله أعلم وذلك أن الله ﷻ يصطفي من خلقه [ما][(٦)] يشاء، وهم المؤمنون، ويصطفي من المؤمنين ورثة الكتاب، ويجتبي من هؤلاء الموقنين، ومن الموقنين الصديقين، [ومن الصديقين][(٧)] النبيين والمرسلين عليهم السلام، ويجتبي من رسله من يشاء، والمجتبون من الرسل - عليهم السلام - العمود السامر من لدن آدم ﵇ [إلى محمد صلوات الله عليهما][(٨)] وعلى من سواهما من النبيين والمرسلين ذرية وآباءً وإخوانًا ورسلاً وأنبياء، والعمود هو آدم ﵇ وإدريس ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

---

(١) في النسخة (ق): «يجمعون».
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٨).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٦٠) عن عطاء.
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «يأتي».
(٦) في النسخة (ق): «من».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) سقط من النسخة (ق).

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:٣٣ - ٣٤].

وقال رسول الله : ﷺ «ورأيت يوسف ﷺ فإذا هو وقد أُعطي شطر الحسن»[١].

وقد تقدم الاعتبار بمواقيت خروجهم من ساعات الدهر، وأن يوسف ﷺ بموضع طلوع الفجر من يوم الدهر، فعطف يعقوب ﷺ بالواو على هذا المعنى، [دله بذلك - والله أعلم -][٢] أن الله يبلغه هذه الدرجة سجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا، وإن مثل يعقوب ﷺ لا يفضله إلا المجتبى من المجتبين.

قوله ﷻ حاكيًا عن نبيه يعقوب ﷺ بتأويل رؤيا يوسف ﷺ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥] إلى آخر التأويل، أضرب له - عليهما السلام - عن تأويل رؤياه، وقد بذل النصيحة مع علمه بأن [المقدور][٣] لا ينجي منه الحذر، وكان قد أوحى إلى إبراهيم ﷺ في عهد عهده الله ﷻ إليه قال: «سأورث ذريتك هذه الأرض [ومصر][٤] إياها من نهر مصر إلى الفرات النهر الأعظم» فَرَجَا أن يكون قد اقترب ذلك من وعد الله ﷻ، وخشي أن يكون [ما وعده][٥] يوسف ﷺ في رؤياه من الإثرة [والتقدم][٦] الذي دل عليه سجود الشمس والقمر والكواكب له، [وأنبئ][٧] به إبراهيم ﷺ فيما أعلم به: «إن نسلك سيتغرب في غير بلاده ويملكون ويزالون فيه أربعمائة سنة وأنت تلحق بآبائك في عافية [وتتصرف][٨] ذريتك ها هنا في الدرجة الرابعة» فقال: ﴿يَا بُنَيَّ لَا

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢)، وأحمد (١٢٥٢٧) وأبو يعلى (٣٣٧٥) وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٠) وأبو عوانة (٣٤٤).

(٢) في النسخة (ق): «إعلام منه في حكم التأويل».

(٣) في النسخة (ق): «القدر».

(٤) في النسخة (ق): «وبصره».

(٥) في النسخة (ق): «دون ما وعد به».

(٦) في النسخة (ق): «والتقديم».

(٧) في النسخة (ق): «ما أنبأ».

(٨) في النسخة (ق): «وشيخوخة صالحة وتنصرف».

تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف:٥].

قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم رؤيا تسوؤه فلينفث عن يساره ثلاثًا، وليتعوذ بالله من شر ما رآه، وليقم فليصلِّ فإنها لا تضره إن شاء الله، ولا يخبر بها أحدًا**»[١].

وقال ﷺ: «**إذا رأى أحدكم رؤيا تسره فلا يخبر بها أحدًا إلا بعد أن تطلع الشمس ولا يقصصها إلا لمن يحب**»[٢]. وفي أخرى: «**ولا يقصها على امرأة**»[٣]. و«**الرؤيا لأول عابر**»[٤].

وقال ﷺ: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت**»[٥] والرؤيا المقصود بها هو الرائي والمرئي له ثم بأخره هي للعابر، وكانت رؤيا يوسف ﷺ ظاهرها فيما يسره، وباطنها يسوؤه، وعاقبتها [فيها][٦] بشارة بما يؤل إليه شأنه من الرفعة والاجتباء، وقصَّه على أبيه فحذَّره - عليهما السلام - من شرها وبشَّره بخيرها.

أما ظهور شرها فيها وخيرها فلأن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله، وأمر الله ﷻ يجمع البلاء والعافية والسراء والضراء، ورؤيا الأنبياء - عليهم السلام - وحي، فظاهر الشأن أن يوسف ﷺ ألقى إليه من شأن الرؤيا بشارتها وطوي عنه نذارتها وجمع ذلك ليعقوب ﷺ، وبذلك [اشتد][٧] حزنه على يوسف لما أعلمه الله ﷻ من اجتبائه إياه، فكان حبه [إياه][٨] في الله جل ذكره، ولفراقه وتمادي منه ذلك لأجل ذلك.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٢٦١).

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) انظر: تعطير الأنام للنابلسي (ص٣٥٩).

(٤) أخرجه ابن ماجة (٣٩١٥)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٩٥).

(٥) أخرجه أبو داود (٥٠٢٠)، وابن ماجة (٣٩١٤)، والطبراني (٤٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٦٦)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٤٩)، وأحمد (١٦٢٢٧).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «ما أشد».

(٨) زيادة في النسخة (ق).

فصل

الوحي يلقى إلى النبي ﷺ يلقاه تامًا في حقه مفروغًا منه إذا كلم في الأمر رآه مخاطبه كأنه قد تقدمت له المعرفة بأصول ذلك المسئول عنه، وهو لا يعرف الوجه الذي [ترقى][١] إليه به سوى أنه هكذا ألقي إليه، فإذا سُئل عن اتصال ذلك المخبر عنه وعن منبعثه من الحكمة علوًا [وجدته][٢] ماهرًا به عالمًا له كأنه عنه كان منشؤه، وفيه مسقط رأسه، وإذا سئل عن ذلك الصادر منه ذكر أنه ملقى على لسانه وقلبه مع يقين رفيع موجود به.

وهذا الحق يأتيه في اليقظة وفي النوم، وبين حال النومان واليقظان، وربما سئل في الأغلب [عن شيء ابتداءً فيراه][٣] المتأمل له كأنه يتلقى الجواب [من حاضر غائب عن أبصار الحاضرين، وإن كان ذلك المسئول عنه لدينا له أسرع في الجواب][٤] محكمًا؛ إذ هو مما فطر عليه في [حال النبوة][٥]، وإن كان مما هو خارج عنه [تقصى][٦] الجواب من قريب منه عتيد، فإن وجده على ما عهده أخبر به وإلا صمت عنه لا يطلبه من نفسه ولا يقتضيه من ذاته بفكر ولا روية؛ لذلك - والله أعلم - قال له أبوه عليهما السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦] فعطف بالواو، وأدخل كاف التشبيه عليها إشارة إلى ما استقر في قلب يوسف بما أعلم به في رؤياه من جملة [الإنذار الذي أصيب به][٧] وألقي إلى يعقوب ذلك مجملاً، ولذلك حذره ونفوس الأنبياء - عليهم السلام - مذللة للابتلاء وسبل إلى ما هي آيات عليه في لقاء الله البر الرحيم أولياءه، فهو أكرم مورود عليه وهو خير المنزلين.

وفي قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] في هذا من الفقه أنه لا يجوز لأحد

---

(١) في النسخة (ق): «يرقى».
(٢) في النسخة (ق): «وُجد».
(٣) في النسخة (ق): «فيلقى ذلك المعنى وربما لقنه ابتداء فبرأه».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «خلقته عند أخذه عهد النبوة».
(٦) في النسخة (ق): «يقضي».
(٧) في النسخة (ق): «الأقدار الذي أصيب بها».

أن يتولى، [ولا يجوز][(١)] أن يكون حفيظًا في علمه محافظًا عليه عليمًا بما يأتي في ذلك وما [يرد][(٢)] ولا يجوز لموليه أن يوليه عملاً إلا أن يكون كذلك وإلا وقع كل واحد منهما في محذور ما نهى عنه، وكان من الفساد في ذلك أضعاف ما ينبغي إصلاحه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف:٥٦] وقرئت: «يشاء» بالنون[(٣)] وهو أعلم بالتقدير الأول في ذلك وإن الوجود يقتضي سوء التقدير.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من إعلامه بآياته [وتبيانه][(٤)] ما جعلت له آيات، وإعلام أيضًا بلطفه له؛ لينفذ به مقدوره، ثم ما تقدم ذكره من إحسانه [إليه][(٥)] وإنعامه عليه وعلى أبويه وإخوته ومن القدر السابق في الأزل.

ثم قال وقوله الحق: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ ابتداءً ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

وفي مفهوم هذا ما هو مرصد لإثابته المحسنين وعقوبته المجرمين في أحكام الدنيا والآخرة جزاء؛ ليتم كلمته في قوله للقلم: «اكتب ما هو كائن [إلى يوم القيامة][(٦)]»[(٧)].

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾

---

(١) في النسخة (ق): «ولائه إلا».

(٢) في النسخة (ق): «يذر».

(٣) قرأ ابن كثير، والمفضل: «حيث نشاء» بالنون. [زاد المسير (٣/٤٤٠)].

(٤) في النسخة (ق): «وبيناته».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) تقدم تخريجه.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا
نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ
مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ
رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ
اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ
لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ
أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف: ٥٨ - ٦٨].

قوله ﷻ حاكيًا عن نبيه يعقوب ﵇ لما راوده بنوه على أن يدفع إليهم أخاهم من أبيهم ليحملوه إلى [يوسف][(١)]: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وهنا محذوف مقدر معناه: فلم تحفظوه ولا رحمتموه ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وكانوا قد ﴿قَالُوا﴾ له من قبل: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] فهذا القول والذي قبله مأخوذ من الأمانة لم يكن طلبهم أن يصدقهم، بل كان طلبهم منه أن يأتمنهم عليه ولما آتوه، وقد فعلوا ما فعلوا في شأن يوسف واعتذروا عنده بالكذب قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: يؤتمن لنا على سواه بعد هذا ولو صدقناك [فيه اليوم كما قال][(٢)] من جعلها عمدته

---

(١) في النسخة (ق): «مصر».

(٢) في النسخة (ق): «لتفريطنا في هذا اليوم فما بال».

في الاحتجاج على أن الإيمان هو التصديق، [وإن كان ذلك يتوجه على التصديق][(١)] فإن الأظهر فيه الأمن بما أحاط به من الدليل أنه من الأمن والأمانة، والإيمان هو الدخول في الأمن ثوابًا لتصديق الله ﷻ في إخباره عما أخبر به وتصديق الرسل [فيما بلغوه عن ربهم][(٢)]، وائتمانهم على ما أخبروا به، فتفهم ذلك.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**الظن يخطئ ويصيب**»[(٣)].

وقال ﷺ: «**الظن أكذب الحديث**»[(٤)].

وقال الله ﷻ: ﴿**وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم:٢٨].

فأخبر أن الظن قد يصيب، [وأن الظن كذب][(٥)]، والعرب قد تسمي ما هو العلم بالشيء: ظنًا، كما قال الله ﷻ: ﴿**وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ**﴾ [التوبة:١١٨] وقال جل قوله في كذب الظن: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا**﴾ يظنون و﴿**يَخْرُصُونَ**﴾ [يونس:٦٦].

ثم قد يصعد هذا إلى أن يخطئ مرو ويصيب أخرى، وهذا هو ظن الإنسان بما هو إنسان، ثم قد يقوى في عموم المؤمنين باستصحابهم تقوى الله تعالى، فتكون الإصابة في ظنهم أكثر من الخطأ؛ ذلك لأن عامة المؤمنين في مثل الغبش [نور ليس هو بعديم منه ولا هو بكامله][(٦)]، وأما الذين أتم الله نعمته عليه فإنهم على الأغلب تلحق ظنونهم باليقين، وقد كان عمر ﷺ من هؤلاء، وفي أثناء هذه الأمة من [يعطى

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٩٥)، وابن ماجة (٢٤٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٥٦٣)، ومالك (١٦١٦)، وأحمد (٧٨٤٥)، وأبو داود (٤٩١٧)، والترمذي (١٩٨٨) والطبراني في «الأوسط» (٨٤٦١)، والبيهقي (١٣٨١٣).

(٥) في النسخة (ق): «ويكذب».

(٦) في النسخة (ق): «من ظلمات طبعهم لاختلاط نور إيمانهم بظلمات الطبع فهم ليسوا بمفلسين من نورهم ولا هم بوصف الكمال وكلامنا هذا في إصابة المراد من موجود الوحي والكافرون صم وبكم وعمي في الظلمات الكائنة عن طباعهم وكفرانهم».

هذا لذلك][1] قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن ينظر بنور الله**»[2].

وقال: «**احذروا فراسة المؤمن**»[3].

[وقال الله جل من قائل: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر:٧٥] والتوسم نحو التفرس][4].

وكان يعقوب عليه السلام ظن أولاً في بنيه فأصاب في قوله: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف:١٨] وأصاب في الثانية لما قالوا: ﴿**يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**﴾ [يوسف:٨١] إلى قوله: ﴿**وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ [يوسف:٨٢] فقال لهم عليه السلام: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف:١٨] وهذه أخفى من تلك، فإنه وإن كان العشرة والتسعة منهم لم يضمروا مكرًا فإن يوسف وأخاه بنيامين مكرا مكرًا، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ**﴾ [يوسف:٦٩ - ٧٠] المعنى إلى آخره، [ومن تلك فإن العشرة البنين لم يمكروا في هذه المرة، وإنما مكر بهم يوسف وأخوه الأصغر ابن يامين، فأجاب بظنه الصواب لم يوقع خطأ][5].

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ...**﴾ [يوسف:٦٧] خشي يعقوب أن [يعاينوا][6] فأمرهم بالتفرق على الأبواب؛ ليدخلوا في المعهود وعامة الناس.

يقول الله جل من قائل: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي**

---

(١) في النسخة (ق): «أيضًا من يرزق ذلك ومنه».

(٢) أخرجه الديلمي (٦٥٥٤).

(٣) أخرجه بلفظه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٨١)، وأخرجه بلفظ «اتقوا» بدل «احذروا» البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/٣٥٤)، والترمذي (٣١٢٧)، وقال: حديث غريب. والطبري (١٤/٤٦).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فكان ظنه مصيبًا في المرتين».

(٦) في النسخة (ق): «يعانوا».

عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾[(١)] [يوسف:٦٨] كما قال رسول الله ﷺ في الطيرة ونهى عنها [ونهى عن اعتقاد العدوى وقال: «**وفر من المجزوم فرارك من الأسد**»[(٢)] وقال: قد نهى عن التطير][(٣)]، ثم قال: «**وما منا إلا**» وخزل من الكلام شيئًا، ثم قال: «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**»[(٤)] وقال: «**وإذا تطيرت فلا ترجع**»[(٥)].

فهذا التردد هو الذي حمل يعقوب على أمره إياهم بالتفرق على الأبواب في الدخول والحذر عليهم، ولعلمه بأن الله هو المنفرد بحكمه قال: ﴿**وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [يوسف:٦٧] ولوجود هذا التوحيد في قلبه أثنى الله عليه بالعلم الذي [وضعه][(٦)] وصفه به في قوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾ والعلم الذي [أضافه إليه][(٧)] هو

---

(١) قال ابن العربي: إنما قال ذلك اتقاء من العين، فإنها حق عند المشرعين، والباري تعالى هو الفاعل لا فاعل غيره، وقد جعل النظر سببًا للمرض الذي يصيب الشخص بنظرالعائن بحسب ما يقدره الله تعالى. ولهذا يُنهي العائن عن التلفظ بالإعجاب، فإذا تلفظ، فإن برَّك اندفع الألم بالبركة. فإن لم يفعل سقط بالاغتسال. حسبما ورد في الحديث. وقد اعترض الأطباء هذا، واعتقدوا كذب النقلة للحديث. والجواب بقولهم: إن الكون والفساد يجري على حكم الطبائع الأربع، فإذا شذ شيء عما قالوا: إنه قانون. قالوا: هذه خاصة، خرجت عن مجري الطبيعة لا يعرف لها سبب، وإذا ثبت هذا فنقول: هذا الذي نقل عن صاحب الشريعة. هو خواص شرعية يشهد لصدقها وجودها، فإنا نرى العائن إذا برك امتنع ضرره، وإذا اغتسل برئ مُعَيَّنه. وقوله: ﴿**مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ**﴾. هذا يدل على أنه أمرهم بالتفرق خشية العين، ثم قال: وهذا لا يرد القدر، وإنما هو أمر تأنس به النفوس إذ خلقت ملاحظة للأسباب، فمن لاحظ السبب، ورأى أنه علامة في العادة لا يفعل شيئًا فهو الموحد. ومن نسب إليه فعلاً فهو ملحد. [الأحكام الصغرى ص٣٨٧].

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩١٢)، والترمذي (١٧١٢)، وابن ماجة (٣٦٦٧)، وأحمد (٣٧٥٩).

(٥) أخرجه الطبراني (٣٢٢٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٦٢).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «وصفه به».

العلم اللدني علم التوحيد الأعلى [والعمل به][١] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨] يعني: ذلك العلم.

وقد [حذره][٢] يعقوب [بقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧] وفي هذا من [المعنى] ما تقدم ذكره الأخذ بالحذر وإن كان لا يغني عن القدر][٣] وإن من العلم به التحرز منه والتسليم لله والتوكل عليه، ومنه قول رسول الله ﷺ: «**اعقلها وتوكل**»[٤] [وفي هذا من الفقه ما تقدم ذكره الأخذ بالحزم وإن كان لا يغني من القدر][٥] وإن مثل هذا لا يذهب بالتوكل إذا كان الآخذ به [ذاكرًا لله ﷻ وحده][٦]، وإن الحكم كله دون [لله وحده دون][٧] من سواه، والأخذ بالسنة مباح، لهذا فإذا فارق [الاسم][٨] الأول الموجود عن حكم الكلمة [حرم][٩] الثاني، [وخرج عن أن يكون أخذًا بالسنة.

فصل

يقال: لها العين والنفس، أصابت فلانًا عين ونفس بمنزلة سواء.

قال رسول الله ﷺ: «**العين حق**»[١٠].

وقال: «**أكثر هلاك أمتي من العين**»[١١].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «أحرزه».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) وقال: غريب. وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٩٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢١٢).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «في حال ذكر لله وتوحيد له».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «القسم».

(٩) في النسخة (ق): «لم يجزم».

(١٠) أخرجه البخاري (٥٤٠٨)، ومسلم (٢١٨٧)، وأحمد (٨٢٢٨)، وأبو داود (٣٨٧٩)، وابن ماجة (٣٥٠٧)، وابن حبان (٥٥٠٣).

(١١) أخرجه أحمد في المسند (١٥/١٢٧).

وقال: «**العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر**»[١].

وتكرار ذكرها في الشرع كثير: «**العين من الإنس والنفس من الجن**».

ولما غزا رسول الله ﷺ غزوة حنين قال قائل من المسلمين: «لن نُغلب اليوم من قلة» فكانت الهزيمة، لولا دفاع الله ﷻ إياها.

قال الله ﷻ: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ [التوبة:٢٥] ثم أنزل الآية.

هذه الآفة في النفوس كامنة؛ لذلك ذكرها يعقوب في [....][٢] ظنه من حيث علمه مثله من رفيع العلم؛ لرفعه منزلته][٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**وما منا إلا [فيه طيرة، ولكن الله يذهبها بالتوكل]**[٤]»[٥].

وليس المفروض على العبد [أن يزيل الخلقة][٦]، وإنما المراد منه الدؤوب على المجاهدة، وطلب المعالي من العلوم والأعمال، فربما ألحقها الله ﷻ له بالعادة فيتداركه بالعصمة، [وعلق][٧] الإنكار للأدنى، والتزام ما هو أولى بما يكون ذلك فاعلمه.

فصل

النفس تطلع من مطالعها المعهودة في الجسم والعين، ثم اللسان أقربها إسراعًا إلى هذه الآفة، ولهذا على ما تقدم ذكره مثال متصل [بها للعاين والمعيون][٨]، ولهذه النفس المشار إليها عدوى [يشاركه الجن الخلقة][٩] نهى الشرع عن اعتقاد

---

(١) أخرجه ابن عدي (٦/٤٠٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/٩٠)، والخطيب (٩/٢٤٤)، والقضاعي (١٠٥٩).

(٢) ما بين [ ] بياض في الأصل.

(٣) ما بين [ ] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) في النسخة (ق): «تبديل خلقة الله».

(٧) في النسخة (ق): «وعلى قدر».

(٨) في النسخة (ق): «منها إلى المعيون».

(٩) زيادة في النسخة (ق).

وجودها بمعنى وأثبتها بمعنى آخر، وموضع [موطنها][١] موطنان: العجب بالشيء والحسد، وقد تقدم ذكر موضع العجب من القرآن في ذكر غزوة حنين، والحسد مذكور للتعوذ منه في سورة الفلق، فإذا أبصرت نفس العاين شيئًا فأعجبها وأراد الله إنفاذ ما قد [سلف][٢] على المقدار المكتوب له وعليه خرج بإذن الله شيء يقوم مقام العدوى على مثال نفسه متصلاً بمثال نفس المعيون، فكان عن ذلك ما شاء الله ﷻ، وكان موجود هذا [أعني: الإذاية بالعين والنفس][٣] عن اسمه الغيور واسمه الواحد والأحد، جل جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه، والله أعلم.

[والتجرد][٤] من ذلك أن يذكر العجب بالشيء الخالق - جل ذكره - ويشغل قلبه بذكر الصانع لهذا المعجب به، وليقل: «تبارك الله أحسن الخالقين» ويدعو الله ﷻ بالبركة في ذلك المرئي.

وأما الحسد فنفس الحاسد آكد في العدوى ظاهرًا وباطنًا، وكما لظاهره على الأغلب عدوان فكذلك لباطنه عدوى، فنفسه أسرع إلى المعيون من الماء إلى صبيبه، [وتقدر][٥] كثيرًا ما يصحبه، والنفس هي من الحاسد؛ إذ الحسد من قبل العدو، والعين تكون من موضوع الحب، والعجب بهذا المرئي والتعوذ بالقرآن والكلام الطيب المعبر عن التوحيد الأرفع دواؤه بإذن الله تعالى.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ ما يغني عن الإطالة بذكره، وسنَّ رسول الله ﷺ الوضوء منه، وأظنه من عين المعجب بالمعيون ومنهما فالله أعلم، بل قد جاء في الثابت أن يؤمر العاين بالوضوء، وذلك أن يؤمر العاين فيغسل بالماء داخلة إزاره وإرفاغه وما هنالك، ويغسل رجليه قبل [ذراعيه][٦]، ويمسح برأسه قبل وجهه، وإذا غسل ذلك غسل إلى داخل من خارج اليد، وكذلك الرجل والوجه يؤخر ميامنه

(١) في النسخة (ق): «عملها».
(٢) في النسخة (ق): «شاءه».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «التحرز».
(٥) في النسخة (ق): «والقدر».
(٦) في النسخة (ق): «رأسه».

ويقدم أشمله؛ وذلك والله أعلم لأن مثاله مستقبلاً يمد قدمًا أمام ما هو مثال له، [فيشمل][(١)] المثال بالمعيون فيقع يمينه إلى شمال المعيون وشماله إلى يمينه، فيكون الوضوء على هذه الهيئة كفعل النبي ﷺ في تحويل الرداء عند دعاء الاستسقاء، وبالرجوع من المصلى يوم العيد على طريق غير الطريق الذي مضى عليه.

ثم هذا قد يتطرق إلى تعرف [الدواء من][(٢)] السحر والتحرز منه، وقد قال رسول الله ﷺ [يقاربها][(٣)]: «**لا عدوى ولا طيرة ولا غول ولا هام ولا صفر**»[(٤)] وقوله حق كله، لكن بعضه في المكيد آكد من بعض، وبعضه ألزم في الوجود من بعض، وبعضها يلزم أهل [الغلبة][(٥)] إنكارها واجتناب اعتقادها، وقد يترخص لمن دونهم للزوم وجودها، وبعضها حرام العمل بها والحوم حولها لجميع المكلفين، [وبعضها][(٦)] كانت أكذوبات فيما سلف، [وكشف رسول الله][(٧)] ﷺ عن حقيقة ذلك، والحمد لله رب العالمين.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

---

(١) في النسخة (ق): «فيتصل».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فيما يقارب هذا».

(٤) أخرجه أحمد (١٥٧٦٥)، ومسلم (٢٢٢٠)، والطحاوي (٤/٣٠٩).

(٥) في النسخة (ق): «العلية».

(٦) في النسخة (ق): «ولأجل ذلك».

(٧) في النسخة (ق): «وكشف الله برسوله».

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف:٦٩ - ٧٧].

قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف:٦٩] إلى قوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧] أعلم أخاه بما كتمه عن إخوته سواه.

قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦] يريد ملك مصر، دينه: طاعته، وملكه: موضع حكمه، كان عليه السلام قد أسرَّ في نفسه [أن يكيدهم بكيد يكون][١] سببًا لإمساكه [أخاه][٢] عنده، فقال من أجل ذلك: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩] [ترى][٣] مني أو منهم في شأنك.

وتمدح الله جلَّ ذكره في بديع لطفه في إيصال يوسف إلى أخذ أخيه في دين الملك دونه [على][٤] الملك بقدر منه تعالى ومشيئة شاءها، وكان لو سرق سارق ما صواع الملك وحكم هو فيه بحكمهم لم يكن ليوسف أخذه، إنما كان يأخذه الملك دونه أولاً إن الله جلَّ ذكره جعل ذلك؛ لتمكينه من الملك ومملكته، وأهل طاعته حتى أخذه لنفسه؛ لأنه بالزعم سرق صواع الملك، وإنما كانوا قبل قد سرقوا يوسف عليه السلام بما تخيلوا به على أبيهم.

والصواع إناء يعبر به في كتب النبوات عن الذوات، فمنها أوانٍ شريفة، ومنها أوانٍ خسيسة، وذلك الصواع الذي عبر به يوسف أنهم سرقوه هو يوسف، والملك

(١) في النسخة (ق): «أن يكيد عليهم بما يكون».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «تراه».
(٤) في النسخة (ق): «أعني».

هو الله ﷻ، فكان فعله ذلك بهم جزاء لفعلهم، وهذا الصواع المجعول في رحل أخيه في الحقيقة هو لله ﷻ وهو الملك الحق، فتمدح الله ﷻ بعجيب لطفه له الذي أوصله إلى الحكم به عليهم في دين الملك؛ أعني: صاحب مصر، والمراد هو الملك الحق عز جلاله، ثم فوق هذا العلم المعبر عنه بما تقدم علم علي هو المقصود بسياق قصصهم من أوله إلى آخره تفهموه إن كنتم صادقين في طلبكم.

قال الله جل من قائل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] وهذه إشارة إلى كيف يجتبي الله عبده من مراد نفسه ويستاقه إلى مراده به؛ ليختار له ما عنده على ما هو العبد فيه؛ لذلك قال إشعارًا منه إلى هذه اللطيفة، قال الله ﷻ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] فافهم مدح الله جلَّ ذكره الملك ليوسف، وهو المعرض عن الدنيا يقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧] ذلك؛ لأن ملك الأنبياء رفيع القدر في أمور الآخرة، به يظهر حكمه [ويظهر دينه][(١)] القيم في البلاد والعباد والدين والملك أخوان، فمتى إذا افترقا فهما عدوان متباغضان.

ولما رأى أخوة يوسف قد [علموا][(٢)] بحكمهم، وأن القول قد وقع عليهم ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾[(٣)] [يوسف:٧٧] ذكر مجاهد أن عمته

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «غلبوا».

(٣) وقولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ لا يدل على الجزم بأنه سرق، بل أخرجوا ذلك مخرج الشرط؛ أي: إن كان وقعت منه سرقة فهو يتأسى ممن سرق قبله، فقد سرق أخ له من قبل. والتعليق على الشرط على أنّ السرقة في حق بنيامين وأخيه ليس مجزومًا بها، كأنهم قالوا: إنْ كان هذا الذي رمى به بنيامين حقًّا فالذي رمى به يوسف من قبل حق، لكنه قوي الظن عندهم في حق يوسف بما ظهر لهم أنه جرى من بنيامين، ولذلك قالوا: إن ابنك سرق. وقيل: حققوا السرقة في جانب بنيامين وأخيه بحسب ظاهر الأمر، فكأنهم قالوا: إن كان قد سرق فغير بدع من ابني راحيل؛ لأن أخاه يوسف قد كان سرق، فعلى هذا القول يكون قولهم إنحاء على يوسف وبنيامين. وقيل: التقدير: فقد قيل عن يوسف إنه سرق، وقولهم هذا هو بحسب الظاهر، والإخبار بأمر جرى لتزول المعرة عنهم، وتختص بالشقيقين. تفسير البحر المحيط (٤٨/٧).

أخت أبيه كانت قد كادت على يعقوب في يوسف لتحبسه، فأبى عليها فحرمته قلادة كانت لإسحاق كانوا يعظمونها، وجعلوا حد من سرقها أن يسترق، فاحتجت بذلك على يعقوب واحتبست لذلك يوسف ﷺ عندها.

قال: فهذه هي السرقة التي ذكروها، فالله أعلم أكان ذلك أم لا.

ولما سمع منهم يوسف ذلك أسرها في نفسه ولم يبدها لهم، وعلم بذلك ثباتهم على العداوة الأولى وكذبهم عليه، فقال: [﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا...﴾ يمكن أن يتوجه قوله هذا إلى ما تقدم ذكره، ويمكن أن يتوجه إلى سرقتهم إياه عن أبيه حين باعوه وادعوا أنه عبد لهم، يقول: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بسرقتكم إياي، يقول هذا عند نفسه.

ثم قال: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧] ولو كان ما قاله مجاهد صحيحًا لم يكله إلى الله ﷻ](١).

﴿ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير بين النسخ.

مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يوسف:٧٨ - ٨٥].

قوله ﷻ: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨] في هذا من الفقه [أنه مما ينبغي أن يقرن المدح المسئول المرغوب إليه بطلب الحاجة][(١)].

﴿قَالَ﴾ [يوسف ﵇][(٢)] ﴿مَعَاذَ الله أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾[(٣)] [يوسف:٧٩] في هذا من الفقه أنه جائز أن يتوصل [إلى استيجاب][(٤)] بالمعاريض إلى الحق إذا لم يكن من ذلك بد، وقد ذكر الله ﷻ هذا منه في معرض المدح.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

---

(١) في النسخة (ق): «أن تمام السؤال والدعاء والرغبة أن يقرن إليه المدح وحسن الثناء».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) قال ابن عطية: يحتمل قولهم أن يكون مجازًا، وهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حرّ بسارق بدل من قد أحكمت السنة رقه، وإنما هذا كمن يقول لمن يكره فعله: اقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك تبالغ في استنزاله، وعلى هذا يتجه قول يوسف: ﴿مَعَاذَ الله﴾ لأنه تعوذ من غير جائز. ويحتمل أن يكون قولهم حقيقة، وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يريدوا استرقاق حر، فلم يبقَ إلا أن يريدوا بذلك طريق الجمالة؛ أي: خذ أحدنا حتى ينصرف إليك صاحبك. ومقصدهم بذلك: أن يصل بنيامين إلى أبيه، ويعرف يعقوب جلية الأمر. وقوله: ﴿مِنَ المُحْسِنِينَ﴾ وصفوه بما شاهدوه من إحسانه لهم ولغيرهم، أو من المحسنين إلينا في هذه اليد إنْ أسديتها إلينا، وهذا تأويل ابن إسحاق، ومعاذ الله تقدم الكلام فيه في قوله: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ والمعنى: وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلمًا في مذهبكم، فلِمَ تطلبون ما عرفتم أنه ظلم؟ وباطنه أن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو مصالح جمة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالمًا وعاملاً على خلاف الوحي، و﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ تقديره: من أن نأخذ، و«إذن» جواب وجزاء؛ أي: إن أخذنا بدله ظلمنا. وروي أنه قال لما أيأسهم من حمله معهم: إذا أتيتم أباكم فاقرؤوا عليه السلام وقولوا له: إن ملك مصر يدعو لك ألا تموت حتى ترى ولدك يوسف؛ ليعلم أنّ في أرض مصر صديقين مثله. تفسير البحر المحيط (٧/٥٠).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن
رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ
وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ
﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن
كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي
بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ [يوسف: ٨٦ - ٩٥].

قوله ﷻ حكاية عن نبيه يوسف: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا...﴾[1] [يوسف:٩٣] كان إبراهيم عليه السلام قد نزل أرض كنعان بن حام بن نوح، فلم يكن لهم ليخرجوا منها

(١) قوله ﷻ: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ فيه وجهان: أحدهما: مستبصرًا بأمري؛ لأنه إذا شم ريح القميص عرفني. الثاني: بصيرًا من العمى، فذاك من أحد الآيات الثلاث في قميص يوسف بعد الدم الكذب وقدّه من دُبُره، وفيه وجه آخر؛ لأنه قميص إبراهيم أنزل عليه من الجنة لما أُلقي في النار فصار لإسحاق، ثم ليعقوب، ثم ليوسف، فخلص به من الجب، وحازه حتى ألقاه أخوه على وجه أبيه فارتد بصيرًا، ولم يعلم بما سبق من سلامة إبراهيم من النار ويوسف من الجب أن يعقوب يرجع به بصيرًا. قال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهوذا بن يعقوب، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته فأنا الآن أحمل قميصك لأسرّه وليعود إليه بصره، فحمله. حكاه السدي. النكت والعيون (٢/ ٢٨٤).

إلى أرض مصر أو غيرها إلا بأمر من [عنده](١)، فأمرهم يوسف بالرحلة منها إلى أرض مصر، وذلك بأمر من الله جلَّ ذكره له، وأعطاهم قميصه آية على [صدق](٢) ما أمرهم به [عن](٣) الله ﷻ، وأن أباه يعود به بصيرًا إذا ألقي على وجهه فعلموا بذلك أنه من أمر الله جلَّ ذكره.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [يوسف:٩٤] من مصر متوجهة إلى أرض كنعان وجد يعقوب بريح يوسف على القميص، وهذه الصفة من حياة الإيمان نشأت في [حواسهم](٤) الظاهرة سمعًا وبصرًا وشمًّا وذوقًا ولمسًا.

كذلك قال إسماعيل وقد زاره إبراهيم أبوه - عليهما السلام - إلى منزله، [فلم يجده](٥) ووجد امرأة إسماعيل، فقال لها: أين هو؟ قالت: هو في القنص، فسألها: ما حالكم؟ فجاوبته بجواب لم يرضه منها، فقال لها: إذا جاء إسماعيل فقولي له يبدل [عتبة](٦) بابه، ولما جاء إسماعيل ودخل المنزل قال لأهله: إني أجد رائحة فمن جاءك اليوم؟ قالت: جاءني شيخ كذا، وقصَّت عليه القصة، فقال لها: ذاك أبي وقد أمرني بفراقك الحقي بأهلك.

وهذا أمر مشهور عند المنعم عليهم متعارف ووجود ذلك عن حواس الإيمان [في هذا من الفقه لأولي الألباب وجب تغليب حكم الأب على الابن في شأنه كله، ولا أشد من فراق الأهل من غير ضرر موجب ذلك منها، وكان ذلك ابتلاء من الله ﷻ بإسماعيل مرة ثم أخرى، ولما أطاع أباه مرتين وصية لا مشافهة منه له اصطفاه وأشركه معه في إقامة بيته الحرام.

وفيه من الفقه أيضًا أنه لا يجوز لمؤمن يريد الدار الآخرة أن يحبس امرأة لا تكون كذلك، ولا أن يجعل ابنته عند من يعصي الله ﷻ، ولا أن ينكح ابنه إلا امرأة

(١) في النسخة (ق): «الله».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «من عند».
(٤) في النسخة (ق): «حق الأنبياء بالحواس».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «رتجة».

ديِّنة ومن بيت صالح][(١)].

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٦ - ١٠٠].

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ الله مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٢)] [يوسف:٩٦] [كان عليه السلام قد علم][(٣)] من أمر يوسف عليه السلام أنه سيتم نعمته عليه بالنبوة كما أتمها قبل على آبائه - صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميعهم - وعلم أيضًا من الله ﷻ أنه غير مضيع يوسف دون أن يبلغه درجة إتمام النعمة عليه [إلى تمام إكمال تأويل رؤيا يوسف][(٤)]، وهذه كلها من آيات الله في قصصهم، [فمن اعتبرها وجد منه معبرًا][(٥)] إلى هداية وتفصيل معلومات كثيرة وإلى

---

(١) في النسخة (ق): «وكشف الله برسوله».

(٢) فيه إشارة إلى أن العاشق الهائم المنتظر لقاء الحق سبحانه إذا ذهبت عيناه من طول البكاء يجيء إليه بشير تجليه، فيلقى عليه قميص أنسه في حضرات قدسه فيرتد بصيرًا بشم ذلك، فهنالك يرى الحق بالحق، وينجلي الغين عن العين، ويقال: إنه عليه السلام إنما ارتد بصيرًا حين وضع القميص على وجهه؛ لأنه وجد لذة نفحة الحق تعالى منه حيث كان يوسف عليه السلام محل تجليه ﷻ وكان القميص معبقًا بريح جنان قدسه، فعاد لذلك نور بصره عليه السلام إلى مجاريه فأبصر. تفسير الألوسي (١٧٢/٩).

(٣) في النسخة (ق): «يعني».

(٤) في النسخة (ق): «ثم كذلك إلى إتمام عباده رؤياه المذكوره في صدر السورة».

(٥) في النسخة (ق): «من تفهمها وعبر بها إلى المشار بها والمراد منها وجد معبرًا إلى هداية الله عبده المحبوب عنده المجتبى ثم».

ذكرٍ علي.

قوله ﷻ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩٧] وقد كانوا [قالوا][(١)] ليوسف لما أن قررهم على فعلهم الذي وعدهم الله فيما أوحى إليه [في رؤياه][(٢)] حين جعلهم إياه في غيابات الجب.

[قوله][(٣)]: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ...﴾ [يوسف:١٥] فقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٨٩ - ٩٠] [وقرئت: «إنك» على التحقيق منهم][(٤)] إلى قولهم: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ [يعني: قدَّمك ورفعك علينا][(٥)] ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩١] [يعنون في مدافعتنا ذلك وهو أمر قد أعطاك الله ووعدك به فها هو ذا قد أنجزك ما وعدك][(٦)] فجاء من هذا أن الإقرار بالخطيئة مع الندم على فعلها توبة؛ لذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «رب إني ظلمت نفسي وعملت سوءًا فاغفر لي»[(٧)] كذلك قال آدم وموسى ونوح على جميعهم السلام.

فقال يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف:٩٨] وأعدهم إلى السحر والله أعلم، ذُكر أنه جمعهم فجعل يدعو لهم ويؤمِّنون على دعائه حتى أعلمه الله ﷻ أنه قد غفر لهم وجعلهم أنبياء، واستغفر لهم ﷺ ساعة يسألوه المغفرة وحين إقرارهم بالذنب، وقد تعرف في ذلك وعد الله إيَّاه من وحيه الذي أوحى إليه حال إلقائهم إياه في الجب، وكان الذنب المرتكب منهم في جنبته وهو المظلوم به [أعني: يوسف][(٨)]، فوضع بذلك حقه عنهم وحسن ذلك.

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «وهو قول الله له في وحيه إليه».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) أخرجه البيهقي (٢١٧٥).
(٨) زيادة في النسخة (ق).

[وكان يعقوب مظلومًا][(١)] في حط خطاياهم في يوسف ونفسه مما جنوه عليه من الحزن والأسف وطول البكاء، وأعظم المطلوب أن يبلغ بهم الغاية التي بلغوها من جعلهم أنبياء من أئمة المتقين، وقد كان علم ذلك من تأويل رؤيا يوسف، ولذلك قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦] وعلى قدر الحاجة يكون [الشوق][(٢)] لها والتأهب.

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف:٩٩] آوى والله أعلم هي المصافحة، كذلك قال قبل هذا: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف:٦٩] ولم يقل ذلك في إخوته، ومن هذا [يفهم أن السلام على الأحبة والخاصة مباح المعانقة فيها وتقبيل المناكب، وهي المصافحة][(٣)] وذلك على منازل ﴿وَقَالَ﴾ يبشرهم ويهنئهم بالسلامة والرحب: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] وهذا يمكن عند تلقيه إيَّاهم [قبل أن يدخلوا المدينة][(٤)] آوى إليه أبويه وقال لجماعتهم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [فإنه ذكر أن دخولهم مصر في اثنين وتسعين رأسًا][(٥)].

ولما دخلوا عليه [مجلسه][(٦)] رفع أبويه على العرش، ثم تذكر رؤياه التي أراه الله ﷻ إيَّاها في بدء الأمر، وكيف عبَّرها له أبوه، وكيف نزغ الشيطان بينه وبين إخوته، [وغربته][(٧)] في استعبادهم إيَّاه، وتصييره إلى ملك الأباعد، وكيف لطف الله ﷻ في حراسة دينه عليه في ظلمات الكفر وملك العبودية، وكيف لطف له بالحفظ والكلاءة وحسن الدفاع، ثم كيف جمع عليه شمله، وأقر بالظفر عينه فخرَّ لله ساجدًا شكرًا من نعمه لما أولاه، فخروا له سُجَّدًا؛ أي: لسجوده ائتمامًا به شاكرين لله ﷻ، حامدين له.

---

(١) في النسخة (ق): «إذ كان مطلوب يعقوب ﷺ».
(٢) في النسخة (ق): «التشزن».
(٣) في النسخة (ق): «يعلم أن المصافحة وهي تقبيل صفاح الأعناق وتقبيل المناكب وجعل الأيدي في الأيدي بين الأحبة مباح».
(٤) في النسخة (ق): «وقت دخلوا عليه فسطاطه خارجًا من مصر».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «منزله في مصر».
(٧) في النسخة (ق): «وعلم بذلك أن ذلك كان قدرًا مقدورًا قبل وقوعه وتذكر غربته».

ثم لما رفع رأسه من السجود قال: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يعني: لما قد وعد به أباه إبراهيم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(١) [يوسف:١٠٠]](٢) إنه عليم بما هو كائن قبل أن يكون حكيم في إجراء أمره في أثناء خلقه على هذا يتناول سجودهم له لا على غير ذلك.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠١ - ١٠٨].

ثم جعل يدعو ربه في الخاتمة وإتمام النعمة بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: فهم معاني الوحي وتأويل الرؤيه ونحو هذا،

---

(١) اختلف العلماء فيما بين رؤياه وتأويلها على خمسة أقاويل:
أحدها: أنه كان بينهما ثمانون سنة. قاله الحسن وقتادة.
الثاني: كان بينهما أربعون سنة. قاله سليمان.
الثالث: ست وثلاثون سنة. قاله سعيد بن جبير.
الرابع: اثنتان وعشرون سنة.
والخامس: أنه كان بينهما ثماني عشرة سنة. قاله ابن إسحاق. النكت والعيون (٢/٢٨٦).

(٢) سقط من النسخة (ق).

وما أظهر له من صدق التأويل في [الحكمة التي أظهر له في تأويل][(١)] سجود الشمس والقمر والكواكب في رؤياه، ثم التفضيل له على إخوته واجتبائه على من سواه [﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ فضم معاني الوحي وتأويل الرؤيا ونحو هذا][(٢)] ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[(٣)] [أي: خلقًا وأمرًا ورضًا][(٤)] ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] فسأل ربه باسمه الفاطر أن يتوفاه مسلمًا على ما فطر السماوات والأرض عليه [وفطره.

قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[(٥)] وفي أخرى: «**على الإسلام**»[(٦)].

وأنس من كريم حفايته بهم فيما تقدم حسن توليه ﷻ إيَّاه، فناداه من قرب الولاية][(٧)] يقول ﷺ: كما فطرتني على الإسلام الذي فطرت عليه السماوات والأرض توفني مسلمًا، وكما توليتني في الدنيا تولني في الآخرة وألحقني بالصالحين.

وقد تقدم ذكر سجود آدم لربه [وأنه][(٨)] لما سوَّاه خلقًا ظاهرًا، ثم لما نفخ فيه من روحه سوَّاه باطنًا، فعقل عند ذلك عن نفسه من هو، وإنه عبد لربه [الذي قرره

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) أي: توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت، وألحقني بالصالحين من النبيين من آبائي وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك. وقيل: إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله ﷻ. وقيل: كان عمره عند أن ألقي في الجبّ سبع عشرة سنة، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله. قيل: لم يتمنّ الموت أحد غير يوسف لا نبيّ ولا غيره. وذهب الجمهور إلى أنه لم يتمنّ الموت بهذا الدعاء، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام، ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله. فتح القدير (٧٥/٤).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ذكره الحكيم (٣١٠/١).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

على التزام العبودية][١] ألهمه السجود إليه فسجد لسجوده الملائكة كلهم أجمعون، [إلا إبليس][٢] كانت إمامة من الله أكرمه بها.

قوله ﷻ فيما حكا [عنهم][٣]: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ...﴾ [يوسف:١٠٠] هذا يدل على ما تقدم ذكره ويؤيده بعلمه، وإنه بتأويل لرؤيا علمًا مجملاً، فذكَّر أباه ببعض الجملة وأعرض عن ذكر بعض فعل المحسنين يعدد بذلك نعم ربه ويحدث بها، ولما كان الغرض ذلك لم يحدث بما أصابه من ضر ووصب وغير ذلك، وهكذا يكون الشكر والثناء.

[ثم ختم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠] كان الذي شاء ربنا ﷻ إنفاذ ما أنفذه، فلطف في استياق المقدورات إلى مقاديرها بعلمه وحكمته، لا إله إلا هو][٤].

يقول الله جل ثناؤه لرسوله ﷺ: ﴿ذَلِكَ﴾ [أي: ما قصصناه عليك من قصصه][٥] ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢] فلولا أنا أعلمناك به لما أوحيناه إليك وهو خطاب صرفه إلى شأن محمد ﷺ [هذا مثل قوله في صدر السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣] أي: عن العلم بقصصهم، صرف بهذا الخطاب إلى ذكر العرب][٦] وتحقيق نبوته ورسالته.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانه ما أكثرهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] وإن هم أسلموا وأظهروا ذلك، بل الغفلة تصحبهم والخلاف يأتي على أكثرهم إلا من أتم الله عليه نعمته بعلمه بما عبر عنه قوله الحق:

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «عن محضرهم ذلك».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) سقط من النسخة (ق).

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] دل على هذا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(1) [يوسف:١٠٦] فكان الوجود على ذلك من جملة الأمة ما يشاهد الآن فشرك أكبر وشرك أصغر، وإيمان قليل يوزن بالمثقال والذرة والخردلة وما هو أدنى وأدنى وأدنى.

[هذه السورة مكية، ولا مرية يومئذٍ في أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، ولم يكن عز جلاله ليعلمه لما كان يهتم لأجله ويحزن له؛ لأنه كان يحزن لتأخرهم ويهمه خلافهم، وإنما معناه والله أعلم: فإن دخلوا في الإيمان وكان منهم ما أنت حريص عليه فما أكثرهم في حال إيمانهم بمؤمنين، بل الغفلة تصحبهم والخلاف يأتي على أكثرهم إلا من أتم الله نعمته عليه، دل على هذا قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] وقول من قال: إنها نزلت في مشركي العرب، كانوا يهللون بالحج فيقولون في ذلك: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»، فهذا إن صح فلا يقتصر على أولئك، فالوجود يعطي هذا والمشاهدة تأبى عليه علمًا](2).

ثم قال جلَّ قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ يقول: وهم على كفرهم وردهم رسول ربهم وما جاء به ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٧] [وهو أيضًا متوجه إلى المخالفين أمر الله بعد العلم ووعيد لهم على ذلك](3).

---

(١) فيه خمسة أوجه: أحدها: أنه قول المشركين: الله ربنا وآلهتنا ترزقنا. قاله مجاهد.
الثاني: أنه في المنافقين، يؤمنون في الظاهر رياء وهم في الباطن كافرون بالله تعالى. قاله الحسن.
الثالث: هو أن يشبه الله تعالى بخلقه. قاله السدي.
الرابع: أنه يشرك في طاعته، كقول الرجل: «لولا الله وفلان لهلك فلان». وهذا قول أبي جعفر.
الخامس: أنهم كانوا يؤمنون بالله تعالى ويكفرون بمحمد ﷺ فلا يصح إيمانهم. حكاه ابن الأنباري. النكت والعيون (٢/٢٩٠).

(٢) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: لم يرسل الله إلى أهل القرى المهلكين ملائكة ولا ملوك الأرض، بل كانت لهم الذرية والأزواج يجوعون ويشبعون، وعلى ذلك أهلكنا من كذبهم ورد عليهم [أمرهم][(١)].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١٠٩ - ١١١].

ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ثم دعاهم جل ذكره من الدنيا إلى الآخرة ومن ضلالهم إلى الهدى بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩] ثم قرع من لا علم له بهذا القول الحق بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ بتشديد الذال من ﴿كُذِّبُوا﴾ الظن هنا بمعنى اليقين، وقرئت بالتخفيف فمعناه: حتى إذا استيأس الرسل [بواطن][(٢)] أتباعهم أنهم قد كذبوا ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ ويمكن أيضًا [أن يكون][(٣)]: حتى إذا استيأس الرسل من هداية قومهم، [وظن][(٤)] المرسل إليهم - [يعني: الكفار - أنهم قد كذبوا][(٥)]؛ أي: ظنوا [ذلك ظنًا

(١) في النسخة (ق): «أمر الله».
(٢) في النسخة (ق): «وظن».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وظنوا أي».
(٥) سقط من النسخة (ق).

يقوم][(١)] لهم مقام اليقين، والظن هنا بمعنى الشك والريب [جاءهم الهلاك وأخذهم العذاب، فكان ذلك نصرًا للرسل والاتباع لهم][(٢)] ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ أي: من الأتباع ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

مسألة:

الظاهر [المعلوم][(٣)] من رحمة الأنبياء والرسل وبرهم ورأفتهم لا سيما بالآباء والقرابات إنه كان ينبغي، بل كان يجب على يوسف إعلام أبيه يعقوب - عليهما السلام - وإدخال السرور عليه، ولا يتركه إلى الحرض ويسلمه إلى الحزن، مع عدم تعذر ذلك عليه، وتمكنه [من الأمر في أرض مصر][(٤)] من إرسال الوصايا والأشخاص إلى أبيه الشديد البث، الكثير البكاء، العظيم المصاب يعرفه بحاله حيث هو، [وما الذي جرى له وعليه القدر، وإلى ما][(٥)] آل إليه شأنه، [وقد قيل: إنه بلغ من الحزن وعظيم الوجد وجد][(٦)] سبعين ثكلى، وهما يومئذٍ خير من على وجه الأرض، فكأن يكون لأبيه في ذلك عزاء، ومن عظيم حزنه وكثرة بكائه عليه مسليً، وهم القدوة للأمم بعدهم، والأئمة الأدلاء على القصد إلى الله سبحانه.

الجواب: ليس شأن الأنبياء - عليهم السلام - فيما بينهم كسواهم، بل شأنهم انتظار الإذن من الله ﷻ لا يتقدمون ولا يتأخرون [بإذن من الله سبحانه، فما أذن لهم فعلوه وائتمروا له، وما لم يأذن لهم به وكلوه إليه][(٧)] وهو ﵇ لم يؤذن له في الإعلام بشأنه إلى أبيه؛ ليستوفي هو وأبوه بالحزن عليه، والشوق إلى لقاء كل واحد

(١) في النسخة (ق): «ظنًا قام».

(٢) في النسخة (ق): «جاء الرسل نصرنا والأتباع».

(٣) في النسخة (ق): «المعهود».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وبما جرى عليه وما».

(٦) في النسخة (ق): «وقد جاء: أن جبريل ﵇ دخل عليه السجن فسأله يوسف عن أبيه، فقال له: حَزِن عليك حُزن».

(٧) في النسخة (ق): «إلى غير ذلك».

منهما صاحبه دخرًا زائدًا إلى عملهما، [ودرجة لم ينلها بنبوته][(١)] ولحكمة لله جل ذكره في ذلك.

قد كان رسول الله ﷺ أذن لأصحابه في الهجرة من مكة إلى المدينة، وكان ذلك عن إذن الله [وبقي][(٢)] هو ينتظر أن يؤذن له، ثم استأذنه أبو بكر بأن يهاجر فيمن هاجر إلى المدينة، فقال ﷺ: «**أنا أنتظر الإذن في الهجرة**» فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: «**الصحبة**»[(٣)] فبقي أبو بكر أربعة أشهر يعلف ناقتين له ينتظر [أن يؤذن لرسول الله ﷺ فيهاجر معه][(٤)] حتى نزل عليه الإذن من ربه ﷻ فهاجر، وعلى هذا يتخرج [تأخر][(٥)] إعلام يوسف أباه، وهذا شأن الأنبياء مع ربهم وسيرهم وأحوالهم ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

[فإن قلت: فما بال يعقوب ﷺ حزن الحزن كله ولزم البث والبكاء، حتى بلغ ما عبر الله جل ذكره عن حاله تلك بقوله الحق: ﴿**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾[(٦)] [يوسف:٨٤].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ومكث».

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٢١٣٨).

(٤) في النسخة (ق): «الإذن».

(٥) في النسخة (ق): «ترك».

(٦) فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تام حزنه، وبلغ جهده، وجدد الله مصيبته له في يوسف فقال: ﴿**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**﴾ ونسى ابنه بنيامين فلم يذكره، عن ابن عباس، وقال سعيد بن جبير: لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال: ﴿**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**﴾ قال قتادة والحسن: والمعنى يا حزناه! وقال مجاهد والضحاك: يا جزعاه!، والنداء على معنى: تعال يا أسف فإنه من أوقاتك، وقال الزجاج: الأصل يا أسفي، فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ قيل: لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عمي، قال مقاتل، وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب، وإنما ابيضت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن، فلهذا قال: ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ وقيل: إن يعقوب كان يصلي، ويوسف نائمًا معترضًا بين يديه، فغط في نومه، فالتفت يعقوب إليه، ثم غط ثانية فالتفت إليه، ثم غط ثالثة فالتفت إليه سرورًا به وبغطيطه، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته:

=

يقول: فهو أبدًا يكظم حزنه ويعالج قلبه وما به، وقد أمره الله بالصبر والاستغناء بالله؛ إذ فيه العوض من كل فائت، بل لزم ما هو فيه حتى قال له بنوه: ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥].

والأنبياء - عليهم السلام - هم القادة الأئمة جعلهم الله أمثالاً للأمم، ويعقوب ويوسف وإخوته آيات على أمر الله في أوليائه، وإنه يختبرهم ثم كيف يقبض بعضهم دون بعض، ثم كيف يرسل إلى ما شاء من أوليائه عند قبض الملك إياه بشارته، وكيف يفتح بصره الذي يبصر به موجود الآخرة، عبر عن ذلك برده بصر يعقوب، بإلقاء القميص على وجهه يقول عز من قائل: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦].

وإنما هي أمثلة كالمحاجاة جعلها آيات، أقام يوسف لمكان ملكه مقام الملك الحق، ويعقوب مقام الولي الشيق المحب، والإخوة مقام المؤمنين، والله هو العليم الحكيم لطيف لما يشاء، وإلى هذا انتهت العبرة في أثناء القصص الحق ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

=

«انظروا إلى صفيي وابن خليلي قائمًا في مناجاتي يلتفت إلى غيري، وعزتي وجلالي! لأنزعن الحدقتين اللتين التفت بهما، ولأفرقن بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة، ليعلم العاملون أن من قام بين يدي يجب عليه مراقبة نظري»، هذا يدل على أن الالتفات في الصلاة - وإن لم يبطل - يدل على العقوبة عليها، والنقص فيها، وقد روى البخاري عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد». الثانية: قال النحاس: فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب ﵇ فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة: منها: أن يعقوب ﵇ لما علم أن يوسف ﵇ حي خاف على دينه، فاشتد حزنه لذلك، وقيل: إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيرًا، فندم على ذلك، والجواب الثالث: وهو أبينها هو أن في وا: «واحزناه» الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي وقال النبي ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»، وقد بين الله ﷻ ذلك بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه، قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: مملوء كربًا، ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم، وهو المشتمل على حزنه، يقال فلان كظيم وكاظم؛ أي: حزين لا يشكو حزنه.

والجواب: إن يوسف ﷺ لم يكن من متاع الدنيا، فيكره نفسه على الصبر دونه ويكسرها عن الحزن عليه، بل هو مما هو لله جل ذكره وهو حب لله، ومحبة المحبوب حب لله، والشوق إليه هو شوق لله، والحزن عليه حزن على ما هو لله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، ومن أهله وماله وولده والناس أجمعين**»[(١)]‏[(٢)].

قوله ﷻ: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ**﴾ العبرة: هي أن يشاهد المتفكر بعلمه وقلبه ما يقف عليه بلُبِّه، فإن كان هذا المعلوم مما هو من متاع الدنيا فليقفز قفزة الأكياس إلى منبعثه من موجودات الآخرة، وليعبر من موجود ما [فكر فيه ومشاهده ما نظر إليه][(٣)] إلى غيب ما جعل هذا آية له ودلالة عليه، فقد تقدم من العلم بالآخرة ما تقدم، فليقايس [الأشياء][(٤)] بأشباهها، وموجودات كل دار منها بأمثالها [فيما عبر إليه][(٥)] وكذلك في كل معتبر إليه؛ [لذلك شرط في العبرة ذوي الألباب][(٦)].

[وعبرة موجود قصصهم محبة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عبده التائب إليه الذي عبر رسول الله ﷺ عن معناه بقوله: «**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم ضلت له ناقته عليها زاده ومزاده فطلبها لم يجدها، وصعد لذلك شرفًا أو شرفين فلم يجد شيئًا، فلما يئس قال: آوي إلى تلك الشجرة أنام في ظلها حتى أموت، فبينا هو كذلك استيقظ فوجد ناقته قائمة على رأسه...**»[(٧)].

وقوله في المرأة التي كانت من السبي، كلما مرت بصبي ضمته إلى صدرها

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، والترمذي (٢٥١٥) وقال: صحيح. والنسائي (٥٠١٦)، وابن ماجة (٦٦)، وابن المبارك (٦٧٧)، والطيالسي (٢٠٠٤)، وأحمد (١٣٩٠١)، وعبد بن حميد (١١٧٤)، والدارمي (٢٧٤٠).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «تذكر به ومشاهد ما نظر فيه».

(٤) في النسخة (ق): «الأشباه».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) تقدم تخريجه.

ترضعه لعلها تصيب ابنها فيمن تصيب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه لما رآها كذلك: «أترون هذه طارحة ولدها في النار» قالوا: لا والله يارسول الله، وهي تقدر ألا تطرحه، قال: «الله أحب في عبده المؤمن من هذه في ولدها»(١). وفي أخرى: «لله أشد حبًا لعبده المؤمن من هذه لولدها».

قال شعيب ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠].

وإنما أجهل قلوبنا وبلَّدها عن هذه العظيمة الغفلة المستولية وعدم الفقه بمعرفته، ألا تسمع إلى جواب قوم شعيب ﷺ حيث قالوا له: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١] وقد كان يكفينا من العلم ما نريد به العبارة عنه والتبيان له لمشاهدتنا إنا لم نرَ الخير قط إلا من عنده، وإنا لم نرَ الشر قط إلا من سواه.

ولعلم يعقوب ﷺ محبة الله ليوسف الذي جعل يعقوب مثلاً في حبه له، لما راوده بنوه على أخيه بنيامين قال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وفي أخرى: «فالله خير حفظًا» أي: أكرم مني حفظًا ليوسف ولجميعكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤] أي: أرحم بيوسف وبجميعكم.

ولما دفع إليهم أخاهم حذرهم من موضع المخافة عليهم وقال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف:٦٧].

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف:٦٨] أي: العلم الذي أتاه بالنبوة وفطرتها، وبما أعلمه من بدء الأمر من تأويل رؤيا يوسف ﷺ الذي عبر عنه في آخر الأمر بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦] وما عبر عنه مناجاة يوسف ﷺ ربه عز جلاله ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٢٨/٣)، والبزار (٢٨٧).

﴿وَالآخِرَةِ﴾ [يوسف:١٠١]][(١)].

[ثم قال جلَّ قوله][(٢)]: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: التوراة والإنجيل والزبور والصحف المنزلة قبله ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الذي هو][(٣)] كل شيء هو أم الكتاب، [فهذا تفصيل ما كان في معناه أو تعلق به أو جاوزه من أم الكتاب، فكل شيء أحكم الله آياته في الكتاب المبين، ثم فصله بالوجود إيجاد وبالكتاب إعلامًا وقصصًا ﴿وَهُدًى﴾ إلى الاعتبار ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

عبرة:

سبيل الاعتبار في هذا - والله أعلم][(٤)] كما عبر يعقوب في رؤيا ابنه من رؤية الشمس والقمر [إلى التفصيل وإلى الملك والاجتباء ومن رأيته الكواكب مع الشمس والقمر][(٥)] إلى أن يعلم تأويل الأحاديث، ومن سجود الإخوة بعد معرفة العبرة إليهم إلى حدوث العداوة منهم له بما جعل الله ﷻ في الكواكب [من أمره، وأمره][(٦)] مشتمل على الضر والنفع، وكما عبر يوسف في رؤيا الملك من السبع البقرات السمان إلى السبع السنين الخصبة، ومن العجاف إلى السبع الشداد، ومن السنابل الخضر إلى نعمة الحال وخضرة العيش، ومن السنابل اليابسات إلى [المجدبة][(٧)] منهن، فاعتبر أنت - وفقك الله - من وجود عداوة إخوته إياه وإخراجهم له عن أرضه إلى أرض مصر إلى أن ذلك من تصديق ما أنبئ به إبراهيم، وأن الذي جرى على نسلهم من استعباد القبطيين إياهم وإذلالهم وشدائد ما قاسوه فيما هنالك إلى أنها عقوبة لجميعهم؛ لاستعبادهم يوسف وكذلك جميع ما حزنوا

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أتبع هذا كله قوله الحق».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «من الأمر الذي سخرت له وأمر الله».
(٧) في النسخة (ق): «المختزنه».

من أجله لتحزينهم يعقوب عليه السلام.

فإن قلت: فما بال نسل يوسف قد أصابهم ما أصاب نسل جميعهم من الهون والاستعباد؟

فالجواب: إن الأمر من الله ﷻ إذا جاء عمَّ البريء والجاني كما قال رسول الله ﷺ: «**تردون موردًا واحدًا وتصدرون مصادر شتى**»(١) وقال الله جل ثناؤه: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال:٢٥] كما كان العطف عليهم وغياثهم مراعاة لصلاح آبائهم، [وميراثًا لصدق أسلافهم](٢)، فقد جاء أن شؤم الأب يلحق السابع من الولد، وأن بركة الأب تصيب [السابع](٣) من الولد؛ لذلك كان ظلم القبطيين لهم واستعبادهم إياهم وتسخيرهم سببًا ليورثهم الله جل ذكره أرضهم وديارهم وأموالهم وإن تراخت المدد.

قال الله ﷻ: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾ [الدخان: ٢٥-٢٧] ﴿**كَذَلِكَ**﴾ أي: كذلك فعلنا بمن أهلكنا قبلهم ونفعله بمن نهلكه بعدهم، ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الشعراء: ٥٩].

يقول الله جلَّ قوله: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠] كذلك فاعبر من تيسيره الأسباب في حفظه يوسف، [وحفظه إياه](٤) في إيمانه وإسلامه ودينه، وتمكينه من ملك مصر ليهيئ له ما يريده من تفريغه نفسه وجوارحه إلى عبادته، [وإلى تعليمه](٥) ما علمه من النبوة وتأويل الأحاديث، وما آتاه من [فضله وأطلعه على علمه الذي علمه إياه](٦) إلى أن الله غالب على أمره ييسر أسباب الكائنات؛ لكون ما يريد [كونه](٧) ثم كذلك إلى ما حواه الكتاب المبين لكل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «وكريم ميراث الصدق عن أسلافهم عليهم السلام».

(٣) في النسخة (ق): «التاسع».

(٤) في النسخة (ق): «وكفالته إياه وحياطته وعصمته».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «حكمة وعلمه من علم».

(٧) في النسخة (ق): «كلاً».

كائن إلى يوم القيامة، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١].

ثم إلى ما اقتضى الكائنات من مقتضى أسمائه ومعاني صفاته [كذلك فاعبر من حسن إنزال يوسف إياهم عنده وطلبه منهم أخاهم لأبيهم، وجعله متاعهم في أوعيتهم وجعله لهم حمل بعير؛ لأجل صواع جعله في متاعهم لأمر أراده بهم ومنهم، كل ذلك اعبر منه إلى حسن إنعام الله علينا وكريم تعرفه إلينا بالمنن والإحسان، ثم اعبر من غفلتهم عن يوسف وعن تعرفه إليهم بالإحسان إلى عظيم غفلتنا نحن عن تعرف كريم أيادي الله علينا وجميل إحسانه إلينا ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]][١].

فصل

جاء في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة: إن الله جل ذكره أوحى إلى إبراهيم وأخرجه خارجًا، ثم قال: «تبصر السماء واحسب النجوم إن كنت تقوى، هكذا يكون نسلك».

وقال له جلَّ قوله: «أنا الله خلصتك من نار اليمانيين؛ لأورثك هذه الأرض وتملكها».

وقال له: «إن نسلك سيتغرب في غير بلاده، ويملكون ويذلون فيه أربعمائة سنة، ولكن سأحكم على الأمة الذين يستعبدونهم، وبعد هذا يخرجون بخير واسع وأنت تلحق بآبائك في عافية، [وشيوخه][٢] صالحة، وتتصرف ذريتهم ها هنا في الدرجة الرابعة».

وقال أيضًا: يوم أضجع ابنه للذبح وفداه الله منه بكبش، [فأوحى الله ﷻ إليه][٣]: «إذا فعلت هذا ولم تحن على ولدك المولود وحيدًا سأبارك عليك وأكثر نسلك حتى يكونوا كنجوم السماء، [وكرمل أجراف البحر][٤] وسيملك نسلك

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وشيخوخة».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

أبواب أعدائهم، وتتبارك بنسلك جميع أجناس الأرض إذا وقفت عند أمري» فكان [أيضًا ما لطف الله ﷻ لنبيه يوسف، وما حرك إخوته][(١)] إلى حسده وعداوته وبيعه وتغريبه عن وطنه؛ ليكون لهم كالفرط إلى أرض مصر للتغريب الذي أنبئ به إبراهيم، وهذا من تفصيل كل شيء.

[وولد لإبراهيم إسماعيل وإسحاق، ثم ولد لإسحاق يعقوب والعيص، وكان إسحاق قد بارك على العيص بعدما كان قد عمي - أعني: إسحاق - فبارك عليه [بعد مكيدة] كادتها عليه امرأته أم العيص وإسحاق يظن أن الذي بارك عليه هو يعقوب، فولد ليعقوب يوسف وإخوته اثنا عشر ولدًا كانت الأسباط عن هؤلاء بنو إسرائيل، وولد للعيص البنون والبنات، وكان صاحب صيد وقنص وركوب وظهور، فكان عنه الأصفر وما ولد، وقيصر وما ولد، وروم وما ولد، ويونان وما ولد، وفارس وما ولد، ثم كان من بني إسرائيل من الصلاح والنبوة والحكمة والكتاب ما قصَّ علينا، وكان من بعض خلفهم من خلاف وعتو وامتحان وعقوبات ما قصَّ علينا.

قال الله عز من قائل: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٤] والعلو الكبير الذي عناه وهو أعلم: علوهم بالرجال، فإن الرجل يدعو إلى نفسه ويدعي الربوبية، وأتباعه على دينه لا مرية في ذلك، ثم يكون يومئذٍ من عقوبة ما قصَّ علينا.

وقال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»[(٢)].

وفي أخرى: «**حتى لو كان منهم من أتى أمه جهارًا لكان فيكم من يفعل ذلك**»[(٣)] فما من شيء فعلوه إلا فعلناه نحن من قتال وقتل، وإخراج البعض من الأوطان، وخلاف واختلاف في الدين من بعد العلم، إلى غير ذلك مما يكثر تعداده،

(١) في النسخة (ق): «ما قدره من تحرك إخوة يوسف».
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

لو تصفح جميع ما غيب عليه لألقى في فعلنا ذلك خلا ما كان من قتل الأنبياء والرسل، فإن من رحمة الله جل ذكره أنه لم يبعث فينا نبيًا يأمرنا أو ينهانا.

وقد كان فينا من ادعى النبوة والربوبية تصديقًا لما أنذر به رسول الله ﷺ، وأما من أتى أمه جهارًا، والجهار: هو النكاح وإشهاره، فذلك قد يكون من بعض ذنوب من يكون ناذرًا في أمه فارس، فإن ذلك كان من فعلهم، وعنه كان إسلامهم وتوبتهم، وما من أمة تابت من شيء وخرجت عنه بإسلامها إلا عاد إلى ذلك الفعل خلافها.

قال رسول الله ﷺ: «**وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم**»[١] ثلاثًا، وهذا والله أعلم إنذار منه للأمم الثلاثة العرب والروم وفارس، فإنه مبعوث إلى جميعهم، والحبش وسائر الأجناس تبع لها، ولا في الخطاب، فإنهم يعودون من حيث بدؤوا.

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى يعبد اللات والعزى**»[٢] **وحتى يضطرب آليات نساء دوس حول ذي الخصلة**»[٣].

وقد قيل: إن بظهور الدجال يعود ملك بني الساسان، وعلى القول بالإجمال ولو تصفح فعل الروم وفارس في تخلفهم عن هذا بأنهم الآن، وعلمنا في تخلفهم ما علمناه من تخلفنا لوجد فيهم أنهم سلكوا مسالك من كان قبلهم كما ضلال المهلكين، وغير المهلكين الذين سبق لهم من الله ﷻ الإمهال تبعوا سنن من كان قبلهم شبرًا بشبر وذراعًا.

وفي ذلك يقول الله جل من قائل: ﴿**كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ**﴾ [الذاريات:٥٢ - ٥٣].

وقال: ﴿**تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة:١١٨].

﴿**إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ**﴾ [ص:١٤]][٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن عدي (٥٣/٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩٩)، ومسلم (٢٩٠٦)، وأحمد (٧٦٦٣)، وابن حبان (٦٧٤٩).

(٤) سقط من النسخة (ق).

ومن العبرة: وهو أن ينظر في تغريبه ﷺ عن أبيه وأهله ووطنه، فتعبر منه إلى غربة المؤمن عن [قرارة][١] فوزه وموضع مسقط رأسه وأولية خلقته، وهو الجنة [التي][٢] الجهار فيها هو البر الرحيم معدن النعمة والراحة والأمن، [ثم حسد إخوته كحسد][٣] إبليس لآدم ﷺ ثم بنيه من بعده، [لذلك قال بعضهم][٤]:

أنــا فــي الغــربة أبكــي ... مــا بكــت عــين غــريب

لــم أكــن يــوم خروجــي ... مــن بــلادي بمــصيب

عجــبًا لــي ولتركــي ... وطــنًا فــيه حبيبــي

فغيب ﷺ إلى الاستعباد، وعرض به الفتن وضروب المحن والسجن، إلى غير ذلك مما ابتلي به، وذلك في التمثيل كتغريب أبينا آدم ﷺ وتغريب جميعنا من أجله، [ثم أرج عند لقاء الله الكريم من الترحيب والإكرام أكثر وأفضل من ذلك الإكرام وأرحب من ذلك الترحيب][٥] وفتفقد [جميع ما أصابهم وعاقبة ذلك، وتعرف][٦] عاقبة التغريب الأول [وأحسن العبرة][٧] فبذلك أمرت، وانظر في الرؤيا، ومثل حال الحالم بساكن الدنيا المغرب إليها فإنه فيها كالنائم، وما يلاقيه من محنها وسرائها وضرائها وشأنه كله فيها كالرؤيا والأحلام، وإن الرؤيا في معرض الصدق والذكر في هذه الأحلام فيها كالأباطيل، والمنسوب من مرأى [النائم][٨] إلى الشيطان والأضغاث كموجودات دار الدنيا ومتاعها.

قال رسول الله ﷺ: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[٩].

---

(١) في النسخة (ق): «قرار».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «ثم من حسد إخوته إياه إلى حسد».

(٤) في النسخة (ق): «حتى غربهم عن الجنة وقد قال في معنى ذلك بعضهم».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «الحاكم».

(٩) تقدم تخريجه.

فاعبر إذًا من رؤياه إلى موضع تمام أجل غربته، وحلول وقت اللقاء بأهله [وأبيه][(١)]، [وتوهم بسجوده وسجودهم حين اللقاء شكرًا لله ﷻ][(٢)]، ومثله بسجود المؤمنين لله يوم لقائهم له [حين تجليه العلي][(٣)] في صورته التي عرفهم بها في هذه الدار، [وعظتهم لما][(٤)] آل إليهم شأنهم وأنهم نقلوا حين تابوا لله ولرسوله من البدو [أو من][(٥)] كنعان إلى مصر يتبوؤن منها حيث يشاءوا، [فعبر منها ذلك إلى نقله التائبين من عباد الله من الدنيا إلى الجنة يتبوؤن منها حيث شاءوا][(٦)]؛ لذلك عرض بقوله الصدق: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

يعرض برفعه درجات أوليائه في الدار الآخرة هم درجات عند الله، لذلك أيضًا كان بنو يعقوب - عليهم السلام - درجات فيما هنالك، ثم انظر في تفاوت العباد المؤمنين في لقاء ربهم، أما [المذنبون][(٧)] فقصاراهم العفو عن ذنوبهم والمغفرة لخطاياهم، وأما [الأولياء وأهل المحبة الطاهرة من الذنوب][(٨)] فلهم الإجلال والإكرام.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ يعني: عانقه وضمه إليه التزامًا وشمًا وتشفّيًا من اشتياق الغربة، و﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩].

[كما قال عز من قائل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠]][(٩)].

---

(١) في النسخة (ق): «وبنيه».
(٢) في النسخة (ق): «ويوهم سجود شكره الله ﷻ وسجودهم ائتمامًا به».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وغبطتهم بما».
(٥) في النسخة (ق): «وأرض».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «المؤمنون».
(٨) في النسخة (ق): «الطهرة والأولياء».
(٩) زيادة في النسخة (ق).

تفطن - وفقك الله وبلغ بنا وبك رفيع الدرجات - فكذلك يقول الله سبحانه وله الحمد في الدنيا والآخرة يوم اللقاء [الكريم](١): ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨] أي: مما ترونه من فظيع الأحوال وطول المقام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [مثال ذلك قول يوسف لأخيه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩] ثم يقول الله جل من قائل](٢): ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠] كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ و﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف:٩٩] ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] وجعل خطابه لهما.

[وقال جلَّ قوله في الآخرين: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٣٨ - ٣٩] ثم قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:٤٠] المعنى حيث وقع، وكذلك فعل عند لقاء أبيه، وجميعهم آوى إليه أبويه](٣) كيف [تظن وجد أبيه ومحنته، وشديد تشفيه لعظيم وده، وطول حزنه من بعده، وأصحاب](٤) الذنوب فلم يبلغوا المنزلة العليا أقصى أمانيهم العفو عنهم والاستغفار لهم.

قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله جل من قائل: اشتد شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقًا**»(٥).

وقال: «**إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره عبدي لقائي كرهت لقاءه**»(٦).

[وقال رسول الله ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده من رجل ضلت له ناقته بأرض قفر**

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «ترى وجد أبويه ومحبة أبيه وعظيم تشفيه لأجل عظيم وده وطول حزنه من بعده الذي عبر عنه رسول الله ﷺ : «لله أفرح بتوبة عبده من رجل...» وأما أصحاب».

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (٧٠٦٥)، والنسائي (١٨٣٥)، ومالك (٥٦٩).

عليها زاده ومزاده طلبها فلم يجدها، فلما يئس منها قال: أرجع فأنام تحت شجرة حتى أموت، فبينما هو نائم إذا بناقته قائمة على رأسه فقام يأخذ بخطامها وأخذ يقول: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[١].

فالله ﷻ ينزل في هذا الخطاب على لسان رسوله إلى التمثيل برجل ضلت ناقته، والناقة في التأويل [...][٢] مثلاً ضربه، ولا يضل الله شيئًا، وتأويل الأرض القفر هو دار الدنيا بما أحاط [....][٣] من شياطين الإنس والجن، وفتن وهوى وأسقام، وسراء وضراء، ونفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله، وشهوة غالبة، وتأويل يأسه منه ما عبر رسول الله ﷺ: «**الهوى والشهوة يغلبان العقل**»[٤] والعلم والبيان وتأويل نومه هو ما عبر عنه بقوله: ﴿**إِنَّا عَامِلُونَ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ**﴾ [هود:١٢١ - ١٢٢].

وكل أجل عنده له كتاب، وكل أجل بكتاب [هو] ينتظر بأوليائه وهم في غيابات هذه الأرض المهلكة حتى يأتوه وهو الآتي بهم ﷻ، فإذا تاب التائب فهو إتيانه إلى ربه، وربه يفرح به وهو لا يشعر، ألا ترى إلى إشارة رسول الله ﷺ في آخر المثل إلى ما نحن بسبيل تبيانه من التأويل بقوله: «أنت عبدي وأنا ربك» فتفطن بخطاب ربك، وإشارات رسوله تفز ببغيتك إن شاء الله.

ألا ترى أن مكرهم على يوسف شبه بمكر العدو اللعين بآدم حين أخرجه عن قرار الفوز، وأنس القرب إلى الدنيا دار الغربة والوحشة والإذاية والفتن خروج يوسف إلى أرض الكفرة الأباعد، وتعريضه للفتن وسجنه فيما هنالك؟ وقال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن**»[٥] كذا آدم لما واقع الخطيئة هنالك سجن ها هنا.

كذلك فانظر إلى مكرهم في مجيئهم آباهم عشاء يبكون قد عالوا القميص دمًا

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير واضحة في (ف).
(٣) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير واضحة في (ف).
(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٥٠٨٧) عن الحارث المحاسبي.
(٥) تقدم تخريجه.

كذبًا [وقال] النبي الصدق ﷺ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: على ما ألاقيه من البعد، ومعلوم ما سبقه إليه ربه ﷻ من علمه من تأويل الرؤيا، ثم قال: ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

ألا ترى إلى بيعهم إياه بالثمن البخس بدراهم معدودة إشارة إلى قلتها، ولم يشعروا لما باعوه وفقدوه من نبي الله وصديقه ورسوله، وإلى جهل الذي اشتراه من مصر بما صار إليه، وما أشبه هذا في العبرة ببيع أحدنا نفسه بدنيا قليل نفعها وشيك زوالها زهيد متاعها، تذهب وتبقى تباعتها، لا تسر بقدر ما تضر، ما أشبه جهل البائع منا بالبائع منهم والمشتري بالمشتري منهم، ثم مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء كما فعل بآدم ﷺ ويكثر من ذريته.

ثم قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ ولا يكون التمكين في الأرض رحمة إلا المتقين، ثم قال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦] أي: الذي لم نمكن لهم فيها، فصبروا وأحسنوا.

ثم قال: ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من التمكين في الأرض لذلك، وهو أعلم قال: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:٥٧] خاطب من الآخرة، فكأن تقواهم كالماضي.

وقال جلَّ قوله في ذكر التمكين الأول، وكذلك إشارة إلى ما كان في تأويل ذكر الرؤيا من التمكين إشارة إلى ذلك بقوله: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦].

وقال الله ﷻ: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤] فقد كان في بني إسرائيل من آل إبراهيم من سخرت له الجبال والطير تسبحن معه بالعشي والإشراق، وكان فيهم من سخرت له الريح والجن والإنس والطير فأوتي الملك المعجز، وقد كان في آل إبراهيم من حباب الأرضين وسلكها وبلغ مطلع الشمس ومغربها وبناء السبل دون يأجوج ومأجوج وبنايات رومية وهو معجز.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٢١] وقد تقدم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[١] بالفتح للتاء، و«هيت لك» بالرفع بمعنى: هيئت الفتن لك، فهذا أمثال

(١) «هيت» اسم فعل بمعنى أسرع، ولك للتبيين أي: لك أقول، أمرته بأن يسرع إليها، وزعم الكسائي والفراء أنها لغة حورانية وقعت إلى أهل الحجاز فتكلموا بها ومعناها: تعال، وقاله عكرمة، وقال أبو زيد: هي عبرانية «هيتلخ» أي: تعاله فأعربه القرآن، وقال ابن عباس والحسن: بالسريانية، وقال السدي: بالقبطية هلمّ لك، وقال مجاهد وغيره: عربية تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمة حث وإقبال، ولا يبعد اتفاق اللغات في لفظ، فقد وجد ذلك في كلام العرب مع لغات غيرهم، وقال الجوهري: هوت وهيت به صاح به فدعاه، ولا يبعد أن يكون مشتقًا من اسم الفعل، كما اشتقوا من الجمل نحو سبح وحمدك، ولما كان اسم فعل لم يبرز فيه الضمير، بل يدل على رتبة الضمير بما يتصل باللام من الخطاب نحو: هيت لك، وهيت لك، وهيت لكما، وهيت لكم، وهيت لكن، وقرأ نافع، وابن ذكوان، والأعرج، وشيبة، وأبو جعفر: هيت بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة وفتح التاء، والحلواني عن هشام كذلك إلا أنه همز وعلي، وأبو وائل، وأبو رجاء، ويحيى، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وطلحة، والمقري، وابن عباس، وأبو عامر في رواية عنهما، وأبو عمرو في رواية وهشام في رواية كذلك، إلا أنهم ضموا التاء، وزيد بن عليّ وابن أبي إسحاق كذلك، إلا أنهما سهلا الهمزة، وذكر النحاس: أنه قرئ بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة، وكسر التاء، وقرأ ابن كثير وأهل مكة: بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء، وباقي السبعة أبو عمرو، والكوفيون، وابن مسعود، والحسن، والبصريون، كذلك، إلا أنهم فتحوا التاء وابن عباس وأبو الأسود، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وعيسى البصرة كذلك، وعن ابن عباس: هييت مثل حييت، فهذه تسع قراءات هي فيها اسم فعل، إلا قراءة ابن عباس الأخيرة فإنها فعل مبني للمفعول مسهل الهمزة من هيأت الشيء، وإلا من ضم التاء وكسر الهاء سواء همز أم لم يهمز، فإنه يحتمل أن يكون اسم فعل كحالها عند فتح التاء أو كسرها، ويحتمل أن يكون فعلاً واقعًا ضمير المتكلم من هاء الرجل يهيء إذا أحسن هيئته على مثال: جاء يجيء، أو بمعنى تهيأت، يقال: هيت وتهيأت بمعنى واحد، فإذا كان فعلاً تعلقت اللام به، وفي هذه الكلمة لغات أُخر، وانتصب معاذ الله على المصدر أي: عياذًا بالله من فعل السوء، والضمير في إنه الأصح أنه يعود على الله تعالى أي: إن الله ربي أحسن مثواي إذ نجاني من الجب، وأقامني في أحسن مقام، وإما أن يكون ضمير الشأن وغني بربه سيده العزيز فلا يصلح لي أن أخونه، وقد أكرم مثواي وائتمنني قاله: مجاهد، والسدي، وابن إسحاق، ويبعد جدًا، إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه، ولا بمعنى السيد؛ لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكًا له، إنه لا يفلح الظالمون أي المجازون الإحسان بالسوء، وقيل: الزناة، وقيل: الخائنون، وقرأ أبو الطفيل والجحدري مثويّ، كما قرأ يا بشريّ، وما أحسن هذا التنصل من الوقوع في السوء، استعاذ أولاً بالله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء، ثم نبه على أنّ إحسان الله أو إحسان العزيز الذي سبق منه لا يناسب أن =

المرصدة لا يراكم في غربة دار الدنيا جمعت لهذا في امرأة ملكه هي رأس الفتن، وقد وصفهن الله تعالى بأن كيدهن عظيم، فوصف الشيطان بأن كيده ضعيف، فقال: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وهذه إشارة خفية إلى أن المراد هو: الرب الكبير الأكبر؛ لذلك قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]] (١).

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ موضع العبرة في هذا [والفقه عن الله](٢): إن الصديقين لا يدفع عنهم الشيطان وسوسة وفتنة وحديثًا، ويعصم الله الرحيم من سبقت له منه الكلمة بالعصمة.

يقول الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما [عند المخاطب](٣) محمد ﷺ ثم للتالين للقرآن حق تلاوته، والكاف للتشبيه بذلك المعلوم المعهود وجوده؛ أي: كفعلنا بالمخلصين [....](٤) من العصمة بالمقدور الغائب ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] من لطف الله وستره على أوليائه.

وقد يقم بها على ما ذكره من قوله الحق: «فقدت قميصه جبذًا له» وهو قادمًا حينها من دبر، فحصل له ذلك علامة على براءته من السوء، ولو شاء لجعله من قُبُل، وعلمه جل ذكره بالبراءة والفرار عنها علمه، لكنه أتم عليه بذلك النعمة، ثم يوقنون من يرجى التبليغ منه إليهم عن الله ﷻ على البراءة بالبرهان كما فعل بطلعته الكريمة في حق النسوة حين برأنه ونزهنه عن فاحشة ﴿وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] كذلك من عود نفسه المجاهدة وجوارحه الكف عن المناهي، فإن الله يقيض له العصمة من حيث يدري ولا يدري](٥).

ثم ألهم الفتيين ليقصا رؤياهما عليه، وبشره على ألسنتهما في قولهما: ﴿إِنَّا

=

يجازى بالإساءة، ثم نفى الفلاح عن الظالمين وهو الظفر والفوز بالبغية فلا يناسب أن أكون ظالمًا أضع الشيء غير موضعه، وأتعدى ما حده الله تعالى لي. [البحر المحيط ١/٧].

(١) ما بين [ ] به سقط واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «يعلمه».

(٤) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير واضحة في (ف).

(٥) ما بين [ ] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] وقول الذي نجا منهما: ﴿أَيُّهَا الصِّدِيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف:٤٦].

[قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا عاجل ببشرى المؤمن»[1].

وما انقضى على ألسنة اللاهين أو غيرهم في دار الدنيا فهو كالرؤيا في جانب تأويل حقيقة الآخرة، ولعل يوسف فقه عن ربه ﷻ وذلك هو المعهود منه في زلته حين قال للذي نجا من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] فلذلك لما جاءه الرسول من عند الملك يأمره بالخروج من السجن أرجأ الأمر حتى يستبرئ لله ولنفسه، وقد رآه كيف أطل عليه يستبرئه، وجعل العلامة المحكوم بها على ما يبرئه بها.

ثم ذكر التبوء الكبير مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وقد تقدم ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف:٥٨] لم يعرفهم نفسه، ولا أرسل إلى أبيه يعلمه بشأنه؛ لشبه هذه الغربة المكتوبة عليه بغربة أولياء الله عن ربهم وعن دار قرارهم، فالمطلوب في هذه الغربة: الإيمان والعمل عليه بظهر الغيب][2].

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ...﴾ [آل عمران:١٧٩] نظم بهذا المعنى قوله عز من قائل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ...﴾ [آل عمران:١٨٦].

ثم قوله ﵇: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٥٩] [نبههم فأنامتهم الغفلة][3] قد كان لهم في طلبه أخاه من أبيهم [بحيث لو شعروا][4] وفي جعله بضاعتهم في رحالهم يقول ﵇ [للتنبيه][5]: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف:٦٢] [وربما كان ذلك

---

(١) رواه أحمد ٦/٤٤٥ - ٤٤٦ و٤٤٧ و٤٥٢.

(٢) ما بين [ ] به سقط واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «إشارة ومبحث لو تسمعوا لذلك».

(٥) في النسخة (ق): «لفتيته».

لعلهم يرجعون عن جهلهم إلى العلم كما قال الله جل من قائل في الكافرين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

الظاهر من شأن يعقوب: إنه يشعر لبعض المعنى، لكنه لما كان الدليل عليه من غير الوحي الذي هو المعهود في شأن الأنبياء لم يقف به ولا عدل عليه، لكنه أعطى من المعنى من ظاهر فعله قسطه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»(١) وقد ائتمنهم على يوسف فلم يكن ليأمنهم مرة أخرى على أخيه حتى أخذ مواثيقهم؛ أي: أيمانهم، وليئتمن المرسل فيه، فإعطاء حظ التفطن للمعنى وأخذ المواثيق من هؤلاء وتوكل على الله فوض إليه علم بواطنهم](٢).

وأما قول يعقوب: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧] حذرًا من العين؛ لما كان فيهم المحبوب تحركت الشفقة على جميعهم [وهي رقة المحبة](٣) كما قال القائل:

ونبئت ليلى بالعراق مريضة ... وماذا الذي تعني وأنت صديق

شفى الله مرضى بالعراق فإنني ... على كل شاكٍ بالعراق شفيق

ما أخبر الله جل ذكره بهذا كله إلا تنبيهًا للفطن من [ركد](٤) الوسن، قد جاء أن الله جل ذكره إذا غفر لمذنب ذنبًا ما غفر لكل مؤمن عمل بذلك الذنب ذنوبه، وجاء أيضًا أنه يغفر يوم القيامة لكل من اسمه محمد.

ثم قال ﷺ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧] ما خلق الله [من مخلوق](٥) إلا وبالحق خلقه، وقد أعطاه من الحق [المخلوق به قسطه وأظهر منه](٦)؛ لأنه مفعوله بقدرته

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٧٨)، وأحمد (٦١٠٧)، وابن ماجة (٤١١٧).

(٢) ما بين [ ] به سقط واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «خلقًا».

(٦) في النسخة (ق): «الذي خلق به السماوات والأرض قسطه، وأظهر منه عليه حظه».

وبمقتضى اسم أو أسماء من أسمائه، ومعاني صفاته أوجده، فمن رجا ذلك الموجود [في هذا][(١)] المفعول أو حذره من نفس المفعول [ناسيًا للفاعل الحق][(٢)] فقد عدل بالله عنده، ومن رجا ذلك الموجود [أوجده بالله وحده مشددًا له][(٣)] بالحكم والقدرة والمشيئة، فقد اهتدى بالحق وهُدي به، [وهذا المعنى منبعث عن اسمه المبارك عز جلاله][(٤)] وفي مثل هذا المعنى جاء قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١] [أي: عدلوا به غيره، فافهم.

قال الله ﷻ][(٥)]: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف:٦٨] [الحاجة هي: أن يضيف إلى كل مخلوق حقه من الحق المخلوق به، لا يسلبه قسطه الذي جعله الله فيه، وبذلك تسلك السنة التي لله جل وعز في مخلوقاته وأسمائه، فيها قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨ - ٣٩].

يقول الله ﷻ في نبيه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨]][(٦)] وكما يجب على المؤمن العاقل عن الله الجمع بين الإيمان والقدر والأخذ بالحذر مع علمه أنه لا يصيبه إلا ما شاء الله [أن يصيبه][(٧)]، فكذلك يجب عليه الجمع بين أن الله هو المتوحد بالحكم لا شريك له، وبين العلم بما جعل الله ﷻ في الأشياء من نفع وضر، وإن ذلك لا يكون منها إلا بمشيئة منه فيها وبها، فافهم، فقد قرب لك المأتى، وعلمت ما لم تعلمه إلا بالله الولي المولى.

---

(١) في النسخة (ق): «وهذا».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «أو حذره بالله وحده ذاكرًا له مفردًا له».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «الممدوحون اهتدوا بالحق الذي به الله خلق السماوات والأرض وما بينهما، عالمين بما له في الخلقة من حق ذاكرين لذلك وبه يعدلون؛ أي: الحق ضلوا عنه نسيانًا له ونظرًا إليه وخوفًا منه، أو رجاء له فعدلوا به غيره، عبر عن هذا المعنى قوله الحق».

(٦) ما بين [ ] يوجد به سقط واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٧) سقط من النسخة (ق).

وأما جعله السقاية في رحل أخيه، ثم [أمر بمؤذن يؤذن فيهم][(١)]: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠] فالمعهود من الابتلاء بالأنبياء، فإنه ﷻ يبتلي الأنبياء - عليهم السلام - ثم الأمثل فالأمثل ويبتلي بهم.

يقول الله جل من قائل للنبي ﷺ: «وإني بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يمحوه الماء...» ولله جل ذكره في ابتلاء الأنبياء حكمة ظاهرة هي من أصول الحكم.

ألا ترى قول الله جل ذكره أول ما أوجد آدم أمر الملائكة بالسجود له ابتلاءً منه لجميعهم، فهدى الله من شاء وأضل القوي الرحيم، وهي أيضًا عقوبة عاقبهم الله بها بما فعلوه بيوسف وأخيه وأبيهم حال فعلهم، لذلك قال يوسف في نفسه عند قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف:٧٧] أي: من جهلكم كان يعالجهم ويرومهم ويكلمهم من موضع الابتلاء بالغربة عن الحق المبين وهم في غفلة الناس إلا ما شاء الله ﷻ][(٢)].

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا...﴾ [يوسف:٧٨] [إنما كان له الأخذ][(٣)] بهذه المعاريض؛ لأن الله بوَّأه موضع حكم المآب، فكان به يحكم وعن حكم الحق، [وبلسانه ينطق كان يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:١٥] ولم يجد عند نفسه متاعًا عند بنيامين على الوجه المذموم فيأخذه من أجل ذلك بحكم الشرع، وإنما حكمه هذا فيه بحكم التقريب المنذر به، وإنه سيكون فرطًا لمن به، وأنه سيكون اتبعه على الوجه الذي قدره الله تعالى من الابتلاء له وبه، وإن أخاه ابن يامين يكون واردًا بعد الفارط، وعند ذلك يكون الإرسال في الجملة، فكان هو يحكم بحكم الله بوحي من الله ﷻ إليه في ذلك، دل على ذلك سياق الله جل ذكره بذلك في معرض المدح بحكمه وفعله، وجعله هذا من حكمه، وقوله وما قبله وما

---

(١) في النسخة (ق): «أذن مؤذن».

(٢) ما بين [ ] به سقط وزيادة واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٣) في النسخة (ق): «جاز له أخذه».

بعد من الإنباء كله عبرة لأولي الألباب، ولا تستغربن هذا؛ إنه الحق من ربك والله أعلم بحكمه وعلمه][١].

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ يقول: تخلصوا من الناس وانفردوا يتناجون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يوسف:٨٠] قيل: إنه القائل [منهم في أول مرة][٢]: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ...﴾ [يوسف:١٠] ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف، وتذمم من لقاء أبيه بذنب بعد ذنب، وهذا ذنب لم يكن [إليه ولا إليهم فإنهم قد غلبوا عليه][٣]، وقد استثناه لهم حين الميثاق أبوهم [عند أخذ الميثاق منهم][٤] بقوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦] [أي: تغلبون عليه][٥] لكن كان ذلك منه استحياء وتذممًا.

[كذلك ينبغي أن يكون المؤمن الجاني على نفسه ولو جاءه الوعد بالأمن والمغفرة أن يكون متذممًا مستحييًا حتى يأذن لي أبي في الوصول إليه على ما أنا عليه، أو يحكم الله لي؛ أي: يفتح لي بما أرضي به أبي، أو بما يقوم به عنده عذري.

ولما وصلوا إلى أبيهم فأخبروه بما كان ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:٨٣] واشتد على يعقوب الوجد لقرب طمعه، وإخفائه ظنه إياه بالقرب من [...][٦] من عند الله، فقال عند ذلك: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن تكليمهم، وربما كان بمعنى: ولاهم ظهره مدبرًا عنهم ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٣ - ٨٤].

قد مضى الكلام في أن يعقوب عليه السلام لم يكن حزنه على يوسف لأنه ولد له فقط، بل الذي يجب أن يظن به أنه حزن عليه لأجل النبوة والرسالة، والحظ الذي لله جل ذكره فيه، وهكذا يكون المؤمن لا يزال حزينًا كئيبًا حتى يلقى ربه عز وجل، ومن

---

(١) ما بين [ ] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٢) في النسخة (ق): «في أول الأمر».

(٣) في النسخة (ق): «منه ولا منهم بأن غلبوا على كونه».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير واضحة في (ف).

أجل ذلك عاب الله الفرح بالدنيا.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...﴾ [يونس:٥٨].

ثم قال ﵇: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ...﴾ هذا مما يؤيد أن يعقوب كان عنده علم من وحي أو من تأويل الرؤيا أو منهما بقوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ الله إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] كذلك من أتاه من عند الله جل ذكره علم أو خبر، وأيس من كون الوعد ووقوع المخبر فهو كافر، والقنوط من كبير ذنوب الموجدين، واليأس من وصف الكافرين.

قال إبراهيم ﵇ للملائكة وقد ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٥ - ٥٦].

وقال ﷻ: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ...﴾ [الممتحنة:١٣].

ولما ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩] هذا يقرر أصحاب الذنوب على ذنوبهم، يقررهم الله في الدنيا؛ لعظته في قلوبهم لأجل إيمانهم، فإن نزعوا وتابوا قبل منهم وإن تمادوا على إصرارهم كما فعل أولئك عبر عن ذلك منهم قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ...﴾ [يوسف:٧٧] والله أكرم الكرماء وأعلم الحكماء وأرحم الرحماء، ورأفة يوسف وعطفه ورحمته وعفوه وصفاته المحمودة من فيض معاني صفات الله جل ذكره.

قال لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ الله لَكُمْ﴾(١) ثم قال: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢] أي: هو أرحم الراحمين؛ أي: هو أرحم مني، فهو أسرع

---

(١) قال الألوسي (٢٩٩/١٨): أي لا يرده الله تعالى بعدما حكم به. ومن لم يرض بذلك قال: هو خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك من الله تعالى، والجملة استئناف في جواب سؤال مقدر تقديره ممن ذلك؟ أو حال من الضمير المستتر في الظرف الواقع خبر لا أو متعلق بالنفي أو بما دل عليه كما قيل في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢] وقيل: هو متعلق بيأتي، وتعقب بأنه خلاف المتبادر من اللفظ والمعنى، وقيل: هو مع ذلك قليل الفائدة ، وجوز كونه صفة ليوم ، وتعقب بأنه ركيك معنى ، والظاهر أن المراد بذلك اليوم يوم القيامة لا يوم ورود الموت.

إلى العفو عنكم والمغفرة لكم، فليرج المؤمن هذا العفو من ربه وأكرم من هذا، وليرغب إلى الله فيه، فهو كريم العفو، حسن الإجابة والتجاوز.

وأما قوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٣] هذا كإعلام الله ﷻ عبده بأنه قد اشتاق إلى لقائه، فيحب الله عند ذلك لقاءه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يموت نبي من الأنبياء حتى يُخيَّر»[1] وقد يفعل ذلك ببعض عباده وليسوا بأنبياء ولا مرسلين، جعلنا الله الرحيم منهم برحمته.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:٩٤] يقول والله أعلم: لولا أن تفندون كالقليل المقارب يجد روح الفرج وريح المحضرين له كما قال جل من قائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥].

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] وروح في أخرى قوله ﷺ: لولا أن [الأمر] دل على الامتناع عن الإخبار عن كيف وبم، كذلك المحتضر ممنوع من ذلك بما [يحصل...][2] أو لأمرٍ يؤمر فلا يخبر لمكان الإيمان بالغيب إلا ما شاء الله من ذلك، وأخذهم [من كان] بحضرته من [حفدته][3]، فإن بنيه كان بعضهم بمصر وبعضهم قد فصل عيرهم عن مصر.

﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥] هؤلاء في الاعتبار بمنزلة المكذبين وكرامات الأولياء الموحدين أولى الغفلة والمكذبين أيضًا بالآخرة ومقدماتها وأشراطها وأعلامها، وذلك؛ أعني: مقدمات ظهور الأمر قبل حلوله في الاعتبار كوجود ضياء الصباح عن الشمس، ولما تطلع الشمس بعد وجود ضياء المصباح، ولما يبدو المصباح، وكذلك ظهور نور القمر والنيرات قبل طلوعها،

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧١)، وأحمد (٢٥٧٤٢)، وابن حبان (٦٥٩٢) والقول منسوب لعائشة رضي الله عنها.

(٢) كشط في الأصل وطمس في (ف).

(٣) هكذا في الأصل وهو غريب.

وكذلك للملائكة وأعلام الآخرة ظهور للمقارب على الأغلب][(١)].

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ﴾ يعقوب ﴿بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦] كذلك المبشر عن الله جل ذكره بالرحمة والرضوان كالأعمى ارتد بصيرًا، والسقيم عاد صحيحًا، [وهو][(٢)] أعلى حالاً وأكرم وجدًا وسرورًا، حينئذٍ يقول لنفسه: «ألم أقل لك في هذا» ثم يقول ما معناه: الحمد لله رب العالمين ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

كذلك ﴿قَالَ﴾ ﷺ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦] ما ذكر الله ﷻ [في قصصه الحق][(٣)] هذا إلا وقد جعله آيات على موجودات يقابلها، فعليك - وفقنا الله وإياك - بتدآب التذكر وإعمال [الاعتبار][(٤)]، فإنه ﷻ ما قصَّ علينا جل ذكره قصصه وأنزل كتبه بالحق المجرد التأنيس [والنقلي][(٥)]، بل هو الحق وقوله الحق، وللحق أنزله وبالحق نزله مبشرًا به ونذيرًا [وداعيًا][(٦)]، فاعمل - وفقنا الله وإياك - على ذلك.

ولما خرُّوا لسجوده سُجدًا [لله جل ذكره شكرًا][(٧)] على أنعم به على جميعهم بتآلف القلوب بعد العداوة وجمع الشمل بعد التفرقة والشتِّ، وبالمغفرة والتوبة بعد السعي في اكتساب الذنوب والعمل بها [وإيثارها، واللحاق][(٨)] بدرجة إتمام النعمة

---

(١) في النسخة (ق): «وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن لأجل كراهيته في لقاء الله تذممًا من ذنوبه، وحرصًا على إصلاح ما به من ذلك، وإلا فلا عذر له في كراهته لقاء الله ﷻ، يقول: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ يعني: في الوصول إليه على ما أتى عليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠] بفتح أرضي به أبي أو بما يقوم به عنده عذري».

(٢) في النسخة (ق): «بل هو».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «العبرة».

(٥) في النسخة (ق): «والتسلي».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «عليه السلام».

(٨) في النسخة (ق): «وإيثار ذلك على الطاعة لله ﷻ وإرضاء الأب ﷺ ثم باللحاق».

والإدخال في الولاية الكبرى، فإنهم [الأحياء الألباب، العيبة عنهم بعيدة][1] ورأى يوسف عليه السلام ذلك وشاهده [فذكر][2] رؤياه وما أوحى إليه ربه عز جلاله في الجب يوم جعلهم إياه فيه؛ [لتثبيتهم][3] بأمرهم هذا [وهم لا يشعرون][4]، فكان ذلك يوم جاءوا متحسسين عنه وعن أخيه؛ [إذ][5] ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩].

[فأشبه هذا حال أهل الجنة إذ اجتمعوا هنالك فتذكروا ثم قالوا ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣] وما ذكره رسول الله ﷺ في قوله: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمهم الله ليس بينه وبينه ترجمان وإلا وهو محاضره، فيذكره ببعض هناته، فيستحي من ربه فيقول: يا رب، أو لم تغفر لي؟ فيقول له: نعم قد رضيت عنك**»[6]][7] وكان [منه هذا التقدير][8] والتوبيخ، وبقي [عليه][9] أن ينبئهم بذلك [على][10] حال الشكر والتعريف بنعم الله ﷻ والدعاء إليه والتبليغ عنه فقال عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [ومعنى **الحق** هنا: وجودها بالفعل ذكرًا بأي يصدق تعبيره إياها معرضًا بالثناء على ربه عز ذكره، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في النسخة (ق): «الأحباء الألباء».
(٢) في النسخة (ق): «بذكر».
(٣) في النسخة (ق): «لتنبئنهم».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «يوم».
(٦) أخرجه البخاري (٧٠٠٥) ومسلم (١٠١٦) والترمذي (٢٤١٥) وابن ماجة (١٨٥) وأحمد (١٨٢٧٢) والطبراني (٢٢٥) والبيهقي (٧٥٣٣) وفي «شعب الإيمان» (٢٥٩) وابن منده (٧٨٧) والرافعي (١٠٤/٤) إلى قوله: «ترجمان» ولم أقف على باقي الرواية.
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «ذلك منه لهم على وجه التقرير».
(٩) زيادة في النسخة (ق).
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ وظهر من خطابه هذا وسياق الله تعالى أباه عنه في معرض التصويب والمدح له أن الحضر أحسن للاستيطان من البدو؛ إذ القبول بذلك تعلم العلم وحال الذكر، فإذا تعذر في الحضر طلب العلم وخيف علو الفتن على الذكر، فالفرار عنها إلى التفرد والخلوة فرض لازم.

يقول ﷺ: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ثم تذكر أمورًا أخرى بها المقادير دون ذلك وعظائم اعترضت على حال الوصول تبعد في بادئ الرأي منال المرغوب معهن، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠]](١).

ولما [أنهى](٢) القصص الحق أرجع جل وعز الخطاب إلى المواجهة بقوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ اجتمع هنا من الغيب أنه لم يكن حاضرها، وقد استاقها جل ذكره وعرض بأنها آيات على غيابات موجودات الآخرة وتدبيره الأمر وتفصيله الآيات ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢] [إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]](٣).

[وقد تقدم ذكرها وأنها دلالة على النبوة](٤)، وأن الأمر كله يرجع إليه، يبلغ بمن [شاء](٥) ولايته الكبرى، ويقصر من يشاء عن ذلك إلى ما هو دونه، ويجعلهم في ذلك درجات، [وكذلك يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسمع من يشاء ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٢ - ٢٣]](٦).

ثم قال عز من قائل: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

---

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٢) في النسخة (ق): «انتهى».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «وهذا من فضل النبوة وقد تقدم ذكر هذا».

(٥) في النسخة (ق): «يشاء».

(٦) سقط من النسخة (ق).

﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ [يوسف:١٠٨] ظهر بهذا الخطاب الوجوب على من جعله الله بصيرة من [الله وبينة منه][1] الدعاء إلى الله ﷻ والتبيين عنه، سبح الله جل وعز نفسه هنا تنزيهًا له عن أن [يكون][2] يقدر أحد على جلب نفع أو دفع ضر [سواه][3]، [فيقصر عن الاستجابة للداعي، أو يسرد إلى سوء إلا به لا إله إلا هو، ويكون أيضًا معنى قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ تذكيرًا له بالعمل له بطاعته كما قال جلَّ قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥].

﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧] ونحو نحوه يؤيد ما تقدم ذكره بعد هذا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

أو يكون قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ ردًا إلى ما في قوله من معنى، وهو قوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] إلى قوله: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] قرئت: «والأرض» بخفض الضاد والرفع، فالرفع على الابتداء والخبر تقديره: «والأرض يمرون عليها» فيكون الضمير الذي في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ راجعًا إلى الأرض[4].

معنى تسبيح الله جل ذكره نفسه في هذا كله موجود مستمر الوجود حتى

---

(١) في النسخة (ق): «أمره وبينة من ربه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «سوى الله».

(٤) الجمهور على جرِّ الأرض عطفًا على السموات، والضمير في «عَلَيْهَا» للآية، فيكون «يمُرُّون» صفة للآية، وحالاً لتخصُّصها بالوصف بالجر. وقيل: يعود الضمير في «عَلَيْهَا» للأرض فيكون « يمُرُّون عليها » حالاً منها. وقال أبو البقاء: وقيل: منها ومن السَّموات، أي: يكون الحال من الشيئين جميعاً، وهذا لا يجوز؛ إذا كان يجب أن يقال: عليهما، وأيضًا: فإنهم لا يمرُّون في السَّماوات إلا أن يراد: يمرّون على آياتها فيعود المعنى على عود الضمير للآية، وقد يجاب عن الأول بأنه من باب الحذف؛ كقوله تعالى: ﴿والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] وقرأ السديُّ: «والأرْضَ» بالنَّصب، ووجهه أنه من باب الاشتغال، ويفسِّر الفعل بما يوافقه معنى، أي: يطوفون الأرض، أو يسلكون الأرض. «يمُرُّون علَيْهَا» كقولك: زَيْداً مررتُ بِهِ، وقرأ عكرمة، وعمرو بن فايد: «والأرْضُ» على الابتداء، وخبره الجملة بعده، والضمير في هاتين القراءتين يعود على الأرض فقط. [تفسير اللباب لابن عادل (٩/٣٦٦)].

سبَّحت السماوات السبع والأرض ومن فيهن بحمده؛ لتسبيحه هو نفسه وحمده نفسه في هذا كله موجود ﷻ؛ أي: إن كل شيء يرونه بأبصارهم أو يسمعونه بآذانهم أو يعلمونه بقلوبهم أو يمرون عليه بذواتهم يسبح الله جل وعز بحمده، وهم عن ذلك كله معرضون لا يقعون على آية ولا يفقهون إشارة ولا يعلمون حقيقة.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً...﴾ [يوسف:١٠٩] قد تقدم هذا فيما مضى، وإنه إعلام بأن سنته جل وعز أنه يرسل إلى البشر من البشر، فمن اهتدى فلنفسه هداه، ومن أبىَ وعَتَا فسيروا في الأرض؛ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين][١].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩] لم يتقدم فيما مضى [ذكر هذا إلا في قوله عند ذكر ما مكنه][٢] في الأرض، ثم نبه على [تفضيل][٣] الآخرة [وما][٤] بعد ذلك [وما قبله][٥] فقصص، إلا أن يكون قد وجه هذا الظاهر إلى ما بطن في معنى الخطاب، والقصص كله من ذكر الاغتراب والغيبة، وما في ذلك من بلوى ومحنة [وذكر][٦] وفتنة، ثم ذكر اللقاء وما [نص][٧] فيه من الإيواء والإكرام للمحسنين الطاهرين من الذنوب، ومن السلام مع الإعراض عن [الجناية، والإكرام عن المؤمنين][٨] المغفور لهم.

يقول جلَّ قوله: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ بكل وجه وبكل معنى، وعلى الخصوص ها هنا فالإخبار عن اللقاء بعد الغيبة والغربة تقدير المعنى: وللقاء [الآخرة][٩] خير ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [كذلك بين لقاء ولقاء كما بين الخالق والمخلوق

(١) ما بين [ ] به زيادة واختلاف ألفاظ بين النسخ.
(٢) في النسخة (ق): «من السورة مثل هذا إلا في قوله عز ذكره أمكنه».
(٣) في النسخة (ق): «تفصيل».
(٤) في النسخة (ق): «ثم».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «وتذكير».
(٧) في النسخة (ق): «قص».
(٨) في النسخة (ق): «الإكرام والحفاية عن المذنبين».
(٩) في النسخة (ق): «الله».

فافهم؛ لذلك قال جلَّ قوله وهو أعلم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩] وقال جلَّ قوله في غير هذا الموضع وذكر موجودات الدنيا، فقال][1]: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا...﴾ [القصص:٦٠].

ومن زينة الدنيا: التقديم على الأقران، والجاه [على][2] الملوك، والمضاء في الأمر، [فما عند الله من ذلك خير وأبقى، وما عند الله من موجودات الآخرة خير وأبقى، أفلا يعقلون؟.

أما قوله جلَّ قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إثر هذا الإعلام][3] فتقريع للعقول، كيف لم يقف على هذا بالعلم؟ لِمَ لم [تتبينه][4] باليقين؟ ألم تعلم أن هذا الأمر بدأ [صغيرًا][5] ثم هو ذا ينشأ [من صغر إلى كبر][6]؟ هذا معلوم عند ذوي الألباب معهود في قضايا العقول، ومن هنا قال قائلهم يصف بعضهم:

قد استقام على المنهاج يسلكه ... ولم يزغ حائدًا عنه ولا عدلا
فجسمه يعمر الدنيا بظاهره ... وقلبه في أعالي الملك قد نزلا
وأبصر الأمر يجري في مسالكه من ... أول [الشيء][7] حتى تم واكتملا
[وقاطعته][8] البرايا وهي صامتة ... وميز الضد والأزواج والعللا
أتاه ذو العرش والإفضال حكمته ... حين الأشد إلى أن وافق الأجلا
فخصه بحياة لا انقطاع لها ... والموت في طبقات الناس قد شملا
فأظهر السيرة العليا بصورتها ... ومن قبل كانت ألبست ظللا

---

(١) في النسخة (ق): «كما هو تمكين الله للأولياء في الدار الآخرة خير من تمكين الملوك في دار الدنيا كما بين الخالق والمخلوق وبين الدار الآخرة ودار الدنيا».
(٢) في النسخة (ق): «عند».
(٣) في النسخة (ق): «وعلو المكانة قوله عز من قائل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هو».
(٤) في النسخة (ق): «تشتبه».
(٥) في النسخة (ق): «في وصف الصغر».
(٦) في النسخة (ق): «كما ينشأ الصغير إلى أن يكون كبير».
(٧) في النسخة (ق): «النشء».
(٨) في النسخة (ق): «وناطقته».

فصل [من الاعتبار][1]

قد تقدم - وفقنا الله وإياك - الاعتبار بالبذرة [كبذرة الخردلة][2] أو بذرة التين [مثلاً][3] أو ما دق من البذور أو عظم من شجرها، وإن كل ما تفرق في الشجر أو تجمع من معانيها وصفاتها في [الثمرة][4] مجموع في البذرة على دقتها، فإذا انزرعت فنبتت أخذت سفلاً وعلوًّا وتفرعت إلى ذلك، وذهبت مذاهبها وإنما جميع ما تفرق فيها من مكنون ما يجمع في تلك البذرة، فالبذرة هي الدنيا على هذه العبرة، والشجرة وما تفرعت إليه علوًّا وسفلاً وحملته من زهر وورق وأفنان وثمر إلى غير ذلك من أوصافها ومعانيها كلها هي الآخرة، [والشجرة إنما تجدها تنشأ من صغر إلى كبر، والشجر في الوجود أولاً ثم كان البذر عن الشجرة][5].

ونوع آخر من الاعتبار: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأخذ أهل اليمين بيمينه...**»[6].

ولما قررهم فأقروا، وأشهدهم على أنفسهم [فشهدوا][7] بميثاق العبودية للربوبية وميثاق النبوة [فشهدوا][8] بثهم في خزائن السماوات والأرض، [ثم أوجد كلاً على نوبته وحينه الذي سبق به علمه][9]، فلو أن العقل الذي شهد به لله ولرسوله يومئذٍ لأحدهم اليوم الذي خلقه ربه [فضمنه][10] نطفة في ظهر أبيه فقيل لها بما حملته من الصفات التي يبلغها خالقها إلى كمالها [النطفة][11]: «إنك لو قد برزت

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «كالخردلة».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الشجرة هو».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «وفي علم الله جل ذكره ما هو كائن ثم».

(٩) في النسخة (ق): «صيغة منه إياهم فيما هو كائن غيبًا وشهادة».

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

(١١) سقط من النسخة (ق).

من هذا الوعاء لوقعت في وعاء أرحب من وعائك، هذا وسيتوجه إليك التكوين على [طرق][(١)] كذا وكذا» لبَعُد على العقل ذلك، ولم يكد أن يسمح بقبول ذلك إلا أن يصحبه إيمان جزم [وعصمة][(٢)] وهداية من الله.

ثم لو قيل للنطفة ساعة نزولها [في الرحم][(٣)]: «إنك ساعتك هذه نطفة سيالة بيضاء مختلطة الأجزاء، بتداخل أقطارك بعضها في بعض، وستكونين علقة حمراء، ويلزم كل جزء منك مكانه، وتصيرين خلقة على أتم مما أنت عليه الآن» ثم لو قيل لها وهي علقة: «ستكونين خلقة أخرى مضغة ملززة الأجزاء، وتصورين [على صورة كذا ظاهرًا، أو على][(٤)] صورة كذا باطنًا، ويخلق لك يدان وصفتهما كذا، وكفان وذراعان وقدمان وساقان وفخذان ووركان وأضلاع وفقارات ومخ وعظام، ويشق لك عينان [وسمعتان][(٥)] ورأس ودماغ ومفاصل [ولحم وعصب وعضل ورباطات][(٦)] بأشكال، ذلك كله ومنافعه ومرافقه» [وتصور على صورة كذا][(٧)] البعد على العقل تصور ذلك جدًّا وتعذر منه قبوله، إلا أن يؤيد بإيمان [جزم][(٨)] فيصدق وإن لم يعلم علم ذلك ولا خبر خبره.

ثم لو قيل [للمضغة][(٩)]: «إنه سوف يركب [قبل][(١٠)] الروح وتكونين حية بنفس وروح وعقل» ويوصف لها صفات الحي من قدرة وقوة وعلم وإرادة وحلم وعفة شهوة، وهوى إلى جميع الصفات المحمودة وأضدادها المذمومة لتاه العقل في تلك المعالم وتحير، ولم يهتد إلا إيمانًا وتسليمًا.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «صورة ظاهرة وعلى».

(٥) في النسخة (ق): «وأذنان».

(٦) في النسخة (ق): «وجلد يضم ذلك كله جلد مشكل».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «وإسلام وسكينة».

(٩) في النسخة (ق): «للنطفة».

(١٠) في النسخة (ق): «فيكِ».

كذلك لو قيل للجنين المنفوخ فيه الروح: «إنك يا هذا لو خرجت من محلك هذا ووقعت من وعائك الذي أنت فيه لصرت إلى أرض [فيحاء][(١)] ممهدة، وإلى سماء فوقك [مبنية][(٢)] مزينة بالنجوم، [محروسة بالرجوم من خلق هم الجن تؤمن بهم ولا يتصورهم ويسمعون إلى الملائكة في السماء هم على خلقة تؤمن بها ولا يتصورهم إلا تسليمًا ودون السماء سماوات أفلاك تستدير بأمر الله جل ذكره تخبر عن غيب وتشير إلى شأن معجب][(٣)].

وإلى شمس وقمر وكواكب تطلع وتغرب [بحكمة معجبة تنبئ عن أمر عظيم][(٤)]، وإلى رياح وسحاب وأمطار ينزلها الله ﷻ من السماء إلى الأرض، فيخرج عن ذلك [جنات وأنهار، وفيها بحار ونبات][(٥)] كل شيء، وأنهار وأشجار وكل شيء حي وليل ونهار وأنت تفتح عيناك وأذناك، ونفسك تتنفس بنفس حية، وتعقل بعقل وتعلم بعلم، وتأكل وتشرب [وتلذ فيكون لك من جنسك جوارٍ حسان أتراب عرب وتصح وتسقم][(٦)]، ثم [يستقل][(٧)] في خلقتك خلقًا من بعد خلق إلى حال استوائك، فتتعلم ما لم يخطر لك ببال، وربما كنت ممن يجند الجنود ويمصر الأمصار [ويقلب الأحد][(٨)]، إلى غير ذلك من وجود الإنسان [في هذه الدار][(٩)].

وما أعطى فيما ها هنا لنكص [غفلة][(١٠)] على عقبيه، ولقال لقائل ذلك: قد

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فيها جنات وتشقق عنها عيونًا، ويجري عن ذلك أنهارًا، وفيما هنالك بحار وقفار وبيوت وقصور ومساكن ومدائن وقرى، وفيها نبات».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «تنقل».

(٨) في النسخة (ق): «ويغلب الأعداء».

(٩) زيادة في النسخة (ق).

(١٠) في النسخة (ق): «العقل منه».

كنت قبل هذا تخبرني [فأتردد فيما تخبرني به][(١)]، ثم أغلب [التمكن][(٢)] على ما هو عندي مستحيل، فأما الآن فأقصر عني، فإن [للذي مني][(٣)] في أبعد البعد، [ولنا لديك][(٤)] في أشد الإنكار، فمن سبيل المخبر له أن يقول له: كيف وجدت [خبري لك][(٥)] من إخباري [تقلبك في درجات تقلبك أصدقتك فيما أنشأتك][(٦)] به أم كذبتك؟ فلا بد من [نعم][(٧)]، فيقول له: ألم تر أن الأولى كانت أقرب إلى تصورك إياها وقبولك لها من الثانية، ثم الثانية أقرب من الثالثة، والثالثة أقرب [إلى الثانية منها إلى الرابعة، وإن الرابعة أقرب إلى الثالثة منها إلى الخامسة][(٨)]؟ قال له: بلى، [قال له: بلى][(٩)].

قال له: [فمال][(١٠)] ميزك تميز وعقلك قد عقل، [واشتدت أركانك جرت][(١١)] عن النهوض قدمًا في معرفة حقيقتك [وما][(١٢)] يؤول إليه شأنك، اعتمد في هذه على صدقي الذي جربته وما يؤول إليه، ونصحي الذي قد خبرته، فإن الذي أوجدك نطفة لا من شيء [مذكور][(١٣)] نقلك في طبقات خلقتك نقلة بعد نقلة [هو القادر][(١٤)] على ما مضى لك وما بين يديك، فقدِّم الإيمان وغلِّب العقل [واستغن

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «الممكن».
(٣) في النسخة (ق): «الذي تخبرني به».
(٤) في النسخة (ق): «وأنا الآن له».
(٥) في النسخة (ق): «ذلك».
(٦) في النسخة (ق): «إياك عن درجات نقلتك أصدقتك فيما أنبأتك».
(٧) في النسخة (ق): «قوله صدقتني».
(٨) في النسخة (ق): «من الرابعة، والرابعة أقرب من الخامسة على سنن التدريج والنشء».
(٩) سقط من النسخة (ق).
(١٠) في النسخة (ق): «فما بال».
(١١) في النسخة (ق): «فانهدت أركانك وخرت».
(١٢) في النسخة (ق): «وتصور ما».
(١٣) في النسخة (ق): «تعلمه ثم».
(١٤) في النسخة (ق): «فاقتدر».

على الكذب][1] منك بصدقي إياك في جميع ما أنبأتك [فإنه][2] كائن، وإن الخالق عليه قادر، فصدق هذا المولود ما أنبأه به وأعلمه.

ثم لما بلغ هذا المولود الأشد [الأول][3] جاءه ذلك المنبئ له فقال: إنك يا هذا لو إنك خرجت من هذه الدار التي كنت وصفتها لك ببعض صفاتها [لوصلت][4] إلى دار أخرى أوسع من هذه جدًّا، وأرحب نسبة ما بين هذه التي أنت فيها وبين التي هي بين يديك كنسبة ما بين الوعاء الذي كنت فيه نطفة، فأخبرتك بأنك تنقل فيما هنالك إلى طبقات خلقتك، ثم تخرج منه إلى ها هنا وكل ما تراه ها هنا أو تسمعه أو تعقله من موجودات فهي هناك أفضل جدًّا نسبة ما [بينها لنسبة][5] ما بين الدارين، بل أكبر وأحسن جدًا وأبقى وأنقى، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ليس هذا هو البيان المبين والنور المنير والنبأ العظيم والقول الصدوق [الحليم][6]، وإن منكره يستحق أن يوصف [بالعدم وبالحيرة][7] وعدم الميز، أو باللجاج والجحد للحقيقة.

وقد قال المنشئ الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: **﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾** [آل عمران:١٣٣] فأين تقع نسبة [الأرض من السماوات؟].

وقال ﷻ: **﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾** [الرحمن:٤٦]][8] قال جلَّ قوله في موضع آخر: **﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾** [الحديد:٢١].

---

(١) في النسخة (ق): «واستعن على المكذب».
(٢) في النسخة (ق): «بأنه».
(٣) في النسخة (ق): «واجتمعت له صفاته وتوفر عقله».
(٤) في النسخة (ق): «فصدقتك لو وقعت».
(٥) في النسخة (ق): «بين ذلك كنسبة».
(٦) في النسخة (ق): «الحكيم».
(٧) في النسخة (ق): «بالحيرة».
(٨) في النسخة (ق): «الوعاء الذي كان فيه أو الموضع الذي يشغله من الأرض من ساحة عرضها السماوات والألأرض».

وقال رسول الله ﷺ: «**الجنة مائة درجة، كل درجة منها كما بين السماء والأرض أعدت للمجاهدين في سبيل الله**»[١].

وما وصف [الله جل ذكره ورسوله][٢] منهن سوى أربع جنات.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢].

[ثم قال ﷻ: ﴿**مِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢]][٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[٤] وجاء [النبأ][٥] عن جنة من لؤلؤة، وجاء [النبأ] أيضًا عن جنة من نور وباقي الجنات هي مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ لذلك قال [الله ﷻ][٦] حين خير الآخرة على الدنيا: «أفلا يعقلون» وما ظنك بدار الله وليها وجارها ونورها وضيائها [لا إله إلا هو رب العالمين، وخدامها الملائكة، ونورها نور الحق المبين، نشأ الحق المخلوق به السماوات والأرض إلى ذلك، بلغ الله بنا وبك][٧].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «رسول الله ﷺ».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «البناء».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

تفسير سورة الرعد

مكية، وقال قتادة: مدنية، فيها من المنسوخ آيتان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ١ - ٣].

قوله ﷻ: ﴿الـمر﴾ قال أكثر المفسرين: أنا الله أرى، أنا الله أعلم وأرى، والله أعلم أن الهمزة لما أفهمت على جميع وجوهها حيث وقعت، والألف لما أفهمت، واللام والميم والراء كذلك على انفراد ذلك وتركيبه، وعلى نحو ما تقدم من النظر في صدر الكتاب، وهي حروف متوسطة بين القرآن وبين حروف هن آيات على الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ ﴿آيَاتُ الكِتَابِ﴾ [الرعد:١] غير الكتاب، كما الكتابة غير المكتوب، والقراءة غير المقروء.

آيات الكتاب: حروفه الدالة على مكتوبه، فممكن أن يكون هذه الحروف المعجمة، وما يكون من الحروف واسطة بين هذه وتلك، وتكون مع هذا معبرة عن أسماء الله سبحانه، وقد ذكر ذلك عن ابن عباس، وعن هذه الحقيقة وجدنا أسماء الله ﷻ معبرة عن جميع الموجودات، هذا في دار الدنيا، وفي الدار الآخرة ذلك أوضح وأظهر جدًّا؛ إذ من لا نهاية له ولا بداية، ولا يشذ عن وجوده العلي شيء دقَّ أو جلَّ، قدم أو حدث، والمعبر عن وجوده أسماؤه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

وجاء في الحديث: إن رسول الله ﷺ سأل اليهود ممتحنًا لهم: «**ما أول طعام الجنة؟**» فقالوا: لام ونون، وفسرها رسول الله ﷺ فقال: «**نور وحوت يأكل من زيادة كبدها سبعون ألفًا**»[١] ولهذا الحديث - والله أعلم - قال مجاهد لما سئل عن هذه الحروف المعجمة في أوائل السورة: والمعنى يقول الله جلَّ ذكره: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ**﴾ [الشعراء:٢] هي: التوراة.

قال: والكتاب المبين هو: التوراة والإنجيل، وقد تقدم الكلام في ذلك ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷺ: ﴿**وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ**﴾ [.....][٢] يعني: الوحي، والقرآن هو الذي أنزل إليه ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الرعد:١] به.

والكتاب الحكيم والمبين الذي لا ريب فيه هو: الكتاب المحفوظ الذي جميع الموجودات ممتحنة به، وهذا من التفصيل لبعض موجود اللوح المحفوظ، المعبر عنه بقوله: ﴿**الحَقِّ المُبِينِ**﴾ وإنما أشكل على الأكثرين أن الوحي والقرآن وسائر الكتب قد زم كل ذلك الكتاب المحفوظ زائدًا إلى ما زمه من سائر الوجود أجمع، فمتى عبَّر بالوحي أو علم بمعلوم لم يخرج عن موجود اللوح المحفوظ، فلزم عرف العهد والقرب به، فجهل لأجل ذلك من غير ارتياب ولا شك، وكيف يجوز وجود ارتياب في مشاهد حاضر لمن يشعر المعنى، ولا يتفطن بالحقيقة.

قوله تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾[٣] [الرعد:٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد:٤] هذا كله إعلام منه جلَّ ذكره ببعض ما ثبت في اللوح المحفوظ من موجودات، وهو معنى قوله جلَّ قوله:

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٥٢٣).

(٢) إشارة في الأصل إلى كلام غير واضح، وليس في (ف).

(٣) أي: بغير عمد مرئية، بل بعمد غير مرئية، وجعل الشيخ الأكبر - قدس سره - عمادها الإنسان الكامل، وقيل: النفس المجردة التي تحركها بواسطة النفس المنطبعة، وهي قوة جسمانية سارية في جميع أجزاء الفلك لا يختص بها جزء دون جزء؛ لبساطته، وهي بمنزلة الخيال فينا وفيه ما فيه. وقيل: رفع سماوات الأرواح بلا مادة تعمدها، بل مجردة قائمة بنفسها. تفسير الألوسي (٢٤٤/٩).

﴿الـمر﴾ فجعل كل ذكر يسرد مكتوب الكتاب المعبر عنه - وهو أعلم بما ينزل - بالحروف المفردة المعبرة عن أسمائه.

يقول جلَّ قوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢] فذكر - جلَّ ذكره - الاسم الأعظم الذي جميع الأسماء مفسرة له، وإنه الرافع للسماوات، وكما رفعهن فكذلك وضعهن، ولذلك خلقهن وما بينهن، ورفعهن على غير عمد مرئية، فهي إذًا قدرته، فهو الله الخالق الرافع الواضع عمد الجملة بقدرته، فهو القيوم وهو الحي لا شك ولا ريب، وهو القادر استوى على العرش يدبر الأمر فهو المستوي، وهو المدبر المفصل، وهو المريد يفصل الآيات، وسخر الشمس والقمر والنجوم وما في السماوات وما في الأرض فهو المسخر ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد:٣] الجاعل كل يجري لأجل مسمى، والليل كل يجري لأجل مسمى، ذلك آية على انقراض يوم الدنيا ووجود يوم الآخرة هو عاقبه وخالقه.

عبرة:

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢] وليس عند ربنا ليل ولا نهار، إنما هو الدهر ضياء ونوره مبصر كله أبدًا.

وقال وقوله الحق: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ اثنان على ما ذكر فيما هنالك يوم الدنيا ليل ويوم الآخرة نهار فيه يتجلى الحق المبين، وإنما يكون موجود ما هو النهار آية عليه في الجنة في جوار الله ﷻ وموجود ما هو الليل آية عليه في جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - لهم ظُلل من النار، ومن تحتهم ظلل في الظلمات السفلى - نعوذ بالله منها - آية تجلي الحق المبين في الجنة تجلي الشمس في الدنيا.

قوله ﷻ: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] لما كانت الجملة التي زمها أم الكتاب محتوية على جميع المعلومات والمذكورات كان تفصيلها بالفعل والذكر على سنن الحكمة والتذكير لنا بذلك من أعظم المنن علينا؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] كل

موقت مؤجل، فهو آية على إتيان الساعة واليوم الآخر وبخاصة الليل والنهار، فإن في انقضاء النهار إتيان الليل، وبانقضاء الليل إتيان النهار.

وكل موجودات الخليقة فلها كتاب، وكل كتاب فمؤجل بأجل مسمى، فإذًا كل ما في الدنيا مؤذن بانقراضها وبإتيان الآخرة، وبخاصة في العبرة النهار، فاجعل معلومات ما فيه العلم بلقاء الله جل ذكره لما فيه من موجود الشمس؛ لذلك قال جلَّ قوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] وقد تقدم الكلام في قوله جلَّ قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا...﴾ [يونس:٥] الآيتين.

فصل

سبيل العبرة بجريان الشمس والقمر والنجوم، واختلاف الليل والنهار انقضاء الآجال وتمام الأوقات، وتعاقب الليالي والأيام والشهور والأعوام، وقد تقدمت إشارة إلى المطلوب الأعلى.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد:٣] مد الأرض على الماء: تحملها قدرته، ثم أرسى الجبال فوقها ألا تميد بما عليها نصبها على المقدار المراد بها، وجعل قننها وزن مدار الشمس والقمر والنجوم بسير مقدر، وارتفاع وانحطاط يكون عنه الليل والنهار ظاهرًا وباطنًا، وتدبير الأمر المراد منها به كذلك ما فوق ذلك إلى العرش العظيم كل على مقدار ما شاءه منه ربه.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد:٣] رجع إلى الإخبار عن هذه الأرض وإنباته فيها من كل الثمرات، وقوله: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ معنى ذلك والله أعلم: إن كل ما ينوب مناب غيره فهو لذلك الغير زوج، كالذكر والأنثى، والليل والنهار، والساعات والأيام، وكل ما يخلف بعضه بعضًا ليس الأضداد، فإنها ليست بأرواح لأضدادها، سمى تبارك وتعالى هذا وما يقع عليه معناه زوجًا، كقوله جلَّ قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧] وقوله جلَّ قوله: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧] وقوله جل ذكره: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ:٨].

وقال ها هنا: «من كل زوجين» المعنى - والله أعلم - الظاهر: [حمله مِن كلِّ صنفين][1] وهو المثال الخالف له، وأكثر ظهور هذا في الدار الآخرة لا يجتني في تلك الدار من ثمرة إلا خلفها مثلها مكانًا، ولا يؤكل من حيوان على مراد الولي منه إلا خلفه مثاله، ثم يفرغ الولي من شأنه ومراده منه، فيعود كما كان على حالته الأولى.

قال الله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢] ثم قال وقوله الحق: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤] رجع الخطاب على أوله من قوله جلَّ قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد:٢] المفعول الأول مما ها هنا هو الليل، وهو المغشي، وغشاؤه هو النهار، دل على ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢] قد تقدم الكلام في سورة يونس ﷺ أنه المطلوب الأعلى زائدًا إلى ما هي آيات على قدرته وعلمه وإرادته ومضاء مشيئته، وعلى حياته وأسمائه الحسنى.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد: ٤ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ...﴾ معتمد هذه الآيات: الإعلام بالمشيئة مع تحصيل الاستدلال بها على القدرة والصفات والأسماء، كما أن

---

(١) طمس في (غ) ، (ف). انظر: تفسير النيسابوري (٤/٣٠٢).

المعتمد بالاستدلال بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤] حيث وقع الاعتبار البعيد، وإنما هو أن تنظر العين أو تسمع الأذن أو يعلم القلب، ويعقله؛ أي: يزمه على علم يغير من ذلك إلى معبره وموضع شبهه، ومن الاعتبار قريب وبعيد، والموصوف المضاف إلى العقل هو الأبعد، ويعم اسم الاعتبار.

فمثال ذلك فيما ها هنا: ما تقدم ذكره أن الله جل ذكره الواحد الأحد ينزل من السماء ماءً واحدًا ظاهرًا مظهرًا يوجد عنه كل شيء حي ونبات وحيوان وغير ذلك، فهو على هذا واحد توحد عنه كل شيء حي ونبات وحيوان، على أن ذلك الماء منزَّل من ذلك الحيوان أو ما هو دار الحيوان فيه حكم وآية الكثرة، وفي تلك الكثرة الطاهر والطيب والخبيث والرجس، ثم ﴿وَلِلهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

وفيه: إنه أنزل الماء من السماء فأخرج به من كل الجنات من نخيل وأعناب وزرع، وأجرى منه أنهارًا، وسلك منه ينابيع في الأرض، وفجر عنها عيونًا لحكم جنة يصيره إليها، وهذه آيات وتنبيه لفطن العباد أنه أنزل من حيث ظاهر لباطن هي جنات وأنهار وعيون وحيوان وولدان ونساء وخيل وأنعام، وكل ما ها هنا من محمود فهو فيما هنالك أكرم وجودًا وأفضل؛ إذ المشيئة بالشيء ليس من المعهود إن لقاءه المشيئة به، وكما يؤول الماء المنزل من السماء إلى ما هو جنات بما فيها كذلك يؤول ما نزل منه وهو السماء إلى ما هي الجنات في الكون الآخر، وهي من الدار الآخرة، هذا إلى ما في ذلك من الاختبار القريب من الأحلام بالإعادة بعد البداية، والرجوع إلى الله بعد الموت، إلى غير ذلك.

أعقب ذلك تعجبًا من كفرانهم وجهلهم بالمعتبر الأقرب وتكذيبهم الآيات البينات لظهورها قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول الله ﷻ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠] أعقب ذلك بالرجوع لما بيَّن ﷻ الآيات، وأقام الشواهد مفصحات بالحق والعدل على الاعتبار القريب والبعيد، أعقب ذلك بالتعجب من جهلهم الموجود عن غفلتهم، ثم قال جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد:٥] أخبر الله الجليل جل ذكره بصدق إخباره عن الكفار أن الأغلال في أعناقهم الآن

كما قال جلَّ قوله في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ﴾ أي: الأيدي منهم إلى الأعناق ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس:٨] القمح: رفع الأعناق، وهو الآن وصف لهم بالكبر والعجرفة ضد ما يكون في الآخرة ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢].

﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد:٥] في الدار الآخرة، معنى سياق الكلام: إن الله خلق كذا وفعل كذا، جعل ذلك آيات على معالم وعِبَر قريبة وبعيدة.

يقول ﷻ: ولجهلهم وإفراط غفلتهم لإقامتهم على إعراضهم عن ذكر ما أنبأتهم به والإيمان بآياتي.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ إلى العذاب وأنواع الضراء ﴿قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾(١) إلى الفتح والسراء، اعتبر تظفر وتطلب اليقين وحقيقة العقل والإيمان بما أنزل إليك ربك بأن خلق كذا، وجعل كذا، وفعل كذا، وجعل ذلك على معالم آيات قريبة، وإن تعجب فعجب قولهم كذا، ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ العَذَابُ﴾ [العنكبوت:٥٣].

يقول جلَّ قوله: ولجهلهم وإفراط غفلتهم وما أورثهم الإعراض عن ذكري وآياتي ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ [الرعد:٦] أفلم يسيروا في الأرض فينظروا إلى نقماتنا في المكذبين أمثالهم لو اعتبروا بها نفعهم، لكن هذا عقوبة الإعراض ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ المُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤].

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ وعلم أن النبيَّ ﷺ كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا، والقوم كلَّما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث والنشر كما تقدَّم في الآية الأولى، وكلما هددهم بعذاب الدنيا استعجلوه، وذلك أنَّ مشركي مكَّة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاء منهم يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢] قوله: ﴿قَبْلَ الحَسَنةِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه متعلقٌ بالاستعجالِ ظرفًا لهُ. والثاني: أنه متعلق بمحذوفٍ على أنَّه حال مقدرة من السيئة. قاله أبو البقاء. تفسير اللباب لابن عادل (٣٨٩/٩).

ثم قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الرعد:٦] لمن أراد الله ﷻ بذلك المغفرة مغفرتان: صغرى وكبرى.

فالصغرى: معناها: الإمهال، وترك الأخذ بالذنوب إلى أجل لم يأن بعد مسمى.

والمغفرة الكبرى: تعم الدنيا والآخرة، وهذان الحكمان لسابقة سبقت من هؤلاء هؤلاء.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:٧ - ١١].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد:٧] قيل: «لولا» بمعنى: «هلا» بما اتصلت به، والمتصل به قوله: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لو كان ذلك كذلك لدخل المعنى اختلال، فإن أصل المعنى: إخبار عن آبائهم ونفورهم عن الحق، وقد تقدم الكلام في تبيان صريح المراد بها قبل هذا فأغنى عن إعادته، ولو كان معناها ها هنا معنى «هلا» لكان بمعنى الطلب، ولكان في ظاهر ما يأتي بعدها أو باطنه معنى جزاء وجود ما اجتلبت من أجله؛ لأنها تأتي أبدًا على معنى الطلب مقترنًا بمعنى العتاب؛ لأجل عدم وجود ما كان العتاب والطلب لأجله، كما يقال: لِمَ فعلت كذا؟ هلا فعلت كذا؟ هلا كان منك كذا فيكون لك مني كذا؟ هذا ونحوه.

وحقيقتها والله أعلم: أن تكون على بابها لوجود حرف «لو» لامتناع وجود الشيء لأجل وجود غيره، ثم حرف «لا» المتصل بها لنفي ما وجب كونه لأجل

امتناع ما امتنع من أجله.

تقدير الكلام: لو أنزل عليه آية من ربه لآمنا به، فلم ينزل عليه آية من ربه فلا نؤمن كانوا في ذلك كاذبين أو صادقين.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ [الرعد:٧] أي: ليس لك أن تهديهم ولا لهم أن يهدوا أنفسهم ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ أي: نبي مرسل يريهم الهدى وينصرهم سبيل الرشاد، ثم يهدي الله إليه من يشاء ويضل من يشاء.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿**اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى**﴾[١] [الرعد:٨] إلى ﴿**وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**﴾ [الرعد:١٠] هذا كله منتظم بما في صدر السورة من تعريفه العباد بنفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من قوله جلَّ قوله: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ**﴾ [الرعد:٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد:٤].

وفي ذلك كله أمر جل وعز بالنظر والاستدلال والاعتبار من مشاهدة إلى غيب، وأن المطلوب في ذلك المعبر إليه هو معرفة الله جل ذكره، واليقين بالدار الآخرة، وتعرف وجوداتها من موجودات في هذه الدار، والتعريف بموضع المنة والنقمة، والسارب: هو السائر نهارًا، والسائب: هو سير الليل مأخوذ من الإياب الذي هو الرجوع، أصله: الرجوع للمبات.

قوله جل وعز: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**﴾ [الرعد:١١] كما قال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...**»[٢] وهذا إخبار منه ﷺ عن الكتبة الكرام.

قال الله ﷻ: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ**﴾ [الانفطار:١٠ - ١١].

---

(١) ﴿**اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى**﴾ استئناف جوابًا عن سؤال من يقول: لماذا لم يُجابوا إلى المقترح فتنقطع حجتهم ولعلهم يهتدون؟ بأن ذلك أمر مدبر ببالغ العلم ونافذ القدرة لا عن الجزاف واتباع آرائهم السخاف، وجوز أن يراد بالهادي هو الله تعالى، وروي ذلك عن ابن عباس والضحاك وابن جبير، فالتنوين فيه للتفخيم والتعظيم، وتوجيه الآية على ذلك: أنهم لما أنكروا الآيات عنادًا لكفرهم الناشيء عن التقليد ولم يتدبروا الآيات قبل، إنما أنت منذر لا هاد، مثبت للإيمان في صدورهم، صاد لهم عن جحودهم فإن ذلك إلى الله تعالى وحده وهو سبحانه القادر عليه. [الألوسي (٢٠٧/٩)].

(٢) تقدم تخريجه.

وقال الله جلَّ قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] كما تتعاقب فينا الملائكة الكتبة فكذلك تتعاقب فينا الملائكة الحفظة يحفظوننا من أمر الله الذي لم يشأ ﷻ أن يصيبنا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ [غافر:٧٨].

﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١] وأمر الله ﷻ عام شمل السراء والضراء والرحمة والعذاب، ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾[الرعد:١٢ - ١٥].

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من العذاب الصواعق والخسف والقلب والريح العقيم وغير ذلك، وطمعًا في الغياث والحياة والرحمة ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢] أي: في الهواء بغير عمد، هذا تعريض منه جل ذكره بإمساك الجملة، لا شيء يكون من الجملة سوى القدرة العلي، بل بقدرته ومشيئته، وتنبيه منه أيضًا إلى الاعتبار بذلك، فكائن من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، وهو خطاب منتظم بما ابتدأ به السورة.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[1] [الرعد:١٣] تقدير

---

(١) **مسألة في الرعد ما المراد به؟** إن العلماء اختلفوا في المراد بالرعد، وذلك كما يلي:
الأول: أنه صوت ملك يزجر السحاب، وقد روي هذا المعنى مرفوعًا إلى النبي ﷺ وبه قال =

=

علي وابن عباس وابن عمر ومجاهد وعكرمة والضحاك وشهر بن حوشب وعليه أكثر المفسرين. وفي رواية ابن عباس: أنه ملك ينعق بالغيث، وأخرى: أنه يسوق السحاب بالتسبيح، وفي رواية ابن عمر: أنه ملك موكل بسياقة السحاب .. إلى أن قال: وإذا تفرق عليه زجره بصوته، وفي رواية مجاهد: أنه ملك يسبح بحمده، وفي رواية الضحاك: وذلك الصوت تسبيحه، وفي رواية شهر بن حوشب: أنه ملك موكل بالسحاب .. إلى أن قال: كلما خالفت سحابة صاح بها. والثاني: أنه ريح تختنق بين السماء والأرض، وقد روي هذا عن أبي الجلد، فإنه قال: الرعد الريح، وقد روى عنه قتادة. وتعقبه أبو حيان بقوله: وهذا عندي لا يصح، فإن ذلك من نزعات الطبيعيين وغيرهم. انظر : (البحر المحيط ٩٦/٧) (زاد المسير ٤٣/١) (جامع البيان ١١٧/١). والثالث: أنه صوت اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض أو من انقلاع بعضها عن بعض، وبه قال الزمخشري والبيضاوي وأبو السعود تبعا للفلاسفة والمتكلمين. انظر: (الكشاف ٨٩/١) (تفسير أبي السعود ٥٣/١). أما الإمام الفخر الرازي فإنه يقول: إن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية، وللسحاب روح معين من الارواح الفلكية يدبره، وكذا القول في الرياح وسائر الآثار العلوية، وهو عين ما قلنا سن أن الرعد اسم لملك من الملائكة يسبح الله تعالى، فهذا الذي قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء، فكيف يليق بالعاقل الانكار؟ (التفسير الكبير ٢٢/١٩) وتعقبه أبو حيان أيضًا بقوله: إن غرضه جريان ما يتخيله الفلاسفة على مناهج الشريعة ولن يكون ذلك أبدا، ولقد صدق رحمه الله تعالى في عدم صحة التطبيق بين ما جاءت به الشريعة وما نسجته عناكب أفكار الفلاسفة. اهـ (البحر المحيط ٩٦/٧). قال الإمام الألوسي: نعم إن ذلك ممكن في أقل قليل من ذاك وهذا، والمشهور عن الفلاسفة أن الريح تحتقن في داخل السحاب ويستولي البرد على ظاهره فيتجمد السطح الظاهر، ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقا عنيفا فيتولد من ذلك حركة عنيفة وهي موجبة للسخونة، وليس البرق والرعد الا ما حصل من الحركة وتسخينها، وأما السحاب فهو أبخرة متصاعدة قد بلغت في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء لكن لما لم يقو البرد تكاثفت بذلك القدر من البرد واجتمعت وتقاطرت ويقال للمتقاطر مطر. وردّ الأول بأنه خلاف المعقول من وجوه : أحدها أنه لو كان الامر كما ذكر لوجب أن يكون كلما حصل البرق حصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزيق السحاب، ومعلوم أنه كثيرا ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد. ثانيهما أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة بالطبيعة المائية الموجبة للبرد وعند حصول هذا المعارض القوي كيف تحدث النارية؟ بل يقال : النيران العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها، والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية؟ ثالثهما أن من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكّة الحاصلة في أجزاء السحاب، لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر؟ وردّ الثاني بأن الأمطار مختلفة فتارة تكون قطراتها كبيرة وتارة تكون صغيرة =

الكلام والله أعلم بما جرى: وتسبيح الرعد بحمده وتسبيح الملائكة، فإن التسبيح والحمد قد يكونان عن تعجب من عظيم قدرة الله جل ذكره وخفي لطفه ومضاء مشيئته، وقد يكون ذلك شكرًا لجزيل نعمه وترادف مننه، وقد يكون ذلك عن خوف مزعج فيبعث ذلك على العمل بطاعته اعتصامًا به من عذابه، ووصف الرعد بالتسبيح والحمد وجزل جل ذكره من الوصف ذكر الخوف؛ إذ هو غير مكلف، لكن الشكر لازم له وصفًا وحالاً، ووصف جل ذكره الملائكة - عليهم السلام - بالخوف للمعهود بأنهم مكلفون، والخوف قد شمل المكلفين وغيرهم ظاهرًا وباطنًا أو باطنًا دون ظاهر، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾ [البقرة:٧٤] فيقوم ذلك منها مقام البكاء من خشيته.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة:٧٤] وما من شيء علوًّا وسفلاً إلا يسبح لله ﷻ ويحمده رهبة من شأنه، وخوفًا من سلطانه، وشكرًا لأنعمه، لكنها أحوال يغلب بعضها بعضًا في موجودات وأحيان كونًا إلا ما كان من الثقلين، فذلك فيهم شرعًا، فمنهم المسرع السابق، والمقتصد البطيء الغافل عن حظه، ومنهم الظالم لنفسه، فالله المستعان، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإن من أهل المعرفة بالله جل ذكره لمن يسبحه ويحمده عجبًا زائد إلى ما

=

وتارة تكون متقاربة واخرى تكون متباعدة إلى غير ذلك من الاختلافات، وذلك مع أن طبيعة الأرض واحدة وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة يأبى أن يكون ذلك كما قرروا، وأيضًا التجربة دالة على أن للتضرع والدعاء في انعقاد السحاب ونزول الغيث أثرًا عظيمًا، وهو يأبى أن يكون ذلك للطبيعة والخاصية، فليس كل ذلك الا بإحداث محدث حكيم قادر يخلق ما يشاء كيف يشاء. (روح المعاني ١١٣/٧ - ١١٤).

قلت: إنه لا تناقض بين هذه الأقوال الثلاثة ويمكن الجمع بينها إذ إن الرعد إذا كان صوتا من أثر اصطكاك أجرام السحاب الذي يحدث بسبب انضغاط الهواء فيه فإنه من فعل ملك من الملائكة الذي يحرك السحاب ويسوق الرياح فينقلها من مكان إلى مكان فيحدث من خلال ذلك هذا الأثر، فإنه ما من حركة فى العالم العلوي أو السفلي إلا وهي عن الملائكة الذين يفعلون ما يؤمرون.

تقدم من جليل اقتداره، وإحاطة علمه، ومضاء مشيئته، وحسن ابتداعه، وإتقان صنعه، وخشية من سطوته، وخوفًا من عذابه، فيجمع جميع ذلك ألحقنا الله الرحيم برحمته بهم، ولا جعل حظنا من صفاتهم وصفهم، إنه عليم قدير.

أتبع ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾(١) أي: فيجعل ذلك آية منه على عذاب أعدائه في الآخرة من سماع زفيرها وشهيقها، ورميها إياهم بشررها كالقصر، يؤيد هذه العبرة قوله جلَّ قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ يريد وهو أعلم ﴿وَهُمْ﴾ لا يعتبرون ولا يؤمنون، بل ﴿يُجَادِلُونَ فِي اللهِ﴾ أي: في آياته ويلحدون بها إلى المعهود المتعارف، فيكون ذلك سببًا لسلوهم ولزوم الغفلة إياهم ﴿وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ﴾ [الرعد:١٣] بمكرهم، وهو خير الماكرين؛ أي: بتزيين ضلالهم والتردد في عمه طغيانهم؛ ليأخذهم على أوفر ما جنوه وأكمل ما أتوه.

ذلك قوله ﷻ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ﴾ [الرعد:١٤] هي قول: «لا إله إلا الله» وهي أيضًا دعوته جل ذكره العباد إلى الإيمان به والعمل بطاعته ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس:٢٥].

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧] وهي أيضًا دعوة الرسل -

---

(١) سئل الحسن عن قوله : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ...﴾ قال: كان رجلٌ من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ يقرّ بدعوته إلى الله ورسوله، فقال لهم: أخبروني عن رب محمدٍ هذا الذي تدعُوني إليه، مِمَّ هو: من ذهبٍ، أو فضةٍ، أو حديدٍ، أو نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته، فانصرفوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا رجُلاً أكفر قلبًا ولا أعتى على الله منه، فقال ﷺ: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه، فجعل لايزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أجيب محمدًا إلى ربٍ لا أراه ولا أعرفه! وانصرفوا، وقالوا: يا رسول الله، ما زادنا على مقالته الأولى، وأخبث. فقال ﷺ: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه، فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه، وهو يقول هذه المقالة إذا ارتفعت سحابة، فكانت فوق رءوسهم، فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوسٌ، فجاءوا يسعون؛ ليخبروا رسول الله ﷺ فاستقبلهم قومٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: احْترَقَ صَاحِبُكُم. فقالوا: من أين علمتم؟ فقالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ﴾. تفسير اللباب لابن عادل (٩/٤٠٧).

عليهم السلام - والأولياء العباد إليه ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِالله وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ...﴾ [الحديد:٨] وهي أيضًا دعوة الله ﷻ العبد من نفس العبد إليه، وهذه الدعوة متصلة أمرًا وكونًا بالله؛ لأنها من الله بحق هو من الله ﷻ عبر عنها رسول الله ﷺ بأنها «**عظة الله في قلب كل مؤمن**»(١).

وعلى إيصال الذكر بالمذكور يقول الله جلَّ قوله: «**أنا جليس من ذكرني، وحيثما طلبني وجدني**»(٢).

وقال ﷻ في الذكر الذي يكون من ذوات قلوبهم وقرارة نفوسهم: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري**» فشرط جل ذكره وجود الذكر في نفس القلب، وأنه الغالب عليه قال: «**إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»(٣).

وهذا مقتضى قوله الحق: «**إذا تقرب عبدي مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»(٤).

هذا إلى مفهوم ما جاء من ذلك القرب في الولاية، وعلى الضد من ذلك جاء في الآخرين قوله جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ هذا مثل ضربه الله ﷻ لانقطاع طريق الوصلة بين الكافر وبين ربه يجعل أيضًا له كفيه بالماء، كإيصال المؤمن دعاءه بإيمانه بربه وإسلامه له، فإذا لم يكن إيمان وإسلام وعمل صالح كان كالباسط كفيه إلى الماء يملؤهما ماء لم يصل كفيه إلى فيه، فليس الماء ببالغه ولا شافيه من عطش به ولا مبرد غلته؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٧١)، والحاكم (٢٤٥) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢١٦)، والترمذي (٢٨٥٩) وقال: غريب. والنسائي في «الكبرى» (١١٢٣٣).

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

ضَلالٍ﴾[(١)] [الرعد:١٤].

أعقب جل ذكره ذلك بقوله الحق: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] انتظام هذه الآية بالتي تقدمتها معنى أنه ليس شيء كائن ما كان مؤمن أو كافر حيوان أو نبات بخارج عن التعبد لله ﷻ، والقنوت لعظمته والخضوع، وذكر جل ذكره ضلالهم لما ذكر حرف من هي واقعة على من يعقل، فذكره جل ذكره الظلال دلالة على أن ما لا يعقل داخل في التعبد، وذكر جل ذكره الغدوات والعشوات بسجود؛ ليبين جل ذكره ما عمى النظر ويعلمه، كيف الطلب لذلك منها؟ وذلك أن التفيؤ بظلال هو بالآصال وامتدادها بالبكور؛ أعني: الظلال، ففيؤها بالآصال هو رجوعها إلى امتداد بواسطة التنقل وهي طائعة في ذلك لمفيئها ومتعبدها.

كما قال جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان:٤٥] يريد: الظل بكرة، وهو قبل طلوع الشمس، ثم يجعل الشمس دليلاً على ذلك الظل لولا لم يتميز بأنه ظل أو غيره، ثم يقبضه جل ذكره إليه قبضًا يسيرًا؛ يعني: قليلاً حتى يقف الظلال على مقاديرها، ثم يفيؤها؛ أي يرجعها إلى الامتداد بواسطة التنقل، وكما جعل الشمس دليلاً على ظلال الأشخاص الظاهر، وكذلك جعل نور الوجود العلي دليلاً للعقول والإيمان على مثالات الموجودات وفي الباطن فعلاً وعباءة.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ

---

(١) أي: في ضياع وخسار وباطل، والمراد بهذا الدعاء: إن كان دعاء آلهتهم فظاهر أنه كذلك، لكنه فهم من السابق وحينئذٍ يكون مكررًا للتأكيد، وإن كان دعاءهم الله تعالى فقد استشكلوا ذلك بأن دعاء الكافرين قد يستجاب، وهو المصرح به في الفتاوى، واستجابة دعاء إبليس وهو رأس الكافر نص في ذلك، وأجيب بأن المراد دعاؤهم الله تعالى بما يتعلق بالآخرة، وعلى هذا يحمل ما روي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - من أن أصوات الكفار محجوبة عن الله تعالى فلا يسمع دعاؤهم، وقيل: يجوز أن يراد دعاؤهم مطلقًا ولا يقيد بما أجيبوا به. تفسير الألوسي (٢٣١/٩).

خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد:١٦ - ١٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أمر رسوله ﷺ أن تبتلهم تقديرًا من رب السماوات والأرض، وفي ضمن الخطاب: فإن أجابوك وقالوا: «الله» وإلا تقل أنت: «الله» ولا بد لهم من ذلك، فهو قولهم، ثم أمره أن يجيبهم على تحقيق ما أقروا به بأن يقول لهم: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يقول: تعبدتم للعبيد وتوكلتم على العجزة يقرعهم بهذا، أو أي ولي يكون للمخلوق دون ربه ﴿لَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وقع القول عليهم وأسكتتهم الحجة البالغة، ثم جعل يذم لهم منزلة من رضي بها بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الرعد:١٦].

يقول جلَّ قوله: هل يستوي العالم والجاهل، ويتوجه ذلك على الآلهة الباطلة، والإله الحق ﷻ فوصفها بالعمى وخزل وصفها بسائر النقائص التي هي لها أهل، وأحال على المعهود المتعارف منها، وما استاقه في غير هذا الموضع كقوله جلَّ قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٩٥] وقوله جلَّ قوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢١] إلى غير ذلك من نقائصها.

ثم اتصف هو - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بأنه البصير الحق، وخزل ذكر سائر الأسماء والصفات المعهود من كماله العلي والمتعود من رفيع درجاته، ثم قال وقوله الحق: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الكفر والإيمان، والتأويل الأعلى مع العلم بما تقدم أن الظلمات هي من صفات آلهة باطلة، والنور هو من صفات الإله الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ثم قال وقوله الحق: ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد:١٦] وترادفت دلائل تناقصهم وعظم التوبيخ فأسكتتهم حجج الحقائق، وهذا إن دل على الثنوية والحشوية والمجوس

والقدرية من أهل الغفلة - أبعدهم الله - ولكل طائفة منهم آراء شبه أباطيلهم، وظنون تليق بجهالاتهم، سبحانه له الحمد وبحمده، وجوده العلي لا نهاية له، وكذلك صفاته لا نهاية لها، محال أن يكون صفاته متناهية وهو لا نهاية له.

وقالت الثنوية أبعدهم الله: إن فاعل العالم أصلان قديمان:

أحدهما: نور.

والآخر: ظلام.

قالوا: والنور هو الذي أوجد الخير، والظلام هو الذي أوجد الشر.

وقالوا: الشر نهاية الخير، والخير نهاية الشر.

والمخمسة لها آراء في الإلهيات التي أثبتوها زعموا وضلالات، والقدرية لم يتركها ألا تسلم إلا كفر أولئك يتركها عن المتمسك بسبيلهم إلى محض التوحيد، فهم مجوس هذه الأمة.

كذلك قال رسول الله ﷺ وقال الله جلَّ قوله لنبيه: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦] حكم بحكم الظاهر لعلاء الحجة المفلح للخصم بواضح البرهان قرر الأصل المتفق عليه أولاً، ثم بنى جل ذكره الحجاج على ذلك بأن بين خلافهم للأصل الحق، وضرب لذلك جل ذكره مثلين بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، ثم ضرب جل ذكره مثلاً شاق المتعاطي صعب المسلك بعيد المتناول؛ لغموضه وبعد غوره، وتعذر العبرة به؛ لأنه مثل جمع أمثالاً متداخلة بعضها في بعض.

يقول الله جل وعز: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ * خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٣ - ٤٤].

قال ابن عباس: إن هذا القرآن لم يثبت بعد، فمن آثر عليه سواه فلا شفاه الله ولا رعاه، وعلم القرآن أشرف العلوم، هو الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢].

وقال ابن عباس في قول الله جل ذكره: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]: يعني الفهم والإصابة في القرآن.

وقيل في قوله جلَّ قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] أي: أحرمهم فهم كتابي، وأعلم أن مثل علم القرآن مثل الأسد لا يمكن من علمه أحدًا.

وقال الحسن البصري: علم القرآن ذكر لا يعلمه إلا الذكور من الرجال، ومثل علم القرآن مثل العروس تريد البيت خاليًا، ومن أغمض علوم القرآن علم الأمثال منه، والأكثرون غافلون عنها ليشغلهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، وهي مواضع العبرة والمثل بلا ممثل به، كالفرس بلا لجام والناقة دون زمام، فاعلم ذلك.

قوله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا....﴾ [الرعد:١٧] لما كان المتكلم فيه فصل [الإلهية][1]، وإثباتها تناول ضرب المثل بها جميع الفصول السبعة التي تقسمت إليها فصول القرآن على الإجمال ومعنى العموم، وذلك أن ذكر اسم الربوبية في قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿قُلِ اللهُ﴾ [الرعد:١٦] فهذا اسم الإلهية.

ثم قال جلَّ قوله الله الواحد القهار، فهذا اسم الوحدانية، واسمه الخالق، واسمه القهار، ومخاطبته بقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾ هو للنبي، فهذا فصل النبوة وفصل الوحدانية وفصل الإلهية، ثم في باقي الخطاب معنى التزام العهد والوعيد، فأول ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:١٧] واحد في ذاته، طيبًا طاهرًا مطهرًا.

وجاء سياق المثل على إثبات الوحدانية ووجود الموجودات جميعًا عن قدرته المحيطة وعلمه العلي ومشيئته السابقة، وإنه الحي القيوم الملك، والله على ما هو عليه اتخذوا من دونه أولياء ﴿لَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد:١٦] وانتظم هذا المعنى بما عبر عنه من خطاب بقوله جلَّ قوله: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ وقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾ [الرعد:١٦].

يقول ﷻ: انظروا إلى الماء واحدًا ينزله الله من السماء يوجد عنه الكثرة من

---

(١) هكذا في (ف) و(غ).

حيوان وأنعام على اختلاف أنواع ذلك وتباين أجناسه، كذلك الله جل ذكره الواحد الأحد أوجد كل شيء، ثم ضرب جل ذكره مثلاً للعلة التي لأجلها وجد الباطل في مفعول الحق المبين بقوله جلَّ قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧].

يقول جلَّ قوله: أنزل هذا الماء الواحد الطاهر الطيب على الأرض جبالها وآكامها وشرابها وروائها فسالت مثاعبه على ما أتت عليه، فمثل الأرض مثل بني آدم المخلوق منها، ومثل الماء مثل الوحي من أمر السماء، ومثل مثاعب الماء السائلة على وجهها الوحي والقرآن، وما دار حوله مثال ألسنة الرواة له والناقلين إلى القلوب، ومثال الأودية مثال القلوب في القرون المتداولة اجتمعت المياه في الأودية كاجتماع القرآن والوحي في القلوب من الأمم المتداولة أدت إليها ألسنة الرواة كما أدت مثاعب الماء إلى الأودية.

ومثال فتنة المفتونين وعمى الجاهلين وزيغ الزائغين عنه مثل ما سلك عليه الماء في أهوية الأجواء، وألقحته الرياح في ممتزج الفيح والفتح من الأرض والسماء، فسالت الأودية بقدرها على قدر سعتها وكثرة طرق المياه إليها وسعتها في أنفسها كالقلوب، وعلى قدر جمعها ووعيها وفهمها لما وعته تكون سعتها.

ومثال الزبد المجتمع على المياه في الأودية الكائن عن امتزاج الماء بالأرض والهواء وعما في وجود ذلك من فيح نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم منها - مثال الموجود عن الأهواء والبدع وخطأ التأويل وآفات النقلة الرواة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد:١٧] الذهب والفضة ومتاع الحديد والنحاس وفلز المعادن كلها زبد مثله مثل الذهب والفضة في متاع الدنيا كمثل علم القرآن والوحي، ومثل فلز المعادن كلها مثل غيرها من العلوم ينتفع بها كما ينتفع بسائر العلوم، وكلها زبد لكونها عن الأرض كما العلوم الوحي وغيرها من العلوم خطأ وضلال عن القصد لمجاورتها الأهواء وآفات النفوس وما ملكت عليه.

وأما المعرفة من أين حدث الباطل في الأعمال، والشرك فيما يقابل التوحيد، وتكذيب الرسل فيما يقابل الإسلام، والتصديق بعد نزول ذلك من السماء، وفطرة الله المخلوقات على أحدية الدين القيم، وأخذ الميثاق والعهد على الإقرار

بالربوبية والنبوة، فذلك لمجاورة الحق القلوب على ما تقدم بأهوائها وآفات أنفسها الكائنين عن الأرض ونباتها الكائن عن نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مع الكثرة التي هي البعد عن وراثة الشبه الذي عبر عنه قوله ﷺ وبعدها عن الوحدة، كما قال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ يعني: فيما كانوا فيما قرب من الوحدة مرت تحمل الإسلام والإيمان ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أي: كثرت الغاشية واتسع النسل وفشا، وذرت الذرية على وجه الأرض أكلوا من الأرض ومن نباتها ومما يكون عن فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وقوله جلَّ قوله: ﴿دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٨٩] عبارة عن مراد الأبوين الإسلام والصلاح.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ [...][(١)] ألقى عليهما وعلى الذرية من علم الفطرة، ثم هداية الرسل - على جميعهم السلام - ومعاهدة الوحي ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ المراد بهذه التثنية: نسل الأبوين، ولما فرض القصة على الزوجين ذكر الجملة بلفظ التثنية؛ لأنهما عنهما كانت، فعبَّر جل ذكره بالأصل عن الفرع، والدليل في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠ - ١٩١].

وقد يكون المراد بقوله جلَّ قوله هنا في ضرب المثل بنفس واحدة: الماء، وخلق منها زوجها: الأرض، فهي تنبت نباتها على ما هو عليه، ولا يظهر العصيان [في النبات ولا][(٢)] في الحيوان، وهو في الإنسان أظهر، بل هو الكفر والتكذيب والعناد، وهو موضع الكثرة عنهما، فكذلك الله الواحد الأحد أوجد عن حدته كل شيء كما أوجد عن الماء الواحد كل شيء حي ونبات، وإنما هي وسائط هي خلق الله جل ذكره، وما يكون عنها ليس له في الوجود الأعلى أصل ترجع إليه سوى تصريف القدرة، ومضاء المشيئة السابقة، وإحاطة العلم وإرادته، ذلك في

---

(١) كلمة غير واضحة في (غ) و(ف).

(٢) كلمة غير واضحة في (غ).

الموجودات على مراتبها في مسالكها المقدرة لها في تقديره الأول بعلمه السابق، وهذه أوجه مجموعة في تفسير هذا المثل يستعان بمعرفتها على طلب فوائد القرآن والوحي.

قوله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾ [الرعد:١٧].

قال المفسرون: قوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ في العبادة؛ يعني: الأصنام ﴿لَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي المؤمن والكافر ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الكفر والإيمان ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ حتى قالوا: «هذا من خلق الله وهذا من خلق الأصنام» وهل كان هذا قط، قال الله ﷻ: ﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦] خلقه للفناء وقهره بالموت.

قال ابن عباس: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذا مثل ضربه الله للحق والباطل بقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يقول: احتملته القلوب بأهوائها ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يقول: الهوى باطلاً كثيرًا ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ يقول: ومن جواهر الأرض: الذهب والفضة والصُّفر والنحاس الذي يلبس ويتخذ منه الأواني له خبث مثل زبد الماء، كما لا ينتفع بالزبد والخبث كذلك لا ينتفع بالباطل، وكما ينتفع بالحلي والماء الصافي تحت الزبد كذلك ينتفع بالحق ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: يذهب كما جاء ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

مثل: قال مقاتل بن سلمان: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: غالبًا على الماء ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ الذهب والفضة والرصاص والحديد والصفر والشبة بها حيث مثل الزبد للماء لا ينتفع به، فمثل الأودية كمثل القلوب، ومثل السيل مثل الأهواء، ومثل الحلي الذي يبقى في الكير والماء الصافي الذي يبقى في الأرض مثل الحق، ومثل الخبث ينقيه الكير ومثل الباطل فكما لا ينفع الزبد والخبث أهلهما في الدنيا كذلك لا ينفع الباطل أهله في الآخرة، وكما ينفع الماء الصافي وما يبقى من الجواهر أهلها في الدنيا كذلك ينفع الحق أهله في الآخرة.

مثل: قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال في مثل واحد، فقوله جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الصغير على قدره والكبير على قدره، شبه جل ذكره نزول القرآن بالماء ينزل من السماء، وشبه جل ذكره القلوب بالأودية والأنهار، فذو العلم على قدر علمه، وذو الجهل على قدر جهله، فهذا مثل.

ثم شبه ﷻ وساوس الشيطان ومخائل النفس والخطرات الفاسدة بالزبد يعلو الماء، فما يقع في النفس من الفضول فمن ذاتها لا من ذات الحق، يقول جلَّ قوله: «فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء كذلك تذهب مخائل النفس ووسواس الشيطان ويبقى الحق كما هو». فهذا مثل ثانٍ.

والمثل الثالث: قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد:١٧] له خبث مثل زبد الماء، فكما يذهب خبث الجواهر وتبقى خلاصتها ويبقى الحق كما هو، كذلك يذهب الجهل والوهم ويبقى العلم والفهم. فهذا المثل الثالث.

مثل: قال غيره: هذا مثل في الشك واليقين، فيقال في الشك ما قيل في الخبث والزبد، ويقال في الجواهر ما قيل في الحق، ويقال في العلم واليقين مثلما قيل في الجواهر والماء الصافي.

وقال في قوله جلَّ قوله: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: قد يعلو الحق الباطل ويغلبه في بعض الأحوال والأحيان، ولكن الله جل ذكره سيمحقه ويبطله ويذهب جفاءً، ويجعل العاقبة في الحق وأهله، واشتهر من قول العرب: «جفأت الريح السحاب» إذا أذهبته، وأجفل الظليم في عدوه: إذا أسرع فهو أجفيل.

مثل: قال غيره: في هذه الآية مثلان مثل الله بها ثلاثة أشياء: القرآن والعلم والنبي، فأما مثل القرآن العزيز فإن الله ﷻ مثل نزول جبريل بالقرآن بنزول الملائكة بالمطر، ومثل أيضًا القرآن بالمطر، فقال جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: أنزل الله الملائكة من السماء بالماء، كذلك أنزل جبريل بالقرآن ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: كل واحد بقدر سعته، شبه جل ذكره الأودية بالذوب فانتفع واتعظ كل قلب بقدر عقله والمعرفة به، وبقدر فكره واستدلاله والاحتياج إلى تقدير مع الخشية في إسماعه، وكما أن كل وادٍ زادت سعته زاد الماء فيه كذلك كل قلب

زادت فكره وعقله ومعرفته وخشيته وحسيته زاد فيه الانتفاع بالقرآن ومواعظه.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ معناه: إن السيل يعلوه الزبد، كذلك القرآن فيه آيات متشابهات ظاهرها خلاف باطنها، فكما أن الزبد على السيل ظاهره خلاف باطنه كذلك لظاهر آيات القرآن خلاف باطنها، وهن المتشابهات، ومثل المتشابه مثل السيل يعلوه الزبد، وكما أن الماء كان تحت الزبد وإن علاه الزبد ظاهرًا كذلك باطن القرآن والمتشابه واقع وإن كان ظاهره خلافه كالزبد، وكما أن من اكتفى بالزبد الظاهر على الماء لا يصل إليه من نفع الماء شيء، ويبقى العطش فيه فيهلك، ولذلك من اتبع الأكثر من ظاهر القرآن لا يصل إليه نفعه ومواعظه، وتبقى الضلالة فيه فيهلك زيغًا.

وكما أن من اعتبر بالزبد الظاهر ولم يعتبر بالماء الباطن تحت الزبد لم يصل إلى نفع الماء كذلك من اعتبر بظاهر القرآن ومتشابهه لم يصل إلى نفع القرآن؛ إذ الزبد حائل بين الماء وطالبه، كذلك المتشابه حائل بين القرآن وطالب نفعه، وإنما ضرب الله المثل على هذا الاعتبار؛ ليعلم العباد أن القرآن يدل على الامتحان والاعتبار بباطنه.

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ هي الجواهر، معناه على هذا: إن القرآن أنزل من السماء كالجواهر أخرجت من الأرض، فكما أن الذهب والفضة كامنان في الجواهر والخبث والنخالة حائلان بينهما وبين طالبهما، كذلك دلائل بعض آي القرآن وأحكامه باطنة وظاهرة حائلة بينه وبين طلب فوائده، فإذا دخله الفكر المسدد استخرج الحجج والمنافع.

وكما أن الناظر الجاهل بالجواهر ينظر إليها فلا يعرف قدرها ولا يبذل فيها ما يقاربها من الشمس، كذلك الناظر الجاهل بالقرآن ينظر إلى ظاهر بعض آي القرآن ولا يعرف قدرها المطلوب منها، ولا يرغب في مرغوبها، ولا ينفعه ذلك منها، ولا يبذل فيها من نفسه من البحث والطلب ما يكافئ ذلك، وكما أن الذهب والفضة لا يخرجان من الجواهر إلا بالامتحان الشديد، كذلك لا يستنبط علم بعض آي القرآن إلا بنظر ثاقب وفكرة لطيفة.

وأما مثل النبي ﷺ: فإن الله جل ذكره شبه إرسال النبي بالمطر ينزله من

السماء، فكما أنزل الله المطر من السماء بالملائكة كذلك أرسل الله محمدًا بإرسال جبريل إليه بالوحي، فكما أن الأرض الميتة إذا منع الله المطر عنها، ثم إذا أمطرت صارت حية بإذن الله، فكذلك أهل الأرض أموات في الديانة حال فقدان الرسل إليهم، وإذا أرسلوا إليهم صاروا أحياء لا يصلون إلى نفعها إلا بالغيث، وكذلك لا يصلون إلى نفع أنفسهم في الديانة والتقرب إلى ربهم إلا بالرسل.

وأما قوله جلَّ قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: بقدر سعتها، شبه جل ذكره الماء بالنبي؛ يعني: ما ينتفع به وبمواعظة كل الناس بقدر همتهم والنظر إلى دلائله، وكما أن الماء يزيد في الوادي في السعة كذلك نفع النبي ﷺ.

وأما قوله تعالى: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ معناه: إن السيل ظاهره زبد غير نافع، وباطنه ماء نافع، كذلك النبي ظاهره صورة الإنسان، وذلك غير دال على صدقه ونبوته، وكما أن الماء الصافي تحت الزبد وإن كان ظاهره غير ماء لذلك احتجاجه، ودلائله أدل شيء على صدقه وإن كانت صورته الظاهرة لا تدل، وإنما ضرب الله هذا المثل؛ ليعلم أن ظاهر صورة الرسل لا تدل على صدقهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ...﴾ شبه الجواهر بالنبي، وشبه الأحجار بالخلق، ومعناه: إن الأنبياء بين الخلق كالجواهر بين الأحجار، فكما أن الذهب والفضة كامنان في الأحجار والخبث والنخالة حائلان بينهما وبين طالبهما؛ لأن ظاهرها غير ذهب وفضة كذلك دلائل النبي باطنة في أحواله، وصورته حائلة بينها وبين طالبها، فإذا أدخلت الجواهر في النار استخرج الذهب والفضة عنها، كذلك إذا اعتبر بدلائله عرف بها صدقه ونبوته.

وكما أن الناظر الجاهل بالجواهر إذا اعتبر بظاهرها لم يشترها بثمنها كذلك الناظر الجاهل بأمر النبي ﷺ إذا اعتبر بصورته وجدها لا تدل على حقيقة نبوته فيمتنع من تصديقه والإقرار بما جاء به، كذلك يضرب الله الحق والباطل الاعتبار بصورة النبي وبظاهره، والاعتبار بباطنه وأحواله ودلائله، وكما أن الماء بان نفعه في الأرض كذلك دلائل محمد ﷺ نافعة لمن اعتبر بها؛ لأنها توجب صدقه واتباعه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

وأما مثل العلم في هذه الآية: فإن الله جل ذكره شبه المطر النازل من السماء

بالعلم الذي يعلمه الله عباده، فكما أن المطر لا ينزل من السماء إلا بأمر الله كذلك العلم لا يحدث إلا بوحي من السماء، وكما أن المطر صلاح الأرض كذلك العلم صلاح الخلق، وكما أن الزرع لا ينبت بفقد المطر كذلك الخيرات لا توجد مع فقد العلم، وكما أن المطر لا يطلب إلا من السماء كذلك العلم لا يكون إلا من قبل الخالق جل ذكره، وكما أن المطر أسلكه الله ينابيع في الأرض كذلك العلم أيضًا في بواطن الحيوان والبشر، وكما أن في نزول المطر إفراغًا من الوعد والوعيد كذلك العلم إفراغ من الوعد والوعيد، وكما أن المطر بعضه أنفع من بعض كذلك العلوم بعضها أنفع من بعض، وكما أن المطر إذا كان في غير أوانه لم ينفع كذلك العلم إذا طلب من غير أهله وعلى غير وجهه لم ينفع.

وأما قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يعني والله أعلم: فاحتمل كل إنسان بقدر همته ومجاهدته، فكما أن جري الماء في الوادي لا ينفعه إذا لم يبقَ الماء فيه كذلك العلم إذا جرى على لسان العالم لا ينفعه إذا لم يعمل به.

وقوله: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ معناه: إن الزبد يعلو الماء فيحول بينه وبين وارده، كذلك شهوات النفوس تحول بين العلم وطالبه، وكما أنه من اكتفى بالزبد الكدر ولم يبحث عن الماء الصافي لا يصل إليه نفع الماء كذلك من اكتفى بظاهر ما يسمع من العلوم ولا يبحث عن حقائقها لا يصل إليه من نفع العلم شيء، وإنما ضرب الله هذا المثل على هذا الاعتبار؛ ليعلم الناس كيفية طلب العلم.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ...﴾ معناه والله أعلم: إن العلم والحكمة يطلبان عند أهليهما كما أن الذهب والفضة يطلبان في جواهرهما، شبه جل ذكره العلم بالفضة والذهب، وشبه العلماء بالجواهر، فكما أن في الذهب والفضة تفاوتًا بعضها أطيب من بعض كذلك العلماء بعضهم أكثر علمًا وأصفى، وكما أن في إخراج الذهب والفضة من الأحجار مشقة كذلك العلم والحكمة في طلبهما تعب ومشقة، وكما أن الجواهر تستخرج المنافع منها بامتحانها وإحراقها كذلك يستخرج العلم بكثرة السؤال ومداومة الفكرة وترداد التدبر، وكما أن الذهب والفضة أفضل من سائر الجواهر كذلك علم التفسير والدين والشريعة أفضل من سائر العلوم، كذلك يضرب الله الحق والباطل؛ يعني والله أعلم: الاحتجاج والدلائل والقصص

والأخبار.

فأما الزبد فيذهب جفاءً؛ يعني والله أعلم: إن طلب الأحاديث والأقاصيص يترك ويتطلب أحكامها؛ لأن نفعها أعم وأكثر، وكما أن الماء وزبده ذاهب كذلك علم الدلائل والمعرفة باقٍ، وطلب الأقاصيص ذاهب، كذلك يضرب الله الأمثال للذين استجابوا لربهم؛ يعني: فيما ندبهم إليه من طلب العلوم والدلائل والدين والذين لم يستجيبوا له فيما دعاهم إليه.

فصل

هو بيان وتذكير من ربنا عز جلاله، وموعظة بسر كتابه العزيز للمذكرين، وضرب الأمثال للمعتبرين، وقسم الله الحق المطلوب فيما بينهم ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦] وهو الكتاب الحكيم، قد جعله منزله العظيم متشابهًا مثاني، فيُثني بعضه بعضًا تلاوة ومعنًى، وهي معانيه وآياته معنى.

يقول عز من قائل: ﴿المر﴾ فجمع بها ما يفرق، وأحكم فيها ما فصل، فقال جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ﴾ ثم ثنى جل ذكره ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد:١] أي: بأنه من عند رب العالمين أحكامه وتفصيله وتوصيله.

ثم جعل جل ذكره يسرد موجودات الكتاب المبين بقوله: ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ...﴾ [الرعد:٢] يقول جل ذكره: لعلكم إذا رأيتم انقضاء الآجال وتمام الآماد ليلاً ونهارًا وغير ذلك، وتشاهدون طلوع الشمس والقمر والنجوم توقنون لذلك بانقراض الأعمار ويوم الدنيا وبلقاء ربكم، ترونه كما ترون الشمس صحوًا والقمر في كماله.

ثم أخذ جل ذكره يصف أنعمه وقدرته ومشيئته وعلمه في مقدوراته، يقول جلَّ قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:٣] فيعلمون الآخرة من الدنيا، وموجودات ما هنالك استدلالاً بموجودات ما ها هنا، ويعرفون ربهم يوم يرونه يحكم الغيب في مقدوراته بأسمائه وصفاته وآلائه وأفعاله وأحكامه وآثاره، فيوحدونه بالإلهية ويفردونه بالمثل الأعلى.

ثم استمر جل ذكره على ذلك بقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ...﴾ فنص بصدق قيله وله الحيلة على أنه يفعل دقيق المفعولات كما يفعل كبيرها وجليلها من مذاقات وألوان وطعوم وروائح وأشكال، إلى غير ذلك من منافع ذلك كله ومضاره، وعلى تصاريف ذلك وتنويعه، ثم قال جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤] موجودات الآخرة من هذه والتوحيد.

قال: ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١].

﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢] ولا تتفكرون.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢] إلى قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد:٧] نظم هذا بما تقدم ذكره من التعجيب من كفرهم، وعماهم عن رؤية الآيات البينات في النور المبين، أولم ينظروا إلى مثلاته ووقائعه فيمن كذب الرسل وصد عن السبيل؟! ولبيان ذلك أضرب عن ذكرها اعتمادًا على التذكير قبل هذا في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ﴾ [الرعد:٦].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد:٧] كما قال جل وعز: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ﴾ [الرعد:٤٠].

ثم ثنى المعنى وأرجع القول إلى ما ذكره في صدر السورة، فقال جلَّ قوله: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ [الرعد:٨] إلى قوله: ﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] فاتصل المعنى بالمعنى الذي تقدم.

وثنى القول على القول، ثم أخذ في الاحتجاج عليهم بما ألزم ذكره من الحق المتضمن وقدرهم على المتفق على صحته في عرفان القلوب، فانتظم بالمعنى الذي تقدم فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ اللهُ﴾ [الرعد:١٦] وهو قولهم كما قال جل وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [العنكبوت:٦٣] ثم وقفهم على تناقضهم بقوله: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ [الرعد:١٦].

ثم صرف وجه الخطاب إلى سواهم من أهل ملك الكفر، فكان يخاطب بواسطة نبيه العرب الذين يتخذون الأصنام والتماثيل آلهة يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ظنون كاذبة [وادعاءات غريبة].

يقول جل ذكره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: ليس هؤلاء بشركائى في ملكي ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] وخرصهم هذا أصله عن مقدمة معرفة سقطت معرفتها في حقهم وبقيت فتنتها فيهم، وذلك المعروف هو الحق المخلوق به السماوات والأرض، لم يبقَ بأيديهم من معرفته إلا الخرص والحدس، نصب الشيطان لهم مصائده فاتخذوا له التماثيل وعبدوها على المشاهدة بزعمهم الإباء بما كذب الزعم.

ثم شبه المبدأ في ذلك في أخلاقهم حتى اعتمدوا عليها وألحقوها بمنزلة الشركاء حتى قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] إلى قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾ [ص:٧] فكان هؤلاء في أوليتهم حال وراثتهم عن أبيهم إبراهيم ثم إسماعيل يهدون بالحق، ثم عدلوا به غيره، فتوجه إليهم من خطابه قوله الحق على لسان رسوله ﷺ: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد:١٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد:١٦] عدل مخاطبته رسوله عن هؤلاء إكرامًا له؛ لبعدهم عن الحق وعدولهم عنه بزعامة العلم وإقامة الحجاج عليه ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٧] وهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

ولما ركبوا سبيل الضلالة زعموا بالعلم وكانوا أبعد شيء عنه، وهم الثنوية القائلون بأن فاعل العالم أصلان قديمان:

أحدهما: نور.

والآخر: ظلام.

قالوا: فالنور خير بطبعه وجعلوه مطبوعًا، والظلام شرير بطبعه.

قالوا: فالنور لا يفعل إلا الخير، والظلام لا يفعل إلا الشر، وصرحوا بأن النور هو الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وأن الظلام هو الشيطان، وقسموا موجودات العالم

إلى ما هو عن النور وإلى ما هو عن الظلام، كما يقسم الحق الموجود به العالم إلى ما هو ذكر وإلى ما هو فتنة، وإلى ما هو المحبوب والمكروه، والسراء والضراء ونحو هذا، ونحا نحو هذا طائفة من أهل القبلة هم القدرية، وهم من طوائف الضالة الذين توجه إليهم قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد:١٦] ومنهم المثلثة وهم النصارى، ومنهم المخمسة الذين قالوا: بخمس قدم.

قالوا: هم الهيولي والمادة والصورة والعدم والبارئ ﷻ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

قالوا: في كل مسمى من هؤلاء يعمل في العالم بخاصة والبارئ سبحانه يصلح ما وصل إليه وما لم يصل إليه، بقي على ما كان عليه ﷻ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

يقول الله جل ذكره: ﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦] الغالب على أمره، وهو على كل شيء قدير.

وضرب ﷻ لذلك مثلاً فقال جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:١٧] أي: واحدًا طيبًا طاهرًا مطهرًا، فخلق عنه الخلق الكثير الجم الغفير، فذلك آيته جل ذكره على أنه الواحد القهار الأحد الطيب المطيب الطاهر المطهر القدوس السلام المؤمن المهيمن، خلق كل شيء، لم يخرج شيء عن أن يكون خلقًا مقدورًا لقدرته، مرادًا لإرادته، معلومًا لعلمه، ما من مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو خالقه ومصرفه ومدبره.

ثم قال وقوله الحق: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧] أنزل جل ذكره الماء من السماء إلى الأرض جبالها وضرابها وآكامها وأوعارها وسهولها، فجرت مثاعب المياه إلى مسالكها فاحتملت زبدًا؛ لأجل مباشرة الكائن عنه، وهو الأمر النازل من ذي العرش ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، يلقيه وهو الحق إلى حملة العرش فينفدون بسماء سماء إلى موضع قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢].

ثم يخلقه في السحاب، ثم في الجو والهواء، وينزله إلى الأرض، وهو أمره جل ذكره، وقد باشر الموجودات، وما باشره هو الحق، وفي أجواء الهواء وفي

الرياح وفي الأرض فيح جهنم سعيرها وزمهريرها، وفتح رحمته كما قال جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان:٤٨] ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، فاحتمل السيل لذلك زبدًا، ولم يظهر في الأغلب زبدًا الماء في مسالكه ومثاعبه على الأرض خلا جوهر الماء وبرده، كما لم يظهر للنفسين في الأجواء ومسالك الكواكب ومجاري الأفلاك زبدًا خلا السمومين: سموم الحر والبرد.

وإنما يظهر الله جل ذكره زبده في النبات والحيوان المخلوق عنه بواسطة الحق المخلوق به السماوات والأرض، فيظهر إذ ذاك في النبات الشهي والكريه والحلو والمر والمتوسط والعذب والتفه المغذي والضار النافع بإذنه، والطيب والخبيث من النبات والحيوان والطاهر والرجس النجس واللين والخشن والمرار كله والشائكات، والمكروه والمحبوب من ذلك كله حيوانه ونباته وأحجار الأرض ومعادنها وأنواع أتربتها، وأمره جل ذكره أمره وإنما هو الحق كلما مازح حقًّا كان عن ذينك النوعين من الحق نوع آخر يوجد فيه من شبه ذينك النوعين الحق.

قال رسول الله ﷺ: «**فمن أين يكون الشبه**»(١) فكلما بعد عن مبدأ الماء بعد عن الطهارة والطيب على نحو مشيئته جل ذكره في خلقه وإذنه في مصنوعاته فافهم، فذلك قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧] على هذا التأويل الأودية التي هي الأودية، والمثاعب والمسالك التي يُسلك عليها المياه إلى موضع مستقرها الذي هو النهر الأعظم، فهنالك يظهر الله جل ذكره على الأغلب زبد الماء رابيًا عليه؛ أي: مرتفعًا فوقه، كذلك كونه في هذه الدار في الأغلب الباطل يعلو الحق، لكن العاقبة للمتقين، فهذا وجه.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ

---

(١) تقدم تخريجه.

يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٨ - ٢٢].

وبوجه آخر: [الموضع][١] الأعظم في التمثيل هو موضع المحشر، والماء هو الناس؛ لأنهم خلقوا منه، ومن الأرض سيَّرهم جل ذكره في أعمارهم إلى المستقر وهو الدار الآخرة، كل قد عمل على شاكلته وأعماله مغيبة عن العباد، فإذا بلغوا إلى مستقرهم أماز الله الخبيث من الطيب كما تميز زبد الماء من الماء الذي احتمله في مسالكه من الأرض، فبالتأمل من أعمالهم يبطلها الله ويهلكها وطيبها ببقية؛ لينفعهم به، فذلك قوله ﷻ: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ**﴾[٢] الحق والباطل دل على هذا قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى**﴾ [الرعد:١٨].

المعنى إلى آخره: وفيه ومما توقدون عليه في ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله قد تقدم الكلام في الأمر ينزل من عند الله، وكيف ينقلب حقًّا من الحق إلى الحق بإذن مدبره، آية ذلك الغذاء من الشراب والطعام يدخله أحدنا جوفه فيصير في الشعر شعرًا وفي البشر بشرًا، وفي العظم عظمًا وفي الدم دمًا، إلى غير ذلك من موجود الأكل والشراب، ثم يخرجه متغيرًا في غير الوصف والمعنى الذي أدخله يكون عليه، والخالق جل ذكره واحد، والصانع متفرد بصنعه وتدبيره.

يقول تبارك وتعالى: ﴿**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ**﴾ [الرعد:١٧] أي: إن الأمر في السماء وفي الأرض واحد الزبد موجود في

---

(١) كلمة غير واضحة في (غ) و(ف).

(٢) قوله تعالى: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فيه ثلاثة تأويلات:
أحدها: يعني: منشقًا. قاله ابن جرير.
الثاني: جافيًا على وجه الأرض. قاله ابن عيسى.
الثالث: مرميًا. قاله ابن إسحاق. النكت والعيون (٢/٣٠٨).

مسالكه، لكن هذا يبرره الامتحان بالنار، وذلك يبرره الامتحان بالماء، وهو في التمثيل، والنار في التمثيل بمنزلة المحنة كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر:١٥] إلى قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٦] فالفتنة بالنعمة الشر وبطر، والفتنة بالمحنة والمكروه كله سخط وعدم رضا بالمزيد، فأما الزبد فيذهب جفاءً زبد الماء بالهواء والشمس، وزبد الأرض بالنار ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧] أي: أمثال المؤمنين والكافرين، كما قال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:١] أي: أبطلها وأمحقها هلاكًا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢] بإيمانهم.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد:٣] في ضمن هذا يدخل معنى الرسالة والنبوة والعلم والحق إلى غير ذلك، فرحم الله سلفنا ورضي عنا وعنهم، وجزاهم عنا خير ما جزى سلفًا عن خلف، هم الذين وطؤوا بنا معابر النظر فقفونا آثارهم، وسلكوا سبيل الحق فاهدينا بفضل هدايتهم، والحمد لله رب العالمين.

قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ...﴾ [الرعد:١٩] أخبر ﷻ أن الذكرى إنما هي لأولي الألباب، واللب: صفة في العقل يوصف به إذا تم إيمانه، وفكر بعقل سليم ونظر صائب فاستخرج بواطن المعاني وخفاياها، وعبر بمفهوم الشواهد إلى غيوبها، وصابر النفس على مكروهها ولم يرضَ بالمقارنة في العلم دون التحقيق فيه والعمل به، وصعد إلى ذروتها.

ثم جعل ينسق صفاتهم ليهتدى بهم ويقتفى بآثارهم بقوله الحق: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ المِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[1]

---

(١) ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾ أي: بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم، أو فيما بينهم =

[الرعد:٢٠ - ٢١] أدنى ذلك أن يصل الإيمان بالإيمان في الله بأسمائه وصفاته وأفعاله كلها، وإنه ليس شيء إلا أُمر بالإيمان به، وبملائكته أجمعين، وبرسله وكتبه، لا نفرق بين أحد منهم، وبأمره ونهيه ووعده ووعيده.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١] هو أن يعدد ذنوب العبد دون تجاوز ولا مغفرة، نسأل الله العفو جميل عفوه وحسن تجاوزه، فإنه من نوقش الحساب عُذِّب، هذه صفة لأوليائه إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢].

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٣ - ٢٨].

ثم أخذ في وصف الأباعد: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد:٢٥] والعهد: هو العهد المأخوذ علينا بالتزام العبودية لربوبية، والإيمان

=

وبين العباد ﴿وَلَا يِنقُضُونَ المِيثَاقَ﴾ الذي وثقوه على أنفسهم وأكدوه بالأيمان ونحوها، وهذا تعميم بعد التخصيص؛ لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس، فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق: ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذرّ المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ﴾ [الأعراف:١٧١] فتح القدير (١٠٥/٤).

بالرسل والنبيين ونصرهم، وقد تقدم ذكره في سورة آل عمران وسورة الأعراف[1].

ثم قال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ على ما يضاد الولاية ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥] لا يضاد إكرامه أوليائه، بشَّر أوليائه - على جميعهم السلام - بعقبى الدار، وهي عاقبة هذه الدار حال المكث في دار البرزخ، ثم العاقبة في الدار الآخرة جزاء لما قاسوه في هذه الدار صبرًا على وحشة الوحدة، وقلة المساعدة على ما هم عليه، وامتحانًا يعلو الباطل على الحق في كثير من الأمر، فأنالهم فيما هنالك التقريب والجاه والحظوة عنده، ودخول الجنة في رفيع الدرجات، ختم لنا بخير خاتمة في يسر وعافية.

ثم ذكر جل ذكره طائفة أخرى دونهم، فقال جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢] كما قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] يبشرهم جل ذكره بأن العاقبة لهم في الآخرة لما

---

(١) مسألة في المراد بقوله تعالى: ﴿عَهْدَ اللهِ﴾ خمسة وجوه: الأول أنه ما ركّب في عقولهم من أدلة التوحيد والعدل وتصديق الرسل وما احتج به لرسله من المعجزات الشاهدة لهم على صدقهم ، ونقضهم لذلك تركهم الإقرار بما قد بينت لهم صحته بالأدلة. الثاني أنه العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب في التوراة من اتباع محمد ﷺ والتصديق بما جاء به من عند ربه ، ونقضهم لذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وكتمانهم ذلك عن الناس بعد أن أخذ الله ميثاقهم ليبينوه للناس ولا يكتمونه وأنهم إن جاءهم نذير آمنوا به ، فلما جاءهم النذير ازدادوا نفورا ونبذوا العهد وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً، اختار هذا الوجه ابن جرير الطبري. الثالث أنه وصية الله إلى خلقه على لسان رسوله ﷺ بما أمرهم به من طاعته ونهاهم عنه من معصيته ، ونقضهم لذلك تركهم العمل به. الرابع أنه العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذر كما ورد في القصة ، وهذا الوجه ضعيف لأنه لا يجوز أن يحتج على عباده بعهد لا يذكرونه ولا يعرفونه ولا يكون عليه دليل. (مجمع البيان١/٩٩) (جامع البيان١/١٤٣ - ١٤٤) (المحرر الوجيز١/١١٣). الخامس أنه ما ضمنه الله تعالى في الكتب المنزلة وعلى ألسنة أنبيائه من أمره بطاعته ونهيه عن معصيته وإفراده بالعبادة. ذكره أبو حيان في (النهر الماد ١/٩١) قال ابن جرير: وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك قول من قال: إنه العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب في التوراة من اتباع محمد ﷺ والتصديق بما جاء به من عند ربه فهذه الآيات نزلت في كفار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ وما قرب منها من بقايا بني إسرائيل ومن كان على شركه من أهل النفاق .... وانظر: (جامع البيان ١/١٤٣ - ١٤٤).

قاسوه في هذه الدار من امتحان يعلو الباطل الحق في كثير من الأمر في هذه، وعقبى الدار فيما هنالك الحظوة والجاه لدى العلي الأعلى، ودخول الجنة هم وأزواجهم وذرياتهم، يجمع بعضهم إلى بعض، يرفع الأدنى إلى الأعلى، إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾ [الرعد:٢٧] بين في هذه ما أشكل في نظيرتها التي في صدر السورة.

ولما نسق جل ذكره ذكر آيات الكتاب المبين في الوجود في صدر السورة ختم ذلك بالتعجيب من طلبهم آية على صدق ما أنبئهم به، ثم لما نص بقوله الحق على أنه الواحد القهار، خالق كل شيء، رب كل مذكور وآلهة، لا إله سواه، وضرب لتحقيق ذلك مثلاً أخذ فيه بأطراف الكلام المشتملة على حقائق الحق المطلوب.

وذكر جل ذكره أولي الألباب الذين منحهم الله الفكرة والنظر إليه بالمشاهدة عجب أيضًا من طلبهم آية على صدق ما جاءهم به، وقد أحاطت بهم الآيات حتى أغشتهم أنوارها وأصمت أسماعهم ضوضاء الشواهد بأداء شهاداتها، فأجابهم بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧] هداهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه السبيل لو اهتدوا، وفتح لهم الباب لو دخلوه عرفهم بالمنيبين إليه.

يقول جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] [الرعد:٢٨] الإنابة وصف لمعنى من معاني المحبة، ومن أحب شيئًا

---

(١) ذكر الإمام في بيان اطمئنان القلب بذكره تعالى وجوهًا، فقال: إن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يتأثر، ومتأثر لا يؤثر، وموجود يؤثر ويتأثر. فالأول: هو الله تعالى. والثاني: هو الجسم، فإنه ليس له خاصية إلا القبول للآثار المتنافية والصفات المختلفة. والثالث: الموجودات الروحانية، فإنها إذا توجهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلة للآثار الفائضة عليها منها، وإذا توجهت إلى أعلام الأجسام اشتاقت إلى التصرف فيها؛ لأن عالم الأرواح مدبر لعالم الأجسام، فإذا عرف هذا فالقلب كلما توجه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليه والتصرف فيه، وإذا توجه إلى مطالعة الحضرة الإلهية وحصلت فيه الأنوار الصمدية فهناك يكون ساكنًا مطمئنًا، وأيضًا إن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى أمر آخر أشرف منه؛ لأنه لا سعادة في عالم الجسم إلا وفوقها مرتبة أخرى، أما إذا انتهى إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأنوار =

أكثر ذكره وسكن إليه، ولا محبوب كهو ﷻ، والمحب طائع لمحبوبه من طالب لما يرضيه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٢٩ - ٣١].

لذلك وصل بذلك قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ﴾ هو المرجع وقرئ ﴿وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ [الرعد:٢٩] بالنصب للنون على معنى: يا طوبى لهم، يا حسن مئاب.

قيل: إن طوبى في الفرح وقرة العين.

وقيل: الجنة نفسها بلغة الهند.

وقيل: هي شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ وفي كل دار لأمته منها غصن تنفتق لهم عن لباس وطعام وجميع ما يشتهونه.

قال ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**»[1].

=

القدسية ثبت واستقر فلم يقدر على الانتقال من ذلك ألبتة؛ لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منه وأكمل، وأيضًا إن الإكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهبًا باقيًا على ممر الدهور، صابرًا على الذوبان الحاصل بالنار، فإكسير نور الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلبه جوهرًا باقيًا صافيًا نورانيًا لا يقبل التغير والتبدل، ولهذه الأوجه قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تفسير الألوسي (٩/٢٦٥).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨١) والترمذي (٢٧١٥) وأحمد (١٠٣٢٨) والطبراني في «الأوسط» (٢٦١٩).

وقال ﷺ: «**في الجنة شجرة لو ركب شابٌ حقَّة ثم دار بأصلها ما بلغ موضعه الذي بدأ منه حتى يموت هرمًا**»[١] فافهم هذه، والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ...**﴾ كاف «**كذلك**» للتشبيه، وذلك مشار إليه مقصود بالإخبار عنه لعله إلى بعض الوجوه في المثل الذي تقدم من إثبات الإلهية والوحدانية والنبوة، وذكر معنى العلم فيه، فإن العلم بالرسالة وما جاءت به من ذلك مشبه به، وأشار إليه بقوله جلَّ قوله: ﴿**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ**﴾ وحذف جل ذكره «قد أرسلنا إليهم» فمنهم من آمن فأتيناه أجره في الدنيا والآخرة، ومنهم من كفر وصد عنه فأهلكناهم ﴿**لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ هو القرآن ﴿**وَهُمْ**﴾ يريد الأمة التي أرسل إليهم ﴿**يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ**﴾ يقول ﷻ: ﴿**قُلْ**﴾ أنت يا محمد ﴿**هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد:٣٠].

والأوجه والله أعلم: أن ينتظم قوله: ﴿**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ**﴾ [الرعد:٣٠] فيهم بمعنى قوله: ﴿**قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾ [الرعد:٢٧] وقوله جلَّ قوله: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ [الرعد:٧] وينتظم ذكر الهداية بمثلها فيما تقدم، وذكر الرسالة بذكر الرسل قبله.

فصل

عجب الله سبحانه من كفرهم بالرحمن، وفيه ضرب من الجدل كما قال جلَّ قوله: ﴿**وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾ [الأنبياء:٣٦] [....][٢] أي: يذكرون الرحمن عز جلاله بما يستحيل في نعوت جلاله كما قال: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام:١٠٨].

ومن التعجيب بكفرهم بالرحمن جل ذكره: إنه من حيث هو الرحمن ذو الرحمة الواسعة، من لدنه جميع نعم النفع والدفع، يجمع الكلاءة والكفاية والحفظ

---

(١) أخرجه الطبري (١٥٥١٥).

(٢) كلام غير واضح في (غ) وليس في (ف).

والحراسة والتربية والحفاية كلها، ومعاني الخلقة والإحسان والإجمال في الأمر كله والوجود أجمعه.

ومن أعجب العجب: الكفر بما هو منه هذا، وما هو أعم وأكبر من إيجاد أنفسهم وأنفاسهم وأغذيتهم والقيام عليهم بشأنهم كله وبما هو المستوي على العرش سوى الجملة حياة وعلمًا ومعرفة وخشية له وخوفًا، وفي إقامته آية ذلك خلقه آدم من صلصال كالفخار سواه بذلك خلقة وعلمًا، ثم نفخ فيه من روحه سواه بذلك حياة وصفات وأسماء، وكان بذلك لا يعزب عنه عن آدم من جملته ونفسه قربًا وعلمًا وحسًّا ووجودًا، فكذلك الجملة كاستواء الرحمن على العرش، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض.

قال الله ﷻ: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات:٢١].

﴿**وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [الجاثية:٤] فكيف لا يعظم التعجب من كفر من كفره.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي**﴾ أي: قل يا محمد أو يأيها التالي: هو ربي ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد:٣٠] فإذا تاب هذا العبد إلى ربه الرحمن عز جلاله استخصه فاجتباه واستخلصه وانتخبه وتولاه، فوصل له مقتضى اسمه الرحيم بمقتضى اسمه الرحمن في الدنيا والآخرة.

قال الله ﷻ: ﴿**يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾ [طه:٤٠ - ٤١] فإذا كان ذلك كذلك قال الله جل ذكره للنفس المطمئنة: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي**﴾ وفي أخرى: «**في عبدي**» يعني وهو أعلم بما ينزل: في مثاله الذي له ﴿**وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

قال الله ﷻ: ﴿**نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١] ثم نلحقهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة بدرجة النسبة إليه عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، فتارة يقول: ﴿**يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ [الزخرف:٦٨] أي: في الدنيا ﴿**وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر:٣٠] أي: في الآخرة وبعد الموت، فمرة نسبهم إليه عز جلاله بقوله: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ...**﴾ [العنكبوت:٥٦]

ونحو هذا في الدنيا وهذا في الآخرة.

تارة يعبر عن هذا التقريب والتخصيص بقوله جلَّ قوله: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها...**»(١).

وتارة يعبر عن ذلك بقوله: «**ابن آدم، مرضت فلم تزرني، وجعت فلم تطعمني، وعريت فلم تكسني**» إلى قوله تعالى: «**أما إنك لو فعلت ذلك بعبدي ففعلته بي**»(٢).

واعلم - وفَّقك الله - أن هذا التقريب ليس ممازجة، ولا بحلول هو ما عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**مولى القوم منهم**»(٣) ألا تراه متى وصفه بطاعته والرضا عنه أضافه إليه ونسبه إليه بالولاية والحفاية والتقريب، وإذا وصفه من حيث هو نسبه إلى أصله وأضافه إلى محتده، كذلك مولى القوم ينصرهم وينصرونه، ويحالفهم ويحالفونه وهو منهم، في عداد ذلك قال رسول الله ﷺ: «**أنت أخونا ومولانا**»(٤) كذلك متى انتمى إليهم تعرف بهم، وهو إذا رجع إلى نفسه لم يدع إليهم، ولا اتصف بأنه من محتدهم.

قال رسول الله ﷺ: «**من ادعى إلى غير أبيه وانتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً**»(٥) [فبمنافاة](٦) الانتماء اشتد الوعيد، فافهم.

لذلك وهو أعلم أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَو كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى**﴾ [الرعد:٣١] يقول جلَّ قوله: يسألونك أن تأتيهم بآية ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا...**﴾ الراجع إليه القرآن، وضمير قوله: «به» هو القرآن،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٦٥٧) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٢٦١٢)، والحاكم (١٤٦٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (١٣٠٢١)، والطيالسي (٩٧٢)، وأحمد (٢٣٩٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، وأحمد (٩٤٣)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٠١)، والبيهقي (٢٠٨١٦).

(٥) أخرجه البخاري (١٧٧١)، ومسلم (١٣٧٠)، وأحمد (٦١٥)، والترمذي (٢١٢٧)، وأبو يعلى (٢٦٣)، وأبو عوانة (٤٨١٦)، والبيهقي (٩٧٣١).

(٦) كلمة غير واضحة في (غ) وليست في (ف).

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ [الرعد:٣٠] بعد ذكر اسمه الرحمن عز جلاله قد تقدم أنه القرآن العظيم، ومتى حل هذا الذكر العظيم قلبًا وغلب عليه فقليل له أن تُسير له الجبال أو تُقطع له الأرض، وبما كان معنى تقطع له الأرض: تطوى له الأرض، أو يكون يكون على ظاهره كل على الله يسير، أو يكلم به الموتى، فكذلك قال عز من قائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا...﴾ [الحشر:٢١] إلى آخر السورة، فأشار جل ذكره إلى الثلاث الآيات إلى آخر السورة.

وقد جاء من طريق يقطع بصحته أن رسول الله ﷺ صعد أُحدًا هو وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «**اسكن فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»(١).

وجاء أن إبراهيم بن أدهم كان قاعدًا على جبل من الجبال مع بعض أصحابه فكلمهم في مثل هذا المعنى وقال: إن من عباد الله من لو قال للجبل: «تحرك» لتحرك له، فرجف الجبل، فقال له: «اسكن، فإنما هو شيء ذكرت به أصحابي» فسكن.

وقد سخرت الجبال لداود يُسبِّحن بالعشي والإشراق، وقد اكتنفت قصة إبراهيم بن أدهم شواهد القرآن، فأقل درجتها أن تكون في حيز الإمكان.

أتبع ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿بَل لله الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل للإضراب، وذلك في المقدر المخزول من الخطاب تقديره: لكان هذا القرآن أو ما نحا نحو هذا وكان في معناه، وقيل: إن تقدير المحذوف: «ما آمنوا به» ويؤيد هذا التأويل قوله ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام:١١١] فأضرب جل ذكره بحرف «بل» عن المعنى الذي تضمنه حرف «لو»، وهو امتناع وجود تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى به ما لم يشأ الله ذلك، وبقي وجوب وجود ذلك كله مع وجود المشيئة من الله جل ذكره.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] قيل: هو بمعنى العلم، يأيس: يعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٩)، والترمذي (٣٧٠٣) وقال: حسن. والنسائي (٣٦٠٨).

وقيل: هي لغة النخع.

وقال بعض أهل اللغة: معناه: أفلم يعلم الذين آمنوا علمًا ييئسون معه أن يكون غير ما عملوه.

وفصل الخطاب في ذلك، والله أعلم أن معناه: أفلم ييئس الذين آمنوا عن إيمان من لم يشأ الله الإيمان منه، أو لم يعلم الذين آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعًا، ويقال بهذا النوع من الخطاب الموجز، وقد تقدم ذكره في سورة هود.

وقال بعض أهل العلم: للقرآن ظهر وبطن، وحد ومطلع، فظهره جليُّه وبطنه خفيُّه، ومطلعه ما خزل منه اكتفاءً بما أوجز فيه منه، فمذكوره يدل على معنى، والمخزول منه يشير إلى معنى، وهو كثير في القرآن يجده من عُني به.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**أوتيت من الحكمة ومثله أوتيت من القرآن**»(١) والحكمة قد تكون القرآن ومعرفة تأويله وفهم معانيه، وهو أرفع الحكمة.

قال الله ﷻ: ﴿**يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...**﴾ [البقرة:٢٦٩].

ثم قال عز من قائل: ﴿**بَل لله الأَمْرُ جَمِيعًا**﴾ [الرعد:٣١] أي: في الهداية والضلالة، وقرأها ابن عباس: «أفلم يتبين الذين آمنوا» من البيان، وقال: إن الكاتب كتبها وهو ناعس. وكذلك قرأ عكرمة أيضًا، وعلى القراءة الأولى الجمهور الأعظم(٢).

﴿ **وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ**

(١) اضطراب في نص الحديث في الأصل، وأخرجه أحمد (١٧٢١٣)، وأبو داود (٤٦٠٤)، بلفظ «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه».

(٢) أكثر أهل اللغة على هذا القول وممن قال به أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة. [معاني القرآن للنحاس (٣/٤٩٧)].

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٢ - ٣٥].

قوله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] هذا خطاب راجع معناه إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد:٣٠] خزل آخر القول، وأوجز في الخطاب والمخزول منه معنى التعجب من ذلك، وهو من الموجز المخزول آخره.

يقول عز من قائل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(١) [الرعد:٣٣] يجهل شأنه أو يعبد غيره، أو يكفر أو يشرك به أو يرد أمره كقولهم: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان:٦٠] أو يكفر به، أو يرد أمره ويجعل له الأنداد والأولاد، ونتخذ من دونه الأولياء والشركاء، دل على هذا التوجيه قوله جلَّ قوله: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ﴾ فعطف جل ذكره بالواو ذكر شركهم على ذكر الجهل.

أتبع ذلك قوله جل ذكره: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:٣٣] هذا أيضًا مخزول معناه، وهو مطلع يشرف منه على حقائق لو شطرت من قرآن عظيم وكتاب حكيم لكانت مصحفًا كالقرآن أو ما يقاربه؛ إذ هو كلام الله جل ذكره يعبر عن أسماء لله وصفات إلى ما ينفصل منها من أوصاف له وأفعال، ومصانع مخبرة عن قدرته شواهد لوحدانيته، معبرة عن ألوهيته وربوبيته ورحمانيته، ناطقة بتسبيحه وتحميده، قائمة بأمره على سنن فطرته، قانتة له، خاضعة لعظمته، صامدة إليه، صاغرة لكبريائه، عانية

---

(١) استفهم سبحانه استفهامًا آخر للتوبيخ والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار، واستركاك صنعهم والإزراء عليهم، فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ القائم: الحفيظ والمتولي للأمور، وأراد سبحانه نفسه، فإنه المتولي لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، والجواب محذوف؛ أي: أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضرّ. قال الفراء: كأنه في المعنى: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله، والمراد من الآية: إنكار المماثلة بينهما، وقيل: المراد بمن هو قائم على كل نفس: الملائكة الموكلون ببني آدم، والأوّل أولى. فتح القدير (١١٤/٤).

لقيوميته، خاشعة لعظيم سلطانه وعلي شأنه، فقيرة إلى ما لديه، ليس لها من ذواتها غنى، ولا عنه غنى إلى ذلك اختصاصه المختصين من أوليائه وإنباؤه الأنبياء من صفوته، وإرساله الرسل من ملائكته وعباده، وإنزاله الكتب، وإيجاده وحيه على مراتبه، وكيف شاءه بمشيئته إلى من شاء من عباده.

يتبع ذلك الأمر والنهي والوعد والوعيد والنذارة والبشارة، وصدق الكلمات وإتمامها على سبيل سننه التي لا تبديل لها ولا تحويل، وإظهاره المعجزات عن القدرة العالية [....][1] العلي، وإلى وجوده الحق الذي إليه المصير في دار البرزخ ويوم النشور، ثم في دار القرار، ثم مرورهم على وفق كلمته.

يتبع ذلك إيجاد النعماء وظهور الآلاء [....][2] الإنباء عن ذلك والإخبار عنه في الأرض وفي السماء، ومرور أيامه بالنقمات والمثلات في أعدائه والنصر لأوليائه، وحسن العقبى في الدارين لأوليائه، إلى غير ذلك من إظهار مقدوراته ومضاء مشيئاته على وفق ما سبق من ذلك في علمه السابق، وتقديره الأول الأزلي ﷻ: قل لهم يا محمد سموهم، والخطاب لمحمد ﷺ خطاب لمن بعده من علماء أمته.

يقول جلَّ قوله: هل خلقوا السماوات والأرض وما بينهما وهم الخالقون؟ هل بأيديهم خزائن السماوات والأرض يقسمونها في المدن؟ وهل هم الرازقون؟ هل يحيون أم يميتون فهم المحيون المميتون؟ هل بأيديهم يملكون كل شيء فهم المالكون؟ هكذا إلى آخر الأسماء والأفعال، والتدبير على التقدير الأول: فلا بد لهم من قول لا يجاوبهم على ذلك، أيشركون مع الله ﷻ في ملكه وملاكوته وسلطانه ما لا يخلق ولا يرزق ولا يملك وهم يخلقون ويملكون؟ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

ثم قال عز من قائل: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:٣٣] ما لا يعلمه الله ﷻ فليس بكائن، ولا يجوز كونه على حال إذًا لا بد من ذلك.

---

(١) بياض في (غ) وطمس في (ف).

(٢) بياض في (غ) وليس في (ف).

قال جلَّ قوله في غير هذا الموضع: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ...﴾ [الفرقان:٥٥].

يقول ﷻ: ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ [الرعد:٣٣] عليه يعتمدون وإياه يرجون ويحذرون وله يدينون.

ظاهر القول على هذا هو تسميتهم الآلهة بأسماء لا توجد حقائقها في ذواتها كاللات والعزى ومنات ويغوث ويعوق، ليس لهن إلّ ولا عندهن عز ولا غياث ولا عوق، فهذا هو ظاهر من القول ليس كأسماء الله سبحانه التي توجد حقائقها لديه، وفي جلي وجوده ظاهرة وباطنة ملأت حقائقها السماوات والأرض، وقامت عليها الدنيا والآخرة وما علا وما سفل وما هو كائن وما ليس بكائن أبدًا؛ لذلك يعلو بأهلها عليون في آباد الآخرة في علائه، ويسفل بأهل السافلين إلى أسفل سافلين في تكوين وتحذير لهؤلاء وهؤلاء، يقول ﷻ: أم بظاهر من القول تدينون أنفسكم بما لا حقيقة له ولا معنى صحيح صادق يرجع إليه، أرضيتم بهذا لأنفسكم، تتعبدون لأسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان؟.

ثم قال عز من قائل: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم سبيل الإسلام، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣] يقول عز من قائل: الأمر كما يظن به إنما زين لهم مكرهم فمكروا؛ لنمكن بهم على مكرهم، وتلك إرادتنا فيهم ليصدوا عن سبيلنا، وتتم كلمتنا السابقة منا فيهم، أخبر جل ذكره في هذه عن وحدانيته ورجوع الأمر كله إليه، وعجب من عظيم اقتداره على صرفه إياهم عن عوائد فطرتهم المستكنة في ذواتهم وأخذه بأنفسهم عنها بمعنى منه، فاستقاهم عن مرادهم إلى مراده بهم وفيهم، سبحانه وله الحمد.

۞ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ
قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ
حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ
﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرعد:٣٦ - ٣٩].

قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦] ويفرحون بما أنزل على محمد ﷺ آمنوا بالكتاب الذي أنزل إليهم، ثم آمنوا بهذا القرآن.

قالوا: هم عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، وكان هؤلاء يوم أنزلت هذه السورة على دين آبائهم في خيبر والمدينة، وكان إنزالها بمكة، والذي يعم هؤلاء وهؤلاء هم الذين آتاهم الله كتابه وأورثهم إياه وأفهمهم وحيه، فأطلعهم بذلك على ما خفي على سواهم كثير مما أنزل على رسوله، فهم الذين يفرحون بما آتاهم الله من فضله، دل على هذا التوجيه قوله جلَّ قوله: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد:٣٦] ولو عنى بذلك الأحزاب الكفرة لقال من ينكره: وإنما أنكر بعضه قوم من فرق الإسلام أنكروا كثيرًا من معانيه، وهم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وإن كثيرًا من فرق المسلمين لمن ينكر ما لم يبلغه علمه منه، وذلك أكثره.

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ [الرعد:٣٦] أي: على ما علمت من وحيه وكتابه وما لم أعلم، كما قال المرضيون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

﴿وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَئَابِ﴾ [الرعد:٣٦] أرجع جل ذكره وجه الخطاب على المشركين.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨] كما قال جلَّ قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ القُرَى﴾ [يوسف:١٠٩] ومثله كثير، أعلم بأن هذه سنته أنه لا يرسل إلى البشر إلا بشريًا كما قال جل وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥] لحكمة بالغة له جل ذكره في ذلك.

قال جل وعز: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان:٢٠] ووعظ جل وتعالى بذلك عباده أنه أرسل الرسل وجعل لهم الأزواج والذرية، ولا بد من غنى ومن فقر، ومن بلاء ومن عافية، ومن هداية في ذريتهم وأممهم ومن ضلالة، فلا تشغلهم الأزواج والذرية ولا الفقر ولا الغنى عن طاعة ربهم، ولا ركنوا إلى ذلك دونه، ولا التفتوا إلى الأولاد والأزواج على المعهود من الحرص على إصلاح الأهل والولد في الدين والدنيا، بل صمموا إلى ما أرسلوا إليه وقصدوا لما وجهوا له، وهذه سبيلهم فبهداهم اقتده، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله وحده، رجع الكلام إلى أوله.

يقول جل من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ هذا منتظم بما تقدم من سؤالهم الرسول أن يأتيهم بآية، وذلك لا يكون إلا بإذن من الله جل ذكره، ثم قال جل ذكره: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] وجاء العلم في الكتاب الأول الذي هو مكتوب علمه المحيط، وفي هذا من الفقه أن رسولاً لا يكلف عن قوله الحق الإتيان بآية شرطية، بل يتابع على ما أوحي إليه، ثم في أثناء ذلك تبدو آياته.

ومعنى قوله جلَّ قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] قد تقدم أن كل كتاب له أجل، فالمعتقد الحق إن شاء الله تعالى أن الله ﷻ قال للقلم: «اكتب علمي في خلقي» فهذا الكتاب هو المحيط بما في الكتابين من دونه الذي أحدهما: قال جلَّ قوله: «اكتب ما هو كائن»، والآخر: «اكتب المقدار» فذلك الكتاب الأول هو أم لهذين بما يخرج.

قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ على هذا؛ أي: يثبت بما في الكتاب الأول الذي هو مكتوب علمه المحيط في الخليقة أجمعها، وقد يتوجه أيضًا أنه يمحو من الكتب الثلاثة ما يشاء وكيف يشاء ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] أي: عنده العلم الذي هو صفة ذاته، وهو أم الكتاب على الحقيقة، دل على صحة هذا التوجيه قوله جلَّ قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فالمحو والإثبات موجود عن مشيئة لما قد يسبق في علمه أنه يمحوه أو يثبته، ومشيئته أم لكل محو وإثبات ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٠ - ٤٣].

قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد:٤١] اختلف في معنى هذا، وفصل الخطاب فيه والله أعلم: إن المراد بذلك: ما انتقص الله ﷻ من أطراف أرضهم كأرض عاد وثمود ومدين والمؤتفكات وغيرهن بالإهلاك والتدمير، ولم يكن العلماء يومئذٍ موجودين كما ذكروا أنهم العلماء، ولا كان ظهر تغلب الإسلام على بلد من البلاد، وهذه السورة مكية.

وأما نظيرتها من سورة الأنبياء قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٤] فعبارة عن حال الإسلام يومئذٍ في اقتباله وشبابه، فكانت الأرض تنقص من أطرافها بأخذ المسلمين إياها يقول الله جلَّ قوله: فهلا أقاموا ذلك آية لهم على غلبة الإسلام على من يليه، دل على هذا التأويل قوله جلَّ قوله: ﴿أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ فكان فحوى الخطاب من ذلك إنذارًا بما هو كائن اليوم، فإنه سيكون المقتبل مدبرًا والشباب هرمًا كما قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[1].

ثم عرض جل ذكره إلى معنيين بقوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١] يعرض بمعنى قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلله المَكْرُ جَمِيعًا﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

[الرعد:٤٢] المكر فعل في اختفاء عن الممكور به يراد به السوء والإذاية، فجزاء الله جل ذكره إياهم على ذلك هو المكر منه، وهو أن يذرهم في طغيانهم يعمهون، ولما زيَّنه لهم الشيطان - لعنه الله - لا يتداركهم منه بتوبة ولا ندم، سمى الله جل ذكره هذا الفعل منه بهم وشبهه مكرًا؛ لقصدهم البغي والفساد، كما سمى الله القصد باسم المقصود به، والفعل باسم المراد بذلك الفعل كذلك سمى القصد منه إلى تسوية السماء سبع سماوات استواء، وسمى فعله المقصود تسوية الجملة خلقًا وأمرًا استواء، كذلك سمى الجزاء على المكر منهم مكرًا منه، وهو تركه إياهم في عمه ضلالهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا وهم الأخسرون أعمالاً ولا يشعرون.

عبر عن ذلك تعريضًا به قوله جلَّ قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٤٢] أي: عقبى دار الدنيا، ومتى أطلق اسم العاقبة فظاهره أن المراد به الخير؛ كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢] ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] فعقبى دار الدنيا لمن آمن ما في الجنة إن شاء الله تهديد ووعيد، وعقبى الدار خير الدار الآخرة ذلك هو عقبى الدار الدنيا، والجنة عاقبتها، والعاقبة إذا أطلق لفظها فهو الخير.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] ألا تسمع إلى قوله ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[1] [الرعد:٤٣] لما كذبوا رسالاته وشكوا فيها طلبوا منه

---

(١) المراد من هذه الشهادة أنه أظهر المعجزات على وفق دعواه ولا شهادة أعلى من هذه الشهادة القولية منا لا تفيد إلا غلبة الظن وهذه تفيد القطع بصحة نبوته، ثم عطف على اسم الله قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ أي: الذي حصل عنده علم القرآن وفهم معانية واشتماله على دلائل الإعجاز من النظم الأنيق والأسلوب العجيب الفائت لقوى البشر، فمن علم هذا الكتاب على هذا الوجه شهد بأنه معجز قاهر وأن الذي ظهر هذا المعجز عليه نبي =

الآيات على صدق ما جاءهم به، وقد كان القرآن كافيهم لو عقلوا عنه وعلموا مأخذه وتقرءوا سبيل الإعجاز فيه.

قال الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ قد يكون المراد بقوله جلَّ قوله: ﴿الكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل والزبور، ويمكن أن يكون المراد بذلك: القرآن، فيكون المراد به: ومن عنده علم القرآن من أمته، فإنه من عَلِمَ علم القرآن وفقه فيه وعقل عنه مراد من له به علم من علم الكتاب المبين الفرق بين الرسول وغير الرسول، والنبي من المتنبئ، وعلم فرق ما بين الإعجاز والسحر والشعوذة، وهذا أولاً بفصل الخطاب، وحقيقة المراد والله أعلم بما ينزل معناه على هذا، والله أعلم ومن عنده تحقيق رسالته.

قال الله ﷻ: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦] وهذا خطاب راجع إلى معنى ما اجتلب من أجله الحروف المقطعة في أول السور، ثم ما وصل به في صدر السورة من ذكر خلق وأمر، وهذا أولى بنص الخطاب وحقيقة المراد، والله أعلم.

وعلماء أمته هم الشهداء له ولرسوله، ورواه عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ «وممن عنده علم الكتاب» أي: من عند الله ﷻ علمه، وقرأه مجاهد والضحاك وابن جبير والحسن وابن أبي عبلة واليماني وابن عباس «ومن عنده علم الكتاب» بضم العين وكسر اللام وفتح الميم، وهاتان القراءتان منتظمتان بمعنى قوله ﷻ: ﴿قُلْ

=

حق ورسول صدق، وعن الحسن وسعيد بن جبير والزجاج: أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، والمعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ إلا هو يعني الله جل وعلا شهيدًا، ويعضده قراءة من قرأ ومن عنده على من الجارة، واعترض على هذا القول بأن عطف الصفة على الموصوف بعيد لا يقال: شهد بهذا زيد والفقيه، وإنما يقال: زيد الفقيه، وقيل: المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري؛ لأنهم يشهدون بنعمته في كتبهم، والاعتراض بأن إثبات النبوة بقول الواحد والاثنين مع جواز الكذب على أمثالهما لكونهم غير معصومين لا يجوز. [تفسير النيسابوري ٤/٤٧٤].

كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد:٤٣] فإن كان ذلك كذلك فالخطاب متضمن معنىً واحدًا؛ وهو شهادة الله وحده وهو أكبر الشاهدين، والقراءة الأولى متضمنة معنيين، وهو أولى.

وقد قيل لابن جبير: سعيد الذي عنده علم الكتاب هو ابن سلام. فقال: كيف يكون ابن سلام والسورة مكية، وإنما أسلم ابن سلام بالمدينة.

تفسير سورة إبراهيم[1] عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ
رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ
(٣) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ
وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٤) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ
أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ (٥) وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ
ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ
أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ
(٦)﴾ [إبراهيم: ١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾[2] الألف خاصة الله تعالى من الحروف،

---

(١) سميت به؛ لاشتمالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام تمّت بهذه الملة كالحج وجعل الكعبة قبلة الصلاة مع الدلالة على عظمتها بحيث صارت من المطالب المهمة للمتفق على غاية كمال إبراهيم عليه السلام وعلى نبوة نبينا عليه أكمل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

(٢) هذه السورة مكية كلها في قول الجمهور، وعن ابن عباس وقتادة ، هي مكية إلا من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَى النَّارِ﴾ وارتباط أول هذه السورة =

والام معبرة عن الملك، والراء للإنباء والرسالة وما جاءت به، وقد تقدم أن هذه الحروف متوسطة بين حروف الكتاب المبين وبين حروف القرآن أنزله عز جلاله من علو ونزله تبيانًا وتقريبًا للأفهام يقول جل من قائل: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يقول: من ظلمات الكفر والتكذيب والجهل إلى نور الإيمان والإسلام لله وحده وإلى نور العلم والتصديق ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لا يؤمن أحد ولا يهتدي إلا بإذن من الله له في ذلك ورضا، فليبشر المؤمن نفسه، وليكن شكره لربه فلعله إن يتم عليه نعمته بأن يختم له بذلك.

أعقب ذلك من الأسماء بما صدق به ما توجه قبل إليه قوله عز من قائل: ﴿إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١] كمن أذن له في ذلك فليحمده ويشكره، ويجهد

بالسورة قبلها واضح جدًا؛ لأنه ذكر فيها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ ثم ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ثم ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ فناسب هذا قوله ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ وأيضًا فإنهم لما قالوا على سبيل الاقتراح ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أنزل ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ كأنه قيل: أو لم يكفهم من الآيات كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات هي الضلال، إلى النور وهو الهدى، وجوزوا في إعراب ﴿الر﴾ أن يكون في موضع رفع بالابتداء، وكتاب الخبر، أو في موضع رفع على خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه ﴿الر﴾ وفي موضع نصب على تقدير: الزم أو اقرأ الر، وكتاب أنزلناه إليك جملة مفسرة في هذين الإعرابين، و﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء به كونه موصوفًا في التقدير أي: كتاب أي: عظيم أنزلناه إليك، وجوزوا أن يكون ﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب، و﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ جملة في موضع الصفة، وفي قوله: أنزلناه، وإسناد الإنزال إلى نون العظمة ومخاطبته تعالى بقوله إليك، وإسناد الإخراج إليه ﷺ تنويه عظيم وتشريف له ﷺ من حيث المشاركة في تحصيل الهداية بإنزاله تعالى، وبإخراجه ﷺ إذ هو الداعي والمنذر، وإن كان في الحقيقة مخترع الهداية هو الله تعالى، والناس عام، إذ هو مبعوث إلى الخلق كلهم، والظلمات والنور مستعاران للكفر والإيمان، ولما ذكر علة إنزال الكتاب وهي قوله: لتخرج قال: بإذن ربهم، أي: ذلك الإخراج بتسهيل مالكهم الناظر في مصالحهم، إذ هم عبيده، فناسب ذكر الرب هنا تنبيهًا على منة المالك، وكونه ناظرًا في حال عبيده، وبإذن ظاهره التعلق بقوله: لتخرج، وجوز أبو البقاء أن يكون بإذن ربهم في موضع الحال قال: أي مأذونًا لك، وقال الزمخشري: بإذن ربهم بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق. [البحر المحيط ١٣٢/٧].

في ذلك نفسه، وليستعن على ذلك بالدعاء والتضرع إليه صراطه هو الإيمان والإسلام وعبادته على ذلك، وهو من الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو شجرة مباركة متصلة بحقيقة الحق في الدنيا والآخرة أصلها الألوهية، وأفنانها مقتضيات الأسماء والصفات التي تفصلت إليها في الوجود، ومعنى الإسلام: هو الاستسلام وحده؛ بمعنى: هذا المطلوب بها التوحيد ثمرتها التقوى والمغفرة، وجناها ما تفرعت إليه مقتضيات الأسماء، والنور درجات أول درجة منه موجود قول: «لا إله إلا الله» على الكلمة والإيمان بها والعمل، وهو موضع قوله جلَّ قوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فما استصحب العبد ذلك فهو على نور وخير، إن هو وافى على ذلك، لكنه بعد لم يصل، بل هو في ظلمة غفلته، ثم هو مكلف بعد هذا أن يترقى في درجات الإيمان.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾ [النساء:١٣٦] فأمرهم - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - أن يؤمنوا بعد أن آمنوا بالله ورسوله؛ ليزدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم، فلأهل الإيمان ظلمة هي الغفلة، فإذا تذكروا أبصروا، وإذا أبصروا آمنوا، وإذا آمنوا سارعوا، ومن تذكر وجد، ومن سارع سورع إليه، فكان وصوله على قدر إسراعه وسباقه، وذلك يسرع بهم إلى الصراط المستقيم صراط.

﴿الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢] وذكر جل ذكره السماوات والأرض؛ لشياع وجود الحق فيهن، واتصال ذلك بفطرة الإسلام التي فطرهن عليها، وهي موضع صبغته الذوات ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨] وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأعلى هذا الصراط هو النور المبين والحق اليقين إليه المنتهى، واعلم - وفقنا الله وإياك - أن التدبر في الكتاب والنظر في الوجود مع العبرة من شاهد إلى غائب هو الطريق إلى ذلك.

قال الله عز من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

وقال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] ما خلقناهما إلا بالحقولكن أكثرهم لا يعلمون وما خلقنا السماء

والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا كما قال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ...﴾ [المائدة:١٥] فأدنى الإسلام نور وما بطن منه إيمان وما علا فهو نور مبين.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:٢] إلى قوله: ﴿عِوَجًا﴾ [إبراهيم:٣] هو الدين القيم، والعوج فيه على قدر الخلاف عنه.

﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ﴾ عن الدين القيم والصراط المستقيم ﴿بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم:٣] أخبر الله سبحانه أن محبة الدنيا لأجل الدنيا من أعظم الذنوب، وهو تفضيلها على الآخرة وتقديمها في محبة القلوب عليها، والرضا بها والاطمئنان إليها، فليسمع من له أذن سامعة قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم:٤] انتظم هذا بقوله الحق: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [ص:٢٩].

كما انتظم بها قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم:٥] المعنى: يقول كذلك أرسلنا إلى موسى كما أرسلناك ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٤] المراد بالرسول والرسالة: التبليغ، فييسر الله جل ذكره ذلك؛ لتبين الذي جاءوا به إلى الأمم، فإذا تبين لهم فأعرضوا عنه استحقوا الهلاك.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيّنا لهم التبليغ إليهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى...﴾ [فصلت:١٧].

ثم أتبع ذلك ما هو في معناه؛ قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾ وهي دوائر نعمه ونقمه هذه أيام الله في عباده من هذه الجهة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] أي: إن في ذلك آيات الله جل ذكره آيات على عذاب الآخرة ونعيمها لكل صبار على بلائه شكور على نعمائه.

فصل

قال الله ﷻ لموسى ﷺ: أخرج قومك من الظلمات إلى النور، وقد كانوا قبله أهل إيمان ووراثة نبوة عن آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه - على

جميعهم صلوات الله وسلامه - فإذن ظلمتهم تلك إنما هي كانت عن الغفلة، فأخرجهم الله ﷻ به إلى الولاية ووراثة النبوة والحكمة والكتاب؛ أما النبوة والكتاب فهما معًا، والحكمة هي الوقوف بالعلم، واليقين على معرفة الحق المخلوق به السماوات والأرض، فإنه من تدبر ما جاءت به الرسل من وحي وكتاب، فتح الله له في ذلك إلهامًا ووحيًا إلى سره.

ومن تعرف الحق المخلوق به السماوات والأرض المذكور أورثه ﷻ الحكمة في قلبه، وإنما يجري العبد من حيث طلب ربه، ويسرع إليه ربه في إتيانه إليه من حيث أسرع إليه، وهذا الحق هو علم الله من حيث هو، وعن مقتضيات أسماء الله وصفاته أسلكها - جلَّ ذكره - في العالم مسالكها علوًّا وسفلاً، وأجراها مجاريها ظهرًا وبطنًا، وهو نور من أجل أن الصفات والأسماء متصلة بالمسمى الموصوف، كما اتصلت المفعولات بها، ودلت عليها دلالاتها هي على المسمى بها، والموصوف وهو صراط الله من حيث هو مسلك عباده إليه بالعلم ثم بالعمل، وهي شرائع ومناهج بمعنى ما تقدم.

قال رسول الله ﷺ: «**إن بين يدي الرحمن للوحًا فيه ثلاثمائة وأربعة عشرة شريعة، يقول الرحمن ﷻ: وعزتي وجلالي لا يأتي عبد من عبادي ما لم يشرك بي شيئًا بواحدة منهن إلا أدخلته الجنة**»[1].

وقال أيضًا ﷺ يومًا وقد كثرت عليه المسائل: «**أيها الناس، إن لكل سبيل مطية وثيقة ومحجة واضحة، وأوثق الناس مطية وأحسنهم دلالة ومعرفة بالمحجة الواضحة أفضلهم عقلاً**»[2] وكم من عاقل عقل عن ذكر الله - جلَّ ذكره - أمره، وهو حقير عند الناس حقير المنظر ينجو غدًا، وكم من ظريف اللسان جميل المنظر عند الناس يهلك غدًا عند الله.

رجع الكلام واتساق جلَّ ذكره اسم العزة في قوله: ﴿**إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [إبراهيم:١] لما في الأسماء من أسماء الرحمة والحنان والمغفرة والعفو

---

(١) ذكره الحكيم (١/٢٩٠).

(٢) أخرجه الحارث (٧٩٨).

والكرم والفضل، ولما فيها من أسماء العدل والابتلاء والامتحان، فهو العزيز المنيع، لا يُنال ما عنده إلا بفضله، ولا يُنجا من عذابه إلا بعفوه ومغفرته، وهو المجازي على طاعته ومعصيته، وهو الحميد على كل حال.

قوله ﷻ: ﴿الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢] عرَّف عز جلاله بنفسه الذي اسمه العزيز الحميد، وأوجد الموعود به والمحذور في السماوات والأرض، أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:٢] ويتعرف أيضًا من قوله هذا جل قوله الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما من مقتضيات أسماء له وصفات وشواهد على موجودات الآخرة، ودلائل غيب مخبوء في غيابات الغيب من فقه عن الله، بل ذكره حكمته في مصنوعاته، وما خلقها به تميزت له الدنيا من الآخرة، فليؤثر بعدها أيتهما شاء فمن آثر الدنيا على الآخرة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦] حبها على الآخرة هو الضلال البعيد بنصِّ قول الله جل ذكره، قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [إبراهيم:٦] هذا من تعديد أيام الله.

كذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ

ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم:٧ - ١٠].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] [إبراهيم:٧].

قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم:٩] معناه، والله أعلم: أسكتوا أفواه الرسل - عليهم السلام - عن التبليغ إلى أممهم بالأيدي منهم؛ إما بالضرب والإخافة، وبسط الأيدي إليهم، والألسنة بالسوء وبما الله به أعلم.

وقد يكون معنى قوله: ﴿رَدُّوا﴾ بمعنى الترداد منهم والتكرار بأيديهم للإسكات، وقد أوذي رسول الله ﷺ؛ منعوه من التبليغ عن ربه ﷻ، فكان يعرض نفسه على القبائل في المواسم، فيقول: «**مَن يجيرني؟ مَن ينصرني حتى أؤدي رسالة ربي؟**»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**لقد أوذيت في الله وما يؤذى في الله أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد**»[3] ونحو هذا جاء عن من قبله من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩] الشك من ذواتهم في حقيقة ما يخبرونهم به من أن الله واحد لا شريك له ومريب من الارتياب في صحة صدقهم في إضافتهم الرسالة إلى أنفسهم، والتبليغ عن الله جلَّ ذكره.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله، وأوسع لهم من الرزق، وأظهرهم على العالم. وابن جرير عن الحسن: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: من طاعتي. وابن المبارك وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» عن عليّ بن صالح مثله. وابن جرير وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في الآية قال: لا تذهب أنفسكم إلى الدينا؛ فإنها أهون عند الله من ذلك، ولكن يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من طاعتي. فتح القدير (١٣٣/٤).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٤٨٣٠)، والبيهقي (١٦٩٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٠٨٧)، وعبد بن حميد (١٣١٧)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٦٦)، والترمذي (٢٤٧٢) وقال: حسن غريب. وابن ماجة (١٥١)، وابن حبان (٦٥٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٥٠/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٣٢)، والضياء (١٦٣٤).

قالت الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ردوهم - صلوات الله وسلامه عليهم - إلى اسم الألوهية المتفق على معرفته، وإلى الفطرة التي فطرهم، والسماوات والأرض عليها وما بينهما ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

وصلوا بذلك صلوات الله عليهم قولهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم:١٠] ليست «مَن» هنا زائدة لا معنى لها كما زعم قوم، ولا هي للتبعيض كما زعم الغير، بل هي لاستغراق الجنس كما قال رسول الله ﷺ: «**الإسلام يهدم ما كان قبله**»[١] وهي بمثابتها في قوله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾ [ص:٦٥].

أترى - عفا الله عنا وعنهم - لو يجوز القول بالتبعيض في هذا وبالخطاب، وإنها زائدة لا معنى لها، ليس قول القائل: «ما من إله إلا الله» أبلغ وأحق حقيقة في التوحيد من قول القائل: «ما من إله إلا الله» فإنما جاءت ها هنا «مَن» لاستغراق الجنس من الإلهية الباطلة المتخذة من دون الله سبحانه وله الحمد، ويجوز أن يقدرها هنا محذوف، فيكون تقدير الكلام: يدعوكم ليغفر لكم ويطهركم من ذنوبكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ
ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم
مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ
وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١)، وابن خزيمة (٢٥١٥).

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ [إبراهيم:١١ - ١٧].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١] هذا تنبيه لهم على خصوصية الله سبحانه من يشاء من عباده ومنّه عليهم بالنبوة والرسالة، ومن استغرق معرفة في آيات الله وقف علمًا ويقينًا أن الله - جلَّ ذكره - لو أطاعه الخلائق أجمعون في شأن الإيمان به والاستسلام له، والعمل بجميع ما يرضيه من العلم واليقين لذهب بهؤلاء من حيث أتى بقومٍ يجهلون ويعلمون ويؤمنون ويكفرون ويطيعون ويعصون، ويتخذ منهم أولياء وأنبياء، ويصطفي منهم الرسل والأولياء، ويجعل منهم الأباعد والأعداء.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

ثم قالوا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي: إنا لا نقدر على ذلك إلا بإذن الله في ذلك، فيفعل ذلك بقدرته ومشيئته.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:١١] قولهم هذا - صلوات الله وسلامه على جميعهم - يدل على أنهم على حرصهم على هداية أممهم لا يسألون ربهم الآيات، بل يتوكلون على الله في ذلك حتى يأتيهم الله بالفتح من عنده وبالفرج من لدنه، ويمكن أن يكون معنى قولهم؛ أعني: الأباعد.

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم:١٠] أي: بما يخبرنا بتصديقكم، أو يجعل في قلوبنا تصديق ما تزعمونه، فقد قال هذا أمم ضالة، والسلطان: الحجة، وهو القهر والغلبة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ رسل الله ﷻ إلى عباده نعمة منه عليهم توجه عليهم واجب شكرها، فإن كذبوهم وأخرجوهم من بينهم فقد بدلوا نعمة الله كفرًا، وكذلك شواهده وآياته ودلائله في سماواته وأرضه، فتعاموا عنها وتبالهوا وكذبوا، فقد بدلوا نعمة الله كفرًا، وأحلوا قومهم دار البوار، وهو العذاب في الدنيا والآخرة.

يقول جلَّ من قائل: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وقد صدقهم الله وعده ونصر حزبه، فأهلك أعداءه وأسكنهم الأرض من بعدهم، والحمد لله رب العالمين.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من وعدي هذا ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾[1] أي: مراقبتي ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٣ - ١٤].

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: من أمم المرسلين وأتباعهم، قرئ بفتح التاء على الخبر عنهم، وبخفضها على الأمر لهم بالدعاء والاستفتاح على الذين كفروا.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٥] أي: أهلكوا فخابوا من خير الدنيا والآخرة.

يقول جلَّ ذكره: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: في مستقبل أمره لما كان المستقبل في حقهم محمولاً عندهم [...][2] بمعنى الوراء ﴿وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٦ - ١٧] هذا - والله أعلم - عبارة عن تقلب الحال بهم إلى مدة الزمهرير الدائرة عليهم من بعد مدة السعير - نعوذ بالله من أحوال أهل النار - في النار، فيها يسقون الصديد، والمهلة يكون من عصارتهم، وسلط عليهم شدة العطش وصدودة الماء، حتى إذا جاء أحدهم ليتجرعه منع على ذلك أن يسيغه كراهةً له وعسرًا، يلقونه عنه ذلك؛ ليذوقوا العذاب به من كل وجه، فإذا صار إلى أجوافهم حلَّ بهم من أجله عذاب أشد من العطش، وهو على ذلك لا يزيل العطش

---

(١) ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ يعني: ذلك الثواب لمن خاف مقامه يوم القيامة بين يدي رب العالمين. وروي عن أبي بن كعب أنه قال: يقومون ثلاثمائة عام، لا يؤذن لهم فيقعدون، أما المؤمنين فيهون عليهم كما يهون عليهم الصلاة المكتوبة. وروي عن منصور عن خيثمة أنه قال: كنا عند عبد الله بن عمر فقلنا: إن عبد الله بن مسعود كان يقول: إن الرجل ليعرق حتى يسبح في عرقه، ثم يرفعه العرق حتى يلجمه. فقال ابن عمر: هذا للكفار، فما للمؤمنين؟ فقلنا: الله أعلم. فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، حدثكم أول الحديث ولم يحدثكم آخره؛ إن للمؤمنين كراسي يجلسون عليها ويظلل عليهم بالغمام، ويكون يوم القيامة عليهم كساعة من نهاره. بحر العلوم للسمرقندي (٢/٤٢٧).

(٢) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

عنهم، وقد أصابهم به الموت لكل وجهه لو منَّ به عليهم، ويأتيهم الموت من كل مكان من أجسامهم، وكلما جاورهم من تلك الدار، وما هم بميتين تهب عليهم الريح الصرصر.

والعاصف من الريح: العقيم التي تعقمت عن الرحمة، فتمزق لحومهم وجلودهم وتشقق أجسامهم، ويجد العذاب فيه مجالاً لعظمها فتربوا على ذلك، وتنقطع الأعضاء منهم، وتسيل قيحًا ودمًا.

ذكر أن للدود في أجسامهم دويًا كدوي الوحوش نافرة في غاباتها، وتجري من صديدهم وقيحهم ومن دموعهم الأنهار، فمن ذلك شرابهم في هذه المدة على مدة دائرة بالزمهرير لباسهم فيها الحديد، لا يكنهم من جليدها ولا رياحها، ولا يحجزهم من عذابها بيت ولا جبل ولا كن.

وقد عدد الله - جلَّ ذكره - نعمه علينا بالكن والسكن إلى البيوت، بقوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٨٠] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١] وليس لأهل جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مِن عذاب الله من واقٍ، لا يرحمهم راحم، ولا ينفعهم شفاعة الشافعين، يلعنهم كل شيء، ويلعن بعضهم بعضًا، ويلعنون أنفسهم.

يقول الله جلَّ مَن قائل: ﴿وَمِن وَرَائِه عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧] يعني: عذاب السعير يدور عليهم دائرته، فيكون [....][١] معنى قوله: ﴿وَمِن وَرَائِه عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: عذاب الدار الآخرة قال هذا الوصف هنا كما قال في قصة قوم لوط وثمود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: من عذاب الإهلاك وما في ذلك من سعير.

ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:٥٨] [...][٢] أشد العذاب عذاب

---

(١) ما بين [ ] بياض في (غ).

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ).

الآخرة، لبوسهم فيها القطران، وهواهم لهب النيران، وأمطارهم حميم آن، ظلهم الحموم، ونسيمها السموم، ونقلبهم في العذاب الأليم.

قال الله جل ذكره: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ يعني: طول مدة السعير ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٣ - ٢٥] والغساق: هو ما يخرج عنهم هكذا إيذاء، تدور عليهم دوائر العذاب، والله أعلم بسعة تلك الدوائر.

غير أن الله قال وقوله الحق: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:٢٣ - ٢٤] وهي دائرة السعير كما تقدم، وذكرها فيما ها هنا بالأيام وبالشهور، وفيما هناك بالأحقاب، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره، ومما يوجبه أو يقرب منه أنه خير معاذ.

فصل

الوراء حقيقة: الخلف، كما الأمام حقيقة: المواجهة، وجاء في القرآن العزيز الوراء كقوله جلَّ قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩] وقوله جلَّ قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١].

قال المفسرون في هذه الوجوه: إنها بمعنى الأمام.

قالوا: والوراء قد يكون بمعنى الأمام، واحتجوا بما تقدم ذكره وبأمثاله، وقالوا: كل من لم يأتِ بعد وهو منتظر فهو وراء، وهذا معنى من معاني القرآن يجب تحديق البصيرة إليه لينكشف مستوره، وتنقشع غيابة الشك عن حقيقته، فنقول والله نسأله التوفيق: إن الوراء هو ما خلفته وصرفت وجهك عنه، والأمام ضده، وهو ما وجهت وجهك إليه ووليته ظهرك، فهو إذاً لا بصرته بعينٍ ولا علمته بعلمٍ؛ إذ الوراء موضع الجهل وعدم الإدراك.

يقول شعيب عليه السلام: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود:٩٢] أي: جعلتموه منكم بموضع الجهل به، والغفلة عنه مع عدم الخشية والمراقبة.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء:٤٧] فطمس الوجوه على هذا

هو أن يضيعوا سماع الهدى ورؤيته، والقول به والعمل، وهكذا هو الكافر، وكان لأهل الكتاب هداية، فلذلك يهددهم بأن يسلبهم النعمة بها، ثم أنفذ ذلك عليهم، ووصف - جلَّ ذكره - المؤمنين بالإيمان بالغيب، والخشية لله بالغيب والمراقبة له والهداية.

وقال إبراهيم عليه السلام: **﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾** [الأنعام:٧٩] وصورة الفطرة على الإسلام هي التوجه إلى الله ﷻ، والقصد بالوجهة والنية والصلاة خاصة ذلك وعمدته.

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يلتفت، فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى**»[١] ومن توجه إلى الله تعالى، وعمل محتسبًا عليه أجره في الآخرة، مؤمنًا بوعده فيما لها يجمع وإياها يقصد، ويسأل بتوهم الجنة والنار علمًا يسأل هذه، ويتعوذ به من هذه كان ذلك منه برأي عين، فهذا ليست الآخرة منه نورًا.

وأما الكافر بالله والدار الآخرة وآياته في السماء والأرض دالة؛ لأنه جاهل بها، عامل لدنياه التي نيط إليها بمشاهدته لها يجمع، وعليها يعول ظاهرًا وباطنًا؛ لأن وجهه إليها، والآخرة منه بظهر ووراء، فهو خارج عن الدنيا، ووجهه إليها قد استوطنها ورضيها، فهو مدفوع إلى الآخرة، ووجهه إلى هذه والآخرة وراءه، فهو يمشي إليها مرارًا، ويعمل للدنيا وينظر إليها، وهو يخرج عنها إلى الآخرة دفعًا يبني ما لا يسكن، ويجمع ما لا يأكل، ففي مثل هذا يحسن هذا الخطاب، وهو كالمثل المضروب لحاله عبَّر عنه بهذه اللفظة.

وأما قوله: **﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾** [الكهف:٧٩] فلجهل أصحاب السفينة برأي الملك في ذلك.

وأما قوله جلَّ قوله: **﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾** [هود:٧١] فلأجل المعهود من كون الولد الذي لم يأتِ بعد غيبًا، ومن أنه أبدًا بعد أبيه وخلفًا له.

وقال رسول الله ﷺ: «**أقيموا ركوعكم وسجودكم، فإني أراكم من ورائي كما**

(١) تقدم تخريجه.

أراكم من أمامي»[(١)] فهذا هو الوراء والأمام على معهوديهما لذلك، وهو أعلم.

قال جلَّ قوله في الكافر، وهو في جهنم يقاسي شدائدها من عذاب الزمهرير، ومن وراءه عذاب غليظ يريد عذاب السعير؛ لأنه مشغول بما هو فيه، وإنه لا يتفرع باله إلى ما أمامه كما كان في الدنيا، سواءً عليه باليأس من الراحة بما هو فيه.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ مثل ضربه لأعمال وجهت إلى غيره سبحانه، وهو رب السماوات والأرض وما بينهما، ومالك الدنيا والآخرة، وبيده الجزاء الآجل والعاجل، فإذا وردوا قيل لهم: اطلبوا ثوابكم من وجهتم له أعمالكم، فلم يتصل لهم بالثواب منه، ولهم أعمالهم، فضلّت عنهم كتفرق الرماد في اليوم بالريح العاصف.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم:١٨ - ٢١].

والله هو الولي الحميد في الدنيا والآخرة، فهو الموفق لطاعته والمنيب عليها فيما هنالك؛ إذ قال وهو أعلم: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨] يريد - جلَّ ذكره - من وجه أعماله لغير الله فقد ضل عن المقصد، وبعُد عن الاتصال بالثواب في الدنيا والآخرة، هذا هو المثل والممثل به، وبقيت التذكرة حبط عمل الكفار في الدنيا مع إقباله عليها، وهو مع ذلك يخرج عنها، ويترك ما جمعه للوارث وما بناه للخراب وما ولد للفناء.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان (٦٤٤٤)، والبغوي في «الجعديات» (٢٨٠٨).

وتحقق في الإبطال إلى حقيقة ما وصفه - جلَّ ذكره - كما نشأ عمل المؤمن إلى حقيقة وجوده فيما هنالك، وإن كان مصير العالمين إلى حقيقتهما على مهل، ولذلك لا يشعرون من لا عقل له، وكل ما هو آتٍ، فكان قد أتبع ذلك بما هو في معناه.

قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وقد تقدم إلماع إليه، وذكره هذا بمعنى المثل الذي تقدم، يقول جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ومن هذا الحق إثبات الإلهية والوحدانية والنبوة والرسالة وما جاءت به، فعلى ذلك فليعمل العامل، وإلا ضلت أعمالهم معهم، فلم يقدروا على شيء منها، والضلال عن الحق هو الضلال البعيد.

ثم وجه الخطاب إلى الكفرة بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(١) [إبراهيم:١٩] أي: كما فعل بمن كان قبلكم.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠] وهو من فعل الوعيد، والوعد المتصل بما جاءت به الرسالة.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا

(١) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم أيها الناس كما قاله جماعة، أو أيها الكفرة كما روى عن ابن عباس بالمرة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يخلق بدلكم خلقًا مستأنفًا لا علاقة بينكم وبينهم، والجمهور على أنه من جنس الآدميين، وذهب آخرون إلى أنه أعمُّ من أن يكون من ذلك الجنس أو من غيره، أورد سبحانه هذه الشرطية بعد أن ذكر خلقه السماوات والأرض إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإن من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيمة كان على إعدام المخاطبين وخلق آخرين بدلهم أقدر. تفسير الألوسي (٩/٣٤٤).

سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ
مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا
يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢ - ٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] المثلين إلى آخرهما.

قيل: الشجرة الطيبة هي النخلة، والكلمة الطيبة هي ذكر الله تعالى، كقول العبد: لا إله إلا الله، والحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر ونحو هذا، وكلمة «لا إله إلا الله» هي العمدة في الشهادة والذكر.

والكلمة الطيبة هي الثابتة في قلب المؤمن صاعدة إلى السماء؛ يعني إلى الله كما قال رسول الله ﷺ: «**وكلمة لا إله إلا الله ليس بينها وبين الله حجاب**»[(١)].

والنخلة ثابتة في الأرض، راسخة في الثرى، صاعدة إلى السماء، عملها طيب وقلبها طيب، رأسها في أعلاها صاعدًا إلى السماء كالإنسان صاعد إلى العلو، كالمؤمن في توجيهه نيته إلى ربه بلغت النخلة حدها المقدر لها، وانتهت حيث انتهى بها، ثم تأتِ بنفسها لربها ورفعت جذورها علوًّا، كذلك قال رسول الله ﷺ: «**وإليك نسعى ونحفد**»[(٢)] كذلك المؤمن لربه عمله، وفيه أمله ونيته، مثَّلها رسول الله ﷺ بالمؤمن، وقال لأصحابه وفاءً: «**أكرموا عمتكم النخلة؛ إنها خلقت من فضل طينة آدم**»[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٧١٥)، والبيهقي (٢٩٦٣).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥)، وابن عدي (٤٣١/٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٢٣/٦)، وابن =

وقال ﷺ: «**ألا ترونها لا تحمل حتى تلقح**»[(١)].

ويقال: إنها ساوت للمؤمن في كثرة المنافع والأشباه، منها أن كل شجرة إذا قطفت تشعبت الغصون حولها، والنخلة إذا قطع رأسها ذهبت أصلها، وتساوت أيضًا في الإلقاح ولها عروق وساق وغصون، فمثل عروقها من المؤمن المعرفة وساقها الطاعة، [...][(٢)] وهي لها غصون من حيث هي شجرة، لكل غصن منها ثمرة:

- فغصن منها لسانه، وثمرته منه: النظر بالاعتبارات.
- وغصن منها عينه، وثمرته منه: النظر من المؤمن صدق المقالات.
- وغصن منها عينه، وثمرته منه: النظر بالاعتبارات.
- وغصن منها أذنه، وثمرته: استماع العظات.
- وغصن منها يداه، وثمرته: الزكوات والصدقات.
- وغصن منها رجلاه، وثمرته: الجمعة والجماعات.
- وغصن منها قلبه، وثمرته: ترك الهوى والشهوات.
- وغصن منها بطنه، وثمرته: أكل الحلال والطيبات.
- وغصن منها فرجه، وثمرته: ترك الزنا والخبيثات.

وصدق الصادق المصدوق ﷺ لا شيء من الشجر أشبه بالمؤمن من النخلة، وللنخلة من حين تطلع إلى أن ترطب عشرة أحوال وعشرة أسماء، فأول حمل النخلة الطلع وذلك أول ما يبدو، فإذا انشق فهو الضحك والإغْريض، فإذا صلب فهو البلح، فإذا عظم فهو البسر ثم السياب، فإذا لانت فهي الثغرة، فإذا احمرت فهي الزهر، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهي مجزعة، فإذا بلغ ثلثيها فهي حلقانة، فإذا عمها الإرطاب فهي منسبتة، ولا يتم إرطابها ما لم تحل بهذه الأحوال.

كذلك المؤمن له عشرة أحوال من حين يتوب إلى أن يصل إلى الله ﷻ، فأول

=

عساكر (٣٨٢/٧).

(١) هو من شرح النووي على مسلم (٢٩٠/١) ولم أقف عليه من حديث، والله أعلم.

(٢) ما بين [ ] غير واضح في (غ)، وطمس في (ف).

أحوال المؤمن التوبة، ثم الإصلاح، ثم الاجتهاد، ثم الخوف، ثم الرجاء، ثم الإرادة، ثم المحبة، ثم الرضا، ثم المعرفة، ثم يصل إلى الله ﷻ، وإنما يصل إلى ربه إذا صلحت أحواله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٩] كما أن الرطبة إذا صارت منسبتة تمت أحوالها، وصلحت للأكل.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥] ولو كان التذكر المطلوب منا هو تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة، أو بغيرها من الشجر لم يكن ذلك تذكارًا ولا اعتبارًا، بل يكون علمًا.

قال رسول الله ﷺ لأصحابه يومًا: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها مثلها مثل المؤمن خبروني ما هي؟**» ثم قال لهم: «**إنها النخلة**»[1] فكان ذلك منه ﷺ كالعالم يمتحن أصحابه عما عندهم من فهم وعلم.

أما الكلمة الطيبة فهي كلمة «لا إله إلا الله» ثم بالتبعية غيرها من الأذكار كما تقدم ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم:٢٥] متى قالها متى عمل المؤمن بمقتضاها من ذكر أو صلاة أو صيام أو صدقة أو غير ذلك من أعمال الطاعة أتته أكلها، فذلك قوله جلَّ قوله: ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: كل حين قالها أو عمل بها ﴿تُؤْتِي﴾ أيضًا ﴿أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ على الولاء؛ لأن المؤمن يقولها مصدقًا بها قلبه لسانه، فيكتب عند الله مؤمنًا له عنده ما للمؤمنين، وعليه ما عليهم في الدنيا والآخرة.

فمثل هذه الشجرة هو الحق المخلوق به السماوات والأرض من معاني أسماء وصفات، ثم ما يتفصل إليه من موجودات الآخرة وموجودات البرزخ، وما بعد البعث في عرصة القيامة من حشر ونشر وسؤال وعذاب ونعيم ووجود حوض وصراط وميزان وشفاعة، وجميع ما تقدم ذكره في شرح اسمه «الشهيد» إلى منتهى الشهادات.

وعلى العموم في محكم قوله الحق: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٧٢٧٧)، وابن حبان (٢٤٥)، والطبراني (١٣٣٣٥).

أسلك ذلك كله في عالمه مسالكه، حتى عاد العالم كله لمن اعتبر إلى رفيع الذكر إلى قسمين: ذكر يذكر بهذا كله، ومما لم يذكره وفتنة، فهذه هي الشجرة المباركة الطيبة التي رسا أصلها بالفطرة، وظهرت أفنانها بالشرعة، وثبتت حقائقها في جدر القلوب بالإيمان، وعلت أعاليها في السماء بالعمل بالطاعة بالحق، فاتصلت بالحق المبين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ لذلك قال جلَّ قوله، وهو أعلم: ﴿**وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [إبراهيم:٢٥] ولو كان التذكر المطلوب منا هو تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة، أو بغيرها من الشجر لم يكن ذلك تذكارًا ولا اعتبارًا، بل كان يكون علمًا.

فصل

قال الله جلَّ قوله: ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [إبراهيم:٢٤] ولم يقل: أصلها ثابت في الأرض؛ إذ كان منبعثها من لدنه ﷻ أسماؤه وصفاته، ثم إلى ما تفصلت إليه من الآية وآثاره ومقدوراته، فكان ذلك كقوله جلَّ قوله في الشجرة المباركة الزيتونة: ﴿**لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ**﴾ [النور:٣٥] إنها ليست ثابتة في أرض، ولا هي منسوبة إلى شرق ولا إلى غرب، ولا إلى جنوب ولا إلى شمال، فافهم، وسيأتي ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى، فالشجرة الطيبة إذًا هي شجرة الحق المتفرعة إلى ما تفرعت إليه، ومثلها من الأحياء المؤمن المعبَّر عنه بقوله الحق: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين:٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورة الرحمن**»[1] و«**مثل المؤمن من الشجر النخلة**»[2] **على** ما تقدم هذا في الدنيا، ثم جميع شجر الجنة **في** الدار الآخرة ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ [إبراهيم:٢٥] على الولاء، فافهم المثل المضروب بالكلمة [....][3] الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، وموضع التذكرة والمطلوب **الأعلى**، ذلك هو الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ما بين [ ] بياض في (غ)، وغير موجود في (ف).

الموجود ها هنا باتصال هذا الحق؛ لاتصال الأسماء والصفات به جلَّ وعلا.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1] [إبراهيم:٢٦] ذُكِرَ أن الشجرة الخبيثة هي الحنظلة أو العلقم، وقيل غير هذا، وكشجرة خبيثة فهي مثل لما ماثلها من شجرة جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وذلك كله مثل للكفار كل إنسان منهم بخلقه وعلمه وجنس كفره، ولكل درجات مما عملوا، وشرح ذلك يطول به الكتاب.

وقال عزَّ من قائل: ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢٦] ليس كذلك فيما تقدم من وصف الشجرة الطيبة، وإنها ليست بصاعدة إلى السماء، كذلك عمل الكافر لا يفتح له ولا لعمله السماء والأرض في وصف الذم ﴿أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف:١٧٦].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢].

وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٤ - ٥].

وكقوله: «**إني خلقت عبادي كلهم حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم**»[2] المعنى إلى آخره، دلَّ على هذا أن الهداية سبقت الضلالة، وأن الذكر أوجد قبل الفتنة ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦] أي: الكلمة الطيبة في قلب الكافر؛ أي: وجود ما فيه من خلقة الفطرة كقولهم متى سألوا: من خلق السماوات والأرض؟ «الله» من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ «الله».

ومثل هذا ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ

---

(١) الشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّت من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوس وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة .

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥١٩)، ومسلم (٢٨٦٥)، والطبراني (٩٨٧).

﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾[(١)] [إبراهيم:٢٧] كنبات النخلة في الأرض، ونبات شجرة الحق الموجود به العالم [...][(٢)] ووجودها كلها بالحق المبين، فهذا الحق في الدنيا والآخرة.

فصل

من كان في خلقه وسيره إلى ربه كما وصف الله جل ذكره في الشجرة في عمله وشهادته ومراقبته وصموده إلى ربه فليست الآخرة من هذا بوراء، إنما هي بالوراء من الكافر والغافل الجاهل التارك الآخرة، وذكر الله منه بظهر هذا حقيقة المعنى، وحقيقة اللغة من حيث خلقتها، ثم تداولتها العبارات مع جاهليتها، وخلفهم فيها المسلمون فاستمروا على آثارهم وعند التحصيل، فتدبروا حقائق المعاني، كذلك ﴿يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥] بصفات النخلة.

وصفات شجرة الحق صفات المؤمن، فيحتذون ذلك ويصعدون في درجات الوصول إلى الله ﷻ كما ترقت النخلة بعملها إلى الوصول لأن تصلح للأكل، وكما ترقت شجرة الحق إلى موجودات الآخرة ومعانيها إلى الأسماء والصفات، ثم إلى الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ليس كشجرة خبث طعمها وريحها، وكثر ضررها واجتثت من فوق الأرض، أصلها الثابت في الهواء، والسماء لا قرار له، تفيئه الريح والفتن هكذا، وهكذا كالكافر لا يصعد له إلى الله ﷻ علم، ولا يفرع إليه منه عمل ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥].

---

(١) قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ كلمة التوحيد، وهي قوله: لا إله إلا الله ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: قبل الموت ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ يعني: في القبر. هذا قول أكثر المفسرين . وقيل: في القبر عند السؤال وعند البعث، والأول أصح، لما روى البراء بن عازب أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المُسْلِمُ إذَا سُئِلَ في القَبْرِ يَشهَدُ أَنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأَنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فذَلِكَ قولهُ سُبحانَهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ﴾ قال: «حين يُقالُ لَهُ: مَن ربُّكَ؟ ومَا دِينُكَ؟ ومَنْ نَبيُّكَ؟ فيقول: الله ربِّي، وديني الإسلامُ، ونَبِيِّي مُحمَّدٌ» والمشهور أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، فيلقّن الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال، ويثبته على الحق. تفسير اللباب لابن عادل (٩/٤٨٩).

(٢) ما بين [ ] غير واضح في (غ)، وغير موجود في (ف).

أتبع هذا ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧] نظم جل ذكره تثبيته المؤمن في الدنيا والآخرة بما في شجرة الحق من الثبات الذي عبر عنه قوله جلَّ قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٢٤] بما في شجرة الخلطة من الاجتثاث وثبوت كلمة الإخلاص، والحق في قلب المؤمن، ونزول ذكرها، والشهادة بها من قلب الكافر بالتأفيك بما أفك له من علم لها وعمل بها.

﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ بالكلمة الطيبة في الحياة الدنيا، وفي القبر وفي عرصة المحشر يوم المحنة يَزْوِيهِ الله جل ذكره الذي أشار إليه بقوله جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ في المواطن كلها، ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] لما كان من الظالمين من يكون قد شهد شهادة الحق، وأسرف على نفسه، وضيع التوبة، وفرط في الاستعداد كان في المشيئة أن الله لا يغفر أن يُشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨] أول المراد بهذا الخطاب: قريش وأهل الكتاب ورسل الله جل ذكره وكتبه، نعم وما نصبه من الدلائل وأقامه من الشواهد، نعم لا تحصى ولا يبلغ شكرها، ومن كذب بها وأعرض عنها فقد بدل نعمة الله كفرًا، وكما يحل أئمة الكفر قومهم وأتباعهم بذلك دار البوار فكذلك يحل علماء المؤمنين وأعلام المسلمين أتباعهم قرار الفوز، وهذا مفهوم الخطاب.

قوله ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾(١) [إبراهيم:٣٢ - ٣٤] وجه الخطاب في هذا كله إلى تعداد النعم، ومعناه الدلالة على موجودات الآخرة في الدارين منهما، فما أخرجه بالماء من الأرض دلالة على ثمرات الجنة ورزقها، وكذلك تسخيره الفلك في البحر بأمره تجري فيه، وكذلك الأنهار على أنهارها والشمس والقمر دلالة على رؤية الله العلي الأعلى، وتسخيره الليل والنهار نعمتان منه دلالة على الدنيا والجنة والنار والإله الحق المبين وآلهة باطلة.

---

(١) إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمَنْ شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومَنْ شغله به جعل الأشياء كلها طلوع يديه؛ فتنقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب، ويخبر عمّا أراد، وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تتابعه النعم. قيل: أجلّ النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطيق القيام بشكرها أحد. وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفَّار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية. وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوه، بأن جعل السفير فيما بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

وأما دلالات ذلك على موجودات جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فما هنالك سماء لهم تظلهم ويرحمون منها، ولا أرض لهم تكون قرارًا لهم، وأنهارهم الغسلين والحميم والغساق، يجري بهم الفلك في بحار حميمها وغساقها ويحمومها في أمواجها.

قال الله ﷻ: ﴿يُسْحَبُونَ فِي الحَمِيمِ * ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١ - ٧٢] أي: يوقدون، وهم عن ربهم محجوبون، هذا إلى ما في الخطاب من التذكير بعظيم الاقتدار ومضاء المشيئة، وإحاطة العلم وتدبير الأمر، وذكر الملك والملكوت فانتظم هذا المعنى من هذا الخطاب بما في صدر السورة من قوله: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ * الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١ - ٢] المعنى إلى آخره، فافهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ
(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ
ٱلدُّعَآءِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم:٣٥ - ٣٩].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنًا﴾(١) قال رسول الله ﷺ:

---

(١) مناسبة هذه الآية لما قبلها: إنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وجعلوا لله أندادًا، وهم قريش ومن تابعهم من العرب الذين اتخذوا آلهة من دون الله، وكان من نعم الله عليهم إسكانه إياهم حرمه، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه - صلوات الله =

«**إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس**»[1] فحرمها الله جل ذكره، وكان التبليغ عنه في ذلك على لسان خليله، ثم على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه على جميعهم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] تبرأ عليه السلام لله تبارك وتعالى من الحول والقوة، واعتصم به من شر نفسه أن يكله إليها.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] هذان الاسمان بمعنى الثواب هنا، يرحمهم فيتوب عليهم، ثم يغفر لهم، ومثله عليه السلام لا تستغفر لمن كفر بالله.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يريد إسماعيل - عليهما السلام - ثم من كان عنه من ولده أعلمه جل وعز أنه سيكون به ذرية ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [إبراهيم:٣٧] المراد بذلك: هذه الأمة كما قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦].

لم يكن الركوع إلا في هذه الأمة، بشَّر الله بذلك ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

قال الله عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧].

=

عليه - دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأنْ يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليعبدوه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادة وهي الصلاة؛ لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام، فيزدجروا ويرجعوا عنها. ﴿هَذَا الْبَلَدَ﴾ وقال الزمخشري: هنا سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمنًا. انتهى. ودعا إبراهيم أولاً بما هو على طاعة الله تعالى، وهو كون محل العابد أمنًا لا يخاف فيه، إذ يتمكن من عبادة الله تعالى، ثم دعا ثانيًا بأن يجنب هو وبنوه من عبادة الأصنام. ومعنى «واجنبني وبني»: أدمني وإياهم على اجتناب عبادة الأصنام. وأراد بقوله: ﴿وَبَنِيَّ﴾: أولاده من صلبه الأقرباء. وأجابه الله تعالى فجعل الحرم آمنًا، ولم يعبد أحد من بنيه الأقرباء لصلبه صنمًا. تفسير البحر المحيط (١٦٥/٧).

(١) أخرجه أحمد (١٦٤٢٣)، والبيهقي (١٥٩١٧)، والطبراني (٥٠٠).

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠ - ٤٣].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] قيل: المعني بهذا الدعاء: هو آدم وحواء - عليهما السلام - وأرى والله أعلم أن هذا من استغفاره لأبويه قبل أن ينهى عن ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤] وقرأ عاصم الجحدري وعمر وابن عبيد: «ربنا اغفر لي ولولدي» بغير ألف؛ يعني: ابنيه، وهي قراءة عالية، وقراءة الجماعة بالألف.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣] الإهطاع: الإسراع والقصد إلى الشيء دون التفات إلى غيره ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الإقناع: لغة في الرفع والميل، دل هذا على التنكيس للرءوس، والرفع لها.

قوله ﷻ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[1] [إبراهيم: ٤٣] فهم في

---

(١) ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ الهواء في اللغة: المجوَّف الخالي الذي لم تشغله الأجرام، والمعنى: إن قلوبهم خالية عن العقل والفهم؛ لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوى مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء؛ أي: لا رأي فيه ولا قوّة. وقيل: معنى الآية: إنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر. وقيل: المعنى: إن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير. وقيل: المعنى: أفئدتهم ذات هواء، ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: خاليًا من كل شيء إلّا من همّ موسى. فتح القدير (١٥٧/٤).

إسراعهم ذلك وقصدهم ناظرين إلى الأرض لا يطرفون، ولا يرتد إليهم طرفهم، فإذا رفعوا رءوسهم إلى السماء ذهلوا وامتلئوا رعبًا، فارتفعت أفئدتهم إلى حلاقيمهم يكظمونها كما يكظم البعير جرته.

قال الله ﷻ: ﴿وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠].

وقال: ﴿كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] أقنع الرجل يديه في الدعاء بمعنى: رفعهما مادًا لهما.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤ - ٤٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وقال جلَّ قوله هذا جوابًا لقوله: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِع الرُّسُلَ أو لَمْ تَكُونُوا﴾ [إبراهيم:٤٤] فمعنى ذلك كقولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣] وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩] يذكرهم بما عبر عنه قوله الحق: ﴿وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨] ونحو هذا.

أتبع ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥] مفهوم هذا: فما ازدجرتم ولا اتعظتم بما رأيتم، وضربنا لكم الأمثال [....][١] يعني: الحق والباطل، فلم تفهموا أو لم تعقلوا ما المراد.

---

(١) قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ يريد جل ذكره مكرهم؛ أي: كفرهم بالله وشركهم وتكذيبهم لرسله وكتبه، وعند ذلك ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ لعظمه ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦] بالشرك والولد دعوه من دونه، «لتزول» بكسر اللام الأولى ونصب الثانية يمكن أن يكون معنى ذلك كما قال الله جلَّ قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم:٤٧ - ٥٢].

ويمكن أن يكون المراد بذلك وإن كان مكرهم ومرادهم به إزالة الرسول ﷺ عن مكانته والقرآن والوحي والإيمان والمؤمنين، وأمر الله جل ذكره الذي قد شاء مضاءه كنى عن هذا كله بالجبال؛ لثبوته بثباتها، وقد وعد ووعده الحق أن يظهره على الدين كله والجبال والأرض والسماوات، وما بين ذلك مخلوق كله بالحق الذي جاء به الرسول والقرآن؛ لذلك قال وهو أعلم: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧] يكون ذلك ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨] أي: إنما [..........][1].

البروز: الظهور، برزوا من أجداثهم ومن غيابات بلاءاتهم، واتصف هنا ﷻ بالوحدانية؛ لكون أمر الساعة واحدًا كلمح البصر أو هو أقرب، فظهرت الوحدانية

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

في ذلك لبعد ذلك الأمر عن التردد، وكل أمره واحد هو الواحد بكل وجه، وبكل معنى لكن لأحوال يظهر معاني أسمائه ولأحوال أُخر يظهر غيرها اسم القهار، قهر الكائنين للبعث في دار الدنيا المكذبين به.

يقول عز من قائل: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] كقوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات:١٨] [......][1] أيضًا القهار قهر [......][2] إلى مراده منهم، واستاقهم في سلاسل قهره إلى تحقيق كلماته فيهم.

وقرئ: «وإن كان مكرهم لَتزولُ منه الجبال» بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، معنى ذلك وهو أعلم: وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، لكن الله ينصر دينه، وأمرهم لا يخفى عليه، وهذا قريب القرابة من الوجه الأول، والأولى - والله أعلم بعلمه - إن مكرهم سيبلغ من عظمه وشؤمه أن تزول منه الجبال؛ أي: في آخر الزمان عنه خروج الدجال - لعنه الله - وقصر مدته وعجل بدماره، والجبال هم المؤمنون والصالحون لذلك، وهو أعلم.

أعقبه بقوله الحق: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧] وإلى هذا الإشارة بقوله الحق: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠] ولا يكون أمرًا أعظم من ذلك الأمر يريهم موضع القدرة، ويظن الذين يعبر عنهم بالجبال أنهم قد كذبوا، وعند التناهي يكون الفرج، ومع الصبر يكون اليسر، ومن صبر إلى الخاتمة فهو المعافى إن شاء الله.

ولولا قصر مدة تلك الأيام لم يحتمل الخلائق عثراتها لكن قُلِّلت تلك الأيام لأجل الصالحين، وسيأتي من يتشبث بالصحيح [...][3] ويأتون بآيات عظيمة حتى يشك من يظن به صلاح، ذكر في الكتاب الذي يذكر الغيب أنه سيكون يومئذٍ حزن لم يكن من ابتداء الدنيا مثله ولا يكون، فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من

(١) قطع في (غ) وغير موجود في (ف).
(٢) قطع في (غ) وغير موجود في (ف).
(٣) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

يوم خلق الله فيه آدم إلى أن تقوم الساعة أمر أعظم من الدجال»[(١)].

ثم قال بعد كلام: وبعد انقراض ذلك الحزن تظلم الشمس، ويضمحل نور القمر، وتتساقط النجوم، وتحرك السماوات، ويبكي يومئذٍ جميع أجناس الأرض، وينظر إلى الملك مقبلاً في سحاب السماء ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ**﴾ [البقرة:٢١٠] **في** قدرة عظيمة شديدة، فأشبه قوله ﷺ عقب ذكر مكرهم وإنه لتزول منه الجبال: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ [إبراهيم:٤٨].

وقد جاء أن الدجال - لعنه الله - يأتي القرية فيدعوها وتستجيب له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، ويأتي القرية فيدعوها فتأبى عليه، فيأمر السماء فيفتحها بالمطر وتسير معه أنهار، ولا يمتنع أن تسير له الجبال وتزول له، فهذا تبديل للمعهود من السماء والأرض الذي عبر عنه قوله ﷺ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف:٩٦].

وقول نوح وهود وغيرهما من الرسل - عليهم السلام - لقومهم: ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا....**﴾ [نوح:١٠ - ١١] فهذا تبديل ما يجب الإيمان بأنه من أشراط التبديل على الكمال، فتبدل السماوات جنانًا والأرضون أدراكًا لجهنم، أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

﴿**وَتَرَى المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ**﴾[(٢)] [إبراهيم:٤٩ - ٥٠] وقرأ ابن عباس وابن جبير: «**من قطران**»

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٦٦٩٢)، والطبراني (١٧٩٠٣).

(٢) ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ**﴾ السرابيل: القُمص، واحدها: سربال. والقطران: هو قطران الإبل الذي تهنأ به؛ أي: قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل. وخصّ القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته. وقال جماعة: هو النحاس؛ أي: قمصانهم من نحاس. وقرأ عيسى بن عمر: «من قطران» بفتح القاف وتسكين الطاء. فتح القدير (١٦٢/٤).

وكذلك قرأها الأعمش والزهري بكسر القاف وإسكان الطاء وتنوين الراء وهمزة بعدها؛ أي: انتهى حَره، ويكون أيضًا معنى قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦] زائدًا إلى ما تقدم أن الساعة لا تأتي إلا على شرار الخلق.

وقد عاد أهل الأوثان إلى عبادتها، وأهل الضلالات إلى ضلالاتهم، وعادوا من حيث بدؤوا، ولم يبقَ على الأرض من يقول: «الله الله» فيقم الله جل ذكره الساعة، وتمور السماء مورًا، وتسير الجبال سيرًا، إلى غير ذلك من أهوالها.

قوله تعالى إثر قوله: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥١] عذب الله الكافرين بعذاب جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - كما كذبوا بها في الدنيا، وكانت تغدوا وتروح عليهم بسموم فيحيها من سعير وزمهرير فلم ينظروا ولم يفقهوا، بل تعاموا [وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق] وحرموا الجنة، وكانت تغدو عليهم وتروح بفتحها ينزل الله الماء من السماء برحمته، وينبت لهم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات جنات معروشات وغير معروشات، إلى غير ذلك من أنعم الله عليهم من ظلالها وأكنافها ولبوسها ونسيمها في رواح وبكور، فلم يؤمنوا ولم يتذكروا ذلك.

قوله ﷻ: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١] إلى آخر السورة.

أعقب هذا كله قوله: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي: بما أصاب من كان قبلهم ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: بما في القرآن من الإعجاز، وبما في الشجرة الطيبة من دلائل الوحدانية والألوهية والربوبية، ومقتضيات الأسماء والصفات في الوجودين الوحي والعالم، ودلائل النبوة والرسالة، وما جاءت به، وما تفصلت إليه معاني الأسماء، وتفرعت به الشجرة الطيبة من حق متصل بالحق المبين ﷻ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم:٥٢] أي: ليعبروا من ذلك كله من المطلوب الأعلى، فيعبروا من مقتضيات الأسماء والصفات إليها، ثم من الأسماء والصفات إلى المسمى الموصوف، ومن الكلمة الطيبة إلى الشجرة الطيبة في الجنة التي

﴿تُؤْتِي﴾ هنالك ﴿أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٥] ومن الشجرة الطيبة إلى الوصول العلي، والقرآن بنفسه ما أن يكون تنبيهًا للمبتدئ أو تذكيرًا للمنتهي، أولئك يتلونه حق تلاوته ويؤمنون به، ومن سواهم فقراء ودارسون، والله واسع عليم.

تفسير سورة الحجر(1)

مكية فيها من المنسوخ أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا
مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ
وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجر:١ - ١٠].

قوله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:١] أشار بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى حروف «الر» فأخبر أنها دلالات على الكتاب؛ أي: اللوح المحفوظ والقرآن المبين، ألا ترى أن كلامه إنما تعرفناه بالحروف نطقًا وكتبًا، فكذلك حروف الكتاب المبين تكون هذه الحروف المقطعة دلالات عليها كما هذه المكتوبة دلالات على معرفة كلامه.

قوله ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] لا بد لهم من ذلك، ولا ريب في كونه منهم أول ذلك حين المعاينة لآيات الإهلاك، أو معاينة أعلام الآخرة والملائكة حين الموت.

---

(١) سميت بها لاشتمالها على قوله ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله بأدنى وجوه المؤاخذة مع غاية تحصنهم ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات وهو من أعظم مقاصد القرآن.

قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ يقول الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

ثم على الولاية أكدوا ولاءهم، فإذا هم سمعوا النداء في عرصة المحشر قوله ﷻ: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨] وقع في نفوس أهل المشهد الطمع فيها، يقولون: «نحن عباد الله» فيقول جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف:٦٩] فينكس الكفار رؤوسهم ويبقى المؤمنون والمسلمون هنالك ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] فيود الواحد منهم أن كان على الولاء لا سيما إذا وجبت الشفاعة ودخلوا النار قومٌ بعد قوم حتى إذا لم يبقَ أحد من المسلمين تمنوا أنهم جاءوا مسلمين.

يقول عز من قائل: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ أي: عن النظر لأنفسهم بالتأهب والاستعداد للقاء الله جل ذكره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:٣] وعيد منه شديد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر:٤] هنا محذوف مقدر عطف عليه بالواو تقديره [....][1] وما أهلكنا من قرية إلا لأجلها ولها كتاب معلوم؛ يعني وهو أعلم: الأجل الذي اخترمت عنه، فهذه الواو مشيرة إلى الأجل، وقد قرأ ابن أبي عبلة: «إلا لها كتاب معلوم» بغير واو[2] تقديره: وما أهلكنا من قرية إلا لأجلها، ما تسبق من أمة مهلكة أجلها المحدود لها لإهلاكها، وما لها عنه من تأخر كما قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3] [الأعراف:٣٤].

---

(١) ما بين [ ] بياض في (غ).

(٢) انظر: الدر المصون (١/٣٦٤٤).

(٣) هذا وعيد لأهل مكّة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم أي أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا خالفوا أمر ربهم فأنتم أيتها الأمّة كذلك، وقيل: الأجل هنا أجل الدّنيا التقدير: للأمم كلّها أجل أي يقدّمون فيه على ما قدموا من عمل، وقيل: الأجل مدّة العمر والتقدير ولكل واحد من الأمة عمر ينتهي إليه بقاؤه في الدّنيا وإذا مات علم ما كان عليه من =

ثم القراءة بواو العطف، وعليها قراءة الجماعة، وعلمه بما في مقتضى قوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٣] المعنى إلى آخره.

فصل

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن لكل موجود كائنًا ما كان أجل مسمى هو المنتهى إليه، ثم دونه آجال سواه محدودة لأسباب مقدرة لا يعدو الموجود أجله المقدر المحدود له، وكل موجود فقد كتب فيما سبق له أجله وأثره ورزقه وعمله وشقي أم سعيد على مفهوم ما تقدم ذكره من أجل محدود لسبب معلوم، وأجل مسمى منتهى إليه قد سبق في التقدير مجيء السبب لحين الأجل، كما سبق بأي الأجلين يكون القضاء، فمن أجل إثارة الأسباب كثرت الآجال دون الأجل المسمى، وانتهى القضاء وإمضاء الحكم إلى المشيئة العلية في اعتراض الأسباب ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ هذا على سبيل السنة.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] وهذا بحكم الكلمة؛ إذ بالأعلى ينتظم الأسفل، فهلاك من أهلك لأجل

=

حقّ أو باطل، وقال ابن عطية: أي فرقة وجماعة وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس، وقال غيره: والأمة الجماعة قلّوا أو كثروا وقد يطلق على الواحد كقوله في قس بن ساعدة «يبعث يوم القيامة أمّة وحده» وأفرد الأجل لأنه اسم جنس أو لتقارب أعمال أهل كل عصر أو لكون التقدير لكل واحد من أمة، وقرأ الحسن وابن سيرين فإذا جاء آجالهم بالجمع وقال ساعة لأنها أقلّ الأوقات في استعمال الناس يقول المستعجل لصاحبه في ساعة يريد في أقصر وقت وأقربه قاله الزمخشري، وقال ابن عطية لفظ عنى به الجزء القليل من الزمان والمراد جمع أجزائه، والمضارع المنفي بلا إذا وقع في الظاهر جوابًا لـ«إذا» يجوز أن يتلقى بفاء الجزاء ويجوز أن لا يتلقى بها وينبغي أن يعتقد أنّ بين الفاء والفعل مبتدأ محذوفًا وتكون الجملة إذ ذاك اسمية والجملة الاسمية إذا وقعت جوابًا لـ«إذا» فلا بد فيها من الفاء أو إذا الفجائية، قال بعضهم: ودخلت الفاء على إذا حيث وقع إلا في يونس؛ لأنها عطفت جملة على جملة بينهما اتصال وتعقيب فكان الموضع موضع الفاء. [البحر المحيط ٥/ ٣٣٩].

تكذيب الرسل وعقوباتهم على وجوهها كلها، وكذلك إمهالهم وإثابتهم إلى ما وراء ذلك من ثواب وعقاب من سبل السنة، وتكذيبهم الرسل وعتوهم مقدور ذلك لهم، وعليهم بحكم الكلمة، ورجوع حكم السنة إلى حكم الكلمة كما تقدم بيّن ذلك لمن تدبر ووقف عليه.

قوله جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[1] فهذا كله كلمة، غير إن عملهم يوم إيجادهم على ما سبقت الكلمة من سنن السنة فكان إيجابه لهم الجنة، والعمل لها بغير عمل عملوه، ولا قدم قدموه، ثم لما أوجدهم تمم كلمته بالسنة، وإليه يرجع الأمر كله.

ويؤيدك على الوقوف على هذا - وفقك الله - بأن تستعرض معارف الأنبياء عليهم السلام، وأهل العلم بالله بذكر قصة موسى مع الخضر - صلوات الله وسلامه عليهما - حين سأله موسى أن يعلمه مما علمه الله، فشارطه على ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له به ذكرًا، فجعل صحبته له بشرط ترك السؤال وفراقه إياه بعد فقد الشرط. وكذلك الابتلاء.

وقال شعيب لموسى عليهما السلام: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ**﴾ [القصص:٢٧] وتمام العشرة نافلة.

قال لموسى: ﴿**ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾ [القصص:٢٨] ففرضا أجلين ائتمامًا بحكم الله جل ذكره في خليقته، أحدهما: فرض، والآخر: نفل، فأشبه ذلك الأجلين، والله ضربهما لخليقته أولهما بر الكلمة وسبيل الفضل، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**بر الوالدين يزيد في العمر**»[2] وفي أخرى: «**في الرزق**».

وقوله ﷻ: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ [هود:٣] أي: الأجل الذي إليه المنتهى، فإن اخترم به دونه يقتل ظلمًا أو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن عدي (٣/٤٣) وقال بعد أن ذكر الحديث وغيره: هذه الأحاديث بهذه الأسانيد مناكير. والديلمي (٢٠٩٠).

علة قاتله في الأغلب كما قال رسول الله ﷺ: «**الشهداء خمس سوى القتل في سبيل الله**»[(١)] فذكر المطعون والمبطون، والحرق وصاحب الهدم؛ لحديث: «**كان شهيدًا**».

وفي قول الله جل ذكره أبين بيانًا لما نحن سبيله، يقول عز من قائل: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ**﴾ [النساء:٧٨] أي: على أسبابه وآياته.

وقوله: ﴿**قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَو القَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ [الأحزاب:١٦] أي: إن سلمتم بالفرار والتحصن والحذر من الموت لا تمتعون بالعيش إلا قليلاً.

قوله ﷻ: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾[(٢)] [الحجر:٦] أخرجوا هذا الكلام على طريق التهزؤ.

ثم قالوا له: ﴿**لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الحجر:٧] حرف النفي إذا لزم حرف «لو» حسن الاستقبال بعده، ويجوز بعده سياق الفعل الماضي.

أتبع ذلك قوله الحق تعالى فيه: ﴿**لَوْ مَا تَأْتِينَا**﴾ تقدير الكلام على أحدهما: لو أتيتنا بالملائكة آمنا، ثم دخلت «ما» نافية الإتيان بها، فلم يكن نفيك إتيان به، فلذلك لم يكن منا بك إيمان ولا يكون.

قال الله ﷻ: ﴿**مَا نُنَزِّلُ المَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ أي: بالعذاب، أو بوجوب الموت، أو تبليغ وحي من الله ﷻ إلى عبد من عباده، أو برحمة يرحم الله بها من يشاء، وهو

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (١٠٨٤).

(٢) رموه وحاشاه ﷺ بالجنون مشيرين إلى أن سببه دعواه ﷺ نزول الذكر الذي لم تتسع له عقولهم، والإشارة في ذلك أنه لا ينبغي لمن لم يتسع عقله لما من الله سبحانه به على أوليائه من الأسرار أن يبادروهم بالإنكار، ويرموهم بما لا ينبغي كما هو عادة كثير من المنكرين اليوم على الأولياء الكاملين حيث نسبوهم فيما تكلموا به من الأسرار الإلهية والمعارف الربانية إلى الجنون، وزعموا أن ما تكلموا به من ذلك ترهات وأباطيل خيلت لهم من الرياضات، ولا أعني بالأولياء الكاملين سوى من تحقق لدى المنصفين موافقتهم للشرع فيما يأتون ويذرون دون الذين يزعمون انتظامهم في سلكهم، وهم أولياء الشيطان وحزبهم حزبه، كبعض متصوفة هذا الزمان، فإن الزنادقة بالنسبة إليهم أتقياء موحدون كما لا يخفى على من سبر أحوالهم. تفسير الألوسي (١٣/١٠).

هنا العذاب أو الموت؛ لقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر:٨].

ثم قال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] ظاهر الخطاب أن الذكر هنا هو القرآن، فهو قد حفظه من كذب الكاذبين وزيادة المبطلين ونقصهم منه، وهو أيضًا محفوظ حال نزوله وبعد ذلك من الشياطين ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٢] وإن كان المراد هنا بالذكر: العلم الحاصل عن التذكر والتفكر والنظر فهو أيضًا محفوظ عن سوى المظهرين، لا يناله الغافلون، ولا يهتدي إليه المعرضون ولا المكذبون به، كما قال عز من قائل: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] هذا بعض الأوجه فيه، وقد يكون الذكر النبي ﷺ، فالله أيضًا حافظه من الجنون الذي رموه به والكذب، أو أن يناله سحر الساحرين، وكلما كان حفظًا كان حفظ للوحي، فهو حفظ للمنزل عليه.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر:١١- ١٩].

ثم قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١)

(١) أي: مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم ﴿نَسْلُكُهُ﴾ أي: الذكر ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فالإشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق من إلقاء الوحي مقرونًا بالاستهزاء. والسلك: إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط. قاله الزجاج، قال: والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير «نسلكه» أي: لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها، وقيل: إن الضمير في «نسلكه» للاستهزاء، وفي «لا يؤمنون» به للذكر، وهو بعيد، والأولى أن الضميرين للذكر. فتح القدير (١٦٧/٤).

[الحجر:١٢ - ١٣] ثم هنا محذوف تقديره: «فإذا هم لم يؤمنوا به فقد خلت سننًا في الأولين» وعيد منه عز جلاله؛ يعني والله أعلم: عادًا وثمودًا والقرون الماضية الهالكة كما قال في غير هذا الموضع: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء:٢٠٠ - ٢٠١].

ثم أيأس من إيمان من لم يشأ الإيمان منه بقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر:١٤].

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر:١٦] لما أظهر لهم ما هي الأفلاك والبروج والكواكب والقمر فيهن، ولما جعلنا له ليعبروا بعقولهم إلى ما جعلنا شبهًا لها في وجود الدار الآخرة إلى قوله: ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] انتظم هذا كله بما هو ردٌّ عليهم، وأن سؤالهم آية على صدقه فيما جاء به، يقول: قد كان لهم فيما شاهدوه من خلق السماوات والأرض وجريان الأفلاك وتسخير الشمس والقمر والنجوم وتقسيمهما على ما قسمت عليه من بروج ودراري، ثم منازل الشمس والقمر، وتدبير الله في ذلك، وحفظ السماء من استراق الشياطين، ألا تدخل في النبوءات ما ليس منها، وتلبس الوحي [.....][1].

وأنزل الله الماء من السماء واحدًا موحدًا إلى الأرض يفصله إلى ما فصله إليه من جماد ونبات وحيوان وأناسي، إلى غير ذلك من مخلوقاته، موزون كل ذلك بأوزان مقسطة ومقادير معدلة، كل جنس من الحيوان والنبات والجماد أمة في نفسه يؤم بعضها بعضًا في أشكالها وألوانها وأرايحها وطعومها وخُلقها وخَلقها ومنافعها ومضارها، سنن قد سنت لها، وشرع شرعت لكل جنس منها، يتفاضل كل جنس في نفسه، فالمفضول مقصور على درجته، والفاضل قد فضله سواه إلى فاضل منها بين فضله.

وفي هذا كله ما يدل على الوحدانية والربوبية، وصفات الصانع والنبوة والسنة المشروعة للعباد، وعلى الرسالة وما جاءت به، وعلى فضل إنعامه على عباده

---

(١) ما بين [ ] كلام غير واضح في (غ)، ورسمه هكذا «باكذبوا بأيها».

وفضله الشامل المؤمن منهم، والكافر والطائع والعاصي.

يقول جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف:١٠] إشارة إلى موجود الجنة، ومن لستم له برازقين سخرها لنا إلى إنفاذ مرادنا وحمل أثقالنا، وأكلنا منها وشربنا وحمل عنا إرزاقها.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر:٢٠- ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ خزائن كل شيء [....][1] جل ذكره وتعالى علاؤه وشأنه، فكان من أول ما أوجد النور، ثم شق عن النور الروح، ثم شق عن الروح الهواء، ثم خلق عن الهواء الماء فريق به ما بين العرش إلى حيث انتهى، ثم فتق بالهواء ما رتقه بالماء، وأبقى حكم الماء في عين الهواء كما كان قبل معنى الماء في حكم الهواء، ثم جعل الهواء والماء خزانة لمخلوقاته وأرزاقها، يقول عز من قائل: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١] أي: ما ينزل المختزن إلا بقدر معلوم، ولذلك كان ما أوجد عنه بأوزان مقسطة وأقسام من أوصافها معدلة في طعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ومضارها.

ثم جعل يذكر بعض المختزن، وهو من الخزائن فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾[2] يشير إلى أنه خلقهم منه، ثم قال: ﴿وَمَا أَنتُم

---

(١) في الأصل هكذا: «كلمة».

(٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ﴾ عطف على ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وما بينهما اعتراض؛ لتحقيق ما سبق وترشيح ما لحق، واللواقح: جمع لاقح؛ بمعنى: حامل، يقال: ناقة لاقح؛ أي: حامل، ووصف الرياح بذلك على التشبيه البليغ، شبهت الريح التي بالسحاب الماطر بالناقة الحامل؛ لأنها حاملة لذلك السحاب أو للماء الذي فيه، وقال الفراء: إنها جمع لاقح على النسب كلابن وتامر؛ أي: ذات لقاح وحمل، وذهب إليه الراغب، ويقال لضدها: ريح =

لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢] توحد جل وتعالى بالاختزان والخزائن بقوله: ﴿وَلله خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [المنافقون:٧] يقول جلَّ قوله: ألم يكن لهم في هذا كله آية لهم على ما جاء به الرسول من توحيد الله جل ذكره والنبوة، وما جاءت به.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣] انتظم هذا الكلام بما تقدم من الاختزان والخزائن، وذلك أنه لما أرسل الرياح لواقح فخلق الماء في الهواء، وأنزله إلى الأرض بواسطة الملائكة الموكلين بالرياح والسحاب والمياه علوًّا، أنبت في الأرض نبات كل شيء، وخلق منه كل شيء حي،

=

عقيم، وقال أبو عبيدة: «لَوَاقِحَ» أي: ملاقح، جمع: ملقحة، كالطوائح في قوله: «ليبك يزيد ضارع لخصومة مختبط مما تطيح الطوائح» أي: المطاوح، جمع: مطيحة، وهو من ألقح الفحل الناقة: إذا ألقى ماءه فيها لتحمل، والمراد: ملقحات للسحاب أو الشجر، فيكون قد استعير اللقح لصب المطر في السحاب أو الشجر، وإسناده إليها على الأول حقيقة وعلى الثاني مجاز؛ إذ الملقى في الشجر السحاب لا الريح، والرياح اللواقح: هي ريح الجنوب كما رواه ابن أبي الدنيا عن قتادة مرفوعًا، وروى الديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن جرير وغيره عن عبيد بن عمير قال: يبعث الله تعالى المبشرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث المثيرة السحاب فتجعله كسفًا، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركامًا، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فيمطر. وقرأ حمزة: «وَأَرْسَلْنَا الريح» بالإفراد على تأويل الجنس، فتكون في معنى الجمع، فلذا صح جعل «لَوَاقِحَ» حالاً منها، وذلك كقولهم: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض، ولا تخالف هذه القراءة ما قالوه في حديث: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا» من أن الرياح تستعمل للخير والريح للشر؛ لما قال الشهاب من أن ذلك ليس من الوضع، وإنما هو من الاستعمال، وهو أمر أغلبي لا كلي، فقد استعملت الريح في الخير أيضًا نحو قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢] أو هو محمول على الإطلاق بألا يكون معه قرينة كالصفة والحال، وأما كون المراد بالخير الدعاء بطول العمر ليرى رياحًا كثيرة فلا وجه له.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّماءِ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابًا ماطرًا ﴿مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سقيًا تسقون به مزارعكم ومواشيكم، وهو على ما قيل أبلغ من «سقيناكم»؛ لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدًّا لهم ينتفعون به متى شاءوا، وقد فرق بين «أسقي» و«سقى» غير واحد، فقد قال الأزهري: العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام أو من السماء أو من نهر جار: «أسقيته» أي: جعلت شربًا له وجعلت له منه مسقى، فإذا كان للشفة قالوا: «سقى» ولم يقولوا: «أسقى». تفسير الألوسي (٩/ ٤٧٣).

فما في نبات أو حيوان أو جماد من ورقة أو ثمرة أو جزء من أجزاء ذلك كله إلا وعليه ملائكة، فمنهم جاذب ودافع، ومرسل وماسك، ومعد وقاسم ومدبر إلى غير ذلك من الأفاعيل والفاعلين، فإذا أتم خلقه ما شاء إتمامه وبلغه مراده فيه فجاء حينه وأجله أهلكه إن كان نباتًا أو حيوانًا أو جمادًا أو غير ذلك، وأمات من ذلك ما قدر عليه الموت، وأبقى ملائكة ذلك الموجود لما شاء؛ لأن الملائكة عليهم السلام منتظرون، فإذا أنزل ما أخَّره خلق عنه ما خلقه، وخلق معه ملائكة كما تقدم ذكره، ثم يعدم ما أعدم ويبقي ملائكته هكذا ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

فالملائكة - عليهم السلام - مع ما تقدم ذكره تقبض وجود كل ذي وجود كما يقبض ملك الموت أرواح بني آدم والحيوان، ويبقي بعدهم القابضون لوجود الموجودات يبقون بعد قبض ما قبضوه، ذلك قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣] كذلك إلى أن يعم بالموت كل حي، ويبقى هو ﷻ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر:٢٦-٤١].

قوله ﷻ فيما حكاه عن إبليس لعنه الله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩ - ٤٠] وفي موضع آخر من كتابه قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] ما في قوله: «رب» بما اسم معناه: رب، فبالذي أغويتني؛ يعني: من

قدرتك على ذلك وعلمك السابق منك في ومضاء مشيئتك في ذلك بذلك أرغب إليك، وأسألك أن تجعل إلي إغواءهم، ويكون معنى كلامه: رب بالذي أغويتني لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين وهذا الوجه يظهر على تأويل قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] وفي قوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٦٢].

وعلى هذا فهي زعامة منه - لعنه الله - وعلى ظاهر قوله في سورة الأعراف وسورة الحجر سؤال منه ورغبة إلى ربه؛ لينفذ له مراده في ذرية آدم، يقول: بما أغويتني وأضللتني بذلك أستعين على إنفاذ ما جعلته إلي واستعملتني فيه من إغواء من سبقت مشيئتك له بذلك، والتزيين إليه كما بذلك أغويتني وأضللتني وزينت إلي مخالفتك.

يقول الله جل ذكره: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١] استقامة الصراط ألا يكون لله شريك في ملكه، ولا وزير ولا ظهير في تدبيره، ولا مناقض لقضائه، ولا راد لأمره، ولما سأله الفطرة وفهم أن الله ﷻ هو الذي زين وقدر له مخالفته وعصيانه بدا ذلك من قول الله ﷻ في قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] [...][1] سأله قدرته على ذلك وعلى تدبيره الأمر كله أن يجعل على يديه إغواء من سبق علمه له لذلك؛ إذ هو [...][2] في عباده من يسلك به سبيل الضلال.

قال الله عند ذلك: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: إن هذا ليس بشرك في ملكي ولا تعقب على أمري، أنا قدرت الخير والشر والكفر والإيمان والطاعة والعصيان، وأكره ذلك ولا آمر به، وأنهى عنه ولا أرضاه ولا أحبه، وإنما الذي آمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وأنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا آمر بذلك والعالم بالشر وبالكفر ليس بشرير ولا بكافر، إنما يكون ذلك فاعله هذا صراط مستقيم.

---

(١) في الأصل: «قدره على قدرته».

(٢) ما بين [ ] بياض في الأصل.

ولما في ذلك من أنه لا يرضاه ولا يحبه ويكرهه حسن فيه «عليّ» وقرأ قتادة وابن سيرين وقيس بن عباد ومجاهد وعمرو بن ميمون وجماعة غيرها ولأجلّة: «**هذا صراط علي مستقيم**» بكسر اللام ورفع الياء وتشديدها؛ أي: رفيع علي، كما ينبغي لبرهان وحدانيته وعز جلاله وعلاء ألوهيته تنزه ﷻ بعلائه عن القبائح والرذائل والأعمال الفسلة والدعاء إليها والتحريض عليها، فخلق خلقًا يدعو إليها ويزينه ويتخذه ملة وشرعًا؛ ليتمم كلماته في خليقته، ويكمل أمره في بريته، وينفذ مراده في أعدائه وأوليائه.

قوله جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»(١) سبحانه وله الحمد.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**﴾ [الحجر:١٦] البروج: القصور.

قال الله ﷻ: ﴿**وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ [النساء:٧٨] أي: مبنية بالشيد، وهو الجص، بروجًا: يعني: قصورًا وحصونًا، و«زيناها» الضمير راجع إلى السماء، وكذلك الهاء في «حفظناها».

قوله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ [الحجر:٢٦] يعني: معفنًا منتنًا، وإذا كان الطين كذلك فهو الذي سُنَّ به سنن الخليقة.

ثم قال: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [الحجر:٢٨ - ٢٩] الدليل على أن سجود الملائكة لآدم كان سجود ائتمام بسجوده وهو لله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»(٢) وسجود القرآن كله يرجع إلى أصلين: أمر وائتمام بالملائكة والأنبياء -

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٨١)، وأحمد (٩٧١١)، وابن ماجة (١٠٥٢)، وابن حبان (٢٧٥٩)، والبيهقي =

عليهم السلام - وبموجودات السماوات والأرض [.......][١] الصلاة ولم يأمر ﷺ أن تصلي إلا لله.

قال رسول الله ﷺ: «**من صلى منكم وحده فليصل ما شاء، ومن صلى لغيره فليقصر؛ فإن فيهم المريض والكبير والسقيم وذا الحاجة**»[٢].

قوله تعالى: ﴿**فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾ [الحجر:٣٠] لفظ العموم في ذكر الملائكة - عليهم السلام - ثم التوكيد بعد التوكيد دليل على أن جميع الملائكة المخلوقين من النور ومن النار الذين يقال لهم: «الجن» المخلوقين من نار السموم سجدوا ليس كما ذكر من ذكر من تخصيص بعض الملائكة دون بعض في قوله، إنما كان الأمر متوجهًا على من حضر من الملائكة، والدليل حضوره ورؤيته له، وليس بمعجز آية جمعهم في الأمر وامتثاله والإحضار لا الإعلام ومراده المشاهدة في كل شيء خلقه الله إلى يوم القيامة، داخل في ذلك التكليف ومتوجه إليه ذلك الأمر هو الجامع من أسماء الله ﷻ، وهو شرع وارد من لدنه دون متوسط، فلذلك ما أسمع كل مراد بذلك الأمر، وقد أوكد العموم ثم أوكد، فإلى أين المذهب بعد هذا.

قوله تعالى: ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾ [الحجر:٣١] أي: سجود آدم يومئذٍ، ولا في المستقبل الساجدون لسجود آدم يومئذٍ؛ لأنه عليه السلام كالطائع للرسول المصدق الأتي من عند الله جل ذكره، الموقر المعزز إن الأمر يومئذٍ بالسجود لآدم هو أول التقديم للإمامة، وهو مبدأ الأئمة، وعم الرسل والأنبياء، وبذلك استوجب من أُمِر واقتدى، فاستوجب بذلك البقاء في جواره، وكونه عنده مقربًا وليًا.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**﴾ [الأعراف:٢٠٦] وكان لهم ذلك بالجزاء لطاعة ربهم، والائتمار لأمره

(٣٥١٦)، وابن خزيمة (٥٤٩)، وأبو عوانة (١٩٤٥).

(١) ما بين [ ] قطع في (غ)، وليس في (ف).

(٢) تقدم تخريجه.

في السجود لآدم عليه السلام خلافًا لإبليس - لعنه الله - لما أبى وعتا لم يجعله من الساجدين معهم يومئذٍ ولا في المستقبل، بل طرده ولعنه.

قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣١] و﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١١].

قوله تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] ما لك كلمة خاطب بها المتعاجز عن حظه الآبي عن رشده، التارك لسعادته، الراضي بشقاوته، يقول القائل: «يا هذا، ما لك لا تصلي؟ ما لك لا تقبل على حظك؟» وهو ضرب من التأنيب.

قال الله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥٤].

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨] وهو كثير.

وقوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] كلمة مقطوعة مما قبلها بوجه متصلة [........][1] ومنه يظهر المعنى، وبين الكلمتين حذف تقديره: «أبيت عن السجود، أو ما يشابهه [........][2] هذا في غير هذا بقوله: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ [الحجر:٣٢] أو لم تسجد ما لك لم تطع أمري؟» أظهر هذا في غير هذه السورة قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:٧٥].

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] والعادة على الأغلب أن يكون ما يأتي بعد «ما لك» بلفظ الماضي كقولك: «ما لك ألا صليت» فإذا جاء بعد لفظ الفعل الماضي بفعل يكون بيانًا له وتمامًا صرفوه إلى المستقبل، كقولهم: «ما لك ألا قمت تصلي، ما لك ألا قصدت فلانًا فتحظى عنده» فقد تبين أن ما بين قوله: «ما لك» وبين قوله: «ألا تكون» حذف تقديره وهو أعلم: «سجدت أو أطعت» أو ما يكون في معنى هذا، فيكون تقدير الجملة على هذا: ما لك ألا سجدت فتكون عندي من الساجدين في الحال المستقبل، ومع الساجدين طائعًا ووليًا مقربًا كمن سجد الآن من الملائكة؟.

---

(١) ما بين [ ] بياض في الأصل.

(٢) ما بين [ ] بياض في الأصل.

وقرأت من هذا قوله في سورة الأعراف وهو قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١١] يعني: الملائكة، فكان يحظَى عندي ويفوز الفوز كله ويتوجه أيضًا، ولم يكن من الساجدين؛ أي: مذكورًا بذلك في الأزل؛ ليكون منهم يومئذٍ وفي المستقبل.

قال: «يا إبليس، ما منعك ألا تسجد» هنا محذوف تقديره: ما منعك من السجود ألا تسجد إذا أمرتك فتكون من المؤمنين، جازاه على كفره وكبره وترك طاعته بأن لعنه وعزله عن القرب، وأهبطه من الحضرة القدسية، وسلط عليه الملائكة - عليهم السلام - وجعله رجيمًا فهو الرجيم والملعون إلى يوم الدين لما واقع الخطيئة ولعنه وطرده خشي أن يكون كما لعنه وأبعده أن يسلبه النظرة إلى يوم الدين، فإن الملائكة - عليهم السلام - لا يموتون إلى يوم الوقت المعلوم، فسأله النظرة.

﴿قَالَ﴾ له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾[1] [الحجر:٣٧] لحكمة بالغة له في ذلك من إتمام كلماته يثبته قوله ﷺ: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون...**»[2] بمشيئته وإنظاره.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

---

(١) أي: من جملتهم، ومنتظم في سلكهم. قال بعض الأجلة: إن في ورود الجواب جملة اسمية مع التعرض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعًا لهم في ذلك دليل على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم لا لإنشاء إنظار خاص به وقع إجابة لدعائه؛ أي: إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمة التكوين، فالفاء لربط الإخبار بالإنظار بالاستنظار، لا لربط نفس الإنظار به وأن استنظاره لتأخير الموت؛ إذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل، ونظمه في سلك من أخرت عقوبتهم إلى الآخرة في علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة، ولأن ذلك التأخير معلوم من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته في السؤال إلى البعث. انتهى.

وقيل: إن الفاء متعلقة كالفاء الأولى بمحذوف، والكلام إجابة له في الجملة؛ أي: إذ دعوتني فإنك من المنظرين. تفسير الألوسي (١٠/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى
سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ
أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ
الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٤٢-٦٠].

قوله جلَّ قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر:٥١ - ٥٢] حسبهم أضيافًا على مجرى عادته مع الضيفان، فتقرب إليهم قراهم عجلاً حنيذًا ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أكلاً ﴿نَكِرَهُمْ﴾ من معهود الأصناف ﴿أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأمنوا روعته بأن عجلوا له البشرى عن ربهم جل وتعالى؛ لأجل فزعه لأجلهم.

كذلك قال الله ﷻ لما رأى موسى من سحر السحرة ما راعه أوجس في نفسه خيفة يقول الله جل وعز: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ [طه:٦٨] فبشره بالغلبة والظفر، كذلك فعل رسول الله ﷺ وقد أوقع خالد بن الوليد - رحمه الله - بحي من العرب قد كان لهم تقدم عهد وشبهه، فكانوا يقولون: «صبانا صبانا» ولا يحسنون أن يقولوا غير ذلك مما يعبر عنه بالإسلام، فقتل وسبى وغنم، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**» وبعث بمال فودي ذلك كله حتى ميلغة الكلب، وأفضل على ذلك فضلة، وقال: «**وهذا لأجل روعتكم**»[(١)].

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٦)، وعبد الرزاق (٩٤٣٤)، وابن حبان (٤٨٣٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٨٧١) ولم يذكروا قوله: «وهذا لأجل روعتكم».

قوله ﷺ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:٥٤] يعد ذلك عليه؛ أي: ما بشروه به من الولد على كبره على سبيل المعهود من السنة، كذلك قالت امرأته وصكت وجهها: «ألد وأنا عجوز عقيم» فأخرج قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ مخرج الإبعاد، وإلا فقد كانت البشرى منهم تقدمت حين ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هذا من أمر الله، وبشراك هذه من عند الله، كما قال ﷺ في غير هذا: كذلك قال ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ القَانِطِينَ﴾ [الحجر:٥٥] أي: بكلمة الله، يكون هذا وهو الحق الكائن مقتضاه على سبق الكلمة خارجًا عن سبيل السنة، والله يفعل ما يشاء.

فصل

الظاهر من قول الملائكة أنه من ييئس أن يفتح الله في الأمر بما شاء من لطف من سبيل السنة ، وإن بعد العلم به وتعذر توهمه في الوجود في نفوسنا أو بما يكون من حكم الكلمة فإنه من القانطين، كذلك أجاب ﷺ بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾(١) [الحجر:٥٦] أي: عن معرفة قدرته على إمضاء مشيئته بما شاء وكيف شاء، وانتظار ذلك منه.

ولما سرى عن إبراهيم الروع وتفرغ من اقتضاء البشرى بما فيها قال لهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر:٥٧ - ٥٨] نعم، ثم استثنى آل لوط بكونهم بالمدينة معهم مختلطين بهم على حكم الجوار في القرية، ثم استثنى من آل لوط المرأة؛ لما اختلف حكم الإهلاك للقرية والمرأة.

أما القرية فجعلوا عاليها سافلها وأمطروها حجارة من سجيل، وهي حجارة فيها من حكم سجين لما كانت في سجين لم يسيرهم إليه قبل يوم الدين، اليوم المعلوم يوم الجزاء الأكبر كانت حالهم التي أهلكوا بها واسطة بين حجارة السجين

---

(١) قرىء بفتح النون من «يقنط» وبكسرها، وهما لغتان، وحكي فيه ضم النون، و«الضالون»: المكذبون أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب؛ أي : إنما استبعدت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي. فتح القدير (١٨٤/٤).

وحجارة الدنيا؛ لذلك كانت الحجارة التي أمطرت على أصحاب الفيل أيضًا، وهو كاشتراط الساعة أمر متوسط بين ما هو المصير إليه وبين معهود هذه والله أعلم، وهو اسم من أسماء سجين، أو ما يكون منه بسبب والله أعلم، وكانت المرأة المخرجة مع آل لوط، وأمر المخرجون ألا يلتفتوا.

قيل: فالتفتت فمسخت هناك تمثالاً، فشاركتهم في الهلاك وباينتهم في الكيفية، فاستثنى آل لوط من المهلكين، ثم استثنى المرأة من آل لوط بالبقاء مع المهلكين دون النجاة مع المؤمنين.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ
جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ
إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ
عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحجر: ٦١- ٧٣].

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ﴾ لوط عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بما كنتم تشكون؛ أي: من الحق الذي لا بد هو مصيبهم إن لم يكونوا يؤمنوا لك ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: من عند الله الواجب كونه ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦١ - ٦٥].

قيل: كانت ثلاث مدائن سدوم وعمرة وصغور، فاستأذن لوط عليه السلام أن تسلم لهم صغورًا لصغرها، فلحق بها قبل الفجر ونزل العذاب بأولئك حين طلوع الشمس.

قيل: أمطروا النار والكبريت بعد تأفيكهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣] وخسف بالقريتين وأجوارهما وجميع من سكنهما ومن كان يمر دخولاً بها، ونظر إبراهيم عليه السلام ضحوة ذلك اليوم إلى القريتين سدوم وعمرة

وجميع ما جاورهما والشرر يخرج عنهما والدخان صاعد كدخان الفرن، ثم خرج لوط ﷺ مع ابنتيه من صغورًا ولم يبت فيها. هذا منقول من الكتاب الذي يذكر أنه «التوراة» صدقه القرآن المهيمن، والحمد لله رب العالمين.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ أي: بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٥] مدح الله جل وتعالى لحلمه عن كبائر قوم لوط وتوجعه لإهلاكهم دون إيمان منهم ولا توبة وإنابة منهم إلى الله تعالى والملائكة والمؤمنين، فمفهوم هذا الخطاب: لزوم الرحمة لعصاة المؤمنين بالدعاء لهم.

وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه «التوراة»: قال: لما تحرك من عنده الرجال - يعني: الملائكة عليهم السلام - حولوا نحو سدوم وعمرة أبصارهم، وإبراهيم ﷺ يذهب معهم يشيعهم قالوا: إن سرف أهل سدوم وعمرة قد كمل وكثرت ذنوبهم وتكاملت جدًّا.

قال: وكان إبراهيم لا يعدو أن يتابعهم، وهذا والله أعلم معنى المدح بالإنابة.

قال: فتدانا وقال: أيهلك صالحًا مع طالح؟ إن كان في المدينة خمسون صالحًا يهلكون معًا، ولا يرحم ذلك الموضع للمحسنين الصالحين إذ كانوا فيهم، فعاد من ذكر الفعل بأن يقتل صالحًا مع طالح، وأنت تحكم على جميع أجناس الأرض فلا تحكم بهذا الحكم، فقال له السيد: إن وجدت في وسط مدينة سدوم خمسين صالحًا فسأعفو عن جميع تجوزاتهم، فأجابه إبراهيم وقال: إذ قد بدأت مرة سأعود وإن كنت غبارًا أو دمارًا، ما أنت فاعل إن وجدت من خمسين نقصانًا خمسة تخسف بالمدينة الخمسة والأربعين؟ فقال له: لا أخسف إن وجدت خمسة وأربعين.

ثم قال له: إن وجدت بها أربعين ما أنت صانع؟ فقال: لست أهلكهم للأربعين، فقال له: أرغب إليك ألا تحقد علي يا سيدي إن نطقت ما يكون إن وجدت فيها ثلاثين؟ فقال: لست أفعل إن وجدت ثلاثين، فقال إبراهيم ﷺ: قد بدأت أكلم يا سيدي، ما يكون إن وجدت فيها عشرين؟ فقال: لست أهلكهم للعشرين، فقال: أرغب إليك يا سيدي ألا تغضب علي إن سألتك بعد مرة، ما يكون إن وجدت فيها

عشرة؟ فقال: لست أخسف بهم للعشرة، قال: فارتفع السيد بعد إمساكه عن مكالمة إبراهيم، ورجع إبراهيم إلى موضعه.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨] وهذا الذكر شارح لقول الله جل ذكره في القرآن: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤] خاصة، ولم يكن ليقتصر على حال المجادلة [.....][1].

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: في هؤلاء المراد بهم العذاب ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦].

﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٤ – ٨٢].

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥] التوسم: التفرس.

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦] يمكن أن يكون الضمير في قوله عائدًا على القرية، يقول: وإنها لعلى طريق عامر كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧ - ١٣٨] ويمكن أن يكون عائدًا على العقوبة فيكون معناه: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ﴾ أي: العقوبة ﴿مُّقِيمٍ﴾ أي: من فعل فعلهم وحذا حذوهم يصيبه ما أصابهم، وقد استحق من العقوبة ما استحقوا كما قال فيها: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٢ - ٨٣] للمسرفين.

ثم ذكر أصحاب الأيكة وانتقامه منهم، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[2]

---

(١) ما بين [ ] مقطوع في (غ) وغير واضح في (ف).

(٢) ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لبطريق واضح يتكرر مع الأخبار عنها آنفًا بأنها لبسبيل مقيم على ما عليه

[الحجر:٧٩] الإمام: الطريق، ويقال له: النبي.

قال الشاعر:

لأَصْبَح رَتْمًا دُقَاق الحَصَى مكان النبيّ من الكاتِبِ

والتأويل في هذه الآية على وجهين كما تقدم.

فصل

والعرض المقصود الأول في هذه السورة، والله أعلم الذكر والتذكير، فابتدأ بقوله جلَّ قوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:١ - ٢] إلى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر:٥].

ثم سرد على ذلك قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:٦ - ٧].

ثم نظم بهذا جميع فصول السورة أو جلَّها، نظم بذلك قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] جعل ذلك من آياته على رسالته، يقول: فهذا ذكر لو كانوا يعقلون.

ثم كذلك إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ثم أوعد بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:١٢ - ١٣] يقول: كذلك؛ أي: كما فعلنا بمن قبلهم من الأمم المهلكة أعرضوا عن الذكر لما جاءهم والرسول والكتاب، فمنعناهم الفهم، وضربنا على قلوبهم وأغشينا أبصارهم وآذانهم فهم لا يؤمنون.

ثم أتبع ذلك بما هو في معناه قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا

=

أكثر المفسرين، وجمع غيرها معها في الأخبار لا يدفع التكرار بالنسبة إليها، وكأنه لهذا قال بعضهم: الضمير يعود على لوط وشعيب - عليهما السلام - أي: وانهما لبطريق من الحق واضح.

وقال الجبائي: الضمير لخبر هلاك قوم لوط وخبر هلاك قوم شعيب، والإمام: اسم لما يؤتم به، وقد سمي به الطريق واللوح المحفوظ ومطلق اللوح المعد للقراءة وزيج البناء، ويراد به على هذا: اللوح المحفوظ. تفسير الألوسي (٥٨/١٠).

﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[١] [الحجر:١٤ - ١٥] أي: إن الطبع على قلوبهم لعقوبة الإعراض يبلغ بهم إلى جحد المشاهدة العظمى وإنكار الغرائب والعجائب.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦] البروج: القصور.

يقول جل من قائل: ولقد جعلنا في السماء قصورًا لو تبينوا الآيات وبما هي آيات وعلى ما هي آيات لأبصروا بنور بصائرهم إلى أنها جنات حكمًا دون أن يكون الآن عينًا لحكمة الله تعالى في ذلك بستر عين الجنة لأجل الابتلاء بالإيمان بالغيب، فأبطن ذلك كما ستر الحيوان في مني الإنسان وغيره، ثم خلقه وبلغه إلى ما قدر له من صورة وخلقة وعمل وأجل، إلى غير ذلك مما هو الآن في عُلانا من سماء وسحاب والرياح اللواقح، فيخلق الله الماء في ذلك فينزله إلى الأرض كما ينزل الماء إلى الأرحام، ثم يفصله وينزله إلى ما إليه ينزله ويفصله من شبه لما ينزل عنه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ إنما صد عن الإيمان بذلك منهم الكفر عموا عن الإيمان، وحجب أن يكتب من المصدقين لغفلته، وسينقشع ذلك يوم انقضاء أيام الحياة [.......][٢] الآن محنة السجن الذي سجنوا فيه لشؤم المعصية، فجدير بمن آمن وأصلح أن يرجع من سجنه إليها؛ أعني: الجنة.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦] كذلك هي الجنة مزينة

(١) ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ كما قالوا ذلك عند ظهور سائر الآيات الباهرة، والظاهر على ما قال القطب: إنهم أرادوا أولاً سكرت أبصارنا لا عقولنا، فنحن وإن تخيلنا هذه الأشياء بأبصارنا لكن نعلم بعقولنا أن الحال بخلافه، ثم أضربوا عن الحصر في الأبصار وقالوا: بل تجاوز ذلك إلى عقولنا، وفسر الزمخشري الحصر بأن ذلك ليس إلا تسكيرًا فأورد عليه بأن ﴿إِنَّمَا﴾ إنما تفيد الحصر في المذكور آخرًا، وحينئذٍ يكون المعنى ما نقدم، وهو مبني على أن تقديم المقصور على المقصور عليه لازم وخلافه ممتنع، وقد قال المحقق في «شرح التخليص»: إنه يجوز إذا كان نفس التقديم يفيد الحصر كما في قولنا: «إنما زيدًا ضربت» فإنه لقصر الضرب على زيد. تفسير الألوسي (٩/٤٥٧).

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير موجود في (ف).

جعل تزيينه إياها آية على ذلك، ولا يراها إلا الناظرون في آياته.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر:١٧] كذلك أخرجهم منها وطردهم عنها يوم إباية أبيهم إبليس عن طاعة ربه والتوقير لآدم ﷺ والاقتداء بصفته، فيقول عز من قائل: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾(١) [الحجر:١٨] [....](٢) كذلك جعل حدَّه يومئذٍ بقوله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر:٣٤] وأبقى من جواره لآدم ﷺ والمهتدين من عباده النظر إليها بالقلوب والتوهم لها بالعقول، ومشاهدة الآيات عليها، وأبقى للرجيم استراق السمع، غير أن هذا أرصد له رجم الشهب، وهذا حياة مريد الإيمان ومباشرة الروح اليقين.

تنبيه: يقول ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١] وقرئ «سرجًا» برفع السين والراء وإسقاط الألف على الجمع، وجعل هذا في موضع السؤال عن نفسه ﷻ في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] فوصف البروج والنجوم والشمس والقمر بأنه هو الخبير به ﷻ.

---

(١) قال ابن عبَّاسٍ ﵄: ﴿إِلَّا مَنِ استرقَ السَّمْعَ﴾ يريد: الخفطة اليسيرة، وذلك أن الشياطين يركبُ بعضهم بعضًا إلى سماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة، فيُرمون من الكواكب فلا تخطيء أبدًا، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرقُ وجهه وجنبه ويده حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولاً، فيقتل الناس في البراري. روى أبو هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأمْرَ فِي السَّماءِ ضَربَتِ المَلائِكَةُ بأجْنِحَتِهَا خضعانًا لقوله كَأنَّه سِلسِلَةٌ على صِنْوانٍ، فإذَا فزِعَ عَنْ قُلوبِهِمْ قالوا: مَاذَا قَال ربُّكُمْ؟ قَالُوا: الَّذي قَالَ الحَقُّ وهُوَ العليُّ الكَبيرُ، فَيُسْمعها مُسْترِقُ السَّمع، مُسْترِقُ السمعِ هَكَذَا بَعضهُ فَوْقَ بَعْضٍ، ووَصفَ سُفْيَانُ بِكفِّه فحرَّفها وبدَّدَ بيْنَ أصَابعهِ، فيَسْمَعُ الكَلِمةَ فيُلْقِهَا إلى مَنْ تَحْتهُ، ثُمَّ يُلْقيها الآخرُ إلى مَنْ تَحْتهُ حتَّى يُلقيهَا على لِسانِ السَّاحر والكَاهنِ، ورُبّما أدْركهُ الشِّهابُ قبْل أنْ يلقِيهَا، ورُبَّما ألْقاهَا قبلَ أن يُدرِكَهُ فيَكذِب مَعَهَا مِائةَ كِذْبة، فيقالُ: ألَيْس قد قَالَ لَنَا اليَوْمَ كَذَا وكَذَا، فيصدق بتِلْكَ الكَلمةِ الَّتي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ» وهذا لم يكن ظاهرًا قبل أن يبعث الرسول ﷺ ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمانه ﷺ وإنما ظهر في بدء أمره، وكان ذلك أساسًا لنبوته ﷺ. تفسير اللباب لابن عادل (٢٩/١٠).

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير موجود في (ف).

قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر**»(١).

وأخبر عن هذه الرؤية إنها في الجنة إن شاء الله ﷻ، والشمس والقمر لا يكونان أبدًا إلا في البروج على المعهود المعلوم من مسالكهما فيها وسيرهما في منازلهما، وجعل رحمته فيها آية له على ذلك، وقد تقدم أنه يفتح برحمته من رحمته بالماء ينزله من السماء، فتخرج به الجنات على أنواعها معروشات وغير معروشات، ومن كل زوج كريم، وإنما يكون عن الإنسان الإنسان، ومن كل جنس جنسه، فافهم ولا يضلك الغافلون.

وقال الله ﷻ: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٢ - ٢٣] فكما أن نطقنا موجود فكذلك ما نوعده في السماء موجود، هذا قول الصادق - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - أقسم عليه وهو الحق المبين.

وقال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»(٢).

وقال يوما لأصحابه: «**أتدرون ما فوقكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هواء**» قال: «**أتدرون ما فوق ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ماء**» قال: «**أتدرون ما فوق ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**سماء**»(٣) فهذا ظاهر من قوله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣١٥٤) ونصه: عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ قال: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ مَرَّتْ سَحَابٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ؟ هَذِهِ الْعَنَانُ رَوَاءُ أَهْلِ الأَرْضِ يَسُوقُهَا الله إِلَى قَوْمٍ لا يَعْبُدُونَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ السَّمَاءُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذِهِ السَّمَاءُ مَوْجٌ مَكْفُوفٌ وَسَقْفٌ مَحْفُوظٌ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءٌ أُخْرَى، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَيَقُولُ: أَتَدْرُونَ مَا بَيْنَهُمَا؟ ثُمَّ يَقُولُ: مَا بَيْنَهُمَا خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: بَيْنَهُمَا خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الأَرْضُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذِهِ الأَرْضُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا تَحْتَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: تَحْتَ ذَلِكَ أَرْضٌ أُخْرَى، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا

=

ﷺ أنبأهم فيه عن رتبة هذه الموجودات في أماكنها، والهواء عن الروح، وهو جل هواء الجنة.

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] والريحان عن الماء؛ إذ كان معناه الرزق أو ما هو يفوح طيبًا، والسماء: الجنة ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُم﴾ الذي وعدتم به ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] أي: ما هو الأمر بالوعيد من السماء ينزل الأمر به، وقد ينزل الله من علو الصواعق ذلك عن إثارة نفسي جهنم بفيحها سعيرها وزمهريرها، فيكون عن ذينك النفسين إذا شاء الله ذلك الصواعق والبرد والصر الذي يهلك الحرث ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧] هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم.

وقال الله سبحانه: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر:٢٠] فقال: «مبنية» بلفظ الماضي، ولم يقل بلفظ الاستقبال كما قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠].

ألا تراه جل ذكره يبالغ في الإشارة حتى أرانا مثالها مشاهدة بما تقدم من التذكير حتى قال بعدُ بقوله إثر هذا: ﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ [الزمر:٢٠ - ٢١] إلى آخر المعنى، كذلك قال جلَّ قوله في الطرف الآخر قبل هذا: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦] وأخذ بالوصف للجنة من سفل ثم أصعده، وأخذ يوصف النار من علو ثم أهوى بها سفلاً، فافهم وفقنا الله وإياك.

فصل

الغيب له منازل؛ أعني: على المعهود الذي كلفنا تعرفه والإيمان به:

=

بَيْنَهُمَا؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرَضِينَ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ دُلِّيَ رَجُلٌ بِحَبْلٍ، حَتَّى يَبْلُغَ أَسْفَلَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ لَهَبَطَ عَلَى اللهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

أحدهما: ما هو كائن، لكنه غيب في وجود سواه، كالعلقة هي غيب في النطفة، والمضغة غيب في العلقة، والإنسان غيب في هذا كله على درجات انتقاله، وكالماء هو غيب في الهواء، وكالنبات هو غيب في الماء، والحيوان غيب في النبات، والماء والأرض والإنسان غيب في هذا كله على درجات انتقاله، فهذه منزلة غيب ما يوجده الله جل ذكره من حكم التوسعة في الدارين الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] بيّنه رسول الله ﷺ بقوله: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بِمَ يرجع منها؟**»[١].

والمنزلة الثانية: حكمها حكم حقيقة حياة الشهيد؛ حيث أخبر الله عنها بصدق قيله أنه حي يرزق ويسر ويستبشر ويأكل ويشرب [....][٢] يقول فيه: حيث هذا باطن غيب وحقيقة موجوده على ضد ما هو ظاهره، [....][٣] هذا بخلاف الظاهر منه.

والمنزلة الثالثة: حكمها وجود الملائكة - عليهم السلام - ووجود الجن معلوم لنا الآن ومشاهد لغيرنا، وأعلى من هذا كله وجودًا وأحق حقيقة: وجود الله العلي، الكبير - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - فهذا حق الحق، وهو غيب، فكذلك وجود الجنان حق بحكم التوسعة المذكورة أولاً بوجه ما، وهي موجودة بحكم وجود الغيب الذي ظاهره خلاف باطنه الذي هو غيبه، وهي أيضًا موجودة بحكم وجود الحق الذي كل وجود منتزع من وجوده، ونحن وإن كنا نرى سماء وأفلاكًا وبروجًا وشمسًا وقمرًا وهواء فهو حق وشرط كما أن حقيقة وجود الشهيد طعامًا للطير والسباع حق، ووجوده حيًا يرزق وجود حق، وقد أخبر بذلك الصادق الحق وأقسم عليه، فهو الحق والحمد لله رب العالمين.

وأما على قراءة من قرأ: «**وجعل فيها سرجًا**»[٤] وهي الكواكب، وهي في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير موجود في (ف).

(٣) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير موجود في (ف).

(٤) قراءة العامة: «سراجًا» بالتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي: "سرجا" يريدون النجوم العظام الوقادة.

والقراءة الاولى عند أبي عبيد أولى، لانه تأول أن السرج النجوم، وأن البروج النجوم، فيجئ
=

التأويل: الأنبياء والرسل والأولياء العلماء.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر:١٩ - ٢٠] من نظر في معنى هذا الخطاب فَهِم منه سر المراد، ومن بعض المفهوم منه جل وتعالى أنها جنة الأرض، استاق ذكرها نظمًا بذكر جنة السماء، ثم ذكر بخلقه آدم عليه السلام وخلقه الجنان، وذكر تعظيم ودِّه وكريم موالاته في عصمته للمجتبى عنده وصفيّه آدم عليه السلام وإكرامه إياه، وبما ابتدأه منه وحيث أسكنه ولِمَ أخرجه، وفي ذلك إنه لما اهتدى وتاب إليه رده إليها.

قال رسول الله ﷺ: «**لقيت آدم في السماء الدنيا وعن يمينه أسودة وعن يساره أسودة...**»[1].

ثم ذكر بالجنة والمغفرة منه والرحمة لعباده، وأنذرهم بعذابه إن لم يطيعوه ويؤمنوا به وبرسله، ثم ذكر بقصة إبراهيم ولوط وقومه وأصحاب الأيكة، وفي ذكر ذلك من تكذيبهم الرسل والكتب وعيد لمن فعل فعلهم وحذا حذوهم، وتحذير لمن عصى من هذه الأمة وترك الاقتداء والعمل بالطاعة، فإن ذلك تكذيب وكفر أصغر، فحذر من جزاء ذلك على قدره، فافهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الحجر: ٨٣-٨٨].

المعنى نجومًا ونجومًا. النحاس: ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلب قال: السرج النجوم الدراري. الثعلبي: كالزهرة والمشترى وزحل والسماكين، ونحوها. [القرطبي ١٣/٦٥].

(١) تقدم تخريجه.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ قد تقدمت إلى الحق المخلوق به السماوات والأرض إشارة، والله عنده مزيد الخيرات، ثم نظم بذكر الحق ذكر إتيان الساعة على اليقين بما في الموجودات من تمام ليل ثم نهار، وساعة ونفس وجمعة وشهر وسنة، كل ذلك يعود أولها على آخرها، كذلك كانت الدنيا عن الدار الأولى التي يشار إليها بالآخرة، وسيأتي آخر الدنيا ويحل أجل ذلك، ويعود آخرها كأولها، ثم قال: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[1] [الحجر:٨٥] أي: انتظر بهم واصفح عن استهزائهم يكون قولهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:٦ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٦] هذا منتظم بذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض، و«الخلاق» فعَّال على بناء التكثير والإجادة والإحكام، ثم هو إشارة إلى الإمساك، فإنه يخلق ويعدم أبدًا على الدوام في كل شيء موجود.

قال الله ﷻ: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] وقد تقدم ذكر هذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ المَثَانِي﴾[2] [الحجر:٨٧] قد تقدم القول

---

(١) أي: فأعرض عنهم إعراضًا جميلاً بحلم وإغضاء إن كان اللام الجنس، فالمراد هذا النوع من الصفح لا الذين يشتمل على حقد واجتهال ومكر، وإن كان للعهد فلعل المراد ما أمر به في نحو قوله: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ وقيل: هذا منسوخ بآية السيف، والأظهر أن حسن المعاشرة والمخالقة مأمور به ما أمكن، فلا حاجة إلى ارتكاب النسخ. تفسير النيسابوري (٤/٤٩٥).

(٢) اختلف العلماء في السبع المثاني، فقيل: الفاتحة، قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم، وروى عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة، من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلى، وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني»، قال: هذا حديث حسن صحيح، وقال ابن عباس: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معًا، إذ ليس بينهما التسمية.

فيها في صدر الكتاب، هذا منتظم بما في صدر السورة من قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦] إلى قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فذكر أنواع التذكار وما يقع عليه اسم الذكر، ثم عطف على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] والسبع المثاني بنص حديث رسول الله ﷺ في سورة ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

قال رسول الله ﷺ فيها: «**إنها أم الكتاب، وإنها أم القرآن، وهي السبع المثاني**»(١) وفي أخرى: «**وهي من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت**»(٢).

وهي سبع آيات على اختلاف في إدخال سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فيها أو إخراجه عنها، وقول رسول الله ﷺ الحكمة البالغة، هو الوحي يحتاج عند تفهمه إلى الاستبصار والبحث والتدبير.

جاء - والله أعلم - أن رسول الله ﷺ قال: «**أعطيت السبع الطوال مكان التوراة، وأعطيت مكان الإنجيل المبين، وأعطيت مكان الزبور المثاني**» فالمراد والله أعلم؛ يعني: قوله ﷺ: «**أعطيت المثاني مكان الزبور**» هو ما جاء في القرآن العزيز آتينا القصص والمواعظ والتذكر والتحذير من ذنوبٍ ومعاصٍ، وذكر منه [....](٣) فإن الزبور على هذا السبيل سبع مثاني «**وأعطيت فواتح الكتاب وخواتم سورة البقرة من تحت العرش لم يعطها نبي قبلي، وأعطيت المفصل نافلة**»(٤).

وفي أخرى: «**أعطيت البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى**»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام» (١٠٤).

(٣) ما بين [ ] بياض في الأصل.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه الطبراني (٥٢٥) والحاكم (٢٠٨٧) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (١٩٤٩٠)، وابن عساكر (١٨٨/٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٧٨).

وقال ﷺ في سورة الحمد: «**إنها من السبع المثاني**»(١) وهي سبع آيات وسبعة أسماء وخواتم سورة البقرة سبعة أسئلة، قال له الملك عليهما السلام: لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته.

أما قوله ﷺ: «**أعطيت السبع المثاني مكان الزبور**»(٢) فلم يأت فيما نعلمه تعيين هذه السبع المثاني إلا ما قاله في سورة ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢]: «**إنها السبع المثاني**»(٣) و«**إنها من السبع المثاني**»(٤).

يقول الله جل وعز: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي...**»(٥).

وقال رسول الله ﷺ فيها: «**ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل مثلها**»(٦).

وقال الله تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:١٤٥] فهذه أسماء الله ﷻ تجمل الوعظ، وعنها فصل كل شيء وجودًا وذكرًا؛ إن كان من الإيجاد فهو الإيجاد المحكم، وإن كان من الذكر والوعظ والكلام فذلك كله عنها انفصل، ويكون التفاضل في الموجودات على قدر الرضا [.....](٧) بعد فيما قرب، ثم الأقرب، ولما اتخذوا العجل إلهًا من دون الله وكان ما قد قصه الله جل ذكره من قصصهم إلى قوله: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾ [الأعراف:١٥٤].

فهذا إخبار منه ﷻ أن التوراة التي كتبها الله جل ذكره بيده انتسخ منها بأمر الله جل ذكره؛ أي: أثبت لهم في النسخة المنزلة إليهم ما هو هدى ورحمة، واقتصر فيها على الأمر والنهي والنصيحة والإرشاد لهم إلى ما ينجيهم من عذابه، ومنال ثوابه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه أحمد (٢١١٣٣)، وابن خزيمة (٥٠٠)، والحاكم (٣٠١٩) وقال: صحيح على شرط مسلم. وعبد بن حميد (١٦٥)، والدارمي (٣٣٧٣)، والبيهقي (٢٣٤٨).

(٧) ما بين [ ] بياض في الأصل.

﴿هُدًى﴾ أي: لقوم موسى ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ قوم عيسى، وبعدهم تابعوه بإحسان بمشاركة ممن اهتدى فيهم وخشي الرحمن بالغيب.

ثم قال بعد ذلك غير بعيد: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف:١٥٥] إلى قوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ورحمة الله وسعت كل شيء الظاهر لنا سماعًا وقولاً وعبرة في الموجودات هي أسماؤه، ولا تكون رحمته وسعت كل شيء إلا للمؤمن.

قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمْره كله خير، إن أعطي شكر فأُجِر وإن مُنع - أو قال: ابتلي - صبر فأُجِر، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن**»[1].

قال الله ﷻ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ....﴾ [الأعراف:١٥٦] فهذا يؤيد ما تقدم ذكره من العبرة، والقول بأن القرآن كله واحد فردًا [....][2] لم ينفصل بعد إلى كل شيء بفضل الله، عبر عن ذلك قوله في مفتتح أم القرآن وأم الكتاب: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ فجاء بالحمد الذي هو جامع للثناء والمدائح والذكر أجمعه وأضافه إلى اسمه الله جل ذكره، والذي جميع الأسماء له شارحة، ثم تفصلت عنه الأسماء جميعًا كما تفصلت عن الحمد وهو جامع الأذكار كلها.

أتبع ذلك ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فذكر الوجود كله الواقع عليه اسم العالمين، وهو كل مخلوق وكل مذكور وموجود سوى الله ﷻ، فظهر بذلك ما فصله إيجادًا، كما أظهر بتغاير الأسماء ما فصله عن اسمه الواحد الأحد من ذكر وإيجاد.

أتبع ذلك قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣].

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:٥ - ٦] به ظهر الوصل والاتصال، وبه حيي الوجود كله، وتراحم وتعاطف بعضه على بعض، الرحيم به، تمت رحمة الله بالإيمان

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٩٥٩)، والدارمي (٢٧٧٧).

(٢) ما بين [ ] غير واضحة في (غ)، و(ف).

والإسلام والطاعة، واتصل ذلك بهم إلى رحمة الله في الآخرة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] في الدنيا والآخرة عاجلاً وآجلاً من طاعة وجزاء، وكل ما تقع عليه اسم الدين، وبه ظهر الملك في العالم عيانًا، فلأنه الله الإله الرب الرحمن الرحيم الملك وجبت له الطاعة والخضوع والخنوع والمحبة والود والرضا بكل ما يقتضيه الجزاء عليه.

ولوجوب ذلك قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] وبما تقدم ذكره من الأسماء والأذكار العلا وما وجب عن ذلك مع قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وطلب العون من مالكها، في كل ذلك يثني الله جل ذكره قوله العظيم على تلاوة عبده، فهذا كالذي كتبه الله جل ذكره لموسى في التوراة من كل شيء؛ أي: من الأسماء من اللوح المحفوظ موعظة وتفصيلاً لكل شيء، ومن تدبر هذه الجملة وأمعن في التذكار، وامتحن نفسه في ذلك إلى ما يأتي من مثله في سائر القرآن من المعبر عنه بالقرآن العظيم وجده، والذي عبر عنه ﷻ عن مكتوبه في التوراة سواء.

ثم قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦ - ٧] إلى آخر السورة، كقوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤].

كذلك قال في الإنجيل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦].

كما قال في وصف القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾[1] [الحجر:٨٨]

---

(١) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح بنظرك طموح راغب، ولا تدم نظرك ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها ﴿أزواجا مِّنْهُمْ﴾ أصنافًا من الكفرة اليهود والنصارى والمشركين، وقيل: رجالاً مع نسائهم، والنهي قيل له ﷺ وهو لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة. وقيل: هو لأمته وإن كان الخطاب له ﷺ، وأيد بما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس - رضي الله =

أي: استعن بما آتيناك من نور وهدى وشفاء وموعظة من علم وعمل به.

كما قال في نظيرتها من سورة طه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ [طه:١٣٠] إلى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢] المعنى إلى آخره حيث ظهر.

ثم قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا يحزنك كفر من كفر، فذاك الذي قد شاءه الله جل ذكره منهم وبهم ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨] تودد لهم ورحب بهم وقربهم وتحنن عليهم.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ [الحجر:٨٩ – ٩٩].

﴿وَقُلْ﴾ لمن كذب أو استهزأ بك: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر:٨٩] وعيد وتهديد كما قال ﷺ: «وأنا النذير العريان»(١).

=

تعالى عنهما – أنه قال في الآية: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه، نعم كان ﷺ بعد نزول الآية شديد الاحتياط فيما تضمنته، فقد أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير أنه ﷺ مر بإبل لحي يقال لهم: «بنو الملوح» أو «بنو المصطلق» قد عنست في أبوالها وأبعارها من السمن، فتقنع بثوبه ومر ولم ينظر إليها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ ويعد نحو هذا الفعل من باب سد الذرائع. ومنهم من أيّد الأول بهذا وبدلالة ظاهر السياق عليه، وحاصلها مع ما قبل أوتيت النعمة العظمة التي كل نعمة وإن عظمت فهي بالنسبة إليها حقيرة، فعليك أن تستغنى بذلك ولا ترغب في متاع الدنيا، وجعل من ذلك قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» بناء على أن «يتغن» من الغنى المقصور كيستغنى وليس مقصورًا على الممدود. تفسير الألوسي (٦٩/١٠).

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٤)، ومسلم (٢٢٨٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٣٢).

وقال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[١] هذا كله من التذكير المتقدم.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر:٩٠] الكاف للتشبيه، والميم في قوله: «كما» اسم للذكر، وبخاصة منه مثلاته في الأمم الماضية والقرون المهلكة، وقد تقدم ذكر بعضهم في هذه السورة قوم لوط وأصحاب الأيكة قوم شعيب.

يقول: إنا أنزلنا على أولئك من الإهلاك والإضلال والعمى عن الهدى، وأملينا حتى أخذناهم بذنوبهم كما أنزلنا على المقتسمين؛ يعني وهو أعلم: الذين تقاسموا على الكفر من عنادهم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ورفضهم إرسال محمد ﷺ إليهم.

وقيل أيضًا: هم الذين كانوا يقسمون على الطريق ويبلغون الركبان يحذرون الناس منه وينفرونهم عنه بقولهم: «هو مجنون شاعر ساحر».

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١] يقول: قطعوه على أنحاء أباطيلهم وسبل ضلالتهم.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣].

يقول: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

ويقول: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٤].

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] أي: امضِ لشأنك وفرق بحق ما آتيناك أباطل أضاليلهم، وامضِ لشأنك وأبلغ عنا ما أمرناك بتبليغه.

يقول جل من قائل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥] من استهزائهم بما ذكره في صدر السورة كانوا قومًا بأعيانهم منهم أبو لهب وعبد ياليل وستة نفر دعا على أحدهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم سلط عليه كلبك»[٢] فافترسته السبع، وأبو لهب أصابه سهم جره إليه رداؤه وهو يمشي فأصابه في عنقه شيء لا يوبه له إصابته الدائرة منه، وآخر كان يطوف بالبيت فأشار جبريل بإصبعه إلى صدره فكان

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩٢)، ومسلم (٢٠٨)، والنسائي في الكبرى (١١٤٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي (١٠٣٤٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٥٦٥).

من ذلك هلاكه.

أخبر بذلك رسول الله ﷺ حتى استنفذهم الله هلاكًا، فقال له جل ذكره: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۞ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الحجر:٩٥ - ٩٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧] أي: من استهزائهم وهجرهم في القرآن.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٩٨] أي: تشاغل عن ضلالهم وفحشهم بعبادة ربك وانتظر به ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ هم الملائكة والمؤمنون، وجميع ما خلق الله من شيء، وبذلك أنَّب الله جل ذكره إبليس الملعون بقوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا﴾ سجدت فـ﴿تَكُونَ﴾ بذلك ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] ومن الساجدين ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] هو الموت، ويكون اليقين وعد الله له بالنصر والتأييد، وظهور دينه على الدين كله، والوجهان موجودان في وعده، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النحل(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ

---

(1) سميت بها لاشتمالها على قوله ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله ﷻ بعض خواص عباده أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب بحمل كلماته على مواضع الشرف وعلى المعاني المثمرة وعلى التصرفات العالية مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية وهذا أكمل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده، قال الحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر: هي كلها مكية، وقال ابن عباس: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد حمزة وهي قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقيل: إلا ثلاث آيات ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآية نزلت في المدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وقيل: من أولها إلى قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ مدني وما سواه مكي، وعن قتادة عكس هذا، ووجه ارتباطها بما قبلها أنه تعالى لما قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان ذلك تنبيهًا على حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عما أجرموه في دار الدنيا، فقيل: أتى أمر الله وهو يوم القيامة على قول الجمهور، وعن ابن عباس المراد بالأمر: نصر رسول الله ﷺ وظهوره على الكفار، وقال الزمخشري: كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبًا بالوعد، وهذا الثاني قاله ابن جريج قال: الأمر هنا ما وعد الله نبيه من النصر وظفره بإعدائه، وانتقامه منهم بالقتل والسبي ونهب الأموال، والاستيلاء على منازلهم وديارهم، وقال الضحاك: الأمر هنا مصدر أمر، والمراد به: فرائضه وأحكامه، قيل: وهذا فيه بعد؛ لأنه لم ينقل أنّ أحدًا من الصحابة استعجل فرائض من قبل أن تفرض عليهم، وقال الحسن وابن جريج أيضًا: الأمر عقاب الله لمن أقام على الشرك، وتكذيب الرسول، واستعجال العذاب منقول عن كثير من كفار قريش وغيرهم، وقريب من هذا القول قول الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وقيل: الأمر بعض أشراط الساعة.

خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟
بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ١-٨].

أول هذه السورة منتظم بالسورة التي تقدمت في أنهما معًا للتذكار والذكر، وخاصة جل هذه في التذكير بالنعم والآلاء، والإعلام بآثار الله جل ذكره وحكمته، ودلالاته على موجودات الآخرة عبرة إليها من موجودات هذه الدار، ولما انقسم الإعلام باسم اليقين في آخر الحجر إلى الموت وإلى ما هو وعد الله بالنصر والتأييد وإظهار الدين، وكل ذلك يشمله اسم الأمر قال ﷻ في مفتتح هذه: ﴿**أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ [النحل: ١].

وإتيان الأمر على أنحاء:

فمنه: ما يكون يومه خمسين ألف سنة.

ومنه: ما يكون يومه ألف سنة.

ومنه: ما يكون كيوم من أيامنا هذه، وكلمح البصر، وما هو أقرب، يقال: «أتى الشيء» إذا أتت أوائله وتباشيره، وأتى الشيء نفسه، والمراد بالإخبار عنه في هذا الموضع والله أعلم: هو الساعة نفسها، وانقراض الدنيا، ومن أشراطها: رسالة محمد ﷺ، فمن أشراطها يومئذٍ: ظهوره؛ إذ لا نبي بعده، وكانوا يستعجلونه بالعذاب الذي كان ينذرهم به كما كان يُفعل بمن كان قبله؛ أي: من كان قبلهم من الأمم بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وعلى هذا فيكون معنى قوله: ﴿**أَتَى أَمْرُ الله**﴾ أي: بنصره ورسوله وظهور دينه، ومن أوائله مجيء رسوله محمد ﷺ، عبَّر عن هذا المعنى وعما هو عنده الأولى قوله: ﴿**فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا**﴾ [النحل: ١ - ٢] واتصل بهذا المعنى قوله: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾.

وكان كثيرًا ما قدم ذكره في الكتب قبله وأنطق ألسنة الرسل على نوب جياءتهم

فكان معنى قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: الذي بلغكم ذكره وتقدم إليكم في الإيمان به، وأخذ عليكم الميثاق بنصره وتصديقه، فلا تستعجلوا كمال ظهوره وتمام وصفه، فإنه تبارك وتعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، وذلك مقتضى كلمته: «كن» فينزل ذلك القول مع الملائكة بالروح على المراد بذلك من عباده، يفهم من ذلك ﴿أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

هذا جملة الموحى به إليهم، وهي كلمة جمعت ما احتوت عليه جميع الكتب المنزلة جملة محكمة، ثم لا يزال بعد يُفصِّل هذه الكلمة بحكمته ويتممها بسنته فيكون من ذلك ما قد سبق في علمه لمقدار كلمته الموحى بها إلى ذلك الرسول، فرب رسول يتفصل في حقه تلك الكلمة إلى أن تأخذ أقطار الأرض، وتبلغ حيث بلغ الليل والنهار، ورب رسول لا يتفصل في حقه إلا قليلاً.

قال رسول الله ﷺ: «**عرض علي الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الرهط، ويمر النبي ومعه الرجل والرجلان، حتى رأيت سوادًا سد الأفق، فقلت: من هذا؟ فقيل لي: هذا موسى وأمته...**»(١).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

وقد كان من قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١] سبح نفسه وتعالى عما يشركون في الآية الأولى عند ذكر مجيء أمره الحق المشاهد في إتيان أمره بوحيه وتبيان دلالته في الخلق على وحدانيته، كما سبح نفسه وتعالى أيضًا لأجل شمول الحق المخلوق به السماوات والأرض، جمع ذلك كله كلمة الأمر، وهو المعنى الأول الذي به كان الحق في كل شيء، ولذلك أعربت شواهد الوجود كله بالعلم بالله وبأسمائه وصفاته، وما يجوز عليه وما يستحيل لديه.

ومن أسمائه وصفاته: المرسل والرسالة، وما أرسل به الرسل هو من أفعاله، فشهادة الموجودات فيما تقدم ذكره من العلم به وبالرسالة، وبما جاءت به يبلغ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٥٤٢٠)، ومسلم (٢٢٠)، وأحمد (٢٤٤٨)، والترمذي (٢٤٤٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٧٦٠٤)، وابن حبان (٦٤٣٠).

استقرار العلم به معرفة بالغة كمعرفة أحدنا بكلام من تقدم له العلم بمعرفة كلامه، وإن كان من وراء حجاب، وتمييزه من كلام سواه، وإن كلامه يدل على ما يريده وعلى العلم، ومع ما يدل مصنوعه على وجوده دلالة الفاعل على فعله والفعل على فاعله، ووحدانيته معلومة من حقيقته قيوميته أبدًا إلى ما دل عليه فعله، وذلك معلوم بقيام السماوات والأرض، لا تزول قيوميته أبدًا إلى ما دل عليه فعله، ولا يمور إلى أن يشاء ذلك، وذلك يدل على ألا شريك له ولا إله معه سواه، وعلى إنه شاهد غير غائب، وإنه لا ينام ولا يغفل، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ونبَّه أيضًا من معنى قوله الحق: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: إن كل شيء له أجل مسمى، وعرض في ذلك بطول المدة مذ خلقها لما خلقها له إلى أن يقوض البناء ويبدلهن بغيرهن، يقول: فلا تستطيلوا مدة انتظار هذا الأمر ولا تستعجلوا إتيانه، فهو إنما يأتي لوقته، وعرض أيضًا بقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بأنهم لطول الأمد نسوا حظهم وما ذكروا به فأشركوا به، وعدلوا.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] إرداف التبيان إتيان الأمر إلى مدده المؤجلة له، كما يأتي المراد بالنطفة إلى ما وجدت له، وهو أن يكون إنسانًا، ثم ينقله منقلة منقلة إلى تمام الأمر فيه الذي هو المراد منه، عبَّر عن ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يجادل في الله، أو يجادل عن الله، فربما أمهلناه على التمتع؛ ليأكل في ذلك رزقه، ويتقلب في أحواله المقدرة له من أعماله وأيامه إلى ما بين ذلك لينال إمهاله.

دلت الآية المتقدمة على أنه الواحد الحق ﷻ وألوهيته، وعلى المألوه والمخلوق، وعلى معرفة الرسالة والمرسل والرسول، لكن بآخرة، ثم هذه الآية دلت على الرسالة بما أخبر فيها عن تنقيل الإنسان وتقليبه في سنن سنته على سبيل النشء بمشاركة في الدلالة على القدرة والعلم والإرادة والحياة.

قوله ﷻ: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ [النحل:٥] عطف هذا الخطاب على ما تقدم؛ لاتصال ذكر الخلق بالأمر وتقارب معنييهما؛ لصدورهما من أمر الخالق جل وعلا بالوقوف على قوله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ وهذا تعداد النعم أوقع بالمعنى الذي استاق هذا الخطاب لأجله، والوقوف أيضًا على قوله: ﴿خَلَقَهَا﴾ بمعنى قد تقدم من

اتصافه بالقدرة والعلم والإرادة، وإنها من الحق الذي خلق به كل شيء.

وقوله جلَّ قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ [النحل:٥] فمعناه: إن كل ما خلقه من شيء في هذه الدار مسخر لبني آدم، فهي نعم كلها له عليهم فيها تأمل؛ ليصلوا إلى ما هو حقيقتها ومنبعثها، فإنها موجودة عن الجنة في الدار الآخرة، منبعثها من هنالك، ألا ترى أن الدفء استدفاع لأذى البرد، والتظلل استدفاع لأذى الحر الكائنين عن فيح جهنم، أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

وإلى ذلك انقسم نعم ما ها هنا إلى نعم نفع ونعم دفع، وإنما تخلص نعم النفع إلى ما جاءت به من قبله وهي الجنة، وبالضد في دار البوار، ورحمة الله تصرف هنا موجودات دار البوار إلى نعم النفع، فذكر ذلك جل ذكره تعدادًا لنعمه وإعلامًا بقدرته ووحدانيته.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥] هذه الكلمة إشارة إلى تعداد النعم، وتعريض إلى أنه عنها وعن الأرض ينشؤهم، وفي ذلك إشارة إلى الإعلام بالإعادة بعد البداية، وتعريض بإشارته إلى أنه خلقنا من فيح خارج من موضع عذابه، وفتح كائن عن رحمته بما ينزله من السماء من طيبات وزروع وثمرات وأنعام؛ لذلك أمرنا جل وتعالى بأكل الحلال الخالص، وبالزكاة لكل ذي روح أباح لنا أكله.

قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢].

كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٦٧].

وقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:٦].

ثم قال جل وعز: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ فيها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦] الجمال والحسن كله والملك من الجنة، فهذا من نعم النفع.

ثم قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ فهذا من نعم الدفع صرفها بواسطة نعم النفع حمل عنا بها المشقة برحمته إلى الانتفاع بها، وتعريض بأن أهل النار لا يسخر لهم شيء، بل يسلط عليهم كل ما سخر لهم هنا

وما لم يسخر بأعظم النكال وأشد العذاب؛ لذلك أعقب هذا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧].

فكان لهذا الخطاب وجه إلى تعداد نعمه، ووجه إلى الإخبار عن عظيم غنى موجودات الجنة، وجمال ما هنالك وحسنه، ووجه إلى الإعلام بحمل الأنعام ضحاياها وهداياها، وما ذكر اسم الله عليه وابتغى به مرضات الله، وحط الأوزار عن الموجهين لها إلى مرضات الله، وركوبهم إياها إلى بغيتهم، وجوازهم على الصراط بها؛ لذلك وهو أعلم عرض بقوله: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١) جعل فيما قدره فيما ها هنا من قطع أبعاد الأسفار وحمل المشقة بها عنا عبرة إلى ما هنالك.

أتبع ذلك بذكر ما لم تجرِ العادة على الأغلب بأكله، فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] يقول: من مخلوقات برية وبحرية وهوائية وأرضية لم ترها أبصاركم، ولا سمعت بها آذانكم، ولا علمتها عقولكم من مثالات هي بواطن لهذه الظواهر، وأرواح لأرواح وموجودات، وامتداد من الشياطين والجن وأتباع ذلك فيما مضى وفي الحال والمآل، ومن ملائكة تملك الملكوت، وآخرين يحفون بالعرش على أصناف ذلك

---

(١) ﴿إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ أي: مشقتها وتعبها، وقيل: المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بما ذكر وحذف بها؛ لأن المسافر لا بد له من الأثقال، والمراد: التنبيه على بعد البلد، وأنه مع الاستعانة بها يحمل الأثقال لا تصلون إليه إلا بالمشقة، ولا يخفى أن الأول أبلغ. وقرأ مجاهد والأعرج وأبو جعفر وعمرو بن معين وابن أرقم «بِشَقّ» بفتح الشين، وروى ذلك عن نافع وأبي عمر ووكلا ذلك لغة، والمعنى ما تقدم، وقيل: الشق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم؛ يعني: المشقة. وعن الفراء: إن المفتوح مصدر من شق الأمر عليه شقا، وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع والمكسور النصف، يقال: «أخذت شق الشاة» أي: نصفها، وجاء: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» والمعنى: إلا بذهاب نصف الأنفس، كأن الأنفس تذوب تعبًا ونصبًا لما ينالها من المشقة كما يقال: لا تقدر على كذا إلا بذهاب جل نفسك أو قطعة من كبدك، وهو من المجاز، وجوَّز بعضهم أن يكون على تقدير مضاف؛ أي: إلا بشق قوى الأنفس، والاستثناء مفرغ؛ أي: لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشق الأنفس. تفسير الألوسي (١٠٢/١٠).

وصفاتهم في مصافاتهم، وآخرين تعجب الخليقة من جماد ونبات وحيوان وإنس، وغير ذلك من قوى في جميع مواد الخلقة إلا من قوى تقترن به بذلك تدبرها ملائكته أو عدوا لذلك إلى غير ذلك مما يعلمه هو ولا نعلمه إلى مقدورات لا تتناهى، هذا في الدنيا، وقال في الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] و«في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[(١)].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ
ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ
بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ
لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ
فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن
تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾
[النحل: ٩ – ١٦].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل:٩] ليس على الغافل عن آيات الله سبحانه سبيل للوصول إليه، وكذلك المكذب بها كيف يكون لهما سبيل تضاف إليهما ولم يسلكا سبيلاً، ولا أخذا إليه في طريق، بل عُميًا وموتى، إنما الجائر عن السبيل والله أعلم من أخذ يتعرف أسماء الموجودات وخواصها ومواضعها وأشكالها وصورها وخلقها وطبائعها ومسالكها في مضارها ومنافعها دون عبرة بخلق إلى خالق، ولا من صورة إلى مصور، ولا اهتداء بفطرة

(١) تقدم تخريجه.

إلى فاطر، ولم يوصل الفعل إلى فاعله، ولا نسب الموجودات إلى مقتضياتها من الأسماء والصفات، ولا يعرف مخارجها من منبعثها، ولا وقف على ما اختص به الفاعل الحق جل وتعالى [......] هذا وهذا عبرة بذلك إلى الدار الآخرة وموجوداتها [......][1] الأمر كله مما تبرأ منه، فهو يتطلب خواصها وعللها ومفعولاتها، وينسب آيات الأرض والسماء إلى معهود بادئ الرأي، وظاهر مواقع الأبصار، فذلك هو الجائر عن السبيل الذي وقف بالدليل دون المدلول، وتشاغل عن الفاعل الحق بالمفعول أبدعت به مطيته دون الوصول حتى اخترمته منيته ولم يبلغ المطلوب.

وإنما قصد السبيل لمن تقصى تعرف الموجودات واعتبر بها إلى مآلها، وما يكون آخرًا لها، ويعرف منبعثها بأولها، ويعرف وجود الحكمة في وجودها، واستشهد بها على ما جعلت له، فتعرف بها فاعلها وما أراد به، ويقف بإيمانه على توحده جل ذكره بصنعها، وإنه الواحد الأحد الملك الحق، ويؤمن برسوله ويستسلم لربه، ثم يترضاه ويعمل له خالصًا دون دخل في عمل ولا دغل في دينه، فبذلك القصد السبيل لا يتجشم إليه قطع مسافة، ولا يتوهم دونه بعدًا سوى خلافه لأمره وجهله به، بل هو أقرب إليه من نفسه.

فرْد - وفقنا الله وإياك - كل فعل جاء ذكره في القرآن أو ظهر وجوده في العالم إلى الله جل ذكره، فهو وليه خلقًا وأمرًا، وتعرف لأي حق أوجده من موجودات الدنيا والآخرة، وما بين ذلك، وما يشاهد في عرصة القيامة، وما يجب الإيمان به والشهادة له بالربوبية أو عما كان أو هو كائن حق ثابت، نسب ذلك كله إلى أسمائه كل مقتضى إلى مقتضيه دون اعتقاد قطع مسافة ولا توهم بعد، فهذا هو النظر الحق والاعتبار الأعلى، وهو المعبر عنه بالصراط المستقيم، وهو قصد السبيل إلى ما أضيف إليه وعرف به، ولأي وجه ولأي معنى أوجد.

ألا تراه جل ذكره بعد هذا يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النحل: ١٠] هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، هو الله هو الله حيث جاء هذا الذكر صدر

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

بألوهيته، ثم يخبر عن ذلك بما شاء تحقق في ذلك كله أنه فاعله، ومنزله ومقدره وزارعه ومنشئه ومدبره، والقائم عليه وممسكه حال وجوده، ثم ما أصدره بعد من قول أو خبر أو من مثل، فعلى إثبات ما أخبر به، وتحقيق ما عرض إليه بذكر موجودات الدنيا وأفاعيله وضروب حكمته فيها، ويذكر بالحق الموجود في الدار الآخرة من دار القرار وما بينهما؛ ليعبر المعتبرون من شاهد إلى غائب، ومن صغير إلى كبير، وما عدا هذا النمط هو [......][(١)] أخذ من الجوار عن قصد السبيل لحظه، وجار بوصف عن سواء القصد بقدر بعده عنه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١٠ – ١١] ظاهر هذا تعداد النعم، ومفهومه وصف اقتداره على إنزاله من السماء ثم تشريفه إياه على سنته فيه وبه، وأخرج به على ذلك من كل الثمرات وخلقه عنه كل شيء، وذكر الشراب وسوم الأنعام في النبات تعريض بذكر ما عنه منبعث ذلك بأنه يخلق منه خلقه ويفصله إلى ما هو يفصله عن أنعام ونبات وأناسي، وفيه تعريض بحكم باطن الخطاب إلى معنى قوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٢].

وإنه لما أنزل من السماء الماء فأخرج به من كل الثمرات، وخلق منه كل شيء حي، فإذا بنزوله ذلك من زاد الحيوان، وآية للمعلوم من واجب وجوب الشبه بين الشيء وبين ما يكون عنه، كالنطفة من الإنسان يخلق الله منها إنسانًا، وكذلك غيره، ولوجود ذلك على الكشف أقسم رب العزة جل ذكره في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣].

هذا إلى ما تقدم ذكره من الدلالة على أنه يخرج الموتى كما يخرج النبات، وعلى أنه كما بدأ أول خلق يعيده، كما قال جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ الخُرُوجُ﴾ [ق:١١] و﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر:٩] كما يحيي الأرض بالماء ينزله من السماء فيصرفه إلى ما يصرفه إليه، ويخلق عنه أنواع النبات والحيوان، كذلك ينزله من السماء وقد مات

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

كل حي، فيخرج عنه الأحياء بعد موتهم يوم النشور؛ لهذا وأمثاله قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:١١].

قوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل:١٢] ظاهره تعداد النعم بتسخير ذلك وبما فيه من هداية لأهل الإبصار والبصائر، ومفهومه الإعلام بحسن الإبداع والإخبار عن كريم حكمته في حسن التقدير، وعدله في الأمر والخلق، وإنها آيات على ظهور الحق المبين، وتجلي المطلوب العلي في دار الحيوان دار القرار، وإن ذلك فيما هنالك على دوائر محكمة التدوار دون أفول فيما هنالك ولا غروب، وإنه كما أن موجودات هذه الدار عن أمره وفتح رحمته مع طلوع الشمس والقمر والنجوم المسخرات بأمره، فكذلك موجودات ما هنالك عن تجلي الحق المبين، فاقدروا قدر هذه الدار من قدر تلك ما بين أمر وأمر وخلق وخلق.

أتبع ذلك بقوله الحق: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٢] أي: يعقلون تلك من هذه، كذلك عرض بكونها جارية على سنن معلوم وشرع قويم إلى إرساله الرسل بشرائع محكمة وآيات مفصلة ودين قويم، وهداية منه إلى صراط مستقيم.

ثم قال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾(١) دل بذلك على اختلاف موجودات الآخرة، وإثبات القدرة والمشيئة والعلم له ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل:١٣] أي: بهذه ما هنالك ذكر في أولها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ [النحل:١٠] ذكره في الأولى الفكرة، وفي التي بعدها

---

(١) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأرض﴾ أي: خلق، يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا: خلقهم، فهو ذارئ، ومنه: الذرّية، وهي نسل الثقلين، وقد تقدّم تحقيق هذا، وهو معطوف على النجوم رفعًا ونصبًا؛ أي: وسخر لكم ما ذرأ في الأرض، فالمعنى: إنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية. وانتصاب ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ على الحال، و«ألوانه»: هيئاته ومناظره، فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكلّ في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرّده. فتح القدير (٤/ ٢٠٧).

العقل، وفي الثالثة الذكر؛ ذلك لأن الفكرة يبعثها الذكر فيثير مكنون العلم، وكلما أجلت الفكرة الذكر من العلم مجملاً من الغيوب أطلعته على شرف من الفهم، فلا يزال تقدمه به ويترقى هو بها في الأسباب حتى يصل، وقد قالوا بالتأني في تسهيل المطالب، وبالفكر الثاقب يدرك الرأي العازب.

وأما العقل فإذا كان الإيمان دليله والوحي أميره، ولقن الخطاب عنه وفهم الإشارة منه، وتوسم بالإشارة ووقف دون الأشباه، فخضع لمالكه ونضال لواهبه، وصابر النفس وداوم قرع الباب، ولج بمعقوله في بحار الأفكار بتصحيح شواهد الأسرار، وعند ذلك فاعلم يصل القلب إلى نسيم الهواء الواصل إلى الروح في ملكوت الضياء حيث القدرة الخفية عن الأبصار الظاهرة، فيقبل القلب الهواء الواصل إليه، ثم يتلاحق بمضمرات الغيوب فيحصل قربًا بالمطلوب الأعلى.

يقول الله جل من قائل: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:١٣].

وقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فصلت:٣٧].

وأما الذكر فإنه إذا وقف العقل على المختلفات من الموجودات من الألوان والصور، وعلى المؤتلفات منها ذكر الآخر بهذا الأول والنهاية بهذه البداية، وذكر في ذلك تصريف المشيئة العالية، وقهر القدرة الغالبة، وسعة العلم المحيط، وتحقق الصدق بالوعد الصادق، ووقف بلُبّه على صحة وجود الشيء من أول الأمر إلى غايته، فعند ذلك يتمثل له الآخرة عيانًا، وتمثل حقيقة التوحيد في باطنه مشاهدة، وقد يُكتَفى من حظ البلاغة بالإيجاز.

واعلم أن الأفكار جائلة في سعة تحسر عن إدراكها وتعجز عن الإحاطة بها؛ إذ قد لطفت تلك المعارف عن إحساس الأوهام، فمن الواجب أن تكون العقول متناهية إليها، متعلقة بأسبابها، معترفة بالتقصير عنها، ولتكن شاهدة لحقائقها، ممتنعة عن العلم بها إلى أن تصفو الأكدار، وتظهر الأخلاق من الأدناس فترتع في رياض الألباب، ويفتح الله جل ذكره لها صواب المصيب، فعند الصفو ومفارقة الكدر تعيش الروح وتعاين حقائق الغيوب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤] ظاهر هذا تعداد نعمه، وإظهار قدرته، وسعة علمه، إلى غير ذلك من صفاته وأسمائه، وفيه تعريض بطلب العلم، فمثال العلم على هذا التأويل المفروض البحر، فمن قائم على الشاطئ لا ينتفع بشيء منه سوى الإيمان به لا غير، ومن داخل إلى لجته ليصيد فينال بعض مآربه، ومن غواص إلى قعره ليستخرج مكنوناته، ومن عابر له بالفلك لابتغاء الفضل في سبيل دنيا أو أخرى، كذلك الناس في الحرص على طلب العلم والمعرفة بالله جل ذكره درجات، والله يؤتي فضله من يشاء لعلهم يشكرون، وقد تقدم الكلام في غير هذا الموضع على وجوه الاعتبار، فلنقتصر الآن خشية الإكثار.

ثم قال: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥ - ١٦] هذا وإن كان ظاهره تعداد النعم وإظهار القدرة فإن معناها أيضًا: الدلالة على معرفة النبوة؛ إذ الجبال والسبل والأنهار والنجوم أمثال للأنبياء والرسل والأولياء والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ
إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ
(٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ
أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ
ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾ [النحل:١٧-٢٦].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧] أرجع الكلام إلى أوله في صدر السورة ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النحل:٣]

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل:٤] ثم عطف بالواو فصول الكلام بعضها على بعض.

ثم عطف على الإخبار عن المقدور والإخبار بنعمته بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [النحل:١٨] المغفرة على وجهين:

- **مغفرة**: معناها الإمهال وترك الأخذ بالعقوبات من أجل الذنوب، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦] ومنبعث هذه المغفرة من معنى قوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] إذا شاء الله جل ذكره إمضاء أمر قيض له شفعاء يشفعون عنده فيه، فيشفعهم سبحانه وله الحمد.

- **والمغفرة الأخرى**: هي المغفرة التامة، مغفرته ذنوب المؤمنين، وفي هذه قيل: الله أجل من أن يغفر لعبده ذنبًا ثم يراجع فيه، فهذه المغفرة لا تكون من الله إلا لعبد سبق في علمه أنه بالإيمان أو بالتوبة يختم له ، جعلنا الله منهم بمنه وفضله.

قوله ﷻ: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:١٩] وصف الله جل وعز نفسه بأنه يعلم السر والعلانية؛ ليبين لمن أشرك سوء اختياره في عبادته ما لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر ولا ينتصر ولا يخلق ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠ - ٢١] يصلح هذا الوصف لمعبوداتهم ولعبادها.

---

(١) إشارة إلى أن النعمة نعمتين: أعطاف إعطائه ونعمة ألطافه، فنعمة أعطاف إعطائه ما يتعلق بوجود النعمة وهو على ضربين: نعمة ظاهرة، ونعمة باطنة، ونعمة ألطافه ما يتعلق بوجود المنعم وهو على ضربين: نعمة ذاته بالألوهية، ونعمة صفاته بالربوبية، وهي بلا نهاية فلا تعد ولا تحصى، وقال ابن عطاء: إن لك نفسًا وقلبًا وروحًا وعقلاً ومحبةً ودينًا ودنيا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحينًا وأصلًا وفصلًا. فنعمة النفس: الطاعات والإحسان والنفس فيهما تتقلب، ونعمة الروح: الخوف والرجاء وهو فيهما يتقلب. ونعمة القلب: اليقين والإيمان وهو فيهما يتقلب. ونعمة العقل: الحكمة والبيان وهو فيهما يتقلب. ونعمة المعرفة: الذكر والقرآن وهو فيهما يتقلب. ونعمة المحبة: الألفة والمواصلة والأمن من الهجران وهو فيهما يتقلب، وهذا تفسير قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ﴾ [النحل:١٨] لمن عجز عن شكر نعمة وجوده ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] لمن عجز عن شكر نعمة وجوده.

ثم سرد عليهم قوله الحق جلَّ قوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل:٢٢] فبين انتظام هذا بما تقدم يقول ﷻ: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلي الواحد الأحد بكل وجه وبكل معنى كما قال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] أتبع ذلك قوله الحق: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي: للتوحيد والتصديق بالآخرة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٢٢] عن التدبر به.

أتبع نظم ذلك قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ معناها ها هنا: لا بد ولا محالة ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النحل:- ٢٣] أي: من إنكارهم الحق إذا ما دعوا إليه تهديد منه ووعيد.

ثم سرد عليهم ما هو في معناه قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ أي: وإذا سألهم الأتباع ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٤ - ٢٥] هنا محذوف مقدر تقديره: أي قيضناهم لهذا القول، وأضللناهم عن الهدى؛ ليحملوا أوزارهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ...﴾ [النحل:٢٦] من فعل فعلاً ليس بصالح في اختفاء من الممكور عليه فقد مكر، ولما كان المستكبر عن قبول الحق مزدريًا بالرسل مستهزئًا بما جاءوا به من عند الله، وكان ذلك عن كبر في صدره ورفعه منزلة زعم أنها له دون من بذل له النصيحة عن الله جل ذكره استتبع الأتباع وكايد الرسل، وربما دعا إلى نفسه أتاه الله بالعذاب من حيث لا يشعر، وأخذه من أين لم يحتسب، فشبه الله بنية هذا الكافر هذا البناء وأخذه إياه هذا الأخذ بما ضربه مثلاً له.

ووجه آخر: وهو أنه قد خسف بكثير من العتاة؛ لتكبرهم كقوم لوط وقارون، وقد أغرق فرعون وجنوده في البحر، فكان أخذه لها وإتيانه إياهم بالعذاب من تحت أرجلهم، وقوض عليهم ما بنوا لهم يتحصنون به وأحاط بهم من بناء، وأقبل سقوفهم عليهم.

وقرأها الضحاك: «**فأتى الله بيوتهم من القواعد**» يريد والله أعلم: بما بنوه لأنفسهم من مكر في قلوبهم من رتب ومنازل مرفعة عن إقدار من سواهم، ومطالبة وإرصاد لهم وتربص، وإرادة الإيقاع بهم ونحو هذا.

والخطاب منتظم بذكر المستكبرين في قوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٢٢].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل: ٢٧ – ٣٣].

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [النحل:٢٧] كقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [هود:٩٩] إلى قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ إِنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [النحل:٢٧] الذين أوتوا العلم هنا هم الذين وقفوا بحقيقة إيمانهم على تحقيق الوعد والوعيد، كما قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا﴾ أي: في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] أي: عن الإيمان بالحق.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦] ومثله في القرآن كثير.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ﴾ أي: لقبض نفوسهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: بإهلاكهم وعذابهم، أو الفتح عليهم للمسلمين ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كفروا وكذبوا الرسل والكتب فأخذهم الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾ إذ

قد أرسل إليهم رسله وأعذر إليهم بكتبه وآياته مذكرًا لهم بما في ذواتهم من هداية الفطرة ﴿وَلَكِن كَانُوا﴾ في حالتهم تلك ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:٣٣].

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٤ – ٣٩].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل:٣٤] يقول: فاحذروا من التمادي في الغي أن يصيبكم ما أصابهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥].

وقال عنهم في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وقال في سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس:٤٧] وراثة ورثوها عن أثارة النبوة السالفة في أبيهم إبراهيم وبنيه من بعده.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨] وهي كلمة حق مرادهم بها الباطل؛ لطول الأمد، ولضلالهم عن نور الهداية.

يقول الله عز من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل:٣٣] يريد وهو أعلم بما ينزل: قالوا مثل هذا واستمروا على شركهم وتكذيبهم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ

﴿إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ﴾ [النحل:٣٥] ومعنى البلاغ هنا: التذكير والتنبيه على هدايتهم، والتبيين لحال ضلالتهم.

وقال في سورة الأنعام: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] أي: كذلك قال الذين من قبلهم ثم كذبوا بأفعالهم، واستمرار عقودهم على كفرهم وشركهم.

يقول ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] هل استدللتم على حقيقة ما قلتموه بكتاب من عند الله، أو نظرتم منه نظرًا تقفون به على أنه الحق من عند الله كما قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤] إنما قولكم ظاهر من القول لا أصل له في قلوبكم ثابتًا ولا برهان قائمًا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

كذلك قال في غير هذا الموضع: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ فكان الجواب منه جل ذكره على ذلك: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠] ففي هذا من الفقه إن شاء الله إن كلمة الإيمان مقرونة بوجود العلم والإخلاص لله ﷻ والعلم بالسنة أو نية واستسلام واتباع واقتداء، وهو المسمى إسلامًا.

قال الله ﷻ: ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] والعلم لا يكون إلا بالبرهان وصحة الدليل، وإلا فحكمه أن يكون ظاهرًا من القول لم يثبت له في القلب أصل، ولم يرتفع له فرع إلى السماء، بل هي كلمة مجتثة عن تحقيق من فوق القلب لا قرار لها من أصلها، ولا سمو لهم عنها، فهي على ذلك لا سمو لها ولا مطلع، وهذا لا توتي أكلاً ولا في حين من الأحايين، كذلك كل كلمة حق لم يتبعها علم يقترن بشاهد من الكتاب والسنة أو برهان صحيح، فهو رد.

ألا تسمعه جل ذكره كيف رد على قوم أنكروا الرجعة بعد الموت فقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ والدهر: اسم من أسماء الله جل ذكره، ولما كان وفاقهم للحق في أثناء إنكارهم الحق أجاب بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤] لم يحمد إصابتهم؛ لاستصحابهم الجهل في أقوالهم وأفعالهم؛ أما في أقوالهم فذكرهم هذه، وإنما عنوا

بذلك دوران الزمان واختلاف الليل والنهار لا الدهر الذي هو إليه ﷺ مرجع أفعالهم واستمرارهم على ضلالهم.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هاتان كلمتان من أمهات القرآن، وباجتماعهما يتم كمال الإسلام، ويصح سلوك الصراط المستقيم، وبذلك يخرج العبد من الظلمات إلى النور، ويستن إلى ربه سبل السلام؛ لأنهما شرطان لازمان فيه لا محالة مع الإخلاص، وإخراج القول بذلك بتصديق وإيمان إما عن تصحيح برهان وإما عن حسن تسليم واتباع، ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ ثم أضرب عن ذكر ما أصابهم به وعرض بقوله للمهتدين: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾[١] احرص أن يكون يقينك بوجوب وعد الله جل ذكره كوجوب كون

---

(١) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ﴾ شروع في بيان فن آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث، وهو على ما في «الكشاف» وغيره عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الذين أَشْرَكُوا﴾ [النحل:٣٥] قيل: ولتضمن الأول إنكار التوحيد، وهذا إنكار البعث، وهما أمران عظيمان من الكفر والجهل حسن العطف بينهما، والضمير لأهل مكة أيضًا؛ أي: حلفوا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمانِهِم﴾ مصدر منصوب الحال؛ أي: جاهدين في أيمانهم ﴿لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ وهو مبني على أن الميت يعدم ويفنى، وأن البعث إعادة له، وأنه يستحيل إعادة المعدوم، وقد ذهب إلى هذه الاستحالة الفلاسفة، ولم يوافقهم في دعوة ذلك أحد من المتكلمين إلا الكرامية. وأبو الحسين البصري من المعتزلة، واحتجوا عليها بما رده المحققون، وبعضهم ادعى الضرورة في ذلك، وأن ما يذكر في بيانه تنبيهات عليه، فقد نقل الإمام عن الشيخ أبي علي بن سينا أنه قال: كل من رجع إلى فطرته السليمة ورفض عن نفسه الميل والتعصب شهد عقله الصريح بأن إعادة المعدوم بعينه ممتنعة، وفي قسم هؤلاء الكفار على عدم البعث إشارة كما قال في «التفسير» إلى أنهم يدعون العلم الضروري بذلك، وأنت تعلم أنه إذا جوز إعادة المعدوم بعينه كما هو رأى جمهور المتكلمين فلا إشكال في البعث أصلاً، وأما إن قلنا بعدم جواز الإعادة لقيام القاطع على تلك فقد قيل: نتلزم القول بعدم انعدام شيء من الأبدان حتى يلزم في البعث إعادة المعدوم، وإنما عرض لها التفرق ويعرض لها في البعث الاجتماع فلا إعادة لمعدوم. تفسير الألوسي (١٠/١٦٠).

الليلة دون غد، بل وجوب وعد الله أحق حقًّا من ذلك؛ لذلك أعقب بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٣٨] يفعل ذلك؛ ليجزي كلاً بما عمل.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩] كقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦] في عرصة المحشر، يقول: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد المعنى لهذه الوجوه وأمثالها يبعثها الله جل ذكره بعد الموت، وأيضًا فلأنه الباقي الدائم، فما أصابكم به أو فعله فهو أيضًا دائم باقٍ، وإنما أماتهم بعد إيجادهم تفرقة بين عزته وذلتهم، ولبقائه وألوهيته وحكمة الحق، وديمومية الحق لم تتبع لسواه أن تساويه في صفاته؛ ذلك لأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض فهو إذا أمضى فيهم حكمه وأحكم قضاءه أوجدهم للبقاء والدوام، وعلى سنن النشء ونشوء الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً؛ لأنه المبدئ المعيد، والأول والآخر، والمحيي والمميت، فافهم.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٠ - ٤٧].

أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] الأمر هنا بمعنى الشأن، فسمى المراد قبل إيجاده إياه شيئًا؛ إذ كان عنده مشهودًا يراه ويعلمه ويسمعه حتى أوجده؛ إذ شاء لما شاء، وعلى الموجود تختلف معاني الوجود والعدم لا على الموجد، وقد تقدم الكلام في معنى قوله: «كن» وإنها للكلمة أو قوله: «فيكون» للسنة.

قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] أحال الله جل ذكره قريشًا والعرب لجهلهم بهذا الأمر على أن يسألوا أهل الذكر وهم أهم الكتاب: هل الرسل الذين أرسل إليهم وإلى من قبلهم من البشر أم لا، وإنهم لم يكونوا ملائكة، بل كانوا رجالاً من أهل القرى أرسلهم إلى الناس ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الكتب وآتاهم المعجزات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ يريد: الكتب، ثم قال عز من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

الذكر قد يكون القرآن نفسه، قال الله ﷻ: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء:٥٠] وقد يكون بعض القرآن ومعنى من معانيه، قال الله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] ثم قص أخبار الرسل والأنبياء.

ثم قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ ثم ذكر مآب ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ص:٤٩] وقال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ فأردف عليه ذكر مآب الظالمين وقال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ والذكر أيضًا قد يكون بعض ما أوحى إليه وإلى سواه من الأنبياء والرسل والكتب كلها بما فيها ذكرًا.

قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩] أراد به والله أعلم: إنما يشير به إلى قوله قبل هذا: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨] فإن قصص الأنبياء وذكر آيات الأرض والسماء يكون ذكرًا؛ لأن بها يتذكر وبها يشهد بعلم لا إله إلا الله والحمد لله ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] من هذا الضرب إلى آخر السورة، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص، وأول سورة الحديد، وأمثالها في القرآن هو الواقع عليه اسم الذكر مشهرًا، وهو القرآن العظيم؛ لذلك وهو أعلم أعقب بقوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه:١٠٠ – ١٠١] وهذا النوع من الذكر يخفف به الأوزار أولاً، ثم بما عداه من الذكر ثانيًا، ويدل على صحة ما قلناه، والله أعلم.

قوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩] فهو الذكر اللدني، وقد يكون الذكر المراد في هذه الآية المتكلم عليها: ما ملأ به صدره قبل من حكمة وإيمان،

وما يحتوش الوحي من أمر وروح ونفث في روع، وما الأنبياء - عليهم السلام - به أعلم بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهو القرآن، ثم قال: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] أي: فيما أتاه عباده المؤمنين من هذا المشار إلى بعضه، عباده المؤمنين إذا تفكروا تذكروا، فإذا تذكروا أبصروا، فإذا أبصروا علموا ما لم يكونوا علموه قبل التفكر.

قوله ﷺ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَو يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥] إلى قوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧] الذين يمكرون السيئات هم المستكبرون؛ لما كان مكرهم من جنس ما تنهد به الجبال، وتنفطر منه السماوات، وتنشق منه الأرض كانت عقولهم أن يخسف الله بهم الأرض إلا ما عفا الله عنه من ذلك، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو يأخذهم في تقلبهم، هؤلاء هم الأتباع؛ أي: في إقبالهم وإدبارهم حال سعيهم وتصرفهم، أو يأخذهم على تخوف؛ أي: على تنقص، والتخوف لغة في التنقص وربما كان المراد الخوف بعينه يأخذهم على خوف وهم لم يرجعوا، وهؤلاء هم المذنبون من المسلمين؛ إذ لا يقال للكافر هو على تنقص من دينه وإسلامه وإيمانه، بل هو عديم الدين مفلس من الإيمان.

ويمكن أن يكون معنى التخوف ها هنا حال إصراره، فإنه يخاف عليه إن مات على ذلك أن يعذب بذنوبه ما لم يتب، وإن كان لا يقطع على ذلك، فلذلك كان لفظ الخوف أولى به، وقد قيل: يأخذهم على تخوف؛ أي: ليخوف بهم غيرهم يجعلهم عظة لآخرين وعبرة، فالله أعلم، ويقوي هذا التأويل في أنه الموحد المصر على ذلك ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٤٧].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ

ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل:٤٨ –٥٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إلى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[١] [النحل:٤٨] اليمين والشمائل هنا - والله أعلم بما ينزل - بالإضافة إلى القائم مستقبِل المشرق، وهو وجه الدنيا لطلوع أنوارها من هناك، ونزل القرآن على قطر هذا وذاك، فكانت العرب تجالس في نواديها تستقبل الشمس وتسمى تلك الناحية: القبول، وتسمى ناحية الغرب على ذلك: الدبور، والقبلة الجنوب، والجوف الشمال، فأفرد ذكر اليمين لعمارة الضياء إياه، ولتسلل الظل عن ذات الشمال من القائم يقال طلوع الشمس إلى عين استوائها، كثر لفظ الظل؛ لأنه حيث حل من ذات الشمال من القائم فهو ظل له.

وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان:٤٥] يريد وهو أعلم: من حين غروب الشمس إلى قبل طلوع الشمس.

قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان:٤٥].

كما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [القصص:٧١].

يقول الله جل من قائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] أي: ليمتاز منه، وليعرف به أوقات الصلوات وغير ذلك.

يقول جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦] الليل أول النهار الذاهب، ممتد من المغرب لمقابلة الضوء القائم بالشمس الطالعة من مشرقها، فلا

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما «تتفيأ» بالتاء لتأنيث الظلال، الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد، أي يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلص ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى، فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع سجودها، ومنه قيل للظل بالعشى: فيء، لأنه فاء من المغرب إلى المشرق؛ أي: رجع، والفئ الرجوع، ومنه ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ روى معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما، وقد مضى هذا المعنى في سورة الرعد، وقال الزجاج: يعنى سجود الجسم، وسجوده انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة، وهذا عام في كل جسم.

تزال الشمس تطلع وهي في ذلك تسير في قوس دائرتها فيقصر لذلك الظل، فهو قبضه إياه إليه، ولكونها سائرة في دائرتها يعم الظل ذات الشمال منه، فيكون ذلك سجودًا منها لموجدها.

وتوجيه التأويل قوله: «إنه يقبضها إليه» أعني: الظلال، فذلك إما لأنه يعدمها كما يقال في الميت: «إنه ذهب إلى الله» أو لأنه بخلقه الضياء والله هو نور، والنور منسوب إليه، والنور من أسمائه ليس كذلك الظلام، فقوله: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨] هو في الظاهر حال تفيؤها أمام ضياء الشمس، وهي من آياته في السماء والأرض، فهي بذلك ساجدة داخرة صاعدة لها؛ إذ ليس يفعل ذلك بها سواه.

وإنما سجودها - أعني: ذات الظلال - لسجود ضياء الشمس، وسجود الضياء لسجود نفس الشمس التي هي ضيائها سبحانه وله الحمد، فالضياء لا يزال يطردها بأمر الله مضطرة عن أماكنها داخرة مادامت الشمس طالعة من مشرقها إلى حد استوائها، فيكمل إذ ذاك قيام الشمس وسجود الظلال، وذلك نهاية سجودها.

ثم يأخذ سجود الشمس في الإعلان به حال نزولها عن موضع استوائها، فيأخذ الظلال في القيام لله ظهور لسجود الشمس له إلى حال سقوطها في مغربها، وذلك نهاية ما يبدو للناظرين من سجودها وقيام الظلال، فلا تزال الشمس ساجدة لربها حال طلوعها من الغد والظل قائم لربه جل ذكره، كذلك الليل يطلع، فما دام كذلك فهو قائم لبارئه، فإذا سقط الشفق خرَّ ساجدًا، فلا يزال ساجدًا بوجه وقائمًا بوجه إلى أن تطلع الشمس، وقد قُبض إلى ربه.

وجعل الله الشمس آية على خليفه الليل الذي هو الظل بين طلوع القمر وبزوغ الشمس دليلاً، فالظلال ساجدة ما كانت زائدة على قامات أشخاص ما هي ظلال لها، فهي إذًا ساجدة بكرة وعشيًا، وساجدة حال تفيؤها في حال تنقصها عن قامات أشخاصها، ويتناهى سجودها وسجود الشمس وسجود الليل، وبيّن التناهي في ذلك هو حال ركوعها.

قال الله ﷻ: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] وقد تقدم ذكر حال تفيؤها، وإنه منها رجوع

بالإضافة إلى نهاية سجودها، سبحانه وله الحمد، كل له قانتون، بديع السماوات والأرض، على ذلك فطرهن، وأنا على ذلك من الشاهدين، هذا ذكر سجودها الظلال، والخبر مع ذلك الكلام في ذلك لسجود الشمس؛ إذ هي دليل الظلال يسجد بسجودها، ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٥] أي: تدل ظلال الموجودات بسجودها هي لبارئها، كذلك يفعل الدال بالمدلول به، يتبعه ويفعل كفعله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل:٤٩] لما أرانا سجود الظلال وسجود الشمس والقمر والنجوم أعلمنا بأن سجودها وغيرها من الموجودات التي هي تلك الظلال ظلالاً لها إنما هو لله جل ذكره لا لسواه، وإنه كما يسجد ظل الشخص كذلك يسجد الشخص، كيف لا وإنما يسجد الظلال لسجود ما هي ظلال لها؟ وكما تقدم أن سجود الظلال لسجود ضياء الشمس وسجود ضيائها لسجود حقيقتها فتقدير الكلام: ولله يسجد ما في السماوات من شمس ومن قمر وسحاب وهواء ورياح ومياه ورعد وبرق وأفلاك ومشارق ومغارب، والسماوات وما فيهن، والأرضون وما فيهن، وما بينهن من دابة، فنصَّ في هذه الآية على ما لا يوصف بعقل.

ونص في غير هذه على من يعقل وما لا يعقل فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨].

وذكر في سورة الرعد من تعقل، والمراد به: العموم، رجع الكلام إلى تلاوة الآية الأولى قوله: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ ثم قطع فقال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٤٩] يعني: الملائكة وجميع الوجود؛ أي: يسجدون وهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون إلى قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠] إذ أمره إياهم أمر كون فلذلك لا عصيان يؤخذ عنهم أو لا خلاف.

فصل

أعلمنا الله تعالى جل ذكره بما تلاه علينا أن السجود مقترن بالصغار والذل له والاضطرار، وأفهم بما نزله في سورة الرعد أن الزيادة من الظل على قدر القائم هو سجود، وكذلك النقصان، فقال: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] وإنما تكون زيادتها ونقصانها بكرة وعشية، فالمفهوم من هذا: إن الظل ما لم تغرب الشمس أو تقم قائمة في نحر الظهيرة، ولم يتناهى سجودها بعد ما لم يتناهَ ذلك منها، فهو منها ركوع؛ إذ هو بعض السجود.

فصل

فإذًا سجود الأشخاص كلها مضطرة ليست [كذلك سجود المكلف أن يكلف سائر عباداتهم كذلك سجود ظلالهم اضطرار وسائر عباداتها كذلك][1] عن ذواتها من أقدار وأحوال بتصرف وصور وأعراض تبدد ومنافع ومضار وصفات إلى غير ذلك من أنواع ما هي عليه مجبولة، وإليه مصرفة ومدبرة، وأبين ما يكون ذلك في الجماد والنبات، وعلى ما يأتي بيانه في الحيوان وما فوقه.

فصل

قال الله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [النحل:٤٩] و﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الحج:١٨] فعم بحرف «ما» و«من» الدقيق من الموجودات والجليل، وما لا يوصف منها بعقل وما يوصف به.

وقال: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [هود:١٢٣] ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٤٢] وما هو ملك له ساجد له لا محالة، وفيما تقدم من ذكر الحق إن الدنيا نبذة من الآخرة خيرها وشرها سرابها وصرابها؛ فالجنة إذًا وموجوداتها أشرح سجودًا وأوضح تسبيحًا، وأعرق في صفة العبودية وجودًا وكذلك النار -

---

(١) ما بين [ ] هكذا في الأصل، وهو غريب.

أعاذنا الله الرحيم برحمته - منها.

ولما أذن الله جل ذكره لجهنم أن تتنفس نفسيها المعهودين المأذون لها فيهما أحقيتهما الفلك الدوار بأمره، وأجراهما في الرياح، وأشاعهما في الأجواء، وأسكنهما في الأرض، يبطن هذا بإظهار هذا، ويظهر هذا بإبطان هذا، وإدبارهما في إقبالهما، وإدبارهما في دوائر محكمة التدوار، وتولهما مبؤات هي مطالع الشمس في مواقع النجوم.

قال الله عز وجل﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥ - ٧٦] يعني: منازل الشمس والقمر.

قال رسول الله : ﷺ «**ما تطلع من قصبة إلا فتح لها باب من النار**» وفي أخرى: «**باب من جهنم**»(١) فهذا فتح جهنم من الدار الآخرة إلى دار الدنيا، ثم هو ﷻ يفتح برحمته إذا شاء فيرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته، فينزل الماء من السماء إلى الأرض، فيخرج به جنات معروشات وغير معروشات، أجرى الله جل وتعالى ذكره هذا الفتح على حكم مشيئته، وعلى حكم المعهود على مواقع النجوم؛ لذلك سميت أبواب، فهذا فتح الله برحمته من الدار الآخرة إلى الدار الدنيا.

أظهر الله بذلك قدرته ومشيئته وحكمته وقدره فيها، فهي تسبحه في خزائنها وغيابات غيبها، وتسبحه في مشاهدها، ثم أوجد عن ذلك فيما هنا الجنة رطوبة لمشاركة لها في البرودة أربع شعب: حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، لجهنم منهن الثلاث، ثم أوجد من امتزاجهن جملتهن ماء ونارًا وهواء وأرضًا، فألحق كل نوع بنوعه الذي هو أولى به، فهذا وما قبله اضطرار لازم وصغار محيط بهن استخلفهن من أجل ذلك للحاق بالساجدين، ثم مزج الممتزجات، وقارن بين المتباعدات، وألَّف بين المتنافرات، وجمع بين المتضادات، فظهر بذلك الصغار والقهر ظهورًا بيّنًا.

ثم إنه لما أذن في جميع مواد الخلقة جمعها من مفترقات أماكنها ودعاها من المخلوق أتت إليه صاغرة، وأجابت الدعوة داخرة، فتبين السجود أكثر تبيانًا

---

(١) تقدم تخريجه.

وأوضح انشراحًا، فانظر - وفقك الله - لما كانت موجودات الآخرة مقربة فيما هنالك بالتسبيح والتحميد والذكر والتوحيد والسجود، معلنة بضروب العبارات جبلة وسجية، وقد وجهك إلى هذه الدار التي أساسها على الإيمان بالغيب وأوجدها للابتلاء، أسر تسبيحها وأخفى سجودها، وأعلمنا بما هي عليه من ذلك؛ لينظر كيف نعمل في التصديق لقيله والإيمان بإعلامه، والعمل بما كلفها وشرع لها من هدايته.

ثم هو الآن جل ذكره ينشئ إعلانها نشأً إلى أن يصيرها إلى حيث استخرجها، فيعيدها جل ذكره إلى حال إعلانها، وهو المبدئ المعيد، وقد أوجد ﷻ جملة الأصول الأربعة أمر الملائكة - عليهم السلام - بجمع المواد، ومزج ما هو من شأنه الامتزاج، وتفريق ما من شأنه التفريق، وتصعيد ما من شأنه التصعيد، وإمساك ما من شأنه الإمساك، وإنماء ما من شأنه الإنماء، وتصوير الصور وتخطيط الأشكال، وربط ما من شأنه الرباط، وحل مَن شأنه الحل، يعملون بأمره، ويشفعون عنده بإذنه، وهم يسبحون في ذلك يحمدون ويسجدون له.

فالأصول الأول تسجد لبارئها وتعبده في مستودعاتها من الخزائن، وجملتها قانتة لمضطرها، والمواد تسجد له داخرة حال ما تساق بدعوته إياها، والنازعات والجاذبات والناشرات والماسكات والدافعات والملقيات للأمر بمشيئة ربهم عز جلاله، والناشطات والفارقات والناميات والهاضمات والمغذيات، وجميع المدبرات للأمر يسبحون بحمد ربهم ويسجدون له ويفعلون ما يؤمرون.

والموجود بما هو مقهور قد أحاط به الاضطرار، ولذَّه عزم الاقتدار الممنح له إلى ما لا بد منه ولا محيص عنه ساجد لربه، داخر لبارئه، خاضع لعزته، يصرفه كيف شاء، ويقلبه إلى ما يريد، فهو - أعني: الموجود - ساجد بكليته، وعابد بجملته على كل أحواله وجميع جهات معانيه.

فصل

هذا من حيث هو نبات وشخص له ظل، وقد أخبر الله جل ذكره أن ظلال الأشخاص تسجد له، وأرانا كيفية سجودها في حال تفيؤها، ثم أخبر بصدق قيله إن الأشخاص تسجد له أيضًا، فمن الواجب الإيمان به وتحقيق الإيمان بوجودها

ساجدة مسبحة له، ألا ترى أن أحدنا إذا صلى صلاة صلى معه ظله، يقوم لقيامه ويسجد لسجوده ويركع بركوعه ويجلس بجلوسه، كذلك سوانا من الأشخاص، وإن كنا لا نرى سجودها ولا نسمع تسبيحها، فالإيمان يصدق كلام الله أنها تسجد وتسبح يوجب تحقيق ذلك، ويمكن أن يكون زائدًا إلى ما تقدم ذكره سجودها، تحركها بالرياح وتحريك ما يحركها، ونشيش ما له نشيش، وصرصرة ما له صرصرة وغير ذلك من أصوات تسبيح وصلوات؛ إذ لا حركة لها إلى هوى، ولا تصويت لمَلهى.

فصل

وأما كونه ساجدًا من حيث هو حيوان فقد تقدم في غير هذا الكتاب من شرح اسمه الجبار ﷻ وتعالى علاؤه الكلام على الحركة ومنبعثها، وإنها تنقسم - أعني: الحركة الظاهرة والباطنة - إلى نوعين

- **ضروري**: وهو الأصل فيها.
- **وكسبي**: وهو الفرع، وإلى الضروري يعود هذا النوع فاعلم ذلك.

وتقدم في ذلك أيضًا أن الاضطرار أيضًا على قسمين:

- **اضطرار قدرة وإرادة معًا**: وذلك كحركة النخل بالفالج والحمى وغير ذلك، وكحركة الشجر بالريح.
- **واضطرار إرادة فقط**: كحركة الذي تقدم إلى القتل فيفعل السعي إلى المكان الذي يقتل فيه بقدرته لا بإرادته.

وكذلك اضطرار القدرة هو عجزها عن مرادها، فهو عجز وصغار عما يريده المحل، وفيما تقدم أن التأثير لازم عن الحركة بإذن الله ﷻ كالألم عن الضرب، وقطع المسافة عن الانتقال، وتسويد الكاغظ بالمداد مع تحريك القلم عليه باليد، وكذلك الصورة لازمة عن التأثير بإذن الله، كتصوير الحروف على تسويد الورقة بالمداد حتى تكون الحروف على صورة يتميز بها المعنى [......](١) والحركة لازمة

---

(١) ما بين [ ] سقط في (غ) وطمس في (ف).

بإذن الله عن القدرة، والقدرة لازمة عن الإرادة، وبوجود إرادة المريد منقدح من خزائن الغيب موجودة عن المشيئة العالية والعلم السابق والتقدير الأول المشيئة في الذكر والقدرة المحيطة.

يقول الله جل ذكره: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠] فإذا قد تمهد هذا فالجبر ظاهر، والاضطرار بيّن، وإن وجد الاختيار فالجبر أول له، وهو الأصل الذي يبعث عنه، فالحيوان إذًا ساجد لربه، صاغر لعزته، خانع لعلائه، لا يفعل فعله من ذاته، ولا يختار على الحقيقة إلا الذي قد شاء خالقه؛ ليتم لنفسه أو عليها ما تقدم فيه من أمره وتدبيره وتقديره.

فصل

ثم على هذا إن انبعث إلى ما هو خير ونفع لأهل الإيمان فهو مسخر، ومتى بدرت منه بادرة ضر فهو مسلط، وإن كان بعض ما يظهر منه لا يبدو منه الخير ولا الشر، كاللعب والمرح والإقبال والإدبار، فهو أيضًا سجود لبارئه؛ إذ يفعل ذلك لما قد قدره له ربه من إصلاح نفسه ومزج أخلاط تركيبه [......][1] وكلامنا هذا كلام على غير التكلف من الحيوان.

ولما كان جميع ما سخره لنا رب العالمين من سماوات وأرضين وجبال وشمس وقمر ونجوم ورياح وسحاب وغير ذلك مما هي داخرة إلى ربها، خاضعة ساجدة لعلائه، وهي نافعة لنا بإذن جاعلها، فهي لذلك مسخرة، فلم يكن لها غذاءً تحتاج لأجله إلى حركة تدير بها مقدار ما جعلت له، وكان الحيوان ذو الغذاء محتاجًا إلى هضم ما جمعه في جوفه واكتمل في أخلاطه أصبح له على سنن شرعة الفطرة المرح واللعب؛ ليصلح بذلك ما زاده به على غيره من المسخرات الغائبات.

فصل

فإن كان هذا الحيوان مما ليس ينبعث على خير على الأغلب ولا إلى نفع فهو ساجد لربه بما هو مضطر ومدبر، وهو مبعد عن التسخير رجيم مدحور عن منزلة

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

القرب، وقد سمى رسول الله ﷺ كثيرًا منها: «فواسق» [......][1] وإنها من الشياطين ونحو هذا، وأما الإنسان فعنده انتهى حقيقة السجود بالإضافة إلى ما تحته من العوالم؛ لظهور معاني الفطرة فيه بإسلام الوجهة، وتحقيق النية على سنن الشرعة، واتصل الذكر منه بالعمل لمن آمن به وأسلم له، وليس السجود الذي تقدم ذكره قبل هذا المقام الذي هو مقام الإنسان لمن اقتصر عليه من المتلقين بنافعه عند الله جل ذكره، ولا بمنجيه من عذابه.

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني: المؤمنين.

ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾ [الحج:١٨] من لم يسجد هذا السجود المقترن بالعلم والإيمان والإسلام، وحسن الاقتداء بالرسل - عليهم السلام - ثم يتفاضل هذا السجود بتفاضل الإيمان وتحقيق الإسلام، وتحسين الاقتداء وتحقيق المشاهدة والإخلاص والعلم واليقين والطهارة، وتسديد النية وتعظيم المعبود والإجلال له والخوف منه، والإعظام والمحبة والرضا إلى غير ذلك من جلي الإسلام وحقائق الإيمان، ثم سجود الملائكة أرفع مما تقدم؛ لتحققهم في هذه المعاني ودؤوبهم وكدهم.

قال الله ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] فوصفهم بالإخلاص والخوف والطاعة له في قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠] وهم لا محالة يعلمون ما يفعلون؛ لبعدهم عن الغفلة.

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ من اتخذ إلهين أو أكثر فلم يعبد الله ولم يسجد له ولم يأتمر، والله لا يدخل في عبادة مع شريك ولا في عدد، بل هو الواحد الأحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

يقول عز من قائل: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[2] [النحل:٥١] هنا محذوف تقديره:

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

(٢) فيه التفات من الغيبة إلى التكلم على مذهب الجمهور أيضًا، والنكتة فيه بعد النكتة العامة؛ أعني: الإيقاظ وتطرية الإصغاء المبالغة في التخويف والترهيب، فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب، سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة =

وإياي وغير الإخلاص فاحذروا، أو ما يكون في معناه ﴿فَارْهَبُونِ﴾ وعيد منه على ذلك وتهديد، ومنه قول عمر بن الخطاب ﷺ للذي ولاه على الحمى: «ادخل رب الصريمة ورب الغنيمة، وإياي ونعم بن عوف ونعم بن عفان».

ثم سرد على هذا ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:٥٢ - ٥٣] يقول جلَّ قوله: كيف لا ترهبون من له ما في السماوات وما في الأرض وله الدين واصبًا؛ أي: دائمًا يسجد له من في السماوات والأرض ويعبده، كل له قانتون، كيف يشركون به سواه؟ كيف لا تعبدون من هو الواحد الأحد؟ كيف تتقون غيره ومن سواه لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا؟ أو لا تتقون من لا يكون كائن إلا عن مشيئته، ولا يكون شيء في السماوات ولا في الأرض إلا بإذنه، وقد علمتم أن كل نعمة بكم فمن الله، أقرت بذلك ألسنتكم وعرفته قلوبكم، وإذا مسكم الضر بدا ذلك منكم وجأرتم به، فظهر على أحوالكم بالجؤار إليه والتضرع؟.

﴿ثُمَّ﴾ أنتم ﴿إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤] يقول: ناقضتم ما تقررت به معرفته في قلوبكم، أنى تؤفكون عن حقيقتكم؟ إن هو إلا أمر من الله يشير به إلى ما سبق لكم من تصديق كلماته.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا﴾ بالشركاء والمعاصي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٥٥] يوم الجزاء، كما يقولون في المحشر: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا

=

والقدرة التامة على الانتقام، والفاء في ﴿فَإِيَّايَ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، و«إياي» مفعول لفعل محذوف يقدر مؤخرًا يدل عليه «وإياى فارهبون» أي: إن رهبتم شيئًا فإياي ارهبوا. وقول ابن عطية: إن «إياي» منصوب بفعل مضمر تقديره: فارهبوا إياي فارهبون، ذهول عن القاعدة النحوية، وهي أنه إذا كان المعمول ضميرًا منفصلاً والفعل متعدٍ إلى واحد هو الضمير وجب تأخر الفعل نحو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] ولا يجوز أن يتقدم إلا في ضرورة نحو قوله: «إليك حتى بلغت إياك» وعطف المفسر المذكور على المفسر المحذوف بالفاء؛ لأن المراد رهبة بعد رهبة، وقيل: لأن المفسر حقه أن يذكر بعد المفسر، ولا يخفى فصل الضمير وتقديمه من الحصر؛ أي: ارهبوني لا غير، فأنا ذلك الإله الواحد القادر على الانتقام. تفسير الألوسي (١٩٦/١٠).

بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:١٢٨] ظاهر هذا الخطاب التخيير، ومعناه الوعيد والتهديد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٥٦-٦٤].

أتبع ذلك قوله جل ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ [النحل:٥٦] مما رزقناهم ليس لهم معلم بما يعبدونه من دون الله، غير أنهم وجدوا آباءهم على ملة من ضلال فهم بعدهم على ظلال آثارهم مقتفون، وكيف يكون لهم بذلك علم وعالم الغيب والشهادة لا علم له بشريك في ملكه خلا إنها أسماء سموها هم وآباؤهم فهم يعلمونها؟.

ثم قال جل وتعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧] أي: يجعلون لأنفسهم البنين المذكورة.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى﴾ نسبه إلى الرحمن جل وتعالى؛ أي: بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨] يكظم غيظه، ثم هو يقتلها دون أن يمسكها على هون ثم يدسها في التراب؛ يريد: ما كانوا يفعلونه من وأد البنات ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٩] أن يصفوا الإله الحق بالولد، ثم لا يرضون له منه إلا الذي يكرهونه من ذلك، سبحانه وله الحمد.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ﴾ عما يصفون به ﴿الحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠] في جعله غضبه وعقابه ولعنته على الظالمين ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] يشير وهو أعلم إلى المفهوم من قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١].

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ﴾ يريد والله أعلم: الشركة، يقول جل وتعالى: هم يكرهونها في أموالهم وما ملكت أيمانهم، ويجعلونها لي ﴿وَ﴾ هم على ذلك لجهلهم بضلالتهم ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى﴾ يعني والله أعلم بما ينزل: المكانة لذلك، والرفعة عند الله جل ذكره، هذه هي الحسنى بالإضافة إليهم؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالجنة ولا بالنار ولا بالبعث إلى ذلك يقول جل من قائل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] بفتح الراء وتخفيفها؛ أي: مقدمون إليها معجل بهم، «مفرطون» بكسر الراء وتخفيفها بمعنى أنهم تجاوزوا القدر في الكفر والجهل والعناد.

«مفرطون» بكسر الراء وتثقيلها؛ أي: إنهم فرطوا في حظهم من رضوان الله والدار الآخرة، فأضاعوه فيما تلاه علينا ربنا جل ذكره البيان البيّن أن الكفار ينزلون في دار البرزخ جهنم أو ما يكون عنها فيما هنالك أو منها.

قوله تعالى: ﴿تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ هذا منتظم بما تقدم ذكره من تحقيق نزول العذاب حال الموت وفي البرزخ، والوعيد للمكذبين، فقوله جلّ قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ أي: في الدار الوسطى دار البرزخ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣] في الدار الآخرة.

أتبع ذلك ما هو شرح له: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وبخاصة اختلافهم في وجود دار البرزخ، وهذا بما فيه من الإخبار عن ذلك، وبما فيه من الوجود الحق ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٦٤] بالله والدار الآخرة، فإن الله جل ذكره قد جعل الإيمان به وبرسله وكتبه وبالدار الآخرة مصباح

الباطن ونور البصيرة ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ
بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ
فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ
﴿٧١﴾﴾ [النحل:٦٥ – ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل:٦٥] تظهر هذه الآية بما قبلها لتقارب معنييهما، يقول والله أعلم بما يقول: انظروا إلى إنزال الله الماء من السماء وإحياءه الأرض بعد موتها، كذلك ينزل الله العلم والكتاب من السماء فيحيي به القلوب بعد موتها بالجهل، ويحييها بالذكر بعد الغفلة كما أن في الأرض قطع متجاورات طيبة، فتشرب الماء وتنبت نباتها بإذن ربها، وأخر منهن يصير فيها الماء أجاجًا وزعاقًا، وأخر لا تنبت نبتًا ولا تحبس ماء.

كذلك في القلوب ما يتسع للعلم [.....] ويطلبه ويعمل بما فيه، وقلوب خبيثة تحيل الهداية في حقها إلى الضلالة، والعلم إلى الجهل، وقلوب غافلة لا تعمل بالعلم، ولا ترفع به رأسًا، إن في إنزال الماء إلى الأرض وتفصيله إلى ما تفصل إليه لآية على إنزال القرآن والعلم إلى القلوب، وعلى إحياء الله الموتى بعد الموت، وعلى وجود أنهار الماء في الجنة؛ لذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:٦٥] أي: بما في الجنة من موجوداتها، ولما كان أصل الإخبار عن العلم والقرآن عبرة بقوله: ﴿لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم﴾ نظم هذا بما تقدم، فأظهر

اسم العبرة وكان قد أبطنها قبل وإن كانت هي المقصود المطلوب، قرئت: «نسقيكم» برفع النون وفتحها من سقى وأسقى لغتان في ذلك[1] ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أتى بالضمير على المذكور؛ أي: على الجنس مذكرًا والأنعام مؤنثة، عساه رد الضمير على المذكور أو على الجنس أو على النعم، ذلك كله جائز سائغ ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦].

هذا وصف مشار به إلى موجود اللبن في الجنة، وإن ذلك على أكرم الوجود وأفخم الوصف، وأشار إليه بقوله: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: سهلاً في الشرب إلى ما هنالك على شريطة التفضيل والكرم.

تنبيه: ليس بأنه يجري اللبن بين الفرث والدم، إنما معنى ذلك: إن الغذاء الذي يُكوّن الله منه لبنًا إذا بلغ تلك الأوراد وتحصل في العضو أحاله الله لبنًا، كذلك سبيل الدم إذا بلغ الغذاء الكبد وتقسمته العروق أحاله دمًا في الكبد.

وأما الفرث: هو نقل الغذاء، فإنه يذهب على سبيله، فالغذاء هو بين أن يكون منه فرث ودم ولبن، لكن اللبن والدم والفرث باطن في الغذاء المتغذي به، بل العروق والعظام والمخ واللحم والعضل والعصب والرباطات وجميع أجزاء الجسم باطن في الغذاء، بل الصفات والأخلاق والجبن والشجاعة والعلم والعقل والحلم والغضب والرضا والهوى والحمق إلى غير ذلك باطن في الغذاء، يخرجه القادر العليم الخبير، فيظهره عن باطن الأغذية.

يقول الله جل ذكره للأغذية المتغذى بها: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [النحل:٦٩] يخرج عن ذلك بإذن الله اللحم والعضل والشعر والبشر وجميع أجزاء الجسم، ثم الصفات والأخلاق والأعراض الظاهرة والباطنة، وكذلك الأعمال كلها حسنها وسيئها، ثم الحفظ والذكر والوهم والفهم والميز والفكر والفطنة، وجميع توابع الوجود، والله ﷻ يأمر ويأذن للملائكة أن تكتب، ويخلق الله خلقه، ويوجد

(١) قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي: «نُسقيكم» بضم النون، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «نَسقيكم» بفتح النون فيهما، وقرأ أبو جعفر: «تَسْقِيكم» بتاء مفتوحة [زاد المسير (٤/١٠٧)].

على إيجاده ذلك على ذلك بأن الله هو الحق، ومنزل الحق وجاعله ومحققه، وموجد الحق بالحق، لا إله إلا هو الحق المبين الخلاق العليم.

في هذا من آداب الاعتبار أن تنظر إلى الموجودات في ظواهرها، ثم اعبر به من ظاهر إلى باطن، ومن حال إلى مستقبل، وكما مر عليك في هذا الاعتبار كذلك لدينا ظاهر، فاعبر إلى باطنها وهو الدار الآخرة، كذلك الشهداء والأموات ظاهرهم الموت، واعبر من ظاهر ذلك إلى باطنه، وهو حال حياتهم حينئذٍ، فالحياة باطنة فيهم.

قد جاء أن شجرة طوبى تنفتق لأهل الجنة عن الحلل، وعن العرب الأتراب، وعن مراكب وملابس، وعما يشتهون، وإنما هي شجرة من كرائم الشجر في الآخرة، فأرجع وجه اعتبارك إلى شجر الدنيا وزروعها ونباتها وثمراتها وغير ذلك، وإن حلل الدنيا ومراكبها وولدانها ونساءها وكل شيء من مأكول وملبوس ومركوب عنها، فكذلك ما جاء من شجرة طوبى وغيرها من شجر الجنة وأرضها، وما يكون فيها وعنها، غير أن هذه بأنكاد ومعالجة وصبر إلى آجال مؤقتة ﴿**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [النحل:٧٧].

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ اليَمِينِ**﴾ [الواقعة:٣٥-٣٨].

قيل أيضًا: إنهن يُنشأن في سواحل الكوثر والأنهار سواه، كذلك كانوا في الدنيا يأكلون من الأرض وحصادها لكن على مهل وتدرج، وإتمام كلمة بسنة، فهكذا استقر الموجودات، ثم اعبر مما ها هنا إلى ما هنالك يصح عندك وجود ما هنالك كأخذ باليد أو رؤية؛ أي: بالبصر، والله نسأله من فضله حسن المزيد وإتمام نعمته.

وبوجه آخر: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ**﴾ [النحل:٦٦] علم جل ذكره صفة الاعتبار بالقرآن وبالموجودات في دار الدنيا.

يقول وهو أعلم بما ينزل: خذوا علم القرآن من ظاهره وباطنه، واستخرجوا بالإيمان والهداية من الله من متشابه معاني الوحي نور الألباب، فشفى ما في

الصدور فيما بين هذا وهذا، ألم تر إلى ربك كيف شبه إنزال القرآن بإنزاله الماء من السماء؟ وفي أعلى الماء الزبد والطحلب؟ وفيه الحمأة الأرضية؟ وإنما الصافي الذي فيه الشفاء والعافية من ذلك، فألقن عن ربك، كذلك الموجودات في دار الدنيا قسمها خالقها إلى قسمين ذكر وفتنة، فاعبر من الفتنة إلى الذكر، ومن الشبه والضلال إلى خالص النور والذكر والهداية.

نظم ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧] يقول والله أعلم بما ينزل: إن في ظاهر ما ترونه من ثمرات النخيل والأعناب باطنًا هو سقر وهو الخمر، ورزقًا حسنًا ما تسمونه وتدخرونه زبيبًا وتمرًا، وغير ذلك من المدخرات، كذلك في ظواهر الموجودات بواطن هي خلاف ما يبدو لكم منها معجبة كذلك في الوحي باطن يبدو مع الفكر، وترداد التدبر والمراقبة مع الصبر وطول المثابرة، وربما عرض بقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ إلى ترداد التفكر والتدبر والصبر، فالله أعلم.

فكما أن السكر والرزق الحسن المدخر من ثمرات النخيل والأعناب لا يتخيل إلا بمعاناة وصبر، وكذلك العلم لا يتخيل عن الوحي وظاهر الوجود إلا بالمعاناة ومقاساة الصبر، وتكرير الفكر على الذكر أو الذكر على الفكر؛ لذلك وهو أعلم بما ينزل قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧] أي: يعقلون البواطن من الظواهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨] يريد: من بناء وبيوت وغير ذلك ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ يمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿فَاسْلُكِي﴾ مخاطبة النحل، ويمكن أن يكون المراد الثمرات المأكولات؛ أي: اسلكي سبل ربك في الخلقة، ثم أخبر عما يخرج من النحل بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾[1] [النحل:٦٩].

---

(١) شراب معرفته بقدم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلاف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون =

قال رسول الله ﷺ: «**الشفاء في ثلاث: شرطة محجم، أو لدغة بنار، أو شربة عسل**»[(١)].

وفي مفهوم هذا الخطاب العلم أيضًا بكيف يكون المؤمن في دنياه؟ وكيف يرتزق؟ ومن أين يتطلبه؟ وكيف يكون في اعتباره؟ وما يؤمله إلى المطلوب الأعلى والمنتهى الأرفع والنظر في الموجودات، فمثال المؤمن التقي مثال النحلة تأكل طيبًا وتضع طيبًا، وتسترزق من المباحات، وأوحى إليها ربها بإلهام الفطرة كالمؤمن سواء يسلكن سبل ربهن في معاملاتهن بحكمة في بنائهن وسيرهن كلها في معاملاتهن، فيأكلن من كل الثمرات فيصيره الله عسلاً مختلف الألوان.

كذلك المؤمن الناظر في مخلوقات ربه وكتابه المعتبر بآياته إلى ما هي عليه آيات يقع توهمه على جميع المعتبرات، ويشرح في المصنوعات، ويتقرَّأ آيات ربه في الأرض والسماوات محدس بفطنته من كل أزهارها الموجودات، ويأكل بالتذكار بها من كل الثمرات، ويتطعم بالعلم من كل المذاقات، فيعقل قلبه أنواع المعقولات من إثارات الأسماء والصفات في كل الموجودات، ويجمع في لبه من نوارها أنوار اليقين، فترجع إليه تلك الخطرات منزعة بالعلوم منشرحة بالنور مسرجة من النور المبين، فيخرجها الله على ألسنتهم أدوية يحيي بها الموتى ويشفي بها غليل

=

الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحًا بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة، ويكون شمعه أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائلٍ رشده.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨١)، والبيهقي (٢٠٠٢٧).

الصدور، يسمع بها الصم، ويهدي بها العمي، ويشفي ببركتها المرضى، ويطلق بها الزمنى، ويصير بها الأعداء أولياء ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [الحديد:٢١] هذا إخبار يعلم موجود ما هنا بموجودات ما هنالك من أرزاق ونعم وأنعام ومنافع ومساكن وغير ذلك.

وقد قيض أقوامًا سلكوا بعض هذا السبيل، واقتفوا طرفًا من هذا الدليل، فتعرفوا معاني بعض الموجودات في الهواء والمياه وأكثر المائعات، والأرض وبعض الجمادات والحيوان والنبات، وإن كانوا لم يبلغوا المطلوب الأكبر، ولم يصلوا إلى المبتغى الأعظم، لم يسعدوا بالصعود إلى السماوات العلا، ولا عرجوا إلى السدرة المنتهى، ولا ظهروا إلى المستوى، فيسمعون فيما هنالك صريف الأقلام، ويلهمون فصل الخطاب، لكن وصلوا بعون الله جل ذكره إلى حمل من علم الأدوية والأدواء، فوجدوا المعاني الموجودة في هذه المكونات على جري العوائد قسموها طبائع لما وجدوها موزونة بقسط معلوم على مقدار من له من المحفور فيها معلوم، فيعرفها الأهواء والبلدان وساكنيها وأحوالهم.

قسموا معمور الأرض وماهيتها إلى أقاليم سبعة على قدر مقادير الشمس والقمر والكواكب والمنازل، فاستقامت لهم على ذلك إلى ما قرب من مقاصدهم سبل واضحة أوائلها مسلوكة لائحة، وأعاليها مظنونة غائبة، لا قطع لهم بحقيقتها ولا تبيان على خفاياها [......] قطعت بهم الكلمة ورجمها غالب مضمونها التوكل، فانخرق لذلك عندهم الإجماع، ولم يقوَ قوة هذه في صدق ضمانها، وتحقق وجود مطلوبها [......](١).

فصل

في هذه الثلاث آيات علم غير ما تقدم، وهو أنه قال في الأولى: ﴿**وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ**﴾ [النحل:٦٥] المعنى إلى آخره، وهو فعله في السماء والأرض، وقال في الآية الثانية ما هو فعله في الأنعام، وفي الثالثة ما هو فعل لنا في

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

النبات والغذاء، وفعلنا نحن كسب لنا وخلق له، فاعلم بذلك أنه يستعملنا ويستخرج بأفعالنا أعاجيبه كما يستخرج بأفعاله، وذلك منه إشعارًا لنا أن كلاً منه وبه وله، ودليله ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

وسبيل العزة من هذا أنه قد خلق الجنة والنار خلقًا، واستعمل العاملين بما يبلغ إلى منال موجوداتها على ما سبق في تقديره، فهو يستخرج بأعمالهم ثوابًا وعقابًا أعجب من موجودات ما هنالك.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم ليغدو إلى المسجد للصلاة ويروح فيهيئ الله له بذلك نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح**»(١).

فصل

في هذه الثلاث الآيات سبيل من الاعتبار سوى ما تقدم.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل:٦٦] الثلاث آيات إلى قوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٩].

وقال الله ﷻ في غير هذه السورة: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد:١٥] فجعل ﷻ الأنعام في هذه الدار لقلتها وصغرها آية على إظهار اللبن فيما هنالك؛ لعظم تلك الدار وسعتها وفخامة شأنها، وكذلك فعل من ثمرات النخيل والأعناب آية بما يعالج وبما يستخرج منها من الانتباذ، والعصر من الخمر آية على أنهار الخمر فيما هنالك، كذلك جعل ما يحتوشه النحل من أزهار النبات وتأكله من الثمرات آية على أنهار العسل فيما هنالك.

وعبرة أخرى:

انظر إلى ما بين الأنهار من الماء واللبن والخمر والعسل فيما هنالك، وإلى ضعف منبعثها فيما ها هنا فاقضِ بفضل ما بين خمر وخمر ولبن ولبن وعسل

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان (٢٠٧٣)، وابن خزيمة (١٤١٦).

وعسل، ثم كذلك فعم بهذا القضاء غيره من جميع موجودات ما هنا إلى موجودات ما هنالك.

ذكر عن كعب الأحبار أنه قال، وحكاه عن الكتاب الأول: «النيل نهر العسل في الجنة، والدجلة نهر اللبن في الجنة، وسيحان نهر الماء في الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة، فأطفأ الله نورهن ليصيرهن إلى الجنة».

وصح عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن النيل والفرات وسحيان وجيجان من أودية الجنة**»[1].

وهذا نص على أنهار هي الجنة في الأرض وما علا منها أعلى وأجل، وأما التأويل: فاللبن فيما ها هنا وفيما هنالك الفطرة على الإسلام، وعلى الإسلام فطر الله كل شيء، وهو الدين الحق، وتأويل الماء هو الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

والخمر معناها وتأويلها: النعيم واللذة ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمد:١٥].

ووفق رسول الله ﷺ في اختياره شرب اللبن في تأويل الفطرة، والخمر في تأويل النعيم واللذة، وليست هذه الدار لذلك معدة، ولذلك هي ما هنا على ما هي عليه بين سلب العقول وصدها عن سبيل الله وعن الصلاة، وكل ما يلهي هنا يصد عن سبيل ذكر الله وعن الصلاة.

قال جبريل عليه السلام: «**هُديت الفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك**».

وتأويل العسل: العلم، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾ [النحل:٧٠] أعلم جل ذكره أن أمره قد أجراه على دوائر محكمة التدوار، فذكر الخلقة ثم التوفي، وأمسك عن ذكر الإعادة؛ إذ الوجود قد

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني (١٩)، وابن عدي (٦/٥٩) وقال: قال أحمد: منكر الحديث ليس بشيء. وابن عساكر (٢/٣٤٦).

كشف عن حقيقة علمه، وفي الكلام ما يدل على وجوبه، وذكر أنه يرده إلى أرذل العمر تعريضًا بأنه يعيده إلى عدم العلم والميز كما بدأه، ثم نص على ذلك بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وقد كشف عن معهود ذلك الوجود، وفي قوله: ﴿يُرَدُّ﴾ نص على معنى ذلك.

اتصف ﷻ بالاقتدار على الإيجاد الأول عن عدم، وهو الموت أيضًا، ثم على الإعادة بعد البداية، ليس كمن يدعونه ﴿مِن دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢٠ - ٢١] وفيه أيضًا تعريض خفي بذكر الخلقة التي نص عليها بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١١] وعرض بها في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن:٣] وبقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

ينتظم هذا من جهة المعنى بقوله في صدر السورة: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٣ - ٤].

يقول جلَّ قوله وهو أعلم بما ينزل: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل:٧٠] ثم كان التوفي على ما تقدم من معناه خاص بالذي يخترم فيموت غبطة، وفي حال استوائه منه قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥] ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، ثم لتكونوا شيوخًا، ومنكم من يتوفى من قبل ونحوه.

يقول: وربما إن لم يتوفاكم حال الاستواء وردكم إلى أرذل العمر؛ لكي لا تعلموا من بعد علم شيئًا؛ أي: وإنه إن كان قد صوركم أحسن تصوير فإنه يميتكم إذا شاء وكيف شاء، ويردكم من بعد حسن التصوير من العلم والحلم والذكر والفطنة وحسن التخطيط إلى أرذل العمر ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] لذلك وهو أعلم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ لا يستحيل علمه ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٠] لا تُعدم قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل:٧١] معنى هذه الآية والله

أعلم منتظم بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى...﴾ [النحل:٦٢].

كما أخبر عن بعضهم: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠].

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

ومعنى الآية معنى قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم:٢٨].

يقول وهو أعلم: من الذي خص أهل اليسار باليسار وأهل الفاقة بالفاقة في دار الدنيا حتى لا يستطيع هؤلاء أن ينالوا منزلة هؤلاء، ولا هؤلاء منزلة هؤلاء.

ثم قال: أنتم لا تسمحوا لأنفسكم بأن تشاركوا مماليككم في الرزق الذي رزقناكموه حتى تكونوا على السواء أنتم وشركاؤكم الذين مننتم عليهم بالملك والإعطاء، تخافونهم في الذي مننتم عليهم به كما يخافونكم، وفي ذلك يزعمون أن الله يفعل على عزته وقدرته ومضاء مشيئته وعظيم شأنه ذلك.

ثم قال عز من قائل: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ﴾[1] [النحل:٧١] أجلُّ نعمة، وأعظم منة على العباد أن كان ربهم العلي الكبير ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا، الواحد الأحد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣ – ٤].

---

(١) فيه وجهان: أحدهما: لا شبهة في أن المراد من قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ﴾ الإنكار على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم. الثاني: الباء في قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ الله﴾ يجوز أن تكون زائدة؛ لأنَّ الجحود لا يتعدَّى بالباء؛ كما تقول: خُذِ الخِطامَ وبالخِطَام، وتعلَّقت زيدًا وبزَيْدٍ، ويجوز أن يراد بالجحود: الكفر، فعدي بالباء لكونه بمعنى الكفر. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: «تَجْحَدُونَ» بالخطاب؛ لقوله: «بَعضَكُم» و«خَلقَكُمْ» والباقون بالغيبة؛ مراعاةً لقوله ﷻ: ﴿فَمَا الذين فُضِّلُواْ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم؛ لقرب المخبر عنه، وأيضًا فظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين، والمسلمون لا يخاطبون بجحد النّعمة، وهذا إنكار على المشركين. تفسير اللباب لابن عادل (١٠/١٦٣).

هذه نعمة الله التي جحدوها، سبحانه وله الحمد النزيه عن أن يصيبه ذل الشركة وفاقة العجز والشركة، فيتخذ أولياء من أجل ذلك، أو يكون في ملكه ما لا يريد، عمدوا إلى أفضل نعمة أوتوها وأكرم منة مُنحوها فجحدوها، جعلوا رزقهم أنهم يكذبون [......](١) والمكانة عنده، فالحمد لله على النعمة به، والحمد لله على النعمة منه حمدًا لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه كما ينبغي لعز جلاله وكرم وجهه وسبحات قدسه.

ويمكن أن يحمل معنى قوله جل وعز: ﴿**وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...**﴾ [النحل:٧١] إلى الفضل الذي هو الإيمان والعقل والمعرفة، والرزق: التوحيد والعمل بطاعة الله ﷻ، وهو الرزق الذي لا يستطيع أحد أن يرده على سواه ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص:٥٦] ويهدي الكون، وعلى هذا يكون مثلاً لأهل الإيمان الذين رزقهم الله الإيمان به وبرسله، والعمل بطاعته في دار الدنيا، ثم ما للموحدين عند الله ﷻ من الحسنى وحسن المنقلب إن شاء الله ﷻ.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل:٧٢–٧٧].

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾(١) [النحل:٧٢] هذه إشارة إلى الوحدانية وما

---

(١) فيها مسائل:

المسألة الأولى: المراد بأنفسكم: الجنس؛ أي: جعل لكم من جنسكم أزواجًا آدميين، وفيه الرد على العرب، فإنها كانت تعتقد أنها تتزوج الجن وتباضعها وإلى أن هذا جائز في العقل. وأما الفلاسفة فينكرون الجن ويحلون طعامهم ونكاحهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾. لا شك أن الولد متكون من الأب والأم، ولكنه نسب هنا إلى الزوجة؛ لأن وجود تصويره فيها وانفصاله عنها. تنبيه: قال القاضي أبو بكر: سمعت أبا الوفا إمام الحنابلة ببغداد يقول: إنما تبع الولد الأم في المالية والرق والحرية؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له، ولا مالية فيه، ولا منفعة، وإنما اكتسب ذلك بها وفيها، فلذلك تبعها، كما لو أكل رجل ثمرة في أرض رجل، ولفظ نواتها في تلك الأرض، فأنبتت نخلة، فإنها لرب الأرض إجماعًا، لأنها انفصلت ولا قيمة لها. المسألة الثانية: الحفدة: أعوان الرجل وخدامه، وقيل: هم ولد الرجل وولد ولده. قال الأصمعي: الأختان: هم الرجال من قبل المرأة، والأصهار من قبل الزوجين جميعًا، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾. فالنسب ما دار بين الزوجين، والصهر ما يتعلق بهما، ويقال أختان المرأة وأصهار الرجل عرفًا ولغة، ويقال لولد الولد الحفيد، ويقال: حفد يحفد بفتح العين في الماضي وكسرها في المستقبل. ويقال في الدعاء: «وإليك نسعى ونحفد» وظاهر الآية أن المراد ولد الصلب وولد الولد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾. وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا. تنبيه: قال علماؤنا: يستخدم الرجل زوجته فيما خف من الخدمة ويعينها، وقالوا: ينفق على خادم واحدة من خدمها. وفي رواية على أكثر من واحدة، على قدر منزلتها. وهذا أمر دائر على العرف والعادة، الذي هو أصل من أصول الشريعة، فإن نساء الأعراب وسكان البوداي يخدمن أزواجهن، حتى في استعذاب الماء وسياسة الدواب. وأما نساء الحواضر فيستخدم المُقِلُّ زوجه ويعينها. وقال الخليل بن أحمد: الحفدة عند العرب، الخدم. وقاله مالك، وكفى به.

المسألة الثالثة: روى البخاري عن أبي أسيد الساعدي أنه دعا رسول الله، ﷺ لعرسه فكانت العروس تخدمهم؛ وفي الترمذي أنه ﷺ: «كان يعود المريض ويشهد الجنازة ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يؤم بني قريظة على حمار مخطوم». المسألة الرابعة: قال ابن عباس: بت ليلة عند النبي ﷺ في بيت خالتي ميمونة، فأوى رسول الله ﷺ إلى فراشها، فلما كان جوف الليل، قام فخرج إلى الحجرة، فقلب في أفق السماء وجهه. ثم قال: «نامت العيون، غارت النجوم، وأنت حي قيوم. ثم عمد إلى قربة في جانب الحجرة، فحل شِناقَها، ثم توضأ، فأسبغ الوضوء». ومن أفضل ما يخدم الرجل فيه نفسه، العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، فليعملها، ويعمل شروطها وأسبابها. ويباشر جميع مقدماتها بنفسه، إن قدر، =

يفصل عنها من الكثرة، كقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] لكنه استاق ذكر البنين والحفدة سياق تعداد النعم، والحفدة: قيل: هم البنات والأصهار والأختان، وقيل: الخدمة والأعوان.

والحفدة أيضًا: بنو البنين، وكل من أسرع في حاجتك وشمر إليها فقد حفدك، والحفد: الإسراع في الحوائج معونة ونصرة، ومنه الدعاء إليك يسعى ويحفد يرجو رحمتك ويخشى عذابك الجد.

أعلم في هذه الآية أن الكثرة عن الوحدة كما المفعول عن الفاعل، كذلك الله الواحد خلق آدم واحدًا فردًا، وخلق منه زوجه، ثم بث منهما ومن ذريتهما ما بثه، كذلك أنزل من السماء ماءً واحدًا ظاهرًا خالصًا، فصَّله إلى ما فصَّله إليه، المواجه بالخطاب: المؤمنون؛ إذ كان معنى صدر الآية والمقصود بها: تعداد النعم بالواحدنية، ولما أكمل ذكر ما أراد ذكره وأتى بأخبارهم وذكر ضلالهم صرف وجه الخطاب عنهم.

يقول الله جل من قائل: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٢] الذي آمنوا به هنا هو جعلهم لله البنين والبنات والأنداد، وتكثير الآلهة بغير علم ولا هدى من الله سوى أنهم رأوا أنفسهم ذوي بنين وبنات وحفدة، فأضافوا إليه مثل ذلك، فهذا هو الباطل الذي آمنوا به وكفروا بنعمته بأنه الواحد الأحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وبأنه رزقهم الطيبات، وبأنه رزقهم البنين والحفدة والأموال التي هي زينة الحياة الدنيا، وآيات من عنده جعلها لهم معلمات على موجودات الجنة من طيباتها وولدانها ووصفاتها وغلمان لهم فيها [.....][1].

أتبع ذلك بما هو في معناه قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣] هذا الذي آمنوا به لم ينفعهم بشيء وهذا تتميم للعبرة التي تقدمت، وكان سياق هذه الآية فيه تقديم وتأخير معناه على هذا، ولا يستطيعون لهم شيئًا، لكنه لما لم يكن لمعبوداتهم شرك

=

فهو أفضل. [الأحكام الصغرى ص٤١٠].

(١) ما بين [ ] قطع في (غ).

في السماوات ولا ملك وسَّط لفظة «شيء» ليكون لها وجه إلى عموم نفي الملك للرزق قليله وكثيره، ووجه إلى أنهم لا يستطيعون ذلك؛ إذ لا ملك لهم فيما هنالك، فعرض بذكر الاستطاعة إلى هذا المعنى، وقدم لفظ «الشيء» توسطًا بين المعنيين، وهذا من المطلع المذكور في القرآن العزيز.

ثم قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له مثلاً فإنه لا مثل له؛ لهذا قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤] وقد كانوا نحتوا معبوداتهم الأوثان والأصنام على صور الآدميين؛ لذلك قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢].

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ إلى آخر المثلين، لما نهاهم - جل ذكره وتعالى علاؤه وجده - عن أن يضربوا له الأمثال من أجل جهلهم أخذ هو جل وتعالى يضرب لهم الأمثال حيث تقف عليه علومهم؛ لأنه هو يعلم وهم لا يعلمون، فضرب مثلاً بعبد مملوك ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ وهو الكافر الذي لا يقدر على العمل بطاعة الله، وهو فقير من الإيمان عديم من جميع ضروب الإحسان، ويصلح أن يكون مثلاً للمعبود من دون الله جل ذكره، ولعبد رزقه الله ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ يعني: الهدى والإيمان، والقوة على طاعة الله، والعلم واليقين والرزق والحلال ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًا وَجَهْرًا﴾ ويصلح أن يكون مثلاً للإله الحق جل جلاله ولا مثل له كما ضرب لنوره مثلاً بالمصباح، ثم قال: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [النحل:٧٥] فجاء بلفظ الجمع، وإنما ضرب مثلاً بعبدين يريد وهو أعلم المؤمنين والكافرين، ويمكن أن يكون المراد بذلك: الآلهة المتخذة من دون الله، وما سموها به من أسماء ووصفوها، هل يستوون مع من يهدي ويخلق ويرزق ويقدم ويؤخر؟.

قال رسول الله ﷺ: «**يمين الله سخاء لا يغيضها عطاء الليل والنهار**»(١) وفي أخرى: «**لا يغتضيها**»(٢).

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٩٩٣)، وأحمد (٨١٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٥٠٧)، والبخارى (٦٩٧٦)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥) وابن ماجة (١٩٧). وللحديث أطراف منها : «إن يمين الله»، «يمين الله».

أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يده شيئًا؛ لهذا ونحوه قال جل من قائل: ﴿**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٧٥].

ثم ضرب المثل الآخر برجلين أحدهما أبكم عاجز ﴿**لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ**﴾ وكل معول فهو كَلّ ﴿**أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ**﴾(1) [النحل:٧٦] إن دعاه عابده لم يستجب له، وإن سأله لم يعطه، وإن استنصره لم ينصره، لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئًا.

وقرأها عبد الله والأعمش: «**أينما يوجه لا يأت**» بفتح الجيم وبهاء واحدة، فهذا مثل للصنم والوثن وجميع المعبودات من دون الله، ولما كان هذا المعهود أن يكون من الآلهة المتخذة من دونه ما هو موصوف بالحياة كفرعون والدجال، وكل داعٍ إلى نفسه فرض ضرب المثل برجلين: أحدهما: مثل لما يوصف بحياة، والآخر: بمن لا يوصف بها، وحدهما عند الإشارة إليهما بالضمير في قوله: «هو» إذ قد استويا في عدم الغنى.

ثم قال وقوله الحق: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [النحل: ٧٦] هذا هو الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، الإله الحق الخالق الرزاق، والقريب المجيب، ولما جاء ما هو مثل له عز جلاله لم يجيء في ضميره تثنية ولا جمع، بل أبان وصفه الحق بقوله: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ**﴾ يعني: المعبود دونه ﴿**وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ والإشارة في سر المراد بهذا الخطاب منتظمة بقوله: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النحل:١].

---

(١) أي: حيثما يرسله مولاه في أمر لا يأتِ بنجح وكفاية مهم، بيان لعدم قدرته على مصالح مولاه. وقرأ عبد الله في رواية: «توجهه» على الخطاب، وقرأ علقمة وابن وثاب ومجاهد وطلحة، وهي رواية أخرى عن عبد الله: «يوجه» بالبناء للفاعل والجزم، وخرج على أن الفاعل يعود على المولى والمفعول محذوف، وهو ضمير «الأبكم» أي: يوجهه، ويجوز أن يكون ضمير الفاعل عائدًا على «الأبكم» ويكون الفعل لازم وجه بمعنى: توجه، وعلى ذلك جاء قول الأضبط بن قريع السعدي: «أينما أوجه ألقَ سعدًا».

وعن علقمة وطلحة وابن وثاب أيضًا: «يوجه» بالجزم والبناء للمفعول، وفي رواية أخرى عن علقمة وطلحة: إنهما قُرءا «يوجه» بكسر الجيم وضم الهاء. تفسير الألوسي (٢٤٧/١٠).

ثم كذلك إلى قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:٣] إلى قوله: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] فكل كافر يجادل في آيات الله فهو خصيم، والخصيم المبين منهم: هو الدجال كبته الله وقصر مدته.

قوله عز من قائل: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النحل:٧٧] الغيب في السماوات والأرض هو ما لم يكن بعد وسيكون، فهو إذًا ما يؤول الله ﷻ إليه السماوات والأرض وما بينهما ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] فذلك ما هو في ظاهر ما هو اليوم غيب، وهو أيضًا موجود الدار الآخرة بما فيه، والآخرة تغيب الدنيا والكائنات التي لم تكن بعد هن أيضًا غيب ما قد كان منهن، فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بم يخرج منه»[1].

والله أصدق القائلين حيث يقول: ﴿فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨] وما وصفه بالقلة فلا أقل منه.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ﴾[2] [النحل:٧٧] شأن الآخرة كله على حكم الكلمة دون زمان محصل؛ إذ لمح البصر موصوف بقوله بأنه في زمان، فإن دق ذلك فأمر الآخرة أقرب من ذلك وأسرع قضاءً، ثم اتصف من أجل ذلك بالقدرة؛ يريد وهو أعلم: القدرة التي يكون مقدورها على حكم الكلمة وعلى حكم العموم بقوله: كل شيء يدخل في ذلك حكم السنة المتمم لحكم الكلمة، وأكثر أحكام الدنيا على حكم السنة، نعم هذا خطاب الدنيا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الساعة هي الوقت الذى تقوم فيه القيامة، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق بصيحة، واللمح النظر بسرعة، يقال لمحه لمحًا ولمحانًا، ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر، وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتى في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الاتيان بها؛ أي: يقول للشئ كن فيكون، وقيل: إنما مثل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هي عليه من البعد من الأرض، وقيل: هو تمثيل للقرب، كما يقول القائل: ما السنة إلا لحظة، وشبهه، وقيل: المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين، دليله قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

للإيمان بالغيب والشهادة، وهي قدرة واحدة؛ لأن الموصوف بها واحد أحد سبحانه وله الحمد.

فصل

في الكتاب الذي يذكر أنه «الإنجيل» قال: يُشَبَّهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ بِخَمِيرَةٍ أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَأَخْفَتْهَا فِي ثَلَاثَةِ مَقَادِيرَ مِنَ الدَّقِيقِ، حَتَّى اخْتَمَرَ الْعَجِينُ كُلُّهُ.

وقال: مثل ملكوت السماوات والأرض كمثل كنز قد أخفي في فدان فاطلع عليه شخص فأخفاه حتى يصرف ماله ويبتاع ذلك الفدان.

وقال: يشبه ملكوت السماوات والأرض بحبة من خردل ألقاها إنسان في فدانه وهي أصغر الحبوب وأدق الزريعة، فإذا نبتت استعلت على جميع البقول والزراريع نمت حتى ينزل طير السماء في أغصانها ويسكن إليها.

قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] المثلان الأولان ينبئان عن وجود الآخرة اليوم على حكم [.....][1]، والمثل الثالث ينبئ عما يؤول الله إليه الدنيا، وهو ظاهر من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] وكلاهما موجود حق، فافهم.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النحل:٧٨ – ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١) [النحل:٧٨] أي: لعلكم تعقلون فتذكرون فتشكرون، هذا كله دعاء منه عباده عن ضلالهم إلى رشدهم.

وأنبأت السورة على مفهوم قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] إلى قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] فهو يعدد عليهم نعمه بما خلقهم عليه وفطرهم من الأسماع والأبصار والعقول، وهو أول أنعمه على عباده؛ إذ أخرجهم من بطون أمهاتهم مسلمين في أعضائهم وأجسامهم وحواسهم، فهو يدعوهم منها إلى إتمام أنعمه عليهم بالإيمان بالله وحده، والإسلام له دون شرك ولا بدل، وإلى العمل بطاعته؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤].

والمراد: إنباؤه من هذا الخطاب أنه الخالق وحده، والمنشئ وحده، وواهب الكل، والمتمم أنعمه سواه، كأنه يقول لهم: فأين تذهبون؟ فمن خلق وفطر وأنشأ ورزق إلى أن سوى وأكمل، وهو الذي يديم لزوم صنعه المصنوع إدامة لا يقطعها مدة؛ لإبقائه على مقدار معلوم ورزق من الحق مقسوم على أبوابه، مرتب على فصوله وأعضائه وجملته.

أتبع ذلك ما هو بيان له قوله الحق: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ

---

(١) أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت المعرفة، لا يعلمون شيئًا من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسماعًا من نور سمعه، وكساكم أبصارًا من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته.

﴿السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ [النحل:٧٩] فأظهر بهذا الخطاب ما أشار إليه فيما قبله كما قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩] تثبت بذلك من حقيقة الوحدانية وظهور القيومية، وإن تحديد الصنع وتوالي الإمساك يجري إلى الموجود راتبًا أبدًا على الذوام ما شاء إمساكه، وقد تقدم الكلام في تبيانه لذلك، والله أعلم بما ينزل.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩] يقول: فأين أنتم من حقيقة عظيم هذا الشأن وصدق وجود توالي هذا القيام أفتتخذونه وليًّا كما قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف:٥٠] إلى قوله: ﴿عَضُدًا﴾ [الكهف:٥١].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل:٨٠] السكن: موضع الود والحب؛ أي: حببها إليكم؛ يعني: المنازل والمساكن، حتى قال قائلهم:

أحب بلاد الله ما بين منعجٍ ... إلي وسلمى أن تصوب سحابها

بلادٌ بها نيطت علي تمائمي ... وأول أرضٍ مسَّ جلدي ترابها

يعرض بما قد أعد لأهل الإيمان والعمل بطاعته من بيوت فيما هنالك، وقصور تكون سكنًا حقًّا لساكنيها، وودًّا على سبيل النشء والبون كما بين دار الدنيا ودار القرار وبذلك يتم النعمة بها والسرور لأجلها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ عدد عليهم نعمه بما متعهم به وسخره لهم من الأنعام ومنافع بها، ومن بيوت معرشة وأخبأ هذه للسكنى وإقامتهم، وهذه للترحال والحفوف، والأثاث: متاع المنزل والبيت والكسوة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [النحل:٨٠] أي: إلى الموت، فالمتاع بها هو في طول مدة بقائهم في الدنيا كل على مقدار توسعة الرزق، وتقديره كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] أي: إلى حين تخرجون منها إلى غيرها تستدفئون فيها من البرد، وتستدفعون بها وهج الحر، وغير ذلك من المكاره الواردة عليهم من فيح جهنم، أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

ويعرض بذكر البيوت والسكن إليها، والبيوت التي هي للظعن بقصور من

ذهب فيما هنالك أو فضة مِلاطُها المسك برزت بمقاصير وقباب من الدر والياقوت في رياض الجنات، أضواء أجوائها من نور العرش، أزواجهم فيها الحور الحسان، وزوارهم الملائكة الكرام، وخدمهم الوصائف والولدان، يحبرون فيها ويكرمون تحيتهم فيها ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] فهذه نعم نفع ودفع يمتعون فيها وبها إلى حين ينقلبون إلى تلك أو بدار لا موت فيها ولا سكنًا ولا خير يلقونه، لا يستقرون فيها على أرض أبدًا ولا تظلهم سماء فيها أبدًا، ولا يذوقون لذيذ الشراب والطعام أبدًا، ولا تفارقهم آلام أنواع العذاب والجوع والعطش أبدًا لا إلى حين، بل إلى أبد الأبد.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جل وعز: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١] السرابيل: اسم يقع على الملبس القميص والدروع ونحو ذلك، المراد الأول بهذا الخطاب وهو أعلم بما ينزل: الإعلام بأنه سخر لنا في هذه الحياة الدنيا جبالها وسماءها وأرضها وقمرها وأفلاكها ونجومها ورياحها وحيوانها ونباتها نعم نفع ودفع رحمة منه وفضلاً، ليس كذلك أهل النار - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - لا يسخر لهم شيء مما فيها، ولا مما كان لهم قبل في الدنيا مسخر، بل يسلط عليهم أشد التسليط، وأبعده من الرفق والرحمة يأتيه الموت من كل موجود منها لو كان ميتًا.

يقول الله ﷻ لهم في الدنيا: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠].

ثم قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، والمشبه به ما تقدم ذكره من النعم والإنعام بمنِّه؛ أي: كما أنعم عليكم يا أهل الإيمان بذلك في الدنيا كذلك ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالشكر له ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:٨١] فإنكم إن أسلمتم تسلمون غدًا في الدار الآخرة من العذاب، قرأ بذلك ابن عباس - رضي الله عنهما - بفتح اللام والتاء[1] كذلك قال

(١) قرأ ابن عباس، وعكرمة «تسلمون» بفتح التاء واللام من السلامة من الجراح، وقرأ الباقون =

رسول الله ﷺ: «أسلم تسلم»[(١)].

ثم قال عز من قائل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:٨٢] يقول عز من قائل: من تولى وكفر فلا يحزنك شأنه فإنه يحرم الجنة، ويكون مصيره إلى النار.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾ إنها لله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] يضيعون شكرها وينسبونها إلى ما سواه، قد استقر في قلوبهم معرفة يجدونها في جُدر قلوبهم، لكن رازقهم من السماوات والأرض وخالقهم هو الله جل ذكره، وإن ما بهم من نعمة في أنفسهم وفي سواهم فمن الله، ثم عن هذه الحقيقة يؤفكون.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل:٨٤] يقال: شاهد عدل وشاهد زور.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢].

وقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج:٤-٧].

وعطف بحرف الواو في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ أي: لعلكم تسلمون في الدنيا وتسلمون يوم نبعث ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وعلى القراءة المعهودة: لعلكم تسلمون في الدنيا وتسلمون يوم نبعث من كل أمة شهيدًا ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الهداية ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل:٨٤] أي: يسترضون، وربما كان بمعنى: ولا هم يوفقون لاسترضاء ربهم.

= بضم التاء وكسر اللام من الإسلام. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح. وقيل: الخطاب لأهل مكة أي: لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية، والأولى الحمل على العموم، وإفراد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر. [فتح القدير (٤/٢٥١)].

(١) أخرجه الطبراني (٢٣٨)، والحاكم (٤٣٦٣) وقال: صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (٧٢٠٨)، وإسحاق بن راهويه (٢٧)، وابن سعد (٥/٤٥١).

قال رسول الله ﷺ: «**عشر آيات إذا جئن لا ينفع نفسًا إيمانها ما لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ونزول عيسى ابن مريم، والدابة...**»(١).

ومصداق ذلك من القرآن: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ**﴾ أي: للموت ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ للفصل ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ [الأنعام:١٥٨] الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم... إلى آخر الآيات برزخ ظاهر بين يوم الدنيا وبين يوم الآخرة، فيه تبدو الآيات كما تبدو للمحتضر والميت.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿**تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ**﴾ [النحل:٦٣] فأخبرك أصدق القائلين الإله الحق المبين أن الشيطان وليهم اليوم حال موتهم.

وقال رسول الله ﷺ وذكر الدجال فقال: «**يبعث معه أمثال من مات من الرجال والنساء، فيقول أحدهم لقريبه، لابنه، لأخيه: آمن به إنه ربك، ألست تعرفني؟ ألست فلانًا؟**»(٢).

وقال رسول الله : ﷺ «**يجيء ومعه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء، فيلقى الرجل فيقول له: ألست بربكم؟ ألست أحيي وأميت؟ ألم أمطر السماء عليكم مدرارًا؟ ألم أرسل إليكم أنعامكم شاخصة ذراها دارة ضروعها وألبانها؟ فيقول له الملك الذي على يمينه: كذبت، فلا يسمعه أحد، ويقول الذي عن شماله: صدقت، فيسمعه الناس، وهو إنما صدق صاحبه في قوله: كذبت**»(٣).

وفي الكتاب الذي يذكر أنه «الإنجيل» قال: رسالة تلاميذه – عليهم السلام –

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٨)، والترمذي (٣٠٧٢) وأحمد (٩٧٥١)، وأبو يعلى (٦١٧٢)، وابن أبي شيبة (٣٧٥٩٦)، وأبو عوانة (٣١٨).

(٢) أخرجه الطبراني (٤٣٠)، وإسحاق بن راهويه (٩).

(٣) تقدم تخريجه.

فقالوا: عرفنا بالوقت، وأمارة مجيئك وانقراض الدنيا، فقال بعد كلام طويل [...] إننا حين نكرم القديسين لا نكرمهم في ذواتهم، وتقل مودة أقوام بغلبة الشر، فمن صبر إلى الخاتمة فإن المعاني [.....] هذا الإنجيل وينصر بالملك، فيكون شاهدًا عليهم، وبعد ذلك ينقرض [.....] والانفراد الذي تنبأ به [.....][1] ثانيًا في موضع القدس، فمن كان قارئًا [كاتبا مطلعًا على كتب أهل الكتاب، ومن كان بأرض يهود فليلحق بالجبال، ومن كان على سقف ليس ينزل إلى بيته ليأخذ منه شيئًا، فالويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام، يومئذٍ حزن لم يكن من ابتداء الدنيا مثله ولا يكون، ولولا قصر تلك الأيام لم يسلم أحد من الناس، ولكن قللت تلك الأيام لأجل الصالحين، فمن قال لكم يومئذ: «هذا المسيح» ها هنا أو هناك فلا تصدقوه، فإنه سيأتي من يتشبه بالمسيح وبالأنبياء.

أما المسيح مسيح الهدى والأنبياء والملائكة - على جميعهم السلام - فلم تعط الشياطين التشبه بهم، لكن ذوات الكفار من كتب الله جل ذكره عليه أن يكون من الغاوين تتشبه بهم الشياطين، فيأتون في صور الأمهات والآباء والقرابات وأئمة الكفر كما قال الله جل ذكره: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] فهؤلاء هم شياطين الإنس، وهي ذواتهم التي آخى الله بينهم وبين شياطين الجن في الدنيا بالأعمال وفي الآخرة بالولاية.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] فيشهدون للدجال زورًا وكذبًا، وأما ذوات أئمة المتقين فلخلوصها وطهارتها، ولما في خلقه المؤمن من موجود الملك، تأتي تلك الذوات الملكية فيشهدون لله تعالى، ويثبتون أهل الإيمان.

قال الله ﷻ في المحتضرين منهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠] إلى قوله ﷻ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] ولا يبعدن عليك هذا وقد

---

(١) ما بين [ ] بياض في (غ) وطمس في (ف)، ولم نقف على النص كاملاً في الإنجيل، ومتعلقاته، وانظر: إنجيل لوقا، الإصحاح:٢١، ٢٣، ٢٥. وإنجيل مرقس، الإصحاح (١٣).

جاء به النبأ.

ألا ترى إلى الغاضب كيف يثور غضبه واتصال ضلاله ونفوره عن الحق وإباؤه عن الرشد حتى لا يسمع الحق ولا يبصره ولا يتكلم ولا يتحرك إليه؟ وسماه الله: ميتًا؛ أي: عن الحق، وبالضد في أهل التقوى والهداية حتى يقول جل ذكره: «**أكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**»[1] وهذا وصف هو من الله ﷻ له في عبده أقل ما يعتقد فيه أنه ملكي، والوصف المذموم هو من الشيطان هو حامله فخاطره شيطاني، وهذه الذوات يبعثها الله ﷻ يوم الدجال ويوم عيسى ابن مريم، وهو بعث دال على البعث الأكبر وآيات عليه، فافهم.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ**﴾ أي: في عرضة المحشر ﴿**قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ**﴾ كما قالوا: ﴿**هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا**﴾ [الأعراف:٣٨].

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل:٨٦ – ٩١].

يقول عز من قائل: ﴿**فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ [النحل:٨٦] لما كان اتباعهم الشركاء من دون الله خرصًا وظنًّا وظاهرًا من الأمر ألقوا إليهم القول؛ أي:

(١) تقدم تخريجه.

ظاهرًا من القول إنكم لكاذبون ما كنتم إيانا تعبدون.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾(١) أي: المعبودون والعابدون ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل:٨٧].

يقول الله جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] أبان الله ﷻ عذاب القاتلين الشهداء للدجال والطواغيت من عذاب الأتباع، فيعذبون - أعني: القاتلين - عذابًا لكفرهم وعذابًا لصدهم عن سبيل الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩] الواو للعطف، والمعطوف عليه - والله أعلم بما ينزل - قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النحل:٨٤] فهذا يوم الدجال، لعنه الله وكبته وأوهن كيده ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو يوم مسيح الهدى عيسى ابن مريم ؑ يبعث من كل أمة شهيدًا عليهم من أنفسهم والملائكة أجمعين بعد يوم الدجال [.....](٢) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من العرب عربيًا، ومن الروم منهم، ومن كل أمة وقبيلة شهيدًا من أنفسهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وهذا البعث هو من أشراط البعث الأكبر الذي ذكره رسول الله ﷺ في قوله لجبريل - عليهما السلام - يوم سأله عن الإيمان فقال: «الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث الآخر»(٣) وما من شيء يجب الإيمان به فيما هنالك إلا وله في هذه آيات دالات عليه، وأشراط متقدمة بين يديه، فافهم.

أشار إلى هذا وغيره بقوله الحق: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

---

(١) العامة على فتح السين واللام، وقرأ أبو عمرو في رواية بسكون اللام، ومجاهد بضمِّ السين واللام، وكأنَّه جمع: سلام؛ نحو: قُذال وقُذُل، والسَّلَمُ واحد. [اللباب لابن عادل (١٧٩/١٠)].

(٢) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وأحمد (٩٤٩٧)، وابن ماجة (٦٤).

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ﴾(١) أي: بذكره وأسمائه وحكمته وأفعاله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] في تلك المحنة، وترادف الفتنة بعد الفتنة، نعوذ بالله من جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال رسول الله ﷺ: «ووصف الدجال مكتوب بين عينيه: كفر - وفي أخرى: «كافر» - يقرأه كل مؤمن»(٢).

علامة ذلك في فعله: إنه يأمر بالفحشاء والمنكر والبغي، ولا فحش إلا دون فحشه، ولا منكر أعظم من منكر يجيء به، ولا بغي إلا وهو داخل في ضمن بغيه، وهو ينهى عن العدل والإحسان، وعن إيتاء ذي القربى، فهذا هو الكفر الظاهر في فعله ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧] فمن وقعت عينه عليه ظهر له بين عينيه ما يتبين به ما قاله رسول الله ﷺ وكما بيَّن الله ﷻ علامات الفتنة به إلى غاياتها فكذلك بيَّن علامات كذبه للمؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل:٩١] انتظم هذا بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

---

(١) إنَّ الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائز، وهو منزَّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلَّاه بزينتها يخرج عادلاً محسنًا، رءوفًا رحيمًا، طاهرًا مطهرًا، صادقًا مصدقًا، وليًا، حبيبًا محبوبًا، مريدًا مرادًا، مراعىً محفوظًا، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب العوض في العبودية، ويأخذ منها الاتصاف بينها وبين عباد الله بألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنائية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئنًا في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليفة.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٢٥١٣٣)، وإسحاق بن راهويه (١١٧٠).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٢-٩٧].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢] هذه من الموعظة يوصيهم بالتثبت عند الفتن والصبر عند المحن، ويذكرهم بالعهد والميثاق قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وإقرارهم بذلك في قولهم: ﴿بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢] أقررنا.

قال: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] [أي: إنه لا يخفى عليه خافية، تذكير لهم وتوكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض].

قوله تعالى: ولا ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ يوصيهم بالمحافظة على الأيمان فيما بينهم، والتي قبلها في معنى التوصية بالأيمان والإسلام، والمحافظة على ذلك يحذرهم بذلك من أن يتبعوا الدجال - لعنه الله - بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾ أي: بنقض العهد ثم بالأيمان والأعذار فيما بينهم وفي جميع معاملاته ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:٩٢] تذكير منه ووعظ.

ثم عم بقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا...﴾ [النحل:٩٤].

ثم زهدهم في الفاني ورغبهم في الباقي، وكل ذلك منتظم بمعنى الوعظ؛

ليتذكروا ذلك عند الابتلاء بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ الله ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ يعني والله أعلم: [.....][١].

يقول عز من قائل: ﴿إِنَّمَا عِندَ الله هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ﴾ [النحل:٩٥ – ٩٦] إلى قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يتبعه النساء والأعراب»[٢].

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النحل:٩٨ – ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل:١٠١] تبديل الآية مكان الآية هو على وجهين: إما أن ترفع الآية خطًّا وحكمًا ويجعل مكانها آية أخرى، وهذا قد أمن بعد رسول الله ﷺ ولا سبيل إليه

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٢) أخرجه الطبراني (٤٣٠).

اليوم، والأوجه في معنى هذا الخطاب: أن يكون أبدل آية مكان آية والمعنى واحد في هذه الأمة والأمم الماضية، وإن كان اللفظ متغاير، فكانوا إذا رأوا هذا قالوا له: إنما أنت مفتر، والله أعلم بما ينزل على عبده، وهذه القصة كانت لموسى مع فرعون، ودل سياق الكلام على معنى ما، ثم يثني عليه سواه ويبطن المظهر، وقد يرجع المبطن بعد على مظهر، ويظهر معنى ما أبطنه، وربما بعد موضع أثناء توجه الخطاب فتداخلت المعاني لذلك، فاشتبهت المعاني لتشابهها، فكانوا يظنون لقلة فقه قلوبهم ووقر أسماعهم عن تفهم تناسق الخطاب مع مفترق المعاني أنه تناقض وتهاتر، ويقضون عليه بذلك أنه كذب وافتراء، وإنما هو كما قال جل من قائل: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣].

أتبع ذلك قوله الحق ما هو نصر لرسول الله ﷺ، ورد عليهم بقوله الحق: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢] أي: إنه محفوظ من لدن حافظ عليم، وفي قوله: ﴿نَزَّلَهُ﴾ إيماء إلى معنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٥] نزله بما هو كلام لرب العالمين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلى ما هو كلام لروح القدس، نزله كذلك بالحق إلى ما هو كلام للروح الأمين جبريل عليه السلام إلى قلب الرسول إلى لسانه – صلوات الله وسلامه على جميعهم – إلى ما هو كلام للبشر وتلاوة لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ﴾ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وآياته شمس الباطن، به يهتدي الساري والسارب في أسفار الأفكار، وبه يرى مثل مدارج الذر في خفي الإضمار، ومن عدم الإيمان عدم البصيرة، ومن عُدِم البصيرة لم ينفعه بصره، هذا عذابهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١٠٤] أي: في الدار الآخرة [.....][(١)].

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾[(٢)] [النحل:١٠٦] هذا – والله أعلم

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٢) فيها مسائل: المسألة الأولى: نزلت الآية في المرتدين، واستثنى الله تعالى من تكلم بالكفر بلسانه عن إكراه، ولم ينو ذلك بقلبه، ثم الإكراه يكون بالقول والفعل، فالقول هو التهديد والفعل هو أخذ المال، أو الضرب أو السجن. وقد اختلف الناس في التهديد، هل هو إكراه =

بما ينزل - منتظم بالوصف، وهي الوفاء بالعهد والحفظ للميثاق، لا أن ينقضوا أيمانهم وينكثوا عقودهم ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢] يقول: من كفر بالله من بعد إيمانه وشرح به صدره فعليه غضب من الله، ثم منهم من أظهر الكفر على ظاهره وقلبه مطمئن بالإيمان.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ عرَّض بشدة البأس يومئذٍ وإحاطة الامتحان، فإن خص في إعطاء الظاهر مع توجيه الباطن إلى الله ﷻ وإخلاص الإيمان له سبحانه حال الضرورة، فإنه - أعني: الدجال لعنه الله - لا يقبل يومئذٍ إلا الكفر بالله والإيمان به أو القتل والذبح، كذلك قال وهو أعلم: ذلك؛ أي: من غضب الله عليه، وألجأ به العذاب العظيم بأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة، إنه من قتله الدجال أو قتله قاتله؛ لأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

=

أم لا؟ والصحيح أنه إكراه، فإن الظالم إذا قال لإنسان: إن لم تفعل كذا قتلتك، أو ضربتك، أو سجنتك، أو أخذت مالك، ولم يكن له من يحميه إلا الله، فله قدوم على الفعل، ويسقط عنه الإثم، إلا في القتل، فإنه لا يحل له الإقدام عليه، وإن أكره بالقتل بل يصير الأمر إليه تعالى، ولا يجوز له فداء نفسه بقتل غيره، وهذا مجمع عليه، بين الأمة، وأما الزنا، فالصحيح أنه يجوز له الإقدام عليه مع الإكراه، ولا يُحَد.

المسألة الثانية: هذا يدل على أن الكفر ليس قبيحًا لذاته، إذ لو كان كذلك لما حسنه الإكراه، ولكن الأمر كما قال أهل السنة: إن الأشياء لا تقبح ولا تحسن لذاتها، وإنما تحسن وتقبح بالشرع، فالحسن ما أمر الشرع به. والقبيح ما نهى الشرع عنه. المسألة الثالثة: نزلت الآية في قوم أسلموا بمكة، ففتنهم قوم عن دينهم فثبت بعضهم، وارتد الآخرون، فنزلت الآية، وقال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وبلال، وخباب، وعمار، وصهيب، وسمية، فأما رسول الله فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الباقون فعذبتهم قريش، وأتى أبو جهل بحربة إلى سمية فأدخلها في فرجها حتى خرجت من فمها، فهي أول شهيدة في الإسلام، وأما بلال فجعلوا حبلاً في عنقه، ودفعوه إلى صبيانهم يعذبونه، وهو يقال: أحد أحد، وهانت عليه نفسه، ولم يرجع إلى الكفر، وأما الباقون فعادوا إلى الكفر، فنزلت الآية. المسألة الرابعة: لما سمح الله في الكفر، ولم يؤاخذ به مع الإكراه. حمل العلماء عليه فروع الشريعة. فإذا وقع الإكراه عليها، لم يؤاخذ أحد بها، ولا يترتب عليه حكم، ولذلك قال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه». [الأحكام الصغرى ٤١٧].

فهو شهيد فله الآخرة لا محالة، فمحبته الدنيا وإيثاره إياها على الآخرة جهالة وضلالة؛ لذلك قال: ﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ [النحل:١٠٧] يعني: الكافرين.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل:١٠٨– ١١٤].

﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [النحل:١٠٨ - ١٠٩].

ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ إلى حومة الحق، وهو الإيمان بعيسى ابن مريم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ثم هذا الحكم سائغ فيمن هو هكذا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ معه - عيسى عليه السلام - ومع المؤمنين ﴿وَصَبَرُوا﴾ على إذاية الدجال - لعنه الله - وأتباعه الفاتنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ يعني وهو أعلم: بعد الهجرة إلى النبي والتوبة إلى الله، فهو أحد المرادين هنا ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠] فتح باب التوبة لهم، وقد قرئ هذا الحرف: «فتنوا» بفتح الفاء، وهم الفاتنون، يقول: إذا تابوا من فتنتهم.

ثم قال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل:١١١] أي: إن ذلك اليوم - يعني: اليوم الآخر - يظهر له مغفرته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن

كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل:١١٢].

المراد الأول بهذا المثل: مكة وأهلها، وأنعم الله قبلهم هي الرسالة والرسول وما جاء به، وما في ذلك من جزاء وثواب لو أنهم آمنوا واتقوا، وكونها مرزوقة مطمئنة ما عبر عنه قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧] ولما أخرجوا رسول الله ﷺ أصابهم الجوع والخوف.

والمراد الثاني: وهو أولى بمعنى المثل، وما ضربه مثلاً جملة الأمة كانت بعد فتح الله عليها ونصره إياها آمنة مطمئنة لنصر الله إياهم على عدوهم رغدًا من كل مكان يأتيها رزقها بما كان يفتحه الله لها من المغانم والأنفال والفيء وأنواع مال الله، فكفرت بأنعم الله بطرت وأشرت، ولم تشكر النعمة، وطال عليها الأمد فقست لذلك القلوب، ورانت عليها الغفلة، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف من جور ولاتها وغلبة عدوها إياها ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢] من ظلمهم وعداوتهم ونسيانهم كثيرًا مما ذكروا به.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ فهذا لمكة، ثم للأمة كذبوه بأفعالهم وإن صدقوه بإقرارهم ﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:١١٣] هذا للأمة.

ثم استمر على توجيه الخطاب إليها بقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ الله إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤] أي: إنَّ ذلك الجوع بسبب كفرهم ، فاتركوا الكفر حتى تأكلوا.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ

إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل:١١٥ – ١٢٢].

ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل:١١٦] أي: بغير أمر من الله، إلى قوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١١٧] ومن مفهوم هذا الخطاب وغيره من خطاب القرآن ونور الوحي الذي خصّه الله به كان ﷺ ينذر ويبشر ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل:١١٨] يريد: ما قصه في سورة الأنعام، وهو أعلم بما ينزل.

ثم قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩] هذا خطاب مراد به الأمة في مصطحب حالها على العموم.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إمامًا، فكل إمام فهو أمة لمن تبعه ﴿قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾ [النحل:١٢٠ - ١٢١] إلى تمام الآيتين وصف لهم خليله إبراهيم ﵇ ليقتدوا به ويجعلوه أسوة، ويتخذوا مسلكه دلالة وهداية، وفي ذلك تعريض بأهل الكتاب وبخاصة بني إسرائيل الذين يستظهر الغوي - لعنة الله عليه - بهم وإنهم خالفوا إبراهيم ﵇ فخولف بهم عن سواء سبيله.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٣ – ١٢٨].

أتبع ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣] أي: قائمًا على حقيقة الملة وسواء السبيل لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا مشركًا.

ثم صرح بما كان عرض به بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[1] [النحل:١٢٤] بواسطة عيسى ابن مريم، وهو من يوم القيامة، إلا أن الساعة الحاقة لم تجيء بعد، ويحكم بينهم أيضًا يوم الجمع الأكبر.

قال رسول الله ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة: «**إن هذا هو اليوم الذي كتبه الله علينا فاختلف فيه اليهود والنصارى، وهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهم لنا فيه تبع لليهود غد وللنصارى بعد غد**»[2].

(١) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتَ﴾ بمعنى: إنما فرض تعظيمه والتخلي للعبادة وترك الصيد فيه؛ تحقيق لذلك النفي الكلي وتوضيح له بإبطال ما عسى يتوهم كونه قادحًا في الكلية، فإن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شعائر الإسلام، وأن إبراهيم ﷺ كان محافظًا عليه؛ أي: ليس السبت من شرائع إبراهيم وشعائر ملته ﷺ التي أمرت باتباعها حتى يكون بينه وبين بعض المشركين علاقة في الجملة، وإنما شرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة، وإيراد الفعل مبنيًا للمفعول جرى على سنن الكبرياء، وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل؛ لاستحالة الإسناد إلى الغير. وقرأ أبو حيوة «جَعَلَ» بالبناء للفاعل، وعن ابن مسعود والأعمش أنهما قرءا «إنَّمَا أَنزَلْنَا السبت» وهو على ما قال أبو حيان: تفسير معنى لا قراءة لمخالفة ذلك سواد المصحف، والمستفيض عنهما أنهما قرءا كالجماعة «إنما جعل السبت». تفسير الألوسي (١٠/٣٣٧).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥)، وأحمد (٧٣٠٨)، والنسائي (١٣٦٧)، والشافعي (١/٦٠)، وابن خزيمة (١٧٢٠)، والبيهقي (٥٣٥٤).

فصل

عدل بنا التبيان عن شأن الدجال - لعنه الله - ولما في ذلك من التذكير بالله والتشريد عنه والتحذير من فتنته، نعوذ بالله العظيم من فتنته وشر ما يجيء به من سوء كيده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل:٨٤].

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن يوم الدجال آية على يوم هو كائن يوم البعث كما يوم المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله ﷺ آية على يوم حق يكون يوم البعث والجمع الأكبر، وهي مواطن، ففي هذا لا يؤذن للذين كفروا باعتذار ولا بنطق ولا يسترضون، كما قال عز من قائل: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٧].

قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل:٨٩] هذا ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:١١١].

يقول الله جل وعز: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] ظاهر هذه خالص بمعنى النبوة والرسالة كما بشر لها خالص للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾ قيل: هذه أحكم آية في القرآن، والقرآن كله محكم؛ لذلك وهو أعلم قال: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] أي: إلى أن الحكمة الكاملة والعدل كله لا يكون إلا لله، وطريق الله متميز من سواه لسواه الحيف والجور، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وتزيين الفحشاء والعدوان، وإيعاد بالشر والفقر ونحو هذا، وسبيل الله هو ما ذكره في كتابه، وما هو المعهود في أثناء الوجود؛ لذلك والله أعلم بما ينزل قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكرون حكمي وصراطي من سبل الغواة وصراطهم.

ثم زادهم في التوصية بالمعروف، وفي ذلك وصاهم به من قوله الحق: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢] النكث عند العرب هو أن تأتي المرأة إلى الشعر المغزول والصوف قد صنع منه [...][1] وبلي لطول العهد، فتفتله دبيرًا فينحل بذلك ما كان انبرم منه، فذلك من فعلها هو النكث، واسم المنكوث منه هو النكث، ثم تغزله بعد إن شاءت فتصنع صنيعًا غيره، وشبه الله جل ذكره بذلك الرجوع عن الإقرار الأول والإشهاد الأول، وخلف الوعد ونقض الأيمان من حلف عن يمين مُبرّ هو فيها كاذب، قال رسول الله ﷺ: «**إنه يلقى الله وهو عليه غضبان**»[2].

يقول الله عز من قائل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ الدخل: الفساد؛ أي: لا تجعلوا أيمانكم سببًا إلى الفساد بينكم ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [النحل:٩٤] خاطب الله جل ذكره بهذا المؤمنين، وهو أعلم بما ينزل، وإنما قلنا ذلك؛ لأن أقدام الكفار لا توصف بالثبوت، وأغلظ بالوعيد في ذلك جدًّا.

وقال في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَا خَلاقَ لَهُمْ...﴾ [آل عمران:٧٧] نسأل الله العفو ومعافاته ومغفرته.

وقال هنا: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ زهَّد في هذه دل على ذلك قوله بعد هذا: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٩٥] فوصف الزاهدين في هذه الراغبين في تلك بالعلم.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] الحياة الطيبة في الدنيا

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧٥)، ومسلم (١٣٨)، وأبو داود (٣٢٤٣)، والترمذي (١٢٦٩) والنسائي في الكبرى (١١٠٦٢)، وابن ماجة (٢٣٢٣)، وأحمد (٣٥٩٧)، والطيالسي (٢٦٢)، وابن حبان (٥٠٨٨).

إنما تكون بالإيمان والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله، وعبادة الله والعمل بطاعته، والرضا عن الله والمحبة له، والنصيحة بهذا طابت حياة الدنيا، وما عدا ذلك فهي المعيشة الضنك والعذاب بالأهل والمال.

يقول الله جل من قائل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] وأما الحياة الطيبة في الآخرة فهي بأن يوقى سوء الحساب، وييسر عليه جواز الصراط، ويدخله الله الجنة بسلام، والحياة الطيبة في الدار الوسطى دار البرزخ، وهي بأن يوقَّى عذاب القبر، ويفتح أبواب السماء لروحه، ويسرح في جنة المأوى، ويقعد مع المقربين والمنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وذكر [...][١].

لذلك قال رسول الله ﷺ ساعة خُيّر ورأسه في حجر عائشة وشَخُصَ بصره إلى السماء: «بل الرفيق الأعلى»[٢] والرفيق الأعلى هو الله جل ذكره وتعالى علاؤه وجدَّه، وفي أخرى: «بل الرفيق الأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل»[٣].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم:٦] يجزي عبده المؤمن بأحسن عمله، ويتجاوز له عن سيئه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨] أمر الله سبحانه بهذا رسوله، وأوجب علينا اتباعه، فالواجب على من أراد قراءة القرآن التعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وفي حين [...][٤] التلاوة يخلص الدعاء والتضرع في ذلك إلى الله سبحانه.

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٦٤٥٠)، وأحمد (٢٥٣٢٠).
(٣) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١٤٤٦).
(٤) ما بين [ ] غير واضح في (غ)، وفي (ف): «اصطحاب».

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج:٥٢] وقد تقدم الكلام في سورة البقرة، فإذا كان الشيطان يصل من النبي والرسول إلى مثل هذا مع ضمان الله حفظ وحيه فكيف بمن بعده، وليس عنده ضمان بإصلاح ما يفسده الشيطان عليه.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩] فالتعوذ بالله منه والتوكل عليه حرز منه، وقد أخبر الله وقوله الحق أن من عباده من ليس له عليهم سلطان، وهم المؤمنون بالله المتوكلون على الله، وعلى قدر النزول على تحقيق هذه المرتبة ينحل عنه ضمان العصمة حتى ينزل إلى الذين قال فيهم: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ وهم العصاة ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١٠٠] عبدته.

قوله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الحكمة هنا هي حديث رسول الله ﷺ، والحكمة أيضًا هو فهم القرآن، وكل كلام هو بحكم الظاهر بالباطن معبر عن الحق فهو حكمة ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] إن كان السيف مقدورًا عليه فهو أحسن، وإن لم يكن مقدورًا عليه فالحجة والكلام [...][1] الموعظة، وإن كانوا من أهل الكتاب فقل لهم: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦] هكذا إلى أن يحكم الله بيننا وبينهم.

ثم قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:١٢٦] أمر المؤمنين ألا يتعدوا في العقوبة بمقدار ما هو عقوبة ومن أجله، والصبر جميل وأحسن.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ [النحل:١٢٧] والصبر بالله ولله ومراتب عباد الله في الصبر ترجع إلى وجهين:

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

أحدهما: تكلف الصبر واحتمال المشقة وهذا هو الصبر.

والوجه الآخر: يكون من هذا الموصوف، فالصبر خلق وسجية، وهذا بعض وجوه الحكم، واسم الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الصبور هو من هذا القسم والله أعلم؛ إذ لا يوصف صفاته بتنازع فيضطر لأجل ذلك إلى التصبر ومن المكابدة بالتكليف، وقد يكون هذا في ذي الكيس عن تفعل وتحمل للمشقة [...](١) الصبر حتى يألف ذلك فلا يجد له مشقة، بل روحًا وراحة، وقد يألف المرء المكروه بلزوم العادة.

وقد قيل: المحنة إذا لزمت ألفت، وإنما بتقوى على هذا بصحيح العزم وقوة العلم ووجود اليقين بما تؤول إليه العاقبة من المرغوب والمحبوب.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذ لم يستجيبوا لك لما تدعوهم إليه ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٢) [النحل:١٢٧] يقال: «ضَيْق وضَيِّق» مثل: هَيْنٍ وَهَيِّنٍ.

فصل

القانت: العابد، والحنيف: اسم لمن استقام على المنهاج الحق والدين القيم، وكان إبراهيم ﵇ قد هدى إلى الصراط المستقيم الحسنة التي أوتي في الدنيا أن يوسع عليه في الحال، فكان يقري الضيفان.

وقال رسول الله ﷺ وقد سئل: أي الإسلام أفضل؟ فقال: «**إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام**»(٣) هذا إلى ما أوتيه من النبوة والخلة، وإطلاعه على ملكوت السماوات والأرض، وجعله من الموقنين والصديقين، والرسالة فيه وفي ذريته، ومن ذلك أيضًا ما أوتيه من المقة في القلوب والإمامة

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٢) كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولَكِنَّ الله تعالى حذَّره ما هو موهوم في البشرية، وإِنْ كان هو منزَّهًا عنه. قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا تجعله حظرًا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرًا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلَّى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مُتَّقٍ صادقٍ شاهدٍ محسنٍ.

(٣) أخرجه أحمد (٣٤٨٤)، وعبد بن حميد (٦٨٢)، والترمذي (٣٢٣٤) وقال: حسن غريب.

والمحبة في الأمم، والثناء الحسن ولسان الصدق الذي جعله الله له في الآخرين.

يقول الله جل من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣] محمد ﷺ أشبه ولده به خلقًا وخلقًا.

تفسير سورة «الإسراء»[1]

هِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا

[فيه من المنسوخ آيتان، واختلف في الثالثة][2]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤)﴾ [الإسراء: ١-٤].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[3] إلى قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

---

(١) سبب نزول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ذكر رسول الله ﷺ لقريش الإسراء به وتكذيبهم له، فأنزل الله ذلك تصديقًا له، وهذه السورة مكية قال صاحب الغنيان بإجماع وقيل: إلا آيتين ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ وقيل: إلا أربع هاتان وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وزاد مقاتل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ...﴾ وقال قتادة: إلا ثماني آيات أنزلت بالمدينة وهي من قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخرهن، ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها أنه تعالى لمّا أمره بالصبر ونهاه عن الحزن عليهم وأن يضيق صدره من مكرهم، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والسعر وغير ذلك مما رموه به، أعقب تعالى ذلك بذكر شرفه وفضله واحتفائه به وعلو منزلته عنده، وتقدّم الكلام على سبحان في البقرة، وزعم الزمخشري أنه علم للتسبيح كعثمان للرجل، وقال ابن عطية: ولم ينصرف؛ لأن في آخره زائدتين وهو معرفة بالعلمية وإضافته لا تزيده تعريفًا.

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٣) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ للتعجب فيها يشير إلى أعجب أمرٍ من أموره جرى بينه وبين أفضل خلقه، وأخص عبيده، وأحبهم إليه، وأقربهم لديه، وأعظمهم قدرًا، وأكملهم =

البَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] التسبيح: التنزيه لله ﷻ وهو إبعاد كل ما لا يجوز عليه من صفات المحدثين، ونقائص المخلوقين، وآفات المربوبين، سبحانه وله الحمد، لا إله إلا هو العَلي الكبير.

ومجيئه على وزن فُعلان؛ فذاك لأنها كلمة صدرت عن حقيقة باطنة، ومما فطر الله عليه العرب التي أنزل القرآن بلسانها: أن فرقوا بين بناء مصدر ما صدر عن فعل باطن، وبين بناء ما يأتي عن مصدر فعل ظاهر، يقال من ذلك: عدا فلان على فلان يعدو عدوانًا من الاعتداء، ليس كقولهم: عدا الفرس يعدو عدوًا، إذا أحضر، وهي أيضًا كقولهم: قرأت أقرأ قراءة، واسم المقروء: قرآن، وقربت [أُقرب][1]، واسم المقرب: قربان، وقطعت أقطع، واسم المقطع: قطعان، فواحد التسبيحات: سبحة، كخطوة وخطوات، وكقربة وقربات، وهو أيضًا كحُسبان من: حسبت أحسب تحسيبًا.

وأمَّا نصبه فعلى المدح، وسبحات الله: مدائحه ومحامده وثناؤه العلي، وقد

مقامًا، وأرفعهم درجة، وأعلاهم رتبة، وأجلهم منصبًا، وأكرمهم مثوى، وأعزهم منزلة، وأوفاهم قربة، وأفناهم عن أنانيته، وأبقاهم بهويته، وأخلصهم لعبوديته، وأوحدهم بوحدانيته، وأفردهم بفردانيته، وأوليهم بتجلي جماله، وأعظميهم من كشف جلاله، وهو العبد المطلق من بين سائر عباده، والحبيب المختص المخلص من أحبابه، والنبي المفضل على أنبيائه، وهو الحر المعتق عن عبودية الموجودات ورق وجوده، فلهذا سماه الله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ عند فناء اسمه ورسمه اسمًا ما سُمي به أحد من خلقه إلا عند بقاء اسمه ورسمه، كما قال ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:٢] ومن هنا يقول كل نبي يوم القيامة: نفسي نفسي لبقاء وجودهم وهو ﷺ يقول: «أمتي أمتي» لفناء وجوده في وجوده. وفي قوله تعالى: ﴿مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ إشارة إلى أن الحكمة في إسرائه إراءته آيات مخصوصة بذاته تعالى تقديرًا له ما شرف بما راءها أحدًا من الأولين والآخرين إلا سيد المرسلين وخاتم النبيين، فإنه تبارك وتعالى أرى خليله ﷺ وهو أعز الخلق عليه بعد حبيبه الملكوت كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] وأرى حبيبه آيات ربه الكبرى، كما قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] ليكون من المحبين المحبوبين.

(١) في النسخة (خ): «أقرت».

قيل: إنه من سبَّحت تسبيحًا [وقد تقدم][(١)] فاسم الكلام المسبح به سبحان، مثل: قربت أقرب، والاسم منه: قربان، والتسبيح - أعني: قولهم سبحان - يكون بمعنى الثناء والتنزيه كما تقدم، ويكون بمعنى التعجب، كما قال الشاعر:

سبحان من علقمة الفاجر

وتسبيح التعجب أصله التنزيه والثناء الحسن في حق الله سبحانه وله الحمد.

قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١] إذا كان الفعل مُعدًّى كان أسرى، ومتى كان غير مُعدًّى [قيل][(٢)] فهو سرى، قال الشاعر:

سريت بهم حتى تكل مطيهم وحتى الجياد ما يقدن بأرسان

يقال من ذلك: سرى وحده وسرى ليلة، وكان هذا إسراءً برسول الله ﷺ انتظم أول هذه السورة بمعنى آخر: «النحل» من ذكر ملة إبراهيم، وذكر أصحاب السبت، وذكر نبوة محمد ﷺ، وأمره إياه بأن يدعو إلى سبيل ربه ﷻ، ثم تمدح بإسرائه بعبده، وإتيانه موسى الكتاب، وجعله هدى لبني إسرائيل، ثم قال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٢] [فحصر معنى الرسالة كلها إلى ما في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾][(٣)] من معنى التوحيد وخالص التعبد الذي حاله التوكل.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ذكَّر [بمنته][(٤)] القديمة؛ إذ لم يجعلهم من الهالكين بالكفر وعرض باقتضاء الشكر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] والشكور: هو العبد الذي أدخل نفسه في السلم كافة، فهو لا يتبع خطوات الشيطان، ومن كانت حالته الشكر فهو يعمل الحسنات، فيكتب له في [التقبل][(٥)] الأعلى، ويكون كتابه في عليين، إن أذنب بادر بالتوبة [والإعمال][(٦)] في طاعة ربه، والسيئات ممحوّة والحسنات مثبتة، ويصعد هذا إلى الذين يدخلون الجنة

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] ساقط من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «منته».
(٥) في النسخة (خ): «التعمل».
(٦) في النسخة (خ): «وإلا عمل».

بغير حساب.

قوله تعالى: ﴿لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [الإسراء:١] جاء باسم الليل هنا، والسرى معهود ألا يكون إلا ليلاً؛ وإنما ذلك لأنه الإسراء، وهو يكون بالليل ويكون بالنهار؛ إذ الإسراء ذهاب به عن هذه الدار وما فيها إلى ما قد [شاء][1] الله أن يظهره له فيما هنالك، فهو باطن في حق المسريّ به، ليس كذلك السرى الذي هو بالأجسام.

وقال: ﴿مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:١] أراد - وهو أعلم - تبيين بُعد المسافة مع [ذكر][2] الليل، وعجب من ذلك وتمدح [به][3]، وإنما معهود التعجيب [أبدًا][4] بما [يُرى][5] على المعهود من إظهار المقدور الغائب يخرق به العوائد، وسمي بيت المقدس: الأقصى، والمتكلم [فيه][6] المنتقل عنه المسجد الحرام إنباءً منه - جلَّ ذكره - بأنه سيحدث للمسلمين مسجدًا ثالثًا، وهو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، فكان مسجد المدينة هو الأدنى؛ أي: إلى المسجد الحرام، وقال: إنه بارك فيما حوله؛ أي: بالثمار وتفجير الأنهار، وربما سميت تلك الأرض: مقدسة ومباركة؛ لتجلي المبارك القدوس - عزَّ جلاله - فيها لموسى عليه السلام وتكليمه إياه فيما هنالك.

قال الله ﷻ: ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] وقال: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢] فليس يبعد مع هذا أن يكون الله - جلَّ ذكره - أبقى بركة تجليه فيما هنالك إلى يوم القيامة، ولعلمه في الأزل بما يكون من ذلك سماها في [الكتاب الأول][7] بذلك، كما سمى يحيى ومحمدًا؛ لعلمه السابق فيهما

---

(١) في النسخة (خ): «شاءه».
(٢) في النسخة (خ): «ذكره».
(٣) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «يربي».
(٦) في النسخة (خ): «منه».
(٧) في النسخة (خ): «الكتب الأولى».

وغير ذلك، وما من أحد إلا وهو معلوم عند الله ﷻ باسمه واسم أبيه، وإنما [سمي][(١)] كلاً بما هو عامله، وبما إليه أوجد، وما إليه مآله، فافهم.

فصل

جاء فيما صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه: «**ركب البراق وسار معه جبريل - عليهما صلوات الله وسلامه - إلى بيت المقدس، قال: فربطت البراق بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، ودخلت المسجد فصليت فيه ركعتين**» إلى قوله: «**وأُتيت بالمعراج**»[(٢)] ووصفه وذكر أنه عرج به إلى السماوات سماءً سماءً إلى ما علا فوق ذلك.

تنبيه

قرن ﷻ [بين][(٣)] ذكر الإسراء بعبده بذكر الليل من **المسجد** الحرام إلى **المسجد** الأقصى، وذكر رسول الله اتصال الإسراء بالعروج إلى العُلا، ولم يصف بالإسراء إلا ما بين المسجدين، أرى ذلك - والله أعلم - لعدم الليل في السماوات العُلا، فوصف بالإسراء ما يسكن فيه الليل والنهار[(٤)].

---

(١) في النسخة (خ): «يسمى».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٥٧٠)، وأبو يعلى (١٩/٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣٥).

(٣) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٤) جمع الحافظ ابن كثير روايات أحاديث الإسراء في أول تفسير السورة:٣ / ٣ - ٢٤ وقال: «وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث، صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه؛ فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام، ومن جعل من الناس - كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل عل مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس، ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدًا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرر».

قلت: وقد اختص الله الفقير بجمعه جميع ما هو مطبوع ومخطوط من كتب ورسائل
=

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:١] يريد - وهو أعلم - الآيات التي أراه بين المسجدين «من مشية في أرض فيحاء طيبة، ثم في أرض غمة منتنة»، فقال له جبريل في الطيبة: «إنها أرض الجنة» وفي المنتنة: «إنها أرض جهنم»[(١)].

«وما أراه من داعي اليهود إياه ثم داعي النصارى، ونداء المرأة إياه ذات الزينة والحلي حتى كادت تغشاه، وإتيان جبريل ﷺ إليه بالإناءين: أحدهما: خمر، والآخر: لبن، وأوَّل إناء الخمر بالغواية، وإناء اللبن بالفطرة، والفطرة الإسلام، ولقاءه موسى قائمًا في قبره يصلي، وعيسى في موضع بين المسجدين يصلي، وتوصيتهما إياه بأمته، ولقاءه إبراهيم تحت الشجرة حوله أكثر صبيان رآهم قط، ورأى رجلاً [يحش][(٢)] النار وهو مالك خازن النار، ثم لقاؤه عيسى وموسى والأنبياء - عليهم السلام - في السماوات على منازلهم إلى غير ذلك مما أراه الله في

=

المعاريج، إلا ما كان عن سهو أو عجز، وذلك إما بتحقيقه، أو درجه في موسوعة البرنامج الجامع في معرفة الحبيب ﷺ الإصدار الثاني منها: نصرة رسول الله وآل البيت والأصحاب.

(١) إشارة إلى حديث: «أُتِيتُ بالبُرَاق فركبتُه أنا وجبريل فسار بنا، فكان إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه حتى صار إلى أرض غُمَّةٍ مُنْتِنَةٍ، ثم أفضينا إلى أرض فيحاء طيبة، قلت: يا جبريل كنا نسير في أرض غمة منتنة ثم إلى أرض فيحاء طيبة، فقال: تلك أرض النار وهذه أرض الجنة، فأتيت على رجل وهو قائم يصلي، فقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: أخوك محمد فرحب بي ودعا لي بالبركة، وقال: سل لأمتك اليسر، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك موسى، فقلت: على من كان صوته وتَذَمُّرُه أَعَلَى ربه؟ قال: نعم إنه يعرف ذلك منه وحِدَّته، ثم سرنا فرأيت مصابيح وضوءًا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه شجرة أبيك إبراهيم، قلت: أدنو منها؟ قال: نعم، فدنونا منها، فدعا لي بالبركة ورحب بي، ثم مضينا إلى بيت المقدس، فربطت الدابة بالحَلْقَة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، ونشرت لي الأنبياء من سمى الله في كتابه ومن لم يسمِّ، فصليت بهم إلا هؤلاء النفر الثلاث: إبراهيم وموسى وعيسى». أخرجه البزار (١٥٦٨)، وأبو يعلى (٥٠٣٦) والطبراني (٩٩٧٦) والحاكم (٨٧٩٣) والحارث كما في «بغية الباحث» (٢٢) وأبو نعيم في الحلية (٤/٢٣٤) وقال: غريب، ومن غريب الحديث: «غُمَّة»: ضَيِّقَة، «منتنة»: لها رائحة كريهة ومؤذية.

(٢) في النسخة (خ): «يحشي».

طريقهما إلى بيت المقدس»[(١)].

هذا إلى ركوبه البراق، ورؤيته الرجلين وهو [قائم][(٢)] عند الكعبة، فقال أحدهما للآخر: أحد الثلاثة بين الرجلين، قال: فأخذا بيده وشقًّا عن بطنه، وغسَّلاه بماء زمزم وملآه حكمة وإيمانًا، قال: «**ثم أتيت البراق** - وهو دابة [أبيض][(٣)] فوق الحمار ودون البغل - **مضطرب الأذنين، يضع حافره عند منتهى طرفه**»[(٤)] قال: «**فإذا صعد في جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط من جبل ارتفعت يداه**»[(٥)].

هذه كلها آيات أراه الله إياهن في الأرض، ثم إلى آياته في السماوات، ثم إلى العُلا من رؤية الأنبياء على منازلهم والبيت المعمور، والجنة والنار، والكوثر وما هنالك، والملكوت الأعلى، وإلى السدرة المنتهى وما غشيها، وما علمه وأوحى إليه ما أوحى.

واختلف في هذا الإسراء: أكان بجسمه أو بروحه ﷺ؟ وهل هي رؤيا صادقة أو هي [نقلة][(٦)] بجملته إلى ما أريه وشاهده؟.

واسم «العبد» يقع على الجملة، وعلى النسمة، والروح والباطن المكنى عنه بالمثال.

ولفظ «الرؤيا» التي ذكرها الله في قوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ**﴾ [الإسراء:٦٠] يقع على الرؤية مشاهدة، ويقع على رؤيا المنام.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ***

---

(١) إشارة إلى حديث مطول أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢٦٧/٦)، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٩/١) وقال: هذا حديث مداره على أبي هارون العبدي، وهو ضعيف، وله شاهد من حديث أبي هريرة، ورواه البزار في مسنده مطولاً جدًّا.

(٢) في النسخة (خ): «نائم».

(٣) في النسخة (خ): «بيضاء».

(٤) أخرجه مسلم (١٦٢)، وأحمد (١٢٥٢٧)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٠) وأبو عوانة (٣٤٤).

(٥) تقدم آنفًا.

(٦) في النسخة (خ): «نقله».

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٣-١٧] فأخبر ﷺ نصًّا غير محتمل أنها كانت منه رؤية بصر، والرؤيا بما هي وحي «**وهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[١] وقد يراها المؤمن والكافر والعالم والجاهل؛ إذ هي من النبوة [المبثوثة][٢] في العالم، الموجودة عن إثارة الحق المخلوق به العالم كله، وهذه تنشأ صعدًا إلى رؤيا النبوة المحجوبة الخاصة؛ كرؤيا إبراهيم ويوسف، وكثير من رؤيا محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وعلى الأغلب فما يقص نبي من رؤيا إلا قرن بها قرينة تدل بها على أنها رؤيا منام، يقول رسول الله ﷺ: «**بينا أنا نائم رأيت سيفي قد انقطع**»[٣] و«**بينا أنا نائم عرض علي الأنبياء**»[٤] و«**بينا أنا نائم أتيت بإناء لأشرب فناولت فضلي الأصغر، فقيل لي: كبّر كبر**»[٥] وقال إبراهيم ﷺ: **﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾** [الصافات:١٠٢] وكذلك رؤيا يوسف ﷺ وغيرها ذلك؛ لأنه لما كان المصاحب لأحوالهم الوحي ميزوا رؤياهم هذه بذكر المنام.

وسياق حديث الإسراء يعطي حال اليقظة لا حال المنام من لدن قوله ﷺ: «**بينا أنا نائم عند الحجر** - أو قال: «**عند الحطيم**»[٦] - **أتاني رجلان، فقال أحدهما للآخر: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأخذاني فشقًّا بطني ثم غسلاه....**»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٦٠)، وأحمد (١٢٠٥٦)، والترمذي (٢٢٧١) وقال: حديث صحيح، وفي الشمائل المحمدية (٤١٥)، والطيالسي (٥٧٥)، والدارمي (٢١٣٧)، وأبو داود (٥٠١٨)، وابن ماجة (٣٨٩٤)، والطبراني (١١٦٢٧)، وأبو يعلى (٢٣٦١)، وقال الهيثمي (١٧٢/٧): رجاله رجال الصحيح، ولفظ الحديث: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة».

(٢) في النسخة (خ): «المثبوتة».

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه مسلم (١٦٧)، والترمذي (٣٦٤٩) وابن حبان (٦٢٣٢) وأبو عوانة (٣٤٩) وأحمد (١٤٦٢٩)، وعبد بن حميد (١٠٤٥).

(٥) لم أقف عليه.

(٦) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٦٦/٢).

(٧) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٦٤)، والنسائي (٤٤٧)، وأحمد (١٨٣١٠)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٥١).

وقد كان من قريش إعظام لهذا الشأن وتكذيب، ويقول قائلهم: إن [ما][١] بيننا وبين بيت المقدس مسيرة ثلاثين يومًا، ويقول محمد: إنه قطعها من ليلته مارًّا ومقبلاً، وأتم ليلته في مضجعه، ولو كان إخباره إياهم بذلك على سبيل قصص الرؤيا لم يكن منهم ذلك، وقد قيل: إن كثيرًا منهم رجع عن رأيه في الإسلام يومئذٍ.

ولو كانت رؤيا منام لم يكن ذلك كذلك؛ إذ قد يرى غيره ممن ليس في منزلته أنه يُذهب به في الرؤيا مسيرة [الشهر][٢] وأكثر، ويصعد به إلى السماء ونحو هذا، وحمل اللفظ على ظاهره أولى؛ إذ هو الإسراء لا غير، وأمور النبوة خارجة عن [معهود][٣] العوائد، والإسراء في النبوة أصل لها، وهو معنى قول الملائكة والأنبياء في السماوات حين كان جبريل ﷺ يستفتح له سماءً سماءً كلهم يقولون: «**وقد بعث إليه؟ فيقول: قد بعث إليه، فيقولون: مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء**»[٤].

فهذا إخبار منهم عن سُنة مسلوكة بهم معشر الأنبياء والرسل، وإعلام بتفاضل مجيئهم ختم الله ﷻ الآية باسمين، ينبئ بذلك من فقه عنه أنه الإسراء ظاهر، الله أعلم بكيفيته وبما هو، ثم رسله - عليهم السلام - فإن ذلك مما ينشأ.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢] فإن الذي أنشأه من كونه نطفة مهينة، وجمع خلقته من أمشاج [أثاره لفتح][٥] والفيحين في طبقات الخلقة في خزائن السماوات والأرض إلى أن جعله سميعًا بصيرًا، قادرًا على أن ينشئه نشأ آخر إلى ما ذكرناه، إنما هو النوم وغايته التي يصير إليها الموت، وفي الموت الحياة، وينشأ ذلك منها إلى الرؤيا، والرؤيا تنشأ إلى الإسراء، كما الحياة حياتان:

---

(١) ما بين [ ] زيادةمن النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «أشهر».
(٣) في النسخة (خ): «مفهوم».
(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (٤٣٤)، وأحمد (١٨٣١٠)، وابن حبان (٤٨)، والنسائي (٤٤٧)، والترمذي (٣٣٤٦)، والطبراني (١٥٩٤٢)، والبيهقي في الدلائل (٦٧١)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٥٢)، وابن خزيمة (٣٠٣).
(٥) في النسخة (خ): «إثارة الفيح».

- حياة الأجسام تنشأ إلى الحياة الكبرى في الدار الآخرة.

- والحياة حال الموت، وهي شبيه باليقظة حال النوم ينشأ ذلك إلى حياة الشهداء، والذين نهينا أن نسميهم أمواتًا، والتوفي ينشأ إلى الرفع.

هذه بواطن [غايات غابت علينا](١) إلا وجودًا يجدها العقل إيمانًا، وهن ظواهر لأهل الآخرة وأهل الأفق المبين، وفيما أومأنا إليه [من](٢) تدبره أعظم دليل على أن الأمر يسير غير عسير، وقد تقدم من الكلام في مثل هذا ما يشرف به ذوا اللبِّ على واضح السبيل.

قوله ﷻ: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٢] أخبر الله - جلَّ ذكره - أن كتاب موسى ﷺ هدى لبني إسرائيل، وأنه وإن كان قد قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] فإنا قد شركناهم أيضًا في [التزام](٣) إقامة الدين على سنن التوحيد، قال الله ﷻ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

ثم نحن وإياهم مشتركون فيما لم ينسخ منه بالقرآن، قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] وقد نزل القرآن منازله، وبيَّن ناسخه منسوخ ما قبله، ونحن القائلون [والحمد لله](٤): ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

ثم قال - عزَّ من قائل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣] نصب ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ على المدح لهم، وهم المهتدون منهم، أشار بهذا - وهو أعلم - إلى معنى قوله: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨] ولما ذكر نوحًا أثنى عليه بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] كما أمرنا أن نسلم عليه وعلى إخوانه وأبنائه من الأنبياء والمرسلين، يقول جلَّ [ذكره](٥): ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ

---

(١) هكذا في (خ) وهي غير واضحة في (غ).
(٢) في النسخة (خ): «لمن».
(٣) في النسخة (خ): «إلزام».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «من قائل».

﴿فِي الآخِرِينَ* سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:٧٨ - ٨٠] وقال مثل هذا في غيره منهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويمكن أن يكون نصبه على النداء، وذكر [رسوله] (١) نوحًا تذكيرًا به، ودعائه إلى ما جاء به من الإيمان بالله، والتقوى وطاعة الله، وشمل بذلك بني إسرائيل [والعرب](٢) يقول على ذلك: اقتدوا بأبيكم نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

قوله ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾(٣) [الإسراء: ٤] إلى آخر القصة، «قضينا» هنا بمعنى: حتمنا؛ أي: ألزمنا، والقضاء وإن تصرف إلى وجوهه فمعناه التمام والفصل، يقول الله ﷻ: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًا﴾ [مريم:٧١] وقرأها ابن كثير: «في الكتب» على الجمع(٤) ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وقرأها ابن عباس: «لَتُفسَدن في الأرض» بالتاء مضمومة وفتح السين، فمعنى هذه القراءة: إنه إخبار من الله - جلَّ ذكره - بما يصيبهم من جزاءٍ على فسادهم في الأرض مرتين فيفسدون؛ أي: يقتلون ويأسرون، ويسلط عليهم من يفعل ذلك بهم، وقد كان ذلك(٥).

(١) في النسخة (خ): «رسول الله ﷺ».
(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٣) قال الشيخ المصنف: أي: حتمنا وكتبنا، والقدر هو التقدم بالعلم في الأمور، وهو القدر مخفّف، وقد يكون القدر اسمًا لما تقدم فيه بالعلم، وهو: المقدار فعل ومفعال، كربع ومرباع، وقدّر وفعل من القدر، والتقدير تفعيل منه، ولمّا خلق ﷻ القلم واللوح، قال للقلم: «اكتب» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: «اكتب المقدار». وفي أخرى: قال: «اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة». وفي أخرى: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة» فمعنى قوله: «المقدار» والله أعلم: إنه مقدار لإخراج الأكوان، قال الله جلّ قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] انظر: شرح الأسماء (١٧٨/٢).
(٤) العامة على توحيد «الكِتابِ» مرادًا به الجنس، وابن جبيرٍ وأبو العالية «في الكُتُب» جمعًا، جَاءُوا به نصًا في الجمع. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٣٧/١٠)].
(٥) قوله «لتفسدن»: اللام واقعة في جواب القسم، وفعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة =

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾ [الإسراء: ٥-٧].

نظم بذلك قوله - جلَّ من قائل: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم فارس مع بُخْتَنَصَّر ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ والجوسان هو: التردد مع فساد ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ [الإسراء:٥] وفيما قيل: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى إرمياء عليه السلام لما [جاءهم وكان][١] مضمون الكتاب بمواقعة الفساد المذكور منهم بعث إليهم رسوله إرمياء عليه السلام وقال له: «من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك في الرحم قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ أشدك نبأتك، ولأمر عظيم اجتبيتك».

وبعد كلام قال له: «وأنا باعثك إلى خلق من خلقي؛ لتبلغهم رسالاتي، فتستحق بذلك أجر من أطاعك منهم، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، وإن قصرت عنها استحققت في ذلك وزر من تركت في عماه، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا، انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل: إن الله ذكركم بصلاح آبائكم، فحمله ذلك على أن [يستثيبكم][٢] يا معشر أبناء الأنبياء، وسلهم كيف وجد آباؤهم غبَّ طاعتي؟ وكيف وجد هؤلاء غبَّ معصيتي؟ [هل علموا أن أحدًا أطاعني فشقي بطاعتي وأن أحدًا عصاني فسعد بمعصيتي؟!][٣] فإن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها،

لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون للتوكيد، «مرتين» نائب مفعول مطلق، وقوله «ولتعلُنَّ» مثل «لتفسدن». [مشكل إعراب القرآن (٢٨٢/١)].

(١) في النسخة (خ): «جاء أجلهم وحان».

(٢) في النسخة (خ): «يستتيبكم».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

وإن هؤلاء القوم تركوا ما أكرمت عليه آباءهم، وابتغوا الكرامة من غير وجهها.

أمَّا أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي حولاً، فيعبدونهم من دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري وأنسوهم ذكري وعروهم مني، فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، وبدلوا كتابي، ونسوا عهدي، وضيعوا أمري، حتى دان لهم العباد بالطاعة التي لا تنبغي لجبار غيري، وهم يحرفون [الكلم] [1] بذلك كتابي [ويفترون][2] من أجله على رسلي جراءة وغرة وفرية علي وعلى رسلي، فتعالى جلالي وعلو مكاني وعظمة سلطاني، وهل ينبغي أن يكون لي شريك في أمري؟!».

إلى قوله: «وأمَّا قراؤهم وفقهاؤهم فينقادون للملوك يتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني، ويطيعونهم في معصيتي، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي، فهم جهلة فيما يعلمون، أميون فيما يتلون، لا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي، وأمَّا أولاد الأنبياء فمقهورون [مغترون] [3] يخوضون مع الخائضين، يتمنون علي مثل نصرة آبائهم والكرامة التي أكرمتهم بها، ويزعمون أنه لا أحد أحق بها، ولا أولى بذلك منهم بغير صدق ولا [نكير] [4] ولا تغيير».

إلى قوله: «وإني تأنيت بهؤلاء القوم لعلهم [يرجعون][5] فأطلت وصفحت لعلهم يستحيون، وأكثرت ومددت في العمر لعلهم يتذكرون، فأعذرت كل ذلك، أمطر عليهم السماء، وأنبت لهم الأرض، وألبسهم العافية، وأظهرهم على عدوهم، فلا يزدادون إلا طغيانًا وبعدًا مني، فحتى متى هذا؟ أَبِي يتمرسون؟ أو إياي يخادعون؟ إني أقسمت بعزتي لأتيحن لهم فتنة يعود الحليم فيها حيرانًا، ويضل رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم.

ثم لأسلطن عليهم جبارًا قاسيًا ملكًا عاتيًا، ألبسه الهيبة وأنزع من صدره

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «ويعترون».

(٣) في النسخة (خ): « معترون».

(٤) في النسخة (خ): «تنكير».

(٥) في النسخة (خ): «يرجون».

الرحمة والرأفة، يتبعه عدد كثير وسواد مثل سواد الليل [المظلم][(١)] له عساكر مثل قطع السحاب، ومواكب أمثال الجبال، كأن خفيق راياتهم طيران النسور، وكأن صهيل فرسانهم زئير الأسود، لا يعرفون وجوههم ولا يفهمون كلامهم ولا يرحمون بكاءهم، يعيدون العمران خرابًا والقرى وحشة، قلوبهم قاسية لا يفيقون ولا يستفيقون، ولا يراقبون ولا يرحمون، يجولون خلال الديار بأصوات مثل نهيت الأسد[(٢)] تقشعر من هيبته الجلود، وتطيش من سمعه الأحلام، وجوههم كريهة، ظاهر عليها المنكر.

وعزتي [وجلالي][(٣)] لأعطلنها من كتبي وقدسي، ولأخلين مجالسها من [أنسي][(٤)] ولأوحشن مسجدها من [عمارة][(٥)] الذين كانوا يتزينون بعمارته لغيري، ويتهجدون فيها، ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العلم، ويتعلمون لغير العمل، ثم لأبدلن ملوكها بالعزِّ الذل، وبالأمن الخوف، وبالنعمة الجوع، وبطول العافية ألوان البلاء، ولأعيدن فيها بعد [النحيب][(٦)] والأصوات صياح الهام، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد القصور الشامخات [أعصار][(٧)] العجاج، وبعد الأنس الوحشة.

ولأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال، وبنطق الحرير وقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد، وبألوان الطيب والدُّهن التفل والعَقار، وبالجلوس على الزرابي المشي في الأسواق وعبارة الأنهار، ثم لأدوسنهم بألوان العذاب حتى لو كان الكائن منهم جاثمًا لوصل إليه الخوف، وحفَّ به البلاء حتى يقتلعه من ذلك المكان، فإني إنما أكرم من أكرمني، وأهين من هان عليه أمري».

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) النَّهْت والنَّهيت: صوت شبيه بالزجر نَهَتَ الرجلُ بالرجل، إذا صاح به، وسمعت نَهيت الأسد ونَئيته، وهي همهمته. انظر: جمهرة اللغة (١/١٩٧).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «أنسها».

(٥) في النسخة (خ): «عماره».

(٦) في النسخة (خ): «النحب».

(٧) في النسخة (خ): «عصار».

وبعد كلام قال الله ﷻ: «إن من خلا قبل هؤلاء من العاصين من القرون كانوا يستخفون بمعصيتي فأسترها عليهم، وإن هؤلاء القوم إنما يتنازعون بمعصيتي، ويظهرونها في الأندية والأفنية وبطون الأودية وظلال الشجر ورؤوس [الجبال](١) لأخيارهم يقولون: اتقوا الله، ولا علماؤهم ينتفعون بما علموا، ولا ولاتهم ينتهون عن المنكر، حتى عجَّت الأرض منهم ومن أعمالهم، وبهتت منه السماء، وتثلمت منه الجبال، وذعرت منه الوحوش، وانقطع الحياء من النساء».

فلما فعلوا ذلك أمرت السماء فكانت عليهم طبقًا من حديد، وأمرت الأرض فكانت صفيحة من نُحاس، فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت، فإن أمطرت خلال ذلك من شيء فبرحمتي للبهائم، وإن زرعوا عليها شيئًا نزعت منه البركة، يدعونني فلا أستجيب لهم، ويسألونني فلا أعطيهم، ويتضرعون إلي فلا أرحمهم، ويرفعون إلي أيديهم فأصرف رحمتي عنهم، يقولون: ربنا قد أحسنت إلينا وإلى آبائنا حفظتنا في أصلابهم وربيتنا في ضعفنا، فارجع إليهم إني أبتدئ [عبادي](٢) برحمتي، فإن قبلوها أتممت، وإن استزادوني زدت، وإن أبوا علي أبيت، وإن أدبروا غضبت، فإذا غضبت عاقبت، ولا يقوم شيء لعذابي، ولا يدوم شيء مع [غضبي](٣)».

قال: فلما قال لهم إرمياء ﷺ ما أمره [ربه](٤) من ذلك كذبوه، وقالوا: ما نعلم أحدًا أعظم على الله فرية منك، إنك تزعم أن الله مهلك أولياءه، ومخرب مسجده، ومن على الأرض من عباده وتوحيده وكتابه، حتى لا يعبد ولا يذكر ولا يسبح، ثم وقعوا به فضربوه وحبسوه، فلما فعلوا به ذلك أنجزهم الله ما [أوعدهم](٥) وسلط عليهم بُخْتَنَصَّر، فسار إليهم فيما لا يحصيه العاد ولا يعلمه إلا الله ﷻ، ثم حصرهم في بيت المقدس لا يملكون من الأرض شيئًا إلا بيت المقدس.

وبعد كلام وقصص قال: فحصرهم حتى ماتوا في الحصار، كل ذلك يعرض

---

(١) في النسخة (خ): «الرجال».
(٢) في النسخة (خ): «عبيدي».
(٣) في النسخة (خ): «سخطي».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «وعدهم».

عليهم أن ينزلوا على حكمه فيأبون، ثم لم يجدوا بدًّا من أن ينزلوا على حكمه، فقتل مقاتلتهم كل قتلة، ومثَّل بهم كل مثلة.

وفيما ذكر أنه مما تقدم ذكره قال: لما [خرج][1] بنو إسرائيل من بيت المقدس إلى العراق كان في حملة المأسورين نبي من [أنبيائهم][2] فاحتاج بعضهم أن يسألوه عن مسألة، فأتى ذلك النبي عليه السلام أناس منهم يسألونه عن مسألتهم، فخرج عليهم من المنزل الذي كان فيه، وكان عند عجوز يخدمها، فقاموا إليه وسألوه عن بعض ما هم فيه، فإذا هو بخرقة على رأسه، فسألوه: ما هذه الخرقة؟ قال: كنت أعجن بها فنعست فضربتني فشجتني، وكان على عنقه جرة.

وقال أشعياء عليه السلام: إن الرحمن أوحى إليَّ أنه يوشك أن ترفع الكرامة من الأرض، فلا يكرم الصغير الكبير، فهذه أولاهما.

أتبع ذلك قوله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[3] [الإسراء:٦] يريد - وهو أعلم: أكثر عددًا من أهل فارس لما استتابهم، وعاقبهم بما تقدم ذكره تاب عليهم، فردَّ لهم الكرة على عدوهم.

يقول الله، جلَّ ذكره: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يعني: في هذه التوبة ﴿أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧] فكان من ذلك ما شاء الله، ثم أفسدوا في الأرض المرة الثانية.

يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي: على ذلك من إساءتكم ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾

---

(١) في النسخة (خ): «أخرج».

(٢) في النسخة (خ): «الأنبياء».

(٣) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي: الدولة والغلبة، وأصل معنى الكر: العطف والرجوع، وإطلاق الكرة على ما ذكر مجاز شائع كما يقال: تراجع الأمر، ولام «لكم» للتعدية وقيل: للتعليل. وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: الذي فعلوا بكم ما فعلوا متعلق بالكرة؛ لما فيها من معنى الغلبة أو حال منها، وجوز تعلقه بـ«رددنا» وهذا على ما في البحر إخبار منه تعالى في التوراة لبني إسرائيل، إلا أنه جعل «رَدَدْنَا» موضع نرد؛ لتحقق الوقوع، وكان بين البعث والرد على ما قيل مائة سنة، وذلك بعد أن تابوا ورجعوا عما كانوا عليه. تفسير الألوسي (٣٧٣/١٠).

[الإسراء:٧] [يعني][(١)]: الدمار والهلاك، ذكر أنه سلط عليهم الروم، ففعلوا بهم ما ذكره من التبار والدمار، وذكر أنهم غلبوهم على أنفسهم، كما قال ﷻ: ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٧] وهذا على قراءة ابن عباس ﷺ: «لتُفسَدن في الأرض» وعلى قراءة الجماعة: فسادهم الذي من أجله أفسدوا.

أطلت في وصف حالهم وذكر مصابهم؛ لأعظ نفسي ومن بلغ، فإنه ما من شيء ذكره الله لرسوله إرمياء ﵇ [ومما][(٢)]عاتبهم به وعاقبهم عليه إلا قد تكامل فينا معشر هذه الأمة، وذُكر أنهم كان فيهم أبناء الأنبياء، وكان فيهم الأنبياء يوحى إليهم، فكيف بنا في الغيبة والغربة مع ظهور الفساد في الأرض، وبيع الدين بيسير الدنيا، وترك الحق لا لعوض ننال به بدلاً من ذلك؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله البر الرحيم أن يتداركنا برحمته إنه قريب مجيب.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:٨-١٢].

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٨] [هم][(٣)] اليوم في هذه الفترة مضروب عليهم ذل الجزية يؤدونها ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩] والرحمة المذكورة [هنا][(٤)] هي: رحمة الإمتاع

(١) في النسخة (خ): «التبار».

(٢) في النسخة (خ): «مما».

(٣) في النسخة (غ): «هو».

(٤) في النسخة (غ): «هذا».

[تنفع][(١)] في الدنيا ولا نفع لها في الآخرة، [والرحمة النافعة هي: الرحمة الموصلة إلى خير الآخرة][(٢)] قوله ﷻ: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤] تارة ثالثة إذا أتى وعدها علوا علوًا كبيرًا، وقالوا قولاً عظيمًا، يخرج الدجال - لعنه الله - [فيهما فتكون][(٣)] لهم معه سابقة إلى ضلالته، واستجابة منهم إلى كفره؛ فذلك قوله - عزَّ من قائل: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤] ثالثة من فسادهم.

ثم لا يمتعون بذلك إلا قليلاً، فينزل عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - فيهلكه، فهنا يكون على قراءة ابن عباس «تُفسَدن» [فالثالثة يعتلون ولا يجيرهم][(٤)] شيء ولا [يخبؤهم][(٥)]، قال رسول الله ﷺ: «**سوى شجر الغرقد فإنها من شجرهم**»[(٦)] وإنما ذلك؛ لأنها أمة من الأمم فلا تستأصل، قال رسول الله ﷺ: «**لقد هممت بقتل الكلاب حتى ذكرت أنها أمة من الأمم، فاقتلوا منها ذا النقطتين، والأسود البهيم فإنه شيطان**»[(٧)].

يقول الله - عزَّ من قائل - في هذه الثالثة: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ [أي][(٨)]: إلى الفساد ﴿عُدْنَا﴾ بالعذاب، ثم أخبر عن الانقراض، وقربه من يومئذٍ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨] أي: سجنًا وحبسًا، المحصر بعدو أو مرض أو فقر أو انقطاع حجة، محبوس عما يؤمله، ويقال للحبس: حصير، وللملك الطويل الحجاب: [الحصير][(٩)].

---

(١) في النسخة (خ): «بنفع».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «فيكون».
(٤) في النسخة (خ): «ثالثة يقتلون فلا يجنهم».
(٥) في النسخة (خ): «يخبوهم».
(٦) أخرجه مسلم (٢٩٢٢)، وأحمد (٩٣٨٧).
(٧) أخرجه مسلم (١٥٧٢)، وابن حبان (٥٦٥١)، وأحمد (١٤٦١٥)، والبيهقي (١٠٨١٨)، والديلمي (٤٠٤٦).
(٨) ما بين [ ]سقط من النسخة (غ).
(٩) في النسخة (خ): «حصير».

فصل

قال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه»[١].

وفي أخرى: «حتى لو كان منهم من أتى أمته جهارًا لكان منكم من يفعل ذلك»[٢].

فالعلم العلم - رحمكم الله - وأحسنوا العبرة، فلقد تجاوزنا أفعالهم وأفعال المهلكين من كفار الأمم سوانا وسواهم إلا الكفر الصراح، ولم يكن الله - جلَّ ثناؤه - ليقص علينا أنباءهم، ويخبرنا بأخبارهم [تعييرًا][٣] لهم، ولا خوضًا في ذكر معائبهم دون فائدة؛ بل ليذكرنا ويعظنا رحمةً منه بنا ونصيحةً لنا.

يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] [البلوغ][٤] على وجهين:

أحدهما: بلوغ الحلم.

والثاني: البلوغ إلى أن ينفع فيه النذارة و[التذكرة كقوله][٥]: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ [فاطر:١٨]، وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠]، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وهو أيضًا بمعنى التبليغ ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ يعني: العرب ومن بلغه القرآن، وهذا الذكر من الأمم عام، بل [كان ما][٦] قصَّه علينا من معائب من مضى، إشارة إلى ما يصيب هذه الأمة من فتن وبلايا، والمستدل به على ذلك هو ما أصاب من مضى من أهل الكتابين ومن غيرهم، وقد أصابنا في كثير من البلاد والأقطار وأكثر الأحوال ما أصاب بني إسرائيل، وإن كان وله الحمد لم يبلغ إلى الاستئصال كما وعد الله - جلَّ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٨)، والطبراني (١٣/١٧).
(٢) أخرجه الحاكم بنحوه (٨٤٠٤).
(٣) في النسخة (غ): «تغييرًا».
(٤) في النسخة (خ): «البلاغ».
(٥) في النسخة (خ): «التذكر بقوله».
(٦) في النسخة (خ): «كلما».

ثناؤه - رسوله ﷺ ونحن الآن وهم على حال [مودته بحالة][(١)] منتظرة، غير أنا ننتظر الفرح برضا من الله ﷻ، وهم ينتظرون ذلك بغضب من الله عليهم وسخطًا، نعوذ بالله من ذلك.

أعقب ذلك قوله الحق ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يهدي إلى سبل السلام، والصراط المستقيم: صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، نعم وهو يهدي إلى علم ما قد كان وما هو كائن، هذا لمن استرشده واستهداه ولقن عنه، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩] وبالضد للذين لا يؤمنون بالآخرة.

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾[(٢)] [الإسراء:١٢] ليس عند ربكم ليل ولا نهار، إنما هو الأفق المبين نور ساطع، وما تحت الأرضين ظلام مطبق، ولما كان ما ها هنا موضع الوسط أنهى إليه نورًا من ضياء ما هنالك، جعل الشمس عليه دليلاً سماه: نهارًا، وأصعد مما هو تحت الأرض ظلامًا جعله موضع المحو سماه: ليلاً، جعله آية على حقيقة الظلام، وكان ما ها هنا أقرب إلى النور؛ لغلبة النور على الظلام، فمحا منه موضع الليل، وجعله آية أخرى، وقد كانا معًا آية واحدة، [وصيرها][(٣)] بالتفصيل [آيتين][(٤)] وجعل كل واحد منهما خالقًا لقرينه، أجراهما معًا على دوائر محكمة التدوار تقدير من عزيز عليم.

وقد قيل: إن الخطوط التي في القمر هي موضع المحو، فإن كان ذلك عن وحي فهي حجة قاهرة، وإلا فذلك عن إفاضة حكم المحو.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) قال المصنف: إنه إنما ميز بينهما ليفصل أحدهما عن الآخر؛ ليبتغي عباده فيما فضله، وليعلموا بذلك السنين والحساب بمطالع الشمس والقمر ومغاربهما، كما يتعرفون في الجنة الغدو والعشي بتناوب ظهور نور الحق المبين وضيائه - عز جلاله - الله الحق المبين، كذلك يعلمون الحساب والسنين والشهور وإلى ما هو العلم والمعرفة أعلى من هذا وأسنا؛ انظر: شرح الأسماء (٣٧٤/٢).

(٣) في النسخة (خ): «فصيرهما».

(٤) في النسخة (خ): «اثنين».

فصل

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [ثم قال][(١)] ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥] إلى آخر المعنى، فكون الشمس والقمر هنا نورًا وضياءً آيتان على وجود [ضياء][(٢)] الحق المبين ونوره في الجنة، وهما هناك آيتان على [معنى][(٣)] الليل والنهار فيما ها هنا، والمثل الأعلى لله - جلَّ ذكره - في السماوات والأرض هو التنزيه العلي عن نقائص المحدثات وآفات المكونات، لا أفول ولا محاق، ولا تحرك ولا انتقال، إنما هو الاحتجاب والتجلي لا يخلف ذلك الوجود ظلام، ولا ما هو الظلام آية عليه ولا شمس [ولا][(٤)]نهار، ولا ما هو ذلك آية عليه.

فجعل ﷻ الليل والنهار فيما ها هنا آيتين [اثنتين][(٥)] دالتين على ما هنالك، وجعل القمر إلى الليل، وإنما هو مادام قمرًا، وإلا فهو يطلع أول الشهر كالعرجون القديم، [ثم][(٦)] لا يزال يصعد ناشئًا إلى أربع عشرة ليلة بأربع عشرة منزلة، ثم هو بعد ينتقص بالمحاق إلى ثمانية وعشرين ليلة، ومثلها منازل، ثم يسرّه ليلة، وربما أسرَّه ليلتين، فإذا دار الدور فهو شهر إلى تمام اثنتي عشرة دورة فهو العام.

كذلك الشمس تنتقل في محالها من منازل البروج، فمتى طلعت من مشرقها جارية إلى مغربها؛ فذلك النهار، ثم ينسلخ النهار من الليل، فإذا [الجو][(٧)] مظلم [فإذا][(٨)] أصبح فذلك اليوم، فإذا قطعت الشمس

(١) ما بين [ ] زيادة في النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «معنيين».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة(خ).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٦) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٧) في النسخة (خ): «هو».

(٨) في النسخة (خ): «ثم إذا».

[نازلة](١) إلى أقصى منازل البروج الجنوبية نازلة، وإلى أقصى [منازل](٢) البروج الشمالية صاعدة فهي السنة، وسنة الشمس ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يومًا وربع يوم وجزء من مائة وستين جزءًا، وكل هذا بالتقريب، وعام القمر ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يومًا وأحد عشر جزءًا من ثلاثين [يومًا](٣) بالتقريب [لقول](٤) الله، جلَّ من قائل: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في النهار وفي الليل ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ بالشمس ﴿وَالْحِسَابَ﴾ بالقمر ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: مما هنالك ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ [مما](٥) هنا ﴿تَفْصِيلاً﴾(٦)

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٣) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٤) في النسخة (خ): «يقول».
(٥) في النسخة (خ): «فيما».
(٦) قال الشيخ المصنف: قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي: على ما هو في الدار الآخرة، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: فيما هنا، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ثم قال عزّ من قائل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ معناه: أنه فصل أيام الدهر بأيام الزمان على ترتيب تغليب حكم العين والحكم ظاهرًا أو باطنًا، فتفهم ذلك وتثبت. وكذلك الكواكب التي ينسب إليها الأنواء لما كانت الرياح في الأكثر من مجرى العوائد تتحرك عند طلوع بعضها وغروب رقيب الطالع منها، وجعل الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - ذلك توفيةً لها بمشيئته يرسلها في جو السماء فتلقح السحاب ماء أضيف ذلك إلى المطالع منها أو الغارب تجوزًا واختصارًا لذكر الفاعل، وكثر ذلك وتداولته الأعصار حتى أعضل الداء بمعتقديه، فجاء الشرع فنهى عنه، ورد بذلك النعمة إلى وليها والفعل إلى فاعله.

وكذلك المد والجزر الجاريين على مساق الحركة الشرقية، والفيض والغيض الجاريين على مساق التقدير، وكذلك ما يكون من هذه المعاني في الأسابع وأسابع الأسابع وعشرات الأسابع وأسابع العشرات، ما صعدت الأعداد وكذلك في الخوامس والثوالث، وكل شفع ووتر، فإن هذه الأحكام وإن كانت فلكية جريها دائري، فكما تقدم في ذكر الليل والنهار ومن أمر الله جَلَّ ذِكْرُهُ في دورانها فإن وراء أفلاكها ودورانها من أمر الله الذي لا تكون هذه المشاهدات آيات عليه ودلائل إليه حكم يكون أحكام هذه عن ذلك الباطن، وكما تقدم أنه قد قدر عن حكم تقاطع الدوائر حكمًا ليس يدرك ببصر ولا يناله العقل فقط، بل بأنباء النبوءة وإعلام الوحي، ثم بآخره يدرك البصر الماهر المؤيد بنور الإيمان بعضه علمًا وجملته إيمانًا وتسليمًا.

=

[الإسراء:١٢] فصَّله ﷻ [ليُري][١] آثار قدرته القاهرة وعلمه السابق ومشيئته [العالية][٢] وليدل على وجوده الحق ولقائه الحق ورؤيته الحق - جلَّ ذكره وتعالى جدُّه - وليعلم [بما بين][٣] الآيتين عدد السنين والحساب وأوقات العبادات، وليدل بذلك على مدلولات كثيرة من موجودات الدنيا والآخرة، وقد تقدم بعض ذلك.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٣-١٩].

قوله جلَّ من قائل: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[٤] [الإسراء:١٣]

=

وكما أن هذه العلوم المشار إليه بقولنا: هذا يُعلم منه بالأنبياء ما شاءه العليم الخبير فكذلك في بداياته من دقائقه ودقائق دقائقه إلى غاية نشوئه وكماله، فإني للعقل يدرك هذا كله وأمثال هذا مفردًا عن نور نبوة أو نبأ صادق ينبئه فينظر في معناه وحقيقته، فكل كائن ما كان ليل أو نهار أو غيض أو فيض أو طلوع كوكب أو غروب أو إشراق في الكواكب أو إظلام في الجو أو خسوف أو جلاء فكل ذلك عن معاني أسماء له ﷻ ولا تأت تدل على أمور غائبات يجب الإيمان بها مبشرات أو منذرات.. [شرح الأسماء ٣١٦/١].

(١) في النسخة (خ): «الترى».

(٢) في النسخة (خ): «الغالبة».

(٣) في النسخة (خ): «بهاتين».

(٤) قال الشيخ المصنف: الطائر - والله أعلم - هو ما طار لله من الحظ يوم القبضتين من عمل حسن أو قبيح أو رزق أو أجل، أو شقاوة أو سعادة؛ فينشر له كتابًا يسمع أيام عمره، فيملى على كاتبيه ما طار له من حظ يومئذٍ شيئًا بشيء على تفاصيل الأيام والليالي والساعات

=

الطائر: هو ما استحقه [بالقسم من مقتضى][1] الكلمة التامة [وهي][2] قوله، جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون [وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون...]**[3]»[4] فلما أوجد كل واحد شملته الكلمة [فعمل][5] عمله، وأكل رزقه، ووطئ أثره، وبلغ أجله الذي طار له يومئذٍ في الكلمة العلية، والقدر السابق ثم إذا كان يوم القيامة أخرج له نسخة ما عمله من عمل، حواه كتابه الأول؛ وهو: اللوح المحفوظ، فيصح هذا الكتاب الذي كتبه الحافظان [عليهما السلام][6] على ما تقدم له [في][7] كتاب بعضها يصحح بعضًا، وهو موضع الحجة على المكلف، [في الكتاب][8] المنتسخ من عمله الذي أثبته عليه حافظاه.

والأنفاس، لا يغادر من ذلك صغيرة ولا كبيرة، فإذا فرغ من إملائه حضر أجله، فمات وطوي إلى يوم بعثه، فيلقاه منشورًا يقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤] هذا أصل تلك الكتب؛ إنما هو نشرتان وطية تنشر في حياتك، فتملى على كاتبيك، ثم يطوى عند موتك، ثم ينشر بعد الموت، وقد ذكر الصادق الحق وأخبر به، فلا بد منه لا محالة الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠] انظر: شرح الأسماء (٧٤/٢).

(١) في النسخة (خ): «من مقتضى القسم».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، ومالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص:٣٢٥) وقال: في هذا إرسال مسلم بن يسار لم يدرك عمر بن الخطاب، والحاكم (٧٤) وقال: صحيح على شرطهما، والضياء (٢٨٩) وقال: إسناده منقطع، وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٦٣/٢)، وقال ابن كثير: مسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم، وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة، وابن حبان (٦١٦٦)، والآجرى (ص:١٧٠).

(٥) في النسخة (غ): «فجعل».

(٦) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٧) في النسخة (خ): «من».

(٨) في النسخة (خ): «والكتاب».

[﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا﴾ [الإسراء:١٣] قراءة مجاهد وابن محيصن والحسن ويعقوب: «ويَخرج» بفتح الياء «كتابًا» أي: ويخرج له الطائر كتابًا، وقراءة أُبي: «طائره في عنقه» يقرؤه يوم القيامة كتابًا][1].

يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤] لله الحجة [البالغة][2] بقدرته القاهرة في [سبق][3] علمه، وسوقه العباد بإراداتهم إلى ما سبق في مشيئته ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] عمَّا أتوا [مما][4] نهوا عنه بعد الإعذار والإنذار، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، فآثروا أهواءهم، واستمروا على كفرانهم، مقرين بذلك على أنفسهم ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٤ - ١٥] أي: بما يجده من عزم نفسه على إنفاذ مراده، واستمراره على إنفاذ شهواته، حتى أنه ليكيد لذلك بغاية ما يستطيعه، وربما تحمل في ذلك سفك دمه وهلاك نفسه وولده، ولو ألقى معاذيره واحتجاجه بالعدل الأول الذي استأثر به ربه - جل ذكره - في الأزل [وقرأه مجاهد وابن المحيصن والحسن ويعقوب «ويخرج» بفتح الياء «كتابًا» أي: ويخرج له الطائر كتابًا] [5].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨] معنى هذه الآية والتي في سورة الشورى سواء، قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ...﴾ [الشورى:٢٠] غير أن هذه التي في هذه ا«لسورة أَجلَى وأبْين.

وجاءت آية في سورة «هود» فيها بعض الإشكال؛ قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥] وهي إخبار

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «الغالبة».

(٣) في النسخة (خ): «سابق».

(٤) في النسخة (خ): «ما».

(٥) في النسخة (خ): «ما».

لا يجوز عليها [النسخ](١) التوفية في هذه - والله أعلم - هو أن يطعم بعمله ويسقي، فتحسب عليه العوافي، ونعم السمع والبصر والحواس، فيكون ذلك توفية لعمله، ويعطيه ربه من الدنيا ما شاء الله، وربما [زاده](٢) على مراده [هو، ثم](٣) يحسب له ذلك كله فيما ذكرناه.

دلَّ على هذا التأويل [قوله ﷻ: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥] يعني: الدنيا والمؤمن ليس كذلك](٤) وقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣] فهو ما أصابه من مكروه يكفر به عنه سيئاته، فيرد [إلى الله تعالى](٥) مطهرًا؛ ليدخله الله الجنة بحسناته [موفورة](٦) والحمد لله رب العالمين.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء:٢٠-٢٥].

ثم قال - عز من قائل: ﴿كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠] أخبر - جلَّ ذكره - أنه يرزق الحرام كما يرزق الحلال، وأن الحسنات خلق له [واكتساب](٧) للعبد، لكن بقدره وإذنه

---

(١) في النسخة (خ): «المسخ».
(٢) في النسخة (خ): «زاد».
(٣) في النسخة (خ): «ثم هو».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٥) في النسخة (خ): «على الله جل ذكره طيبًا».
(٦) في النسخة (خ): «موفرة».
(٧) في النسخة (خ): «والسيئات».

[وإرادته][(١)] والسيئات كذلك، غير أن الحسنات [يرضاها ولا][(٢)] يرضى السيئات.

قوله ﷻ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] «قضى» ها هنا بمعنى: أمر، وهذا من بعض وجوهها، [وقرأ أبي بن كعب: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه»][(٣)] وكذلك ابن عباس قال: كانت «ووصى»؛ [فالتزقت][(٤)] الواو الثانية فقرأوها «وقضى»، وابن مسعود قرأها كذلك: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه»[(٥)] يقول الله تعالى، جلَّ من قائل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ...﴾ [الشورى:١٣].

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «برضاه وهو لا».

(٣) في النسخة (غ): «وقرأها أبو حيوة: ووصى».

(٤) في النسخة (خ): «فالتزمت».

(٥) أخرج أبو عبيد وابن منيع وابن المنذر وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه أنه قال: أنزل الله تعالى هذا الحرف على لسان نبيكم ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، فلصقت إحدى الواوين بالصاد فقرأ الناس وقضى ربك. وقال الزرقاني في «مناهل العرفان» (١/٢٧٠): فلصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس وقضى ربك ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد، ونجيب عن ذلك كله: أولاً: بما أجاب به ابن الأنباري إذ يقول إن هذه الروايات ضعيفة.
ثانيًا: أن هذه الروايات معارضة للمتواتر القاطع وهو قراءة وقضى ومعارض القاطع ساقط.
ثالثًا: أن ابن عباس نفسه وقد استفاض عنه أنه قرأ وقضى.
قال أبو حيان في البحر والمتواتر هو وقضى وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة بمعنى أمر.
وقال ابن مسعود وأصحابه: بمعنى وصى، انتهى. إذًا رواية وقضى هي التي انعقد الإجماع عليها من ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. [مناهل العرفان (١/٢٧٠)].

ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا
﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا
﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا
تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ
فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ
رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى
جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٣٩].

ثم جعل يسرد وصاياه بالحكمة والموعظة الحسنة، وتفصيل البيان إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾(١) [الإسراء: ٣٩] [من معرفته وحكمته](٢) فافتتح التوصية بالتوحيد وختمها به.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟

---

(١) اعلم أن فيها إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان مركبًا من الدنيا والآخرة، ولكل جزء منهما ميل وإرادة إلى كله ليتغذى منه ويتقوى ويتكمل به، وإن في جزئه الدنيوي وهو النفس طريق إلى دركات النيران، وفي جزئه الأخروي وهو الروح طريق إلى درجات الجنان، وخلق القلب في هذين الجزءين، وله طريق إلى بين إصبعي الرحمن إصبع اللطف وإصبع القهر، فمن يرد الله أن يكون مظهر قهره أزاغ الله قلبه، وحول وجهه إلى الدنيا فيريد العاجلة ويربي بها نفسه إلى أن يبلغه إلى دركات جهنم البعد وتصلى نار القطعية، ومن يرد الله أن يكون مظهر لطفه أقام قلبه وحول وجهه إلى عالم العلو فيريد الآخرة.

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ
وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا
﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٠ – ٤٩].

ثم قال – عزَّ من قائل: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] انتظم هذا الخطاب بقوله في سورة «النحل» وغيرها: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

يقول – جلَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: الحق [الكائن][1] في قلوبهم، الحاصل فيها من إثارة الفطرة ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تنويع التصريف وتكرار التبيان ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١] عن حقيقة ما يراد بهم من الهداية.

نظم بذلك قوله – عزَّ من قائل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً﴾[2] [الإسراء: ٤٢] سلَّم لهم جل وتعالى تجويز ضلالهم

---

(١) في النسخة (خ): «الكامن».

(٢) قال الشيخ المصنف: المعنى أن العرش العظيم وما تحته وما أحاط به من العلا إلى المنتهى كله مزموم في مسكه المقدار؛ لشمول القدر وعموم محكم التدبير وسلوك معاني الأسماء والصفات العلا في حلاله جريان الماء في العود الناضر، وحلول التدبير له بالأمر في محالة حلول الغذاء في جسم المنعم الناعم قد لزم الخلائق وضغط الأكوان من دقيق الموجودات، وجلبها ظاهرها وباطنها، فلو كان معه آلهة كما يقولون ما وسعها الخلاف، ولا وجدت ملجأ من أن تتخذ إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. [شرح الأسماء ١/ ٨٠].

تسليم جدل، وهذا من فرض ما لا يجوز كونه؛ [ليتبين][١] ما لا يجوز سواه.

يقول - وهو أعلم: لو كان معه آلهة كما زعمتم لم يكونوا إلا مخلوقين، ولا خالق إلا الله وحده لا شريك له؛ إذ لا يجوز أن يوجد شيء أوجد نفسه من غير موجد يوجده هو سواه، وإذا كان مخلوقًا فهو عبد لخالقه، ومن حيث هو عبد فهو عابدًا له قانت، وإذا كانوا كذلك فهم إذًا عباد له أمثالكم، لا يملكون لأنفسهم ولا لسواهم ضرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء الله تعالى.

وقد كان قوم من العرب يعبدون الملائكة، وهم صافون عند ربهم عابدون له، وكان [فيهم رجال][٢] يعبدون رجالاً من الجن، فأسلم أولئك النفر من الجن، وبقي الذين ضلوا بعبادتهم في ضلالهم، وقد اهتدوا أولئك بقول الله، جلَّ من قائل: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**﴾ [الإسراء:٥٧] سبح العلي الأعلى نفسه [عن قبيح اقترابهم وكبير اجترامهم بقوله][٣]: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٤٣].

نظم بذلك قوله الحق - عزَّ جلاله: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يصح تصور جواز معبود سواه مع هذا، يقول الله جلَّ من قائل: ﴿**وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا**﴾ [الإسراء:٤٤] عن ذنوب عباده، حليمًا عن غفلتهم، حليمًا عن معاجلتهم؛ لأجل قولهم: ﴿**اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا**﴾ [البقرة:١١٦] وجعلهم له شركاء وآلهة يعبدونها من دونه، غفورًا لذنوب عباده المؤمنين.

فصل

التسبيح يكون بمعنى: التنزيه، ويكون بمعنى: التحميد، ويكون بمعنى: التعجيب، وهو راجع إلى الأولين.

---

(١) في النسخة (خ): «لتبيين».

(٢) في النسخة (خ): «منهم قوم».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

مثال تسبيح التنزيه:

قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠].

[﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٥٩]][1].

﴿عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٩٢].

[﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]][2].

﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام:١٠٠].

وأمَّا التسبيح بمعنى: التحميد:

فهو ما كان منه بمعنى التعجيب والتعظيم؛ لحسن ابتداعه وعجيب إتقانه، وعظيم اقتداره وإحاطة علمه، ومضاء مشيئته وعُليّ صفاته، والتعجيب من حسن ملكته مملوكاته، وقيام السماوات والأرض وجميع المخلوقات بأمره.

من ذلك: قوله - عزَّ من قائل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:١] [فعجب][3] ﷺ زائدًا على التعجيب من قهر اقتداره بكريم عنايته، وخفي رأفته بعبده المخلوق من الطين، الذي ازدراه عدوه إبليس - لعنه الله - يوم أمره الله - جلَّ ذكره - بالسجود لآدم الذي هو أب لمحمد - عليهما السلام - فاحتقره وفاخره بالخلقة وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١] ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦] لم أكن لأسجد لبشر خلقته ﴿مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨].

فأسري به ليلاً إلى المسجد الأقصى، ثم إلى السماوات العُلا، واخترق به السبع الطباق [مكرمًا][4] ونوّه به في نوادي المقربين من الملائكة والأنبياء

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) في النسخة (خ): «تعجب».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

والمرسلين [صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فتجلى فأمَّ النبيين والمرسلين][(١)] وصعد إلى البيت المعمور، ثم إلى السدرة المنتهى وجنة المأوى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ﴾ [بالقرب كـ][(٢)] ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:٨ - ٩] في الرفيع المستوى، ثم ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠] محكمًا مجملاً، كل ما إليه أوحى إلى أن فصله له على آياته كما شاء، فسبحانه وله الحمد في الآخرة والأولى.

ومنه: المعني بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] يقول - عزَّ من قائل: سبحان الذي خلق الأزواج كلها من نبات الأرض، كما قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر:٦٧] ثم قال: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من ذكر وأنثى، وخلقهم أيضًا ﴿مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

ومنه: ما عبَّر عنه بقول أهل الجنة، ووصفه من حالهم بقوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ﴾ [يونس:١٠] يلهمون ذلك كما يلهمون النفس؛ وذلك أن بقاءهم فيما هنالك مبني على تحديد ما هو معجب لهم أبد الآبدين ودهر الداهرين، لا يرون [فيها أبدًا فيما يعرفونه][(٣)] ولا ما لا يعرفونه إلا ما هو تحديد [تعجب][(٤)] بإظهار المقدور الغائب عن ظاهر ما هنالك منه، فافهم، وفي أثناء ذلك يتذكرون ما حباهم به من ذلك ومنَّ عليهم، فيكون الآخر من دعواهم ذلك ما هو: الحمد لله رب العالمين.

كذلك التحميد منه: ما يكون بمعنى الحمد الجامع للمدائح كلها، كقوله - عزَّ من قائل: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] وبابه حيث جاء.

ومنه: ما هو بمعنى الغبطة والسرور بكريم الهبة، وسني العطية التي فات العقول تحصيل قدرها، وتقاصرت ذوات العباد، ولو صعدوا إلى أعلى درجاتهم عن تعمل الفرح بها، وهو قوله جل قوله: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «أبدًا فيما يعرفون».

(٤) في النسخة (خ): «تعجيب».

شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[١] [الإسراء:١١١] وهذا المعنى يتردد [بين][٢] تعداد النعم، ولا نعمة أسنى منها، وبين الاتصاف مما هو له أهل.

ومنه قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] وبين التهنئة للمنعم عليه، والتنبيه له على أداء شكرها من نعمة، ولا شكر شاكر يبلغ واجبها سوى ما تفضل به من أنه جعل معرفة النعمة، والإقرار بالعجز عن أداء [واجبها][٣] شكرًا، وكان بعض الحامدين يقول: الحمد لله على النعمة به، والحمد لله على النعمة منه، والحمد لله رب العالمين.

وكما أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] فكذلك [النعمة به][٤] ليست [يشابهها][٥] نعمة، ولمشاركة التسبيح الحمد والحمد التسبيح كان تسبيح الخلائق بهما، قال رسول الله ﷺ للرجل الذي [شكا][٦] العيلة [إليه][٧]: «**أين أنت من تسبيح الخلائق وبها يرزقون: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[٨].

---

(١) قال الشيخ المصنف: فعدد له في هذا النص المبين نعم الإلهية والوحدانية، وأنه لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وأنه منيع عزيز وكبير له الكبرياء والعظمة، فله الحمد على ذلك كثيرًا حمدًا يوافي حمده هو نفسه ويربى على جميع حمد الحامدين له. [شرح الأسماء ١/٢٥٢].

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «وجهها».

(٤) في النسخة (خ): «هذه النعمة».

(٥) في النسخة (خ): «مثلها».

(٦) في النسخة (خ): «شكر».

(٧) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل (١/٣٤٣) بلفظ: جاء رجل الى رسول الله ﷺ فشكا إليه دينًا وفقرًا وحاجة، فقال: «أين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق، وبها ينزل الرزق من السماء من طلوع الفجر إلى صلاة الصبح: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وأستغفر الله».

فصل

موضوع التكليف الذي هو الشرع مخالفة الهوى، إلا ما استثنى من ذلك حكم التيسير والرحمة، ومعهود وجود الهوى منا نحن حيث [يصح][(١)] وجود العقل، فالملائكة - عليهم السلام - لهم العقل ولا هوى لهم، والثقلان - الإنس والجن - عقل وهوى، وحمدت العوالم دون هذه المرتبة على هاتين الصفتين العقل والهوى، فكانت الجبلة والفطرة المنتزع منها الهوى موجودة فيها لا محالة، وكان إمساك الله لها في إحراز وجودها عليها [عقلها][(٢)].

فإذًا شرع الجماد والنبات والحيوان مخالفة الجبلة، ولخلوها عن الهوى لم تخالف ما شرع عليها إليه، بل فطرت على وجودها، وإنما جبل الثقيل [ليهبط][(٣)] سفلاً، والخفيف ليصعد علوًا، والمائع يجري صبًا لما فيه من [التوسط][(٤)] بين الهواء والأرض، والهواء متبدد متموج، وإمساك الله - جلَّ ذكره - هذه الموجودات على حكمه، ووقفها على مراده، وتسخيره إياها لما يريد منها لسواها هو تسبيحها؛ لأنه فطرها على طاعته، وأوجدها على معرفته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ [النحل: ٧٩].

[وقال][(٥)]: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

فقيام الموجودات مقامها ومخالفتها ما جبلها [الله][(٦)] عليه طائعة له قانتة هو تسبيحها، فعلى هذا فليس من شيء في السماوات والأرض إلا يسبح له؛ لأنه غير

(١) في النسخة (خ): «يصبح».
(٢) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «ليهوي».
(٤) في النسخة (خ): «المتوسط».
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

خارج عن حكمه وإمساكه إياه، ولا يشذ شيء منه عن مراده به ومنه، هكذا هو من حيث الإيجاد والخلقة.

وأمَّا من حيث وجود الصفات فيها باطنًا كالعلم والإيمان والمعرفة والعقل ونحو هذا، فإنه أوجد فيها الخشية منه والخوف له، والإيمان به والشهادة، والدلالة عليه، كذلك أيضًا أوجد لها النفع لسواها هو زكاتها، وهو تسخيره إياها لمراده منها وبها وفيها، كذلك أوجد لها التسبيح والتكبير والسجود والقيام، وجماع هذا هو الصلاة.

ثم من عباده: من أخفى ذلك [عليه][(١)] منها في حقه، فهو مكذب به.

ومنهم: من رزقه الإيمان الجزم به والتصديق.

ومنهم: من أراه طرفًا منه من جهة [العبرة ومقايسة][(٢)] الأشباه، والإيمان [بعمله][(٣)] وقلة الفقه عنها [يزله][(٤)] عن التحقيق، فهذا يُرجى له الصعود إلى ما على من ذلك، كما يخاف عليه [من][(٥)] استصحاب الغفلة وترك التفقه في هذا الشأن.

ومنهم: من كشف الله له ذلك كالأنبياء والرسل - عليهم السلام - قال الله ﷻ في داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨ – ١٩] وقال سليمان عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦] وسخرت ﴿لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦] والجن والإنس [والطير][(٦)] وسلام الحجر على رسول الله ﷺ وكذلك الشجر، وحنين الجذع، وكلام الجمل، وإعلام الذراع المسموم له، ونحو هذا، ولأولياء الله ﷻ بين هذه وهذه [من ذلك][(٧)] درجات، جعلها لهم دلالات على

---

(١) في النسخة (خ): «عنه».

(٢) في النسخة (خ): «الغيرة ومعاينة».

(٣) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٤) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٥) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٧) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

تكليم يكلمون وإلهام يلهمون، وأمور صادقة يطلعون عليها خارجة عن جريان العوائد.

فصل

فنشأت بحمد الله تعالى عبادات المكلفين، الموصوفين بالعقل ظاهرًا إلى مشاهدات ظاهرة لإتمام أفعال محدودة، واستعمال النيات، وترتيب الحركات على سنن معلومة كما بطن بعض هذا، أو [جُلّه][١] فيما دون ذلك من [العالم][٢] كما تقدم من الترتيب من [إظهاره ما][٣] بطن من ذلك لبعض دون بعض، وكما يظهر الله - جلَّ ذكره - هذا المقدار من العلم والمشاهدة بسجود الموجودات وتسبيحها، وكذلك يظهر ما أبطن عن المعتبرين من ذلك للصديقين، ثم الأنبياء والرسل يظهر لهم [أيضًا][٤] ما أبطن عن الصديقين، ثم الملائكة - على جميعهم السلام - هم المشاهدون ذلك، الباعثون عليه، المسخرون من الله - جلَّ ذكره - لإتمام ذلك، ووجوده من الموجودات.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١] هذا الخطاب شارح لقوله الحق: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١] أنه ما [ذكرناه][٥] وجوده باطنًا ما قصَّه الله علينا من وجود أنبيائه - عليهم السلام - ذلك، وما يخرقه على أيديهم من المعجزات، وما يظهره إلى الأولياء من الكرامات وخرق العادات، فاعلم ذلك.

والموجودات - فاعلم - ليس عندها [ولا فيها][٦] وجود [مخالفة][٧] من حيث مراده منها وفيها وبها؛ لعدم الهوى في جبلتها، وإنما رسوب الثقيل هويًا إلى أسفل،

---

(١) في النسخة (خ): «حله».
(٢) في النسخة (خ): «العوالم».
(٣) في النسخة (خ): «إظهارها».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٥) في النسخة (خ): «ذكرنا».
(٦) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٧) في النسخة (خ): «بمخالفة».

وسائر صفات الجبلة في حق [إيجاده][(١)] أنفسها مع سواه، فقد حصل اليقين بأن لها التسبيح والكلام والخشية والخوف، وغير ذلك من الصفات والأعمال.

فافقه عن ربك - عزَّ جلاله - ولا تكن من الممترين، واعلم مع هذا أن كل طاعة لله فهي عبادة وقنوت، والصلاة بما هي جمعت جميع العبادات فيها؛ الذكر، والتلاوة، والصيام، والحج، والشهادة، والزكاة من حيث إن صاحبها يتزكى بها، وبما يدفع الله بالمصلين من عباده عمَّن لا يصلي، فهي أيضًا بهذا داخلة في الصدقة والزكاة، وفيها الرفع والخفض، وكل ذلك متصور في الجماد، ثم ظهر ذلك بالنشء كما تقدم ذكره.

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الإسراء: ٥٠ - ٥٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أو حَدِيدًا * أو خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠ - ٥١] ذكروا أن هذا أمر تعجيز وليس به، وإنما هو جواب لقولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩] فقال لهم جلَّ قوله: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أو حَدِيدًا * أو خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠ - ٥١] وإنما ذلك أن إعادة العظام والرفات أقرب إلى الخلقة في مستصحب الحال من الحجارة والحديد، ومن تناسخ الأجسام في الشجر والدواب والأنعام والسباع جيلاً بعد جيل، وخلقة بعد خلقة، والمحذوف من الخطاب: فإنا نعيدكم على ذلك.

أظهر ذلك في قوله حكاية عنهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ

(١) في النسخة (خ): «إيجاد».

يَدْعُوكُمْ﴾ [الإسراء:٥١ - ٥٢] المعنى: [«فالنغض»][(١)]: تحريك الرأس من أسفل إلى فوق ومن فوق إلى أسفل، وقيل للظليم ولد النعام: نغض؛ لأنه إذا مشى حرك رأسه كذلك، فكما خلقهم من التراب كذلك يعيدهم، والميت يموت فتأكله الطير والسباع والدود وغير ذلك من الحيوان، ويأكل ذلك الحيوان حيوان آخر، ثم كذلك إلى يوم القيامة، وقد تجاور مدفنه وموضع بلاه حجرًا ومعدن حديد أو نحاس أو فضة أو ذهب أو شجر أو نبات، ثم [يصرف][(٢)] ذلك في الوجود على [سنن][(٣)] تصرفه المقدر فيه، ثم كذلك بطول الآماد إلى يوم القيامة، ووجود كل ذي وجود محروس عليه، [مزموم][(٤)] له في الكتاب الأول، والتقدير الأول الذي أظهر بالفعل وإيجاد الخلقة.

وهذا تناسخ الأجسام، وهو الذي وجده الأولون في سبيل نظرهم، فإمَّا ضلوا عنه، وإمَّا أخطأ عليهم فطرتهم أنهم قائلون بتناسخ الدواب والنسم، وليس ذلك كذلك؛ بل النسم محفوظ عليها وجودها، وكذلك ما نقص من أجزاء الأجسام على ذوات وجودها محفوظ على كل ذلك وجوده كل صغير وكبير، ذلك كله مستطر في كتاب مبين، يعيد كل ذي وجود إلى وجوده كأينما كان، لا يخلو كل موجود دقَّ أو جلَّ أن يكون على صورة [يختص][(٥)] بها، وهو البارئ المصور المبدئ المعيد مع تصريف الله إياه في وجود الموجودات، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث قال الله لكل شيء أخذ من شيء شيئًا: «ردْ ما فيك» فيرجع على الطريق الذي منه ذهب إلى حيث منه تفرق، فافهم.

قال رسول الله ﷺ في حديث له: «**ثم تلبثون ما لبثتم، ثم يبعث الصيحة، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات، والملائكة الذين مع ربك ﷻ فحلت الأرض، فأرسل ربك بهضب من تحت العرش، ولعمر إلهك ما تدع على ظهرها**

(١) في النسخة (خ): «النغض».
(٢) في النسخة (خ): «تصرف».
(٣) في النسخة (خ): «سنين».
(٤) في النسخة (خ): «مرقوم».
(٥) في النسخة (خ): «مختص».

من مصرع قتيل، ولا مدفن إلا شقت القبر عنه حتى يخلقه من قبل رأسه، ويستوي جالسًا، فيقول ربك: مَهْيَمْ؟ فيقول: أي ربي، أمس لعهده بالحياة يحسبه حديثًا بأهله»[(١)] فخلقه عما تقدم ذكره أبعد على الأفهام في مجرى العوائد من التراب، الذي منه خلقه ومنه رزقه ولباسه.

قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾[(٢)] [الإسراء:٥٣] «التي هي أحسن»: [هي كلمة][(٣)] التقوى «لا إله إلا [الله»][(٤)] ثم سائر أنواع الذكر، وقد يكون المعنى الأخذ بالرفق، كقوله تعالى: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة:٨٣] للمعهود من وجود استشاطة الشيطان عند استشاطة الغضب.

وقال رسول الله ﷺ: «**ما دخل الرفق في شيء إلا زانه**»[(٥)].

وقال ﷺ: «**إذا أراد الله بأهل بيت خير أدخل عليهم الرفق**»[(٦)].

وقال ﷺ: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»[(٧)].

نظم ذلك بقوله الحق – عزَّ جلاله: ﴿**رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَو إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**﴾ [الإسراء:٥٤] كان هذا الخطاب أمر

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٨٣٤)، وأحمد (١٦٦٣٥) وهو حديث طويل.

(٢) ﴿**إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾ أي: يفسد ويهيج الشر بين المؤمنين والمشركين بالمخاشنة، فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العناد وتمادي الفساد، فالجملة تعليل للأمر السابق، وقرأ طلحة: «يَنزِغُ» بكسر الزاي، قال أبو حاتم: لعلها لغة، والقراءة بالفتح. وقال صاحب «اللوامح»: الفتح والكسر لغتان، نحو: يمنح ويمنح. تفسير الألوسي (٤٨٥/١٠).

(٣) في النسخة (خ): «كلمة».

(٤) في النسخة (خ): «هو».

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٩١/١)، ومسلم (٦٧٦٧)، وأحمد (٢٤٣٥٢)، وأبو داود (٢٤٧٨)، والطبراني في الأوسط (٢٢٦٩)، وابن أبي شيبة (٢٥٣٠٤)، والقضاعي (٧٣٨).

(٦) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤١٦/١)، وأحمد (٢٤٤٧١)، والبيهقي في الشعب (٦٥٦٠)، والبغوي في الجعديات (٣٤٥٣)، والبزار كما في كشف الأستار (١٩٦٥)، وقال الهيثمي (١٩/٨): رجاله رجال الصحيح.

(٧) البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢١٦٥)، والترمذي (٢٧٠١)، وابن ماجة (٣٦٨٩).

للعلماء بالرفق بالعوام، ولأهل الاستقامة بالتماس العذر لأهل [التخليط][(١)]، والأخذ على أيديهم بأحسن القول وأرفقه، و«الرحمة» ها هنا هي: التوبة، والله أعلم.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٖۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٥ – ٥٨].

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] هذا كله منتظم المعنى بعضه ببعض في الأمر بالرفق والأخذ بالأحسن، وذكر العلم هنا تعريض بأنه أعلم بمن سبق له كلمة السعادة، وبمن سبق له كلمة الشقاوة.

قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا...﴾ [الإسراء:٥٨] نزلت هذه الآية بمكة، فأبرز فيها بما يصيب به القرى في الأرض.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه جمع الناس في مسجده، ثم خرج عليهم، فصعد المنبر ثم قال: «**إني جمعتكم لأعلمكم مما علمني ربي في يومي هذا**» وذكر كلامًا فيه: «**وأن الله اطَّلع على أهل الأرض، فمقتهم كلهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»[(٢)] فكان ذلك ما فسره قوله ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى**»[(٣)] فأظهر

---

(١) في النسخة (خ): «الخطأ».

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥١٩)، ومسلم (٢٨٦٥)، والطبراني (٩٨٧)، والنسائي في الكبرى (٨٠٧٠)، والبزار (٣٤٩١)، وعبد الرزاق (٢٠٠٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٢)، ومسلم (١٣٨٢)، وأحمد (٧٢٣١)، وعبد الرزاق (١٧١٦٥)، ومالك (١٥٧١)، والحميدي (١١٥٢)، وأبو يعلى (٦٣٧٤)، وابن حبان (٣٧٢٣)، ولفظ الحديث: «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يَثْرِب وهى المدينة تَنْفِى الناس كما يَنْفِى الْكِيرُ =

[دينه][1] الإسلام على الدين كله مع ما [سوف ينفذه][2] إلى يوم القيامة؛ ليتم ما قد سطره في اللوح المحفوظ من تفسير قوله في صدر السورة، وقد تقدم.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء:٥٩-٦١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩] المحذوف من الكلام: «فأهلكناهم» أو ما كان في معناه كل آية شرطية إذا أتت فقلَّما يمهل الله المكذبين بها، بل الإهلاك على ذلك سنته، ولن تجد لسُنة الله تبديلاً ولا تحويلاً، وكانوا قد اشترطوا عليه ما يأتي ذكره في هذه السورة: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ....﴾[3] [الإسراء:٩٠ - ٩١].

=

خَبَثَ الْحَدِيدِ».

(١) في النسخة (خ): «الله».

(٢) في النسخة (خ): «شرف بهذه».

(٣) الآية نزلت في رؤساء قريش مثل: عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبى سفيان والنضر بن الحارث، وأبى جهل وعبد الله بن أبى أمية، وأمية بن خلف وأبى البختري، والوليد بن المغيرة وغيرهم، وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة، اجتمعوا - فيما ذكر ابن إسحاق وغيره - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدو، وكان رسول الله ﷺ حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، أو كما قالوا له، فإن كنت إنما جئت

=

=

بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًا - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً وأنزل على كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» أو كما قال ﷺ قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا ولا أقل ماء ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثنى به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك! سل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وأسأله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله: «ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثنى بشيرًا ونذيرًا - أو كما قال - فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» قالوا: فأسقط السماء علينا كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله ﷻ إن شاء أن يفعله بكم فعل» قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألنا عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلاً، فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم

=

عرَّض بمعنى الإهلاك بقوله: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: آية مبصرة، يريد: مبينة، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩] أراه - وهو أعلم بما ينزل - أن المراد بهذه الآيات: هي الآيات من الرياح والصواعق والأمطار والقحوط والرعد والبرق، فيرسلها تخويفًا لعباده وتنبيهًا لهم، وتكون [أيضًا الآيات][١] التي هي الإهلاك للأمم، فإنها أيضًا تخويف للغير أن يصيبهم مثلما أصابهم، ثم أتبع ذلك ما هو في معناه.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ هذه - والله أعلم - مصداق قول رسول الله ﷺ: «إن الله اطلع على أهل الأرض، فمقتهم»[٢]، ثم نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء:٦٠] «الرؤيا» هي: الإسراء، و«الشجرة الملعونة» هي: إبليس، ولم يلعن الله شجرة في القرآن، وإنما لعن إبليس وهو شجرة؛ لما تفرع منه من نسله وضروب الكفر وفعال الخبائث، وأن جهنم وما فيها ليس بملعون، وما المعلون إلا من جعل فيها على وجه الجزاء لعملٍ منهي عنه - نعوذ بالله من ذلك - وهذا خطاب تعزية لرسول الله ﷺ عمَّا كان يهمه، وييئسه من تخلفهم عن الاستجابة لله - جلَّ ذكره - ولكتابه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ أي: اسجدوا له اقتداءً [به][٣]

=

سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه، كله لفظ ابن إسحاق، وذكر الواحدى عن عكرمة عن ابن عباس: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾.

(١) في النسخة (خ): « الآيات أيضًا».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في النسخة (خ): «لله».

في سجوده لله وحده ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١].

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢ – ٦٩].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٦٢] «الاحتناك»: الاحتواء على الشيء والاستئصال له.

وأمَّا قوله: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنُّهُمْ﴾ [النساء:١١٩] المعنى إلى آخره، فقال الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أصوات الملاهي والمعاصي؛ إذ هي برضاه ومحبته وتزيينه ووسوسته ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء:٦٤] هي كل خيل ورجل ليست في طاعة الله، ولا في طلب مرضاته، أو [للشر والبغي على][1] الناس، وعن الحلال بالحرام، بل فهي من حزب الشيطان.

ومشاركته في الأموال والأولاد هو تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله لأجل شهواتهم، ولشركائهم المتخذة من دون الله، ومشاركته في الأولاد؛ وهو الزنا

---

(١) في النسخة (خ): «للتستر والتغني عن».

[والنكاح][١] على غير كلمة الله وسنة رسول الله ﷺ وذكر اسمه على ما يكون من ذلك حال الوطء، وإلا سبقه الشيطان إلى ذلك منه، وهو أيضًا بأن يهوّدوهم أو ينصروهم أو يمجسوهم [فإضلاله][٢] إياهم، وتزيينه ذلك لهم.

و«الجلب» و«الجلبة» في الناس: الصياح وكثرة الضجيج وارتفاع الأصوات، وعدهم هذا كله من خطاب على صيغة «أفعل» الخارج مخرج الأمر، وهذا من المشتبه في القرآن؛ ولأنه ﷻ لا يأمر بالفحشاء [والمنكر][٣]، فليس إذًا بأمر منه إنما هو إيعاد وتهديد للمغرور والغار، والمزيّن والمزيَّن له، والمضل والضال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٦٥] عباد الله هم عباده على الخصوص، لم يجعل الله للشيطان عليهم سبيلاً، وهم في ذلك درجات:

فمنهم: من أسلم شيطانه، وصار تقيًا فلا يأمره إلا بالتقوى والعمل المرضي، منهم رسول الله ﷺ.

ومنهم: من أسلم شيطانه وبقي عليه تخليط.

ومنهم: الكافر والمنافق وقرينه مثله.

ومن توكل على الله وأسلم له نفسه، وأكرهها على لزوم طاعته كفاه ووقاه، وكفى بالله وكيلاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[٤] هذا كلام متصل المعنى بقوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي

---

(١) في النسخة (خ): «والتناكح».

(٢) في النسخة (خ): «بإضلاله».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٤) فائدة في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧] قال: فإذا بلغ الاضطرار من المضطر إلى إزالة الأغيار أجيب إن شاء الله ﷻ فموضع لفظ الإجابة في حق هؤلاء مأخوذ من القطع، كأن مجيب الدعوة قطع ما بينه وبين الداعي بالإجابة منه لهم، فاستاق الغياث إليه على ذلك البعد، انظر: شرح الأسماء (٢٧٥/٢).

الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ
فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ
خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾
أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا
﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٠ – ٧٨].

وقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(١) [الإسراء:٧٠] يعني –

(١) قال الشيخ المصنف: يريد وهو أعلم: على كثير مما تقدم ذكره في هذا الاعتبار من العوالم المذكورة، وبوجه آخر وهو المقصود باعتبارنا هذا فكل ما كان للمؤمنين قنية وعونًا على طاعة الله سبحانه من خيل وأنعام وحيوان على صنوفه وغير ذلك من القنيات كائنًا ما كان فهو بجملته منسوب إلى الله تعالى ورسوله والمؤمنين، وما كان من ذلك للكافرين وللمشركين فهو منسوب إلى الشيطان والكفر، قال الله ﷻ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ ولذلك أحل جميع ذلك للمؤمنين من حيث إن الدنيا كلها له ملك وللمؤمنين عبيده، وما كان من ذلك منسوبًا إليه فهو منسوب إليهم تبارك وتعالى، وإنما هو سبحانه وتعالى والمؤمنون عباده وسائر ذلك لا يعبأ الله بهم هم المؤمنون فداء وأموالهم وأولادهم نهب، ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليتلو بعضكم ببعض، فأعظم بقدر رجل مؤمن آتاه الله تعالى من علمه أو ملكه، وعوده النظر في مواطن الحروف تتم على يديه كلمته في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢] ويكذب ظن إبليس لعنه الله في قوله: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى آخر المعنى فهو يسلب إبليس لعنه الله خيله ورجاله وأمواله ويسبي نساءه وأولاده وتردهم إلى ربهم، وتحقق الملك للملك الحق إن هذا لهو الفضل المبين وبالضد للضد. وقال أيضًا: أي: من العوالم التي دونه في المرتبة =

وهو أعلم: على غيرهم من عوالم دونهم كالجماد والنبات والحيوان والجن، وهذا التفضيل على الإطلاق إنما هو للمؤمنين من بني آدم، وأمَّا سوى المؤمنين فإكرام وراثة لفضل رحمته متعهم بها ها هنا لما أخرجهم من الجنة، وقضى عليهم بالسجن [فيما ها هنا][١] أخلف لهم هنا أنهارًا وعيونًا وزروعًا وجنات، ومن كل الثمرات؛ ليذكروا بها ما أخرجوا عنه، فيرجعوا إلى منزلهم الأول الذي هذا دليل عليه و[مشير][٢] إليه، ومن استحب هذه واطمأن إليها كانت جنته، ومن جعلها متاعًا وسجنًا ومجازًا إلى المحل الذي [أخرج][٣] عنه، وكان حسنه الكفاف أُعلي به إلى تلك، وألحق بأبيه آدم عليه السلام.

نظم بهذا قوله جل قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: إن رجوعهم إلى ما هنالك يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ [الإسراء:٧١] المعنى إلى آخره.

قرأ رسول الله الآيتين، فقال: «**يُدعى أحدهم فيُعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه ستون ذراعًا، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، فيطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا**» قال: «**وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له في جسمه ستون ذراعًا، ويلبس تاجًا من نار، فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم فيقولون: اللهم أخزه، فيقول:**

=

التي هي الجماد والنبات والحيوان البهيمي، فلما أوجد عزّ جلاله العقل واجهه بالشرع، وعاجله بالتكليف والأمر والنهي، فأنزل عليه بالروح الأمر الشراعي، كما كان ينزل على ما دونه أمر الكون، وضاعف يومئذٍ الرقبة والرقباء، فعظمت الممتحنات وكثرت المعقبات، وأرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب ورقب الرقباء من الملائكة الكرام الحفظة على جميع صلوات الله وسلامه. وانظر: شرح الأسماء (١/٣٤٤) (٢/١٣٠).

(١) في النسخة (خ): «في هذه الدار».

(٢) في النسخة (خ): «ميسر».

(٣) في النسخة (خ): «خرج».

أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا»[١].

فصل

قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢] إن الكافر والغافل في الدنيا أعمى عن الهداية وعن ذنوبه وحسناته وسيئاته، جاهل بالتمييز [بينها][٢] كل على درجات [في][٣] ذلك، فإذا كان يوم القيامة دفع إليه كتابه يقرؤه، فلا يرى فيه الكافر سوى سيئاته، وما كان له من حسنة فقد أطعم بها وعوفي.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: كتبًا وجزاء في الدنيا، ثم عطف على ذلك بالواو قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: من سيئة أو حسنة حاضرًا، ثم قال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] كما تقدم؛ إمَّا أن يجزيه بها في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما إن كان مؤمنًا.

وأمَّا المؤمن فكان بصيرًا بدينه، بصيرًا بما يقربه من ربه ويبعده يقظانًا، فهو هناك مبصر، وربما تمم للكافر العمى ظاهرًا وباطنًا، كما قال - عز من قائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٤] إلى قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧] وكقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

قوله - عزَّ من قائل: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ هذه صلاة الظهر إلى صلاة العشاء الآخرة، وبين ذلك العصر والمغرب؛ لذلك جعل بين الأمدين حرف انتهاء الغاية، ويدخل أيضًا بمعنى الحد في معنى الغاية ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ صلاة الفجر ﴿إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٣٦) وقال: حسن غريب، وأبو نعيم في الحلية (١٥/٩)، والحاكم (٢٩٠٩)، وأبو يعلى (٦١٤٤)، وابن حبان (٧٣٤٩).

(٢) في النسخة (خ): «بينهما».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

قال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا إذا ذهب من الليل ثلثه** - وفي أخرى: «**نصف الليل**»[(١)]، وفي أخرى: «**إذا بقي من الليل ثلثه**»[(٢)]. **فيقول: من يدعوني فأستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى ينفتل القارئ من صلاة الفجر**»[(٣)].

فصل

العرب تسمي الساعة السابعة [من النهار][(٤)]: «الظهيرة»، والعاشرة: «العصر» وعصر كل شيء ما قرب من آخره و[هي][(٥)] التي بعدها: «ساعة الأصيل»، ثم الثانية عشر: [الظفل][(٦)].

وكذلك تسمى أول ساعة من الليل: «الغسق» وهو الوقت الذي فيه ينقضي سلخ النهار من الليل، وهذه الساعة أشد الليل إظلامًا وإنما سميت بذلك؛ لخروجها من النهار، وهو استقبال ظلام الليل، وتسمى الثانية منه: «الفحمة»، قال رسول الله ﷺ: «**كفوا فواشيكم وصبيانكم حتى تذهب فحمة العشاء، فإن للشياطين انتشارًا حينئذٍ**»[(٧)].

وتسمى الثالثة: «العشوة»، والرابعة: [الهذأة][(٨)]، والخامسة: [الشواع][(٩)] وذلك

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٩٢)، وأحمد (١٦٢٦٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٠٩)، وابن حبان (٢١٢)، والدارمي (١٤٨١)، والطبراني (٤٥٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٠)، وقال الهيثمي (١٥٤/١٠): رجاله رجال الصحيح، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٠)، وابن النجار في ذيل تاريخ بغداد (٢٤٢/٢، ترجمة ٤٦٨).

(٣) رواه البزار، وفيه عمرو بن خليف، وهو ضعيف كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨/١١).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) في النسخة (خ): «على».

(٦) هكذا في (غ)، (خ).

(٧) أخرجه بنحوه مسلم (٢٠١٣)، وأبو داود (٢٦٠٤)، وأحمد (١٤٣٨١)، وأبو عوانة (٨١٦٢)، والبيهقي (١٠١٢٥) وفي الآداب (٣٥٩).

(٨) في النسخة (خ): «الهذا».

(٩) في النسخة (خ): «السواع».

[الشياع][١] ضياء السماء، وإنما هو عن إثارة تنزله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - والسادسة: «الجنح» لجنوح الكواكب، وهي من الليل بمنزلة الظهيرة من النهار، [وفيها يقر الماء][٢] والسابعة: «الهزيع»، والثامنة: «القعس»، والتاسعة: «البهرة»، والعاشرة: «الهزيج»، والحادية عشر: «الزلفة» لقربها من آخره.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] يعني: صلاة السحر.

والثانية عشر: «السحر»، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ هذه صلاة الوتر في هذه الأوقات المذكورة لمن يسر لذلك، ولا يتصور وجود نافلة حتى تخلص الفريضة، وكان رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ فلذلك ما نصَّ عليه بأنها له نافلة، وفي عباد الله - جل ذكره - من يكون له نافلة، يقول الله جلَّ من قائل: «**لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل**»[٣].

وذكر رسول الله ﷺ: «**المؤمن يتوضأ فتخرج خطاياه من جوارحه حتى يخرج نقيًّا من الذنوب**»[٤].

وقال: «**وكان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له**»[٥].

---

(١) في النسخة (خ): «السياع».

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، وأحمد (٢٦٩٤٧)، وابن حبان (٣٤٧)، والطبراني (٧٨٨٠)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

(٤) أخرجه مالك (٦١)، والدارمي (٧١٨)، ومسلم (٢٤٤)، والترمذي (٢) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (١٠٤٠)، وابن خزيمة (٤)، وأبو عوانة (٦٦٩)، والبيهقي (٣٨٦)، وعزاه البيهقي في المعرفة (٧٣٥) للشافعي، وذلك بلفظ: «إذا توضأ العبدُ المسلمُ أو المؤمنُ فغسل وجهَه، خرج من وجهه كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينه مع الماءِ أو مع آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كلُّ خطيئةٍ كان بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مع الماءِ أو مع آخِرِ قَطْرِ الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مع الماءِ أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نَقِيًّا من الذنوب».

(٥) أخرجه أحمد (١٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، ومالك (٦٠)، وابن ماجة (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح، وقال الذهبي: لا؛ يعنى: غير صحيح، والبيهقي في الشعب (٢٧٣٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٨).

ثم قال: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] هذه هي الدرجة الرفيعة: استفتاح الشفاعة، واستفتاح باب الجنة.

نظم بذلك قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] قال ابن عباس: نزلت حين أمرنا بالهجرة من مكة إلى المدينة، ومن الحسن أن يستفتح بها العبد دخوله وخروجه في كل وجه.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢] لما ذكر ﷺ ما أوحى إليه من الحكمة من لدن قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣].

إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ فهذه هي الحكمة، ثم جعل يسرد [عليه][1] العلم ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء:٣٩].

إلى قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:٥٣].

إلى قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢].

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٍ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٩-٨١].

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾[2]

---

(١) في النسخة (خ): «عليها».

(٢) ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: زوالها واصفرارها وغروبها، قال في «القاموس»: دلكت الشمس: غربت أو اصفرت أو مالت أو زالت عن كبد السماء. فحينئذٍ في هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه، أما في الظهر والمغرب فواضح، وأما في العصر فلأن أول وقتها أول أخذ الشمس في الاصفرار، فقال تعالى: ﴿إِلَى﴾ حثًّا على نية أن يصلي كلما جاء الوقت؛ ليكون مصليًا دائمًا؛ لأن الإنسان في صلاة ما كان ينتظر =

[الإسراء:٧٨] إلى قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩].

إلى قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨٠ - ٨١] فكان فيما تقدم من لدن قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [الإسراء:٧٨] إلى قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] تعريض بأن ما بين ذلك مع ما تقدم مجيء الحق وزهوق الباطل.

أمَّا الصلاة فإنها تذهب السيئات لا محالة، والتهجد مع أداء الفرائض [يسرع][(١)] في الصعود في درجات القرب، وقول العبد مع هذا ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] يذهب بالباطل ويحضر الحق - إن شاء الله - لذلك، وهو أعلم بما ينزل.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢- ٨٧].

نظم به قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: من الشك، وربما كان شفاء من السقم والغم ولمة العدو ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إزالة ذنوبهم، وحط خطاياهم، وتقريبهم من ربهم والتعرف به، وهو ﴿لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

=

الصلاة، فهو بيان لأن وقت المغرب من الدلوك الذي هو الغروب إلى أن يذهب الشفق ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ فالغسق: ظلمة أول الليل، وهو وقت النوم؛ وقال الرازي في «اللوامع»: وهو استحكام ظلمة الليل. وقال الرماني: ظهور ظلامه. نظم الدرر للبقاعي (٩٤/٥).

(١) في النسخة (خ): «شرع».

[الإسراء:٨٢] فدلَّ بهذا أنه من لم ينفعه هذا ولم ينفع به سواه [فيما][(١)] بقي عليه من ظلم نفسه.

ومعنى حرف «من» في هذه الآية قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ و[لتمييز][(٢)] الجنس كقولك: [لقيت][(٣)] من الناس خلقًا كثيرًا، فهي مخبرة عن ذات الشيء كقول رسول الله ﷺ: «**ما من أحد من الناس وصف لي بخير إلا وجدته دون ما وصف لي إلا ما كان من زيد الخير**»[(٤)]، [وأما اسم المنزل][(٥)]، والمنزل كله شفاء ورحمة [للمؤمنين][(٦)] لمن آمن بالله ورسوله، وأحسن الاقتداء.

لكن لبعض الكلام والتنزيل خواص قصد بها المنزل فيه ومن أجله، فربما أفاض الله من بركة القرآن إلى أن يكون شفاء من مرض الأجسام ومسّ الجن، وطوارق حدثان الأوجاع وسورات السموم ونحو هذا، دلَّ على هذا ما انتظم به من الدعاء كما تقدم، كما أن كل المنزل عمى وضلالة للمكذب به [ينظم][(٧)] به قوله عزَّ من قائل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء:٨٣].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ يعني: المؤمن والكافر؛ أي: على مثاله وخلقته ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٨٤] إذا رُفِّه على الإنسان في معيشته وصحته أدركه البطر، فوقع من أجل ذلك في المحظور، فبرحمة من الله - جل ذكره - أصار حور الحائرين وحيف المتسلطين وظلم الظالمين طُهرةً لهم - أعني المظلومين - بدلاً من الإهلاك على البطر، و[العلو][(٨)] والفساد في الأرض؛ إذ هو الاستئصال، نظم بذلك قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ

---

(١) في النسخة (خ): «فما».
(٢) في النسخة (خ): «لتميز».
(٣) في النسخة (خ): «لبيت».
(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في الدلائل (٢٠٨٥).
(٥) في النسخة (خ): «وما اسم للمنزل».
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٧) في النسخة (خ): «نظم».
(٨) في النسخة (خ): «الغلق».

أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] البحث عن الشيء يكون بأحد أربع أدوات، لا يوصل إلى معرفة مطلوب من جهة البحث [عنه][(١)] إلا بأحدهن:

[الأول][(٢)]: «هل» كقولك: هل من كذا وكذا؟ هل كان كذا؟ وهي باحثة عن حقيقة المطلوب وآنيته، هل له وجود أم لا؟ فجواب ذلك يقع بنعم أو لا.

الثاني: «ما» كقولك: ما هو كذا وكذا؟ وهي باحثة عن جوهرية المطلوب وطبيعته، وما هو عنه [وجوده][(٣)] وبالإعلام بذلك يقع الجواب عنها.

الثالث: «كيف» كقولك: كيف كان كذا وكذا؟ وهي باحثة عن خواص الشيء المطلوب وأحواله، ولواحقه اللازمة له المعروفة [بهل وأي][(٤)] منها هو، فللمسئول أن يقول: لواحق المطلوب كثيرة وأحواله جمة، فأيًّا منها أردت سؤالك؟ فإن أعلن بما أراد حسن [للمجيب][(٥)] الجواب بنعم أو لا، [وتقول][(٦)]: حالته كذا، وصفته كذا.

الرابع: قولك: لِمَ كان كذا هكذا؟ ولِمَ لم يكن كذا؟ وهي باحثة عن علة الشيء التمامية الموجبة لكونه لِمَ كان على هذا؟.

فقول الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء:٨٥] أي: ما هو الروح؟ فلذلك كان الجواب معبرًا عن حقيقة المسئول عنه، ومِمَ هو وجوده، والسؤال عن الأمر بما هو، فإن السائل عنه لا يخلو أن يكون سؤاله عن الأمر الذي هو الشأن، كقوله، جل ذكره: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] معناه: إنما شأنه أو ما يكون معبرًا عنه [أو معبرًا][(٧)] له، ويجمع هذا الأمر على أمور.

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «وجود».
(٤) في النسخة (خ): «بها أي».
(٥) في النسخة (غ): «البحث».
(٦) في النسخة (خ): «أو يقول».
(٧) في النسخة (خ): «ومفسرًا».

وعلى هذا فيكون صفة من الصفات، وإن كان من الأمر الذي هو قوله، فهو إذًا ما يكون عن الكلام العلي، فهو روح وليس بمخلوق ولا محدث، ولا يفنى ﷺ عن ذلك، أو يكون هذا المشار إليه، المعبر عنه بالروح من الأمر محدثًا من الأمر، كما قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر:٦٧] فهذا محدث موجود من الأمر الذي هو الكلام، وهو المقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥] روحًا على ما شاءه به وأوجده له.

ألا ترى أن الكلام منه جامع لكل مراد له مجملاً كان المراد أو مفصلاً، خلقًا كان أم أمرًا، روحًا أو جسمًا لكن على النحو الذي نشأوا منه وبه؟.

فصل

هذا هو الأمر الأرفع والوصف الأعلى للروح، ثم إلى هذا فقد أوجد لكل خلق أمرًا، فالسماوات لهن أمرهن، وكذلك الأفلاك والرياح والأمطار والأرضون والنبات، وكل موجود دقَّ أو جلَّ علا أو سفل، فكلما علا الموجود كان أمره عليًّا وبالضد.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢].

وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

[وقال: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل:٢] [(١)].

وقال: ﴿تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤] والإذن هنا أمر وكلام عَلِيّ، والروح منه عَلِيّ، يقول - عزَّ من قائل: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ إذا علا الأمر احتملت فيه المرادات، [فروح كل امرئٍ][(٢)] مصاحب له ملازم له على قدر نسبته وقدره.

جاء عن الإمام علي ﷺ أنه قال: «الروح ملك من الملائكة، له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، ينطق بكل لسان سبعين ألف لغة، يسبح الله بها كلها، يخلق الله - جل ثناؤه - من كل تسبيحة سبعين ألف ملك، يسبح مع

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «فروج كل أمر».

الملائكة إلى يوم القيامة» وهذا إن صحَّ وجوده وصدق الراوي له عن علي ﷺ فهو حجة، وما [ذلك][(١)] على الله بعزيز.

وكذلك روي عن ابن عباس: أنه ملك.

وروي عنه: أنهم أمر من أمر الله وخلق من خلق الله، صوَّرهم على صور بني آدم، ما ينزل من السماء من ملك إلا ومعه الروح.

وقيل: إن الخليقة كلهم عشرة أقسام؛ فتسعة أقسام منها الروح، وقسم واحد سائر ذلك.

فصل

الأمر الذي شاع وجوده أمران: أمر خلق، وأمر وحي، ولكل أمر روح يصحبه كما تقدم ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] فأمر الخلق له روحه على قدر قربه وبعده، علاء الخلق من علاء الروح الذي كان عنه.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا سقطت النطفة في الرحم نزل إليها ملك الأرحام، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة**» وفيه: «**فينفخ الروح فيها**»[(٢)].

فعلى هذا كل نفس منفوسة، فملك الأرحام ينفخ فيها الروح، وصعد الأمر بالروح بعيسى ابن مريم؛ لاختصاصه به ﷻ إلى ما عبَّر عنه بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم:١٧] وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١] وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١].

وذكر في آدم ﷺ من الاختصاص ما هو أظهر قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] فاتصف ﷻ بالنفخ فيه دون واسطة ذكرها، والنفخ وإن كان دون واسطة وصفًا على الذات العلي سبحانه وله الحمد.

فالقول الحق في ذلك: إن كل ما بان عن الله - جلَّ ذكره - فهو له عبد ومنه خلق، وإنما تفاضل العباد بقدر اجتبائه إياهم ومشيئته فيهم، فاعلم ذلك.

---

(١) في النسخة (خ): «هو».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢)، ومسلم (٢٦٤٦)، وأحمد (١٢٥٢١)، والطيالسي (٢٠٧٣)، وأبو عوانة كما في إتحاف المهرة للحافظ (١٣٨٦).

وأمَّا روح الوحي فهو - والله أعلم بما ينزل - من أمره الذي هو كلامه العلي في الأمر والنهي والقصص والحديث كله، كقوله: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

وكقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

وقوله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص:٣].

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦] إلى جميع ما [يتفرع](١) إليه القرآن.

قال الله ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

وقوله: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ١ - ٣].

ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

فتبين من مجموع هذه الشواهد أن الروح يكون من أمره؛ أي: من كلامه، ومن أمره؛ أي: من شأنه في التكوين، ومن أمره؛ أي: من شأنه في الإفهام والهداية، ومن أمره الذي له في خلقه الذي هو الملك، وفي كل خلق أمره [ووحيه](٢).

فصل

المعهود في الوجود أنه - جلَّ ذكره - له بكل صفة اسم هو من أسمائه، وأن كل اسم له مسلكه في الوجود من ذلك أنه السميع البصير، فأوجد السمع والبصر، وكذلك هو القادر المريد والعالم، [فأوجد](٣) العلوم والإرادات والقدر، وهو الحي أوجد الحياة والإحياء وله الروح.

قال - عزَّ من قائل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩].

---

(١) في النسخة (خ): «تنوع».

(٢) في النسخة (خ): «وروحه».

(٣) في النسخة (خ): «وإذا وجد».

وقال في المسيح ﷺ: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١].

وقال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢] كذلك خلق خلقًا هو الروح، تعرج الملائكة والروح إليه، ومنه روح القدس والروح الأمين جبريل ﷺ، والمؤمنون يتحابون بروح الله، وقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الريح فإنها من روح الرحمن**»[(١)] وكل روح اتصف به فهو صفة له وهو منه، وكل ما بان عنه فهو خلقه، ومنه تسبيح الملائكة ورسول الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**»[(٢)].

ثم من هذا الروح ما هو منه قريب، كالروح الذي نفخ فيه في آدم ﷺ والروح الذي سمى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ فذلك تحقيق حقيقة لمن آثره به وخصَّه بخصوصيته، ثم إلى ما وراء ذلك درجات ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥].

قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[(٣)] [الإسراء:٨٦] ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ما قال قط في شيء: «ولئن شئنا» إلا قضى من ذلك ما شاءه، قوله الحق وله الملك، نسأل الله العفو الغفور الرحيم معافاته ورحمته ومغفرته.

قال رسول الله ﷺ: «**يسري علي القرآن ليلاً، فيرفع حتى يمحى من الصحف رسمه، ومن القلوب حفظه، ذلك إذا ضيعت حدود الله، واستحلت محارمه وتليت**

---

(١) أخرجه النسائي (١٠٧٧٣)، وابن أبي شيبة (٢٩٢١٩)، والبيهقي (٥٢٣٤)، وأحمد (٢١١٧٧)، والحاكم (٣٠٧٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن ماجة (٣٧٢٧)، وأبو الشيخ (٨١٠١٤)، والضياء (١٢٢٤) وقال: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١١١٩)، وأحمد (٢٤١٠٩).

(٣) لما ذكر أنَّه ما آتاهم من العلم إلَّا قليلاً قال ها هنا: إنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل لقدر عليه، وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب، وكتابته من الكتب، والمراد بالذي أوحينا إليك: القرآن. واحتج الكعبي بهذه الآية الكريمة بأنَّ القرآن مخلوقٌ؛ فقال: الذي يقدر على إزالته والذَّهاب به يستحيل أن يكون قديمًا، بل يجب أن يكون محدثًا. وأجيب بأن يكون المراد بهذا الإذهاب: إزالة العلم به عن القلوب، وإزالة النَّقش الدَّال عليه من المصحف، وذلك لا يوجبُ كون ذلك المصكوكِ المدلول محدثًا. تفسير اللباب لابن عادل (١٠/٣٧٨).

حروفه لغير الله»[١].

وقد قالوا: إن أول ما يرفع من القرآن فهمه.

روي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنها ستكون فتن**» قال: فقلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله كتاب الله، فهو خير ما قبلكم وما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم هو الذي من عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه دعا إلى صراط مستقيم**»[٢].

وروى رافع بن خديج قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقترئ القرآن يُقرئ بعضنا بعضًا، فقال: «**الحمد لله كتاب الله واحد، فيكم الأخيار والأحمر والأسود، اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقرؤونه، ويقيمون حروف القرآن كما تقام السهم، لا يجاوز تراقيهم يتعجلون ثوابه ولا يتأجلونه**»[٣].

وروى زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: «**ذاك عند أوان ذهاب العلم**» قال: قلت: يا رسول الله، كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «**ثكلتك أمك زياد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا يعملون بشيء مما فيهما**»[٤] وهذه سبيل القرآن من هنا يأتيه ما أنذر به الله ﷻ ورسوله ﷺ.

نظم بذلك قوله - عزَّ من قائل: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ يقول - عزَّ من قائل: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فيما قدره من الإمتاع به، وإلا

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٠٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩١٦)، وعبد بن حميد (٤٦٦)، وأبو داود (٨٣١)، وابن حبان (٧٦٠)، والطبراني (٦٠٢٤)، والبيهقي في الشعب (٢٦٤٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٩٩)، والطبراني (٥١٥٤)، وابن ماجة (٤١٨٤).

رحمة منه فيما عفا عنه من ذنوب عباده، الموجبة لرفعه من بينهم ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٨٧] في إنزاله عليك، وبما خصك به من النبوة والرسالة في تأخير ذلك، والعفو عن العباد.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨ – ٩٣].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] هذا خطاب متصل المعنى بخطاب، أخبر به عن طلبهم آية على رسالته، وصدق ما جاء به من قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥].

ثم قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٦] إلى قوله: ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٤٨].

ثم قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] فقال في هذه الآية، وهو أعلم: قد كان في آيات القرآن أعظم آية على صدق ما [جاءت][1] به، وهو القرآن ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء:٨٨].

---

(١) في النسخة (خ): «جئت».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء:٨٩] [يقول][1]: بيَّنا لهم سُبل الهدى، وأريناهم معالم العلم بضروب التبيان وأنواع الهدايات ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:٥٠].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠] إلى آخر ما ذكروه من تشططهم، وما أبدوه من عتوهم ووصف ضلالهم.

نظم بذلك قوله - عزَّ من قائل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٣] هذا تسبيح تعظيم [له][2] - جل ذكره - أن يفعل فعله غيره، وهو [أيضًا][3] تسبيح تعجيب من ضلالهم وجهلهم أن يسأل مثل هذا بشر.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤ - ٩٨].

ثم أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٤] أوعجبوا أن جاءهم ذكر من ربهم على رجل منهم؛ لينذرهم أمر الله كله معجب عجيب؛ هو يعجب رسوله من إبعادهم أن

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «لله».
(٣) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

يبعث الله بشرًا رسولاً، وهم يكثرون التعجب من أن بعث الله بشرًا رسولاً، ولو قدروا الله حق قدره لم يبعدوا ذلك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

نظم بذلك ما جلى [به][١] عن وجه الحق المتعجب منه بقوله الحق: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾[٢] [الإسراء:٩٥] ذلك أعرف في البيان وأبلغ في وصف الحكمة، لو كان الرسول إلى البشر ملكًا أو غيره مما ليس ببشر ما بلغ من [التبيين ما بلغه البشرى][٣] فإنه يبين بقوله وبفعله وأكثر أحوال البشر ليست للملك؛ [أين][٤] أكل الطعام وشرب الشراب وإخراجه والنكاح ولواحقه، إلى غير ذلك من أحواله وضروراته.

تمم ذلك بقوله الحق: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:٩٦] معنى ذلك: أن الله - جل ذكره - شهيد على ما فات من ذلك في هؤلاء وهؤلاء، إنه كان خبيرًا ببواطن عباده، بصيرًا بظواهرهم، يعلم ما يصلحهم وما يصلحون عليه.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: لو وجد وثبت أن في الأرض بدل من فيها من البشر ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشي الإنس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها. قال الزجاج: «مطمئنين»: مستوطنين في الأرض، ومعنى الطمأنينة: السكون، فالمراد ها هنا: المقام والاستيطان، فإنه يقال: سكن البلد فلان: إذا أقام فيها وإن كان ماشيًا متقلبًا في حاجاته ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً﴾ حتى يكون من جنسهم، وفيه إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي أن تكون من جنس المرسل إليهم، فكأنه سبحانه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين:
الأول: كون سكان الأرض ملائكة.
الثاني: كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء؛ إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه، فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة. فتح القدير (٣٥٥/٤).

(٣) في النسخة (خ): «النبيين».

(٤) في النسخة (خ): «من».

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ عطف بالواو في قوله: ﴿وَمَن يَهْدِ اللهُ﴾ [الإسراء:٩٧] تقدير انتظام الكلام بعضه ببعض، والله أعلم.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥] [ويهدي][(١)] من يشاء ويضل من يشاء ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي...﴾ [الأعراف:١٧٨] فانتظم [بهذا معنى][(٢)] ما في الخطاب وما في العقول من الحكمة؛ لأجل الابتلاء، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠] أي: بمن يهتدي ومن لا يهتدي.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أمَّا الضالون ﴿نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

ثم ذكر أنهم استأهلوا ذلك منه بما اكتسبوا من ذنوبهم، وتكذيبهم الرسل، وردهم الكتب، وتكذيبهم بالدار الآخرة، وقولهم في ذلك: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨].

أخبر ﷻ أنه أضلهم عن هدايتهم، وأعماهم عن رؤية الحق، وأصمهم عن سماعه، وأبكمهم عن الشهادة به والنطق [بحقيقه][(٣)] لأنهم كفروا بآيات الله ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وأنبأنا به كذلك، فحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، لما تعاموا عن الهدى في هذه وبكموا وصموا، وتركوا النظر في آيات الله في السماوات والأرض، فأنشأهم على وجوههم لذلك كما كانوا في هذه مكبين على شهواتهم وضلالاتهم، ثم جعل مأواهم جهنم على ما هي عليه، نسأل الله العفو الغفور الرحيم معافاته ورحمته.

وإنما ورطهم في عمههم هذا كفرهم، ووصفهم الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

(١) في النسخة (خ): «يهدي الله».
(٢) في النسخة (خ): «هذا المعنى».
(٣) في النسخة (خ): «بحقيقته».

- بالعجز عن القدرة على إعادتهم، وعن العلم بتميزهم من سواهم في غيابات [الهدي][١] كقولهم: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيقول الله، جلَّ من قائل: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠].

ثم قال قاطعًا بهم في شبهتهم بقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١] يقول - عزَّ من قائل: إنما هو ملك الموت يتوفاكم، وعلى نحو ما توفاكم، وحقيقة ما أماتكم عليه من صورة وعمل، وهداية أو ضلالة، أو أي ضرب من الوجود توفاكم عليه يعيدكم، وعلى ذلك منكم توقفون عند ربكم.

فصل

المعهود المعلوم يبدأ به الإيمان، والمعقول أن الله ﷻ لم يزل عالمًا بمن هو خالقه قبل أن يخلقه بصفته وصورته ونعوته كلها، وما يكون منه [بتوابع ذلك وشؤونه][٢] ثم فطره أولاً؛ ليقرره ويشهده، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية أمثال الذَّر**»[٣].

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] ولما قررهم فأقروا، وأشهدهم على أنفسهم وعلى ربوبيته ورسالاته فشهدوا.

كان ذلك منه ما عبَّر عنه لخليله إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة:٢٦٠] ولما كان ذلك جعل من كل واحد منهم جزءًا على ما هو أصل له في

---

(١) في النسخة (خ): «البلاء».

(٢) في النسخة (خ): «سواء مع ذلك وسواه».

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، ومالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، وابن حبان (٦١٦٦)، والآجرى (ص:١٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص:٣٢٥)، والضياء (٢٨٩) وقال: إسناده منقطع.

الوجود، فلما [دعاهم][(١)] إلى الكون، وهو إخراجهم إلى هذه الدار أسرعوا إليه بالإجابة.

ثم هو يميتهم على صورهم وقدورهم وأجسامهم وشأنهم كله، فعلى الحالة التي يتوفاهم عليها يجيبهم، غير أنهم مجمع لهم بين بدايتهم في تمام الخلقة وبديع الفطرة، ونهايتهم في كمال أبدانهم المقدرة لهم، وتوابع أعمالهم وأرزاقهم وآثارهم، وأن رؤيته إياهم في غيابات الغيب، وإحاطته بهم علمًا وقدرة ومشيئة، وتخصيصًا لكل ذات منهم بما خصَّه به [لأعرق][(٢)] في البعد عن التمييز بين أشكالهم وصورهم، وأجزائهم في أتربة الأرض، ومفترق أهوية الأجزاء، ومائعات المياه، وأبعاض غاذيات النبات والجمادات والحيوانات.

وقد أصار ذلك كله إلى نقص الخلقة، وذمَّه في الكتاب بعد الكتاب الأول، وإنما هو العدم الأول مع وجودهم في الوجود العلي؛ حيث لم يكونوا موجودين لأنفسهم، بل موجودين له في علمه المحيط وقدرته القاهرة، ومشيئته الغالبة بصفاتهم وأسمائهم وأنسابهم، وأسماء آبائهم وأمهاتهم، وبلدانهم وأرزاقهم وأعمالهم، وآثارهم وآجالهم على اختلاف أحوالهم في نموهم واضمحلالهم، و[تدرُّجهم][(٣)] في طبقات نشؤهم [ووجودهم وجميع توابع وجودهم][(٤)].

أحاط بذلك كله [قدرةً و][(٥)] علمًا ومشيئةً في أزل الأزل لا إلى أول، ثم كتبهم على ذلك في اللوح المحفوظ؛ إذ قال للقلم: «**اكتب ما هو كائن في الوجود**»[(٦)] فكتبه كذلك، ويوم [قضى القضية][(٧)] وأخذ المواثيق والإقرار والشهادة، ثم بث موجود

---

(١) في النسخة (خ): «دعا بهم».

(٢) في النسخة (خ): «لأعرف».

(٣) في النسخة (خ): «تدريجهم».

(٤) في النسخة (خ): «وعودهم من جميع توابع وجودهم».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٦) أخرجه بنحوه أحمد (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة (٣٥٩٢٢)، وابن جرير في تفسيره (١٧/٢٩، ٩٨)، والضياء (٤٣١).

(٧) في النسخة (خ): «قضاء القبضة».

تلك الذوات في خزائن السماوات والأرض بتوابعه أجمع، ثم الخلقة لعمارة هذه الدار اليوم بذلك المكتوب، ثم الموت بما فيه، ثم الإحياء الآخر للجزاء.

يقول الله ﷻ لهم: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَو حَدِيدًا * أَو خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥٠ - ٥١] فهذه هي الفطرة الأولى [بعد](١) الموتة الأولى التي قال فيها أهل النار في النار: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١] الإماتة الأولى من ذلك الإحياء الأول، والإماتة الثانية من هذه الحياة اليوم.

قال الله - عزَّ من قائل - فيما نحن بسبيل تبيانه: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت:١٩] فأخبر أنهم قد رأوا ذلك، فهو إحياؤهم الأول ثم يعيده الآن.

ثم قال - عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ [العنكبوت:١٩ - ٢٠] [فأحالهم](٢) في تعرف هذه البداءة على [التيسار](٣) في الأرض؛ ليروا كيف بداية الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة هي تلك آخرة؛ إذ هذه نشأة أولى، فقد علم من له أدنى تمييز وأيسر حظ من عقل أنه مبتدئ لا محالة، وأن مبتدأه قد تقدم في شأنه كله قبل إبدائه، ثم أوجده بعد إعدامه بعدما سوى به الهواء والماء والأرض والفتح والفيح، فأوجده على سواء ما تقدم فيه قبل، وسبق به علمه.

أتراه - عفا الله عنا وعنك - وقد فطره أولاً، ثم أوجده بعد على علم به ومشيئته له، وقدرته محيطة به بعجزه في النشأة الآخرة، وإن سوى به الأرض والهواء والوجود، وهو يقول مجيبًا لهم عن قولهم: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾

---

(١) في النسخة (خ): «قبل».

(٢) في النسخة (خ): «اليوم فآجالهم».

(٣) في النسخة (خ): «التتسيار».

[ق:٢ - ٤] كيف لا يكون كتابه حفيظًا وما من ذرة من ذرات العالم كيف تصرفت، ولا مثقال خردلة في السماوات والأرض تعزب عن علمه أو تسقط عن كتابه؟!.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١ - ٥٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٤ - ٥٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٩ - ١٠٤].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء:٩٩] يقول الله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] بلى يعلمه على التفصيل، وتفصيل التفصيل على التفصيل الإلهي، وإحاطة العليم الخبير، وفي خلق السماوات والأرض، وجريان الأفلاك والشمس والقمر والنجوم، وتواتر الليل والنهار، ودوائر المد والجزر والغيض والفيض، وإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإحيائها بعد موتها، في ذلك كله إخبار بالعود بعد البدء، و[إنباء][1] بالإحياء من بعد الموت، ومشاهدات لتحصيله بالعلم لما خلقه.

---

(١) في النسخة (خ): «إيتاء».

وإن الإحياء بعد الموت يكون إلى أوقات معلومة، وآجال لا تتعداه مضروبة، وإعلام بأن الدار الآخرة خالفة لهذه الدار كما يخلف النهار الليل والليل النهار، وكما اقتدر على الخلق في البداية، فأولى وأحرى أن يوصف بالقدرة على الإعادة، بل من اقتدر على الخلق الكلي فالوصف له بالقدرة على خلق جزء من ذلك الكلي أولى وأحرى، والناس جزء من خلق السماوات والأرض وما بينهن ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] وقد وعد بذلك، ودلَّ على صدقه بتدوار الدوائر فيما بين السماء والأرض، وكذلك وعد الله [آتٍ][1] ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] الحق الذي [أنزل][2] به ﷻ كما قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

وقال: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧].

وما جاء عنه ﷺ أنه قال: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس فيفصم عني**»[3] وقد وعيت عنه ما قال.

هذا إلى ما يصحبه من الحفظ والأمر والروح منه، وقد يكون المعنى زائدًا إلى ما تقدم من تنزيله إليه من لدن كلام رب العالمين إلى الروح القدس إلى الروح

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «أنزله».

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (٢٣٣٣)، والترمذي (٣٦٣٤)، والنسائي (٩٣٤)، ومالك (٤٧٥)، وأحمد (٢٥٢٩١)، والحاكم (٥٢١٣)، والطبراني (٣٣٤٥)، والحميدي (٢٥٦)، وابن راهويه (٧٥٤)، وعبد بن حميد (١٤٩٠)، وابن خزيمة في التوحيد (ص:١٤٩)، وابن حبان (٣٨).

الأمين إلى قلب الرسول - عليهم السلام - فجعله قرآنًا عربيًا، إلى كلام المؤمنين وتلاوتهم، والروح العلي يصحبه في ذلك كله إلى تلاوة الرسول إياه، وإلى بعض تلاوة المؤمنين، وقد جاء: «**أنه كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع حول وجهه كدوي النحل**»(١).

وكل روح فهو من الأمر، ويكون نزول الأمر والروح عن المنزلة العليا على قدر البعد من المبدأ؛ مثال ذلك: آدم عليه السلام هو أول لبنيه، فإنه نفخ فيه ذو الجلال من روحه، فيبعد ذلك على قدر البعد من الأول، إلا ما استثنى من ذلك حكم المشيئة في الاختصاص [والاصطفاء](٢) كمحمد ﷺ ساد البرية، وهو آخر الرسل.

وأمَّا روح الوحي والإيمان، فقربه على منازل القرب والاختصاص والجاه، وعند رب العالمين [تجديده](٣) بقدر العناية.

وأمَّا الحق الذي نزل به - والله أعلم بما ينزل - فهو ذكر الأسماء والصفات والتعريف بنفسه وذكر التوحيد والإسلام والشرائع والقصص والإنباء كله، والقصص على [ضروبه](٤) ولواحقه من حفظ ورصد عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا.

[الهاء في](٥) قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ عائدة على أمر الله - جل ذكره - فهو الحق أنزله الحق المبين جل جلاله بالحق وللحق.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣)، والترمذي (٣١٧٣)، والنسائي في الكبرى (١٤٣٩)، والعقيلي (٤/٤٦٠) والحاكم (٣٤٧٩) وصححه، والضياء (٢٣٤) وضعفه، وعبد بن حميد (١٥)، والبزار (٣٠١).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «يجود».

(٤) في النسخة (خ): «حروفه».

(٥) في النسخة (خ): «الثاني».

يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾
وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا
تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾
وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ
تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥ - ١١١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥] هذه الآية التي تقدم [ذكرها][(١)] قبل هذا منتظم معناها بقوله: ﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٨٨] المعنى إلى آخره ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦] فرق [به][(٢)] بين الحلال والحرام والمواعظ والأحكام والهدى والضلال والوعد والوعيد، وقد كان مجملاً محكمًا في أم الكتاب، ففصله إلى ما فصله إليه؛ لذلك سماه فرقانًا.

ولما جعل فيه من معنى الفرقان الموجود عن الروح الموحى به مع الملك إلى قلب الرسول ﷺ وما جعله في قلوب أهل العلم والإيمان من الفرقان المذكور بقوله: ﴿إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وهو تمييز صور المعاني في الباطن هو في الباطن كتصوير [الصور في][(٣)] الظاهر، فافهم.

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] إلى قوله ﷻ: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] وقرأها ابن عباس وقتادة وعكرمة وابن محصن والشعبي: «فرقناه» بالتشديد؛ أي: فرقنا تنزيله، قال: ومن خفف فمعناه: بيّناه، وفي قراءة أبي وابن مسعود: «فرقناه عليك لتقرأه على الناس».

---

(١) في النسخة (خ): «الكلام فيها».
(٢) في النسخة (خ): «فيه».
(٣) في النسخة (خ): «الصورة».

قال: فإذا كان فيه عليك فهو بالتشديد، فعلى القراءة بالتشديد والجمع بينها وبين قراءة التخفيف أنه أنزله إلى بيت العزة جملة بما فيه من الفروق، ثم فرق إنزاله بعد على نجومه ومنازله؛ ليقرأه على الناس على مكث يمكن أن يكون وصف المكث نعتًا للتفريق ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ قد تقدم شرحه، ويكون «نزلناه»: [رتبناه][(١)] فيكون على ذلك من البيان، فإن تفريقه و[ترتيبه][(٢)] تبيان له وتنزيل؛ إذ لو كان جملة واحدة لم يكن مفهومًا لنا، فنزوله على منازله أجدر لأن يفهم؛ لنزوله على أسبابه، [بيَّن][(٣)] هذا ما يأتي بعده.

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَو لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ يعني: من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: كتاب الله ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[(٤)] [الإسراء:١٠٧] الذقن: مجتمع اللحيين.

مفهوم هذا الخطاب: أن كل كتاب أنزل قبل القرآن مثل القرآن، فكان أولوا العلم إذا يتلى عليهم كتاب الله [فيمر][(٥)] التالي على أسماء الله ﷻ وعلى ذكر سجود الملائكة والأنبياء والمرسلين وأولي العلم من قبلهم، وإذا مرَّ القارئ على وعد الله

---

(١) في النسخة (خ): «رتلناه».

(٢) في النسخة (خ): «ترتيله».

(٣) في النسخة (خ): «يتبين».

(٤) ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه، وإنما قيد الخرور - وهو السقوط - بكونه للأذقان؛ أي: عليها؛ لأن الذقن وهو مجتمع اللحيين أوّل ما يحاذي الأرض. قال الزجاج: لأن الذقن مجتمع اللحيين، وكما يبتدىء الإنسان بالخرور للسجود فأوّل ما يحاذي الأرض به من وجهه الذقن. وقيل: المراد تعفير اللحية في التراب، فإن ذلك غاية الخضوع، وإيثار اللام في الأذقان على «على» للدلالة على الاختصاص، فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور، أو خصوا الخرور بأذقانهم. وقيل: الضمير في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ راجع إلى النبي ﷺ والأولى ما ذكرناه من رجوعه إلى القرآن؛ لدلالة السياق على ذلك، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ.

وحاصلها: إنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه فلا تبالِ بذلك، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعًا ظهر أثره البالغ بكونهم يخرّون على أذقانهم سجدًا لله. فتح القدير (٣٦١/٤).

(٥) في النسخة (خ): «فيخر».

أو [وعيده][١] وذكر المكذبين الرادين على المبلغين إليهم عن الله - عزَّ جلاله - يخرون للأذقان سجدًا لأجل سجود الساجدين ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء:١٠٨] يتوبون ويتبرءون من فعل أولئك ويؤمنون به ويسبحون الله تعالى عما نسبه إليه أولئك وإلى كتابه وأنبيائه ورسله فيقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء:١٠٨] وأكثر ما يأتي السجود في القرآن فلمعنى الاقتداء.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠] وقرأ طلحة: «**أيًّا من تدعوا**» مثقلة، كأنه قال: من دعوت بهذين الاسمين فهو الله - جلَّ ذكره - وكذلك إن دعوته بالكريم؛ أي: بالحليم والعالم والقادر، إلى غير ذلك من الأسماء، فهو هو له الأسماء الحسنى، وقال - عز من قائل: ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

---

(١) في النسخة (خ): «وعيد».

تفسير سورة الكهف

[مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ [الكهف: ١-٨].

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ * وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾[2] [الكهف:١ - ٢] قيل أن قوله: «قيمًا» مؤخر في التلاوة، قالوا: إنما معناه: «الذي أنزل على عبده الكتاب قيمًا ولم يجعل له عوجًا» وهو وجه صحيح - إن

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفًا بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمدًا يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده، فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسماه عبده، وأي: تكرمة أكرم من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطوات عظمته الكون كان مسألة تعليم لعبادة أي: احمدوا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد وجب على الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه.

شاء الله - على أن يكون «قيمًا» نعتًا للكتاب.

ثم قال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: خاصة من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:٢] أي: حسن المنقلب في الآخرة والخلود، [فهذه أقوال](١) أهل التفسير في صدر هذه السورة.

فصل

قوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ أي: مباركًا شارعًا لصراطه المستقيم الذي هو الدين القيّم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ﴾ في هذا الصراط ﴿عِوَجًا﴾ [الكهف:١].

﴿قَيِّمًا﴾ [الكهف:٢] فيكون قوله: «عوجًا» نعتًا لقوله: «قيمًا»؛ إذ أهل الكتابين قبلنا لما عتوا على رسلهم وعصوا فيما نهوا عنه ألزموا أغلالاً من الكلف، وحملوا أصار الأعمال، ومنعوا مع ذلك مواسم [الأرياح](٢) وكان ذلك منهم والرسول بين أظهرهم، والكتاب ينزل عليه والوحي يوحى إليه.

قال الله ﷻ لسلفنا ﷺ جميعهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة:١٠١ - ١٠٢].

قال رسول الله ﷺ وهو على المنبر يخطب يوم جمعة: «**هذا يومنا الذي كتبه الله لنا، الناس فيه لنا، تبع اليوم لنا وغدًا لليهود وبعد غد للنصارى**»(٣).

وفي أخرى: «**نحن الآخرون السابقون، ونحن أول من يدخل الجنة، فهذا يومهم الذي فرضه الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له**»(٤).

ومصداق هذا من القرآن [قوله](٥): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ

---

(١) في النسخة (خ): «هذا قول».

(٢) في النسخة (خ): «الأرباح».

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (١٠٨٠٨)، وابن أبي شيبة (١٦٤).

(٤) أخرجه البخاري (٨٣٦) ومسلم (٨٥٥) والنسائي (١٣٦٧) وأحمد (٧٣٠٨) والشافعي (١/ ٦٠)، وابن خزيمة (١٧٢٠)، والبيهقي (٥٣٥٤).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل:١٢٤].

وقال رسول الله ﷺ يوم الخندق وقد فاتته صلاة العصر؛ لشغله بقتال المشركين: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى، ملأ الله قلوبهم** - أو قال: «**بيوتهم**»[١] - **نارًا، إن هذه الصلاة كتبت على من كان قبلكم فضيعوها، فمن صلاها في وقتها فله أجره مرتين**»[٢] وذكر ﷺ ما فضلنا الله به من صوم شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، إلى ما قد تقدم ذكره من ردهم على أنبيائهم وعلى رسولهم الخاص بهم - على جميعهم السلام.

قال الله ﷻ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:١٦٠ - ١٦١].

وقال ﷻ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام:١٤٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦] وأمَّا النصارى فهم الضالون المضلون الشارعون لأتباعهم المطرودون عن الحق، فهذا المعنى هو المعبر عنه بالعوج؛ ولأنه من عند الله ملزمًا لهم مأمورًا به فيه النجاة لمن اتبعه منهم وفعله، وهو الهدى في ذلك الوقت لمن اهتدى به كان قيمًا، ولانحرافه عن الصراط المستقيم الدين القيم دين الإسلام [الذي هو الحقيقة السمحة][٣] بالإلزام، عقابًا لهم لما كان منهم، فكان لذلك ذا عوج، فافهم.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٨٩١)، والطبراني في الأوسط (١١١٨)، والبزار (٢٩٠٦)، وقال الهيثمي (٣٠٩/١): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧٧٣) ومسلم (٦٢٧) وأبو داود (٤٠٩) والترمذي (٢٩٨٤) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٣٥٨) وابن ماجة (٦٨٤) وابن أبي شيبة (٨٥٩٦)، والبزار (٥٤٩) وأبو يعلى (٣٨٨) وابن حبان (١٧٤٥) والبيهقي (١٩٩٨) والطيالسي (٣٦٦).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

ثم لم يتركهم أتباعهم؛ ذلك لاختلافهم فيما شرعه لهم ورضيه لهم دينًا إلى أن [يشأ][(١)] ذلك [ليكون][(٢)] خروج الدجال فيهم، نظم ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:٢] واشترط العمل الصالح مع الإيمان كذلك الوجود، ألا ترى أن الله - جل ذكره - هو السلام المؤمن، له الأسماء الحسنى والصفات العلا بكل وجه وبكل معنى، ثم هو ﷻ أوجد العرش العظيم والكرسي الكريم، وخلق السماوات والأرض وما بين ذلك بالحق بحكمة بالغة وحجة للعقول قاهرة، ضمن ذلك كله شرعة الفطرة وكرم الخلقة، فهذا منبعث [اشتراط][(٣)] العمل مع الإيمان والإسلام، لقد [خاب][(٤)] من سنن الصواب من اعتقد قول القائلين الذين زعموا أنه كما لا ينفع مع الكفر عمل فكذلك لا يضر مع الإيمان عصيان.

نظم بذلك [قوله][(٥)] جلَّ من قائل: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا * مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لآبَائِهِمْ﴾ [الكهف:٤ - ٥] هم العرب والنصارى، فقد مضى وعيد النذارة للعرب وبقي الوعيد فيها للنصارى، ويمكن أن تكون النذارة بالبأس متوجهًا إلى بأسه بالدجال - لعنه الله - وهو الأظهر لإضافة البأس إلى أنه من لدنه، فإنه - جل ذكره - هو الذي يقدره على ما يكون في أيامه من ظهور القدرة، وكون المقدور الغائب فتنة لكل مفتون - نعوذ بالله من فتنته وشره.

وكذلك هو الأظهر في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:٢ - ٣] أنهم الصابرون من عباد الله يومئذٍ [القائمون][(٦)] على أمره، حتى يأتي [الله][(٧)] بأمره هذا على الخصوص، ويدخل

---

(١) في النسخة (خ): «أنشأ».
(٢) في النسخة (خ): «لكون».
(٣) في النسخة (خ): «أشراط».
(٤) في النسخة (خ): «جاءت».
(٥) في النسخة (خ): «قول».
(٦) في النسخة (خ): «المقيمون».
(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الكل ممن آمن بالله وعمل الصالحات في ذلك بحكم العموم.

وفقه هذا الخطاب هو المعني بقول رسول الله ﷺ: «**من قرأ العشر الآيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»(١) فإنه إذا كان في ذلك الوقت وخرج قصَّر الله مدته وأوهن كيده، قرأ المؤمن هذه الآيات فعقل عن الله ما عناه بالبشارة، وعلم مَن المؤمنون يومئذٍ، الذين يعملون الصالحات على حين [القربة والإخافة](٢) والنذارة لمن يتوجه يومئذٍ، وفهم بقوله بالإضافة إلى يومئذٍ.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾(٣) [الكهف: ٧ - ٨].

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم

(١) أخرجه مسلم (٨٠٩)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٨٧)، وأحمد (٢١٧٦٠)، والحاكم (٣٣٩١) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (٥٧٩٣).

(٢) في النسخة (خ): «الغربة والإحاقة».

(٣) قال الزمخشري: ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينة ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يعني: مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته وإماطة حسنة، وإبطال ما به كان زينة من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار ونحو ذلك. انتهى.

قيل: والصعيد ما تصاعد على وجه الأرض. وقال مجاهد: الأرض التي لا نبات بها. وقال السدّي: الأملس المستوي. وقيل: الطريق. وفي الحديث: «إياكم والقعود على الصعدات». تفسير البحر المحيط (٤١٧/٧).

مِّرْفَقًا﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ٩ - ١٦].

ووقف يومئذٍ على ما جعل أصحاب الكهف [والرقيم آية][(١)] عليه في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧] فإنه إذا كان يومئذٍ أظهر الله لأصحاب الكهف ما عناه رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ومتى ينجزهم وعده باستجابته لهم [لدعائه][(٢)] الذي حكاه عنهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] حرف «أم» لا يجيء إلا استفهامًا بعد [تقدم كلام][(٣)] إلا ما ذكر أنها قد تجيء ابتداء، حكي ذلك عن بعضهم، قيل: هي لغة هذيل، يقولون: أم عندك طعام أم نحن خيار الناس أم نحن نطعم الطعام، [والأولى][(٤)] أن يكون مرجوعها على ما في حرف «لعل» من معنى الاستفهام في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] فإنه جائز أن يقول الرجل لمخاطبه: «لعلك تقول كذا أم تقول كذا وكذا؟» وهو ضرب من الاستفهام ممتزج بمعنى الترجي والتوقع، ثم يخلص لمحض الاستفهام بضرب من التقدير أو الترجي أو التوقع.

وقد يكون قوله: ﴿أَمْ﴾ مرجوعًا على قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ التي هي بمعنى: بل، فيكون معنى الكلام: فلعلك مهلك نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا، بل ﴿حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] أي: إنها من بعض الآيات وليست بأعجب من آياتنا الدالة على صدق ما جئتهم به، فتحرص لذلك على أن تعلمهم بها.

وقيل: إن قريشًا لما جاءهم رسول الله ﷺ بما جاءهم به من النبوة والرسالة

---

(١) في النسخة (خ): «وأنه».

(٢) في النسخة (خ): «لدعائهم».

(٣) في النسخة (خ): «تقدير».

(٤) في النسخة (خ): «في الأولى».

وسب آلهتهم وسفه أحلامهم اجتمعوا على أن يرسلوا إلى يهود خيبر يسألونهم عن شأنه وعن مثله، وهل [يجدونهم](١) فيما علموه، وقالوا لهم: أنتم أهل كتاب وعلم فأخبرونا عن شأنه وعن مثله، فنفس عليهم أهل خيبر بالعلم الذين كانوا يعرفونه من أمره حسدًا منهم إن كان من غيرهم، وقالوا لهم: سلوه عن أمرين، فإن أخبركم بهما فهو نبي، أحد الأمرين: فتية ذهبوا في الدهر كان لهم قصة عجب، وعن فتى جاب الأرضين وسلكها، فإن أخبركم [بها](٢) فهو نبي.

ولما رجع إليهم رسولهم بالخبر سألوه عن المسألتين، فقال [لهم](٣): سأخبركم عن ذلك غدًا، فلما أصبح غدوا عليه يستنجزون وعده، فاستلبث الوحي عليه إلى خمسة عشر يومًا حتى أكثرت قريش في ذلك [من القال، فأنزل الله إلى تمام خمسة عشر يومًا](٤) ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ﴾ [الكهف:١] إلى آخر السورة، فالله أعلم أكان هذا هكذا أم لا.

وفي السورة معاتبته إياه على شدة اهتمامه بتأخرهم عنه وخلافهم لله - جل ذكره - وتركه الاستجابة له وتركه الاستثناء بمشيئة الله - تبارك وتعالى - عندما هو قائل [فيما](٥) لم يكن بعد أنه [سيكون](٦) على ما زعمه أكثر الشارحين، وإنما معنى قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف:٢٣ - ٢٤] يقول: لا تعد عني أحدًا فيما تستقبله إلا أن أشاء لك ذلك؛ يعني: إلا أن آذن لك في ذلك، فتعد على ثقة منك بوعدي، إلى غير ذلك من علمه الذي أنزلها به.

فصل

وإن كان المعتمد في «أم» أن يكون مبتدأ بها على ما جاءت في لغة هذيل فالمعني بها - والله أعلم: أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا

(١) في النسخة (خ): «يجدونه».
(٢) في النسخة (خ): «بهما».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «مما».
(٦) في النسخة (خ): «سكون».

عجبًا؟ كما يقول: أعلمت أن كذا هو كذا وكذا في باب العلم، وهذا في [باطن][(١)] الظن والحسبان، نقول: أظننت هذا: [أحسبته][(٢)].

ثم أنشأ بعلمه مما لم يكن علمه قبل بقوله: ﴿إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلى الكَهْفِ﴾ [الكهف:١٠] «الكهف»: المغارة في الجبل، إلا أنه أوسع من الغار وأكبر، إن كان صغيرًا فهو غار، وإن كان كبيرًا فهو كهف، «الرقيم»: كثر الاختلاف [فيه من][(٣)] علماء السلف - رحمة الله عليهم - ما هو، فمن قائل يقول: الرقيم: الكهف [نفسه][(٤)]، ومن قائل يقول: هو الوادي الذي فيه الكهف، ومن قائل يقول: الرقيم: القرية التي خرجوا عنها حتى أووا إلى الكهف.

قال ابن عباس ﷺ: لا أدري أهو كتاب أم هو تبيان، وروي عنه أنه قال: هو الكتاب، وهو أولى الوجوه به إن شاء الله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قال رسول الله ﷺ في ابن عباس: «**اللهم حفظه الكتاب وعلمه التأويل**»[(٥)].

الرقيم: هو المكتوب فيه الأعمال، قال الله - عزَّ من قائل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨-٢١] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٧-٩] وسمي ذلك الغار الذي ذكره رسول الله ﷺ بالرقيم؛ لرحمة الله - جل ذكره - الثلاثة نفر الذين أووا إليه بأعمالهم المكتوبة لهم فيما هنالك.

خرَّج أحمد بن عبد الله بن صالح في كتابه «المسند» بسند له إلى النعمان بن بشير الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يذكر الرقيم فقال: «إن ثلاثة نفر كانوا في

---

(١) في النسخة (خ): «باب».

(٢) في النسخة (خ): «حسبته».

(٣) في النسخة (خ): «بين».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٢٢)، والطبراني (١١٥٣١)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٦)، وابن سعد (٢/ ٣٦٥)، والحاكم (٦٢٨٠) وقال: صحيح الإسناد.

كهف - وقال غيره: «إن ثلاثة نفر كانوا يمشون في الطريق فآواهم المطر إلى غار» - قال: «فوقع عليهم كسف من الجبل على باب الكهف فأوصده عليهم، فقال قائل منهم: تذكروا أيكم عمل حسنة.

وفي أخرى: «قال قائل منهم: والله ما ينجيكم من هذا إلا عمل صالح عملتموه لله خالصًا، فادعوا الله أن يفرج عنكم ما نزل بكم».

وقال في هذه: «لعل الله برحمته أن يرحمنا، فقال أحدهم: قد عملت حسنة مرة، كان لي أجراء يعملون لي عملاً استأجرت كل واحد منهم في نهاره كله بأجرٍ معلوم، فجاءني رجل منهم ذات يوم وسط النهار، فاستأجرته بشرط أصحابه، فعمل في بقية نهاره كما عمل كل رجل منهم في نهاره كله، فرأيت علي في الذمام ألا أنقصه مما استأجرت به أصحابه؛ لما جهد في عمله، فقال رجل منهم: أتعطي هذا مثلما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف [نهاره][(١)]؟ فقلت: يا عبد الله، لم أبخسك شيئًا من شرطك، وإنما هو مالي أحكم فيه ما شئت، فغضب وذهب وترك أجره، فوضعت حقه في جانب من البيت ما شاء الله.

ثم مرت بي بعد ذلك بقر فاشتريت منها فصيلة من البقر، فبلغت ما شاء الله، فمر بي بعد حين شيخ ضعيف لا أعرفه، فقال لي: إن لي عندك حقًّا تعرفه، فذكره حتى [عرفه][(٢)] فقلت: إياك أبغي هذا حقك، فعرضتها عليه جميعًا فقال: يا عبد الله، إن لم تصدق علي فلا تسخر بي، فقلت: والله ما أسخر بك، إنها لحقك ما لي منها شيء، فدفعتها إليه جميعًا، اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فأفرج عنا، قال: فانصدع الجبل حتى رأوا وأبصروا.

قال الآخر: قد عملت حسنة مرة، كان لي فضل وأصابت الناس شدة، فجاءتني امرأة تطلب مني معروفًا، فقلت لها: والله ما هو دون نفسك، فأبت علي فذهبت، ثم رجعت فذكرتني بالله فأبيت عليها، وقلت لها: والله ما هو دون نفسك، فأبت علي فذهبت، فذكرت ذلك لزوجها، فقال: أعطه نفسك وأغيثي عيالك، فرجعت إلي

---

(١) في النسخة (خ): «نهار».

(٢) في النسخة (خ): «عرفته».

فنشدتني بالله، فأبيت عليها وقلت لها: والله ما هو دون نفسك، فلما رأت ذلك أسلمت إلي نفسها، فلما تكشفتها وهممت بها ارتعدت من تحتي، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين، قلت لها: خفته في الشدة ولم أخفه في الرخاء، فتركتها وأعطيتها ما يحق علي لما تكشفتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فأفرج عنا، فانصدع حتى عرفوا وتبين.

قال الآخر: قد عملت حسنة مرة، كان لي أبوان شيخان كبيران، وساق باقي الحديث على نحو ما خرجه الغير، [غير أنه قال النعمان: لكأني أسمع هذه من رسول الله ﷺ قال: «**قال الجبل: طاق**»][١] ففرج الله عنهم فخرجوا»[٢] فهذا هو الرقيم، يقول رسول الله ﷺ: «**سمي رقيمًا لمرقوم أعمالهم الصالحة في عليين بشهادة المقربين إياها**»[٣].

وكونهم من الآيات؛ أي: على ما ينفع الله به من الأعمال الصالحة، قال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ – ١٤٤] وهم من الآيات أيضًا على ما يدعو الله به عيسى والمؤمنون، وقد أخرج [الله][٤] يأجوج ومأجوج إلى الأرض، وهم من البأس على ما لا قبل [لأحد بهم][٥] ككسف الجبل الواقع على باب الغار، لم ينزله إلا صالح العمل المتقدم، وسيكون في المؤمنين يومئذٍ من يكون برًا بوالديه، ومن ترك الدنيا بعد تمكنه منها على [حب له][٦] منه لها هذا [إلى][٧] ما ينفع الله [بالأعمال][٨] الصالحة في الدنيا وفي الآخرة وفي القبر.

وأمَّا أصحاب الكهف فكونهم سبعة وثامنهم كلبهم، عدد السبعة آخر العدد

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٤١)، وأبو عوانة (٤٥١٩)، والبزار (٩٠٦).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) في النسخة (خ): «لأحدهم».

(٦) في النسخة (خ): «محبة».

(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٨) في النسخة (خ): «به من الأعمال».

والكلب الحافظ الحارس وهو عالم القوم، فمثلهم أمة يبلغ من حالها في الهداية، ويبلغ من خمولها ونومتها مثل ذلك، حتى أنهم ليحسبون أيقاظًا وهم رقود، وفي أثناء ذلك يبلوهم الله [بالحسنات والسيئات][(١)] والله متعاهدهم ومقلبهم حتى يأتي أمره فيهم، [يوقظهم][(٢)] الله من نومتهم، ويبعثهم من [حالهم][(٣)] تلك.

قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم عند البيت؛ إذ أنا برجل آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، يقطر ماء أو يهراق ماء، متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، قلت: من هذا؟ قيل لي: هو المسيح ابن مريم، وإذا أنا برجل جعد قطط أعور عين اليمنى، متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، [يطوف بالبيت، قلت: من هذا؟ قيل لي: هذا المسيح الدجال»[(٤)] فتثبت في كونهما على عواتق رجلين أو على رجلين][(٥)].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا

(١) في النسخة (خ): «بالسيئات والحسنات».

(٢) في النسخة (خ): «فيوقظهم».

(٣) في النسخة (خ): «حالتهم».

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٦٢)، ومسلم (١٦٩)، ومالك (١٦٤٠)، وأحمد (٦٣١٢)، وأبو عوانة (٣٨٨).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (ع).

﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ١٧ - ٢١].

فإن هذا كله مما لا يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يعلمون منه ما علموه، وأن أصحاب الكهف أحياء، أخبر الله ﷻ في كتابه أنه بعثهم من نومتهم تلك بعد لبثهم ما لبثوه من السنين العديدة، ولم يخبر بأنه أماتهم، بل أخبر بأن أمرهم غيب في حق المدركين لهم يقول بعضهم: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ يعني: من كان له الأمر حينئذٍ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[١] [الكهف: ٢١].

وقد جاء أن أصحاب الكهف يبعثون مع عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - وإذا كان عند آخر الزمان أظهر الله من سر أمرهم ما تبين به كفر الدجال [لعنه الله][٢] وكذبه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ العشر الآيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»[٣] والله ورسوله أعلم.

وفيهم من الآيات آية على بعث الله الموتى بعد موتهم، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا﴾ أي: ليعلم العاثرون عليهم ﴿أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ في بعث

---

(١) وإنما رأوا أن يكون البناء مسجدًا؛ ليكون إكرامًا لهم، ويدوم تعهد الناس كهفهم، وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنة النصارى، ونهى عنه النبي ﷺ كما في الحديث يوم وفاة رسول الله ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها: «ولولا ذلك لأبرز قبرُه» أي: لأبرز في المسجد النبوي، ولم يجعل وراء جدار الحجرة واتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها منهي عنه؛ لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبية بفعل من يعبدون صالحي ملتهم، وإنما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات؛ لأن ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر ويظن الناس أن ذلك لخاصية في ذلك الميّت، وكان بناء المساجد على القبور سنة لأهل النصرانية، فإن كان شرعًا لهم فقد نسخه الإسلام، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر. التحرير والتنوير (٣٥٣/٨).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) تقدم تخريجه.

الموتى إلى الأجل المسمى حق ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف:٢١] إذا جاء [أجلها فلا تستأخر ساعة ولا تستقدم][١] [﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾][٢] [يونس:٤٩].

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ [الكهف:١١] يعني: بالنوم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من النوم ﴿لِنَعْلَمَ أي الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف:١٢] وقرأ الزهري «لِيُعْلَم أَيُّ الحزبين» بالياء[٣]، وبعثهم ذلك [آية][٤] على بعث مستقبل، إن شاء الله يوجده لهم بحكمة له في ذلك.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي وبأنه كلام الله وحديثه، يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣].

الفتى: هو الذي ارتفع عن حد الصبا ولم يلحق بالكهولة، هذا في درجات السن، فأمَّا في مراتب درجات أولياء الله، فكل من تحقق في درجة ما فهو فيها إمام وشيخ، وهو يعد فتى إلى درجة أعلى منها يطلبها، كان يوشع فتى موسى - عليهما السلام - وفتية يوسف القائمون بأوامره، وكان أصحاب الكهف فتية آمنوا بربهم إيمان المؤمنين، ثم زادهم [الله][٥] إيمانًا، فهم بذلك أولياء، فكانت الحالة الأولى بالإضافة إلى الحالة التي بلغهم إياها بزيادة الإيمان فتوة، وهم أيضًا فتية بالإضافة إلى ما ينهضهم إليه بعد هذا.

كذلك ذو القرنين عليه السلام فتى في كونه نبيًا ملكًا، وحاله تلك فتوة بالإضافة إلى مستقبله، ووصف الفتوة وحليتها هو حسن التعبد لله العظيم على المروءة، فمتى عظم قدر الرب في قلب العبد لم يبق له سوء خلق؛ إذ الذكر النافع الذي هو ذكر

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) قرأ الزهري بالياء، وفي كتاب ابن خالوية ليعلم {أي الحزبين} حكاه الأخفش. وانظر: معاني القرآن للأخفش (١ /٥١)، [تفسير البحر المحيط ٧/٤٢١].
(٤) في النسخة (خ): «أنه».
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

المشاهدة والمكاشفة يطهر العبد من كل دناءة، ومتى كان كذلك فهو فتى؛ لأنه إذا غلب الذكر الهوى فقد جمع أخلاق الفتوة وصفات العبودية، والفتوة مبنية على المروءة والصيانة.

جمع ذلك قول الله ﷻ في وصفه للأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ هذه هي المروءة ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩] هذه هي الصيانة.

وللفتوة ثلاث شعب: الصدق والصبر والشجاعة، [وتجمعت هذه في أصحاب الكهف، وآية واحدة من القرآن جمعت أخلاق الفتوة][1] قوله - جلَّ من قائل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

ونقيض الفتوة سوء الخلق، وهو مطالبتك غيرك أن يوافقك دون أن تطالب نفسك بموافقته، وقد قالوا: من سوء الخلق ألا يحتمل معاملة سيئ الخلق، ومن أخلاق الفتيان كف الأذى [واحتمالهم][2] من غيرهم،[قال الله - عزَّ من قائل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون:٩٦] السمة.

وقال][3]: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

وكمال الفتوة في كمال المروءة، وكمال المروءة عبارة عن كمال العبودية، والسامع إنما يرد التأويل إلى مقدار [إيماء][4] المفهوم عنده من المعنى المتكلم فيه، وقد كانت للأنبياء والرسل والأولياء أخلاق [وحدة][5] لكنها كلها معلقة بما يعلمه الله من قلب عبده، فمن كانت محبة الله الغالبة على قلبه كانت أخلاقه تابعة لمحبة الله - جل ذكره - إذ الله عاصمهم في متقلبهم ومثواهم، فإن غضبوا فلله وإن رضوا فلله؛ كغضب موسى على هارون - عليهما السلام - يوم أخذ برأسه وجره

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «احتماله».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٥) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

إليه، وكفعله مع الخضر - عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ [الكهف:١٤] يريد لأمرهم هذا المحكي عنه ربط على قلوبهم بالصبر على مخالفة الهوى ومفارقة الوطن والأصحاب، ونبذ ترف الدعة وخلاف قومهم وملكهم، كما قال ﷻ في أم موسى: ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:١٠] ربط أيضًا على قلوب هؤلاء بصفاء اليقين وعزم الإيمان ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٤] الشطط: مجاوزة القدر والحد، وصفهم الله - جل ذكره - بأنهم أوتوا الإيمان بوجود البرهان في قولهم: ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا﴾ [الكهف:١٥].

قوله تعالى فيما حكاه عنهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ [الكهف:١٦] كما قال إبراهيم ﵇: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦ – ٢٧] فاستثنى المعبود الحق من معبوداتهم الباطلة، وذكر قتادة أنها في مصحف أبي: «وما يعبدون من دون الله».

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف:٢٢] ربما كانت هذه المقولات لها في علم الله حقائق تكون في المستقبل لما لم يقفوا على علمها لم [يحمد](١) لهم قولهم، وقد قيل: إنها كهوف فيهن أمثلة هؤلاء - والله أعلم - فربما خص [بالإخبار](٢) عن قوم في كهف، وعم بالحكم حيثما كان من أمثالهم ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [هود:١٢٣].

وقد كثرت أخبار المخبرين عن وجود أمثالهم في كهوف، فربما كان اختلاف الأقوال في القرآن إشعارًا بذلك ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٣) [الكهف:٢٢].

---

(١) في النسخة (خ): «يجهد».

(٢) في النسخة (خ): «بالإخبارات».

(٣) لما شاعت قصة أهل الكهف حين نزل بها القرآن صارت حديث النوادي ، فكانت مثار تخرصات في معرفة عددهم، وحصر مدة مكثهم في كهفهم، وربما أملى عليهم المتنصرة من العرب في ذلك قصصًا، وقد نبههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم الناس الإعلام =

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) ﴾ [الكهف: ٢٢ – ٢٧].

ثم قال – عز من قائل: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢] هذا هو عددهم – إن شاء الله ﷻ – في هذا الكهف، وقد قال في القولين الأولين: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولم يقل ذلك في شأن هؤلاء، وعطف بالواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ ولم يعطف بها في القولين، وفي السبعة [ثم][(١)] العدد سبعة ووتره، وهي إشارة إلى مراد له هو أعلم به، هؤلاء آية على ما عرض إليه ﴿آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة:٥٩] والعطف بالواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢] عطف على محذوف أراه قولاً يحقق أنهم سبعة.

قال ابن عباس ﷺ في قوله ﷻ: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢]: أنا من أولئك القليل، هم سبعة وثامنهم كلبهم.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف:٢٢] أي: تبليغًا وإعلامًا بما أتاكه الله لا في غالب ما هم آيات عليه في مستقبله، فذلك باطن ظاهرهم، نهى الله تعالى – جل ذكره – رسوله عن مماراتهم فيه، إلا من آمن وصدق

=

بذلك لحكمة، وهي أن تتعود الأمة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للناس، ودل عَلَم الاستقبال على أن الناس لا يزالون يخوضون في ذلك. التحرير والتنوير (٣٥٤/٨).

(١) في النسخة (خ): «تم».

بقول ما هم عليه آية، وذلك خاص من قليل، فمتى كان منهم مراء فامسك عنهم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٢] يريد من أهل الكتابين، قد أعلمه أنه لا علم عندهم، فكيف يصح استفتاؤهم عن ذلك؟.

قوله ﷻ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف:٢٥] قيل: إن هذا متصل بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢] إلى قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢] ثم قال: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢].

[فاتصل](١) بذلك إلى قوله: ﴿هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف:٢٤] فكان معناه ويقولون: لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، وأراه - والله أعلم - أخبر بعدد ما لبثوا في الكهف إلى أن أعثر عليهم أهل ذلك الزمان.

قال قتادة في حرف عبد الله بن مسعود: وقالوا: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:٢٥] يعني: أهل الكتاب.

ثم قال: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف:٢٦] يمكن أن تكون في [المرة](٢) الأولى حتى أعثر عليهم، ويمكن أن يكون المراد من بعدما أعثر عليهم إلى وقت نزول القرآن.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف:٢٦] تعظيمًا لعظمته وإكبارًا لشأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ﴿مَا لَهُم﴾ يريد الكافرين ﴿مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ إذا جاء معلومه في الغيب ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦] وقال في موضع آخر: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧].

نظم بذلك قوله: ﴿وَاتْلُ﴾ عليهم ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف:٢٧] من كلماته: فتية [أهل](٣) الكهف وذو القرنين وعيسى ابن

---

(١) في النسخة (خ): «واتصل».

(٢) في النسخة (خ): «المدة».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

مريم - عليهم السلام، والدجال - لعنه الله - وأصحاب الرقيم، وكل ما كان له مبدأ لم يتم بعد وينتظر إتمامه، فهو كلمة من كلماته ﷻ.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣ - ٢٤] نهى الله - جل ذكره - رسوله ﷺ أن يعد عن ربه بوعد إلا أن يشاء الله ذلك، فيأذن له فيه فيعد عن الله بأمره، وليس قوله هنا: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف:٢٤] استثناء، إنما يستثنى من الجمل والعموم، فيخرج الاستثناء من الجملة ما لم [تتناوله][1] الإرادة، وكم له ﷺ من عدة عن ربه ﷻ في بشاراته وإنذاراته عما يكون في المستقبل لا يستثنى في شيء من ذلك؛ لأن الله - جل ذكره - أذن له في ذلك وشاء.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٢٨- ٣١].

قوله ﷻ: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُمْ﴾ [الكهف:٢٩] هذا منتظم بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] وارتفع الحق بإضمار المبتدأ، تقديره: وقل هو الحق من ربكم، يقول: فإذا بلغت فقد أعذرت ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] ولا [يهمنك][2] شأنهم ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩].

---

(١) في النسخة (خ): «يشاركه».

(٢) في النسخة (خ): «يهمك».

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: ٣٢ – ٣٨].

ثم ذكر الجزاءين في دار القرار ثم استمر على ضرب الأمثال [لهم][(١)] والوعظ والتذكير بقوله ﷻ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف:٣٢] المعنى إلى آخره، مثل ضربه الله برجلين أعطى أحدهما مالاً وولدًا ومن ضروب المال، فأطغاه المال وأنساه شكر المنعم، والرجل الآخر جعله فقيرًا لا مال له ولا منعة ولا جاه.

فجعل أحدهما يحاور صاحبه، فقال الكافر الكثير المال والولد: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤] ونظر إلى ماله فأطغاه، وإلى حالته فاطمأن إليها، ووثق بما أوتي من دنياه، فقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف:٣٥ – ٣٦] وشك في الإرجاع إلى ربه ﷻ فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾[(٢)] [الكهف:٣٦].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) قرأ ابن الزبير وزيد بن علي وأبو بحرية وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وحميد وابن مناذر ونافع وابن كثير وابن عامر: «مِنْهُمَا» بضمير التثنية، وكذا في مصاحف مكة والمدينة والشام؛ أي: من الجنتين ﴿مُنْقَلَبًا﴾ أي: مرجعًا وعاقبة لفناء الأولى وبقاء الأخرى على زعمك، وهو تمييز محول من المبتدأ على ما نص عليه أبو حيان، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا؛ لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، وهذا كقوله تعالى حكاية: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ولم يدرِ أن ذلك استدراج، وكأنه لسبق ما يشق عليه فراقه وهي الجنة التي ظن أنها لا تبيد جاء هنا =

قال له صاحبه المؤمن القليل المال والغاشية: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف:٣٧] وقرأ ثابت البناني: «ويلك أكفرت [بالذي خلقك»][(١)] فردَّه على أوليته، وأراه سبيل الاعتبار ببدايته.

يقول المؤمن: ﴿لَكِنَّاْ هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:٣٨] وروي عن أبي عمرو: «ولكنه هو الله ربي» بالهاء المثقلة النون.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف:٣٩ – ٤٥].

يقول له: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ [الكهف:٣٩] معنى ذلك: ما شاءه الله بي من فقرٍ أو غنىً أو عسر أو يسر لا قوة على الصبر إلا بالله، ولا قوة على الشكر إلا بالله ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [الكهف:٣٩] أي: في الدنيا.

﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ﴾ على جنتك هذه ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فيهلكها بالأمطار الغزيرة أو بالجدب وعدم الماء ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠] بكثرة المياه.

=

﴿رُدِدتُّ﴾ ولعدمه فيما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى من آية «حم» المذكورة جاء ﴿رُّجِعْتُ﴾ [فصلت:٥٠] فليتأمل! تفسير الألوسي (٢٥٢/١١).

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ بتتابع القحط والجدب ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف:٤١].

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي: أُهلكت ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:٤٢] عبَّر بهذا الخطاب عن زوالها عنه [و زواله][(١)] عنها بالموت، وعن ندمه على الركون إليها والعمل لها.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لله الْحَقِّ﴾ [الكهف:٤٤] يريد بعد الموت في دار البقاء، وقرأها أبي: «هنالك الولاية الحق لله» وقرأها عبد الله بن مسعود: «هنالك الولاية لله وهو الحق».

وضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا ووشيك انقطاعها بقوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ نزل الماء من السماء في الخريف، فيخرج به نبات [من][(٢)] كل شيء، فـ﴿إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس:٢٤] كرَّ عليها حر الصيف ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥] شبَّه الله - جل ذكره - الدنيا كلها بسنة واحدة منها، بل بشتاء منها ومصيف، ثم شبه المال والبنين بذلك؛ لأنهم هم الدنيا وبالدنيا.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٤٦ - ٥٠] ثم قال، وقوله الحق: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [أي: بعد الموت وفي الدار

(١) في النسخة (خ): «أو زواله».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

الآخرة][1] ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦] كل ما عمل لوجه الله خالصًا فهو من الباقيات الصالحات، وإنما يتصور أن يكون بهذه الصفة من الأعمال ما بقي بعد كفارة الذنوب، وهذا على قدر [قلة][2] الذنوب وكثرتها[3].

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف:٥١ – ٥٥].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:٥٤] جدله أن يقول: ليس من الأمر شيء إنما أنا مدبر، والحول والقوة لله ليست إلي، وشبه هذا دون توبة، والشفاء هذا من المرض الرغبة

---

(١) نا بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) **فائدة**: قال المصنف في قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠] وكان هذا الوجود الجني قبل خلق آدم ﷺ وقبل إعلان إبليس بفسقه موجود في الثلاث عوالم قبله كما تقدم، فلما أوجد الله عبده وصفيه آدم ﷺ حق إليه منها البعض وسخر له وبان البعض منها عنه، وشرد فسلط عليه، ثم هذا النوع من الجن يشرح في النوع الإنساني، ويعرب عن نفسه فيكون وسواسًا، وقد نزل فيه قرآن وأمرنا بالتعوذ منه، أعني: وجوده عن استقرائه والكلام فيه، وأما سائر الجن من خارج الذين هم عن إبليس - لعنهم الله - فهم والله أعلم ثلاثة أصناف: جزء في الهواء، ومنهم المسترقون للسمع على تفاضل بينهم في ذلك ودرجات ومصافات يصفون فيها فالمسترق الأعلى الأقرب إلى موضع السمع يلقي الكلمة التي يسترقها إلى وليه في مقامه تحته والثاني إلى الثالث، والثالث إلى الرابع هكذا حتى تبلغ إلى الكاهن، هكذا إن أدرك الشهاب الأول، وقد ألقاها فإن أدركه قبل ذلك بطلت وفي حين إلقائها إلى وليه يكذب كل ملقى كذبه هكذا إلى الكاهن. [شرح الأسماء ١/٣٤٢].

إلى الله - جل ذكره - والعزم على ما أمر به، فإنما يأتيه من العون والعصمة بقدر ما أوغل في العزم والشروع في تنفيذ المأمور به، فهو العزيز لا ينال ما عنده إلا بالتعبد له والتضرع، وإعمال النفس في طلب مرضاته.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف:٥٦-٦٣].

نظم بذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧] من سننه - تبارك وتعالى - ألا يوجب العقوبة بعد البيان إلا بعد الإعراض عن المبين له، لكن عفوه أوسع من ذنوب عباده، لذلك أتبع [ذلك](١) قوله: ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] ومن عفوه ومغفرته ما هو للدنيا وما هو للآخرة وما هو لهما معًا، وهذا الخطاب معني به الظالمون؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

نظم بذلك ما هو في معناه قوله: ﴿وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩] أحال السامعين بخطابه هذا على التسيار في

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الأرض والعبرة، ثم النظر لأنفسهم والأخذ لها بالوثيقة.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَو أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[١] [الكهف:٦٠] يقول :عليه السلام لا أنفك أسير لا أتثنى أطوي المراحل إلى أن أبلغ مجمع البحرين، رأى ﷺ أنه أوتي العلم دون أهل الأرض؛ إذ لم يعلم في الأرض رسولاً غيره، فأراد الله أن يكشف له عن علم، هو أرفع من علم الرسالة التي هي للبشر، فأعلمه بصاحبه وعناه بالترحال إلى مجمع البحرين، وجعل ذلك له اسمًا للميعاد موافقًا للمجتمعين؛ إذ كان هو عالم أهل الأرض يومئذٍ والخضر كذلك.

والمراد من الله - جل ذكره - أن [يجتمعا][٢] كان ذلك [في مجمع][٣] البحرين، وجعل له آية على وجوده ما هو مستخرج من البحر، يعلم بذلك أن كل ما هو آية على مطلوب ما فهو من المطلوب بسبب؛ ليكون ذلك منه دلالة على ما هو دال عليه، ومشيرًا بما هو فيه عليه.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ

---

(١) اعلم أن في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى ...﴾ [الكهف:٦٠] إشارات: منها: أن شرط المسافر أن يطلب الرفيق، ثم يأخذ الطريق.

ومنها: أن من شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميرًا، والثاني مأمورًا له ومتابعًا.

ومنها: أن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده ويخبره عن مدة مكثه في سفره ليكون الرفيق واقفًا على أحواله، فإن كان موافقًا يرافقه في ذلك. ومنها: أن من شرط الطالب الصادق أن تكون نيته في طلب شيخ يقتدي به وألا يبرح حتى يبلغ مقصوده ويظفر به، وإلا سيكون بقية عمره طالبًا له فإن طلب الشيخ طلب الحق تعالى على الحقيقة.

(٢) في النسخة (خ): «يجمعهما».

(٣) في النسخة (خ): «لمجمع».

أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى
بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا
زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ
إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ
ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا
﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ
سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٦٤-٧٩].

ولما بلغا مجمع ما بين البحرين بلغا مطلوبهما، وأعجزهما العلم به والتمييز له، فلزمت الآية ما هي عليه آية، [وجعل][1] الحوت في البحر، وجمد الماء عليه حبسًا له؛ ليدلهما به على ما جعله الله دليلاً عليه، وسارا بقية يومهما وليلتهما، فوجدا نصبًا وألمـًا لتعبهما، وتذكر الفتى مضي الحوت فأخبره بذلك ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

قال الله ﷻ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] [العلم الذي][2] هو خاص الخاص من العلم، ولما سأله الصحبة وأعلمه بسبب رحلته إليه قال له: يا موسى أنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، فأنت لا تستطيع معي صبرًا[3]

---

(١) في النسخة (خ): «وخلق».

(٢) في النسخة (خ): «العلم اللدني».

(٣) قال المصنف: هذه منزلة وسطى بين وصف القادر بالقدرة، ووصف العاجز بالعجز عن الفعل لا يصح تكليفه إياه، ويصح تكليف الموصوف بالقدرة؛ بما جعل الله فيه من القوة.
وقال أيضًا: أي: لأجل شغلك بعلمك الذي علمك الله عن علمي الذي علمني، وقد يعبر بعدم الاستطاعة عن الإباء والإعراض فعل المقدور، فيكون تركًا له. [شرح الأسماء ٢/١٤٢، ١٥٨].

أي: أنك جعلت لإنكار ما قد جعل عندك أنه منكر وأمر بمعروف جعل عندك أنه المعروف، وفي فحوى هذا الخطاب، وسترى في صحبتي من ذلك ما تنكره، فكيف تصبر على هذين وأنت لم تتصور حقيقة علمي، فتقدم عزيمة الصبر على حقيقة ذلك.

ولما وعده موسى ﷺ [من نفسه][(١)] الصبر واشترط في ذلك مشيئة الله - جل ذكره - مشيًا على [سيف][(٢)] البحر، فجاءت سفينة سبقت لها من الله مشيئة في خلاصهما من الملك الغاصب فاستحملاهما أنفسهما، فعرفوا الخضر وحملوهما - عليهما السلام - بغير نول إحسانًا منهم إليهما، فأخذ الخضر ﷺ القدوم واقتلع من السفينة بعض ألواحها مما يلي الماء وأغرقها، فتأكد على موسى ﷺ إنكار ذلك على سبيله المسنون له، فقال قوم: أحسنوا إلينا وحملونا بغير نول، جازيتهم على ذلك بأن أغرقت سفينتهم [ليغرقوا][(٣)] على ذلك.

فأجابه ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[(٤)] [الكهف:٧٢] إلى قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٨ - ٧٩].

وقرأ ابن عباس: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا» فكان ذلك آية لمن عمل صالحًا، فوافقه من القدر مكروه له، فليقوِّ رجاؤه في أن ذلك خير له وحرز من هلاك، هو [أكبر][(٥)] مما أصابه أضعافًا، وربما أصاب عامل الخير المكروه

---

(١) مابين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «ريف».

(٣) في النسخة (خ): «ليعرفوا».

(٤) أفاد المصنف بقوله: «منه قول موسى للخضرﷺ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف:٧٣] أي: عنتًا ومشقة، وقيل للرجل الذي كثر ما يتهم بالسوء: مرهق من ذلك أيضًا، وكذلك الرجل الذي ينزل به الضيفان كثيرًا: مرهق، وأرهقنا الصلاة: أخرناها إلى آخر وقتها، والرهق: العظمة أيضًا» [شرح الأسماء ١٦٧/٢].

(٥) في النسخة (خ): «أكثر».

من نحو [المسند][١] إليه الخير، فيكون الجناية عليه من عند المحسن إليه؛ لتعظم البلية وتظهر المصيبة، فذلك أقرب إلى كرم الجزاء و[حسن][٢] العقبى.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف: ٨٠ - ٨٦].

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] وقرأ ابن عباس وأبي - رحمة الله عليهما: «وأمَّا الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين».

وقرأ الخدري: «وأمَّا الغلام فكان فاجرًا وكان أبواه مؤمنين».

وقرأ عبد الله بن مسعود: «فخاف ربك» أي: علم هذه القراءة تقرب من قراءة الجماعة ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] الخشية: دقة الخوف؛ والخوف عند العلماء: اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة.

من أعطي حقيقة علم وصدق يقين سموه: خائفًا، قد كان رسول الله ﷺ من أخوف الخلق، وكان المعهود منه الوقار والسكينة والتمكين والتثبت في الأحوال، ولم يكن وصفه القلق والانزعاج ولا الوله والاستهتار، وكان قد [وسع قلبه لرفيع][٣] الصفات وشرح صدره لعظائم الأحوال، وكان مع الصبي بمعناه، ومع الأعرابي بوصفه، ومع المرأة بنحوها؛ لحكمة الله - جل ذكره - فيهم؛ ليعلمهم مما

---

(١) في النسخة (خ): «المسدى».

(٢) في النسخة (خ): «أحسن في».

(٣) في النسخة (خ): «رفع قلبه برفيع».

عنده، ويخاطبهم في عقولهم، ويظهر لهم منه مثل وصفهم؛ ليوصل إليهم من الأنس نصيبهم ويوفيهم من الدرك منه حقوقهم؛ لئلا تعظم هيبته في صدروهم فينقطعون لذلك عن سؤالهم، والأنس [به][(١)] جبلة جبل عليها تعلم ذلك من العليم الحكيم؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

يقول: على خلق الربوبية والعلم أصل للخوف والرجاء، وهما حالان في العلم والرجاء، والخوف كالليل والنهار يكوران هذا على هذا وهذا على هذا، وكما جاء بأن يغير على المدة لأحدهما فيقال: ثلاثة أيام وثلاث ليال؛ لأن أحدهما [لبسه][(٢)] الآخر، كذلك جاز أن يعبر عن أحدهما بالآخر، وجاز هذا بذكر الخوف والخشية في خطاب القرآن بمعنى التنزل المعهود منه ﷻ عن عظمة جبروته وعلى كبريائه إلى خطاب عباده، ولضرب من الابتلاء لبعضهم في ذلك، وكان ذلك آية لنا على أن من أصابه مكروه في مال أو ولد أو نفس ما كان مؤمنًا، فليختر إرادة الله به وإن كان هو لا يعلم ما هو ذلك الخير، فقد أبدل الله - جل ذكره - من الأبوين ذلك الغلام ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:٨١].

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢] وقرأ ابن عباس: «فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه» وفي قراءة أبي: «لو شئت لأوتيت عليه أجرًا» وكان ما قضاه الله - جل ذكره - على [يد][(٣)] الخضر عليه السلام آية على أن العبد الصالح يحفظ في عقبه من بعده، وكان الجدار قائمًا مقام الوصي الأمين النصيح للأيتام، وأن الله يعينه ويحميه ما كان في نصيحة الأيتام وحياطتهم.

ولذلك قال - والله أعلم - قال في قصة السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩] وقال في قصة الغلام: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:٨٠] وقال في قصة حائط الأيتام ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف:٨٢] [وتعاهدهم

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «ليسه».

(٣) في النسخة (خ): «يدي».

والحكم في والإحساس: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف:٨٢] قضايا لا يتركها قضاة العدل لمن دونهم][١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧] المعنى إلى آخره.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[٢] [الكهف:٨٣] الذكر ما ذكر بالله - جل ذكره - وبأنبيائه ورسله وبأسماء الله وصفاته وحكمته وعدله في حكمه في الأولى والآخرة وما بين ذلك، والقرآن نفسه ذكر وهو أرفع الذكر، وذكر ما تلاه في قصة ذي القرنين ﷺ يجتمع بذكر ما في قصص أصحاب الكهف والخضر وأمثالهم، والله أعلم بما يدل.

قال رسول الله ﷺ: «**يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة**»[٣] وإنك لذو قرينها.

هذا مثل ضربه له رسول الله ﷺ أدخله مدخل الوعظ، ومفهومه يردَّ ما قاله فيه القائلون برجعته؛ وإنما يعني: أنه في أول الأمة إمامًا وولده في آخرها؛ ولذلك قال

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخبر سبحانه عن ذي القرنين ﷺ أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان مجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ من كل ما في الملكوت السفلي له برهانًا، وحكمة، وعلمًا، ومعرفة بالله، وسببًا إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له، كان مرآة الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، ويبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدريج الترقي من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان على محل تحقيق الكلي؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء، الحدثاني التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه ﷺ حيث أخرجه من الحدثان وأفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٠٧١)، وأبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧) وقال: حسن غريب، والروياني (٢٢)، والحاكم (٢٧٨٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي (١٣٢٩٣)، وابن أبي شيبة (١٧٢١٨)، والطحاوي (١٥/٣)، والدارمي (٢٧٦٥)، وابن حبان (٥٥٦٨).

له: «**لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى**» يعني: الولاية الأولى، ولغيرك «**الآخرة**» ولما كانت الآخرة لولده كان لذلك ذا قرين الأمة.

وجاء عن أسماء بنت يزيد بن السكن من تخريج أبي عبد الله بن أبي مسرة - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال فقال: «**أنذرتكم المسيح الدجال وأنذرتكموه وكل نبي قبلي قد أنذره أمته وهو فيكم، أيتها الأمة يكون قبل خروجه سنون خمس حتى يهلك كل ذي حافر**» قال رجل: فما يعيش المؤمنون منه يا رسول الله؟ قال: «**مما يعيش منه الملائكة، ثم يخرج وهو أعور وليس الله بأعور، مكتوب بين عيني الدجال: كافر، يقرؤه كل أمي وكاتب، وأكثر ما يتبعه النساء والأعراب واليهود، يرون السماء تمطر وهي لا تمطر، ويرون الأرض تنبت وهي لا تنبت، ويبعث معه من الشياطين على صور من مات من الآباء والأمهات، فيأتي أحدهم إلى أبيه أو إلى أخيه أو ذي رحمه فيقول: تعرفني؟ ألست بفلان؟ اتبعه هو ربك**»[(١)].

وفي قول رسول الله ﷺ: «**من قرأ أواخر سورة الكهف عصم من الدجال**»[(٢)] ولذلك - والله أعلم - سمي ذا القرنين بهذا الاسم، ويقال: إنما قيل له ذو القرنين؛ لأنه سار ما بين مطلع الشمس ومغربها، وهي تطلع بين قرني الشيطان إذا طلعت قارنها وإذا غربت قارنها.

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [الكهف:٨٤] السبب هو ما أوصل إلى المطلوب، قال الله ﷻ: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾ [الحج:١٥] وقد تقدم الكلام في هذا المسمى سببًا ما هو، وأسباب السماوات معالمها وأفلاكها بقوله وهو أعلم: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [الكهف:٨٤] أي: أنبأناه بحقائق [الأسباب][(٣)]

---

(١) أخرجه ابن راهويه (١٦٩/٥)، والطبراني (٤٣٠)، وقال الهيثمي (٣٤٧/٧): فيه شهر بن حوشب، ولا يحتمل مخالفته للأحاديث الصحيحة أنه يلبث في الأرض أربعين يومًا، وفي هذا أربعين سنة، وبقية رجاله ثقات.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (خ): «الأشياء».

وعلومها من كل مطلوب، والقدرة عليه والإرادة منه.

فيه جاء أن رهطًا من يهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن شأن ذي القرنين، فاستأذنوا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**فيم تسألوني وإنما أنا أعبد الله لا أعلم إلا ما علمني ربي؟**» ثم قام فتوضأ وصلى، وقال لخادمهم: «**ائذن لهم**» فلما دخلوا قال لهم: «**إن شئتم سألتم وإن شئتم أخبرتكم فيم جئتم**» قالوا: أخبرنا، قال: «**جئتم تسألوني عن ذي القرنين، وكيف كان بدأ أمره؟ إنه كان غلامًا من الروم، وابتنى مدينة على ساحل البحر، فبعث الله ملكًا فرفعه إلى السماء، فقال له: انظر ما ترى؟ فقال: أرى مدينتي وأرى مدائن كثيرة، ثم رفعه فقال: ما ترى؟ قال: أرى مدينتي قد اختلطت بالمدائن، ثم رفعه فقال له: ما ترى؟ فقال: أرى مدينتي وحدها ولا أرى غيرها، فقال له: إن الذي تراه هي الدنيا، والمحيط بها هو البحر، اذهب فثبت العالم وعلم الجاهل، فقد جعلنا لك على ما ترى سلطانًا**»[1].

ثم قال، جل ذكره: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٥] أي: مطلوبًا له ومرادًا ما بوحي أوحي إليه؛ لأن الله - جلَّ ذكره - يقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٤] وهذا هو المعنى بذلك.

يقول جلَّ من قائل: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦] أي: سوداء، وقرئ «حامئة»[2] أي: كثيرة الحركة، وهو البحر الغربي المظلم ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ يعني: العين ﴿قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:٨٦] وهذا هو السلطان الذي جعل له على أهل الأرض.

فمفهوم قوله - جل ذكره - هذا ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ أي: فإنهم كافرون ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:٨٦] أي: فإنهم سنخرج من أصلابهم أو يجاورونهم قوم يعبدون الله لا يشركون به شيئًا.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٥٥٤)، وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٩٣٨).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر «حَامِئَةٍ» بالألف، وقرأ الباقون «عَيْنٍ حَمِئَةٍ» بغير ألف، فمن قرأ «حَامِئَةٍ» يعني: جائرة، ومن قرأ بغير ألف يعني: من طينة سوداء منتنة. [بحر العلوم للسمرقندي (٥٩/٣)].

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨)﴾ [الكهف: ٨٧- ٩٨].

فأجاب ﵇ بمقتضى ما أوحي إليه قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ إشارة إلى المستقبل من شأنهم، والله أعلم ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف:٨٧].

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى﴾ [الكهف:٨٨] الحسنى هنا: هو الإيمان والعمل الصالح يقول: ﴿فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى﴾ يعني: من الله - جل ذكره - العافية في الدنيا، والأمن والثواب في الآخرة، [والحسنى: الجنة](1) ثم قال: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٨] يعني، والله أعلم: يوم جيئته الآخرة، فإن الذي أبيح له عذابهم كانوا فيما هنالك يومئذٍ، والذين أتي بهم في المستقبل وأنه يتخذ فيهم حسنًا يومئذٍ عدم لم يأتوا بعد، وقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٨] يخلص فعله ذلك للمستقبل.

أتبع ذلك قوله - عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أتبع سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٩] يعني: المطالبة لأهل الكفر والطغيان بالسلطان الذي جعل الله له على أهل الأرض.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] يعني، وهو أعلم بما ينزل: كاشفهم بها فتنة ولم يترق بعقولهم صعدًا كما فعل تعالى بإبراهيم ﷺ في صعوده بالنظر من الكوكب إلى القمر إلى الشمس، ثم إلى الذي فطر السماوات والأرض حنيفًا، لم يحجبهم عنها بإيمان ويقين.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ «الكاف» للتشبيه؛ و«ذلك» مشار إليه، وهو السبب المتبع بالوحي والسلطان الذي أوتيه على ما هنالك، ويكون المشار إليه أيضًا أنه وجد الشمس تطلع من عين حمئة وحامئة، كما وجدها في المغرب غاربة فيه كما قيل له في إسرائه، والمحيط بها هو البحر.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: [بما لم][(١)] يبلغه ﴿خُبْرًا﴾ [الكهف:٩١] الخبر: هو العلم ببواطن الموجودات، وقد يكون، وقد أحطنا بما بلغه [وبما][(٢)] لم يبلغه خبرًا، كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقد يكون المشار إليه بقوله «كذلك»: ما يكون من شأنه في المستقبل.

﴿ثُمَّ أتبع سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:٩٢ - ٩٣] قرئت بنصب الياء وفتح القاف وبرفع الياء وخفض القاف[(٣)].

تنبيه:

يقول الله - جلَّ من قائل - في هؤلاء القوم: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:٩٣] ولا يكادون يفقهون، أمَّا «يفقهون»: فلبعد لسانهم عن المعهود من الألسنة، وقيل: إن الألسنة افترقت [على][(٤)] نيف وسبعين لسانًا؛ فلعل لسان هؤلاء كان آخرًا لجميعها، وأمَّا على قراءة من قرأ «يفقهون» بفتح الياء والقاف: فهو

(١) في النسخة (خ): «عالم».

(٢) في النسخة (خ): «وما».

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر يفقهون قولا بفتح الياء، وقرأ حمزة والكسائي يفقهون بضم الياء. [السبعة في القراءات (٣٩٩/١)].

(٤) في النسخة (خ): «إلى».

وصف؛ لجهلهم [بتصيرف][(١)] معاني الخطاب، وقلة الفقه في ذلك، وهم [في][(٢)] ذلك استنصروه على يأجوج ومأجوج، وعرفوا فسادهم في الأرض فبلغوه إليه.

أراه - والله أعلم - أنه لما بلغ إليهم بث فيهم المعلمين فبصروهم ما لهم وما عليهم، كما قيل له في إسرائه: ثبت العالم وبصر الجاهل، فبصرهم ذلك، فعند ذلك ميزوا فساد أولئك، ولعلمه هو بما أنبأه الله - جل ذكره - أنه لا مطمع في هدايتهم أجابهم إلى ما أرشدوه إليه من قولهم: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤] فتورع - سلام الله عليه - عن أخذ خراج منهم على ذلك؛ بل أمرهم بمعونته وأن يكونوا كأحد الناس.

في ذلك يقول ﷺ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف:٩٥ - ٩٦] فكان يصورها صور اللبن وينضدها وينفخ النار عليها، حتى إذا جعلها نارًا أفرغ النحاس على ذلك، فانذاب [ودحل][(٣)] اللبن، وساوى بذلك ما بين الصدفين؛ يعني: الجبلين، فلم يستطيعوا لعلوه ظهورًا عليه ولا ﴿لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧] لحسن الصنعة وشد العقد، وإنما ذلك لأجل السلطان الذي جعل له على ما في الأرض.

والسبب الذي جعل [الله][(٤)] له من كل شيء والحديد والقطر مما في الأرض والنار كذلك، والجبلان والسد، وكل ذلك داخل في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٤] ومما جعل له عليه سلطان، وإلا فقد خلفه من وراء السد من أهمه شأنه، ومن يومئذٍ جعلوا البقية عملاً من أعمالهم وعماله لا شك من أموالهم.

يقول الله، جلَّ من قائل: [﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[(٥)]

---

(١) في النسخة (خ): «بتصرف».
(٢) في النسخة (خ): «مع».
(٣) في النسخة (خ): «داخل».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفًا وحذرًا عن تلاقي المتقاربين في المخرج، وهما الطاء والتاء، وقرأ حمزة وطلحة بإدغام التاء في الطاء، وفيه جمع بين الساكنين على غير حدة، ولم يجوّزه أبو علي وجوَّزه جماعة، وقرأ الأعشى عن أبي بكر: «فَمَا اصطَاعُوا» بقلب السين صادًا لمجاورة الطاء، وقرأ الأعمش «فَمَا استطاعوا» بالتاء من غير حذف، والفاء =

[الكهف:٩٧][1] ﴿اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: لم يكن لهم بذلك قبل ولا حاولوه؛ لبعد ذلك عليهم، بل عجزت قدرهم وهمتهم عن [التعريض][2] لذلك، وربما منعوا [من][3] ذلك بمنع ظاهر من الله - جل ذكره - ثم قال :ﷻ ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ هذا - أعني: نقبه - مما تعرضوا له، وكلفوا أنفسهم ذلك فلم يستطيعوه.

من تخريج الترمذي: أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في السد: «**يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فتخرقونه غدًا، قال: فيعيده الله كأشد مما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا إن شاء الله واستثنى، قال: فتجدونه كهيئته حين تركوه، فيخرقونه ويخرجون على الناس فيستفون المياه، فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع مختضبة دمًا، فيقولون: قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسرة**

=

فصيحة؛ أي: ففعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الإتيان فأفرغ عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلدًا، فجاء يأجوج ومأجوج وقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما اسطاعوا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه ويرقوا فيه؛ لارتفاعه وملاسته. قيل: كان ارتفاعه مائتي ذراع. وقيل: ألف وثمانمائة ذراع ﴿وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا﴾ لصلابته وثخانته. قيل: وكان عرضه خمسين ذراعًا، وكان أساسه قد بلغ الماء، وقد جعل فيه الصخر والنحاس المذاب، وكانت زبر الحديد للبناء فوق الأرض، ولا يخفى أن إفراغ القطر عليها بعد أن أثرت فيها حرارة النار حتى صارت كالنار مع ما ذكروا من أن امتداد السد في الأرض مائة فرسخ لا يتم إلا بأمر إلهي خارج عن العادة، كصرف تأثير حرارة النار العظيمة عن أبدان المباشرين للأعمال، وإلا فمثل تلك الحرارة عادة مما لا يقدر حيوان على أن يحوم حولها، ومثل ذلك النفخ في هاتيك الزبر العظيمة الكثيرة حتى تكون نارًا، ويجوز أن يكون كل من الأمرين بواسطة آلات غريبة أو أعمال أوتيها هو أو أحد ممن معه لا يكاد أحد يعرفها اليوم، وللحكماء المتقدمين بل والمتأخرين أعمال عجيبة يتوصلون إليها بآلات غريبة تكاد تخرج عن طور العقل، وهذا مما لا شبهة فيه، فليكن ما وقع لذي القرنين من ذلك القبيل، وقيل: كان بناؤه من الصخور مرتبطًا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها بحيث لم يبقَ هناك فجوة أصلاً. تفسير الألوسي (٤١١/١١).

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «التعرض».

(٣) في النسخة (خ): «عن».

وعلوًا، فيبعث الله عليهم نغفًا في أَقْفَائِهِمْ فيهلكون، والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَبْطَرُ وتشكر شكرًا من لحومهم»[١] فانظر إلى عمله ﷺ وما وصفه الله ورسوله به من الحفظ [له][٢] والمحافظة عليه والمنع، حتى أتى أمر الله الذي نبأ عليه ذو القرنين عليه السلام وكذلك نبأ عليه أشعيا، على جميعهم صلوات الله وسلامه.

يقول ذو القرنين عليه السلام: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨] اقترن الوعد عنده عليه السلام بالإراحة منهم مع عيسى عليه السلام والإنذار بهم فغلب سياق الوعد.

قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم عند الكعبة؛ إذ أنا برجل أحمر كأنما خرج من ديماس، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم تنظف ماء، متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قيل لي: هذا المسيح ابن مريم»[٣] وذكر الدجال.

ولما كان ذو القرنين - على رسل الله وأنبيائه السلام - هو المجعول له السلطان عليهم، والذي قهرهم الله به وعلى يديه، قال عليه السلام: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ وقال: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨].

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٥٣) وقال: حسن غريب، وأحمد (١٠٦٤٠)، وابن ماجة (٤٠٨٠)، وقال البوصيري (٤/٢٠١): إسناده صحيح ورجاله ثقات، والحاكم (٨٥٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والطبري في التفسير (٢١/١٦)، وأبو يعلى (٦٤٣٦)، وابن حبان (٦٨٢٩)، وقال ابن كثير في تفسيره (١٠٦/٣): إسناده جيد قوي، ولكن متنه في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه، ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته، ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنه كان كثيرًا ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه، والله أعلم.

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) تقدم تخريجه.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف: ٩٩ – ١١٠].

يقول الله – جل ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩] يريد، وهو أعلم: وقت قيام الساعة، وذلك أن اليوم الذي [ينزل][1] فيه عيسى ابن مريم ويبعث فيه الصالحون؛ لشهود الفتوح هو من يوم القيامة، لكن الساعة منه لم تأت بعد، فإذا جاءت الساعة من ذلك اليوم فهو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] المعنى إلى آخره، ولذلك – وهو أعلم – سماها ساعة [لأنها ساعة][2] من يوم.

يقول الله – عزَّ من قائل: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] فهذا حاله آخر في الجيئة الأولى، ثم قال – عز من قائل: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] وهذا لم يكن بعد وسيكون – إن شاء الله – كما قال.

ثم قال – عز من قائل: ﴿وَنُفِخَ﴾ [الكهف: ٩٩] أي: النفخة الآخرة تجاوز ذكر النفخة الأولى والصعق، وما في ذلك إلى الإخبار عن النفخة الآخرة يوم الجمع.

نظم ذلك قوله الحق: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠٠ – ١٠١] وذكر الأعين، وإنما الذكر

(١) في النسخة (خ): «نزل».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

بالألسنة وبالقلوب لما لم يروا [آيات][(١)] الله لم يؤمنوا، ولما لم يؤمنوا لم يسمعوا الرسل والدعاة إليه، فطمس أعين القلوب منهم، وأخرس الألسن، وأصم الأسماع، وهم العبيد المفتقرون إلى معبود، فعبدوا ما اقتصرت عليه عقولهم [القاصرة][(٢)] الشمس و[الميرات][(٣)] والعباد أمثالهم.

يقول، جلَّ من قائل: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف:١٠٢] وجه الخطاب لليهود والدهرية الذين يتخذون [الدجال][(٤)] ربًّا من دون الله، ثم إلى جميع الكفار المتخذين من دونه أربابًا آلهة.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣ - ١٠٤] هم اليهود وأهل الكتاب، وكل من زعم منهم أنه على هدى.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ لما لم يعملوا لله ولا وجهوا نياتهم إليه - أعني: جميع الكفار - أحبط أعمالهم التي كانوا يظنون أنها حسنات ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥] أي: لا ينظر إليهم ولا يكلمهم ولا يزكيهم، كما كانوا في الدنيا لا ينظرون في آيات الله ومصنوعاته، ولا صدقوا رسله وكتبه ولم يتركوا جازاهم بذلك يوم القيامة، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟!.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[(٥)] [الكهف:١٠٩] فتية الكهف ونظراؤهم وذو

---

(١) في النسخة (خ): «آثار».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «التراب».

(٤) في النسخة (خ): «الرجال».

(٥) قيل: سبب نزولها: أن اليهود قالوا للرسول ﷺ: كيف تزعم أنك نبي الأمم كلها ومبعوث إليها، وأنك أعطيت ما يحتاجه الناس من العلم وأنت مقصر، قد سُئلت عن الروح فلم تجب فيه؟ فنزلت معلمة باتساع معلومات الله، وأنها غير متناهية، وأن الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكر، فعبر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه، وهو قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ﴾. وقيل: قال حيي بن أخطب: في كتابكم ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] ثم تقرؤون ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ فنزلت؛ يعني: إن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر =

القرنين ونظراؤه وعيسى - على جميعهم السلام - من كلماته، والدجال - لعنه الله - [وكتبه من كلماته](١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] جمعت هذه الآية معاني التكليف مجملة التوحيد، وذكر الألوهية والنبوة، ولقاء الله والعمل الصالح، والإخلاص في ذلك وهو المطلوب.

أعلم ﷺ أن في لقائه الفرح وبه الفرح وفيه الرجاء، وهو المأمول عند أهل اليقين، والمحبوب لقلوب العابدين، وقد قيل: إن معنى الرجاء الخوف في هذه الآية، وهذا [أعني: الأول](٢) أولى الوجهين، والرجاء والخوف طريقان إليه، غير أن لقاء الله ﷻ بما هو لقاؤه لا يبلغه شيء، وهو المأمول كله ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ

=

كلمات الله.

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أي: ماء البحر ﴿مِدَادًا﴾ وهو ما يمد به الدواة من الحبر، وما يمد به السراج من السليط. ويقال: السماء مداد الأرض ﴿لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: معد الكتب كلمات ربي، وهو علمه وحكمته، وكتب بذلك المداد ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ أي: فني ماؤه الذي هو المداد قبل أن تنفد الكلمات؛ لأن كلماته تعالى لا يمكن نفادها؛ لأنها لا تتناهى، والبحر ينفد؛ لأنه متناهٍ ضرورة. وقرأ الجمهور: «مدادًا لكلمات ربي» وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش ومجاهد والأعرج والحسن والمنقري عن أبي عمرو: «مددًا لكلمات ربي» وقرأ الجمهور: «تنفد» بالتاء من فوق، وقرأ حمزة والكسائي وعمرو بن عبيد والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى بالياء، وقرأ السلمي «أن تنفد» بالتشديد على «تفعل» على المضي، وجاء كذلك عن عاصم وأبي عمرو، فهو: مطاوع، من «نفد» مشددًا، نحو: كسرته فتكسر. وفي قراءة الجماعة: مطاوع لأنفد، وجواب «لو» محذوف لدلالة المعنى عليه تقديره: لنفد. وقرأ الجمهور بمثله «مددًا» بفتح الميم والدال بغير ألف، والأعرج بكسر الميم، وانتصب «مددًا» على التمييز عن مثل كقوله: «فإن الهوى يكفيكه مثله صبرًا» وقرأ ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والأعمش بخلاف والتيمي وابن محيصن وحميد والحسن في رواية، وأبو عمرو في رواية وحفص في رواية بمثله «مدادًا» بألف بين الدالين وكسر الميم. قال أبو الفضل الرازي: ويجوز أن يكون نصبه على المصدر بمعنى: ولو أمددناه بمثله إمدادًا، ثم ناب المدد مناب الإمداد، مثل أنبتكم نباتًا. تفسير البحر المحيط (٤٩٩/٧).

(١) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

﴿يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] والرجاء خلق من أخلاق الإيمان ووصف من أوصاف الموقنين، وهوجند من جنود الله جل ذكره، يستخرج الله به من بعض عباده ما لا يستخرج بغيره، وطرفه الأعلى منه متصل بالحب كما طرفه الأدنى متصل بالخوف؛ لأنه من رجا شيئًا أحبه، وكما يرجو دركه يخاف قوته، ولهذه المقاربة ظن أكثر الناس أنه الخوف، وعبر باسم الرجاء عن معنى الخوف فقال في قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ﴾ [العنكبوت:٥] من كان يخاف لقاء الله.

يقول جل ذكره: «**إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره عبدي لقائي كرهت لقاءه**»[١] ومن كره الله لقائه لم يلقه اللقاء المرجو منه، بل يكون العرض والتوقيف ونحو هذا فإنه لا ينكره مكره له - نعوذ بالله من كراهة لقاء الله - وإنما كره أكثر أهل الإيمان لقاء الله؛ لكون الموت في طريق ذلك، والموت مكره بما هو كما الحياة محبوبة بما هي، وحبذا بالموت إذا كان سببًا للقاء الله، ومن رجا شيئًا عمل له، والعمل للقاء الله هو ابتغاء مرضاته، ومجانبة جميع مناهيه ومكارهه طمعًا في البشارة باللقاء والإكرام والبشر منه والضحك لعبده جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وهربًا من الحجب والتوقيف والبعد.

ولأهل الرجاء حال من مقامهم، ولأحوالهم علامات من درجاتهم، فمن يحمل أحكام الرجاء ويحقق في أوصاف الراجين جميعًا استحق أوصاف الرجاء، وهو عند الله ﷻ من المقربين إن شاء الله، فمن الواجب على المؤمن أن يتحبب إلى الله بحب الموت والتشوق إلى اللقاء، ويعمل على ذلك ويستعد له ويتدرس ذلك جدًّا، فإنه من أشد الشدائد على العبد أن يخرج من الدنيا وهو يحبها، ويدخل الآخرة وهو يكرهها، ويلقى الله وهو غير محب له ولا مستعد لذلك فيخلف ما جمعه لمن لا يحمده، ويقدم على رب لا يعذره، والله جل ذكره يقول: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٧ - ١٥٨] وهو يقول جل من قائل: «**أنا عند ظن عبدي**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٥)، مالك (٥٦٩)، والنسائي (١٨٣٥).

بي، فليظن بي ما شاء»[1].

﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

(١) أخرجه ابن حبان (٦٣٣)، وابن عدي (٦/٣٢٦)، والطبراني (٢١٠)، والحاكم (٧٦٠٣) وقال: صحيح الإسناد. وأحمد (١٦٠٥٩)، والدارمي (٢٧٣١).

تفسير سورة مريم

[مكية فيها من المنسوخ أربع آيات][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا
﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا
﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ
يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم: ١ - ٧].

قوله - عزَّ من قائل: ﴿كهيعص﴾[2] [مريم: ١].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) قال البقلي في العرائس: أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القدمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبوبيتهم في قفار الأولية والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأولية الأولية، وأيضًا تجلى من كينونية الأحدية التي قيل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصَّرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نوز كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقائه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فانكشف لهم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغيبهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا فيه وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئًا فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل =

قال ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود: ١ - ٢] فذكر ما فصله إليه إلى قوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] ثم إلى ما فصل إليه هذه الجمل أيضًا.

كذلك قال، وقوله الحق: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٣] فـ«الكاف» لما أفهمت كانت متقدمة أو متأخرة أو متوسطة، كذلك الهاء والياء والعين والصاد، وهذه الحروف كتاب محكم فصل إلى ما يفصل إليه القرآن من ذكر أسماء وصفات وأفعال وأحكام وأمر ونهي ووعد ووعيد وقصص، إلى غير هذا مما يفصل إليه القرآن.

=

بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي. ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبان نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق لهم فاكتسبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها ومحبتها، فما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي «الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني. قال إبراهيم بن شيبان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيما وعد للمؤمنين. قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباده، صادق فيما أخبره. قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية ينادي بلابل بساتين ورد وصَاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت الشوق المحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومداناته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانبساط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجماله وجلاله وصحبته ووصاله، وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:٢] [الأعمش: ذكر رحمة ربك بفتح الذال وكسر الكاف مشددة وجزم الراء ونصب الرحمة على الأمر][١] إلى قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ [مريم:٥] الموالي: هم بنو العم والقرابات، وكل من والاه في الله ﷻ، يقول - والله أعلم بما ينزل: إني خفت من أجل ذهابي أن ينسى الموالي بعض ما أذكرهم به من أمرك وأبلغه إليهم عنك.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥] لك ﴿يَرِثُنِي﴾ في النبوة والحكمة ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦] علمهم ونبوتهم وما خصصتهم به.

قال رسول الله ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة»[٢] ابن عباس ويحيى بن يعمر وغيرهما قرءا: «يرثني وارث من آل يعقوب»[٣].

قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧] السمي: الموافق في الاسم؛ كرجل اسمه محمد وآخر اسمه محمد، فهذا سمي [لهذا][٤] فهذا يحيى لم يوافقه أحد قبله في اسمه يحيى، وحقيقة السمي: [هو][٥] من السمة التي هي العلامة، ويحيى فلم يسم بما يسمه من غيره فقط؛ بل سمي به معنى اسمه إلى أسمَى السمو، فحيى حياة جسمانية وحيى حياةً دينية، وهو يحيى في المستقبل، كذلك قال الله - جلَّ من قائل - فأنه يحيى إن شاء الله.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٧)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٣)، والترمذي (١٦١٠) والنسائي في الكبرى (٦٣٠٧)، وأحمد (١٧٢)، ومالك (١٨٠٢).

(٣) عن ابن عباس والجحدري: يرثني وارث آل يعقوب نصب على الحال. وعن الجحدري: أو يرث على تصغير وارث، وقال: غليم صغير. وعن علي رضي الله عنه وجماعة: وارث من آل يعقوب: أي يرثني به وارث ويسمى التجريد في علم البيان والمراد بالإرث إرث الشرع والعلم لأن الأنبياء لا تورث المال. وقيل: يرثني الحبورة وكان حبرًا ويرث من آل يعقوب الملك. يقال: ورثته وورثت منه لغتان. وقيل: "من" للتبعيض لا للتعدية؛ لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق. وقيل: هو يعقوب بن ماتان أخو زكريا. وقيل: يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود. [الكشاف ٧٢٥/١].

(٤) في النسخة (خ): «وهذا».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ﴾ الكلمة هي عيسى عليه السلام ﴿وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران:٣٩] أي: موطوء العقب بعيسى والمصدقون بعيسى عليه السلام كثير، وإنما وقع مصداق قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ﴾ [آل عمران:٣٩] حين الجيئة الأخرى، فبذلك لم يجعل [الله][1] له من قبل سميًا، وكثير أيضًا من المصدقين به يكونون معه كالحواريين ونظرائهم وليسوا بيحيى، وإنما هو يحيى مصدقًا يومئذٍ به يحيى بن زكريا، فهذا من معنى قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧] إلى ما في علم الله - جل ذكره - من شأنه.

العتي: الكبر، وكذلك العسي، يقال: عتى الرجل، كبر، وعسى بمعنى سواء [والعاسي والعاتي: هو القاسي، يقول: يبس جلدي وعظمي ولم يبقَ لي من نضرة الصبا والشباب ما يكون معه الولد، وإنما قيل للجبار عاتيًا لقساوة قلبه.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم:٨ – ١٥].

قوله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠] نصب سويًا على الحال، يقول وهو أعلم: ﴿آيَتُكَ﴾ على حين تجمع حلقة أن تمنع الكلام وأنت سويٌّ صحيح، فاستثنى الزمن من الكلام][2].

قوله جلَّ من قائل: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢] لما أوجده ناداه يا

---

(١) مابين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

يحيى، وأخذ الكتاب بقوة هو أخذه بعلم وفهم وعمل على ذلك، كما قال لموسى ﷺ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

يقول - وهو أعلم بما ينزل: ﴿فَخُذْهَا﴾ بأرفع علمها والعمل لها وبها ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] العمل بأحسنها؛ أي: بأوسط ذلك، لا [غلو][(١)] ولا تقصير بل برفق وتؤدة، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن المنبت لا أرض قطع ولا ظهر أبقى**»[(٢)].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًا﴾ [مريم:١٢] **الحكم** هنا بمعنى العقل [وكف][(٣)] النفس عن شهواتها ومنعها مالها؛ لتعطي ما عليها، وكان قوله هذا إعلامًا بأنه كان مجبولاً على ذلك من غير مجاهدة.

عبر عن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن يحيى بن زكريا ما عصى الله قط ولا هم بمعصية**»[(٤)] وذكر أنه كان ابن ثمان سنين، فدخل بيت المقدس، ورأى عبَّاد بني إسرائيل قد نقبوا التراقي، وجعلوا فيها السلاسل وعلقوها في سقف [بيت المقدس][(٥)] ورأى غير ذلك من أنواع اجتهادهم في العبادة، فهاله ذلك ورجع إلى منزله، فمرَّ بصبيان يلعبون فدعوه للعب، فقال: ما للعب خلقت، وذهب إلى أمه فسألها مسوحًا وهيئة التعبد [ثم][(٦)] أقبل على العبادة، ولما بلغ خمسة عشر عامًا

---

(١) في النسخة (خ): «علو».

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٨٦)، والبزار كما في مجمع الزوائد (٦٢/١)، وقال الهيثمي: فيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب، والحاكم في معرفة علوم الحديث (١/ ٩٥) وقال: غريب الإسناد والمتن، والقضاعي (١١٤٧).

(٣) في النسخة (خ): «بإلف».

(٤) أخرجه بنحوه الطبراني (١٢٩٣٣)، والحاكم (٤١٤٩)، وأبو يعلى (٢٥٤٤)، وأحمد (٢٦٨٩)، وقال الهيثمي (٢٠٩/٨): فيه علي بن زيد، وضعفه الجمهور، وقد وثق، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح، ولفظه: «ما أحد من بني آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا».

(٥) في النسخة (خ): «المسجد».

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

أخذ في السياحة.

فهذا وما أشبهه عبارة عن شرح قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] إذ الصبا كما قالوا: قطعة من الجنون، فمن كان معه ما يحكمه ويمنعه عن ذلك، ويقيده عن ملاعب ديدن الصبا فقد أوتي الحكم، والعرب تقول: احكموا عنا سفهاءكم أي: امنعوا، وجاء: «**أن الله - جل ذكره - ليعجب للشاب ليست له صبوة**»[(١)].

وفي أخرى: «**ليضحك**»[(٢)].

قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾[(٣)] [مريم:١٣] أي: محبة جعلها فيه من لدنه [له][(٤)] والحنان أيضًا الرحمة والرأفة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم:١٣ - ١٤] وهذه صفة لأحد أصحاب الرقيم، كما كانت صفة الآخر منهم أنه تمكن من الدنيا على أحب ما كان إليها فتركها لله، وقد تقدم وصفه في قوله: «اللهم إني كانت لي ابنة عم وكنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء» إلى آخر قصته، وقد تقدم ذكره.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ قُتل يحيى بن زكريا - صلوات الله وسلامه عليهما - شهيدًا، وقد نهينا أن نقول في غيره أمواتًا فكيف به؟! ثم قال ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ ولم يقل: يوم مات، كما قال: يوم وُلِدَ، بلفظ الماضي ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:١٥].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٩)، والطبراني (٨٥٣) وأبو يعلى (١٧٤٩)، وقال الهيثمي (٢٧٠/١٠): إسناده حسن، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧١).

(٢) لم أقف على هذه الرواية.

(٣) قال المصنف: ﴿وَحَنَانًا﴾ قد يكون رقة الشوق وهو راجع إلى ما تقدم من الود، ومن ذلك قيل: امرأة حنانة، وناقة حنانة، وعود حنان يحن إلى وطنه والقريب، كذلك يحن إلى أرضه حنينًا، وقيل لامرأة الرجل: حنته؛ لأنه يحن إليها، ومنه قيل: عود حنان لتحريكه ما في النفس، فتشتاق إلى ما تحركت إليه وتشوق إلى ما ذكرته، وقالوا فيما قارب هذا البناء لقبيل من الحن حن وكلب حني للبهيم منها وكلاب حنية. [٣١٨/٢].

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا
﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً
لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾
فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾
[مريم:١٦ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًا﴾ اعتزلت من أهلها ﴿مَكَانًا﴾ [مريم:١٦] إلى [جهة][(١)] المشرق.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] كناية عن الاغتسال من المحيض ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يمكن أن يكون جبريل أو ملكًا من ملائكة الأرحام، على جميعهم السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] كان من الحكمة في [التمثيل][(٢)] لها بالبشر أن يكون المراد بنفخته فيها شبيهًا به حين النفخ صورة بشر، أو شبيهًا به في أنه ينفخ في الطين كهيئة الطير، فيكون طائرًا بإذن الله، ويكون روحًا تجري عليه، وفيه اسمه ومعناه.

وكان وجه الحكمة في أن يكون ذلك على أثر الطهر من [الحيض][(٣)] وفراغ من الغسل؛ ليصل النفخ من الروح عليه السلام إلى الرحم طاهرًا من أذى الحيض وهي طاهرة شرعًا؛ ليكون المراد من ذلك طاهرًا مطهرًا طيبًا قابلاً للكتاب والحكمة مباركًا.

[قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًا﴾ [مريم:١٧ - ١٨] إنما يتذكر من يخشى وإنما يتعظ

(١) في النسخة (خ): «ناحية».
(٢) في النسخة (خ): «التمثل».
(٣) في النسخة (خ): «المحيض».

المتقون](١).

قوله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - فيما حكاه عنها من قولها: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠] والبغي أبدًا إنما تبغي مع بشر مثلها كما قال - عز من قائل: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَو مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣] فما معنى قولها - عليها السلام - ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ والحلال يكون مع البشر والبغاء كذلك.

إنما ذلك - والله أعلم بما ينزل - وأنبياؤه ويعلمون بما أوحي إليهم ما شاء، إن الحلال وإن كان مسيسه من البشر ومع البشر لما كان بكلمة الله وسنة رسول الله، وبما جعله الله بينهما من [الصدق](٢) والأمر منه، كان ذلك باكتساب من المؤمن [وبواسطة من](٣) الملائكة حركة وشهوة وما يدعو إلى ذلك، وسقوط نطفة على رضا من الله - جل ذكره - ولما كان الزاني والزانية شهوتهما وحركتهما وفعلهما ذلك والداعي إليه منهما وبكسب جعل [منهما](٤) ولهما، [وبواسطة](٥) الشيطان وأمره، وسقوط النطفة في الرحم على ذلك لم يدخل هذا القسم في الفعل البشري خالصًا، وجعلت له قسمًا آخر وكنت عنه بالبغاء.

ألا ترى أن العبد المؤمن إذا لم يسم الله ﷻ حين الجماع وإتيانه أهله سبقه الشيطان إلى ذلك منه فتولاه، وإذا سمى الله عصمه، قال رسول الله ﷺ: «**لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، وكان منهما ولد لم يضره الشيطان**»(٦).

وجاء في معاريض الشرع: ولد الزنا ما جاء لهذا وما نحى نحو هذا من معلوم

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «الصدقة».

(٣) في النسخة (خ): «بوساطة».

(٤) في النسخة (خ): «بينهما».

(٥) في النسخة (خ): «وبوساطة».

(٦) أخرجه البخاري (٣١٠٩)، ومسلم (١٤٣٤)، وأبو داود (٢١٦١)، والترمذي (١٠٩٢) وابن ماجة (١٩١٩)، وابن حبان (٩٨٣)، والطيالسي (٢٧٠٥)، وأحمد (٢٥٩٧).

خطاب النبوة، ومعهود تحقيق الوحي جعلت في نفسها أن يكون لها ولد على المعهود المتعارف، في الخطاب قسمين: مرضي وغير مرضي، ونسبت المرضي إلى البشر والآخر إلى البغاء.

قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١] أي: نصرًا لهذه الأمة من فظيع شأن الدجال ويأجوج ومأجوج، وبركة تصيبها الدنيا والمؤمنون يومئذٍ، وكان رحمة وبركة على من تبعه وآمن به، قيل: وآية للناس على قرب الساعة من جيئته يومئذٍ.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:٦١] وذلك أنه يأتي قبيل الساعة من اليوم الآخر، وهو أيضًا آية للناس على أن الله يخلق من أنثى دون ذكر، ويخلق من دون أنثى ولا ذكر، ويفعل ما يشاء كيف شاء، وهو أيضًا آية على المعنى، يقول الله – جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] ومن أجله قبل هذا.

قال الله – جلَّ من قائل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف:٥٧] وهو المضروب به المثل ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩] معنى المثل هنا أنه سيجعل من عباده خلائف يستخلفهم في الأرض هداة مهتدين.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:٨] هذا في الملك المنزل من السماء، ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩] وما قال قط: ولو شئنا ولو شاء إلا كان من ذلك ما يشاء.

قال رسول الله ﷺ وقد ذكر الدجال قال: «**يكون سنون خمس يهلك فيها كل ذي حافر**» قال رجل: يا رسول الله، [فبم][1] يعيش منه المؤمنون [يومئذٍ][2]؟ قال: «**مما يعيش به الملائكة**»[3].

---

(١) في النسخة (خ): «فمم».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) أخرجه الطبراني (٤٣٠).

وقال ﷺ: «**إن الله يقول للشاب ليست له صبوة: يا عبدي، أنت عبدي كبعض ملائكتي، وأنه ليعجب للشاب ليست له صبوة**»(١).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال، وقد سئل عن ذي القرنين عليه السلام: «**هو ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب**»(٢).

وسمع عمر رجلاً يصيح: يا ذا القرنين، فقال: «اللهم غفرًا، أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى سميتم بأسماء الملائكة».

وذكر عن علي أنه قال فيه: ليس بملك ولا نبي، ولكنه كان عبدًا صالحًا، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فسمي ذا القرنين، وفيكم مثله.

وقال فيه أيضًا: سخرت له السحاب، ومدت له الأسباب، وبسط له النور.

ومعنى قوله: «لم يكن بملك ولا نبي» أي: بملك نزل من السماء ولا بنبي مرسل، وكل بني آدم مخلوقون من معنى ملكي هو منه ذات اليمين، ومن معنى شيطاني أو جني هو منه ذات الشمال، وكما أن من بني آدم شياطين الإنس فلا يبعد أن يكون منهم ملائكة الإنس.

﴿**لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً**﴾ [الإسراء:٩٥] أي: من جنسهم وعلى صورتهم ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً**﴾ [الفرقان:٢٠] وقال في بني آدم: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ**﴾ [الأنعام:٩].

ومن هنا وقعت الحيرة في عيسى عليه السلام للنصارى، ولقوم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإنما هو الملك الروح نفخ في مريم - عليها السلام - وكان إذ ذاك على صورة البشر، ومريم - عليها السلام - من البشر، فيرفع لأنه من الملك الروح، ويموت لأنه من البشر عبد الله وابن أمته ﴿**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾ [النساء:١٧١] وقد تقدم أنه ثابت في الوجود نشوء الأمر كما ينشأ الإنسان إلى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٩٤٧)، وابن هشام في سيرته (١/٣٠٦).

كماله، فكذلك نشأ هذا الأمر؛ أعني: في العالم من جماد إلى نبات إلى حيوان إلى إنس وجن إلى مؤمن إلى صديق إلى نبي إلى ملك ومن استقرأ الوجود ألفاه على ما ذكرنا، ومن هذا المقام قال بعض القائلين في بعضهم [و قد ذكر](١) النشء:

قد استقام على المنهاج يسلكه ... ولم يرع حائلاً عنه ولا عدلا
فجسمه يعمر الدنيا بظاهره ... وقلبه في أعالي الخلد قد نزلا
وأبصر الأمر يجري في مسالكه ... من أول النشء حتى تم واكتملا
وناطقته البرايا وهي صامتة ... وميز الضد والأزواج والعللا
وأظهر السيرة العليا بصورتها الحسـ ... ـنى ومن قبل كانت ألبست طللا

قال رسول الله ﷺ: «**وددت أني رأيت إخواني**» قالوا: يا رسول الله، أولسنا إخوانك؟ قال: «**أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**»(٢).

ولما ختم الله النبوة والرسالة بمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - بشره بإخوان يكونون له من أمته، يهدون بهديه ويقتدون بأمره، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وأمره المعني هنا هو عيسى عليه السلام ومن معه.

وقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(٣).

وفي أخرى: «**يقاتلون على الحق وهم الرجل الصالح ومن معه**»(٤).

قال الله - عزَّ من قائل - في عيسى عليه السلام: **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** [الزخرف:٥٩] أي: أنه فرط لهذا الضرب من عباد الله، ومثل

---

(١) في النسخة (خ): «فهم».

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩)، والنسائي (١٥٠)، وابن ماجة (٤٣٠٦)، ومالك (٥٨)، وأحمد (٧٩٨٠)، وابن حبان (١٠٤٦)، وأبو يعلى (٦٥٠٢)، وأبو عوانة (٣٦٠)، والبيهقي (٣٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦) وأحمد (٢٢٤٤٨)، وابن ماجة (٣٩٥٢)، وأبو عوانة (٧٥٠٩)، وابن حبان (٧٢٣٨)، وابن أبي شيبة (٣١٦٩٤).

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٩٣٤)، وأبو داود (٢٤٨٤)، والحاكم (٢٣٩٢) وقال: صحيح على شرط مسلم، والطبراني (٢٢٨).

مضروب لبني إسرائيل [بمن][١] يجيء في أمة محمد ﷺ منهم.

ذكر أن الأرض لا تخلو من ثلاثمائة، وربما زاد القائل على هذا، لكني لست أقف على الزيادة، ومنهم خيرتهم أربعون، وخيرة الأربعين سبعة، وخيرة السبعة ثلاثة، وخيرة الثلاثة واحد، يقال له: الغوث، ويقال له أيضًا: الوتد، فمتى مات الواحد أنهض إلى مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أنهض إلى مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أنهض إلى مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أنهض إلى مكانه من العدد الأكثر، وإذا مات من العدد الأكثر أنهض إلى مكانه من العامة.

ويقال: إن منهم من قلبه على قلوب الأنبياء، أشبهت قلوبهم قلوب الأنبياء، ومنهم من أشبهت قلوبهم قلوب الملائكة، ومنهم أشبه قلبه قلب جبريل وميكائيل وإسرافيل، وما قال الله - جلَّ من قائل - [قط][٢] شيئًا إلا كان من معنى ذلك أو ما قاله ما شاء، وقد قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠].

وقال في عيسى ما تقدم ذكره: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:٥٩] [ولو نشأ المعنى ومن تفهم][٣] مثل هذه الآية في الإنجيل في آخر سورة الفتح وقف على صحة هذا المعنى، وعظم في نفسه قدر الدين، [كان][٤] عيسى عليه السلام لهم مثلاً وفرطًا لهم، وأنهم ملائكة الإنس كما أضدادهم الذين هم الفاسقون شياطين الإنس، وقد استخلفهم في الأرض، والحمد لله رب العالمين، فهو لا يخلي في الأرض من موجود منهم حتى يأتي أمر الله، يجاهدون في الله [بأموالهم وأنفسهم أو يقتلونهم][٥] يبعثهم الله على ثوبهم هكذا، فافهم.

وأن المثل الأول في سورة الفتح المنسوب إلى التوراة هو لأول هذه الأمة،

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «فإن».
(٥) في النسخة (خ): «بأيديهم وألسنتهم أو بقلوبهم».

والمنسوب إلى الإنجيل لآخرها، ولمعهود هذا قال رسول الله ﷺ لرجل من بني إسرائيل ما سنذكره.

روى الفَلْتَانِ بن عاصم قال: كنا قعودًا مع النبي ﷺ في المسجد فشخص بصره إلى رجل يمشي في المسجد فقال: لبيك يا رسول الله، ولا ينازعه الكلام إلا قال: يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله؟**» قال: لا، قال: «**أتقرأ التوراة؟**» قال: نعم، قال: «**والإنجيل؟**» قال: نعم «**والقرآن والذي نفسي بيده لو تشاء لقرأته**» قال: ثم ناشده «**هل تجدني نبيًا في التوراة والإنجيل؟**» قال: سأحدثك نجد مثلك ومثل هيئتك ومثل مخرجك، وكنا نرجو أن تكون فينا، فلما خرجت تخوفنا فرقنا أن يكون أنت هو، فنظرنا فإذا ليس أنت هو، قال: «**والذي نفسي بيده لأنا هو، وأنهم لأكثر من سبعين ألفًا وسبعمائة ألف**»(١) فانظر إلى معهود هذا في الكتاب قبله، وأنه المثل المضروب بعيسى - صلوات الله وسلامه عليه - لبني إسرائيل، بل بمن يأتي من هذا الضرب من عباد الله في هذه الأمة.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة**»(٢).

وقال: «**إن الله ﷻ يقول للشاب ليست له صبوة: أنت عندي كبعض ملائكتي**»(٣).

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بلا حساب عليهم، أو سبعمائة ألف مع كل ألف سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف**»(٤).

قال الله ﷻ: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً**﴾ [المؤمنون:٥٠].

---

(١) أخرجه الطبراني (١٥٢٤٨)، والبيهقي في الدلائل (٢٥٣٢)، وابن حبان (٦٧٠٠)، وأبو نعيم في المعرفة (٥١٠٠)، والبزار (٣٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٥٣)، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، وعبد الرزاق (٤١٩٤)، وابن ماجة (٣٧٧٩)، وأحمد (٢٤٧١١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود في الزهد (٤٨٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٨/٤) وقال: غريب، والديلمي (٨٠٨١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٣٧) وقال: حسن غريب، والطبراني (٧٥٢٠)، وأحمد (٢٢٣٥٧)، وابن حبان (٧٢٤٦)، والدارقطني في الصفات (٥٠)، وابن ماجة (٤٢٨٦)، والديلمي (٧١١٣).

وقال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًا﴾ [مريم:٢١] أي: خلقة وجملة.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم:٢٢] يعني: أبعدت.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي: ساقها واضطرها ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ معروف مكانه اليوم يقوم عليه، ولهذا استاقه بالتعريف، والله أعلم.

﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣] تقول: ليتني لم أعرف، ولم يدرِ من أنا، النسي المنسي: هو الذي لا يذكر، والنسي: المجهول، تمنت - عليها السلام - أن يُقضى قضاء ربها ولا تُذكر.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٢٤ - ٣٢].

قوله ﷻ: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾[1] [مريم:٢٤] [بالخفض وبالنفخ قيل ناداها جبريل من تحتها] وقيل: المنادي لها عيسى ﷺ وهو الأظهر، قام لها نداؤه إياها مقام إعلام الفطرة للعبد؛ ولذلك قالت لما بهتوها بما قالوا أشارت إليه عن علم منها بذلك.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ونافع وعاصم في رواية حفص «مِنْ» بالكسر؛ يعني: الملك، وهكذا قرأ مجاهد والحسن، والباقون «مِنْ» بالنصب؛ يعني به: عيسى ﷺ وقال أبو عبيد: بالأولى نقرأ؛ يعني: بالكسر؛ لأن قراءتها أكثر، والمعنى فيها أعمّ؛ لأنه إذا قال: «مِن تَحْتِهَا» فإنما هو عيسى خاصة. بحر العلوم للسمرقندي (٣/٧١).

قوله ﷻ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤] هو النهر الصغير، ويمكن أن يكون بشَّرها بما ولدته على لسان المولود أو الملك السري كبير القوم وعميدهم، ومنه: سراة الناس: كبارهم وعظماؤهم، وفيما حكي عن ذلك الموضع أن الجذع المبارك على قرب من ماء جارٍ، والله أعلم.

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم:٢٦] وكان الصيام يومئذٍ يصحبه الصمت، وفي قراءة أُبي وابن عباس: «إني نذرت للرحمن صومًا صمتًا» وروي عنهما [وعن أنس][(١)]: «صومًا وصمتًا» بزيادة الواو[(٢)] وقد تقدم في سورة «آل عمران» بعض البيان، والله الموفق وهو المستعان.

والصيام في اللغة: الإمساك والكون على حالة واحدة، والصيام الشرعي: الإمساك عن الطعام والشراب، والنكاح وهي معاني [الجسد][(٣)] ويتبع ذلك الإمساك عن قول الخَنَى والزور والكذب، وهي من معاني النفس بأمر العدو، ويصلح ذلك طاعة الله – جل ذكره – والذكر الكثير، والمتحقق في سنن هذا الصوم هو سابق الصائمين، وصومه هو [المقول][(٤)] فيه: «**عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به**»[(٥)].

قوله ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١] معلمًا للخير كان في الجيئة الأولى، ثم رفع إلى السماء طيبًا مباركًا، ثم ينزل إلى الأرض [طاهر][(٦)] الطيب ظاهر البركة، رحمة من الله – جل ذكره – للعباد والبلاد والدين والدنيا،

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) الذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا: الصمت، ويدل عليه (فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيًّا) وقراءة أبيّ تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت؛ لأنه تفسير للصوم. وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو. [فتح القدير ٤/٤٥٠].

(٣) في النسخة (غ): «النفس».

(٤) في النسخة (خ): «المنقول».

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١)، والنسائي (٢٢١٨)، وأحمد (١٠١٧٨)، وابن ماجة (١٦٣٨)، والبيهقي (٣٤٢٤) وفي السنن الكبرى (٤/٢٧٤)، والطبراني (٨٣٠٣)، وأبو عوانة (٢١٦٣)، وابن حبان (٣٤٩٣).

(٦) في النسخة (خ): «ظاهر».

صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين والأولياء أجمعين.

قوله ﷺ حين أجابها من تحتها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم:٢٦] وكان هذا الكلام منه لها إثر وضعها إياه، والنساء لا يجوز لهن الصوم على ذلك، وقوله ﷺ هو الصدق؛ إذ الله ﷻ جعل كلامه على فمه، لا سيما في ذلك الحين.

وشرع موسى أشد تحرجًا عن ملامسة النساء في دمهن، فإنهم كانوا لا يجتمعون معهن في البيوت ولا يؤاكلوهن، والله أعلم بما ينزل، إنه - صلوات الله وسلامه عليه - روح من الله عز جلاله وكلمته، فلم يكن منها حال ولادتها إياه دم ينجس كالنساء، بل كانت مع ذلك طاهرة تصوم إن شاءت، وكما تصوم تصلي ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] كأن ولادتها إياه كانت متصلة بحملها به.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًا * فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم:٢١-٢٣] إلى قوله: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [مريم:٢٤] فعطف بعض هذا الخطاب على بعض بالفاء عبارة عن معنى المتابعة والنسق، سبحان الذي جعله آية للناس ورحمة منه.

قوله ﷺ: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًا﴾ [مريم:٣١] لا تسقط العبودية عن عبد حتى يموت، وإن بلغ أقصى الغايات، واعتلى إلى أعلى النهايات، بل كلما رفع درجة وأعلي به إلى عليا توجه عليه تحقق التعبد، ويضاعف في حقه الشكر، وما تركهم في الجنة حتى جعل عيشهم في ذكره، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، وقرأ أبو مجلز: «وأوصاني بالبر».

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٣٣- ٤٢].

نظم بذلك قوله ﷺ: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًا * ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:٣٣ - ٣٤] في قراءة عبد الله: «ذلك عيسى ابن مريم وهو قول الحق» وقرأ أبي: «ذلك قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون».

﴿مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم:٣٥ - ٣٦] قرأها هكذا أبي: «إن الله» بغير واو، وهذا يبين أنه ﷺ على ما هو [عليه][١] من خلقته التي خلقه الله عليها آية على قضاء الله - جل ذكره - الأمر من فوق العرش، وإنزاله إياه بالروح، وقيام الجملة به طبقًا بعد طبق إلى تمامه، وظهوره بالحق المخلوق به السماوات والأرض، بما في ذلك من [حكمته][٢] وإعلام بالغائبات عنه، والمعارف الموجودة فيه، ومسالك الأسماء والصفات، وإلى هذا الإشارة بقوله: «إن الله خلق آدم على صورته»[٣] ذلك من قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١].

[انتظام هذا الخطاب بعضه ببعض من لدن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ بدل دلالة إشارة إلى قوله الحق: لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه؛ أي: معنى الولادة والأبوة، وكل ما خلقه وهو عبده وكل ما كان عن أمره واستدارت به الدوائر

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «حكمة».

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٧٣) وفي الأدب المفرد (٩٧٨)، ومسلم (٢٨٤١)، وأحمد (٨١٥٦)، وابن حبان (٦١٦٢)، وعبد الرزاق (١٩٤٣٥)، والدارقطني في الصفات (٤٨)، وأبو عوانة (٣٤٧)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٩٨)، واللالكائي (٧١٦)، والديلمي (٧٣٠٩).

فهو له عبد؛ لذلك أعقب الخطاب بقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وبإسقاط الواو تقدير محذوف وإنه قال: كل ما أنبأتكم به من شأني وتكويني عن أمر الله دلالة ينبئ أن لله عبد ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾][(١)].

قوله ﷻ: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)] [مريم:٣٧] اختلفوا فيه ﷺ فمن مفرط في شأنه غالى وهم النصارى، ضلوا به ضلالاً بعيدًا، ومن مفرط في حقه وهم اليهود، كذبت رسالته وردت ما جاء به وكادت عليه، فرفعه الله من بينهم وطهره من رجسهم و[جرمهم][(٣)] بركته،

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيهًا على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف، فإن ما حكى من مقالات عيسى ﷺ مع كونها نصوصًا قاطعة في كونه عبد الله تعالى ورسوله قد اختلف اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، فالمراد بالأحزاب: اليهود والنصارى، وهو المروى عن الكلبي، ومعنى ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾: إن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين، و«بَيْنَ» ظرف استعمل اسمًا بدخول «من» عليه. ونقل في «البحر» القول بزيادة «من». وحكى أيضًا القول بأن البين هنا بمعنى: البعد؛ أي: اختلفوا فيه؛ لبعدهم عن الحق، فتكون سببية ولا يخفى بعده، وقيل: المراد بالأحزاب: فرق النصارى، فإنهم اختلفوا بعد رفعه ﷺ فيه، فقال نسطور: هو ابن الله تعالى عن ذلك أظهره ثم رفعه، وقال يعقوب: هو الله تعالى هبط ثم صعد، وقال ملكًا: هو عبد الله تعالى ونبيه. وفي «الملل والنحل»: إن الملكانية قالوا: إن الكلمة - يعني: أقنوم العلم - اتحدت بالمسيح ﷺ وتدرعت بناسوته. وقال أيضًا: إن المسيح ﷺ ناسوت كلي لا جزئي، وهو قديم، وقد ولدت مريم إلهًا قديمًا أزليًا، والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معًا، وقد قدمنا من أمر النصارى ما فيه كفاية فليتذكر. وقيل: المراد بهم: المسلمون واليهود والنصارى . وعن الحسن: إنهم الذين تحزبوا على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لما قص عليهم قصة عيسى ﷺ اختلفوا فيه من بين الناس، قيل: إنهم مطلق الكفار، فيشمل اليهود والنصارى والمشركين الذين كانوا في زمن نبينا ﷺ وغيرهم، ورجحه الإمام بأنه لا مخصص فيه، ورجح القول بأنهم أهل الكتاب بأن ذكر الاختلاف عقيب قصة عيسى ﷺ يقتضي ذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالمراد بهم: الأحزاب المختلفون، وعبر عنهم بذلك إيذانًا بكفرهم جميعًا وإشعارًا بعلة الحكم. تفسير الألوسي (٤٩١/١١).

(٣) في النسخة (خ): «وحرمهم من».

و[شد][١] عنهم كريم عائدته، ولزم المسلمون في شأنه طريق السواء والعدل، والحمد لله رب العالمين.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٣٧].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨] أعظم - جل ذكره - فظاعة ما يلقونه وأكبر بسوء منقلبهم، كما قال في وصفه نفسه إكبارًا وإعظامًا: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: رضا وسخطًا ثوابًا وعقابًا ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦].

قوله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًا﴾ [مريم:٤١] هذا منتظم بذكر زكريا ويحيى ومريم وعيسى - عليهم السلام - والصديق من [كثر][٢] صدق خطراته، والصديقية نفث حق في [الروح ومحادثة][٣] حق في النفس وفراسة صائبة وظن مصيب، يقوم على الأغلب مقام اليقين وصدر منور وقلب سليم ونفس طيبة، وعلم واسع وحلم كامل وصبر جميل، وعمل بطاعة الله وخلق كريم ونصيحة صحيحة، تحبه الأرض والسماء، وتحبه الحفظة وتتولاه الملائكة - عليهم السلام.

وكما ليس للجماد أن يكون من النبات، ولا النبات أن يكون من الحيوان، ولا الحيوان أن يكون بشريًا، كذلك ليس للبشري أن يكون وليًا لله ولا صديقًا، ولا للصديق أن يكون نبيًا، وإنما هي مقامات ومنازل ينزلونها ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١] والبشري الصديق واسطة بين من هو نبي وبين من ليس بنبي ولا صديق، لله الأمر كله وهو بكل خلق عليم.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ

---

(١) في النسخة (خ): «سد».

(٢) في النسخة (خ): «كثرت».

(٣) في النسخة (خ): «الروع ومجاذبة».

لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾
فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا
وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ
نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٤٣- ٥٣].

قوله ﷻ حاكيًا عن خليله - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ**﴾ [مريم:٤٣] الذي أتاه من العلم هو معرفة الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما، والعارفون فيه متفاضلون، [فربما أتاه الله أرفعه، ثم ما خصه به من الصديقية والنبوة، والناس في الصديقية متفاضلون][(١)] فأول أهل الإيمان درجة قد صدق الله ورسوله وإبراهيم عليه السلام في أرفعها [درجة و][(٢)] منزلة.

يقول رسول الله ﷺ: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم**»[(٣)].

وقال الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**﴾ [الإسراء:٥٥].

أتبع ذلك بما هو بيان له قوله: ﴿**فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ [مريم:٤٣] والصراط السوي هو: ألا يعبد إلا الله ولا يشرك به شيء سواه، وأخبر الله [عز][(٤)] ذكره أن بالعزلة لمن ضل عن الصراط المستقيم يكون النجاح، وفيه رضا الله، كما قال رسول الله ﷺ: «**واعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى**

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٣)، ومسلم (١٥١)، والنسائي (١١٠٥٠)، وأحمد (٨٣١١)، وابن ماجة (٤٠٢٦)، وابن حبان (٦٢٠٨)، وأبو عوانة (٢٣٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٤٧٣).

(٤) في النسخة (خ): «عن».

يأتيك الموت وأنت على ذلك»(١).

يقول الله – عزَّ من قائل: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًا﴾ [مريم:٤٩ – ٥٠] ثم ذكر ﷻ موسى وهارون وإسماعيل وإدريس – عليهم السلام.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم: ٥٤ – ٦٠].

يقول الله – جل ذكره: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ كإدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ كهود وصالح وغيرهما ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ [مريم:٥٨] أي: خُشعًا خُضعًا، ثم يخرون سُجدًا ثانية راهبين راغبين، ثم عطف بالواو على معنى ما تقدم [بقوله](٢): ﴿وَبُكِيًا﴾.

كذلك قال – عز من قائل – فيما حكى عن إخوانهم على جميعهم السلام: [﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أو لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء:١٠٧ – ١٠٨] فهذا منهم مقام خشوع وإيمان وتصديق](٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (١٨٤٧)، وأبو عوانة (٧١٦٦)، والحاكم (٣٨٦)، وابن ماجة (٣٩٧٩)، والبيهقي (١٥٦/٨) وفي الدلائل (٤١٢/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٢/١).

(٢) في النسخة (خ): «يقول».

(٣) من بعد قوله تعالى: ﴿أو لَا تُؤْمِنُوا﴾ ساقط من النسخة (غ).

ثم قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩] والمراد بهذا الذكر من اجتلاب أسمائهم والإعلام بأحوالهم: توجيه الأمر إلى النبي وإلى من تبعه باتباعهم، وحسن الاقتداء [بأفعالهم](١)، وأن يكونوا في مستقبل أمرهم أحسن حالاً منهم في ماضيه.

قوله ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [مريم:٥٩] خلف الخلق الدون ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾(٢) [مريم:٥٩ - ٦٠] هذا وعيد للموحدين غير [التائبين](٣)، قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا * إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم:٥٩ - ٦٠] فلا بد للمؤمن من التوبة بعد إيمانه، ثم لا بد له إذًا من تجديد التوبة مادام حيًّا.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] هذا أمر لمن آمن بأن يتذكر إيمانه ويتعرف إيمانه بالله ورسوله والكتاب الأول والقرآن، يتعرف ذلك بالبراهين والدلائل، [لم](٤) يجدد ذلك بالتذكار أبدًا، و[إنما](٥) التوبة في الإيمان فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى الله تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨] وضرب لذلك مثلاً بامرأة فرعون وبمريم - عليهما السلام - وقوله: ﴿وَتُوبُوا إلى الله جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١] وهو كبير.

نظم ذلك بقوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم:٦٠ - ٦١] قد يأتي الفاعل بمعنى المفعول وهو قليل، وذلك نحو قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ أي: آتيًا. قاله القنيني.

---

(١) في النسخة (خ): «بفعالهم».

(٢) الغيّ: هو الشرّ عند أهل اللغة، كما أن الخير هو الرشاد، والمعنى: إنهم سيلقون شرًّا لا خيرًا. وقيل: الغيّ الضلال، وقيل: الخيبة. وقيل: هو اسم وادٍ في جهنم، وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: سيلقون جزاء الغيّ. كذا قال الزجاج. فتح القدير (٤/٤٦٤).

(٣) في النسخة (خ): «الناسين».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٥) في النسخة (خ): «أما».

وقال غيره: هو هنا على أصله، معناه: أن الناس يأتون [على][١] ما وعد الله لهم في الآخرة و[الوعد منتظم][٢] لهم.

قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك»[٣] وهذه - والله أعلم - الجنة [التي][٤] هي المأتية لنا بالغيب وكذلك النار، ألا ترى أن النار تكون معدومة فتورى بالزناد وبغيره، فتظهر من غيبها وتكون موجودة بعد عدمها، ثم يورى [ويقدح][٥] إلى ما شاء قادحها، وربما غلبت على [إراءته منها][٦]، وكذلك الجنة تكون عدمًا فينزل الله الماء من السماء ﴿فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٢٤] ويخرج على ذلك منها كل نبات ومرعى وكل شيء حي، ويخرج منها الحب والزرع [والزيتون][٧] والرمان، ومن كل الجنات معروشات وغير معروشات.

فهذه [جنات][٨] غيب، وجهنم غيب سعيرها وزمهريرها، وهذا [من الخب][٩] الذي له في السماوات والأرض، والسر الذي له [فيها يظهره][١٠] إذا جاء أجل ذلك، ثم لهذه الدار التي أفاض الله علينا منها هذه؛ لتمتعنا في هذه الدار إلى الحين المقدر عنده دار متصلة بها هي غيب [عن غيب][١١] إذا كان يوم القيامة ألحقت هذه بتلك، فلا يدخل إلا بعد استفتاح بابها ولا ينالها إلا المتقون.

نظم بذلك من وصفها قوله الحق: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ اللغو من الكلام:

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «الوعيد منه».

(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٣)، والبزار (١٦٦٣)، وأبو يعلى (٥٢١١)، وأحمد (٣٦٦٧)، وابن حبان (٦٦١)، والبيهقي (٦٢٩٦)، والديلمي (٢٦١٣)، وذلك بلفظ: «من شراك نعله».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٦) في النسخة (خ): «إرادته فيها».

(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٨) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٩) في النسخة (خ): «سر الغيب».

(١٠) في النسخة (خ): «فيهما يظهر».

(١١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

الباطل، ليس في الجنة باطل ألبتة، إنما هي مبنية على التوحيد والتنعيم به وبما يفضل عنه، ثم قال: ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة:٢٥] هذا أبعد في وجود ذلك فيها ﴿إلا سلامًا﴾ [مريم:٦٢] السلام: ما سلم من المكروه والباطل، والسلام اسم من أسماء الله، وبأسمائه قامت الدنيا سماواتها وأرضوها وما بين ذلك، إلى ما علا وسفل إلى [قرارها](١) المنتهى، وذلك في الآخرة أظهر جدًّا.

فذكر الله وما يؤول إلى ذلك [مجدد](٢) فيه دون فتور أبدًا، حتى أنهم ليلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ يعني: [هجيراهم](٣) فيها لعظيم ما يعجبهم به من ذلك ويحدد لهم من أمره ﴿سُبْحَانَكَ اللهُمَّ﴾ [يونس:١٠] يجيبهم الله - جل ذكره - بالسلام وتجيبهم الملائكة وسكان الجنان وجميع ما فيها من موجوداتها.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] [ثم](٤) يعجبهم بما لم يعجبهم به [قيل](٥) هكذا [فهم](٦) أبدًا ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] آية ذلك ما خلق الله [عليه](٧) السماوات والأرض وما بينهما من [معاني](٨) أسمائه ومعالي صفاته، يجد ذلك المعتبرون علمًا و[عبرة ويجدون](٩)، ذلك فيما هنالك مشاهدة لظهور الحق المبين كالشمس الصاحية والقمر في الكمال، فافهم وآمن إن وعد الله حق.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا

---

(١) في النسخة (خ): «قرار».
(٢) في النسخة (خ): «مجرد».
(٣) في النسخة (خ): «هجراهم».
(٤) في النسخة (خ): «لم».
(٥) في النسخة (خ): «قبل».
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٨) في النسخة (خ): «معالي».
(٩) في النسخة (خ): «غيرهم».

سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ [مريم: ٦١ – ٦٧].

نظم ذلك من وصفها بقوله الحق: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] آية ذلك صلاتهم هنا بالغداة [والعشي][(١)]، وصلاتهم بالعشي العصر، قال رسول الله ﷺ: «**العبد يروح إلى المسجد ويغدو، والله يهيئ له نزله في الجنة كلما غدا أو راح**»[(٢)] ويعرف [فيما][(٣)] هنالك الغدايا والعشايا بالضياء [الحق][(٤)] ضياء الحق المبين، والنور نور الحق المبين من غير أفول ولا غروب، إنما هو تجلي وظهور يجلي هذا تارة ويظهر هذا تارة.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧] وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥] فضياء الشمس ونور القمر آيتان على ما هنالك من الضياء العلي والنور النزيه الرفيع - ﷻ ربنا وتعالى علاؤه وشأنه - ألم تر فيما ها هنا أن الشمس لا تغرب إلا والقمر قد طلع، ولا يغرب القمر إلا والشمس قد طلعت، هذا على الأغلب، فالله هو الحق المبين، لا أفول هنالك ولا غروب، وهو أعظم لذلك وهو أعلم.

قال إعظامًا لما جاد به [عليهم][(٥)] وأورثه إياهم: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ

---

(١) في النسخة (خ): «الصبح».

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٦٩)، وابن حبان (٢٠٣٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٦١١)، وأحمد (١٠٦١٦)، وابن خزيمة (١٤٩٦)، وأبو عوانة (١١٢١).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «العلي».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

﴿عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًا﴾[(١)] [مريم:٦٣].

قوله ﷻ حاكيًا عن الملائكة - عليهم السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًا﴾ [مريم:٦٤] جاء أن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ استبطأ جبريل ﵇ في بعض الأحايين لأمر كان بينه وبينه، فلما جاءه ذكر له ذلك فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ....﴾ وفي قراءة عبد الله: «وما نتنزل إلا بقول ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وَمَا [نَسِيَكَ][(٢)] رَبُّكَ».

وهذا وإن كان منتظمًا بذكر السبب فإنه أيضًا منتظم بالمجاورة، لما ذكر في الجنة ووصفها بما تقدم ذكره وما هو أكثر وأسنى، وآية فيما هنالك لا شمس فيها

---

(١) استئناف جيء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها، فاسم الإشارة مبتدأ و«الجنة»خبر له، والموصول صفة لها، والجملة بعده صلته، والعائد محذوف؛ أي: نورثها، وبذلك قرأ الأعمش. وقرأ الحسن والأعرج وقتادة ورويس وحميد وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو «التى نُورِثُ» بفتح الواو وتشديد الراء، والمراد: نبقيها على من كان تقيًّا من ثمرة تقواه، ونمتعه بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به، فالإيراث مستعار للإبقاء، وإيثاره على سائر ما يدل على ذلك كالبيع والهبة؛ لأنه أتم أنواع التمليك من حيث أنه لا يعقب بفسخ ولا استرجاع ولا إبطال، وقيل: يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: ليس من أحد إلا وله في الجنة منزل وأزواج، فإذا كان يوم القيامة ورث الله تعالى المؤمن كذا وكذا منزلاً من منازل الكفار، وذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ...﴾ ولا يخفى أن هذا إن صح فيه أثر عن رسول الله ﷺ فعلى العين والرأس، وإلا فقد قيل عليه: إنه ضعيف؛ لأنه يدل على أن بعض الجنة موروث والنظم الجليل يدل على أنها كلها كذلك ولأن الايراث ينبئ عن ملك سابق لا على فرضه مع أنه لا داعي للفرض هنا، لكن تعقب بأنه يكفي في الإيراث كون الموروث كان موجودًا، لكن بشرط التقوى بناء على ما ذهب إليه بعضهم في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ [مريم:٦١] حيث قال: المراد من العباد ما يعم المؤمن التقي وغيره، ووعد غير المؤمن التقي مشروط بالإيمان والتوقي، نعم اختار الأكثرون أن المراد من العباد هناك: المتقون، والمراد منهم هنا: الأعم، والمراد من التقي من آمن وعمل صالحاً على ما قيل، ولا دلالة في الآية على أن غيره لا يدخل الجنة مطلقًا، وأخرج ابن أبي حاتم عن داود بن أبي هند: إنه الموحد، فتذكر ولا تغفل. تفسير الألوسي (٢٦/١٢).

(٢) في النسخة (ف): «ينساك» وانظر: الكشاف للزمخشري (١٠٣/٤) والجواهر للثعلبي (٤٦٥/٢).

ولا قمر ولا زمهرير ولا ليل ولا نهار إنما هو ضياء الحق المبين ونوره ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ معناه: وما ها هنا آية على ما هنالك، وإنا معشر الملائكة لا ننزل بالليل والنهار إلا بإذن ربك.

فهم - أعني: الملائكة عليهم السلام - يتعاقبون دار الدنيا بالليل والنهار الحفظة والكتبة و[الفعلة][1] في المخلوقات، فإن آثار حر الشمس ويبسها بالنهار خلاف لبرد الليل والقمر ورطوبتهما، وبهما صلح ما طلعا عليه بإذن الله، وكذلك في الأنواء والصحو، وتحرك الرياح وسكونها وجميع الأمر، ولله - جل ذكره - في ذلك أمر لطيف على قدر تنويع ذلك كله وبواسطة الملائكة - عليهم السلام - فهم يتعاقبون التنزل على ذلك بتعاقب حدوث الحوادث والأمر، وهذا كله مجموع في تلك الدار لضياء الحق المبين ونوره العلي.

يقول - والله أعلم بما ينزل: وما هنا آية على ما هنالك ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًا﴾ [مريم:٦٤] أي: كل ذلك في كتاب وهو لم يكتب الكتاب لأنه يضل ولا لأنه ينسى، وقد تقدم أن إعلام كتبه في الكتاب المبين يصعد إلى نفس المشاهدة والعيان. فافهم.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: أن حكمه في الأرض [كما هو في السماء، و][2] كما هو رب السماء والأرض كذلك هو رب الدنيا والآخرة، فتنتظم هذه الآية بالتي قبلها على هذا ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم:٦٥] أي: أنك لا ترى اليوم ثواب عملك، فعند المعاينة تنكشف لك الحقيقة [ثم][3] فيما بعد الموت، وللآخرة أعظم وأفخم دون نسبة تنحصر.

نظم بذلك قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] هل تعلم أحدًا يسمي الله أو الرحمن على حقيقة؟ هل تعلم أحدًا خلق السماوات والأرض وما بين ذلك فيكون ربًّا لذلك كله؟ هل تعلم [له][4] خالقًا خلق كل شيء فقدره تقديرًا، ثم أخرج ما قدره

---

(١) في النسخة (خ): «العملة».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) ما بين [ ] زيادةمن النسخة (خ).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

خلقه على سواء ما قدره دون خلاف عن ذلك ولا نقصان ولا زيادة؟ هل تعلم أحدًا خلق الأرزاق والمرتزقين، فجعل للأجسام غذاءً وأرزاقًا، [وجعل للقلوب والبواطن أغذية وأرزاقًا؟][١] هل تعرف حكيمًا أحكم كإحكامه وأتقن كإتقانه؟ هل تعلم جوادًا جاد كجوده وأجاد في تدبيره وحكمه وإعطائه كهو؟ هل تعلم عالمًا علم المعلومات بعلم واحد، فعلم ما كان [وما هو كائن][٢] وما لا يكون كيف كان يكون [لو][٣] كان؟ وفي أي وقت؟ ولِمَ لا يكون ولِمَ يكون إذا كان؟ ومتى؟ وكيف؟.

هل تعلم قديرًا اقتدر على ما اقتدر عليه [فقدر][٤] بإبداع المبدعات اختراعًا دون ظهير ولا معين [له و][٥] لا على مثال سبق ولا من شيء خلق ما خلق؟ هل تعلم موجودًا عليًا، واحدًا أحدًا، فردًا صمدًا، لا والد له ولا ولد، ليس له ند، ولم يكن له كفوًا أحد؟ هل تعلم موجودًا ليس كمثله شيء، هو الأول في كل شيء والآخر في كل شيء، والظاهر في كل شيء والباطن في كل شيء؟.

هل تعلم ملكًا غنيًا عن كل موجود وكل موجود فقير إليه، له إيجاده وخلقه وإظهاره وإعدامه وإمساكه وإماتته وإحياؤه، لا يستغني عنه شيء في العلا أو فيما تحت الثرى ولا فيما بين ذلك لا في ذاته ولا في صفاته ولا في جميع وجوده، كل بقاء فبإبقائه، وكل إعدام فبإعدامه، وجود كل ذي وجود منه أو عنه، فكل شيء مملوك له في ذاته وصفاته، وهو المستغني عن كل شيء بكل وجه وبكل معنى؟.

هل تعلم ملكًا قدوسًا سبوحًا منزهًا عن كل وصف يدركه حس أو يتوهمه وهم أو يتخيله تصور أو يختلج به ضمير، ثم هكذا إلى آخر الأسماء كلها والصفات العليا أجمعها ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم:٦٥] أي: اصبر على ما يرد عليك من قضائه وأحكامه حلوها ومرها فلن تجد من دونه ملتحدًا ولا منه نصير.

نظم بذلك - جل ذكره وتعالى علاؤه وجده ﴿ويقول الإنسان أَئِذَا مَا مِتُّ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بيم [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «أو».

(٤) في النسخة (خ): «فتفرد».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ): «العلي».

لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] انتظم وصف [قلة][(١)] تحصيل الإنسان وقصور عقله على سبيل المقابلة وإثبات الحجة [على ما][(٢)] تقدم [ذكره][(٣)] من قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

يقول - جلَّ من قائل - وهو أعلم بما ينزل: وعلى تبيان سلطان الحجة وظهور هذا الحق الذي لا خفاء به ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ﴾ [مريم:٦٦ - ٦٧] وفي أخرى: «أولا يذكَّر» [بالتشديد][(٤)] في قراءة أُبيٍّ؛ أي: «أولا يتذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا»[(٥)].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾ [مريم:٦٨-٧٦].

ثم أقسم الحق - جل وتعالى علاؤه وشأنه - وقوله الحق على تحقيق ما أخبر به بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «بما».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) قرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب وجماعة «يَذْكُرُ» مخففًا مضارعَ «ذكر»، والباقون بالتشديد مضارعَ تَذَكَّر، والأصل «يتذكَّر» فأُدْغِمَتْ التاءُ في الذال. وقد قرأ بهذا الأصلِ وهو يَتَذَكَّر: أُبَيٌّ. الدر المصون في علم الكتاب المكنون (١/٤٠٠٧).

[مريم:٦٨] الجاثي: القائم على ركبتيه ووجهه إلى الأرض، وهو مقام الخصومة وإقامة الحجة، ولا حجة [لها][(١)] ولا خصومة، كقوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ [الجاثية:٢٨] المعنى.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾[(٢)] [مريم:٦٩] كما قال رسول الله ﷺ: «**فتخرج عنقًا من النار يقول بلسان طلق ذلق: أمرت بكل جبار عنيد إلى ثلاثة أصناف**»[(٣)].

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾[(٤)] يدخلون النار بأعمالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

نظم بذلك قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] وقرأ ابن عباس وعكرمة: «**وإن منهم إلا واردها**» بالهاء، وكذلك روي عن ابن كثير قال: ولا يردها مؤمن إن شاء الله، فعلى هذه القراءة فالمراد بعموم المواجهة بالكاف [هو][(٥)] المؤمن والكافر، وأن الورود منه ما هو ها هنا - أعني: في دار الدنيا - مما [نبهت][(٦)] عليه من إثارة الفيحين - أعني: نفسي جهنم سعيرها وزمهريرها - يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ اليوم ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] فهلا قضيتم بالمشاهدة على الغائب فآمنتم به

---

(١) في النسخة (خ): «لهؤلاء».

(٢) حال منه مؤكدة للاستبعاد إثر تأكيد، ومن للابتداء العلي، والعتي من عتى يعتو اليبس والقحول في المفاصل والعظام. وقال الراغب: هو حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها. [تفسير الألوسي (١١/ ٤٥٠)].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤١٤١)، والبزار وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد (١٠/٣٩٢)، والطبراني في الأوسط (٣١٨)، وقال الهيثمي (١٠/٣٩٢): أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح.

(٤) المراد بالذين هم أولى المنتزعون باعتبار الترتيب، وقد يراد بهم أولئك باعتبار المجموع فكأنه قيل: ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء وهم أولى بالصلى من بين سائر الصالين ودركاتهم أسفل وعذابهم أشد، ففي الكلام إقامة المظهر مقام المضمر. انظر [تفسير الألوسي (١٢/٣٨)].

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٦) في النسخة (خ): «انبنت».

وأيقنتم أن ما ها هنا من حرور وصرور آيتان على ما انبعثا منه؟[١].

---

(١) قال المصنف في هذه الآية: «آية الصراط في الدنيا الحال الموجود بين الزمنين: الماضي والمستقبل، فمتى رام المتحقق في تحقيق الزمان الماضي والمستقبل، وتخليص الحال بينهما؛ عسر ذلك عليه جدًّا لا يكاد يدركه إلا وهمًا، وهو معنى الدنيا وحقيقتها وما بين ذلك وما خلفه، ليس من الدنيا وما ليس من الدنيا فهو من الآخرة، فمثال جواز العبد على الصراط في الآخرة قطعة أيام حياته في الدنيا من أول عمره إلى آخره فمثال جواز العبد على الصراط، ألا تراه أنه إنما جاء من عند ربه، وهو في سيره ذلك إلى ربه يرجع وهو مصيره، وعلى جنبي حد الصراط لازمًا به في عمره أعداؤه من الجن والإنس، ومصائب تطرأ عليه وأكداد وأحزان وغموم وهموم، وغير ذلك مما لا يكاد يخلو غالبًا من فقد المحبوبات وفوت المطلوبات، وقد عبر عن ذلك الفصحاء والبلغاء بغير ما عبارة، فهذا مثال في الوجود لما هنالك من خطاطيف وكلاليب وحسك، ومثال في الوجود الشرعي كون المكلف سالكًا بين الوعد والوعيد، وبين الشرك والإخلاص، وبين الطاعة والمعصية، والرضا والسخط، والأمر والنهي، فإنك إذا أردت أيضًا أن تحقق الزوجين من صاحبه؛ خلصت في صراط بينهما أحد من السيف وأرق من الشعرة، قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا» وقال أيضًا ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما مشتبهات تخفى على كثير من الناس». وهذا يئول عند تحصيل التحقيق فيه أيضًا إلى ما تقدم ذكره من الخفاء؛ ولذلك قال: «ومن رتع حول الحمى يوشك أن يواقعه» وإنما حذَّر من ذلك؛ لدقته ورقته عند البداية في استقصاء معرفة حد كل واحد منهما من صاحبه، وهذا هو معنى الصراط في الدنيا، والذين يتركون ما أشبه عليهم في هذا الصراط العاجل؛ هم الذين يتوسع لهم الصراط في الأجل. وبالجملة في اعتبار الوجودين، قال الله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، فمعرفة كل واحد من الزوجين يئول إلى ما تقدم ذكره أيضًا، وذلك آية على الصراط في الأجل، وفي الآخرة أيضًا صراط آخر؛ وهي قنطرة بين الجنة والنار، قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا» فالصراط الأكبر منصوب لجملة العباد، حاشى الثلاثة الأصناف من أهل الكفر الذين اقتطعتهم عنق النار في عرصة المحشر، أولئك يدخلون النار دون سؤال ولا صراط، وهم المعنون بقوله جل قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وإلى هذا ثلاثة طوائف في مقابلة أولئك يدخلون الجنة بغير حساب، ثم الموازين لمن بقي من أهل المحشر، ثم تتبع كل أمة ما كانت تعبد فيكون ذلك، فيقعون في النار حتى لا يبقى إلا المؤمنون، ثم بعد ذلك الصراط مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم، فإذا خلص من خلص من هذا الصراط، ولا تخلص من هذا الصراط ولا تخلص منه إلا المؤمنون، الذين علم الله ﷻ عنهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم، حُبسوا على صراط خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد - إن شاء الله تعالى - إنما هي =

وهذا هو الظاهر [لشواهد](١) القرآن التي جاءت كقوله ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠] أي: قربت ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:٩١] وأنه كما جاء أن ثلاثة أصناف يعجل بهم إلى النار وأن ثلاثة أصناف يعجل بهم إلى الجنة أيضًا، وفي هؤلاء - والله أعلم - يقول جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢] وقال رسول الله ﷺ: «**من صام يومًا في سبيل الله بعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا**»(٢) ولهذا نظائر.

ثم ينتظم ما بقي من الخطاب بما تقدم من قوله - جل قوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ

الحسنات والسيئات، قال رسول الله : ﷺ «فإذا خلصوا وهذبوا أدخلوا الجنة» وهذا الصراط منصوب لأهل العدل الثالث، والصراط الأكبر منصوب لأهل العدل الثاني، وأما أهل العدل الأول: فهم الذين اقتطعتهم عنق النار في المحشر، والذين دخلوها قبل جواز الصراط، ومثاله في الوجود توبة الاستواء عند الأربعين، وأن نزول قوة المعراج على المرء؛ وهي التوبة الثانية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه الحق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:١٥] المعنى: فمن خلص من الفتنة الأولى قوي الرجاء في التخلص من الصراط الأول وهلاك من هلك قبل ذلك، ومن خلص من فتنة الاستواء خلص من الصراط الثاني ودخل الجنة بسلام، إن شاء الله ﷻ. ومثال ما على جنبتي الصراط على اعتبار الوجود الشرعي ما تحتوش المؤمن زائدًا على ما تقدم ذكره في الاعتبار بالوجود الدنيوي نفس أمارة بالسوء بين جنبتيه، وشهوة وهوى وخلق لا يرضاه، وأهل وولد يجذبونه إلى هلكته، ويثبطونه ويبطئون به، وخطايا لا يعرى عنها تأخذ من دينه ما أخذت، وتترك ما تركت، وكل ما وجب عليه المجاهدة والمثابرة والمرابطة من أجله فهو مثال لخطاطيف النار وكلاليبها وحسك ما هنالك. فالثبات على التوبة النصوح هو مثال الثبات على الصراط، وتيسير أعمال الطاعات فيها مثال الإسراع عليه، وخفة الظهر من الأوزار أعظم العون وروح الإيمان والعلم يعليه ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] فاعلم - رحمك الله - أنك في الدنيا ماشٍ على الصراط، وقد اكتنفتك أهواله ومحنه، فسابق أو مسبوق وناجٍ أو مخردل أو مكدوش في نار العظائم والكبائر، فأيقن بذلك وانظر لنفسك، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. [شرح الأسماء ٢/٦٩].

(١) في النسخة (خ): «بشواهد».

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٥)، ومسلم (١١٥٣)، والترمذي (١٦٢٣) والطيالسي (٢١٨٦)، وأحمد (١١٥٧٧)، والنسائي (٢٢٤٥)، والبيهقي (٨٢٣٥).

بالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم:٧٠] ينجو المتقون المبعدون عنها لا يسمعون حسيسها، ويبقى سائر الخليقة من بر وفاجر يمرون على الصراط، تفاوتهم في نجاتهم على تفاوتهم في أعمالهم، و[الورود][١] يقال على معنيين: بمعنى البلوغ وبمعنى الدخول.

الأول: قوله جلَّ من قائل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٣].

الثاني: قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨].

فورود سائر المؤمنين بعد السابقين جواز ونجاة، وورود الكفار وبعض العصاة بلوغ وولوج فيها، كما قال - عز من قائل: ﴿يَمَسُّهُمُ العَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام:٤٩].

قوله ﷻ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ يعني: العمل بذكر الله وبطاعته ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم:٧٦] هذا منتظم بما في قوله من ذكر جهنم وورودها على ما هو عليه، وبما فيما حكاه عنهم من قولهم: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم:٥٨] أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا؟ خلافًا للمجتبين الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨].

فقال - عز من قائل - في مقابلة هذا: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم:٧٦] ولا تتصور الباقيات الصالحات إلا مع التوبة والطهارة من الأرجاس والمعاصي، [بل][٢] إن الأعمال الصالحة للمتلوثين بالمعاصي يكفر عنهم بها من سيئاتهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[٣]

---

(١) في النسخة (خ): «الورد».

(٢) في النسخة (خ): «بلى».

(٣) قال المصنف: أي: يوجد في قلوبهم ودًّا فيودونه لذلك، ويوجد لهم أيضًا ودًّا في قلوب الخليقة، وربما رفعه إلى الحب، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله عبدًا قال لجبريل: يا جبريل، إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله يحب =

[مريم:٩٦] هذا منتظمٌ بمعنى المقابلة والإخبار عن مراتب العباد على مراتب أعمالهم لما ذكر الكافرين و[مآلهم] [(١)] وجهلهم وعتوهم.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٧٧ – ٨٩].

[ثم][(٢)] قال على أثر ذلك - عزَّ من قائل: لا يهمنك سيئاتهم، فإنا هكذا إرادتنا منهم؛ ليتم كلمتنا بهم وفيهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣] الأز: الإزعاج بالتزيين والتدريج، ومن زين لإنسان معصية وحمله عليها بالتحيل والتزيين فقد أزه؛ أي: أزعجه إليها إزعاجًا.

يقول - عزَّ من قائل: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:٨٤] أي: أنفاسهم وأعمالهم التي سبق التقدير بها عدًا، إلى قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا

فلانًا فأحبوه، فيا أهل السماء..» ثم يجعل له القبول في الأرض، وفي أخرى: «المقه تنزل من السماء» ونزولها من السماء هو نزولها في الماء، فلا يشرب أحد من الماء، ولا يأكل مما تنبته الأرض إلا أحبه فذلك قوله: ثم يجعل له القبول في الأرض. وقد أتى من ذكر المحب في القرآن والحديث أكثر مما أتى أكثر من ذكر الود، لكنه لم يأت من الحب اسم ظاهر كما جاء من الود، والحب والود والرضا خاص من الله ﷻ يختص به من يشاء من عباده، وهو كثيرًا ما يعبر عنه بالفضل ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد:٢١] وإنه ليبلغ الحب والود بحامليه أن المحبوب ربما فعل القبيح، فيحسن عند المحب ذلك ويجمل. [٣١٣/٢].

(١) في النسخة (خ): «حالهم».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم:٨٨ - ٨٩] الإد: العظيم المهيب.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٩٠ - ٩٨].

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠ - ٩١] لما قالوا ذلك كذبهم كل شيء، [وأبغضهم كل شيء][(١)]، ولعنهم كل شيء، حتى أن كادت السماوات أن تنشق من فوقهم، والجبال أن تنهد، والأرض أن تمور مورًا؛ استعجالاً بهم إلى جزاء ما هم ملاقون من جزاء ذلك، لولا حلم الله - جل ذكره - فهو يمسكها أن تزول من حيث هي ومن حيث حلمه وكريم عفوه، ويمسكها إنه كان حليمًا غفورًا.

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢] وقد مضى الكلام [فيه][(٢)].

ثم نظم ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالحق المخلوق به السماوات والأرض وبما حواه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًا﴾ [مريم:٩٦] أي: أنه يجعل لهم ودًا في قلوبهم يحبونه به ويودهم هو ﷻ [ويودهم كل شيء][(٣)] ويحبهم كل شيء، ويصلي عليهم كل شيء، ويشهد لهم كل شيء؛ لأنهم رأوا الموجودات على ما جعلها الله عليه، وصدقوها في شهادتها فصدقهم كل شيء وودهم.

وفي ضد هذا قال - عز من قائل: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

[الدخان:٢٩] فمفهوم هذا الخطاب أن كل شيء يبكي عليهم إذا فقدوا، وكما امتلأ العالم تصديقًا لهؤلاء وودًا كذلك امتلأ العالم سفله وعلوه إنكارًا لقولهم وردًا عليهم، ولما لم يكن ما قالوه صدقًا رجع كذب ذلك كله عليهم، فامتلأ العالم في حقهم كذبًا و[فجورًا][(١)]، وشهدت هي شهادتها الحقية، ولزمت معالمها الفطرية، فشهدت لأهل الإيمان بما شهدوا [به][(٢)] واتصلت الشهادات بعضها ببعض، فامتلأ العالم كله عدلاً وقسطًا في السماوات السبع والعرش والكرسي وإلى أقصى [العالم][(٣)].

ختم ذلك بما هو بشارة لهم، قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: يود الله - جل ذكره - إياهم، ويود كل شيء لهم ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧] أي: ببغض الله لهم ولعنه إياهم، وبغض كل شيء [لهم][(٤)] ولعن كل شيء لهم ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩] الألد: هو الخصم الذي لا يرجع إلى حقيقة؛ لأخذه بجنبتي الحق هنا وهنا، لا يجده على العدل ولا سواء الصراط، وخصم كل شيء: نواحيه وجوانبه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨] الركز: الحس، والصوت وعيد وتهديد بالأخذ عاجلاً قبل الآجل، وهو نكال الآخرة والأولى؛ لاتصال أحدهما [بالأخرى][(٥)]، لا ترجى بعده إقالة، ولا تقبل في أثنائه توبة، نسأل الله [الثواب الحق][(٦)] التوبة وتعجيل الأوبة بما يرضيه ويزلف [عبده][(٧)].

---

(١) في النسخة (خ): «فجرًا».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «العلم».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٥) في النسخة (خ): «بالآخر».
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٧) في النسخة (خ): «عنده».

تفسير سورة طه[1]

[مكية فيها من المنسوخ ثلاث آيات]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) قوله: ﴿طه﴾ قرأ بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبي إسحاق، وأمالهما جميعًا أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش، وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ الباقون بالتفخيم، قال الثعلبي: وهي كلها لغات صحيحة فصيحة، وقال النحاس: لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين: الأولى: أنه ليس هاهنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة، والعلة الثانية: أن الطاء من موانع الإمالة، وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الكلمة على أقوال: الأوّل: أنها من المتشابه الذي لا يفهم المراد به، والثاني: أنها بمعنى: يا رجل في لغة عكل، وفي لغة عكّ، قال الكلبي: لو قلت لرجل من عك: يا رجل لم يجب حتى تقول: طه، ويروى مزايلاً وقيل: إنها في لغة عكّ بمعنى: يا حبيبي، وقال قطرب: هي كذلك في لغة طيّ أي بمعنى: يا رجل، وكذلك قال الحسن وعكرمة وقيل: هي كذلك في اللغة السريانية، حكاه المهدوي، وحكى ابن جرير أنها كذلك في اللغة النبطية، وبه قال السديّ وسعيد بن جبير، وحكى الثعلبي: عن عكرمة أنها كذلك في لغة الحبشة، ورواه عن عكرمة، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل، القول الثالث: أنها اسم من أسماء الله سبحانه. والقول الرابع: أنها اسم للنبيّ ﷺ، القول الخامس: أنها اسم للسورة، القول السادس: أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى، ثم اختلفوا في هذه المعاني التي تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة، القول السابع: أن معناها: طوبى لمن اهتدى، القول الثامن: أن معناها: طأ الأرض يا محمد، قال ابن الأنباري: وذلك أن النبيّ ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج إلى التروّح، فقيل له: طأ الأرض، أي لا تتعب حتى تحتاج إلى التروّح، وحكى القاضي عياض في «الشفا» عن الربيع بن أنس قال: كان النبيّ ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله: ﴿طه﴾ يعني: طأ الأرض يا محمد، وحكي عن الحسن البصري أنه قرأ: « طه » على وزن دع، أمر بالوطء، والأصل: طأ، فقلبت الهمزة هاء، وقد حكى الواحدي عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها: يا رجل، يريد النبي ﷺ قال: وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد ابن جبير والضحّاك، وقتادة ومجاهد وابن عباس في رواية عطاء والكلبي غير أن بعضهم يقول: هي بلسان الحبشة والنبطية والسريانية، ويقول الكلبي: هي بلغة عك. انظر [فتح القدير (٤٨٦/٤)].

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه:١ – ١٢].

قد قيل في [معنى] «طه» غير ما وجه، والأوجه في ذلك - والله أعلم بما ينزل: أن ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ و﴿الر﴾ و﴿المر﴾ و﴿كهيعص﴾ و﴿طه﴾ و﴿طس﴾ و﴿طسم﴾ و﴿حم﴾ و﴿حم * عسق﴾ و﴿يس﴾ و﴿ص﴾ و﴿ق﴾ و﴿ن﴾ واسطة بين حروف الكتاب المبين وبين حروف القرآن الكريم الذي هو كتب البشر، وهي آيات محكمات فصلها منزلها إلى ما شاء تفصيله، وكما لا يستطيع البشري أن يرفع الجبال بقوته ولا أن يصعد [إلى][(١)] السماء بأيده فكذلك لا يستطيع أن يعبر عنها بعبارة، لكن الإيمان يشير إلى تأويلها، والعقل يومئ إلى أممها بفضل الله وهدايته، والوجه فيها أنها معبرة عن أسماء الله تعالى نزلها منزلها - جل ذكره - إلى أسماء معبر عنها بكلام البشر ولغات الألسنة، ثم نزلها من كونها أسماء إلى مقتضياتها في موجودات العالم، وما عبر عنه القرآن الكريم ويفصل إليه.

قال الله ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود:١ – ٢] إلى قوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود:٤].

وقال: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الشورى:١-٣] إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًا﴾ [الشورى:٧].

وقال: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت:١-٤].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

وقال في هذه: ﴿طه﴾ [طه:١] فهو - والله أعلم بما ينزل - اسم عبر عنه قوله - جلَّ من قائل - [إلى قوله][(١)] ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٨] ومثل هذه الأسماء المعلقة في أوائل هذه السور في عمومها وتفصيلها إلى ما يتفصل إليه ما نطق به القرآن ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:١٦٣].

﴿قُلْ آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [آل عمران:٨٤] إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٤] وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧] فهذه هي الآيات المحكمات، ثم كل محكم في القرآن بعد هذا فيتصف بمحكم بحكم التبعية، وبإضافة ذلك إلى أفهامنا نحن ثم قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:٧] فهو كل متشابه في القرآن، وقد تقدم الكلام فيه، وربما قيل في هذه: «متشابهات» بالإضافة إلى علومنا بحكم التبعية، وعلى هذا الوصف الذي تقدم وإلا فقد وصفها منزلها بأنها ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:١] و[الإحكام يتعرف على طرق][(٢)] الإحكام بمعنى الإثبات واستحالة التبديل والتغيير في حقها، و[محكم][(٣)] ذكره الفقهاء بمعنى ليس بمنسوخ وهو راجع إلى الأول، وقد تقدم الكلام في الناسخ والمنسوخ، وما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز.

قوله - جل ذكره: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢] يمكن أن يكون قوله: «طه» قسمًا أقسم به؛ إذ معتمد القول [فيه][(٤)] أنها أسماء أو صفات وهو الذكر اللدني، وسيأتي ذكر هذا بعد - إن شاء الله - وعلى الجملة فإنها بشارة من الله ﷻ لرسوله المنزل عليه القرآن، ثم لعباده المؤمنين العاملين به المتذكرين به مآلهم، وأن المراد بإنزاله الحجة على من كذب وبتنزيله تذكير من تذكر، وهم أهل الخشية لله،

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «والأحكام تتعرف على طريق».

(٣) في النسخة (خ): «بحكم».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

وهم أهل العلم بالله، وأهل العلم بالله هم أولوا العمل بما في كتاب الله، أولئك هم المفلحون.

وفيه فحوى [خطابه][(١)] أن المراد منهم الرفق [بهم][(٢)] لا الإجحاف بالنفوس ولا الحمل عليها كل الحمل، إنما الطريق المستقيم في سلوك هذا الشأن طلب العلم طلبًا لا يضر بالعبادة، وطلب العبادة طلبًا لا يضر بالعلم، وقد أمر رسول الله ﷺ بالتوغل في الدين بالرفق والتيسير، وبشر بالوصول والبلوغ إلى المأمول مع القصد، ثم تفصيل ذلك أن يضر بالهوى بتوسط الصبر، ويبقي على العقل بتوسط الرفق مع العلم.

وكذلك صفة الخوف؛ إذ التوغل فيه دون رفق غير محمود الحملة؛ إذ مطالبته أقصاه إضرار بصفة الحب، فإنه وإن كان من سنة الله في عباده المؤمنين من جعله إياهم بين الخوف والرجاء، فإن زيادة الخوف [تكسب النفس نفورًا في الأغلب عمن كان الخوف][(٣)] من أجله، فمن الأدب في تناول هذه الدرجة الرفق، وحسب العبد من الخوف ما يكسبه الخشية في المواطن وما فرق بينه وبين شهواته وأضر بهواه.

وليحب الله ﷻ الحب كله، وليفرح بفضل ربه، وما أظهر وأبطن من رحمته، وليتذكر نعمه وأياديه وعظيم إحسانه وقديم امتنانه، وليغيظ نفسه جدًّا؛ لأنه عبد لمن لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] واحد أحد صمد، له المجد كله والثناء الحسن أجمع، وليصعد في حبه إلى [الله][(٤)]؛ لأنه الله لا إله إلا هو العلي الكبير، لا كفؤ له ولا [شبه][(٥)] في وجه من الوجوه ولا بمعنى من المعاني، له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وله الخلق و[له][(٦)] الأمر، وليستعن على الوصول

---

(١) في النسخة (خ): «خطاب».

(٢) في النسخة (خ): «منهم».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) في النسخة (خ): «مشبه».

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

إلى هذه المنزلة بكل سبيل أمكنه سلوكها وكل عمل ييسر له.

قوله ﷻ: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى﴾ [طه:٤] تعظيم لقدر القرآن، وقدر من أنزله، ومن [نزل][١] عليه، وقدر من أنزل إليه.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:٥ - ٦] ذكر السماوات العلا، وفي ذلك دليل خطاب أن في الوجود سماوات دنى وهي التي بين السماء الدنيا والأرض أعلم باستوائه على العرش، وهو الحي القيوم أن قد حييت به الجملة، أنه في كل مكان منها لا في مكان، ومع كل أحد بما هو وأينما كان، فهو مستوي على العرش؛ لشمول معنى العرش جميع كل مذكور من المحدثات، وأعلم بذلك أنه لا يعزب عنه من الجملة مثقال ذرة في [العلو][٢] ولا فيما تحت الثرى إلى حيث المنتهى.

و﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي: [ما][٣] لم يجهر به ﴿وَأَخْفَى﴾[٤] [طه:٧] من السر؛ [أي][٥]: ما لم يبدُ بعد في خزانة القلب من غيابات الغيب.

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٨] هذا - والله أعلم بما ينزل - وما قبله مما هو تذكير به أو يؤول إليه من الذكر الذي يفصل إليه قوله: «طه».

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا﴾ [طه: ٩ - ١٠]

---

(١) في النسخة (خ): «أنزل».

(٢) في النسخة (خ): «العالم».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) الجهر بالقول: هو رفع الصوت به، والسرّ: ما حدّث به الإنسان غيره وأسرّه إليه، والأخفى من السرّ: هو ما حدّث به الإنسان نفسه وأخطره بباله. والمعنى: إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غنيّ عن ذلك، فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى من السرّ، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول، وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف:٢٠٥]. وقيل: السر ما أسرّ الإنسان في نفسه، والأخفى منه: هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه. وقيل: السرّ: ما أضمره الإنسان في نفسه، والأخفى منه: ما لم يكن ولا أضمره أحد. وقيل: السرّ سرّ الخلائق، والأخفى منه: سرّ الله ﷻ. وأنكر ذلك ابن جرير وقال: إن الأخفى: ما ليس في سرّ الإنسان وسيكون في نفسه. فتح القدير (٤٨٨/٤).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

المعنى إلى آخره أعم [كلمته بفضل](١) من الذكر اللدني، [قوله](٢): «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» مع إضافة ذكر الرسالة والنبوة إلى ذلك؛ كقولك: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فظاهر انتظام هذا بما تقدم من ذلك، وفيه تأنيس ونص تعريض إلى مفهوم المعنى المتقدم ذكره.

قوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢] لما أتى النار رآها على ما تقرر في نفسه [أولاً](٣) فأعلم الله - جل ذكره - أنها ليست بنار بل ذاك نور، وأن مكلمه هو رب العالمين، وقال له: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره بذلك - وهو أعلم - إكرامًا للحضرة المقدسة، وربما كان فيها ما لا تجوز الصلاة به، وقيل: إنها كانت من جلد حمار ميت، وربما كان ذلك مثلاً ضربه لرسوله لمعنى أراده منه، فهو أعلم ﷻ(٤).

---

(١) في النسخة (خ): «كلمة فصل».

(٢) في النسخة (خ): «قولك».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) فائدة مهمة: ۞ النعلان فى الاصطلاح الصوفى، والمراد بقوله: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾:
لهما من الاصطلاحات الباطنة المعاني المتنوعة: المراد بخلع النعلين، تفريغ القلب من حديث الدارين، والتجرد للحق بنعت الإفراد. المراد تبرأ عن نوعى أفعالك وامح عن الشهود جنسي أحوالك، من قرب وبعد، ووصل وفصل، وارتياح واجتياح وفناء وبقاء، وكن بوصفنا، فإنما أنت بحقنا، تجرد عن جماتك واصطلم عن شواهدك. والنعلان هما الوصفان المتضادان، كالرحمة والنعمة، والغضب والرضا وأمثال ذلك وهما يرتبطان بالقدمين، فيذكر الشيخ الجيلى أن القدمين عبارة عن حكمين ذاتيين متضادين، وهما من جملة الذات، بل هما عين الذات. وأما النعلان فالوصفان المتضادان، كالرحمة والنعمة، والغضب والرضا وأمثال ذلك. والفرق بين القدمين والنعلين، أن القدمين عبارة عن المتضادات المخصوصة بالذات، والنعلان عبارة عن المتضادات المتعدية إلى المخلوقات، يعنى أنها تطلب الأثر فى المخلوقات، فهى نعلان تحت القدمين؛ لأن الصفات العقلية تحت الصفات الذاتية.
- والنعلان يذكر القاشاني فى تفسيرهما: أن الله لما خاطب موسى (إني أنا ربك) محتجبًا بالصورة النارية، التى هى أحد أستار جلالي متجليًا فيها أمره بقوله: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي: نفسك وبدنك أو الكونين؛ لأنه إذا تجرد عنهما، فقد تجرد عن الكونين، أي كما تجردت بروحك وسرك عن صفاتهما، وهيأتها حتى اتصلت بروح القدس، تجرد بقلبك وصدرك

=

عنهما بقطع العلاقة الكلية، ومحو الآثار والفناء عن الصفات والأفعال، وإنما سماها نعلين، ولم يسمهما ثوبين؛ لأنه لو لم يتجرد عن الملابس، لم يتصل بعالم القدس، والحال حال الاتصال، وإنما أمره بالانقطاع إليه بالكلية، كما قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨].

قال الشيخ روزبهان البقلي: قال ابن عطاء ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: أعرض بقلبك عن الكون، فلا تنظر إليه بعد هذا. وقال نجم الدين كبرى: أي: انزع تعلقات الكونين عن شرك الأقدس، وعن لوث التعلقات، وأرى شرك المطهر، فتارة: بقطع تعلق الدنيا الدنية الخسيسة الفانية، ومرة: بنزع تعلق الآخرة الشريفة العلية الباقية؛ فالمعنى: أنك يا موسى القلب إذا خلعت نعلي الكونين على قدمي همتك وبهمتك المتعلقة أحدهما: بالدنيا، والأخرى: بالآخرة، فقد طهرت وادي شركك عن لوث الالتفات بهما. وقال أبو سعيد النيسابوري: أي اترك الالتفات إلى الزوجة والولد، فإن النعل يعبر في الرؤيا بهما، أو اترك الالتفات إلى الكونين إنك واصل الى جناب القدس ، أو هما المقدمتان في نحو قولنا « العالم محدث وكل محدث فله محدث وموجد » وذلك أنه إذا غرق في لجة العرفان بقيت المقدمات على ساحل الوسائل.

وقال: يعني المقدمتين اللتين وصلت بهما إلى النتيجة وهو وادي قدس الوحدانية. وإنما وقع الاقتصار على الدلائل السماوية لأنها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال النفس منها إلى عظمة الله أيسر. وقال ابن عجيبة: لأنه أليق بحسن الأدب، ومنه أخذ الصوفية – رضي الله عنهم – خلع نعالهم بين يدي المشايخ والأكابر، وقيل: ليباشر الوادي المقدس بقدميه، ومنه يؤخذ تعظيم المساجد، بخلعها ولو طاهرة، وقيل: إن نعليه كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل: النعلين: الكونين، أي: فرغ قلبك من الكونين إن أردت دخول حضرتنا.

وقال أيضًا: أي: اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون. وقال الفخر الرازي: والنعلان هما المقدمتان اللتان بهما يتوصل العقل إلى المعرفة فلما وصل إلى المعرفة أمر بخلعهما، وقيل له: إنك تريد أن تضع قدميك في وادي قدس الوحدانية فاترك الاشتغال بالدلائل. وقال أيضًا: الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور فعل. وقال: هو إشارة إلى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل ما يجب تحصيله وأصول هذا الباب ترجع إلى ثلاثة : علم المبدأ وعلم الوسط وعلم المعاد ، فعلم المبدأ هو معرفة الحق سبحانه وتعالى.

وقال حقي: وهما الطبيعة والنفس امر بتركهما. وقال: يعنى همك بامرأتك وغنمك. وقال حضرة الشيخ الشهير بافتاده – قدس سره – يعنى الطبيعة والنفس.

يقول الفقير: لا شك أن المرأة صورة الطبيعة والولد صورة النفس لأن حبه من هواها غالبًا وأيضًا أن المرأة فى حكم الرجل نفسه لأنها جزء منه فى الأصل والغنم ونحوه إنما هو من المعاش التابع للوجود، فكأنه قيل: فاخلع فكر النفس وما يتبعها أيًا كان وتعال.

وقال بعضهم: المراد بالنعلين الدنيا والآخرة كأنه أمره بالاستغراق فى معرفة الله ومشاهدته

=

ثم قال له: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ لزمت البركة والقدس ذلك الوادي وما حوله؛ لينزل الله - جل ذكره - إليه وتكليمه عنده منه وتجليه [عليه][(١)].

فصل

[ذكر][(٢)] في تفسير ﴿طه﴾ أيضًا: «طه» أي: اطمئن، قرأها كذلك الحسن وعكرمة: كان الأصل «طأ»؛ أي: طأ الأرض بقدميك، ثم تبدل الهمزة هاء، وروي أن ابن مسعود قرأها: «طِه» بكسر الهاء، وروي عن ابن عباس أنه قال: [كان النبي][(٣)]

=

والوادي المقدس قُدس جلال الله وطهارة عزته.

* **قلت:** سيدنا موسى امتثل الأمر ظاهرًا بخلع النعلين، وباطنًا بخلع الكونين.

قال الهروي: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: التجريد انخلاع عن شهود الشواهد وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: تجريد عين الكشف عن كسب اليقين. والدرجة الثانية: تجريد عين الجمع عن درك العلم.

والمدرجة الثالثة: تجريد الخلاص من شهود التجريد.

قال الشيخ القاشاني: «خَلْعُ النَّعْلَيْنِ»: في مصطلح القوم، يعني به ما يفهم من باب الإشارة من قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ فتارة يكنى بخلع النعلين عن خلع الوصفين بالنفس الشهوانية والغضبية، وتارة يعني بالخلع الترقي عن كدور الحس والخيال، وتارة يعني به خلع التقييد بأحكام الحس والعقل، فإن العقل ما دام متقيدًا بالحس فهو منحجب عن الحق، وما دام الحس غير مستعد للاستضاءة بنور العقل فالنفس في حجاب عن الحقائق وبالجملة فكما أن الحس حجاب العقل عن إدراك الحقائق، فكذا العقل حجاب القلب عن كشف الحقائق، وتارة يعني بخلع النعلين إطراح الكونين أعني الدنيا والآخرة. قال الإمام الغزالي في كتاب «المشكاة»: «أول منازل الترقي إلى عالم القُدس خلع النفس كدورة الخيال والحس، ثم اطراح الكونين، أعني الدنيا والآخرة، والتوجه إلى الواحد الحق». وقال سيدي أبو بكر سالم في «معراج الأرواح»: ثبت وصح عند أهل الله خلع النعلين عبارة عن التجريد الحقيقي، وهو تجريد الحقيقة عن الكونين؛ لأن الإنسان هو حقيقة الحق متنزلاً بالتعينات إلى عالم الروح والجسم. واخلع النعلين في التجريد عنهما لتبقى الحقيقة بانفرادها مجردة عن رسوم الغيرية. [انظر: مقدمتنا لكتاب خلع النعلين لابن قسي] بتحقيقنا، ط. مصر.

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (غ): «كالنبي».

ﷺ أول ما أنزل عليه القرآن يقوم على صدور قدميه، وقيل: إن موسى ﷺ لما سمع كلام الله ﷻ استحقه الخوف حتى قام على أطراف قدميه، فقال الله - جل ذكره - له: ﴿طه﴾ أي: اطمئن وطأ قدميك، فربما - والله أعلم - أنزل الله عليه هذا القرآن في موطن من مواطنه الرفيعة، فكان مما أوحى إليه [قوله][1]: ﴿طه﴾ فتكون الطاء قد أفهمت ما أفهمته في سبيل الوحي والموحى به، ومما أفهمته «طوى» والهاء عائدة على النبوة أو الرسالة أو نفس الرسول ﷺ؛ أي: هذا [أطواك][2] أنت يا محمد كما فعلنا بموسى ﷺ.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢] كما قال لموسى: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ إنك من الآمنين، [ولا تخف][3] ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه:١٣-٢٣].

نظم بذلك قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٣ - ١٤] هذا هو الذكر اللدني وما هو في بابه، الذي أعلم به في قوله [الحق جل قوله][4]: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «طواك».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ﴾ [طه:٩٩ - ١٠١] وأمر بالاستماع إلى هذا الوحي لما فيه من العظمة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] أي: لتذكرني بذلك، وفي ذلك مفهوم خطاب بوعد حق لا مرية فيه معناه: لذكري لك؛ أي: اذكرني لأذكرك، كما قال - عز من قائل: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين يقول العبد**: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] **يقول الله: حمدني عبدي**.....»[١].

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥] من تعرف إليه في الرخاء عرفه في الشدة، أعلم بذلك أن ذكر الله - جل ذكره - هو المراد في كل وجه وعلى كل حال، وإنما أرخص في البعض من ترك إقامة الذكر؛ لإقامة حاجة البدن من أكل وشرب ونوم ونكاح ونحو ذلك، وأوجب على ذلك تسميته في أوائل هذه الأفعال وغيرها بأن يقول: «بسم الله» وعند فراغها: «**الحمد لله**» وندبه [إلى][٢] استصحاب الذكر، وأكثر التوصية جدًّا باستصحاب الذكر على كل حال بقوله لرسوليه موسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:٤٢] وقال لهذه الأمة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣] وقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:١٧] قرره على ما هو الذي في يمينه، وهو أعلم منه بذلك لما [أراه][٣] من قلبها حية تسعى، فلما تقرر عند موسى أنها عصا أنفذ فيها جل ذكره حكمه.

وقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه:١٨] يقول: أخبط بها الورق ليقع فتأكله الغنم، وقرأ مجاهد: «**وأهس بها على غنمي**» بالسين غير منقطة مع سكون الهاء، وهو صوت يسوق به الراعي الغنم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣) وقال: حسن، والنسائي (٩٠٩)، وعبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

(٢) في النسخة (خ): «على».

(٣) في النسخة (خ): «أراده».

آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَى﴾ [طه:٢٢ - ٢٣] هاتان الآيتان وإن كانتا في الآيات التسع التي تحدى بها موسى عليه السلام فرعون وقومه، فإنهما من آيات الله سبحانه [على][١] الحق، والله أعلم أن الآيات هن أكثر من التسع، فإن التسع قد نص عليهن العليم القدير أنهن إلى فرعون وقومه، وأن هاتين الآيتين وإن كان قد نزع بهما عند التبليغ إلى فرعون فإنهما آيتان أيضًا من الله - جل ذكره - إن الله هو مكلمه، ولو شاء لاكتفى بما جعل في قلبه [من اليقين والمشاهدة، لكنها سنته لموسى على أنه هو مكلمه ومخاطبه][٢].

ولو شاء لجعل في قلبه][٣] العلم الجزم [فإنه][٤] هو المكلم له، وقد كان ذلك [لا محالة لكن][٥] أجرى في ذلك سنته المعهودة، كما قال لهما - جلَّ من قائل: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى﴾ [طه:٤٤] لما كان من قضائه أن يكون [من][٦] شأن الرفق تليين الأخلاق وتسهيل الجانب، وأن المعهود: «**متى استشاط الشيطان استشاط السلطان، وإذا استشاط السلطان استشاط الشيطان**»[٧] كذلك قال رسول الله ﷺ أمره بالتلين أمرًا بالسنة على معهودها؛ ليصل إليه التبيين وتثبت عليه الحجة.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «بأنه».
(٥) في النسخة (خ): «لإيحاء له لكنه».
(٦) في النسخة (خ): «ما».
(٧) أخرجه أحمد (١٨٠١٣)، والطبراني (٤٤٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد (١٢٦٦)، والقضاعي (١٣٩٩)، والديلمي (١٢٩٧)، وقال الهيثمي (١٩٤/٤): في إسناده من لم أعرفه، وقال في (٧١/٨): رجاله ثقات.

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٢٤ – ٣٩].

﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَو أَن يَطْغَى﴾(١) [طه:٤٥] يريدان - والله أعلم - قبل أن نبلغ رسالتك، وهذا أولى بهما، وأنه من أوصله الله - جل ثناؤه - إلى رسالته وأهله إلى أن يكون سفيرًا بينه وبين عباده لا يوصف بأنه يخاف غير الله، وإنما خافا أن يعاجلهما قبل التبليغ ألا [تسمعه يقول](٢) قبل هذا، لما أعلمه بأنه مرسله سأله أن ييسره لذلك، وأن يعينه على ما أمره، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:٢٥-٢٩].

[قال](٣) المفسرون أن عقدة لسانه هذه كانت لأجل جمرة جعلها في فيه، لقصة ذكروها كانت بين فرعون وامرأته في شأن موسى عليه السلام امتحناه بها، والصحيح - والله أعلم بما ينزل - أنه كان رجلاً عبرانيًا في مجاورة القبط، [رُبِّيَ](٤) في حجورهم، فكان ظاهر لسانه لغة القبط، ثم [تغرب](٥) إلى أرض مدين، وجاور العرب فتعرب من أجل ذلك مدة سنين كان فيما هنالك.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [طه:٤٠] فكانت لأجل

---

(١) قال ابن عباس: ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ يعجل علينا بالقتل والعقوبة. يقال: فَرَطَ عَلَيْنَا فلان: إذا عجل بمكروه، وفَرَط منه؛ أي: بدر وسبق ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ يجاوز الحد بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي؛ لجرأته عليك. واعلم أن من أمر بشيء فحاول دفعه لأعذار يذكرها فلا بد أن يختم كلامه بما هو الأقوى، كما أن الهُدْهُدَ ختم عذره بقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ﴾ [النمل:٢٤] فكذا ها هنا بدأ موسى بقوله: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ وختم بقوله: ﴿أَوْ أَن يَطْغَى﴾ لما كان طغيانه في حق الله تعالى أعظم من إفراطه في حق موسى وهارون. تفسير اللباب لابن عادل (١١/١٧٠).

(٢) في النسخة (خ): «يسمعه».

(٣) في النسخة (خ): «ذكر».

(٤) في النسخة (خ): «ربيًا».

(٥) في النسخة (خ): «تعرب».

ذلك [الكنة][١] في لسانه؛ [أي][٢]: لم يكن فصيحًا في لسانهم كأخيه هارون - عليهما السلام - لأنه لم [يتقرب][٣] منهم؛ لذلك قال ﷺ: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص:٣٤] وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

ولما أكمل سؤاله من مراده قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:٣٦] ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:٣٧] سمى - جل ذكره - ما وهبه في الأولى وفي الثانية مَنًّا؛ إذ لم يكن ما أتاه من النبوة والرسالة والكرامة عنده والجاه جزاءً لعمل وبأي عمل يستوجب استئهال ذلك.

ثم جعل يعدد عليه منه في الأولى بقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:٣٨] فجعل يعدد عليه حفظه له حال غيبته عن علم ذلك منه، ودلَّ بذلك على أن وحيه إلى أم موسى كان وحيًا كاملاً رؤيا أو غير ذلك، أوحى إلى قلبها العزم في ذلك أنه الحق، والأوجه أنه الوحي المعهود لقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:٣٨] فأحال على معهود الأنبياء والوحي كما قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [يوسف:٣] وكذلك في سورة يوسف ﷺ.

قوله ﷻ: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه:٣٩] اللام: لام أمر كون؛ أي: إنَّا سنأمر اليم أن يلقيه بالساحل حيث يناله آل فرعون ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩] [أي][٤]: لتُربى وتُلاطف في حجر عدوك يسلمك بذلك من الذبح، ثم عطف على ذلك بالواو في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩] أي: على رضا مني فتذكر اسمي [على][٥] إطعامك وسقيك ونومك وإرضاعك وتناولك، وسلك بك سبيل مرضاتي في جميع شأنك، رددناك إلى أمك وعلى إرادة امرأة فرعون فيك وإرادة أمك.

---

(١) في النسخة (خ): «لكنه».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «يتعرب».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «عند».

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٠- ٤٦].

علق هذا [كله][(١)] بقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:٤٠] وذكر العين هنا يشير إلى المحبة منه له، ولا تكون هذه العبارة إلا لولي ومحبوب، وإلا فالكفار أيضًا [يصنعون على مرأى][(٢)] منه، ومثل هذا قوله في قصص السفينة، وكيف نجا فيها نوحًا ومن معه برحمة منه، فقال: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٣ - ١٤] أي: بأوليائنا وبحفظنا كما يقال: فلان عين الملك بموضع.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه:٤٧ - ٥٦].

كذا قوله تعالى فيما حكاه من قول فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «يضعون على مراء».

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٤٩ - ٥٠] كقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:٥٣] خلق الجميع على فطرة الإسلام، وأتم خلقته على ما أراده، ثم هداه إلى ما فطره عليه إلى أن أضله أبواه والشياطين والكافلون والخليط.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه:٥١] سؤال فرعون هذا يدل على محذوف كان موسى عليه السلام أجرى في المحاورة أن الله يبعث الموتى ليجزيهم بأعمالهم، فقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه:٥١] أي: إن كان حقًّا ما تقول فلِمَ لم يحييهم، كذلك قال المكذبون سؤله: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦] ثم بعد هذا محذوف في المحاورة كان موسى عليه السلام قال في محاججته: إنما يحييهم ويجمعهم ليوم القيامة.

فأجابه موسى - صلوات الله وسلامه عليه - بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] وقيل: هذا من جواب موسى عليه السلام محذوف مقدر، وكان فرعون - لعنه الله - قال لموسى جوابًا عن قوله: الله يجمعهم ويحييهم، وأجل ذلك إلى يوم القيامة، قال له: وقد ضلوا في التراب وعادوا غبارًا وأرضًا، وتصرفت الأرض بهم نباتًا وحيوانًا، وانتقل النبات والحيوان غذاء [للمغذين](١) بذلك، ثم عاد ذلك ترابًا في التراب، ثم كذلك أيضًا تتناسخ الأبدان نباتًا وحيوانًا وأرضًا، [وحيوانًا وأرضًا](٢) وحجارةً وحديدًا إلى غير ذلك.

أجابه موسى عليه السلام عن ذلك كله بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ و[عن](٣) تمييز الذوات ووجود الموجودات وسبلها في مسالكها، كيف لا وهو الذي أسلكها في سبلها [تلك](٤) كذلك يسلكها [أيضًا](٥) مرة أخرى في إعادتها، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟.

---

(١) في النسخة (خ): «المقتدين».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) في النسخة (خ): «ولا عن».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

جمع ذلك كله قوله: ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ عن سبلها التي أسلكها عليها [أولاً][(١)] ﴿وَلَا يَنسَى﴾ صورها التي أحالها عنها في تصريفه إياها إلى سواها، كالماء أحاله إلى نبات، والنبات أحاله إلى حيوان بواسطة الغذاء، والحيوان أحاله إلى حيوان غيره، فهو لا ينسى صور [الموجودات التي][(٢)] أحالها إلى ما أحالها إليه، وإن طال ذلك وكثر تناسخ الأجسام وإحالة الصور لا يضل في تداخل سبل ذلك وطول آمادها. فافهم.

كما قال الله - جلَّ من قائل - حين قالوا: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦] فأجابهم: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٦] [ثم استمر على تبليغ ما أرسل به والنبيين عن ربه ﷻ بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه:٥٣] هذه آية على إثبات النبوة والرسالة.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ [طه:٥٣ - ٥٤] فكان في هذا جوابه عما استعظمه من إعادة من صار ترابًا، ثم حول إلى خلق بعد خلق إلى يوم القيامة][(٣)].

ثم قال ﷻ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] هذه دلالة على الإحياء من بعد الموت.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه:٥٤] هذا إخبار عن جمعهم في إخراجهم إلى هذه الدار من خزائن السماوات والأرض في الأجواء والهواء بالرياح والماء إلى الأرض، ثم من الأرض في النبات والحيوان، وهذه أوائل النشأة الأولى، وآية على [النشأة الأخرى][(٤)]، أفمن اقتدر على جمعهم بعدما قد كان أماتهم [وبثهم][(٥)] في غيابات السماوات والأرض والهواء والأرض فجمعهم جمعًا وأوجدهم أجسامًا

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «موجودات».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «الإنشاء الآخر».
(٥) في النسخة (خ): «وهم».

وذواتًا يعجز عن إعادتهم وتمييزهم بعدما قد ضلوا في الأجواء والهواء وغيابات السماوات والأرض وموجودات الدنيا من حيواناتها ونباتها، وهو الذي أضلهم فجمع ذلك كله ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى﴾ وهو الآن الخلاق أبدًا على الدوام يعدم ويخلف إبقاءً وإعدامًا ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ثم عبر عن كونهم قد ضلوا في غيابات السماوات والأرض بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾(١) [طه:٥٦] يعني - وهو أعلم: التسع الآيات، وعطف بالواو على ما تقدم وصفه من تبيين الآيات بالمحاجة، قوله: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه:٥٦] كذب؛ أي: لم يؤمن، وأبى من أن يطيع.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ

---

(١) هذا إخبار من الله تعالى لمحمد ﷺ وهذا يدل على أن قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ إنما هو خطاب له ﷺ ﴿أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ هي المنقولة من «رأى» البصرية، ولذلك تعدت إلى اثنين بهمزة النقل و«آياتنا» ليس عامًّا؛ إذ لم يُره تعالى جميع الآيات، وإنما المعنى آياتنا التي رآها، فكانت الإضافة تفيد ما تفيده الألف واللام من العهد. وإنما رأى العصا واليد والطمسة وغير ذلك مما رآه فجاء التوكيد بالنسبة لهذه الآيات المعهودة. وقيل: المعنى: آيات بكمالها، وأضاف الآيات إليه على حسب التشريف، كأنه قال: آيات لنا. وقيل: يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم، وهو نبي صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به. تفسير البحر المحيط (٨٧/٨).

أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٥٧ - ٧١].

ولما انقطع عن جداله نكس على رأسه فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٧ - ٥٨].

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٧٢ - ٨١].

ثم كذلك من قصصه الحق - جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - كما تقدم في غير هذه السورة، إلى قوله: [﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ثم كقوله][(1)]: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه:٨٠ – ٨١].

[يقول – جلَّ من قائل: واشكروا لي فتصيروا إلى حياة هي أفضل، ورزق هو أكرم وحال عليه ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه:٨١](١) ما قال شيئًا قط إلا هو كائن لا بد ولا محالة وإن تراخت المدة وبعد الأمر.

لذلك قال موسى عليه السلام يوم اتخذوا العجل إلهًا من دون الله عز وجل ورجع إليهم ﴿غَضْبَانَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًا﴾ حزينًا [لهم](٢) من تأخرهم وحلول المحذور المنذور به بساحتهم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٠] أي: فيما أنذركم به من غضبه عليكم.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه:٨٢ – ٨٧].

وقال في هذه: يا قوم ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه:٨٦] إلى آخر القصة، وقد تقدمت إشارات إلى معانيها قبل هذا.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه:٨٨ – ٩٧].

ثم ذكر قصة السامري إلى قوله: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[١] [طه:٩٧] قيل في ذلك: إن موسى ﷺ نهى بني إسرائيل ألا يؤاكلوه ولا يخالطوه، فإن كان موسى ﷺ قد فعل ذلك فليس الإخبار عن هذا هو مقصود الآية، وأيضًا فإنه قال له: «اذهب فإن لك» وهذا لا يقال إلا لمن أعطي ما هو مرغوب له، وقيل أيضًا: إنه عنى بذلك حوشية تجعل فيه، فلا يصحبه أحد؛ لأنه لا تطيب له صحبته، بل ينكره ويتقزز منه.

وفي هذه [الأمة من][٢] هو في سبل هذا يدعون بـ«النكارية»، وقيل: إنه له نسلاً على مثل ذلك من حاله، وهذا أيضًا [يوضح][٣] أنه ونسله كذلك، فهو ليس بمقصود [الأنبياء][٤] - والله أعلم بما ينزله - وأرى والله أعلم أنها من الله نظرة في

---

(١) وقرأ الجمهور: «لا مِسَاس» بفتح السين والميم المكسورة، و«مساس» مصدر ماس، كقتال من قاتل، وهو منفي بـ«لا» التي لنفي الجنس، وهو نفي أريد به النهي؛ أي: لا تمسني ولا أمسك. وقرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقعنب بفتح الميم وكسر السين. فقال صاحب «اللوامح»: هو على صورة نزال ونظار من أسماء الأفعال، بمعنى: أنزل وأنظر، فهذه الأسماء التي بهذه الصيغة معارف، ولا تدخل عليها «لا» النافية التي تنصب النكرات، نحو: «لا مال لك» لكنه فيه نفي الفعل، فتقديره: لا يكون منك مساس، ولا أقول: مساس، ومعناه: النهي؛ أي: لا تمسني. انتهى. وظاهر هذا أن مساس اسم فعل. تفسير البحر المحيط (٨/ ١١٤).

(٢) في النسخة (خ): «الآية ممن».

(٣) في النسخة (خ): «واضح».

(٤) في النسخة (خ): «الأبناء».

[حال][١] الدجالية أنظره فيها إلى يوم يأذن الله في خروج الدَّجال - لعنه الله - لذلك، وهو أعلم.

قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه:٩٧] وقد تقدم ذكره قبل هذا.

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه:٩٨-١١١].

قوله - جلَّ من قائل: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩] وكان الذي قص عليه نبأ موسى وفرعون؛ أي: كما نقص عليك نبأ موسى وفرعون بالحق كذلك غيره، والخطاب على [عمومه][٢]، قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩] هذا - والله أعلم - منتظم بما في صدر السورة من الذكر اللدني، وقوله قبل هذا: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨] إلى قوله: ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:١١١] وكذلك ما كان من قبل هذا من الذكر اللدني، وانتظم المعنيان في قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ

(١) في النسخة (خ): «حاله وهي حالة».

(٢) في النسخة (خ): «عمومية».

عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩] [بالمعنى][(١)] الذي في صدر السورة في تأويل طه، ومعنى الذكر اللدني بالوجه الأول في تأويلها.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه:١١٢-١١٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه:١١٣] منتظمًا بما في المعنى الذي هو أحد الوجهين، يقول - وهو أعلم: كما أنزلنا على موسى التوراة والهدى والنور والفرقان ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه:١١٣] [هي الدرجة الرفيعة][(٢)] من الإيمان والعمل بها أو يحدث لهم ذكرًا [للدرجة][(٣)] التي لعموم المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه:١١٤] عما قاله فرعون وأتباعه وما قاله السامري وأشياعه، وعز أن يبخس أحدًا من حقه أو يخلف من وعده، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه:١١٤] هذا متصل بما جاء من حرصه على تلقي القرآن واستعجاله ذلك وتحمله المشقة، حتى قيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة:١٦] وقيل له: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه:١ - ٢].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] أمر الله عباده أن يسألوه المزيد من نعمته، ولا نعمة أفضل من العلم ولو بلغ منه ما عسى [أن يبلغ][(٤)]، وأين يقع علم ذي علم

---

(١) في النسخة (خ): «فالمعنى».

(٢) في النسخة (خ): «يعني الدرجة العليا».

(٣) في النسخة (خ): «الدرجة الدنيا».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

من العباد من علم سيد البشر، وقد أمره بذلك، ولقد جاء عن عيسى ﷺ أن فيما أوحى الله إليه [به: يا عيسى][1] إن بين يديك لمفاوز من معرفتي ما قطعتها بعد.

فصل

الذكر اللدني يعلم فيما ها هنا بالإضافة إلى ما سواه، فما كان من وصف الألوهية والوحدانية والربوبية، وذكر الأسماء الحسنى والصفات العلا وأوصاف النبوة والرسالة، فهذا مع الإضافة إلى ذكر الأحكام والقصص هو الذكر اللدني، كما أن علم الخضر ﷺ هو العلم اللدني بالإضافة إلى علم الشرائع، وتمييز الحلال [من الحرام][2]، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨] فمواقع اختياره في المخلوقات [وأثارات الخيرات][3] في عواقب تدبيره هو العلم اللدني، بالإضافة إلى ما دونه لذلك، وهو أعلم.

قال - عز من قائل: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ﴾ [طه:١٠٠ - ١٠١] وقرأ داود بن رفيع: «**يحمل يوم القيامة وزرًا**».

قوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٣ - ١٠٤] التخافت بالقول: الإخفاء به، يسرونه في أنفسهم ويقولونه فيما بينهم.

فصل

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥١ - ٥٢] وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَو ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦] وقال في هذه السورة: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٤] فقرب من الصواب من قال: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ وغلب قوله هذا على قول من قال: «**إن لبثتم إلا عشرًا**».

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «والحرام».

(٣) في النسخة (خ): «وأمارات الخير».

وجاء: «**أن آل فرعون يعرضون على النار بكرة وعشية، فإذا رأوها قالوا: ربنا لا تقوم الساعة**»[(١)] وكذلك غيرهم يعرضون على منازلهم من النار، وقال الله ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: مقدمون إليها.

ثم استمر على ذلك بقوله: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: في دار البرزخ، ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣] يعني: في الآخرة، والحديث الذي جاء فيه: «**أن رسول الله ﷺ مرَّ فيما أريه بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقال: من هؤلاء؟ قيل: هؤلاء خطباء أمتك، ومر على من يشرشر شدقاه، وآخر يثلغ رأسه، فقال في الذي يثلغ رأسه: إنه كان ينام عن القرآن بالليل ولا يعمل به بالنهار...**»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ في حديث لقيط بن عامر وذكر البعث: «**فخلت الأرض فأرسل ربك بهضب من تحت العرش، ولعمر إلهك ما يدع على ظهرها من مدفن أو مصرع قتيل إلا شقت القبر عنه، حتى يخلقه من قبل رأسه ويستوي جالسًا، يقول ربك تعالى: مهيم، فيقول: أي رب بالأمس لعهده بالحياة يحسبه حديثًا بأهله**»[(٣)] فمن يكون في عذاب وروعات، وعرض على منزله من النار بكرة وعشية، كيف يقول حين يسأل حال بعثه من تلك الحال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة:٢٥٩] وقرب الله سبحانه من الصواب قول من قال: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٤] الله الحق ووعده الحق وقوله الحق، وهو أعلم بما قال.

أرى - والله أعلم بما ينزل - أن للموتى حقيقة يحسون بها بما هم فيه من عذاب وخزي وهون؛ لينالوا بذلك ما هم بصدده طول مدة البرزخ، آية ذلك كونهم

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٣٧/١).

(٢) لم أقف عليه هكذا، وإنما أخرجه بنحوه الطيالسي (٢٠٦٠)، وأحمد (١٢٢٣٢)، وعبد بن حميد (١٢٢)، وأبو يعلى (٣٩٩٦)، والطبراني في الأوسط (٨٢٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣٨٦/٢)، والضياء (٢٦٤٦) وقال: إسناده صحيح، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٦)، والبيهقي (٤٩٦٧)، قال الهيثمي (٢٧٦/٧): أحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه الحاكم (٨٨٣٤)، وأحمد بنحوه مطولاً (١٦٦٣٥)، وابن خزيمة في التوحيد (٢٤١)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٥٧/٣).

حال حياتهم الدنيا أمواتًا عن حقيقة الحق المخلوق به السماوات والأرض، حتى جهلوا خلقتهم وجبلتهم وما فطروا عليه مع كونهم أحياء مكلفين، وأنهم ليرجعون إلى بعض تلك الحقيقة عند [اضطرارهم][١]، ثم إذا رفعه عنهم لا يستفيقون، فهم على ذلك أموات لا يرون الآيات، ولا يشاهدون ولا يشهدون مع الشاهدين، ولا يتكلمون بالحق ولا يعقلونه ولا يتحركون إليه.

ولهم أيضًا في البرزخ حقيقة يكونون بها أمواتًا، فلا يعقلون ما هم فيه، فبحقيقة ما هم [به][٢] يحسون ويعقلون ما يصيبهم يقولون: «**ربنا لا تقوم الساعة**»[٣] آية ذلك رجوعهم في الدنيا حال اضطرارهم إلى ربهم الحق، وبحقيقة ما هم بها أموات لا يعقلون ما هم فيه، ولا يذكرون طول الأمد، كالذي جاء عن بعض الأنبياء - على جميعهم السلام - الذي جعله الله للناس آية ﴿**فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ قال الله له - عزَّ من قائل: ﴿**بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ**﴾ [البقرة:٢٥٩].

فلأنهم كانوا في الدنيا لا يذكرون الرجعة والبعث ولا ما هنالك، ينسون ذلك ولا يذكرون طول مدة البرزخ ولا شدة ما أصابهم، كما أعماهم بجهلهم عن رؤية اقتدار الله - جل ثناؤه - على إعادتهم وجمعهم من غيابات البلاء، كما كان قد جمعهم من غيابات خزائن السماوات والأرض أول مرة، ولذلك أضلهم ما هم عليه يوم يسألهم عما كانوا به يشركون بقولهم: ﴿**وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام:٢٣].

وعن هاتين الحالتين عبَّر ﷻ بقوله: ﴿**سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ**﴾ [الجاثية:٢١] وبقوله: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء:٧٢] ويوم البرزخ من يوم الآخرة فهو فيهما أعمى، وهو في الدار الآخرة أضل سبيلاً بقولهم: ﴿**وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام:٢٣] وهاتان الحالتان من

---

(١) في النسخة (خ): «اضطراراتهم».

(٢) في النسخة (خ): «بها».

(٣) تقدم تخريجه.

عجيب أمر الله ﷻ.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ يقول الله - جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] أي: في الدنيا عن هديتهم، فجعل تأفيكهم هنا آية على تأفيكهم فيما هنالك، فتفهَّم فسبحان العليم القدير مصرفهم ومدبرهم كيف يشاء لما كذبوا الحق الواضح في الدنيا، وكفروا به وانتحلوا الإشراك ملة، ولم يقولوا الحق ولا شهدوا به مع تبين الآيات، وشهادة أشهاد جميع الخليقة وماتوا على ذلك حيوا إلى الآخرة على ذلك من كذبهم مع حقيقة المعاينة.

لذلك عجَّب الله [رسوله][(١)] ﷺ والمؤمنين من عظيم اقتداره على حقيقة الإماتة والإحياء، وإدخال الحياة في الموت وإدخال الموت في الحياة، كما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وأوجد اليقظة حال النوم والنوم حال اليقظة، فقال - عز من قائل: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤] ثم يجتمع الوجهان المذكوران أنهم يقولون ذلك بحقيقة الموت، ويحسون ما يحسونه بحقيقة الحياة.

وأمَّا قوله في سورة المؤمنين: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤] فإن اليوم في هذه [الحياة][(٢)] مركب من سنين، وقد تقدم فيما مضى أن اليوم قد يكون سنة، ويكون سبع سنين، ويكون تسعًا وأربعين سنة، ويكون ثلاثة وثمانين سنة وثلاث سنين، وهي ألف شهر، ويكون خمسمائة سنة، ويكون سبعة آلاف سنة، ويكون كألف سنة، ويكون خمسين ألف سنة.

وأمَّا المؤمنون أهل العلم فهم الصادقون الذاكرون، الأحياء حقيقة في الدنيا وفي الآخرة وفيما بينهما، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا

(١) في النسخة (خ): «ورسوله».
(٢) في النسخة (خ): «الآية».

غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ثم قال: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] كما قال: ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية:٢١].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦] فأعلمنا نصًّا [صريحًا](١) بأنهم كانوا في حال لبثهم في البرزخ لا يعلمون كما قد أعلمنا بحقيقتهم الأخرى في قوله الحق، وقد ذكر اليوم الآخر: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور:٤٦] ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧].

قوله - جل ثناؤه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا....﴾ [طه:١٠٥ - ١٠٦] نسفها يومئذٍ تسييرها، يجعلها كالعهن المنفوش وكالكثيب المهيل، ثم يسلط عليها الرياح فينسفها بها، ويستوي بما ينسف منها أودية الأرض وبطونها وكل مطمئن منها ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: مستويًا، فتكون بذلك بارزة، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، والهمس: هو الصوت الخفي.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: التقوى الأعلى ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾(٢) [طه:١١٣] التوبة الأدنى التي يتخللها السقوط في الذنوب ثم التوبة.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ [طه:١١٤] منتظم بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢] يقول - جلَّ من قائل: ﴿فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ [طه:١١٤] عن الحيف والظلم، ويكون أيضًا مع

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ﴿يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: عظة وفكرًا واعتبارًا. وقال قتادة: ورعًا. وقيل: أنزل القرآن ليصيروا محترزين عما لا ينبغي ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يدعوهم إلى الطاعات، وأسند ترجي التقوى إليهم وترجي إحداث الذكر للقرآن؛ لأن التقوى عبارة عن انتفاء فعل القبيح، وذلك استمرار على العدم الأصلي، فلم يسند القرآن، وأسند إحداث الذكر إلى القرآن؛ لأنه أمر حدث بعد أن لم يكن، والظاهر أن «أو» هنا لأحد الشيئين. قيل: أو كهي في جالس أو ابن سيرين؛ أي: لا تكن خاليًا منهما. وقرأ الحسن: «أو يحدث» ساكنة الثاء. وقرأ عبد الله ومجاهد وأبو حيوة والحسن في رواية والجحدري وسلام: «أو نحدث» بالنون وجزم الثاء، وذلك حمل وصل على وقف أو تسكين حرف الإعراب استثقالاً لحركته. تفسير البحر المحيط (١٢٢/٨).

هذا راجعًا إلى ما نسبه إليه السامري وفرعون وأتباعهم.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥﴾ [طه:١١٧-١٢٥].

قوله - عزَّ من قائل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣] لا يضل من اتبع الكتاب والرسل، وما جاء من عند الله - جل ذكره - ولا يشقى في الآخرة، وربما نظم الله له العافية من الشقاء في الدنيا مع الآخرة، ويدخل في الآخرة يوم البرزخ.

عطف على ذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] أي: في الدنيا بعدم الهداية، وهذا أكثر ما يتصور في العصاة المليين، كما قال الحسن: إنهم وإن دقدقت بهم الهماليج، ووطئ الناس أعقابهم أن ذل المعصية لفي رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، ثم المعيشة الضنك للعصاة والكفار معًا في دار البرزخ.

ثم قال: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٤] أي: لا حجة له ولا علم عنده، وربما أتم عليه العمى ظاهرًا كما أعماه في الدنيا باطنًا، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي

مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى
١٢٩ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ
فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ
نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي
ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا
رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ
مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ [طه:١٢٦-١٣٥].

نص على الوجهين بقوله الحق: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أي: في العصيان ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ هذا للكافر هذا في البرزخ، ثم قال: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧] [ثم على حكم التدريج من مسرف أكبر ومسرف أصغر إلا ما شاء من عفو عن الملأ](١).

قوله - جل ذكره: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ أي: لكان العذاب لزامًا، تقدير الكلام: ولولا كلمة سبقت من ربك ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:١٢٩] لكان العذاب الآن لزامًا ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ في هذا تعريض لصلاة الليل وصلاة الضحى، دلَّ على ذلك قوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:١٣٠] وقرئ: «**لعلك تُرضى**»(٢) من أرضى ربه أرضاه.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) قرأ الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر (ترضى) بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله، والباقون بالنصب يعني: ترضى أنت؛ وقال أبو عبيدة: وبالقراءة الأولى نقرأ بالضم؛ لأن فيها معنيين أحدهما ترضى أي: تعطى الرضا، والأخرى ترضى أي يرضاك الله. [بحر العلوم للسمرقندي (١١٧/٣)].

نظم ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نصب زهرة على الذم، دلَّ على ذلك قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١] هو ما ذكره في صدر السورة ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:٢ - ٣] إلى آخر المعنى، فما رزقه من القرآن والعلم به والمعرفة والعمل بطاعته خير له وأبقى.

ويكون أيضًا انتظامه بما يقابل قول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:٧١] نظم بذلك قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا...﴾ [طه:١٣٢] أمره ﷻ رسوله ﷺ بأن يأمر أهله بالصلاة أمره لمن تبعه، قال رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...**»[1].

وضمن الله - جل ذكره - رزق عبده على العمل بطاعته، ووعد على التقوى بالعاقبة، فمفهوم هذا الخطاب أنه من شغل نفسه بطاعة ربه فعلى ربه رزقه، قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ - ٣] وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] واعلم مع ذلك أن هذا أمره؛ أي: شأنه أنزله إلينا وأعلمنا به بقوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق:٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:١٣٣] روى ورش عن يعقوب أنه قرأها: «**أو لم يأتهم بينة ما في الصحف الأولى**» بالياء؛ يعني: القرآن، وهو أعلم.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا تأويله ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه:١٣٥] السوي: المستقيم، وهو صراط الإسلام، وهو الحق المخلوق به السماوات والأرض، فافهم.

وقرأ ابن عباس: «**الصراط السَّوْء**» وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم: «**الصراط السُّواء**» بضم السين وإسكان الواو والمد والهمز على تأنيث الصراط، وقد روي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٨) ومسلم (١٨٢٩) وأبو داود (٢٩٢٨) وأحمد (٤٤٩٥) والترمذي (١٧٠٥).

عنهما: «السوّي» بغير همزٍ وتشديد الواو، فعلى هذا فمعناه: [وستعلمون][1] من أصحاب الضلال، ومن أصحاب الهدى[2].

(١) في النسخة (خ): «سيعلمون».

(٢) حكى عن الفراء الصراط السوي فيه خمس قراءآت الأولى: على فعيل أي المستوى، والثانية: السواء أي الوسط، والثالثة: السوء بفتح السين بمعنى النشر، والرابعة: السوءى وهو تأنيث الأسوأ وأنث على معنى الصراط، أي: الطريقة كقوله تعالى: (استقاموا على الطريقة) والخامسة: السوي على تصغير السوء. [التبيان في إعراب القرآن للعكبري (٢/١٢٩)].

فهرس المحتويات

تفسير ابن برّجان

المسمّى

تنبيه الأفهام إلى تدبُّر الكتاب الحكيم وتعرُّف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برّجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

المجلد الرابع
أول سورة الأنبياء - آخر سورة الزمر

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برّجان

تنبيه الأفهام
إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برّجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الرابع

أول سورة الأنبياء - آخر سورة الزمر

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : تفسير ابن برَّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMĀ
TANBĪH AL-AFHĀM ILA TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف: الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برَّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages (5 Volumes)	2880	عدد الصفحات (5 مجلدات)
Size	17* 24 cm	قياس الصفحات
Year	2013 A.D. -1434 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st (2 colors)		الطبعة : الأولى (لونان)

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-7763-6
ISBN 2-7451-7763-X

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأنبياء(١)

(١) مكية بلا خلاف، وعن عبد الله: الكهف، ومريم، وطه، والأنبياء من العتاق الأول، وهن من تلادي أي من قديم ما حفظت وكسبت من القرآن كالمال التلاد، ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ قال مشركو قريش: محمد يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال وليس بصحيح، وإن صح ففيه بعد فأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ و﴿اقْتَرَبَ﴾ افتعل بمعنى الفعل المجرد وهو قرب كما تقول: ارتقب ورقب، وقيل: هو أبلغ من قرب للزيادة التي في البناء، والناس مشركو مكة، وقيل: عام في منكري البعث، واقتراب الحساب اقتراب وقته والحساب في اللغة إخراج الكمية من مبلغ العدد، وقد يطلق على المحسوب وجعل ذلك اقترابًا؛ لأن كل ما هو آت وإن طال وقت انتظاره قريب، وإنما البعيد هو الذي انقرض أو هو مقترب عند الله كقوله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أو باعتبار ما بقي من الدنيا فإنه أقصر وأقل مما مضى، وفي الحديث: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، و﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق باقترب، وقال الزمخشري: هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب، أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم كما تقول أزف للحي رحيلهم، الأصل أزف رحيل الحي ثم أزف للحي رحيلهم ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثنى فيه المستقر توكيدًا عليك زيد حريص عليك، وفيك زيد راغب فيك ومنه قولهم: لا أبا لك لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة، وهذا الوجه أغرب من الأول، يعني بقوله صلة أنها تتعلق باقترب، وأما جعله اللام تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم مع تقدم اللام ودخولها على الاسم الظاهر فلا نعلم أحدًا يقول ذلك، وأيضًا فيحتاج إلى ما يتعلق به ولا يمكن تعلقها بحسابهم؛ لأنه مصدر موصول ولا يتقدم معموله عليه، وأيضًا فالتوكيد يكون متأخرًا عن المؤكد وأيضًا فلو أخر في هذا التركيب لم يصح، وأما تشبيهه بما أورد سيبويه فالفرق واضح لأن عليك معمول لحريص، وعليك الثانية متأخرة توكيدًا وكذلك فيك زيد راغب فيك يتعلق فيك براغب، وفيك الثانية توكيد، وإنما غره في ذلك صحة تركيب حساب الناس، وكذلك أزف رحيل الحي فاعتقد إذا تقدّم الظاهر مجرورًا باللام وأضيف المصدر لضميره أنه من باب فيك زيد راغب فيك وليس مثله، وأمّا لا أبا لك فهي مسألة مشكلة وفيها خلاف، ويمكن أن يقال فيها ذلك لأن اللام جاورت الإضافة ولا يقاس على مثلها غيرها لشذوذها وخروجها عن الأقيسة، وقد أمعنّا الكلام عليها في شرح التسهيل والواو في =

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن
رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ
ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟
خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً
وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا
تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:
١ - ١٥].

قوله - جلَّ من قائل: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] ذكر اقتراب الحساب عبارة عن اقتراب [الأجل][(١)] من موت أو عقاب على سوء عمل أو اقتراب الساعة.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ

=

﴿وَهُمْ﴾ واو الحال. [تفسير البحر المحيط (١٣٨/٨)].

(١) في النسخة (خ): «الآجال».

أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨] وظهور نبي الله ﷺ من أشراطها.

وقال - عز من قائل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١] وما هو آتٍ فكأن قد يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦ - ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] تقدير الكلام: «وإن ألف سنة مما تعدون عند ربكم كيوم من أيامكم» والغفلة عن ذلك والإعراض عنه إنما يكون عن قلة التفكر، وعدم المبالاة بما مضى من العمر.

ومن المعهود المقطوع عليه أن الموت لم يثبت له موعد علمناه يأتي فيه، مصيفًا دون شتاء، ولا شتاء دون مصيف، ولا يوم من الأيام معلومًا، ولا نهارًا دون ليل، ولا ليلاً دون نهار، ولا ساعة دون ساعة، إنما هو عدَّ الأنفاس والأعمال، ثم يأتي على غير موعد تقدم لنا به علم، وهو الموت بغتة، وبعد هذا الخطر العظيم، والهول الجلل ندم لا ينصرم، وشقاء لا يبيد؛ لعثرة الأثقال، وأمنية لا تنال، هذا لو كان أمد العمر ينقضي على هيبته، فكيف بعوارض الأسباب المهلكة لآجال دون ذلك لآماد عند الله [مؤقتة][١] في أمِّ الكتاب؟ يحدث على الأغلب على الإقامة على ما لا يرضي الله - جل ذكره - ويكون هذا من الجزاء العاجل.

فصل

[اجتملت][٢] هذه السورة على معاني جمة ترجع إلى ما هي أصول لها منها: أمر بتذكر، وحض على ذكر وتوبة، وتحذير من غفلة وإعراض، وإعلام بعواقب ذلك وجزائه [احتملت][٣] كلها إلى قوله: ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:٣].

قوله ﷻ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:٢ - ٣] الذكر هنا هو القرآن لنا، والكتب قبله لمن كان قبلنا.

وقرأ ابن أبي عبلة: «محدثًا» و«محدثٌ» على الثلاثة الأوجه، ومعنى ذِكر

---

(١) في النسخة (خ): «موفية».

(٢) في النسخة (خ): «احتملت».

(٣) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

[الحدث][١] هنا: حدوث تنزيله، وإنزاله من عند الله ﷻ، وأمَّا من حيث هو كلام لرب العالمين فهو قديم لم يزل.

وقوله: ﴿اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً﴾ [الأنبياء:٢ - ٣] قاربت هذه الصفة صفاتنا، بل حققت وصف ما نحن عليه، أن الله - جل ذكره - قد وصفهم بالاستماع، ولم يصف الكافرين بذلك، بل قال فيهم: «إنَّهم كانوا لا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» وقال: ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧] وما أرى [والله أعلم][٢] إلا أن الله أنذر بما أصابنا، وأكثر أهل زماننا، وإنما يستمع الصوت بالتلاوة لا المعنى المراد [منه][٣]؛ لتخير الأصوات [وننتقد المتغمين][٤].

وذلك يلهي القلوب عن فهم الخطاب والتفطن ليس المراد، فإذا لهت القلوب لم تتخلص إليها أرواح المعاني، لا سيما الكلام المعبر عن كلام رب العالمين الذي هو الحق والوحي؛ لعزة المعنى وعظمة كلام رب العالمين، وتعاليه عن [التنزيل][٥] إلى قلوب الغافلين والمعرضين.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٥] وإذا انشحنت الصدور لهوًا، وغلب على القلوب الهوى، فالتغني زائد في دأبها، وتحسين الأصوات أقوى لشقائها؛ لأن التغني وتحسين الأصوات يثير ما هو [كائن][٦] في النفوس، ومن صفاتها: الإصغاء للهوى وإن قادها إلى الردى، ولذلك ما كره الغناء لها، ولا وأكثر القلوب اليوم مشحونة بالباطل مملوءة لهوًا وهوى.

وأمَّا الترتيل فهو يثير الفهم، وبالفهم يكون مزيد اليقين، وحقائق العلوم وعن

(١) في النسخة (خ): «الحدوث».
(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «به».
(٤) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «التنزل».
(٦) في النسخة (خ): «كامن».

مزيد الإيمان يكون الوقار والحلم [وحسن][(١)] السمت؛ لأن الإيمان من الله، والله هو الحق، ولاتصاله بنور الفطرة [أثار][(٢)] كامنها، وكشف عن مكنونها، فانجلت عن بصيرة القلوب غياهب غفلتها، وانزاح عنها ما تعلق بها من لهوها؛ لحلول النوم ساحة القلوب، واستواء الحق المغروز في جبلته على كرسي الصدر، فهذا هو المتوجه إليه قول رسول الله ﷺ: [«**زينوا القرآن بأصواتكم**»][(٣)].

وعن [...][(٤)] كان وصف رسول الله][(٥)]: «**ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن**»[(٦)].

وقوله ﷺ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»[(٧)].

فليس القرآن بقرآن في حق من لها عنه، وليس من النبيين في شيء من حيث الإنباء والنبوة من لم يتفهم القرآن، ولا رفع بما جاء به رأسًا، ولا يتسمع الله لهذا، فإنه الحق ولا يقبل إلا على الحق - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - وفي حق هؤلاء يكون التغني بالأشعار الحكمية حسنًا، فإن ذلك يؤيد حزب الحق في دولتهم، ويثير كامنه في ساحات صدورهم، ولهذه العلة مالت النفوس من هؤلاء وهؤلاء إلى إظهار ما فيها، والتعريف بما غلب عليها؛ لأنه كالشكوى، والمعهود من راحته.

---

(١) في النسخة (خ): «فأحسن».

(٢) في النسخة (خ): «آثار».

(٣) أخرجه النسائي (١٠١٥)، والطيالسي (٧٣٨)، وأحمد (١٨٥١٧)، وعبد الرزاق (٤١٧٥)، وابن أبي شيبة (٨٧٣٧)، والدارمي (٣٥٠٠)، وأبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجة (١٣٤٢)، وأبو يعلى (١٦٨٦)، وابن خزيمة (١٥٥٦)، وابن حبان (٧٤٩)، والروياني (٣٥٣)، والحاكم (٢٠٩٨)، والبيهقي (٢٢٥٤)، والبغوي في الجعديات (٢٠٧٧).

(٤) غير واضح في (خ).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٦) أخرجه البخاري (٧٠٤٤)، ومسلم (٧٩٢)، وأبو داود (١٤٧٣)، والنسائي (١٠١٧)، وابن حبان (٧٥٢)، وعبد الرزاق (٤١٦٧)، وأحمد (٩٨٠٤).

(٧) أخرجه البخاري (٧٠٨٩) والبيهقي (٢٠٨٣٥) وعبد الرزاق (٤١٧٠) وابن أبي شيبة (٢٩٩٤٢) والطيالسي (٢٠١) وأحمد (١٥٤٩) والدارمي (١٤٩٠) وأبو داود (١٤٦٩) وابن حبان (١٢٠) والحاكم (٢٠٩١) والضياء (٩٧١) وأبو داود (١٤٧١) وابن قانع (٩٧/١) والطبراني (٤٥١٤) والبزار (٢١٩٢)، والخطيب (٣٩٥/١).

وعلى هذا فالتدبر للأشعار التي هي [الحكم][(١)] تولد العلم، وتزيد في معرفة ما المراد بها، ثم الغناء وتحسين [الصوت][(٢)] يثير الكامن فيها كما تقدم، ومن أجل ذلك ربما هامت النفوس وتواجدت؛ لأنها مغلوبة، ولما كان العقل والإيمان موضع العلم واليقين كان العلم يجل العلم ويبجله والإيمان إلى الوقار، وحسن الصمت أقرب، وحزب الله الغالب.

ولهذا وأمثاله جاء ما جاء من التحريم، والنهي عن الغناء والترخيص فيه، والحض عليه والترغيب، وكان [الإتقان][(٣)] على فضل الترتيل وطلب الفهم، ثم إذا حصل الفهم فلا بأس بالغناء؛ لإثارة كمين الفهم وما لم يتحصل الفهم ولا موجود الخوف و[النهي][(٤)] فالغناء مكروه، [ومنه][(٥)] محرم لما تقدم ذكره، فافهم.

إن [الحي][(٦)] هو الذي تنزل عليه أرواح المعاني وتلج فيه، فتهش لها أخواتها وتفرح بها ما هو فيه منها ﴿**إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ**﴾ [الأنبياء:٤٥].

قوله ﷻ: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ [الأنبياء:٣] ليس هذا مما قاله أكثر النحويين: «إن الفعل إذا تقدم الاسم وحد، وإذا تأخر ثني وجمع للضمير الذي يكون فيه» بل هو تخصيص من عموم قوله: «الناس»[(٧)] إذ من الناس الكافر ومنهم

---

(١) في النسخة (خ): «للحكم».

(٢) في النسخة (خ): «الأصوات».

(٣) في النسخة (خ): «الاتفاق».

(٤) في النسخة (خ): «التقى».

(٥) في النسخة (خ): «منهي عنه».

(٦) في النسخة (خ): «الحق».

(٧) **مسألة في اشتقاق لفظ ﴿الناس﴾؟** اختلف العلماء في اشتقاق الناس ما أصله؟ إلى مذهبين:
الأول - وهو مذهب سيبويه والفراء وابن الشجري وابن جني وأبي علي وابن يعيش - : أن الناس أصله أناس على وزن فعال، وناس منقوص منه فوزنه "عال" ويكثر استعمال كل منهما ما دام منكرًا والتزموا الحذف فيما إذا دخلت فيه الألف واللام ولا يكادون يقولون "الأناس" إلا في الشعر، واحتج هذا المذهب بوقوع الأنس على الناس وأن بعضهم يأنس ببعض.
والثاني - وهو مذهب الكسائي وسلمة بن عاصم: أن الناس لفظ مستقل وأن كلا من "ناس" و"أناس" يكون أصلاً بنفسه، والناس مأخوذ من النوس مصدر ناس ينوس نوسًا إذا تحرك، =

المؤمن، فبعض الناس هم الذين ظلموا.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا﴾ وقد تقدم اسم الضمير الذي فيه في الناس، فكان تقدير الكلام: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] إلى قوله: «وأسروا الذين ظلموا من الناس النجوى».

يقولون: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(١) [الأنبياء: ٣]

=

وهو اسم تام وألفه منقلبة عن واو، واحتج هذا المذهب بقول العرب فى تحقيره "نويس" كبويب فى تحقير باب.

وهناك مذهب ثالث - هو أن "ناس" أصله نسي قلبت اللام إلى موضع العين فصار نيسًا ثم قلبت الياء ألفًا فصار "ناس"، سموا بذلك لنسيانهم. ويبدو على غالب ظن الباحث أن الأول هو الأقرب إلى الرجحان وذلك أولاً لكثرة العلماء القائلين به وثانيًا يشهد لأصله إنسان وأناس وأناسي وإنس وثالثًا قال أبو علي: أن تحقير "ناس" بـ "نويس" كانت الألف لما صارت ثانية زائدة أشبهت ألف "ضارب" فقيل "نويس" كما قيل "ضويرب" ورابعًا أن الأنس أى مع البعض - الذي يكون الناس مشتقًا منه - هو من طبيعة البشر الأصيلة لايكاد أي إنسان يرضى لنفسه أن يعيش متخليا عن بني جنسه، فإن أبا البشر آدم عليه السلام لما خلقت له أمنا حواء يأنس بها، وذلك بخلاف الحركة - التي هي معنى النوس - فإنها عامة فى جميع الكائنات ذوات الأرواح، وخامسًا أن مادة " أ ن س" ليس معناها المؤانسة والطمأنينة فقط بل له معنيان آخران - ذكرهما ابن يعيش - يناسبان أيضًا هيئة الإنسان وطبيعته وهما الرؤية والعلم مما يؤكد أن هذه المادة بما لها من معان عديدة تطابق طبيعة الإنسان جديرة بأن تكون أصلا للفظ " الناس. والله أعلم.

(١) الهمزة في قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حال من فاعل «تأتون» مقررة للإنكار مؤكدة للاستبعاد، وأرادوا كما قيل: ما هذا إلا بشر مثلكم؛ أي: من جنسكم، وما أتى به سحر تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر، قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكًا، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر، وعنوا بالسحر ها هنا: القرآن، ففي ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه، قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون. وإنما أسروا ذلك؛ لأنه كان على طريق توثيق العهد، وترتيب مبادي الشر والفساد، وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة وإطفاء نور الدين، والله تعالى يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون. وقيل: أسروه ليقولوا للرسول ﷺ والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقًّا فأخبرونا بما أسررناه؟ ورده في الكشف بأنه لا يساعده النظم ولا يناسب المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولا في قوله

=

وقرأ الضحاك: «أفتأتون الساحر وأنتم تبصرون» وأمَّا الذين آمنوا فزادهم إيمانًا وهم يستبشرون.

يقول - جلَّ من قائل - ردًّا عليهم فيما جاءوا به وتناجوا به: قل يا محمد: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم ﴿العَلِيمُ﴾ [الأنبياء:٤] بما في قلوبكم، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به.

أتبع ذلك - جل ذكره - بما هو في معناه من تطلبهم، قولهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:٥] عصوا القرآن، وكل من ردَّ العلم بما يشبه به إنه من العلم، فهو المزين له سوء عمله ورجوعه إلى الحق عسير جدًّا، لذلك قال - عز من قائل: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٦].

نظم بذلك - جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:٧] وهم الذين أرسل إليهم الرسل من [قبلك](١) وما جعلناهم [جسدًا](٢) لا يأكلون الطعام؛ أي: لم يرسل الرسل إلى الناس إلا منهم لا من الملائكة، إنما كانوا رجالاً منهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، يعيشون في أرزاقهم ويموتون بآجالهم، لهم الأزواج والذرية، والله يمن على من يشاء من عباده.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٣) [الأنبياء:١٠] يعني: فيه شرفكم وذكركم في الآخرين وحظكم في الدنيا والآخرة، يخاطب قريشًا ثم العرب، كذلك قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

قوله ﷻ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء:١١] المعنى هذا

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾. الألوسي (١٢/٣٢٥).

(١) في النسخة (خ): «قبل».

(٢) في النسخة (خ): «حسدًا».

(٣) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه القال والقيل. [نظم الدرر للبقاعي (٥/٢٩٠)].

منتظم بالناس الظالمين الذين أسروا النجوى، وقالوا ما تقدم ذكره، فبشرهم لو قبلوا البشرى بقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠].

ثم هددهم بما كان حكمه فيمن كان قبلهم من القرون الخالية والأمم الماضية، يقول: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ يعني: من القرى ﴿يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء:١٢] يهربون يفرون، ثم حذف كلامًا معناه: يقال لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:١٣] أي: عما أصابكم في غير أرضكم وحال اغترابكم عن أوطانكم، حذف العبارة عن رجوعهم إلى قراهم المهلكة بهم، و[عزمة](١) العذاب النازل عليهم.

وتجاوز ذلك إلى قوله: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:١٤] أقروا بالذنوب واعترفوا بظلمهم، حين لا ينفعهم ذلك، ومن قبل كانوا يكفرون بالله ويكذبون رسله، ويردون عليه كتبه.

يقول، عزَّ من قائل: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٥] ولو أنهم تضرعوا حين أخذهم في الهرب عن مواطنهم إلى غيرها وتابوا إلى ربهم لكشف الله عنهم عذابه، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام:٤٣].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ٢٣].

قوله - تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

(١) في النسخة (خ): «عرفه».

لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦] سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا.

يقول - جلَّ من قائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء:١٧] لو [اتخذ جل ذكره][1] من لدنه لم يكن إلا الحق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء:١٨] والحق هنا على بعض الوجوه هو قوله والعدم بطل يقول للمعدوم المراد كن فيبطل بالكون العدم فيدمغه بذلك، يقول: ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨].

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧].

فصل

اللهو هو: ما ألهى عما سواه، فإذا ألهى عما هو أولى [أنه][2] كان مذمومًا، وبأنه يلهي عما هو أولى [منه][3] سمي: لهوًا، يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء:١٧] فلو أنه اتخذه من لدنه لكان الحق، ولو كان ذلك كذلك لكان ذلك يلهي عما سوى الله، فكان يكون ذكرًا كله، وإلى هذه الحقيقة يؤل معنى اسمه الله ﷻ من أفاض عليه ببركته لاهٍ به عن كل ما سواه.

وإنما خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، والحق مسالك معاني أسمائه وصفاته في العالم، وما دلَّ على موجود الآخرة وأكوانها، وما أوجب الشهادة به من إتيان الساعة بالآجال المؤجلة والمواقيت المؤقتة، وأن الجزاء واقع لا بد ولا محالة، وصفات الجزاء ومعرفة منبعث الخزائن ومعرفة منبعث الشرائع، وما أثبتت عليه دعائم الإسلام وتمييز الحلال في ذلك من الحرام.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] أي: لا تقطعهم العبادة.

يقول - عزَّ من قائل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ يعني: السماء والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ

(١) في النسخة (خ): «اتخذه».
(٢) في النسخة (خ): «منه».
(٣) في النسخة (خ): «به».

﴿لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] لا تقم الجملة ولا وجدت على ما هي عليه إلا بالوحدانية، لولاها لوقع التمانع، سبحانه عما يقول المبطلون وتعالى علوًّا كبيرًا.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣] لا مالك فوقه ولا آمر يأمره، ولا أوجد ملكًا لسواه [دونه](١) فيتصور منه فيه الظلم، لا إله إلا هو العلي الكبير، هو الملك الحق، له الملك وله الحمد، يفعل ما يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] الرتق: الإلحام والإلآم، لأمت الشيء: رتقته، والفتق ضد ذلك، وقد يقال: فتقت العجين: جعلت له فتاقًا، وهي الخميرة، والفتاق أيضًا أخلاط طيب يفتق بدهن؛ أي: يخلط به، ويقال: نصل فتق الشفرتين، إذا كانت له شعبتان، فكأن إحداهما فتقت من الأخرى، وقد أوعينا

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

الكلام في معنى الفتق والرتق في رسمه من كتاب: «**الأسماء**»[(١)].

---

(١) قال الشيخ المصنف: «اسمه تعالى الفاتق، واسمه: الراتق سبحانه وله الحمد. يقال من ذلك: رتقت الشيء أرتقه رتقًا فهو مرتوق، ورتقت الفتق ألحمته ولأمته فارتتق، وجارية رتقاء إذا لم يكن لها خرق في المبال، والفتق الفتح الذي هو ضد السر، يقال من ذلك: فتقت الشيء فانفتق، وفتقت العجين جعلت له فتاقًا وهي الخميرة، والفتاق أخلاط تفتق بدهن، أي: تخلط به، ونصل فتيق الشفرتين إذا كانت له شعبتان، فكان أحدهما فتقت من الأخرى، والفتيق: الصبح نفسه. اعتباره: قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ....﴾ [الأنبياء:٣٠] إلى آخر المعنى، فذكر السماوات هنا بلفظ الجمع تذكيرًا لأهل الإيمان، وذكر الأرض بالإفراد تقديرًا للمكذبين على تركهم النظر والاعتبار، ووصفهم رب العالمين بفعل العبث واللعب واللهو إخبارهم عنه بما ليس به رجوعًا منه بالخطاب إلى ما كان عنه جوابًا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٦ - ١٧] أي: لو كنا فاعلين من لدنا لم يكن إلا الحق هو الحق، وقوله الحق، وفعله الحق، وللحق فعل ما فعل وأوجد ما أوجد. وذكر السماء والأرض هنا بلفظ الإفراد توجيهًا بذكر السماء إلى العلو وبذكر الأرض إلى السفل، فسرد ما سرد من قول حق وحجج بالغة وبراهين نيرة ونور مبين، ثم صرف وجه الخطاب إلى ذلك المعنى، وجمع ذكر السماوات وأفرد ذكر الأرض، وثنى الضمير في قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ إعلامًا بأنه أراد الجنسين، وأنه أراد بخطاب هذا المؤمنين وأهل العلم، يذكرهم بالرتق الأول وفتقه على ما سوف يأتي إن شاء الله. وذكر إفراد الكفار مع إفراد ذكر الأرض؛ توجيهًا بالخطاب إلى تفريعهم، إذ الكفار لا يرون إلا رؤية الأبصار، يذكرهم بالرتق والفتق الآخرين المعتادين، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧] فكان ما دون العرش الكريم رتقًا بالماء، إلى أن أمر ﷻ المياه لتحول بعضها من بعض فكان ذلك، وأخلف الماء هواء فكان ذلك من فعله فتقًا لذلك الرتق، ثم خلق السماوات والأرضين في ذلك الفتق على بحورهن، وملأ ما بين ذلك هواء، فهي الآن على ما أوجدهن عليه من فتق بعد ذلك الرتق، وهذا الرتق والفتق مرئي ببصر البصيرة لأهل العلم والإيمان، ثم لا يزال ﷻ يفتق السماء بالماء بعد رتقها بالإمساك عن المطر، ويفتق الأرض بالنبات بعد رتقها بالجدب والهمود، وهذا تراه أبصار الرؤى وهي رؤية قليلة الغناء، ما لم تكن مدركة بالبصائر متصلة بالعبرة من شاهد إلى غائب، ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] إن هذا هو الحق ليس بالباطل ولا اللعب، وأن العود سيكر على هذا البدء لتجزى كل نفس بما كسبت. والمعلوم من بداية العقول أن الحكيم لا يفعل إلا بحكمة ولحكمة، ولو أن حكيمًا فعل فعلاً لا منفعة له ولا لمفعوله؛ لم يكن حكيمًا في فعله ذلك، وخلق الله - سبحانه وله الحمد - =

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] يقول - عزَّ من قائل: ألا ترون أن الماء واحد ينزله من السماء فيخلق عنه مخلوقات كثيرة، كذلكم الله ربكم واحدًا أحد خلق كل شيء، وهذا النوع من البرهان [يدفع][١] به باطل من قال من الثنوية والمخمسة كيف يكون الواحد يوجد [الكثرة][٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أفلا ترون أنا نخلق من الماء كل شيء حي نباتًا وحيوانًا وأناسي رجالاً ونساءً وولدانًا وجنات وزروع و[فواكه][٣] كثيرة ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] أنها من فتح الله برحمته من جنات له، قد أعدها لمن أطاعه، فهذه الجنات آيات على تلك، وجعل هذه متاعًا [في][٤] هذه الدار عم بها المؤمن والكافر، وخص بتلك من أطاعه وابتغى رضوانه.

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١] هذه من دلائل النبوة في الوجود، أفلا يؤمنون بالإنباء والنبوة والنبيين.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] وقرأ ابن أبي عبلة: «**وجعلنا السماء سُقفًا محفوظًا**» بالجمع وزيادة هاء، وقرأ: «هم الخالدون» بغير فاء، وقرأ:

=

جميع الخليقة؛ ليجود عليهم بأفضاله، ويعود عليهم بالعامة أولاً، ثم ليعرفهم بنفسه وبأسمائه وصفاته، ثم ليأمرهم بحق الربوبية والعبودية وينهاهم، ولو انقطع الأمر هاهنا ووقف الفعل على هذا لما تم المقصود، وما تحققت الحكمة من الحكيم في فعله ذلك تعالى الله عما يظن به الجاهلون، بل كأن يكون فعله باطلاً بحتًا وعبثًا ولعبًا، إنما تمت الحكمة في الإعادة، وبها صحت في البداية، وبها اتصل الآخر بالأول، والأول بالآخر، فانقسم المآل بالأمر إلى خزائن ثواب وعقاب، هنالك أظهر من وجوده وأفضاله وإنعامه وإحسانه ما لا تدركه العقول ولا تتصوره الأوهام، للمنصفين له العالمين به العاملين له بطاعته، فوصل لهم جوده بجوده وحنانه بحنانه، وبالضد لمن جهله وجهل عليه، ووصفه بما لا يليق وسماه بغير أسمائه، وجحده وكذب آياته وما جاء من عنده» [شرح الأسماء الحسنى ٢/٢١٣].

(١) في النسخة (خ): «يدمغ».
(٢) في النسخة (خ): «الكثير».
(٣) في النسخة (خ): «نبات».
(٤) في النسخة (خ): «الساكني».

«وجعلناها وابنها آيتين».

كون السماء محفوظة من دلائل النبوة وحمايته إياها عن أباطيل الشياطين، وكونها مرفوعة دون عمد من دلائل الوحدانية والقدرة والقيومية والعلم المحيط والمشيئة العالية.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢] [أخبر الله الجليل الحق][1] ﷻ في أول السورة بتلهيهم عن الوحي وإعراضهم عن الذكر، ويخبر في هذا الخطاب كله بإعراضهم عن آياته في السماوات والأرض، لو تنبهوا لها ونظروا بقلوب واعية لرأوا الأعاجيب.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] قد تقدم الكلام في بعض آيات الليل والنهار والشمس والقمر وكونها جارية في أفلاك دلالة على إرجاعه حكمه أوائله على أواخره، وذلك دلالة على تناهي الآجال وتمام الأوقات، وفي ذلك العلم بانقراض الدنيا ومجيء اليوم الآخر بما فيه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] دليل على أن الكثرة راجعة إلى الوحدة كما انبعثت منها تعود إليها كما قال، جل ثناؤه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] فإذا حققت النظر وجدت الموجودات كلها على اختلافها يجمعها واحد منها.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤] أرجع هذا الخطاب إلى معنى ما تقدم في صدر السورة، قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء:٣] وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف:١٠٩] إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا
رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ
وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا
تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ
ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾
[الأنبياء: ٣٥ - ٤١].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥] إعلام منه بمشيئته في الإماتة تفرقة بين عزته وذلتهم - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - وهو الحي الدائم الذي لا يموت، ولما عطف عليه قوله الحق: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] زاد إلى ما تقدم وعظًا وإعلامًا منه بأن ذلك منه فتنة وابتلاء، فالفتنة بالخير طريق والفتنة بالشر طريق، والمراد منه مع مشيئته أن يطاع، فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

ففتنة الخير: حب المال والأولاد والأزواج وحب التكاثر والتفاخر والزينة والعلق والرئاسة وحب الجاه والمحمدة عند الناس، ويتعلق بذلك الرياء والسمعة، وإقامة الجاه عند أبناء الدنيا والكبر والعجب والحسد، وأصل ذلك كله حب المال والشرف، كذلك قال - عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥].

وأمَّا فتنة الشر: فالظلم والإثم والعدوان، ومعاونة الظالمين، والركون إلى أهل المنكر، وصحبة الفجار والفساق، والتعاون على الإثم والعدوان والعداوة والبغضاء لمن أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو أظهر الحق لله تعالى، ودعا العباد إليه، وكل ما ذكر من عمل السوء يتشعب من فتنة الشر، وكل ذلك أصله النفاق، وتظهر هذه

الخصال من منافقي هذه الأمة، وربما كان ذلك أصله من فتنة الخير، قال رسول الله ﷺ: «**أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها**»(١) وربما كان من جهالها أهل العداوة للإسلام، المظهرون خبائث أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ**﴾ حذف: «يقولون أهذا» ثم قال ﷻ: ﴿**وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾ [الأنبياء:٣٦] هذا من فصل الجدل الموجود في القرآن العزيز يقول: وهم يكفرون بالرحمن ويعظم عندهم ذكر آلهتهم.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**﴾ [الأنبياء:٣٧] العَجَل: من أسماء الطين، ومن الطين خلق آدم، وهو اللازب منه، والذي يطابق من ذلك معنى هذه الآية - والله أعلم بما ينزل - والذي من أجله [اجتلب](٢) هو: أن الذين كفروا متى قالت لهم رسلهم: إن لله - جل ذكره - عذابًا كذا وكذا لمن كفر به وكذب رسله استعجلوا ذلك ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الأنبياء:٣٨].

وخلق الله آدم من الطين اللازب المتسلل من الطين، وهو الذي خفَّ ورقَّ عن ثخانة الطين وشدته، فالطين [بما](٣) هو طين لازم موضعه وسلالته منه متسللة عنه، فذلك المسمى: العجل؛ لسبقه الطين، فوصف الإنسان بما كان عنه لشبهه [به](٤) في استعجال ما هو كائن وإن كان عليه، وهو أيضًا الصلصال، وهو من بعض أسمائه، واتصل معنى قوله هذا بوعيد قوله الذي قبله: ﴿**وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾ [الأنبياء:٣٦] الذي أظهره في سورة الفرقان.

﴿ **قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم**

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/٢٥٧) وأحمد (٦٦٣٧) وابن المبارك (٤٥١) والبيهقي (٦٩٥٩) والطبراني (٤٧١) قال الهيثمي: رجاله ثقات، وكذلك رجال أحد إسنادي أحمد ثقات. «قراؤها»: أي: الذين يتأولونه على غير وجهه، ويضعونه في غير مواضعه.

(٢) في النسخة (خ): «أجملت».

(٣) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (غ): «ربه».

مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا
هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا
يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ
أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ
مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا
حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ
لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢ - ٥٠].

قوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٢] يقول ﷻ: سأريكم آياتي على وعيدي الذي أنذرتكموه فلا تستعجلون؛ لذلك قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء:٣٨].

يقول عزَّ من قائل: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾(1) [الأنبياء:٣٩].

نظم بذلك قوله الحق: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾

---

(١) ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وفظاعة ما فيه من العذاب، وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وإيثار صيغة المضارع في الشرط، وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم بحسب المقام، وإلا فكثيرًا ما يفيد المضارع المنفي انتفاء الاستمرار، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيّز الصّلة على علة استعجالهم.

وقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ على ما اختاره الزمخشري، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه، وإضافته إلى الجملة الجارية مجرى الصفة التي حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضًا مع إنكار الكفرة ذلك؛ للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة إلى الإخبار به، وإنما حقه الانتظام في سلك المسلمات المفروغ عنها. تفسير الألوسي (١٢/٣٩٠).

[الأنبياء:٤٢] أي: من يحفظكم بالليل والنهار، حفظ الرحمن - عزَّ جلاله - إلى مخلوقاته سارٍ منه كسريان الماء المصبوب إلى مفيضه، وهذا كقوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [الحج:١٥] المعنى إلى آخره، وسيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله.

وقد كان ينبغي بواجب الحق أن يستصحب شكره [وذكره](١) وحمده على نحو استصحابه به حفظه وموالاته علينا شكرًا له وحمدًا واستسلامًا وإيمانًا وخوفًا ورجاءً و[حبًّا](٢) وودًّا؛ لهذا وما يشبهه قال: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٤٢].

قوله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ بل آلهتهم الضعفاء ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم﴾ يعني: المألوهين المتعبدين لتلك الآلهة ﴿مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٣] إنما الصحبة لأهل التقوى والإيمان والعمل بطاعة الله، كما قال - عز من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

يقول الله - جلَّ من قائل: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...**»(٣).

ويقول تعالى: «**أنا مع عبدي ما ذكرني، وحيث ما طلبني وجدني**»(٤) فهذا معنى الصحبة.

يقول - عزَّ من قائل: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٣] فيوفقون لذلك لأعمال يستوجبون بها الحفظ والعافية، فشأن المؤمن كله عجيب.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «حياءً».

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣) وأحمد (١٠٩٨٩) وابن ماجة (٣٧٩٢) والبيهقي (٥٠٩) والطبراني في الأوسط (٦٨١٠) وابن حبان (٨١٥) والحاكم (١٨٢٤).

[الأنبياء:٤٥] الوحي هو القرآن وحديث رسول الله ﷺ الوحي العجل، فالوحي قد يكون الإشارة إلى الشيء والإعلام به، وعلى قدر منزلة الموحى إليه ومرتبته على [قدر](١) المشيئة العالية من الله - جل ذكره - والموحى إليه مهيئًا لقبوله على النحو المراد به منه، فيتحصل له المعنى بذلك تامًا كاملاً - إن شاء الله - ثم يبلغه النبي إلى من أمر بتبليغه إليه على النحو الذي يسر له من التبيين أو الإشكال، ثم يتلقاه المبلغ إليه على النحو الذي قسم له من الفهم عنه، وعلى قدر طلبه، وبذل مجهوده، واستفراغ وسعه وتقواه، وصحة عقله وإيمانه، وعمله بطاعة ربه.

والوحي المبلغ إلى المبلغين على ضروب، فمنه:

- النص الجلي والخطاب الخفي المراد منه.
- والظاهر والمجمل والمفصل.
- والمتشابه والمشتبه.

هذا فيما طريقه الأمر والنهي على سبيل التكليف.

وأمَّا المعالم العلية:

فمنها: المعلمة بالعلامات المنصوب عليها الدلالات.

ومنها: ما يكون الإعلام بها إيماءات وإشارة.

ومنها: ما يكون كهيئة المكنون.

ولا بد أن يبقى على [العبادة](٢) من معنى الإيماءات ما يحتاج معه لطيف التدبر، ويزداد التذكر والتفكر، وما يكون كهيئة المكنون، فمدار التبليغ إليه على الإلهام، فما هو إلا الله لا إله إلا هو العليم الحكيم، ومدار الشأن في ذلك كله [اللجوء](٣) إلى عالم الغيب والشهادة، هذا على قدر وجود صفة الإيمان، والحرص على القبول، وسلوك سبيل الطلب من الله وحده بصحة [الاستسلام](٤) مع إلقاء السمع حال الشهادة، وعن التوفيق يكون الفهم، فإذا كان الأمر هكذا فكيف بمن

---

(١) في النسخة (خ): «نحو».

(٢) في النسخة (خ): «العبارة».

(٣) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «استسلام».

كفر وكذب، فلم يحله روح الإيمان ولا شرح الله صدره بالإسلام والوحي عزيز، أولئك هم الصم البكم [العمي][1] الذين لا يعقلون، ولا عن ضلالتهم يرجعون ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١].

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧] نصب **القسط** على البدل من الموازين، **والقسط** هو الميزان الأعظم، وهو ما يعطيه الموازين من العدل، ولكل ميزان عدل، ولكل عمل ميزان؛ ولذلك جمعها وهو أعلم[2].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) قال المصنف: آية الوزن الآجل ومثاله في هذه العاجلة كثير جدًّا، قد بينه الله ﷻ تبيانًا يقطع شبهة المعاندين، وينبه ألباب المعتبرين منها العدد، واحدة وزان واحدة، وعشرته وزان عشرته، وكل عدد منه وزان لمثله، كذلك أوزان المعاني كل معنى وزان لمثله، فدونك سبل الاستقراء معنىً معنىً، وذلك موجود في المعلومات كلها على اتساع مقتضى العلم؛ فما من حادثة إلا لها ميزان قال الله جل قوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] وأظهر تبارك وتعالى في هذه الدار العاجلة من الموازيين مثالات ظاهرة عبارة عما هناك، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] فجعل الله ﷻ بينهم حكمًا عدلاً وقاضيًا فصلاً، وفوض كل إليه، ولم تجد في صدره حرجًا من الحكمة له أو عليه، وكذلك في الآخرة يظهر للعيون والأبصار ميزانًا، كما وصفه عنه الصادق المصدوق ﷺ كفتان كل كفة منها طباق السماوات والأرض، وآية صدقه ظاهرة في جملة العالم، وهي أن العقول ما وجدت في السماوات ولا في الأرض ذرة فما دونها ولا فوقها إلا موزونة بميزانها، تعالى الله سبحانه عن الإهمال والمجازفة؛ إنما يجازف القاصر للعلم والحكمة والقدرة، وأما هو ﷻ فكل مزموم بزمامه موزون بقسطه، فاعلم ذلك يقينًا، فإنه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣ - ٤] ثم يرجع بنا الكلام إلى نسقه، قال رسول الله ﷺ: «**فتوضع الحسنات في أحدهما والسيئات في أخرى**» وقد جاء أن كفة **الحسنات** من نور، والأخرى من ظلام، فإن كان قال رسول الله ﷺ فهو الحق، ويجب المصير إليه؛ فالنظر بعضده والوجود يحققه، وهو القادر - جل وعز - على أن يجعل في أنفس الموزون لهم وعليهم من تعديل ذلك الميزان، والرجوع إليه أضعاف ما جعل في القلوب في العاجلة من الرضا بهذا الميزان والتعديل له، وكذلك الكيل الموضوع هاهنا في العاجلة هو من الوزن، فأعلمه ما عسر معرفته بالوزن وضع عليه الكيل، وقنعت به العقول، ورضيت به وعدلته كالموازين سواء. وكما في الدنيا موزونات تتفاضل فلا تسمح النفوس بأن تأخذ منها وزنًا بوزن مفضولة، كالذهب مثلاً مع الفضة والنحاس، وغير ذلك من الجواهر المعدنية، وكذلك اللؤلؤ والياقوت في التفاضل أيضًا، كذلك الحسنات مع =

=

السيئات، منها كبائر ومنها صغائر، لا تبلغ آحادها الإيجاب، لكنها مع اجتماعها تبلغ؛ فاعتبر ذلك بصرف الذهب بالفضة، والذهب والفضة مع النحاس والحديد وغير ذلك من الجواهر، ثم اقض بمثل ذلك في نقاص الحسنات بالحسنات، والسيئات بالسيئات، والحسنات أيضًا بالسيئات هكذا العرف فيها. ثم اعتبر الحسنات والسيئات أيضًا بالضر والنفع في قبيل الإيمان وظلم العباد وفساد الألفة، وعلى الضد مع ذلك فقد يسد الحديد مسدًا لا يسده الذهب ولا اللؤلؤ والياقوت النفيس، فهكذا فاعتبر الوزن والموازنة الحسنات بعضها ببعض، والسيئات بها موافقة حكمة ربك ﷻ، ويحتاج صاحب هذا النظر إلى تبحر في العلم والفقه، وعقل صحيح غالب على هواه. وبالجملة فالموازنات فيها هنالك إنما هي إلى الله ﷻ يزن لمن يشاء، ويجعل في العقول تعديل ذلك الحكم والرضا به، كما فعل في الدنيا في موازينها ومكايلها، وذلك بأن يخلق للحسنات والسيئات ظاهرًا عدلاً ترضى به العقول، فتزكيه وتحتكم إليه وتقنع به وبما يكون منه لها، وعليها حكم حق ووزن قسط؛ ولذلك لما خلق الله تبارك وتعالى الميزان قالت الملائكة: ربنا، ما هذا؟ قال: هو الميزان، قالت: ربنا، لمن تزن به؟ قال: لمن شئت، قالت الملائكة: سبحانك ربنا وبحمدك، ما عبدناك حق عبادتك. وإذا كانت الدنيا ليس إلا ظاهر وباطن والموازين منها ظاهر ومنها باطن؛ فالظاهر منها يوزن بميزان ظاهر يعدله ميزان باطن، هو الميز من صفات العقل، والباطن تزنه العقول باطنًا، وتعبر عنه الألسن بعبارات متوازنة المخارج والمعاني، فليس إذًا في الدنيا غير الوزن وتوابعه ومعانيه .. ليت شعري كذب المكذب بما هو لا يخلو عنه ظاهرًا ولا باطنًا، وإنما صفات العالم صفات حق أوجدها الحق ﷻ بالحق؛ لتحقق بذلك الحق ويبطل الباطل، قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] وقال وقوله الحق: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٩] فأخبرك نصًا أنه خلق ما خلق وللحق قد أحاط بالعالم كله ظاهرًا وباطنًا جملة وتفصيلاً، وجعل هذه الصفات الحق آيات مبينات عن صفات حق أجله، جعل هذه الأعلام العاجلة تنتهي إلى تلك الآجلة، ثم أكد صنعه الحق تحقيقًا بأن أخبر عنها بقوله الحق؛ ليبتلي العقول بذلك ويختبرها هل تصدقه في قيله الحق، أو تكذبه؟ فينزل كلا بحكمه الحق حيث أنزل نفسه، كيف لا وإنما هو عالم واحد أوجده موجود واحد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فشاكل بذلك بين أوصافه وشأنه به، من أجل ذلك بين أطرافه بأن أجرى حكمته ذلك بين خلاله، وأثناء جريان الروح والنفس في أجسامه، وإعراضه شهادة غيب بغيب وظاهر بباطن، أقام البواطن للعقول أعلامًا، ثم أنزل إليها بذلك الكتب، وخاطبها بها على ألسنة رسله إعلامًا، بعدما أظهر مما أبطنه وأشهد مما غيبه تبيانًا، فالكافر من كفر بهذا الحق وجادل بباطنه في آياته، وكذب بتلك العلامات، وكابر عقله إلى جحد البينات، لم يصدق الصادق الحق ﷻ في قيله الحق، وعَنِدَ عن الاتباع، وشرد عن الاقتداء، وبدل نعمة الله كفرًا فأحل

=

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء:٤٧] من وصف العدل في الحكم وإعطاء القسط.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨] كل كتاب جاء من عند الله فهو فرقان من حيث فرق بين الحق والباطل، وهو ضياء ونور وذكر للمتقين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٤٩] هؤلاء هم الذين ضمن الله - جل ذكره - لهم، فهم الكتاب و[موافقته][١] بالقول والعمل.

وقرأ ابن عباس: «الفرقان ضياء وذكرًا للمتقين» بإسقاط الواو[٢] وقال: خذوا

=

نفسه دار البوار - اللهم غفرًا - بل الكافر محمول إلى ما أعد له، والعامل مسوق إلى ما وعد به ميسر لما يسر له، والله ﷻ القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، والله يصير الأمر. وكذلك كل ما أنبتته الأرض أو حملته في بطنها، من مختلف أو متفق في روائحه أو طعومه ولمسه، ونفعه وضره، وخيره وشره، بأوزان مقسطة وحظوظ معدلة، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩] فدونك ما سطره الطبائعيون في أوزانهم، واستقروه في موجودهم، ثم أثبتوه في أوضاعهم؛ حيث قالوا: كذا حار في الدرجة الأولى، يائس في الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وكذا في البرودة والرطوبة قسموها على أربع درجات، جعلوا معيارها جسم الإنسان، وأعلاها وأدناه الأصول الأربعة، واستمروا على ذلك موجودهم في استقراء الموجودات، واستمرت الأجسام؛ تصديقًا لذلك تلك الأوزان والموزونات، فيها وعندها وفى امتزاجها وانفرادها، قبلتها على تلك الصفات الباطنة أيضًا بأوزانها؛ إذ كل شيء عند المقسط الحق بمقدار. كذلك في الجزاء، كذلك في الأعمال له، كذلك في الحق، كذلك في الأمر، كذلك في التدبير، كذلك في إنزاله الماء والنشء، وتقسيم الغذاء على جميع العالم ظاهرًا وباطنًا، كل شيء له قسطه ووزنه ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١] كذلك في سماع الكلام ترضي الكلمة، وتسخط الأخرى فيتزن موجوداتهما، وتحل الكلمة وتعقد الأخرى، فيتزن المعنى بين ذلك، هكذا كل شيء عنده بمقدار، هذا الوزن في العاجلة فكيف به في الآجلة على عظم تلك الدار وكبر خطرها، وقد قاله الصادق الحق ﷻ وتوعد عليه، ووعد إنه إذًا لكائن في الآجلة، وهي أكبر درجات أكبر تفصيلاً، إن هذا لهو الحق المبين: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور:١١] [شرح الأسماء ٧٢/٢].

(١) في النسخة (خ): «موافقة».

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (١٥٨/٣)، زاد المسير (٣٥٥/٥).

هذه الواو واجعلوها في قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر:٧] وفي أخرى عنه: انزعوا هذه الواو [من هذا][1] واجعلوها في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] فعلى قراءة ابن عباس يكون تقدير الكلام: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء وذكرًا للمتقين، وهي قراءة عالية حسنة، وعلى قراءة الجماعة: الواو عاطفة على محذوف تقديره: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان هدى وضياء، أو ما يكون في معنى هذا.

فصل

لما تقدم ذكر ما أنزله من الكتاب على محمد ﷺ وإعراض الأكثر عنه واستماعهم له بقلوب لاهية وأسماع منهم غير واعية، وذكر مع ذلك أن من كان قبلهم كانوا على ذلك في كل ذكر، يأتيهم من الله - جل ذكره - ثم استمر على ذكر هذا الكتاب ومخاطبة رسول الله ﷺ إلى قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ [الأنبياء:٤٤] ذكر الكتاب الذي أنزله على موسى وهارون، وسرد ذكر الأنبياء وكرامتهم عنده، والمراد بذلك ما صرح به في سورة الأنعام بعد ذكر الأنبياء وآبائهم وإخوانهم وذرياتهم ومن اجتباه وهداه منهم، ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا
هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٦٩].

أتبع ذلك قوله - تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١] وقرأ عيسى بن عمر: «رَشَده» بفتح الراء والشين، إلى قوله: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله﴾ [الأنبياء:٦٦ - ٦٧] إلى قوله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٨ - ٦٩].

هذه دلالة من الله - جل ذكره - أن الأشياء ليست لها استطاعة ولا عمل من [عند][(١)] أنفسها، وإنما فعلها المنسوب إليها هو من الله وحده لا شريك له، وإن كان قد أجرى سنته في النار بالإحراق وفي السيف بالقطع، فذلك كله بأمر الله وبإذنه، كما يحيي الموتى على يدي عيسى ابن مريم وغير ذلك.

وهذا يجري في ثبوت الدلالة مجرى إمساك الله السماوات والأرض أن تزولا وكل شيء وما عبر عنه بقوله: ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١] أي: هو الخلاق أبدًا على الدوام يخلف الخلقة الخلقة، ألا ترى أن القادر منا الحي ذا الزعامة ليس له من الأمر على تحقيق المعتقد شيء، بل هو على ما عبر عنه بقوله الحق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧] والجماد والموات وما لا حياة به أحرى ألا يوصف بذلك وأبعد.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ
﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ
وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى
رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا
ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾
[الأنبياء: ٧٠ - ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ﴾ [الأنبياء:٧٨] نفشت: رعت ليلاً، وحرث القوم: زرعهم، وقيل: كانت كرومًا.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩] روي عن نبينا ﷺ «**أنه قضى فيما أفسدت المواشي بالليل على أرباب المواشي بالضمان، وما أفسدت بالنهار فعلى أصحاب الحوائط**»[١] وذكر أن سليمان قضى بذلك، غير أن سليمان عليه السلام قضى بدفع الغنم إلى رب الكرم، ينتفعون بغلتها إلى أن يقوم أصحابها بصلاح الكرم؛ حتى يعود إلى ما كان عليه يوم أفسد.

وهذا إن صح الحكم فيه عن رسول الله ﷺ بسند يقطع العذر فهو الحجة، وإنما الحديث المروي في ذلك عن النبي ﷺ غير ثابت، ولو كان ذلك كذلك فقد

---

(١) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ (١٤٤٠)، وأحمد (٢٣٧٤١).

نسخه بقوله: «**من استهلك شيئًا فعليه قيمته**»[١] فهذا هو الحكم الحق، وهو الذي صحبه العمل، وهو الذي ألهمه سليمان - على جميعهم السلام - والله أعلم؛ ولذلك مدحه ربه بإصابة الصواب.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿**وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء:٧٩] ومن الحكمة أن الله ﷻ جعل الليل سكنًا والنهار نشورًا، فمتى نفشت المواشي ليلاً فقد خالف باعثها على ذلك سنن الحكمة، ولما كان النهار ينتشر فيه ويضطلع أهل الزرع بحراسة زرعهم جعل المصيبة فيما هلك منهم، وهذا وإن كان قد امتزج بمعنى من الحكمة فإن عدوان المعتدين يتطرق معه، وعدم البينات معهود حينئذٍ؛ لسكون الناس في ليلهم، ولا يتخلص مع هذا حرث، ويكون انبساط هؤلاء وحماية هؤلاء سببًا للفساد في الأرض وسفك الدماء وبسط الأيدي، وتوليد العداوة والبغضاء، وفي ذلك الفتنة في الأرض والفساد الكبير، وفتوى رسول الله ﷺ هو الفصل: «**من استهلك شيئًا فعليه قيمته**»[٢] وهو الذي فهمه الله سليمان - على جميعهم صلوات الله وسلامه - والله أعلم.

ولما في القصتين من الحكمة والعدل قال: ﴿**وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء:٧٩].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر، وإن اجتهد فأصاب فله أجران**»[٣].

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٧).

(٢) انظر السابق.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (١٧١٦)، وأبو داود (٣٥٧٤)، والترمذي (١٣٢٦) والنسائي (٥٣٨١) وابن ماجة (٢٣١٤)، وابن حبان (٥٠٦٠)، وأحمد (١٧٨٠٩) والشافعي (٢٤٤/١).

حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٠ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[١] [الأنبياء:٨٣] إلى قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٤] ذكر أن أيوب ﷺ حال ما ابتلاه الله ﷻ فَقْد أهله فصبر واحتسب إلى غير ذلك من أنواع ما أصيب [به][٢] فقيل: إنهم ماتوا، وقيل: إنهم غُيّبوا عنه، فلما كشف الله ضره عنه أتاه أهله ومثلهم معهم، كذلك قصَّ الله علينا [من][٣] فعله به في كتابه الحكيم، وإن كانوا غيبوا عنه فأحضروا له، فمعهود مثله على ما فيه من عجب، وإن كان قد أماتهم فأحياهم الله وهو الأظهر، فممكن وجوده في المقدور الغائب، وكل [ذلك][٤] على الله يسير.

وتلك رحمة من الله للصابرين من عباده، وذكرًا للعابدين، وذكرًا لأولي الألباب، وهم الذين يبصرون ببصائر قلوبهم مرائي العواقب وغيابات الكائنات، والعابدون في هذا الموضع هم الغرباء الذين يكونون في آخر الزمان، فكان فعله ذلك بأيوب رحمة وذكرى للعابدين، ينتظرون بذلك الفرج مما هم فيه جزاءً لصبرهم، وليس إحياؤه إياهم له بأعجب من قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢]

---

(١) كان ﷺ بلاؤه في بدنه في غاية الشدة؛ فقد أخرج ابن جرير عن وهب بن منبه قال: «كان يخرج في بنده مثل ثدي النساء ثم يتفقأ». وأخرج أحمد في «الزهد» عن الحسن أنه قال: «ما كان بقى من أيوب ﷺ إلا عيناه وقلبه ولسانه، فكانت الدواب تختلف في جسده». وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عنه: «إن الدودة لتقع من جسد أيوب ﷺ فيعيدها إلى مكانها ويقول: كلي من رزق الله تعالى». وما أصاب منه إبليس في مرضه كما أخرج البيهقي في «الشعب» إلا الأنين، وسبب ابتلائه على ما أخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: إنه استعان به مسكين على درء ظلم عنه فلم يعنه. تفسير الألوسي (١٢/٤٤٧).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

فانفجرت له عين، وقيل: عينان:

أحدهما: لاغتساله.

والأخرى: لشرابه.

فأذهب الله بذلك عنه داءه ظاهرًا وباطنًا، وهذا من جنس ما يفعله يوم القيامة بأوليائه، يدخلهم الجنة فيغتسلون ويشربون فيذهب عنهم خلقتهم و[خلقهم][(١)] الدنيوية، ويطهرهم بذلك تطهيرًا ظاهرًا وباطنًا، وعرفان ذلك اليوم إحياؤه الموتى وبعثهم، قد أحيا الله نبيًا من الأنبياء بعدما أماته مائة عام، وأحيا قتيل موسى عليه السلام بعضو بقرة ضرب به وأخبر بمن قتله، وأمسك فتية الكهف ثلاثمائة سنينًا وتسعًا رقودًا، ثم بعثهم من نومهم إلى غير ذلك من إحياء عيسى عليه السلام من شاء الله [إحياءه][(٢)] على يديه، وإحياء الله الرجل الصالح الذي يقتله الدجال - لعنه الله - وخفف على المؤمنين وطأته، يحييه الله على يديه فتنة لمن شاء الله به الفتنة، وإحياء قومًا من بني إسرائيل بعد موتهم، وكان قد أماتهم بالصاعقة، وأحيا آخرين ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:٢٤٣].

لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٤] أي: يتذكرون بذلك ما يكون من ذلك يوم النشور، ويتذكرون ما يكون من ذلك في يوم يحيي عيسى ابن مريم العابدين الذين عبدوا الله وحده، وصبروا لمحنة الدجال، وصبروا على كل الأحوال.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ

(١) في النسخة (خ): «حلتهم».

(٢) في النسخة (خ): «أحياهم».

نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ - ٩٠].

قوله ﷻ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] يعني، وهو أعلم: أن لن نضيق عليه عبر هذا من التأويل في حق يونس ﷺ محال مكظوم شديد الحزن [حتى][(١)] سجنه في بطن الحوت، أعلم الله الرحيم [الحق][(٢)] ذوي الألباب أنه يرحم المُلِيم مع استغفاره ويتداركه على ذلك، كما يرحم المحسن مع إحسانه؛ إذ التوبة من الذنب إحسان، وقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦] وكان قد ذهب على وجهه مغاضبًا قومه، ولا أقول ما قال البعض: إنه كان مغاضبًا ربه.

وأمَّا تسميته إياه: آبقًا، فإنه كان عبدًا لله استعمله وكلفه التبليغ إلى قومه، ولما [غلبته][(٣)] نفسه بالغضب فرَّ على وجهه، وذهب إلى الفلك المشحون، فسمى ذلك منه ربه: إباقًا؛ إذ ترك عمله وذهب عنه.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[(٤)] وما تأول عليه أكثر من تقدم في المعهود أنه يقدر على خير منه الأكثر من أهل الإيمان والعاملين له بطاعته، إنما كان غضبه في ذات الله، وربما كان ذلك على نفسه ومغاضبًا قومه، وعلى ظاهر سياق ما [حكى][(٥)] الله عنه غير ما ذكروه، بل إنما كان

---

(١) في النسخة (خ): «حين».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) في النسخة (خ): «غلبت».
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٥٨/٧)، والنسائي في الكبرى (١١١٦٧)، والحاكم (٤٠٨٧)، والطبراني (١٠٩٥٩)، والبيهقي (١٤٦٦) وفي الدلائل (٢٢٤٩)، وأبو عوانة (٢٩٢)، وأبو يعلى (٥١٥٥)، وابن حبان (٦٣٤٤)، وأبو نعيم (٣٥٨٣)، والطيالسي (٢٦٤٥).
(٥) في النسخة (خ): «حكاه».

إرساله إلى القرية بعد محنته في السجن في بطن الحوت.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٥-١٤٧] والظاهر الأخذ بالخطاب على مساقه في تقديمه ما قدم وتأخير ما أخَّر.

قال رسول الله ﷺ في قول الله - جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾ [البقرة:١٥٨]: «**يبدأ بما بدأ الله به**»[١] بدأ بالصفا، ووافق ذلك اليوم [قوله][٢]: «**خذوا عني مناسككم**»[٣] وربما كان الذي أتاه مما لام عليه نفسه بعض التأويلات كذنب رسول الله عليه السلام نوح في شفاعته في ابنه، وكذلك ذنوب أمثاله كإبراهيم وموسى وغيرهم - صلوات الله وسلامه على جميعهم.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ - والله أعلم - أنه قال فيه: «**أنه كان يرتفع له إلى الله كل يوم من عمله مثل عمل أهل الأرض**»[٤] وما يدريك لعل معنى قوله ﷻ فيه: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢] أنه أتى بما يلام عليه من حمله على نفسه؛ لإلقائه نفسه على أصعب الأمر وأشده في مساهمته على من هو الذي يجعل في البحر أو نحو هذا - والله أعلم بخصوص عباده وأرأف.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] هذا من المقدور الغائب كيف يكون منه النداء المعهود وهو في بطن الحوت وغمرات المياه، وهي ظلمات كثيرة، وإنما نبهنا على هذا؛ لئلا يعتمد معتمد في وجود الكلام والتسبيح والتحميد وغيره على الصوت الموجود عن هواء خارج، بل الكلام على هذه الشروط أحد أنواع الكلام والنداء والإسماع والإفهام، فافهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، وابن أبي شيبة (١٤٧٠٥)، وابن حبان (٣٩٤٤)، وعبد بن حميد (١١٣٥)، والدارمي (١٩٠٣)، والدارقطني (٢٦١٠).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) أخرجه النسائي (٣٠٦٢)، والبيهقي (١٢٥/٥) والطبراني (١٥٣٢) وفي الأوسط (٢٠٠٢) وأبو نعيم في المعرفة (٣٨٩٤).

(٤) لم أقف عليه.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ [الأنبياء:٨٨] والغم يكون على متوقع منتظر، والحزن على ما كان وفات، وعلى التحقيق فالغم ترادف الحزن وتراكم الوجد وسد المذاهب، حتى لا يجد لما أهمه مخرجًا، والحزن سكون تلك الحال مع وجد موجود.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ﴾(١) [الأنبياء:٨٨] وعد من الله صادق لمن تاب وأناب إلى ربه واعترف كما فعل هو، عبر عن موجود حاله قوله: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] مع أنه قد قدم صالحًا يذكر به فيما هنالك ويشفع له، قال الله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ - ١٤٤] فإذا كان المؤمن فيما أغمه على حال هذا المجتبى - صلوات الله وسلامه عليه - من التوحيد والتوبة والإقلاع والندم المهم الذي يبلغ به حالة الغم، وقد قدم صالح عمل أو في نفسه أنه [يعمله ناله](٢) وعد الله - جل ذكره - أنه لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء:٨٩ - ٩٠] جعلها ولودًا بعد أن كانت عاقرًا، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠] هذا أصل في استحقاق [الاستجابة](٣).

---

(١) قرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر في إحدى الروايتين: «نُجِّي» بنون واحدة وتشديد الجيم، وقال الزجاج: هو لحن؛ لأن فعل ما لم يسم فاعله لا يكون بغير فاعل، وإنما كتب في المصحف بنون واحدة؛ لأن الثانية تخفى مع الجيم. وقال أبو عبيدة: والذي عندنا أنه ليس بلحن، وله مخرجان في العربية: **أحدهما**: أنه يريد «ثُمَّ نُنَجّى» مشددة، كقوله: ونجيناه من الغم، ثم يدغم النون الثانية في الجيم.
والآخر: معناه: نجّي نجاة المؤمنين. قال: هذه القراءة أحب إلي؛ لأن المصاحف كلها كتبت بنون واحدة، وهكذا رأيت في مصحف الإمام عثمان ﷺ. وقرأ الباقون: «**نُنجِي المؤمنين**» بنونين. بحر العلوم للسمرقندي (١٣٩/٣).

(٢) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «الإجابة».

قال رسول الله : ﷺ «من أحب أن يستجاب له في الشدة فليكثر التضرع في الرخاء»[1].

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩١ - ٩٨].

قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١] قد فسر هذا المعنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] و[جعلناها][2] وابنها آية على أنه يخلق من غير [أنثى][3] ولا ذكر كما يخلق من ذلك، هو الذي يبين سنته، وأجرى العوائد على معهود منها، وهو يخرق العوائد ويجري ما شاء من أحكامه على كلماته، وهو على كل شيء قدير، قال هنا: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وفي آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢] فتبين [البون][4] لمن لقن الخطاب.

---

(١) لم أقف عليه هكذا، وإنما أخرجه الطبراني (١١٢٤٣)، وأحمد (٢٨٠٤)، والضياء (١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٤)، وهناد في الزهد (٥٣٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٤/١)، بلفظ: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

(٢) في النسخة (خ): «وجعلها».

(٣) في النسخة (خ): «ماء».

(٤) في النسخة (خ): «النون».

فصل

نصب أسماء الأنبياء - عليهم السلام - في قوله: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٤] ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء:٧٦] ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٨] ﴿وَأَيُّوبَ﴾ [الأنبياء:٨٣] ﴿وَذَا النُّونِ﴾ [الأنبياء:٨٧] عطفًا على ما تقدم من قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء:٤٨] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء:٥١].

واستاق ذكرهم بأسمائهم وقصصهم؛ إثباتًا للخصوصية، وإعلامًا بالمن القديم الذي منَّ به على من يشاء من عباده، وذكرًا لهما وتذكيرًا لنا بهم، وإحياء لشرفهم؛ ليكون ذلك ذكرًا لعباده للمؤمنين، وموسمًا يبتغون به الأرباح عنده ويتقربون إليه بمحبتهم والتصديق لهم والإيمان بهم، وللتعزية لرسوله بما كان يصيبهم به في ذاته، فيصبرون له حتى يأتيهم الفرج من عنده، وإظهار لصدقه وعده رسله وإن أبطأ ذلك عليهم، فلتكمل أعمالهم وتتوفر ذنوب المجرمين، ولينالوا نصيبهم من الكتاب، يقول الله ﷻ: ﴿وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] أعلم ﷻ عباده ببعض المراد بسياقه ذكرهم فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [أي: أئمتكم أئمة واحدة][(١)] أي: كإمام واحد يدعون إلى دين واحد هو الإسلام لله والإيمان [به والعمل][(٢)] بطاعته ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ رب واحد ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] على ذلك، يقال: أم يؤم فهو أمة وإمام.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾[(٣)] فمنهم من فرق التوحيد،

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) أخبر تعالى أنهم بعد ذلك اختلفوا ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ وقرأ الجمهور ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ بالرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ و﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب على الحال، وقيل بدل من ﴿هَذِهِ﴾ وقرأ الحسن ﴿أُمَّتَكُمْ﴾ بالنصب بدل من ﴿هَذِهِ﴾. وقرأ أيضًا هو وابن إسحاق والأشهب العقيلي وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجعفي وهارون عن أبي عمرو والزعفراني ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ برفع الثلاثة على أن =

ومنهم من فرق بين النبيين، فكذب بعضًا وصدق بعضًا، ففارقوا بذلك دينهم الحق، ثم قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٣] وعيد منه شديد.

ثم أعلم بما يكون في المرجع إليه بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ لا يضره ضلال الضالين ولا تكذيب المكذبين ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] إعلام بأن أعمالهم لا يخافون فيها ظلمًا ولا منها هضمًا، أحصى كل شيء كتابًا ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] مع ما عند الله لعباده المؤمنين من الوعد بالمغفرة والتجاوز عن السيئات وتكفيرها بصالح الأعمال وحسن [الحسنات][(١)]، والزيادة التي وعد بها هو يعلمها لا يعلم كنهها سواه، ونصب «أمة» على القطع، ومن قال: إنه نصبها على المدح فهو مصيب، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: «إن هذه أمتكم» بنصب التاء «أمة واحدة» برفع الهاء.

قوله ﷻ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥] المعنى، والله أعلم بما ينزل: إنه حرام على قرية سبق لها منه القول بإهلاكه أن ترجع عما هي عليه من كفرانها، ثم حرام عليها إذا رأت العذاب ألا ترجع، فلا ينفعها حينئذٍ إيمانها ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:٢٣] وقرئت: «وحرم على قرية» بكسر الحاء وفتح وجزم الراء، والمعنى سواء، وقرأ ابن عباس وابن جبير: «وحرم» بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم[(٢)]، قال: إنه بمعنى وجب؛ أي: وجب ذلك عليها

= ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ و﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ أو ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بدل من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ بدل نكرة من معرفة، أو خبر مبتدأ محذوف أي هي ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والضمير في ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ عائد على ضمير الخطاب على سبيل الالتفات أي وتقطعتم، ولما كان هذا الفعل من أقبح المرتكبات عدل عن الخطاب إلى لفظ الغيبة كأن هذا الفعل ما صدر من المخاطب؛ لأن في الإخبار عنهم بذلك نعيًا عليهم ما أفسدوه، وكأنه يخبر غيرهم ما صدر من قبيح فعلهم ويقول ألا ترى إلى ما ارتكب هؤلاء في دين الله جعلوا أمر دينهم قطعًا كما يتوزع الجماعة الشيء لهذا نصيب ولهذا نصيب، تمثيلاً لاختلافهم ثم توعدهم برجوع هذه الفرقة المختلفة إلى جزائه.

(١) في النسخة (خ): «الحساب».

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «وحرم» بكسر الحاء بلا ألف، وقرأ الباقون بالألف «حرام» =

بأمر الكون، فوجب عليها ألا ترجع حين دعائه الرسل، ووجب عليها أن ترجع حين رؤية الهلاك.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦] يريد - وهو أعلم - موتهم كموت نفس واحدة [فَرْسَى][(١)] وهو الفتح على الحقيقة؛ ولذلك قرأ أبو العالية: «**حتى إذا فتحت**[(٢)] **أجوج ومأجوج**» أي: فتحتها أنا، يقول ﷻ على هذه القراءة: «أجوج» بغير ياء، كذلك قراءة رؤبة بن العجاج[(٣)].

ثم وصف كثرتهم بقوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الحدب: النشز والمرتفع من الأرض][(٤)] ينسلون: ضرب من المشي هو دون الجري وفوق المعهود، وصفته: أن يرفع رجله ثم يضعها فلا يجرها على الأرض، ويرفع القدم الأخرى ثم يضعها وضعًا كذلك، وفي الحديث: إن رسول الله ﷺ في بعض أسفاره شكا إليه بعض أصحابه الحفىّ [فقال][(٥)]: «**فأمرهم أن ينسلوا فهو أقرب إلى السلامة من الحفىّ**»[(٦)] ومن قرأ: «**فَتَحتْ**» فهو عبارة عن هدم السد الذي بنى عليه ذو القرنين عليه السلام لما فرغ منه قال: هذا رحمة من ربي ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾ [الأنبياء:٩٧] عطف بالواو لما

= وهما لغتان مثل حل وحلال. [تفسير البغوي (٥/٣٥٤)].

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: «فُتِحَتْ» بتخفيف التاء والباقون: بالتشديد. فمن قرأ بالتشديد، فلتكثير الفعل. ومن قرأ بالتخفيف، فعلى فعل الواحد. [بحر العلوم للسمرقندي (٤/٤٦)].

(٣) قرأ العجاج ورؤبة ابنه: آجوج بهمزة بدل الياء. وآجوج ومأجوج هما من ولد يافث. وقيل: يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم. [البحر المحيط (٧/٤٩٣)، الكشاف (١/٧٢٢)].

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٦) لم أقف عليه.

تجاوز ذكر أيام عيسى ابن مريم ﷺ فعطف على المحذوف من ذلك كقوله في أهل الجنة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر:٧] أي: وظهروا وهربوا، ثم عطف بالواو على هذا الكلام المحذوف، كذلك عطف أيضًا بالواو في قوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ تقدير الكلام: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ووصف كيف فتح فيهم أصبحوا [موتى][1] كموت نفس واحدة ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي: وهم على هذا من الكثرة ماتوا كموت نفس واحدة، ثم نظم به قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾ [الأنبياء:٩٧].

وقد يمكن أن يكون المعني بالوعد الحق هنا: نزول عيسى ابن مريم ﷺ وما يفتح الله به على يديه ويؤتيه من النصر، ويخرج له من بركات الأرض والسماء، فإنه يجيء بخير لم يكن [دولاً][2] في البدء، ويمكن أن يكون الوعد الحق هو قيام الساعة، ويدل على هذا التوجيه قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾ وإنما يكون قتل الله - جل ذكره - يأجوج ومأجوج في أيام عيسى وهو والمسلمون محصورون في جبال الطور، وعلى الحقيقة فيومئذٍ تشخص الأبصار وتحضر الأذكار وإن لم تنفع، وحذف «يقولون» ثم قال حكاية عنهم: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٩٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] أرجع الكلام إلى العرب وكفار الأمم، وقرأ علي وعائشة وابن الزبير وأُبي: «حطب جهنم أنتم لها واردون» يعني: الكفار، وهو أعلم.

﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

---

(١) في النسخة (خ): «فَرْسَى».

(٢) في النسخة (خ): «ولا».

يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ٩٩ - ١٠٤].

ثم قال وقوله الحق مبيِّنًا للمراد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١].

فصل

يمكن أن يكون المراد بقوله هنا: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ الكفار فحسب، ويمكن أن يكون المراد جميع العباد من بر وفاجر، وقد حقق ذلك الأكثر من السلف، وخرج على ذلك معنى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١].

والورود يكون الوصول إلى الماء أو الشيء شاهده، ولما ورد ماء مدين وصل إليه، ويكون الدخول شاهده يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار، روي عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم** ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢]»(١).

وروي نحو ذلك عن ابن عباس وروي عن ابن مسعود أنه قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] يعني: الصراط، وروي أنه قال: يردونها ويصدرون عنها بأعمالهم، وقال قتادة: ورودها الممر عليها.

وأمَّا ما روي عن جابر عن النبي ﷺ وأنه لو ثبت لكان الحجة البالغة وطريق هذا هو العلم، ولا يصح العلم ولا يتحصل بطريق الآحاد، كيف وقد ضُعِّفت نَقَلَة هذا الحديث بأنهم مجهولون، والقائلين بمقتضى هذا الحديث من ظاهر العموم.

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٦٠)، وقال الهيثمي (٧/٥٥): رجاله ثقات، والبيهقي (٣٧٠) وقال: إسناد حسن، وعبد بن حميد (١١٠٦)، والحاكم (٨٧٤٤) وقال: صحيح الإسناد، والحارث كما في بغية الباحث (١١٢٧).

مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨ - ١١٩] ونظيرتها في [سورة][1] ﴿الم﴾ السجدة قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢] إلى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣] فعمَّ بالذكر الجِنَّة والناس.

وأمَّا القائلون بأن الورود هنا هو بمعنى الممر والجواز فلهم حجة التخصيص، قال الله عزَّ من قائل لإبليس - لعنه الله - لما قال له: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٥] فهذا نص على إبليس ومن تبعه من ذريته ومن الناس وقال في موضع آخر: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ هذا إلى أن ضمير العموم راجع إلى القسم المغضوب عليهم قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨] أي: في التوحيد والنبوة، فمنهم من كذب بها، ومنهم من صدق بعضًا وكذب بعضًا ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٩] ولذلك خلقهم؛ أي: للمرحمة والتوحيد والتصديق.

ثم أخذ في الإخبار عن المختلفين بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] يريد - وهو أعلم - كلمته لإبليس: «اذهب، فمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين، أخرج منها مذمومًا مدحورًا لمن تبعك منهم لأملأن [جهنم][2] منكم أجمعين، فهذا نص على ملئها منهم، نعوذ بالله من سوء ما سبقت به المقادير.

هذا إلى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١] إنما جاء بعد قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم:٦٨-٧٠] ثم قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١] فكان هذا الكلام راجعًا على الذين هم أولى بها صليًا، وقد خلقهم الله ﷻ ملئها: «**تحاكمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله** - جل ذكره - **للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملئها**»(١) فهذا حديث صحيح، وقد أراح بما نصه من الحقيقة [وأغنى بتبيانه عن الإكثار.

وفي قول الله الشفاء الشافي، حيث يقول - عزَّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢] فكيف يخبر الله ﷻ عنهم أنهم عنها مبعدون، ويجوز القول بأنهم داخلوها، ويقولون بأنهم لا يسمعون حسيسها.

فيتردد في خلاف مقتضى قوله يقول الله ﷻ: ﴿**وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٣] يبشرهم ويذكرهم يقولون: ﴿**أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [فصلت:٣٠] لستم المرادين بما ترون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونحو هذا من قولهم - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وقول الله ﷻ هو الحق.

قال رسول الله ﷺ: «**إن النار اشتكت إلى ربها قالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لي أن أتنفس، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير، وأشد ما تجدون من الحر** - أو: «**من الحرور**»(٢) - **فمن جهنم**»(٣).

فأخبر الله - جل ذكره - عن هذا الحق الكائن والوجود المصاحب، يقول: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ [مريم:٧١] الآن فلِمَ تكفرون؟ أو كيف تكذبون بهما وأنتم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٩) ومسلم (٢٨٤٦) والنسائي في الكبرى (٧٧٤٠) وابن حبان (٧٤٤٧)، وأحمد (٨١٤٩).

(٢) لم أقف على هذه الرواية.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٨٧) ومسلم (٦١٧) وابن ماجة (٤٣١٩) وأحمد (١٠٥٤٥) ومالك (٢٨) والشافعي (١/٢٧)، وابن حبان (٧٤٦٦).

تردون زمهريرها أو حرورها كل يوم وحين؟ والوقوف على معرفة فيح جهنم وفيح رحمة الله من الجنة يبلغ إلى اليقين بالدار الآخرة.

وأمَّا قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ أي: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢] فإخبار عما يكون من حكمه في الآخرة؛ إذ قد قدم إخباره عن حكمه في دار الدنيا؛ ولهذا التبيان أتبع قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ ولا أبين من مشيش صرود بردها وسموم حرها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣] أخبر عن موتهم وغفلتهم لا يسمعون الوحي ولا يعقلون الخطاب.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ
(١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ
إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ
مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)
قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١١٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥] يمكن أن يكون المعنى بالزبور الكتب كلها، ويمكن أن يكون المنزل على داود - صلوات الله وسلامه عليه - وهو الأظهر من بعد الذكر الكتاب الأول يرثها عبادي الصالحون، يمكن أن يكون المراد: أمة محمد ﷺ، وقيل: إن الأرض ها هنا هي أرض بيت المقدس، وقيل: هي أرض الجنة، فالوارثون لها هم الصالحون.

لكن - والله أعلم بما ينزل - ليست أرض الجنة الغرض بهذا الخطاب؛ إذ المعلوم المعهود أن الجنة لا يدخلها إلا الصالحون، وليست معدة لسواهم، والأوجه من هذه الوجوه أنها هي هذه الأرض.

وقد جاء من حديث يصح: «**إن الله يجعل هذه الأرض يوم القيامة خبزة كالنقي**

قال: يَتَكَفَّؤُهَا الجبار كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة»(١).

وقد جاء: «**إن المؤمن في أرض المحشر يشرب من الحوض ويأكل من بين رجليه**»(٢) وعلى هذا انبنى الوجود.

ألا ترى أن الله - جل ذكره - يخلق منها الخير وما هو غذاء الأجسام والأرواح ولكن بآجال مؤجلة إلى آماد منتظرة ﴿**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [النحل:٧٧] أتبع ذلك ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾(٣) [الأنبياء:١٠٦] أي: إن في إشارات الوجود إلى ما هنالك وآيات عليه وفي إنباء هذا القرآن الحكيم لبلاغًا لقوم عابدين، فليصبروا قليلاً، فإن العاقبة لهم.

ووجه آخر أنه لما ذكر يأجوج ومأجوج والوعد بالفتح فيهم أتبع ذلك قوله: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٥] وهم عيسى ابن مريم وأنصاره ومن تبعه من المسلمين ومن يجيء معه، إن في هذا لبلاغًا لقوم عابدين لله في أيام الدجال.

ووجه آخر زائد إلى ما تقدم أن تكون الأرض المخبر عنها هي الأرض المقدسة، وهي مكان ملك داود وسليمان، وموضع أنزل فيه الزبور وكتب في الذكر الأول، ثم بعد في الزبور: «إن أرض بيت المقدس المعهودة يرثها عبادي الصالحون» والكتب الأولى بشارة لكونها لبني إسرائيل إلى أن فسدوا واختلفوا، فأدال الله فيها من شاء، ثم الكتب في الزبور بشارة بوراثة هذه الأمة إياها.

ومفهوم الوراثة يعطي أنهم - أعني: الصالحين - يرثونها من غير الصالحين،

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٧٩٢)، وعبد بن حميد (٩٦٢).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي هريرة: ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ قال: الصلوات الخمس. وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ قال: «**في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة**». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: أن النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿**لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ قال: «**هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة**». فتح القدير (٥/٩٠).

فورثها صدر هذه الأمة، وهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم من المسلمين عن الروم، ثم عمرها المسلمون بذلك خلف عن سلف إلى أن فسدت الأعمال منهم، وظهرت فيهم البدع، وجريت القلوب خلفهم فيها الروم من لدن عام تسعة وثمانين وأربعمائة إلى هلم جرًّا، ثم إذا صلح آخر هذه الأمة - إن شاء الله - فتحها الله عليهم وأورثهم إياها، ثم كذلك ما صلحوا إلى وفاة عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه وعلى من تبعه بإحسان - وبوفاته تكون وفاة المؤمنين معه، ثم تخلف المؤمنين فيها وفي غيرها غيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ففي هذا التقليب وتحقيق هذه الوراثة للصالحين واستخلافه الغير منهم عليهم بلاغ لقوم عابدين، وإعلام لهم بإثرتهم عنده ومكانتهم لديه، وإعلام منه لعباده أن القرآن أنزله بعلمه الغيب لا إله إلا هو.

قوله ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ أي: أعلمتكم وأسمعتكم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء:١٠٩] أي: إسماعًا عامًّا كما قال: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] وانتظم هذا الخطاب بأول السورة قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:١ - ٢] المعنى إلى آخره، وهذا المعنى الذي هو الذكر مستصحب إلى آخر السورة.

أتبع ذلك ما هو منتظم به وموصل له قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ يعني: الذكر ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ ومن كان له فتنة فهو كفر، وقوله: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء:١١١] اشترك فيه المخلصون والمسلمون، المستسلمون العاملون، هؤلاء يمتعون به عبادة ولذاذة وتقريبًا من الله - جل ذكره - وهؤلاء يمتعون به رزقًا وعيشًا إلى حين؛ يعني: الموت لكل نفس وإلى حين وفاة عيسى ابن مريم ﵇ لحمله الأمة بعده، يسري على القرآن ليلاً فيرفع، نعوذ بالله من درك الشفاء وسوء البلاء ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٦٨].

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢] هؤلاء هو لهم فتنة والمتاع

ينقسم إلى ما تقدم ذكره، نسأل الله العفو والعافية.

قوله، جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢] يمكن أنه أمره في هذا الخطاب أن يدعوه في الفرج، والأمر الذي يكون به النصر والفتح؛ لقوله: اصبروا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يحكم إلا بالحق، لكن يتوجه هذا إلى أنه أمره أن يجعل حكمه بينهم بالكلمة، وهو الحق في المعهود كما قال: ﴿فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤].

والحق هو الكائن الواجب الوجود إمَّا بالمشاهدة كونًا وإمَّا بالوعد الصادق، وكان قد وعده بالنصر وأمره بالصبر إلى انقضاء المدة، فأمره هنا أن يسأله إنجاز ما وعده به من ذلك، ثم هذا سائر مستمر متى دارت دوائر الفترات، وعند استيلاء عمه الغفلة وتراكم الظلم والضلالات؛ فالواجب على من بقي من المنكرين لذلك ولو بقلوبهم أن يسألوا الله - جل ذكره - الصبر وتعجيل النصر والحكم بالحق، وأن يدحض كيد الظالمين، ويزهق أباطيل الكافرين، وأن يهاجروا إلى ذلك بأعمالهم وأنفسهم، والله سميع قريب.

تفسير سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾ [الحج: ١ - ٤].

قوله - عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[1] [الحج:١] هذا منتظم بالتذكير في أول سورة الأنبياء - عليهم السلام - قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] إلى سائر الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج:٣] أي: في قدرته ومشيئته وعلمه وصدق قوله، ولأن هذا المجادل بغير علم كذب بإحياء الله الموتى والإعادة بعد البداية وبإتيان الساعة وبالبعث والنشور والدار الآخرة، وكذب بما لله من صفاته العلا وأسمائه الحسنى، وهذا سنن الشيطان وطريقه الذي تضمنه من الإضلال والإغواء قوله: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ﴾ [النساء:١١٩]

---

(١) قال الشيخ الألوسي (١٢/٤٩٥): تعليل لموجب الأمر بذكر أمر هائل فإن ملاحظة عظم ذلك وهوله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة. والزلزلة التحريك الشديد والازعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها، وإضافتها إلى الساعة إما من إضافة المصدر إلى فاعله لكن على سبيل المجاز في النسبة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اليل والنهار﴾ [سبأ:٣٣] لأن المحرك حقيقة هو الله تعالى والمفعول الأرض أو الناس أو من إضافته إلى المفعول لكن على أجرائه مجرى المفعول به اتساعاً.

المعنى إلى آخره، حيث وقع كقول الله - جل ذكره - ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩].

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٤] قوله ﷻ: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج:٥] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧] يقول ﷻ: إن كنتم في شك من البعث فانظروا إلى ما بحضرتكم وما أنتم منه مخلوقون ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥] يريد آدم عليه السلام هو المخلوق من التراب، وخلق ذريته من نطف بعضهم من بعض، وتلك النطف مخلوقة من الأغذية، والأغذية من التراب، فشملنا جميعًا في أنا مخلوقون من التراب، وإذا أراد التميز بحكم الخصوص فكقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٧ - ٨].

يقول - عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: من دم ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ المضغة: اللحم ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ المخلق منها هو المصور، فمن النطف من يصور في رأس الأربعين ليلة وهو الذكر، وأمَّا الأنثى فإن خلقها يصور عند انقضاء أجل المضغة، قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج:٥] أي: الذكر من الأنثى في الخلقة، وقد يمكن أن يكون معنى ذلك يقول: هذا لنبين لكم القدرة على الخلقة ونقلها في

درجاتها، وعلمنا بها وقدرتنا عليها وتدبيرنا إياها، كيف نشأ في مضيق مسكنها وعمايات مستقرها، وهي ظلمات ثلاث، حيث نبين التوجد منا بتدبيرها في درجاتها وتنقيلها إلى محالها منها وبجميع مواد الخلقة بعضها إلى بعض، وسوق الرزق إليها بحيث لا تبلغ صنع الأبوين ولا حفاية الأولياء.

ثم قال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: من لدن نفخ الروح في ذلك المخلوق إلى وضعه ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ لتمام الآجال وانقراض آمادها، ثم قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ فتستوي الخلقة وتستجمع الصفات والقوى الظاهرة والباطنة ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾ من قبل ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [الحج:٥] هذا تنبيه على إرجاع آخر الأمر على أوله، وفيه تنبيه على معرفة المرء نفسه ومن لا يعرف نفسه لا يعرف ربه، هذا فضل معرفة النفس.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج:٥] أرانا دلالة أخرى وطريقًا ثانيًا من النظر على ما أراد إثباته كما قال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠ - ٢١].

يقول - عزَّ من قائل: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ لما رويت بالماء توجه إليها الكون ودخلها روح الخلقة، فربت له وخامرها أمر الله، فتشققت تهيؤًا للمراد منها وبها، ثم أظهر الله عنها نباتها فهبت عليها الرياح فاهتزت، وأضاف ذلك الفعل إلى الأرض؛ لأنه عنها، وتلك رحمة رُحمنا بها؛ لأن الحركة والفعل دليل على الحياة، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] أي: مبهج فعيل بمعنى مُفْعِل.

ثم أخذ ﷻ يعلم بمواقع الدلائل من المدلولات بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا الوجود يوجب الإيمان ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ أي: أن وجود هذا يدل دون مرية على وجوده العلي، كما يدل وجود الفعل على فاعله، وهذا فعل ففاعله إذًا حق وجوده لا محالة ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] أي: أنه كما اقتدر على هذا إنزال الماء من السماء، وإخراج كل الثمرات به بواسطة ما سخره من الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم والرياح، وما يكون مع ذلك من فيح وفتح، وهذه هي الدنيا، فهو على إيجاد الآخرة وكل شيء علوًا وسفلاً قدير،

وإحيائه الموتى حال موتهم كما اقتدر على إحياء الأرض في حال موتها وإحياء النبات حال الموت منه وعلى إماتة الأحياء حال حياتهم، وأنه يبعث من في القبور كما اقتدر على إخراج النبات بعد أن لم يكن ثم نبات، وقد كان هشيمًا وحطامًا وآل بعضه إلى بزر يابس لا حركة نبات به ولا فعل يضاف إليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى﴾ في حال موتهم كما تقدم، كما يحيي الجنين في بطن أمه وينشؤه في الرحم خلقًا آخر غير ذلك من درجاته الأُول، كذلك يحيي الموتى في دار البرزخ، وأن مدة مستقره في الرحم برزخ بين موتته الأولى حياته هذه، فهي له دار وسطًا كدار البرزخ التي يستقبلها بعد حياته هذه وقبل حياته المستقبلة، وقد تقدم من هذا ما يغني اللقن عن الإسهاب، ثم قال: ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] فعم الوصف بإحاطة القدرة كل مقدور يبلغه العلم أو لا يبلغه كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

ثم قال: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ كما تنقاد الآماد بحل الآجال فيما تقدم ذكره من تنقيل الخلقة إلى سواها، كذلك ببلوغ أجل الدنيا وتمام أمدها تجيء الساعة ويحل وقت الانقراض لا ريب في ذلك، كما إذا تم أمد النهار رحل الليل كذلك النهار يجيء لتمام الليل كذلك الآجال كلها ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ [الحج:٧] قد مضى الكلام في هذا كله.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ (٨) ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا
قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ
خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ (١١) يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ (١٢) يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ (١٣)
إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ⑭﴾ [الحج: ٨ - ١٤].

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:٨] انْبَنَت هذه الآية على ذكر الجدال والمجادلين في آيات الله، لكن الآية الأولى في المجادل المتبع للضالين والمضلين من كل شيطان مريد من الجن والإنس، وهذه في المجادل في آيات الله الداعي إلى نفسه الضال المضل، وكل من كان على هذا فهو دجال لا هداية معه من الله ولا نور كتاب.

ثم قال: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ [الحج:٩] كما يقال: نأى بجانبه ولوى وأعرض، وذكر العطف هنا إشارة إلى الكبر والتعاظم.

ثم أتبع ذكر هذين الصنفين ذكر صنف ثالث، وهو: الضعيف الإيمان الشاك المرتاب، قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ حرف كل شيء أحد جانبيه، وكان أحدهم يدخل في الإسلام فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت فرسه وأصاب ما يحبه قال: «هذا دين صالح» وإن أصابه ضد ذلك قال: «هذا دين سوء» وتطير به فراجع كفره، عبر عن ذلك منه قوله - عز جلاله: ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ أي: إنه لم يصب في دنياه خيرًا؛ ولذلك انتقل عن عبادة ربه؛ ولرجوعه إلى ضلاله امتنع خير الآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ المشار إليه هو خسران الدنيا والآخرة، فخسرانه هناك ﴿هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ [الحج:١١] أي: بيِّن عن نفسه.

ووجه آخر: وهو أن المعهود هو التوسعة على الكافر استدراجًا له بالعوافي ومتاع الدنيا، يقول الله عزَّ من قائل: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٦ - ١٩٧] ويقول: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ [الحجر:٣] ونحو هذا وهو كثير، فكيف يتصور القول بأنه خسر الدنيا وإن كان قد خسر الآخرة.

اعلم - أرانا الله وإياك رشدنا - أن الله، جل ذكره، وضع الدنيا ناقصة وإنما جعل تمامها في الآخرة، فإذا نال في الدنيا مهنأه فلم يشكر نعم الله بل كفرها، وأصابته مصابها فلم يصبر لله - جل ذكره - بل سخط وضج وفرَّ إلى سواه منها، فإذا صار إليه انقطع عنه ذلك، وأخذه بنعمه وقلة صبره، وضاعف له العذاب مع

البقاء في ذلك وطول الأمد.

فصل

واختلف السلف هل لله - جل ذكره - على الكافر نعمة دنيوية أم لا؟ بعد اتفاقهم على أن أول نعم الله على العبد أن خلقه سالم الحواس والجوارح ممتعًا بالقوى، وما جعله به مستويًا، وبعد اتفاقهم أيضًا على أن أفضل نعمة على العبد أن هداه إلى الإيمان ويسره للإسلام.

وقال فريق: ليست لله - جل ذكره - على الكافر نعمة؛ إذ قد أفاته نعمة الإيمان وإنما كل ما هو معطيه إياه من أهل ومال وولد وصحة وسلامة وعافية وتوسعه في ذلك فتنة له واستدراج إلى منال أشد العذاب، وأوجع الآلام وأبعد البعد من رحمة الله.

وقال فريق: بل نعم الله سابغة شائعة على الكافر في الدنيا إلا ما شاء من ذلك وله على المؤمن نعم الدنيا والآخرة، ولو شاء الله لضرب الكافر بضروب البلايا وأنواع العذاب في الدنيا من الجذام والبرص وتقطيع الأعضاء إلى غير ذلك من أصناف الغير، ممن أصاره بعد الموت إلى جهنم وبئس المصير، لكان له ذلك؛ فإذ قد أتاه في الدنيا السلامة ومتَّعه بشرف العيش وسعة الحال وكثرة الأهل والولد، وهي نعم من الله عليه.

وأجاب على ذلك الفريق الأول بأن قالوا: ليس ما ذكرتموه على الكافر نعمة عليه؛ إذ العلم قد استقر أن جميع ما يرزقه ويجبوه مما يظن بهما أنها قبله، نعم يعذبه عليها في الآخرة عذابًا فوق العذاب بكفره؛ لإفساده وصده وتضييع شكره، قالوا: فهو كمن أعطاه ذبيحة مسمومة، كان فيها هلاكه، فعادت نعمة الله على غيره الكافر نقمة على التحقيق، فهو قول الله - جل قوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ [الحج:١١] لم يشكر نعم دنياه ولا صبر لبلائها، بل كفر ونخر، فكان كما قال الله - جل ذكره: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

وفي كتاب الله - جل ذكره - من تبيين هذا المذهب قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي

﴿الآخِرَةِ﴾ [آل عمران:١٧٦] وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨] وقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] وإنما هو الله سبحانه سبق إلى عباده أنعمه كما سبق إليهم هداية الفطرة، فمن آمن وأصلح كانت عليه نعمًا، ومن كفر عادت عليه نقمًا.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ يريد من نعمة قبلهم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] من هدايتهم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي: من الإضلال ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم﴾ إذا ضلوا عن هدايتهم ﴿مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

رجع الكلام إلى أوله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ [الحج:١٢] كل من عبد من دون الله لا يملك على التحقيق ضرًّا ولا نفعًا، وبخاصة الأوثان والأصنام، ثم قال: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج:١٣] كان الدعاء في القسم الأول من العابد المعبود، ومن حيث هو تابع كما وصفه الله ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج:٣].

والدعاء هنا في الآية الثانية من المعبود العابد من حيث هو يدعو إلى نفسه؛ لكبره وعظم نفسه عنده، يقول الله - جل ذكره - ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ إن كان هذا الداعي إلى نفسه يلتذ بالتبعية والغاشية، فحمَّله أوزار من تبعه وأضله إلى أوزاره أقرب من ذلك النفع وأشد بأسًا، ثم قال وقوله الحق: ﴿لَبِئْسَ المَوْلَى﴾ تولاه يعني: الصنم والوثن والمعبود ما كان ﴿وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ [الحج:١٣] هؤلاء الأتباع والغاشية بئس ما عاشروا داعيتهم أصاروه حاملاً لأثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ هذا قول من له دعوة الحق ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤] هو يملك النفع والضر، ويرزق من السماوات والأرض، لا إله إلا هو العلي الكبير، لما ذكر المجادل في الله الداعي إلى نفسه والتابعين له ومبلغ قدرهم، وموالاة المتبوعين

ومعاشرة التابعين لهم، وأنهم لأعبائهم ولا نفع ولا دفع ذكر نفسه العلي الأعلى لما هو عليه من نفع ودفع وعظيم غنى، وأنه يجعل مآل من آمن به وعمل الصالحات خير مآل.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ١٥ - ٢٢].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾(١) [الحج:١٥] هذا منتظم بما تقدم من معنى من عند من له دعوة الحق

---

(١) الأمر في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّمَاءِ﴾ للتعجيز، فيعلم أن تعليق الجواب على حصول شرطٍ لا يقع، كقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن:٣٣] وأما استخراج معنى الآية من نظمها: فإنها نُسجت على إيجاز بديع، شُبهت حالة استبطان هذا الفريق الكفر وإظهارهم الإسلام على حنَق، أو حالةُ تردّدهم بين البقاء في المسلمين وبين الرجوع إلى الكفار بحالة المغتاظ مما صنع، فقيل لهم: عليكم أن تفعلوا ما يفعله أمثالكم ممن ملأهم الغيظ وضاقت عليهم سُبل الانفراج، فامدُدوا حبلاً بأقصى ما يُمَدّ إليه حبلٌ، وتعلّقوا به في أعلى مكان، ثم قطعوه =

وخلو ما يدعون من دونه، ذكر بعض العلماء أن هذه الهاء في النصرة عائدة على النبي ﷺ، وأن نصره إياه إتمام أمره فيه وإعلاؤه على أعدائه، وهذا وإن كان حقًّا إن الله ناصره ومتمم كلمته فيه وبه فلم يجر للرسول ﷺ قبل هذا ذكر ظاهر، وإن كان هو المخاطب بالكلام فمن أجل ذلك أيضًا كان يكون الكلام إليه بالمواجهة، هذا إلى أن ذكر نصره إياه.

وإتمام أمره ليس بمتصل المعنى بما بعده من قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥] والذي أراه - والله أعلم - أنه لما ذكر قدرته على إحيائه الموتى، وبعثه أهل القبور، وتخليق النطف في الأرحام، ونقلها في درجات التكوين، ثم إنشاءه إياها خلقًا آخر في طبقات الإنشاء، ثم إلى آخر العمر ونحو ذلك، وجعل ذلك كله دليلاً ومدلولاً عليه، ووصف نفسه بأنه على كل شيء قدير، وبأن له الوجود الحق العلي.

وذكر المجادلين فيه بغير علم من داع ومدعو ضرب مثلاً فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ﴾ [الحج:١٥] أي: من كان يشك في نصر الله؛ أي: في حفظه إياه حفظ الخلقة وغير ذلك؛ كقوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء:٤٢] وارتاب في إحاطة قدرته وشمول حفظه في إيجاد الموجودات ظاهرًا وباطنًا، **فليمدد** بسبب حبل أو غيره إلى السماء سماء بيته أو إلى ما علاه، فليستمسك به صعدًا فوق الأرض في الهواء، ثم **ليقطع** ذلك السبب، **فلينظر** هل يثبت مكانه على حاله أو يقع بالأرض فيصيبه ما يغيظه من كسرٍ أو رضٍّ أو هلاك،

=

تخرّوا إلى الأرض، وذلك تهكم بهم في أنهم لا يجدون غنى في شيء من أفعالهم، وإنذار باستمرار فتنتهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة.

ويحتمل أن تكون الآية مشيرة إلى فريق آخر أسلموا في مدة ضعف الإسلام واستبطأوا النصر فضاقت صدورهم، فخطرت لهم خواطر شيطانية أن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلى الكفر، فزجرهم الله وهددهم بأنهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومُرتابين في نَيل ثواب الآخرة فإن ارتدادهم عن الإسلام لا يضرّ الله ولا رسوله ولا يكيد الدينَ، وإن شاءوا فليختنقوا فينظروا هل يزيل الاختناق غيظهم، ولعلّ هؤلاء من المنافقين. التحرير والتنوير (٢٤٨/٩).

كذلك المخلوقات كلها يتسرب إليها الفناء والعدم ويسبق إليها كاستباق الثقيل إلى الهوي، لولا يتسرب إيجاد الله وإتقانه وحفظه إليها أسرع من ذلك ما شاء أبقاها ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١].

فيمسك وجود الموجودات على ما هي عليه إمساكًا وحفظًا وكلاءة، ودفاعًا على المقدر الذي شاءه فيها من الوجود، حتى لو توهم متوهم إزالة إمساكه هذا عن وجود أي موجود كان لعارضه توهم وجوب ضد الإمساك، ولو تخلى عنه أدنى طرفة عين لتدمدم ما تخلى عنه هذا في إمساك الخلقة، وأمَّا في إمساك الديانة والهداية والتوحيد للمؤمنين هو السبب الموصل لهم إلى الله - جل ذكره - فلو توهم متوهم أيضًا إزالة التوحيد عن الموحد لعارضه أيضًا وجوب ضد التوحيد وهو الشرك.

ولو كان لتدمدم وتدكدك دينه وتل عرشه، وإلى هذا الغرض أشار بقوله الحق: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] سماؤه هو توحيد في التأويل، وتخطف الطير له تضليل الشياطين له واستهواؤهم إياه، وتأويل الريح التي تهوي به: الأمر المبعد عن ربه - عزَّ جلاله - والمكان السحيق: هو جهنم، أعاذنا الله برحمته منها.

يقول: يموت فيصير إلى جهنم، والسحق البعد، ولا أبعد ممن هو في النار الهاوية الحامية لمعهود هذه الدلالة وظهور شأنها، قال - وهو أعلم: وكذلك كبيان هذا أنزلناه آيات بينات، ثم فتح «أن» تقدير الكلام فيها: أنزلناه آيات بينات، وفيه أن الله يهدي من يريد لا يهتدي أحد من ذات نفسه، كما أنه ليس أحد يحفظ نفسه إلا كسًبا للحفظ، الله يحفظه ويحفظ حفظه هو نفسه ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الحج:١٧] هذا الكلام راجع معناه إلى تطوير الناس في تحملهم في صدر السورة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ﴾ [الحج:٣] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج:١١].

ثم عم قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الحج:١٨] إلى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨] انتظم هذا بمعنى ما تقدم

ذكره من ذكر إمساكه وحفظه وتعهده جميع المخلوقات بسريان الإيجاد والإعداد والهداية والإضلال والإعدام على نحو ما تقدم ذكره في أثناء الكتاب؛ كجري الماء إلى صببه فيما هي قائمة؛ لإقامة العالم ومنافع العباد هي مسخرة وبما هي مسخرة لمن سخرت له، هي قانتة عابدة لمسخرها، وبما هي قائمة من الإيجاد والإعدام والحفظ والترك، لكن الإيجاد والحفظ ظاهران وضدهما باطنًا، وهي مسبحة وحامدة لموضع الإيجاد والإمساك مسبحة عن معنى الإعدام والافتقار.

ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨] أي ساجد له عابد قانت ظاهره ذلك فيه كونًا وشرعًا، أمَّا ظهور ذلك فيها كونًا، فلأجل التيسير لما يسرت له وأوجدت إليه، وأمَّا ظهور ذلك فيها شرعًا فيما سخرت له من إقامة الأمر ومنافع العباد ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨] لتركه العبادة الشرعية وتارك التسخير فاسق.

واعلم أن للموجودات تسبيحًا وعبادة بينها وبين بارئها بصعدات إلى تسبيح أمر الشرع وعبادته، وقد يطلع الله على ذلك من شاء من عباده، من أراده بذلك كداود وسليمان والأنبياء، ومن شاء من الأولياء، والله على كل شيء قدير، ذو فضل عظيم يؤتيه من يشاء.

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩] الخصمان هم أهل الضلالة والهداية، لما ذكر المجادلين في الله ذكر فريق الهدى والضلال، وما يؤول إليه هذا وهذا من ثواب جزيل وعقاب أليم، هذا على القول بالعموم وظاهر سرد القرآن، وهو الذي جرى ذكره من أول السورة إلى هذا الموضع.

وذكر عن علي ﷺ أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة» وذلك أنه لما كان يوم بدر كان المشركون من قريش، وقد برز إليهم قوم من الأنصار أكفاء كرام، لكن أخرجوا إلينا بني أبينا، فبرز أربعة من المسلمين إلى أربعة من كفار قريش، منهم علي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة إلى الوليد بن عقبة وعتبة وربيعة، فقتل عتبة وعقبة وربيعة، وأمَّا عبيدة - رحمه الله - فرجع عليه ذباب سيفه فمات منه، وإنما قال ذلك - رحمة الله عليه - لما ثبت أن هذه الأمة تحاسب أولاً من الأمم، وأن أول ما يكون الحساب في الدماء، وذلك أول دم أريق في الإسلام في سبيل الله، وقال: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ على التشبيه؛ وذلك لأنهم فريقان ثم قال:

﴿اخْتَصَمُوا﴾ [الحج:١٩] على ضمير الجمع؛ لأنهم كذلك.

قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩] يمطرون من فوق رءوسهم حميمًا وفيما هنالك بخار الحميم، وكما يخلق الله الماء في جو السماء كذلك يخلق في أجواء ما هنالك الحميم، قيل: الحميم هو النحاس المذاب، وقيل: كل ما تناهى حره فهو حميم، وأيًا ما كان فإن حر ذلك يزيد على النحاس المذاب هنا، والماء الذي يتناهى حره بتسعة وستين جزءًا، والصهر: الحرق يصهر به ما في بطونهم، والجلود تحرق منهم ذلك، وقيل: هو الشي؛ أي: يشوي أمعاءهم وجلودهم، نعوذ بالله من جميع عذابه ما قل منه وما كثر.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] والصهر أيضًا إذابة الشحم، وهو قريب بعضه من بعض، ثم أعقب ذلك بذكر الخصم الثاني، وهم الذين آمنوا وأعد لهم عنده من حسن المآب وكريم النزل.

أتبع ذلك من ذكر حالهم: ﴿وَهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ﴾ هدوا في الدنيا إلى قول: «لا إله إلا الله» وإلى ذكر الله، وفي الآخرة يلهمهم التسبيح كما يلهمهم النفس، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

﴿وَهُدُوا﴾ فيما ها هنا ﴿إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤] صراط الإسلام صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: ٢٣ - ٢٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ المعنى إلى آخره، المعني بهذا القول: قريش، وذكره للبيت أنه حرام تعظيم لقدره وإعلام بأنه لم يحرمه الناس وإنما حرمه الله ﷻ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ليست فيه

مفاضلة بين العاكف فيه والبادي، يريد المتقرب إليه ومن أراد غير ذلك إلحادًا منه عن هذا الحق إلى الباطل، يقول الله - جل قوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٢٦ - ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(١) [الحج:٢٦] حدث رسول الله هذا الحديث

---

(١) قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ قال مقاتل: يعني: دللنا لإبراهيم موضع البيت، فبناه مع إسماعيل - عليهما السلام - ولم يكن له أثر ولا أساس البيت؛ لأن البيت كان أيام الطوفان مرفوعًا، قد رفعه الله إلى السماء وهو البيت المعمور. وقال الكلبي: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي: جعلنا لإبراهيم مكان البيت يتكلم، فيقول: بموضع البيت. جعله الله منزلاً لإبراهيم ، بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت فيها رأس يتكلم ، فيقول : يا إبراهيم ، ابن على قدري وحيالي ، فأسس عليها البيت ، وذهبت السحابة . ثم بناه حتى فرغ منه ، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ وقال أبو قلابة: بناه من خمسة أجبل: حراء ، وثبير ، وطور سيناء ، ولبنان ، وجبل أحد. وقال الزجاج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي: جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم، والمبوأ: المنزل؛ يعني: إن الله تعالى علم إبراهيم ﷺ مكان البيت، فبناه على أسه القديم، وكان البيت قد رفع إلى السماء. قال: ويروى أن البيت الأول كان من ياقوتة حمراء. وروي عن ابن عباس أنه قال: رفع السماء إلى السادسة يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك،

=

فقال: «جاء إبراهيم إلى إسماعيل وهو يومئذ بمكة فوجده يعدل نبلاً، قال: وكان صاحب قنص، فقال له: إن الله أمرني أن أبتني له بيتًا في هذه الرابية، قال له إسماعيل، صلوات الله وسلامه عليهما: امضِ لما أمرك به ربك، فأخذا في بنيانه ينقلان الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٧ - ١٢٨]»[١] المعنى إلى آخره، فبشره الله - جل ذكره - إبراهيم بهذه الأمة، ووصفهم قبل أن يوجدهم بأنهم الطائفون ببيته الحرام، العاكفين، الركع السجود.

ثم قال له: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧] يريد الإبل قد نهكها طول السير من كل طريق بعيد والفجاج الطرق، وقد يكون معنى ذلك من كل قطر بعيد ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٨] في دينهم إقامة مناسكهم، وفي أمر دنياهم التجارة، دون أن يشغلهم ذلك من ذكر الله وعن الصلاة، أباح الله - جل ذكره - التجارة فيها؛ لأن ذلك من الجلب إليها الذي انبنى عليها معنى قوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] وقوله ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧].

ثم قال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ الله فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ حين أهداها والتفدي بها ونحرها؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٨].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ﴾[٢]

=

وهو بحيال الكعبة. ثم قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ يعني: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن طهر بيتي من النجاسات ومن عبادة الأوثان ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني: لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ يعني: المقيمين من أهل مكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يعني: أهل الصلاة بالأوقات من كل وجه. بحر العلوم للسمرقندي (١٥٧/٣).

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٤٢)، وعبد الرزاق (١١٠/٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٢/٥)، والحاكم (٣٩٨٤).

(٢) أفاد سيدنا البيطار في هذه الآية المباركة بقوله: وارد: البيت العتيق لكل مؤمن وصدِّيق.

بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]. اعلم -

=

[الحج:٢٩] من قرأ بكسر اللام من قوله: «ليقضوا»[(١)] فهو عطف على قوله: «ليشهدوا منافع لهم» ومن قرأ بجزمها فعلى معنى الأمر، والتفث: الحلاق أو التقصير وقص الأظفار والشارب ورمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة ونحو هذا من المناسك، وعطف على ذلك قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ العتيق القديم، قال الله - جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦] ويقال: عتيق أيضًا؛ لأنه عتق من مُلك الجبابرة فلم يملكه جبار قط.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك أوجبنا عليهم أو نحو هذا، وإيجابه ذلك عليهم لأمر غيب عنده مذكورلهم حيرة، فعرض بذكره ولم يصرح؛ إذ هو من قبيل ما هو ما لا عين رأت، ولحكمه بالمعبر له في ذلك عرض ولم يصرح، ثم عطف عليه

رحمك الله - أن بيت الله عين ساكن؛ لأن الله هو وجود كل شيء أحد لا يتجزأ، وحقيقة مطلقة يندرج بها كل صورة في الوجود، فليس لله محل يسكنه؛ إذ ليس مع وجوده شيء آخر يحل فيه أو يتحد فيه أو يمتزج فيه، بل هو الله الواحد الأحد من جميع الوجوه كما قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] فأين البيت وأين الساكن؟ بل البيت عين الساكن والساكن عين البيت، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥] غاية الأمر أن الوجوه الإلهية منها العالي ومنها الأعلى، ومنها الكريم ومنها الأكرم، ومنها الرحيم ومنها الأرحم، ومنها القريب ومنها الأقرب، ومنها العظيم ومنها الأعظم، ولما كان هذا البيت أول بيت لله تعالى، أي: أول صورة إلهية شهادية تجلى الله بها من حضرة ذاته الغيبية المطلقة سمي عتيقًا، أي: قديمًا، لا يعلم له أولية فهو مجلي اسم الله القديم، ولهذا كانت تربة الجسم المحمدي ﷺ من هذا البيت، الذي هو وجه الله القديم، وقد طافت به الأمم السابقة على أبينا آدم الأقرب إلينا بأربعين ألف عام أو أكثر، وطافت به الملائكة قبل الجنس الإنساني، فحاز رتبة الأولية في مظاهر الحق بالنسبة لبيوته.

(١) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو، وَنَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَيَعْقُوبُ: «ثُمَّ لِيَقْطَعْ» «ثُمَّ لِيَقْضُوا» بِكَسْرِ اللَّامِ، وَالْبَاقُونَ بِجَزْمِهَا؛ لِأَنَّ الْكُلَّ لَامُ الْأَمْرِ، زَادَ ابْنُ عَامِرٍ «وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا» بِكَسْرِ اللَّامِ فِيهِمَا، وَمَنْ كَسَرَ فِي: «ثُمَّ لِيَقْطَعْ» وَفِي «ثُمَّ لِيَقْضُوا» فَرَّقَ بِأَنَّ ثُمَّ مَفْصُولٌ مِنَ الْكَلَامِ، وَالْوَاوُ كَأَنَّهَا مِنْ نَفْسِ الْكَلِمَةِ كَالْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: «فَلْيَنْظُرْ». [تفسير البغوي ٣٧١/٥].

قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ هذا من التعريض بذلك الموعود وحرمات الله المناسك والعمل بطاعته واجتناب مناهيه ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ تلا علينا ذلك في سورة المائدة وسورة الأنعام، ثم قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠] الرجس كل ما عصى الله به، وهو من عمل الشيطان، وأكبره الأوثان والزور والكذب كله، وأكبره الشرك والكفر والقول على الله بغير علم ﴿حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج:٣١].

فصل

الحنف: عوج في الرجل، وهو أن يميل إلى الجانب الأنسي، فإن كان ميلها إلى خارج وهو الجانب الوحشي فهو الفدع، فميلها إلى الجانب الوحشي هو بمثابة الإشراك بالله؛ لأنه إلحاد في قوام الخلقة وقوامها على سواء الخلقة هو بمثابة الإقامة على دين الإسلام، وهو أن يسلم وجهه ونفسه لله ﷻ وميلها إلى داخل، وهو الجانب الأنسي هو بمثابة ميله عن نفسه وذاته وماله وأهله إلى الله وحده، فهذا المعروف بالحنيفية، وهو الحنيف، وهذا في الممكن أن يبالغ في الحب والإيثار، ويمكن أن يلحق بالخلة - والله أعلم - فكون إبراهيم عليه السلام حنيفًا لله هو وصف زائد على الإسلام والإيمان إغراقًا فيهما وتغلغلاً في خصالهما.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج: ٣٢ - ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ [الحج:٣٢] أي: مجانبة الإشراك الذي تقدم ذكره في

قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ [الحج:٣١] ثم عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ [الحج:٣٢] أي: من لم يشرك بالله وآمن به وأسلم له فليعظم شعائر الله، وشعائره ها هنا هي: البدن، فإن معظم المعظم يعظم ما أوى إليه أو كان منه بسبب؛ لذلك كان تعظيمها من تقوى القلوب؛ أي: إن تعظيمها وصيانتها من خصال الإيمان، وهي من تقوى القلوب.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ركوبها وتسخيرها وحلبها والصدقة بها، وحمل على ظهورها، وجمال بها وزينة إلى أجل مسمى؛ يعني: العمر في الدنيا أو ما شاء من ذلك ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ هديًا ﴿إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤] اليهود والنصارى وأتباع الرسل جعل لهم مواضع لمناسكهم، وللعرب أيضًا إرثًا عن إبراهيم ﷺ البيت الحرام، ولهذه الأمة زائد إلى الوراثة كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الحج:٣٤] هذا منتظم المعنى بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ...﴾ [الحج:٣١] المخبتون: هم الخاشعون المتواضعون.

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٖ وَعَادٞ

وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ [الحج: ٣٧ - ٤٢].

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧] لن ينال لمن يصل وصول رضا وقبول، ومعنى قوله: ﴿يَنَالُهُ التَّقْوَى﴾ أي: تصل إليه حسن توجيهه بالعمل والعلم والإخلاص فيتقبله لذلك.

ثم قال - عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ﴾ [الحج:٣٧] المشار إليه - والله أعلم - الخير المذكور لكم فيها خير، والمشبه به - وهو أعلم بما ينزل - تسخيرها لنا في هذه والجمال والزينة التي جعل فيها، يقول: ﴿كَذَلِكَ﴾ سخرناها فيما هنالك لعلكم تشكرون في دار الدنيا نعمتنا بها عليكم فتنالون الموعود بذلك منا، فالمشار إليه هو الموعود. وأشار إليه إشارة بُعد بالنسبة إلينا وعلى غيبة عن مشاهدتنا وبعد علمه، وهذا من المطلع في القرآن الحكيم عظيم علمه بعيد غوره، وهو مطلع يشرف على موجودات دار المتقين على سعتها وطول أمدها.

ذكر في ثابت ما جاء عن بعض ذلك: أنهم بينما هم في نعيمهم وحبورهم في الجنة إذ تستأذن عليهم الملائكة - عليهم السلام - بنجائب مخلوقة من ياقوت ولؤلؤ دخالها الأرجوان يقرؤنهم سلام ربهم ﷻ إليهم، وأنه يستزيرهم فيركبونها وينهضون إلى الموضع الذي أكرمه الله بذلك منه وفيها لهم على الصراط مراكب وفي الحشر ونحوها.

فصل

يشير إلى تشابه الوجود في الدارين، وتشابه الثواب بالأعمال مع تحصيل عقد التفصيل][1] بين الدارين والوجودين؛ إذ حقيقة الدنيا أنها سجن مقتطع من تلك، وعلى ذلك فلم يحل لنا أن نخلي أنفسنا من هذا السجن، ولا أن [نفقه][2] فنفر عنه دون أن تخرجنا عنه بضرورة الموت بنفاد العمر أو عارض يعرض من موت أو قتل بسبب ضروري قد سبق به القدر فيكون بشهادة، وإنما جعل هذا الحبس ليثاب فيه

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «نفتقه».

إلى الله جاعله - عزَّ جلاله - فإذا تاب العبد وصحت توبته بحكم العلم فليتشوق إلى الخروج منه إلى ربه، وليجتنب الذنوب جهده، فهي التي أدخلته هذا الحبس، وليحرص على الموت ويحبه وينتظر وقته وليتدرس ذلك، وليشعر نفسه أنه يصير بعده على حال الطهارة إلى لقاء الله الرءوف الرحيم، واجتماع مع [كل][1] كريم سلف ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] إلى آخر المعنى حيث جاء، [فالمشار إليه هو الموعود][2].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨] المعنى إلى آخره، لما ذكر البدن والحج والحرمات والشعائر استأنف ذكر [الانتصار ممن][3] صدَّ عن سبيل الله والمسجد الحرام، وممن جادل في الله وفي آياته، وضمن النصر لمن نصره، ثم بشر المؤمنين بأنه ممكنهم في الأرض، وأنهم مع ذلك هداة مهديون، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ثم أخبر عن عاقبة ذلك كله بقوله الحق: ﴿وَإِلَى الله عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢] فتجاوز بالذكر كره الباطل على هذا الحق القائم بدولة الصحابة المذكورين بهذا الوصف المتقدم إلى التعريض بذكر آخر الأمة، مبشرًا بإدالة الحق على الباطل [المقلوب][4] بالعاقبة التي أضافها إلى نفسه - عزَّ جلاله - عرض في ذلك بما يكون في آخر الزمان بذكر العاقبة، وأن تلك العاقبة آية له على كون العاقبة الحق في اليوم الآخر.

﴿ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) في النسخة (خ): «انتصار من».
(٤) في النسخة (خ): «المغلوب».

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٤٣ - ٥٣].

ثم أرجع الخطاب موجهًا إلى معنى ما تقدم من الإخبار عمن كذب بآيات الله ورد على رسله وسنته الماضية في ذلك إلى قوله: ﴿**ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾(١) [الحج:٤٤] كالمعزي لرسوله بما جرى لسواه من الرسل قبله مع من كان قبلهم، ومنبهًا على سنته في المكذبين، وتهديدًا لهؤلاء وإبعادًا.

ثم نبه على سبيل الاتعاظ وأخبر عن طلب علم الاعتبار بقوله: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ والذين لم يتمكن لهم التسيار فيها ألم يكن لهم ﴿**آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ ممن سار فيها، ثم رد المعنى كله من هذه الجهة إلى الباطن وأنه إذا بطل من العبد أو سفل ذلك منه كان الظاهر بحسب ذلك بقوله ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦].

عرف القلوب المعنية بأنها في الصدور، ومعهود القلوب أنها في الصدور موجودة، وإنما المراد المعرف به هنا هو المعنى الذي له سمي القلب قلبًا، ليست

---

(١) ﴿**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ هذا الاستفهام للتقرير؛ أي: فانظر كيف كان إنكاري عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم، والنكير: اسم من الإنكار. قال الزجاج: أي: ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار. قال الجوهري: النكير والإنكار: تغيير المنكر. فتح القدير (١٢٤/٥).

المضغة فقط، فإن البهائم لها من ذلك أوفر الحظ، لكن المعنى الذي هو صلاح لتلك المضغة المعني بقول رسول الله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد**» ثم قال ﷺ: «**ألا وهي القلب**»[١] فسماها مضغة حين الوضع، والتعريض بها إلى الصلاح أو الفساد، فلما صلحت سماها قلبًا، وهو المعرف بقوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد:٦].

فذلك المعنى الذي به صلح القلب هو ذات [الصدور][٢] فما فهم، وهو المسمى القلب، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] ومتى عمي فليس بقلب ولا يسمى به إلا على المعهود من تسمية الشيء باسم الشيء إذا جاوزه أو كان منه بسبب.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ولما عزم عن أمر هذه الصفات قال فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

قوله ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] كانوا يقولون لرسوله ﷺ: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [النمل:٧١] متى هذا الفتح؟ أتينا بما تعدنا، كما كان من قبلهم يقولون لمن قبله، فأنزل الله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج:٤٧] فأجابهم على هذا في موضع غير هذا ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:٧٢] يريد - وهو أعلم - القتل والسبي، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت:٥٣] فهذا - وهو أعلم - قيام الساعة وما فيها.

وقال في هذا الموضع: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] كأنه - وهو أعلم بما ينزل - أشار إلى أن عذاب الآخرة منهم في هذه الألف، والله أعلم متى تكون فيه الساعة، وهو أعلم بأي وقت كان فيه نزول هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٣٠)، والترمذي (١٢٠٥) والنسائي (٤٤٥٣)، وأحمد (١٨٣٩٨)، وابن ماجة (٣٩٨٤)، والدارمي (٢٥٣١)، والبيهقي (١٠١٨٠).

(٢) في النسخة (خ): «الصدر».

القرآن من ذلك اليوم، ثم ما بين قيام الساعة وبين البعث إلى وقوع العذاب بهم بدخول النار هذا هو العذاب الأكبر، وقبله عذاب القتل والسبي والجلاء والموت وما بعد الموت ﴿والله يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثم أتبع ذلك بما هو في معنى الإمهال دون إهمال، وكان ذلك آية على ما تقدم، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨] معنى قوله: «وكأين» معنى [قوله][1]: ولكم من قرية، ويقال: وكأين من قرية، وهي معربة عن العدد الكثير والجم الغفير.

قال الشاعر:

وَكأيِن تَرى مِن صامِتٍ لَك مُعجب زِيادَتُــه أَو نَقــصُهُ فــي الــتَّكَلُّمِ
لِسانُ الفَتى نِـصفٌ وَنِـصفٌ فُـؤادهُ فَلَـم تَـبقَ إِلّا صـورَةُ اللَّحـمِ وَالـدَّمِ

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج:٥٥] يعني: القرآن، وهو راجع بالمعنى إلى ما في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج:٥٢] المعنى إلى آخره، وربما كان المعنى الوعد بالعذاب، وقد تقدم الكلام في قوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج:٥٢] المعنى إلى آخره في سورة البقرة، والله نسأله بفضله ورحمته المزيد من فضله، إنه على كل شيء قدير ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَو يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٥] هو ما أوعدهم به في يوم كألف سنة، الله أعلم في أي وقت يكون ذلك اليوم، أفي آخره أو فيما قبل ذلك؟.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج:٥٢] المعنى وإن كان قد تقدم الكلام فيه على معناه، فإن انتظامه هنا بالمحاورة أنه جواب للمجادل][2] في آيات الله، الطاعنين على الأنبياء، وبخاصة نبوة محمد ﷺ فإنهم وإن كان الشيطان قد يدرك من أحدهم مقدار الإلقاء حين التمني، وقد تقدم ما هو التمني وأنه ليس بالتلاوة، فإن الله يعصمهم ويتدارك منهم

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «للمجادلين».

ما رامه الشيطان منهم، فإن الحالة الأولى هي لكونهم من البشر، والثانية هي لكونهم أنبياء ومصطفين، وأمَّا قول من قال أن التمني هنا هو بمعنى التلاوة وذكر فيها رواية من حكى من أجل ذلك حكاية، فذلك مما تتلوه الشياطين على نبوة الأنبياء، وهو مضاد لقول الله، جل ذكره ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وكما للسماء رجوم للشياطين كذلك للنبوة حرس وحفظة، فمتى ألقى الشيطان في أمنية أحدهم تدارك الله ﷻ ذلك بالحفظ والعصمة والنسخ له من القلب المقدس قبل أن يخرج إلى لسانه [الصدوق](١) المحفوظ، وأمر الله عظيم ورسله وأنبياؤه من أمره ﷻ، والرواية معللة مع أنها من الآحاد فلا توجب العلم، و[قيل](٢) هذا هو من الجدال في آيات الله بغير سلطان أتى، فتثبتوا رحمكم الله وعصمنا وإياكم، فإن هذا ونحوه من الامتراء الذي أنذر الله به بعد ذكره هذا، والكفر يرق ويدق حتى يكون «أخفى من دبيب النمل...»(٣).

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ

(١) في النسخة (خ): «الطروق».

(٢) في النسخة (خ): «مثل».

(٣) هو إشارة إلى حديث: «اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دَبيب النمل، قيل: كيف نتقيه؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه» أخرجه أحمد (١٩٦٢٢) والطبراني في الأوسط (٣٤٧٩)، وقال الهيثمي (٢٢٣/١٠): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير أبي علي ووثقه ابن حبان.

حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٥٤ - ٦١].

ثم قال: ﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ لله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الحج:٥٦] إلى قوله: ﴿مُّهِينٌ﴾ [الحج:٥٧] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قُتِلُوا أو مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج:٥٨] انتظم هذا المعنى بما تقدم من [ذكر الأنتصار][1]، وهم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق.

أتبع ذلك قوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج:٥٩] عليم بما أصابهم، حليم عن أخذه الظالمين بحقه فيهم، إن شاء ذلك.

أتبع ذلك قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المشار إليه هو ما ذكره من تمكينه الناصرين له ونصره لهم وإدخاله إياهم مدخلاً يرضونه في جنات النعيم - أي: ذلك لهم - ثم عطف عليه بحرف الواو، وقوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ [الحج:٦٠] يريد ممن بعدهم كان أولئك قد بُغي عليهم وظُلموا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا في الله، فأذن لهم في القتال والانتصار، ووعدهم بما قد أنجز لهم، ثم أخبر عمَّن بعدهم الذين عاقبوا أعداءهم وأعداء آبائهم وأسلافهم [في الله بمثل][2] ما عوقبوا به في الله، ثم بُغي عليهم كما بغي على أسلافهم لينصرنهم الله، إن الله لعفو عن الذنوب التي أوجبت إدالة أهل الباطل عليهم، غفور لمن استغفره.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك من إدالة الباطل على الحق، والحق على الباطل ﴿بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] أي: من وجود قدرة وحكمة أن الله يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، والنهار بمثابة الهدى والحق، والليل بمثابة الضلال والباطل.

---

(١) في النسخة (خ): «ذكره الأنصار».

(٢) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

فصل

من حكمته ﷻ هو الحق الواحد الأحد، فما أوجده من مقتضى ذلك فهو واحد لا [مغاير][(١)] له سوى ما هو به ومنه، فأوجد الأضداد لحكمة لطيفة ورحمة بعباده في تدبيره الحق، فلو كان النهار واحدًا أبدًا والهدى كذلك والخير والغنى والمحبوب كله لكان ذلك آية واحدة، فكان على ذلك في الأغلب [هدم][(٢)] الذكر ونسيان التذكار، ولما كان النهار عقيب الليل كان أبين للفهم وأقرب للتذكرة، وكذلك النور عقيب الظلام، والخير عقيب الشر، والصحة عقيب السقم، والغنى عقيب الفقر، والمحبوب كله عقيب المكروه كله، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

وكثير ما صرف هذا من تعاقب الأضداد وتناوب الأغيار للتذكرة وتجديد الذكر والثبات على المعرفة، ألا ترى أن الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - هو القريب [الحق][(٣)] لا أقرب منه، والشهيد الحق الذي هو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، بل هو أقرب إلى المخلوق من نفسه وأحق به من ذاته، ولما كان هذا القرب دون أفول في حقه ولا عدم من جهته أوجب ذلك البلدة وقلة التذكرة، وأعقب ذلك الجهل [به][(٤)] والنسيان له، فكان من لطفه في حسن تدبيره أن أوجد الأضداد في الوجود [بتعاقب][(٥)]، وقدر بالأغيار في ذواتها [بتناوب][(٦)]، وجعل ذلك على مقادير مقدرة وأوزان من الحكمة مقسمة؛ ليجدد لعباده بذلك التذكار، ويبعثهم على تعرف العلم به والاعتبار، وإن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ لدعاء [الذين][(٧)] بُغي عليهم بغير حق، إلا أن يقولوا: ربنا الله ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج:٦١] بأعمال الباغين ثم العاملين بطاعته هذا على

---

(١) في النسخة (خ): «مقام».
(٢) في النسخة (خ): «عدم».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «تتعاقب».
(٦) في النسخة (خ): «تتناوب».
(٧) في النسخة (خ): «الذي».

انتظامه بالأقرب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٢ - ٦٧].

وأمَّا بالقول بحكم العموم، فإنه منتظم أيضًا بما تقدم ذكره من سجود الموجودات، ألا ترى كيف أعقب ذلك قول الحق: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: من إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وإدالة هذا على هذا وهذا على هذا، فإن ﴿اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ واحد أحد كما تقدم، له الليل والنهار، والنور والظلمات، والخير والشر، والمحبوب والمكروه، والأضداد والأغيار، وأن ما تدعون من دونه هو الباطل، وأن كل ما يعبدونه من إله باطل، و﴿اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

ألا تسمعه كيف أعقب ذلك قوله الحق: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الحج:٦٤] من له ما في السماوات وما في الأرض فهو الغني الحميد على التحقيق، وبهذا المعنى هو راجع إلى ما تقدم من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ...﴾ [الحج:١٨].

فصل

وجوده العلي مكانته من وجود الموجودات الرحمانية والربوبية والعظمة

والكبرياء والجبروت والجلال، هكذا إلى انتهاء مقتضى الأسماء كما [منزلته][(١)] من وجود الموجودات من وجوده العلي العبودية في حق المخلوقين له، والخشوع والخضوع والخنوع والتعبد والإجلال والإعظام والإكبار؛ فلذلك لم ينبغِ لوجود موجود فاجأه بالتجلي [وبالتذكرة][(٢)] أو بالأمر [إلا سجد][(٣)]، ولا ابتغاء لموجود علا أو سفل إلا أن يكون له قانتًا عابدًا خاضعًا مسبحًا بحمده كونًا أو شرعًا وكونًا، فهو الذي ما خلق قط خلقًا إلا سجد له، ولا أمره أمر كون إلا أطاعه، ولا سراه ولا قصده بنظر أو بمعنى [تمييزه][(٤)] به من غيره إلا خر ساجدًا له، ذلك قوله: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ**﴾ [لقمان:٣٠].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾[(٥)] [الحج:٦٣] ولما أنزل الماء واحدًا طاهرًا مطهرًا من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها؛ ذلك لأنه الحق واسم الماء المنزل [الحي][(٦)] فأصبحت الأرض مخضرة، فتميزت صفة الحياة في الأرض بعد الموت الذي كان بها، كذلك يبين

---

(١) في النسخة (خ): «سبق له».

(٢) في النسخة (خ): «أو بالتذكير».

(٣) في النسخة (خ): «ألا يسجد».

(٤) في النسخة (خ): «بمنزه».

(٥) قال بعض المتأخرين: يجوز أن يعتبر تسبب الفعل عن النفي، ثم يعتبر دخول الاستفهام التقريري، فيكون المعنى حصل منك رؤية إنزال الله تعالى الماء، فإصباح الأرض مخضرة؛ لأن الاستفهام المذكور الداخل على النفي يكون في معنى نفي النفي وهو إثبات، فإن قلت: الرؤية لا تكون سببًا لا نفيًا ولا إثباتًا للإخضرار. قلت: الرؤية مقحمة، والمقصود هو الإنزال، أو هي كناية عنه؛ لأنها تلزمه مع أنه يكفي التشبيه بالسبب كما نص عليه الرضى في ما تأتينا فتحدثنا في أحد اعتباريه، واختار هذا في الاستدلال على عدم جواز النصب أن النصب مخلص المضارع للاستقبال اللائق بالجزائية على ما قرر في علم النحو، ولا يمكن ذلك في الآية الكريمة كما ترى. **وبالجملة**: إن الذي عليه المحققون أن من جوز النصب هنا لم يصب، وأن المعنى المراد عليه ينقلب. وقرىء «مَخْضَرَةً» بفتح الميم وتخفيف الضاد، مثل: مبقلة ومجزرة؛ أي: ذات خضرة. [الألوسي (١٢٣/١٣)].

(٦) في النسخة (خ): «حيًا».

النور عقيب الظلام، ويبين الحق عقيب الباطل، ويبين الإيمان بإقرانه بالكفر في غير محل حامله، ويبين الصدق بمقابلة الكذب لو كان الإيمان أبدًا والصدق أبدًا والنهار والنور والضياء أبدًا.

والحق وجوده ظاهر موجود لم يقابله فيما ها هنا ما يتميز به عنه، و[يذكره](١) بتحديده، ويتعرف بتناوبه وإقباله وإدباره مع وجود العقول القاصرة والجهل والنسيان [معاقبان](٢) للعلم والذكر، لكان النسيان والغفلة وغير ذلك من الآفات التي قامت في وجوهنا دون مشاهدة الحق المبين كما [تقدم](٣)، والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتبين الأشياء في هذه الدار؛ لذلك قال - وهو أعلم: ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:١٦] أي: إنه **لطيف** بنا في تعريفنا به لضعف صفاتنا التي هي العلم والفهم والذكر منا وغير ذلك، فإذا أعادنا خلقًا آخر في الدار الآخرة فليس ثم ليل ولا نهار ولا ظلام ولا مكروه ولا ضد لما من صفات الحق، وعلى وجوده أوجدنا يومئذٍ على صفات خلقه لا يضل عن هدايتنا، ولا ينسى معها من هو أقرب إلينا منا، فافهم، نسأل الله إتمام النعمة وإكمال المنة.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [لقمان:٢٠] صرف وجه بعض الخطاب إلى معنى قوله: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...﴾ [النحل:٤٩] الآية إلى قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الحج:٦٤].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥] فهو **يمسك** السماء أن تقع، [كإمساكه الجملة](٤) أن تزول، وكما يسَّر للمعتمدين معتمدًا هي الأرض أو ما يقوم مقامها كذلك يسَّر لكل ما خلقه ما من شأنه [حرق](٥) الهواء سفلاً، والهوي فيه من قدرته

(١) في النسخة (خ): «يذكر».
(٢) في النسخة (خ): «معًا بيان».
(٣) في النسخة (خ): «قدم».
(٤) في النسخة (خ): «كما يمسك الحملة».
(٥) في النسخة (خ): «حرف».

ما يقوم له في الاعتماد عليه مقام الأرض لنا في اعتمادنا عليها، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان:١٠].

ألا ترى [إلى][(١)] الأرض لما دحاها جعلت تميد ميد السفينة فوق الماء، فجعل الجبال عليها رواسي كالسابور للسفينة فاستقرت، فانظر إلى تصرف قدرته عمد [الجملة][(٢)] بقدرته والسماوات بقدرته، وجعل الميد للأرض، فجعل الجبال رواسي عليها فاستقرت بأمره، فبقدرته عمدها، وبقدرته أقرها تحت الجبال، وبقدرته أرساها عليها، وبقدرته ومشيئته صرف أمره فيها، ولو كان على معهود العقول لأوجب ذلك هويها سفلاً، لكن جعل لنا السفينة وميدها على [البحر][(٣)] واستقرارها بالسابور آية على ذلك.

يقول - جلَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ﴾ [الحج:٦٥] يقول: فأي شريك لي بعد هذا، أو أي إله في ملكي يخاصمني فيه، وأي حجة تقوم لمجادل فيَّ، هذا خلق الله ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١] لذلك وصف نفسه بالعلا والكبرياء والغنى.

فصل

كل له قانت وإليه خاضع، فما كان [من][(٤)] فعل المخلوقين كله فيه [منفعة][(٥)] للعباد وإقامة للعالم، فهو تسخير من الله سخرها لعباده، وذلك في حق الله - جل ذكره - عبادة منه لله تسبيح أو تحميد أو تكبير أو سجود أو توحيد، وجماع ذلك كله صلاة أو زكاة أو حج أو صوم أو شهادة بالحق، وعلى ما كان الفعل ومنازله من بداية الخضوع ونهايته ومخالفة الهوى في المكلفين، وفي الجماد والنبات لمخالفة

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «الحملة».

(٣) في النسخة (خ): «الماء».

(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٥) في النسخة (خ): «فنفعه».

ما عليه جُبِل كما تقدم في إمساك السماوات والأرض أن تقع أو تزول.

هذا هو الأصل في عبادة المخلوقات كلها فطرة وشرعًا، إلا ما كان من الملائكة - عليهم السلام - فهم الذين ليست لهم إرادة تخالف [رضا][(١)] الله ورضاه بهم وفيهم ولا طبع، بل هم المجبولون على ما يحبه منهم ويرضاه، وهذا هو الفرق بين عبادة المكلفين وعبادة الملائكة، فالسماوات والأرض لا تجد ألمًا لإمساكها عما جبلت عليه، لكنها لو تركت إلى أنفسها لذهبت إلى ما جبلت عليه - بإذن الله - والمكلف واجد صعوبة ذلك عليه وعسره، إلا أن يمن الله - جل ذكره - على من يشاء منهم، فيزيل ذلك عنه أو بعضه، وعيش الملائكة ورضاهم ومحبوبهم في طاعة الله وذكره و[ما قد][(٢)] خلقوا له.

ثم قد يرفع الله بعض عباده إلى أن يجعل محبته ورضاه في محبة ربه ورضاه، فيكون عيشه وحياته في ذلك، وكدره ونكد عيشه [وحياته][(٣)] فيما خالف ذلك، فذلك الذي أحياه الله حياة طيبة، وذلك المجتبى المصطفى الموالي، جعلنا الله منهم وألحقنا بهم، إنه ذو مَنٍّ كريم ورحمة واسعة.

قوله ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٣٤] قد تقدم قوله ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤] كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] فوجب أن يكون المعني هنا بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٣٤] كقوله الحق: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

يقول - وهو أعلم بما ينزل: ما الذي أنكر هؤلاء مما جئتهم به، ولكل أمة من جماد أو نبات أو حيوان على اختلاف ذلك جعلنا لهم منسكًا هم ناسكوه؛ أي: سنة وشرعة يستنها ويشرع إلى وجوده عليها، وما جئتهم به هي شرعتهم إلينا.

---

(١) في النسخة (خ): «إرادة».

(٢) في النسخة (خ): «فيما».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

ثم قال: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾(١) يريد - وهو أعلم - المجادلين في الله وفي آياته ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: حببه إلى عباده وخوفهم من خلافه ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧] أي: على السبيل الحق المفطور عليه السماوات والأرض وما بين ذلك، وهذا المعنى منتظم بذكره سجود المخلوقات وقنوتها له.

يقول: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الجن والإنس والطير والحيوان والنبات والجمادات وجميع الموجودات في الأرضين والسماوات وما بين ذلك ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٦٧] فاستقم على ما أنت كما أمرت، ومن تاب معك، وادع إلى ربك إنك على الدين القيم، فهذا الترتيب يوجب الإيمان، فإنما تحت المكلفين من العوالم أيضًا [أمم](٢) يؤم بعضها بعضًا في مناسكها، شاء ذلك في العابدين لله - جل ذكره - من سفل إلى علو.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ (٦٨) ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (٧٠) وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ (٧١) وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ

---

(١) الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ لترتيب النهي على ما قبله، والضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم؛ أي: قد عيَّنا لكل أمة شريعة، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية، وذلك موجب لعدم منازعة من بقي منهم لرسول الله ﷺ ومستلزم لطاعتهم إياه في أمر الدين، والنهي إما على حقيقته، أو كناية عن نهيه عن الالتفات إلى نزاعهم له. قال الزجاج: إنه نهي له ﷺ عن منازعتهم؛ أي: لا تنازعهم أنت، كما تقول: «لا يخاصمك فلان» أي: لا تخاصمه، وكما تقول: «لا يضاربنك فلان» أي: لا تضاربه، وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمنًا، ولا يجوز «لا يضربنك فلان» وأنت تريد: لا تضربه. وحكي عن الزجاج أنه قال في معنى الآية: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ أي: فلا يجادلنك. قال: ودلّ على هذا ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ وقرأ أبو مجلز: «فلا ينزعنك في الأمر» أي: لا يستخفنك ولا يغلبنك على دينك. وقرأ الباقون: «ينازعنك» من المنازعة. فتح القدير (١٣٦/٥).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ
اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ
وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي
مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا
وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي
اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ
سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ
﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: ٦٨ - ٧٨].

يقول ﷻ: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ في ذلك ونازعوك أمرك فلا تطعهم وقل [لهم][(١)]: ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج:٦٨] ثم أعلمهم أنه - جل ذكره - ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:١١٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] لما أمره بالإعراض عنهم وبأن يكل ذلك منهم إلى الله حقق ذلك عنده بما [جعل][(٢)] في قلبه من العلم بذلك، وإن علم كل شيء جملة وتفصيلاً على الله يسير، كيف لا يكون كذلك وهو - جل ذكره - خلق كل شيء وقدره تقديرًا، كيف يخلقه وهو لا يعلمه.

وإلى هذا فإن الله - جل ذكره - أوجد العرش العظيم محيطًا بجميع الخلائق

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «جعله».

علوًّا وسفلاً، وحيثما كان العرش فهو العلو من حيث هو عرش، فلما خلق السماوات والأرض وما بينهما واستوى على العرش وهو الرحمن الحي القيوم؛ فلأنه الحي الحق [حييت الجملة][(١)] به؛ ولأنه القيوم قام كل شيء بأمره وإقامته له وإمساكه إياه؛ ولأنه الرحمن تواشجت الأرحام وتعلقت وتواصلت بعضها ببعض، [فتماشج][(٢)] لذلك الموجود كله ولزم كل ذي وجود وجوده، فليس شيء يعزب عنه علمه في الأرض، ولا في السماء مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

ثم إلى هذا فإن اللوح المحفوظ خلقه خالقه لؤلؤة أثبت فيه علم كل شيء، فلا قاعد ولا قائم ولا نائم ولا متحرك ولا ساكن إلا وقد انطبعت حالته في اللوح المحفوظ، فلو لم يكن ما تقدم ذكره لقام هذا كل مقام وحال مشاهدة وعلمًا وغير ذلك.

ثم إلى هذا فإنه كتب في اللوح المحفوظ كل شيء شاء إيجاده، والمعهود أن الكتاب عندنا يعطي الإعلام قارئه إخبارًا عن ذلك، [فتوهم فضل][(٣)] ما بين من يحسن الكتابة والقراءة، وبين من لم يعلمه الله ذلك، وكما شاء علم من [هو][(٤)] يقرأ كتاب ربه بما أخبر عنه من أمره وشأنه على علم من لا يحسن قراءته، فاقض إذًا بصحيح عقلك وصحة إيمانك تعلم من إليه المنتهى بكتاب اللوح المحفوظ، وأنه يعلم منه المشاهدة الفائقة لا ريب في ذلك.

لذلك يقول - عزَّ من قائل - عند ذكر ما هذا سبيله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ ولأنه علم كل شيء من ذاته، فهو كما يعلم نفسه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بذلك يعلم ما خلقه وما هو خالقه وما هو لا يخلقه أبدًا؛ لشمول وجوده العلي كل شيء؛ لهذا وما هو به أعلم قال وقوله الحق: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] وكما يعلم أحدنا نفسه ويتحصل له العلم بوجودها بغير معاناة ولا وجود مدة، فالله لا إله إلا هو أعلم وأجل قدرًا، له المثل الأعلى في السماوات والأرض، إن ذلك

---

(١) في النسخة (خ): «حيت الحملة».

(٢) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «فيوهم فصل».

(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

على الله يسير، كل في كتاب مبين ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] ومن وقي العناد هدي إلى الرشاد.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣] إلى آخر المثل، هذا كله خطاب في معنى الرد على المجادلين في الله الذين أجرى ذكرهم في صدر السورة، أعلمهم في هذا المثل بضعف آلهتهم، وأنهم لا يملكون من دون الله ضرًّا ولا نفعًا [ولا دفعًا][١]، ولا يملكون رزقًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، قد عُبد المسيح وقوم من الملائكة - عليهم السلام - والشمس والقمر والنجوم والنار، فلو اجتمع هؤلاء وكل معبود من دون الله على خلق ذباب لم يأذن الله بخلقه، أو أن ينفخوا فيه الروح فيحيونه ولو تضافر على ذلك جميع من في السماوات والأرض لم يقدروا على ذلك، إلا أن يأذن الله فيه، فهو إذًا الخالق له وحده، لا شريك له ولا ظهير.

ومعنى خلقه: أن يوجدوا أجزاءه عن عدم إلى وجود، وينفخوا فيه الروح من غير وصف الاتصال بالروح العليّ والمشيئة والقدرة [المحيطة][٢]، ثم وصفهم بقلة الانتصار وبخاصة من المعبودات الأصنام والأوثان وما لا يعقل، فهم لا ينتصرون من ذباب، فكيف بأن ينتصرون من عذاب الله أو ينصرون سواهم.

ثم وصف نفسه ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٤] لما وصف أولئك بالوهن والذلة والضعف اتصف هو بما هو أهله من صفتي القوة والعزة، لا يطلب شيئًا فيفوته، ولا [يعازه][٣] أحد ولا يمانعه إلا غلبه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥] و﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما عملوه فبإذنه وأمره ومعونته ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الحج:٧٦] هو الأول في كل شيء والآخر، هذان الطرفان لا يملك المخلوقون منهما قليلاً ولا كثيرًا، وهو الظاهر فيما

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «المحضة».
(٣) في النسخة (خ): «يعان».

ابتدعه أو فطره وفيما هو كسب لهم؛ لأن ذلك بقدرته وبإذنه، وهو الباطن فيه قطعًا، فوجب اليقين، فإنه الأول في كل شيء والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، والحمد لله رب العالمين، فقف على هذا - رحمنا الله وإياك ووفقنا لما يحبه ويرضاه - فهو أصل في التوحيد جليل [قدره][1]، وقد جمعت ذلك كله كلمة واحدة قولك: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧] أمرهم - جل ذكره - بأن يمتثلوا عبادة الموجودات [لربها][2] ركوعًا وسجودًا وقيامًا وقعودًا وشهادة وذكرًا وتلاوة واتفاقًا ودلالة [وعونًا][3]، هذه كلها عبادات المخلوقات، وقد تقدمت إلى ذلك إشارات، وأمرهم مع ذلك بجهاد من خالف السبيل ورام تعويجها.

يقول - عز جلاله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ من بين الأمم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ﴾ القيم ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ بل هي الحنيفية السمحة ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ نصبها على الإغراء بها ويصح أن يكون نصبها على القطع وعلى المدح، وكل [هذه][4] الوجوه تتوجه في ذلك ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨] الضمير الذي في قوله: «هو» يجوز أن يكون عائدًا على إبراهيم عليه السلام بوجه؛ لأنه أقرب مذكور إلى الضمير، ويجوز [أن يكون][5] عائدًا على اسم الله - جل ذكره - الشاهد على عوده على إبراهيم قوله هو وإسماعيل - عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٨ - ١٢٩] المعنى إلى آخره.

وأمَّا مرجوع الضمير على الله - جل ثناؤه - فقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في الأزل، وفي كتب الكتاب وإخراج القبضتين ﴿وَفِي هَذَا﴾ [الحج:٧٨]

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الكتاب القرآن، وهو قوله: «وفي هذا» ودخول الواو العاطفة على قوله: «وفي هذا» أنه عطف على اسم الله - جل ذكره - وفيه محذوف مقدر تقديره - والله أعلم بما ينزل: وأنا الله سميتكم مسلمين في البدء الأول.

ثم عطف بقوله: ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: في هذا الكتاب ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ الذي أرسلت به إليكم ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا﴾ أنتم ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بما أعلمتكم فيه بالكتب والرسل وبمن أمره ومن خالف ثم عاد إلى التوصية بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله، جل ذكره ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ أي: ناصركم ووليكم المانّ عليكم المنعم ﴿فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

كما قال - عز من قائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

﴿أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

تنبيه:

أعطى الله هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطهن إلا للأنبياء، جعلها شهيدة على سائر الأمم، والأنبياء شهداء على أممهم، ويقال للنبي: اذهب فلا حرج عليك، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦].

[ويقال لكل](١) نبي: سل تعطه، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

تفسير سورة المؤمنين

[مكيَّة][1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١ - ١١].

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] [المؤمنون: ١] أي: فازوا وظفروا بالنجاة

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) فيها مسائل: المسألة الأولى: في سبب نزولها، روى الترمذي أن: «رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فنزل عليه يومًا، فمكثنا ساعة فسري عنه، فاستقبل القبلة، ورفع يديه، وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: «أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ العشر آيات. المسألة الثانية: الخشوع: هو الخضوع والاستكانة. وقد كان ﷺ يقول في دعائه: «خضع لك سوادي وآمن بك فؤادي». وحقيقته السكون، فقد كان ﷺ لا يلتفت في صلاته خاشعًا خاضعًا، وقد كان ابن الزبير، إذا قام يصلي تأتيه حجارة المنجنيق عن يمينه ويساره، فلا يلتفت، قال الشافعي والمتصوفة: يضع المصلي بصره في موضع سجوده، فإنه أحضر لقلبه، وأجمع لفكره. وقال مالك: ينظر أمامه، فإنه إن حنى رأسه ذهب بعض قيامه، ولا يرفع المصلي بصره إلى السماء في الصلاة، أو لتخطفن أبصارهم، وقد كان ﷺ يلمح في الصلاة ولا يلتفت. المسألة الثالثة: قال مالك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال: الإقبال عليها، وقال مقاتل: الخشوع ألا يعرف من على يمينه، ولا من على يساره. واعلم أن قولك: الله أكبر، =

من العذاب وببقاء الأبد في جنات النعيم في جوار الأحد، ذكرهم بذلك في البدء الأول: «هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون»(١) والخشوع انكسار القلب وكآبة موجودة في النفس كما الخضوع موجود في الجسم ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(٢) [الشعراء:٤] ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلي

= يحرم عليه الأفعال بالجوارح والكلام باللسان، وأن نية الصلاة تحرم عليه الخواطر بالقلب، والأخذ بالفكر [الأحكام الصغرى ص ٤٤٧].

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، ومالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، وابن حبان (٦١٦٦)، والآجري (ص:١٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص:٣٢٥) وقال: في هذا إرسال مسلم بن يسار لم يدرك عمر بن الخطاب، والحاكم (٧٤) وقال: صحيح على شرطهما، والضياء (٢٨٩) وقال: إسناده منقطع، وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٦٣/٢) وقال ابن كثير: مسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة، زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة.

(٢) أي منقادين وهو خبر عن الأعناق وقد اكتسبت التذكير وصفة العقلاء من المضاف إليه فأخبر عنها لذلك بجمع من يعقل كما نقله أبو حيان عن بعض أجلة علماء العربية. واختصاص جواز مثل ذلك الشعر كما حكاه السيرافي عن النحويين مما لم يرتضه المحققون ومنهم أبو العباس وهو ممن خرج الآية على ذلك، وجوزأن يكون ذلك لما أنها وصفت بفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] وأن يكون الكلام على حذف مضاف وقد روعي بعد حذفه أي أصحاب أعناقهم ، ولا يخفى أن هذا التقدير ركيك مع الإضافة إلى ضميرهم ، وقال الزمخشري: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع لأنه يتراءى قبل التأمل لظهور الخضوع في العنق بنحو الانحناء أنه هو الخاضع دون صاحبه وترك الجمع بعد الأقحام على ما كان عليه قبل . وقال الكسائي: إن خاضعين حال للضمير المجرور لا للأعناق. وتعقبه أبو البقاء فقال: هو بعيد في التحقيق لأن (خاضعين) يكون جارياً على غير فاعل (ظَلَّتَ) فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل فكان يجب أن يكون خاضعين هم فافهم، وقال ابن عباس. ومجاهد. وابن زيد. والأخفش: الأعناق الجماعات يقال: جاءني عنق من الناس أي جماعة ، والمعنى ظلت جماعاتهم أي جملتهم. وقيل : المراد بها الرؤساء والمقدمون مجازاً كما يقال لهم : رؤس وصدور فيثبت الحكم لغيرهم بالطريق الأولى، وظاهر كلامهم أن إطلاق العنق على الجماعة مطلقاً رؤساء أم لا حقيقة وذكر =

وهو يعبث في الصلاة بيديه فقال: «**لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه**»(١).

فصل

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الحج:٧٧] واستاق لفظ الترجي وقال في هذه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ... * وَالَّذِينَ**﴾ [المؤمنون:١-٣] فجاء بخطاب معهوده القطع، أرى [ذلك](٢) - والله أعلم - أن الآية الأولى أتت بالأمر بالإيمان والعبادة والركوع والسجود وفعل الخير، فجاء الترجي على صدق الامتثال منَّا [للأوامر](٣) أو تركه؛ إذ الهداية والاستعمال وإن كان ذلك مضافًا إلينا ونحن الموصوفون به، فإن ذلك لا يكون عن حول منا ولا قوة، فجاء معنى الترجي لأجل ذلك، وأمَّا المؤمنون العاملون العابدون على ما يرضي الله - جل ذكره - فليس في منال الثواب على ذلك ريب؛ لأنه من فعل الله - جل ذكره - وقد وعد بذلك وأخبر، وهو أوفى

=

الطيبي عن الأساس أن من المجاز أتاني عنق من الناس للجماعة المتقدمة وجاؤا رسلاً رسلاً وعنقاً عنقاً والكلام يأخذ بعضه بأعناق بعض، فيكون المعنى فظلوا خاضعين مجتمعين على الخضوع متفقين عليه لا يخرج أحد منهم عنه. وقرأ عيسى وابن أبي عبلة (خاضعة) وهي ظاهرة على جميع الأقوال في الأعناق بيد أنه إذا أريد بها ما هو جمع العنق بمعنى الجارحة كان الإسناد إليها مجازياً و(مَا لَهَا) في القراءتين صلة ظلت أو الوصف والتقديم للفاصلة أو نحو ذلك لا للحصر، وظلت عطف على ننزل ولا بد من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر لأنه وإن صح عطف الماضي على المضارع إلا أنه هنا غير مناسب فإنه لا يترتب الماضي على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية ولا يعقل ذلك والمعقول عكسه، وبتأويل أحد الفعلين يدفع ذلك لكن اختار بعضهم تأويل ظلت بتظل وكأن العدول عنه إليه ليؤذن الماضي بسرعة الانفعال وأن نزول الآية لقوة سلطانه وسرعة ترتب ما ذكر عليه كأنه كان واقعاً قبله ، وبعضهم تأويل ننزل بأنزلنا ، ولعل وضعه موضعه لاستحضار صورة إنزال تلك الآية العظيمة الملجئة إلى الايمان وحصول خضوع رقابهم عند ذلك في ذهن السامع ليتعجب منه فتأمل!! [الألوسي (١٤/١٦١)].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/١٩٠) وعبد الرزاق (٣٣٠٩) وأبو نعيم (١٠/٢٣٠).

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «للأمر».

[عهدًا][(١)] وأصدق قيلاً وأقدر بلا نهاية تتوهم.

قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون:١٠ - ١١] الفردوس: أعلى الجنة، ومنها تتفجر أنهارها، كرم مفردس؛ أي: مرفوع معرش، والوراثة: الخلف، الوارث: الخالف [للماضي][(٢)] في الشيء، الموروث داخل الجنة يرث فيها داخل النار.

قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد أو ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة ومكانها من النار**»[(٣)] وساق حديث المسألة في القبر، [وفيه][(٤)] أنه يقال له: هذا منزلك من النار، أبدلك الله به منزلاً من الجنة، ويقال للآخر: هذا منزلك من الجنة، قد أبدلك الله به منزلاً من النار، قال رسول الله : ﷺ «**فيراهما جميعًا**»[(٥)].

وأمَّا ما احتج به بعض من تكلم في هذا الفصل منكرًا لما قدمنا ذكره وتشنيعه، ذلك بقوله: «أترى القائل بهذا يقول: إن محمدًا ﷺ خلق له منزل في النار، وأن فرعون وهامان وشبههما في الضلال، خلقت لهم منازل في الجنة» فمحجوج غير مصيب.

قال رسول الله ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة من قتل نبيًا أو قتله نبي**»[(٦)] ولو علم هذا العلم يقينًا أن على قدر تهوره في دركات الكفر، والسعي على المسلمين، والبغي على الرسل والمؤمنين، فعلى قدر ذلك [كان][(٧)] قد أعدَّ له في

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «الماضي».

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٦٥)، ومسلم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٣٣٤٤) وأحمد (١٠٦٧)، وعبد بن حميد (٨٤)، وأبو يعلى (٥٨٢).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) أخرجه البُخَارِي (١٣٣٨)، ومسلم (٧٣١٨) وأبو داود (٣٢٣١) والنَّسائي (٩٦/٤) وفي الكبرى (٢١٨٩)، أحمد (١٢٢٩٦)، وعَبد بن حُميد (١١٨٠).

(٦) أخرجه أحمد (٣٨٦٨)، والطبراني (١٠٤٩٧)، وقال الهيثمي (١٨١/١): فيه الحارث الأعور، وهو ضعيف.

(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الجنة منزلة يرثها عدوه من الرسل أو المؤمنين.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٦].

فأخبر الصادق [الحق][١] - عزَّ جلاله - أنه على قدر مسارعته في الكفر والصد عن سبيل الله يكون عظم عذابه فيما هنالك، وأن سعيه ذلك ينتقص حظه في الجنة، وجعل الله - جل ذكره - سعيه على الإسلام، ومسارعته في الكفر على قدر انتقاصه حظه وهدمه خلاقه من الجنة، وجعل العاجز منهم الضعيف في السعي المهين عن المسارعة أقل عذابًا في النار ومنزلة أدنى منزلة في الجنة يرثها ضعيف يقابله من هذه، فافهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ المُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١] فجاء من هذا أنهم فيما هنالك كالأقران في الحرب، الأغلب منهم في حظ البقاء وتأخير الأجل هو القاتل لمن حضر أجله [منهما][٢]، ولو عبر هذا القاتل - عفا الله عنا وعنه - بالوجود المشاهد إلى الوجود الموعود الغائب [لأيقن][٣] لا محالة بأنه من خلفه الله في الدنيا ومن الدنيا، فإنه مصيبه لا بد حرها وبردها الكائنين عن نفَسي جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - ومصيبه أيضًا فتح الله رحمته من السماء بالماء والأرض والهواء، ونعمته بما سخر له السماوات والأرض وما بين ذلك، فمن واجب الوجود والمعهود ومن صدق الوعد والوعيد الكائنين عن حكمة الله - جل ذكره - أن يخلق لكل من خلقه من الدنيا وشمله حكم الفتح والفيح منزلتين:

أحدهما: في الجنة التي هي منبعث الفتح.

والآخر: في النار التي منبعث الفيح؛ لأنه المبدئ المعيد.

قال الله ﷻ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥] يعني: الأرض، وكذلك [خلقها][٤] عن الفيح والفتح.

---

(١) في النسخة (خ): «الخبر».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «لأتقن».

(٤) في النسخة (خ): «خلقنا».

وقال في النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني: الآن ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١] فلذلك لا بد ولا محالة من ورود جهنم، ولو على قدر خطف البرق ورجع الطرف أو يمر به على مسامتتها على البعد، ولا يشعر بها ولا يخافها ولا يحزن من [أجلها][1]، كذلك جعلها الله يومئذٍ ممرًا إلى الجنة كما جعلها في الدنيا ممرًا إلى آخر العمر فيها، فتطلب هذا في مظانه تجده هكذا ﴿والله يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

كما أنه لما كان مما قد خلفنا عنه فتح رحمته قضى في الوجود لعباده الطيب والطاهر والصديق الصادق يدخله الجنة برحمته [وكريم][2] سابقته في هؤلاء، يقول - عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢] وإنما يعصم من النار ويبعد منها، ويدخل الجنة ويقرب من الله - جل ذكره - مشيئته العالية ورحمته الواسعة، بواسطة طاعته وابتغاء مرضاته أو بواسطة كفرانه ومواقعة مواقع سخطه، وعلى مشيئة الله ورحمته المعول أجمع، وما عدا ذلك أسباب وأواسط، وهذا هو الذي أخرج آدم ﷺ من الجنة إلى الدنيا مع [الذم][3] الوارد ومواقعة الخطيئة سبب كالأسباب، ومن أجل ذلك حاج آدم موسى ﷺ.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ

---

(١) في النسخة (خ): «دخلها».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «النهي».

لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ٢٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢ - ١٣] إلى آخر المعنى، السلالة: ما تسلل من الشيء، وسلالة الطين: ما رقَّ منه وثخن من الماء، وهو الصلصال إذا يبس.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٦] و﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٣] يعني: الرحم، فذكر سبعة أحوال بحمله فيهن في طبقات التكوين خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، وقد تقدم الكلام في هذه الإسبوعات في غير هذا الموضع وأنه أخرجه إلى أن [تقلُّبه][1] في سبعة أحوال إلا أن يخترمه الأجل، كما قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ﴾ [غافر:٦٧] ثم من الموت إلى سبعة أحوال، فيستقر في إحدى الدارين، وقد كان جمعه من سبع.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ هذه هي السماوات الدنيا اللاتي دون السماوات العلا التي جعل القمر فيهن نورًا والشمس سراجًا، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:١٧] يريد - وهو أعلم بما ينزل - إنه كان عالمًا بالخلق قبل أن يوجدهم، كعلمه بهم بعد إيجادهم لم يزدد علمًا بذلك، ويمكن أن يكون المعنى بذلك زائدًا على ما تقدم ما تضمنه قوله الحق: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣] يقول: فهذا أمرنا فيما علا متصل بما سفل، وأخبر بذلك

(١) في النسخة (خ): «يقلبه».

[منبهًا][(١)] على أنعمه، ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:١٧] أي: إنا لم نجعل ذلك خشية منا النسيان.

ثم قال - تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ أسكن في الأرض ما هو نافع، وأذهب الزبد جفاء، وأسكن الفصل باطن الأرض [أسلكه][(٢)] ينابيع فيها فأجرى منه الأنهار والعيون وألحقه بما ينفع الناس، ثم قال: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨] آيته على ذلك ما يذهبه من الماء سيوله ومنافعه بالهواء وتبخره بالشمس حتى يجعله على قدر ما يصلح به العباد والبلاد والزرع وغير ذلك.

قوله - جل ذكره: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون:١٩] نبه بهذا الخطاب على [اعتبار جليل خطره][(٣)] أي: إن هذا الماء الذي أنزلناه لكم من السماء، وأنشأنا لكم به الجنات من النخيل والأعناب وغير ذلك من الفواكه اعبروا منه إلى ما يكون في العاقبة، فإنكم شاهدتم سلالة الطين وما يكون عن النطف المتسللة عن كل ذي جنس ونوع من الحيوان، وكذلك عن كل بذر من النبات أو [غراسَة][(٤)]، فإنما يكون عن كل ذي جنس ما هو من جنسه ومثله وشبهه، فالإنسان عن الإنسان، والأنعام عن الأنعام، وكذلك سائر الحيوان وبذور النبات وغير ذلك.

فاقضوا إذًا بحكم الاعتبار إن هذا الماء المنزل من السماء، الكائن عنه أنواع الجنات إنما نزل عن جنة، وإن لم يكن عين الجنة اليوم فيها ظاهرة، فهي فيها باطنة، وكذلك الكائن عن الماء من جنات على أنواعها فهو عن الجنة، وقد تقدم ذكر اعتبار آخر بالماء ينزله الله من السماء طاهرًا مطهرًا، وهو واحد في نفسه من حيث هو ماء، فيخرج الله عنه نبات كل شيء، ويخلق منه كل شيء حي آية على أن الله واحد، وهو خالق كل شيء، وكما في وجود الماء إثارة فيح جهنم فكان عنه نبات

---

(١) في النسخة (غ): «منها».

(٢) في النسخة (خ): «سلكه».

(٣) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «عراسه».

كل شيء، وخلق الله منه كل شيء حي على اختلاف وجوده، وهو ماء واحد من حيث هو ماء، فاقضِ بذلك على تخالف الوجود في الموجودات مع وجود الكثرة والوحدة.

وقد ضرب الله - جل ذكره - في ذلك مثلاً قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف:١٨٩] إلى آخر المعنى.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:١٩] عطف معنى الدنيا على معنى الآخرة، فانبثق عن هذا اعتبار آخر، وهو أنه قد أعلمنا بما تقدم ذكره أن كل ما ينبته عن الماء فهو عن موجود الجنة، ثم قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مما هو عن الجنة كأبيكم آدم ﷺ إذ قال له ربه ﷻ: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾ [البقرة:٣٥] المعنى، ثم أخرجهما منها وأخلف لهما مثالها يأكلان منها وذريتهما.

كما قال - عز من قائل: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾ أي: مما أنزله عليكم وأفتحه لكم من رحمتي ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:٢٤] يعني: آخر العمر؛ أي: ثم تنقسم العباد بعد فيما بعد الموت وفي الدار الآخرة إلى ما عهد به إليهم من قوله الحق: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٥ - ٣٦].

وفيه اعتبار آخر وهو أنا إذا أكلنا مما هو عن الجنة بفتح رحمته - جل ذكره - ومما هو أيضًا عن جهنم بواسطة فيحها، فإذا أكلنا من ذلك خلقنا منهما - أعني: الجنة والنار - وما هو الدار الآخرة فالجور إذًا إلى الدار الآخرة واجب إلى جنتها ونارها، فبوجود الوفاء بالعهد إلى الجنة وإلى النار بضد ذلك، نسأل الله رحمته وعافيته في ذلك للمعهود من أنه من خلق عن شيء عاد إليه، كما قال - عز من قائل: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥] وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

ألا ترى أن آدم ﷺ لما خلق من الدنيا وجب في وجود الحكمة أن يرجع

إليها ظهر ذلك في معهود يخاطب الملأ الأعلى، حيث «**تحاج آدم وموسى عند ربهما** - عزَّ جلاله - **قال له موسى: أنت الذي أخرجت ذريتك من الجنة، فقال له آدم** - عليهما السلام: **بكم وجدت الله كتب علي أن يخرجني إلى الدنيا، قال: قبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال: فتلومني على أمر كتب علي قبل أن أخلق بأربعين سنة، قال: فحاج آدم موسى**»[١].

فعلى هذه الرواية من ذكر الدنيا [تصحيح][٢] العبرة، فإنه لا بد لهم من الدنيا، ثم لا بد لهم من الجنة أو النار، وإنما يجير من النار مشيئة الله - جل ذكره - ثم لزوم طاعته واجتناب مناهيه، ومن لم يوفق لذلك فالنار موعده هي [مولاكم][٣]، كما يقال في تذاكر أهل البرزخ عمن مات ولم يره الحزب الصالح: أنا لله ذهب والله به إلى أمه الهاوية هي أمه منها خلق وإليها عاد.

فمفهوم هذا في الجنبة الأخرى أن يقال في التقي: ذهب والله [به][٤] إلى أمه العالية، فإنما هذه أم وهذه أم، لكن الشقي لما لم يشكر نعمة الله عليه فيما أنزله عليه من السماء، ولا صدق الله ورسله وكفر صارت له جهنم الذي خلق من فيحها أمًّا، وفي أهل الطاعة بالإيمان والشكر لله صارت الجنة [لهم][٥] أمًّا وموعدًا ومصيرًا.

ومن موضع هذا اللزوم كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**أسألك اللهم فكاك رقبتي من النار، اللهم أعتقني من النار**»[٦].

وقال الله ﷻ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان:٧٧].

فمن خلقه الله في الدنيا فقد خلقه أيضًا مما أنزله من فتح رحمته [بالماء][٧] فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٩٨٧).

(٢) في النسخة (خ): «بصحيح».

(٣) في النسخة (خ): «مولاهم».

(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٥) في النسخة (خ): «له».

(٦) لم أقف عليه، وإنما وقفت على لفظ: «**اللهم إني أسألك فكاك رقبتي من النار**» أخرجه الديلمي في المسند الفردوس (١٨٩٧).

(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

شكره وآمن به وأطاعه واستعمله ربه برحمته الموجودة في كتابه وأسمائه، فقد ركب السبيل القويم منهاج الحق المخلوق به السماوات والأرض على طريق ما أمر به ونهى عنه، فالجنة موعده لا محالة ولا مرية ﴿**والله يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ: ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ**﴾ [المؤمنون:٢٠] [نظم الكلام، والله أعلم ﴿**فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**﴾ [المؤمنون:١٩] ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ**﴾ [المؤمنون:٢٠]](١) وقُرِئت: «**تُنْبَتُ بِالدُّهْنِ**» أي: تنشأ الشجرة [بالدهن، وقُرِئت أيضًا: «**تَنبِتُ بالدهن**»](٢) فالدهن في الشجرة؛ [وقرئت: «**تُنبِت بالدهن**»](٣) أي: الشجرة تنبته، وهو معنى ما قرأ به الأعمش: **تخرج الدهن**(٤).

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ إلى قوله: ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ**﴾ [النور:٣٥] فأنبأ الله ﷻ عباده أنه كما ينزل عن الجنة جنات إلى الأرض، كذلك ينزل عن آثاره نوره في السماوات والأرض نورًا يكون في نبات الأرض وحيوانها، وشجرة الزيتونة واحدة من شجر الدهن يلحق بها في وجود العبرة بها إلى ما هو نور، وإن كانت شجرة الزيتون مقدمة [الخصوص](٥) ذكر الله تعالى إياها.

ثم عطف بواو في قوله: ﴿**وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ**﴾(٦) [المؤمنون:٢٠] هنا محذوف

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «الماضي».

(٤) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو: «تُنبِت» برفع التاء وكسر الباء. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بفتح التاء وضم الباء. وقرأ ابن مسعود: تخرج الدهن وصبغ الآكلين. وغيره: تخرج بالدهن: وفي حرف أبي: «تثمر الدهن» وعن بعضهم: تنبت بالدهان. وقرأ الأعمش: «صبغا» وقرىء: «وصباغ» ونحوهما: دبغ ودباغ. والصبغ: الغمس للائتدام. وقيل: هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان. [زاد المسير (٤٠٧/٤)، الكشاف (٨١٤/١)].

(٥) في النسخة (خ): «الخصوصية».

(٦) ﴿**وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ**﴾ معطوف على الدهن، ومغايرته له التي يقتضيها العطف باعتبار المفهوم وإلا فذاتهما واحدة عند كثير من المفسرين، وقد جاء كثيرًا تنزيل تغاير المفهومين منزلة

=

مقدر تقديره، والله أعلم بما ينزل: تنبت بالدهن ضياء أو نورًا للمستصبحين ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ يعلم بذلك أنه يصرف الدهن الذي هو آية على باطن نوره في [سبيل][(١)] الخلقة بما هو نور كما أظهره في النيرات، ومنه قول رسول الله ﷺ: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة**»[(٢)].

عبرة

طور سيناء هو الجبل الذي كلم الله - جل ذكره - منه موسى وناداه وواعده، ونسب شجرة الزيتون إلى هذا الجبل، وأوجدها فيه وفاقًا بالإيجاد لما قد قدره في الأزل، ولما في ذلك من المقاربة من ضربه المثل بنوره ووجود تجليه وكريم مواعدته إياه إليه، فالزيتونة شبيهة بالحق المخلوق به السماوات والأرض، وفيها شبه [بالإنباء][(٣)] والنبوة لما في الحق من الإنباء والهداية والشهادة، ولما في النبي والنبوة من النور.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا**﴾ [المؤمنون:٢١] يقول: تعبرون بها إلى ما في هنالك من وجود الأنعام على خلقه الآخرة، كما قال - عز من قائل: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ [غافر:٧٩ - ٨٠] أي: في هذه الدار والدار الآخرة، فهذه الوجوه كلها هي متاع لنا في الدنيا على ما هي عليه من النقص عما هنالك، وهناك ملكًا وخلدًا ونعمةً وحبور بكل وجه وعلى ما تشتهي الأنفس.

= تغاير الذاتين، ومنه قوله: «إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم» والمعنى: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهن يدهن به، ويسرح منه وكونه إدامًا يصبغ فيه الخبز؛ أي: يغمس للائتدام. تفسير الألوسي (١٣/١٩٠).

(١) في النسخة (خ): «سبل».

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٥١)، والحاكم (٧١٤٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأحمد (١٦٠٩٧)، والطبراني (٥٩٧)، والبيهقي (٥٩٣٨)، وابن قانع (١/٤٢).

(٣) في النسخة (خ): «بالنبي».

ثم عطف بحرف الواو بقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:٢١] تنبيه منه إلى وجوه من العبرة [منها أنه يخلفنا عنها لحومها وألبانها ويغذينا به وينشؤنا عنها][١] ومعلوم أنه قد جمع خلقها بأمره من خزائن السماوات والأرض والسحاب والأجواء بالرياح والهواء، ثم خلق عن ذلك الماء وأنزله إلى الأرض فأقره [منها][٢] قراره، ثم أخرج منها نباتها وخلق على ذلك أنواع الحيوان، ثم تتفرق أجسام الحيوان والأناسي إلى آكليها وأجسام الآكلين إلى آكلين، هكذا إلى آخر الدنيا ويوم الانقراض، ثم إذا دعاهم دعوة من الأرض استجاب كل من [موضعه وقراره][٣] وسلك في الاستجابة سبيل ذهابه الأول، فإذا هم منها يخرجون ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧] أوليس الذي فعل هذا الذي بيده ملكوت كل شيء وبيده مقاليد السماوات والأرض بقادر على أن يجمع الكل من مفترقات الأماكن ومختلفات السبل؟ بلى، وهو الآن الخلاق العليم، نشاهد ذلك منه ونعاينه.

ثم قال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون:٢٢] تنبيه منه على ما أعده لهم في الدار الآخرة من مراكب الأنعام ومراكب الفلك، فافهم، بلغ الله بنا وبك.

فصل

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] فالتدبر أولاً ولا يكون إلا بتفكر وبه يتحصل العلم، والتذكر خاص هو لأولي الألباب والعلم بمعاني الكتاب العزيز، وإن كان خاصًا، فإن التذكر بالإضافة إليه خاص الخاص.

وقد جاء في الذي أنزل فيه قوله - جل ذكره: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف:١٧٥]: «أنه نزل عليه ملكان وهو نائم، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «فيها».

(٣) في النسخة (خ): «موضع قراره».

للآخر: أوعى؟ قال: وعى، قال: وزكى؟» قال أُبي: فالتذكر مقام وراء التدبر، وبالتذكر يجتلب الخوف والخشية والرجاء والحب والرضا واليقين، وعنه تكون زكاة الأعمال والأخلاق بإذن الله، فمتى تدبرت قوله الحق: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢] وعبرت من هذا الماء وما خلقه الله عنه من نبات وحيوان وأناسي وأتباع ذلك كله إلى ما هو الجنة.

فتذكر موجودات ما هنالك ولا تكونن زهودًا في العلم تقنع منه بأوائله، وتذكر تلك الدار وذلك الملك و[خطير](١) الخلود في النعيم المقيم، وسرور النفس بالقرب والجاه والتمكين عند رب العالمين من ليس كمثله شيء، ثم أرجع البصر في موجودات الدنيا وتوابعها، واعبر بذلك إلى ما هنالك أيضًا وتذكر قدر المزيد، فإن العلم بما ها هنا مزيدًا لله في دار الدنيا للمعتبرين، وهو لا انقضاء له، وكذلك تذكر الخزائن والاختزان وكيف يُظهر ما اختزنه، ومتى وبِمَ ولِمَ ولأي حكمة وحكم؟!.

وكذلك فتذكر بقوله الحق: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون:٢٠] وقد عبرت منها إلى شجرة الحق المخلوق به السماوات والأرض، فتذكرها وتعلم علمها.

والفرق بين [قوله](٢): «تُنْبِتُ بِالدُّهْنِ» وقوله: «تَنْبِتُ الدُّهْنِ» و«تُخرِج الدُّهْنِ» تذكر ما المراد بالدهن وذكره؟ وما المنفعة به ها هنا؟ فبذلك تعبر إلى الدار الآخرة، وتذكر ثبوت أصلها وتفرق فروعها وشياع أفنانها وأفنان أفنانها إلى أقصى [موجودات](٣) المخلوقات، وما الذي منها هو للهداية وما هو للفطرة ومعاني الخلقة، ثم صل اعتبارك بتذكر الدار الآخرة، ويشعر لتوصيل الخطاب معاني الوحي وإشاراته إلى موجود ما هنالك، وتذكر ذلك بحق ما ها هنا، تتعرف به حق ما هنالك، وسل البر الرحيم أن يعلمك ويفتح عليك من رحمته.

---

(١) في النسخة (خ): «خطر».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «موجود».

وكذلك فتذكر بعد تقصي العبرة من مفهوم قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون:٢١] فتذكر بذلك أنهار ما بها من لبن لم يتغير طعمه، ثم تطرق بالتذكار إلى [تذكار](١) أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر لذة للشاربين.

وتذكر مفهوم قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد:١٥] واعبر إليها من قوله الحق: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ [وتذكر الأكل منها هنالك، واعبر إليه من قوله فيما ها هنا](٢): ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:١٩] ثم كذلك أبدًا بعد التدبر والاعتبار استعمل التذكر، ثم بعد التذكر سؤال حال [فيما ها هنا](٣) يوجب اللحاق [بما](٤) هنالك، ويجيب إليه بالتصديق له والشهادة بما شهد به لنفسه - جلَّ ذكره - ولسواه، واعمل [في](٥) ذلك عمل من يعلم ما يطلب، ومَن الذي يسله وفِيمَ [يرغبه](٦)، علمنا الله وإياك من علمه، وأجزل حظنا وحظك من معرفته، وأحسن عوننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣] المعنى إلى آخره، عطف بواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إذ معنى ما تقدم تعداد آياته والتنبيه على براهينه ودلائله في السماوات والأرض، ولما أن كان إرساله الرسل منبهًا للعقول ومبينًا للآيات على التوحيد والرسالة وما جاءت به، وموقظًا للعقول التي أرادها الله بذلك، عطف بالواو على ما تقدم.

والمراد الأول بإرسال الرسل: الإعلام بإجماع جميعهم على ما انعقد عليه جميع الموجودات في الأرضين والسماوات أنه الله إله واحد فاعبدوه واتقوه، وأن

---

(١) في النسخة (خ): «تذكر».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «بما هنا».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٦) في النسخة (خ): «يرغب».

الرسل والنبوة حق، وتبين الأمر بطاعتهم وحسن الاقتداء بهم والطاعة لهم.

ثم المراد الثاني: الإعلام بالحساب العاجل والآجل وثوابه للمؤمنين وعقابه للمكذبين، والتنبيه على ما اجتمعت عليه أمم الخليقة ناطقها وصامتها، بما جعلها الله عليه من الجريان على سنن معلوم.

قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٦٧] على تبيين لزوم شرعة الرسل وإثبات سننهم، ثم التنبيه على الاعتبار بثواب المؤمنين في العاجل والآجل واجتبائهم، وعقاب المكذبين وإهلاكهم على ما يطابق ذلك في الدار الآخرة ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٣٣].

قوله تعالى فيما حكاه عن المكذبين: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤] يتفعل من الفضل؛ أي: إنه يريد أن يكون الفاضل دونكم.

قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ أمره أن يدخل فيها

هو وأهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فإنه لا يؤمن، وهو ابنه الذي كان من المغرقين، نهى أن يشفع فيه فشفع فيه بحكم العموم في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون:٢٧] فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود:٤٥] فأبان الله - جل ذكره - له من هو أهله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم أتبع ذلك [تبيينًا][1] بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:٤٦] لا ولاية نسب مع البراءة في ذات الله، وعلى القراءة الأخرى: «إنه عمل غير صالح» أي: إن هذا منك عمل غير صالح شفاعتك فيما ليس لك به علم.

فصل

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي**»[2] فأمَّا ما ذكره من أمر يوسف فقد مضى في موضعه، وكذلك قصة إبراهيم وأن قوله تعريض إلى إحياء خاص في أمة ما هذا هو المراد الأول منه، ثم إحياء الموتى حال موتهم ثانيًا، ثم إحياء موتى الأجسام ثالثًا.

وأمَّا قوله: «**ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[3] كان ﷺ قد تقدم إليه بأنه متصور، وأن أولئك القوم مهلكون، قال الله ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦] ولما حل به الأضياف لإنجاز الوعيد فيهم والوعد له بالفرح، وجاء القوم إليه مستبشرين؛ أي: ببلوغ بغيتهم على زعمهم، ووقعت بينه وبينهم المحاورة وتراجعوا الكلام، نفث نفثة المصدور على عوائد البشر، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أو آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠] أي: كنت أنتصر لنفسي ولأضيافي قالوا له: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٣)، ومسلم (١٥١)، والنسائي (١١٠٥٠)، وابن ماجة (٤٠٢٦)، وأحمد (٨٣١١)، وابن حبان (٦٢٠٨)، وأبو عوانة (٢٣٠).

(٣) أخرجه بنحوه الحاكم (٤٠٥٤) وقال: صحيح على شرط مسلم.

فأقاموه - صلوات الله على جميعهم - على [نفسه][(١)]، ولما [بيّن][(٢)] الحال التي [يعتري][(٣)] عند [مباشرة][(٤)] الشدة، فتعطى على الذكر الأول، قال: ويرحم الله لوطًا، فدعا له بالرحمة كذلك سنة الله في رسله وعباده كقوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠].

﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥ - ٦].

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤ - ٤٩].

وتكلم رسول الله ﷺ في الثلاثة رسل - صلوات الله على جميعهم - على سير

---

(١) في النسخة (خ): «يقينه».

(٢) في النسخة (خ): «تبيَّن».

(٣) في النسخة (خ): «تعترى».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الأنبياء والنبوة، قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٣٦] مفهوم هذه اللفظة البعد من المطلوب المعني [من](١) المتكلم بها ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾(٢) [المؤمنون:٤١] أي: هشيمًا يابسًا وحطامًا متقطعًا يحمله السيل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون:٤٤] بمعنى تتواتر.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٠ - ٥٦].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون:٥٠] أي: على أن الله يخلق من غير ذَكَر كما يخلق من ذكر، وقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وكانت جيئته الأولى آية على جيئته الثانية ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥١ - ٥٢] نصَّ - جلَّ ذكره - على أن إجماع الرسل وإجماع الخليقة كلها أن الله إله واحد، وأمة

---

(١) في النسخة (خ): «عن».

(٢) الجعل بمعنى: التصيير، و«غُثَاءً» مفعول ثان، والغُثَاء: قيل: هو الجفاء، وتقدم في الرعد، قاله الأخفش. وقال الزجاج: هو البالي من ورق الشجر والعيدان إذا جرى السيل خالط زبده واسوَّد، ومنه قوله: ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى:٥] وقيل: كل ما يلقيه السيل والقدر مما لا ينتفع به، وبه يُضْربُ المثل في ذلك ولامه واو؛ لأنه من غَثَا الوادي يَغْثُو غَثْوًا، وكذلك غَثَتِ القِدر، وأمّا غَثِيَتْ نَفْسُهُ تَغْثِي غَثَيَانًا؛ أي: خَبُثَتْ. فهو قريب من معناه، ولكنه من مادة الياء. وتشدد ثاء الغُثَاء وتُخفَّف، وقد جمع على أَغْثَاء، وهو شاذ، بل كان قياسه أن يجمع على أَغْثِية كَأَغْرِيَة، وعلى غِيثَان كغِرْبَان وغِلْمَان. تفسير اللباب لابن عادل (١١/٤٩٦).

[المسلمين][1] أمة واحدة، الأنبياء والملائكة والمؤمنون والأمة الطريق وتكون الجماعة يؤمها بعضها والأمة الملة، وهذا كله قريب القرابة بعضه من بعض، فالرسل والأنبياء كلهم في وجوب الإيمان بهم كرجل واحد، والملائكة كلهم في وجوب الإيمان بهم كملك واحد، والمؤمنون كلهم في وجوب النصيحة والولاية كرجل واحد، ولله - جلَّ ذكره - تخصيص تفضيل في كل أمة يجب الإيمان به أيضًا، فالدين دين واحد، والأمة أمة واحدة والله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - رب واحد لا شريك له.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقوا التوحيد ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣] الأحزاب والشيع والفرق [سواء][2].

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٤] الغمرة: ما غمر المغمور من ماء أو هول أو فتنة أو نوم ونحو هذا، وهؤلاء غمرتهم الغفلة فهم لا يفقهون، ومع ذلك فهم لما هم فيه من التيه والضلال لا يشعرون، بأنا نملي لهم ونستدرجهم من حيث لا يعلمون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [المؤمنون:٥٧ - ٦٥].

يقول الله - جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] الخشية: رقة الخوف، والإشفاق: رقة الحزن، فمن كان هكذا ساء

---

(١) في النسخة (خ): «الإسلام».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

ظنًّا بنفسه وبعلمه، حتى لا يستحق عند نفسه خيرًا ولا يستأهله، وأنه ليخاف من حيث يأمن سواه والشفيق بسوء ظن مولع.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٥٨] من تحقق بهذا الوصف لا يرى شيئًا إلا ازداد به علمه، ولا يخطر بباله خاطر إلا زاده الله به إيمانًا بربه ويقينًا.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٥٩] المتحقق بهذا هو المخلص.

يقول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: هم يعطون الزكاة والصدقة من أموالهم والنصيحة من أنفسهم، ويزكون أنفسهم بالتقرب من الله - جلَّ ذكره - ويصدقون بواطنهم بظواهرهم وظواهرهم ببواطنهم عند أنفسهم، ممن لا يتقبل منهم حسناتهم ولا يكفر عنهم سيئاتهم، ليس لخلف وعد يعتقدونه، لكنهم يرون عند أنفسهم أنه ممكن أن يكون الله ﷻ قد اطلع على أحدهم في بعض هناته إطلاعةً، فأعرض عنه بوجهه الكريم فقال: «**اعمل ما شئت فلا أغفر لك**»[١].

وإلى هذا فإن علم [الخاتمة][٢] غيب في حقهم لغيب السابقة، فهم يحزنون على ما لا علم لهم بحقيقته [مع عظم الخطر، وأنهم ليس لهم من دونه ولي ولا نصير][٣] وقد قال رسول الله ﷺ: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الله، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**»[٤] ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[٥] وفي أخرى: «**على**

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم (٢١٥/١٠)، والديلمي (٨٧٣٩).

(٢) في النسخة (خ): «الآخرة».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٢٦/٨)، والطبراني في الشاميين (٣٣٠/١)، وأحمد (١٧٦٦٧)، وابن ماجة (١٩٩)، وقال البوصيري (٢٧/١): هذا إسناد صحيح، والحاكم (١٩٢٦) وقال: صحيح على شرط مسلم، وابن عساكر (١٥٧/١٠).

(٥) أخرجه ابن أَبي شَيْبَة (٢٩١٨٧)، والنسائي في الكبرى (٤١٤/٤)، وأحمد (١٢١٣١)، والتِّرْمِذِيّ (٢١٤٠)، وأبو يَعْلَى (٣٦٨٧)، والبيهقي (٧٧٦)، والطبراني (٧٥٨) وفي الأوسط

=

طاعتك»[(١)].

وروت عائشة - رضي الله عنها - أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: «**والذين يأتون**» بالألف، وقالت: «**ما يقرؤها إلا من الخشية**»[(٢)] وقرأ ابن عمر: «يؤتون ما أتوا» بالقصر، وقال: هي الزكاة، هكذا وجدته في الرواية، وأظنه من قصر الممدود؛ أي: يزكون أنفسه بطاعة الله[(٣)] على ما تقدم في صدر الكلام.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿**أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون:٦١] أتبع ذلك قوله - جل ذكره: ﴿**وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [المؤمنون:٦٢] كما قال: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ [النساء:٤٠] وقال: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ**﴾ [الأنبياء:٩٤].

قوله تعالى: ﴿**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾ [المؤمنون:٦٣] أي: من خشية هؤلاء وإخلاصهم، وإشفاقهم من سيئاتهم و[نسيانهم][(٤)] حسناتهم غمرتهم الغفلة واستحوذ عليهم الشيطان بالتزين بالغرور والجهل فهم لا يعقلون.

=

(١٥٨٨)، وأبو يعلى (٢٢٦٤)، والطيالسي (١٧٠٢).

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٨٣)، وأبو يعلى (٤٨٢٤)، وعبد بن حميد (١٥١٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١٨٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، ٩ / ١٩ - ٢٠ والإمام أحمد:٦ / ١٥٩، ٢٠٦ ، والحاكم: ٢ / ٣٩٣ - ٣٩٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطبري:١٨ / ٣٤. وانظر: الدر المنثور:٦ / ١٠٥ بلفظٍ ما معناه.

(٣) قرأت عائشة - رضي الله عنها - وابن عباس والنخعي «والذين يأتون ما أتوا» مقصورًا من الإتيان، قال الفراء: ولو صحت هذه القراءة عن عائشة لم تخالف قراءة الجماعة؛ لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف في كل الحالات إذا كتب فيكتب سئل الرجل بألف بعد السين ويستهزئون بألف بين الزاي والواو وشئ وشئ بألف بعد الياء فغير مستنكر في مذهب هؤلاء أن يكتب «يؤتون» بألف بعد الياء فيحتمل هذا اللفظ بالبناء على هذا الخط قراءتين «يؤتون ما آتوا» ويؤتون ما أتوا وينفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين: أحدهما: والذين يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة وقلوبهم خائفة. انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٢٠)، تفسير البغوي (٥/٤٢١).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

أتبع ذلك قوله: ﴿**وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾ [المؤمنون:٦٣] المراد الأول بإرجاع الضمير عليهم هنا هم الحزب الصالح، مفهوم الكلام، والله أعلم بما ينزل: ولهم أعمال من دون ذلك؛ أي: تلك الأعمال المحمودة هم لها عاملون لا بد ولا محالة؛ لذلك خلطهم يوم ميز بينهم في البدء الأول، ثم قال لهم: أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وقد قيل: لا يخلو الصديقون من الذنوب، [فوصفه](١) إياهم بذلك في معرض المدح لهم دليل على [مغفرته لهم](٢).

ثم المراد الثاني: أن يكون إرجاع الضمير على الحزب المذموم أن يعملوا بعمل أهل النار وهم في غمرة عماهم عليه؛ ليقولوا يوم القيامة: ﴿**إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٧٢] وقد يكون المعنيون بهذا أصحاب الإهمال والتردد على المعاصي، الراجون غفران الذنوب مع الإصرار والجنة بالمعاصي من الموحدين، و[الصنف](٣) الأكثر جرمًا قد جاء وصفهم في قوله ﷻ: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف:١٧٣].

ولذلك أحضرهم أنفسهم في [الأول](٤)، وأشهدهم على أنفسهم بالعبودية له وأنه ربهم، وأشهدهم على النبوة والرسالة، ثم لما أوجدهم بعث إليهم رسله تأكيدًا للمعرفة المغروزة في أصل جبلتهم المركبة في جذر قلوبهم، لا تصح [القضية ومضاؤها](٥) إلا بأن يكونوا على كمال عقولهم وحوار أمرهم، وعلى ذلك [من](٦) الحكم شرع شرعه، فافهم.

فصل

قال الله - جل قوله وتعالى علاؤه وجده - في هذا الخطاب: ﴿**وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [المؤمنون:٦٢] [كما قال في موضع آخر: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا**

(١) في النسخة (خ): «فوصفهم».
(٢) في النسخة (خ): «معرفته بهم».
(٣) في النسخة (خ): «النصف».
(٤) في النسخة (خ): «الأزل».
(٥) في النسخة (خ): «العصبة ومصادها».
(٦) من النسخة (غ).

الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف:٤٢][(١)] فهذه دلالة على أنه - تبارك وتعالى - لم يكلف المؤمنين تعذيب النفوس في مطلق العبودية إلا على معنى التأديب لها والقصاص منها لها، فإنه لا بأس بذلك.

قال الله ﷻ: **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾** [البقرة:١٧٩] لهذا الخطاب وجه إلى الأمر بالقصاص في المظالم بين العباد في الأنفس والدماء والجراح والأموال ونحو هذا، ووجه إلى المقاصاة من الأنفس، وهو [تصحيح][(٢)] التوبة بجعل مكان الضحك بكاء، ومكان الترف من العيش شظفًا وصيامًا وعطشًا، ومكان النوم سهرًا، ومكان السهر على المعاصي سهرًا على الطاعات، إلى غير ذلك من التأديب.

دلَّ على صحة هذا التأويل قوله: **﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [البقرة:١٧٩] وعلى الحقيقة فليست تسخو نفوس على القصاص منها لها إلا نفوس أولي الألباب والتقوى الوافرة، والخطاب راجع إلى الفريقين، وإن كان أظهر في الفريق المحمود.

- فأمَّا أهل الاستقامة فهم المقول فيهم: **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾** [الأحقاف:١٦].

- وأمَّا المكذبون فهم المقول فيهم: **﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف:١٤٧].

- وأمَّا أصحاب الإهمال والإصرار، والركون إلى أماني الغرور، فقد قال فيهم: **﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾** [الأعراف:١٧٢].

وعلى القول بالتحقيق فإن من سبقت له من الله - جل ذكره - الحسنى [له][(٣)] يغفر له ويتجاوز [عن سيئاته][(٤)] أصحاب الإشفاق

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «صحيح».
(٣) في النسخة (خ): «وقدر له أنه».
(٤) في النسخة (خ): «عنه وهم».

[والخشية][1] - والله أعلم - فهم الأوَّابون الذين يقول لهم - جل ذكره: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[2] أي: في الأولى يقدر عليهم الذنوب ويقدر عليهم بالتوبة [منها][3]، لا إله إلا الله العليم الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤] أرجع وجه الخطاب إلى الإخبار عن الفريق المذموم، الجؤار قد يكون وصفًا مذمومًا وهو الأظهر فيه، وهو الجهر بالاستغاثة، والصوت العالي دون تضرع، وإذا ورد ذكر الجؤار مقيدًا بوصف حمد كان جوازًا على سبيله، وهو الجهر بالتضرع.

والدعاء **الأول**: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

الثاني: قال رسول الله ﷺ وقد أشرف في طريق مكة على ثنية هرشا: «**كأني أنظر إلى يونس بن متى منحدرًا من هذه الثنية على ناقة حمراء، خطامها ليف، له جؤار إلى الله بالتلبية**»[4].

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥] متى تضرعوا حين معاينة الهلاك بالعذاب فلا ينفعهم توبة ولا تضرع، وإنما ينفعهم التوبة، ويتداركهم الله برحمته حين تبليغ الرسول إليهم ما [أنزل][5] به، فإن ردوه وكذبوه وأعرضوا عن تذكير ربهم إليهم فهو [العقاب][6]، ويوجب ذلك الإعراض عنهم والخذلان لهم، وكثيرًا ما لا يوفقون لتوبة؛ فيؤخذون بالبأساء والضراء، قال الله ﷻ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٥)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأحمد (٦٠٠)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥) وقال: حسن صحيح. والحميدي (٤٩)، وابن حبان (٦٤٩٩).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٦) وأحمد (١٨٥٤)، وابن ماجة (٢٨٩١) والحاكم (٤١٢٣) وابن خزيمة (٢٦٣٢)، والطبراني (١٢٥٨٧) والبيهقي (٣٨٤٣)، وأبو عوانة (٣٠٠٦) وأبو يعلى (٢٤٨٨).

(٥) في النسخة (خ): «أرسل».

(٦) في النسخة (خ): «العتاب».

ولربما [تداركوا][(١)] بالتوبة، ومُنَّ عليهم بالإنابة والأوبة، فضجوا وجأروا إلى الله وأعلنوا بالتضرع، فتاب عليهم عند ذلك، قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢] أي: كذبوا فأخذناهم بالبأساء والضراء ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣] إلى آخر القصة.

فمثال مسارعتهم للاستجابة عند مجيء الرسول إليهم مثال المسارع بالهداية والتوبة عند البلوغ، ومثال أخذهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا، وقد وقع عليهم استحقاق [العقاب][(٢)]، وأورثهم ذلك التثاقل عن الإجابة، مثال ما يكتسبه العبد من ضراوات الشهوات، وفتح أبواب الفتن عليه بعد عصمة النشأة وهداية الفطرة، وسهولة سلوك سبيل العفاف عليه، وكفاية مؤنة المجاهدة.

ومثال ظهور أعلام الهلاك ومعاينة العذاب المعبر عنه بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[(٣)] [المؤمنون:٧٧] مثال معاينة أعلام الآخرة وظهور [ملائكة][(٤)] الموت في سد باب التوبة.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣)﴾ [المؤمنون: ٦٦ - ٧٣].

---

(١) في النسخة (خ): «تدوركوا».

(٢) في النسخة (خ): «العتاب».

(٣) قرئ «فَتَّحنَا» بالتشديد. قال ابن عباس ومجاهد: يعني: القتل يوم بدر. وقيل: الموت. وقيل: قيام الساعة. وقيل: الجوع. تفسير اللباب لابن عادل (١٤/١٢).

(٤) في النسخة (خ): «مليكة».

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٦ - ٦٧] فعدد عليهم في حال معاينتهم الهلاك ما كانوا يأتونه من التخلف عن الاستجابة والنكوص القهقرى عن المسارعة إلى داعي الله ورسله استكبارًا منهم عن الحق والقبول له.

قوله: ﴿بِهِ﴾ يعني: القرآن والأمر المبلغ إليهم المتلو عليهم ﴿سَامِرًا﴾ أي: دائمًا ﴿تَهْجُرُونَ﴾ الهجر: قول الخنا، والنكوص: الرجوع القهقرى تركًا للإقدام، والسامر أيضًا: الجماعة يتحدثون ليلاً ونهارًا، والسمَر: ضياء القمر؛ سمي [بذلك][(١)] كذلك لاجتماعهم إليه يسمرون للحديث وهم السمر والسمار، وقد يكون الهجر قولاً لا تحصيل معه، ككلام المبرسم وصاحب الهذيان، وفائدة ذلك: أنهم كانوا يتكلمون في القرآن بكلام الخنا على الدوام منهم، وبما لا تحصيل معه، وقد قرئ هذا الحرف: «سامرًا تهجرون» من الهجران، وهو ظاهر في التلاوة، يقول: إنهم كانوا يعرضون عن القرآن والذكر ويبغضونه كراهية له.

قوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨] القول هنا هو مخاطبتهم بالقرآن، وما يقول لهم الرسل و[يبلغه][(٢)] إلى أممهم، وسيأتي تفسير ذلك مشارًا إليه بعد في أثناء ما يأتي من الخطاب، و[جملته][(٣)] قول الرسل إليهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:٢ - ٣] ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١].

هذا وما عبّر عنه كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨] وبهذا ونحو هذا جاءت الرسل إلى آبائهم من قبل، فكان يجب أن يتعرفوا حق ما جاءهم به رسولهم

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «تبلغه».

(٣) في النسخة (خ): «حملته».

[هذا ويتبينوا][1] النذارة، فقد كان من قبلهم جاءتهم رسلهم بذلك فكفروا، فأخذهم الله بذنوبهم، ولم يكن لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩] قد كانوا يسمونه فيما بينهم الصادق الأمين، ولم يكونوا قبل عرفوه بالتعلم من العلماء ولا بالاختلاف والرحلة إليهم، فكان بمثابة من أمسى ولا يعلم علمًا من العلوم، ثم أصبح وهو أعلم أهل الأرض.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون:٧٠].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١] كان من أهواءهم ما هو سوى التوحيد، وبالعدول عنه كانوا يدينون، وإياه كان مرادهم، وبإزالة التوحيد وتفريق الدين لا يتوهم بقاء شيء على ما هو عليه، كيف وهو الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يمسك السماوات والأرض وما بين ذلك، وكل شيء عنده بمقدار، لا والد له ولا ولد، ولا شريك له ولا ظهير.

خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وأسس علو ذلك وسفله على قواعد الإسلام، ورفع بناءهن على دعائمه، وأسلك مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلا في ذلك سلوك الأرواح في الأجسام، وأجراه فيه جريان الغذاء في المتغذيات، فهذا هو الحق [المبتغى][2] والسبيل القيم المرتضى، فلو اتبع هذا الحق أهواءهم لنازعه الكبرياء والعظمة، ولوصفه بما ليس به، ولو نازعه شين الكبرياء والعظمة لقصمه، ولو قصمه لم يمسكه، ولو لم يمسكه طرفة عين لدكدك العالم كله بأسره جملة واحدة.

أتبع ذلك قوله - جلَّ من قائل: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون:٧١] أي: أضرب عن هذا الحق وذكره أنا أتيناهم بما هو شرف لهم، وذكر لغابرهم وسالفهم

---

(١) في النسخة (خ): «ويتبنون».

(٢) في النسخة (خ): «المسغى».

ونمكنهم في الأرض ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونستخلفهم في الأرض، فننظر كيف يعملون هذا الخطاب المراد به قريش خاصة، ثم العرب عامة، ثم سائر الأميين من آمن وأصلح منهم، هو ذكر لهم و[شرف][1] في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون: ٧٤ - ٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون:٧٥] أرجع خطابه - وهو أعلم - إلى المعنيين بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤] غير أن هذا إخبار منه عن فعلهم لو كشف العذاب عنهم، وذلك إخبار عن حالهم لو قد رأوا العذاب كان يكون [هجيراهم][2] حينئذٍ الجؤار والإقرار بالذنوب، وبأنهم كانوا ظالمين، وذلك حين لا تنفعهم التوبة ولا تغني عنهم [التلاوة][3]، وإنما كان ينفع ذلك قبل المعاينة للعذاب أو الموت، وهذه الآية إخبار منه عن حالهم لو كشف عنهم العذاب، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[4] [المؤمنون:٧٦] يريد - وهو أعلم بما ينزل - أوائل العذاب ونذره

---

(١) في النسخة (خ): «تشريف».

(٢) في النسخة (خ): «هجراهم».

(٣) في النسخة (غ): «ابتلاؤهم».

(٤) إشارة: أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه =

وأسباب ذلك الذي عبر عنها قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢] ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف:١٣٠ - ١٣١].

أتبع ذلك ما هو إتمام المعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون:٧٧] هذه هي العزمة [والمعاينة][(١)] وقد تقدم ذكرها.

ثم أرجع الكلام إلى معنى صدر السورة من ذكر خلق الإنسان قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [المؤمنون:٧٨] يعدد نعمه عليهم، ويعرض بل يصرح بقلة شكرهم وعدم اهتدائهم.

واستمر على ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:٧٩] إلى قوله: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:٨٠] يقول ﷻ: من له اختلاف الليل والنهار وله ما سكن فيهما، وهو الذي خلقكم وأنعم عليكم وأنتم تعلمون أن ما بكم من نعمة فمن الله، وله محياكم ومماتكم، وإليه تحشرون فتجزون بما كنتم تعملون، يُشرك [به][(٢)] سواه أو يُعدل به غيره! لذلك قرعهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا

عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظائم غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاهوا ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد.

(١) في النسخة (غ): «ابتلاؤهم».

(٢) في النسخة (خ): «معه».

لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣)
قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
(٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ (٩٠) مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ
وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ (٩٥) ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ
أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا
تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ (١٠٣)﴾ [المؤمنون: ٨١ - ١٠٣].

أتبع ذلك بما معناه معنى ما تقدم في صدر السورة [من ذكر السورة][1] من ذكر الإعادة قوله: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون:٨١] إلى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٨٣].

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤]

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

صرف وجه الخطاب إلى معنى ذكر شركهم وكفرهم وما عبر عنه بقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٧١] المعنى: فاستاقهم بالحجة إلى ما يقرون به ضرورة ولا يقدرون على إنكاره، حكى ذلك عنهم بقوله: سيقولون [الله][١] ضرورة يجدونها من أنفسهم لو يرجعون، فأمر عند ذلك رسوله إن لم يفوهوا بها بأن يقول لهم: أفلا تذكرون أن من له الأرض ومن فيها ملك له عباد [له][٢] مدبرون بتدبيره، ليس [لها][٣] مالك سواه ولا خالق غيره، أوجدهم عن عدم، [أفيعجزه][٤] جمع ما فيها إذا شاء ذلك، أفلا تذكرتم بالنشأة الأولى النشأة الآخرة فقضيتم بصحتها أولاً على صحة وجودها آخرًا.

وعلى القول بالتحقيق فإنها نشأة أخرى، هذه الأولى آية عليها لكن ليست كهذه، بل تلك أشرف وأكبر وأفخم وأبقى [وأكبر][٥]، وعلى سنن النشأ المعهود في العالم و[آية][٦] النشأة الآخرة نشأت موجودات الأولى، وهي نشآت كثيرة؛ لأنها جارية على سنة وتراخٍ في التكوين، والنطفة منشأة عن الماء والتراب، والعلقة منشأة عن النطفة، والمضغة منشأة عن العلقة واللحم، [واللحم][٧] والعظام منشأة عن المضغة، وكونه منشأ عن ذلك خلقًا آخر نشأ رفيع القدر.

لذلك تبارك - جل ذكره - عند [ذكرها][٨] وهي خلق الروح والحركة وظهور الصفات مع ذلك بداء، ثم كونه وليدًا منشأ عن كونه جنينًا، ثم كونه مميزًا متكلمًا يفهم ما يخاطب به منشأ من كونه وليدًا، ثم كذلك نشأت إلى بلوغ الأشد الأقصى، ثم كونه مؤمنًا نشأ من كونه كافرًا، ثم كونه عالمًا نشأ عن كونه مؤمنًا فقط، ثم كونه

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) في النسخة (خ): «أفيعجز».
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٦) في النسخة (خ): «أنه».
(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٨) في النسخة (خ): «ذكره».

صديقًا [منشأ][١] عن كونه عالمًا، ثم كونه وليًا لله - جل ذكره - نشأ عن ذلك كله، ثم كونه نبيًا، ثم كونه رسولاً لمن شاء الله ذلك له هكذا، فهذه نشآت لهذا الصنف الإنساني كذلك لكل صنف وأمة من الموجودات لو لم تكن منها غير واحدة لكانت كفاية في جواز النشأة الآخرة.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤] وأقسم ﷻ بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩] وهي كلها أطوار ونشآت توجب الإيمان بالإعادة بعد البداية والنشأة الآخرة بعد النشأة الأولى؛ لذلك - وهو أعلم - أعقب بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق:٢٠] أي: بالجؤر إلينا، فافهم رجع الكلام.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦] ثم أخبر عنهم أنهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ قال له: ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١] رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ [يونس:٣٢] فاعبدوه واتقوه، ألا تخافون من يملك السماوات والأرض أن يمسك عنكم نفعه بملكه، ويمسك عنكم نعمه ورزقه من السماوات والأرض، وتسخيره إياها لكم رياحها ونجومها وشمسها وقمرها وأفلاكها ونباتها وحيوانها إلى غير ذلك من مخلوقاته، فيطبق عليكم السماء ويخسف بكم الأرض، ويأمر كل شيء سخره لكم، وأنعم عليكم به ونفعكم به أن يقلب ذلك إلى العذاب والهلاك ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١].

ثم عاد عليهم - عزَّ جلاله - [بالتقرير][٢] لهم لو كانوا يعقلون، لكنه كما حجب عنهم خطابه حجب عنهم الإيمان به، وإنما خاطبهم بواسطة رسوله وما وجه إليهم [من][٣] وجه خطاب ولا رآهم أهلاً لذلك، كذلك حجتهم عن فهم كلامه والفقه عن حكمته في صنعته - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - [قال][٤]: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] بياض في النسخة (غ).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

﴿تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٨٨].

فلما أقروا بأنه الله سبحانه وفي كلها [أقروا ضرورة][(١)] يجدونها من أنفسهم أجاب بقوله الحق: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[(٢)] [المؤمنون:٨٩] أي: كيف تقلبون عن هذه الحقائق إلى أباطيلكم؟!.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ يعني: الكتاب والنبوة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون:٩٠] في قولهم المعاند للحق وصفهم رب العزة بالأنداد والأولاد والصاحبة والمثل والشبيه، وما لا يجوز في تعاليه وهو مستحيل في صفاته العلا وأسمائه الحسنى، لو كان ما قالوه - تعالى الله عن ذلك - لوقع [التشاحن والتشاجر][(٣)] والتمانع، ولعلا بعضهم على بعض سبحانه وله الحمد.

قوله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩] قوله: ﴿رَبِّ﴾ دعائه الواحد الأحد - جل ذكره - وقوله: ﴿ارْجِعُونِ﴾ خطاب لملائكة الموت.

يقول الله ﷻ: ﴿كَلَّا﴾ [إنها][(٤)] ليس كما ظن [إرجاعًا إلى الدنيا][(٥)] ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: لا بد له من الندم على ما فرط منه، فيسأل الرجعة لأجل ذلك، فلا يسعف ولا يمكن من ذلك، ثم قال: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

سمى الدار الوسطى: برزخًا؛ إذ فيها من الدار الأولى ومن الدار الأخرى كالغبشين في كل واحد منهما بقية الليل ومقدمة النهار، وكبرزخ البحر وهو مرتكص

---

(١) في النسخة (خ): «أمر وضرورة».

(٢) مبالغة في التوبيخ بعد إقرارهم والتزامهم ما يقع عليهم به في الاحتجاج، و«أني» بمعنى: كيف قرر أنهم مسحورون وسألهم عن الهيئة التي سحروا بها؛ أي: كيف تخدعون عن توحيده وطاعته؟ والسحر هنا مستعار، وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور عبر عنهم بذلك. تفسير البحر المحيط (٢٧٣/٨).

(٣) في النسخة (غ): «التشاح والتشاحن».

(٤) في النسخة (خ): «أي».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

العذب والمالح منه، وكالخيف بين السهل والجبل فيه من حزن الجبل وسهولة السهل، وهي مدة لبثهم في التراب بعد الموت لما فيها من عذاب الدنيا، وما ينشأ إليه في تلك؛ لأنها أحق حقيقة في النعيم والعذاب من هذه، كما أن الدار الآخرة أحق حقيقة من هاتين دار الدنيا ودار البرزخ، والبرزخ مختلط الشيئين كبرزخ البحرين واختلاط النهار بالليل إلى غير ذلك من الموجودات.

ومعنى قوله - جل قوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون:١٠٠] لما كانت إلى الدنيا وجوههم وإلى الآخرة ظهورهم صلح ذكر الوراء في هذا الموضع، ألا ترى أنهم قد يحصل لهم العلم بما قد مضى، وأمَّا ما هو آتٍ فهم به جاهلون، والأمام مضاف إليه العلم، والوراء بالضد، ولهذا أكثر ما يأتي هذا الخطاب بذكر الوراء ولا أحسبه إلا لهذه العلة، والله أعلم.

فصل

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٩٣] المعنى يخاطب في ذلك رسوله ﷺ والذين اتبعوه واقتدوا به داخلون معه في هذا الأمر، وقد كان ذكر الكفار مشركيهم والذين ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ [الكهف:٤] تعالى الله عما يصفون ومنكري البعث، إلى غير ذلك من أصناف الكفرة والضالين، ورد عليهم بما تقدم ذكره في أثناء السورة من إثبات الوحدانية والنبوة وتحقيق النشأة الآخرة والإعادة بعد البداية.

ثم قررهم على كفرهم [بما][1] هو محصل في ذواتهم حقيقة خلافه الذي هو الحق، ثم تبرأ من جميع ما نسبوه إليه وسبَّح نفسه ﷻ عن ذلك وتعالى علوًّا كبيرًا عن افترائهم، ثم قال على أثر ذلك: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣] أي: من الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٤].

ثم أعقب ذلك قوله الحق: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ

(١) في النسخة (خ): «مما».

بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩٥ - ٩٦] التي هي أحسن الصبر، والسيئة هو ما ظهر من خوفهم وهجرهم، وقد يكون معنى ذلك اعبد ربك وادفع سيئاتك بحسنات تتبعها إياها، كما قال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤] ثم إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧-٩٩].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧ - ٩٨] همزات الشياطين: ما ينسبونه إلى رب العالمين من قبيح افترائهم، وعظيم ما يأتون به من إلقاء بذلك، ونفث في روع ونحو هذا، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**رب أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفخه**»(١) فهمزه: ما يلقيه إلى العبد مما يستعاذ بالله من شره، ونفثه: ذلك في الروع والصدر، ونفخه: هو كبره وما يزينه ويبعث عليه من ذلك.

ثم قال - جلَّ قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٨] يعني - والله أعلم بما ينزل: الشياطين والكفار من الإنس، وهم شياطين الإنس، وهم الذين يحضرون المحتضر قبيل الموت، وهي ذوات لأهل الكفر وللشياطين، وهم الذين يبعثون مع الدجال - لعنه الله - من هؤلاء وهؤلاء، يدعون الناس إلى الدجال، يبعثون على صور الآباء والأمهات.

قال الله - عزَّ من قائل - في فرعون وآله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١].

وقال رسول الله ﷺ: «**جعل أكلة الربا في سابلة آل فرعون في مسيرهم إلى النار غدوة وعشيًا فيثردونهم بأرجلهم ثردًا**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧/٧)، والبيهقي في الكبرى (٣٤/٢)، وعبد الرزاق (٢٥٧٢)، والحاكم (٨٢٣)، وابن حبان (٢٦٥٣)، وأحمد (٣٩٠٥)، والدارمي (١٢٨٦)، والدارقطني (١١٥٢).

(٢) قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٣٠/١): رواه البزار في مسنده مطولاً جدًّا.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ﴾ يعني: [من][1] في البرزخ ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران:١٣٠] يقول: لا تأكلوا الربا [فتربوا في][2] بطونكم في البرزخ على ذلك أضعافًا مضاعفة.

قال رسول الله ﷺ: «**ورأيت ناسًا بطونهم أمثال البيوت فيها الحيات ترى من ظاهر بطونهم، فقلت: من هؤلاء؟ قيل لي: هؤلاء أكلة الربا**»[3] والمراد بهذا كله: أنهم ذوو ذوات وأنفس يتعارفون بينهم، والإنسان مخلوق من مرح ملكي وشيطاني، كذلك جعل له قرين ملكي وقرين شيطاني، فمتى أطاع الملك نسب في البرزخ إلى [الملك وقرن به قرين من الملائكة][4].

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠] إلى قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] ومتى أطاع الشيطان نسب في البرزخ إلى الشيطان، فيبعثون مع الدجال من يبعث منهم شياطين في صور الإنس، ويبعث الحزب الصالح ملائكة على صور الإنس.

قال رسول الله ﷺ: «**يبعث مع الدجال ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء...**»[5] [لا ريث][6] وأمر الله - جلَّ ذكره - نبيه وعباده المؤمنين أن يتعوذوا به من همزات الشياطين في الدنيا ومن أن يحضروهم عند الموت.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «فتربق».

(٣) أخرجه أحمد (٨٦٢٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٤) وابن ماجة (٢٢٧٣) والبيهقي في الدلائل مطولاً (٢/٢٧٢)، وقال الهيثمي (١/٦٦): فيه أبو الصلت لا يعرف ولم يرو عنه غير علي بن زيد.

(٤) اضطراب في الأصل تم تصويبه.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٩٧٩)، والطبراني (٦٤٤٥)، وقال الهيثمي (٧/٣٤٠): رجاله ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر، وابن عساكر (٢/٢٢٩).

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] يقبض الرحمن - جلَّ ذكره - رحمة الرحمانية يومئذٍ ولم يصبهم بعد برحمة اسمه الرحيم، وتبقى الخليقة غير المؤمنين لا أنساب بينهم ولا رحم؛ لذلك ما تضع الحوامل ما حملن وتذهل المراضع عما أرضعن، ويفر المؤمن من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] يتصل لهؤلاء رحم النسب برحم التقوى برحمة الرحمن الرحيم.

وذلك أن رحمة الرحمانية يومئذٍ يقبضها الرحمن - عزَّ جلاله - إلى ما عنده فيرحم بها عباده المؤمنين، فتتأكد الخلة بينهم ويشفع بعضهم لبعض، وينفع بعضهم بعضًا ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢] يزن لهم وزن فضل، ويحاسبهم حساب يسر ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ يزن لهم وزن عدل ويسومهم سوء الحساب مناقشة ومداقة، ثم يعذبهم لا بد ولا محالة ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون:١٠٣].

قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب هلك»[١].

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤ - ١١٠].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[٢] [المؤمنون:١٠٤] الكلوح: تقلص الشفاة وانكماشها عن

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦) والترمذي (٢٤٢٦) والحاكم (٩٣٦) والبيهقي (٢٧٠) وابن راهويه (٩٠٩) وأحمد (٢٤٢٦١) وابن خزيمة (٨٤٩) وابن حبان (٧٣٧٢).

(٢) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ جملة حالية أو مستأنفة، واللفح: مس لهب النار الشيء، وهو كما قال الزجاج: أشد من النفح تأثيرًا، والمراد: تحرق وجوههم النار، وتخصيص الوجوه بذلك؛ =

مواضعها التي جعل فيها حسنها قبل.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ المَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤٢] لما لم يوجهوا وجوههم للذي فطرهم ولا أسلموها له لم يجعل لتلك الوجوه حرمة، ولا قضى لها بصيانة، يسحبون في النار على وجوههم، وتضرب الملائكة بالمقامع وجوههم وأدبارهم، ويمشون عليها وتشوه خلقهم، نعوذ بالله من عذاب الله ومن درك الشقاء، ومن شر ما سبقت به المقادير.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾ [المؤمنون: ١١١ - ١١٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون:١١٢] السؤال عن مقدار لبثهم يقتضي معنيين:

=

لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ متقلصو الشفاة عن الأسنان من أثر ذلك اللفح، وقد صح من رواية الترمذي وجماعة عن أبي سعيد الخدري ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال في الآية: «**تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته**».

وأخرج ابن مردويه والضياء في صفة النار عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ موازينه فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون * وَمَنْ خَفَّتْ موازينه فأُوْلَئِكَ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خالدون * تَلْفَحُ...﴾: «**تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم**» وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أن الكلوح: بسور الوجه وتقطيبه. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة «كالحون» بغير ألف، جمع: كلح، كحذر. تفسير الألوسي (١٣/٢٩١).

أحدهما: أن يكون عن طول حياتهم في الدنيا.

والآخر: أن يكون سؤالاً عن مقدار لبثهم في التراب حال الموت في البلاء.

أشار إلى الوجه الأول بقوله: ﴿**عَدَدَ سِنِينَ**﴾ [المؤمنون:١١٢].

وأشار إلى الوجه الثاني بقولهم: ﴿**لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ**﴾ [المؤمنون:١١٣] أجيبوا ﴿**إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ أي: في حياتكم الدنيا ﴿**لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [المؤمنون:١١٤] أي: ما خلقتم له فعملتم لهذا اليوم.

و[على][1] الوجه الآخر: ﴿**إِن لَّبِثْتُمْ**﴾ أي: في البلاء ﴿**إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ**﴾ أي: في الدنيا ﴿**تَعْلَمُونَ**﴾ [المؤمنون:١١٤] يسر إعادتكم علينا فتؤمنون به وتعملون للقائنا.

ومعنى قولهم: ﴿**لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ إن كان جوابهم عن بقائهم في الحياة الدنيا، فاليوم المعني قد يكون ألف شهر أو خمسمائة سنة أو ألف سنة وهذا ممكن، فإنه من مات في بعض النهار وأحيي ليلاً ظن أنه ما بقي في البلاء إلا من وقت من النهار إلى مثله من اليوم الذي [بعده، كما قال ذلك النبي ﷺ الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه: ﴿**قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ [البقرة:٢٥٩] لما توفي في وقت من النهار وأحيي في وقت مثله][2].

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون:١١٥] فكان هذا جوابًا عن كل الوجهين، العبث: كل فعل ليس بمحكم ولا [بحكمة][3]، والحكمة هنا: هو ما خلق عليه اختلاف الليل والنهار ومجاري الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأفلاك، وجميع [موجود حكمته في][4] إرجاعه أوائل الحكمة على أواخرها، وكذلك جميع ما سخره لعباده من نفعه لهم ودفعه عنهم وشهادة له ودلالة على ما أوجب الإيمان به، ما خلق الله شيئًا دقَّ أو

(١) في النسخة (خ): «عن».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «لحكمة».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

جلَّ إلا لحجة بالغة وحكمة ظاهرة أو باطنة ونعم [سابغات][١]، دلالات على ما هو آتٍ به من الحق الذي يظهره من حكم الآخرة، خبأه في هذه خبئًا وأبطنه فيها إبطانًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] البرهان: الوثيقة والشيء المستوثق به، وإنما يكون البرهان ظاهرًا لعباده المخلصين، يقول الله ﷻ: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإلا أتجرت له من وراء كل تاجر، ولئن دعاني لأستجيبن له، ولئن سألني لأعطينه**»[٢] فوقوف العبد بحقيقة من [يقين][٣] سره على ما فطر الله عليه المفطورات هو البرهان وهو الموثق.

﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء:١٧٤ - ١٧٥] هذا للبرهان، ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا هذا للإيمان يهديهم ربهم بإيمانهم.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١ - ١١٢].

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف، مع كل ألف سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف لا حساب عليهم**»[٤].

وقال ﷺ: «**من قال إذا أوى إلى فراشه: اللهم إني وجهت وجهي إليك،**

---

(١) في النسخة (خ): «سابغة».

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩).

(٣) في النسخة (خ): «نفس».

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٣٥٧)، والترمذي (٢٤٣٧) وقال: حسن غريب، والطبراني (٧٥٢٠) وابن حبان (٧٢٤٦) والدارقطني في الصفات (٥٠) وابن ماجة (٤٢٨٦) والمحاملي (٦٠).

وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك، رهبة منك ورغبة إليك، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، أنت إلهي لا إله إلا أنت، قال: فإن مات من ليلته مات على الفطرة»[1].

وتقدير نظم الآية - والله أعلم بما ينزل: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي: لا موثق له منه بولاية ولا أمان، ومن لا برهان له به ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ فمفهوم هذا أنه من كان له [به][2] برهان فلا حساب عليه، ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت:٢٣] ثم البرهان [يدق][3]، والموثق يخفى ويدق في أهل المحاسبة حتى يكون أرفعهم من ﴿يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٨ - ٩] وأدناهم: من يخرج من النار؛ لأنه قال: «لا إله إلا الله» بغير عمل عمله ولا قدم قدمه ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣].

فصل

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠ - ١١] نظم بهذا قوله - جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦٠] إلى قوله: ﴿سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١].

ثم ذكر في أثناء ذلك آياته في الخلقة والإعادة بعد البداية وآياته في السماء

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤)، ومسلم (٢٧١٠)، وأبو داود (٥٠٤٦)، والترمذي (٣٣٩٤) والنسائي في الكبرى (١٠٦١٨)، وأحمد (١٨٥٨٤)، وابن خزيمة (٢١٦)، وابن ماجة (٣٨٧٦).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «ترق».

والأرض والحيوان وجميع الموجودات، ثم آياته [في][(1)] الرسالة والنبوة والمرسلين والمرسل إليهم، وآياته فيمن كذب فهلك وفيمن آمن فنجى.

إلى قوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢] ثم تداخل الخطاب، و[انثنى][(2)] بعضه على بعض؛ لتداخل المعاني، و[انثناء][(3)] بعضها على بعض من محاجة وجدل وتبيان مراد وتعداد نعم.

إلى قوله - جلَّ قوله: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [المؤمنون:٨١ - ٨٢] ﴿وَآبَاؤُنَا﴾ [المؤمنون:٨٣] ثم ردَّ قولهم بما اضطرهم إلى الإقرار به وكسر حججهم بما يتناقضوا به في مذاهبهم وبين تكذيبهم أنفسهم بسوء معتقدهم، ثم تنزه العلي الأعلى عن قبيح افترائهم.

وبعد هذا أمر نبيه بالتعوذ من الشيطان الرجيم وهمزاته وشنيع ما يلقيه إلى قلوب أوليائه وعظيم كفرانه، وأمره مع ذلك بالتعوذ من أن يحضرونه عند الموت أو في دار البرزخ، وأعلم بخفي الخطاب أن دار البرزخ وما فيها من نعيم أو عذاب ومنعمين ومعذبين من أمر ممتزج من معنى الدارين، وأن آخر حد تلك الدار يوم البعث، وأن في ذلك اليوم يتحقق ظاهر هاتين وباطنهما، ويجتمع إلى ما في هنالك، وأعلم بالحساب وثقل الوزن وخفته، وذكر بأهل النار وأحوالهم.

ثم ذكر بعباده المخلصين الذين بدأ بهم في صدر السورة، وثنى ذكرهم في أثنائها على ذكر الضالين والمكذبين، ثم ختم بقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون:١١٧] إلى آخر [المعنى][(4)] السورة.

وقرأ ابن [محيصن][(5)]: «رب العرش الكريم» بالرفع وصفًا له ﷻ.

---

(١) في النسخة (خ): «على».

(٢) في النسخة (خ): «انبنى».

(٣) في النسخة (خ): «انبناء».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٥) في النسخة (خ): «محيص».

تفسير سورة النور[1]

[مدنية][2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) هذه السورة مدنية بلا خلاف، ولما ذكر تعالي مشركي قريش ولهم أعمال من دون ذلك أي أعمال سيئة هم لها عاملون، واستطرد بعد ذلك إلى أحوالهم، واتخاذهم الولد والشريك، وإلى مآلهم في النار كان من أعمالهم السيئة أنه كان لهم جوارٍ بغايا يستحسنون عليهن ويأكلون من كسبهم من الزنا، فأنزل الله أول هذه السورة تغليظًا في أمر الزنا وكان فيما ذكر وكأنه لا يصح ناس من المسلمين هموا بنكاحهن، وقرأ الجمهور (سورة) بالرفع فجوّزوا أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذه (سورة) أو مبتدأ محذوف الخبر، أي فيما أوحينا إليك أو فيما يتلى عليكم، وقال ابن عطية: ويجوز أن يكون مبتدأ أو الخبر (الزانية والزاني) وما بعد ذلك، والمعنى السورة المنزلة والمفروضة كذا وكذا إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدء وختم إلّا أن يكون المبتدأ ليس بالبين أنه الخبر إلّا أن يقدر الخبر في السورة كلها وهذا بعيد في القياس و(أنزلناها) في هذه الأعاريب في موضع الصفة، وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وعيسى بن عمر الثقفي البصري وعيسى بن عمر الهمداني الكوفي وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو وأمّ الدرداء (سورةً) بالنصب فخرج على إضمار فعل أي أتلو سورة و(أنزلناها) صفة، قال الزمخشري: أو على دونك (سورة) فنصب على الإغراء، ولا يجوز حذف أداة الإغراء وأجازوا أن يكون من باب الاشتغال أي أنزلنا (سورة أنزلناها) فأنزلناها مفسر لأنزلنا المضمرة فلا موضع له من الإعراب إلّا أنه فيه الابتداء بالنكرة من غير مسوغ إلّا إن اعتقد حذف وصف أي (سورة) معظمة أو موضحة (أنزلناها) فيجوز ذلك، وقال الفراء: (سورة) حال من الهاء والألف والحال من المكنى يجوز أن يتقدّم عليه، فيكون الضمير المنصوب في (أنزلناها) ليس عائدًا على (سورة) وكان المعنى أنزلنا الأحكام (وفرضناها) سورة أي في حال كونها سورة من سور القرآن، فليست هذه الأحكام ثابتة بالسنة فقط بل بالقرآن، والسنة، وقرأ الجمهور (وفرضناها) بتخفيف الراء أي فرضنا أحكامها وجعلناها واجبة متطوّعاً بها، وقيل: وفرضنا العمل بما فيها، وقرأ عبد الله وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة وأبو عمرو وابن كثير بتشديد الراء إما للمبالغة في الإيجاب، وإما لأن فيها فرائض شتى أو لكثرة المفروض عليهم، قيل: وكل أمر ونهي في هذه السورة فهو فرض. انظر: [تفسير البحر المحيط (٨/٢٨٢)].

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾ [النور: ١ - ٥].

قوله تعالى: ﴿سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور:١] يقول وهو [الله][1] أعلم: أوجبنا ما فيها عليكم، فعلى ظاهر هذا الخطاب جميع ما حوته من أمر ونهي، وخطاب على وجوهه واجب امتثاله، واختلف منها في قوله: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣] أواجب هو إعطاء المكاتب بعد قضاء كتابته أم لا؟ وهو خطاب مجمل كقوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام:١٤١] والأوجه أن يكون واجبًا إعطاؤه، وإنما أنزله إلى معنى الندب من شبهه بالمتعة للزوجات ممن لم يرَ المتعة على المطلق فرضًا، وعموم قوله في قوله: ﴿سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور:١] يتناول جميع ما جاء فيها في لحاق الفرض والوجوب دون استثناء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:١] هذه الآيات هي من لدن قوله الحق: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] إلى قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ [النور:٤٦] ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣] وهو من القرآن العظيم؛ ولذلك نبه عليه - وهو أعلم - وسيأتي ذكرها على نسقها إن شاء الله، والسورة كلها آيات مبينات، والقرآن كله كذلك، قد تقدم الكلام في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أو مُشْرِكَةً...﴾ [النور:٣].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: ٦ - ١٠].

قوله تعالى بعد آيات الملاعنة: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: بالستر والإمهال ﴿وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:١٠] يعرض بالتوبة، يقول - وهو أعلم: لعاجل الجاني بالعقوبة أو ما كان في معنى هذا الحكم في صنعه وحكمه بين عباده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١١ - ١٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[1] [النور:١١] المعنى:

---

(١) سبب نزول هذه الآية: ما روي عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن السيد عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصًا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضًا، قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه وأيهن خرج سهمها خرج بها النبي ﷺ معه قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش =

فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع؛ فرجعتُ فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكل العلقة، من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش؛ فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، قال عروة أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه، وقال عروة أيضًا: لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ قال: عبد الله بن أبي بن سلول، قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسانُ، قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، قالت: فانطلقتُ أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فاقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرًا؟ فقالت: أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال؟ قالت فقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط رضية عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت فقلت: سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت:

=

=

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا وما يدخل على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: وقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنهُ فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي فبينا أبواي جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنت عَلَيّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته فاض دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال، فقالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ثم تحولت

=

الإفك: الكذب، وأصله من التأفيك، أفكت الشيء: قلبته، ومن ذلك المؤتفكات مدائن قوم لوط عليه السلام [وهذا قلب][1] عن الحق إلى ما ليس به وهو الكذب.

ومنه قوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية:٧-٩] فهذا قلب الحق باطلاً، والجد والقول الفصل هزوًا، والعصبة: ما بين العشرة إلى الأربعين، ولا يقال لما دون العشرة: عصبة، وما كان أقل من عشرة فهم نفر.

وقال في الذين جاءوا بالإفك: إنهم ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١] ولم يخرجهم من جملة المؤمنين، وقال: عصبة، ولم يسمهم وهو المحيط بعلمهم، كذلك فعل

=

واضطجعت على فراشي وأنا أعلم والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة أما والله فقد برأك الله، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت: والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله، قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر الآيات، فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا، قالت عائشةُ وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك، قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط، قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله.... انظر [تفسير البغوي (١٨/٦)].

(١) في النسخة (خ): «وهو أقلب».

رسول الله ﷺ لما أكثروا في ذلك، ومضت لذلك مدة، فصعد المنبر وقال: «**من يعذرني من قوم آذوني في أهلي واتهموهم بما ليس فيهم...**»[١] ولم يسمِّ أحدًا حتى قام سعد بن معاذ فقال: أخبرنا بهم يا رسول الله، فإن كانوا من الأوس ضربنا أعناقهم، وإن كانوا من الخزرج أمرتنا فيهم بأمرك ففعلناه، وثار حينئذٍ بينهم خلاف، ولم يسمِّ أحدًا، وهذا هو الأدب والورع.

قوله تعالى: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾ [النور:١٢] صرف وجه الخطاب إلى المؤمنين الذين كانوا يصغون إلى خوض الخائضين في الإفك، يقول لهم: هلا إذ سمعتموه ظننتم بالمؤمنين خيرًا، فصرفتم عنهم قول السوء، وقلتم لأنفسكم ولمن تسمعونه منهم: ﴿**هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾ [النور:١٢] انعقد العقد في المؤمن أنه مؤمن حق، فلا يخرجه عن ذلك قول قائل وإن كثرت المقالات إلا بمعاينة أو إقرار منه، ثم إن تحصلت المعاينة فيتوجه حينئذٍ وجوب الستر عليه للمؤمن والنصيحة له فيما بينه وبينه.

ثم إن تحقق منه عصيان فوجب عليه حد من الحدود أقيم عليه، ومع هذا فلا يخرجه عن المعهود منه الذي هو الإيمان إلا الردة، ونهى المؤمنون عن التحسس والتجسس، فمتى اتفق أربعة رجال عدول عثروا على زانيين والفرج في الفرج، وعاين كل واحد منهم ذلك عيانًا، لا يشك في المشاهدة توجه عليهم أداء الشهادة عند السلطان إن حضر رافع يرفعها إليه سواهم، وإلا كانوا في موضع الحاجة إلى من يشهد لهم بتحقق ما رفعوه وذكروه عنهما، هكذا هي [حرمة المؤمن][٢] من حيث هو مؤمن، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿**لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ**﴾ [النور:١٣].

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ [النور:١٤]

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٢٧٧٠)، وأحمد (٢٦٣٧١)، وعبد الرزاق (٤١٥/٥)، والطبراني (٣٦١/١٦) بلفظ: «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه آذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، لقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**».

(٢) في النسخة (غ): «حرمته».

أعلمهم - جل ذكره - بسابقة ما سبق لهم في القدم من فضله ورحمته، لولا ذلك لأصابهم مثل ما أصاب به الذي تولى كبره [منهم][(١)]، قيل: هو عبد الله بن أبي بن سلول المنافق، وعطف بالواو [في قوله: ﴿وَلَوْلا﴾ في هذه الآية، وفي التي نزلت في المتلاعنين، المراد بالواو][(٢)] العاطفة فيهما: عطف الحكم منه فيهم على الحكم الذي جعله بين العباد بعضهم مع بعض.

يقول - جلَّ قوله وتعالى جده - يخاطب المؤمنين: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾[(٣)] «إذ» هنا متنظمة بإصابته إياهم بعذابه لولا رحمته بهم وفضله عليهم، ثم قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥] أعلم - جلَّ ذكره - أن أحدًا لا يأخذ في عرض أخيه إلا عن جهل بقدر ما أتاه من ذلك، والمؤمن حرمة من حرمات الله تعالى فذلك عنده عظيم.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٣) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ الظرف منصوب بـ«مسكم» أو بـ«أفضتم». قرأ الجمهور: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ» من التلقي، والأصل: تتلقونه، فحذف إحدى التاءين. قال مقاتل ومجاهد: المعنى: يرويه بعضكم عن بعض. قال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول: «بلغني كذا وكذا» ويتلقونه تلقيًا. قال الزجاج: معناه: يلقيه بعضكم إلى بعض. وقرأ محمد ابن السميفع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف، من الإلقاء، ومعنى هذه القراءة واضح. وقرأ أبيّ وابن مسعود «تتلقونه» من التلقي، وهي كقراءة الجمهور. وقرأ ابن عباس وعائشة وعيسى بن عمر ويحيى بن يعمر وزيد بن عليّ بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف، وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب، ولق يلق ولقًا: إذا كذب. قال ابن سيده: جاءوا بالمعتدي شاهدًا على غير المعتدي. قال ابن عطية: وعندي أنه أراد يلقون فيه، فحذف حرف الجرّ، فاتصل الضمير. [فتح القدير (١٩٥/٥)].

رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور:١٦ - ٢٠].

يقول ﷻ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ هلا تورعتم عن التورط في مثل هذه العظيمة؛ إذ جهلتم مقدارها، قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] سبحانه وله الحمد في السماوات والأرض، كما قال في شأنه العلي الكبير: ﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٥٩] مولى القوم منهم، ولما كان المؤمن عبدًا لله - جل ذكره - وهو العزيز الجبار الرفيع الدرجات، كان الله المولى الأعلى وعبده المولى الأسفل، حمى عرضه هذه الحماية.

قال الله - جل ذكره: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨] أي: بمعنى الموالاة والعبودية.

ويقول ﷻ: «ابن آدم، مرضت فلم تزرني، وجعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني» إلى قوله: «أما إنك لو فعلت ذلك لعبدي فعلته بي»(١).

ويقول - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب على قلبه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...»(٢).

ومن هذا قول رسول الله ﷺ: «مولى القوم منهم»(٣).

وقال لجعفر: «أنت مني وأنا منك»(٤) وقال مثلها لعلي.

وقال [لجعفر: «أنت مني وأنا منك»(٥) وقال مثلها لعلي](٦) وقال لأسامة: «أنت

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩)، وأحمد (٩٤٨٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٨٠) وأبو داود (١٦٥٠) والنسائي (٢٦١٢) والبيهقي (٢٦٨٧) والطيالسي (٩٧٢) وأحمد (٢٧٢٢٦) وابن خزيمة (٢٣٤٤) وابن حبان (٣٢٩٣) والطبراني (١٢٠٥٩) والحاكم (١٤٦٨) والقضاعي (٩٨٨)، والروياني (٧٣١)، وابن عساكر (٢٨٤/٤).

(٤) أخرجه البُخَارِي (١٨٤٤)، وأحمد (١٨٨٣٨)، والدارِمِي (٢٥٠٧)، والتِّرمِذِيّ (١٩٠٤)، والنَّسائي في الكبرى (٨٤٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، والترمذي (٤٠٨١)، وأحمد (٩٤٣)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٠١)، والبيهقي (٢٠٨١٦).

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

سيدنا ومولانا»[١] [أي: سيدنا][٢] يعني - والله أعلم: المؤمنين هو من ساداتهم ومولانا؛ يعني: النبي وبيته.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿**يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [النور:١٧] موضع الموعظة هنا هو إعلامه إياهم بقرب المؤمن منه ومنزلته عنده، فمن كان مؤمنًا فلا يُصغي لمثلها بعد هذا ولا يشايع في ذلك، فإنه قد جاء في الثابت عن رسول الله ﷺ أنه قال مُبلِّغًا عن ربه ﷻ: «**من آذى لي مؤمنًا فليأذن مني بالمحاربة**»[٣].

وفي مفهوم قوله: ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [النور:١٧] عزله عن منزلة المؤمن [المطلق][٤] كما قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب...**»[٥] أي: ليس بالمؤمن المطلق عليه اسم [المؤمن][٦] الذي يحميه الله هذه الحماية، فإنه قد جاء عن أبي ذر - رحمه الله - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**جاءني جبريل فأخبرني وقال: بشّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، وإن زنا وإن سرق، قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق**»[٧] فهذا مؤمن [مقيد][٨] اسم الإيمان عليه، معرض للحدود والوقوف [للمحاقة][٩] إلا أن يعفو الكريم بفضله.

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) أخرجه بنحوه الطبراني (٣٢١)، وابن ماجة (٣٩٨٩) والحاكم (٧٩٣٣) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (٦٨١٢).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧)، والنسائي (٤٨٧٠)، وابن ماجة (٣٩٣٦)، وعبد الرزاق (١٣٦٨٤)، والطيالسي (٨٢٣)، وأحمد (١٩١٢٥)، وعبد بن حميد (٥٢٥)، والحكيم (٢٦٩/١)، والبيهقي (٥٤٩٧) بنحوه.

(٦) في النسخة (خ): «الإيمان».

(٧) أخرجه البخاري (٦٤٤٣) وأحمد (٢١٤٧١) ومسلم (٩٤) والترمذي (٢٦٤٤) والنسائي في الكبرى (١٠٩٥٥) وابن حبان (١٧٠) والبزار (٣٩٨١) وابن منده في الإيمان (٨٢).

(٨) في النسخة (خ): «معيد».

(٩) في النسخة (خ): «للمخافة».

أتبع ذلك قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:١٨] الآيات المشار إليها هن ما تقدم ذكره، وما كان من معنى ذلك، والله عليم بما ينزل، حكيم فيما يحكم به ويصنعه.

أتبع ذلك ما هو في معناه ومتمم له قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النور:١٩] أي: لأنهم آمنوا كما قال: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِالله العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [البروج:٨].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور:١٩] هذا منتظم بقوله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١].

ثم صرف وجه الخطاب إلى المؤمنين بقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩] يعلم بقرب المؤمن من ربه ومنزلته لديه وكرامته عليه، وكيف وبم ولِمَ وأنتم لا تعلمون؟ كيف يعلم من قصر فهمه عن مراد ربه في عبده، فقصر في [ائتماره](١) وأداه واتخذه سخريًا وهزوًا ومن طغى وعلا فيه، فعاد بذلك خصيمًا مبينًا يعتقده ويدعو إليه؛ [لكن](٢) ظنه في المعني بذلك ورأي رآه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النور:٢٠] هذا منتظم المعنى بمعنى [مخاطبه](٣) المقذوف بالإفك، قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور:١١] يقول لهم، وهو أعلم بما ينزل: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم في تحبيبه الإيمان إليكم، وتزيينه في قلوبكم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إلى نفوسكم، لكان غير ما ترونه من التوفيق والعصمة ﴿وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٠] كما قال: ﴿وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٩] ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «لظن».

(٣) في النسخة (خ): «مخاطبته».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النور: ٢١ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور:٢١] المعنى: كان الكلام فيما مضى عن أهل العلية من المؤمنين وفي أهل الإذاية لهم، فكانت الحماية والمحافظة على ما تقدم إلماع إليه.

وهنا خطابه المراد الأول به: عموم المؤمنين.

والمراد الثاني: التعريض لأهل العلية الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢] أعلمهم ﷻ بأنه من يتبع خطوات الشيطان فإن الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١] ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

ثم قال: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ الزكاء: عبارة عن دخول العبد في السلم كافة، وترك المناهي قطعًا إلا ما شاء الله، وتعقيب ذلك بالتوبة النصوح، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١] سميع للدعاء والتضرع إليه، [عليم بما يعملون][1] بحيث يجعل ولايته أعلم بهذا أن الدعاء إليه وطلب العصمة طريق إلى [منال][2] الولاية الكبرى.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ﴾[3] أي: عن طلب

(١) في النسخة (خ): «بما علمتم عليم».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) يجوز أن يكون المراد بـ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ﴾ عبد الله بن أبي بن سلول وحده، فعبر عنه بلفظ الجمع؛ لقصد إخفاء اسمه تعريضًا به، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ
=

مغائب الناس ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ هن اللاتي أمنت بوائقهن ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور:٢٣] أرجع الخطاب إلى معنى آية القذف، والذي كان اللعان من أجله، والإفك [أرى][1] هذا الوعيد متوجه على الذين جاءوا بالإفك وتولوا كبره.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾ [النور: ٢٤ - ٢٧].

دلَّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾[2] [النور:٢٥]

=

قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣] وقول النبي ﷺ: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله». التحرير والتنوير (٤٦١/٩).

(١) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٢) قال المصنف: فصل في الشهادة بقوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ أجمعت الخليقة قاطبة على أن الله هو الحق إجماعًا تامًا، وأصفقت الجملة على ذلك إصفاقًا كاملاً، والكل له من أجل ذلك قانت ومسبح وحامد وساجد، فإنه لما خلق الخلق يوم خلقه عرَّفه نفسه فعرف ربوبيته معرفة لا ينبغي له أن ينكرها بعدها أبدًا، وذل له الخلق يومئذ ذلاً لا ينبغي له أن يعتز بعده أبدًا، ودخله من الخشية يومئذ ما لا ينبغي له أن يخرج منه بعد ذلك أبدًا، وأقر له بالمملكة يومئذ إقرارًا لا ينبغي له أن ينكره ولا يستنكف عن عبادته بعدها أبدًا، ثم صارت تلك المعرفة وراثة فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة، ثم تفرقت الطرق بالمكلفين في سبل الأمر والنهي بواسطة الإرادة لعلة الابتداء لتحق كلمته ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وإنما خرق ذلك الإجماع عقل قاصر، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ولفظه الحق يعبر بها عن معنى هو جماع كل شيء، وعلى هذا

=

الحق المبين هو الله لا إله إلا هو، المتجلي لهم في الدار الآخرة، وسمي بالمبين؛ لأنه بيَّن بظهوره هنا هذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، الذي هو صراط الإسلام والإيمان [فيما هنا][1] ينشأ إلى رؤية الحق السلام المؤمن المهيمن العلي الكبير، [فافهم واعبر][2] تصب البغية إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور:٢٦] يمكن أن يكون معنى هذا الخبيثات من المقالات للخبيثين من الرجال فيكون هذا تعريضًا بالذي تولى كبر الإفك، ويمكن أن يكون المراد بذلك الأعمال أيضًا فيكون معنى الكلام: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤].

والقول الخبيث والعمل [الفشل][3] لا يعلق بالمؤمن الطاهر ولا بالمؤمنة الطاهرة، فيكون المراد الأول بهذا عائشة وصفوان بن المعطل - رضي الله عنهما - ثم الأزكياء من المؤمنين والمؤمنات، ويمكن أن يكون المراد عائشة ورسول الله ﷺ

=

تكون الشهادة بذلك، أما الشهادات وقد تقع العبارة بها أيضًا على أنه موجود، وإياه نعني بكلامنا هذا فآية وجوده ﷻ وجود الفعل، فما من موجود دق أو جل ظهر أو بطن إلا هو آية على وجوده تحقيق حق وإثبات ثبت ولزوم قطع من حيث لزوم الفعل عن الفاعل، والضرب عن الضارب لم تجد العقول قط فعلاً لا عن فاعل، ولا صنعة لا من صانع ثم شهدت الخليقة له بعد تمهيد هذه الشهادة شهادة كاملة بالحق الذي أودعها واستخلفه فيها، فهذا المعنى بالحق محيط بالموجود وفيه وهو الذي يكلم العقول من الموجودات، ويشير إليها ويدل على جاعله فيها بما فيها من آثاره ووجوده، فتلقن عنه الألباب وتصدقه العقول؛ لأنها منه وهو لها أول وبينه وبينها رحم وأشجة وقرابة قريبة، وهو بمنزلة النطفة في أوليته أو كالبذرة في بدو العالم وجبلته وفطرته، فلا تزال تنشأ بإنشاء المنشئ الحق جاعله - جل ذكره - حتى تظهر في أعلام العالم ورءوسه، فيعرب عن نفسه، وعن هذا المعنى العبارة بقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٢] وكثير نظائر هذا في القرآن العزيز. [شرح الأسماء ٢/٢١].

(١) في النسخة (خ): «فيها ها هنا».

(٢) في النسخة (غ): «واعتمد فاعبر».

(٣) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

ثم أهل الزكاء والطهارة من المؤمنين والمؤمنات، ويكون هذا في المعنى كقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَو مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَو مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣] على معنى أنه ليس كفؤ الزاني إلا زانية مثله أو مشركة ولا كفؤ الزانية إلا زانٍ مثلها أو مشرك.

ويتصل معنى هذا بمعنى قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[١] دلَّ على هذا التأويل قوله: «لا تنكح» و«لا ينكحها» بالرفع ولم يجزم، فظاهر هذا الإعلام والإخبار، وقد جاء ذكر التحريم بعد هذا في قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣] أي: الزنا ونكاح الزانية والمشركة [جميع][٢] معاني ما تقدم في قوله: ﴿أُوْلَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٦].

فصل

كان من كريم لطفه - جلَّ ذكره - أن قدر بأن يكون الإفك في موضع زكاء وطهارة وكان إفكًا، فوسع العقاب والتوبيخ لمن أصغى إليه، والوعيد والتهديد للذين من إرادتهم إشاعة الفاحشة وتنقص المؤمنين، ووسع مع هذا صدق قول الله ﷻ: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣] فهؤلاء كاذبون لو جاءوا بالشهداء لكانوا شهداء زور؛ لزكاء المقول فيه وبراءته من قبيح مقالهم، وبالغ مع ذلك في الموعظة والنهي عن العود إلى مثلها والإيذاء في ذلك والإعادة، واندرج حماية سائر المؤمنين والمسلمين في ظل ذلك، كما قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٠] ثم لا بد أن يكون فيمن دخل في عام الإيمان وشمله ظل دين الإسلام من نزول عن كمال الطهارة والزكاء إلى خيانة وسرقة وغير ذلك، والله يحب المتطهرين ويحب المحسنين.

فأنزل على أثر ما تقدم ذكره في نحو ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧] وفي قراءة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في النسخة (خ): «جمع».

أبي: «**حتى تسلموا وتستأذنوا**» وكذلك كان يقرؤها ابن عباس: «**حتى تستأذنوا وتسلموا**».

والاستئناس في اللغة: الاستئذان، والاستئناس قد يكون بكلام وبتنحنح، والاستئناس أيضًا قد يكون بأن يقول لمن رآه يدخل على القوم: «استأذن عليهم» ونحو هذا، يقال من ذلك: أنست وأنست، بمعنى: رأيت وأحسست، قال الله تعالى: ﴿**آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا**﴾ [القصص:٢٩] بمعنى: رأيت وآنست من فلان كذا؛ أي: أحسست، فقوله: ﴿**حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا**﴾ أي: حتى تروا من تأنسوا به من داخل عليهم، فإن أصل هذه الكلمة من الأُنس.

قال رسول الله ﷺ: «**للداخل دهشة فابدءوه بالسلام**»[(١)] وفي قوله بعد هذا ما يؤيد ما ذهبنا إليه.

﴿**فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)**﴾ [النور:٢٨ - ٢٩].

قوله: ﴿**فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا**﴾ يريد - والله أعلم بما ينزل: إن لم تجدوا فيها أحدًا يستأذن لكم فلا تدخلوها ﴿**حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ**﴾ أي: طلبكم هذا وامتثالكم ما تؤمرون به من هذا، هو أزكى لكم، ثم أكد الأمر بقوله: ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [النور: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ**﴾ يعرض بالنهي عن الدخول مواطن الخيانة والتشبه بمخائل السرقة؛ لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿**وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾ [النور:٢٩] و[يتوجه][(٢)] أيضًا زائدًا على هذا أن يكون المراد بالبيوت الغير مسكونة فيها المتاع: بيوت الخيانات، وهي المخازن، تسميها أهل العراق: الخانات، وتسميها أهل الشام: الفنادق، وهي بيوت

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٢١٨٧٦).

(٢) في النسخة (خ): «شرحه».

غير بيوت المختزنين، أباح لهم دخولها إلى متاع لهم فيها ﴿والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ في ذلك كله ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ تعريض بوعيد وتهديد.

ثم أرجع الخطاب إلى التوصية بتعاطي العفاف وسدّ مسالك النفوس إلى معازلة الشهوات، فأمر بغض البصر أمرًا سواء للذكور والإناث؛ لأنه هو أجلب للزكاء، وأحرى لبقاء [ضراوة](١) العفاف، و[حذر المؤمنات](٢) من تليين [الخطاب](٣) ومن يبدين زينتهن له.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

والمراد بذكر الزينة هنا، وهو أعلم: الوجه والكفان، واستماع الكلام وتصريف بعض الحركات، وإلقاء بعض الثياب، وترك بعض مؤنة التحفظ، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبَائِهِنَّ أو آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أو نِسَائِهِنَّ﴾(٤) [النور:٣١] يريد - وهو

(١) في النسخة (خ): «صراوة».
(٢) في النسخة (خ): «وحد للمؤمنات».
(٣) في النسخة (خ): «الحجاب».
(٤) ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ واستثنى ما ظهر من الزينة، والزينة: ما تتزين به المرأة من حلّي أو كحل أو خضاب، فما كان ظاهرًا منها كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب فلا بأس بإبدائه للأجانب، وما خفي منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط =

أعلم - نساء المسلمات اللاتي بعضهن من بعض، وفي هذا من الفقه ألا يبدين زينتهن لنساء أهل الكتاب ولا للمشركات، فإنهن لسن من نسائهن إلا أن يكن إماء لهن، وقد كان السلف ﷺ يمنعون الكتابيات من دخول الحمام مع النساء المسلمات.

ويمكن أن يكون المراد بذكر الزينة: [موضع الزينة][(١)] كالوجه والمعاصم والساقين والشعر والعنق، فهذه مواضع الزينة والحلي ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] يريد: الخلاخل والدمالج.

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١] يقول - وهو أعلم: توبوا التوبة كلها من كل ما [يجب إليه][(٢)] التوبة منه كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:٢٠٨].

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ

= فلا تبديه إلا لمن استثنى. وذكر الزينة دون مواضعها مبالغة في الأمر بالتصون والتستر؛ لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الحسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي: الساق والعضد والعنق والرأس والصدر والآذان، فنهى عن إبداء الزينة نفسها؛ ليعلم أن النظر لا يحل إليها لملابستها تلك المواقع بدليل النظر إليها غير ملابسة لها، وسومح في الزينة الظاهرة؛ لأن سترها فيه حرج، فإن المرأة لا تجد بدًّا من مزاولة الأشياء بيدها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصًا في الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها خاصة الفقيرات منهنّ، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني: إلّا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره، والأصل فيه الظهور، وسومح في الزينة الخفيفة. تفسير البحر المحيط (٨/٣٠٤).

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «تجب».

وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٢ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢] إرشادًا منه إلى قطع الفاحشة من الأتباع والغاشية [وغيرهم][(١)] ينكحون ليغنوهم بذلك عن مقارفة الزنا، ثم وعدهم بالغنى إن خافوا الفقر، إن لم يجدوا طولاً للحرائر فلينكحوا الأيامى حتى يغنيهم الله من فضله.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:٣٣] الخير المعني هنا: هو الديانة والإسلام والقوة على ابتغاء الرزق في مظانه؛ لئلا يكون عالة على المسلمين، واختلف العلماء في وجوب الكتابة وفي إيتاء المكاتب من المال ما يبلغه إلى أن يتعلق بسبب يسترزق الله منه وفي إيجاب إنكاح الإماء والعبيد والأتباع [اختلافًا كثيرًا][(٢)] والصواب أن ذلك فرض على السادة والأولياء والمتبوعين إنكاحهم [كل][(٣)] على قدر طوله واستطاعته، ومن لم يستطع طولاً لمن هو له كفؤ نزل إلى ما هو دونه في النكاح.

قال الله ﷻ: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [النساء:٢٥] يعني: المؤمنين، قطعًا لفعل الحرام، وسدًا لمسالك الفواحش، ونزوعًا إلى العفة، وعلى إيجاب ذلك استفتح السورة في قوله: ﴿سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور:١].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور:٣٣] هذا خطاب خرج مخرج تعديد قبيح

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الأفعال وسفال السير، وكانت الجاهلية تفعل ذلك، فاستاق ذكر ذلك تعييبًا وتمقيتًا؛ لذلك قال: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهن ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: بهن [النور:٣٣] [كما قال رسول الله ﷺ: «**وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(١) فالإثم على من أكرههن بغاءً](٢).

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ [النور:٣٤] هذه الآيات اللاتي ذكرهن في أول السورة، فعطف هنا بالواو على ذكر ما أنزله من أول السورة إلى هذا الموضع من آيات بينهن، وفرضهن على عباده، واسم آيات عام في الكتاب الذي هو القرآن، لكنه لما ذكر الآيات بالعموم نبه على تفصيل ما أراده.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤] أعلمنا ﷻ أنه قد مثل لمن قبلنا في التعريف به كما مثل لنا بمثل ما مثله لهم أو بما يقاربه ذلك؛ ليبسر مأتي الذكرى للمتذكرين، ونصَّ على أن هذا المثل هو من تلك الأمثال كما قال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] فمتى مرَّ عليك في تلاوتك مثل من الأمثال فتوقف وتدبر واستعن بالله، وسله التشديد لإصابة الصواب، ففي الأمثال العلم وعلي المعرفة، فافهم.

وفيهن معالي المعاني التي لم تعهد النفوس لها مثالات، ولا سبقت إليها لها أشباه، فليمثل لها من المشهودات مثالات، ومن المعهود في الموجودات ما يكون فيه وصف من أوصاف المطلوب، والعقل يقضي بالتنزيه للرفيع، والإيمان يوجب المثل الأعلى للعلي، ولولا الفعل لم يعلم الفاعل، ولولا الأسامي لجهل الاسم والمسمى؛ لذلك قال وقوله الحق: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] ثم قال: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

ورؤية المتقين أعرف في سبيل العبرة من رؤية سائر المؤمنين لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤] وذلك أن لروح التقي روحًا تحيى به

(١) أخرجه ابن ماجة (٢٠٤٥)، والبيهقي (١٤٨٧١).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

حياة إلى حياة الإيمان، فلثاقب أنوار بصائرهم وصفاء موجود بواطنهم أضاء لهم وجود الموجودات؛ ذلك لاتصال نور الحق الموجود به الموجودات بأنوار بواطنهم، مع اتصال اشتعال نيران أفكارهم المستمدة بوقود مصابيح إيمانهم، الموجود عن خالص زيت الشجرة المباركة، شجرة الحق المفطور عليها خلقهم المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، القائمة بين العدل والفضل، الثابت أصلها بحيث لا حيث ليست بشرقية ولا غربية.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٥ - ٣٧].

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ [النور:٣٥] في صفاء زجاجات قلوبهم، لخطير ذكاء ثاقب [أذهانهم](١) دون نيران الأفكار أن يمسه [إيقادًا](٢) لمصابيح الإيمان في بيوت صدورهم، واستسراجًا لشموس الإيقان المشرقة في ذوات قلوبهم وظاهر جوارحهم.

قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] المعنى إلى آخره، وقرأها عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: «الله نور السماوات والأرض»(٣) أي: هو الذي نورهن بما جعل فيهن من الآيات البينات، ونصب عليهن من الدلائل الموضحات، وقيل: إن معنى اسمه النور في قوله: ﴿الله

---

(١) في النسخة (خ): «إذعانهم».

(٢) في النسخة (خ):.«اتقادًا».

(٣) قرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبدالرحمن السلمي الله « نَوَرَ » بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء على أنه فعل. [المحرر الوجيز (٧٦/٥)].

نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: هادي أهل السماوات والأرض(١).

ومعلوم أن الهدى من أفاعيل النور، ولو كان معنى اسمه النور هو بمعنى اسمه الهادي لكانا جميعًا اسمًا واحدًا، واجتلابهما معًا باسمين متغايرين من جهة التسمية دليل قائم على أن المفهوم من اسمه النور هو المفهوم من اسمه الهادي، وإن اتفقا في الانبساط على موجودات تقتضيه كل واحد من الاسمين، فلا بد أن يفترقا في سبيل العلم [بهما](٢) وتفهيم المفهوم عنهما وبهما.

فعلى قراءة من قرأ: «**الله نوَّر السماوات والأرض**» على وزن فعَّل(٣) فمعناه: [أنه](٤) نورها بالشمس والقمر والأنوار والنيرات، وبالهدايات والدلائل البينات وبشهادات الشواهد له وتوحيدها وتكبيرها وتحميدها وتمجيدها وقنوتها وعباداتها، وتسبيح المسبحات، وإنباء الكتب والأنبياء والنبوات والرسل والرسالات، والمصنوعات كلها وجميع الموجودات، وهو منور القلوب بالأنوار الباطنة، ومنور الجوارح بأعمال الطاعات، ومنور الصدور بالعلوم والفهوم والتدبر والتفكر والعقول، ومنور الأخلاق بالمعالي منها والمحاسن، وهو حب ما أحبه الله وكراهة ما كرهه.

---

(١) قال المصنف: معنى النور الإشراق والإبصار ظاهرًا والهداية به إلى المقصود باطنًا، وأصل مفهوم لفظه النور من جهة اللغة والله أعلم: النفور عن السوء والبعد عنه، من ذلك قولهم: نارت المرأة تنور نورًا إذا نفرت عن الفاحشة، وامرأة نوار من نساء نور إذا نافرت السوء وبعدت عنه، وناورت المرأة باعدت ذلك ونافرته، ونُرتها أنا إذا نفرتها، فقولهم: إذا نار النور، وأنار معناه نفر الظلام والضلال عمّا أناره وأبعده عنه، فقولهم: إذا نار النور وأنار معناه نفر الظلام عما أناره وأبعده عنك، ومن ذلك سميت النار لإضاءتها ما حولها عند إيقادها فتطرد الظلام عمّا هنالك، منه سميت النورة لإماطتها الأذى من الشعر وغيره وإبعادها إياه، ومن ذلك قولهم: نرت الدابة إذا وسمتها فجعلت عليها بذلك علمًا تعرف به؛ لأن ذلك يباعد الجهل بها فمفهوم النور من جهة المعنى أنه المنزه عن الأدناس المبتعد عن الآفات، كما أن ظاهره منفر لإجراء الظلام كلها على اختلاف أنواعها.

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) قرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبدالرحمن السلمي الله «نَوَّرَ» بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء على أنه فعل. [المحرر الوجيز (٧٦/٥)].

(٤) في النسخة (غ): «أي».

عبرة

فعلى ما تقدم فهو الذي سمى نفسه بالنور؛ لأن منه النور على التقريب [لأفهامنا][1] للمعهود من تسمية الشيء باسم الشيء يكون منه، وكتسميتهم المقبل بالإقبال والمدبر بالإدبار، واحتجوا على ذلك بقول الشاعر:

تَـرتَعُ مـا رَتَعَـت حَتّـى إِذا اِدَّكَـرَت فَإِنَّمـا هِـيَ إِقـبالٌ وَإِدبـارُ[2]

وهذا طريق من النظر ليس بالتحقيق في تعرف أسمائه - جل وعلا - والله أعلم بحقيقة معاني أسمائه[3].

وقد سئل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «**رأيت نورًا**»[4].

وفي أخرى: «**نورٌ أني أراه، رأيت نورًا**»[5].

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ [الزمر:٦٩] وقد أوجد النيرات آيات له ودلالات عليه، وقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ [فصلت:٣٧] وقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وهما نيّران منيران، وعلى قراءة من قرأ: «**الله نور السماوات والأرض**» [فهو إخبار منه - جلَّ ذكره - أنه نور السماوات والأرض][6].

---

(١) في النسخة (خ): «لأنها منار».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ) وفي (خ) امتلأت.

(٣) قال المصنف: وهذا وجه صحيح يعضده الوجود، هو النور لأن منه النور، وعلى هذا فهو بمعنى اسم البارئ والمبين والمرشد؛ لأنه يهدي بالنور الظاهر الأبصار إلى المبصرات الظاهرة، ويهدي بالنور الباطن البصائر الباطنة إلى المعارف الباطنة، فهو إذن منور السماوات والأرض، وهو النور الذي أنار كل شيء ظاهرًا وباطنًا، قال الله ﷻ: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣] (شرح الأسماء ٢٠١/١).

(٤) أخرجه مسلم (٤٦٢)، وابن حبان (٥٨).

(٥) أخرجه مسلم (١٧٨)، والترمذي (٣٢٨٢) وقال: حسن، والطيالسي (٤٧٤)، وأحمد (٢١٤٢٩)، وأبو عوانة (٢٨٧).

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ). وقال المصنف: فرؤيته النور الذي أخبر بأنه رآه هو ما قيل فيه أن محمدًا رأى ربه ﷻ، وربما إلى هذا المقام العَليّ الإشارة في قوله جل قوله: ﴿**مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ [النجم:١٧] فربما وقعت رؤية البصر على ذلك النور العَليّ القريب منه وهو ما أخبر عنه بقوله: ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى**﴾ [النجم:١٨] وقوله: «**نور أنى** =

ثم جعل يخبر عن نوره بما نوره، فذكر المشكاة والمصباح والزجاجة والبيوت، وقد تقدم أنه من الأمثال المضروبة قبلها مصداقًا لما جاء في بعض الكتب التي يذكر أنها من الكتب المنزلة على من كان قبلنا أن الله هو الحي القيوم، ملأت العالم عزته، ووسع السماوات والأرض كرسيه، وأحاط بجميع ذلك عرشه، الذي خدامه آلاف آلاف الآلاف، ولا يحصى من خدامه ولا من جيوشه إلا ما شاء جنوده، نيران تلتهب وأودية اللهيب جارية قدامه، وكل مرغوب من أسمائه جازع من هيبته وحذره، المختفي عن الأبصار الغمام ستره، والظلام سرادقه والضياء بين يديه والنور أمامه.

وفي مفهوم قوله ﷻ: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] تحقيق التوحد بنور كل الموجودات، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] أي: بالحق خلقهما وما بينهما، وكذلك كل ما علا وسما وما سفل إلى المنتهى، كل ذلك بالحق خلقه وللحق أوجده.

ثم قال - جلَّ من قائل: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] وليس في الوجود كله إلا ظلمة أو نور أو ممتزج منهما وهو هما، فكل الموجودات فلا تخلو ما يقال [فيه منها](1) أنه نور أن يكون ظاهرًا كالنيرات وما أنارته، أو الوجود الذي هو ضد العدم، فإنه لا أثقب نورًا من الوجود ولا أظلم ظلامًا من العدم والفقد، أو باطنًا [في الوجود](2) كالآيات والبينات والشواهد على ما جعلها عليه شواهد، ومسالك مقتضيات أسمائه وصفاته من جملة العالم وأنواع الهدايات وما هو

أراه » هو وصف له بأنه النور حسب لا مجال في العلم به للعقول، خلا أنه النور ﷻ يهدي الله إليه بالإيمان من يشاء من عباده فيعبرون إليه من شهادة إلى غيب وكما أن العلم يتفاضل في درجات معرفة هذا النور كذلك يتفاضلون في دار الآخرة في رؤيته، فعامة أهل الجنة يرون الله هو الحق المبين، أي: المبين هذا الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بين ذلك، وهم أيضًا في رؤيته على درجات على قدر ارتقائهم في مشاهدته فيما ها هنا فهذا لهم على تفاضلهم فيه على الدوام.

(١) في النسخة (خ): «فيها».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الصراط المستقيم، فلئن كانت دلالة المفعول على فاعله نورًا أن ضد ذلك لظلام، وقد حصلت ضرورة العلم بأنه المتوحد بإيجاد كل ما دخل تحت الكون قاطبة كتوحد بواحد منها ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

ولئن كانت الأسامي بما هي معرفة بالمسمى، والأسماء معربة عن صفات المسمى الموصوف، والمسمى بالأسماء الموصوف بالصفات هو المطلوب الأعلى، الله رب العالمين، فما عدا ذلك فهو جهل والجهل ظلام، وقد تقدم الكلام في دلالة الفعل على الأسماء، وإعلام الأسماء بالصفات، وتعريف الصفات بالموصوف في غير هذا الموضع، مبينًا على حسب الطاقة، وكما هو خالق الخلق لا خالق سواه، ورب الأرباب لا رب غيره، وإله كل شيء لا إله إلا هو، فكذلك هو النور الأعلى وهو نور النور ونور الأنوار إذًا بما أنارت النيرات جمعاء بنوره، وأضاءت الأضواء كلها علوًا وسفلاً بضياء وجوده العلي.

وهو الهادي إلى الصراط المستقيم الذي ما عداه فهو الضلال، وهو جاعل الهداية هداية، وهو هادي المهتدين، وهو الذي ﴿لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل:٣٧] فليس إلا هو وجودًا ونورًا، هو الأول بذلك في كل الموجودات والآخر فيها، والظاهر والباطن، القيوم على كل شيء نوره العلي، ممد لكل نور، ومنه منبعث كل نور طبقًا عن طبق من لدن العرش العظيم إلى المنتهى علوًّا وسفلاً ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] يعبر من المثل إلى الممثل به.

- والمثل هو: المشكاة، وهي عبارة عن المفعول كله جملة، فكما المفعول كذلك المشار إليه بالمشكاة هو موضع المصباح، وهو النور المنبعث عن المصباح.

- والممثل به هو النور الأول العلي الذي كل نور فعنه مقتبسه، هم درجات عند الله.

والممثل به فيما هنالك بالزجاجة هو الأفق المبين، والممثل بالزيت من الشجرة الزيتونة فيما هنالك هو الحق، المخلوق به السماوات والأرض، أصلها

ثابت في حيث لا حيث، ليست بشرقية ولا هي بغربية، ولا منسوبة إلى ناحية، ولا أمم سوى أنه الحق المبين، تشعبت أفنان هذه الشجرة في أقطار الوجود، وعمَّت عموم الخلق والأمر ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٥] متى فكر المتفكر فيها، وتذكر المتذكر بها، أو عمل بمقتضى ما أمر به في كتاب الله وسنة رسوله من الموجود في جملتها، المثبت في اللوح المحفوظ من مكنونها آتت أكلها [كل حين][1] بإذن ربها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ [النور:٣٥] للأبصار، فيلحق بظاهر الأنوار وجلي الضياء، وإن لم تمسسه نار فكر أو يميزه علاج ذهن، فتزداد الأذكار في إنباء معاناة الاعتبار؛ إذ بذلك تتوقد مصابيح الإيمان في مشاكي علوم الفطر المتوقدة بالمعرفة في زجاجات القلوب التي [هي][2] ألواح [أجوائها][3] ذوات الصدور، وتلك ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور:٣٦ - ٣٧] إلى آخر المعنى.

مواقع أبصارهم مجال بصائرهم من الآفاق، والوجود كله ساطعة بضياء المعرفة وبواطنهم بنور الإيمان عامرة نيرة، ومصابيح الإيمان في قلوبهم الزجاجية رقة وصفاء كالكواكب الدرية، تتوقد في مشاكيها بزيت الشجرة المباركة الزيتونة، ليست بشرقية ولا غربية إن ربي على صراط مستقيم ﴿صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

قوله ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور:٣٦] إلى آخر المعنى، إنه وإن كان ظاهره ما ذكره من البيوت المأذون في ترفيعها هي المساجد لذكر المصباح والزيت والزجاجة والمشكاة، فإنه على ظاهر أول ما تلاه علينا - جل ذكره - من قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «أحوابها».

[النور:٣٥] والأرض ذكر عام في السماوات وفي المساجد وفي القلوب والصدور، وكذلك النور عام ذكره كما تقدم في النيرات والهدايات والأنبياء والرسل والملائكة و[العلم][١] والشرائع والكتب، فتأويل البيوت ها هنا على هذا النظر السماوات والأرض وما علاها إلى ما شاءه الله تعالى.

قال الله - جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها من مقدار شبر**»[٢].

وفي أخرى: «**أربعة أصابع إلا وعليها ملك يسبح الله ويكبره ويهلله...**»[٣] وجاء عنه في الأرض كذلك.

[والرجال هم الملائكة - عليهم السلام - وهم على الحقيقة الذين ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور:٣٧] المعنى][٤] فهذه بيوت قد ﴿أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور:٣٦] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج:١٨] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] وهذا كله من نوره الذي أبطنه وسيظهره في الآخرة.

ثم الزجاجة على هذا التأويل [هي ألواح الأجواء][٥] ما علا إلى المنتهى، وتأويل الشجرة المباركة على هذا هو ما خلق الله به السماوات والأرض من الحق،

---

(١) في النسخة (خ): «العلماء».

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٩)، والبيهقي في سننه (١٣٧١٩)، وابن عساكر (٥٢/٣٨١).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٥٥٥)، والترمذي (٢٣١٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤١٩٠)، والحاكم (٣٨٨٣) وقال: صحيح الإسناد، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠٧).

(٤) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٥) ما بين [ ] بياض في النسخة (غ).

وجاعل هذا الحق المشار إليه المعبر عنه هو الله الحق المبين، المحيط بكل ذي وجود أوله وآخره وظاهره وباطنه، من ذلك جماع ما وجبت له به الشهادات كلها، وقد تقدم في اسم الشهيد إلى ذلك بطريق، وأنه كقول رسول الله ﷺ والمسلمين: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الصراط حق، وأن الحوض حق، وأن الميزان حق**»(١).

هكذا على استقراء ضروب الشهادات كلها، فكل ذلك من الحق الذي خلق به الله السماوات والأرض، وكذلك جميع ما شرعه لعباده؛ ليمتثلوه وهو من ذلك، شهدت له بذلك شواهده، وعنونت به عنه كتبه، وأعربت به رسله وشواهده وبيناته، وكل ذلك من الحق المذكور، وهو الموجود عن أسمائه ومعاني صفاته، أسلك ذلك كله فيما خلقه سلوك الأرواح في الأجساد، وأجرى حقائقها في براياه إجراءه الأغذية في الأجسام.

ثم الزيت على هذا التأويل هو ما تميزه الأذهان وتستخرجه الأفكار بترداد الأذكار، وأن الله - تبارك اسمه وتعالى جده - لما علَّم أبانا آدم الأسماء كلها، وهي كالمشكاة للأنوار والأضواء الموجود في الوجودين: [العالم](٢) والكتاب، أظهرهما في قلبه علمًا وهي النبوة، ثم أمره فأنبأ الملائكة بما أذن له من ذلك أن يظهره على لسانه إنباء وشهادة، وجعل ذلك في بواطن بنيه فطرة، و[عيبًا شبيهًا](٣) به عليه السلام على ما قدره في حكم التناسل.

كذلك قال رسول الله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»(٤) [وفي أخرى:

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨)، وابن حبان (٢٠٢)، والنسائي (١١١٣٢)، وأحمد (٢٢٧٢٧).

(٢) في النسخة (خ): «العلم».

(٣) في النسخة (خ): «عسى شبهًا».

(٤) أخرجه البخاري (٣٠١٩) وأحمد (١٩٨٨٩) والطبراني (٤٩٧) وابن حبان (٦١٤٠) والروياني (١٤٠) والحاكم (٣٣٠٧) والبيهقي (١٨١٥٥).

«**معه**»(١)](٢) وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق كل شيء فقدره تقديرًا، المعنى؛ أعني: جملة العالم المتقدم ذكره في صدر هذا الكتاب، المخلوق في لا مكان ولا زمان ولا يحيط به ظرف؛ إذ قد [جاز](٣) المكان في وجوده والزمان و[الظرف](٤) إنما يحيط به أمر الله قدرةً وعلمًا ومشيئةً وإيجادًا وحفظًا إلى غير ذلك، أوجده عبدًا مربوبًا على صورته في أحسن تصوير وأكرم تقدير، أسلك فيه معاني أسمائه وصفاته، وركبه على مقتضيات ذلك جملةً وتفصيلاً، إلى ما هو الانتهاء إليه من الحق الذي قدره، كذلك خلق الإنسان، وقد تقدم ذكر آدم عليه السلام وأبطن فيه علم الأسماء، ولم يكن ليجعل علم الأسماء في باطنه وأظهر الإنباء بها على ظاهره، إلا وقد خلقه بها.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أي شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ**﴾ [عبس:١٧-٢٠] فاتصل باطن العبد الجزئي بظاهر الوجود، ألا ترى كيف أنزل عليه كتابه، وشرع له شرائعه على مقتضى ذلك، وباستعمال التفكر وترداد التذكر بواسطة التوسل إلى ممسك عصم الإصابة والاستعانة بمالك الملك يستخرج من غيابات الفطر معرفة السر المكنون في العالم الكلي، فافهم فهمنا الله وإياك عنه، إنه قريب مجيب.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تقولوا [للعنب](٥): الكَرْم، إنما الكرم قلب المؤمن**»(٦).

ثم توجيه قوله: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ**﴾ [النور:٣٦] بأنها القلوب هو ما أنزله من أمره وشرعه لها في [شرعته](٧) التي يسلك [إليه](٨) عليها في سبيلها إليه

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٠٠٦/٢) وعزاه إلى ابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة عن بريدة.

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «حار».

(٤) في النسخة (خ): «الظروف».

(٥) في النسخة (خ): «للحبلة»، والمثبت هو الصحيح.

(٦) أخرجه البخاري (٥٨٢٩)، ومسلم (٢٢٤٧)، وأحمد (٧٢٥٦)، والحميدى (١٠٩٩).

(٧) في النسخة (خ): «شرعه».

(٨) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

أن يترفع عن الشكوك والتكذيب [وأنواع الكفر وضروب الخنا][١]، والعقد على فعل الفحشاء والمناكير كلها وأنواع البغي، كما أذن لبيوته التي هي المساجد في الأرض أن ترفع عن التملك والأقذار وغير ذلك؛ ليذكر ﴿فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ بخفض الباء ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ﴾ [النور:٣٦ - ٣٧].

ثم بمعنى آخر تكون الشجرة المباركة على الاعتبار بأن البيوت هي بواطن العباد هو الرسول الآتي بالبينات والهدى والوحي، الذي به يكون الاتصال بالله ﷻ وبمعاني أسمائه وصفاته، وبالوحي الذي جاء به من عند الله تتوقد مصابيح الإيمان في قلب العبد كما في الزيت عمل المصباح الذي [يوقده][٢] كذلك في سنة الرسول عمل الإيمان بواسطة الإسلام، وتلك مادته التي بها يضيء وعنها يكون منه ما يكون بمنزلة التوقد من المصباح، والمصباح لا يضيء إلا بإنارة جعل الله ﷻ له ذلك لها آية منه على معالم كريمة من معرفته فيما هنالك وها هنا.

كذلك القرآن هو القائم للإيمان مقام الشمس، وسنة رسول الله ﷺ بمنزلة القمر، والعلماء بمنزلة النجوم، فكما أن الشمس لا فعل لها فيما يوجد عنها، وأمَّا الفاعل على الحقيقة هو منوِّرها وجاعلها سراجًا يستضاء به، كذلك القرآن والسنة وإن كانا من عند الله فهما للإيمان بمنزلة الشمس والقمر والنجوم للوح [الجو][٣]، ليسوا بأنفسهم بمنيرات لنا، بل بإمداد من الله، وإيجاد وإمساك من عنده، كذلك القرآن والسنة، بل يكونان عمى في حق قوم، هداية في حق آخرين، كالشمس والقمر والكواكب، ينفع الله بما شاء منها ويضر قومًا في بعض الأحايين، ويمنع الإبصار بها العميان من عباده، ويضل بها من يشاء، فيشركون [بها][٤] ويعبدونها من دون الله وعلى حال، ففي القرآن والوجود [الخبر][٥] اليقين، فافهم.

وكذلك الجوارح أنوارها بأعمال الطاعات لله، بها تضيء باطنًا في الدنيا،

(١) في النسخة (خ): «وضروب الحني».
(٢) في النسخة (خ): «به توقده».
(٣) في النسخة (خ): «الحق».
(٤) في النسخة (خ): «بهما».
(٥) في النسخة (خ): «الخير».

ويظهر الله ذلك عليها في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «أنتم الغرّ المحجلون من آثار الوضوء يوم القيامة»(١).

وقال: «تبلغ الحلية من المؤمن مبلغ الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته وتحجيله فليفعل»(٢).

وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اجعل لي نورًا في قلبي، ونورًا في صدري، ونورًا في سمعي، ونورًا في بصري، ونورًا في لحمي، ونورًا في دمي، ونورًا في عظمي، ونورًا في مخي، ونورًا في شعري، ونورًا في بشري، ونورًا عن يميني، ونورًا عن شمالي، ونورًا من فوقي، ونورًا من تحتي، ونورًا من أمامي، ونورًا من ورائي، اللهم أعظم لي نورًا، واجعل لي نورًا، وفي أخرى: واجعلني نورًا»(٣).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٧ - ٤٠].

وضرب مثلاً لأعمال من لم يهده لنوره، وهم أهل الكتابين والمنافقين، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٦)، وأبو يعلى (٢١٦٢) والطبراني في الأوسط (٨٢٢٢)، والبيهقي (٣٦٦)، والقضاعي (٢٩٠)، وأبو عوانة (٥١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٠)، وأحمد (٨٨٢٧)، والنسائي في الكبرى (١٤٢)، وابن أبي شيبة (٦٠٧)، وأبو عوانة (٦٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٦)، والترمذي (٣٤١٩)، والطبراني (١٠٥٢٠) وفي الدعاء (٤٣٩)، وابن خزيمة (١٠٥٦)، والبيهقي في سننه (٤٥٨٤).

شَيْئًا﴾[١] أي: مقبولاً عند الله؛ إذ لم يكن بأمره ولا على سنة رسوله ﴿وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ﴾ يجزي به ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور:٣٩] على سواء عمله أهل الكتاب، والمنافقون هم الأخسرون أعمالاً ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤] وهم في الضلال المبين، فهم على ذلك العاملون الناصبون، لهم على ذلك النار وسوء المصير.

يقول: مثل عملهم كمثل سراب بقيعة من الأرض قد اكتنفتها [الجدائب][٢]، وقد استجرت الشمس فاستخرجت الأبخرة من الأرض في ذلك المطمئن، واكتنف [القيعة][٣] ما أحاط بها من المرتفع، ولم تتمكن الرياح أن تبدد تلك الأبخرة، وكثفت عن أن ينفذها حر الشمس ولهب شعاعها فيلحقه بما يصعده منها، ولمقابلة الشمس تلك الأبخرة في مسامتها من الجو، وتحريك الرياح إياها أدنى حركة أشبه لون البخار لون الماء في البعد؛ لقربه منه في الغلظ، وبريقه الذي يكون فيه لمقابلة الشمس له بريق الماء، وحركته حركة الماء، فظنه العاطش ماء، فقصده لشفاء [غلته][٤]، فـ﴿إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩] أي: لم يجده ماء؛ لأنه نفذ بصره فيه كغيره.

فمثَّل الله - جلَّ ذكره - أعمال المنافقين والمرائين وأهل الكتابين بهذا؛ ذلك نضلالهم عن الرشد، وإفلاسهم من النور الحق، فإذا كان يوم القيامة يقول الله - جلَّ من قائل: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبده، فلا يبقى أحد كان يعبد شيئًا إلا اتبعه حتى يجعله في جهنم**»[٥] وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها وغبرات أهل الكتابين، يقول الله

---

(١) قال الأزهري: «السَّرَابُ: ما يتراءى للعين وقت الضحى في الفلوات شبيهًا بالماء الجاري وليس بماء، ولكن الذي ينظر إليه من بعيد يظنه ماء جاريًا، يقال: سَرَبَ الماءُ يَسْرُبُ سُرُوبًا: إذَا جرى، فهو سَارِبٌ». وقيل: السَّرَابُ: مَا يَتَرَاءَى للإِنْسَانِ في القَفْرِ في شِدَّةِ الحَرِّ مِمَّا يُشْبِهُ المَاءَ. وقيل: مَا يَتَكَاثَفُ مِنْ قُعُورِ القِيعَانِ. تفسير اللباب لابن عادل (١١٤/١٢).

(٢) في النسخة (خ): «الحدائب».

(٣) في النسخة (خ): «البقيعة».

(٤) في النسخة (خ): «علته».

(٥) أخرجه بنحوه مسلم (٢١٦/٨)، وأبو داود (٤٧٣٠)، وابن ماجة (١٧٨)، والتِّرمذي (٢٥٥٤)، والحميدي (١١٧٨)، وأحمد (٩٠٤٦).

- جل ذكره - لهم: «**ما تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار لهم إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيقال: ألا تردون، فيسيرون إليها سعيًا ويردونها وهي جهنم**»[١] هذا قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا...﴾ [النور:٣٩].

ثم ضرب مثلاً آخر لأعمال الكفار وأحوال بواطنهم بخالص الظلام المصاحب لهم بقوله الحق: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور:٤٠] فهذه ظلمة الليل في البحر مثل ذلك [بعدم][٢] الهداية مع خطر الحال، لا يجد من يسأله عن هداية ولا بما يهتدي، ثم قال - عز من قائل: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ [النور:٤٠].

فأعلم بهذا أن الجو مغيم، والبحر قد [اغتلم][٣]؛ تعريضًا بظلام الكفر ووشيك الإهلاك، ليس كمن هو من نور ربه في مثل الهواء [الصافي][٤] المشبه بالزجاجة، [وبالكوكب][٥] الدري بما أنارته الشمس [الضاحية][٦] وفي قوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أي: يغشى هذا الغريق [في البحر][٧] في الليل المظلم موج؛ لأجل اعتلام البحر، وخصَّ البحر بالذكر لأجل كفره؛ ولأنه مهلك، لا سيما لمن هو في غير سفينة من إيمانه وعلمه وعمله يحمله فيها.

ثم قال - عز من قائل: ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي: من فوق الموج الذي يغشاه موج غيره، من فوق ذلك [الموج][٨] ﴿سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:٤٠] ظلام الموج الذي يغشاه، ثم ظلام الموج الثاني الذي يكون في البحر عند وجود النوء وعصوف الرياح، ثم ظلام الليل مع ظلمة الجو من السحاب الذي غشيه، فهذه ظلمة السحاب التي تهيل البحر، وتحول دون أنوار الكواكب وبياض السماء وظلمة

---

(١) أخرجه مطولاً البخاري (٤٣٠٥) ومسلم (١٨٣) وابن ماجة (١٧٩) والطيالسي (٢١٧٩) وأحمد (١١١٤٣).
(٢) في النسخة (خ): «العدم».
(٣) في النسخة (خ): «اعتلم».
(٤) في النسخة (خ): «للصافي».
(٥) في النسخة (خ): «كالكوكب».
(٦) في النسخة (خ): «الصاحية».
(٧) مابين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٨) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الليل التي لا تكون معها شمس وعصوف الرياح، وتحريك الموج و[اصطفاقها][(١)] تعلوه، ويعلو بعضها بعضًا.

شبه ظلمة الليل بظلمة كفره، وستر السحاب السماء بالإفلاس من الهداية، و[تحقيق الظلال][(٢)] في حقه، وغشيان الموج إياه بترادف الفتن عليه من ظلمة كفره، وظلمة طبعه المحيلة له عن هداية فطرته إلى ما يكون مع ذلك من فتن غروره وتزيين ما هو فيه إلى نفسه [ثم][(٣)] من خواطره، ونوازع [همه][(٤)] وبواعث الاستواء إليه، تؤزهم الشياطين إلى ضلالاتهم أزًّا، وتزعجهم إليها إزعاجًا، فمتى همَّ بإخراج يد معرفة [لنجا][(٥)] مما هو فيه من هلكته وشعور بعلم حاله ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور:٤٠].

ومعنى المقارنة هنا: هو عبارة عن علمهم اللازم قلوبهم ضرورة، متى سألتهم عمن خلقهم قالوا: الله، من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ قالوا: الله، من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه؟ قالوا: الله، من المنعم؟ من الرازق؟ من الدافع الحق؟ من الواقي؟ قالوا: الله.

فقوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور:٤٠] عبارة عن علمهم هذا الذي لم ينتفعوا به، ثم هو إذا خطر هذا الخاطر عليهم فلم ينتفعوا به ولا تنبهوا لحقيقته، متى أراد أن يخرج يده بعدها لم يخرجها، و﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي: لم يرها ولم يقارب ذلك؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

فصل

إنه - تبارك وتعالى - وإن كان قد خلق من شاء من خلقه في الظلمة فقد جعل

---

(١) في النسخة (خ): «اصطفافها».
(٢) في النسخة (خ): «تحقق الضلال».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) في النسخة (خ): «همته».
(٥) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

له نورًا في فطرته، كما جعله للآخرين بحكم الفطرة أيضًا، لكنهم أخرجَتْهُم أعمالهم بإذن ربهم من نور فطرتهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة، وإنه وإن كان قد خلق آخرين في النور فقد جعل لهم ظلمة من أمشاج خلقتهم وأغذيتهم في حال كونهم أجِنَّة في بطون أمهاتهم، ثم من أغذيتهم في نشأتهم، ثم من غفلاتهم المستصحبة لهم في تقبلهم ومثواهم، لكنهم أخرجهم عنها بإذن ربهم إيمانهم وتصديقهم وأعمالهم التي هدوا إليها، وذلك من نور الله فيهم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤١ - ٤٣].

وضرب الله مثلاً آخر لنوره الباطن الموجود في الموجودات فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[1] [النور:٤١] انتظم معنى هذا بوصف نوره في السماوات والأرض فذكر

---

(١) وقرأ الأعرج «**والطير**» بالنصب على أنه مفعول معه، وقرأ الحسن وخارجة عن نافع «**والطير صافات**» برفعهما على الابتداء والخبرية، والظاهر على هذه القراءة أن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ خبر بعد خبر، وعلى قراءة الجمهور استئناف جيء به لبيان كمال عراقة كل واحد مما ذكر من الطير وما اندرج في عموم ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ في التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية، وقد أدمج سبحانه في تضاعيفه الإشارة إلى أن لكل واحد من الأشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه حاجة ذاتية إليه تعالى، واستفاضة منه ﷺ لما يهمه بلسان استعداده، وتحقيقه أن كل واحد من الموجودات الممكنة في حد ذاته بمعزل عن استحقاق الوجود، لكنه مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه من الوجود وما يتبعه من الكمالات ابتداءً وبقاءً، فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار، فيفيض عليه في كل آن من فنون الفيوض المتعلقة بذاته وصفاته ما لا يحيط به نطاق البيان بحيث لو انقطع
=

في صدر المثل نوره الظاهر الشائع في السماوات والأرض من النيّرات والمصابيح، وعرض بالزيت والشجرة، ثم قال: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥] ثم نظم به قوله هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ [النور:٤١].

ثم ضرب مثلاً آخر لباطن نوره الحق في السماوات والأرض [بأن له ملك السماوات والأرض][1] بقوله الحق: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٤٢] مفهوم هذا فبعدوا عليه ملكه ويشركه في ملكه [عبده][2] هذا النور المبين والضلال منهم عنه بعيد عن الهداية.

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣] يعني - وهو أعلم بما ينزل: السحاب [الدهم][3] كالجبال مسخرة بين السماء والأرض ممسكة على الهواء ينزل منه البرد ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٣] يعرض بذكر الفيح والفتح برحمته، وأن باجتماعهما يخلص برحمته من شاء بمعنى الفيح من المعنى الناري الذي خالط الجو ومازج الهواء، فيكون عنه البرق والرعد آيات على زفرات جهنم وإخراجها أعناقها لأهل المحشر.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة، وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل، وتقديمها على التسبيح في الذكر؛ لتقدمها عليه في الرتبة، كذا في «إرشاد العقل السليم». تفسير الألوسي (٤٦٧/١٣).

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «عنده».

(٣) في النسخة (خ): «الهم».

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٤ - ٤٨].

ثم قال: وقوله: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: حرورًا وصرودًا وطولاً وقصرًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤].

أتبع ذلك قوله معلمًا بأن إيجاده الموجودات من نوره في السماوات والأرض وعن فتح رحمته مع ممازجة بفيح جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - فقال: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أنوار بنور الله العلي تزهر لبصائر المستبصرين، وآيات على ما أخبر به تبهر عقول الناظرين، وتدحض حجج المبطلين ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦] نصَّ بهذا على أن الهدايات كلها عن نوره العلي، كرر ذكر إنزاله الآيات المبينات؛ أي: ذلك - والله أعلم - أنه لما كان النور منه ظاهر ومنه باطن، والكافر به ضربان: منافق وكتابي، والآخر: كافر محض، كرر ذلك أول الخطاب وآخره.

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٤٩ - ٥٤].

أتبع ذلك ذكر المنافقين الذي أجرى ذكرهم في أول قصة الإفك الذي تولى

كبره ومن [تبعه][١] منهم، فقال - جلَّ من قائل: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧] إلى قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ [النور:٥٣] في هذا من الفقه ألا يعد العبد بما هو مستقل به من نفسه دون أن يستثنى بمشيئة الله - جلَّ ذكره - فكيف بأن يقسم على عزيمته زعامة ورعونة، يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور:٥٣] أي: يعرف ظاهرها، معنى ذلك أن يكون من المعروف لا من المنكر ويؤمن باطنها ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ﴾ [النور:٥٣] ببواطنكم عليم بأعمالكم ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر من المؤمنين.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور: ٥٥ - ٦٠].

(١) في النسخة (خ): «نفعه».

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [ثم مدحهم بقوله](١): ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

قال رسول الله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(٢) علم ﷺ ما يكون في المستقبل من قوم يلون الأمر بعد الخلفاء الممدوحين، ينبذون الحق وراء ظهورهم، يخرجون بذلك مما دخلوا فيه من إيمان وإسلام فيستحقون بذلك اسم الفسق.

ثم قال مخاطبًا للجملة؛ يعني: جملة الأمة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦] أي: أقيموا الصلاة، وافعلوا ما أمرتم به، واثبتوا على الحق، وعضوا عليه بالنواجذ، فلا تطيعوا مخلوقًا في معصية الخالق، واصبروا على ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيكون لكم الكرة، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال طائفة من أمتي قائمة على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(٣).

ختم ذلك بقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: إنما ذلك بلوى منا وكفارة لمن عدل عن سبيل القصد ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [النور:٥٧] يعرض بمن يكون بعد ذلك الفتح من [الكفار](٤)، وهم شيعة الدجال - لعنهم الله وقصر مدتهم - يقول: لا تظنن ما بلغوه من الملك، والتمكين في الأرض، وما [يجيئون](٥) به من آيات وكبير أمر أنهم معجزو الله، سيجعل الكرَّة عليهم

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥)، والنسائي (٤١٣١)، والترمذي (٢١٩٣) والطبراني (٥٤٤٢)، والطيالسي (٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٧١٧٦)، وأحمد (١٩٢٣٧)، وابن ماجة (٣٩٤٢)، والدارمي (١٩٢١)، وابن حبان (٥٩٤٠)، وأبو داود (٤٦٨٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في النسخة (خ): «الكفارة».

(٥) في النسخة (خ): «يحيون».

للمسلمين، [مع صالح الأمة وعيسى ابن مريم][(١)] ثم عطف على هذا المحذوف قوله: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [النور:٥٧] ولبئس المصير؛ أي: ما صاروا إليه.

فصل

قسم الله العباد على أربعة أقسام:

الصديقون وأتباعهم: وكان [أولاً لهم][(٢)] أبو بكر الصديق ﷺ.

ثم الفقهاء وحملة الدين ومقومو الناس: والناس أتبع لهؤلاء، فكان عمر ﷺ أولاً لهم.

ثم الملوك وأولوا الأمر ووزعة الناس، والناظرون لهم الحافظون [لجملتهم][(٣)]: وكان عثمان ﷺ أولاً لهم، وظهر ذلك في [معاونة][(٤)].

ثم العلماء بالله وبآياته: وهم حملة علوم الصديقين ومعارف [المؤمنين][(٥)] من العلم المكنون، وكان علي بن أبي طالب ﷺ أولاً لهم.

وقد كان للصديقية تبع كالعمرين و[دولتهما][(٦)]، ولم يكن [لجملة][(٧)] العلم المكنون دوله بعد سوى الذي كان أولاً لها، ذلك منتظر - إن شاء الله - وبذلك ترجع الصديقية في هذه على الصديقية الأولى، كما ترجع النبوة بعيسى ابن مريم على نبوة محمد - صلوات الله وسلامه عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين.

وأمّا اختلاف الأمة فيمن أولى بالإمامة منهم فذلك موقوف على الحكم المقدور والوعد المحقق بالإنجاز، قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) ما بيم [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «أولهم».
(٣) في النسخة (خ): «لحملتهم».
(٤) في النسخة (خ): «معونة».
(٥) في النسخة (خ): «الموقنين».
(٦) في النسخة (خ): «دوله».
(٧) في النسخة (خ): «لحملة».

مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[(١)] [النور:٥٥] المعنى: وسابقوا المؤمنين هم هؤلاء الأربعة، فلو كان الوالي أولاً علي بن أبي طالب لم يلِ عثمان ولا عمر ولا أبا بكر، كذلك لو كان [أولاً][(٢)] عثمان لم يلِ أبا بكر ولا عمر، وكذلك القول [في عمر لو كان الوالي أولاً، فترتيب الله إياهم هذه الرتبة هي الحكمة البالغة، وكان كل واحد منهم][(٣)] مثلاً لمن بعده وأولاً لمن كان من أتباعه، وكان في هذا من الفقه أن العلم بالحق والمعرفة التي يؤتي الله بها الحكمة ليس من الدنيا في شيء إلا ما شاء ربك، اعتبر ذلك بالخضر وموسى - صلوات الله وسلامه عليهما.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور:٥٨] المعنى: صرف وجه الخطاب إلى معنى ما تقدم من الاستئذان والوعظ في ذلك، فذكر هنا إيجاب استئذان من أذن له في الولوج على الحرم من المملوكين والنساء، ومن لم يبلغ الحلم في أوقات العورة والتخلي بالأهل بعد صلاة العشاء، وفي القائلة، و[قبل][(٤)] صلاة الفجر.

ثم ذكر الرخصة في إلقاء بعض الستر للقواعد من النساء اللاتي لا إربة فيهن للرجال والتعفف مع ذلك ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ وقرن بذلك قوله: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ أي: [لمقالاتكم][(٥)] ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:٦٠] [بفعالكم][(٦)] ظاهرًا وباطنًا ثم ذكر انبساط

---

(١) روى الطبراني في «الأوسط» عن أبيّ بن كعب ﷺ قال: لما قدم النبي ﷺ وأصحابه ﷺ المدينة وآوتهم الأنصار ﷺ أجمعين، رمتهم العرب من قوس واحدة، فنزلت: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ...﴾. ولقد صدق الله سبحانه، ومن أصدق من الله حديثًا، ففتح سبحانه لهم البلاد، ونصرهم على جبابرة العباد، فأذلوا رقاب الأكاسرة، واستعبدوا أبناء القياصرة، ومكنوا شرقًا وغربًا مكنة لم تحصل قبلهم لأمة من الأمم، كما قال ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها**». نظم الدرر للبقاعي (٤٨٦/٥).

(٢) في النسخة (خ): «الوالي».

(٣) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «قيل».

(٥) في النسخة (خ): «لمقالهم».

(٦) في النسخة (خ): «بفعالهم».

القرابة بعضهم لبعض، وأكل بعضهم مع بعض [وعند بعض][1]، وأكل الوكلاء مما وكلوا عليه، والأوصياء بالمعروف، ورفع [الجراح][2] في ذلك كله ما لم يفارق المعروف في الأمر كله.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور: ٦١].

ثم قال - جل ذكره: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١] قد قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور:٢٧] فهذه بيوت السكنى، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [النور:٢٩] هذه الخانات تحتوي على بيوت ينزلها مرار الطرق ذلك هو المتاع التي لهم فيها كن ومبيت، وقد تكون المخازن في الخانات، وتسميها أهل الشام: الفنادق، فيها متاع لكم مال مختزن.

وقال - عز من قائل - في هذه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] [وهي والله أعلم بما ينزل البيوت المنسوبة إليه التي هي المساجد قال الله ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور:٣٦] تعني: المساجد ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾][3] يعني - وهو أعلم: ليسلم بعضكم على بعض كما قال: ﴿وَلَا

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «الجناح».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

﴿تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] وقال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة:٨٤] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يخرج بعضكم بعضًا من ديارهم، وقد يكون المعنى زائدًا إلى ذلك ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: إذا لم تجدوا في المسجد أحدًا فسلموا على أنفسكم.

والأوجه في ذلك أن يقول [العبد][1] حين دخوله المسجد ليس فيه أحد: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وربما قال - وهو أتم للمعنى: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وهذا لازم في مسجد الرسول ﷺ ثم في غيره فضيلة، وحيثما كان فسلامه يبلغ إليه ﷺ وقد جاء ذلك عنه ﷺ.

وقال رسول الله ﷺ: **«من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرًا»**[2] والسلام كذلك والله أعلم.

قال الله سبحانه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

أتبع ذلك قوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١] قال الله - عزَّ من قائل: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم:٢٣] يعني: في الجنة، وأرى - والله أعلم - أن مفهوم قوله هنا: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١] وصف لتحية هذا الداخل المسجد إذا سلم على نفسه أو على جماعة مرَّ بها من المسلمين، ومن غاب من عباد الله الصالحين، وإن ذلك إعلام منه أن هذه التحية هي من عند الله حباه بها ومن في المسجد، ومن غاب من صالحي عباده على لسان نفسه.

قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم عمد إلى بيت من بيوت الله ليصلي فيه إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بطلعته إذا قدم من**

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٤٣)، ومسلم (٤٠٨)، وأبو داود (١٥٣٠)، والترمذي (٤٨٥) وقال: حسن صحيح، والطبراني (٤٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٨٩١)، وأحمد (٨٨٦٩)، وابن حبان (٩٠٤)، والحاكم (٢٠١٨) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (١٥٥٤)، والضياء (١٨٧٠).

غيبته»[(١)].

وفي أخرى: «**إلا قال الله له في ملكوت عرشه: عبدي زارني وعليَّ قراه، ولن أرضَ له بقرى إلا في الجنة**»[(٢)].

فهذا معنى قوله ﷻ: ﴿**تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾ والله أعلم بما ينزل؛ لذلك أعقب بقوله الحق: ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي: كما في الجنة تحيتكم، تحيتكم هنا غير أن التحية في الجنة ظاهرة وفي هذه باطنة ﴿**يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [النور:٦١] أي: هذه بهذه ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٦٤)**﴾ [النور: ٦٢ - ٦٤].

ثم أرجع المعنى إلى الأمر بطاعة الرسول وأن من رضاه ﷺ ألَّا يخرج أحد من جمع جمعهم إليه وأمر حزبهم إلا بإذنه وأمره، وذم المتسللين عنه المتلوذين بقلة طاعتهم، وثقل أمره عليهم، وكان المنافقون إذا أراد رسول الله ﷺ [الخروج][(٣)] إلى جهاد أو أراد أن يجمع المسلمين لأمر كحفر الخندق وغيره تسللوا وذهبوا عنه، وأوعدهم على ذلك وعيدًا شديدًا بقوله: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن**

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٢٧)، والطيالسي (٢٤٤٥)، وأحمد (٨٢٨٦)، وابن ماجة (٨٤٩)، وابن حبان (١٦٣٢)، وابن خزيمة (١٤١١).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤١٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٧/٣)، والضياء (٢٦٧٩) وقال: إسناده حسن.

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

﴿تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[1] أي: في الدين فلا يهتدوا لمرشد ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] في الدنيا والآخرة، [فاتقى عبد][2] ربه ولا يترك طاعة نبيه إلى طاعة سواه.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تدعونه: يا محمد، باسمه ولا باسم أبيه ولا بكنيته، بل قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، ونحو هذا، ويتخرج أيضًا على معنى آخر: لا تجعلوا دعاءه [إليكم][3] إلى طاعته كدعاء بعضكم بعضًا، إنما طاعته من طاعة الله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور:٦٣] المعنى [وقد تقدم][4] ختم السورة بجامعة معنى السورة كلها.

قوله الحق: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا من نوره في السماوات والأرض، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ [النور:٦٤] هذا من معنى ما فيها من أمر ونهي ووعظ ووعد ووعيد.

قوله ﷻ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور:٦٣] وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤] حرف «قد» كما قالوا: يجيء بمعنى التوقع لأمر

---

(١) الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ لترتيب الحذر، أو الأمر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم، فإنه مما يوجب الحذر ألبتة، والمخالفة كما قال الراغب: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو فعله، والأكثر استعمالها بدون «عن» فيقال: خالف زيد عمرًا، وإذا استعملت بـ«عن» فذاك على تضمين معنى الإعراض. وقيل: الخروج؛ أي: يخالفون معرضين أو خارجين عن أمره. وقال ابن الحاجب: عدى يخالفون بـ«عن» لما في المخالفة من معنى التباعد والحيد، كأنه قيل: الذين يحيدون عن أمره بالمخالفة، وهو أبلغ من أن يقال: يخالفون أمره. وقيل: على تضمين معنى الصد. وقيل: إذا عدى بـ«عن» يراد به الصد دون تضمين، ويتعدى إلى مفعول بنفسه، يقال: خالف زيدًا عن الأمر؛ أي: صده عنه، والمفعول عليه هنا محذوف؛ أي: يخالفون المؤمنين؛ أي: يصدونهم عن أمره، وحذف المفعول؛ لأن المراد تقبيح حال المخالف، وتعظيم أمر المخالف عنه، فذكر الأهم وترك ما لا اهتمام به، وقد يتعدى بـ«إلى» فيقال: خالف إليه؛ إذا أقبل نحوه. تفسير الألوسي (٢٤/١٤).

(٢) في النسخة (خ): «فأبقى عند».

(٣) في النسخة (خ): «إياكم».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

مترقب، وقد يجيء الإخبار عن وجوب الشيء في الفرط أو على الأكثر، كما قال الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

هذا إذا اقترن هذا الحرف بفعل مستقبل والله - جل ذكره ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣] وقد علم الكائنات جميعًا قبل تكوينه إياها كتبها في الذكر الأول كل إلى إنابة، يؤجل إلى آجاله، فأجل كل كائن مترقب وأجله مؤقت.

فتخريج قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور:٦٣] أي: ذلك قد بدا منكم فيعلمه الله واقعًا منكم كما كان قبل يعلمه أنه سيقع منكم، وعلى المخلوق تختلف الأحوال كذلك قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤] أي: قد ظهر ذلك منكم ووقع قد علمه قبل منكم في الأزل أنه كائن، وقد يعلم الآن أنه واقع، كما يقال: قد يطلع الفجر، إذا بدت تباشيره، ويقولون: قد يدخل البرد، قد يظهر الحر، قد تطلع الثريا، قد يطلع نجم كذا عند أوائل ذلك.

كذلك قوله - جلَّ من قائل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] أي: أن الذي بدا منهم قد قدرناه في الأزل من توجيه العباد إلى البيت الحرام، ثم من توجيههم إلى بيت المقدس، ثم من توجيههم إلى البيت الحرام؛ لعود أواخر الكلمة إلى أوائلها، قد نعلم يا محمد سبب ذلك بتقليبنا لوجهك في السماء ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤] المعنى قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ...﴾ [النور:٦٣].

تفسير سورة الفرقان(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ إلى ﴿رَحِيمًا﴾ وقال الضحاك مدنية إلا من أولها إلى قوله ﴿ولا نشورًا﴾ فهو مكي، ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها أنه لما ذكر وجوب مبايعة المؤمنين للرسول وأنهم إذا كانوا معه في أمر مهم توقف انفصال واحد منهم على إذنه وحذر من يخالف أمره وذكر أن له ملك السماوات والأرض وأنه تعالى عالم بما هم عليه ومجازيهم على ذلك، فكان ذلك غاية في التحذير والإنذار ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنه تعالى منزه في صفاته عن النقائص كثير الخير، ومن خيره أنه (نزل الفرقان) على رسوله منذرًا لهم فكان في ذلك اطماع في خيره وتحذير من عقابه، و(تبارك) تفاعل مطاوع بارك وهو فعل لا يتصرف ولم يستعمل في غيره تعالى فلا يجيء منه مضارع ولا اسم فاعل ولا مصدر، قال ابن عباس: لم يزل ولا يزول، وقال الخليل: تمجد، وقال الضحاك: تعظم، وحكى الأصمعي تبارك عليكم من قول عربي صعد رابية فقال لأصحابه ذلك، أي تعاليت وارتفعت، ففي هذه الأقوال تكون صفة ذات، وقال ابن عباس أيضًا والحسن والنخعي: هو من البركة وهي التزايد في الخير من قبله، فالمعنى زاد خيره وعطاؤه وكثر، وعلى هذا يكون صفة فعل وجاء الفعل مسندًا إلى (الذي) وهم وإن كانوا لا يقرون بأنه تعالى هو الذي نزل الفرقان فقد قام الدليل على إعجازه فصارت الصلة معلومة بحسب الدليل، وإن كانوا منكرين لذلك، وتقدّم في آل عمران لمَ سمي القرآن فرقانًا، وقرأ الجمهور (على عبده) وهو الرسول محمد ﷺ وقرأ ابن الزبير على عباده أي الرسول وأمته كما قال (لقد أنزلنا إليكم) (وما أنزل إلينا) ويبعد أن يراد بالقرآن الكتب المنزلة، وبعبده من نزلت عليهم فيكون اسم جنس كقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) والضمير في (ليكون) قال ابن زيد: عائد على (عبده) ويترجح بأنه العمدة المسند إليه الفعل وهو من وصفه تعالى كقوله: (إنّا كنا منذرين) والظاهر أن (نذيراً) بمعن منذر، وجوز أن يكون مصدرًا بمعنى لإنذر كالنكير بمعنى الإنكار، ومنه (فكيف كان عذابي ونذر) و(للعالمين) عام للإنس والجن، ممن عاصره أو جاء بعده وهذا معلوم من الحديث المتواتر وظواهر الآيات، وقرأ ابن الزبير (للعالمين) للجن والإنس وهو تفسير (للعالمين)، ولما سبق في أواخر السورة ألا إن الله ما في السماوات والأرض فكان إخبارًا بأن ما فيهما ملك له، أخبر هنا أنه له ملكهما أي قهرهما وقهر ما فيهما، فاجتمع له الملك والملك لهما. انظر [تفسير البحر المحيط (٣٤٢/٨)].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] تمجيد الله - جلَّ ذكره - بأنه أنزل الفرقان على عبده تبارك تفاعل من البركة، والبركة لزوم المدائح كلها والمحامد أجمعها، والخير وده والحُسن كله، والأسماء الحسنى ومعاني الصفات العُلا، وبقاء ذلك ودوامه، والفرقان وزنه: فعلان، كسبحان وحسبان وقربان وقرآن(١).

وقد يكون القرآن الفرقان من حيث فرق بين الحق والباطل، وبيَّن المواعظ والأحكام وغير ذلك من المعاني، وقد يكون وصفًا لصفة تكون من الله - جل ذكره - وموهبة يهبها من يشاء من عباده، والفرقان اسم من أسماء الحق المبثوث في العالم الموجود عن أسماء الله وصفاته فيه، به خلق السماوات والأرض وما بينهما، والفرقان موجود على القول بالخصوص عن اسمه الحق، واسمه المتين والمصور إن حل في الظاهر كان صورة يميز بها من سواه وإن كان في الباطن، والمعاني كان نورًا وفرقانًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:٢٨].

---

(١) انظر: التبيان (٢/١٦٠)، والدر المصون (٥/٢٤١).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩] المعنى إلى آخره[١].

وقرأ ابن الزبير: «تبارك الذي نزل الفرقان على عباده»[٢] بالألف على الجمع.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ﴾ [الفرقان:٢] استحق المحامد بأسرها والثناء الحسن بأجمعه؛ لأنه لم يتخذ ولدًا ولم يكن ذلك في نعوت تعاليه؛ ولأنه لم يكن له شريك في ملكه ولا ظهير استعان به على ما خلقه، سبحانه وله الحمد كما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله وعلو شأنه ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف:٨٥].

وهو الذي خلق كل شيء جملةً وتفصيلاً، فالجملة العالم كله بأسره كان في علم خالقه موجودًا مصورًا قانتًا له في غيبه، كما أنه قانت حال شهوده، يراه بارئه في أزله ويسمعه، كما الآن على ذلك قدره غيبًا في أزله الذي لا أول له، ثم أوجده يوم أوجده على سواء ما قدره لم يستزد به علمًا خلا أنه الآن مشهود لنفسه وموجود، وقد كان قبل عدمًا وفقدًا، وعلى المخلوق تختلف الأحوال لا على الخالق تعالى عن ذلك، فمن الواجب القضاء أيضًا بأن كل موجود تضمنته الجملة وشمله الوجود الكلي كذلك أيضًا قانت عابد ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١].

فإذًا قد كان كل هناك - أعني: في الأزل - عاملاً على شاكلته من حيث التقدير والعلم والشهود له بذلك كله بما هو الآن عامل ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الدخان:٣٢] كذلك خلقهم على علم بما هم عاملون؛ لأنهم قد كانوا في موجود علمه حال عدمهم بذلك عاملون شهادةً منه لهم وعلمًا بهم لا عملاً منهم ولا حالاً لعدمهم، ولما أخرجهم لما قد علمه منهم عملوا بذلك، فكل إذا يستذكره ما ذكره به في الأزل ويستعمله بما لم يزل يعلم أنه عامله.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: فرق).

(٢) انظر: قراءة ابن الزبير هذه في: البحر المحيط (٦/٤٤٠).

وفائدة هذه المسألة إزالة الإشكال في سبيل القول بالإحالة في حدث العالم، وسبيل القول بالتجويز في قدمه فهو محدث؛ لأنه لم يكن ثم كان، وهو مربوب؛ لأنه مخلوق مدبر مفصل وموصل، وهو قديم؛ لكونه معلومًا لخالقه مشاهدًا لبارئه، فحدثه محدثه؛ لأنه مستفتح الوجود، فهو محدث لنفسه وقدمه؛ لأنه كان في علم خالقه معلومًا وعنده مذكورًا، فقدمه إذًا لغيره لا لنفسه، ومن ها هنا تشعب الخلاف، قال رسول الله ﷺ: «**أعرفكم بالله أعرفكم بنفسه**»(١) وقد قيل: من لم يستدل على المعرفة بالله - جل ذكره - بصنعه لنفسه، فلم يعرف الله إلا بالاسم لا بحقيقة المعنى.

قال الله - جل ذكره - في الكُلي: ﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الزمر:٦٢] ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان:٢].

وقال في الجزئي: ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**﴾ [عبس:١٧-١٩] ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان:١] أي: لم يكن مذكورًا في نفسه ولا لنفسه، بل كان مذكورًا عند بارئه، فإذا كان مذكورًا لا لنفسه إلى آخر المعنى فجملة العالم موجودة عند الله - جل ذكره - بالقوة؛ أي: علمًا بها وقدرةً عليها ومريدًا لها كيف شاء وبِمَ ولِمَ ومتى على الإجمال والتفصيل وتفصيل التفصيل إلى آخره.

ثم لما أوجدها - أعني: الجملة - صارت موجودة بالفعل على ما سبق منه بها في الأزل، لا زيادة فيها ولا نقصان منها، وعلى الموجود تختلف الأحوال لا على الموجد ﷻ فلأن كان موجودًا عند بارئه علمًا وقدرةً ومشيئةً كان مفطورًا على معرفة خالقه لأنه فطره؛ أي: أخرجه إلى وجوده عن حال عدمه؛ ولأنه لم يكن موجودًا لنفسه جهل أمره ونسي ما فطر عليه، ولكونه الأول هو الآن إذا استذكره ذكر، وإذا فكر علم، وكان كل ما علمه تذكيرًا وإلهامًا لما نسيه وغفل عنه مما هو مخبوء في حقيقته ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الشورى:٩] إلى قوله: ﴿**فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ**

(١) تقدمت الإشارة إليه.

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] تفهم الإشارة وتفقه في العبارة واعبر من ظاهر إلى باطن ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان:٣] عجب - جل ذكره - من إيجادهم آلهة من دونه إلى حيثما تقدم ذكره من تحقيق إحاطة الخالق والآمر جملةً وتفصيلاً، وإنما تتبين الأضداد بحقائقها.

أتبع ذلك ما حكاه عنهم ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣] من قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ﴾ يعنون: القرآن ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤] يعنون: أهل الكتاب، قالوا: هو سلمان.

قال الله ﷻ: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] وقرأها يعقوب: «اللسان الذي يلحدون إليه أعجمي» يعني وهو أعلم: أهل الكتاب، وهذه القراءة أعلى - والله أعلم - إذ سورة الفرقان مكية، وإنما جاء سلمان مسلمًا بالمدينة، وكذلك عبد الله بن سلام[١].

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان:٤] الظلم منهم هنا: افترائهم على الرسول والقرآن ووصفهم لهما بالشعر والسحر والكهانة وأساطير الأولين اكتتبها، وهذا هو الزور؛ إنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٢] [الفرقان:٥] وفي غير هذه القراءة: «اكتتبها» على وزن مفعول لم يسم فاعله، والزور في الشهادة: الميل بها إلى الباطل عن حقيقة ما هي عليه[٣].

(١) تفسير مقاتل (٢/٤٣٠). وانظر: الوسيط (٣/٣٣٤)، وزاد المسير (٦/٧٢ - ٧٣).

(٢) قرأ طلحة: «اكتتبها» مبنيًا للمفعول، والمعنى: اكتتبها له كاتب؛ لأنه كان أميًا لا يكتب، ثم حذفت اللام، فأفضى الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو «إياه» فانقلب مرفوعًا مستترًا بعد أن كان منصوبًا بارزًا، كذا قال في «الكشاف». واعترضه أبو حيان ﴿فهِيَ تملى عَلَيْهِ﴾ أي: تُلقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها؛ ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب؛ لكونه أميًا لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه، ويجوز أن يكون المعنى: اكتتبها: أراد اكتتابها. فتح القدير (٥/٢٦٠).

(٣) الكشاف (٣/٢٦٩).

يقول الله سبحانه وقوله الحق: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦] يستعتبهم ويدعوهم ويعرفهم نفسه على ما هم عليه، سبحانه وله الحمد.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢)﴾ [الفرقان: ٧ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧] قالوا هذا على سبيل التهزئة والإنكار منهم، إن يبعث الله بشرًا رسولاً(١)

---

(١) قال الشيخ الألوسي (٣٢٨/٥): وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم (مَا لهذا الرسول) الخ وتكليفهم له عليهم الصلاة والسلام بنحو الرقي في السماء. ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة عليهم الصلاة والسلام في عدم الأكل مثلا والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم عليهم الصلاة والسلام في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان ولا يدعي ذلك الاجماد . وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من أن هذا القول منه وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم (مَا لهذا الرسول) إلخ، وتكليفهم له - عليهم الصلاة والسلام - بنحو الرقي في السماء. ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة في عدم الأكل مثلاً والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقًا على أن
=

﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَو يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان:٧ - ٨] تعجب من جهلهم؛ إذ لم يتعد علمهم الدنيا؛ فاقتصروا عليها ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٨].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٩] يعلمه بمواريث الأعمال ويعجبه؛ لذلك يقول: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ عن أن يهتدوا بما أرشدتهم إليه من النصيحة، لما قابلوا نعمة الله عليهم ورسوله وكتابه بالكفر والتكذيب، أضلهم عن هدايتهم وفتنهم عن سواء طريقه، فجاء من الفقه في هذا أنه من كفر بالرسول لم يهتد به وكذلك الكتاب، ومن أعرض عن تفهم كتاب ربه أعرض الله عنه بالفهم عنه والفقه فيه، وربما لم يهتد به، ومتى لم يهتد به كذب به لا محالة، حديث الله وقوله الحق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧] ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١].

ولذلك عجب بقوله الحق: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ يقول فنالهم حكمنا بمواريث الأعمال فهم لذلك قد ضلوا عن هدايتهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إليها ﴿سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٩] هذا أورثهم قولهم وعملهم، أعماهم الله وأصمهم فهم لا يسمعون ولا يبصرون، بل على قدر ما يتفرغ لسماع كلام ربه بعد تقديم الإيمان به والاستسلام والإعظام والإجلال منه؛ لذلك يكون علمه ويقينه، فأبقي عند ربه، وليقبل إلى ربه بالإيمان والتسليم له، وليفرّغ لكلام ربه قلبه، وليلق الكنف بين يديه، ويتبرأ من الحول والقوة إليه، وليقل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] لا علم لي إلا ما علمتني إنك أنت العليم الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان:١٠] مجدّ رب العزة نفسه وتمدح بقدرته على إمضاء مشيئته وإنجاز وعده، على أن يجعل له في الدار الآخرة خيرًا من

= الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان.

وصفهم، الذي قصرت عقولهم عليه جنات باقية وقصورًا عالية، هذا - والله أعلم - في الدار الوسطى دار البرزخ، ثم في الدار الآخرة خير من هذه وهذه، ويجعل له قصورًا حيث لا يصيبه موت ولا يلحقه فوت.

أتبع ذلك بالتذكير بما أغفلوه والتعليم لما جهلوه، قوله - جل قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ وهي مفتح لما وراءها من عظيم الوجود الذي جهلوه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان:١١].

ثم أخذ في وصفها في حقهم بقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] الزفير: اجتماع النفس في الجوف ثم يخرج دفعة واحدة، وهو الشهيق[١] وقال في موضع آخر: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾ [الملك:٧ - ٨].

فصل

أخبر الله سبحانه وهو العليم الخبير أن جهنم - أعاذنا الله منها - ترى وتتنفس، وأن من تنفسها الزفير تغيظًا منها على أعداء الله سبحانه، وقد تقدم فيما مضى أن كل شيء جماد أو نبات أو حيوان أو إنسان، وبالجملة فالعالم كله صائر في سنن حكمة الله - جل ذكره - إلى النشوء في الدار الآخرة، يكمل الأمر جدًّا فيعلو الأعلى على غير قياس، ويلحق الأدنى بالكمال المقدور له أن يبلغه، فافهم.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من انتمى إلى غير أبيه، أو ادعى إلى غير مواليه، أو كذب علي متعمدًا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدًا**» قيل: يا رسول الله ولجهنم عينان؟ قال: «**أولم تسمعوا قول الله**: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]»[٢].

---

(١) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص:٣١٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٧٥/٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٥٧٦) والبوصيري في إتحاف الخيرة (٣١٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧/١) وعزاه إلى البزار وفيه عبد الرزاق بن عمر ضعيف لم يوثقه أحد.

عبرة:

ثبت عن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - حديثه المشهور الذي يقول فيه: «**إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لي أن أتنفس، فأذن لها بنفسين؛ نفس في الشتاء، ونفس في الصيف...**»[(١)].

وقال الله - عزَّ من قائل: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢] ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ كما قال: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً﴾ [الأعراف:٥٧].

وقد يجمع بقدرة الله وبرحمته في الماء المكون ذلك الخير، والسحاب من فيح جهنم ما غلب من كلا النفسين على لوح الجو، فتخرج الملائكة - عليهم السلام - بقدرة الله نار ما هنالك بروقًا وزمهريرًا، ذلك بردًا وتنفسها رعدًا، وحقيقة ما هنالك فيها صواعق يرسل الله البرد والصواعق على من يشاء ويصرفه عمن يشاء، كل ذلك آيات ما ها هنا على ما هنالك، فالصواعق آيات على ما ترمي به هنالك من شررها كالقصر و﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات:٣٣].

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٨٧)، ومسلم (٦١٧)، والترمذي (٢٥٩٢)، وابن ماجة (٤٣١٩)، وأحمد (١٠٥٤٥)، ومالك (٢٨)، والشافعي (١/٢٧)، وابن حبان (٧٤٦٦).

كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ١٣ - ٢٠].

والرعد آية على ما لها هنالك من زفير وشهيق وتقصف عبراته هنا، منها تسبيح وتسخير للعباد وصلاح للأرض ومن عليها، وهناك هو منها تغيظ وحنق على من عصى ربها - جل ذكره - ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا﴾ من النار التي هو عنها ﴿وَطَمَعًا﴾ أي: في الحياة لمصاحبة الرحمة إياها ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ لذلك قال ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ﴾ أي: لو فهموا عن آياته لشاهدوها وشاهدوا ما هي عليه آيات عيانًا لكنه ﴿شَدِيدُ المِحَالِ﴾ [الرعد:١٢ - ١٣] ويمكرون بأنفسهم فيمكر الله وهو خير الماكرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان:١٥] أعاد معنى الكلام إلى قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان:١٠] يقول - والله أعلم بما ينزل: أمَّا الدنيا التي هي همكم ومبلغ معقولكم فلستم متروكين فيها، وإنما هي الساعة والدار الآخرة فيها جهنم بسعيرها وزمهريرها، وما ضمنته من عذاب وأنكال وهوان أو جنة عالية زادت على الأماني، وأربت على العلوم مع الخلود والدوام في هذه أو هذه، فأيُّما خير نزلاً ومصيرًا ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ أي: الساعة والبعث والنزول في إحدى تلك الدارين ﴿وَعْدًا مَّسْئُولاً﴾[1]

(١) فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه وعد الله لهم بالجزاء فسألوه الوفاء فوفاه، وهو معنى قول ابن عباس.
الثاني: الملائكة تسأل الله لهم، فيجابون إلى مسألتهم، وهو معنى قول محمد بن كعب القرظي.
الثالث: أنه سألوا الله الجنة في الدنيا ورَغِبُوا إليه بالدعاء فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا، وهو معنى قول زيد بن أسلم. النكت والعيون (١٩٣/٣).

[الفرقان:١٦] وموضع لزام هذا الخطاب قوله الحق: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقال في إعادة الخلقة ثانية ﴿مِنْهَا﴾ يعني: الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] كذلك لما خلقنا مما انبنت عليه دار الدنيا من فيح وفتح أساع ذلك في أجواء الهواء من الأرض والأصول التي خلقنا عنها، كان ذلك لزامًا أن يعيدنا فيما خلقنا وعدًا بأنه ظاهرًا وباطنًا، ولم يكن لأحد أن يتخلص من النار التي صيرها عذابًا إلا برضاه، ولا يدخل الجنة التي جعلها نعيمًا وفوزًا وظفرًا بالمرغوب كله إلا برضاه، فامتن على عباده.

وبتبيين سبيل مرضاته من سبل مساخطه فخلق على ذلك عالمه أرضه وسماه وما بين ذلك، وأرسل به رسله وكتبه، فالجنة للمتقين التي دل عليها فيما هاهنا بفتح رحمته وما خلق عن ذلك، والنار للعاصين التي دل عليها فيما هاهنا بالفيح من جهنم - أعاذنا الله برحمته - ثم في هذه وهذه موجود دار الآخرة من رؤية الله - عزَّ جلاله - بما تبع ذلك من نعيم وجاه وإكرام في الجنة، وفي جهنم البعد عن الله الرحمن الرحيم - عز جلاله - نعوذ بالله من بعده وما تبع ذلك من مقت وهون وعذاب وخزي إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان:١٧] هذا منه تقرير للمتبوعين ليبين كذب التابعين لهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان:١٨] وقرأها الحسن: «سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نُتخَذ من دونك من أولياء» بضم النون وفتح الخاء، وكذلك روي عن النبي ﷺ من رواية معاذ - رحمة الله عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠] انتظم هذا بقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧] ردًّا عليهم.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان:٢٠] سبحانه وله الحمد قرب هذا ووالاه، وأبعد هذا ولعنه، وأعطى هذا ومنع هذا، وملك هذا

هذا وأخدم هذا هذا.

ثم أعلم بثقل ذلك على النفوس بقوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠] يخاطب الجميع، وهو أمر استاقه على صيغة الاستخبار، فوجب على صاحب البلاء أن يصبر على بلائه، وعلى المؤخر أن يعرف حقًّا للمتقدم عليه، والعبد أن يعرف لسيده الحق له عليه، وكان سياق هذا الكلام على صيغة الاستخبار تعريفًا بعظيم المثوبة، ثم قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠] أي: بما يكون منكم من صبر أو شكر، وتقدم في ذلك أو تأخر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾
[الفرقان: ٢١ - ٢٦].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١] لم يأت في القرآن العزيز ذكر اللقاء إلا بلفظ الرجاء، ولا بد من لقائه ﷻ فهي أعظم البشرى كما أن كراهة لقائه أكبر الكبائر بعد الشرك بالله والكفر به، بل عدم الرجاء للقائه من الكبائر، قال الله - عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ ثم عطف الكلام بوصف قوم آخرين فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧] ثم جمعهم في سوء المآل بقوله ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٨].

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ....﴾ [يونس:٤٥] ويتبع ذلك كراهة الموت، فإنه لا يرى أحد ربه حتى يموت، كذلك قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب العبد لقاء الله أحب الله لقاءه، وإذا كره العبد لقاء الله كره الله لقاءه**»(١) فهذه

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٦٩٩٦)، والترمذي (١٠٨٧)، والنسائي (١٨٤٧)، وابن =

بشارة منه وترغيب في مطالبة هذه الدرجة.

ولما قالت عائشة: يا رسول الله كلنا نكره الموت، ردها إلى بشارة أخرى دون تلك ذكرت هذا الفصل لما لزمنا من كثرة التغافل عنه حتى أورثنا ذلك كراهة الموت ومحبة البقاء في الدنيا، هذا هو المعهود من جميعنا إلا من شاء الله، نسأل الله حسن عائدته وتعجيل توبته علينا، إنه هو التواب الرحيم. فقال: «**ليس كذلك إن العبد المؤمن إذا حضره الموت وبشر برحمة الله أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت فبشر بالعذاب** - أو كما قال ﷺ - **كره لقاء الله فكره الله لقاءه**»[١].

وإنما

أتبع ذلك قوله: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١] أي: اشتراطهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا ربهم ﷻ.

ثم ذكر الموت بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٢٢] أي: بجبريل ﷺ بما قال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨] وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: عند الموت ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] أي: حرامًا محرمًا الرجوع إلى الدنيا والنظر إلى الله - جل ذكره.

يقول الله - جل ذكره: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[٢]

=

ماجة (٤٤٠٥)، وأحمد (٨٣٥٤)، وابن حبان (٣٠٧٢)، وعبد الرزاق (٦٧٤٩)، والدارمي (٢٨١٢) والقضاعي (٤١٠)، والطيالسي (٥٦٩)، والطبراني (١٦٢٨٦)، وأبو يعلى (٣٧٧٣).

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٦٩٩٨)، والترمذي (١٠٨٨)، وعبد الرزاق (٦٧٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٩٤٦)، وأحمد (١٢٣٧٣)، وابن حبان (٣٠٧٢).

(٢) قال الشيخ الألوسي (١٠٧/٦): إذ الجنة لا نوم فيها. وقال الليث: هي نومة نصف النهار، ودفع الاستدلال بأن ذلك مجاز، وإنما خص إنزال العذاب عليهم في هذين الوقتين لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب

=

[الفرقان:٢٤] اتصل معنى هذا الخطاب بمعنى ما تقدم من قوله: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾ [الفرقان:١٥].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥] هذا الكلام مقابل لقولهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١] فجاء بذكر الملائكة وذكر مُحيَّه النزيه الرفيع - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - وفي ذلك تعريض برؤية المؤمنين إياه يومئذٍ، يوم تتبع كل أمة ما كانت تعبد، ويتبع المؤمنون ربهم ﷻ يرونه بوعده الكريم عيانًا كما علموه في الدنيا يقينًا.

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان:٢٧ - ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[1]

= الأمن والراحة، وفي التعبير في الحال الأولى بالمصدر وجعلها عين البيات، وفي الحال الثانية بالجملة الاسمية المفيدة في المشهور للثبوت مع تقديم المسند إليه المفيد للتقوى ما لا يخفى من المبالغة ، وكذا في وصف الكل بوصف البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما إيذان بكمال الأمن والغفلة ، وفي هذا ذم لهم بالغفلة عما هم بصدده، وإنما خولف بين العبارتين على ما قيل وبنيت الحال الثانية على تقوى الحكم والدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لأن القيلولة أظهر في إرادة الدعة وخفض العيش فإنها من دأب المترفين والمتنعمين دون من اعتاد الكدح والتعب . وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر.

(١) ﴿مَهْجُورًا﴾ أي: متروكًا بالكلية، ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رأسًا، ولم يتأثروا بوعيده ووعده، فمهجورًا من الهجر - بفتح الهاء - بمعنى: الترك، وهو الظاهر، وروي ذلك عن مجاهد والنخعي وغيرهما. واستدل ابن الفرس بالآية على كراهة هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه؛ وكان ذلك لئلا يندرج من لم يتعاهد القراءة فيه تحت ظاهر النظم الكريم، فإن ظاهره ذم الهجر مطلقًا وإن كان المراد به عدم القبول لا عدم الاشتغال مع =

[الفرقان: ٣٠] أي: منفورًا عنه مباعدًا، ويكون من الهجر الذي هو قول الخناء.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان: ٣٢ - ٣٦].

قوله تعالى: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان:٣٢] أي: هلا نزل، وقد تقدم تحقق معنى «لولا» حيث جاءت في القرآن.

يقول الله - جل ذكره - ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، وذلك إشارة إلى مشار إليه، والمشار إليه المشبه به في نفس الخطاب، وتقديره: كذلك فعلنا نزلناه جملة واحدة إلى السماء الدنيا، وكان ذلك منا تنزيلاً له إلى صدره نوره وبركته، وجملة معرفة به، قام له ذلك في القرآن كعلم الفطرة لسائر المؤمنين، وكما ملأ جبريل - صلوات الله وسلامه عليهما - صدره وهو صغير حكمةً وإيمانًا.

دلَّ على صحة هذا التأويل قوله الحق: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: كذلك فعلنا بك ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ بذلك ﴿فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢] أي: قطعناه تقطيعًا على حسب النوازل، ودفع الحاجة من المؤمنين إلى تنزيله في مفترقات المواطن.

عبر عن ذلك قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] ثم جعل يسرد ذكر إرساله الرسل إلى القرون الماضية والأمم الخالية، وتدميره إياهم وإهلاكه لهم، وإعراض هؤلاء عن الاتعاظ بمن مضى منهم على

= القبول ولا ما يعمهما، فإن كان مثل هذا يكفي في الاستدلال فذاك وإلا فليطلب دليل آخر للكراهة، وأورد بعضهم في ذلك خبرًا وهو: «**من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول: يا رب، عبدك هذا اتخذني مهجورًا اقضِ بيني وبينه**» وقد تعقب هذا الخبر العراقي بأنه روي عن أبي هدبة وهو كذاب، والحق أنه متى كان ذلك مخلاً باحترام القرآن والاعتناء به كره، بل حرم وإلا فلا. تفسير الألوسي (١٤/٨٦).

ذلك، والغفلة عن النظر لأنفسهم في النجاة مما أصاب أولئك بطاعة الله وتصديق رسله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٤٦].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا...﴾ [الفرقان:٤١].

أتبع هذا كله ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان:٤٣] وقرئت هذه الآية: (أرأيت من اتخذ آلهة هواه)(١) يقول جلَّ من قائل: أنت لا تستطيع هدايته، ولا تملك صرفه عن غوايته، ثم وصفهم العليم الخبير، فحطهم عن درجة الأنعام في العقل والهداية، وناهيك من حَطيطه.

قوله - سبحانه وله الحمد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] سمى كل ما كان خلقًا للشمس ظلاً، وأخبر بذلك عما يكون ظلاً للأرض عن دوران الشمس، والشمس آية الله - جل ذكره - فيما هنا على تجليه العلي - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - في دار القرار فيمكن أن يكون مجيء هذا الخطاب قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ﴾ على معنى قوله: ألم

(١) هكذا النص، ولم أقف على قراءة فيها غير هذه، وانظر في تفسيرها: فتح القدير (١١٢/٤).

تر إلى ربك في آيته يخبر عن نفسه - جل ذكره - بآيته لاستقرار العلم في معهود النبوة والرسالة أن آياته لتحقيقها ما هي عليه، أنه يخبر بالدليل عن المدلول عليه، وهذا لقوة عين اليقين، فقال: ألم تر إلى ربك؛ معناه: ألم تر إلى آية ربك في الشمس ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ حين غابت الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ لجعل الليل ﴿سَاكِنًا﴾ لا براح له، والليل آية على آلهة باطلة، لكنه - وله الحمد - جعل ﴿الشَّمْسَ﴾ على الظل ﴿دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] لولاها ما عرف الظلام، وإنما تتبين الضلالة بالهداية والظلام بالضياء، وهكذا بضدها تتبين الأشياء، وإنما هو مثل ضربه له على إدالة الباطل على الحق في بعض الأحايين ونصر الحق على الباطل، وأن ذلك يكون بتدريج وأمر محكم.

لذلك قال، وهو أعلم بما ينزل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦] يقول لما عم الظل الأقطار: ﴿جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] فهي تطلع من مشرقها والأشخاص تقابلها فينبسط الظلال طولاً، فلا تزال تطلع هي، ويقبض الله تلك الظلال إليه؛ أي: تقدمها قليلاً قليلاً، حتى ينتهي القبض فيها حين استوائها، ثم تدحض عن كبد السماء غاربة فيزيد الظلال قليلاً قليلاً، وقد فات عن انبساطها طولاً في المغرب إلى المشرق، وذلك بسجود الشمس لخالقها - جل ذكره - فيسجد الظلال لسجودها.

هي تقول: لا يحزنك ما تراه من عُلو الباطل وخضوع الحق، فإنما هي أحوال نداولها بين الموجودات، وللصابر صبره وللشاكر شكره، وكما أن الشمس ساجدة حال طلوعها إلى حين استوائها شكرًا لبارئها ﷻ والظلال ساجدة خضوعًا لخالقها حال نقصها وقبضها عن طولها لطلوع الشمس في درجات ارتفاعها من الجو، كما هي قائمة حال استوائها، وقد تقدم أن سجودها وقيامها وجوبها في طريقها على مقادير السماوات.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يقارنها حال استوائها وأن جهنم تسجر حينئذٍ**»(١).

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٢٢٩٩)، وأبو داود (١٢٧٩)، والطبراني (٨١٠٥) وقال الهيثمي (٢/ =

وهي أيضًا - أعني: الشمس - ساجدة لله جل ذكره حال دحوضها إلى غروبها خضوعًا لخالقها، والظلال كذلك ساجدة لجاعلها شكرًا له حال امتدادها، فكذلك فاعبدوه أنتم في كلتي الحالتين، وسبحوه بكرةً وأصيلاً، وتعبدوا له شكرًا لنعمه وصبرًا على بلائه، حتى يأتي الله بأمره، فرض الله على عباده فرائضه على وفاق قنوت الموجودات، ذلك دين القيمة، فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

وهو أيضًا مثل على أن القيمة والذكر واللبس والبيان يتعاقبان، يعزي بذلك رسوله ﷺ ويعلم عباده أن ذلك طريق في الموجودات مسلوك، فلا تستوحشوا الدائرة الباطل، واعلموا إن مع العسر يسرًا.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ
بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟
فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ
فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا
فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ
وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٧ - ٥٧].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧] الليل يضرب مثلاً للجهل واللبس والنوم والضلال، والإشكال والفتنة والكفر والموت، ولجهنم - أعاذنا الله منها برحمته - ولآلهة باطلة

=

٢٢٥): فيه ليث بن أبي سليم وفيه كلام كثير، والبيهقي (٤٥٦٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٥٠)، والروياني (١٢٤٣).

والنهار يضرب مثلاً للبيان والنور والحياة والإيمان، والعلم والإبصار، وللإله الحق - جل وعلا - وللهدى والنشور وللجنة والذكر.

جاء التمثيل بكل هذا في القرآن والحديث بقوله: جعل ﴿اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: ضلةً وإشكالاً ولبسًا ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: موتًا على حياله، وقوله: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧] أي: بعثًا من ذلك الموت، آية منه على البعث من بعد الموت، وإخلافه الهدى بعد الضلال قدر هذا وهذا، وأوجدهما فتنةً وذكرًا وضلالةً وهدايةً ونورًا وظلمةً وإيمانًا وكفرًا وموتًا وحياةً.

يقول - عزَّ من قائل: فلا تحزن لضلال الضالين وتثبط المتثبطين وتكذيب المكذبين، فهذا وهذا من حكم الله في عباده، وحكمته في خليقته، وهذا كله المراد راجع به إلى ما تقدم ذكره من لدن صدر السورة إلى هنا.

أتبع هذا قوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان:٤٨] بالنون وبالباء، فالباء من البشرى؛ أي: بشر بالحياة والغيث، ويظهر ذلك في الجو وفي الهواء والأرض والنبات، كما يبدو أثر البشرى في وجه المبشر بها، وأمَّا النور؛ فلأنه ينشر السحاب؛ أي: يظهرها ويوجدها، فيبعثها ويرسل الرياح وينزل المطر وينبت النبات، فيخلق عن ذلك الأنعام وجميع الحيوان على اختلاف أجناسه، وتتغذى به الأناسي والبهائم، فيبعث الله عن ذلك الأنعام والحيوان كله والأناسي، وذلك كله نشور.

فكم في الماء النازل من السماء من نبات على اختلافه واختلاف روائحه وطعومه ومنافعه ومضاره إلى أقصى أوصافه، وكم فيه من حيوان وأنعام ووحوش وكل ذي روح، على اختلاف أنواع ذلك وتباين أوصافه وأخلافه وصوره وما وجد له، وكم فيه أيضًا من إنسان شيب وشبان وأطفال وكهول ونساء ورجال، على اختلاف أنواع ذلك وتباين صورهم وجمالها وقبحها وأخلاقهم وصفاتهم وحركاتهم وأفعالهم وكفرهم وإيمانهم وعلومهم وحلومهم وطاعاتهم وعصيانهم.

أشار إلى ما ذكرنا وأكثر منه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: الماء ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان:٤٨-٥٠] بالنشأة الأولى النشأة الآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله من تحت العرش ماء كمني الرجال، فلا يترك على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن إلا شقت عنه، حتى يخلقه الله من قبل رأسه ويستوي جالسًا»[١].

ويكون بمعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ إن المعني بذلك هو القرآن، صرفه إخبارًا وتمثيلاً وظاهرًا وباطنًا ونصًا وتعريضًا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[٢] [الفرقان:٥٠].

ويكون أيضًا المراد بقوله الحق: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان:٥٠] إنما صرفه إلى ما تقدم ذكره وإلى أكثر من ذلك، لكنهم تركوا التذكار وأعرضوا عن المذكرين ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] نسأل الله قرب الأوبة وتصحيح التوبة بمنه وطوله.

أتبع ذلك ما هو في معنى ما تقدم قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [الفرقان:٥١].

ثم قال: ﴿فَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢] إذا كان الخصام والمحاجة في ذات الله سبحانه وتبيين آياته فهو جهاد، ومتى كان لطلب العلو والظهور على الخصماء والارتفاع على الأقران فهو الجدال، وهو مذموم، هذا إذا جاء اسم الجدال معرى من القرائن، فإذا جاء مقيدًا كقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] فهذا محمود.

قوله - جلَّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣] البحر العذب مثل للإيمان وللهدى وللإله الحق، والبحر الملح مثل للكفر والهلاك والضلال وللآلهة الباطلة،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦٧٦/٨)، والحاكم (٨٦٥٨)، والبيهقي (٣٦٠).

(٢) قال عكرمة: هو قولهم: «مطرنا بالأنواء». روى الربيع بن صبيح قال: أمطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ذات ليلة، فلما أصبح قال النبي ﷺ: «أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهَا بَيْنَ رَجُلَيْنِ شَاكِرٍ وَكَافِرٍ ، فَأَمَّا الشَّاكِرُ فَيحْمِدُ اللهَ عَلَى سُقْيَاهُ وَغِيَاثِهِ وَأَمَّا الكَافِرُ فَيقُولُ مطرنا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا». النكت والعيون (٢٠٤/٣).

يقول ﷻ: مرج هذا مع هذا فاختلطا على حد محدود حده لهما، فلا يبغي العذب المحض على المختلط منهما والملح، ولا موضع المختلط يتعدى قدره إلى هذا ولا إلى هذا.

يقول - جلَّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ يعني، وهو أعلم: موضع اختلاطهما ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣] في الثلاثة الأصناف، حيث رق الملح والعذب، وحيث رق المختلط ومحض الملح من الطرف الآخر، والوسط الذي هو حقيقة البرزخ؛ أي: منعًا لكل واحد منهما أن يتعدى حده، ثم قد يكون الحلي المستخرج من البحر المالح واللحم الطري أكثر حدًا، وأحسن ذلك؛ لأنه قدر الفتنة في هذه الدار أكثر، وجعل دوائرها على الأغلب أكثر، والدنيا إلى ذلك الحزب أميل بمتاعها وحطامها، كذلك البحار المالحة أكثر ماء من العذبة وأوسع حدًا، ويكون معنى إيراده هذا في معرض التعرية لنبيه ﷺ والمؤمنين؛ لأجل غلبة الباطل ذلك الوقت وفي أكثر الأحوال إلا ما شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤] نبه - جل ذكره - على قدرته على خلق البشر من الماء، وأن موجود الإنسان من كونه ماء، كما قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس:٧٧] وأنه نوعه نسبًا وصهرًا، فالنسب ما لا يجوز النكاح فيه كالأم والأخت والعمة والخالة، وما قد ذكره الله في كتابه وبينه رسوله، وجعل منه صهرًا، وهو ما ينكح إليه، وهو ما شمله قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ﴾ [النساء:٢٤].

فصل

قال الله - جل قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] أي: يبين عن نفسه مراداته في خصومته، ويعرب بحجته - عز شأنه - ويكون المراد أيضًا بقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي: مجادل في الله وفي آياته، ويصد عن سبيل الله ويملأ الأرض جورًا وظلمًا، كفرعون والدجال ومن تبعهما وكل من دعا إلى نفسه، وقال هنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤] فهذا إخبار منه - والله أعلم بما ينزل - عمن أتم الله عليه نعمته، فانتسابه إلى الربانية.

يقول: ربي الله ربي الله وحده لا شريك له، وربما سمي بعبد الله وعبد الرحمن، وبغير ذلك من أسماء العبودية لله - جل ذكره - ويرفع ذكره ويعلي شأنه، حتى ينسبه إلى نفسه بالعبودية والولاية كقوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ﴾ [الأعراف:١٩٦] ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ فهذا انتساب بعضهم إلى بعض، وأمَّا انتسابهم إليه فالتقوى؛ لذلك قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وفي الثابت عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يقول الله - جلَّ من قائل: يا أيها الناس إني طال ما صمت وتكلمتم، فاصمتوا لي إني جعلت نسبًا ورحمًا، فقلت: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، فأبيتم إلا أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون، ويتزوج عبد الله أمة الله على كلمة الله وسنة رسول الله يصدقها مال الله، يأكلان ما رزقهما الله**»[(١)].

قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر المؤمنين لو تعلمون ما أعلم**» إلى قوله: «**لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته**»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «**مولى القوم منهم**»[(٣)].

وقال الله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨] فالانتساب إلى الله ﷻ بالعبودية له وابتغاء مرضاته يدخله في ولايته ورحمته.

وقال ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء:٢٥] ولله المثل الأعلى في السماوات

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٨٥)، والبيهقي (٤٩٢٣)، والطبراني في الصغير (٦٤٢) وفي الأوسط (٤٥١١) وقال الهيثمي (٨/٨٤): فيه طلحة بن عمرو وهو متروك.

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠)، وابن ماجة (١٢٦٣)، ومالك (٤٤٤)، وأحمد (٢٥٣٥١)، وابن الجارود (٢٤٩)، وابن خزيمة (١٣٨٧).

(٣) سبق تخريجه.

والأرض، هو الله الأحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣ - ٤].

لذلك - والله أعلم بما ينزل - ختم المعنى بقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤] فنسب نبيه ﷺ إلى نفسه، واتصف بالقدرة على خلقه من ماء إلى أن سواه وبلغ به هذا الجاه العريض.

أتبع هذا قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] يشنع عليهم عظم ضلالتهم وبيان جسارتهم، يقول - عز من قائل - على هذا البيان وظهور هذه الحقائق، وشياع هذا النور، ووجدان هذا التقريب، وعلو المنزلة وسني المرتبة: هم على هذا من عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان:٥٦] يقول - جل ذكره: امضِ لأمرك، وداوم على ما فيه رضا ربك، فأجرك على الله لا عليهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٨ - ٦٢].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: اعمل له بطاعته ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨] أي: كلهم إلى من إليه إيابهم وعليه حسابهم، ألا يرون أنك لا تسألهم على ما تبلغه إليهم أجرًا، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً؛ أي: عهدًا يوافيه عليه، واستثنى هدايتهم في الأجر تعريضًا بالمفهوم، من قوله ﷻ: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء:٨٥].

وبيَّن رسول الله ذلك بقوله: «من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به إلى

يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»[(١)].

قوله ﷻ: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ يعني: خبيرًا بالحي الذي لا يموت، خالق ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الذي ﴿اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ الذي هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان:٥٩] ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، الخبير به هو آياته في السماوات والأرض وما بينهما، وهذا هو الذي تصح الإحالة عليه في السؤال عنه.

ولما أمر رسوله ﷺ وأمره له أمر منه لكل عبد من عباده بأن يتوكل على الحي الذي لا يموت إلى قوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ - جل ذكره - قال له: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] تقدير الكلام: فأسال عنه خبيرًا، وقراءة زيد بن ثابت الرحمن بالكسر نعتًا للحي الذي لا يموت - جل ذكره - تمجد تبارك وتعالى دالاً على الخبير به.

ثم قال - عز من قائل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾[(٢)] [الفرقان:٦١] فمفهوم الخطاب سل عنه السماوات والأرض

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٢٠٦)، وأحمد (٩١٤٩)، وأبو يعلى (٦٤٨٩)، وابن حبان (١١٢)، والدارمي (٥١٣).

(٢) الظاهر أنها البروج الإثنا عشر المعروفة. وأخرج ذلك الخطيب في كتاب «النجوم» عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - وهي في الأصل: القصور العالية، وأطلقت عليها على طريق التشبيه؛ لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها، ثم شاع فصار حقيقة فيها. وعن الزجاج: إن البرج: كل مرتفع، فلا حاجة إلى التشبيه أو النقل. واشتقاقه من التبرج بمعنى: الظهور، والذي يقتضيه مشرب أهل الحديث أنها في السماء الدنيا، ولا مانع منه عقلاً لا سيما إذا قلنا بعظم ثخنها بحيث يسع الكواكب، وما تقتضيه على ما ذكره أهل الهيئة، وهي عندهم أقسام الفلك الأعظم المسمى على ما قيل بالعرش ولم يرد فيما أعلم إطلاق السماء عليه وإن كان صحيحًا لغة سميت بأسماء صور من الثوابت في الفلك الثامن وقعت في محاذاتها وقت اعتبار القسمة، وتلك الصور متحركة بالحركة البطيئة كسائر الثواب، وقد قارب في هذه الأزمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولاً، وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعي، وهي نقطة معينة من معدل النهار لا تتحرك بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطة أخرى من منقطة البروج تتحرك بحركته، وإذا لم يتحرك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرك ما عداها، وقد جعل الله تعالى ثلاثة منها ربيعية؛ وهي: الحمل والثور والجوزاء، وتسمى «التوأمين» أيضًا، وثلاثة صيفية؛ وهي: السرطان والأسد والسنبلة، وتسمى «العذراء» أيضًا، وهذه الستة شمالية. وثلاثة خريفية؛ وهي: الميزان والعقرب والقوس، ويسمى «الرامي» أيضًا. وثلاثة شتوية؛ وهي: الجدي والدلو ويسمى «الدالي» و«ساكب الماء» أيضًا، =

والبروج والشمس والقمر، وأحال بالمعنى على كل ما خلق الله من شيء بمقتضى اسمه الرحمن، ومفهوم استوائه على العرش.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٦٧].

وألحق بذلك - أي: بالخبر به - عباده الذي هم عباد الخصوص فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] الذين من صفاتهم كذا ومن نعتهم كذا ومن عملهم كذا إلى آخر المعنى؛ أي: فبهذه الأعمال والنظر والتفكر في هذا السبيل يدرك العلم بالله الحي الذي لا يموت، خالق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، الرحمن الذي استوى على العرش، يدبر الأمر، قربه من العرش كقربه من الثرى بوجه ما، وبمعنى يستحق الوصف به، يعلم السر وأخفى وما يعطف له العقبى، ولا يعزب عنه شيء دقَّ أو جلَّ في العلا ولا فيما تحت قرار المنتهى.

فصل

أعلم الله ﷻ أنه استوى على العرش، ولم يعلمنا بأنه أحدث لذاته وصفًا لم يكن عليه قبل، فالاستواء صفة فعل في المستوي له والمستوي عليه، وينزل من المستوى الأعلى - جل ذكره - وذلك الفعل الذي هو الاستواء يوجب في

=

والحوت تسمى «السمكتين» وهذه الستة جنوبية، ولحلول الشمس في كل من الأثني عشر يختلف الزمان حرارة وبرودة الليل والنهار طولاً وقصرًا، وبذلك يظهر بحكم جري العادة في عالم الكون والفساد آثار جليلة من نضج الثمار وإدراك الزروع ونحو ذلك مما لا يخفى، ولعل ذلك هو وجه البركة في جعلها. تفسير الألوسي (١٤/١٣٠).

المستوي له والمستوي عليه كمالاً وإتمامًا، إلى غاية من شأنه أن يبلغه إليها بالاستواء، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي: أتمهن وفصلهن سبعًا، ثم اتصف بالعلم بعد هذا فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

وقال في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: أتممته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أكملته ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:٧٢] فأهله للإمامة؛ لكماله المجعول فيه بالتسوية ونفخ الروح فيه منه، وكان من تسويته إياه أن جعله مجتبى ومصطفى مؤيدًا بالروح العلي منه، وبذلك علم الأسماء كلها، وبتعليم الله له قال رسول الله ﷺ: «**يؤم القوم أعلمهم وأقرؤهم لكتاب الله**»[١] وفي أخرى: «**وأفقههم**»[٢].

ومن الدلالة على أن أمره ﷻ الملائكة - عليهم السلام - كان على سبيل الإتمام به؛ ليسجد آدم لله إثر نفخ الروح فيه وإكماله إياه بذلك، فيسجدوا لسجوده لله - جل ذكره - ائتمامًا به، صلوات الله وسلامه على جميعهم، قول رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»[٣] ومن نظر تفقه وعلم لربه تعالى وقف على أن جميع سجود القرآن كله ائتمام بسجود الملائكة وسجود الموجودات.

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أحدكم وحده فأذن وأقام صلى معه أمثال الجبال من الملائكة، فإن أقام فصلى صلى معه ملكاه، فما بقي من تلك الإمامة في صالحي ذريته وراثة، ولا ينال عهده الظالمين**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٣)، وأبو داود (٥٨٢)، والترمذي (٢٣٥) والنسائي (٧٨٠)، وابن ماجة (٩٨٠)، والبيهقي (٤٩١١)، وابن أبي شيبة (٣٤٥١) وأحمد (١٧١٠٤) وعبد الرزاق (٣٨٠٩)، والحميدي (٤٥٧) وابن الجارود (٣٠٨)، وأبو عوانة (١٣٦٣) وابن حبان (٢١٢٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٩/١)، والطبراني (١٤٠٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (٨١)، وابن ماجة (١٠٥٢)، وابن حبان (٢٧٥٩)، وأحمد (٩٧١١)، والبيهقي (٣٥١٦) وابن خزيمة (٥٤٩) وأبو عوانة (١٩٤٥) والطبراني (٩٤٦٣).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٥)، والطبراني (٦١٢٠)، وأبو نعيم (٣٢/٦).

عدل بنا الكلام فلنرجع إلى ما كنا فيه، قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] وقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبأ:٣] سبحانه وله الحمد استوى على العرش، وهو الحي الدائم القيوم الرحمن، فحييت الحملة باستوائه، وقامت بقيوميته وتواصلت وتواشجت، وتعاطفت برحمانيته علوًّا وسفلاً وظاهرًا وباطنًا، فهو لذلك أقرب إلى الموجود من نفسه وروحه وذاته، وأقرب من القرب؛ ذلك لمضاء صفاته وعظمة شأنه بحكم الاستواء الذي هو فعله وأمره على ذلك يظهر أمره وتدبيره وحكمه وخلقه على سنن سنته، إلى ما سوى هذا من مقتضيات أسمائه وصفاته.

هذا بحكم التنزل المعبر عنه بالاستواء، آية ذلك تسويته الأجسام بأرواحها وحياتها وصفات ذواتها، وبذلك يحيا المحل ويعلم ويقدر، ويحسن ويعقل ويدرك ما يصيب محله ذلك من لذة وألم، وقد كان ذلك المحل قبل استواء الروح عليه الذي هو العبد بضد ذلك.

والله ﷻ أعلى صفات وأجلى وصفًا لم يزل عالمًا لما قبل الاستواء وبعده، لكن بالاستواء قرب إلينا تحقيق ذلك بالعلم والمشاهدة منا لأنفسنا، قال الله - جل ذكره: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] وقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠ - ٢١].

فجعل استواء الروح في الجسم وحياة الجسم به وعلمه ما يصيب جسمه آية على ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] وقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البروج:٩].

﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] من تحقق في علم هذه الجملة وعلم ما أشير إليه فيها على القدر المقسوم منه للبشري الضعيف وصل إلى اليقين بذلك، ويسر له ما عسر على سواه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

وإنما يكون ذلك بترداد الفكر وتدأب التذكر، والمواظبة على البصر والتبصر بعد اللجأ إلى الله - جل ذكره - كما تقدم، واقتفاء سبل الموصوفين الذين هم عباد الرحمن، فيعطى من علم ذلك على قدر ما بذل من جهده، واستفرغ له من وسعه، وكان - إن شاء الله - من أئمة المتقين، والله ﷻ قد شهد لهم بأنهم عباد الرحمن، وبأنهم الخبراء بعلم العلماء به أحال الطالبين علمه عليهم، كما أحالهم على استرشاد الصنعة ومسألة عجائب الخلقة عند المباحثة.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٧].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧] أي: ما يبالي بكم أو ما يصنع بكم؛ أي: بإرساله رسله إليكم، وإنزاله كتبه عليكم، وإنذاره إياكم وإعذاره لكم، لولا أنه يدعوكم إلى عبادته، فيجازيكم بذلك جنة عرضها السماوات والأرض ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بدعائه إياكم إلى ذلك، وإرشاده لكم إلى مراشدكم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب أو العقاب ﴿لِزَامًا﴾ [الفرقان:٧٧] أي: واجبًا دائمًا، وقد تقدم الكلام في وجوب وجود الخزائن في الدار الآخرة؛ إذ قد تقدم خلقه إيانا منهما.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥] ومن حكمته في الحكمة التي أوجدها ردها على أعقابها وبالمشيئة العالية، ثم بالأمر والنهي، ثم الطاعة من العباد أو العصيان، يختص فريق بالجنة وفريق بالسعير، نعوذ بالله من عذابه، ونسأله رحمته وعميم عافيته ﴿والله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

تفسير سورة الشعراء[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣
إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ
مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨

(١) موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعًا، العقيدة: ملخصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ والخوف من الآخرة: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ثم التخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين؛ وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ذلك إلى تسلية الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين؛ وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين؛ كما ثبت من قبلهم من المؤمنين، وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها، والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب، والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد، ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض، ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلها جو الإنذار والتكذيب، والعذاب الذي يتبع التكذيب، ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله ﷺ واستهزاءهم بالنذر، وإعراضهم عن آيات الله، واستعجالهم بالعذاب الذي يوعدهم به؛ مع التقول على الوحي والقرآن؛ والادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين! والسورة كلها شوط واحد مقدمتها وقصصها وتعقيبها في هذا المضمار، لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء: ١ - ٩].

قوله - جلَّ من قائل: ﴿طسم[١] * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الشعراء: ١ - ٢].

وقال في سورة النمل: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١].

وقال في سورة الحجر: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١].

عطف القرآن على الكتاب، فدلَّ بذلك على أن الحروف المقطعة هذه آيات على الكتاب الأول، كما هي آيات على القرآن وآيات الله التي نصبها شواهد على معرفته، وإن كثرت بكثرة الموجودات وتنوعت بتنوعها، فإنها تبرم إلى موطنين على علمنا، والله أعلم بما وراء ذلك، وهما آياته في موجود ما خلقه، وأوجده وآياته في كتابه فيما نزله وأوحى به، فمن آياته على ما أوحى به حروف الكتابة التي بها يتوصل إلى قراءة كتابه وفهم المراد منه.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:٤٨] وذلك منَّة منه ﷻ وهبة لمن يفكر فيها، لم يكن لمتعلمها أن يعلم منها قراءة المكتوب وفهم المراد منه، لولا منَّة الله عليه بذلك.

وقد نبه الله - جل ذكره - عليها من منه بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤] وقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

(١) قال الإمام الجنيد: الطاء طرب التائبين في ميدان الرحمة. والسين سرور العارفين في ميدان الوصلة. والميم مقام المحبين في ميدان القربة، وقيل: الطاء طهارة القدم من الحدثان والسين سناء صفاته تعالى التي تكشف في مرايا البرهان. والميم مجده سبحانه الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان. وقيل: الطاء طهارة قلب نبيه ﷺ عن تعلقات الكونين. والسين سيادته ﷺ على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. والميم مشاهدته ﷺ جمال رب العالمين، وقيل: الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى، والميم محمد ﷺ [تفسير الألوسي (١٤ /٤٠٢)].

وقال المهائمي: أي: الطوالع الساطعة للأنوار الماحية للظلمات، أو طوافح الدلائل المساعدة للتحقيق المذهبة للترددات، أو طيبات البراهين السالمة عن القوادح المؤيدة بالكشف، أو طامسات الجهل سريعة الإزالة للعوارض المزيلة للشبهة. [التبصير ١٠٣٤/٣] بتحقيقنا.

وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١] يقول: لولا تعليمنا إياكم.

واعلم أن هذا المعنى المشار إليه ينشأ من لدن أدنى ما عبرت عنه الكتابة إلى أن يعبر عن كلام الله - جل ذكره - وفهم مراده في الكتب المنزلة سواه، ثم ينشأ ذلك إلى معرفة ما هي هذه الحروف المقطعة التي هي حروف هذه الكتب آيات عليها، ثم إلى حروف الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ، فإنها أفصح عبارة وأوضح دلالة وأنور تبيانًا، مما تقدم على مقدار ما بين الحروف والحروف من خصوصية ورفعة وكذلك العلم بمفهومها.

وذلك المشار إليه المعبر عنه بأنه الهبة والمنة ينشأ التفاضل فيه من لدن أقل الناس معرفة بقراءة الحروف ومعرفة المراد من المكتوب بها إلى العلماء بذلك، ثم إلى علم الملائكة - عليهم السلام - بمكتوب الكتاب المحفوظ، ومعرفة ما عبرت عنه حروف كتابته.

وأمَّا علم الله - جل ذكره - بالكتابة والمكتوب فكعلمه بمشاهدته ما ذكر فيه بتوابع ذلك المعلوم وباطنه وظاهره نظرًا وسمعًا وعلمًا، ولا يحل اعتقاد حدوث الزيادة في علمه ولا النقصان، بل هو شهود حق وعلم حق ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] ينتظم هذا بما تقدم ذكره في غير هذه السورة من ذكر تعزيته إياه، والتهوين عليه من قلة استجابتهم وتوليهم عن الذكر، يقول: **لعلك** مهلك نفسك من أجل تركهم الإيمان بما جئت به، ومفهوم ذلك: أنا لم نرد إفهامهم ولا إيمانهم، فلا يحزنك منهم، لو شئنا ذلك لأتيناهم بآية تخضع لها رقابهم، وينعدم لعزيمتها نفارهم، ثم أكد ذلك عنده بما يظهر من أحوالهم، أولا ترى أنهم ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ أي: محدث الإتيان ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥].

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء:٦] وعيد منه بالإهلاك الذي أصاب به سواهم من الأمم الماضية والقرون

الخالية، يمكن أن يكون المعنى بالآتي لهم هو ما اجتلبه في السورة من إهلاكه من كان قبلهم بمثل ذنوبهم هذه، من تكذيب الرسل والرد عليهم، ويمكن أن يكون المراد بذلك هو ما يكون منهم في الموت وما بعده، وما يصابون به فيما هنالك.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ [الشعراء:٧ - ٨] أي: على إحياء الله الموتى وعلى بعثهم من بعد الموت، وعلى أن الله هو الحق، وعلى إرساله الرسل، وعلى أن الآخرة موجودة، وعلى هذا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ﴾ ذو الانتقام ممن عصاه وكذب رسله ورد أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٨ - ٩] لمن آمن به وصدق المرسلين، الرحيم الذي لم يعاجل المكذبين بإهلاكه ونقمته.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠ - ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠] قوم فرعون، إلى قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾(١) [الشعراء:١٣].

(١) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ معطوفان على خبر «إن» فيفيد أن فيه ﷺ ثلاث علل: =

وقال في موضع آخر: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه:٢٧ - ٢٨].

وقال في موضع آخر: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص:٣٤] كان ذلك به لما خرج من مصر، وبعد عهده بلسان القبطيين، وجاور العرب في بلد مدين، ومن المعهود أن يكون الرسول على لسان المرسل إليهم ليبين لهم، اعتذر بعجمة لسانه، وكان هارون - عليهما السلام - لم يغب عن حضرة مصر وإن كان عبرانيًا، فإنه كان من أجل ملازمة الحوار فصيحًا بلغتهم.

قول فرعون لما قالا له - عليهما السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] يقال: رسول للواحد، وللكثير: هذا رسولي، وهؤلاء رسولي، وهذان رسولي.

ثم ﴿قَالَ﴾ لهما ﴿فِرْعَوْنُ﴾ بعد كلام جرى بينهما: ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] وما لا يسأل بها في لسان العرب، وفي غيره من الألسنة إلا عن ذي جنس، فمن سأل بها عن الله فهو غالط بكل وجه، وكان فرعون دجالاً علا في الأرض وطغى، ودعا إلى نفسه فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] وعند من

خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان، والظاهر ثبوت الأمرين الأخيرين في أنفسهما غير متفرعين على التكذيب؛ ليدخلا تحت الخوف، لكن قرأ الأعرج وطلحة وعيسى وزيد بن علي وأبو حيوة وزائدة عن الأعمش ويعقوب بنصب الفعلين عطفًا على ﴿يَكْذِبُونَ﴾ [الشعراء:١٢] فيفيد دخولهما تحت الخوف، ولأن الأصل توافق القراءتين قيل: إنهما متفرعان على ذلك، كأنه قيل: ربِّ إني أخاف تكذيبهم إياي ويضيق صدري انفعالاً منه، ولا ينطلق لساني من سجن اللكنة وقيد العي بانقباض الروح الحيواني الذي تتحرك به العضلات الحاصل عند ضيق الصدر واغتمام القلب، والمراد: حدوث تلجلج اللسان له ﷺ بسبب ذلك كما يشاهد في كثير من الفصحاء إذا اشتد غمهم وضاقت صدورهم، فإن ألسنتهم تتلجلج حتى لا تكاد تبين عن مقصود، هذا إن قلنا: إن هذا الكلام كان بعد دعائه ﷺ بحل العقدة واستجابة الله تعالى له بإزالتها بالكلية، أو المراد ازدياد ما كان فيه ﷺ إن قلنا: إنه كان قبل الدعاء أو بعده، لكن لم تزل العقدة بالكلية، وإنما انحل منها ما كان يمنع من أن يفقه قوله ﷺ فصار يفقه قوله مع بقاء يسير لكنة. تفسير الألوسي (١٧٢/١٤).

يذهب مذهبه أو ينحو نحوه إن كل ذي حقيقة قائمة بنفسها فهو الحق، ويصلح أن يسأل عنه فيقال: ما هو، وجعلوا هذا من حد السؤال عن كل جوهر قائم بنفسه.

فقوله - لعنه الله: ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] كأنه يقول: أليس هو الحق وأنا الحق أيضًا، فأجابه موسى عليه السلام بما هو مبطل لحجته لو يعقل بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] أي: إن كنت توقن أنك لست بخالق السماوات والأرض وما بينهما، وهذا موضع اليقين لو اهتدى لعلم أنه من خلق السماوات والأرض وما بينهما هو المالك لذلك كله، وفرعون ومن تبعه مما بين السماوات والأرض ف﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:٢٥] قوله هذا يدل عليه بأنه لم يسمع مقالته، ولم يفهم عنه مراده بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦].

فصل

أصل الدجل: إبليس لعنه الله، قال الله - جلَّ من قائل - للسامري على لسان رسوله موسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه:٩٧] فقوله: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ كناية عن العزة، وأنه لا يعاصب، وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه:٩٧].

قول إبليس، لعنه الله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] إلى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧] ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩ - ٤٠] فأجاب رب العزة على ذلك منه: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٤١-٤٣].

المعنى كله كما جاء، وأنه لما أراد الله - جل ذكره - أن يستخلف في الأرض الساجدين من ذرية آدم خلقه من تراب، وأمر الملائكة بالسجود له إذا سواه ونفخ فيه من روحه، وفي ذلك وجوب وجود السجود من آدم خالقه ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص:٧٣] ائتمامًا به ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [ص:٧٤] لم يكن يومئذٍ من الساجدين؛ لأنه لم يكن في الأزل كذلك: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ

السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] يقول: ألا سجدت فتكون مع الساجدين الذين أستخلفهم في الأرض وملائكة السماوات والأرض؟ وكذلك قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا﴾ [الأعراف:١٢] تكون من الساجدين؟.

ثم كان بعدما كان منه من إغوائه آدم وزوجه حتى أخرجه من الجنة، وجعلت الدنيا سجنه، فبكى آدم عليه السلام قيل: إنه بقي ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حزينًا باكيًا، ولم يكن بكاؤه ذلك كله على خروجه من الجنة فقط، بل خوفًا من نفسه وعدوه، وأنه في منزل القرب ومحل الأنس، ظفر منه ببعض بغيته، فكيف يكون الحال هاهنا؟! ثم توفى - صلوات الله وسلامه عليه - وخلفه بعده الأئمة من ذريته، وفي أثناء هذا ظفر من ابنه القاتل أخاه ببعض بغيته أيضًا، ففر القاتل إلى الجبل، وانسل بها، ومنعه أبوه حضور المجلس واحتجب عنه.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣] أي: مهديين، فاختلفوا هذا محذوف، قيل: إن أصل اختلافهم أن نسل القاتل تشوقوا بعد موت آدم عليه السلام وبعد مضي جل زمان الأئمة من بعده إلى الاجتماع ببني أعمامهم في السهل، فنزلوا إليهم وخالطوهم وواقعوا النساء بعضهم في بعض على غير وجه الحلال، فكان عن ذلك أولاد الزنا، فهم الذين زيَّن لهم الشيطان عبادة غير الله، وتفرقت بهم في الكفر الطرق، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

ويكون المعنى أيضًا: كان الناس أمة واحدة في الكفر؛ يعني: الجاهلية التي أرسل إليها نوح عليه السلام وذلك بعد الهداية ثم الاختلاف.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن
يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾
وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ

ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ
﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا
لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ
سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا
خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن
مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا
تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ
يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ
﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى
ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا
بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ
وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠)
وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
(١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) ﴾ [الشعراء: ٢٩ - ١٠٨].

يقول الله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٠٥-١٠٧] إلى آخر المعنى.

وقال: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣] فكان من شأنه وشأنهم ما قصه الله - جلَّ ذكره.

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ
حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا
لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ
فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا
بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٩ - ١٣٠].

ثم قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٥] إلى آخر المعنى.

وقال: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩] فكان من شأنه وشأنهم ما قد قصه الله - جل ذكره.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ
﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ
﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣١-
١٥٤].

ثم قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٤١-١٤٤].

وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

هَذِهِ نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله﴾ [الأعراف:٧٣] ثم كان من شأنه وشأنهم ما قد قصه الله ﷻ.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ
ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى
وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ
﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن
نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾
قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾
وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾
[الشعراء: ١٥٥ - ١٩٤].

ثم قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٦٣] فكذبوه، فكان من شأنه وشأنهم ما قصه الله - تبارك وتعالى.

ثم قال - عز من قائل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٩].

وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٧٣] إلى آخر القصة، فكان من شأنه وشأنهم ما قصه الله ﷻ.

وقد كان في زمان إبراهيم عليه السلام الجبار الذي ابتلي به لما قال له إبراهيم وقد سأله عن ربه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] وكذلك كان جل من تقدمه من الرؤساء يعبدون ويدعون إلى أنفسهم، والأتباع يعبدونهم ويعبدون الأصنام والطواغيت؛ كملك أصحاب الأخدود وغيره، إلى أن بلغت النوبة إلى فرعون، فتعبد أتباعه، واستعبد بني إسرائيل، وذبح الرجال واستحيى النساء.

وكان ذلك عقوبة لفعل آبائهم بيوسف عليه السلام لما غربوه واستعبدوه فباعوه، وزيدوا هم على ذلك نكالاً وطول مكث في البلاء، ثم لم يزل ذلك في علمائهم يستتبعون الأتباع ويترأسون عليهم، وفيما قيل أن الله - جل ذكره - أوحى إلى أرميا عليه السلام أن هؤلاء القوم - يعني: بني إسرائيل - تركوا ما أكرمت عليه آباءهم، وابتغوا الكرامة من غير وجهها.

أمَّا أحبارهم ورهبانهم: فاتخذوا عبادي حولاً من دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي، حتى أجهلوهم أمري وأنسوهم ذكري وغروهم مني، فبطروا نعمتي وأمنوا مكري، وبدلوا كتابي ونسوا عهدي، وضيعوا أمري ثم هكذا.

أمَّا الكفار: فرؤساؤهم يدعون إلى أنفسهم من دون الله.

وأمَّا الأتباع: فعلى ما تقدم ذكره.

وأمَّا من آمن وطال بهم العهد: نسوا كثيرًا مما ذكروا به، فرؤساؤهم تملكوا الأتباع، والأتباع على دين ملوكهم، والعلماء على ما تقدم ذكره من وصف الله لهم

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:٤٠] ثم كذلك إلى أن بعث رسول الله محمد - صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين - ظهر في أيامه علم الدجال في ابن صائد ثم خفي، وكان ﷺ يقول: «**أنذرتكم الدجال وكل نبي قد أنذره قومه، حتى أن نوحًا قد أنذره قومه**»[١] ولم يكن الأنبياء والمرسلون لينذروا قومهم، ويبعث الله ذلك على ألسنتهم إلا لأنه في أممهم كما تقدم ذكره من الرؤساء والملوك.

وخطب رسول الله ﷺ وذكر الدجال فخفض فيه ورفع، حتى ظنوا أنه في طائفة النحل، وهو يعلم أنه غير مدركهم، ولما أصبحوا رآهم كاسفة ألوانهم فسألهم عن ذلك فقالوا: يا رسول الله إنك ذكرت الدجال بالأمس فخفضت فيه ورفعت حتى ظننا أنه في طائفة النحل فقال: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج من بعدي فالله خليفتي على كل مسلم، أخوف ما أخاف عليكم أئمة مضلين**»[٢].

وفي أخرى: «**أنا من غير الدجال أخوف عليكم مني من الدجال أئمة مضلين**»[٣] ثم كذلك حتى يأتي أمر الله.

فالدنيا مقسمة قسمين: ذكر وفتنة، ففي قسم الفتنة الدجل وهو أعظمها، وهو لها كالعمود الذي عنه تتفرع الفتن كلها، وفي قسم الذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض لا فتنة فيه، وهو للذكر كالعمود وعنه يتفرع الذكر كله.

وجاء في بعض النبوات: أن الله - جل ذكره - قال لبعض الأنبياء: «قد أقمتك نظارًا فانظر ما ترى» فزوى له الأمر - والله أعلم - فقال: أرى قضيبًا سامرًا، قال له: «حسن ما رأيت؛ لأني سامر على كلمتي لأتمها» يمكن أن الذي أراه هو قسم الفتنة والدجل؛ ولذلك قال: أرى قضيبًا سامرًا، فسماه قضيبًا؛ إذ به وبسببه يعاقب من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٩) ومسلم (١٦٩) وأبو داود (٤٧٥٧) والترمذي (٢٢٣٥) وأحمد (٢٤٤٠٥)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٥١٢).

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٨٦١٤)، والطيالسي (٩٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤٦/٦)، وأحمد (٢٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٣٥).

قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٧] ويكون المعني بقوله: لأني سامر على كلمتي لأتمها؛ أي: كلمته في قسم الذكر، هذا على المعنى الأول، ثم يكون التداخل بين المعنيين، وإتمام كلمته الحق بالذكر في هذه الدار موقوف انقضاؤها على آخر مدة عبده ورسوله عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - وأمَّا القسم الآخر فمدة الدجال، ثم لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس.

فصل

وأكبر الدجل وأسوأه عائد وجوده في الإسلام؛ إذ الكفار أموات الدين غير أحياء، وما لجرح بميت إيلام، فالعقوبة عليه في الإسلام لازمة، والعتاب من أجله كثير، ألا ترى إلى بني إسرائيل لما اتخذوا ما أخرج لهم السامري عن حليهم عجلاً جسدًا له خوار ما أكثر تكرار العتاب عليه، وإن كان قد تاب عليهم من ذلك؛ لأن عقوبات الله عليه لازمة، ولو حصلت التوبة من الخطيئة فإن زلل العادات وعقوبة المثوبات تظهر في الأفعال، وتخرج من النسل على سنن الشبه الكائن عن النسل؛ لذلك قال رسول الله : ﷺ «**الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[1] ألا ترى أن الدجال الأعور - لعنه الله - خارج فيهم وبهم، ثم انظر إلى بني يعقوب - عليهم السلام - وفعلهم بأخيهم؛ إذ هم جاهلون.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:٧] أي: للباحثين الطالبين علم ما جاء به الكتاب المبين والقرآن الحكيم، ثم جعل يقص نبأهم بالحق، فكان من العشرة الأخوة مثلاً للدجل بوجه، ويوسف مثلاً للحق المغرب والأمة المغلوبة المستملكة، ويعقوب مثلاً للرسول الآتي بالكتاب والنبوة.

ولما جاءوه بما كادوه من القميص المدمي المكذوب عليه لم ينعم بتصديقهم،

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٤)، ومسلم (٢٥٢٦)، وأحمد (٧٤٨٧)، والحاكم (٥٠٦١)، وإسحاق بن راهويه (٥٠٥)، وأبو يعلى (٦٠٧٠)، وابن حبان (٩٢)، والديلمي (٦٨٨٠).

بل أضرب عن ذلك منهم وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ في يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ على ما أصاب به وابتلي ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨] لعلمه أن ذلك منهم في وجوب الوجود مثل لما آل إليه، وكان سجنه ﷺ مثلاً لاختفاء المسلمين يومئذٍ؛ أعني: يوم الدجال وطمس نور الإسلام؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي»[١].

تأول في ذلك تقصير مدة الغلبة وتعجيل خروج الحق وظهور الحق، وتأول يوسف ﷺ بما ألهمه ربه ﷻ تنزيه محل النبوة وأخذ التنزيه لطهارة الرسالة، وكان تعجيله القميص إلى يعقوب ﷺ ووجد أن يعقوب ﷺ ريحه مثلاً لصوت الصريخ سحرًا لنزول المبارك، عبر عنه رسول الله ﷺ فقال: «وتسمعون صائحًا في السَّحر: قد جاءكم الصريخ، فيقولون: هذا صوت شبعان، ثم ينزل عند الفجر صلوات الله وسلامه عليه» ويذكر أن هذا يكون من تعرف بعضهم ببعض وإرساله في جملتهم ودفع القميص إليهم حين اشتداد الأمر على يعقوب ﷺ.

عبر عن ذلك قوله الله - جل ذكره، والله أعلم بما ينزل - لما وصف غيبة يوسف على الوجه الذي قصه، ثم غيبة أخيه بنيامين، ثم احتباس كبيرهم؛ من أجل ذلك عظم لذلك كربه واشتد أسفه ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤] وكان قول يوسف ﷺ لفتيته: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف:٦٢] في تأويل الحق المغروز في الجبلة، كان ذلك من حكمة الله - جل ذكره - ليرجعوا إليها في ضروراتهم، تنبيهًا منه لهم لعلهم عند خلوهم بذلك المعنى المجعول فيهم إليه يرجعون.

وما في أثناء قصص السورة من شيء عسر لهم إلا له في المستقبل وجود، يتبين ذلك بالكلية عند معاينة الأمر، ويناظر الدليل مع المدلول عليه، وكان يجمع الشمل المعبر عنه بقوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٣)، ومسلم (١٥١)، والنسائي (١١٠٥٠)، وأحمد (٨٣١١)، وابن ماجة (٤٠٢٦)، وابن حبان (٦٢٠٨)، وأبو عوانة (٢٣٠).

وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف:٩٩ - ١٠٠] والشكر منهم على ذلك مثل ليجمع الشمل المستقبل، والتزامهم طاعة مسيح الهدى ﷺ.

يقول الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ بالتخفيف ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠] إلى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الذي بين يديه؛ أي: من التوراة ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١] أي: الكتاب المحفوظ الذي حوى الوجود كله.

وقد ظهرت جملة من الدجل في هذه الأمة منذ نحو عام ثلاثمائة إلى هلم جرا، ومنهم من ادعى النبوة، ومنهم من ادعى الربوبية، وأصلهم المعتمد عليه إبطال ما جاءت به الرسالة والنبوة، وغايتهم الدعاء إلى أنفسهم، فمن مقصر عن ذلك قدره وقدرته أبطن لذلك مذهبه، ومن مدرك ذلك أظهره، والله المستعان.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢] يقول: قد كانت لهم آيات الأرض وآيات السماء كافية، وآيات ما جرى على الأمم الماضية والقرون الخالية، من الإهلاك والتدمير لأجل تكذيبهم الرسل، وردهم أمر الله - جل ذكره - وإنجاء من آمن وصدق المرسلين، وإن دلك على أنه إنجاء الله المؤمنين من عذاب الآخرة وتعذيب المكذبين.

وهذا القرآن كتاب الله نزله بلسان عربي مبين، كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ لينذر الناس ما هم إليه صائرون، فهذه آيات بينات لكل وجه ومعنى، فما نظروا ولا فكروا وما آمنوا به ولا تعرفوا صدقه من حيث إعجازه، ولا من حيث هو معلوم لبني إسرائيل، مثبتًا في زبر الأولين، مذكورًا في صحف المرسلين قبله، ألا ترى يا محمد أن هذا إضلال منا لهم، لما زاغوا عن الهداية أزغنا قلوبهم، وأزللنا لذلك أقدامهم عن الصراط المستقيم، أفعلى هؤلاء يحزن قلبك وتبخع نفسك.

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾
فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ
﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ
﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥ - ٢٠٩].

ثم أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨] وقرأها الحسن: «الأعجميّن» مشددة الياء؛ أي: لو أنزلناه على غير لسانهم، وهم العرب، فقرأه الأعجمي عليهم ما كانوا به مؤمنين، يقول ﷻ: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٠] يريد المعرضين عن الآيات المكذبين بالكتاب والرسول؛ أي: كما نسلك الخطاب العربي في قلوب الأعجمين، وخطاب الأعجمين في قلوب العربيين، لا يؤمنون به؛ لأنهم لم يسمعوه بقلوبهم ولا فهموه بعقولهم، بل هم في سماعه كالراعي ينعق بالغنم، فهي لا تسمع إلا دعاء ونداء صوتًا يفزع الأسماع لا غير، بل هؤلاء أسوء حالاً من البهائم في التأني وقلة الطواعية؛ إذ الراعي يزجر تلك فتنزجر، وهؤلاء لا يعقلون.

يقول ﷻ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الشعراء:٢٠١] فيومئذ لا ينفعهم إيمانهم، ثم قال ﷻ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٤] لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٧١] ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

أتبع هذا قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧] ما قد مضى فكأن لم يكن، وما هو آت فكأن قد ومن تورط في المحذور، وأحاط بهم المخوف ما الذي يغني عنه الآن، ما قد مضى من رفاعة بال ونعمة حال، والآخرة أحق حقيقة من الأولى، والعاقبة بالعبيد أملك وأولى والأمور بالخواتم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَى﴾ [الشعراء:٢٠٨ -

٢٠٩] يقول الله ﷻ: قد سبق منا العلم بإهلاك المهلكين وأعمالهم، وبالأسباب التي أوجبت هلاكهم، لكنا نرسل المرسلين منذرين لهم بما هو مصيبهم، ذكرى لهم ولسواهم ﴿وَمَا كُنَّا﴾ أي: في الأزل حين التقدير عليهم بذلك ﴿ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٩] لأنا إنما أوجبنا الإهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، على من لو أدخل النار ثم أخرج منها وأعيد إلى الدنيا لعاد إلى ما كان عليه، وكيف يكون منهم غير ما سبق في علم العليم الحكيم، ولما ذكرتهم الرسل ووعظتهم الكتب وبينت لهم الآيات أعرضوا عن التذكار، وأنفوا من صدق الاستجابة، وردوا الحق على من جاء به وجادلوهم بالباطل؛ ليدحضوا به الحق، فأخذهم الله بذلك من كسبهم، وهذا هو العدل؛ إذ لم يشأ في البدء أن يتفضل عليهم فيدخلهم في رحمته وفضله، ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٩].

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢٢٠].

أتبع هذا قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠ - ٢١١] وصرف وجه الخطاب إلى وصف القرآن، يقول: إنما نزل به من عند الله ﷻ الملك الروح الأمين، لم تتنزل به الشياطين، وما ينبغي لهم ذلك؛ أي: أنهم ليسوا من أهل ذلك ولا هو من شأنهم، ولا تلك بمرتبة لهم، ولا يستطيعون لمنع عراهم وصد صدهم عن ذلك.

دلَّ على ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٢] عزلتهم هذه من لدن أهبط أبوهم المبلس الملعون من ملكوت السماء.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء:٢١٧] أرى هذا الخطاب - والله أعلم بما ينزل - معطوفًا على المفهوم من قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾

[الشعراء:١٩٤] فيكون تقدير الكلام: فانذر وتوكل على العزيز الرحيم.

ثم اتصل منتظمًا بقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:: ٢١٤ - ٢١٦] وانتظم قوله هذا بما في قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

ثم عطف قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ [الشعراء: ٢١٧] على قوله: ﴿وَأَنذِرْ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ﴿وَاخْفِضْ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقل على قوله: ﴿العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧] الذي يراك حين تقوم في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ﴾ أي: القادر على الانتقام منهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء:٢١٧] بك وبمن اتبعك ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:٢١٨] يراه على كل أحواله، لكنه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - لعظيم كرمه وجليل ذكره ونعوت تعاليه وجلاله ذكره بأحسن أحواله وأكرم حركاته، وهو قيامه إلى الصلاة، وبخاصة صلاة الليل.

ثم قال: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٩] الساجدون هنا هم الملائكة، ومن كان يومئذٍ في الأرض من المؤمنين المهتدين وكل الموجود له ساجد قانت لما كان خاصة دين الإسلام الصلاة، وخاصة الصلاة السجود، عرفه من نفسه بأفضل أحواله وأحسن أعماله، وذكر التقلب عبارة عن التقلب في عمل الصلاة، كما قال ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩].

ثم قال وقوله الحق: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ أي: لقراءتك وذكرك إياه ودعائك وسؤالك ﴿العَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢٢٠] بحركاتك، فيكون معنى ذلك: وتقلبك في أصلاب الساجدين، يخبر بذلك كهيئة تنزلك عن علمه العلي به حال عدمه قبل إيجاده إياه.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ

﴿٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٧].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:٢٢١] المواجه بهذا الخطاب هم القائلون فيه أنه كاهن وشاعر ومجنون، فابتدأ بوصف الكهنة، فقال فيهم: أنهم كاذبون، أفاكون، آثمون، يلقون السمع للشياطين، ثم يكذبون على كذب الشياطين.

قال رسول الله ﷺ في إلقاء الشيطان على الكاهن: «**فيقرها في أذنه قر الدجاجة**»(١) يعبر بأنه وحي يوحون به إليهم خارج عن معهود كلام البشر بعضهم لبعض غير مفهوم على التفصيل.

وربما فهمه على الإجمال من غير إحاطة معرفة وفهم به ذلك؛ لأن الله - جل ذكره - جعلها - أعني: الكهانة - آية على الوحي الحق من عند الله ﷻ والله يوحي إلى عبده بإلقاء يلقيه في قلبه أو نفث من روح القدس في روعه، وهو قادر على إفهام الموحى إليه عنه ما شاء إفهامه إياه، بجعل ذلك المفهوم له مفروغًا منه بنفسه، وعلمه ليس كذلك تبليغ الشياطين، ولله المثل الأعلى وهو العليم القدير.

وموضع تلقي الشياطين من العرش إلى العنان إلى ما دون ذلك، والوحي متلقاه من فوق العرش العظيم، ثم قال رسول الله ﷺ: «**ويخلطون إليها**» يعني: الكهنة «**مائة كذبة**»(٢) فيجتمع في ذلك كذب الشياطين وقلة فهم الكاهن لما ألقى إليه، ثم كذبه، فهذه ظلمات بعضها فوق بعض.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ السلم للشياطين والمعارج للملائكة - عليهم السلام - ثم قال، عز من قائل: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨] فجعلهم الله بموضع التهمة ليس كما قال في منزل القرآن ﷺ ﴿نَزَلَ بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٥٩٥٣)، وأحمد (٢٥٣٠٧)، والطبراني في الأوسط (٦٧٧)، بلفظ: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ: فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّي، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ» وقَرَّ الدجاجة: صوتها إذا قطَّعَتْه.

(٢) انظر السابق.

الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ [الشعراء:١٩٣ - ١٩٤] وأخبر بأن الوحي الملك يكون ملقى إلى الرسول تامًا مفهومًا مفروغًا منه فهمه وعلمه معه.

ثم قال ﷻ: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ**﴾ [الشعراء:٢٢٤] يريد - وهو أعلم: الشعراء الذين كانوا ينصرون الكفرة بألسنتهم، يلقون إليهم سب الرسول وذم الإيمان، وتزيين الكفر والشرك، هذا فعل الغاوين بأولئك الشعراء ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ**﴾ [الشعراء:٢٢٥] أي: من الكفر والضلال يهيمون؛ أي: أنهم لا يمشون على الصراط المستقيم، فيصفون في أشعارهم مِدحة الله ومِدحة رسوله والإسلام والإيمان.

ثم قال: ﴿**وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾ [الشعراء:٢٢٦] أي: يكذبون، فهذه أعمال الشياطين وأخلافهم، فدلَّ من هذا على الشعر المذموم وتمييزه من المحمود منه، ودلَّ بما ذكره في القسم الآخر أن ذكر الله في الشعر ذكر كبير، والحمد لله رب العالمين.

ويمكن مع هذا أن يكون معنى قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ**﴾ [الشعراء:٢٢٥] أي: يأخذون كل مأخذ ويخلطون كل التخليط، بينا أحدهم يصف ممدوحه يعرض له في ذلك ذكرنا فيه فيتفرع لوصفها، وبينا هو في ذلك؛ إذ يعرض له ذكر طريقه إليه أو مدحه نفسه أو غير ذلك حتى يبعد عن ذكر مقصده، ويضل عما شرع فيه وسواء بينهم، فهم على ذلك في كل وادٍ يهيمون، ليس كالقرآن العزيز في حسن سرده وكرم نظمه.

قوله: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا**﴾ [الشعراء:٢٢٧] هذا مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وغيرهما من الشعراء الذين كانوا ينافحون عن رسول الله والإيمان والمؤمنين.

ولما ذهبت قريش بأحزابها وتفرقت عن غزوة الخندق قال كعب بن مالك - رضوان الله عليه - في كلمة له طويلة جاءت سخينة كي تغالب ربها: وليغلبن مغالب الغلاب، فأنشده رسول الله ﷺ فلما أصبح قال له: «**يا كعب، إن الله قد شكر لك**

قولك»[1] ثم قال - تبارك وتعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أي مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧] يعني: يوم القيامة يوم الفصل.

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤/٢٢٠).

تفسير سورة النمل(١)

---

(١) هذه السورة مكية بلا خلاف، ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها واضحة، لأنه قال: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾، وقبله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾، وقال هنا: ﴿طس تلك آيات القرآن﴾: أي الذي هو تنزيل رب العالمين، وأضاف الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم، لأن المضاف إلى العظيم عظيم، والكتاب المبين، إما اللوح، وإبانته أن قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين، وإما السورة، وإما القرآن، وإبانتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع، وأن إعجازهما ظاهر مكشوف ونكر، ﴿وكتاب مبين﴾ ليبهم بالتنكير، فيكون أفخم له كقوله: ﴿في مقعد صدق﴾ وإذا أريد به القرآن، فعطفه من عطف إحدى الصفتين على الأخرى، لتغايرهما في المدلول عليه بالصفة، من حيث أن مدلول القرآن الاجتماع، ومدلول كتاب الكتابة، وقيل: القرآن والكتاب اسمان علمان على المنزل على محمد ﷺ فحيث جاء بلفظ التعريف، فهو العلم، وحيث جاء بوصف النكرة، فهو الوصف، وقيل: هما يجريان مجرى العباس، وعباس فهو في الحالين اسم العلم، وهذا خطأ، إذ لو كان حاله نزع منه علمًا، ما جاز أن يوصف بالنكرة، ألا ترى إلى قوله: ﴿وكتاب مبين﴾، ﴿وقرآن مبين﴾ وأنت لا تقول: مررت بعباس قائم، تريد به الوصف؟ وقرأ ابن أبي عبلة: وكتاب مبين، برفعهما، التقدير: وآيات كتاب، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فأعرب بإعرابه، وهنا تقدم القرآن على الكتاب، وفي الحجر عكسه، ولا يظهر فرق، وهذا كالمتعاطفين في نحو: ما جاء زيد وعمرو، فتارة يظهر ترجيح كقوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾ وتارة لا يظهر كقوله: ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً﴾ قال يحيى بن سلام: ﴿هدى﴾ إلى الجنة، ﴿وبشرى﴾ بالثواب، وقال الشعبي: هدى من الضلال، وبشرى بالجنة، وهدى وبشرى مقصوران، فاحتمل أن يكونا منصوبين على الحال، أي هادية ومبشرة، قيل: والعامل في الحال ما في تلك من معنى الإشارة، واحتمل أن يكونا مصدرين، واحتملا الرفع على إضمار مبتدأ، أي هي هدى وبشرى؛ أو على البدل من آيات؛ أو على خبر بعد خبر، أي جمعت بين كونها آيات وهدى وبشرى، ومعنى كونها هدى للمؤمنين: زيادة هداهم، قال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وقيل: هدى لجميع الخلق، ويكون الهدى بمعنى الدلالة والإرشاد والتبيين، لا بمعنى تحصيل الهدى الذي هو مقابل الضلال. ﴿وبشرى للمؤمنين﴾ خاصة، وقيل: هدى للمؤمنين وبشرى للمؤمنين، وخصهم بالذكر لانتفاعهم به، ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾: تحتمل هذه الجملة أن تكون معطوفة على صلة ﴿الذين﴾ ولما كان: ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ مما يتجدد ولا يستغرق الأزمان، جاءت الصلة فعلاً، ولما كان
=

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: ١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[(١)] [النمل:١] المعنى حيث

=

الإيمان بالآخرة بما هو ثابت عندهم مستقر الديمومة، جاءت الجملة اسمية، وأكدت المسند إليه فيها بتكراره، فقيل: ﴿هم يوقنون﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على الديمومة، واحتمل أن تكون الجملة استئناف إخبار، قال الزمخشري: ويحتمل أن تتم الصلة عنده، أي عند قوله: ﴿وهم﴾ قال: وتكون الجملة اعتراضية، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، وهو الوجه، ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم، حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق، وقوله: وتكون الجملة اعتراضية، هو على غير اصطلاح النحاة في الجملة الاعتراضية من كونها لا تقع إلا بين شيئين متعلق بعضهما ببعض، كوقوعها بين صلة وموصولة، وبين جزأي إسناد ، وبين شرط وجزائه، وبين نعت ومنعوت، وبين قسم ومقسم عليه، وهنا ليست واقعة بين شيئين مما ذكر وقوله الخ. حتى صار معناها فيه دسيسة الاعتزال. وقال ابن عطية: والزكاة هنا يحتمل أن تكون غير المفروضة؛ لأن السورة مكية قديمة، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير، وقيل: الزكاة هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق. [البحر المحيط (٨ /٤٤٤)].

(١) قال نجم الدين كبرى في «التأويلات النجمية»: يشير بطائه الطاء طيب قلوب محبيه، وبالسين إلى سر بينه وبين قلوب محبيه لا يسعهم فيه ملك مقرب وإلا نبي مرسل. وأيضًا يقسم بطاء طلب طالبيه وسين سلامة قلوبهم عن طلب ما سواه، وفي «كشف الأسرار» الطاء إشارة إلى طهارة قدسه والسين الى سناء عزه يقول تعالى بطهارة قدسي وسناء عزى لا خيب أمل من أملّ لطفى انتهى، وقال بعضهم الطاء طوله أي: فضله والسين سناؤه أي: علوه وقد سبق فى طسم ما يتعلق بهذا المقام فاردع إليه، وقال عين القضاء الهمذاني قدس سره فى مقالاته لولا ما كان فى القرآن من الحروف المقطعات لما آمنت به ، يقول الفقير قد كفره فى قوله هذه كثير من علماء زمانه والأمر سهل على أهل الفهم ومراده بيان اطلاعه على بطون

=

جاء هذه الحروف في أوائل السور لغيابه المطلع وبعد الغور لا تكاد العبارات تفهم عن جوامعها، ولسعة ما انبسطت عليه عسر على الوهم تصور ما يحاوله من ذلك.

لكنها - والله أعلم بما ينزل - حروف معبرة عن ذوات جمل الموجودات كلها مع ما في الكتب المنزلة؛ ولذلك كانت آيات على حروف القرآن والكتاب المبين، كما أن حروف القرآن معبرة عما حواه من علم بالله ومعرفة أسماء وصفات، وأمر ونهي، وعام وخاص، وظاهر وباطن، ومفصل ومجمل، وغير ذلك من أنواع الخطاب؛ لذلك - وهو أعلم بما ينزل - كان هذا؛ أي: الحروف المقطعة بما عبرت عنه من دلالة الوجود.

﴿وَبُشْرَى﴾ أي: القرآن ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [النمل:٢ - ٣] إلى قوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٣] كذلك قال - عز من قائل: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١ - ٢] فهذا وصف للحروف المقطعة؛ إذ كل ما في الوجود فهو نسخة لأم الكتاب، فهو هدى يهتدي به أولوا الألباب.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة:٤] فهذا القرآن والكتب قبله التوراة والإنجيل والزبور والصحف بأجمعها، وجميع ذلك هدى للموقنين؛ لإخبارها عن مرضاة الله - جل ذكره - وتنبيهًا في الأغلب على ما سطر في أم الكتاب، ألا ترى أنه إنما هو الله ﷻ وأسماؤه وصفاته ومفعوله، وهذا عهده موجود الوجودين الوحي والعالم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤] العمه: التردد في الضلال والحيرة في المجهل، فهم لذلك لا يرون الآيات رؤية اعتبار، ولا يسمعون القرآن يتقدمه إيمان ولا هداية، ولا يعرفون الآخرة، فيذكرونها بما يشاهدونه ويرونه من الدنيا، زين لهم سوء أعمالهم؛ لأنهم لا يخرجونها على هداية إيمان واقتداء برسول من عند الله، ولا يعتبرون المأمور والمنهي عنه بموجودات الوجود الأدنى، فيعملون على بصيرة واحتساب ذخر إلى

=

معانى الحروف التي هي دليل لأرباب الحقائق وسبب تزيد إيمانهم العياني. [تفسير حقي (١٠ / ٥)].

الوجود الآخر وموجوداته، ولا يمتثلون الأمر المسموع بواسطة القرآن المبين، وفاقًا لمرضاء وجود الكتاب الأول؛ ذلك لأنهم عدموا بركة المسموع والمرئي فهم يعمهون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦] عطف معنى الرسالة على ما في قوله المتقدم من معنى الوجودين الوحي والعالم، يقول - عزَّ من قائل، وهو أعلم بما أراده: يسألونك أن تأتيهم بآية، قد كان كافيهم ما يشاهدونه من الآيات في السماوات والأرض وما بينهما على وحدانيتي، والشواهد على رسالة المرسلين ونبوة النبيين، وما بلغت إليهم الكتب وأعلمهم به الوحي الكريم.

ثم عطف ذكر رسالة محمد - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين - على ما في تلك الجملة من معنى الرسالة فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦] الشاهد على ذلك لو يعقلون إعجاز ما جئت به زائدًا على أنك أمي لم تكتب الكتب، ولا تعلمت العلم، ولا عرفت بصحبة العلماء، وعلى ذلك فإنك جئت بما أعجز الجن والإنس، ثم جعل يسرد ما قد أثبته في الكتاب المبين وخرجه في الوجود، وأجرى ذكره في القرآن المبين سماه مبينًا؛ لأنه بين عما في اللوح المحفوظ في الوجود ذكرًا وتلاوةً.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ٧ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل:٧] المعنى إلى آخره، «إذ»: ظرف لما تقدم ذكره من معنى رسالة محمد ﷺ تقدير الكلام المعبر

عن المعنى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٣] تلقى الوحي كما تلقى المرسلون؛ إذ قال موسى المعنى كما قال: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس:١-٥].

ومعنى قوله: تلقى تلقن، واللقن يكون بمعنى الفهم، ويكون بمعنى التعليم، كالمعلم يقرأ الآية على المتعلم، ثم يقرؤها المتعلم كما سمعها منه، ويقال: لقاك الله خيرًا بمعنى: أعطاكه الله ورزقكه، وكان ﷺ يلقى القرآن من عند الله، ومن الله بواسطة الملك، ولو شاء أن يفعل ذلك به من غير واسطة لفعل، وقد أمره ألَّا يحرك به لسانه حين يقرأه الملك ﷺ ووعده بأن يجمعه في صدره، ويجعله قرآنًا على لسانه، فكان الملك - عليهما السلام - يأتيه بالآية أو السورة فيقرؤها عليه وهو ساكت، فإذا ذهب عنه قرأه كما قرأه عليه الملك، فهذا - والله أعلم - معنى خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦] كذلك قال في سورة الشعراء عطف بالواو في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠] على ما تقدم ذكره من ذكر آياته في الوجودين العالم والوحي، وإنما ذلك تذكير بما تقدم من سنته وحكمه في الأمم قبلهم، وتذكير برسالاته وما تبع ذلك من مجازاة بثواب وعقاب وإنذار وإعذار وغير ذلك.

ثم جعل يسرد ذكرهم رسولاً رسولاً وأمة أمة في آخر كل قصة، يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [الشعراء:١٩٠] ثم عطف على ذلك كله ذكر القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢] إلى آخر السورة، وقد تقدم ذكر هذا ﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ فيما حكاه عن موسى ﷺ: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل:٧] أحسست نارًا رأيتها بعيني، وهو من الحاسة، وآنست أيضًا علمت، وهو علم القلب، لعلي آتيكم ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ أو آتيكم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل:٧] أي: بشعلة نار أو قبس، يريد شيء مأخوذ منها.

وقال في موضع آخر: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩] الجذوة العود أو الشيء، قد اتخذت فيه النار.

وفي موضع آخر: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أو أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠]

كانت منه كلمة إنباء سبقها إليه رب العالمين، رأى عينه نارًا، فوجد نورًا وكلمه من النور نور الأنوار رب العالمين؛ لذلك قال، وهو أعلم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] دخول «أن» هنا دليل على أن الكلام مترجم عن كلام الله - جل ذكره - كأنه قال نودي بكلام معناه: ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] إلى قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل:١٠] وقد قال في غير هذا الموضع: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص:٣١] وفي قراءة أُبي: «إن بوركت النار ومن حولها من الملائكة» وهذه قراءة صحيحة[1] لأن ذلك المرئي هو نور رب العالمين ﷻ ومن حولها موسى والملائكة، عليهم السلام.

﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [النمل:٨] نزَّه نفسه العلي الأعلى عن أن يحيط به مكان أو يحضره زمان تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] تبريك من الله على ما ذكره، فلقد بورك فيها وعلا شأنها من نار ذهب بقبس منها لصلا فآل شأنها إلى أنها نور رب العالمين، وكان هو رجلاً من البشر فصار نبيًا رسولاً، ثم إلى ما آل إليه أمره بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [النمل:٩] الضمير الذي في قوله: «إنه» هو بمعنى الأمر والشأن، ونون «أنا» أكبر حرف وأكرم نون، لا مثل لها إلا عزمًا عما عبرت هي عنه، وأعلم بما أعلمت به.

كذلك قال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه:١١ - ١٢] أي: أن مكلمك هو ربك، والذي ترى نوره هو ربك.

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] تنبه لها ولا تنم.

كذلك قال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [القصص:٣٠]

---

(١) قرأ أبيّ، وابن عباس، ومجاهد: «أن بوركت النار ومن حولها» حكى ذلك أبو حاتم. وحكى الكسائي عن العرب: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، وكذلك حكى هذا الفراء. [فتح القدير (٥/٣٤٣)].

أي: أن الذي ترى نوره وتسمع كلامه هو الله رب العالمين، وأخبره - جلّ وتعالى علاؤه وشأنه - عن نفسه بالآنية وتحقق الشهود والحضور، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

وقوله: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ﴾ [القصص:٣٠] شاطئ الوادي هو جانبه الأيمن منه نعت للشاطئ، فإمَّا أن يكون من اليمن وهو كذلك، ولا أحق تحقيقًا من ذلك اليمن، وإمَّا أن يكون اليمين، فإلى من يكون يمينًا شاطئ ذلك الوادي المقدس؟.

أرى - والله أعلم بما ينزل - أن ذلك الشاطئ الذي نودي منه موسى كان عن يمين موسى عليه السلام والمواجهة أيضًا يمين ولا يستقبله عبد ابتغاء مرضاته إلا كان له - جل ذكره - مواجهًا ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة:١١٥].

وقال في موضع آخر: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا﴾ [القصص:٤٤] فإن كان ذلك كما ذكرنا، فقد يجمع في هذا الشاطئ الوجهان معًا: اليمن من الله عز وجل واليمين من موسى، والمواجهة والجانب الغربي، قال رسول الله ﷺ: «**باب الجنة مفتوح من قبل المغرب عرضه أربعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١) فاتصف الشاطئ باليمن بالنداء الكريم منه ومن قبله، واتصف باليمين بموقف الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ونسبته إليه بالمواجهة واليمين منه.

وأرى - والله أعلم - أن تلك الأرض إنما سميت بالأرض المقدسة والمباركة لذلك التجلي العلي يومئذ، ولعلم الله - جل ذكره - في أزله أنه يكون ذلك منه في المستقبل سماها بذلك قبل وبعد، وقد جاء أن تلك الأرض هي المقصودة بالحشر، ويومئذٍ يجيء الله جلّ وتعالى علاؤه وشأنه ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ﴾ [البقرة:٢١٠] ويتجلى للمؤمنين يومئذٍ، وإنما ذكرنا هذا لنقف على اتساق حكمته في أحكامه.

قوله عز وجل: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ....﴾ [النمل:١٠ - ١١] أعلم - جل ذكره - أن المرسلين لا خوف عليهم، كما قال في موضع آخر: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية أولياء (٣٠٨/٧).

الآمِنِينَ﴾ [القصص:٣١] وإن كان الخوف يومئذٍ لا يعرى منه أحد لشدائد أهوال المطلع؛ لذلك تقول لهم الملائكة - عليهم السلام - ولأتباعهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا﴾ [فصلت:٣٠].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ يمكن أن يكون استثناء منقطعًا وحذف من الكلام ما تقديره: فإنه لا يخاف إلا من بدل حسنًا بعد سوء ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل:١١].

وليس قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ مستثنى من المرسلين، بل هو مستثنى من أتباعهم، فإن المرسل إليهم مفهوم في مراد القول من المرسلين، كما المفهوم من المرسل إليهم أن منهم المحسن والظالم لنفسه، والمحسن ما عليه من سبيل والظالم المبين هنالك، ومفهوم المراد من القول أن بين المحسن السابق والظالم المبين متوسط خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فمن عمل صالحًا ثم ختم عمله بظلم عظيم فهالك لا ريب، ومن ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء فهو المراد في هذه، وتجاوز في خطابه - جل ذكره - هذه الأصناف؛ إذ هي كلها من مفهوم الخطاب، وقرأ زيد بن أسلم: «أَلَا مَن ظَلَمَ» بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى استفتاح الكلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٣ - ١٧].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[١] [النمل:١٥] من العلم الذي

(١) قال الورتجبي: افهم أن العلم علمان: علم البيان وعلم العيان، علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية؛ فما ذكر الله سبحانه فيما أعطاهما، فهو من العلمين البياني والعياني، فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص لم يطلع عليه إلا ولي أو نبي؛ لأنه صدر من الحق لأهله، شهوده من المحبين والعارفين والموحدين والصديقين والأنبياء والمرسلين، ومن ذلك العلم علم اللدني، والعلم اللدني حقائقه علم المجهول، وعلم المجهول ما يكون صورته بخلاف علم الظاهر مثل =

أتاهما الشكر لله ﷻ قولهما: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥] وفسر بعض العلم المذكور بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل:١٦] أمر الأنبياء والمرسلون يحدثوا بنعمة الله قبلهم؛ لأن ذلك منهم دعاء إلى الله - جل ذكره - ليس كذلك الغير، إلا أن تدعو إلى ذلك ضرورة ما به.

وقال في موضع آخر: ﴿سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩] ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبأ:١٠ - ١١] هذا كله من العلم الذي أتاهما - صلوات الله وسلامه عليهما - وقال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ:١٠] التأويب هنا: العود بعد البدء، ثم العود.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل:١٦] أطلعهما الله على تسبيح الجمادات ونطق الصوامت، وأفهمهما ما تقول ذوات الأصوات المعجمة، وأراه صور الجن على تباين خلقهم وحكمه فيهم، وسخر ذلك كله طاعة له.

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧] الوازع المعدل للصفوف الحابس للأول، حتى يلحق الآخر والسابق للمتأخر ليلحق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ

=

صنيع الخضر عند موسى - عليهما السلام - من قتل الغلام وغيره، وهو حلم الأفعال وبطون حقائق المقدرات والأمور الغيبية، وما يتعلق بالملك والملكوت الذي هو المرتبة الأولى من علوم المعارف والحكم، والمرتبة الثانية علوم الأسماء والنعوت والصفات مثل ما علمه الله آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، والمرتبة الثالثة العلم بالذات: وهو علم الأسرار. [عرائس البيان في حقائق القرآن] بتحقيقنا.

كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ
﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾
وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل:
١٨ - ٢٦].

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ أرض كثيرة النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

عبرة

أخبر الله الخبير بما خلق أن النمل تعرف الأنبياء والصالحين الحق، وأنهم لا يقتلون نملة فما فوقها عمدًا، علم ذلك بمفهوم الخطاب إلا أن يكون ذلك منهم على سبيل الخطأ، فكان هذا مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «**يستغفر للعالم كل شيء حتى حيتان البحر وطير السماء**»[(١)].

وفي أخرى: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وصلت عليه ملائكة السماوات وحيتان البحور**»[(٢)].

أتبع ذلك قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل:١٩] ضحكه ﷺ ضحك سرور بما جعل الله له من النبأ على أفواه الصوامت، وإن ذلك من عند الله كما قيل:

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما وقفت على لفظ: «**علماء هذه الأمة رجلان: رجل آتاه الله علمًا فبذله للناس، ولم يأخذ عليه طمعًا ولم يشتر به ثمنًا، فذلك تستغفر له حيتان البحر ودواب البر والطير في جو السماء.....**» أخرجه الطبراني في الأوسط (٧١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل ثم أورد له إسنادًا وقال: هذا أصح، وابن ماجة (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والبيهقي (١٦٩٦).

«**إن رسول الله ﷺ كان جل ضحكه التبسم**»(١) ثم أخذ في الشكر لله والثناء عليه بما أولاه وخصه به والسؤال له أن يديم له ذلك ويزيده من فضله، وهذا أدب من جعل الله له نصيبًا من رحمته وحظًا من كرامته.

ألا تسمع إلى قول الله - جل ذكره - لموسى عليه السلام لما أكرمه بكلامه وندائه إياه، وأراه الآيتين: قلب العصا حية، وإخراج اليد البيضاء، ثم قال له: ﴿**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**﴾ [القصص:٣٢] كما قال: ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:١٩٧] وجاء من مفهوم ما تقدم ذكره أن من عباد الله من يجعل الله له ودًا في نفوس الخليقة وثناءً عليه بينهم، وأن يفصح الوجود ظاهرًا بذلك، وذلك كان سؤل سليمان عليه السلام أن يلحقه الله بهم في قوله: ﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ [النمل:١٩].

قوله تعالى: ﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ**﴾ [النمل:٢٠] (٢) إلى قوله: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [النمل:٢٦] أعلم - جل ثناؤه - أن الطير والنمل وجميع الخليقة لها تدبير وتدبر وآراء، وحذر متقدم

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في الشمائل المحمدية (٨)، والطبراني (٤١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٠)، وابن عساكر (٣٤٣/٣).

(٢) فيه قوله تعالى: ﴿**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً**﴾ أي: لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية والغيبة في بحر النكرة في المعرفة ليفنى، ثم يفنى عن الفناء أو أذبحته بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنور أسرار الأزل، وعلى صورة الظاهر نكتتها أن سليمان أحب الهدهد؛ لأنه رأى ذلك الهدهد في مكان العشق، ورأى عليه آثار العشق؛ فاستأنس به، وكان للهدهد خاصية أنه عرف مواقيت صلاته، ورأى الماء بين الطين والحجر، وكان يدل الجن على الماء لوضوئه وطهارته حيث نزل، وكان بين هدهد سليمان، وهدهد بلقيس عشق، فغاب عن سليمان عند نزوله، وتلاقيا الهدهدان؛ فلما تفقده علم أنه عند معشوقه، فغار عليه إذ اشتغل بغيره من خدمته فطلبه، وأمر العقاب أن يأتي به فطار العقاب، ورأى هدهد سليمان عند هدهد بلد سبأ، فأتى به على سليمان عليه السلام؛ فقال: لأعذبنه عذابًا شديدًا، أي: لأحبسنه في موقع فراقه عن معشوقه، فلما جاء إليه الهدهد تحير في شأنه إيش يقول: فعلم أن سليمان في مقام أنس الله وعشقه، ويحب أن يستأنس بمستحسن؛ فاحتال بأن يذكر عند سليمان ما رأى من حسن بلقيس وعظيم شأنها ليكون ذلك طريقًا له إلى قرب محبوبه، فلما مهد ذلك مع نفسه تعظم في شأنه، واجترأ من حيث جرأة العشيق.

بين يدي أمورها، وكلام مفهم وتخاطب ومعاملات، وطاعة لله ولرسوله، وود لعباده المؤمنين بما ذكر من شأن النملة والهدهد والجبال والطير.

جمع ذلك قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] وخصَّ هذا بذكر الجناحين تخصيصًا للبهائم؛ إذ الملائكة والجن لا يفتقرون في الصعود والنزول إلى جناح، وجمع ذلك كله بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] وحيثما ذكر السجود والقنوت منها إلى ربها فهو من ذلك وإن لم تفصح بذلك الوجود كل الإفصاح، ولأوضح ذلك منها للأكثرين كل الإيضاح ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

لكن الإيمان: يقول الصادق الحق ويضطر إلى اعتقاد ذلك والتصديق به حقيقة لا مرية فيه، وإنما حمدت الحوامد عن الكمال، واستعجمت العجم عن الإفصاح في حقنا نحن، لا في حقيقتها لحكمة بالغة له ﷻ في ذلك، وهو دليل على أنه خبأ الآخرة في ظل الدنيا، وليدل أن من سبل سنته في جل الموجودات أن يبدأها صغيرة، ثم يستن بها سنن النشء حتى يكملها في الآخرة، وذلك أيضًا من دلائل وجود الآخرة عند انتهاء الدنيا إلى غير ذلك من آياته.

قوله ﷻ فيما حكاه عن الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢] الإنباء أبدًا يأتي عن الإخبار عن الغيب، ولما كان أمر سبأ غائبًا عن سليمان أنبأه بشأنها يقينًا من الهدهد، ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل:٢٣] وأخبر أن سبأ ليست هي المرأة ولا البلد كما قد قيل.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو؟ قال: «**رجل ولد عشر قبائل فسكن اليمن ستة والشام أربعة، فأمَّا اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأمَّا الشاميون فلخم وجذام وعاملة وغسان**»[١] وإنما سكن هؤلاء هذه البلاد لما أخرجهم الله منها - أعني: من موضع سكناهم - بسيل العرم.

---

(١) أخرجه الطبراني (١٢٨١٦) وفي مسند الشاميين (٤٣٦)، والحاكم (٣٥٤٤)، وأحمد (٢٩٥٤)، وابن أبي عاصم (١٥١١).

أتبع ذلك قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذا عموم المراد به الخصوص، فإن ملك سليمان لم يكن مما أوتيته، وهذا جار في كلام العرب، وهو راجع إلى مراد قائله ونيته فيه، ثم قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] عرشها موضع مقعدها في هيئة الملك، وقد يعبر بالعرش عن الحال والمنزلة والمرتبة ونحو هذا، والأصل ما تقدم.

ثم قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤] إلى آخر المعنى، في هذا من الفقه أن الطير وما دون الإنسان والجن من العوالم قانتة لله - جل ذكره - لا تعبد إلا إياه ولا تسجد إلا له.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾ [الحج:١٨] ولذلك أنكر الهدهد سجودها وسجود قومها للشمس من دون الله، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ ويمكن أن يكون من قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل:٢٤] إلى السجدة من قول الهدهد، فحكاه الله - جل ذكره - عنه، ويمكن أن يكون من قول الله - ﷻ والله أعلم بما نزله - لكن السلف تلقوه على أنه من كلام الهدهد لاتصاله به.

وفي هذا الكلام تقديم وتأخير، وتقديره - والله أعلم: وزين لهم الشيطان ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥] الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤] أي: لما اتبعوا الشيطان زين لهم سوء أعمالهم، فاحتجب الحق عنهم وضلوا عن السبيل، فهم لا يهتدون.

وقرأ الكسائي: «ألا يا اسجدوا لله» على معنى: «ألا يا هؤلاء اسجدوا».

وروي عنه أنه قرأ: «ألا يسجدون» وهذا متعلق منتظم بقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [النمل:٢٤] وفي قراءة أُبي: «ألا يسجدوا لله الذي يعلم سركم وجهركم وما تعلنون» وروي عنه: «ويعلم ما تسرون وما تعلنون» وقرأ عيسى بن عمر وابن

مسعود وطلحة: «ألا يسجدون لله»[1] ويذكر أن اسم الله الأعظم في هذه الآية التي يظن أنها حكاية عن الهدهد - رزقنا الله بركة أسمائه وعلمنا من علمه، وأجزل حظنا من معرفته، ونفعنا بذلك إنه أرحم الراحمين.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥] الخبء وإن انخرق العلم به انخراقًا عظيمًا فهو راجع إلى وجهين - الله أعلم بما وراء ذلك:

الأول: أنه خبأ الماء في خزائنه، وخبأ في الماء ما صرف إليه الماء، وخبأ الدواب في خزائن السماوات والأرض، وكذلك ما قد خلقه وما هو خالق مخبوء في الخزائن، قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر:٢١]، فإذا أراد إيجاد شيء، قال له: كن، فكان كما شاءه.

والخبء الثاني: وهو الأعظم خبأه الآخرة في الدنيا، فإذا مات أحدنا صار فيها كما قال ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»[2] دلَّت خبأ الجنة في السماوات والأرض، وخبأ النار فيما تحت الأرضين، ثم في الأرضين، حتى إذا بدل الأرض غير الأرض والسماوات أظهرهما عيانًا.

ولذلك - وهو أعلم - قال على أثرها: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦] العرش موضع الملك ﴿لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة:١٢٠] فالملك الآن ظاهر بما هو الآن، وهو على حقيقة ما تقدم ذكره من إخراج الخبء ذكره باطن وجود حق، وقد يخرج منه ما شاء ويظهر منه ما شاء لمن شاء، من معجزات وكرامات دلائل دلت على قدرته، ورسالات أنبيائه وإكرام أوليائه

---

(١) قال الفرّاء: حدّثني الكسائي عن عيسى الهمذاني قال: ما كنت أسمع المشيخة يقرؤونها إلّا بالتخفيف على نيّة الأمر، وهي في قراءة عبد الله: هلّا تسجدوا لله، بالتاء، وفي قراءة أُبي ألا يسجُدون لله، فهاتان القراءتان حجة لمن خفّف، وقرأ الباقون: ألّا يسجدوا بالتشديد بمعنى وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلّا يسجدوا لله، فإنْ موضع نصب ويسجدوا نصب بأن، واختار أبو عبيد هذه القراءة وقال: للتخفيف وجه حسن إلّا أنّ فيه انقطاع الخبر عن أمر سبأ وقومها، ثم يرجع بعد إلى ذكرهم، والقراءة بالتشديد خبر يتّبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه، والوقف على هذه ألا ثمّ يبتدي يسجِدُوا كما يصل. [الكشف والبيان ٩/٤٧٧].

(٢) سبق تخريجه.

من مقدوره الغائب ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧].

نبه بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل:٢٦] وهو أعلم بما ينزل، على أن جميع الوجود كان مخبوءًا في علمه وقدرته ومشيئته، ونبه بذكره العرش على أن جميع الوجود في ضمن العرش العظيم؛ لأنه المحيط بجميع الوجود.

وكان أيضًا الوجود كله مخبوًا في الماء الذي كان عليه العرش، والوجود كله يومئذ مرتق، ثم لما فتق ذلك الرتق خلق الماء فيما خلقه من ذلك، فإذا أرسل الرياح اللواقح في الأجواء، وخلق الماء على ذلك فأنزله إلى الأرض، أخرج مما خبأه ما شاء كما سبق في علمه السابق وقدرته المحيطة ومشيئته العالية، سبحانه وله الحمد عالم الغيب والشهادة، فتعالى الله عما يشركون.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ
تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ
وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟
أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ
وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ
أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ
﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾
قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ
قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ
وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ
أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا

وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل: ٢٧ - ٤٢].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٧ - ٢٨] هذا مما تقدم ذكره من إثبات صفات كمال لما دون الإنسان من عوالم، وفي ذلك أنه من الواجب على من أتاه الله من ملكه المجاهدة لأعدائه وأهل المشاقة لله ورسله، فوجه النظر إلى ما بلغه الهدهد وكتب الكتاب مستطلعًا، هكذا ينبغي لمن مكنه الله في الأرض.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٢٩] بلغ الهدهد الكتاب وفعل ما أمره به نبي الله عليه السلام لا محالة وأتاه بما تراجعوا به في شأن الكتاب، وصفت الكتاب بالكرم لما وقفت عليه من توصيل له بواسطة طائر، فعلمت أن وراء ذلك ما وراءه من عظم الأمر، ولا يبعد أن يكون شأن ملك سليمان عليه السلام مسموعًا لديها معلومًا عندها ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٠ - ٣١] [(١)] ومتى تصفح العالمون بالله وبكتابه وحكمته هذا الكتاب علموا لا بد أن هذا الكتاب كريم على الحقيقة؛ إذ جمع المعنى المقصود كله في الوجودين العالم والوحي في هذه الكلمات الأربع قوله على القول بالإيجاز، وحكم العموم ألا تعلو ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ هذا فضل النبوة ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠] فضل الإلهية بأسمائها وصفاتها على القول بالإيجاز وحكم العموم ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ كلمة جمعت المناهي كلها

---

(١) عرفت أنه كلام الله، ولا يشبه كلام الخلق، وقالت: كتاب كريم؛ فانبسطت من باء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ إشارة بدء القدم والبقاء اللذين هما أصل جميع الصفات القديمة القائمة بذات الحق سبحانه من عرفه بالقدم والبقاء فقد عرفه بجميع الذات والصفات، وتلك المعرفة لا تكون إلا لمن شاهد مشاهدة الأزل والأبد، وعرفت من السين إشارة سنا الحق وأسراره، ومن الميم ملكه ومحبته، وإشارة الهيمنة المشاهدة المحيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى من حروف الله إشارة عين الذات الواحد الفرد من الألف، ومن اللامين الجلال والجمال، ومن إلهام الهوية، وغيوبات الغيب، ووجدت في الكلمة وجوب العبودية للربوبية ليصل برحمة الرحمانية العامة في الدنيا والآخرة ورحمة الرحيمية الخاصة في الآخرة لأهل الخصوص، وعلمت أنها بجميعها مقام الاتصاف من اتصف بها سهل عنده بتلفظها مراد أراده من معنى الإجابة القدرة بالأشياء بالآيات والكرامات.

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١] جملة جمعت المأمور به كله بحذافيره حتى الهجرة، سبحانه وله الحمد أعطاهم وأفضل عليهم، ثم مدحهم على ذلك وأثنى به عليهم وأثابهم إنه حميد مجيد.

قوله تعالى فيما حكاه عنها: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ هذا كلام المرأة(١) وهو كلام متصل بالحكمة، ثم استأنف كلامًا قائمًا بنفسه مصدقًا لكلامها قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤] هذا قول الله ﷻ وقوله الحق، وله الملك يوم ينفخ في الصور، ولا يخلو الملك الداخل أن يكون مؤمنًا صالحًا أو كافرًا فاسقًا، فإن كان كافرًا أفسد على المدخول عليهم دينهم ودنياهم، وإن كان صالحًا والمدخول عليهم كافرون أفسد عليهم دنياهم، وربما اقتصر على تغيير منازلهم من الملك وحطهم عن مراتبهم، وذلك الذي عنته المرأة يومئذٍ.

ثم في قول الله - جل قوله وتعالى جده - عبرة قائمة وحكمة ظاهرة في دخول اليوم الآخر على يوم الدنيا، وهذا يفعله ملوك الدنيا، وهم لا يملكون سوى عذاب الأجسام ويقطع بهم عن ذلك الموت، ولا يملكون العذاب الدائم فكيف بالملك الحق مالك يوم الدين، إذا أذن بانقراض الدنيا وأدال منها دولة الآخرة، وقد قال رسول الله : ﷺ «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطئوهم الناس بأرجلهم**»(٢).

---

(١) لما وجدت في الكتاب تلك الكرامات، عرفت عظم شأن سليمان وجلاله، وما عليه من أنوار الحسن والجمال، فمال قلبها إلى العشق والمحبة؛ فأرادت ألا تكون مخذولة حين دخل في بلدها سليمان، ولا تتأذى بنفسه في محبته، فإن العاشق لا يريد إيذاء معشوقه، ومن إشارة المعرفة إذا دخل سلطان الوجد والمحبة والمعرفة، والمشاهدة في قلوب العارفين، أغار ما دون الله من العرش إلى الثرى، ولا يبقى فيها إلا نور بلا ظلمة وصفاء بلا كدورة، وجمع بلا تفرقة، وذكر بلا فترة، وعشق بلا شهوة، وصدق بلا غفلة، ويقين بلا شك، وإخلاص بلا رياء، ويصير أوصاف النفس الأمارة محمودة، وصارت أبواب القلوب على الشياطين مسدودة، ويكون الروح مشاهد الحق بلا حجاب.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) وقال: حسن صحيح. والحميدي (٥٩٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧).

وقال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] وقد وصف الواقعة بأنها ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة:٣] وأن ذلك اليوم: يوم التغابن.

قوله تعالى فيما حكاه عنها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥] ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ يعني: رسولها ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ [النمل:٣٦] إلى قوله: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهَم بِهَا...﴾ [النمل:٣٧] ثبت من فعل سليمان ﵇ وحكاية الله - جل ذكره - ذلك عنه في معرض الرضا أن قبول الهدية من العدو المشرك رشوة على الدين، وخلاف لطاعة الله وخيانة لله - جل ذكره - وللمؤمنين.

قوله تعالى فيما حكاه عن عبده ونبيه سليمان ﵇: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨] أعلمه الله - جل ذكره - بأنهم يأتونه مسلمين، فأحب أن يبادر إقبالهم بكون العرش عنده؛ ليجربها هل تكون من المؤمنين كما هي من المسلمين أم لا، فإذا آمنت وصدقت بأنه هو عرشها وأنه كيف تهيأ انتقاله بعدها، وقد خرجت عنه يوم خروجها وتركته، والملوك لا يتعذر عليهم الإعلام لهم بالقليل الخطر مما يجري في ممالكهم بعدهم، فكيف بمثل هذه العظيمة؟!.

فيتحصل البيان من هذا كله عن سرعة النقلة أنه من المقدور الغائب، فالإيمان بالمقدور الغائب من وراء الإيمان بالمقدور الحاضر؛ وإذ ذاك يكون مؤمنًا مسلمًا، وقد يتهيأ أن نعتقد بعد تحصيل ما تقدم أن يكون أحب تحصيله عنده قبل إتيانهم إليه مسلمين ليطيب له.

أتبع ذلك قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩] العفريت: القوي، الماهر، الداهية، المجرب، العاصي، العاتي من الجن أو من الإنس، وفي الحديث: «**إن الله ليبغض العِفْرِيَةَ النِّفْرِيَةَ التي لم ترزأ في ماله ولا في جسمه**»[١] وقرأها عيسى بن عمر البصري وأبو

(١) أخرجه القضاعي في مسنده (١٠١١).

رجاء: «عفرية من الجن قبل أن تقوم من مقامك» يريد مجلس قضائه، قيل: وكان يجلس إلى نصف النهار.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] قيل: قبل أن يرجع إليك رسولك من أقصى ما يبلغ إليه طرفك.

وقيل في معنى قوله: ﴿يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] أن ترمي بطرفك إلى أقصى الغاية، ثم يرتد إليك حسيرًا أو قريرًا، وقيل: إن الذي كان عنده علم من الكتاب رجل من الإنس من بني إسرائيل، قيل: إنه علم من باطن الكتاب «**الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى**»(١) جاء في غير هذا المعنى أن «**اسم الله الأعظم الحي القيوم**»(٢) وروي ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقيل: يا إلهنا وإله الخلق جميعًا إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت، وقيل غير هذا.

وقيل: إن الذي كان عنده هذا الاسم كان من الجن، علمه الله حقائق باطن الكتاب فعمل بما علم، فكان عند الله مستجاب الدعوة لعلمه وعمله، وهذا أصوب الأقوال - والله أعلم بما ينزل.

وقد يرى من يدعو الله يناجي يا قيوم، وبغير ذلك مما ذكر أنه اسم الله الأعظم، ثم قد لا يستجاب له، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] أي: القبول الأعلى، والمتقون هنا هم أهل التحقق في التقوى الذين راقبوا الله في السر والعلانية.

فصل

إجابة الدعاء من قبيل العطايا والهبات، ويقوي استجاب هبة ذلك بلزوم التقوى والتزام العلم، وتحقيق اليقين واستشعار صدق التوكل والشروط التي أمر بها الداعي؛ وأعني بالإجابة هنا: إحضار المسؤول حين السؤال، وإلا فهو - جل ذكره - قد وعد كل من دعاه أن يجيبه، وكيف يجيبه وهو من العمل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٣١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨١٣) بلفظ: «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

﴿ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧] وقد بيَّن رسول الله ﷺ ذلك بقوله: «**هو بين إحدى ثلاث إمَّا أن يعجل له وإمَّا أن يؤجل له ذلك إلى أجله المقدر له أو يدخر له إلى يوم الجزاء**»(١).

فصل

قال الله - جلَّ من قائل - في قصصه الحق الذي ذكر فيه سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ:١٨] وأكثر ما قيل في بُعد ما بين الشام والسد مسيرة شهر، وكان ﷺ تسير به الريح على هيئتها ورخائها شهرًا رواحًا وشهرًا غدوًا، فتضمن له العفريت أن يأتيه بعرشها في مثل نصف النهار أو ما يقارب ذلك، وذلك منه مع إسراعه لمثلي مدة معهود سير سليمان ﵇.

وإذا كانت الريح تسير به على رخائها، وهو سعة الخطو مع المهل، فلربما بلغ العفريت مع الإسراع بين المر والقفل مثل ذلك وأكثر، فقرب ذلك من المعهود عند سليمان ﵇ وأراد أسرع من ذلك، فتضمن له الذي عنده علم من الكتاب أن يكون إتيانه به أسرع من ارتداد الطرف، وتحقيق ذلك: أن تقع العين على مرئي ما فيجذب المر بذلك المرئي، فأتى حال وقوع النظر في الرتبة دون زمان محسوس، فيرجع الطرف عن ذلك المرئي، وقد قضى الله له ما عليه من تحصيل العلم بذلك المرئي، والرجوع إلى نفس الرائي يعلم ذلك.

ومن ذلك قول عمر ﵁ وذكر إيلاء رسول الله ﷺ من نسائه، وفيه قال: فصعدت إليه وهو في مشربة له وهي خزانته، قال: «فما كان فيها ما يرد الطرف إلا أهب قليلة ويسر فرض....» فرد الطرف هو وقوع البصر على المرئي، ووقوع العلم بذلك في نفس الرائي.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل:٤٠] لم يكن في إحضاره بعد الإذن تلبث ولا انتظار.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (٢٩١٧٠)، وأحمد (١١١٤٩)، وعبد بن حميد (٩٣٧)، وأبو يعلى (١٠١٩)، والحاكم (١٨١٦) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (١١٢٨). والطبراني في الأوسط (٤٣٦٨).

فصل

الذي يعطيه العلم ويوجبه النظر أن استئهال هذه العطية الكريمة بعده مشيئة الله - جل ذكره - وامتنانه بإيتاء فضله لأحد وجهين أو كليهما لعبد وفقه الله إلى ذروة العلم وعلا اليقين، مع العمل بما يرضيه فيما علمه، أو عبد وفق للعمل ورفع فيه إلى أعلى درجاته على سنن اقتداء وعلم صحيح بما هو عامله، غير أن الأول أصله العلم وهذا أصله العمل.

فالعبد الذي العلم ربما بلغ في قضاء سؤله إلى هذه الدرجة المذكورة، لهذا الذي كان عنده علم من الكتاب أن يسل أو يريد المراد، فلا يكون بين في ذلك إلا كما بين وقوع الطرف على المرئي، وحصول العلم به في القلب، ومن هذا قال سهل وذكر الأولياء وكان في أصحابه يومئذٍ في مدينة تستر أن فيهم كمن يقعد هنا ويقوم بمكة، وأمَّا الآخر الذي أصله العمل فهو الذي تطوى له الشقة، فربما سار في مسيرة الشهر مثلاً نصف المدة، وربما سار عشرها، وأقل من ذلك جدًّا وأكثر، وعلى قدر الحظ من العلم في هذا وهذا.

وأمَّا قول رسول الله ﷺ: «**الدعاء ثلاثة؛ فمنه معجل، ومنه مؤجل، ومنه مدخر**»[١] فتعجيله على ما تقدم ذكره، وكذلك تأجيله وادخاره له ليوم الجزاء، فهذا لعموم المؤمنين، فإن الدعاء من قبل العمل، والله لا يظلم مثقال ذرة.

جمع ذلك كله قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] كل على درجته ومقامه الذي جعله الله فيه وأهله له، ولكل نبأ مستقر وهو لا يخلف الميعاد.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**أجيفوا الأبواب واذكروا اسم الله**»[٢].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٣٢٢)، وعبد بن حميد (١١٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٣٤) وأبو داود (٥١٠٣، ٥١٠٤)، وأبو يعلى (٢٣٢٧)، وابن حبان (٥٥١٧)، والحاكم (٧٧٦٢).

وفي أخرى: «**فمروا الإناء واخفوا الإناء واذكروا اسم الله فإن الشيطان لا يفتح غلقًا ولا يكشف إناء**»[١] وهذا خبر صادق لا محالة.

وقد حكى الله - جل ذكره - عن العفريت أنه تضمن الاقتدار على الإتيان بالعرش المنسوب إلى تلك المرأة، على ما وصفه به أنه عظيم في قصر تلك المدة التي حدها لنفسه.

وقد ذكر الله ﷻ أن الجن كانوا يعملون لسليمان الصروح وما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان؛ كالجواب والقدور الراسيات، وأن منهم بناءين وصناعين، فكيف يجمع هذا مع ما أخبر به رسول الله ﷺ.

أرى - والله أعلم بما ينزل - أن قول رسول الله ﷺ مقصور على الشياطين منهم والكفار، وأن ذكر أسماء الله يحظر عليهم فتح الأبواب؛ ولأنها ظواهر والجن لا تصل إلى الظواهر إلا بظواهر معاني، فيكون تخطير الأسماء التي هي ذكر الله في معاني بواطن أبيحت لهم، وجعل لهم عليها سلطان؛ كقوله ﷻ: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ**﴾ [الإسراء: ٦٤] فهم على ذلك لا يصلون إلى ظواهر الموجودات من حيث هم لكن بظواهر سواهم.

وما جاء أن الجن كانوا يصنعون المصانع لسليمان ؑ ويشيدون له الصروح والمحاريب والتماثيل، ويظهرون له الملك المعجز، فبمشاركة الإنس لهم على ذلك، فهم يقتدرون على غيابات المصانع والأمور الباطنة، ويصلون ذلك بأعمال الإنس، فتظهر المصانع بما هي للإنس، وتعجز لغرائب بواطن ما يأتي به الجن، وإنما تضمن العفريت من سوق العرش ما تضمنه عليه من القوة والأمانة بما يصحبه نبي الله ؑ من أهل مملكته، فإنه كان لا يعمل شيئًا إلا كان معهم من الإنس، والإنس لا تعمل ما يريد إجادته وإظهار الاقتدار عليه إلا بأن يصحبهم من الجن من يقوم بذلك.

ولعل هذا العرش إنما ظهر الاقتدار عليه بالجن والإنس، وبركة علم العالم

---

(١) أخرجه بنحوه أبو عوانة في مسنده (٦٥٨٠).

بالكتاب وبالحقيقة، فإن ما كان مجيء العرش إلا بالقدرة من الله ﷻ فإن الجن والإنس لا يبلغون مبلغ هذا الأمر المذكور، فعلى هذا ينبغي لنا ألّا ننكر أن يكون لهم مصانع معجبة باطنة عنا، ومماليك ومدن ومساكن وجنات وموجودات غائبة عنا ظاهرة لهم، لما لم يشركهم الإنس في صنعها لم تظهر، ولما كانت من صنعهم على انفراد بها تناهت في العجب وبطنت.

والذي يعطيه العلم ويحكم به الوجود، أن مبانيهم تلك ومصانعهم تخرقها أجسامنا ولا تمتنع منا؛ لأنها باطنة، وفي حكم الغيب عنا، كما تخرق أجسامهم مصانعنا؛ لأنها ظواهر، وهم في حكم الغيب عنها، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأنبياء:٨٢] أي: عمل انفراد.

ومما ينبغي أن نعلمه أن الجن لا يتعذر عليهم أن تخرق أبصارهم مصانعنا ولا نخرق مصانعهم؛ لأنهم مفروض عليهم الستر والعفاف كما هو مفروض علينا، وإنما نتحرز نحن منهم بأسماء الله وذكره، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل:٤٠] هذا منتظم بوجه ما بمعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وقول سليمان عند سماعه كلام النملة: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩] المعنى كله حيث وقع.

وهذا أدب من بلغه الله إلى كرامته، وأظهر له من المقدور الغائب ما يكون برهانًا له على مواهبه التي يؤتيه من فضله أن يرد النعمة إلى وليها - جل ذكره - ويتبرأ له من الحول والقوة، ويلزم نفسه ذل العبودية ويخضع، وليستشعر البلوى من الله وسلب النعمة، وأنه ليؤاخذه بحقه عنده، كان من أحسن عباده قدرًا عنده وليتأهب؛ لذلك دلَّ على هذا قوله ﷺ لما رآه مستقرًا عنده: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

قوله ﷻ فيما حكاه عن نبيه سليمان ﷺ: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ

تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١] كانت فارقت عرشها على هيئة عهدتها، فأتى به سليمان ﵇ على الوجه الذي قص علينا من سبيل الإعجاز ووجود المقدور الغائب، فأراد محنتها إن كانت تنكره جملة أو تعرفه على تعذر سوقه؛ لبعد المسافة وقرب الوقت وعظم المحمل، وخروج جملة ذلك عن المعهود بكل وجه مع تنكيرهم إياه، فإن عرفته استدل بذلك على أنها ممن ينتبه للعجائب، ويحصل ما بين الأمر المعجز والمعهود منه.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل:٤٢] فإذًا هي قد عرفته، وإنما استرابت فيما نكر منه، فكانت عنده بعد ممن ترجى هدايتها، فإن الضلال المطبق على قلوب الضالين يعمي العيون ويغفل العقول، حتى لا يعرفون المعجز من المعهود، ولا يرون النور الباطن من ضده، فلا يميزون لذلك بين الهداية والضلالة، ولا ما بين الآيات وغيرها من المرتبات.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧] فلما بيَّن هاتين المزلتين أراد ﵇ محنتها، فعلم بذلك منها ما قد علمه من هدايتها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١] كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الأنعام:١١١] وكان هو ﵇ من العالمين ولم يكن من الجاهلين، وفيما أومأنا إليه بيان شاف لمن استقرأ كتاب ربه ﷻ وتحقق بذلك سنته في بريته.

قوله ﷻ حاكيًا عن نبيه ﵇: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢] هذا منتظم بقوله: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل:٤٠] يعدد نعمه قبله، ويقرر نفسه على ذلك إذعانًا منه لجبروته وشكرًا لأفضاله عليه، يأمر نفسه له بالإذعان والشكر، وأن تكون من ربها تعالى قائمة بين المخافة والرجاء؛ إذ خرق العوائد وإخراج المقدور الغائب إلى حال الشاهد لا يكون من الله - جل ذكره - إلا إفضالاً منه على من يشاء من عباده، واختصاصًا واجتباءً له وامتحانًا لقوم آخرين من أعدائه على أيدي أوليائه؛ لتقوم حجته عليهم، ثم يهلكهم لعتوهم.

يقول - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ فيثبتني ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ فيعاقبني ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عمن كفر ﴿كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠] عظيم فضله لمن شكر، فلِم لا أشكره وقد فضلني عليها بالنبوة والسلف الصالح والعلم بالله وبآياته وأحكامه وكتابه؟! ذلك قوله: ﴿وَأُوتِينَا العِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢].

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾ [النمل: ٤٣ - ٤٧].

ولم تكن هي مسلمة له فيما مضى لو شاء ربي لجعلني إياها وجعلها إياي، لكن استعملني بطاعته وفضلني عليها ﴿وَصَدَّهَا﴾ هي ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ﴾ إذ كانت هي تعبد الشمس ﴿إِنَّهَا كَانَتْ﴾ بذلك ﴿مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل:٤٣] جعلها من كفار وأنسلها من أصلاب وبطون قوم كافرين، يقول: فمن أحق بالخضوع لربي والشكر له مني؟!.

قوله ﷻ في قصصه الكريم: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [النمل:٤٤] إلى آخر القصة، الصرح: بناء منيف عالي، من ذلك صرح فرعون الذي أراد بزعمه أن يبلغ السماء وأسبابها، والصرح: القصر المرتفع، أمر عليه السلام بصنعته فصنعه الجن بمشاركة صنعة الإنس؛ لذلك خرج إلى ظاهر الوجود، قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان لا يفتح غلقًا ولا يكشف إناء»(١).

صنعه من الزجاج الصافي الأبيض، فقام في هواء الجو وحفه صفاؤه، فأشبه

(١) تقدم تخريجه.

الهواء لرقته وغلظ بعض الغلظ فأشبه الماء، فظنت لبديع صنعته وإتقان حملته ولصفائه ورقته الذي نفذ الهواء فيه أن الذي علا منه هو منبطح على الأرض، و﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ وهي كلمة مشتركة؛ إذ لم يقل لها: اصعدي الصرح، فتأهبت لذلك وكشفت عن ساقيها؛ لتخوض لجة ما رأته ماء، واللجة غدير الماء ومعظمه، فاعترضها دون ما عزمت عليه حائط الصرح قائمًا، فقيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل:٤٤] أي: أنه صنع من زجاج، والممرد: المملس، ومنه قيل للشاب لم يلتح بعد: أَمرد؛ لملوسة خديه، فتبين لها إعجاز ملك سليمان، وأن ملكه ليس من ملك ملوك أهل الدنيا.

فالإتيان إبان عرشها على ما قص علينا، والأخرى في صنعة الصرح، وبما تقدم لها قبل من توصيل الهدهد الكتاب، ثم صار بموضع يسمع تراجعهم؛ ليوصل ذلك إلى نبي الله ﷺ فقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: في عبادتي سواك وتخلفي عن دعوة نبيك إياي إليك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

فهذه سنة الله - جل ذكره - في عباده ورسله ورسالاته وحكمته في دعائه عباده، ألا ترى أنه لما بعث موسى ﷺ إلى قوم جل ما يدينون به، وأكثر ما يعولون عليه صناعة السحر، أتاهم بقلب العصا حية وإخراج اليد بيضاء، وكذلك عيسى ﷺ أرسله إلى قوم قد توفرت دواعيهم إلى علم الطب والعمل به، فأتاهم بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وبأن يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طائرًا بإذن الله.

وأرسل محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - إلى قوم شأنهم فصاحة الخطاب والتفيهق في تصاريف الكلام، فأتاهم بالقرآن المعجز، كذلك لما كانت هذه المرأة ملكة أتاها سليمان بملك معجزة، وكانت أحرى بعرفان ذلك؛ لإشرافها على ما بين البونين، وأسلمت لذلك بإذن الله العليم الحكيم.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا الله فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:٤٥] الفريق مأخوذ من الفرقة، فمتى انفرد واحد من الجميع أو أكثر كانت فرقة وفريقًا، وقد بيَّن الله سبحانه أنهم فريقان مؤمنون

وكافرون بقوله: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:٧٥] المعنى إلى آخره.

قوله تعالى فيما حكاه عن رسوله صالح ﷺ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦] السيئة هنا تكون بمعنى استعجالهم العذاب، قولهم: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧] ويكون بمعنى الكفر منهم والتكذيب لما جاءهم به من الهدى والحق، دلَّ على هذا التأويل قوله إثر هذا: ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

علم ﷺ بما علمه ربه أن رد أمر الله وتكذيب رسله جالب لعذاب الله والخزي في الدنيا والآخرة، فحذرهم عاقبة ذلك، وأن الله ﷻ غير تارك أحدًا سدى، وأنه قد نصب الدنيا دار تحول وتقلب، لا تبقي عافيتها ولا بلاؤها، بل لذلك كله دوائر محكمة وتدبير مبرم يسوق بعضها بعضًا.

فدوائر العافية تستاقها دوائر الهداية، ودوائر الهداية تستاقها دوائر العافية، كما دوائر البلوى والانتقام تستاقها دوائر الظلم والتكذيب والكفران منهم، ودوائر التكذيب والظلم تستاقها دوائر الانتقام والبلوى من الله سبحانه، ثم مزج المدبر العليم القدير هذا بهذا وهذا بهذا، فداخل بعضها بعضًا، وبقي الأمر على الأغلب، ومشيئة الله من وراء ذلك، ما شاء من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن.

يقول لهم - صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالكفر والتكذيب قبل الإيمان والاستجابة ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ﴾ [النمل:٤٦] فتنقذون أنفسكم من حلول عذاب قد قرب منكم، وأن له أن يحل بساحتكم ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل:٤٧] هذا جواب من لم يعقل الخطاب، فلم يحسن الجواب، إن من سنة الله - جل ذكره - في المرسل إليهم إذا لم يقبلوا نصيحة الله، وما بلغت إليهم رسلهم أن يأخذهم الله بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون.

فلما أخذ الله هؤلاء بذلك حسبوه طيرةً وشؤمًا أحاط بهم من أجل رسول الله إليهم، فأجابهم ﷺ جمع لهم المطلب كله لو عقلوا عنه ﴿طَائِرُكُمْ﴾ معكم؛ أي:

هي عن أعمالكم وتخلفكم عن نصيحة ربكم ودعائه رسله إليكم، فأعمالكم هي الأسباب لتساق ما أصابكم من سيئ ما أنكرتم من أحوالكم وطائركم ﴿عِندَ اللهِ﴾ أي: أن تخلفكم عن القبول وحسن الاستجابة من عند الله وما ترونه عقوبات من الله لكم على ذلك على كفركم وتطيركم الحق ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧] أي: عن الهداية وحسن الاستجابة إلى ما سبق لكم عنده من شقاوة.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٤٨ - ٥٩].

قوله ﷻ: ﴿قُلِ الحَمْدُ لله وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل:٥٩] هذا الحمد أرفع الحمد؛ إذ هو حمد له كقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢] وكقوله: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١].

فهذا هو الحمد العلي، والحمد على وجه منها أنه يحمد على السراء ويحمد

على الضراء، ويحمد على دفعها، ويحمد على كل حال، ويحمد لأنه والى هنا ارتفع الحمد كما قال: ﴿وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢] ليس دونه مقعر ولا وراءه مرمى كقوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ:١ - ٢] المعنى كله حيث وقع.

وكما ليس كمثله شيء ولا كمثل نعمة التوحيد له نعمة، كذلك ليس كمثل النعمة به نعمة ولا منة تفوقها منه، فله الحمد كله؛ لأنه له الحمد كله، له الوحدانية المحضة والسناء والعلا والكبرياء والعظمة، لم يجر في نعوت تعاليه لحاق الأنداد ولا إيجاد الصاحبة والأولاد، ولم يكن له شريك في الملك ولا ولي من الذل، له ما في السماوات وما في الأرض، وله الدنيا والآخرة، وله كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع الأمر كله، له الأسماء الحسنى والصفات العلا والمثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العلي الكبير ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ﴾ أي: على كل ما يُدعى من دونه ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ إياكم بالإيمان والمغفرة به ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

أتبع هذا ما هو بمعناه من الشهادة قوله: ﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل:٥٩] سلموا في الحياة الدنيا من الشرك والكفر وتوابع ذلك، وسلموا في الآخرة من عذاب الله، هذه شهادة الحق في الدنيا والآخرة وفي السماوات وفي الأرض، وهو الحق المخلوق عليه السماوات والأرض، فأعلم ذلك بما اتصل بها من شهادات ومباني إسلام وسعته وخصال إيمان، ومقتضيات أسماء وصفات، فاعمل على ذلك وتطلبه، فهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، أتم الله علينا وعليك نعمته بفضله ورحمته.

ثم استأنف كلامًا خاطب به العرب وكفار الأمم فقال: ﴿اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] معناه، والله أعلم بما ينزل: أعبادة الله خير أم عبادة ما تشركون من دونه؟! كقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إلى الحَقِ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى﴾ [يونس:٣٥].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٢].

ومعنى خطاب هذه الآيات محذوف مضمر دلَّ عليه ظاهرها، فمعنى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النمل:٦٠] ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١] ﴿أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢] إلى آخر الآيات منتظم بالمفهوم من معنى المفاضلة بين التعبدين، وبعد البون في استقامة العبادتين، وأي المعبودين أحق بالتوجه إليه والخضوع له.

يقول - عزَّ من قائل: أم من يَخلق ولا يُخلق، ويَرزق ولا يُرزق ويَهدي ولا يُهدى ويُدعى فلا يجيب، ومن يَملك ولا يُملك أحق بأن يتبع أمره، ويعمل بطاعته، ويتوجه بالتعبد إليه والخضوع له، أم من خلق السماوات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]؟!

ثم كذلك ينتزع لكل معنى استاقه ما شاكله، فالعجز والذل والهون والفقر وعدم الهداية والإفلاس من يجلب النفع ودفع الضر وفقد الاستجابة والنصرة، ووصف الموت وعدم الحياة لمعبوداتهم وآلهتهم الباطلة، والوصف العلي كله، والأسماء الحسنى والصفات العلا لله وحده، ألا له الحق ﷻ عما يشركون.

هو الذي يملك السمع والأبصار، ويملك الملك كله ظاهرًا وباطنًا عاجلاً وآجلاً، ويعطي ويمنع ويقدم ويؤخر، لا إله إلا هو البهجة الحسن، عرض بذلك إلى موجودات الجنة في الدار الآخرة، الحديقة: ما أحدق بحائط أو شجر يحدق بعضه ببعض ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:٦٠] تقرير على ما تبين من تحقيق الحق، يقول: هل ترون فيهما من شرك أروني ماذا خلقوه ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾

ثم قال - عز من قائل: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠] أي: يعدلون عن الحق فيعدلون بالله ﷻ ما ليس بعدل.

ثم قال ﷻ: أمن لايعقل ولا يسمع ولا يبصر ولا يقدر على شيء أحق أن يعبد ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أهذا من يعدل به أو يشرك معه سواه ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٦١].

ثم قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ولا يستجيب له ولا يملك الضر ولا النفع أحق بأن يعبد أم من يجيب المضطر إذا دعاه ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ والمحذوف بينهما نحو ما تقدم: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ألهم شرك في السماوات والأرض، ثم قال - عز من قائل: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٣ - ٦٦].

ثم قال - عز من قائل: أمن يُهدي ولا يَهدى ويُقدر عليه ولا يَقدر ويُدبر ولا يَدبر أحق بالطاعة له والتعبد إليه ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؟ هل تعلمون في ذلك من شرك أو وقعت أعينكم على معين له أو ظهير استظهر به؟ ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٦٣].

يقول - جل ذكره: من له في البر والبحر والأجواء والأقطار والنواحي والأفلاك والنجوم والأعلام والرياح يهديكم بها في ظلمات البر والبحر، وينشر بها السحاب، فينزل به الماء إلى الأرض، فيخلق منه كل شيء حي، ويفصله إلى ما يفصله إليه، وله السماء والأرض، وله الخلق والأمر، فهل تعلمون هنا من شريك أو

تنظرون إلى شرك في شيء من ذلك كله؟! ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:٦٣] إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾(١) [النمل:٦٥] هذا منتظم المعنى في قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [النمل:٢٥ - ٢٦] وهو مما تقدم، دلَّ على ذلك قوله؛ يعني: آلهتهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥] ثم ينتظم ذلك بما في القرآن والوجود من معنى ذلك.

قال الله سبحانه: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧] ومن الغيب ما يكون غيبًا بالإضافة إلى بعض دون بعض؛ كالملائكة وعلومهم هم غيب في حقنا، وليسوا بغيب عند أنفسهم، وكذلك الجن، وكلما غاب عن مشاهدتنا وعلمنا فهو غيب في حقنا، وإن كان مشاهدًا ومعلومًا لسوانا، وإنما الغيب المقطوع أنه لا يعلمه سواه، كالمعني بقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

لا يعلم ما قدرته إلا هو، ولا يعلم ما علمه إلا هو، ولا يعلم ما هو إلا هو العلي الأعلى، ويلحق بذلك العلم بكل موجود على نهايته وكماله وحدوده الباطنة والظاهرة، ومآله وبدءه وعوده، لا يعلم ذلك إلا هو، وإنما يعلم كل موجود سواه

---

(١) ﴿إِلَّا اللهُ﴾ فمن تجلى الله عليه بهذا الاسم الجامع فكان خليفة رسول الله ﷺ في مقام المبايعة التي أنزل في حقها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فهو الذي يعلم الغيب ويشعر أيان يبعث وهو اللابس لخلعة هذا الاسم إرثًا من محمد ﷺ فالمراد بهذا الاسم في هذه الآية هو القطب الجامع الذي يدور عليه أمر الولاية وإنما قلنا ذلك لأن الله لا يقال في حقه: إنه من جملة من في السماوات والأرض واستثنى منهم بعلم الغيب؛ لأنه من جهة وجوده المطلق عين المستثنى والمستثنى منه فلا يتصل بمن في السماوات والأرض حتى قال: الاستثناء متصل وليس مقطوعًا عنهم، ولا عن شيء وحتى يقال الاستثناء منقطع فثبت أن المراد بقوله: إلا الله المظهر الجامع لحقائق هذا الاسم بالتجلي الذاتي وهو القطب الغوث وإطلاق هذا الاسم عليه بحكم الخلافة الباطنية عمن قيل له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠].

من نفسه إن كان مما يوصف بالعلم ظاهرًا من العلم ولا يحيط به، فكيف يعلم من سواه، ويتناول تقصي العلم بهذا وارتفاعه إلى أبعد غاياته اسمه المحيط والخبير والعليم، فيرجع ذلك إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: آلهتهم التي يدعون من دون الله ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

كما وصف نفسه بالقدرة وحسن الاستجابة والأمر والخلق وصف أولئك بأنهم: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١] لذلك قال في هذا الموضع عند هذا: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٢٢] علم كل شيء قبل كونه، وأحاط بالوجود كله قبل إظهاره كيف لا يكون كذلك، وهو يعلم نفسه سبحانه، وكل الوجود موجود عنه ومنه وبه وله، فهو يعلم الوجود كله من وجوده العلي، ألا يعلم من خلق لذلك قدر ما هو موجده قبل إيجاده.

قوله ﷻ: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ [النمل:٦٦] أضرب عن وصفهم بقلة الذكر والعلم بقول: إنما يجتمع علمهم وذكرهم الحق في الآخرة، ادارك: تلاحق واجتمع ونحو هذا، يتحصل العلم لهم يومئذٍ حين لا ينفعهم العلم، وقد ضيعوه حيث كان ينفعهم، ويمكن أن يكون المراد بذلك الإخبار بأن علمهم اجتمع في معرفة الآخرة، فهم بها جاهلون؛ أي: اجتمعوا في عدم العلم بها، والأول منتظم الوجهين، يدل على صحة الوجهين قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: اليوم؛ يعني: الآخرة، ثم قال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦] أي: اليوم أضرب أيضًا عن وصفهم بالآخرة والعلم بها فيما هنالك، والشك فيما ها هنا.

ووجه الوصف إلى ما هم عليه من العمى اليوم، وما الذي أعماهم عن الآخرة بقوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ يعني: الدنيا ﴿عَمُونَ﴾ أي: أسكرتهم الدنيا وأعمتهم؛ فتقدير الكلام - وهو أعلم: بل ادارك علمهم في الآخرة، تجمع إليهم وتلاحق لهم، بل هم اليوم في شك منها، بل هم من حب الدنيا وسكرتها عمون عن الآخرة وعن علم ما ينفعهم علمه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [النمل: ٦٧ - ٧٣].

أتبع ذلك قوله: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ [النمل:٦٧] إلى قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٧١] هذا منتظم بخطاب المجادلة التي تقدم ذكرها ووصف المعاندين والعادلين بالله إلى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥] فكان الجواب لهم على ذلك من قولهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١].

أتبع ذلك ذكر قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٧١] فكان الجواب على ذلك: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] أمر رسوله أن يجيبهم عنه، وهو من علم الغيب الذي أطلعه عليه وعلمه إياه في مستقبل ما يصيبهم، وهو جري القتل والأسر، وكون العاقبة للمؤمنين عليهم، ويكون أيضًا معناه زائدًا على ما تقدم ما يصيبهم به حال الموت وبعده وعنده من عذاب البرزخ الذي عبر عنه قوله الحق: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠] أي: حال الموت، وذوقوا عذاب الحريق في البرزخ، نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة وفيما بين ذلك.

ثم عطف على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [النمل:٧٣] أي: في إمهاله إياهم وانتظاره بهم على علمه فيهم، وبما هم به عاملون، ألا تسمعه ﷻ كيف؟.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا

فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾
وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾
فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ
مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم
مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٧٤ - ٨١].

أتبع ذلك: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٧٤] ثم أكد ذلك بقوله الحق: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦] كانت بنو إسرائيل قد أوتوا بينات من الأمر، فلما وقفوا على البيان ووضحت لهم السبيل بالعلم اختلفوا، فهدى الله - جل ذكره - الذين آمنوا بالقرآن ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣] لذلك ختم بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٧].

ثم هم يوم القيامة محكوم بينهم فيما اختلفوا فيه، وكذلك المؤمنون محكوم بينهم وبين بني إسرائيل وبين جميع المخالفين لهم؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ [النمل:٧٨].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ﴾ [النمل:٧٩] خطاب خاطب به رسوله ﷺ وهو خطاب لمن تبعه واقتدى به، والحق المبين هما الوجودان الوحي والحق المخلوق به السماوات والأرض، وإنما أضاء الحق وبان بالقرآن والوحي، فاعلم ذلك؛ ولذلك سماه مبينًا لموضع وحيه وهديه وكلامه، فإذا كان يوم القيامة تجلى الحق المبين - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - يسمو النشوء إلى ذلك ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧].

وصف هذا الشأن بالنشء مجاز واتساع، وعلى ما هو الوجود عندنا في بادئ الرأي، والتحقيق هو أن الحق ظهر فيما ها هنا للعقول الصافية والقلوب المهدية،

واحتجب عمن سواهم، فإذا كان يوم الآخرة ظهر لأوليائه عيانًا كما يظهر يومئذ جزاؤه على الإيمان به والطاعة له ولرسله، ويظهر جزاؤه للكافرين والمكذبين.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ أي: جزاءهم الظاهر للمهتدين في هذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، ويومئذٍ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ﴾ ﷻ ﴿هُوَ الحَقُّ﴾ الظاهر لهم اليوم ﴿المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] للحق، والمحتجب اليوم عن الأبصار، المحتجب عن قلوب الغافلين، كما يحتجب عنهم ظهوره يومئذٍ إلا إعلامًا منه لهم بلقاء يعبر عنه بالوقوف والتوقيف، فعاد وصف النشء على المخلوق المربوب المعبد، والحق بما هو الحق وصفه بالحجب والظهور ونحو هذا.

أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل:٨٠] الموتى: هم الكفار والمكذبون، والصم: هم الجهال، فلو أقبلوا إلى الله وأذعنوا للحق وسماع الوحي، فبالخيرات يتحصل لهم ما كتبه من السمع، فأمَّا من أدبر وتولى تولى الله عنه بنعمته، وأعرض عنه بكرامته؛ جزاءً لتوليه وإعراضه، والله الغني الحميد.

والصم: هم الذين لا يسمعون الوحي، ولا يقفون على حقيقته، والعمي: هم الذين لا يرون الآيات في الأرض ولا في السماء ولا في أنفسهم وفيمن خلا من المهلكين، إنما يسمع الرسول من آمن بالله وآياته، فكلما زاد من ذلك زاد إسماع الوحي له حتى يرى بعين اليقين، وكلما تبصر الناظر في الآيات أبصر، وكلما أبصر زاده الله إبصارًا، فكلما أغرق في ذلك أكسبه حياءً وإيمانًا، وحقق له صفاته، حتى أنه ربما رأى ما أسمع وسمع ما رأى، فيرى بباطنه الغيوب ويشاهد بباطنه المكنون، كذلك يسمع الصوامت تهزج بالتسبيح، والجوامد تعلن بالشهادات لربها والتمجيد والتحميد.

فإنه من ألقى سمعه إلى ما جاءه به الرسول، ومن ألقى ببصره إلى شواهد الموجودات وتحقق الحق، يجري في مسالكه تولاه مولاه، ورفعه إلى سماع ما لا يسمعه الغافلون، ورؤية ما لا يراه المعرضون؛ لذلك قال، وهو أعلم: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:٨١] أي: إنما يسمع الذكر من أحياه الله بالإيمان، وحلاه بحليّة الإسلام، وأذعن للحق، واقتفى واقتدى.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل: ٨٢ - ٨٦].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢] معنى قوله: «وقع القول عليهم» وجَبت الحجة عليهم، ولم يكن عندهم نكير ولا حجة ينفصلون بها، مما ألزموه من الحق؛ كلزومه إياهم يوم نزول القرآن حين قررهم على الحق، فأقروا كقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ﴾ [المؤمنون:٨٤ - ٨٥] ولا بد من ذلك ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ﴾ [المؤمنون:٨٨ - ٨٩] ولا بد من ذلك.

وكقوله في هذه السورة: أفمن يَخلق ولا يُخلق، ومن يَملك ولا يُملك، ومن يَرزق ولا يُرزق أحق بأن يُتّبع ويُعبد ويُخضع له، ويُطاع أمره بخالصة الوحدانية ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:٦٠]؟ ثم أجاب نفسه ومن تبعه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - جواب الغالب في المناظرة المفلح في المخاصمة بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠] أي: يعدلون بغير ما عدل ولا مثل ولا نديم، كذلك إلى آخر المحاجة.

وكان هذا في أول نزول الوحي، وقد كان في سابق علمه العلي أن يهدي به من شاهد آيته، ويستتبع من شاء ولايته، والقرآن آخر الكتب ومحمد رسول الله خاتم الأنبياء، وستعجز أعمال العباد وتستولي عليهم الغفلة، وتعش البصائر ويثقل سمع أهل السمع، فيقع عليهم القول؛ إذ لا منبه ينبه ولاستيلاء الأعراض والتولي، وعقوبات الإدبار لا ينتبهون ولو نبهوا، فيقع عليهم القول؛ أي: تتوجه

الحجة عليهم.

يقول الله - جل ذكره: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ﴾ لانقطاع النبوة وختم الرسالة وعظيم إعراضهم عن الذكر، أعرض الله عنهم بذكره لهم بذلك، فلم يستأهلوا أن يكلمهم الرسل، يخرج الله ﴿لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ يقال: إنها تحطم الكافر سوادًا وتبيض وجه المؤمن، وقرأها ابن عباس: «تكلمهم»[١] وفي قراءة أبي: «تنبئهم» ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ [النمل:٨٢] بفتح الهمزة، وقرأ قتادة: «تحدثهم أن الناس» مفتوحة[٢]، أبو داود قال: سألت ابن عباس قلت: أخرجنا لهم دابة من الأرض «تُكَلّمهم» أو «تَكْلَمُهم» فقال: كلا، والله يفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر، ومن قرأ «تَكْلِمُهم» بكسر اللام، يقول: تَسِمُ وجوههم.

---

(١) وجب العذاب عليهم، وقال قتادة: إذا غضب الله عليهم (أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) واختلفوا في كلامها، فقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم: كلامها أن تقول لواحد: هذا مؤمن، وتقول لآخر: هذا كافر. وقيل: كلامها ما قال الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ قال مقاتل: تكلمهم بالعربية، فتقول: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث. قرأ أهل الكوفة: "أن الناس" بفتح الألف، أي: بأن الناس، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، أي: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها. قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر. وقرأ سعيد بن جبير، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي: "تكلمهم" بفتح التاء وتخفيف اللام من "الكلم"، وهو الجرح. قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية: "تُكَلِّمُهم أو تَكْلِمُهم؟ قال: كل ذلك تفعل، تُكَلِّم المؤمن، وتَكْلِمُ الكافر. [تفسير البغوي (٦/١٧٧)]. وقال أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ٤٩٥): يؤيده قراءة أبيّ : تنبئهم، وفي بعض القراءات: تحدثهم، وهي قراءة يحيى بن سلام؛ وقراءة عبد الله: بأن الناس. قال السدي: تكلمهم ببطلان سائر الأديان سوى الإسلام. وقيل: نخاطبهم، فتقول للمؤمن: هذا مؤمن، وللكافر: هذا كافر. وقيل معنى تكلمهم: تجرحهم من الكلم، والتشديد للتكثير؛ ويؤيده قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وأبي زرعة، والجحدري، وأبي حيوة، وابن أبي عبلة: تكلمهم، بفتح التاء وسكون الكاف مخفف اللام، وقراءة من قرأ: تجرحهم مكان تكلمهم. وسأل أبو الحوراء ابن عباس: تكلم أو تكلم؟ فقال: كل ذلك تفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر. انتهى.

(٢) قرأ الكوفيون، وزيد بن علي: (أن الناس) بفتح الهمزة، وابن مسعود: بأن؛ وباقي السبعة: إن، بكسر الهمزة؛ فاحتمل الكسر أن يكون من كلام الله [تفسير البحر المحيط (٨/٤٩٥)].

فصل

يتخرج أيضًا قول الله - جل ذكره: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢] على ما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ الله الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٥٥] وهو مخلوق من الأرض؛ لأنه من بني آدم، فهو دابة من الأرض، ووصف الأرض فيه إشارة إلى الذم، والبلدة التي تضاد العلم النافع والإيمان بالله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ الله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

فهذا وصف الدجال وصفاته - لعنه الله ووقى المسلمين ضره وأعاذنا من فتنته - وهو يكلم الناس داعيًا إلى نفسه، ذلك بأنهم كانوا بآيات الله لا يؤمنون، لما لم يطلبوا اليقين قست لذلك قلوبهم فنسوا ما ذكروا به، أخرج الله لهم دابة تكلمهم من حيث هي، إنما يكلم الله بواسطة وحيه أو بواسطة ملك أو عبد من عباده، واسم الدابة مذموم، ألا ترى أنه لم يقل: تكلمهم عن الله، بل قال: تكلمهم، ولو كان كلامها خيرًا لقصه وحكاه رضي به، بل أشار إلى معنى كلامها بعدم اليقين، وكلامها معبر لهم عن ذلك.

وعلى قراءة من قرأ: «إن الناس» جعل عدم اليقين منهم بآيات الله علّةً لخروجها، وأمَّا قراءة من قرأ «تَكْلَمُهم» أي: تَجْرَحُهم، فجرحة الدين أعظم الجرح، وهذا شأن الدجال - لعنه الله - ومقصده، ومن قرأ: «تكلمهم» من الوسم، قال الله - جلَّ من قائل - في من هو منه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٣] إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦].

وقد سبق الذم إلى وجه الدجال - لعنه الله - فإنه مكتوبٌ بين عينيه: كافر، وهو أعور عين اليمنى وعلى اليسرى ظفره غليظة، وعدَّد رسول الله ﷺ الدجال والدابة في العشر الآيات التي تكون بين يدي الساعة، فإن لحق هذا بتحقيق التواتر فإن الدجال - لعنه الله - آية على تلك.

قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

[النمل:٨٣] الوازع: هو المعدل للصفوف والذي يحبس الأول حتى يلحق الآخر، وهؤلاء ترعهم الملائكة، يلحقون الآخر بالمتقدم، فإذا جاءوا إلى السؤال ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ فهذا صنف هم الكافرون، ثم قال: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ فهذا صنف هم الغافلون ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٤] هؤلاء العلماء، كما قال ﷻ: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة:١٣] فتكون المطالبة لهؤلاء على تكذيبهم بآياته والمطالبة لهؤلاء على تضييعهم العلم بها.

كما قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [طه:١٢٤ - ١٢٧].

فاعلم أنهما صنفان يلحق بعضهم ببعض وإن تفاوتت المنازل فيما هنالك في عذاب الله - نعوذ بالله من عذابه - فيطالبهم على التضييع كما طالب أولئك على التكذيب، فيسألهم لِمَ لم تؤمنوا بآياتي؟ لِمَ لم تطلبوا العلم بها؟ وإذ لم تعلموها لِمَ كذبتم بها؟ وإذ علمتم لِمَ لم تؤمنوا؟ لِمَ لم تنيبوا؟ لِمَ لم تعملوا بما علمتم؟.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:٨٦] أي: على الموت والحياة بعد الموت، وعلى وجود اليوم الآخر وما فيه من اللقاء الكريم والتجلي العلي، وبوجود الجنة وما فيها، السكن مثال للموت، والنهار المبصر دليل على الحياة، والمبصر الذي يبصر فيه، فكذلك الآخرة هي دار الحيوان، فيها تجتمع الحياة والعلم ويتدارك الذكر، يقول: قد كان لهم في تعاقب الليل والنهار آيات على الحياة بعد الموت والآخرة بعد الدنيا وعلى لقاء الله ﷻ لكن ذلك هي آيات لقوم يؤمنون.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ

إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٨٧ - ٩٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ﴾ هذه هي النفخة الأولى، دلَّ على ذلك قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ أي: القَرْن ﴿دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] أي: صاغرين، وقرأها الحسن: «دخرين» بغير ألف، إذا نفخ في الصور نفخة الصعق نودوا من الصور فيأتونه صاغرين، ثم إذا نفخ فيه أخرى - والمراد بها: الإحياء - نودوا من الأرض من الأجسام، فيأتي كل روح إلى ما نودي منه، قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] كل مؤلف، فصنع الله - جل ذكره - يتعاقبه على الولاء إعدامًا وإيجادًا، فبالإعدام يمر مر السحاب، وبالإيجاد يكون بالإمساك لها وقيامها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم:٢٥] وهذا أمره فيما هاهنا، وبالإيجاد المتوالي يكون الإتقان، عم بهذا التدبير جميع الموجودات علوًا وسفلاً ظاهرًا وباطنًا، وشمل بذلك الخليقة شمولاً محيطًا، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى.

ولما تقدم ذكره من معنى قال: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] فإذا كان على هذا الوجه فهو معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل:٨٦] وعلى ما جاء من ذكر الآيات، وربما انعطف على معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل:٨٧] المعنى؛ فيكون معناه: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] أي: تنفش كالسحاب

في اليوم الصاحي، وتنهال كالكثب من الرمل، والأول أولى بالوجه الأول، والثاني بالثاني، وهذا حق وجوده وهذا حق، لكن هذا خاتمة قوله: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨] والأول قوله: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل:٨٩] الحسنة: كلمة التوحيد وما تبعها من علم وعمل، فخير من الشهادة رؤية المشهود، وخير من العمل رؤية من توجه بالعمل إليه، وخير من عمل العاملين جوار الله ودخول جنته، وخير من ذكرهم له ذكره إياهم وكلامه لهم، وخير من ترضيهم له ترضيه إياهم، حيث يقول ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: أرضيتم عبادي، وأمَّا من لم يوفِ الحسنة شروطها ضوعف له ثواب حسنته إلى أكثر من ذلك ثم وُزن، أو يتجاوز الله بحسن تجاوزه، وكون عشر أمثال حسنته أيضًا خير منها ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل:٨٩] الوعد مسلم للقسم الأول، جعلنا الله منهم ومعهم.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] وجاء في غير هذا الموضع ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] وأكبر الفزع إعراض الله بوجهه الكريم عن أعدائه، نسأل الله معافاته ورحمته، ثم أكبر الفزع دخول النار وأكبر منه الخلود فيها، ثم الفزع من زفير جهنم، وحين تطاير الصحف، أبالأيمان تقع أم بالشمائل؟ والنهوض إلى العرض عند البداية، كيف يكون المنقلب وكل أهوال يوم العرض فزع؟! جعلنا الله من الآمنين برحمته.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠] أي: تقول لهم الملائكة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما كذبوا بجهنم وبالنار، وكانت تغدو عليهم بفيحها وتروح أدخلوها، ولما لم يؤمنوا بالجنة وكانت تغدوهم في أجسامهم ويعلهم بردها وشرابها وطعامها وفواكهها، الكائن ذلك كله من فتح الله عنها برحمته حرموها.

ولما لم يعملوا وجوههم ولا أبدانهم في حسن التوجه إلى خالقهم وخالق كل شيء، بالتوجه والعمل بطاعته والعمل بمرضاته حرمهم كرامته، وحال بينهم وبين رضاه، ولم يجعل لتلك الوجوه حرمة - نعوذ بالله من غضبه وعذابه ومما

يوجب ذلك.

ولما أطاعوا الشيطان المخلوق من نار السموم الداعي إليها العامل لها، وخالفوا الله رب العالمين الذي هو نور السماوات والأرض، أبعدهم لذلك عن جواره، وأحلهم محل الخزي، وأقصاهم إلى ظلمات البعد، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟!.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ البلدة المحرمة: هي مكة، «حرمها الله - جل ذكره - ولم يحرمها الناس»[(١)] فالبائس من أجل ما قد حرمه الله من شعائره وأشهره، وبلدته وبيته هي حرام على الدجال، لا يدخلها ولا المدينة، أتبع ذلك: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ هذا منتظم بمعنى التوحيد، معرض به للذين اتخذوا من دونه أندادًا وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١] أي: كما أسلم له كل شيء، وكما قال إمام المسلمين خليل رب العالمين - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

ثم قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل:٩٢] نور، وما فطر الله السماوات والأرض عليه من الإسلام، هو نور لمن استضاء بهما، وكون الملك كله لله نور، وآثار فعله في مفعولاته كلها نور؛ فلأجل هذه الأنوار يجزى المؤمنون أيضًا بما آمنوا به وبما عملوا له ومن أجله، وقد تقدم هذا المعنى.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [النمل:٩٢] الهداية لا تكون إلا بنور الله، ولا يجعل الله نورًا إلا لمن كان معه من نور الإيمان حظ، وبذلك النور يهتدي إلى المراد، والمراد الأعلى هو نور الأنوار والضلال البعيد والحيرة عن القصد، ومن بعد عن النور وقع في الظلمات، فهو لا يرى ولا يسمع ولا يعقل ولا يهتدي سبيلاً.

وقد تقدم قوله ﷻ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ [النمل:٩٣] أمر نبيه ﷺ أن يحمده

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٤٢٠)، والبخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤)، والترمذي (٨٠٩)، والنسائي (٢٨٧٦)، والطبراني (٤٨٤)، والبيهقي (١٣١٥٢).

على ما هداه إليه من الإسلام والإيمان والنور الذي أنزله إليه من كتاب وفرقان وحكمة.

أتبع ذلك قوله: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣] هذا كلام مودع مهدد لهم لما لم يهتدوا لنوره، ولا استصبحوا بمصباحه، ولا أطاعوا نصيحته ودعهم توديعًا، وأخرج كلامه لهم على معنى التهديد، وهو كقوله - جل قوله وتعالى جده: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣] فأراهم آياته كما قال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الإسراء:٥٨].

تفسير سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ
عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ
لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾
[القصص: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣] يقال: تلوتُ بمعنى: تبعت، وتكون التلاوة على هذا الاتباع بمعنى أتبع الحرف الحرف والقصص القصص، فهذا في هذا الموضع القراءة، وأكثر ما يأتي الأمر بالتلاوة في القرآن بالقراءة التي هي الدراسة والتلاوة بالعمل ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٢٧] ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١].

وقوله هنا، والله أعلم: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص:٣] ما تلاه عليه في هذه السورة من اتباع الحروف الحروف والمعنى المعنى، وتأخر ما تلاه عليه من قصصهما في القرآن، وكرر ذلك وأعاده وبدأ به بألفاظ مختلفة ومعان متفقة، وربما ظهر في بعض المواطن في العبارات خلاف ما توهم خلافًا في المعاني، فإنما ذلك على حسب ما جرى بينهما من المحاورة في المواطن، فربما استاق حكاية ما جرى في ذلك الموطن، واستاق في سورة أخرى ما جرى في موطن آخر، وكذلك قصصهما حيث جرى.

ثم اقض بمثل ذلك في كل قصص قصه في القرآن، فيبدل آية مكان آية وعبارة

مكان عبارة، فهذا أصل هذا الباب فقف عليه، وهو المعني بقول الحق: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل:١٠١] كانوا لقلة إيمانهم وقاصر عقولهم يسمعون الآية والمعنى بعبارات مختلفة، وزيادة معنى ونقصان معنى في موضع آخر، فكانوا يكذبونه بذلك ويقولون: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

يقول الله ﷻ والله أعلم بما ينزل ويقول: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠] ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو الحق ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢] المبين ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

لذلك - وهو أعلم بما ينزل - قال: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣] يقول: نقص عليك وعلى من آمن خبرهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[1] [القصص:٤] إلى آخر القصص قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ

---

(١) (تِلْكَ ءَايَاتُ الكتاب المبين) اسم الإشارة مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، و(آيات) بدل من اسم الإشارة، ويجوز أن يكون تلك في موضع نصب بـ (نتلو)، والمبين: المشتمل على بيان الحق من الباطل، قال الزجاج: مبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وهو من أبان بمعنى: أظهر (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بالحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أي: نوحي إليك من خبرهما ملتبسًا بالحق، وخص المؤمنين؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن، وقيل: إن مفعول نتلو محذوف، والتقدير: نتلو عليك شيئًا من نبئهما، ويجوز أن تكون «من» مزيدة على رأي الأخفش أي: نتلو عليك نبأ موسى وفرعون، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما ذكر أو للتبعيض، ولا ملجيء للحكم بزيادتها، والحق: الصدق، وجملة: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأرض) وما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ، قال المفسرون: معنى (علا): تكبر، وتجبر بسلطانه، والمراد بالأرض أرض مصر، وقيل: معنى (علا): ادعى الربوبية، وقيل: علا عن عبادة ربه (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً) أي فرقاً، وأصنافاً في خدمته يشايعونه على ما يريد، ويطيعونه، وجملة: (يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ) مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقًا وأصنافًا، ويجوز أن تكون في محلّ نصب على الحال من فاعل جعل، أي جعلهم شيعًا حال كونهم مستضعفًا طائفة منهم، ويجوز أن تكون صفة لطائفة، والطائفة هم بنو إسرائيل، وجملة: (يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ) بدل من الجملة الأولى، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان، أو حالاً، أو صفة كالتي قبلها على تقدير عدم كونها بدلاً منها، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم، ويترك النساء؛ لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل، قال الزجاج: والعجب من حمق فرعون، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقًا عنده فما
=

إلى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] **﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ المَقْبُوحِينَ﴾** [القصص:٤٢].

الشِيَع: الفِرق، لم يُسَوّ بين الناس، بل استضعف طائفة واستصفى طائفة، والمستضعفون بنو إسرائيل **﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾** يريد بناتهم **﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾** [القصص:٤] كما قال رسول الله وذكر الدجال، فعاث يمينًا وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا، وقال الله - جل ذكره: **﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ﴾** [ص:٧٥] ولم يكن بعيد من علا، وإنما أشار بذلك إلى من يأتي منهم.

وقال في فرعون: **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾** [القصص:٤] وقال فيه: **﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾** [يونس:٩٢] وإنما يكون آية على ما بعده، والمدلول عليه أكبر من الدليل، والآية على الشيء أصغر مما هو آية عليه، فافهم.

وقال فيه: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلى النَّارِ﴾** [القصص:٤١] قد هلكوا هلاك الأبد، وأراح الله منهم، فكيف يكونون أئمة يدعون إلى النار، وهم في دار البوار ليس إلا أنهم يحضرون من شاء الله إضلاله حين الموت، فيدعونه إلى ما يفضي بهم إلى النار وإلى بئس المصير.

يقول الله - عزَّ من قائل: **﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾** [المؤمنون:٩٧] أي: في هذه الحياة الدنيا، ثم قال: **﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾** [المؤمنون:٩٨] أي: عند الموت، يقيض للمحتضر آل فرعون، ومن قبله ومن مضى من الضالين وأئمتهم، وكل من دعا إلى ضلال فهو من أئمة ذلك، وكذلك يحضره من الشياطين مثالات من مضى منهم يدعونه إلى ذلك، وكل شياطين الإنس والجن، فاعلم ذلك، ونعوذ بالله من شر ما خلق.

وعند ذلك يتحقق قول رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا شبر فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل**

=

ينفع القتل، وإن كان كاذبًا فلا معنى للقتل (إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين) في الأرض بالمعاصي والتجبر، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد. انظر [فتح القدير (٥ /٣٨٦)].

النار فيكون من أهل النار»[(١)].

كما أنه يقوي الرجاء بفحوى خطابه في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص:٥] قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٦] وسياقه هذا الوعد من كلماته التامات على صيغة الاستقبال أن ينتظره أيضًا، ضعفاء المؤمنين من المن عليهم بجعلهم أئمة ووارثين، وأن يمكن لهم في الأرض، وإن كان النص في بني إسرائيل، فسياق الوعد بالكلمات التامات خصيصًا بذلك، ثم استاق ما بعد ذلك بلفظ الماضي، والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ إلى ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥ - ٦] فجعل ﷻ يتلو قصص مولد موسى ﵇ وكيف كان بدأ بشأنه، وكيف نجاه من الذبح على يدي الآمر بالذبح، وكيف لطف له بأن أوصله إلى بيته، وألزمه الحفاية به وهو لا يشعر.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص: ٧ - ٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] الوحي: إعلام في خفية وعجلة؛ ولذلك سمي الإلهام: وحيًا، والإلهام قد يكون من الملك ويكون من النفس، فيكون من الله ﷻ بواسطة الملك، ويكون من الله بواسطة روح القدس نفثًا في الروع إلى ما هو يعلمه الله ويعلمه من اجتباه وبلغ به، فإن كان من الملك فهو أقرب الوحي وأصغره، وإن كان من النفس فهو فطرتها وهو من المعهود،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٢٤)، والبخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٨)، والترمذي (٢١٣٧) وابن ماجة (٧٦).

قال الشاعر:

وأوحى إلي الله أن قد تؤامروا   على غدر فقمت على رجل

ثم يتسع وجود الوحي ويصعد إلى مشافهة الملك من أراده الله بذلك من عباده، ووحيه إلى أم موسى - عليها السلام - إمَّا أن يكون إلهامًا وإمَّا مشافهة، وإعلامًا بأي وجه كان يدل على رفعة ذلك الوحي، وعده إياها بغائب لم تعلمه ولم يكن لها ذلك لولاه، وهو قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

وكان قد حذر فرعون وأتباعه من بني إسرائيل أن يولد فيهم من يكون هلاكه وهلاك من تبعه على يديه، سرى إليهم ذلك على لسان نبوءة كانت قديمًا فيهم أو في غيرهم، وذكر أن كاهنًا لهم كان أخبرهم بذلك، والأول أصح - والله أعلم بما ينزل - ولما قرب ذلك وظهرت أشراطه أخذ يقتل ذكور المولودين من بني إسرائيل، ويستحيى نساءهم، ويستعبد نساءهم ورجالهم، يستسخرهم ليشغلهم عن التحدث بذلك والتمني به وليقل عددهم، فيكونوا مقهورين وهم لا يشعرون ﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٣].

والعجب من حرمة إن كان المحدث عنده صادقًا، فما الذي كان يجدي عليه فعله ذلك من قتلهم وإشغالهم عنه وإن كان كاذبًا، فما الفائدة في قتل ذكورهم واستحياء إناثهم إلا لعبث وإمضاء الأمر الفَسْل، ولزوم سبيل الفساد في الأرض الذي حلاه العالم به؛ وليكون ذلك آية على ما وراءه، ودام ذلك البلاء بهم من قتل المولد إلى أن تمكن حب موسى ﷺ من قلب امرأة فرعون بالتبني، وسرى ذلك منها إلى فرعون فرفه عن بني إسرائيل بعض ذلك، وقطع عنهم الذبح وخففت السخرة أو بعضها إلى زمن الرسالة.

يقول الله - جل ذكره: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧] فضرب عليهم حكمه الفاسد، وشكوا ذلك إلى موسى وقالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩].

فصل

كان بدء تعرض الفتنة ليوسف عليه السلام حب امرأة العزيز إياه، لولا عصمة الله له، وكان بدء نجاة موسى من الذبح وانبناء أمره لحب امرأة فرعون إياه، وقال الله، جلَّ من قائل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣] قيل: إن موسى حرقه وسحقه، وذراه في البحر، فذكر أن ماء البحر عذب لمتخذي العجل، يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف:١١١].

فصل

قصَّ علينا - جل ذكره - قصص المولد، وكيف صدق وعده في رده إليها، قال الله ﷻ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [القصص:١٣] أي: الذي أوحي إليها ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

عبر بذلك عن أنه كيف يحمل ويرضع ويشبع وينوم، فيذكر الله على ذلك كله منه، ولو كان مرضعًا في آل فرعون لم يكن ذلك كذلك، فجعل إلهامه أمه ووحيه إليها حتى أمرت أخته أن تقص أثره إلى أن وقعت عليه، وكان ذلك سبب إرجاعه إليها، مع أن الله - جل ذكره - بلطفه له في ذلك حرم المراضع عليه ليضطرهم ضرورة ما ألقى في قلوبهم من حبه والاهتمام بشأنه أن يبحثوا له عمن يرضعه[1] هكذا جعل تقليبه في نشئه وإقباله وإدباره، وقتله النفس وتوبته منها، وعودته إلى

---

(١) سقى الله روح سيدنا موسى ألبان المعرفة من ثدي الوصلة، حين أخرجنا من العدم بنور القدم، وحرم عليها مراضع الأكوان والحدثان، ومنعها من الاستئناس بغيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك أشار في القصة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ولولا رضاعه الأول لاشتغل بإتيان غير مرضعته، فسقيه لبن المعرفة فطامه عن كل شيء سواه. قال بعضهم: إشارة إلى العارف؛ فإنه لا يصلح لبساط القربة من لم يكن مرضعًا برضاعة الأنس، فمن كان رضيع مخالفة، أو رضيع وحشة، فإنه لا يصلح لبساط القربة، ألا ترى الكليم لما كان فيه تدبير الخصوصية بالكلام كيف حرم عليه المراضع.

مفارقة العودة في غير تلك النفس، وخوفه من ذلك، وخروجه ولحاقه بمدين، وإنكاحه هناك، ومكثه فيها راعيًا على صالح تلك الأرض، ذكر أنه شعيب النبي عليه السلام فلم يخله - جل ذكره - حال رضاعه وتربيته وفتوته من صلاح ومصلح يذكره، ولطف منه به إليه يسدده إلى أن وافاه بالنبوة واصطنعه للرسالة والولاية الكبرى.

عبر عن ذلك كله بقوله الحق: ﴿جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤٠ - ٤١] ثم أخذ يذكر رسالته وتبليغه عن ربه، وتحمل الإصر في مرضات ربه، وصبره على التبليغ وانتظار الفرج، إلى أن أتاه الله - سبحانه وله الحمد - نصره، فأغرق فرعون كما نجاه قبل من الغم؛ خشية فرعون وملائه، كما فرج الكرب عن قومه من السحرة والذبح والذلة، وتلك كلمة الله ﷻ في بني إسرائيل وموسى - صلوات الله عليه وسلامه.

قال الله ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧] والكلمة المعنية.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥ - ٦] وقد تقدم مع تكرار قصصه من الكلام ما فيه إيماء إلى الاعتبار وبطريق إلى الإذكار، وأن ذلك كله لآية منبئة عما هو كائن، فالله المستعان.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ

عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ
فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ
بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ
لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا
يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن
يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ
وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ
خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ
أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ
عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ
ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ

﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن
يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ
وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي
جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ
مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ
مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ
رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا
سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي
يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا
يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ
﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ
﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ
وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ
ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ

بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ
سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ١٠ - ٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٥١] المعنيون في ضمير الخطاب هم العرب، وبآخرة من سواهم من الأمم، وموضع التذكار بهذا التوصيل في الخطاب أن يعلموا برسالة موسى عليه السلام بصحيح رسالة محمد، وكذلك يتذكرون بالأول من الأمر الآخر منه.

أتبع ذلك قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] فسر بهذا ما أجمله قبله هم الذين آمنوا بأنبيائهم وكتابهم، وأدركوا محمد ﷺ وكتابه، فآمنوا به كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار من أهل التوراة، وكنصارى نجران وصُهَيب من أهل الإنجيل وغيرهم يقول: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ﴾ [القصص:٥١].

يعني - وهو أعلم: القول للغير عن سبيل الذكر في سبيل الفتنة، وعطف بالواو

نسقًا على قصصه نبأ موسى وفرعون، ومن سبيل الذكر الهداية إلى تصديق محمد ﷺ والقرآن لم يخلهم من مشافهة مشاهدة، كما لم يذرهم في غمة حيرة ولا تركهم في مهمة ضلالة، بل نصب الأعلام وأقام الشواهد وآثار النيرات، ونهج السبيل قاصده إليه، حتى لقد ألحق مرأى العقول بحقيقة المشاهدة.

قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين وذكر رجلاً آمن بنبيه، ثم آمن بما جاء به فله أجره مرتين**»[١].

واعلم أن هذه الأمة تعطى أجرها مرتين، دلَّ على ذلك ما ذكره في حديث الإجارة: «**وأن هذه الأمة تعطى قيراطين قيراطين ويعطى من كان قبلها قيراطًا قيراطًا**»[٢] وما ذكره رسول الله ﷺ إنما هو تضعيف بعد هذا التضعيف الذي هو الأمة فيه سواء.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٦ - ٥٩].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] هذا منتظم بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١] وذلك متصل بقوله في صدر السورة: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣] ثم هو متصل بما انضاف إلى التوصيل من دلائل وكتاب ورسول وآيات الله في

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٥١)، والبخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٥٤)، والترمذي (١١١٦) والنسائي (٣٣٤٤)، وابن ماجة (١٩٥٦)، وعبد الرزاق (١٣١١٢)، وابن حبان (٢٢٧).

(٢) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٨٢٠)، والبخاري (٥٣٢).

السماوات والأرض وما بين ذلك، وجملة ذلك الجامع له هو الحق المخلوق به السماوات والأرض.

يقول - عزَّ من قائل: قد أتيناهم من الآيات ما فيه أبين البيان، ووصلنا لهم القول المبين عن ذلك، لكنك ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦] والمهتدون يهتدون ومن ليس منهم، فلو آمن عمره كله لسبق عليه الكتاب فرده إلى الضلال، ولو أدخل النار فمكث فيها ألف عام واستغاث، وضمن الرجعة والإصلاح، فأرجع إلى الدنيا لسبق عليه الكتاب، فرده إلى الضلال، وكيف يهتدي من لا يعلمه الله من المهتدين، كما قال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم:٣٠] سبق إليهم ذلك يوم قال: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[1] فلو جاءت هؤلاء كل آية ما آمنوا إلا أن يشاء الله عبر هذا جهل من يعتقده.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يعتذر الرب تبارك وتعالى إلى آدم يوم القيامة بثلاث معاذير، فيقول: يا آدم لولا أني لعنت الكذابين وأبغضت الكذب والخلف وأوعدت عليه لرحمت اليوم ذريتك أجمعين من شدة ما أعددت لهم من العذاب، لكن حق القول مني لئن كذبت رسلي وعصي أمري لأملأن جهنم منهم أجمعين**»[2].

ويقول الله ﷻ: «**يا آدم اعلم أني لا أدخل النار من ذريتك إلا من قد علمت في علمي أني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر مما كان عليه ولم يرجع ولم يعتب**»[3].

(١) أخرجه مالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن. والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٦٣/٢)، وابن حبان (٦١٦٦)، والآجري (ص ١٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٢٥)، والحاكم (٧٤)، والضياء (٢٨٩) وقال: إسناده منقطع.

(٢) أخرجه ابن عساكر (٤٥٣/٧)، والطبراني في الصغير (٨٥٥).

(٣) انظر التخريج السابق.

ويقول: «يا آدم قد جعلتك حكمًا بيني وبين ذريتك فقم عند الميزان، فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم، فمن رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة حتى تعلم أني لا أدخل النار إلا كل ظالم»[1].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ
ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ
(٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ
(٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا
يَتَسَآءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ (٦٧)
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
(٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى
ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ [القصص: ٦٠ - ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠] قررهم على الحقيقة وفزعهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وإنما يجيء هذا الخطاب في المخاطب عند تعامي المخاطب عن تحقق البيان وتبالهه عن الأمر الواضح والمشاهد التي لا أوضح من عظم الآخرة إلى جنب الدنيا، ومتى ذكر فضل الآخرة على الدنيا فزع وقرر، كقوله - جلَّ من قائل: ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] وقال: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢] وكفى بيانًا في معرفة فضل الآخرة على الدنيا.

---

(١) انظر التخريج السابق.

قول رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الحياة الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بِمَ يخرج منها؟**»[١].

ولا أقل مما قلله الله ﷻ وقد قال: ﴿**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [التوبة:٣٨] وقال رسول الله : ﷺ «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر فيها جرعة ماء**»[٢] فالعديم العقل والعلم من عدم فهم هذه الشواهد والإيمان بها، وأعدم منه فهمًا وعقلاً من آمن بها، ثم جعل يتهافت عليها ويتهالك فيها، نسأل الله توبة صادقة وإنابة خالصة.

أتبع ذلك قوله: ﴿**أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ**﴾[٣] [القصص:٦١] يريد وعده أجر الآخرة، وأن يورثه إياها، وإنما يتصور وجود وعده هنا لمن آمن وعلم، ثم وفقه الله للعمل بما علمه وآمن به، فيجعل له حينئذٍ من حسن ظنه به ما يلاقيه به، كما قال: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»[٤] ﴿**كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [القصص:٦١] وأغفلنا قلبه عن ذكرنا وأنسيناه الدار الآخرة والعمل بها، ثم نأخذه على غرة، عبر عن ذلك بقوله: ﴿**ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾

---

(١) أخرجه ابن المبارك (٤٩٦)، وهناد (٥١٧)، وأحمد (١٨٠٤٣)، ومسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩) ، والطبراني (٧١٣)، والقضاعي (١٣٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٧٥).

(٣) الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجَّلة والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرَّبين، فلا يتخطَّى أحدهم حدَّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة، فإن الأبرار وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٢) والحكيم (٣/٩٩)، وابن حبان (٦٣٣)، وابن عدي (٦/٣٢٦، ترجمة ١٨٠٧معروف بن عبد الله الخياط) والطبراني (٢١٠) والحاكم (٧٦٠٣)، وقال: صحيح الإسناد. وأحمد (١٦٠٥٩)، والدارمي (٢٧٣١).

[القصص:٦١] حول جهنم جثيًا.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢] هذا نداء المقصود به التابعون ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص:٦٣] هم المتبوعون، المتبوع الأكبر منهم إبليس - لعنه الله - وذريته من الشياطين، ومن بني آدم من دعا إلى نفسه، وتنبأ من ذاته وأعظم منه من دعا إلى نفسه وتأله.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:١٢٨].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام:٢١] وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام:٩٣].

فهؤلاء الذين يقع القول عليهم ألا تسمع إلى جوابهم المحكي عنهم في قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣] أي: تبرأنا إليك من عبادتهم ثم قال - عز من قائل: ﴿يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: لينصروهم أو يصرفوا عنهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف:٥٢] ورأوا العذاب.

ثم قال: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي: في الدنيا ﴿يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:٦٤] لعبادة القريب المجيب القوي العزيز الجبار الرفيع الدرجات؛ لدفع عنهم وكفاهم ووقاهم ونصرهم وأدخلهم في رحمته.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] هذه دعوة عامة هي في العموم كقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي...﴾ [الأعراف:٣٥] وكقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا...﴾ [الأنعام:١٣٠] ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص:٦٦] ما عندهم سوى الشهادة على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:٦٧] عسى للمقاربة لخفاء حكم الخاتمة، وأمَّا من وافا على ذلك فالقطع عليه بالفلاح والنجاح، بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢] ونحو هذا من الشواهد.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨] هنا الوقف بوجه، ويكون معنى الخطاب معنى قوله: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] وكقوله: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

دلَّ على هذا التأويل قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ فتكون «ما» نافية ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨] يقول: هو يختار لا هم، وبوجه آخر أن يكون الوقف في قوله: «ما كان لهم الخيرة» وتكون «ما» مفعوله، يقول - وهو أعلم بما ينزل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هذا عام ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي: يجتبي من يشاء ويختار ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨].

فتكون معناها كمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦] وكما قال رسول الله ﷺ: «عجبًا للمؤمن، إن الله لا يقضي له شيئًا إلا كان له خيرًا»(١) وليس ذلك إلا للمؤمن.

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:٦٩] المراد الأول بهذا المعنى المشركون ثم الجميع.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠] كلمة جامعة للأسماء كلها والمدائح أجمعها، والقضاء كله في الدنيا والآخرة وفيما بينهما، وبخاصة ما تقدم ذكره من حسن اختياره للمجتبين من عباده.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٢٩٨)، وأبو يعلى (٤٢٠٠).

بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن
رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوۡمَ
يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [القصص: ٧١ - ٧٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] ثم إلى قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢] السرمد الدائم، وقد تقدم ذكر الليل - وهو أعلم - لأنه متقدم في الشهر على النهار، والقرآن نزل بلغة العرب وحسابها بالقمر، وأيضًا فإن وجود الدنيا على سنن الاعتبار ليل ويوم الآخرة نهار؛ فلذلك ابتدأ بإيجاد الليل في طريق الوجود وبحكمه فيها في طريق الحكم، وتذكرة في طريق الذكر، وذكر السمع في الآية التي قدم فيها ذكر وجود الليل والبصر في الآية الأخرى التي قدم فيها ذكر وجود النهار؛ إذ السمع تبين عن المخاطب في ظلام الليل، والبصر يبين عن الموجودات في ضياء النهار، فذكر لهذا ولهذا الأغلب فيه والمعتمد عليه.

وقد يتطرق من هذا - والله أعلم - إلى تعرف وجه الحكمة في جعل الله - جل ثناؤه - الجهر في قراءة صلاة الليل وقراءة النهار خصها بالسر:

والمراد الأول في هاتين الآيتين: تعداد النعم في جعله النهار ضياء للانتشار فيه وابتغاء الفضل، وفي جعله الليل سكنًا يسكن فيه بالنوم والتودع.

والمراد الثاني: التعريف بالوحدانية مع الإنعام؛ إذ لو جعل أحدهما اللازم لشق على أهل الدنيا؛ ولنقصهم سبيلاً سابلة من العبرة، ولم يعلموا لذلك عدد السنين والحساب؛ ولذلك حق لازم وجوده في الدار الآخرة، ويقع العلم بهذا أنه الإله الواحد الأحد لم يشركه في حكمه سواه، جعل الليل والنهار خلقة آيات لأولي الألباب، وأعقب هذا هذا وهذا هذا: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أو أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

وأمَّا تدبيره في الدار الآخرة وهي لا ليل فيها ولا نهار فتدبير غير هذا؛ وإنما ذلك لأن هذه الدار دار اختبار وبلوى، ثم أنعم وأفضل بأن نصب الآيات وأقام

الدلائل عليه والشواهد له بما هو له أهل، فهي وإن كانت دار إيمان بالغيب فقد رفعها بالبيان إلى مقام النص في الخطاب، والدار الآخرة دار جزاء ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] فافهم.

جعل معنى الليل كله ضيقة وظلامة ووحشة ولبسة ونومة كالموت واجتماع الهم والحزن والأوصاف والأوجاع، وصير حقيقة ذلك كله ونهايته في النار، وجعل معنى النهار ضياءه وانشراحه وانفساحه وراحه وراحته والانتشار فيه، وشبهه بالحياة، وصير ذلك كله في الجنة، ثم على تقدير مقادير المريد بين الدنيا والآخرة.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ثم حذف ذكر النهار أخيرًا بوصفه فقال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار، وعطف بالواو خطابًا على خطاب لما في الليل أيضًا من معنى الفضل لطالبي الدنيا وطالبي الآخرة، ولما في النهار أيضًا من وجود السكن والسكون فيه والنوم والراحة، ثم عطف بالواو في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣] أي: فيهما، كما تقدم في قوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] وكقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الروم:٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢] ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: احتججنا عليهم برسولهم، يقال: نزع الخصم بحجته، ونزع بآية كذا ودليل كذا؛ أي: احتج بها وأتى بها.

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص: ٧٥ - ٧٧].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص:٧٥] يقول: بيان وحجة علام خالفتم رسولي

لم كذبتم، وقد جاءكم بالحق من عندنا، فعلموا أن الحق لله هنا وقع القول عليهم في ذلك اليوم؛ أي: أخذتهم الحجة وانقطعوا عن الجواب، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:٧٦] كان قارون إسرائيليًا من قرابة موسى عليه السلام فاستعمله فرعون، فخان الله ورسوله وخان أمانته، وأعان فرعون على مراده في بني إسرائيل من استعباده إياهم وإذايته لهم، بالبغي عليهم وكشف العورات التي كانت تخفى عن فرعون وقومه منهم؛ تقربًا بذلك من فرعون؛ وإهلاكًا لنفسه ودينه، يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي القُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦].

العصبة: الأربعون فصاعدًا، وكل مال لم يُزَكَّ ولا أنفق في سبيل الله فهو كنز، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: لا يزكونها، فهي لذلك كنز، ثم قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤] إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٥].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**في الذهب والرقة ربع العشر**»[1] وجعل النصاب من الرقة ما دون الأربعين، وفي الذهب ما دون العشرين» وفيه: «**وفي الركاز الخمس**»[2] واختلفوا في الركاز ما هو؟ فاعتمد بعض العلماء على أنه الكنز الدفين للجاهلية، قال: والأركاز: الأثبات، فكأنه قال: الذي أثبته أهل الجاهلية من أموالهم، واتفق جل أهل العلم على أن المال الذي لم يزك هو كنز، فجاء من حقيقة خطاب القرآن وحديث رسول الله ﷺ: «**إن في أصل المال - أعني: قليله - بعد تحصيل القوت الذي حده النصاب الزكاة المفروضة، وأن حق الله في فضل المال إنفاقه في**

(١) أخرجه الشافعي في مسند (٣٧٢) الرقة: الفضة والدراهم المضروبة منها وأصلها الوَرِق حذفت منها الواو وعوض عنها التاء.

(٢) الرِّكزة: القطعه من جواهر الأرض المَرْكُوزَة فيها. والكنوز المدفونة في الأرض، وجمع الرِّكْزَة رِكَاز وركائز.

سبيل الله جهادًا كان أو عودًا به على ذوي القربى وأهل الغرامة والرقاب وذوي الحاجة من سائر المسلمين»[1].

ولعل القدر المندوب إلى إنفاقه من الفضل هو الخمس منه لقوله: «وفي الركاز الخمس» واجتمعوا على أنه الكنز، وقد سمى الله المال الذي لا ينفق في سبيل الله كنزًا، وكان ظاهر الخطاب الأمر بأن يخرج صاحبه من جميعه لله بإنفاقه في السبيل، فجاء قول رسول الله ﷺ محددًا الخمس فيه، وهو وجه من الفقه صحيح، ثم يجب عليه متى أخرج الخمس منه توجه عليه إخراج خمس الباقي؛ لقول رسول الله ﷺ: «**من كان له فضل ظهرهم فليعد** به على **من لا ظهر** له، **ومن كان له فضل نفقة فليعد به على** من لا **نفقة له**»[2].

ثم جعل يعدد صنوف المال، قالوا: حتى ظننا أن ليس لنا في الفضل حق، وقال: من كان له درهم فليعد به على نفسه، ومن كان له درهم زائدًا على ذلك فليعد به على أبويه، ثم ذكر الزوجة والولد ثم الخادم، ثم قال: ومن كان له فضل فليقل به هكذا وهكذا وهكذا، وأشار بيده إلى يمينه وإلى يساره وإلى أمامه وإلى خلفه، وما تركه بعد فللوارث.

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص، وكان قد استشاره في أن يتصدق بماله كله، فحد له أن يتصدق منه بالثلث، وقال: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[3] فهذا والله أعلم بعد أن أخرج الخمس من ذلك الفضل، ثم إلى مثلها هكذا، فإذا جاءه الموت وأراد الوصية توجه عليه ما حده لِسَعْدٍ ﴿وَاللَّهُ

---

(١) أخرجه مالك (١٥٦٠) وأحمد (٢٣٩/٢ ، رقم ٧٢٥٣) وعبد الرزاق (١٨٣٧٣) والبخاري (١٤٢٨) ومسلم (١٧١٠) وأبو داود (٤٥٩٣) والترمذى (٦٤٢) والنسائى (٢٤٩٥) وابن ماجة (٢٦٧٣) وابن أبي شيبة (٢٧٣٧٤) والدارمى (١٦٦٨) وأبو عوانة (٦٣٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (١١٣١١) ومسلم (١٧٢٨) وأبو داود (١٦٦٣) وأبو يعلى (١٠٦٤) وابن حبان (٥٤١٩).

(٣) أخرجه مالك (١٤٥٦)، والطيالسي (١٩٥)، وابن أبي شيبة (٣٠٩١٣)، وأحمد (١٥٢٤)، والبخاري (٢٥٩٣)، ومسلم (١٦٢٨)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦) والنسائي (٣٦٢٦) وابن ماجة (٢٧٠٨)، وابن حبان (٧٢٦١)، والبيهقي (١٧٥٥٨).

يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

أخبر الله سبحانه أن أموال قارون كانت كنوزًا وعددها في ذنوبه التي أخذه بها؛ إذ لم يقدم فيها فضلاً ولا أدى منها فرضًا، وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ﴾ «ما» ها هنا: اسم لمقادير تلك الكنوز ﴿مَفَاتِحَهُ﴾ ذكر بعض أهل العلم، إن المفاتح الخزائن، وقال: هي الأوعية هنا، قال: فكانت أوعية أمواله تثقل العصبة ﴿أُوْلِي القُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] وهم الأربعون رجلاً فصاعدًا.

وقوله صواب، والله أعلم بما ينزل؛ إذ المَفتح - بفتح الميم: هو المخزن، والمِفتح - بكسرها: هو الذي يفتح به الغلق، ويجمع المفتح بالفتح: مفاتح، ويجمع المفتح بالكسر: مفاتيح، بزيادة ياء، وهو مفتاح الغلق، وقد يجمع بغير ياء لقولهم: مفتح، فإن كان ذلك كذلك فالخزائن ها هنا خرائط الأموال الذي يوعيها فيها، فكانت هذه المفاتح إذا ودعها أربعون رجلاً كلهم موصوف بالقوة نأت بهم؛ أي: أثقلتهم فلم يستطيعوا النهوض بها إلا بشدة، كما تنوء بالمرأة عجيزتها؛ أي: تقعدها، يقال: ناء الجمل بحمله: إذا قام بشدة، قال الشاعر:

تـــنوء بأخـــراها فـــلا يـــا قـــيامها

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ «إذ» منتظمة بما ذكره من بغيه عليهم ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] في بعض الكتب المتقدمة يا ابن آدم خفني عند تتابع نعمتي عليك، فنبهه قومه على هذا المعنى، ومدحهم الله بذلك من فعلهم، وأن من أعظم الجهاد كلمة حق تقولها عند سلطان جائر، وقالوا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي: اقرض ربك فيما أتاكه تجده يوم فقرك ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧] نصيبه من الدنيا ما خلق له من العمل للقاء الله واليوم الآخر، هذا هو نصيب العبد من الدنيا، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥] إلى قوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَأَحْسِن﴾ إلي العباد ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾

[القصص:٧٧] أي: لا تمال فرعون على مراده في بني إسرائيل وإقامة جاهه في أتباعه وتزيين مملكته.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٨ - ٨٠].

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨] قيل: المراد به علم التوراة والعلم بما أوتيه موسى - صلوات الله وسلامه عليه - مما جاء به من الهدى وهذا فلم يكن ليتقرب به من فرعون، بل يكون سببًا لإبعاده وإقصائه عنه، وقيل: إن مراده بذلك أنه كان يصنع الكيمياء، والله أعلم وأيهما كان إن كان موجود ذلك حقًّا، والله آتاه إياه فعادت حجته لنفسه وبالاً وزيادة في بغيه وجرمه إن نسي نعمة الله عليه وادعاها لنفسه.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص:٧٨] هذا كقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ:٣٧].

ثم قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] المعني بهذا: هم الرعيل الأول والثاني والثالث من المجرمين، تأخذهم جهنم إلى نفسها من أهل المحشر، يقابلهم رعيل أول وثاني وثالث من المؤمنين، لا يسألون عن ذنوبهم، يدخلون الجنة بغير حساب - جعلنا الله في الرعيل الأول من المؤمنين برحمته ورأفته - وغير هؤلاء يسألون ويحاسبون، أمَّا المجرمون فيحاسبون سوء الحساب.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣] وقال: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ المُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] وبالجملة: فهي مواطن.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص: ٨١ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ...﴾ [القصص:٨١] قوله: «وبداره» يدل على أنه لم يخسف به وحده، بل به وبأتباعه وأعوانه، ومن نحا نحوه وكان على بغيه؛ إذ لفظ الدار معهوده عامروها والقاطنون فيها، من ذلك دار الدنيا ودار الآخرة، ومن ذلك قول السلف من العلماء - رحمهم الله - لا تقوم الدار إلا بالعلماء والمتعلمين والسلطان والأجناد والفلاحين وأصحاب الصناعات، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة:١٢٢].

المعنى ودار الإسلام جميع أمة محمد ﷺ ثم البلد الذي يرجع إليه الأمر ويخرج عنه الرأي وتظهر منه الرايات، ثم يتفصل ذلك بالوجود في الكمال إلى دار الرجل في خاصته وذويه، فقال ﷻ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص:٨١] فالظاهر أن الخسف أصاب من كان على رأيه ومراده، دلَّ على ذلك قول الذين كانوا تمنوا مكانه بالأمس ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القصص:٨٢] فمفهوم كلامهم هذا أن الخسف أصاب سواه معه.

فصل

وإنه من تواضع لله رفعه ومن ترفع وضعه الله، قال الله ﷻ: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠] ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣] ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠] ولما علا قارون

وفرعون في الأرض خسف الله بهذا وأغرق هذا ومن تبعهما، والذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ يرفعهم الله إلى جواره في الدرجات العلا والنعيم المقيم، لذلك قال، عز من قائل: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي: تبيانها وحقيقة ظهورها ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وفي هذا تنبيه على أن العاقبة للمؤمنين بعد هذا إن شاء الله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ أي: الذي كان فيه رسول الله والمؤمنون من ظهور أهل الكفر عليهم بمكة ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح:٥] الذي كان فيه المؤمنون من النصر والفتح في أيام رسول الله بعد الهجرة وطول مدة الخلفاء ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ هذا الذي أصاب المسلمين بعد نبيهم وخلفائه ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح:٦] ما يكون في العاقبة من النصر والفتح - إن شاء الله.

فصل

قوله تعالى فيما حكاه عن المتندمين قولهم: ﴿وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ [القصص:٨٢] قيل في معنى قولهم: «ويك» أن غير ما وجه، والأقرب إلى الصواب إن شاء الله أن «وَيْ» مفصولة هي إشارة إلى ويل، وأسقطا اللام والكاف للمخاطب، و«أن» مفتوحة الهمزة إخبار عما يريد المخبر الإخبار عنه، وفتحت «أن» لمحذوف مقدر هناك، وهو «ألم تعلم» أو ما يكون في معنى ذلك؛ والتقدير: ويك ألم تعلم أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ويك ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون، وإنما القوم تندموا فانتبهوا، فتلاوموا على رأي قد وقاهم الله شره.

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ في أبي نصير: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أنصار»[١] فقوله: «وي» إشارة إلى الويل، واللام جارة للام، وهي كلمة تقولها العرب تفجعًا من فوات مرغوب فيه قد أمكن مناله لمانع موجود حال دونه، وقد يكون «وي» زائدًا إلى ما تقدم للتنبيه والإعلام، والكاف للمخاطب، وأنشدوا شاهدًا على ذلك قول الشاعر:

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧٣١)، وأحمد (١٩٤٤٢).

سـألتاني الطـلاق إن رأتـا مالـي قلـيلاً قـد جئتمانـي بنكـر
ويك أن من يكن له نسب يجيب ومـن يفتقـر يعـش عـيش ضـر

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٥ - ٨٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] «فرض» هنا بمعنى: أنزل وأوجب حلاله وحرم حرامه، وخصك بفضيلة الرسالة والإنباء عنه، «لرادك إلى معاد» قالوا: مكة، وهذا وإن كان قد أدخله إياها وبلغه مأموله من ذلك، فمعهود المعاد أنه مأخوذ من العود بعد البدء، ومعناه - والله أعلم - إن الذي ذكرك في قديم أزله بالقرآن نزله عليك ويستعملك بما فيه، وذكرك يومئذٍ بالنبوة والرسالة والدرجة الرفيعة لرادك إلى معاد، ذلك بعثًا إليه.

وبوجه آخر أن يكون معنى قوله هذا: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] أي: أن الذي أنزله عليك وافترضه عليك؛ والمراد به بهذا: هو وأمته، ثم يكون ما قد أنذر به ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يبقى من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه**»(١) وقد جلى هذا الوجود بوعده بالإعادة، وأنه يحكم بالقرآن، ويهتدي بالهدى، ويسلك السبيل القويم - إن شاء الله - وقد تقدمت إشارة إلى هذا المعنى في قوله في قصة قارون: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:٨٥] فنظمه بما تقدم.

أتبع ذلك بما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣٤٤٨).

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦] يقول: وما كنت ترجو، وعطف بالواو على ما تقدم ذكره أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، معنى «إلا» ها هنا تحقيق ما سبق إليه من سابقة رحمته، كأنه قال: لكن رحمة من ربك، فمفهوم هذا أنها إشارة إلى تصحيح الإعادة بقول: فقد كانت البداية فأيقن إذًا بالإعادة، ثم قال على إثر هذا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص:٨٦ - ٨٧] وأخلص له العبادة والدعاء إليه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧].

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] [القصص:٨٨] يقول: ما كان من سبيل الفتنة فهالك العامل به وعمله، إلا ما كان مما أخلص لوجه الله من عمل وذكر، والمراد به بحكم العموم سبيل الذكر كله، فهو باقٍ؛ لأنه متوجه به إلى الباقي الحق ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:٣] ثم قال وقوله الحق: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ في هذا وهذا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨] ثم بحكم العبرة، فافهم.

---

(١) قال المهائمي: أي: إلَّا ما أشرق عليه من نور وجهه من وجوه أسمائه التي توجهت إلى حقيقته وظهرت فيه وهو وإن ظهر فيه فلا حكم له. [التبصير ١١١١/٣].

تفسير سورة العنكبوت[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ١ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿الم[2]* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١ - ٢] قد تقدم أن موجودات دار الدنيا قسمها إلى قسمين: ذكر وفتنة، يجمعهما أمر الله وقدره، فظاهر الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، هذا في الأحوال وفي الديانة إيمان وكفران، وباطنها تباعات وسؤال

(١) قال المهائمي (٣/١١١٢): سميت بها لاشتمالها على قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ﴾ المشير إلى أن من اعتمد على قوة الآلهة وحفظها عن العذاب كالعنكبوت اعتمدت على قوة بيتها التي لا تحتمل مس أدنى الحشرات والرياح وحفظها عن الحر والبرد، وهذا أتم في الدعوة إلى التوحيد الذي هو أعظم مقاصد القرآن.

(٢) أقسم الحق سبحانه بإشارة الألف إلى استواء فردانية أزليته على قلوب المفردين من أهل التفريد، وبإشارة اللام إلى كشف جماله للأرواح العاشقين الذين استقاموا مع الله بنعت التجريد وبإشارة الميم إلى محبة القدمية السابقة لسباق المحبين الذين استغرقوا في بحار التوحيد أنه تعالى لا يدفع من ادَّعى محبته ومعرفته في مقام وصاله وكشف جماله في الدنيا بوصف السرمدية إلا ويبتليهم بعد التجلي بالاستتار وبعد كشف الأنوار بتعذيب الأسرار؛ لاستيفاء حق الربوبية من العبودية وغيرة الأزلية على كون الحدث بالأسامي والنعوت في نعوته الأبدية.

وحساب وبلوى وفتنة واختبار وفناء وهلاك، وفي الأعمال طاعة أو عصيان، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وعلى القول بالإجمال فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

فالله - جل ثناؤه وتقدست أسماؤه - يدعو العباد من الدنيا إلى الآخرة، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الفتنة إلى العصمة، ومن العصيان إلى الطاعة، ومن الشرك إلى الإخلاص، فأعلم ﷻ عباده الذين استجابوا له بالإيمان أنهم في الدنيا لم يخرجوا من حكمها بإيمانهم، وأشعرهم أنهم لما يتخلصوا بعد من شبائكها بإسلامهم، بل هم لبلواها معرضون، ولفتنها على إيمانهم خائفون، والدنيا على البلوى أسست، وعباده العابدين لله ﷻ للفتن عرضت، فلا بد من تجرع مرارة الصبر وحبس النفوس على جهد المجاهدة، واستشعار البلوى في الشر والخير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ألا ترى أنهم إن استجابوا لله وللرسول كما أمرهم به ودعاهم إليه ابتلاهم بالفتن اختبارًا؛ لينظر كيف ثباتهم على ذلك وصبرهم، وإن هم لم يستجيبوا له أخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون، فمن أجل باطن هذا الحكم في ظاهر هذه الدنيا قال - عز من قائل: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾ [العنكبوت:١ - ٢] كما قال: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ**﴾ [البقرة:٢١٤].

ينبئ بما كان فيما خلا من قبل، ويعرض بما هو آت، فالمؤمن مفتن مرزًا، مطالب بين شيطان يخاف إضلاله، وعدو من الإنس والجن يخشى تفتينه، ودنيا تغره وولد يشغله، وأهل وجيرة وأقران وسلطان، كل يروح عليه الخير والشر في معاريض البلوى والغرور، وبالإيمان والإسلام على التحقيق والمجاهدة للنفس والعدو الظاهر والباطن والاعتصام بالله والرغبة إليه والتوكل عليه وتعزيز العلم برتق الفتق ويقوم الوزن.

قال الله - جل ثناؤه: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥] وببلوغ التحقيق الشأن كله، وهو الصبر لله - جل ذكره - على الضراء والشكر له في

الرخاء، ويرتقي إلى ذلك بالتحقق في التحقيق، وذلك بأن يعزم على مجاهدة النفس والعدو على العمل بحقيقة العلم، فهما السببان الموصلان إلى الله ﷻ والوصول هو وجدان الحب له والرضا عنه في خالص سر القلب، وفي ذلك الدخول في حزب الله وحزب الله هم المفلحون.

فالإيمان بالله أولاً والإسلام له بالشهادة وعمل الجوارح درجة، ثم لا يتم ذلك إلا بالعمل بالعلم في سنن الاقتداء وما صد عن ذلك أو شغل عنه فهو فتنة، ثم تلك نعمة ولا تتم إلا بالإيثار لله ولرسوله، وللإيمان بما يجب الإيمان به والاستسلام له على ذلك؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وولده وماله والناس أجمعين**»[1] وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وحتى يكره أن يعود إلى الكفر، كما يكره أن يقذف في النار.

وعلى هذه المرتبة من الإيمان بالله ورسوله جاءت هذه الآية ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢] أي: حتى يظهر منهم الإيثار، فيرفعون إليه أو لا، يظهر منهم الإيثار فيكون كما قال ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ [العنكبوت:١٠] وهو نزول إلى رتبة المنافقين، دلَّ على ذلك ما أتبعه إياها قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١] وهو أيضًا من الذين يعبدون الله على حرف؛ أي: على السراء دون الضراء.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣] فالصدق هو الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، والتصميم في الصبر على تقلب المحن عليه، حتى يرتفع بذلك إلى أعلى الدرجات، أمَّا قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾ حيث وقع هكذا بلفظ الاستقبال، فإنه - تبارك وتعالى - لم يزل عالمًا بما يكون قبل كونه، وإنما معناه على هذا أن يعلمه كائنًا بعد وقوعه، وقد كان قبل يعلمه ولم يكن بعد، وعلى المعلوم تختلف الأحوال لا عليه،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١٧٤).

وقرأ علي بن أبي طالب ﷺ والزهري والكلبي: «فليُعلِمن الله الذين صدقوا وليُعلِمن الكاذبين» بضم الياء وكسر اللام فيهما، فهو كقوله: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم﴾ [المائدة:٤٨].

قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤] هذا منتظم بقوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا...﴾ [العنكبوت:٢] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت:٤] أي: يعجزونا، فلا نقدر عليهم إعادة وجزاء.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت:٥] قد يكون الرجاء بمعنى الخوف، وأن يكون على بابه أولى وأقرب إلى إصابة الصواب إن شاء الله تعالى، وما عهد الخير كله ظاهره وباطنه إلا من عند الله، وإنما وجود الشر هو من قبل من سواه، ولم يذكر الله لقاءه إلا بلفظ الرجاء، وذلك أنه لا يلقاه إلا من رضيه للقائه وأهله إليه.

وأمَّا من سواه فليس باللقاء، بل هو المقام والتوقيف ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤] فوصف العموم في هذا المعنى بالمقام، ووصف المرضيين باللقاء؛ ولذلك - وهو أعلم - لم يذكره في كتابه إلا بلفظ الرجاء، وهو السميع لدعاء الداعين، العليم بمن أهله إلى ذلك منه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

وأمَّا قوله - جلَّ من قائل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [الأنعام:٣٠] إلى قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ [الأنعام:٣١] فإن وقوف هؤلاء على ربهم دون رؤية ولا لقاء.

قال الله، جل قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] الحق - والله أعلم بما ينزل - أنه كما لا بد من التعب بعد الموت، كذلك لا بد من لقاء الله، وهذا المعنى باللقاء يجدون له روحًا وراحةً وحالاً تقصر العبارة عن وصفها، فإذا هم وجدوا تلك الحالة وتعرفوها قطع بهم عنها، لكن يقال لذلك المعنى: بهذا وقوف وعرض ونحو هذا في حق المجرمين، ويقال له: في حق المؤمنين لقاء، فيكون ذلك أشد لأسفهم وأعظم لفجعتهم، وأبين لحقيقة خسارتهم،

وأن في جوابهم بقولهم: «بلى وربنا» لإشارة مذاق تدل على حالهم.

ألا ترى أن الميت يؤتى عندما يوضع في قبره فيسأل، وفي آخر ذلك يقال له: انظر إلى مقعدك من الجنة، أبدلك الله به مقعدًا من النار، وبالضد في المؤمن والموقن، فكذلك اللقاء يعرض عليه بما هو، ثم يطرد عنه، وأن للقاء الله - جل ذكره - بركة وأمر، ليس كمثله أمر كما أنه ليس كمثله شيء، وإذا تحققت المراد كله بالآخرة فمعظمه لقاء الله وهو الشأن كله، وما بعد ذلك من إكرام وملك وحباء تبع له كعلم معرفته في المعارف كل يعرفه وعلم تبع له.

لذلك - وهو أعلم - يقول الشقي في النار: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٧] ويقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠] والمشار بالتمني هنا حال أوجدوها عند الوقوف من معنى اللقاء، فيتمنى في النار أنه لم يكن ولم يجد ما وجده، وأن لو كانت قضية الموت تكون قاضية على البعث، فلا يبعث ولا يجد من حال اللقاء ما وجده عند الخلود في جهنم، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١] وهو - جل ذكره - ما ذكر اللقاء إلا بلفظ الرجاء لعظيم قدره وسني شأنه، فافهم، أسعدنا الله بلقائه، ورزقنا منه في ذلك البشر والبشرى برحمته.

فصل

الرجاء يكون عن سرور القلب بحسن الظن والعلم بصدق الوعد، فإنما يكون وجود الرجاء عن رفعة الإيمان، فتحصل الثقة بالجود من الجواد الودود، وأصل ذلك عن حسن الظن بالله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله»(١) وحسن الظن أرفع من الرجاء؛ إذ الراجي لا يكون إلا خائفًا، فهو كما يرجو أن يصل إلى مأموله يخاف أن يفوته، ليس كذلك حسن الظن؛ لأنه ثمرة المعرفة بجميع أسماء الله ﷻ وصفاته، وأمَّا حسن الظن بالله هو أمل من حيث الله - جلَّ ذكره - لا

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤١٠)، وأحمد (١٤٦٢٠).

من حيث العبد منبعث ذلك عن علمه به، إنه كريم محمل محسن، رحمن رحيم، حنان منان، قريب مجيب ودود، وهو عفو كريم.

يقول الله ﷻ: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»[١] وأحط درجة الرجاء أن يكون قريبًا للخوف؛ إذ الخوف بلا رجاء قنوط، وأرفعه ما لحق بحسن الظن في بعض مواطنه، من ذلك قولهم: كن لما لا يرجو أرجى منك لما ترجو، إن موسى خرج يقتبس نارًا، فنودي بالنبوة والرسالة والتكليم والتقريب والأمان.

فصل

ولمجاورة الرجاء للخوف صح في هذا الكلام وصف الخوف للقلب، فيقال: كن لما لا يخاف أخوف منك مما تخاف، فقد مدح الله ﷻ من هذه صفته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] وقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] المعنى، فندبهم - جل ذكره - إلى الخوف في مقام الأمن وحذر من الأمن دون وعد بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

واعلم أن مدرجة الصعود إلى مرتبة الرجاء هي المعرفة بابتداء الله العبد بالنعم، قبل استحقاق منه لها من غير عمل عمله ولا قدم قدمه، بل ذلك في قدمه بمنه القديم وفضله العظيم، كما أن مدرجة الصعود إلى صفة الخوف المعرفة بأنه الفعال لما يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه؛ ولأن له الملك كله وله المثل الأعلى، فكل فعاله حسن جميل، وجميع حكمه عدل، هو عدل الأحكام، لا يحكم على أحكامه، إنما القاضي على الأحكام أحكامه، فهذا النوع من العلم قطع قلوب العارفين.

ألا ترى إلى حكمه في الدنيا المقتضي لقوله الحق: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] فهذا من حكمه في الدنيا، وكيف على هذا حكمه في الآخرة؟!.

---

(١) تقدم تخريجه.

فصل

ومعنى الخوف: رَدْعَة توجد بالقلب يدهش منها العقل، وقد يعتري ذلك من أجل قوة علم العبد لمجاري الحكم، ومن أجل مطالعة العبد سطوات الرب - جل ذكره - ونقمه، فيتولد على القلب الخوف، وهو الفرق خوفًا من الوعيد، وبدأة الخوف الوجل، فإذا قوي صار خوفًا، والفرق بين الخوف والرهبة: أن الخوف فزع تخف له الأعضاء، والرهبة: هول تثقل الأعضاء له، وربما كان إنما سمي الرهبان رهبانًا؛ لأنهم ثقلت أعضاؤهم عن الهرب، فحبسوا أنفسهم في الصوامع.

أتبع ذلك قوله - جل ذكره: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت:٦] كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦] فالجهاد مأخوذ من بلوغ جهد النفس وإعطائها المجهود في ذلك.

وأعلم الله ﷻ أن درجات الإيمان لا تكون مجالاً للعبيد إلا بالمجاهدة، وإنما يجاهد من له قوة وبصيرة وعلم ومعرفة بقليل ما يبذله من نفسه إلى جنب عظيم ما يطالبه، فالدرجة الأولى من الإيمان والإسلام للمسلم المؤمن بمنزلة خلقه السمع والبصر والفؤاد للعبد، ثم كلفه بعد ذلك الإيمان به والتسليم له، وهداه النجدين، وأوقفه على الجادين، فمتى اختار الصعود إلى أعلى درجاته أجهد نفسه لينالها برحمة ربه، وإذا أجهدها حقت له المعونة بوعد ربه له بذلك، ومتى اختار الحلول بمحال الغافلين ولاه الله ما تولى، وكان بذلك في عمل المسلمين وعموم المؤمنين، وإن كان قد سبقت إليه من ربه سابقة في الأزل، حماه من عدوه وأصلح باله ورده إليه.

قوله - جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٧] من أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون، سبحانه وله الحمد، يوفيهم أجرهم بأوفى مكاييلهم، ويزن لهم بأرجح موازينهم، ويجري مجازاتهم على أرفع أعمالهم، ويحبوهم بأكرم نياتهم، أعمها علمًا وأتمها مشاهدة وأخلصها إيقانًا، وكذلك متى مرضوا أو تنافروا أو حبسهم عن عبادته أو قصر بهم عن ذروة اجتهادهم بعذر يعلم صحته، كتب لهم أحسن ما كانوا يعملون قبل حلول ذلك العذر بهم.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ
ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي
صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ
خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ
سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ
وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨ - ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت:٨] انتظم معنى هذه الآية بمعنى ما افتتح به السورة، من ذكر الجهاد والأمر به وإعطاء المجهود في ذلك من النفس، وعلمنا ﷻ كيف تكون المجاهدة في الأبوين، مع توصيته بالإحسان إليهما، وخفض الجناح من الذل لهما، مع التزام المجاهدة في ذات الله بأن يتوسط المبتلي بذلك أمرًا بين أمرين، إحسانًا إليهما وطاعة لربه - جل ذكره - فإذا فعل ذلك جهاد في ذات الله وطاعة له.

فصل

برُّ الوالدين من شكر المنعم، وذلك مخرجه من اسمه الشكور - جل ذكره - فاجتمع البر لهما والشكر بالبر لله والشكر لله، وفي ذلك أيضًا إيجاب أداء الحق، وقضاء الديون، وتوقير الكبير، وجزاء الإحسان بالإحسان، والاعتراف بحق الأولية، وإعظام البدء، وهو منبعث من اسمه المبدئ، وهذه كلها آيات على وجوب حقوقه

ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فإذا هو أوجب بر الوالدين وطاعتهما فبأن يوجب حقوق ربه ويفرض طاعته أولى وأحرى.

ثم إن كانا مؤمنين فقد أوجب الرجوع إلى قولهما والأخذ بنصيحتهما، فبر هذين أولى وأحق في عرفان العقول، والشرع قد توجه على العبد شكر زائد لله - جل ذكره - على شكره، إذا قد جعل أبويه مؤمنين، كما قال سليمان ﵇: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف:١٥] قرن الله شكرهما بشكره، ووصف رسوله ﵇ عقوق الوالدين بالكفر، وبساط خطاب ما يأتي بعد هذا يدل على ما ذكرنا ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثم أتبع ذلك بمعنى ما تقدم قبل هذه الآية قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٩] كما لا يدخل أحدًا الجنة عمله كذلك، لا يلحقه بالدخول في الصالحين، وإنما هو وعد من الله من عمل صالحًا، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وسنيسره لليسرى، وذلك إدخاله إياه في الصالحين.

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢] وما جاء هذا بلفظ الأمر؛ لأنهم ضمنوا للأتباع ولمن آمن أنهم اتبعوا سبيلهم أن يأمروا أنفسهم بتحمل أثقالهم وخطاياهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت:١٢] إنما على الأتباع حمل أثقال ما عملوه، وما أطاعوا المضلين لهم، وتركهم النظر في آيات الله المنصوبة في السماء والأرض، وإعراضهم عن أنبياء الله والرسل وأهل العلم من أممهم، وأمَّا المضلون فإنهم يحملون أثقال خطاياهم التي تقدم ذكرها، ويحملون إلى ذلك أثقال إضلالهم غيرهم، لا ينقص ذلك من أوزار غيرهم شيئًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣] يقال لهم: من أين قلتم هذا؟ وعمن من الأنبياء والمرسلين حملتموه؟ وفي أي كتاب من عند الله وجدتموه؟.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] المعنى إلى آخره، أنشأ ﷻ يقص علينا تبيان ما ابتدأ به السورة من ذكر المجاهدة، فذكر أئمة المجاهدين في سبيله نوحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا - صلوات الله وسلامه على جميعهم - ويصف في ذلك ما لقوه من الإذاية في الله والبلاء، وما لقى أتباعهم من الفتن، وما صابروه من الابتلاء، فذكر أن نوحًا لبث في قومه يجاهدهم بلسانه على التبليغ عن ربه ﷻ المدة التي ذكرها، ويدعو قومه إلى الله ﷻ يجاهدهم في الله، ويصبر على سبهم إياه وإذايتهم له، وتخلفهم وعصيانهم واستهزائهم وسخريتهم.

وذكر إبراهيم ؑ ونصيحته ومحاجته في ذات الله وطرحه في النار، وذكر لوطًا واستضعافهم له واستحقارهم إياه، وشعيبًا - صلوات الله وسلامه على جميعهم - ثم ذكر أعقاب ذلك كيف أهلك المكذبين لهم، وأنه أحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، وأنه أخذ كلاً بذنبه، وأهلكه بوصف كفره وجرمه، ودلنا بالنظر إلى مساكنهم على تحقيق ما قصه علينا من قصصهم، وندبنا إلى تساؤل ديارهم، والتوقف بجرائمهم، والاعتبار بهم بما استحقوا ذلك من ربهم، وما الذي من أجله هذا العذاب عراهم.

فصل

- الجهاد يكون باليد والسلاح وإظهار القوة ورباط الخيل: وذلك يكون بالقدرة والألفة في ذات الله واجتماع الكلمة.

- ويكون باللسان: وهو التبليغ عن الله والتبيين لأمر الله، والهداية إلى سبيل الله على سنة رسول الله.

- ويكون بالقلب: وهو الإنكار والمجانبة والفرار ما وجد إلى ذلك سبيل، وإلا فمجرد الإنكار بالقلب ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤] كل ما أطاف بالشيء وأحاط به فهو طوفان، وطوفان هؤلاء كان الغرق لما علوا في الأرض أغرقهم الله.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥] بالإيمان بالرسل وبما جاءوا به نجاة الدنيا ثم نجاة الآخرة، وبالإيمان بالله - جل ذكره - نجاة الآخرة ثم نجاة الدنيا، الظاهر للظاهر والباطن للباطن، ثم يتداخل الأمر من حيث أن الدنيا والآخرة لله ﷻ فهذا من آياتها؛ لأنها كانت عبرةً لهم من حياة إلى حياة، والجري بالسفينة طول زمن الطوفان، فإن به برزخ بين الحياتين في حق المحمولين، وحكم الموت قد أطبق على أهل الأرض في غمرات الطوفان، تلك عاقبة من رد نصيحة ربه وكذلك رسله، وضيع الحزم لنفسه، وصم عن نداء الله تعالى ودعائه الرسل؛ يعني: رتبة الوجود، ومن أطاع رسل الله نجا معهم في الدنيا، ثم له النجاة في الآخرة، ومن أطاع الله نجاه في الآخرة، وربما أنجاه في الدنيا.

قال رسول الله: «يردون موردًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى»[(١)].

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦] ليس هذا الخطاب للمفاضلة بين عباد الله - جل ذكره -

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٨٢)، ومسلم (٢٨٨٤) بلفظ: «يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى».

وعبادة الغير لا خير في عبادة غير الله، وإنما هو إعلام بأن الخير هو في عبادته وحده، وأن عبادة الله وحده له من وصفه في الدار الآخرة أنه لا يشبهه شيء، فافهم.

أظهر ذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت:١٧] وقوله: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥] فأي خير أبقى في عبادة غير الله، وإنما ذلك كقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠] إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١١].

وقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩] هو إعلام منه لنا أن الخير في عبادة الله - جل ذكره - وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: مآل ذلك وعائدة نفعه، ومتى وكيف ذلكم خير لكم فيما هنالك؛ أي: في الدار الآخرة، يشير إلى ما هنالك من الزيادة والعلية والعلم بذلك هو العلم العلي، وقد شرح هذا المعنى وأوضحه في سائر القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ...﴾ [العنكبوت:١٨] يمكن أن يكون هذا الخطاب متوجهًا من الله - جل ذكره - إلى هذه الأمة العرب وسائر الأمم على لسان رسوله، ويمكن أن يكون قولاً لإبراهيم منتظمًا بمعنى ما تقدم من تبليغه وتبيين ما أرسل به يخاطب به قومه.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت:١٩] أظهر الله الخلق بالإحياء، ثم هو يبطنه بالإماتة والإعدام، ثم يعيده بالحياة الآخرة مظهرًا هذا بالحكم، وأمَّا معنى الكلام - والله أعلم: ألم يروا بأبصار رؤوسهم كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، بأن نزل الماء من السماء فيخرج به زرعًا ونباتًا جمًا، ثم يجعله هشيمًا تذروه الرياح فيكون بذلك معدومًا، ثم يعيده ثانية مظهرًا.

فإن قالوا: إن هذا النبات المظهر في هذا العام غير ما قد أنبته في العام الأول والذي ينبته في المستقبل، فهذا من قائله هرب عن التحقيق، وهو لما اقتدر على إظهاره أولاً ثم على إعدامه، فإن إظهار مثله أيضًا ممكن جائز، وقد بينه الوجود أولاً،

ترى أن إظهار ذلك المظهر أولاً ثم إعدامه في قدرته سيان، وقد اقتدر على الأولى، فهو على الآخرة أقدر في قضايا العقول؛ إذ المعهود أن الاقتدار أيسر من الابتداع، فوجب أن يكون إظهاره بنفسه ثانية وألفًا جائز ممكن غير متعذر، بل هو على المعهود أهون، وفي العادة الجارية أيسر، وكلا الحالتين ملك يديه، سبحانه وله الحمد.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠ - ٢٣].

فنبههم على ما يشاهدونه في الحاضر على الاعتبار إلى ما في الغائب، ثم بيَّن لهم كيف سلوك الطريق إلى طلب العلم واليقين بقوله الصدق: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ ثم حذف أهلكهم أو أعدمهم أو ما يكون في معنى ذلك، ثم حكم بالنشأة الآخرة لصحة النشأة الأولى بقوله: ﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠] كلام عام معبر عن صحيح الاقتدار على كل شيء معلوم أو مجهول في حسبتنا.

واعلم يقينًا أن النشأة الآخرة لا تنسب إليها النشأة الأولى، إلا كما تنسب موجودات الدنيا إلى موجودات الآخرة، فإن الله - جل ذكره - قد وصف موجودات الدنيا بما هي بأنها: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ وأنها: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد:٢٠].

وقال في موجودات الدار الآخرة أنها: ﴿لَهِيَ الحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤] وقال في هذه: ﴿مَتَاعٌ﴾ [الحديد:٢٠] وفي تلك: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧] فكذلك النشأة خير وأقوى وأبقى.

إن في قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت:١٩]

فاستاق معنى الابتداء، وهو الإظهار، وفي سياقه بعد هذا معنى البداية في قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠] فأمَّا الإبداء بمعنى الإظهار: فهو بأبصار الرءوس مرئيًا والبداية مرئية بالبصائر.

فمعنى الخطاب - والله أعلم بما ينزل: ألم يروا بأبصارهم كيف أظهر الله الخلق بعضهم لبعض بإيجاده إياهم عن غيب علمه بهم وقدرته عليهم في مشيئته فيهم، كما أظهر عن آدم ﷺ ذريته، ولولا أنهم كانوا في وجوده لم يظهرهم عنه، فالله أكرم وجودًا وأعظم قدرًا، وقوله بعد ذكر الإبداء: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إعلام بأنه سوف يعدمهم ثم يعيد إظهاره، أي: إظهار الخلق؛ يعني: يوم البعث متصلاً بيوم الخلود، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩].

ثم وصل بذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ أي: بالإنشاء لهم، ثم يميتهم ثم ينشئهم ﴿النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت:٢٠] فهو الأول في إظهارهم عن كريم وجوده بعد، وهو الآخر بإنشائهم النشأة الآخرة، وهو الظاهر في ظهورهم مما أظهره منهم وبهم، فهو الباطن في أزل أزله، والباطن بما أبطن من كريم وجوده فيما أظهره من وجودهم؛ لذلك قال - وهو أعلم: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس:٦١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] خاطب بهذا المنكرين للبعث الآخر.

يقول: «وما أنتم بمعجزين لنا في حال فنائكم وذهابكم في الأرض وإخراجكم من خزائن السماوات والأرض، كما لم تعجزونا أول مرة جمعهم أولاً بواسطة الرياح من السماء» فأنزلهم من السماء ماءً وأمرًا، ثم أنبتهم من الأرض إنباتًا في النبات، ثم جعل ذلك النبات خزائن للحيوان والإنسان، كما جعل السماء والأرض خزائن للنبات، وما طار من رطوبات أجسام الموتى بواسطة الهواء وما رسب منها من أرضيه إلى الأرض، فعادت ترابًا في التراب، ثم أخرجهم من الأنعام، ومن آدم منيًّا، ثم صيرهم في الأرحام بنقلهم في طبقات التكوين، ثم أخرجهم من الأرحام إلى الأرض، يرزقهم من السماء إلى الأرض على ما تقدم ذكره، ثم يميتهم ويعيد

أجسامهم إلى الأرض، وما بطن من ذواتهم إلى الهواء والسماء وإلى عاجل منازلهم من الجنة أو جهنم.

ثم كذلك إذا أذن الله - جل ثناؤه - بالنشأة الآخرة أمر كل شيء أخذ من شيء شيئًا، فرد ما اختزن فيه، ثم دعاهم دعوة من الأرض، إذا هم قيام ينظرون هذا، والله الحق لا الكذب، والجد الفصل لا الهزل ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:١١٦] رجوعًا بالخطاب إلى معنى قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣] ذكر الرحمة مضاف إلى ذكر اللقاء، وذكر العذاب الأليم مضاف إلى الكفر بآيات الله، ما وعد الله - جل ذكره - بثواب على شيء، ولا أوعد بعقاب على شيء، ولا وصف نفسه بوصف، ولا أظهر اسمًا من أسمائه، ولا ذكر معنى يعبر به عن لقائه إلا وله على ذلك آيات مبينات لمن طلب ذلك بتدبر.

أيأس - جل ذكره - من رحمته من كفر بلقائه الكريم، وأوجب العذاب الأليم لمن كفر بآياته، نعوذ بالله من درك الشقاء في الدنيا والآخرة، بيان الأفعال دلالة على وجوده العلي، وقد تقدم ذلك، وهو العلم والمعرفة به، ورؤيته في الآية آية على لقائه ورؤيته فيما هنالك، والمواجهة في الصلاة هنا آية على اللقاء والتكليم والرؤية.

واختلاف الليل والنهار آيات عليه، فالنهار بما هو آية على لقائه وطلوع الشمس آية على لقائه ورؤيته، كذلك طلوع القمر ورؤيتهما دائمًا آية على رؤيته فيما هو الحق المبين في تلك الدار دائمًا، وظلام الليل ووحشته، وفقد الهداية، واجتماع أحزان الحزين، ووجد الواجد، وحنين الغريب، وحضور الهم دليل على البعد عنه في الظلمات السفلى - نعوذ بالله منها - كما الانتشار وفرح النفوس وراحة المريض وكشف الغم والهم على الأغلب بطلوع الفجر وإشراق الآفاق وضياء الأجواء بطلوع الشمس آية على الفرح باللقاء، ووجدان الفرح في ذلك لمن آمن بالله وعمل له، فابحث عن ذلك تصب البغية - إن شاء الله - وسماع كلامه بفهم وإيمان به آية

على تكليمه.

قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان وإلا وهو يحاصره، حتى أنه ليقول له فيما يقول: عبدي أتذكر يوم كذا وكذا؛ إذ فعلت كذا وكذا، فيقول له العبد: رب أولم تغفر لي؟ فيقول: نعم، وقد رضيت عنك**»(١) فانظر وفقك الله، كما أن العبد إذا قرأ القرآن أو تذكر فضل الله ورحمته أو وقف بفهم وعلم على وعد منه سبق إلى تلك الحال بذكر الذنوب؛ ليستغفر ربه ويسأله فضله.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤ - ٢٦].

فكذلك فيما هنالك أرجع الخطاب إلى قصة إبراهيم ﵇: ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أو حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ**﴾ [العنكبوت:٢٤] هذا من معنى المجاهدة وتحمل الإذاية في الله - جل ذكره - وبدأ يذكر إبراهيم وقوله لقومه، وثنا عليه أنباء محمد - عليهما السلام - ثم أرجع وجه الخطاب إلى تتميم قصة إبراهيم.

أرى - والله أعلم - أنه لما كانت رسالة إبراهيم شبيهة برسالة محمد ﷺ وكونه به أولى الناس ومأمورًا بإتباع ملته، وهو أشبه ولده به تداخل خطاب إبراهيم وقومه وخطاب محمد وأمته، فانثنى بعض ذاك على بعض، وكانت تلك جاهلية أولى وجاهلية ما قبل المولد، والمبعث جاهلية أخرى، قال الله ﷻ: ﴿**وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ**

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٨٢٧٢)، والبخاري (٧٠٠٥)، ومسلم (١٠١٦)، والترمذي (٢٤١٥) وابن ماجة (١٨٥)، والطبراني (٢٢٥)، والبيهقي (٧٥٣٣)، وفي الشعب (٢٥٩)، وابن منده (٧٨٧).

الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣] قيل: هي الجاهلية التي بعث عليها إبراهيم عليه السلام.

أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤] الإيمان الحق هو القول والعقد، إنه لا يفعل فعل الله إلا الله - جل ذكره - وأنه ليس للفاعلين سواه فعل بأنفسهم، إنما يفعل ذلك الله - جل ذكره - ودلَّ على ذلك من جعله في النار ولم تحرقه؛ لقوله ﷻ لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] إنها لا تحرق إذًا إلا بإذن يؤذن لها كما كفت عن الإحراق بإذن يؤذن لها فيه، وإنما يخلق الحرق فيها عند مباشرتها الأجسام، وكذلك السيف لا يقطع إلا بإذن، وكذلك الخبز لا يشبع إلا بأن يخلق الله الشبع لأكله والماء كذلك، والعقاقير لا ينفذ عنها المعهود منها إلا بإذن من الله لها في ذلك.

وإذا كان ذلك كذلك فليس على التحقيق يفعل الفاعلون ولا يشأ المريدون ولا يقدر القادرون إلا بإذن من الله في ذلك، وفي ذلك من الآيات أن الله يحمي من يشاء ويكرم من يشاء، ويظهر على يديه من المقدور والغائب ما شاء، وذلك لا يكون إلا لأهل الإيمان المحقق، وذلك شرط في وجود ذلك.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٧ - ٣٠].

ثم أتبع ذلك ما أتاه في الدنيا من حسنة، وأنه آمن له لوط عليه السلام فهاجر إلى ربه، وأنه وهب له إسحاق ويعقوب إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧] جزاءً لصبره على الجهاد، وثباته على محن الفتن، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا....﴾ [العنكبوت:٦٩].

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ

أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا
لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا
ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ
ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: ٣١ - ٣٧].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥] سبيل رؤية العقل هنا الآيات أن يحصل بالبحث لمن أصاب تلك القرى ما أصابهم، وإذا وقعت على السبب الموجب لذلك وهو التكذيب بآيات الله ورسله، فليجتنب فعل ذلك أن يصيبه ما أصابهم.

ثم أتبع ذلك قصة شعيب ﵇ وهلاك قومه، وعطف على ذلك ذكر فعله بغيرهم من الأمم، وأنه أهلكهم بعذاب يطابق معاني ذنوبهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟
سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ
ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ

ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨ - ٤٥].

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١] المعنى إلى آخره، العنكبوت في التأويل عابد، فمثل الله به عابد الغير من دون الله، ولما كان المتخذون الأولياء من دون الله إنما اتخذوهم بأهوائهم، وما حدثتهم به أنفسهم وأكثرها من تحت أيديهم، وكان بيت العنكبوت من غزل يخرج على دبرها، فتصنع من ذلك بيتًا، لا يكنها من ريح ولا برد ولا حر، ولا يمتنع ممن أراد فساده وخرابه.

كذلك أيضًا أولياء أولئك لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣] يدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، واستبدلوا ما هذا وصفه ممن يملك الضر والنفع والرزق والحياة، ويملك السمع والأبصار والأفئدة، وله الدنيا والآخرة، وله الخلق والأمر، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، هذا من فعلهم الضلال البعيد.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١] أي: أنهم وإن كانوا يتولون تلك سموها آلة، يتولى بعضهم بعضًا عليها ويتواصلون فيها لمتاع الحياة الدنيا؛ كما تستمتع العنكبوت ببيتها الواهي الوهن، وعلى هذا وفي أثناء هذا ينالهم نصيبهم من الكتاب من رزق وأجل وعمل وأثر، لو كانوا يعلمون أنهم إذا كان الموت بما فيه وبما بعده لم يدفعوا عنهم بما يحيط بهم من الحق الحائق بهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأ بعضهم من بعض ويقولون لهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُون * فَكَفَى بِالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾

[يونس:٢٨ - ٢٩] وإلى هذا وما هو في معناه وما يتبعه الإشارة بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت:٤٢] وصف نفسه ﷻ بالعلم في مقابلة وصف أولئك بالوهن والموت وعدم الحياة والقدرة على جلب نفع أو دفع ضر.

ثم قال: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢] وصف نفسه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بالعزة والمنعة والقدرة والحكمة والأحكام، في مقابلة وصف أولئك بعدم ذلك كله، سبحانه وله الحمد، يقول - جل قوله وتعالى علاؤه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] جعلنا الله ممن علمه من علمه وأجزل حظه ومعرفته وأحسن عونه على ذكره وشكره وحسن عبادته.

قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤] لما شبه ما اتخذوه من دونه من أولياء بالعنكبوت، وشبه ما يتمتعون به في الدنيا من مواصلة وتناصر ليست إليهم عواقبها، ولا إتمام ما يريدون منها وبها، إنما حقيقتها من حيث هم كسب منهم حقيقة ذلك، وإتمامه إلى الله العلي الكبير، فشبه ما يتمتعون به من ذلك بصنع العنكبوت بيتها وبوهنه.

ذكر في مقابلة ذلك خلقه السماوات والأرض وما بينهما بالحق، لعظيم خطر ذلك وكريم خلقته وتحقيق حكمته، وأن يعرف ذلك برفع المؤمنين إلى أعلى درجاتهم، ويبوئنهم كريم مآبهم في الدار الآخرة، ليس كذلك بيت العنكبوت في وهنه، وسرعة خرابه وعجزه عن المنعة عن الخراب، ومصنوع العنكبوت شبيه بها في العجز والوهن، ليس كذلك خلق الله - جل ذكره - السماوات والأرض، فإنه الحق العزيز الحكيم، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة الفائقة العلا خلقها بالحق، إن في ذلك لآية للمؤمنين.

﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان:١١] ولما في وصف بيت العنكبوت من وصف حقيقته أنه يخرج غزلاً من دبرها، فتتخذ منه بيتًا تمتنع به، زعمت من محذورها وفي المتخذين آلهتهم بأهوائهم وصنع أيديهم، تنزه - جل ذكره - عن ذكر حقيقته، وأعرض عن تبيانه، وعبر عنه بقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ

﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] لما كان الهوى أبدًا ينسب إلى الشمال والوراء والتحت، سبحانه وله الحمد، ما أحكم آياته وأغرب أحكامه!.

معنى قوله هذا منتظم بما استاق من أجله المثل، لما ذكر ما اتخذوه من أولياء لا غنى عندهم ولا دفع ولا نفع ذكر خلقه السماوات والأرض، وأنه خلق ذلك بالحق الذي هو كلمته وقدرته ومشيئته وعلمه، وبما هو له من الأسماء الحسنى والصفات العلا، فعبر كلمه عن إرادته وقدرته وعلمه، وعبرت إثارته في مصنوعه عن أسمائه وصفاته، وعنونت إرادته عن مراده فيه ومنه كونًا وشرعًا، وعنون المصنوع عن أوصاف ما انتزع منه وهي الدار الآخرة، فدار الدنيا سماواتها وأرضيها وما بين ذلك تُنْبئ بما فيها عما كانت عنه وانتزعت منه، فتفهم هذه الجملة، وترفق في نظرك، وتلطف لإيمانك، ولتكن قاعدتك التي تؤسس عليها.

نبأك قوله الحق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] واجعل معقلك الذي تلوذ به وتحترز به قوله ﷻ: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] فهذا - وفقنا الله وإياك - وما أكثر من هذا من آيات الله ﷿ فيما خلقه للمؤمنين، فاستفتح الأبواب، وترق في الأسباب، عسى أن ينهضك إلى منزلة الممدوحين بالعلم بقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥] لما ذكر الجهاد والمجاهدة بعد ذكر الابتلاء والمحنة، وذكر ما المجاهدين فيه، وما تحملوه في ذاته وتبليغ رسالاته، وذكر إنجاءه المستجيبين من عباده واتباع رسله وإهلاكه المكذبين لهم، وبيَّن ضعف ما اتخذوه من دونه من أولياء ووهنهم، دلَّ رسوله ﷺ على ما ينجيه من الفتن، ويستنقذه من المحن، ويسعد به لديه ويحظى عنده.

فأمره بتلاوة الوحي واتباع الكتاب المنزل عليه، وإقام الصلاة، فإنها تنهي عن الفحشاء والمنكر، وذلك أن الصلاة بما هي من إقامتها بشروطها من خشوع وخضوع وإخلاص له، وعلم بمن يقصد المصلي ومن يناجي ومن المواجه له فيها، ومن مخاطبة ينفر الشيطان الآمر بالفحشاء والمنكر، وإذا تباعد الشيطان يوجد في قلبه الإيمان والخضوع لله والخشوع له، ثم إلى مثلها كذلك إلى مثلها هكذا، فهي

كذلك تنهى عن الفحشاء والمنكر لا بد ولا محالة، وقرأ الربيع بن أنس: «إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر».

فصل

اعلم - وفقك الله - أن الذكر عمود نور الإيمان والإسلام والعمل، عنه تنبعث الأعمال وبه تقوم، وهو معناها الذي لأجله جعلت، وإنما نوعت الأعمال لتنويع الذكر وتوزيعه على أذكار الأسماء والصفات والمدائح، وإظهار المحامد له والثناء، ألا ترى أن أصحاب الجنة إنما أبقى عليهم من العبادات الذكر، حسب فهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النَفَس ﴿**دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [يونس:١٠].

والذكر في القلب ثم ينبسط على اللسان المعنون عن القلب، ثم ينبسط الذكر على الجوارح أعمالاً وحركات على سنن الاقتداء، وذكر العبد الله بأسمائه ومحامده كلام للعبد، وإن كان الذكر كله مذموم في الكتاب معلوم في الوحي، فهو على ذلك كلام له، فإذا قرأ القرآن وإن كان كلامًا لله - جل ذكره - تلاوة للعبد؛ لأنه وحي، وتلاوته إياه إتباعه نفسه وإشهاده ذاته وإلقاءه إليه سمعه، فهو ذكر وتلاوة، والوحي كلام لله العلي الكبير، سبحانه وله الحمد.

وخطابه هذا لرسوله خطاب لعباده المؤمنين على أعلى الذكر وأقربه منه وأحبه إليه، وعلى أنه ما تلا أحد كتاب ربه وتوخى في ذلك مرضاة ربه ﷻ مستبصرًا مستصحبًا له إلا قام عنه بزيادة لا بد ولا محالة، ثم بحسب ذلك على المداومة يعلى به إلى علي العلم ورفيع الذكر، ويجعل له فرقان يفرق به بين المشتبهات، ونور يمشي به في الظلمات ما استصحب ذلك، فإن الله لا يمل حتى تملوا، ثم بإقام الصلاة يعمر قلبه ذكرًا ويشرح صدره نورًا وتملؤ جوارحه عبادة، فتخف جوارحه للعبادة وتأنس بها، وتنازعه نفسه إليها، كما كانت قبل تنازعه إلى شهواتها؛ لأن الذي كان يأمرها بالفحشاء والمنكر معزول عنها الآن مبعد عنها.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر:٤٢] فيومئذٍ تكون راحته العبادة وأنسه بها وعيشه فيها، ويلحق بالمنزلة التي عبر عنها قوله - عزَّ من

قائل: «**إني لأطلع على قلب عبد، فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن دعاني لأستجيبن له، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استنصرني لأنصرنه، ولأتجرن له من وراء كل تاجر**»[1] فليكن - وفقنا الله وإياك - سؤالك منه يومئذٍ أن يحققك في الذاكرين له، وارغب إليه في الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، فذكر الله في التلاوة والكتابة ابتغاء معرفته والعلم به، وذكره في العمل ابتغاء رضوانه وطلب الفوائد منه، والرغبة في مزيد الإيمان شغفًا به ولهجًا بذكره، تبلغ إلى الولاية العظمى والفوز الأكبر، فهذا وجه في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥] وهو الأعلى والمراد الأول.

وأمَّا المراد الثاني: وهو المعهود عند الأكثر من عباد الله - رضي الله عنَّا وعنهم - فتلاوة الوحي طلبًا لكثير الأجر بتكثير إتباع بعض الأعمال بعضًا، وكذلك العمل بمرضاته؛ اشتغالاً بها عن الفحشاء والمنكر، ورغبة في تكثير الحسنات بتتابع الحركات، وتلك سبيل سائله وطريق قصد - إن شاء الله - والرعيل الأول المنتخبون من العباد لم تكن همتهم في تكثير العمل، إنما كانت همتهم في تحسينه لله وتحصينه من الآفات، فافهم، ألحقنا الله بهم وإياك، ولا جعل حظنا من صفاتهم وصفهم أنه حليم كريم.

وقد قيل في قوله ﷻ: ﴿وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥] أي: أكبر من انتهائكم عن الفحشاء والمنكر، وقيل: ذكر الله إياكم بالصلاة والتوجه بها إليه في أزله، وقيل: إيجادكم أكبر من ذكركم له الآن، وقيل: ذكر الله إياكم بذكركم له أكبر من ذكركم، وكل صواب وموجود حق - إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾

(١) لم أقف عليه هكذا، ولعل المصنف ذكره بالمعنى، وأصل الحديث أخرجه البخاري (٦١٣٧).

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦ - ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] نهى - جل ذكره - عن جدال أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وأهل الكتاب منقسمون إلى قسمين ونحن معهم على حالتين:

إمَّا أن يكونوا محاربين لنا: فهم الذين ظلموا منهم، فجدالهم يكون الجهاد لهم والقتال ﴿حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

وإمَّا أن يكونوا لنا ذمة: فإن جاءونا مسترشدين أرشدناهم إلى الحق، وإن جاءونا معاندين مظهرين لدينهم متنقصين لدين الإسلام، فليس هؤلاء بأهل ذمة ولا عهد، فلهم القتل والسبي، وجدالهم لا يغني شيئًا، وإن كنا في حال ضعف عن مقاومتهم لفساد الولاة، وإيثارهم الدعة والنكوص عن الجهاد والتثبط عنه، فهذا موجود عندهم السبّ والأخذ من الرسول والمتبعين له، فإن جادلناهم أخذنا فيهم بمثل صنعهم وذلك حرام وكفر، فلنعدل لهم عن سبيل الجدال إلى حقيقة الإيمان، والتمسك بعروة الإسلام وكلمة السواء بيننا وبينهم بأن نقول لهم: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧] لما ذكر أهل الكتاب نظم بذكرهم قوله هذا؛ أي: كما أنزلنا على موسى وعيسى وغيرهما ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ﴾ فالذين أتيناهم الكتاب؛ يعني: معرفته والعلم به منهم ومن أمتك يؤمنون به، أخبر ﷻ عن علمهم به وإيمانهم، وهذا القرآن المهيمن على ما قبله كما قال في غير هذا الموضع، لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون؛ أي: من أمتك يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، المعنى إلى آخره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ

الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] من دلائل نبوته إن كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف بمخالطة أهل الكتاب ولا بمدارسة أهل العلم، لو كان ذلك كذلك لارتاب المبطلون، وقد قالوا - أعني: قريشًا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤] يعنون: أهل الكتاب.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩] لو كان مفترى كما زعموا لم يكن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، بل كان يكون في صدور الذين أوتوا العلم أنه مفترى؛ لأنهم أهل الشهادة، ولم يكن الله ليضلهم بعد إذ أتاهم العلم، وهي عطية الله لهم وشاهده فيهم، فشهادتهم له بأنه من عند الله حق، وكونه آيات من الله بينات في صدورهم يدل على أنه نور من عند الله، وإنما يكون آيات بينات، فيعمل التذكر وابتغاء ما أنزل الله فيه، وقد تقدَّم قبيل هذا في شرح قوله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٢٧] أولئك الذين أوتوا الكتاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١] فبهداهم اقتد.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ
يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾
يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٦٠].

قوله ﷻ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦] أمر الله - جل ثناؤه - عباده بالهجرة من أرض الكفر والظلم حيث لا يتمكن للعبد إقامة الفرض إلى حيث يتمكن ذلك له، فمتى غلب على الخروج كان من المستضعفين، ومتى لم يعلم أرضًا إلا مثل أرضه توجه عليه، معنى قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة:١٠٥] فعليه بالعزلة والهرب من الناس حسب الاستطاعة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [العنكبوت:٥٨] وعد الله الذين آمنوا به وبرسله وهاجروا وجاهدوا في سبيله، أن يعوضهم من أرضهم التي تركوها أرض الجنة، ومن مساكن هجروها فيه مساكن طيبة ﴿غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ومن راحة أضاعوها وتعوضوا منها العمل بطاعته، نعيمًا لا يبيد في خلد لا انقضاء له.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[1] [العنكبوت:٦٠] وكلما دب أو درج فهو دابة لما كان مما يقدح في خاطر مريد الهجرة؛ خوف عدم الرزق أو خشية الفقر.

---

(١) قال البقلي في «العرائس»: حثَّ سبحانه العباد بالتوكل عليه والتيقن بلطيف صنعه والكرم العميم منه على جميع البرية وبأن يرضى العباد بما يجري عليهم من الأقدار السابقة في الأزل، ولا يكونوا مهتمين بما يستقبلون من الأيام الباقية والأعمار الماضية بجهة الرزق؛ لأنه تعالى قدَّر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ، وما قدَّر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين وجهد الجاهدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور لا تدَّخر شيئًا إلى الغد «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**» لاتكالهما على الله بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، كيف يكون الإنسان يهتم لأجل رزقه ويدَّخِر شيئًا لغده ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره ولا يصل إلى غده؛ لذلك كان ﷺ لا يدَّخر شيئًا لغدٍ؛ إذ الأرزاق مجددةٌ كالأنفاس المجددة في كل لمحة، ولذلك وصف الله سبحانه في أوائل الآية أهل التوكل والرضا.

أتبع هذه الآية ذكر الهجرة، فلا بد للمهاجر أن يضرب في التوكل بنصيب، وهو السميع لدعائه العليم بأعماله وما تكنه نفسه؛ لذلك قال قبيل هذا: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨ - ٥٩].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١ - ٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [العنكبوت:٦١] أرجع الخطاب إلى العرب وكفار الأمم المتخذين الأنداد من دون الله، فهم القائلون بأن الله هو خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر، وعلى ذلك فهم يجعلون له أندادًا يعبدونهم من دونه.

يقول عزَّ من قائل: ﴿فَأَنَّى﴾ أي: كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١] أي: يعلنون عن حقيقة ما هم قائلون به إلى باطل ما عدلوا إليه، أتبع ذلك قوله: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يصلح أن يكون هذا المعنى منتظمًا بذكر الرزق للمهاجر والمتوكل، ويصلح أيضًا أن يكون منتظمًا بما اتصل به من ذكر تأفيكهم عن حقيقة لازم عقدهم المتقدم ذكره، ويكون معنى الرزق على هذا رزق الآخرة وسبيل الهداية.

﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٦٢] هو أعلم بمن يصلح على الفقر وبمن يصلح على الغنى، هذا على الأول، وعلى الثاني هو أعلم بمن اهتدى وبمن ضل، فإن الذي اهتدى لو صدَّه ما عسى أن يصده لم يخرجه ذلك عن هدايته، والذي ضلَّ لو رامه الجن والإنس، وأدخل النار في جهنم ثم أخرج منها لعاد إلى ضلاله، ألا تراهم عند اضطرارهم يؤمنون وعند العافية يكفرون؟!.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا

هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥ - ٦٩].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] إلى قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٦] اللام: لام الأمر، وإن كانت صيغة هذا اللفظ الأمر فليس بالأمر، بل هو التهديد والوعيد.

يقول عز من قائل: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧] كل ما كان من نعمة للعباد فهو من موجودات الآخرة في الجنة، فمن كفر بأنعم الله فقد كفر بالدار الآخرة وكفر بالمنعم بها، ومن شكر نعمة الله أو صبر عنها فقد عمل بما يرضي الله ﷻ، وآمن بما هو جزاء لما عمله من موجودات الدار الآخرة، ومن هنا اتصل البلاء بالعالم، يقال للمنافق والكافر: «**لا دريت ولا تليت**»[1] أي: إنك لم تعلم ولا اتبعت من علم.

قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣] الذي أضرب عن ذكره بقوله، بل هو معنى قوله المتقدم: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١] فأضرب عن هذا بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣] حقيقة ما فطروا عليه من إيمان وإسلام، صم عن ذلك بكم عمي في الظلمات، فهم لا يرجعون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ

---

(١) أخرجه أحمد (١١٠١٣) قال الهيثمي (٤٨/٣): رجاله رجال الصحيح. وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٥).

﴿الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] تكرر هذا المعنى في الكتاب العزيز؛ أعني: ذم الدنيا ورفع قدر الآخرة، فقال هنا ما تقدم ذكره، وقال في سورة القصص: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ ثم قال: ﴿وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠] فهذا الأظهر فيه أن ظاهر المفاضلة وقعت فيما بين موجودات هذه وهذه.

وقال في موضع آخر: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:٣٦] وقال في مكان غير هذا: ﴿أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الحديد:٢٠] إلى آخر المعنى، فهذه والآيتان قبلها ظاهر تفضيلها بين موجودات وموجودات.

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢] هذه واللاتي قبلها ظاهر التفضيل فيهن بين موجودات وموجودات، لكن باطن معناهن ظاهر، والآية الأولى التي قال في تلك: إنها دار الحيوان، التفضيل فيهن كلهن في كون تلك دار الحيوان؛ أي: إنها لا لهو ولا تأثيم، ولا لغو ولا لعب، ولا غفلة ولا نسيان لأنعم الله وآلائه، ولا فاتن بها ولا مفتون ولا موت، قد انحصر جزاء الفاتن والمفتون كله إلى فتنة جهنم وجزائها، أعاذنا الله برحمته منها.

وانحصر معنى الحيوان إلى الحياة التي هي الإيمان والذكر والعلم والمعرفة، وانقطع عنهم كل ما يضاد الموت، موت الدين وموت الأجسام فيما هنالك، فهم أبدًا يذكرون الله جعل طيب عيشهم وكريم نعمتهم في ذلك، وكل شيء حي فيما هنالك لا يطرقه موت فهي دار الحيوان، دل على هذا التأويل ذكره اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر، وكل هذا موت في عرفان الوحي ومعهود الهداية ومسلوك الصراط المستقيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أو كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت:٦٨] «الحق» ها هنا: هو الرسول وما جاء، فمن الأمر بالإيمان والإسلام والعمل بطاعة الله، و«الافتراء على الله الكذب» هو أن يقول: أوحي إلي ولم يوح

إليه شيء، وهو أيضًا أن يصف الله - جل ذكره - بما لم يجر له وجود في نعوت تعاليه، أو «كذب بالحق لما جاءه» هو: أن يكذب الرسول المرسل إليه وما جاء به.

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١) [العنكبوت: ٦٩] «المجاهد» هنا: مَن جاهد العدو من الجن والإنس وهواه، وصبر نفسه على طاعة ربه وأجهدها، وصابر على ذلك حتى الممات، ضمن الله لهم الهداية والصحبة وهي الولاية، ووصفهم بالإحسان، و«السبل»: سبل الله يجمعها اسم الإحسان.

ذكر عن قتادة - رحمه الله - أنه قال: «العشر الآيات الأول من سورة العنكبوت مدنية وسائرها مكية» فإن كان قال هذا من طريق مقطوع بصحته تقوم به الحُجة، فذاك وإن كان إنما قالها من أجل ذكر الجهاد والحض عليه والجهاد اسم وعمل، يقع على مصابرة النفس في قتال العدو الظاهر، ويقع على المصابرة في العمل بالطاعة وترك الراحة والمهنى لأجل ذلك، ويقع على الصبر على البلوى والامتحان والفتن، وقد كان هذا القسم الأخير بمكة أكثر ما كان، وكان ﷺ يحدثهم عندما يشكون إليه ما يحل بهم من البلاء الذي كان المشركون يصيبونهم به، فيقول في بعض ذلك: «**قد كان من كان قبلكم يوضع على رأس أحدهم المنشار فيختلف عليه حتى يقع شقاه بالأرض، ثم لا يصده ذلك عن دينه**»(٢) والله أعلم بما قاله قتادة، والظاهر أنها مكية.

---

(١) قال الإمام الجنيد: أي: لنهدينهم سبيل الإخلاص. قال ابن عطاء: المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه. وقال النهرجوري: والذين جاهدوا في خدمتنا لنفتحنَّ عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا والمشاهدة لنا ومن لم يكن أوائل أحواله المجاهدة كانت أيامه وأوقاته موصولة بالتواني والأماني، ويكون حظه البعد من حيث يأمن القرب. وقال عبد الله بن مبارك: المجاهدة علم أدب الخدمة لا المداومة عليها، وأدب الخدمة أعزُّ من الخدمة.

(٢) أخرجه الطبراني (٣٦٤٨)، والحاكم (٥٦٤٣) وقال: صحيح الإسناد.

تفسير سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ⑥ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ⑦﴾ [الروم: ١ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ.....﴾ [(١)] [الروم:٢ - ٤] قرأه الجماعة برفع الغين وخفض اللام، وقرأ

---

(١) هذه السورة مكية، قال ابن عطية وغيره، بلا خلاف، وقال الزمخشري: إلا قوله: (فسبحان الله) وسبب نزولها أن كسرى بعث جيشًا إلى الروم، وأمر عليهم رجلاً، واختلف النقلة في اسمه؛ فسار إليهم بأهل فارس، وظفر وقتل وخرب وقطع زيتونهم، وكان التقاؤهم بأذرعات وبصرى، وكان قد بعث قيصر رجلاً أميرًا على الروم، وقال مجاهد: التقت بالجزيرة، وقال السدي: بأرض الأردن وفلسطين، فشق ذلك على المسلمين لكونهم مع الروم أهل الكتاب، وفرح بذلك المشركون لكونهم مع المجوس ليسوا بأهل كتاب، وأخبر رسول الله ﷺ أن الروم «سيغلبون في بضع سنين»، ونزلت أوائل الروم، فصاح أبو بكر بها في نواحي مكة: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ فقال ناس من مشركي قريش: زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارسًا في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ فقال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان. فاتفقوا أن جعلوا بضع سنين وثلاث قلائص، وأخبر أبو بكر رسول الله بذلك فقال: «هلا اختطبت؟ فارجع فزدهم في الأجل والرهان» فجعلوا القلائص مائة، والأجل تسعة أعوام. فظهرت الروم على فارس في السنة السابعة، وكان ممن راهن أبيّ بن خلف. فلما أراد أبو بكر الهجرة، طلب منه أبيّ كفيلاً بالخطر إن غلبت، فكفل به ابنه عبد الرحمن. فلما أراد أبيّ الخروج إلى أحد، طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه كفيلاً ومات أبيّ من جرح جرحه النبي ﷺ وظهر الروم على =

عليٌّ وابن عمر - رضي الله عنهما - «غَلَبت» بفتح الغين وفتح اللام، وقرأ ابن عمر «غُلْبِهم» بإسكان اللام، وروي عنه فتحها كقراءة الجماعة، ومن قرأ «غُلبت» قرأ: «وهم من بعد غلبهم سيَغلبون» بفتح الياء، ومن قرأ «غَلبت» بفتح الغين قرأ «سيَغلبون» بفتح الياء.

حكمة الله - جل ذكره - في دوائر التقدير: أن يُرجع فيها أواخر الحِكَم على أوائلها من الدوائر مقدرة ومنها موسعة، وعلى مقدار مشيئة الله فيها وبها، ولما أخبر ﷻ عن الروم أنهم غلبوا في أدنى الأرض، وهو بلد الشام، كان إخبارًا منه عما يكون، والله أعلم.

وذلك على قراءة من قرأ: «غُلِبت» برفع الغين وخفض اللام، وبشارة بشر بها رسول الله ﷺ والمؤمنون أن ذلك سيكون، كما قاله رسول الله ﷺ وقد استيقظ ليلة، فقال: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحَلَّق بإبهامه والمسبحة**»[(١)].

=

فارس يوم الحديبية. وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: «تصدق به». وقرأ علي وأبو سعيد الخدري وابن عباس وابن عمر ومعاوية بن قرة والحسن: (غلبت الروم) مبنيًا للفاعل، (سيغلبون): مبنيًا للمفعول؛ والجمهور: مبنيًا للمفعول، سيغلبون: مبنيًا للفاعل، وتأويل ذلك على ما فسره ابن عمران: الروم غلبت على أدنى ريف الشأم، يعني: بالريف السواد. وجاء كذلك عن عثمان، وتأوله أبو حاتم على أن الروم غلبت يوم بدر، فعز ذلك على كفار قريش، وسر المؤمنون، وبشر الله عباده بأنهم سيغلبون في بضع سنين. انتهى. فيكون قد أخبر عن الروم بأنهم قد غلبوا، وبأنهم سيغلبون، فيكون غلبهم مرتين. قال ابن عطية: والقراءة بضم الغين أصح. وأجمع الناس على سيغلبون بفتح الياء، يراد به الروم. وروي عن ابن عمر أنه قرأ سيغلبون بضم الياء، وفي هذه القراءة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات. انتهى. وقوله: وأجمعوا، ليس كذلك. ألا ترى أن الذين قرأوا غلبت بفتح الغين هم الذين قرأوا سيغلبون بضم الياء وفتح اللام، وليست هذه مخصوصة بابن عمر؟ وقرأ الجمهور: غلبهم، بفتح الغين واللام: وعلي، وابن عمر، ومعاوية بن قرة: بإسكانها؛ والقياس عن ابن عمر: وغلابهم، على وزن كتاب. والروم: طائفة من النصارى، وأدنى الأرض: أقربهما: فإن كانت الواقعة في أذرعات، فهي أدنى الأرض بالنظر إلى مكة. [تفسير البحر المحيط (٩ /٧٠)].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٢١٤)، والبخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٢٨٨٠)، والنسائي في الكبرى

=

فكان ذلك إنباء من الله تعالى إياه عما يكون، وظهر ذلك بعد المائتين، بل من أول ظهور الدولة العباسية واستعمالهم الخُراسانيين والترك والديلم والأحباش القاطنة فيما هنالك، وأمَّا السر(١) نفسه فلا يثلم(٢) إلا عند مجيء الوعد؛ ولذلك ما قال مقدار فتح ذلك الروم، وذكره بالفتح؛ لأن استعمالهم كان فتحًا بوجهٍ ما لما تولت العرب جاء الله بأولئك كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٨].

وكان قول رسول الله ﷺ: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**»(٣) إنذارًا لهم بتوليهم، ويصير الأمر والجهاد إلى سواهم، وإخبارًا منه أيضًا عن وقت التقدير، فإنه يتقدم الكون، وكان تقدير ذلك تلك الليلة لقوله فتح الليلة، والله أعلم بما ينزل، فكذلك قول الله جل ذكره: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم:٢] هو إخبار وبشارة منه عن التقدير المقدر(٤) لظهور الكائن، فكان ذلك زمان عمر بن الخطاب ﷺ غلبهم على بلاد الشام واستخرج بيت المقدس عن أيديهم.

وقال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع، وكان نزول هذه السورة بمكة، فكان ذلك في داخل بضع أسابيع سنين على رأس عشرين إلى ثمان وعشرين سنة، ثم لم يزل الفتح بعد ذلك يتسع ويتصل إلى نهاية سبقت في التقدير.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَهُم﴾ يعني: الروم ﴿مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:٣] أي: أنهم غُلبوا ثم هم يغلبون ومن بعد غلبهم هذا سيغلبون؛ أي: أنهم إذا غُلبوا يُغلبون ثم يَغلبون، فأخبر عن حكم دوائر حكم التقدير أن لهم غلبتين ولنا غلبتان سوى الغلبة الأولى منهم لنا في تلك الأرض هي المقابلة لغلبة الصحابة

=

(١١٣٣٣)، وابن ماجة (٣٩٥٣)، وابن حبان (٣٢٧)، والطبراني (١٣٨)، وأحمد (٢٧٤٥٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠٩٢).

(١) في (ف) السر.

(٢) الثُلْمَةُ: الخلل في الحائط وغيره. انظر: الصحاح في اللغة (٧٣/١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) في (ف) المتقدم.

داخل تسعة وأربعين أو خمسين أسبوعًا، وهي سبع أسابيع في مثلها وفي ضمن سبع في تسع، ولم تبلغ هذه الغلبة إلا إلى ثغور أرض الشام.

ثم كانت للمسلمين كرة فانتزعوا عن أيديهم ما كانوا أخذوه واستولوا على جُلّ بلاد «أرمينية» ثم أديلوا بغلبة ثانية عام تسعة وثمانين وأربعمائة، فغلبوا على أرض الشام كلها وعلى بيت المقدس؛ وذلك عند آخر السنة السادسة التي هي من ألف شهر من شهور العرب، تصديقًا لقوله: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ التي سادس أيامها رأس الخمسمائة سنة، ثم إلى تمام الخمسمائة وثلاث ومائتين سنة، وثلاث[1] سنة تمام سبع سنينها[2] ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة.

ولما كانت القراءة الأخرى دليلاً آخر؛ إذ هي عند جميع العلماء بمثابة أخرى لكونهما[3] سيان في وجوب الاستدلال بهما والتصديق لهما، كان قوله أيضًا ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:٢ - ٣] بفتح الغين واللام إخبارًا منه عن غلبتهم المسلمين التي كانت داخل تسعة وأربعين أسبوعًا، ثم تجاوز بالذكر غلبتنا عليهم إثر ذلك، وقد تقدم ذكرها للمعهود من وجوب دوائر حكم التقدير.

ثم قال: ﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أي: غلبهم للمسلمين ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:٣] أي: إن الدائرة ترجع عليهم بمثلما كانت لهم، فقد غُلبوا ثانية، وهي التي كانت سنة تسع وثمانين، وبقي الوعد الكريم بأنهم سيغلبون، فرجعت هذه الغلبة عليهم ثالثة ثلاثة، أولهن غلبة الصحابة إياهم، والغلبة التي لهم اليوم ثانية للغلبة التي كانت لهم، التي لم تبلغ مثل هذه، والحال التي كانت لهم وقت نزول القرآن ورسول الله ﷺ بمكة حال سادسة.

ومن تدبر دوائر التقدير في اختلاف الليل والنهار واختلاف الأزمان، وتقلب الكيان[4] في ذلك في تغير الأحوال من الإدالات والزيادة والنقصان عساه أن يقف

---

(١) في (ف) وثلث.

(٢) في (ف) سنيها.

(٣) في (ف) لكونها.

(٤) في (ف) وتقليب الكتاب.

على بعض العلم بذلك وما يحصل من ذلك، هو[١] من أنفع فوائد اليقين بتمام الآماد، وكمال الآجال، ووجوب ظهور اليوم الآخر، وتحقق العلم بالبعث والوعد والوعيد إلى ما وراء ذلك.

وقد يمكن أن يكون معنى قوله على قراءة من قرأ بكسر اللام وفتح الياء: أنهم تكون لهم غلبة في بضع سنين كما تقدم في بضع أسابيع سنين[٢] ويكون معنى قراءة من قرأ برفع الياء وفتح اللام؛ أي: أنهم سيغلبون في بضع سنين.

قال رسول الله ﷺ: وذكر المهدي فقال: «**يملأ الأرض عدلاً وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يعيش فيكم سبع سنين وفي أخرى تسع سنين**»[٣] فيكون ذلك إخبارًا عن غلبتنا لهم يومئذٍ؛ لأنها كرَّة نبأ[٤] عليهم، وفرة[٥] منهم ليست لهم كرَّة في تلك المدة إن شاء الله تعالى وما تقدم ذكره فصحيح، والحمد لله رب العالمين.

فيكون تقدير الكلام: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ**﴾ [الروم:٢ - ٣] أي: في الثالثة ﴿**سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ**﴾ [الروم:٣ - ٤] إخبار عن غلبة المسلمين لهم بالإمام العدل - رضي الله عنا وعنه - وقد جاءت الأخبار بذلك - والله المستعان.

أتبع ذلك قوله: ﴿**لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ**﴾ [الروم:٤ - ٥] أخبر - جل ذكره - بما يكون لهذه الأمة وعليها من وقائعها مع الروم، ثم أشار إلى اقتراب الانقراض من آخر وقائعها وهي غلبة المسلمين إياهم مع الإمام المبشر به وهي الملحمة بقوله: ﴿**لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ**﴾ [الروم:٤ - ٥].

وإنما هو الدجال - لعنة الله عليه - ثم كلمة الله وعبده ورسوله عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - ثم ذهاب الصالحين ثم الساعة، وقد كان له الأمر من

---

(١) في (ف) فهو.
(٢) في (ف) ستين.
(٣) أخرجه البزار في مسنده (٣٣٢٢).
(٤) في (ف) بنا.
(٥) في (ف) وفروا.

قبل نزول القرآن وبعد تمام هذه الآماد، بل قد كان له الأمر قبل إيجاد الخليقة ويكون له بعد الانقراض، كما قال: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار:١٩] وقال: ﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٢٦].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ﴾ [الروم:٤ - ٥] هذا الدليل الدال على أن ما تقدم ذكره هو المراد بهذا الخطاب لا ما قاله بعض المفسرين من غلبة فارس للروم وغلبة الروم فارس، وإن كان قد كان ذلك، فليس الغرض الإخبار عن أولئك ولا بنصر فارس على الروم، والروم على فارس.

يبشر الله - جل ذكره - به المؤمنين وينزل به كتابه العزيز ويعبر عنه بكلامه العظيم؛ إذ ليس بموضع عبرة ولا عظة ولا بشرى للمؤمنين، وإن كانوا قد تعللوا في تحقيق ذلك بزعمهم بميل المؤمنين إلى الروم من أجل أنهم أصحاب كتاب، ولا يبلغ ذلك إلى أن يَعِد الله به عباده بقوله: ﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ....﴾ [الروم:٦] وليست الروم بعد إعراضهم عن الدعوة بمحمد ﷺ بمرحومين في قوله: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:٥] وإن كانوا يدالون على غيرهم كما يدال غيرهم عليهم.

فلحكمة الله - جل ذكره - في ذلك بالغة، ولنولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون، وإنما يعبِّر أبدًا باسم «العزة» عن معنى انتقامه، وباسم «الرحمة» عن حكم رحمته منه بالمؤمنين، وهذا كله ينافي على التحقيق[1] ما ذكروه إنما البشرى والرحمة للمؤمنين، والوعيد والتقريع والتوبيخ في الخطاب لغيرهم، فافهم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧] لـمَّا نفى عنهم العلم ولصدق قِيله، أثبت لهم ظاهرًا من الحياة الدنيا، يقول: ولو نظروا بعقولهم إلى تدوار دوائر الأمر والآيات في السماوات والأرض لأيقنوا باليوم الآخر والحياة الآخرة، ولقاء الله في الدار الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ

(١) في (ف) الحقيقة.

مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم: ٨ - ١٠].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] فيرون الحواس الخمس تؤدي الأمر المجعول إليها من سمع وبصر وشم وذوق ولمس إلى حاس باطن يجمعها، ويتأدى الأمر من ذلك إلى العبد الباطن الموصوف بالصفات من العلم والقدرة والحياة والإرادة إلى غير ذلك، وهو المسمى بالأسماء الموصوف بالصفات من «عالم» و«قادر» و«حي» و«مريد» إلى غير ذلك من أسمائه.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨] فدوار دوائر التدبير تنبئ بأن الحكمة في الأمر إرجاع أواخره على أوائله والإقبال بأوائله إلى أواخره، وفي ذلك تحقق العلم باليوم الآخر عقيب يوم الدنيا والحياة الآخرة عقيب الحياة الدنيا، وأن لقاء الله - جل ذكره - عقيب البعد والغيبة عنه في سجن الدنيا، وأنه كما أن بَعد النهار الليل، وبعد الليل النهار.

كذلك وعد الله آتٍ لا بد ولا محالة، كذلك وعيده إلا ما عفا عنه، فاعمل على دلك، بل صنعه مفعوله قد حكم فيه المشيئة، وصدقه لا يخلفه، وهو لصدقه وتحقيق الحق منه لا يعد إلا بما قد شاء أمضاه لا بد ولا يجوز عليه غير ذلك، ويتحققون من أنفسهم العلم بتقلبهم(١) في طبقات الكيان؛ إذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، ثم في إنشائهم خلقًا آخر من ضعفٍ إلى قوة إلى شيخٍ وشيبة، ثم إلى حال هي أرذل العمر يفقدون فيها العلم والقوة وأكثر الصفات والحواس التي يوجد بها طيب الحياة أشراط للموت كأشراط الساعة وعلاماتها؛ وذلك إرجاع أواخرها على

---

(١) في (ف) بتقليبهم.

أوائلها وأوائلها على أواخرها، وفي ذلك وجوب العود بعد البدء.

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩] يقول - جل ذكره - لِمَ لم يعتبروا بما أصاب من كفر بالله وكذب المرسلين، وتغافل عن النظر في آيات الله وضيع حظه من الأخذ بالجزم والتدرع[1] من عذاب الله ﷻ وإهلاكه بالإيمان والتقى وحسن الاستجابة له ولرسله؟

لذلك قال عز من قائل: ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩] بترددهم في عمههم واستصحابهم الضلالات في ظلمات غفلاتهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم:١٠] أخبر - جل وعلا - أن ضلالهم عقوبة لإعراضهم وتغافلهم، وأن الختم بالكفر لهم عقوبة لإساءتهم وتحريمهم[2] لضلالهم ورضاهم بكفرهم بدلاً من تولي الولي الحميد.

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الروم: ١١ - ١٦].

قوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم:١١] صرح - جل ذكره - بحكم ما نصب عليه من الدلائل، وما عبر به عن الحق المطلوب فيما عرض به فيما قيل إلى قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم:١٦].

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

(١) في (ف) بالحزم والتذرع.

(٢) في (ف) وتحريهم.

وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ١٧ - ٢١].

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧ - ١٨] وقرأ عكرمة: «حينًا تمسون» و«وحينًا تصبحون» القراءة الأولى لصريح التعظيم والتنزيه، والثانية للتعجيب، ويتطرق التعظيم أبدًا إلى التعجيب، وتقدير الكلام: فسبحان الله وله الحمد في السماوات والأرض حين تمسون وحين تصبحون، وعشيًا وحين تظهرون، حين تمسون صلاة المغرب والعشاء، وحين تصبحون صلاة الصبح وعشيًا، وحين تظهرون العصر والظهر، وإنما عدد مواسم التسبيح والتحميد من المخلوقات، وإلا فله التسبيح والتحميد أبدًا على الولاء.

وفيها أيضًا يعرض بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ...﴾ [الروم:١٧] إلى آخر المعنى بتمام يوم الدنيا من طلوع اليوم الآخر.

قوله ﷻ: ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩] ذكر المفسرون أن معنى هذا مخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، ومع ذلك فإن المقصود الأول به والله أعلم، أنه يخرج الروح الحي من الجسم ويخرج الجسم من الروح؛ أي: يفرق بينهما بالموت، والروح أبدًا موصوف بالحياة، والجسم هو الموصوف بالموت، وهو أرض الحيوان.

ثم قال: ﴿وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: ينزل الماء من السماء إلى الأرض، فتهتز بالنبات وحدائق الجنات، ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩] يريد - وهو أعلم - كذلك ينزل الله عليها الماء من تحت العرش، ماء كمني الرجال، فينبت الأجسام كما ينبت البقل، ويرسل الأرواح الحية إلى الأجسام الميتة ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

فصل

هذه سبع مطالب مؤدية إلى سبعة[١] علوم بما تبعها، الآخرة المطلوب الأعظم، والحق المخلوق به السماوات والأرض، وأن كل شيء إلى أجل مسمى، والبداية والإعادة والإرجاع إلى الله - جل وعز - والساعة حق والجنة والنار، أتبع ذلك سبع آيات دالات على ما[٢] ذكره مبينات للحق الذي فرضه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] أقام الدلالة بقوله الحق على تحقيق ما ذكره من قوله: ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩] يقول - عز من قائل: ومن آياتي على ذلك أن خلقتكم من تراب حيث لا حياة به، ثم إذا أنتم بشر تنشرون.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١] بيّن بهذه مراده في قوله الحق: ﴿أَوَ لَمْ يَتفكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] لذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١] وفي هذا التفكر مطلع يشرف به متذكره على العلم العلي الرفيع.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٢ - ٢٥].

---

(١) في (ف) سبع.

(٢) في (ف) سقطت (ما).

ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم:٢٢] هذه دلالات على انقضاء الآجال وتمام الآماد، ووجوب كون الساعة وكل ما وعد به أو أوعد مما هو آت، كل ذلك على توبة ورجوع أواخره على أوائله وأوائله على أواخره، كما أن الليل بعد النهار والنهار بعد الليل، والسنة بعد السنة والأمر بعد الأمر، كذلك كون كل ما وعد به أو أوعده[١] ثم أرجع الخطاب إلى معنى ما ابتدأ به الآية، ثم على العموم واختلاف ألسنتكم وألوانكم، كما قال في الأولى التي هي نظيرتها: ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم:٨].

ولعموم ذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢] ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾[٢] [الروم:٢٣] هذه دلالات على الحياة بعد الموت والموت بعد هذه الحياة، وفي قوله: ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ إعلامٌ بالحياة الكبرى بعد هذا الموت المنتظر والبعث منه والنشور، وفيه أيضًا دلالة على الإنباء[٣] والنبوة، وتعريض بما في الدار الآخرة من فضائل موجودات ما هنالك، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم:٢٣] أي: يسمعون ما في الوحي من وصف فضل الأخرى بما فيها على الدنيا.

---

(١) في (ف) أوعد.

(٢) الظاهر أن (بالليل والنهار) متعلق (بمنامكم) فامتن تعالى بذلك، لأن النهار قد يقام فيه، وخصوص من كل مشتغلاً في حوائجه بالليل (وابتغاؤكم من فضله): أي فيهما، أي في الليل والنهار معًا، لأن بعض الناس قد يبتغي الفعل بالليل، كالمسافرين والحراس بالليل وغيرهم، وقال الزمخشري: هذا من باب اللف، وترتيبه: (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم) ولأنه فصل بين الفريقين الأولين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان، والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على ذلك، ويجوز أن يراد (منامكم) في الزمانين، (وابتغاؤكم من فضله) فيهما، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن، وقال ابن عطية: وقال بعض المفسرين: في الكلام تقديم وتأخير، وهذا ضعيف، وإنما أراد أن ترتب النوم في الليل والابتغاء للنهار، ولفظ الآية لا يعطي ذلك. انظر: [تفسير البحر المحيط (٩/٧٧)].

(٣) في (ف) الأنبياء.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وطَمَعًا﴾ [الروم:٢٤] إظهاره البرق آية على جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - لأنها تفيح بنفسها والبرق من وجود نفسها الناري في أجواء الهواء فتصدمه؛ أي: النفس رحمة الله بالرياح اللواقح للسحاب والماء الكائن عن فتح رحمته، فيشتمل السحاب على ما في الجو(١) من إثارة ذلك المعنى الناري، فتخرجه الملائكة - بإذن الله - بروقًا وصواعق، وتخرج حقيقة نفسها رعودًا؛ لذلك قال خوفًا؛ أي: (٢) من الصواعق ومما هي عنه لمن غفل(٣) عن ذلك، وطمعًا في فتح رحمته.

ثم قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٢٤] عرض بذكر الجنة بما تخرجه من الأرض بالماء من نبات ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١٦] زائدًا إلى ما تقدم ذكره من آياته بذلك من إحيائه الموتى إلى غير ذلك؛ لذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٤].

ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم:٢٥] صرف وجه الدلالة - والله أعلم - بما ينزل إلى قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨] به بماسك الملكوت معه، وقام كل شيء في السماوات والأرض وما علا وما سفل به، هو ﴿الحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] ولا يضل ولا ينسى، وله كل شيء، هو خالقه ومدبره ومقدره تقديرًا.

ومن أمره أنه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥] وكما أنه إذا دعاكم منكم إليه إذا أنتم خامدون، كذلك إذا دعاكم منه من أمره وعلمه وقدرته ومشيئته إليكم إذا أنتم تخرجون فطرًا وبدءا(٤) وبداءً وخلقًا ﴿فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله﴾ [الروم:٣٠] فافهم.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ﴾ [التغابن:٣] كما قال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

---

(١) في (ف) الحق.

(٢) في (ف) زيادة (طمعًا).

(٣) في (ف) عقل.

(٤) في (ف) وبَرًا.

أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] لا إله إلا هو إليه ترجعون، فوجب تحقيق القول بلقائه ﷻ في بدء الشأن فاعبده وتوكل عليه. شعر:

ألا إننا كلنا بآبد فأي بني آدم خالد
بدأهم كان من ربهم وكلٌّ إلى ربه عائد
فيا عجباه كيف يعصي الإله؟ أم كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٦ - ٢٩].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ﴾ عن مشابهة الأشباه ﴿الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٦ - ٢٧] أحكم كل شيء صنعه فشهد لصانعه ودلَّ على خالقه.

فصل

اعلم يقينًا أنه لم يأت عن الله ﷻ شيء من الأشياء بنبأٍ إلا وفى العالم آية أو آيات دالات عليه معلمات بذلك كالنبأ، وليس في العالم آية دالة على معرفة الله أو على اسمٍ من أسمائه، أو صفة من صفاته، أو على الدار الآخرة وجميع موجوداتها، أو على الملائكة والأنبياء والنبوة والرسالة والمرسلين وما جاءوا به، إلا والنبوة قد أنبأت عنه ونبهت عليه مجملاً أو مفصلاً؛ ليصادق البرهان ويتجلى اليقين.

قال الله عز من قائل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] واسم

الكتاب، نعم ذكر الكتاب المبين والكتاب المنزل والاعتبار بموجودات العالم تشهد للنبأ فتصدقه، والنبأ ينبه العقول على ما أوجده في العالم من علم وهدى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩] فتطلب هذا وتدرسه جدًّا بلغ الله بنا وبك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فصل

لا يكون العالم عالمًا بالنبأ المنزل من عند الله - جل ذكره - حتى يستشهد بموجودات العالم على النبأ، وبالنباء على الوجود؛ لذلك قال أصدق القائلين بعد قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩] فقيام السماء والأرض على ما هي عليه آية على أن لها ممسكًا يمسكها وموجدًا أوجدها، وكونها قائمة بأمره آية لمن تفكر.

وتابع التذكر على ما له من أسماء وصفات؛ وذلك أيضًا آية على ما هي عليه من فطره إياها على الدين القيم، وبمتابعة التذكر وتدأب التفكر في آية على مباني الإسلام الخمسة، ثم على ما أمر به وحضَّ عليه من مكارم الأخلاق وعلى مراتب الأعمال؛ وذلك أيضًا من آياته على اختزان البرايا في خزائن السماوات والأرض قبل بداية الخِلقة، ثم على إرجاعها إلى تلك الخزائن بعد الموت، وفي حال إبطانها بعد إظهارها، وفي كلتا الحالتين له بينة على إخراجها إلى حال الظهور.

ذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥] إذا دعاهم من السماء أجابوه بمفارقة الأجسام التي أسكنوها، ثم يدعوهم دعوة من الأرض، وبخاصة من الأجسام عند الإعادة، أجابوه إليها سراعًا أطاعه كل شيء وعبده كل موجود، فهو الذي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، القنوت: الإمساك، والقنوت: الصمت، والقنوت: القيام، والقنوت: الخضوع والعبادة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] الضميرالذي في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على المخلوق، والله أعلم بما ينزل؛ لأن المعهود في بدايته أن يقلبه في طبقات

التكوين على سنن التقليب في طبقات الأكوان، كما يكون الغذاء منيًا ثم يقره في الأرحام، ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا، ثم يكسو العظام لحما، ثم يُنشؤه خلقًا آخر إلى حال الاستواء، ليس كذلك في حكم الإعادة إنما في ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣ - ١٤].

قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] أي: ليس شيء عليه أهون من شيء، كل شيء عليه يسير.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم:٢٨] المعنى إلى آخره[1] في قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [الروم:٢٧] عودٌ إلى ما في هذه الآية من معنى، وفيه أيضًا تبيين تنزيه وسبحانه وتقدس عن المعنى الذي عبر عنه بقوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم:٢٨] إلى آخر المعنى، لما تنزل جلَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه إلى ضرب المثل له بأنفسهم يقول جلَّ ذكره: هل سخت أنفسكم بأن تجعلوا لكم من عبيدكم وما ملكت أيمانكم شركاء فيما رزقناكم من أهل وولدٍ ومال فتملكونهم شطر ما ملكناكموه؛ حتى تكونوا أنتم وهم في ذلك سواء، فتخرجون أنفسكم بذلك عن حدِّ الملك الذي لكم فيهم.

و﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ في ذلك ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ إشارة بقوله: ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ إلى الأكفاء والأحرار المالكين ملكهم ملكًا مطلقًا، ثم قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨].

أتبع ذلك ما هو في معناه، قوله عز من قائل: ﴿بَلِ أتبع الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ [الروم:٢٩] هذا قول مفلج بالحجة البالغة، قد أحاطت الحجة بخصمه، ووقع القول عليه، لكنهم أبوا إلا مضيًا في لجاجهم وعمهًا في ضلالهم، فمن يهدي من أضل الله اليوم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩] من عذاب الله غدًا، من قد سبق القول عليهم والعلم فيهم بأنهم للنار وبعمل أهل النار

---

(١) في (ف) إلى آخر المعنى.

يعملون، كيف به وهذا كله إثبات له وتعجيب من تحقيق شأنه وعلى أمره؟ فافهم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ
ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ
وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ
إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ
فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ
﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ
﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾
فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم
مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٩].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] [الروم: ٣٠] دلَّه سبحانه وله الحمد على المبتغى والسبيل المرتضى، وهو

---

(١) (فِطْرَةَ) منصوب على المصدر، كقوله: (صِبغةَ الله) وقيل: منصوب بإضمار فعل تقديره: التزم فطرة الله، وقال الزمخشري: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، وإنما أضمرت على خطاب الجماعة لقوله: (منيبين إليه)، ومنيبين حال من الضمير في الزموا، وقوله: (وأقيموا)، (ولا تكونوا)، معطوف على هذا المضمر، وقيل: (فأقم وجهك)، المراد به: فأقيموا وجوهكم، وليس مخصوصًا بالرسول وحده، وكأنه خطاب لمفرد أريد به الجمع، أي: فأقم أيها المخاطب، ثم جمع على المعنى، لأنه لا يراد به مخاطب واحد، فإذا كان هذا، فقوله: (منيبين)، (وأقيموا)، (ولا تكونوا) ملحوظ فيه معنى الجمع، وقول الزمخشري: أو عليكم فطرة الله لا يجوز، لأن فيه حذف كلمة الإغراء، ولا يجوز حذفها؛ لأنه قد حذف الفعل وعوض عليك منه، فلو جاء حذفه لكان إجحافًا، إذ فيه حذف العوض والمعوض منه، والفطرة قيل: دين الإسلام، والناس مخصوصون بالمؤمنين، وقيل: العهد الذي أخذه الله =

الدين القيم، به قامت السماوات والأرض وهو دين الإسلام، لو نازعه شيء لقصمه هو السلام - جل ذكره - ودينه الإسلام وعباده المسلمون، وهو المؤمن وعباده المؤمنون، والفطرة هو ما لقاه الخليقة يوم إيجاده إياها أولاً فأول[1] وقد جاء أن الله ﷻ لما خلق العالم نظر إليه نظرة فتزلزل من قواعده، ثم نظر إليه أخرى فكاد أن يزول عن مكانه، ثم نظر إليه أخرى فكاد أن يهمد، فدخله يومئذٍ من الخوف خوف لا يخرجه عنه أبدًا، وعرفه يومئذٍ معرفة لا ينبغي له أن يجهله بعدها أبدًا، وأقرَّ له يومئذٍ بالعبودية إقرارًا لا ينبغي له أن ينكره أبدًا، ثم كان بعد ذلك في جملته وراثة كما يكون في النسل.

وجاء أن الله - تبارك وتعالى - لما فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت على الكلام، فمدح نفسه بما هو أهله، فذكر عظمته وجبروته وكبرياءه وجلاله وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته، فأنصت له كل شيء، وأطرق له كل شيء في كلام كثير من التمجيد والتحميد، فهذا لقاءه يوم أوجده وفطره عليه - والله أعلم - وقد سمى رسول الله ﷺ وجبريل - عليه السلام - اللبن فطرة؛ لأنه أول ما يدخل جوف المولود وعليه يفطر فطره الأول من صومه الأول.

قوله ﷻ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣١] ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ نصبٌ على الحال من الناس، التقدير: فطرة الله التي فطر الناس عليها منيبين إليه، والكل يعبده وإياه يريد وإليه ينيب، وإنما كان البعد من أجل ضلال السبيل.

فصل

الذي فرقوه من الدين وغيروه وبدلوه ليس بفطرة الله لهم التي فطرهم عليها،

على ذرية آدم حين أخرجهم نسمًا من ظهره ورجح الحذاق، إنها القابلية التي في الطفل للنظر في مصنوعات الله، والاستدلال بها على موجده، فيؤمن به ويتبع شرائعه، لكن قد تعرض له عوارض تصرفه عن ذلك، كتهويد أبويه له، وتنصيرهما، إغواء شياطين الإنس والجن. انظر [تفسير البحر المحيط (٩ /٨٣)].

(١) في (ف) و(خ) فأولاً.

بل ذلك هو كما أخبر الله عنه بطريق الحق المفطور عليه الخليقة لا تبديل له، وهذا الحق الموجود في جميع الموجودات هو أن كل شيء إليه صامد، وله قانت عابد، حتى الأمم العاتية والقرون الطاغية في أول جبلتها، حال سيرتها[١] وجهت هممها[٢] نحوه ونوت قصده، فرمت بسهام هممها شطر سبيله، واعترضها اللعين المبلس دون ذلك، فاختلفت مسالكها اختلاف سهام رماه[٣] الغرض منها الصادف والهادف، والقاصر والعائر، والزاني والصائب، والمقرطس قليل.

يقول الله - جل قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] هذه حال مبعثهم[٤] ثم هؤلاء كلما حلَّ لهم الاضطرار وتكشطت عنهم ملابس العوافي رجعوا إليه بالتضرع والجوار، فإذا كشف الضرَّ عنهم رجعوا إلى ما كتب عليهم من الكفر به والتكذيب.

يقول الله - جل من قائل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت:٦٦] أي: فعلنا بهم ذلك من تنبيههم باضطرارهم؛ لنوقظهم من نومهم ونذكرهم في غفلتهم، ثم أرجعناهم إلى ما هم به راضون وعليه عاملون ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ ولله الحكمة الناهية والحجة البالغة، وهو العزيز الحكيم.

وقد دلَّ على ذلك حديث رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه - عز جلاله: «**إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[٥] **اجتالتهم**: من الجولان، اجتالت الشياطين أنفسهم ثم أمروهم بذلك فاجتالوا معهم[٦] وهو كجولان الفرس حول أخيته.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠] أي: الذي أقام به السماوات والأرض، والقيمة[٧]: هم الملائكة والأنبياء والمرسلون والمؤمنون المسلمون، ثم

---

(١) في (ف) سيرتها.

(٢) في (ف) سيرتها، وهممها.

(٣) في (ف) رماة.

(٤) في (ف) منبعثهم.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٥١٩)، ومسلم (٢٨٦٥)، والطبراني (٩٨٧).

(٦) في (ف) منه.

(٧) في (ف) والقيامة.

جميع ما خلق الله من شيء.

فصل

وعبد قوم الشمس والقمر والنيِّران[١] وذلك موجود آياته في هذه الدار على رؤيته - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - فضَلوا بعبادة الدليل دون المدلول عليه أو بإشراكهم به.

وعبد قوم الملائكة - عليهم السلام - والملائكة عباده المصطفون المخلصون، زعموا أنهم يشفعون لهم عند ربهم ﷻ فضَلوا بذلك، وإنما يشفعون لمن ارتضى ربهم ولمن أذن في شفاعته.

وعبد قوم عيسى ابن مريم وعُزيزًا والأحبار والرهبان؛ طمعًا في شفاعتهم، وكل ذلك لم ينزل به سلطانًا ولا كتابًا، ولا أرسل به رسولاً، ولا أذن لهم به، فضَلوا بذلك وبعدوا عن الحق، فصوَّروا الأوثان ونصبوا الأصنام وشبهوا على أنفسهم وأتباعهم.

وعبد قوم المصنوعات كان أولهم في ذلك؛ لأنها مفعولات لله، فعبدوها لذلك، فكان أحدهم متى كان في سفر لم يأخذ فيه أهبة لمعبوده بجمع وصمة من حجارة، فإن لم يجد حجارة جمع ترابًا، فجلب على ذلك عنزًا، ثم قعد يعبده ويسجد له، فكل له قانتون، والاختلاف في الهداية وإصابة الإذن ومخالفة الرضا منه - عز جلاله - وإنما نحن عباد مملوكون لا نملك شيئًا ولا نستحقه ولا نعلم ما يرضيه منا، فلا بد من الإذن والعلم بما فيه رضاه، وذلك يوجب إرسال الرسالة بما شاء - عز جلاله - فما أعظم نعمته علينا بإرساله الرسل وإنزاله الكتب، معلمين لنا بما هو رضاه وبما هو الصراط المستقيم، والحمد لله رب العالمين.

أتبع الكلام بمعنى ما تقدم قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣] إلى: ﴿يَقْنَطُونَ﴾ [الروم:٣٦].

---

(١) في (ف) والنيرات.

قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣٧] آيات على أنه الخافض الرافع القابض الباسط المقدم المؤخر، وآية على أنه المريد المدبر يفعل ما يشاء، وآية على أنه يخص من يشاء بفضله ورزقِهِ في دينٍ ودنيا قرب أو بعد، إنباءٍ ورسالةٍ وولايةٍ؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بما في الدار الآخرة من قبضٍ وبسطٍ وتقديمٍ وتأخيرٍ وإعطاءٍ ومنعٍ إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم:٤٠] أخبر الله - جل ذكره - أنه الرازق كما أنه الخالق، وكما هو المميت كذلك المحيي، وقرن بين هذه الأربع في قرنٍ واحد مع تركيب الحكمة والقدرة، كما قرن بين المبدئ والمعيد، فكيف يختلف حكم ذلك أو يتبعض حكمها لظهور الأسباب ووجود الأواسط؟

وكما يقبح أن تضيف إلى واحد أنه هو الذي خلقك أو هو الذي يحييك أو يميتك، فكذلك يقبح أن تضيف إلى أحد[١] أنه يرزقك، لا تقل: رزقني فلان، كما أنك لا تقول: خلقني وأحياني فلان، فإن ذلك يقبح عند المؤمنين والموقنين، وإن تساهل بعض الناس في ذلك، ألا ترى أن الله - جل ذكره - نفى الرزق عن سواه كما نفى الخلق عن سواه بقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر:٣].

أراد - جل ذكره - أن يعلمنا بأحسن بيان اقتران الرزق بالخلق، وأنهما سببان[٢] عن القدرة والمشيئة، وقد جاء أن الله - جل ذكره - قال: «**أأخلق خلقًا ولا أرزقه**»[٣] وهذا معلوم ببداية العقول أن العاقل يعلم يقينًا أنه لم يكن له على الله أن يرزقه، فلما خلقه ضمن رزقه قال رسول الله ﷺ: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[٤] وإنما الأسباب والأواسط من الأول -

(١) في (ف) واحد.

(٢) في (ف) يتبينان.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (١٣٦٦).

جل ذكره - مثل الآلة بيد الصانع.

ألا ترى أنه لا يقال: الشفرة حذب البغل، ولا السوط ضرب العبد، ولا القلم كتب الكتاب، وإنما يقال: الحذُّ أحذى البغل[1]، وفلان كتب الكتاب، وإن كانت اليد والشفرة المباشرة للمفعول، كذلك الخليقة يباشرون الأسباب في ظاهر العيان، والله من ورائهم محيط، هو الفاعل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة.

فصل

ذكر تعالى الأسباب؛ لأن الأسماء متعلقة بها، والأحكام عائدة على الأسماء بالثواب والعقاب، وقد تيقن المتوكل أن ما هو له فهو إليه واصل، وأن رزقه عنه غير فائت لا محالة، لا يكون لغيره أبدًا، وكذلك ما يكون لغيره لا يكون له أبدًا، فقد نظر إلى حظه من ذلك بعين يقينه الذي تولاه وكيله العزيز الرحيم من أحد ثلاث مشاهدات:

- ينظر العبد إلى قسمه من العطاء وجميع ما يصيبه أو يفوته، فهو إذًا شاهد الصحيفة المثبتة له، عند تصوير خلقته رأى أن قد كتب فيها له رزقه وأجله وأثره وشقي أو سعيد.

- فإن ارتفعت مشاهدته نظر إلى اللوح المحفوظ، وأنه لا يزداد فيه ولا ينقص بحول ولا قوة، كذلك حظه من الآخرة من جنة أو نار لا بد له من مثال حظه من ذلك، وإن عمل أي عمل بعد أن يكون قد كتب في اللوح المحفوظ هو قوله للقلم: «**اكتب ما هو كائن**»[2].

- ثم إن علت مشاهدته إلى العلي الأعلى لعلو المرتبة ونفاذ العلم وقوة اليقين وضياء النور في باطنه؛ إذ مشاهدة كل عبد عن مقامه من معبوده، ومن مكانه في دنوه أو علوه، وقوله - جل ذكره: «**اكتب علمي في خلقي**»[3].

---

(١) الحذب لغة في الجذب للشيء.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٣٨).

فصل

فقد كُتبت الأرزاق والحظوظ والآثار من كل شيء كتابًا واحدًا في مواضع ثلاثة؛ توكيدًا للعلم، وتسكينًا للقلوب في القسم في الذكر، ثم في الزبر الأول وهي الصحف، ثم في حين خلقه، ثم أنزل ذلك في كتابنا هذا الذي عرفنا به ما سلف من ذلك، وقال لقمان لابنه: يا بني للإيمان أربعة أركان لا يصلح الإيمان إلا بهن كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين: التوكل على الله ومبعثه[1] والتسليم لقضاء الله، والتفويض إلى الله، والرضا بقدر الله تعالى.

فصل

وأصل التوكل ومنبعثه: معرفة الله، ثم أخذ النفس بآداب التوكل.

قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩] يعطي بعزه ويمنع بحكمه، فيعتز العبد بعزه، من توجه إليه وعوَّل بنيّته عليه ويرضى بحكمه.

فإذا شهد العبد الذليل الملك الجليل قائمًا بالملك والتدبير والتقدير عنده خزائن كل شيء ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨] لا ينزله إلا بقدر معلوم، وشاهده قابضًا على نواصي المماليك، له خزائن السماوات من الأحكام والأقدار الغائبات، وله خزائن الأرض من الأيدي والقلوب والأسباب المشاهدات.

فمن خزائن السماوات: ما قسمه من الرزق ووزعه من الحظوظ، ومن خزائن الأرض: ما جعله على أيدي الخلق ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠] فأيقن العبد أن في يد وكيله ملكوت السماوات والأرض، وأنه يملك السمع والأبصار والأفئدة، يقلب القلوب والأيدي تقليب الليل والنهار، وأنه حسن التدبير والحكم لا سيما للموقنين، وأنه أحكم الحاكمين.

---

(١) في (خ) منبعثه.

هناك قوى العبد فنظر ربه وعز بقوته واستغنى بعزته وشرف بحضوره عنده، كما جاء في الخبر: «**كفى باليقين غنى**»(١) فنظر إليه في كل شيء، ووثق به في كل ما ينوب، واعتمد عليه دون ما سواه، وقنع منه بأدنى شيء، وصبر عليه ورضي عنه، لا يطمع في سواه ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء كله إلا يده، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط سوى قدرته، فيومئذٍ حقت عبادته وخلص توحيده، فعرف الخلق من معرفة خالقه، وطلب الرزق عند رازقه، وشهد بشهادة ربه جل من شاهد وقال.

يقول الله عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤] ﴿فَابْتَغُوا عِندَ الله الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧] ومن شأن هؤلاء أنهم لا يحمدون خلقًا ولا يمدحونه؛ لأنه أعطاهم، ولا يذمونه؛ لأنه منعهم، فمتى ذموا أو مدحوا فلموافقة الله - جل ذكره - من حيث أن الله مدح المنفقين والمحسنين نهاية في كرمه، وذم الباخلين والعاصين قدرة من حكمته وحكمًا من تقديره؛ لإظهار الأحكام وتفصيل الحلال من الحرام، وعود الثواب والعقاب على الأيام؛ لعلمه أن الله ﷻ أظهر الأمر واستأثر بسر القدر، فعمل العبد بما أمر، وسلم له ما استأثر به، أطلنا الكلام في هذا المعنى لمسيس الحاجة إلى التشبث(٢) بأوصافه؛ ولأن عمدته التوحيد.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَن

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٧٦)، والقضاعي (١٤١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٥٦).

(٢) في (ف) التثبت.

عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم: ٤٠ - ٤٦].

قال الله - جل ذكره - معقبًا لما تقدم ذكره ﷻ عما يشركون قوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] [الروم:٤١] أخبر الله - جل ثناؤه - أن كل ما أصاب البر والبحر والمدن والقرى والقلوب والجوارح من فساد ومكروه، فإنما ذلك عقاب يعاقب به من شاء تنبيهه من عباده لعلهم يرجعون، والترجي هنا واقع في جنبة العباد، فرع ربكم كل شيء عنده بمقدار.

فصل

السورة مكية، ووقت نزولها كان الضلال قد ضرب رواقه على أقطار البلاد وعم جميع العباد إلا من شاء الله، وذلك الوقت أفضل من أمسه الماضي، فكيف يقول أصدق القائلين: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:٤١]؟ المعنى إلى آخره، وهو يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠] إلى قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] أي: عند مجيء الحق، أرى - والله أعلم بما

---

(١) قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار. عن ابن عباس قال: أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر، وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر، وقال مجاهد: ظهر الفساد في البر بقتل ابن آدم أخاه وفي البحر بأخذ السفن غصبًا، وقتل ابن آدم آخاه هي أول معصية ظهرت في البر. قال الضحاك: كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة، وكان ماء البحر عذبًا، وكان لا يفترس الأسد البقرة ولا الذئب الغنم، فلما قتل قابيل هابيل أقشعر ما في الأرض وشاكت الأشجار، وصار ماء البحر ملحًا زعافًا وقصد الحيوان بعضه بعضًا، وذكر أن أول معصية في البحر غصب جلندي كل سفينة تمر عليه، فكأن تخصيص الأمرين بالذكر لذلك، وأيًّا ما كان فالبر والبحر على ظاهرهما. [تفسير الألوسي (١٥/٣٧٧)].

ينزل - أن ذلك إخبار منه مما تقدم في الأمم الخالية والقرون الماضية، وأن تلك هي سنة فيهم؛ لذلك - وهو أعلم - أتبعها بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم:٤٢].

فكان في ذلك تعريض بما هو مصيب هذه الأمة من إحاطة الفتن، وأن ذلك بما كسبت أيدي الناس، وأن دواء ذلك الداء بالتوجه لله بالدين القيّم، فالبدار البدار - رحمنا الله وإياكم - بالتوبة النصوح والعمل الصالح، وحسن الاقتداء بالرسول ﷺ والهرب من الخوض في أباطيلهم وتخليطهم حتى يأتي الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير.

ثم أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أي: فهو الدواء لهذا الداء ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣] المعنى لقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم:٤٦].

قال ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ ثم عطف بالواو و«لام» كي في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ معنى ذلك - والله أعلم بما ينزل: مبشرات بفتح رحمته، وبالخصب من الجدب ليرزقكم، ويحيي به الأرض بعد موتها، ويصرفه في طرقات تصريفه وتكوين خلقته، وليذيقكم من رحمته، فعطف على هذا المطلع من شرف هذا المعتبر على معالم الجنان ورياض جنة الرضوان، اعتبارًا من فتح رحمته إلى محل دار أمانه ومنال رضوانه، واستعلامًا بإحيائه بلدة الميت من دار الحيوان، حيث لا موت ولا زوال وبموجودات ما يوجده من رحمته هنا على موجودات ما هنالك.

ثم قال: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ آيات على وحدانيته، وأن تدبيره كل شيء كتدبيره شيئًا ما، وآيات على ما يحملهم فيه فيما هنالك من فلك وغيرها من مثله ما يركبون، ثم أرجع الخطاب ظاهرًا على معنى ما أبطنه بقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ في الأسفار من أرباح متاع الدنيا ومدخور[1] دار الآخرة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(١) في (ف) مدخورات.

[الروم:٤٦] فتنالوا الموعود الذي هي هذه آيات عليه.

فصل

إرسال الرياح في الأجواء آية على الوحدانية، هو الواجد في السماء الواحد في الأرض، أمره في الأرض كأمره في السماء، والريح عن الروح تلقح بها السحاب في الهواء، ويوجد فيها الماء، ينزله إلى الأرض ثم يصرفه إلى ما يصرفه إليه، فله الخلق والأمر، وهو العلي الأعلى.

وإرساله الرياح أيضًا آية على إرساله الرسل يرسلها مبشرات برحمته وعقابه، ويوجد عنها ما يكون من موجودات الآخرة، فأشبهت الرسل في بشارتها ونذارتها ثم يصرف وحيه إليهم بعد إلى ما يشاء من أمرٍ ونهي ووعد ووعيد بتوابع ذلك، وكما يرسل الرياح ليذيق العباد من رحمته الدنيوية، ثم يؤولها في حق من يشاء من عباده إلى رحمته الأخروية، كذلك يرسل رسله إلى العباد؛ ليذيقهم من رحمته الأخروية، ثم يؤولها في حق من يشاء إلى رحمته الدنيوية، وربما جمع لمن شاء رحمته فيهما.

وكما قد يهلك بالرياح كما فعل بقوم هود وأصحاب الظلة وغيرهم، كذلك قد ينجي بالمرسلين من آمن به وصدق المرسلين، ويهلك من أبى وعتى، وكما يرسل الرياح لتجري الفلك في البحر بأمره كذلك يرسل رسله إلى عباده؛ ليجريهم في بحر الدنيا بهدايته إلى الآخرة التي هي موضع عبورهم، وكذلك يرسل رسله إلى عباده ليبتغي عباده من فضله في الآخرة، وكما يرجى لهم أن يشكروه كذلك يخشى عليهم أن يكفروه.

يقول الله عز من قائل: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: ٤٧ - ٥٣].

أتبع ذلك قوله ﷻ ما هو في معناه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلا إِلى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧] يريد - وهو أعلم بما ينزل - المؤمنين الذين معهم رسلهم، فأولئك ضمن الله نصرهم، كما قال عز من قائل: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١] يحفظون برسلهم - عليهم السلام - كما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فإذا ذهب الرسول عنهم فخلفوه حفظهم الله بحفظهم عهده كما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠] فإذا كثر الخبث والفساد استحقوا جزاء ذلك إلا أن يعفو الله الكريم.

قال الله، جل من قائل: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١] ثم تسأل الله تعالى معافاته ومغفرته من المرابعة؛ إن لم يتدارك الله برحمته وإصلاحه(١).

قال رسول الله ﷺ: «**يردون موردًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى**»(٢).

وفي أخرى: «**يبعثون على نياتهم**»(٣).

قوله ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾(٤) [الروم:٤٨] وقال في سورة النور:

---

(١) في (ف) صلاحه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠١٢)، وابن حبان (٦٧٥٥).

(٤) «كسَفًا» جمع كسفة وهي القطعة، وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر «كسْفا» بإسكان السين، وهي أيضًا جمع كسفة، كما يقال: سدرة وسدر، وعلى هذه =

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور:٤٣] أعلم الله ﷻ بهذا مشابهة الرياح الرسل، وإرساله إياها إرساله إياهم، وعرض بذكر السماء إلى أن رحمته المنزل منها هي في السماء؛ لذلك أخرج ثمرات كل شيء وجنات معروشات وغير معروشات.

كما أن الوحي ينزله من السماء فيخلق من طاعة العباد موجودات في الجنة، منها ما يشابه هذه بعض الشبه، ومنها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لما كان فيما تجيء به الرسل - عليهم السلام - ما هو التعريف بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته والإيمان بذلك، وفيما تجيء به أيضًا ذكر الدنيا والزهد فيها وذكر الآخرة والرغبة فيها، كان عن جزاء ذلك في الجنة من معهود الدنيا، وكان فيها أيضًا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هذا في مقابلة معرفة الله والإيمان به، وذلك في مقابلة معهود الدنيا وجزاء الزهد فيها، ومعرفة الآخرة والرغبة فيها، حكمة من حكيم عليم لا إله إلا هو.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم:٤٨] الاستبشار مشترك بين أهل الدنيا وبين أهل الإيمان، يستبشر أهل الدنيا بالماء لما يخرج الله به من خيرات الأرض ونباتها، ويستبشر أهل الإيمان بما يصيبهم الله به من الوحي من علم بالله، ومعرفة ويقين بجزاء في دار الآخرة ولقاء الله - جل ذكره.

كما قال، جل من قائل: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران:١٧١].

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وروي أن الصحابة ﷺ قالوا: «كنا نقعد بعد صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فنتذاكر أمور الجاهلية، فنضحك ورسول الله ﷺ يبتسم».

=

القراءة يكون المضمر الذي بعده عائدًا عليه؛ أي: فترى الودق أي المطر يخرج من خلال الكسف؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء لا غير فالتذكير فيه حسن، ومن قرأ: «كسفًا» فالمضمر عنده عائد على السحاب، وفي قراءة الضحاك وأبي العالية وابن عباس: (فترى الودق يخرج من خلله) ويجوز أن يكون خلل جمع خلال. [تفسير القرطبي (١٤ /٤٤)].

ثم قال، عز من قائل: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩] جمع هذا بين ظاهر ما أبطنه وباطن ما أظهره بتكرار لفظ القبل، تقدير الكلام والله أعلم بما ينزل: ﴿وَإِن كَانُوا﴾ أي: المؤمنين ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ الوحي ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: مبعدين لما جاءهم به الوحي من التوحيد والعلم بالله واليقين بالدار الآخرة وبلقاء الله، ويمكن أن يكون معناه زائدًا إلى هذا لمبلسين؛ أي: داخلين في الإبلاس واللعن، كما يقال: «منجد ومتهم» لداخل نجد وتهامة، كما قال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣].

وأمَّا قوله - جل ذكره - من قبله؛ أي: من قبل إنزال الله الماء من السماء رجوعًا إلى ظاهر المثل، ويكون قد أبطن وصفهم فيكون يقظين أو ناسين، فيكون الضمير في قبله راجعًا على الغياث بالماء.

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠] هذا الماء وقوله: ﴿إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ﴾ يصلح أن يكون وصفًا للوحي أيضًا، فيكون المراد بالأرض: الأجسام والجوارح، وإحياؤها بالعمل بالطاعات والإيمان والإسلام، ويصلح أن يكون المراد: الأرض وما يخرجه[1] منها بالماء، وحسب الناظر إلى رحمة الله ما أصلح به من العباد؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتَى﴾ أي: من هؤلاء وهؤلاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم:٥٠].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني: الزرع والجنات، ويصلح أن يكون ريحًا من الأمر تهيج فتنة وبدعة وضلالة ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم:٥١] أتبع ذلك قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى﴾[2] [الروم:٥٢] إلى قوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤] أخبر - جل ذكره - بتدوار دوائر التقليب في أحوال

---

(١) في (خ) نخرجه.

(٢) قال المصنف: أي: لتنذر من كان حيًّا، والحياة أصل لكل صفة موجودة، والحياة لا تكون إلا بالروح، فإذا أيدت الحياة الروح رضي بالله ورضي الله عنه، ووجد طعم الإيمان ومذاقه بالمناجاة والإنس والروح وطيب عرف القرب. [شرح الأسماء ٢/٣٢٤].

الخلقة على العبد، وانتظم معناه بمعنى ما تقدم في صدور السورة من معنى ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨].

ونبّه بقوله، وهو العليم القدير: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦] يريد تقديره في تدوار الدوائر هو العليم بمقاديرها وما يكونه عنها، وهو القدير على ذلك خلقًا وأمرًا، متى نظر العبد في نفسه، وتفكر في تركيبه وبدئه وعوده من حيث هو عبد مخلوق اهتدى، ومتى نظر إلى نفسه بعين رعونته، فإنه يبصر تقليبه في تكوينه وأصله ومم خلق، وأنه يعود بعد الاستواء والقوة إلى الهرم المقيد والشيخ المقعد المكنى بأرذل العمر، ثم الموت لا بد ولا محيض له عنه؛ فهذا هو دواؤه لوصف رعونته، والله هو الحي الدائم الواقي الباقي العليم القدير، لم يزل على ذلك ولا يزال ﷻ عما به يعدلون.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٥٤ - ٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] جاء هذا المعنى هكذا كقولهم: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا﴾[النازعات:٤٦] وجاء هذا المعنى في القرآن هكذا مختلف اللفظ متفق المعنى، وإنما ذلك - وهو أعلم - لما كانوا في الدنيا أمواتًا

بالجهل والكفر لعدم روح الإيمان لم يعلموا من أجل ذلك بالتوحيد، وما يجوز لله - جل ذكره - من نعوت التعالي وما لا يجوز أن يوصف به مما سوى ذلك، وكذلك لم يعلموا بالدار الآخرة ولا بلقاء الله - جل ذكره - وغير ذلك؛ فلذلك لما ماتوا لم يعلموا أيضًا بما أصابهم حال كونهم في البرزخ من تعذيب وآلام وأهوال مفزعات وما هنالك، وإن كانوا يباشرونه ويحسونه كما يحسون في الدنيا بأمراضها وأوصابها من حيث المراد بذلك منهم.

وقد كانت جهنم تغدو عليهم وتروح بفيح نفسيها، وفتح رحمة الله بعلمهم بأنعمه ومنته، وإن كانوا يحسون ذلك ويجدونه وجدًا لكنهم لم يعلموا به، بل أفكوا عن حقيقة المراد، ولم يسمعوا قرع الخطاب أصماخ أسماعهم، بل صموا عن سماع نداء الداعي يهتف بالكتاب، كذلك لما حيوا في الآخرة لم يعلموا بما لقوه في أثناء المدتين وإن كانوا قد شقوا بذلك وألموا.

فصل

آية ذلك: تأفيكهم في دار الدنيا عن علم حقيقة ما فطرت عليه أنفسهم من جسومهم من العلم الفطري، والسجود بالكره لله، والقنوت له، والعمل بطاعة الله، ومراده كرهًا وكونًا لا قصدًا ولا انتواء، وأين هذا من معرفتهم بأن الله - جل ذكره - هو خالقهم وخالق السماوات والأرض، ومالك الملك ومدبر الملكوت، يملك سمعهم وأبصارهم وقواهم، ثم هم على ذلك يؤفكون عن هذه الحقائق إلى الإيمان بباطل لا حقيقة له، ويدينون بالإذعان لصنعة أيديهم والخضوع والسجود لما ينحتونه، والعبادة لما لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًا؛ ذلك قوله ﷻ: ﴿**كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ**﴾ [الروم:٥٥] أي: في الدنيا عن حقيقة المراد بهم شرعًا كما يؤفكون في الدار الآخرة عن العلم بما أحسوه من آلامهم، وطول إبقائهم[1] في مدة البرزخ في عذابهم، فما أعجب هذا الملك لله، وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

أتبع ذلك بما هو إتمام له وتبيان، قوله - عز من قائل: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا**

---

(١) في (ف) بقائهم.

العِلْمَ﴾ [الروم:٥٦] أي: في الدنيا كذلك أوتوه في البرزخ، كذلك أوتوه في الحياة الآخرة، والإيمان معنى الحياة في البرزخ، وهي حياة الإيمان وهم المعنيون - والله أعلم بما ينزل - في قوله فيما حكاه عنهم حين قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ﴾ [المؤمنون:١١٣] فأهل العلم هم العادون.

فيقول أهل العلم ﴿وَالإِيمَانَ﴾ يومئذٍ ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ أي: في علم الله وقضائه وقدره المسطور في الكتاب المبين ﴿إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦] يقول على فحوى الخطاب: فأورثكم ذلك عدم العلم في دار البرزخ، وأمَّا ما في الدار الآخرة، فهم في موضع العلم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة:١٢] يقول الله جل من قائل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ يعني الدار الآخرة، ﴿لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم:٥٧] بأنهم كانوا لا يعلمون، وإنما لم ينفعهم يومئذٍ الجهل وعدم العلم؛ لأنهم كانوا في العلم لو طلبوه وجدوه، والعلم كان في قلوبهم وذوات أنفسهم، لو تأملوه علموه، بل ضيعوه فأضاعهم.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم:٥٨] أعرب الجليل ﷻ أن قصصه الحق مع ما هو قصص هو أمثال مضروبة وحقائق أكثرها جليَّة ومنها خفية، فاطلبوا ذلك إن كنتم صادقين، وفي المظهر الجلي من ذلك ما يقطع العذر وتظهر به الحجة، ويستبين السبيل، وهم مع هذه الآيات البينات[1] ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم:٥٨] كما قال عنهم في غير هذا الموضع: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:٣٠] إنما تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا، والساحر مبطل، والصادُّ عن الحقيقة مبطل.

وأتبع ذلك ما هو معبر عن حُكمه فيهم الصادر عن علمه وحكمته قوله - جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٩].

ثم قال - عز من قائل - يؤنسه عن استجابتهم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي:

---

(١) في (ف) المبينات.

بالفتح عليك والنصر لك، وإظهار دينه على الدين كله، وهو أيضًا حق ما وعد به في الدار الآخرة من جزيل ثواب وكريم مآب لمن استجاب، وبالضد[١] لأهل الصد ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٢] [الروم:٦٠] أمره بالثبوت على ما أيقن به وآمن كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

وفي باطن هذا الخطاب أمر للمستجيبين من عباده بالصبر والمجاهدة، ووعيد لأهل العلم شديد، ألا ترى أنهم - أعني: الكفار - لما لم يطلبوا العلم في الدنيا ولا استعملوا ما في فطرهم منه ولا تنبهوا إليه ولا تذكروه بالمذكرين، أخذوا من تلك الجهة وعذبوا ولم تقبل منهم المعذرة، ليس من علمٍ كمن لم يعلم، ولا من آمن وأيقن كمن لم يوقن، واعتبر ذلك باللاهين والمعتوهين، ومن لا تمييز عنده ولا عقل له، والله المستعان.

---

(١) في (ف) وبالصد.

(٢) أي: لا يحملنك على الخفة، ويستفزنك عن دينك، وما أنت عليه، الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدقون أنبياءه، ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبي ﷺ يقال: استخف فلان فلانًا؛ أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ، قرأ الجمهور: «يستخفنك» بالخاء المعجمة والفاء، وقرأ يعقوب وابن أبي إسحاق بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق، والنهي في الآية من باب: لا أرينك ها هنا. [فتح القدير (٥ /٤٨٢)].

تفسير سورة لقمان(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: ١ - ٧].

قوله جل ثناؤه: ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ - ٢] تلك إشارة إلى حاضر وإلى متباعد، والمشار إليه ما عبر عنه قوله: ﴿الم﴾ وعلى الحقيقة فليس يبعد عن الله شيء من حيث المسافة، وإنما نِسْبَةُ القرب والبُعد عنه من حيث الولاية والبراءة، فما والاه فهو القريب، وما تبرأ منه فهو البعيد، بلى قد يوصف بالقرب ما هو موصوف بأنه عنده أو من لدنه من ذلك، قوله في القرآن: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ

(١) هذه السورة مكية، قال ابن عباس: إلا ثلاث آيات أولهنّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ....﴾ وقال قتادة: إلا آيتين أوّلهما: ﴿وَلَوْ أَنَّ...﴾ إلى آخر الآيتين، وسبب نزولها أن قريشًا سألت عن قصة لقمان مع ابنه وعن بر والديه فنزلت، وقيل: نزلت بالمدينة إلا الآيات الثلاثة: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ....﴾ إلى آخرهنّ، لما نزل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً﴾ وقول اليهود: إن الله أنزل التوراة على موسى وخلفها فينا ومعنا، فقال الرسول: «التوراة وما فيها من الأنباء قليل في علم الله» فنزل: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ ومناسبتها لما قبلها أنه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ فأشار إلى ذلك بقوله: ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وكان في آخر تلك: ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ وهنا: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ وتلك إشارة إلى البعيد، فاحتمل أن يكون ذلك لبعد غايته وعلو شأنه. انظر: [تفسير البحر المحيط (٩ /٩٧)].

لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

وقال في الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩] فوصفهم بالعندية للخصوصية التي فارقوا بها الجن والإنس، كما قد يوصف بالبعد ما هو موصوف بأنه من غيره أو عند غيره وإن كان ذلك المشار إليه موصوفًا بالولاية من ذلك.

قوله - جل ثناؤه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:١٧] ذلك لأنها كانت بيمين موسى عليه السلام وقال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٣٢] لما أعطاهما إياه أشار إليهما إشارة بُعدٍ، وإن كانتا من عنده - جل ذكره - كذلك قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ [الأعراف:٢٦] ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨] عبر عنها بلفظ البُعْد لما أظهرها إلى الوجود ولكونها موجودة في قلب الرسول وفي ذكره، وكذلك أشار إشارة بُعدٍ إلى هذه الحروف لما فصلها من اللوح المحفوظ، فكان واسطة بين ما هنالك وبين حروف القرآن، وكذلك ما عبرت عنه مما هو مخرج إلى الوجود فعبر عنهن بإشارة اليمين؛ لأنها منفصلة عنه؛ أعني: موجودات ما عبر عنه مكتوب اللوح.

قوله ﷻ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان:٣] من اهتدى بهداية موجودات اللوح المحفوظ فهو من الموقنين، ومن اهتدى بهداية القرآن المبين فهو من المؤمنين، ومن اهتدى بهداية الرسول ﷺ فهو من المسلمين، ومن اهتدى بهداية هذه السبيل وسلك مسالك هذه المناهج كان من الصديقين؛ لأنه كثر تصديقه وصدقه، فصدق الله والرسول والكتابين، ثم صدق في العمل، وأشرك الوجود، والقرآن في الدلالة والإرشاد، وانفرد ظاهر القرآن بالبشارة والنذارة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن
تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ
﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ

مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ٨ - ١١].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ [لقمان:١٠] هذه وما شابهها من الخلق والأمر من موجودات الكتاب الحكيم عمدها إمساكه إياها وقيامها على ما هي عليه، هو بأمره لذلك وصف العمد بأنها غير مرئية لنا لا يجوز غير هذا، وقد تقدم الكلام في أن الوجود كله هو المثبت في اللوح المحفوظ؛ لقول الله - جل ذكره - للقلم: «**اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[(١)] فمن شاء أن يقرأ اللوح المحفوظ فلينظر في الوجود، ومن شاء أن يقرأ عن ظهر قلب فلينظر في القرآن والغيب، هو ما لم يخرج بعد إلى الوجود من ذلك المكتوب، ومن الغيب أيضًا ما غاب عنك فلم تشاهده.

أتبع ذلك قوله جل ذكره: ﴿هَذَا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان:١١] لا خالق إلا الله، هذا إصفاق من المؤمنين، ولكن الكافرون عن الحق يؤفكون، عبر عن ذلك قوله: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٢ - ١٥].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لله﴾ [لقمان:١٢] المعنى إلى آخره، بيّن الله - جل ذكره - أن معنى الحكمة وسبيلها الشكر لله، وكل مروءة أو علم أو سيرة أو إصابة أو فهم أو فطنة أو إتقان إلى جميع معاني الحكمة التي

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة (٣٥٩٢٢)، وابن جرير في تفسيره (١٧/٢٩)، والضياء (٤٣١).

تركبت عنها إذا عري ذلك عن الشكر لله ولم يقصد به ذلك، فليست بحكمة، والحكمة هي: الإتقان في العمل والإصابة في القول والرأي، والفطنة والفهم والسيرة والهيبة والسمت، وجميع الأوصاف والحلي، وإصابة الصواب في ذلك كله والإلهام.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١) [لقمان:١٣] الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه وإخراجه عن طريقه الذي جعل له، ولما ذكر لقمان ووعظه ابنه أخذ في التوصية بالأبوين، وجعل شكرهما منفصلاً من الشكر له ﷻ متصلاً به، وعقوقهما متصلاً بالكفر به، وأكثر التوصية بهما جدًّا وإن كانا كافرين، فليصاحبهما في الدنيا معروفًا، ولا يطعهما فيما يأمرانه به من الكفر والشرك بالله، وليتبع سبيل المنيبين إليه.

وفي هذا فحوى خطاب، وذلك أنه وصاه بشكرهما والبر بهما كافرين، فما ظنك بتوصيته بهما إذا كانا مؤمنين طائعين لله تعالى، ثم إن كانا في مقام من الحكمة والعلم أوجب عليه الدعاء لهما والاستغفار ووجبت عليه وظيفة أخرى من الشكر سوى ما تقدم قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٦ - ١٩].

---

(١) قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك، وهو التفرد للحق بالكل نفسًا وقلبًا وروحًا، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

ثم أرجع الخطاب إلى وصف وعظ لقمان ابنه، وأنه أوصاه بالتوكل على الله وحسن الظن به، وتصديق وعده والثقة بضمانه، وبإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على العمل بطاعة الله، والصبر عن محارمه، والصبر على المصاب كله، ومدح الصبر وقال إنه: ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [القمان:١٧] ثم أمره باجتناب الكبر ولزوم التواضع، والقصد في الأمور كلها في الهيئة والسيرة والشأن كله كذلك إلى آخر القصة، وهذه هي الحكمة علمًا وعملاً.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٠ - ٢٨].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [القمان:٢٠] هذا مما شملته كلمة ﴿أَلَمْ﴾ وما عبرت عنه من خلق وأمر، وقرئ «وأصبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» الظاهرة: هي نعم النفع، والباطنة: نعم الدفع، والظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة، يعلم العبد إذا عدد نعم ربه وحاسب نفسه كثيرًا منها صحّةً وفراغ ونفسٍ دينًا ودنيا وغنىً وعملاً صالحًا وذكرًا، وما كان من ذلك ونحا نحوه، ولا يعلم الأكثر مما يدافع عنه من البلاء والآفات، وما من بلية تصيب العبد إلا والله ﷻ موصوف بالقدرة على

الإتيان بأضعافها وبالضد.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:٨] هذا منتظم بما في أول الخطاب من قوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢] ولما جاوره من أكثر النعم المعني.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أتبعوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أو لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوَهُمْ﴾ يعني: آبائهم ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١] هنا محذوف تقديره: يتبعونهم على ذلك، كقوله: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] يتبعونهم على ذلك، فما انتظم من الكلام بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ [الرعد:٢] هو منتظم بهداية اللوح المحفوظ، كما ما انتظم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أتبعوا مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [البقرة:١٧٠] هو منتظم بهداية القرآن المبين، فافهم.

أتبع ذلك قوله - جل وعز: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ من أسلم وجهه إلى الله - جل ذكره - ائتمامًا بما خلقه الله من شيء وما فطره عليه، وأحسن في ذلك اتباعًا لرسوله واقتداءً به، وائتمارًا بما أمره به الوحي القرآن والسنة ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان:٢٢] وجمع في يده جامعة الهدى والصراط المستقيم من الوجودين الوحي والعالم، هذا لا يقع فيه اختلاف ولا زمن عقدته ولا تبدل سنته؛ إذ سنة الله لا تبديل لها ولا تحويل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ [لقمان:٢٣] إلى قوله: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤] يقول، جل ذكره: ومن كفر بما أوجد الله عليه السماوات والأرض وما بينهما من عبادته والقنوت له والقيام بمقتضى أمره، وكذب بما جاء به رسوله وكتابه يقول: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ وعيد منه - جل ذكره - شديد ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [لقمان:٢٣] المعنى إلى آخره.

أتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥] يقول - جل من قائل: هذا معتقدهم المؤسس عليه جبلتهم وعلمهم المغروز في أصل خلقتهم، وعلى ذلك هم يؤفكون، ويعدل بهم عن سبيل قصدهم، تمدح ﷻ بعظيم اقتداره على

أشرف الذوات إلى مشيئته، وإن كان في ذلك عطبهم الأبدي؛ إذ في ذلك إمضاء مشيئته وتصديق كلمته.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [لقمان:٢٦] انتظم معنى هذا الخطاب بمعنى تمدحه على اقتداره وقهره الذوات، وسوقه إياها بمرادها إلى مراده منها وبها، ثم قال - جل من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [لقمان:٢٦] في مقابلة قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ [لقمان:٢٣] أي: فإن هذا مرادنا الكوني منه، فافهم.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ [لقمان:٢٧] أخبر - جل ذكره - وهو أعلم بما ينزل في صدر السورة ومفتتحها بما حواه اللوح المحفوظ من خلق وأمر، وأخبر في هذه بما أوجد ذلك وهو كلمة.

قال الله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] واستشهد بما يظهر من ذلك على وحدانيته وقدرته وعلمه وحياته، وعلى وجوده وقيوميته، وأخبر في هذه عن كلمة، وكلمته صفته، وصفاته لا تفنى ولا تبيد، والبحر وما ضوعف إليه وإن بولغ في التضعيف على جميع وجوده إلى أبعد غاياته، وزيد إلى ذلك إلى أقصى عدد العادين من أهل السماوات والأرضين، كل ذلك يفنى ويبيد، وصفاته العليا لا توصف بفناء، ولا يتوهم لها غاية ولا انتهاء، كيف وإنما جميع ما حواه اللوح المحفوظ هو كلمة من كلماته، أوجد من مقتضياتها ما شاء كيف شاء، وأضرب عن إيجاد ما لم يشأ إيجاده لما شاء؛ إذ قال للقلم: «**اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1] فحد له حدًّا بلغه إليه، وقال له: «**اكتب المقدار**» فأنهى له نهاية لم يعدها، وقال له: «**اكتب علمي في خلقي**»[2] فمتى يفنى علمه أو يتصور نفاذ كلمه سبحانه لم يجعل لعباده من معرفته أعظم من الإقرار بأنه لا نهاية لمعرفته.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

أتبع ذلك ما هو بيان له قوله الحق: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨] يريد، وهو أعلم: ما خلق جميعكم وبعثكم إلا كخلق نفس واحدة وبعثها، ثم دلَّ من أسمائه بما هو الحق يقول: هو السميع لكلامكم، البصير بجميعكم، بسمع واحد وبصر واحد، فكما يعلمكم بعلم واحد، لا يشغله شيء عن شيء، ذلك بأن جميعكم عنده كمعلوم واحد ومقدور واحد، وهو بكل شيء محيط.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٢٩ - ٣٢].

أتبع ذلك أيضًا ما هو في معناه تبيانًا له، قوله - عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان:٢٩] يقول: فيدخل في ذلك جميع التدبير الذي يقوم به أمر الدنيا.

ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعلم إنما هما - أعني: الشمس والقمر - آية على أمر الآخرة، وأنهما آيتان على تجليه لعباده في الوعد الحق، والشمس والقمر وهما ينبعثان بسريان من سلطتنه، يطلعان على العباد والبلاد، فيرى الجميع كل واحد منهما من موضعه دون تساؤم ولا تضايق كما يراها الواحد منهم، وذكر الأجل المسمى هنا تعريضًا بأجل الآخرة الذي به يُديل منهما تجليه الكريم العلي ﴿وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٢٩] أي: يعلم ذلك كله بعلم واحد، فأين النفاذ فيما ها هنا أو النهاية؟!.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ إشارة إلى ما تقدم، ثم حكم بحكم الحق الواجب وجوده بما تتقدم من الشواهد فعلاً من له الحجة البالغة قد

أدحض حجة خصمه، وأفلج بصحيح الدليل ونير البرهان: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾(١) [لقمان:٣٠].

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان:٣١] هذا من معنى ما تقدم من قوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨] جريان كل ما في داخل الفلك بجريانها

(١) قال المصنف: فصل في الشهادة بقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ لما أعْلَمَ هذا المعنى المسمى بالحق الموجود في سنخ العالم وجبلة العقول بأن الله هو الحق المبين؛ أي: إنه هو الحق والإله الحق، والرب الحق، والمالك الحق والعلي الحق هكذا إلى جميع الأسماء والصفات على ما سيأتي ذكره مع ما تقدم منه، فإذا كان هو الحق المبين من جميع الجهات كلها والمعاني أجمعها قطعًا جزمًا، فإذا كل ما يدعا من دونه من إله فهو باطل، أي: مستحيل وجوده معلوم هذا ببداية العقول وضرورتها دون تردد منها ولا طلب واسطة ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [هود:٣٢].

واعلم أن وجود الباطل إنما كان بإيجاد من الحق المبين إياه؛ لأنه - جل ذكره - قسَّم الموجودات إذ أوجدها بين فتنته وذكر، فالحق في الموجودات من قبيل الذكر، والباطل من قبيل الفتنة، ووجوده عن وجود الحق الموجود أولاً بإيجاد من الحق المبين، واحذر هذه المزلة فهي بيننا وبين من زعم أن الله ﷻ ليس هو الموجد لكل موجود، فنسب إليه إيجاد الخير، ونفى عنه غير ذلك، وبين من نسب إليه فعل الجور والظلم على الإطلاق، تبارك وتعالى عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا. والحق المبين ﷻ يحقق الموجود بتوليه إياه أو يبطله بتركه إياه وتخليه عنه، فإن وليه إيجادًا وجد فكان وجوده حقًا، وإن وليه وجودًا وصفات تحقق في الوجود وكان من قبيل الذكر، وإن تخلى عنه من أي وجه كان بطل في تلك الجهة هو ليس شيء سواه. **فنقول**: القرآن حق، أي: حق نزوله، وحق هو من عند الله ﷻ، وحق ما جاء به، وحق من كل وجه؛ لأنه وليه - جل وعلا - من كل وجه، ونقول: النبي ﷺ حق كذلك، فإذا قلنا: الكفر حق، فمعنى ذلك أنه حق وجوده لا غير، وكذلك إبليس - لعنه الله - حق، والسحر حق، والدجال حق، أي: حق وجود ذلك كله؛ لأنه - تبارك وتعالى - أوجد ذلك فحق وجوده، ولما تخلى ذكره عنهم بالتوفيق والولاية في صفاتهم وأعمالهم وأسمائهم بطلت، ونقول: خروج الكفار من النار في الدار الآخرة باطل، وكذلك خروج أهل الجنة منها؛ لأنه لم يقل ذلك إيجادًا ولا صفة فبطل وكان معدومًا. وهاتان الشهادتان أعني قوله جل قوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢] عبرت عنها شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، فأغنى ذلك عن إعادة الكلام فيها إيثارًا للاختصار مع ما تقدم ذكرها في غير هذا الاسم من الأسماء. [شرح الأسماء ١٠/٢].

يجريها الله - جل ذكره - فيجري بجريانها جميع ما حملته، كذلك ما خلق جملة المخلوقات المسمى بالعالم الكلي والعبد الكلي إلا كخلق نفس واحدة من العالم الجزئي، وكذلك في التدبير والإمساك وغير ذلك، لا يؤده شيء ولا يشغله، لا إله إلا هو العلي العظيم، فهذا من آياته المشار إليها في هذا الموضع، ونعمة الله المذكورة هنا هو حفظه وتيسيره الريح الطيبة بأمر النجاة، وفي الفلك آيات سوى هذا، قد تقدم ذكر بعضها.

أتبع ذلك قوله - جل وعز: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ [لقمان:٣٢] أي: يكون الموج لهم من فوقهم كالظلل فوق رؤوسهم، ذلك أشد الهول وأقطعه، وأهلك من هذا وصفه في قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢] أي: من جهات الفلك ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢] على ذلك جُبل الخليقة يدعونه على التوحيد تضرعًا وخيفة حال الاضطرار، ويكفرون ويشركون به حال العافية.

يقول - جل من قائل: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان:٣٢] وأكثرهم على ما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] فإتيان الرياح والأمر بما لا يوافق الفلك والمحمولين فيه مثال الإتيان: الأقدار والأسباب، فمن القدر وأهوال الموج مثال لمكروهات الدنيا ومحنها لهذا وما هو أكثر من هذا، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: على مر الأقدار وشدتها ﴿شَكُورٍ﴾ [لقمان:٣١] على حلوها ومحبوبها وعلى هاتين الحالتين ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ [لقمان:٣٢] للعهد المأخوذ به عليه، ثم لما يعطيه في حال الاضطرار من عهود ومواثيق ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢] فيكون بذلك ﴿كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢] لإيمانه الممتزج بأمشاجه المركب عليه أركانه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى

نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ [لقمان: ٣٣ - ٣٤].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣] قرئ بفتح الغين وضمها، والمراد بالفتح: اسم الشيطان كان من الجن أو من الإنس، فهو غَرُور، وبالضم: فهو فعل للغَرَر مِنْ غَرَّ يَغُرُّ غُرُوْرًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] إلى آخر السورة، رجع الكلام إلى معنى وصف الله بالوجود العلي في أثناء السورة، يقول - جل من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: على التوقيت والتحقيق ألا يعلم من خلق، وقد أعلمنا بأشراطها وأمارات اقترابها، لكنه قال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] ولما أعلمنا به من الأشراط والأمارات قال: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥] فمعنى المقاربة يحصل بين هذين المعنيين، لم يعلمنا بيوم وقوعها ولا ساعة يومئذٍ، ولولا ما أعلمنا به من الأمارات لم نعلم من شأنها شيئًا.

ثم قال: ﴿وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ﴾[1] [لقمان:٣٤] أخبر عن قدرته ومشيئته، فإن أحدًا لا يقدر على ذلك ولا يعلم متى يشاؤه، وقد جعل على ذلك أيضًا أمارات وعلامات كأيام الشتاء دون أيام الصيف على الأكثر والأغلب، وكذلك مطالع الأنواء في مجرى العوائد لفتح الله برحمته على عباده عند ذلك على الأغلب، والله يفعل ما يشاء كقول رسول الله - صلوات الله عليه وسلامه: «**إِذَا أَنْشَأَتْ بَحْرِيَّةً ثُمَّ تَشَاءَمَتْ فَتِلْكَ عَيْنٌ غُدَيْقَة**»[2] ولا يكون غيثًا إلا في أوانه وعند الحاجة إليه.

وكذلك قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان:٣٤] أنبأ - جل ثناؤه - عن علمه وخبره بما في أرحام النساء وأرحام الأرض وغيابات الغيوب، وإن كان قد جعل على بعض ذلك علامات وأمارات تعرف بعد تجارب وامتحان، وإن كانت

---

(١) قرأ الجمهور: (وينزل الغيث) مشددًا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخففًا، وقرأ الجمهور: (بأيّ أرض) وقرأ أبيّ بن كعب وموسى الأهوازي: «بأية» وجوّز ذلك الفراء وهي لغة ضعيفة، قال الأخفش: يجوز أن يقال: مررت بجارية أيّ جارية، قال الزجاج: من ادّعى أنه يعلم شيئًا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه. [فتح القدير (٤٩٨/٥)].

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٧٥٧)، ومالك (٤٥٢).

هذه تزيد في الاستغلاق على ما تقدم ذكره.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤] هاتان أكثر استغلاقًا مما تقدم، فحقيقة قول رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ»[١] أي: لا يعلمها على الإحاطة بها والتحقيق لها وإن اختلفت في طرق العلم منا إليها في الخفاء والكشف.

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠٦).

تفسير سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ١ - ٥].

قد تقدم الكلام في معنى: ﴿تنزيل الكتاب﴾ [السجدة:٢] وأنه بمثابة التبيين والتيسير قربه ونزله مما هو كلامه العظيم إلى ما هو لنا تلاوة ومنا قراءة، ومما هو كتاب القلم الأعلى في اللوح المحفوظ إلى ما هو كتابة لنا والمكتوب والمتلقى المحفوظ هو كلام الله صفة من صفاته، غير مباينة له ولا مفارقة لذاته، والذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة:٢] هو الكتاب المحفوظ، وقد ارتاب في القرآن من لم يرد الله - جل ذكره - تيسيره للإيمان به، وإنما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ ثم قال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] يسر له، ثم إن كان هذا المدكر إدكاره على التحقيق المراد منه بهذا القرآن، وعلمه حق لا شك ولا مرية فيه ولا ريب عنده في أنه ﴿مِن﴾ عند الله ﴿رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [السجدة:٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [السجدة:٣] قد يكون «أم» بمعنى «بل» تقدير الكلام: بل يقولون افتراه، ويكون بمعنى ألف الاستفهام كأنه قال: أيقولون افتراه؟ وهي لغة يمانية، أو يكون معنى الكلام: تنزيل الكتاب لا ريب فيه أيؤمنون به أيصدقونه؟ فإنه إنما جاء بما لا ريب فيه أم يقولون افتراه، ثم ردَّ عليهم قولهم بالافتراء فقال: ﴿بَلْ هُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة:٣] هذا الترجي بالهداية لمن قد سبق له بذلك القول من الله -

جل ثناؤه.

فصل

جاء عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ كل ليلة سورة السجدة وسورة الملك، وجاء عنه أنه كان كثيرًا ما يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر سورة السجدة، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾ [الإنسان:١].

أمَّا قراءته سورة الملك فيما جعل الله - جل ذكره - فيها من كفاية عذاب القبر والليل آية على الموت على ما سيأتي ذكره، كما أن وقت صلاة الفجر آية على دار البرزخ، وربما أتى ذكر شأن ذلك في أولى المواضع به إن شاء الله؛ إذ وجود نعيم القبر وعذابه هو في حين مدة البرزخ.

وأمَّا سورة الإنسان والسجدة: فلما ذكر الله - جل وعز - فيها من الستة أيام، ومعنى ﴿الم﴾ [السجدة:١] وما اشتملت عليه من خلق وأمر، وقد تقدم ذكر الستة أيام في الباب الجامع من اسم «الشهيد» ولما فيهما أيضًا من البشارة وذكر الثواب على أعمال الطاعات؛ إذ يوم الجمعة هو سابع الأيام الستة الزمانية التي خلق الله السماوات والأرض وما بينهما في مثالها، والأجير إذا أتم عمله استحق أجره، ويوم الجمعة فيه تقوم الساعة هو آخر الأيام والدنيا موضع الإيمان بالغيب.

قال الله عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ٦ - ١١].

قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ

مِنَ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (١) [السجدة:٤ - ٦] إلى قوله: ﴿قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩] من نظر إلى مبتدأ السورة انتظم له جميع ما ذكره بما هنالك، جاء عن رسول الله ﷺ: «**أن ما بين السماء الدنيا والأرض مسيرة خمسمائة عام**»(٢) فهذه ألف عام بين نزول وصعود لو كان ذلك على معهود يسيرها، لكن يعرج إليه الأمر في غير زمان.

قال رسول الله ﷺ:«**يرفع الله عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل**»(٣).

فصل

أخبر الصادق الحق أن الملائكة تعرج إليه بالأمر من الأرض إلى السماء، وتنزل من السماء إلى الأرض، والسماء المذكورة هنا هي سماء الدنيا دليل ذلك ما أخبر به من المقدار كما أخبر رسول الله ﷺ وانتهاء العروج والصعود العرش وإلى العرش؛ لقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ [السجدة:٤] ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [السجدة:٥].

وكثير ما جاء في الكتب المتقدمة والعلم الأول أن حملة العرش أربعة أملاك:

أحدهم: كالإنسان.

والآخر كالثور.

والثالث: كالأسد.

والرابع: كالنسر.

---

(١) قال الكلبي ومقاتل في قوله تعالى ﴿اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد. وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى، بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله ﷻ. [تفسير البغوي (٣/٢٣٥)].

(٢) أخرجه الحارث في مسنده (٢/٦٥٤)، وأبو الشيخ في العظمة (١/٢٠٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٩) وابن ماجة (١٩٥) وأحمد (١٩٦٤٩) وأبو عوانة (٣٧٩) وابن حبان (٢٦٦)، والطبراني في الأوسط (٦٠٢٥).

وجاء من طريق عن العباس بن عبد المطلب أن رسول الله ﷺ كان جالسًا يومًا بالبطحاء، واستاق حديثًا معناه إخبار عما دون السماء الدنيا من سماوات: «**إِنَّ بُعْدَ مَا بين السماء والسماء إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوْ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً**» هكذا جاء بما فيه من لفظه أو قال: «**وما بين السماء والأرض**» يعني: من هذه السماوات «**كَذَلِكَ حَتَّى عَدد سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**» على ذلك، ثم قال: «**وما فَوْقَ السماء السَّابِعَةِ نحو أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء، وفوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن كما بين سماء إلى سماء**» قال: «**وفوق ظهورهن العرش من أسفله إلى أعلاه كما بين سماء إلى سماء والله ﷻ فوق ذلك**»[(١)].

فالعرش العظيم فوق السبع السماوات العُلا والكرسي الكريم، ثم لكل سماء عرش، ولا ارتياب من قوله : ﷺ «ما بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء» فإنما هو أمر يضيفه إلى نفسه، وصف نفسه بالاستواء عليه، كما أضاف البيت الحرام في الأرض إلى نفسه، والبيوت لا تسعه وإنما تسعه مشيئته، فهو لذلك حيث شاء يوجد لا يمتنع عليه شيء ولا يبعد لديه أمر شاءه، ولكل سماء عرش ينزل منه الأمر ويصعد إليه، ولكل عرش كرسي تنفصل عنه الأحكام، والانتهاء إلى العرش العلي العظيم والكرسي الكريم، ثم إلى ربك المنتهى.

ومن صفات العرش المنسوب إلى الله، جل ذكره: أنه بحيث لا حيث ولا أين، وإن كان فيما يقال: إنه حيث ومكان وأين، وكذلك الكرسي، فاعلم ذلك بل كل مكان وأين يسبحه ويقدسه عن الافتقار إلى الحيث والأين، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له...**»[(٢)].

وقال أيضًا: «**إذا صلى العبد فإن الرحمن** - وفي أخرى: فإن الله - **قِبَل وجهه إذا صلى**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، وابن ماجة (١٩٣)، وأحمد (١٧٧٠)، والضياء (٤٦٢).

(٢) أخرجه مالك (٤٩٨)، وأحمد (١٠٣١٨)، والبخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨)، وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٣٤٩٨) وابن ماجة (١٣٦٦)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١١٠٢).

(٣) أخرجه مالك (٤٥٧)، والبخاري (٣٩٨)، ومسلم (٥٤٧)، والنسائي (٧٢٤).

وقال الله - عز من قائل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة:٤] خلق كل شيء وسواه على ما شاءه من أمر وخلق، فكل شيء مسوى بتسويته إياه، والموجودات بعد في أنفسها متفاضلة، فمنها متساوية ومنها غير متساوية، وهو المسوي المستوي على العرش، وباستوائه على العرش سوى كل شيء واستوى.

يقول الله جل من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

وقال - عز من قائل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

فتدبر - وفقنا الله وإياك - ما تلوناه بتحقق بأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في كل مكان بما هو ومع كل موجود بما هو - جل ذكره - لا بما هو المكان ولا بما هو الموجود، وهو ﷻ لا يوجد إلا في سماء وإلا وهو مستوٍ على العرش، ولا يخلو عنه مكان، ولا يبعد عنه شهود، وهو لا يكون إلا على عرشه له المثل الأعلى، آية ذلك الشمس والقمر يكونان في محالهما من بروجهما علوًا والضياء والنور موجودان عنهما حيث حلَّ ذلك من كل واحد منهما ﴿وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ في السماوات والأرض﴿وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠] ومع هذا فلا ينزل الأمر عنه إلا من علو ولا يصعد إليه إلا من سفل حيثما كان، فهو العلا والعلو، ومن تدبر ما ذكرنا بإيمان وعقل صائب وجد الأمر على ما قدمناه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ولا يبعدن عليك - يسرك الله لليسرى - فهم هذه العبارة عما نحن بسبيله، فإنك بالضرورة أو بأيسر نظر تعلم ألَّا أين في حيث لا أين حق يقين، ثم لا أين في حيث الأين في حق من لا يجوز عليه الأين أجود أتم وجودًا من لا أين في حق من

لا يجوز عليه إلا الأين، فأين مكان الروح في الجسم؟ وكذلك العقل والفهم والعلم وغير ذلك.

فإن قلنا: إنه في الجسم، فأين مسكنه وموضع وجوده منه؟ فإن أشرت إلى عضو من أعضاء الجسم كالقلب أو الدماغ أو غيرهما لم تجد له فيما هنالك سوى منبعث أحكام تعرف به ويعرف بها، حتى لو عدمت تلك الأحكام والأفعال لم تجد سبيلاً إلى معرفة وجوده بعدها، وكذلك غيره من الصفات، وإلا فإذا فني الجسم وخرج هذا المشار إليه منه فأين هو؟ وإلى حيث يتحيز، وهذه آيات على المطلوب الأعلى.

قال الله - جل من قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨].

وقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

وقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤] فافهم، فهمنا الله وإياك عنه، فإن أطراف الكلام جمعت إليك وقربت لك حقائق التوحيد ببراهين الوحي.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله - جل قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة:٦] لما كان الحي القيوم هو المستوي على العرش والعرش محيط بالجملة به، وبالاستواء كان في كل مكان بلا مكان يعلم الشهادة والغيب، ولا غيب في حقه، هو العزيز الذي لا يلحقه أحكام المخلوقات ولا تناله أوصاف المحدثات، الرحيم بعباده المؤمني.

فصل

فوجه الجمع بين ما قاله رسول الله ﷺ من ذكره أن: «**الثمانية الأوعال تحمل عرش السماء الدنيا**»(١) وما جاء من ذلك في الكتب الأول، وبين ما جاء في معهود كتابنا والوحي الذي أنزل إلينا، كقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧] المعنى إلى

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٧٧٠) والترمذي (٣٣٢٠) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (٦٧١٣) والحاكم (٣١٣٧) وابن ماجة (١٩٣) وابن عدي (٧/٢٠٠ ترجمة ٢١٠٤ يحيى بن العلاء الرازي).

آخره، وأن إسرافيل وميكائيل من حملة العرش، وقيل جبريل وعزرائيل - على جميعهم صلوات الله وسلامه - أو كما هو في علم الله تعالى ثم في علمهم - عليهم السلام - فإن ما هنالك دار الحيوان وحرمه الأفق المبين، وأن ما ها هنا دار الموت وما لا يوصف بما يوصف به ما هنالك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧] أي: خلق كل شيء يمكن أن يكون المعني بقوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ جملة المخلوقات كذلك.

قال وقوله الحق: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] أي: خلق الجملة، وهو كل شيء وهو المقدر أحسن تقدير؛ أي: خلقه على صورة آدم عليه السلام كما خلق آدم على صورته - جل ذكره - ويمكن أن يكون المراد المعني بذلك كل شيء ينشأ نشئًا أي: خلق فأحسن ما خلقه.

والمعنيان مجتمعان في الصحة معًا على إرادته منه ومشيئته به، فخلق الملك والإنسان في أحسن تقويم، وخلق القرد والخنزير والحيات والعقارب والجندب والصرار والخنفساء وبنات وردان على ما أراد كلامه، أسلك ذلك كله مدرجته فاستن في سبل الحكمة سنن مرتبته منها، فرغ من ذلك في يوم الخميس من أيام الدهر، وكل شيء خلقه فقد سواه على مراده منه وبه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧] خلقه يوم الجمعة بعد العصر في آخر ساعة من النهار، ما بين العصر إلى الليل ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨] النسل مأخوذ من النسول، وهو سير سهل، ومنه النسلان ضرب من المشي، شبه بذلك خروج المني من الصلب والترائب من الزوجين، وهو راجع إلى ما كان عنه أبوه وهو الطين؛ إذ الغذاء مخلوق عنه المني والغذاء عن النبات والأنعام، وذلك كله أصله الماء والتراب، وهما إذا امتزجا كان مجموعهما طينًا[(١)].

---

(١) أفاد المصنف بقوله: مثله في القرآن كثير شائع، فأعلمه تعالى أنه جعل أصله من التراب الذي جعله للأقدام مداسًا وللنعال موطئًا، ثم جعل خلقه بعد من ماء مهين لا حراك به ولا انتصار له، تقذره نفس الإنسان وتغسل منه الثياب، وأكد ذلك عنده بأن أوجب عليه غسل بدنه كله من ذلك لعلة خروجها منه؛ إعلامًا له بأصله وتنبيهًا بقدره. خطب رسول الله ﷺ =

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة:٩] هذا معطوف على قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧] لأنه موضع الخصوص، وإن كان كل حي فلا بد من نفخ الروح فيه، فربما كان ذلك بواسطة الملك، وهو الأكثر والأغلب، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩] هنا سبيل سابلة ودلالة واضحة للنظر في المسألة المتقدمة من خلقه السماوات والأرض وتسويتهن، ثم استوى على العرش، فما استوى آدم ﷺ إلا بأن نفخ فيه من روحه، ولا استوى الاستواء العام من ذريته حتى ركب فيه الروح، ثم أتم استواءه حين تمام عقله وكمال حلمه وقوته وتمام ذلك في المحسن.

قال الله - جل وعز: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ثم قال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] أتبع ذلك قوله: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي

=

يومًا فقال في خطبته وبصق في كفه يقول الله ﷻ: «**أتعجزني يا ابن آدم وإنما خلقتك من مثل هذا**» ثم أبرزه بعد ذلك وأقره في قرار وجمعه في وعاء وغذاه بغذاء لو أبصره بعينه وشاهده بعقله لسخنت بذلك عينه وانزوت عند ذلك نفسه، ثم قدر خروجه عن مستقره ذلك من حيث يعلم لا يستطيع إنكار شيء من ذلك، ولا يمكنه جحده كان أبو بكر الصديق ﷺ كثيرًا ما كان يقول في خطبته: أيتكبر أحدكم وقد خرج من مخرج البول مرتين. ثم بعد هذا ألزمه ذلك ذل الفقر إليه فلا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن من ذات نفسه بل بمعونة من بارئه ﷻ، وهو مع ذلك تنقض عزائمه وترد إرادته وتنعقب أعماله وتترقب أحواله وتحصى أنفاسه، مزموم بزمام القدر مثقف بإلزام مقتضى الأمر والنهي، مملوك الأولية والآخرية، مصور الظاهر على غير اختياره، مجهول الباطن قد ألزمه الذل العتيد والفقر القعيد ذل الفقر إلى الطعام والشراب وذل إخراجه، ويكفى بذلك ذلاً مهيئًا، ثم جعله يتنخم على فيه شيئًا إذا نظر إلى ما خرج من فيه قذارة وأشاح بوجهه عنه نزاهة منه وإبعادًا له، وإلى هذا جعل المخاط على فمه في وسط وجهه الذي هو أعز الأعضاء عليه، وجعل الوسخ في أظافره والوضوء على جلده، والقلح في أسنانه، والشعث في شعره، والسهك في بشرته ما لم ينظف، والقذى في عينيه إلى غير ذلك من أقذاره. وكذلك أذله بالخوف اللازم لا يكاد يخلو منه على حال ما كان معدودًا في أهل التمييز؛ لأنه إن لم يهتم بآخرته اهتم لدنياه ولا محالة، وأذله أيضًا بالمرض وبالموت وبالفقر فهو يتغلب ولا يأمن مخافته طرفة عين يتوقع أبدًا ميتة تفاجئه أو بَليّة تنزل به أو فتنة تضله ومحبوبًا يفقده أو مطلوبًا يفوته، وكل مكروه يتوقعه قد جعل لكل هذا عرضًا إلا ما دفع الله كل ذلك من الله عليه؛ ليعرفه قدره فينبه على رشده، وجعل هذا كله آيات على مكروهات تصيبه إن لم تحطه رعاية من ربه جَلَّ ذِكْرُهُ. [١/١٨٠].

﴿الأَرْضِ﴾[السجدة: ١٠] وقرئ بفتح اللام وكسرها، وقرئ بالصاد مكان الضاد، بمعنى: أنتنا من صل يصل، إذا أنتن وتغير، ويروى عن علي بن أبي طالب «ضلِلنا» بكسر اللام؛ أي: صرنا ترابًا أعظموا أن يُعيْدَهم الله على ذلك من حالهم وأبعدوا ذلك.

يقول الله ﷻ: وعلى هذا التبيان الذي تقدم قالوا: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ المعنى: ولو تذكروا بالبداية الإعادة لأصابوا، يقول الله - جل من قائل: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ «بل» للإضراب، وإنما أضرب عن [...][١] سوء فعالهم، يقول ﷻ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠] فغطوا لذلك على الحق.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٢ - ١٨].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣] يقول - جل من قائل: لم يعجزني هدايتهم ولا أفاتوني أنفسهم وأعمالهم ﴿وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣] وذلك يوم قال - جل من قائل - لإبليس، لعنه الله: اذهب فمن تبعك منهم ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٥].

وقال ذلك لما سبق من قوله الحق: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[٢]

---

(١) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

(٢) أخرجه مالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١) والبخاري في التاريخ الكبير (٨/٩٧) وأبو داود =

وقال ذلك وفعله لحكمته البالغة وحجته القاهرة؛ ذلك لأنه الملك الحق الحكيم العليم، قدرهم يوم كانوا في علمه وقدرته ومشيئته على مقداراتهم، لو أدخلهم النار وعذبوا فيها ألف عام أو أكثر فاستغاثوا واستعتبوا وضمنوا من أنفسهم التوبة وحسن الاستجابة فأخرجهم منها لعادوا لما نهوا عنه، وليبين بذلك كذبهم في دعواهم، ووهنهم في غرضهم، وعجزهم عن مرادهم، ذلك وكما خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، ومن الحق صدق كلماته ومضاء مشيئته وإحاطة قدرته وعلمه.

كذلك ما تقدم ذكره من إمضاء مشيئته في إضلالهم وتصييره إياهم إلى العذاب، هو من ذلك الحق المخلوق به السماوات والأرض، وكما شهدت له الموجودات بالوحدانية والألوهية وسائر الأسماء الحسنى والصفات العلا، كذلك قدر هذا وأوجبه وأظهر كونه؛ ليشهد له بالقدرة القاهرة والمشيئة الماضية وعزم الأمر العلي، وكما سجد له كل شيء، وقنت له كل شيء، وخضع له كل شيء، كذلك يسجد له الكفار بكفرهم وقنتوا له وخضعوا له بذواتهم رضيًا منهم بعطائه وتسليمًا لقضائه وهم لا يشعرون، بل يقاتلون عليه ويقتلون صبرًا لأجله وهم لا يعلمون.

يقول الله - جل من قائل - متى أظهر قهره لهم وقدرته عليهم فيما هذا سبيله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧] ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا﴾ [الإسراء:٤٨] إنما يعجب رسوله ﷺ وعلماء عباده من عظيم قهره وشأنه الذوات بسلطانه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ فيهديهم، ولا ولي ينصرهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] سبحانه وله الحمد، فافهم، فهمنا الله وإياك عنه.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

=

(٤٧٠٣) والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن. والنسائي في الكبرى (١١١٩٠) وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩) وابن حبان (٦١٦٦) والآجري (ص ١٧٠) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٢٥) والحاكم (٧٤) والضياء (٢٨٩).

الخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(١)] [السجدة:١٤] دخولهم النار - أعاذنا الله منها برحمته - بكفرهم وتبعيتهم إبليس - لعنه الله - وذوقهم آلام العذاب لاستعذابهم المعاصي والكفران والجحد، وعصبيتهم في التبعية، وتولي بعضهم بعضًا على ذلك، ونسيان الله إياهم فيها؛ أي: تركهم على ذلك؛ لنسيانهم لقاء الله واليوم الآخر، وسمى الله ﷻ تركه إياهم فيما هنالك نسيانًا، وهو الذي لا يضل ولا ينسى جزاءً لنسيانهم ما ذكروا به في تذكير الله والرسل والوحي إياهم، ونسيانهم لفطرهم المغروزة في أصل أمشاجهم وتركيب أركانهم، يذكرونه عند اضطرارهم وينسونه عند العوافي والرجوع مع أنفسهم، إن ربكم لعليم حكيم، وخلودهم فيها مادامت السماوات والأرض لتركهم النظر والاعتبار بالحق المخلوق به السماوات والأرض، وكفرهم بربهم الدائم الباقي الذي لا حول يلحقه ولا زوال.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٤] أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة:١٥] أعرب ﷻ عما تقدم ذكره من التأويل، الإنسان لا بد ناسي، فإذا ذُكّر ذَكر، فهم إذا ذُكروا بآيات ربهم من سجود الموجودات وسجود الأئمة - عليهم السلام - كالملائكة والنبيين والمرسلين ذَكروا فسجدوا، وسارعوا إلى ذلك أو أمروا بالسجود أطاعوا ليس كالمبلس الملعون ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

أتبع ذلك من نعتهم قوله - جل ذكره: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ﴾ التجافي: الترفع، جَفَا الزبَدُ: ارتفع، وجفاني فلان: ترفع عليَّ وهجرني فعلاً أو قولاً،

---

(١) الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله، والباء في «بما» للسببية، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدّم، بل بذاك وهذا، واختلف في النسيان المذكور هنا؛ فقيل: هو النسيان الحقيقي وهو الذي يزول عنده الذكر، وقيل: هو الترك، والمعنى على الأوّل: إنهم لم يعملوا لذلك اليوم فكانوا كالناسين له الذين لا يذكرونه، وعلى الثاني: لا بدّ من تقدير مضاف قبل لقاء؛ أي: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، ورجح الثاني المبرد ويحيى بن سلام [فتح القدير (٦/ ٦ - ٧)].

وهي ها هنا عبارة عن قيام الليل مجازة، يهجرون مضاجعهم لأجلي، ويستصحبون ذلك ويداومون عليه، و﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦] هذا في مقابلة الإباء والاستكبار والتجلي، وقيام الليل عمل يعم نفعه عامله، ومن أنفق مما رزقه الله فقد أفاض من نفعه على من سواه فهو كمال، فلذلك ما قرن الله الصلاة بالزكاة في غير ما موضع، فأكمل الله لهم ثوابه ورفع ما رزقهم فوق العلم، وأربى ما أتاهم على الأماني.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] كانت أعمالهم بالفرائض جهرًا صلاةً وزكاةً وصيامًا وحجًا وشهادةً، وكان قيام الليل وصدقات قدموها وأذكار التزموها وأعمال احتسبوها سرًا، فأثابهم على ذلك فيما هنالك مثالات ومسميات مما عهدوه خيرًا وأبقى، وأثابهم أيضًا ما لم يعهدوا له مثالاً، ولا سمعوا له باسم، ولا خطر لهم ببال، أسروا كما جهروا، فأسر لهم كما جهر ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦] صدق الله وبلغت رسله، والحمد لله رب العالمين.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٩)
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ
ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ
ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا
يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾
[السجدة: ١٩ - ٢٥].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] هذا الضمير في ﴿لِّقَائِهِ﴾ يجوز أن يعود على موسى ﵇ وقد رآه ليلة أسري به وسَيراه في الدار الآخرة، وهو يراه اليوم في الدار الوسطى التي هم اليوم فيها زائدًا على ذلك، والأوجه أن يكون عائدًا على الله - جل ذكره - فينتظم بقوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ

رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠].

ثم جعل يظهر ذلك معنى ويبطنه إلى قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] إلى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [السجدة: ١٤] إلى قوله في صنف الأبرار - رضي الله عن جميعهم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] إلى قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] ثم من ذكره المؤمن والفاسق وما يلقى هذا وهذا يوم لقائه.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢] وهو من معنى الإيمان بلقاء الله - جل ذكره - ثم قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي: من لقاء ربك - عز جلاله - كما فعل هؤلاء وبالمجاورة ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ [السجدة: ٢٣] من لقاء موسى.

قال رسول الله ﷺ: «تحاج آدم وموسى عند ربهما...»[1].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾ [السجدة: ٢٦ - ٣٠].

قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦] انتظم معنى هذه الآية بمعنى ما تقدم ذكره من وصف الكافرين من قولهم: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] ثم كذلك من انثناء ذكرهم بذكر الأبرار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦] لما كان المعتبر به من مضى وسلف وبديار خربت وآثار

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩١٣).

دثرت، ومن الناس من سار في الأرض ومشي، ورأى الآثار وأبصر الخراب فأخبر، قال يخاطب بذلك من لم يسر في الأرض: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦].

ثم قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ﴾ [السجدة:٢٧] هي التي تهشم نبتها وماتت لبُعد عهدها بالماء، وقيل: لها جُرُز لكثرة استدعائها الماء من ذلك، الجرازة لفظ يعبر به عن لزوم الجوع وكثرة النهامة، فيستدعي لذلك الطعام والشراب ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾[1] [السجدة:٢٧] إشارة إلى أنه خلقهم عن ذلك ولم تكن الأرض جرزًا إلا بعد تهشيم نبتها وتحطم زرعها، وفي ذلك دلالة على الموت.

ثم قوله: ﴿نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ [السجدة:٢٧] دلالة على الإحياء بعد الإماتة إلى غير ذلك من دلالاته بالماء والأرض والرياح المرسلة في الأجواء على اختزانهم في خزائن السماوات والأرض، وإنزالهم وإخراجهم بالماء والأمر، تبارك الله أحسن الخالقين، ولما كان أكثر هذا مدركًا بحواس الأبصار قال: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة:٢٧].

أتبع ذلك قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة:٢٨] الفتح: الحكم، ويقال للحاكم: الفتاح.

يقول الله جل من قائل: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ [السجدة:٢٩] يوم الفتح، هو يوم موت أحدهم ويوم القيامة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: قد بلغت ما عليك إلا البلاغ ﴿وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة:٣٠] انتظر ذلك اليوم إنهم منتظرون، قرئ بفتح الظاء وكسرها.

---

(١) قدَّم الأنعام على الأنفس في الأكل؛ لوجوه: **أحدها**: إن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان، **والثاني**: وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه، وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان، فكأن الحيوان يأكل الزرع، ثم الإنسان يأكل من الحيوان. **الثالث**: إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة. [تفسير الرازي (١٢/ ٣٢٠)].

تفسير سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
(١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي
تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ
أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ
مَسْطُورًا (٦)﴾ [الأحزاب: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾(١) [الأحزاب:١] هذه الآيات إلى قوله:

---

(١) نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور وعمرو بن سفيان السُّلَمي؛ وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب: افرض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك. فشقَّ على النبي ﷺ قولهم، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لنا في قتلهم، فقال: إني قد أعطيتهم الأمان، فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر النبي ﷺ عمر أن يخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى هذه الآية. [تفسير البغوي (٣١٢/٦)].

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦] مضمن هذا منتظم بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ [الأحزاب:٣٦] إلى قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:٣٧] إلى قوله: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ثم ذكر النساء من أزواجه وما أحله له منهن ومن شأنهن كله وحجابهن، وأمره بما أمره به من شأنهن من التخيير، والحجاب والتوصية لهن بما تضمنته متصل بذكر ما تقدم، ثم ذكره المنافقين والكافرين، وما كان منهم من قول وفعل مذكور في هذه السورة، وما عابهم به في ذلك كله، ثم مع ذلك ذكره المؤمنين ووصفه إياهم بما وصفهم به، ولأجل ذكره المنافقين والكافرين.

فصل

كانت زينب بنت جحش - رضي الله عنها - زوجًا لزيد بن حارثة، وكان زيد فيما ذكر في صحيح ما جاء قد أعتقه رسول الله ﷺ ثم تبناه على ما كانت العرب تفعله ينسب الدَعِي منهم إلى من تبناه، فكان يقال له: زيد بن محمد، وزيد ابن رسول الله، قبل أن ينزل الله - جل ذكره - في شأنه ما أنزله، وكانت هذه زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ ورضي عنها، فلما أيمت من زوجها خطبها رسول الله ﷺ على زيد بن حارثة فكرهت ذاك، فقال لها رسول الله ﷺ: تزوجيه فإن في ذلك خيرًا، وفي علم الله - جل ذكره - أنه سيردها على رسوله لوجه من الحكمة صحيح، محكم عند حلول الأجل المقدر عنده، وذلك من ردها عليه بعد نزول الآية التي في سورة النساء الكبرى، قوله ﷻ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] إلى قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

ثم من خفي لطفه لما شاء من إنفاذه حكمته لما بلغ الأمد، نهض رسول الله ﷺ إلى منزل زيد بن حارثة يطلبه لبعض حاجاته، فأعلمته زينب - رضي الله عنها - أنه غائب، فأوقع الله في نفسه منها شيئًا، فكان من قوله على ما ذكر وهو منصرف: «**سبحان مقلب القلوب**» - وفي أخرى: «**يا مقلب القلوب**»(١) - ثم أوقع الله في نفس

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٦٤).

زيد فراقها، فأتى إلى رسول الله يشكو من زينب كبرًا وإذاية بلسانها وبذكر فراقها، وقال: لا حاجة لي بها، ورسول الله ﷺ يقول له: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**»[1].

يريد - والله أعلم - بقوله: «**اتق الله**» لا تغتبها بذكر إذاية وكبر ونحو هذا أو يكون معناه: اتقِ الله في نفسك، ربما احتجت إلى زوجك واحتاجت إليك، فأمسك عليك زوجك أو ما يكون معناه هذا، فكان في نكاح رسول الله ﷺ إياها من حكمة الله ورحمته أن بيّن به تحليل أزواج الأدعياء والعزم على إظهار التبرئة من بنوتهم وإلحاقهم بالإخوان في الدين والموالي.

قال رسول الله ﷺ: «**من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فالجنة عليه حرام**»[2].

وعزم الله لنبيه في نكاحها بعد تمام عدتها، فطفق ناس من المنافقين والمشركين والكفار من يهود وغيرهم يتحدثون بذلك ويخوضون في تعييبه، فأنزل الله - جل وعز - على رسوله هذه السورة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ يقول: امضِ لأمرك الذي أمرت به وأبيح لك، ولا تطع الكافرين والمنافقين فيما يعيبون من ذلك ويخوضون فيه ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا**﴾ بما كان من نكاح زيد إياها، وما هو كائن من نكاحك إياها ﴿**حَكِيمًا**﴾ [الأحزاب:١] فيما أراده من ذلك لمن يستدرك أمرًا لم يعلمه قبل ولا وضع شيئًا إلا في موضعه من حكمته، إنما فعل ذلك لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ [الأحزاب: ٢] يقول: أعرض عنهم ولا يصدنك عما أوحي إليك ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا**﴾ [الأحزاب:٢ - ٣] أي: اسأله الكفاية فكفى به كافيًا وواقيًا.

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/٣١٦).

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجة (٢٦٠٩).

أتبع ذلك قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾(١) قلب يخاف الله به ويطيعه، وقلب يخاف به الناس ويراعي شأنهم، ثم أنشأ - جل ذكره - برد الحقائق إلى أماكنها، ويبطل ما أصلوه بأقوالهم وأفعالهم بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ يقول الله جل من قائل: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ﴾ أي: ينبئ بالوجود على ما هو عليه وقول الألسنة لا يحيل الحقائق عن مواضعها ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] اتصل هذا القول بإبطال كل باطل زعموه وضلال تكلموا به وانتحلوه.

أتبع ذلك قوله: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ﴾ أي: أعدل وأقوم ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] المولى قد يكون الناصر ويكون ابن العم ويكون المعتق، ويقال له: المولى الأعلى، ويكون المعتق وهو الأسفل.

أتبع ذلك قوله - جل وعز: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦] فانتظم بما تقدم ذكره من المحاجة عنه والنصرة له مما خاضوا فيه من أمره وعابوه عليه، فأعلم - جل ذكره - عباده المؤمنين أن النبي أولى بهم من أنفسهم، فكيف يجوز لهم اختيار مع قضائه وأمره منهم يخالف أمره، وقد قال - عز من قائل في مثل هذا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] وجعل ذلك منهم معصية، بل كفرًا وضلالاً عن القصد.

ثم قال: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب:٦] يقول - عز من قائل: ثم بعد ولاية الرسول إياهم ولاية أولي الأرحام أولى من ولاية سائر المؤمنين والمهاجرين، هذا في الوراثة والصلاة

---

(١) أخرج أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: قام النبي ﷺ يومًا يصلي فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلبًا معكم وقلبًا معهم فنزلت، وفي رواية عنه ﷺ صلى رسول الله ﷺ صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون، فأكثروا فقالوا: إن له قلبين ألم تسمعوا إلى قوله وكلامه في الصلاة؟! إن له قلبًا معكم وقلبًا مع أصحابه فنزلت. [تفسير الألوسي (١٦/٣٢)].

عليه والإنكاح إلى غير ذلك، ثم ولاية المؤمنين بعد ذلك لمن عدم القريب وولي الرحم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٦] يعني: من المؤمنين والمهاجرين ومن القرابة، المحجوبين عن الوراثة بغيرهم، وكذلك في النصرة والصدقة والهبة وغير ذلك من المعروف يقول ﷻ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦] لهذا وجهان:

أحدهما: أن هذا المشار إليه من نكاح رسول الله ﷺ زينب والحكم فيه والأمر به والنصرة له في ذلك ممن عابه به وخاض في شأنه مسطورًا في اللوح المحفوظ مثبتًا، لا تبديل له ولا تغيير.

والثاني: أنه من فعل إلى وليه معروفًا أُثبت له في صحيفة حسناته وكتاب أعماله وكل ذلك في الكتاب الأول مسطور.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧ - ١٢].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٧ - ٨] هذا منتظم بذكر أخذ الميثاق والعهد حيث كان وبخاصة في هذه السورة ما يخص معنى ما أنزلت من أجله.

يقول - وهو أعلم بما ينزل: إنما أنت نبي من الأنبياء ورسول من الرسل، أخذنا عليك الميثاق والعهد كما أخذناه منهم، وكما أخذنا ميثاقهم أخذنا ميثاق

أممهم لهم؛ ليؤمنن بهم ولينصرنهم كل أمة مأخوذ عليها الميثاق لرسولها، ورسولها مأخوذ عليه الميثاق بالتبليغ والنصيحة، والميثاق المأخوذ على الجميع هو أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، والمقصود بهذا هو أن أحدًا لا اعتراض له على نبيه ولا خلاف ولا مؤاخذة على رسوله في حكم من الأحكام في خاصة نفسه أو في عامتهم، بل عليه ما حمل وعليهم ما حملوا، ومن أطاع رسوله فقد اهتدى.

أتبع ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾(١) [الأحزاب:٩] لما ذكر المنافقين والكافرين وصنيعهم وخوضهم مع الخائضين ذكر المؤمنين نعمة ربه قبلهم، يقول: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزاب، وهي غزوة الخندق من غطفان وقريش وبني قريظة وأجناد غيرهم من سائر العرب بأوباشها وأحابيشها.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:١٠] يريد، وهو أعلم: عيينة بن بدر في أهل نجد، وأبا سفيان بن حرب في أهل تهامة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ يعني: عن

---

(١) ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة - عليهم السلام - وكانوا على ما قيل ألفًا، روي أن الله تعالى بعث عليهم صبًّا باردة في ليلة باردة فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة - عليهم السلام - فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد ﷺ فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا، وقال حذيفة ﷺ وقد ذهب ليأتي رسول الله ﷺ بخبر القوم: خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الرجل في عسكرهم ما يجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم والريح تضربهم ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما صرت في نصف الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارسًا متعممين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم.

وقرأ الحسن: «وَجَنُودًا» بفتح الجيم، وقرأ أبو عمرو في رواية وأبو بكر في رواية أيضًا «لَمْ يروها» بياء الغيبة ﴿وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ من حفر الخندق وترتيب مبادىء الحرب أعلاء لكلمة الله تعالى، وقيل: من التجائكم إليه تعالى ورجائكم من فضله ﷻ. وقرأ أبو عمرو: «يَعْمَلُونَ» بياء الغيبة؛ أي: بما يعمله الكفار من التحرز والمحاربة وإغراء بعضهم بعضًا عليها حرصًا على إبطال حقكم. [تفسير الألوسي (٥٠/١٦)].

وضع عظامها من شدة الجوع والهلع فلا يكاد يعرف ما تنظر إليه ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾ سمي ما حول القلب وما جاوره باسم القلب، وهو إذا انتفخ السَّحْر(١) ارتفعت الرئة إلى موضع الحلقوم وبارتفاعها يرتفع القلب، وبالغ هذا هو الكظيم، شبه الكظيم بالبعير يكظم جرنه، فعدد بهذا نعمه على المؤمنين بنصره وبرسوله، مثبتًا بذلك أنه رسوله جاء من عنده بالهدى ودين الحق، يعظهم بذلك فيما جاء به المنافقون والكافرون، ثم صرف وجه الخطاب إلى المنافقين والذين في قلوبهم مرض بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:١٠].

أثبتت الألف علامة لرأس الآية، وقد أسقطها بعض القراء في غير الوقف، كان من قول المنافقين يومئذٍ: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] حتى قال بعضهم: قد كان يعدنا بملك فارس والروم، ونحن اليوم لا يجزى أحدنا أن ينهض إلى الخراءة، فعبَّر الله - جل ذكره - عن جملة ما خاضوا فيه في هذا المعنى بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:١٠].

يقول الله - جل من قائل: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١] يجمع عليهم كثرة ضروب أقاويلهم وصنوف خوضهم مع ما لزمهم من الابتلاء، ذكر أن أحدهم كانت تحضر له غداؤه أو عشاؤه وما كان يجد شيئًا يجعله في بطنه سوى إهالة سنخة إذا رفعها إلى فيه سد على أنفه لنتنها وشدة زهمها، وعمَّ ذلك في جملتهم حتى هم رسول الله ﷺ بالمصالحة للعدو على شيء يعطيهم إياه، وكان ذلك رأيًا رآه لم يكن عن وحي من الله - جل ذكره - ثم استدار الرأي بينهم على ألَّا يكون ذلك، وهذا كله من الزلزال حتى جاء الله بنصره وبعث ملائكة من عنده في الرياح أجلتهم وقلقلتهم، والحمد لله رب العالمين.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا

(١) تسمي العرب الرئة: سحرًا. انظر: تفسير الطبري (١٧/٤٦٠).

يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: ١٣ - ١٧].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: المنافقين ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ أي: لا صبر لكم ولا بقاء على هذا، فارجعوا عن الإسلام ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ يقول الله - جل من قائل: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ وهو أعلم، أرى أنه كان قد جعل عليها حراسًا من عنده ظهر ذلك من صدق قيله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب:١٣] هذا كله من الزلزال والجزع وعظيم الخطر كانت العرب قد رمتهم عن قوس واحدة بيوت عورة؛ أي: غير محروسة من العدو، ولا هي ذات منعة، كانوا يقولون: بيوتنا عورة نذهب إليها نحرسها، وما بهم إلا الفرار عن رسول الله والمؤمنين.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ هنا محذوف يقول وهو أعلم: ولو دخلت عليهم البيوت من أقطار الأرض ما استأصلوا شأفتهم ولا استطاعوا رد أمر الله في نصرة دينه وإقامة أمره، هذا تقدير المحذوف والله أعلم، ثم أخذ في وصف حالهم بقوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب:١٤] يعني: من الإيتاء وهو: الإعطاء ﴿لَآتَوْهَا﴾ من المجيء والفِتْنة هنا: هو الرجوع إلى الكفر والشرك، دخول الواو في قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ عطف على محذوف تقديره - والله أعلم بما ينزل - في تفسير قوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب:١٣] لحراستها ومنعتها بأمر الله - جل ذكره - فلا يدخل عليهم.

ثم عطف على هذا المعنى قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: «**دعوت الله لأمتي في ثلاث فأعطاني اثنتان ومنعني الثالثة: دعوته في ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة، ودعوته ألا يسلط**

عليهم عدوًا من غيرهم فيستأصل شأفتهم فأعطانيها»[(١)] فلو اجتمع من أقطارها، وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون يومئذٍ حملة الإسلام وعمدته، ولم يعط الله رسوله إلا ما قد سبق في تقديره أنه يكون؛ فلذلك قال - عز من قائل: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب:١٣] لحراسته إياها لهذا التقدير السابق.

ثم عطف على هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ ما استطاعوا استئصال المؤمنين ولا أن يردوا أمر الله، والله المتم نوره والغالب على أمره، وعطف معطوفًا آخر بقوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ [الأحزاب:١٤] عطف الإخبار عن حالهم المعلومة عنده؛ لأنه العالم بما لم يكن كيف يكون وما لا يكون كيف كان يكون لو كان، وهؤلاء ممن تقدم ذكرهم أنهم لو جعلهم في جهنم ألف عام ثم أخرجهم منها قد ضمنوا عن أنفسهم العتبى والرجوع عما كانوا عليه في الدنيا من الكفر والتكذيب، لأكذبوا أنفسهم ولعادوا لما نهوا عنه.

يقول الله - جل قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فكيف يكون صادقًا على حال من قال الله - جل ثناؤه - فيهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] فهذا المتلقي في هذه الآية مصداق لحديث رسول الله ﷺ.

ووجه آخر في معنى قوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ أنهم لو شاهدوا حراسة الله وكفايته إياهم عدوهم ثم سئلوا الفتنة على ذلك لآتوها، يقول: لأعطوا الفتنة من أنفسهم، ولألقوا بأيديهم وكفروا بعد إيمانهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ بالفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٤] يقول: ألا ريثما يأتونها أو يسلموها إلى العدو.

ووجه آخر: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ في الفتنة التي آتوها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٤] أي: حتى يغلبوا على أمرهم بأمر الإسلام أو يموتوا، وكل ذلك قليل.

أتبع ذلك بما بيَّن ما أنبأ به من علمه بشأنهم قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ [الأحزاب:١٥] وهذا منهم تولي زائدًا إلى ما كان منهم في يوم أُحد ذكرهم - جل ذكره - بما كان منهم من المبايعة حتى بايعوا رسول الله على

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٥٠٩)، وأحمد (١٥١٦)، ومسلم (٢٨٩٠)، وابن خزيمة (١٢١٧)، وابن حبان (٧٢٣٧)، والبزار (١١٢٥).

النصرة والقتال.

ثم قال - جل من قائل - لنبيه ﷺ قل لهم يا محمد: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ﴾ [الأحزاب:١٦] يقول :ﷺ الفرار لا يبعد أجلاً حضر، والثبات للقتال لا يقرب أجلاً لم يحضر، فهو إذًا لا ينفعكم ولا يعصمكم من موت لاحق أو قتل حاضر مجهز، ولو كان ينفعكم على ظنكم وليس بنافع إذًا لا تمتعون إلا قليلا بالعيش والبقاء، هذا قول صائب ﴿وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْئُولا﴾ [الأحزاب:١٥] ومعتقد وثيق درج عليه معظم الأمة، رضي الله عن جميعهم.

تنبيه:

الله - جل ذكره - أصدق القائلين قيلاً وأثره المخبرين حديثًا فقال: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ﴾ [الأحزاب:١٦] كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] ﴿قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨].

ثم قال ﴿أَوِ القَتْلِ﴾ ونظم به: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلا﴾ [الأحزاب:١٦] كما نظم بذكر الموت قوله: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ﴾ [الأحزاب:١٦] وقد وعد على القتل في سبيل الله، وأوعد في قتل المؤمن بغير حق، ونهى عن القتل وأمر بالقتل، كل ذلك في مواطنه.

وهذا كله يدخله على استعمال الأمر به والنهي عنه أحكام «لو» و«لولا» كقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح:٢٢] أي: من القتل.

﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٥].

وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١] وقال: خذوا أسلحتكم ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢] و«لَوْ» تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، و«لَوْلا» تدل على امتناع الشيء لوجوب غيره، وعلى وجوب الشيء لامتناع غيره، وهذا من تدبيره الأمر؛ أي: يجعل هذا

دبيرًا لهذا أو هذا دبيرًا لهذا هو المقدم والمؤخر.

فلما في الفرار من نجاة من لم يبلغ أجله قال وهو الحق وقوله الحق: ﴿وَإِذًا﴾ أي: وإن نجوتم به لمشيئة الله في ذلك ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٦] ولما في إنفاذ حكم الموت نظم به قوله: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ﴾ [الأحزاب:١٦].

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٨ - ٢٢].

ولما في من بلغ أجله وحضرت منيته من الإنفاذ لا بد ولا محالة قوله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ الله وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا﴾(١) [الأحزاب:١٧] أي: من إنفاذ القدر المحتوم وليس ذلك بالتدبير، وإنما هو إنفاذ التدبير والحكم، فافهم.

وفي هذا قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤] ولما في تدبير الأمر من تكليف فيكون عن ذلك أحكام الأمر والنهي، وأحكام «لو» و«لولا» و«هلا»، وأحكام المقاربة كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ

(١) استفهام في معنى النفي؛ أي: لا أحد يمنعكم من الله ﷻ وقدره ﷻ إن خيرًا وإن شرًّا فجعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة مع أنه لا عصمة إلا من السوء لما في العصمة من معنى المنع، وجوز أن يكون في الكلام تقدير، والأصل: قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر. [تفسير الألوسي (٦١/١٦)].

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:٨١] من السلامة والمعنى على هذه القراءة أظهر والمقاربة أيضًا ظاهرة بحكم التدبير في قراءة من قرأ «تسلمون».

كذلك قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٨] وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٣] ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] فيما بين هذين الحكمين في تدبير القضاء وتغليب الأمر على النهي والنهي على الأمر؛ لتباين دواعي العباد وإراداتهم، وهممهم الكائنة عن خذلانهم أو هدايتهم كان الثواب والعقاب والمدح والذم لامتثال حق مخلوق به السماوات والأرض سبق كتبه بالقلم العلي في الكتاب المبين؛ لتتميم كلماته ومقتضيات أسمائه ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

قال الله - جل من قائل - في المقاتلين الفارين عن القتال: ﴿وَإِذًا﴾ بواو العطف وهو عطف على محذوف تقديره، والله أعلم بما ينزل: إن نجوتم، كما تقدم، ثم قال: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب:١٦] والله أعلم بقليل كل واحد منهم ما هو، غير أن رسول الله ﷺ قال: «**والثلث كثير**»[١] وتقدير هذا بالإضافة إلى واحد واحد منهم، وعمره ما هو وما مضى منه، وتعجيل أجله أو تأخيره.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:١٩] يريد بنصرتهم وبأنفسهم كما قال: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ [الأحزاب:١٩] اضطروا إلى المعونة لهم بأنفسكم؛ لأنهم كما قال فيهم العليم الخبير: ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء:١٤٣] فهم الخائفون لهؤلاء إن ظفروا ولهؤلاء متى ظهروا، يحسبون كل صيحة عليهم.

يقول الله تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩] يقول: إذا ذهبت

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٩١٤)، وأحمد (٢٠٧٦)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (١٦٢٩)، والنسائي (٣٦٣٤)، وابن ماجة (٢٧١١).

ضرورتهم عادوا إلى الشح عليكم بولايتهم ومنافعهم ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي: أسمعوكم ما تكرهون، المسلاق من الرجال الفصيح المعرب، واللسان المسلق الحديد الذرب، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤].

أتبع ذلك قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ﴾ [الأحزاب:١٩] يريد، وهم أعلم: إذا حضرت الغنائم شحوا عليكم بها، وحاجوكم في استقصاء المقاسمة على جبنهم في القتال وشدة هلعهم.

أتبع ذلك قوله: ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ [الأحزاب:٢٠] يقول لشدة خوفهم وعظيم جزعهم، وقد ذهب الأحزاب وهم يظنون أنهم لم يذهبوا ثم قال: ﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ [الأحزاب:٢٠] وإن كانوا معكم فقتالهم قليل كما قال - عز من قائل: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ﴾ [التوبة:٤٧].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١] المقصود الأول بهذا ما أنزلت السورة من أجله، أنه وعظ لهم في خوضهم في نكاحه - صلوات الله وسلامه عليه - وقولهم في ذلك بقول: هلا تأسيتم به في فعله بما فرض الله وأتبعتموه واهتديتم واقتديتم به، ثم في شجاعته وتوكله على الله - جل ثناؤه - وجهده وجهاده وصبره ومصابرته، وهذا إنما هو لمن آمن بالله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا.

أتبع ذلك وصفه المؤمنين - رضي الله عنا وعنهم - يقول: ﴿وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب:٢٢] هذا منتظم بالمقابلة بما تلاه قبل من قول ﴿المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] إلى تمام المعنى من قولهم يقول: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢] أي: بالله ورسوله وبالوعد منه بالعاقبة، وتسليمًا لأمره في الابتلاء، والذي وعدهم الله به ورسوله من فتح فارس والروم وجزيرة العرب والدجال ويأجوج ومأجوج، وجعل في قدمه ذلك الابتلاء لقوله - جل من قائل: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ

لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١ - ٣].

واتخذوا مقدمة الابتلاء آية على كون العاقبة والفتوح والذي وعدوا بها، وهذا شأن من أتاه الله الثبات في الأمر، واعتمدوا في ذلك على قوله الحق: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦] فما زادهم رؤية الابتلاء إلا إيمانًا بالله ورسوله وكتابه وتسليمًا لقضائه.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣ - ٢٧].

قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب:٢٣] يعني: أجله من ذلك قولهم ناحيت؛ أي: حاكمته، فانقضى ما بيني وبينه وانقطع، والنحب أيضًا في وجه النذر، وكان قوم لم يشهدوا بدرًا فعاهدوا الله - جل ذكره - لئن التقوا بالمشركين أن يقاتلوا أو يظفروا أو يموتوا «أو» هنا بمعنى: إلى أن؛ أي: يقاتلوا إلى أن يظفروا بالمشركين، أو يموتوا؛ أي: أو إلى أن يموتوا، والله أعلم.

يقول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ أي: أجله ونذره ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا﴾ عن عهدهم وصدقهم ﴿تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٢٣] وهذا كلام منتظم بالمقابلة لوصفه المنافقين والذين في قلوبهم مرض.

أتبع ذلك قوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ «لام» كي هنا متعلقة بمحذوف تقديره: وفقناهم لذلك وهديناهم لنجزيهم بصدقهم، كما قدر على أولئك بإعطائهم العهد ثم الختن به ليعذبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٣١].

قوله - جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا﴾ [الأحزاب:٢٨] المعنى إلى آخره، لما أذن الله في نكاح زينب ربما وجدن من ذلك أدخلهن في معنى ما أنزل السورة من أجله، لكن ليس من أجل خوض في ذلك، ولا تعييب فيهن لفعله، فأمره بأن يخيرهن بين أن يردن الله ورسوله مع مفارقة الصبر على الرضا بما هن عليه أو يردن الحياة الدنيا وزينتها إلى آخر القصة، وهي: اتباع الشهوات وإعطاء النفوس مهنأها من الطعام والشراب والنوم والكلام والمراح، وملازمته الدعة والراحة ونحو هذا، مع ترك المثابرة على الصلاة والصيام والزكاة، والمحافظة على الحدود، والمصابرة على ما يرضي الله باطنًا وظاهرًا، وهذه علامة من أحب الله ورسوله، مع قراءة القرآن وملازمة تلاوته.

وأخبرهن أن لهن إن أحسن ضعفين من الأجر، كما عليهن إن أسأن ضعفين من الوزر، وأعلمهن أنهن لسن كسائر النساء في وجوب مراعاة ما تقدم ذكره، ووصاهن بلزوم الوقار والقرار في البيوت.

فقال - عز من قائل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بفتح القاف: من الاستقرار، وقِرن في بيوتكن بكسرها: من الوقار ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ قيل: هي

الجاهلية التي بعث الله عليها إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - والأوجه أنها جاهليتهم التي كانت قبل المبعث وحين المولد.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣] أهل البيت هم على ما ذكره القرآن: الأزواج، وعلى الحديث: هم النبي وفاطمة وعلي والحسن والحسين - عليهم السلام - والرجس: العذاب بوجه، والرجس: النجس أيضًا، والرجس: عمل الشيطان وما يأمر به في غوايته ووسوسته وشأنه.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥ - ٣٦].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١) [الأحزاب:٣٦] قد تقدم الكلام فيما ينتظم بهذا من صدر

(١) نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أمية بنت =

السورة، وما اجتلب من أجله هنا وهناك.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧ - ٤٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا...﴾ [الأحزاب:٤١] الذكر الكثير هو اللازم للقلب بالعلم، وأفضل الذكر ما نهى عن الفحشاء والمنكر، وقد جمع الله ذلك في الصلاة، جعلها لإقامة ذكره والتفرغ له، واعلم أن ذلك هو المراد بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] أي: أقمها لتذكرني، فمن صلى ليذكر ربه أتم ركوعه وسجوده، واغتنم الذكر في الصلاة لفضل ذلك، فإنه ذكر لله على أحب أحوال العبد إليه، وأنه إذا ذكره كذلك ذكره هو سبحانه في نفسه، وإذا

=

عبد المطلب عمة النبي ﷺ، فقد خطب رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله ﷺ اشترى زيدًا في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت: أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، وكذلك كره أخوها ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يعني: عبد الله بن جحش ﴿وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: أخته زينب ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي: إذا أراد الله ورسوله أمرًا وهو نكاح زينت لزيد ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ أهل الكوفة: «أن يكون» بالياء؛ للحائل بين التأنيث والفعل، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث «الخيرة من أمرهم» والخيرة: الاختيار، والمعنى أن يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به. [تفسير البغوي (٣٥٣/٦)].

ذكره جهرًا في القراءة والدعاء والآذان والتهليل وأنواع الذكر ذكره في ملأ خير من ملئه وأطيب، ولذكر الله إياه أفضل بكل وجه وبكل معنى، ولذكر العبد الله أفضل أعماله، ألا تسمعه يدل على أفضل أحوال العبد - أعني: الصلاة - بقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٢].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٣ - ٤٩].

أتبع ذلك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣] الله يذكر عبده بأن يذكره فيذكره العبد فينبئ الله - جل ذكره - على ذكر عبده إياه، ويصلي العبد لله ﷻ فيصلي الله على عبده، وقد تقدم تبيانه في غير هذا الموضع بما فيه من الكفاية.

أتبع ذلك بما هو متصل به قوله - جل من قائل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] آية ذلك حكم الصلاة.

قال رسول الله : ﷺ «تحريم الصلاة التكبير وتحليلها التسليم»[(١)].

ودار الدنيا دار عبادة ونصب، ولقاؤه للمؤمنين للجزاء والثواب، فجعل انقضاء الصلاة التسليم، وذلك بمثابة خروج العبد من دار العبادة والنصب وما بعد ذلك إلا لقاؤه، وفي لقائه التحية والسلام ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤] جزاءً لنصبهم وتعبدهم لذلك وهو أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١/٢٦٠)، والطبراني في الكبير (٩١٦٨).

أتبعها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥ - ٤٦] شاهدًا على أمته، ولتحققه في هذه المرتبة كانت أمته شهداء على الناس، ومبشرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين والمخالفين، وداعيًا إلى الله بإذنه - أي: بأمره - وسابقًا للعباد إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا ينير على البعد والقرب، كالشمس أضاءت الآفاق، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - أضاءت به الآفاق هدايةً وقربةً وولايةً وعلمًا ومعرفةً وإيمانًا وتسليمًا وعملاً وقولاً وشهادةً وذكرًا على بعد الأوقات، وطول مرور الأعصار، وتعاقب الأزمان قرنًا فقرنًا وجيْلاً فجيلاً، فهو السراج المنير حقًا لا خفاء به.

يقول :ﷺ هكذا جعلناك وبهذا أرسلناك، ثم عطف بالواو على محذوف تقديره، والله أعلم بما ينزل: وبلغ وجاهد ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧] وأنذر المنافقين والكافرين ولا تطعهم، ولا تعبأ بما يقولون من أذى.

﴿وَدَعْ﴾ مجازاتهم بالأذى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في تبليغك ما أرسلت به، وامضِ لأمرك، ولا تحفل بما يعيبونك به ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب:٤٨] أي: كافيًا وواقيًا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾[1]

---

(١) فيها مسائل: المسألة الأولى: في سبب نزولها، روى الترمذي، أن أم هانئ بنت أبي طالب، قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه بعذري، فنزلت الآية. قال القاضي: والحديث ضعيف. وقد اختلف في زوجاته، عليه الصلاة والسلام، هل هن كالسراري عنده، أو لهن =

أحكام الزوجية. قال إمام الحرمين: والصحيح أن لهن حكم الزوجات. المسألة الثانية: في أزواج النبي ﷺ عقد رسول الله ﷺ النكاح على عدة من النساء، وهن خديجة نبت خويلد، وعائشة بن أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وكلهن من قريش. وزينب بنت خزيمة العامرية وزينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت حارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب الهارونية، وجوهرية بنت الحارث المصطلقية، ومات عن تسع. المسألة الثالثة: أحل الله تعالى له هذه الأزواج اللاتي كن تحته، قبل نزول هذه الآية. إما إحلال غيرهن فلقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾. وقوله: ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾. أي أعطيت صداقهن، وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ السراري، وأحل لرسوله ما شاء من النساء. وأحل لأمته الأربع فدونها، وروي أن داود كان له مائة امرأة، وكان لسليمان ثلاثمائة حرة، وسبعمائة سرية، وفي الصحيح، أن رسول الله ﷺ قال: «إن سليمان قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تلد كل امرأة غلامًا، يقاتل في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فلم تلد منهن سوى امرأة واحدة. ولدت شق غلام». المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾. أي السبي المأخوذ غلبة وقهرًا، وقد كان رسول الله ﷺ يأكل من عمله، ويطأ بملك يمينه، وقال ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي» وقوله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. يحتمل المسلمات، لقوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه». وقيل: المراد من هاجر معه من مكة إلى المدينة، وهذه الآية نزلت في أم هانئ حين خطبها: لأنها لم تكن هاجرت فمنع منها لنقصانها بعدم الهجرة. واعلم أن الهجرة إذا أطلقت، فهي محمولة على الخروج من بلاد الكفر إلى دار الإيمان، والأسماء إنما تحمل على عرفها، والهجرة في الشرع معروفة. المسألة الخامسة: قوله ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. المراد بالمعية: الموافقة في الهجرة، ولا يلزم أن تكون مقارنة لهجرته، فإن قيل: لم أفرد العم والخال وجميع نسائها. قلنا: العم والخال اسم جنس، كالشاعر والراجز، وليس العمة، والخالة، وهذا عرف لغوي دقيق جرت العادة عليه، وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾. «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فوقفت عليه، فقالت: يا رسول الله، إني وهبت نفسي لك». الحديث. قيل: إن المرأة ميمونة بنت الحارث، وقيل: هي أم شريك، وقيل: زينب بنت خزيمة أم المساكين، وقيل: غير ذلك. واعلم أن المراد أحللنا لك امرأة تهب نفسها دون صداق، ولا تحل لغيرك، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ يدل على أنه لا يحل له نكاح الكافرة لشرفه وكماله، وقرئ إن بكسر الهمزة على الشرط وبفتحها على أنه مفعول معه. المسألة السادسة: قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾. قال قتادة: المراد أن المرأة إذا وهبت نفسها لرسول الله ﷺ جاز أن ينكحها بغير صداق ولا ولي، وليس ذلك لغيره، وقد تزوج بنت جحش، ودون ولي وصداق، وقال الشافعي: المراد: أن نكاحه ينعقد بلفظ الهبة، وليس ذلك

كخديجة وعائشة وميمونة وحفصة وسودة وأم حبيبة وأم سلمة ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ كصفية من الأزواج، ومارية من الإماء ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ كزينب ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ وخيره في نكاح هؤلاء ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٠] لم يبلغنا أنه أخذ من هذا الضرب أحدًا إلا ما قيل: إن ميمونة كانت وهبت نفسها له، والأصح في ذلك أن العباس أنكحها إياه وهي بمكة عام الحديبية، وأخرجها إليه انصرافه من الحديبية وبنى بها بسرف، والله أعلم أي ذلك كان وربما كان الوجهان معًا.

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥١ - ٥٣].

قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أي: من هؤلاء المخير فيهن والواهبات له أنفسهن، ثم قال: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يريد اللاتي هن في العصمة من شاء أمسك أو طلق ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ﴾ أي: ذلك

=

لغيره. المسألة السابعة: قوله: ﴿خَالِصَةً﴾. انتصب على الحال من الضمير المنصوب المتصل الذي في يستنكحها. والخلوص: اختصاصه ﷺ لما تزوج أم سلمة، قال لابنها عمر بن أبي سلمة: «قم يا غلام فزوج أمك».

من وحينا إليك في شأنهن وفعلك فيه ﴿أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ بخطبهن منك ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ أي: التي عزلتها ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علموا أن ذلك بأمرنا ووحينا ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ تعريض بفعل العدل ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ بفعلكم ﴿حَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥١] عن استقصاء حقه عندكم، وكان - صلوات الله وسلامه - يعدل جهده، ثم يقول: «**اللهم هذا فعلي فيما أملك ولا تؤاخذني بما لا أملك**»(١).

فصل

الإرجاء: التأخير، أرجأت الشيء: أخرته ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف:١١١] أخِّره إلى يوم معلوم بيننا وبينه، والضمير الذي في قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب:٥١] واقع على جملة ما شمله الخطاب من ضروب المحللات له من النساء، والإرجاء في اللواتي شملهن حكم العصمة مع محافظته على سنن العدل بينهن، وقوله: «**فلا تؤاخذني بما لا أملك**»(٢) غير واقع حكمه على هذا الضرب منهن، وكذلك حكم الإرجاء ولفظه في بنات العم وبنات العمات وبنات الأخوال والخالات والمهاجرات لفظ الترك أو ما كان يكون بدلاً منه أولى من لفظ الإيواء.

وأمَّا لفظ الإرجاء فيهن فما له من مدخل ولا مساغ؛ إذ هو التأخير والتأخير إلى متى إلا على معنى قول القائل: تأخر عني وأخِّر الشيء عني؛ أي: باعده عني، وذلك تسامح في النظر لغير ضرورة وتدبر؛ أي القرآن تذهب الفوائد منه مع التسامح.

قال الله عز من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] فما أرى الإرجاء واقعًا إلا على الواهبات له أنفسهن، وما أرى ذلك إلا أن تكون زوجة له في الآخرة، وذلك معنى التأخير.

وقراءة أبي والحسن وعيسى بن عمر ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٠] بفتح «إن» وتلك إشارة إلى مفعول ما من أجل هبتهن أنفسهن؛

---

(١) أخرجه ابن راهويه (٢/٢٣).

(٢) انظر السابق.

ولذلك - وهو أعلم بما ينزل - فخم شأنهن في قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وعدل عن خطاب المواجهة إلى ذكر النبوة؛ تفخيمًا لعمل نيتها وحسن مقصدها وإلا فما ثوابها عند الله - جل ذكره - وعند رسوله ﷺ على أن جادت بنفسها لله ورسوله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] فمعنى ذلك: ترجي؛ أي: تؤخر من تشاء ولا تكون زوجة في الدنيا بل في الآخرة، وتؤوي؛ أي: تقرب بالنكاح منهن من تشاء، فتكون لك زوجة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الأحزاب:٥٠] الضمير في قوله: ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ و﴿أَيْمَانُهُمْ﴾ راجع على المؤمنين الذين خصَّ رسوله منهم بقبول الواهبات أنفسهن له، يقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الأحزاب:٥٠] والمفروض علينا في الأزواج الصداق والولي والشهود والعدل والابتياع في الإماء أو الهبة أو السبي، وقد رفع عنه حرج هذا كله إلا العدل، فإنه كان يقول: «لا تؤاخذني بما لا أملك» وما يناقض العدل ليس من الله ورسوله في شيء، وفي قوله: «اللهم لا تؤاخذني» يخشى فرض العدل عليه.

أتبع هذا قوله - عز من قائل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب:٥٢] لما أباح الله له النكاح فيمن سماه من القرابات، واللاتي أتاهن أجورهن واللواتي يهبن أنفسهن للنبي من المؤمنات قصره - وهو أعلم - على ذلك، وحظر عليه ألَّا يتبدل بهن من أزواج غير أزواجه، ولا يزداد نساء سواهن، وخصَّ من ذلك ملك اليمين، لا إله إلا هو له الملك وله الحمد.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[1] [الأحزاب:٥٣] يعني: وقت حضوره، أنيت الشيء: إذا

---

(١) فيها مسائل: **المسألة الأولى**: في الآية أحكام وسير، وتتضمن غزوة الخندق والأحزاب وبني قريظة.

قال مالك: أمر رسول الله ﷺ بالقتال من المدينة يوم الخندق حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ جاءت قريش واليهود وغطفان. قال ابن القاسم: كانت وقعة الخندق بعد أربع سنين. وقال ابن إسحاق: كانت وقعة الخندق سنة خمس، وكانت غزوتا الخندق وبنو قريظة =

في يوم واحد. قال مالك: بلغني أن عبد الله بن أبي سلول قال لسعد بن معاذ في بني قريظة حين نزلوا على حكمه وجاء يحكم فيهم. قال له عبد الله بن أبي: أنشدك الله يا سعد في إخواني وأنصاري، فإنهم ثلاثمائة فارس وسبعمائة راجل، فقال له سعد: لا تأخذني في الله لومة لائم، فحكم سعد بقتل مقاتليهم، وسبي ذراريهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله، من فوق سبعة أرقعة». ويروى أن ثابت بن قيس بن شماس أتى إلى ابن باطا، وكان له يد على ثابت فرغب رسول الله ﷺ فسرحه، ورد عليه أهله وولده وماله، فقال ابن باطا لثابت: «ما فعل ابن الحقيق؟ فقال له: قتلوه، فقال لثابت: ألحقني بهم، فأبى ثابت أن يقتله، وقتله غيره. واليد التي كانت له عند ثابت أنه كان أسره يوم بعاث فجز ناصيته وأطلقه، وكان سعد قد أصيب أكحله، وكان رسول الله ﷺ يتعاهده، ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق آخر النهار واغتسل آتاه جبريل. فقال إن وضعت اللأمة فإني لم أضعها، وإن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة، وسمع رسول الله ﷺ الأنصار يرتجزون: فاغفر للأنصار والمهاجرة... لا خير إلا خير الآخرة. فقال رسول الله ﷺ: «لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للمهاجرة والأنصار». فقال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله. قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. ويروى أن نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي كان قد اقتحم الخندق فتورط فيه، فقتله المسلمون، وجروا جسده إليهم، فأعطى أصحابه لرسول الله ﷺ عشرة آلاف درهم. فقال: لا حاجة لنا بجسده، ولا بثمنه. ثم خلى بينهم وبينه. ويروى أن عمرو بن عبد ود قتله علي في المبارزة، وأنشد على ذلك... قال مالك: وبعث رسول الله، ﷺ، محمد بن سلمة الأنصاري مع جماعة لقتل كعب بن الأشرف اليهودي، وقالوا لرسول الله، ﷺ: أتأذن أن ننال منك عند كعب، قال: نعم. فجاءوه، وكان عروسًا، فنالوا من رسول الله ﷺ. ثم لما أراد الخروج نهته امرأته، فأبى. ثم خرج فقتلوه. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأجد ريح دم كافر». **المسألة الثانية**: روى أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فكبر عليه، فقال: والله لئن شهدت مشهدًا لأرينه ما أصنع، فشهد معه يوم أحد من العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال له: إلى أين؟ فقال: لريح الجنة التي أجدها من دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين طعنة ورمية وضربة. قال أنس: فقالت عمتي الربيع، ما عرفت ابني إلا ببنانه. فنزل قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ الآية. **المسألة الثالثة**: قالت عائشة: ما رأيت أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله ﷺ ثم أنه أصيب في أكحله فقال: «اللهم إن كان حرب بني قريظة لم يبق منه شيء فاقبضني إليك، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقني أجاهد مع رسولك أعداءه». فلما حكم في بني قريظة توفي، ففرح الناس، وقالوا: نرجو أن يكون قد استجيبت دعوة سعد، قال يحيى بن سعيد: لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملك، ما نزلوا إلى الأرض قبل ذلك. [الأحكام الصغرى ٤٩٦].

أخرته، وهو الأناة:

وأكريت العشاء إلى سهيل أو الشعري فطال بي الأناء

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي
آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ
الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ
يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا
(٥٨)﴾ [الأحزاب: ٥٤ - ٥٨].

ثم ذكر الحجاب وأحكامه، وذكر في ذلك من يحجب ممن لا يحجب، ووعظهن وقال: ﴿وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب:٥٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦] أخبر - جل ذكره - أنه وملائكته يصلون على رسوله ﷺ وأمرنا أن نأتم به وبملائكته في ذلك، وإذا صلى عليه فصلاته عليه غير مقطوعة؛ لأن ذلك من أمره وأمره مفعول ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب:٣٧].

وقال: «**أكثروا علي من الصلاة، فإنه من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرًا**»(١) وعلم ﷺ أمته كيف الصلاة عليه ثم قال: «**والسلام كما قد علمتم**»(٢) وهو ما علمتم في التشهد قوله: «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»(٣) وقال:

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٨٨٦٩)، ومسلم (٤٠٨)، وأبو داود (١٥٣٠)، والترمذي (٤٨٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٥)، والترمذي (٣٢٢٠)، والنسائي في الكبرى (١٢٠٨)، وابن حبان (١٩٦٥)، والبيهقي (٢٦٧١)، ومالك (٣٩٦)، وعبد الرزاق (٣١٠٨)، والدارمي (١٣٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٦٤)، والبخاري (٥٨٧٦)، ومسلم (٤٠٢)، وابن حبان (١٩٥٥)، وأبو يعلى (٥١٣٥).

ﷺ «**ما من أحد يسلم علي إلا رد الله إلي روحي حتى أرد عليه**»[1].

معنى ذلك: أنه يرد سلام المسلم ظاهرًا، فإن الميت وإن كان حيًا عند الله وعند الملائكة فليس بحي ظاهرًا للناس حياته، فهو يخبرنا أنه يرد علينا السلام وذلك فيما علمنا في التشهد أن يقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» بمقتضى المواجهة، ثم يقول على تقدير رده: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» كأنه قال لأحدنا وقد سلم عليه: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» فيقول أحدنا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وهو سلام حي، لكنه غيب نؤمن به كما آمنا بوجوده ورسالته وبما جاءت به، وقد سئل فقيل له: كيف نصلي عليك وقد أرمت فقال: «**إن الله حرم الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء**»[2].

فهو حي حاضر لم نفقد منه إلا شخصه الظاهر وكلامه الظاهر، ثم عند سلام أحدنا عليه يرد الله عليه روحه الطاهر وكلامه الظاهر، فيرد به السلام الظاهر على المسلم عليه وإن كان المسلم عليه لا يسمعه ولا يشعر له، كما قد يسلم الغائب ويذكر مذكوره على حال الغيبة ذكرًا ظاهرًا من ذاكر ظاهر، لكن بغيبته وبعد مكانه لا يسمع ولا يعلم بذلك، وأعلمنا هو ﷺ من ذلك بما يجب به الإيمان علينا بدلاً من سماع رد المسلم الظاهر.

ثم أرجع الخطاب إلى معنى ما ابتدأ به السورة من ذكر إذاية المنافقين، والذين في قلوبهم المرض رسول الله والمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مُهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧] إلى قوله: ﴿مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٨٢٧)، والطبراني في الكبير (٦٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٢٠٧)، وابن أبي شيبة (٨٦٩٧)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجة (١٦٣٦)، والدارمي (١٥٧٢) وابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبان (٩١٠)، والحاكم (١٠٢٩) وقال: صحيح على شرط البخاري. والطبراني (٥٨٩)، والبيهقي (١٦٦٦).

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩ - ٦٣].

ثم أتبع ذلك قوله إيعادًا وتهديدًا: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي المَدِينَةِ﴾ أي: عن الإذاية للرسول والمؤمنين والأرجاف في المدينة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنك والمؤمنين عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٠].

﴿مَلْعُونِينَ﴾ يقول القليل الذين يجاورونك بالمدينة، والذين يجلون منها إلى غيرها يكونون في حال ذلة وصغار ولعن عن الله ودينه والمسلمين ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلاً﴾ [الأحزاب:٦١].

تلك ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ جل ذكره ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ ممن فعل فعلهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلا﴾ [الأحزاب:٦٢].

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب:٦٣] قد تقدم ذكرها في سورة الأعراف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٧١].

أتبع ذلك ما انتظم به من جهة المعنى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ﴾ أي: في الدنيا أبعدهم عن ولايته والعمل بطاعته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿سَعِيرًا﴾

[الأحزاب:٦٤] وهو اللعن الأكبر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٥].

ثم أتبع ذلك قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يسحبون على وجوههم، وقد جاء أن أحدهم تعقد ناصيته بمؤخره، ويسحب على وجهه وبطنه في النار، نعوذ بالله من ذلك وقصد الوجوه بالإخبار عنها؛ لحرمتها وعزتها، بالإضافة إلى سائر الأعضاء لما لم يوجهوها إلى الله ولم يسلموها له لم يجعل لها حرمة، ولا نورها بنور من بركة مواجهته الكريمة ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ﴾ [الأحزاب:٦٦] ندموا وتمنوا حيث لا ينفعهم الندم ولا يسعفون في تمنيهم ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب:٦٧] من أطاع غير الله والرسول ضل لا محالة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أطيعوهم ما أطاعوا الله**»[(١)] يعني: الأمراء «**وأطيعوهم ما أقاموا الصلاة**»[(٢)] وقال: «**لو أن الناس اعتزلوهم**»[(٣)] وقال: «**أدوا الذي عليكم** - يعني: الطاعة - **واسألوا الله الذي لكم**»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩] انتظم هذا الخطاب بالمعنى الأول من معظم ما جاءت به السورة من التشديد والتهديد للمنافقين والوعظ للمؤمنين والزوجات؛ لخوض الكافرين والمنافقين في شأنه من نكاح زينب - رضي الله عنها - لأنه كان على زعمهم له ابنًا حتى أكذبهم الله، ورد كل ذي حق إلى حقيقته، وكانت بنو إسرائيل قد آذت موسى ﷺ بأن قالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩] وقالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] وقالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا

---

(١) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (٣٨٩/١٣).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١١٢٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٧٩٩٢) قال عبد الله بن أحمد: قال أبي: اضرب على هذا الحديث فإنه خلاف الأحاديث عن النبي ﷺ يعني قوله: «اسمعوا وأطيعوا واصبروا» والبخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٩١٧).

(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٥٧/٨).

ها هنا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤].

ولما اتخذوا العجل إلهًا من دون الله قال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه:٨٨] فأطاعه منهم من أطاعه واتبعوه، وكانوا يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوءة بعض، وكان موسى - صلوات الله وسلامه عليه - حييًا ستيرًا، يغتسل وحده بحيث لا يراه أحد، فقالوا: ما يمنع موسى من أن يغتسل معنا إلا أنه أدر، فذهب يومًا يغتسل ونزع عنه ثوبه، فجعله على حجر، ولما فرغ من غسله وأتى ثوبه ليلبسه فرَّ الحجر بثوبه، فجنح موسى في أثره يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى أتى ملأ بني إسرائيل فسكن الحجر، فنظروا إليه وقالوا: والله ما بموسى من بأس، إلى غير ذلك من اقتراحهم عليه وعتوهم ومخالفتهم أمره، وقلة تعزيرهم إياه وتوقيرهم له.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥] فوعظ الله - جل ذكره - الأمة في ذلك وحذرهم من الوقوع في مثل ما وقع فيه أولئك، فاستحقوا من الله تعالى ما استحقوه، ووصاها بالتعزير والتوقير لرسولهم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع أنبيائه ورسله وملائكته أجمعين.

ولما وعظهم في الإذاية له والخوض في شأنه بغير المرضي أمرهم بالتقوى والقول والفعل السديد بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠] ثم ضمن على ذلك الإصلاح لأعمالهم وأحوالهم وغفران ذنوبهم، ثم بشر المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١].

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢ ، ٧٣].

نظم بهذه الجملة قوله الحق: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:٧٢] المشار إليه هنا، والأمانة: هو الحق المخلوق به السماوات والأرض، فمن وقف على معرفته بفهم وعلم وقف على حقيقة ما ائتمنه عليه ربه - عز جلاله - وعنوان ذلك في الإيمان والإسلام وشعبهما وخصالهما ويعم بالأمانة ذلك مباني الإسلام الخمسة: الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج، وما يتبع ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما تضمنه الوعد والوعيد وفنون البر كلها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج:١٨].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١] إلى قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

فصل

وأنه لما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما بكلمته عنونت كلمته عن المتكلم العلي العظيم وجودًا وصفات وأسماء، ثم عبر مفعوله الكلي عن فاعله العلي العظيم وجودًا ودلالةً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] فألزم المفعول الاستسلام وترك المنازعة فها هي الأمانة.

وأما تحملها في حق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك من المخلوقات سوى الإنسان، فإنه عرض عليها تحمل هذه الأمانة وأن تأتي بها، كما جعلها فيها وكإرادته ورضاه بها دون ضمان من الله بالعصمة والمعونة على أنها إن علمت حسنًا

فلأنفسها تجازى على الإحسان بالإحسان، وإن عملت في ذلك سيئًا فعلى أنفسها تجازى على الإساءة بالإساءة، فنظرت أولاً إلى العقاب فأشفقت منه وتبرأت من الحول والقوة، وأبت من تحملها على ذلك، فاستعملها ربها - جل ذكره - بالشهادة له والعمل بالتسبيح والتقديس والذكر والقنوت والعبادة له، ومباني الإسلام كلها وشعبه أجمعها، واستسخرها في ذلك كله لعباده تؤدي شهادتها لربها عندهم، وتنفق ما أتاها الله عليهم كل في مقامه وعلى مرتبته ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] إلى غير ذلك من الشواهد.

ولما أن خلق الله الإنسان أنفس في وجهه نفس الحياة فصار حيًا بنفس حية، وأظهر له القدرة والعلم والإرادة والحياة، وأظهر فيه كثيرًا من الأسماء والصفات، ثم سواه بأن ركب فيه العقل هو خليفة الله في الإنسان، فتمت به الصفات واستوت، فظهر تعاطيه واستكباره وإباؤه وعجبه وأضداد ذلك، فعرض عليه الأمانة وكلفه بحملها على ألا ضمان بعصمة ولا بمعونة فتحملها لزعامته، ونظر إلى الثواب إن صدق ووفى قبل نظره إلى العقاب إن كذب وأخلف، ولتمام خلقته واستوائه وجد فيه الاختيار، فقابله موجده بالاختيار كما قابل زعامته بالامتحان، ثم الإنسان في درجته من الخلقة لم يكمل بعد، بل هو كما وصفه العالم به من قول الحق ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢] ظلومًا لنفسه ولسواه، جهولاً بنفسه وبربه - جل ذكره.

ثم لما أدخل الله على الإنسان روح الإيمان حيى به فوجد الله وعبده على الوحدانية، وشهد له بالملك والحمد، وأنه على كل شيء قدير، استعمله له بأن رد منفعة عمله إليه، وأحياه به حياة طيبة، وأعده له نزلاً عنده في اليوم الآخر، ثم إن ارتقى في أسباب العلم وتبوأ بحبوحة الإيمان كتب في قلبه الإيمان، وأيده بروح منه، ولما إن كان هذا الروح منه منسوبًا إليه نالته بركته، وأشاع عليه من نوره فكشف له عن حقيقة كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وفقهه في معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] وأشهده عبادة المعبود وسؤال المسؤول على علم وفهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: شهدوا له بأنه الحق من ربهم ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] فهذا هو الميسر لعبادة الله - جل ذكره - كما قد سخر السماوات والأرض وما بينهما لعبادته ومنافع عباده، وزاد العبد أن جعل له عمله نافلة له عيشًا في الدنيا ونزلاً وذخرًا في الآخرة، فهذا الفرق ما بين التسخير والتيسير.

وبالجملة: فحقيقة الأمانة هي أن العبد كما تقدم خلقه خالقه من تراب، ثم من نطفة إلى أقصى درجات خلقته، وخلقه أيضًا مع ذلك مما عبر عنه قوله الكريم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] وما عبر عنه قوله: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**»[١] وكما قال: «**ابن آدم مرضت فلم تزرني وعريت فلم تكسني وكنت غريبًا فلم تؤوني وجيعانًا فلم تطعمني**»[٢].

فصورة الأمانة بين هاتين الخلقتين أن يلتزم العبودية التي هو أهلها، ويتبرأ من الربوبية التي أخذ عليها الميثاق ربه، فعلى قدر تحققه في ذلك والتزامه التواضع [وآلاءه][٣] ذبه ورفعه وأعلى قدره؛ ولذلك أخذ عليه الميثاق في البدء الأول في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] فإذا هو لم ينازعه شاكلة الربوبية وألزم نفسه شاكلة العبودية فقد أدى الأمانة، وعلى قدر تعلقه في تحقيق ذلك يكون تحقيق الولاية فيه له، والله المستعان، فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩) بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟».

(٣) هكذا في (خ) وهو غريب.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣] تعلقت «لام» كي هنا بما في الجملة من الحكمة؛ المعنى: فعل الله ذلك أو قضى ذلك أو ما يكون عبارة عن هذا المعنى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ... وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ لذنوب المؤمنين ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٣] بهم، وأرجع بذلك معنى آخر السورة على أولها.

تفسير سورة سبأ(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [سبأ: ١ - ٤].

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ [سبأ:١] اسمه الله - جل ذكره - والحمد لله: هو الحمد لآلائه، وقد يكون الحمد حمدًا لأجل أسمائه، كقوله: ﴿فَالْحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢] ويكون الحمد حمدًا لأجل أفعاله، كقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] ونحو هذا، وجمعت المحامد في أول هذه السورة إلى قوله الحق: ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:٥] هذا عمود هذه السورة خاصة وجميع القرآن عامة، وقد تقدم ذكر هذا.

والحمد الذي في أول هذه السورة هو كقوله: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١] ونحو هذا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ [سبأ:٣] يقول: وعلى هذا

---

(١) قال رسول الله ﷺ في فضلها: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَبَإٍ لَمْ يَبْقَ نَبِيٌّ وَلَا رَسُولٌ إِلَّا كَانَ لَهُ رفيقًا وَمُصَافِحًا».

من أن الحمد كله له، وكل حمد فموجود عن الحمد الذي له، وأنه الإله لا إله سواه، وأن له الوجود أجمع، كل وجود فموجود عن وجوده العلي لا موجد سواه، وعلى ذلك من تيسيرنا الذكر وتبيان الآيات يقول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ وقد ذكرها عبارة عن الإعادة بعد البداية وأحكام ما بعد ذلك، ثم قال - عز من قائل: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

أعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بعظيم اقتداره وإحاطة علمه مضاء مشيته، وإن مآل الذوات إلى كتابه ومجيئها من كتابه، وما ينقص من أجسام الموجودات وما تخلف فيها، وما يعدم وما يوجد، كل ذلك مجيئه من كتابه ومآله إلى كتابه المنتسخ من عليّ علمه، وقد تقدم ذكر تبيان الكتاب المبين وأن وجود الموجودات في ذلك كالمشاهدة العليا، وأن وجود المعدوم لديه كالمشاهد الموجود.

ثم قال ﷻ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سبأ:٤] «لام» كي متعلقة بمحذوف تقديره: قضاء الله ذلك، أو ما يكون معناه هذا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦] يقول: لتأتين الساعة وما بعدها للجزاء، وليقف الذين أوتوا العلم على أن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد، كما قال ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] وكقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد:١٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ وَيَرَى
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ
﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ
جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ

ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٥ - ٩].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ:٧] مما تقدم منعه هو من فضل الآلهة، وهذا تكذيبهم بفضل النبوة، وإنكارهم البعث الآخر الذي هو بعث الذوات في أجسامها هو من قبيل إنكارهم كمال الصفات - تعالى الله عن وصفهم وافترائهم - وسياقه عنهم ذلك سياق التعجب والتهزيء، ثم قالوا: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ:٨] إلى هنا انتهى قول الكافرين.

يقول الله - جل من قائل: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ:٨] أي: في هذه الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سبأ:٩] أحالهم - عز جلاله - على الاعتبار، وقرعهم بقلة الفهم، يقول - جل ذكره: أفلم يروا أنا بثثناهم في خزائن السماوات والأرض فأنزلناهم في الماء إلى الأرض، وخلقناهم منها بأمرنا فكما خلقناهم من ذلك، كذلك نعيدهم عودًا بعد بدء، ثم قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ إهلاكًا لهم وتدميرًا لأجل كفرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩] أناب إلى ربه: أحبه فعبده على الدين القيم الذي خلق عليه السماوات والأرض؛ فيكشف الله - جل ذكره - له اليقين عن الوجود العلي، ومن مشاهدة الخزائن في الدنيا والآخرة عبرة من هذه إلى ذلك.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن

مَحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٠ - ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾(١) [سبأ:١٠] الفضل: ما زاد على المقدار العدل، وما ذكر الله - جل ذكره - أهل الخصوص في الأغلب الأوصف ما أتاهم بأنه من فضله فتطلبه فإنه كثير وجوده في القرآن، وفي هذا دليل شافٍ أن أمر العالم ينشأ نشأ، فأعطى الله - جل ذكره - لكل طبق من الموجودات قدرًا ما، وانتهى جريان العوائد إلى الإنسان، وتلك منزلة العدل، لكنها بالإضافة إلى ما دونها من المراتب محسوبة في جنبة الفضل.

ثم ما وراء منزلة الإنسان التي هي دون خرق العوائد هو الفضل؛ أي: على مرتبة الإنسان، ثم لأهل خرق العوائد منزلة عدل تنتهي بهم إليها، ويكون ما وراء ذلك **فضلاً**، وكان الذي أوتيه داود ﷺ وابنه سليمان فيما سبيله العبادة والملك، وكشف عن كثير من وصف الحق المخبأ في السماوات والأرض فضلاً عظيمًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠] قرأها الحسن: «يا جبال اوبي معه» بغير همز، ويروى أنه كان يقرأ: «يا جبال أُوْبي معه» بضم الهمزة وسكون الواو؛ أي: سيري معه، وقيل: عودي معه، التأويب عند العرب: تباري الركاب،

---

(١) الفضل: النبوة، وقيل: الزبور، وقيل: حسن الصوت، وقيل: العلم، وقيل: غير ذلك، والمراد هنا: حسن الصوت، وكان داود ذا صوت حسن، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ قال لأبي موسى الأشعري: لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود». **تنبيه**: قال عبد الله بن المغفل: «رأيت رسول الله ﷺ راكبًا على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة، وهو يرجع ويقول: ءآ ءآ». واستحسن كثير من الفقهاء القراءة بالألحان والترجيع، وكرهه مالك، وهذا جائز، لقول أبي موسى لرسول الله ﷺ: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا». أراد لحنته بالترجيع. [الأحكام الصغرى ص٥١١].

وأكثر ما يكون ذلك مع ترجيع الحادي حدوه فتتسابق الركاب في حد السير[١].

فمعنى قوله - جل من قائل: ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي: سيري معه تسبيحًا لله وذكرًا، وقراءة: رجعي معه ما رجع، عودي إلى ذلك معه ما عاد؛ ولذلك قال، والله أعلم بما ينزل: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨ - ١٩] ونصب «الطير» قالوا: على تأويل وتأويب الطير، وقيل: إنه منصوب على معنى: مع الطير، كما تقول: قمت وزيدًا؛ أي: مع زيد، والأولى - والله أعلم - أن يكون منصوبًا على معنى سياق الآية التي في سورة ﴿ص وَالْقُرْآنِ﴾ [ص:١].

قوله: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ﴾ فيكون معنى الكلام وتقديره: يا جبال أوبي معه؛ أي: رجعي كما تقدم، وأحضرنا له الطير محشورة كل له أواب.

قوله ﷻ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ:١٣] ربما كان معنى المحاريب: المساجد، وربما كان المراد بها هنا: المجالس والعلالي، وكل بناء مرتفع محراب، قال الشاعر:

ربـــة محـــراب إذا جئـــتها ... لـم أدن حتـى أرتقـي سـلمًا

والتماثيل: جماعة التمثال، وهو اسم لكل شيء مصور على صورة غيره، وقد كان من مضى يصورون الملائكة والأنبياء وصالحيهم في مساجدهم وفي مواضع نظرهم ليزدادوا بذلك زعموا عبادة، ولا أرى هذا إلا كان محظورًا غير مباح في شرع غيرنا كما هو في شرعنا، وإن كان كثيرًا ما ينقلبون إلى ذلك؛ لأنه تشبيه بالله ﷻ في الصنع والخلق؛ لذلك كان عذاب المصورين في جهنم غايته أن يطوقوا نفخ الروح فيما خلقوه.

قال رسول الله ﷺ: «**وليسوا بنافخين الروح فيها أبدًا**»[٢].

قال رسول الله ﷺ: «**أولئك شرار الخلق عند الله**»[٣].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣٣٦/٥)، وكتابنا: تفسير الحسن البصري (١٧٥/١).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٢٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (١٢٠٩).

وما كانت رؤية أولئك تزيدهم في العبادة، وإنما هي مشاهدة من لا مشاهدة له لا يعقلون ولا يبصرون.

وجه:

أرى - والله أعلم بما ينزل - أن التماثيل التي كانت الجن وحكماء الإنس يعملونها لأهل ذلك الزمان الذي كان فيه سليمان ﷺ، وكان يأمر بها فتعمل له تماثيل الهيئة، يصورون في ذلك مجاري الأفلاك ومواقع النجوم، ويقربون بالتمثيل كيف خلق الله السماوات والأرض الحق، ومسالك ذلك الحق بالأمر في التمثيل به؛ ليتأكد بذلك اليقين، ويقرب العلم ويسهل التذكر واعتبار الأفكار؛ لتقرأ العقول ذلك نظر التقريب صحة ذلك واتصاله بعلم النبوة وإشراق نورها.

والجَوْبَةُ: الحوض العظيم تشرب فيه الإبل والمواشي، وهي كالمواجل الممسكة للماء، شبه بذلك تلك الجفان المعمولة له يومئذٍ لعظمها، والقدور الراسيات؛ أي: المقيمات في موضع واحد لا تزول لعظمها ولا تنقل، توقد النيران تحتها فتطبخ فيها، وإنما يصف في هذا عظم الملك وفخامة الشأن.

واعلم أن ملك سليمان ﷺ من أعظم الدلائل على وجود ملك الآخرة لأجل وجود المشاهدة، وما وصفه الله - جل ذكره - من وجود موجوداتها فيما هنالك كان عمدة ملكه تسخير الرياح والسحاب والجن وحكماء الإنس والطير والجنة في الآخرة عمدة موجوداتها، على أن الله - جل ذكره - غرس أوائلها بيده واستعمل لها ملائكة عليين ورياح ما هنالك وسحاب ما هنالك وأرضه وموجوداته ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ﴾ [الرعد:٢٦] إلا قليل ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾ [سبأ:١٢] قيل: هو النحاس، وهو فيما هنالك سائل، كما ألان لأبيه داود - عليهما السلام - الحديد، وهو فيما هنالك لين منه، تفتل سلاسل جهنم، أعاذنا الله برحمته منها.

قال الله - جل من قائل: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:٥] أي: مفتول محكم الفتل.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] فعدد من إنعامه أن أنزل الحديد في بأسه وشدته؛ ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب؛ ولينتفع بتلك الشدة العباد، وكانت الجبال تسبح معه والطير، وكذلك موجودات

الجنة تهب رياح الرحمة على أشجارها ونباتها، ولها على ذلك تسبيح وتهليل وتحميد بأصوات لم يسمع السامعون مثلها، وكان عند داود ﷺ من ذلك علامة وهو على ذلك آيةُ ذلك عندنا ما يخلق الله عند هبوب الرياح فيما تمر عليه من أصوات مسموعة وتسبيح، وإن كان معجمًا في حقنا فكان عندهما مفهومًا، وكذلك جواب الصدى دليل على ترجيع الجبال وتأويبها معه وآية على ما هنالك، ثم صار ذلك كله إلى سليمان وداود - عليهما السلام - وزاده الله الملك المعجز وكل معجز، فهو باب فتح إلى الآخرة، فافهم.

قال الله - جل ثناؤه وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦] فاستدل بهذه الدلالة وتفهم عن الله في الحق المثبوت في السماوات والأرض هذه الإشارة، ثم اصعد بإيمانك إلى تلك الحقيقة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] أخبر الله - جل ذكره - أن آل داود يعملون شكرًا، لا في كفارات الذنوب، ولعله لصحة توبته غفر له ولآله معه، فكانوا يعملون في الشكر، يقول تعالى: اشكروا لتصلوا إلى ما هذا آيات عليه، فذكر الشكر إثر هذا الخطاب تنبيه على صحة وجود الزيادة.

قال الله - جل وعز: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] والشكر: عمل بطاعة الله جمع نطق اللسان وعمل الأبدان والقلوب، والحمد: نطق باللسان عبارة عما تعقده القلوب من صحة التوجه إلى الحميد المجيد، والحمد قد يكون شكرًا؛ لأنه قد خرج إلى اللسان المعبر عما في القلب منه؛ لأن حقيقته مدح اللسان مع اعتقاد الجنان وعلى قدر المعرفة والعلم، كما أن على قدر المعرفة والعلم مع صحة الاقتداء يكون الشكر.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ

أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: ١٤ - ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبأ: ١٤] يقرأ بالهمز وبترك الهمز، فالهمز فيها إعلام بأنها مأخوذة من التأخير؛ لأن صاحبها ينسأ بها عن نفسه الأذى وعن طريقه أيضًا، وقد قالوا: إنها كلمة اتصلت بها «من» فيكون اسم العصا: سأة، فيكون معنى ذلك: دابة الأرض تأكل منسأته، «مِنْ» للتبعيض ظاهر عليه أثر الإغفال لو كان ذلك كذلك كانت تكون التاء مخفوضة؛ فيكون معنى ذلك: دابة الأرض تأكل من عصاه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] قول الله الحق لا إله إلا هو، ذكر في تفسير هذا المعنى أنه كان ﷺ متوكئًا على عصاه، وذكر بعضهم مدة أربعين سنة والجن في عملهم ينظرون إليه فيجدون على العادة، حتى بعث الله - جل ذكره - الأرضة أو السوس فأكلت العصا حتى انتهى منها إلى القدر الذي لا يحمل الاعتماد عليه انكسرتْ فخر، قال: فتفرقت الجن يومئذٍ، وهذا لو كان كما ذكروه لم يكن إلا عن عادة له قبل الموت من اعتماد على العصا طول مدته فأوقف على ذلك بعد الموت، أو مات على حاله تلك وبقي إلى أن خرَّ واقعًا على ما ذكروه، ولم يكن حاله في مدة حياته - صلوات الله وسلامه عليه - تلك، بل كان في غزواته والريح تحمله والطير تظله والجن والإنس حوله، يسير مبتكرًا شهرًا ورواحها شهرًا.

وكان يلزمه من حق الله - جل ذكره - والمسلمين وحق نفسه وأهله ووفوده ما يلزم مثله، وعلى هذا فليس يصح وجوده قائمًا على عصاه أبدًا حتى يكون ذلك المعهود منه، إلا أن يكون ذلك تمثالاً وضعه في حياته علمًا للمستسخرين، وأوعز إليهم بالجد والاجتهاد في عملهم ذلك ما رأوا التمثال، ولما توفي بقي الأمر على ذلك لبقاء ذلك التمثال المدة المقدرة حتى خرَّ وأخفى موته كما قد يخفي موت الملوك لا سيما مثله، ويقيم الأحكام من أهل المقامة بعده، فكيف هذا القيم لم يجدد منسأة غيرها ليدوم الجن في ذلك العذاب المهين؟ وإن كانت الجن قد عمي عليهم علم ذلك فلِمَ لم يفقدوا اجتماع الطير ومقاماتها في رتبها والريح المسخرة

والسحاب إلى غير ذلك؟!.

وما أرى ذلك إلا مثلاً ضربه الله ﷻ لا يفهم سر المراد منه إلا على صيغة هذا الخطاب أو لما شاءه من حكمته، والمنسأة عبارة عن النسيان، كما العصا عبارة عن العصيان، وأصل العصا لآدم ﷺ، قيل: إنها أنزلت عليه من الجنة.

قال رسول الله ﷺ: «**كانت عصا آدم من شجرة الخلاف** - وهي شجرة الصفصاف - **في دار الدنيا**»[1].

قال الله - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه:١١٥].

وقال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه:١٢١].

فوجه الحكمة في إمساكه العصا: أن يتذكر بها عصيانه؛ ولأنها منساة أن يتذكر بها نسيانه العهد، وقد قرأها حميد: مَنساة - بفتح الميم - وهي مَفْعَلَةٌ من النسيَان، وأمَّا مِنساة - بالكسر - فهو اسم، كمكيال من كيل، وميزان من وزن، ومرباع من ربع، وهو كثير، ومن قرأها «منسأة» بالهمز؛ ليؤخر بها عنه النسيان بالذكر، وليذكر متعمده الله، جل ذكره.

قال موسى ﷺ وقد سأله ربه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:١٧] وهو أعلم ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه:١٨] يعني، والله أعلم بذكره المآرب: ما تقدم ذكره من التذكار بها، فإن ذلك ليس يبعد على مثله في نبوته ورسالته ﷺ فعليها اعتماده، وهي إمامه وقائده وهاديه ومذكرته، وبها يبطش وبها استكفى الأذى، ويبعده عن نفسه بتذكر هذا كله من أسماء ربه فيها، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا خطب أمسك في يده عصا أو قوسًا وتركها سنة في أمته من بعده؛ إشعارًا بأن ظاهر ذلك الاعتماد لما فيها من معاني أسماء تقدم ذكر بعضها، وباطنه تذكر أنت عصيانك تذكر ربك، لا تعظ الناس وتنسى نفسك، لا تُذكِّر الناس ربهم وتنساه، لا تقدم سواك إلى الخيرات والذكر وتتأخر أنت.

وأمَّا إمساكه على بعض أحايينه القوس فهو عصا من حيث هو تكأة ومنسأة،

---

(١) لم أقف عليه.

وفي إمساكه استشعار جهاد النفس وجهاد العدو الباطن والظاهر، وكان الأنبياء والمرسلون والصالحون بعدهم خلف عن سلف يمسكون العصا، والعصا يعبر بها عن الأمر، فيعتبر بصحتها واجتماعها عن اجتماع الأمر وسلامته، ويعبر بانشقاقها عن تفرق الأمر، وبقيامها عن قيام الأمر، وبإلقائها عنْ استقراره، وبتزيالها عن التفرق والبين والثريان، ويعبر بدابة الأرض عن الدجال أو أي دجال كان من الدجاجلة.

ولما قضى الله، جل ذكره ﴿عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ يعني: الأمر قائمًا على حاله قبل وفاته ﷺ ما شاء الله، إمَّا كما ذكروا أربعين سنة، أو كما هو في علم الله - جل ذكره - وقد روى قيس بن سعيد عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ حولاً ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ:١٤] فكان أمره على قيامه لا يستنكر الناس منه شيئًا، والقَيم الخَالف بعده يسير بهديه ويسوس الأمر، إلى أن أنتج له دجال يناقض الأمر ويستر مناقضته، فخر الأمر لما قام ذلك مقام الأرضة أو السوس تأكل العصا والمنسأة.

قوله - جل وعز: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ وقرأها أُبي وابن عمر وابن عباس والضحاك بن مزاحم: «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب»، ويُروى عن ابن عباس: «تبينت الإنس أن لو كانت الجن تعلم الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين» وقرأ يعقوب: «تُبَيِّنت الجن» بضم التاء والباء، وقرأ ابن عباس وغيره: «دابة الأرَض» بفتح الراء، فعلى هذا يكون المفهوم أن إخبار الله - جل ذكره - عن فخامة الملك وعظم قدره، وأنه أمسكه عليه كما يمسك هدى الأنبياء بعدهم عليهم إلى أن يغير لأجل ذنوبهم.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي إلا كان له أصحاب من بعده وحواريون من أمته يهدون بهديه ويستنون بسنته إلى أن يخلف بعدهم خلوف...**»[١].

وقال ﷺ: «**ما من نبوة تكون إلا تناسخت إلى أن تكون ملكًا**»[٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٦٦٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٦١٦).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٧٨)، ومسلم (٢٩٦٧)، وأحمد (١٨٠٤١، ٢١١٥١).

عبر عن مكث الأمر بعده حال الاستقامة بمعنى: القيام، وبالمنسأة: عن اجتماع الأمر، وبأنه خرَّ عن فساده وتفرقه وتغيره، وبذكر دابة الأرض عمن يكون ذلك على يديه.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي إلا كان له من أصحابه حواريون وأصحاب يأخذون بأمره ويهدون بهديه، ثم يخلف من بعدهم خلوف يهدون بغير هديه ويعملون بغير سنته، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»(١).

والمراد بما ضرب به المثل: أنه أبقى ملكه المعجز مصاحبًا لمن يخلفه بعده ما صلحوا، فلما عبروا عبرنا بهم حتى أنه كان من حسن استمراره لم يستدل الجن على موت النبي ؈ بشيء يخالف ما كان عليه من هدى وتسخير وأمر معجب، والشواهد على أن العصا يعبر بها عن الأمر كثيرة كقولهم:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر

وقال الآخر:

فألق عصا اليسار عن عاتق النوى ... فليس بمعطيك النجائب والركب

وهو كثير.

قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ**﴾ [سبأ:١٥] جاء أن رسول الله ﷺ قال: «**سبأ اسم رجل ولد له عشرة من الولد**»(٢) وقد تقدم ذكره في سورة النمل.

قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**﴾ [سبأ:١٦] «**العرم**» الشديد، قاله ابن عباس ﷺ وقيل: «العرم» الجُرَذ الذكر، وقيل: «العرم» اسم لذلك السيل، وكان ماء أحمر أرسله الله على السد فخرقه، وقيل: «العرم» المسناة بلسان أهل اليمن، وهو بناء من حجارة، جمعها: عرمات، الواحدة: عرمة، وهي الحجارة المجموعة.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣٧٩)، ومسلم (٥٠)، والبيهقي (١٩٩٦٥)، وابن منده (١٨٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥٤٤).

ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا
مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ
مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ١٧ - ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ أي: بالعقوبة ﴿إِلَّا الكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧] ومن الكفر ما هو أكبر ومنه ما هو أصغر، فالكفر الأكبر يعاقب عليه لا محالة بالخلود في جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - والكفر الأصغر هو في [مسبته][1] وإن عاقب عاقب ضربًا ما من العقاب ثم أصاره إلى رحمته، هذا إن لم يغفر له فهو إذًا لا يعاقب إلا كفورًا ﴿مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لأهل الإيمان ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٩١] بالمؤمنين أهل الاستقامة، وأيضًا فإن المجازاة مأخوذ من المماثلة، يقال: هذا يجزي عن هذا، والكفور يجازى بالسيئة مثلها، وأمَّا المحسن فإنه تضاعف له الحسنة أضعافًا كثيرة، فلا تكون المجازاة على حقيقتها إلا للكفور.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾[2] [سبأ:٢٠] المعنى إلى آخره رجع الخطاب منتظمًا بمعنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ [سبأ:٧] إلى قوله : ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيدِ﴾ [سبأ:٨] وقرأ هلال بن أبي بردة وغيره ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ﴾ [سبأ:٢٠] بتخفيف الدال، ونصب السين من إبليس، ورفع النون من ظنه، وقال: إنما صدق عليهم الظن، ظنه هو قوله - لعنه الله: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾

---

(١) هكذا في (خ).

(٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ الجمهور: «صَدَقَ» بالتخفيف ورفع إبليس ونصب ظنه. قال الزجاج: وهو على المصدر؛ أي: صدق عليهم ظنًّا ظنه، أو صدق في ظنه، أو على الظرف، والمعنى: إنه ظنّ بهم، ويجوز أن يكون منتصبًا على المفعولية أو بإسقاط الخافض، وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وعاصم: «صدَّق» بالتشديد، وظنه بالنصب على أنه مفعول به. [فتح القدير (٦/١٠٣)].

[الإسراء:٦٢] ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنُّهُمْ﴾ [النساء:١١٩] إلى غير ذلك من مراداته المضلة، وكأن لما لم يجد لآدم عزمًا علم أن بنيه أضعف منه فأقره الرب - جل ذكره - على ذلك من زعامته ولو أنكر عليه ما استطاع ولا قدر، ولولا أن الله - جل ثناؤه - عزله عن المخلصين من عباده لنفذ أمره بذلك الإقرار له، بل قال له: ولله الحمد من قبل ومن بعد ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [سبأ: ٢٢ - ٢٧].

قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣] هذا الخطاب منتظم بما قبله من قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ الله لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ [سبأ:٢٢] قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «**إن الله إذا قضى الأمر في السماء وسمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان، فتضع الملائكة أجنحتها خضعانًا للأمر، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق**»(١) وإنما ذكر الله - جل ذكره - الشفاعة، ومن الذين ينفع الشفاعة منهم عند الله.

والظاهر أن أول مفتتح العلم والمعرفة: السجود والصلاة بما فيها من خضوع وخشوع، وأول مفتتح الوجود: الشفاعة لما أوجد حملة العرش - عليهم السلام -

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤)، والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجة (١٩٤) والحميدي (١١٥١)، وابن حبان (٣٦)، وابن منده في الإيمان (٧٠٠).

يسرهم ليشفعوا لما يريد إيجاده عنده.

قال الله - عز من قائل: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فهذه صلاة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم ذكر شفاعتهم بقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧] إلى قوله: ﴿العَظِيمُ﴾ [غافر:٩] فهذه شفاعتهم أذن لهم في ذلك، وعن هذه الشفاعة ينفصل أنواع الشفاعة؛ إذ الإيمان بالله - جل ذكره - وبما يجب الإيمان به هو المقصود من الجملة، وله أوجد الموجودات جمعاء.

وقد قال في غير هذا الموضع: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] هذه شفاعة من موطن آخر في أهل الأرض في أن يغفر لأهل الأرض ويمهلهم إلى الأجل المسمى.

وقرأ أبو عبد الرحمن «حتى إذا فرغ عن قلوبهم» بالراء والغين معجمة مرفوعة الفاء؛ أي: فرغت قلوبهم من هيبته وفرغ أصابهم، أو فرغت قلوبهم لفهم كلام رب العالمين، وهم الذين ليس بينهم وبينه واسطة؛ وذلك لجلاله وعظمة شأنه، أعطاهم من الأيد بمقدار ما حملهم(١).

فصل

قد مضى فيما تقدم الكلام في معنى قوله: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [الرعد:١ - ٢] فالوجود كله انقسم إلى قسمين: خلق وأمر، والقرآن انقسم ما جاء به إلى علم التوحيد وما بيَّنه من أسماء وصفات، وإلى النبوة وما جاءت به من رسالة وأمر ونهي، وهذا مقام اتحد فيه ما تقدم ذكره.

---

(١) وقرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الفاء والزاي، وقرأ الآخرون بضم الفاء وكسر الزاي؛ أي: كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم، فالتفريغ إزالة الفزع كالتمريض والتفريد. [تفسير البغوي (٣٩٨/٦)].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء**» والسماء هنا عبارة عن علو الخليقة «**سمعت له الملائكة كوقع سلسلة على صفوان**»[(١)] هذا في حق الملائكة، فتضع أجنحتها خضعانًا للأمر، وفي أثناء ذلك يفرغ الله ﷻ عن قلوبهم ما بها من هيبة وخضوع وفزع مع انتظار منهم للفتح، فإذا فرغ ذلك عن قلوبهم فهموا عن ذلك القضاء والأمر النازل عليهم الحق.

وقد كان رسول الله ﷺ يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس هذا في حقه، فيفصم عنه وقد وعى عنه ما قاله، فالملائكة - على جميعهم صلوات الله وسلامه - مع ربهم في مثل ذلك، فالله الذي لا إله إلا هو بما هو له الأسماء الحسنى والصفات العلا، والعباد وهم الملائكة الذين هم حملة العرش ومن حوله إذا نزل الأمر خضعوا، وهو عنوان الخليقة كلها خضوعهم لعزته وتضاؤلهم لعظمته وتصاغرهم لكبريائه؛ لذلك ما سوى مخلوقًا كائنًا ما كان إلا سجد له.

وعنوان الإنباء والنبوة نزول الأمر وقضاء القضاء وإفهام الملائكة - عليهم السلام - إياه، وعنوان الرسالة قولهم إذا سألهم من دونهم: ماذا قال ربكم؟ الحق، بلغوا إليهم ما أفهمهم الله جل ذكره عنه، وكما أفهم هؤلاء - أعني: أصحاب عليين - ما شاء إفهامه كذلك يفهم الذين من دونهم من قول من فوقهم ما شاء إفهامه، ثم كذلك إلى [تقلبهم][(٢)] إلى منتهى المراد بالأمر، فهذا علم الألولهية والوحدانية والأسماء والصفات والمثل الأعلى مجملاً.

ثم يشفعون فيما أذن بالشفاعة فيه مما رضي، فهذه الشفاعة والمشفوع فيه والشافع الملك الحق، ثم تستدير الدوائر بالتدبير للأمر، ففي ذلك الوجود كله، ثم بعد هذا التفصيل ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] فهذا القرآن بما فيه والوجود كله بما فيه، ووسع كل شيءكلامه العظيم، وهو الحق ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ﴾ وهو عنوان الحق المخلوق به السماوات والأرض ثم قال: ﴿وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هكذا في (ف) وغير واضحة في (خ).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٢٨ - ٣٣].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا القُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ:٣١] انتظم المراد بهذا الخطاب بمعنى ما تقدم يقول: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل:١٠١] وعلى ما في هذا من التبيان ونور الهداية والفرقان.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا القُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ:٣١] المعنى الأول ﴿بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في جنبة الكفار التوراة والإنجيل والزبور وجميع ما أنزل الله من كتاب، وأمَّا في مفهوم القرآن ومعهود نظمه والظاهر من توصله فالذي بين يديه هو ما أنبأت به الآية قبل هذا ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ إلى قوله: ﴿العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

أتبع ذلك وصف حالهم بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ:٣١] عرضوا بلقاء الله ﷻ التوقيف؛ إذ يقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف:٣٤].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ....﴾ [الأنعام:٣١].

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٣١] فيرد عليهم المستكبرون: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ:٣٢] فيرد المستضعفون: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣] وقرأ

ابن جبير: «بل مكرّ الليل والنهار»، وقرأ راشد: «بل مكرَ الليل والنهار»، أي: وقت مكر الليل والنهار، وقرأ قتادة: «بل مكر» بالتنوين والرفع «الليل والنهار» بالنصب[1].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ: ٣٤ - ٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ:٤٠] إلى قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] ظاهر قوله هذا: الاستفهام، ومعناه: التقرير، وإنما يستفهم من لا علم له ﴿اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:٥].

فصل

الملائكة مخلوقون من نور، ومن الملائكة أيضًا: الجن، وهم المخلوقون ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال عز من قائل: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤ - ١٥] ومن هذا القبيل كان إبليس - لعنه الله - مع الملائكة ما شاء الله حتى واقع الخطب الجليل، فكفر وأبعده الله - جل ذكره - وأبلسه لعنًا

(١) قال النحاس: قرأ سعيد بن جبير «بل مكر الليل والنهار» من الكرور، وقرأ راشد وهو الذي كان ينظر في المصاحف وقت الحجاج «بل مكر الليل والنهار». معاني القرآن (٥/٤١٩).

وأهبطه حرًا.

قال الله - عز من قائل: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠] ثم من ذريته مقتصد، ومنهم ظالم لنفسه، مبين كما كان من ذرية آدم.

ثم قد جاء من طرق لا تنحصر عددًا: أن قومًا عبدوا الملائكة وهم الصابئة، وجاء في القرآن مرددًا: أن شفاعتهم لا تنفع إلا ﴿أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] وأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولا يشفعون إلا بإذنه، وكان ذلك خطابًا عنى به المعبودين منهم، فقالوا - عليهم السلام: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك وتقديسًا عن أن نعبد أحدًا سواك أو ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان:١٨].

ثم قال: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] أي: الجن ذرية إبليس إبليس أكثرهم، أي: الجن الكفار منهم بهم بالعابدين لهم يؤمنون.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨] ﴿إِلَّا عِبَادَ الله المُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:١٦٠] فالمفهوم من هذا: أن كل معبود لا ينفع ولا يضر ولا يعلم ولا يستجيب وإن كان يعلم إذا لم يرض، فليس بمعبود على الحقيقة لعابده.

قال الله ﷻ في مثل هذا: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] ذلك لأن شركاءهم الذين أشركوا بهم في غفلة عن عبادتهم لهم؛ لذلك قال في هذا الصنف من معبوداتهم الذين هم الجن الكافرون: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] أي: عالمون بعبادتهم راضون بما شهدوا بذلك عليهم عند ربهم.

وأما غير هؤلاء فهم المعنيون بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ إلى قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:٢٨ - ٢٩] فلغفلتهم عن عبادتهم قالوا لهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ولعلم الجن بعبادة من عبدهم ورضاهم بذلك منهم شهد الملائكة عليهم أنهم معبودون لهم وأنهم بعبادتهم مؤمنين، فتحصل من هذا أن المعبود الحق لا إله إلا هو عليم بعبادة العباد، قدير على نفعهم وضرهم، راضٍ بطاعتهم.

والعابدون المؤمنون من شروطهم: أن يكونوا عالمين بمعبودهم هكذا؛ ليصل سائر العابدين بمعبودهم وعلمهم به بعلمه بهم، وشهادتهم له بشهادته لهم، وليصل خضوعهم وخشوعهم بذلك إلى حضرة عظمته وكبريائه وعزته، فأولئك وصلوا ما أمر الله به أن يوصل، ولذلك قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [الرعد:١٤] ومن سوى هذا من معبود وعابد فليس بشيء لا يستجيبون لهم ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [الرعد:١٤].

فصل

وإذا كان ذلك كذلك من عبادة المعبود لعابده، بأن يخرج كلامه وفعله ودعاءه ومناجاته من حقيقة ذاته بما يرضي المعبود المشاهد المصدق له، المجيب السميع منه، المؤمن به، يؤمن المعبود بعابده، والعابد بمعبوده، ليتصل بذلك حق الأول من العبد بحقيقة الرب الحق المبين، وهو وصول إيمان المؤمن الأدنى بإيمان المؤمن العلي الأعلى - تبارك ربنا وتعالى - وحينئذٍ تجب الإجابة بالوعد الحق، ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ أي: عباد الخصوص ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦] أي: فيقصدون بحقيقة إيمانهم المتصل بحقيقة الآل من ذواتهم حقيقة الحق المبين، فيؤمن لهم بإيمانهم، ويذكرهم بما ذكروه، ويستجيب لهم دعاءهم، ولعدم هذه الصفات في تلك الموجودات كان يقول لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦ - ٦٧].

﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء:٧٢].

﴿فَادْعُوَهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤] ونحو هذا كثير.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٣ - ٤٦].

قوله ﷻ: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الأمم الماضية ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ يعني: هؤلاء الذين أدركتهم رسالتك ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [سبأ:٤٥] كان أولئك أطول أعمارًا وأكثر أولادًا وأموالاً وأجنادًا وغاشيةً ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩] هؤلاء، والمعشار: جزء من عشرة، يقال: منه عشر وعشير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ يعني: موعظة واحدة أو نصيحة، أو ما يكون عبارة عن هذا ﴿أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦] يحتمل أن يكون معنى هذا: تقوموا لله بالقسط في أنفسكم وفيمن وليتم أمره، مجتمعين على ذلك يدكم كيد واحدة، ومتفرقين منفردين، فالواحد في طاعة الله جماعة ويكون على هذا، ثم تتفكروا كلام مستأنف، فالتفكر في آيات الله واكتساب المعرفة بذلك أفضل العبادات؛ لأنه يقرب من الذكر في الذكر، ولا تكون المعرفة إلا بطول الفكرة وترداد الاعتبار في خلق الله وصنعه.

فالتفكر يبعث الاعتبار، وبالاعتبار يظهر ما بطن عن العيان، ويحتمل أن يكون معنى قوله: وهو الأوجه، ثم تتفكروا فتعلموا بذلك يقينًا أن صاحبكم ليس بذي ﴿جِنَّةٍ﴾ كما ظننتم فتعلموا بذلك أنه ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦] وتعلموا بذلك أني لست أبغي على تبليغي رسالات ربي أجرًا، وبذلك تعلموا أني إنما أبتغي الأجر ممن أرسلني إليكم، وإذا تفكرتم فيما خلق الله من شيء، وأن الجملة قائمة بإقامة الحي القيوم، علمتم أنه ينزل الأمر من لدنه بالملائكة عليهم السلام، وأنه يقذف بالحق كما قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة...**»[١] ففعله ذلك هو قذفه بالحق؛ لأنه لا يكون منه إلا بالحق، وإذا علمتم ذلك به تعلمون أنه أيضًا يقذف بالوحي إلى من شاء من عباده وتنزل عليه

(١) تقدم تخريجه.

﴿المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل:٢] من كتاب وحكمة، وكما تقدم في العبرة في قوله: «**سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان**»[(١)].

واتخاذ الأمر المتلقى بالنبوة بالرسالة بخضوع العبودية بالتبليغ عنه منفصل، ذلك كله من صفات الإلهية إلى غير ذلك مما ينفصل عن هذا: من إنزاله الروح من أمره مع الملائكة عليهم السلام، ويدخل في ذلك: أنه يقذف بالحق الذي هو الإيجاد، أو الهداية على الباطل الذي هو العدم أو الإضلال، فيكون ما يريده من الإيجاد أو الهداية، كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٤٧ - ٥٤].

وبالتجمع على طلب الحق والتفرع لذلك يعلمون أيضًا أن ما جئت به حق لا مرية فيه، وأن كل ما تدعونه من دون الله ما يبدئ وما يعيد؛ أي: لا يخلق ولا يحيي ولا يميت ولا يملك شيئًا، ولتعلموا أني ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠] هذه معلومات عدة أصول لغيرها لا يوصل إلى معرفتها إلا بالتعدد والنظر، وتكوير الذكر على الفكر، والفكر على الذكر، والقضاء بصحيح الاعتبار.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ يعني: وهو أعلم حين المعاينة عند الموت ويوم تقوم الساعة ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ:٥١] هذا - والله أعلم - يوم الحساب تأخذهم الملائكة بالنواصي والأقدام، وأخذه إياهم متى شاء هو من

(١) تقدم تخريجه.

قريب، وإنما عبر بلفظ القرب عن تأتي أخذ ما يريد أخذه، وعبر بلفظ البعد في خيبتهم لمكان ضعفهم، وعدم الناصر لهم، وبُعد النجاة منهم بما أضاعوه من الإيمان والاستجابة لله ولرسوله، فناوشوا ذلك بالإيمان منهم والندم حين لا ينفعهم الندم على ما فات ولا الإيمان، والتناوش: التناول على بعد وضعف وتعذر المراد هذا بغير همز، والتناؤش بالهمز: الأخذ والبطش، وربما كان الأخذ بالبطء ويتداخلان جميعًا أحدهما على صاحبه.

يقول عز من قائل: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ﴾ [سبأ:٥٢] ودرك ما فاتهم، وتناوله حين الفوت، وتعذر المتناول، بيّن ذلك بقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: بالرسول أو بالقرآن وبالله، جل ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣] هذا - والله أعلم بما ينزل - منتظم بقوله الحق: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الغُيُوبِ﴾ [سبأ:٤٨] فانتظامه، ويقذف هؤلاء بالغيب وهم لا يعلمونه؛ لبعدهم عنه، ويكون المفهوم من الجزاء: أنهم كانوا يكذبون في الدنيا بالآخرة، فيقطعون بظنونهم ويرجمون بها من بعدهم عن فهم الحق، وقد ضلوا عنه ضلالاً بعيدًا، ولما لم يؤمنوا بالآخرة لم يكن لهم فيها حظ ينفعهم، ولما لم يؤمنوا بالله لم يكن منهم بلقائه ولا بكلامه، بيّن ذلك ما تقدم قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الرجعة والإقالة وقبول التوبة التي بها يتوصل لكل كرامة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ:٥٤] الشيع: الأتباع.

تفسير سورة الملائكة
«فاطر»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر: ١ - ٤].

قوله تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الفطر: الشق، والفطر: البدء، هو الذي ابتدأهن على الإسلام، وهو الذي شق عن وجودها ستر العدم بإيجاده إياها على ما فطرها عليه من الحق.

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾(١) [فاطر:١] مثنى مثل موحد، ومثنى هنا - والله أعلم - بمعنى:

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب من خبر الملائكة أولي أجنحة؛ أي: ليس هذا ببدع في قدرة الله، فإنه يزيد في خلقه ما يشاء، والظاهر عموم الخلق. وقال الفراء: هذا في الأجنحة التي للملائكة؛ أي: يزيد في خلق الملائكة الأجنحة. وقالوا: في هذه الزيادة الخلق الحسن، أو حسن الصوت، أو حسن الخط، أو لملاحة في العينين أو الأنف، أو خفة الروح، أو الحسن، أو جعودة الشعر، أو العقل أو العلم أو الصنعة، أو العفة في الفقراء والحلاوة في الفم، وهذه الأقوال على سبيل التمثيل لا الحصر، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق، وقد شرحوا هذه الزيادة بالأشياء المستحسنة، وما يشاء عام لا يخص مستحسنًا دون غيره. وختم الآية بالقدرة على =

اثنان عن يمين واثنان شمال وثلاث ثلاثة وثلاثة ورباع أربعة وأربعة، أخبر - جل ذكره - أن زيادة الأجنحة في الملائكة من تمام خلقهم وكمال ما أوجدهم له.

وقال رسول الله ﷺ: «**رأيت جبريل** عليه السلام **هابطًا من السماء له ستمائة جناح سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض**»(١).

وفي أخرى: «**أن رسول الله** ﷺ **وقع مغشيًا عليه، ولما أفاق قال له جبريل** عليه السلام: **كيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعلى كاهله وأن رجليه تحت التخوم السفلى**»(٢).

أتبع ذلك قوله عز جلاله: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر:٢].

هذا منتظم بمفتتح السورة من الحمد على أفعاله، وحال بين المعنيين بذكر الرسالة، ثم صرف وجة الخطاب إلى أوله، والمراد من ذلك: الإعلام منه بأنه لا يفعل فعل الله غير الله، وإن كان قد أوجد الوسائط ورتب الأسباب في مراتبها، فهو القائم على كل شيء حي كان أو غير حي، وعلى ذلك من وحدانيته في التقدير وإخراج الموجودات بحكم الوحدانية على حكمة السنة في توسيط الوسائط وتسبيب الأسباب أمر بالحد والانكماش إلى المرغوب فيه، وبالهرب من المحذور منه، تعبدًا واختيارًا، فإنه الأول في كل وجود والآخر، وهو الظاهر الذي أظهره، والباطن فيه عن علمه وقدره وقدرته ومشيئته، منه مبدأ كل شيء وإليه مآله وعليه تمامه، عبر عن تحقيق ذلك ما ختم به الآية من ذكر ﴿**العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [فاطر:٢].

﴿**العَزِيزُ**﴾ عن مشابهة المحدثين ونقائص المخلوقين ﴿**الحَكِيمُ**﴾ الذي أحسن كل شيء خلقه، وأحكم الخلقة بالحق وأظهرها بالآل، ثم قربه بالإيمان وأبعده بالكفران، بين هذا فيما أعقبه به إلى قوله: ﴿**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ [فاطر:٣] يقول: كيف

=

كل شيء يدل على ذلك، والفتح والإرسال استعارة للإطلاق. [تفسير البحر المحيط (٩/ ٢٢٩)].

(١) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (٢٨٤).

(٢) أخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٢٢٠).

تقلبون عن حقيقة هي في جبلتكم؟.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر:٣] نظم تكليف العباد الشكر بما حمد نفسه من أجله من فعله الحكيم وإنعامه العميم، يقول - عز من قائل: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣] أي: فكيف تقلبون عن هذه الحقيقة وتصرفون عنها مع إيمانكم الموجود في فطركم؟!.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾ [فاطر: ٥ - ٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨] نظم هذا بما اتصل به من تأفيكهم عن حقيقة الفطرة المخبوءة في ذواتهم، يقول: زين لهم الشيطان سوء أعمالهم وحسنها لهم، وفي الكلام حذف تقديره ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨] وقد أضله الله فمن يهديه من بعد الله من أعرض عن الحق بعدما تبين له، استدرجه الله بنعمه وقرن به شيطانًا يصده عن سبيل الحق ويزين له ضلالته، فكلما أمعن في السير ازداد عن رشده بُعدًا.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨] أي: إن هذا مرادنا منهم وأمرنا وحكمنا فيهم(١).

---

(١) قال ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة. وقال سعيد بن جبير: نزلت في أصحاب الأهواء والبدع. وقال قتادة: منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم، فأما أهل الكبائر فليسوا منهم؛ لأنهم لا يستحلون الكبائر. ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ﴾ شبه وموه عليه وحسن ﴿لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي: قبيح عمله ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾ زين له الشيطان ذلك بالوسواس، وفي الآية حذف مجازه: أفمن زين له سوء عمله فرأى الباطل حقًّا كمن هداه الله فرأى الحق حقًّا والباطل باطلاً ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [تفسير البغوي (٦/٤١٣)].

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾ [فاطر: ٩ - ١١].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر:٩] أعلم - جل ذكره - أن إحياءه الموتى يوم يحشرهم يكون عن إرساله الرياح اللواقح، فينزل الماء من السماء إلى الأرض.

قال رسول الله ﷺ: «ماء كمني الرجال ينبت الله به أجسام الموتى»(١).

ثم أعلم أن هذا أيضًا آية على إحيائه الموتى «موتى القلوب» لكن بباطن من الأمر، ثم يرسل إليها روح الإيمان فييسرهم لأعمال الصالحات، ويبعثهم إلى طلب مرضاته والعمل بطاعته، ذكر ذلك معنى ومجاورة في سورة الأعراف.

قوله جل ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَللهِ العِزَّةُ جَمِيعًا﴾(٢) [فاطر:١٠] يقول، وهو أعلم بما ينزل: من أراد الاعتزاز بالكثرة والأولياء والأنصار والعدة فليطلبها في مظانها وعند حقيقة وجودها، وإنما ذلك عند الله، فإن العزة جميعًا لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن ابتغاها عند سواه فحظه الخيبة والخسران، وما كان من ذلك

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٩٦٤٥).

(٢) ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ قال الفراء: معنى الآية من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعًا. وقال قتادة: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله معناه الدعاء إلى طاعة من له العزة؛ أي: فليطلب العزة من عند الله بطاعته، كما يقال: من كان يريد المال فالمال لفلان؛ أي: فليطلبه من عنده، وذلك أن الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا به التعزير كما قال الله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ...﴾ [مريم:٨١ - ٨٢]. [تفسير البغوي (٦/٤١٤)].

فكلمع السراب للظمآن متى جاءه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أتبع ذلك ما هو في معناه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠].

قال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلا الله لا يحجبها عن الله شيء**»(١).

وجاء أن: «**كلمة لا إله إلا الله لو كانت في حلقة حديد لفصمتها حتى تخلص إلى الرب تبارك وتعالى**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماوات والأرض**»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠] معنى ذلك: والعمل الصالح يرفعه الله، أي: يخبؤه في الخزائن على الابتداء والخبر، فيكون الضمير عائدًا على الله - جل ذكره - ويمكن أن يكون أيضًا معنى: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ شهادة الحق «لا إله إلا الله» والعمل الصالح يتمها، وإذا أتمها رفعها؛ لأنه من لم يشهد شهادة الحق لم يرفع له عمل ولم يفتح له أبواب السماء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:١١] يريد، وهو أعلم: إنما يكتب من عمر لمعمر فيبلغه أو ينقص له من ذلك العمر، لأسباب معرضة وأواسط مقدرة، لتعجيل ما لم يشأ الله تأخيره إلى الأجل الأقصى لمشيئة سبقت له في ذلك، كل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، أي: إن هذا يكون هكذا الأمر كذا وسبب كذا، لقدر كذا ومراد كذا، وهذا يكون هكذا لأمر كذا وسبب كذا لقدر كذا وأمر كذا، كل ذلك عليه يسير.

وهذا - وفقك الله - معلوم من اسمه «المحيط» ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] وقدرةً ومشيئةً وإيجادًا، وكما الهوى قد عم متصرفات ساكني البر،

---

(١) ذكره بنحوه السيوطي في اللآلي المصنوعة (٢/٢٩٠).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٦٧٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٣)، ومسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧) وقال: صحيح. والدارمي (٦٥٣)، وأبو عوانة (٦٠٠)، والطبراني (٣٤٢٣) وابن منده (٢١١) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٠٩).

وكذلك الماء قد عم بتصرفات ساكني الماء، وسقف السماء قد عم وجود ما تحت أديمها على اختلاف تصاريف الوجود كله، والعرش العلي قد عم متصرفات ما شمله الكون تحت العرش، فكذلك الأمر العلي قد عم متصرفات ما شمله الكون، وكذلك العلم المحيط ومشيئته العالية وقدره الأعلى قد زم جميع المعلومات والمرادات والمقدرات، وكذلك العلم الأعظم واللوح قد وسع كتب الكائنات على وجودها وزم فيه جميع المقدرات، كتب ما شاء كتبه، وتأخير ما شاء تأخيره، وتعجيل ما شاء تعجيله، وتكوين ما شاء تكوينه، وترك ما شاء تركه، بأسباب ذلك وأواسطه وعوارضه وموانعه وموجباته، له الخلق وله الأمر تبارك الله رب العالمين.

و«إن» في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١] لكفاية لجمع ما تفرق على الفهم جمعه، وزم ما عسر على الوهم زمه؛ يعني: أن يسيرًا عليه أن ينقص من عمر معمر ما فيكون ذلك نقصًا من أجل أجله، ويزيد في عمر معمر ما فيكون زيادة على أجل قد أجله، وكل ذلك قد تقدم فيه تقديرًا وعملا وعلمًا وزمًا؛ لأنه قد أحاط علمًا بما هو كائن كيف هو كائن، وما ليس بكائن كيف كان يكون، لو كان علمه بذلك كله سواء؛ لأنه علم واحد أحاط بجميع المعلومات ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٢ - ١٤].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ

أُجَاجٌ...﴾[1] [فاطر:١٢] الفرات: أطيب الماء وأعذبه، وهو موجود عن فتح الله رحمته، والأجاج: الملح الزعاق الكريه، ومنبعث وجوده كذلك عن فيح جهنم، هذا مثل ضربه الله - جل ذكره - للإله الحق - جل ذكره - ولما يعتقدونه من إله باطل.

يقول: وما يستوي هذا ولا هذا وإن كانا معًا توجد عندهما المعايش وطلب الأرباح والحلي، وربما كانت الفوائد في الماء الملح الذي هو البحر أعم والمنافع أكثر، فإنما ذلك بفضل رحمته في الفتح، وهو المعنى المعبر عنه بقوله في كتابه العلي السابق الصادق: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[2] فذلك الموجود من منافع ما هنالك عن إثارة بركة قدمه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وقد تقدم في «سورة البقرة» إلماع تقريب يكتفي به اللقن الثبت، وإلى هذا فإن المعايش والمنافع في هذه الدار حيث هو معظمها وعمدة وجودها، والبحار أعم وأكثر من الأنهار.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] ولما كانت الدنيا هي السجن للمذنبين، وكان ذلك عمدة لوجودها والموجود فيها فكان المتاع في جنبة ذلك أكثر وأعم.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٣ - ٣٥] فأخبرك الصادق النصيح - جل ذكره - بسر المراد، وأنه لولا

---

(١) ذكر سبحانه نوعًا آخر من بديع صنعه وعجيب قدرته، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فالمراد بـ«البحران» العذب والمالح، فالعذب الفرات الحلو، والأجاج المرّ، والمراد بـ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾: الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته. وقرأ عيسى بن عمر: «سيغ» بتشديد الياء، وروي تسكينها عنه. وقرأ طلحة وأبو نهيك: «مَلح» بفتح الميم. ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ الظاهر أن المعنى: وتستخرجون منهما حلية تلبسونها. وقال المبرّد: إنما تستخرج الحلية من المالح، وروي عن الزجاج أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا، لا من كل واحد منهما على انفراده، ورجح النحاس قول المبرّد. [فتح القدير (١٣٠/٦)].

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٧١٤٥).

فضل رحمته لجمع خيرات هذه الدار في تلك الجنبة وأبقى جنبة التقوى في هذه الدار دون خلد ولا متاع؛ توفيرًا عليهم ذلك لدار خلودهم.

قال رسول الله ﷺ لعمر ﷺ قد ذكر ملك فارس والروم وقلة الشيء عند رسول الله ﷺ فقال له: «**يا عمر، أو لا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»[1] إنما يوجد طعم الإيمان وبرد اليقين بروح الإيمان وروح الرضا، وحياة العمل وصفات تلك الحياة، والكفار لا يجدون أجاج الكفر وكربه [...][2] لوجود موت الجهل وعدم صفات الحياة التي أوجدها المتقون بروح الإيمان.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**﴾ [الحديد:٦] مثل للكفر والإيمان وإتباع هذا هذا، وهو أيضًا مثل للإله الحق - جل وعز - ولما لا يعلمونه من إله باطل، يقول ﷻ إعلامًا لعباده بأنه أوجد الكفر والإيمان، وخلق ما هو مثل للحق والباطل، ونظم على ذلك معاني موجودات الدنيا وجزاء الآخرة، ليري حكمته وتظهر قدرته، ويجعل ذلك كله ثوابًا لعباده المؤمنين في الدار الآخرة لإيمانهم بذلك، وعملهم بطاعة بارئهم في ذلك.

قال الله عز من قائل: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ**﴾ فهذه إثارة رحمته فيها ودلالة على موجودها في الآخرة، لذلك قال: ﴿**بِنِعْمَةِ اللهِ**﴾ وقال: ﴿**لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ**﴾ [لقمان:٣١] لما قد يعتري البحر من اغتلام، والفلك من هول موج وريح عاصف وغرق مع ما تقدم ذكره وأشار إليه في جنبة الإنعام، ثم جمع ذلك بقوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ [لقمان:٣١] وقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُورًا**﴾ [الفرقان:٦٢].

وإيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل هو ما ينقصه من هذا فيزيده في هذا، أجرى حكمته في ذلك على تدوار دوائر محكمة التدوار، وكذلك سخر الشمس والقمر لمنافع العباد، كل يجري لأجل مسمى، يعلم بذلك أن الدنيا لها أجل مسمى ينتهي إليه أمدها، ثم تخلفها الآخرة كما يخلف النهار الليل.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩)، وابن ماجة (٤١٥٣)، وأبو عوانة (٤٥٧٣).

(٢) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ﴾ [فاطر:١٣] كما قال: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم:٤٠].

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] قالوا: هو القشر بين لحمة التمر والنواة كالسحاة بين قشر البيضة، وكذلك البصلة، والمراد: أنهم لا يملكون شيئًا ولا يستطيعون ولا يسمعون ولا يبصرون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يقول الله عز من قائل: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤] ما أعذب خطابه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وأبلغ نصائحه وأكرم مواجهته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: ١٥ - ٢٦].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إلى الله وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] هذا دعاؤه لمن فرَّ عنه وشرد عليه، فكيف تراه يدعو من أقبل إليه، ويكرم بذكره من قصده ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦] أتبع ذلك قوله الحق: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٦ - ١٧] ما قال قط: إن نشأ نفعل كذا، ولو نشأ فعلنا كذا إلا فعله، ولو على بعد كذلك أذهبهم وجاء بقوم يؤمنون بالله لا يشركون به شيئًا، والحمد لله رب العالمين، وقد يكون الإتيان بأمثالهم دلَّ على ذلك الوجود وقوله: ﴿بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ﴾ ولم يشترط المؤمنين، لكن قضاءه لا يخليه من رحمته وفضله.

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:١٨] يقول - جل ذكره - إن الذين يأتي بهم من بعدكم لا تلحقكم سيئاتهم، ولا يؤاخذون هم بسيئاتكم كل يحمل أوزاره ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ لا يؤاخذ الابن بما جناه الأب، ولا الأب بما جناه الابن، وكذلك قراباتهم، ثم صرف الخطاب إلى رسوله ﷺ بقوله: يا هذا ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أي: لا تطمع نفسك في إقبال من لم يشاء الله إقباله ولا هدايته ﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:١٨] تعريض ببشارة هؤلاء، وإليه المصير تعريض بنذارة أولئك.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر:١٩] الكافر والمؤمن، الضال والمهتدي، المقبل إلى ربه والمولي عنه، الجاهل والعالم ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر:٢٠] ألا له الحق والباطل ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ﴾ [فاطر:٢١] الجنة والنار ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ﴾ المؤمنون والكافرون ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢] الذين شاء أن يسمعهم هم المؤمنون الذين أوجد لهم صفات الإيمان من روحهم الذي أيدهم به ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢] إثبات أن الكفار أموات، وإنما يجب الوصف بهذا للكفار الذين في علم الله، أنه لا يجيبهم بروح الإيمان أبدًا، نعوذ بالله من درك الشقاء، لذلك قال والله أعلم بما ينزل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود:١٢] كما قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ

غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: ٢٧ - ٣١].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر:٢٧] إلى قوله: ﴿عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨] هذا مثل ضربه - جل شكره - ليعلم به أنه لم يرد أن يهدي العباد كلهم وهو الواحد الأحد الطاهر المطهر القدوس خلق كل شيء، جعل على ذلك الماء آية واحدًا في نفسه، طاهرًا مطهرًا، عذبًا فراتًا، أنزله إلى الأرض، ثم صرفه إلى ما صرفه إليه من نبات محمود ومذموم، وحيوان وأناسي، كذلك وخلق أيضًا - وهو الواحد الأحد - الأرض والجبال فيها القطع المختلفات، والجدد البيض والحمر والسود والغبر، والخبيث والطيب، ويعلم بذلك أن كل وجود فعن إيجاده، وكل كثرة فعن وحدته، أوجد ذلك بجوده، وأتقنه بحكمته لحكمة له في ذلك عن وجوده العلي ظاهرة بقدرته القاهرة.

يقول ﷻ لرسوله ولمن توجه إليه بخطابه من أولي الألباب من عباده: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ﴾ واحد أحد ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ موحدًا طاهرًا مطهرًا إلى الأرض فازدواجًا زائدًا إلى ما كان علق بذلك من معنى الفتح والفيح في هواء الأجواء، وأخرج عن ذلك ما شابه ما عنه وجد أزواجًا من نبات شتى، ومن ﴿ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر:٢٧] ومن جنات معروشات وغير معروشات، ومن خبيث وطيب، وغاذٍ وقاتل، إلى غير ذلك مما في الأرض والجبال والحيوان والأناسي من مختلف الألوان والأشكال والأراييح والمنافع والمضار، والأخلاق والملل والنحل والأعمال، والجدد الخطوط في الجبال شبه الطريق بها، والغربيب: هو الأسود الحالك.

يقول الله - جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كذلك أديانهم وأذهانهم وأفهامهم ومذاهبهم ومقاصدهم مختلفة، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ الأحياء بروح الإيمان، الذين وجدوا طعمه بحياة اليقين والعلم والرضا والإسلام ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع لا ينال ما عنده إلا ببذل المحبوب ومفارقة المرغوب وبجشم الموت واقتحام المكروه في الله وعلى سنة رسوله ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨] لما يكون في أثناء

ذلك من ذنوب بعمد أو خطأ أو نسيان.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩] إلى ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٠] هذا وصف لمن خلا من الصالحين الذين أتاهم الكتاب؛ يعني: التوراة والإنجيل وغيرهما الذين قال فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر:٣١] أي: العباد الذين سبق عليهم علمه بهم من هداية أو ضلالة.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٨].

أتبع ذلك: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢] هذا المعنى معطوف بحرف «ثم» على ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾ [فاطر:٢٩] وهو وصف لصدر هذه الأمة وهم غررنا، ولكل أمة غرة.

يقول - جل قوله: ﴿أَوْرَثْنَا الكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ على عمومهم من لدن الإقرار بالشهادة، وهم على ذلك ثلاثة أصناف ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ مسرف عليها بكثرة الذنوب وتضييع أكثر الواجبات مع تمسكه بالأصل

و﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا يتوب ثم يعود، يعمل الخير ثم يقابله من ذنوبه بما يناقضه، وربما تقدم إلى مقصوده، وغلب خيره على شره، و﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وقرئ «سباق بالخيرات» بإذن الله قد احتوشته العصمة، وأيد بالروح وقصد بالرحمة ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢][(١)].

هذا القسم منتظم بالمذكورين من قبل: ﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ [فاطر:٢٩] إلى قوله: ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٠].

ثم وصل به قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر:٣١].

يقول - عز من قائل: جمعوا إلى تلاوة كتاب الله العلم بأنه ﴿الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهؤلاء هم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته، وهم السابقون بالخيرات، وهؤلاء - والله أعلم - في هذه الأمة إخوان رسول الله ﷺ الذين يشتاق إلى لقائهم سبعون ألفًا مع كل ألف سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف مع كل ألف سبعمائة ألف، فالسبعون ألفًا هم السابقون للمذكورين بقوله: «مع كل ألف سبعون ألفًا» وهؤلاء أيضًا السابقون للمذكورين بقوله: مائة لمن بعدهم المذكورين بقوله: «مع كل ألف سبعمائة ألف» جعلنا الله من الأولين بمنه ورحمته، والقسمان في الفضل دونه ارتفع الأول منهما عن مرتبة الكفر بالله والإشراك به ولم يلحق الأوسط بالأعلى ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ الله وَالله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣].

قال الله - جل من قائل: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٣] تجمعهم دار الجنة كما جمعهم دين الإسلام والإقرار بشهادة الحق، ومن عدا هؤلاء فهم أهل الكفر بالله ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر:٣٦] المعنى إلى آخره،

---

(١) عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا﴾ إلى قوله: ﴿الفضل الكبير﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «هَؤُلاءِ كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ أَمَّا السَّابِقُ بِالخَيْرَاتِ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا المُقْتَصِدُ فَإِنَّهُ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيْرًا ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ يُحَاسَبُ حِسَابًا شَدِيدًا وَيُحْبَسُ حَبْسًا طَوِيلاً ثُمَّ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ قَالُوا: الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحُزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ». [بحر العلوم للسمرقندي (٤٥٥/٣)].

النذير هنا: هو الرسول والكتاب، وقد قيل: الشيب وإن كان من النذر، والمقصود الأول ما ذكرناه، والشيب مذكر كما طول العمر مذكر.

قال الله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر:٣٧].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٣٩ - ٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] ذكر ﷻ أنه ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:٤١] وقد تقدم ذكر هذا[١] فهو لا يزيلها إلا إلى ميقات يوم معلوم عنده، وفي أثناء هذا لو يؤاخذهم بظلمهم لأهلك جميعهم أو لأزال السماوات والأرض وعجل يوم

---

(١) قال المصنف: فأخبر ﷻ أن زوال السماوات والأرض قد يكون لعظيم الافتراء من العباد، وعتوهم على ربهم وجحدهم الحق وعنادهم له، وإنه هو الذي يمسكها عن ذلك؛ لحلمه وسعة مغفرته. [٢/٢٤٤].

الانقراض، لكن يؤخرهم إلى الأجل المسمى عنده، فإذا كان ذلك وحان الحين والله أعلم بعباده من سبق له في الأزل الهداية والإيمان، ومن سبق له الكفر والضلال، ومن سبق له العفو والمغفرة، عبر عن هذا بقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ﴾ أي: في الأزل ﴿بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر:٤٥] ولذلك لا يعجله كثرة ظلمهم أنفسهم عن بلوغ الأجل المسمى، والله أعلم بما ينزل ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

تفسير سورة يــس(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ١ - ٩].

قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾(٢) [يس:١ - ٢] أقسم بحروف الكتاب

---

(١) في فضلها قال ﷺ: «اقْرَءُوا عَلَى مَوْتَاكُمْ يس» وقال ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ، وإنَّ قَلْبَ القُرآنِ سُورَةُ يس وَمَنْ قَرَأ يس كَتَب اللهُ لَهُ بقراءَتِهَا قِرَاءَةَ القُرْآنِ عَشْرَ مَرَّات» وعن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ فِي القرآن سُورَةً تَشْفَعُ لقَارِئها ويُغْفَر لمُسْتَمِعِها أَلَا وهِيَ سُورَة يس» وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يس تُدْعَى المُعِمَّة» قيل: يا رسول الله: وما المُعمَّة؟ قال: «تَعُمّ صاحبها خَيْرَ الدُّنْيا والآخِرَة، وتُدْعَى الدافِعَة القَاضِيَة تَدْفَعُ عَنه كُلَّ سُوءٍ وتَقْضِي له كُلَّ حَاجَةٍ، وَمَنْ قَرَأهَا عَدَلَتْ لَهُ عِشْرِينَ حَجّةً، وَمَنْ سَمِعَهَا كَانَ لَهُ أَلْفُ دِينَارٍ فِي سَبِيل الله، وَمَنْ كَتَبَهَا وَشَرِبَهَا أدْخَلَتْ جَوْفَه ألف دَواء وأَلْف يَقين وألف رَأْفَةٍ ونُزِعَ منه كُلُّ دَاءٍ وغِلّ» وعن أبي أُمامَةَ عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ يس يُرِيدُ بها وَجْهَه ﷻ غَفَرَ اللهُ لَهُ وأُعْطِيَ منَ الأَجْر كَأنَّما قَرَأ القُرْآنَ اثْنَتي عَشْرَةَ مَرَّةً، وأَيُّما مَرِيضٍ قُرِئَ عنده سورةُ يس نَزَلَ عَلَيْهِ بِقَدْر كُلِّ حَرْف عَشْرَة أمْلاك يَقُومُون بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا فيصَلُّون عَلَيْهِ ويَسْتَغْفِرون عليه ويَشْهَدونَ قَبْضَهُ وغُسْلَهُ وَيتّبِعُونَ جَنَازَتَه ويُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَشْهَدُون دَفْنَهُ، وأيُّما مَرِيض قَرَأَ سُورَةَ يس وَهُو فِي سَكَرَاتِ المَوْتِ لَمْ يَقْبِضْ مَلَكُ الموتِ رُوحَه حَتَّى يَجِيئَهُ رَضْوَانُ خَازِنُ الجِنَانِ بشَرْبَةٍ مِن الجَنَّة فَيَشْرَبُها وهُوَ عَلَى فِرَاشِه فَيموتُ وَهُو رَيَّانُ ويُبْعَثُ وَهُوَ رَيَّانُ وَيُحَاسَبُ وَهُو رَيَّانُ، وَلَا يَحْتَاج إلَى حَوْضٍ مِنْ حياض الأَنْبِيَاء حَتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَهُوَ رَيَّان»... إلخ. [تفسير اللباب لابن عادل (١٣/٢٧٥ - ٢٧٦)].

(٢) اختلفوا في تأويل ﴿يس﴾ حسب اختلافهم في حروف التهجي؛ فقال ابن عباس: هو قسم، ويروى عنه أن معناه: يا إنسان بلغة طيء؛ يعني: محمدًا ﷺ، وهو قول الحسن وسعيد بن =

المبين وبالقرآن الحكيم أن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه من المرسلين ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس:٤] «الياء» من الحروف المعبرة عن الإلهية وما عبر عنها وكان منها و«السين» فيما هنالك - والله أعلم بما ينزل - من الحروف المعبرة عن النبوة والرسالة ﴿وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ في معهود المفهوم من القرآن: هو ما قص عن الأنبياء والرسل والنبوة والرسالة، ويعبر عن ذلك أيضًا بالذكر.

وقد تقدم أن هذه الحروف المقطعة في فواتح السور هي واسطة بين حروف الكتاب المبين وبين حروف القرآن، ودخلت «اللام» في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ [يس:٣] لتأكيد التحقيق ﴿لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلوا بالصراط المستقيم صراط الإسلام العظيم المفطور عليه الخليقة، فأقسم - جل ذكره - بما هو من الكتاب المبين، وكما أقسم بالقرآن كذلك قال: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] ﴿ق وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ﴾ [ق:١] ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١] ﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الزخرف:١ - ٢].

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس:٥] قرئ بالرفع من تنزيل والنصب والخفض:

أمَّا الرفع: فلأنه خبر الابتداء وهو مضمر، كأنه قال: ذلك أو هو تنزيل العزيز الرحيم.

وأمَّا النصب: فعلى الإغراء أو المدح أو المصدر، وأولى من هذا كله أن يكون منصوبًا على التعظيم لشأنه والمدح له.

وأمَّا الخفض: فعلى البدل من القرآن.

وقرأ الحسن وابن أبي إسحق ﴿يس﴾ بالخفض ﴿وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ ﴿تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ بالياء مفتوحة ورفع الاسمين وقوله: ﴿العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ «العزيز» للنذارة من بأسه وأليم أخذه، و«الرحيم» للبشارة لمن آمن وأطاع.

=

جبير وجماعة. وقال أبو العالية: يا رجل. وقال أبو بكر الوراق: يا سيد البشر. [تفسير البغوي (٧/٧)].

فصل

جاء عن رسول الله ﷺ في فضائل سورة «يس» ووصف ما أعد لقارئها بما يجب التسليم له والتصديق به ما يفوت الحصر ولا يتوهمه العقل، وقال: إن الله - جل ذكره - جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء: فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] جزء و﴿يس﴾ [يس:١] جزء، وسائر القرآن جزء.

وجاء عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لكل شيء قلب، وقلب القرآن سورة يس» وإنما كانت سورة «الإخلاص» تعدل ثلث القرآن؛ لأنها وصف لله - جل ذكره - ومذكور ما فيها ذكر صفاته وذكر الله لا يعدل به غيره، وهذا جزء من ثلاثة.

الثاني: ذكر السورة وما جاءت به من أمر ونهي.

الثالث: الاعتبار.

وكانت سورة «يس» تعدل ثلث القرآن أيضًا؛ لأجل أنها سردت على الاعتبار ولواحق الإيمان بالغيب وغيب الغيب على ما يأتي ذكره إن شاء الله والاعتبار، فاعلم لا يكون موجودًا إلا بالمصابرة، ومرابطة النفس، وملازمة التذكار، ومطاولة التفكر، حتى يعود ذلك للنفس عادة، ومن لا همة له فلا حراك به إلى طلب، ومن لا جد له فلن تغني عنه الهمة شيئًا، ثم التطهر بالتوبة النصوح ولزوم التواضع للحق وقبوله من حيث وجد، والتبرئ من الحول والقوة وانتظار الفتح من عند الفتاح العليم على هذا مدار هذا الشأن، والله ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

وكان يُقال: لا يتم طلب العلم إلا بعد ست خصال: ذهن ثاقب، وشهوة باعثة، وزمان طويل، وجدة وأستاذ، ومعونة من الله، فمتى نقص من هذا شيء نقص من العلم بمقداره.

قوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس:٦] يجوز أن يكون ﴿مَّا﴾ هنا مفعوله، فيكون تقدير الكلام: لتنذر قومًا الذي أنذر آباؤهم، ويجوز أن تكون نافية، وهو الأوجه، دل على ذلك قوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس:٦] والوجهان صحيحان فقد كانت فيهم نذارة إبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما.

قال ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨] لكنهم

استولى عليهم النسيان، وحالفتهم الغفلة، واستحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله فضلوا السبيل.

قال عز من قائل: ﴿مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ [الأنبياء:٤٤] أتبع ذلك قوله الحق: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: قوله: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[١] دلَّ على ذلك قوله: ﴿**فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [يس:٧].

أتبع ذلك ما هو متمم له: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ**﴾[٢] [يس:٨] هذا من الغيب كإخباره عن حياة البرزخ وعما هنالك معهود، جعل الأغلال في الأيدي أن تشد إلى الأعناق فاجتزء بذكر الأعناق دون ذكر الأيدي والمضمر الذي في قوله: ﴿**فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ**﴾ هو الأيدي، يريد: أن أيديهم مشدودة إلى أعناقهم، فأيديهم مجموعة إلى الأذقان والأعناق، والأذقان: مجتمع اللحيين ﴿**فَهُم مُّقْمَحُونَ**﴾ القمح: رفع الرأس، فرؤوسهم مرفوعة، وهذه عبارة عن المنع إلى البطش والنظر في سبل الهدى، وعرض بذكر القمح دون النكوس إلى وصف الكبر، إنما النكوس وصف لهم في الدار الآخرة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ [يس:٩] فأخبر عن عدم البصر والمشي إلى الرب - تبارك وتعالى - كقوله ﷺ: «**وإذا أتاني عبدي يمشي أتيته مهرولاً**»[٣] فليس لهم تقدم إلى هداية ولا تأخر عن ضلالة عدموا العصمة، ولم يهدوا إلى رشاد، وهذا عقاب

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قوله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلَالاً**﴾ نزلت في أبي جهل وصاحِبَيْهِ، وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمدًا يُصَلِّي لَيَرْضَخَنَّ رأسه بالحجارة، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمَغَهُ به، فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجرُ بيده، فلما رَجَعَ إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر، فقال رجل من بين مخزوم: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلِّي لِيَرْمِيَهُ بالحَجَر فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يَرَهُمْ حتى نادوه فقالوا له: ماذا صنعت؟ فقال: ما رأيته ولقد سمعت كلامه، وحال بيني وبينه كهيئة الفحْل يخطر بِذَنبِهِ لو دنوتُ منه لأَكَلَنِي، فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلَالاً**﴾. [اللباب لابن عادل (٢١٥/١٣)].

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٧٠٩٨)، والطيالسي (١٩٦٧)، وأحمد (١٢٢٥٥).

من تجاهل بعد العلم وأعرض بعد ورود البيان، فلا تنفعهم الموعظة، ولا تؤثر فيهم النصيحة، تركهم عقوبة الله على إعراضهم عن نصائحه صمًا بكمًا عميًا لا يرجعون ولا يهتدون سبيلاً، إنما تنفع النذارة في الأحياء الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله ثم يميتهم ندمًا وأسفًا، كما قال ﷺ: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[1] ثم إليه يحشرون على ذلك.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾ [يس: ١٠ - ١٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى﴾ هو يحيي الموتى، بمعنى: إمرار الإحياء لهم وتجديده، وهو يحيي أموات الأجسام، وهو يحيي الموتى حال مماتهم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من قول ومن عمل وعقد ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢] يعني: وهو أعلم ما سنوه فخلفوه بعدهم من سنة حسنة أو سيئة، فلهم أجرها أو وزرها وأجر من عمل بها أو وزره إلى يوم القيامة، وهو يحيي الموتى موتى الأديان، والغرض الأول في هذا الخطاب: إحياء الموتى حال موتهم، ثم ما تنوع إليه الإحياء بعد ذلك بأخذه وببعثه وعلى هذا الغرض، تأسست السورة ولذلك كانت قلب القرآن، فافهم.

فضرب هذا المثل إعلامًا بذلك، ثم استاق كل ما استاقه بعد من الآيات على إثبات ذلك عند من له قلب ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] وجملة ذلك: أن الحياة في موتتنا الأولى بعد الإقرار والإشهاد لنا وعلينا، قيل: في البدء كانت باطنة

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٨٨).

في تلك الموتة، ولما أحيانا هذه الحياة أبطن فيها الموت، ودل على ذلك بإيجاد النوم فيها والنسيان والغفلة والذهول ونحو هذا، ثم هو إذا أماتنا أبطن الحياة فيها أيضًا، فإذا هو أحيانًا أيضًا إن شاء الله الحياة الآخرة ذبح الموت، فلا موت يومئذٍ إنما هي حياة ظاهرة باطنة كل على درجته ذلك؛ لأنها دار الحيوان.

قوله ﷻ: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ**﴾[١] [يس:١٣] المراد إثباته في هذه السورة: الإعلام بالوحدانية وما جر إليها وأكثر إتيان هذا الفصل هنا تعريض وتذكير؛ لأنه من سائر القرآن كالروح للجسم، ثم الإعلام بالرسالة والمرسل، وبالقرآن أنه كلامًا منزل من لدنه، ثم إثبات البعث يوم القيامة وهو إحياء الأجسام، ثم إثبات موتى الدين، وجاء هذا فيها تعريضًا وعلى سبيل ضرب المثل، ثم إثبات حياة الموتى حال موتهم، وهو في الإغماض قريب من الفصل المذكور قبله، ثم ذكر إحيائه الأحياء حال حياتهم، وهو إمرار الحياة بتجديد الإحياء.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا نائم عند الكعبة إذا أنا برجل آدم كأحسن ما أنت راء من أُدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، يقطر رأسه ما يطوف بالكعبة متوكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، فقلت: من هذا؟ قيل لي: هذا المسيح ابن مريم، ثم رأيت رجلاً جعدًا قططًا أعور عين اليمنى، يطوف بالكعبة متوكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين فقلت: من هذا؟ قيل لي: هذا الدجال**»[٢].

وقال رسول الله - صلوات الله عليه وسلامه - في حديثه المشهور: «**إن رجلاً**

---

(١) أخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ**﴾ قال: هي أنطاكية. عن ابن عباس قال: كان بين موسى بن عمران وبين عيسى ابن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة، ولم يكن بينهما فترة، وأنه أرسل بينهما ألف نبيّ من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى والنبي ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث في أوّلها ثلاثة أنبياء، وهو قوله: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾ والذي عزّز به شمعون وكان من الحواريين، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة. [فتح القدير (١٥٨/٦)].

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (١٦٩).

يخرج إليه فيحاجه ويقول له: أنت المسيح الدجال الذي أعلمنا به رسول الله ﷺ قال: فيقتله ثم يحييه، فإذا حيي يقول: الآن والله ازددت فيك بصيرة، وينادي: أيها الناس، إنه لا يفعل هذا بأحد بعدي أبدًا، فيأخذه ليقتله فلا يسلط عليه»[١] وفي أخرى: «فيأخذ بيديه ورجليه فيجعله في النار التي يرى الناس أنها نار وإنما ألقاه في الجنة»[٢].

قال فيه ﷺ: «إنه يجيء ومعه نار وجنة، فناره ماء بارد وجنته نار تحرق»[٣].

قال الله - عز من قائل: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٤ - ١٥] إلى قوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ أتبعوا الْمُرْسَلِينَ * أتبعوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس:٢٠ - ٢٥] أي: اشهدوا لي بذلك عند ربي.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ١٨ - ٢٧].

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦ - ٢٧] هذا إعلام منه - جل ذكره - بالإحياء حال الموت، وهو رجل قتله أهل الكفر؛ لأنه آمن بالله ورسله فهو

---

(١) أخرجه أحمد (١١٣٣٦)، والبخاري (١٧٨٣)، ومسلم (٢٩٣٨)، وابن حبان (٦٨٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٨)، وأبو يعلى (١٤١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٣٠)، ومسلم (٧٥٥٣)، وأحمد (٢٣٤٣١).

شهيد، فقيل له ثاني حال الموت وقد أحيى هناك: ﴿ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيتَ قَوْمِي﴾ [يس:٢٦].

قال رسول الله ﷺ: «**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»(١).

وقد تقدم ذكر هذا الإحياء وإثبات وجوده قبل هذا مقرونًا بدلائله من الكتاب والحديث والوجود، وقد قال: من احتج على خلاف هذا بقول رسول الله ﷺ: «**أنا أول من يستفتح باب الجنة**»(٢) وبما جاء: «**أن الجنة محرمة على الخلائق حتى يدخلها محمد وأمته**»(٣) إن أحدًا لا يدخل الجنة إلا بعد البعث الآخر، وهو محجوج بقول رسول الله ﷺ للأنصارية وقد قتل ابنها: «**إنها جنان كثيرة، وإن ابنك في الفردوس الأعلى منها**»(٤) وما ذكره من أن: «**الجنة محرمة على الخلائق حتى يدخلها محمد**»(٥) فصحيح، لكنها كما قال رسول الله ﷺ: «**إنها جنان كثيرة**»(٦).

وقد أسكن آدم عليه السلام الجنة، ثم أخرج منها للمقدور المقدر، ولسنا نقول: إنها الجنة التي يستفتحها رسول الله يومئذٍ تلك هي جنة الخلد وفي اليوم الموعود ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] تسعى حقيقة جنة الخلد في الحق الموجود منها في السماوات والأرض، فتكون كلها جنة الخلد، فافهم علمنا الله وإياك من علمه، ولله ملك السماوات والأرض، ولله غيب السماوات والأرض.

وقال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، وأحمد (١٩١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٠٧) بلفظ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/٣٧٦).

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٠٢٩)، وأحمد (١٢٢٧٤)، والبخاري (٢٦٥٤)، وابن حبان (٤٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٧١٣)، والنسائي في الكبرى (٨٢٣٢)، والحاكم (٤٩٣٠) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأبو يعلى (٣٥٠٠).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه أحمد (٤٢١٦) بلفظ: «شراك» بدل «شسع».

وقال الله ﷻ وذكر المحتضر: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣] إلى قوله: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] إلى آخر السورة ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥] أي: حق ما في الموت وما بعده، وذكر ذلك في سورة «الحاقة» وأن الجزاء المذكور في أثناء السورة هو الحق؛ يعني: حق اليقين الذي أيقن به المؤمن والكافر: وهو الموت برهبة البهائم وما سواها، والكلام يطول وسيذكر من ينيب.

فصل

قال رسول الله ﷺ في الدجال: «**أنه يجيء ومعه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء...**»[1].

وقال الله - جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] ولم يأت هذا بعد، وكل مثل في القرآن مضروب فله حقيقة وجود في أنه المتقدم، وله ما يماثله في مستقبل الوجود إلا ما كان من الأمثال بمعنى التشبيه، كقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥] ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١] ونحو هذا.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٢٨ - ٣٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٧٩)، والطبراني (٦٤٤٥)، وابن عساكر (٢/٢٢٩).

قوله ﷻ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:٣٠] وقرأها ابن عباس ومسلم بن جندب: «يا حسرة على العباد» بإسكان الهاء، وهي لغة عند بعض العرب يسكنون هاء التأنيث في وصل الكلام(١).

قال بعضهم:

لمـــا رأى ألا دعـــه ولا شـــبع

يريد: ألا دعه، فسكن الهاء.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس: «يا حسرةَ العبادِ» بالإضافة، وكذلك قرأها ابن أبي عبلة، وقال قتادة في بعض القراءة: «يا حسرةَ العبادِ على أنفسها» و«على أنفسهم» ومعنى ذلك والله أعلم: يا حسرة العباد أن يكونوا هكذا ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:٣٠].

وكذلك جاء عن أبي ﷺ أنه قرأها: «بلى حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون» أي: إنهم استحقوا لكفرهم أن يقول القائل فيهم: يا حسرتهم على أنفسهم أن يكونوا هكذا، كما قال - جل من قائل: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠] والله لا يقاتل كما هو لا يتحسر، سبحانه وله الحمد.

ومعنى الكلام: أنهم استحقوا أن يقال لهم: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ ومن قاتله الله قتله، وكما يقول القائل على المواجهة: قاتلك الله ما أكفرك؛ أي: إنك لكفرك تستحق أن يقال لك هذا.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ القُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١] يريد القرون المهلكة لأجل تكذيبهم المرسلين، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون وقرونًا بين ذلك كثيرًا.

أتبع ذلك - عز جلاله - ما هو تبيان لما تقدم: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] وهذا منتظم بمعنى ما ضربه من أجله مثلا فيما تقدم من ذكر

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين، وفي حرف أبي «يا حسرة العباد» على الإضافة، وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرًا. [تفسير القرطبي (٢٢/١٥)].

السعيد - رضي الله عنا وعنه - قوله لما ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ادْخُلِ الجَنَّةَ﴾ [يس:٢٦] ساعته تلك ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦ - ٢٧].

فأخبر أيضًا - عز جلاله - عن المهلكين الأشقياء أنهم الآن لديه ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] أي: للعذاب، ثم جعل بعد هذا ينسق ذكر البراهين على وجود هذا ويبين الآيات، على أن الوجود كله متناسق على تصحيح هذا الشأن يظهر مظهرًا وقد أبطنه، ثم يظهر متى شاء ذلك المبطن ويبطن ما قد كان أظهره على هذا رتب اختلاف الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر في صعودهما في البروج ونزولهما، والمحاق والزيادة وسجودهما حال جريهما وجريهما حال سجودهما إلى آخر ما أخبر عنه.

«اللام» في قوله: ﴿لَّمَّا﴾ للتأكيد، و«الميم» للنفي، وبعد هذا محذوف مقدر، تقدير الكلام: وإن كل لما هم لنا بمعجزين، بل هم جميع لدينا محضرون؛ أي: الآن، وقد قيل: إن معنى «لما»: إلا، فيكون تقدير الكلام: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وكان ذلك يكون وجهًا لولا أن اجتماع لفظتي كل وجميع في جملة واحدة غير متوجه، لا سيما على هذه المقاربة، وليس هذا من معهود حسن العبارة وبخاصة براعة القرآن الحكيم وحسن سرده [وسراوة][1] نظمه، والمحذوف في القرآن غير منكر ولا هو قليل الوجود، وكيف لا؟! وهو مطلعه قال رسول الله ﷺ: «**أوتيت من الحكمة مثلما أوتيت من القرآن**»[2].

قوله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣] هذه آية إحياء البعث، أنزل الله الماء من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها بالنبات والجنات والأشجار والثمرات، استحقت وصف الحياة لما فيها من موجود دار الحيوان وبما هو من إيجاد الحي الحق، وكذلك كل شيء.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا

---

(١) هكذا في (خ)، وهو غريب.

(٢) رواه أبو داود في المراسيل (٥٣٤)، بلفظ: «آتاني الله القرآن ومن الحكمة مثليه».

يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] أي: بالله - جل ذكره - وبالدار الآخرة، وسمى الماء: الحياة؛ للمعهود منه ذلك، وإحياء الله الأرض بالماء بعد موتها، وإخراجه منها به ما بينته عن ذلك لآية على إحيائه الموتى للبعث وإحيائه الموتى حال موتهم، ألَّا ترى أن من النبات ما يبقى على حاله ويثمر حين همود الأرض، كالنخيل والأعناب والرمان والزيتون، وأكثر أنواع الجنات والفواكه، فهذه دلالة على إحيائه الموتى حال موتهم، وكون هذه شجرات راسخة في الأرض إلى باطنها من ظاهرها عالية في السماء يدل على أن هؤلاء الأحياء هم أهل العلم والراسخون فيه، عرض الله - جل ذكره - إلى هذا في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣] فهذه خاصة دلالة على إحياء البعث والنشور مع ما يعم بالدلالة الأخرى.

ثم قال - جل من قائل، وعطف بالواو معنى على معنى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ.....﴾ [يس:٣٤] ويخلق في النبات الحب يابسًا يأكله العباد والأنعام فيكونون عنها، فيكون مأكولها حيوانًا في الكائنات عنها، فهذه حياة باطنة في موت ظاهر كان في الحب اليابس، وكونه أيضًا في حال نبته معدًا لأن يزرع، فيكون عنه نبات وحيوان كأوله، هاتان آيتان مخبرتان بكونهما حال موت وباطنهما الحياة، دلتا بذلك على أن الأموات أحياء حال موتهم حياة باطنة يظهر منها ما شاء جاعلها ﷻ ويبطن ما شاء، أخبر بذلك الصادق الحق، فوجب الحق وبطل ما كانوا من ذلك يعتقدون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس:٣٥] يمكن أن يكون «ما» ها هنا اسمًا، فيكون المخبر بها عنه ما تقدم من كونه، وآية أنه كالبناء دلَّ على الباني، والكتابة دلت على الكاتب، وكالفعل كله دلَّ على فاعله، ثم من الأعمال ما يعملون بها وليس إليهم تمامها، كما قال - عز من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣ - ٦٤] يريد: أأنتم تجعلونه زرعًا تامًا كامل الصفة ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨ - ٥٩].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ﴾ [الواقعة:٧١ - ٧٢].

وكثيرًا ما أخرج الله ﷻ أنواعًا من بديع الصنع ومحكم الفعل على أيدي بني

آدم، وقد يمكن أن تكون «ما» ها هنا حرفًا فتكون نافية، دلَّ على ذلك قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٥] وغلب الوجه الأول ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ [يس:٣٤ - ٣٥].

وقد يكون منهم الغراس وتفجير العيون وإجراء الأنهار، وليس إليهم ما وراء ذلك، فلهذين الوجهين عدد ما عملوه في الآيات وفي النعم وطالبهم بالشكر، ويكون ذلك أيضًا من فعلنا ما ليس لنا إتمامه أنه على فعل الملائكة، وبملكهم الملكوت وتحسين تماسكه وليس لهم إتمامه وتصويره، بل الله ﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾ فيه ﴿وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٦ - ٤٠].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] قالوا: الأزواج المتصلات من النبات والأحجار والحيوان، ومن القوى والصفات والألوان والصور والهيئات، وفي الأحوال والأعمال يدل على صحة ما وجهوا إليه قوله ﷻ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] أي: فروا من معصيته إلى طاعته، ومن بعده إلى القرب منه، ومن أنفسكم إليه، وفروا منه إليه، جل ذكره وتعالى علاؤه وجده ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] بل الأصل في تسميتها أزواجًا كونها عن الفتح والفيح، ثم تنوع ذلك ويتسع.

ومن ذلك أيضًا: ما ازدوج أو كان من شأنه ذلك فيسكن بعضه إلى بعض.

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ

﴿إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] فخلق الله تعالى آدم عليه السلام وخلق له زوجه منه حواء كذلك ما سوى ذلك من الأجناس، وجعل في أحجار المعادن ونبات الأرض والحيوان ما يسكن بعضه إلى بعض، ويسرع من بين الأجناس إلى جنسه، وينفر عن غيره النفار كله وعلى التوسط من ذلك، فقال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

وقد ذكر أصحاب التجارب أن في الأحجار والنبات وأنواع الموجودات الذكر والأنثى، ولذلك وجد السكن الذي تقدم ذكره، ومن الأزواج أيضًا المتقاربات قال الله - جل من قائل: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧] فربما زوجت بشيطان يضله ويزين له، أو بملك ينفعه، أو يشفع فيه ويشهد له ونحو هذا، ومن الأزواج أيضًا: المثالات، وقد تقدم ذكرها في مواضع من الكتاب.

فصل

ومن آيات الله على إحيائه الموتى حال موتهم مما تنبته الأرض أن الأرض تموت زمن همودها وعدْمِهَا الماء، وقد جعل الله من نباتها ما يكون حيًا في ذلك الوقت، كما جعل منه ما ينحطم بموتها فيصير هشيمًا حين همودها، كالنخل وشجر البلوط والزيتون، وكثير من نبات الجبال والسعراء والأودية ومجاري المياه وأشجار ما هنالك، فحياة خيار ذلك آية على حياة خيار العباد كما حياة؛ أعني: مفصوله كالعليق والدفلى وغيرهما آية على حياة المفصولين، وما تؤتي منها أكله كل حين بإذن ربه؛ يعني: بما يرضاه حين أبان إطعامه.

قال الله - جل من قائل: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم:٢٤] إلى قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم:٢٦].

وقال عيسى عليه السلام: «إنما يعرف فضل الشجر بفضل طعمه».

وقال - صلوات الله وسلامه عليه - يخاطب المرائين: «إمَّا أن تجعلوا الشجرة

طيبة وطعمها طيبًا وإما أن تجعلوها خبيثة وطعمها خبيثًا»(١) بالطعم يميز الشجر.

وقد مثل ﷺ المؤمن والمنافق والكافر ومن يقرأ القرآن ومن لا يقرؤوه بأنواع ذلك من الشجر(٢). وقال ﷺ: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها مثلها مثل المؤمن المسلم**»(٣) فكان في فحوى كلامه ومفهوم خطابه: إن من الشجر الذي لا يسقط ورقه ما يكون مثله مثل الكافر وضرب الله - جل ذكره - لنوره مثلاً بشجرة الزيتون وسماها: مباركة، وعرض بما يكون من دهنها مثلاً بذكر النبوة؛ إذ عملها دهن ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور:٣٥] أي: الإنباء والوحي، وبالحق المخلوق به السماوات والأرض الذي يكاد يبهر الأبصار ويذهل البصائر ولو لم تمسسه الأفكار بنيران الأذهان وهو يستخرج بعمل وتعب، كذلك لا يفهم معاني ما جاءت به النبوة ولا يقتبس أنوار الحق في خلق السماوات والأرض إلا بترداد الفكر واعتبار العبر واستعمال الذهن والتذكر.

وقال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٠ - ١١] أي: من استعمل ذهنه وصدق الله - جل ذكره - في اعتباره يجد كل شيء حي ونبات وحيوان وأناسي باطنًا في الماء، ثم في النبات، ثم في الحيوان، ثم في الأنعام الأناسي وغيرهم، ثم في الزيتون دهنًا باطنًا، وللأعناب والنخيل وغيرهما سكرًا ورزقًا حسنًا صفات باطنة في ظواهر ليست هي بوجه ما ولا هي بغيرها بوجه ما، كذلك الحياة في الموت

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

(٢) نصه: «مَثل المُؤمِنِ الَّذي يقرأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، ريحُها طَيِّبٌ ، طَعْمُها طيِّبٌ، ومثلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مَثَلُ التمرة، لا ريحَ لها وطعمها حلوٌ، ومَثَلُ الْمنافِقِ الَّذِي يقرأُ القرآنَ مَثلُ الرَّيْحانَةِ، ريحها طيب، وطعمها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافِقِ الذي لا يقرأُ القرآن كمثَل الْحَنْظَلَةِ، لا ريحَ لها، وطعمها مُرٌّ». أخرجه أحمد (١٩٦٣٠) والبخارى (٥١١١) ومسلم (٧٩٧)، وأبو داود (٤٨٣٠) والترمذى (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٦٨)، والبخاري (٦٢)، ومسلم (٢٨١١)، والترمذي (٢٨٦٧)، وعبد بن حميد (٧٩٢)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦١)، وابن حبان (٢٤٦)، والطبراني في الأوسط (٤٥٧١).

باطنة كما الموت في الحياة باطن، ودلائل القرآن كثيرة على هذا معهوده.

فصل

من استنصح القرآن نصحه، ومن استرشد الحكمة في العالم أرشدته، ومن استشهد الشواهد أعلمته، وفصل الخطاب في هذا المطلوب إن شاء الله والله الموفق، وعليه قد مضى فيما تقدم أن جملة الدنيا نبذة من جملة الآخرة، وقد خلق الله الدار الآخرة مصورة على صورة أوجد الدنيا على شبهها، فالدار الآخرة بما فيها زوجان والحق المبين فردهما وشفعان، والله الوتر.

قال الله ﷻ: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذا زوج ومغفرة من الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد:٢٠] هذا زوج، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ هؤلاء وهؤلاء ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

كذلك دار الدنيا تأسست على موجود فيح جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - المفصول منه العذاب في الدنيا وفي الآخرة، وعلى موجود فتح الله برحمته، كذلك أوجد الدنيا شقاء ونعيمًا، وصحة وسقمًا، وغنى وفقرًا، وسرورًا وحزنًا، وخيرًا وشرًا إلى غير ذلك من الأزواج الموجود فيها من هذه الجهة، كذلك أوجد نباتها وأحجارها في طعوم ذلك وروائحه وأعراضه ومنافعه ومضاره خبيثه وطيبه، انفصل ذلك كله من موجود الفيح والفتح، لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] أي: تذكرون بذلك الدار الآخرة بما فيها وخالقها.

ثم قال: ﴿فَفِرُّوا إلى اللهِ﴾ أي: من عذابه إلى ثوابه الذين دل عليها الفيح والفتح ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] نذير من فوت ثوابه والوقوع في أليم عقابه ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥١] وكما أن جهنم موجودها زوجان: سعير وزمهرير، كذلك الجنة موجودها زوجان منفصل هذا من الوجود العلي المعبر عن الصفات العلا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] جنة لمن خاف سخط ربه واتقى غضبه، وجنة لمن أرضاه ورضا عنه جمع ذلك للمؤمن؛ إذ هو

المنتهي عن هواه الطائع لربه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠] لما كان في جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - بحار الحميم والغسلين، كان في الجنة السلسبيل والزنجبيل والكافور والتسنيم، هذا إلى ما في هذه وهذه من موجودات ما لا تعلمه نفس ولا خطر على بال، فقد قال في الدنيا: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] والأمر في الآخرة أعظم وأعلى.

ثم قال وقوله الحق: ﴿فِيهِمَا﴾ يعني: في الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢] جمع وجود ذينك الزوجين في رحمته وأوجدهما عن رحمته فهي الجنة، كما جمع زوجي جهنم في مقتضى سخطه وموضع عذابه وعن غضبه فهي جهنم أعاذنا الله برحمته من ذلك، كما صرح زوجي الدار الدنيا من فيح عذابه وفتح رحمته من هذه فكانت الدنيا، لم تتم الآخرة إلا بأن جمعت زوجين مما هو إلى الإكرام كالجنة، وما هو إلى الإهانة كجهنم، ولا تمت الجنة إلا بأن جمعت الزوجين موجوداتهما لكن الإكرام والإنعام، ولا تمت جهنم إلا بأن جمعت موجودات الزوجين لكن للإهانة والعذاب، وصورت الدنيا من ممزوج هذا كله فافهم، وصورت تلك الحكمة صورة مائلة، وقرب ذلك الأمر فجمعت لسمعك أطراف الكلام في يسير الخطاب ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله جل وعز: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾[1] نسلخ النهار عن الليل هو

---

(١) قوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النهار﴾ استئناف لبيان كونه آية؛ أي: نكشف ونزيل الضوء من مكان الليل وموضع إلقاء ظله وظلمته، وهو الهواء النهار عبارة عن الضوء إما على التجوز أو على حذف المضاف، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ على حذف مضاف؛ وذلك لأن النهار والليل عبارتان عن زمان كون الشمس فوق الأفق وتحته، ولا معنى لكشف أحدهما عن الآخر، وأصل السلخ كشط الجلد نحو الشاة، فاستعير لكشف الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمته، وظله استعارة تبعية مصرحة، والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر فإنه يترتب ظهور اللحم على كشط الجلد، وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل، وجوز أن يكون في النهار استعارة مكنية، وفي السلخ استعارة تخييلية، والجمهور على ما ذكرنا، و«من» ابتدائية، وقيل: تبعيضية، وجعلها سببية ليس بشيء، وهذا التفسير محكي عن الفراء ونحوه تفسير السلخ بالنزع. [تفسير الألوسي (٤٦٨/١٦)].

من لدن غروب الشمس إلى ذهاب البياض الذي يكون عن بقية ضياء النهار ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] أي: داخلون في الظلام.

وقال في موضع آخر: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤] وإغشاؤه إياه من لدن أول تباشير الفجر إلى طلوع الشمس.

وقال في موضع آخر: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥] فهذا إتباعه أحدهما للآخر، وهذا هو ليل ما ها هنا ونهار ما ها هنا، ولله - جل ذكره - نهار على فوق هذا منفصل من الأفق المبين، كما له ليل أسفل من هذا منفصل من الظلمات السفلى حيث الزمهرير؛ إذ منبعثه من أسفل السافلين عن هذا وهذا يكون هذا الليل والنهار.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ [الشمس:١ - ٢] ثم قال، عز من قائل: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس:٣] فذلك النهار: هو الذي تجلى للشمس ومنه كسوتها جاء أنها تسجد تحت العرش فتكسى نورًا، ويقال لها: ارتفعي، اطلعي من مطلعك، فنورها ذلك هو من الذي يجليها، وقد تقدم أنها ساجدة بما هي مستوية، جارية طالعة أو داحضة للغروب، وعلى العبرة فسموت من هي مسامتة له حين استوائها وطالعة أو غاربة في حقه، فهي على هذا الإنزال ساجدة جارية وجارية ساجدة تكسى لسجودها؛ لأنه شكر منها لمجريها ومنورها، وتجري بأمر مسخرها من أجل إنعامه عليها، كذلك يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك كل شيء إيجادًا وإفناءً إبطانًا لأحد الأمرين وإظهارًا للآخر، وهذا كله إعلام منه بوجود الحياة حال الموت، ووجود الحياة حال الموت في هذه ﴿وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢].

فقد أفصح لك الاعتبار المتصل بالوحي بالعلم من حيث منبعثهما، وأن النهار منفصل من نهار هو متصل بالأفق المبين، وأن الليل منفصل من ظلام متصل بأسفل السافلين، كما قال عيسى ابن مريم عليه السلام حيث يطول العويل وقلقلة الأضراس، وأنهما منفصلان معًا من الآخرة: هذا من الجنة وهذا من النار، فافهم ذلك.

قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨] وقرأ ابن

عباس وعكرمة وابن أبي عبلة «لا مستقر لها»[١] بالألف، وكذلك رواه ابن عباس عن النبي ﷺ، وقد تقدم الكلام على معنى القراءتين، وأنها ساجدة من حيث هي طالعة في سمت قوم مستوية في حق آخرين وغاربة عند قوم، وعلى التدريج بين ذلك.

وسبيل عبرتنا على ما نحن بصدده: أنها جارية على الظاهر منها، وهي ساجدة في باطن حالها؛ لأنها من حيث هي قائمة هي ساجدة، وما هي طالعة ودالكة هي جارية، وهي لا تزال أبدًا أن تكون في سمت ما فهي في حق أولئك قائمة أو داحضة أو طالعة أو غاربة فهي في حق أولئك جارية، فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «**أتدرون أين تذهب هذه الشمس...**» وفيه: «**أنها تذهب حتى تأتي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي اصبحي طالعة من مطلعك**»[٢] فأخبر رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - عن جريها في الأيام من مطلعها إلى مغربها، وتولى القرآن العزيز الإخبار عن مطالعها ومغاربها وجريانها في ذلك، وتأخره يلحق الإخبار بالقرآن عن سيرها يومًا يومًا من مطلعها إلى مغربها، فتأويل قول الله ﷻ على العبرة بمطالعها ومغاربها في النجوم من أيام السنة، وهو أعلم بما ينزل.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨] إن مستقرها آخر مطالعها من المطالع الشمالية والجنوبية، فأطول أيام شهور السنة أقصر لياليها في البروج الشمالية، وذلك منها عند خروجها من اليومان إلى السرطان، وهو آخر درجات الشمس في الشمال، كذلك إذا توسطت البروج الجنوبية عند حلولها بآخر القوس ورأس الجدي كان انتهاء قصر الأيام وانتهاء طول الليالي، ثم بحلولها في أول الشمالية - وهو الكبش - يستوي الليل والنهار ويعتدل الزمان لقطعها الجنوبية واستقبالها الشمالية، ثم إذا كانت الشمس في آخر الشمالية ورأس الجنوبية وذلك عند حلولها برأس الميزان كان الاعتدال الثاني، فعند الانتهائين في قصر الليالي

(١) انظر: تفسير البغوي (١٨/٧)، وفتح القدير (١٦٣/٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩)، وأبو عوانة (٣٢٠)، وابن حبان (٦١٥٣).

وطول الأيام وطول الليالي وقصر الأيام يختلف النفسان بالحر والبرد، ثم على قدر القرب من الاعتدال في الوسطين يكون التوسط من ذلك.

فقوله ﷻ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨] معناه: وآية لهم الشمس تجري؛ أي: على مطالع الدنيا والآخرة، وهما نفسا جهنم، ومظان فتح الله برحمته.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [يس:٣٨] قدر مسالك نفسيها على سنن تدبيره وكريم إتقانه، وسخر جهنم لعباده رحمة تعلهم ببردها من حرها، وتنعشهم بحرها بدلاً من بردها ذلك لمشيئة الله - جل ذكره - فيها وبها، ولما يجعله فيها من قدمه الذي قدمه بين يدي تقديره المشار إليه بقوله الحق: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم تمتلئ وتفور وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرحمن فيها قدمه، فتقول: حسبي حسبي حسبي، قط قط قط**»[1] وفي أخرى: «**حتى يضع رب العزة فيها قدمه**»[2] فتكريره «**حسبي**» و«**قطي**» و«**قط**» على ما جاءت به الروايات كما أخبر به عن ربه إعلام بأن ذلك الانزواء بعضها إلى بعض الأمر بعد الأمر كما هو في الدنيا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى * أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٥-٥٧] فافهم وتيقن واصبر ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم:٦٠].

ثم قال: وقوله الحق: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس:٣٩] قرئ بالفتح لراء والرفع، فالرفع تقدير الكلام عليه: وآية لهم القمر، وعلى الفتح للراء: أن أعمل الفعل في قوله: «قدرنا» تقدير ذلك: وقدرنا القمر منازل، يمكن أن يكون معنى قوله ﴿قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ نقصناه، ويكون أيضًا بمعنى التقدير بأن القمر يقطع البروج كلها في شهر زيادة ومحاقًا، ومسالكه في الصيف على مسالكه في ليل الشتاء وفي ليل الصيف على مسالكه في نهار الشتاء، وبالجملة: فإن الشمس منسوبة إلى الحرارة،

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٥٥٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٠٣)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والبخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨)، والنسائي في الكبرى (٧٧٢٥)، وأبو عوانة (٤٦٣)، وابن حبان (٢٦٨).

فهي إلى نفس السعير أقرب.

قال رسول الله ﷺ: «**إلى نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلكت ما على وجه الأرض**»(١).

وقال: «**ما ترتفع من قصبة إلا فتح لها باب إلى جهنم**»(٢).

والقمر منسوب إلى البرد، فهو إلى نفس الزمهرير أقرب، والليل آية على جهنم وموضع حرها في هذه الدار قد شغله كون الشمس وسقى له موضع البرد ظهور والزيادة فيه، والنشء منسوب إلى الرحمة والنقص منه، والمحاق منسوب إلى جهنم، ألا تراه يقطع البروج كلها في الشهر وكماله في الثلاث ليال من وسط الشهر، كالشمس إنما يكون اعتدال الزمان بها وذهاب الحر والبرد إذا كانت في الكبش أو في رأس الميزان؟ وعلى قدر المقاربة من ذلك فيما قيل وفيما بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أشهر في هذا وهذا.

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس:٤٠] أتى لها تدركه وهو رقيبها طلوعها لغروبه، والشمس متى كانت في مسالكها في الشتاء ظاهرًا كانت على مسالكه باطنًا، وكان هو على مسالكها الظاهرة باطنًا وعلى مسالكها الباطنة ظاهرًا؛ أعني: أن طرقه في ليل الشتاء على طرقها في نهار الصيف، وطرقه في ليل الصيف على طرقها في نهار الشتاء، والمعتمد في هذا الكلام على كونه قمرًا وبدرًا، ذلك قوله - عز من قائل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ ثم قال، وقوله الحق: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس:٤٠].

أمَّا نهار ما عندنا وليل ما عندنا فهما ماداما مكوران ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥] على ذلك سخرهما من هذه الجهة هذا يتبع هذا وهذا يتبع هذا، وأمَّا النهار الذي تقدم ذكره الذي يجلي الشمس وهو المنبعث عن الأفق المبين فهو الذي يغشى هذا النهار على الليل بإذن ربه، ويطلبه الطلب الحثيث فيدركه على الحين المقدر والوزن المقسط ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٣٤).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠)، وقال الهيثمي (١/٣٠٧): إسناده حسن.

كذلك أوجد الله ﷻ الظلام نافرًا عن النور، فما الظلام مكور مع النهار أدركه ضياء النهار العلي وحكمه وبما هو الحاكم عليه؛ لأنه من علو والأعلى ينتظم الأسفل أبدًا لم يسبقه الليل، بل إدراكه لذلك عجب ﷻ من هذا بقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] أي: إن حكم النهار العلي قد فات حكم الفلك وإن كان موكلاً به؛ إذ هو بحكم المشيئة وبحكم ما هنالك سبحانه وله الحمد ما أحسن ما دبر وأتقن ما صنع.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨)﴾ [يس: ٤١ - ٤٨].

قوله - عز من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾(١) [يس:٤١] المطلوب الأول: إتيانه بترداد هذه الآيات هو إثبات وجود الغيب باطنًا في ظاهر الوجود، والمعتمد من ذلك على تبيان قوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي

---

(١) قد اختلف في معنى ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وإلى من يرجع الضمير؛ لأن الضمير الأوّل، وهو قوله: ﴿وَءايَةٌ لَّهُمْ﴾ لأهل مكة أو لكفار العرب، أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد ﷺ، فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية؛ والمعنى: إن الله حمل ذرّيّة القرون الماضية في الفلك المشحون، فالضميران مختلفان، وهذا حكاه النحاس عن عليّ بن سليمان الأخفش. وقيل: الضميران لكفار مكة ونحوهم؛ والمعنى: إن الله حمل ذرّيّاتهم من أولادهم وضعفائهم على الفلك، فامتنّ الله عليهم بذلك؛ أي: إنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. وقيل: الذرّيّة: الآباء والأجداد، والفلك: سفينة نوح؛ أي: إن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح. قال الواحدي: والذرّيّة تقع على الآباء كما تقع على الأولاد. قال أبو عثمان: وسمي الآباء ذرية؛ لأن منهم ذرء الأبناء. [فتح القدير (٦/١٦٧)].

المَوْتَى﴾ [يس:١٢] كقوله إثر الاستشهاد بالشواهد وسرد سياق الدلائل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ هذا هو المطلوب الأعلى ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى﴾ هو المطلوب الأعم في هذه السورة وأكثر القرآن ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] هذا مطلوب ثالث في تعرف الصفات العلا.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ هذا مطلوب رابع في تعرف اليوم الآخر والدار الآخرة وما في ذلك ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ [الحج:٧] هذا مطلوب خامس.

كذلك قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] فهذه من آياته - جل ذكره - على إثبات حياة البرزخ، وهي الحياة حال الموت، وذلك أنه حملنا - جل ثناؤه - في سفينة نوح ﷺ في أصلاب الآباء قبل إيجاده إيَّانا، وأخبر عن ذلك بصدق قبله فبأن يحملنا بعد الإيجاد على ركوباتنا التي قطعنا عليها بحر الدنيا في مسافة العمر أولى وأحرى؛ إذ تأويل الطوفان: الموت، وتأويل مدته: مدة البرزخ، وتأويل الفلك المحمول فيه: الجسم ومحموله، وتأويل عبورهم بالفلك من موضع ركوبهم إياه إلى موضع نزولهم عنه في الأرض: كعبور المثالات بالثروات من الدنيا إلى الآخرة.

ولما عدموا الفلك - أعني: سفينتهم تلك - خلق لهم سفنًا من مثلها ما يركبون؛ إذ هو سيرهم في بحار الدنيا، وخلق لهم الأنعام حمولة في تسياره إياهم في البر، وكذلك خلق لهم من مثل هذه الأجسام ما يحملهم عليها مدة البرزخ حال عدم الأجسام يعبرون بها بحر الموت مدة البرزخ.

قال الله - جل من قائل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] خاطبنا بذلك ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: على ما تقدم ذكره، وعلى أنه أنعم علينا، فلم يكن ممن أغرقه وأهلكه لعصيان الرسل والكفر به، نعوذ بالله من مواقع سخطه.

ثم قال: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] فعجب لذلك إن هذا لهو العجب المعجب، إشارة إلى هذا الغيب المغيب وتنبيهًا عليه.

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن الله ﷻ لم يزل ولا يزال يرى الكائنات ويسمعها كما هو يعلمها لم يزدد بعد إيجاده إياها علمًا بها، خلا أنها كائنة اليوم ظاهرة لأنفسها ولم

تكن قبل ظاهرة لأنفسها، والحوالات تحول على المحدث المرئي المعلوم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] وقد وصفه على ذلك بأنه قد أتى عليه فبأن يوجدنا حال الموت أولى وأحرى، كما أوجدنا حال العدم وكنا على ذلك نستحق الوصف بأنا محمولون، وقد أخبر بذلك الحق المبين فهو الحق لا مرية فيه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] وقد تقدم في سورة «النحل» من الكلام في مثل هذا وكذلك في سورة «المؤمنين» وفي سائر المواضع من هذا الكتاب ما يغني عن الإسهاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:٤٥] يمكن أن يكون معنى قوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما في الأرض من مُثْلَات الله - جل ذكره - في المهلكين، وعقوباته في القرون الخالية من المكذبين، وما بين أيديكم أهوال الآخرة وعقوباتها، ويمكن أن يكون معنى ذلك: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من السماء أن تسقط عليكم، أو يرسل عليكم منه عذاب يهلككم به، وما خلفكم من الأرض أن يخسف بكم، فإن ما علا ينسب إلى الأمام، وما سفل ينسب إلى الوراء، وكلامه العظيم - جل ذكره - يسع ذلك.

وما هو أعم من ذلك قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس:٤٦].

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس: ٤٩ - ٥٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي

ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس:٥٥ - ٥٦].

يقول - عز من قائل: ﴿أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ أي: من نعيمهم وتفكههم؛ يعني: تنوعهم في التنعم وحسن مثواهم مع غبطتهم بما صاروا إليه في شغل عما هم أهل النار فيه من عذاب دائم وخزي لازم وعقاب سرمد - نسأل الله البر الرحيم رحمته ونعوذ به من عذابه - أتبع ذلك ما هو كمال لنعيمهم وإتمام لإكمال إكرامهم وحبورهم.

﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يس: ٥٨ - ٦٧].

قوله - جل ذكره: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] وهو خطاب أشار به وهو أعلم بما ينزل إلى الزيادة واللقاء والرؤية والتحية العليَّة منه لهم والكلام الكريم، ثم في مقابلة ذلك من وصفهم.

قوله - عز من قائل: ﴿وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا المُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩] ميزهم بسواد الوجوه، وزرق العيون، وقبح التصوير، نعوذ بالله من درك الشقاء بمنه وكريم إحسانه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس:٦٠] ذكرهم بعهده إليهم أولاً.

قوله - جل من قائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧] المعنى: وقوله لآدم ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:١١٧] فلما عصى آدم ﷺ ربه أخرجه من

الجنة، ولما أطاع الكفار إبليس منعهم الله الجنة وعوضهم النار ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس:٦٦ - ٦٧] المعنى: هذا منتظم بقوله في صدر السورة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٨ - ٩] هذه عقوبة من الله - جل ذكره - لهم في بواطنهم، ثم نظم بهذا قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس:٦٦].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس:٦٧] أي: من الكفر.

يقول - جل من قائل: لو نشاء لأوصلنا مسخ بواطنهم بمسخ ظواهرهم وعمى بواطنهم بعمى ظواهرهم، كما قال في صدر سورة «البقرة» بعد قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:٢٠] أي: الظاهرة كما أذهب ذلك منهم في بواطنهم.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يس: ٦٨ - ٧٦].

قوله - جل ذكره: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ﴾ هذا منتظم بذكر الإعادة بعد البداية في هذه السورة وفي سائرها من القرآن، حيث جاء لذلك قال: ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٨] أتى الغائب بالحاضر، فتقضون للماثلات بأحكام ما يماثلها.

قوله ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[(١)] [يس:٦٩] هذا منتظم بالمعنى الذي أقسم ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ *

---

(١) فيها مسائل:

المسألة الأولى: كلام العرب على أوضاع منها: الخطب والسجع والأراجيز، والأمثال، والأشعار. وكان رسول الله أفصح ولد آدم، ولكن حجب عنه الشعر استغناء بفصاحة القرآن الخارج عن أنواع كلام العرب الفصحاء، كما حجب عنه الشعر استغناء القرآن الخارج عن أنواع كلام العرب الفصحاء، كما حجب عنه الكتب إبقاء له على الأمية، لتقوم به الحجة، ويتبين علمه، وأن ذلك من الله.

المسألة الثانية: اعلم أن القرآن معجز خارج عن أوضاع الشعر، قال أخو أبي ذر لأبي ذر. لقد وضعت قوله تعالى على أجزاء الشعر، فلم يكن عليها ولا دخل تحت بحر من بحور العروض الخمسة عشرة، ولا انفك من دائرة من دوائر الخمس، ولقد اجتهد الناس في إدخال القرآن تحت دائرة من هذه الدوائر فلم يقدروا، وقد استوفيا الكلام في العروض في كتاب.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. اعترضه جماعة من الملحدة في نظم القرآن والسنة بأشياء أرادوا بها إيراد النقض على الآية، وقالوا، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. وهذا تأكيد على نفي الشعر عنه، ثم اعترضوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وقالوا: إن هذا من بحر المتقارب.... والجواب: إن هذا لا يلزم، فإن وزن البيت ينتهي إلى قوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ﴾ فإذا وقفنا هنا لم يستقم الكلام، وإذا أتممنا الآية، لم يكن ذلك شعرًا، لأن المتقارب مثمن في التفعيل، والآية معشرة، فاندفع الاعتراض، وأيضًا، فاعترضوا، بقوله تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. وقالوا: إنه من الوافر.... والجواب: إن هذا فاسد، لأن الآية إنما تكون بوزن البيت، إذا زيدت ألف بعد نون المؤمنين، وزيادة الألف يخرجها عن القرآن ونقصانها يخرجها عن الشعر. وأيضًا، فقد اعترضوا بقوله، عليه الصلاة والسلام: أنا النبي لا كذب، أنا بن عبد المطلب، وقالوا: إنه من الرجز، والجواب، كما قال الأخفش: هذا ليس بشعر، وقد كان رسول الله ﷺ يتمثل بأبيات منها لطرفة.. وقال: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا. فقدم وأخر امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فقام أبو بكر، وقبل رأسه، وتلا الآية... إلخ.

المسألة الرابعة: سئل مالك عن إنشاد الشعر. قال: لا تكثر منه. فمن عيبه أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. قال مالك: وبلغني أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري أن اجمع الشعراء واسألهم عن الشعر، واسأل لبيدًا عنه قال: فجمعهم وسألهم: فقالوا: إنا لنعرف الشعر، ونقوله. فقال لبيد: ما قلت بيت شعر منذ سمعت الله يقول: ﴿الم ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. [الأحكام الصغرى ص٥١٦].

﴿تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس:١ - ٥] إلى آخر معنى الرسالة والمرسل به.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يريد، وهو أعلم: النبي والقرآن الذي جاء به وأخرجه مخرج الواحد لا مخرج التثنية على معنى: أن هذا الأمر الذي كذبتم به وافتريتم عليه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩] القرآن ذكر، والرسول ذكر، وكون القرآن مبين أي: مبين بإعجازه وعظيم مكانته أنه من عند الله.

ثم قال وقوله الحق: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [يس:٧٠] لم ينزل الله - جل ذكره - كتبه ولا بعث رسله ليؤمن من لم يرد الله الإيمان منه، ولا خلق الشياطين والفتن والكفر والتكذيب ليكفر أو يضل من لم يرد الله ذلك منه، بل لم يفعل الله ذلك بحكمته إلا ليحق كلمته الحق: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، وهؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[١] فيحيى بذلك الحي عنده، ويؤمن من كان عنده في الأزل مؤمنًا وحيًّا.

ألا تسمعه يقول - جل من قائل: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًا﴾ أي: من كان عندنا في الأزل حيًّا ﴿وَيَحِقَّ القَوْلُ﴾ منا في الأزل ﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [يس:٧٠] أي: في الأزل عندنا وفي علمنا.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس:٧١] وتبيان القرآن أبدًا يعبر تارة بضمير الواحد وذلك خطاب القبض، وتارة بضمير الجمع، وذلك خطاب البسط، فنسب الأعمال إلى الأواسط، والأنساب لأجل نسبتهم وتوسطهم بما وهب لهم من الاستطاعة والكسب، وحقيقة الحق: هو عقد القلب إن الله فاعل الأفاعيل وخالق الكل، وهو خالق الأواسط والتوسط، والأسباب والسبب، وأعمالهم وقدرهم، لا إله إلا هو الواحد القهار.

قال رسول الله ﷺ وذكر النطفة: «**تقع في الرحم أنها تقع في كفِّ الملك، فيقول: أي رب نطفة؟ أي رب علقة؟ أي رب مضغة؟ فيقضي الله قضاءه ويكتب الملك، قال: ثم ينفخ فيه الروح**»[٢] يعني: الملك، وكذلك سائر المخلوقات في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢)، ومسلم (٢٦٤٦).

النبات والجماد والحيوان كله إلا ما جاء من الخصوص في قول الله ﷻ عن آدم ؑ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وقال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم بيده، وغرس شجرة طوبى بيده، وكتب التوراة بيده، وقال لكل شيء غير ذلك: كن، فكان**»(١).

قال الله ﷻ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:١-٥].

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات:٣ - ٤] ونحو هذا.

وقال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] وتصور ذلك صورة قائمة في قوله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان...**»(٢). حتى ينتهي التبليغ والتنفيذ إلى حيث منتهى الأمر المراد بذلك، تدور بذلك دوائر التدبير، والملائكة في مصافاتها يعملون له بأمره، لا يتقدمون في ذلك ولا يتأخرون عن مراده منهم وبهم، فما من ماء ينزل، ولا حب يفلق، ولا نبات يعلق ولا يورق ولا ينشأ، ولا موجود ينقص ولا يزيد ولا ينشأ ولا يضمحل، ولا من ورقة تسقط أو تنبت، أو حيوان كأين ما كان ينتقل في درجات كيانه أو يتغير، ولا شيء في الملك إلا والملكوت قد عمه جملة وتفصيلاً فاعلون في ذلك كله ما يؤمرون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، هو القائم على كل نفس بما كسبت على تحميل ذلك كله وتفصيله وتوصيله إلى تمامه ونهايته.

على هذا يتخرج قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق:٩] وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وقوله هذا: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ [يس:٧١ - ٧٢] فالملائكة تذللها، والشياطين تشرسها.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو الشيخ في العظمة (٨٢/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

قال رسول الله ﷺ: «**على ذروة كل بعير شيطان**»[1].

عرض بذكر المنافع هاهنا في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ [يس:٧٣] إشارة منه إلى منافع موجودة فيما هنالك لمن آمن بها، وهو تنبيه على نعمه عليهم ليشكروه فيلحقهم بزيادته إلى منافع ما هنالك، وفي ذكر المشارب تعريض بأنه يخلقنا عن ألبانها، وأنه يذرأنا في السماء، ثم في الماء، ثم في النبات، وربما في الحيوان، ويخلقنا عن هذا كله، وفيه تعريض أيضًا بذكر ما هنالك من ﴿أَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ [محمد:١٥] وتعريض بما أنعم به علينا هاهنا لشكره، فيبلغنا إن شاء الله منبعثه وينبوعه هناك، والحكم المطلوب العميم معرفة الفاعل المنعم المنان المتطول، ومعرفة أن الإعادة وجودها على سنن البداية غير أن الإعادة على حكم الكلمة كلمح البصر أو هو أقرب، وحكم البداية على حكم السنة، لذلك أعقب بقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٣] فيبلغوا بهذه إلى منافع ما هنالك فيتصل لهم هذا بذلك.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس:٧٦] يعزي رسوله ﷺ بأن يعلمه بأنهم يصيرون عنده إلى جزاء ما يعلم من إسرارهم وإعلانهم في قولهم له وردهم عليه وتكذيبهم إياه.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

(١) أخرجه الحاكم (١٦٢٧).

[يس:٧٧] يقول - جل من قائل: أولم ينظر الإنسان إلى حاله نطفة أين هي من حاله يخصم خصمه، ويجادل في آيات ربه بغير سلطان أتاه، يثني عطفه وينأى بجانبه ويكذب رسله، ويمكر مكر السوء على عباد الله وأنبيائه، يسعى بالفساد ليهلك الحرث والنسل، ويصد عن سبيل الله سد الله أبواب السماءِ لشؤمه فتجدب من أجله الأرض وتقل بركاتها ويشمت به العدو إبليس، وتبتئس لفعله الملائكة والمؤمنون لقبائحه وعظيم جرائمه، بل يدعو إلى نفسه ويدَّعي النبوة فيكذب على الله تعالى وربما دعا إلى نفسه واستعبد العباد وادَّعى الربوبية من دون الله.

وبالضد أين كان حاله إذ كان نطفة من كونه خصيمًا لأعداء الله، مبينًا عن نفسه وما في قلبه من حقائق معرفة الله بأسمائه وصفاته، ينظر ويعتبر، ويرى بنور إيمانه الدار الآخرة بأهوالها، والصراط والحوض والميزان والجنة والنار ماثلاً كله بين عيني فؤاده، وربما مصر الأمصار وجند الجنود واقتاد الجيوش وعلم العلوم وعبر عن ربه من وحيه، وكان لسانًا من ألسنة الله بين عباده وعينًا من عيونه في أرضه.

هذا إلى قربه من ربه - جل ذكره - وولايته وتكليمه إياه ومحادثته وإلهامه، وكونه منه موضع النظر والسعي والبطش والسمع والبصر، يجيب دعاءه ويكرم صوته، ويرحم تضرعه ويحب أعماله، يكشف به البأساء، ويدفع لأجله عن أهل الأرض البلاء، ويفتح له أبواب السماء بالرحمة وينزل به البركات والنصر، بل أين حاله نطفة من كونه خليلاً للرحمن - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - ومصطفى ونبيًا ورسولاً يسأل بينه وبين عباده ويرشدهم إليه سبحانه وله الحمد، ما أكرم صنيعه وأتقن ما خلقه!.

أين كانت حاله هذه أو التي قبلها من حاله نطفة من ماء مهين أصلها الطين؟ أليس الذي بلغ النطفة إلى ما تقدم وصفه وأنهى الطين هذه النهاية وإلى أعلى من هذا وأفخم أن يعجل في النطفة ما أخره، ويظهر فيها ما أبطنه، ويبطن ما أظهره، وما هذا في القدرة بأعجب من فسح القبر سبعين ذراعًا وللغريب مقدار ما بينه وبين بلده، وأن يجعل القبر روضة من رياض الجنة، ومن تحقيق حال يقتضي قول الله - جل من قائل: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] إلى آخر السورة.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] أحالهم - جل ذكره - أولاً على الاعتبار بالنشأة الأولى، ليعلموا بذلك صحة النشأة الآخرة، وبالبدأة على العودة، ثم ضرب مثلاً يدل به دلالة أخرى على مدلول آخر، يقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠].

يقول - جل ذكره: النار حارة يابسة، والشجر الأخضر بارد رطب، والنار غيب في هذه الدار إلى أن يقدح فتقدح كالأحياء يظهر الله بها الحياة من حال عدمها فيحيي بها المحل، كذلك النار بما هي بحكم في الشجر الأخضر فيذهب حرارتها ويبسها رطوبة الشجر وبرودتها، فإذا هي نار تتوقد بإذن جاعلها وخالقها، كذلك الحياة حارة رطبة، والموت بارد يابس، فمتى أراد المميت - جل ذكره - إماتة محل حكم فيه الموت فأذهبت برودته ويبوسته رطوبة الحياة وحرارتها، فإذا المحل ميت، ومتى أراد المميت المحيي ﷻ إحياء ذلك المحل حكم فيه الحياة فأذهب حرارتها ورطوبتها برودة المحل ويبوسته، ثم قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] على وفق مشيئته، فإذا هو حي كما قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] و﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

هذا تبيان لنا في المراد على معهود سنن السنة، وأمَّا على حكم الكلمة فهو الواحد القهار ما شاء الله لا قوة إلا بالله، كذلك أبطن الحياة على ما هي عليه من الحرارة والرطوبة في النبات على ما فيه من الرطوبة والبرودة، والنار على ما فيها من الحرارة واليبوسة، جمع ذلك كله في الشجر الأخضر على اختلاف الأوصاف وتباعد الصفات.

يقول: الذي فعل في الشجر هو فاعل هذا في الأجسام البالية ورميم العظام الفانية، وقد أنشأها أول مرة دون اعتياض ولا تعدد، فما بال الآخرة تعجزه والحياة إلى الموت أقرب وصفًا من النار إلى الشجر الأخضر لحصول الحرارة في الحياة وليس لها في الشجر من أوصافها وصف سوى وصف البرد، وإنما هو لضدها منها وهو زمهرير، فافهم وتثبت، والنار تكون في شجر الكلح والمرخ وغيرهما.

وبالجملة: فجهنم فيما هاهنا غيب على ما يبدو منها من فيح نفسها، وكذلك

الجنة غيب على ما يبدي الله عنها بفتح رحمته، هذا فعل الله - جل ذكره - وأمَّا ما عبر عنه رب العالمين من استخراجنا إياها باكتساب منا لذلك بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة:٧١] وبقوله: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠] فالزناد يقدح فتخرج النار عنه ظاهرة بعد غيبها، وكذلك ما هو معنى الجنة، نكتسبها باكتسابنا بالغراس كله والحرث والزراعة وأنواع العاجلات كلها تقوم، ولزمنا لإظهار ما هو آية على موجدات الجنان مقام قدح بالزناد والاقتباس لبعضها من بعض، عبر عن ذلك بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣ - ٦٤] تفطن - وفقك الله - لفهم معاني كتاب ربك عز جلاله.

أتبع ذلك دليلاً آخر ضرب للمراد به مثلاً حقًّا، قوله - عز من قائل: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾(١) [يس:٨١] نظم معنى هذا المثل بما تقدم في صدر القصة قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١] والإبداع في معهود العوائد أعسر من الاقتداء، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فخالق السماوات والأرض كيف يعسر عليه خلق إنسان وأناسي كثير، فقد تحصلت معاني اليسر في الإعادة بكل وجه وهو ما تقدم ذكره من موجود الحرارة في جنبة الحياة والإحياء، وللمعلوم من أن خلق السماوات والأرض وما بين ذلك أكبر من خلق الناس، والناس شعبة يسيرة مما بينهما والمعهود من عسر الإبداع بالإضافة إلى الاقتداء.

ثم نبه على دليل غير ما تقدم وهو المشاهدة بقوله: ﴿بَلَى﴾ لا بد ولا محالة، ثم

---

(١) ذكر الله تعالى ما هو أعظم من خلق الإنسان، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ هذه قراءة العامة، ودخلت الباء زائدة على اسم الفاعل، والجَحْدَرِيّ وابن أبي إسحاق والأعرج: «يَقْدِر» فعلاً مضارعًا، والضمير لتضمنهم مَنْ يعقل، ثم قال: ﴿بَلَى﴾ أي: قل: بلى هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ الخلاق العليم﴾ يخلق خلقًا بعد خلق، العليم بجميع ما خلق و«بَلَى» جواب «لَيْسَ» وإن دخل عليها الاستفهام لتصيرها إيجابًا، والعامة على «الخَلَّاقُ» صيغة مبالغة، والجَحْدَرِيّ والحَسَن ومالكُ بن دينَارٍ «الخَالِقُ» اسم فاعل. [اللباب لابن عادل (١٣/٢٧٥)].

قال: ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ﴾ أي: على الولاء ما من موجود سماء أو أرض أو فلك أو ملك أو إنسان أو جان أو هواء أو ماء أو دنيا أو آخرة إلى غير ذلك إلا وهو يجدده إيجادًا بعد إعدام أبدًا على الولاء، إذا شاء إبقاء الشيء أخلف المثل، وإذا شاء تغيره أخلف الشيء الغير، وإذا شاء إعدامه أخلف الشيء ضده، فهو ﴿الخَلَّاقُ﴾ على هذا التأويل ﴿العَلِيمُ﴾ [يس:٨١] بما يأول إليه معدوم كل شيء ومن حيث يخترع بوجوده.

ثم جمع أطراف الكلام بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] إذا شاء تعجيله دون مهلة أخرجه مخرج الكن، وإذا شاءه على حكم السنة أخرجه بأسباب وأواسط قد وكلهم إلى ذلك ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] عبر عن ذلك بقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] الملكوت عبارة عن: أعمال الملائكة - عليهم السلام - في مصافاتها، وتصرفهم في تخليق المخلوقات، وهو معدول من ملك كرهبوت من رهب، وجبروت من جَبر، ورحموت من رحمة.

وقد تقدم من تفسير قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس:٧١] ما يشرف باللقن اللبيب على سواء السبيل سبحانه وله الحمد، وعلى ملائكته الكرائم أتم السلام، هم بأمره يعملون وبأمره ورضاه، يشفعون له في إتمام ما قد شاء إتمامه على ما سبق في مشيئته وعلمه العلي، فهو الخالق الحق كما قال: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] وهم العاملون بأمره وإقداره إياهم ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١] أبدًا على الدوام، وهو الذي لا حول ولا موجود سواه، ولا قوة إلا به، هو الحي القيوم، يمسك السماوات والأرض ويمسك كل شيء على وجوده الذي أراده به ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

هو الأول في كل شيء والآخر، والظاهر فيه والباطن، وهو مسبب الأسباب وموسط الوسائط وموجدهم وموجد قدرهم وجميع صفاتهم ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣] ما ينقصه من الموجودات في كتاب وما يخلفه في كتاب وما يمسكها عليه - أعني: الموجودات - من حد وحال وكيف ولم وعن وعلى كل وجه وبكل معنى

﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] ولا يلحقه نصب ولا لغوب ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**ناركم هذه التي توقدونها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**» قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية قال:«**فإنها زادت عليها تسعة وستين جزءًا**»[1] فهذه تجزئتها من حيث هي، ثم استثنى بقوله: «**غير أنها ضربت بالماء مرتين**»[2] فبيَّن بهذا الاستثناء أن هذه النار ضربت بالماء بعد التجزئة، وأنها نار الفيح ولا شك على هذا في برد الزمهرير أنه على تلك التجزئة من زمهريرها، ثم من بعد الفيح ضربت بماء الفتح مرتين، ومن أجل ذلك سرى إليها النفع، وعلى ذلك أنها لوثًا به.

قال رسول الله: «**وإن هذه النار عدو لكم فإذا رقدتم فأطفئوا المصابيح**»[3].

يقول رسول الله ﷺ: «**لولا ذلك ما كان لابن آدم فيها نفع**»[4] إذ جهنم لم يخلقها - جل ذكره - لنفع، فمزج هذه برحمته رحمة بعباده ومتاعًا لهم في هذه الدار، وضربها الأول بالماء كونها في الجو والهواء منصعدة ومنبسطة بواسطة دوائر الأفلاك بها، فيرسل الله - جل ذكره - لواقح الرياح فيلقح الماء فيما هنالك بإذن مرسلها وكيف شاء مسخرها، ويجتمع السحاب في الهواء بما فيها وبما في الهواء من إثارة ذلك الفيح، وتمخض الملائكة السحاب وتضرب بالفيح الفيح فيزفر بالرعد وتشهق بالصعق، وربما رمت منها بشرر وهو صواعق ما يبدو لنا منها يصيب بها مرسلها من يشاء ويصرفها عمن يشاء، ويخرج على ذلك بروقًا؛ أعني: النار، وشواهد القرآن على ذلك كثيرة، فهذه الضربة الأولى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٧٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٤٣١٨)، والحاكم (٨٧٥٣) وقال: صحيح الإسناد. وهناد في الزهد (٢٣٤).

(٣) أخرجه بنحوه أبو عوانة (٦٥٧٨).

(٤) لم أقف عليه.

ثم ينزل الله الماء إلى الأرض وقد أثبت فيه معنى النار باطنًا، كما يرسل الصواعق متى شاء وقد أثبت فيهن إثارة الماء باطنًا لضربه إياها بالماء ضربة واحدة، وينبت الله النبات عن ذلك، ومنه الشجر الأخضر، فالخضرة من منبعثها الذي هو الفتح برحمته من آيات الجنة وإثاراتها، وعلى ذلك ينفع الله بها العباد، ومعنى النار هو من منبعثه الموجود عن الفيح، فموضع الدلالة من هذا الخطاب قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٨٠] إن خضرة الشجر عائدة على معدن الخضرة، وكونها نارًا يستوقد فيها وبها فتحرق، وتعدو عائد على كونها نارًا، فكونها نافعة ومتاعًا عائد على معنى الفتح الذي خالطها، لذلك قال ﷺ عقب لقوله: «**لولا ذلك ما كان لابن آدم فيها نفع**»(١).

فأرى المعتبرين من عباده - جل ذكره - أنه كما أعاد النار بعد إطفائها أولاً بالماء إلى النار؛ يعني: كونها صواعق وبروقًا ورعودًا، ثم أنزلها في الماء وقد أطفأها فيه وأبطنها عنده، فأظهرها من الشجر والحجر والحديد بواسطة الحك أو القدح بعد ضربها الثانية وإطفائها فيه وبه، كذلك هو أحيانا من موتنا الأول هذه الحياة، ثم يميتنا بعد هذه فنقوم هذه الإماتة في المستقبل مقام إطفائه النار بالماء ثانية، ثم يحيينا إن شاء الله، والعاقبة للتقوى، جعلنا الله من أهلها، وبارك لنا في حظنا من رحمته إنه أقدر القادرين وخير الغافرين.

---

(١) كسابقه.

تفسير سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١ - ١٠].

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾[1] [الصافات:١] الملائكة تصف للصلاة، وكذلك تصف لأعمالها بأمر الله، وجاء ذكر الملائكة بلفظ التأنيث على ضمير الجماعات، ويمكن أن يدخل في هذا الذكر الطير وكل ما أخرج فعله على السواء.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] ثم يلحق هذا كل الموجودات من حيث هي له قانتة مسبحة معلنة ساجدة حامدة، فهي صافات في باطن شأنها.

وحكى الله - جل ذكره - عن فرعون وموسى قوله: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام التاء من الصافات في صاد صفًّا، وإدغام التاء من الزاجرات في زاي زجرًا، وإدغام التاء من التاليات في ذال ذكرًا، وهذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما سمعها. قال النحاس: وهي بعيدة في العربية من ثلاثة جهات: **الجهة الأولى**: إن التاء ليست من مخرج الصاد، ولا من مخرج الزاي، ولا من مخرج الدال، ولا من أخواتهن. **الجهة الثانية**: إن التاء في كلمة، وما بعدها في كلمة أخرى. **الثالثة**: إنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة. وقال الواحدي: إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين، ألا ترى أنهما من طرف اللسان. وقرأ الباقون بإظهار جميع ذلك، والواو للقسم، والمقسم به: الملائكة، والصافات، والزاجرات، والتاليات. [فتح القدير (١٨٥/٦)].

مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه:٥٨] إلى قوله: **﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾** [طه:٦٤] أي: غير مختلفين.

قال رسول الله ﷺ وقد كان أصحابه يصلون عزين؛ أي: جماعات مفترقين: «**ألا تصفوا كما تصف الملائكة عند ربهم**»[١] وعددها صلوات الله وسلامه عليه فيما خص به هو وأمته من بين الأمم والأنبياء، فقال: «**وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة**»[٢]. وقال وقد رأى رجلاً من أصحابه قد ندر صدره عن الصف حين قامت الصلاة: «**سووا صفوفكم فإن اعتدال الصف من تمام الصلاة**»[٣]. و«**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[٤] فقوله هنا: **﴿وَالصَّافَّاتِ﴾** [الصافات:١] يؤول إلى جميع الموجودات؛ لأنها على السواء في عبادة الفطرة لله جل ذكره.

قال الله - عز من قائل: **﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾** [آل عمران:٨٣].

قوله تعالى: **﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾** [الصافات:٢] **الملائكة** تزجر السحاب فيكون عن ذلك الرعد والبرق والصواعق والبرد، وذلك كله عن إثارة فتح الله برحمته، وإيراده ذلك على فيح جهنم بالنفسين الخارجين على أقطار الأجواء، فتخرج الملائكة ما هنالك من حقيقة ذلك الفيح رعدًا وبرقًا أو بردًا أو صواعق، ويكون أيضًا كلما زجر عنه من أعمال الأمم السالفة والقرون المهلكة الخالية بزجرها أمرًا وبلاغًا، فإذا أراد إهلاكهم زجرهم زجرة العذاب **﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾** [يس:٢٩] قوله تعالى: **﴿صَفًّا﴾** [الصافات:١] و**﴿زَجْرًا﴾** [**الصافات**:٢] إعظامًا وإكبارًا لموجود

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٤٣٢)، وابن أبي شيبة (٣٥٣٩)، وأحمد (٢١٠٠١)، ومسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨١٦)، وابن ماجة (٩٩٢)، وابن خزيمة (١٥٤٤) وابن حبان (٢١٥٤).

(٢) أخرجه الطيالسي (٤١٨)، ومسلم (٥٢٢)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٢)، وابن خزيمة (٢٦٣)، وابن حبان (١٦٩٧)، وأبو عوانة (٨٧٤)، والدارقطني (١/١٧٥)، والبزار (٢٨٤٥).

(٣) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٩٨٢)، وأحمد (١٢٨٣٦)، والدارمي (١٢٦٣)، والبخاري (٦٩٠)، ومسلم (٤٣٣)، وأبو داود (٦٦٨)، وابن ماجة (٩٩٣)، وابن خزيمة (١٥٤٣)، وابن حبان (٢١٧٤)، وأبو يعلى (٢٩٩٧).

(٤) أخرجه مسلم (٤٣٢)، وابن أبي شيبة (٣٥٢٧)، وأحمد (١٧١٤٣)، وابن حبان (٢١٧٢).

الصف والزجر؛ إذ هو من غلبة رحمته عذابه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات:٣] ما تتابعه الملائكة - عليهم السلام - من ذكر أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] ثم قد يكون المعنى بذلك أيضًا: الأنفس المتابعة للأمر المقتدية بسنن الأنبياء - عليهم السلام - والألسن التاليات للقرآن والذكر والكتب، سمي القارئ: تاليًا؛ لأنه يتبع الكلام بعضه بعضًا، أقسم الله ﷻ بهذه الأقسام على أنه الإله الواحد الذي لا شريك له، وأنه هو رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق واجتزئ بذكر المشارق عن ذكر المغارب.

فصل

ولا تجد أبدًا إقسامه - جل ذكره - إلا مطابقة لمعنى المقسم من أجله من تدبر ذلك وجده على ما ذكرناه، غير أنه ربما عارض ذكر القسم في ذلك عظم الشأن وعموم الأمر، فيظن لذلك أن قسمه غير متناول للمعني به؛ ولذلك قصرنا على القسم بأسمائه وصفاته، ولما كان جميع الموجودات علوًّا وسفلاً قد أصفقت على الإجماع والقنوت له والتسبيح والسجود والصلاة له، وصفت له بذلك صفًّا وزجرت بأدائها شهاداتها ودلالتها على حقيقة الأمر، فتتابعت على ذلك باطنًا وتولاها على ذلك من أصابه الله - جل ذكره - بهدايته ظاهرًا أقسم بهذه الأقسام على أنه الإله الواحد رب كل شيء.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦] ثم عطف بالواو قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٧] على المعنى، أي: جعلناها زينة للسماء الدنيا وحفظًا.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إلى المَلإِ الأَعْلَى﴾ [الصافات:٨] وقرأها ابن مسعود: «لا يَسْمَعُونَ إلى الملأ الأعلى»[1] فثبت من هذا الخطاب أنهم لم يجعل لهم السمع إلا إلى من دون السماء الدنيا، ولا يسمعون أيضًا لمن دون السماء الدنيا

---

(١) مخففة. فتح القدير (٥٥٤/٤).

إلا لمن دون الأفلاك كلها التي من لدن فلك القمر لا إلى ما علا، أعلم بذلك رسول الله ﷺ في حديثه حيث يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان** - وهو السحاب - **فتتسمع الشياطين لما يقولون خطفًا**»[(١)].

وهو أخذ في سرعة وهو تعريض منه بعدم التثبت وقلة الوعي، فيتبعه الشهاب الثاقب ناره الثاقب النير المضيء، وقيل ثاقب: من ثقبه يثقبه مبني على اسم الفاعل يثقبه: ينتظمه، فيخرج من ورائه [...][(٢)] الله - جل ذكره - فيه؛ لذلك جعله إهلاكًا له متى أصابه بأمر من عنده رجع الكلام، وإنما ينزل من الأمر من لدن ذي العرش ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلى حملة العرش، ثم ينزل إلى من دونهم، ثم إلى من دونهم، تدور به دوائر التدبير إلى أن ينزل إلى ما دون السماء الدنيا إلى العنان في دوائر ما هنالك.

وللشياطين درجات في مقاماتها بعضهم أعلى من بعض، ومثل ذلك رسول الله ﷺ بأصابع يده المباركة فحرفها وفرج بين أصابعه جعل الخنصر منها الأسفل والإبهام أعلاها كدرجات السلم.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨] فالسلم للشياطين، والمعراج للملائكة - على ملائكة الله السلام - فيستمع الجني الكلمة ويقذفه الشهاب، ويلقي الشيطان الكلمة إلى وليه ثم يلقيها ذلك إلى وليه دونه كذلك حتى تبلغ إلى الجني الذي يلقيها إلى الكاهن، قال: فيقرها في أذنه قر الدجاجة، وهذا تعريض منه بقلة الإفهام وتشويش التبليغ.

قال: فيضيف إليها الكاهن مائة كذبة، والأمر في إيجاد الكذب وقلة الإفهام وتشويش التبليغ سائر من لدن الجني المختطف إلى الكاهن، فهو طريق معتم وسبيل مظلمة، لذلك قال - جل من قائل: يعني الكفار ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨] فأثبت لهم شيئًا ما وهو ما سمي الكاهن لأجله كاهنًا.

ثم أعلم بعدم الثقة في النقل بقوله الحق: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٠٣٨).

(٢) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

[الطور:٣٨] أي: بشاهد ودليل يشهد له ويدل على صحة ما يقوله، وقال رسول الله ﷺ: «**صدق الشيطان وهو كذوب**»[١] فهذه حال الكهانة وموجود استراق السمع الدحور الدفع والضرب والرجم واصب دائم.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: ١١ - ٢١].

قوله - جل من قائل: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني: سلهم واستخبرهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾[٢] [الصافات:١١] والمعهود من حرف «من» أنها تقع على من يعقل، فعلى هذا فالمعني به: الملائكة والجن، ثم بآخره تعم جميع المخلوقات.

قال الله - عز من قائل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] ثم قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١] هو أشد الطين رخاوة ولينًا، واللازب: اللازق اللازم لذلك، قيل للقحط المتتابع: اللزوب، والباء تبدل من الميم والميم من الباء، فيقال: لازم ولازب.

قوله ﷻ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢] يقول: وهو أعلم بما ينزل، أنت تعجب من عظم الشأن وعلا الأمر وجليل الخطر وهم يسخرون، ويلحق به أنت تعجب من تأفيكهم عن حقيقة ما فطروا عليه وخلقوا لأجله، وهم يسخرون منك، وقرئ «بل عجبت» برفع التاء، وهذا يتخرج على معنى قول رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢١٨٧).

(٢) أي: اسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشدّ خلقًا وأقوى أجسامًا، أم مَن خلقنا مِن السماوات والأرض والملائكة؟ قال الزجاج: فاسألهم سؤال تقرير أهم أشدّ خلقًا - أي: أحكم صنعة - أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقًا من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب؟! [فتح القدير (١٨٨/٦)].

«**إن الله ليعجب للشاب ليست له صبوة**»[١].

فيعود العجب منه ﷻ للرسول والمؤمن لثبات النور في قلوبهم مع وجود ما يضاد ذلك، ويرجع حقيقة التعجب منه تبارك وتعالى لعظيم اقتداره على الهداية وعميم الكفاية لعبده وإسماعه عنه وإبصاره إياه وإحيائه وإيجاده جميع صفات الحياة، مع وجود ما يوجب الموت، ومن أنه الغالب على أمره، لا إله إلا هو العليم القدير، فعلى هذا يكون تعجبه منه عنده ﷻ وتعالى شأنه ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ**﴾ [هود:١٢٣].

ومن تحقق في تدبر الوجودين العالم والوحي ألقاه على هذا، فاعلم ذلك واعمل عليه، ليس تعجبه ﷻ من شيء لم يره ولم يشاهد مثله كتعجب عبده هذا بعيد عن صفاته العلا، وقد يكون «بل عجبت» بمعنى: استعظمته ذنبًا وأكبرته مقتًا لهم وهم يسخرون؛ أي: يتهزءون ﴿**وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ**﴾ [الصافات:١٣ - ١٤] ويضحكون من آيات الله، ويكذبون البعث وينكرون التوحيد، وقد أعظم الله ما هو دون هذا نكاح أزواج النبي ﷺ من بعده الداخر الصاغر.

قوله ﷻ: ﴿**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ**﴾ [الصافات:١٩] الزجرة الحق هي التي تكون للبعث، وهي صيحة تزجر كالذي يزجر الإبل، إنما قلنا: إنها صيحة بغضب؛ إذ هو يوم فيه ينتقم الله - جل ذكره - ممن خالف أمره وكذب بآياته، والأنبياء والرسل - عليهم السلام - يقولون يومئذٍ: «**إن ربنا غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله**»[٢].

قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ**﴾ [الصافات:٢٠] يلهمون لما كانوا ينذرونه من قبل في دار الدنيا فيجابون ﴿**هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾ [الصافات:٢١].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٩)، والطبراني (٨٥٣)، وأبو يعلى (١٧٤٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٢١)، والبخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (١١٢٨٦)، وابن أبي شيبة (٣١٦٧٤).

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ
بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ
﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ
﴿٣١﴾﴾[الصافات: ٢٢ - ٣١].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] قيل: أزواجهم هم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، وأزواجهم أيضًا نظراؤهم وأشباههم من أصحابهم، وهذا ممكن، وعندي - والله أعلم بما ينزل - قرناؤهم الذين قال الله ﷻ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دل على صحة هذا التأويل قوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ...﴾ [فصلت:٢٥] وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ...﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٧].

قوله - جل وعز: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤].

قال الله - عز من قائل: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] فإذا وقع عليهم القول بالسؤال والانقطاع عن الجواب، وأمر بهم إلى النار، يقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥] أي: كما كنتم في الدنيا يعتضد بعضكم ببعض، فيقال عند ذلك: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] يعني: القرناء الذين زوجوا بهم في الدنيا، ثم حشروا معهم في الموقف وفي النار.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾[1] [الصافات:٢٨] معنى ذلك: تأتوننا عن

(١) فيه وجوه: الأول: إنها استعارة عن الخيرات والسعادات، وذلك أن الجانب الأيمن أشرف من الأيسر شرعًا وعرفًا، وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن في كل شيء، ولهذا أمرت الشريعة بمباشرة أفاضل الأمور باليمين والعكس، وجعلت اليمين لكاتب الحسنات والشمال لكاتب السيئات، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسيء بالضد، وما جعلت يمنى إلا
=

موضع الحسنات تصدوننا عنها وتفسدونها بعد العمل، كما قال الرجيم - لعنه الله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧] ما بين أيديهم وما فوقهم وما عن أيمانهم موضع الحسنات، وخلفهم وشمائلهم ومن تحتهم موضع السيئات.

يقول الغواة لهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:٢٩] أي: إنكم لو كنتم مؤمنين كانت لكم حسنات، والكافرون لا أعمال لهم من هذه الجهة يقولون: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ فنضلكم عنوة ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات:٣٠].

يقولون: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات:٣١] أي: العذاب ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ لذلك ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات:٣٢] كذلك قال إبليس - لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩].

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

=

للتيمن بها ولذلك تيمنوا بالسانح وتطيروا بالبارح. الثاني: أن يقال: فلان يمين فلان إذا كان عنده بمنزلة رفيعة، فكأنهم قالوا: إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون أننا عندكم بمحل رفيع فوثقنا بكم وقبلنا عنكم. الثالث: اليمين الحلف، كان الكفار قد حلفوا لهؤلاء الضعفة أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم. الرابع: إن اليمين القوة والقهر فبها يقع البطش غالبًا؛ أي: كنتم تأتوننا عن القهر والغلبة حتى حملتمونا على الضلال. [تفسير النيسابوري (٦/٣٤٢)].

يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾[الصافات: ٣٢ - ٥٠].

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات:٣٣] وفي هؤلاء - والله أعلم - قال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله ﴾ [الصافات:٢٢ - ٢٣].

يقول الله - جل من قائل: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥] هؤلاء كذبوا المرسلين واستكبروا عن اتباعهم في التوحيد وعبادة الله، فمن شهد شهادتي الحق دخل في أول ولاية الله واصطفائه بقدر ما أوغل في دين الله، ثم يسمو في الاصطفاء بقدر سموه في طاعة الله وحسن الاقتداء بالرسول.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧] شهد الله لرسوله بهذه الشهادة وهو أكبر الشاهدين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا العَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٨ - ٣٩] جاء بلفظ الذوق وذلك يتحصل بأقل العذاب مع ما جاء من وصف عذابهم أنه خلود، ولم يأت به في نعيم الجنة ذكر الذوق، بل جاء ذكر الخلود ومعناه بكل سبيل، ثم عطف بالواو على ذكر الذوق قوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩] وجاء في نعيم أهل الجنة: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] وأمثلة هذا كثيرة، والله أعلم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِلَّا عِبَادَ الله المُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:٤٠] هؤلاء أصحاب العلية في الاستقامة، يقول الله - جل من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:٤١] أي: موسوم بهم مسمى لهم ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات:٤٢ - ٤٣].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات:٤٥] أي: جار، كما قال: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية:١٢] أنهار الخمر واللبن والعسل والماء، وغير ذلك من الشراب ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنهَا﴾ [الواقعة:١٩] أي: لا يخالف بعضهم بعضًا في الزوال عنها، بل يكون اجتماعهم واحد وافتراقهم عنها لمعان من النعيم سواها واحد أيضًا؛

إذ خمر الدنيا لنزفها عقولهم يختلف عنها قيامهم، كلما اغتالت عقل أحدهم قام عنها أو أقيم منزوف العقل فقيده يتخبط حمقًا أو يهمد سكرًا، كما قال بعضهم:

ومازالــت الكــأس تغتالــنا وتــذهب بــالأول فــالأول

فجمعهم عليها يتصدع، ورءوسهم تنجع، وخمرهم تنزف؛ أي: تنم وعقولهم تفقد، لذلك كان جزاء شرابها المعاودين لها أن يسقوا من طينة الخبال عصارة أهل النار.

وسميت خمر الدنيا: خمرًا؛ لأنها خامرت العقول، أي: غطتها وسدت عليها مسالك النور إليها، فمنعته اتصال نوره بالنور المبين المعد له من منبعثه بالسكر الذي جعلته له في مجرى ذلك النور من علو، ثم خالطته بصفاتها فأسفلت به لانطماس المزيد بالنور المتصل بالإيمان، فانفردت لذلك صفات الجهل بأفعالها، ولذلك لا يجتمع الخمر مع إيمان في جوف واحد.

سميت خمر الدنيا بأسماء كثيرة حتى لقد بلغوها تسعة وتسعين اسمًا، اسم مريدها ما سماها المسلمون به، فإنهم يسمونها بالإثم، قال شاعرهم:

شـربت الإثـم حتـى زال عقلـي كـذاك الإثـم يـذهب بالعقـول

فالإثم يذهب بعقل الإيمان، والخمر يذهب بعقل الإنسان، ثم يكر على عقل الإيمان فتذهب بهما معًا من حيث هي إثم.

قال رسول الله ﷺ:«**لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١).

وقال عثمان: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، وإنه والله لا يجتمع الخمر والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه، وسميت خمر الجنة خمرًا وهي الأصل؛ لأنها خامرت العقل والصفات بضد ما خامرتها خمر الدنيا، بل أعلت بها علوًا، وسلكت بها سبيل اتصال النور بمنبعثه، وطارت بها إلى وليها بما هي تسنيم وسلسبيل، ولأوصاف لها وأسماء أرادها بها خالقها فهي تخالط حقًا، فتوجهه إلى

(١) أخرجه أحمد (٨١٨٧)، والبخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧)، والنسائي (٤٨٧٠)، وابن ماجة (٣٩٣٦)، وعبد الرزاق (١٣٦٨٤).

الحق المبين يطير به روحًا وارتياحًا، تفعل ذلك بما هي راح، وتغطي على صفاتهم الدائمة بما هي الكافور، فيجدون أضعاف ما كانوا يجدونه سرورًا وحبورًا، ووجد نعيم وملك كبير، وقد تسرع هذه بشرابها إلى ذلك من حيث هي راح على ما هي عليه من صفات الحساسة ووصف التخلف، كما قال قائلهم:

ونـــشربها فتتـــركنا ملـــوكًا وأســـدًا مـــا ينهنهـــنا اللقـــاء

يتأكد ذلك فيما هنالك ويتحقق جدًّا في صفاتهم، وعند الزيارة يسقون شرابًا طهورًا بها يزورون ربهم - عز جلاله - يطهرهم من معاني الغيرية الموجودة بهم في الجنة، هو مشتمل على خاصة كل شراب تقدم لهم، وعلوها ومزيد فضلها على قدر ما بين الموطنين والشرابين، فتفعل هذه العليا بهم من أخذها إياهم عن معهودات الجنة ما فعلت خمر الجنة بهم عن معهودات ما عهدوه من أمور الدنيا التي صارت بها خمر الدنيا الآخذة بهم عن معهوداتها سفلاً، فترتفع صفاتهم توحيدًا وعلمًا ومعرفة وإفرادًا وإجلالاً وإكبارًا وحياءً وشوقًا وتوقًا إلى بارئهم - جل ذكره - لخاصة له جعلها لها، وسمى هذه: شرابًا، ولم يسمها: خمرًا، إلا بحكم العموم، والله أعلم بقدر ذلك، لا إله إلا هو العلي الكبير.

قوله ﷻ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات:٥٠] يعني: في مجالسهم من الجنة، كما قال: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] فهم يتساءلون عن أسباب هداياتهم وعن أئمتهم في ذلك وقرنائهم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٥١ - ٦١].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥١ - ٥٣] أي: لمجازون ذكر أهل التفسير

سببًا نزلت من أجله زعموه، وأنه رجل تصدق بجميع ماله ابتغاء وجه الله العظيم، ثم احتاج فاستجدى رجلاً من معارفه فسأله: ما فعل مالك؟ قال: وجهته لله تعالى، فقال له: أئنك لمن المصدقين بهذا لا أعطيك شيئًا أبدًا، وهذا ولو صحَّ فلا ينبغي أن يقصر على سببه، بل لكل مكلف قرين قيضه الله لمن يمتحنه به من الجن أو من الإنس أو منهما، فإن كان شقيًّا رضاه به وجعله سامعًا له مطيعًا، وإن كان سعيدًا لم يرضه به وعصاه فأبدله من ذلك بقرين خير يكون من الإنس أو من الملائكة - عليهم السلام - أو منهما، ومن عصمه الله فهو المعصوم، ومن خذله فهو المحروم، ويجمع الضال مع قرينه والمهتدي بقرينه الهادي.

فقيل لهذا المهتدي: اطلع، فكشف الله له ما بينه وبين النار ﴿فَرَآهُ﴾ مبعدًا عنه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥] ذلك لأنه عصاه وخالف أمره سواء كل شيء وسطه، يقال من ذلك: تعبت حتى انقطع سواي، أي: وسطي.

يقول له: ﴿تَاللهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾(١) [الصافات:٥٦] الردى: الهلاك ﴿وَلَوْلا﴾ رحمة ﴿رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٧] المحضر هو: الذي أحضر للعذاب، ثم رجع إلى جلسائه وأصحابه الكلام وهم له سرورًا وفرحًا بما صار إليه وغبطة به.

يقولون: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٢) [الصافات:٥٨ - ٥٩] فرحوا بأن لا موت عليهم أبدًا في محلهم ذلك؛ إذ أهل النار يتمنون الموت فلا يعطونه، ويأتيهم الموت من كل مكان وما هم بميتين، خالدين

---

(١) قرأ نافع برواية ورش: «لترديني» بإثبات الياء في الوصل والباقون بحذفها. [تفسير الرازي (١٢٦/١٣)].

(٢) ما معنى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأولى﴾؟ وما معنى ذكر الأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى؟ قلت: معناه والله أعلم: أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأولى﴾ يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة، فلا فرق إذًا بين هذا وبين قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدنيا﴾ في المعنى. [الكشاف (٢٦٧/٦)].

في العذاب الأليم لا يموتون ولا يحيون - نعوذ بالله - من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة؛ ولأن قومًا من الموحدين يدخلون النار - نعوذ بالله - من ذلك بذنوب أصابوها، ثم يموتون فيها إماتة حتى يخرجون منها بالشفاعة لذلك، والله أعلم بما ينزل.

قالوا: أفما نحن بميتين وما نحن بمعذبين، فاستاقوا صفين وعددوا يومئذٍ هذه النعمة، والأشقياء أيضًا لا يموتون فيها ولا يحيون لهذا و﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ يقول: ﴿فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] وقال حكاية عنهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى﴾ فاستثنى الموتة التي ماتوا في الدنيا من ذكر موت أمنوه في الجنة، وهذا فليس باستثناء منقطع ذلك؛ لأنهم كانوا في الدنيا مؤمنين بالله وبرسله وكتبه وبآياته عالمين بالله طائعين له، وهي جنة معجلة فحسن الاستثناء منها؛ لذلك قال رسول الله ﷺ:«**إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا**»(١) يريد مجالس الذكر، وقال:«**من قال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه دخل الجنة**»(٢).

واستثناؤه الموتة التي أمنوها في الجنة من الموتة في الدنيا من هذا الباب، وعلى القول بالتحقيق بالموتة الأولى: هي الموتة التي أماتهم فيها بعد التقرير الأول، فهي الأولى لهذه التي ماتوا بها ثم أحياهم حال الموت، ولما أحياهم قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ [الصافات:٥٨].

قال الله - عز من قائل: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلَّا المَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجَحِيمِ * فَضْلا مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان:٥٦ - ٥٧] إذ اليوم الآخر تعمهم صفة الحياة يعبر عن حالهم بذلك الفضل مع حسن المآب.

يقول الله - جل ذكره: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] جل جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه، وعظ ونصح وهو الرحيم الودود، هذا الخطاب معبر عن كونهم حال البرزخ وإعلام من الله - جل ذكره - أن المتقين أحياء عند

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٤٥)، والترمذي (٣٥١٠)، وأبو يعلى (٣٤٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩)، والطبراني في الدعاء (١٨٩٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٨).

(٢) أخرجه بنحوه ابن حبان (٢٠٠).

ربهم ﷻ، وأن لهم تجمع بعضهم مع بعض وتذكر واغتباط بما هم فيه من حياة وكريم معال، ووقوف منهم على مصير المجرمين، وما لهم فيه من حرج وندامة ونكال، فيقولون - على جميعهم السلام - اغتباطًا بما هم فيه: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقد كنا نعد ما نحن فيه في دار الدنيا موتًا فقد منَّ الله علينا وأحيانا ولم نكن أمواتًا إلا في موتتنا الأولى؛ أي: الموتة التي صيرهم بها صنعه في خزائن السماوات والأرض بعد التقدير الأول، ونظيرتها في سورة «الدخان» فليبشر المؤمن نفسه.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[الصافات: ٦٢ - ٧٤].

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾[١] [الصافات:٦٢] فأصل بين المصيرين والنزلين، وقد علم - جل ذكره - أنه قد حصر الفضل كله إلى عباده المؤمنين، ثم أعلم بما هي هذه الشجرة بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٤] يعني، وهو أعلم: في أسفل جهنم، وهو الدرك الأسفل من جهنم.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات:٦٥] يعني: في القيح والضر والشوب الخلط من الحميم، يقول: يأكلها أهل النار ثم يشربون عليها من الحميم، وهي العين الآنية التي تناهى حرها.

وأرى - والله أعلم - أن شجرة الزقوم من شجر الزمهرير، قيل: إنها أيبس من

---

(١) الزقوم: ثمرة شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم، يكره أهل النار على تناولها، فهم يتزقمونه على أشد كراهية، ومنه قولهم: تزقم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة. [تفسير البغوي (٧/٤٢)].

الحجر وأمر من العلقم، وأصل الجحيم منبعث الزمهرير، ألا تسمع إلى قوله - جل قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨] أي: أنهم يكونون في الزمهرير ما شاء الله، ثم إلى الجحيم ذلك؛ لأنهم ﴿أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات:٦٩ - ٧٠] أي: يسرعون.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢) وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات: ٧٥ - ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ﴾ [الصافات:٧٨ - ٧٩] لا يسلم إلا على حي.

قال رسول الله ﷺ: «**سلموا علي إن لله ملائكة يبلغوني السلام من أمتي**»(١).

قال رجل: يا رسول الله، كيف نصلي عليك وقد أرمت؟ قال: «**إن الله حرم على التراب أن يأكل لحوم الأنبياء**»(٢).

ومن ذلك قوله: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ﴾ [الواقعة:٩٠ - ٩١] أي: حياة لك يا من هو من أصحاب اليمين، وكل من أبقى عليه في الآخرين سلامًا، فهو حي عنده يرزق، يقول ﷻ: ذلك نفعل

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٣١١٦)، وأحمد (٤٢١٠)، والنسائي (١٢٨٢)، وابن حبان (٩١٤)، والطبراني (١٠٥٢٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٥١٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٠/٨)، والحاكم (٣٥٧٦) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٢٠٧)، وابن أبي شيبة (٨٦٩٧)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجة (١٦٣٦)، والدارمي (١٥٧٢)، وابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبان (٩١٠)، والحاكم (١٠٢٩) وقال: صحيح على شرط البخاري. والطبراني (٥٨٩)، والبيهقي (١٦٦٦).

بالمحسنين يكون حيًّا عندنا ونجعل له في الآخرين التحية، يقال: سلام على إبراهيم، سلام على موسى وهارون، سلام على فلان، هكذا قال الله ﷻ وذكر يحيى بن زكريا وعيسى عليهما السلام ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:١٥] ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وَلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٣].

أتبع ذلك قوله - جل ذكره: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣] أي: من شيعة نوح، ويمكن أن يكون المراد: من شيعة محمد صلوات الله وسلامه على جميعهم، وشيعتهم واحدة قد جمعتهم كلمة التوحيد ودعاية الإسلام والنبوة والرسالة، وإن اختلفت شعب ما في أثناء شرائعهم بحكمة الله - جل ذكره - في ذلك لما رآه من المصلحة لأمة أمة، أو لما يكون عقوبة من أجل عتو واعتداء أوتخفيف لضعف أو رضا عنهم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٨٤] أي: من الشك والشرك والغل والحسد والبغضاء، وغير ذلك من آفات النفوس المردية.

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات:٩٠ - ١٠١].

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] وقال في موضع آخر: فبشرناه ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣] العلم والحلم والعقل صفات للعالم، والحليم والعاقل بالعقل يميز ما بين المعلومات، وبالعلم يعلم، وبالحلم يتأنى، ويكون منه الصفح عن الجاني وتحمل الأذى والانتظار بأوائل الأمور حسن عواقبها، وبالحلم أيضًا توضع الأشياء على أحسن مواضعها، وذلك كله من الأناة وترك الطيش ونبذ العجلة واستعمال الروية.

قوله ﷻ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[(١)] [الصافات:٨٨ - ٨٩] كان النظر في النجوم من دينهم والمعهود من شأنهم ولما استنهضوه للسير إلى عيد كان لهم، وقد كان عقد في نفسه أن يخالفهم إلى آلهتهم حتى يكسرها، ونذر ذلك بقوله: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧] ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي: على عاداتهم كانوا بذلك يدينون وعنها بزعمهم يأخذون علومهم، ثم قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «**في المعاريض مندوحة عن الكذب**»[(٢)].

قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مكر بهم ليصل إلى مراده من التبليغ والتبيين عن الله - جل ذكره - أي: سأسقم، كما قال تعالى ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] يخبر بذلك عن المستقبل.

قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات:٩١] يعني: عدل مستندًا في عجله.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الآلهة ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات:٩٣] أي: بأقصى قوته واستطاعته، ويمكن أن يكون معنى ذلك: ضربًا باليمين الذي حلف بها ليكيدن أصنامهم.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات:٩٤] الزفيف: إسراع كإسراع النعامة تدفع رجليها وتستعين بالجناحين حال عدوها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: العمل والعبادة، وذلك أتم له في نفس الأب وأجمع لمحبته، ابتليا - صلوات الله وسلامه عليهما - هذا بأن يجود بنفسه للذبح، وهذا بأن يذبح ابنه ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ رؤيا

---

(١) قال السّدّي: كان لهم في كل سنة عيد يجتمعون فيه، فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان هذا الوقت قال آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: إِنِّي سَقِيمٌ أشتكي رِجْلي، فلمَّا مَضَوْا وبقي ضعفاء الناس، نادى وقال: ﴿تالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ أي: إلى عيدكم... إلخ. [تفسير اللباب لابن عادل (٣٠٨/١١)].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٩٦)، وهناد في الزهد (١٣٧٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٥٧).

الأنبياء وحي ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ أي: ما تسخو به نفسك لله ﷻ أو تبخل فجاهدها في ذلك، لم يعلمه بأمر الله له بذلك ليخيره في الأمر، إنما أخبره بذلك ليطيب نفسًا، فكان ﷺ عند الظن به، وقد قرأت: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[١] أي: ما يرى الله من نفسك أصبرًا ورضًا أم جزعًا وجبنًا.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾[الصافات: ١٠٢ - ١١٣].

---

(١) قال ابن العربي: فاختلف في الذبيح، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ واعلم أن رؤيا الأنبياء وحي، لأن الشيطان لا يتخيل لهم، ولا يخلط عليهم، ثم أنالرؤيا منها، ما تخرج بصفاتها، ومنها ما تخرج بتأويلها، فإن كانت الرؤيا خارجة بصفتها، كان المرئي واقعًا، وإن كانت خارجة بكنيتها، كانت خارجة في قريب المرئي، أو في صاحبه، أو فيمن تسمى باسمه، وقوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾. قال أهل السنة: إنه يجوز النسخ قبل الفعل تمسكًا بقصة الذبيح إن فيها الأمر بالذبح قبل وقوع الذبح، وقال المخالف: لا نسخ بل كان كلما قطع جزءًا التأم حذرًا من البداء. واعلم أن الرؤيا حق، ووحي لأنها إما أن تكون من غلبة الأخلاط كما تقوله الفلاسفة، والأنبياء مبرؤون من ذلك لصفاء قلوبهم، وإما أن تكون من اختلاطات، أو حديث نفس، وإبراهيم مبرء من ذلك، وإما أن تكون من تلاعب الشيطان. وإبراهيم معصوم منه. واعلم: أن الله جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعًا، فألزم إبراهيم ذبح ولده، وأخرجه عنه بذبح شاة، ويلزم الإنسان، لقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾. فإن قيل: كيف أمر إبراهيم بذبح ولده، وذلك معصية، والأمر بالمعصية لا يجوز؟ قلنا هذا اعتراض على القرآن، إن الله تعالى يفعل ما يريد، لأن المعاصي والطاعات ليست أوصافًا ذاتية للأعيان، إنما الطاعة عبارة عن امتثال الأمر، والمعصية عبارة عن ارتكاب النهي ما كان الفعل فبأي شيء تعلق الأمر والنهي تعين امتثاله أو اجتنابه.[الأحكام الصغرى ٥١٦].

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢] وهذا من حلمه الذي وصفه الله به، علم أن أباه لم يكن ليذبحه من ذات نفسه، وخرج رؤيا أبيه على أنها من أمر الله إياه بذلك، وقد ظهر حلمه جهارًا في جوده لله بنفسه وبيعها من الله أحسن بيع وتوجيهها له أحسن توجيه، وهذا كله لعلمه الذي وصفه الله - جل ذكره - به بأن مصيره على ذلك إلى لقاء ربه ﷻ وكرامته بمجال الشهداء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: أنفسهما لله هذا بابنه وهذا بنفسه، وعلم الله - جل ذكره - صحة ذلك منهما ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] التل: ظاهر فيه العنف، وهو الذي يليق بتلك الحال من إظهار الشجاعة والسخاوة والرضا، ثم عطف بالواو على محذوف مقدر، تقديره والله أعلم: لما ظهر صدقهما وصحة عقدهما عفونا عن ذلك منهما أو خففنا عنهما.

أخبر ذلك هذا أو ما يكون معبرًا عن هذا المعنى، فعطف على ذلك بقوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤ - ١٠٥] هذا كلام منتظم بالمحذوف المقدر أنا إذا علمنا صدق العبد وصحة عزمه على فعل المأمور به أكملنا له أجره واحترمنا منه بذلك، من ذلك قوله جل من قائل: «**إذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فأنا أكتبها له حسنة كاملة، فإن عملها فأنا أكتبها له عشرًا إلى سبعمائة ضعف...**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٧] قال رسول الله ﷺ: «**فداه بكبش أبيض كحيل**»[2].

فصل

عظم الله قدر الذبح الذي هو الكبش وغيره أعظم جزمًا منه وأخصب ذبحًا والله أعلم، والكبش في التأويل: الرجل الشريف المهيب المعظم، وكبش القوم: عميدهم، وكبش الكتيبة: مقدمها، وقال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت يوم القيامة**

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (١٢٨)، والترمذي (٣٠٧٣) وابن حبان (٣٨٠).
(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٢٧٥٩).

على صورة كبش...»[١].

وهذه الشواهد المتظاهرات تدل على سر الله به أعلم، والأنعام الثمانية الأزواج كما هي فداء لنا جعلها لنا غذاء ألبانها ولحومها، وجعلها هديًا وفدية في أداء الحج وتصحيحه، والضحايا قال الله - عز من قائل: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر:٦] كذلك قال، وقوله الحق: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:١١] وإذا نحن أكلنا من لحومها وشربنا من ألبانها كنا عنها، فهذا نسب متقارب بيننا وبينهن وهبة بتلة[٢] منه لنا، ودل ذلك على أنها تنقل من هاهنا إلى ما هنالك من خير يكن لنا فراطًا إن شاء الله، وهو المنان العواد بالخيرات.

قوله - جل ذكره: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢] مجيء ذكر البشارة بإسحاق ﷺ بعد قصة الذبح إيماء إلى أن إسماعيل ﷺ هو الذبيح، وإن كانت الواو ليست تعطي في أكثر أحوالها رتبة، لكن ذلك في كلام العرب ومعهود تخاطبها ليس القرآن كذلك، وقد قال رسول الله ﷺ وقد قصد السعي بين الصفا والمروة، فبدأ بالصفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»[٣] وأيضًا فإن إسماعيل كان بكره - صلى الله عليهما وسلم - وهو المقصود بهذا الشأن، وقد جاء هذا منصوصًا عليه في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة؛ أعني: المحنة بفقد بكور الأبناء.

ومن الدليل على صحة ما ذهبنا إليه: قوله جل وعز في سورة «الذاريات»: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي: في جملة من النسوة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٨ - ٢٩] فهذه امرأته سارة، وأمَّا إسماعيل فهو من هاجر، ولم تكن له بزوجة وإنما كانت ملكًا.

وقال في هذه السورة: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] ولم يذكر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٩)، والطبراني (١٣٣٤٦).

(٢) صدقة بتلة: انقطعت من صاحبها. انظر الصحاح في اللغة (١/٣٠).

(٣) أخرجه عبد بن حميد (١١٣٥)، ومسلم (١٢١٨)، وابن أبي شيبة (١٤٧٠٥)، وابن حبان (٣٩٤٤).

امرأته، وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة، لما بشر بإسحاق - عليهما السلام - قال إبراهيم: «ليت إسماعيل يكبر بين يديك».

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**»[1] يعني: إسماعيل عليه السلام وعبد الله بن عبد المطلب حين نذر عبد المطلب إن الله أعانه على وجدان بئر زمزم أن يذبح له أحب بنيه إليه، وكان أحبهم إليه عبد الله في قصة طويلة، ومن الدليل على صحة ما نحن بسبيله: قول الله - جل من قائل: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١] وكان هذا قبل أن تحمل سارة بإسحاق وإنما بشره بإسحاق، ثم من ورائه يعقوب - عليهم السلام - فلو كان المأمور به للذبح إسحاق لكان ذلك نقضًا لوعد الله إياه بهبته يعقوب عن إسحاق، وقطعًا بمقدور قد ثبت، كتبه وحصل به الوعد من ملي وفي ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:١١١].

وأيضًا فإن في قوله - جل ذكره: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًا﴾ [الصافات:١١٢] وإسحاق يومئذٍ لم يبلغ النبوة، وإنما بلغ أن يكون يسعى مع أبيه في عبادة أو ما يشبه ذلك، فلو كان الذبيح لكان قطعًا بالوعد الكريم، وكان يكون من إبراهيم عليه السلام في ذلك من أجل هذه المقدمات من الوحي عنده توقفًا ما وحيرة، إلا أن يكون أعلم مع ذلك أنه غير منفذ الأمر فيه كما كانت العاقبة، فليس هذا من شأن التكليف؛ إذ عمدة وجوده على الإيمان بالغيب وإلا فعلام يقع المدح من الله لهما لو كان عندهما أن الذي ابتليا به غير واقع؟.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الصافات: ١١٤ - ١٢٨].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٤٥٥).

وقد قال - عز من قائل: ﴿إِنَّ هَـذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٦] وعذاب الله وأمره وتكليفه ليس على هذا، فصح من مجموع هذا أن الذبيح هو إسماعيل، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ [الصافات: ١٢٣-١٢٥] بعل: قيل: هو اسم لصنم بعينه، والبعل أيضًا: الصاحب، فعلى هذا معناه: أتدعون مع الله صاحبًا، وقيل: البعل: الرب، فمعنى: أتدعون مع الله ربًا آخر، لذلك قال ﷻ: ﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٦] وقرئ: «الله ربكم ورب آبائكم الأولين» معنى ذلك: اتقوا الله ربكم ورب آبائكم.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٢٩ - ١٤٤].

قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾(١) [الصافات:١٣٠] وفي قراءة أخرى: «سلام على أدراسين» قيل: إلياس هو ياسين، ويقال: هو إدريس، وفي بعض القراءات: «وإن إدريس لمن المرسلين سلام على أدرياسين».

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلى الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [الصافات:١٣٩ - ١٤٠] لما ترك عمله وذهب مغاضبًا سماه آبقًا.

---

(١) «سلام على آل ياسين» قراءة الأعرج وشيبة ونافع. وقرأ عكرمة وأبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي: «سلام على إلياسين». وقرأ الحسن: «سلام على الياسين» بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التي للتعريف. [تفسير القرطبي (١٥/١١٨)].

﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصافات:١٤١] قارع: من القرعة، الدحض: الزلق لما دفع به من الفلك كان دحضًا.

﴿فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢] أي: قد أتى في إباقه ذلك ما يلام عليه، انظر إلى كرم الله - جل ذكره - ذكره بالنبوة والمدحة عنه حاله هذه إن ربنا لحليم كريم.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ - ١٤٤] أعلم - عز جلاله - أن العمل بطاعته في الرخاء ينفع في حال الشدة، وفيما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عباس: «يا بني، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة»(١).

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [الصافات:١٤٥ - ١٥٦].

قوله ﷻ: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٥] العراء: الواسع البراح، نبذه الحوت ولما كان بأمره وبإذنه اتصف بأنه فاعل ذلك، وهذا يؤيد ما تقدم ذكره في فعلة الملكوت - عليهم السلام - وأنه يخبر عن كل ما تفعله الملائكة بإذنه وأمره وحوله وقوته بـ«أنزلنا وأنبتنا وأخرجنا» ونحو هذا.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أو يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧] «أو» هنا عاطفة، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أو كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤] معناه: ولا كفورًا، معنى ذلك: متى قال لك هذا أو هذا فلا تطع، وسياق الخطاب يعطي أن رسالته

---

(١) أخرجه الطبراني (١١٢٤٣)، وأحمد (٢٨٠٤)، والضياء (١٣).

كانت بعد المحنة.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٧ - ١٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا﴾(١) [الصافات:١٥٨] كان قوم من العرب يقولون: إن الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء:٤٣] وكان ناس منهم يقولون: إن سروات الجن بنات الله تعالى الله، يقول الله - جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ يعني: الجنة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨] يحضرون العذاب.

قوله - عز من قائل: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦١-١٦٣] يريد من حقت عليه كلمة العذاب، أتبع ذلك قوله الملائكة، عليهم السلام: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ

(١) اختلفوا في المراد بالجنة على وجوه: الأول: قال مقاتل: أثبتوا نسبًا بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله، وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنًّا؛ لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزّان الجنة، وأقول هذا القول عندي مشكل؛ لأنه تعالى أبطل قولهم: الملائكة بنات الله، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَبًا﴾ والعطف يقتضي كون المعطوف مغايرًا للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم. الثاني: قال مجاهد: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكرالصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن، وهذا أيضًا عندي بعيد؛ لأن المصاهرة لا تسمى نسبًا. والثالث: روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَاء الجن﴾ [الأنعام:١٠٠] أن قومًا من الزنادقة يقولون: الله وإبليس أخوان، فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَبًا﴾ المراد منه هذا المذهب، وعندي أن هذا القول أقرب الأقاويل. [تفسير الرازي (١٣/١٥٤)].

الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٤ - ١٦٦] معناه: وإن كلنا لما ﴿لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: من التعبد له والتسبيح والخشية والخوف منه.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٨٢].

ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣] وقرأ بعضهم: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا» معنى هذا - والله أعلم - كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨] منع من ظهور هذا الخطاب إلى تمام غايته ما ذكره من صفات له سواها وأسماء وأحكام قوله: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] والنصر من الله للمرسلين والمؤمنين، والتسليط والإدالة قد تكون منه للكافرين على المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصافات:١٧٤] أي: اعرض عنهم حتى يأتي أمرنا بالنصر عليهم والغلبة، وقد أدال الله لرسوله والمؤمنين بالقتال والنصر، وقال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا**»[1] وهو ذا قد أدالهم على المسلمين لغربة الإسلام وعدم النصحاء لله ولرسوله وللمؤمنين، ونحن الآن ننتظر العاقبة، جعلنا الله من المتقين أتباع الرسول ﷺ.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات:١٧٦] يعني، والله أعلم: النصر الذي قد يُقضى بعد غربة الإسلام الأولى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ

(١) أخرجه مسلم (٣٨٩).

الْمُنذَرِينَ﴾(١) [الصافات:١٧٧] وفي قراءة بعضهم: «فبئس صباح المنذرين».

ثم استأنف وعدًا آخر بقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصافات:١٧٨] هذه هي الإدالة التي لهم الآن بعد غلبة المسلمين التي تقدمت، وهو خطاب لمعشر الأمة وأئمتها وعلمائها.

﴿وَأَبْصِرْ﴾ أي: من بعدك؛ أي: اجعل لهم بصرًا وعلمًا بالتبليغ إليهم حين النصرة للمؤمنين والإدالة عليهم، ثم لهم في آخر الأمر؛ أعني: في العاقبة ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات:١٧٩] يعني: الكفار، أي: ما يحل بهم يومئذٍ، ثم تبسط صدق الحديث على الإعلام بما يكون منا ومنهم في دار الدنيا ثم في دار الآخرة.

قوله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠] هذا منتظم بما ابتدأ به السورة من القسم بما أقسم على تحقيق التوحيد وما أعقب به في أواخرها، وهو ما عبر عنه قولهم: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصافات:١٤٩] إلى آخر المعنى.

ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨١ - ١٨٢] هذه الآية من أمهات الكتاب، جمع في هذه مجملاً معنى السورة من أولها إلى آخرها، بل جميع ما جاء به القرآن من أوله إلى آخره؛ إذ القرآن إنما هو ما عبر عن أسماء الله وصفاته وأفعاله التي هي حكمته، استحق لأجلها من عباده الحمد في السماوات والأرض في الدنيا وفي الآخرة، ثم التسليم للمرسلين وتصديقهم، والصلاة والسلام على جميعهم.

ثم يبسط الصلاة والتسليم على الملائكة - عليهم السلام - يقول الله ﷻ: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً، وكان إذا جاء قومًا بليل لم يغز حتى يصبح، قال: فلما أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» وهو يبين معنى هذه الآية. [تفسير البغوي (٦٥/٧)].

واسم العزة يقع على ما هو لله صفة، والله وصفاته وأسماؤه رب غير مربوب وإله غير مألوه، معبود غير عابد، لا إله إلا هو العلي الكبير، وهو أيضًا واقع على صفة تكون للمحدثين المربوبين.

قال الله - جل من قائل: ﴿وَلِلهِ العِزَّةُ﴾ فهذه عزته جل ذكره، ثم قال: ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] فهذه مخلوقة مربوبة، فمعنى قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ﴾ [الصافات:١٨٠] أي: رب كل عزة معلومة لسواه منسوبة إلى غيره، وفي تنزيه الله تنزيه صفاته وما لا يجوز مفارقته له ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

تفسير سورة «ص»[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه الحروف المفتتح بها أوائل السور على ما هي عليه عسير علمها، ومع ذلك فإن الله - جل ذكره - لم يويئس من البلوغ إلى معرفتها، ولا نهانا رسول الله ﷺ عن التعرض لمعرفتها والبحث عن فهم المراد بها، وإنما فرض الله تعالى عليه التبيين والتبليغ إلى الناس بما أنزل إليهم، وكانت هذه الحروف مما نزل إليهم، وكانت مع ذلك جوامع لما اشتمل القرآن عليه، فكان تبيينه غيرها من القرآن تبيينًا لها، فبلغ أمته وأشهدهم على تبليغه عن ربهم إليهم، فشهدوا وأشهد رسله على شهادتهم له بالتبليغ.

وقيل له: ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤] والمعهود المستصحب من خطاب القرآن الكريم الحض على التذكر به، وإلقاء السمع لخطابه مع شهادة القلب طلبًا لمعرفة معانيه، حرصًا على البلوغ إلى معرفة الحق الذي أراده به منزله، وهذه الحروف التي نحن بسبيل ذكرها فمن القرآن لا محالة، ومن الكتاب بلا مرية، ومن آيات الكتاب بأخبار منزلة العلي الكبير فالله المستعان وعليه التكلان.

وإنما هو الله وحده بأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن يطلب معرفته فليطلب ذلك في الوجودين العالم، وفيه العلم كله الذي شاء أبدأه منه، والوحي وفيه الذكر كله، ثم العلم في الذكر والذكر في العلم؛ إذ هو المنبئ الأول ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إنباء بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم بكتابه العلي الإمام المبين، ثم بمخلوقاته وبموجودات قدرته وصفاته وأسمائه وحكمته وعدله ودينه القيم ووعده ووعيده.

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ

---

(١) عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (ص) كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات، وعصمه الله أن يصر على ذنب صغير أو كبير». [تفسير البيضاوي (٥/١٠١)].

﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ
ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص:١ - ١١].

قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] «الصاد» في هذه الحروف مبينة من صفاته عن الصدق، ثم تنبسط بعد على كل صدق موجود في العالم، والكتاب فهو الصادق الحق اسمه، والصدق صفته، والصدق خبره، والصادق الرسول، والصدق وصف له، والصدق ما جاء به، والمصدقون والمصدقات المؤمنون، وهم الصادقون في شهادتهم له، وكذلك العالم صادق في شهادته له ودلالته عليه وعلى ما جعل دليلاً عليه وشاهدًا له.

قال الله - عز من قائل: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] يعني: العالم وعباده الذين وصفهم إلى آخر السورة من لدن قوله الحق: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٦٣] فهم المخبرون، فأجملت ﴿ص﴾ معبرًا عن المعنى الذي شمل من ذلك على هذا وما هو أكبر من هذا، ثم أقسم على ذلك بالقرآن ذي الذكر، والذكر من الصدق الموجود في العالم والوحي.

أتبع ذلك قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[١] [ص:٢] كأنه أعرض

---

(١) إن قلت: قوله: ﴿ص والقرءان ذِى الذكر بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ كلام ظاهره متنافر غير منتظم، فما وجه انتظامه؟ قلت: فيه وجهان؛ أحدهما: أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدّي والتنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّي عليه، كأنه قال: «والقرءان ذِي الذكر» إنه لكلام معجز. والثاني: أن يكون «ص» خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة، كأنه قال: هذه ص؛ يعني: هذه السورة التي أعجزت العرب، والقرآن ذي الذكر كما تقول: هذا حاتم والله؛ تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله؛ وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بـ«ص» والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز، ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان
=

عن ذكر لأجل ذكر آخر: وهو الإخبار عن إعراضهم وهو عتوهم وعدم الاقتداء منهم والتصديق للرسول ﷺ وما جاء به من عند الله، والشقاق البعيد والامتناع عن قبول الصدق من الصادقين، وترك اتباع المهتدين، ثم أخذ في نوع من الذكر فأخبر ﷻ عن إعراضهم عن تذكيره إياهم بالقرآن ذي الذكر إلى ما هم عليه من عزة في أنفسهم وبعد عن قبول الحق.

ووصل ذلك بقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: لما أخذوا مأخذ هؤلاء، ولما رأوا العذاب نادوا بالإيمان والتوبة ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣] وهي كلمة مركبة من كلمتين يعبر بها عن عسر النجاة وتعذر الإقالة، والنوص يعبر به تارة عن التقدم، وتارة عن التأخر، وهو كالجماح والنفار من الفرس، ونوص حمار الوحش: رفعه رأسه كأنه نافر جامح ﴿وَلَاتَ﴾ للنفي، وقد تفصل التاء من حين وقد توصل بها، وأصل هذه التاء هاء، لكنها وقعت هكذا في المصحف، والمعنى: ولاه حين مناص.

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص:٤] أي: من البشر وبخاصة من العرب ومن قريش، يعيب تعجبهم من ذلك كيف عجبوا لهذا ولو نظروا في موجودات السماوات والأرض لتحققوا أن ذلك من واجبات الوجود ومعهود صفات الموجد.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] المعنى إلى آخره، وإلى هذا ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤] وهو لو علموا ذكر لهم وشرف، فكان تعجبهم من ذلك وإبعادهم له نفارًا عما كان يكون لهم ذكرًا وشرفًا في الدنيا والآخرة، فعرض بالإخبار بهذا المعنى عن عظيم قدرته ومضاء مشيته، كيف تساق الذوات إلى ما يسبق لهم عنده وإن كان في ذلك

= لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله، وإذا جعلتها مقسمًا بها وعطفت عليها «والقرءان ذِي الذكر» جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله، وأن تريد السورة بعينها، ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر، والذكر: الشرف والشهرة من قولك: فلان مذكور، والتنكير في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ للدّلالة على شدّتهما وتفاقمهما. وقرىء: «في غرّة» أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحقّ. [الكشاف (٥/٤٩٨)].

لو كان يصلح في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦] إلى قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨] ﴿المَلأُ﴾ أشراف القوم وسراتهم، وصفهم بذلك تعيبًا لهم، والمراد: إذا كان الملأ منهم على هذه السفاهة من الرأي وعدم العقول كيف يكون الأتباع منهم؟ وكان انطلاقهم من عند أبي طالب حين احتضر وكلفوه أن يأخذ لهم على يدي ابن أخيه، وأن يأخذ له منهم، وأن يتواطؤوا معه على أمر بين أمرين.

وقالوا: إنه قد سفه أحلامنا وعاب ديننا وسب آلهتنا وفرق جمعنا، قال لهم رسول الله ﷺ: «كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» قال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات ما هي؟ قال: «أن تقولوا: لا إله إلا الله، وتخلعوا الأنداد من دونه»[(١)].

قال الله - جل من قائل: ﴿وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ﴾ وهم يقولون قولاً يعبر عنه بأن ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦] أي: يكاد ليذهب به.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ [ص:٧] قيل: ملة النصارى، وقيل: ملتهم تلك، وأرى أنهم عنوا بذلك نفي السماع أولاً وآخرًا كما قال غيرهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:١٥].

يقول الله - جل من قائل: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: الذكر الذي نصبته لأمثالهم من القرون الماضية والأمم المهلكة، ثم قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:٨] أي: عذابي الذي أذقته من كان قبلهم من المكذبين أمثالهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ﴾ [ص:٩] هذا في مقابلة قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيخصون بالرحمة من شاءوا وبالهداية أو بالضلالة ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾[(٢)] [ص:١٠] أي: إن كانت لهم قدرة

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٠٠٨).

(٢) ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ أي: إن ادعوا شيئًا من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم =

على ذلك أو لآلهتهم.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ يعني: أسباب السماوات، وهي ما موه به فرعون في قوله: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ [غافر:٣٦] المعنى: وأسباب السماوات في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ [الزخرف:٨٦] وقوله الصدق: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٢ - ٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان فتضع الملائكة أجنحتها خضعانًا للأمر، فإذا فزع عن قلوبهم فعلموا ما أمروا به**»[١].

وقال لهم الذين من دونهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فينطقهم الله بالحق المراد منه بهم فيقولون ذلك، فيستدير دائر هؤلاء بذلك الأمر المراد منهم كما استدار دائر الذين من فوقهم بالمراد منهم، ويقول الثالث للثاني: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فينطقهم الله بالحق عنه فيخبرونهم، فيفعلون ما أُمروا به، ثم كذلك من سماء إلى سماء ينزل الأمر إلى الأمر إلى الأمر كذلك، ثم إلى المنتهى بذلك الأمر، وكلهم عاملون بما به أمروا ومستعملون بأمره ومشيئته، مصرفون بقدرته وحوله وقوته من جميعهم.

كما قال - عز من قائل: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٢٢] المعنى: فهذه أسباب السماوات، الأول سبب أول يسره الله لذلك وهو سبب للثاني، والثاني سبب للثالث، ثم كذلك إلى منتهى ذلك الأمر المراد، مثلاً أقول: قال الله سبحانه وله الحمد:

إلى السماء، وليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون، قال مجاهد وقتادة: أراد بالأسباب: أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء، وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه، وهذا أمر توبيخ وتعجيز. [تفسير البغوي (٧٣/٧)].

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ثم أحال على ما علا من الأفلاك وجمع الكل من الأفلاك بقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] وهذا الفلك هو الفلك الأعظم، جمع الله فيه أمره الخاص به وأمر ما دونه، فهو يستدير بأمره ويستدير ما دونه من الأفلاك باستدارته، كل بأمره الخاص به وبما عمه.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢] فكل يعمل بخاصته وبما عم مما هو دونه من الأفلاك كلها حية بحياة الإيمان، تعبد ربها وتقنت له وتسلم مسخرة بأمره، والملائكة الموكلون بالأفلاك أحياء بحياة الخلقة وحياة الإيمان معًا على جميعهم السلام، هذا إن كان الأمر المقضي من الله - جل ذكره - في السماء، فإن كان من فوق العرش فعلى ذلك أيضًا الأول سبب أول لما حواه، والثاني كذلك لنفسه، وكل ما دونه هكذا إلى منتهى الأمر.

ولما كان الأمر كله لله ﷻ دون من سواه قرعهم بقوله الصدق: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيخصوا بالرحمة والإنباء والرسالة من شاءوا إن كان ذلك لهم كذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ [ص:١٠] أي: إن ذلك ليس هو إلا لمن له الملك كله والأمر كله في السماوات والأرض، وفيما بين ذلك فإن الذين قد أجرى الملك الحق على أيديهم الأسباب لا يملكون شيئًا ولا يستطيعون سوى ما يأمرهم به ويقدرهم عليه.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

أتبع ذلك قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ [ص:١١] أخبر ﷻ عما هو كائن قبل كونه، وأنهم - أي: جند - هو فكان أول جند مهزوم منهم جند غزوة بدر، ثم انبسط صدق الحديث على جنود كثيرة في وقائع مختلفة وقوله: ﴿مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ أي: ألحقهم بالأحزاب قوم نوح وعاد وثمود وقرون غيرها كثيرة.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا

يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: ١٢ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ**﴾ [ص:١٢] إلى قوله: ﴿**أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ**﴾ [ص:١٣] أي: الذين هم أولئك حزب منهم.

ثم قال: ﴿**وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ**﴾ [ص:١٥] يريد أنهم قد استحقوا ذلك إلا أن يكون من الله - جل ذكره - الكفاية من قراءة «فواق» بالفتح: فهو من الإفاقة والراحة، ومن قرأ بالضم فمعناه: الرجوع، وهو مأخوذ على ذلك من فواق الناقة، ويقال ذلك أيضًا بالضم والفتح، وفواقها ما بين الحلْبتين يفعل ذلك ليفضي اللبن، وكذلك بين رضعة الفصيل إياها ورضعته الأخرى، يُقال: من ذلك أفقت الناقة: إذ أنقصت حلْبها، ثم تنتظر حتى تجتمع درتها فتحلبها ثانية.

﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ**﴾ [ص:١٦] القِط: الكتاب فيه حظ حامله أو المكتوب له، وجمعه: قطوط، هذا كله من الذكر الذي نزل به القرآن منبهًا عليه وأظهره الوجود، وقد كانوا قالوا: ﴿**اللهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال:٣٢].

قوله تعالى: ﴿**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ**﴾ [ص:١٧] من قولهم: إن هذا إلا اختلاق وساحر وشاعر ومجنون وأساطير الأولين وكذاب ونحو هذا، يقول ﷺ: اصبر فإن العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ثم أتبع ما تقدم من الذكر نوعًا آخر منه إرساله الرسل وذكر ما أرسلوا به وصبرهم على المحن وكرامتهم على الله ﷻ يقول - جل من قائل: قد أبلغتهم فخذ في ذكر آخر واصبر وانتظر.

﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ**﴾ [ص:١٧] يعني: القوة في العبادة وطاعة الله، يقال من ذلك: «أيدك الله» بمعنى: قواك الله وأعانك، وهو التأييد، وأياد كل شيء: ما يقوى به من جانبيه، والأواب: الرجاع بالتوبة وبالتسبيح والتقديس، كلما جاء العشي

والإشراق آب إلى التسبيح فيؤوب معه إلى ذلك الجبل، والطير تؤوب بتأويبه أي: ترجع بترجيعه، «آب» أي: رجع إلى أفضل ما كان عليه قبل الأوبة، ولكثرة العرف في ذلك قيل للمطيع: أوَّاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص:١٨ - ١٩] أخبر الصادق الحق أن للجمادات والبهائم تسبيح فوق الذي ظهر منها للمعتبرين، يظهر من ذلك ما شاء لأصحاب المعجزات والكرامات، يكون ذلك مستصحبًا لهم في الدار الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾[1] [ص:٢٠] الحكمة: هي

---

(١) قال ابن العربي: قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾: أي قويناه بالهيبة، وقيل: بكثرة الجنود، ودلت الآية على أن النبي يسمى ملكًا، وجاء أن رسول الله ﷺ أمر العباس أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى يمر به المسلمون، حتى مرت به القبائل كتيبة كتيبة، فمرت به كتيبة عظيمة، فقال يا عباس: من هؤلاء؟ قال: الأنصار عليهم سعد بن عبادة، فقال أبو سفيان: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقال: إنه ليس بملك، ولكنها النبوة، ولم يرد العباس نفي الملك، وإنما أراد الرد على أبي سفيان حين نسب حال رسول الله إلى الملك، وفي الحديث: «إن جبريل قال لرسول الله: إن الله خيرك بين أن تكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار التواضع، وقال: أكون نبيًا عبدًا، أجوع يومًا وأشبع يومًا».

وقوله: ﴿فَصْلَ الخِطَابِ﴾. قيل: هو علم القضاء، وقيل: هو الإيجاز، وذلك أن يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل، وقيل: هو أما بعد: فإن داو هو أول من تكلم به. أما علم الفضاء، فعلم قائم بنفسه، وفي الحديث: «أقضاكم علي، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل».

تنبيه: يروى أن عليًا قال: «لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن حفر قوم زبية للأسد، فوقع فيها الأسد، وازدحم الناس على الزبية، فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا، فحمل القوم السلاح، وكادوا يقتتلون، قال علي: فقلت لهم: أتقتلون مائتي رجل بأربعة؟ ولكن سأقضي بينكم بقضاء، فإن رضيتم فهو قضاء بينكم، وإلا رفعت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فهو أحق بالقضاء، ثم جعل للأول ربع الدية، وللثاني ثلثها، وللثالث نصفها، وللرابع جميعها. وجعل الديات على من حفر الزبية من قبائل الأربعة، فسخط بعض، ورضي آخرون، ثم قدموا على رسول الله ﷺ، فقصوا عليه ذلك، وأخبرون بقضاء علي، فقال: «القضاء ما قضى به علي»، وهذا من بديع الفهم وحضور الذهن، وكذلك يروى أن أبا حنيفة، جاء إليه رجل فقال: إن ابن أبي ليلى، قاضي الكوفة، جلد امرأة مجنونة حدين في المسجد، وهي قائمة، لأنها قالت لرجل يابن الزانيين، فقال: أخطأ من ستة أوجه. وهذا الذي قاله أبو حنيفة، لا يدركه بالروية إلا العلماء، وإنما قال ذلك
=

حكمه بما أمر به وسن له ليمتثله، وفصل الخطاب والله أعلم: هو إصابة فصول الخطاب ووجوه الصواب في اتصال الخطاب وانفصاله وتداخله في أثناء قصصه، وجمع متفرق معاني كل خطاب إلى ما هو منه.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] أثنى عليه بالتوب من الذنب.

قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] طلب ﷺ ملكًا معجزًا يكون له آية على نبوته، فأعطاه سؤله وقد تقدم ذكره.

فصل

ذكر أهل التفسير وغيرهم في تأويل قول الله - جل قوله - في قصة داود ﷺ واحتكام الخصمين إليه، وضربهما المثل له في ذلك: أن داود أتى ذنبًا ذكروه منعنا التحرج من حكاية أقوالهم وخلف في ذلك الخلف السلف إلا من شاء الله، وهذا فلم ينص القرآن على ذنبه ولا ذكره بعينه، وأخشى أن يكون ذلك مما تتلوه الشياطين على نبوته وذكره، كالذي تلته على ملك سليمان، وتلته أيضًا على ما أنزل على الملكين هاروت وماروت، على جميعهم صلوات الله وسلامه.

وإنما ذكر القرآن أن أحد الخصمين قال له: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] فأوّلوا النعاج: نساء، وقوله: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أن يجعل له سبيلاً إلى نكاحها، وأنه أرسله في

أبو حنيفة، لأن المجنون لا حد عليه، إذ هو غير مكلف، ولأن قولها يابن الزانيين لا يلزمها، غلا حد واحد لتداخل الحدود عنده، ولأنه حدها دون مطالبة المقذوف بحقه، ولا تجوز إقامة الحد إجماعًا إلا بعد طلب المقذوف بحقه وبهذا استدل من رآه حقًا لآدمي لاحقًا لله تعالى. ولأنه حدها قائمة، ولا تحد المرأة قاعدة، واستحسن أن تجعل في قفة ولأنه أقام الحد في المسجد، وهو لا تقام فيه الحدود تشريفًا له، واعلم أن رسول الله ﷺ، كان يقول في خطبة: «أما بعد». ويروى أن أول من قال ذلك في الجاهلية سحبان، وهو أول من آمن بالبعث، وتوكأ على العصا وعمر مائة وثمانين سنة. وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ﴾. قال مال: هي المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع، وقال ابن زيد: ﴿فَصْلَ الخِطَابِ﴾. هو الفهم، وإصابة القضاء. [الأحكام الصغرى ٥١٩].

بعض غزواته وعرض به للقتل فقتل، وهذا كله خارج عن المعهود من توقيرهم وتعزيزهم المأمور به الواجب علينا امتثاله؛ إذ لم يصح ذلك من الكتاب ولا من حديث رسول الله ﷺ خلا ما ذكر في القرآن.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٢٤ - ٣٠].

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾[1] [ص:٢٤] والفتنة قد تكون على ضروب: منها أن يكون ذلك لغفلة ما، أو نزول عن عالي مقاماتهم، أو خطأ في بعض الحكومات، ولذلك كان يقول للقمان عليه السلام وكان يزوره ويحضر بعض مجالس حكوماته: يا لقمان، أوتيت الحكمة وعوفيت من البلية.

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] قيل: إن «أَمْ» هنا بمنزلة ألف الاستفهام تقدير ذلك:

---

(١) قال المفسرون: إن الظن ههنا بمعنى العلم؛ لأن داودَ عليه السلام لما قضى بين الرجلين نظر أَحَدُهُمَا إلى صاحبه فضحك، ثم صَعَد إلى السماء قبل وجهه، فعلم داود أنَّ الله ابْتَلَاهُ بذلك، فثبت أن داود علم بذلك. وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم؛ لأن العلم الاستدلاليّ يشبه الظنّ مشابهةً عظيمة والمشابهة علة لجواز المجاز. قال ابن الخطيب: هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا: الخصمان كانا ملكين، أما إذا لم يُقَلْ ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العمل بل لقائل أن يقول: إنه لمَّا غَلَب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة. [تفسير اللباب لابن عادل (١٣/٣٦١)].

أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار؟ وليس ذلك كذلك، والله أعلم بما ينزل.

وإنما انتظم الكلام بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧] ثم حذف كلامًا دل عليه ما بعده تقديره: أفنجعل الناظرين في آياتنا المتدبرين لكتابنا كالمعرضين والمكذبين.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أي: فيعلمون ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد:١٩] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ أي: بآيات السماوات والأرض ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٨ - ٢٩].

ثم ينتظم هذا بمفتتح سورة «الزمر» قوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١] كذلك إلى ذكره ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الزمر:٣] إلى قوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر:٤].

وانتظم هذا بما في السورة من ذكر الآلهة، وأنهم ينسبونها إلى وصف النبوة - تعالى الله عن قبيح افترائهم - وذلك منتظم بما في آخر سورة «الصافات» من ذكر ذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨] ونحو ذلك، ثم كذلك في صدر سورة «الزمر» يبين به مشكل ذلك، ويكسر باطل دعاويهم إلى قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣].

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى
حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ
﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا
لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٣١ - ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١] ثم ذكر نوعًا آخر من الذكر قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٧ - ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] هذا نوع من الذكر كان داود خليفة ملكًا ذا أيد على العبادة وابتغاء مرضاة ربه، لم تشغله الدنيا عن ذلك ولا منعه الملك عن الحكم بالعدل، ثم ورثه سليمان في الخلافة والملك والعبادة والاشتغال بطاعة الله والشكر له، وكان أيوب ذا بلاء ومصيبات، فلم تخرجه شدة البلاء ولا أزعجته مضايق المصائب إلى خروج عن الصبر، إلى أن فتح الله عليه وفرج عنه ورد عليه أهله ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ رحمة من عنده له ولمن تبعه ﴿وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

يقول الله - جل من قائل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] ثم أجمل ﷻ الذكرى بذكر أسماء عدة من أنبيائه وأوليائه صلوات الله وسلامه على جميعهم، تذكيرًا بهم في اصطفائه إياهم واختصاصه لهم بولايته والعمل بطاعته، ودوام ذكره وإخلاص العبادة له.

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ
وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ
مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ
قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ
﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ

حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ [ص:٤٥ - ٥٩].

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ ثم ذكر نوعًا آخر من الذكر بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ [ص:٤٩ - ٥٠] إلى قوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾[1] [ص:٥٢] إلى قوله: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٣ - ٥٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَذَا﴾ أي: ذِكر، ثم ذَكر نوعًا آخر من الذكر بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [ص:٥٥ - ٥٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَذَا﴾ أي: هذا عذابي، يعني قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:٨] وهو ذِكر ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ أي: دولة السعير ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧] في دولة الزمهرير.

ثم قال: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٨] يريد اختلاف موجودات ما هنالك من عذاب في طعام وشراب وحال.

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا
هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾
أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠
مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾
قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ

(١) أي: قاصرات طرفهنّ على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، والأتراب: المتحدات في السنّ، أو المتساويات في الحسن. وقال مجاهد: معنى أتراب: إنهنّ متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن. [فتح القدير (٦/٢٥٣)].

إِبْلِيسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص:٦٠ - ٧٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أي: يقال لرؤسائهم المعجل بهم إليها: هذا فوج مقتحم معكم، فيقول هؤلاء المعجل بهم: للداخلين فيها عليهم ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ﴾ [ص: ٥٩] سلط عليهم البغض والشحناء والعداوة لمن دخلها حتى أبغضوا أنفسهم وذلك أشد لعذابهم، فيقول الداخلون عليهم: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [ص: ٦٠] هو الذي بوأكم فِعْلَكم، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص:٦١].

يقول الله - جل ذكره: لكلٍ ضعف، أي: على قدره، فالأئمة تضعيف العذاب لهم تضعيف على تضعيف، والأتباع تضعيفهم لقرنائهم المقرونين بهم.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥] نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال عز من قائل مُخبِرًا عنهم؛ يعني: وهو أعلم جميعهم ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ﴾ [ص:٦٢] هؤلاء هم أهل طاعة الله من المؤمنين.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا﴾ [ص:٦٣] في دار الدنيا كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩ - ٣٠].

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ [ص:٦٣] هنا محذوف تقديره، والله أعلم: أسعدوا فرفعوا أم زاغت عنهم الأبصار وهم فينا ومعنا، أو ما يكون من الكلام عنا غير هذا، ثم قال وقوله الحق: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص:٦٤] في هذا من الذكر إثبات لنبوة محمد ﷺ أن يخبرهم بهذا الغيب.

أتبع ذلك ما هو في معناه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ﴾ [ص: ٦٥ - ٦٦] هذا منتظم من الذكر بإثبات نبوته ﷺ والإعلام بالوحدانية والألوهية والربوبية لكل شيء، وهو منتظم

بما تقدم من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] المعنى إلى آخره، فانتظم معنى هذا بمعنى ما يخبر به السماوات والأرض وما بينهما، وهو الحق الذي خلقهما به، انتظم هذا بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فافهم.

نظم بذلك معنى ما تقدم قوله الحق: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨] معنى النبأ: ما يشمل جميع الذكر في القرآن والوحي والوجود، وبه جاء ولأجله صنع المصنوعات وأقام الأرضين والسماوات وبخاصة الألوهية، وصفات الإله الحق وأسمائه وأحكامه وحكمته في الدنيا والآخرة، ما أعظم الغفلة عن هذا النبأ وأخطر السهو والذهول عنه إلى حيث مساس الضرورة إليه ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩] روى ابن عباس ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني ربي الليلة في أحسن صورة**» قال: أحسبه قال: «في المنام» «**قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: فقلت: لا يا رب، قال: فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي** - أو قال: مجرى - **فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: نعم، في الكفارات، والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجمعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه**» وقال: «**يا محمد، قل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**» قال: «**والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام**»(١).

وفي أخرى قال: «**فعلمت ما بين المشرق والمغرب**»(٢) مكان قوله: «**فعلمت ما**

---

(١) أخرجه أحمد (٣٤٨٤)، وعبد بن حميد (٦٨٢)، والترمذي (٣٢٣٤)، وقال: حسن غريب. والطبراني (٢١٦)، والبزار (٢٦٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٢).

بين السماوات والأرض».

وفي أخرى قال: «**إني نعست فاستثقلت نومًا فرأيت ربي في أحسن صورة قال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد**»[(١)].

ورواه أيضًا قتادة عن أبي قلابة، فهذا تبيين عن رسول الله ﷺ بما جعل الله - جل ذكره - في قلبه من حكمته، وملأ منه صدره من نوره ونبوته وعلمه من علمه، وأمَّا القرآن فعرض من الإنباء عن اختصام الملأ الأعلى عرضًا من اختصامهم آخر، وهو ما وصل به قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ...﴾ [ص:٧١] فذكر الأمر بالسجود ائتمامًا بآدم وطاعة لأمر الله - جل ذكره - ومسارعة الملائكة عليهم السلام إلى امتثال الأمر، وإباء إبليس لعنه الله، وكان إبليس يومئذٍ في جملة الملائكة قبل المحنة بالأمر بالسجود، ولم يكن بعد أبلسه ولا أبعده من ملكوت السماء ولا أهبط من العلو، فكان ذلك اختصام من الملأ الأعلى عرضه إليه القرآن، وهو أصل لما علمه - صلوات الله وسلامه عليه - المعبر عنه بقوله: «**فعلمت ما بين المشرق والمغرب**» أعني: إباءه عن السجود ومحاجته، واشتراطه لنفسه بعد الإغواء الذي حاق به، وسجود الملائكة - عليهم السلام - وطاعتهم في ذلك ومسارعتهم إليه، ولتعليمه آدم ﷺ الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، إلى قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣] أصل ومنبعث لما علمه إياه في السماوات والأرض.

وفي قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] منتظم لأنواع الذكر الذي في القرآن كله، وبخاصة ما في هذه السورة يدور علم ذلك في الإنباء على قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩] وأن المراد به: إثبات النبوة لمحمد ﷺ وبذلك صح ما جاء به وبما جاء به صحت نبوته، فافهم.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٣).

قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٧٥ - ٨٨].

أتبع محاجة الغوي اللعين عن نفسه واشتراطه لها ما أهلكها به، وأجابه العلي الكبير بقوله الحق: ﴿فَالْحَقُّ﴾ [ص:٨٤] أي: الذي يكون منك من الإغواء والتزيين والجلب عليهم بالخيل منك والرجل، ومشاركتك إياهم في الأموال والأولاد، وإضلالك إياهم، أنا قضيته وأنا قدرته وأنا أمضي ما أشاء منه، وقولك هذا أنا قولتكه، والحق قولتك؛ أي: بأنه كائن ما شئت منه ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٤ - ٨٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما أسألكم على هذا الذكر من أجر ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦] كل مُذَكِّر لم يؤمر بالتذكير يُذَكر قومًا زاهدين في تذكيره إياهم، فهو متكلف وقد عمت الدعوة، بلى يجب على من عنده علم أن يعرض به ويرغب في سماع التذكير، فإن وافق من القوم رغبة في ذلك فعل، وهو على ذلك ليس بمتكلف، ورسول الله مأمور من الملك الأكبر لذلك.

قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص:٨٧] كما قال: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١].

ثم استصحب الذكر والتذكير إلى آخرها ختم السورة بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨] نبّأ هذا الذكر منه ما يظهره له في أيام الدنيا ومنه ما يكون في الآخرة، أمّا ما كان منه في دار الدنيا فظهور رسالته وإعلاء كلمته وإتمام دينه إلى غير ذلك مما وعده به وأنجزه له في الماضي وما يستقبل من ذلك، وما يكون من ذلك في الدار الآخرة فمعلوم.

تفسير سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ⑤﴾ [الزمر: ١ - ٥].

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾[1] [الزمر: ١] كقول القائل:

---

(١) اعلم أن في الآية مسائل: المسألة الأولى: ذكر الفراء والزجاج: في رفع (تَنزِيلَ) وجهين أحدهما: أن يكون قوله: (تَنزِيلَ) مبتدأ وقوله: (مِنَ الله العزيز الحكيم) خبر والثاني: أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب، فيضمر المبتدأ كقوله: (سورة أنزلناها) أي هذه سورة، قال بعضهم: الوجه الأول لوجوه الأول: أن الإضمار خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا لضرورة، ولا ضرورة هاهنا الثاني: أنا إذا قلنا: (تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله) جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة الثالث: أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر، لأن هذا إشارة إلى السورة، والسورة ليست نفس التنزيل، بل السورة منزلة، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة. المسألة الثانية: القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق والجواب: إنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف.

المسألة الثالثة: الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلاً وآيات أُخر تدل على =

هذا تنزيل الكتاب من الله؛ أي: من عند الله أو من لدنه، كما قال: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢] فروح القدس صفة من الصفات، ويمكن أن يكون قد أوجد خلقًا من عباده أقامه في ملكوته مقامًا شاءه، كما هو المؤمن أوجد الإيمان والمؤمنين، والسلام أوجد الإسلام والمسلمين، كذلك أوجد عن كل اسم وصفة عرف بها موصوفًا ومسمى ما، والقرآن كلامه فهو منه، وإن كان المراد بالعبارة: الكتاب، فهو من عنده.

قال الله - جل ذكره: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٤٣] وقرأ ابن أبي عبلة: «تنزيلَ الكتاب» بفتح اللام من تنزيل، وقد تقدم أن معنى تنزيل: تيسير وتقريب، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧] إذ كلام الله - جل

كونه منزلاً، أما الأول: فقوله تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقال: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمنِ الرحيم﴾، وأما الثاني: فقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر﴾ وقال: ﴿وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ﴾ وأنت تعلم أن كونه منزلاً أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلاً، فكونه منزلاً مجاز أيضًا لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الإنفصال والنزول، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول، بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها إلى الرسول ﷺ. المسألة الرابعة: قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادرًا على ما لا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، وأنه غني عن جميع الحاجات إذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى: عزيزًا حكيمًا يدل على هذه الصفات الثلاثة، العلم بجميع المعلومات، والقدرة على كل الممكنات، والاستغناء عن كل الحاجات، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح، وإذا كان كذلك فكل ما يفعله يكون حكمة وصوابًا، إذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين أحدهما: أن يعلم أن القرآن كلام الله، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقًا، وثبت بالتواتر أنه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله والأصل الثاني: أن الله أراد بهذه الألفاظ المعاني التي هي موضوعة لها، أم بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيسًا، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين، وثبت أنه لا سبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيمًا، وثبت أن لا سبيل إلى إثبات كونه حكيمًا إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزًا، فلهذا السبب قال: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم). انظر: [تفسير الرازي (٢٢١/١٣)].

ذكره - لا يحتمله شيء، كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:٢١] كذلك لو أنزله على ما هو عليه من العظمة والجلال ما احتملته الأرض والسماوات لولا تنزيله إياه ورحمته في ذلك.

فصل

جاء أن قومًا من المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد، إنك قد سببت آلهتنا وسفهت أحلامنا، ونحن لا نصبر لك على ما أنت عليه، وإنك تدعو إلى شيء وإنا لنخاف عليك من آلهتنا أن تختبلك وأن تنالك منها بسوء، فتعال فلنتوسط معك أمرًا بين أمرين: وهو أن نعبد نحن إلهك الذي تدعو إليه، وتعبد أنت ما نعبده نحن، فأنزل الله - جل ثناؤه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ - ٢] إلى آخرها.

وتأسس تنزيل هذه السورة على كسر مقالهم ذلك وإبطال مذهبهم إلى آخرها، واستاق الخطاب منتظمًا بما تقدم في سورة «ص» من أنه خلق السماوات والأرض بالحق، وقد تقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:٢] يعرض بشركهم ويأمره بإخلاص العبادة لوجهه الكريم ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] كما قال: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل:٥٢] وهو ما فطر عليه السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات دين الإسلام، فله أسلم من في السماوات والأرض، وله قنت كل شيء، وله سبَّح كل موجود، وإياه حمد وصلى وعبد بمباني الإسلام الخمسة، ذلك هو الدين القيم، وجميع ما أوجده من موجودات الجملة هي القيمة على الإخلاص المحض، لا يتطرق ما هنالك إثارة رياء ولا سمعة ولا رغبة في منزلة ولا شهوة ظاهرة ولا باطنة.

لذلك قال: ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] فأمرنا - عز جلاله - أن نعبده على ذلك دون شرك ولا كفر ولا نفاق ولا رياء ولا عجب ولا كبر؛ إذ ذلك كله عن حب الدنيا وتعظيم قدر النفس، وإرادة الجاه عند النظراء، والحظوة عندهم والحرمة فيهم، وذلك كله متولد عن حب البقاء في الدنيا ونسيان لقاء الله جل ذكره.

والنفاق هو: أن يقول باللسان ما ليس في القلب إلا خلافهن، والمداهنة من فعل النفاق، وهي: المخادعة، ومن ذلك ما يكون صغيرًا وكبيرًا، فذلك النفاق الأصغر والنفاق الأكبر.

قال الله ﷻ في وصف ما دعوه إليه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً....﴾ [الإسراء:٧٣ - ٧٤] والإعجاب: النظر إلى النفس عند العمل، وإضافة ذلك إليها واستكباره منها، ونسيان نعمة الله ﷻ عليه فيه بالتوفيق إليه والمعونة عليه والتأييد، وربما طلب المحمدة من الناس بما فعل وبما لم يفعله.

والشرك على وجوه:

أحدها: أن يجعل مع الله إلهًا آخر، فيعتقد معه شريكًا في ملكه وإعطائه ومنعه وتدبيره واختراع ما اخترعه وخلق ما خلقه، وذلك كفر المجوس والثنوية والمجسمة وشرك أصحاب الأوثان، ويضاهي ذلك غلط القدرية.

والوجه الثاني: هو الشرك في العبادة، كالرياء وإضافة العمل إلى النفس وادعاء الحول والقوة في ذلك، ويكون ذلك من إغباب ذكر المُنعم وإهمال السر، قال الله جل ذكره: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩] وإصلاح هذا في امتثال قوله - جل من قائل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

والوجه الثالث: يسمى: الشرك الخفي، ويسمى: الشهوة الخفية، وهو: أن يخفي العمل ويسره ويخاف عليه من إظهاره، وهو على ذلك يحب أن يذكر بأنه يخفي عمله ويريد أن يسمع به، وأن لو اطُّلع عليه وعُثر على ما أسره من ذلك ونحو هذا.

قال رسول الله ﷺ: «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء**»(١).

---

(١) أخرجه الحاكم (٣١٤٨) وقال: صحيح الإسناد. وأبو نعيم في الحلية (٣٦٨/٨)، والديلمي (٣٦٧٤).

وللمنافقين علامات يُستدل بها على ما هم عليه، قال رسول الله ﷺ: «من علامات النفاق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»(١).

وفي أخرى: «وإذا خاصم فجر»(٢).

وروي أنه قال: «للمنافقين علامات فادعوهم بها: تحيتهم لعنة، وطعمتهم تهمة، وغنيمتهم غلول، لا يأتون المساجد إلا هجرًا ولا يشهدون الصلاة إلا دبرًا ولا يألفون ولا يؤلفون جيف بالليل يطالون بالنهار»(٣).

وقال ﷺ: «خمس لا تكون في منافق: الفقه في الدين، والورع في اللسان، والشحوب في الوجه، والنور في القلب، والمودة للمسلمين»(٤).

وقال الله - عز من قائل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ﴾ [المنافقون:٤].

فصل

وأمَّا الإخلاص: فهو خاص، لا يعطيه الله إلا لأهل صفوته وبالتفقه فيه، وتعرف معانيه وحدوده وأحكامه والجد في طلبه وإعمال القلوب بمقتضاه، ويشغل الأبرار عن الفقه في مسائل أحكام الدنيا، ومن حدوده: صفاء النفوس من كدر البشرية، وبقاء الأسرار عن دنس النفوسية، وإخلاص القلوب لله وحده، والمحافظة عليها من أن يكون فيها غير الله، بل يكون انقطاعها إليه وسرورها به.

ومن علاماته: خروج الخلق عن القلب في أثناء معاملته، وقصد العمل لله ﷻ، والنظر في ثواب الله - جل ذكره - لا لحب محمدة ولا كراهية مذمة.

واعلم أنه إنما سمي إخلاصًا؛ لأنه خلص من الآفات، فلما خلص من أن يمازج علمه رياء أو سمعة أو إعجاب أو حب محمدة أو كراهة مذمة خلص العمل،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٣)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٦٨)، والبخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، وأبو داود (٤٦٨٨)، والترمذي (٢٦٣٢) والنسائي (٥٠٢٠).

(٣) أخرجه أحمد (٧٩١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٦٣).

(٤) لم أقف عليه.

وكان عامله مخلصًا أخلصه الله لنفسه، فكان بذلك مخلصًا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٦ - ٤٧].

واعلم وفقنا الله وإياك أنه - أعني: الإخلاص - فرض الفرض، لا يقوم فرض ولا نفل إلا به، ومتى عرى عنه عمل بطل.

قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لامرئ ما نوى**»(١) وكما أن التوحيد يبطله أدنى شرك، كذلك الإخلاص يبطله أدنى الرياء.

قال الله - جل ذكره: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك في عمله غيري فهو له كله**»(٢) ومن أحسن العون على الإخلاص التقوى والمعرفة وطلب اليقين ولزوم المراقبة والحياء من الله ﷻ أن يراك تتزين لغيره بعمل ألهمك إليه وعلمك إياه وقواك عليه، دخلْت فيه زعمْت تطلب القرب به إليه، فإياك عدوه إبليس الذي عاداه فيك فتطيعه فيما يضرك ولا ينفعك، فإذا بك قد خبت من الظفر بمرغوبك وخسرت حظك عنده، واستعن على عبادتك بالكتمان والستر، وكما تستر سيئاتك فاستر حسناتك، فكلما أخفى العامل لله عمله كان ذلك زائدًا في صدقه.

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**عمل السر يزيد على عمل العلانية سبعين ضعفًا**»(٣) وكما أن الشجرة إذا ظهرت عروقها ضعف شربها وأضر بها حرارة الهواء وبرده، وتعرضت بذلك للآفات من قطع ويبس وغير ذلك، ولم تحسن بذلك فروعها، وحف ورقها فقلَّ نفعها، وهي إذا غاصت عروقها واستترت عن أعين الناظرين غلبت عن الآفات، وآمنت القطع من أيدي الرائين إليها، فكثر شربها وجرى ماؤها فيها، وتزايدت لذلك فروعها واخضر ورقها وكثر خيرها وطاب ثمرها لجانيها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٨)، والبخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، والترمذي (١٦٤٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والنسائي (٣٤٣٧)، وابن ماجة (٤٢٢٧)، وابن المبارك (١٨٨)، والحميدي (٢٨)، وابن عساكر (١٦٦/٣٢)، وابن منده في الإيمان (٢٠١)، والدارقطني (٥٠/١) والديلمي (٤٠١).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجة (٤٢٠٢).

(٣) أخرجه الديلمي (٤٣٤٨).

وكذلك العمل إذا كانت له أصول في القلب مستورة عن الخلق زكى في نفسه وطهر من الأدناس، وكثر خيره وطاب ثوابه لعامله، وإذا بدا لم يؤمن عليه من أبصار الناظرين، وإذا أخفى المخلص عمله لم يبقَ عليه ما يخاف منه شيء سوى العجب إدخال الرياء غائب عنه إلا أن يستحسنه بقلبه ويحب إطلاع الخلق عليه، وهي الشهوة الخفية، ومن قولهم من عرف الله بعد الضلالة، وعرف الإخلاص بعد الرياء، وأنزل الموت حق منزلته لم يغفل عن الموت والاستعداد له بما أمكنه.

قوله تعالى: **﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾**(١) [الزمر:٤] هذا كقوله - جل من قائل: **﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾** [الحج:٧٥] ولو أنه اصطفى مما يخلق لم يكن

(١) قال تعالى: **﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سبحانه هُوَ الله الواحد القهار﴾** المراد من هذا الكلام: إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهًا عن الولد، وبيانه من وجوه: الأول: أنه لو اتخذ ولدًا لما رضي إلا بأكمل الأولاد وهو الابن فكيف نسبتم إليه البنت. الثاني: إنه سبحانه واحد حقيقي، والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد، أما أنه واحد حقيقي، فلأنه لو كان مركبًا لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته، وأما أن الواحد لا يكون له ولد؛ فلوجوه: الأول: إن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد، وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه. الثاني: شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد، فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين، وذلك محال؛ لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم ألا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلومًا بسبب منفصل، فلا يكون إلهًا واجب الوجود لذاته، فثبت أن كونه إلهًا واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحدًا في حقيقته، وكونه واحدًا في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له، فثبت أن كونه واحدًا يمنع من ثبوت الولد. الثالث: إن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لا بد وأن يكونا من جنس واحد، فلو كان له ولد لما كان واحدًا بل كانت زوجته من جنسه، وأما أن كونه قهارًا يمنع من ثبوت الولد له، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهورًا بالموت، أما الذي يكون قاهرًا ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً، فثبت أن قوله: **﴿هُوَ الله الواحد القهار﴾** ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى. [تفسير الرازي (٢٢٦/١٣)].

ولدًا، بل يكون عبدًا مصطفى مكرمًا الولادة مباينة للعبودية جملة.

قال الله - جل ذكره - في عيسى ﵇: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٥٩ - ٦٠] فأخبر بصدق قيله ﷻ أنه لو شاء لجعل منا ملائكة كما ألحق عبده ورسوله عيسى ﵇ من درجة الاصطفاء إلى أن أحله فيه محلاً يحيي فيه الموتى بإذنه، ويخلق من الطير خلقًا وينفخ فيه فيُحيي ذلك المنفوخ فيه بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص.

وكذلك أحل الأنبياء والرسل محلاً يخرق لهم فيه مجاري العوائد، ويظهر بقدرته على أيديهم المقدور الغائب كالملائكة - عليهم السلام - إذ من الملائكة من يُميت بإذن الله، ومنهم من ينفخ الروح في نطف الأرحام فتكون عن ذلك الحياة بإذن الله، ومنهم من يخلق وينشئ وينمي حتى أنه ما من نماء ولا اضمحلال ولا حياة ولا موت ولا تقديم ولا تأخير ولا رفع ولا خفض إلا ولله - جل ذكره - ملائكة موكلون بذلك كل في مصافه ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧].

وتحقيق العلم بهذا ومشاهدته باليقين هو مشاهدة الملكوت، قال الله ﷻ يخبر عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥ - ١٦٦] وهو القائم على كل نفس بما كسبت أبدًا وأمدًا، ما تناهى تأخر أو تقدم كل بأمره وقدره ومشيئته وإقداره وعونه يعملون.

فصل

كان معهود الولد على وجهين: فولد منسوب إلى أبويه بنوة وولادة ورحمًا، فهذا ليس له في الوجود وجود، ولا في الإمكان تمكن، ولا له في العقل مساغ بوجه من الوجوه، وولد بمعنى التبني والاتخاذ، وقد كانت العرب وغيرها من الأمم يتبنون ويتخذون، كما قالت امرأة فرعون يوم التقطت موسى ﵇: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص:٩].

وكان رسول الله ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة - رحمه الله - وأسامة ابنه، فكانوا

يدعونه ابن محمد وابن رسول الله حتى أنزل الله في ذلك قوله: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] فقال رسول الله ﷺ لأسامة: «أنت أخونا ومولانا»(١).

وكان المؤمنون يقولون له: «حبُّ رسول الله» فلا يبعد أن تكون هذه العبارة جائزة في الكتب قبلنا، ولما أعضل بهم الداء وألحدوا بذلك عن سواء القصد الذي هو الاصطفاء إلى النبوة والولادة أضلهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم ولعنهم، وسد السبيل عن العبارة عن ذلك، وكشف معنى الاصطفاء، وأظهر لفظ الولاية ونسخ ذلك بهذا، وليس يبلغ الاصطفاء إلى شركه في إلهية، ولا يتلبس معنى الولاية بالنبوة ألبتة، سبحانه وله الحمد كله، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وأنى تكون له صاحبة ولم يكن له كفوًا أحد، وأنى يكون له كفؤ ولم يكن له ند ولا مثل ولا شبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] في فقد ولا وجود ولا في الوهم، لذلك ختم الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الزمر:٤].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا....﴾ فذكره خلق النفس الواحدة وخلقه منها زوجها خبر قائم بنفسه وإعلام يعلم ودلالة دالة على أنه الله الإله الواحد، أوجد الخلق الكثير والجم الغفير، ثم قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] إتمام للكلام وتعجيب من قهره وعظيم قدرته.

﴿خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٩).

أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٦ - ٩].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:٦] زوجان من الضأن: الذكر والأنثى، ومن المعز ومن البقر والإبل، في هذا إعلام بأن كل زوج منها كان خلق الذكر منهما أولاً، ثم خلق من الذكر زوجه، ثم بث عنهما من ذلك ما شاء من الكثرة، كما قال: خُلق آدم ﵇ أولاً، ثم زوجه عنه، ثم ذريته عنهما، وفي ذلك أيضًا أن هذه الأنعام من الجنة وإليها عودها، وقد جاء عن رسول الله ﷺ نحو هذا؛ لأن الخطاب جاء بذكر الامتنان وتعداد النعم وأنزل لكم في هذه الآية، ويمكن أن يكون معنى الإنزال زائدًا إلى ما تقدم ذكره إنزاله إياها من التوحش إلى حالة التأنيس والتسخير لنا.

ثم قال - عز من قائل: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ يعنى: أنتم والأنعام ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ﴾ إيجادكم عن الوحدة ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر:٦] ونظيرتها في سورة «الشورى» قال فيها : ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في ألبان الأنعام ولحومها، ثم تنزه عن الأشباه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقال في هذه: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الزمر:٦] ومفهوم هذا الخطاب ليس كالذين يدعونكم إلى عبادتهم لا يملكون نقيرًا.

ثم قال: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر:٦] قالوا: ظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وأوجه من هذا زائدًا عليه الظلمة الأولى كون الجنين أولاً لا سمع له ولا بصر ولا تمييز.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ خاطبهم خطاب تجهم واستغناء عنهم، ثم قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ﴾ كيف يرضى لهم الكفر وقد سبق لهم قدم الصدق عنده بقوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[(١)] وإن تشكروا يرضه لكم خطاب للمؤمنين ينتظم بما هو متصل به ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

[الزمر:٧] أي: لا يحمل أحد وزر أحد ولا يؤاخذ إلا بما عمله.

قوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩] قرئت بالتشديد للميم من قوله: «أمّن» وبالتخفيف، فمن خفف قدر المحذوف مؤخرًا، ومن شدد قدره مقدمًا، والتقدير مقدر على ما يكون جوابًا لما كان سببًا لنزول السورة، ويمكن أن يكون المعنى في قراءة التخفيف النداء كأنه قال: أيَا من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، فيكون تقدير المحذوف أبشر أو ما يكون عبارة عنها[١].

قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩] منتظم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾ [الزمر:٨] إلى ما وصفه به، ومجاز القول: أهو خير ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] إلى آخر المعنى وتتخرج قراءة من قرأ بالتخفيف للميم في قوله: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ على النداء كما تقدم داخل الكتاب، وقد تتخرج على المفاضلة مجازًا، لقوله فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ تحقق ليس كذلك إذا مسه الضر جاء إلى ربه ضرورة يجدها من نفسه، وإذا عراه الخير كفر ربه ونسي ما كان يدعو إليه، وأضاف النعمة إلى غير الله.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ

---

(١) قرىء: «**أمن هو قانت**» بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد على إدخال «أم» عليه. ومن مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أمن هو قانت كغيره، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جري ذكر الكافر قبله، وقوله بعده: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: معناه أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر. أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل. والقانت: القائم بما يجب عليه من الطاعة، ومنه قوله ﷺ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**» وهو القيام فيها، ومنه القنوت في الوتر؛ لأنه دعاء المصلي قائمًا. «**ساجدًا**» حال. وقرىء: «ساجد وقائم» على أنه خبر بعد خبر، والواو للجمع بين الصفتين. [الكشاف (٦/٤٩)].

أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٠ - ١٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ...﴾ [الزمر: ١٠] هذا منتظم بمعنى ما تقدم من ذكر عرضهم على رسول الله ﷺ بأن يداهنهم بعض المداهنة، ولعلمه ﷺ أن الصبر على لزوم الحق صعب كريه بين ظهراني أهل الفسوق، وكذلك الهجرة من أرض نشأ فيها شديد جدًّا، فوعد على الصبر على ذلك في الآخرة إسقاط الحساب عنهم في النعم المنعم بها عليهم أو ذنوب كانت منهم، وأنه يوفيهم أجورهم بغير حساب لا يظلمون فتيلاً، ولا يهضمون منها كثيرًا ولا قليلاً.

أتبع ذلك ما هو في معنى ما تقدم من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾(١) [الزمر: ١١] إلى قوله: ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا

(١) لا شبهة في أن المراد إني أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها، وفي هذه الآية فوائد: الفائدة الأولى: كأنه يقول إني لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعًا فيه وأكثرهم مداومة عليه. الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدين﴾ ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام، فإن النبي ﷺ فسر الإسلام في خبر جبريل ﷺ بالأعمال الظاهرة، وهو المراد بقوله في هذه الآية: ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين﴾ وليس لقائل أن يقول ما الفائدة في تكرير لفظ ﴿أُمِرْتُ﴾ لأنا نقول ذكر لفظ ﴿أُمِرْتُ﴾ أولاً في عمل القلب وثانيًا في عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريرًا. الفائدة الثالثة: في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين﴾ التنبيه على كونه رسولاً من عند الله واجب الطاعة، لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ. انظر: [تفسير الرازي (١٣/ ٢٣٨)].

مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر:١٤ - ١٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الزمر:١٥] قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»(١) وذكر والرجل في أهل بيته راع وهو مسؤول عنهم، والرجل إن كان مصيره إلى العذاب وأهله إلى رحمة الله وثوابه فقد خسر نفسه وأهله، وإن كانوا معه في العذاب طلبوه بما ضيع من حقهم من الإرشاد إلى مرضاة ربهم والنصيحة، فلعنوه لذلك ولعنهم، فذلك ﴿الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ [الزمر:١٥] وقد يكون أهله المعنيون هنا هم أهله في منزله من الجنة الذي أبدله به منزلاً من النار وأورثه غيره، وكلا الوجهين خسران مبين، نسأل الله المعافاة والمغفرة.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦] ما فوقهم ظلل لهم وما تحتهم ظلل لغيرهم، ولأولئك أيضًا ظلل منها، وما تحتهم ظلل لمن تحتهم، كما أن ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٠] في غرف، بالإضافة إلى من دونهم ولمن فوقهم غرف، ومن فوقهم في غرف، ثم كذلك ما صعد بهم هم في غرف، وما فوقهم غرف لمن فوقهم مبنية كلها تجري من تحتها الأنهار.

قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمائة درجة كل درجة منها كما بين السماء والأرض أعدهن الله للمجاهدين في سبيله»(٢).

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٤٤٩٥)، والبخاري (٢٢٧٨)، ومسلم (١٨٢٩)، وأبو داود (٢٩٢٨)، والترمذي (١٧٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٣).

صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[الزمر:١٩ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر:٢١] هذا منتظم بما قبله قوله في الخاسرين أنفسهم وأهليهم: لهم ظلل من النار ومن فوقهم ظلل، وهي الدركات وقوله في: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر:٢٠].

يقول عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر:٢١] انظروا إلى ما بين أيديكم من السماء والأرض، ألسنا ننزل الماء من السماء التي هي جنة حكمًا إلى الأرض التي أحييناها بالماء الذي أنزلناه من دار الحيوان، حكمًا لذلك أحيينا به الأرض بعد موتها وجعلنا منه كل شيء حي، فهي أيضًا جنة حكمًا بما جعلنا فيها من جنات من نخيل وأعناب وجنات معروشات وغير معروشات تجري من تحتها الأنهار.

قول عز من قائل: ثم سلكناه ينابيع في الأرض ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢] بل نحن اخترناه لكم في الأرض جنة أيضًا تجري من تحتها أنهارها كما التي فوقكم تجري تحتها أنهارها، منها أنزلناه إليكم كذلك إلى ما على درجات بعضهن فوق بعض، كما جهنم فيها تحتكم دركات بعضهن تحت بعض، فوصف الجنات بأنها بعض فوق بعض، ووصف جهنم - أعاذنا الله منها - بأنها دركات بعضهن تحت بعض.

ثم أخذ بعد هذا في وصف الدنيا بقوله الحق: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ هذا من وصف الجنة، ثم قال: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ [الزمر:٢١] هذا من وصف جهنم، فهذه الأرض جنة تجري من تحتها أنهارها بما يعتورها من فتح الله برحمته من جنات هي فوقها، وهي أيضًا درك من أدراك جهنم - أعاذنا الله منها - بما يعتورها من تعاقب الفيحين سعيرًا وزمهريرًا، لذلك يكون

مدفن المؤمن في بطنها روضة من رياض الجنة، ويكون مدفن الكافر في بطنها حفرة من حفر النار، كما قاله ﷺ وأنبأ به: ﴿الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٢١] هذه ثلاثة أمثال: مثل للعلم، ومثل للعمل، ومثل للدنيا في الآخرة، وكثير ما يضرب الله تعالى الأمثال بالوحي بالماء ينزله من السماء بواسطة الملائكة، وقد تقدم من ذلك إيماء يبعث الحريص على تطلبها إن شاء الله.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ [الزمر:٢١] كذلك تنزيل الكتاب عما هو فيما هنالك، كما قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] أي: علا عن أفهامكم ننزله إلى ما هو عندكم كتابًا تكتبونه وتقرءونه، وكذلك هو تنزيل عما هو كلام الله لا ينبغي لمخلوق احتماله لولا تنزيله إياه إلى ما هو تلاوة لكم قرآنًا عربيًا تتلونه قراءة وتعملون بمقتضاه، فشبه إنزاله الماء من السماء بواسطة الملائكة الموكلين بالرياح والسحاب، وتقسيم الماء إلى الأرض ثم تفصيله من ذرى إلى ندى، وإلى نبات على اختلافه، وجماد وحيوان وإنسان بصفات ذلك كله وإتباع وجوده، وبما في ذلك من لطيف الصنع وعجائب القدرة المفصلة المتممة لعجائب الملكوت بتنزيله كلامه العظيم وكتابه الحكيم، وإنزاله إياه بروح القدس إلى الروح من الأمر إلى روح المعارج إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ثم إلى قلوب المؤمنين، ثم إلى ألسنتهم وجوارحهم بما يكون عن ذلك من تلاوة وقراءة وأعمال.

وقوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] هو مثل للعلم، معنى ذلك: كذلك نسلكه في قلوب المؤمنين ينابيع حِكَمٍ على ألسنتهم وجوارحهم، ونخلطه بلحومهم ودمائهم، ثم نخرجه إعمالاً بمقتضاه على جوارحهم، وكما أن من الزرع ما يهيج فيصفر قبل تمامه، كذلك من العلم ما يبطل بالذهول والنسيان قبل إيراده، ولدعوى النفوس قد لا تتم فائدته ولا تكثر عائدته.

ومن العمل ما يبطل حال؛ لفساد النيات وعدم تصحيح الإرادات، وقد يبطل

بعد خروجه بالمن والأذى وفي وجود الدعوى، وكما أن من الزرع ما تتم زريعته وتكمل ثمرته، ثم يهيج فيصير حطامًا، فكذلك من العلم والعمل بالكتاب ما يكمل وتتم فوائده وإن تحطمت الأجسام بالبلى إلى أن يبعث، وزريعته وفوائده تزدرع وتغرس بعد تحطيم الجسم الذي كان عنه إلى يوم البعث، وهو أيضًا مثل ضربه للدنيا مع الآخرة فناء الدنيا وتحطمها بعد إيناعها وإيجادها، ثم تأتي الآخرة بما فيها كما يجيء الحول الآخر بعد بما فيه.

قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ...﴾ [الزمر:٢٣] يقول الله ﷻ وهو أعلم بما ينزل: الله نزل أحسن الحديث من الكتاب المبين نزله تنزيلاً حديثًا أحسن حديث وأصدقه وأحكمه كتابًا؛ يعني: القرآن، متشابهًا؛ يعني: معانيه بمعاني الكتاب المبين، وقد تقدم في المثل المتصل بهذا تشابه القرآن بالكتاب المبين مثاني تنشئ معانيه على معاني ذلك، والمشتبه المتشاكل تقاربت أشكاله فأشكل على من رام التمييز بينه وبين ما يشابهه.

مثال ذلك: الشجر المتميز الأصول المتداخل، وإن كان الشجر متباين الأجناس كشجر الأعناب والزيتون والنخيل قرب التمييز بين الفروع، وإذا كانت الشجر من جنس واحد عسر التمييز بين الفروع والأفنان، وإن تميزت الأصول لتداخل الأفنان واشتباكها، فكذلك معاني القرآن بمعاني موجودات الكتاب المبين إلا لأولي الألباب، وكذلك القرآن انقسم في نفسه إلى: محكم ومتشابه.

فمحكمه: كأصول الشجر في تمييز بعضه من بعض، وهو الأقرب إلى أم الكتاب.

قال الله - جل من قائل: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١] ثم في هذا التفصيل محكم ومتشابه، ومن المتشابه مشتبه ومتميز غير مشكل، فحكمه ذكر الإلهية والوحدانية والأسماء والصفات وما عبر عن ذلك.

ومتشابهه: ما يفصل عن ذلك إلى ما يفصل منه كالماء أنزله منزلة ماء واحدًا إلى الأرض، ثم فصله بعد إلى ما فصله إليه، فيبعد وجوده عن حقيقة الماء، ويتصف بأوصاف هي غير الماء، فما انفصل إليه بحكم القرآن هو بمنزلة أفنان الشجر الملتف المتداخل الأفنان عسير تمييز كل فنن من صاحبه الذي يجاوره،

صعب معرفة رده إلى أصله، وعز المسلك إلى تصحيح كل فرع إلى خدمه، فمن أحب ذلك فليرجع إلى أصل الشجرة، ثم ليستصحب النظر في استقراء نسبة كل فنن من أصله إلى طرفه الملتف مع سواه.

يقول الله - جل من قائل - في الوجود: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ أي: مشتبكًا ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

يقول - وهو أعلم بما ينزل: وهو على اشتباكه غير متشابه ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: حسن ثمره وطيبه وحسن تكوينه وجمال تدويح شجره وخضرته وبهاء زهره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩] هو كما تقدم ذكر بعضه وآيات لقوم يؤمنون بموجودات الآخرة، وآيات على أن الذي أنزل منه هذا الماء أصل ومنبعث لجنات ما هنا إلى سوى هذا مما هذا دلائل عليه وآيات له، فافهم.

وقد تصرف قوله الحق: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام:٩٩] أي: إذا اشتبهت عليكم الأشباه عند اشتباك الأفنان رجعتم إلى تمسيتها بثمرها فعرفتم عند ذلك من أين منبعث ذلك الفنن، كذلك فافعلوا عند اشتباه المعاني في التنزيل، اقضوا لكل متشابه بحكم أصله تدركوا المطلوب.

يقول الله - جل من قائل: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣] وبما نزل في بعض الخطاب عند بعض وصف الصفات أو الثواب والعقاب عن سياق المحكم إلى بعض المعهود عند المتخاطبين لحكمة بالغة له في ذلك، فيوهم لذلك ظاهر الخطاب خلافًا لما تقدم في المحكم أو نقصًا في بادئ الرأي، فتقشعر لذلك جلودهم وتفزع له قلوبهم، فإذا رجعوا إلى محكمه وتبينوه من أصله ميزوه من سواه لانت جلودهم واطمأنت إلى ذكر الله قلوبهم بما ينبغي أن يذكر به، وإنما يكون ذلك بهداية من الله - جل ذكره - إلى السبيل المرتضى، ويعصمه من لدنه عن الهوى في جهالات الردى.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣] يجوز أن يعتقد مع ما تقدم ذكره في قوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:٢٣] إن المواعظ والأحكام والقصص ينشئ متشابه بعضها لبعض، ومن المعهود أن المواعظ والنذارات والبشارات إذا تكررت على القلوب تمكنت منها فاقشعرت جلودهم وقلوبهم من خشية الله لمواعظه وزواجره، ثم تلين لبشاراته ومواعده بجزيل ثوابه وكريم مآبه.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الزمر:٢٤] انتظم معنى هذه بمعنى ما تقدم من قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الزمر:١٥] إلى قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾[1] [الزمر:١٦].

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الزمر: ٢٤ - ٣٢].

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الزمر:٢٤] ثم حذف ما قد دل عليه ما ذكره في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر:١٧] إلى قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر:٢٠].

يقول - جل من قائل: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾

(١) الظلل عبارة عن أطباق النار؛ أي: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم ومن تحتهم، وسمي ما تحتهم ظللاً؛ لأنها تظلّ من تحتها من أهل النار؛ لأن طبقات النار صار في كلّ طبقة منها طائفة من طوائف الكفار. [فتح القدير (٦/٢٧٦)].

[الزمر:٢٤] كمن هو في الغرفات من الآمنين في النعيم المقيم، أو ما يكون من الكلام معبرًا عن هذا بيان معنى قوله: وهو أعلم يتقي بوجهه سوء العذاب، هو كما قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨] وقد قيل، والله أعلم: إن الشقي - نعوذ بالله العظيم من سوء مصيره - تقرن ناصيته من ورائه إلى رجليه ويسحب في النار على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧] بالأمثال تفهم المعاني الغائبة ويتذكر المعالم بأشباهها، أشار بهذا الخطاب - وهو أعلم - إلى ما تقدم ذكره من الأمثال.

ثم ما يأتي به بعد هذا قوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلا رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾(١) أي: مخالفون يضاد بعضهم بعضًا في آرائهم وإراداتهم فيه وفيه ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ يقرأ: سَلَمًا وسِلْمًا وسَالـمًا، يعبر بذلك عن التوحيد والإشراك، يقول: هل يستوي حال هذا العبد المنقسم المشترك فيه، والعبد الموحد لسيد واحد، ثم حمد نفسه ﷻ لما امتن به على عباده المؤمنين من التوحيد والإسلام لله وحده ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] قدر النعمة في ذلك والروح والراحة من حال الاختلاف والتضاد من آراء فيه وهمم وما يكون عن ذلك من فساد في الحال والمآل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠ - ٣١] هذا الخطاب منتظم معناه من هذه الجهة بمعنى النقض لما أرادوه عليه من اتباعهم على أمرهم، وروى الزبير بن العوام رحمة الله عليه: «أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية أو سأله هو، فقال: يا رسول الله، أتجدد

(١) قال الورتجبي الشيرازي: شبّه الله المتشتتين همومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبّه المتفردين بنعت الإخلاص بالله ولله وفي الله بالرجل السالم لرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبدٌ قنٌّ له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قتام الخلل؛ إذ هو محفوظٌ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبدٌ مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق.

بيننا الخصومة بعد ما كان بيننا في الدنيا؟ قال له: نعم، فقال الزبير: إن الأمر إذن لشديد»[1].

قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى الله وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر:٣٢] الكاذب على الله ﷻ هو المتقول عليه ما لم يقله معنىً ولا نصًا، والذي يقول: أوحى إلي ولم يوحَ إليه شيء، وهو المتنبي والدعي الكذاب، أو كذب بالحق لما جاء مثل قول بعضهم: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:١٥] لو نشأ لقلنا مثل هذا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥] والمكذب بالصدق لما جاءه هو الذي يرى برهان الحق من قبل المعهود المتعارف جريانه أو من قبل خرق العوائد فيكذب به ويعرض عنه، والمكذب بالصدق إذ جاءه أيضًا هو الذي يبلغه كتاب الله وسنة رسول الله، فلا يحفل به ولا يرفع بذلك رأسًا.

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر:٣٣ - ٣٨].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو محمد رسول الله وهو المصدق أولاً به، ثم المؤمنون هم المصدقون بالصدق المبلغ إليهم، و﴿هُمُ المُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] يجزيهم الله بأحسن أعمالهم وأرفعها درجة وأخلصها نية وأحضرها ذكرًا، انتظم هذا الكلام بما جاوره قبله قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبو يعلى (٦٦٠).

الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠ - ٣١] يعزيه بذلك ويقرب له الأمر، وإن خصومتهم هناك عند مرسله ومنزل الكتاب عليه، وحذف ذكر الجزاء حتى عرض به فيما بعده بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر:٣٢].

وفي ضمن هذا وعيد عليهم شديد، فكما لا أظلم من هؤلاء، كذلك لا عذاب كعذابهم، ولا إهانة كإهانة يلقونها، وكما أن هذا كهذا فكذلك لا جزاء بخير كجزاء يصير إليه المتقون الذين جاءوا بالصدق: وهم الرسول، والذين صدقوا به: وهم أتباع الرسل، وعلى هذا فإن الذين جاءوا من بعدهم لم يروا رسول الله ولا حدثهم، إنما كان مجيئهم في فترات الرسل أفضل إيمانًا وأعظم قدرًا ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥] جعلنا الله منهم وفيهم إنه ولي ذلك لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ويقرأ «عباده» على الجمع ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦] هذا منتظم بما تقدم ذكره من دعائهم إياه لمبايعة بعض أمرهم وقولهم: إنا نخاف أن تختلك آلهتنا وأن تنالك بسوء، كما قال قوم هود ﷺ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٤] ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨].

يقول الله في مقابلة قولهم ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦] من أضله الله عن التوحيد لله - جل ذكره - ونسبة الكائنات إليه أجمع ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣] ومن يهدي الله إلى التوحيد له والتوكل عليه وتفويض الأمور كلها إليه فما له من مضل، كذلك لا يخطئه إلا ما لم يرد الله أن يصيبه ولا يصيبه إلا ما لم يرد الله أن يخطئه.

ثم قال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧] إذا كان الكفار يغترون بآلهتهم ويضيفون الانتقام ممن خالفها إليها، فالله العزيز ذو الانتقام على الحقيقة، ومن سواه لا يملكون نفعًا ولا دفعًا.

أتبع ذلك قوله - جل ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزمر:٣٨] يقول - عز من قائل: هم يعتقدون هذا ومع ذلك هم يضيفون العزة والانتقام إليها، وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئًا ﴿فَأَنَّى

يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١] عن هذه الحقيقة إلى الباطل المبين.

يقول - عز من قائل: **﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَو أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾** [الزمر:٣٨] هل يغالبنه على أمره فيغلبنه أم هو الغالب؟ ولما تبين الحق من الضلال صرف وجه الخطاب مفلجًا بالحجة البالغة أمرًا لعبده بلزوم التوحيد المحض والتفويض إليه والتوكل عليه بقوله: **﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [الزمر:٣٨] وفي هذه الآية سبيل صالحة إلى معرفة حقيقة التوكل والكشف عن حقيقة العلم به جعلنا **الله** منهم برحمته.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الزمر:٣٩ - ٤٥].

ثم أتبع ذلك قوله - عز جلاله - مثبتًا لرسوله على المنهاج القويم: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾** [الزمر:٤١] أي: رقيب مراصد، نظم هذا بما قابله مما تأسس عليه تنزيل السورة من قولهم الفاسد ومذهبهم الخبيث.

قوله تعالى: **﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾** [الزمر: ٤٢] التوفي عند الموت هو ما يبديه ﷻ لها من علامات الآخرة، وما يواجه به حينئذٍ من بشارة بخير وشر، وتوفيه إياها في منامها هو ما يريها من الرؤيا ومعالم

الغيوب.

قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[١] وقال: «**الرؤيا من الله والحلم من الشيطان**»[٢] لذلك وهو أعلم قال: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الزمر:٤٢] وانتظام هذه الآية بمعنى ما تقدم هو بما فيها من معنى الإنباء المذكور في التوفي، وتلك آية على وجود النبوة، وهي أيضًا آية على إحياء الله الموتى حال موتهم، كما النوم آية على موت الأحياء حال حياتهم، وأن التوفي هنا هو في حين الموت نفسه فذلك آية على البعث بعد الموت، وإنما ذلك لإنكارهم نبوته ورسالته.

قوله تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله شُفَعَاءَ**﴾ [الزمر:٤٣] هذا - والله أعلم - جواب الاستفهام في قوله: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ [الزمر:٣٦].

﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله شُفَعَاءَ**﴾ يعني: عبادتهم إياهم وإضافتهم العزة والانتقام إليها، فقال - عز من قائل: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد لهم ﴿**أَوَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ**﴾ [الزمر:٤٣] وهنا محذوف دل عليه المذكور تقديره: أو لو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون يتبعونهم، ويدينون لهم ويعبدونهم من دون الله العزيز الحق، رب السماوات والأرض وما بينهما، رب كل شيء ومليكه، ينتظرون نصرتهم وشفاعتهم وهم لا يقدرون ولا يعقلون لذلك، وهو أعلم بما ينزل.

أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿**قُل للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزمر:٤٤].

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**﴾ يعني: وهو أعلم تقبضت ونفرت ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ [الزمر:٤٥] هذا منتظم بمعنى ما تقدم من تدينهم لآلهتهم مع أنهم لا يملكون شيئًا ولا يعقلون، وهذا من أشد الحب وهو سبيل الضلالة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٨)، وأحمد (١٦٢٢٧)، ومسلم (٢٢٦٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٦٠٣٤).

قال الله ﷻ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ هذا ضلال وخسَّة، يسوون الحب بين من ينفع وما لا ينفع ولا يضر، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا للهِ﴾ [البقرة:١٦٥] ذلك لأنهم يجدون عنده من آمالهم ما لم يسألوه إياه، كما قال: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ثم قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤] وجاء من فقه هذه الآية التي في سورة «البقرة» وما عرض به في هذه الآية: أن كل مؤمن لا يحب الله فليس بمؤمن، ولا أقل من الإيثار بالحب عند ذكر الله وذكر ما سواه، وأعلى الإيمان الحب الغالب على القلب، ثم الحب الخارج عن صدق القلب إلى ظاهر الجوارح.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر:٤٦ - ٥١].

أتبع ذلك قوله الحق إعظامًا له من أمر وتشيعًا له من شأن: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: إنك فطرتهم على معرفتك وعرفتهم نفسك وأقروا بربوبيتك وأشهدتهم على ذلك ﴿عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ شاهدت يومئذٍ ظواهرهم وعلمت غيبهم ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ﴾ بينهم يوم القيامة ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦] في دار الدنيا بعد إجماعهم عندك على ما أجمعوا عليه واتفاقهم على الحق.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ الله مَا لَمْ

يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1] [الزمر:٤٧] أخبر - جل ذكره - عن سوء مصيرهم وفظيع مآلهم يوم يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا في الدنيا فيه يختلفون، وقد كانوا في الدنيا يحسبون أن آلهتهم تشفع لهم وتنصرهم، فبدا لهم يومئذٍ من الله تعالى بأنه لم يجعل لهم شفعاء ولا أولياء من دونه، فخاب ظنهم الذي أرداهم بآلهتهم، ويريهم الحق الذي ذكرهم بآياته ورسله وكتبه فاستهزءوا بها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر:٤٨] من نذارتهم إياهم أن يصيبهم الله به في الدنيا والآخرة ﴿وَحَاقَ﴾ كلمة مأخوذة من حق، وفيها معنى الإحاطة، فعرفها بين هذين.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا...﴾ [الزمر: ٤٩] هذا منتظم بما تقدم ذكره من التعريض بمعنى الفطرة، فصرح هنا بما عرض به قبل من ذلك، وقد تقدم ذكر هذا في صدر السورة قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر:٨] وأرى ذلك - والله أعلم - معني به الكافر، وهذا في المنافق العليم بقول الله جل من قائل: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر:٥٠] يعني قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾

---

(١) هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضًا سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزيّ والعبادة، واغترُّوا بمراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بيانًا يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين والصديقين، وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقًا، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعاينات، فإذا عرف أنه هالكٌ فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحايين من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية وألطافه الأبدية ما يضمحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدقٌ، ووعده حقٌّ، وإشارته حقيقةٌ، فأول الآية واضحةٌ، وآخر الآية إشارةٌ. [العرائس].

[الزمر:٤٩] أي: بحول مني وقوة وعلم بمجاري الأمور ومضان الرزق والصحة ونحو هذا، فسوى الله - جل ذكره - في مثال جزاء قولهم وفعلهم بين الأولين منهم والآخرين بقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٥٢﴾ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ
وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ
تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر: ٥٢ - ٥٨].

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر:٥٢] لا من حول لأحد في ذلك ولا قوة ولا علم ينفع في ذلك ولا تجربة، وهذا من خطاب القبض والمعتقد فيه أنه خالق الكسب والكيس والعجز والحول والقوة، ومقدر ما شاء، وموصل من ذلك إلى من شاء ما قد سبق في علمه السابق لا زيادة فيه ولا نقصان منه.

قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣] إلى قوله: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٥٩] لما كان الارتداد عن الإسلام من نحو ما دعوا المؤمنين إليه خاطب بهذا قومًا من المشركين، قيل: إنهم كانوا قد أسلموا ثم خرجوا إلى مكة وقتلوا وأكثروا وزنوا فأكثروا وفعلوا وفعلوا، فكاتبهم إخوانهم من المدينة يسترجعونهم إلى الله تعالى، فقالوا: لو علمنا أن لما عملنا توبة لتبنا، فأنزل الله هذه الآيات، فأرسل بها إخوانهم إليهم فأسلموا وهاجروا إلى المدينة، سبحانه وله الحمد يدعو المولين

عنه كرمًا ويقبل المقبلين إليه تفضلاً، لا إله إلا هو الحكيم الكريم.

إذا كان الشرك والكفر والتكذيب لرسله وكتبه ونسبة الصاحبة له والولد والافتراء العظيم عليه يغفره بالإسلام ويهدمه به، فالتوبة من الذنوب إذن وإن كثرت مع استصحاب الإسلام واعتقاد الإيمان إلى الموافاة أولى بذلك وأحرى، وقال الحليم الكريم في الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] وأن ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] وأن ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:٣٠] تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤].

فالحذر الحذر من التقنيط والعقد عليه، بل الرجاء للقاء الله والرجاء في عفوه وكريم صفحه، فالله ﷻ يقول: «**يا ابن آدم، إنك إن لقيتني مسلمًا بقراب الأرض خطيئة لقيتك بقرابها مغفرة**»[١] وهذا وعد من الله - جل ذكره - خالص للذي يلقى الله على توبة ورجاء للمصير، والعفو والغفور من أسمائه، والكرم والرحمة من صفاته، وصفات العبيد تضمحل وتتلاشى عند حقائق صفات الله - جل ذكره - ومن البيان البين في ذلك اتصافه بأسماء الرحمة وحسن التجاوز والتوبة على من تاب، وأنه أسرع إلى العبد من العبد إليه، ومن الدليل على صدق ما ذكرناه مع ما يعضده من الدلائل أن العبد لا يتوب إلا أن يتوب الله عليه، فإذا رأيناه قد أناب إلى الله وتاب إليه رجونا له أن الله قد تاب عليه ولم يبقَ عليه إلا خوف الخاتمة، فإن مات على ذلك علمنا أن الله - جل ذكره - قد سبقه إلى نفسه بذلك منه، فهو الغالب على أمره و﴿الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦ - ٩٧] كذلك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ عنه وتاب عليهم ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

فصل

والتوبة: النقلة عما نهى الله عنه إلى ما أمر به، ثم لا يتم ذلك إلا بالندم على ما

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٠).

فرط منه، ثم العكوف على ما صفى، وكمال ذلك الإقبال على الحق والإدبار عن الخلق، ثم الكد والرجاء والخشية من المولى والتبرئ من الحول والقوة، ثم الالتجاء، ثم لا تصح التوبة إلا بالتوبة من ترك التوبة بإسقاط رؤية التوبة، ثم بعد هذه المنزلة في التوبة مراقبة الخطرات في الإسرار والوقوف على الطاعات بالأذكار، ولزوم باب الرقيب بالهم والأفكار، وأن يشغل كله بكل الكل عن الكل، ولا يتم ذلك إلا بصدق الإنابة في البداية والنهاية، وهي الرجوع إلى الله - جل ذكره - في كل خطرة وطرفة، ويجعل الرجوع منه إليه حذرًا ومن غيره رغبًا، ومن كل تعلق براحة سوى الاشتغال به رهبًا، ولا يتم ذلك إلا بالزهد، وحقيقة الزهد: ترك الفضول، ثم الإقبال على الله، وكف النفس عن هواها، وترك الراحة طلبًا للراحة عنده، ثم الزهد في الجاه وأخذ قوت النفس للضرورة.

وبالجملة: فالزهد ترك الدار بما فيها وإقبال النفس على بارئها، والخير كله موضوع في الزهد، وذلك على ثلاثة أركان: ترك العلائق، وسياسة البدن بالتضمر للخالق، والانقطاع عن الخلائق، فأما ترك العلائق: ففيه سقوط الهم فيما سبيله المعاش، وأما سياسة البدن: ففيها سقوط الشهوة، وأما الانقطاع عن الخلق: ففيه وجود الأنس بالله ﷻ، ولا يتم الزهد إلا بالورع، وهو الوقوف عن الشبهات والتنزه عما لا يعنى من المباحات والتخلص من الشهوات، وعليه أن يحفظ قلبه عند التأويل وأن يرد كل خطرة إلى التنزيل، وأن يعمل نفسه بسلامة الصدر مع معرفة القدر، وإن استطاع ألا يحيل قلبه إلا في تفكر في الملكوت وفيما خلق الله من شيء أو في آية من كتاب ربه - عز جلاله - وفي ذكر الموت وأنه لعله قد قرب الأجل مع أن السفر طويل والأمر جد، والورود مع حال الغفلة وقلة الزاد غرر، فهو طريق الاستقامة والسبيل القاصدة إلى محل الفوز ومنال السعادة، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه.

وإذا تضايقت الأمور واستبهمت عليه الأشباه فليستفت قلبه، وليترك ما حاك في صدره، وعند هجوم الإرادات فعليه بالتوقف حتى يقع التفتيش عن الشبهة، وليتقص في قليل ذلك كله وكثيره وحتى عن مثاقيل الذر في الظاهر والباطن، والخوف يزيد في قدر الورع، وكذلك المعرفة بأيادي الله تعالى.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يقول الله - جل من قائل: عبدي، أَدِّ ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس، وانتهِ عما نهيتك عنه تكن من أورع الناس، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس**»(١).

وأشد الورع: ورع اللسان، فإنه لا ورع كالكف، وكان يقال: أفضل الطاعة: الورع، وأصل الورع: التقى، وأصل التقى: محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس: الخوف، وأصل الخوف والرجاء: معرفة الوعد والوعيد وذكر عظيم الثواب وأليم العقاب، وأصل ذلك كله: الفكر والعبر، ولا يتم الورع إلا بالصدق.

والمؤمن مفتقر إلى صفة الصدق في مبتدأ أحواله ونهاياتها وفي جميع أحواله ظاهرها وباطنها، وأن المؤمن قد يطبع على البخل وعلى الجبل على كثير من الأخلاق النازلة عن الحق ولا يطبع على الكذب، فمتى طبع على الكذب في أقواله وأفعاله لم يكن مؤمنًا، فعلى من طلب الصدق في سيره إلى ربه أن يبذل المجهود على النهاية في بلوغ الغاية ويلتزم الوفاء، وأن يطالب نفسه بالصدق في جميع أحواله وأقواله وأعماله ويفتشها بالعلم مخافة تزيين العدو وتلبيسه، فقد حذر الله من ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨].

والصدق في الأعمال: أن تكون موافقة للأقوال، والصدق في الأقوال: أن تكون موافقة للأحوال، والصدق في الأحوال: أن تكون موافقة للأسرار، والصدق في الأسرار: أن تكون موافقة لله العزيز الجبار ﷻ، وأيضًا فالصدق صدق القلب، ثم صدق اللسان، ثم صدق العمل.

فأما صدق القلب: فهو أنه في كل ما يريده ويقصده لا يريد به سوى الله تعالى.

وأما صدق اللسان: فهو أن يطلقه إذا قام له شاهد من كتاب أو سنة أو إجماع الأمة، فإن وجد ذلك وإلا أمسكه، وإن أطلقه على غير ذلك كان وهنًا في دينه.

---

(١) أخرجه ابن عدي (٥/٢٢٠ ترجمة ١٣٧٤ العلاء بن خالد الأسدى الكاهلي)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠١).

وأما صدق العمل: فهو الهجوم على ما عزم عليه من العمل بالحرص والانكماش خشية أن يقطعه عنه قاطع.

ومنبعث الصدق ومخرجه من المعرفة بأن الله يسمعه ويراه، وحينئذٍ يشاهد عقابه وثوابه، وتبدو له معارف لا يعلم قدرها إلا المنان بها، وهذه المعرفة هي أصل كسائر الأعمال، وعلى قدر الصدق يزداد العبد في أعمال البر.

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١] والفرض الدائم هو الصدق بالتوبة، ومن لم يؤدِّ الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض المؤقت.

ومدار الحكمة على ثلاثة أشياء: على الصدق وهو باللسان، والتصديق وهو بالقلب، والتحقيق وهو بالجوارح، وإذا وقر الصدق في القلب بمعرفة قرب الرب انسطع لذلك نور لأجل حرمة المراقبة فانتشر في سائر جسده وأخذت منه كل جارحة بقسطها، ومن صفات الورع: الصبر، فلا يتم إذن إلا به، والصبر وتحمل الآلام عند نزول الأحكام، وترك الشكوى والسكون، وكتمان المصائب وتجرع المرارات، وأرفع الصبر وأعلاه: رؤية المرارات بعين الحلاوات، وهذا مقام التنعيم.

والفرق بين الصبر والتصبر: هو أن يصعد الصبر إلى مقام الرضا فيعمل على الطيبة والسماحة ووجدان الحلاوة، والمتصبر همته تمحيص الجنايات وتكفير السيئات.

والصبر على ثلاثة منازل: الصبر في الله، والصبر لله، والصبر مع الله، وأشده الصبر مع الله.

قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله**»(١) إنهم يكفرون به ويجعلون له الصاحبة والولد، وهو يعافيهم ويرزقهم، وقد قالوا: الصابر لله وفي الله لا يجزع ولا توجد منه الشكوى.

والمتصبر: هو الذي يصبر لله على المكاره، فمرة يصبر وتارة يعجز.

والصابر: من لا يشكو ولا يعجز.

والصبار: هو الذي لو وقع عليه جميع البلاء والمحن لم يتغير من جهة الحقيقة

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

وإن تغير من حيث الرسم والخلقة والبشرية.

والصبور: هو الثابت على هذه المقامات.

ولا يتم الصبر إلا بالشكر والحمد والحمد أصل الشكر، والحمد له معنيان:

أحدهما: الشكر.

والثاني: الثناء على المحمود بما هو أهله، وصلاح الدنيا والدين بالشكر والأدب.

فالشكر هو ما بينك وبين الله تعالى، والأدب هو ما بينك وبين الخلق، والشكر هو أن تعلم أن النعمة لله - جل وعز - وحده، ولا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلا وبدايتها من الله - جل ذكره - حتى يكون الشاكر لله سبحانه عن نفسك وعن غيرك بمعرفة نعم الله عليك وعلى غيرك، ثم تعمل جوارحك في ابتغاء مرضاة المشكور بالخوف في ذلك والوجل من مقت الله أن يكون لعلك لم تخلص لله من ذلك العمل لله شيء كما يجب لله من عبده.

وشكر الشكر: هو علمك بأن الله تعالى هو الموفق لك للعمل بمرضاته، والمعين لك في قلبك وجوارحك وحده لا شريك له، وهذا الشكر واجب على كل شاكر، ولا نهاية لهذا الشكر لاتصاله بالمعرفة ولكن غايته جهد الاستطاعة، وسبيله المسلوك عليه تعظيم صغير نعم المنعم مع تقليل كثير الشكر ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾ [الطلاق:٧].

والشاكرون على ثلاث طبقات:

- **فمنهم**: من يشكر الله رغبة في ثوابه.
- **ومنهم**: من يشكره رهبة من عقابه.
- **ومنهم**: من يشكره تلذذًا بالثناء عليه.

ومن علامات الشكر: تعرف المريد، وحقيقة الشكر: الاعتراف بالعجز عن الشكر، وقد قيل: إن كل عمل لله فهو أداء لشكر نعمه.

قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا للمؤمن إن أمره كله خير: إن أصابه ما يحب حمد الله فكان له خيرًا، وإن أصابه ما يكره حمد الله فكان له خيرًا، وليس أحد أمره**

كله له خير إلا المؤمن»(١) ولا يتم ما تقدم ذكره من المقامات إلا بالرضا وإن لم يعتمد الصابر على الرضا ولم يداخل الرضا صبره أوشك أن يسخط؛ إذ منبعث الصبر عن معرفة قدر الجزاء من ثواب مرتجيه أو صرف عقاب يتقيه أو صبر هو لله أو صبر هو بالله، وإذا لم يعتمد صبره من هذه المقامات على الرضا ذل صاحبه وخالطه الجزع.

وعلامة الرضا: سرور القلب بأمر القضاء، واستواء المحبوب عنده بالمكروه؛ لأنهما طريقان إلى الله، يحمد الله على هذا ويحمده على هذا، وأرفعه ما كان عن موافقة الله - جل ذكره - في تقديره الأول قبل نزول الحكم بالتدبير.

ومن أدب الراضي: ألَّا يريد إلا الله، ولا يريد حتى يريد الله ﷻ هو الأول والآخر، وأعلى الرضا: ترك المعارضة، والعمل في الموافقة، ويقع العمل للعبد بأن الله عنه راضٍ إذا وفقه لما يحب ويرضى، وعصمه من كل ما يكرهه ويسخطه، فيعلم حينئذٍ أنه إن وافى به أجله على ذلك فهو عنه راضٍ.

وأصل الرضا: العلم بالله والمعرفة، ومخرجه من حسن الظن بالله تعالى، وإذا علمت النفوس وأيقنت القلوب بما شهدت به العلوم إن الله تعالى أجرى بمشيئته ما هو خير لعباده المؤمنين من اختياره ومحبته أيقنت القلوب حينئذٍ أن العدل لواحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وخرست الألسن عن الاعتراض على من قد علمت أنه عدل في قضائه غير متهم في حكمه، ومن قولهم من لم يرضَ عن الله في المنع لم يسلم من المعصية في العطاء.

وعلامة رضا العبد عن الله ﷻ فإنه إذا رضي الله بعبده عبدًا رضي العبد به ربًا ولا يتم الرضا إلا بالمحبة، وقد تقدم الكلام فيها في غير هذا الموضع، وعلامته إذا أحب الله العبد حبب إليه نفسه فأحبه العبد، فعلامة حبه إياك حبك إياه، وعلامة حب محبة العبد الله ﷻ: التزام الموافقة له، واتباع سنة رسوله ﷺ، ودوام الأسهار بذكره، وحلاوة المناجاة له، ويتصل الرضا بالمحبة.

ومقام المحبة يداخل مقام الرضا؛ لقرب المقامين بعضهما من بعض، وإذا

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٧٦٩٢).

حصل الصدق في المقامين جاء منهما مباعدة الشهوات ومجانبة اللذات، والقيام بخدمة من له الدنيا والآخرة، وهؤلاء هم بنو اللذات حقًّا عيشهم سليم وغناهم في قلوبهم مقيم، كأنهم نظروا بأبصارهم إلى حجب الغيوب فقطعوا لله كل مراد لهم ومحبوب، وكان الله ﷻ هو المنى والمطلوب ليست تلحقهم فترة في نية ولا وهن في عزم ولا ضعف عن حزم، ولا تأويل في رخصة ولا ميل إلى داعي غرة، فهذا هو المراد بوصف المحبة، فاعلم ذلك، ومن سلك هذا السبيل فقد اتبع أحسن ما أنزل إليه من ربه وأناب إلى ربه وأسلم له وخشيه بالغيب، وخاف عذابه ورجا موعوده، منَّ الله علينا بذلك إنه ولي ذلك والقادر عليه، لا إله غيره ولا مرجو سواه.

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦] هذا في مقابلة قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ...﴾ [الزمر:٥٣].

يقول - جل من قائل: سارعوا بالتوبة والإقلاع ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] بالقنوط فتظنون أنى يتعاظمني ذنب أغفره لمن أناب إلي فإني أنا الغفور الرحيم.

ثم قال - عز من قائل - حكاية عن العبد: ﴿لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر:٥٧] هذا في مقابلة قوله لهم: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] فيقولون فيما هنالك حين يلومون أنفسهم ويلعنونها وتلعنهم، فيجعلون آخر دعواهم: لو أن الله هدانا لكنا من المتقين.

ثم قال ﷻ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] [الزمر: ٥٨] هذا في مقابله قوله في دعائه إياهم: ﴿وَأتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥].

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

---

(١) حاصل الكلام أن هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء؛ **أولها**: الحسرة على التفريط في الطاعة، **وثانيها**: التعلل بفقد الهداية، **وثالثها**: بتمني الرجعة، ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال بفقد الهداية باطل؛ لأن الهداية كانت حاضرة والأعذار زائلة. [تفسير الرازي (٢٧٦/١٣)].

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر:٥٩ - ٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر:٦١] هذا منتظم بما قبله من ذكر الذين كذبوا على الله، وذلك منتظم بما تقدم أيضًا من ذكرهم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى الله وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٣٢] مفازة كل عبد في ما هنالك على المقدار الذي يسره الله له في هذه الدار من العمل بطاعته، ومجانبة ما يسخطه والعلم به، ورفعة إيمانه ونور يقينه، فكل يومئذٍ مفازته على الصراط على قدر مفازته اليوم من علو المناهي ومفاز من المناهي، والعمل بالطاعة على المقدار الذي سبق له يوم كتب المقادير والكائنات.

يقول الله - جل من قائل - في وصف بعضهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢].

قوله ﷻ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١) [الزمر:٦٣] المقاليد: المفاتيح، واحدها: إقليد، له مفاتيح خزائن السماوات والأرض.

---

(١) المقاليد، واحدها مقليد، ومقلاد، أو لا واحد له من لفظه كأساطير، وهي: مفاتيح السماوات، والأرض، والرزق، والرحمة، قاله مقاتل، وقتادة، وغيرهما، وقال الليث: المقلاد الخزانة، ومعنى الآية: له خزائن السماوات، والأرض، وبه قال الضحاك، والسدّي، وقيل: خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات، وقيل: هي عبارة عن قدرته سبحانه، وحفظه لها، والأوّل أولى، قال الجوهري: الإقليد المفتاح، ثم قال: والجمع المقاليد، وقيل: هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وقيل غير ذلك. [فتح القدير (٦ /٣٠١)].

قال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلا الله ليس بينها وبين الله حجاب**»[١].

وقال وقد سمع رجلاً يقول: ربنا ولك الحمد حمدًا طيبًا مباركًا فيه: «**عجبت لها فتحت لها أبواب السماء**»[٢] وفي أخرى: «**لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا**»[٣].

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «**هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، لا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**»[٤].

﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾**﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٧].

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ**﴾ [الزمر: ٦٤] انتظم هذا بما تقدم ذكره من دعائهم إياه إلى ما يعتقدونه أو متابعتهم على بعض أمرهم.

ويتابعونه قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾[٥] ما قدروه معناه: ما عرفوه حق المعرفة، ما

---

(١) ذكره بنحوه السيوطي في اللآلي المصنوعة (٢/٢٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٨٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٠١٨)، والبخاري (٧٦٦)، والنسائي (١٠٦٢).

(٤) أخرجه أبو يعلى كما في مجمع الزوائد (١٠/١١٥) قال الهيثمي: فيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف. والعقيلي (٤/٢٣١، ترجمة ١٨٢٥ مخلد أبو الهذيل)، وقال: في إسناده نظر. والرافعي (٤/١٦٣) قال المنذري (١/٢٦٢): رواه ابن أبي عاصم وأبو يعلى وابن السني وهو أصلحهم إسنادًا وغيرهم وفيه نكارة، وقد قيل فيه: موضوع وليس ببعيد، والله أعلم.

(٥) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا بما لا يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات: ما عرفوا كنهه.

=

عظموه كما يجب له، ما أجلوه؛ إذ وصفوه بما يستحيل أن يوصف به، ويشركون معه سواه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] لما لم يصفوه بما ينبغي لعظمته ويحق لجلاله، وصف هو نفسه، وقوله الحق ووصفه الصدق بقوله: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ فأضاف السماوات إلى اليمين والأرضين جميعًا إلى اليد الأخرى، وكلتا يديه يمين مباركة، وقد يعبر عن القبضة بأنه الملك، ومعرفة العباد تعجز عن كيفية ذلك ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام:١٠٠].

فصل

قال الله - جل من قائل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ للكتاب و﴿لِلْكُتُبِ﴾ على الإفراد والجمع ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فأخبر بذكر الإعادة أن البداية كانت قبل كذلك، وأنه تعالى يوم بدأهن جعلهن في يمينه المباركة كذلك الأرضون، وفي اليد الأخرى، وكلتا يديه يمين مباركة كما أعلمنا به في بدء بني آدم وأخذه الميثاق عليهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢].

وبيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**إن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية**» وفيه: «**ثم مسح ظهره بيده الأخرى وكلتا يديه يمين...**»[1] والحديث الآخر في ذلك من رواية أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه**

=

يقول الفقير: هذا ليس في محله، فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق به تلك المعرفة بحسبنا فالمعنى هاهنا ما عرفوا الله حق معرفته بحسبهم لا بحسب الله إذ لو عرفوه بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك ونحوه فافهم. تفسير حقي (١٢/ ٣٢٥).

(١) أخرجه ابن جرير (٩/١١٤).

وأهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين...»[1] وذكر أخذ الميثاق.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما خلق الله آدم ﷺ نفخ فيه من روحه عطس فأذن له فحمده فقال: «الحمد لله» قال له: رحمك ربك، ثم قال: يا آدم اذهب إلى أولئك الملأ من الملائكة جلوس فقل: «السلام عليكم» فذهب فسلم عليهم، فقالوا: «السلام عليك ورحمة الله وبركاته، ارجع إلى ربك» فقال الله ﷻ: هذه تحيتك وتحية ذريتك، ثم قال له بيديه وهما مقبوضتان: خذ أيهما شئت، فقال: أخذت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته كلهم...»[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:٧٢] ذلك قوله تعالى، والله أعلم بما ينزل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] وأبطن ميثاق النبوة والرسالة، وقال في سورة «آل عمران»: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] فذكر هنا عهد النبوة وتحمل إصر ما تجيء به الرسالة، وأبطن عهد الربوبية، فقام التحمل بين هذين وثبت التزام الميثاق والعهد.

والسماوات والأرض لما أبين من تحمل الإصر وأشفقن من مكابدة الدعوى في [حسب][3] الخزائن أصار السماوات إلى يمينه والأرضين إلى يده الأخرى لطهارتهن وورودها عليه يومئذٍ على فطرها عليه؛ لأنه يسر عليهن الأمر وكفاهن مؤنة الإصر، وسخرهن لمنافع العباد فأتته طائعة قانتة، ولما كان الإنسان متحملاً للعهد ومتضمنًا الوفاء بمكابدة الإصر لم يرده إلى يمينه، بل أصاره إلى الصور كما تقدم ذكره في غير هذا الموضع.

---

(١) أخرجه العقيلي (١/١٣٩، ترجمة ١٦٩ بشر بن نمير) وقال: ولا يتابع عليه. والطبراني (٧٩٤٣)، وفي الأوسط (٧٦٣٢) وأبو الشيخ في العظمة (٣٩)، والطيالسي (١١٣٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢٠٣٠٧).

(٣) هكذا في (خ).

فصل

إن الله ﷻ قبل أن يخلق خلقه لم يزل عالمًا بهم بصيرًا سميعًا لهم وكانوا عدمًا من حيث هم وإن كان لهم وجود من حيث هو عالمهم ومسببهم إذا شاء، ولما أوجدهم للميثاق وأخذ العهد عليهم وإشهادهم أنفسهم كان لهم وجود من حيث هم، ثم لما أعدمهم وأصارهم في خزائن السماوات والأرض ذواتًا وأرواحًا باتباع ذلك كانوا غيبًا عن أنفسهم ووجودًا ما في مستقرهم من الخزائن في غيب السماوات والأرض، ثم لما أوجدهم الآن ظهروا بذلك لأنفسهم وظهر بعضهم لبعض، وكمل في ذلك وجودهم المطابق للمراد بهم ومنهم وعلى قدر هذه الدار من الدار الآخرة، ثم هم إذا أماتهم كانوا غيبًا في حق من لم يلحق بهم بالموت، وكان لهم وجود لأنفسهم وظهور لها ولمن لحق بهم، ثم في الإحياء الآخر والإيجاد المستقبل يكمل الوجود والظهور للمراد بهم وفيهم، ووصف الله - تبارك وتعالى - ما غاب عنا أنه قد صار إليه.

قال الله - عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ هذا حاله منذ ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، يقول الله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ يعني: وهو أعلم الظل المذكور، ثم قال - عز من قائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] لو كان الليل ساكنًا لكان المعهود، والمعهود لا يعرف له غير حال بقائه إلا بدليل يدل عليه وآية تعرف به، فاستاق ذكر إطلاعه الشمس دلالة على الظل أن لو كان ساكنًا كما فرضه عرض بذلك إلى الإعلام بفوائد الدلالات ومنافع التفصيل، ولما أطلع الشمس مد الظل مدًا آخر.

يقول - جل من قائل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦] فأخبر - جل ذكره - بصدق حديثه أن المعدوم ليس بمعدوم على الحقيقة، بل يصير إليه كذلك، أخبر عن الملائكة بأنهم عنده، وعن الشهداء أنهم عنده، ويقال في المؤمنين: إنهم صاروا إلى ربهم وإذا مات أحدنا قالوا: صار إلى الله وما فعل ذلك حتى لقي الله، ويقال في الكفار: إنهم أفضوا إلى ما قدموا، وقال الله - جل من قائل - في العموم: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية:٢٥ - ٢٦].

قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤] وذكر الرجوع إلى الله كثير في

القرآن هو لما قد تقدم ذكره أنهم كانوا في وجوده علمًا وقدرة ومشيئة، فكانوا بذلك موجودين عنده وله، كما قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] أي: لسوى الله وإلا فالله عالم به ذاكر له في أزله وبما يخرجه إليه وما يأوله إليه، فلما أظهرهم صاروا بذلك موجودين لأنفسهم، وظهر بعضهم لبعض، ثم أوجدهم لأخذ الميثاق عليهم، ثم أعدمهم عنهم وبثهم في الخزائن، ثم أظهر هذا الإظهار بهذه الحياة الدنيا، فإذا أماتهم أرجعهم إلى كونهم في الخزائن، وذلك إرجاع منه إياهم إليه - عز جلاله - منه كان بدؤهم وإليه عودهم، فهذا إرجاع حق.

كما قال فيما خلق من الأرض: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ فيها؛ أي: في إظهاره إيانا اليوم ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بعد الموت حال البلاء ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] فكذلك دائرة الإرجاع إليه منه كان البدء وإليه العود، وعلى هذا السبيل من النظر لا بد إذًا من لقاء الله - جل ذكره - كما لا بد من الموت، كما لا بد من الإحياء في الدار الآخرة ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥].

آية ذلك: وجود علم الفطرة فينا ومعرفة الحياة، ذلك لأنا كنا فيما هو موصوف بالعلم والقدرة والمشيئة والأسماء والصفات، ألا ترى أن أحدًا لا يتعلم، بل يتذكر أو يتفكر بتذكر فيذكر ويتفكر فيبصر ما قد غاب عنه بالسهو والغفلة والنسيان، فلا بد من لقاء الله والرجوع إليه حق، نسأل الله أن يجعل لنا في ذلك كل يسر وخير وكرامة بمنه وفضله العظيم.

كأنما ابن آدم قد شاهد كل مذكور ومعلوم، ثم أنسيه لكونه مخبرنا في خزائن السماوات والأرض، ثم في إنشائه نباتًا، ثم نطفة في البطن، ثم في إخراجه طفلاً، فلما عقل تفكر، فإذا هو يتذكر كل ما عهده قبل، وعرف كل ما شاهده في البدء الأول، إن ربنا لعليم حكيم، ما أعجب هذا من شأن، فقوله جل ذكره: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧].

﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا﴾ أي: الأرضون كلها ﴿قَبْضَتُهُ﴾ [الزمر:٦٧] يوم القيامة؛ يعني وهو أعلم بما ينزل: أن ذلك حال كونهن معدومات، وقد بدلت الأرض غير الأرض والسماوات.

وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] أي: نطويها على ما قد جعل فيها يوم خلقها من أمر كل سماء الذي أوحى فيهن يوم سوَّاهن سبع سموات، والسماء السابعة تحتوي على ما سواها منهن، فقوله للكتاب يتوجه إلى الأمر المذكور، وقوله للكتب يتوجه إلى انطواء كل سماء في التي فوقها حتى تحتوي عليهن السابعة ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ذلك قول رسول الله ﷺ: «**يصيرها الله خبزة كالنقي**» يعني: الدرمك، وكالنقي يعني: الشحم «**يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة**»(١).

وعلى ذلك: فالسماوات مطويات بيمينه، والأرضون كلهن قبضته، وقد صير الله موضع السماوات غيرهن وموضع الأرضين، كما أخبر ﷻ أنه: ﴿مَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وكذلك لا يكون من إيجاد لجميع المخلوقات حال إمساكه إياها ولا إعدام إلا هو عنده في كتاب ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١] فافهم ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧٢].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (٩٦٢)، والبخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٧٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ﴾ [الزمر:٦٨] الصور جمع صورة وقد يعبر عنه بالقرن(١).

---

(١) قال المصنف: آية هذا الفصل غيب، ولكنه غيب شاهدته العقول ببصيرة الإيمان وجودًا قام لها اليقين به، فبهذا الوجه كان آية، وإلا فهو أصل وهو جمعه الذوات في الأزل في يمينه الكريمتين - جل جلال ربنا وتعالت عظمته - وكانت الذوات يومئذٍ لم تكن قد نست بعد بأنواع المعاصي والكفر، خلا ما كان في سابق علمه المحيط أن سيكون منهم الذي كان، ولأنه الطاهر القدوس لم يكن لها أن ترجع إلى يمينيه الكريمتين، وقد واقعت المحظور فعلاً وتدنست به فأوجد لهم الصور، وهو من عالم الأمر بدلاً من القبضتين يومئذٍ ليصورهن فيه، أي: ليضمهن ويجمعهن. كذلك قال الخليل ﷺ يوم علمه كيف يحيي الموتى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يريد الذوات، والله أعلم بما أراده، واجعل من الطوائر: ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة:٢٦٠] وكنَّى عن أصول الطوائر بالجبال، فأمره أن يجعل على كل أصل منها جزءه الذي انتزع في أول الخلقة عنه؛ ليعاد فيه كالمعلوم من حكمته ﷻ فأقام الصور التي تصورهن فيه يوم الصعق مقام قبضته والصور من أمره؛ ولذلك عادت الأرواح التي هي أيضًا من أمره إليه حكمة بالغة، وأمر حتم رجوع كل شيء إلى حيث كان آية، ذلك آية فيما بيننا في هذه الدار المطبوعات والمجبولات على ما هي عليه، ولم تكن في البدء كذلك، ألا ترى أنها ليست تكون في البرزخ كذلك، بل يطلقها هنالك من ثقاف الطبع وأسر الجبلة ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١] وإنما فعل ذلك الابتلاء وما فيه من تعجيل الكلمة وتأجيل مقتضى السنة؛ لتشهد له الشواهد، وليصدق المتلقين عنه رسالاته، فهو لا يخرق - جل ذكره - العوائد، ولا يفك خاتم الطبع إلا ما يقوم مقام الشهادة منها له، فاعلم ذلك واحرص على منفعته ينفعك الله به إن شاء الله. ثم يرجع بنا الكلام إلى ما إليه قصدنا، فإذا أذن الله - جل ذكره - لإسرافيل ﷺ في نفخة الصعق، صعق لتلك النفخة كل روح في السماوات والأرض إلا من شاء الله، وفزع إلى الصور داخرًا صاغرًا ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨] توحد بالبقاء وقهر العباد بالموت والفناء، ثم يموت إسرافيل ﷺ وملك الموت، فيومئذٍ تمت كلمته في رجوع الموت إلى الموت، ورجع التراب والطوائر إلى أصولها، والأجزاء إلى كلياتها، والأرواح إلى الأمر، ويبقى الملك الحق جل ذكره، الباقي الدائم الحي القيوم فينادى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] ثلاثًا، ولا داعي يومئذٍ ولا مجيب سواه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - فيجيب نفسه ﷻ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] خاصة اسم القهار القدرة على الذوات والأرواح، كما خصّه اسم القادر والمقتدر على إخراج ذوات المقادير من العدم إلى الوجود، وجمع خلقها حتى إذا شاء ﷻ أن يتمم كلمته الحق في رجوع أواخر الحكمة على أوائلها، وانعطاف تناهيها على =

قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ**»[(١)] وربما كان خاصة معناه: قرن ولد آدم الله أعلم كيف هو، إليه يصور الأرواح؛ أي: يميلها، والصعق: الموت، والصعق: الغشية، والمستثنى بقوله: ﴿**إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾ [الزمر:٦٨] هم الأنبياء والرسل والشهداء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾ يعني: أفواجًا، ويجوز أن يكون أممًا، والمعنى واحد، قوله تعالى في هؤلاء: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**﴾ [الزمر:٧١] وقال في أهل الجنة: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ بالواو، والمعنى والله أعلم: أنهم إذا جاءوها طهروا وهذبوا وفتحت أبوابها، فجعل غاية مجيئهم أن يطهروا ويهذبوا أولاً، ثم عطفه على ذلك بالواو فقال: ﴿**وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**﴾ [الزمر:٧٣].

نبه على ذلك رسول الله ﷺ في حديثه المشهور، ويجوز أن يكون العطف بالواو على استفتاح رسول الله ﷺ إياها زائدًا على ما تقدم ذكره، فهذه من خاصة ما أعطيه ﷺ.

قال رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة، وذكر أن الناس يستشفعون به إلى ربهم في فتح أبواب الجنة قال: «**فأجيء فأقعقع الباب، فيقول لي خازنها: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك**»[(٢)] فيكون العطف أولاً على

= مبادئها أنزل جل ذكره من تحت العرش ماء كمني الرجال، وأمر كل شيء أخذ من شيء حبة خردل أو أدنى أن يأتي بما فيه، فيرجع كل شيء على طريقه الذي ذهب عليه، فينبت أجسام الخليقة كما ينبت النبات، ثم يحيي إسرافيل ﷺ فيأمره بالنفخ في الصور نفخة النشور، فينفخ وتخرج كل روح إلى جسده ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] [شرح الأسماء ٣٩/٢].

(١) أخرجه أحمد (١١٧١٤)، وعبد بن حميد (٨٨٦)، وأبو يعلى (١٠٨٤)، والترمذي (٢٤٣١)، وابن حبان (٨٢٣)، والحاكم (٨٦٧٨)، والحميدى (٧٥٤)، وأبو نعيم (١٠٥/٥) وقال: غريب.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٤٢٠)، وعبد بن حميد (١٢٧١)، ومسلم (١٩٧)، وابن منده في الإيمان (٨٦٧)، وأبو عوانة (٤١٨).

المجيء والتطهير، ويكون أيضًا على استفتاح الباب وفتحه، هذا في الرعيل الأول - على جميعهم السلام، جعلنا الله منهم وفيهم في الدنيا وفي الآخرة وفيما بين ذلك - ويكون العطف في حق غيرهم تقدير: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها يعرض بذلك إلى كرامة رسوله ﷺ.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٣ - ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ﴾ ولا تستطيع الطواف به كما يطوفون بالبيت المعمور ويطوف المسلمون بالبيت الحرام، وقوله: ﴿وَتَرَى المَلائِكَةَ﴾ أي: يومئذٍ يرى رسول الله ﷺ الملائكة حول العرش من الجنة؛ أي: إن داره ﷺ أعلى دار هي في الجنة، ويمكن أن يكون ذلك مرئيًا لأهل الجنة كلهم، والعرش أعم عمومًا وأحق حيطة بالجنة من السماء بدار الدنيا، وقد اشتركوا في رؤية السماء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل وبالفضل وعلى ما أخبر به القرآن وجاء به الوحي ﴿وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] حمده الجميع، وهو المحمود على كل حال، كما قال - عز من قائل: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] حكمه حمد، وعدله حمد، وفضله حمد، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم المحكوم له بالعدل، والحق حامد لا محالة، والمحكوم عليه بذلك أيضًا حامد وإن عدلت نفسه عن الرضا.

فهرس المحتويات

تفسير ابن برّجان

المسمّى

تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برّجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ

تحقيقه وتعليقه وتخريجه
الشيخ أحمد فريد المزيدي

المجلد الخامس
أول سورة غافر - آخر سورة الناس

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفهام
إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الخامس

أول سورة غافر - آخر سورة الناس

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMĀ
TANBĪH AL-AFHĀM ILA TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

الكتاب : تفسير ابن برّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف: الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages (5 Volumes)	2880	**عدد الصفحات** (5 مجلدات)
Size	17* 24 cm	**قياس الصفحات**
Year	2013 A.D. -1434 H.	**سنة الطباعة**
Printed in : Lebanon		**بلد الطباعة :** لبنـــان
Edition : 1st (2 colors)		**الطبعة :** الأولى (لونان)

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-7763-6
ISBN 2-7451-7763-X
9 782745 177636 90000

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المؤمن

«غافر»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر:١ - ٧].

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:٣] الغناء والسعة، واسم الحي يجمعها، وقوله: ﴿حم﴾ [غافر:١] يجمع ذلك كله بما يفصل إليه.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الله إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر:٤] وقد قال تعالى: والذين يجادلون في آيات الله من بعدما استجيب له، فالجدال في الله تكذيبهم بأسمائه وصفاته كقولهم: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة:١٠] وكذلك تكذيبهم بأنه يسمع سرهم ونجواهم، وقول بعضهم: إنه لا

يعلم المعلومات على التفصيل ولا هو مريدها ولا مشيئها، ولا يقدر عليها على التفصيل وتفصيل التفصيل، وجدالهم في آيات الله: هو ردهم على الرسل والكتب وإلحادهم بآيات الوجود في المخلوقات إلى أنها عن توليدات وأسباب زعموا تتسبب عن أسباب وأواسط بتوسط عن موجودات إلى غير ذلك من ضلالهم ونسيانهم ذكر الله وآلاءه.

وكذلك صرفوا ما أظهره - جل ثناؤه - على أيدي الرسل والأولياء من معجزات وكرامات خرق لهم بذلك العادات، جعل ذلك لهم آيات على صدقهم وأقامها مقام قوله: صدقوا أنا أرسلتهم إلى المعلوم والمعهود في جري العادات، وأن ذلك زعموه عن أواسط باطنة وأسباب غير ظاهرة للعيان، كما قال أولئك فيها: إنها سحر، والمعني بذكر الجدال هنا: هو ردهم نصائح الله - جل ذكره - وما بلغتهم الرسل من كتب وحكمة وأمر ونهي، وكل ذلك آياته ودلائله على وحدانيته وإثبات رسالاته وصدق كتبه، وفرقان بين حلاله وحرامه.

قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾ [غافر:٦] عطف بالواو في قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ حَقَّتْ**﴾ على ما تقدم ذكره من وصفه الجزاء العاجل الذي أصاب به قوم نوح والأحزاب من بعدهم، عبر عنه بقوله الحق: ﴿**فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ [غافر:٥] فكان عطفًا بالجزاء الآجل على الجزاء العاجل، ويكون العطف على ما سبق لهم من قوله: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»(١) فلما كفروا وكذبوا وجادلوا في الله وفي آياته نبّه على ذلك التقدير في القدم بقوله: ﴿**وَكَذَلِكَ**﴾ أي: كما وجدت أعمالهم عنهم كان تقديرنا لها أولاً.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ**﴾ [غافر:٧] يعني: الملائكة، معنى هذا منتظم بمعنى قوله: ﴿**حم**﴾ [غافر:١] وذكر التنزيل وبخاصة ذكر الرحمة الرحمانية والرحمة الخاصة بالمؤمنين من اسمه الرحيم(٢) ثم بمعنى العموم إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال المصنف: فكل ما في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين فهو تعبد للرحمن ﷻ عباده؛ لأن ذلك من رحمته التي أنزلها إلى الأرض. كما أن جميع مصنوعاته مفصلة من الكتاب المبين وهي من الرحمة الرحمانية؛ ليرحم بها عباده المؤمنين =

قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣] نظم الخطابين معًا بما فيهما من ذكر العلا والعظمة، ثم بما يتفصل عن الملقى إلى حملة العرش، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [غافر:٨ - ١٤].

قوله - جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إلى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠] انتظم هذا بما تقدم من شفاعة حملة العرش ومن حوله - على جميعهم السلام للمؤمنين - ودعائهم الله لهم، وبما تقدم ذلك من ذكر المجادلين في آيات الله والمكذبين، وما أصابهم في العاجل بذكرهم بما يصيبهم في الآجل.

فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر:١٠] المعنى إلى آخره، وذلك أنهم يسلط عليهم الندم على ما قدموه في العاجلة من تفريطهم في الاستجابة، وما تعوضوا من ذلك من كفر وتكذيب ومجادلة وحمل على الرسل والنصحاء لله تعالى فيهم، فيسلط عليهم البغض لأنفسهم واللعن لها، فليلعن بعضهم بعضًا، ويبغض بعضهم بعضًا، ويكفر بعضهم ببعض مع ملازمة العذاب وحريق النيران، فيبلغ ذلك منهم ما لا يحتملونه، فينادون عند ذلك:

=

بالكتابين، قال الله ﷻ: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ....﴾ [شرح الأسماء ٢/٣٠١].

﴿لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إلى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

ألا فهذا العجب المعجب هم في غاية العذاب والخزي والهون والندم؛ لأجل مقتهم أنفسهم ومقت بعضهم بعضًا ولعن بعضهم بعضًا؛ لأجل ذلك يقول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿لَمَقْتُ الله﴾ إياكم ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إلى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

ما أصبره ﷻ وما أوسع طوله وأكرم حلمه، كان في حياتهم الدنيا مقته أكبر من مقتهم أنفسهم في عذابهم ذلك ومع ذلك، فلم يعاجلهم بعقوبة ما كانوا به من خلاف وكفر، وهم لم يجدوا ما يجدون من عذاب إلا لأنهم لا يجدون إلى الخروج مما هم فيه سبيلاً، فتأمل هذا وتفكر فيه طويلاً، ما أصدق قوله: ﴿إِنَّ الله بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣].

أتبع ذلك قوله - عز من قائل - حكاية عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١] لما كان من تكذيبهم الإحياء بعد الموت أقروا يومئذٍ بحياتين وموتين، إحدى الحياتين هذه الحياة الدنيا، ثم الحياة الآخرة التي يصيبهم فيها جزاء ما كذبوا به، والموتة الأولى: هي التي قبل هذه الحياة الدنيا، والثانية: الموتة المقت الذي بعد هذه الحياة وقبل الحياة الآخرة.

قال ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

أتبع ذلك ما هو جواب لقولهم، قوله الحق: ﴿ذَلِكُم﴾ أي: من خلودكم فيها وعدم إخراجكم منها ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ ومفهوم ذلك أن خلودهم فيها وعدم إخراجهم لأجل مقت الله - جل ذكره - إياهم فأبعدهم عن جواره وأبلسهم عن قربه، ومقته لهم لأجل محبتهم سواه حتى آل بهم ذلك إلى البغض، فهم إذا دعى الله وحده كفروا بذلك وأن يشرك بهم يؤمنوا؛ أي: بالشرك، كما قال عز من قائل: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

فهذه عداوة منهم لربهم ورازقهم الكالئ لهم بالليل والنهار، فعاداهم الله لذلك ومقتهم ولعنهم في الدنيا وأبعدهم في الآخرة، ألا تسمع إعظامه - جل ذكره - ذلك

حيث يقول أثر ذلك: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦] ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس:٥٤] المعنى إلى آخره.

وأعقب آية هذه السورة بقوله: ﴿فَالْحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢] فحكمه فيهم إبعادهم وتخليدهم لذلك، فدخلوهم النار لأجل ذنوبهم وخلودهم فيه؛ لأجل كفرهم بالله وإيثار سواه بالحب والأثرة عليه، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة.

أتبع ذلك ما هو بيان له، قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يبين لكم سبل الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر:١٣] ويتحبب إليكم وأنتم تبغضونه، ويرشدكم إليه بآياته ويدعوكم بما أنزل إليكم من كتبه وأرسل إليكم من رسله وأنتم عنه محجوبون.

فصل

لم يضمن الله التذكر إلا لمن ينيب ولمن يخشى، وآياته: أنواره وشواهده الدالة عليه الشاهدة له، ونيراته المعلمة به في إنزاله الماء من السماء التذكر بالرياح اللواقح في الهواء، وإنزاله الماء إلى الأرض وإخراجه به من كل النبات ومن كل الثمرات، يخلق من ذلك جميع الأنعام، يتغذى بذلك بنو آدم فيكونون عنه، كذلك النشور وكذلك الخروج، غير أن هذه بحكم السنة وتلك بحكم الكلمة، ويذكر أيضًا بالجنة وموجوداتها تحببًا إلى عباده المنيبين إلى ربهم، المحبين له، الذاكرين عند كل حادث، الحامدين الشاكرين له على كل نعمه، كما قال بعضهم:

يذكــرنيه كــل خيــر رأيــته وشر فما انفك منه على ذكر

هذا في مقابلة إقرارهم هناك بالحياتين والموتتين لتضييعهم الإيمان بذلك فيما ها هنا، لذلك ختم الخطاب بقوله الحق: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [غافر:١٤] يقول لأحبته المؤمنين: اعملوا بما دلكم عليه العلم من عنده وأعلمكم به الكتاب والرسول يغبطهم بولايته إياهم ويفردهم بذلك منه دون

البغضاء الكافرين.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾ [غافر: ١٥ - ٢٠].

أتبع ذلك ما هو وصف حق له ﷻ ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**﴾ [غافر: ١٥] يمكن أن يكون هذا منتظم بذكر تعظيمه في صدر السورة، ثم بما اتصل به من وصف ومعنى، وعلى القول بالإجمال: فإنه منتظم بما هو القرآن العظيم حيث جاء منه، فاعلم ذلك يقينًا، فانتظام الكلام موجود جائز مع وجود القطع في وصف موصوف واحد، وإن عدم الإتباع لا يمنع من انتظامه بداخل الكلام والمعاني، لا سيما وكل ما جاء في القرآن من معنى فهو منفصل عنه، وقد تقدم ذكر هذا.

ومعنى قوله: ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**﴾ أي: رفيع درجاته التي يعلي عباده إليها من درجات العلوم ومقامات المعرفة به وأحوال المقامات، ثم ما رفعهم إليه في الآخرة، ويمكن مع ذلك أن يكون معناه: رفيع درجاته؛ أي: له الوصف العلي والأسماء الحسنى، وله المكانة والمرتبة التي ليس كمثله فيها سواه، ولا ينبغي لوجود موجود الترقي إليها سبحانه وله الحمد والعرش، يفهم معنى الرفعة؛ إذ هو أرفع الموجودات وأعلى المراتب كل شيء دون العرش رتبة ومكانة.

آية ذلك فيما هاهنا: بيوته في الأرض لما نسبها إليه رفعها، قال الله عز من قائل: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ [النور: ٣٦] فأمر بترفيع المساجد حيث كانت لاختصاصها بذكره والأمكنة للمخلوقات، والعرش للخالق العلي ﷻ مكانه ومستوي له.

وفرق بين المكانة والمكان والتمكن والاستواء، فبين ذلك لأولي الألباب،

فرقان بين من أعلاه قضاء الأمر وإلقاء الروح والأمر، وعنه ينفصل التدبير والتفصيل كله، وهو العرش محيط بالمخلوقات علوًّا وسفلاً وإحاطة كريمة نزيهة عن أوصاف المحدثات، آثره منه لخصوصيته به، وحرم يحرم بها من أجله لنسبته إليه آية ذلك حرمة فيما هاهنا في المكان وفي الزمان، وحرمة في الأفعال كالبيت الحرام وما حوله والمدينة وما حولها والأربعة الأشهر من السنة وجماع محارمه، كذلك العرش حرم، وما انتسب إليه أو اتصف به أو بمعناه أو تسمى باسمه، كل على قدر منزلته منه أو بوصف من أوصافه، والعرش سماء كل شيء، ولكل سماء عرش، ووجوده فيما خلقه من حيث هو على العرش بما هو، يقول الله - جل من قائل: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك:١٧].

وقال: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:٤] وعلى ما وصف نفسه بأنه معنا وأنه ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**﴾ [المجادلة:٧] فليس وجوده إلا على العرش والعرش علي وصفه وصفاته، وهو رب العرش العظيم ورب العرش الكريم، والعرش العظيم هو المشتمل على ذلك كله.

وقول رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى** كل ليلة **إلى السماء الدنيا فيقول...**»[1] إخبار عن وجوده على عرش سماء وهو لا يزال موجودًا على العرش، والعرش العظيم المشتمل على أوصاف ذلك كله وصفاته وعلائه ودنوه وقربه، كقوله: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾ [المجادلة:٧] وقوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:٤] وهو مع ذلك على العرش العظيم.

أتبع ذلك ما هو من صفاته وفعله وصف للعرش، قوله: ﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ**﴾ [غافر:١٥ - ١٦] سماه: يوم التلاقي؛ لأنه يلتقي فيه أهل السماوات والأرض

---

(١) أخرجه مالك (٤٩٨) والبخاري (١٠٩٤) ومسلم (٧٥٨) وأحمد (١٠٣١٨)، وأبو داود (١٣١٥).

والأولون والآخرون، وفيه يلقى العباد ربهم ﷻ هذا كله خطاب لعباده المؤمنين يعدهم ويمنيهم ويغبطهم بإيمانهم وبلقائهم إياه.

﴿بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون في صعيد واحد لا يُرى فيه عوج ولا أمت، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، لا يخفى على الله منهم شيء، هذا وصف لذلك اليوم فإنه لم يخف قط عليه منهم شيء سرًّا كان أو جهرًا، بل هو لم يخف عليه منهم شيء حال عدمهم وقبل إيجادهم، وإنما هو وصف خاص لليوم والأمر الجامع لهم والأرض التي برزوا عليها.

أتبع ذلك ما هو في معناه، قوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] قيل: أنه يقول ذلك - جل قوله وتعالى علاؤه وجده - بين النفختين، وقد انحصر اسم البقاء ومعناه كله إلى الباقي الحق لا إله إلا هو، فيجيب نفسه لله الواحد القهار، وإنما هذا وصف للوحدة يومئذٍ والبقاء، ووصف لعظيم الأمر وإلا فإن الملك لم يكن قط موجودًا في الدنيا والآخرة ومن قبل ومن بعد إلا له، وهو وصف لذلك اليوم بأسًا وشدة وعظم استطاعة وكسب ومتعة.

وقد كان قبل ذلك منحهم هذه ومتعهم بقول الله - عز من قائل - في وصف ذلك اليوم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩] ولا تكلم نفس إلا بإذنه ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبأ:٣٨] ورضي له قولاً ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨].

أتبع ذلك ما هو في معناه، قوله - جل وعز: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر:١٧] والجزاء العاجل لم يكن عنه في الدنيا بغافل ليس بموصوف بإهمال، لكنه لما كان من الجزاء العاجل على بعض السيئات ما هو ظلمة في القلب واستدراج، وكان منتظرًا به الجزاء الآجل للتمحيص واستيفاء الحقوق والحظوظ بالقسط، وكذلك فلم يظلم قبل ولم ينبغ لوصف الظلم أن يصعد إلى علي شأنه، لكنه وصف زائد على ما تقدم من حكمه في الدنيا أنه لا يجعل أحدًا يظلم أحدًا في ذلك اليوم، ولا ذلك اليوم أبقى لأحد اختيارًا ولا هو بموطن اختبار وامتحان، إنما هو موطن الجزاء المحض منه والحكم الفصل به حقًّا وعدلاً لا مبدل لكلماته.

فقوله العلي: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] يكون والناس حينئذٍ في الموقف لا يجيبون ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:١٠٥].

قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾(١) أزف الشيء: إذا قرب، وبناء هذه الكلمة على بناء اسم الفاعل من أزف فهو آزف، هذا اسم القيامة اليوم من دار الدنيا، وكان في اجتلاب هذا الاسم فيما هاهنا موعظة وذكرى وتهديدًا بقربها، وأما يومئذٍ فاسم الواقعة والقيامة والطامة وغير ذلك من الأسماء أولى بها.

وربما سميت يومئذٍ بالآزفة استصحابًا قوله ﷻ: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ تصعد القلوب لشدة الهلع والجزع إلى الحناجر وتبقى مواضع الأفئدة هواء؛ أي: فراغًا منها ﴿كَاظِمِينَ﴾ كظم الرجل غيظه: إذا كفه، وكظم البعير جرته: إذا تجرعها، فهم يتجرعون قلوبهم يومئذٍ لنزول من حناجرهم إلى أماكنها من صدورهم وتأبى أن يستقر قرارها، نسأل الله الأمن يوم الفزع ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] أمره أو يسعف في شفاعته.

الحميم هنا: هو الشقيق المحب، الحميم: الماء الحار الناهي في الحرارة، وسمي القريب بذلك؛ لأنه يحتمي له غضبًا، والغضب حرارة تعرض في القلب تخرج إلى الوجه فيحمر وتنفخ الأوداج ويستشيط غيظًا.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٢) [غافر:١٩] خائنة

---

(١) هو يوم القيامة، يأمر تعالى نبيه أن ينذر العالم ويحذرهم منه ومن أهواله، قاله مجاهد وابن زيد. والآزفة صفة لمحذوف تقديره يوم الساعة الآزفة، أو الطامة الآزفة ونحو هذا. ولما اعتقب كل إنذار نوعًا من الشدة والخوف وغيرهما، حسن التكرار في الآزفة القريبة، كما تقدم، وهي مشارفتهم دخول النار، فإنه إذ ذاك تزيغ القلوب عن مقارها من شدة الخوف. وقال أبو مسلم: يوم الآزفة: يوم المنية وحضور الأجل، يدل عليه أنه يعدل وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق، ويوم بروزهم، فوجب أن يكون هذا اليوم غيره وهذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات، يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب، وأيضًا فالصفات المذكورة بعد قوله: ﴿يوم الآزفة﴾ لائقة بيوم حضور المنية، لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب لعظم خوفه، يكاد قلبه يبلغ حنجرته من شدّة الخوف ولا يكون له حميم ولا شفيع يرفع عنه ما به من أنواع الخوف. [البحر المحيط (٩/٤٠٧)].

(٢) قال الشيخ البقلي: وصف الله خائنة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئًا يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك =

الأعين: مشارفتها النظر إلى ما لا يحل لها تعمدًا، ويعلم ما تخفي الصدور: وهو ما تنبعث عنه النظرة، ويعلم الخطرة ويعلم ما قبل الخطرة.

كما قال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] وهو ما وقر في القلب وقدح في الصدر، ويعلم ذلك قبل أن ينقدح من خزائن الغيب في لوح القلب، وهذا خطاب انتظم بما تقدم من وصف الإلهية ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:٣] إلى قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ [غافر:١٥] إلى قوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] إلى قوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ [غافر:١٩].

وانتظم معناه المراد منه بمعنى ما تقدم من ذكر الجزاء، وإحاطة علمه بذلك وقدرته عليه وعدله وحكمه فيه، لذلك أتبعه قوله: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر:٢٠] كما انتظم معناه بذكر آلهتهم وأنها لا تنفع ولا تضر؛ لذلك وصل به قوله الحق: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:٢٠] ذكر صفتي السمع والبصر في مقابلة وصف آلهتهم؛ إذ هي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئًا.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

=

نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور وإذا كان العارف عارفًا بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدسها بمجاهدات كثيرة ويزمها بزمام الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جلتها على الشهوات، ففي كل لحظة يجرى في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفهما، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفهما الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢١ - ٢٦].

نظم بذلك قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [غافر: ٢١] لما فيه من التعريض بذكر الجزاء العاجل والآجل، انفصل ذلك من صدر السورة قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ﴾ [غافر: ٣] إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [غافر: ٢٧ - ٣٠].

ثم كذلك إلى ما هاهنا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ....﴾ [غافر: ٢٨] هذا الرجل ﷺ كان فرعوني النسب ظاهره على مراد فرعون، وكان مؤمن الباطن يكتم إيمانه من فرعون وأشياعه، فوصفه الله بالإيمان لعمارته باطنه، ونسبه إلى فرعون؛ إذ كان المراد به الإعلام والتعريف ممن هو فرعون.

ومن الفقه في هذا: أن المؤمن التقي بين قوم فساق وعند سلطان جائر جبار أن

يكتم تقواه، غير أنه يكف ظاهره من التشبيه بهم، وفي هذا أن للمؤمن في أيام الدجال أن يكتم إيمانه، غير أنه لا يحب أن يظهر الكفر، فمتى وجد سبيلاً إلى فعل معروف فعله بأي وجه أمكنه، وآل فرعون هاهنا هم آل نسبه وقبيلته، وظهر لنا إيمانه من قوله ونصيحته في الله لقومه، كما ظهر لنا من ذلك علمه بربه ومعرفته بحكمته في حكمه وعدله، والظاهر من شأنه أنه كان مسموعًا منه مكينًا فيهم.

قوله تعالى فيما حكاه عن هذا الرجل المؤمن ﷺ: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ الله إِن جَاءَنَا﴾ [غافر:٢٩] انظروا إلى علمه بالله وبحكمه حيث قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ [غافر:٢٨] إلى قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] أي: في الدنيا؛ لأنها لا تسع كل ما كان يعدهم به من العذاب، وقد وقعوا في الدار الوسطى إلى عذاب أكبر من عذاب الدنيا، ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب؛ أي: أشد العذابين: عذاب الدنيا وعذاب البرزخ.

علم ﷺ أن أمة لا تدين لله وأرسل إليهم رسولاً فكذبوه إن العذاب واقع بهم، فأنذرهم به في قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ الله إِن جَاءَنَا﴾ فأجاب فرعون جوابًا مختصرًا حسنًا بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] هذا جواب من لم يجد دليلاً على مذهبه ولا برهانًا على معتقده فنزع بمحض الدعوى واللجاج في الغي.

وروى أبو بردة: أن معاذ بن جبل قرأ على المنبر «وما أهديكم إلا سبيل الرشّاد» بتشديد الشين، ثم استمر ﷺ من ذكره الجزاء العاجل على ذكر الجزاء الآجل بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ [غافر:٣٠] يعني: الأمم المهلكة.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا
جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ

مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣١ - ٣٥].

قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٢ - ٣٣].

وقرأ ابن عباس «يوم التنادّ» بتشديد الدال، وهو من النداء من نادى ينادي بعضهم بعضًا، والنداء: الهرب، إذا ندَّت الإبل تندُّ إذا نفرت، وعلى هذه القراءة جاء خط المصحف، فجاءت قراءة من قرأ بالمد من الزوائد ولم يغير لها الخط.

ثم قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ [غافر: ٣٤] المعنى إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] ويمكن أن يكون هذا من قول الله - جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ﴾ أعلمنا الله ﷻ على لسان هذا المؤمن ﷺ برسالة يوسف ﵇ وبأنه قد جاءهم بالبينات والمعجزات، فكان يوسف والرسل قبله وموسى - صلوات الله وسلامه على جميعهم - قد جاءوا بالصدق وصدق هذا المؤمن به، فكان من المتقين الصديقين.

فصل

وفقه هذا إن للمؤمن المغلوب أن ينطوي على فعل الحق واعتقاده والتصديق به ما كان على ذلك، فمتى وجد سبيلاً إلى الإظهار والتبليغ بلغ وأظهر ما عنده من الحق ولو على وجه النصيحة، وإدخال الرأي وأن [رأيهم](1) بأنه منهم وعلى مذهبهم تسترًا وتصاونًا إلا أن يكون له في الأرض مهاجرًا وموضع نصرة وفئة يتحيز إليها قوله تعالى: إن ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٣٥].

هذا المجادل في آيات الله المبينة عن وجود الله العلي وأسمائه وصفاته وما

(١) هكذا في (ف)، وفي (خ): «رأياهم».

يجوز عليه وما يستحيل لديه، والآيات المبينة للرسالة ومعالمها؛ لذلك قال، وهو أعلم: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لعلمهم بها مقتوهم على جدالهم فيها وأبغضوهم لبغضهم لله ورسله ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥] وقرئ بالتنوين في «قلب» وعلى هاتين القراءتين، والمعني بها: الطبع على كل قلب المجادل، فلا يبقى فيه للهداية حظًا ولا للنور والذكر نصيبًا.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر:٣٦ - ٤٠].

وقرأ ابن مسعود «كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار» وقعت هنا الكلية على المتكبرين، وفي الأولى على القلوب قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾[1] [غافر:٣٦] أرى قوله: ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾

(١) اختلف الناس في أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماوات أم لا؟ فقال ابن الخطيب: أما الظَّاهِرِيُّونَ من المفسرين فقد قطعوا بذلك، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء الصرح. والذي عندي أن هذا بعيدٌ، والدليل عليه أن فرعون لا يخلو إما أن يقال: إنه كان مجنونًا أو عاقلاً، فإن كان مجنونًا لم يجز من الله ﷻ أن يذكر حكاية كلامه في القرآن، وإن كان عاقلاً فنقول: إن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي، ويعلم أيضًا ببديهة عقله أنه لا يتفاوت في البصر من حال السماء بين أن ينظر إليها من أسفل الجبال وبين أن ينظر إليها من أعلى الجبال، وإذا كان هذان العلمان بديهيَّان امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء، وإذا كان فاسدًا معلومًا بالضرورة امتنع إسْنَادُهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، والذي عندي في تفسير هذه الآية أَنَّ فِرْعَونَ كان من الدهرية، وغرضه من هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصانع، وتقريره أنه قال: إنّا لا نرى شيئًا نحكم عليه أنه إله العالم، فإنه لو كان موجودًا لكان في السماء، ونحن لا سبيل لنا إلى =

[غافر:٣٧] من قول الله - جل ذكره - وصله بقول فرعون تهزئًا به وإظهارًا لعدم تمييزه، وتنبيهًا لأولي العلم على الوقوف على عجزه.

فصل

﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ هي ما بين السماوات وبين ما هو دونه، كدوائر الأمر بين السماء الدنيا وبين هذه الأرض، قيل لها ذلك؛ لأن كائنات ما في الأرض هي كائنة عنها، كما يكون المسبب عن السبب، وملك الأرض كائن عن آثاره مطلقًا فوقها وذلك السبب الذي هذا السبب كائن عنه بإذن الله هو أيضًا مسبب لسبب هو فوقه، هكذا إلى أن يصعد الأمر إلى العلي الأعلى تبارك وتعالى، هو القائم على كل سبب ومسبب، قيامه على السبب الأدنى منه كقيامه على المسبب الذي يسبب لسواه سواء، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

تجده وإنما قطع بالمبطلين عن الوصول إلى مسبب الأسباب العلي الكبير القنوع بأول سبب، والاعتماد على ما شابهه وما كان فيه منه شبه ما ولو من وصف من أوصافه حتى نحتوا الحجارة وعبدوها، ونجروا الخشب وسجدوا لها، وصاغوا صنعات الأرض ودانوا لها، ولو أنهم ائتموا بإمام المتقين - صلوات الله وسلامه عليه - في صحيح اعتباره وسلكوا واضح منهاجه لعلوا بهمتهم صعدًا من الصغير إلى الكبير إلى ما هو أكبر منه، ولارتقوا بإيمانهم إلى الرفيع الدرجات العلي الأعلى رب العرش العظيم.

قال الله عز من قائل: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ [ص:١٠] ولما تصور فرعون بكاذب ظنه أن له ملك الجزء الذي حل فيه من الأرض همَّ بأن يرى من سواه أنه يقدر على الرقي إلى أسباب السماوات،

=

صعود السماوات فكيف يمكننا أن نراه، ثم إنه لأجل المبالغة لبيان أنه لا يمكن الصعود إلى السماء قال: ﴿يا هامان ابن لِي صَرْحًا لعلي أَبْلُغُ الأسباب﴾ والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحِسِّ ممتنعًا. [تفسير اللباب لابن عادل (٤٩٣/١٣)].

وأنه إن رقى اطلع إلى إله موسى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فأعجِبَ لجهله وجهل أتباعه.

هو يصرح بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وفي هذا إقرار منه بأنه لا يعرف لمن هو ملك ما فوقه الذي هو المسبب لملكه الموجد لنفسه ولحياته وأنفاسه، ومنبع تنفسه وهوائه وأرضه ووجوده كله، ووجود كل من تملك عليه بزعمه، ويقول على ذلك: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ وأدخل في قوله هذا لفظ الترجي بقوله: ﴿لَّعَلِّي﴾، ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨] يريد كل من جاء بالوحي والرسالة من جميع المرسلين، فله على هذا إثم تكذيبه موسى وما جاء به، وإثم تكذيب غيره من المرسلين - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وإني لأرى أن مثل هذا الجبل لا يبلغه من هو على مثل تماسكه وإن كان ظلام الضلال قد أجنه وغياهب الكفر والفتن قد غشيته، بل هو الجحد للحق والاستكبار عنه.

قال الله ﷻ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [القصص:٣٩] وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] وصل بذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر:٣٧] ذلك إشارة إلى مذكور هو تجاهله وجحده الحق الذي أرسل به الرسول، ولا يكون التزيين والمجادلة في آيات الله إلا بعد البيان، والإعراض حينئذٍ يكون الطبع والختم، فقيض له قرناء يزينون له ما بين يديه وما خلفه ليحق عليه القول.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ

يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: ٤١ - ٤٧].

قوله تعالى يعني العبد الصالح: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًا وَعَشِيًا﴾ [غافر: ٤٥ - ٤٦] لما فوض المؤمن أمره إلى الله تعالى ونصح في ذاته وبين عن الرسول مراده، وقاه الله سيئات ما مكروا، وكان فيمن نجاه الله ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ﴾ آل فرعون أتباعه لما أغرقهم وأهلكهم أحاق بهم عذاب الدار الوسطى دار البرزخ، يعرضون على النار غدوًا وعشيًا.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] يعني: أشد من عذاب الدنيا الذي هو الغرق وعذاب البرزخ، ثم ذكر كيف يتحاجون في النار، وذكر قول ضعفائهم ومستكبريهم، ثم ذكر طلب أهل النار الشفاعة من خزنة جهنم شكوى الجزع إلى الغربان والرحم.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٤٨ - ٥٥].

وذكر جواب الخزنة لهم قولهم: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾ وكيف أجابوهم باليأس بقولهم: ﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

[غافر:٥٠] كما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت:٢٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١] ضمان النصرة هو للمرسلين وأتباعهم ماداموا معهم، كما قال - عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ثم الأتباع إن أحسنوا الاقتداء بالرسل فضمان العصمة باقٍ عليهم كما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] وإن هم بدلوا بعد رسولهم وغيروا فلا ضمان لهم بنجاة، وهم على ذلك في مشيئة الله، إن شاء عذبهم وإن شاء تداركهم بفضله.

وأما يوم الأشهاد: فلا ﴿يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥٢] وضمان النصرة يومئذٍ مضمون للمؤمنين على الكافرين، لا يقام يومئذٍ لكافر على مؤمن وزن ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٤١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾[(١)] [غافر:٥١ - ٥٢] نصب يوم على التعظيم لشأنه، والأشهاد: الحفظة والنبيون والمرسلون والشهداء والسابقون من الأمم والمؤمنون من هذه الأمة.

نظم بذلك قوله جل ثناؤه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي: حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ هذا هو - جل ذكره - يأمر رسوله

(١) يعني يوم القيامة، قال زيد بن أسلم: «الأشهاد» أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد، وقال مجاهد والسدي: «الأشهاد» الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب، قال قتادة: الملائكة والأنبياء، ثم قيل: «الأشهاد» جمع شهيد مثل شريف وأشراف، وقال الزجاج: «الأشهاد» جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب، النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعا أدي كما سمع، وكان على حذف الزائد، وأجاز الأخفش والفراء: «ويوم تقوم الأشهاد» بالتاء على تأنيث الجماعة، وفي الحديث عن أبي الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبي ﷺ قال: «**من رد عن عرض أخيه المسلم كان حقًا على الله ﷻ أن يرد عنه نار جهنم**» ثم تلا: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا)، وعنه ﷺ أنه قال: «من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله ﷻ يوم القيامة ملكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشيء يشينه به وقفه الله ﷻ على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال» «يوم» بدل من يوم الأول. انظر: [تفسير القرطبي (١٥ /٣٢٢)].

الطاهر المطهر بالاستغفار من ذنبه، فكيف بسواه وهو لا يعمل كبيرة ولا يصر على صغيرة مع عظيم ذكره وعلى مشاهدته في إيمانه وكريم توجهه إليه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ صلاة العصر ﴿وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥] صلاة الفجر، وهما الوسطى وإن شهدهما ملائكة الليل وملائكة النهار.

وقال الله - جل من قائل: ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨] يتأكد شهوده ﷻ لتنزله إلى السماء الدنيا، فلا يزال يقول: «من **يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يقرض غير عديم ولا ظلوم؟**»[1] إلى أن ينفتل القارئ من صلاة الفجر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِى صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِى ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِىٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِى سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر:٥٦ - ٦١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦] الكبر المعني هاهنا والله أعلم: هو جدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق، إرادتهم في ذلك أن يطفئوا نور الله بجدالهم وكلامهم، كما قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف:٨] كقولهم:

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨)، وأبو عوانة (٣٧٧).

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] ونحو هذا معنى قوله: ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦] في قوله: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢] أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦] أمره أن يستعيذ من صفة الكبر فهو أصل الخطايا ومنبع المقت من الله لعبده، سميع لمقالهم، ونعوذك به من ذلك بصير بعملك وأعمالهم.

وموضع الاستعاذة من هذا المعنى في القرآن العزيز هو في المعوذتين، نظم بذلك قوله الحق: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] وهو من جدال القرآن دلهم على النظر في خلق السماوات والأرض وما بينهما، ويستدلوا بعظم ذلك على عظمة خالقهما، هذا هو المراد على العموم، وأخص من هذا بهذا الخطاب أن ينظروا إلى كبر خلق السماوات والأرض وصغر خلق الإنسان، فإنما هو شعبة يسيرة من خلقيها، ثم يقضي بمعلوم ذلك أن الذي خلق ذلك كله قادر على أن يخلق الإنسان عودًا بعد بدئه إياه هذا ما لا خفاء به، فسبحانه وله الحمد، ماذا يحتوي عليه الضلال من ضروب المحال وفي خلقه السماوات والأرض وما بين ذلك الآجال المضروبة من اختلاف الليل والنهار والشهور والأعوام لبلوغ الأفلاك مواضعها، ثم رجوعها عودًا بعد بدئها.

وكذلك في كون الإنسان نطفة مهين، ثم علقة، ثم مضغة، ثم لحمًا، ثم عظامًا، ثم وليدًا جاهلاً، ثم صبيًا، ثم شابًا، ثم كهلاً، ثم شيخًا مفندًا، وفي هذا كله الآماد والآجال المضروبة، وربما قطع به قبل النهاية، وربما رد إلى أرذل العمر إرجاعًا إلى أوليته من الضعف وعدم العلم والميز، هذه كلها آيات منبئات عن الإعادة بعد البداية، وعلى انقضاء يوم الدنيا وابتداء يوم الآخرة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧] نظم بذلك قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الجاهل والعالم والمؤمن والكافر، كذلك لا يستوي المؤمن المصلح والكافر المسيء.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر:٥٨] لو تذكروا لأبصروا، ثم حكم بحكم الحق الذي هو من بعض ما خلق الله السماوات والأرض عليه بقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر:٥٩].

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] الدعاء قد

يكون بمعنى الاستجابة، وقد تكون الاستجابة بمعنى الدعاء، فقوله والله أعلم بما ينزل: ﴿ادْعُونِي﴾ معناه: اعبدوني، والاستجابة من العباد لربهم هي العبادة له والطاعة، لذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] أي: صاغرين.

كما قال في غير هذا الموضع: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة:١٨٦] فجعل استجابة العباد له الإيمان والعمل بطاعته وإلا فما كانت تكون استجابتهم له، ولما تردد معنى الاستجابة إلى قضاء الحوائج والغياث والنصر ونحو هذا، وإلى العمل بما يرضيه والإيمان به، قال رسول ﷺ: «**سائل الله بين ثلاث: إما أن يعجل له، وإما أن يؤجل، فهذه طلبته وسؤله**» ثم قال: «**وإما يدخر له**»[١] لما كان الدعاء والسؤال بنفسه عملاً ولم يكن مما سبق في قضائه الإسعاف بذلك المسئول ذخره وخبأه له عنده، فهو على كل وجه مستجيب مجيب لعباده الذين استجابوا له بالإيمان، ومن أسمائه: المجيب، لذلك لم يجب سائله المؤمن، والحمد لله رب العالمين.

قال الله ﷻ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ﴾ [الرعد:١٤] أي: له استجابة الحق، أما الإسعاف وقضاء الحوائج، وأما الادخار والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء.

وحكى - جل ذكره - عن الرجل الصالح ﷺ قوله لقومه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ﴾ يقول: ليس لمعبود من دون الله إجابة في الدنيا ولا في الآخرة، فجمع المعنيين اللذين في الحديث ﴿وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٤٣] المسرف: هو من دعا من لا يستجيب له، ثم بعد هذا هم درجات عند الله على قدر حسن الاستجابة وصدق الإنابة، واجتناب المناهي كلها ظاهرها وباطنها، والمسارعة في طلب مرضاته، وهذا صدق الاستجابة من العبد لربه تعالى، وعلى مقدار تغلغله في ذلك وصدقه تكون سرعة الاستجابة من ربه له، إنما يستجيب له من درجته، هو الذي لا يخلف وعده ولا ينقض عهده.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) ما بين [ ] بياض غير واضح وسقط في (خ) وصوب من (ف).

وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر:٥٨] وجه من هذا قد تقدم الكلام بأنه لا يستوي الأعمى والبصير ولا المؤمن والكافر، كذلك أيضًا لا يستوي المؤمنون والصالحون ولا يستوي المسيئون، هم درجات هؤلاء وهؤلاء.

ثم ضرب مثلاً للبصير والمؤمن المصلح كيف يكتسب الهداية إليه والقرب منه بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر:٦١] سمى النهار: مبصرًا بالإضافة إلى الليل لما كان الليل كافًا للأبصار عن الانبساط على المرئيات رادعًا لها عن الانتشار ساترًا للمبصرات، وكان النهار بضد ذلك مبصرًا، أي: يعطي المبصر بصرًا مجازًا واتساعًا كعادة العرب الذي أنزله على لسانها، مثل: [ليل قائم، ونهار صائم][1] ونحو هذا.

ثم ما نزل هذا حتى قبض الأمر إلى نفسه بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر:٦١] ففي هذا معنيان من الدلالة:

أحدهما: دلالة على الوحدانية في اختلاف الليل والنهار بما هما وبما فيهما.

والثاني: لما كان الليل يشبه الموت والعمى والجهل وجهنم في سوادها وظلمتها، وكان النهار يشبه الحياة والعلم والإبصار والأفق المبين والجنة نبههم على استعمال الشكر وطلب العلم والاغتباط بالهداية إلى رب هو فاعل هذا وقادر عليه ومدبره، لا كمن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا يغني عنه شيئًا، والوجه الثالث: أن هؤلاء وهؤلاء ليسوا بمستوين في تحقق الاستجابة لنا، فلذلك لا يستوون في إسراعنا في الاستجابة إليهم، فافهم.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨)، وأبو عوانة (٣٧٧).

ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: ٦٢ - ٦٨].

ولأجل الوجهين الأولين عقب بقوله - جل ذكره: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢] يقول عز من قائل: كيف تقلبون عن حقيقة معرفتكم هذه الحقائق إلى أباطيلكم هذه.

أتبع ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦٣] أي: كذلك يؤفكون في الآخرة، فيقال لهم: ﴿مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُوا﴾ فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فيقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤] أي: في الدنيا ثم في الآخرة.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ظاهر هذا الخطاب تعداد النعم، وباطنه وصف الوحدانية وإثبات القدرة، لذلك قال: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] إثبات للربوبية بحكم الوحدانية وتعجيب من عظيم شأنه وجميل إحسانه إلى عباده وعلوه في كبريائه.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿هُوَ الحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥] الدين: هو الإسلام، والدعاء: هو العبادة هنا على شروطها من خشوع وخضوع وإحسان، هذا إذا كان الدين بمعنى الإسلام فالدعاء: العبادة، وإذا كان بمعنى النداء وسؤال المرغوب فيه فالدين: الإيمان وما اكتنفه من المعرفة، وهي تحصيل العلم على سبيل اليقين من لدن قوله: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] إلى قوله: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

يقول ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ادعوني موقنين راغبين ضارعين مخبتين لي

مخلصين لي الدين، واختموا الدعاء بالحمد لله رب العالمين.

قال رسول الله ﷺ: «**اسم الله الأعظم فيما بين قوله:** ﴿الم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [آل عمران:١ - ٢] وقوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]»[١].

فصل

الذي يغلب على الظن، بل يقرب من العلم واليقين أن الداعي إذا جمع علم ما في هذه الجملة من أسماء وأفعال واستشعر من نفسه حال الضراعة والإخبات وشروط الدعاء، ثم دعا بها استجيب له إن شاء الله، فإنه تعالى لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، وكتابه العزيز أبين تبيانًا في ذلك، وما استاق هذه الجملة بعد أمره بالدعاء ووعده بالاستجابة إلا لنعمة له في ذلك، وقد أثنى على عباد له تفكروا في صنعه، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران:١٩١] إلى آخر القصة، وفيها: أنه استجاب لهم ربهم، وإنما الشأن في الشهود وتقويم الحال من العبد حال الدعاء، فافهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩] أي: عن هذا الحق الذي سبق بالفطرة إلى حذر قلوبهم، وهي في هذه الجملة التي تقدمت لما وصف من أفاعيل قدرته على سنن حكمته، ذكر إيصاءه لرسوله ﷺ بالثبات على أمره واستشعار العزيمة على رشده بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ البَيِّنَاتُ مِن رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ * هَوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر:٦٦ - ٦٧] فذكر التقليب في الخلقة وإرجاع أواخر الحكم على أوائلها، فأوضح الحق وكشف المستور ببراهين المشاهدة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦٥٢)، وابن أبي شيبة (٢٩٣٦٣)، وأبو داود (١٤٩٦) والترمذي (٣٤٧٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجة (٣٨٥٥) والطبراني (٤٤٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٨٣)، وعبد بن حميد (١٥٧٨) وابن الضريس في فضائل القرآن (١٨٢) والدينوري في المجالسة (١٥).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر: ٦٩ - ٧٨].

قال على إثر ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩] تعجب من ضلالهم عن الحق المبتغى ونكوبهم عن السبيل المرتضى بجد منهم في ذلك، وعزم من ذواتهم، فجعل ذلك أيضًا من آياته على عظيم اقتداره ومضاء مشيئته في قهر ذواتهم، كيف صرفهم بهم عن فوزهم واستاقهم بسلاسل قهره المصوغة من خالص عزماتهم وعزم إراداتهم من حقيقة ذواتهم إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة؟.

نظم إلى ذلك ما هو إتمام لمعناه قوله الحق: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ﴾(١) [غافر: ٧٠ - ٧١] جعل جزاءهم في الآخرة من جنس كونهم في الدنيا، كانت الأغلال في

(١) السلاسل: معطوف على الأغلال، والتقدير: إذ الأغلال، والسلاسل في أعناقهم، ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه، ويجوز أن يكون خبره (يُسْحَبُونَ فِي الحميم) بحذف العائد، أي: يسحبون بها في الحميم، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وأبو الجوزاء بنصبها، وقرأوا: (يسحبون) بفتح الياء مبنيًا للفاعل، فتكون السلاسل مفعولاً مقدّمًا، وقرأ بعضهم بجرّ السلاسل. [فتح القدير (٦ /٣٣٦)].

أيديهم جمعت بها إلى أذقانهم بالسلاسل من القهر في أعناقهم، يساقون بها عن مقام الظفر بالنجاح إلى أهويات الكفر ومهامه الضلال المبين، كذلك جعل باطن تلك السلاسل والأغلال ظاهرًا فيما هنالك.

قال الله - عز من قائل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٨ - ٩] المعنى إلى آخره.

أتبع ذلك قوله: ﴿يُسْحَبُونَ * فِي الحَمِيمِ﴾ [غافر:٧١ - ٧٢] قيل: هو النحاس المذاب، بل هو أشد حرًا من الحميم بتسعة وستين ضعفًا، وزاد عليه بزهمه ونتنه، فإذا سحبوا فيه انسلخوا من جلودهم، وبعد ذلك يقذفون في النار الحامية فيصيرون وقودًا وسعلاً، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة.

يقال لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُم تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ الله﴾ [غافر:٧٣ - ٧٤] لِمَ لا ينصرونكم مما أنتم فيه فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ ثم يقولون ﴿بَل لَّمْ نكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر:٧٤] يعاد عليهم ضلالهم الذي كان ضلالاً عن الهدى يكون فيما هنالك ضلالاً عن ضلالهم الذي اهتدوا إليه، فيما هنا حكمة بالغة وأمر عظيم، سبحان القاهر فوق عباده، يسمعهم على تلك الحال وينطقهم، فيجعل لهم علمًا يعلمون به علم ما هم فيه، لا يجعل لهم من ذلك إلا ما يضرهم ولا ينفعهم وما يزيد في ندمهم، وما يؤكد حزنهم ويضاعف آلامهم وخزيهم، ويتحققون من أجل ذلك لعن أنفسهم ولعن بعضهم بعضًا.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ﴾ أي: من نصرك وإظهار أمرك ومجازاتهم ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: من جزائهم وعذابهم بالقتل والسبي والجلاء والنصر عليهم والظفر بهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر:٧٧] أي: إلى ما وصفناه لك من مصيرهم، فقد أراه ﷻ من ذلك ما شاء، وأعزه وأعز دينه وأظهره، ثم توفاه فبشر صحابته وتابعيهم ﷺ إلى تمام بعض ما وعده به من ذلك، ونحن الآن في انتظار إظهار دينه القويم على الدين كله ولو كره الكافرون.

نظم إلى ذلك ما يعزيه به عن توجعه لقبيح قولهم وباطل جدالهم وكثرة

صدهم عن سبيل الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [غافر:٧٨].

يقول - جل من قائل: وإنما هو البلاغ وقد بلغت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٤ - ٥٥] حتى يأتي أمر الله ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨] كذلك كان من قبلك من الرسل، وجل من كان قبلهم من الأمم.

فصل

سمى الله ﷻ لرسوله ﷺ من الرسل أربعة وعشرين، وكنى عن سبعة، فممن صرح باسمه: «آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون واليسع ويونس وإلياس وذو الكفل وأيوب وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى» وممن كنى عنه: «حزقيل وأرميا وشمعون والخضر» على اختلاف في أسماء هؤلاء، وثلاثة في سورة «يس» وذكر أخوة يوسف ولم يسمِّ أكثرهم إلا بحكم العموم والإجمال، صلوات الله على جميعهم من قص منهم ومن لم يقصص، آمنا بهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر:٧٩ - ٨٥].

قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ

فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ الله تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٧٩-٨١] أرجع الخطاب - جل ذكره - إلى ما ينتظم بتعداد النعم وتبيين آيات الوحدانية والبعث بعد الموت، وما يكون في الآخرة.

الأنعام: هي الثمانية الأزواج التي نص عليها في سورة «الأنعام» ثم يعم هذا الاسم جميع بهيمة الأنعام الأنسي منها والوحشي، ثم جميع ما يصاد ويذكى، يقول جل من قائل: جعلها لكم لتركبوا منها ما يصلح ركوبه، وتأكلوا منها ما أحل لكم أكله، نبه بالركوب لهن على ما يكون منهم مركبًا للمؤمنين في الآخرة، وعرض بذكر البلوغ إلى الحوائج عليهن إلى ما يركب على الصراط وينجي من المشقات فيما هنالك.

وكذلك الفلك تركبون فيها فى الجنة فى أنهارها تنعيمًا لهم، ويركبها أهل النار اضطرارًا، يضطرون إلى ذلك في بحار الحميم، ثم يغرقون في لحج البحار من الحميم، فإذا خرجوا من ذلك قذف علم في النار فاشتعلت عليهم وقودًا ولهبًا، وذكر الأكل منها في هذه تنبيهًا على أنا نكون عنها يخلقنا الله عن ألبانها ولحومها، وهو أيضًا تنبيه على ما يؤكل منها في الجنة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: على ما هنالك ﴿فَأَيَّ آيَاتِ الله تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١] وعطف بالواو في قوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ على ما هنالك.

فصل

كل ما كان في الدنيا من نعمة من الله - تبارك وتعالى - على عباده فهو كما قال: ﴿مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] في هذا المستقر إلى أجل، ثم هم إن شكروا نعمته جعلها لهم فيما هنالك جزاءً ثوابًا، وإن هم كفروا بالله وكذبوا رسله جعلها لهم فيما هنالك من جهنم عذابًا ونكالاً، وأما الفاسقون من الأمة فعذابه بها في عرضة القيامة وفي البرزخ، فإن أدخل النار عذب أيضًا بها.

قال رسول الله : ﷺ«**ما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاعٍ قرقرٍ تعضه بأنيابها وتطؤه بأظلافها أسمن ما كانت وأوفره كلما مرت عليه أخراها رد**

عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يرى مصيره على الجنة أو النار»[١] وقال في البقر كذلك، وفي الغنم كذلك، وذكر الخيل وأن من حقها ألا ينسى حق الله في ظهورها ولا رقابها، وإن من حق الله في الأنعام أن يحلبها يوم ورودها، وعلى القول بالإجمال: فكل ما كان لهم فيه متاع ونفع في دار الدنيا فهو لهم في الآخرة، والآخرة أوسع حدًّا، لكن هذه بوجود التعذيب وهذه بوجود التنعيم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣] لما لم يكن عندهم علم النبوة والوحي، وعلم المعرفة بالله وبإمامه وأحكامه، والاعتبار إلى الحق الموجود في الدار الآخرة، صغر عند الله - جل ذكره - كل علم سواه، ولم تخل الأمم السالفة من علوم جمة، كعلم التنجيم والزجر والطيرة والفأل وعلم الطلسمات والفراسة والطب والحكمة، لكن ذلك كله من حكمة لم توصل إلى الحق المبتغى، ولا قادت إلى المحل الأعلى، ولا أعلمت بجنة المأوى ولا بلظى، ولا وصلت بين الحق المخلوق به السماوات والأرض والحق العلي المبين.

ولما لم يسلكوا سبل الاعتبار فيعلموا بما شوهد ما غاب، بل أعجبوا بما عندهم من صنوف علوم وتشاغلوا بتعرف مساحات الأرضين وأجرام الكواكب ومقادير إيقاعها دون توقيف شرع ولا إعلام نبوة، وبرفع الأنفال وأنواع العلاجات، ويخرج من هذه النواع من العلوم ما يكون منه جدال في آيات الله بما يلحدون بها إلى المعهود المتعارف، وهم إن أخبروا أخبروا عن ظاهر من الأمر والنبوة ينبئ بباطن الوجود، وهو الأوسع وجودًا والأعلى شرفًا، والأقرب إلى رضوان الله جل ذكره.

قال الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧] فأورثهم ذلك إعجابًا بما عندهم واستهزاءً بالرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - واستخفافًا بالحق الذي جاءوا به، فلم ينفعهم علمهم، بل كان وبالاً

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٨٩٦٥)، ومسلم (٩٨٧)، وأبو داود (١٦٥٨)، والنسائي (٢٤٤٢).

عليهم وضررًا صرفًا، فحاق بهم عذاب الله، وكان علماؤهم وقاداتهم أئمتهم إلى النار، فكان عذابهم ذلك من جنس تكذيبهم وأعمالهم وتهزئهم برسلهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣] كما قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وفي قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر:٨٣] أبين البيان، ولما رأوا بأس الله آمنوا بالله وحده وكفروا بما كانوا به قبل يؤمنون ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ [غافر:٨٥] بالله حينئذٍ؛ إذ كانوا كافرين به قبل هذه سنة الله في عباده.

تفسير سورة فصلت(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) هذه مكية بلا خلاف، ومناسبتها لما قبلها، أنه قال في آخر ما قبلها: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ إلى آخرها، فضمن وعيدًا وتهديدًا وتقريعًا لقريش، فأتبع ذلك التقريع والتوبيخ والتهديد بتوبيخ آخر، فذكر أنه نزل كتابًا مفصلاً آياته، بشيرًا لمن اتبعه، ونذيرًا لمن أعرض عنه، وأن أكثر قريش أعرضوا عنه. ثم ذكر قدرة الإله على إيجاد العالم العلوي والسفلي. ثم قال: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة﴾، فكان هذا كله مناسبًا لآخر سورة المؤمن من عدم انتفاع مكذبي الرسل حين التبس بهم العذاب، وكذلك قريش حل بصناديدها من القتل والأسر والنهب والسبي، واستئصال أعداء رسول الله ﷺ ما حل بعاد وثمود من استئصالهم، روي أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليعظم عليه أمر مخالفته لقومه، وليقبح عليه فيما بينه وبينه، وليبعد ما جاء به. فلما تكلم عتبة، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حم﴾، ومر في صدرها حتى انتهى إلى قوله: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾، فأرعد الشيخ ووقف شعره، فأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرحم أن يمسك، وقال حين فارقه: والله لقد سمعت شيئًا ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي، ﴿تنزيل﴾، رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذا تنزيل عند الفراء، أو مبتدأ خبره ﴿كتاب فصلت﴾، عند الزجاج والحوفي، وخبر ﴿حم﴾ إذا كانت اسمًا للسورة، وكتاب على قول الزجاج بدل من تنزيل. قيل: أو خبر بعد خبر. ﴿فصلت آياته﴾، قال السدي: بينت آياته، أي فسرت معانيه، ففصل بين حرامه وحلاله، وزجره وأمره، ووعده ووعيده. وقيل: فصلت في التنزيل: أي لم تنزل جملة واحدة. قال الحسن: بالوعد والوعيد. وقال سفيان : بالثواب والعقاب. وقال ابن زيد : بين محمد صلى الله عليه وسلم، ومن خالفه. وقال أبو عبد الله الرازي: ميزت آياته، وجعل تفاصيل معان مختلفة، فبعضها في وصف ذات الله تعالى، وشرح صفات التنزيه والتقديس، وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، وعجائب أحوال خلقه السموات والكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان؛ وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلب ونحو الجوارح، وبعضها في الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ودرجات أهل الجنة ودركات أهل النار؛ وبعضها في المواعظ والنصائح؛ وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس؛ وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين. وبالجملة، فمن أنصف، علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن. انظر [تفسير البحر المحيط (٩ /٤٣٦)].

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: ١ - ٨].

قوله - جل ثناؤه: ﴿**تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [فصلت: ٢] قد تقدم ما هو تنزيل من ﴿**العَزِيزِ الحَكِيمِ**﴾ [الجاثية:٢] وتنزيل: ﴿**مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ**﴾ [غافر:٢] وتناوب هذه الأسماء في الفواتح لفوائد:

منها: أنه يريد أن يعلمنا بأسمائه الحسنى.

ومنها: أن سياقها يكون لمعان في السور تدور معانيها عليها، ورحمته الرحمانية ظاهرة في هذه لذكر التنزيل والرسالة، وخلقه السماوات والأرض وما بين ذلك إلى قوله: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا**﴾ [فصلت:١٣] وذكر كيف عاقبتهم ومخرج ذلك من أسماء غير هذه كاسم «العزة» ونحوه إلى قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت:٣٠].

تناول ذلك اسمه «الرحيم» بعموم اسم الرحمانية، ثم كذلك إلى آخر السورة يثني مقتضى اسم الرحمانية والرحمة على اسم «العزة» ثم إلى آخر السورة، وربما أدرك هذا بلطيف التدبر وصادق النظر، فـ«العزيز»: المنيع، ومن شأنه الانتقام من أعدائه والإعزاز لأوليائه، و«الحكيم» المحكم، وقد تقدم هذا في «**شرح الأسماء**» فكلامه ممتنع فهمه إلا على من يسره الله له، وقد أحكم ما أنزله من كتاب وما صنع من صنع، وكتابه عزيز حكيم لأجل ذلك، والعليم أنزله بعلمه؛ ولذلك احتوى على علم ما قبل ونبأ ما بعد، وعلى علم الحلال والحرام، وهو منزله قرآنًا عربيًا؛ فلذلك حوى ضروب الخطاب أجمعها، وشمل جوامع الكلم، وأتاها رسوله المنزل عليه،

ورحمن يخبر فيه بموجوداته الرحمانية، ورحيم يبشر برحمته عباده الذين ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠].

قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣] فصله من مجمل أم الكتاب جملة محكمة، كذلك قال - عز من قائل: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] فصله بعد إحكامه من حال إجماله إياه؛ إذ لم يكن عجميًا ولا عربيًا ولا كلامًا لبشر، بل لروح القدس، ثم للروح الأمين، ثم إلى قلب الرسول، ثم جعله على لسانه قرآنًا عربيًا مفصلاً على الأحكام والمواعظ والذكر والحظ والندب والواجب والنهي، وعلى علم الإسلام والإيمان، وعلم النبوة وعلم التوحيد والاستغفار، ومعرفة الجزاء العاجل والآجل، والإعلام بما كان وتقضى، والإنباء بما يكون في المستقبل، والبداية والإعادة إلى غير ذلك من علوم حواها القرآن العزيز.

أتبع ذلك قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت:٤] فلما أعرضوا عنه طبع على قلوبهم حتى وجدوا ذلك من أنفسهم فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:٥] قالوا ذلك على سبيل التهزؤ منهم، وإنما أنطقهم الحق، نظم بذلك ما عبر عن التبليغ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت:٦] إلى قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:٨].

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً
لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ
صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) ﴾ [فصلت:٩ - ١٤].

أتبع ذلك قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت:٩] فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ قررهم بذلك لتقدم معرفتهم بأنه خالق السماوات والأرض وزادهم علمًا بقوله: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ فعرض هنا للإخبار عن خلقه الأرض إلى قوله: ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:١٠].

وبعد تمام هذا الخطاب عطف بحرف «ثم» فذكر تسويته السماء وقضاءه إياهن، وعرض في سورة: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ [النازعات:١] إلى ذكر السماء، فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ [النازعات:٢٧] كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] ﴿بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٢٧-٢٩].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [النازعات:٣٠] إلى آخر القصة فكما عطف بحرف «ثم» ذكر الاستواء كذلك كان الاستواء منه لوجود السماء؛ إذ كانت دخانًا، ولقوله جل قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠] كذلك كان دحو الأرض بعد تسويته السماء، والأرض من السماء بمنزلة الأنثى مع الذكر إيجادها بعد إيجاده، فأوجد السماء أولاً دخانًا ورفعه.

قال الله ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن:٧] ثم أوجد الأرض وهي التربة خشعة على الماء، وكان في خلقهِ التربة خلقة كل شيء خلقه من الأرض سبق في تقديره أن يوجده عنها وفيها.

كما قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:٦] فعطف بحرف «ثم» بعد أن قد ذكر أنه قد خلقنا، ومعلوم أنه لم يخلق حواء إلا قبل إيجاده إيانا لا محالة، وإنما خلقنا يومئذٍ تقديرًا، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية أمثال الذر...**»[1] ثم قال ﷺ: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء**»[2] وليسر ذلك عليه وصادق ضمانه يخبر عن كون الكائنات قبل إيجاده إياها بحال الظهور، ولما أوجد

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٢١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

السماء دخانًا رفعه، ثم أوجد الأرض نزية استوى إلى السماء، وذكره الاستواء إلى ما هو الأعلى أولى لنزاهته؛ إذ الاستواء بما هو مفهومه العلا.

فقال لها وللأرض: ﴿**ائْتِيَا طَوْعًا أَو كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت:١١] أي: نحن وما فينا وما بيننا، وذكر الطوع هنا معناه: التبرؤ من الحول والقوة، وإخراج الفعل على سنن التسخير والتيسير لا على تحمل الأمانة بمعنى دعوى، فكان يلزم عن ذلك اختبار وامتحان، فقضاهن سبع سماوات في يومين، أي: فصلهن بعضهن عن بعض، أولهما: قضاؤه السماء، والثاني: قضاؤه الأرض، وفصلهن بعضهن عن بعض، وقد عبر عن خلقه الأرض في يومين: الأول منهما: لإيجاده السماء، والثاني: لإيجاده الأرض، ذكر في إخباره عنهما يومين للسماء ويومين للأرض، فيومين من حيث العدد، وأربعة من حيث الفعل؛ إذ انقضاء اليوم هو انقضاء الفعل.

ثم قال: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا**﴾ [فصلت:١٢].

وقال في الأرض: ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا**﴾(١) [فصلت:١٠] ولم يجعل لها رواسي ألا تميد إلا بعد دحوها، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، كذلك ذكر تعالى يومين لخلقه الأرض، ويومين لقضائه السماوات سبعًا وتسويتهن على ما هن عليه من أمر، وأربعة أيام في تتميم الأرض بركاتها ورواسيها وتقدير أقواتها، فهذه ستة أيام عددًا، لكنه لما كان توزيعها مرة على الإخبار بإيجاد الأرض، ومرة عن تسوية السماوات، ومرة عن تتميم ما أوجده، تداخلت الأعداد لتداخل الأفعال واستقامة سبيل النظر في ذلك إن شاء الله أن يعتقد أن السماء أولاً إيجادًا أو تتميمًا، والأرض بعدها إيجادًا ورتبة.

مثال ذلك: ما قاله رسول الله ﷺ: «**خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الندى يوم الاثنين**».

---

(١) قال القشيري: أي: جبالاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقيًا لكم، يُذكِّرهم عظيم مِنَّتِهِ بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنَّته أنَّه لم يخسف بكم الأرض، وإن عملتم ما عملتم (٨/ ١٧).

وفي أخرى: «**وخلق الشجر والماء يوم الإثنين وخلق الظلمة يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيهما الدواب يوم الخميس فهذه ستة أيام**»(١).

فخلقه التربة يوم السبت قد كان سبق خلق السماء دخانًا قبل ذلك، ثم كذلك ما خلق من موجودات ومتمماتها إلا قد كان سبق تتميم ما شاء من السماء قبل، ولذلك - والله أعلم - قال: ﴿**خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [فصلت:٩] أي: فعلين، واليوم انقضاء فعل ومفعولي ذلك اليوم السماء ثم الأرض، فقال: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [فصلت:١٢] أي: تسويته السماوات ودحوه الأرض وما يتبع ذلك، لكن الأرض بعد السماء كما تقدم إيجادًا ورتبة.

ثم أوحى في كل سماء أمرها، وأغطش ليلها، وأخرج ضحاها، وبارك في الأرض وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، فتلك يومان؛ أي: فعل مفعولين بيوم ويومان، كذلك فهذان يومان وأربعة أيام في إيجاد الأمر في السماء وخلق أقوات الأرض وبركاتها في أربعة أيام، وكما تقدم في تقدير السماء إيجادًا ورتبة، وإنما هو السماء ثم الأرض، ألا ترى أن الأمر ينزل من السماء أولاً في إنزال الماء فيخلقه فيما هنالك، ثم ينزله إلى الأرض والنبات والحيوان عن الماء الذي ينزل من السماء إلى الأرض بمنزلة النسل من بين الذكر والأنثى، وبمنزلة تسخير السماء والأرض وما بينهما، الماء واحد له، فافهم.

أمر قويم وحكمة سابغة، آية ذلك: قضاؤه بركات الأرض في أربعة أيام بواسطة ما قدر في السماء من أمر، وهي الأربعة فصول من السنة: الشتاء والربيع والصيف والخريف، فهذه الأيام معلومة بالمشاهدة، فيهن يتم زرع الأرض وبركات الدنيا وجميع ما يخرجه منها من فوائد وعجائب، لذلك قال: ﴿**سَوَاءً**﴾ أي: هذه بهذه ﴿**لِّلسَّائِلِينَ**﴾ [فصلت:١٠] يعني: للناظرين المعتبرين بما يشاهدونه إلى ما هو غائب عنهم.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٦٣٢٣)، والبخاري في التاريخ (٤١٣/١) وقال: قال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح. ومسلم (٢٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (١١٠١٠)، وابن خزيمة (١٧٣١)، وأبو يعلى (٦١٣٢)، والديلمي (٢٩٢٧) بنحوه.

والسائلون: هم الباعثون سؤال أو نظر أو اعتبار، وهو تعجيب وإغراب، وتعظيم للمراد المعني بالخطاب، وقد يكون معنى السواء زائدًا إلى ما تقدم ذكره، أي: بهذه الأربعة الأيام استوت السنة مطالعها ومغاربها، وبعد الشمس وقربها، وارتفاعها ونزولها؛ أي: في شمال بروجها وجنوبها بإحكام ذلك كله وتوابعه، ويحسن لهذا الوجه قراءة من قرأ «سواء» بالخفض على البدل أو النعت من «أيام».

قوله تعالى: ﴿**وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا**﴾ [فصلت:١٢] المصابيح: الشمس والقمر والنجوم، والحفظ: ما تحفظ به السماء بالشهب من استراق الشياطين لما يتسمعون به لمن في العنان من الملائكة - عليهم السلام - فإن الملأ الأعلى لا يسمعون إليه، والملأ الأعلى: هو السماء الدنيا إلى ما علا، وإنما يقذفون من كل جانب فيما هنالك؛ أعني: مواضع تنزل الأمر في دوائره هنا، ولهم إلى ذلك سلم يصعدون عليه ويتسمعون فيه كالملائكة.

المعراج والمعارج إلى المنتهى، وسماوات ما ها هنا سبع، ودوائر الأمر فيما بين ذلك يتشعب كثرة إلى ما يكون منها ما يعم الجملة، كما يعم الغذاء أجزاء الجسم، وفي هذه جعل الله القمر نورًا، وجعل الشمس سراجًا، والنور يطرد الظلام، والسراج يطرد الليل، وفصل الأرضين سبعًا كل أرض سماء لما تحتها وهي تحتها سماء، وهي أرض لما فوقها الغالب عليهم اسم «أرضين» والسماوات طباق بعضهن فوق بعض، أعلاهن سماء لما تحتها، والتي تحتها سماء لما تحتها، لا تقول فيها: «إنها أرض» لعدم التوقيف، وممكن إتيان ذلك، وإنما قلنا: إن التي تعلو من الأرضين سماء لما تحتها؛ لمفهوم قول الله جل ذكره: ﴿**خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ**﴾ [الطلاق:١٢].

وكل سماء فهي على الماء، وكذلك كل أرض وكل ماء فعلى هواء متوسط في الثخانة والرقة بين الأرض والماء، كما بين كل ماء وأرض وأرض هواء كالمعهود، وبين كل أرض وماء وكل سماء وماء لطيف هواء يقرب بوجه ما إلى الأرض جساوة، وبوجه ما إلى الماء رقة، آية ذلك: [...][1] أن البيض ليس بقشر لرقته،

---

(١) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

وليس برقيق البيض لجساوته، ثم كذلك إلى ما سفل وإلى ما علا، ودوائر الأمر ما بين كل سماءين وكل أرضين، والله أعلم بكيفية ذلك.

غير أن الأمر يشيع في العالم علوه وسفله إلى أن يعمه كما يعم الغذاء الأجسام والأعلى من الدوائر، والأمر ينتظم الأسفل كل ذلك في فلك واحد يسبحون على اختلاف المراد بالأمر وبسعته في مسالك معاني التدبير، هذا من لدن السماء السابعة إلى الأرض السابعة إلى ما سفل وإلى المنتهى، وجميع السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي كحلقة في فلاة، وذلك أن السماوات السبع والأرضين السبع دنيا كلها وسيقوض هذا البناء، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ويجعل آخره ويزداد في ذلك على مقدار ما قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم وانظر بم يخرج منها**»(١).

وقال الله ﷻ: ﴿**فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [التوبة:٣٨] ولا قليل أقل مما قلله الله إلى جنب ما كثره.

قال الله - عز من قائل: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ**﴾ أي: بقوة، ثم قال: ﴿**وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ [الذاريات:٤٧] أي: من المستقل، ثم الكرسي الكريم بما هو وما هو محيط به في العرش كحلقة في فلاة.

قال الله - جل من قائل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [الأنبياء:٣٣] وخلق الله ما هنا لمنافع العباد وإتمام مسالك أمره، وليتدبر أهل العقول وليعبروا منها إلى ما غاب عنهم، فأخبر - جل ذكره - أن ما هنا من دوائر أفلاك تستدير بأمره وتدبيره ويستدير بها الفلك المحيط بها دون عرش السماء الدنيا، ثم كذلك ما بين كل سماءين وكل أرضين، ويرجع ذلك كله إلى جامع يجمعه يستدير دوائر ما في ذلك باستدارة ذلك الجامع، ثم كذلك إلى متنزل الأمر حيث حمله العرش يجمع ذلك الدائر كل دائر أحاط به، وهو المحيط

---

(١) أخرجه بنحوه ابن المبارك (٤٩٦)، وهناد (٥١٧)، وأحمد (١٨٠٤٣)، ومسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩) والطبراني (٧١٣) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٥٩).

بالموجودات كلها ما دون العرش إلى المنتهى من دائره، ولا نقول سفلاً، فإن ذلك الدائر لا سفل له، بل هو العلي من دوائر التدبير وهو المنتهي حيث انتهى.

بيان:

قال الله - عز من قائل: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج:٤] ويمكن أن يكون المراد بهذا الدائر ما تقدم ذكره الذي إليه تنتهي الدوائر كلها، المجعول آية عليه هذا الدائر دون سماء الدنيا الجامع لما ضمه من الدوائر سواه وشمله حركة وأمرًا، ويمكن أن يكون بعض دوائر ما دونه والله أعلم، لكن ذلك الدائر الأعلى دورانه في ذاته كدوران أصغر الدوائر القريبة من المحور وسمي: محورًا؛ لأنه به يحور الأمر وترجع أواخر الحكم على أوائلها.

وقد تقدم أن حركة الدوائر مركبة من حركة وسكون؛ فلأجل ذلك كانت حركتها استدارة حول الوسط، توصيل ذلك أن الحركة هي عبارة في الدوائر عن الخلق، والمسمى فيها بالسكون عبارة عن الأمر، ووجود ذلك الأمر المشابه للسكون موجود عن اسمه الدائم(١). جلت أسماؤه وتعالت صفاته - فهو بما هو لا

(١) قال المصنف: اسمه الدائم ﷻ يقال من ذلك: دام يدوم دومًا وديمومة فهو دائم، وهو من أسماء القدم كاسم الباقي والقائم على بعض وجوهه، واسمه الأول، غير أن اسمه الباقي يشير إلى اسمه الآخر ببعض معانيه، وكذلك قالوا: هو الباقي بعد فناء المخلوقات، وجاء دائم وقائم وباق على بناء اسم الفاعل دلالة على صفات هي الدوام والبقاء والقيام، فهو إذن الدائم بدوام هو صفته، وكذلك الباقي والدائم، وكل دائم سواه وباق وقائم وباق على بناء اسم الفاعل دلالة على صفات هي الدوام والبقاء والقيام، لذا فهو الدائم القائم بدوام هو صفته، وكذلك الباقي والدائم، وكل دائم سواه، وباق وقائم فإبقاء وأدامه وإقامة من القائم الدائم الباقي الحق سبحانه وله الحمد.
وحقيقة الدوام اللزوم والثبوت على حالة واحدة، وأسماؤه وصفاته الأصل الذي عنه انتُزع كل معنى، وإنما شرحنا تقريب المعاني وتفهيم الأغراض، والعلة في ذلك قصورنا عن معرفة حقائق الأسماء في معانيها، وجهلنا بما انتزع منها الأقرب فالأقرب، فربما سبق إلينا أو إلى البعض المنتزع إلا بعد قبل الأقرب، فقربنا بالشرح بألفاظ قد سبقت إلى أفهامنا هي أقرب إلى ما أردنا شرحه أو نظن بها ذلك، فيتطرق مع ذلك إلى ما حاولنا بيانه بعض الإلباس على قوم دون قوم، لكن ضرورة ما ذكرناه دفعت إلى ذلك، فهو الباقي ﷻ والدائم =

يتحرك، ولما أجله في مخلوق تحرك بما هو مخلوق وسكن بما هو دائم لا يجوز عليه التغيير وأولى أسمائه في وجود ذلك المحور تحور المتحركات إليه، فهي عنه تنبعث وإليه تحور.

وحقيقة ذلك المعنى: في الجملة ليس بمتحرك ولا يجوز عليه وصف الحركة، وقد تخلل الجملة بذلك الأمر وشمله شمولاً واحدًا، فلذلك كان وجود سجود الدوائر عودها إليه وبدؤها عنه، وليست في حال ولا موضع هي أحق بوصف السكون والحركة منها في غير ذلك الحال والموضع، فهي لذلك أبدًا ساجدة جارية عابدة قانتة، وكذلك حكم كل ما أحاطت به وشملته، فاقض بذلك على ما تقدم في صدر الكتاب من وصف الجملة إنما هو أمره وخلقه، والمخلوق إنما قيامه بالأمر والأمر إنما قيامه به ﷻ ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ**﴾ [هود:١٢٣] ﴿**أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف:٥٥].

فالتضرع ظاهر في مقابله، والخفية باطنة في مقابلة وجود الأمر وكذلك قوله: ﴿**وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [الأعراف:٥٦] باطن لباطن وظاهر لظاهر.

توصيل: قد تقدم من وصف التوصيل ما يشرف بذوي الألباب على حقيقة الصواب، وكذلك قد مضى فيما تقدم من جريان صنعه إلى المصنوع إيجادًا وإفناءً كجريان الماء إلى صببه بل أسرع إسراعًا من ذلك دون توهم نسبة، حتى يعبر عن ذلك الإمساك.

قال الله - عز من قائل: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا**﴾ [فاطر:٤١] وحتى قد تظن العقول أن ظاهر ما تقع عليه الأبصار من استصحاب دوام يكون لها وبقاء، وقد أكذب الله ظاهر الظنون بقوله الحق: ﴿**وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [النمل:٨٨].

يقول - عز من قائل: على هذا أتقن كل شيء ونصب صنع لما فيه من التمدح

والقائم على صفات الألوهية ومعاني الوحدانية والربوبية وشاكلة الصمدانية والقيومية. [شرح الأسماء ١٤٤/١].

والتعجيب، كيف لا يكون معجبًا وهو ممسك أبدًا مساك أبدًا يجري إليه التدبير إعدامًا وإيجادًا أسرع من إدراك الأبصار؟! على هذا أتقن كل شيء، كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح، كل يجري إلى أمره بأمره، فمنه ما هو ظاهر الجري باطن السكون، ومنه ما هو ظاهر السكون باطن الجري ﴿**أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:٥٤] فهذا توصيل آخر ولقد كان يكفي أحدهما لمن به حياة.

توصيل آخر:

قد تقدم من ذكر دوائر الجملة ومجاري الأمر وإحكام ذلك في معاقده ومعاطفه وفنون الموجودات ظاهرًا وباطنًا لموجدها وعبادتها لبارئها، وإلى هذا فاعلم أن العرش العظيم فوق كل شيء سواه، وفي كل سماء عرش والله ﷻ وتعالى علاؤه فوق العرش مستوٍ ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:١١] فهو مع كل شيء بما هو، ثم هو مع الواحد بما هو، ومع الاثنين بما هما، ومع الجميع بما هم من حيث هم بمعنى القيام والقيومية، والإيجاد كله هو معهم أينما كانوا بما هو من حيث هو غير مفارق العرش ولا مباعد للمعية بقرب لا أقرب منه حضورًا ومشاهدة ومعية بما هو، وهو بعيد عنهم ببعد لا أبعد منه نزاهة وعلاءً وقدسًا لا يجوز عليه الحلول في المحال ولا تصرف الزمان ولا حوالة الأحوال، بل لهم المكان والزمان والأحوال، وله العرش مستوى ومكانة وعلوًا، ينزل الأمر بالروح يدبر الأمر يفصل الآيات ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس:٦١].

توصيل آخر:

وقد تقدم فيما مضى أن كتابه يصعد بالإعلام إلى المشاهدة وإلى مشاهدة هي له لا توجد إلا له سبحانه وله الحمد، آية ذلك الكتاب تجده لا تعرف أنت ما فيه فتنشره وتقرؤه فتعلم منه ما لم تكن قبل علمته، فبحسب ذلك فاقض على إعلام كتابه وعلى علمه وكتابه بالمشاهدة العلياء والعلم الأرفع، فلو لم يكن - جل ذكره

- مشاهدًا لجميع خليقته إلا بمشاهدته اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة، بل أثبت فيه علمه في الخلائق، لكن هذا القدر لنا كافٍ في اليقين بمشاهدته المحيطة ومراقبته العليا، وكما يعلم نفسه كذلك يعلم كل شيء من ذاته، آية ذلك: ما شاهده المعتبرون من ظهور جميع الموجودات من مقتضيات أسمائه.

قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: عما جئتهم به من الذكر ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣] وذكر ما أصاب هؤلاء وهؤلاء لما عصوا وجحدوا آيات ربهم وكذبوا رسله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت: ١٥ - ٢١].

قوله - جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ الله إلى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩] عطف بالواو في قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ وهو اليوم الآخر على يومهم الذي أصابهم فيه عذاب الدنيا، إشارة منه إلى أن لهم عذاب الدنيا وسوء المصير في الآخرة - نعوذ بالله من ذلك الوازع المانع - يحث آخرهم حتى يلحق بأولهم، ويمسك أولهم على آخرهم.

قال - جل من قائل: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠] ولم تشهد عليهم شواهد هي منهم إلا بعد إنكار منهم.

ثم قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت:٢١] فأخبرنَّ عن قهر الله لهن بالنطق، وأقمن على ذلك من قولهن دليلين:

أحدهما: أن الله جبرهُنَّ على النطق كما جبرهم على إيجادهم أول مرة، وكان في ذلك تبكيتًا لهم وإسكانًا لوقوع الحجة عليهم فيما كفروا به من الإيمان بالإعادة بعد البداية.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت:٢٢ - ٢٨].

ثم أردفن بحجة ثالثة في قولهن: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت:٢٢] أيّ: لم يكن بكم قدرة على الاستهتار منهن ولا من الله - جل ذكره - ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون، أخبر ﷻ أن جهلهم بربهم كان أشد عليهم من عصيانهم إياه؛ يعني: فانهمكتم في شهواتكم وتماديتم في كفرانكم لكاذب ظنكم به أنه لا يعلم ما تعملون ولا يقدر على إعادتكم بعد الموت؛ فأصبحتم لذلك من الخاسرين.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤] المستعتب هو: الطالب للعفو، والمعتب هو: صاحب العفو، هذه الآية كشفت عن معرفة أصحاب النار في عظيم ما أصابهم من سوء مصيرهم وهول منقلبهم كقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١] وكقوله: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله - جل من قائل: أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن ما شاء**»[1] فمن ظن بربه أنه لا يعلم سره وعلنه، أو أنه لا يقدر على إرجاعه إليه بعد الموت، أو أنه لا ينفذ ما شاء إنفاذه، أو أنه يعجزه شيء في السماوات وفي الأرض أو فيما علا أو سفل فذاك هو الظن المردي، ومن ظن أنه يلاقي الله؛ أي: علم ذلك وأنه محاسبه وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم ومحيط وعلى كل شيء شهيد، وآمن بما له من الصفات العلا والأسماء الحسنى؛ فذلك من كبير حسن الظن بالله، فإن وفق هذا العبد إلى أن يعمل على ذلك فمصيره لا محالة إلى خير مصير، وربما ذل أو خلط فرجاؤه في الله - جل ذكره - ما يتلقاه من أسمائه وصفاته ﷻ.

وذلك أن المعلوم منه أنه «العفو الكريم» يحب العفو والكرم ويأمر به ويحض عليه، ويحب المغفرة وحسن التجاوز ويأمر بذلك ويجازي عليه، ويحب ذلك ويحث عليه ويحب إقالة العثرات والصفح، ويحب كشف كرب المكروبين ووضع الحقائق عن الذين ألزموها وافتقروا إلى وضعها عنهم، ويحث على إغاثة الملهوفين ونصر المستضعفين، ولا فقير أفقر يوم القيامة ممن لم يعبد ربًّا سواه، ولا عول في شأنه على شيء حاشاه، إلى غير ذلك من كريم صفحه وحسن معاملته وكريم فعاله، وهذا هو الذي تلقى من ربه كلمات فإن الله يتوب عليه برحمته إنه هو التواب الرحيم.

قوله ﷻ: ﴿**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ [فصلت:٢٥] هي الآخرة وما بين أيديهم هي الدنيا، زينوا لهم شهواتهم والعمل بالهوى، ووعدوهم في الآخرة بحسن المآب على ما هم عليه من عصيان، وخلاف الأمر هذا في الملِّي، أو زينوا لهم إنكار الآيات والتكذيب بها والكفر فحق عليهم القول، فدخلوا النار في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، والقول الذي

---

(١) تقدم تخريجه.

حق عليهم، قوله: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[١].

وقد تقدم القول في القرناء من الجن والإنس، وأن العبد إذا أصلح أصلح الله قرينه الجني والإنسي، وربما أبدله الله قرناء خيرًا منهم، وذلك من بعض ما يثبته الله من بركة صلاحه، كما أنه إذا أفسد عاقبه الله بأن يوليه قرناء فاسدين مفسدين، يزينون له ما هو فيه ويغبطونه بحاله، ويغطون على مراشده ويحجبونه عنها، ويعدونه عن ربه بالمغفرة والمآب الحسن دون توبة حتى يأتيه الموت فيحق عليه القول.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحدٍ إلا ومعه القرين**» قيل له: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن الله أعانني** عليه **فأسلم، فهو لا يأمرني إلا بخير**»[٢].

وكل من أسلم أسلم معه قرينه، وتلك بركة إسلامه وتوبته، وعلى قدر إيغاله في الصلاح وحسن السيرة يكون قرينه، وبالضد فالإنسان إمام لقرينه وقرينه مأموم، وهو متبوع قرينه وقرينه تابع، ذلك عن إثارة قوله - جل من قال: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**﴾ [البقرة:٣٤] وربما كان الأمر إذا فسد الإنسان بعد صلاح استغفاره قرينه الصالح فأعفي منه وقيض له قرين فاسد مفسد، كما قال - عز من قائل: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف:٣٦].

أتبع ذلك ذكر ما يبلغه إليه تزيينه في قوله: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٣٧].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني (١٠١٧).

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت:٢٩ - ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ [فصلت:٢٩] ذكر أهل التفسير: أنهما إبليس وقابيل ابن آدم؛ إذ إبليس هو أول من سن الخلاف والإباء والكفر، وقابيل أول من سن القتل، وأرى - والله أعلم - زائدًا إلى هذا أن قولهم: ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ إشارة إلى جنسين هما من الجن والإنس، وهم كبراؤهم وساداتهم من الإنس وقرناؤهم من الجن، وكل ذلك جائز كائن، والوجه الأخير أخص بالمعنى وأمس بكل مكلف.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠] يعني: على دين الإسلام هو الدين القيم، أخبر الله عنهم بأن ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] وهذا خطاب منتظم معناه بمعنى ما تقدم من ذكر القرناء، فإنه لما ذكر قرناء السوء ذكر أهل الصلاح وقرناءهم من الملائكة - عليهم السلام - تتنزل عليهم البشرى من ربهم والتأمين لهم من الحزن والخوف، يقولون لهم: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا الذين كنا نوقظكم من نومكم ونلهمكم مراشدكم، ونأمركم بالخير ونكره إليكم الشر وفعله، ونحن أولياؤكم لذلك في الآخرة نبشركم بما لكم عند ربكم من خير وحسن منقلب ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ....﴾ [فصلت:٣٠] هذا في الموت وفي حال عَلَزِه(١)، وفي البرزخ، وفي حال الحشر، وعند معاينة أهوال ما هنالك.

قال الله - جل من قائل: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٤].

ومن ذلك أيضًا: أن يروهم الرؤيا المبشرة بإذن ربهم، فقد قال رسول الله ﷺ في تأويل هذه الآية: «إنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»(٢) والحاصل من

---

(١) العَلَزُ والعَلَزَانُ: شِبْهُ رِعْدَةٍ تَأْخُذُ المَريضَ والأسيرَ والحَريصَ. وهو الضجَرُ أيضًا. انظر: المحيط في اللغة (٦٧/١).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٠٠) وابن أبي شيبة (٣٠٤٥٦)، ومسلم (٤٧٩) وأبو داود (٨٧٦)، والنسائي (١٠٤٥)، وابن ماجة (٣٨٩٩) وابن حبان (١٨٩٦) وابن الجارود (٢٠٣)، وأبو عوانة (١٨٢٢).

مفهوم الخطابين أنه كما إذا فسد العبد قرن به قرين فاسد مفسد يلهمه السوء ويزينه له، ويكون القرين من الجن ومن الإنس معًا، كذلك إذا صلح العبد قيض الله قرينًا صالحًا من الإنس وقرينًا من الملائكة، وشتان ما بين قرناء السوء، وقرناء الصالحون ينفعون في الدنيا وهم في الآخرة أعظم نفعًا، وقرناء السوء يضلونهم في الدنيا ويلعنونهم من حين الموت إلى ما وراء ذلك ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٣٠].

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤] هذا كلام قائم بنفسه مفهوم معناه من ذاته، أن الحسنة لا تساويها السيئة، وربما عدل بالفهم عن ظاهرها إلى ما انتظمت به من جهة المجاورة، فتكون الحسنة والسيئة القرين الصالح والقرين السوء، فما يأمر به القرين السوء يدفع بالصبر وفعل ما يضادها من الخير، فيكون أمرًا منه لعبده المؤمن بالمجاهدة لنفسه والصبر لله، فإذا فعل ذلك فيكون قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] وعدًا من الله صادقًا أن يصلح لك قرينك ثوابًا لجهادك إياه وجهادك نفسك في الله، يقول: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ هو الشيطان يصلح الله أو يبدله فيكون لك ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

ثم أعظم قدرها من خصلة ورفع من شأنها بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ يعني: الصبر والمجاهدة ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(١) [فصلت:٣٥] وهم

(١) بيّن الله سبحانه ألا يبلغ أحدٌ إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال =

الأنبياء والصديقون، ثم من دونهم على درجاتهم.

قال رسول الله ﷺ: «**أعانني الله عليه فأسلم، فهو لا يأمرني إلا بخير**»(١) وقال الله سبحانه: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر:٤٢] الأعلى فالأعلى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم على درجات.

أتبع ذلك ما هو تتميم له قوله: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾(٢) [فصلت:٣٦] في المفهوم من هذا الخطاب أن الشيطان لا بد له من عارض يعرض له لينظر هل له سلطان على هذا العبد أم لا؟ ونزغاته في عارض من شك أو قدح في أصل أو ينقص بعظيم، وما لا يكاد القلب أن يسمح

=

إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائط وغير الوسائط، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظٍّ من مشاهدته وذو نصيبٍ من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحبة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية. قال بعضهم: لا يطيق أحدٌ الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمةً، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يسكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها. وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعُهُ الطَّيب الأصل إلى الموادة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانًا، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، كما قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف:٢٧] وقال: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر:٦] وقال: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا**﴾ [الكهف:٥٠] وقد أقسم للوالد إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص:٨٢ - ٨٣] وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل:٩٨ - ٩٩]، قالت طائفة من القراء وغيرهم: «نتعوذ بعد القراءة» واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة، وممن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره ابن قلوقا عنه، وأبو حاتم السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جُبارة الهذلي المغربي في كتاب «الكامل» [انظر: تفسير ابن كثير (١/١١٠)].

بذكره، وكل ذلك يعرف بالوسوسة يعرض ذلك لأهل الغلبة أكثر مما يعرض لأهل العموم، فدواء ذلك التذكر والتعوذ بالله والانصراف عن تلك الوجهة بالقلب والوهم، والاشتغال بقراءة القرآن والذكر لله.

قال الله - عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١ - ٢٠٢].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] **الليل** آية على الكفر والضلال والجهل والعمى وإله باطل وعلى الفتنة، والنهار آية على الإيمان والهدى والرشد والعلم والنصر والإله الحق تبارك وتعالى وعلى العاقبة، والشمس آية على الله ﷻ نورًا وهداية، وبما جعل الله سبحانه وله الحمد فيها وبها من منافع العباد وضياؤها يطرد الليل، والقمر آية على الله - جل ذكره وتعالى علاؤه وجده - نورًا وهداية وبما جعل الله فيه من منافع العباد ودلالات على مقدار ذلك، فبأيما دلالة اعتبرت أوصلتك إلى المدلول عليه - جل ذكره - من تلك الجهة.

قد تقدم من الكلام فيما هذا سبيله ما فيه بيان وهداية إن شاء الله، وفيها - أعني: هذه المذكورات - زائدًا إلى ما تقدم ذكره ما ينتظم ذكره ومعناه بمعنى ما تقدم من ذكر القرين، وذلك أنه كما لا يخلو ساكن دار البلوى من ليل ونهار وشمس وقمر، كذلك لا يخلو مادام فيها من هداية وفتنة ومن ذكر وغفلة، لكن الجازم يفزع من معنى الليل وظلمته إلى النهار وضيائه، وكما أن في الوجود **الشمس** يصلح الله بها ما يملؤه القمر ويزيد فيه، ويصلح بالقمر ما تجحف به الشمس وتفرط حرارتها به، فيجتمع بذلك صلاح العالم، فكذلك أعمال العباد في سبل قرنائهم حسناتهم تحسن وخيراتهم تتأكد بالفتنة إثر الذكر وبالذكر إثر الفتنة.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] لذلك قال رسول الله ﷺ: «**صل من قطعك** وأعط من حرمك»(١) فعلى هذا تزكو الأعمال ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧٢).

﴿طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] كذلك يتعاقب الليل والنهار ويغشيان أحدهما الآخر صلح عيش العباد، والضد يظهر حسنه الضد، ولما كان الشمس والقمر من آيات الله المعرفة به المشيرة إليه في وجود الدنيا والآخرة، حذر من السجود لهما واعتقاد عبادتهما، كما أعضل بقوم هذا الداء فهلكوا.

يقول الله ﷻ: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن السجود لله - جل ذكره - والعبادة له ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت:٣٨] أي: قد يأت منابهم من هو أسعد بذلك منهم وتقي معنى الوعيد والتهديد متوجهًا إليهم.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩] هذا من ذكر الآيات، والتي قبلها منتظم بذكر ما افتتح به السورة إلى قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت:٩] المعنى إلى آخره.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت:٣٩ - ٤٣].

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩] هذا نص منه ﷻ على مدلول هذه الآية، ومقتضى هذه الدلالة وما ينتظم بما اتصل به من ذكر القرين: أن يجعل الذكر والعلم بمكان الماء، والغفلة والجهل موضع الموت، والنفس من العبد موضع الأرض، فتموت النفس باستيلاء قرين السوء عليها وتخشع لذلك وتهمد، فإذا فزع إلى التذكر والذكر حيي واهتز بالفلح والفرح بالله وذكره واطمأن، فكان من ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

والقرآن هدى للذين آمنوا وهو للذين لا يؤمنون بالضد؛ لأن ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ عن سماعه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١] المعنى هذا منتظم المعنى بالتنزيل المذكور صدر السورة وبخاصة بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي﴾ [فصلت:٩] إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ [فصلت:١٣] ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١] أي: ممتنع محفوظ ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] صدقته الكتب قبله ولا يبطله في المستقبل مبطل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] لذلك أتبع بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] والتنزيل هو: التقريب والتفهم والتيسير.

قال الله - جل من قائل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] فالروح من أمره وهو الحق، والقدس صفته وهو الحق، والملك حصوله وهو الحق، فكل ذلك حق من حق إلى حق وللحق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] فأي سبيل للباطل عليه؟ جل كتاب الله عن ذلك، إنه لكتاب عزيز.

وأمَّا قوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] والقرآن لا يوصف بأن له وراء ولا أمام؛ إذ هو كلام الله وكلامه صفة له، فإنه ليس بمنكر عند أولي النهى العبارة عن معاني هذه المعالي بعبارات تشبه عبارات الظواهر مجازًا واتساعًا، ويقام ذلك مقام الحقيقة، كقول رسول الله ﷺ: «ليس وراء الله مرمى»[1].

وقال الله - جل من قائل: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢].

وكقوله - جل من قائل: ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٤١] ولا بعد له، فكذلك مفهوم هذا الخطاب مع ما تقدم من التوجيه فيه قبل هذا.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٣٤).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾ [فصلت: ٤٤ - ٤٨].

قوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم متى تكون على التحديد والتحقيق للحين سواه ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى﴾ [فصلت:٤٧] أي: قبل شعور حاملته به، كقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد:٨] ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت:٤٧] أي: أنه يعلم ما تضع من ذكر أو أنثى صحيح سليم أو غير سليم تمام أوجد، ومتى وأي حين على التحديد والتوقيت، ونظيره هذه في سورة «الأنعام» وسورة «فاطر» فتبًا للمبطلين القائلين بأنه يعلم الجمل ولا يعلم التفصيل، تعالى الله عن أباطيلهم وقبح افترائهم.

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ فيجيبه المعبودون: ﴿آذَنَّاكَ﴾ بمعنى: أسمعناك وأعلمناك؛ أي: قبل هذا تبرأنا إليك من عبادتهم ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾(١) [فصلت:٤٧] لهم بما ادعوه.

---

(١) قال تعالى: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ فيه وجوه: الأول: ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكًا، فالمقصود أنهم في ذلك اليوم يتبرءون من إثبات الشريك لله تعالى. الثاني: ما منا من أحد يشاهدهم؛ لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ. الثالث: إن قوله: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ كلام الأصنام فإن الله يحييها، ثم إنها تقول: ما منا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة، وعلى هذا التقدير فمعنى أنها لا تنفعهم فكأنهم ضلوا عنهم. [تفسير الرازي (١٣/٤٠٤)].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (٥٤)﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥٤].

قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾ [فصلت:٥٣] هو ما أراهم من الفتح للمؤمنين فيهم، وما أراهم من الآيات الدالة على الوحدانية ومعالم الآخرة في السماوات والأرض وفي أنفسهم، كفعله في قريظة والنضير وخيبر كلها واليمن وغير ذلك من البلاد، وفي أنفسهم من الجوع كالسبع الشداد التي دعا بها رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - في قوله: «**اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»[1] وكهزيمة بدر وهوازن، وقتل صناديدهم وأسر كبرائهم وهجرة أكثرهم إلى المدينة حتى بقيت بعض منازلهم بمكة تصفق الرياح أبوابها، وما نهكتهم الحرب حتى جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وناشده بالرحم أن يدعو ربه في التخفيف، وأن يكف عنهم من شد منهم من المسلمين كأبي نصير وأبي جندل ومن شايعهم على أمرهم، وحتى قال أبو سفيان: سحر يوم الفتح، وقد قال له رسول الله ﷺ: «**ألم يأن لك يا أبا سفيان أن تعلم أنه لا إله إلا الله**»[2] فقال له: ما أبرَّك وأوصلك وأرحمك، أما أنه لو كان بها إله سواه لقد أغنى وأسلم حينئذٍ.

وقال ابن الزبعري في كلمة طويلة له:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧١١٥).

يـا رسـول المليـك إن لـساني راتـق مـا فـتقت إذ أنـا بـور

ولما فتح مكة واستدعى مفاتح الكعبة وأخرجت الأصنام منها ثلاثمائة وستون نُصبًا وفيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وفي أيديهما الأزلام، قال: «**قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها يومًا قط**»[١] ثم وقف بباب الكعبة - صلوات الله وسلامه عليه - وقد جمعت قريش له كبراؤها وصغارها، فقال لهم بأعلى صوته: «**ما تروني صانعًا بكم**» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[٢] وأسلم من حضر ورجع إليه من فر عنه وتبين لهم أنه الحق هذا وعده الحق وصدق كلمته الصدق والحمد لله رب العالمين.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ لما تهددهم بقوله: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [فصلت:٥٣] يعني: الرسول والقرآن.

يقول - جل من قائل: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ**﴾ أي: يعلم ربك يقينًا بما أخبر وشاهده عدل وصدق بما تقدم كونه وبما هو مستقبل مما هو كائن، فهو يعد على ذلك ويوعد من مرغوب ومرهوب كشف عن ذلك بقوله: ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ**﴾ هذا أعظم المرغوب وله ما بعده ﴿**أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**﴾ [فصلت:٥٤] هذا المرهوب.

وينتظم أيضًا قوله هذا: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت:٥٣] بمعنى قوله الحق ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ**﴾ [فصلت:١٩ - ٢٠] وهنا محذوف جحدوا وأنكروا أعمالهم، وأنهم كانوا كافرين فيشهد عليهم ﴿**سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**﴾ [فصلت:٢٠ - ٢١] المعنى إلى آخره حتى أن الشقي ليقول: بعدًا لكم وسحقًا فعنكن كنت أناضل.

قال الله - عز من قائل: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٨٧٣٩).

[فصلت:٥٣] تتميمًا لقول الجوارح: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت:٢٢] إلى آخر قولها: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ [فصلت:٥٤] تتميمًا لقول الجوارح: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت:٢١] نظم به لعلمه بأنه كائن لا ريب فيه، هذا يوعد ويعد وينبئ فيكون ذلك في المستقبل على أحيانه مخرجًا في التقدير على مقادير آياته، فقد كان ما قدمنا ذكره وما لم نذكر أكثر أضعافًا مما ذكرناه، ثم ما كان بعده من آياته في الأفاق وفي أنفسهم من فتحه المشارق والمغارب ونواحي الأفاق، وفي مطلع الشمس ومغربها والقبول والجنوب، ودخول الناس في الدين أفواجًا، واستسلام الاجناس لدين الإسلام لما تبين لهم أنه الحق، ثم نحن الآن من ذلك في منتظر لتتميم الدين كله ولو كره الكافرون.

فقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣] خطاب لرسوله ﷺ ولأفراد أمته الغابرين الذين يرون آياته هذه في الأفاق وفي أنفسهم ويتبين لهم بذلك أنه الحق ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] فمن أيقن من المؤمنين بأن الله على كل شيء شهيد فحسبه مشاهدة ربه إياه، ومن بُغي عليه لينصرنه الله، وليكتف العبد بربه وليتوكل عليه وليكفه علمه به؛ إذ بلغه إلى معرفته حسبه ذلك منه حتى يأتي الله بأمره، فهذا زائد إلى ما تقدم ذكره تأنيس للمؤمنين منه بمشاهدته إياهم، وهو وعيد في جنبة الكافرين، كما قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَا﴾ أي: غيري ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

كذلك اسم المحيط وعد للمؤمنين بالفتح والنصر، وإعلام لهم بأن ربهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وسع كل شيء قدرة وعلمًا ومشيئة، وهو أيضًا وعيد للكافرين يعلم بذلك أن هربهم منه إليه وطريقهم وحسابهم عليه، والمرية: من التماري الذي هو الشك وهذا الشك وقع بالكافرين في لقائه ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت:٥٤] ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:٣١] نسأل الله البر الرحيم إيمانًا صادقًا، ويقينًا تامًا، وزادًا مبلغًا إليه، ورضًا ورضوانًا منه، إنه حليم كريم.

تفسير سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ١ - ٧].

قوله - جل من قائل: ﴿حم * عسق﴾[1] [الشورى: ١ - ٢] قد تقدم الكلام في

(١) هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ، يخبره بهنّ ومن كان أهله من سرّ الذات والصفات والأفعال، الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه لأهل العيان، والسين رمز سرّه وسرّ سرّه وغيبه وغيب غيبه وسنا سبحات وجهه وكشفه لأهل الكشوف، والقاف عن قديمية وجوده، وقوله القديم الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيى بملك الأرواح المحبين بحلاوة محبته، التي برقت سناها في عيونها، ثم بسرّ الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسين سار سنا برق سبحاته في أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيوميته صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السين نقوش الشين، فأراد بالسين الشين وبيان ﴿حم﴾ عشق أي: يحيى الأزلي، وجمال الأبدي عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، وبرمز العشق أخاطبهم، حتى لا يطّلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكي =

هذه الحروف وأنها واسطة بين حروف أم الكتاب وحروف القرآن والله أعلم، وهي عبارة وحي وصفة لتنزيل القرآن، ووصف لما هنالك من العلاء والعظمة، ومن توصيل الوحي وتفصيله، وإيصال الوحي إلى قلوب الأنبياء، والفهم إلى قلوب المؤمنين لو عبر عنها بعبارة ظاهرة لبدا من سر الإيحاء ما لم يشأ الله إبداءه، نظم ما هو تنزيل له وتبيين قوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقرئ ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الشورى:٣] اسمه الله رفع إما على القراءة الأولى: فلأنه فاعل الإيحاء، وعلى الثانية: فعلى الإعلام بأنه ﴿اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٤ - ٥] هذا منتظم بما في قوله: ﴿حم * عسق﴾ [الشورى:١ - ٢] من معنى تتفطرن من فوقهن؛ أي: من عظيم العظمة والجلال والكبرياء والعزة، فتكاد أن تتفطرن لما يرد عليهن من علو.

﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ هذا كله من تسبيح الملائكة وتحميدهم واستغفارهم لمن في الأرض لما يشاهدونه من عظمة ذي الكبرياء وجلال ذي الجبروت، فعيشهم في التسبيح والتحميد الليل والنهار لا يفترون، وذكر الليل والنهار فيما هنالك على المعهود فيما هاهنا وإلا فليس عند ربكم ليل ولا نهار، وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] لم يشأ الله ﷻ كون شيء إلا وقيض ملائكة من عباده يشفعون في كونه، وكذلك في إبقاء ما شاء إبقاءه وإعدام ما شاء إعدامه، فقيض - سبحانه وله الحمد - ملائكة السماوات

=

ومحبتي لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وبعلو شأني وعلمي المحيط وعزي وعياني، وخلقي يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقدسي وسرمديتي، وسبق وجودي على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سبَّاق كل سابقٍ بالشرف والفضل والتقدم، ويا سبَّاح بحر قدسي وأنسى ومقدمي وقيوميتي وقيامي على كل شيء، وبقولي الحق، وبقدرتي القديمة، وبقضائي وقدري، وبعشقي يا عاشقي، وبصدقي يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرتها إليك، كذلك أشرتها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتي.

إلى الشفاعة لمن في الأرض يستغفرون لهم، لولا ذلك من لطفه ويسره في تشفيعه إياهم ما امتسكت الأرض، لكنه شاء إمساكها فهم يستغفرون لذنوب أهل الأرض.

والغفران منه على ضربين: غفران إمهال إلى الأجل المسمى، وغفران ذنوب، فلا يأخذ بها في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما ذلك للمؤمنين إن شاء الله تعالى، وقد قيض أيضًا ملائكة هم حملة العرش ومن حوله؛ للاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم، كل ذلك يجبر بعبادة الملائكة ما نقص من عبادة أهل الأرض، وأين يقع أهل الأرض من أهل السماء؟ مع أنه ما من شيء إلا يسبح بحمده هو اللطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم، وهذه أصول الشفاعة فلا تكن من الممترين.

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ**﴾ [الشورى:٦] يقول، وهو أعلم: إن الملائكة يستغفرون لمن في الأرض؛ أي: في أن يمسك عليهم السماء والأرض أن تزولا، ويمسك عنهم أخذه لهم بذنوبهم، ثم قال: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ**﴾ [الشورى:٦] أي: لأعمالهم ليجازيهم، لم يقل: حفيظ لهم.

قوله ﷻ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[1] [الشورى:٧] هذان نوعان من الوحي:

- حروف مقطعة محكمة مجملة غير مفصلة في أنفسها، بل فصلت فيما بعدها، أنزلها - جل ذكره - حروفًا في أوائل بعض السور، أتم بذلك إنزالها ولم يتم تنزيلها في أنفسها إلا تنزيلاً وتسفيرًا في إنباء الكتاب يفقهه أولوا الألباب، فنقول: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ**﴾ [المائدة:٥٩] كل من عند ربنا.

- **والثاني**: إيحاؤه إليه القرآن المحكم المفصل، فقال: ﴿**وَكَذَلِكَ**﴾ الكاف للتشبيه والمشبه به هو ما أوحاه إليه من سائر القرآن العظيم والقرآن الحكيم

---

(١) لأن كونه عربيًّا يليق بحال المنذَرين به وهم أهل مكّة ومَن حولها، فأولئك هم المخاطبون بالدِّين ابتداء لما اقتضته الحكمة الإلهية من اختيار الأمة العربية لتكون أوّل من يتلقّى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تُحصى، فلا جرم اختار الله له أفضل اللّغات واختار إنزاله على أفضل البشر. [التحرير والتنوير (١٣/٨٤)].

والقرآن المبين ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني: مكة وبحقيقة ما لزمها هذا الاسم؛ إذ إليها التوجه، فهي الإمام من هذه الجهة، وقيل: عنها دحيت الأرض ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم البعث والحشر والنشور فيه يجمع الله الأولين والآخرين، ويجمع فيه أهل السماوات مع أهل الأرض ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:٧] الريب يكون بمعنى: الشك، وقد يكون بمعنى: الكذب، وقد ارتاب فيه من لم يؤمن به ولم يصدق بكونه.

قال الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢] فلم يبقَ إلا أن يكون بمعنى الكذب، فتقدير الكلام وتدبر يوم الجمع لا كذب في قول من أخبر عنه أو أنذر به أو ما يكون في معنى هذا، ولا ريب عند أهل السماوات والمؤمنين من أهل الأرض وسائر الموجودات.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من دابة إلا وهي مصيخة صبيحة يوم الجمعة إلى أن تطلع الشمس فرقًا من الساعة**»[1].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن

(١) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (١/٣٧٧).

﴿يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى:٨ - ١٣].

قوله ﷻ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الوَلِيُّ﴾ [الشورى:٩] انتظم هذا الكلام بمعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى:٦] فالله هو الولي الحق ولي الخلقة وولي الولاية التي بمعنى الاختصاص.

قال الله جل ذكره: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة:٢٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ﴾ [الشورى:١٠] هذا أمر منه - عز جلاله - بالرجوع إلى كتابه ورسوله عند الاختلاف، وإنما يستصحب النظر والتفكر ما أصاب النبوة والكتاب، فإذا عدم ذلك فالرجوع إلى الله والرسول خير وأحسن تأويلاً، فمتى تشاركت الدلائل ووقع الاختلاف ولم يكن أحد الوجوه أولى بالصواب من غيره فليعدل في طلب المطلوب إلى نصوص الكتاب وظاهر الوحي.

كذلك يقول الله - جل من قائل - على لسان رسوله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠] انتظم هذا بمعنى قوله: ﴿فَاللهُ هُوَ الوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

أتبع ذلك قوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى:١١] تقدم الكلام في الفَطْر، يقول: جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل من الأنعام لها أزواجًا، وعطف على قوله: ﴿لَكُم﴾ لما جعل لنا فيها من الملك لها وله الحمد، كذلك فعل بكل جنس خلق أوله، ثم جعل من ذلك الأول زوجة ليسكن إليه؛ لذلك قال وهو أعلم: وجعل من الأنعام لها أزواجًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يذرؤكم معشر العباد في أزواجكم جملاً فيهن واستقرارًا واستيداعًا، وفي الأنعام غذاء شرابًا وأكلاً منهن وكونًا عن ذلك.

ثم قال - عز من قائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١) [الشورى:١١] هو ليس بذي

---

(١) قال المصنف: فالعلامة التي بينهم وبينه والله أعلم معنيان: أحدهما: توحيد مجرد وتنزيه مطلق يشمل معناه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ [الشورى:١١] والمعنى الثاني: لطيفة من لدنه إلى =

جنس ولا بمخلوق ولا محدث، ولم يتخذ صاحبة ولم يكن له ولد، ولم يكن له ولي من الذل ولا كفؤ ولا عدل، هو الكبير المتعالي عن نقائص المحدثات وشبه الموجودات، وهو السميع البصير، خص هاتين الصفتين بالذكر تذكيرًا بصفة الحياة والعلم، هو الحي لا إله إلا هو؛ إذ الحياة بها وجود الصفات والأسماء، فمعنى الكلام: له الأسماء الحسنى والصفات العلا على الكمال الأرفع والتمام الأقصى.

كان الفطْر بمعنى: الشق بوجه، يقال من ذلك: فَطَرَ ناب البعير كان الخروج والإخراج، كما قيل لبثور يخرج في وجه الغلام حين بلوغه: تفاطير، وكان إذًا حقيقة ما يسمى به بالفاطر؛ لأنه أخرج الأشياء من عدمها إلى وجودها، وقد كانت قبل موجودة في علمه وقدرته ومشيئته ولم تكن بذلك موجودة لأنفسها فأخرجها بقدرته إلى وجودها لها، فلذلك تنزه عن مشابهة الآباء والمراضع والأغذية، فإن لبن الرضاعة فطرة والأغذية مفطرة للصائم، والآباء مخرجون لأبنائهم بوجه ما حقيقة لا كسبًا، فعبر عن تبين هذا المراد بقوله: **﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾** [الشورى:١١] فكانت هذه آيات

=

بواطنهم تطمئن بها إليه قلوبهم بواسطة إيمانهم به. آية ذلك في الدنيا اللطيفة التي لم يقدروا معها أن يجهلوه، وهو ما فطر هو عليه من المعرفة، وكلما قلنا: فعلية من القرآن العزيز، وشواهد ظاهره وباطنه الحق من ربك **﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾** [آل عمران:٦٠] والمعرفة به والعلم من صفات الحق الموجود في جبلة العالم المفطور عليه، وكما ينشأ كل شيء فكذلك تنشأ ذوات بني آدم، ألا ترى إلى ضعفها اليوم في العاجلة وهي في الآخرة تحمل أهوال يوم القيامة وزلزالها وعذاب النار وسرور الجنة ونعيمها، وكما لا يلزم أن يعلم في ناحية ولا مقابلاً ولا بمحاذاة ولا محدودًا ولا محاطة به ولا متحيزًا ولا في مكان، وكذلك رؤيته ﷻ بل يرونه كما شاء، وإنما معنى العلم والمعرفة: مشاهدة معلوم ومعرفة معروف، هو موجود له وجود **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾** ومسمى له أسماء وموصوف له صفات مع مشاهدة إعظام وإكبار وإجلال لا يحاط بعلم ذلك الجلال، ولا يبلغ كنهه ولا يقدر قدره، يشاهد العالم به علم تقصيره عن ذلك وعجزه وحضره، ولولا لطف رحمته ورأفته، وبره وامتنانه، وعطفه وكريم قربه، وجميل رضاه وإحسانه في نزوله من عظيم عظمته وشموخ كبريائه، وعزة علائه إلى قلوب عباده ما استطاع أحد أن يعلم شيئًا من علمه، كما أنه وقد شاء نزولاً إلى قلوبهم لم يستطع أحد مع ذلك أن يجهله **﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾** [الروم:٥٤].

على صنعه المصنوعات ودلائل على فطره الموجودات.

قال الله - جل من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية...**»(١) كالمتغذين في الأغذية، والحيوان في الماء والنبات والحيوان، تنزه العلي الكبير عن مشابهة شيء سواه، بل هو السميع البصير، لم يزل يبصر المبصرين ويسمع المسموعين في أزل أزله، ليس كذلك من هو في عدمه ومسخر ليخرج منه ما اختزن فيه من خلق وأمر تبارك الله أحسن الخالقين.

أتبع ذلك ما هو في معناه، قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٢)

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيحها كما قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم فقيل: هو جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: جمع مقليد، وقيل: جمع مقلاد من التقليد بمعنى الإلزام ومنه تقليد القضاء وهو إلزامه النظر في أموره، وكذا القلادة للزومها للعنق، وجعل اسمًا للآلة المعروفة للإلزام بمعنى الحفظ، وهو على جميع هذه الأقوال عربي، والأشهر الأظهر كونه معربًا فهو جمع اقليد معرب إكليد وهو جمع شاذ؛ لأن جمع «افعيل» على «مفاعيل» مخالف للقياس، وجاء أقاليد على القياس ويقال في اكليد كليد بلا همزة، وله مقاليد كذا قيل : مجاز عن كونه مالك أمره ومتصرفًا فيه بعلاقة اللزوم، ويكنى به عن معنى القدرة والحفظ، وجوز كون المعنى الأول كنائيًا لكن قد اشتهر فنزل منزلة المدلول الحقيقي فكنى به عن المعنى الآخر فيكون هناك كناية على كناية وقد يقتصر على المعنى الأول في ازرادة وعليه قيل هنا المعنى لا يملك أمر السماوات والأرض، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره ﷻ، والبيضاوي بعد ذكر ذلك قال: هو كناية عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لمكان اللام والتقديم، وقيل: خزائنها، وقيل: مفاتيحها، والإشارة بكلها إلى معنى واحد وهو قدرته تعالى عليه وحفظه لها. وجوز أن يكون المعنى لا يملك التصرف في خزائن السماوات والأرض؛ أي: ما أودع فيها واستعدت له من المنافع غيره تعالى، ولا يخفى أن هذه الجملة إن كانت في موضع التعليل لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ على المعنى الأول فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا يملك أمر السماوات والأرض؛ أي: العالم بأسره غيره تعالى، فكأنه قيل: تعالى يتولى التصرف في كل شيء لأنه لا يملك أمره سواه ﷻ، وإن كانت تعليلاً له على المعنى الثاني فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا قدرة عليها لأحد غيره جل شأنه فكأنه قيل: هو تعالى يتولى حفظه كل شيء لأنه لا قدرة لأحد عليه غيره تعالى، وجوز أن تكون عطف بيان =

[الزمر:٦٣] يقول - جل من قائل: له مفاتيح السماوات والأرض أعلى المفاتيح كلمه وقدرته ومشيئته وعلمه، إذا أراد شيئًا قال له: «كن» فيكون الكائن على وفق مشيئته، ومن مقاليد السماوات والأرض: الرياح يرسلها في الجو ملقحة، فينشئ السحاب بقدرته، وينزل الماء من السماء إلى الأرض بأمره، ثم يفصل الماء إلى ما شاء تفصيله إليه وذلك من خزائنه، ومن مقاليد السماوات والأرض: الإيمان والعمل والاستقامة والعمل بطاعة الله، والذكر والدعاء والتقوى والابتهال.

قال الله - عز من قائل: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾ [نوح:١٠-١٢] هذه مقاليد الدار الآخرة.

﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا**﴾ [الطلاق:١١] ومثل هذا كثير، كقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف:٩٦].

﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ [المائدة:٦٥ - ٦٦].

ومنبعث ظهور المقاليد من السماء والأرض هو الإسلام والاستقامة؛ إذ فيه الخضوع والخنوع والخشوع والتعبد، والتزام الصغار والذلة ومجانبة الكبر والتعاظم، فإنه من نازعه معنى من صفاته التي هي: الكبرياء والعظمة والجبروت قصمه، ولما ذلت له السماوات والأرض وآذنت له وأذعنت حمل عنهن المشقة، ويسر عليهن ما جعلهن له، وجعلهن من خزائنه متى شاء فتح منهن لعباده ما شاء، تقول العرب: «ألقى إليه بالمقاليد» عبارة عن الاستسلام.

قال الفرزدق يخاطب عمر بن الخطاب ﷺ:

=

للجملة قبلها وأن تكون صفة ﴿**وَكِيلٌ**﴾ وأن تكون خبرًا بعد خبر فأمعن النظر في ذلك وتدبر. [انظر: تفسير الألوسي (١٨ /١٠)].

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقت إليه مقاليد النهى البشر
ما آثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى:١٣] يعني - والله أعلم بما ينزل - وأوحينا إليهم الذي أوحينا إليك، وهذا منتظم بما في أول السورة من معنى: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى:١-٣] والمعنى بهذا والله أعلم: وحي الروح إليه أوحاه إليه محكمًا مجملاً مفهومًا لديه منه به، ثم يفصله فيما يشرعه لذلك وهو أعلم.

عطف بالواو في قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ على قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ والذي اجتمع عليه معنى ما أوحى إليهم هو ما عبر عنه قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أن تكونوا يدًا واحدة تعبدون ربًا واحدًا على دين واحد، وهو الذي كبر على المشركين، لكن ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يستخلصه ويصطفيه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣] أي: إلى الإسلام وإقامة دين التوحيد.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٤ - ١٩].

دلَّ على هذا التأويل قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يعني وهو أعلم: أهل الكتاب ما تفرقوا إلا عن علم بأن الاختلاف ضلال، لكنهم فعلوه بغيًا بينهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم الجمع وإنهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى:١٤] أي: في شك من يوم الجمع مكذب به.

أتبع ذلك ما هو متمم له، قوله ﷻ: ﴿فَلِذَلِكَ﴾ أي: لعلمك بيوم الجمع أنه كائن لا محالة ﴿فَادْعُ﴾ إلى ربك ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ على صراط الله ﴿كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في تفريق التوحيد وعبادة ما هو سوى الله ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥].

قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بعلمه وبما شرعه، وهو الحق وهو كلامه، وهو الحق نزله الملك من عند الله، وهو الحق كله وبإخباره عن موجودات الآخرة، وهو الحق الذي إليه المصير ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧] هذا منتظم بقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥] أنزل الميزان وأمر بالعدل ليحكم بالقسط ويوحد ويعطى بالميزان والعدل.

ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾(١) [الشورى:١٧] انتظم هذا بمعنى

(١) قوله : ﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ تمهيد لقوله : ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ لأنه يؤذن بمقدر يقتضيه المعنى، تقديره: فجُعل الجزاء للسائرين على الحق والناكبين عنه في يوم السّاعة فلا محيص للعباد عن لقاء الجزاء وما يدريك لعل الساعة قريب، فهو ناظر إلى قوله: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى﴾ [طه:١٥]. وهذه الجملة موقعها من جملة ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ﴾ [الشورى:١٦] موقع الدّليل، والدليلُ من ضروب البيان، ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها لشدة اتصال معناها بمعنى الأخرى. والإخبار عن اسم الجلالة باسم الموصول الذي مضمون صلته إنزالُه الكتابَ والميزانَ، لأجل ما في الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي، وأنه من جنس الحق والعدل، مثل الموصول في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] ولام التعريف في الكتاب لتعريف الجنس، أي: إنزال الكُتب وهو ينظر إلى قوله آنفًا: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥] والباء في (بالحق) للملابسة، أي أنزل الكتب مقترنة بالحق بعيدة عن الباطل. والحق: كلّ ما يَحق، أي يجب في باب الصلاح عملُه ويصح أن يفسر بالأغراض الصحيحة النافعة. و(الميزان) حقيقته: آلة الوزن، والوزن: =

ما تقدم من قوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥] يصبره ويعزيه، ويقرب له المدة نظيرتها في سورة «هود» إلى قوله: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٥].

قوله تعالى: ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩] انتظام هذا بمعنى قوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى:١٢].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى: ٢٠ - ٢٣].

نظم بذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ يريد، وهو أعلم: يجعل له الحسنة بعشرة أمثالها إلى تسعمائة ضعف إلى ما هو بغير حساب ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى:٢٠] ليس كل الذي تمناه من الدنيا يناله وإن عمل له ويفزع إليه، ورزق الآخرة ما تمناه وعمل له كما يجب أعطيه.

=

تَقديرُ ثِقَل جسم، والميزان آلة ذات كفتين معتدلتين معلقتين في طرفي قضيب مستوٍ معتدل، له عروة في وسطه، بحيث لا تتدلى إحدى الكفتين على الأخرى إذا أمسك القضيب من عُروته. والميزان هنا مستعار للعدل والهدْي بقرينة قوله (أنزل) فإن الدّين هو المنزل والدّين يدعو إلى العدل والإنصاف في المجادلة في الدّين وفي إعطاء الحقوق، فشبه بالميزان في تساوي رجحان كفتيه. انظر: [التحرير والتنوير(١٠٧/١٣)].

قال الله - جل من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨ - ١٩].

فصل

هذه الآيات تشد ظهر المتوكل على الله العامل للآخرة، المؤثر لها بعمله، ويقيم أوده، فإليك الخيرة أيها العبد في إتعاب جسمك، وتقسيم قلبك، وتثقيل ظهرك بتباعات وسيئات ترجو غير واجد وتخافه.

قال الله - عز من قائل: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

يقول - عز من قائل: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥] أي: الحمد لله وحده، فاعبده وحده، وخفه وحده، وارجه وحده ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وعباده ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أحب الدنيا التاظ منها بثلاث: شغل لا ينفك، وأمل لا يدرك، وحرص لا ينال**»[١] أو إراحة جسمك وإحمام قلبك وتخفيف ظهرك، مع ما في ذلك من قربك من ربك، ترجع إليه في قليلك وكثيرك تجده معك، كما قال - عز من قائل: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢] إلى آخر المعنى.

وإلى هذا فإن الدنيا بما لك فيها تأتيك به صاغرة تابعة لك غير متبوعة، طالبة غير مطلوبة، ألا ترى أن الله - جل ذكره - فرض علينا قوت من جعل إلينا أمره وأحوجه إلى ما عندنا حتى قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء لومًا أن يضيع من يقوت**»[٢] وفي أخرى: «**من يقيت**»[٣] حتى لقد جعل النفقة منا عليهم أفضل من

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني (١٠٣٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٥) وأبو داود (١٦٩٢) والحاكم (١٥١٥) والبيهقي (١٥٤٧٢) والطيالسي (٢٢٨١) وابن حبان (٤٢٤٠) والنسائي في الكبرى (٩١٧٧) والطبراني (١٣٤١٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٩٥)، وأبو داود (٢ ١٦٩)، والحاكم (١٥١٥)، والبيهقي (١٥٤٧٢) والطيالسي (٢٢٨١)، والبزار (٢٤١٥)، وابن حبان (٤٢٤٠)، والنسائي في الكبرى (٩١٧٧).

النفقة في سبيل الله الذي جعلها حبة بسبعمائة حبة، وإنما ذلك؛ لأنه أحوجهم إلينا كالزوجة والولد والخادم والدابة التي لا بد منها ولا غنى عنها، فاقضِ بذلك على أن الله - جل ذكره - غير مضيعك متى انقطعت إليه، متى أخلصت التوكل عليه وتشاغلت به عن سواه، وهو أنزه وأبعد بعدًا مما عرض به رسول الله ﷺ بقوله: «**كفى بالمرء لومًا أن يضيع من يقيت**»[1].

ومنه: إكرام الضيف وبر الجار، نزول الضيف بساحتك وحلوله بفنائك أوجب عليك كرامته وقَراه، وكذلك القرابات، فافهم عن ربك ولا ترضَ لنفسك بمنزلة الأباعد منه ولا برتبة من لم يحلل بفنائه رحلة، ولا حط بساحته ثقل شغله، ولا اعتمد عليه بقلبه، فيكون بمنزلة الأباعد منه، فيكلك بذلك إلى نفسك ويدعك وكدح يدك تملأ قلبك شغلاً ويدك كدًا، وجسمك كسلاً وتعبًا، ليس كحالك إذا أويت إليه واتكلت عليه، متى عراك مَهَمٌّ وجدت منه ملجأ، أو أصابتك مصيبة دخر لك عنده عوضها ذخرًا ما بقيت لأجل ذلك عزاء من نائبتك، وكان لك منه معتمدًا كريمًا وملجأ منيعًا، منَّ الله بها علينا وعليك من خصلة ويسرها لنا برحمته ومَنِّه.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ**﴾ [الشورى:٢١] هذا منتظم بقوله: ﴿**كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ**﴾ [الشورى:١٣] أي: من إقامة التوحيد ولزوم الصراط المستقيم ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم**﴾ [الشورى:٢١] كقوله: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ**﴾ [الشورى:٦] وينتظم إلحاق من أسلم لله وجهه وشهد بالحق، بمعنى: التوكل، يقول: أَلَهُم رازق غير الله يرزقهم من السماء والأرض.

نظم بذلك قوله: ﴿**وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ**﴾ أي: تأجيلهم إلى الأجل المسمى ﴿**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى:٢١] فيما هم فيه يختلفون، فترى المشركون غب شركهم، وترى المتوكلون على الله العاملون له المشغلون أنفسهم وجوارحهم بطاعته حسن مآبهم وكريم منقلبهم، كشف عن الحقيقة بقوله: ﴿**تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ**

---

(١) تقدم تخريجه، وفي (ف) يقوت.

﴿الجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾(١) [الشورى:٢٢] هم درجات عند الله هؤلاء وهؤلاء.

ثم استمر على وصف حسن مآب العاملين له والمتوكلين عليه بقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لذلك، وهو أعلم قال: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣] أي: إلى الله بطاعته والدعاء إليه.

كذلك قالت الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم، كقول هود عليه السلام: ﴿لَا

---

(١) ﴿تَرَى الظالمين مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: خائفين وجلين مما كسبوا من السيئات، وذلك الخوف، والوجل يوم القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير مضاف قاله الزجاج، أي: وجزاء ما كسبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة أشفقوا، أو لم يشفقوا، والجملة في محل نصب على الحال. ولما ذكر حال الظالمين ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ روضات جمع روضة، والروضة: الموضع النزه الكثير الخضرة، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم، وروضة الجنة: أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا لأحسن أمكنتها ﴿لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من صنوف النعم، وأنواع المستلذّات، والعامل في عند ربهم «يشاءون»أو العامل في «روضات الجنات» وهو: الاستقرار، والإشارة بقوله: (ذلك) إلى ما ذكر للمؤمنين قبله، وخبره الجملة المذكورة بعده، وهي (هُوَ الفضل الكبير) أي: الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى معرفة حقيقته. ثم وصف العباد بقوله: ﴿الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات﴾ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان، والعمل بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه هم: المبشرون بتلك البشارة ، قرأ الجمهور: (يبشر) مشدّدًا من بشر. وقرأ مجاهد، وحميد بن قيس بضم التحتية، وسكون الموحدة، وكسر الشين من أبشر، وقرأ بفتح التحتية، وضم الشين بعض السبعة، وقد تقدّم بيان القراءات في هذه اللفظة، ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه، أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثوابًا منهم، فقال: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قل يا محمد: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا، ولا نفعًا ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلاً، أي: إلّا أن تودّوني لقرابتي بينكم، أو تودّوا أهل قرابتي ويجوز أن يكون منقطعًا. قال الزجاج: (إلّا المودّة) استثناء ليس من الأوّل، أي: إلّا أن تودّوني لقرابتي، فتحفظوني، والخطاب لقريش. وهذا قول عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والشعبي، فيكون المعنى على الانقطاع: لا أسألكم أجرًا قط، ولكن أسألكم المودّة في القربى التي بيني وبينكم، ارقبوني فيها، ولا تعجلوا إليّ، ودعوني والناس، وبه قال قتادة، ومقاتل، والسدّي، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم، وهو الثابت عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير، وغيره: هم: آل محمد. [«فتح القدير» (٦ /٣٧٧)].

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ والدعاء إليه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود:٥١] وعلى الله، ونحو ذلك قال نوح ﷺ، وهم إن اهتدوا به كان للرسول أجر التبليغ والتعليم والنصيحة، وكان له مثل أجر من عمل بما بلغه إليه وعمل بعملهم أبدًا على الولاء، لا ينقص أجر ذي أجر من أجره شيئًا، وإن هم لم يهتدوا به فيكون له مثل أجورهم لو أنهم اهتدوا، ويكون معنى «إلا» هنا في قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣] بمعنى: سوى، تقديره: لا أسألكم عليه أجرًا سوى المودة في القربى، والقربة من الله لي ولكم.

وقد يكون معناها أيضًا معنى «لكن» كأنه قال: لا أسألكم عليه أجرًا، لكن المودة في القربى أبتغي تبليغ رسالة ربي إليكم، عطف على ذلك قوله الحق: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٤ - ٢٨].

نظم بذلك ما هو في معناه محاجة وجدلاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الشورى:٢٤] ما تقدم فهو محاجة لهم في معنى التوحيد قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ [الشورى:٢١] وفيما هاهنا محاجة في إثبات النبوة، وما كان يعلمه منهم من روحهم إبطالها.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: بما فيه من هداية ووحي فلا يخرجه على لسانك ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ﴾ من جميع الأرض أو ما شاء من ذلك ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤] لا برسول ولا برسالة، وهدايته بالرسالة سنة له، وهدايته بما هو من لدنه كلمة وهو على كل شيء قدير.

الكلمة أصل إيجاده الموجودات ووجود سنن السنة عارض حكم حق، وإلى الكلمة يرجع الكل في الإيجاد والتدبير، وكل موجود وذلك في التمثيل كالجبر والاضطرار في إخراج أفعال العباد الاضطرار من الله تعالى، والخير هو الأصل، وأحكام الكسب والاستطاعة عارض حكم حق، وإلى الخير يرجع كل فعل ما شاء الله من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، الله خالق كل شيء.

ثم دخل حكم الأمر والنهي والجزاء على ما تقدم بحق واجب وحكم لازم فافهم، فمن إثارة حكم الكلمة شهادة التوحيد لله - جل ذكره - بما له من أسماء وصفات، وعن إثارة حكم المشيئة في تتميم كلماته إرساله الرسل وإنزاله الكتب والأمر بطاعته والنهي عن معاصيه، كذلك حكم الخير والاضطرار من حكم الكلمة والكسب والاستطاعة عن وجود الزعامة في العبد، فوجب وجود المحبة ولم يكن ذلك إلا بوجود الرسالة وما جاءت به من سنة وسنن.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورى:٢٥ - ٢٦] يستجيبون له بتوفيقه وهدايته، هذا منتظم بما في قوله من معنى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى:٣] المعنى إلى آخره حيث ظهر، وهو كله مما يحتوشه من المعنى المجمل في صدر السورة فصله فيما بعد تفصيلاً.

نظم به قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨] فكما ينزل الغيث بما يفصله إليه كذلك ينزل الوحي إلى ما ينزله إليه، ويفصله تفصيلاً ينبه بهذا على نعمه في الدنيا وفي الآخرة، فهذه من نعمه في الدنيا، والوحي من نعمه المؤدية إلى الآخرة، يقال للمطر يأتي بعد المطر على نبوته، كذلك الشمس بعد المطر المغدق يقال لها: ولي، كذلك يقال لما ينشره عن الماء ويخلفه عنه: ولي؛ لأنه ولي ذلك؛ أي: قرب عنه قضاء وكان عنه خلقًا وأمرًا.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ

﴿قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾
أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا
أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾
[الشورى: ٢٩ - ٣٦].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩] اجتلابه هذه الآيات شواهد على ما ذكره من أسمائه وصفاته في صدر السورة، وأن النظر في ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ يعلم العلم ويورث اليقين، معرفة خلقه إياهم يوجب اليقين بقدرته على أن يجمعهم، وقد أخبر بذلك فهو لا بد كائن، والنظر إلى الموجودات من حيث هي أفعال توجب اليقين التام بأنها لا بد لها من فاعل فعلها وموجد أوجدها، ثم إن تهمم الناظر فنظر في معاني الصنعة وتابع التدبر وصل إلى معرفة صانعها بأسمائه وصفاته وما ينبغي أن يكون عليه، ومعرفة ما يستحيل لديه، فيحمده بمحامده ويسبحه بسبحاته، ثم إن تهمم وسما بتطلبه وصل إلى الوقوف على مباني الإسلام وخصال الإيمان، وقرأ فيه القرآن مفصلاً على فصوله، ورأى حكمة ما جاءت به الرسل حقيقة.

نظم به قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1]

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر(بما كسبت) بغير فاء. الباقون (فبما) بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر. قال المهدوي: إن قدرت أن (ما) الموصولة جاز حذف الفاء وإثباتها، والاثبات أحسن. وإن قدرتها التي للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه، وأجازه الاخفش واحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] والمصيبة هنا الحدود على المعاصي، قاله الحسن. وقال الضحاك: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ثم قال: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن، ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبي رواد. قال أبو عبيد: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو =

[الشورى:٣٠] هذه أيضًا من آياته الدالة عليه كما دلت عليه مصنوعاته في السماء والأرض.

ثم قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ...﴾ [الشورى:٣١] كلام راجع معناه إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] ومن قرأ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] فهو إخبار منه - جل ذكره - أن الذي يصيب العباد من مصائب فذلك بما كسبت أيديهم من ذنوب اكتسبوها، ولولا عفوه وتجاوزه عن أهل الأرض ما ترك على ظهرها من دابة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الشورى:٣٢] الأعلام: الجبال، والجواري: الفلك والسفن، واحدهن: جارية، قد تقدم الكلام على الاعتبار بها بما فيه تنبيه وإلماع إلى المقصود، غير أن جريها بالريح الطيبة وعلى المرغوب منها آية لكل صبار شكور على جريها بهم فيما هنالك في أنهار الجنة، وكونها راكدة والريح ساكنة عنها دلالة على الجريان والتوقيف في يوم العرض؛ إذ لا عمل له يرجيه إلى مرغوبه هناك، وكذلك في دار البرزخ وإهلاكها بالرياح العواصف آية تدل على عذاب أهل النار بهن يضطرون إلى ركوبهن في بحار الحميم والغساق نار في نار.

آية ذلك: اضطرار أهل الدنيا إلى ركوب البحار بالحرص والأطماع، فإذا لحجوا بهن فيما هنالك جاءتهم عواصف الرياح العتمة فأغرقتهم بما كسبوه في

=

دائب في تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك في شيء. ومما يحقق ذلك أن النبي ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره، من ذلك حديث عائشة عن النبي ﷺ: سمع قراءة رجل في المسجد فقال: «**ما له رحمه الله لقد أذكرني آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا**». وقيل: (ما) بمعنى الذي، والمعنى الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم. وقال علي ﷺ: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ﷻ. وإذا كان يكفر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روي هذا المعنى مرفوعا عنه رضي الله عنه، قال علي بن أبي طالب ﷺ: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي ﷺ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ «يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم» والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا عنه. [القرطبي (١٦/٣٠)].

الدنيا كما تغرق أهل الدنيا فيما هاهنا بذنوبهم، ثم يدخل الاعتبار بعضه على بعض، لذلك وهو أعلم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ [الشورى:٣٣] إلى قوله - عز من قائل: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى:٣٥] أي: فيما هنالك.

وقال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢] نظم بذلك ما هو كمال للعبرة قوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى:٣٥] عطف بالواو في قوله: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ والله أعلم بما ينزل، على محذوف من ذكر ما هو معلوم لكل صبار شكور، بذلك تبين للصبار الشكور ما هو في مقابلته ومناله فيما هنالك.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ويكذبون بها غدًا فيما هنالك إذا اضطروا إلى ذلك العذاب ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤] ومن قرأ «ويعلم» بالنصب من يعلم، فتقديره: ذلك من آياتنا في الدنيا على ما في الآخرة من أمثالها ليعلم ذلك، وأنهم ما لهم عن ذلك من محيص.

كما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣] إلى قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سبأ:٤] إلى قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦] سبحانه وله الحمد، كما كتب في الذكر كل شيء هو كائن فأخرج المكتوب كله على وفق ذلك، أنزل كتابه فخبر بما هو في الآخرة كائن، فيخرجه لا محالة على وفق كتابه ووحيه وإخبار رسله وإعلامهم؛ ليعلموا في الآخرة أن الذي بلغتهم الرسل والكتب حق، كما علم أهل العلم والعبرة كائنات ما سطره في الكتاب المبين أنها كائنة، فليسمع من له أذن سامعة ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٦٠] انتظم هذا بمعنى ما تقدم من قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى:٢٠] المعنى: وهي كلمة جامعة لموجودات الدنيا خلا ذكر الله وما أدى

إليه من قول وعمل ووحي وكتاب ورسالة ونحو هذا، ثم قال: ﴿وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الشورى:٣٦] يدعوهم من الدنيا إلى الآخرة.

يقول - عز من قائل: ﴿وَأَقْرِضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد:١٨] مما أتاكموه يصيره لكم آخره، فيؤتكم مما عنده فهو خير وأبقى، ثم بين أن السابقين إلى هذه التجارة الرابحة هم الذين آمنوا؛ أي: بحسن الجزاء وكريم الخلف ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:٣٦] في إيجاب وعده في الآخرة وكريم ضمانه في الدنيا.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[الشورى:٣٧ - ٤٣].

ثم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧].

ثم ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨].

ثم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩] ذكر العباد على مراتبهم ومنازلهم، ثم ندب إلى إيثار الصفح والعفو ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله﴾ [الشورى:٤٠] إلى قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٤ - ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الشورى:٤٤] هذا كلام راجع معناه إلى المتخذين أولياء وشركاء من دون الله إلى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الشورى:٤٥] خسروا أنفسهم: أوردوها النار ﴿وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] وخسروا أهليهم الذين كانوا معهم في الدنيا إن كانوا معهم في ضلالهم.

فصل

بينهم فيما هنالك ويكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا ومأواهم النار، وإن كانوا على هدى من ربهم أعلى بهؤلاء وأسفل بهؤلاء إلى بئس المصير، وأمَّا أهلوهم الذين كانوا في منازلهم من الجنة يرثهم فيها أهل الجنة كما ورثوهم في الهداية في دار الدنيا، كذلك يرث أهل النار منازل السعداء في النار.

قال الله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف:٣٨] يقول المؤمنون الذين ورثوهم في منازلهم من الجنة: ﴿إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٥] كذلك المؤمنون في نعيم مقيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا﴾(١) يريد وهو أعلم إلى سره، كما قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في رَوعي»(٢) ونحوه ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كتكليمه موسى ﵇ وما سمعه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء: «أمضيت

---

(١) قال روزبهان البقلي: إذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يبصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدني، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص٩٥) بتحقيقنا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٣٢)، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والدارقطني في العلل (٨٧٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٧٦).

فريضتي وخففت عن عبادي»[١] هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٥١] جبريل، ومن شاء من الملائكة عليهم السلام ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

وقال - عز من قائل: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا﴾ [النحل:٢] ثم ذكر هاهنا وحيًا آخر فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢] هذا منتظم - والله أعلم بما ينزل - بما ذكره في صدر السورة على أثر المجمل منه المحكم.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى:٣] إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِّتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ﴾ [الشورى:٧].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٤٨ - ٥٣].

فهذا ما تفصلت إليه تلك الجملة، ثم إلى قوله فيما قبل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١] ثم عطف على هذا المعنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] يفهم عنه أنبياؤه وحيه إليهم وإلقاءه ما يلقيه في ذواتهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) وأحمد (١٧٨٦٩).

قال الله - عز من قائل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] فيما ألقاه إليه عن هذا الوحي من روح به يعرف وحيه ويفهم عنه وعن الملك المراد، وهذا قد يقسم الله تعالى منه لمن شاء من عباده، وبما قسم لهم من ذلك يكون فهمهم للكتاب والوحي والإيمان وبه يفهم عن ربه ويعرفه ويطيعه؛ إذ بهذا الروح يحيي المحل الذي هو حامل حياة الإيمان، وكل محل لم يحل فيه هذا الروح فهو ميت الإحياء لا يعقل الهدى ولا يبصره ولا يسمعه ولا يتحرك إليه، والقرآن نور ولا يدخل إلا في محل الإيمان، وهو روح ولا يدخل إلا حيث الروح، وهذه الحياة تنشأ من لدن عالم الجماد، ثم إلى النبات، ثم إلى الحيوان.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:٢٦] ثم الإنسان، ثم الولي، ثم النبي، ثم الملك، وبه يسمع الولي بالله، ويتكلم بالله، ويرى به، ويبطش به، ويمشي به؛ إذ هو من الله - جل ذكره - العلي الأعلى الحي، ومنه روح القدس، ومنه روح الأمر، وهذا هو الواصل، ألَّا تسمعه ﷺ يقول: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] أي: من الأنبياء والمؤمنين التابعين لهم بإحسان، ثم هم درجات عند الله.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[1] [الشورى:٥٢ - ٥٣] تعريض بالحق المخلوق به

(١) قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى الله تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ فيه أربع مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: وكالذي أوحينا إلى الانبياء من قبلك أوحينا إليك (رُوحًا) أي: نبوة، قاله ابن عباس. وقال الحسن وقتادة: رحمة من عندنا، والسدي: وحيًا، والكلبي: كتابًا، والضحاك: هو القرآن. وهو قول مالك بن دينار وسماه روحًا؛ لأن فيه حياة من موت الجهل، وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ أي: لم تكن تعرف الطريق إلى الايمان، وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الايحاء متصفًا بالايمان. قال القاضي أبو الفضل عياض: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف، والصواب أنهم =

السماوات والأرض ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣] فأنبأك نصًّا صريحًا بمعنى ما عرضنا إليه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

الاجتباء خاص من ذلك جباية المال من مواضعه وإن بعد، ثم الاصطناع يصطنع من اجتباه بما شاء من ذلك، ثم الاصطفاء وهو خاص، وهو الاختيار منه لهم في سابق العلم، وهو من الصفاء من: صفى يصفو صفاء وصفوًا، ثم التولي يتولى بولايته من أحبه ورضيه، ثم هم في الولاية بعد ذلك على درجاتهم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الجمعة:٤] والهداية منه والمعونة تعمهم وتصحبهم في درجاتهم، هو يهديهم به إليه في علومهم ويقينهم ومعارفهم ومشاهدتهم إلى من هو أرفع من هذا وأسنى وأهدى إليه سبيلاً، فمن رزقه الفرقان الذي يفرق به بين المشتبهات والنور الذي يمشي به في الظلمات فذاك الذي أبصر سياع النور، وشاهد الضياء المبثوث في العالم المفطور بالحق المبين، وعاين اتصال ذلك بالحق المبين، وعلى قدر الإقبال عليه والتفرغ عن كل ما شغل عنه بالعمل بما يرضيه، والوقوف على معالمه وسؤال معاهده واستشهاد شواهده وآثاره التي آثرها، واستنطاق رسومه التي رسمها للمتوسمين يكون قبوله له وهدايته إياه.

معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شئ من ذلك. وقد تعاضدت الاخبار والآثار عن الانبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والايمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك كما عرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] قال المفسرون: أعطي يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه، فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ فقال: أللعب خلقت؟! وقيل في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ [آل عمران:٣٩] صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه، وقيل: صدقه وهو في بطن أمه، فكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له. [تفسير القرطبي (٥٦/١٦)].

تفسير سورة الزخرف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾ [الزخرف:١ - ٨].

قوله تعالى: ﴿حم﴾ [الزخرف:١] إنباء منه عن بعض مقتضيات الكتاب المثبت من علمه بخلقه وإعلام موجودات الكتاب المبين بما شاء من ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] جعله قرآنًا عربيًا مجموع الحروف والمعاني التي حواها نُزُله إلى أن يكون مقروءًا لعباده مكتوبًا بعد أن كان قيمًا لديه مكتوبًا في الكلام العلي، وفي علمه بخلقه ومثبتًا بظاهر الكتب في اللوح المحفوظ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ما فيه عنا من معاني الخطاب وسر المراد ولولا تيسيره إياه ﷻ لم يكن للعقول أن تصل إليه تلاوة له ولا عقلاً عنه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يريد القرآن ﴿فِي أُمِّ الكِتَابِ﴾ المثبت فيه علمه بخلقه ثم في الكتاب المبين ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا وفي حضرتنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي: عن أفهامكم وتلاوتكم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] وصفه بصفتين من صفاته: العُلا والحكمة، وسماه منهما باسمين هما من أسمائه: العلي الحكيم؛ ذلك لأنه كلامه العلي وكتابه الحكيم، فهو منه وبه وإليه، فافهم.

---

(١) هي مكية كلها، انظر: [تفسير ابن أبي زمنين (١٤٤/٢)] بتحقيقنا.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:٥] قرئ بكسر «أن» وفتحها، فعلى الكسر تقديره: أرأيتم إن كنتم قومًا مسرفين نعدل عنكم بالذكر فلا نرسل إليكم رسولاً ولا ننزل عليكم كتابًا، وعلى الفتح: ألِأَنْ كنتم قومًا مسرفين نعدل عنكم بالذكر، ومجموع هذين المعنيين في هذا التقدير: ألإسرافكم يكون هذا منا فنعذب المعذب منكم دون إعذار منا له ولا إنذار قد تقدم مني في العهد قولي: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٨ - ٣٩].

ألإسرافكم أنقض عهدي وأثلم حكمتي ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ ثم قال: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف٦ - ٨] إضراب منه عن ذكرهم؛ أي: تقدم حكمنا فيهم وذكر خبرهم وسنن سنتنا في الأولين منهم فيمن أطاعنا أو عصانا.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف:٩ - ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩] استقراء من أفعالهم ومقالهم ما كَسَر به حجتهم وبَيَّن به غلطهم حتى وضح لأولي الألباب أنهم لا حياة بهم.

يقول - جل من قائل: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ﴾ الذي امتنع من الأوهام أن تكيفه، ومن العقول أن تدركه، ومن الشركاء والأنداد والأولاد والصاحبة والمثل والنظير أن يوصف به ﴿العَلِيمُ﴾ بكل شيء إحاطة كاملة يستحيل عليها الحصر ولا

يجوز في وصفه القصر، هو لا يعجزه شيء ولا يفوته فائت فهو يعيد كما أبدأ.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف:١٠] جعل ذلك آية منه على أرض الجنة فجر فيها أنهارها وعيونها، وأنزل من السماء ماء فأخرج منها نباتها وزرعها وأنواع أشجارها وضروب فواكهها وثمارها، وجعل عدم ذلك آية على أحوال أهل النار فيها لا يستقرون على قرار، ولا يعتمدون على معتمد، ولا تقف أقدامهم أبدًا على أرض، لا يذوقون برد الشراب ولا لذة ضجعة أبدًا، يرسب بهم الغليان ولهب النيران تارة ويصعد بهم أخرى، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة وفيما بين ذلك.

قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١٠] عدد نعمه في هاتين، يقول - عز من قائل: قد كانت لكم آية على وجود إرسال الرسل وإنباء الأنبياء وجودكم السبل في الأرض هادية لكم إلى مقاصدكم؛ لذلك قال وقوله الحق: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بذلك إلى صحة الرسالة والنبوة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ الذي جعل لكم ذلك زائدًا إلى أنعمه العامة لكم دلالة على الوحدانية والرسالة والنبوة، وحسن النظر للعباد في كونه بقدر، وعلى الإحياء بعد الإماتة، وعلى وجود النشور والخروج؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف:١١].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فجعلها إعلامًا باسمه الفرد[١] واسمه الوتر[٢] ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾

---

(١) قال المصنف: إن الفرد الحق - جَلَّ ذِكْرُهُ - انفرد بالملك دون المملوك، وبالربوبية دون المربوب، وبالألوهية دون المألوه، وكذلك أفرد الجنة من النار بخاصيتهما، وما أوجد كل واحد منهما له أفرد المؤمنين بإكرامه، والمجرمين بإهانته، وأفرد كل ذي شكل بشكله، وكل ذي صورة بصورته وخاصة بخاصته وحاله بحالته؛ إفرادًا منه للأشياء، وتمييزًا لذواتها وأحوالها، لولا ذلك ما انفرد شيء بشيء، ولا امتاز شكل من شكل، ولكان الاختلاط والأشكال فكنا لا نعرف أبنائنا من أبنائنا ولا من غيرهم، ولا أمهاتنا من أزواجنا ولا من غيرهن، ولا كان لمنازلنا حلال فنبت فيه ولا حرام فنتقيه، ولا كان يكون لأحدنا اختصاص بشيء سوى اللبس والعمى لا علم ولا معلوم ولله ﷻ التدبير المبرم والقضاء المحكم. [شرح الأسماء ١/١٠٥].

(٢) قال المصنف: هو أيضًا من باب الوحدة، والوتر هو: الجامع بين الشيئين الذين هما الشفع، =

[الزخرف: ١٢] أنعم عليكم بها في هذه الحياة الدنيا، وجعلها تذكرة لكم بإبل وخيل في الجنة وأنعام وفلك ومركوبات كثيرة من لؤلؤ ونور مخلوقة لا تبول ولا تروث، تطير بهم طيرًا وتمشي بهم كيف شاءوا، وكذلك الفلك والسفن يركبونها في أنهار الزنجبيل والسلسبيل وأنهار الماء والخمر، يرجعون فيها من زيارتهم إذا شاءوا تمخر بهم في تلك الأنهار تمر بهم على سواحل مماليكهم، تحفها روضات الجنات وقصب العقيان والزبرجد والياقوت واللؤلؤ.

قال الله - عز من قائل: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨٠] أي: فيما هنالك لم يكن ليعلمنا بما قد أوجدناه وإنما أخبر بهذا بلفظ المستقبل إعلامًا بما يكون في تلك.

ثم قال منبهًا للفطن: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: فيما حضر على ما غاب ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

وقال: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن: ٢٤] ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٥] والآل: هو ما يظهر عن وجود حقيقة الموجود في الدنيا آلاء لوجود العلي الأعلى ولموجودات الآخرة وفي الآخرة الوجود الحق، وجميع موجودات ما هنا آلاء لحقائق ما هنالك، فافهم.

ألا تسمعه - عز من قائل - يقول على أثر ذلك: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ يعني: المركبين البري والبحري ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وتذكروا بها ما في هنالك وتشكروه على ما متعكم به من آلاء ذلك في هذه فتقولوا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف: ١٣] وأنزله لنا كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾(١) [الزخرف: ١٣] أي: مطيقين

= وهو العائد عليهما بفائدتهما... ثم سبحانه الفرد بحكم الفردانية عن العدل والنظير والشبه والمثل والكفء ونحو ذلك، وسبحة الوتر هي عمّا يلحق المصنوع من نقائص الحدث وافتقار الصنع وعن العدد ولواحقه، ومن لحقه الصنع لحقه العدد. [شرح الأسماء ١/١٠٧].

(١) أي: مطيعين، وكم سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلَهم عليه إلى بساط الطاعة، وسَهَّلَ للمريدين =

الإقران إلا طاقة قرنت لهذا الفرس والبعير؛ أي: أطقته.

وأصله مأخوذ من القرن؛ أي: صرت له قرنًا؛ أي: مطيقًا، فتقولوا: لولا أن الله سخرها لنا ما كنا لها بمطيقين، هذا على أن نعتقد أن الإنزال هو إنزال عن خلق [البشر][(١)] والإنزال أيضًا هو أنه أنزلها من الجنة في الماء، ثم قال: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف:١٢٥] عرض لهم ﷻ بأن يرموا بأوهامهم إلى المآل والمنقلب الذين يجدون فيه من هذا ومما لا تعلمون ما هو خير وأبقى.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف:١٥ - ٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] الجزء: النصيب نسبوا إليه الأولاد ﷻ عما يقولون، وقد يكون بمعنى الجزء البنات خاصة وهي لغة، أنشد بعضهم شاهدًا على ذلك:

إن أجزأت حرة يومًا فلا عجب ... قد تجزئ الحرة المذكار أحيانًا

ومعهود اسم الجزء أنه واقع على النصيب، كما قال ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦] المعنى إلى آخره.

= مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عرَصات الجود، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعقْوة العِزَّةِ وعند ذلك مَحَطُّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ سواء كان مَلَكًا مُقَرَّبًا أو نبيًّا مُرْسَلاً أو وليًّا مُكَرَّمًا، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق. تفسير القشيري (٧/٢١٠).

(١) في (ف): «البشر» وفي (خ): «البشر أمته».

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف:١٦] هذا منتظم بما قبله من ذكر الجزء، فهذا انتظام صحيح من حيث المجاورة، وبوجه آخر أرى - والله أعلم - أنه كلام تقدم على موضعه، والمنتظم به معنى قوله: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨] أي: البنات تنسبون إليه وإلى أنفسكم الذكران وإليه الإناث ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف:١٦].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨] يكظم غيظه يفكر في نفسه كيف يمسكها ﴿عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٩] حرموا الإصابة في وصفهم الرحمن ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالولد في اتخاذهم الأثرة عليه فرضوا له ما لم يرضوه لأنفسهم على خطابهم، ثم ينتظم به أو من ينشأ في الحلية، المعنى: نسبتم إلي وجعلتم لي وجعلتم لأنفسكم الأفضل عندكم.

وذكر قول الآخرين في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩] وقرئ: «الذين هم عباد الرحمن» وهذه القراءة أعلى وأليق بسياق المعنى الذي جاءت له، وهي قراءة ابن مسعود، ومن قرأ: «عند ربك» ذهب إلى الجاه والخصوصية، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠] رد الله - جلَّ ذكره - قولهم عليهم وإن كان ما قالوه حقًّا، لكنهم لمَّا استمروا على كفرهم وشركهم فخرجت كلمتهم هذه عن غير علم ولا معرفة، جعله منهم تخرصًا وتظننًا.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف:٢١ - ٢٩].

أتبع ذلك قوله محاجًا لهم: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أي: بكفرهم وبما أشركوا به ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ يعني القرآن أو الرسول ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف:٢١].

نظم بذلك قوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ سنة، وهي أيضًا من الإتمام، وقرئ بكسر الهمزة من «أمة» وهي: الملة، والأمة أيضًا: الملل، مهتدون بهدايتهم ومقتدون ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أتهتدون به وترجعون عن ضلالكم هذا ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٤] تشابهت قلوبهم فتشابه جوابهم وعملهم.

يقول - جل من قائل: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف:٢٥] ورحم الله هذه الأمة فلم يعاجلها بالعذاب ولم يعمها بإهلاك، بل جعل لها فيمن مضى عبرة، وأقام لها سنته فيمن خلا عظة، والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[1] [الزخرف:٢٦ - ٢٧] هداه إلى كلمة «لا إله إلا الله».

يقول ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨] عن شركهم وكفرهم إليها وذكرهم الآن بها يوم نزول القرآن، ثم أضرب عن ذلك لما تجهموا لها ونسوا ما ذكروا به، فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ يقول: ولذلك نسوا الذكر ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:٢٩] الآيات إلى آخر

---

(١) ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يثبتني على الهداية، فالسين للتأكيد لا للاستقبال؛ لأنه جاء في الشعراء: ﴿يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٧٨] بدونها والقصة واحدة، والمضارع في الموضعين للاستمرار. وقيل: المراد: سَيَهْدِينِ إلى وراء ما هداني إليه أولاً؛ فالسين على ظاهرها، والتغاير في الحكاية والمحكي بناء على تكرر القصة. تفسير الألوسي (١٨/٣٤٧).

المعنى.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) ﴾ [الزخرف:٣٠ - ٣٦].

نظم بذلك من معنى التمتيع قوله: ﴿**وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ...**﴾ [الزخرف:٣٣] عرض لبره بالمؤمنين وحسن لطفه بهم في ترفيهه عنهم شدة المجاهدة ومصابرة حال تزل الأقدام عن سنن الهدى إلى الميل والإصغاء إلى مظان الغنى والملك والعافية بالهوى، فكان يفشو ذلك ويعم، فيصير الناس أمة واحدة على الكفر إلا من عصم الله هذا على الأكثر، فجعل الله - جل من قائل - دنيا صدر هذه الأمة في طريق آخرتها جمع لها بذلك خير العاجلة والآجلة.

قال الله - جل من قائل: ﴿**فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ**﴾ [آل عمران:١٤٨] والكافر مغبون في الدنيا، وإن بلغ ما وصفه الله - جلَّ ذكره - [...][1] عن مذاق طعم حلاوة الإيمان والتمتع بطاعة الله، وعلى العلم بالله والمعرفة به وطلب رضوانه، وهي الجنة المعجلة، وأما في الآخرة فاجتمع له الغبن كله لا ريب في ذلك، فإن الدنيا وإن استوسقت ملكًا وغنى فهو فيها قصير المدة، مبعض الوجود، وهو متاع قليل في جنب ما منعه في الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة في الملك الدائم والنعيم المقيم.

---

(١) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

فصل

ما جاء مثل هذا الخطاب منه - جلَّ ذكره - إلا وهو كائن ولو يومًا ما، وما أراه كائنًا إلا في مماليك الدجال - لعنه الله - فإنه جاء في الثابت عن رسول الله ﷺ: «أنه يطأ الأرض كلها إلا مكة والمدينة، وأنه ليمر بالخربة فيقول لها: أخرج ما معك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل»[1] وقد جاء في نبوة أشعيا عليه السلام ما يدل على هذا، ويعرض إليه قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يريد من يعرض ومن قرأ بفتح الشين من «يعش» فهو من العمى ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] هذا منتظم بما مضى من ذكر نسيان الذكر والغفلة عنه، يزين له الشيطان ما هو فيه من الأعراض والتعامي عن سبيل رشده.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٧ - ٤٤].

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الزخرف:٣٧] يقول ﷻ: إنه ليبلغ من تزيينهم الضلال إلى قرنائهم من الإنس أنهم يصدون عن السبيل وهم يحسبون أنهم مهتدون، يرونهم الحق في معرض الباطل والهدى في معرض الضلال، وبالغ هذا الدرك قد ضعف الرجاء في هدايته، كيف يهتدي من يعتقد أنه هو المهتدي؟ ومفهوم هذا أنه من والى الله ورسوله والذين آمنوا، وتابع التذكر والذكر والتفكر في كتاب الله وآياته قُيِّض له ملك وربما ملائكة، فهم له قرناء يلهمونه الذكر والعمل بطاعة الله وطلب رضوانه، ويكون له عند الموت وبعده، كما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠).

يقولون صلوات الله وسلامه على جميعهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩] انتظم هذا بما قبله من ذكر القرنين، فخاطب بهذا كل مقترن، وخطاب ما أبلغه وموعظة ما أوجعها للقلوب الحية، وينتظم هذا وهذا بما قبل وهم المعنيون في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] إلى قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ [الزخرف:٢٢ - ٢٣] المعنى إلى آخره.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٥ - ٥٠].

قوله عز من قائل: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥] هذا منتظم بما تقدم له من مخاطبته إياه ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٣ - ٤٤] أي: شرف لك ولهم في الدنيا، وذكر بوردهم ثواب الآخرة، لم يعن - وهو أعلم - أن يسأل الرسل وقد ذهبوا، ولا أن يسأل المرسل إليهم، فإنهم قد ضلوا عن هدايتهم واختلفوا من بعد العلم الذي جاءهم، فليسوا على ذلك بشهداء ولا بموثوقين عن أدائها، ولو سألهم فأخبروه بما ليس عنده لم يسعه أن يترك ما هو عليه إلى ما هو عندهم، بهذه أمره ﷺ في قوله: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام:١٥٠] المعنى حيث وقع وإنما أمره أن يسأل عنهم القرآن في قوله: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ

﴿لَا يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤] وأمره أيضًا أن يسأل عن ذلك علمه ويقينه والوحي الذي أوحى إليه، فذلك يخبره باليقين في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [محمد:١٤] هذا الكتاب والوحي، ويتلوه شاهد منه؛ أي: من إيمانه وعلمه ويقينه، غير هذا من التأويل محال.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف:٤٩] الساحر عندهم: العالم، وقد قال في موضع آخر: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] أي: بما خصك به وأظهر لك من بينات الأمر.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥٠ - ٥٦].

فقوله ﷻ فيما حكاه عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ [الزخرف:٥٢ - ٥٣] إلى قوله: ﴿فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤] المهين: الضعيف، لفقره استضعفه ولا يكاد يبين، قالوا للعقدة التي ذكر في لسانه قالوا: وتلك العقدة عن جمرة وضعها في فيه في صغره لقصة ذكروها لم يأت ما ذكروه من طريق مقطوع به أنه كان به خرس أو بكم، ولا يرسل الله لعباده إلا أكملهم، لا سيما موضع التبليغ.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤] وما ذكروه فليس على معهود الوحي ولا المراد به، وإنما كانت عقدة لسانه ﷺ أنه كان عبرانيًا، وكان قد نشأ بين القبط وربى في حجر فرعون، فكان يتكلم بالقبطية والعبرانية معًا، ولما فر من فرعون للجناية التي جناها عليهم خوفًا على نفسه ولبث في مدين سنين اعتقل لسانه عن القبطية لأجل ذلك، فكان فيها كالدخيل، فإن عبر

ببعض العبارة فقال - صلوات الله وسلامه عليه - يوم أمره ربه جلَّ ذكره بالتبليغ إلى فرعون وقومه: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه:٢٥-٢٨] وقال فرعون لما خاطبه ورأى ذلك منه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢].

يقول: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[1] [الزخرف:٥٣] كناية عن المُلك يقول: فهلا أعطاه الله الملك، فكان بذلك يقهر الناس ويغلبهم على أمرهم أو جاء معه الملائكة مقترنين؛ أي: يخبرون الناس على ما يأتيهم به ويحملونهم عليه ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥] قد يكون الأسف: الحزن، ويكون أيضًا: الغضب، لكن الفرق بينهما: إن كان الذي أسفك فوقك أحزنك، وإن كان ذلك ممن هو دونك أغضبك، ويتخرج معنى الحزن على أن يكون معنى الكلام: فلما أحزنوا أرسلنا وأولياؤنا انتقمنا منهم، ويتخرج المعنى على معنى قول الله - جلَّ ذكره: «**كنت سمعه الذي يسمع به...**»[2] وقوله: «**ابن آدم مرضت فلم تزرني**»[3] ولذلك قال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ [الزخرف:٥٥] وإلا كان يقول: «**فلما أغضبونا**» وهذا الخطاب بهذا القول مصداق للحديثين المتقدمين، فافهم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦] سلفًا للمهلكين بعدهم

---

(١) كناية عن تمليكه، قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسودده، فقال فرعون: هلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقًا، وهذا من اللعين؛ لزعمه أن الرئاسة من لوازم الرسالة كما قال كفار قريش في عظيم القريتين، والأسورة جمع: سوار، نحو: خمار وأخمرة، وقرأ الأعمش «**أَسَاوِرَ**» ورويت عن أبي، وعن أبي عمرو جمع أسورة، فهو جمع الجمع، وقرأ الجمهور: «**أساورة**» جمع: أسوار، بمعنى: السوار، والهاء عوض عن ياء أساوير، فإنها تكون في الجمع المحذوف مدته للعوض عنها كما في زنادقة جمع: زنديق. وقد قرأ «**أساوير**» عبد الله وأبي في الرواية المشهورة، وقرأ الضحاك: «ألقى» مبنيًا للفاعل؛ أي: الله تعالى «أساورة» بالنصب. تفسير الألوسي (١٨/٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

ومثلاً للآخرين يضربون بهم الأمثال فيتعظون بما أصابهم.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢)﴾ [الزخرف:٥٧ - ٦٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بالرفع: يعرضون، يصدون، بالكسر: يصحون تهزئًا وضحكًا، والكسر أعلى القراءتين.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩] أي: شبهة شبهنا بها عليهم والله أعلم، دلَّ على ذلك: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠].

فصل

قد يكون المثل مضروبًا للعبرة وأقرب ما يكون إلى إصابة المراد وهو - والله أعلم - أن يكون معنى قوله مثلاً لبني إسرائيل، فخصهم بالذكر؛ لأنهم المفتونون بالدجال، المسارعون إلى إجابته، فإن الدجال - لعنه الله - إن كان قد يجيء وتخرج له كنوز الأرض ويأتي بآيات عظيمة وقدرة قد قدرها رب العالمين لإتيانه لحكمة الله في ذلك، فإن عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - سيجيء له الصالحون، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه أن يعيش، وسيقتل الدجال فيمكن من جميع مماليكه وجميع مماليك يأجوج ومأجوج، وستخرج الأرض إليه أثقالها وتسير إليه بجميع بركاتها، حتى أن الدنيا ستعود إلى أفضل ما كانت قبل ولا يوم بدلها، وإنما المثل في ذلك متى جاء الدجال بتلك الآيات يدعو إلى نفسه فيعارض ما يأتي به بإحياء عيسى عليه السلام الموتى وتأييده بروح القدس، وكونه عن روح من الله جل جلاله وكلمته وإبرائه الأكمه والأبرص وإطلاقه الزمني وكفايته ضروب الابتلاء.

ولما بلغ يحيى بن زكريا عليه السلام وهو في الحبس أفعال المسيح أرسل إليه رجلين

من تلاميذه يقولان له: أنت المقبل أم غيرك ينتظر؟ فقال لهما ﷺ: أعلِما يحيى بما رأيتُما وسمعتُما فإن العمي يبصرون والصمّ يسمعون والعرج يمشون والجذماء يستقون والموتى يحيون والفقراء يستبشرون، فطوبى لمن تشكك نفسه فيّ بهذا، ومثل هذا يكون عيسى مثلاً لبني إسرائيل وغيرهم.

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] جعل له الإحياء بالريح الحي فنفخ في الطين على صور الطير فيصير طيرًا حيًّا، ويعلم كثيرًا من الغيب، ويتكلم بالحكمة، ويبرئ الأكمه والأبرص، هذا كله بإذن الله، كان ذلك من الله - جلّ ذكره - آية على أن الله يبلغ بالاختصاص إلى أكثر من ذلك ثم إلى ما شاء بمن شاء من عباده.

وقد فعل ذلك وزاد أضعافًا كثيرة بالملائكة - عليهم السلام - لكل صنف من العالم مقاربة بين صنف وصنف، يقال لذلك المقارب به الوصل، فإن الله قد خلق الجماد ثم قدر فيه النشأة إلى النبات وجعل منه بين الصنفين وصلاً بين الجماد والنبات؛ ثم أنشأ النبات إلى الحيوان فجعل بينهما وصلاً يلتقيان فيه؛ ثم أنشأ الحيوان فجعل بينه وبين الإنسان وصلاً؛ ثم أنشأ معنى الإنسانية فجعل بينه وبين النبي وصلاً هو الولي والصديق؛ ثم أنشأ الولاية والنبوة فجعل بين ذلك وبين الملك وصلاً هو النبي؛ ثم أنشأ ذلك مقاربة حتى أوجد تحقيق وصل بين ذلك كعيسى ابن مريم والخضر، ومن شاء الله ﷻ.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] فأخبر بأنه أوجد شياطين إنس فلا ينكر إذًا أن يوجد ملائكة إنس، وقد أخبر عن جواز إلحاق الحقيقة بقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] وبقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [الأنعام:٩] وقد تقدم من تبيان ما هذا سبيله في الكتاب ما فيه مرشد إلى الصواب، والله يقول الحق وهو يهدي إلى السبيل.

وبهذا التدريج والنشء يوقف على فضل الملك على الولي - عليهم السلام - إلا أن يكون من الله - جلّ ذكره - في عبده الولي إرادة خصوصية فهو أعلم.، على أنه قد جاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل متصلاً بما تقدم ذكره من قوله:

فطوبى لمن لم يشكك نفسه فيّ.

ثم جعل - صلوات الله وسلامه عليه - يحدث الناس عن يحيى بن زكريا عليه السلام يقول: ماذا أردتم بخروجكم إلى المفاز؛ يعني - والله أعلم - بالمفاز: عبادة غير الله عز وجل والعمل بغير أمره، أظننتم أنكم تجدون فضة تلويها الرياح مثل ضربه ليحيى في صلابته في الله، ثم قال: أتراكم تشوقتم إلى رجل عليه كسوة لينة أمس أقول لكم لم يولد في الآدميين أشرف من يحيى ولكن أصغر من في ملكوت السماوات هو أشرف منه، فكل كتاب أوتي منتهاه إلى يحيى وإن تقبلوا غيره هو في مثابة اليأس القادم؛ فمن كانت له أذن سامعة فلتسمع قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:٦١] أي: هو آتيها، فإذا نزل ﷺ فذلك آية على قرب الساعة وعلامة للانقراض، وقد قرئ «وإنه لعلم للساعة» وفي قراءة أُبي: «وإنه لذكر للساعة».

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف:٦٣ - ٧١].

قوله تعالى حكاية عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام: ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣] يعني: ما يختلفون فيه، وقوله: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠] هو - صلوات الله وسلامه عليه - معقب مقفى، تتميم للأمة فهم ما لم يبلغه فهمها، فيحل لهم ويحرم عليهم بذلك، ويتمم ما عليهم تتميمه.

قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف:٨]

فقد أتم من ذلك ما شاء وسيكمل الإتمام به، كما قال لبني إسرائيل: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠] وقال رسول الله ﷺ: «ويزيد في الحلال»[١] والله عليم حكيم.

قوله ﷻ: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف:٧٠] سئل رسول الله ﷺ عن الحبرة: ما هي؟ فقال: «اللذة والسماع لما شاء الله من ذكر»[٢].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف:٧٢ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾[٣] [الزخرف:٨١] يشبه أن يكون معنى ذلك الأنفين والعبد شبه الأنفة والحمية كل شيء يكرهه ويستنكفه تعبد لذلك؛ أي: تأنف، يذكر عن علي ﷺ أنه قال: عندتُ فصمتُ؛ يعني: أنفتُ فسكتُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٥٤٢).

(٢) ذكره القشيري في تفسيره (٧/٢٢٧).

(٣) أي: إن كان له ولد في قولكم وعلى زعمكم فأنا أوّل من عبد الله وحده؛ لأن من عبد الله وحده فقد دفع أن يكون له ولد، كذا قال ابن قتيبة. وقال الحسن والسدّي: إن المعنى: ما كان للرحمن ولد، ويكون قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾ ابتداء كلام. وقيل: المعنى: قل يا محمد: إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد. وفيه نفي للولد على أبلغ وجه وأتمّ عبارة وأحسن أسلوب، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني. فتح القدير (٦/٤١٨).

وأوجه التوجيهات في هذا - والله أعلم - فأنا أول العابدين لله والرحمن على معنى ما يأتي بعد هذا من قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السموات وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف:٨٢] أي: أنا أول العابدين على هذا المعتقد وعلى هذا الإيمان والعلم؛ فيكون تقدير الكلام إن كان للرحمن ولد عندكم فأنا أول العابدين له على التنزيه له والإكثار عن ذلك، وأقول: سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما تصفون.

ومن هذا اتباعه وتعقيبه بقوله الحق - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف:٨٣] وحقق ما تقدم بقوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾ [الزخرف:٨٤].

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٥ - ٨٩].

ثم أعقب ذلك بقوله العلي: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السموات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥] رميًا بذلك إلى الإعلام بملك الدار الآخرة وعظيم قدره؛ وذلك كله لا ينبغي لمن يجوز عليه أن يكون له ولد يكون أولاً له أو ولد يكون آخرًا له، سبحانه وله الحمد في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] أي: هو إله في السماء إله في الأرض، هو في السماء بما هو على العرش مستوى، لا تحويه الأقطار ولا تكتنفه الأمكنة والأزمان، ولا ينبغي لأحكامها أن تبلغ عزته وعظمته، بيّن ذلك بقوله الحق: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السموات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٨٥] علا بعلائه وعزته وعظمته عن أن تبلغه

الحدود والأقطار أو تناله الأحوال والأحكام، سبحانه وله الحمد.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾ [الزخرف:٨٨ - ٨٩] قرأ بالرفع للام من «قيلُه» والنصب والخفض، هذا سلام متاركة لا سلام تحية، وهو سلام تباعد لا سلام تواصل، بيّن ذلك قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٩].

ومن قرأ بكسر اللام من «قيلِه» فعطف على علم الساعة تقديره: وعنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب، ومن قرأ بفتح اللام فعطف على يسمع سرهم تقديره: يعلم سرهم ويسمع قيله يا رب، ومن ضم فعلى وجهين:

أحدهما: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧] وقيله يا رب.

والآخر: على الحكاية كما يقال، وقوله هذا الكلام كسرها عاصم والسلمي وحمزة، ونصبها أهل المدينة، وذكر ذلك عن الحسن.

تفسير سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ [الدخان:١ - ٩].

﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان:١ - ٢] قال في غير هذه ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ﴾ القرآن وكتاب مبين و﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء:١ - ٢] وأما في هذه فهو قسم بالكتاب المبين وتختلف المعاني باختلاف المراد المعبر عنه بها وقد قرئ ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان:١ - ٢] و﴿يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ [يس:١ - ٢] و﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [القلم:١] و﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] أو يكون ذكر الحروف المقطعة «حم» هي المعبر بها عن أسماء الوحي والحياة والروح والحلم والحكمة.

ثم أقسم بالكتاب المبين الذي هو لوح الوجود من سماوات وأرضين وجبال ونبات وحيوان ونجوم وأفلاك، مثال لذلك: اللوح المحفوظ ظاهر لغيب علمه في خلقه وهو باطن للوح الوجود، وكان القسم واقعًا على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة وفي جعله قرآنًا عربيًا ومظهرًا لما في أم الكتاب منه باطنًا لظاهر الوجود، فربما كان تقدير ذلك هذا وحي الحي القيوم بالروح من أمره نزل به الروح الأمين وحق الكتاب المبين، فإنه يقسم من مفعولاته بما شاء، أخبر عن قدرته ومشيئته وعلمه، فكأنه قسم به وبصفاته، ولما كان من العباد من أشرك بالمفعولات نهوا عن القسم بها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾(١) [الدخان:٣] يعني: ليلة القدر وجودها في العشر الأواخر من رمضان ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] بمعنى: محكم، ووصف الأمر أيضًا بأنه حكيم سائغ حسن، ويفسر اسمها من التقدير؛ أي: يقدر فيها ما هو كائن إلى مثلها أقل ذلك إلى العام المقبل ثم إلى ما شاء الله من مستقبل يفرق ذلك من التقدير المثبت في أم الكتاب؛ أي: يفصل، ثم

(١) واختلف أهل التأويل في تلك الليلة، أيّ ليلة من ليالي السنة هي؟ فقال بعضهم: هي ليلة القدر.

* ذكر من قال ذلك: عن قتادة (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ): ليلة القدر، ونزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان، ونزلت التوراة لستّ ليال مضت من رمضان، ونزل الزَّبور لستّ عشرة مضت من رمضان، ونزل الإنجيل لثمان عشرة مضت من رمضان، ونزل الفُرقَان لأربع وعشرين مضت من رمضان. وقال ابن زيد، في قوله عزّ وجلّ(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) قال: تلك الليلة ليلة القدر، أنزل الله هذا القرآن من أمّ الكتاب في ليلة القدر، ثم أنزله على الأنبياء في الليالي والأيام، وفي غير ليلة القدر. وقال آخرون: بل هي ليلة النصف من شعبان.

والصواب من القول في ذلك قول من قال: عنى بها ليلة القدر، لأن الله جلّ ثناؤه أخبر أن ذلك كذلك لقوله تعالى (إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) خلقْنا بهذا الكتاب الذي أنزلناه في الليلة المباركة عقوبتنا أن تحلّ بمن كفر منهم، فلم ينب إلى توحيدنا، وإفراد الألوهة لنا. وقوله (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) اختلف أهل التأويل في هذه الليلة التي يُفرق فيها كلّ أمر حكيم، نحو اختلافهم في الليلة المباركة، وذلك أن الهاء التي في قوله (فِيهَا) عائدة على الليلة المباركة، فقال بعضهم: هي ليلة القدر، يقضي فيها أمر السنة كلها من يموت، ومن يولد، ومن يعزّ، ومن يذل، وسائر أمور السنة.

* **ذكر من قال ذلك:** عن ربيعة بن كلثوم، قال: كنت عند الحسن، فقال له رجل: يا أبا سعيد، ليلة القدر في كلّ رمضان؟ قال: إي والله، إنها لفي كلّ رمضان، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كلّ أجل وأمل ورزق إلى مثلها. وعن ربيعة بن كلثوم، قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر، أفي كل رمضان هي؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي كل رمضان، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، يقضي الله كلّ أجل وخلق ورزق إلى مثلها. وعن عمر مولى غفرة، قال: يقال: ينسخ لملك الموت من يموت ليلة القدر إلى مثلها، وذلك لأن الله عزّ وجلّ يقول: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) وقال: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) قال: فتجد الرجل ينكح النساء، ويغرس الغرس واسمه في الأموات. وعن أبي مالك، في قوله: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) قال: أمر السنة إلى السنة ما كان من خلق أو رزق أو أجل أو مصيبة، أو نحو هذا. وعن هلال بن يساف، قال: كان يقال: انتظروا القضاء في شهر رمضان.

يكون بعد - أعني: الكائنات - كل على نوبها المكيفة وآجالها المحددة.

فصل

إذا كان ما تقدمه كما ذكرته فما معنى إنزاله إياه في ليلة القدر وقد قلت أنه يفرق فيها من أم الكتاب ما يكون من تلك الليلة إلى مثلها في المستقبل، والقرآن قلة الميون من السنين، وهو من الأمر المفروق؛ فالجواب: أن أقل ما تكون ليلة القدر له لوحًا سنة، كما جاء أن: «**الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما**»(١) كذلك ليلة القدر يفرق بعض ما يفصل فيها من الأمر منها إلى مثلها؛ كالصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة والرمضان إلى الرمضان، كذلك أسابيع ليلة القدر وأسابيع أسابيعهن وخواميسهن وأسابيعهن، ثم ضرب أسابيع الأسابيع وأسابيع الخواميس، والله أعلم.

قوله، له الحمد: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣] إنذار منه - عز جلاله - برفع القرآن الذي أنذر به رسول الله ﷺ وهو متصل الانتظام - والله أعلم بما ينزل - بمعنى ما تقدم أنذر بما يكون مما قدر كونه من ليلته إلى مثلها في عام عام، وفي خمس خمس، وتسع تسع، وتسع وأربعين إلى مثلها، وألف شهر إلى مثلها، وما ضرب فيه من خواميس وأسابيع، وما بين ذلك من تقدير العزيز العليم.

نظم بذلك قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٥] بشر بما يكون في ذلك مما قد قدره من نصر الإسلام وإظهاره وإصلاح جملة أهل الإسلام بلادًا وعبادًا، أو ما يديل من ذلك لبعض دون بعض، كما قال رسول الله ﷺ: «**دعوت الله لأمتي ألا يهلكهم بسنة عامة ودعوته ألا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فيستأصل شأفتهم ففعل**»(٢).

فدخلت النذارة في البشارة على هذا والبشارة في النذارة، حتى يأتي أمر الله في القرآن المفروق من أم الكتاب المحدود كونه ولبثه بين ظهراني العباد، وإن كان

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٠٥٨٤).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٧١٥٦) قال الهيثمي (٢٢١/٧): رجال أحمد رجال الصحيح. والبزار (٣٤٨٧).

المراد بقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: من لدنا القرآن؛ فالمعنى سواء فإنما أعلم القرآن بسر المراد من ظاهر الأمر المثبت في لوح الوجود، والقرآن هو المنزل بالملائكة بالروح من أمره على محمد رسول الله ﷺ، وما في ليلة القدر من خاصة خصها الله بها من فضيلة وإعلام بما يكون على نحو الإشارة إلى الناحية وبالأمم فهو أيضًا من أمره ووحيه فيها؛ لذلك هي ليلة القدر أمر من لدنه أيضًا كما قال: ﴿تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤].

فقرب بذكر الرسالة قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان:٦] كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان:٦] مشفع لدعاء من شفع عنده من الملائكة - عليهم السلام - في تأخير رفع القرآن وتأخير ساعة الانقراض وإيجاب المغفرة لأهل الأرض وللذين آمنوا، والتوبة عليهم والدعاء لهم بالإمهال والإصلاح حتى يبتغوا سبيله، عليم بما يكون منهم ومن تقديره وما قد كان.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان:٧] أي: بأنه رب كل شيء ومليكه، وأن السماوات تكدن أن يتفطرن من فوقهن، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، وبما يكون من إرجاعه الحكمة أواخرها على أوائلها، وفي ذلك تمام الآجال وتعويض من الأحكام بأحكام، ومن هو رب السماوات وما بينهما والكرسي الكريم والعرش العظيم، فله ملك ذلك وملكوته بما في ذلك من تدبير وتقدير وإنفاذ ما شاء إنفاذه من إحياء وإماتة وتقديم وتأخير وعطاء وحرمان إلى غير ذلك.

نظم بذلك قوله الحق - جلَّ ذكره: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩] أي: فمن أجل ذلك لا خشية لهم ولا رهبة عندهم ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:٣] يريد استصحاب هذا الأمر أو يكون المعنى وهم على عظيم هذا الشأن وجلاله الخطب في غفلة ولهو يلعبون.

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣)

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان:١٠ - ١٦].

أتبع ذلك قوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان:١٠] أول هذا الدخان كان في السبع السنين التي دعا عليهم فيها رسول الله ﷺ بقوله: «**اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»(١) فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والشعر والميتة، وكان أحدهم يرى بينه وبين السماء شبه الدخان، ولهذا قال ابن مسعود - رحمة الله عليه: «إن الدخان قد ذهب» وإنما كان ذلك آية على ما يأتي منه، وهو من جملة أشراط الساعة أحد العشرة منها، ووصْفُه ﷻ الدخان بأنه مبين لأهل هذا - والله أعلم - أي: أنه مبين عن ذلك وآية عليه كما يقول آيات بينات ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة:٢١١].

ثم قال: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان:١١] وفي مستقبل ذلك الدخان يقول الكافرون: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾(٢) [الدخان:١٢] ولم تقل قريش ذلك.

يقول - عز من قائل: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ [الدخان:١٣] كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد:١٨] هذا يؤيد القول بأن الدخان متأخر مجيئه إلى آخر الزمان، وأن ما ذكر من وجوده في أول الأمر هو آية على المتأخر منه.

يقول - عز من قائل: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ [الدخان:١٣] كيف لهم بها وقد جاءهم رسول مبين ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ هذا يشترك فيه العاملون من آخر هذه الأمة مع كفار أولها وهم قريش، ومن كان على سبيلهم فإنه يرجع على الأغلب المتولي منهم على المتولي الأول من أوائلهم، ثم خص بالذكر قريشًا بقوله: ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ضعف الإيمان ما يكون عند نزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.

مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان:١٤].

يقول تعالى: ﴿**إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ**﴾ [الدخان:١٥] يمكن أن تكون آية الدخان المستقبلة قبل عيسى ﷺ فيكشف العذاب بعبده ورسوله وذلك قليل، ثم هم بعد عائدون وما بعد ذلك إلا البشطة الكبرى، وقد يمكن أن يكون الدخان خارجًا في أيام مسيح الضلالة - لعنه الله - ويكون ذلك في الخمس الشداد، كما قال رسول الله ﷺ: «**حتى يهلك كل ذي حافر**» قيل له: فبم يعيش المؤمنون يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «**بما يعيش الملائكة**»[(١)] أي: بالتقديس والتسبيح، ويكون قوله: ﴿**إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ**﴾ [الدخان:١٥] معبرًا عن استقبال ذلك مع التراخي طول مدة اللعين.

وصف الله ﷻ يوم أمة محمد ﷺ من الدهر الذي هو العصر - يعني: واحد الأعصار - إلى وقت غروب الشمس منه؛ ولهذا والله أعلم كان من رسول الله ﷺ يوم قصد ابن صياد ليطلع على بعض شأنه، ولما لقيه وكلمه كما جاء به الخبر عنه قال له ﷺ: «**إني قد خبأت لك خبأ فما هو؟**»[(٢)] قال له ابن صياد: هو الدخ، وهي لغة في الدخان.

قال الشاعر يصف الشح:

تحت رواق البيت يغشى الدخان

ولما كان الدخان آية على ظهور الدجال أو سببًا من أسباب ظهوره ولم يكن الدجال بنفسه، بنا رسول الله ﷺ على تكهن ابن صائد هو الدخ، فقال: «**اخسأ فلن تعدو قدرك**»[(٣)] يقول: لست به.

وجاء في بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ لما كلم ابن صائد قال: «**اللهم إني قد خبأت له خباءً هو الدخان**»[(٤)] أو قال: «**سورة الدخان**»[(٥)] ثم قال له: «**إني قد**

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٩١٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٧٥٢٩).
(٣) انظر الحديث السابق.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٣٣).

خبأت لك خبأ»(١) فها هو قال: هو الدخ، وإنما خبأ له ﷺ ما هو آية على خروجه أو ما يكون في وقته، ثم صرف وجه الخطاب إلى محاجة قريش يقول: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان:١٥].

ثم صرف وجه الخطاب إلى يوم القيامة بقوله الحق: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦] أي: نكشف عنهم هذا العذاب وهم عائدون لا بد ولا محالة ينتظر بهم ﴿البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وما دون البطشة الكبرى هو انتقامه بالجزاء العاجل في هذه الدنيا، وبخاصة لقريش غزوة بدر فهي الصغرى بالإضافة إلى بطشته الكبرى يوم القيامة، ولتداخل هذا الخطاب بعضه في بعض قالوا: إن اللزام والبطشة والدخان قد مضت، وعلى القول بالحق إنما هذه كلها آيات على ما يأتي بعد هذه آيات عليهن وعلامات لهن فافهم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان:١٧ - ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾(٢) [الدخان:١٧] أي: وجيه عند الله - جلَّ ذكره - فيهم عن الهدى لوى برقابهم عنه ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾ [الدخان:١٨] كما قال: أن أرسل معي بني إسرائيل ولا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: امتحناهم بإرسال موسى ﷺ إليهم على أنه من فتن الفضة عرضها على النار، فيكون بمعنى الامتحان، وهو استعارة، والمراد: عاملناهم معاملة الممتحن؛ ليظهر حالهم لغيرهم، أو أوقعناهم في الفتنة على أنه بمعناه المعروف، والمراد بالفتنة حينئذٍ: ما يفتن به الشخص؛ أي: يغتر ويغفل عما فيه صلاحه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] وفسرت هنا بالإمهال وتوسيع الرزق. وفسر بعضهم الفتنة بالعذاب، ثم تجوز به عن المعاصي التي هي سبب وهو تكلف ما لا داعي له. وقرئ «فَتَّنَّا» بتشديد التاء إما لتأكيد معناه المصدري، أو لتكثير المفعول أو الفعل. تفسير الألوسي (١٨/٤٤٣).

تعذبهم رسول أمين يريد على الوحي ناصح لهم.

ثم قال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان:١٩] فكان إرساله إليه أن يرسل بني إسرائيل وأن يسلم كما قال: ﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات:١٨ - ١٩] وأرسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم.

قوله تعالى فيما حكاه عن رسوله ﷺ: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:٢٠ - ٢١] الرجم: قد يكون بسيئ القول، وهو القذف، وقد يكون القتل بالحجارة، فقد قالوا فيه: ساحر ومجنون وكذاب، وقال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر:٢٦] ولما بلغ ذلك موسى - صلوات الله وسلامه عليه - قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

يقول ﵇: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:٢١] أي: سالموني ينتظر بهم وعد الله تعالى.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان:٢٥ - ٣٣].

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان:٢٥ - ٢٦] وقال في سورة الظلة: ﴿أَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٧ - ٥٨].

لما كان المعهود من الزرع الحصد في أقرب المدة قابل ذلك بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٨] لم يكن لبني إسرائيل في تلك المدة رجوع إلى مصر، فأورث زروعها وجناتها وما فيها من مقام كريم قومًا آخرين ليسوا بآل

فرعون فإنهم قد أهلكوا، ولا ببني إسرائيل فإنهم قد عبروا البحر، ولما توطد ملكهم بالأرض المقدسة اتصل بمصر فورثوا كنوزها وأموالها وأرضها ونعمتها ومقامها الكريم.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، و«ذلك» مشار إليه، وهو إهلاكه الأمم قبلهم وبعدهم لأجل كفرهم وردهم رسالات ربهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات:١٨] وقال فيهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾(١) [الدخان:٢٩] أي: أنهم لم يؤخروا إلى عذاب الآخرة، ولا عظم قدر إهلاكهم لهوانهم في أهل السماوات والأرض، بل عجَّل لهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة فخسروا الدارين، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة، جاء أن المؤمن إذا مات بكى عليه مصعد عمله ومهبط رزقه حزنًا لفقده، والكافر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: ٣٤ - ٤٢].

قوله - عز من قائل - فيما حكاه عنهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ

(١) قال البقلي: كيف تبكي السماء والأرض على من يدَّعي الأنائية في ساحة كبرياء الأزل، والسماوات والأرضون في عظمها تصير هناك أقل من خردلة من هيبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السماوات والأرض؛ إذ ادَّعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكي على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياءً منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكي السماوات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماءُ والأرضُ تبكي بموت العلماء».

بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان:٣٥] قد علموا أنهم يموتون إثر هذه الحياة الدنيا كما مات آباؤهم الذين سألوا إرجاعهم، فالموتة الأولى هي إذن الموتة التي أعقبتها هذه الحياة، ثم قالوا مع هذا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان:٣٥] فقد أقروا بالموتة الأولى وبالإحياء منها وبالإماتة من هذه الحياة، وأنكروا البعث والنشور؛ أي: بعث الأجسام ونشرها مرة أخرى كما قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة:٤٧] فإذن إنما أنكروا خلق الأجسام ثانية والمجازاة، وهذا مقال الدهرية، يقولون: أنهم يحيون ويموتون ثم يحيون ثم يموتون لآماد ذكروها.

حكى الله ﷻ ذلك في كتابه عنهم بقوله الصدق: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧] وفي غير هذا الموضع: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

يقول الله وقوله الصدق ووعده الحق لرسوله ﷺ: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: هذه الحياة عن الموتة التي كانت قبلها ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: للجزاء بأعمالكم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٦] أنهم مجازون، فمن قال ممن ينسب إلى الإسلام والإيمان بما جاء في كتاب الله أن الأجسام بأعيانها ليست المعادة فقد غلط وأخطأ قول الحق، بل الله العليم القدير خالقها مرة أخرى ومعيدها للجزاء على ما هي عليه من البلاء، وكونها في التراب والأجواء وظلالها في وجود الموجودات إن ربك عليم قدير.

ولأجل هذا اغتبط السعداء - رضي الله عنا وعنهم - في مقامهم الأمين، حيث قال منهم القائل: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥١ - ٥٤] إلى قوله: ﴿تَالله إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات:٥٦] إلى قوله لأصحابه المكرمين - رضي الله عنا وعنهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى﴾ [الصافات:٥٨ - ٥٩] يعنون التي كانت قبل هذه الحياة ثم ماتوا عنها يقولون التي بقيت علينا ظواهرها: ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ فيها ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات:٥٩] كما هم الآن أولئك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الصافات:٦٠].

يقول الله - عز من قائل: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]

فيجدون جزاء ذلك حال الموت وفيما بعده الحياة الآخرة.

لذلك أعقبه هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السموات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[1] الذي هو الإرجاع إليه والجزاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨ - ٣٩] هذا منتظم بقولهم ردًا عليهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان:٣٥ - ٣٦].

يقول الله ﷻ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان:٣٧].

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السموات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] إلى آخر المعنى، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥ - ١١٦] لو نظروا إلى اختلاف الليل والنهار وتدوار الأفلاك، وإيلاج الأزمان بعضها في بعض لعلموا يقينًا أنه لا بد من حياتين وموتتين، وأن الابتداء كان من موت، وأن القرار يكون على حياة كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي: من موت ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج:٦٦] فالموت الآتي بعد حياتنا هذه يرجع على الموت الذي كانت حياتنا هذه عنه، ثم تكون الحياة الأخرى ترجع على هذه الحياة كدائرة من أربعة أجزاء، وفي ذلك يتبين الحق المخلوق به السماوات والأرض ما هو هذا المشاهد به عليه ذلك له.

نظم بذلك ما هو من العبرة قوله الحق: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ﴾ [الدخان:٤٠ - ٤٢] أي: لا يغني ناصر عن حميمه ولا ولي عن وليه، ولا من كان النصر منه في

---

(١) قال البقلي: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق، وذلك الحق حقُّ سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقق بأنوار حقائق اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛ لئلا يحترقوا بالبديهة في بروز سطوات قدسه وكبريائه.

الدنيا معهودًا فينصر، يقول: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ﴾ وإنما وجبت رحمته للمؤمنين، لما فصل النهار من الليل والليل من النهار، والخير من الشر، والضر من النفع، والإيمان من الكفر، وحدد الحدود وأجل الآجال دل بذلك كله على القضاء يوم الدنيا واستقبال اليوم الآخر.

ولما خلق السماوات والأرض وما بينهما وكل شيء له قانت وله عابد وساجد ومسبح وحامد ومكبر ومصلٍ ومنفق مما عنده، وشاهد له بما هو أهله من الوحدانية والتفرد بحقيقة الألوهية والأسماء الحسنى والصفات العلا، كان مالك ذلك كله دون ممانع له ولا مظاهر عليه أمر بما شاء وتمنى عما شاء، وكان ذلك منه في موجود ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما عليه من الحق الذي شرعه لها وفطرها عليه وهو الصراط المستقيم.

أرسل بذلك رسله وكتب به كتبه، واصطفى على ذلك وهدى، ووالى عليه وعادى، وأكرم به من شاء وأهان، وقرب من أجله من شاء وأقصى، فهو إذا قضى بتمام يوم الدنيا وأقبل بيوم الأخرى جمعهم بين يديه؛ ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فأمن بذلك المؤمنون وسلموا لله أنفسهم كما سبق لهم عنده في الأزل، فأوجب لهم بذلك رحمته النجاة من جهنم وعذابها والفوز العظيم من الجنة ومثال ما فيها، وهذا من الحق المخلوق به السماوات والأرض الجنة وجهنم، من ذلك ما نظم به من ذكر جهنم والجنة قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ [الدخان:٤٣].

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٣ - ٥٠].

قوله ﷻ وقوله الحق: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤] هو: المتكبر الكافر ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ * كَغَلْيِ الحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٥ - ٤٦] قالوا: المهل: عكر الزيت. وقالوا: الصديد، والله أعلم.

والصديد بما هو حيثما حلَّ من الجسد فسكن فيه أفسده ورهله، هذا معهوده في الدنيا، ولأنه كان من دمائهم ولحومهم فهو شرابهم، وإليه يؤول طعامهم يغلي في البطون كغلي الحميم، وربما كان كعكر الزيت لونًا وصديدًا في الحقيقة، وشجرة الزقوم في جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - في مقابلة شجرة طوبى في الجنة، نسأل الله رحمته في يسر وعافية.

قالوا: هي أيبس من الحجر وأحر من النار حال السعير وأبرد من الزمهرير في دولته، تتحول في بطونهم غليانًا في السعير ونكالاً في الزمهرير، يضطرون إلى أكلها وإلى شراب الغسلين كما يضطر أهل الدنيا لإدخال الطعام والشراب.

قال الله - عز من قائل: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي: في موجودات الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ فيما هو عنها ومنها ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

يقول - عز من قائل: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾[1] العتل: هو أن تأخذ بتلبيب الرجل فتجره إليك ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٤٧] وسطها ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨] هو: مطر يمطرونه من فوقهم له عذاب زائد إلى ما هم فيه، كما أن بركة الماء تنزل من السماء ليست لغير ذلك، كذلك لما ينزل عليهم مما هو بدل من ماء السماء عذاب يجدونه ليس لسواه.

لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨] فمن ذلك أنه يصهر به جلودهم ولحومهم، ويضطرون إلى شربه فيصهر به أيضًا ما في بطونهم من حشوة - نعوذ بالله من عذابه ومن جميع ما يوجبه - ثم يسحبون فيه وقد انسلخت جلودهم عن لحومهم فيسجرون في النار؛ أي: يوقدون.

---

(١) قال الراغب: العتل: الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر، وبعضهم يعبر بالثوب بدل الشيء، وليس ذاك بلازم، والمدار على الجر مع الإمساك بعنف. وقال الأعمش ومجاهد: معنى «اعتلوه»: اقصفون كما يقصف الحطب، والظاهر عليه التضمين أو تعلق الجار بـ«خذوه» والمعنى الأول هو المشهور. وقرأ زيد بن علي والحجازيان وابن عامر ويعقوب: «خُذُوهُ فاعتلوه» بضم التاء، وروي ذلك عن الحسن وقتادة والأعرج، على أنه من باب قعد، وعلى قراءة الجمهور من باب نصر، وهما لغتان. تفسير الألوسي (٤٧٩/١٨).

يُقال للآثم على ذلك: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] هذا الآثم كان في الدنيا داعيًا إلى نفسه نازع ربه العزة والكرم فقصمه، يقال له ذلك على التهزؤ منه، وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال يومًا للنبي : ﷺ ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني، فإن يكن هذا هكذا فليس أيضًا بمقصود عليه ذلك وحده، فإنه يقال لهم: ﴿هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان:٥٠] هذا مما يعرف يقينًا من الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، فافهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان:٥١ - ٥٩].

نظم بذلك ما هو من العبرة بالحق المذكور قوله الحق: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١] بالفتح في الميم وضمها، فمن قرأ بضمها فقراءته خارجة على وصف كون التقي في جنات وعيون، ومن قرأ بنصبها فقراءته خارجة على وصف حالهم فيها وإقامتهم ولبسهم السندس والاستبرق، فإن المقام: هو الإقامة بالمكان. وبالفتح هو: المكان الذي يقام فيه والحال الذي ينال في ذلك المقام.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، و«ذلك» مشار إليه، وهو المعهود في الدنيا أي: كالذي عهدتم منه بما هو مشبه به على بعد من الشبه وآية عليه، ثم قال: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان:٥٤] وفي قراءة عبد الله: «وأمددناهم بعيس عين» والعيساء: البيضاء الحوراء.

وقرأ عكرمة: «وزوجناهم بحور عين» على الإضافة، وقرأها إبراهيم النخعي: «وزوجناهم بعين عين».

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ ما يتحد ويستدعى بعد قضاء الحاجة فهو فاكهة، ونقل المستعمل كذلك بفاكهة «فاكهين مسرورين» وتقرأ: «فكهين» يعني: أشرين

فرحين، وهو معدول من الفكاهة، فكه الرجل؛ أي: مزح، ومتفكه: مسرور متنعم ﴿آمِنِينَ﴾ [الدخان:٥٥] من حساب ومن عذاب ومن غضب ربهم، ومن مؤاخذة بما هم فيه، قد علموا أن ربهم راضٍ عنهم، وبذلك طابت الجنة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

ثم قال - وقوله الحق: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ﴾ [الدخان:٥٦] لما كان من في النار من الموحدين تمسهم النار بما كانوا في الدنيا يكسبون، يميتهم الله فيها إماتة وكأن الكفار فيها لا يحيون ولا يموتون، وصفهم بقوله الحق ووعده الصدق: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلَّا المَوْتَةَ الأُولَى﴾ [الدخان:٥٦] التي كانوا ماتوها في الدنيا، وحسن الاستثناء بموت أصابهم في الدنيا من حال يكون لهم في الجنة من أجل أن الدنيا إذا تحققت في حق المؤمن التقي وتتبع النظر فيها فإنها جنة صغرى؛ لتوليه إياهم فيها وقربه منهم ونظره إليهم، وذكرهم له وعبادتهم وشغلهم به وهو معهم أينما كانوا، ويفتح برحمته في الدنيا ورؤية المؤمن ذلك وعلمه به وإطلاع الله - جلَّ ذكره - إياه على ذلك.

قال رسول الله ﷺ في مجالس الذكر: «**إنها رياض الجنة**»(١) وكذلك سائر العبادات المؤدية إلى الجنة جنة، فحسن لذلك الاستثناء من هذه، فافهم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجَحِيمِ * فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان:٥٦ - ٥٧] كانوا في الدنيا خلقوا من فيح جهنم وفتح رحمة الله وغذوا بذلك ونشأوا عنه.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًا﴾ [مريم:٧١] فكان العذاب في جهنم والنعيم في الجنة لهم لزامًا، فامتن عليهم بفضله ورحمته أن عدل بهم إلى جنبة الجنة ووقاهم عذاب الجحيم.

يقول الله - جل من قائل ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد:٢١] لذلك

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٤٥) والترمذي (٣٥١٠) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (٣٤٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩)، والطبراني في الدعاء (١٨٩٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٨).

قال، عز من قائل: ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الدخان:٥٧].

فصل

قال الله - جل من قائل: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:١٠٢] فذكر الله - جلَّ ذكره - أيام الأمم في هذه السورة، فمن يوم أمعن في وصفه، وهو يوم محمد ﷺ وأمته، ثم يوم موسى وأمته مختصرًا، ثم أحال على أيام القرون غيرهم، ثم ذكر بيوم الحق المخلوق به السماوات والأرض، ثم بيوم الفصل وأن منهم المرحوم وغيرهم، ثم بيوم الفرار ووصف الدارين بأبلغ وصف.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨] أي: بما حواه الخطاب من ذكر الخزائن في عاجل وآجل ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان:٥٩] أي: بما ذكر فيه من علم بمآل ما حواه يومه الذي أوله ليلة القدر المنزل فيها القرآن إلى آخر أجله وقت رفعه، ثم إلى يوم البطشة الكبرى يوم الانقراض، وبحق ما جاء وصف هذه السورة في العظم وإجزال حظ قارئها، وأن فيها لما قال رسول الله في حملة القرآن: «**فيه علم ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم**»(١).

فصل

قال الله - عز من قائل - حاكيًا عن أهل الجنة عندما يقفون عليه من رحمته بهم وغبطتهم بكريم منقلبهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الصافات:٥٨ - ٦٠].

وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك فكاك رقبتي من النار**»(٢) وكما أن هذه جنة صغرى بالإضافة إلى المؤمن، كذلك هي جهنم الصغرى بالإضافة إلى الكافر.

قال الله - جل من قائل - يوم قضاء القضية لأهل اليمين: «**هؤلاء للجنة وبعمل**

---

(١) أخرجه أحمد (٧٠٤)، والدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (٢٦٩)، والبزار (٨٣٤)، وأبو يعلى (٣٦٧).

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (١٨٩٧).

أهل الجنة يعملون»[١] وقال لأهل القضية الأخرى: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[٢] وقد عبر الوحي عن أعمال أهل الطاعة بأنها جنة، وعن أعمال أهل الكفر والمعاصي بأنها من النار، كما جاء في عائد المريض: «**أنه في خرفة من خرف الجنة**»[٣] وفي مجلس الذكر: «**أنه روضة من رياض الجنة**»[٤] وقال رسول الله ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»[٥] وقال في أعمال المعاصي ما يقابل ذلك كقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا**﴾ [النساء:١٠].

وقول الرسول ﷺ: «**الذي يشرب في آنية الذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»[٦] كما قال في المصلي: «**إنه يناجي ربه وأن الله مواجهه إذا صلى**»[٧] وقد جاء في ذلك أن الله ﷻ يقول: «**ما ترددت في شيء ترددي في مؤمن يكره الموت ولا بد له منه**»[٨].

معنى ذلك: إنه في الجنة وفي جوار الله ﷻ والعمل بطاعته، وقد آمن بالمصيرين والقضاء قد سبق عليه بوجوب الموت لمعنى ما ولحكمة بالغة له في ذلك، والعبارة بمعنى التردد هو هذا - والله أعلم - فقول أهل الجنة في مقعد الصدق: ﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى**﴾ [الصافات:٥٨ - ٥٩] التي كانت في الحياة الأولى واستثنوها من الموتة التي أصابت من أصابته في النار من هذا المعنى؛ لأنها جنة، فحسن الاستثناء منها.

ومن ذلك: قول الله - جل من قائل: ﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٥٦٨)، والطبراني (١٤٤٦)، والطيالسي (٩٨٨)، وابن حبان (٢٩٥٧).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه أحمد (٧٢٢٢)، والبخاري (٦٩٠٤)، ومسلم (١٣٩١)، والترمذي (٣٩١٦) وابن حبان (٣٧٥٠).

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٨٧٨).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٦٨٢)، وأحمد (٤٩٠٨).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا (١)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٨/٨)، وابن عساكر (٩٥/٧).

الأُولَى﴾[(١)] [الدخان:٥٦] والكافر يُلقى في النار فهو لا يموت فيها ولا يحيى، وهو في حال البرزخ يحيا لعذاب ما هنالك، وإنما يعطى من الإحياء القدر الذي يحس به عذاب ما هو فيه، وما يعلم به جري مقامه وقدر ما فاته ويبالغ له في ذلك جدًّا، وقد جاء أن: «**قومًا تشرخ رءوسهم، وقوم تشرشر أشداقهم، وقوم يقتلون بكل من قتلوه**»[(٢)] وهذا كله يعطي إماتة كبيرة إلى حياة خسيسة مخزية، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة وفيما بين ذلك.

نظم بذلك قوله: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [الدخان:٥٨] الدنيا والآخرة وما بين ذلك والمصيرين ويناسب الأولى من الآخرة.

﴿**فَارْتَقِبْ**﴾ أي: ما يعروهم ويصيبهم من أجل تكذيبهم وكفرهم ﴿**إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ**﴾ [الدخان:٥٩] موتك وذهابك؛ لأنهم لا يعقلون مآل هذا كله، فالمفهوم مما ذكره في هذه الصحيفة المباركة المطهرة الصادقة: أن العبد نائل عند خروجه من هذه الدار وحلول الموت به من وعد الله ووعيده ما هو وجوده على التوسط والمرج من جنة أو جهنم بين موجود ما في هذه الحياة الدنيا وبين ما هو في الحياة الآخرة، ولذلك ما أخبر بقوله الصدق عن المتقين أنهم في مقام أمين في جنات

---

(١) قال الورتجيبي: افهم يا فَهِم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن، فأطوار الخليقة إلى الأبد في تقلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكمن الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانين ألبسهم الله لباس بقائه؛ فيبقون ببقائه أبد الآبدين، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق لا على التأويل فيأرب موت هناك؛ ويأرب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

(٢) ذكره ابن تيمية في منهاج السنة (٧٢/٥)، وقال: هذا كذب، فإن المعراج كان بمكة قبل الهجرة بإجماع الناس.

وعيون؛ أي: الآن كما قال في غير هذه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات:١٥ - ١٦] فذكر ذلك على الحال في قوله: ﴿آخِذِينَ﴾ أي: هذه حالهم الآن، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

تفسير سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾ [الجاثية:١ - ١٠].

قوله - عز من قائل: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ [الجاثية:١ - ٢] أي: اللوح المحفوظ، تنزيل: تيسير فهمه وتيسره للتذكر ﴿مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ [الجاثية:٢].

ثم أنشأ يذكر من [نسخه][(١)] الكتاب المبين بقوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣] إلى قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية:٥] ذكر عن الفراء أنه قال في قراءة عبد الله: «آيات» في [ثلاثتها][(٢)]، وكذلك قرأ عبد الله: «وفي اختلاف الليل والنهار» بزيادة «في».

فصل

قوله: آيات لقوم يؤمنون و﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[(٣)] [الجاثية:٤] و﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

---

(١) هكذا في (خ).

(٢) هكذا في (خ)، وغير واضحة في (ف).

(٣) قال الورتجيبي: أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضًا، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين =

[الجاثية:٥] أي: آيات موصلة إليه وإلى مقتضيات أسمائه وصفاته، واليقين بالحق الذي فطر الخليقة كلها عليه في النظر في الكائنات من السماوات والأرضين وما بين ذلك بدءًا يحصل الإيمان، ثم بمداومة البحث وتعاهد الأذكار واستصحاب الاعتبار يترقى في الدرجات، وبالنظر من المرء في نفسه وخلقته وخلقه وصفاته وأسمائه يتحصل اليقين، ثم بمداومة التعبد ولزوم التقوى إلى الممات يتحصل القرب ومحض المعرفة وعلي العلم.

ويلحق بذلك النظر في الحيوان والجماد أيضًا لكن على حكم تمهيد النشء، وبالنظر في النشأة الأولى تعرف النشأة الآخرة، وبالتفكر في وجود الدنيا تعقل وجود الآخرة، وبالنظر في موجوداتها تعلم موجودات ما هنالك، وبالتذكر لصغر الدنيا والإيمان بانقطاعها والطريق المؤدي إلى الإيمان بذلك هو في اختلاف الليل والنهار وتعاقب الأزمان ودوران الأفلاك، ثم بذلك يعلم كبر الآخرة وسعتها وفضلها على هذه، وطريق ذلك استصحاب حكم النشء، وأن ذلك كله صائر من صغر إلى كبر، وبذلك يتقرر العلم بتوالي وجود الآخرة، وهو المسمى بالخلود، وبرؤية تيسير الله - جلَّ ذكره - إجزاءه الموجودات في الدنيا حال إعدامه إياها إلى موجودات أخر تنشأ عن ذلك أو تفنى عندها لمعنى مرصد بها يعقل إرجاعه إياها إليها على سبلها يوم بعثها حين إحيائها، ويحصل اليقين الحق بذلك بالوقوف على المحصول من أن من الله - ﷻ - المبدأ وإليه إذًا المنتهى، وإليه المرجع والعود عنه، بدأنا وإليه يعيدنا كما بدأنا من التراب وإليه يعيدنا، فلا بد من لقاء الله لا مرية في ذلك.

نظم بذلك قوله: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ**

=

والإيمان فروقٌ كثيرةٌ، وحقيقة الإيمان هو اليقين؛ حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُك إيمانًا يباشرُ قلبِي ويقينًا ليس بعده كفرٌ». قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالاتٌ وآياتٌ على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحِّد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدي لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦].

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)﴾ [الجاثية: ١١ - ١٧].

نظم بذلك قوله - جل من قائل: **﴿هَذَا هُدًى﴾** [الجاثية:١١] يعني، وهو أعلم: القرآن والوجود الذي قدم ذكره قوله تعالى: **﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾** [الجاثية:١٢] أي: بحفظه وكلأته وإذنه وبأمره أيضًا الذي إليه المصير في الدار الآخرة **﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [الجاثية:١٢] يقول: فتصيروا إلى أمثالها فيما هنالك وما هو خير من هذا وأبقى، ويعم ما هاهنا قد عم به المؤمن والكافر، فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، يصير فيما هنالك إلى جزاء ما عمل وجزاء ما آمن به جزاءً وفاقًا، ومن كفر يصير في ظلمات تهوره إلى جزاء ما عمله وجزاء ما كفر به في أسفل السافلين **﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾** [الأنعام:١٣٩] فافهم.

أتبع ذلك ما هو منه قوله - جلَّ ذكره: **﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾** [الجاثية:١٣] أي: من عنده، هذا فيما يكون النظر فيه من جهة الإيجاد والخلق، وإن كان النظر جاملاً في الإنعام والمن والفضل فمن مشيئته به وقدرته عليه، وإن كان المنظور فيه فيما هو الهداية والآيات والدلالات وأنه النور والعالم كله كبيت ملئ سرجًا وأضواء ونيرات بهن يتبين موجودات البيت، وإن كان البحث عن منبعث الأنوار والهدايات والعلامات والدلالات وجاعلها فارجع إلى ما

تقدم ذكره من الشرح التي أضاء به البيت؛ فتوهم الزيت الذي تضيء به السرج فهو المنبعث والشجرة المباركة الزيتونة مَثَل للحق المخلوق به السماوات والأرض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

وقرأ ابن عباس وعبيد الله بن عبيد بن عمير: «وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا مِنّة» مثقلة منونة على المصدر، وقرأ مسلمة بن حارث: «مَنُّهُ» بفتح الميم وضم النون والهاء مثقلة، ويروى عنه: «مِنَّه» بفتح النون ورفع التاء وكسر الميم أي: ذلك مِنّه.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية:١٤] هذا الخطاب حيث جاء وشبهه من الشيء المذكور في قوله - جل من قائل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أو مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] وليس ينسخ، وهو حكم يجيء ويذهب، وعلى قدر القدرة على الانتصار والموجد، وكان نزل مثل هذا ورسول الله ﷺ بمكة والمسلمون والإسلام في ضعف، ولما ظهر الإسلام بعد الهجرة وغلب - والحمد لله رب العالمين - نزلت آيات الانتصار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقتال والجهاد، وتركت هذه وأشباهها مسطورة في القرآن مرصدة لما عسى أن يدور من دائرة.

وقوله - جلَّ ذكره: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ [الجاثية:١٤] تنبيه لأولي الألباب على صحة ما ذكرنا مع ما قد أوضحه الوجود فأيام الله للإسلام والمسلمين هي دوائر حكمه لهم بالغلبة على أعداء الإسلام من سبيهم وقتلهم واستيلائهم على أرضهم وديارهم وإعزاز الإسلام والمسلمين، وهي بنفسها نقم من الله على أعدائه وأعداء المسلمين، ومن أيامه أن يبتلي المسلمين بتدوار الدائرة عليهم إدالة لأهل الكفر عليهم، وتنبيهًا للمسلمين ليراجعوا أمرهم ويصلحوا ما بينهم وبين ربهم بالتوبة، فقوله: ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ [الجاثية:١٤] أي: لكم التي أتى بها من النصر لكم والتمكين والإعزاز، وإنما هو يدبر ﷻ الأمر ويديل الأيام بين الناس ليجزي العباد بما كسبوا من خير وشر، لذلك نظم به: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:١٥] فهذا وما كان في معناه هو: النشء لا النسخ، فافهم فهمنا الله وإياك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا
السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية:١٨ - ٢٢].

نظم بذلك ما هو في معناه قوله الحق: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾(١) [الجاثية:٢١] يقول - عز من قائل: انظروا إلى مجيء أحدهم، فإن كان عاملاً بالإيمان والإحسان وطاعة الله كذلك يكون مماته وحاله فيها وبالضد، وسمى الحياة للمؤمنين والكافرين والممات للصنفين على معنى قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وإلا فالمؤمن حي في الدنيا حتى حال الموت، والكافر ميت في الدنيا ميت في الآخرة إلا ما كان من معنى الحياة تلحقه لإذاقة العذاب الذي يصيبه، وتكون على معنى أنها من النشء.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية:٢١] يعني: الكفار أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨] يعني: في الدنيا بالقتل والجلاء والخزي، وفي الآخرة عذاب جهنم، ويكون معنى

(١) استئناف مسوق لبيان حال المسيئين والمحسنين إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و«أَمْ» منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهمزة لإنكار الحسبان على معنى أنه لا يليق ولا ينبغي لظهور خلافه، والاجتراح: الاكتساب، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدي، وجاء: «هو جارحة أهله» أي: كاسبهم. وقال الراغب: الاجتراح: اكتساب الإثم، وأصله من الجراحة، كما أن الاقتراف من قرف القرحة، والظاهر تفسيره ها هنا بالاكتساب لمكان السيئات، والمراد بها على ما في «البحر»: سيئات الكفر. تفسير الألوسي (١٩/١٩).

ذلك أيضًا في جنبة الخلائف والخلوف ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: المؤمنين العاصين، أن نجعلهم في النصر والغلبة لأعدائهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهم عصيان هؤلاء وإدالة أعدائهم عليهم ومماتهم في نزولهم عن ثواب المتقين في الآخرة ونصرهم وأمنهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

ويكون المعنى أيضًا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية:٢١] أي: الكفر كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، يقول: انظروا إلى محيا هؤلاء عمى وكفرًا وضلالة، فإنهم في مماتهم وبعد مماتهم في جزاء ذلك وإلى محيا هؤلاء هداية وإيمانًا وإحسانًا، ففي جزاء ذلك يكونون حال مماتهم، وبعد ذلك يوم الحشر والعرض على الله ﷻ في يوم الخلود ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠].

نظم بذلك ما هو إتمام للعبرة قوله الحق: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] وفي معهود الحق المخلوق به السماوات والأرض، وموعود القرآن والوحي الإعلام والجزاء واستيفاء الحق مع التعريض بالفضل وإعطاء القسط وإقامة الوزن مع الإعلام بالتجاوز والعفو.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية:٢٣ - ٢٦].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قرئ: «آلهة هواه» أي: أنه يعبد ما يهوى ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: على علم من الله تعالى أنه لا يهتدي، وأنه يستحب العمى على الهدى ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾

ويكون المعنى أيضًا على علم منه بالهدى فأعرض عنه، وعلم ذلك يتحصل لهم بالفطرة يريد فعل ذلك به عقوبة لإعراضه عن الهدى بعد إذ جاءه ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ [الجاثية:٢٣] إذا كان المرء لا يقدر على هداية نفسه فكيف يهديه غيره إلا الله لا إله إلا هو؟!.

فصل

ذكر عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: القدر سر من أسرار **الله**، وحجاب من حُجَب الله، مثله كمثل بحر عميق كما بين السماء والأرض، في قعره شمس تضيء لا يطلعها إلا المدبر الحكيم، وإذا كان يوم القيامة كشف عن علم القدر، فعلم الخلق ﴿أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج:١٠] ومن تكلم فيه فقد ضاد الله في ملكه وكاشفه في سره، وأن الله سبحانه قد علم في الأزل ما العباد به عاملون، كما قال: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ويكتب للعبد في بطن أمه رزقه وعمله وعمره وشقي أم سعيد**»[1].

وفي هذا أنه لا بد ولا محالة قد سبق علمه العلي بما هم به عاملون لو جعل المشيئة إليهم، فكتب علمه في عمل كل واحد منهم بما هو محقه لنفسه ومؤثره إذا هو أوجده لو كانت المشيئة إليه، ثم استعمل كلاً بما علم منه من مشيئته التي هو يشاؤها لو جعل المشيئة إليه فصار كل الخلق محمولاً على ما علمه **الله** منه أنه يفعله بمشيئته من نفسه لنفسه وإرادته لذاته مقسورًا عليه لا بد من فعله ولا خروج له عنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ وفي قراءة عبد **الله**: «**وما يهلكنا إلا دهر**» لما لم يقولوها عن علم صحيح مستقر في قرارة قلوبهم لم تنسبهم إلى العلم، وإن كانوا قد وافقوا الحق فلم يصوب مقالهم فقال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالدهر، والله أعلم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤] وإنما عنوا بقولهم الدهر: الزمان، والدهر هو: الله لا إله

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٧٤٥٤).

إلا هو.

قال في غير هذا الموضع: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:٣٩] أي: كذلك قالوا وكذبوا قولهم بفعلهم.

وقال في موضع آخر: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

يقول الله - جل من قائل: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٦].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) ﴾ [الجاثية:٢٧ - ٣١].

أتبع ذلك: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لا يعجزه شيء ولا يفوته فائت، يحيي ويميت ثم يحيي ويفعل ما يريد؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية:٢٧] خسروا أنفسهم وأهليهم والجنة وجوار ربهم ﷻ وملك السماوات والأرض ما هو باطنهن وهي الآخرة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧) ﴾ [الجاثية:٣٢ - ٣٧].

نظم بذلك خسارتهم وغبينتهم قوله يخاطبون في النار: ﴿اليَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: دون إكرام ولا دخول الجنة فيها كما تركتم الإيمان والعمل في النجاة منها، ثم قال وعطف بالواو: ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: حال الموت طول مدة البرزخ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية:٣٤].

نظم بذلك قوله: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ الله هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية:٣٥] بأنهم غرتهم الحياة الدنيا استحقوا البقاء في العذاب طول أعمارهم، وباتخاذهم آيات الله هزوًا وغفلتهم عن آيات الله في الوجود استحقوا أن يمكثوا فيها مادامت السماوات والأرض، وبكفرهم بالله وبآيات الله ولقائه وبما له من الأسماء والصفات استحقوا الخلود أبدًا في البعد من جوار الله ﷻ في الدار الآخرة.

تفسير سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف:١ - ٥].

قوله ﷻ: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾[1] [الأحقاف:١ - ٢] محذوف «هذا» والله أعلم، فاستمعوا له وأحضروه قلوبكم أو ما يكون معناه هذا.

قوله ﷻ: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف:٣] وقد تقدم أن جميع الوجود أوله وآخره نسخة لأم الكتاب، والسماوات والأرض إشارة إلى بعض الوجود، وبعضه يعطى من الدلالة على المطلوب ما يعطيه الكل بوجه ما غير أن ما علا أوضح دلالة وأقرب شهادة وأبين إشارة، وما صغر من الموجودات دلالته محملة يحتاج المستعرض فيه إلى التثبت وتدقيق النظر والبحث.

وقد تقدم الكلام في الحق الذي تضمنه وجود السماوات والأرض وما بين ذلك والمشير إلى انقضاء الآجال، والشاهد عليه هو في تدوار الدوائر بالأمر ورجوع أواخر الحكمة بذلك على أوائلها، والإقبال بأوائلها على أواخرها من الليل والنهار والشمس والقمر وتسيار الكواكب واختلاف الأزمان إلى غير ذلك.

---

(١) هذه السورة مكية، وعن ابن عباس وقتادة: إن ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ و﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ﴾ الآيتين مدنيتان. ومناسبة أولها لما قبلها: إن في آخر ما قبلها ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية:٣٥] وقلتم: إنه ﷺ اختلقها، فقال تعالى: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ وهاتان الصفتان هما آخر تلك، وهما أول هذه. تفسير البحر المحيط (١٠/٤٥).

يقول الله - جل من قائل: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾ [الأحقاف: ٣] شهدت عندهم شواهد الوجود فما سمعوا لها ولا أصغوا إليها، وأنذرتهم الرسل والكتب من عند الله فأعرضوا عنها.

قوله - عز من قائل: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ**﴾ [الأحقاف:٤] وفي قراءة ابن مسعود: «قل أرأيتكم من تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض» هذا كله من تنزيل الكتاب المبين وتبيين له وتيسير.

أتبع ذلك قوله: ﴿**ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أو أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ**﴾ [الأحقاف:٤] وقرئ «أو أثرة» بغير ألف، قراءة قتادة، فالأثرة: خاصة العلم، وكالمكنون منه يخص الله به قومًا دون قوم.

قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**إنكم سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»(١) يقول: سيأتي بعدي أمراء يؤثرون عليكم سواكم ويستأثرون بأموال الله دونكم فاصبروا.

والأثارة: هي البقية من أثر يؤثر من كل شيء يرى بعد ذهابه وحال دروسه، والأثارة من العلم: ما يأثره خلف عن سلف وقوم عن قوم يتحدثون به في أثارهم، يعني: بعدهم.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه: «**الخط**»(٢).

وسئل عن الخط، فقال: «**كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك**»(٣).

وقد قرئ «أو إثْرة» بتسكين الثاء، وهي: كالخطفة، فقوله: ﴿**أو أَثَارَةٍ**﴾ كأنه قال: ائتوني بمن أوثر بعلم؛ أي: من علم النبوة أو نبوة قبل هذا أنبأكم أو أمركم بعبادة ما تعبدون، والأثرة هي: المنزلة في ذلك والمكانة، فإن صح أن المراد بالأثرة هو الخط، وجاء من طريق صحيح مقطوع به، فالخط أيضًا يوضح طريقه إلى ذلك النبي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٠٠١)، وأحمد (١٦٥١٧)، والبخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١).
(٢) أخرجه أحمد (١٩٩٢).
(٣) أخرجه أحمد (٢٣٨١٦)، ومسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨).

الذي كان يخط أنه هذا الخط، فهي أثرة.

لكن الطريق إلى ذلك غير واضح فيه إشكال كبير، ولعله أراد - جل من مريد وعز: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ يعني: القرآن، بكتاب كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف إذا صحت الطريق إليها، وهذا سنام الهدى، ثم نزل إلى ما هو دون ذلك فقال: ﴿أو أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ كما يقول القائل: ائتني على صحة ما تقول وتزعم بدليل قاطع أو حجة قاهر أو شبهة يتوجه بها ما قلت.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الأحقاف: ٦ - ١٠].

ثم نظم بذلك ما هو في معناه إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾[1] هو: عيسى - والله أعلم -

(١) المثل: صلة بعين عَلَيْهِ؛ أي: على أنه من عند الله ﴿فَآمَنَ﴾ يعني: الشاهد ﴿وَاسْتَكْبَرتُمْ﴾ عن الإيمان به. واختلفوا في هذا الشاهد؛ فقال قتادة والضحاك وأكثر المفسرين: هو عبد الله بن سلام، شهد نبوة المصطفى ﷺ فآمن به واستكبر اليهود، فلم يؤمنوا كما روى أنس ﷺ قال: سمع عبد الله بن سَلَام بِمَقْدِم رسول الله ﷺ فأتاه وهو يخترف في أرض، فنظر إلى وجهه فعلم أنه ليس وجه كَذَّاب، وتأمله فتحقق أنه النبي المُنْتَظَر، فقال له: إني سائلك عن ثلاثة لا يَعْلَمُهُنَّ إلَّا نبي: ما أَوَّلُ أَشْرَاطَ السَّاعَةِ؟ وما أَوَّلُ طَعَام أَهْلِ الجَنَّةِ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ: «أخبرني بهن جبريلُ آنفًا» قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذَاكَ عدوّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧]. «أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المَشْرِق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كَبِد حُوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعهُ وإن سبق ماء المرأة نزعته» فقال: أشهد أنك رسول الله حقًّا. ثم قال: يا رسول الله، إن
=

وربما كان عيسى ومن جاء بعده من الأنبياء والرسل، وجاء بلفظ الموحد على معنى الإخبار عن الجنس ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف:١٠] دل على هذا التأويل قوله بعد هذا: ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف:١٠].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف:١١ - ١٤].

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ [الأحقاف:١٢] لما بين يديه؛ أي: لما بين يديه من التوراة والإنجيل والزبور والصحف كلها.

وقرأ الجحدري والحسن ويعقوب:«وهذا كتاب مصدق لنا بين يديه لسانًا عربيًا».

وجاء في التفسير: أن الشاهد من بني إسرائيل على مثله هو عبد الله بن سلام وأنه هو الذي آمن به واستكبر هؤلاء، وهذا وإن كان كذلك من أنه شاهد على التوراة وشاهد على القرآن، وأنه آمن به واستكبر هؤلاء فلا ينبغي أن يقصر عليه دون من ذكرناه قبل هذا، إلى أن السورة نزلت بمكة، وكان إسلام عبد الله بن سلام

اليهود قوم بُهتٌ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بَهَتُوني عنْدك ، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: «**أيُّ رجل عبد الله فيكم؟**» فقالوا : خَيْرُنا وابن خَيْرِنَا وسيدُنا وابنُ سيّدِنا وأعلَمُنا وابن أَعْلَمِنَا. قال: «**أفرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟**» فقالوا: أعاذَه الله من ذلك. فخرج إليه عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسولُ الله. فقالوا: «أشَرُّنَا وابنُ شَرِّنَا» وانتقصوه، فقال: هذا ما كنت أخاف منه يا رسول الله. فقال سعد بن أبي وقّاص: ما كنا نقول - وفي رواية: ما سمعت النبي ﷺ يقول - لأحد يمْشِي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سَلَام، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ قيل: الشاهد هو موسى بن عِمْرَانَ عليه الصَّلَاة والسَّلام. [اللباب لابن عادل (١٤/ ٢١٠).

- رحمة الله عليه - أول صدر الهجرة بالمدينة، ودلائل القرآن تدل على ما تقدم، وليس بمدفوع فضل عبد الله بن سلام وصحة إيمانه قد كان سعد بن أبي وقاص ﷺ يقول: إني لا أشهد لأحد أنه من أهل الجنة إلا عبد الله بن سلام، وشهادة الأنبياء والكتب للأنبياء والكتب هي المقدمة في الشهادة، ثم شهادة الأمم بعد ذلك.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الأحقاف:١٥ - ١٦].

وانتظم به من جهة المعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً...﴾ [الأحقاف:١٥] الأشد أشدان:

أحدهما: البلوغ به يلزم التكليف والامتحان وأول أمده خمسة عشر عامًا أو ستة عشر على اختلاف بين العلماء، هذا مع عدم الحُلم والمحيض، يرفق به ما بينه وبين العشرين، ثم يشدد عليه ما بينه وبين ستة وثلاثين، وهو الأشد الثاني، وهو أرفع السن من حيث وجوب المحنة وعند ذلك تجب التوبة.

الثانية: التي هي بمعنى الورع في تناول الفضول والزهد في الحلال، والتقليل من المباح، وإشعار النفس الحزم والعزم، ويرفق به في هذا المطلب ما بينه وبين الأربعين، ثم يشدد عليه بعد في التجرد للآخرة بقطع العلائق واستشعار أخذ النفس بالحقائق، والتحيز بالتوبة عن كل ما يشغل عن الله ﷻ، وهو تفسير قوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥] وهذا هو الموعود بأن يتجاوز عن سيئاته ويجازي بأحسن أعماله، وهو من أصحاب الجنة إن شاء الله، وما عدا هذا الضرب من المسلمين فليسوا على يقين من نجاتهم، بل على خطر، ومن تعلق بالعلائق علق، ومن تقدم قدمًا إلى ربه ﷻ قدم ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي

جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٠-١٢].

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف:١٧ - ٢٠].

أتبع ذلك ما يقابله في الطرف الآخر قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ [الأحقاف:١٧] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف:١٨] فهؤلاء في موضع اليقين مما يصيرون إليه.

ومن بين هاتين المنزلتين بعد تحصيل الشهادة على خطر من السلامة يقول - جل من قائل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف:١٩] فالأعلى يعلو بأعماله ويقينه في الدرجات إلى عليين، والأسفل يسفل بأعماله وكفره أو شكه أو مرضه في الدركات إلى سافلين، ثم على التدريج وفي ذلك يوفيه الأعمال على أوزانها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠] الطيبات هنا قد تكون: الأعمال الصالحات والرزق الحلال والعدل والإحسان في القول والعمل، أذهبوها في الحياة الدنيا بإبعادها على حكم الهوى، وتوجيهها إلى غير متوجه، وإعمالها في غير معتمل، وإنفاق القوى والأرزاق في غير السبيل المرتضى، وقد تكون الطيبات هي: شهوات النفوس وإبعادها عن هواها، كذلك أولها عمر بن الخطاب ﷺ، ولما وردوا بذلك من أعمالهم بدا لهم في ما هنالك سيئات ما كسبوا.

قال الله ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ

﴿الحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:٢٠] هذا خطاب ظاهر المراد به: الذين كفروا، وفيه تعريض مراد بأهل الشهادة شهادة الحق، إن لم يرد الله أن يغفر لهم يوقفون على غفلاتهم وسيّئ أعمالهم، وإنفاذ شهواتهم في سبيل أهوائهم، يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ [الأحقاف:٢٠] المعنى إلى آخره، فيجازون على أعمالهم بأوزانها جزاء المفرطين في حظهم، الغافلين عما خلقوا له، وإن عفا عنهم وقفت أنفسهم دون مخاطبة بذلك على علو أهل اليقين وإكرام الله للمتقين الذين استعدوا وتزودوا للقاء الله - جلَّ ذكره - في ذلك اليوم، يرونهم قد ركبوا نجائب الأعمال تطير بهم في الهواء، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، فيشاهدون بأنفسهم تخلفهم كما شاهدوا في الدنيا تخلفهم عن التوبة العليا واستمتاعهم بشهواتهم وشغلهم بها.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف:٢١ - ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١] أخو عاد هو: هود عليه السلام كان أخاهم نسبًا لا ولاية، والأحقاف: الرمال المتراكمة، جبال مستطيلة مشرفة دون الجبال، والتأفيك: الصد والقلب عن مرادهم ومعتقدهم، وكان قد أنذرهم بعذاب يصيبهم من عند الله إن هم لم يستجيبوا لله والرسول عليه السلام، ولنفورهم وإبائهم فقالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي: في رسالتك.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قيل لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف:٢٤].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ

عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف:٢٦ - ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ يعني: أولئك فيما مضى ﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٢٦] ومعنى «إن» هنا، واقترانها بما هو بمعنى «ما» لم يقول ﷻ: ولقد مكنا أولئك فيما لم نمكنكم فيه من الأيدي [والعتاد][1] والأموال والأولاد وكثرة الأتباع والغاشية والعدد، والعدد وهو موجز من هنا كقول القائل: «ما إن سمعت بمثلك وما إن رأيت لك شبيهًا».

وقال دريد بن الصمة:

ما إن سمعت ولا رأيت بمثله   كاليوم طالني أينق حرب

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِم﴾ لأجل ذلك ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦] إلى هنا ومعدم من هنا، والعقل والحلم والميز والعلم والصفات المنسوبة للإنسان الموصوف بها عظماء الأمم من الرأي والبصر فيما يأتون وما يذرون في سبل مكابداتهم وتصرفهم في شئون دنياهم، كما قال في أمثالهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ [غافر:٨٣] من العلم وقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦].

يقول - جل من قائل: فلم يغن عنهم ذلك من قوتهم ونفاذ بصائرهم في الأمور شيئًا، وهذا ومثل هذا يؤل بعد الإعلام بما إليه صاروا، والوعظ ساقهم إلى التعجيب بعظيم اقتداره على إخراج الظاهر من الوجود على مثال الباطن منه لإتمام كلماته في ذلك قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون وهؤلاء للنار وبعمل**

---

(١) هكذا في (ف)، وغير واضحة في (خ).

أهل النار يعملون»[(١)] وإليه يرجع الأمر كله، وعلى مثل هذا يكون القرآن والوجود كله راجعًا إليه وإلى الإعلام بأسمائه وصفاته، ألا تسمعه يقول - عز من قائل: ﴿**فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم**﴾ يعني: عقولهم ﴿**مِّن شَيْءٍ**﴾ [الأحقاف:٢٦] إن هذا العجب المعجب، سبحانه وله الحمد.

إلى هنا نظم بذلك قوله - جلَّ ذكره: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ**﴾ [الأحقاف:٢٧] فهلا تذكروا فابصروا.

يقول الله ﷻ: ﴿**فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله قُرْبَانًا آلِهَةً**﴾ [الأحقاف:٢٨] كانوا يقولون: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى**﴾ [الزمر:٣] يقول: فهلا نصروهم؟ بل ضلوا عنهم ﴿**وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ**﴾ [الأحقاف:٢٨] أفكوا في الدنيا عن الحق المسعى فأفكوا في الآخرة عما أفكوا إليه، وأفكوا أيضًا عن ثواب من ثبت على الحق، ويقرأ: «وذلك أفكَهُم» بنصب الفاء والكاف؛ أي: ذلك جعلهم ضلالاً كفرة. قرأه ابن عباس ومجاهد وأبو عياض.

﴿**وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢)**﴾ [الأحقاف:٢٩ - ٣٢].

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ**﴾ يعني - وهو أعلم: جئناك بهم وسقناهم إليك لتبلغ إليهم عن ربك فتكون رسولاً إلى الجن والإنس ﴿**فَلَمَّا حَضَرُوهُ**﴾ يعني: القرآن ﴿**قَالُوا أَنصِتُوا**﴾[(٢)] [الأحقاف:٢٩] هكذا

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألسنتهم هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيبة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، =

يكون أدب الاستماع.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] أي: بإجزال الأجر وزيادة الإيمان، والفتح فيه بالفهم عنه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] وقرأ حبيب بن عبد الله بن الزبير: «فلما قَضَى» بفتح القاف والضاد.

فصل

في قولهم هذا إلى آخر السورة لمن تدبره إقرار منهم برسالة الإنس، ودلالة على أنهم مترقبين رسالة الرسل من الإنس إليهم من الله - جلَّ ذكره - من طريق الإنس، ولم يبلغنا أن الله اصطفى من الجن الذين هم ولد إبليس رسلاً، إنما الرسل من الإنس والنذر منهم إليهم، والنذر رسل الرسل، ومن المحنة وتحقيق الاختبار لهم أن يكون هذا هكذا؛ إذ كان وقوع أيهم قبل من جهة الإباء عن الاقتداء بآدم ﷺ في السجود والائتمام به، فإنما تكون توبة من تاب منهم وإسلام من أسلم منهم بما يكون راجعًا إلى الإقبال على ما شرد عنه سفيههم، واعلم أن لمؤمنهم ثواب في الجنة وملك ليس كما قال بعضهم، نطق بذلك القرآن ومتى أردت موضعه منه مكشوفًا فاقرأ سورة الرحمن ﷻ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف:٣٣ - ٣٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السموات وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ

=

وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصغاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب.

بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾ [الأحقاف:٣٣] نظم آخر السورة بما في أولها من ذكر جحدهم وإبعادهم الإعادة بعد البداية ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ ولا يجوز عليه درك نَصَب ولا لُغُوب؛ لعزته عن ذلك وعلوه، وإحياء الموتى شعبة يسيرة من خلق السماوات والأرض.

أعقب ذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا...﴾ [الأحقاف:٣٤].

ثم قال يخاطب رسوله - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] نظم هذا بمعنى ما تقدم من ذكر تكذيبهم إياه في صدر السورة وقوله لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ....﴾ [الأحقاف:٩].

تفسير سورة القتال

«محمد ﷺ»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤﴾ [محمد: ١ – ٤].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[1] [محمد:١] أي: أبطلها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢] البال: عبارة عن باطن العبد،

---

(١) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله﴾ أي: أعرضوا عن الدخول في الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه، وهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ﷺ. قال ابن عباس: وهم المطعمون يوم بدر. وقال مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر. وقيل: هم أهل الكتاب، صدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقال الضحاك: ﴿عَن سَبِيلِ الله﴾: عن بيت الله يمنع قاصديه، وهو عام في كل من كفر وصد. ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي أتلفها، حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع، بل ضرر محض. وقيل: نزلت هذه الآية ببدر، وأن الإشارة بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ إلى الاتفاق الذي اتفقوه في سفرهم إلى بدر. وقيل: المراد بالأعمال: أعمالهم البرة في الجاهلية من صلة رحم وفك عان ونحو ذلك، واللفظ يعم جميع ذلك. البحر المحيط (١٠/٦٤).

وهو موضع الاعتقاد حيث يوجد عقد الإيمان أو ضده، فإذا أصلح الله ذلك من العبد صلح ما يدخل إليه وما يخرج عنه وما يلبث فيه، وإذا فسد فبالضد، ولذلك إذا اشتغل البال لم ينتفع من صفات الباطن بشيء، وإذا صلح ذلك في جهة الدنيا فرح وسر ورخى عيشه ونعم، وإذا أهمه الشيء اكترث له واهتم، ومنه قولهم: ما باليت بهذا الأمر، ولم أبال، ولم أبل.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ﴾ فأبطلنا أعمالهم ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣] وهو الإيمان بالله ورسوله وما أنزله عليه، حقق لذلك أعمالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد:٣] يحض على طلب العلم في كتابه قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ولا يكون ذلك إلا لعيسى ابن مريم ﵇، وقد جاء أن ذلك يعجل أيضًا للرجل الصالح المنتظر وهو صاحب الملحمة العظمى.

أتبع ذلك قوله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] فمادام الابتلاء فالقتل والقتال والمن والفداء مستمر.

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد: ٥ - ١١].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]

---

(١) نصرة العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيمًا في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله =

[محمد:٧] وعد الله – جلَّ ذكره – المؤمنين إذا هم نصروا الله ورسوله أن ينصرهم ويشجع قلوبهم فتثبت أقدامهم، وأوعد الكافرين بالتعس وإحباط الأعمال، التعس: الانحطاط والعثور، وأن يكون صاحبه في هون وسفال، ومع العزم على طاعة الله تكون المعونة، وعلى قدر الصبر يكون الجزاء.

يقول الله – جل من قائل: أولئك؛ أي: من حكمنا فيهم ونصرنا لكم لأجل أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩] يعني: أهل الكتاب، نظم هذا بقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٨].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الذين كفروا بآيات الله ورسله ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد:١٠] أوعدهم وتهددهم بما قد أنجزهم إياه، فكم قد أجل بهم في أقطار الأرض من غلبة ونهب وأسر وقتل وجلاء.

ثم قال ﷻ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من فعلنا بهم وإهلاكنا إياهم ونصرنا المؤمنين ﴿بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] وفي باطن هذا الخطاب وعيد لهذه الأمة وتهديد أنه متى تخلت عن نصرة الله – جلَّ ذكره – والجهاد في سبيله والحكم بالحق تخلى هو ﷻ عن نصرها والكلأة لها، وسلط عليها عدوها، فقد تخلى بعض التخلي عن موالاتها بقدر ما تخلت هي عن نصرته وموالاته، وماداموا عاملين بطاعة الله وأمرهم شورى بينهم على إقامة أمر الله فالله مولاهم وناصرهم، وإن ظهر عليهم عدوهم وأخفقوا فللاختبار المكتوب، لكنهم الأعلون والله معهم، ولن يترهم أعمالهم إن شاء الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ

=

حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية.

عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٢– ١٥].

نظم بما تقدم قوله الحق – جل من قائل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٤] إنما يكون على بينة من ربه من شهدت عنده شواهده، وأعربت له عنه آياته، وبينت مجاري الحق المخلوق به السماوات والأرض والوحي ببيانه، يقول: أيكون هذا كمن زين له سوء عمله فعمي عن رشده وضل عن هدايته، واتبع هواه وأغواه عدوه فانتظم بما تقدم ذكره من أول السورة وبخاصة بالمتصل به قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

ونظم قوله الحق: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣] بما تقدم في أثناء السورة من التهديد والوعيد للكافرين، فإن السورة تأسست على التمييز بين الذين آمنوا والذين كفروا وذكر أعمالهم، وتحريض المؤمنين على القتال والوعد بالنصر لهم إن صدقوا الله في قتالهم وسائر أعمالهم.

نظم بذلك وصفه للفائزين قوله – عز من قائل: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥] تبين في هذه الآية فضل موجودات الجنة على موجودات الدنيا، وذلك أن لبن ما هاهنا يحتلب من الضرع، يخرجه الله من بين فرث ودم يعدل به عن هذا وهذا إلى أن يكون لبنًا في عضو الضرع يستخرج بالحلب من أحاليل ضيقة، كذلك إن الماء الكائن عنه اللبن النازل من السماء ماء بين حميم برد الزمهرير وفيح السعير، وامتن الله – تبارك وتعالى – على عباده بفضله بأن غلب فتح رحمته على

فيح عذابه فأخرجه لذلك عذبًا ولم يخرجه أجاجًا.

يقول الله - جل من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠] والحمد لله رب العالمين على تغليبه رحمته على غضبه، ثم أسلكه في الأرض ظهرها وبطنها فأكسبه من الأرض معاني خلقتها، ثم أسلكه بعد في النبات على اختلافه والنبات، فهو ابن لأبيه وأمه، فتقوى الشبه من فتح وفيح، ثم أسلكه في الحيوان أيضًا فأكسبه بذلك خلقة ما أسلكه فيه، ثم أخرجه العليم القدير لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين من بين فرث ودم في هذه المسالك.

كذلك العسل قد أسلك الماء مسالكه التي تقدم ذكرها إلى النبات فحرست النحل من كل الأزهار والثمرات، ثم اتخذت من كهوف الجبال وشعفها وسقوفها ومن الشجر ومما يعرش بنو آدم لها بيوتًا فكان لها مسالك في ذلك، وقال ربك ﷻ لها ولمختلف الثمرات والأزهار: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [النحل:٦٩] فسلك كل مسالكه التي أسلكه، فأخرج الله - جلَّ ذكره - من بطونها من ما ركبت النحل منه وبين ما يخرج منها من ثقل شرابًا مختلفًا ألوانه لاختلاف مسالكه، وما أخذ عنه فيه شفاء للناس يختلط فيه أنواع الشمع وتمتزج عصارة فراخ النحل، وما قد يختلط فيه من رجيعها، لذلك قال ﷻ ما هنالك من عسل مصفى.

يقول :ﷻ وعلى ذلك ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧] ما هنالك بما هاهنا، كذلك الخمر قد أسلك الله الماء مسالكه التي تقدم ذكرها إلى الزرع والنخيل والأعناب والثمرات يجعل عليه الماء وتخمر لتجتمع فيه أغزية كالتعفين له، ويخرج بذلك عن وجوده الأول إلى ما ليس به، فيكون عن ذلك لشاربه ضد ما يكون من الماء على علات مسالكه من ظهوره وخباءه به، وعن العسل على علاته أيضًا من شفاء فيه للناس؛ أي: لجميع الناس بواسطة ما يضاف إليه لمقاربة ما بينه وبين الموجودات، يرد ما أضيف إليه بالقوة، ويتوسط هو بين نفسه وبين ما أضيف إليه، وبخلاف اللبن الذي هو الخالص كالفطرة للإسلام السائغ للشاربين، ليس كالسكْر الذي يذهب العقل ويستنزف المير ويجني على شاربه كثرة الصداع وضروب الإذايات، ويعقب

الخدر ويهتك الستر ويكشف السر ويخالع العذار في نبذ المروءة؛ ذلك لأنه أركس من كونه عن فتح وفيح إلى ما هو الخبال وخالص عمل الشيطان، فهذه سبل هذه الأربعة في موجود الحياة الدنيا، وهي في الحياة الآخرة أنهار من ماء غير آسن، كيف يأسن ذلك الماء وهو من خالص رحمة الله وفي قرارة رضوانه؟.

الآسن: الآجن المتغير، يقال: أسن الماء وتأسن هو، بل كيف لا يصفى عسلها ولم يسلك به مسالك ما هاهنا ولا اختلط بشمع ولا بأبعاض موتى النحل ولا بمرضوخ فراخها؟ وقد سلك مسالك الرحمة في وجود الكون واستقر في قرارة الرضوان، كذلك اللبن والخمر هذا مع ما لهم فيها من مغفرة الله ومضمون رضوانه الأكبر كل ذلك أنها جارية حالها المسك الأذفر، وحصباؤها الياقوت والجوهر، تجري في غير أخاديد، تنبت سواحلها الحور العين بين قصب الزبرجد والعقيق، طوبى لهم وحسن مآب، هذا مع ما لهم فيها من كل الثمرات ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣].

نظم بهذا قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

يقول - جل من قائل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ فكان مصيره إلى الجنة التي فيها أنهار من ماء غير آسن إلى آخر الوصف ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾[1] [محمد:١٤] واتبع هواه فكان مصيره إلى نار جهنم خالدًا فيها أبدًا يسقى ماء حميمًا فيقطع أمعاءه، كما قال: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج:١٩-٢٢].

---

(١) أخرج جماعة عن ابن عباس: أن ﴿مَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ هو رسول الله ﷺ و﴿مَّن زين لَهُ سُوء عَمَلِهِ﴾ هم المشركون. وروى عن قتادة نحوه، وإليه ذهب الزمخشري، وتعقب بأن التخصيص لا يساعده النظم الكريم ولا داعي إليه. وقيل: ومثله كون «مِنْ» الأولى عبارة عنه ﷺ وعن المؤمنين، والمعنى: أيستوي الفريقان؟ أو أليس الأمر كما ذكر؟ فمن كان ثابتًا على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن العظيم وسائر المعجزات والحجج العقلية كمن زين له الشيطان عمله السيء من الشرك وسائر المعاصي كإخراجك من قريتك مع كون ذلك في نفسه أقبح القبائح. تفسير الألوسي (١١٥/١٩).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد:١٦- ١٩].

نظم بذلك عمى بصائرهم ووقر أسماعهم وبعدهم عن فهم سماع الوحي بقوله الحق: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وهم المنافقون ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ يريدون قبل افتراقنا وخروجنا عنه، يقول الله - جل من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦].

ثم وصف خروج المؤمنين عن مجلس الذكر والقرآن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: زادهم إيمانًا ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧] التقوى: عمل الإيمان كما أعمال الجوارح عمل الإسلام.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [محمد:١٨] قال رسول الله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»(١) وأشار بإصبعيه المسبحة والوسطى، وإذ لا مجيء لنبي بعده فهو من أشراطها، وأشراطها: علاماتها، ومجيء عيسى عليه السلام من أشراطها القريبة.

يقول الله - عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:٦١].

فصل

الساعة من هذه الجملة ساعتان:

ساعة: بمعنى الموت، وأشراط هذه: ظهور الشيب وموت الأتراب ونقص

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٦٧) والبخاري (٦١٣٩) ومسلم (٢٩٥١) والترمذي (٢٢١٤) وعبد بن حميد (١١٦٦)، وابن حبان (٦٦٤٠).

القوى، ومنذ ولد فهو يحب جواز حلول الموت في كل أحواله و«**من مات قامت قيامته**»(١).

الساعة: التي هي ظهور القيامة لانقراض الدنيا واستفتاح يوم الآخرة، وكان من أشراطها يومئذٍ: ظهور محمد ﷺ وظهور أصحابه، ثم أشراطها كثيرة قد شاهدنا أكثرها، وإنما بقي منها ما يقوم مقام بوادر خيل الجيش، وفي كلتا المعاينتين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو نفسًا مؤمنة لم تكتسب في إيمانها توبة.

قال الله - عز من قائل: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد:١٨] لذلك أتبع ما تقدم ذكره قوله، عز من قائل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ هذا هو الاعتداد للساعة، وهو أمر بطلب العلم بالله ووحدانيته وأسمائه وصفاته، وما يجوز عليه وما يستحيل أن يوصف به أو يسمى، لذلك أمر بالعلم والتعلم ثم قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هذا كله عدة للموت قبل حلوله، والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات وكلاهما من ابتغاء الوسيلة عنده، فإن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة، فمن علم وعمل واستغفر للمؤمنين والمؤمنات شفع يوم القيامة إن شاء الله.

نظم بذلك قول الحق: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:١٩] أشار - وهو أعلم بما ينزل - إلى أنه يغفر الذنوب على ذلك؛ إذ هي مقدرة قبل الخلق ومسماة عنده، معلومة ويمحوها الإيمان والاستغفار والعمل الصالح على ما يرضي الله ﷻ، وهو معنى قوله: «**ويعمل أهل الجنة يعملون**»(٢).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٨).

(٢) تقدم تخريجه.

ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٠ - ٢٤].

قوله :ﷻ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ﴾ [محمد:٢٠] أي: مثبتة الأحكام مفروضة واجبة الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ محكم له واجب الوجوب.

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ﴾ والقتال لا يزيد وجوبه إلا تأكيدًا ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤] كما تقدم وكان المنافقون يظهرون تمني نزول سورة يفرض فيها القتال مساعدة للمؤمنين، ودخولاً بذلك في جملتهم ﴿وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنّ﴾ [النور:٥٣].

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ﴾ [محمد:٢٠] جبنًا عن القتال وكراهة أن يقاتلوا أولياءهم من المشركين واليهود.

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد:٢٠ - ٢١] أي: قبل نزول القرآن، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا»[(١)].

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا الله لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١] أي: من تعللهم وتسللهم عنه لواذًا، وعزم الأمور حدها عزم الأمر حد.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: إن توليتم الأمر إن توليتم من الولاية؛ يعني: إن تولاكم المؤمنون فيبايعونكم ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ تضيعوا الجهاد فتفسدوا في الأرض بدلاً من ذلك ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:٢٢] تقرأ: «عسيتم» بفتح السين وكسرها، والفتح أكثر وأجود، ويقرأ: «إن تَوَلَّيْتم» بفتح التاء والواو واللام وجزم الياء، ويقرأ: «إن تُوُلِّيتم» برفع التاء والواو وكسر اللام مشددة، أنذر الله تعالى بولاية أمراء فجرة، كما قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، وأحمد (١٩١٣٧).

«**أخوف ما أخاف عليكم أئمة مضلين**»[١] فقد كان ذلك، وكان بذلك تضييع الجهاد والفساد والقطيعة.

فصل

قتال العدو والجهاد كفاءة لقطيعة الأرحام، كما الضحايا والبدن فداء لإراقة الدماء، فكل قوم أضاعوا الجهاد قطعوا أرحامهم وسفكوا دماءهم.

قال الله - جل من قائل - في الضحايا والبدن والهدايا: ﴿**لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**﴾ [الحج:٣٧] إذ دماؤها ولحومها فداء لدماء المتقربين بهن ولحومهم من النار، والتقوى من المتقربين توصلهم إلى الله، وإنما سمين: قرابين؛ لأجل المتقرب بهن إلى الله بإذنه وبأمره وسنة رسوله، أخرجهن بذلك من دار الدنيا إلى الجنة، فإذا كان يوم القيامة يخلص المتقرب بهن عليهن من أهوال ما هنالك.

جاء في الحديث: «**إن أهل الجمع في حال قيامهم إذ ينظرون في أعلى الجو إلى نجائب تطير بالراكبين فيقولون:** من **هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا**...»[٢] كذلك دم الكافر المقتول فداء لدم قاتله في سبيل الله من النار، ولحمه فداء للحمه، وما غنم من ماله وولده فداء لأموال المسلمين وأهليهم، كما أن دم المقتول في سبيل الله ولحمه وماله به يصل إلى الله ويدخل الجنة، يصلحه الله لذلك ثم يقربه.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله - جل من قائل: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٣] [محمد:٢٤] يعني، والله أعلم: هؤلاء المنافقين الذين تولوا نبذوا

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٩٥٦).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ**﴾ أي: لا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ﴿**أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ تمثيل لعدم وصول الذكر إليها وانكشاف الأمر لها، فكأنه قيل: أفلا يتدبرون القرآن؛ إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها، فتكون «أم» متصلة على مذهب سيبويه، وظاهر كلام بعض اختياره.

وذهب أبو حيان وجماعة إلى أنها منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر، والهمزة للتقرير، وتنكير القلوب؛ لتهويل حالها وتفظيع شأنها، وأمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب

=

الجهاد وأفسدوا البلاد وقطعوا الأرحام، فلو تدبروا القرآن حق التدبر لعلموا أن الجهاد أصل لتواصل المسلمين وإصلاح دينهم ودنياهم، ولألفوا فيه ما فيه شفاء صدورهم وهداية لهم من عمايتهم، ولعلموا يقينًا شرف الإخلاص لله ورفعه قدر التوحيد والعمل بطاعة الله، وأن الأدب من العبد أن يعقد على الطاعة لله، والقول بالمعروف يستصحب هذه الحالة قبل ورود الأمر، فإذا وجب الكائن وعزم الأمر فالدعاء والابتهال في حسن العون والصدق في الفعل والعقد.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْروفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور:٥٣] أي: في مستقبل أمركم ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور:٥٤] المعنى إلى آخره حيث جاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد:٢٥ - ٢٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥] يعني: مد في الأمل، وزين لهم سوء العمل، وقرئ: «وأملى لهم» على وزن ما لم يسم فاعله، معناه: أن الله استدرجهم

= منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة، وقيل: لأن المراد قلوب بعض منهم وهم المنافقون، فتنكيرها للتبعيض أو للتنويع كما قيل، وإضافة الأقفال إليها؛ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها، غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة. وقرئ: «أَقْفَالُهَا» بكسر الهمزة، وهو مصدر من الأفعال، و«أقفلها» بالجمع على أفعل. تفسير الألوسي (١٩/ ١٥٤).

بالجد والعافية.

وإنما هذا في قوم كانوا في الجاهلية على عداوة لله والرسول والمؤمنين، فلما قوي الإسلام ولزمهم قهره أسلموا فرأوا الهدى، وربما نسوا ما كانوا عليه في الجاهلية، فلما أقضى الأمر إليهم رفعت في بواطنهم الفتن رؤوسها وتجددت الأجر التي كانت قوة الإسلام سهلتها، فاستأثروا وانتقموا من سادات الإسلام وممن جاهدهم وأتاهم بيده في الله، وسفكوا الدماء وأفسدوا في البلاد، ولو تفرغوا لجهاد عدوهم لكانت أيديهم واحدة وكان أمرهم جميع.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿ذَلِكَ﴾ من تمكن الشيطان بهم بأنهم والوا الذين كرهوا ما أنزل الله وقالوا لهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ وإنما قالوا لهم في بعض الأمر على معنى التوسط بين ما كانوا عليه من مرادهم في الإسلام والمسلمين وبين المسلمين؛ إذ بدعائه الإسلام يأمروا يقول الله - جل من قائل: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٦] قرأ حمزة وغيره بكسر همزة الألف، فهو مصدر أسرَّ يُسِرُّ فهو: إسرار، وقرأ غيره: «أسرارهم» بفتح همزة الألف، جمع: سر.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد:٢٩] سبحانه وله الحمد علم ما يكون منهم ومن آبائهم وممن يكون على معتقدهم في الإسلام، فأنذر بهم في كتابه قبل وجود أعمالهم وقبل إيجاده أكثرهم، فالأضغان هي: الأحقاد، وقرأها ابن عباس وابن سيرين: «ويخرج أضغانكم» على ما لم يسمَّ فاعله.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ
شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدۡعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٠-٣٥].

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] أي: منهم، و«لحن القول» هو: ما تنحو إليه بلسانك؛ أي: تميل إليه ليفطن لك صاحبك، وتخفيه على من لم يكن له عهد بمرادك، وعلى القول بالتحقيق فلحن القول: ما يبدو من عرض الكلام وخبيات الخطاب وسياق اللفظ وهيئة الشحنة حال القول وإن لم يرد المتكلم أن يظهره، ولكنه على الأغلب يغلبه حالاً فلا يقدر على كل كتمه وإن كان في تكليمه معتمدًا على ذلك، وحقيقة حال تلوح عن السر وإظهار كلام للباطن يكاد يناقض كلام اللسان بحال خفيه ومعان يقف عليها باطن المخاطب واللحن يعرفه ذوو الألباب.

نظم به قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى﴾ [محمد:٣٢] هذا منتظم بوصف المنافقين الذين أطفأوا نورهم بعد إضاءته، ويكون المعني بهذا الخطاب أيضًا: يهودهم الذين أطفأوا نورهم من بعد إضاءته وصاروا إلى ظلمات لا يبصرون.

ثم وعظ المؤمنين أن يقعوا في مثلها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٣] أي: كما فعل أولئك، وكما فعل بالكافرين أيضًا اتبعوا الباطل فأضل أعمالهم، فالتزموا أنتم الحق والتحقق به يحققكم الله به ويحقق أعمالكم.

ثم سرد عليه قوله - جل من قائل: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾(١) [محمد:٣٥] يحذرهم من ترك جهاد

---

(١) ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ ولن يظلمكم. وقيل: ولن ينقصكم. وقيل: ولن يضيعها. وهو كما قال أبو عبيد والمبرد: من وترت الرجل؛ إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم، أو سلبته ماله وذهبت به. قال الزمخشري: وحقيقته: أفردته من قريبه أو ماله، من الوتر وهو الفرد، فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام، وفيه هنا من الدلالة على مزيد لطف الله تعالى ما فيه، ومنه قوله ﷺ: «من **فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله** وماله» والظاهر على ما ذكره أنه لا بد من تضمين وترته معنى السلب ونحوه؛ ليتعدى
=

عدوهم في سبيل الله، بل يغلظوا عليهم ويتعززوا ولن يتركم من الترة[١] يقول: ولن يفقدكم جزاء أعمالكم.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٦-٣٨].

ثم قصر لهم مدة المحنة وزهدهم في الحياة بقوله: ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ [محمد:٣٦].

أخبر الله جل من مخبر أن هذه الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، وما عدا ذلك فهو آخرة، فإن كان إيمانًا وتقوى وذكر الله - جلَّ ذكره - وما جر إليه فهو رضا لله ورضوانه، وما بينه وبين الجنة إلا أن يثبته الله على ذلك ويموت، وإن كان غير ذلك من كفر أو عصيان فهو بعد عن الله ولعن منه، وما بينه وبين النار إلا أن يموت، لكن على النشء، فالدار الوسطى أكبر من هذه والدار الآخرة أعظم وأكبر حدًّا.

فصل

ولا يجوز لإمام المسلمين أن يدعو إلى السلم ولا أن يجيب إليه وبالمسلمين قوة على عدوهم وظفر عليهم، ولا يحل له ترك الجهاد في سبيل الله على حال إلا لمعنى يظهر فيه النظر للمسلمين عليه برهان من الله ظاهر، ومتى لم يجاهد في سبيل الله انصرف بأسه على المسلمين، وقد تقدم معنى ذلك.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٦] نبه على المعنى

=

إلى المفعول الثاني بنفسه. [الألوسي (١٦٧/١٩)].

(١) الترة: النقص. انظر النهاية في غريب الأثر (٤٩٤/١).

الواجب الوجود متى لم يقاتل القوم والإمام في سبيل الله، ولم ينفقوا أموالهم وأنفسهم سئلوا أموالهم، ومتى سئلوا أموالهم بخلوا، فإن أكرهوا على ذلك أشحنوا ضغائن وأحقاد، ولم يكن من الإمام لهم نصيحة ولا منهم للإمام ولا من بعضهم لبعض وكان الخلاف، وفي ذلك هي الخالفة، وهو إنذار منه ﷺ بما يكون بعد، وما ذكر شيئًا إلا كان منه ما شاء الله.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨] متى كان الخلاف وقع النذائر وذهب التناصر والتناصح، و«**الدين النصيحة**»[١] فقد كان ذلك استبدل من العرب غيرهم ثم لم يلحقهم بأن يكونوا مثلهم وكل ذلك عقوبة الإعراض والتولي عن الحق.

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٨٢) ومسلم (٥٥) وأبو داود (٤٩٤٤) والنسائي (٤١٩٧) وأبو عوانة (١٠١)، وابن خزيمة في السياسة كما في إتحاف المهرة للحافظ (٢٤٥٦) وابن حبان (٤٥٧٤) والبغوي في الجعديات (٢٦٨١) وابن قانع (١٠٩/١) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٢٦٥) وأبو نعيم في المعرفة (١٢٩١) والطبراني (١٢٦٧) وابن عساكر (٥٤/١١).

تفسير سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح:١ - ٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] [الفتح:١ - ٢] إلى قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣] الفتح هنا بمعنى: القضاء.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩].

﴿مَتَى هَذَا الفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة:٢٨].

نزلت عليه هذه السورة منصرفة من غزوة الحديبية، فعلى هذا معناه: أنا قضينا لك قضاء مبينًا للفتح، وإلا فهي هيئات أربعة خامسهن الفتح، وقد نطق بهن القرآن وقوة الوحي أعلمت في مفترقه بأن الله قد أقطعه إياهن، وكان وجود نزولها عند هذا السبب إعلامًا بأن الأمر قد حان والنعمة به قد أزفت وقت حلولها، وتعزية له

(١) قال البقلي: نبَّهنا الله في ذلك من سرٍّ عجيبٍ، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودةٌ على أهل الحدثان، ولم يظهر لأحدٍ عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاحًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهًا، وفتح باب قلبه وروحه وسرَّه، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهرٌ من وجوده حتى لا يراه أحدٌ إلا ويرى نور الصمدية ينتشر من بشريته لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار.

وللمسلمين لإخفاقهم في تلك الغزوة.

ويمكن أن يكون الفتح المذكور والقضاء المعبر عنه هو أمر له بإعطاء الجهد في جهاد أعداء الله وأعدائه، والتزام العمل بطاعته وابتغاء مرضاته والاستقامة على سبيل وجيه، كما قال - عز من قائل: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى:١٥].

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود:١١٢] إلى قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود:١١٣].

فبهذا الفتح يستوجب الغفران وإتمام النعمة في استصحاب ذلك إلى الخاتمة والنصر العزيز، وغير ذلك من الجزاء العاجل والآجل، ويمكن أن يكون الفتح المذكور ما قضى له عنده في الأزل يوم جعله في قبضته اليمين وخصه بالرسالة، وعقد له لواء النبوة في النبيين والمرسلين، وأخذه الميثاق منه ومنهم بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، فهذا القضاء هو الفتح المبين عن كل ما أوتيه، وكان فضل الله عليه عظيمًا، عبر عن هذا قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة.

فصل

قراء القرآن التالون له حق تلاوته على ضربين:

فضرب: يقرءونه على ربهم، فما اغتم عليهم من علمه سألوه أن يفتح عليهم من رحمته، وتضرعوا إليه وتبرأوا إليه من الحول والقوة، فيفتح عليهم ما شاء من رحمته، وليعلم أن من فتحه الأول ما يجعله في قلوبهم، فبقدر ما يقنعهم به من الفتح بالعلم يكون العلم.

وضرب: منهم كان الله - جلَّ ذكره - يقرءوه وهم يتلقوه عنه، وهؤلاء أرفع مقامًا وأحسن نديًا، وكل على خير من ربه، غير أن هذا الضرب منهم هم أحق تحققًا في وراثة النبوة.

قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا

درهمًا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بالحظ الأوفر»(١).

فكذلك - وفقك الله وأرشدك إليه - فاقرأ القرآن عليه بلسانك، واتله بإيمانك وعملك وسليم عقدك، واستمع لما يوحى إليك في أثناء الخطاب، وتطلب سر المراد، فقد قال: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢] فتذكر قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»(٢).

وأنت فقد علمك القرآن وأوصلك إليه، وفتح لك بابه وأذن لك في مناجاته، فلعله قد أصابك من رحمته بحكم التبعية ألا تشقى، وارجُ مع هذا أن يجعلك بتبعيتك ومكان وراثتك أن تستمع لما يوحى، فاعبده وأقم الصلاة لذكره، وابشر نفسك عنه بحسن التجاور وجزيل المثوبة، واعلم أن للمؤمن جزاءً لعمله وجزاءً لنيته وجزاءً لعلمه في ذلك.

وتذكر حديث رسول الله ﷺ في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين ثم قتل الراهب فتمم المائة به، وأنه سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عالم فأمره بالتوبة ويسر عليه أمرها، وقال له: «اذهب إلى هذه القرية فإن فيها قومًا صالحين» ولما أخذ في السير إليها جاءه الموت وهو في الطريق فناء بصدره، ولما تحاكم الفريقان من الملائكة - عليهم السلام - فيه، وأمروا أن يقيسوا ما بين القريتين وإلى أيهما كان أقرب فهو إلى ذلك، فقال - الله جل ثناؤه للصالحة: «تقربي» وللأخرى: «تباعدي» ووجد إلى الصالحة أقرب بشبر(٣).

فقياس ما بين القريتين حكم ما بين العملين ووزن لهما، وأمر الله - جلَّ ذكره - للصالحة أن تقربي ولتلك أن تباعدي؛ جزاءً لنيته المعبر عنها بقوله: «ناء بصدره»(٤)

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندى بمتصل. ثم أورد له إسنادًا وقال: هذا أصح. وابن ماجة (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٩٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة (٣٤٢٢٠)، وأحمد (١١٧٠٥) ومسلم (٢٧٦٦) وابن ماجة (٢٦٢٢) وأبو يعلى (١٣٥٦) وابن حبان (٦١١).

(٤) انظر السابق.

كذلك فعل موسى لما رضاه الله - جلَّ ذكره - بالموت فرضى، سأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فهذه كناية عن النية، وعبارة عن إعطاء المجهود.

وجاء عن رسول الله ﷺ في حديث آخر: «**من يدخل الجنة من أهل الجنة**» وذكر سؤاله السحرة بعد السحرة كل ذلك يقول له ربه ﷻ: «**يا ابن آدم، ألم تقل؟ فيقول له**: يا رب، ومن **مثلك فادنني**» فلما انتهى إلى آخرها قيل له: «**أعِدْ، فلك ما بلغته رجلاك ورأته عيناك**» قال: فيعدو حتى إذا بلح - يعني: أعيا - قال: «يا رب، هذا لي وهذا لي» فيقول له: «**هذا لك ومثله معه وأضعافه**»[1] فالذي بلغته رجلاه هو عمله وسعيه والذي رأته عيناه هو ما رآه بالعلم.

فإذا قرأت - وفقك الله - قوله: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح:١] إلى آخر الهيئات، فاحمد الله على عظيم ما أولى نبيك ﷺ من الفتح المبين والفضل العظيم، وارج لنفسك بحكم التبعية من الله الكريم نحو ذلك، فقد جاء أنه إذا عفا عن صاحب ذنب عفا عمن عمل بمثل ذلك، وأشعر نفسك حسن الاقتداء وصحيح الاتباع.

قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الفتح: ٤] السكينة: أمر من الله، وهو من قبيل الإيمان والطمأنينة إذا أنزلها على قوم سكن به تحريك الصفات واطمأنت لذكره، ولا يزال الإيمان يضطرب حتى تنزل السكينة عليه من الله، وكذلك صفات الباطن ما عدمت الحلم، وكذلك العلم والذكر والفكر والفطنة ما عدمت اليقين، وقد كانت السكينة قبل ظاهرًا أمر يشار إليه.

قال الله ﷻ في وصف ملك طالوت: ﴿**إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ**﴾ [البقرة:٢٤٨] فنزول السكينة على أصحاب رسول الله ﷺ سكونهم عن طلب الانتصار، ورضاهم بحكم الله ورسوله في اشتراط سهيل بن عمرو عليه، وكان ذلك باب فتح لنعمة الله ورحمته، وزادهم الله بذلك إيمانًا إلى إيمانهم بالله وبرسوله وبقضائه وحكمه، وبما أمرهم به ونهاهم عنه.

أعقب ذلك بقوله: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الفتح:٤] والسكينة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٩).

من جنوده.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح:٦ - ٩].

نظم بذلك قوله: ﴿لِيُدْخِلَ المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الفتح:٥] إلى قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِالله ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] ذكر اسم العلم في الأولى في قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤] وذكر اسم العزة في الثانية في قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٧] إذ العلم في البدء أظهر في قوله: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»[1] فاسم العلم أظهر في هذا التقدير كما أن اسم العزة أظهر في الانتقام.

أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي: على من بعثت إليه ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك بالرحمة والفضل وحسن المآب ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الفتح:٨] لمن تولى ﴿لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تنصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هذا للرسول ﷺ، ثم قال: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: الله - جلَّ ذكره ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح:٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٤).

تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح: ١٠ - ١٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:١٠] من أطاع الرسول فقد أطاع الله، كانت هذه البيعة بالحديبية، وهي بئر يعرف به ذلك الموضع، وكان رسول الله ﷺ تحت شجرة بها، وتسمى تلك البيعة: بيعة الرضوان.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١٤ - ١٧].

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1] [الفتح:١٠] هذه عبارة عن حقيقة

---

(١) استئناف مؤكد لما قبله؛ لأنه عبارة عن المبايعة، قال في «الكشاف»: لما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ أكده على طريقة التخييل، فقال تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وإنه سبحانه منزَّه عن الجوارح وصفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما. وفي «المفتاح»: أما حسن الاستعارة التخييلية فبحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لها كما في قولك: «فلان بين أنياب المنية ومخالبها» ثم إذا انضم إليها المشاكلة كما في ﴿يَدُ اللهِ﴾ إلخ كانت أحسن وأحسن؛ يعني: إن في اسم الله تعالى استعارة بالكناية تشبيهًا له ﷻ بالمبايع، واليد استعارة تخييلية مع أن فيها =

وجوده - جل وعلا - هو العلي ويده العليا وهو العلي الكبير، وخاصة قوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ التذكير بقدر المبايعة، وأن الوفاء لهم بالأجر من وراء ما عاهدوا الله عليه من النصر والصبر، فإنه - جلَّ ذكره - عزيز لا ينال ما عنده في سبيل المعاملة إلا بعد الوفاء بالعمل، فمن أوفى بعهده فالله أصدق وعدًا وأوفى عهدًا وأكرم مثوبة، ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠].

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلِيمًا﴾ [الفتح:١٦] قيل في هؤلاء: إنهم أهل الردة، وقيل: هم فارس، وهو الظاهر، وكل من أوجب الله قتاله إلى أن يسلم ولا يقبل منه جزية فهم أولئك.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧] أي: في الخروج إلى الجهاد، وهذا منتظم بقوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ.....﴾ [الفتح:١٦].

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا

أيضًا مشاكلة؛ لذكرها مع أيدي الناس، وامتناع الاستعارة في اسم الله تعالى إنما هو في الاستعارة التصريحية دون المكنية؛ لأنه لا يلزم إطلاق اسمه تعالى على غيره سبحانه. وروى الواحدي عن ابن كيسان: «اليد القوة» أي: قوة الله تعالى ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم؛ أي: ثق بنصرة الله تعالى لك لا بنصرتهم وإن بايعوك. وقال الزجاج: المعنى: يد الله في الوفاء فوق أيديهم أو في الثواب فوق أيديهم في الطاعة، أو يد الله سبحانه في المنة عليهم في الهداية فوق أيديهم في الطاعة. وقيل: المعنى: نعمة الله تعالى عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم، وهي مبايعتهم إياك وأعظم منها. تفسير الألوسي (١٩/١٩٢).

وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح:١٨ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] قد تقدم أن هذه المبايعة كانت بالحديبية، والسكينة هنا هو: سكونهم تحت شجرة حكم الله وحكم رسوله من اشتراط سهيل بن عمرو من محو «بسم الله الرحمن الرحيم» ومحو «محمد رسول الله» وسكونهم عن نصراني جندل، وقد كان فر إلى المسلمين، وذلك أن الله ﷻ حبس ذلك الجيش عن مكة كما حبس جيش الحبشة الذي كان فيها الفيل.

قال رسول الله ﷺ يعني ناقته: «العصباء حبسها عنهم حابس الفيل»[(١)].

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨] فتح خيبر ومغانمها، وغير ذلك من غنائم المسلمين.

نظم بذلك قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ ثم امتن عليهم بأن ﴿كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ﴾ عنهم مع قلتهم، ولو شاء لسلطهم فاجتمعوا عليهم من أقطارها، ثم عطف بالواو في قوله: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٠] تقديره: رحمة بكم، ولتكون آية للمؤمنين.

كان الرسول ﷺ وأصحابه جملة الأمة يومئذٍ، وقد وعده الله - جلَّ ذكره - ألَّا يسلط على الجملة عدوًا من غيرها يستأصل شأفتهم، فجعل الله ذلك يومئذٍ آية للمؤمنين على هذه التي يصحبهم إياها إلى يوم القيامة، فأصار ذلك من فعله آية للمؤمنين في آخر الزمان حين ضعفهم وقلتهم من مخالفيهم على ما هم عليه يأتهم الله بالكفاية أو بالنصر، وإن كان الإخبار عن المغانم التي عوضهم وعجل لهم يومئذٍ بعضها، فتكون أيضًا آية للمؤمنين على المغانم الكثيرة التي وعدهم بها في الآجل.

عطف على ذلك قوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢٠] هذا مما تقدم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) بلفظ: «مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».

ذكره صدر السورة من إظهار الرغبة إلى الله - جل ثناؤه - في أن يمن على أحدنا بما أعطاه نبيه بحكم التبعية، وفي الخبر: «**إنه لما نزلت هذه السورة فقرأها عليهم:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:١-٣] **قالوا: هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فقرأ عليهم:** ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفتح:٥]»[1].

والفتح على الرسول فتح على أمته، وفيما ذكره دخول الجنة والخلود فيها والمغفرة، وأتمها لهم في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:١٨] فذكر إنزال السكينة عليهم والفتح والغنائم، وهو النصر العزيز، وذكر كف أيدي الناس عنهم كما فعل بجملة المؤمنين حال القلة، ثم قال: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٠] على ما يأتي من المغانم الكثيرة، وكف الأيدي عن جملتهم والنصر لهم في آخر الأمر، وذكر هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح:٢١] يعني: وهو أعلم الغنائم؛ أي: فيما يأتي قد أحاط الله بها، وربما كان من ذلك الفتح فتح مكة، كل ذلك إلى أجله المسمى له.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ [الفتح: ٢٤ - ٢٦].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (١٢٥٥٧).

أتبع ذلك قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ هذا وصف لقساوة قلوب كفار مكة وعتوهم، يقول الله جل من قائل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ المعنى إلى آخره هؤلاء الذين كانوا قد آمنوا من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان المعذورين، وفي مفهوم الخطاب: أن قومًا لم يؤمنوا بعد مرجون لأمر الله، ثم علق بهذا المعنى قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح:٢٥] وهم الذين لم يعلموا ويعلمهم الله، فامتن على المسلمين برفع الحرج عنهم وكفايته إياهم معرة المكروه، وتحمل ما شق كونه من صوم يجب أو فدية تستحق لأجل قتل من كان يقتل من المسلمين بغير علم، والمعرة مأخوذة من العرة، وهو: لطيخ العيب وما يلصق بذلك من المشقة.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٧ - ٢٩].

قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾[1] كان الله - جلَّ ذكره - قد

---

(١) قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه أري نبيه في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحديبية، ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام؛ فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن الرؤيا كانت بالحديبية وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: صدقًا ملتبسًا بالحقّ، وجواب القسم =

أرى رسوله في ذلك رؤيا فعبرها له يومئذٍ بشارة له وللمؤمنين بقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح:٢٧] والاستثناء بالمشيئة لتصديق الله الرؤيا - والله أعلم.

[يقول الله جل من قائل][1]: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣ - ٢٤] فقد تقدم ذكره لما كان الوعد في الاستقبال إعلامًا برؤيا أنزل في حقيقة الإنباء من الوحي الذي هو بالمشافهة من الملك، واستثنى بالمشيئة ولو كان وحي مشافهة أو وحيًا يكون من جملة القرآن لكان عزمًا دون استثناء، كقوله: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن:٧].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج:٤٠] هذا ومثله في القرآن كثير دون استثناء بالمشيئة.

وكقول رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم ولتركبن القلاص ولا يسعى عليها ولتعودن من حيث بدأتم**»[2].

وهذا كثير من إخباره عن وحي الله دون استثناء، بمشيئة ذلك؛ لأن وحي المشافعة والوحي بالقرآن والنفث في الروع مفروغ منه، يأتي بعلمه ويقينه تامًا مفروغًا منه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقد قال ﷺ لعائشة: «**أُرِيتُكِ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ، أَرَى أَنَّكِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ وَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَاكْشِفْ عَنْهَا فَإِذَا هِيَ أَنْتِ فَأَقُولُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ**»[3] فهذه حال الرؤيا من حال الوحي بالمشافهة، ولهذا - والله أعلم - جاء بذكر الاستثناء في هذا الموضع.

=

المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي: في العام القابل، وقوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة؛ لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه. فتح القدير (٧/٢).

(١) في (خ): «يقول الله جل من قائل، وأما قوله».

(٢) أخرجه مختصرًا الترمذي (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح. والقلاص: جمع قلوص، وهي الشابة من الإبل.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤١٨٨)، والبخاري (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٤٣٨).

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩] قد كان من ذلك ما شاء الله، ثم دارت دائرة الانتقاص، وإنما يكون تمام ما ذكره كما ذكره عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] إلى آخر السورة، فهؤلاء هم الأقلون من هذه الأمة ووصف الآخرين منهم بقوله - جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤] كما قال في الأولين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فذكر كيف مثلهم في التوراة، وكيف مثلهم في الإنجيل، وشطء الزرع: ما خرج حول أصوله ﴿فَآزَرَهُ﴾ يعني: أعانه وقواه، مأخوذ من المؤازرة شطؤ الزرع زائدًا إلى هذا هو على ضربين يسمى: السكر:

فضرب منه: يخرج منه خلوف في قصب الزرع على مواضع العقد منه، ذلك يكون حين يحرف ذلك الزرع أول لحاقه، فيقوم على ذلك ويتم أضعاف ما كان ويعظم مع ذلك سنبله.

والضرب الآخر: هو أن يزرع الموضع فيصان زرعه ويحصد ويتم، فإذا كان من العام المقبل نبت ما وقع في الأرض من حب وقام زرعًا وتم على ذلك، وإنما يكون ذلك في الأرض الشكورة، ويسمى هذان النوعان: السكر، وأطيب ما يكون هذا بعد حرف الحصيد، والله أعلم بما يمثل به وهو العليم الخبير.

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ يعني: على قصبه، جمع: ساق، مثله بالزرع يخرج منه أوله مفردًا ثم يتلاحق بها ويتولد منه حتى ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ فكذلك محمد أول هذه الأمة، ثم قام أصحابه فاكتنفوه حوله، فأنماهم الله وكثرهم بعد القلة ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩] ويعجب بهم الملائكة - عليهم السلام - والمؤمنين.

فصل

ذكر أن مثلهم؛ أي: خبرهم في التوراة ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى

قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩] فما قال رسول الله ﷺ: «**لكم سيماء ليست لأحد من الأمم**»[١] وذكر الغرة والتحجيل هذا بعد البعث، وفي الحياة الدنيا سيماهم الخضوع والخشوع وأثر السجود في الحياة، وكان لرسول الله ﷺ بعده خلائف أربعة أصحابه، بهم ظهر الإسلام واتصل في الأقطار، ثم بمن وفق الله من بعدهم من أتباعهم.

وقال في مثلهم الموجود في الإنجيل أنه: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ يعني: ما تولد منه فهؤلاء هم إخوانه، آزروه ونصروه وأحيوا سنته بعد موتها حتى استغلظ واستوى على عروشه، فالمثل الموجود في التوراة إخبار عن وجوده ﷺ في أصحابه وظهورهم عنه ونصرته بهم ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ إخبار عن وجود أمره منصورًا مؤزرًا وإخوانه المؤمنين.

دل ذلك على قوله: ﴿فَآزَرَهُ﴾ هذا فعل أصحابه ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح:٢٩] هذا ما يكون من ولده وعيسى - عليهما السلام - وإخوانهما في الآخر.

ثم هذا وهذا في قوله - جل من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: موتى الدين، وهي القرية الخاوية على عروشها، إلى قوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ...﴾ [البقرة:٢٦٠].

والمثل الآخر في قوله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] فهذه حبة واحدة أوجد الله عنها سبع سنابل، وجعل من كل سنبلة مائة حبة فهذه سبعمائة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] عبَّر رسول الله ﷺ عن هذه المضاعفة بقوله: «**وددت أني رأيت إخواني**» قالوا: أولسنا بإخوانك يا رسول الله؟ قال: «**أنتم أصحابي وإخواني الذين لم**

(١) أخرجه بنحوه ابن ماجة (٤٤٢٣).

يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض»[١].

وقال: «**إنهم سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا**»[٢] فضاعف من واحد إلى سبعة، ثم ضاعف من السبعة بالمئتين فكانت سبعمائة، ثم ضاعف بذلك السبعمائة إلى سبعين ألفًا، ثم ضاعف إلى سبعمائة ألف، ثم ضاعف من ذلك بقوله: «**أو سبعمائة ألف**»[٣] و«أو» هنا بمعنى العطف: مع كل ألف سبعمائة ألف.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣ - ١٤].

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة:٣٩ - ٤٠] وهؤلاء هم سباق الثلاث، فافهم فهمنا الله وإياك.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ [الفتح:٢٩] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقال الملائكة - عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] فهم الزراع وهؤلاء هم الزرع، وقد أغاظ بهم الكفار ثم يتم الله بهم كلمته في المستقبل، إن شاء الله ولله الحمد من قبل ومن بعد.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم:٤ - ٦] المعنى إلى آخره، وأنه اليوم ليباهي بهم الملائكة عندما يجتمعون على ذكره وتعرف نعمه، وفي المستقبل تتميم كلمته التي عبر بها بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] ولا يهولنك - رحمك الله - ما تسمعه فإنه الحق، وكلام الله العظيم يسع الأوجه كما يتفصل مجمل القرآن إلى ما يتفصل إليه كذلك يتفصل معانيه، فاعلم ذلك.

---

(١) أخرجه مالك (٥٨)، وأحمد (٧٩٨٠)، ومسلم (٢٤٩)، والنسائي (١٥٠)، وابن ماجة (٤٣٠٦)، وابن حبان (١٠٤٦)، وأبو يعلى (٦٥٠٢)، وأبو عوانة (٣٦٠)، والبيهقي (٣٩٢).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٢٢٣٥٧) والترمذي (٢٤٣٧) وقال: حسن غريب. والطبراني (٧٥٢٠) وابن حبان (٧٢٤٦) والدارقطني في الصفات (٥٠) وابن ماجة (٤٢٨٦) والمحاملي (٦٠) والديلمي (٧١١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٧٥)، ومسلم (٢١٩)، وأحمد (٢٢٨٩٠).

تفسير سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الحجرات:١ - ٤].

قوله تعالى: ﴿**لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ**﴾ [الحجرات:١] وقرأ يعقوب والضحاك: «لا تقدموا» أمر المؤمنين ﷻ ألَّا يتقدموا بأمر من عندهم أنفسهم ولا قول حتى يكون الله - جلَّ ذكره - ورسوله ﷺ هو الذي يقضي بما شاء الله، فيجب على المؤمنين اتباعه، وذكر صفتي السمع والبصر إعلامًا منه بخفي المراقبة لشأنهم كله.

فصل

كان الصحابة ﷺ في حضرة واحدة مع نبيهم والله ربهم ﷻ ينزل عليه القرآن بين ظهرانيهم، فكيف يجوز لأحد التقدم على هذا، وحالتهم تلك بمنزلة وجود النص المكشوف عند نزول الحادثة؟ فحرام العدول عن ذلك النص إلى قول قائل، بل حالهم ﷺ أبين وأظهر جدًّا.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾[1] [الحجرات:٢] هذا الخطاب منتظم بما

---

(١) أعلمنا الله سبحانه بهذا التأديب أن خاطر حبيبه من كمال لطافته ومراقبته، جمال ملكوته كان يتغير من الأصوات الجهرية، وذلك من غاية شغله بالله وجمع همومه بين يدي الله، فإذا =

تقدم في سورة الفتح، وبما اتصل به من هذه السورة قبله من الأمر بالتعزيز له والتوقير لشأنه كله، فعلمهم في هذا الخطاب كيف التعزيز والتوقير، ولعظم شأنه جعل العقوبة على خلافه حبط العمل؛ أي: إنه يستدرج المستخف بحقه، ثم يخذله فيفارق إيمانه به فيحبط عمله وهو لا يشعر، وإنما يحس ألم الجراح الأحياء.

ولما كان بالإيمان به وبما جاء به من عند الله تصحيح العمل بطاعة الله، فبقلة التوقير له والتعظيم لشأنه يجب إحباط العمل وإن لم يبلغ إلى الشرك والكفر، لكن ذلك مخوف مواقعته مع التساهل وقلة المبالاة، وقد كان أبو بكر ﷺ فيما نقل عنه بعد ذلك يكلم رسول الله ﷺ ومما يخفض صوته لا يكاد يسمع رسول الله ﷺ، فكلمه رسول الله في ذلك، فقال ﷺ: والله يا رسول الله ما أكلمك إلا كاحي السرار منذ أنزلت سورة الحجرات.

أعقب ذلك بقوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات:٣] الامتحان: التطهير والتنقية، فالذهب والفضة يمتحنان من الشوائب بسواهما، يقول ﷻ: امتحن قلوبهم: طهرها وطيبها للتقوى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤] كان وفد بني تميم قد جاءه، فوافق ذلك في وقت الظهيرة وهو نائم، فنادوا من وراء حجراته أخرج إلينا يا محمد.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

=

صوت أحد بالجهر عنده خاصة أن يكلم كان يتأذى قلبه من صوته، ويضيق صدره من ذلك، كأنه يتقاعد سره لحظة عن السير في ميادين الأزل والأبد، فخوَّفهم من ذلك؛ فإن تشويش خاطره ﷺ سبب بطلان أعمالكم. وقال ابن عجيبة: شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد؛ للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه؛ أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدٍّ يبلغه صوته ﷺ بل يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيّته عليكم لائحةً، وسابقته لديكم واضحة. البحر المديد (١٠١/٦).

ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٥ - ٨].

فذم الله فعلهم ذلك وعلمهم كيف الأدب بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات:٥] وعذرهم بالجهل فأرصد لهم المغفرة والرحمة.

ذكر عن ابن عباس ﷺ أنه كان يختلف إلى زيد بن ثابت ليأخذ عنه، فربما وجد الباب مرصدًا وزيد في الدار فيجلس عند الباب وربما نام لطول الانتظار فتسفي الريح عليه الغبار، فيخرج زيد ويجده كذلك فيقول له: يا ابن عم رسول الله، هلا أعلمتني بمكانك؟

وركب يومًا زيد بن ثابت ﷺ فأخذ عبد الله بن عباس بركابه، فقال له زيد في ذلك، فقال له: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فأخذ زيد بن ثابت بيد ابن عباس وقبَّلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

فهذا فعل بعضهم ببعض بحكم التبعية، فكيف بهم معه، صلوات الله عليه ورضوانه على جميعهم وجمعنا بهم ومعهم ببرد رحمته؟.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات:٦] وفي قراءة ابن مسعود: «فتثبتوا» وفي هذا من الفقه أن خبر الفاسق إذا تثبت فيه حتى يتبين بقول العدل فإنفاذ الحكم بقول العدلين واجب إلا أن تتعارض الأخبار أو الشهادات فيلزم التثبت.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ أي: لو يطيع فيكم من لم تثبت عدالته لأعنتكم ذلك منه؛ أي: لشق عليكم ثم صرف وجه الخطاب إلى المؤمنين أهل التقوى بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧] هؤلاء هم أهل العدالة التي تقبل شهادتهم، الذين

[عظة][(١)] الله في قلوبهم، فمن توسم مثل هذا عنده وما يقاربه فلتقبل شهادته وليمض الحكم بشهادته وشهادة مثله.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ٩ - ١١].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ لما ذكر الفاسق والطائع ذكر الحكم بينهما والأخذ بالقسط فيهما بقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ نزلت هذه في طائفتين من المؤمنين والمنافقين، واجه أحد المنافقين رسول الله بما يتأذى به فسبه أحد المؤمنين في ذلك المجلس، وقام لهذا قومه ولهذا قومه، حتى أصلح بينهم رسول الله، يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى...﴾[(٢)] [الحجرات: ٩] وفي قراءة ابن مسعود: «فحدوا بينهما

(١) في (خ): «عطه» وغير واضحة في (ف).

(٢) قال الشيرازي: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشوفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والقلب والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبديهة، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونوادره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائبه الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفةٌ باختلاف كواشفها، ولبعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها؛ فإصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينهما؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار.

بالقسط» وهذا منتظم بما تقدم من استعمال التثبت حتى يقع البيان.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾ وقرأ زيد بن ثابت: «بين إخوانكم» وقرأ بذلك أيضًا جماعة، وقرأ أبو حيوة: «بين أخوتكم» بالتاء، وكذلك قرأ يعقوب، وروي ذلك عن عاصم.

ثم قال عز من قائل: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات:١٠] المراد المقصود بهذا: إطفاء شعلة النفاق، وإصلاح شين المنكر، وقطع الكفر والفسوق والعصيان، وأن المنكر إذا فشا فمخوف عموم العذاب من أجله، نسأل الله العافية والعفو وحسن العون على إقامة أمره، إنه لا يقدر على ذلك إلا به.

ثم أخذ - جلَّ ذكره - بسرد القول في حماية المؤمنين ألا يسخر مؤمن بمؤمن ولا بمؤمنة، وصى بذلك ذكرانهم وإناثهم، وألا يلقبه ولا يلمزه ولا يهمزه، وسمى ذلك: فسوقًا، بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**»(١) وأوجب التوبة من ذلك والنزوع عنه، وألا يظن مؤمن بمؤمن سوءًا، وليناده بأحب أسمائه إليه ويستشر له.

والظن: هو تغليب أحد الجانبين، فأوجب الله - جلَّ ذكره - التثبت عندما يعرض للنفس حتى يقع البيان، ومتى وقع البيان فالأفضل الستر وترك كشف العورة، والظن المراد هنا بالنهي عنه هو: تجويز أحد الجائزات من الشر، فهذا واجب اجتنابه وصرف النفس عن التحدث به، وتحويل وجه القلب عن ملاحظته، وهو معنى قوله: ﴿**اجْتَنِبُوا**﴾.

وعلم الله - جلَّ ذكره - أن النفوس مسارعة إلى ذلك؛ لأجل إغواء الشيطان إياها، فجعل هذا الظن في حيز الكبر، ونهى عن التجسس، وقرأ عبد الله: «ولا تجسسوا» بالحاء غير معجمة، وقرأ بذلك الحسن وابن سيرين، والتجسس بالجيم: في الأخبار، والتحسس: في الآثار.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب**

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٧٨) وابن أبي شيبة (١١).

بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾ [الحجرات: ١٢ - ١٤].

وقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ نصب «ميتًا» على الحال، وهي حال المغتاب أخاه غدًا في البرزخ يظفر لحم أخيه ويجعل في فيه، فيتكرهه ولا يجد بُدًّا من أكله.

يقول الله ﷻ: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] أي: في الدنيا، فأنتم في تلك الدار أشد كراهة له، رفع ذلك إلى النبي ﷺ؛ أعني: هذا التأويل.

وقرأ ابن حيوة: «فكُرهتموه» بضم الكاف مثقلاً، وفسرها عباد: فكلفتموه أي: فيما هنالك، ثم دعاهم إلى التوبة بقوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ إلى: ﴿خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] هذا كقول رسول الله ﷺ: «الناس لآدم وآدم من تراب لا كرم إلا بالتقوى»(١) القبائل أكبر من الشعوب، والشعوب ما تشعب عن الأول؛ فإذا عظم الشعب صار قبيلة.

يقول الله - جل من قائل: لم أجعلكم قبائل وشعوبًا للتفاخروا بينكم وتتكاثروا بالعدد والمال، إنما جعلت ذلك كذلك لتتعارفوا بينكم فمن عرفتموه أتقى لله فهو أبركم وأكرمكم وأفضلكم، وقرأها عبد الله: «لتتعارفوا بينكم وخيركم عند الله أتقاكم».

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ

---

(١) هذا ما معناه مما ورد في السنة المطهرة.

﴿الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] هؤلاء قوم شهدوا شهادة الحق ولا يعلمون ما شهدوا به غير أن أنفسهم ليست تنازعهم إلى تكذيب ما شهدوا به.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ إذ قد أذعنوا للعمل بطاعة الله ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ إذ لم يدخل علمه فيها دل على صحة هذا التأويل قوله جل من قائل: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: على ما أنتم عليه ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أي: لا ينقصكم ﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات:١٤] إن الله عليم بأعمالكم خبير ببواطنكم.

وجاء من مفهوم هذا الخطاب: أن العلم بما شهد به هو الإيمان، فمن لم يكن له علم بما آمن به وصدق به وشهد به فليس بمؤمن على التحقيق إلا على القول بالعموم، بل هو مسلم لكنه على سبيل خير إن شاء الله، وأمر رسول الله ﷺ في بعض مواطنه أن ينادي مناديه في الناس: «**ألا أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»[1] وفي أخرى: «**مسلمة**»[2].

ذلك قوله - جل من قائل: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: على ما أنتم عليه من الإقرار والتسليم والإذعان ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات:١٤] فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين، فإن تعلموا علم ما شهدوا وعقدوا عليه علمًا ويقينًا فهم المؤمنون.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ

---

(١) أخرجه الحميدي (٤٨) والضياء (٤٦٢) وابن أبي شيبة (١٤٦٩٨) وأحمد (٥٩٤) والدارمي (١٩١٩) والترمذي (٨٧١) وأبو يعلى (٤٥٢) والحاكم (٤٣٧٦) والبيهقي (١٨٥٢٤) وسعيد ابن منصور (١٠٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٦١)، والترمذي (٢٥٤٧) وابن ماجة (٤٢٨٣) والطيالسي (٣٢٤) والبخاري (٦١٦٣) ومسلم (٢٢١) والبزار (١٨٥٠) وأبو عوانة (٢٥٠) والبيهقي (٥٤١٠).

غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجرات:١٥ - ١٨].

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: إيمان صدق وشهادة علم بما آمن به ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] صدقوا الله في إيمانهم باطنًا، وصدقوا بما صدقوا به إيمانهم من إسلامهم ظاهرًا طيبة بذلك أنفسهم، الصدق هنا هو: صدق القلوب بالإيمان والعلم، ثم الصدق بالعمل لمن آمن به، فمتى انفرد تصديق الجوارح واللسان مع سلامة القلب من التكذيب فهو الإسلام.

نظم بذلك قوله لتلك الطائفة: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات:١٦] فأوجد لهم دينًا وأضافه إليهم، وقد قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:١٩].

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فكيف لا يعلم، حيث بلغ إيمانكم وحيث قصر عنه ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١٦].

ثم استمر على خطابهم باسم الإسلام بقوله - جل ثناؤه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ أي: الذي نسبتموه إلى أنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧] لم يخلهم من خير لعدم نزاع التكذيب والجحد فيهم.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعرض بالإيمان الذي نسبوه إلى أنفسهم وما هو وما قدره ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات:١٨] يعرض بموضع إسلامهم وفيهم من الإيمان أن أمنهم الناس على أنفسهم وأموالهم.

تفسير سورة «ق»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾ [ق: ١ - ٨].

قرأ ابن أبي إسحاق وأبو السمال: «قاف» بالخفض، وقرأ عيسى بن عمر: «قاف» و«صاد» و«نون» بالنصب، وتأسيس خطاب هذه السورة على وصف الاقتدار على الإحياء والإماتة، ثم العود بعد البدء والإرشاد إلى دلائل ذلك وآياته، ولزوم المراقبة والحفظ، وذكر المصيرين بما في ذلك وما تبعه من الوعد على الإيمان والوعيد على الكفر والتكذيب به، فقوله: ﴿ق﴾ إشارة إلى ما أعلمت به في ذكر الأسماء، وإلى ما عبرت عنه في الوجود؛ فكأنه قال - عز من قائل، وهو أعلم بما ينزل: وعد حق وقول صدق ورسول أمين ونبي كريم ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[1] [ق: ١].

---

(١) الذي هو مخبرٌ عن جميع الذات والصفات، المشتمل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والدهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث الربوبية، وحرف القاف كنايةٌ عن كل اسمٍ فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، وبقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدتي، وأيضًا أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضًا أي: بالقلم القادر الذي رقَّم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضًا أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمشتاقين إلى جمالي، والقرآن =

ثم أضرب بحرف «بل» عن ذكر حقائق ما عبر عنه بحرف القاف وما أقسم عليه، فقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:٢].

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق:٤] يعني ما تنقص أبدانهم من الأرض لأكل التراب إياها، هذا وجه.

ووجه آخر: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم التي هي أبدانهم حال الحياة الدنيا؛ فإن الغذاء يتغذون به ويخلق الله عنه أجزاء لو تجمعت ولم تنقص لذهبت الأجسام كل مذهب؛ لكن الله يخلق عن الغذاء أجزاء ويعدم أجزاء، فهو أبدًا يخلق ويعدم، فها هو الآن يوجد ويعدم ويحيي ويميت، فما بالهم يكذبون بالرجعة بعد الذهاب بالموت، أفلا يتفكروا في أنفسهم كما قال: ﴿بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

ووجه ثالث: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ﴾ [ق:٤] التي هي أجسامهم تأكلها التراب كلها إلا عجب الذنب ﴿مِنْهُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب فإنه فيه ركب ومنه يعود**»(١) يقال لواحدها: عجب، ويجمع

الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضًا أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قِدمي، أنا أقرب إلى قلوب الفرّارين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقرّبهم مني حتى يشتاقوا إليَّ، وأيضًا بقربك مني يا محمد يا قرة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قِدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويبقوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فَهِم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعًا، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر الذات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٧٤٣)، والنسائي (٢٠٧٧).

على عجوب، هو كالبزر لأجسام بني آدم، ثم قال: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:٤] أي: يزم ما يوجده وما يعدمه.

أتبع ذلك قوله - عز جلاله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥] يقال: أرض مستمرجة إذا اختلط نبتها بأنواع النبات والتف، انتظم هذا بما في أول السورة من معنى ما أضرب عنه إلى ذكره بحرف «بل» وهو ما كذبوا به لم يؤمنوا، فعجبوا من رسول يأتي منهم إليهم من عند الله بهذا الذي لم يتحققوه، وعجبوا منه وكذبوا به المديح المختلط الملتبس لما لم يستضيئوا بنور نبوة، ولا استروحوا نسيم اليقين، ولا حيوا بروح الإيمان، اختلطت آراؤهم والتبست مذاهبهم، فهم لذلك ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١] إنما يبعثهم من هذه الموتة بالملائكة حين تتوفاهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٧] ثم يبعثهم البعث الأكبر للجزاء الأكبر.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق:٩ - ١٥].

نظم بذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ [ق:٦] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:١١] قد تقدم الكلام في مثل هذا بما يتطرق به إلى النظر فيما يأتي منه؛ فإنه لا يأتي مع تكراره إلا لفائدة وزيادة علم تجديد النظر ويزداد التذكر بكون الفتح بإذن الله، لكن على ما يأتي عليه من خطاب قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخر المعنى ﴿الرَّسِّ﴾ [ق:١٢] قالوا: وادٍ بعينه، وقالوا: هو البئر غير المطوية: وقيل: هم قوم عاد، والله أعلم، والمطلوب من معرفتهم أنهم قد كذبوا رسل ربهم إليهم فعوجلوا بالعذاب لأجل ذلك، وجعلوا عبرة لمن بعدهم وعظة لأمثالهم.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ [ق:١٥] يقول - جلَّ ذكره - فكيف

توهمتم ما أريناكم أنا نعجز أو نعيى بالخلق الآخر، يقال: عيي فلان يعيى عيًّا: إذا لم يهتد لوجه عمله، ويقال من ذلك: أعياني هذا الشيء بمعنى: أعجزني.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق:١٦ - ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾(١) [ق:١٦] هما وريدان؛ أي: عرقان يكتنفان صفحتي العنق مما يلي مقدمه، متصلان من الرأس إلى الوتين، وهو عرق القلب.

نظم به قوله - عز من قائل: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧].

يقول - عز جلاله: يعلم ما توسوس به نفس العبد ﴿إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الحفيظين - عليهما السلام - أي: إنه لم يجعلهما كاتبين لعمله؛ لأنه يغيب عنه علم ما هو عامله، بل هو يعلم سر ذلك وأخفى من السر، وهو ما لم ينقدح بعد من خزائن الغيب إلى سر النفس وعبارته عن ذلك بنون الجمع إعلام بأنه قد جعل

---

(١) قال المصنف: فالله ﷻ أقرب إلى المخلوق من نفسه ومن حياته، ومن مجرى الروح فيه، وأقرب من القرب؛ لأنه فاعل ذلك كله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١] له الصفات العلا وللمخلوق مجازها. وأما قربه من عباده المؤمنين فعلى قدر تحققهم في صفات الإيمان والإسلام ومعاني التطيب والطهارة والتزلف لديه بطاعته، ومعنى قربه جل وعز منهم سرعة إجابته لدعائهم، وسماعه لنجواهم، وعلمه بخفايا ضمائرهم وشهوده لأحوالهم كلها، وحضوره معهم وأنه ليس بالغائب عنهم، ولا بالعازب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، ليس في معرفة قربه مسافة ولا في العلم أمم ولا ناحية. [٢/٢٥٤].

للملائكة من ذلك أنهما يعلمان سر يقين العبد.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الملك يقول: رب، ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة، قال: ارقبوه فإن عملها...**»[1].

وقد قال الله في غير هذا الموضع: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار:١٠ - ١٢] وكل نون عبر بها عن علم أو عمل أو مفيد أمر فهو عبارة عنه وعن الملائكة الذين جعل لهم ذلك لذلك.

قال: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق:١٨] أي: حاضر رقيب، بمعنى: مراقب، وقعيد بمعنى: مقاعد.

قوله ﷻ: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ**﴾ معناه جاءت سكرة الموت بما فيها من معاينة وبما بعدها، وهو من الحق الواجب على كل عبد الإيمان بوجوده والشهادة به، وقرأها أبو بكر: «وجاءت سكرة الحق بالموت» ﴿**ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ [ق:١٩] أي: تنفر.

أتبع ذلك ما هو من الحق قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**﴾ [ق:٢٠ - ٢١].

ثم قال يعني الكافر والغافل عن مقام ربه: ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق:٢٢] غطاء الجهل والغفلة في هذه الحياة، اعلم أنه من كان بصره في هذه الحياة الدنيا حديدًا رأى هذا الحق المشهود به بشهادة الحق كله أو جله وهو عمدة الوجود، بل هو من الموجودات بمثابة النقطة من الخط بها مبدؤه وبها اتصاله وبها انتهاؤه، كذلك الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هو الأول في كل موجود وهو الآخر وهو الظاهر فيه وهو الباطن، فافهم - فهمنا الله وإياك - وقف على هذا ومبينة جدًّا، فمتى أحكمته لم تر شيئًا غيره، وكان المفعول على هذا التحقيق هو كالغرض والمطلوب كالجوهر ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى**﴾ في السماوات والأرض ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [النحل:٦٠].

نظم بذلك قوله الحق: ﴿**وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**﴾ [ق:٢٣] هذا القرين

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥٢)، وأحمد (٨٢٠٣).

هو: الملك، يقول: هذا الذي كتبته عليه من عمله طول حياته عتيد حاضر.

قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق:٢٤] بمعنى: معاند، التثنية هنا مخاطبة للسائق والشهيد معًا؛ إذ السائق يسوقه وبشهادة الشاهد يحق عليه الحكم، فحسن العبارة عنه بلفظ التثنية إلى قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق:٢٦].

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾ [ق:٢٧ - ٣٥].

نظم بذلك قول القرين من الشياطين: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي: إني لم يكن لي عليه سلطان ولو اعتصم مني بك لم يكن لي فيه ولا عليه حجة، لكنه كان عن عبادته إياك ﴿فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧] ينظر إلى قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

نظم بذلك قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٨ - ٣٩] المعنى حيث وجد ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩].

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٤٢ - ٤٣].

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩] بعد الإعذار مني والإنذار والنار.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠] يحمل هذا الكلام على وجهين:

أحدهما: أن يكون معنى قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ بعد الملء؛ أي: لا مزيد على هذا، ويمكن أن يكون هذا المعنى منها في دولة الزمهرير تعظم أجسامهم كما جاء أن: «**ضرس الكافر مثل جبل أحد وكثف جلده أربعون ذراعًا**»[١] ويكون معنى جوابها أيضًا: هل من مزيد حريقًا وسعيرًا في دولة السعير والحريق، والوجه الآخر هو: الأعلى أن يكون معنى قولها ذلك طلبًا منها للمزيد للمعهود من النار أنها كلما زيدت حطبًا زادت لهبًا.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع الرحمن فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك**»[٢] آية ذلك اختلاف الزمان بالحر والبرد، وإذا أفرط الحر جاءت رحمته بالبرد والماء من السماء فامتزجا معًا وكان التوسط، وإذا أفرط البرد جاءت رحمته بالحر بواسطة الشمس، فامتزج الوجودان وكان التوسط، وكل ذلك له دوائر موزونة بأقساط مقسطة تقدير العزيز العليم، والعبرة في ذلك إلى موجود الدار الآخرة وهي الكبرى فسعير ما هنالك وزمهريره على قدر ذلك، وعلى مشيئة الله ﷻ في ذلك، والملء يكون بها ومنها وفيها سعرًا ولهبًا، ويكون ممن يجعل فيها، نعوذ بالله من ذلك.

قال الله - عز من قائل: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] اذهب فمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين، فإذا كان الملء ممن جعل فيها فإنما يكون ذلك حال دولة الزمهرير وضع فيها - جلَّ ذكره - قدمه الذي قدمه في قدمه تقديره الأول، فانزوى زمهريرها وبردها وجاء سعيرها ولهيبها وتزايد؛ فالتهم ذلك من فيها أكلاً واتسعت بهم، وقد كانت قبل أن يضع فيها قدمه كالزج على كعبه الرمح ضيقًا، فصاروا منها في بحار وسعير ليذوقوا عذابها، ثم هي إذا امتلأت منها بها سعرًا ولهبًا، قيل لها: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ حررًا ونهامة، وضع فيها قدمه أيضا فينزوي بعضها إلى بعض ضيقا بهم وإظلامًا وبردًا وزمهريرًا، ويتضاعف عظم أجسامهم ليذوقوا عذاب ما هم فيه، حتى إذا تناهت قيل لها: ﴿هَلِ

---

(١) أخرجه هناد في الزهد (١٨٩/١).

(٢) تقدم تخريجه.

امْتَلأْتِ﴾ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: لا مزيد، قد امتلأت بأهلي، فيضع فيها قدمه هكذا، نعوذ بالله من جهنم ومن أحوال أهلها في الدنيا والآخرة إنه خير معاذ.

وذكر القدم هاهنا عبارة عن قوله العلي في قدمه الأمر يوم استوى على العرش الكريم: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»[١] وفي أخرى: «**تغلب**»[٢] مكان «تسبق».

نظم بذكر جهنم ذكر الجنة بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

نظم بذلك إشارة منه إلى قربها من المتقين قوله الحق: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢] الأواب: الرجاع بالتوبة إلى ربه، وإنما بعد الجنة منه في الدنيا على قدر بعد التوبة من التقى من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، الله لا إله إلا هو قريب لا ريب في ذلك، من عبده كذلك الجنة أو النار قريب هذه وهذه من هذا أو هذا، فمن كفر ربه ﷻ في هذه قربت منه جهنم عقدًا وقولاً وعملاً وأكلاً منها وشربًا عيبًا.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] أي: اليوم ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩] فإذا كان يوم القيامة نشأ ذلك نشأة يزيد على ما هو اليوم كما بين الدنيا والآخرة، فإنما هو التجلي منها ورؤيتها حتى إذا كان في دار القيامة أدخلها وصليها جزاءً وعذابًا ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥] من خشيه بالغيب تجلى له برحمته، وأزلف له جنته التي عمل لها بالغيب.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٣] [ق:٣٥] مزيدهم أبدًا يزيد على

---

(١) أخرجه بنحوه الدارقطني في الصفات (١٦) وأحمد (٧٥٢٠) وإسحاق بن راهويه (٤٥٩) والبخاري (٦٩٦٩)، ومسلم (٢٧٥١) وأبو نعيم في الحلية (٨٧/٧) والديلمي (٥٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٧١٤٥).

(٣) هو ما لا يخطر ببالهم، ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالي الكرامات التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومنه كما أخرجه ابن أبي حاتم عن كثير بن مرة: أن تمر السحابة بهم فتقول: ماذا تريدون فأمطره عليكم؟ فلا يريدون شيئًا إلا أمطرته عليهم. وأخرج البيهقي في «الرؤية» والديلمي عن علي - كرم الله تعالى وجهه - عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: «يتجلى لهم الرب ﷻ». وأخرج ابن المنذر وجماعة عن أنس أنه قال في ذلك أيضًا: يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة. وجاء في حديث =

أمانيهم ويربو على آمالهم وعلومهم؛ فلا تزال أبدًا علومهم تزيد وأمانيهم على قدر ذلك ترتفع وتزيد، والمزيد يتزايد أبدًا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١)﴾ [ق:٣٦ - ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ رجع نظم الخطاب إلى أوله حيث ذكر تكذيب المكذبين وارتيابهم وعلوهم على رسلهم وإهلاكه إياهم ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ بعثوا نقباء في البلاد ﴿هَلْ﴾ يجدوا فيها ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق:٣٦] أي: منجا مما حل بهم، والتنقيب: شدة الطلب والبحث.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يفقه به عن ربه فسار في الأرض ووقف على مواضع إهلاكهم،؛ فيعلم أن الذي أصاب أولئك نصيب من حذا حذوهم ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ من لم يتهيأ له التسيار؛ فليلق سمعه إلى نقلة الأخبار، ولما جاء في القرآن وسائر الوحي ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] القلب حاضره، يسمع بأذن قلبه وكأنه يرى ربه غير غائب عنه، فإن غفلة القلب موته، وذكره لربه ﷻ حياته، كما أن الإصرار على المعصية موت للقلب، والتوبة مع إدامة الذكر حياة العبد، وكل قلب لم ينل هاتين المنزلتين لزوم المراقبة بالعلم وإدامة الذكر؛ فهو ميت بقدر ما نزل عن هذا المقام كما بالقدر الذي صعد إليه وتحقق فيه عد

=

أخرجه الشافعي في «الأم» وغيره: «أن يوم الجمعة يدعى يوم المزيد». وقيل: المزيد: أزواج من الحور العين عليهن تيجان أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب، وعلى كل سبعون حلة، وأن الناظر لينفذ بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك. وقيل: هو مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها. تفسير الألوسي (١٩/٣٤٣).

في الأحياء، فعلى هذا فأول من مات ممن خلق الله إبليس - لعنه الله - فإنه من عصى الله عد في الموتى.

قال الله - جل من قائل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: بالعلم والذكر لله ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني: ظلمات الجهل والكفر والمعاصي ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: إعياء، هذا منتظم بذكر وصف الاقتدار على إيجاد المخلوقات، وإنزاله الماء وإنباته ضروب النبات، ثم صرح عن المراد بقوله الحق: ﴿كَذَلِكَ الخُرُوجُ﴾ [ق:١١].

يقول - جل من قائل: فكيف أنكرتم القدرة على الإعادة بعد البداية وإنما أنتم شعبة يسيرة من خلق السماوات والأرض.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩] العصر والظهر بمفهوم الخطاب ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ المغرب والعشاء ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق:٤٠] وقيل: ركعتا الفجر، وقيل: ركعتان بعد صلاة المغرب، وأرى - والله أعلم - أنه خص منه جلَّ ذكره على الركوع بعد انقضاء صلوات الفريضة التي كان رسول الله ﷺ يحافظ عليهن: ركعتا الفجر، وأربع قبل الظهر، واثنتان بعدها، وأربع قبل العصر، واثنتان بعد صلاة المغرب، وأربع قبل صلاة العشاء، واثنتان بعدها، ثم صلاة الوتر، أمر رسوله بالصبر على ما يقولون حتى يأتي الله بأمره وبالنصر والانتصار.

أتبع ذلك ما هو في معنى ما تقدم قوله ﷻ: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق:٤١] أي: ارتقب ذلك بقلب مترقب منتظر يوم يسمعون الصيحة بالحق؛ أي: بما فيها من إحياء ونشور وحشر ولقاء وحساب وميزان وصراط وحوض وشفاعة، إلى غير ذلك مما في ذلك اليوم وما بعده الذي هو يوم الخلود، ذلك يوم الخروج من القبور والأرض التي منها خلقوا وهو ما شكوا فيه وكذبوا به.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق:٤٢ - ٤٥].

ثم حكم بحكمه الحق الذي هو المطلوب في السورة قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: سريع خروجهم، ليس خروجهم على المعهود من خروج النبات في البطء ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٣ - ٤٤] كانت النشأة الأولى على سبيل السنة وتكون الآخرة على سبيل الكلمة، فهو اليسير والهون المذكوران، فافهم.

تفسير سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤)
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨)
يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ
الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾
[الذاريات: ١ - ١٤].

جاءت دلائل هذه السورة أن الجزاء واقع، والوعد والوعيد صادق، ثم ما انضم إلى ذلك أو كان سبيلاً إلى التعريف به قوله ﷻ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾[(١)] [الذاريات: ١] الرياح تدبرها الملائكة وتصرفها إلى أمر الله بمشيئته وإذنه.

﴿فَالْحَامِلاتِ وَقْرًا﴾ [الذاريات: ٢] السحاب ومن وكل بهن من الملائكة - عليهم السلام - تسوقها الرياح.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات:٣] الفلك في البحر والملائكة الموكلون بهن تجريها الرياح والملائكة الموكلون بهن، على جميعهم السلام.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:٤] عم هنا جميع الأمر والخلق، نزل الأمر من السماء من عند رب العزة ﷻ فتتلقاه الملائكة حملة العرش ومن حوله - عليهم السلام، ثم ملائكة السماوات سماءً سماءً بعد الخضوع له بالقبول، فيصرفه الله على مشيئة ربهم - جلَّ ذكره - وبحوله وقوته، وهم بأمره يعملون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

---

(١) أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صولة ظهور القيومية في سماء الهوية أثر؛ لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى قلوب المحبين، وينشق طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين ومحمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب الجبروت.

وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [الأنبياء:٢٨] ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات:٥] المراد بقوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾ العقاب.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات:٦] العقاب والثواب لأهله، نظم بذلك قسمًا على معنى ما تقدم، ما توعدون: هو ما تثابون به وتعاقبون، والدين هو نُزل هؤلاء وهؤلاء، وقد جاء ذكر هذا وهذا في المقسم من أجله بعد هذا، و«**كما تدين تدان**»[١] ويكون أيضًا بمعنى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات:٥] أي: من محبوب ومن مكروه موجود في الموت وفيما بعده هو حق وجوده لا مرية في ذلك.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات:٦] أي: الجزاء على الأعمال كائن لا بد ولا محالة والقسم واقع على وجود قلة ذكرهم وعدم الصواب منهم في العلم به واليقين بما هم إليه صائرون.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧] هو: الصنع الحسن الجميل؛ فكأنه قال: والسماء ذات الزينة والخلق الحسن والدروع محبوكة؛ لأن حلقها مطرقة طرقًا، وكل ما كان كذلك فهو ذو حبك ومحبوك، ويقال: إن خلقه السماء كذلك يقول ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات:٧ - ٨] أي: مختلف في الحق، يؤفك عن الحق من أفك؛ أي: عن حقيقة الحق، وعدل به عن سواء السبيل.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات:١٠] هم: الذين يقولون عن غير علم لا يسندونه إلى كتاب ولا سنة ولا أثارة من علم، وهو دعاء منه مجاب إلى من تلقاه منه برحمة.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات:١١] السهو: الذهول، فهم في غمرة، والغمرة: غمة الظلام، وغمرة الماء: عمته، وغمرة الموت: همومه وكروبه.

قال رسول الله ﷺ في أبي طالب: «**وجدته في غمرات من النار**» أي: في داخلها وفي أعماقها «**فأخرجته إلى ضحضاح، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من**

---

(١) أخرجه البخاري (١).

النار»[١] فالكفار في ذهول عما يراد بهم.

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤] هم لا يسمعون ما يوعظون به، ولا يعقلون ما يرونه من الآيات وما يأكلون أو يشربون ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠] [...][٢] هو بعدهم عن الإيمان والعلم وبخاصة إبعاده إياهم عن قربه، فهم لذلك لا يعقلون ولا يسمعون ولا يجدون حلاوة الإيمان ولذاذة القرب وروح العلم والذكر، قُتِلوا: أبعدوا عن الله الحي الذي لا يموت ومن قربه الله فقد أحياه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات:١٢] متى يوم الجزاء؟ وهو ما كانوا عنه في غمرة ساهون.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣] أي: يعذبون، يقول - جل من قائل: الدين هو في يوم هم على النار يفتنون ونصب يوم بسقوط الخافض الفتن أيضًا بوجه الحرق بالنار، واعلم وفقك الله إنما أقسم بقسم إلا مطابقًا معناه لمعان في المقسم من أجله سراج منير يهدي به الله من يشاء، وإنما يعمي عن رؤية ذلك ظواهر أشخاص المحسوسات، ويصم عن سماع ندائها ضوضاء المشاهدات، لولا ذلك لنودوا بها من مكان قريب: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات:١٤] أي: ذوقوا صدكم عن سبيل الله وانصرافكم عن هدايته، فتنوا الناس في الدنيا بالضلال عن الهدى وافتتنوا ففتنوا في الآخرة بالنار، أحرقوا وفتنوا بذلك أيضًا عما صار إليه أهل الإيمان والاستجابة لله والرسول من الثواب والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) غير واضحة في (خ) وغير موجودة في (ف).

تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ١٥ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات:١٥ - ١٦] أتاهم في الدنيا الإيمان والعمل بالطاعة وفي الآخرة جزاء ذلك جوار ربهم.

ومثال نزل أعده لهم قوله ﷻ: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الذاريات:٢٠ - ٢١] كما قال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤] فأما الآيات التي في الأرض فقد تقدم ذكر البعض منها في صدر الكتاب، والمشار إليه منها هاهنا على الأكثر هي آلاؤه ﷻ منها حكمته في الأمم الماضية من إهلاك من أهلكه منهم، وإنجاء من أنجاه وأكرمه من أوليائه.

وأما قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ فإنه من نظر في نفسه بإيمان صحيح وعقل مسترشد عرف نفسه، يعلم بذلك أنه عبد، وفي علمه بذلك أن الله له رب وبعلمه ذلك يعلم أسماءه وصفاته، ثم بإيمانه ذلك يعلم أنه واحد أحد، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وأن ﴿لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] ليس كمثله شيء وهو العلي الكبير، فافهم فهمنا الله وإياك، فقد حصلت على الحادة وجمع لك المقصود في أطراف الكلام.

لذلك ختم بقوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] فإنك لو وقفت بعقلك وصحيح إيمانك على فطره إياك وإخراجك من عدمك إلى وجودك، وإنك لم تكن قط عدمًا له إنما كنت عدمًا لنفسك، بل كان يراك ويسمع المسموع ويعلم المعلوم منك، ثم أوجدك فأخذ عليك العهود والمواثيق بعد أن كتبك في الذكر وهو اللوح المحفوظ ولم ينقلك عن علمه، ثم كتبك في الكون، ولما أخذ ميثاقك وأعطيته عهودك بما أخذه عليك صيرك في خزائن السماوات والأرض، ولذلك جعل رزقك فيهما ومرجعك إليهما، ولذلك كله كانت فيك إثارة الأسماء والصفات ومعاني الفتح والفيح، ثم لذلك كان مرجعك إليه - جلَّ ذكره - ومرجعك إلى أحد المصيرين؛ لوجوب وجودك عن إثارتيهما وأنه كان رزقك في هذه عنهما لهذا وما أكثر وأكبر من هذا ختم القول بقوله: ﴿أَفَلَا

تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

ثم نظم به قوله الحق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] وأقسم على ذلك؛ لأنه ظاهر للعقول الصحيحة بقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣] جعل القسم من الطريق التي يتوصل بها إلى المطلوب؛ إذ كنا مفطورين في فطرة السماوات والأرض، ثم فطرنا بعد في البدء الأول كما تقدم، ثم أصارنا مختزنين فيهما، وإذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] و﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] فكما أننا ننطق كذلك هو الحق، وهذا المعني بهذا الخطاب من جزاء ووصف هو موجود في دار البرزخ في الدار الآخرة أكبر وأعظم جزاءً.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] الرزق هنا على أحد الوجهين:

- الماء كما قال - عز من قائل: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية:٥].

- **والوجه الآخر في تأويل الرزق**: أن الماء قد دل بما هو بما ينبت الله عنه من جنات ويجري به من الأنهار ويفجره عنه عيونًا على جميع ضروب ذلك كله وأنواع فنونه: فدل بذلك على الرزق المدخور في الدار الآخرة، وأنه أيضًا أحال بذكر الرزق النازل من السماء عن الماء الواحد على الإله الواحد الحق كان ولا شيء معه مذكورًا سواه، ثم أوجد الموجودات وابتدع الأرض والسماوات وما علا فوق ذلك وما سفل.

كذلك الماء واحد ينزله من السماء طاهرًا مطهرًا مباركًا إلى الأرض، ثم يصرفه إلى ما شاء من كثرة كذلك أحال بذكر الرزق في الماء على معنى الإيجاد بعد البداية، يقول: خلقهم من الماء ومما يصرفه إليه رزقًا وغذاء خلقًا بعد خلق وإنشاء بعد إنشاء، ثم يميتهم كذلك يحييهم كما بدأهم إحياء، إطلاق اسم الرزق واقع على مأكولات الجنة، ثم اتسع بذلك على متاع الدنيا، لكنه على التحقيق لا ينطلق إلا على الحلال من ذلك أحياء عند ربهم يرزقون فيها بكرة وعشيًا، وما أنزل الله من السماء من رزق وعرض بذكر السماء ينزل منها الماء فيخلق عنه الرزق إلى ذكر الجنة.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] فكل ما يكون عن الماء يفتح الله رحمته بعد إنزاله من السماء من أبناء وبنين، وشبان وشيب، وكواعب حسان ومراكب [مزينة][1] وجنات وحدائق معروشات وغير معروشات، وثمرات وزروع، ومقام كريم دال على الجنة للمعهود، ومن شبه الأبناء للآباء، وكذلك ما يكون عن الماء أيضًا بعد امتزاجه بالأرض وبالفيح من شابك ومرار وأدواء وسموم وحيات وأفاعي وعقارب وحشاش وسباع دال على جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - للمعهود أيضًا من شبه الأبناء بالآباء، ألا ترى إلى السحاب والهواء والجو البرق فيها يلمع، والرعد يزفر، والصواعق تصعق فتصيب من شاء الله، والبرد ببرد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤] فقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] إعلام بما يكون عن الوعيد.

أتبع ذلك قسمًا برًا وقولاً حقًا: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[2] [الذاريات:٢٣] فكما لا مرية في أننا ننطق ونتكلم، ولا شك فيما نشاهده من نزول الماء من السماء وتصريفه إلى ما نشاهده، ويكون عنه كذلك لا مرية في إظهار ذلك الغيب، ولا لبس في كون ما نوعد.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ
مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا
وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا

---

(١) هكذا في (ف)، وغير واضحة في (خ).

(٢) قرأ الجمهور بنصب «مثل» على تقدير: كمثل نطقكم و«ما» زائدة، كذا قال بعض الكوفيون: إنه منصوب بنزع الخافض. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد؛ أي: لحق حقًا مثل نطقكم. وقال المازني: إن «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد، فبني على الفتح. وقال سيبويه: هو مبنيّ لإضافته إلى غير متمكن، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر والأعمش: «مثل» بالرفع على أنه صفة لحقّ؛ لأن «مثل» نكرة وإن أضيفت، فهي لا تتعرّف بالإضافة كـ«غير». فتح القدير (٧/٤٣).

ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧) وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠)﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٤٠].

ثم جعل ﷻ يسرد ذكر الآيات الدالة على الثواب والعقاب من لدن قوله: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [الذاريات:٣٧] ثم قوله - جلَّ ذكره: ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المُسْلِمِينَ**﴾ [الذاريات:٣٥ - ٣٦].

فصل

في هذا الخطاب من الفقه أن اسم المسلمين قد يقع على غير المؤمنين لقوله: ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المُؤْمِنِينَ**﴾ [الذاريات:٣٥] يريد لوطًا وبناته - عليهم السلام.

وقوله: ﴿**فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المُسْلِمِينَ**﴾ [الذاريات:٣٦] لكون امرأته في جملتهم، و﴿**كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ**﴾ [العنكبوت:٣٢] لكونها في الباطن من أهل القرية وأخرجت منها؛ لكونها متلبسة بحلية الإسلام ولم تكن من الناجين؛ إذ لم تكن من المؤمنين.

قيل في الكتاب الذي يذكر أنه «التوراة»: إنها التفتت فمسخت مكانها تمثالاً مالحًا بعد خروجها من القرية.

وفيه أيضًا من الفقه: أن المرأة من أهل البيت، فعائشة إذن وحفصة وصفية وسائر نساء النبي ﷺ من أهل البيت بنص القرآن.

قال الله ﷻ **يخاطبهن** - رضي الله عنهن: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب:٣٣] فهن من أهل البيت بمواجهة الخطاب، وأصحاب الكساء الخمسة أهل البيت بنص الحديث وبعموم خطاب

القرآن بقوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ [الأحزاب:٣٣] فاستاق جمع المذكر وغلَّبه كالمعهود الشائع من كلام العرب.

وقال محمد بن أبي بكر - رضي الله عنهما - وقد رامه أبوه على فراق امرأته:

وإن فراقي أهل بيت جمعتهم على كبرة مني لإحدى العظائم

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٤١ - ٥١].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات:٣٨] إلى قوله: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات:٤١] إلى قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ [الذاريات:٤٣] إلى تمام القصص، إلى قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: أهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات:٤٦] فكانت تلك آيات على إهلاك من لم يؤمن بالله وكذب المرسلين في الآخرة، نظم بذلك - جلَّ ذكره - لينسق الآيات بعضهن على بعض.

قوله الحق: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بقوة، يريد - وهو أعلم بما ينزل: والسماء بنيناها فجعلنها على ما هي عليه خلقها وأمرها ممسكة بغير عمد ترونها، بل بقدرة منا وأيدٍ آية، وقد تقدم أن السماء والأرض وما بينهما خلقهن العزيز العليم بالحق.

ومن تقصى النظر وتابع التذكر وقف على أن هذا الحق المعني قد أسلكه فيهن صغير ذلك وكبيره سلوك الأرواح في الأجسام والأغذية في الأبدان، بل أحله من ذلك حلول الأول فيها والآخر والظاهر والباطن أبطن ذلك اليوم عن الأبصار

وأظهره لبصائر ذوي الألباب؛ فإذا كان اليوم الآخر وقوض البناء وبدل الأرض غير الأرض والسماء أظهره إظهارًا وكشفه عيانًا، وهو المسمى: الحق المبين، أشار إلى ذلك بقوله الحق: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

كان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة ونظر إلى السماء: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والملائكة حق، ورسلك حق، وكتبك حق، والصراط حق، والميزان حق، والحوض حق، وما جاءت به رسلك وكتبك حق، اللهم إني أسألك فكاك رقبتي من النار**»(١).

وقال الله - جل من قائل: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران:١٩٠] إلى قوله: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ**﴾ [آل عمران:١٩٥] ثم إلى آخر السورة، فاحرص - وفقك الله - إلى أن تعلم تفصيل هذا الحق من خلقه السماوات والأرض وما بين ذلك، فطوبى لك إن أوصلك إلى ذلك.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] يعني: في اليوم الآخر أوسع يومئذٍ توسيعًا لا تناسب بين ما هو الآن وبين ما هو يومئذٍ، عبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بما يرجع منها**»(٢).

نظم بذلك قوله الحق - تبارك وتعالى: ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ [الذاريات:٤٨] يعني: اليوم، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ [الذاريات:٤٧].

ثم قال: ﴿فَنِعْمَ المَاهِدُونَ﴾(٣) [الذاريات:٤٨] أي: في اليوم الآخر وفي هذا

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) المخصوص بالمدح محذوف؛ لفهم المعنى، أي: نَحْنُ، كقوله: ﴿نِعْمَ العَبْدُ﴾ [ص:٣٠] قال ابن عباس، معناه: الباسطون؛ أي: نعم ما وطأت لعبادي. [اللباب لابن عادل (٤٠١/١٤)].

اليوم أيضًا، لكن تمهيدها على النهاية ذلك اليوم ذكر تمهيد الأرض آية على تمهيده أرض الجنة، كما قد جاء من وصفها وتعداد أنعم؛ إذ جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - لا أرض فيها، إنما حالهم فيها رسوب إلى قعر ما هم فيه وصعود بالغليان، وربما اضطروا إلى جبال فيها ليصعدوا عليها نوع من العذاب يضع أحدهم يده عليه فتذوب، ويضع رجله فتذوب، ثم يجد ذلك منهم هكذا؛ فإذا صعد إلى حيث شاء الله به ذلك زل فهوي إلى حيث شاء الله به ذلك، لا يذوقون لذيذ الشراب أبدًا، ولا يستقرون على أرض أبدًا، ولا يضطجعون أبدًا، نعوذ بالله من أحوال أهل جهنم في الدنيا وفي الآخرة، فحيثما جاء ذكر تمهيد الأرض أو تعداد نعم فهو وصف للجنة باعتقاد الفضل وتعريض بوصف جهنم، فافهم وفقنا الله وإياك.

أتبع ذلك جلَّ ذكره: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] يقول، وهو أعلم: أوجدنا نورًا وظلامًا ونهارًا وليلاً، وشقاءً وسعادة، وصحة وسقمًا، وخيرًا وشرًا، وغنىً وفقرًا، وشدةً ورخاءً؛ ليتذكروا بذلك الوعد والوعيد والثواب والعقاب، وقد جاء في القرآن ذكر الزوجين بمعنى: الذكر والأنثى في قوله - عز من قائل: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [النجم:٤٥].

وجاء أيضًا ذكر الأزواج بمعنى: النبات، والتمييز بين ضروب الثمرات، فكل نوع من ذلك زوج، لكن تمام العبرة بذلك إن شاء الله، وهو الموفق المرشد، إن الله ﷻ خلق الدنيا مبنية على نفس جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وأنزل رحمته بالماء من السماء، وقد مزجه بماء من ذلك في أجواء الهواء، ثم بما في الأرض من ذلك أيضًا، ففصل الماء إلى الثلاث شعب فتح رحمته وفيح نفس جهنم على المزج من ذلك، وإن كان قد أمال من ذلك ما أماله إلى خاصة كل شعبة منها، فمنها إلى الرحمة ومنها إلى الحر ومنها إلى البرد، وعلى وصف التفاوت المذكور ليدل بذلك على داري القرار في الآخرة الجنة والنار، ثم بالتفصيل والتنويع بالمقاربة والمباعدة من الأصول المذكور لذلك، وهو أعلم بما ينزل.

أعقب ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] نظم بذلك ما هو تبيين لما تقدم قوله - عز من قائل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] أي: فروا من وعيده الموجب لعذابه الذي دلكم على وجوده بما

أراكم في الزوجين إلى وعده الموجب لثوابه الذي دلكم عليه فيما خلقه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥١] أظهر ما يكون دلالة هذا في العبرة وتنويع الوجود كجعله ليلاً ونهارًا، ونورًا وظلمة، وخيرًا وشرًا، فالنهار بما هو، والنور والخير دلالة على الإله الحق، ثم في العبرة الأخيرة يتم ظهور الدلالة، والحمد لله رب العالمين.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٦٠].

نظم بذلك قوله الحق - جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف للتشبيه و«ذلك» إشارة منه إلى مشار إليه، وهو فعل من تقدمهم من الأمم الضالة قبلهم، يقول كذلك فعل ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات:٥٢ - ٥٣] يقول: أعهد بعضهم إلى بعض بذلك أولهم لآخرهم، ثم أضرب عن ذلك بحرف «بل» أي: لم يكن ذلك كذلك، إنما تشابهت قلوبهم في الطغيان فتشابه فعلهم وقولهم وطغيانهم على أنبيائهم، يمدح ﷻ تسوقه إياهم إلى هلاكهم ودمارهم بأنفسهم وإراداتهم، لا إله إلا هو هو المقصود بكل وجه والمراد بكل معنى.

أتبع ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات:٥٤] شهد الله ﷻ لرسوله بالتبليغ عنه، وإتمام ما أمره به وإكماله.

ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ يعني: من ذكروهم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥] الذين ينفعهم الذكر. كما قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠] وربما كان معنى ذلك: امضِ لأمرك في التذكير والإبلاغ والنصيحة فسيذكر من يخشى، فاستاق ذلك بلفظ

الاستقبال يريد: من أناب على وقته وتوبته، وكل ذلك إلى أجل مسمى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] أي: على إرادتي منهم ومشيئتي فيهم، فقد كان ذلك ما من شيء خلقه الله ﷻ إلا وهو عائد له وقانت إما كونًا كالجماد والأرض والسماوات والنبات والأفلاك وما في ذلك، وإما شرعًا كالملائكة والأنبياء والرسل والصديقين والمؤمنين، والعابد له شرعًا هو عابده كونًا، كما أن عابده كونًا هو عابده شرعًا باطنًا يعلم ذلك هو منها، ويعلمه أيضًا من قد خصه بعلم ذلك من عباده.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧] يقول: لم أطلب منهم على عبادتهم رزقًا يرزقون أنفسهم أو يطعمونيه، أظهر الله من صفته سبحانه التام في هذه الآية وشمائل الكرم الذي هو له أهل ولا يقدر العباد قدره، وهو حبه العلي في أن يُطعِم ولا يُطعَم، وفي هذا أبين البيان أن الله قد ضمن الرزق لعباده وبخاصة المشتغلين بعبادته طوعًا؛ لذلك قال وهو أعلم: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

ثم ختم السورة بمعنى ما اجتلب من أجله ما احتوت عليه من خطاب قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات:٥٩] أي: المذكورين من المهلكين الذين لم يستجيبوا لله ولرسله، لكن ذلك كله له أجل مسمى عاجلاً أو آجلاً، والذنوب هنا: هو الحظ والنصيب، ضربه مثلاً بالدلو العظيم.

ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٦٠] يريد: اليوم الآخر.

تفسير سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور:١ - ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور:١] إلى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] الطور: جبل بعينه بمدين، أقسم الله به رب العزة تخصيصًا له، ولأنه كلم الله موسى فيه وواعده إلى جانبه وخيار أصحابه.

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور:٢ - ٣] وقرأ ابن السماك: «في رِق» بكسر الراء، جاء من هذا أن الرق ليس الجلد لا محالة، بل الرق: ما كتب عليه، وسمى هذا بذاك يمكن أن يكون أقسم بكل كتاب أنزله التوراة والإنجيل والزبور والقرآن والصحف المنزلة فهو مسطوره في الرقوق، ويكون أيضًا اللوح المحفوظ وهو الأظهر، ويكون الرق اسم لكل ما كتب فيه وإن كان لوحًا، والكتاب الذي أنزله على موسى الذي هو التوراة، إنما كتبها الله - جلَّ ذكره - في ألواح، وسمى هذا الرق المكتوب عليه هذا الكتاب: رقًا، باسم ذلك.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:٤] هو الذي تحج إليه الملائكة على ظهر السماء السابعة.

قال رسول الله ﷺ: «**يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أحرما**

عليهم وهو في السماء بحيال الكعبة في الأرض»[١] أقسم الله به؛ لكرمه عنده، ولأنه **بحيال** البلد الأمين، والذي هو مبعث محمد ﷺ.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور:٥] السماء.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[٢] [الطور:٦] المعلق الآن، وفي يوم القيامة المسجور:

---

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٥٥).

(٢) قال البقلي: أقسم الله ها هنا بذاته وصفاته وفعله، الطور ذاته القديم، والكتاب المسطور صفاته القديمة والرق المنشور أفعاله اللطيفة وأيضًا الطور قلب محمد ﷺ والكتاب المسطور رموز ما أوحى، والرق المنشور أسراره المنقوشة بأنوار وحيه وإلهامه وغرائب علومه اللدنية، ظاهر قسمه على الطور الذي تجلى له الحق، فإذا كان ذلك محل قسمه بتجلٍ واحدٍ فما تقول في طور لا تنفكُّ أنوار تجليه منه، وهو قلب محمد ﷺ، سماه طور العظمة واستقامته في موازاة سطوات عزته، وسمى قلب غيره من الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور الذي عمَّره بنور القربة والمشاهدة والعلم والحكمة والمعرفة والوجد والحال والمكاشفة، ويمكن أنه تعالى أراد به صورة محمد ﷺ وصورة أبيه آدم، الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وجعله مرآة ظهوره، وجعل روحه ورق أسرار علومه التي ذكرها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ روح محمد ﷺ الذي رفعه الحق إليه، ومقام عنديته أرفع من كل رفيع من العرش إلى الثرى، وأيضًا يمكن أنه أراد به العرش.
﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: بحر سر محمد ﷺ؛ لأن ذلك البحر ملأته أنهار قاموس علومه القدمية، وأسرار كلماته الباقية، وأيضًا الطور طور سيناء الذي هو موضع التجلي والكلام. والكتاب المسطور ما كلَّم الله به موسى، فصار منقوشًا في ورق قلبه، أقسم بالطور وبقلبه وبما فيه مما سمع من كلامه. ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾: أيضًا ما كتبه بيده على ألواح موسى. ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: أيضًا قلبه كان معمورًا بنور مشاهدته؛ ولذلك خاطب الله موسى بقوله: فرغ بيتًا لي أسكن، فلما سكن في بيت قلبه عمَّره بنور قربه. ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: كنايةٌ عن ذاته القديم الذي امتنع بعزته عن تناول الحدثان، ألا ترى كيفما بلغ أماني موسى، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَرِنِى﴾. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: صدر موسى الذي هو مملوءٌ من نيران شوقه وحزنه، حين لم يدرك حقائق جلال الألوهية الذي استحال وجود الحدث عن إدراكه بوصف الإحاطة والحقيقة، وأيضًا عم في هذه الأقسام جميع العارفين والصديقين، الطور أرواحهم، والكتاب المسطور إلهامهم، والرق المنشور عقولهم، والبيت المعمور قلوبهم، والسقف المرفوع أسرارهم، والبحر المسجور صدورهم، أقسم بأرواحهم؛ لأنها مواضع تجليه، وأقسم بما خاطبهم من الوحي والإلهام، وأقسم بعقولهم؛ إذ هي ألواح علومه الغيبية، وأقسم بقلوبهم؛ إذ هي مساكن المعارف ومساقط أنوار الكواشف، وأقسم بأسرارهم؛ إذ هي تصعد إلى مصاعد الملكوت ومعارج الجبروت، وأقسم بصدورهم؛ إذ هي مملوءةٌ من سناء العرفان =

الموقد نارًا، يقال: سجرت التنور أسجرها، وربما كان البحر المسجور هو المعني به جهنم - أعاذنا الله منها - وكل شيء واسع فهو: بحر.

قال رسول الله ﷺ وذكر إبليس - لعنه الله - وأن عرشه على البحر حول الحيات، فهو في الدنيا على البحر الأجاج من الماء الزعاق، وفي الآخرة في جهنم مع جنوده من الجن والإنس جواب.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور:٧ - ٩] يعني: يوم القيامة مارت السماء تمور: إذا تحركت وتموجت، ولا تزول عن مكانها وتسير؛ أي: تصير كثيبًا مهيلاً، ويسلط الرياح عليها فينسفها نسفًا حتى تذر الرياح الأرض قاعًا صفصفًا لا يرى فيها عوج ولا أمتًا.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور:١٢] الخوض من الكلام أن يكون في الباطل الكذب الدع الدفع.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون:٢] يدفعه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ
(١٨) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ
(٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ
بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ
(٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓا۟ إِنَّا
كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن
قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ
يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾ [الطور: ١٧ - ٣١].

=

وضياء الإيمان وأنوار الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يرفع الأدنى إلى الأعلى دون أن ينزل الأعلى إلى الأدنى، ذلك معنى قوله - جل من قائل: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يقول: وما نقصنا الأعلى من عمله في الجمع من شيء بينه وبين ذويه، قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١] وقرأها أبي وعبدالله: «إن كانوا غير مؤمنين» أو كان أحد الفريقين من الآباء والذرية مؤمنًا والآخر كافرًا فكل امرء منهم بما كسب رهين، وقرأها أُبي وعبدالله: «وما لتناهم» بإسقاط الألف؛ يعني: نقصناهم، ورويت كذلك عن ابن كثير وقرأها الأعرج: «آلتناهم» ممدودة الألف.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:٢٣] يتعاطون فيها، لا يتكلم فيها بما هو لغو ولا يتنعم فيه، بل بذكر الله - جل ثناؤه - وما يتنعم به أهل تلك الدار، ولا يقولون باطلاً ولا تأثيمًا ما يأثمون به في قول ولا فعل، قد رضيهم ربهم ﷻ ورضي عنهم واستعملهم بما يرضيه، فهم المتقلبون في رضوان الله لا يسخط عليهم أبدًا، جعل عيشهم في التسبيح والذكر فهم يلهمونه مع الأنفاس، وجعل نعيمهم في الموافقة لرضا ربهم، وجبلت الجنة على موافقة ما يرضيهم فنعمهم أبدًا دائم، وجبل ذلك كله على النشء ووجود المريد، طوبى لهم بأحسن مآبهم وكريم ما صاروا إليه فاكهين بما أتاهم ربهم؛ أي: هم معجبون مغتبطون، الفكِه: المعجب المحبور.

قوله ﷻ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ هؤلاء - والله أعلم - هم بنوهم الذين قدموهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور:٢٤] وقال في غير هذه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة:١٧] فهم - والله أعلم - من يموت من أبناء الكفار قبل وجوب التكليف هم على الفطرة، وكذلك يخلق الله ﷻ في الجنة ولدانًا غير هؤلاء وهؤلاء ينشؤهم فيها إنشاء.

أتبع ذلك قوله - عز جلاله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩] بنعمة ربك؛ أي: بالعافية، وخاصة النبوة والرسالة.

يقول - تبارك وتعالى: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ كما يقولون ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما زعموا، فكان في معنى هذا الخطاب معنى سؤال التقرير والتقريع.

ثم نظم به: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ [الطور:٣٠] كأنه قال: أتقولون هذا أم تقولون نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور:٣١].

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٣٢ - ٤٩].

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا﴾ نظمًا على ما تقدم، ويكون المعنى أيضًا: أن يكون ذكر الصفة بدلاً من الموصوفين، تقدير الكلام: أم تأمرهم حلماؤهم بهذا وهم أهل التؤدة والرأي، فليسوا إذن ذو حلم ولا عقل ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ [الطور:٣٢ - ٣٣] كل هذه الوجوه قد وجهوها وقالوا بها، بل لا يؤمنون بأنه من عند الله، لو تفكروا في الخطاب وتدبروا آيات القرآن لأطلعهم حق الكتاب على أنه من عند الله ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] لذلك قال - عز من قائل: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٣٣].

نظم به قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير طين أو من غير نور كالذي هو خلق الملائكة - عليهم السلام - أو من غير نار كالذي هو خلق الجن، ولما كان قسيم هذا الكلام قوله: ﴿أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] كان محذوفه «أم

لم يخلقوا» ثم ينتظم به على الولاء قوله: فهم الخالقون، حكم بهذا للزوم وجودهم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ لما كان العلم بخلقه العبد نفسه وبخلقه السماوات والأرض بكسب اليقين كان قسيمه في النظم قوله: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٦].

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور:٣٧] فيعطون ويمنعون كما قالوا: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [ص:٨].

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

يقول الله - تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢].

ثم جعل قسيم هذا في النظم قوله - جل من قائل: ﴿أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٧] هم الرقباء والحفظة والمتعقبون، وقيل: المسيطرون: هم الأرباب المسلطون، يقال من ذلك: تسيطر علينا؛ أي: ترأس وتسلط وتحكم، ونحو هذا.

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ السلم للشياطين والمعارج للملائكة - عليهم السلام - والمعراج مبلغ والسلم ليس بمبلغ يقول ﷻ: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨] أنزلهم منزلة التهمة والظنة فطالبهم بالسلطان؛ أي: بالبرهان المبين، كما قال: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٣].

نظم بذلك قوله: ﴿أَمْ لَهُ البَنَاتُ وَلَكُمُ البَنُونَ﴾ [الطور:٣٩] تقدم الكلام في هذا.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: على ما تبلغ عني إليهم ﴿فَهُم مِّن﴾ ذلك ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠] بالمغرم.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾(١) [الطور:٤١] هذا منتظم بمعنى قوله: ﴿أَمْ

---

(١) أي: بل أيدّعون أن عندهم علم الغيب؟ وهو ما في اللوح المحفوظ، فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب. قال قتادة: هذا جواب لقولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ يقول الله: أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدًا يموت قبلهم فهم يكتبون؟ قال ابن قتيبة: معنى يكتبون: يحكمون بما يقولون. فتح القدير (٦٣/٧).

هُمُ الخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

﴿أَمْ عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وهؤلاء هم: الملائكة يكتبون من الغيب ما يلقيه إليهم عالم الغيب والشهادة.

نظم بذلك قوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ والمقصود بذلك: إطفاؤهم نور الله بأفواههم، وجحدهم الحق، وردهم على الوحي، وتكذيبهم الرسل ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢] أي: بسوء فعلهم بعمى أبصارهم وقلوبهم، فهم لا يهتدون سبيلاً ويصيرون إلى سوء المصير بمجازاة أعمالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] هذا منهم إما لعظيم ما أملوه من كيد، وإما لكبر في صدورهم ما هم ببالغيه - نعوذ بالله العظيم من سوء ما قسم لهم - وإنما ذلك لعمى أبصارهم وبصائرهم، وموتهم عن الحق، وهو معنى قوله الحق - عز جلاله: فهم المكيدون، فهم لعقوبة إعراضهم ضرب بالأقفال على قلوبهم، فهم لا يبصرون حقيقة ولا يفقهون حديثًا، فإذا شاهدوا عظائم المشاهدات ألحدوا بها إلى المعهود المتعارف فهو منتظم بقوله في المقابلة: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢].

يقول: بلغ من كيدنا لهم لأجل كيدهم أنهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يعقلون، حتى لو أنهم رأوا السماء تسقط عليهم كسفًا لقالوا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ فهو إلحادهم بالآيات إلى المعهود، فهم لأجل ذلك لو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور:٤٥] يوم يأتي كل نفس حمامها، ويوم ينفخ في الصور فيصعقون.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أما ما هو دون الموت فالقتل والسبي والخزي والجلاء، وأما ما هو دون عذاب الآخرة فعذاب في البرزخ، وهو المعروف بعذاب القبر؛ لذلك قال وهو أعلم: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧] لخفاء ذلك على أكثر أهل الإيمان فكيف بأهل الإعراض والتكذيب؟.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[١] [الطور:٤٨] معطوف على قوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ [الطور:٤٥] بأعيينا أي: بمرأى منا وبحفظ منا.

قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور:٤٨] أي: عند الصبح ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ صلاة العشاءين وصلاة الليل ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩] ركعتي الفجر ثم الفريضة، وقد تقدم ذكر معنى قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩] وقد قال في سواه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:١١].

وهذا حفظ الخلقة وولايتها التي لا تسمى بولاية، فكيف به - صلوات الله وسلامه عليه - وقد قال ﷺ: «من قال: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم عشر مرات كان له كذا وكذا، وبعث الله إليه ملائكة يحفظونه ذلك اليوم إلى الليل، وإن قالها من الليل فكذلك**»[٢] والعرب تقول: «فلان عين الملك في البلد» إذا كان رقيبًا له مبلغًا إليه منفذًا لأمره، وتسمى الطليعة على الجيش: عينًا.

(١) أي: بأعيننا ترانا. قال سهل: ما نظهره عليك من فعل وقدرة تتولى جملتك بالرعاية والكلاءة بالرضا والمحبة والحراسة من الأعداء. وقال ابن عطاء: فإنك بأعيننا أي: مغمور في حفظنا، وغريق في فضلنا، ومستور بحفظنا، ومن اختصَّ بالله كان في حفظه، ومن كان في حفظه كان في مشاهدته، ومن كان في مشاهدته استقام معه ووصل إليه، ومن وصل إليه انقطع عما سواه، ومن انقطع عما سواه عاش معه عيش الربانيين. وقال الحسين: اصبر؛ فإن صبرك بتوفيقنا وبشهود عيوننا؛ فلذلك حصلت العيون منك عيونًا؛ إذ أنت الناظر إلينا بنا، ولم تنظر إلينا بما لنا وعنا، فتكون بذلك محجوبًا عن واجبنا. وقال جعفر: عند هذا الخطاب سهَّل عليه معالجة الصبر واحتمال مؤنه، وكذلك كل حال يرد على العبد في حال المشاهدة.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٠٤) والنسائي في الكبرى (٩٨٥٤) قال الهيثمي (١١٣/١٠) رجاله رجال الصحيح.

تفسير سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم: ١ - ١٧].

قوله ﷻ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[1] [النجم:١] اسم النجم يقع على مسميات شتى، فالنجم ما نجم من النبات؛ أي: ارتفع على ساق، ويقال للثريا: نجم، وجميع النجوم ينطلق عليها: نجم، كما يقال لجنس الأناسي: إنسان، ويقال للقرآن أنزل من عند رب العالمين - جلَّ ذكره - إلى السماء الدنيا: نجم، ثم يقال لكل منزل منه الشيء بعد الشيء: نجوم، وكل رزق مرتب أو دين يؤدى لإحالة وموظف على

---

(١) أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضًا أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضًا بألحان بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضًا أي: بواردات الجذبية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحبين، وتسقط على أسرار الواصلين، وتزعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجيد والحالات والكشف والمشاهدات وأيضًا أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضًا بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنيرات الواضحة ما ضلَّ حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعوجَّ عن طريق استقامته قط.

وظائفه يقال لذلك: نجوم، وكل منزلة من منازل القمر يقال لها: نجم، فربما كان هذا القسم قسيمًا بجملة القرآن أو بما ينزل منه الشيء بعد الشيء، وربما كان القسم بجميع النجوم عبر عنها باسم الجنس كما تقدم.

قد تقدم فيما مضى أن أقسام القرآن تأتي على الأغلب بما يكون معنى لما أقسم بها عليه وما لم يظهر من ذلك بأول نظر فإنه يتوصل إلى ذلك بالإمعان في النظر فقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم:١] يريد - وهو أعلم بما ينزل: الشهاب الثاقب المرسل على مسترق السمع.

قال الله ﷻ: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:٨ - ١٠] وقال في جملتها: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك:٥].

ولما كانت الكهانة الغرض بها تقدمة المعرفة، وكان المعهود منها أن كذبها مستغرق لصدقها، وكانت قريش وكفار العرب مرة يقولون فيه: إنه كاهن وشاعر، وتارة مجنون وساحر، وهذا كله عن إثارة الشياطين، أما الكهانة والجنون والسحر فظاهر، وقد قال - عز من قائل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤] بعد قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣] فأقسم بالنجم إذا هوى؛ أي: يهوى إتباعًا لمسترق السمع، أو يهوى الملك بالروح من أمر الله - جلَّ ذكره - بالنجم من القرآن تنزيلاً له.

يقول - جل من قائل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: عن سبيل النبوة ﴿وَمَا غَوَى﴾ [النجم:٢] أي: ما أغواه شيطان ولا استهواه، فإن الرسول محروس من الشياطين كما السماء محروسة منهم، فاعلم ذلك.

ثم قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣] أي: بالكذب الذي يكون في سبيل الكهانة والسحر والشعر والجنون، ولا بقوله من تلقاء نفسه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٤] أي: من الله العلي الأعلى.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم:٥] جبريل - صلوات الله وسلامه عليهما.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة وأيد أيده الله به ﴿فَاسْتَوَى﴾ [النجم:٦] هذا وصف

للنبي ﷺ أي: استوى نبوة وعلمًا وحلمًا وحكمًا، ولما استوى نبوة وعلمًا أسري به إلى السماوات العلا وإلى السدرة المنتهى إلى أن استوى للمستوى حيث سمع فيه صريف الأقلام في الأفق الأعلى، وهذا وصف أعني وهو بالأفق الأعلى لجبريل ومحمد - صلى الله عليهما وسلم.

بيّن رسول الله ﷺ ذلك بقوله وقد فرغ من وصف لقيا الأنبياء - عليهم السلام - ومن وصف البيت المعمور على ظهر السماء السابعة ولقاء إبراهيم عليه السلام فيما هنالك قال: «**ثم رفعت إلى السدرة المنتهى**»[1] إليها ينتهي ما ينزل به من علو فيتلقى هنالك وإليها ينتهي ما يصعد به من سفل فيتلقى هنالك قال: «**فرفعت حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»[2].

عبر عن حاله هذه القرآن بقوله الحق: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من الدنو ﴿فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] وهذا وصف لمصعد صعب لا يرتقي فيه إلا بمعونة زائدة وأيدٍ من الله محدد، ويمكن أن يقدر هنا محذوف، وهو: ذكر الدنو ثانية، فكأنه قال: ثم دنا فتدلى فدنا، ويمكن أن يكون تقدير القول: ثم تدلى فدنا، ويمكن أن يكون المعنى: فتدلى رسول الله ﷺ فدنا الله - جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه؛ لأنه عز ذكره يوصف بالدنو ولا يوصف بالتدلي، إنما التدلي وصف للمخلوق.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَو أَدْنَى﴾ [النجم:٩] الله أعلم ما هو الدنو، قاب القوس: ما بين السيَّتين، وقيل قاب القوس: ما بين القبضة والوتر منه، وقيل: لكل قوس قابان فمن القبضة إلى السيَّة قاب، ومنها إلى السيَّة الأخرى قاب، والعرض يعرف هذا القرب والمتقرب منه وقد علمنا أنه - جل ثناؤه - القريب لا أقرب منه فما معناه وما المراد به.

وقد تقدم أن القرب قربان: قرب خلقة، فهو أقرب إلى كل موجود من نفس ذلك الموجود، وأقرب إلى العين من القوة الباصرة، وأقرب من الروح إلى حامله، ومن حياة الحي إلى الحي، وقرب آخر هو: قرب ولاية، هو أغرق في وصف

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢) والطبراني (٨٢١) ومسلم (١٦٣) وابن حبان (٧٤٠٦).

القرب من الأول حتى عبر عنه بقوله الحق: «**إني لأجد الغالب على قلب عبد ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»(١) وحتى قال: «**ابن آدم، مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني، وكنت عريانًا فلم تكسني...**» وفيه: «**أما أنك لو فعلت ذلك بعبدي فعلته بي**»(٢) وهذا أقرب والذي قبله لم يذكر فيه مكان ولا عرض إليه، وقد ذكر فيما هاهنا قطع المسافات وذكر المركوب وهو البراق، وذكر المعراج والصعود، وتفتتح أبواب السماوات سماء سماء، والذهاب إلى سدرة المنتهى، ثم التقدم مع الاعتلاء إلى الظهور إلى المستوى.

وقال الله - جل من قائل: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: هو ﷻ وهو أعلم بما ينزل ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨] أي: الرسول ﷺ ثم وصف القرب وقياسه بأقرب ما يكون من وصف المجالسة والوقوف بين يدي الملك، اللهم علمنا من علمك وأجزل حظنا من معرفتك، وأحسن عوننا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

نظم بذلك ﷻ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠] وقال رسول الله ﷺ: «**حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، فأوحى إلي ما أوحى**»(٣) وفي أخرى: «**ففرض علي ربي خمسين صلاة...**»(٤) وكلام الله - جلَّ ذكره - يسع كل شيء حينئذٍ أوحى إليه مجملاً كلما فصله بعد وجعل له فرض الصلوات كالعنوان، لذلك فما عامة لكل ما أوحي إليه أناله من بركة قربه روحًا منه جمع له بذلك كل ما فصله له بعد، وإذا كانت «ما» هنا عامة فهي اسم في معنى المفعول؛ لأنها بمعنى: الذي، كأنه قال: فأوحى إلى عبده الذي أوحى، ويكون أيضًا مع ذلك بمعنى التعجيب والتعظيم لقدر ما أوحى به إليه؛ إذ هو الذي أوحى إليه حينئذٍ شامل بركته خير الدنيا والآخرة ولا أعظم قدرًا مما أوحى به.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٤) ومسلم (١٦٣) وابن حبان (٧٤٠٦) وأبو عوانة (٣٥٤) والنسائي في الكبرى (٣١٤) وأبو يعلى (٣٦١٦) وابن منده في الإيمان (٧١٤).

ولما كانت الصلاة هي الحاجز بين الإسلام والشرك جعلت لذلك كالعنوان ويقرب لك تعرف بعض تعظيم ما عظمه وما عجب به قوله: «**فرض علي خمسين صلاة**»[١] وإن في ذلك إشغال الفراغ كله، ثم تفضل فعفا عن جل حقه وردها إلى خمس، وذلك دون الطاقة بكثير، ثم تفضل بأن جعل الصلاة بعشر صلوات فهي خمسون، لا يبدل القول لديه - عز جلاله - ثم تفضل بأن أوجب علينا الصلاة في الجماعة ورفعها في الأجر بالتضعيف إلى سبع وعشرين صلاة من صلاة الفذِّ، ثم رفع التضعيف بالكرام الكاتبين - عليهم السلام - في صلاة الصبح وصلاة العصر بشهادتهم للمؤمنين وكتبهم صلاة الصبح في صحيفتين، فرفع وله الحمد بذلك صلاة الثنائية إلى ما يزيد على الخمسين.

وكذلك فعل بالصلاة الرباعية في صلاة العصر، وهذا مما لا مرية فيه والحمد لله رب العالمين ذلك فضله وبركة قوله وفضل كلامه وصدقه: «**هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي**»[٢] وكان الذي علمه جبريل ﷺ القرآن وسئل الوحي، وكان الذي أوحى إليه ربه ما فضله له بعد إلى يوم وفاته، ثم إلى ما يفتحه بعده على علماء أمته إلى يوم القيامة ليبين للناس ما نزل إليهم لعلهم يتفكرون.

قال الله ﷻ: ﴿**حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ...**﴾ [الشورى:١ - ٤].

ثم قال: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [الشورى:٧].

ثم قال: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ**﴾ [الشورى:٥٢] إلى آخر السورة.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[٣] [النجم:١١] فأخبر الصادق

---

(١) انظر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣) وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦) وابن منده في الإيمان (٧١٤).

(٣) قرأ الجمهور: «ما كذب» مخففًا، وقرأ هشام وأبو جعفر بالتشديد، و«مَا» في ﴿مَا رَأَى﴾ موصولة أو مصدرية في محل نصب بـ«كذب» مخففًا ومشدّدًا. فتح القدير (٦٨/٧).

أن رؤية هذا الإسراء كان رؤية فؤاد.

ثم أتبع ذلك الإخبار عن إسراء آخر بقوله: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم:١٢] يقول: أفتشككونه، فجاء بما هو أعظم من ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم:١٣] والتنزل مما يوصف به رب العزة - جلَّ ذكره.

﴿عِندَ سِدْرَةِ المُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى﴾ [النجم:١٥ - ١٦] هذا من وصف السدرة، وذكر جنة المأوى - والله أعلم بما ينزل - للإخبار عن الرؤية هناك، وقرأها ابن عباس: «عندها جنات المأوى» وقال: هي كقوله: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ المَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٩].

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم:١٦].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**لما انتهيت إلى السدرة المنتهى إذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا نبقها أمثال القلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها فما يستطيع أحد أن يصفها أو أن ينتعها من حسنها**»(١).

وفي أخرى: «**فلما غشيها من أمر الله ما غشى تحولت**» أي: تحول لي مراءها قال: «**فذكرت الياقوت**»(٢).

قيل: إنه غشيها رفرف أخضر ونزل على كل ورقة منها ملك.

وفي أخرى من تخريج الحرث بن أسامة قال: «**ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، قال: فإذا الورقة من ورقها لو غطيت بها الأمة لغطتهم، وإذا السلسبيل يخرج من أسفلها نهران نهر الرحمة ونهر الكوثر، قال: فاغتسلت في نهر الرحمة فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأعطيت الكوثر فسلكته حتى انفجر لي في الجنة فإذا طيرها كالبخت، وإذا الرمانة فيها كجلد البعير، وإذا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ونظرت في النار فإذا عذاب الله شديد، لا تقوم له الحجارة ولا الحديد، قال: فرجعت في الكوثر حتى انتهيت إلى السدرة**

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٢٧)، ومسلم (١٦٢)، وأبو يعلى (٣٣٧٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٠)، وأبو عوانة (٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧٩).

المنتهى، فغشيها من أمر الله ما غشى، ووقع على كل ورقة منها ملك، وأيدها الله بأياديه، وأوحى إلي ما أوحى»[(١)] وساق الحديث.

قال الله أصدق القائلين: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم:١٣-١٥] وهذا قول حق وخبر صدق وليس بمنكر ولا مردود قول من جوز الرؤية العلية في الجنة.

وقد قال الله - جل من قائل: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧].

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:١٨ - ٣١].

ثم قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] وصف - والله أعلم - للإسراء الأول المقول فيه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١١] وكيف لا يوصف ما رآه أنه من آيات ربه الكبرى إلى حيث ما وصفه، فكان ذلك رجوعًا في الإخبار إلى الإسراء الأول.

وبالجملة: فالرؤية تتفاضل في حق الرائيين كما تتفاضل رؤية الآيات في حق الرائيين حتى أن منهم من لا يراها آية ألبتة، كذلك سماع القرآن منهم من لا يسمع

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٢٦).

ما يقول إلا قولاً وصوتًا، ليست رؤية [الرائي][(١)] من رآه في المنام كرؤية الإسراء، ولا رؤية الإسراء كرؤيته ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في الجنة، ولا يستوي إمضاء رؤية الرائيين له في الجنة، بل إنما الرؤية على قدر القرب والعلم والله أعلم، يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أتبع ذلك قوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧] فأخبر الصادق ﷻ أنها رؤية بصر كما أخبر عن تلك بأنها رؤية فؤاد.

نظم بذلك قوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] وكأنه أوقع رؤية البصر على رؤية الآيات، هذا على ظاهر الخطاب، وإنما هذه إخبار ورجوع إلى الإسراء الأول، ويترجح معنى الخطاب إلى رؤية الله - عز جلاله - بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم:١٣] والتنزل: فعل الرب - جلَّ ذكره - وهو بمعنى الدنو المتقدم ذكره، فذكر نزلتين ورؤيتين:

الأولى: رؤية الفؤاد.

والأخرى: قال فيها: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧].

وقد جاء أن كعب الأحبار سأل ابن عباس عن هذه الآية فقال ابن عباس: «أما نحن بنو هاشم فنزعم أو نقول: إن محمدًا ﷺ رأى ربه مرتين».

قال كعب: «إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى - صلوات الله وسلامه عليهما - فكلم موسى ورآه محمد».

وقال ابن عباس: «إن الله اصطفى بالخلة إبراهيم، واصطفى موسى بالكلام، ومحمدًا بالرؤية - صلوات الله وسلامه على جميعهم».

ابن عباس قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾[(٢)] [النجم:١٣].

---

(١) هكذا في (ف)، وغير واضحة في (خ).

(٢) ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أي: مرة أخرى من النزول، وهي فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها على الظرفية؛ لأن أصل المرة مصدر مرّ يمر، ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه، ولم يقل «مرة» بدلها؛ ليفيد أن الرؤية في هذه المرة كانت بنزول ودنو كالرؤية في المرة الأولى الدال عليها ما مر. وقال الحوفي وابن عطية: إن «نزلة» منصوب على المصدرية للحال المقدرة؛ أي: نازلاً نزلة. وجوَّز أبو البقاء كونه منصوبًا على المصدرية لـ«رأى» من معناه؛ أي: رؤية أخرى، وفيه نظر، والمراد من الجملة القسمية: نفي الريبة والشك عن المرة =

وأنكرت عائشة الرؤية، وكذلك أنكرت الإسراء، فقالت: «ما فقدت رسول الله من مضجعي» وصدقت ما فقدته؛ لأن النبي ﷺ تزوجها بعد الإسراء، وإنما كان الإسراء من مكة مرة من عند البيت الحرام ومرة من مضجعه، وتزوجها رسول الله ﷺ بالمدينة، وكان الإسراء في أيام خديجة، ثم توفيت وتزوج بعدها سودة، وعقد نكاح عائشة بمكة وبنى بها بالمدينة، وأغلب الظن أن هذا حديث منقول عليها هو صحيح سنده مضطرب متنه، وهو من حديث الآحاد لا يوجب علمًا وما نحن بسبيل طلبة العلم.

وقد تجلى ربنا ﷻ لجبل من الجبال وصار دكًا لما رآه، وكان ذلك المراد منه، وعلى التحقيق إنما نفى الله - جل ثناؤه - أن تدركه الأبصار؛ إذ الإدراك إحاطة وﷻ ربنا عن ذلك، بل هو يدرك الأبصار ولا تدركه.

فصل

قال الله - جل ثناؤه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] المعنى إلى آخره، وتأويل الجبل في تعريف خطاب الإنباء هو: الرجل العظيم، كالذي جاء في نبوة دانيال ﷷ إذا دخت الجبال من ناحية الجنوب فذلك ظهور الأمة المقدسة، والجبال هاهنا: هم عظماء هذه الأمة الصحابة والتابعون، والأمة المقدسة هي: هذه الأمة.

ثم قال ﷷ: وإذا اشتعلت نارًا فتلك علامة انقراض العالم، فاشتعالها بالنار ربما كان إحراقها بالمعاصي وعظيم الاجترام، كالذي أنذر به رسول الله ﷺ من جور الأئمة وفساد العلماء، وربما كان اشتعالها بالنار عبارة عن ظهور عيسى ﷷ وأصحابه؛ لوجود الضياء في الاشتعال، وربما كان معنى وصفها بالاشتعال بالنار غلبة الدجال على ما غلب منها - والله أعلم - وإنما الغرض: الإعلام بأن الجبال في معهود تخاطب الإنباء الرجال رجع الكلام إلى أوله، فتجلى الله ﷻ للجبل آية

=

الأخيرة، وكانت ليلة الإسراء. تفسير الألوسي (١٩/٤٨٦).

على تصديق الموعد منه بأنه منجزه لمن ضرب الجبل مثلاً له.

فصل

في سؤال موسى عليه السلام الرؤية ربه دليل دال على جوازها المعلوم بأنهم الأئمة المقتدى بهم، وهم أعلم البشر بربهم وما يجوز عليه وما يستحيل، وإنما قال له: ﴿لَن تَرَانِي﴾ أي: في الدنيا قطعًا، ويكون المعنى أيضًا: لَن تَرَانِي أنت قبل الموت، ومن الجائز الممكن أن يكون موسى عليه السلام قد أعلمه ربه جل جلاله أنه يرى، وأن من عباده من يوعد منه للمعهود منه - جلَّ ذكره - أنه يكشف للأنبياء والرسل من العلم به والمعرفة ما لا يكشفه لسواهم، ولم يكن موسى يعلم من الموعود بذلك منه - جلَّ ذكره - فلما قربه نجيًا وسمع الكلام العلي جاشت نفسه شوقًا إلى رؤية من هذا كلامه فسأله الرؤية، وكان - صلوات الله وسلامه عليه - لديه وجيهًا وعنده أمينًا كريمًا، فأجابه جل جلاله بقوله: ﴿لَن تَرَانِي﴾ ومن الجائز الممكن أن يكون معنى ذلك: لَن تَرَانِي أنت؛ أي: لست صاحب ذلك مني.

دل على ذلك فحوى قوله: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤] وأن ظاهر هذا الخطاب زائدًا إلى ما أفهمه تعزية لموسى عن سؤله، وتعريض إعلام بأنه قسم لغيره آمن به موسى عليه السلام، ثم جعل له استقرار الجبل آية منه على جواز الرؤية منه له، وفي ضمن ذلك أنه لا يطيق الرؤية إلا من طوقه الله إياها وأيده عليها، ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ حين وصف التنزل إلى سدرة المنتهى قال: «**وغشيها من أمر الله ما غشى**»(١) وأيدها الله بأيده فتدكدك الجبل وصعق موسى عليه السلام، ولو كانت الرؤية ممتنعة ألبتة لم يجعل استقرار الجبل آية على كونها، وليس المعهود من الجبل إلا الاستقرار.

ولما أفاق موسى عليه السلام من صعقته قال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: من أن أسألك ما ليس لي بقسم ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] بمن جعلت له

---

(١) تقدم تخريجه.

ذلك ووعدته به، فموسى أول أهل الكتاب آمن بمحمد - صلى الله عليهما وسلم - هذا إلى ما تقدم ذكره من دلائل النبوة.

فصل

قال الله ﷻ في قوم موسى ﵇: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾ [البقرة:٥٥] وفي موضع آخر: ﴿**بِظُلْمِهِمْ**﴾ [النساء:١٥٣].

وقال: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ**﴾ [الأعراف:١٥٥].

ولم يكن - جلَّ ذكره - يواعدهم الرؤية ويجعل لهم لذلك ميقاتًا ثم يخلفهم كما قال: ﴿**وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ**﴾ [طه:٨٠].

وكان الميعاد من أجل سؤالهم الرؤية، فصح من ذلك عند من صدق الله في وعده أنه أراهم نفسه كما شاء من ذلك، وأن ذلك منهم حال صعقتهم أو موتتهم التي ذكرها بقوله - جل قوله: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾ [البقرة:٥٥].

قال موسى ﵇: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف:١٤٣].

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ**﴾ [البقرة:٥٦] وكما فعل بموسى ﵇ حال صعقته، والرؤية في حال الصعق أو النوم أو الموت معهود وجودها، والحمد لله رب العالمين.

قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي: فيم يختصم الملأ الأعلى...**»(١).

وكان تمني موسى الرؤية شوقًا وتوقًا إلى ربه - عز جلاله - وتمني قومه الرؤية عتوًا وإضرابًا عن الإيمان به وبآيات الله، والاستدلال بدلائله واستشهاد شواهده، فقالوا: ﴿**يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**﴾ [البقرة:٥٥].

---

(١) أخرجه الطبراني (٩٣٨).

قال الله ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات:٤٤] وفي موضع آخر: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣] والظلم هنا: هو جعلهم الإيمان لا يصح وجوده منهم إلا بشرط رؤيتهم الله جلَّ ذكره.

فصل

إذا كان الموت فيه لقاء الله لا محالة، فرؤية الله أرفع اللقاء وأعلاه، وقد قال الله ﷻ: «**يضحك الله إلى ثلاثة...**» (١) وجاء مثل هذا في غير ما وجه، والصعق والنوم من آيات الله على ذلك ومقدماته، ولكل حقيقة حق يتقدمها، دل على ذلك اشتراط القيمة قبلها، وإعلام كل شيء وأوائله قبله، والإسراء وإن لم يكن موتًا ولا صعقًا ولا نومًا على أشهر الوجوه، فقد خرج بما هو عن مشاهدات الدنيا إلى مشاهدة الأفق الأعلى، ولا تنكر الرؤية هنالك، وقد جاء النص بها مكشوفًا فوجب المصير إلى اعتقاد كونها إن شاء الله والإيمان بذلك، والحمد لله وهو المستعان.

الإسراء: حالته غير حال الرسائل هي من أحوال الآخرة وكما يفتح على الأنبياء والرسل موجودات المقدور الغائب، فلا ينكر أن يبلغ أحدهم إلى الرؤية؛ إذ هي من موجودات الغيب ويكون ذلك بحكم النشء في طريق الكرامات من الأنبياء والرسل، كما قد يكرم الله بعض الأولياء بأن يوجد على أيديهم من المقدور الغائب، والله واسع كريم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] قيل: إن اسم هذه اللات كان لأجل رجل كان يلت السويق عندها ويطعمه، ولما مات عكفوا على قبره وجعلوه وثنًا، ثم نصبوا هذا الصنم وسموه بفعل ذلك الرجل.

وقد قرأ ابن عباس وأبو صالح ومجاهد وابن كثير في رواية عنه: «اللاتّ» مشددة التاء مفتوحة ومكسورة، وأرى - والله أعلم - أن الشيطان زينها لهم وهي معدولة عن اسم الله - تبارك وتعالى - وهي عندهم من الملائكة على قبيح معتقدهم في هذه الآلهة، والعزى من اسمه العزيز ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٣٨)، وابن أبي عاصم (٥٦٠).

يقول الله - جل من قائل: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[(١)] [النجم:٢٢] أي: جائرة، يقول: سميتموهن تسمية الأنثى ونسبتموهن إلينا على كراهتكم للبنات ونسبتم إلى أنفسكم الذكران، لقد جرتم في القسمة تسمية ما أنزل الله بها من سلطان إتباعًا منكم لرجم الظنون وحكم الهوى، ولقد جاءكم من ربكم الهدى لو اهتديتم.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ [النجم:٢٤] يقول: سميتموهن على أمانيكم بالعزى واللات ومناة: من المنا أو الأمن فلله الآخرة والأولى، كما قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] الأولى: في الذكر هي اللات ومناة هي الآخرة؛ أي: في الذكر، فلله الآخرة في الذكر الأولى؛ أي: له الآخرة منهما، والأولى في الذكر والوضع الذي ذكروهما أو الوضع منهم لهما وله أيضًا الوسطى التي هي العزى عبيد وملك ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

وقد يكون معنى ذكره ﷻ الآخرة والأولى: الدارين؛ أي: ما عدلوا بتسميتها عنه من اسمه الله والعزيز والأمين والأمانة ونحو هذا ﴿فَلله الآخِرَةُ﴾ والدار ﴿الأُولَى﴾ [النجم:٢٥] وكيف توجه الخطاب فهو له، هو مالك الملك والملكوت، وله الأسماء الحسنى.

نظم بذلك قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] يقول - عز جلاله: أتطمعون في شفاعتها ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ...﴾ والأرض.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النجم:٢٧ - ٢٨] إلى قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم:٣٠].

---

(١) وقرأ الجمهور: «ضيزى» من غير همز، والظاهر أنه صفة على وزن فعلى بضم الفاء، كسرت لتصح الياء. ويجوز أن تكون مصدرًا على وزن فعلى، كذكرى ووصف به. وقرأ ابن كثير: «ضئزى» بالهمز، فوجه على أنه مصدر كذكرى. وقرأ زيد بن علي: «ضيزى» بفتح الضاد وسكون الياء، ويوجه على أنه مصدر، كدعوى وصف به، أو وصف كسكرى وناقة خرمى. ويقال: «ضوزى» بالواو وبالهمز. تفسير البحر المحيط (١٠/١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَلله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [النجم:٣١] هذا بيان لما تقدم من قوله: ﴿فَلله الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ [النجم:٢٥] أي: له الأسماء الحسنى ومقتضياتها في العالم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ [النجم: ٣٢ - ٤٤].

نظم بذلك قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم:٣٢] قد مضى في هذا الكتاب وفي كتاب «الإرشاد إلى سبيل السداد» الكلام على الكبائر والفواحش بما يكون تطريقًا للمبتدئ وتذكيرًا للمنتهي.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم:٣٢] أنشأكم من الأرض، وهي في نفسها باردة يابسة، أشبهت الموت من أصل جبلتها في اليبوسة والبرودة القسوة؛ إذ أصلها من فيح الزمهرير ومن الهواء، وهو حار بارد؛ أي: في بعض آنائه حار يابس، وفي بعض الآناء: حار رطب، وعلى نحو ما يكون من ممتزج الفيحين اللذين يكونان عن نفسي جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - الزمهرير والسعير، ومن الماء الموجود في الأغلب عن فتح رحمة الله، وقد امتزج بالأرض والهواء كما امتزج الأرض والهواء بالماء، وقد ضرمت به جهنم مرتين سعيرها وزمهريرها.

وقد سبق علمه بأنه يخلقنا من هذا ومما امتزج من هذا، وينشؤنا من ذلك، ثم أقرنا في الأرحام، نتغذى مع ذلك بأمشاج أخلاط البشرية الكائنة عن ذلك، يقلبنا على ذلك في طبقات الخلقة، ومن المعهود شبه الأبناء بالآباء، فأنى لنا بالتزكي إلا

برحمته بواسطة الاجتباء منه والاصطفاء لنا؟ بل من أين لنا خروج من جهنم بعد هذا أو نجاة منها وهي لنا إحدى الأميين وإحدى الموضعتين، منقلب فيها ومأوى إلا بأن يفتح لنا من رحمته كما كان يفتح لنا في الحياة الدنيا بالماء فينزله زلالاً، فيخرج لنا به من كل الثمرات، ويفجر الأنهار عنه ويجري العيون ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ**﴾ [النور:٢١] فيجيبه بروح الإيمان ويرسل إلى باطنه تباشير الهداية ويمطره من ماء التوبة ما ينبت به في باطنه وظاهره ما يرضاه ويحبه من الأعمال الزكية والأقوال المرضية.

قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى**﴾ [النجم:٣٣ - ٣٤] المتولي هو: المكذب العاتي، والذي ﴿**أَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى**﴾ هو: المرتد عن دينه بعد إسلامه، أو الناكص على عقبيه لظلم نفسه، أو المتعاجر بعد الإعطاء من نفسه العهد بالوفاء لعلي الإيمان.

يقول ﷻ: ﴿**أَعِندَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى**﴾ [النجم:٣٥] أي: ما أعد له فيما هنالك من حسن مآب فاكتفى بذلك، وقطع العمل أكدى في العمل إذا قطع، وهو مأخوذ من الكدية يعرض لحافر البئر بحفرها وأمله أن يستخرج الماء فيجد حجرًا في طريق الحفر لا تقطعه المعاول فيقطع حفره، لذلك فقيل لكل عمل قطع عمله: فله أكدى فلان.

نظم بذلك ﷻ قوله: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم:٣٦ - ٣٧] بقول إبراهيم؛ أي: الذي لم يتول ولم يكد بل وفى، قال الله ﷻ: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ [البقرة:١٢٤] وقد مضى ذكر هذا في سورة البقرة.

ثم استمر ﷻ على ما في الصحف من ذكر التوحيد وإثبات النبوة والرسالة، وذكر نعم الله - جلَّ ذكره - وأياديه ونقمه وذكر أيامه، وأنه - جلَّ ذكره - إليه المنتهى بكل وجه وبكل مقصد ومطلب، وأن إليه يرجع الأمر كله، وأنه خالق كل شيء ومدبره، وذكر الجزاء العاجل والآجل، وأنه يعيد كما أبدأ، وأنه رب كل شيء، وذكر المهلكين وأنه هو الذي أهلكهم؛ ليدل بذلك على إهلاك من سلك سبيلهم وأخذ على طريقهم في الآخرة، فكان معنى قوله - وهو أعلم بما ينزل: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ**

﴿الَّذِي وَفَّى﴾ أي: استصحب المذكور من لدن قوله ﷺ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم:٣٨] إلى آخر الخصال المذكورات، فعمل بها وداوم على ذلك حتى توفي - صلوات الله وسلامه عليه[1].

---

(١) قال المصنف فائدة على قوله تعالى: **فصل أن له صفة هي الضحك** وإن له - جل ذكره - **الضحك**، يضحك إلى أوليائه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه. **الضحك** صفة من صفات الحق، كغيرها من الصفات التي تقدم ذكرها ينشأ بنشء العالم، وكل صفة حق موجودة في العام على سنن الحكمة فهو أولى بها وأهل لها، لكن على وصف الكمال الأقصى والتمام الأرفع، والسبحات المنزهة عمّا لا يليق به، ويستحيل عليه من لواحقها؛ لأنه جل وعلا المتفرد بالكمال، ومن سواه فله من ذلك الكمال مجازه وعلى نحو ما قسم له منه، قال رسول الله ﷺ: «**ضحك ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره أو خيره منهم**» فقال أبو رزين بن لقيط بن عامر: يا رسول الله، أو يضحك الرب؟ قال: «**نعم**» فقال: لن نعدم من رب يضحك خيرًا» ضحك الحق المنسوب إلى الحكمة يكون لموافقة الحق. كما قال كميل: كنت رديف عليّ بن أبي طالب ﷺ بالكوفة، فمررنا بالجبانة فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: ربِّ اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحدٌ غيرك، قال: ثم التفت إلي وهو يضحك، فقلت: يا أمير المؤمنين، استغفارك ربك والتفاتك إلي تضحك؟ قال: كنت رديف النبي ﷺ، فمررنا بالبقيع فرفع رأسه إلى السماء، وقال: «**رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك**»، ثم التفت إلي يضحك، فقلت: يا رسول الله، استغفارك ربك والتفاتك إلي تضحك؟ قال: «**ضحكت لضحك ربي؛ لقول - أو من قول - عبده: فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك**» فهذا ضحك لموافقة الحق لما أقره العبد له بالوحدانية، وعلى نفسه بالعبودية، واعترف بذنبه وشهد له الحق أنه لا يغفر الذنوب أحد غيره، ولا يؤخذ بها سواه، ولا معقب لحكمه، ولا مكره له، ضحك له رضا فذلك منه ﷻ. ومن ضحك العجب، وهو ضحكه ﷻ من قنوط عباده، وقرب عباده وقرب خيره، ومعنى ذلك - والله أعلم - أنه يعلم من نفسه - جل ثناؤه - إرادته غياثهم، ورحمته إياهم وعطفه عليهم، وكشف ما بهم من ضير، وأنه غير مضيعهم ولا تاركهم، ويعلم قرب ذلك منه لهم، ويرى غفلتهم عنه، وإعراضهم بالسؤال، وعدولهم عنه بالتضرع إليه إلى الجزع والقنوط، مع ما تسمى به من أسماء الرحمة والغياث والكفاية ونحو هذا، فيكون بين هذا كله، وبين كله وبين هذا العجب العجب العجيب؛ فضحك رب العالمين لعظم شأنه، وقرب خيره، ويأسهم وقنوطهم، مع عظيم اقتداره على صرفهم إليه باللجوء والتضرع، وإظهار الفاقة والشكوى إليه الدعاء، وهم لا يهتدون لذلك لا يستطيعون الخروج عما هم فيه، فاجتمع في هذه الجملة العبارة عن عظيم اقتداره وجليل شأنه وحقيقة ضعفهم، فهذا ضحك حق، وإذا ضحك ﷻ لهذا أدال النوب وأتى بالفوح، وكشف الضر من حيث لا يحتسب. ومن ضحك الحق: ضحك المحبة، قال رسول الله ﷺ: «**يضحك الله إلى ثلاثة: رجل قام من الليل يصلي، يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي هذا**

=

ترك نومه ودفئه وقام إلي طمعًا فيما عندي فرقًا مما عندي، ورجل قاتل في سبيل الله هو وأصحابه فانهزم أصحابه وقاتل هو حتى يفتح الله عليه أو يقتل، ورجل أسرى هو وأصحابه ثم عرسوا من آخر الليل فرقد أصحابه وقام هو من بينهم يصلي، فهؤلاء قد أحسنوا والله يحب المحسنين» وفيه من ضحك العجب كيف آثروه على أنفسهم، وتحملوا فيه المكاره، وكيف علا إيمانهم بالغيب، وقوى عزمهم على ترك العاجل لموعود لم يروه وهو في الأجل، وهو يجب على ذلك كله. ومن ضحك الحق: ضحك الحنان والرحمة، قال رسول الله : ﷺ «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يجوز الصراط حبوًا، حتى إذا جاوزه نظرا إلى جهنم، وقال: تبارك الله الذي نجاني منك، لقد أعطاني ما لم يعط أحد من العالمين، فذكر كيف ترفع له الشجرة بعد الشجرة، وكيف يدعو ربه ويتضرع إليه أن يوصله مقام بعد مقام، وعند سؤال كل مقامًا يعطي ربه من العهود والمواثيق ألَّا يسأله غير الذي يعطيه، ويقول ﷻ له كلما نكث عهده بسؤاله غير الذي أعطيه: «ويحك يا ابن آدم، ما أغررك، ألم تعاهدني ألا تسألني غير الذي أعطيتك؟» فيقول: يا رب، ومن مثلك، قال: وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، حتى إذا كان عند آخر شجرة ورأى الجنة انفهقت له وسمع أصوات أهلها، قال: ربِّ، أدخلني الجنة، فيقول له: «يا ابن آدم، ما أغدرك، ألم تعاهدني ألَّا تسألني غير الذي أعطيتك؟» وهو يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو ويدعو حتى يضحك الله إليه، فإذا ضحك إليه قال: «ادخل الجنة»، ويقول له: «تمن»، فيتمنى ويتمنى حتى تنقطع به الأماني، وربه يقول له: «ومن كذا ومن كذا»، فإذا انتهت به الأماني قال له: «ذلك وعشرة أمثاله، وعشرة أضعاف الدنيا كلها، ولك ما اشتهت نفسك وقرت به عينك»، فيقول له: أتسخر بي وأنت رب العزة؟ فيضحك الله منه، ويقول: «إني لا أسخر بك ولكني على ما أشاء قادر» فهذا ضحك حنان ورحمة؛ لضعف هذا العبد وفقره، وضحك وجود وكرم، وضحك إرادة، وضحك عزة، وكله ضحك حق. ومن ضحك الحق: اقتدار ولطف وحسن تدبير. قال رسول الله: «يضحك الله لرجلين يقتل أحدهما الآخر يجتمعان في الجنة: رجل مسلم يقتله كافر، ثم يتوب الله على الكافر، فيقتل في سبيل الله، فيدخلان الجنة جميعًا» وفي مثل هذين قول الله جل قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] فضحك ربنا ﷻ لعظيم اقتداره على سوقهما في سلاسل قهره، ولطيف تدبيره عن مرادهما إلى مراده، وهو أيضًا ضحك محبة لإحسانها في علمهما وهو يحب المحسنين.

ومن ضحكه للمحسنين والمحبوبين من عباده ما يذكر من قصة برخ، كما ذكر أنه أغضب موسى ﵇ في أمر ما فكاد أن يسطو به، فقال الله ﷻ: «دعه يا موسى؛ فإنه يضحكني في اليوم ثلاث مرات» وقد جاء أن الله ﷻ ليضحك للشاب ليست له صبوة، وفي أخرى: ليعجب وأصل العجب الإغراب، فإضافة صورة الشباب الذي قيل فيه: إنه قطعة من الجنون، وعليه صفات الهوى الذي قيل فيه: إنه إله معبود، مع ضعف العقل غالبًا في ذلك السن عن

فصل

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۝٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ

=

مصادمة جنود الهوى إلى تغليب العقل، ونصر حزب الله ﷻ، وإعلاء خصال الإيمان، وخرق العادة بذلك هو العجب، وهو أيضًا يعجب لعظيم شأنه وعلو علائه، وما هو عليه من حسن أسمائه وعلى صفاته؛ لأنه الحق ومحقق وله الحق وهو الحق المبين، فيضحك لذلك وحق له فهو لم يزل ضاحكًا، ولا يزال ضاحكًا ضحك حق، وحكمه لعجب عجيب معجب ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ ولذلك يثني على نفسه ويمجد نفسه، لا إله إلا هو لا مثيل له ولا عديل، ومعنى العجب والتعجب والضحك الحق والكلام والصفات الحق والأسماء الحسنى كلها موجودة في الموجودات، مأخوذة مما هناك لا ما هنالك، تبارك الله رب العالمين. ومن نحو ذلك: «ضحك رسول الله ﷺ إذ قال له الخبر: يا محمد، إذا كان يوم القيامة يجعل الله السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر والدواب على إصبع، ثم يقول: أنا الملك.. أنا الملك، ابن ملوك الأرض، قال: «وضحك رسول الله، حتى بدت نواجذه» تصديقًا لقول الحبر. وهو أيضًا بمعنى آخر ضحك سرور إذا وافق الخبر ما عنده من الحق فسره، ولو سئل ﷺ عن ضحك ذلك؛ لأعرب - والله أعلم - أن ضحك من ضحك الرب تبارك وتعالى عجبًا من اقتداره وانفراده يومئذٍ، كما سبق في علمه أنه يكون، وهذا يتقرر بطول الاستقراء جميع وجوه الضحك في الصفات الحق، الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠] ومن الضحك ظاهر ومنه باطن، فالضحك الباطن ضحك الحال، وهو ينبي عن سرور الذات والكرم فعل في تلك الحال، وإنما قال: بكت السماء هاهنا محافظة على صناعة الشعر عند ذكره ضحك الأرض، ووصف السماء بالبكاء، وشبه حال نزول المطر بهموع الدموع، وإلا فعلى الاعتبار الحق؛ فالسماء حينئذٍ ضاحكة، يعبر ذلك منها جودها بالغياب، ولضحكها ضحكت الأرض، وقد شبه بعض الشعراء البرق بالتبسم، ونزول الغياث بالجود وهو أقرب إلى طريق الاعتبار وأشبه بوصف الحق، وقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس:٢٤] وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [فصلت:٣٩] يعبر عن ذلك بوجود السرور بها في تلك الحال، والضحك والظاهر يكون حكمة، ولأجل الحق والحكمة، وقد تقدمت الإشارة إليه وما عدا ذلك فهو لهو ولعب ﷻ عن ذلك وشأنه عن ذلك، وشأنه سبحانه وبحمده. [شرح الأسماء ١٠٨/٢].

﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٤٥ - ٦٢].

من تتبع النظر على استقصاء في هذه الجملة من لدن قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] إلى قوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى * أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٦-٥٨].

وأضاف إليها قوله - جل قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤].

وأضاف إلى ذلك قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣] إلى آخر السورة.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وتابع التفكر والتدبر وأضاف إليهن أمثالها من آي القرآن ومعانيه، فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان المنزل على كل نبي وكل صحيفة، وسيشرف من ذلك على عمد الكتب والصحف المتقدمة ويقف على جوامعها ومعاقد تنزيلها، ولا يفوته منها سوى ضرب أمثالها المضروب بها، وأما ما جعلت له وضربت أمثالاً من أجله فقد أشرف عليه، وزيادة إعلام لسياق أنواع الخطاب ونحو هذا، فإن القصص تتكرر في القرآن المرتين والثلاث، ولا يخلو كل قصص منها من مزيد علم وإعلام بأمر وإلا فما كان يكون فائدة تنوير القرآن وتدبره.

وقد مضى في سورة الأعراف أن الله - جل قوله وتعالى جده - يقول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال بعد هذا: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وفيما بين هذين هو السبب الذي أصار التوراة عندهم من تلك الدرجة إلى هذه المتأخرة، وإنما فيما بين هذين لما قد أوجب رفع فهم القرآن عن القلوب حتى أنه

لم يبق منه فيما لديهم إلا نحو ما أحملت إليه التوراة بالرفع عنهم وما أثبت منها لديهم بعد نسخها، وهو قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] وأن المحجوب منه عن قلوب أكثرهم فهم قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٥] واختلاف ما يبين هذا يطول، وربما أفردنا له فصلاً إن شاء الله، والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم:٥٤ - ٥٥] آلاؤه: آثاره التي يذكر بها أفعاله وأحكامه التي تعرف به، وهن له في سبيل الاعتبار بمنزلة ظل الشخص له، فكما أنه لا يكون ظل إلا لشخص، كذلك لا يكون أثر إلا لمؤثر ولا فعل إلا لفاعل.

أتبع ذلك قوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ [النجم:٥٦] يعني: محمدًا ﷺ فإذا كان منهم وقد أهلك الله من كذب أولئك ورد نصيحتهم فإنه يجب عن هذا كالذي يجب عن من سواه من النذر.

نظم بذلك قوله: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] أي: قرب ما أنذركم به من عذاب أو جزاء عاجل أو آجل ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٨] كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨].

أتبع ذلك قوله: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم:٥٩-٦١] السامد: الغافل الساهي في لعبه ولهوه، والحديث الذي ذكره هنا هو ما قصه من أول السورة، وأعلم به من الوحي على معاني خطابه التي أتى بها إلى قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] ثم إلى آخر السورة، ثم القرآن من أوله إلى آخره.

تفسير سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سأل قوم من قريش النبي ﷺ آية تدلهم على صدقه وصدق ما جاء به فأراهم انشقاق القمر.

قال ابن مسعود: «لقد رأيته في قوم من قريش قد انشق فلقتين حتى رأيت جزاء بين فلقتيه» فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**»[1].

والغرض في هذه السورة: إثبات نبوة محمد ﷺ وتصحيح رسالته، وأنه في ذلك على سبيل سلوكه للأنبياء والرسل قبله الذين أرسلوا إلى أمم لهم، فعصوهم وأهلكهم الله، وأن موعدهم الساعة، والحض على التذكر والتفكر والاعتبار، وأن العاقبة للمؤمنين والمتقين.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر:١-١٠].

قوله ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾ [القمر:١] لم يأت إلا من طريق آحاد، لكن القرآن أثبته في عليّ النقل وانشقاق القمر مع أنه آية على تصحيح نبوته ورسالته، وتصديق ما جاء به هو أيضًا آية على خسوفه الأكبر وانكداره وجمعه مع الشمس عند انقراض الدنيا، كذلك الساعة لقربها تظهر أعلامها وتتقدمها أشراطها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٧٢٤٩).

وفي مجيء الخبر بانشقاق القمر من طريق آحاد على شهرته في سياق القرآن من الفقه عن الله - جلَّ ذكره - أن أخبار الآحاد قد توجب العلم باطنًا، وأنه ليس بمنكر أن يأتي الحق من الحديث والسنة من طريق غير مقطوع بصحته، فمتى جاء حديث أو خبر على هذا الوجه فلينظر هل له في القرآن معنى أولاً، ولا يقال: هذا لم يأت من طريق صحيح ولم تروه الثقات، وليكن النظر فيه على طريق ما جاء في كتاب «الإرشاد» كما أنه قد يأتي في الأحاديث من طريق صحيح مسند إلى ثقة أو ثقات عدة، ولا يوجد أصله على تحقيق، ولذلك قالوا فيما ليس بالتواتر: إنه لا يوجب العلم وإن أوجب العمل.

قوله تعالى: ﴿**وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ [القمر:٣] انتظم هذا في المعنى بقوله: ﴿**وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ**﴾[1] [القمر:٢] كما قال: ﴿**وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ**﴾ [الطور:٤٤] فقوله: ﴿**وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ [القمر:٣] أي: كل شيء قد فرغ، فالآجال والهدايات والضلالات والسعادات والشقاوات كل إلى مستقره، كما قال: ﴿**لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:٦٧].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**﴾ [القمر:٤] أي: لو ازدجروا عن كفرهم وضلالهم، وهذا منتظم بظاهر الأمر من إرسال الرسل

---

(١) ﴿**مُّسْتَمِرٌّ**﴾ أي: مطرد دائم يأتي به محمد ﷺ على مر الزمان، وهو ظاهر في ترادف الآيات وتتابع المعجزات. وقال أبو العالية والضحاك: ﴿**مُّسْتَمِرٌّ**﴾ محكم موثق، من المرة بالفتح أو الكسر بمعنى: القوة، وهو في الأصل مصدر مررت الحبل مرة: إذا فتلته فتلاً محكمًا، فأريد به مطلق المحكم مجازًا مرسلاً. وقال أنس ويمان ومجاهد والكسائي والفراء، واختاره النحاس: مستمر؛ أي: مارّ ذاهب زائل عن قريب عللوا بذلك أنفسهم ومنوهًا بالأماني الفارغة كأنهم قالوا: إن حاله ﷺ وما ظهر من معجزاته سبحانه سحابة صيف عن قريب تقشع ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [التوبة:٣٢] وقيل: ﴿**مُّسْتَمِرٌّ**﴾ مشتدّ المرارة؛ أي: مستبشع عندنا منفور عنه؛ لشدة مرارته، يقال: مرّ الشيء وأمرّ إذا صار مُرًّا، وأمرّ غيره ومرّه يكون لازمًا ومتعديًا. وقيل: ﴿**مُّسْتَمِرٌّ**﴾ يشبه بعضه بعضًا؛ أي: استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات، وقيل: ﴿**مُّسْتَمِرٌّ**﴾ مار من الأرض إلى السماء؛ أي: بلغ من سحره أنه سحر القمر، وهذا ليس بشيء، ولعل الأنسب بغلوهم في العناد والمكابرة ما روي عن أنس ومن معه. وقرىء: «وأن يروا» بالبناء للمفعول من الإراءة. تفسير الألوسي (٢٠/٥١).

وإظهار الآيات.

ثم قال: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر:٥] نظم هذا بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر:٣] ثم نظم بذلك: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٥] ظاهر «ما» هنا بمعنى الاستفهام وليس به، لكنها مع هذا بمعنى التقرير، والإخبار عنها بأنها لا تنفع ولا تغني شيئًا إنما الهادي المضل الله - جلَّ ذكره - يقول: فما تغني النذر في قوم قد استقر أمرهم أنهم أصحاب الضلال في الدنيا، وفي الآخرة أصحاب النار - نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر:٦] تنكره النفوس فتوجل منه القلوب و﴿تَذْهَلُ﴾ لأجله ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢] المعنى إلى آخره، وقد قرئ: «إلى شيء نُكِرَ» بكسر الكاف وفتح الراء، يقول: إلى شيء جهل وجحد، وهذا منتظم بما تقدم.

نظم به قوله: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر:٧] وفي قراءة عبد الله والأعمش: «خاشعة أبصارهم» خشوع البصر: هو أن يرمي به صاحبه إلى الأرض ذلاً، كقوله: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥] وعلى قراءة عبد الله فإنه ذكر الفعل؛ إذ قد تقدم أسماء مؤنثة، قوله: ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ وذلك مخير فيه تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه وإفراده، والمهطع: هو المقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه ولا يلتفت إلى سواه.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] المقنع رأسه: الرَّافعهُ.

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ
قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ
ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ

مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ [القمر: ١١-٢١].

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] أي: بحفظ منا، ويجوز أن يكون معنى ذلك بأوليائنا، وقد تقدم الكلام فيه، ويجوز مع هذا أن يكون معنى قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ عبارة عن الماء الذي تحمله أكفنا.

قال - عز من قائل: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢] فجمع هنا جمعًا مسلمًا، ثم جمع ذلك جمعًا مكسرًا، وذات ألواح: هي السفينة، والدسر: المسامير، والدسار أيضًا: حبل من ليف يشد به ألواح السفن بدلاً من المسامير في بحر المشرق، وقد قيل الدسر: أضلاع السفينة.

﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٤] أي: جزاء من بلغ رسالة ربه ونصح له في عباده أن نؤمنه وننجيه وتكون له العاقبة كما قال: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١] وقرأ يزيد بن رومان: «جزاءً لمن كان كَفَر» بفتح الكاف والفاء؛ أي: أن يغرق أو يهلك ونحو هذا، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ [القمر:١٥] «الهاء» عائدة على السفينة - والله أعلم - جاء أن الله أبقى بقايا من السفينة على ظهر الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وهذا مصداق لما ذكروه.

ينتظم بهذا المعنى قوله ﷻ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لمن كفر ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٦] أي: الذين بلغوا عني رسالاتي كيف أنجيتهم، والآية الواجب حكمها المفروض بطلبها زائدًا على ما تقدم ما هي عليه آية في المستقبل، لذلك ولما تقدم قال عز من قائل: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] وهو ما ذكره في قوله - جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١ - ١٢].

فذكرنا ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بحمل أولئك وحملنا في أصلابهم، ونحن

غير محسوسين ولا موجودين حتى أخرجنا كلاً على نوبته إلى رزقه وعلمه وأجله وشقاوته أو سعادته، كذلك يحملنا حال الموت من بين هذه الحياة والحياة الآخرة في مثال هذه الأجسام التي هي بواطنها إلى الحياة الآخرة الكائنة في يوم النشور.

وأما الذين لم يحملهم في الجارية فلم يحمل أيضًا أنسالهم وأنسال أنسالهم إلى يوم القيامة، بل أبطلهم وأبطل أعمالهم وأرزاقهم وسعادتهم وشقاوتهم وآجالهم وآثارهم، نسخ ذلك كله وأزاله، سبحانه وله الحمد، ما أعجب قضاءه وأمضى حكمه، لا إله إلا هو، لذلك قال وهو أعلم: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ ثم قال: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] يشير إلى هذا العجب المعجب.

قال الله - جل من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١ - ٤٢] أي: في البر والبحر، وتماثلت مراكب البر والبحر في أنها حمولة ومراكب يعبر عليها من موضع إلى موضع، ونبه بقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [يس:٤٣ - ٤٤] وهذا قد يصبغه ببعض الفلك في هذه الدار، وهو أيضًا قد يفعله لبعض مراكب البرزخ في عذاب القبر، كالذي يشدخ رأسه، والذي يشرشر شدقاه، وكالذي يسلط عليه الحيات في قبره، فهذا إهلاك لتلك المراكب وتغريق لتلك الفلك وإلى هذا ففي الآخرة أيضًا تغريق وإهلاك في بحار الحمم وغير ذلك من المهالك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٣].

ثم يقول - جل من قائل: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لمن عصاني وكذب رسلي ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٦] يقول: كيف نضربهم ومن آمن بهم وجعلت لهم العاقبة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

أتبع ذلك قوله الحق عز جلاله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] يقول - جل من قائل: جعلنا للتذكر مجالاً رحبًا ومتسعًا سهلاً في آيات الأرض والسماء، وأنزلنا القرآن على اللسان العربي ونزلناه للأفهام تنزيلاً، وخاطبناهم بعوائدهم وأعلمناهم من قبل أعمالهم فأقبسناهم المعرفة واليقين من قبل ذواتهم، وضربنا لهم الأمثال وأطلنا لهم في مدة الإعذار، وذكرناهم بالرسل والكتب؛ ليتذكروا الميثاق المأخوذ عليهم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقرأ قتادة: «من مذكر»

بالذال.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ يعني: باردة ذات صوت، الصرصرة: عبارة عن شدتها وبردها وصوتها ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩] أي: دام عليهم حتى أهلكهم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)﴾ [القمر: ٢٢-٣٢].

قالوا: ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٢٤] يقولون: ضلال من ديننا وعقولنا، وسعر الجنون الأشر البطر، وقرئ: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر:٢٦] مرتفعة الشين، وقرأ قتادة: «الأشرّ» مشددة الراء من الشر.

﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[1] [القمر:٣١] الشجر إذا يبس وتحطم، فجعله المحتظر حرزًا على حظيرته يمنعها بذلك، والمحظور: الممنوع.

﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤] السحر سحران: سحر أعلى، وسحر عند انصداع الفجر، والمراد به هنا - والله أعلم: السحر الأعلى.

يقول الله ﷻ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وقال فيهم: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ

---

(١) قرأ الجمهور بكسر الظاء، والهشيم: حطام الشجر ويابسه، والمحتظر: صاحب الحظيرة، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح، يقال: احتظر على غنمه: إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض. قال في «الصحاح»: والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة. وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية بفتح الظاء؛ أي: كهشيم الحظيرة، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، ومعنى الآية: إنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة، وداسته الغنم بعد سقوطه. فتح القدير (٧/٩٥).

الصُّبْحُ﴾ [هود:٨١].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠)﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

ونجي لوطًا في السحر الأعلى ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦] شكوا في المنذرين وفيما أنذروهم به وكذبوا بهم حتى حل بهم العذاب.

﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ أي: أرادوه على ذلك ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧] عجلت بعض العقوبة لطالبي تلك الفاحشة إلى أن عمهم مع قومهم العذاب.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر:٤١-٥٥].

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢] لا يخاف الفوت ولا الامتناع ولا يترقب معقبًا في حكمه.

نظم بذلك كله قوله ﷺ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَائِكُمْ﴾ يقول لقريش والعرب: ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ﴾ [القمر:٤٣] من الإهلاك كما أهلك أولئك، ألكم براءة في الكتب المتقدمة من ذلك؟.

أتبع ذلك قوله حاكيًا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرٌ﴾ [القمر:٤٤] أي: نحن كثير ننصر من أرادنا بسوء.

﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ﴾ أي: في الدنيا، فهزموا يوم بدر ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] ثم أضرب عن ذلك بقوله: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ انتظم هذا الخطاب بعموم من تقدم ومن تأخر.

يقول - جل من قائل: دع عنك ذكر ما أصابهم في الدنيا وما يصيبهم من عذابها ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧] الضلال منهم كونهم في الحياة الدنيا ضالين عن الهدى، كافرين مكذبين، وهم في الآخرة في سعر، وهو سعار النار ولهبها ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨].

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ﴾ وصف كونهم وحالهم في السعر ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٨ - ٤٩] والأظهر أن هذه الآية نزلت في القدرية ومن أخذ بمأخذهم، ولقول قريش وكفار العرب: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف:٢٠].

فجوابهم عند مسيس العذاب: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٨ - ٤٩] يقول: اصبروا إذن على العذاب كما كنتم تصبرون على مشيئة الله - جلَّ ذكره - في شرككم وكفركم، ولما ذكر المجرمين أعقب بذكر المتقين فقال: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤] أي: في جنات وضياء وسعة، ويقرأ: «ونُهُر» جمع نهر، أنهار من ماء، وأنهار من خمر، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل مصفى، ونهر بمعنى: أنهار.

تفسير سورة الرحمن
عز جلاله وتعالى علاؤه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١-١٣].

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾[1] [الرحمن: ١ - ٢] إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] اسمه الرحمن ﷻ هو ظاهر اسمه الله، وباطن لاسمه الرب تعالى جعل هذه الأسماء الثلاثة في ظهورها مقام للذات يخبر بها عنه وحجابًا بينه وبين خلقه يوصل بها الخطاب منه إليهم، ثم أسماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة[2] إنباء عنه - جلَّ ذكره - أنه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٢] عبده

(١) قدسية رحمانية إسلام أبدية مختومة بختام المسك مما ينافسه المتنافسون وفيه يرغب الراغبون، وله يزهد الزاهدون، وإليه يتوجه المتوجهون، وبه يسلك السالكون، ومعه يطرب المطربون ويرقص الراقصون، ومنه يستريح المستريحون، طوبى لمن نظر فيها بعين العبرة وانتفع منه الخير، وحمل على جند النفس حمله أهل الغيرة؛ ليخلص من بيداء الحساب ويخرج من تيه الحيرة، ويخلص نفسه من رق الشيطان ويدخله في زمرة عباد الرحمن، ويقرأ سورة الرحمن ويتدبر في هذا البيان الذي جاء من حضرة القرآن، ونقش على صحيفة الجنان؛ ليشاهد حقيقة بعين العيان، ويعرف حقيقة بحق الإيقان.

(٢) قال المصنف: اعلم - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - أن للأسماء مقامات ودرجات من حيث العلم والمعرفة، وهي على ذلك ظاهرة وباطنة بالإضافة إلى طالبين العلم بها، وأعلاها درجة أدلها على الذات ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، والباطنة منها أعلى مقاماتها: الاسم المحجوب، والظاهرة منها أعلى مقاماتها: ثلاثة أسماء ذكرها الله ﷻ في أم الكتاب، وهي: الله، الرحمن، =

الرب، جعلها ﷻ في ظهورها مقامًا للذات جل ذكره يُخبر بها عنه، وحجابًا بينه وبين خلقه يوصل بها الخطاب منه إليهم، فاسم الله - جل ذكره - باطن لاسم الرحمن، وهو يشير أن جميع البواطن من الأسماء.

واسمه الرحمن باطن لاسمه الرب، وهو مفيض على جميع الظواهر، ثم بعده اسم الرب تباركت أسماؤه وتعالى شأنه، ثم أسماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة ... قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩] ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾ [الرعد:٣٠] هذه الأسماء الثلاثة يخبر عنها به ولم يخبر بها عن غيره، يقيمها بذلك مقام الذات ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، حجب بها خلقه عنه، كذلك بطن بذاته وظهر بصفاته، واستعن بأسمائه وتجل في أفعاله سبحانه وله الحمد، وكانت أسماؤه كلها باطنة عن خلقه لمكان عدمهم، ولما أوجد خلقه أظهر منها ما أظهره لآدم ﵇، يوم علمه الأسماء كلها، أي: الذي شاء أن يظهر منها مقدار وسع الخليقة، وهو أبدًا يظهر منها ما لم يكن أظهر إلى ما شاء من ذلك، فإذا كان اليوم الآخر أظهر زائدًا على ما كان أظهره، على مقدار عظيم ذلك اليوم بالإضافة إلى يوم الدنيا، ثم في دار القرار يظهر من ذلك، يكن أظهره قبل زائدًا على ما تقدم على مقدار زيادة تلك الدار على ما قبلها، وكذلك يظهر لعباده وأولياءه هناك من أسمائه المحجوبة والمكنونة، وما أبطن من أسمائه هذه المظهرة في الدنيا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتتسع العبرة جدًّا على هذه السبل، ويكثر الوصف، وتكل الألسن، ويبهر العقول، وينقطع بها العلوم دون ذلك. وكان إظهار هذا الاسم الكريم للخليقة يوم استوائه على العرش؛ لما أوجد عن ذكره العرش على الماء أظهر، من أسمائه هذه الاسم الكريم، اشتقه من صفته الذاتية، وكتب بمقتضاه على نفسه يومئذٍ كتابًا هو عنده على العرش: «**إن رحمتي سبقت غضبي**» فكان هذا الكتاب المبارك عقدًا لجميع العالم علوه وسفله، وإمساكًا له ولو جاء للإمهال والانتظار، والعفو والمغفرة والصفح والتجاوز والتوبة، والحلم والأناة وحسن المعاملة كلها، وجميع ما كان وصفًا للحلم وفعلاً له، ومن ذلك أن أوجد عن هذه الصفة العالية نورًا، ثم خلق من ذلك النور حجابًا حجب به خلقه منه، كما كان من ضدها بهذا الاسم الكريم حجابًا وحجب به خلقه عنه، لو كشف تلك الحجب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، فكان والله أعلم يهلك كبرياءه كل كبر وعزته كل عزة، وعظمته كل عظمة، وكرمه كل كرم، وأخذه كل أخذ، وقدرته كل قدرة، وبطشه كل بطش، هكذا كانت تهلك كل صفة ما قبلها من الصفات، فكان لا يقوم له شيء لولا رحمته السابقة .. ومن رحمته بمقتضى هذا الاسم الكريم أن أوجد جملة العالم كله متواشج الأرحام، متقارب الأصول من حيث هو، فجعل الأعلى يعطف على الأسفل، والأسفل يتعلق بالأعلى، وأفقر الخلائق كلها بعضها إلى بعض الأعلى إلى الأسفل؛ ليؤدي إليه ما له عنده والأسفل إلى الأعلى ليقبل منه ما به وجوده، ثم أفقر الكل إليه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وهو الغني الحميد، ولما خلق الأرض من ممزوج الماء.

جبريل، ثم رسوله محمد - عليهما السلام - و﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ [الرحمن:٣].

وفي تعليمه القرآن والبيان تعليمه كل شيء شاء تعليمه كما خلق آدم وعلمه الأسماء كلها، وفيما علمه من ذلك تبيان للحق المخلوق به السماوات والأرض، وفي ذكر خلقه الإنسان الإعلام بأنه خالق كل شيء موجود وكل شيء هو وصف لعبده الكلي كما قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

وقال: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام:٩١] عدد ذلك من إثارة النبوة المبثوثة في العالم.

فانتظم قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٤] بما تقدم من ذكر تعليمه سائر العلوم كما انتظم.

قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥] المعنى إلى آخره، فذكر سائر المخلوقات.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦] عرض بذكر هذين القسمين الشمس والقمر والنجم والشجر بقنوت الخلائق له وتوحيد جميعها له قولاً وفعلاً، ثم ذكر رفعه السماء ووضعه الميزان تنبيهًا على عدله في موجوداته، وقيامه بالقسط في بريته، وأمره الثقلين الإنس والجن بسلوك سبيل العدل، وإعطاء القسط من أنفسهم، وفيما يلونه ويحكمون فيه؛ إذ كان التكليف منه لهم هو سبيل نجاتهم من عقابه ووصولهم إلى منال ثوابه، وذكر الأرض وأنه وضعها للأنام، والأنام: اسم عام لكل ما دب أو درج، وذكر بما جعل فيها من فاكهة ونخل ذات أكمام يذكر الجنة.

روى عبد الله بن عمرو بن العاص - رحمه الله - قال: «سأل رجل رسول الله ﷺ عن ثياب الجنة: أخلق تخلق أم نسج تنسج؟» فقال رسول الله ﷺ: «لا، بل **تتشقق عنها ثمر الجنة**»[1] وكما تؤكل الفواكه والثمرات فيكون **عنها** الولدان والنسوان وغير ذلك، فكذلك يخلقهم الله ﷻ من ثمار ما هنالك، ومن أرض ما هنالك، طاهر من طاهر دون واسطة، بل تتشقق الفواكه والرمان وغيرهما عما يشاءون من ذلك، ويبين على سواحل الأنهار، وحين يخرج يجعل عليها حجابها

(١) أخرجه الطيالسي (٢٣٨٠)، والبزار (٢٤٣٤).

إلى أن يتم نشوؤها، ثم ترحل إلى ما أعد لها من الملك، وعرض بذكر الأكمام لخفايا في نخل الجنة وثمارها وأزهار أشجارها من أزواج، ولبس ومراكب وولدان وحور عين.

﴿وَالْحَبُّ ذُو العَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن:١٢] الأكمام: كل ما غطى، وكل شجرة تخرج ما هو مكم فهي ذات أكمام، وأكمام النخلة: ما غطى ثمارها من السعف والليف والجذع والكرانيف، وكل ما أخرجته النخلة فهو: ذو أكمام، فالطلعة: كمها قشرها، والزرع ذو أكمام، وقيل للقلنسوة: كم؛ لأنها تغطي الرأس، وكما القميص كذلك؛ لأنهما يغطيان اليدين ويخرجان عنهما.

والحب؛ أي: من الحنطة وأنواع الحبوب كلها، ذو العصف: ما على ساق الزرع من الورق، ويقال له: الهبور، وسمي الورق الذي يكون للزرع لم يقم بعد على ساق: عصفًا، إذا يبس وتهشم، **والريحان**: اسم لكل نبت طيب الريح، والريحان أيضًا: الرزق، هذا كله من مقتضى اسمه الرحمن، عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه.

وقرأ إبراهيم التيمي وعبد الله بن مسعود: «والسماء رفعها وخفض الميزان» وانفرد دونه عبد الله بقوله: «وخفض الميزان لا تطغوا» بإسقاط «أن» فعلى قراءة من قرأه: ﴿وَوَضَعَ المِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ﴾ [الرحمن:٧ - ٨] يقول: انظروا إلى عدلي في الخليقة وإعطائي القسط في البرية، من سماء مرفوعة، وأرض مذللة مدحية، وجبال راسية، ونجوم طالعة وغاربة، ونبات طاهر ناجم وغير ناجم، كل ذلك على وزن مقسوم وحظ من العدل والقسط في عيادته ونشوؤه وغذاءه، وجميع وجوده معلوم؛ فكذلك فاسلكوا سبيلي في ذلك تبلغوا مرضاتي، لا تطغوا في المكيال ﴿وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾ [الرحمن:٩] كما أريتكم من حكمتي وأعلمتكم به من صنيعي وأمرتكم به ونهيتكم على ألسنة رسلي.

أتبع ذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] قالوا: الآلاء: النعم، واحدها الأمثل قفى وإقفاء، وإنما هذا متناول بعض المراد مخصص بعض المقصود، بل لفظ «الآلاء» واقع في القرآن العزيز الذي هو كلام أحكم الحاكمين وخير الفاصلين على النعم والنقم، وعلى الصنع كله والوجود من

الآيات البينات والشواهد والدلالات.

أما ذكره إياها على النعم والنقم، فقوله في سورة الأعراف في قصة هود ﷺ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَصْطَةً﴾ وحذف ذكر إهلاكهم، بل أحالهم على ما يعلمونه من قطع دابرهم وفظيع مصابهم، ثم قال: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] أي: اذكروا نعمه عليكم كما قد أنعم على من كان قبلكم واذكروا إهلاكه إياهم لما كفروا به وبرسله فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فإن الذي أرسل إليهم نوحًا هو الذي أرسلني إليكم، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

ثم قال في قصة صالح ﷺ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ الله وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤] أي: فيصيبكم كالذي أصاب من قبلكم، وأما ذكره الآلاء منتظمة بكل وجه، فقوله في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٦ - ٣٧] إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم:٥٥] وأما ذكر الآلاء لصنعه وحكمه وقدرته وكلامه وبكل معنى ففي أثناء هذه السورة، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

فصل

آلاء الله هي: ما أظهرت لعباده معرفته وأبدت لهم العلم به إليه انتهت الشواهد وإليه قصدت وعلى وجوده في ظهورها اعتمدت؛ إذ هو فيما بيَّنَّا من آل يؤل؛ أي: إن منتهى كل شيء إليه، ألا ترى أن الوجود الكائن في الهواء، وفي كلال الأبصار الذي عنه يكون رفع الشخص في بصر الرائي في بعض على المرئي وأنهى الرؤية إليه، ولولا ذلك الكائن في الهواء وفي كلال الأبصار لم يبصر البصر؛ إذ قد خرج ذلك المرئي عن حد منتهى الروح الخارج عن الحدقة، وكونه مزينًا لذلك الرائي عن جنب.

فكذلك الله - جل ثناءه - قد تعالى عن إدراك أبصار المبصرين وجل قدرًا عن توهم المتوهمين أقام ما بثه في العالم، وأسس عليه خليقته من معاني أسمائه

وإشارات صفاته، وشواهد أفعاله ودلائل تبيانه، وسبل أنبيائه وسنن رسله، مع ما أقامه من مقتضى ذلك في ألباب الألباب من عباده، وركبه في فطرهم من بصائر سالمة وقلوب واعية، وحقيقة إيمان ونور إيقان ما أظهر به وجوده العلي للبصائر، وأوقف عليه العقول مشاهدة حتى لم يجددونه مقصرًا ولا وراءه مرمى، كالشمس المنيرة للأبصار أشاعت من ضيائها في أقطار أجوائها ما به أبصرتها الأبصار معاينة ووقفت عليها مشاهدة؛ فليس إذًا بمبعد أن يكون عنى هذا.

وعبر عنه بالآل؛ لكثرة طرقه وشمول سبله، وجمعه بـ: آلاء، كصحب وأصحاب، وشكل وأشكال، وقوم وأقوام، ونحو هذا كثير متعارف، لكن البصائر علمته غير محدود ولا مكيف، وعرفته دون توهم ولا تصور ﷻ له المثل الأعلى في السماوات والأرض ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١].

يقول الله - جلَّ ذكره - يخاطب الثقلين: الجن والإنس، ويذكر بآلائه في السماوات والأرض والدنيا والآخرة، هو الله الرحمن ربكم، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، جعل الشمس والقمر بحسبان، يجريان بحساب تقدير العزيز العليم، والنجم يريد النجوم، وقد يجوز أن يلحق مع ذلك النبات ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ * وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا...﴾ [الرحمن:٦ - ٧].

يقول: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] بأي آياتي وبيناتي ومصانعي وحكمي وحكمتي وعدلي في خليقتي، وما فطرت جميعها عليه من معرفتها آياتي واستسلامها وقنوتها وسجودها، بأي ذلك من آلاء ربكما تكذبان يأيها الثقلان.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن
نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي
ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ
وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ [الرحمن:١٤-٢٨].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤ - ١٥] الصلصال هنا هو: الفخار المصوت حين يمس، سمي صلصلاً لصوته؛ أي: لصلصلته، والصلصال أيضًا: المنتن، من قولهم: صل اللحم إذا أنتن.

قال الله - عز من قائل: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨] المسنون: المتغير، وإذا تغير الحمأ سن به سنن الخلقة.

﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥] والمارج: المختلط، واختلاط النار هنا هو: اختلاطها ببرد الزمهرير الموجود فيما ها هنا عن فيح جهنم.

وقال في موضع آخر: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خلق آدم عليه السلام ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] ولكل فيح جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - سموم، ولما خلق آدم من تراب هذه الأرض خلق الجان من فيح جهنم فيما ها هنا أسكنهما في حيث خلقهما منه، فأخبر جل جلاله عن أصل خلقتهما.

أما الإنسان: فخلقه من التراب الأرضي ممن، وجاء بالماء صار طينًا لازبًا، والأرض أمه والماء أبوه، ثم سلط عليه الهواء الحامل لحر فيح جهنم وبرده، فمن التراب جسده ونفسه، ومن الماء روحه وعقله، وعن النار غوايته وحدته، ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه؛ لحمل الهواء الفتح والفيح معًا، وعن إثارة النار والبرد فيه شيطانه الذي هو قرينه، كما عن إثارة الماء فيه ملكيته المقارن له، ثم عن نفخ الملك فيه الروح، فعجب الله جل جلاله ونبه على حكمته وعظيم قدرته أن خلق الإنسان من تراب وماء، ثم سواه حتى بلغه إلى أن يكون خصيمًا مبينًا أو وليًا لله - جلَّ ذكره - قريبًا يعلمه القرآن ويرزقه البيان، كذلك في خلقه الجان.

ثم قال لهما؛ أعني: الثقلين الجن والإنس: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٦] أبالعبودية اللازمة لكما لرب واحد أحد قاهر قادر لا يعجزه شيء، ولا يفوته في السماوات ولا في الأرض أمر؟ أم بالدار الآخرة وعنها خلقتكما ومنها نعشتكما وفيما هي من صروفها صرفتكما؟ أم بالبعث والإحياء لكما بعد الموت؟ أم بالجزاء حال الموت وبعد الإحياء لكم فيما هنالك بالإحياء تارة أخرى لكم في الدار الآخرة التي عنها خلقتكما، كما في هذه كونتكما فأحييتكما في هذه

وأنعشتكما فيها من تلكما، وسأعيدكما إلى ما هنالك وأصيركما إليها؟ أم بحديثي عن هذا وإخباري به وكلامي وكتبي إليكما ورسلي؟ بأي آلائي تكذبان؟.

قوله ﷻ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[١] [الرحمن:١٧] مشرقا الصيف ومشرقا الشتاء، ومغربا الصيف ومغربا الشتاء، فأول مشارق الصيف وقت استواء الليل والنهار عند حلول الشمس بأول البروج الشمالية - وهو الكبش - يعتدل الزمان يومئذٍ لقطعها الجنوبية واستقبالها الشمالية، ثم آخر مشارق الصيف إذا كانت الشمس في آخر الشمالية وأول الجنوبية عند حلولها برأس الميزان يعتدل الزمان ثانيًا لاستقبالها البروج الجنوبية، ثم بحلولها بآخر القوس ورأس الجدي يكون الانتهاء في قصر الأيام وطول الليالي لتوسطها البروج الجنوبية، كذلك عند خروجها من برج التوأمان إلى السرطان من برج الشمال، وهي آخر درجات الشمس منه يكون طول الأيام وقصر الليالي؛ فيختلف على هذين الفصلان البرد والحر باختلاف الفيح والله يفتح برحمته فيصلح هذا وهذا ويسخرهما، وذلك لإثارة تغليبه رحمته على عذابه الذي كتبه على نفسه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - وقدمه أمام تدبيره الحكيم قوله: «**إن رحمتي تسبق غضبي وتغلب غضبي**»[٢] والحمد لله رب العالمين.

وفي صعود الشمس في مشارقها إلى ناحية الشمال ونزولها في مغاربها إلى ناحية الجنوب يكون اختلاف الليل والنهار، وتدبير الأمر في الإيلاج والغشيان، وفي أثناء ذلك تفيح جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - ويفتح الله رحمته، ويقلب الله بذلك الليل والنهار والأيام والأزمان.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس تطلع بين قرني الشيطان فإذا طلعت فارقها، ثم إذا استوت قارنها، فإذا دحضت فارقها، فإذا دنت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها**»[٣].

---

(١) قرأ الجمهور: «ربّ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أيّ: هو ربّ المشرقين والمغربين، وقيل: مبتدأ، وخبره: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وما بينهما اعتراض، والأوّل أولى. فتح القدير (٧/ ١٠٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجة (١٣١١).

وقال لعنبسة - رحمه الله - وقد سأله عن أوقات الصلاة، فقال: «**صلِّ الصبح ما لم تطلع الشمس، فإذا أخذت في الطلوع فاترك الصلاة، فإنها تطلع بين قرني الشيطان، فإذا طلعت فصلِّ فإن الصلاة حينئذٍ محضورة مشهودة، ثم إذا استوت فاترك الصلاة، فإنها حينئذٍ بين قرني الشيطان، فإذا دحضت فصلِّ، فإن الصلاة حينئذٍ محضورة مشهودة، ثم إذا دنت للغروب فاترك الصلاة، فإنها تغرب بين قرني الشيطان، فإذا غربت فصلِّ فإن الصلاة حينئذٍ محضورة مشهودة**»(١).

وقال الله - جل من قائل: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨] وقال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا - عز جلاله - كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثا الليل**»(٢) وفي أخرى: «**حين يبقى شطر الليل**»(٣) وفي أخرى: «**حين يبقى ثلث الليل**»(٤) وفيه: «**فلا يزال كذلك حتى ينفتل القارئ من صلاة الفجر**»(٥).

وقال: «**إذا كانت فحمة العشاء فكفوا فواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء فإن للشياطين حينئذ انتشارًا**»(٦).

فهذه أفعال من الله - جلَّ ذكره - وأحكام في التولي بوجه والتجلي بوجه، وكلها أحكامه وأمره تجري على تداوير محكمة التدوار في مشارق ومغارب، والمشارق والمغارب لمقادير مقدرة لحكمه بالغة وأمر عزم له في ذينك الحكمين ابتلاء ورحمة، فأشبهت نعمة ونقمة وأيامه في تداولها بين عباده بالبأساء والضراء، وكل ذلك من آياته وبيناته في معارفه وشواهده التي جعلها شواهد له مخبرة عنه معلمة به.

وكما جعل للشيطان - لعنه الله - اقترانًا للشمس في طلوعها وعند استوائها

---

(١) أخرجه بنحوه النسائي (٥٧٢).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٦٢٦٠).

(٣) أخرجه بنحوه ابن حبان (١٩٩).

(٤) أخرجه مالك (٤٩٨) وأحمد (١٠٣١٨) والبخاري (١٠٩٤) ومسلم (٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٣٤٩٨) وابن ماجة (١٣٦٦).

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨/١١) بلفظ: «وينصرف القارئ من صلاة الصبح».

(٦) أخرجه أحمد (١٤٣٨١) ومسلم (٢٠١٣) وأبو داود (٢٦٠٤) وأبو عوانة (٨١٦٢) والبيهقي (١٠١٢٥).

وغروبها كل يوم؛ فكذلك جعل له في مشارقها أيضًا ومغاربها وتوسطها، فالتوسطان بمنزلة طلوع الشمس وغروبها، وكونها في مشارقها من أول برج الكبش هو بمثابة طلوعها وكونها في الاعتدال الثاني عند استقبالها البروج الجنوبية عند حلولها برأس الميزان هو بمثابة غروبها، ثم يكونها في الانتهائين في طول الأيام وقصر الليالي حين حلولها ببرج السرطان هو بمثابة استوائها في الصيف في كبد السماء، كما بحلولها برأس الجدي يكون الانتهاء في الشتاء في قصر الأيام وطول الليالي هو بمثابة استوائها فيما يقابل استوائها في كبد السماء في النهار.

يقول - عز من قائل: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] فلا تعبدوا سواي ولا تدينوا لغيري، فعرض بما شرع الشيطان - لعنه الله - لأتباعه من عباده أعيار فيما هنالك وحدود حدها لهم وشرائع شرعها لم ينزل الله بها من سلطان، لذلك قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٨] أي: هو خالق الشمس والقمر، وأدار الأزمان دورانها، وخلق الأيام والمشارق والمغارب والنجوم، وسخر ذلك كله لعباده، فلِمَ تتخذون الشيطان ﴿وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف:٥٠]؟.

يقول: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما أنزلت عليه هذه السورة خرج على المسلمين فقرأها عليهم فاستمعوا له وأنصتوا، فقال لهم رسول الله: «**لَلْجِنُّ كان أحسن مردودًا منكم؛ كلما مررت في قراءتي عليهم بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من آلائك نكذب، ربنا لك الحمد**»[١].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[٢] [الرحمن:١٩

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وقال: غريب.

(٢) في « مَرَجَ » قولان :

أحدهما: بمعنى خلط ومرج ، ومنه: مرج الأمر؛ أي : اختلط. قاله ابن عرفة. وقيل: «مرج» أجرى، وأمرج لغة فيه. وقيل: مرج لغة الحجاز، وأَمْرَجَ لغة نجد، وفي كلام بعض الفصحاء:
=

- ٢٠] مرج: خلط البحرين الملح والعذب ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ ما ليس هو بصريح هذا ولا بصريح هذا خارج عنهما، كذلك الجبل والسهل بينهما برزخ يسمى الخيف، كذلك الليل والنهار بينهما برزخان يسميان: العيشين، كذلك بين الدنيا والآخرة برزخ ليس من هذه ولا من هذه، ولا هو خارج عنهما.

كذلك جعل بين كل صنفين من الموجودات برزخًا ليس من هذا ولا من هذا، وهو منهما كالجماد والنبات، كذلك بين الحيوان والنبات وبين الحيوان والإنسان، كذلك بين الإنسان والملك، ثم الملائكة يتفاضلون في الاصطفاء وجود عام لكل فضلين من مفضول منهما وعنهما.

يقول - عز من قائل - للذين لا يؤمنون بالآخرة ويكذبون بلقاء الله: هلا اعتبرتم بهذه الوصل من أنواع الموجودات فتعلمون من ذلك أن موتتكم هذه فصل بين الدنيا والآخرة كالعشائين النهار والليل، والعيشين بين الليل والنهار، واستقرأتم ذلك في آيات السماوات والأرض تجدون ذلك شائعًا في الوجود ودليل الحق وفاقه واطراد وجوده، هلا صدقتم رسلي وكتبي وتدبرتم كلامي؟ : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢١].

هذا ظاهر العبرة في الموجودات من جهة ظاهرها، ويمكن مع هذا أن يكون البحران الممزجان فيح جهنم بنفسيها، فكل واسع بحر، وليس في الدنيا أوسع بحرًا من هذا، نعم ويجوز في العبرة أن يجعل النفسان فرقًا، وفتح الله برحمته بالماء ومشيئته في ذلك فرقًا آخر، فيكونان البحرين، فمنهما وعنهما يخرج اللؤلؤ على الحقيقة والمرجان، ويكون البرزخ على هذه العبرة فصلا الربيعين؛ فإنهما عنهما وليسا بهما، وقد تقدم الكلام فيهما فتعرفه فيما هنالك، وفي هذين يتمكن تحقيق لفظ العموم في قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢١] .

-

بحران أحدهما بالآخر مَمْرُوج، وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج. وقيل: أرسلهما في مجاريهما وخلّاهما كما ترسل الخيل في المرج. قاله ابن عباس. وأصل المرج: الخلط والإرسال، يقال: مرجت الدابة وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء. اللباب لابن عادل (١٢/٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] البحر العذب في الدنيا آية على مياه الجنة، والملح الأجاج آية على بعض موجود شراب أهل النار لا يروي شاربه ولا يغنيه.

قال الله - عز من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠] كيف لا وقد كونه في مضطرب فيح جهنم سموم حرورها وسموم زمهريرها، لكنه - أعني: الماء - لما كان من فتح رحمته غلب رحمته على عذابه فأخرجها - أعني: جهنم - عن الماء بروقًا ورعودًا وصواعق وما شاء من ذلك، فخلصه حيًا طيبًا مباركًا طاهرًا مطهرًا.

كذلك قال - عز من قائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ثم قال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:١٢] المعنى حيث جاء.

والمعهود أن البحر يستخرج منه اللؤلؤ والمرجان، وإنما يستخرج منه الدر على ما ذكره المستخرجون له من أصدافه، وأن الله يخلقه من ماء المطر فتنفتح تلك الأصداف، الماء ينزل من السماء في أوان مخصوص فتقع فيها فتقوم الأصداف له مقام الأرحام للنطف أو بيض الطير لما وجد له وماء البحر مقام الحضانة وهذا يقوي القول بأن البحرين المذكورين هما: الفتح والفيح، وبآخره يكون المعني بذلك البحران العذب والمالح، ألا تراه لما جاء إلى الإخبار عن جري الفلك أفرد ذكر البحر بقوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل:١٤].

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٣] بنعمه الموعود بها في الآخرة أو بالمعجل منها في الدنيا؟ أم بعذابه الذي أوعد به في الآخرة أو بما عجل منه لمن شاء من عباده؟ سخر لكم البحر يعطيكم مما عنده وينفعكم بما فيه، وتعبرون عليه إلى مقاصدكم في الفلك؛ ولتبتغوا من فضله، ولتشكروا الذي سخر لكم جهنم وهي لكم عدو فيصير لكم منها جنة معجلة ينعشكم منها ويخلقكم من موجوداتها بواسطة رحمته، لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد في الأولى والآخرة ولك الحكم وإليك يرجع الأمر كله.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن:٢٤] قد

تقدم الكلام في الاعتبار بالفلك جارية في البحر بنعمة الله، أو اهلاكها بانتقامه وأن طريق ذلك هو أن يفرض الفلك توهمًا مناب جميع المخلوقات علوًّا وسفلاً، وأنها تجري لأعلى مخلوق؛ إذ الماء الذي تجري عليه ليس من الفلك، بل الأمر مكتنفها وعامدها وأن وزان خدامها وملاحيها وزان الملائكة في إقامة الملكوت وتحصين بماسكه بإذن ربهم، ووزان المسافرين فيها الذين لأجلهم أنشأت الفلك وزان المكلفين المأمورين المنهيين الذين من أجلهم خلق السماوات والأرض وما بينهما، تعبر بهم من غربتهم إلى قرارهم، ومن غيبتهم إلى حضورهم ومشاهدتهم ومساكها، ومدبر أمرها في أعلاها يأمرهم بأمره فينفذونه ويسمعون له.

ثم قد يصرف الاعتبار إلى أن تكون آية على قطع المؤمن أيام الدنيا، فالدنيا هي البحر والسفينة جسمه، وباطن العبد هو المحمول فيها، والعقل صاحب سياستها، والقوى خدمتها، وأمر الله وتدبره محيط بها، والإيمان أمنتها، والتوفيق ريحها، والذكر شراعها، والرسول سائقها بما جاء به من عند ربه، والعمل الطيب يصلح شأنه، ثم قد يفرق الاعتبار إلى قوله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١ - ٤٢] وقد تقدم ذكره.

يقول ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٥].

قوله - جلَّ ذكره: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾(١) [الرحمن:٢٦ - ٢٧] عم في هذه الآية آلاءه بقوله هذا؛ إذ كل من

---

(١) يعني: من يكون على أرض البشرية فانٍ، والفناء إشارة إلى فناء المركبات، كما أن الهلاك إشارة إلى هلاك المفردات، ولأجل هذا إشارة في الفناء إلى تجلي الصفات، وفي الهلاك إلى تجلي الذات، وأطلق الهلاك على كل شيء حيث قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] وأضاف الوجه إلى هويته، وأطلق الفناء على من على وجه الأرض البشرية من المركبات بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وأضاف الوجه إلى الصفة حيث قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾؛ يعني: صاحب تجلي الجمال والجلال؛ يعني: بتجلي الجلال الصوب الكثيفة، ويبقى بتجلي الجمال المعاني المكتسبة اللطيفة من الصورة الكثيفة، والفرق بين الهلاك والفناء بين فناء نور القمر عند حجاب الأرض له عن أخذ النور من الشمس وهلاك أنوار الكواكب عند طلوع الشمس، وأبين لك فرق أظهر من هذا في =

عليها إنما بقاؤه بين عدمين:

أحدهما: أنه لم يكن ثم كان.

والثاني: أنه سوف لا يكون، وهو فيما بين ذلك يتعاوره الإفناء والإيجاد ما شاء الله إبقاءه فهو فان، وإن بطن فناؤه حتى يأتيه اليقين.

ثم بوجه آخر من الاعتبار: أنه وإن كان قد كتب عليه الفناء فإنه إلى البقاء خلق، فإنه بعدما يفنيه يوجده عودًا بعد بدء، ثم يبقيه، ويكون قوله: ﴿**ذُو الجَلالِ**﴾ رفع؛ أي: وجه ربك ذو الجلال ابتداء وخبر، فتكون القراءة «كل من عليها فان» ويبقى ذكر الوجه عبارة عن الذات ﷻ؛ أي: ويبقى ربك هذا على القراءة الأولى، وينجر إلى ذلك الإعلام بما هو موجه إليه ومخلص له، والوجه أيضًا صفة له ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تسألوا بوجه الله إلا الجنة**»(١) فمعنى سياق الكلام: قد كان لكما أيها الثقلان في مشاهدة ما هو عليها، أو جواز الفناء عليه في الجوار الجاريات في البحر كالجبال بما تحمله ما يحجركم عن التكذيب بآلاء ربكما فبأيها تكذبان.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

صورة النبات، إذا وضعته في قدح فيه ماء يفني تركيب الصورة النباتية القائمة ثلاثة قوائم، ويهلك معنى حلاوة في الماء؛ لغلبة الماء عليه، وفي الهلاك والفناء أسرار سوى هذا يتعلق بعضها تجد القرآن وبعضها بمطلع القرآن، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: أيتها القوتان، أبنعمة إفناء الصور الكثيفة، أم بنعمة إبقاء المعاني اللطيفة المكتسبة من الصور الكثيفة في دار الكتب تكذبان؟.

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧١)، والبيهقي (٧٦٧٨).

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرحمن:٢٩-٣٦].

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] هو مدبر الأمر كله، ومقلب الليل والنهار، ومرسل الرسل، ومنزل الكتب، يخفض ويرفع، ويقدم ويؤخر، ويغني ويفقر، ويعز ويذل، منذ خلق الخليقة ورفع السماء ووضع الأرض ما كرر صورة، ولا كرر يومًا ولا ليلة ولا شهرًا ولا سنة، ولا ما في أثناء ذلك، كل بصورته المخصوصة وكيفيته المقدرة له وشأنه المراد به.

قال الله - عز من قائل - فيما حكاه عن رسوله نوح، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣ - ١٤].

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٠] أفبإيجادي إياكم على صور مختلفة أو بإيجادي الشمس والقمر والنجوم في مطالع ومغارب محدودة، أو بتقليبي الليل والنهار والقلوب والخواطر، أو بإفرادي كل ذي صورة بصورته وكل ذي حال بحالته وكل ذي أمر بأمره، بأي آلائي تكذبان؟ لا بشيء من آلائك نكذب، ربنا لك الحمد أبدًا، كذلك ما في السماوات ولا في الأرض من شيء إلا وهو قانت له عابد، مسبح له ساجد، شاهد له دال عليه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

يقول الله - جل من قائل: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن:٣١] هذه من آلائي ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٢].

قوله ﷻ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن:٣١] وقرأها أبو حيوة: «سيُفرَغ» بالياء مضمومة وفتح الراء على ما لم يسمَّ فاعله، الفراغ في لغة العرب على وجهين: فراغ من شغل بشيء إلى شيء، وليس هذا هو المراد هاهنا بهذا الخطاب أن الله لا يشغله شيء عن شيء، وفراغ بمعنى: القصد، تفرغت للشيء: قصدت إليه وعمدت، فمعنى الخطاب على هذا: سنقصد لمجازاتكم بأعمالكم وسؤالكم عن جميع ما فرط منكم يوم الجزاء حين حلول الأجل.

وقد تقدم فيما مضى أن نون الجميع في القرآن كله المسماة بنون الربوبية ونون الملوك إنما هي عبارة عما يديره ويحكم به ويأمر بأمره، تنفذه الملائكة وتفعله بإذنه وحوله وقوته، فيكون التفرغ في حظ الملائكة الحافظين والشاهدين على العباد وملائكة الجزاء، وما يتناوله حكم اليوم الآخر بما فيه في يوم الجمع وفصل الحكم، وفي الجنة والنار من جنود الله ومن ملائكة رضوانه ومنفذي أحكام انتقامه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] وهذه الآلاء جمعت الملك والملكوت، وأحكام الدنيا والآخرة وما هو إليه المصير.

يقول الله - جل من قائل - يخاطب الثقلين: إن الملائكة الذين أمروا فيكم بما أمروا به لم يأن لهم بعد ولم يتفرغوا بتنفيذ ما أمروا بالعمل فلو قد كان ذلك لتفرغنا لكم، كما قال: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود:١١٠] في أمثالها من القرآن، وقد مر بكم في أيام الدنيا وما أصاب سواكم فيمن هو منكم من ضروب المثلات وأنواع الأخذ بالسيئات والحسنات ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٢].

قوله ﷻ: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن:٣٣] نظم هذه الآية بالتي قبلها، خاطبهم في الأولى وهم في الدنيا يوعدهم بأسه ويحذرهم ما هم إليه صائرون، وناداهم في هذه الآية وهم بحيث صبرهم بالوعيد من كونهم في عرضة الحكم في اليوم المجموع له الناس، واليوم المشهود وقوفًا ينتظرون ما قد فرغ إليه من شأنهم ملائكته، وما أنجز لهم من وعيده وتهديده.

يقول: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾ هربًا من وقوع الجزاء بكم ﴿فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ والسلطان هنا: هو الإيمان والعمل المرضي، وأن وجه الخطاب إلى المؤمنين فالنفوذ إلى الجنة، وكانت كلمة «انفذوا» أولى من سواها؛ لإحداق الملائكة بهم ملائكة السماوات السبع سماء سماء من وراء الخليقة، وسرادق النار قد أحاط بالكافرين، لا منفذ لهم إلا على الصراط ولا يجوزه سالمًا إلا كل ضامر مخف أو مغفور له، وكما قربت النار للكافرين وسعرت لهم فكذلك أزلفت الجنة للمتقين الذين هم عن النار مبعدون، فهم لا يسمعون حسيسها.

قال رسول الله ﷺ: «**من صام يومًا في سبيل الله بعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا**»(١) وهم الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤] وهنا تبين طريق اليمين - وهو طريق النجاة - من طريق الشمال: طريق الهلاك، جعلنا الله من الذين سبقت لهم منه الحسنى والذين هم عن النار مبعدون.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٤] أبيوم الجمع وقد جمعكم قبل في قبضتيه الكريمتين؟ أو باليوم المشهود؟ أو بشهودكم إياه وسؤالكم؟ وقد أشهدكم قبل على أنفسكم بما عاهدكم عليه ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً﴾ [الأحزاب:١٥] أو بتكشيط السماوات السبع وقد شاهدتم تكشيطه السحاب بعد بسطه إياها وإعدامها بعد إيجادها؟ أم بجهنم المحيط بكم يومئذٍ سرادقها ولو آمنتم وتيقظتم لعلمتم يقينًا إحاطتها بكم في الدنيا خلقًا وأمرًا، ثم على ذلك صاحبتم من أعمالكم وأنفذتم أعماركم في كفرانكم؟ أم بالجزاء على أعمالكم خيرها وشرها، وقد رأيتم الجزاء العاجل وشاهدتم ما أصاب الأمم الماضية من ذلك؟ أم بكلامي وإعلامي إياكم؟ أم برسلي وكتبي إليكم وآياتي فيكم تكذبان؟.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ...﴾ [الرحمن:٣٥] يقرأ: «الشواظ» بالكسر والرفع، وهو: لهب النار، والنحاس: الدخان، وقيل هو: الصفر المذاب، والأول أولى والله أعلم، هذا مصداق قول رسول الله ﷺ: «**يخرج عنق من النار فيقول: أمرت بكل جبار عنيد، فتلتقطهم من بين أهل الجمع**»(٢) لقط الحمام حب السمسم، ويغشى المجرمين دخان جهنم من بين المؤمنين، ولا يضرهم آية الشواظ وعنق النار فيما هنالك صواعق ما هاهنا وبروقها والنار المعهودة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٦] ألم يكن لكم فيما شاهدتموه في الدنيا من دلائل ذلك وآياته ما تؤمنون عليه.

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢١٨٦)، وأحمد (١١٥٧٧)، والبخاري (٢٦٨٥)، ومسلم (١١٥٣)، والترمذي (١٦٢٣) والنسائي (٢٢٤٥)، والبيهقي (٨٢٣٥).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١١٣٧٢)، وعبد بن حميد (٨٩٦)، وأبو يعلى (١١٤٦).

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾ [الرحمن:٣٧-٥٣].

قوله - عز جلاله: ﴿**فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**﴾[١] [الرحمن:٣٧] جعل الله ﷻ الشمس في هذه الدار من آياته الخاصة، فقبل طلوع الشمس في الأغلب تحمر السماء، وعند انشقاق الصبح كذلك، وربما ابيضَّ موضع الانشقاق، وكذلك عند الغروب، ذلك من آلاء الله ﷻ وآيات علم التنزل العلي يوم الجمع ليفصل بين العباد؛ لذلك قال رسول الله ﷺ وقد أسحر يومًا في بعض أسفاره: «**سمع سامع يحمد الله حسن بلائه علينا ربنا صاحبنا وأفضل علينا عياذًا بالله من النار**»[٢].

قال الله - جل من قائل: ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً* الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ**﴾ [الفرقان:٢٥ - ٢٦] فعند حقيقة المجيء العلي قبل

---

(١) أي: كوردة حمراء. قال سعيد بن جبير وقتادة: المعنى: فكانت حمراء. وقيل: فكانت كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة. قال الفراء وأبو عبيدة: تصير السماء كالأديم؛ لشدّة حرّ النار. وقال الفراء أيضًا: شبه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخيل، وشبّه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، والدهان: جمع دهن، وقيل: المعنى: تصير السماء في حمرة الورد وجريان الدهن؛ أي: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لذوبانها، وقيل: الدهان: الجلد الأحمر. وقال الحسن: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ أي : كصبيب الدهن ، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانًا. وقال زيد بن أسلم: إنها تصير كعصير الزيت. قال الزجاج: إنها اليوم خضراء، وسيكون لها لون أحمر. قال الماوردي: وزعم المتقدّمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق. فتح القدير (١٠٨/٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧٠٧٥).

ذلك تشقق السماء بالغمام، قال الله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة:٢١٠] ويومئذٍ تصير وردة كالدهان آية ذلك الشفقان عند الطلوع والغروب، لذلك - والله أعلم - قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٨].

يقول - عز من قائل: ليس شيء مما أخبرتم به أنه كائن في الآخرة إلا قد أريتم في الدنيا ما تهتدون به إلى العلم بكونه فيما هنالك لو تعقلون.

نظم به قوله ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] كما أنه ليس لليل حكم يعارض طلوع الفجر وظهور النهار وتجلي الشمس، كذلك ذلك لأنه لم يكن التنزل العلي بعد، فإذا حان حين الفصل والحكم كان السؤال.

يقول الله - جل قوله: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣].

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦].

ثم بعد إذا وقع القول عليهم وأمر بهم إلى سوء المصير - نعوذ بالله من ذلك - فيومئذٍ أيضًا ﴿لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥ - ٣٦] غمرهم الذل، ووقع القول عليهم، لزمهم القهر وأحاطت بهم الغلبة من لدن العزيز القهار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٣٤] للغلبة في معهود الوجود بفقد الاحتجاج والقهر بقطع المعاذير، ووقوع القول بصحة الاحتجاج يوجب الانقطاع في معهود الاحتجاج، فليس لإنس يومئذٍ ولا جان معارضة تكلم ولا حجة بيان ولا تلعثم لأجل وقوع القول عليهم.

يقول ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٠] هذه المشاهدة إلى تبيان إعلامه وصدق كلامه، وكل ذلك من آلائه، كما قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦] كذلك قال في محاوره هذا: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن:٤٠] لا بشيء من آلائك ربنا نكذب.

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١] سيماهم يومئذٍ زرق العيون وسواد الوجوه والعمى والصمم والمشي على الوجوه بدل المشي على الأقدام.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾

[الإسراء:٩٧] وقال: الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم قد كانوا في الدنيا يدعون إلى الإيمان فلا يستجيبون، ويرون الهدى فلا يهتدون، عمي بكم صم، وكانت الأغلال في أعناقهم وأيديهم إلى الأذقان باطنًا، ومن بين أيديهم سدًا، لا يمشون إلى صالحة ولا يهتدون سبيلاً إلى طاعة لله العلي الكبير، ومن خلفهم سدًا، لا يتأخرون عما سخط الله، فتقرن الملائكة - عليهم السلام - يومئذٍ بين نواصيهم وأقدامهم من وراء ظهورهم.

يقول - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٢] ألم تروهم في الدنيا على ما يجب أن يكون عقابهم هكذا؟ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

وهذا الخطاب إما أنه للمؤمنين خاصة، فإنه لا يرى ذلك إلا المؤمنون أهل العلم والإيمان والملائكة أبصر بذلك، ودخل الكفار في الخطاب بالتبعية، ووصف التكذيب أو يكون الأمر يومئذٍ يبلغ أن يشهدهم حالهم التي غيبت عنهم في حياتهم الدنيا، فالله أعلم، وأيضًا فإنه في الوجود أن زبانية ملوك الدنيا إذا بطشوا بمن أمروا به وسلطوا عليه فلهذا أو للمعنيين، وما هو أكثر من هذا.

قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٢] أفبحديثي وكتابي ورسولي أم بآياتي؟.

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٣ - ٤٤] نظم هذه بالتي تقدم؛ أي: يقال للمجرمين إذا سوقوا إليها مقرونة نواصيهم بأقدامهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ أو يكون الخطاب بهذا للرسول ﷺ والمؤمنين؛ إعلامًا لهم بذلك، وعلى ذلك سياق الخطاب، وقرأ عبد الله - رحمة الله عليه: «هذه جهنم التي كنتم بها تكذبان تصليانها لا تموتان فيها ولا تحييان» أي: يطوفون بين سعيرها وزمهريرها كما كانوا في دار الدنيا يطاف عليهم بحرورها وزمهريرها.

قال رسول الله ﷺ في الشمس: «**ما تطلع من قصبة إلا فتح لها باب من**

جهنم»[١].

وقال: «**إن أشد ما تجدون من الحر أو من الحرور فمن جهنم، وإن أشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير**»[٢].

يقول - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٥] أبما أراكم من آياته وظاهر عليكم من بيناته في السماء والأرض؟ وما أراكم من مطالع الدنيا والآخرة فمن فيح وفتح ومطالع الشمس والقمر والنيرات، وإيجاد الموجودات على أحكام ذلك الإله ظاهر وآيات بينات، اختلاف الشتاء والصيف بالبرد والحرور فيحًا من سعير وزمهرير فيما هنالك، أو إجرائه العادات في الوجود بفتح من رحمته ويسور من خلقه وبسط من رزقه عند طالع أو غارب بإذنه ومشيئته [...][٣] أم بحديثه الصدق وكلامه الحق؟.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] اعلم - وفقنا الله وإياك - أن داخل الجنة مصيره إلى جنتين، أعربت عن ذلك حقيقة الوجود. جنة مصيف وجنة شتاء، بل إلى أربع جنات، آية ذلك انقسام السنة إلى أربعة فصول جعل الله - جلَّ ذكره - لكل فصل فوائده وثماره من غير قطع لشيء من ذلك ولا إغباب.

قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[٤] وكما انقسمت الدنيا إلى موجود جهنم لأجل فيحها، فكذلك انقسمت الدنيا إلى موجود الجنة لأجل فتح الله برحمته إليها وإرادة الله فيها ومنها بتغليب رحمته على عذابه حتى سخر لعباده جهنم وهي أعدا عدو لهم، فأخرج لهم منها وبها بواسطة رحمته الزرع والنخيل والزيتون والرمان والأعناب والجنات المعروشات وغير المعروشات ومن كل الثمرات.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠).

(٢) أخرجه بنحوه مالك (٢٨) والشافعي (٢٧/١) وابن حبان (٧٤٦٦) والبخاري (٣٠٨٧) ومسلم (٦١٧) وابن ماجة (٤٣١٩) وأحمد (١٠٥٤٥).

(٣) غير واضحة في (خ) وغير موجودة في (ف).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤١٠).

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٧].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

نظم بذلك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن:٤٨] يصف الجنتين، وأن أشجارهما لها الأفنان.

قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها**» ثم قال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾** [الواقعة:٣٠]»[1] وإنما وصفهما بهذا وأحال على ما خلفه في هذه الدار من أشجارها وموجود أفنانها على اختلاف ذلك.

ثم قال للثقلين: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٩] وفي مفهوم هذا أن للجن في غيب مستقرهم ومتاع متعوا به إلى حين شجر وأفنان وجنات غائبة عنا كذلك قال - عز من قائل: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة:٣٨] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] ولهم إذن أبنية وأدؤر وقصور وجنات، كما لهم نساء أبكار وعون، كما لهم دواب وأنعام سوى ما أبيح لهم من مشاركتهم الأنس في بعض أموالهم وأولادهم، فإن الله ﷻ قرن بيننا وبينهم في الخطاب بتعداد النعم والتحذير من النقم، ويقول لنا ولهم: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٩] عندما يسوق ذكر الموجودات كلها.

قوله ﷻ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠] هاتان الجنتان - والله أعلم بما ينزل - في تلك الدار مثالان لجنتا الدنيا اللتان يكونان والشمس صاعدة إلى البروج الشمالية، فإن المياه فيهن جارية وأنهارها قد تكاملت زيادتها فهي تنفجر عيونًا، لذلك وهو أعلم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥١] وعند ذكره الجنتين بعد هذا يقوى دليل هذا الاعتبار - إن شاء الله تعالى.

نظم بذلك قوله الحق - عز من قائل: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢] جمع في هاتين في جميع جنات الدار الآخرة فواكه ما من شأن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨١).

المصيف والشتاء أن يحضر فيهما يحضران في تلك معًا كمالاً ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ [الواقعة:٣٣] وبوجه آخر أنه يبلغ بالنشء إلى أن توجد هاتان الجنتان عن موضع إيجاده جهنم، فإنه أوجدها عن غضبه، وصورها صورة على مقتضى سخطه وانتقامه، والجنة موضع موجود مفيض رضوانه ومحبته وفيض جوده وإعطائه فهو يوجد برضاه من موضع غضبه إكرامًا وإجلالاً.

ويوجد عن ذلك من موجودات الجنة من نسوانها وولدانها وجناتها وأشجارها وثمارها وفواكهها، كما أوجد في هذه عن فيح جهنم بواسطة فتح رحمته الجنات، وأكثر الموجودات من نساء وولدان ودواب وأنعام، بل الموجود كله في هذه الدار عن هذا، فافهم لذلك وهو أعلم أحال على ما هاهنا بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٣].

وهذه عبرة لا يصح لك اعتقادها حتى تؤمن بها وتعلم يقينًا أن الله - جلَّ ذكره - لو شاء أن يجعل من جهنم جنة بأن يدخل فيها رحمته ويشأ ذلك منها لفعل، وأنه لفاعل ذلك في الجنة إن شاء الله، ينشئ جنة من موضع رضوانه وينشئ أخرى من موضع سخطه بواسطة رضوانه ورحمته ومشيئته في ذلك، فاعلم يقينًا.

ومن ذلك قوله - جل من قائل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] جنة جزاء؛ لأنهم انتهوا عما يسخطه، وجنة جزاء؛ لأنهم عملوا بما يرضيه.

ومن ذلك قوله - عز من قائل - في وصف موجودات هذه الدار: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: من مقتضى فتح الرحمن ومقتضى فيح جهنم، لذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللهِ....﴾ [الذاريات:٤٩ - ٥٠].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٧ - ٨] أي: ذلك آية منه على رحمته وغفرانه، لذلك اجتلب من الأسماء بعد هذا قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ﴾ أي: ذو انتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩] أي: ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم، وعلى هذا يتخرج أيضًا قوله فيما هاهنا: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٣].

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٤ - ٦٥].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن:٥٤] وقرئ: «فُرْش» بإسكان الراء، قالوا: الاستبرق: الديباج الغليظ، والبطائن قد تكون: الظواهر، العرب تقول: بطن السماء لهذا الذي تقع عليه العين، وهذا إنما هو وصف بالإضافة إلى المتكئين عليها، وأما قولهم: الاستبرق: غليظ الديباج، ووصفوا به فرش المكرمين - رضي الله عنا وعنهم - فيجوز في النظر وقصور منهم عن بلوغ المعتقد في موجودات ما هنالك وما ذكر الله الاستبرق إلا في موجودات الجنة.

قالوا: وهو اسم معرب أصله من لسان الفارسية، قالوا: ويسمونه بلسانهم: استبره، وقد أبى ذلك أهل الغلغلة العلم، فهو لم يأتِ في لسان العرب إلا في وصف الجنة، وزعموا أنه مأخوذ من غير لسانها، وازدادوا بعدًا عن حقيقة المعنى إلى بعدهم عن أوله، وإنما هو - والله أعلم بما ينزل - استفعل من البريق، وهو وصف للنور استبرق.

يقول - وهو أعلم: بطائن هذه الفرش تبرق نورًا، دع عنك وصف ظواهرها، فهي - والله أعلم - نور تألق به ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠] أفكان الله ﷻ يجعل بطائن فرشهم من غليظ الديباج وظواهرها من رقيقه.

ولقد جاء في كتاب «المناجاة» لابن المخبر أو غيره أن رائيًا رأى أحمد بن حنبل - رحمة الله عليه - في النوم، أظنه قال: راكبًا مركوبًا ما وصفه، قال: وعلى

رأسه عمامة من نور، في رجليه نعلان من نور، لابسًا ثوب فضة ينثني عليه بانثنائه، وإنما فضة ما هنالك وذهبه نور لكن على درجة الموصوف والمالك لذلك فافهم، ألا تسمع إلى قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في وصفهم - رضي الله عنا وعنهم: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان:٢١] أفكان يلبسهم غليظ الديباج.

قوله: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن:٥٤] أي: ميسر حاضر غير مغيب عنهم ولا متعب ولا ممنوع ولا ممنون، ولما قد أوجد من مثالات ذلك في هذه الدار قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٥].

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ يعني: الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[1] [الرحمن:٥٦] القاصرات الطرف: العفائف، قالوا: قيل لهن ذلك؛ لأنهن قصرن أبصارهن على أزواجهن، وأرى - والله أعلم - أن المعنى زائدًا على ما تقدم أنه كناية عن فتور الطرف، فإن الحدة في نظر المرأة مكروه مذموم وهو خضوع في الطرف، ويقال للمرأة الفاترة الطرف: ساجدة، قال الشاعر:

ولهوى إلى حور العيون سواجد

يقال من ذلك: عين ساجدة، وعيون سواجد.

قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[2] [الرحمن:٥٦] الطمث هنا هو: الدم الخارج عن العذرة، يقول: هن عذارى لم يطمثهن بعد لا إنس قبلهم ولا جان، ودل بهذا الخطاب: أن الجن ينالون من نعيم الجنة في مواضعهم فيها ما يناله

---

(١) يعني: في هذه الجنان صور حسنة خالدة من صور الأعمال الصالحة، يقصر طرفهن على صاحبها ولا يقدر أن ينظرن إلى غير صاحبها، وكل ما ينظر إلى صاحبها يريد في عينها جمال صاحبها، لم يمسهن يد قوة علوية ولا سفلية قبل يد صاحبها، وحسنهن من حسن الأعمال، وزيادة حسنهن في كل نظرة من حسن النية والصدق والإخلاص في العمل.

(٢) قرأ الجمهور بكسر ميم «يطمثهن» في الموضعين؛ وطلحة وعيسى وأصحاب عبد الله وعليّ بالضم. وقرأ ناس بضم الأول وكسر الثاني، وناس بالعكس، وناس بالتخيير، والجحدري بفتح الميم فيهما، ونفي وطئهن عن الإنس ظاهر، وأما عن الجن فقال مجاهد والحسن: قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن؛ إذ لم يذكر الزوج الله تعالى، فنفى هنا جميع المجامعين. وقال ضمرة بن حبيب: الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم، فنفي الافتضاض عن البشريات والجنيات. تفسير البحر المحيط (١٠/١٩٨).

الإنس، ومنهم المقربون والأبرار أصحاب اليمين، وأن الجنيات أبكار، ولمعهود هذا عند هؤلاء وهؤلاء قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٧] أي: وقد شاهدتم ذلك فيما متعتم به في مستقركم هذا، هلا قضيتم بما عهدتموه وحضركم على ما غاب عنكم؟ ثم شرط وجدان المزيد فيما هنالك، وقد أخبركم الوجود وأنبأتكم الرسل والكتب لو كنتم تعقلون.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨].

قال الحسن: المرجان: عظام اللؤلؤ، واللؤلؤ صغاره.

وقال غيره: المرجان: صغار اللؤلؤ، واللؤلؤ: اسم جامع لما استخرج من البحر.

وقالوا: المرجان: أحمره، والمعنى المقصود من هذا: أنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان.

وقال في موضع غير هذا: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٨ - ٤٩] والظاهر من إعلام المتلو إن شاء الله أنهن بيض في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، قال الشاعر في نحو هذا:

وإذا جرى النور يد في وجناتها فكأنه صرف المدامة في المها

وأنهن أيضًا بيض كالبيض المكنون، وبياض ما هنالك نور يخالط ذلك منهن نور صفرة، كما قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٨ - ٤٩] وقال الشاعر يصف محار ما هاهنا مما هو آية على ما هنالك:

بيضا في دعج صفراء في بعج كأنها فضة قد شابها ذهب

وهذا كله معهود في الوجود ولما كان موجود ما هاهنا من نساء وولدان وبنات وغير ذلك عن الفتح والفيح والدار الآخرة ليس فيها إلا ما استخرج عنها، ومنها بمعتقد مزيد لا تعلمه نفس ولا يتوهمه وهم، وحسب المعتبر الدلالة بالآيات والإشارات والعبور منها إلى ما هذا آية عليه وإشارة إليه، فلذلك قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٩].

نظم بذلك قوله الحق - عز من قائل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾

[الرحمن:٦٠] قرر - جل ثناؤه - على المعهود المتعارف.

قال الله ﷻ فيما وعد به على ألسنة رسله - عليهم السلام: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا...﴾ [نوح:١٠ - ١١] وقال: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٣].

ومن المعهود أنه من استصحب العافية أوتيها، ومن أَحسن أُحسن إليه وإنما تصيب المصائب على الأغلب بسوء المكتسب، فكذلك فيما هنالك ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١] ولهذا المعهود قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٦١] قوله الحق، ووعده الصدق، اللهم لا بشيء من آلائك نكذب، لا إله إلا أنت، ربنا لك الحمد.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢] قد تقدم حديث رسول الله ﷺ قوله: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»(١) وأنهن أربع جنات كما كانت الدنيا أربعة فصول السنة بأربع جناتها بيان، وإن كان الأمر كما قاله الصادق الحق وبلغه المصدوق الأمين فإن قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢] موضع للتثبت، وإن كان ذلك كما قال - عز من قائل - وذكر الذين كفروا وسوء مصيرهم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧] فهذا عذاب القبر كما قال الله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣] أي: في الدار الآخرة، فالأدنى إذن هو الذي هو أقرب منك كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ يريد في الدنيا قبل الموت، دل على ذلك قوله إثر هذا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١] ولذلك سميت هذه: الدار الدنيا؛ لأنها الأدنى إلينا، فقوله وهو أعلم: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢] يريد: بعد الموت.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد تقدم أنه كما من أهل النار فراط إليها كذلك من أهل الجنة فراط إلى الجنة، وهي جنة المقربين بعد الموت، وكما قال رسول الله ﷺ وذكر إخوانه - على جميعهم السلام: «**وأنا فرطهم على الحوض**»(١) أي: أنا متقدمهم إليه.

قال الله - عز من قائل - وذكر المختصر: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**﴾ [الواقعة:٨٨ - ٩٤].

ثم قال: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**﴾ [الواقعة:٩٥] يعني: حق الموت، وقد تقدم الكلام في إثبات ذلك في غير موضع قبل هذا، ولذلك قال - عز من قائل: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن:٦٣].

وكما أنه في كل برزخ مزج من الذي قبله والذي بعده كبرزخ البحرين المالح والعذب، وكغشي الليل والنهار، وكخيف الجبل والسهل، فكذلك برزخ ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة كائن فيه لا محالة مما مضى ومما لم يأت بعد، ويخص قوم بالإكرام وقوم بالإهانة بقدر الاستجابة لله والرسل، والنكوص عن ذلك والتأخر، لكن على شريطة اعتقاد النشء، فكما أن في هذه الدار جنات وعدن وأنهار وفواكه ونساء، فكذلك في الدار الوسطى التي هي البرزخ بين هذه الدار والدار الآخرة، وهي أكبر وأظهر، وما هذه في الدار الآخرة إلا قليل.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿**مُدْهَامَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٤] ظاهر هذا أنهما مدهامتان نعمة ونضارة، وإن كان ذلك فيما هنالك لا بد ولا محالة؛ أي: أنهما نضرتان إلى السواد والدهمة، وهذا في وزان قوله في الأولتين: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾ [الرحمن:٤٨] وذلك معهود في جنات الدنيا بشرط اعتقاد فضل الآخرة على الدنيا، ووصف الدهمة في جنات الآخرة وأنها تضرب إلى السواد ليس يعني الوصف، والله أعلم.

وإنما ذلك - والله أعلم بما ينزل - أن هاتين الجنتين فيما هنالك في وزان

---

(١) تقدم تخريجه.

جنتا الدنيا في فصلي الخريف والشتاء، والشمس قد جنحت هابطة إلى البروج الجنوبية في أولها عند حلولها برأس الميزان حين الاعتدال، ثم إلى حلولها بآخر القوس ورأس الجدي، فتكون الدنيا يومئذٍ قليلة ضوء الشمس التي جعلها الله من خواص آياته، هذا إلى أن الميت في قبره أو حيث كان قد غربت عنه شمس الدنيا، وإن كان قد غشيه من نور الآخرة ما شاء الله فأين ذلك من نور الحق المبين في الدار الآخرة الذي لا أفول له ولا غيبة؟ ثم إذا كان يوم القيامة سعت حقيقة الجنة العملي في هذه فكانت هي، لكنه يبقى عليها كما يبقى على غيرها آيات تدل من هنالك على هذه، فإنه ما أعدم قط عين شيء إلا أبقى له حكمًا ما، ولا أزال حكم شيء إلا أثبت له عينًا أو حكمًا غيره يدل عليه بوجه ما.

فهاتان الجنتان يبقى عليهما في الدار الآخرة حكم الدهمة، بالإضافة إلى تينك الجنتين اللتين هما مثلاً لهاتين الكائنتين، والشمس صاعدة إلى بروجها الشمالية إلى موضع شرفها، لكنه يبقى عليهما ذلك المعنى نعمة ونضارة وغبطة بذلك، يجد لها ساكنها نعيمًا محددًا سوى وجده لذلك، فافهم.

وهذه من أخفى الآلاء - والله أعلم - ولظهورهما فيما كان أولاً لهما بالدلالة عليهما والإشارة إليهما قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٦٥] ولأنه حدث بذلك وأعلم به، وأرسل وكتب، اللهم لا بشيء من آلائك نكذب، لا إله إلا أنت، ربنا لك الحمد.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن:٦٦–٧٨].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن:٦٦] وقال فيما هنالك: ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠] لما كانت الجنتان الأولتان مدلولتا جنتي

ربيع ما ها هنا ومصيفه، والماء جارٍ في ذلك؛ لقرب عهده بالأمطار، فجري الماء هو المعهود، ولما كانت - أعني: هاتين الجنتين - مدلولتا جنتي خريف ما ها هنا وشتائه يكون ما ها هنا آية على ما هنالك، وكان أقرب عهدهما من غور المياه وصفهما في مياههما بالنضح، وهو دون الجري وأكثر من النضح.

وربما اعترضك هنا عارض تشكيك فيقول لك: إن هاتين الجنتين اللتين ذكرت أنهما جنتا الخريف والشتاء، فإن الشتاء أكثر جري فيه، وعنه فاعلم أن الشتاء بما هو قد يكون في أثنائه إفراط البلات على مواضع من الأرض لتصلح على ذلك مواضع أخر، وربما عمَّ الإفراط فيكون فتح الله برحمته على تلك الحال بالشمس كما قال عز من قائل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ**﴾ فقد يكون ذلك عبارة عن نشره رحمته بالنبات وما يفصله إليه، وقد يكون عبارة عن فتحه بالشمس، ولذلك أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿**وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ**﴾ [الشورى:٢٨] فقد أهلك بالمطر، وقد أغاث به، وقد أهلك بالشمس ومداومة الصحو، وقد أغاث به.

وقد استسقى رسول الله ﷺ ثم استصحى ﴿**وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ**﴾ يأتي بهذا إثر هذا وبهذا إثر هذا، والجنة بما هي قد عوفيت من الإفراطات وأنزلت الجنات فيما هنالك على وزان ما يكون ما هاهنا دلالة عليه، وكذلك جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - جعلت أيضًا موجوداتها على وزان ما يكون ما هاهنا مما هو عن آثارها دلالة عليه بشرط اعتقاد مزيد الآخرة على الدنيا، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بم يخرج منها**»(١).

ومن تقصى النظر وتابع التذكر وصل إلى البغية عبرة، فما هنا إلا ما هنالك، وإنما هذه الدار جدبة جذبت من تلك وقطعة اقتطعت منها، غير أنها صغير من كبير وقليل من كثير وفانٍ من باقٍ، فافهم لذلك.

قال: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن:٦٧].

نظم بذلك ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه قوله: ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

[الرحمن:٦٨] كالمعهود أيضًا من الجنان في الدُّنى، معنى قوله هذا: إني جعلت الدنيا على شبه من الآخرة؛ إذ عنها خلقتها وإليها أعيدها، فقال - وقوله الحق - في تينك الجنتين الأولتين: ﴿**فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**﴾ [الرحمن:٥٢] وقال في هاتين: ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ**﴾ [الرحمن:٦٨] وقوله هذا إحالة منه على ما في قوله: إن فاكهتها كثيرة ﴿**لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ**﴾ [الواقعة:٣٣] لكنه خص هاتين بذكر النخل والرمان وإنما تكونان فيما هنا في الخريف.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا طلع النجم أمنت العاهة**»[1] يعني: إن الثمر قد بدا صلاحه فيصلح حينئذٍ للبيع، فخص ذكر هاتين الفاكهتين تنبيهًا على هذا الاعتبار، ولوجه آخر من العبرة أيضًا؛ وذلك أن النخيل فيما هنالك والرمان فيهما الكساء لأهل الجنة، ولهم فيهما نساء وولدان ونخيل وغير ذلك من موجودات الجنة، آية ذلك فيما ها هنا أنهما يؤكلان؛ فيكون عنهما المني، فيوضع في قراره فيخلق الله عن ذلك في الأناسي أناسي، ومن الحيوان غيره حيوانًا مثله.

والله ﷻ خلق الدار الآخرة أولاً، وإنما سماها: آخرة، بالإضافة إلى كوننا في هذه الدار أولاً، وسمى هذه لذلك: دنيا، ثم خلق ما خلق في هذه الدار عما أخرجه من تلك كما خلقنا عنها، كذلك يعيد جميع ما خلقه إلى الآخرة؛ لأنه بدأ الكل عنها، فمن واجب الحكمة وحقيقة الوجود أن يرجع الكل إليها حتى لا يبقى من هذه نباتًا ولا حجرًا ولا مدرًا ولا ورقة ولا رطبًا ولا يابسًا إلا قد أثبته في كتاب مبين، ليعيده إلى الدار الآخرة كما بدأه عنها، كحكمه فيما خلقه من الأرض أن يعيده إليه، وكلما قدره بتقديره وكما أبدأ الخلق من وجوده العلي كذلك يرجعهم إليه ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ [العنكبوت:١٩].

كذلك لما بدأ الخلق يعيده، سنة الله لا تبديل لكلماته التي أتمها صدقًا وعدلاً، فالخيرات من الولدان والنساء والخيول موجودون في باطن الزمان، والنخيل

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٩٠٢٧) والطبراني في الأوسط (١٣٠٥) وأبو نعيم في مسند أبي حنيفة (١٣٨/١) والعقيلي (١٤٦٧).

والزروع وفي سائر نعم هذه الدار؛ فإذا ذلك المذكور من الخيرات الحسان موجود في ظاهرها هنالك، وقد أخبر بذلك الصادق الحق، فلا ريب.

ألا ترى أن كل حي هو موجود في باطن الماء ينزله الله من السماء، فاعبر إلى ما هنالك واقضِ بإيمانك إن ذلك موجود في ظاهر ما هنالك على ما جاء به إلينا؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٦٩].

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾(١) [الرحمن:٧٠] هذا يؤيد ما تقدم ذكره؛ لأن أقرب الضمائر إليه ذكر الفاكهة والنخل والرمان، وكل ما يكون منه غذاء في هذه الحياة الدنيا للإنس أو الجن، فإن الله قد أجرى العادة أن يخلق عن ذلك الغذاء من المتغذين به ما شاء أن يخلقه من إنس أو جن أو حيوان، لكنه هنا على سبيل السنة في كونه غذاء للزوجين ويصيره خلقًا، ثم نفسًا ولحمًا ودمًا وصفات، ثم منيًا، ثم ينقله إلى قراره من الأرحام، ثم يخلق ما شاء من ذكر أو أنثى، ثم كذلك إلى حد الاستواء من المخلوق، وأما في الجنة: فكل ما يكون منها وفيها فعلى سبيل الكلمة، وكل ما يكون غذاء فهو هناك ما يكون عن الغذاء على ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧] أي: ما يتمنون، فالخيرات الحسان والولدان فيما ها هنا في التمر والرمان والفاكهة كلها والحبوب والبقل وجميع المأكولات، وكذلك ملابس ما ها هنا من الأرض من جلود الأنعام وأصوافها وأوبارها وكتانها وحريرها إلى غير ذلك كل هذا مما تنبته الأرض وينزله من السماء.

كذلك في الجنة على نسبة الكلمة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] بل من خيرات ما هنالك ما تنبته أرض الجنة على شواطئ

---

(١) قرأ الجمهور: «خيرات» بالتخفيف، وقرأ قتادة وابن السميفع وأبو رجاء العطاردي وبكر بن حبيب السهمي وابن مقسم والنهدي بالتشديد، فعلى القراءة الأولى هي جمع: خيرة، بزنة فعلة بسكون العين، يقال: «امرأة خيرة وأخرى شرّة» أو جمع: خيرة مخفف خيرة، وعلى القراءة الثانية جمع: خيرة بالتشديد. قال الواحدي: قال المفسرون: الخيرات: النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه. قيل: وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع، ولا وجه لهذا، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهنّ قاصرات الطرف. فتح القدير (٧/١١٤).

أنهارها وفي رياضها كما ينبت النبات والزرع والأشجار التي في الدنيا، وعنهن يكون النساء والرجال من الإنس والجن، كذلك أيضًا عن النخل والرمان يكون بعض حلل أهل الجنة ولباسهم وما يشاؤونه، وكذلك الرمان قد يكون حقها مقصور لجماعة ولدان وخيرات، كاجتماع الحب فيها اليوم، وإذا استخرجن منها أدركن وأينعن يلازمان محسوس، ثم قصرت في الخيام في قصور أعدت لهن وخيام تنشأ من الياقوت والزبرجد وغير ذلك في ملكهن.

وعلى نحو ما تكون الجنات المعدلة ذلك كما كانت هذه المأكولات فواكه ومأكولات، فيأكلهن الإنسي والجني فيكون هو، ثم يكون عنها لأكلها هنا المني، فيتوجه الأمر إلى ما تقدم ذكره من ولدان ونسوان، قرّب - وفقك الله - بعيد ما هاهنا إلى تقريب ما هنالك وعسر ما هاهنا إلى يسر ما هنالك تصب، لذلك - وهو أعلم - قال عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٧١] ولما تقدم من ذكر مآل هذه إلى تلك مع خبره الصادق وكلامه العلي ووعده الحق، فافهم.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٧٤] ينشئ الله ﷻ نشأ الجن والإنس اللواتي كن في الدنيا المؤمنات الصالحات منهن عذارى أبكارًا كما كن في أول خلقتهن في الدنيا قبل الافتضاض، وهذا آية على ما هو كائن فيما هنالك من هذا، وعبرة يعبر عليه إلى ما هنالك.

والظاهر من مفهوم هذا الخطاب: أن خيرات ما في هاتين الجنتين هن مخلوقات منها في فواكهها وثمارها وأرضيها ورياضها خيرات حسانًا، ثم ينقلهن إلى ما وصفهن به من كونهن حورًا مقصورات في الخيام أبكارًا لم **يطمثهن** إنس قبلهم ولا جان، وأن المذكورات في قوله في وصف الجنتين الأولتين في الفرش: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن:٥٦] ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨] بعضهن من نساء الدنيا المؤمنات الصالحات.

ومن ذلك ما روي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ [الواقعة:٣٥] فقال: «**إن من المنشآت اللاتي** كن في الدنيا **عجائز**

عُمشًا رُمصًا»[١] فكما خلق هؤلاء مما تنبت الأرض وأنشأهن أبكارًا في الدنيا ثم أماتهن، فأنشأهن عودًا بعد بدء أبكارًا عربًا أترابًا، كما خلق أولئك من موجودات الجنة وأنشأهن على ذلك، فلوجود هذا وغيره وكلامه وحديثه قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٧٥].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن:٧٦] وقرأها الجحدري وابن جبير والحسن بن محمد بن عبد الله بن أبي زيد وابن محيصن وغيرهم: «رفارف وعباقري» على الجمع من غير تنوين، ونونهما ابن علقمة القارئ، وروى ذلك الجحدري عن أبي بكرة عن النبي ﷺ.

وقرأ الأعرج: «خضُر» برفع الضاد، وقد تقدم الكلام على المعهود المتعارف، وأن الدنيا تبدأ من الآخرة، يعبر من هذه إلى تلك يقول ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٧٧].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨] وقرئ بالرفع: «ذو الجلال» تبارك: تفاعل، من البركة، ولا يكاد يذكره - جلَّ ذكره - إلا عند أمر معجب، والاسم على هذا هو المسمى، وأظهر ما يكون على وجه الرفع في الذال.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٦) وقال: غريب. وهناد في الزهد (٢١)، والطبري (١٨٦/٢٧)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٩٢/٤).

تفسير سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة:١ - ١٧].

﴿الوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١] اسم من أسماء القيامة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ [الواقعة:٢] ما يكذبها ترفع أقوامًا إلى عليين وتخفض آخرين إلى أسفل سافلين، رجت: زلزت، بست: خلطت، خلط حجرها بترابها فصارت ﴿هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾(١) [الواقعة:٦] وكما قال: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ [المزمل:١٤] وسمى الله هنا كل صنف: زوجًا.

يقول - عز من قائل: ﴿**فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ**﴾ [الواقعة:٨] «ما» للتعجيب ﴿**وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ**﴾ [الواقعة:٩] **عجب الله** ﷻ بهم وبما يصير هؤلاء إليه من الكرامة والنعيم وما يصير هؤلاء إليه من الإهانة والعذاب الأليم، وربما كان التعجيب زائدًا على ما تقدم بعظيم اقتداره على سوق ذواتهم بعزيمة إراداتهم إلى إنفاذ ما سبق لهم بقوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل**

---

(١) أي : غبارًا متفرّقًا منتشرًا. قال مجاهد: الهباء: الشعاع الذي يكون في الكوّة كهيئة الغبار، وقيل: هو الرّهج الذي يسطع من حوافر الدّواب ثم يذهب، وقيل : ما تطاير من النار إذا اضطرمت على سورة الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئًا. قرأ الجمهور: «منبثًّا» بالمثلثة. وقرأ مسروق والنخعي وأبو حيوة بالتاء المثناة من فوق؛ أي: منقطعًا، من قولهم: «بتّه الله» أي: قطعه. فتح القدير (١٢١/٧).

الجنة يعملون وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»[١] ثم أخرجهم على أنفسهم حتى جنوا عليها ما أورثهم سوء المصير، ويسر على أوليائه حسن المأتى حتى ألحقهم بما وعدهم وأنالهم ما أعد لهم، وهو العليم القدير، فهذا وجه تكرار الكلام، والله أعلم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾ [الواقعة:١٠] يقول ﷻ: والسابقون إلى العمل بطاعتي هم السابقون إلى الجنة والقرب والكرامة.

قوله تعالى: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ [الواقعة:١٣ - ١٤] وقال في أصحاب اليمين: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ [الواقعة:٣٩ - ٤٠] الثلة: القطعة، وهي الجماعة، والذين عاينوا جميع الأنبياء - عليهم السلام - وآمنوا بهم واتبعوهم أكثر ممن عاين النبي محمدًا ﷺ وآمن به واتبعه، كذلك الذين عاينوا النبي ﷺ من هذه الأمة وجاهدوا معه واتبعوه، ثم الذين اتبعوهم بإحسان إلى انقضاء القرن الثالث أو الرابع أكثر من السابقين بعدهم.

قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[٢] ففي كلا الوجهين: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «**أبشروا، فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»[٣].

ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة**»[٤].

ثم قال: «**والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة**»[٥] فهذه ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾.

ثم أخذ في وصف نزل السابقين﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ وفي قراءة عبد الله وسعيد بن جبير: «في جنة النعيم» على التوحيد ﴿**عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ**﴾ [الواقعة:١٥]

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (١١٣٠٢) وعبد بن حميد (٩١٧) والبخاري (٣١٧٠) ومسلم (٢٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (١٤٧٦٦)، وأبو عوانة (٢٥٨).

(٥) أخرجه الحميدي (٨٦٩).

منسوجة بالذهب والجوهر الوضن نسج السرير، وقيل الموضون: المصفوف، يقال للحبل: وضن، لدخول بعضه في بعض.

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة:١٦] ذكر السور عبارة عن الملك لكن ملكهم لا تنافس فيه ولا تباغض ولا تحاسد، بل هم متقابلون حبًا وودًا، وفي قراءة عبد الله: «متكئين عليها ناعمين» والقراءة الأولى أعلى، وهم على ما هم فيه في جنات النعيم، وقرأ أبو السمال: «على سرر متقابلين» بفتح الراء.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة:١٨-٣٤].

نظم ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة:٢٥] كلامهم وحركاتهم وشأنهم كله في الجنة لا يلغي منه شيء، إنما هو رضا الله ﷻ بنعيم كله لا يأثمون بشيء ولا يؤثمون، بل هم المتقلبون في رضوان الله ﷻ، وإنما ذكر اللغو والتأثيم؛ لأنه الذي قطع قلوب السائرين إليه والمتقربين منه في هذه الدنيا، بينا أحدهم في هذه الدنيا يبني فيما يؤمل؛ إذ هو يهدم وبينا هو يظن أنه قد قرب إذا يعارضه ما يبعده، فأمنهم ﷻ من ذلك، وهو من أفضل ما أعطاهم، والحمد لله رب العالمين.

﴿إِلَّا قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة:٢٦] لا يسمعون فيها إلا ما يؤمنهم وينعمهم ويبشرهم عرض بذلك في قوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٢] وصفهم بحسن العشرة وجميل الصحبة، وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة، بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] تقابلت أخلاقهم وتشابهت قلوبهم.

كرر قوله: ﴿سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة:٢٦] حكاية عن المتخاطبين، وربما كانت إحدى الكلمتين عبارة عن قوله: «سلام» كما قال: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [يونس:١٠] ولهذا وأمثال هذا يقولون: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].

قوله ﷻ: ﴿وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٧ - ٢٨] السدر في الدنيا: شجر له شوك يعفر ثمرها هو النبق، فأخبر ﷻ أنه فيما هنالك مخضود شوكه؛ أي: مزال.

قال رسول الله ﷺ: «فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا نبقها كقلال هجر»[1] والطلح: الموز، في هذا من الفقه أن كل نبات لا منفعة فيه، وكل شائك ومرار له هنالك وجود كريم بربه.

قال الله ﷻ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢] وذكر أن الدنيا قبل معصية آدم عليه السلام كانت شجرة كلها مثمرة لا يوجد منها شجر لا ثمر فيه وإلا وهو ينتفع به، والله أعلم، وتقول العرب للشجرة ذات شوك في الصحراء: أم غيلان، وإن ما كان فليس في الجنة ما يؤذي إنما جعلت لما خلقت له وهو التنعيم.

وقرأ علي بن أبي طالب: «وطلع منضود» والمنضود: المتطابق بعضه فوق بعض على ترتيب معجب، ومفهوم هذا أن جميع ما يؤذي أو ما هو لا يثمر فإنه في الجنة مثمر ولا إذاية فيه، وقد جاء أن أول الأمر حين [أولية][2] آدم عليه السلام كانت أشجار الأرض كلها لا يأتي منها أي شيء إلا أكل منها حتى واقع المعصية فمنع من الشجر ما منع، واكتسى الإذاية منها ما قدر له، وهذا موجود في قول الله - جل ثناؤه: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:٣٥].

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هكذا في الأصل.

وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة:٣٥-٥٠].

قوله ﷻ: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾[1] [الواقعة:٤١ - ٤٣] السموم: شدة حر النار، والحميم قد تقدم ذكره - والله أعلم - واليحموم: الدخان.

يقول الله - عز من قائل: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٣ - ٤٤] الكريم: الحسن المكرم، بل هو مهين لذويه - نعوذ بالله من عذابه وغضبه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥] الترف: سعة العيش، ذكر ذلك في مقابلة ما أصابهم به من الهون وسوء ما صاروا إليه.

﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿يُصِرُّونَ﴾ أي: يجمعون ويعقدون في أنفسهم ﴿عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ﴾ [الواقعة:٤٦] يعني: الإثم، وهو الكفر بالله والشرك به، والتكذيب للكتب والرسل وما جاءوا به، يقال: حنث في يمينه: إذا أثم، ومعنى ذلك الحنث هنا: هو أنهم كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت.

ألا تسمع إلى ما أتبع به ذكر الحنث وعطف عليه بالواو قوله: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَو آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة:٤٧ - ٤٨] فالمحذوف من الخطاب أنهم كانوا يقسمون ألَّا يبعث الله من يموت، وكانوا

---

(١) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: دخان أسود كما قال ابن عباس. وأبو مالك وابن زيد والجمهور، وهي على وزن يفعول، وله نظائر قليلة، من الحممة: القطعة من الفحم، وتسميته «ظلاً» على التشبيه التهكمي، وعن ابن عباس أيضًا: إنه سرادق النار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظللهم. وقال ابن كيسان: هو من أسماء جهنم، فإنها سوداء، وكذا كل ما فيها أسود بهيم، نعوذ بالله تعالى منها. وقال ابن بريدة وابن زيد أيضًا: هو جبل في النار أسود يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شيء، والجار والمجرور في موضع الصفة لـ«ظل». تفسير الألوسي (٢٠/٢٣٥).

يقولون: يقول الله - جل من قائل: يا محمد، أو يأيها المؤمن ﴿إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ * إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٤٩ - ٥١] إلى قوله: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة:٥٦].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة:٥١- ٦٤].

نظم بذلك قوله الحق - عز من قائل: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة:٥٧] أي: قضيتم بالخلقة الأولى على الآخرة فكنتم تصدقون؛ أي: تكونوا من المصدقين.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة:٥٨] أي: ما تقذفونه في الأرحام من مني يكون عنه الولد.

﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٩] ومن قولهم: إن الله يخلق ذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

ثم خاطبهم من حيث انتهى إيمانهم بما هو أعظم كأنه يقول: الأمر أعظم وأشنع من ذلك، ثم أخذ بالإخبار عن الحقيقة بقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: ننقلكم؛ يعني: الذوات المفارقة للأجسام عند الموت، فنجعلها في مثالات ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ أي: ننشئ أجسامكم في دار البرزخ ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١] في نبات أو شجر تأكله الأنعام وأواكل النبات والعشب من أناسي وغيرهم، وربما أكلت السباع وهوام الأرض وحيتان البحر لحومهم فنشأت أو أكلها من ذلك الغذاء الذي كان عن أجسامهم.

وربما أصار الأجسام بعد كونها ترابًا فأصلها في أتربة الأرض، وربما أصارها

إلى ما جاورها من أحجار الأرض ومعادنها حديدها وذهبها وفضتها وغير ذلك من جميع فلز الأرض، كما قال - عز من قائل - حين قالوا ما قال هؤلاء: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [الواقعة:٤٧] ﴿وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨].

فأجابهم ﷻ بما فحواه: أن الأمر أجل والخطب أطم وأشنع مما أكبرتموه بقوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فإنكم معادون مبعوثون، ثم قال من هو العالم بمقالهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا * قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥٠ - ٥١].

يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى﴾ [الواقعة:٦٢] هي منذ نفخ في أحدهم روح الحياة، ثم ما بعد ذلك نشأ وما قبل ذلك خلقه، ثم تدخل الخلقة في حال النشء.

يقول ﷻ: ألم تشاهدوا من أنفسكم وأبنائكم النشأة الأولى تنقلكم من صغر إلى كبر ومن شباب إلى هرم، يغذيكم بما يخرج من الأرض وما يكون عن الماء المنزل من السماء، هلا تذكرتم ذلك في النشأة التي أنكرتموها وكونتم بكونها فتحققتم الآخرة منهما بالأولى، لكنكم تؤفكون.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣ - ٦٤] أي: من الذي يخلقه زرعًا وطعامًا تأكلونه فتكونون عنه يعرض بخلقه إياهم عن الأرض ويوقفهم على مشاهدة عجزهم عن إخراجه وإنباته وإنشائه؛ أعني: الزرع وإتمامه إلى غايته، ثم إذا أكلوه من المقسم غذاءه على أجزاء أجسامهم من الخالق النشء عن ذلك من جاعل الحياة فيما ينشئه عن ذلك.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ
أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ
ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ

عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة:٦٥– ٧٦].

يقول: ومما تحقق أن أنشأناه أننا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ فإن المعهود أنه من اقتدر على شيء وأن من كماله أن يدفع عنه آفاته ليخلص عمله، فإن كنتم أنتم زرعتموه هلا دفعتم عنه آفة اليبس حتى تتمونه ذلك؟.

قوله – جل من قائل: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة:٦٥] قرأ أبو حيوة: «فظلتم» بكسر الظاء، وقرأ حمد بن موسى: «فظللتم» بلامين، وقرأ عبد الله: «فظلتم تفكنون» وهي لغة عكل في التندم في الوجهين جميعًا يتعجبون، الفكه هو: المتردد في القول الذاهب فيه كل مذهب.

من ذلك قولهم تارة: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٦] وتارة: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٧] وقوله في أهل الجنة: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور:١٨] معجبون مغتبطون، آخذون منه ما شاءوا كيف شاءوا، والفكه أيضًا: النادم، **فظلتم** تندمون؛ أي: على أعمال أوجبت ذلك، كقوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧] يعرض بالمن والإفضال ويعدد أنعامه في ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨ – ٦٩] يعرض بخلقه إياهم من الماء كما تقدم من تعريضه بخلقه إياهم من التراب ومن المني المجموع فيه الأصول كلها، ومضاف إلى ذلك الحيوان أبوه وأمه، والحيوان هي الدار الآخرة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] ولذلك كان ما يكون عنه هو الحيوان والإحياء والجنات على أنواعها.

ثم قال – عز من قائل: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠] الأجاج: الملح الزعاق، فكان لا ينبت نباتًا ينفع ولا يشفي غلة عاطش، وبوجه آخر: وهو أن الله ﷻ يرسل الرياح لواقح فتلقح السحاب في الجو، ثم ينزله إلى الأرض والأجواء قد امتلأت والأرض من فيح جهنم – أعاذنا الله منها برحمته – ومنبعث الأجاج صفات جهنم، كما منبعث الزلال العذب صفات الجنة، فكان أقرب إلى الماء المنزل إلى

الأرض أن يكون أجاجًا؛ إذ الهواء أبوه والأرض مستقره، لولا يسبقه فتح رحمته على ذلك بأن أنزله زلالاً طاهرًا مطهرًا مباركًا جعل منه كل شيء حي، والحمد لله رب العالمين.

لذلك أعقب بقوله - جل من قائل: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٧٠] أي: تؤمنون بالله الذي خلقه وأنزله رحمة بكم وتصدقوا برسوله المبلغ عنه إليكم، وبالدار الآخرة التي عنها منبعث هذا الأمر، وتطيعون قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة:٧١ - ٧٢] يقول: أَوْرَيْتُ النار: إذا قدحتها من زنادها، ووريت الزند أرى وورى، وهو يورى: إذا انقدحت منه النار، والعرب تقدح بالزند والزندة، وهو خشب يحك بعضه إلى بعض فتخرج منه النار.

يقول تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة:٧٢] يعرض بخلقه إياهم من الأرض والماء والهواء والنار إلا أن الماء والأرض لخلق الأركان والأخلاق والصفات للهواء والنار وبآخره يدخل هذا الصنف على هذا وهذا على هذا، فكما هو منشئ النار في الشجر وإن لم تكن نارًا في الشجر، فكذلك ينشئ أجسام العباد وإن لم يكن بها حياة فإذا شاء إحياءها نفخ في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] فوزان قدح النار من الشجر والزناد وزان الصيحة بهم، ووزان إنشائه الأجسام وزان إنشائه شجرة النار.

يقول - جل قوله وتعالى جده: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة:٧٣] أي: بأنه يذكر بإنشائه في الشجر إنشاء الحياة في الأجسام، ويذكر أيضًا بإظهارها من غيبها النار الكبرى أنها في غيب ما نشاهده، وهذا من إثارة كونها في الجو منبعث وجودها فيه عن الفيح المشتمل على نفسيها، كذلك ما هو عن إثارة فتحه برحمته - جلَّ ذكره - وهو المعنى المنبعث عن الجنة بواسطة الماء ينشئه في الشجر نشاهدها أعوادًا ماثلة؛ ثم يخلق فيها الثمر الرمان والزيتون والأعناب والتين وجميع الفواكه.

وغيب هذا الوجود من هذا الآل في وزان إيجاده النار غيبًا في شجرتها، وظاهر إيجاده ما هو عن إثارة الجنة من الطيبات كلها، ووزان إيجاده كل ذي طعم

خبيث في شجراته وقوله: ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[١] [الواقعة:٧٣] هم: القوم يصيرون في الأرض الخالية وتلك الأرض هي القي[٢] يعرض بذلك بنعمه في إنشاء عباده على ما تصلحه النار من مأكول ومشروب [ومغلي][٣] وفي ذلك تعريض بنعمه علينا، وأمر بالشكر والاعتبار[٤].

قوله - عز من قائل: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤] هذا تسبيح تعجيب يعلي قهره وتنزيه عن أن يعجزه شيء أو يفوته شيء، وهو أيضًا تسبيح إكبار وإعظام مما يكون خلافًا للصدق وقول الحق وفعله، وهو أيضًا أمر منه بالاقتداء بجميع المخلوقات؛ إذ كل شيء مسبح له قانت عابد له، كأمره بالسجود عندما يأتي ذكر الساجدين له من الأنبياء والملائكة وجميع الخليقة، وهو المسبح في السماوات والأرض والدنيا والآخرة، أما سجود ما في الدنيا وتسبيحه فقد يراه المعتبرون ببصائرهم.

---

(١) ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للذين ينزلون القواء، وهي القفر، من أقوى: دخل القواء، كأصحر: دخل الصحراء، وتخصيص المقوين بذلك؛ لأنهم أحوج إليها، فإن المقيمين أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد. وقيل: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: المسافرين، ورواه جمع عن ابن عباس وعبد بن حميد عن الحسن، وهو وابن جرير وعبد الرزاق عن قتادة بزيادة كم من قوم قد سافروا ثم أرملوا فأججوا نارًا فاستدفئوا وانتفعوا بها، وكان إطلاق المقوين على المسافرين؛ لأنهم كثيرًا ما يسلكون القفراء والمفاوز، وقيل: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للفقراء يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون من البرد، كأنه تصور من حال الحاصل في القفر الفقر، فقيل: أقوى فلان؛ أي: افتقر كقولهم أترب وأرمل، وقال ابن زيد: للجائعين؛ لأنهم أقوت؛ أي: خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام، فهم يحتاجون إليها لطبخ ما يأكلون وخصوا على ما قيل؛ لأن غيرهم يتنعم بها لا يجعلها متاعًا، وتعقب بأنه بعيد؛ لعدم انحصار ما يهمهم ويسدّ خلتهم فيما لا يؤكل إلا بالطبخ، وقال عكرمة ومجاهد: المقوين: المستمتعين بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين، يستضيئون بها ويصطلون من البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخبز. تفسير الألوسي (٢٠/٢٦٥).

(٢) القي والقوا: القفر الخالية البعيدة عن العمران. انظر تفسير البغوي (٨/٢١).

(٣) هكذا في (ف)، وغير واضحة في (خ).

(٤) قال المصنف: قالوا: أرض قواء وقي، يريدون خالية من الأنيس، وأقوت الدار إذا خلت من أهلها، وأقوى زيد وتره يقوّيه، إذا جعل له قوًّا فلم يجده قواه، ومنه الإقواء في الشعر لخلو ذلك البيت من قافيته، وفاعل ذلك مقوّي وقالوا أيضًا: اقْتَوَيْتُ الرجلَ: إذا استخلصته لنفسي من بينهم. [٢/١٨٣].

وأما تسبيح ما في الآخرة وسجوده فتسبيح جهنم والجنة في الفيح والفتح، وما يكون عنهما في هذه الدار دلالة عليه، ألا تراه كيف سخر جهنم لعباده وجعل لهم منها جنات وثمرات وفواكه وزروعًا ومعايش وحيوانًا، ومن ليسوا له برازقين، ثم ما عنده في خزائنه من شيء فهو له فيما هنالك مسبح ساجد عابد؟ دل على ذلك إنزاله إياه إلى ما هنا بقدر معلوم، وتفصيله إلى ما فصله من شيء، وتسخيره لعباده أتم تسخير، فلذلك أمر بالتسبيح اقتداءً بالموجودات في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] قرئ هكذا بالمد، وقرأ الحسن وغيره: «**فلا قسم**» بالقصر، وكذلك في الحاقَّة والقيامة، فمن قرأ بالقصر فاللام للتأكيد وأقسم للقسم، ومن قرأ بالمد فقوله: لا رد لكاذب مقالهم، وقوله: ﴿أُقْسِمُ﴾ إخبار عن قسمه، ويتوجه إلى معنيين:

أحدهما: أن يكون قوله: «لا» رد لكلام قد تقدم، وإنكار لمذهب غير مرضي؛ إذ اليمين قد تكون ابتداء من الحالف وتكون ردًا لكلام قد تقدم وجحدًا له، فيكون ذلك قسمًا على كذب الكاذب، وذلك أنهم لما أنكروا البعث بعد الموت وكفروا به وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، فحرف «لا» في مقابلة ذلك منهم، والقسم لتحقيق الحق وآياته الذي يأتي ذكره بعد، والقسم بنفسه يكون لإثبات صدق المخبر، كقولك: والله ما خرج زيد، فيكون بذلك مخبرًا عن تركه الخروج، وتقول: لا والله ما زيد بخارج، فيكون ذلك ردًا لقول من زعم أنه خارج وإنكارًا له.

فكذلك لما قال الكفار: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [الواقعة:٤٧] إلى آخر قولهم في الرسالة والقرآن من سحر وشعر وأساطير الأولين وكاهن ومجنون ونحو هذا قال - جل من قائل: ﴿فَلَا﴾ ردًا لقولهم وتكذيبًا لهم ثم أقسم بمواقع النجوم ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧] كان قال - عز من قائل: ﴿فَلَا﴾ أي: ليس كما زعمتم أقسم بمواقع النجوم ما أنتم بصادقين في قولكم هذا من تكذيبكم بالبعث، وإنه لقرآن كريم.

ووجه ثالث: وهو أن يكون قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] أي: لست بمقيم بمواقع النجوم ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦] لكني

لست بمقسم بها؛ إذ قد أشركتم بها وكفرتم من أجلها، دل على صحة هذا التأويل قول رسول الله ﷺ وقد أصبح على إثر سماء كانت من الليل: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(١) وذكر النجوم هنا مشترك بين نجوم تنزيل القرآن نجمًا نجمًا.

وإلى هذا المعنى يتوجه القرآن بوجه، ويكون بمعنى قوله: ﴿**بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾ منازل الشمس ومحالها من البروج، وإلى هذا المعنى توجه تبيان الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وكلاهما أمر من أمر الله - جل ثناؤه - ومطلع يطلع منه على مطالع الدنيا والآخرة؛ لذلك قال الصادق الحق: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [الواقعة:٧٦] وكلام الله يسع ما شاء والله واسع عليم.

ومواقع النجوم: هي مغاربها حين وقوعها في المغرب، ومن إبقائه ﷻ في خليقته، واتساق حكمته في بريته أن جعل لكل واقع منها طالعًا يسمى بالإضافة إلى الواقع الرقيب دون تأخر، وهي نجوم منازل القمر عددها ثمانية وعشرون منزلة سوى التي تحجبها الشمس، فتمت تسعًا وعشرين يستسر فيها القمر، فربما استسر ليلتين.

قال رسول الله ﷺ: «**الشهر تسع وعشرون، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين**»(٢) والقمر ينزل من هذه المنازل كل ليلة منزلة حتى يتمها لتمام الشهر، وأما الشمس فإنها تقيم في كل منزلة منها ثلاثة عشر يومًا ما خلى الجبهة، فإنها تقيم فيها أربعة عشر يومًا ويسمى حلولها في هذه المحال، ثم طلوع المنزلة التي تليها لوقوع ما هذه غيب لها: نوءًا، وجمعها: أنواء، فتحل الشمس منها.

مثلاً أقول: بسعد بلغ في اليوم الرابع من شهر ينير ويقم فيه تقطعه في ثلاثة

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٠٢) والبخاري (٨١٠) ومسلم (٧١) والنسائي (١٨٣٣) والشافعي (١/ ٨٠)، وأبو داود (٣٩٠٦) وابن حبان (١٨٨) وأبو عوانة (١/٢٦)، والبيهقي (٦٢٤٣).

(٢) أخرجه مالك (٦٣١) وأحمد (٤٤٨٨)، والبخاري (١٨٠٨) ومسلم (١٠٨٠)، وأبو داود (٢٣٢٠)، وابن حبان (٣٥٩٣)، والشافعي (١/١٠٣)، وابن خزيمة (١٩٠٧).

عشر يومًا، ثم ترتحل منه وتحل بسعد السعود غداة سبعة عشر من ينير، ثم تحتل بسعد الأخبية يوم ثلاثين من ينير، ثم كذلك وتحتل بالفرع الأول يوم اثني عشر من فبراير، ثم كذلك ثم تحتل بالفرع الآخر يوم خمسة وعشرين منه، ثم بالبطين يوم عشرة من مارس، ثم بالبطح يوم ثلاثة وعشرين من مارس، ثم بالبطين في الخامس من أبريل، ثم بالثريا في الثامن عشر من أبريل، ثم بالدبران في أول يوم من ماية، ثم بالهقعة في الرابع عشر من ماية، ثم بالهنعة في يوم سبعة وعشرين من ماية، ثم بالذراع في اليوم التاسع من يونية، ثم بالنثرة في يوم اثنين وعشرين من يونية، ثم بالطرف في اليوم الخامس من يولية، ثم بالجبهة في التاسع عشر من يونية، ثم بالخرتان في اليوم الأول من أعشت، ثم بالصرفة في اليوم الرابع عشر من أعشت، ثم بالعوا في يوم سبعة وعشرين من أعشت، ثم بالسماك في اليوم التاسع من شتنبر، ثم بالغفر في يوم اثنين وعشرين من شتنبر، ثم بالزبانا في اليوم الخامس من أكتوبر، ثم بالإكليل في اليوم الثامن عشر من أكتوبر، ثم بالقلب في آخر يوم من أكتوبر، ثم بالأبرة في الثالث عشر من نونبر، ثم بالنعايم في السادس وعشرين من نونبر، ثم بالبلدة في السابع من دجنبر، ثم بسعد الذابح في يوم اثنين وعشرين من دجنبر، ثم بسعد بلع في اليوم الرابع من ينير من حيث ابتدأت عند انقضاء السنة.

وأجرى الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه العوائد على الأغلب أن يرسل الرياح في ذلك اليوم الذي تنتقل فيه أو فيما قرب منه بمشيئته ﷻ وربما خلق عنها سحابًا، وربما كان المطر على الأغلب، لا سيما في فصل الشتاء وفصلي الربيع، فمن نسب إنزال المطر إلى تلك الأنواء التي يحدثها الله عند تبدل تلك المحال في اتساق الهيئة فهو ضال مضل، ومن رد الأمر كله إلى وليه الحق لا إله إلا هو العلي الكبير فهو المهتدي، فهذا من بعض الوجوه في قوله - جل قوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [الواقعة:٧٦] لما قد جعل من أمره في مطالعها ومغاربها، ولذلك قال عز من قائل: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن:١٧ - ١٨].

جمع ذلك قوله الحق: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن النار اشتكت إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر فمن جهنم، وأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير**»[١].

وقال رسول الله ﷺ في الشمس أنها: «**ما تطلع من قصبة إلا فتح لها باب من جهنم**»[٢] فهي كذلك حتى تستوي، فحينئذٍ تسجر جهنم، وأما في مطالعها من المشارق والمغارب فهي أشد تحققًا في هذا الوصف، متى حلت في منزلة بعد منزلة فتح لها باب من سعيرها إن كانت صاعدة في البروج الشمالية، أو من زمهريرها إن كانت نازلة في البروج الجنوبية على قدر مبرم وأمر محكم، ولهذه النجوم نظائر متى وقع منهن نجم في المغرب طلع رقيبه من المشرق، يقال للطالع: نوءًا، لأنه ناء؛ أي: ارتفع، تنقل على الأغلب هذا كله من حكمه الحق وحكمته في هذا الوجود، يعلم بما هو الأمر الحق عن الله الحق المبين من قوة الأمر الذي الجمع عليه هنا من الشهور والسنون والأعياد وفصول السنة دلائل على ما هنالك من حق إليه المصير.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:٤] أي: على سواء حكمته فيما خلقه هنا، كذلك ما يجزي به المجرمين في دار قرارهم، لذلك أتبع ما تقدم ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤] أي: بآياته في الوجود من العالم والوحي أعلم بهذا كله بقوله الحق: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: الذي إليه المصير في الدار الآخرة؛ لذلك أتبعه بقوله الحق: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥].

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السموات وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ...﴾ [يونس:٦] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

مثلاً أقول: إن كانت في الكبش فنظيره الميزان، وإن كانت في برج الثور فنظيره

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٢٤١).

(٢) تقدم تخريجه.

العقرب، وإن كانت في البونان فنظيره القوس، وإن كانت في السرطان فنظيره الجدي، وإن كانت في الأسد فنظيره الدلو، وإن كانت في السنبلة فنظيره الحوت، ولكل برج يحل فيه شهر، وقد قسم الله ﷻ فيح جهنم على هذه الاثني عشر شهرًا.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [التوبة:٣٦] وكذلك يطلع مع غروب كل منزلة رقيبها في البروج منزلة أخرى، فمتى طلع النطح وقع العقر، وإذا طلع البطين وقع الزبانا، وإذا طلع الثريا وقع الإكليل، وإذا طلع الدبران وقع القلب، وإذا طلعت الهقعة وقع الأبرة، وإذا طلعت الهنعة وقعت النعائم، وإذا طلع الذراع وقعت البلد، وإذا طلعت النثرة وقع سعد الذابح، وإذا طلع الطرف وقع سعد بلع، وإذا طلعت الجبهة وقع سعد السعود، وإذا طلعت الزبرة وقع سعد الأخبية، وإذا طلعت الصرفة وقع الفرع الأول، وإذا طلعت العوا وقع الفرع الآخر، وإذا طلع السماك وقع البطين.

فهذه مواقع النجوم، قسم الله تعالى أمره في السنة على مطالع الشمس فيما بين هذه من مشارق ومغارب فافهم، وهو قسم عظيم لمن علمه وآمن به، ونسب الفعل إلى فاعله والتدبير إلى مدبره، ثم مواقع النجوم أيضًا هي: نجوم الوحي المنزل من عند الله سبحانه وسيأتي ذكره، ثم أمره في الفيح على محالها في المنازل المتقدمة الذكر، ثم على مطالعها ومغاربها في المنازل، وبفضل الله يفتح رحمته كما يشاء بمشيئته العالية، فينزل به من السماء ماء مباركًا، يكسر به يبس الزمهرير فيرطبه ويبرد من حر السعير فيعدله، وقسم السنة على أربعة فصول أتم فيها أمره في الأرض من بركاتها وتقدير أقواتها.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾ [فصلت:١٠] ثم عجب عباده وعرض لهم بطلب العلم بقوله للسائلين، يقول الله - جل من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل:١٢] فبمشيئته بالرحمة وإنزاله الماء سخر لنا جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وجعل هذه الدنيا على هذا الاعتبار الجنة الصغرى، ثم على الاعتبار بحقيقة الفيح وإثارته من حيث هو هي جهنم الصغرى، لهذا ولمثل هذا وما هو أكبر وأطم من هذا قال وقوله الحق: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦].

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة:٧٧-٩٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾[1] [الواقعة:٧٧-٧٨] فعرض بذلك أن المراد على وجه ما يقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] بأنها نجوم القرآن المنزلة نجمًا بعد نجم إلى آخر التنزيل، وبيَّن بذلك الإيمان من الكفر والهداية من الضلالة، وأوضح منهاج الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكشف عن حقيقة الحق الذي خلق به السماوات والأرض، وعلم به الأسماء كلها المقتضية لجميع ما خلقه التي بها يتعرف حكمة الله وقدرته ومشيئته.

ويشرف بعلمها من بصر من حقائقها على جملة أحكام الله، وبها يبلغ علم التوحيد، وبها يتعلم العباد إعطاء القسط بينهم وبين بارئهم، وبها يتعرف الحكمة الموصوفة لتدبر ملكوت الله، وبها يرى إتقان الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر من الله ﷻ، وبها يتظاهر لصدق، وبها يشرف على مطالع الدنيا والآخرة، وبها يرى كيف

---

(١) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ذكر المقسم عليه؛ أي: أقسم بمواقع النجوم أن هذا القرآن قرآن ليس بسحرٍ ولا كهانة ولا بمفترى، بل هو قرآن كريم، محمود جعله الله معجزة نبيه، وهو كريم على المؤمنين؛ لأنَّه كلام ربهم وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء والأرض؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه. وقيل: «كريم» أي: غير مخلوق. وقيل: «كريم» لما فيه من كرم الأخلاق، ومعالي الأمور. وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قدره . تفسير اللباب لابن عادل (١٠٧/١٥).

سرد على نظامها كتابه العزيز فأدخل العباد من الثقلين مداخلهم من الدار الآخرة من ثواب كريم أو عقاب أليم، وأنه بها أمر ونهى، وبها نطق وإياها حقق وصدق، وكيف أبطنها وكيف أظهرها، وأنها مكتوبة في اللوح المحفوظ، وعلى مقتضاها أوجد جميع الوجود، فإذًا القسم بمواقع النجوم هو القسم العظيم.

قال الله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:٢١] ثم قال: ﴿هُوَ اللهُ﴾ أي: القرآن المذكور ﴿هُوَ﴾ قولي ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] هو الله الذي لا إله إلا هو إلى آخر السورة.

يقول - عز من قائل: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

ثم قال إنه: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٨ - ٧٩] فالمكتوب في اللوح المحفوظ، حمله هو الأسماء ثم نزلها؛ أي: فصلها إلى ما فصل كالماء هو واحد من حيث هو الماء، ثم يفصله إلى ما يفصله إليه تفصيلاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة:٨١] الإدهان والمداهنة: الملاينة في الأمور، والتغافل والركون إلى التجاوز، هذا خطاب للمصدقين الذين لم يعلنوا الحد والحزم في المسابقة في تعلم علمه والتفكر في آياته، بل غلبوا مع التصديق التغافل والتساهل والعدول عن الترقي إلى التحقق.

يقول الله - عز من قائل: ﴿أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة:٨١] يعني: القرآن، كما قال وقد ذكر ما ذكر من عظائم الأمور وتبيان الآلاء: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم:٥٩-٦١] هذا خطاب للكفار.

ثم أتبع ذلك: ﴿فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم:٦٢].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦].

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1]

---

(١) لم أقف عليه.

[الواقعة:٨٢] يقول للكفار والمكذبون: وتجعلون رزقي إياكم الذي رزقتكموه من قرآن عظيم أنزلته، وكلام عظيم نزلته، ونور إيمان بينته، وضياء يقين جليته، وما أنزلته من السماء لبركات قدرتها لأقواتكم وأرزاقكم من رياح أرسلتها، وسحاب أطلعتها بقدرتي وسخرتها بمشيئتي، واستعملت لها ملائكتي بعظمتي.

وأضاف الرزق إليه؛ لأنه كان يكون رزقًا لهم في الجنة لو أنهم آمنوا واتقوا وشكروا، لكنهم جعلوا مكان ذلك الكفر والتكذيب، فحرمهم رزقهم في الجنة، كما أضاف إليهم أهليهم في الجنة لو أنهم آمنوا بقوله: ﴿إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الزمر:١٥] ولها نظائر في القرآن كثيرة، يجعلون مكان الشكر على ذلك التكذيب به، وإن شركوا بي خلقًا خلقته ولأجلكم سخرته، وقد يكون الرزق هنا: العلم بالله والإيمان ونحو هذا، وهو أكرم الرزق وأعلاه، وهو قد يحصل بذواتهم بالفطرة، يقول: وتجعلون رزقكم إيمانكم وإقراركم وإشهادكم على أنفسك أنكم اليوم تكذبون به وتنسبون خلقي إلى سواي.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣ - ٨٤] أي: إلى المحتضر في علز الموت وما هو فيه من شدائد الهول لا تستطيعون له صرفًا ولا نصرًا.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥] تنبيه على الغيب المصاحب للظواهر، وهو القرب من محتضرهم قرب خلقه، وقرب ملائكة الرحمة أو العذاب - على جميعهم السلام - وملائكة الموت المزعجين نفسه إلى الخروج، يقول: فلم لا تؤمنون بغيب كفرتم به وإن كنتم لا تبصرونه ولا تشاهدونه.

وبوجه آخر: قال الله - عز من قائل: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣ - ٨٤] الآيتين يقول ﷺ للمدهنين، والإدهان الأكبر هو: الإغضاء على الحق والإصغاء إلى الباطل على علم، والإدهان الأصغر: الملاينة في ذلك، وركوب الهوينا، وترك الأخذ بالعزم مع رؤية التقصير، كما قال رسول الله

ﷺ: «تقرون بالذنب ولا تنتهون تتهوكون كما تتهوك اليهود في الظلمة»(١).

فهو يقول - جل قوله - لهؤلاء في منزلتهم ولهؤلاء في منزلتهم: ﴿أَفَبِهَٰذَا الحَدِيث أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ(٢) * فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿إِذَا بلغتِ الحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨١ - ٨٣] وهنا محذوف تقديره - والله أعلم: فلولا كنتم كحالكم إذا بلغت الحلقوم، أشار بذلك إلى قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

وقوله: ﴿وحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥].

ثم قال: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة:٨٦] أي: غير مملوكين يعني وهو أعلم بحال الموت ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: الأنفس إلى التوبة والتقوى والإيمان والعمل الصالح ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٧] في ذلك يعرض بعلمه في عباده المعبر عنه بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] وهذه موعظة وذكرى لأولي الألباب، فينبغي للعبد أن يهز نفسه بهذا الذكر لعله يتذكر أو يخشى، وقد كان بعضهم يحفر لنفسه قبرًا في بيته، فمتى كسل دخله واستوى فيه مضطجعًا، ثم يتذكر حاله ذلك في المستقبل ويسأل الرجعة، ويعقد على نفسه المسارعة ثم يقوم ويكيس.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة:٨٨] أي: هذا المحتضر

(١) لم أقف عليه.

(٢) قال المصنف: ومعهود الرزق أنه من الجنة ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ يقول وهو أعلم: نحن نفتحه عليكم من الجنة وتنسبونه إلى النجوم والأنوار، ومعنى إضافة الرزق إلينا - والله أعلم - عن قوله المتقدم لأبوينا آدم وحواء - عليهما السلام - ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:٣٥] وكنا نحن في جملتيهما فذكرنا بذلك، كما ذكرنا بجملة إيانا في سفينة نوح عليه السلام حيث قال جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١ - ١٢] فمعنى الآية - والله أعلم - تجعلون رزقكم الذي خرجتم عنه وكنتم منه لترجعون إليه، وإن آمنتم وصدقتم تكذبون به، فتحرمون من أجل تكذيبهم الرجوع إليه، فيكون بدلاً من ذلك البعد عنه وسوء المصير، صدق الله وهو أصدق القائلين. [١٩٧/٢].

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ والروح بفتح الراء: الراحة والسرور والفرح، والروح برفعها هو: الحياة والبقاء، قيل: إنه يقبض روحه في ريحان ويبسط له قبره ريحانًا، والريحان أيضًا: الرزق[١] وهذا القسم قد دخل في قوله: ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٩] وهؤلاء هم المفرطون إن شاء الله إلى الجنة، كما قال في أهل الطرف الآخر: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: مقدمون إليها.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ﴾ [الواقعة:٩٠ - ٩١] أي: تقول له الملائكة: سلام عليك يا من هو من أصحاب اليمين.

قال رسول الله ﷺ: «**يقال له: نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه**»[٢].

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤] وهذا أيضًا من المفرطين إلى جهنم - نعوذ بالله منها - إلى ما هنا هو مصيرهم - أعني المحتضرين - أي: في دار البرزخ من هؤلاء وهؤلاء، نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥] الحق هنا هو: الواجب كونه، وهو ما وصفه في مصير هؤلاء الأصناف الثلاثة، واليقين: الموت، يقول - وهو أعلم بما ينزل: إن هذا لهو حق ما في الموت وما في حال الموت وما بعد الموت.

---

(١) قال المصنف: قد قُرِئ ﴿فَرُوحٌ وريحان﴾ أي: فحياة دائمة قائمة. والروح بفتح الراء على قراءة الحرف الأول حال للروح في الحبور والسرور؛ ولذلك لقي رسول الله ﷺ موسى عليه السلام قائمًا في قبره يصلي، وإبراهيم تحت الشجرة قبل صعوده إلى السماء الدنيا، ولقيهما في السماوات العلى، فتلك أرواحهما، وهذه نفوسهما، وأجسادهما في قبورهما. وإن كان شقيًّا لم تفتح له أبواب السماء، ورُمِيَ من علو إلى الأرض وعمر به أسفل السافلين في شقاء وعذاب إلى يوم الدين - نعوذ بالله من درك الشقاء ومن سوء ما سبقت به المقادير. تقريب ذلك بأن تتحقق أن الدنيا وهو معنى يعني به غيره، وعرض يعرض وحقيقة العرض هو ما يبقى. [شرح الأسماء ٣٤/٢].

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٩٢).

نظم بذلك قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٦] أي: ليكون من الرعيل الأول، وهذه من نصائح القرآن الكريم، يقول: العدة لهذا أن تسبح باسم ربك العظيم، كما قال ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٨ - ٩٩].

تفسير سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦﴾ [الحديد: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] التسبيح: تنزيه لله تعالى، والحمد: تسبيح ومدحة جامعة.

قوله ﷻ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢] الملك ظاهر وباطن، فظاهره ما هو الآن موجود ما هو منسوب إلى دار الدنيا من أرض مدحية وسماوات مبنية وكواكب وأفلاك ورياح وسحاب وماء، وما يفصل إليه من أمر وخلق إلى غير ذلك مما هو حاضر ظاهر علوًّا وسفلاً، وباطنه ما هو مضاف إلى الدار الآخرة ومنسوب إليها، وهو أيضًا ما يكون يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وسعة ما هنالك عريض، وأمره عظيم وملكه كبير جدًّا لذلك قال: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هذه الحياة وموتتها ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢] أي: على إحياء الموتى وبعثهم ونشورهم وحسابهم وثوابهم إلى ذلك الجزاء الأجل من نعيم سرمد أو عذاب أليم مجدد، نعوذ بالله من عذابه ونسأله رحمته ورضوانه.

وقدم ذكر الإحسياء على الإماتة، واستاق ذلك بلفظ الاستقبال، وجل القرآن الحكيم جاء على هذا، كقوله - عز من قائل: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ

يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية:٢٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:٨٠].

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس:٥٥ - ٥٦] وهو كثير.

وقال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، كتب له كذا»(١) الله أعلم بما ينزل وهو العليم الحكيم.

وأرى ذلك - والله أعلم - أنه إشارة إلى التذكير منه لنا باستمرار الإحياء الذي عبر عنه قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ...﴾ [الأعراف:١٧٢] فحين أخذنا من ظهر آدم كما قال رسول الله ﷺ في حديثه ذلك حيث قال: «إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية...»(٢) أخذ من ظهر كل ذي ذرية ذريته، كما حملنا مع نوح عليه السلام في الفلك يوم حمله فيه وأهله، فهو أبدًا يحيي؛ أي: يخلق من كل ذي ذرية ذريته ويميت.

وعلى هذا يصح لفظ الاستقبال، وإلى هذا فإن جميع الخليقة كانوا قبل إيجاده إياهم عدمًا لأنفسهم، فإن كانوا موجودين عنده في علمه وقدرته ومشيئته يشاهدهم ويراهم ويسمعهم فأوجدهم؛ إذ شاء الإيجاد الذي عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، ثم ردهم إلى علمه بهم عدمًا لأنفسهم»(٣) فكان ذلك من حكمه فيهم إماتة، ثم أوجدهم يوم استخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فكان إحياء، ثم ردهم إلى حيث كانوا، فكان ذلك إماتة منه لهم.

عبر عن ذلك قوله الحق: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨] فاستاق هذا الخطاب على معنى التكليف بالإيمان بالإحياء الذي بعد الموتة المنتظرة، وما تقدم ذكره هو تكليف بالإيمان بالأولية التي استأثر بها ﷻ فأحياهم؛ لأنه المحيي، وأماتهم؛ لأنه المميت، ولأنه الحي الدائم الباقي، يحييهم في المستقبل إرجاعًا إليه فلا يميتهم، وهو على كل شيء قدير.

ويوم يرجعهم إليه - أعني: أولياءه ﷺ - وجعلنا منهم لا تخالف بينهم ولا غل في قلوبهم، ولا غش قدودهم على قد واحد، وقلوبهم على قلب واحد ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] ذلك لأنهم كانوا حيث لم يكونوا لأنفسهم، بل موجودين له مشاهدين له في هدنة ووحدة، لم ينبغ لخلاف أن يصعد إلى ما هنالك من وجوده العلي النزيه الرفيع، فلهذا ولما هو به أعلم قدم الإحياء قبل الإماتة في أكثر المواضع من كتابه الحكيم، واستاقها بلفظ الاستقبال لإظهار ما هو قد أبطنه، وقد كان قبل أظهره، وهو العليم الحكيم.

نظم بذلك ما هو منتظم بمعناه قوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أي: هو الأول في البداية وهو الآخر في النهاية، وهو الظاهر فيما ظهر وهو الباطن فيما بطن، وهو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء، والظاهر في المصنوع والباطن بالإمساك والحفظ وتجديد الإبقاء والإعدام، وهو الأول بكل وجه، وهو الآخر والظاهر والباطن كذلك، وهو أيضًا الأول لا أول له، والآخر لا آخر له، وهو الظاهر ليس فوقه شيء، والباطن ليس دونه شيء، وحق لمن كان هذا وصفه أن يكون ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] [الحديد:٣].

---

(١) قال الشيخ البيطار: قال أبو يزيد البسطامي ﷺ: حظوظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسماء: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] وكل فريق له اسم منها، فمن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته، وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجري في الأسرار والسرائر وأصحاب اسمه الأول يلاحظون بما سبق، وأصحاب اسمه الأخر متربصون بما يستقبلهم، فكل يكاشف على قدر طاقته إلا من تولى الحق تعالى تدبيره. انتهى كلامه ﷺ. واعلم - رحمك الله - أن هذه الأسماء الأربعة هي الأب العلوي للعالم والأم السفلية، فالاسم الأول كالعقل الأول، والاسم الآخر كالنفس المنفعلة عن العقل انفعال الأخر عن الأول، كما انفعلت حواء عن =

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ [الحديد:٤] هذا تبيان للأربع الصفات التي تقدم ذكرها وشرح للجملة، وحق للجملة أن تكون مشاهدة لمن استوى على العرش فحييت به الجملة وقامت بأمره، وتواصلت وتعاطفت لرحمن حي قيوم، لا إله إلا هو العلي الكبير، يتخللها الروح من أمره علوًّا وسفلاً، ظهرًا وبطنًا، أولاً وآخرًا، سرًّا، فهو فيها جمعًا بما هو لا بما هي ليست له بمعنى المكان والحال، وحق لمن كان هكذا أن يكون مع كل شيء ومشاهدًا لكل شيء، وحاصرًا لكل شيء بعيدًا عنها بما هي، فالأمكنة لا تحيط به والأزمان لا تحصره، سبحانه وله الحمد ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السموات وَالأَرْضِ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الحديد:٥] تعريض بملك الآخرة وما يؤول إليه ملك الدنيا إلى ما وراء ذلك وكل ذلك له.

أتبع ذلك قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد:٦] يتوجه هذا إلى معنيين:

أحدهما: ما يزيد من نهار الصيف في ليل الشتاء، وما يزيد من ليل الشتاء في نهار الصيف.

والوجه الآخر: معنى قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس:٣٧] فعلى هذا يكون الليل في ضمن النهار باطنًا فيه، والتكوير هو أن يتبع هذا هذا وهذا هذا، ثم ختم بقوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد:٦].

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ

=

آدم، ثم توجه الأول إلى الآخر توجهًا باطنًا يسمى بالنكاح المعنوي، ويسمى بالنكاح الإلهي بين الأسماء الإلهية، فكان الاسم الباطن محل الحمل، وهو الكنز المخفي في ظهر الاسم الأول، فاستقر في الاسم الآخر بطونًا كباطن رحم الأنثى، فظهر العالم بحكم الاسم الظاهر، فهو المولود، فلهذا السر ما صدر كل أمر في العالم إلا عن تثليث.

﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ
رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن
قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحديد: ٧ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧] وعظهم - جلَّ ذكره - بما ذكر من استخلافه إياهم في أملاكهم، وكما استخلفهم فيها من بعد غيرهم كذلك يستخلف غيرهم فيها بعدهم، يقول - عز من قائل: فاغتنموا ما جعل إليكم من ذلك وأنفقوا لتعتاضوا به مما عندي في الدار الآخرة ما هوخير لكم وأبقى.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ تعريض لهذه الأمة بما وعدها أن يضاعف لهم أجرهم على أجرى عليه أهل الكتاب، كما قال رسول الله ﷺ في حديثه المشهور: «**نحن الآخرون السابقون**»[(١)] وفيه أنه يبدأ بنا - يعني: هذه الأمة - فيؤتيهم الله أجرهم مرتين، ويؤتي المهتدين من أهل الكتاب أجرهم مرة، فيقولون: ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاء، فيقول لهم: «ذلك فضلي أؤتيه من أشاء».

قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ يذكرهم بالعهد الأول وأنه أرسل إليهم الرسول يذكرهم، لما عسى أن يكونوا قد نسوه، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد:٨].

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٠٨) والبخاري (٨٣٦) ومسلم (٨٥٥) والنسائي (١٣٦٧) والشافعي (١/ ٦٠) وابن خزيمة (١٧٢٠) والبيهقي (٥٣٥٤).

عمران:٨١] ونظيرتها في سورة الأعراف، يقول - عز من قائل: وقد بعثنا إليكم رسولاً يدعوكم إلى ما عاهدتم عليه بآيات بينات إن كنتم مؤمنين؛ أي: مصدقين بما عاهدتم عليه خلق الله الإنسان في نور الفطرة.

ثم في حين النشء سبق إليه الجهل قبل العلم، والغفلة قبل الذكر، وعدم الإيمان والعقل قبل وجوده، وإذا أتاهم العلم والإيمان والذكر فذلك إخراجه إياهم من الظلمات إلى النور؛ أي: ظلمات الغفلة والنسيان والجهل إلى نور العلم والذكر والإيمان، كونهم موجودين في موجود علمه وقدرته ومشيئته لم يزل يعلمهم ويعلم ما يكون منهم وعنهم، ثم أخرجهم إلى وجود أنفسهم قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وأخذ عليهم ميثاق العبودية له والإذعان منهم بالربوبية، ثم أخرجهم من صلب آدم بعد أن خلقه وأخذ عليهم الميثاق، فعطف أخذ الميثاق منهم حين أوجدهم لأنفسهم في البدء على كونهم موجودين في وجود ربهم.

قالوا وفي قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد:٨] زائدًا على الموجود من علمكم به وعلمكم بأنفسكم، فقررهم مؤاخذة وتذكرًا بالأولية بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِالله﴾ يعرض بما تقدم ذكره، ثم عطف على ذلك قوله: ﴿وَالرَّسُولُ﴾ الآن ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ المعهود معرفته في فطركم ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ في البدء الأول بذلك ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨] في قولكم يومئذٍ جوابًا لقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقلتم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] إن كنتم مؤمنين أيضًا بإخباره إياكم عن ذلك وإعلامكم به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلله مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠].

يقول - عز من قائل: مالكم وترك النفقة في سبيل الله والموت من ورائكم، وإنما أنتم مستخلفون فيما أتيناكم ورثتموه من غيركم وطوارق الحوادث مطيقة بكم يرثكم سواكم كما ورثتم أنتم غيركم حتى يرث الله السماوات والأرض ومن عليها.

يقول ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾[1] يعني: فتح مكة ﴿وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ يجزى على قدر عمله ونيته؛ لذلك قال: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠].

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحديد: ١٣ - ١٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] يأن: يحين، وقرأ أُبَيٌّ: «ألمَّا يأن» وقرأ أبو السمال: «ألم يئن» من آن، وهي لغة، يقال: أني يأنى وأن يئن؛ بمعنى: حان، وما نزل من الحق - يعني: القرآن - عاتبهم الله بعد إسلامهم قيل: بأربع سنين، والمطلوب منهم هنا هي درجة من وراء الإيمان، وذلك لزوم الخضوع والخشوع والزهد في الفني والرغبة في الباقي، ومواظبة التفكر ولزوم التذكر، وطلب اليقين والاشتغال بالعبادة والبكاء، ومحاذية الحزن وإعطاء الجهد من النفس في ذلك والصدق.

---

(١) قيل: نزلت في أبي بكر ﷺ إذ كان أول من أسلم وهاجر وأنفق ﷺ وكذا من تابعه في السبق في ذلك، ولذلك قال: ﴿أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وقيل: نزلت بسبب أن ناسًا من الصحابة أنفقوا نفقات جليلة حتى قيل: إن هؤلاء أعظم أجرًا من كل من أنفق. وهذه الجملة تضمنت تباين ما بين المنفقين. وقرأ الجمهور: «من قبل الفتح» وزيد بن علي، قيل: بغير «من». والفتح: مكة، وهو المشهور، وقول قتادة وزيد بن أسلم ومجاهد. وقال أبو سعيد والشعبي: هو فتح الحديبية. تفسير البحر المحيط (١٠/٢٢١).

وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»[١].

وكان بعض الصالحين حين يسأل الله ﷻ يقول: «اللهم إني أسألك همة مساعدة وقوة معينة على طاعتك».

حذر الله - جلَّ ذكره - المؤمنين من سوء ما أصاب أهل الكتاب من كل ما يوجب ميراث التغافل والتربص، ومحادثة السهو واللهو، كالذي عرى ما تقدم حتى استولت على قلوبهم القسوة وغشيتهم ظلم الفتن، فاجترتهم إلى الضلال حتى فسقوا عن أمر ربهم، حتى كذبوا الأنبياء وقتلوهم وقتلوا الآمرين بالقسط من الناس بغير حق.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ [الحديد:١٧] فكما يحيي الأرض بعد موتها بالماء ينزله من السماء، كذلك يحيي موتى القلوب بالذكر والفكر والعلم بالله وطلب اليقين، ومواظبة استعمال التقوى والحزن، واستشعار الخضوع والخشوع وتصور ما إليه المآل والمصير.

لذلك ختم ﷻ بقوله: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الحديد:١٧] تنبه وتفطن رحمك الله.

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٥٨) وأحمد (١٧١٥٥) وابن حبان (١٩٧٤)، والطبراني (٧١٣٥)، والحاكم (١٨٧٢) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأبو نعيم في الحلية (٧٧/٦)، والنسائي (١٣٠٤).

ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٢١)﴾[الحديد:١٨ - ٢١].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ [الحديد:١٨] قرئ بتشديد الصاد وتخفيفها؛ فالتشديد معناه: الصدقة والنفقة في سبيل الله وفي طاعته، هذا خطاب منتظم بقوله في صدر السورة: ﴿آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧] وقرأه أبي: «إن المتصدقين والمتصدقات» والتخفيف معناه: الإيمان والتصديق لله والرسل.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ الذين ينفقون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ويتصدقون؛ أي: يتغفعلون الصدق ويقرضون الله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من أعمالهم وقلوبهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ [الحديد:١٨] وعدهم بالتضعيف والأجر الكريم، أقل التضعيف عزة وأعلاه أن يؤتيهم أجرهم بغير حساب، والتضعيف أيضًا بالإضافة إلى مجازاة أهل الكتابين، وذلك أن هذه الأمة تؤتى الأجر مرتين، دل على هذا التأويل في هذا الموضع انتظام الخطاب بذكر أهل الكتاب قبل هذا في قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ...﴾ [الحديد:١٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد:١٩] هذا يعطي أن المؤمنين بالله ورسله مؤمنون صديقون شهداء، لكنهم في ذلك على درجات؛ فأفضلهم في ذلك: أتباع الرسل باليقين والعلم والعمل، وهم الذين أوجب الله الإيمان على عباده المؤمنين بوجودهم، وهم الذين يأتون يوم القيامة زمرًا تلو الأنبياء.

قال الله ﷻ: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ [النساء:١٦٢] أي: وبالمقيمين الصلاة، وهؤلاء هم إخوان الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - الذين حافظوا على عهده وحفظوا وصاياه واتبعوا هديه ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ على أعمالهم ولهم ﴿وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩] لتصديقهم وإيمانهم.

قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا - أو سبعمائة ألف -

مع كل ألف سبعون ألفًا - أو سبعمائة ألف - بغير حساب، أول زمرة منهم صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ثم على أشد كوكب إضاءة في السماء»(١) جعلنا الله منهم وألحقنا بهم في الدنيا والآخرة في ستر وفي عافية، ثم ذكر الذين كذبوا وكفروا ومآلهم.

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ [الحديد:٢٠] المعنى إلى آخره، هذه هي الدنيا التي عاقبتها النار وسوء المصير، وما كان منها وفيها إيمان بالله ورسله وطاعة له وطلب لرضوانه، فهي على التحقيق آخرة وعاقبتها الجنة وحسن المآب، فإن الله ﷻ إنما أخرج أبانا آدم ﵇ من الجنة بعد أن خلقه فيها، وكانت تلك أول درجة فيها.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:١١٨ - ١١٩] فلما واقع المعصية، أزلهما عنها إخراجًا لهما عنها وحبسهما في هذه، ثم قال له ولعدوه: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٨ - ٣٩] ووعدهم بأنه من اتبع هداه فإنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم يأجره في الدنيا.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٣ - ١٢٤] ولما أوعد بالمعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره كان مفهوم الطرف الآخر طيب المعيشة، بيّن ذلك في موضع آخر من كتابه العزيز بقوله الحق: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

ثم ما قد يصيب المؤمن من بلاء وامتحان؛ فذلك أيضًا لحكمة بالغة منه في ذلك، يكفر عنه بذلك سوء عمله أو يرفعه إلى أرفع من مبلغ عمله، فافهم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن أعرض عن ذكره

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٧١٦٥)، والبخاري (٣١٤٩)، ومسلم (٢٨٣٤)، وابن ماجة (٤٣٣٣).

فكذب بآياته ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ﴾ لأهل الإيمان الأول ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ لأهل الإيمان العلي ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠] إنها لا تسر بقدر ما تغر، أيها العبد انتهج محجة اهتدائك، وعالج معالجة دائك، وأفرغ نفسك فهي أكبر أعدائك، إلى متى تستمر على ظنك، وتستمرئ مرعى يعنك، تبارز بمعصيتك، مالك ناصيتك، وتواري عن قريبك، وأنت بمراء رقيبك، أتظن أن ينفعك حالك إذا حان ارتحالك، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك، طال ما أيقظك الدهر فتناعست، وتجلت لك آيات الوجود بالعبر فتعاميت، وذكرك الموت فتناسيت؛ ذلك لأنك تؤثر فلسًا توعيه على ذكر تعيه، وتختار قصرًا تعليه على بر توليه، وترغب عن هاد تستهديه إلى مال تقتنيه، وتغلب حب ما تشتهيه على ثواب تشتريه، وأنت تأمر بالمعروف وتنتهك حماه، وتحمي على النكير ولا تتحاماه، وتزحزح عن الطلب غيرك وأنت تغشاه، وتخشى الناس والله أحق أنت تخشاه.

اذكر أيها الغافل وشمر أيها المقصر، وإياك أن تطيع أحدًا في معصية الله، وأن ترضي أحدًا بإسخاط الله، وإن من أشد الشدائد على العبد: أن يخرج من الدنيا وهو يحبها، ويدخل في الآخرة وهو يكرهها، ويلقى الله - جلَّ ذكره - وهو يكره لقاءه، قد خلف ماله لمن لا يحمده، وانقلب إلى رب لا يعذره، تيقظ فوالله ما يغني عنك ندمك إذا زلت قدمك، ولا يعطف عليك معشرك إذا ضمك محشرك ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:١٨].

فصل

للإيمان أول وأعلى ولا آخر له، فالأول منه إليه الدعاية الأولى دعاية الرسل الكفار والمشركين، والأعلى إليه الدعاية الثانية.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] ولم يخاطبهم باسم الإيمان وناداهم به إلا وقد علم منهم الإيمان، لكنه دعاهم إلى أن يصعدوا بهممهم علوًا إلى رفيع درجاته في النظر في الآيات واستشهاد الشواهد في الأرض والسماوات، ويعرف الحق المخلوق به الخليقة وتدبر الكتاب والتيقظ لسر المراد؛

فيبوء التذكر لما سلت عنه النفوس ونسيته من العهود والمواثيق، واستشعار الصدق والأخذ بالوثيقة والحزم والعزم على أخذ الجد ومجانبة أخذ هذا الشأن بالهوينا.

يقول الله - عز من قائل: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: إيمانًا لا ريب يتخلله واقتداء لا مخالفة فيه.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: الإيمان الأعلى والاقتداء الأرفع، ثم جزاء ذلك في الآخرة، فهؤلاء هم الذين أخذوا الكتاب والاقتداء بقوة إيمانًا وتمسكًا به ﴿وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾(1) [الحديد:٢١].

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٥].

نظم بذلك ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢] أي: من قبل أن نبرأ الأنفس والمصائب؛ يريد أنه كتبها قبل أن يخلق السماوات والأرض ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] يعني: علمه بها قبل التكوين والخلق وكتبها في كتاب، ثم سبقته النفوس والأسباب إلى إخراجها بعد التكميل على مقدار ما سبق علمه بها وكتبه لها.

---

(١) يقول القشيري في تفسيره: وفي ذلك ردٌّ على من يقول: «إن الجنة مُستَحقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها» لأن الفضلَ لا يكون واجبًا. ويقال: لمَّا سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبةِ، مُستبشرة برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاء من جانب الحقِّ سبحانه. (٣٩١/٧).

فصل

أول المصائب وأجلّها: خروج أبينا آدم من الجنة، ونسيانه عهد ربه إليه، ثم بآخره جميع المصائب التي تصيب المؤمنين في أولاد وأموال وأنفس ونحو هذا، فعزى الله - جلَّ ذكره - المؤمنين في مصائبهم في أجسامهم وأنفسهم بأن ذلك قد سبق كتبه له وتقديره وما يكون عنده عوضًا منه.

«وتحاج آدم وموسى عند ربهما، فقال موسى لآدم: أنت الذي أخرجت الناس بخطيئتك من الجنة وأشقيتهم، قال آدم لموسى - عليهما السلام: فيكم وجدت ذلك كتب علي قبل أن أخلق قال بأربعين سنة، قال: أفتلومني على أمر كتب علي قبل أن أخلق بأربعين سنة، قال: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى ثلاثًا»(١).

يقول: وقد تبت إلى ربي وفي ضمن ذلك وإني وإن كنت أولاً بخطيئتي فإني أول بتوبتي، يرفعكم الله بالتوبة إلى رفيع الدرجات، ويرفعكم بحسن أعمالكم إلى رضوانه والقرب منه، فحجه ثلاث، ولذلك كرر رسول الله ﷺ قوله: «**فحج آدم موسى**» ثلاث مرات، وكان موضع نظر آدم إلى المؤمنين من بنيه، وكان نظر موسى إلى الكفار منهم وشقاء من شقي منهم، وإنما يعتق الله بعباده المؤمنين.

لما ذكر - عز جلاله - الدنيا فوصفها بسرعة الانقطاع ووشيك الفناء [انسد علمهم](٢) منها إلى الجنة، فوصفها بأن عرضها كعرض السماء والأرض وأمرهم في ذلك بالمسابقة، وغاية المتسابقين إلى غاية يبلغونها، وعند غاية المسابقة توجد الغاية وهو تعريض منه - عز جلاله - بما ينزل عليه الميت حال الموت، وهي الجنة التي هي غيب في هذه السماء والأرض قبل أن تتبدل بغيرها، وهي التي عبر عنها بقوله - جل قوله: ﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا**﴾ [مريم:٦١] أي: إنهن غيب في ظاهر هذه السماوات والأرض بمغفرة الله ورحمته.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٧٥٧٨) والبخاري (٣٢٢٨) ومسلم (٢٦٥٢) وأبو داود (٤٧٠١) والترمذي (٢١٣٤) وابن ماجة (٨٠) وابن حبان (٦١٧٩).

(٢) هكذا في (ف) وغير واضحة في (خ).

يقول: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ﴾ [الحديد:٢١] وذكر الفضل هنا؛ إذ كان البرزخ مدة للموت فلما أحياهم وأدخلهم الجنة الوسطى، فذلك فضل منه بالإضافة إلى الجنة الآخرة التي وعدهم إياها حال حياتهم الآخرة.

ثم ذكر التعزية منه لعباده المؤمنين بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢] يقول: فلا تحزنوا على ما فاتكم من مال أو أهل أو نفس فأنتم المؤمنون، وكل ذلك تجدونه عندي إذا توفيتكم.

لذلك أعقب هذا بقوله الحق: ﴿لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من متاع الدنيا ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٣] في أنفسكم، وإخباركم بجار الخطاب إعلامكم بهذا تعزية لكم؛ لئلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، فهكذا فليكن التعزي منا لإخواننا، فعزى الله ﷻ المؤمنين في مصائبهم بما به حج آدم موسى، وهي من الكلمات التي تلقاها منه.

نظم بذلك قوله: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣] يقول - جلَّ ذكره: أعلمتكم بهذا؛ أي: بالدنيا وما هي وما مآلها، وبالعوض منها وأنه خير وأبقى؛ لكي لا تحزنوا على فوت مطلوب ولا فقد محبوب، ولا تفرحوا لوجود ذلك وحصوله؛ إذ هو مما لا يبقى لكم ولا أنتم تبقون له إلا أن توجهوه إلي وتدخروه عندي لكم وتحسبوا ذلك لأجلي، فليقل المصاب هكذا قدر هكذا قضى قبل أن أخلق فيصطبر، وليقل المنعم عليه: هكذا قضى ولا أدري إلى ما مآله، وما الذي أريد بي، وليحمد الله وليشكره، وليبتهل وليخف وليرح، ثم ليلجأ إلى الله ويستغفر أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ...﴾ [الحديد:٢٥] انتظام هذا بقوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد:٨] إلى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٩] الكتاب: الهدى، والميزان: العدل، وكل ما أتت به الرسل فهو العدل

والهدى؛ ليقوم الناس بالقسط في أنفسهم وفيما أوتوا وما ولوا.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] الفلز كله أصله الماء، لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ﴾ أنزله من السماء إلى الأرض، ثم أقام له الأرض مقام الأرحام للنطف، خصَّ ما شاء بمشيته، وقدر التكوين بعلمه، وخلق كل شيء بقدرته.

البأس: القوة وشدة العارضة، لذلك قال - عز من قائل - معرضًا بالقتال والجهاد والمدافعة: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥] أي: ليعلمه كائنًا كما علمه قبل الكون أنه سيكون، فيقع الجزاء على الأعمال لا على علمه بهم وفيهم، فافهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد:٢٦ - ٢٩].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦] هذا منتظم المعنى والمجاورة بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ...﴾ [الأعراف:٣٥].

ثم قال - عز من قائل: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾ [الحديد:٢٧] كل رسول بعثه الله من بعد نوح ﷺ فهو مقفى، ومحمد - صلوات الله عليه وسلامه - هو أعرق وصفًا في هذا؛ لأنه آخر الرسل،

ولذلك كان اسمًا من أسمائه، وأما عيسى فهو المقفي، قفى الرسل قبله ويقفي محمدًا - صلى الله عليهما وسلم - وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

نظم بذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني، وهو أعلم: في أول التنزيل الذي نزلنا عليهم والشرع الذي شرعناه لهم، لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله فكتبناها عليهم، وبآخره يتوجه المعنى: كتبناها عليهم ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ وهذا مبني على الأول ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ يعني: فما رعاها بعضهم حق رعايتها، ومن هنا كان رسول الله ﷺ ينهى عن التعمق في الدين وطرح وظائف العبادات وعلى الأنفس، وكان يخاف أن يلتزموا ما لم يلزموه فيكتب عليهم، وقد قرئت: «ما كتبتها عليهم ولكن ابتدعوها» وهذا موافق لمعنى ما تقدم ذكره، ثم قال: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي: الذين رعوها ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وهو رضوان الله بأحسن ما أتاهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

الفاسق عن أمر الله: الخارج منه، وإذا خرج من هدايته فقد صار إلى الضلال، لذلك سموا: الضالين، كان عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - قد أرسله الله - جل ثناؤه - وأنزل عليه الإنجيل مصدقًا لما بين يديه من التوراة إلى بني إسرائيل، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر واتبعه المؤمنون منهم، ويقرءون التوراة والإنجيل ويعملون بما جاءهم به بعد رفعه - صلوات الله وسلامه عليه - إلى أن يظهر ملك بدل التوراة والإنجيل، وشايعه على ذلك روم ويونان، واجتلب الأساقفة من أقطار الأرض وانتدبوا ثلاثمائة أسقف وبضعة عشر أسقفًا، واجتمعوا على تأليف قانون يحملون عليه أهل ممالكهم ففعلوا.

وقتل أتباع عيسى عليه السلام ومزقوا كل ممزق إلا قليل منهم حمتهم الدولة يومئذٍ، فبقي أولئك يقرءون التوراة والإنجيل ويعبدون الله، إلى أن خلفهم بعد ذلك خلف شكوهم إلى ملكهم يومئذٍ، وقالوا: ما سبَّنا أحد بأشد سبًّا سبَّنا به هؤلاء؛ لأنهم يقرءون في الكتاب التوراة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] وفي الإنجيل: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، وأولئك هم الفاسقون، وهذا نحن في كتابنا أيضًا ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

وقد تقدم ذكر قراءة الكتب الأول في القرآن لمن تفقده ويسر لفهمه رجع الكلام، قالوا: هذا إلى ما يعيبوننا به ويعدونه علينا في قرآنهم فادعهم، فليقرأوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم ذلك الملك وجمعهم، وعرض عليهم القتل أو يتركوا ما هم عليه من قراءة التوراة والإنجيل إلى ما بدل هؤلاء منهما، فقال المؤمنون: ما تريدون إلى هذا، قالوا: ألا تظهروا بيننا، قالوا: متى ظهرنا لكم فافعلوا بنا مرادكم، فافترقوا على ثلاث فرق:

قالت طائفة: نتخذ في المواضع الخالية منكم بيوتًا تنقطع منكم لا نداخلكم، وابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم، فهم الرهبان.

وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض نعبد ربنا ونطيع رسولنا، نشرب كما تشرب الوحش حتى يأتينا الموت، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا.

وقالت طائفة: ابنوا لنا دورًا في الفيافي، ونحتفر الآبار ونحترث البقول، فلا نرد عليكم ولا نمر بكم، وكانوا ليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم ففعلوا بهم ذلك.

قال: فأنزل الله في أولئك: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ...﴾ [الحديد:٢٧] ثم مات أولئك، فقال الآخرون منهم: نتعبد كما يتعبد فلان وفلان ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دورًا كما اتخذ فلان، وهم في ذلك على شركهم وكفرهم، لا علم لهم بعلم الذين اقتدوا بهم ولا إيمانهم، فلما بعث رسول الله ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته وصاحب الدير من ديره وآمنوا به وصدقوه، فأنزل الله - جلَّ ذكره - فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بعيسى ﴿اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يعني: محمدًا ﴿يُؤْتِكُمْ

كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾[(١)] أي: أجرين أجرًا بإيمانهم بعيسى عليه السلام وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وتصديقهم بمحمد ﷺ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨] القرآن واتباعهم النبي ﷺ.

ثم قال ﷻ: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾ أي: الذين تشبهوا بكم ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩] عكرمة وعبد الله بن أبي سلمة قرأ أحدهما: «ليعلم أهل الكتاب» وقرأ لآخر: «لكي يعلم أهل الكتاب» وقرأ ابن عباس: «لكيلا يعلم أهل الكتاب» وروي عنه: «ليعلم أهل الكتاب» ابن مسعود: «لكي يعلم أهل الكتاب» وروي عن ابن عباس أنه قرأها كذلك، أخذها من قراءة ابن مسعود أبو هارون عن شيبان؛ أي: لا يعلم أهل الكتاب، قرأ الحسن والأعمش: «لَيْلَا يعلم أهل الكتاب» ساكنة الياء مفتوحة اللام غير مهموزة، ابن مسعود: «ألا يقدروا» بغير نون، وقرأ: «ما كتبتها عليهم ولكن ابتدعوها».

فصل

قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩] قد تقدم بذكر اختلاف القراء بها، وانقسم معنى الخطاب لأجل ذلك إلى معنيين:

أحدهما: إرادة إعلام أهل الكتاب، وذلك يتوجه على قراءة من قرأ: «ليعلم».

والثاني: إرادة ألا يعلموا، وعلى هذا الوجه مفهوم: «لئلا» و«لكيلا» فمعنى قوله: «ليعلم أهل الكتاب» أي: المهتدون منهم يوم الجزاء، إذا وردوا ووردتم وآتيتكم أجرين أجرين ولهم أجرًا أجرًا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، إذا قال لهم الله - جل ثناؤه: «هل بخستكم من

---

(١) قال أبو موسى الأشعري: ضعفين بلسان الحبشة. وقال غير واحد: نصيبين، والمراد إيتاؤهم أجرين كمؤمني أهل الكتاب، كأنه قيل: يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين؛ لأنكم مثلهم في الإيمان بالرسل المتقدمين، وبخاتمهم صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين، لاتفرقون بين أحد من رسله. وقال الراغب: الكفل: الحظ، الذي فيه الكفاية كأنه تكفل بأمره، والكفلان: هما المرغوب فيهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءاتِنَا فِى الدنيا حَسَنَةً وَفِي الاخرة حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] الألوسي (٢٠/٣٤٧).

حقكم شيئًا؟» قالوا: لا، قال: «فذلك فضلي أؤتيه من أشاء».

ومعنى قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ فإن المراد: ألا يعلموا وهم غبرات أهل الكتاب الذين أدركوا رسول الله فلم يؤمنوا، فيكون بقاؤهم كذلك على غفلتهم حتى يأتيهم أمر الله، وهم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم.

وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل وكثيرًا يتقدم الآخرون الأولين، ويكون الأولون ساقة الآخرين، ولذلك يشبه ملك السماوات برجل مَليّ خرج في استجارة الأعوان لحفر كرمة في أول النهار، وعامل كل واحد منهم في نهاره على درهم، ثم أدخلهم كرمة، فلما كان في الساعة الثالثة بصر بغيرهم في الرحاب لا شغل لهم، فقال: اذهبوا أنتم أيضًا إلى الكرم وسآمر لكم بحقوقكم، ففعلوا.

ثم فعل مثل ذلك في الساعة السادسة، هذه هي لعيسى عليه السلام ولأصحابه في أول الأمر، والتاسعة هذه لمحمد ﷺ فلما كان في الساعة الإحدى عشرة هذه بينهما في آخر الزمان إن شاء الله وجد غيرهم وقوفًا، فقال لهم: لِمَ وقفتم هاهنا طول نهاركم دون عمل؟ فقالوا له: لأنا لم يستأجرنا أحد، فقال: اذهبوا أنتم وسآمر لكم بحقوقكم، فلما انقضى النهار قال صاحب الكرم لوكيله: ادع الأعوان وأعطهم أجرتهم، وابدأ بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين، فبدأ بالذين أدخلوا في الساعة الإحدى عشرة وأعطى كل واحد منهم درهمًا، وأقبل الأولون وهم يرجون بالزيادة فأعطى كل واحد منهم درهمًا، فاستنكروا ذلك على صاحب الكرم، وقالوا: أسويتنا بالذين لم يعملوا إلا ساعة من النهار في شخوصنا طول نهارنا وعذابنا بحرارته، فأجاب أحدهم وقال له: لست أظلمك يا صديق، أما عاملتني على درهم فخذ حقك وانطلق فإنه يوافقني أن أعطي الآخر كما أعطيتك، أفلا يحل لي ذلك وإن كنت أنت حسودًا، فإني أنا رحيم، ومن أجل ذلك يتقدم الآخرون الأولين، ويكون الأولون ساقه الآخرين فالمدعون كثير والمتحيرون قليل.

فصل

أتت سورة الحديد على طلب الإيمان الأعلى ورفيع الدرجات، فافتتح السورة بالقرآن العظيم وذكر التوحيد العلي، ثم أمر بالإيمان والإنفاق وذكر بالعهد المأخوذ

والميثاق المؤكد، ثم كذلك إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ [الحديد:١٦] ثم كذلك على ما تقدم إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

وذكر ما انبنى عليه من معنى ما عزى أهل الكتاب، وقال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه**»[١] وفي أخرى: «**حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان فيكم**»[٢] ولما توفي رسول الله ﷺ ونقصت دولة الخلافة الراشدة تراكمت الفتن بعد واشتد البلاء على المتمسكين بصريح الإيمان وخالص الإسلام، وهدم البيت ورجم بحجارة المنجنيق، وقتل فيه عبد الله بن الزبير، واستبيحت مدينة الرسول ﷺ ثلاثة أيام، وقتل فيها خيار المسلمين وجل صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم، وكان ذلك على يدي مسلم بن عقبة، كانوا يقولون له: مسرف بن عقبة، وذكر أن عبد الله بن عمر قال له: أنت الذي قتلت ستة آلاف من أهل القبلة تالله لو كانت من غنم أبيك لكان مسرفًا.

وذكر أن الذي حصل ممن قتله الحجاج بن يوسف صبرًا مائة ألف وعشرون ألفًا، وقيل: إن السفاح يلقى الله تعالى يوم القيامة بدماء ثلث أهل عصره، فاشتدت لذلك البلية بالمسلمين ورأوا العزلة واجبة فلزموا الزوايا والمساجد، وابتنوا الرباطات على سواحل البحور وفي أواخر الدروب من جهة العدو، وأخذوا في تصفية أخلاقهم، ولزموا الفقر، أخذوا ذلك من أحوال أهل الصفة في زمان رسول الله ﷺ الذين كانوا يلزمون المسجد على الفقر، كانوا يحتطبون بالنهار ويقرؤون القرآن بالليل، فتفرغ هؤلاء لذلك وتسموا بـ: الصوفية، وهو اسم معدول من الصفة والتصافي، وأخذوا الكتاب بقوة، وجعلوا الفقر شعارًا، والصبر والجوع والخوف والحزن حالاً، وتكلموا على الورع والزهد والصدق وتحقيق التوبة

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٤٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

والإنابة والصبر والشكر والحمد والرضا والدنيا، وبيان المحمود منها والمذموم، وعلى الفقر والغنى، والإخلاص والرياء، والنفاق والمعرفة، وعلى العلم والمعرفة والتوحيد، وعلى القلوب وطهارتها وأوصافها، والحكمة والخوف والرجاء، والحزن والحب والود، وعلامات أهل ذلك، وعلى الحق والحقيقة وعلى الذكر، والتقوى والتوكل والإرادة واليقين، وحسن الظن والمراقبة والحياء والأنس بالله، والتواضع والكبر، وعلى العقل وترتيب المقامات، وكيف الترقي إليها ولهم في ذلك عبارات ومقاصد وأسماء عرفية يتعارفون بها فيما بينهم.

فهؤلاء في وزان أولئك الذين قال الله - جلَّ ذكره - فيهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما ابتدعوها ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ والمبتدع عندهم منها العزلة والأسماء والأوصاف، وليس ذلك بضائر، إنما كتبت عليهم ابتغاء رضوان الله، وابتدعها أولهم ابتغاء رضوان الله، ورعاها كثير منهم حق رعايتها، فهم - والله أعلم - في وزان المقول فيهم: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد:٢٧] ولكل مقدمة ساقه، ولكل جمع ملاء، والله يؤتي فضله من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فالآخرون هنا هم أوائل هذه الأمة بالإضافة إلى من كان قبلهم يعطي الأولون، كما قال رسول الله ﷺ: «**قيراطًا قيراطًا، ويعطى المسلمون قيراطين قيراطين**»(١) وهم الذين استعملوا في الساعة التاسعة وهو وقت صلاة العصر، كما قال رسول الله ﷺ في المثل الذي مثله من يعمل إلى وقت العصر إلى الليل على قيراطين قيراطين، فجاء الله بنا وهو ما أنبأ به عيسى عليه السلام درهم، واحترى محمد ﷺ بالإنباء عن المستعملين من صلاة العصر إلى الليل؛ لأنهم أمته، وتفرد عيسى عليه السلام بعده ينبئ عن المستعملين في الساعة الإحدى عشرة، وهم أصحابه وبقايا هذه الأمة - صلى الله عليه ورضي عن جميعهم - وذكر التسوية بينهم في العطاء مع أوليتهم؛ أعني: أوائل هذه الأمة.

وقوله: فتقدم الآخرون؛ يعني: أصحابه، والله أعلم بما أراد رسوله، الأولين؛

---

(١) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٨٢٠)، والبخاري (٥٣٢).

أي: من كان قبل هذه الأمة من أهل الكتابين، ويكون الأولون ساقه، وربما كان أصحابه أولئك من هذه الأمة هم المقتضى لهم أولاً، ويجتمع في ذلك هو ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - هذا ترتيب الوجود، والله أعلم كيف يكون ترتيب الإنباء، رزقنا الله من فضله ما يبلغنا به إلى فضله العظيم بفضله العظيم إنه هو الرحمن الرحيم ذو الفضل العظيم.

تفسير سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

قوله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إلى الله وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١) [المجادلة: ١] روي: أنها نزلت في خولة

(١) بإظهارِ الدالِ وَقُرِئَ بإدغامِهَا في السِّينِ ﴿قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أيْ: تراجعكَ الكلامَ في شأنِهِ وفيمَا صدرَ عنْهُ في حَقِّهَا من الظهارِ وَقُرِئَ تُحاوركَ وَتُحاولكَ أَيْ تسائلكَ ﴿وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ﴾ عطفٌ عَلَى تجادلكَ أيْ تتضرعُ إليهِ تَعَالَى وَقيلَ حالٌ منْ فاعله أيْ تجادلكَ وَهيَ مُتضرعةٌ إليهِ تَعَالَى وَهِيَ خَوْلَة بنتُ ثَعْلبَةَ بنِ مالكِ بنِ خُزامةَ الخزرجيةُ، ظاهرَ عنْهَا زوجُهَا أَوْسُ بْنُ الصامتِ أَخُو عُبَادةَ ثُمَّ ندِمَ عَلَى مَا قالَ فقَالَ لَها مَا أظنكَ إِلَّا قَدْ حرمتِ عليَّ فشقَّ عَلَيْهَا ذلكَ فاستفتتْ رسولَ الله ﷺ فقالَ حرُمتِ عليهِ، فقالتْ: يا رسولَ الله ما ذكَرَ طَلاقًا فقالَ حرمتِ عليهِ، وَفي روايةٍ: مَا أُراكِ إلا قدْ حرمتِ عليه في المرارِ كُلِّها فقالتْ أشكُو إلى الله فَاقتِي وَوَجْدِي وجعلتْ تراجعُ رسولَ الله ﷺ وَكُلَّما قالَ ﷺ: حرمتِ عليهِ هتفتْ وشكتْ إِلَى الله تَعَالَى فنزلتْ وَفي كلمةِ قَدْ إِشعارٌ بأنَّ الرسولَ ﷺ والمجادلةَ كانَا يتوقعانِ أنْ يُنزلَ الله تعالَى حكَم الحادثةِ ويفرجَ عَنْهَا كَرْبَهَا كَمَا يلوحُ بِهِ مَا رُوِيَ أنَّه ﷺ قالَ لها عندَ استفتائِها: مَا عندِي في أمركِ شيءٌ وَأَنَّها كانتْ ترفعُ رأسَهَا إِلى السماءِ وتقولُ: اللهمّ أَني أشكُو إليكَ فأنزلْ عَلى لسانِ نبيكَ ومَعنْى سَمْعِهِ تَعَالَى لقولِهَا إجابةُ دُعائِها لَا مجردَ علمِهِ تَعَالَى بذلكَ كما هُوَ المَعْنِيّ بقولِهِ تَعَالَى: ﴿والله يَسْمَعُ =

بنت ثعلبة، كان زوجها أوس بن الصامت وكان من الأنصار، قال لها: أنت علي كظهر أمي، فأتت النبي ﷺ فكلمته في بيته في ذلك، قالت عائشة لما نزل بذلك القرآن: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كلمت رسول الله في جانب البيت وما أسمع ما تقول حتى نزل بذلك القرآن».

التحاور: التراجع في الكلام، من حار يحور؛ أي: رجع يرجع، والظهار يكون بذوات المحارم كلهن؛ لما سنذكره بعد إن شاء الله، وذلك أن الله ﷻ قال مُبيِّنًا نكير ما قاله المظاهر وزور ما ذكره: ﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ**﴾ وقرأها عاصم: «أمهاتُهم» برفع التاء.

﴿**إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا**﴾ [المجادلة:٢] فأعلم - جلَّ ذكره - بصدق قيله: إن نساءنا لا يكن لنا بأمهات لتظاهرنا منهن، وإنما أمهاتنا اللاتي ولدننا والدات مرضعات حاملات، وفي ذلك كله معاني الخلقة، وتماشج أمشاج ونشء عن رضاع، فيجتمع فيها من معاني اسم الرحمن - جلَّ ذكره - الخلقة والنشء والرزق والمصور، فوجب بذلك تحريمهن ألبتة، واسم الرزق والنشء في الرضاع، فوجب أيضًا بالحق الواجب تحريم المراضع، وموجود معنى الخلقة بالأخوات والأمهات والبنات، فوجب بذلك كله تحريم قرابات النسب المداني لمعاني الخلقة والنشء والرزق في مدة الافتقار إلى ذلك الرزق لتوحده بنشء الخلقة.

ولما تظاهر هذا المظاهر من امرأته وجاء من الله - جلَّ ذكره - هذا النكير

=

تَحَاوُرَكُما﴾ أيْ: يعلُم تراجعَكُمَا الكلامَ وَصيغةُ المضارعِ للدلالةِ على استمرار السمعِ حسَبُ استمرارِ التحاورِ وتجددِهِ وَفي نَظْمِها في سلك الخطابِ تغليبًا تشريفٌ لَهَا منْ جهتينِ وَالجملةُ استئنافٌ جارٍ مَجْرَى التعليلِ لِمَا قبلَهُ فإنَّ إلحافَهَا في المسألةِ ومبالغَتَها في التضرعِ إلى الله تَعَالَى ومدافعتَهُ ﷺ إيَّاهَا بجوابٍ منبئٍ عنِ التوقفِ وترقبِ الوحيِ وَعِلمَهُ تَعَالَى بحالِهِمَا منْ دَواعي الإجابةِ وَقيلَ هيَ حالٌ وهُوَ بعيدٌ وَقَولُهُ ﷻ: ﴿**إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ تعليلٌ لِمَا قبلَهُ بطريقِ التحقيقِ أيْ مبالغٌ في العلمِ بالمسموعات والمبصَراتِ وَمنْ قضيتِهِ أنْ يسمعَ تحاورَهُمَا ويَرَى ما يقارنُهُ منَ الهيئاتِ التي منْ جُملِتَها رفعُ رأسِهَا إلى السماءِ وسائرُ آثارِ التضرعِ، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في الموقعينِ لتربيةِ المهابةِ وتعليلِ الحكمِ بوصفِ الألوهيةِ وتأكيدِ استقلالِ الجملتينِ. انظر: [تفسير أبي السعود (٦ /٢٨٥)].

عليه؛ لزور قوله وتكذيبه علمنا أنه ما جعل ذلك عليه إلا لحرمة الأم الوالدة، ولم يحرم عليه من والدته النظر ولا الكلام بالمعروف، وإنما حرم الوطء والرفث الجالب للوطء.

فوجب أن يكون معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة:٣]: الوطء وما جر إليه أو كان منه بسبب؛ إذ لا خلاف في أن معنى قوله لامرأته: «أنت علي كظهر أمي»: لا أطؤك، وقد التزمت تحريمك التزامي تحريم أمي، فمعنى العود منه إذن إلى هذا، والعود هو هاهنا بمعنى المسيس؛ إذ وطؤه إياها عود إلى ما كان منه قبل التظاهر، ويمكن أن يكون معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي: لما قالوه قبل من منكر وزور، فيبطلونه أو يكذبون أنفسهم بالعود إلى المسيس، فلا يكون ذلك منهم إلا بعد الكفارة.

قال الله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة:٣] ولم يلحق المرأة بالأم لأجل زور قوله، وإنما وجبت الكفارة لنكير ما جاء به وجناه على نفسه من ذكر احترام هنا، واعتماده عليها في حرمة النكاح لاتصال حرمتها بالحرمة العليا.

يقول الله - جل من قائل: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾ [المجادلة:٤] سبيل الإيمان هنا في معرفة اتصال الحرمة بالحرمة العليا من طريق الأسماء، ولما ظاهر فذكر الظهر من أمه وألحقه الله بالنكير والزور وأوجب عليه الكفارة لاحترامه على مقاربة الحرمة وجب أنه متى ظاهر من امرأته بأمه أو بأخته أو بغيرهما من سائر ذوات المحارم، فذكر رجلها أو بطنها أو جارحة من جوارحها أن يلحق به الظهار؛ إذ جميع جوارح الأم وذوات المحارم حجر محجور من جميع وجوه الاستمتاع على الأبناء وسائر ذوي المحارم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾ فسبحوه عما قاله المبطلون، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ الله﴾ أي: فالتزموها فيما سبيله للإيمان والائتمار للآمر ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بما أنزلناه من كتاب ومن رسول، والقائلين على الله سبحانه ما قد نزهه عنه بسوق عظمته وبعالي علائه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٤] الكبت: الهلاك، وقيل هو: الغيظ، فعلى هذا تكون التاء مبدلة من دال، والكبت: أيضًا الصرع على الوجه، ويرجع ذلك كله إلى نسج واحد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: ٥ - ٨].

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [المجادلة:٥] تدل على نزاهته عما نسبه إليه الجاهلون، وتبين على نعوت تعاليه وعظم عظمته يدل أيضًا على رسالة رسولنا إليكم وصحيح ما جاءكم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا...﴾ [المجادلة:٧] هذا منتظم بما جاوزه قبل من قوله - عز من قائل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ [المجادلة:٦] ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [المجادلة:٧] ﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] فنظم بمعنى الإحصاء والعلم وصف الحضور والشهود، وهذا كله منتظم المعنى بما قبله من حرمة الأمهات لاتصالها بأسماء من مقتضيات الرحمانية.

ويمكن أيضًا أن يكون انتظام هذا الخطاب بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى﴾ [المجادلة:٧] المعنى إلى آخره بما ذكرته عائشة لما سمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس على المنبر، ويقرأ ما أنزل الله عليه، فمن ذلك تعجبت وازدادت إيمانًا إلى إيمانها، ثم قالت: «سبحان الذي وسع الأصوات سمعه لقد كلمت رسول الله ﷺ في جانب البيت ولا أسمع ما تقول له

حتى نزل القرآن بذلك» ويكون إخراج قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعلم على التذكير؛ لأن المخاطب بذلك هو رسول الله ﷺ.

فصل

ولما استوى على العرش وهو الحي القيوم حييت الجملة بمقتضى الاستواء، ولم يبق فيها جزء من أجزائها، وإن بلغ من دقته إلى ما لا ينقسم إلى أقل منه إلا وهو يشاهده علمًا وحفظًا وإحاطة وحضورًا، آية ذلك المخلوق منا يركب فيه الروح فيحيي به جملة الجسم حتى لا يبقى فيها جزء من أجزائها وإن قل إلا أحس به حامله، وإذا كان ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا يحجب بصره ولا سمعه ولا علمه حجاب ولا يتصور في حقه البعد ولا الحجب فهو الحصور.

وإذا كان ذلك كذلك فقد صحت المعية، لا يغيب عنه غائب ولا يبعد عليه بعيد الحجاب، والبعد والعسر والتعذر كل ذلك ليس في حقه، إنما عسر ذلك على سواه فلا يمنعه عبده ولا يحجبه ملكه، فإذن هي في كل مكان بما هو ومع كل أحد بما هو المكان لا يحويه، والعدد لا يحصره، يقبض المخلوق ويبسطه، لا يصعد المخلوق ولا صفته ولا فعله ولا معنى من معانيه إلى صفة من صفاته، إنما له من المكان المكانة، ومن العلو العلاء، ومن الأسماء والصفات مقتضاها.

ومن تدبر ما قرأه وتفهم ما تعلمه أدرك من تحقيق ما نحن بسبيل تبيانه ما قدر له، ألا ترى إلى الجن أين مكانهم وإن كانوا موصوفين به؟ ثم الملائكة أرفع قدرًا ومكانة، بل أين الروح من جميع الجملة وبه حييت وبه تدبيرها وبه قيامها بإذن الله جاعله ﷻ؟.

قال رسول الله ﷺ في خطبته الكبرى، وهي آخر خطبة خطبها، خرجها الحرث بن أسامة: رقى المنبر وقال: «**يأيها الناس، ادنوا وأوسعوا لمن خلفكم**» ثلاث مرات، فدنا الناس واضطم بعضهم إلى بعض والتفتوا ولم يروا أحدًا، فقال رجل منهم بعد الثالثة: لمن نوسع يا رسول الله، أللملائكة؟ فقال: «**لا، إنهم إذا كانوا معكم لم يكونوا بين أيديكم ولا خلفكم، ولكن عن أيمانكم وعن شمائلكم**»[1]

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٢٠٤).

وعلى ذلك فليسوا في مكان الأيمان منا والشمائل في المكانة من ذلك، والله ﷻ أعلى وأجل وأنزه مكانة وأكرم استواء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ٩ - ١١].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١] قرأها قتادة: «تفاسحوا في المجالس» هذا الأمر عام في مجالس الخير مجالس العلم والجمعة والجماعات والتشاور في الأمر يقع، وكان أولاً في مجلس الرسول ﷺ ﴿انشُزُوا﴾ ارتفعوا، وقرئ: «انشِزوا» لغتان، مثل: يعكُفون ويعكِفون، ويعرُشون ويعرِشون، ويفسُقون ويفسِقون، وكذلك يحسُدون ويحسِدون.

﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال ابن مسعود وابن عباس: الذين أوتوا العلم يرفعون على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات، واحتجا معًا بقول الله - جلَّ ذكره: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فلم يبق من وصف الإيمان إلا الإيمان الأعلى، فمن علم منه قوة في الإيمان كان أولى بالتقديم، وإن لم يعلم ذلك لخفائه فالله يعلمه.

لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [المجادلة: ١١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا

تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: ١٢ - ١٧].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[1] [المجادلة:١٢] نسخها الله ﷻ بالتي بعدها، وكذلك كل نسخ في القرآن إنما يتبعه بناسخه، كإيجابه على إبراهيم ذبح ابنه - عليهما السلام - ثم نسخه عنهما، وكنسخه إيجاب القتال على واحد لعشرة بقوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٦].

وهكذا ضمن الله ﷻ النسخ في كتابه العزيز بقوله الحق: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أو مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] فما هي شرط ننسخ جزم بالشرط، وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أو مِثْلِهَا﴾ جواب الشرط، وتخريج الخطاب على سبيل الشرط يعطي الإتيان بالبدل من المبدل منه بغير مهلة، فافهم فهمنا الله وإياك.

﴿وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة:١٣] يعني: عطف وعفا وخفف ونحوه.

وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤] هي: الغموس.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

---

(١) قال ابن العربي: يروى أن عليًا بن أبي طالب قال: لما نزلت الآية قال لي رسول الله ﷺ: «تصدق بدينار». قلت: لا أطيقه. قال: «فنصف دينار». قلت لا أطيقه. فقال: «بكم؟» قلت: بشعيرة فنزل قوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾. والمراد: وزن شعيرة. وقد دلت الآية على نسخ العبادات قبل فعلها، وعلى القياس في المقدرات. قال مجاهد: وأول من تصدق علي، فإنه تصدق بدينار. ثم ناجى، وقد كان رسول الله ﷺ لا يمنع أحدًا من مناجاته فكان الشيطان يقول: إن محمدًا ناجاه فلان، لأن جموعًا أتت لقتال المدينة فيحزن المسلمين ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكان المنافقون يقولون: إن محمدًا يسمع من كل أحد يناجيه، فأنزل الله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ ثم أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾.

ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:١٨ - ٢٢].

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾[1] [المجادلة:١٩] يعني: زين لهم سوء أعمالهم حتى غلبهم على أنفسهم، العرب تقول: حذت الإبل؛ أي: استوليت عليها، وبنى على أصله فقيل فيه: استحوذ على وزن: استفعل، كما بنى افتقر من الفقر، ولم يقل فيه فقر.

﴿يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٢٠] يعادون الله ورسوله.

﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١] كتب هنا بمعنى: قضى وحتم، لا يجوز لمؤمن ولا مؤمنة أن يود من حاد الله ورسوله؛ أي: من عادى الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ ثبته في قلوبهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أحياهم به وقواهم وأعانهم وشجعهم ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ﴾ [المجادلة:٢٢] أولياؤه.

---

(١) قال البقلي: إذ رأى الشيطان أن ينبت في سبحة أرض النفس الأمَّارة حنظل الشهوة يثبت إليها، ويغريها إلى إنقاذ مرادها، فتكون النفس مركبة، فيهجم على بلد القلب ويخربه، بأن يُدْخل فيه ظلمات الطبيعة وظلمات الشيطان، ولا يرى عن القلب مسلك الذكر وصفاته، فلمَّا احتجب عن الذكر صار وطن إبليس وجنوده، غلب الملعون عليه، وهذا يكون بإرادة الله سبحانه، وسببه اشتراء غرور الملعون وتزيينه، بأنْ يلابس أمر الدين بأمر الدنيا، ويغويه من طريق العلم، فإذا لم يعرف دقائقه صار فريسة الشيطان.

تفسير سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)﴾ [الحشر: ١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...﴾ [الحشر:١] ذكر التسبيح في أوائل سور بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل إعلام منه بأن كل مسبح سبحه في الماضي فهو على عبادته في المستقبل، وإن كلاً كان له مسبحًا؛ إذ لم يكن شيئًا مذكورًا سوى الله - جلَّ ذكره؛ إذ كانوا موجودين له لا موجودين لأنفسهم، بل في نوره العلي سبحانه وله الحمد وسع كل شيء رحمة وعلمًا، ثم فطرهم على ما قد كان عليهم، وفيه أيضًا إعلام بالواحدنية المحضة؛ إذ كل مسبح له عابد، وكل عابد فهو عبد لمعبوده ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ ذل كل شيء لعزته وإنقاد كل شيء لأمره ﴿الحَكِيمُ﴾ [الحشر:١] أحكم جميع الموجودات على العبادة له وفطرها على معرفته.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ

الحَشْرِ﴾[1] [الحشر:٢] يمكن أن يكون معنى ذكر الحشر هنا لأول جيش جمعه رسول الله ﷺ، ويمكن أن يكون أول الحشر إشارة إلى أرض الشام، فإنه نفاهم إلى تيما وأريحا من أرض الشام، أجلى بني النضير وعذبت قريظة بالقتل والسبا.

قال الله ﷻ: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما شاقوا الله ورسوله سلط الله عليهم رسوله والمؤمنين؛ لذلك قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢].

---

(١) ﴿هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم لأوَّلِ الحشرِ﴾ هم بنو النضير، وهم، رهط من اليهود من ذرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارًا منهم لمحمد ﷺ فغدروا بالنبيّ ﷺ بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء. قال الكلبي: كانوا أوّل من أجلي من أهل الذمّة من جزيرة العرب، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر بن الخطاب، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة ، وآخر حشر إجلاء عمر لهم. وقيل : إن أوّل الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام ، وقيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر، وهي الشام. قال عكرمة : من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام، فليقرأ هذه الآية، وأن النبيّ ﷺ قال لهم: « اخرجوا » قالوا : إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر» قال ابن العربي: الحشر أوّل وأوسط وآخر، فالأوّل إجلاء بني النضير، والأوسط إجلاء أهل خيبر، والآخر يوم القيامة وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير، ولم يخالف في ذلك إلّا الحسن البصري فقال: هم بنو قريظة، وهو غلط ، فإن بني قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» واللام في ﴿لأوّل الحشر﴾ متعلقة بـ ﴿أخرج﴾ وهي لام التوقيت كقوله: ﴿لِدُلُوكِ الشمس﴾ ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ هذا خطاب للمسلمين، أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من ديارهم؛ لعزتهم، ومنعتهم، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وعقار، ونخيل واسعة، وأهل عدد وعدّة ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ الله﴾ أي: وظنّ بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وقوله : ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر مقدّم، و﴿حصونهم﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿أنهم﴾ ويجوز أن يكون ﴿مانعتهم﴾ خبر ﴿أنهم﴾، و﴿حصونهم﴾ فاعل ﴿مانعتهم﴾ ورجح الثاني أبو حيان، والأوّل أولى ﴿فأتاهم الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي: أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك، وقيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قاله ابن جريج، والسديّ، وأبو صالح، فإنّ قتله أضعف شوكتهم. انظر: [فتح القدير (٧ /١٨٢)].

قال رسول الله ﷺ: «لتسلكن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع»[1] فلقد كان منها أيتها الأمة أكبر الذي عذب عليه، ومن أجله من كان قبلنا وكان فينا من الجلاء والتعذيب بالأسر والقتل كبير جدًا - نسأل الله لجميع المسلمين عوائد رحمته.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٧ - ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩] التبوء: الاقتطاع ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] أي: اقتطاعنا ذلك، وقد يكون التبوء: الاختبار. قال الشاعر:

لها أمرها حتى إذا ما تبوأت لا خفاء فيها مرعى تبواء مضجعا

جاء في الذين تبوأوا الدار من قبل المهاجرين: أن تُبَّعًا الأول كان جوالاً في البلاد يتطلع سير أهلها وأشكالهم، وخرج لذلك في مائة ألف وثلاثين ألف راكب ومائة ألف وعشرين ألف راجل، وكان إذا حلَّ بالبلد خرج إليه أهلها بالهدايا والتحف وبرزوا له، وعظموا شأنه ودانوا له، وكان إذا دخل البلد سأل عن علمائه وحكمائه فاختار منهم عشرة وحملهم مع نفسه، ولما جاء مكة وقد اجتمع عنده من

---

(١) تقدم تخريجه.

العلماء والحكماء أربعمائة رجل، فلما نزل بساحة مكة لم يخرجوا إليه ولا فعلوا معه ما كان يفعله غيرهم، فغضب لذلك ودعا بوزيره فسأله عن ذلك، فأخبره أنهم سدنة هذا البيت وبه يفخرون على غيرهم، وهم عبدة أصنام، فأضمر في نفسه تلك الليلة أن يهينهم ويهدم بيتهم ويقتل رجالهم ويسبي نساءهم.

فأخذه الله - تبارك وتعالى - تلك الليلة بصداع وفيح من أذنيه وعينيه وأنفه ماء يجري منها منتنًا لا يقدر أحد أن يقرب منه، فأمر بإحضار الحكماء، وعرض ذلك عليهم فعمي عليهم شأنه وقالوا: نظرنا في العلل الأرضية، وأما العلل السماوية فلا علم لنا بها.

وجاء منهم حكيم إلى الوزير وقال: أدخلني على الملك حتى أستخبره عن حاله بحضرتك، ولما دخل عليه قال: أصدقني أيها الملك ولا تكتمني شيئًا، هل نويت في هذا البيت شيئًا في نفسك؟ قال: نعم، فأخبره الخبر، قال له: أيها الملك، إن دواءك أن تتوب مما نويته، وتحول نيتك إلى الإحسان إلى البيت وإلى أهله، والإيمان برسول يولد في هذا البلد يهاجر إلى يثرب، قال: فإني قد نويت الخير فيهم، ولم يلبث العالم من عند الملك غير يسير وقد تماثلت حاله وخف شأنه، ثم توجهت صحته حتى تمكنت بقدرة الله فعجبوا لذلك، فآمن الملك والحكيم والوزير وآمن جميع عسكره.

ثم خرج من الغد صحيحًا وهو على ملة إبراهيم ﷺ وأهل عسكره، وكسا الكعبة، وهو أول من كساها، وأحسن إلى أهل مكة وأطعمهم وسقاهم، وأمرهم بحفظ البيت، وأعلى منزلة ذلك الحكيم الناصح له، وأمَّا العلماء الذين كان اختارهم لصحبته فقالوا له: لا نبرح نحن من يثرب ننتظر هذا النبي المهاجر إلى هذه البلدة الذي نطقت الكتب بوصفه والتواريخ بخروجه، يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

وبقي الوزير معهم وبذل الملك لهم الأموال، وأمر لهم ببناء منازل يسكنوها، وكتب كتابًا عنوانه: من تُبَّع الملك إلى محمد رسول الله، يا محمد يا رسول الله، إني آمنت بك وبما تجيء به من عند ربك، فإن أدركْتُكَ فنعمة من الله، وإن لم أدركك فقد دفعت كتابي هذا إلى من يبلغه إليك، فاشفع لي عند ربك فإنني آمنت بك قبل

مجيئك، ثم دفع ذلك الكتاب إلى الوزير وأمرهم بالمحافظة عليه والتبليغ عنه، فذكر أن ذلك قد كان، وذكر أن دار أبي أيوب الأنصاري مما اختطه تُبَّع، وأن أبا أيوب من ولد ذلك العالم الناصح، فالله أعلم أكان ذلك أم لا، وذكر أن رسول الله ﷺ لما عرض عليه الكتاب قال: «**مرحبًا بالأخ الصالح**»(١).

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ [الحشر:١٨] هذه الآية تأمر بمحاسبة النفوس، وإنما المحاسبة فيما مضى فمن آداب المؤتمِر لها أن يحاسب نفسه بكرة على ما مضى لها في ليلها وفي عشيه على ما مضى لها في نهارها، والأكياس يضيفون إلى ذلك المحاسبة في كل ساعة، وعند كل نفس وطرفة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر:١١ - ١٨].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر:١٨] ذكر التقوى في صدر الآية تحذير من المناهي وإهمال النفوس وإمراحها، وفي آخرها توصية بالطاعات والإخلاص له.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٦٩)، والبخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٣).

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ [الحشر: ١٩– ٢٤].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾(١) [الحشر:٢٠] تذكير ووعظ، وقرأ أبو السماك: «لا يستوي أصحاب النار ولا أصحاب الجنة».

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:٢١] أخبر ﷻ أن هذا القرآن الذي يأتي بعد هذه الآية لو أنزله على جبل لتصدع من خشيته، ويخشع لعظمة كلام ربه، وذكر أسمائه وصفاته، ونظيره هذه في سورة الرعد، وفي هذا إعلام بأن للجمادات خشوع وخشية وتعظيم يظهر الله ذلك منها لعباده ما شاء لمن شاء، وقد تجلى للجبل فصار دكًّا من جلاله، وهو العظيم المهيب المهول، وهو الرحيم العطوف الودود الحنان المنان.

وفي هذا أيضًا إعلام منه بأنه لا يحمل تجليه ولا كلامه ولا شيئًا من شأنه

---

(١) لعل تقديم أصحاب النار في الذكر؛ للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبيء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم، فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانًا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص؛ وعليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد:١٦] إلى غير ذلك. ولعل تقديم الفاضل في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] لأن صفته ملكة لصفة المفضول، والأعدام مسبوقة بملكاتها، والمراد بعدم الاستواء: عدم الاستواء في الأحوال الأخروية كما ينبيء عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة. تفسير الألوسي (٤٤١/٢٠).

أرض ولا سماء ولا كرسي ولا عرش لولا تأييده لها قصده بأمر من ذلك بأيده ورحمته ورأفته، ألا ترى أنه أنزله على رسوله، ثم على المؤمنين من عباده، فيعطي كلاً منه ما شاء برحمته، وينزل من كلامه ما شاء على من شاء كيف شاء برحمته، ويقسم لهم من فهمه بقدر احتمالهم لذلك، وقد يحجب عنهم نور كتابه بجهلهم، وأما الكافرون والمكذبون فلم يردهم به، فإذن حمل للمؤمنين بالقرآن من آياته وشواهد بيناته؛ إذ لأسمائه خواص، ولكلامه عظمة، لا يحمل ذلك إلا من أيده الله بأيده.

ولقد صعق قوم لأجله وغشي على قوم ومات آخرون؛ وإنما ذلك لزيادة الكشف على الحظ الذي أوتي من التأييد، ألا ترى أن رسول الله ﷺ أعظم الناس حظًّا من القرآن ومعرفة عظمة المتكلم، وأجزلهم نصيبًا من العلم بالأسماء مع مباشرة الإنزال وقصده إياه بالتنزيل عليه، فإذًا ما احتمله إلا لعظيم حظه المقسوم له من التأييد، فاحتمال العباد لعظمة القرآن من أعظم الآيات وأبين الدلالات على إمساكه السماوات والأرض أن تزولا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢] إلى آخر السورة منتظم بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ﴾ [الحديد:١٧] كما قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] إلى ما بعدها بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] المعنى إلى آخره، وقد تقدم في «**شرح الأسماء**» حسب الاستطاعة فأغنى ذلك عن التكرار.

واعلم أنه أول العلم وأرفعه وأسه الذي انبنى عليه سواه وإليه ينتهي، والطريق إليه هو أن تتعرف أن الأسماء المروية التي هي التسعة والتسعون هي الأمهات، ثم تعتقد أن كل اسم حسن في عرفان العقول وصفه عليًا فهو الأحق بها والأولى، ثم يجب عليك أن تنظر لكل اسم معنى كلمته باستقراء مجاري حروفه في اللغة لتعرف معناه في نفسه معرفة حسنة ثابتة، فإذا أتممت ذلك وجب عليك أن تعرف مسالكها في العالم ومجاريها في موجوداته، لتتعرف بذلك درجة كل اسم في دار القرار في الجنة والنار.

ثم إذا عرفت ذلك فأسرع الكرة ثانية إلى تعرف مسالكها أيضًا في العالم، فإذا فعلت ذلك سهل عليك الوصول بها في قضايا الديانات ومباني الإسلام ومخارجها عنها ومواقعها منها، وكيف هي كلها قواعد الوجودين العالم والوحي، وكيف تخللت معانيها العالم والوحي وشملته شهادة وغيبًا شمول الحياة والغذاء الأجسام، فعلى هذه الطريق فاسلك تصب إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تفسير سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)﴾ [الممتحنة: ١ - ٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[1] حذر ﷻ

---

(١) نزلت: ﴿ياأيها الذين ءامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبيّ ﷺ إليهم. وقوله: ﴿عَدُوِّى﴾ هو المفعول الأوّل ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ معطوف عليه، والمفعول الثاني أولياء، وأضاف سبحانه العدوّ إلى نفسه تعظيمًا لجرمهم، والعدوُّ مصدر يطلق على الواحد، والاثنين، والجماعة، والآية تدلّ على النهي عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة﴾ أي: توصلون إليهم المودّة على أن الباء زائدة، أو هي سببية، والمعنى: تلقون إليهم أخبار النبيّ ﷺ بسبب المودّة التي بينكم وبينهم. قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبيّ ﷺ وسرّه بالمودّة التي بينكم وبينهم، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا؛ ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لقصد الإخبار بما تضمنته، أو لتفسير موالاتهم إياهم، ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء، وجملة ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءكُمْ مّنَ الحق﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تلقون، أو من فاعل لا تتخذوا، ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لبيان حال الكفار. قرأ الجمهور: «بما جاءكم» بالباء الموحدة. وقرأ الجحدري، وعاصم في رواية عنه: (لما جاءكم) باللام، أي : لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به ، أي : كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سببًا للكفر توبيخًا لهم: ﴿يُخْرِجُونَ الرسول وإياكم﴾ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم، أو في محل نصب على الحال ، وقوله : ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بالله رَبّكُمْ﴾ تعليل للإخراج، أي: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كراهة أن تؤمنوا ﴿إن =

من موالاة أعدائه المشركين والمكذبين والكافرين والمنافقين، وبآخره يلحق بهم الظالمون من الموحدين، نص على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود:١١٣] وهو خطاب عموم على هذا المعنى سرد السورة من أولها إلى آخرها إلا قليلاً مما هو من هذا بسبب ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الحَقِّ﴾ هو القرآن، والرسول وما جاء به من الهدي ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ يقول - عز من قائل: يخرجونكم والرسول من أجل إيمانكم بالله وحده، يريد: قريشًا، وكان هذا قبل الفتح في المدة التي مادهم فيها رسول الله ﷺ، والذي نزل هذا الخطاب بسببه هو حاطب بن أبي بلتعة وقصته في هذا مشهورة، يقول: هكذا فافعلوا تبرأوا من موالاة من لا يؤمن بالله والرسول واليوم الآخر ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ كيف يصح لكم إيمان بالله وموالاة للرسول والمؤمنين وأنتم تلقون إليهم بالمودة ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١].

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يعني: يأسروكم، يظهرون العداوة لكم ويبسطون ﴿أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾ لكم ﴿بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢] فتكونوا مثلهم.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُمْ﴾ الذين من أجلهم توالونهم وتلقون إليهم بالمودة ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣].

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا

=

كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وابتغاء مَرْضَاتِي﴾ جواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم كذلك ، فلا تلقوا إليهم بالمودّة، أو إن كنتم كذلك، فلا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء، وانتصاب «جهادًا» «وابتغاء» على العلة، أي: إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي؛ ولأجل ابتغاء مرضاتي، وجملة : ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ، أي: تسرّون إليهم الأخبار بسبب المودّة، وقيل: هي بدل من قوله: ﴿تُلْقُونَ﴾ ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فقال: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ والجملة في محل نصب على الحال، أي: بما أضمرتم وما أظهرتم، والباء في «بما» زائدة، يقال: علمت كذا، وعلمت بكذا، هذا على أن أعلم مضارع، وقيل: هو أفعل تفضيل، أي: أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السبيل﴾ أي : من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوّي وعدوّكم أولياء، ويلقي إليهم بالمودّة، فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وضلّ عن قصد السبيل. انظر [فتح القدير (٧/٢٠٠)].

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٤– ٩].

نظم بذلك قوله – عز من قائل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ....﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤] يقول: اقتدوا بإبراهيم والذين معه في تبرئهم من الكافرين، إلا في قوله: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإن ذلك إنما كان لأمر صواب كان في حقه.

قال الله – عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهتَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على هداية الضالين وإرجاع المولين عنه ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة:٧] بعباده، يدخل من يشاء في رحمته، وهذا خطاب تعزية للمؤمنين ووعد لهم أن يأتيهم بأهليهم مسلمين، أنجزهم ذلك في المستقبل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ

فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١٣].

ختم السورة بالمعنى الذي افتتحها به قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ عم في أول السورة وخص اليهود في هذه الآية ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ﴾ أي: المشركون، ومن لا علم له بالآخرة يئسوا من لقاء من مات منهم؛ لأنهم ما آمنوا بأن يجمعهم الله في الدار الآخرة ويهود لما كفروا بعيسى ومحمد - عليهما السلام - على علم منهم وبصيرة يئسوا ﴿مِنَ﴾ خير ﴿الآخِرَةِ﴾ ويمكن أيضًا أن يوجه معنى الخطاب زائدًا إلى ما تقدم ذكره، إلى أن من التي جاءت فيه معناها التبعيض، فيكون لمعنى كما يئس الكفار الأموات الذين هم ﴿أَصْحَابِ القُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣] فإنهم وقفوا على حقيقة العلم ومشاهدة اليأس(١).

---

(١) قال ابن عباس: من خيرها وثوابها، والظاهر أن من في (من أصحاب القبور) لابتداء الغاية، أي لقاء أصحاب القبور. فمن الثانية كالأولى من الآخرة. فالمعنى أنهم لا يلقونهم في دار الدنيا بعد موتهم. وقال ابن عرفة: هم الذين قالوا : ما يهلكنا إلا الدهر، والكفار على هذا كفار مكة، لأنهم إذا مات لهم حميم قالوا: هذا آخر العهد به ، لن يبعث أبدًا ، وهذا تأويل ابن عباس وقتادة والحسن، وقيل: من لبيان الجنس، أي الكفار الذين هم أصحاب القبور، والمأيوس منه محذوف، أي كما يئس الكفار المقبورون من رحمة الله، لأنه إذا كان حيًا لم يقبر، كان يرجى له أن لا ييأس من رحمة الله، إذ هو متوقع إيمانه، وهذا تأويل مجاهد وابن جبير وابن زيد، وقال ابن عطية: وبيان الجنس أظهر، وقد ذكرنا أن الظاهر كون من لابتداء الغاية، إذ لا يحتاج الكلام إلى تقدير محذوف، وقرأ ابن أبي الزناد : كما يئس الكافر على الإفراد. والجمهور: على الجمع. ولما فتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء، ختمها بمثل ذلك تأكيدًا لترك موالاتهم وتنفير المسلمين عن توليهم وإلقاء المودّة إليهم. انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٢٦٥)].

تفسير سورة الصف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف:١ - ٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ﴾ [الصف:٥] قد تقدم ذكر عتوهم وعسر انقيادهم لرسولهم، وسوء مراجعتهم له في سورة البقرة وفي سورة الأعراف وسورة الأحزاب، واستاق هذا الخطاب تحذيرًا للمؤمنين من الوقوع في مثل ذلك مع الرسول ﷺ، وأن التحذير في ذلك لباق والأمر بالتعزيز والتوقير والإعظام والنصر لبركته، وهو القرآن والوحي والحكمة.

قال الله - جل من قائل: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] ثم حذر من فعل النصارى في نبوة عيسى عليه السلام وغلوهم فيه وكفرهم به.

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٦ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف:٦ - ٩].

ثم شملهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ [الصف:٧] وهو

يدعي إلى الإسلام إلى قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[١] أي: بما يثبتونه من كذب وإلباس على المسلمين ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [الصف:٨] هم: أهل الكتابين، وقد قال في سورة التوبة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣] فعم بالخطابين الكل، فقد أنجز من وعده ما أنجز وباقي الوعد منتظر مستقبل إن شاء الله.

وإنما كثرت الفتن وطال العهد، ولا يكون تمام الوعد إلا في آخر الزمان، والوعد إنما تضمن إظهار الإسلام على دين أهل الكتابين، فقد كان من ذلك ما كان، والمنتظر إتمام الوعد كما تقدم، وأما كفار أطراف الأرض كالحبشة والصقلب ويأجوج ومأجوج فلا دين لهم، فلذلك لم يتناولهم عموم الخطاب، وقد أدخل الله الإسلام أجناسًا كثيرة كالمجوس والترك والديلم، وكثيرًا من الحبشة، وكثيرًا من أهل البلاد النائية والأجناس البعيدة، لكن لم يدخل أولئك في معنى الاستئصال كأهل الكتابين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ

(١) تمثيل لحالهم في اجتهادهم في إبطال الحق بحالة من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها؛ تهكمًا وسخرية بهم كما تقول الناس: «هو يطفىء عين الشمس». وذهب بعض الأجلة إلى أن المراد بنور الله: دينه تعالى الحق، كما روي عن السدى على سبيل الاستعارة التصريحية، وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورَهُ﴾ و«متم» تجريد، وفي قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تورية. وعن ابن عباس وابن زيد: يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول. وقال ابن بحر: يريدون إبطال حجج الله تعالى بتكذيبهم. وقال الضحاك: يريدون هلاك الرسول ﷺ بالأراجيف. وقيل: يريدون إبطال شأن النبي ﷺ وإخفاء ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم، فقد روي عن ابن عباس أن الوحي أبطأ أربعين يومًا فقال كعب بن الأشرف: «يا معشر يهود، أبشروا أطفأ الله تعالى نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتم نوره» فحزن الرسول ﷺ فنزلت ﴿يُرِيدُونَ...﴾ إلى آخره. تفسير الألوسي (٢٠/٤٨٦).

مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف: ١٠ - ١٤].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠] المعنى إلى آخره، فذكر الجهاد في سبيله والإنفاق، وأعلم بأن ذلك خير لنا؛ إذ في ذلك عز الدنيا والآخرة وخيرهما.

ثم قال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ﴾ أي: معجل ومؤجل ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ لكم؛ يعني: الصحابة، وهو ما أصابوه من فتح مع رسول الله ﷺ وبعده والتابعون وتابعوهم، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣] أي: بفتح يكون لهم في آخر الزمان، كما قال: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: ما أصابوه قبل، ثم قال: ﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي: هذه الغنائم ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: على مغانم لم تقدروا أنتم عليها، ثم قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢٠].

هذا وعد مستقبل، وقد كان تحصلت لهم الهداية إلى الصراط المستقيم برسول الله ﷺ وبالقرآن المنزل عليه والوحي علم - تبارك وتعالى - أن الفتن ستكثر والصراط يخفى أثره إلا ما شاء الله من ذلك، فوعدنا بالهداية إلى الصراط المستقيم بعد ذلك إن شاء الله ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] على ذلك الفتح والهداية إنك عليم قدير.

نظم بذلك قوله - جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1] [الصف:١٤] وأنصار عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه

---

(١) ندب المؤمنين إلى النصرة ووضع لهم هذا الاسم، وإن كان قد صار عرفًا للأوس والخزرج، وسماهم الله به، وقرأ الأعرج وعيسى وأبو عمرو والحرميان: أنصارًا لله بالتنوين؛ والحسن والجحدري وباقي السبعة: بالإضافة إلى الله، والظاهر أن كما في موضع نصب على إضمار، أي قلنا لكم ذلك كما قال عيسى. وقال مكي: نعت لمصدر محذوف، والتقدير: كونوا كونًا. وقيل: نعت لأنصارًا، أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال: (من أنصاري إلى الله). والحواريون اثنا عشر رجلاً، وهم أول من آمن بعيسى، بثهم عيسى في =

عليه - فلم يظهروا بعد، بل قتلوا تحت كل نجم ومزقوا كل ممزق إلا قليل منهم، وقد تقدم ذكرهم في آخر سورة الحديد، فقوله ﷻ: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] وعد حق منتظر قد كان منه ما شاءه الله تعالى وتمامه مؤجل إلى وقت، كما قال - عز من قائل: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهذا قد مضى وتقضى، ثم قال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهذا مستقبل منتظر، ثم قال: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:٥٥] فافهم.

الآفاق، بعث بطرس وبولس إلى رومية، وأندارس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس، وبوقاس إلى أرض بابل، وفيليس إلى قرطاجنة وهي إفريقية، ويحنس إلى أقسوس قرية أصحاب الكهف، ويعقوبين إلى بيت المقدس، وابن بليمن إلى أرض الحجاز وتستمر إلى أرض البربر وما حولها، وفي بعض أسمائهم إشكال من جهة الضبط، فليلتمس ذلك من مظانه. انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٢٧٠)].

تفسير سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة:١ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢] عربيًا أميًا، الكتاب المتلو: هو القرآن، والحكمة: السنة ومفهوم القرآن.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة:٣] يريد: من الأميين، كالفرس والحبشة والترك والديلم والبربر وغيرهم من الأجناس، وهم المعنيون بقوله الحق يخاطب العرب: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨] فقد تولوا في ولاية بني أمية وظلموا واستأثروا، فأدال الله من أولئك بني العباس وتحيدوا الفرس والترك والديلم، واستبدلوا من العرب، ثم لم يكونوا أمثال أولئك، فإن تلك على علاتها كانت دولة عربية، ولقرب العهد تأثير وبقية نور، والله المستعان.

ثم يتناول الخطاب استبدال آخرين في آخر الزمان، ثم لا يكونوا أمثال هؤلاء وهؤلاء، أشار إلى فضل هذه الإدالة وصحاتها بقوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

نظم بذلك قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(١) [الجمعة:٥] وقرأ عبد الله: «كمثل حمار يحمل أسفارًا» بغير ألف ولام، لما ذكر الأميين، وأنه حباهم من فضله برسوله المرسل إليهم منهم، وأنه هداهم به إليه الصراط المستقيم، نظم بذلك ذكر أهل الكتاب ونبذهم إياه بالتبديل والتغيير وترك النصيحة لله - جلَّ ذكره - فيه لمن آمن بالله ورسله وإلباسهم الحق بالباطل وكذبهم عليه.

فصل

ضرب الله لقراء السوء مثلاً بالحمير هنا وبالكلاب في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] إلى قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦] ووصف أحوالهم بأقبح وصف وسيرهم بشر سيرة وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ فهذا إيمانه وشهادته بالقول ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤] كقوله متى عوتب: ليس إلي من الأمر شيء، لو شاء الله هداني، ونحو هذا.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥] وجعل من علاماته: إنه متى عوتب في شأنه ووعظ بالله أو آمن بتقوى الله أخذته العزة بالإثم؛ أي: عاقب الوعاظ بأشد عقوبة لعزته، وعبر عن إنفاذ مراده في ذلك بالإثم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦] كما

(١) هي جمع: سفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل؟ فهكذا اليهود. وقال الجرجاني: هو يعني: حملوا من الحمالة؛ بمعنى: الكفالة؛ أي : ضمنوا أحكام التوراة، وقوله: ﴿يَحْمِلُ﴾ في محلّ نصب على الحال، أو صفة للحمار؛ إذ ليس المراد به حمارًا معينًا، فهو في حكم النكرة. فتح القدير (٧/٢٢٠).

قال فيهم أيضًا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني: أمر المسلمين ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٢ - ٢٣].

تفسير سورة المنافقين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون:١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ هؤلاء وافقوا الحق بظاهر قولهم، ولما لم تكن الشهادة عن علم ونية أكذبهم الله - جلَّ ذكره - وذمهم، فلم يحمد قولهم بقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] أي: على أنفسهم أنهم يشهدون برسالتك، ففقه هذا أن قول الحق من شرطه أن يتصل ظاهره بصحة باطنه وسره بعلانيته، فمتى خالف ذلك فهو كذب، كذلك الأحكام والعبادات وإن وافقت في إخراجها الحق إذا لم تكن على مقتضى السنة فهي كذب.

قال الله ﷻ في حد الزنا: ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣] ومن الممكن أن يشاهد الشاهدان شهادة حق ويرتاب الآخران، ويشهد الثلاثة ويرتاب الرابع في تعيين صورة المشهود عليه لتقديره، ولما لم تتم الشهادة على حدودها أكذبهم الله ﷻ.

تبيان

أما الله - جلَّ ذكره - فعنده الغيب ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

ومن شأنه في فعال كرمه وجميل ستره الرحمة بعباده، فحد هذا الحد على ما هو عليه من التعذير وبعده على المشاهدة، وأنزل كلامه هذا - جل كلامه وتعالى علاؤه وشأنه - في قصة ظاهرة بره، فوسع كلامه العلي الحكم والصدق من جميع جهاته، فالذين جاءوا بالإفك في شأن عائشة لم يأتوا على ما قالوه بأربعة شهداء، فهم الكاذبون عند الله - جلَّ ذكره - وعند المؤمنين، وأما في قصة لم يكشف الغيب ما كشفه في هذه، وشهد شهود عدل على حد الشهادة في ذلك، فالحاكم صادق عند الله - جلَّ ذكره - وعند المؤمنين من حيث عمل بما أمروا، والشهداء عند الله على علم الله ﷻ فيهم من برهم أو كذبهم.

قوله ﷻ في المنافقين: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[(١)] [المنافقون: ٤] يقال للعيدان الضخمة: خشب، لما أن قطعت من منابتها فارقها روح النبات فهو موات لذلك في منزلتها من الحياة، ولما كان المنافقون قد عدموا روح الحياة كانوا لذلك أمواتًا، فشبههم بالخشب المسندة إلى حائط أو غير ذلك؛ لكون المنافقين قيامًا وقعودًا وعلى غير ذلك من أحوالهم، ولخاصة في حكم هذا التشبيه بحالهم في قيامهم قد عدموا روح الحياة لا توكل عندهم ولا إيمان بالله - جلَّ ذكره، وبوقايته لأهل الإيمان فهم لذلك يحسبون كل صيحة عليهم.

---

(١) مستأنفة لتقرير ما تقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائي وتروق الناظر، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، شبّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لا تفهم ولا تعلم، وهم كذلك لخلوّهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه، قال الزجاج: وصفهم بتمام الصور، ثم اعلم إنهم في ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب. قرأ الجمهور: «خشب» بضمتين، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وقنبل بإسكان الشين، وبها قرأ البراء بن عازب، واختارها أبو عبيد؛ لأن واحدتها خشبة كبدنة وبدن، واختار القراءة الأولى أبو حاتم. وقرأ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب بفتحتين، ومعنى ﴿مُسَنَّدَةٌ﴾: أنها أسندت إلى غيرها، من قولهم: أسندت كذا إلى كذا، والتشديد للتكثير. [فتح القدير (٢٢٦/٧)].

السيف: الخشب، والمخشوب: الذي لم يحكم عليه، ويقال: قدح مخشوب: إذا نحت بعد العمل، وجبهة خشبًا: يابسة، ورجل خشب ومخشوشب: إذا كان عاري العظام من اللحم، فيكون على ذلك أخشب؛ أي: غليظًا، وأخشبا مكة: جبلاها؛ لغلظهما، بالإضافة إلى جملة ما هي مكة عليه من كونها واديًا، فالمنافقون على هذا أموات غير أحياء؛ لعدمهم روح الإيمان كما عدمت الخشب روح النبات لأجل مفارقتها بالقطع منابتها.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ٧ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾(١) [المنافقون: ٩] إلى آخر السورة هذا وعظ من الله - جلَّ ذكره - للمؤمنين أن يشغلوا قلوبهم وأنفسهم بأموالهم وأولادهم وأهليهم عن ذكر الله وحسن عبادته، بل الواجب أن يفرغوا أنفسهم وقلوبهم لله تعالى، ويتوكلوا في أنفسهم وبنيهم وأموالهم على الله، وأن يعزلوا أنفسهم له عن العمل لهم إلا ما كان من ذلك عبادة لربهم، وإلا فقد خسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

---

(١) قال البقلي: بيان أن من لم يبلغ درجة التمكين في المعرفة، لا يجوز له الدخول في الدنيا من الأهل والمال، فإنها شواغل قلوب الذاكرين عن ذكر الله، ومَن كان مستقيمًا في المعرفة وقرب المذكور فذكره قائمٌ بذكر الله إياه، وذلك حظُّه بأن جعله محفوظًا من الخطرات المذمومة، والشاغلات المحجبة، والضعفاء لا يخرجون من بحر هموم الدنيا، فإذا باشرت قلوبهم الحظوظ والشهوات لا يكون ذكرهم صافيًا عن كدوريات الخطرات.

ثم قال: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ يعني: أنفق مما رزقتني ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠] أي: أشغل نفسي بعبادتك والعمل لك، والنظر ليوم لقائك، كما يقول الآخر: يا ليتني قدمت ليوم حياتي.

ابن عباس قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو يجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت» فقال رجل: اتق الله يا ابن عباس، إنما سأل الرجعة الكفار، قال: «سأتلو عليك بذلك قرآنًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ [المنافقون:٩] إلى قوله: ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١١].

وذكر ابن عباس ﷺ الإنفاق ووعظ فيه؛ إذ ذلك يومئذٍ يقرب الخوف عليه من التضييع، وسكت ﷺ عن الاشتغال بالمال والولد والأهلين عن العبادة، لأن العبادة يومئذٍ كانت شائعة، والاشتغال بالله - جلَّ ذكره - دون من سواه معهود في ذلك الزمان.

تفسير سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾ [التغابن: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ معهود الملك أن يكون في مملكته الولي والعدو، والموالف والمخالف، والطائع والعاصي، والملك ينتقم ويثيب ويعاقب، ويقدم ويؤخر، ويرفع ويضع، ويولي ويعزل، ويعطي ويمنع، ويقرب ويبعد، ويغفر ويعذب، لذلك خلق خلقه مؤمنًا وكافرًا وجعلهم أطوارًا.

قال رسول الله ﷺ: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ثم جاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»**(١).

نظم بذلك قوله: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ قد تقدم الكلام فيه حسب الطاقة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(٢) صورة على صورة الحق، كذلك صور باطنه على أحسن تقويم لما فطره على الإسلام عرض بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، ومسلم (٢٧٤٩)، وعبد الرزاق عن معمر في الجامع (٢٠٢٧١) والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٠٢).

(٢) أي: خلقكم في أحسن صورة. قال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله. قرأ الجمهور: (صوركم) بضم الصاد، وقرأ الأعمش، وأبو رزين بكسرها. قال الجوهري: والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها. انظر [فتح القدير (٦ /٣٣٣)].

﴿الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٣] إلى الوعد والوعيد، فمصير من ثبت على فطرته إلى الجنة والرضوان، ومصير من خالف هداية فطرته إلى أسفل السافلين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن:٥] ينتظم هذا بذكر الكافرين من خلقه في صدر السورة، غير أن ذلك من حكم العدل الأول، وهذا حكم السنة وهو العد الثاني، وبه يقع الجزاء وعليه يتوجه الوعيد.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٢ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾ [التغابن: ٧ - ١٣].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ من هنا أتوا لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا بالرسل والكتب، وربما آمن من آمن منهم ببعض وكفر ببعض أجابهم الله ﷻ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن:٧].

نظم بذلك قوله: ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ هو: القرآن والحكمة والهدي ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن:٨] فيه؛ أعني قوله: هذا وعيد وتهديد، وفيه أيضًا رجاء كما قال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٩].

أتبع ذلك نظمًا به قوله الحق: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[١] [التغابن:٩] كلام منتظم بعضه ببعض متسق، غبن المؤمنون الكافرين: اعتاض بعضهم منازل بعض في الجنة والنار، وغبن ما هنالك عظيم، وخسارة ما هنالك خسارة شنعاء، لما شرى المؤمنون الآخرة بالدنيا والمغفرة بالعذاب، وشرى الكافرون الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، نسأل الله معافاته ومغفرته.

نظم بذلك ما يعزي به المؤمن في مصابه في الدنيا والأهل والولد، والمفهوم من ذلك: أن يوطن العبد نفسه في الدنيا على ذلك، وعلى ذلك فلن يصيبه إلا ما كتب عليه؛ ليعوضه مما عنده ويدخر له ما هو الأفضل الباقي.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] يقول هذا على النفوس عسير المسلك، لكنه ميسر على من آمن بالله وتوكل عليه، وقراءة الأعمش: «**يهدي قلبه**» بياء ثابتة في الوصل، والوقف بغير ياء، قراءة طلحة بن مصرف: «**نهدي قلبه**» بنون، الضحاك: «يهدى قلبه» على مفعول ما لم يسمَّ فاعله، وروي عنه: «**يُهدِ قلبَه**» بضم الياء وكسر الدال ونصب الباء من **قلبه**، عمرو بن دينار: «**نهدأ قلبُه**» بالهمز ورفع الباء من **قلبه** من الهدوء والسكون والهداية، وإذا سكن القلب لذكر الله واطمأن رضي بالعوض، فليكن عنوان ذلك أن يخرج على لسانه كلمة التفويض: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

---

(١) الغبن كل الغبن ألا يعرف مكان خطابه والطاقة التي ظهرت له في الدنيا والآخرة بلباس القهريات ومكان الامتحان، وربما زاده الحق في أوحش مقام وهو مشغول الرسم، ولم يعرف شرف حاله، فكان مشغولاً عنه برسم الاعتذار والعبودية، فيا رُبَّ صفاء في الكدورة، ويا رُبَّ مكاشفة في المعصية، اكتم يا أخي غيب الحق بستر غيره حتى لا يكون السر ظاهرًا لأهل الرسوم، فيسقطون من إيمانهم، يقع الغبن يوم التغابن لمن كان مشغولاً بالجزاء والعطاء ورؤية الأعواض ورؤية المعصية والطاعة، ومن كان شاهد الحق خرج من وصف الغبن؛ إذ الغبن من أوصاف من كان غائبًا عن مشاهدته، فإذا استغرق في بحار جماله وجلاله لا يبقى عليه فرح الغبن، ولا حزن الفوت، إذ الكل غابن له، وسقط عند ذكر ما مضى وما يستقبل، ولي لسان آخر في التوحيد أن الكل يقع في الغبن، إذا عاينوا الحق بوصفه وهم وجدوه أعظم وأجل مما وجدوا منه في مكاشفتهم في الدنيا، فيكونون مبهوتين متحيرين مغبونين؛ حيث لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، ولا يعرفون أبدًا حقيقة المعرفة، وأي غبن أعظم من هذا؛ إذ يرونه ولا يصلون إلى وجوده بالحقيقة.

وقد تقدم تفسيرها في سورة البقرة، لا بد من الرجوع إلى الله ﷻ كما لا بد لنا من الموت، وكما لا بد لنا من الحياة بعد الموت، وكما خلقنا من الأرض ثم يعيدنا إليها، كذلك لما كان أول الوجود عنه وبه ومنه فلا بد من العود إليه والإرجاع إليه، لذلك قال بعضهم:

ألا أننا كلنا بأيد فأي بني آدم خالد
بدؤهم كان من عنده وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فكنا أولاً في علمه وقدرته ومشيئته موجودين له لا موجودين لأنفسنا، ولما أوجدنا وأظهرنا لأنفسنا كنا بأنفسنا له ملكًا وعبيدًا، وبذلك كان علمه بنا في حيث لم نكن، وكان هو لنا بما كنا له ثم نحن إليه راجعون، نسأل الله البر الرحيم أن يجعلنا ممن أسعده بلقائه وأكرمه بإرجاعه إليه في يسر وفي عافية.

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن:١٣] انتظم هذا بذكر الطمأنينة عند المصيبة والرضى بالقضاء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [التغابن: ١٤ - ١٨].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ...﴾ [التغابن: ١٤].

سئل ابن عباس عن هذه الآية قال: «هؤلاء قوم أسلموا من أهل مكة وأرادوا

أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى عليهم أزواجهم وأولادهم ذلك، فلما أتوا رسول الله ﷺ وجدوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التغابن:١٤] إلى آخر السورة».

وفيه التحذير من أن يتشاغل العباد بأموالهم وأولادهم عن الله - جلَّ ذكره - والتوصية بأن يتقوا الله حسب الاستطاعة، وأن يسمعوا لله ولرسوله، ويطيعوا وينفقوا مما رزقهم الله، ويحذرهم الشح والبخل فيه، والوعد بالتضعيف على الأعمال والإنفاق.

﴿وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٧ - ١٨] فهو خطاب عام وأمر شامل في التحذر من الأزواج والأموال والأولاد أن يشغلوا عن الله.

تفسير سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ١ - ٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] قرأ ابن عباس:

---

(١) فيها مسائل: المسألة الأولى: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فلما أتت أهلها، نزلت الآية. وقيل له: راجعها، فإنها صوامة. وهي من أزواجك في الجنة، والخطاب لرسول الله ﷺ، وأتى بلفظ الجمع تعظيمًا وتشريفًا. وقيل: الخطاب له. والمراد أمته، والمعنى يا أيها النبي قل لأمتك، إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن، والمراد النساء المدخول لهن إذ لا عدة على غير المدخول بها، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وقيل: لعدتهن أي في عدتهن، لأن اللام تأتي بمعنى في، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾. أي في حياتي. المسألة الثانية: قال مالك والشافعي: المعتبر زمان الطهر لأن الأقراء الأطهار. وقال أبو حنيفة: المعتبر زمان الحيض، لأن الأقراء: الحيض وفي الحديث: «فطلقوهن لقبل عدتهن». وقد طلب عبد الله بن عمر زوجته في الحيض فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ، ثم قال: «مرة فليراجعلها، ثم يمسك حتى تطهر ثم تحيض ثم تطر، فإن بدا له أن يطلقلها، فليطلقها طاهرًا، قبل أن يمسها». فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء. المسألة الثالثة: الطلاق سني وبدعي. أما السني، فقال علماؤنا: هو ما اجتمعت فيه سبعة شروط، وهي أن يطلقها واحدة، طاهرًا، وهي ممن تحيض، ولم يمسها، في ذلك الطهر، ولا تقدمه طلاق في حيض، ولا تبعه طلاق، في طهر يتلوه وخلا عن العوض، وهذه الشروط مستقرأة من حديث ابن عمر. وقال الشافعي: طلاق السنة، أن =

يطلقها في كل طهر خاصة. ولو طلقها ثلاثًا في طهر لم يكن بدعيًا، وقال أبو حنيفة: طلاق السنة: أن يطلقها في كل قرء طلقة، وقوله ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي احفظوها والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. والأمر بالإحصاء خاص بالأزواج، وقيل: خاص بالزوجات، وقيل: للمسلمين. فائدة: أسباب العدة أربعة: الطلاق، والفسخ، والوفاة، وانتقال المالك، فالوفاة والطلاق مذكوران في القرآن، والفسخ محمول على الطلاق، والاستبراء مذكور في السنة وسمي الاستبراء عدة، لأنه يقع في مدة ذات عدد، وفروع ذلك مذكورة في كتب الفروع، وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾. جعل الله للمطلقة السكنى فرضًا لازمًا، وحقًا واجبًا، وفيه حق الله تعالى لا يجوز إمساكه عنها، ولا يجوز لها إسقاطه عن الزوج، وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾. المراد إضافتهن إلى البيوت، بمعنى الإسكان، فإن الزوج لا يجوز له إخراج المطلقة في زمن عدتها من بيت سكناها، ولا يجوز لها أن تخرج منه. تنبيه: ذكر الله تعالى الإخراج، والخروج، ومنع من ذلك، لكن جاء في مسلم عن جابر أن خالته أذن لها رسول الله ﷺ بجذاذ نخلها، وفي الصحيحين أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها بآخر الثلاث، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا نفقة لك، ولا سكنى» وفي مسلم: «أن فاطمة قال لرسول الله ﷺ: إني أخلف أن يقتحم علي، فقال لها: اخرجي» وفي البخاري: «إن عائشة قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخيف عليها». وفي الصحيح: «إن عمر قال في حديث فاطمة بنت قيس لا ندع كتاب ربنا ولا سنة نبينا. لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت؟» وقد أنكره عمر متمسكًا بالقرآن، فإنه تعالى يقول: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾. وهو عموم في كل مطلقة، وقد ردته عائشة بعلة التوحش، ورأت أن الخروج لعذر يجوز، وفي الصحيح: «إن فاطمة قالت: بيني وبينكم كتاب الله. قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. فأي أمر يحدث بعد الثلاث، فبينت أن التحريم ليس في الإخراج والخروج. إنما في الرجعة. قال القاضي أبو بكر: ظهر من هذا أن لزوم البيت للمعتدة شرع لازم، وأن الخروج لأجل حاجة المعاش وخوف عورة المسكن جائز بالسنة. تفريع: أما الخروج للتوحش والإذاية وطلب المعاش، فيكون انتقالاً محضًا، وأما الخروج للتصرف في الحاجات، فيكون نهارًا لا ليلاً، إذ لا سبيل لها إلى المبيت عن منزلها، وإنما بالأسحار، وترجع قبل نزول فحمه الليل، قال مالك: ولا تخرج دائمًا، وإنما تخرج إن احتاجت إلى الخروج، وإنما تخرج في العدة كما تخرج في النكاح، لكن النكاح يتوقف الخروج فيه على إذن الزوج، والعدة يتوقف الخروج فيها على إذن الله تعالى، وإذنه إنما هو بسبب الحاجة. المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. الفاحشة، هنا الزنا، وقيل: إنها كل معصية، واختاره الطبري. وقال ابن عمر: هي الخروج من المنزل. وقوله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. قال المفسرون: الأمر هنا: الرغبة في الرجعة، ودلت الآية على طلاق الواحدة. وعلى النهي عن الثلاث، لأن فيه إضرارًا على المطلق إذ لا يجد سبيلاً إلى الرجعة.

«لقبل عدتهن» وقرأ ابن عمر ومجاهد: «في قبل عدتهن» وروي ذلك عن ابن عباس، وروى ابن عمر القراءتين عن النبي ﷺ جميعًا، وقرأ ابن مسعود: «لقبل طهرهن».

أتبع ذلك قوله - جلَّ ذكره: ﴿وَأَحْصُوا العِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ هذا خطاب متوجه إلى الأولياء والحكام ألَّا ينكحن في العدة ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق:١] وقرأ أبي: «إلا أن يفحشن عليكم».

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ﴾ أمر - جلَّ ذكره - المستشهدين بتخير العدول في الإشهاد، وأمر الشهداء بإقامة الشهادة لله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ – ٣] خطاب شامل وأمر عام، فليرج ذلك من ربه كل مؤمن.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ٦ ﴾ [الطلاق: ٤ – ٦].

وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] ويهيئ له من أمره رشدًا.

أتبع ذلك قوله - جل من قائل: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: الذي أنبأتكم به من الأمر بالتقوى والوعد عليه باليسر والرشد والفرج وحسن المخرج من صعاب الأمور، أمر الله أنزله إليكم واليسر في الأمور وكفاية صعابها والرزق بغير حساب، ولا تجشم مؤنة من أمر الله - جلَّ ذكره - في الجنة أنزله إلينا في هذه الدار لأهل التقوى والعمل الصالح.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥].

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق:٦] قرأ الحسن وأبو حيوة: «من وجدكم» بفتح الواو، وبالكسر قرأها الفياض بن عروان ويعقوب في رواية روح عنه.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ٧- ١٢].

أرجع الكلام إلى الخطاب في أحكام النساء والطلاق والتوصية بهن إلى قوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧] فقد فتح الله عليهم وكانوا في ضيقة وفقر، ثم فتح عليهم جزيرة العرب ومعادنها وخيراتها، وحتى فتح عليهم فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق:٨] أخذ في الوعظ إلى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق:١٠] هو: القرآن والوحي.

﴿رَسُولاً﴾ ويجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل تقديره وأرسلنا إليكم رسولاً، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿ذِكْرًا﴾ فيكون الرسول بما أنزله الله عليه من القرآن والحكمة ذكرًا يؤيد هذا التأويل.

قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ يعني: ظلمات الجهل والشرك والغفلة ﴿إِلَى النُّورِ﴾ نور الذكر والتوبة

ومزيد الإيمان بعد الإيمان والعمل على ذلك، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] هذا - والله أعلم - هو الإيمان الأول، والذي تقدم ذكره هو الإيمان المجدد بالتفكر والذكر والنظر.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] وقرأ عصمة عن أبي بكر عن عاصم: «مثلُهن» برفع اللام، هذه آية المعرفة، يعلم عباده سبيل النظر والاستدلال؛ ليتوصلوا إلى معرفة بارئهم، فإنه من خلق سماء واحدة فهو لا شك قادر على أن يخلق أخرى، ومن خلق سبع سماوات فهو قادر على أن يخلق مثلهن، وكذلك من الأرضين، ومن خلق السماوات السبع والأرضين السبع فأمره يتنزل بينهن، وما كان هكذا فلا يجوز في ذلك شرك لشريك ولا نصيب لدعي، تعالى الله عن ذلك.

ومن كان هكذا فهو القادر بلا امتراء على أن يبدلهن بغيرهن، وإذا فعل ذلك فهي الآخرة، فهو رب الدنيا والآخرة، وأمره الآن يتنزل من السماوات السبع والأرضين السبع بما هن دنيا وبما هن أخرى، وكذلك فيما فوق ذلك وفيما أسفل من ذلك و﴿اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق:١٢].

آية ذلك: قيامها على ما هي عليه وقيامها على ذلك لا يكون منها ولا بذواتها، ولا بد لهن من مقيم قائم قيوم يقيمهن، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ أي: بخلقه هذه الجملة أنه قادر على أمثالها من التضعيف فيما صغر وتناهى ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ طريق هذا يؤخذ من قوله: ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، كذلك ليس بخفي عليه ما هو كائن كما قد علم ما هو الآن من تنزل الأمر بينهن قبل أن يكون، ثم أوجده ودبره على ما سبق به علمه كذلك يعلم ما لا يكون أبدًا ولم لا يكون، وكيف كان يكون لو كان وما هو بعلمه يقدر عليه إن شاء فهو العليم القدير.

تفسير سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ
ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا
فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا
قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن
طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ
وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم: ١ – ٥].

قوله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ...﴾** [التحريم:١] ذكر ذلك كان حرم على نفسه شربة عسل كانت زوجه زينب - رضي الله عنها - تسقيه في قصة فيها طول، وقال:«**لا أشربها أبدًا**»[1] وقيل: إن ذلك المحرم على نفسه ألا يضاجع جاريته مارية في بيت بعض نسائه لأمر حدث بينهن، وكان قد أسر إلى عائشة حديثًا فأطلعت عليه حفصة، فأنزل الله هذه الآيات في ذلك.

وجاء عن أنس: «**أن نبي الله ﷺ كانت له أمة يطأها فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرمها على نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾** [التحريم:١]»[2] والمراد منها: أن العبد إذا حلف على حلال ليحرمه فالمخرج له من ذلك كفارة يمين بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٨٢٤).

ثم أتبع التحريم بقوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[(١)] [التحريم:٥] إلى قوله: ﴿وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ...﴾ [التحريم:٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ [التحريم:٦- ٨].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] وعظ الله عباده ليقوموا له أنفسهم وأهليهم.

نظم بذلك جزاء الكفار قوله - عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم:٧] إنما يتصور مطابقة الجزاء بالنار أو بالجنة للعمل في الدنيا يتصور ما قد تقدم ذكره من خلق الله - جل ثناؤه - الدنيا نبذة من الآخرة جنتها ونارها وسعيرها وزمهريرها، ولما ضيعوا النظر لم يفقهوا عن الله في مصنوعاته موجودات الآخرة ولا معرفة الله ﷻ، وصمموا في رد الكتب

---

(١) الخطاب لجميع زوجاته ﷺ أمهات المؤمنين على سبيل الالتفات، وخوطبن لأنهن في مهبط الوحي وساحة العز والحضور، ويرشد إلى هذا ما أخرج البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فنزلت هذه الآية، وليس فيها أنه ﷺ لم يطلق حفصة، وأن في النساء خيرًا منهن مع أن المذهب على ما قيل؛ إنه ليس على وجه الأرض خير منهن؛ لأن تعلق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة، والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه، وجوز أن يكون الخطاب للجميع على التغليب، وأصل الخطاب لاثنتين منهن؛ وهما المخاطبتان أولاً بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ [التحريم: ٤] إلخ، فكأنه قيل: عسى ربه إن طلقكما وغيركما أن يبدله خيرًا منكما ومن غيركما من الأزواج، والظاهر أن عدم دلالة الآية على أنه ﷺ لم يطلق حفصة، وأن في النساء خيرًا من أزواجه ﷺ على حاله؛ لأن التعليق على طلاق الاثنتين ولم يقع، فلا يجب وقوع المعلق ولا ينافي تطليق واحدة. تفسير الألوسي (٢١/٩٩).

وفي تكذيب الرسل، ولم يتذكروا بها ولا صدقوا بآياته في الوجودين الوحي والعالم أدخلهم جهنم يوم القيامة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠].

ولما آمن المؤمنون بالله ﷻ وبالوجودين الوحي والعالم وصدقوا الرسل والكتب أدخلهم في اليوم الآخر الجنة، وقيل لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤] ثم أعلم أن لكل عمل من الطاعات فيما هنالك جزاؤه المطابق له، وكذلك أعمال توجب النار وما فيها.

كذلك نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨] يعني: مزيد الإيمان الذي تقدم ذكره في تفسير قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] ومن لم يطالب نفسه في كل يوم بالتوبة النصوح والتطهر ويفتشها ويحاسبها ويتطلب المعرفة ويسأل ربه المزيد من الإيمان واليقين والعلم، وإلا خلفت ذلك الغفلة والنسيان وطال الأمد في ذلك فتحققت القسوة، وربما أضن إلى النكوص ثم التزيين، نسأل الله المعافاة والتوبة النصوح الخالصة.

قيل: إن ذلك مأخوذ من النصاح، وهو الحائط؛ أي: توبة مفردة لا يتعلق بها سواها، كالحائط المفرد من كل شيء سواه، وربما كان مأخوذًا من النصيحة، وذلك بأن ينصح لله ولرسوله وللمؤمنين ولنفسه ولأهله ولإمامه ولعامة المسلمين وخاصتهم، ولا يبلغ حقيقة التوبة حتى يكون هكذا ويحل هذا المحل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ

بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ٩ – ١٢].

نظم بذلك قوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠] كانت امرأة نوح عليه السلام كافرة، وامرأة لوط كانت منافقة، فكان لها نظر إلى الكفرة ونظر إلى لوط عليه السلام وأهل بيته.

قال الله – عز من قائل: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥] هم: لوط عليه السلام وبناته ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] هو: لوط وبناته وزوجه، فلما أخرج أهل البيت وأمرهم الله ألَّا يلتفت أحد منهم، فالتفتت المرأة فمسخت لذلك تمثالاً مالحًا، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] فلم ينفع المؤمنان الكريمان على ربهما امرأتيهما ولا أغنيا عنهما من الله شيئًا.

أتبع ذلك ما هو منتظم المعنى به قوله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] هذه مؤمنة كانت تحت كافر لم يضرها زوجها بكفره ولا انتفع بإيمانها ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

ثم قال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ﴾ هذه في مقابلة امرأة لوط عليه السلام ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: مريم هذه صديقة، رفعت في درجات الزلف وعلت إلى الإيمان العلي، يقول الله – جل ثناؤه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] فذاك كفر نفاق وما هو أكبر منه، وهذا إيمان ثم إيمان في إيمان وطهارة وعبادة، فعوفيت واستخلصت، وأتم عليها رب العالمين النعمة.

تفسير سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٦) إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١٠) فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١١)﴾ [الملك: ١ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) [الملك: ١]

---

(١) قال المصنف: تبارك: أي: لم يزل الله بأسمائه الحسنى والصفات العلا، واستحال عليه ضد ذلك، ثم أوجد كل شيء، وكان هذا أيضًا في بابه بمنزلة تكرم وتعالي وتمجد وتعزز وتقدس، وربما أتى بيان معنى هذا البناء، أعني التفعل في الأسماء كالمتكبر والمتعالي والمتعاظم، ونحو ذلك في باب مفرد إن شاء الله، وهو المستعان. وتبارك الله تفاعل البركة والخير والفضل في إظهار الأسماء الحسنى وإعلان الصفات العلا، ومقتضيات ذلك من الوجود أجمع كان جَلَّ ذِكْرُهُ أحدًا في كونه النزيه العَليّ، ثم جاد بجوده الكريم فقدر المقادير ثم خلق الخلائق وقضى القضايا، فكان في ذلك أن أوجد العرش العظيم والكرسي الكريم والملائكة المكرمين والأنبياء والمرسلين والأولياء والصادقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وأوجد لذلك الإيمان والإسلام والعلم واليقين وأعمال الطاعات كلها، وأوجد كل موجود كريم، وكل مرئي شهي، وكل مبصر حسن بهيج، وبالقول بالإجمال، فإن الموجود كله بفضل جوده وبعَليّ مشيئته ومقتضى أسمائه وصفاته، فكان الوجود بركة منه =

المعهود أنه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - لا يتبارك إلا عند ذكر أمر معجب من خلق أو أمر كقوله وقد ذكر خلقه الإنسان وتقليبه إياه في طبقات الخلقة طبقًا عن طبق إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] وذلك لبعد ما بين كونه مثبوتًا في خزائن السماوات والأرض، فجمعه بالرياح اللواقح من أجواء الهواء، ثم أنزله في الماء إلى الأرض؛ فأخرج به أنواع المغذيات، فخلق عن ذلك المني، ثم أقره قراره، ثم نقله بعد تقليبًا خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث إلى أن بلغ به حدِّ النفخ في الروح أجمل التعجيب كله في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

فنبّه بذلك على بعد كونه مقلبًا في تلك الأحوال إلى أن بلغه نهايته، فجعله سميعًا بصيرًا ذا صفات وأسماء إلى أن جعله خصيمًا مبينًا يجادل في الله وفي آياته أو عبدًا كريمًا عليه وليًّا له، يدعوه فيجيبه ويسأله فيعطيه، ينزل ببركته الماء من السماء ويرفع من أجله عن أهل الأرض البلاء، ثم يرفعه إلى ما تبارك من أجله، كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

فأين حاله نطفة من كونه رسولاً من عند رب العالمين إلى كافة الناس في مختلف الأزمان وتناوب الأعصار ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥ – ٤٦] نورًا مبينًا ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].

ثم أعلى ذكره الخبير به المخبر عنه الدال عليه، فكلم العقول على لسان الحق، وأنهى إليه الشهادات عنه بعبارات الحكمة وقول الصدق، عبر عن ذلك بقوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦١ – ٦٢].

قوله تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ﴾ [الملك:١] الملك: ظاهر العالم، وهو

=

عنه، لذلك لا تكون بركة إلا عن شيء موجود سابق أول له، فافهم. [١/٢٦٨].

المشاهد منه، ثم الملكوت: هو باطنه، وهو فعل الملائكة، فالملك هو المصنوع، والملك المالك هو الصانع، والصنعة فعل الملائكة في تدبير الأمر بإذن الصانع الملك الحق وبجميع مواد الخلقة وتنفيذ مراد الصانع - جلَّ ذكره - ولإخفائه الصنعة في المصنوع، سمى المخفي: ملكوتًا، فافهم.

ثم الملك الأعظم هو ما يؤله إليه بعد تقويض البناء وتبديل الأرض والسماء، ويومئذٍ يكون ذلك الظاهر المشاهد الباقي على الدوام، فقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧] و﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١] إشارة إلى هذين الظاهرين الأول والآخر، فالأول منهما هو المعبر عنه بالمقدور الحاضر، والآخر هو المقدور الغائب، منه يكرم أولياءه ويظهر المعجزات على أيدي أنبيائه، ومنه يفتح من رحمته، وعنه تفيح جهنم بقدرته، فإذًا اسم «الملك» يقع على الظاهر المشاهد ويقع على الباطن منه الذي عبر عنه بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥].

لذلك أعقب هذا الخطاب بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١] نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ خلق الحياة لعباده ليكلفهم ابتلاء فيعملون أو يتركون، وخلق الموت ليرجعهم إليه فيجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم ختم بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا تلحقه آفات الحدث ولا نقائص البشر، وليس له في ملكه من شريك ولا في تدبيره من وزير ﴿الْغَفُورُ﴾ [الملك:٢] لذنوب من ابتلاه بالأمر والنهي فاستجاب له، يغفر للمؤمنين وقد يمهل الكافرين.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٣] هذا من وصف الملك، والسماوات الطباق هي: الأفلاك، والله أعلم العلي منهن طبق لما في ضمنها منهن من حيث ما نظرت فهن كذلك، والتفاوت: عدم الإتقان والخروج عن الإحكام وحسن الاتساق، بل المشاهد منها خلق معجب وتدبير مبرم وأمر محكم، وترتيب يعجز الوصف ويربى على نهاية النعت لعجب ما أظهر فيهن من غرائب الصنعة ولطائف كائنات الحكمة.

فانظر بعقل وتدبر قلب فإنك ترى ما يبهر العقل ويحير اللب من جري كل

فلك فيها على ترتيب مطرد ونظام غير منخرم مقدارًا من الجري بقسط مقسط من غير انبثاث في الطلب مسرع ولا فتور وإن تخلف عن المراد الذي جعلت له، وإلى شمس تجري في مشارقها ومغاربها إلى مستقر لها، وأمر ينبعث بانبعاثها في مطالعها ومغاربها، نعم دنيا وآخرة دلالة وشهادة، وإلى قمر يسري في منازل بروج مقسمة في محال للأمر مقسطة، وإلى نجوم تزهر في مطالع ومغارب في طرقاتها المقدرة بتقدير العزيز العليم، كل ذلك يسبح في فلك يجمع أمرها وكل واحد منها متوحد بأمره المجعول له، كل ذلك يلوح تحت أديم ظاهر كالغمام جامع لما دونه من الأحكام.

ثم قال – عز من قائل: ﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ**﴾[1] [الملك:٣] أي: من شقوق أو انخرام.

ثم قال – عز من قائل: ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ أي: إلى ما دلت عليه من أمثالها السماوات العلا ﴿**يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ [الملك:٤] ليس لبصر العين هنا مجال؛ إذ ليست السماوات العلا مدركة للأبصار، فهي حسيرة عن إدراكها لبعد شأوها، فانظر بلبك وتوهم بوهمك إلى سماوات مبينة مسموكة، وبحار دونهن مكفوفة على هواء لطيف لا يتعدى طورها، ولا تتخطى إلى غير حدودها، ولا تبسط في الهواء الذي يليها، ولا ترسب فيه فتهوى، ولا ترتفع عن محلها المحدود لها فتعلو، قد أحاط بها الأمر ولزمها القهر جري بحارها في وجوه السماوات كجري بحار الأرض على ظهرها.

قد أوحى في كل سماء أمرها، وزين سماء الدنيا منهن بالنجوم وحرسها بالرجوم أعاجيب توقظ من السنة ودلائل تهدي من الحيرة، ثم العبرة إلى ما إليه تؤول، والأمر الذي من أجله تزول الكرة الثانية، فأسرع الكرة بالبصيرة ثانية بصدق من إيمانك ونور يقينك إلى بنائهن مقوضًا بعدما مارت بإذن ممسكها مورًا، وعادت

---

(١) يقال: فطره فانفطر أي شقه فانشق والمعنى من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والتئامها قاله القاشاني، ولو كان لها فروج لفاتت المنافع التى رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها كما في المناسبات فإذا لم ير في السماء فطور وهى مخلوقة فالخالق اشد امتناعًا من خواص الجسمانيات.

بقدرة خالقها كالدهان وردة، وبدلت كلها جنانًا، فيراها المتقون من عرضة القيامة عيانًا.

وكان رسول الله ﷺ يقول في صلاته إذا استوى قائمًا من الركوع: «**ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما**» هذا موجود الدنيا على حالهن اليوم، ثم يقول: «**وملء ما شئت من شيء بعد هذا**»[1] موجودهن يومئذٍ، وعند هذه العبرة والتي قبلها ﴿**يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ [الملك:٤].

نظم بذلك قوله: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:٥] ذكر الرجوم والحراسة من الشياطين وما أعد لهم من عذاب السعير، آيات ذلك كله فيها تدركه الأبصار من السماوات الدنيا.

﴿**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ**﴾ خالق ذلك كله وجاعله كفروا بآياته الدالة على الآخرة جنتها وجحيمها ﴿**عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ**﴾ [الملك:٦ – ٧] هكذا آياته فيما يبدو للأبصار في السماوات الدنيا فتطلب ذلك، ولا ترض لنفسك في اقتباس العلم بوزن المخسر.

نظم بذلك قوله – عز من قائل: ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ**﴾ [الملك:٨ – ٩] إنباء منه ﷻ كيف حالهم فيما هنالك.

﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:١٠] هنا محذوف دل عليه المذكور، وهو لما ذكروا ما ردوه على رسلهم وتكذيبهم إياهم، كأن الخزنة قالت لهم: ألم تشاهدوا المثلات التي خلت بالقرون التي كذبت رسلها وكفرت بربها؟ ألم تسمعوا عنها؟ ألم تقرءوا كتب ربكم إليكم؟ ألم تأتكم رسلكم بالبينات بذلك كله؟ فقالوا: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ**﴾ أي: نصائح ربنا ورسله وكتبه ﴿**أَوْ نَعْقِلُ**﴾ ما أراد الله بإهلاك المكذبين وإنجاء المصدقين المؤمنين وشهادة الشواهد

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٥٢) وعبد الرزاق (٢٥٦٧) وابن أبي شيبة (٢٣٩٩) وأحمد (٧٢٩) ومسلم (٧٧١) وأبو داود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢١) والنسائي (٨٩٧) وابن خزيمة (٤٦٢) والطحاوي (١/١٩٩) وابن حبان (١٧٧٤) والدارقطني (١) والبيهقي (٢١٧٢).

من الآيات وإعلام البينات ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

يقول الله – جل من قائل: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك:١٢ – ٢٠].

قوله ﷻ: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ [الملك:١٦] معناه: أأمنتم رب السماء خالقها أن يخسف بكم أرضه، ينزل عليكم من السماء الرزق وينبته لكم من الأرض، وهو خلقكم وأنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة وتعبدون غيره وتشكرون سواه، مثال قوله: أأمنتم من في السماء، مثل قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] هذا كله تقريع للكفار المذكورين في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [الملك:٦] تواعدهم ثم جعل يسرد عليهم ذكر آياته.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ إذا مد الطائر جناحيه في الهواء، قيل: قد صف جناحيه لم يقبضها، يقول ﷻ وقوله الحق: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩] ممسك السماوات والأرض وكل شيء بإمساكٍ متعاور[١] وإبقاء متوالي بعد إبقاء ما شاء ذلك.

---

(١) أي: متدوال.

ثم نظم بذلك قوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك:٢٠] يقول - عز من قائل: من ينصركم من الله إن أراد بكم سوءًا.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا
عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ
غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك:٢١ – ٣٠].

ثم قال يخاطب رسوله والمؤمنين، ويعرض بتقريع الخطاب إياهم: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢] مشي الكافر اليوم في حال ضلاله عن الصراط المستقيم كحال المكب على وجهه لا يرى ما حوله ولا يشعر لما أحاط به، ولا ينظر في آيات السماوات والأرض، لا يعتبر بآية ولا يستدل بها، فمشيه اليوم على وجهه باطن؛ فإذا كان يوم القيامة حشر ماشيًا على وجهه، وسحب في النار على وجهه جزاءً لرضاه بحاله تلك في الحياة الدنيا، فأظهر له بذلك ما أبطن عنه اليوم، والمؤمن مشيه اليوم قائمًا يرى الآيات ويعبر بها إلى ما جعلت آيات عليها يمشي على الصراط المستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ثم إلى آخر السورة جدل وتقرير على شواهد آيات وتحقيق بينات.

تفسير سورة «ن والقلم»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ [القلم: ١ - ٩].

قوله ﷻ: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1] [القلم: ١] يمكن أن يكون من الحروف

---

(١) ﴿ن﴾: حرف من حروف المعجم، نحو ص وق، وهو غير معرب كبعض الحروف التي جاءت مع غيرها مهملة من العوامل والحكم على موضعها بالإعراب تخرص، وما يروى عن ابن عباس ومجاهد: أنه اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع. وعن ابن عباس أيضًا والحسن وقتادة والضحاك: أنه اسم الدواة. وعن معاوية بن قرة: يرفعه أنه لوح من نور. وعن ابن عباس أيضًا: أنه آخر حرف من حروف الرحمن. وعن جعفر الصادق: أنه نهر من أنهار الجنة، لعله لا يصح شيء من ذلك. وقال أبو نصر عبد الرحيم القشيري في تفسيره: ن حرف من حروف المعجم، فلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم، فهو إذن حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور. ومن قال إنه اسم الدواة أو الحوت وزعم أنه مقسم به كالقلم، فإن كان علمًا فينبغي أن يجر، فإن كان مؤنثًا منع الصرف، أو مذكرًا صرف، وإن كان جنسًا أعرب، ونون وليس فيه شيء من ذلك فضعف القول به. وقال ابن عطية: إذا كان اسمًا للدواة، فإما أن يكون لغة لبعض العرب، أو لفظة أعجمية عربت، فمن جعله البهموت، جعل القلم هو الذي خلقه الله وأمره بكتب الكائنات، وجعل الضمير في «يسطرون» للملائكة، ومن قال: هو اسم، جعله القلم المتعارف بأيدي الناس؛ نص على ذلك ابن عباس وجعل الضمير في «يسطرون» للناس، فجاء القسم على هذا المجموع أمر الكتاب الذي هو قوام للعلوم وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الله عامة. وقرأ الجمهور: ﴿ن﴾ بسكون النون وإدغامها في واو «والقلم» بغنة وقوم بغير غنة، وأظهرها حمزة وأبو عمرو وابن كثير وقالون وحفص. وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق والحسن وأبو السمال: بكسر النون لالتقاء الساكنين؛ وسعيد بن جبير وعيسى: بخلاف عنه بفتحها، فاحتمل أن تكون حركة إعراب، وهو اسم للسورة أقسم به وحذف حرف الجر، فانتصب ومنع الصرف للعلمية والتأنيث، ويكون «والقلم» معطوفًا عليه، واحتمل أن يكون لالتقاء الساكنين، وأوثر

=

التي تكون في أوائل السور، فيكون سبيلها في النظر سبيل أمثالها، وتكون معبرة عن موجودات ما حواها الكتاب المبين، وهو الأظهر، والله أعلم، ويمكن أن يكون المراد بها: النون الذي تحت الأرضين السبعة.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة يأكلونه ويأكل من زيادة كبده سبعون ألفًا**»(١).

ويحتمل أيضًا أن يكون من الحروف المحيطة، وكيفما كان فهو محيط، فكأنه أقسم بنون سفلاً وبالقلم علوًّا أو بالقلم والمراد الأقلام كلها.

قال رسول الله ﷺ: «**فظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»(٢).

ثم قال - عز من قائل: ﴿**وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم:١] يعني: الملائكة.

﴿**مَا أَنْتَ**﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿**بِنِعْمَةِ رَبِّكَ**﴾ أي: بالنبوة والرسالة ﴿**بِمَجْنُونٍ**﴾ [القلم:٢].

﴿**وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾ [القلم:٣] غير مقطوع.

﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم:٤] يعني: خلق القرآن.

﴿**فَسَتُبْصِرُ**﴾ أي: في العاقبة ﴿**وَيُبْصِرُونَ**﴾ [القلم:٥] تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾ [القلم:٩] أي: لو تلاين وتتجاوز في الأمر، الإدهان: ملاينة وانجرار بالباطل وإغماض عن الحق، فيغطى على الحق بذلك الباطل مع معرفة تكون في المداهنين بذلك.

=

الفتح تخفيفًا كأين، وما يحتمل أن تكون موصولة ومصدرية، والضمير في «يسطرون» عائد على الكتاب لدلالة القلم عليهم، فإما أن يراد بهم الحفظة، وإما أن يراد كل كاتب. وقال الزمخشري: ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، فيكون الضمير في «يسطرون» لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وتسطيرهم. فيكون كقوله: (كظلمات في بحر لجي) أي: وكذي ظلمات، ولهذا عاد عليه الضمير في قوله: (يغشاه موج) وجواب القسم: (ما أنت بنعمة ربك بمجنون). ويظهر أن (بنعمة ربك) قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التوكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه ﷺ انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٣١١)].

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٧٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [القلم: ١٠- ١٨].

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم:١٠] إلى قوله: ﴿عُتُلٍّ﴾ [القلم:١٣] العتل: الشديد العارضة القليل التأني في الخير، والمشار إليه بقوله ذلك، الأوصاف التي تقدم ذكرها ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٣] اللاصق بالقوم، مأخوذ من زنمتي الشاة.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم:١٤] يدعي في القوم بأنه منهم فيشرف فيهم وليس منه، وعلى قراءة من خفف الهمزة يقول: «ان كان ذا مال وبنين» يكون هكذا.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٥ - ١٦] نسود منه الوجه ونجعل عليه سيماء أهل جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وربما حولت صورته إلى غير صور بني آدم، وأن قوله: «نسمه على الخرطوم» وليس الخرطوم على التحقيق من وصف الإنسان، وإنما هو للخنزير والفيل ونحو هذا - والله أعلم - وربما عجل له ذلك في الدنيا وربما أخر عنه إلى دار البرزخ فيعذب في صورة ما مسخ فيه، نعوذ بالله من عذابه وعقوبته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ﴾ [القلم:١٧] مثل ضربه، وقلَّما يضرب الله ﷻ مثلاً إلا على حديث قد كان ابتلى أهل مكة بمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - يقول: ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ﴾ [القلم:١٧] قيل: كانت هذه الجنة وأربابها من شأنهم متى جدوها أن يتصدقوا منها على المسكين واليتيم وابن السبيل، فلما ورثها أبناؤهم ومن صارت إليه منهم تواصوا فيما بينهم إذا هم جدوها يجدونها على حين غفلة من الناس وتعاقدوا على ذلك ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم:١٨] أي: بمشيئة المالك لهم ولجنتهم.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾

وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القلم: ١٩- ٢٩].

فلما هم الإصباح بانصداع تنادوا: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم: ٢٢] الصرام: الجِداد.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ [القلم: ٢٣] الخفوت: الهمود، يقول: يخفون سيرهم ومرادهم، ويقول: بعضهم لبعض عزمًا منهم على ما نووه وقسمًا.

﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٤] قراءة الجماعة: «ألا يدخلنها اليوم» وقراءة ابن أبي عبلة: «لا يدخلها» بغير أن.

يقول - جل وعلا: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ﴾ الحرد: شدة الغضب مع العزم على الأمر واللجاج فيه بزعامة، عبر عن ذلك بقوله: ﴿قَادِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩ - ٢٠] وهو الليل؛ أي: مظلمة.

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ [القلم: ٢٦] أي: إنا أخطأنا طريقنا إليها.

ثم تذكروا سوء ما أضمروه فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني: أشدهم وأفضلهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٧ - ٢٨] يعني: تعبدون الله وتطيعونه وتشكرون نعمته، فتطعمون السائل المحروم مما أتاكم.

﴿قَالُوا﴾ وقد وقع بهم البلاء ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ [القلم: ٢٩ - ٣٠] يتدافعون فيما بينهم سوء الرأي والفعل الذي سبق منهم في ذلك، ندموا حين لم تنفعهم الندامة ولا يجدون سبيلاً ولا إلى تدارك فائتهم بمراجعة ولا توبة.

﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ

﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القلم: ٣٠-٤١].

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا﴾ في فعلنا ذلك وما نويناه ﴿طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم:٣١ - ٣٢] يا أهل مكة، فكل من سمع به ولم يؤمن كأهل مكة ابتلاهم الله برسوله، كما ابتلي أولئك بجبتهم فلم يعرفوا قدر النعمة التي أنعم بها عليهم، ولا شكروا المنعم بها أخرجه من بين أظهرهم، وأعرض عنهم بنعمته إلى غيرهم، كانوا بذلك أولى منهم، وكذلك كل من لم يؤمن به استعمل الكيد محافظة على دينه الذي يدين به، حتى إذا جاءه الموت وجد جنته في الآخرة ودار البرزخ قد طاف عليها حال نومهم في الدنيا من سوء أعمالهم وكفرهم وتكذيبهم ما أبطلها عليهم، وعوضوا عنها بما هو مثل الليل المظلم، وهو ظلمة أعمالهم ومآلهم، فلا يملكون سوى التندم والدعاء بالويل والثبور والإقرار بالذنب حين لا ينفعهم ذلك، وموضع قولهم: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ [القلم:٣٢] هو سؤالهم الرجعة عند الموت عندما يعرض عليهم مصيرهم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ العَذَابُ﴾ أي: بالأسر في الدنيا والقتل والجوع والخوف لعلهم يرجعون، ثم في دار البرزخ وقد انقطع عنهم أوان التوبة وحاق بهم الندم، ثم قال: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣].

نظم بذلك قوله - جل قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في موضع ندم أولئك وخيبة رجائهم ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم:٣٤] مكان ما وجده أولئك كالصريم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥] يلومهم ويقرعهم على التحكم بالجهل دون وعد من الله - جلَّ ذكره - لهم بذلك بما أملوه، ولا كتاب منزل به ينطق بما من ذلك زعموه، ولا رسول يتضمن لهم ما ظنوه هذا في مقابلة قول أولئك: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم:٣٢] وهذا مستصحب لهم كقول: الإنسان، والمراد به الجنس ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠].

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم:٤٢- ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾(١) [القلم:٤٢ - ٤٣] يقول - وهو أعلم: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ﴾ [القلم:٥ - ٦].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [القلم:٤٢].

ويتوجه أيضًا الخطاب إلى الذين يظنون أن الله يساوي بين المسيئين والمحسنين ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ والساق: الشدة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ فلا يبقى من كان يسجد لله - جل ثناؤه - في الدنيا راغبًا راهبًا من تلقاء نفسه إلا سجد، ومن كان يسجد اتقاء لمخلوق ورياء أو لأجل الغير إلا جعل الله ظهره طبقًا واحدًا كلما أراد أن يسجد خر على قفاه.

يقول الله - جل من قائل: ﴿قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم:٤٣] أي: في الدنيا وظهورهم سالمة، وكانوا يستطيعون السجود.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ

(١) ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني: تغشاهم وتعلوهم كآبة وكشوف وسواد؛ وذلك أن المسلمين إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت وجوههم بيضاء كالثلج، فلما نظر اليهود والنصارى والمنافقون، وهم عجزوا عن السجود، حزنوا واغتموا فسودت وجوههم. بحر العلوم (٤/ ٣١٩).

حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤] طرق استدراج الله ﷻ العبد كثيرة خفية، ولذلك قال: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمؤمن يعلم من ذلك ما علمه الله، فاحذر استدراجه بالنعم وبالعلم، وبالنقم وبالجهل، وبالعوافي وبالبلاء، وبالأهل وبالمال، وبالولد وبالجاه، وبالثناء وبعد الصيت، وبالأتباع وكثرة الغاشية، واستعذ بالله من شر نفسك وشر كل ذي شر.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨] يعني يونس عليه السلام؛ أي: اصبر على ما يقولون من مجنون وشاعر وساحر وغير ذلك، ولا تضجر كأخيك يونس عليه السلام وذكر سجنه له في بطن الحوت؛ إذ ترك عمله لربه، وأبق إلى الفلك المشحون، المكظوم: المغتاظ الحزين، هذا وصف حاله في بطن الحوت.

﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم:٤٩] العراء: الأرض التي لا ينبت فيها البعيدة من الأنيس.

ثم أنبأه عن غيظ قلوب الكافرين وشدة عداوتهم وحسدهم بقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ [القلم:٥١] أي: يزيلونك عن مكانك كما قال: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج:٧٢] أي: يوقعون بهم نكالاً.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم:٥١ - ٥٢] رجع الخطاب في آخر السورة إلى أولها قوله: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ...﴾ [القلم:٢].

تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)﴾ [الحاقة:١–١٠].

قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١ - ٣] سميت بذلك؛ لأنها تحق العذاب للمجرمين والثواب للمحسنين، وقد يكون إنما سميت بذلك؛ لأنها من قولهم: يحيق، من حاق يحيق، كما قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود:٨] وقد قيل: إنها من أسماء القيامة.

وإنما قال - عز من قائل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:٣] ثم أنشأ يخبر بما هي، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة:٤] والقارعة: من أسماء القيامة؛ فلأن كذبت بها ثمود أهلكوا بالطاغية، طغت عليهم الصيحة والرجفة، وكذلك عاد كذبت بها أهلكوا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦] عتت عليهم وأهلكتهم.

يقول - عز من قائل: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ [الحاقة:٧] لم يسخرها لهم بل عليهم، ثم ذكر فرعون وعرض بمن قبله من الأمم الماضية والقرون الخالية وقرئت: «ومن قبله» أي: من سار بسيرته قبله وبعده، وقرأ طلحة بن مصرف: «وجاء فرعون ومن حوله» أي: وجاء فرعون ومن معه، وقرأ بذلك عبد الله، وفي قراءة أبي موسى: «وجاء فرعون ومن تلقاءه».

﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة:١٠] مرتفعة القدر في البطش به والشدة والخزي والألم، أقسم باسم من أسماء القيامة، ثم أخذ في قصص الذين كذبوا كيف أهلكهم

على إساءتهم من أنواع كفرهم وتكذيبهم بالقارعة؛ أي: بيوم القيامة، فأهلكهم بقوارع أحاقها بهم سلطها من عاجل عذاب يوم القيامة، سخر ذلك عليهم لم يسخره لهم فتكون لهم رحمة، كما سخر الفيحين من جهنم في الدنيا فصيرهما لهم في الدنيا بواسطة فتح رحمته جنات وأنهارًا وعيونًا وزروعًا ومن كل الثمرات، بل سخر عليهم ما قد أخرجه عليهم من عذاب ذلك اليوم وأصحبهم خزيه في دار البرزخ، ثم في اليوم الآخر يدخلهم أشد العذاب بما كانوا يكفرون.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١١- ١٧].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: في الفلك ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ [الحاقة: ١٢] لهم بحمل المتقين في الجنة في الفلك تجري بهم في أنهارها تارة وتارة على مراكب البر، كما قال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢].

وتذكرة أيضًا للعلم بحياة البرزخ، وطريق العبرة إلى ذلك: أن يتوهم الأرض يومئذٍ وهي مغرقة بالطوفان، وقد هلك بها من هلك ويسر الله - جلَّ ذكره - لعباده المؤمنين الفلك، حملهم فيها ومن علمه في أصلابهم من حياة إلى حياة، كذلك الموت مدته فراق النفس الجسد، ويخلق الله للميت حاملاً من ذات الميت إما في نعيم وإما في عذاب يعبر بهم بحر الموت من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، جعل الله ذلك آية للعلم بذلك وتذكرة للقدرة الغائبة.

ثم قال: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾(١) [الحاقة: ١٢] أي: يعجب بذلك أولوا الألباب

---

(١) أي: حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة. الخازن (٦/ ١٥٣).

ويذكرون بإهلاكنا من عتا عذاب الآخرة، كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

نظم بذلك قوله الحق: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:١٣ - ١٤] فلا جبران لها، كما قال: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة:٢].

يقول - عز من قائل: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٥] التي هي القارعة والحاقة ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٦].

ثم قال: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي: حاقاتها نواحي الانشقاق منها، قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] جاء في الكتب الأول أن حملة العرش أربعة، ذكر هذا وجرى كثيرًا على ألسنة الناس، وجاء ذكرهم في القرآن مهملاً دون عدد في قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر:٧] المعنى: ولم أرَ في إثبات أربعة حملة تبيانًا للنبي ﷺ، وقال في هذه الآية: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] ولم يبين ما هؤلاء الثمانية أهي صفوف أم آحاد منهم، غير أن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوهم أو يغلب الظن أن ذلك خصوص لذلك اليوم إما لثقل الأمر أو تضاعيف الشأن، والله أعلم.

فصل

جاء عن المفسرين كما في الكتب الأول: أن للعرش أربعة أملاك - عليهم السلام - وذكروا مع هذا أن أحدهم كالإنسان، ثم الآخر كالنسر، والثالث كالثور، والرابع كالأسد، وهكذا جاء في نبوة بعض الأنبياء - على جميعهم السلام - يصف الإسراء الذي أسري به.

وكذلك جاء: أن حملة العرش العظيم ميكائيل وإسرافيل وملكان غيرهما، خرج ذكر أسمائهما عن ذكري، والله أعلم، وربما أنه كما ينشئ كل شيء من العالم كذلك ينشئ الأمر فيما هنالك فيكونوا يومئذٍ ثمانية، وقد قال - عز من قائل: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر:٧]

المعنى إلى آخره، وقال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء...**»(١) وفي تأويله: إنهم إذا أفهمهم عنه قالوا لمن دونهم الحق؛ أي: المراد، ثم كذلك إلى من دونهم إلى حيث المنتهى.

فحملة العرش إذًا على هذا جميع ملائكة الله - جلَّ ذكره - صلوات الله وسلامه عليهم ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣].

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥].

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١-٤].

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١ - ٥].

ثم هكذا في كل طبق من المخلوقات، وبكل أمر ينزل أو ينشأ نشوءًا أو اضمحلالاً، أو كان يكون فيه حمل العرش؛ أي: قيام بالأمر النازل من علو عرش أو سماء، ومن حيث نزل عنه ﷻ الأمر فعن عرش نزل، والإخبار في قوله الحق: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] عن العرش الأعلى الأعظم.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ
اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ
﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤)، والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجة (١٩٤) والحميدي (١١٥١) وابن حبان (٣٦)، وابن منده في الإيمان (٧٠٠).

أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة:١٨– ٢٩].

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩ - ٢٠] أي: علمت وأيقنت بذلك، فعملت لربي على ذلك إرصادًا لهذا اليوم .

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥ - ٢٦] إني كنت في الدنيا ولم أدر ما حسابيه، ويمكن مع هذا أن يكون المعنى لعظيم الغبطة بإعطاء من أعطى كتابه بالفوز العظيم والدخول في الجوار الكريم تمتد الأعناق اغتباطًا لمن أوتي كتابه بيمينه، وبيض وجهه ويرفع قدره، والملائكة تحف به، ويكرمه أهل الجمع، ويمتد له الصيت من أجل ذلك في ذلك الجمع المشهود، وينادى على رءوس الخلائق: «ألا إن فلانًا سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا».

فيتعدى بالمجرم الحرص، ويعطى على ما به الطمع لعظيم الإغباط بذلك، فإذا وقف ظهر له من عمله ما يستوجب به الحرمان والخلود في النيران، فيسود وجهه، وتزرق عيناه، ويشوه خلقه، ويعطى كتابه بشماله الذي ورد عمله من جهته، وينادى به على رءوس الخلائق في ذلك الجمع المشهود: «ألا إن فلانًا شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا» فيحيق به من الخزي والهون، ويلعنه أهل الجمع، ويعتل إلى الجحيم.

﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٧] أي: يا ليت الموتة التي متها لم أبعث منها، فإنه يومئذٍ يشيع عند أهل الجمع من الغبطة بلقاء الله ما القلوب اليوم عن توهمه في غفلة، ولذلك لا يذكر ﷻ لقاءه إلا بلفظ الرجاء حيث ما ذكره، ثم يندب نفسه فيقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨] إذ لم أنفقه في مرضات الله ولا توصلت به إليه.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٩] قد كان لي فيه متبلغ إلى رضا ربي لو عملت فيه ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤] هذه.

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٣٠-٤٣].

يقول الله ﷻ للملائكة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠] يداه إلى عنقه ورجلاه إلى ناصيته من وراء قفاه.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١] يسحب على وجهه في النار.

يقول الله - تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] وما اتقى بوجهه العذاب إلا أنه يمشي على وجهه ويداه ورجلاه موثوقتان.

قال الله ﷻ: ﴿يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ﴾ [غافر: ٧١ - ٧٢] فيضرر به جلودهم سلخًا ﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢] أي: يوقدون فيها.

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] نعوذ بالله من النار ومن أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾(١) [الحاقة: ٣٢] ذكر السبعين أبدًا معد لكثرة لا تنحصر لمخلوق، وقد جاء أن الحجر ليلقى في جهنم من رأس السلسلة فتهوي فيها سبعين خريفًا ما تبلغ طرفها، والله أعلم، نعوذ بالله من عذاب الله ما قل منه وما كثر.

---

(١) السلسلة: حلق منتظمة، وذرعها: طولها. قال الحسن: الله أعلم بأيّ ذراع هو. قال نوف الشامي: كل ذراع سبعون باعًا، كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان نوف في رحبة الكوفة. قال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، ومعنى ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾: فاجعلوه فيها، يقال: سلكته الطريق: إذا أدخلته فيه. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه. قال الكلبي: تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ. وقال سويد بن أبي نجيح: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وتقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم. فتح القدير (٧/٢٩٦).

يقول الله - جل من قائل: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة:٣٣ - ٣٤] كما قال الشقي: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨] فلم يستحق لذلك أن يطعم من طيبات دار الآخرة؛ إذ الكرم والسخاء من صفات الله وأسمائه، والكرم شجرة في الجنة لها أغصان من تمسك بغصن منها رفعه إلى الجنة، والبخل شجرة في النار من تمسك بغصن منها هوي به إلى جهنم، أعاذنا الله برحمته منها.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:٣٥ - ٣٦] هو ما يجري من عصارة أهل النار صديدهم وأخلاطهم وأثفالهم[(١)].

آية ذلك في هذه الدار: [.....][(٢)] الله - جلَّ ذكره - زرع ما ها هنا وأشجاره وثماره بالأزبال والأثقال، لكن فيما هنالك يقلب العين إلى ما نفذت عنه من زرع أو شجر؛ ذلك لأن هذه الدار سجن امتزج فيها ما هو منسوب إلى هذه وهذه ونقلبه إلى شر من ظاهره وأنتن حدًا وأشد حرارة وبرودة، وإلى ما هو أبلغ في النكال.

يقول الله - عز من قائل: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة:٣٧] كذلك إنما شحنا نحن في الدنيا لأجل خطأنا، ولا يأكله في الدار الآخرة إلا الخاطئون، هم فيها درجات في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨ - ٣٩] «الفاء» عاطفة على ما قبلها، وهو ما تقرر من قولهم وكفرهم في رسول الله ﷺ والقرآن العزيز بأنه مجنون وساحر وشاعر وكاهن، وفي القرآن: أساطير الأولين وسحر وكذب ونحو هذا، و«لا» نافية، فمعنى الكلام على هذا ليس على ما زعمتم، أقسم بما تبصرون من أرض وسماء وأفلاك ونجوم وشمس وقمر وبحر وبر ورياح وأمطار ونبات وخلق، وما جعل له هذا كله وما هو هذا معبر إليه من أمر هنا وخلق وأمر فيما هنالك من شهادة هنا أو غيب وبكل مذكور وغير المذكور.

---

(١) الثفل: ما يسبط تحت الرحى عند الطحن، وما استقر تحت الماء ونحوه من كدر، وما يتبقى من المادة بعد عصيرها. انظر: المعجم الوسيط (١/٢٠٢).

(٢) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

﴿إِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠] يعني: جبريل عليه السلام، ثم النبي ﷺ إلى قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [الحاقة:٤٣] لكنكم لو آمنتم بمنزله لتذكرتم فعلمتم أنه معجز لا يقوم له بشر ولو اجتمعت له الجن والإنس متظاهرين، وقد تقدم الكلام على التنزيل ما هو.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٥٢].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة:٤٤ - ٤٥] أي: أنه لو قال علينا بعض ما لم نقله ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: لأضللناه عن هدايته، ومحونا اسمه من ديوان الهداة المهديين.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٦] يعني: لقتلناه على ذلك من ضلالته، والوتين: عرق متصل بنياط القلب مستبطن للصلب، يملأ الجسد كله بسقيه الكبد، وهي بيت الدم، والوتين: بحر الدم في الجسد، يأخذ منه ستون عرقًا هي أنهار الدم في الجسد كله، من هذه الأنهار تأخذ عروق الجسد، ثمانية عشر تسقي الصدر، وسبعة تسقي العنق، وأربعة تسقي الدماغ، وهو - أعني: الوتين - من مجمع الوركين إلى مجمع الصدر بين الترقوتين، ثم تنقسم عنه سائر العروق إلى سائر الجسد.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧] أي: لم يكن له مع ذلك ناصر ينصره منا.

﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة:٤٨ - ٤٩] لكنا بلوناكم به ليكون منكم التكذيب المقدر في الأزل فيأخذكم به، أو يكون منكم الإيمان السابق في التقدير فيثيبكم عليه.

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [الحاقة:٥٠] حين يرون العذاب يقولون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١] يا ليتنا اتخذنا مع الرسول سبيلاً.

﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: هذا الحديث والوعيد والوعد ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة:٥١] الموت.

يقول: وإنه لواجب وجوده بعد الموت ثم البعث منه، كما شاهدتم من وجوب وجود النهار بعد انقضاء الليل، والليل بعد انقضاء النهار.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٥٢] يقول لرسوله ﷺ ولمن أطاعه من المؤمنين: فهو الاستعداد والعدة لذلك فالزمه، كما قال - عز من قائل: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٨ - ٩٩].

وكقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم:٦٥].

تفسير سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج:١ - ١٤].

قوله ﷻ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ﴾(١) [المعارج:١ - ٢] قرئ

(١) قرأ الجمهور: (سأل) بالهمز: أي دعا داع، من قولهم: دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه، فالباء على أصلها. وقيل: المعنى بحث باحث واستفهم. قيل: فالباء بمعنى عن. وقرأ نافع وابن عامر: سال بألف، فيجوز أن يكون قد أبدلت همزته ألفًا، وهو بدل على غير قياس، وإنما قياس هذا بين بين، ويجوز أن يكون على لغة من قال: سلت أسأل ، حكاها سيبويه. وقال الزمخشري: هي لغة قريش ، يقولون: سلت تسال وهما يتسايلان، وينبغي أن يتثبت في قوله إنها لغة قريش؛ لأن ما جاء في القرآن من باب السؤال هو مهموز أو أصله الهمز ، كقراءة من قرأ: وسلوا الله من فضله ، إذ لا يجوز أن يكون من سال التي عينها واو ، إذ كان يكون ذلك وسلوا الله مثل خافوا الأمر ، فيبعد أن يجيء ذلك كله على لغة غير قريش ، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم إلا يسيرًا فيه لغة غيرهم. ثم جاء في كلام الزمخشري : وهما يتسايلان بالياء ، وأظنه من الناسخ ، وإنما هو يتساولان بالواو. فإن توافقت النسخ بالياء ، فيكون التحريف من الزمخشري؛ وعلى تقدير أنه من السؤال ، فسائل اسم فاعل منه، وتقدم ذكر الخلاف في السائل من هو. وقيل : سال من السيلان ، ويؤيده قراءة ابن عباس: سال سايل. وقال زيد بن ثابت: في جهنم واد يسمى سايلاً وأخبر هنا عنه. قال ابن عطية: ويحتمل إن لم يصح أمر الوادي أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب قد استعير له السيل لما عهد من نفوذ السيل وتصميمه. وقال الزمخشري: والسيل مصدر في معنى السايل ، كالغور بمعنى الغاير، والمعنى: اندفع عليهم وادي عذاب، فذهب بهم وأهلكهم، وإذا كان السائل هم الكفار، فسؤالهم إنما كان على أنه كذب عندهم ، فأخبر تعالى أنه واقع وعيدًا لهم. وقرأ =

بتخفيف الهمزة وتحقيقها، وقرأ ابن عباس: «سأل سئل بعذاب واقع للكافرين».

قال قتادة: هو وادٍ في النار، وهو كقوله: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور:١ - ٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا....﴾ [الطور:٧-٩] ويمكن أن يكون نذارة بعذاب يصيبهم به من قتل أو سبي وجلاء ونحو ذلك.

قوله ﷻ: ﴿ذِي المَعَارِجِ * تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٣ - ٤] المعارج: مصاعد الملائكة والروح من سفل إلى علو، ومتنزلات من علو إلى سفل، قد تقدم الكلام في المعارج.

وقول رسول الله ﷺ: «إن ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام»[1].

وقال الله - جل من قائل: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥] فتلك مسيرة ألف سنة مما يعده نحن صعودًا ونزولاً، وأخبر أيضًا أن هذا ليس بمقصور على العروج والنزول فقط، بل لكل أمر تدبر وملك وروح ينزل أو يعرج[2].

أبي وعبد الله: سال سال مثل مال بإلقاء صورة الهمزة وهي الياء من الخط تخفيفًا. قيل: والمراد سائل، ولم يحك هل قرأ بالهمز أو بإسقاطها ألبتة. فإن قرأ بالهمز فظاهر، وإن قرأ بحذفها فهو مثل شاك شايك، حذفت عينه واللام جرى فيها الإعراب، والظاهر تعلق بعذاب بسال. وقال أبو عبد الله الرازي: يتعلق بمصدر دل عليه فعله، كأنه قيل: ما سؤاله؟ فقيل: سؤاله بعذاب، والظاهر اتصال الكافرين بواقع فيكون متعلقًا به، واللام للعلة، أي نازل بهم لأجلهم، أي لأجل كفرهم، أو على أن اللام بمعنى على، قاله بعض النحاة، ويؤيده قراءة أبيّ: على الكافرين، أو على أنه في موضع، أي واقع كائن للكافرين. وقال قتادة والحسن: المعنى: كأن قائلاً قال: لمن هذا العذاب الواقع؟ فقيل: للكافرين. وقال الزمخشري: أو بالفعل، أي دعاء للكافرين، ثم قال: وعلى الثاني، وهو ثاني ما ذكر من توجيهه في الكافرين. [تفسير البحر المحيط (١٠ /٣٣٨)].

(١) أخرجه أحمد (١٧٩٨).

(٢) قال المصنف: أي: مما نعده نحن أنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا، وقد أعطى عباده في الجنة من هذا ما شاءه وهو تنعيم لهم، إنما الانتظار موجود في فعل من شمله حكم الزمان، فإن الانتظار والتمني دون معاجلة المنى عذاب، ولا يكون ذلك لأهل السماوات ولا لأهل الجنة إلا أن يكونوا، إنما يشغلون عن ذلك بما يسليهم عنه، فلا يجدون فقد ذلك؛ لأن ذلك من =

فصل

حركة عروج الأمر ونزوله حركة نحو الوسط، وهي الحركة المستقيمة، وحركة التدبير للأمر حركة حول الوسط، وهي الدائرة، ثم من المتعارف المعلوم أن الخط المستقيم المار على وسط الدائرة من محيطه إلى محيطها هو على النصف من قوس الدائرة، والفلك يصعد بعضه بنزول بعضه، فمفهوم ذلك: أن الدائرة صاعدها ونازلها متى كان مقدار مسافة السالك من محيطها مارًّا على وسطها إلى محيطها خمسمائة سنة عروجًا، فإن مثلها نزولاً أيضًا خمسمائة سنة، وذلك قوله ﷻ: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥] فإذا كان ذلك كذلك فإن مقدار محيط الدائرة مسيرة ألفي سنة، وإذا كان ذلك كذلك فهي سبع أرضين وسبع سماوات.

قال رسول الله ﷺ: «**إن ما بين سماء إلى سماء وما بين أرض إلى أرض خمسمائة خمسمائة**»[١].

وإنما هذا وصف لمسافة ما بين سماء إلى سماء وأرض إلى أرض، وإن الحكمة في العبرة إلى ما غاب أن يكون معقولاً مما شوهد، فدوائر ما علا تحيط بما دونها هكذا إلى ما علا، آية ذلك دائرة فلك القمر تحيط بها دائرة فلك عطارد، ويحيط بدائرة فلك عطارد دائرة الزهرة، وتحيط بها دائرة الشمس، وتحيط بها دائرة الأحمر وهو المريخ، وتحيط بها دائرة المشتري وهو البرجيس، وتحيط بها دائرة

الحكم يجري عليهم بأزمته، أو ما يعبر عنه فيما هذا هنالك من عبارات قد أظلتها بركة الدهر، كيف لا وإنما هم ميسرون إلا أن يريدون ما ليس بكائن، فقطعهم الآباد لذلك بغير سآمة.... ثم قال: إذ يوم تداور المياه هو أربعة عشر يومًا، ويوم تداور القمر في ثمانية وعشرين يومًا، ويوم عطارد ثلاثة أشهر وستة أيام، ويوم الزهرة ثمانية أشهر وستة أيام، ثم الشمس ويومها سنة، ثم يوم المريخ خمسة وعشرون شهرًا، ثم يوم المشترى اثنتي عشرة سنة، ثم يوم المقابل؛ وهو زحل ثلاثون سنة على سبيل التقريب في ذلك كله، ثم ربما صعد النظر في ذلك إلى يوم مقداره خمسون ألف سنة، والله أعلم أي دائرة هي؟! فإن ما هاهنا آية على ما هنالك. [٣٥٧/٢، ٣٥٩].

(١) انظر السابق.

المقابل وهو زحل، ويحيط بهذه الدوائر دائرة فلك البروج، ويحيط بها الفلك الأعظم.

قال الله - عز من قائل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣].

وقال - عز من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٣].

وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٢].

ولما رأينا هذه هكذا وأخبرنا أنه قد جعل هذه آيات على ما غاب عنا علمنا، وله الحمد أن دوائر ما علا من السماوات العلا أعلاها منتظم لما دونها حتى تكون دائرة فلك السماء السابعة منتظمة بهذه محيطة بها، وفي أعلى كل سماء من السماوات فُلكٌ يرجع ما دونه إليه، كالذي أخبرنا ﷺ عما هاهنا من دوائر بقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ﴾ وأن ذلك كله يرجع إلى فلك تسبح الأفلاك التي دونه فيه دلالة على الوحدانية ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

ثم اعلم أن أوسع هذه الدوائر التي دون السماء الدنيا - كفلك البروج مثلاً - تطلع وتغرب من يومه الذي هو من أيامنا هذه ما عدا موضع التقليب، وهو خفي في هذه الدائرة كدائرة فلك القمر، يطلع من يومه ويغرب ماعدا موضع التقليب، وكذلك ما غاب عنا من دوائر التدبير، وأن دائرة السماء السابعة التي يرجع إليها ما دونها ويسبح فيها طلوعها بطلوع أدقها وغروبها بغروبه، فذلك قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة:٥].

وهذا الدائر يدور فوق السماء السابعة وينزل بأمر الله ﷻ إلى ما تحت الأرض السابعة ويصعد طالعًا إلى ما فوق السماء السابعة يستدير بما دونه من الدوائر كاستدارة الفلك الأعظم الذي دون هذه السماء الدنيا ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣].

فصل

ولم يأت فيما نعلمه فيما فوق السماوات السبع ولا فيما دون الأرضين السبع ذكر مسافة.

قال رسول الله ﷺ في حديثه عن مسراه: «**فلما جئنا السماء السابعة استفتح جبريل**» صلوات الله وسلامه عليهما، فذكر ما لقي فيما هنالك، ولما فرغ من ذكر البيت المعمور وذكر إبراهيم عليه السلام قال: «**ثم عرج بي إلى السدرة المنتهى**»[1] وذكر أن ما وراءها لا يصعد إليه ملك، فإن إليها ينتهي ما يصعد به من الأمر ومنها يقبض أو يرفع إليه، فالملائكة مع الروح - عليهم السلام - يصعدون إلى ما هنالك؛ أعني: إلى السدرة المنتهى، ثم الروح مفردًا يصعد بما يكون إلى ما علا.

قال الله ﷻ: ﴿**تَعْرُجُ المَلائِكَةُ**﴾ ثم عطف بالواو في قوله: ﴿**وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ [المعارج:٤] والملائكة والروح إلى المنتهى، ومما هنالك يصعد الروح فردًا بالأمر، والله أعلم سبحانه وله الحمد.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً**﴾ [المعارج:٥] أي: على قولهم وخوضهم واستعجالهم العذاب المذكور في صدر السورة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا**﴾ [المعارج:٦ - ٧] القريب عنده والبعيد سواء، وإنما الأجل المسمى يوم الفصل الذي ﴿**تَكُونُ**﴾ فيه ﴿**السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ**﴾ [المعارج:٨ - ٩] الصوف.

﴿**وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا**﴾ [المعارج:١٠] هذا موقف لا يتساءلون فيه، وبالجملة: فإن حميمًا؛ أي: حبيبًا، لا يسأل حميمه أن يحمل من أوزاره عنه شيئًا ﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ [فاطر:١٨] يبصرونهم لا بد من أن يتلاقى المتعارفون لتقضى حقائق كانت بينهم في الدنيا لذلك جُمعوا، وبالواجب أن يكون الشأن كما تلاقوا في الدنيا كذلك يتلاقون ذلك اليوم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [النحل:١٢٤].

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [الأنعام:١٢].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ

(١) أخرجه مسلم (٤٢٩)، وأبو عوانة (٢٥٢).

خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المعارج:١٥ - ٣٠].

قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج:١٦] هذا من وصف النار الكبرى أعاذنا الله برحمته منها، الشوى: عظام الساقين تسلب العظام من لحمها، وليس ذكر هذه العظام بخصوص فعلها فيما سواها من العظام واللحم، كذلك غير أن من الموحدين من يدخل في النار ما يصيبه منها إلا كعبيه وإلى أنصاف ساقيه وإلى ركبتيه وإلى حقويه، وحيث بلغت فعلت فعلها، نعوذ بوجه الله الكريم منها إنه أرحم الراحمين.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج:١٧] أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله وعن الإيمان والإسلام.

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج:١٨] في وعاء وشد بوكاء، فلم ينفقه في طاعة الله ولا أطعم منه ولا زكّاه، نسأل الله معافاته ومغفرته.

نظم بذلك وصف الإنسان فقال: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[1] [المعارج:١٩] أي: من نكبات الزمان، وجازعًا لطوارق الحدثان غير متوكل على الله ولا مستنصر.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:٢٠ - ٢١] هكذا الإنسان بما هو إنسان ما لم يؤمن بالله ويتولاه الله بتوفيقه وعصمته.

يقول الله - جل من قائل: ﴿إِلَّا المُصَلِّينَ...﴾ [المعارج:٢٢] المداومة على الصلاة تكون بالملازمة والمحافظة عليها والحفظ لها مما ينقصها، وتكون أيضًا

(١) أي: جُبل جبلة هو فيها بليغ الهلع، وهو أفحش الجزع مع شدة الحرص وقلة الصبر، والشح على المال، والرغبة فيما لا ينبغي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه الحريص على ما لا يحل له، وروي عنه أن تفسيره ما بعده. نظم الدرر للبقاعي (١٧١/٩).

بكثرتها مما يضاف إليها من نوافلها بأن يكون الذكر في أثنائها مستصحبًا وفيما بينها، كما قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المعارج:٣١- ٤٤].

قوله ﷻ: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج:٣٦] أي: مسرعين متعجبين من مقالك وحالك.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج:٣٨] كقول أحدهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

يقول الله - جل من قائل: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج:٣٨] ولما يؤمن بالله ورسوله والدار الآخرة وبأنه يبعث بعد موته إلى جزاء معد ثواب أو عقاب.

﴿كَلَّا﴾ ليس كما ظن ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج:٣٩] من تراب وماء من فيح وفتح، فكذلك نعيدهم من الأرض بالماء، ينزله من السماء فينبتهم منها إنباتًا، ثم يعيدهم إلى ما كان هذا الفيح عنه إلا ما أعتقهم من ذلك من إيمان بالله ورسوله وطاعة وعمل صالح، فيكون عودهم بذلك إلى ما كان الفتح عنه، ألم يروا أنا خلقناهم من الدار الآخرة حرورها وزمهريرها اللذين عن إثارة فيح جهنمها، ثم عن فتح رحمتنا بالماء ننزله من السماء نخرج لهم به جنات معروشات وغير

معروشات والطيبات ومن كل الثمرات، فكما خلقناهم من الدار الآخرة كذلك إليها نعيدهم، ألم يروا أنا خلقناهم من تراب فنردهم إلى التراب، فكذلك لما خلقناهم عن الدار الآخرة نرجعهم، ثم لا يدخل الجنة إلا من آمن بها وعمل صالحًا، ولا يدخل النار فيما هنالك إلا من أبى وشرد وكفر النعمة وبطر الحق.

نظم بذلك ما هو بيان له قوله - جل من قائل: ﴿فَلَا﴾ هذا رد لقولهم وتكذيب لطمعهم ﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج:٤٠] ذكر - جلَّ ذكره وتعالى جده - بموضع منبعث الفتح والفيح عن الدار الآخرة زائد الجزاءين والمنبئ عن حقيقة الثوابين، وقد تقدم الكلام على أن تقسيمه وحكمته في ذلك على مواقع النجوم، وأنها نجوم المنازل، وهي أيضًا نجوم تنزيل القرآن والوحي المنزل على وافد الآخرة المنذر بعذاب ما هنالك المبشر بثوابه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: نذهب بهم ونخلف بعدهم من هو خير منهم، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج:٤٠ - ٤١] أي: إذا أمتناهم على أن نبدل أمثالهم يحمل عليها وفيها ذواتهم في دار البرزخ لنذيقهم عذابًا دون العذاب الأكبر وفوق عذاب الدنيا في الخزي والشدة والألم، أشار بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج:٤١] إلى ما ينالهم ويلقونه من الحق اليقين.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: ﴿حَتَّى﴾ يأتيهم الموت فيلاقوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج:٤٢] إما بالموت فيفضون فيه إلى دار البرزخ، وإما يوم البعث، وهو اليوم الذي فيه ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣] شبههم في إجابتهم داعي الله يومئذٍ وسيرهم كأنهم في يوم عيدهم قد انقلبوا من جمعهم ذلك إلى أنصابهم ومذابحهم.

ثم أخذ يصف حالهم يومئذٍ في ذلك بقوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج:٤٤] يقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

تفسير سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ١-٧].

قوله ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣ - ٤] جمع ﷺ في قوله هذا: الإيمان والإسلام والعمل وهو الإيمان بالله - جلَّ ذكره - والرسالة وما جاءت به، وعلى هذه الأثافي مدار الإسلام كله ومدار الوحي.

قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ «مِن» هنا هي لاستغراق الجنس، كقولهم: ما في الدار من أحد.

قال رسول الله ﷺ: «**الإسلام يهدم ما كان قبله والتوبة تهدم ما كان قبلها والحج يهدم ما كان قبله**»(١).

وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: متى فعلتم ما أمركم به لم يعجل إهلاككم قبل الأجل المسمى، فإن الأجل المسمى ﴿إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ إنما التعجيل والتأجيل فيما دونه بما يجنيه العباد على أنفسهم، فإذا جاء الأجل المسمى للمؤمن هنالك يقول الله - جل من قائل: «**وما ترددت في أمر ترددي في موت مؤمن يكره الموت ولا بد له من ذلك**»(٢) لذلك - والله أعلم - قال: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٢١)، وابن خزيمة (٢٥١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

فصل

هذا هو الحق والله يهدي السبيل، إنما أخرج آدم عليه السلام من الجنة لأجل المعصية بما كان قد قدر عليه بذلك، وإنما خلق الله سبحانه السماوات والأرض بالحق لنعلم أنه على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، وأنه لا إله إلا هو الحي القيوم ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا والمثل الأعلى، وأن رسله حق، وما جاءوا به حق، وهدى إلى التوبة من الذنب لتدارك الفائت، فمن حقه ألا يموت؛ أعني: العبد وقد استأثر رب العزة بالبقاء والدوام وحتم على كل مخلوق بالفناء، وحكم على العباد بالموت، فمن الحق الواجب إذًا أن يموت.

فجاء من مفهوم هذا الحال وما عبر عنه كريم هذا المقال معنى قوله: «**ما ترددت في أمر**»[1] المعنى: أنه يحمله بعد الموت إلى حياة يعوضه إياها بدلاً من هذه التي أفقده، وإلى مشاهدة هي أكرم وأقرب إعلامًا من التي عنها أخرجه حتى يأتي وعده بالحياة والبعث من هذا الموت، فهذه فائدة قوله عليه السلام: ﴿**لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [نوح:٤] لذلك نسب هذا الأجل إليه - عز جلاله - وهو المسمى وما سواه من الآجال دونه، فإنها عن أسباب وأواسط.

يقول - جلَّ ذكره: لو كنتم تعلمون كريم المآب الذي يصيركم إليه إن آمنتم فالموت إذًا للمؤمن نعمة، أي نعمة؛ إذ هو باب لخروجه من سجن سجن فيه لأجل الذنب، وقد غلب أرحم الراحمين أحد الوجهين المترددين من موته أو بقائه في الدنيا؛ ذلك ليرجعه من حيث أخرجه من أجل ذنبه.

ولهذه الرحمة تعلو درجة الأنبياء لا يقبضهم الله حتى يخيرهم في البقاء أو الخروج منها إليه، ثم يقدر عليهم محبة لقائه والرجوع إليه، فمن الواجب على كل مؤمن أن يستعمل نفسه بمحبة وفاة الله إياه والرجوع إليه، وتعجيل الراحة من هذه الدار من عدو مرصد ونفس بالسوء أمارة، واشتغال عن الله جل جلاله بالأهل والولد والمال والغاشية، وليدرس هذا درسًا شافيًا ويعمل عليه، ففي ذلك الخير كله

---

(١) تقدم تخريجه.

والراحة الجمعاء، والمرجوع إليه هو أرحم الراحمين، وهو الرءوف الرحيم، ربما تعلق قلب المؤمن بأن الموت يقطع عليه عمله صلاته وصيامه وجهاده وتعلمه العلم، قد جاء أن المؤمن يجزى له أحسن عمله إن شاء الله.

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية:٢١] ومن عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح:٥] إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٩].

﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح:٨ -١٨].

فأما موضع إعلانه وجهاره - والله أعلم - فقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠ - ١٢] فهذا هو الإجهار والإعلان لظهور مفهوم الجزاء بالإحسان لمن أحسن.

يقول الله - جل من قائل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠].

وإنما أخرجهم من الجنة المعصية، فإذا أطاعوه فجزاؤهم أن يعيد عليهم من إثارة الجنة لأجل إحسانهم، فإن هم شكروا زادهم، وإن هم كفروا كان فيهم بالخيار، إما أن يغير ما بهم ويسلبهم نعمته، وإما أن يستدرجهم بنعمه ليأخذهم على أوفر ما جنوه وأسوأ ما أتوه، وأما موضع إسراره لهم فهو في معنى قوله لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾[1] [نوح:١٣] وهو وصف للقائه الكريم، وإخبار عن علم

(١) ما لكم لا تخافون لله عظمة في التوحيد؟ وهو قول الكلبي ومقاتل. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة؟ ويقال : ما لكم لا ترجون عاقبة الإيمان؟ يعني: في الجنة. وروى سعيد بن =

ما يعاينونه ويشاهدونه من عليّ رؤيته على دوام الخلود من تجديد مرئي وتنويع مشاهدة، آية ذلك في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٩ - ٣٠] فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم أول من رأى الشيب، فقال: يا رب، ما هذا؟ قال: وقار يا إبراهيم، قال: يا رب، زدني وقارًا»(١).

قوله ﷺ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤] شيبًا وشبانًا، إناثًا وذكرانًا، وخالف بين صوركم وألسنتكم وألوانكم وأخلاقكم ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٥ - ١٦] القمر: هو عظيم نجوم السماء والشمس أكبر، جعل هذين القمرين آية عليه ﷻ فإذا كان اليوم الآخر وأدخل عباده الجنة وقد أزال الشمس والقمر والنجوم فأقام أمره على الخصوص مقام الشمس والقمر والنجوم في هذه الدار وما سخرها له، وأظهر موجودات ما هنالك بأمره عيانًا.

قال عز من قائل: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] فالحق الذي خلق به السماوات والأرض وما بينهما فيما هاهنا يعوض به الحق المبين الذي هو هذا الحق هنا من شعاع نور ذلك الحق، فافهم.

ثم قال: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧ - ١٨] يقول: فكذلك كما خلقكم عن إثارة الآخرة إليها يردكم، وكما خلقكم عن الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما فكذلك يعيدكم إليه في الدار الآخرة جهارًا، وترونه عيانًا كما رأيتموه بالإيمان هنا فطرًا واعتبارًا.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ

= جبير عن ابن عباس قال: ما لكم لا تعلمون حق عظمته؟ وقال مجاهد: ما لكم لا ترجون لله عظمة؟ بحر العلوم للسمرقندي (٤/٣٣٠).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/٢٣٣)، ومالك (١٦٧٧).

ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ١٩-٢٨].

ثم قال ﷺ: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩ - ٢٠] يريهم دلائل النبوة وعلامات الرسالة، وكما تهدي الطرق إلى المقاصد كذلك تهدي الرسل إلى المراشد.

قال نوح ﷺ: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح:٢١] إلى آخر السورة.

وفي قوله ﷺ: ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] وكان يكون أنبت إنباتًا، لكنه قال ﷺ: ﴿نَبَاتًا﴾ وأنزله رب العالمين كذلك لحكمة في ذلك بالغة وعلم ظاهر؛ وذلك أنه ﷻ أنبتنا من الأرض في النبات نباتًا، ثم أنزلنا بالماء من السماء، ثم أنبتنا في الحيوان نباتًا، ثم أنبتنا في بطون أمهاتنا نباتًا، ثم بعد ذلك النشء مع النبات والإنبات معًا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ الله أَنصَارًا﴾(١) [نوح:٢٥] نص منه - جلَّ ذكره - على عذاب البرزخ، وأنه قد أدخلهم

(١) اعلم - رحمك الله - أن الله أدخل قوم نوح ﷺ النار عقب غرقهم في الماء فانتقلوا من الغرق إلى الحرق، فطلبوا النصرة من آلهتهم الذين قالوا في حقهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح:٢٣] فلم يجدوهم، وأضل الله أعمالهم عنهم كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:١] لأن الأعمال تطلب عاملها كما يطلب الابن أباه، وكما ضلت أعمالهم عنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤] على أولئك المعبودين من أنهم آلهة ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:٢٥] أي: لم يجدوا غير الله ناصرًا، فأخبر الله تعالى أن قوم نوح أدخلوا النار، ولا يدخلون النار إلا بعد بعثهم، فقدَّم الله بعثهم قبل خراب الدنيا.

النار متصلاً بموتهم، ألا تسمع لقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا﴾ [نوح:٢٥].

ثم ذكر ﷺ دعاءه على الكافرين لما قيل له: إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، واستغفاره لنفسه ولوالديه وللمؤمنين به، ثم لجميع المؤمنين والمؤمنات، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين، ربنا آمنا بما أنزلت من كتاب وبمن أرسلت من رسول فاكتبنا مع الشاهدين، وفي دعائه هذا لأبويه دليل على أنهما كانا مؤمنين.

ذكر في الأنساب أنه: نوح عليه السلام بن لامخ بن منوشالخ بن خانوخ، قال: فكان هذا خانوخ قد التزم الحق ووقف عند أمر الله - جلَّ ذكره - بن يارث بن ملايل بن قينان بن أنوش بن شاث، وهو الذي يقال له: شيث، والله أعلم. وشيث ابن آدم عليه السلام فصلوات الله وسلامه على نوح وعلى آبائه الطاهرين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

تفسير سورة الجن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧﴾ [الجن: ١-٧].

﴿قُلْ﴾ يا محمد بلغ ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾ [الجن: ١] قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ﴾ المعنى إلى آخره، فذكر في أولئك أنهم ﴿وَلَّوْا إلى قَوْمِهِم مُنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] و﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠] أي: من كتاب ورسول.

وقال في هؤلاء: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ - ٢].

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣] قيل: عظمة ربنا، وربما كان معناه: تعالى ربنا وتعالت أوليته ورحمانيته، وتعالى غنى ربنا.

روى مسلم الخزاعي قال: قرأت على أم الدرداء: «وأنه تعالى ذكر ربنا» وقيل في قراءة أبي الدرداء: «وأنه تعالى جلال ربنا»، وقرأ قتادة: «وأنه تعالى جِدًا رُبُنا» بكسر الجيم منونة الدال ورفع الباء من «ربنا».

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى الله شَطَطًا﴾[1] [الجن: ٤] أي: أمرًا

---

(١) السفه: خفة العقل، والشطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره، ومنه: أشط في السوم: إذا أبعد فيه؛ أي: يقول قولاً هو في نفسه شطط، وصف بالمصدر للمبالغة. والسفيه: إبليس أو غيره =

بعيدًا عنه، سفيهنا: هو إبليس - لعنه الله، ثم إلى هذا فيكون كلمة «سفيهنا» للجنس، فكل من كفر بالله ورسله فهو سفيه سفه نفسه وسفه عقله.

وقرئ بكسر «أن» من لدن قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ [الجن:٤] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لله﴾ [الجن:١٨] وبفتحها، فمن عطف على القول من قوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ كسر، ومن عطف على ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ [الجن:١] فتح قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى الله كَذِبًا﴾ [الجن:٥] إلى هنا انتهى قول الجن.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ﴾ [الجن:٦] إلى قوله: ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ [الجن:٨] الجحدري: «أن لن تَقَوّل» بفتح القاف والواو مشددة: أنبأنا - جلَّ ذكره - أن الجن لا يعلمون الغيب، وأنهم قد يجهلون الحق كما قد نجهله نحن، وأنهم يظنون كما نظن، والظن يخطئ ويصيب، وأنهم رجال ونساء بقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦] والرهق: الضيق والشدة، وهو هنا كناية عن الضلال.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن:٨ – ١٣].

قوله ﷻ حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن:٨] الحرس: الملائكة، والشهب: الراجم، الملائكة ترمي بالشهب لما وجدوا السماء قد أشدت حراستها شكوا ذلك إلى سفيههم، واجتمعوا إليه في

من مردة الجن الذين جاوزا الحد في طرف النفي إلى أن أفضى إلى التعطيل ، أو في طرف الإثبات إلى أن أدى إلى الشريك والصاحبة والولد.

ذلك فقال: ماذا إلا لحدث قد حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فجاء النفر الذين توجهوا نحو تهامة ووجدوا رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه بسوق عكاظ وهو يصلي بهم صلاة الصبح فاستمعوا له، وقال بعضهم لبعض: هذا الذي منعكم من خبر السماء.

قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] أظهر الله من صنعه علمه المغيب عنا وعنهم يومئذٍ، فحقق منهم قومًا بالكفر والضلالة، وخص آخرين بالإيمان والهداية.

قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الجن:١١] أنبأنا الله - جل ثناؤه - على ألسنتهم أن منهم الصالحين، ومنهم دون ذلك.

قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ أي: نحن والمؤمنون، بمعنى: أيقنا وعلمنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: إذا متنا وكنا ترابًا في الأرض لن نعجزه، بل يعيدنا كما قد بدأنا ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن:١٢] إذ الهارب عنه إنما ينقلب في قبضته.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ١٤- ٢٢].

قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ﴾ [الجن:١٤] قسط بمعنى: جار، وأقسط بمعنى: عدل في الحكم، وهذا منتظم المعنى بقولهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الجن:١١].

قال الله - عز من قائل: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: على طريقة الحق الإسلام

والإيمان والعمل الصالح ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[(١)] [الجن:١٤ - ١٧] حتى ينفذ فيهم حكمه الحق ويصدق قوله الأول: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[(٢)] ويمكن أن يكون هذا من قول الجن لقومهم يدل على صحة ذلك إخباره عنهم بأن، وكأنه يعبر عن إيمانهم وهدايتهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] هذا كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] فالمساجد هاهنا هي: آراب السجود، ثم تدخل جميع الأجسام بالتبعية لصحة القول بأن الله خالق الكل.

يقول الله ﷻ: خلق لكم آراب السجود الوجه واليدين والركبتين والقدمين فأنعم عليكم بها فلا تسجدوا بها إلا له وحده.

قالوا: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يعنون: رسول الله ﷺ يصلي لله بأصحابه ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩] اللبد: ما تراكم على ظهر الأسد من وبرته، لما رأوه يصلي بأصحابه وهم يصلون بصلاته ويسجدون بسجوده ويركعون بركوعه ويقومون بقيامه قالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

رُوي هذا عن رسول الله ﷺ، جاء أن عمر بن الخطاب ﷺ لما بعث النعمان بن مقرن إلى الفرس غازيًا في جموع المسلمين نزل بساحتهم، فأرسل إلى ملكهم المغيرة بن شعبة يدعوه إلى الله وإلى الإسلام والإيمان، وكان قد أرسل الملك طليعة له ليخبره بشأن المسلمين، وكان مما أطلعه عليه أن قال: هم إذا صلوا صفوا أنفسهم صفوفًا، ويقدمهم رجل منهم يقومون بقيامه ويسجدون بسجوده ويقعدون بقعوده ويفعلون بفعله، لا تخالف فيما بينهم، قال: فلما سمع الملك بذلك من وفاقهم راعه ذلك، وقال: مالي ولهؤلاء، مالي ولعمر.

---

(١) الإسقاء والسقي بمعنى واحد، وقال الراغب: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك له حتى يتناوله كيف شاء كما يقال: أسقينه نهرًا فالإسقاء أبلغ، وغدق من باب علم إذا غزر وصف الماء به للمبالغة في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر؛ لأنه أصل السعة.

(٢) تقدم تخريجه.

وبوجه آخر: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ﴾ أي: يدعوهم إلى الله كاد المشركون ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ عداوة له وجمعًا عليه والله يعصمه ويحوطه، دل على هذا التوجيه قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا وَلَا رَشَدًا...﴾ [الجن:٢٠ – ٢١].

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن:٢٣ – ٢٨].

قوله ﷻ: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾ [الجن:٢٦] وقرأ السري بن منعم: «علم الغيب» بغير ألف إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٧] عام في المرسلين من الملائكة الناس، والضمير الذي في قوله: «فإنه» يسلك: راجع – والله أعلم – إلى الرسول الملك يسلك من بين يدي الرسول البشري، رصد الشيطان مارد أو ظن أو تمنى يكون من الرسول يقدح في خاطره مع الوحي أو قبله.

قال الله – عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ [الحج:٥٢].

﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله – جلَّ ذكره – ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يعلم ذلك واقعًا كما قد علمه سابق العلم أنه كائن، وقرأ ابن عباس والزهري: «لِيُعلم أن قد» بضم الياء ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ يعني: الرسل من الملائكة والبشر ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨] فيما لم يزل وفيما لا يزال، وقرأه ابن أبي عبلة: «وأُحصِي كل شيء عددًا» على ما لم يسمَّ فاعله، وقرأ أيضًا: «وأحيط بما لديهم» على ما لم يسمَّ فاعله.

تفسير سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤)﴾ [المزمل:١-١٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾[1] [المزمل:١] أدغمت التاء في الزاي، وفي حرف

---

(١) قوله: ﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أصله: المتزمل، فأدغمت التاء في الزاي، والتزمل: التلفف في الثوب. قرأ الجمهور: (المزمل) بالإدغام. وقرأ أبيّ: «المتزمل» على الأصل. وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي، وهذا الخطاب للنبيّ ﷺ وقد اختلف في معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل ﷺ بثيابه في أوّل ما جاءه جبريل بالوحي فرقًا منه حتى أنس به. وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالنبوّة، والملتزم للرسالة. وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ: «يا أيها المزمل» بتخفيف الزاي وفتح الميم مشدّدة اسم مفعول. وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالقرآن. وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه. وقيل: بلغه من المشركين سوء قول، فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وقد ثبت أن النبيّ ﷺ لما سمع صوت الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: «زملوني دثروني» وكان خطابه ﷺ بهذا الخطاب في أول نزول الوحي، ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة والرسالة﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: قم للصلاة في الليل. قرأ الجمهور: (قم) بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك بضمها اتباعًا لضمة القاف. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأيّ حركة تحرك فقد وقع الغرض. وانتصاب الليل على الظرفية. وقيل: إن معنى (قم) صلّ، عبر به عنه واستعير له. واختلف هل كان هذا القيام الذي أمر به فرضًا عليه أو نفلاً؟ وسيأتي إن شاء الله ما روي في ذلك. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ استثناء من الليل أي: صلّ الليل كله إلّا يسيرًا منه، والقليل من الشيء هو ما دون النصف. وقيل: ما دون السدس. وقيل: ما دون العشر. وقال مقاتل والكلبي: المراد =

ابن مسعود: «يأيها المتزمل والمتدثر» وهو الذي تزيل بثيابه وتدثر، والدثار من الثياب: ما لبس فوق الشعار.

﴿**قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ [المزمل:٢] يعني، وهو أعلم: ثلثي الليل؛ يعني: حين يبقى ثلثا الليل، يدل على صحة هذا التأويل قول رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا في ثلثي الليل...**»(١) وفي أخرى: «**شطر الليل**»(٢) وفي أخرى: «**حتى يبقى من الليل ثلثه**»(٣).

قال قائلون: إن هذا قبل أن تفرض الصلاة، ولما فرضت صار قيام الليل نافلة، وإنما فرضت الصلاة بمكة ونزول هذه السورة كان بالمدينة.

قالت عائشة - رضي الله عنها: فرض الله على رسوله قيام الليل وعلى أصحابه معه، كيف والله ﷻ يقول له: «**هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي**»(٤).

وإنما ذلك، والله أعلم، أن الله - جلَّ ذكره - رَغَّبَ رسوله والمؤمنين على لسان الرسول ﷺ في قيام الليل؛ ليجعل ذلك للمؤمنين من المعهود والمتعارف من القرب ونحو هذا، فقام رسول الله ﷺ حولاً كاملاً وأصحابه معه، وكانت الأوراد آخر الليل من ثلثي الليل ونصفه وثلثه، قالت عائشة: «وأمسك الله في السماء خاتمتها حولاً كاملاً، ثم أنزل قوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ**﴾

=

بالقليل هنا: الثلث، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله (نِّصْفَهُ) إلخ، وانتصاب (نصفه) على أنه بدل من الليل. قال الزجاج: نصفه بدل من الليل، وإلّا قليلاً استثناء من النصف، والضمير في منه وعليه عائد إلى النصف. والمعنى: قم نصف الليل، أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين، فكأنه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن نصفه بدل من قوله (قليلاً) فيكون المعنى: قم الليل إلّا نصفه، أو أقلّ من نصفه، أو أكثر من نصفه، قال الأخفش: نصفه أي: أو نصفه، كما يقال: أعطه درهمًا درهمين ثلاثة، يريد، أو درهمين، أو ثلاثة. انظر: [فتح القدير (٧/٣٣٥)].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٧٥٠٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في الإيمان (٧١٤).

إلى آخر السورة».

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ
ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ
مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾
إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ
وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا
تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ١٥—٢٠].

قالت: وجعل الأوراد أجزاء من القرآن بقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي: المفروضة ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة ﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: من نوافل الخيرات ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ أي: في الأسحار ثم في سائر الأوقات ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

تفسير سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)﴾ [المدثر: ١ –٢٥].

﴿الرُّجْزَ﴾[(١)] [المدثر:٥] العذاب، ولما كان الكفر والشرك وما جرَّ إلى ذلك سببًا لوجوب العذاب سمي: رجزًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] أي: لا تعطى لتأخذ أكثر منه، ويكون المعنى أيضًا: لا تمنن بعلمك ولا بما تعطيه ولا تستكثره.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧] أي: في العمل بطاعة الله وعن المعاصي وعلى المصائب، وأحضر في ذلك نية، واجعل ذلك منك في جنب الله - جلَّ ذكره - و﴿النَّاقُورِ﴾ [المدثر:٨] القرن.

---

(١) قرأ الجمهور: «الرجز» بكسر الراء. وقرأ الحسن ومجاهد وعكرمة وحفص وابن محيصن بضمها. وقال مجاهد وعكرمة: الرجز: الأوثان، كما في قوله:﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠] وبه قال ابن زيد. وقال إبراهيم النخعي: الرجز: المأثم، والهجر: الترك. وقال قتادة: إساف ونائلة، وهما صنمان كانا عند البيت. وقال أبو العالية والربيع والكسائي: بالضم: الوثن، وبالكسر: العذاب. وقال السديّ: بضم الراء: الوعيد، والأوّل أولى. فتح القدير (٧/٣٤٧).

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر:١١] يتوجه قوله وحيدًا إلى وجهين:

أحدهما: ذرني ومن خلقت وحدي لم أشرك في خلقي له أحدًا، وخولته ووسعت له في الرزق، والمحذوف منه، ثم هو يعبد غيري ويدين لسواي ذرني وإياه وعيد منه شديد.

والوجه الآخر: أن يكون قوله: ﴿وَحِيدًا﴾ وصف للعبد، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يخرج من بطن أمه أحمر لا قشر عليه، ثم يرزقه الله**»[1].

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدودًا﴾ [المدثر:١٢] أي: واسعًا عريضًا.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر:١٣] وصفهم بأنهم يشهدونه، وهذا تعريض بسعة الرزق والتمكن، فلا يغنيهم عنه في طلب الأرباح ضربًا في الأرض، أشار إلى ذلك قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر:١٤].

يقول ﷻ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر:١٥] أي: في الآخرة على شكه في وجوبها، يقول: إن كان لا بد من دار بعد هذه فأنا فيها أوسع حالاً وأكثر رزقًا كما قال غيره: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر:١٦] بمعنى: معاند، يمانع على الإيمان بها ويجادل فيها، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون، بل النار مأواه، نعوذ بالله من عذابه.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧] روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**الصعود: جبل في النار يتصعد فيه سبعين خريفًا ثم يهوى فيه، كذلك أبدًا**»[2].

نظم بذلك - جلَّ ذكره: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر:١٨] ذكر أنه الوليد بن المغيرة فكر فيما سمع من القرآن وقدر؛ أي: قرنه في نفسه بما تقرر في هاجسه من شعر وسحر وكهانة وجنون.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٩٣) وهناد (٧٨٩)، وابن ماجة (٤١٦٥)، وابن حبان (٣٢٤٢) وابن قانع (٣٢٤/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٤٩) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٤٦٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٨٣٢).

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر:١٩ - ٢٠] وهو دعاء عليه مجاب لا محالة، الأولى منهما لفكره: كيف فكر؟ ولتقديره: كيف قدر؟ ومن عذاب هذا في دار البرزخ وفي دار القرار القتل زائدًا على عذابه المعد له لأجل هذا الدعاء ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

لما كان فكره ذلك وتقديره مانعًا لبعض أتباعه من حياة الإيمان أصيب بقتل حياة جسمه بعد الموت أبدًا، والعرب تدعو بذلك على أعدائها، ثم كثر استعمال ذلك واتسعوا فيه كعادتهم، فربما قالوا ذلك مع الاستحسان، فيقولون: قاتله الله ما أشعره، وقاتله الله ما أظرفه، وأما قول الله ﷻ فحق ودعاؤه مجاب لا محالة.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١] أي: بقلبه الوسنان وعقله القاصر.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ العبوس: تزند في الوجه مع تقبض جلده ما بين العينين، ثم قال: ﴿وَبَسَرَ﴾ [المدثر:٢٢] والبسور: هيئة في الوجه تدل على تحزن في القلب، أما تحزنه فلأنه لا يوافق عنده ما كان يقرن القرآن به من شعر وسحر؛ لأنه قال: قد سمعنا الشعر رجزه وهرجه، ورأينا الجنون بخبطه وخبله، فكان لا يلتئم عليه ما كان يقرنه، فيبدو العبوس في وجهه والبسور حتى نكس على رأسه فأدبر عن تحقيق النظر واستكبر عن قبول الحق.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر:٢٦-٣١].

يقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥-٢٧] فكان جزاؤه على ذلك القتل، ثم القتل، وأن يصليه سقر.

ثم وصف سقر وما هي ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٨ - ٢٩] أي: تغير الشراب، كما قال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ

﴿فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤].

نظم بذلك قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] ذكر هذه العدة وقوله الحق، فيمكن أن يكون تسعة عشر صنفًا من الملائكة - على جميعهم السلام - أو تسعة عشر ملكًا، ثم لا يعلم عدد أتباعهم ولا مقدار مددهم إلا الله.

وقد جاء في الخبر أن الله - جلَّ ذكره - يقول للكافر: خذوه، فيبتدره سبعون ألف ملك، فقيل: إنه ينقطع في أيديهم لشدة بطشهم وقوة أخذهم، فيقول: ألا ترحموني؟ فيقولون له: أرحم الراحمين لم يرحمك، أفنحن نرحمك؟ وقول الله هو الحجة البالغة.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] وأقرب ما هو الحق في هذا الموضع أنه وصف لعذابه في دار البرزخ، والمعذبون له تسعة عشر من الملائكة عليهم السلام، وسقر في دار البرزخ لم يبلغ أن يسود الوجوه كما يفعل ذلك في دار الخلود كما وصفها الله بقوله الحق فيما هنالك: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس:٢٧] آية ذلك: ما قد تفعله الشمس هنا بوجوه تبرز إليها، فهي تلوِّح وجوههم، فإذا كانوا في الدار الآخرة أتمت تسويد الوجوه فتكون كقطع الليل المظلم، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة، وفيما بين ذلك غلب هذا التوجيه.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٢ - ٤٨].

قوله - عز من قائل: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] والسلوك: عبارة عن خروجهم عنها يوم البعث لأدهى منها وأمر، وقوله أيضًا: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وقوله: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الكُبَرِ﴾ [المدثر:٣٥] وهن أربع مواطن: دار الدنيا التي اكتسبوا

فيها ما هو ذلك جزاء له، ثم دار البرزخ، ثم يوم البعث، ثم الدار الآخرة دار الخلد.

ودل عليه أيضًا قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] والرهن معرض بأن يفتدى أو يغلق، وتلك رهن قد غلقت، نعوذ بالله من ذلك، ثم استثنى منهم أصحاب اليمين، فإن منهم أصحاب المعاصي يكونون أيضًا فيما هنالك على دركات هي رهن معرضة بأن تفتك بالشفاعة وبالقصاص وبرحمة الله.

ثم اختص بالوصف أهل العلية من ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٩] بقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقولون: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٠-٤٢] فيجيبونهم بقولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر:٤٣] فمن هؤلاء الموحدون ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر:٤٤ - ٤٥] فمن كان من الموحدين يرجى لهم الخروج منها بعد القصاص وبرحمة الله، وأما الكفار فهم مجازون بدقائق الشريعة مع عظيم الكفر لأجل معلوم بهذا القول.

يقول - عز من قائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(١) [المدثر:٣١] أما استيقان أهل الكتاب فلأجل اتفاق ما جاء به القرآن من هدي بما جاءهم في كتابهم، فيردف العلم العلم فيصير يقينًا.

---

(١) لأنَّ عدتهم تسعة عشر في الكتابَيْن فإذا سمعوا مثلها في القرآن تيقّنوا أنه مُنزَّل من عند الله، وهو متعلق بالجعل المذكور، أي: جعلناهم كذلك ليكتسبوا اليقين بنبوته ﷺ، وصِدْقِ القرآن، لموافقته لِما في كتبهم ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بذلك، كما صدّقوا بسائر ما أُنزل، فيزيدون إيمانًا مع إيمانهم الحاصل، أو: يزداد إيمانهم تيقُّنًا؛ لما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم، ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لِما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شُبهة ما، وإنما لم ينظم المؤمنين في سلك أهل الكتاب في الارتياب، حيث لم يقل: ولا يرتابوا؛ للتنبيه على تباين النفيين حالاً، فإنَّ انتفاء الارتياب عن أهل الكتاب مما ينافيه لِما فيه من الجحود، وعن المؤمنين لما يقتضيه من الإيمان، وكم بينهما؟ والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المُنبئة عن الحدث؛ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك.

وروى جابر بن عبد الله: أن قومًا من أهل الكتاب جاءوا إليه في قصة فيها طول، وفيها: إنهم سألوه عن خزنة جهنم، فقال رسول الله : ﷺ «**بيده هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسعة**» فقالوا: بارك الله عليك يا أبا القاسم، ثم سألهم: «**ما تربة الجنة؟**» قال: فسكتوا هنيهة، ثم قالوا: خبزة يا أبا القسم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الخبزة من الدرمك**»(١).

أرى - والله أعلم - أن أهل الكتاب السائلين رسول الله إنما سألوه عن دار البرزخ وعدة المعذبين فيما هنالك، وأن الله قد وصفهم بأنهم عالمون بذلك؛ لقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ [المدثر:٣١].

وجاء أن امرأة من يهود دخلت على عائشة فقالت لها: «**إن أصحاب القبور يعذبون فيها...**»(٢).

وأما وصفه المؤمنين بازدياد الإيمان؛ فلأنهم قد آمنوا بعذاب الآخرة ونعيمها، فإذا علموا هذا ازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم، وأما نفي الارتياب عن الذين آمنوا ويريد الإيمان لآخرين منهم فللذي تقدم من أن جنود الله لا تحصى، وبوجه آخر: لو لم يكونوا إلا تسعة عشر أو ملكًا واحدًا ثم أراد رب العزة شيئًا لكان ما شاءه منهم؛ لأنهم من أمره وبأمره يعملون، بل لو لم تكن الملائكة ولا النار في الوجود لعذبهم بأنفسهم وأنفاسهم وبنومهم وبأكلهم وبشربهم إذا شاء ذلك أشد من عذاب النار أضعافًا، فويل للمكذبين.

يقول الله - جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ نظم بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يعني: جهنم ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣١] يعرض من اليقين بما تقدم ذكره من أنه يعذب من يشاء بما شاء أشد العذاب.

ثم أقسم ﷻ يقول: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر:٣٢ - ٣٣] قرئ بالمد وبالقصر: «إذا أدبر» و«إذا دبر» ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: جهنم ﴿لإِحْدَى الكُبَرِ﴾

(١) أخرجه أحمد (١٤٩٢٦) قال الهيثمي (٤١٢/١٠): إسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (١٣٤٩).

[المدثر:٣٥] أثبت وجودها في معنى التذكار؛ لئلا يتوهم متوهم غير ما في الحقيقة بل هي إحدى الكبر في هذه الدار، كيف لا وإنما تأسست بفيحها وانبنت على نفسيها ووترهما فتح رحمته عن جنته ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢].

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣٦] أي: جعلنا ذلك نذيرًا للبشر، وأكدنا النذارة بالرسول والرسالة لمن شاء منكم أن يتقدم إلى نيل رحمته والصعود إلى الجنة التي فتح هذه الرحمة عنها، أو يتأخر إلى البعد عن الله تعالى والنار الكبر التي برد ما هنا وحره موجود عنها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨ - ٣٩] ليسوا بمرتهنين بأعمالهم، بل هم المكرمون بها.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر:٤٩ – ٥٦].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر:٤٩-٥١] القسورة: هو الأسد، ويقال القسورة: ضجيج الناس وكثرتهم.

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر:٥٢] هو كما قال غيرهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر:٥٣ - ٥٤] إثارة الآخرة في الدنيا ويكون المراد أيضًا بالتذكرة السورة، ينتظم بقول القائل: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥].

﴿**فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ**﴾ [المدثر:٥٥] القرآن.

﴿**هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ**﴾ [المدثر:٥٦].

روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قرأ هذه الآية ثم قال: «**يقول الله: أنا به أهلٌ أن أُتَّقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهلٌ أن أغفر له**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٦٥)، والترمذي (٣٣٢٨)، وقال: غريب. والنسائي في الكبرى (١١٦٣٠)، والدارمي (٢٧٢٤)، وأبو يعلى (٣٣١٧)، والحاكم (٣٨٧٦)، وقال: صحيح الإسناد.

تفسير سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الغرض في هذه السورة: إثبات الإعادة بعد البداية، وإثبات الكسب للعبد، وتصحيح إضافة الفعل إليه مع إحراز العلم بتحقيق القدر، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لا شيء إلا بمشيئة الله ولذلك - وهو أعلم - أقسم بقسمين:

- **أحدهما**: يوم القيامة؛ إذ كانت الإعادة يحل أجلها بها.

- وبالنفس اللوامة؛ إذ المؤمن يلوم نفسه على إتيان المعاصي وجنايات الزلات، ويحمد ربه في تقديره ذلك عليه ويستغفره من ذنبه، والكافر يحمد نفسه ويلوم ربه ويصر على ذنبه ويستمر على فعله، فأقسم الله بخيرهما وأفضلهما.

وغرض ثالث: هو الإعلام بأن القرآن منزل من عند الله - جلَّ ذكره - قولاً ومعنى، لا كسب فيه للرسول ﷺ إلا الاستماع له والوعي والتبليغ، ولما كان القرآن كله كسورة واحدة، وتقدم فيما تلاه علينا إنكار المنكرين للإعادة، وأبعدوا أن يصفوا الله تعالى بالقدرة على إحيائهم في حال كونهم رميمًا وترابًا، كان معنى استفتاحه السورة بـ«لا» في القسمين نفيًا لما زعموه، وتكذيبًا لظنهم الذي ظنوه.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة:١ - ١٥].

ثم أظهر ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[١] [القيامة:٣] ثم

(١) يعني: يظن الإنسان إنا لا نقدر على جمع العظام البالية بعد تفرقها، أما ترى في المغناطيس الذي خلقناه في الدنيا وهو حجر جسماني ظلماني وأودعنا فيه خاصية جذب المتفرقات =

قال: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة:٤] البنان: هي أصابع اليدين، والبنان: أعضاء الإنسان.

يقول - عز من قائل: أأعظمتم جمعنا عظامكم البعض منها إلى البعض، وجلب مواد الخلقة إليها التي انتزعناها عنها حال البلاء مدة فنائها، بلى ونحن قادرون على تسويته خلقًا سويًا بالحكمة التي أوجدناها عليه والقدرة التي بها قدرنا على أول خلقها.

نظم بذلك قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة:٥] إن كان الضمير الذي في قوله: ﴿أَمَامَهُ﴾ راجعًا إلى الإنسان، فمعناه: تقديمه المعصية وتأخيره التوبة، من قولهم: مضى فلان على وجهه؛ أي: على غير مقصد ولا إلى مبلغ يبلغه، وإن كانت راجعة على الله - جلَّ ذكره - فمعناه: بل يريد الإنسان ليفجر أمامه؛ أي: بين يدي الله وبمشاهدة منه، وحذف هنا كلامًا معناه ما عبر عنه، ويطمع ألا يأخذه به أو يجازيه بفجوره أو ما كان هذا معناه، فإذا ذكره النذير بعقاب الله قال: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾ [القيامة:٦].

أتبع ذلك ما هو منتظم به قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ﴾ [القيامة:٧] يعني: حين الموت ﴿وَخَسَفَ القَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة:٨ - ٩] طلوع الشمس من مغربها ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ﴾ [القيامة:١٠].

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:١١] أي: لا ملجأ.

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة:١٢] كقوله: ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨] وقول رسول الله ﷺ: «**لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك**»[1].

=

وجمعها، ومثاله بيّن في عالم الشهادة إذا سحق الحديد سحقًا وتفرق أجزاؤه في حائط ثم أقيم المغناطيس على رأس الحديد المسحوق المتفرق، كيف يجمع المتفرقات؟ بقدرتنا وبضم بعضها إلى بعض، فما ظن الكافر بالروح الإنساني وخاصيته إذا أمرنا أن ينظر إلى أجزاء قالبه المتفرقة لا يقدر أن يجمعها، وخاصية الروح الإنساني اللطيف العلوي لا يكون أقل من الحجر الجسماني الكثيف السفلي.

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٨٤)، والبخاري (٢٤٤)، ومسلم (٢٧١٠)، وأبو داود (٥٠٤٦)، والترمذي (٣٣٩٤) والنسائي في الكبرى (١٠٦١٨)، وابن خزيمة (٢١٦)، وابن ماجة (٣٨٧٦).

يقول الله - جل من قائل: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣] كقول رسول الله ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله أنت المقدم وأنت المؤخر»(١).

فالإنسان منوط به فعله، مضاف إليه خيره أو شره، إن كان خيرًا فمن الله، وإن كان شرًا فمن نفسه، فمتى عقد على نفسه للعزيز الرحيم هذا العقد وأقر به وأمكن رقبته من ربقة العبودية وجد في أسباب الخلاص، وأجهد نفسه في مرضات ربه رحمة وإلا أخذه بعلمه فيه.

نظم بذلك قوله الحق ﷻ: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٤ - ١٥] كقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨].

يقول ﷻ: يقول هذا وهو على كفره مقيم، وعلى إصراره ثابت، إنه ليعلم حين إتيانه الذنب أنه مختار له قاصد إليه، وإن قال في ذلك: إنه علي مقدور وأنا لا حول لي ولا قوة إلا بالله، فإنه يجد نفسه مطيعة لذاتها مخالفة لربها مغتبطًا بما هو عليه فرحًا به، فمتى لام نفسه وعصاها، وحمد فعل ربه وأطاعه، واستغفر لذنبه فهو المحمود المثاب، ومتى حمد نفسه وأطاعها ولام ربه وعصاه وأصر على ذنوبه فهو المذموم الملعون المعاقب.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥)﴾ [القيامة:١٦ - ٣٥].

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

[القيامة:١٦ - ١٧] أعلم الله ﷻ أن القرآن منزل على الرسول ﷺ قولاً ومعنى، لا كسب له فيه ولا عبارة عنه بلسانه سوى أنه تلقاه، فيخرجه الله على لسانه قرآنًا عربيًا ليبلغه إلى الناس، يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨ - ١٩] أي: على لسانك وألسنة العلماء من أمتك بعدك.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠ - ٢١] انتظم هذا الكلام بما عبر عن من تكذيبهم بالرجعة وقلة المراقبة، وإصرارهم على الكفر وترك التوبة.

نظم بذلك ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: اليوم الآخر ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢].

﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] لما سأل الفاجر ﴿أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦] أعلم بما يؤول إليه الأمر.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤ - ٢٥] الظن هنا بمعنى: اليقين، والفاقرة: المهلكة؛ لأنها تقطع فقار الظهر، يقول: قد أيقنت بالفاقرة نصيبها.

فصل

أعلم الله ﷻ بصدق قيله أن النظر في الحياة الآخرة بقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢] أي: ناعمة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم عيانًا كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيتها ولا تضارون**»[1].

وقال الله - عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس:٧] كما قال نوح ﵇: ﴿مَا لَكُمْ لَا

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (١٤٦٦).

تَرْجُونَ لله وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا.....﴾ [نوح:١٣ - ١٤].

وقد تقدم أنه كما جعل في هذه الدار منافع ما هاهنا مقسمة على مطالع الشمس والقمر ويقيد ما سخرهما بإذن الله وبواسطة الملائكة الشافعين في ذلك، العاملين له فيه بأمره، فإذا قوض هذا البناء وبدلت الأرض والسماء، وكورت الشمس، وخسف القمر، وانكدرت النجوم، وأنجز لعباده ما وعدهم به من كريم الجزاء، كان فيما هو موجود في على المآب ما هو الشمس والقمر عليه آيتان في هذه الدار. وما هو هنا الحق المخلوق به السموات والأرض وما بينهما آية عليه فيما هنالك، هو الحق المخلوق به السماوات والأرض وهو الحق المبين.

فآية النهار ضياء، وآية الليل نور، وهو المتجلي لهم بذلك الضياء، وذلك النور كما قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا وكما ترون القمر**»[١] فذكر القمر لدوامه وعمومه مدة الليل، والشمس لشمولها على مدة النهار، لكن ذلك التجلي لا أفول ولا غروب ولا انتقال ولا اضمحلال، ولأجل ذلك تبرأ إبراهيم عليه السلام من التعبد للشمس والقمر والكوكب زائدًا إلى ما رأى فيهن من مخايل الحدث وآفات النقص وعلامات الافتقار.

فصل

وليعلم أنه ﷻ لا يتجلى لعباده بتجل قد تقدم ضياء ونورًا إنما هو تجل مجدد أبد الآباد، وكما لا يعجزه صورة يخلق عليها، كذلك لا يجدد ظهورًا قد كان آية ذلك الشمس والقمر والكوكب، لا يطلع الطالع منها من حيث طلع بالأمس.

قال الله - عز من قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦ - ٢٧].

ثم قال: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] فكما أن الشمس والقمر والكوكب كل يوم في مطلع، كذلك له ظهور غير ظهور قد كان لذلك.

---

(١) انظر السابق.

قال - عز من قائل: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦] إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ تعجبهم أبدًا ويتعجبون، فهجراهم أبدًا، ودعواهم: سبحانك اللهم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [يونس:٩ - ١٠] كما قال: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

ثم قال - عز جلاله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقال نوح عليه السلام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] وهو وصف الجلال والكبرياء والجمال والبهاء والسناء ونحو هذا، وتجديد ظهور التجلي.

قال إبراهيم عليه السلام لما رأى الشيب نزل به: «ما هذا يا رب؟ قال: وقار يا إبراهيم» أي: إن هذا تجديد ظهور لك ونحو هذا، فقال: «رب زدني وقارًا»[١].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة:٢٦] يعني: النفس وطلب له الأُساة[٢] والرقي وأيقن بالفراق ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة:٢٩] شدة ما هو فيه من علز الموت وحسرة الفوت ومرارة الفراق لهول ما يعاين من هول المطلع.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾[٣] [القيامة:٣١] أي: وجد لا مصليًا ولا مزكيًا ولا مصدقًا، بل كان مكذبًا بلقاء الله والدار الآخرة ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة:٣٣] يمشي ممتطيًا، وهي مشية التبختر، مأخوذ من المطا، وهو: الظهر إذا مشى لوى ظهره، ويقال: إنها نزلت في أبي جهل، وهي عامة فيمن عمل بعمله واستن بسنته.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ [القيامة:٣٤] فأولى كلمة وعيد وتهديد أولى لك؛ أي: تترك ما أنت عليه وتقبل إلى ربك، وقد تكون بمعنى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الأُساة: مفردها آسي وهو الطبيب. انظر الصحاح في اللغة (١/١٤).

(٣) هذا في أبي جهل، وفيه وجهان: أحدهما: فلا صدّق بكتاب الله ولا صلّى لله. قاله قتادة. الثاني: فلا صدّق بالرسالة ولا آمن بالمرسل، وهو معنى قول الكلبي. ويحتمل ثالثًا: فلا آمن بقلبه، ولا عمل ببدنه. النكت والعيون (٤/٣٥٨).

النصيحة للرسول، والمراد بذلك: كل المؤمنين أولى لك أن تقدم لذلك اليوم، فأولى لك أن تأخذ حذرك، ثم ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ فهذه لمن كذب بالإعادة والأولى لمن قلت مراقبته ربه وأصر على ذنبه واغتبط بجرمه.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] أي: هملاً ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ [القيامة:٣٧] قرئت بالياء والتاء من وصف النطفة والياء من وصف المني، يقول - عز من قائل: هلا رأيتم النطفة تركت على حالها حتى جعلت علقة، وكذلك العلقة لم تترك حتى خلقت مضغة، وكذلك المضغة إلى آخر درجات الخلق والإنشاء، كذلك لستم بمتروكين أمواتًا حتى نخلقكم ثانية لنجزيكم بما عملتم، وكما صح منا الفعل أولاً كذلك في الآخرة.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾ [القيامة:٣٨-٤٠] انتظم هذا بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى﴾ [القيامة:٣ - ٤] والله صدق الله ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٦].

تفسير سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[1] [الإنسان:١] معنى «هل» هنا بمعنى: أليس، وهي لغة، والمقصود التقرير، ومن قولهم: ألست أخي، ألست صاحبي.

---

(١) «هل» حرف استفهام، فإن دخلت على الجملة الاسمية لم يمكن تأويله بـ«قد»؛ لأن «قد» من خواص الفعل، فإن دخلت على الفعل فالأكثر أن تأتي للاستفهام المحض. وقال ابن عباس وقتادة: هي هنا بمعنى: قد. قيل: لأن الأصل «أهل» فكأن الهمزة حذفت واجتزىء بها في الاستفهام، فالمعنى: أقد أتى على التقدير والتقريب جميعًا؛ أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب حين من الدهر لم يكن كذا، فإنه يكون الجواب: أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكور. وما تليت عند أبي بكر، وقيل: عند عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ليتها تمت؛ أي: ليت تلك الحالة تمت، وهي كونه شيئًا غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف. والإنسان هنا جنس بني آدم، والحين الذي مرّ عليه، إما حين عدمه، وإما حين كونه نطفة. وانتقاله من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه، فإنه في تلك المدة لا ذكر له، وسمي إنسانًا باعتبار ما صار إليه. وقيل: آدم عليه الصلاة والسلام، والحين الذي مر عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح. وعن ابن عباس: بقي طينًا أربعين سنة، ثم صلصالاً أربعين، ثم حمأ مسنونًا أربعين، فتم خلقه في مائة وعشرين سنة، وسمي إنسانًا باعتبار ما آل إليه. والجملة من ﴿لَمْ يَكُن﴾ في موضع الحال من الإنسان، كأنه قيل: غير مذكور، وهو الظاهر أو في موضع الصفة لحين فيكون العائد على الموصوف محذوفًا؛ أي: لم يكن فيه. انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٤٠١)].

قال الله - عز من قائل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] ولما تقدم ذكر الإعادة وإثباتها وإنكارهم لها نظم أول هذه السورة بما جرى في التي قبلها قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾ [القيامة:٤٠] أليس قد ﴿أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] يقول: فأوجدناه من عدم وصورناه على غير مثال، فكيف تنكرون إعادته بعد هذا؟.

ثم جعل يخبر بصدق قيله عن خلقته بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جمع مشج كخلط وأخلاط ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: لنبتليه هذا إخبار منه عن خلقه آدم ﷺ ثم عن خلقه بنيه من بعده بالتبعية، يقول: مشج الأمشاج بحكمته وأثار الكون إلى الصورة والتخطيط والتقدير، وإصارة الأمشاج إلى مقصود الخلقة من العدم من حيث العبد، والأمشاج هنا: هي ممزوج الفيحين مع الفتح مع المقصود بالمشيئة إلى معاني اليمين أم إلى معاني الشمال، جمع ذلك كله صنع الصانع وخلق الخالق، وهذا المعني بقوله الحق: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ ثم قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢].

لما كان في ممتزج الأمشاج مقتضيات الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، وكان هو مما في أمشاج ذلك جعله سميعًا بصيرًا عالمًا قادرًا مريدًا، ثم إلى أنهى الأسماء والصفات، وكان أيضًا جاهلاً، أعمى، أصم، عاتيًا، قاسيًا، ثم ابتلاه بالأمر والنهي في المأمور والمنهي، وكان معنى الكفر والإيمان وجميع المأمور به والمنهي عنه في أمشاج ما خلقه منه، كما أنه لما مشج بأمشاج أبيه وأمشاج أمه أشبههما، وكان أقرب شبهًا بمن غلب عليه منهما، كذلك أشبه ما يكون عنه من فيح أو فتح، وإلى أيهما مالت به المشيئة العالية كان أقرب شبهًا، ثم إليه الأمر من قبل ومن بعد في تغليب مشيئته بالهداية أو الإضلال.

لذلك يقول - عز من قائل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

يقول الله - جل من قائل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢] أي: في أول

الأمر يوم قال: «هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون»[1] وإنما الابتلاء بالأمر والنهي لتقوم الحجة له أو عليه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يعني: سبيلي الضلالة والهداية ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] ثم أخذ في وصف ما أعده للكفور وللشاكر بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ [الإنسان:٤] إلى آخر المعنى، وكانت السورة أميل إلى البشارة، فأمعن في وصف ذلك لقدمه الذي قدمه قبل الخلق: «إن رحمتي تغلب غضبي»[2] وكان آدم ﷺ أولاً فيما هذا سبيله، فغلب رحمته فيه على غضبه، والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان:٥] لا يقال: كأس، إلا لما فيه الشراب، يقول: كان مزاج الكأس كافورًا، وهي عين ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦] فيمزج لمن دون هؤلاء منها بشرابهم المعهود، كما يمزج لأصحاب عين الكافور من يمين الزنجبيل، والأبرار هم الذين بروا الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وأطاعوه، وصدقوه في أقوالهم وأفعالهم، وصفهم بأنهم يوفون بالنذر ويخافون اليوم الآخر وهو ما حذر من خلافه بقوله: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ [القيامة:٣٤ - ٣٥].

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان:٧ - ١٤].

وبإطعام الطعام المسكين واليتيم والأسير، ولم يكن يومئذٍ أسير إلا كافرًا، وما أراه إلا مخبرًا عما يكون بعد ذلك، والمسجون أسير ووصفهم بالإخلاص في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

قولهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩] وصف اليوم بالعبوس؛ لكثرة من يعبس فيه القمطرير المجتمع الشر، اقمطر الشر؛ أي: اجتمع واشتد، ويقال: اقمطرت الناقة: إذا رفعت ذنبها وجمعت قمطريها ورزمت بأنفها، والمستطير: الفاشي المنتشر، والنضرة: النعمة.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢] أي: ناعمة.

﴿تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤] والنظرة بالظاء ساكنة العين.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله لمن ينظر إلى وجهه غدوة وعشية**» ثم قرأ ﷺ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣][(١)].

قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣] لما كان الحر في الدنيا عن وجود جهنم بواسطة الشمس ونشوء الحر والزمهرير، ونقصانهما وتوالجهما بأمره في انتقاصها عدة وسافلة في مشارقها ومغاربها اجتزا بذكرها عن ذكر الحر، واعتمد في مقابلتها على ذكر الزمهرير، وإنما هو فيما هنالك نورًا مؤتلق وضياء على منير، وتضيق اللغة عن عبارة وصف ما هنالك، كفى بالله حسيبًا، هو الحق المبين، آيته ما هنا هنا من حق مخلوق به السماوات والأرض وما فيهن، وأما ظلال أشجارها فهو روح زائد يحيونه ووجد نعيم يجدونه.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾[(٢)] [النساء:٥٧] فهو ظل جوار الملك

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٠) وقال: غريب. وأحمد (٥٣١٧)، وعبد بن حميد (٨١٩).

(٢) قال ابن عطية: أي: يقي من الحر والبرد. ويصح أن يريد أنه ظل لا ينتقل كما يفعل ظل الدنيا، فأكده بقوله: ﴿ظَلِيلاً﴾ لذلك ويصح أن يصفه بظليل لامتداده، فقد قال ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر في ظلها مائة سنة ما يقطعها**». انتهى كلامه. وقال أبو مسلم: الظليل: هو القوي المتمكن. قال: ونعت الشيء بمثل ما اشتق من لفظه يكون مبالغة؛ كقولهم: ليل أليل، وداهية دهياء. وقال أبو عبد الله الرازي: وإنما قال: «ظل **ظليلاً**» لأن بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة، ولهذا المعنى جعل كناية عن الراحة، ووصفه بالظليل مبالغة في الراحة. وفي قراءة عبد الله: «**سيدخلهم**» بالياء. انتهى.

=

الأعلى عز يجدونه، وأمن معهود ورضوان مستصحب.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان:١٤] يطيعهم بعيدها وقريبها، يدنو ذاك وينزاح هذا.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان:١٥ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾ [الإنسان:١٥] أي: هي من قوارير، وكل شفاف يصف ما فيه أو ما وراءه فهو قارور، كأنه إنما قيل له ذلك؛ لأن الذي يجعل فيه يقر، وقد كان في مرأى العين الإناء مما يسيل.

﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ يقول: وهذه القوارير من فضة، وأصل القوارير فيما هاهنا رمك وجندل، وهو على ذلك شفاف يرى باطنه من ظاهره، وفضة ما هنالك ليست كهذه إنما تنسب إليها هذه تسمية لا تشبيهًا بها، وصنعتها الملائكة عليهم السلام، يقول الله - جل من قائل: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان:١٦] أي: الملائكة قدروها، وصنعه قوارير ما هاهنا آدميون فاقدروا قدر ما بين الصناع وأصول المصنوع منه أرض من فضة وأرض من ذهب وأرض من لؤلؤ وأرض من نور ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ

=

وقال الحسن: قد يكون ظل ليس بظليل يدخله الحر والشمس، فلذلك وصف ظل الجنة بأنه ظليل. وعن الحسن: ظل أهل الجنة يقي الحر والسموم، وظل أهل النار من يحموم لا بارد ولا كريم. ويقال: إنّ أوقات الجنة كلها سواء اعتدال لا حر فيها ولا برد. وقرأ النخعي وابن وثاب: «سيدخلهم» بالياء، وكذا ويدخلهم ظلاً، فمن قرأ بالنون وهم الجمهور فلاحظ قوله في وعيد الكفار: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ومن قرأ بالياء لاحظ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] فأجراه على الغيبة. تفسير البحر المحيط (١٦٩/٤).

الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

قوله ﷻ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة:١٧] يلحق صغيرهم بكبيرهم ويوقف كبيرهم على قدر الصبيان، يخلدون على ذلك السن، وهم الولدان الذين ماتوا قبل وجوب التكليف عليهم فإنهم ماتوا على الفطرة، وأرى - والله أعلم - أنهم أولاد الكفار يصيرهم الله خدمًا لأهل الجنة كما كانوا لهم في الدنيا سبيًا وخدامًا، وأما أولاد المؤمنين فهم مع آبائهم، وحكمهم - والله أعلم - في الجنة غير هذا، وأرى أنهم ينشئون ويملكون، وهو من قوله - عز من قائل: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١] وبذلك يتم سرورًا لآبائهم.

سئل رسول الله ﷺ عمن مات صغيرًا قبل بلوغ السعي ووجوب التكليف، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»(١).

أراه - والله أعلم بما ينزل - أنه أراد بقوله هذا فسر قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١] أي: ألحقناهم بآبائهم سنًّا وملكًا على ما قد كان سبق لهم في علمه العلي ما هم عاملون لو بلغ بهم ذلك، فإنه العالم بما لا يكون كيف كان يكون لو كان، وعلى هذا التأويل تجتمع الروايات، وبهذا يتم سرور الآباء والأبناء.

وقد قال ﷺ في ابنه إبراهيم يوم مات: «**إن لإبراهيم لظئرين تتمان رضاعه في الجنة**»(٢) فأنبأ باستقبال إنشائه فيما هنالك.

يقول - عز من قائل: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أي: من عمل كنا قدرنا لهم أن يعملوه، لو أدركوا معنى هذا الخطاب لم ينقصهم من المقدور غير المعمول شيئًا، ليس كذلك أولاد الكفار فإنهم على الإسلام يكون فيما هنالك غلمانًا مخلدين لا يعذبون بما لم يعملوه فضلاً من الله ورحمة، وما عدا هؤلاء فكل ﴿بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

أتبع هذا قوله ﷻ: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩] يعني:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣١٨)، ومسلم (٢٦٥٩)، وأبو داود (٤٧١٤)، والنسائي (١٩٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٢٣)، ومسلم (٢٣١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠١١).

صفاءً وبياضًا.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ [الإنسان:٢٠] استحسنوا أن يقف القارئ على قوله: ﴿ثَمَّ﴾ وُقَيفةً يسيرة؛ ليتبين المراد.

قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ [الإنسان:٢١] وقرأ مجاهد: «عليهم ثياب» بغير ألف، وروي عن عائشة أنها قرأت: «علتهم ثياب سندس» وقرأ محمد بن حيان: «علتهم ثياب سندس خضر وإستبرق»، ابن محيصن: «وإستبرق» مفتوحة القاف موصولة، وقال: هم اسم عجمي فارسي لا يصرف، وما أراه إلا مأخوذ من البريق بريق النور، وعلى ذلك يتم معنى قراءة ابن محيصن يقول: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان:٢١] استفعل، من البريق، فهو فعل ماض، وهي قراءة عالية، والخلف في الرواية كآية ثانية بقرآن مجدد النور عاليهم، فهم إن لبسوا ثيابًا خضرًا كان النور عليها نور أخضر، أو بياضًا كان النور على ذلك أبيض فهو يبرق على ثيابهم النور أبدًا ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١] قيل: إن هذه الحلية والثياب هي للولدان.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١] يعني: الأولياء - عليهم السلام، فلا تبقى في بواطنهم غش ولا غل ولا وسواس طبع، ولا يشتهون إلا ما يرضي مليكهم، ولا يريدون إلا ما يريد لهم، ولا يعملون إلا بما فيه رضاه، ولا يرضيهم إلا بما يرضيه وفاق كامل وسجايا مطهرة وأخلاق مصطفاة، لا عوج فيها ولا تبديل عن ذلك، لما أطاعوه في الدنيا وجاهدوا الأنفس عن مرادها إلى ما يرضيه أثابهم على ذلك أرفع ما جاهدوا أنفسهم عليه.

يقول الله - عز من قائل: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي: مجاهدتكم أنفسكم عن هواها إلى ما يرضيني ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢] وفيما هنالك يتم لهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٧].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٢٤ - ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أو كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤] انتظام هذا الخطاب بمعنى ما تقدم ذكره من طعنهم على الرسالة وقولهم في القرآن، فأمره بالصبر على ذلك حتى يأتي نصر الله، ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أو كَفُورًا﴾ هو العامل بما لا يرضي الله، وقد قيل: إن «أو» هنا بمعنى: العطف، وليس ذلك بمنكر، وتأويلها على وجهها أحسن، كما قال: ﴿وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١] فيكون المعنى: ولا تطع عاصيًا في عصيانه ولا كفورًا.

نظم بذلك بما يعلم به السبيل إليه، وكيف التوصل إلى مرضاته قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان:٢٥] يعني، وهو أعلم بما ينزل: صلاة الفريضة.

ثم قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان:٢٦] فهذه الولاية والعمل بالطاعة، وقد قدم البراءة والصبر على وحشة الوحدة وإن خشن المسلك.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان:٢٧] انتظم هذا بقوله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠ - ٢١] وبقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: شددنا خلقهم وقواهم، تقول العرب: ما أحسن ما أسر فلان فيه، ثم قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبدِيلاً﴾ [الإنسان:٢٨] أي: يذهبهم فيذهب بذلك شد ما أسر منهم ويعدمهم ظاهرًا، ويبدل أمثالهم لأهل الآخرة تبديلاً حقيقيًا، وتلك المثالات ليست هي غيرهم، إنما الحكم في ذلك أنه أظهرهم في الدنيا ما شاء، ثم يعدمهم منها بالموت ويظهرهم لأهل الآخرة، فيكون بذلك قد أظهر ما أبطن، ثم هو بعد يبطن ما كان أظهر في الدنيا؛

أعني: الأجسام يصيرها إلى التراب، ثم يجمع ذلك في يوم الجمع فيظهره لأهل الدنيا ولأهل الآخرة، وليس يومئذٍ إلا الآخرة، وهو العليم الحكيم.

هذا منتظم بما بدأ به السورة من قوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] ظاهر هذا منتظم بما يقابله من معنى ذلك في سورة القيامة.

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الإنسان:٢٩] كل ما تقدم فهو تذكير ووعظ؛ ليستيقظ من سبق له من الله ذلك فيتخذ سبيلاً إلى ربه، وهو الإيمان والعمل الصالح، سبيل التذكرة في هذا المطلوب: أن يستعرض التذكر معنى ما تقدم من استبعاد الكفار الإرجاع والإعادة بعد أن كانوا عظامًا ورفاتًا، وبعد أن ضلت أجسادهم في الأرض فصاروا في التراب ترابًا وأربع طوابرهم أصولاً في أصولها، ويتذكر قول الله ﷻ ردًّا عليهم: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] إلى آخر السورة.

ثم وصل بذلك من قوله الحق: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي: في الأزل، وقيل: البدء الأول ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] أي: لغير الله - جلَّ ذكره - حيث لا يوصف بموت ولا بحياة، بل في علم الله العلي وقدرته ومشيئته وتقديره فكتبهم في اللوح بالقلم فصاروا لذلك مذكورين للقلم واللوح، موجودين كتبًا وعلمًا، ثم أوجدهم للتقدير وأحضرهم لقضاء القضية وأخذ العهد والميثاق، فكانوا يومئذٍ بذلك معلومين لأنفسهم شاهدين لها، وعليها موجودين موصوفين بأنهم أحياء غير أموات، ثم أماتهم عن تلك الحياة.

قال الله ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] أي: هذه الحياة التي يسميها الدنيا، وعلى ما تقدم ذكره في صدر السورة من وصف الخليقة إلى جعله سميعًا بصيرًا، ثم هداه سبيلي الهدى والضلال، ثم إلى قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي: الآن في هذه الحياة ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ ثم قال، وقوله الحق: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: حال الموت وأمثالهم هذه هي التي كانت موجودة في علمه السابق، ثم أوجدها ذواتًا لأخذ الميثاق، ثم أصارها في خزائن السموات والأرض، ثم أوجدها لهذه الحياة، وهو إذا شاء بدل أمثالهم هذه الحياة عودًا بعد ذلك البدء

المتقدم، ثم إذا شاء ﷻ بدل أجسامهم التي ضلت في الأرض وفي السماء في مثالاتها ﴿تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان:٢٨].

فحياتهم هذه رجعة إلى حياتهم يوم الإقرار وأخذ المواثيق ومثالاتهم بعد هذه الحياة حال موتهم رجعة بها إلى مثالاتهم حال موتهم عن حياتهم حال الإقرار والإشهاد، وحياتهم الأخيرة من حال موتهم عن هذه الحياة رجعة إلى ربهم في الوجود العلي المعبر عنه بقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

لهذا - وهو أعلم - قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الإنسان:٢٩] فإنه مخلوق عن الفتحين والفيحين، مترددًا بين الجنة والنار، ومن الواجب اللازم أنه من خلق من شيء فمصيره إليه ورجوعه إلى حقيقة ما خلق منه، وإنما يخرجه من النار ويدخله الجنة إيمانه بالله ورسله وكتبه وطاعته ربه، كما أنه إنما يخرجه من الجنة ويدخله النار كفره وتكذيبه وشروده عن طاعة ربه، ولأنه إلى ربه راجع لذلك هو لا يموت، فتفهم عصمنا الله وإياك.

والعالم قد سن به سنن الانتهاء والنشء، لذلك قسمهم حال الرجوع قسمين: فريق إلى الجنة، وفريق إلى جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - فالرجوع الأعلى يحيون فيه ولا يموتون، والقسم الأول الذي له الرجوع الأدنى لا يحيون فيما هنالك ولا يموتون، بل في عذاب أليم هذا حال الموت، ثم حالهم بعد البعث وللآخرة أشد عذابًا وأبقى.

وخاطب أولاً بخطاب البسط في قوله: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ﴾ [المزمل:١٩] وهو ظاهر الوجود وعلن السنة، ثم قبض الخطاب وحقق التوحيد بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي: بمن يستجيب إذا دعي، ويتذكر إذا هو ذكر فيقدمه، وبمن لا يستجيب للداعي ولا هو يسمع المنادي، وبمن لو سمع لتصام، ولو أقبل لرجع، ولو استجاب لتربص وتقاعس وتشاغل عن التقدم، وغلب هواه على علمه وظنه على يقينه، فيؤخره الله ويتركه حيث ترك نفسه ﴿حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠] في حكمه وفعله.

نظم بهذا قوله ﷻ: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾[1] وزان هذا ويمنع من يشاء الدخول في رحمته فيجعله من ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وهم الذين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١] وقرأ عبد الله: «وما تشاءون إلا ما شاء الله» بالياء بحرف «ما» وهي اسم في موضع مفعول، فعلى هذا هو يصوب من شاء إلى الاستقامة، ويحرف بمن شاء عنها بواسطة مسيئة كل واحد منهما لتقوم الحجة، ثم ما تقدم من التأويل في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

---

(١) قال ابن الخطيب: إن فسرنا الرحمة بالإيمان؛ فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئته بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجَهْل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال ، فتركه محال، فوجوده واجبٌ عقلاً ، وعدمه ممتنعٌ عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقًا على المشيئة ألبتة.

تفسير سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾ [المرسلات:١ - ٢٤].

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾(١) [المرسلات:١] هي الرياح والملائكة الموكلون بها

---

(١) قوله: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ قال جمهور المفسرين: هي الرياح. وقيل: هي الملائكة، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبي. وقيل: هم الأنبياء، فعلى الأوّل أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به، كما في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ وقوله: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ وغير ذلك. وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحيه وأمره ونهيه. وعلى الثالث أقسم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه، وانتصاب «عُرْفًا» إما على أنه مفعول لأجله؛ أي: المرسلات لأجل العرف، وهو ضدّ النكر أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضًا كعرف الفرس، تقول العرب: سار الناس إلى فلان عرفًا واحدًا: إذا توجهوا إليه، وهم على فلان كعرف الضبع: إذا تألبوا عليه، أو على أنه مصدر كأنه قال: والمرسلات إرسالاً؛ أي: متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض؛ أي: والمرسلات بالعرف. قرأ الجمهور: «عرفًا» بسكون الراء. وقرأ عيسى بن عمر بضمها. وقيل: المراد بالمرسلات: السحاب؛ لما فيها من نعمة ونقمة: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وهي الرياح الشديدة الهبوب. قال القرطبي بغير اختلاف: يقال: عصف بالشيء: إذا أباده وأهلكه، وناقة عصوف؛ أي: تعصف براكبها، فتمضي كأنها ريح في السرعة، ويقال: عصفت الحرب بالقوم: إذا ذهبت بهم. وقيل: هي الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، وقيل: يعصفون بروح الكافر. وقيل: هي الآيات المهلكة =

رياح رحمة، وقيل: العرف: الجملة المتتابعة من قولهم: جاء الناس عرفًا واحدًا.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ [المرسلات:٣] الملائكة تنشر السحاب وتنشر رحمة الله في كل أمر بإذن ربهم.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات:٤] الملائكة تفصل المجملات وتفرق ذوات الأشياء من أغذية تقسمها وصور تفرقها، وتعرف لكل موجود من نبات وجماد وحيوان وجوده الذي أذن الله لهم فيه، فيكون في ذلك فعلهم كأمره ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات:٥] وقرأها ابن عباس: «فالملقيات ذكرًا» بتشديد القاف وفتح اللام، فيكون معنى ذلك: أنهم يتلقون الذكر من رب العالمين، ويتلقونه أيضًا من الملائكة الرسل منهم إليهم، ويلقون الوحي؛ أي: يفهمون العباد تلاوة الوحي ومعانيه، ويكون معنى قوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ أنهم يلقون الوحي إلى الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين كل في درجته ومرتبته، يقولون لهم عند الموت؛ أعني: الأولياء ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١].

﴿عُذْرًا أَو نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٦] والذكر إما إيعاد وتذكير وتخويف وإنذار،

= كالزلازل، ونحوها ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ يعني: الرياح تأتي بالمطر، وهي تنشر السحاب نشرًا، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها، أو ينشرون أجنحتهم في الجوّ عند النزول بالوحي، أو هي الأمطار لأنها تنشر النبات. وقال الضحاك: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. وقال الربيع: إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ يعني: الملائكة تأتي بما يفرّق بين الحق والباطل والحلال والحرام. وقال مجاهد: هي الريح تفرق بين السحاب فتبدّده. وروي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل، وقيل: هي الرسل فرقوا ما بين ما أمر الله به ونهى عنه، وبه قال الحسن: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هي الملائكة. قال القرطبي بإجماع، أي: تلقي الوحي إلى الأنبياء. وقيل: هو جبريل، وسمي باسم الجمع تعظيمًا له. وقيل: هي الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم، قاله قطرب. قرأ الجمهور: «فالملقيات» بسكون اللام، وتخفيف القاف اسم فاعل، وقرأ ابن عباس بفتح اللام، وتشديد القاف من التلقية وهي إيصال الكلام إلى المخاطب، والراجح: أن الثلاثة الأول للرياح، والرابع والخامس للملائكة، وهو الذي اختاره الزجاج والقاضي، وغيرهما. [فتح القدير (٧ /٣٨٥)].

وإما إعذار من الإعذار، وقرأها الحسن: «عذرًا» بالتثقيل فيهما.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات:٧].

أتبع ذلك معلمًا متى يكون ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات:٨-١٠] هذا اليوم قيل الذي قيله الذي ذكر فيه إطماس النجوم وتفريج السماء.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات:١١] الهمزة هنا مبدلة من واو، والأصل وقتت، من الوقت؛ أي: أنجز للرسل ما وعدوا به، وإنما وعدوا بتأويل ما أنذروا به، وبشروا اليوم الذي أجل لهم هو اليوم الآخر، وهو يوم الفصل، ثم عظم شأنه لعظيم هول مطلعه بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٤ - ١٥].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠ - ٢١] يقول: ألم نخلقكم من مني، والمني عن التراب والماء، والقرار المكين هو: الرحم، بما أوجده فيه من إمساك بإذنه وهنا فيه من إنشاء خلقًا من بعد خلق إلى قدر معلوم من أجل ومقادير خلق يبلغه إياها، وسمى الرحم: قرارًا، كما سمى الأرض لنا: مستقرًا، وجعل لذلك المني والمخلوق منه إجلاء معلومًا، كما قال لنا ولكم فيها ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] فليست هذه إذًا دارنا كما لم يكن الرحم لنا بدار، وإنما دار القرار هي الدار الآخرة.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتشديد؛ يعني: أعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم وشقاوتهم، ﴿فَنِعْمَ القَادِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣] أي: على إخراج المقدر على مسالكه من غيب إلى وجود ظاهر، استاق الذوات بمشيئتها إلى إخراج أعمالها وشقاوتها أو سعادتها بالجري في أسباب ذلك، وقرئ بالتخفيف «فَقَدَرْنَا» أي: على جميع مواد خلقتهم من خزائن السماوات والأرض حتى سويناهم ﴿فَنِعْمَ القَادِرُونَ﴾ نحن إذًا على إعادتهم ثانيًا، قول حق وحكم فصل وبرهان لائح تضطر العقول السليمة إلى وجوب وجوده لا بد ولا محالة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٢٤] وقرأ عكرمة: «فملكنا فنعم المالكون»، ابن أبي عبلة: «فقدرنا فنعم المقدرون» أي: أنه قدر على ما مضى

فكذلك في المستقبل، والمقدرون: من أقدر يقدر؛ أي: أنه أقدر الملائكة - عليهم السلام - على جمع مواد الخلقة من خزائن السماوات والأرض، كذلك قوله تعالى: فملكنا فنعم المالكون؛ أي: أخذنا ذلك وأخذنا بماسكه، من ملكت العجين أملكه.

وقد تقدم أن نون الجميع في القرآن عبارة عن ملك الملائكة الملكوت - على جميعهم صلوات الله وسلامه - لما كانوا بأمره يعملون، وبإذنه يتقدمون ويتأخرون، وبإقداره إياهم يقدرون أدخلهم في ضمير ذكره - جلَّ ذكره - ولعلة الابتلاء، وليجد المفتونون سبيلاً إلى فتنتهم المقدرة عليهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٣٩].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا...﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٦] هذا كله تقرير منه العباد على الآية وآياته، الكفات: الضم، كفته: ضممته ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ يقول: منها خلقناكم ومنها رزقناكم بواسطة ما عناه بقوله: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم﴾ أي: من السماء ﴿مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧] أي: عذبًا، وقد كان بصدد أن يكون أجاجًا ملحًا، وجعلنا الأرض لكم قرارًا ومهادًا وفراشًا، وقد كانت ميّادة فأرسينا عليها الجبال الشامخات فاستقرت بكم، ثم صيرناكم إليها؛ أي: الأرض أمواتًا نضمكم إليها فتكونون إياها كما كنتم أول مرة، فخلقناكم من ترابها وماء السماء، كذلك نخلقكم ثانية؛ لنجزيكم بأعمالكم في داري قراركم يوم البعث والفصل في الحكم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: اليوم الذي أجلت إليه الرسل، يوم الجمع والفصل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٨] بالإعادة.

قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إلى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات:٢٩] أي: إن الحكم فيهم يومئذٍ أن يقال فيهم: انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون، وهو عذاب الآخرة، وقرأها يعقوب في رواية ورش: «انطلقوا إلى ظل» على الحكاية والوصف لما انطلقوا إليه إلى ظل ذي ثلاث شعب، قيل: إن دخان جهنم يتشعب منه شعبة إلى المحشر فتظلل الكفار، تأخذ بأنفاسهم ولا تكنهم من حر الشمس، ويكون وصفهم في جهنم ما ذكره لا ظليل ولا يغني من اللهب، كما قال: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة:٤٣] هو الدخان ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٤].

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢] بالفتح، إن الشرر المرمي منها كقصر النخل، يُقال: قصر الشجرة لأصولها، واحدها: قصر.

قال ابن عباس: حُزم الحطب بلوح حال مرورها كالجمالات الصفر، وذلك من أبدع شيء تشبيهًا.

وقرئ: «كالقِصَر» رُوي ذلك عن ابن جبير بكسر القاف وفتح الصاد، قال: أصول الشجر.

وروي عن الحسن أيضًا عن ابن عباس: «حمل»، وروي عن الحسن: «صَفُر».

والجمع بين هذه القراءات - والله الموفق للرشاد - إن هذه الشرر كالقصر عظمًا تلوح في مرها امتدادًا كأصول الشجر وكأعناق الجمالات الصفر سائرة، والمعروف عند العرب أن الجمال السود يقال لها: صفر؛ لأن سوادها أبدًا مشوب بصفرة، ونار جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - سوداء مظلمة، فإذا انفصلت شررها شابها اصفرار رجوعًا بها إلى لونها الأول، وليكون ذلك زائدًا في جزع المرمي بها، وهو صواعق تلك الدار، نعوذ بالله من عذابه، وتفسير قراءة من قرأ «كالجمالات» وأنها حبال السفن بضم بعضها إلى بعض، فذلك تشبيه حال هويها إلى المقصود بها.

وقد يكون معنى قوله - جل من قائل: ﴿انطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٣٠] إن جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - ذات ثلاث صفات عليها انبنت وتأسست، وهي: الحرارة واليبوسة وهذه هي النار، ثم البرودة واليبوسة وهذه هي الزمهرير، فهذه ثلاث صفات عنها تفصلت شعبها كلها، وما كان فيها من حميم

وغساق وغسلين ونحو هذا من المائعات فمن قبل الحميم المنزل عليهم من علوها بدلاً من الماء المنزل علينا في دار الدنيا.

قال ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩ - ٢٠] وهذا كله قد غلب عليه فيما هنالك الحر واليبس، ليس فيما هنالك ماء يمطرون به فتحًا عن رحمة، وإنه ليغلب على الظن أن كل ما يصب عليهم من علو هو أمضى فيما وجدت له جهنم، وأعظمه نكالاً من حيث هو عن أمر زائد على ما هي جهنم.

روي أن رسول الله ﷺ كان يومًا في أصحابه وأمطرت السماء، فقام يتوكفه بيديه وحسر عن رأسه حتى يصيبه الماء، فقيل له في ذلك فقال: «**إنه حديث عهد بربه**»(١) فرجا ﷺ رحمة ربه في ماء السماء؛ لقربه منه بالتكوين، فكذلك يكون له وصف زائد من الغضب؛ لحدثانه أيضًا بربه، نعوذ بالله من تلك الدار.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٣٤] بعذاب الآخرة وبيوم الفصل.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾(٢) [المرسلات:٣٥ - ٣٦] هي مواطن، ولتمام أحكامها سميت: أيامًا، وتأتي مواطن يطلق لهم النطق والاعتذار ثم لا ينفعهم كما قد كانوا في الحياة الدنيا، لا ينطقون بالتوحيد ولا يدينون بالتصديق للكتب والرسل، ثم هم حين حضور الموت لا بد لهم من الندامة، فيقول أحدهم: ﴿رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون:١٠] وعند مساس الضر ينطق ويشهد فلا ينفعه ذلك.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٠)، وأحمد (١٢٣٨٨).

(٢) قرأ الجمهور: «**يؤذن**» على البناء للمفعول، وقرأ زيد بن عليّ: «**ولا يأذن**» على البناء للفاعل؛ أي: لا يأذن الله لهم؛ أي: لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببًا عن الإذن كما لو نصب. قال الفرّاء: الفاء في «فيعتذرون» نسق على يؤذن، وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون، ولو قال: «فيعتذروا» لم يوافق الآيات، وقد قال: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر:٣٦] بالنصب، والكل صواب. فتح القدير (٧/٣٩٠).

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات:٤١-٤٣] هذا هو الظل الظليل للمتقين - على جميعهم السلام - ذكره عز جلاله في مقابلة ذكر الظل الذي تقدم بقوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٣٠] لا ظليل ولا يغني من اللهب.

وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ *لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٣ - ٤٤] لما آمنوا بالجنة أدخلوها، ولما عملوا لها رزقوا وصف ما اكتسبوه، ولما عملوا لله - جلَّ ذكره - قرَّبهم وأكرم لقياهم وحيَّاهم بالسلام، ولما كذب المكذبون بالنار أدخلوها، ولما عملوا أعمالاً هي لها عذبوا بوصف ما عملوه ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٩٥] كذلك لما كذبوا بالجنة ولم يعملوا لله أعمالاً لا تؤدي إليها حرموها.

يدل على صحيح هذا التخريج قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات:٤٨-٥٠].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمرات الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:٩٣] أي: بالضرب بالمقامع، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠] فقوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات:٢٩] أي: من حا لهم تلك، وأظهر ما يكون المعنى على قراءة يعقوب من رواية رويس - رحمهما الله - من قوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٣٠] يكون إلى هذا ما بهم حال الموت في دار البرزخ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات: ٤٠ - ٥٠].

كذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات:٤١ - ٤٢] أي: لأن في دار البرزخ يقال لهم اليوم فيها:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات:٤٣].

يقول - عز من قائل: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات:٤٤].

ويقول لمن في هذه الدار منهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات:٤٦] ثم الدار الآخرة أكبر، ونعيمها وعذابها أجل وأضخم.

فصل

جاء في القرآن الكريم الويل للمكذبين وللمجرمين، وويل لهم من يومهم الذي يوعدون، وقال كثير من المفسرين: هو واد في جهنم، كذلك قالوا أيضًا في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩] وفي قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨] ونحو هذا، وأنكر بعضهم أن تكون هذه المسميات أودية في جهنم؛ إذ لم يرد بهذا نص جلي ولا خبر صحيح يثبت أن يكون لها هناك وجود.

قالوا: وإنما هي معان يتعارفها الناس من مذموم أو ممدوح يعبر عنها أهل كل لسان بما استقرت عليه ألسنتهم واستمرت عليه في ذلك عاداتهم، ثم استمر هؤلاء القائلون على نحو هذا من كلام غير محصل ولا مفيد، ومثل هذه المسميات فليس بمنكر أن يكون لها هناك وجود هي لما هاهنا من معانيها أصول انتزعت عنها وإن لم يعرف العرب وأهل الألسنة من حيث أخذت، ولا الأصل الذي عنه انتزعت، وجهنم أصل لكل شر هو في هذه الدار موجود أو مخوف عنها انتزع، كما الجنة هي لما في هذه الدار أصل لكل خير موجود أو مرتجى عنها انتزع، وعن معان تنبه ذوي النهى على ما انتزعت عنه هنالك، فافهم.

وتنبه لتدبر هذه الجملة واستقر بوهمك أمثالها في هذه وهذه، فما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، والله المستعان.

تفسير سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ [النبأ: ١ - ١٦].

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾[1] [النبأ: ١] قرأ الضحاك: «عمه» ولا يكون هذا إلا مع الوقف

---

(١) قال: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقرأ الجمهور: «عم» وعبد الله وأبيّ وعكرمة وعيسى: «عما» بالألف، وهو أصل عم، والأكثر حذف الألف من «ما» الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر وأضيف إليها. وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية: «عمه» بهاء السكت، أجرى الوصل مجرى الوقف؛ لأن الأكثر في الوقف على «ما» الاستفهامية هو بإلحاق هاء السكت، إلا إذا أضيفت إليها فلا بد من الهاء في الوقف، نحو: بحى مه. والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب، كما تقول: أي رجل زيد؟ وزيد ما زيد، كأنه لما كان عديم النظير أو قليله خفيّ عليك جنسه فأخذت تستفهم عنه. ثم جرد العبارة عن تفخيم الشيء، فجاء في القرآن، والضمير في «يتساءلون» لأهل مكة. ثم أخبر تعالى أنهم يتساءلون عن النبأ العظيم، وهو أمر رسول الله ﷺ وما جاء به من القرآن. وقيل: الضمير لجميع العالم، فيكون الاختلاف تصديق المؤمن وتكذيب الكافر. وقيل: المتساءل فيه البعث، والاختلاف فيه عم متعلق بيتساءلون. ومن قرأ عمه بالهاء في الوصل فقد ذكرنا أنه يكون أجرى الوصل مجرى الوقف، وعن النبأ متعلق بمحذوف، أي يتساءلون عن النبأ. وأجاز الزمخشري أن يكون وقف على عمه، ثم ابتدأ بيتسألون عن النبأ العظيم على أن يضمر لعمه يتساءلون، وحذفت لدلالة ما بعدها عليه، كشيء مبهم ثم يفسر. وقال ابن عطية: قال أكثر النحاة قوله ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ متعلق بـ«يتساءلون» الظاهر كأنه قال: لِمَ يتساءلون عن النبأ العظيم؟ وقال الزجاج: الكلام تام في قوله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب فيقول: يتساءلون عن النبأ، فاقتضى إيجاز القرآن وبلاغته أن يبادر المحتج بالجواب الذي يقتضيه الحال، والمجاورة اقتضاء بالحجة وإسراعًا إلى موضع قطعهم. وقرأ عبد الله وابن جبير: يسألون بغير تاء وشدّ =

عليها، وقرأها عكرمة: «عما يتساءلون» بالألف ﴿عَنِ النَّبَإِ العَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ:٢ - ٣] وقال في سورة «ص»: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ [ص:١] ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧ - ٦٨].

وقد كان قدم ذكر الجنة وأهلها وذكر النار وأهلها، وأما هاهنا - والله أعلم بما ينزل - فإنه نبه على الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، فهو النبأ العظيم، والذي اختلفوا فيه هو الإعادة واليوم الآخر ووجود الخزائن الجنة والنار، وأما الحق المذكور فلم يكن لهم بمعلوم فيختلفون فيه؛ لذلك قال، وهو أعلم: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٤] يريد إذا هم عاينوا ذلك عند الموت وبعده ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٥] يوم البعث إذا دخلوها.

يقول - جل من قائل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ:٦] إلى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤] وقيل: هي الرياح، ولذلك قرأها ابن عباس: «وأنزلنا بالمعصرات» يعني: الرياح، ومن قرأ: «من المعصرات» أراد من السحاب ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١٥ - ١٦].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ:١٧ - ٣٠].

ثم قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ:١٧] فهذا من النبأ الذي دلت عليه شواهده التي ذكر بعضها يدل على وجود الجنة إلى قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ

=

السين. وأصله يتساءلون بتاء الخطاب، فأدغم التاء الثانية في السين ﴿كَلَّا﴾: ردع للمتسائلين. وقرأ الجمهور: بياء الغيبة فيهما. وعن الضحاك: الأول بالتاء على الخطاب، والثاني بالياء على الغيبة. وهذا التكرار توكيد في الوعيد وحذف ما يتعلق به العلم على سبيل التهويل؛ أي: سيعلمون ما يحل بهم. انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٤١٨)].

مِرْصَادًا﴾ [النبأ:٢١] وقرأها أبو معمر: «أن جهنم كانت مرصادًا» والمعنى في ذلك: إن جهنم كانت مرصادًا، وهو من النبأ الموجود شواهده في الوجود، والغساق: شراب أهل جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - طول دولة الزمهرير، وذلك ما يخرج منهم من دماء وصديد وغير ذلك، غسق بمعنى: خرج، والحميم: شرابهم طول دولة السعير.

يقول - جل من قائل: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦] يقول، وهو أعلم بما ينزل: وافق جزاؤنا هذا إياهم تكذيبهم بآياتنا على ما هو الحق المخلوق به السماوات والأرض، كما وافق جزاؤنا المتقين بالجنة ما صدقوا به من آياتنا وعملوا له.

يقول - عز من قائل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ:٢٧] أي: لا يؤمنون بثواب الأعمال الصالحة فلم يعملوا بها، ولا أطاعوا الله والرسول فيرجون على ثواب ذلك، كما قال - عز من قائل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف:١١٠] المعنى: وحساب الله للمؤمن التقي هو أن يعرض عليه حسناته ويخفي سيئاته، وذلك هو الحساب اليسير.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٣١ - ٤٠].

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ:٢٨] إلى قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ:٣١-٣٤] هذه موجودات ما هنالك دلت عليها موجودات ما هنا لمن له عقل حاضر وقلب منيب، إلى قوله: ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ:٣٦] أي: إن ذلك الجزاء يكفي الإيمان بما هاهنا من آيات دلت عليه وعمل له، وقرأ أبو السمال: «عطاء حسابًا»، وقرأ ابن عباس: «عطاء حسنًا» ويقال للرجل إذا أكثر العطية: عطاء حساب.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ [النبأ:٣٧] يعرض بذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ:٣٨ - ٣٩] وهذا كله آياته فيما هاهنا شاهدات الصواب من الكلم شهادة التوحيد، ثم ما كان من شأنها.

ثم قال: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ:٣٩] أي: مرجعًا يرجع إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ:٤٠] كما قال - عز من قائل: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦ - ٧] وقال، عز من قائل: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] وقال: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٣-١٥] ثم قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»(١) فقوله الحق - عز جلاله: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ:٤٠] يعني: حال الموت وفيما بعد الموت، لذلك كرر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣ - ٤] أي: سوف تعلمون عند الموت ومدة البرزخ، ثم كلا سوف تعلمون إذا بعثتم البعث الآخر.

ثم قال - عز من قائل: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يوقف على ما عمله من خير ومن شر ﴿وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠] أي: ولم أكن أحييت، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾ [النساء:٤٢] أي: لو يكونون سواء مع التراب، وليس بمصيب من قال: إن الوحوش والهوام وحشائش الأرض والطير وغير ذلك من الموجودات غير المكلفين يقال لها يوم القيامة: كوني ترابًا، بل لم يخلق الله شيئًا يبطل، كيف وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧]؟.

---

(١) تقدم تخريجه.

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات من المكلفين وغيرهم يدخلون الجنة، والمفسدون في الأرض يجعلون في جهنم، فإنهم مما قال الله - جل من قائل: ﴿**لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ**﴾ [الأنفال:٣٧] غير أن الفرق بين ما هو مُكلَّف وما ليس بمُكلَّف: أن المُكلَّف ينعم هنا أو يعذب، وغير المُكلَّف لا عذاب عليه، وإنما جعل ما جعل من خبيثات ما هنا ومفسداته آيات على ما هنالك من حيث انفصلت، كما جعل ما جعل من طيبات ماهنا آيات على ما هنالك من موجودات، فافهم فهمنا الله وإياك.

كما جعلها أيضًا دلائل على قدرته وحياته وإرادته وعلمه والعلم بوجوده العلي سبحانه وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله.

قال رسول الله ﷺ: «**من أهدي له ريحان فلا يرده؛ فإنه خرج من الجنة**»[١].

خلقنا من الأرض فهو يرجعنا إليها، وأبدأنا عن وجوده العلي فرجوعنا إليه واجب كائن لا محالة ولا ريب، وخلقنا من فيح جهنم وفتح رحمته فنحن لا محالة راجعون إليهما، لكنه حتَّم على نفسه أنه من آمن به ورسله وآياته وأطاعه أن يعتقه من جهنم ويدخله في رحمته، وأنه من كفر به وبرسله وآياته أن يدخله جهنم خالدًا فيها.

ليت شعري الذين أقطعهم الإيمان والعمل بمرضاته في أزله هل خلقهم من الجنة فلذلك يرجعهم إليها؟ وقال فيهم: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[٢] وبالضد فيمن قال فيهم: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[٣] فقدر أعمال هؤلاء مقتطعة من حيث خلقهم، وأما بعد إظهارهم فقد تبين أنه خلقهم من ممتزج القرارين.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً**»[٤] ربنا علمنا من علمك.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٢٥٣)، وأبو داود (٤١٧٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٢) وإسحاق بن راهويه (١٠١٦) وابن حبان (١٣٨) والطبراني في =

قال الله - عز من قائل: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] فأهل اليمين هم: أهل الجنة، وأهل الشمال هم: أهل النار، قال: ثم خلط بينهم، هم المخلوقون من موضع ممتزج الفيح والفتح.

=

الأوسط (٤٥١٥) جميعًا عن عائشة، قالت: توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة ... فذكره.

تفسير سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات: ١ - ١٤].

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾(١) [النازعات: ١ - ٢] هم الملائكة -

---

(١) أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها، وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم، كما ينزع النازع في القوس، فيبلغ بها غاية المدّ، وكذا المراد: بالناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات: يعني: الملائكة، والعطف مع اتحاد الكلّ؛ لتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي، وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وقال السديّ: النازعات: هي النفوس حين تغرق في الصدور. وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفس. وقال قتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، من قولهم: نزع إليه إذا ذهب، أو من قولهم: نزعت بالحبل أي: إنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر. وبه قال أبو عبيدة، والأخفش، وابن كيسان. وقال عطاء، وعكرمة: النازعات القسي تنزع بالسهام، وإغراق النازع في القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهي به إلى النصل. وقال يحيى بن سلام: تنزع بين الكلأ وتنفر، وقيل: أراد بالنازعات الغزاة الرماة، وانتصاب «غَرْقًا» على أنه مصدر بحذف الزوائد أي: إغراقًا، والناصب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي: إغراقًا في النزع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد، أو على الحال؛ أي: ذوات إغراق، يقال أغرق في الشيء يغرق فيه: إذا أوغل فيه وبلغ غايته ومعنى «الناشطات»: أنها تنشط النفوس؛ أي: تخرجها من الأجساد، كما ينشط العقال من يد البعير، إذا حلّ عنه، ونشط الرجل الدلو من البئر: إذا أخرجها، والنشاط: الجذب بسرعة، ومنه الأنشوطة للعقدة التي يسهل حلها. قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه نشطًا عقدته، وأنشطته، أي: حللته، وأنشطت الحبل، أي: مددته. قال الفراء: أنشط العقال أي: حلّ، ونشط أي: ربط الحبل في يديه. قال الأصمعي: بئر أنشاط أي: قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة، وبئر نشوط، وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى ينشط =

عليهم السلام - يخرجون أنفس الكفار، يقال: فلان في النزع: إذا كان في حال الموت، ويخرج أنفس المؤمنين تنشطها نشطًا كما تنشط البعير من عقاله، والأنشوطة: عقدة في العقال تخرج من غرزة أدخلت فيها فينشط البعير أو غيره، هذا في هذا الصنف الذين هم ملائكة الموت، ثم كذلك ملائكة النبات والإنشاء والإنبات والإنماء، وجمع مواد الخلقة للزيادة في المقصود بذلك أو النقصان منه، والعرف: هو أن تكثر المواد والمعاني غير المرادة لذلك المراد، فتنزعه النازعات من الملائكة؛ أي: تزيله عما لا يصلح به، وكلما زاد على المقدر المراد أو نقص عنه فهو عقال لوجود الموجود عن المراد به ومنه فبإلحاقه بمقداره أو تحقيقه فما زاد عنه ينشط من عقلته تلك.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات:٣] النجوم والشمس والقمر تسبح في أفلاكها، والملائكة - عليهم السلام - تدبرها بإذن ربهم وإقداره إياهم وتدبر أمرها كذا، والملائكة بأنفسهم يسبحون نازلين من علو وصاعدين من سفل والسحاب تسحب فتسبح في الهواء، والملائكة تدبر كل ذلك بإذن خالقها وتقربه.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات:٤] الرياح ترسل مهابها، والملائكة من عند الله ﷻ يسبقونها إلى حيث أمرت به، وقد قيل: الخيل هي المعنية بقوله: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ وكل ذلك بيد الله وبأمره، قد وكل ملائكته الذين يملكون الملكوت، وهو الوكيل على كل وكيل، والوكيل على ما وكله به، هو الأول في ذلك كله وهو الآخر، وهو الظاهر وهو الباطن، وهو بكل شيء عليم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦ - ٧] ليس

= كثيرًا. وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفس الإنسان. وقال السديّ: هي النفوس حين تنشط من القدمين. وقال عكرمة، وعطاء: هي الأوهاق التي تنشط السهام، وقال قتادة، والحسن، والأخفش: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي : تذهب. قال في الصحاح: والناشطات نشطًا: يعني: النجوم من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد، والهموم تنشط بصاحبها. وقال أبو عبيدة، وقتادة: هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد. وقيل: الناشطات لأرواح المؤمنين، والنازعات لأرواح الكافرين؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق، وتجذب روح الكافر بعنف وقوله: ﴿نَشْطًا﴾ مصدر. انظر [فتح القدير (٧/٤٠٥)].

هذا بجواب القسم، بل هو محذوف - والله أعلم بما ينزل - تقديره: إنكم لمبعوثون من بعد الموت، ثم لمجازون بما عملتم، أو نحو هذا.

نظم بذلك المحذوف المقدر قوله ﷻ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات:٨] يعني: اليوم المحذوف ذكره، واجفة الوجيف: شدة الاضطراب والحركة، تجف القلوب من عظيم هول ذلك اليوم.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات:٩] أي: ذليلة.

﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحَافِرَةِ﴾ [النازعات:١٠] أي: إلى ما كنا فيه من الحياة بعدما ﴿كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات:١١] أي: بالية، ويقرأ: «ناخرة».

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات:١٢] يقولون: ولدنا لا مال لنا ولا أهل ولا مأوى، فاتخذنا ذلك أو توارثناه، فنرد على أصلنا من فاقة وعدم تلك إذًا كرة خاسرة، فأضرب ربك ﷻ عن جوابهم على هذا، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣ - ١٤] كما قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

وقرأ عبد الله: «فإنما هي رقبة واحدة». الساهرة: الأرض المبدلة من هذه، سميت بذلك - والله أعلم؛ لأجل الدوام الذي وجدت له؛ إذ السهر هو: السمر، وهو يكنى به عن الدوام والرقبة، يقال: هذا أمر سامر؛ أي: دائم، ومنه السامري؛ لأنه دائم المراقبة لموعد وعده، وهو تعريض بأمر الله - جلَّ ذكره - في الدجال، لعنه الله.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات:١٥ - ٢٦].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ المُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٥ - ١٦] لما أقسم على الإعادة بعد هذه البداية وعلى وجود اليوم الآخر أخذ في الوعظ والتهديد؛ ليعتبر من له قلب، ولتعي عنه أذن واعية.

قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات:٢٧ - ٢٨] يقول: فمن خلق السماء ورفع سمكها وسواها، وخلق الأرض ودحاها، وأنبت فيها ما أنبت، وأخرج منها ما أخرج، يعجزه خلقكم مرة أخرى وقد خلقكم أولاً وعنده خزائن السماوات والأرض كل في قبضته وملكه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى﴾ [النازعات:٣] أكبر الطوام دفع الزبانية إياهم في الجحيم، ويمكن أن يكون النفخ في الصور وبعثرة القبور والمصير إلى العرض، وهذا هو الأظهر لقوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ [النازعات:٣٥ - ٣٦] وقرأت عائشة وعكرمة ومالك بن دينار: «وبرزت الجحيم لمن يرى» بفتح الياء والراء وبالتاء لمن ترى، وفي قراءة عبد الله: «لمن رأى».

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا (٤٦) ﴾ [النازعات:٢٧ - ٤٦].

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات:٤٢] أي: متى تكون؟.

نظم بذلك قوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات:٤٣ - ٤٤] يقول مالك: ولذكرها بالتحديد وما يدريك ذلك إلى ربك كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧].

نظم بذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥] معنى هذا: أن السائلين عنها بمتى مشتغلون بما لا يجدي نفعًا، «**من مات قامت قيامته**»(١) الخاصة به، فالسؤال عنها شغل عن توليد الخشية والأخذ لها بالأهبة لمجيئها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر:١٨] وخشيتها أن يتعرف العبد أنها آتية لا محالة وكائنة ضرورة، بإثبات ذلك اختلف الملوان وتعاقب العصران واستدارت الأفلاك، ومهما شككت في قربها فاستبعدتها، فاليقين حاصل بقرب الموت، وأنه لا يتصور في إقباله بعد وعند الموت يأتيك اليقين ينزل الميت من حين موته على جزاء ما قدمه خيرًا قدمه أو شرًا ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١] بل الكيِّس منتظر له مع اختلاف أنفاسه لذلك.

قال - عز من قائل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦] متى تذكرت ما مضى فليس بيدك منه إلا أنه مذكور عندك حسب وطول الأمد أو قصره، قد تقضى وهو الآن معدوم، لذلك كان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه متى سألوه عنها: «**من مات قامت قيامته**»(٢).

وقال لهم يومًا وقد سأله سائل عنها فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ فأشار إلى أصغر القوم، ثم قال: «**إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم عليكم قيامتكم**»(٣) كما قال ليلة وقد صلى صلاة العشاء الآخرة، ثم أقبل عليهم فقال: «**أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض أحد**»(٤) يقرب الأمر ويزهدهم في الدنيا، ويبصرهم سرعة انقضائها وقرب قيامها، ويحذرهم ما هم قادمون عليه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٤٦)، ومسلم (٢٩٥٢).

(٤) أخرجه أحمد (٥٦١٧) والبخاري (١١٦) ومسلم (٢٥٣٧) وأبو داود (٤٣٤٨) والترمذي (٢٢٥١) والبيهقي (١٩٧١).

تفسير سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١ - ٢٢].

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[1] [عبس: ١ - ٢] عتاب منه - جلَّ ذكره - لرسوله ﷺ يقول من أجل أن جاءه الأعمى عبس وتولى: أعرض عنه بمواجهة الخطاب تحقيقًا للعتاب، وقرأ الحسن: «أأن جاءه الأعمى» فيه تقديم وتأخير، تقدير الكلام: أن جاءه الأعمى عبس وتولى، وكان رسول الله ﷺ قد أقبل على رجل من عظماء المشركين طمعًا منه في إسلامه؛ ليدخل معه بدخوله أتباعه، فجاءه ابن أم مكتوم، وكان مجيئه ذلك حال ما كان يعرض نفسه وما جاء به على ذلك الرجل، فجعل يقول ابن أم مكتوم: استدنيني يا رسول الله، استدنيني، فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ [عبس: ١ - ٢] يعني: ابن أم مكتوم.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٣] فيصعد إلي على الإيمان.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: ٤] يزداد إيمانًا إلى إيمانه.

---

(١) قال الورتجبي: بَيَّن الله سبحانه ها هنا درجة الفقر وتعظيم أهله وخسة الدنيا وتحقير أهلها، وأن الفقر إذا كان نعت الصادق في المعرفة والمحبة كان شرفًا له، وهو من أهل الصحبة، ولا يجوز الاشتغال بصحبة الأغنياء ودعوتهم إلى طريق الفقر إذا كانت سجيَّتهم لم تكن سجية أهل المعرفة، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد، فالصحبة معهم ضائعة.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ [عبس:٥] يقول: عما جئت به.

﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ [عبس:٦] قرئت بالتشديد والتخفيف.

نظم بذلك - جلَّ ذكره: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظننت ولا يجار على سنن حرصك ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس:١١] يعني: الرسالة أو السورة، والآيات التي كان يقرؤها عليه، فيقول له ﷺ: «أترى بما أقول بأسًا»[١] فيقول له: لا والدمن.

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس:١٢] يعني: القرآن.

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ [عبس:١٣] الصحف التي تكتبها الملائكة - عليهم السلام - من الكتاب المبين.

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ أي: عن قلوب الكافرين، كما قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١٤] أي: من افتراء المفترين وأقوال المكذبين من قولهم: سحر وشعر وكهانة، ونحو هذا.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس:١٥] السفرة: الملائكة الرسل ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] البررة: القائلون بالحق العاملون به، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

أتبع ذلك بما هو وصف لذلك المشرك وأمثاله قوله - جل من قائل: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧] أي: لعن، أو يكون دعاء عليه بالقتل واللعن لم ينكر أن يعاد إلى الحياة بعد الموت.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس:١٨] يقول: هلا تذكر من أي شيء خلقه ربه الذي أنشأه ورباه وعلمه البيان، ورزقه وموله وجعله معظمًا في قومه مسودًا في عشيرته.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس:١٩ - ٢٠] إما سبيل هداية وإما سبيل ضلالة.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس:٢١ - ٢٢] يقول: الذي ﴿إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ هو الذي خلقه من نطفة وقدره إلى ما شاء من كونه وهداه

---

(١) أخرجه مالك (٤٨٠)، والترمذي (٣٦٥١).

السبيلين، ثم أماته.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٢٣ - ٤٢].

يقول ﷻ: ﴿**كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ**﴾ [عبس:٢٣] من الإيمان والعمل واجتناب المناهي.

يقول - عز من قائل: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إلى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا**﴾ [عبس:٢٤-٢٩] الحب: كل ما حصد، كالحنطة والشعير، وما يتغذى به، والقضب: التبن، كذلك يسمونه أهل مكة، وليس هذا مما خلق الإنسان منه إلا أن يكون التبن طعامًا للأنعام، ثم يأكلها الإنسان فيكون عن ألبانها ولحومها، ويقال: القضب: الرطبة، وأشبه ما يكون به أن يقال فيه: إنه من طعام الأنعام التبن، أو ما يكون من أنواع المراعي رطبها أو يابسها كما قال الشاعر:

وأمجدها قضبًا وفتًا وعصفة يصب إليها كل ممسى وشارق

الحدائق الغلب: البساتين، والغلب: الغلاظ من النخيل وسائر الأشجار، الفاكهة: ما يتفكه به ويتنوع في أكله بعد أخذ الحاجة من الطعام، يصف صلاح الحال وسعته، والأَبّ: ما تأكله الأنعام والدواب من نبات الأرض، وهذا يؤيد ما تقدم ذكره، فإن ما أكلته الأنعام فهو مأكول للإنسان لكن بآخره، وما أكلته الدواب فهي حمولة له.

كذلك قال - عز من قائل: ﴿**مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**﴾ [عبس:٣٢] وإنما وصف ﷻ فعله بما يتفضل به من فتح رحمته يعرض له بوجود الجنة، وخلق الله آدم ﵇

في الجنة وقال له: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥] فكان منهما ما قد قصه علينا بصدق قيله، وكان ذلك سبب إخراجهما منها، فسجنهما في هذه الدار ليست الجنة ولا هي جهنم ولا هي غيرهما، بل هي من ممتزج الدارين، فهي مثال للدار الآخرة انتزعها من تلك، وكالبرزخ بين البحرين، فكما أن الدنيا سجن حتى أن الأكثر لم يتعدها إيمانهم إلى ما قبلها وما بعدها، كذلك مثالات الموجودات في فنائها وموت ما مات منها.

فافهم فإنه العجب العجيب، وغلب رحمته فجعل ما خلق عنه الإنسان مما يخرجه من الأرض بواسطة ما يفتحه من رحمته من الجنة حتى إذا بلغ الأشد الأول أمره ونهاه كما فعل بأبويه - عليهما السلام - فمن كانت له أذن سامعة فليسمع، ومن كان له قلب حاضر فليفهم، ألا ترى أن المحتبسين في دار الدنيا غذاؤهم إنما يكون من الدار التي حبسوا عنها، وإذا تبينت براءتهم أطلقوا من سجنهم ذلك فرجعوا إليها، وإن استحقوا إتمام العقوبة والإهلاك أنفذ عليهم ذلك بحكم الحق؟ فافهم من أنت، وعبد من أنت، ومن أين أخرجت وحيث أنت، ومن أين تأكل، وممن تنجو إن نجوت، وإلى أين تصير إن أنت تبينت براءتك فأطلقت.

ولظهور هذا التبيان قال فيه: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾(١) [عبس:١٧] أليس من المعهود أنه من سجنه السلطان لأمر اتهم به فظهرت براءته مما اتهم به فمعهوده أن

---

(١) قيل: نزلت في عتبة بن أبي لهب، غاضب أباه فأسلم، ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام، فبعث إلى رسول الله ﷺ أنه كافر برب النجم إذا هوى. وروي أنه ﷺ قال: «اللهم ابعث عليه كلبك يأكله» فلما انتهى إلى الغاضرة ذكر الدعاء، فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حيًّا، فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله. فأقبل الأسد إلى الرجال ووثب، فإذا هو فوقه فمزقه، فكان أبوه يندبه ويبكي عليه، وقال: ما قال محمد شيئاً قط إلا كان، والآية وإن نزلت في مخصوص فالإنسان يراد به: الكافر. وقتل دعاء عليه، والقتل أعظم شدائد الدنيا. ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ الظاهر أنه تعجب من إفراط كفره، والتعجب بالنسبة للمخلوقين؛ إذ هو مستحيل في حق الله تعالى؛ أي: هو ممن يقال فيه: ما أكفره. وقيل: «ما» استفهام توقيف؛ أي: أي شيء أكفره؟ أي: جعله كافرًا؛ بمعنى: لأي شيء يسوغ له أن يكفر؟. تفسير البحر المحيط (١٠/٤٣٦).

ينصرف إلى داره وأهله؟ فكذلك الحكم في آدم ﷺ وذريته المهتدين، وبالضد في الكافرين.

نظم بذلك - جلَّ ذكره: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس:٣٣] هي من أسماء القيامة، تصخ الآذان سماع زلزلتها صخًّا كأنها تطعن فيها؛ لشدة وقعتها وجلبة وجبتها، وهي أيضًا تضطر الآذان إلى أن تصخ إليها، يقال: أصخ إلي سمعك؛ أي: ألق سمعك لما أقول لك.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤ - ٣٦] يفر منهم لأجل الملابسات التي تقدمت بينهم في الدنيا؛ خوف المطالبة بحقوق لازمة في الدين والدنيا. هذا وجه.

وبوجه آخر: قال الله - عز من قائل: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢] وإنما ذلك مع ما تقدم أن الله خلق مائة رحمة، كل رحمة منها طباق السماوات والأرض، أنزل منها واحدة إلى الأرض فيها يتعاطف الحيوان والبهائم بعضها على بعض، حتى أن الفرس لتضع حافرها على ولدها فترفعه رحمة منها به، فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى ما أمسك عنده فيها فرحم بها عباده المؤمنين، فإذا كانت هذه الرحمة التي قد وضعها في العباد قد قبضها ورحم بها عباده المؤمنين فبِمَ يتعاطف الإنس والجن يومئذٍ إلا المؤمنون؟.

قال الله - عز من قائل: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] فهم الذين ينفع بعضهم بعضًا، ويشفع بعضهم لبعض ذلك اليوم، سبحانه وله الحمد، آتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

سألت عائشة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ وقد قرأ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] ثم قال: «**أيها الناس، إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلاً**» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فقالت عائشة: يا رسول الله، كيف الرجال؟ قال: «**حفاة عراة غرلاً**» قالت: فكيف تحشر النساء؟ قال: «**كذلك**» فقالت: واسوأتاه من يوم القيامة، ينظر بعضهم إلى بعض، قال لها: «**عن أي شيء تسألين؟ إنه قد نزلت علي آية لا يضرك**

كانت عليك ثياب أو لم يكن» قالت: أي آية يا رسول الله؟ قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]»(١).

نظم بذكر ذلك اليوم قوله الحق - عز جلاله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨] أي: مضيئة، من أسفر الفجر: إذا أضاء، وإنما أسفر عن تلك الوجوه كدرة الغموم، فأضاءت بالأمن والإيمان والغبرة التي تغشى وجوه المجرمين، والقترة التي تلحقها وترهقها من ذلك، وأسفرت المرأة نقابها: إذا أزالته وظهر وجهها، وكل ما أضاء فقد أسفر.

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني (٩١). قال الهيثمي (١٠/٣٣٣): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة. والحاكم (٣٨٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم. وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠٦٦).

تفسير سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [التكوير:١ - ١٤].

تكوير الشمس يومئذٍ: ذهاب ضوءها، كما تطوى السماوات والأرضون تطوى الشمس والقمر وتنكدر النجوم، يرمى بها من سبل مجاريها فتسفل هويًا، وانتشارها إزالة انتظامها، فتتساقط بعضها إثر بعض، وتسيير الجبال: نسفها ليعدل بها الأرض، فتكون لذلك قاعًا صفصفًا، لا يُرى فيها عوج ولا أمت، والعشار: النوق الحوامل إذا تم لحملها عشرة أشهر سميت: عشارًا، واحدتها: عشراء، وهي يومئذٍ عزيزة مُغتَبَطٌ بها تعطل على ذلك، يقول: كرائم الأموال تبيد؛ لفظيع الأمر.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] قضاء قضاه الله أن يعيد الخلق كما بدأهم، وحشرها: جمعها من نواحي الأرض بعد إحيائها؛ ليقتص ضعيفها من قويها.

قال رسول الله ﷺ: «**تقتص الْجَمَّاءُ من القرناء، والصغير من الكبير، ويسأل العود لم خدش العود، وأنه لا يترك الله شيئًا خلقه وكونه من أصول الموجودات أو عوارضها كريمها أو خسيسها إلا أعاده في الدار الآخرة**»[1] ﴿**وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٤] فمفهوم هذا: أنه كل ما فعله وأظهره في هذه يحضره في تلك، ثم يميز الله الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم، وبالضد في كريم الوجود؛ يميزه من سواه ويجعله في

---

(١) أخرجه يحيى بن سلام في تفسيره (٢٧٥) أوله فقط، وبنحو منه.

الجنة ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].

﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود:٦] فالدنيا كلها وموجوداتها محضرة في الدار الآخرة زائدًا إلى ما في الدار الآخرة وموجوداتها فانجلى ذلك، ثم يفترق الجمع كله، والمجموع فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وقد تقدم الكلام في هذه المسألة.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾(١) [التكوير:٨ - ٩] وقرئ: «سألت بأي ذنب قُتلَت» والموءودة: كانت العرب إذا ولد لأحدهم أنثى دفنها حية، وكانت تقول بأن: الملائكة بنات الله - تعالى الله عن قبيح قولهم - وكان معتقدهم في دفنها حيَّة: أنهم يصيرونها إلى الله هو أولى بها قبل أن تكسب أبويها عارًا، وقد تقدم تفسير قول الله ﷻ في ذلك وتبيان قبيح ما زعموه وكذب ما ادعوه.

يقول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: البنات ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى﴾ الذكران، والحسنى أيضًا العافية الحسنى عند الله، لأجل ذلك كانوا يرون ذلك تقربًا منهم إلى الملائكة الذين كانوا يعبدونهم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: مقدمون إليها إثر الموت ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي: في الكفر بالله وبالملائكة وبالحق.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير:١١] اجتذبت وانتزعت وطويت.

﴿سُعِّرَتْ﴾ [التكوير:١٢] قرئ بالتشديد والتخفيف، سعارها: شدة التهابها.

﴿وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير:١٣] قربت، ذكر الله - جلَّ ذكره - هذه الأوصاف كلها، وهي نعوت للساعة ومحال في يوم القيامة ومقامات وشدائد

---

(١) اختلف هل هي السائلة أو المسئولة، على قولين: **أحدهما**، وهو قول الأكثرين: إنها هي المسئولة ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ فتقول: لا ذنب لي، فيكون ذلك أبلغ في توبيخ قاتلها وزجره. **الثاني**: إنها هي السائلة لقاتلها: لِمَ قتلت؟ فلا يكون له عذر. قاله ابن عباس، وكان يقرأ: «**وإذا الموءودة سألت**». قال قتادة: يقتل أحدهما بنته ويغذو كلبه، فأبى الله سبحانه ذلك عليهم. النكت والعيون (٣٨٩/٤).

وأهوال.

ثم قال - عز من قائل: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] من قول ومن عمل خير أو شر، وهو جواب قوله - جل من قائل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١] إلى آخر الأوصاف.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:١٥ - ٢٩].

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ لا رد لقولهم في القرآن وفي الرسول، أقسم ﴿بِالْخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾(١) [التكوير:١٥ - ١٦] أقسم ﷻ بالخمسة الكواكب هي سبعة كواكب قد تقدم ذكرها، الخنس الجوار الكنس: هي الخمس ليس الشمس والقمر تتناهى جارية، تخنس؛ يعني: تتقهقر حين تكنس في ضمن الشمس، يقال: كنست الظباء في كناسها؛ أي: في مواضع تسترها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير:١٧] أظلم وأطبق ظلامه وتنفس الصبح أسفاره وتزايده على ذلك.

---

(١) قال البقلي: أقسمَ الله بنيرات عالم الملكوت إذا شاهدت عرائس الصفات في روازنها، ونظرت إلى قلوب المشتاقين، وجذبتها بنورها إلى أعلى عليين، فلما بلغت الأرواح إلى سرادق الدنو تخنس باستتارها بعد تجلّيها، وتكنس باحتجابها بعد انكشافها؛ لذوبان الأرواح في نيران الأشواق، وهيجان الأشباح إلى عالم الأفراح، وأقسمَ بظلمة ليالي الهجران في وقت الاستتار في قلوب العارفين، وبطلوع صبح أنوار مشاهدته بنعت الوصال في فؤاد المحبين، وأيضًا أقسم بطيران الأرواح القدسية بجناح المحبة والمعرفة في هواء الهوية، وهذا كنوسها إذا هامت بوجوهها في غيب الغيب، فإذا وصلت إلى قاف القدم، وتذورت بسطوات الأزلية تخنس، وتفر من صدمات القيُّومية إلى عالم الأمر والحكم؛ لأن الحدوثية تزول عن موازاة القدم، وأيضًا أقسم بسير هذه الأرواح العاشقة في طرقات العلوم المجهولة، فتستفيد منها ما يكون بخلاف العلوم الرسومية.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩] يعني: جبريل ﷺ.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ* مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢٠ - ٢١] يعني: في الأفق المبين - والله أعلم، هذا وصف لجبريل ﷺ وما هو بقول شاعر ولا كاهن، لو آمنتم لأبصرتم، ولو تذكرتم لعلمتم ما هو ومن حيث هو؛ يعني: القرآن ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠].

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ [التكوير:٢٢] يعني: محمدًا ﷺ.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ يعني: جبريل ﴿بِالأُفُقِ المُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣] على صورته التي خلقه الله عليها.

﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: جبريل ﷺ ﴿عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤] أي: بمتهم، بالظاء مرفوعة، وقرئ بضاد غير مرفوعة؛ يعني: محمدًا ﷺ بضاد غير معجمة أي: ببخيل؛ أي: ليس ببخيل على غيب يطلع عليه.

﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٥] صدر عن مجنون.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير:٢٦] أي: في ضلالكم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٧] يعني: الرسول والقرآن وما جاء به.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨] على الصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، هذا إعلام منه - جلَّ ذكره - أنه من استقام تذكر بالقرآن والرسول وما جاء به، وأما من لم يستقم فليس له في الوعد حظ، فالمشيئة لله ﷻ وحده.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر:١٤].

تفسير سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار:١ - ١٩].

الانفطار: الانشقاق، وانفجار البحور: إفضاء بعضها إلى بعض، وبعثرة القبور: إثارتها للنشور(١).

وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:٥] جواب قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وما بعده.

ثم أعلم أنه لشبه الإنسان بالعالم وشبه الموت بالقيامة العامة قال رسول الله

---

(١) قال المصنف: يقال للذي يحرث الأرض: فاطر؛ لأنه يشقها بالحراثة، وفي الحديث: «قام رسول الله ﷺ يصلي حتى تفطرت قدماه» والفطر أيضًا بوجه الظهور والطلوع، من ذلك قولهم: فطر ناب البعير إذا طلع، والتفاطير: أول نبات الوسمي، قيل له ذلك والله أعلم؛ لأنه أول نبات طلع على الأرض منها وظهر، والتفاطير أيضًا: بثور تبدو في وجه الغلام أول اقتباله، والفطر: ضرب من الكمأة؛ سميت بذلك لطلوعها عن الأرض بعد انشقاقها عنها، والفطر: أكل الصائم، يقال من ذلك: فطَّرت الرجل وأفطرته فأفطر، وتأول رسول الله ﷺ اللبن الحليب بأنه الفطرة؛ لأنه أول ما يتغذى به المولود ويفطر عليه عند خروجه إلى الدنيا، وسمي دين الإسلام فطرة؛ لأنه أول شيء لقيت الذوات يوم برئها والأجسام يوم جمع خلقها والخليقة كلها كذلك. [١٧٢/٢].

ﷺ: «**من مات قامت قيامته**»[(١)] لما في خلقه الإنسان من موجودات الأرض والسماء من أرض وجبال ونجوم وسماء وشمس وقمر إلى غير ذلك من موجودات الجسم، يقوم في قوام حمله الإنسان مقام موجودات الأرض والسماء من أرض وجبال ونجوم وسماء وشمس وقمر، إلى غير ذلك من موجودات العالم، أشبهت قيامة المنية قيامة العالم، فيعلم الإنسان عند حصول الموت أيضًا بما قدم وأخر كما يعلم يوم القيامة بكل ما أحضره من عمل.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] وقرأها ابن جبير والأعمش: «ما أغرك بربك الكريم» بالمد والهمز، فهذا على التعجيب منه، والأول على معنى التقرير.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[(٢)] [الانفطار:٧ - ٨] كيف تنكر على هذا أن يعيدك حيًّا كما كنت؟ كيف

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال المصنف: أي: عدل صورتك خلقها على أحسن التصوير، ومن قرأ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيف الدال، أراد ما لصورتك، وعدل فيها بها عمّا دونها من الصور إلى أحسن التصوير، وهذا يكون بمعنى الإمالة والإحالة له إلى ما أريد منه، ولذلك قالوا: عصفور صوار، إذا أجاب لإمالته صورته بالمحاكاة إلى الأصوات سواء، يقال من التصوير الذي بمعنى التقدير: صار الرجل، إذا صور، وصار أيضًا بمعنى: حال وذهب نحوه، وأصار: أحال ووجه، ويقال: صور الأمر، أي: قدره، وصاره يصوره، إذا أماله والنعت منه: أصور إذا كان مائل للعنق، وقد صور صورًا إذا أمال، والمصور من التصوير، وهو تصيير الشيء على صورة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف:١١] وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤] أي: قدرها فأحسن تقديرها، والصوار: قطيع من البقر، والجمع: أصورة وصِيران كجبار وكبار، وصيران كغلام وغلمان، وقراد وقردان؛ سميت بذلك لميل بعضها إلى بعض واجتماعها، والصوار أيضًا: قطعة من المسك، سمي بذلك للمعلوم من المسك أن يميل النفوس بطيب أريجه إليه، ويقال: رجل صير شير إذا كان ذا صورة حسنة وشارة ظاهرة، وتجمع صورة على صورة، وقد يتأول عليه قوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [النمل:٨٧] أي: في الصور. قالوا: والصور القرن الذي ينفخ فيه، قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وجثا على ركبتيه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر، فينفخ**» وقد قيل: إن القرن الذي هو الصور من القرن قرن الأمة، فيمكن أن ذلك القرن سمي قرنًا على العموم، أي: قرن بني آدم أجمعهم، والنفخ فيه هو النفخ في الصور أو في جميع =

اجترأت على معصيته ومخالفة أمره وهو معك يراك ويشاهدك، وله عليك رقيبان كاتبان صادقان كريمان يعلمان ما تفعله، يكتبانه عليك ويحصلانه، ويعدان عليك أنينك وأنفاسك؟ بل كيف اجترأت على كفرانه وساعدتك نفسك على تكذيبه، ونازعت عقلك وجحدت فطرتك فعبدت معه غيره وأشركت في نفسك ومالك الذي رزقكه سواه؟.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩ - ١٢] فأخبر - عز جلاله - أنه أحلهم من العلم بأعمالنا من [...][1] المنقدح من خزائن الغيب إلى ظاهرها، وأما ما كان منها لم ينقدح في القلب ولا جرى ذكره على النفس، فلم يتناوله وله الخبر؛ لأنه قال: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بلفظ الاستقبال.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا همَّ العبد بأن يعمل سيئة قالت الملائكة**: يا رب، **هذا عبدك يريد أن يعمل سيئة كذا، فيقول الله** - جلَّ ذكره: ارقبوه، **فإن عملها فاكتبوها سيئة واحدة، وإن لم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإنما تركها من جزائي**»[2] وموضع الخوف من العبد غيب، وقال الله - جل من قائل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧] وهؤلاء رسل من عنده موكلون بهذا الشأن من العباد، فلا بد أن يعلمهم بما قد جعله إليهم من عملهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٣ - ١٥] هذا حق يقين، وإنما موضع البرزخ حيث امتزج الخير بالشر والطاعة بالمعصية في الفاسق الملي، ثم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أعني: الجحيم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

ثم قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] يعني - وهو أعلم بما ينزل: اليوم، وما هم عنها اليوم بغائبين لو عقلوا منبعث الفيحين سعيرها وزمهريرها.

=

الصور. [١٨٩/٢].

(١) الأُساة: مفردها آسي وهو الطبيب. انظر الصحاح في اللغة (١٤/١).

(٢) غير واضح في (خ)، وغير موجود في (ف).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ﴾ كله ﴿لله﴾ [الانفطار:١٩] وحده لا شريك له في الدنيا ولا في الآخرة، لكن ذلك اليوم له خاصة حكم لا كسب لأحد فيه ولا إرادة شيء يجعل له ذلك ندبًا ويعطاه، بل الخير الذي هو أصل الحركة والإرادة فيما هاهنا الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:٣٠] هو غيب اليوم، وهو يومئذٍ ظاهر، عليه تجري الأحكام فافهم.

تفسير سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾ [المطففين: ١ - ١٧].

قوله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] قد تقدم أن كل اسم شر موجود في هذه الدار فأصل وجوده في جهنم، وعنها انبعث الشر كله واستطار وتفشى، كذلك كل اسم خير موجود ها هنا فإن أصله ومنبعثه من الجنة، وإليهما يرجع ما هو موجود عن كل واحدة منهما، كما تأرز الحية إلى جحرها خلى ما أحال حكم التكليف من ذلك، فإن ذلك له حكم قد بينه الشرع، وأصار من موجودات هذه إلى هذه وموجودات هذه إلى هذه، ويجمع ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الجنة ثم قال لجبريل** ؏: **ادخلها فانظر إليها، ففعل ثم قال: وعزتك لا يسمع بها أحدًا إلا دخلها، فحفها بالضر** - وفي أخرى: «بالمكاره» - **ثم قال له: ادخلها فانظر إليها، ففعل ثم قال: وعزتك لقد خشيت ألَّا يدخلها أحد، وخلق النار ثم قال لجبريل** ؏: **ادخلها فانظر إليها، ففعل ثم قال: وعزتك لقد حسبت ألَّا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال له: ادخلها فانظر إليها، ففعل ثم قال: وعزتك لقد خشيت ألَّا يبقى أحد إلا دخلها**»[1].

(١) أخرجه أحمد (٨٦٣٣)، وهناد (٢٤٢)، وأبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠) وقال: حديث =

والمطفف: الذي لا يعطي الحق في الميزان والمكيال، وطف الشيء: جانبه، والشيء الطفيف: هو الزهيد القليل، وقيل له: مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا اليسير الخفي، يقال: اكتلت عليه خفي، واكتلت منه ومن عنده.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ...﴾ [المطففين:٧ - ٨].

انتظم هذا بقوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٤-٦] فمعنى «كلا» هنا: معنى «نعم»، ويكون بمعنى التكذيب لظن هذا المطفف، يقول - عز من قائل: كلا ليس الأمر على ما ظنه ولا على ما تهاون به وتغافل عنه، وعلى الوجه الآخر كأنه يقول ﷻ: نعم إن كتاب الفجار لفي سجين، ومن ظن أنه غير مبعوث لذلك اليوم فهو فاجر وكافر ومكذب، ومن علم ذلك ففعله فهو صغير الكافر المكذب الفاجر، ويمكن أن يكون معنى «كلا» ليس كما ظن أنه غير مبعوث.

﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ قيل: هي صخرة تحت الأرض السابعة سوداء مكتوب عليها أعمال الفجار، ويمكن أن يكون «سجين» فعيل من السجن، أعمالهم فيها مكتوبة؛ أي: مثبتة، فإذا ماتوا لم تفتح لهم أبواب السماء، فأُسْفِلَ بهم إلى أعمالهم، كذلك كتاب الأبرار في عليين قوله ﷺ: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[١] فأثبتها معلومة له في عليين، ثم أوجدهم بعد فعملوا له بما سبق علمه به، فرفع أعمالهم معمولة إلى معلومة منهم حتى يرفعون إليها، كذلك الفجار في الطرف الآخر.

نظم بذلك قوله الحق - عز من قائل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين:١٠] يشير إلى اليوم العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين:١١] أي: الجزاء.

حسن صحيح. والنسائي (٣٧٦٣)، والحاكم (٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٤).

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ [المطففين:١٢] لحدود الله، عامل بالآثام، إذا ذكر بآيات الله كذب بها وقال: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣].

يقول - عز من قائل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] الرين: الطبع، يكون عن تراكم أعمال السوء وتتابع أعمال الآثام حتى يعلو القلب، ثم يؤول إلى الطبع.

أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ الخطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه**»(١) وهو الران الذي ذكره الله، الران والرين: التغشية، والغان: من غان يغين غينًا، والغين: كالغيم الرقيق، والرين: كالصدأ يغطي القلب فيذهب نوره، يقال من ذلك: رين بفلان؛ أي: مات فذهب به.

أتبع ذلك قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(٢) [المطففين:١٥] كما حجبوا عن العلم به في هذه حجبهم عن رؤيته في الآخرة جزاءً لإعراضهم عن ذكر هؤلاء الكفار يحجبون عنه في المحشر، وأما المنافقون فيرونه على ما ليس به تصديقًا لقوله - جل من قائل: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٦ - ١٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٣٩)، والترمذي (٣٣٣٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (١٠٢٥١) وابن ماجة (٤٢٤٤) وابن أبي الدنيا في التوبة (١٩٨ ط مكتبة القرآن) وابن حبان (٢٧٨٧) والحاكم (٦) وقال: صحيح. والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٠٣ مكرر).

(٢) لا يقتضي الحجاب مطلقًا، فإنه يُقيَّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلَّ أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي، وأمَّا محلُّ أهل الجحيم؛ وهو النار؛ وكذا أجسامهم فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم والمشرب والمنكح ونحوها، وأمَّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالمُ الفناء عن الحسِّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضَّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين:١٨ - ٣٦].

أتبع ذلك قوله - عز جلاله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين:١٨ - ١٩] كل ما قال فيه وما أدراك فقد أدراه.

قال رسول الله ﷺ «أتيت بالبراق»(١) وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، فذكر سيره إلى بيت المقدس، ثم عروجه إلى السماء الدنيا، ثم إلى السماوات سماء سماء إلى السابعة، وذكر أنه لقي فيها الأنبياء وإن اختلفت الروايات في محالهم، فإن آدم ﷺ في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السابعة، فهذه - والله أعلم - عِلِّيُّون، قيل لهن ذلك بالإضافة إلى السماوات الدنى سماوات الأفلاك، فكتاب الأبرار في عليين ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١] الأنبياء والرسل والملائكة، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين:٢٢] هذا - والله أعلم بما ينزل - في مقابلة وصفه أولئك ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين:١٥ - ١٦].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] أي:

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٢٧)، ومسلم (١٦٢)، وأبو يعلى (٣٣٧٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٠)، وأبو عوانة (٣٤٤).

ينظرون إلى ربهم - عز جلاله - كما قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ترون ربكم عيانًا كما ترون القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب**»[1] ورؤيتنا الشمس والقمر **عيانًا** كما قال وعلى الدوام الشمس نهارًا والقمر ليلاً وليس هناك ليل ولا نهار، وقد تقدم ذكر ما به تعرف الأيام فيما هنالك؛ يعني: الليل والنهار فيما هنالك.

فصل

النظر فيما هاهنا ينقسم إلى ستة معالم:

- **أحدها**: نظر عموم المؤمنين ممن لا يكاد يُنسب إلى نظر، لكنه لما حصل عنه الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد سُمي بفضل الله: نظر، أو هو حال عامة المؤمنين من النساء والرجال الذين شهدوا شهادة الحق وعملوا عليه، ثم نظر أهل الكلام الذين أحكموا الأجدال ونصب الدلائل وتبين البراهين، وهؤلاء أئمة المسلمين الذابون عن حملة الحق.

- ثم نظر أهل الورع والتوبة وإعمال القلوب ومحاسبة النفوس ومعرفة التوكل ونحو هذا، كعلم الخوف وعلم الرجاء واليقين، وهذا يتقوى على كل نظر وبه يتوصل إلى كل مطلوب.

- ثم لأئمة المتقين نظر في آيات الله الدالة عليه المعرفة به وبشواهده وبيِّناته على صدقه وصدق رسله وكتبه التي تريهم الآخرة بالعلم واليقين **عيانًا**، فيشهدون بها ما غاب من وعد الآخرة ووعيدها، وهو معرفة الحق المخلوق به السماوات والأرض.

- ثم نظر لأهل العلية منهم في معرفة ما تقدم ذكره باستقراء الأسماء الحسنى والصفات العلا مسالكها في العالم ومقتضياتها من الحق المخلوق به السماوات والأرض، ونسبته إلى الأسماء والصفات، ثم يعرف ذلك في الدار الآخرة وإضافته إلى الحق المبين فيما هنالك، وفي هذا النظر وصلوا إلى التوحيد العلي، وهو عين

---

(١) تقدم تخريجه.

اليقين، وهو النعيم في الدنيا، وهي المعاينة التي تُنسب إلى المشاهدة وعندها تصغر العطايا لمشاهدة قدرها، وتستغرق كل سبب؛ حتى يغيب شاهد روى العلم فيها والعلوم كلها مجموعة فيها؛ لأنها ينبوع العلم منها بدأ وإليها يعود، فافهم.

ثم السابع هو موضع الحجر المحجور والسد المسدود، ينقطع سر العقول وتحتبس عنده النفوس، وتهدأ حركات الوهم وتنسد أبواب الفطن، وإذا بلغت الألباب إلى ما هنالك سجدت ورجعت حسيرة.

قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في المخلوق** - وربما قال: الخلق - **ولا تتفكروا في الخالق**»[1] فإذا دخلوا الجنة وهذبوا وطيبوا شاهدوا الحق المبين عيانًا وكلمهم كفاحًا، فهم على أرائكهم ينظرون إليه، لا يبدو لهم أبدًا بمرئى واحد مرتين، ولا يكلمهم في معنى واحد بكلمتين، بل لكل كلام إفهام، ولكل إفهام معنى، ثم لا أفول ولا تنقل يتجلى إذا شاء في ضيائه وإذا شاء في نوره، سبحانه وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه.

ثم إذا استزادهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، سقاهم شرابًا طهورًا يطهرهم به من ملابسة الأغيار الموجودات في الجنة، فيرونه به - جلَّ ذكره - دون ستر عنه ولا ذهول عن ذكره، فقوله - عز جلاله: كلا ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٢ - ٢٣] هذا هو نظرهم، ويتفاضلون في الرؤية غبها ودائمها على مقادير علومهم ويقينهم وسلوكهم سبيل الاستقامة، ويتفاضلون أيضًا في دوام النظر إليه كما كانوا يتفاضلون في سبل تسيارهم إلي، فقوم عبدوه مخافة عذابه فأجارهم من عذابه وأدخلهم جنته، وقوم عبدوه رجاء لثوابه فرفعهم في الثواب إلى حيث بلغتهم أعمالهم، فهؤلاء ربما تشاغلوا بالأكل والشرب وأنواع النعيم.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٥-٥٧] في هذا معنيان: لهم فيها ما يدعون اليوم، كما قال: إن هذا ما كنتم به تدعون، والمعنى الآخر بمعنى قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل:٣١] وهذا - والله أعلم - لأهل

---

(١) أخرجه أبو الشيخ (٥).

الغلبة منهم، وهؤلاء هم المعنيون بقوله: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣].

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلامًا﴾ [مريم:٦٢] يسلم عليهم ويحييهم الحق المبين بكل معنى وبكل وجود فيما هنالك، وكما به سخر لنا الشمس والقمر والنجوم والرياح والأمطار والأفلاك والليل والنهار وما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، فبالمعنى الذي به سخر لهم هذه الموجودات في الدنيا يحييهم كل شيء يفصح يومئذٍ كل شيء بالتحية لهم والسلام كما أكرمهم في الدنيا بالتسخير لهم ويحييهم الحق المبين، عز جلاله.

قال الله - عز من قائل: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] فهم لا يرون فيها أبدًا إلا ما يعجبهم.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ لأجل ذلك ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ على الدوام ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ ما هو معناه ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

قال رسول الله ﷺ: «**يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس**»[(١)].

وربما أرجعهم إلى أنفسهم وأزواجهم ومماليكهم فنظروا إليها، وهذا مقام ينسب إلى الصنفين الأولين من الأبرار؛ لأنه أكثر أحوالهم، وكما قال الأول:

فكأنهم لم يلبسوا أطمارهم ... لما لفوا بالعبقري الأخضر

يا حسنهم بمجالس من لؤلؤ ... يتطلعون من العلا للكوثر

وقال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه ومماليكه مسيرة ألف سنة، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى ربه بكرة وعشية**»[(٢)].

قوله ﷻ: ﴿تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤] النضرة: النعمة، روض ناضرة؛ أي: ناعم، وقرأها أبو جعفر: «تعرف في وجوههم نضرة النعيم» على مفعول لم يسمَّ فاعله.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾[(٣)] [المطففين:٢٥]

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٧٧٦)، وأحمد (١٤٨١١) وعبد بن حميد (١٠٣٠) ومسلم (٢٨٣٥) وأبو داود (٤٧٤١)، وابن حبان (٧٤٣٥)، والطبراني في الشاميين (١٠١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج: الرحيق من الخمر: ما لا غشّ فيه، ولا شيء =

الرحيق من أسماء الخمر.

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين:٢٦] وقرئ: «خاتمه» يمكن أن يكون المعني بهذا: ما يبقى في أنفاسهم وأفواههم من رائحته كالمسك، وقد يكون الختام ما يجري عليه حالة المسك، والحال: الطين، ثم أمر ﷻ بالتنافس في هذه الكرامات والمكانات والمراتب، كما أمر بالمسابقة والمسارعة، وفي هذا يحسن التحاسد.

قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين**»[١].

نظم بذلك ﷻ بقوله: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين:٢٧] وهو خمر يتسنم عليهم من علو وهو عين.

﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٨] صرفًا، قال الله - عز من قائل: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء:٦٩].

الفكه: المعجب، يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [المطففين:٢٩] جعلوا المؤمنين ضحكة بينهم يتهزؤون منهم.

﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين:٣١] معجبين بما فعلوه.

﴿وَإِذَا﴾ رأوا المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين:٣٢] كذلك قال رسول الله ﷺ وذكر ما يؤول إليه الإسلام من حال الغربة: «**يكون القابض يومئذٍ على دينه كالقابض على الجمر**»[٢] وفي أخرى: «**يكون المؤمن فيهم أذل من**

يفسده. والمختوم: الذي له ختام. وقال الخليل: الرحيق: أجود الخمر، وفي «الصحاح»: الرحيق: صفرة الخمر. وقال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية، ومنه قول حسان: «يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل» قال مجاهد: ﴿مَّخْتُومٍ﴾: مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين، ويكون المعنى: إنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار. وقال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي: ختامه: آخر طعمه. فتح القدير (٧/٤٤٥).

(١) أخرجه أحمد (٤٥٥٠) والبخاري (٧٠٩١) ومسلم (٨١٥) والترمذي (١٩٣٦) وابن ماجة (٤٢٠٩) وابن حبان (١٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠) وقال: غريب. وابن عدي (٥/٥٥ ، ترجمة ١٢٢٩).

الأمَة»[١] وفي أخرى: «**يكون العالم فيهم أنتن من جيفة حمار**»[٢] والله المستعان.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤] في حال كونهم على أرائكهم ينظرون إلى خزي أولئك ونكالهم وتنويع عذابهم.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦].

---

(١) أخرجه هناد في الفتن (٥١٦)، والديلمي (٨٦٧٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٨١/٥).

تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ١ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾(١) [الانشقاق:١] كما قال - عز من قائل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وقال - عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان:٢٥] أي: الغمام الذي ينزل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فيه.

---

(١) قال ابن خالويه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ بكسر التاء، عبيد عن أبي عمرو. وقال ابن عطية، وقرأ أبو عمرو: «انشقت» يقف على التاء كأنه يشمها شيئًا من الجر، وكذلك في أخواتها. قال أبو حاتم: سمعت أعرابيًا فصيحًا في بلاد قيس يكسر هذه التاءات، وهي لغة. وذلك أن الفواصل قد تجري مجرى القوافي. فكما أن هذه التاء تكسر في القوافي، تكسر في الفواصل؛ وإجراء الفواصل في الوقف مجرى القوافي مهيع معروف، كقوله تعالى: ﴿الظُّنُونَا﴾ و﴿الرَّسُولاْ﴾ في سورة الأحزاب. وحمل الوصف على حالة الوقف أيضًا موجود في الفواصل. ﴿وَأَذِنَتْ﴾: أي استمعت وسمعت أمره ونهيه، وفي الحديث: «**ما أذن الله بشيء إذنه لنبي يتغنى بالقرآن**» وقال الحجاف بن حكيم: أذنت لكم لما سمعت هريركم... وأذنها: انقيادها الله تعالى حين أراد انشقاقها، فعل المطيع إذا ورد عليه أمر المطاع أنصت وانقاد، كقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿وَحُقَّتْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير: وحق لها أن تسمع. وقال الضحاك: أطاعت وحق لها أن تطيع. وقال قتادة: وحق لها أن تفعل ذلك، وهذا الفعل مبني للمفعول، والفاعل هو الله تعالى، أي وحق الله تعالى عليها الاستماع. ويقال: فلان محقوق بكذا وحقيق بكذا، والمعنى : أنه لم يكن في جرم السماء ما يمنع من تأثير القدرة في انشقاقه وتفريق أجزائه وإعدامه. قيل: ويحتمل أن يريد: وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى. وقال الزمخشري: وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع، ومعناه: الإيذان بأن القادر الذات يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك. [البحر المحيط (١٠/٤٥٢)].

﴿وَأَذِنَتْ﴾ [الانشقاق:٢]: سمعت وأطاعت، دعاها فسارت إليه، كما قال في الظل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ [الفرقان:٤٦] وحق لها ذلك؛ لأنه أبدلها بما هي أوسع أكنافًا وأبعد أقطارًا، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بم يخرج منها**»(١).

﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق:٣] هذه نسفت عليها الجبال نسفًا فعدلت بها فلا يرى فيها عوج ولا أمت.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ ما استودع فيها من الأموات والشهادات وغير ذلك ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٤] من ذلك.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ دعاها فأجابت وقبضها فأطاعت ﴿وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:٥] بدلها بما هي أوسع أكنافًا وأبعد أقطارًا بأرض بيضاء كالنقى، درمكة بيضاء نزلاً لأهل الجنة، ولم يأت في هذه السورة جواب لمبتدئها، ربما كان جواب ذلك محذوفًا، وربما كان مع ذلك لو أظهر لكان على وصف ما تبدل به الأرض غير الأرض والسماوات، فيكون تقدير الكلام: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١] إلى قوله: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٣ - ٤] بدلها ذلك كله بما هو أوسع وأكرم، هذا في وصف ما هو من هذه الأرض إلى ما علاه، وبما هو من وصف الأرضين فيما يكون وصفًا لجهنم.

وأرى أن هذه المذكورات من انشقاق السماء ومد الأرض وتخليتها مما استودع فيها توفيت لما جاء من وعد ووعيد في سورة «المطففين» أو يكون غير ذلك، والله أعلم بما ينزل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] متى لم يؤمن الإنسان بربه كفره، ومتى لم يعمل بطاعته عمل بمعصيته لا بد ولا محالة، وأي ذلك كان فهو المراد به.

ومنه لذلك قال: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق:٦] يقول، وهو أعلم: إنك عامل إلى ربك عملاً فملاقيه به، فانظر بم تعمل؟ وربما انتظم به قوله:

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١] فكانت جوابًا لما قبلها.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق:٧].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق:١٠] هو بمعنى قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وأما من أوتي كتابه بشماله، هي: الشمال جنبة الظهر، وهو الخلف والأسفل، والجنبة المحمودة: هو اليمين والأمام والأعلى، والثبور: الهلاك، وذم الله - جلَّ ذكره - العبد أن يكون شأنه السرور في أهله.

وقال رسول الله ﷺ: «خيركم، خيركم لأهله»[1].

وأرى ذلك - والله أعلم - في تقويمهم على عبادة ربهم، وربما أرخص له في بعض الشأن، وكان رسول الله ﷺ يهزل ولا يقول إلا حقًّا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق:١٣ - ٢٥].

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق:١٤] أي: أن لن يرجع، الحور: الرجوع، وهو الإحياء بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿فَلَا﴾ رد على ما ظنه الإنسان من ذلك، ثم ﴿أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق:١٦] لما كان الشفق عند غروب الشمس وعند طلوعها، وهو وقت حور النهار وحور الليل في تكويرهما.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق:١٧] من ظلام وقضاء وقدر، وهو جائز بعد الليل المتقدم.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق:١٨] أي: استوى امتلاءً؛ وذلك بانضمام بعضه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) وقال: حسن غريب صحيح. وابن حبان (٤١٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٧١٨)، والدارمي (٢٢٦٠).

إلى بعض، وهو أيضًا جائز بعد اتساق تقدم له في منازله، أقسم بهذه الأقسام لما فيها من المعنى المقسم من أجله.

ثم استاق من المقدر معنى ذلك بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩] أي: موت أول قبل هذه الحياة، ثم هذه الحياة بعدها، ثم بعد هذه الحياة الموت المنتظر، ثم بعده الحياة الآخرة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق:٢٠] إشارة منه إلى ما أقسم به من حور بعد كور.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق:٢١] أي: لا يخضعون له إيمانًا به، أفلا يرون أنهم ينقلون في الأحوال طبقًا بعد طبق، فكيف لا يؤمنون بالحياة الآخرة وإنما هي واحدة من الحالات المنتقل فيهن، فلو أنهم آمنوا استدلالاً بالموجودات لأبصروا فكانوا يسجدون عندما يقرأ عليهم القرآن؟

ألا تسمعه يقول - جل من قائل: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق:٢٢ - ٢٣] أي: فلذلك لا يسمعون القرآن فهمًا ولا علمًا، ولا يبصرون شواهد الموجودات عقلاً وإيمانًا، ولا يرون سجودها فقهًا واستبصارًا، والله أعلم بما توعى قلوبهم وما يسبق إلى نفوسهم من أنواع الضلالات.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق:٢٤] ليس كذلك ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لذلك ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1] [الانشقاق:٢٥].

---

(١) فيه أربعة تأويلات: **أحدها**: غير محسوب. قاله مجاهد. **الثاني**: غير منقوص. قاله السدي. **الثالث**: غير مقطوع. قاله ابن عباس. **الرابع**: غير مكدّر بالمن والأذى وهو معنى قول الحسن. النكت والعيون (٤/٤٠١).

تفسير سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج:١ - ٩].

﴿البُرُوجِ﴾ [البروج:١] اثنا عشر برجًا، وقد تقدم ذكرها(١).

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج:٢] يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ﴾ هو الله - جلَّ ذكره - ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:٣] كل ما شوهد يومئذٍ، وبحكم العموم في الدنيا من الآيات والبينات، وفي الآخرة من الحق المعتبر إليه من شواهد ما هاهنا، والمشهود أيضًا: هو اليوم الآخر، هو المجموع له الناس، وهو اليوم المشهود.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم

---

(١) قال ابن عباس والجمهور: هي المنازل التي عرفتها العرب، وهي اثنا عشر على ما قسمته، وهي التي تقطعها الشمس في سنة، والقمر في ثمانية وعشرين يومًا. وقال عكرمة والحسن ومجاهد: هي القصور. وقال الحسن ومجاهد أيضًا: هي النجوم. وقيل: عظام الكواكب، سميت بروجًا لظهورها. وقيل: هي أبواب السماء؛ وقد تقدم ذكر البروج في سورة الحجر. ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾: هو يوم القيامة، أي الموعود به. ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾: هذان منكران، وينبغي حملهما على العموم لقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] وإن كان اللفظ لا يقتضيه، لكن المعنى يقتضيه؛ إذ لا يقسم بنكرة ولا يدري من هي. فإذا لوحظ فيها معنى العموم، اندرج فيها المعرفة فحسن القسم. وكذا ينبغي أن يحمل ما جاء من هذا النوع نكرة، كقوله: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور:١ - ٢] ولأنه إذا حمل ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ على العموم دخل فيه معنيان: الكتب الإلهية، كالتوراة والإنجيل والقرآن، فيحسن إذ ذاك القسم به. [البحر المحيط (١٠ /٤٥٧)].

المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل منه...»[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ١٠ - ٢٢].

أقسم الله ﷻ بهذا القسم، وجواب القسم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

ثم وصف نفسه ﷻ بأنه ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ * ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[(٢)] [البروج:١٣ - ١٦] وقرئ: «ذي العرش» نعتًا لربك، قراءة عبد الملك بن بكار بإسناد عن ابن عامر.

وفصل بين القسم وجوابه بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] أي: لعن، وهو دعاء عليهم مجاب ﴿الَّذِينَ فَتَنُوا المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج:١٠] من ذلك ولا نزعوا عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٩)، والبيهقي (٥٣٥٣)، والطبراني في الأوسط (١٠٨٧).

(٢) قال القشيري: إنْ أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك، وهو عادل في ذلك، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك فلذا كان العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، هل أتاك حديث الجنود، أي: جنود النفس التي تُحارب به الروح لتهوي بها إلى الحضيض الأسفل، ثم فسّرها بفرعون الهوى، وثمود حب الدنيا، والطبع الدني، بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب، لهذا كله فلا يُفرقون بين الروح والنفس، ولا بين الفرق والجمع، والله من ورائهم محيط، لا يفوته شيء، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتًا وصفاتًا وفعلاً، بل هو أي: ما يوحي إلى الأسرار الصافية، والأرواح الطاهرة قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية، وهو قلب العارف.

ويمكن أن يكون قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] إخبارًا عن المقتولين يومئذٍ ولهم قصة تقدم ذكرها فيها، ذكر ملك من الملوك كان يدعو الناس إلى عبادة نفسه، وأن ساحرًا قد كان كبر وضعف فقال له: أبعني غلامًا فطنًا يقظًا أعلمه علمي، فإني أخشى أن يذهب علمي بذهابي، فجعل له غلامًا إلى آخر القصة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجُنُودِ﴾ [البروج:١٧] أي: المهلكين، أضرب عن ذكرهم بعدما عرض بهم تشريدًا لغيرهم، ثم ذكر العرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنهم ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج:١٩].

﴿وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:٢٠] أي: قدرة وعلمًا.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١ - ٢٢] أضرب بقوله: «بل» عن قولهم الكاذب في القرآن ﴿مَّجِيدٌ﴾ أي: كريم ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ نعتًا للوح، و«محفوظ» نعت للقرآن، ويقرأ: «محفوظ» بالرفع وبالخفض.

تفسير سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)
فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ
(٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢)
إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا
(١٧)﴾ [الطارق:١ - ١٧].

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾[(١)] [الطارق:١] فسر ﷻ ذكره الطارق بقوله: إنه ﴿النَّجْمُ

---

(١) أقسم سبحانه بالسماء والطارق، وهو: النجم الثاقب، كما صرّح به التنزيل. قال الواحدي: قال المفسرون: أقسم الله بالسماء والطارق، يعني: الكواكب تطرق بالليل، وتخفى بالنهار. قال الفرّاء: الطارق النجم؛ لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق. وكذا قال الزجاج والمبرد، وقد اختلف في الطارق هل هو نجم معين، أو جنس النجم؟ فقيل: هو زحل. وقيل: الثريا. وقيل: هو الذي ترمى به الشياطين. وقيل: هو جنس النجم. قال في الصحاح: ﴿وَالطَّارِقِ﴾: النجم الذي يقال له كوكب الصبح؛ أي: إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء، وأصل الطروق: الدقّ، فسمي قاصد الليل طارقًا لاحتياجه في الوصول إلى الدق. وقال قوم: إن الطروق قد يكون نهارًا، والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين أي: مرتين، ومنه قوله ﷺ: «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار إلّا طارقًا يطرق بخير» ثم بيّن سبحانه ما هو الطارق، تفخيمًا لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ الثاقب: المضيء، ومنه يقال: ثقب النجم ثقوبًا، وثقابة: إذا أضاء، وثقوبه ضوؤه، قال الواحدي: الطارق يقع على كل ما طرق ليلاً، ولم يكن النبيّ ﷺ يدري ما المراد به لو لم يبينه بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ قال مجاهد: الثاقب المتوهج. قال سفيان: كل ما في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أخبره، وكل شيء قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لم يخبره به، وارتفاع قوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب. ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا جواب القسم، وما بينهما اعتراض، وقد تقدّم في سورة هود اختلاف القرّاء في: «لما» فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر، وهو اسمها، واللام هي الفارقة، وما =

الثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣] أي: المضي، وسماه: طارقًا؛ لأنه يطرق ليلاً ليطلع من مشرقه، وهي الشمس ذكرها لما سماها: نجمًا، ولا يكون هذا النجم إلا طارقًا بالإضافة إلى قوم دون قوم، فهو في حال الليل طارقًا وفي النهار طالع ومستوي وجانح إلى الغروب وغارب، ثم طارق هكذا تقدير من عزيز عليم.

وجواب القسم قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] قُرئ بالتخفيف والتشديد؛ أعني: «لما» وهو اسم بمعنى: «إلا» وهي لغة قوم من العرب يجعلون «إلا» مع «أن» المخففة كأنه قال: ما كل نفس إلا عليها حافظ، ومعنى أن كل نفس: ما كل نفس، وقد يحتمل أن تكون «لما» مخففة بمعنى: «إلا» كقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] يعني: إلا، وكقوله: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود:١١١] معناه: إلا ليوفينهم، وقد تقدم الكلام في هذا في موضعه، والحافظ: الملك يحفظ عمله يكتبه له، والحافظ أيضًا: ملك يحفظ الإنسان والموجودات كلها مما لم يقدر أن يصيبه.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق:٥] هذا تنبيه على النظر والاعتبار من النشأة الأولى إلى النشأة الآخرة.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦] دفق خرج من موضعه ومستودعه إلى مستقره من الرحم، دافق ومدفوق بمعنى: فاعل ومفعول، كقولهم: ليل نائم، وهم ناصب، وسر كاتم.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٧] صلب الرجل وترائب المرأة، والترائب منها: ما اكتنف لبابها، وهو موضع متعلق حلى القلائد منها ماء الرجل في ظهره ووراثه وماء المرأة في قبلها.

=

مزيدة، أي: إن الشأن كل نفس لعليها حافظ، ومن قرأ بالتشديد، فإن نافية، ولما بمعنى إلا، أي: ما كل نفس إلّا عليها حافظ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر، وعاصم، وحمزة. وقرأ الباقون بالتخفيف. قيل: والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها، وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشرّ وقيل: الحافظ هو الله ﷻ. انظر [فتح القدير (٧ /٤٦٥)].

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق:٨] يجاوز حال الموت والفناء لوجوبه في وجود الإنسان.

ثم نبه على قدرته على إرجاعه حيًّا يوم القيامة وما له يومئذٍ من قوة ينتصر بها ولا ناصر ينصره من عذاب الله ﷻ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق:١١ - ١٢] الرجع: المطر يرجع من عام إلى عام، فذكر الرجع تنبيه على الإرجاع، وقد يكون الرجع: الرعد، والأرض ذات الصدع: تتصدع بالمطر للنبات، نبه العقول بهذا على أنهم يخرجون من الأرض بأن ينزل الله الماء من السماء كمني الرجال تتصدع له الأرض عن نبات بأجسام الموتى، ثم ينفخ في الصور نفخة البعث والنشور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١].

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣ - ١٤] يفصل بين حقه وباطلهم، وهو الهزل.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥] بكفرهم وتكذيبهم.

﴿وَأَكِيدُ﴾ عليهم ﴿كَيْدًا﴾ [الطارق:١٦] باستدراجي إياهم لتصديق كلمتي فيهم وإمهالي لهم لأخذهم على أوفر ذنوبهم في الأجل المسمى.

﴿فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧] أي: قليلاً، وهي كلمة تعطي الرفق، وكان هذا قبل نزول الانتظار والأمر بالقتال.

تفسير سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩)﴾ [الأعلى: ١ - ٩].

لما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**»[1] وأمر أن يجعل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤] في الركوع فكان ﷺ يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**» وفي السجود: «**سبحان ربي الأعلى**»[2].

وكان أبو موسى الأشعري يقرأ: «**سبحان ربي الأعلي الذي خلق فسوى**».

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى:٢] وهي قراءة أبي وعلي وابن الزبير ومالك ابن دينار، خلق فأتم ما خلقه كما قال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧].

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[3] [الأعلى:٣] يقول، وهو أعلم: قدر ثم هدى إلى ما

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٤٩).

(٢) أخرجه الشافعي (١/ ٣٩)، وابن أبي شيبة (٢٥٧٥)، وأبو داود (٨٨٦) وقال: هذا مرسل؛ عون لم يدرك عبد الله. والترمذي (٢٦١) وقال: ليس إسناده بمتصل. وابن ماجة (٨٩٠)، والبيهقي (٢٣٩١).

(٣) صفة أخرى للربّ، أو معطوف على الموصول الذي قبله. قرأ عليّ بن أبي طالب والكسائي والسلمي: «قدر» مخففًا، وقرأ الباقون بالتشديد. قال الواحدي: قال المفسرون: قدّر خلق الذكر والأنثى من الدّواب، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشرّ والسعادة والشقاوة. وروي عنه أيضًا أنه قال في معنى الآية: قدّر السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدّر أرزاقهم وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسًا، ولمراعيهم إن كانوا وحشًا. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. =

قدر، ينبئ بذلك بأن الأمر قد فرغ منه فيما قبل، وأنه نشء من صغر إلى كبر ومن نقص إلى كمال.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى:٤ - ٥] أنبأ في هذا الخطاب بالإعادة بعد البداية، يقول - جل من قائل: أخرج المرعى ثم جعله **غثاء**؛ أي: حميلاً للسيول، وهشيمًا تذروه الرياح، ثم أنبته مرة أخرى ناعمًا، أحوى: شديد الخضرة يضرب من نعمته إلى السواد.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعلى:٦ - ٧] لما كرر عليه النشأة الآخرة وسواها من التعاليم بعبارات مختلفة في مواضع شتى قال له: **سنقرئك** مرارًا مكررة فلا تنسى، يخبره بأنه لا ينسى، وتكراره ذلك مع إرادة الله به من الذكر داعية لعدم النسيان، وأكثر المراد به غيره من سائر أمته.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:٥٤].

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ «ما» هنا بمعنى: الذي، يقول - وهو أعلم: **إلا الذي شاء الله** أن ينساه وهو الكافر والعاصي.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥].

وقال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه:١٢٦].

﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية:٣٤] وقد خرج جلة من أهل العلم هذا على أنه - جلَّ ذكره - ينسيه ما شاء أن ينسيه، وجاءت على هذا أحاديث من طريق آحاد والله أعلم.

وقد قال الله - جل من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] والقرآن أعظم حجة وأقوم قيلاً.

جاء أن رسول الله ﷺ كان في بيته ورجل يقرأ في المسجد فقال: «**يرحمه الله**،

=

وقال السديّ: قدّر مدّة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقلّ وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم. فتح القدير (٤٧٠/٧).

لقد أذكرني آية كنت نسيتها»[١] فإن صح هذا الحديث فلحق بصحته مرتبة التواتر فهذا من الحفظ الذي شرطه له بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وإلا فما المراد بالنسيان إلا سواه من أمته، وأنه كقوله - جل من قائل - لموسى عليه السلام: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:١٠ - ١١] فهذا هو في حظ غيره من أمته، وما النسيان في هذا الخطاب إلا بمعنى الترك.

دل على ذلك ما بعد هذا من قوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى:٧ - ٨] وقد أخبره بالعصمة له عن هذا النسيان؛ أعني: الترك بقوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى:٨].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى:١٠ - ١٩].

ثم قال له: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى:٩] يقول، والله أعلم بما ينزل: إذا بلغت فذكر، فإنما عليك البلاغ، ثم ذكر المؤمنين فهم الذين تنفعهم الذكرى، وهم المعنيون بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠].

ثم قال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: الذكرى ﴿الأَشْقَى﴾ [الأعلى:١١] أي: الذي كذب وتولى.

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى﴾ [الأعلى:١٢] هي نار جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - مجنبه الله الذكرى؛ ليحقق فيه كلمته التي سبق له بها، كما قال - عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٦] فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى:١٣] لا يموت فيستريح ولا يحيا

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٨٠).

بالرضى والعافية ووجود العز والغنى والخلق الحسن والتواصل، فهو لا يحيا حياة طيبة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى:١٤] يعني: آمن، وإنما يتزكى العبد بالتوحيد والإيمان فحينئذٍ يقبل عمله صلاته وصدقته وشهادته وينمو دينه، ثم كل ما تزكى به العبد من العمل فهو زكاة له.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى:١٥] وقد يحمل هذا على أنها تكبيرة الإحرام والنية.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٦] أعلم - جلَّ ذكره - أن مؤثر الحياة الدنيا على الكمال هو الكافر كما قال: إن مؤثر الآخرة على الدنيا هو المؤمن وما بين ذلك درجات. واعلم أيضًا أن ما تقدم ذكره في السورة إلى آخرها هو في ﴿الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى:١٨ - ١٩].

تفسير سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا
حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ
جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾
[الغاشية: ١ - ١٦].

الغاشية: اسم من أسماء يوم القيامة، والخشوع الذل، والنصب التعب[(١)].

---

(١) قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى: «قد»، وبه قال قطرب، أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. وقيل: إن بقاء «هل» هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجيب بما في خبره، والتشويق إلى استماعه أولى. وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين. وقال سعيد بن جبير، ومحمد بن كعب: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم:٥٠] وقيل: الغاشية أهل النار؛ لأنهم يغشونها ويقتحمونها. والأوّل أولى. قال الكلبي: المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: ما هو؟ أو مستأنفة استئنافًا نحويًا لبيان ما تضمنته من كون، ثم وجوه في ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة. ووجوه مرتفع على الابتداء، وإن كانت نكرة لوقوعه في مقام التفصيل. وقد تقدّم مثل هذا في سورة القيامة، وفي سورة النازعات. والتنوين في يومئذ عوض عن المضاف إليه، أي: يوم غشيان الغاشية. والخاشعة: الذليلة الخاضعة. وكل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال خشع الصوت: إذا خفي، وخشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. والمراد بالوجوه هنا أصحابها. قال مقاتل: يعني الكفار؛ لأنهم تكبروا عن عبادة الله. قال قتادة، وابن زيد: خاشعة في النار. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص، والأوّل أولى. قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ معنى «عاملة»: إنها تعمل عملاً شاقًا. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: عمل يعمل عملاً، ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملاً. قيل: وهذا العمل هو جرّ السلاسل والأغلال، والخوض في النار. «نَاصِبَةٌ» أي: تعبة. يقال نصب بالكسر ينصب نصبًا:
=

قوله ﷻ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية:٢ - ٣] إشارة إلى وجوه مخصوصة، وهم عباد اليهود والنصارى والمجوس العاكفون على عبادة الأصنام والنيران وسائر العبدة الضلال وأتباع الشياطين.

يقول - عز من قائل: هي تعمل في الحياة الدنيا في غير معتمل، وتنصب في الذي هو هلاكها عاكفة على ما يضر ولا ينفع، وهي في عرضة القيامة خاشعة خائفة من هول المطلع قد أيقنت بالعذاب والخسران، وعند المنقلب.

﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٤ - ٥] شديد حرقها، وهو الحميم، طعامهم الضريع الزقوم، وجاء النفي بـ«ليس»؛ إذ ليس طعامهم الذي هو الضريع والزقوم بطعام يغني من جوع أو يسمن من هزال كطعام الدنيا، ولذلك أوجب الله ﷻ علينا التسمية عند الشروع في الأكل والشرب لنشبع به ونروى ونسمن، وعند الفراغ من أخذنا الحاجة منهما أوجب علينا أن نحمده على ما أشبع وأغنى وأورى، هذا إلى أن التسمية عند تناول الطعام للتحليل، والحمد عند الفراغ للشكر؛ لأنه خلق ورزق وأعطى وأغنى وأقنى، فإن أهل النار لا يغنيهم طعامهم عن طعام ولا شرابهم عن شراب، ولا يقوى ولا يحسن حالاً، وأما طعام الجنة فما بالآمال امتداد إلى ذكره عند ذكر ذلك الطعام، بلى إنه يتذكر ذلك عند طعامنا هذا وشرابنا لما بدا منهما الغنى والشفاء.

أتبع ذلك بوصف منقلب الساعين إلى طاعته المسارعين في طلب مرضاته

=

إذا تعب، والمعنى: أنها في الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله. وقيل: إن قوله: ﴿عَامِلَةٌ﴾ في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة، أي: تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي، وتنصب في ذلك. وقيل: إنها عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، والأوّل أولى. قال قتادة: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها الله، وأنصبها في النار بجرّ السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب فأعملها، وأنصبها في جهنم. قال الكلبي: يجرّون على وجوههم في النار. وقال أيضًا: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال، والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل. انظر [فتح القدير (٤٧٧/٧)].

بقوله - جل من قائل: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية:٨ - ١٠] المعنى إلى آخره هذا من الإخبار عن طعام الجنة وصفهم بالنعمة والرضا والنصرة في مقابلة وصف طعام أولئك بأنه لا يغني من جوع ولا يسمن من هزال.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:١٧ - ٢٦].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧ - ٢٠] لما أن كان الذي جنى عليهم الكفر والتكذيب والضلال الذي أورثهم النار والذي أورث المتقين شرف المنازل وكرم المآب التيقظ والنظر والاعتبار الهادي إلى الإيمان والتصديق، ثم العمل بطاعة الصادق المصدق ﷺ عرض بذكر الموجودات وأنبهم على تضييع النظر في كيف خلق الخالق العلي الأعلى الإبل التي هي جل أموالهم، وهي مراكبهم وحمولتهم، عليها منقلبهم وبها مثواهم، ومنها جل شرابهم وطعامهم، فيكون النظر فيهن نظرًا في خلقه أنفسهم في كيف جمع مواد خلقتهن من خزائن بركات السماوات والأرض، فأرسل الرياح نشرًا بين يدي رحمته وألف السحاب في الجو بأمره، وأنزل الماء من السماء إلى الأرض بقدرته على وزن معلوم بحكمته، وأنبت النبات كيف شاء بلطف تدبيره، فجعل من ذلك كل شيء حي.

وكذلك السماء رفعها على هواء رقيق من صنعه دون دعائم من تحتها تقلها ولا علائق من فوقها تمسكها، وهي على ذلك لا تزول ولا تمور إلى أن يأذن لها في ذلك، ثم إلى سماوات الأفلاك كيف أطلع شمسها وقمرها وكواكبها، وكور ليلها ونهارها لو كانت الأرض كروية كما زعموا لم يكن للعباد فيها كثير مرفق ولا تمكنوا من تناول بركاتها كل التمكن، ولكانت هي أيضًا بحال لا يوصف عليه بأنها

ساكنة؛ إذ ليس لها أصل قد رسي على ما هو موصوف بالسكون فتسكن هي بسكونه، ولا عليها صابور يثقفها فتثبت على الماء ساكنة، وهي لو كانت مسطحة لكانت الكواكب تطلع على الأرض طلوعًا واحدًا وينبسط عليها الليل والنهار انبساطًا سواء.

وقد قال - جل من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء:١٢] لكنه - جلَّ ذكره وتعالى جده - لما بسط الأرض ودحاها إنعامًا منه على عباده ومرفقًا بخليقته خلق الجبال فأرساها على ظهرها، فاستقرت الأرض بعد ميدها بقدرته، وسكنت بعد حركتها بأمره، ونصب قنن الجبال الراسيات بالوزن شكلاً على وزن الكرة أول خلقتها، فكانت المطالع والمغارب على ترتيب مطرد ونظام محكم غير منخرم، وأجرى كواكبها مقدارًا من الجري عدلاً وسطًا يكون عنه تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل، وبمقادير من التقسيم يكون عنه الطول والقصر فيهما، وحكم إيلاج أحدهما في الآخر، فهما أبدًا جاريان بجري محكم لتدبير تفصيل الأزمنة ومعرفة ساعاتها وأيامها وشهورها وسنينها، وفي اختلاف فصولها من ربيعها ومصيفها وشتائها وخريفها وحرورها وزمهريرها بحكم مبرم وأمر معجب محكم.

وكذلك تسيار كواكبها طالعة وغاربة وجارية وكانسة، وانتقالها في منازلها وحلولها في محالها كل بأمره يعمل وبإقداره إياه يسير ويسري ويحل، وينتقل على ذلك كله ملائكة بأمره يعملون لا يسبقونه بالقول وهم من خشيته مشفقون، فقد علم كل ذي عقل سليم أن حسن هذا النظام وبديع هذا الإحكام واطراد هذا الترتيب وقوة هذا الضغط وشدة هذا الزم وشمول هذا القهر وإتقان هذا الصنع من سمك مرفوع، وبساط مدحو منشور، وجعل قنن شامخات على وزن محكم، وإرساء أصولهن في الأرض ألَّا تميد بصنع متقن لأمر مرصد وأمر متعاقب محكم في مطالع ومغارب لا تكون إلا عن تدبير مدبر واحد أحد وتقدير حكيم عزيز عليم.

كما قد لقن أولوا الألباب من دلائل هذا الصنع المذكور ارتد واردًا وأثره باختلاف طوالعه وغواربه من كواكب وبروج، ومنازل نجوم، ومواقع نجوم، واختلاف أزمان، وتعاقب ليل ونهار، وبأن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]

من حرور وصرود، وإنزال الماء من السماء وتفصيله إلى ما إليه يفصله أن منزله هو العلي الأعلى بأمره الحكيم عن منبعث الفيحين من سعير وزمهرير، وفتح الفتاح العليم بالفتحين الماء المبارك ينزله من السماء، وتغليب رحمته على غضبه كما شاء، وأنها آيات دالات على الإحياء بعد الممات، وعلى الخزائن في داري المصيرين، وأن وعد الله حق، والساعة لا ريب فيها، مع تحقيق اللقاء الكريم، وتجلي العليم العظيم في جنات النعيم.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:٢١] كما قال في غير هذا الموضع: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥] المسيطر الجبار المسلط، وقد يكون بمعنى الحفيظ والرقيب كما قال: **إنما عليك** البلاغ، يقرأ «المسيطر» بالصاد والسين.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ [الغاشية:٢٣] والتذكير واحد، والمتذكرون على منازل متباينة ينزلونها على مقادير حظوظهم من الهداية وصدق الاستجابة ونصيحة الأنفس وإعمالها بالمثابرة مع التيقظ والنظر، وتصحيح العبرة والتبرؤ إلى الله من الحول والقوة، وأدنى منازلهم: منزلة من ذكر فتذكر، فلما تبين له الهدى أعرض وتولى، تقدير الكلام: فذكر إنما أنت مذكر من تذكر، وسيجزيه بإيمانه وسعيه إلا من تولى؛ أي: عما أبصره بتذكره وكفر بما هدى إليه وبان له من الحق.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية:٢٤] والعذاب الأكبر: عذاب الكافر، وقرأها زيد بن أسلم وعبد الله بن أبي إسحق: «ألا من تولى وكفر» بفتح الهمزة وتخفيف اللام، وقرأها عبد الله بن مسعود: «فإنه يعذبه الله العذاب الأكبر» بزيادة إن.

تفسير سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر: ١ - ١٦].

قوله ﷻ: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ...﴾[1] [الفجر: ١ - ٢] أقسم - جلَّ ذكره -

---

(١) قرأ أبو الدينار الأعرابي: والفجر، والوتر، ويسر بالتنوين في الثلاثة. قال ابن خالويه: هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافي بالتنوين، وإن كان فعلاً ، وإن كان فيه ألف ولام، وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر، وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى القوافي. وقرأ الجمهور: «وليال عشر» بالتنوين؛ وابن عباس: بالإضافة ، فضبطه بعضهم. «ولیال عشر» بلام دون ياء، وبعضهم وليالي عشر بالياء، ويريد: وليالي أيام عشر. ولما حذف الموصوف المعدود، وهو مذكر، جاء في عدده حذف التاء من عشر. والجمهور: «والوتر» بفتح الواو وسكون التاء، وهي لغة قريش. والأغر عن ابن عباس، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن: بخلاف عنه؛ والأخوان: بكسر الواو ، وهي لغة تميم، واللغتان في الفرد، فأما في الرحل فالكسر لا غير. وحكى الأصمعي: فيه اللغتين؛ ويونس عن أبي عمرو: بفتح الواو وكسر التاء. والجمهور: «يسر» بحذف الياء وصلاً ووقفًا؛ وابن كثير : بإثباتها فيهما؛ ونافع وابن عمرو: بخلاف عنه بياء في الوصل وبحذفها في الوقف؛ والظاهر وقول الجمهور منهم علي وابن عباس وابن الزبير: إن الفجر هو المشهور ، أقسم به كما أقسم بالصبح، ويراد به الجنس، لا فجر يوم مخصوص. وقال ابن عباس ومجاهد: من يوم النحر. وعكرمة: من يوم الجمعة. والضحاك: من ذي الحجة. ومقاتل: من ليلة جمع. وابن عباس وقتادة: من أول يوم من المحرم. وعن ابن عباس أيضًا: الفجر : =

بالفجر؛ إذ هو من صنعه، والله يقسم بما شاء من مخلوقاته وأفاعيله؛ إذ هي كائنة عن قدرته ومشيئته وعلمه، وعلى هذا فليس تسمه إذًا إلا به - عز جلاله - وقد قيل: إن المراد به في هذا الموضع فجر يوم النحر، والله أعلم.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل هي: عشر ذي الحجة لفضلهن، وربما كان المعنى بهن هنا: العشر الأواخر من رمضان؛ لمكان ليلة القدر فيهن، ونزول القرآن فيهن جملة.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣] كل المخلوقات؛ إذ كل شيء فلا يخلو أن يكون إما شفعًا وإما وترًا، وقد يكون الشفع شفعًا في نفسه بوجه ما ووترًا لغيره بوجه ما وأكثر ما يأتي ذلك في العدد.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه علم رجلاً أن يقول: «**لا إله إلا الله عدد الشفع والوتر، وكلمات ربي الطيبات المباركات، والله أكبر عدد الشفع والوتر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك ثلاث مرات، والوتر الحق هو الله ﷻ**»[١].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر:٤] فإذا كان الليل يسري فهو سارٍ كما سمى الشمس: النجم الطارق والحجر العقل، وإذا بلغت هذه الصفة أن تحجر صاحبها عن الماء، ثم سمي: حجرًا، وجواب القسم في قوله - جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤] ولما كان معنى القسم الوعيد والتهديد وطاء من قبل ما

=

النهار كله. وعنه أيضًا وعن زيد بن أسلم: الفجر هو صلاة الصبح، وقرآنها هو قرآن الفجر. وقيل : فجر العيون من الصخور وغيرها. وقال ابن الزبير والكلبي وقتادة ومجاهد والضحاك والسدي وعطية العوفي: هي عشر ذي الحجة. وابن عباس والضحاك: العشر الأواخر من رمضان. وقال ابن جريج: الأول منه. ويمان وجماعة: الأول من المحرم ومنه يوم عاشوراء. ومسروق ومجاهد: وعشر موسى ﵇ التي أتمها الله تعالى. قيل: والأظهر قول ابن عباس للحديث المتفق على صحته. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله». قال التبريزي: اتفقوا على أنه العشر الأواخر؛ يعني: من رمضان، لم يخالف فيه أحد، فتعظيمه مناسب لتعظيم القسم. وقال الزمخشري: وأراد بالليالي العشر: عشر ذي الحجة. فإن قلت: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر، بعض منها أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها. [تفسير البحر المحيط (٤٧٥/١٠)].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٢٥٦).

أنبأ به.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ [الفجر:٦ - ٧].

وانتظم بما في قوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥] من معنى التجهم ومفهوم الإيعاد.

ثم انتظم بما استاقه أيضًا من ذكر إهلاكه عادًا وفرعون وثمود ومن أحال عليه بقوله: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١١-١٤] فهو خبر أخبر به من جهة النظم، وجواب قسم أقسم به في صدر السورة، ذكر أن «إرم» اسم أرض بعينها، وقيل: اسم لقبيلة، وقيل: إنه أبو عاد الأول.

وقرأها الزبير والحسن: «عاد إرم ذات العماد» وقرأ ابن الزبير: «لم نخلق مثلها» بالنون مفتوحة ونصب اللام من مثلها، وقرأ الضحاك: «بعادَ أَرَم» بفتح الدال والهمزة والراء، ويمكن أن تكون مدينة ذات عماد وعمد، وربما كان المراد بها: الإخباء؛ لأن العرب تقول لقوم شأنهم أن ينزلوا الأخبية لا ينزلون سواها هم: أهل عماد وعمد.

وقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٩] أي: قطعوا الصخر؛ يعني: الجبال وأجروا فيها الأودية، يصف قوتهم وبطشهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥ - ١٦] هو - جلَّ ذكره - يبتلي بالغنى والفقر وبالصحة والسقم وبالسعة والضيق وبالعافية والبلاء والبر من العبد في ذلك كله الرضا عن الله - جلَّ ذكره - في جميع الأحوال وفي أي حالة أحله فيها، فيشكر على النعماء ويصبر على البلاء حتى يأتي أمر الله.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ

عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر:١٧ - ٣٠].

ووصف الله الإنسان بأنه مع النعمة والعافية فرح فخور، وعند البلاء جزوع كفور، وأنبأ ﷻ في خطابه ذلك: أن الداعي إلى ذلك هو حب الدنيا والبخل بها والشح عليها، وإيثاره إياها بقوله رادًا على الصنفين: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا﴾ [الفجر:١٧ - ١٩] يعني: شديدًا، واللمم: هو جمع الحرام إلى الحلال والحلال إلى الحرام، يلم بعضه ببعض ويأكله، يقال من ذلك: لامت الشيء بعضه ببعض إذا جمعته.

﴿حُبًا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠] يعني: كثيرًا، علم ﷻ أن عباده قد جبلهم على حب المال، وكان مقصود التكليف أن يصرفوا وجوه قلوبهم عن حب ما جبلهم على حبه، ومع المجاهدة لا بد من التفلت والغلبة فرضي منهم بفضل رحمته ألَّا يحبوه الحب كله.

وعبر عن هذه اللطيفة بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًا جَمًا﴾ [الفجر:٢٠] أي: الحب كله، وأخبر بصدق قيله - جل من قائل - أنهما معًا يوم القيامة عند معاينة ثواب الشاكرين وإكرام الصابرين يقع لهما اليقين بما أريد منهما، فيقول الصنفان تمنيًا منهما: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤] أي: التي لا موت بعدها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥ - ٢٦] ويمكن أن يكون في ذلك اليوم خاصة أنهم يوثقون ويعذبون بأمر كون دون أن يباشر ذلك منهم ملك ولا غيره سوى أنه أمر من أمر الله، وقد تقدم إيماء إلى تبيان هذا في سورة المدثر.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] الملائكة صافون من حول الخلائق ملائكة الأرض صف، ثم ملائكة السماء الدنيا من ورائهم صف على ضعفي أهل الأرضن ثم ملائكة السماء الثانية وراء أهل سماء الدنيا صف على ضعفي أهل الأرض والسماء الدنيا، ثم على ذلك من التضعيف أهل كل سماء صف فهم ثمانية صفوف أهل السماء السابعة على تضعيف ما دونها.

فصل

كثر الاختلاف بين علماء الأمة رضوان الله عليهم في وصفه ﷻ بالمجيء والتنزل والإتيان ونحو هذا لكن الله - جلَّ ذكره - لم يخرج جملة الأمة من اعتقاد الحق وإن كان قد فرقه بينهم كل على المقدار الذي قد آتاه من الهدى والعلم، فمنهم من تأول المجيء بأنه يجيء أمره، ومنهم من قال: إن أمره نازل منه وصاعد إليه أبدًا، فما معنى تخصيص هذا الخطاب بالمجيء وفي هذا الوقت؟

قال: لكني أقول: إنه يجيء وإنه يتنزل وينزل ولا أكيف ولا أصفه بانتقال ولا زوال أو من بالخبر ولا أكيف ولا أشبه، وفصل الخطاب في الإيمان بذلك ومعتقده، والله الموفق للصواب، إنه تعالى يجيء وينزل حقيقة ليس كالنزول المعهود ولا المجيء المعلوم منا، فيحل في مكان ويخلو منه مكان، لكن كما قال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥] فأخبر أن السماء تشقق بالغمام الذي يأتي الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فيه.

يقول - عز من قائل: والغمام من أمره وبتقدم ظهوره العلي للخليقة، كذلك نوره العلي من أمره، وتتقدمه آية ذلك الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وضياؤهن ونورهن يتقدمهن، فالإتيان والمجيء يقعان على إتيان أمره بين يدي تجليه، وأما هو بعد تصديق الخبر الحق بالإتيان والمجيء فلا يتصور منه انتقال ولا حركة، إنما هو تجليه وظهوره حسب متى شاء وكيف شاء وأين شاء، وهو القريب الشهيد، كيف يتصور مجيء ممن لا يوصف بغيبه؟ كيف يتحقق إتيان ممن لم يكن منه ذهاب؟

يقول الله - جل من قائل: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

وقد تقدم الكلام في بيان معنى التنزل، واستدل أيضًا على أن مجيئه بمعنى الظهور بقوله - جل من قائل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود:٦٦] أي: ظهر لا أنه زال أو انتقل.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى﴾ [النازعات:٣] و﴿جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس:٣٣] المعنى: إذا ظهرت لا أنها تنتقل أو تزول، إنما معنى ذلك: أنها تتجلى والله يجليها لوقتها، إنما مجيء الحاضر وإتيان الشاهد الظهور والتجلي عن حضور الأجل وإذن المشيئة العالية، فافهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧] أي: الراضية، ولأنها راضية عنها رضيها هو سكنت شرتها لسكينة أنزلها ربها عليها فزكت محامدها وعلت ميامنها.

ثم قال لها: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٨] رجوعها من هذه الحياة إليه بالموت كما قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١].

قال هنا: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:٢٩] أي: اسكني معهم وحلي معهم حيث حلوا.

قال رسول الله ﷺ: «وجدت آدم عليه السلام في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السابعة»[1] ويمكن أن تكون محال صالحي الأمة ومؤمنيها في السماوات الدنى على مراتبهم ومنازلهم.

ثم قال: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٣٠] يعني: جنة البرزخ، كما قال: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] ثم ادخلي جنتي؛ يعني: دار الخلود منها.

وقرأ مجاهد وعكرمة والضحاك وأبو جعفر ومحمد اليماني والكلبي: «ارجعي إلى ربك راضية مراضية فادخلي في عبدي» على توحيد العبد، والعبد هو الذي يخلف الجسد حال الموت، والعبد أيضًا هو الجسد، فبهذا يدخل الجنة في الدار

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٩٨٢).

الوسطى وبالجسد الذي بلي وأعيد ثانية يدخل جنة دار الخلود.

وعلى هذا فإنَّا لا نقول: إن الجسم الذي بلي ليس بغير الذي خلفه المسمى المثال، وإنما هو بلي ظهر واستوى، بطن عنا كما كان قبل الموت استوى ظهر، وبلي بطن.

وقرأها هارون في حرف أبي: «يأيتها النفس المطمئنة ائتي ربك راضية مرضية فارجعي في عبدي وادخلي جنتي» فهذا الأظهر فيه أنه الجسد لقوله: فارجعي في عبدي، وكذلك قرأها معمر: «ائتي ربك».

وروي عن سالم بن عبد الله أنه قرأها: «فلجي في عبادي ولجي جنتي» فقيل له: إنه ادخلي، فقال: سواء ادخلي ولجي، ووصفه ﷻ النفس المطمئنة هنا في مقابلة وصفه نفس الإنسان بما هو إنسان لا بما هو مؤمن ذا تقوى ورضا عن ربه، ثم ذكر مآل هذا ومآل هذا، نسأل الله خير ما يسأل وخير ما يعطى بمنِّه وفضله العظيم.

تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد: ١ - ١٠].

البلد: مكة، أقسم ﷻ بالبلد الحرام، ثم بشر رسوله ﷺ بأنه حلال بهذا البلد، معنى هذا: أنه سيحله يومًا من الأيام وساعة من اليوم، فكانت تلك بشارة بفتح الله عليه البلد الحرام عنوة بخيل الله وجيوش المسلمين، بشره بذلك قبل وقوعه فكان كما وعده.

نظم بذلك قوله الحق عز جلاله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[1] [البلد:٣] يعني: إبراهيم عليه السلام.

قال رسول الله ﷺ في خطبته المشهورة: «**إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس، فهي حرام بحرمة الله...**»[2].

وقال ﷺ: «**اللهم إن إبراهيم حرم مكة**»[3] يعني: أنك حرمت مكة على لسان إبراهيم، وإني أحرم ما بين لابتي المدينة، فمكة حرام بحرمة الله، وتحريمه إياها يوم

---

(١) فيه أربعة أوجه: **أحدها**: آدم وما ولد. قاله مجاهد وقتادة والحسن والضحاك. **الثاني**: أن الوالد إبراهيم وما ولد. قاله أبو عمران الجوني. **الثالث**: أن الوالد هو الذي يلد، وما ولد هو العاقر الذي لا يلد. قاله ابن عباس. **الرابع**: أن الوالد العاقر، وما ولد: التي تلد. قاله عكرمة. ويحتمل خامسًا: أن الوالد النبي ﷺ لتقدم ذكره، وما ولد: أمته؛ لقوله ﷺ: «**إنما أنا لكم مثل الوالد أعلّمكم**» فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده مبالغة في تشريفه. النكت والعيون (٤/ ٤١٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٤٢٣)، والبيهقي (١٥٩١٧)، والطبراني (٥٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣١٠)، ومسلم (٣٦١)، والطبراني (٤٣٢٥)، والبيهقي (٩٧٤٢).

خلق السماوات والأرض، ولما أظهر بناءها على يدي خليله إبراهيم ﷺ حرمها على لسانه، كذلك كانت حرمًا بحرمة الله وتحريمه، ثم بتحريم إبراهيم عن الله - جلَّ ذكره - ولما أحلها لرسوله ﷺ حرمها أيضًا على لسان رسوله في تلك الخطبة بقوله: «**وإنما أحلت لي ساعة من نهار فمن استرخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أحلها لرسوله ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**» ثم قال: «**ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه ليس بفقيه**»(١).

أعلم الله ﷻ على لسان رسوله ﷺ بما يكون بعده من قبالها وحرابها، وأنذر في هذا المقام بما يكون من ذلك، والله المستعان، فأشبه رسول الله والده إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليهما - خَلقًا وخُلقًا، وملة وشرعًا، وتحريمًا للبلد الحرام وتحليلاً له بإذن الله، فأقسم الله - جلَّ ذكره - بعلمه الغيب وبقدره السابق في ذلك وقدرته على إظهار الأكوان على سواء التقدير السابق.

قال رسول الله ﷺ «**أنا أشبه ولده به**»(٢).

العرب تقول متى رأت شبهًا بيّنا بابن بأبيه: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد:٣] وتقول: من أشبه أباه فما ظلم.

وكان إبراهيم ﷺ قد أمره ربه بتطهير البيت بعد بنيانه إياه واستوائه على قواعده فقال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ...﴾ [الحج:٢٧] فكان المستجيب له محمد ﷺ ثم أمته من بعده، وهم الطائفون والعاكفون والركع السجود، فطهره إبراهيم أولاً وحرمه على ما أمر به، ثم حرمه محمد ﷺ وطهره من الأنصاب والأزلام والأصنام وجميع الأرجاس.

يقول رسول الله : ﷺ «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»(٣).

وقد تقدم هذا الكلام، لكنا ننبه على حكمة الله - جلَّ ذكره؛ إذ نأتي بخطابه

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٦٤٢٠)، والبخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤)، والترمذي (٨٠٩) والنسائي (٢٨٧٦)، والطبراني (٤٨٤)، والبيهقي (١٣١٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١٤)، ومسلم (١٦٨)، والترمذي (٣١٣٠).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥٢٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٣).

منوعًا بمزيد علم وموجود فهم لربنا من آياته.

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤] هذا جواب القسم، الكبد: المشقة ومكابدة آفات الزمان، والخصوم يكابد بعضهم بعضًا؛ أي: يشاق بعضهم بعضًا ويقاسي بعضهم من بعض مشقة، وإلى هذا فإن معنى الكبد: المشقة، ومقاساة الإنسان ما يكابده طول حياته من بلاء ورخاء وشدة ودعة وصحة وسقم، ثم بعد هذا كله الموت، ثم مقاساة ما هو بعد الموت طول البرزخ، ثم بعده الحياة الآخرة بما بعد ذلك.

والمقصود: إثباته أن الإنسان لم يُخلق لحال واحدة يكون عليها أبدًا، بل يكون مختزنًا في خزائن السماوات والأرض، ثم في الماء، ثم في النبات، ثم ربما في الحيوان، ثم في المني، ثم في البطن، ثم مولودًا ورضيعًا وصغيرًا، ثم شابًا، ثم كهلاً، ثم شيخًا، ثم هرمًا، إن لم تعاجله المنايا وهو حي في هذه الأحوال كلها، ثم تحول عليه أحوال أخر بالموت وما بعده، ثم بالإحياء والنشور والحشر والوقوف وما بعد ذلك فهذا أولى وليس بمدافع لما تقدم، بل هو متمم له لذلك، وهو أعلم.

أتبع ذلك: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد:٥] فلا يعيده بعد موته.

نظم ذلك بقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ [البلد:٦] قيل: إنها نزلت والتي قبلها في رجل من بني جمح كان يقول: «أهلكت في عداوة محمد مالاً كثيرًا» ولا نترك معنى كتاب ربنا المسرود حكمته لحكايات لعلها لا يصح لها وجود، ولو صح وجودها لم يصح أنه أنزل الله هذا الخطاب في شأنها إلا أن يوقفنا على صحة كتاب الله أو سنة رسول الله، والمعهود من خلق الإنسان بما هو إنسان الدعوى، فهو ينفق في شهواته وإنفاذ لذاته، فإذا ذُكِّرَ بلقاء الله سلم تسليم جدل وأظهر الفرع إلى ما أنفقه من مال، أو ما عمله من عمل يشبه سنن الصلاح، كإطعام الطعام وقِرَى الضيفان وصلة الأرحام وإصلاحٍ، وتحمل حمالة واحتمال أذى ونصر مظلوم ووفاء بعهد.

وكان من أمثال هذا في رجال كثير من الجاهلية، لكنها كانت أعمالاً ضائعة؛ إذ لم تكن على إيمان وتوجيه لله - جلَّ ذكره - على تصحيح نية وسنن سنة رسول الله يأمرهم عن الله وينهاهم، فكان أحدهم يفرع إلى مثل هذه الأعمال، وربما عملها

ابتغاء الثناء والاستكثار من حظوظ المجازاة من الناس ومن عرض الدنيا، فيعدد ذلك ويدعي أنه فعلها لله لجهله بمراد ربه وقلة علمه بحدوده فاحتسبه عليه، يقول لمخاطبه: إن كان ثم إرجاع كما تقول سأرجع إذًا إلى مال قد أنفقته وبنين قد فقدتهم.

يقول - جل من قائل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد:٧] كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤] قد علم الله مبلغ علمه ومراده بعمله وتوجيه نيته وما أسر في ذلك كله أو جهر.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد:٨] فينظر بهما إلى آيات ربه في السماوات والأرض، ويتفكر فيما رآه ليتذكر فيبصر بنور الإيمان وعين اليقين.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٩] فينطق بالحق ويشهد بالصدق.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] أي: الطريقين، سبيلي الخير والشر والهدى والضلال، النجد: الطريق، والمراد هنا به - والله أعلم: ألم نجعل له عينين فيرى مصانع الله ﷻ وأفاعيله منوطة بالحكمة على الإسلام مفطورة، بالحق مخلوقة فيعمل هو على ذلك لله وحده لا يشرك في عبادته إياه أحدًا، ويخرج عباداته باستسلام إلى ربه وتوجيه خالص إليه تعبدًا له وشكرًا ويشهد بالتوحيد، ويعلن بإخلاص التوجيه فإن الحكمة في الموجودات عنوان النيات لذلك لن يتقبل منا عملاً إلا بنية.

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البلد:١١ - ٢٠].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ﴾[1] [البلد:١١] يمكن أن يكون معنى

---

(١) أي: لم يشكر تلك النعم السابقة، والعقبة استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بعقبة الجبل، وهو ما صعب منه وكان صعودًا، فإنه يلحقه مشقة في =

«فلا»: فهلا اقتحم العقبة، وهي هنا: التوبة، ثم العمل بها، وما يتحقق به ويمكن أن يكون المعنى في ذلك: فلم يقتحم العقبة، كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة:٣١] والمعنيان قريب بعضهما من بعض.

يقول - عز من قائل: فعلنا به ذلك فما اهتدى، وعلى أن يكون بمعنى: «فهلا» وإن كان قد ضل السبيل هلا تاب واقتحم العقبة، وسمى التوبة: عقبة؛ لمخالفتها هوى النفس من صبر وإنفاق وغير ذلك.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ﴾ [البلد:١٢] عَظَّم قدر التوبة؛ لحسن أثرها أنها لتبدل من الغضب الرضا، ومن الشقاوة السعادة، ومن العداوة الولاية.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أو إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أو مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٣-١٦].

قال رسول الله ﷺ: «**من أعتق رقبة أعتق الله منه بكل عضو منها عضوًا منه من النار حتى الفرج بالفرج**»(١).

فلهذا ما دل النصيح الحق عليها عند التوبة، ولما كان إطعام الطعام يُحيي

=

سلوكها، واقتحمها: دخلها بسرعة وضغط وشدّة، والقحمة: الشدّة والسنة الشديدة. ويقال: قحم في الأمر قحومًا: رمى نفسه فيه من غير روية. والظاهر أن «لا» للنفي، وهو قول أبي عبيدة والفرّاء والزجاج، كأنه قال: وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل، فما فعل خيرًا؛ أي: فلم يقتحم. قال الفرّاء والزجاج: ذكر لا مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد «لا» مع الفعل الماضي حتى تعيد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة:٣١] وإنما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد:١٧] قائمًا مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء، كقوله: لا نجا ولا سلم، دعاء عليه ألا يفعل خيرًا. وقيل: هو تحضيض بـ«ألا» ولا نعرف أن «لا» وحدها تكون للتحضيض، وليس معها الهمزة. وقيل: العقبة: جهنم، لا ينجي منها إلا هذه الأعمال. قاله الحسن. وقال ابن عباس ومجاهد وكعب: جبل في جهنم. وقال الزمخشري بعد أن تنحل مقالة الفرّاء والزجاج: هي بمعنى «لا» متكررة في المعنى؛ لأن معنى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ﴾: فلا فك رقبة ولا أطعم مسكينًا. ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك؟ انتهى. ولا يتم له هذا إلا على قراءة من قرأ «فك» فعلاً ماضيًا. تفسير البحر المحيط (١٠/٤٨٤).

(١) أخرجه أحمد (٩٤٣١)، والبخاري (٦٣٣٧)، ومسلم (١٥٠٩)، والترمذي (١٥٤١) وقال: حسن صحيح غريب. وابن حبان (٤٣٠٨)، والطبراني (٥٨٣٩).

الرمق - وهو الغذاء - وإمساك الحياة به بإذن الله، كان كفأً في اكتساب الحياة الآخرة، وكان الإطعام في المحتاج القريب مضاعفًا، وفي أهل الحاجة من المساكين كان أكد في جعل الحاجة مكانها، فلهذا دل عليه ﷻ.

المتربة: شدة الفقر، الترب: اللاصق بالتراب من شدة به.

فصل

جعل الله العقبة التي في الدنيا دون الجنة التوبة على شروطها من ندم على ما مضى وفات، وتوجيه نية، وتصحيح عقد، وإخلاص توجيه، وإعلان بشهادة على نفسه، وإقرار بتقصير وسؤال غفران، وإصلاح لما قد فات، ثم الاستقامة أصل ذلك، ومنبعث وجود معرفته ما حكاه في قصة آدم ﵇، والمبلس: الملعون، هذا تاب فتاب عليه، وهذا أصر وأبى فلعنه وطرده عن جواره ولعنه عن ولايته، فعقبة التوبة والعمل الصالح في الإيمان والإسلام هي العقبة دون الجنة، فإذا جاوزها العبد فهو على مجاوزة عقاب الآخرة أقدر إن شاء الله تعالى، ومَن كان على إيمان وإسلام ولم يقتحم عقبة التوبة صعد على الصراط عقبة كئودًا، قيل: صعودها ألف عام وهبوطها ألف عام.

ومَن خاب من الإيمان والإسلام ولم يجاوز العقبة حُرِم الجنة وأُدخِل النار، وكُلِّف أن يصعد صعودًا، وهو: جبل في النار إذا وضع عليه يده انذابت وإذا وضع عليه قدمه انذابت، ثم يعودان هكذا إلى أن يصعد ثم يهوي منه، هكذا ما شاء الله في هذا النوع من العذاب قبل مصعده ومسيره سبعين سنة، وأن عذابًا يرهقه ويضطره إلى صعوده لهو أشد وأمر من تكلفة ذلك.

قال الله - عز من قائل: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧] نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧].

يقول - عز من قائل: فإذا اقتحم العقبة فأعتق إن كان معه أو أطعم إن استطاع ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧] فعليه بعد أن يلازم التقوى والإيمان

والتواصي بالصبر على طاعة الله وعن معاصي الله، والتواصي أيضًا بالرحمى، فإنه من رحم يُرحم ومن غفر يُغفر [....][1] كذلك إلى الممات.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد:١٩] يقول: من لم يكن كما ذكرناه فهو من أصحاب المشأمة؛ أي: من أصحاب الشمال، وهو الشؤم كله، والموصد: المعلق المطبق، نعوذ بالله من ذلك.

(١) غير واضح في (خ)، وغير موجود في (ف).

تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا
(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ
انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾ [الشمس: ١ - ١٥].

الضُّحَى - بضم الضاد والقصر: صدر النهار حين ارتفاعه، والضحاء، بفتح الضاد والمد: شدة الحر بعد امتداد النهار، ضحى الرجل: إذا أصابه الحر، وشيء ضاح: إذا ظهر للشمس والحر.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ [الشمس:٢] يعني: الشمس تبعها القمر، وكذلك طلوع القمر حين امتلائه عند غروب الشمس هو رقيها.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾(١) [الشمس:٣] المعهود في رأي العين أن النهار عن إشارة الشمس الصبح عن تقدم ضيائها حتى إذا طلعت فهو النهار، وأما في حكم الغيب فالنهار هو الذي يجليها لا تطلع الشمس إلا لأن النهار الحق الذي هو هذا

---

(١) أي: جلى الشمس بحلية عظيمة بعضها أعظم من بعض باعتبار الطول والقصر والصحو والغيم والضباب والصفاء والكدر، كما أن الأبدان تارة تزكي القلوب والنفوس والعقول وتارة تدنسها؛ لأن العقل يكون في غاية الصفاء والدعاء إلى الخير في حال الصغر، ثم لا يزال يزيد وينقص بحسب زكاء البدن في حسن الجبلة، أو نجاسته بسوء الجبلة، حتى يصير الشخص نورًا محضًا ملكًا ناطقًا إذا طابق البدن العقل فتعاونا على الخير، أو يصير ظلامًا بحتًا شيطانًا رجيمًا؛ إذ خالف البدن العقل بسوء الجبلة وشرارة الطبع. نظم الدرر للبقاعي (٩/٤٣٥).

النهار عنه يظهرها، والليل هنا لازم راتب، والنهار الذي يجلي الشمس يغشاه؛ أي: يغطيه فيكون النهار، وذلك بمقادير معلومة وموازين قسط ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال الله - عز من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨] فحيث ما جرت وأينما سلكت كان نهارها، وحيث لم يسلك سلطانها فهو الليل الذي يكون عن فقدها ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤] يعني: الشمس، والنهار يجلي الشمس؛ أي: يطلعها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشيها الظلام، والليل لا يسبق النهار والنهار الطالب لليل وهو مدركه، لكن بمقادير مقدرة وآجال محددة تقدير من عزيز عليم، غلب ﷻ ذكر النهار وفعله لما فيه من الهداية والنور والإبصار والضياء على ذكر الليل وفعله لما فيه من الإضلال والإظلام والإلباس وما ليس من معاني الأسماء الحسنى فافهم، ينبه بذلك على أن الله - جلَّ ذكره - له المثل الأعلى.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس: ٥ - ٦] الطحو مثل الدحو، وهو: البسط، وقد يكون الطحو: الذهاب والرمي، يقال: ما طحى بك وما ذهب بك، قال الشاعر:

طحى بك قلب في الحسان طروب يعيد الشباب عصر خان مشيب

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] يمكن أن يكون معنى «ما» هنا بمعنى: الذي، فيكون القسم بالله - جلَّ ذكره - ويمكن أن تكون بمعنى الأمر الذي بنيت السماء والأرض به ومن أجله وكل شيء، فعلى هذا يكون «ما» على معهودها وتكون أيضًا بمعنى التعجب والافتخار والتعظيم، كما قال - عز من قائل: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٢] ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ - ٢] ونحو هذا، وكقول المرأة: «زوجي مالك، وما مالك، مالك خير من ذلك»[1] وقول الأخرى:

---

(١) أخرجه الطبراني (٢٦٨)، والبخاري (٤٨٩٣)، والترمذي في الشمائل (٢٥٤)، ومسلم =

«زوجي أبو زرع، وما أبو زرع»[1] وتسوية النفس: هو إكمال خلقتها حياة وصفات وأسماء، وهو إذا بلغها هذه الغاية.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٨] يعني - وهو أعلم: لقنها وفهمها وهي معرفة الفطرة وكما قال ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] وكقوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:٣].

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩ - ١٠] هذا جواب القسم، والله أعلم، زكاها: رفعها بالطاعة لله تعالى وأعلى قدرها بالإيمان، وأصل الزكاة: النماء والزيادة، قد يكون العبد مجبولاً على مروءة وكرم سجية وعمل بما يقتضيه العقل الإنساني، وهو المراد الأعلى بقوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:٣] وذلك كله غير مجيره من النار ولا مزكيه، ولا موجب له الجنة، بل بالإيمان بالله، وبما يجب الإيمان به وبالإسلام والعمل بما أمر واجتناب ما نهى عنه بعلم ويعبد لمن أسلم وإلى من توجه بوجهته ونيته يسر في ذلك ويعلن، وهذا هو المراد الأعلى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩ - ١٠] وهو من الدس في التراب يريد - وهو أعلم - أسفل بها أشقاها، هو عاقر الناقة.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣] بمعنى: احذروا ناقة الله أن تعقروها واحذروا سقياها أن تتعدوا عليه أو ترزأوا منه شيئًا.

يقول الله - جل من قائل: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] الدمدمة: الإهلاك والاستئصال، فسواها؛ يعني: سوى بينهم في الإهلاك، أشقى القوم من أهلك قومه من أجله.

=

(٢٤٤٨)، والنسائي في الكبرى (٩١٣٨)، وأبو يعلى (٤٧٠١)، وابن حبان (٧١٠٤).

(١) انظر السابق.

تفسير سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١)﴾ [الليل: ١ - ١١].

﴿والليل﴾ [الليل: ١] جواب القسم.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾[1] [الليل: ٤] ثم فسر ذلك بقوله الحق: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧] الحسنى هنا هو: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، وما يجوز عليه، وما يستحيل لديه، وبأنبيائه وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر وما فيه، وما قاد إلى ذلك من قول أو من عمل، كل ذلك من الذي هو أحسن، فإن الحسنى تأنيث الأحسن، واليسرى؛ أي: نيسر عليه ذلك ونحببه إليه قولاً وعملاً، ثم نيسره إلى ثواب ذلك مصيرًا ومآبًا.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ أي: بماعونه وبماله، والماعون: كل ما نفع الغير ولم يكن عليه في بذله كثير مؤنة، ثم بعد هذا ما يجشم المؤنة فهو أفضل، وحرم مال المسلم على المسلم واستسخاره إلا أن يطيب بذلك نفسًا، ثم ندب هذا ندبًا براحم الإيجاب أن يسارع في الخيرات ويعين أخاه المسلم بنفسه وماله ما أمكنه، وليجشم إلى مثال ذلك مشقة وليصبر على نفسه، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل: ٨] أعظم الغنى ضررًا وأكبره حوبًا: الاستغناء عن الله، كما التوكل على الله والتفويض إليه أكبر العبادات وأفضل ما تقرب به إليه، ثم الاستغناء بما عنده من العلم عن طلبه وبنفسه عن بذل المودة للمؤمنين والتحبب إليهم بما يقربه من ربه.

---

(١) هذا جواب القسم، أي: إن عملكم لمختلف: فمنه عمل للجنة، ومنه عمل للنار. قال جمهور المفسرين: السعي العمل، فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها. و«شتى» جمع شتيت: كمرضى ومريض. وقيل: للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض. [فتح القدير (٨ /٨)].

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل:٩] قد تقدم.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:١٠] أي: لمقتضى الشمال منه، فيكون من أصحاب الشمال، وإذا كان كذلك عسر عليه فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وود المسلمين وسنن العبادة والعمل بطاعة الله، وضيق صدره لذلك وأبعده عن الإيمان والإسلام والعمل بطاعته، نسأل الله معافاته ومغفرته.

فصل

إن الله - جلَّ ذكره - خلق عباده ليعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وخلق السماوات والأرض، وما بين ذلك ليعرفوه وليقتدوا بحكمته، ثم أمرهم بطاعته ووعدهم على ذلك خير الدنيا وخير الآخرة، هذا هو الأصل المرجوع إليه، ثم إن هم لم يستجيبوا لربهم ولا أقبلوا إلى حظهم الذي دعاهم إليه أنذرهم عذابه وأحاق بهم وعيده ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل:١١] هذا تبيان لذكره البخل.

يقول: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أي: إذا مات مأخوذ من الردى، وقد ذهب ماله وفنيت قوته، ويتوجه أيضًا قوله: ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ إلى التردي في النار.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٢ - ٢١].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل:١٢] ذكر الهدى يأتي على وجهين: بمعنى الإعلام والإرشاد كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى﴾ [فصلت:١٧] ويأتي بإتمام النعمة بالإعلام والإرشاد والتوفيق والمعونة والقبول، واتصال ذلك بالنهاية، كقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:٥].

يقول - عز من قائل: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ [الليل:١٣] يعرض بأنه

يعطي من أطاعه خير الدنيا والآخرة، ومن تولى عن الذكرى وبخل واستغنى أذاقه نكال الآخرة والأولى، كما قال: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [طه:١٢٤].

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿**فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى**﴾ [الليل:١٤] التلظي: شدة وهج النار وشدة استعارها، وهي أشدها التهابًا ﴿**لَا يَصْلَاهَا**﴾ على الخلود ﴿**إِلَّا الْأَشْقَى**﴾ [الليل:١٥] هو الكافر بالإضافة إلى الموحد الملي، وبوجه آخر: لا يصلى ذلك الموضع منها - يعني: لظى - إلا الكافر، والله أعلم بما ينزل.

﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى**﴾ [الليل:١٧] هؤلاء هم أهل العلية في التقوى أهل البراءة من النار، ثم وصفهم بأحسن وصف جودًا وإخلاصًا، وسكت القرآن عن الصنف الوسط، وهو: أهل التقوى وأهل المغفرة، لا إله إلا هو.

تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى:١ - ١١].

﴿سَجَى﴾ [الضحى:٢] الليل إذا سكن، وليلة ساجية: إذا كانت ساكنة الريح، وطرف ساجي: إذا كان فاترًا، وبحرٌ ساجٍ: إذا سكنت أمواجه.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ما فارقك ﴿وَمَا قَلَى﴾ ما أبغضك، ومن قرأ: ﴿مَا وَدَعَكَ﴾ [الضحى:٣] بالتخفيف فمعناه: ما تركك.

﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ [الضحى:٤] وكان - صلوات الله وسلامه عليه - مرض ليالي فلم يقم لحزنه من أجل ذلك؛ إذ كان بمكة، فقالت له عجوز كانت مجاورة له: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد ودعك، فأنزل الله هذه السورة.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ [الضحى:٤] يعزيه في مرضه وعسر ما كان يقاسيه من تخلف قومه، وقوله - عز من قائل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(١) [الضحى:٥] بشره بما يفتح عليه في الدنيا،

---

(١) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ هذه اللام قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره، ولأنت سوف يعطيك الخ، وليست للقسم؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلّا مع النون المؤكدة. وقيل: هي للقسم. قال أبو عليّ الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: إن زيدًا لقائم، بل هي التي في قولك لأقومنّ، ونابت «سوف» عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قال: وليعطينك. قيل المعنى: ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة، فترضى. وقيل: الحوض والشفاعة. وقيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك. وقيل: غير ذلك. والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة، ومن أهمّ ذلك عنده، وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا =

وبإتمام نعمته عليه في الدنيا والآخرة، وقد تقدم معنى هذا مجملاً في قوله الحق: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ [الضحى:٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى:٦ - ٨] إلى آخر السورة، عدد عليه أنعمه في الدنيا؛ ليستدل بذلك مع ما وعده به وأخبره على خير ما يستقبله من خير الدنيا والآخرة، وليرحم اليتيم ويعطي السائل ويحدث بنعمه عليه وأعظم نعمه قبله ما خصه الله به من النبوة والرسالة والقرآن والحكمة، وأمره إياه بالتبليغ ومعونته إياه.

فَآوَى﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم؛ أي: وجدك يتيمًا لا أب لك ﴿فَآوَى﴾ أي: جعل لك مأوى تأوي إليه، قرأ الجمهور: «فآوى» بألف بعد الهمزة رباعيًا، من آواه يؤويه، وقرأ أبو الأشهب: «فأوى» ثلاثيًا، وهو إما بمعنى الرباعي، أو هو من أوى له إذا رحمه. وعن مجاهد معنى الآية: ألم يجدك واحدًا في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك، فجعل يتيمًا من قولهم درّة يتيمة، وهو بعيد جدًّا، والهمزة لإنكار النفي، وتقرير المنفيّ على أبلغ وجه ، فكأنه قال: قد وجدك يتيمًا فآوى، والوجود بمعنى العلم، ويتيمًا مفعوله الثاني. وقيل : بمعنى المصادفة، ويتيمًا حال من مفعوله. [فتح القدير (٨ /١٥)].

تفسير سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح:١ - ٨].

شرح الصدر: توسعته للإسلام والإيمان ونور العلم والإيقان، وقد أظهر الله له ذلك مرتين: يوم نزل عليه جبريل عليه السلام وهو عند ظئره في بني بكر، وليلة جاءه ملكان أحدهما جبريل عليه السلام فقال أحدهما للآخر: أحد الثلاثة بين الرجلين، فشرح صدره ليلتئذ، ثم أسرى به على البراق إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماوات وإلى السدرة المنتهى وإلى الجنة والنار، ثم رفع إلى المستوى حيث سمع صريف الأقلام، ثم أوحى الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه إلى عبده ما أوحى.

قال الله - عز من قائل: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] فإذا شرح الله - جلَّ ذكره - صدر عبد من عباده باطنًا صعد في السماء على القدر الذي شرحه، وانتهى إلى حيث انتهى به في الشرح والغسل والتطهير، وعلى قدر ذلك يصعد في السماء بوهمه وفهمه، ومن خاب من ذلك لم يصعد به، ومن أراد الله إضلاله ضيَّق صدره وتركه ضيِّقًا حرجًا لا يتسع لأنوار الهداية ولا ينشرح لحقائق الوحي.

ألا تسمعه يقول: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ قرئ بالتخفيف والتثقيل ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ يقول - والله أعلم بما ينزل: فكما لا يستطيع أن يصعد في السماء بجسمه، كذلك لا يستطيع أن يصعد إليها بالإيمان واليقين وقبول النصائح، ففرق ما بين النبي والولي في ذلك أن النبي شرح صدره ظاهرًا وأعلى به ظاهرًا، والولي شرح ذلك منه باطنًا وأعلى به باطنًا، والكافر ضيق ذلك منه وأبقى بظلمته وحظوظ الشيطان منه وفيه فهو

لا يستطيع قبول الهداية ولا الصعود في معارج العبرة إلا على مقدار ما يستطيع الصعود في السماء ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٦ - ١٢٧].

قال رسول الله ﷺ: «**إن القلب إذا دخله النور انشرح له واتسع**»(١).

قوله - جل من قائل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾(٢) [الشرح:١-٣] قدم له البشارة بالمغفرة قبل إنزال الإعلام بالمغفرة العامة في سورة الفتح ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ كناية عن الثقيل، والوزر نفسه الثقل.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] أن جعل ذكره متصلاً بذكره لا تتم شهادة عبد ولا إيمانه ما لم يقرن الشهادة له بالنبوة والرسالة بشهادة التوحيد لله - جلَّ ذكره - وحتى رفع منه في أرفع أصوات المسلمين إعلامًا بأوقات الصلوات والتجمع إليها، وهذا منتظم بما تقدم ذكره في سورة الضحى من تعداد نعمه قبله، وجعله لنا قرآنًا نقرؤه ووحيًا أنزله إلينا معشر هذه الأمة، نتلوه رحمة منه بنا ومن منِّه علينا؛ إذ نعمه قبله متصلة بنعمته علينا وإعلاء قدره في الدنيا والآخرة من إعلائه أقدارنا ﴿فَلِلَّهِ الحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ * وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الجاثية:٣٦ - ٣٧] اللهم زده من نعمائك وبركاتك وصلواتك وسلامك عدد ما خلقت وما أنت خالق وأخلفه في الغابر أمته يا أرحم الراحمين.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) قال الورتجيبي: شرحَ صدره - صلوات الله وسلامه عليه - طلوع شمس جلال الحق فيه، فأضاء منه روحه وقلبه وعقله، وطار روحه في الأزل، وطار عقله في الأبد، وطار قلبه في الجبروت، ونفسه في الملكوت، فتولّى الحق شرح صدره بنفسه لا بغيره، وذلك حين ظهر لسرّه ذاته القديم، وصفاته الأزلية، فصار موسعًا مبسوطًا بوسع الذات والصفات، فشرْحُه يزيد إلى الأبد؛ لأن جلال الحق لا نهاية له، وكان صدره محل تجلّي الحق، فبقي مع الحق في ساحة الكبرياء حيث لا حيث ولا زمان ولا مكان، بل نور الذات في نور الصفات، ونور الصفات في نور الذات، فهو بين النورين محتجبًا بأنوار الحقيقة عن أوهام الخليقة.

[الشرح:٥ - ٦] ذكره بأنه كان يتيمًا فآواه وعائلاً فأغناه، وضالاً فهداه، وبأنه شرح صدره ولم يشرحه إلا عن ضيق، ورفع له ذكره بعد ضعف وخمول، ووضع عنه وزره بعد أن كان قد أثقل حمله، فهذان عسران قد جعل الله بعدهما يسرين في دين ودنيا ذكره به، وقد قضاه وفرغ منه هبة منه إياه وعطية، ثم بشره بأن العسر الذي هو فيه من تخلف الناس عنه وعتوهم عليه سيجعل له من بعده يسرًا، فقد كان من الفتح عليه ودخول الناس في دين الله أفواجًا ووفود العرب ترد عليه والناس إليه سراع، ثم بعد وفاته إلى حد معلوم قدره الله، ثم كرر العسر كرة بعد كرة كانت منه فبشره بأنه سيجعل له أيضًا من هذا العسر يسرًا، هكذا أمر الله - جلَّ ذكره - بتدوار دوائر التقدير عسر بعده يسر ويسر بعده عسر.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ الله أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق:٥] فكأنه قال له - جل من قائل: إن مع هذا العسر يسرًا، إن مع ذلك العسر يسرًا، وحسبك منه وجودك إياه برحمتنا إياك كذلك فيما أنبأناك به من ظهور الدين على يديك وإعلاء الكلمة.

نظم بذلك قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧] يقول: فإذا يسر عليك أمرك فانصب في عبادة ربك، وإذا عسر عليك بعض شأنك فإلى ربك فارغب، وإليه فاضرع، وذكر النصب مع الفراغ، وذكر الرغب مفردًا؛ لأن الميسر عليه يجب عليه الرغب في التوفيق والهداية واستعمال الشكر، والمعسر عليه يجب عليه، الرغب في الثبات وجميل الصبر وكشف الضر، والرغب إلى الله شعار العبد على كل حال، وهو بساط العبودية.

تفسير سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾ [التين: ١ - ٨].

التين والزيتون: جبلان بأرض الشام، وقيل التين: جبل بدمشق، والزيتون: جبل ببيت المقدس، وهو موضع ظهور عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - والتين الذي بدمشق موضع نزوله إن شاء الله.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[1] [التين:٢] وقرأ عمر بن الخطاب: «وطور سيناء» وكذلك في حرف ابن مسعود، عنده نودي موسى عليه السلام وبجانبه واعده ربه ﷻ وبذلك سماه في غير هذا الموضع في قوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠] يعني: شجرة الزيتون.

و﴿البَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين:٣] مكة، أمين بمعنى: مأمون، كقتيل بمعنى: مقتول، وقد يجوز بأن يكون بمعنى: آمن، كسليم بمعنى: سالم، وأثيم وآثم، منه كان ظهور

(١) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى اسمه الطور، ومعنى ﴿سِينِينَ﴾: المبارك الحسن بلغة الحبشة. قاله قتادة. وقال مجاهد: هو المبارك بالسريانية. وقال مجاهد والكلبي: ﴿سِينِينَ﴾: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين ، وسيناء بلغة النبط. قال الأخفش: «طور» جبل، و«سينين» شجر، واحدته: سينة. قال أبو علي الفارسي: «سينين» فعليل، فكرّرت اللام التي هي نون فيه، ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل اسمًا للبقعة. وإنما أقسم بهذا الجبل؛ لأنه بالشام، وهي الأرض المقدسة، كما في قوله: ﴿إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:١] وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه. قرأ الجمهور: «سينين» بكسر السين. وقرأ ابن إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء بفتحها، وهي لغة بكر وتميم. وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة: «سيناء» بالكسر والمدّ. فتح القدير (٨/٢٤).

محمد - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وجاء في بعض الكتب المتقدمة: أقبل من سيناء وتجلى من ساعبرا، واستعلن من جبال قاران، فإقباله من سيناء - أي: موسى - وتجليه من ساعبرا إقباله بعيسى واستعلانه من جبال قاران بمحمد، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

نظم بذلك قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] هذا جواب القسم، يقول: خلق الإنسان مفطورًا على فطرة الإسلام الدين القيم على الصراط المستقيم؛ لذلك وصف خلقته بأنها في أحسن تقويم.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:٥] إما في طريق الديانة، فالكفر والتكذيب، وإما فيما سبيله الجزاء، فالمسخ في دار البرزخ وتحويل صورته إلى ما غلب عليه خلقه وعمله في الدنيا من الدواب والهوام والبهائم، وفي الآخرة يسود وجهه ويزرق عيناه ويشوه خلقه.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ المَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤٢].

وقد قيل في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] أي: في أحسن صورة، صوَّره ذو روح، وذلك موجود في خلقه العالم الأكبر، ثم في خلقه آدم ﵇ وهو العبد الحري، ثم عن أبيه وأمه؛ لاتصال وجود الشبه، ولما كان شبهه متصلاً هذا الاتصال إلى العالم الكلي دخلت الشبهة على من لم يصل إلى تحقيق العبد الكلي علمًا به فقال بأنفس كثيرة.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا﴾ إلى قوله - جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:١٧] إلى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [المؤمنون:٢١] إلى ما هو المعبور إليه من جنة أو جهنم، وهو ما عبر عنه قوله الحق: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦] سبحانه وله الحمد أبدًا، هو أحسن الخالقين، صور أحسن صورة وأتقن بحكمته أحسن خلقة.

جاء في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة أن الله ﷻ قال: «إني خلقت آدم ركبت جسده من رطب ويابس وسخن وبارد، خلقته من تراب وماء، ثم جعلت فيه نفسًا وروحًا» فيبوسة كل جسد خلقته من التراب، ورطوبته من الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح، ومن النفس حدثه وخفته وشهوته ولهوه ولعبه وضحكه وسفهه وخداعه وعنفه وخرقه، ومن الروح حلمه ووقاره وعفافه وفهمه وحياؤه وتكرمه وصدقه وصبره.

جَمَعَهُ من مفترقات خزائن السماوات والأرض من بين ممتزج الحق الذي إليه المصير من فتح رحمته وفيح عذابه على تدوار الأفلاك واختلاف الليل والنهار والساعات والدقائق وعدد الشهور وأيام السنين ومعاني موجود إثارة الأسماء والصفات في العالم، ثم ركبه عظامًا وعصبًا وعروقًا وغضاريف وحجبًا ولحمًا ودمًا، فالعروق تسقي العظام، والعظام يمسكها العصب، والدم يسقي الجسم، والجسم يمسكه الجلد، ثم جعله اثني عشر وصلاً على عدد الاثني عشر اسمًا، ومائتين وثمانية وأربعين عظمًا، وثلاثمائة وستين مفصلاً، وثلاثمائة وستين عرقًا ما منهن واحدة إلا وهي عبرة إلى علم على الله ولي التوفيق الملي والمريد من فضله.

قسم ذلك كله تقسيم حكم وعلم في الرأس والدماغ والأسنان والعنق والفقارات والذقن والأضلاع، وفي اليدين والرجلين والذراعين والساقين والكتفين والوركين والجبين، وجعل واحد العروق التي تسقي العظام المؤلفة واللحم الملبس والعصب والرباطات كلها عرقًا واحدًا يقال له: الوتين، هو: مستبطن الصلب، وهو الذي يملأ الجسد الأعظم، ويسقيه الكبد، وهي بيت الدم، فأخذ من الوتين ستون عرقًا هي أنهار الجسد، منها تأخذ العروق كلها، منها ثمانية عشر تسقي الصدر، وسبعون تسقي العنق وأربعة تسقي الدماغ وسبعة عشر ضلعًا من العظام منها في جنبه الأيمن تسعة أضلاع، وفي جنبه الأيسر ثمانية، وجميعها مركبة في تسع فقارات الظهر لكل فقارة ضلع، ويأخذ من الوتين إلى الصدر في كل جانب يسقي الصلب إلى الدماغ والنخاع، وهو العرق الذي في جوف الفقارات إلى الدماغ، فإذا بلغ الوتين مستبطنًا للصلب إلى الوركين تفرق خمسة عروق، فتسقي الرجلين تلك الخمسة لكل عرق خمسة عروق، فتسقي الجسلتين حيث يفرق الوتين من مجمع الوركين.

ثم يجتمع الوتين في الصلب، ثم إذا بلغ الوتين مستبطنًا للصلب إلى القلب تفرق رأسه رأسين، فصار أحدهما إلى القلب ويتفرق الآخر إلى ستة عروق من مجمع الصدر بين الترقوتين، وهما: الأكحلان، فيتفرق من الآخر خمسة عروق، ثم يتفرق من كل واحد من تلك الخمسة أربعة عروق: عرقان يسقيان اللسان، وعرقان يسقيان الأضراس، وعرقان يسقيان الصدغين، وعرقان ينزلان بالحر من الدماغ إلى الكليتين، وعرقان يصعدان بالبرد من الكليتين إلى الدماغ، وعرقان ينزلان من الدماغ إلى الكبد ويصعدان إلى الدماغ والقلب مما يلي الظهر في الجانب الأيسر وبحياله الطحال، وفي الشق الأيمن الكبد ومعها المرارة، وأمامها المعدة في البطن في الشق الأيمن مع الكبد، وفي الشق الأيسر الطحال دون المعدة المصران والحجب والمثانة، والرئة كالمروحة على القلب يخرج من حرارات النفس وتدخل من روح الهواء وهو عيشها، وبيت الروح: القلب.

والقلب طبقات ثلاثة في وسطها مضغة بيضاء هي حبة القلب، وهي التي إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد؛ أعني: بالهداية والضلالة، والعبد الباطن هو المُحَرِّك المتحرك المُحَرَّك بشيء واحد مشتمل على أربع صفات عالته، هي: النفس والروح والعقل والهوى، وأربعة رياح سميت بذلك من حيث هي قوى، وربما سميت أرواحًا مجازًا واتساعًا من حيث كانت هي المعنية المشار إليها، ومن حيث هن مدبرات يدبرها المدبرات للأمر فيهن أرواح سفلاً مما يلي الجسم، وهن: الجاذبة والممسكة والطاحنة والدافعة، ثم يتبع هذه غيرهن لهذه معاني هن منها كالمغذيات والمقسمات والنازعات والناشطات والمنشئات والمنهيات تجري هذه في كل مفصل وعضو وعرق وشعر وبشر.

كذلك يكتنف العليا صفات هن: الحياة والعلم والقدرة والإرادة، ثم يكتنف هذه صفات هن لها معان هي منها يتصف بهن هذا العبد الباطن المقصود بهذا الوجود، منها: التعاظم والتكبر والتعالي والحكم والحكمة والعزة والرحمة والطول والوسع واللطف والخبر والشهود والقرب والبعد والحفظ والإجابة والمراقبة والحق والجنان والبيان والرأفة والمغفرة والعفو والكرم والبر والصدق والإيمان والإسلام، إلى غير ذلك من الأسماء.

كما يتصف بالضعة والذل والمهانة والقسوة والحرج والخرق والصغر والذلة والكذب والكفر والنفاق، إلى غير ذلك من صفاته، ذلك بأنه خلقه من ممتزج أمشاج ما تقدم ذكره موجودًا في العالم، لكنه سبق برحمته قبل غضبه، فخلقه أحسن خلقة، وصوره أحسن تصوير، وفطره أحسن فطرة، فإن هو أمشاه على الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم فقد غلب رحمته على غضبه، وإن أسفل به فقد أمضى فيه مشيئته ولا معقب لحكمه وهو أحكم الحاكمين.

يقول - جل من قائل: أيها الإنسان ما يكذبك بعدما أراك من حكمه هذا فيك وفي بني جنسك ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] الذي أبدع هذا المبدع وصور هذا التصوير، فأتقن جمع الكل في الجزء خلقًا وأمرًا وشبهًا، فأحسن حين أشبه المرء أباه وداره الدنيا ومعاده الآخرة والعلو والسفل، وأنهى ذلك منه كل الكل ﷻ وتعالى شأنه اسمًا وصفات بينهن على معاني الذات، جل الواحد الأحد عن مثيل أو نظير أو عديل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ثم ينبعث عن هذا الوجود عبرة إلى معرفة نسبة خلق هذا الإنسان من خلق السماوات والأرض وخلقه العالم الأكبر، ثم إلى علم علي يلقي الحكمة ويوقظ من السنة ويهدي من الحيرة ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٩] فسبحان الله وله الحمد، وتبارك الله أحسن الخالقين، أبعد أن خلقه على حسن هذه الخلقة وجمال هذه الصورة متصلاً واصلاً أسفل به إلى أسفل الدركات وسلبه جلي حسن الأسماء والصفات.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء:٢٢٧] يقول: فلم يتركهم على خلقتهم حتى استعملهم بطاعته، كما استعمل ملائكته وسماواته وأرضه وما بين ذلك، ثم أعلاهم إلى عليين وصور فيما هنالك صورهم على مقادير علومهم وأعمالهم ويقينهم، جمع ذلك في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦].

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٧ - ٨] أي: بالجزاء على مراتبه ومقاديره علوًا وسفلاً، خيرًا وشرًا، أليس من الحق وواجب الوجود أنه من صور هذه الصور ومشجها بهذه

الأمشاج ووصلها هذا الوصل إلى أن بلغها هذا المبلغ بقادر على أن يجري كلاً بعمله فيرفع هذا قدرًا وصورة ومحلاً إلى حيث شاء من رحمته ووصله وولايته، ويسفل بهذا قدرًا وصور ومحلاً إلى حيث شاء من لعنته وإبعاده؟!

أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ** ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين:١] **فقرأ:** ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] **فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**»[1] فاعلم وفقنا الله وإياك كيف تشهد عند ربك، فإن حقيقة الشهادة هي ما صدرت عن علم ويقين، وقرأ عبد الله: «أسفل السافلين».

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، والبيهقي (٣٥٠٨)، وفي شعب الإيمان (٢٠٩٧).

تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۩ (١٩)﴾ [العلق: ١ - ١٩].

قوله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[(١)] [العلق: ١ - ٢] إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] هذه الجملة على تأويل «بسم الله الرحمن الرحيم» وكما يقال في الباء الزائدة: بسم الله أبدًا، أو أبدأ، أو أقرأ بسم الله، وهذا أولى الوجهين، فكذلك قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] واسمه الخالق في ضمن اسمه الرحمن ﷻ وتقدست أسماؤه.

وكانت هذه السورة أول ما أنزل من القرآن، فكانت التسمية مضمنة فيها،

---

(١) ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: خلق هذا النوع من هذا الشيء، وهو دم شديد الحمرة جامد غليظ، جمع: علقة، وكذا الطين الذي يعلق باليد يسمى: علقًا، وهم مُقِرُّون بخلق الآدمي من الأمرين كليهما، فالآية من أدلة إمامنا الشافعي ﷺ على استعمال المشترك في معنييه، ولعله عبر به ليعم الطين، فيكون مع ما فيه من الإشارة إلى بديع الصنعة إشارة إلى حرمة أكل ما هو أصلنا من الدم والتراب قبل أن يستحيل، فإذا استحال وصف بالحلال؛ لأن الاستحالات لها مدخل في الإحلالات في النكاح وغيره، واحمرار النطفة ليس استحالة؛ لأنها كانت حمراء قبل قصر الشهوة لها، وربما ضعفت الشهوة عن قصرها فنزلت حمراء، فإذا تحول الدم لحمًا صار إلى جنس ما يحل، وكذا إذا تحول التراب بمخالطة الماء تمرًا أو حبًّا حل. نظم الدرر للبقاعي (٤٦٨/٩).

كالأمر بالتسمية والاستعاذة عند ابتداء القارئ بالقراءة، والعلق: الدم، وكل إنسان مخلوق من علق، والعلق كائن عن النطفة، ثم ينقل المخلوق في طبقات الخلقة إلى أن ينشأ خلقًا آخر كما تقدم فيما قبل، فكان معنى الكلام إلى قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢] معنى قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم».

أتبع ذلك مع تأويله اسمه الرحيم - جلَّ ذكره - قوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣] إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥] إذ الآية الأولى دالة على وجوده العلي وعلى قدرته وعلمه وإرادته ولطفه وحكمته وتقديره وتقدمه في الأمور قبل كونها، وفطرته في الموجودات على دينه الذي هو الإسلام، والآية الثانية دالة على ما تقدم، ثم على رحمته عبده ووليه ونعمته عليه للفضية به إلى رحمته العليا في الدار الآخرة رفع الباء من الاسم في قوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣] وهو أعلم بما ينزل عطفًا على محذوف تقديره: اقرأ وربك الأكرم يقرؤك، أو اقرأ أنت وربك الأكرم، كما قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] أي: اتبعه قراءة ثم عملاً، وكما قال رسول الله ﷺ مبلغًا عن ربه: «**يقول الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد:** ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] **يقول الله: حمدني عبدي...**»[(١)].

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ يقول - وهو أعلم بما ينزل: ألم تر إلى الكاتب بالقلم ما هو كاتبه؟ أو القارئ الكتاب من الموصل معاني المكتوب إلى اليد من الكاتب أو من قلب الكاتب إلى يده؟ فالله أكرم وصلاً وأوصل قيلاً.

نظم بذلك ما هو في معناه تبيانًا لما تقدم من قوله: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥] وكل هذا تقدمة لما تضمنه قوله العزيز: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:٤٨] هو الأول والآخر والظاهر والباطن في كل شيء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:٦ - ٧] أخبر -

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، ومسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، وقال: حسن. والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

جلَّ ذكره - بعلمه في الإنسان، وأنه إن لم ينصره ويهده ويعصمه فهو هالك لا محالة، فأشبه قول رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»[١] ولا أقل من ذلك ولا أكثر، وقوله: «**لا تكلني إلى نفسي فأهلك، ولا إلى الناس فأضيع**»[٢].

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:٨] وهو اسم للرجعة كقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت:٢١] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق:٩ - ١٠] نزلت في أبي جهل، قال: «لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن رقبته»[٣]، وفي أخرى: «**إن رسول الله ﷺ كان يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك، ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف رسول الله ﷺ فقال أبو جهل: إنك لتعلم أنه ما بها ناد أكثر مني**»[٤] النادي: هو المجلس إذا كان أهلاً بأهله، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:١٧ - ١٨].

قال ابن عباس: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية».

وفي أخرى: «**لما هم أن يدنو منه نكص على عقبيه، فسأله أصحابه عن نكوصه فقال: إني رأيت بيني وبينه خندقًا من نار وهولاً عظيمًا**»[٥].

وقيل: إنه تمثل له فحل من الإبل فاغرًا فاه ليأكله فأنزل الله - جلَّ ذكره - في ذلك منه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق:٩ - ١٠].

﴿أَرَأَيْتَ﴾ يعني: النبي ﷺ ﴿إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق:١١ - ١٢] هنا محذوف معناه: ينهاه عن الهدى، يؤذيه لأنه يأمر بالتقوى ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [العلق:١٣] يعني: أبا جهل ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤] فينصر نبيه ويظهر دينه.

---

(١) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (١٠/١٨١) قال الهيثمي: فيه إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك.

(٢) هذا الدعاء لم أقف عليه حديثًا.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٥٨).

(٤) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (٢٣٢١).

(٥) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٥٢).

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥] السفع هو: الأخذ بالعنف الشديد، سفعت ناصيته: إذا قبضت عليها ودفعته حنقًا وغيظًا، فوصف - جلَّ ذكره - ما يؤول إليه مآله في الآخرة، وأخذ ملائكة العذاب بناصيته كقوله - عز من قائل: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١].

ويجوز أن يكون المعنى به زائدًا إلى ذلك الإنذار بأنه يقتل فيجز رأسه ويؤخذ بناصيته، كما جاء عن ابن مسعود ﷺ أن أبا جهل أذاه بمكة يومًا فتغيظ ابن مسعود، وقال: اعلم يا ابن هشام أني والله لقد أُرِيتك في المنام كأني أضرب بين كتفيك بجدحة وآخذ بناصيتك، ولئن صدق الله رؤياي لأطأن رقبتك ولأجزن رأسك، فلما كان يوم بدر ضربه ابنا عفرا الأنصاريان بسيفيهما حتى سكن، فجاءه ابن مسعود في مضجعه ذلك وبه رمق، فقال: أي عدوًا لله، لقد قتلك الله، فقال: وهل من أعمد قتيل قتله قومه؟ ثم قال: فهلا غير أكّاد قتلني، لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله، ثم جعل رجله على رقبته، فقال له: يا رويعى الغنم، لقد ارتقيت اليوم مرتقى صعبًا، ثم أخذ بناصيته وجز رأسه.

وقرأ أبو جنوة: «ناصية كاذبة خاطئة» نصب على الذم، وفي قراءة ابن مسعود: «نسفعن بالناصية» وقرأ أيضًا: «سأدعو الزبانية» وقرأ ابن أبي عبلة: «سيدعا الزبانية» وهذا وإن كان قد نزل في شأن أبي جهل فإن الوعيد متوجه إلى من عمل بعمله إلى يوم القيامة.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:١٩] يقول: امض لشأنك ولا تطع منهم آثمًا أو كفورًا فلا تعبأ بهم، إنا ناصروك، واشتغل بعبادة الله والعمل بطاعته حتى يأتي الله بأمره، وهذا وعد من الله ﷻ له ولمن تبعه بالتقريب لمن يسجد له، لذلك قال رسول الله ﷺ: «**إنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله درجة وحط عنك خطيئة**»[1].

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٣١)، ومسلم (٤٨٨)، والترمذي (٣٨٩) والنسائي في الكبرى (٧٢٥)، وابن ماجة (١٤٢٣)، وابن خزيمة (٣١٦)، وابن حبان (١٧٣٥).

تفسير سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: ١ - ٥].

القَدْر: مخفف من القَدَر، فهي ليلة القدر يفصل فيها من أم الكتاب حكم ما يكون إلى مثلها، نعم وإلى ما يكون إلى ما قد شاء الله كونه، فمن الآجال ما هو قريب وبعيد، والقريب منها هو ما يخرج فيما بين هذه الليلة المباركة إلى مثلها من العام القابل، والبعيد إلى أجله المسمى، وإذا كان في الليلة القابلة أثبت ما قد يقضى في الكائن الماضي وأبقى المستقبل على حاله، هكذا إلى ما شاء الله كونه، وأخبر الله ﷻ بصدق قيله أن: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] أي: محكم أمرًا من عنده وأنبأ بأنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] وألف شهر هي: ثلاثة وثمانون سنة وثلث سنة أربعة أشهر، ووجدنا الأيام سبعة أيام، فإذا فرغ عددها واستدار دورها ابتدأت من أولها، وكذلك أكثر موجودات العالم على سبعة، وحكمها على الأسبوعات فسبعة في سبعة أو في سبعة أسبوعات.

وقد تقدم أن انتهاء العدد ستة والسابع وترها، ولما أنزل الله القرآن في ليلة القدر وأخبر رسول الله ﷺ: «**أنه سيسرى عليه ليلاً فيُمْحا من المصاحف رسمه ومن القلوب حفظه**»[1] نعوذ بالله من درك ذلك اليوم.

ألفينا سبعة أيام ألف شهر سبعة الألف شهر لا محالة، ومدتها خمسمائة سنة

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١/٣٣٥) بلفظ: «أطيعوني ما دمت بين أظهركم، فإذا ذهبت فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله وحرموا حرامه، فإنه سيأتي زمان يسري على القرآن في ليلة فيسلخ من القلوب والمصاحف» وعزاه إلى الديلمي.

وثلاث وثمانون سنة وثلث سنة، وبقي علينا أن لو علمنا في أي عام كانت ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن أولاً من زمان النبوة، وكم كان بين العام والهجرة التي جعلت أول التاريخ، وقد قال الله - جل قوله: إنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣].

ولعل هذا الفصل يتناول من هذا الخطاب هذا الوجه فلا ندري ما هي مدة هذا الخير، وما تناوله اسم الخير فلا يكون أيضًا هذا المتوقع، ومن هنا استأثر الله بعلم الساعة لا يعلم ما هو مقدار مدة الخير المذكور، وهذا هو معنى قوله الحق: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥] تبارك الله العليم الخبير، وقد تقدم الكلام فيها في سورة الدخان، والله أعلم وأحكم.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر:٤ - ٥] عم - عز جلاله - بقوله: والروح فيها من كل أمر كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] وقرأ ابن عباس وعكرمة: «من كل امرئ» يعني: من كل رجل.

قال ابن عباس: «من الملائكة سلام هي» قيل: إن الملائكة تسلم على القائمين فيها، وقيل: إنها مسلمة من كل أذى - وأرى والله أعلم - أن هذا هكذا، فهي مسلمة في حق أهل الإيمان من الفتن والإضلال، فإن الشياطين وإن كانوا في سائر أيام الشهر مصفدين فإنهم فيها أشد إيثاقًا ومنعًا من إنفاذ إراداتهم في عباد الله المؤمنين.

فقد قال الله - سبحانه وله الحمد - في أهل الجنة: إنهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة:٢٥ - ٢٦] فالملائكة تسلم على أهل المسابقة في أعمال الطاعات، فهي في حقهم لا تأثيم فيها ولا لغو إلا قليلاً ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ بالغيب، إنما هي في حق هؤلاء صلاة ونية صيام وتلاوة قرآن وذكر واستغفار أو نوم سالم، فقربت حال المؤمنين فيها من أحوالهم في الجنة غدًا إن شاء الله، الملائكة تسلم عليهم وهي سالمة في حقهم من إذاية الإضلال والإفتان وهم فيها سالمون غانمون.

وقرئ: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر:٥] بالفتح والكسر، والفتح أكثر، وهو

وقت طلوع الفجر، والكسر موضع طلوعها، وهو اليوم مثله من العام؛ أي: في تنفيذ ما فصل فيها، فحكمها باقٍ إلى مثلها من العام، فإن الشمس لا تعود إلى موضع مطلعها إلا إلى مثلها من العام، وكذلك الحكم فيما تقدم ذكره في أول السورة لمن وقف على حقيقة اليوم ما هو.

تفسير سورة البينة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ١ - ٨].

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ﴾ [البينة:١] المعنى: لم يزالوا ولم يكونوا بناجين منا، أو لم يكونون بارحين حتى نبلغ إليهم أو نبعث إليهم رسولاً وننزل عليهم كتابًا؛ لتقوم الحجة بذلك لنا عليهم ﴿تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ﴾ قول عام في الرسول والكتاب والآيات في الوجود والوحي، الصحف: هي السور.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:٣] أي: قائمة بالعدل مستقيمة، والحنيف: المؤمن المسلم، والدين القيم: هو: دين الإسلام، والقيمة: هم الملائكة - على جميعهم السلام وجميع الخليقة - كما قال، عز من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] و﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:٢٦].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧] من قرأها بالياء فهو من البري، وهو: التراب، فالمؤمنون هم أفضل من جميع الإنس؛ لأنهم المخلوقون من التراب، والأوجه: القراءة بالهمز، فهو جميع من برأه الله يبين ذلك، والله أعلم بما ينزل في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦] وقع الاتفاق على أنهم شر من الإنس وشر من البهائم وغيرهم، فالمؤمنون ليسوا بخير من كثير من الملائكة - على جميعهم السلام - والكافرون ليسوا بشر من كثير من الجن والشياطين، ولذلك جازت القرأتان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة:١ - ٨].

﴿زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] هو أن تتحرك من أسفلها، فتمور مورًا، ثم ترمي بما فيها من كنوز وأثقال أموات وغير ذلك.

يقول الكافر يومئذٍ: ﴿مَا لَهَا﴾ [الزلزلة:٣] ويقول المؤمن: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢] وتحدثها بأخبارها هو أن تشهد بما عمل على ظهرها، روي عن النبي ﷺ ذلك، أوحى الله إليها بذلك؛ أي: أمرها.

قال رسول الله : ﷺ «**يشهد للمؤذن مدا صوته من شجر ومدر**»(١) وفي أخرى: «**من رطب ويابس وكل شيء**»(٢).

ثم قد يعبر عن هذا إلى الزلزلة الخاصة بشخص شخص، فأرض الإنسان جسمه، وعظامه جبالها، ورأسه سماؤها، وأثقال أرضه موجود ما يجده المحتضر من خرس اللسان وثقل الأعضاء من الحفوف، وحين يشخص البصر الذي هو مع السمع والحواس انتثار كواكبه.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤] يبدو له مرأى الآخرة، ونبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر، ولئن أنكر لتشهدن جوارحه وأركانه كذلك في يوم العرض الأكبر، وبالحقيقة هذه الزلزلة الخاصة بأحدنا وكلنا واجدها لا محالة.

---

(١) ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (٩/١).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٦٣٤٥).

قال رسول الله ﷺ: «**من مات قامت قيامته**»(١) والزلزلة الكبرى هي العامة والخاصة أيضًا كبرى في حق من حلت به.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾(٢) [الزلزلة:٦] أيضًا يخرج هذا من جسده مكرمًا مبشرًا، وهذا تضرب الملائكة وجهه ودبره.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال:٥٠ - ٥١].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠] إلى قوله: ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٢] والنزل: هو ما يستعد به للضيفان.

وقال - عز من قائل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢].

ثم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧ - ٨] في الخاصة والعامة.

﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف:٤٩].

﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ﴾ [القيامة:٧] إلى قوله - عز من قائل: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣] في هذه وفي هذه، فاعلم ذلك ولا تكن من الممترين، وإنما دوائر حكم الله ﷻ تدور بحكمته بما فيها، فدار يوم التقدير بتقدير الأعمال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال ابن عجيبة: متفرقين، جمع شَتّ، نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجُون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظرًا نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكَل أكْل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا. وقيل: في قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيّرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته، ودعاه إلى الطعام، فيقول: إني أتحرج أن آكل معك، وأنا غني وأنت فقير، فأباح لهم ذلك.

علمًا وكتبًا، ودار يوم الدنيا بالكون فعلاً وعملاً وكسبًا وإيجادًا على يوم العرض.

ثم يوم العرض تدور دوائره بها عرضًا وتوبيخًا وخزيًا وجزاءً وندامة وعرضًا وغبطة ورفعة بها وإكرامًا من أجلها، وبين يوم الدنيا وبين يوم العرض يوم تحيا فيه الموتى، ويجازون بما قدموا في دار الدنيا من أعمال وآثار، ثم اليوم الآخر وهو يوم الجزاء الحق، وهو يوم الخلود، تدور أيضًا دوائره ثوابًا أو عقابًا، ومن الدوائر صغار ومنها كبار، فدوائر اليوم الأول دارت علمًا دون زمان، بل بدوائر الدهر، ثم دوائر يوم الدنيا دارت بأعمالها في أماد أزمانها وسننها وشهورها وآياتها، ثم دوائر دار العرض تكون على قدر منازل العاملين:

فمنهم: من يدور ذلك اليوم عليه في مقدار خمسين ألف سنة.

ومنهم: من تدور دوائره عليه أوله في مقدار قصير لا يوصف بالطول، بالإضافة إلى عظم أوصاف شدائد ذلك اليوم وأهوال ذلك المطلع، وعلى التدريج بين ذلك.

وقد جاء أن منهم من يعرض على ربه فيقول الله ﷻ للملائكة: «**اعرضوا عليه صغار ذنوبه وغيبوا عنه كبارها**» فيقال له: «**عملت يوم كذا وكذا...**» وفيه: «**أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

ومنهم: من يدخل الجنة بغير حساب ولا توقيف، كما أن من الكفار من يدخل النار دون توقيف.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] ودوائر أعمال الأبدان لا بد أن تعود بعد بدئها كتدوار دوائر الليل والنهار في هذه الدار صدقًا وعدلاً، والفضل في ألَّا يشعر منها إلا بما شاء الله أن يشعره به ويوقفه عليه إكرامًا وتستيرًا عليه، وأن من عباد الله لمن يدخل الجنة بغير حساب كما في الكفار من يدخل النار بغير حساب، لكنهم يرون ذلك مستوسقًا في دار الخلود هؤلاء وهؤلاء

(١) أخرجه أحمد (٥٤٣٦)، والبخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٢٧٦٨)، والنسائي في الكبرى (١١٢٤٢)، وابن ماجة (١٨٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٢٢١)، وعبد بن حميد (٨٤٦)، وابن حبان (٧٣٥٥)، والطبراني في الأوسط (٣٩١٥)، والديلمي (٥٥٣).

بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

لا بد من ذلك، أما المؤمنون فيكرمون، وربما مرت عليهم كخطف البرق أو ما هو أسرع ولا يتصدى له، وربما رأى الكافر عملاً صالحًا قد عمله، وقد أعلم بأنه محبوط فهو لا ينتفع به؛ إذ لم يؤمن بالرجعة والعرض على الله - جل ثناؤه - والثواب فيعمل له وإن كان في الكفار من قيل فيه: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] فإنه - والله أعلم - لا بد من أن يراها خيرها وشرها ليتأكد أسفه وندمه، ثم دوائر الخلود تدور أبدًا سرمدًا عودًا بعد بدء أبدًا لأبد بما يعجبهم به، كما تقدم في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

جاء عن رسول الله ﷺ من طرق صحيحة: أنه قال في هذه السورة: «**إنها تعدل نصف القرآن، أو هي نصف القرآن**»[1] ومعنى ذلك - والله أعلم: أنها في قسم النذارة، والقرآن والرسول بما جاء به إنما هو بشارة ونذارة، فعلى هذا يتخرج قوله: «**إنها نصف القرآن**».

قال الله - عز من قائل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢] المعنى وهو كثير دوره في القرآن.

(١) لم أقف عليه.

تفسير سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)﴾ [العاديات:١ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾[(١)] [العاديات:١] أقسم الله ﷻ بالخيل تغدو في سبيل الله، والضبح: صوت في أجوافها عندما تريد الجري.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ [العاديات:٢] توري النار بحوافرها عندما تصك الحجارة في العدو، والنقع: الغبار، والكنود: الكفور.

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧] نفسه تشهد بكفره ويظهر الله ذلك منه في الفاقة تصيبه والبلاء والأمر الجلل ينزل به فيرجع عند ذلك إلى التضرع لله وحده.

يقول الله - عز من قائل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣] المعنى إلى آخره حيث وقع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨] قد يكون المال، وقد يكون الجاه والحظوة والتقدم على الأقران وظهور الأمر، يقول الله ﷻ: وهو على شهادته على نفسه بالكفر لا يرجع إلى التوحيد المستكن في نفسه، وهو على حب المال والجاه والغنى والظهور والإكرام لا يرغب في خير الآخرة الذي هو جماع

---

(١) قال البقلي: أقسمَ الحقُّ سبحانه بأفراس قلوب المحبّين إذا ضُبحت بأصوات الوصلة من تراكم مواجيد المشاهدة في ميادين الوحدة، حين عاينت مشاهدة السرمدية، وهي الموريات أنوار المعارف من قداح الكواشف، ثم أقسم لواردات كُشوف صفاته حين أغارت أرواح العاشقين عند طلوع صباح مشاهدته.

مرغوبه، بل أربى على مأموله وهو خير وأبقى.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩ - ١٠] وهنا محذوف تقديره - والله أعلم: إن كل إنسان مرتهن بعمله مجازى به، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا، لذلك وهو أعلم أعقب بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١].

وقرأ الحجاج: «أن ربهم بهم يومئذ خبير» ولا يحتاج على هذه القراءة إلى تقدير، وقد عدت هذه القراءة في خطاء الحجاج ولا تكاد تعطي معنى؛ إذ وصف وقوع العلم حين بعثرت القبور وتحصيل ما في الصدور، وذلك يعطيه المشاهدة يومئذٍ، ويعني يوم التكليف الآن دون إخبار عنه، وإنما قال ذلك يومًا على المنبر في بعض ما خطب به فقرر على ذلك بعد، فقال: حملني على ذلك كثرة واو النسق.

وكان يقال: إن الحجاج على كثرة اتساعه في الفصاحة كان لا يفرق بين «إن» و«أن»، والحق هو في القراءة بكسر «إن» وتقدير المحذوف، وهو ما عبر عنه العلم من حق يوم بعثرت القبور وتحصل ما في الصدور.

تفسير سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة:١ - ١١].

﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١] اسم من أسماء القيامة، عظم ذكرها وعجب بها؛ لعظم هولها وشدة بأسها، جعلنا الله من هولها من الآمنين برحمته.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:٤] هو حيوان يطير لا دم له، يجتمع للسراج ولضوء النار، يتهافت فيها وقوعًا، شبه الناس يومئذٍ بهذا الحيوان لكثرة سقوطهم في النار كما شبههم به في تهافتهم في الكفر في سورة البقرة.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥] العهن: الصوف المصبوغ منه، ولما كانت الجبال على ألوان شتى كما قال الله - عز من قائل: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧] كانت لذلك في حرف ابن مسعود وابن جبير: «كالصوف المنفوش» وروى بقية بن الوليد عن محمد بن بهار قال: أدركت السلف وهم يقرءون هذا الحرف في القارعة: «وتكون الجبال كالصوف المنفوش».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[1] [القارعة:٨ - ٩] هاوية:

---

(١) اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلَّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها =

اسم من أسماء جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وأمه على هذا التأويل: مأواه، قال الله ﷻ: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ﴾ [الحديد:١٥] وهذا - والله أعلم - تعريض بأنه منها خلق كما الولد مخلوق عن أمه، فكما خلقه منها يعيده إليها.

يقول الله - عز من قائل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ [القارعة:١٠] الهاوية هي ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة:١١] والمأوى يكون بعد البرزخ، والدار الآخرة: هي دار القرار وكل موجودات الآخرة من الجنة وجهنم، ففي دار البرزخ من ذلك الوجود وجود، والآخرة أكبر وشأنها أعظم، وأمه أيضًا رأسه، وهو أعلاه، يهوي ذلك منه في الهاوية، وخاتمة السورة قد أعلمت بصحيح التأويل الأول والثاني كائن لا بد ولا محالة لمن دخلها، نسأل الله معافاته ورحمته.

مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال، وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلَّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لمَن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة، وفيه إشارة إلى أن الأعمال تتجسَّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتَّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها.

تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر:١ - ٨].

قال علي ﷺ: مازلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١].

وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية من هذه السورة ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] قال الزبير: يا رسول الله، عن أي النعيم نسأل وإنما هما الأسودان والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا؟ قال: «**إن ذلك سيكون**»(١).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أولى ما يسأل عنه العبد يوم القيامة** - يعني: من النعيم - **أن يقال له: ألم نصح لك جسمك ونرويك من الماء البارد**»(٢).

التكاثر: هو كل ما ألهى عن الاستعداد للموت من مال وأهل وولد وخول وأعوان وبناء من غير ضرورة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] أي: عن الاستعداد للموت وللقاء الله حتى جاءكم الموت دون عدة وعبر بقوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢] تعريضًا بالبعث؛ إذ الدائر راجع.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣] إذا متم ووقفتم على أعمالكم سيئها وحسنها وعيد من الله شديد لما يصيرون إليه طول مدة البرزخ.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٤] إذا حشرتم إلى الله فرادى عراة حفاة

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨) وقال: غريب. والحاكم (٧٢٠٣) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٠٧)، والديلمي (١٩).

وجوزيتم بأعمالكم بأمر الحكم العدل الذي لا يجور.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥] ما تقفون عليه بعد الموت، كما قال رسول الله ﷺ: «يا أمة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»(١).

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦] كما قال: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٦] فقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥] لك تشغلوا أنفسكم بغير ما خلقتم له.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾(٢) [التكاثر:٧] يعني: يوم القيامة إذا ﴿أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:٩٠ - ٩١].

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] هذا خطاب ظاهره الوعيد، وأنه المواجه به الكفار بقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦] وفيه أيضًا تعريض بأن المواجه به أهل الغفلة من المؤمنين، فمفهومه على تخليصه للمؤمنين: ألهاكم التكاثر أيها المؤمنون عن التنافس في علو الدرجات والمسابقة إلى الله بالأعمال الصالحات ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣] أي: بعد الموت ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٤] بعد البعث؛ إذا أنتم عاينتم السابقين والمقربين وما لهم، وما أثابهم الله تعالى به من أجل جدهم واجتهادهم من إكرام وتقريب، ووقفتم بالعلم على حقيقة التخلف.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣] قدر البون بين ثواب السابقين والمتخلفين المتثبطين لأسرعتم، ولما شغلتكم الشواغل عما ادخر لهم لترون جنات النعيم في

---

(١) أخرجه مالك (٤٤٤)، وأحمد (٢٥٣٥١)، والبخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠) والنسائي (١٤٧٤)، وابن ماجة (١٢٦٣)، وابن الجارود (٢٤٩) وابن خزيمة (١٣٨٧).

(٢) قال الورتجبي: و«حقيقة اليقين» و«حق اليقين»: أن يعرف العبد أنه يرى جحيم قهر القدم الذي كان الحق موصوفًا في الأزل، ولم يصل إلى بطنان كنهه؛ لأنه الحدث والحق قديمٌ، وأنَّى يصل الحدث إلى القدم أبدًا؟! قال الخراز: «عين اليقين»: هو أن يرفع الحجب عن قلوبهم بتجلٍّ لأرواحهم وأسرارهم، ويكشف عن أوهامهم حتى يروه عين اليقين، فيرجعوا عنه سكارى، وينتهوا عنه حيارى. قال بعضهم: «عين اليقين»: عين البقاء.

دار البرزخ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧] يوم العرض على الله ﷻ يوم تزلف الجنة للمتقين ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] الشاغل لكم الآن في هذه، ثم لتدخلنها بما كنتم تعملون.

وحقيقة الخطاب: أنه إنذار ووعيد شديد لأهل الكفر، ووعظ لأهل التخليط من الموحدين، ونصيحة واستنهاض للأولياء المخلصين ألا يشغلهم عن الله الإطراق إلى عاجل الدنيا، وإعلام بما في دار البرزخ من جزاء وما في الدار الآخرة من ذلك، وأن الأمر ينشأ مما هو هنا إلى ما بعد الموت، ثم إلى ما بعد البعث، ثم في الدار الآخرة على طول الآباد نشء ومزيد لهؤلاء وهؤلاء، عبر عن ذلك قوله الصدق: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠] وقوله في شأن السعداء - رضي الله عنا وعنهم: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه وقد أكلوا خبزًا وتمرًا وشربوا ماء باردًا على حاجة مستهم لذلك: «**لتسألن عن نعيم هذا اليوم**»[1].

وشفاء علة الغفلة: التيقظ، ثم الذكر والاستعداد والإيناس وقطع العلائق بنبذ الشواغل إلى ما لا بد منه، ثم الجد والاجتهاد والتحبب إلى الله ﷻ بحب لقائه، والخروج إليه من سجن ما هو فيه، والراحة من دار المحنة والعدى والشفاء من علة تباعات النقم إعمال النفوس في الشكر.

قال الله ﷻ: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤] كما الشفاء من علة تباعات الناس رد المظالم إلى أهلها والاستغفار من الذنوب، والاستغفار والدعاء لمن يخاف تباعته؛ إذا لم يجد ما يؤديه إليه أو إلى من يجب له ذلك من بعده.

---

(١) أخرجه مالك (١٧٠١).

تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١ - ٣].

﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر:١] الدهر المفصول منه الزمان، والله أعلم، أقسم الله به كما يقسم بما شاء من مخلوقاته، وكل ذلك راجع إلى القسم به - جلَّ ذكره - وبأسمائه وصفاته وأفعاله الموجودة عن قدرته وعلمه ومشيئته، وربما كان قسمًا بمدة أمة محمد ﷺ من يوم الدهر، فإن مدتها من يوم من أيام الدهر بمقدار وقت العصر من هذه الأيام إلى الليل فقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[1] [العصر:٢] ما لم يعمل بطاعة الله وفي طلب رضوانه بالإيمان لله والإسلام له، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وقد تقدم هذا في سورة النساء.

---

(١) هذا جواب القسم. الخسر والخسران: النقصان، وذهاب رأس المال، والمعنى: إن كل إنسان في المتاجر والمساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت. وقيل: المراد بالإنسان: الكافر. وقيل: جماعة من الكفار؛ وهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأوّل أولى لما في لفظ الإنسان من العموم، ولدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش: ﴿فِي خُسْرٍ﴾ في هلكة. وقال الفراء: عقوبة. وقال ابن زيد: لفي شرّ. قرأ الجمهور: «والعصر» بسكون الصاد. وقرءوا أيضًا: «خسر» بضم الخاء وسكون السين. وقرأ يحيى بن سلام: «والعصِر» بكسر الصاد. وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى: «خسُر» بضم الخاء والسين، ورويت هذه القراءة عن عاصم. فتح القدير (٥٦/٨).

تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة: ١ - ٩].

الهمز يكون بالغيب، واللمز بالمواجهة، وقد قيل: إن الهمز بالمواجهة واللمز بالغيب، أخبر الله - جلَّ ذكره - عن جهل الإنسان حيث يجمع المال بعضه إلى بعض وينسى أن يستعد للموت، وأن يجمع ما يعده ليوم اللقاء.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[(١)] [الهمزة:٣] واستاق ذكر الخلود على بناء الماضي وهو جائز سائغ.

---

(١) جملة حالية أو استئنافية وأخلده وخلده بمعنى؛ أي: تركه خالدًا؛ أي: ماكثًا مكثًا لا يتناهى، أو مكثًا طويلاً جدًّا، والكلام من باب الاستعارة التمثيلية، والمراد أن المال طول أمله ومناه الأماني البعيدة، فهو يعمل من تشييد البنيان وغرس الأشجار وكرى الأنهار ونحو ذلك عمل من يظن أنه ماله أبقاه حيًّا، والإظهار في مقام الإضمار؛ لزيادة التقرير والتعبير بالماضي للمبالغة في المعنى المراد، وجوَّز أن يراد أنه حاسب ذلك حقيقة؛ لفرط غروره واشتغاله بالجمع والتكاثر عما أمامه من قوارع الآخرة أو لزعمه إن الحياة والسلامة عن الأمراض والآفات تدور على مراعاة الأسباب الظاهرة، وإن المال هو المحور لكرتها، والملك المطاع في مدينتها، وقيل: المراد: إنه يحسب المال من المخلدات، ولا نظر فيه إلى أن الخلود دنيوي أو أخروي ذكرًا أو عينًا، إنما النظر في إثبات هذه الخاصة للمال، والغرض منه التعريض بأن ثم مخلدًا ينبغي للعاقل أن يكب عليه؛ وهو السعي للآخرة، وهو بعيد جدًّا، ولذا لم يجعل بعض الأجلة التعريض وجهًا مستقلاً، وزعم عصام الدين أنه يحتمل أن يكون فاعل أخلد الحاسب، ومفعوله المال أن يظن أن يحفظ ماله أبدًا، ولا يعرف أنه معرض للحوادث أو للمفارقة بالموت كما قيل: «بشر مال البخيل بحادث أو وارث» وهو لعمري مما لا عصام له . تفسير الألوسي (١٢٥/٢٣).

قال رسول الله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله، مخلصًا من قلبه دخل الجنة**»(١).

وإلى هذا فإن الله ﷻ يخبر بلفظ الماضي عن المستقبل، وبلفظ المستقبل عن الماضي؛ لاستواء ذلك في علمه وقدرته، ولاستواء ذلك عنده في التقدير الأول جاز للعبد أن يعتقد في ذلك أن قول: «لا إله إلا الله» مخلصًا من قلبه فقد دخل الجنة، وأن استعداده الآن للقاء الله أخلده في جواره؛ لقول الله - جل ثناؤه: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾ [الليل:٥-٧].

وقد يسره ربه لهذا، فقد وقع له العلم بإنجاز وعد الله - جلَّ ذكره - له ولم يبق عليه إلا خوف الخاتمة، فعليه يدور قطب التفسير فافهم، وقرأها الضحاك: «جمع مالاً وعَدَدَهُ» بالتخفيف؛ أي: عشيرته وقوته وأنصاره.

وروي عن النبي ﷺ أنه قرأ: «**أيحسب أن ماله أخلده**»(٢) بزيادة همزة.

يقول الله ﷻ: ﴿**كَلَّا**﴾ أي: ليس كما ظن ﴿**لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ**﴾ [الهمزة:٤] النبذ: الترك، الحطمة قد فسرها، وقرأ الحسن: «كلا لينبذان في الحطمة» أي: الرجل وماله أو الرجل وما عدده، وقرأ الأشهب: «لينبذان» أي: هو وقرينه، وقرأ الحسن: «الحاطمة» وأرى أن الحاطمة والحطمة هو في جهنم حيث تزدحم أنواع العذاب وتتداخل الأهوال والآلام، نعوذ بالله من عذابه ما قل منه وما كثر.

يقول الله - جل من قائل: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ * نَارُ الله المُوقَدَةُ**﴾ [الهمزة:٥ - ٦] وقال: ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [البقرة:٢٤] وإنما وصفها بأنها ناره الموقدة وأضافها إليه؛ لعظيم خطر ما هنالك بالإضافة إلى غيرها منها، وهو أيضًا حيث يكثر الوقود، وهم الناس، ولذلك ما وصفها بأنها موقدة.

وقال - عز من قائل: إنها ﴿**تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**﴾ [الهمزة:٧] ربما كان من حكم الله بهم وفيهم ألَّا تأكل النار قلوبهم، وهي المكنى عنها بالأفئدة؛ لأن ذلك من العبد موضع مغرز الفطرة، وفي القلوب ينظر الملائكة والمؤمنون - على جميعهم السلام - وفي النار ما بقي فيهم من خير ومن إيمان.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٩٧)، والطبراني في الأوسط (١٩٧٣).

يقول الله - عز من قائل: اخرجوا من النار، من قال: «لا إله إلا الله» وفي قلبه من الإيمان ما يزن كذا أو من الخير كذلك فهي على مفهوم هذا الخطاب - نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة - تحرق اللحوم والعظام إلى أن تطلع على الأفئدة، ثم تجدد لهم لحوم وجلود غيرها؛ ليذوقوا العذاب، ويكون حسب القلوب وجد أنواع الآلام والخزي والعذاب، وبالقلوب يجدون ما يعملونه من عظيم ما هم فيه، وفظيع ما أحاط بهم، ومقدار ما فاتهم من رضوان الله وجزيل ثوابه وكريم جواره، فربما كان حسب الأفئدة والقلوب ما نجده من ذلك من إحراق أجسامها وإيقادها في النيران حتى تطلع النار على الأفئدة، ثم يعادون إلى أولهم، ثم تأكلهم النار هكذا أبدًا، والله عليم حكيم.

ومن المعهود في هذه الحياة أن شدة الوجع إذا بلغ إلى الفؤاد مات صاحبه، فأخبر الله سبحانه أنهم أبدًا في حال من يموت وهم لا يموتون، وإذا بلغت بالإحراق إلى الأفئدة بدلوا جلودًا أو لحومًا غيرها هكذا أبدًا، نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة وفيما بين ذلك.

أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:٨ - ٩] أي: معلقة في عمد ممدة، قيل: تلك العمد هي طرقات حربتها، أو تكون صفة لغلق أبوابها، والله أعلم.

قيل: إن جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - بما هي لها عمد ممددة من أقطارها إلى أقطارها قد تخللها، وملائكة العذاب يمرون على تلك العمد أنها تقوم فيما هنالك مقام القوى للأجسام ومقام مسالك الحق المبثوث في العالم، ولمالك خازنها الأكبر بكل نفس من أهلها يد باطشة وعين ناظرة ما ضحك يومًا قط إنما هو خائف لربه غاضب أبدًا على من وكل بعذابه، وربما صاح صيحة على جهنم ومن فيها فتموج أهوالها وتضطرب، ويتداخل بعضها في بعض ويتضاعف سعيرها.

وقرأ هارون في حرف أُبي: «أنها عليهم مطبقة بعمد ممددة» وروي عن الأعمش: «أنها عليهم موصدة بعمد ممددة».

تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل:١ - ٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾ [الفيل:١] هذا منتظم المعنى - والله أعلم - بمعنى قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ﴾ [البلد:٢] يفتحه عليك تدخله بالسلاح غير محرم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾ [الفيل:١] جاء أن مقدم الفيل إلى الحرم ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة وثمانين لذي القرنين، وولد النبي ﷺ بعد كائنة الفيل بخمسين يومًا، وكان مولده لثمان خلون من ربيع الأول يوم الإثنين، وبين الفيل والفجار عشرون سنة، وبين الفجار وبنيان الكعبة خمس عشرة سنة، وبين بنيان الكعبة ومبعث النبي ﷺ خمس سنين، قال: فكان يقع الحجر على أحدهم فتأكل النار جميع جسده سوى الجلد الظاهر مثلما تأكل السوسة داخل الحنطة ويبقى غشاؤها فارغًا، وهو العصف.

وقصة أصحاب الفيل مشهورة، كان يكنى ملكهم بأبي يكسوم، حبشي قصد البيت ليهدمه بالحبشة، فأرسل الله عليهم سحابة من طير جاءت من قبل البحر مع كل طائر ثلاثة أحجار - قيل: في حجم العدس - فما بقي أحد من العسكر إلا أصابه منها حجر يقع في أعلاه وتنفذ من الجانب الآخر، وأهلك الله على ذلك جمعهم.

والأبابيل: العصائب تتبع بعضها بعضًا، والعصف: التين، وقيل: ورق الزرع المحنوط، وقد قيل: هو الطعام الذي يجوفه الدود، والعصافة: ورقة الحنطة، سورة الفيل منتظم معناها زائدًا إلى ما تقدم ذكره بمعنى قوله الحق - عز جلاله - فيما

وصف به عذاب المذكورين في سورة الهمزة، وإن النار تطلع منهم على الأفئدة بعد إحراقها سائر أجسامهم، فهي متى بلغت ذلك منهم حددوا، والنار تتحامى الأفئدة لمكان إيمان الفطرة، فنظم بهذا المعنى قوله الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل:١] أي: الذين قصدوا بيتي الحرام.

ونظم بذلك قوله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] أي: الذين يحرموا بالبيت جعل ذلك آية على حمايته الإيمان، وحامليه من عذاب الآخرة إلا بحقه في ذلك.

تفسير سورة قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش:١ - ٤].

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] هذا منتظم بسورة الفيل، وقيل: إنها كانت موصولة بها ذكرهم بنعمته عليهم بصرف الحبشة عنهم، يقول: فعلنا ذلك ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] وقرأها عكرمة: «لتألف قريش ألفهم» بكسر الفاء، ورويت عنه: «ألفهم» بفتحها والهاء مرفوعة من غير ياء، وروي الوجهان جميعًا عن ابن كثير إذ كانوا يألفون في كل عام على رحلتين: رحلة في الشتاء، ورحلة في الصيف، إحداهما إلى اليمن، والأخرى إلى الشام.

نظم بذلك قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ بالرحلتين ويجلب كل الثمرات إليهم رزقًا من لدنه ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٣ - ٤] بأن جعلهم في حرم آمن والناس يتخطفون من حولهم، وكانوا في حال أسفارهم آمنين لا يهاجون تعظيمًا من الناس لهم لسكناهم في حرم الله، يقال: هذا حرمي فيسلم في نفسه وماله ويؤخذ غيره.

روي عن النبي ﷺ أنه قرأها: «**ويل أمكم قريش ألفهم رحلة الشتاء والصيف ويحكم يا معشر قريش اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وَآمَنَكُمْ من خوف**»[1]. وروي عنه أنه قرأها: «**وي أمكم قريشًا**».

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٨٣٧٤) والطبراني (١٩٩٦٢).

وروي عنه أنه قرأ: «للإيلاف قريش ويل أم قريش إيلافهم». وقرأ حيوة: «إلافهم» بتشديد اللام[١].

(١) قال الطبري في تفسيره (٦١٩/٢٤): اختلفت القرّاء في قراءة: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ﴾ فقرأ ذلك عامة قرّاء الأمصار بياء بعد همز لإيلاف وإيلافهم، سوى أبي جعفر، فإنه وافق غيره في قوله: ﴿لِإِيلَافِ﴾ فقرأه بياء بعد همزة، واختلف عنه في قوله: ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ فروي عنه أنه كان يقرأه: «إِلْفِهِمْ» على أنه مصدر من ألف يألف إلفًا، بغير ياء. وحَكى بعضهم عنه أنه كان يقرؤه: «إِلافِهِمْ» بغير ياء مقصورة الألف. والصواب من القراءة في ذلك عندي: من قرأه: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ﴾ بإثبات الياء فيهما بعد الهمزة، من آلفت الشيء أولفه إيلافًا، لإجماع الحجة من القرّاء عليه. وللعرب في ذلك لغتان: آلفت، وألفت، فمن قال: آلفت بمدّ الألف قال: فأنا أؤالف إيلافًا، ومن قال: ألفت بقصر الألف قال: فأنا آلف إلفًا، وهو رجل آلف إلفًا. وحكي عن عكرمة أنه كان يقرأ ذلك: «لتألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف». حدثني بذلك أبو كُرَيب، قال: ثنا وكيع، عن أبي مكين، عن عكرِمة، وقد رُوي عن النبي ﷺ في ذلك عن أسماء بنت يزيد، قالت: سمعت النبي ﷺ يقرأ: «إِلْفَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ».

تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:١ - ٧].

في قراءة ابن مسعود: «أرأيتك الذي» وقرأها كذلك الأعمش ﴿يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون:١] أي: بالجزاء.

﴿يَدُعُّ﴾ أي: يدفع جعل - عز جلاله - كونه دفع ﴿اليَتِيمَ﴾ [الماعون:٢] فترك الحنق عليه والرفق به، وتركه إطعام المسكين والحض عليه والتوصية به علامة على تكذيبه بالدين؛ أي: بالجزاء في الدنيا والآخرة، وكفى بذلك داء، لذاك قال رسول الله ﷺ: «**وأي داء أدوأ من الشح**»[1] وفي أخرى: «**من البخل**»[2] فإياكم إياكم.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤ - ٥] ليس هذا بالسهو الذي هو الذهول، بل هو الذي يتلهي عن صلاته حتى يذهب وقتها، أو يتلهي عنها في حال الصلاة، وقرأها ابن مسعود: «الذين هم عن صلاتهم لاهون الذين هم إنما يراءون» وقرأ أبو رجا: «يَدَعُ اليتيم» بفتح الدال وتخفيف العين؛ أي: يدعه فلا يعطيه ولا يطعمه.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ﴾ [الماعون:٧] كل ما أعان على الرفق فهو ماعون، وكل مانع ماله مما ليس عليه بواجب فليس بمستحق للويل، وإن كان ذلك بغض منه إلا أن من الناس من تكون تلك سجيته فيمنع رفده وماعونه، ويكثر ذلك

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٨٢٢/٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٦١٠)، والبخاري (٢١٧٤)، ومسلم (٢٣١٤)، والبيهقي (١٢٥٢٥).

منه فيسقط بذلك عن صفة الكرم إلى صفة البخل والشح بما أتاه الله من فضله، فيستحق بذلك أن يعامل في الحساب بأن يمنعه الله من فضله، ويشدد عليه ويناقشه الحساب، ولا يكون محبوبًا عند الله وعند ملائكته والمؤمنين، ومن لم يكن محبوبًا نوقش الحساب، ومن نوقشه هلك، ويقال له يوم القيامة: «**اليوم أمنعك فضلي كما منعت عبادي فضلك**»[١].

وصغار الذنوب متى كانت خلقية جرت مع المداومة عليها إلى كبارها، وكبارها على ذلك تجر إلى الكفر - نعوذ بالله العظيم من السقوط من عين الله جلَّ ذكره - فهكذا يتطرق إليه الويل فافهم، ومن جعل الله - جلَّ ذكره - دع اليتيم دلالة على التكذيب بيوم الدين والرفق باليتيم مما يعده في الإحسان، ولما كان هذا قد رغب عن جزيل الثواب فأعرض عنه ولم يرغب فيه ولا عمل له جعله مكذبًا بيوم الدين من أجل ذلك، فكذلك منع الماعون، وإن كان ذلك الممنوع بعينه ليس مفروضًا بذله وهذا معدود في فرض الكفاية، وذلك في فرض الأعيان، فالمسترسل في منع ما ليس عليه بواجب على الولاء مضيع فرضًا واجبًا، ومع استصحاب ذلك معدود في التكذيب كذلك المصلون.

قال رسول الله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك** تراه، **فإنك إلا** تكن تراه **فإنه يراك**»[٢] وهي منزلة رفيعة توجب محبة الله - جلَّ ذكره - فالمصلي إذا كان في حال صلاته مستشعرًا أن الله - تبارك وتعالى - مناجيه ومواجهة حركاته فيها مصاحبة لنيته وحسن توجهه بخضوع وخشوع واستصحاب طلب مرضاة ربه في إخراج أفعاله وحركاته بحضور وشهود قلب كان محسنًا، وهذا هو المراد من العبد، وما عدا ذلك وقصر عنه فهو عفو مع استصحاب المجاهدة، يكتب له على ذلك نصف صلاته، ربعها، سدسها، إلى عشر وما بعد العشر - والله أعلم - هو حال المرائين، كما قال جل من قائل: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢] فالويل لهؤلاء صريحًا، ثم هم درجات في التقدم والتأخر من المنزلة العليا إلى

(١) أخرجه البخاري (٢٢٤٠)، ومسلم (١٠٨)، وابن حبان (٤٩٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٩٧)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وابن ماجة (٦٤).

الذي إنما قسم له من صلاته العشر مع وجود إهمال النفوس ذلك قوله - والله أعلم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون:٤-٦].

تفسير سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكوثر:١ - ٣].

قرأها الحسن: «إنا أنطيناك الكوثر» وروت ذلك أم سلمة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ، وروى ذلك حماد بن سلمة أنه قرأها في مصحف أُبي، الكوثر على وزن فعلل، من الكثير، فهو إذًا: الخير الكثير.

سئل رسول الله ﷺ عنه فقال: «**هو نهر في الجنة أعطانيه ربي عليه خير كثير**»(١) فهو في الجنة بعينه معلوم فيما هنالك، ولا كثير أكثر من كثير الجنة، وما أعطيه رسول الله ﷺ فلأمته منه قسم بحكم التبعية، ألا ترى أن حوضه في عرضة المحشر من فيض الكوثر قال : ﷺ «**يصب فيه ميزابان من الكوثر**»(٢) وفي أخرى: «**من الجنة آنيته عدد نجوم السماء**»(٣).

وقد تقدم ذكره وذكر تأويله في الوجود في هذه الدار، وأن الحوض مثاله في الدنيا سنته، فمن عمل بها لم يظمأ أبدًا؛ لأنه يشرب يوم العطش من الحوض، وذكر النجوم مقرونًا بآنيته تأويله علماء أمته المبلغين عنه المبينين مراده عن ربه - عز جلاله - المعلمين علمه، وكان المشركون يقعون في رسول الله ﷺ ويتربصون به فيقولون: إنه صنبور كما قال الله - جل من قائل: ﴿**يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾ [الطور:٣٠] والصنبور: النخلة المفردة الضعيفة الأصل.

يقولون أيضًا: إنه أبتر؛ أي: لا عقب له، تشابهت قلوبهم وأقوالهم، كذلك قال من قبلهم مثل قولهم ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ**﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤٤).

(٢) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/٢١٩).

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٣٦٥).

[المؤمنون:٢٥] فأنزل الله - جلَّ ذكره - عليه هذه السورة في معنى ما كانوا يقولون ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١] في مقابلة قولهم: إنه صنبور وأبتر، يقول: قد أعطيناك في الدنيا الجمع الكثير والجم الغفير يدينون دينك ويستنون بسنتك إلى يوم القيامة، ووصلنا ذلك لك بالحوض في القيامة وبمنبعثه في دار القرار.

قوله ﷻ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾(١) [الكوثر:٢] أي: اعبده وتوكل عليه.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك القائل فيك: ﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣] لا يعقبه من يقوم بأمره ويدين بدينه.

قيل: إن قائل ذلك كان العاصي بن وائل السهمي، فأسلم ولده وعقبه، وكانوا فيمن أقام أمر الله ودينه، والحمد لله رب العالمين، فكان هو الأبتر، وأما النحيرة: فجاء أنها وضع اليمين على الشمال في الصلاة قبالة النحر، وقيل: هي رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الانحطاط من القيام بعد الركوع إلى السجود.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال حين نزول هذه السورة عليه: «**يا جبريل، ما هذه النحيرة التي يأمرني بها ربي؟ قال:** وضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة، قال:

---

(١) قال ابن العربي: أي: إذا صليت الخمس فاجعل يدك على نحرك، وقيل: إذا صليت العيد فانحر الضحايا. قال مالك: ما سمعت في ذلك شيئًا، والذي وقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة الصبح يوم النحر. قال علي بن أبي طالب: المراد بذلك، ضع يدك اليمنى على ساعدك اليسرى، وقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو الخير الكثير، وقيل: هو نهر في الجنة، ترابه مسك، وعدد آنيته كنجوم في السماء. أما أن يوازي هذا في صلاة النحر وذبح كبش أو بقرة أو بدنة، فذلك بعيد في التقدير والتدبير وموازنة الثواب للعباد، والله أعلم، والأصل في الهدي قصة إبراهيم في ذبح ولده إسماعيل، وقد اختلف في الضحايا، فقال أبو حنيفة، وابن حبيب: إنها واجبة لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ والأمر على الوجوب، وقال ابن المواز: هي سنة مؤكدة، والمشهور أنها مستحبة، وفي الحديث: ضحى رسول الله ﷺ والمسلمون كما قال وأوتر رسول الله ﷺ فأوتر المسلمون، وفي أبي داود: إن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت بيوم الأضحى عيد جعله الله لهذه الأمة**». وروي أن أبا بكر وعمر كانا لا يضحيان عن أهلهما، خشية أن يستن بهما. تنبيه: من عجيب الأمر أن الشافعي قال: من ضحى قبل الصلاة أجزاه، وهذا ضعيف؛ **لأن** الله تعالى قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فبدأ بالصلاة قبل النحر، وروى البخاري أن النبي ﷺ قال: «**أول ما نبدأ به في يومنا هذا، أن نصلي، ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب نسكنا، ومن ذبح قبل، فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء**». [الأحكام الصغرى ص٦٣٧].

ولكل شيء زين، وزين الصلاة: وضع الأيمان على الشمائل، وهذه صلاتنا معشر الملائكة»[(١)].

أما رفع اليدين عند التكبير فدلالة على الاستسلام وظاهر للتبرئ من الحول والقوة ولا لإدفاع عند فاعل ذلك ولا انتصار، وأما وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى حال القيام فهو ظاهر صورة الذل بين يدي عزه، يشعر بذلك نفسه أنه قائم بذله وفقره بين يدي جبار الجبابرة وقيوم الدنيا والآخرة.

وأما قرن الأيدي كذلك رفعًا وإمساكًا لها على النحر وتسمية هذين الفعلين بالنحيرة فهو ظاهر لمشار إليه واجب كونه في الباطن هو إحضار النية على ما تقدم ذكره ومداومة ذلك، وساكن النحر منه هو قلبه وفؤاده وعقله، وهو المطلوب منه وفعله ما عبر عنه قوله ﷺ: **«إن المصلي يناجي ربه، فلينظر أحدكم بما يناجيه أو كيف يناجيه؟»**[(٢)] وقوله: **«إذا صلى أحدكم فإن الله قبل وجهه إذا صلى، وإن الله مواجهه»**[(٣)] فهذا كله إشارة بالظاهر إلى ما هو المطلوب الأعلى بالباطن.

كما جاء في الرجل التائب الذي قتل مائة نفس وأمر أن يخرج من قريته الفاسدة إلى القرية الصالحة ففعل، ولما كان في الطريق جاءه الموت فقيس ما بين القريتين لأجل تخاصم الملائكة فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر، فقيل: إنه ناء بصدره، وهذه عبارة عن فعله بنيته مع حركة منه بصدره إلى جهة المطلوب.

وجاء في حديث اختصرته: **«أن موسى ﷺ دعا ربه ﷻ لما رضاه بالموت أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر»**[(٤)] فمعنى هذا هو: أن يعمل ظاهره جهده وينوء بقلبه ونحره وبنات صدره إلى ما عجز عنه، ورب هذا المصلى مواجهه فليحسن ظاهره، وليعمل بنات نحره في مشاهدة مراقبته وتحسين مواجهته إياه،

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٩٨١)، والبيهقي (٢٣٥٧).

(٢) أخرجه مالك (١٧٧).

(٣) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٨٤٣)، وأحمد (٥٤٠٨)، والبخاري (٥٧٦٠)، وأبو داود (٤٧٩)، وابن ماجة (٧٦٣)، ومسلم (٥٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٧٤)، ومسلم (٢٣٧٢)، والنسائي (٢٠٨٩).

والحرص على لقائه والسير إليه، يقول: فبذلك تنال ما أعطيناك الذي هو الكوثر.

قال رسول الله ﷺ: «**هو نهر في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ، ومجراه على الدر والياقوت، حاله** - يعني: طينه - **أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأشد بياضًا من الثلج**»[١].

وبالجملة: فمعنى الكلام: صلِّ لربك واعبده واذكر بلسانك وقلبك ونفسك، واحرص على لقائه وتوله فإنه وليك، وعلى ذلك فلست بصنبور ولا أبتر، كما يقولون: الله معك والملائكة وصالح المؤمنين، إنما الأبتر هو مبغضك، والتناحر هو: التقابل، يقال من ذلك: بنو فلان تتناحر منازلهم؛ أي: تتقابل، والمتناحران: المتقابلان، والمواجه: مناحر، فافهم.

---

(١) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٩٣٣) وأحمد (٥٣٥٥) وهناد (١٣١) والترمذي (٣٣٦١) وقال: حسن صحيح. وابن ماجة (٤٣٣٤) وابن المبارك (١٦١٣) وابن أبي شيبة (٣١٦٦٢) والديلمي (٤٩٣٢).

تفسير سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون:١ - ٦].

قيل: إن قريشًا راموا رسول الله ﷺ على أن يتوسط معهم أمرًا بين أمرين فيعبد هو ما يعبدون تارة، ويعبدون هم ما يعبد هو تارة، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ﴾ أي: الآن ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١ - ٢] الآن في حال كفركم.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون:٤] هذه بشارة من الله - جلَّ ذكره - له بأنه لا يضله بعد الهداية، وكذلك قوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: في المستقبل ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٥] أيأسهم الله - جلَّ ذكره - من أن يعبد رسوله ﷺ والمؤمنون إن شاء الله ما يعبدونه أو يعبدون هم ما يعبده الرسول والمؤمنون في الماضي والمستقبل، والحال هذا فيمن سبق في علم الله أنه لا يتوب عليه منهم، وهذه براءة صحيحة بتلة من الكافرين ومن كفرهم.

قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الكافرين عدلت بربع القرآن**»[1] ذلك - والله أعلم - أن البراءة من الكفر شطر، ومجانبته بالأفعال والأعمال شطر، كذلك الإيمان شطران: علم وولاية، وهذه السورة براءة من الكفر، فعدلت بربع القرآن، وقد جاء - والله أعلم - أنها سدس القرآن، وسورة الإخلاص ثلث القرآن، وسورة الكافرين براءة من الكفر والكافرين، فهي سدس القرآن حقيقة.

كذلك قال: «**من قرأ سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة:١] عدلت له بنصف**

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) وقال: غريب. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥١٦).

القرآن»[١] ذلك - والله أعلم - أن عمدتها وعد ووعيد وإيمان بيوم القيامة وما فيه، والموازين نصف، والإيمان بالله - جلَّ ذكره - والدار الآخرة دار القرار والرسل والكتب والملائكة شطر.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣] ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] فهذان شطران.

كذلك قال: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ثم قال: ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ﴾ [النمل:١-٥] المعنى، فجاء من هذا أن الإيمان بالله وملائكته وكتبه وأنبيائه شطر والإيمان بالبعث والنشور وباليوم الآخر وبما فيه شطر.

---

(١) انظر السابق.

تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

لما نزلت هذه السورة علم رسول الله ﷺ أن أجله قد اقترب، فكان يأتمر للأمر لا يخلي ركوعه وسجوده عن أن يقول فيهما: «**سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك**»[1] وفي أخرى: «**سبحانك اللهم وبحمدك، رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**»[2] يتأول هذا القرآن، فقيل له في ذلك فقال: «**علامة جعلت لي في أمتي إذا رأيتها قلتها**»[3] كذلك أعلمنا أيضًا - صلوات الله وسلامه عليه - معشر هذه الأمة بأنا إذا رأيناها أيضًا علمنا أن الانقراض قد اقترب.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾[4] لدينه كرة بعد فرة يكون منه ﴿وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فتح الروم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: سبحي أيها الأمة واستغفري لذنوبك ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:٣] يتوب على عبده؛ أي: يراجعه، كذلك يراجع هذه الأمة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٣٢).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٤٣٥٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٣٢).

(٤) قال البقلي: نصرُ الله لحبيبه ﷺ وجميع أحبائه إفرادهم بفردانيته عما دونه، وأنجاهم عن جنس النفوس، وإبلاغهم مقام الأنس نظفرهم على كل بغيَّة لهم، وأداء ما عليهم من حقوق العبودية، و«الفتح»: انفتاح أبواب الوصال، وانكشاف أنوار الجمال والجلال، وبلوغهم عين الكمال، وأيضًا «نصرُ الله»: كشف غطاء النفس، و«الفتح»: وقوع نور القدس في القلب إذا ذهب قتام الحدثان، فجاء النصر، وإذا انكشف جمال الرحمن قام الفتح، وذلك بشارة الله لحبيبه ﷺ بوصوله إليه، وتخلُّصه من أعباء النبوَّة، ومشقة الرسالة، ورؤية الأغيار، فأمره بتقديسه لنفسه، والاستغفار منه لأمته.

بالنصر بعد الترك والإدالة عليها.

قال رسول الله ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم أئمة مضلين**»[١].

وقال: «**أخوف ما أخاف على أمتي ثلاثة الضلالة بعد المعرفة ومضلات الفتن وشهوة البطن والفرج**»[٢].

وقال ﷺ: «**يكون في أمتي خسف وقذف**» قالوا: متى يكون ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء**» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنمًا والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القيان والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وخسفًا ومسخًا**»[٣] وفي أخرى: «**وزلزلة وقذفًا وآيات تتابع كنظام لآل قطع سلكه فتتابع**»[٤].

وقال حذيفة - رحمه الله: لتنقض عرى الإسلام عروة عروة، ولتركبن سنن أمم قبلكم لا يخطئون طريقهم ولا يخطئ بكم حتى يكون أول نقضكم من عرى الإيمان: الأمانة، وآخرها: الصلاة، وحتى يكون في هذه الأمة أقوام يقولون: والله ما أصبح فينا منافق ولا كافر، وإنا لأولياء الله حقًا، وذلك عند تسبيب خروج الدجال حق على الله أن يلحقهم به، وكثير جاء من هذا عن رسول الله ﷺ فهذه فرة من الدين بعد الكرة التي كانت منه قبل، ثم يكر بعد ذلك عودًا بعد بدء فإذا كان ذلك كذلك فليوقن باقتراب الأمر.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٢٥)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٢٣٩/٥) قال الهيثمي: فيه راويان لم يسميا. وابن عساكر (٢٥٤/١٩)، والطيالسي (٩٧٥).

(٢) أخرجه الديلمي (٢٥٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢١٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢١١)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

فصل

أبو سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يصيب هذه الأمة بلاء شديد حتى لا يجد الرجل ملجأ، فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا**»(١).

وقد بشر رسول الله ﷺ بهذا المذكور وأصحابه وبنزول عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - جاء ذلك عنه من طرق شتى قامت بكثرتها وعرفها مقام التواتر مع ما في القرآن من التعريض بذلك، فهذا يقوم لهذه الأمة بحملتها في العلم على الانقراض مقام العلامة لرسول الله ﷺ بفتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجًا على اقتراب أجله.

فصل

قال الله - جل من قائل: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**عبادة في فتنة كهجرة إلي**»(٢).

وروى جرير بن عبد الله البجلي قال: عدوت على رسول الله ﷺ وعلي حلة فأشار إلي فدنوت، قال: «**أأعجبتك حلتك؟**» قلت: نعم، قال: «**أما والله لو رأيت مناديل الشهداء في الجنة أنها ليست مثل حلتك هذه**» قلت: يا رسول الله، أشهداء بدر أو غيرهم؟ قال: «**من تجري بهم أكفهم على ظهر البحر يعدل شهيدهم يومئذٍ سبعين شهيدًا من شهداء بدر، وسبعين من غير شهداء بدر، لا يخرج أحد منهم من الدنيا حتى أرى صورته فأعرفهم ويعرفوني هم أهل السنة والقرآن من أمتي، القرآن أرسخ في قلوبهم من الجبال الراسيات، وإن الجنة لتشتاق إليهم كما تشتاق الناقة إلى ولدها، ولأنا أعرف بأسمائهم وأسماء عشائرهم من الوالد يولد**» قال: قلت: يا رسول الله، أأدرك ذلك الزمان؟ قال: «**لا**» قلت: لا أستطيع أن أعمل عملاً أدرك به

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٤٣٨) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الطبراني (٤٩٤).

فضل ذلك، قال: «**لو تقربت إلى الله بأعمال العابدين الأولين والآخرين كنت عسى تدرك فضل نائمهم في رباط ساعة**»[١].

وقال في حديث آخر وقد سأل أصحابه: من أفضل أهل الإيمان إيمانًا؟ فقالوا: الأنبياء، وفيه أنه قال: «**أفضل أهل الإيمان إيمانًا قوم يأتون بعدي لم يروني ولم يسمعوا مني، يجدون ذكري مكتوبًا في ورق يؤمنون بي وبما جئت به**»[٢].

وقال الله - عز من قائل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠] فليغتنم العبد المؤمن في هذه الأيام العمل بطاعة ربه، فهو المقاتل في الفارين من هذا الوجه، وهو المصلح عند فساد الناس، وهو الغريب فطوبى للغرباء، وليصبر على خشونة الطريق ووحشة المحل وقلة الأنصار، وفي الله أكرم العوض من كل فائت، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تلخيص المتشابه (١٠٥).

(٢) أخرجه البزار (٢٨٩)، وأبو يعلى (١٦٠)، والحاكم (٦٩٩٣).

تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ١ - ٥].

التباب: الخسران، وقرئ: «تبت يدا أبي لهب وقد تب» وهو قريب من قراءة الجماعة، وهو دعاء عليه بالخسران، وإخبار بإحاطة ذلك به، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة.

قوله: ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] هي امرأة أبي لهب، ألحقه الله في الدار الآخرة بمعنى ما يكنى به، وكانت هذه امرأته فيما ذكروا تطرح الشوك على طريق رسول الله ﷺ، وهذا إن لم يكن تعريضًا بأنها كانت تنم الحديث وتوقد شعلة البغضاء، وإلا فهو مثل ضربه الله ﷻ بحالها في الدنيا من كسبها الذنوب وما تحترق به غدًا في نار جهنم، يقوم لها ذلك مقام احتطاب الحطب وحملها لذلك، وقد كانت هذه أم جميل عزيزة في قومها، فالحطب إذًا هي الأوزار تحملها بعداوتها لرسول الله وللمؤمنين.

روت أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أقبلت العوراء أم جميل ابنة حرب ولها ولولة وفي يدها فهر، وهي تقول:

مـــــذممًا أبيـــــنا

وديـــــنه قليـــــنا

وأمـــــره عـــــصينا

ورسول الله ﷺ جالس عند الكعبة ومعه أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت

وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله : ﷺ «إنها لن تراني»[(١)] وقرأ قرآنًا اعتصم به كما قال، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥] وأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله، فقالت: يا أبا بكر، أخبرت أن صاحبك هجاني، فقال لها: لا ورب الكعبة ما هجاك، قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها.

قوله ﷻ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[(٢)] [المسد:٥] الحبل: السلسلة، الممسود: المفتول المحكم الفتل، وقرأ أُبي: «ومرأتيه حمالة الحطب».

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٤٠).

(٢) قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: من ليف، وقال أكثر أهل التفسير: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني: في الآخرة في عنقها سلسلة من حديد، وتحتها نار وفوقها نار. بحر العلوم للسمرقندي (٤/٤٤٧).

تفسير سورة الإخلاص

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ (٣) وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ (٤)﴾ [الإخلاص:١ - ٤].

قال أُبي بن كعب: إن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسب لنا ربك، وفي أخرى أنهم قالوا له: ما ربك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١ - ٢] إلى آخرها.

يقول: هو الله الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات[(١)] ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ أي: الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا يورث، وأن الله لا يموت ولا يورث.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤] يقول: لم يكن له شبيه ولا عديل و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] الله - جلَّ ذكره - فسر قوله: ﴿الصَّمَدُ﴾[(٢)]

---

(١) قال المصنف: أحد على وزن فعل، الألف فيه أصلية، يبالغ فيه بأوحد، وقالوا: أصله وحد من وحد يوحد، ويقال وحْد بإسكان الحاء، ووحيد ووحد كما يقال: فرْد وفرَد وفريد، وهو أصل لباب الوحدة، فلم تدركه المضارعة بعلم وقدم وشرف ونهر، ألا ترى أنه جعل العلم علمًا؛ ليحصل به العلم بما جعل عليه علمًا، وكذلك الشرف من شرف الرفعة، والسنن من السنة، وهو ما سن ليحتذى كذلك أحد من الوحدة، فاسم الأحد يدل على شخص الوحدة، ألا ترى أنه ناف لما يأتي معه، تقول من ذلك: لم يأت واحد، ويحتمل أنه لم يأتك الواحد ولا أكثر، ويحتمل أنه قد أتاك أكثر من الواحد، فإذا قلت: لم يأتني أحد، انتفى الاثنان، ولا تقول: جاءني واحد، فبينهما خاصية فرقان ظاهر، وهو مذكور لتخصيص، يقال: هو الله الأحد، ولا يقال: جاءني الأحد ولا جاءني أحد ولا يقال فيه: وحيد ولا وحد، ويطلق ذلك في وصف المخلوق، وإنما ذلك أقدم التوفيق. [٨٣/١].

(٢) قال المصنف: الصمد ﷻ: الإجماع من ذلك قالوا: تصمد الشيء إذا اجتمع، وقالوا: الصمد المقصود عند الحوائج، والصمد: القصد، يقال من ذلك: صمدت صمدة إذا قصدته، فهو المقصود إليه عند الرغائب، وتلك دلالة على أنه المتناهي في السؤدد والشرف والكرم وتفريج الكرب، وقيل: الصمد هو الذي لا يطعم، وقيل: هو الذي لا جوف له، وهذه دلالة =

بقوله الحق: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] وفسر قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

وفي قراءة عبد الله: «قل هو الله أحد الله الواحد الصمد» وروي ذلك عن رسول الله ﷺ وروى عمرو بن ميمون عن ابن مسعود أنه سمع رسول الله ﷺ يقرؤها كذلك يكررها ثلاث مرات.

وقد تقدم الكلام في صدر الكتاب على قول رسول الله : ﷺ «**إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل** ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] **جزءًا، وسورة** «**يس**» **جزءًا وسائر القرآن جزءًا**»[١] وأن ذلك لأن القرآن احتوى على ثلاثة علوم، أحدها: العلم بالله، وهو المنتظم المحتوي لسائرها، والسبيل إلى ذلك أن معنى قوله - والله أعلم - هو إشارة إلى كل غيب وشهادة، فالله أوجده وحده لا شريك له وهو فيه الأول والآخر والظاهر والباطن، الله أحد وصف له بأحديته في علي وجوده، حيث لم يكن شيء سواه مذكورًا ولا موجودًا، ثم كتب في الذكر كل شيء ثم أوجد ما كتبه.

وقوله: «الله الواحد» إعلام بأنه الله الأول والآخر الواحد هو موجد الآحاد وجد الواحد، وبما هو الواحد قام العدد وظهرت الخليقة، وعلى هذا هو من أسماء الأفعال الصمد عبارة عن اتصال الوجود العلي الأزلي قبل القبل بما هو على ما لا يزال بعد إيجاده المكتوب كله العرش والاستواء، وما في ذلك إلى منتهى الإيجاد، ولا منتهى لوجوده هو كاتصاله بما قبل القبل، فصمد له كل شيء لأجل افتقاره إليه وعدم غناه عنه لإيجاده إياه وإمساكه له وإحاطته به خلقًا وأمرًا، ولم يكن له كفوًا أحد في الأولية والآخرية والوجود العلي ظاهرًا وباطنًا، هو الله على ما لم يزل ولا

=

على صفة الغنى، وقيل: هو الدائم الباقي الذي لا يزول، وجماع هذه الأوجه أنه الأول الذي لا أول له، والآخر الذي لا آخر له، لم يتقدمه والد كان عنه، ولم يتأخر عنه ولد يكون عنه، وآية ذلك هو الذي يكلله عدم النسب، فلم يترك أبًا ولا ابنًا، وهو المعني بقول الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - وهو أعلم بما ينزل الله ﴿الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [٩٨/١].

(١) أخرجه الواحدي في الوسيط (١٠٢٠٧).

يزال أبدًا وأمدًا.

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١] وأنى تكون له صاحبة ولم يكن له كفوًا أحد، ولم يكن لوجود ذي وجود سواه أن يجتمع له تكلل الوجود وإحاطته بما عبر عنه قوله: ﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] عبر عن ذلك بقوله: ﴿الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٢ - ٣] ومن هو هكذا لا كفؤ له ولا مثل ولا شبه ولا شريك، ولا يقوم له شيء ولا يعجزه معجز ولا يفوته فائت، رد الفوائت عنده كإمضائها والإعادة للإيجاد لديه كإصدارها، له الملك كله وله الحمد كله وهو على كل شيء قدير.

ومن هو هكذا فلا ملك على الحقيقة لسواه، كذلك ولا مشيئة ولا قدرة ولا صفة ولا وصف وجود لغيره إلا بإيجاد منه وهبة من لدنه، فكيف يشفع شافع عنده في مشفوع إلا بإذنه ورضاه للمشفوع فيه أن يكون على ما شاء بذلك امتسك الوجود كله، وقام الأمر كله في السماوات والأرض وما علا وما سفل إلى المنتهى، اتسق على ذلك النظام وتناسق الإحكام وظهر الموجود؛ أعني: العبد الكلي في أحسن معاريضه ذلك.

قوله - جل من قائل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٣] لا تجتمع البنوة والعبودية أبدًا.

قيل لرسول الله ﷺ: إن رجلاً يؤم لقومه فلا يقرأ بعد سورة أم القرآن إلا ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] وهو إن قرأ غيرها قرأ بها بعد السورة التي يقرؤها فقال لهم: «**سلوه لِمَ يفعل ذلك؟**» فقالوا له: لِمَ تفعل هذا؟ إما أن تقتصر على سورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] وإما أن تقرأ بغيرها وتقتصر عليها، فقال لهم: **إني** أحبها؛ لأنها صفة الرحمن، فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ قال: «**أخبروه بأن الله يحبه**»[1] وفي أخرى: «**أخبروه بأن الرحمن يحبه**».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (١٩٢٦).

كيف لا وقد جمعت وصف وجوده الأول والآخر والظاهر والباطن، ووصف الملك والحمد والأمر مجمل ذلك كله في أسماء وصفات، ولما كانت العلوم كلها ثلاثة: علم المعرفة بالله - جلَّ ذكره - بما حواه، ثم علم النبوة والرسالة وما حَواه وما جاءت به، ثم علم العبرة وما حواه، وفيه معرفة العالم والأسماء والصفات والقيام والمقوم به، وفي القرآن علم هذا كله.

قال الله - جل من قائل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] والكتاب متردد عرفه بين الكتابين.

قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] ثلث القرآن»[١] ذلك - والله أعلم - مع ما تقدم ذكره ليسرها على اللسان، وأنها القرآن العظيم وإن كان ذلك مفرقًا في جملة القرآن فلتيسرها.

قال الله - جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] وإلا فهي القرآن كله مجملاً محكمًا فيها مفصلاً عنها إلى سواها، وإنما هو الله ﷻ وخلقه وأمره ووحيه «ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة»[٢] وفي أخرى: «مسلمة»[٣] لذلك قال رسول الله ﷺ وقد سمع قحاريًا يقرؤها: «وجبت» قيل: يا رسول الله، وما وجبت؟ قال: «الجنة»[٤].

«والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[٥] يعني: لقارئها في الثواب.

قال رسول الله ﷺ: «أُوتيت جوامع الكلم»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦١٣)، والنسائي (١٠٠٤).

(٢) أخرجه الحميدي (٤٨)، والضياء (٤٦٢)، وابن أبي شيبة (١٤٦٩٨)، وأحمد (٥٩٤)، والدارمي (١٩١٩)، والترمذي (٨٧١)، وأبو يعلى (٤٥٢)، والحاكم (٤٣٧٦)، والبيهقي (١٨٥٢٤)، وسعيد بن منصور (١٠٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٨٠٧٦)، والبخاري (٢٨٩٧)، ومسلم (١١١).

(٤) أخرجه مالك (٤٩٠)، وأحمد (١٠٩٣٢).

(٥) أخرجه ابن حبان (٧٩١)، ومالك (٤٨٥)، وأحمد (١١٣٢٤)، والبخاري (٤٧٢٦)، وأبو داود (١٤٦١)، والنسائي (٩٩٥)، وأبو يعلى (١٥٤٨)، والبيهقي (٤٥٤٠).

(٦) أخرجه مسلم (١١٩٩)، وأحمد (٧٣٩٧).

وقال: «**يا عائشة عليك بالجوامع من الدعاء**»[1] وقال ﷺ: «**يسر الزبور على داود ﷺ فكان يقرأ القرآن مادامت تسرج له دابته**»[2] ولا يكون هذا - أعني: الأجر - على الذكر بالكتاب إلا بعد تحصيل تكثير الذكر وطول التلاوة، فافهم.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٥١٨١).

(٢) أخرجه أحمد (٨١٤٥)، والبخاري (٣٢٣٥)، وابن حبان (٦٢٢٥)، والبيهقي (١١٤٧٢).

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾ [الفلق: ١ - ٥].

﴿الفَلَقِ﴾ [الفلق:١] الصبح بوجه ما(١) وعلى هذا يكون قارئها متعوذًا من شر

(١) قال المصنف: فإن كان المعنى فلق الصبح: أعوذ بفالق الإصباح من شر ما يجيء به الليل والنهار، وإن كان المعنى الفلق الذي هو غطاء جهنم، وكل شر باطن أو ظاهر موجودًا كان أو متوهمًا، فهو أصله وعنه بدؤه وإليه يعود. وقد أرانا الله ﷻ في هذا الدار من النار الحاضرة آية على النار الغائبة، وذلك أن هذه النار مخبأة في خزائنها باطنة غير ظاهرة الذات، يخلقها الله ﷻ عند اصطكاك الأجرام الصلبة، أو عن شدة ضغط بأجرام معلومة خاصة بذلك مع نداب حك، فتظهر في ظاهر ما تأكله من الأجسام التي هي وقود لها، ثم على قدر تمكنها من الحطب يكون سعيرها ولهبها، حتى يعظم شأنها فلا يدرك لها مدى ولا يدانيها مطاول، وقد كانت قبل غيبًا قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] فالشجر الأخضر المذكور قد لم يكن، فلما كان لم تكن النار حتى ظهر بالقدح من زنادها وبأن تورى بوقودها، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ...﴾ [الأنعام:٩٥] وكذلك أرانا أيضًا في هذه الدار آية على الجنة دار الحيوان بفلقة الحب والنوى، فيجيء ذلك بعد موته يجعل الميت حيًّا، ثم يجعل الحي من ذلك ميتًا، يكون هذا عن هذا وهذا عن هذا، يبطن هذا حين يظهر هذا ويظهر هذا حين يبطن، ثم يحيى هذا وهذا وهي الحياة الآخرة في دار الحيوان، وقد جعل ﷻ جنات ما هاهنا آية على جنات ما هنالك، فيفلق الحب والنوى بعد يبسهما وهمودهما، فيسعى روح النبات في فلقتي الحبة والنوى، فتعود الفلقتان خضراوين وربما كونهما ورقتين، ثم يطلع عن ذلك نبات الشجرة بقدرته، فلا يزال بها حتى تكون شجرة عظيمة تأوي إليها طيور السماء، ويستظل بظلها حيوان الأرض، ويستكنون في رحب مساحة دوحتها. وكذلك خلقة الحيوان في الأرحام وغيرها على سبيل هذا التكوين، من كونه مختزنًا في غيبه ومكنونًا في سنته، ألا ترى أن الحياة غيب في الماء، والماء غيب في خزائن، والخزائن غيب في علم الله. كذلك الآخرة غيب في الدنيا كالماء اختزنه، والنطفة ما يكون عنها، وكما تكون الجنات عن الماء ينزله الله =

ما يأتي به الليل والنهار، ويكون الفلق بوجه غطاء جهنم، فالمتعوذ بها يكون متعوذًا من شر كل ما خلقه الله ومن شر ما لم يخلقه بعد إذ جهنم منبعث كل شر، وأخبر الله ﷻ أنه خلق الشر كما خلق الخير.

وقرأ عمرو بن عبيد: ﴿**مِن شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾ [الفلق:٢] بالتنوين للراء، وبجعل «ما» نافية، وكان هذا أصلاً للمعتزلة، وبه سموا: معتزلة، اعتزل مجلس الحسن بن أبي الحسن البصري وتبعه على هذه القراءة المعتزلة - تعالى الله عن قبيح إفكهم - في قولهم: إن الله لم يخلق الشر كلمة مجوسية الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:٩٦].

ومن أعمالنا: الخير والشر، نستغفر الله من فعلنا الشر ونحمده ونشكره على فعلنا الخير، والغاسق: الخارج، غسق الليل: إقباله حين يسلخ منه النهار.

وقوله: ﴿**إِذَا وَقَبَ**﴾ [الفلق:٣] يعني: إذا دخل، ويقال: امتلأ، وهذا يكون بحكم التبعية؛ إذ الليل إذا تم دخوله امتلأ، وإنما يكون ذلك بعد مغيب الشفق، وأمر الله تعالى أن يتعوذ من شر الغاسق وهو الليل وظلمته، يقال: وقبت الشمس: إذا غابت؛ أي: دخلت في موضع مغيبها، كما قال - جل من قائل: ﴿**حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ [ص:٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا دخلت فحمة العشاء فكفوا صبيانكم**»(١) وفي أخرى: «**فواشيكم فإن للشياطين حينئذ انتشارًا**»(٢) وإذا كان الغاسق هو: الداخل بوجه وهو أيضًا الخارج بوجه فالمتعوذ منه متعوذ من شر ما سكن أو تحرك في الليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ [الفلق:٤] وقرئ: «**النافثات**» يعني - وهو أعلم: الأنفس السواحر.

=

من السماء، كذلك لم يكن إلا عن الجنات الماء، كالنطفة كانت عن إنسان، ثم تكون عن النطفة إنسان. [٢/٢٠٣].

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٤٣٨١)، ومسلم (٢٠١٣)، وأبو داود (٢٦٠٤)، وأبو عوانة (٨١٦٢)، والبيهقي (١٠١٢٥).

(٢) أخرجه بنحوه أبو عوانة (٨١٦٤)، وأبو داود (٣٧٣٣).

قال رسول الله ﷺ: «**أكثر هلاك أمتي من النفس والعين**»[1] والعين من الأنفس منبعثه عن الجن الممتزج بخلقة الإنس، ويقال: إن النفس من الجن، والعين من الإنس.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (١٨٥/٥).

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس:١ - ٦].

﴿الجِنَّةِ﴾ [الناس:٦] هم الجن.

قوله تعالى: ﴿الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾[1] [الناس:٤] هما صفتا فعل للشيطان؛ ذلك لأنه ينبسط على نفس ابن آدم يوسوس له بالكفر والمعاصي والأماني كل على منزلته، فإن ذكر الله ابن آدم خنس الشيطان؛ أي: انقبض.

وقوله: ﴿مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦] أخبر الله - جلَّ ذكره - أن من الناس شياطين كما هم من الجن.

قال الله - جل من قائل: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] فوسوسة شياطين الجن غيب، ووسوسة شياطين الإنس بالمواجهة والعيان بواسطة المحادثة والمؤانسة وبذل النصيحة، وهي أشدهما وأكبرهما.

قال الله - جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨].

---

(١) قد أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس في قوله: ﴿الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾ قال: مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه، فإن ذكر الله خنس، وإن سكت عاد إليه، فهو الوسواس الخنّاس. وأخرج ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» وأبو يعلى وابن شاهين، والبيهقي في «الشعب» عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسيه التقم قلبه، فذلك الوسواس الخنّاس». فتح القدير (٩٢/٨).

فصل

روى ابن عباس وعائشة - رضي الله عنهم - أن رسول الله ﷺ سُحِر وهذه رواية ابن عباس قال: «سحر رسول الله ﷺ سحرًا شديدًا واشتكى لذلك شكوى شديدة، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، والذي عند رجليه يقول للذي عند رأسه: ما شكيته؟ قال: طب، قال: ومن فعله؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، قال: فأين صنع سحره؟ قال: في بئر كملى، وهو بئر ذروان، قال: فما دواؤه؟ قال: يبعث إلى تلك البئر فينزح ماؤها فإنه ينتهي إلى صخرة فإذا رآها فليقلعها، وتحتها كربة وفي الكربة وتر فيه اثنتي عشر عقدة فيحرقها بالنار فيبرأ إن شاء الله»(١) فبعث رسول الله ﷺ عمار بن ياسر إلى تلك البئر في رهط من أصحابه وفعل بها ذلك وقد تغير ماؤها من السحر، فصار كأنه نقاعة الحناء، واقتلع الصخرة وإذا هو بكربة وفي الكربة وتر وفيه اثنتي عشرة عقدة، فجاء بها إلى رسول الله ﷺ فبرأ النبي ﷺ عند ذلك من وجعه وقام كأنه نشط من عقال.

وفي رواية عائشة: أنه دفنه ولم يحرقه، فقيل له: يا رسول الله، ألم تحرقه؟ قال: «أما أني قد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شرًا»(٢).

قال: ونزلت المعوذتان اثنتي عشرة آية كل آية لعقدة، وأمر ﷺ أن يتعوذ بهما.

وروى عقبة بن عامر الجهني قال: تعلقت بقدمي رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني أقرأ سورة هود وسورة يوسف، فقال لي: «يا عقبة، إنك لن تقرأ بسورة أحب إلى الله ولا أبلغ عنده من ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١ - ٢]»(٣).

وعنه قال: بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ؛ إذ قال لي: «قل» فقلت: ماذا أقول؟

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٥٨٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، وأحمد (٢٤٣٩٢).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٨٤٢)، والطبراني (٨٦١)، والحاكم (٣٩٨٨) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٦٦)، والنسائي في الكبرى (٧٨٤٠)، والدارمي (٣٤٣٩).

فقال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١] و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] **تعوذ بهن فإنه لم يتعوذ بمثلهن قط**»(١).

فصل

قال رسول الله ﷺ لعقبة بن عامر: «**لن تقرأ بسورة أحب إلى الله ولا أبلغ عنده من المعوذتين**»(٢) ذلك - والله أعلم - لما فيهما من الكفاية والوقاية، وهو يحب المحسنين ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا سألتم الله فاسألوه العافية فإنكم لن تسألوه أحب إليه من العافية في الدنيا والآخرة**»(٣).

وقد كان الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ولم يكن شيء قبله فيما لم يزل على ما لا يزال، لا وجود سوى وجوده العلي، وهو الرحيم الودود الولي الحميد، ولما أوجد الموجودات وفطر الأرضين والسماوات وخلق المحدثات أنهى النهايات وحدَّ الحدود، فأوجب على ذلك في موجود الحكمة إيجاد المضادات والمتخالفات والأغيار في المتغايرات لتمايز الوجود وسنن الفرقان في الموجودات، فأوجد على ذلك الظلام في مقابلة النور، والسقم في مقابلة الصحة، والبلاء في مقابلة العافية، والشر في مقابلة الخير على وجوه ذلك كله وضروبه، فكان مفهوم العقول الصائبة بنور بصيرة الإيمان من ذلك أن الخير كله موجود له - جلَّ ذكره - محبوب عنده، مرضي عنه، وأن الشر كله وجوده بإيجاد منه لحكمة وعلة هي الابتلاء.

ويسر للعقول مأتى العبرة بأن خلق خلقًا هو الجنة أصار إليها الخير

---

(١) أخرجه البيهقي في الدعوات الكبرى (٤٩٤).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٥٠٢).

(٣) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٥١٢) وقال: حسن غريب. وابن ماجة (٣٨٤٨).

كله بحذافيره وخلق خلقًا هو جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - أصار إليها الشر كله بحذافيره، وجعل ظهور هذين الوجودين بالإضافة إلى الثقلين في الدار الآخرة في اليوم الآخر، وخلق هذا الدار وفتح إليها برحمته فتحًا من الجنة كما أفاح إليها من جهنم فيحًا، فجميع ما هنا من شر على ضروبه واختلاف وجوده فمن جهنم، كما أن جميع ما هنا من خير ونعمة يجب الشكر عليها على اختلاف وجود ذلك فمن الجنة تذكرة وتبصرة لأولي الألباب، يقلب الله ذلك بمشيئته بأن يكور هذا على هذا وهذا على هذا ويغشى هذا هذا، وهذا هذا على مقتضى سابق كتابه الكريم يوم استوى على العرش وفي ذلك الكتاب: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»[1].

فمن تعوذ برب الفلق من شر ما خلق، فقد تعوذ من جميع الشر كله، ثم بعد ذلك تخصيص من عموم لذكر خصوص الحوائج، وعلى مقادير مسيس الحاجات في مواطن الضرورات للمحتاجين السائلين المتعوذين.

فصل

والشياطين سوى الشيطان الأكبر المبلس الملعون مخلوقون من مارج النار الخارج من جهنم بالفيح المذكور، وهم من إبليس - لعنه الله - كان قد خلقه خالقه ﷻ قبل من نار السموم، وأبو الناس - صلوات الله وسلامه عليه - مخلوق جسده من التراب والماء مجموعهما الطين وباطنه نفس وروح وزاده الله برحمته وفضله أن خلقه بيده وأكرمه وعلمه من علمه ونفخ فيه من روحه؛ فالنفس منه لباطن التراب والروح منه لباطن الماء، وروح الإيمان منه وعقله عن الروح العلي المنفوخ فيه.

يقول الله سبحانه وله الحمد: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [الحجر: ٢٩].

---

(١) أخرجه الدارقطني في الصفات (١٦)، وأحمد (٧٥٢٠)، وإسحاق بن راهويه (٤٥٩)، والبخاري (٦٩٦٩)، ومسلم (٢٧٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٨٧/٧)، والديلمي (٥٢٨٧).

ثم سائر صفاته منقسمة على هذين القسمين فيما في التراب من يبوسة وبرودة قربت خلقته من خلقة جهنم زمهريرها أو سعيرها مع ما من ذلك من فيح جهنم، وبما هو كذلك قاربت خلقته خلقة الشياطين كما بما في الماء من رطوبة وبرودة ويبوسة، محمود ذلك كله، قاربت خلقته خلقة الملائكة - على جميعهم السلام - وبما أنشأه وغذاه من وجود الفيح والفتح كانا معًا لزامًا له، فجعل له الأمر قائدًا إلى ما هو الفتح برحمته منها موجود عنها، كما جعل له ارتكاب النهي قائدًا إلى ما هو الفيح موجود عنها.

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج:٣٦-٣٩] أي: مما ينسب إلى فيح جهنم ومما ينسب إلى فتح الله من رحمته، ولا بد من العود بعد البدء، وإنما ينجيهم من جهنم إيمان بالله وعمل بطاعته ويدخلهم الجنة، لذلك يقول الله ﷻ في الأرض: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] فأمر - عز جلاله - عبده بالتعوذ برب الناس الذي هو خلقهم ورباهم وغذاهم وكلفهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس:٢] الذي يملك حوائجهم ويملك نفوسهم ونواصي الكل بيده، يقلب الكل كيف شاء بقدره.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس:٣] الذي تعبدوا له وخضعوا لعزته، ودانوا له بطاعته.

﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤] ووسواسه: ما يحدث به النفس بواسطة شيطان الطبع الممزوج بالخلقة من هيأته وغروره وأمانيه وإضلاله وإغوائه إلى غير ذلك، وقد يستعين الشيطان الفصل بالقرين منهم، ثم بالممتزج بالخلقة، ثم يتوسط شيطان الإنس ذكر أكان أم أنثى المذكور

في قوله: ﴿مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦].

فالشر كله فيما هنا هو من فيح جهنم ومما هو يدعو إليها ويجر إليها ويوجب الكون فيها وهو المكروه كله، كما الخير كله فيما هنا هو من فتح الله من رحمته من الجنة وبمشيئته وعليه المعول وعليه التكلان وإليه يرجع الأمر كله، بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، نفعنا الله بما علمناه من كتابه الحكيم، وهدانا إلى الصراط المستقيم وعصمنا من أعدائه وهدانا إلى محابه وطلب مرضاته، إنه على كل شيء قدير.

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

واتفق الفراغ من زبره[١] يوم السبت

منتصف شهر رجب الفرد من

شهور سنة اثنتين بعد الألف

من هجرة المصطفى محمد

ﷺ عليه أفضل الصلاة

والتسليم

(١) زبرت الكتاب: إذا أتقنت كتابته. انظر تاج العروس (١/٢٨٧٤).

فهرس بأهم المصادر والمراجع

(أ)

- أبجد العلوم المسمى الوشي المرقوم ببيان أحوال العلوم، للشيخ صديق بن حسن خان القنوجي البخاري، تحقيق عبد الجبار ذكار، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٧٨م.

- الإبهاج، للإمام علي بن عبد الكافي السبكي [ت:٧٥٦هـ] دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للعلامة السيد محمد بن محمد المرتضى الزبيدي، طبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

- الإتقان في علوم القرآن، للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي [٩١١هـ] تعليق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، الأولى، ١٤٠٧هـ.١٩٨٧م.

- إتمام الدراية لقراء النقابة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

- الأحاديث المختارة، للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي [ت:٦٤٣هـ] تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤١٠هـ.

- الإحكام، للإمام أبي الحسن علي بن محمد الآمدي [ت:٦٣١هـ] تحقيق د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

- أحكام القرآن، للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص [ت:٣٧٠هـ] تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ١٤٠٥هـ.

- أحكام القرآن، للإمام أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي المعروف بـ" ابن العربي" [ت:٥٤٣هـ] تعليق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت لبنان.

- الإحكام فى الأصول، للإمام العلامة أبي الحسن علي بن محمد الآمدي [ت :٦٣١هـ]، تحقيق د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

- إحياء علوم الدين، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي [ت:٥٠٥هـ] تحقيق أبي حفص، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٩هـ.١٩٩٨م.

- أساس البلاغة، للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الهيئة العامة لقصور الثقافة من ضمن سلسلة الذخائر رقم ٩٥ - ٩٦، طبعة الشركة الدولية للطباعة؛ ودار الكتب العلمية، بيروت لبنان، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط الأولى، ١٤١٩هـ.١٩٩٨م.

- الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، الدكتور محمد بن محمد أبي شهبة، ط. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.

- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : أبو العباس أحمد بن خالد تحقيق وتعليق: الأستاذ جعفر والأستاذ محمد الناصري، طبع بدار الكتاب بالدار البيضاء بالمملكة المغربية سنة ١٩٥٩م.

- الأعلام: خيرالدين الزركلي، ط. دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، لبنان سنة ١٩٧٩م.

-الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم، تحقيق عبد الوهاب بن منصور.

- أسرار التكرار فى القرآن الكريم، محمود بن حمز بن نصر الكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، دار الاعتصام، القاهرة، ط الثانية، ١٣٩٦هـ.

- أسرار العربية، للإمام أبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ط الأولى، ١٩٥٧م.

اصطلاحات الصوفية، للشيخ كمال الدين عبدالرزاق القاشاني، تحقيق د. محمد كمال إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.

- إعراب القراءات الشواذ، أبي البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين العكبري [ت:٦١٦هـ] تحقيق محمد السيد أحمد عزوز عالم الكتب بيروت لبنان ط الأولى ١٤١٧هـ.١٩٩٦م.

- إعراب القرآن، أبي جعفر أحمد بن محمد ابن النحاس [ت:٣٣٨هـ] تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الأولى ١٤٢١هـ. ٢٠٠١م.

- أبكار الأفكار في أصول الدين للإمام سيف الدين، تحقيق د. أحمد محمد المهدي، طبعة دار الكتب القومية، القاهرة، سنة ١٤٢٣م. وطبعة دار الكتب العلمية - بتحقيقنا.

- أعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي، طبعة دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٩٢ م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين البيضاوى، صححه محمد سالم محسن وشعبان محمد إسماعيل، نشره مكتبة الجمهورية بدون تاريخ.

(ب)

- البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي [ت:٧٤٥هـ] تحقيق عادل أحمد عبد الرؤوف وعلي محمد معوض ود. زكريا عبد المجيد ود. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م.

- بحوث فى علوم التفسير، الدكتور محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

- البداية والنهاية، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي [ت:٧٧٤هـ] دار الفكر، بيروت لبنان، ١٣٩٨هـ . ١٩٧٨م.

- البرهان فى علوم القرآن، للإمام أبي عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي [ت:٧٩٤هـ] تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٣٩١هـ.

- بصائر ذوي التميز، للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، تحقيق أ. محمد علي النجار، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ط الثالثة، ١٤١٦هـ.١٩٩٦م.

- البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة للشيخ أبي حفص محمد بن على الأنصارى النشار، تحقيق على محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط.

عالم الكتب بيروت سنة ٢٠٠٦م.

- بدع التفاسير للشيخ عبد الله الغمارى، ط. مكتبة القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥ م.

- بغية الوعاة فى طبقة اللغويين والنحاة للإمام عبد الرحمن السيوطى، ط الأولى ١٩٦٤م.

(ت)

- تأويلات أهل السنة للإمام أبو منصور الماتريدي، تحقيق د. محمد مستفيض الرحمن، جاسم محمد الجبورى، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية الجمهورية العراقية سنة ١٩٨٣.

- التأويل فى التفسير بين المعتزلة والسنة، د. السعيد شنوقة، ط. الأزهرية سنة ٢٠٠٥م.

- التأويلات النجمية لنجم الدين كبرى، بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية.

- تاج العروس من جواهر القاموس، محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت لبنان، ط الأولى، ت ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.

- تاريخ الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري [ت:٣١٠هـ]، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الثانية.

- التبيان فى إعراب القرآن، أبي البقاء محب الدين العكبري [ت:٦١٦هـ] تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية.

- التحرير والتنوير، الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الطبعة التونسية.

- تفسير ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم [ت:٣٢٧هـ] تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية بيروت لبنان، ط الثانية، ١٤١٩هـ.١٩٩٩م.

- تفسير أبي السعود، لقاضي القضاة الإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط الثانية، ١٤١١هـ.١٩٩٠م.

- التفسير التحليلي لسورة النساء، للأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، القاهرة.

- تفسير الخازن المسمى "لباب التأويل في معاني التنزيل" علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن [ت:٧٢٥هـ] تصحيح عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ.١٩٩٥م.

- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، للإمام أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي [ت:٣٧٥هـ] تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد الموجود ود. زكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٣هـ.١٩٩٣م.

- تفسير الشعراوي، للشيخ العالم الجليل محمد متولي الشعراوي، طبعة أخبار اليوم، مصر.

- تفسير الضحاك، للإمام الضحاك بن مزاحم البلخي الهلالي (ت:١٠٥)، جمع ودراسة وتحقيق د. محمد شكري أحمد الزاويتي، دار السلام، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٩هـ.١٩٩٩م.

- تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي [ت:٧٧٤هـ] دار الفكر، بيروت لبنان، ١٤٠١هـ.

- تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي [ت:٤٦٥هـ] تعليق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٢٠هـ.٢٠٠٠م.

- تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للإمام العلامة أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي [ت:٧١٠هـ] تحقيق الشيخ مروان محمد الشقار، دار النفائس، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٦هـ.١٩٩٦م.

- التفسير ورجاله، للأستاذ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٤١٧هـ.١٩٩٧م.

- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي المسمى بـ«مفاتيح الغيب» طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥ هـ.١٩٨٥م.

- التكملة لكتاب الصلة، لأبي عبدالله محمد بن الأبار، طبعة روخس١٩٨٧م.

- تهذيب اللغة، للإمام أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري [ت:٣٧٠هـ] تحقيق د. رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٠٠١م ؛ ودار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

- التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني. ط: مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م.

(ج)

- جامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى، ط. دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٨م.

- جامع البيان عن تأويل آى القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبرى، ط. دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٧م.

- الجامع الصحيح، للإمام الحجة محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ط. دار الإيمان بالمنصورة.

- الجواهر الحسان فى تفسير القرآن، للإمام العلامة عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي [ت:٨٧٥هـ] تحقيق أبي محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٦هـ.١٩٩٦م.

(ح)

- حاشية الشريف الجرجاني على الكشاف، للإمام السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين الدين أبي الحسن الحسيني الجرجاني، مطبوع بهامش الكشاف للزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط الأخيرة ١٣٩٢هـ. ١٩٧٢م.

- حاشية الشهاب المسماة بـ عناية القاضي وكفاية الراضي، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤١٧هـ.١٩٩٧م.

- حاشية القونوي، للإمام عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي [ت:١١٩٥هـ] دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.٢٠٠١م.

- حجة القراءات، للإمام عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط الثانية، ١٤٠٢هـ.١٩٨٢م.

- الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والشام والعراق الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد، لأبي علي الفارسي، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤١١ هـ. ١٩٩١م.

- حقائق التفسير، للإمام أبي عبدالرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي [ت:٤١٢هـ] تحقيق سيد عمران، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤٢١هـ.٢٠٠١م.

- الحلة السيراء، أبو عبد محمدبن الأبار، تحقيق حسين مؤنس طبعة أولى بالقاهرة ١٩٦٣.

(د)

- الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون، شهاب الدين أبي العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق وتعليق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد العزيز ود. رجاء مخلوف جاد ود، زكريا عبدالمجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٤هـ.١٩٩٤م.

- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطى. ط دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

- دراسات فى مناهج المفسرين، للأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، دار الوفاء للطباعة، القاهرة.

- دلائل الإعجاز، للعلامة أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٩٩٥م.

(ر)

- روح البيان، للشيخ إسماعيل حقي البروسوي [ت:١١٣٧هـ] دار الفكر، بيروت لبنان.

- روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي [ت:١٢٧٠هـ] تصحيح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ.١٩٩٤م.

- زاد المسير فى علم التفسير، للإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي [ت:٥٩٧هـ] المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، ط الثالثة، ١٤٠٤هـ.

(س)

- سنن أبي داود، للإمام سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- سنن الترمذي للإمام محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق عبد الهادى عبد اللطيف، طبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

- سنن النسائي، للإمام أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٦ م.

- سنن ابن ماجة للإمام محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار عيسى الحلبى.

- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي [ت:٧٤٨هـ] تحقيق وتخريج شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط الثالثة ١٤٠٥هـ.١٩٨٥م.

- السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للإمام الشيخ محمد بن أحمد الخطيب الشربيني المصري [ت:٩٧٧هـ] تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.

(ش)

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : ابن مخلوف طبعة دارالفكر، بدون تاريخ.

- شذرات الذهب، للمؤرخ أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الشهير بابن عماد الحنبلي [ت:١٠٨٩هـ] مكتبة القدسي، القاهرة مصر، ١٣٥١هـ؛ ودار المسيرة، بيروت لبنان، الثانية، ١٣٩٦هـ.١٩٧٩م.

- شرح المفصل، للإمام العلامة جامع الفرائد موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الشجري، دار الطباعة المنيرية، مصر، ١٩٢٨م.

- شرح أسماء الله الحسنى للمصنف أبي الحكم ابن برجان، ٥٣٦ هـ بتحقيقنا، ٢ مجلد ط. دار الكتب العلمية - بيروت، سنة ٢٠١٠م.

- شعب الإيمان للإمام البيهقى، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بسيوني ط. دار الكتب العلمية.

(ص)

- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج أبوالحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى الحلبى.

- صلة الصلة: أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق الدكتور عبد السلام الهراس، والأستاذ سعيد أعراب.

(ض)

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للعلامة شمس الدين السخاوي، طبعة مكتبة القدسي، القاهرة، سنة ١٣٥٤ هـ.

(ط)

- طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي [ت ٩٤٥هـ] دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.

- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(ع)

- عجائب المقدور فى أخبار تيمور: أحمد بن محمد الحنفى المشهور بابن عربشاه، ط. المطبعة العامرة العثمانية سنة ١٨٨٧م.

- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي، بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية.

(غ)

- غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(ف)

- الفتوحات المكية (أو - كما تُسمى - الشرح الكامل للشريعة المحمدية الإسلامية) مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر . ط. دار صادر

في أربعة مجلدات.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل. أبو محمد علي بن أحمد، الشهير بابن حزم الظاهري الأندلسي، ط. المكتبة التوفيقية ٢٠٠٣م.

(ك)

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعلامة مصطفى ابن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، ط. دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٠م.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري [ت:٥٣٨هـ] ترتيب وتصحيح محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

- الكامل فى التاريخ لابن الأثير: ط. دار الطباعة المنيرية سنة ١٣٥٧ هـ.

- الكامل فى ضعفاء الرجال للإمام الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، توفى سنة ٣٦٢ هـ، ط. دار الفكر الطبعة الثالثة ١٩٨٨م.

- الكشف عن وجوه القراءات، للإمام مكي بن أبي طالب القيسي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ١٩٨٧م.

- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، للمناوي، بتحقيقنا - ط. دار الكتب العلمية - ٢٠٠٩ م.

- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين على المتقي بن حسام الدين الهندى البرهان الفوري، تحقيق بكر عيان وصفة السقا، ط. مؤسسة الرسالة ١٩٨٩م.

- كيف تكتب بحثًا ورسالة، للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الحادية والعشرون، ١٩٩٢م.

(ل)

- اللباب في تهذيب الأنساب لابن أثير الجزرى، ط. دار صادر بيروت سنة ١٩٨٠.

- لسان العرب، للإمام العلامة محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت لبنان، ط الأولى.

- لسان الميزان للإمام ابن حجر العسقلاني، ط. الثانية دار الكتاب الإسلامي،

سنة ١٩٧١ م.

(م)

- المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين للإمام سيف الدين الآمدي، تحقيق دكتور حسن محمود الشافعي، طبعة مكتبة وهبة، القاهرة، سنة ١٤١٣ هـ.١٩٩٣م.

- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية : مراكش العدد٢سنة ١٩٩٥م.

- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ابن عطية الأندلسي [ت:٥٤٦هـ] تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٢٢هـ.٢٠٠١م.

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة:١٩٣٧م.

- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، الدكتور عبد السلام الغرمي.

- مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي، دار الكتاب الإسلامي الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- مسند للإمام أحمد بن حنبل، ط. دار الفكر بيروت.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للإمام الحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمى، المتوفى ٨٠٧هـ، ط. دار الفكر بيروت.

- المصنف فى الأحاديث والأثار للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن ابن أبي شيبة الكوفى العبسى المتوفى ٢٣٥ هـ، ط. دار الفكر بيروت.

- المصباح المنير، للشيخ الفيومي، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، الثانية ١٤١٨هـ.١٩٩٧م.

- معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي [ت:٥١٦هـ] تحقيق خالد العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط الثانية، ١٤٠٧هـ.١٩٨٧م.

- معاني القرآن، للإمام أبي الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البانجي البصري المعروف بالأخفش الأوسط [ت:٢١٥هـ] تعليق إبراهيم شمس الدين، دار

الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٢٣هـ.٢٠٠٢م.

- معاني القرآن، للإمام أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء [ت:٢٠٧هـ] تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار، دار السرور.

- معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ط. دار صادر بيروت.

- معجم الأدباء لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١ هـ.١٩٩١ م.

- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، سنة ١٤١٤ هـ.١٩٩٣ م.

- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، الذهبي [ت:٧٤٨هـ] تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٠٤هـ.

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زاده، ط. الاستقلال بالقاهرة سنة ١٩٦٨م.

- المفردات فى غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للإمام أبي الحسن الأشعري، تحقيق هلموت ريتر، ط. جمعية المستشرقين الألمان، طبعة الثالثة ١٩٨٠م.

- مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، الثالثة، دار نهضة مصر، القاهرة.

- المستدرك للإمام الحاكم النيسابورى ط. دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

- الملل والنحل، أبوالفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تقديم صدقي جميل العطار، ط: دار الفكر. بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م.

- مناهج البحث العلمي فى الإسلام، للدكتور غازي حسين عناية، دار الجيل، بيروت لبنان، الثالثة، ١٤١٧هـ.١٩٩٦م.

- المنهاج فى تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات، للدكتور محمد التونجي، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الثانية ١٤١٥هـ.١٩٩٥م.

- ميزان الإعتدال فلإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق على محمد الجاوي وفتحية على البجاوى، ط. دار الفكر العربي بدون تاريخ.

(ن)

- النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، ط. مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٢م.

- النكت والعيون، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي [ت:٤٥٠هـ] تعليق السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٢هـ.١٩٩٢م.

(هـ)

- هدية العارفين، للشيخ إسماعيل باشا البغدادي، ط. وكالة المعارف الجليلة، اسطنبول، ١٩٥١م.

(و)

- وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق وتقديم محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. الأولى النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ م.

- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: دورتياكي أفولسكي، دار النشر فرانز شتابز ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

- الوسيط فى تفسير القرآن المجيد، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري [ت:٤٦٧هـ] تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض د. أحمد محمد صيرة د. أحمد عبد الغني الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ.١٩٩٤م.

- وفيات الأعيان للإمام أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، طبعة دار صادر بيروت - لبنان.

فهرس المحتويات